

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد المصطفى
أبو عمّار

للإمام أبي زكريّا
يحيى بن شرف النووي

الجزء الأول

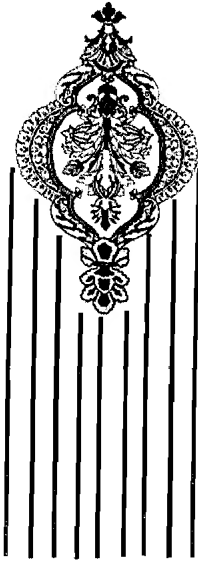


رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أُسَلِّمُ إِلَيْهِ الْفَرْدُوسِ
www.moswarat.com



شَيْخ
رَبِيعُ الصَّالِحِينَ
مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

أَوَّلُ دُرَرِ الْحَجِّ عَوْنُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

١٢٧ ميدان الأزهر، أمام جامع الأزهر، القاهرة ٢٥١٤٧٣٢٠
إدريس الأثرى، خزانة جامع الأزهر، ١٠١٤٣١١١٤، ليبيا ٢٥١٤٧٩٧٤

مَكْتَبَةُ الصَّفَا

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

شَيْخ رِايَا الضَّالْحَيْن

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

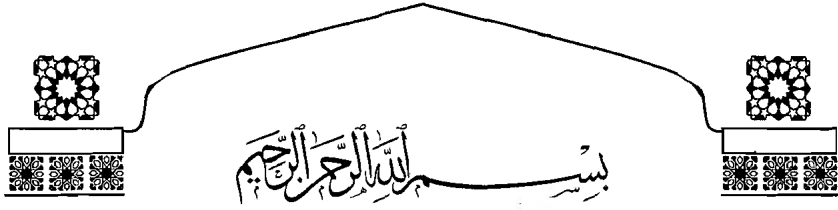
لِلإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

شَرْحُ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَصْرِفِ
أَبُو عَمَّارٍ
الْمَرْوُ الْوَأَوَّلُ

مَكْتَبَةُ الصَّفَا لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِينِ

تَلِيفُونَ ٢٥١٤٧٣٢ - تَلِيفَاكْس ٢٥١٤٧٩٧٤





مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين، فما زال فضل الله العظيم الكريم يتوالى علينا بالتوفيق لإخراج ونشر الكتب النافعة، المبينة لشرع ربنا ﷺ، فقد مَنَّ علينا سبحانه بالتوفيق لإخراج عدة طبعات جديدة للمصحف الشريف، حرصنا فيها على غاية الإتقان في جميع ما يتعلق بها.

كما وفقنا لإخراج كتب تفسير كتاب الله العزيز، سواء كان كاملاً، أو مفرقاً على هيئة سورة تلو السورة، أو مجموعة سور، أو موضوع تلو موضوع، كآيات الأحكام وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز، كما وفقنا لإخراج كتب الحديث النبوي الشريف والتي عليها قوام هذا الدين وهى بيان وتفسير لكتاب الله العزيز، والتي قام بها الجهابذة الأولون من سلفنا الصالح علماء الحديث، الذين وفقهم الله ﷻ لتوصيل الدين وتبليغه كتاباً وسنةً، قولاً وفعلاً، نصّاً وفهماً وعملاً.

وقد أخرجنا بفضل الله عدة كتب كموطأ الإمام مالك، وصحيح الإمامين البخارى ومسلم، وسير أعلام النبلاء، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى، وشرح صحيح مسلم وغيرها من الكتب المتضمنة لحديث رسول الله ﷺ رواية ودراية، وشرحاً وبياناً.

وأيضاً وفقنا لإخراج كتب العلوم الشرعية التى تخدم الكتاب والسنة بشتى الأشكال. والتى قام بها من تبع الأولين بإحسان لبيان مراد الله ﷻ فى كتابه

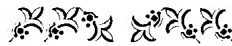


وسنة رسوله ﷺ، في صور شتى ما بين المطول والمختصر - رحمننا الله وإياهم
وغفر لنا ولهم، وأحسن إلينا وإليهم.

ويسرنا اليوم أن نقدم هذا الكتاب الذى بين يديك أخى القارئ وهو كتاب:
«شرح رياض الصالحين»، وهو إضافة جديدة لإصداراتنا والتى نرجو من الله
ﷻ أن يتقبلها منا قبولاً حسناً، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين.
إنه نعم المولى ونعم النصير.
والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

مَكْتَبَةُ الصَّفَا

جعلها الله مناراً لخدمة العلم والدين





ترجمة الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ

✽ نسبه .. مولده .. ابتداء اشتغاله .. حرصه على العلم :

هو الإمام، الحافظ، الأوحد، القدوة، شيخ الإسلام، علم الأولياء، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي، صاحب التصانيف النافعة:

وُلِدَ في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة (٦٣١ هـ)، وقَدِمَ دمشق سنة تسع وأربعين (٦٤٩ هـ)، فسكن في الرواحية يتناول خبز المدرسة، فحفظ التنبيه في أربعة أشهر ونصف وقرأ ربع المذهب حفظاً في باقى السنة على شيخه الكمال إسحاق بن أحمد ثم حَجَّ مع أبيه وأقام بالمدينة النبوية شهراً ونصفاً ومَرَضَ أكثر الطريق.

ذكر الشيخ أبو الحسن بن العطار أن الشيخ محيي الدين ذكر له أنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً... درسين في الوسيط، ودرساً في المذهب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، ودرساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لابن جنى، ودرساً في إصلاح المنطق، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه، ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين... قال: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة وضبط لغة... وبارك الله تعالى في وقتي، وخطر لى أن أشتغل في الطب واشترت «كتاب القانون» فأظلم قلبى وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال فأفقت على نفسى وبعث القانون فأثار قلبى.

✽ شيوخه :

سمع من الرضى بن البرهان وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصارى

وزين الدين بن عبد الدائم وعماد الدين عبد الكريم بن الحرستاني وزين الدين خالد بن يوسف وتقى الدين بن أبى اليسر وجمال الدين بن الصيرفى وشمس الدين بن أبى عمر وطبقتهم.

وسمع الكتب الستة والمسند والموطأ وشرح السنة للبخارى وسنن الدارقطنى وأشياء كثيرة وقرأ الكمال للحافظ عبد الغنى على الزين خالد، وشرح فى أحاديث الصحيحين على المحدث أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادى وأخذ الأصول على القاضى التفلىسى وتفقه على الكمال إسحاق المغربى وشمس الدين عبد الرحمن بن نوح وعز الدين عمر بن سعد الإربلى والكمال سلار الإربلى.

وقرأ النحو على الشيخ أحمد المصرى وغيره وقرأ على ابن مالك كتاباً من تصنيفه ... ولازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم والعبادة والأوراد والصيام والذكر والصبر على العيش الخشن فى المأكل والملبس ملازمة كلية لا مزيد عليها ملبسه ثوب خام وعمامته شبختانية صغيرة.

❁ تلاميدہ:

أخذ عنه جماعة من العلماء منهم الخطيب صدر الدين سليمان الجعفرى وشهاب الدين أحمد بن جعوان وشهاب الدين الأربدى وعلاء الدين بن العطار، وحدث عنه ابن أبى الفتح والمزى وابن العطار.

❁ تصانیفہ:

من تصانیفہ «شرح صحيح مسلم» و«رياض الصالحين» و«الأذكار» و«الأربعين» و«الإرشاد» فى علوم الحديث و«التقريب» و«المبهمات» و«تحرير الألفاظ» للتنبيه و«العمدة فى صحيح التنبيه» و«الإيضاح» فى المناسك، وله ثلاثة مناسك سواه و«التيان فى آداب حملة القرآن»، و«الفتاوى» و«الروضة»

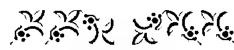
أربعة أسفار و«شرح المذهب» إلى باب المصراة في أربع مجلدات وشرح قطعة من البخاري وقطعة من الوسيط، وعمل قطعة من الأحكام، وجملة كثيرة من الأسماء واللغات، ومسودة في طبقات الفقهاء، ومن التحقيق في الفقه إلى باب صلاة المسافرين.

❁ وفاته:

سافر الشيخ فزار بيت المقدس وعاد إلى (نوى) فمرض عند والده فحضرته المنية فانتقل إلى رحمة الله في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة وقبره ظاهر يُزار.

قاله الشيخ قطب الدين اليونيني وقال: كان أوحده زمانه في العلم والورع والعبادة والتقليل وخشونة العيش واقف الملك الظاهر بدار العدل غير مرة فحكى عن الملك الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه ... ولى مشيخة دار الحديث. قلت: وليها سنة خمس وستين بعد أبي شامة إلى أن مات قدس الله سره. ولم يتجاوز من العمر الخامسة والأربعين (يوم أن مات).

فرحمه الله رحمة واسعة وجمعنا وإياه مع الحبيب ﷺ في جنته ومستقر رحمته إخواناً على سررٍ مُقابلين.



مقدمة المؤلف.. الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ، مُكَوِّرِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ، تَذَكِّرُ لَأُولَى الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، وَتُبْصِرُهُ لِدَوَى الْأَلْبَابِ وَالْإِعْتِبَارِ، الَّذِي أَيْقَظَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ اضْطَفَّاهُ، فَزَهَّدَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَشَغَلَهُمْ بِمُرَاقَبَتِهِ وَإِدَامَةِ الْأَفْكَارِ، وَمُلَازِمَةِ الْإِتْعَازِ وَالِادْتِكَارِ، وَوَفَّقَهُمْ لِلدَّابِ فِي طَاعَتِهِ، وَالتَّأَهُبِ لِدَارِ الْقَرَارِ، وَالْحَذَرِ مِمَّا يَسْخِطُهُ وَيُوجِبُ دَارَ الْبُورِ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى ذَلِكَ مَعَ تَغَايِرِ الْأَحْوَالِ وَالْأَطْوَارِ. أَحْمَدُهُ أَبْلَغَ حَمْدٍ وَأَزْكَاهُ، وَأَشْمَلُهُ وَأَنَمَاهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْبَرُّ الْكَرِيمُ، الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ، الْهَادِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَالِدَّاعِي إِلَى دِينٍ قَوِيمٍ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ، وَآلِ كُلِّ، وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ.

أما بعد: فقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿[الذاريات: ٥٦، ٥٧]، وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ خُلِقُوا لِلْعِبَادَةِ، فَحَقٌّ عَلَيْهِمُ الْإِعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا بِالزَّهَادَةِ، فَإِنَّهَا دَارُ نَقَادٍ لَا مَحَلَّ إِخْلَادٍ، وَمَرْكَبُ عُبُورٍ لَا مَنْزِلَ حُبُورٍ، وَمَشْرَعُ انْقِصَامٍ لَا مَوْطِنَ دَوَامٍ.

فَلِهَذَا كَانَ الْإِقْطَاطُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعِبَادُ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فِيهَا هُمُ الزُّهَّادُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَتْ أَهْلَهَا أَنْتُمْ قُنْدَرُوبٌ عَلَيْهَا أَتُنْهَوْنَ لَهَا لَئْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ.

ولقد أحسنَ القائلُ:

إنَّ لله عبداً فُظِنَ — طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
نَظَرُوا فِيهَا، فَلَمَّا عِلِمُوا — أَنَّهُ لَا يَسْتَلْحِي وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا — صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفْنَا

فإذا كان حالها ما وصفته، وحالنا وما خلقنا له ما قدمته، فحق على المكلّف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أُولَى النُّهى والأبصار، ويتأهب لما أشرت إليه، ويهتّم بما نبّهت عليه. وأصوب طريق له فى ذلك، وأرشد ما يسلكه من المسالك:

التَّأدُّبُ بِمَا صَحَّ عَنْ نَبِينَا سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَكْرَمِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ. صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ... وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(١) وَأَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(٢) وَأَنَّهُ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً»^(٣) وَأَنَّهُ قَالَ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(٤).

فرايتُ أن أجمعُ مُختَصراً منَ الأحاديثِ الصَّحيحة، مُشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومُحصّلاً لآدابه الباطنية والظاهرة، جامعاً للتَّرهيبِ والتَّرهيبِ وسائر أنواع آداب السَّالِكِينَ: مِنْ أَحَادِيثِ الزُّهْدِ، وَرِيَاضَاتِ النُّفُوسِ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٣) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢١٠) كتاب المغازى، ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

وَتَهْدِيبِ الْأَخْلَاقِ، وَطَهَارَاتِ الْقُلُوبِ وَعِلَاجِهَا، وَصِيَانَةِ الْجَوَارِحِ وَإِزَالَةَ
اعْوَجَاجِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعَارِفِينَ.

وَأَلْتَزِمُ فِيهِ أَنْ لَا أَذْكَرَ إِلَّا حَدِيثًا صَحِيحًا مِنَ الْوَاضِحَاتِ، مُضَافًا إِلَى الْكُتُبِ
الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَاتِ، وَأُصَدِّرُ الْأَبْوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بِآيَاتِ كَرِيمَاتٍ،
وَأَوْشَحُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى ضَبْطٍ أَوْ شَرْحٍ مَعْنَى خَفِيَ بِنَفَائِسٍ مِنَ التَّنْبِيهَاتِ. وَإِذَا
قُلْتُ فِي آخِرِ حَدِيثٍ: مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَمَعْنَاهُ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَأَرْجُو أَنْ تَمَّ هَذَا الْكِتَابُ أَنْ يَكُونَ سَائِقًا لِلْمُعْتَنِي بِهِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، حَاجِزًا
لَهُ عَنْ أَنْوَاعِ الْقَبَائِحِ وَالْمُهْلِكَاتِ. وَأَنَا سَائِلٌ أَخَا انْتَفَعَبِ شَيْءٍ مِنْهُ أَنْ يَدْعُو لِي،
وَلِوَالِدَيَّ، وَمَشَايِخِي، وَسَائِرِ أَحِبَّائِنَا، وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَعَلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ
اعْتِمَادِي، وَإِلَيْهِ تَفْوِضِي وَاسْتِنَادِي، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.

مقدمة الشارح

❖ إن الحمد لله، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٣).

أما بعد:

فإن الإنسان في هذه الدنيا مسافر إلى الله (جلّ وعلا) يقطع المسافات والأوقات في طاعة رب الأرض والسموات من أجل الوصول إلى النعيم والرضوان في أعالي الجنات.

والعاقل هو الذي يعلم أن السفر كله مشقة وأنه لا راحة إلا بعد الوصول... وما عليه إلا أن يعد الزاد لهذا السفر البعيد.

❖ ولقد أخبرنا الله (جلّ وعلا) بأعظم زادٍ نتزود به في طريقنا إلى الله وإلى الدار الآخرة فقال (جلّ وعلا): ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾ .

والتقوى هو الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ﴿٢﴾ .

والتقوى أيضًا: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله.. وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله ﴿٣﴾ .

✽ ولن تستطيع أن تصل إلى حقيقة التقوى إلا إذا سرت خلف النبي محمد ﷺ فتتخذة أسوة وقدوة لك في أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ .

والسبيل إلى ذلك لن يكون إلا بالعودة إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ من أجل إقامة مجتمعٍ مسلمٍ يراه الناس فيرون الإسلام من خلاله .

✽ ومن أجل ذلك كان الناس بحاجة شديدة إلى أن يتعرفوا على الأخلاق والآداب والمعاملات التي جاء بها النبي ﷺ لكي يتعايشوا معها بقلوبهم وجوارحهم فيفوزوا بسعادة الدارين في الدنيا والآخرة .

✽ ومن الكتب التي اعتنت بالآداب والأخلاق والمعاملات والمبادئ (كتاب رياض الصالحين للإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ) .

فلقد كتب الله القبول لهذا الكتاب عند عامة المسلمين قاطبة وعند أهل العلم خاصة وذلك لما فيه من مسائل تربوية عظيمة وقيم روحية عالية فلا تكاد ترى بلدًا ولا بيتًا من بيوتات المسلمين إلا وجدت فيه كتاب (رياض الصالحين)... فما أجمل الإخلاص لله - جلَّ وعلا - .

✽ ولقد كنت أتمنى منذ أكثر من عشرين عامًا أن أشرح هذا الكتاب القيم

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٧) .

(٢) هذا تعريف علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣) هذا تعريف (طلق بن حبيب) رَحِمَهُ اللهُ .

«رياض الصالحين».. إلى أن قدّر الله ﷻ أن أبدأ في شرحه في العشر الأوائل من شهر ذى الحجة عام (١٤٣٤ هـ) مُستعيناً بالله ﷻ أن يوفقني لشرحه شرحاً يسيراً يستطيع أن يقرأه العوام قبل العلماء وطلبة العلم.

فقلت بشرحه بكل يسر وسهولة، وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله ﷻ.

❁ ولا أنسى في هذا المقام أن أدعو لشيخى الحبيب الغالى فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين (رحمه الله رحمة واسعة) الذى استفدت كثيراً من كتابه «شرح رياض الصالحين» فجزاه الله عنى وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وجعل ذلك كله فى ميزان حسناته.

❁ وها أنا اليوم أقدم لأمتى الحبيبة هذا الكتاب القيم الذى لا ينبغى أن يخلو بيت مسلم منه أبداً «شرح رياض الصالحين».

فما أحوج الأمة بأسرها إلى قراءة مثل هذا الكتاب والعمل بما فيه لكى تنصلح أحوال الأمة المسلمة فتعود مرة أخرى خير أمة أخرجت للناس لتقود البشرية كلها إلى طريق السعادة والخلاص.

وما أحوج الدعاة إلى الله إلى أن يُعلّموا الناس كل ما جاء فى هذا الكتاب... فإن الدعاة كالأطباء المهرة يقدمون كل شىء بحساب ويُشخصون المرضى وينصّحون بالعلاج الناجع... فإن وجدوا استجابة وهداية فذلك من فضل الله على الخلق جميعاً وإن لم يجدوا شيئاً من ذلك فلا إحباط ولا توانى بل يمضون إلى غاياتهم بقدر وسعهم... كما ذكر القرآن الكريم على لسان سيدنا شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١).



والآمال في الله كبيرة والدعاء إلى الله مرفوع أن ينفع بهذا العمل كما نفع بأصوله وأن يجزي المؤلف خير الجزاء، وأن يرزقنا جميعاً الصدق في القول والإخلاص في العمل.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلّى الله على عباده خبيبتنا ونبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمد بن عبد الله
عقار

دعوة مباركة

في بداية هذا الكتاب المتواضع أدعو نفسي وإخواني إلى كثرة الاستغفار، فإن المعاصي تحُول بين العبد وبين تدبُّر العلم، فإذا تاب العبد إلى الله فإن الله يرزقه العلم النافع والعمل الصالح ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١).

والمعصية تنكّت في القلب نُكْته سوداء، كما قال النبي ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتهٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ عَلَى قَلْبِهِ، فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»^(٢) ^(٣).

وهذه الذنوب والمعاصي تحجب الخير عن العبد ﴿فَيُظْلِمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾^(٤).

وكذلك أدعو نفسي وإخواني إلى كثرة الصلّاة والسلام على رسول الله ﷺ فإنه كما قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَعَلِّمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْ فِي الصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَشْرُ كَرَامَاتٍ: إِحْدَاهُنَّ صَلَاةُ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، وَالثَّانِيَةُ شَفَاعَةُ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ، وَالثَّالِثَةُ: الْإِقْتِدَاءُ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ، وَالرَّابِعَةُ: مُخَالَفَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارِ، وَالْخَامِسَةُ: مَحْوُ الْخَطَايَا وَالْأَوْزَارِ، وَالسَّادِسَةُ: قَضَاءُ الْحَوَائِجِ وَالْأَوْطَارِ، وَالسَّابِعَةُ: تَنْوِيرُ الظُّلُومِ وَالْأَسْرَارِ، وَالثَّامِنَةُ: النِّجَاةُ مِنْ عَذَابِ دَارِ الْبَوَارِ. وَالتَّاسِعَةُ: دُخُولُ دَارِ الرَّاحَةِ وَالْقَرَارِ، وَالْعَاشِرَةُ: سَلَامُ الْمَلِكِ الْغَفَّارِ»^(٥).

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٨٢).

(٢) سورة المطففين: الآية: (١٤).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٠).

(٤) سورة النساء: الآية: (١٦٠).

(٥) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي (ص ٣١٩).

(١) باب الإخلاص واحضار النية

في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

✽ ها نحن نبدأ هذا الكتاب المبارك بأهم وأعظم عبادة نتقرب بها إلى الله (جلّ وعلا)... ألا وهي عبادة الإخلاص.

وهي العبادة التي لا يقبل الله أي عبادة بدونها.. والإخلاص محله القلب... فلا بد أن يمتلئ القلب بالإخلاص لله ﷻ في كل عمل عمله.

✽ وما أجمل أن يكون المسلم مخلصاً لله (جلّ وعلا) في جميع أقواله وأفعاله وأن يزهد في ثناء الناس ومدحهم.

✽ وكيف لا يريد المسلم بعمله وجه الله وهو يعلم أن الناس جميعاً لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً ولا يملكون له موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً.

✽ ولذا فإنه يجب علينا جميعاً أن نجعل حياتنا كلها خالصة لوجه الله تعالى ممثلين قول الله (جلّ وعلا): ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٣] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

✽ فتعالوا بنا لتعيش بقلوبنا وأرواحنا مع خلق الإخلاص عسى الله أن يحشرنا في زمرة المخلصين.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوعُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩].

✽ لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ ابْتِدَاءً أَنَّ النية محلها القلب وليس اللسان.. ولقد كان

النبي ﷺ يتوضأ ويصلي ويصوم ويتصدق ويحج ولم يكن ينطق بالنية.. وذلك لأن محلها القلب.

ولذلك مَنْ نطق بالنية عند إرادة أى عملٍ صالحٍ فقد ابتدع وجاء بشيءٍ لم يأت به النبي ﷺ.

❁ ومن أجل ذلك لَا بُدَّ أَنْ نستحضر النية الصالحة قبل أى عمل: أن هذا العمل ابتغاء مرضاة الله (جلَّ وعلا).

❁ فالنية الصالحة بالنسبة للعمل الصالح كالروح بالنسبة للجسد فلا ينفع قول ولا عمل إلا بنية صالحة وموافقة للسنة.

❁ وقد يتحصل الإنسان على الأجر والثواب العظيم بسبب النية الصالحة وإن لم يعمل أى شيء.

قال ﷺ: «... إِنَّمَا الدُّنْيَا لِارْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ...»^(١).

❁ وتخلَّف رجال من الصحابة في غزوة تبوك لم يكن عندهم زاد ولا راحلة... حبسهم العذر، ولم يكن عند النبي ﷺ ما يحملهم عليه، فبكوا بكاء الرجال شوقًا إلى الغزو فعلم الله نياتهم، فجعلهم شركاء للغزاة في الأجر.

قال تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾

[التوبة: ٩٢]

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

✽ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاة، فقال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ» ^(١)، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ» ^(٢).

✽ بل قد يظفر العبد بمنازل الشهداء إن سأل الله الشهادة بصدق حتى وإن مات على فراشه.

✽ عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ» ^(٣).

✽ وإذا كان القلب في الدنيا هو محل النية فهو في الآخرة محل الحساب... ولذلك فسوف يُبعث كل عبد على نيته ويحاسبه الله (جَلَّ وعلا) على هذه النية.

✽ عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» ^(٤).

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعَثُ النَّاسُ عَلَى نِيَاتِهِمْ» ^(٥).

✽ بل إن الخلود في الجنة أو في النار يكون بسبب النيات.

✽ قال الحسن: «إِنَّمَا خُلِدَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، بِالنِّيَّاتِ» ^(٦).

✽ وقد يقول قائل: لِمَ يعذب الله الكافر بالخلود في النار مُدَدًا لا نهاية لها مع أن العدل يقتضي أن يعذبه بمقدار المدة التي كفرها؟ وَلِمَ يُخلد المؤمن في الجنة مع أنه لم يؤمن ولم يُطع إلا مدة محدودة من الزمان، بل قد يُسلم لله قبل الغرغرة ويدخل في الإسلام ويموت ولم يسجد لله سجدة واحدة؟

(١) في رواية الإسماعيلي كما قال الحافظ في «فتح الباري» (٤٧/٦): «إلا وهم معكم فيه بالنية»، وفي حديث

جابر عند مسلم (١٩١١): «إلا شركوكم في الأجر» أي: أن لهم من الأجر مثل أجر الغازي.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٢٣) كتاب المغازي.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩) كتاب الإمارة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، وأحمد (١٤١٣٤).

(٥) صحيح: رواه أحمد في مسنده (٨٨٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠١٤).

(٦) الإحياء (٣١٧/٤).

والسبب في ذلك أن المؤمن ينوى أن يطيع الله أبداً، فجوزى بالخلود جزاء نيته، والكافر كان عازماً وناوياً الكفر أبداً فجوزى بنيته^(١).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رباح بن عبد الله بن قُرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ لِلدُّنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢) متفقٌ على صحته. رواه إماما المُحدِّثين: أبو عبد الله مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم بن الْمُغِيرَة بن بَرْدِزْبَة الجُعْفِي البُخَارِي، وأبو الحُسَيْن مُسْلِم بن الْحَجَّاج بن مُسْلِم القُشَيْرِي النِّسَابُورِي رضي الله عنهما في صحيحيهما اللذين هما أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ.

قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» الْحَدِيث ... أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عِظَمِ مَوْقِعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ وَصِحَّتِهِ... قَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ ثُلُثُ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: يَدْخُلُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفِقْهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ رُبُعُ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن مَهْدِي وَغَيْرُهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ صَنَّفَ كِتَابًا أَنْ يَبْدَأَ فِيهِ بِهَذَا الْحَدِيثِ تَنْبِيْهًا لِلطَّلَابِ عَلَى تَصْحِيحِ النِّيَّةِ.

وَنَقَلَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا عَنْ الْأَئِمَّةِ مُطْلَقًا، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، فَابْتَدَأُوا بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ^(٣).

قال أبو عبيد: ليس في الأحاديث أجمع، ولا أغنى، ولا أنفع، ولا أكثر فائدة منه.

(١) انظر «الأشباه والنظائر» للسيوطي ص (١١)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١/ ٥٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٧٩-٨٠).

✽ واتفق العلماء أمثال الشافعي وأحمد وابن المديني وأبى داود والدارقطني والبيهقي وغيرهم على عدّه ربع الإسلام أو ثلثه أو نصفه.

فهذا أبو داود صاحب السنن يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني «كتاب السنن» - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث... ويكفى الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها: قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

والثاني: قوله ﷺ: «مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(١).

والثالث: قوله ﷺ: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى لَا يَرْضَى لِأَخِيهِ إِلَّا مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ»^(٢).

والرابع: قوله ﷺ: «الْحَلَالُ بَيْنَ وَالحَرَامُ بَيْنَ»^(٣).

✽ والإمام أحمد يرى أن حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» أحد قواعد الإسلام ولكنه عدّ الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ثلاثة: حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» وحديث: «الْحَلَالُ بَيْنَ وَالحَرَامُ بَيْنَ»، وحديث: «مَنْ أَحَدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٤).

✽ ووجه البيهقي كون حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ثلث العلم بأن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها؛ لأنها قد تكون عبادة مستقلة، وغيرها محتاج إليها^(٥).

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، وصححه الألبانی فی «صحيح الجامع» (٥٩١١).

(٢) ورد هذا الحديث بهذا اللفظ عند السيوطي في «شرح لسنن النسائي»، وورد الحديث بلفظ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَحِبَّ لِأَخِيهِ، أَوْ لِعَاجِرِهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ»، وأخرجه بهذا اللفظ البخاري (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب المساقاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٥) «فيض القدير» (٣٢/١)، و«فتح الباري» (١٠/١).

❁ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».. لقد وُضع هذا الحديث في باب الإخلاص لله لنعلم أنه لا بُدَّ أن تكون النية خالصة لله في كل قولٍ أو فعلٍ وعلى كل حال. فعلى قدر النية الصالحة التى تكون في قلبك يكون الأجر والثواب على ذلك العمل.. فمن الناس مَنْ تكون نيته في القمة.. ومنهم مَنْ تكون نيته في الحضيض.

حتى إنك لترى الرجلين يعملان عملاً واحداً يتفقان في ابتدائه وانتهائه وفي أثنائه وفي الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، وبينهما كما بين السماء والأرض... كل ذلك باختلاف النية.

❁ «وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَىٰ» إن نويت الله والدار الآخرة في أعمالك الشرعية حصل لك ذلك، وإن نويت الدنيا فقد تحصل وقد لا تحصل.

قال الله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

ما قال عَجَّلْنَا له ما يريد، بل قال ما نشاء - أى لا ما يشاء هو - لمن نريد - لا لكل إنسان - ففيد المُعَجَّل والمُعَجَّل له.

إذا... من الناس مَنْ يُعطى ما يريد من الدنيا ومنهم مَنْ يُعطى شيئاً منه ومنهم مَنْ لا يُعطى شيئاً أبداً.

❁ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذى دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ أى: مقبولا مُنمًى، مُدَّخراً، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا.

❁ فَتَقْدِيرُ هَذَا الْحَدِيثِ: إِنَّ الْأَعْمَالَ تُحَسَّبُ بِنِيَّةٍ، وَلَا تُحَسَّبُ إِذَا كَانَتْ بِلَا نِيَّةٍ... وَفِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّهَارَةَ وَهِيَ الْوُضُوءُ وَالْغُسْلُ وَالتَّيْمُمُ لَا تَصِحُّ إِلَّا

بِالنِّيَّةِ، وَكَذَلِكَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالصَّوْمَ وَالْحَجَّ وَالْإِعْتِكَافَ وَسَائِرَ الْعِبَادَاتِ. وَأَمَّا إِزَالَةُ النَّجَاسَةِ فَالْمَشْهُورُ عِنْدَنَا أَنَّهَا لَا تَفْتَقِرُ إِلَى نِيَّةٍ؛ لِأَنَّهَا مِنْ بَابِ التُّرُوكِ، وَالتَّرْكَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى نِيَّةٍ.

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «فَمَنْ كَانَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ» مَعْنَاهُ: مَنْ قَصَدَ بِهِجْرَتِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ قَصَدَ بِهَا دُنْيَا أَوْ امْرَأَةً فَهِيَ حَظُّهُ وَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْهِجْرَةِ.

وَأَصْلُ الْهِجْرَةِ التَّرُّكُ، وَالْمُرَادُ هُنَا تَرْكُ الْوَطَنِ. وَذَكَرَ الْمَرْأَةَ مَعَ الدُّنْيَا يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ جَاءَ أَنَّ سَبَبَ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ رَجُلًا هَاجَرَ لِيَتَزَوَّجَ امْرَأَةً يُقَالُ: لَهَا أُمُّ قَيْسٍ، فَقِيلَ لَهُ: مُهَاجِرٌ أُمُّ قَيْسٍ... وَالثَّانِي: أَنَّهُ لِلتَّنْيِيزِ عَلَى زِيَادَةِ التَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ تَنْيِيزًا عَلَى مَزِيَّتِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

❁ وَالْهِجْرَةُ: أَنْ يَنْتَقِلَ الْمُسْلِمُ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ.. إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُظْهَرَ دِينُهُ هُنَاكَ وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَمَارِسَ شَعَائِرَ دِينِهِ فِيهَا جَرَّ إِلَى إِحْدَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

❁ وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي هِجْرَتِهِمْ.. فَمِنْهُمْ مَنْ يَهَاجِرُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.. يَعْنِي يَهَاجِرُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَاشَرَ فِيهِ بِقَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ مَعَ شَرَعِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.. فَهَذَا الَّذِي يَنَالُ الْخَيْرَ.. وَلِذَا قَالَ ﷺ: «فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ»، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهَاجِرُ مِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا.. كَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ الْمَالَ حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ دِينِهِ وَالتَّزَامِهِ... أَوْ كَالَّذِي يَهَاجِرُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا قَالُوا لَهُ: لَا تُزَوِّجْكَ إِلَّا فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَلَّا يَسَافِرَ بِهَا إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ.. فَمَنْ أَرَادَ الْمَالَ وَمَنْ أَرَادَ الْمَرْأَةَ لَمْ يَهَاجِرْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.. وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَهِيَ هِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٠، ٨١) بتصرف.



ولم يقل: «فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها». احتقارًا وإعراضًا عن ذكرهما؛ لأنها نية فاسدة.

أقسام الهجرة

أقسام الهجرة: الهجرة تكون لِلْمَكَانِ وَلِلْعَمَلِ، وتكون للعامل.

❁ **القسم الأول: هجرة المكان**، بأن ينتقل الإنسان من مكانٍ تكثر فيه المعاصي، ويكثر فيه الفسوق، وربما يكون بلد كفرٍ... فيُهاجر إلى بلدٍ لا يوجد فيه ذلك.

وأعظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه.

وأما إذا كان قادرًا على إظهار دينه ولا يُعارض إذا أقام شعائر الإسلام فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تُستحب.

❁ فلا يجوز للإنسان أن يسافر إلى بلد الكفر إلا بشروطٍ ثلاثة:

الشرط الأول: أن يكون عنده علم يدفع به الشُّبهات، لأن الكفار يُوردون على المسلمين شُبُهًا في دينهم وفي رسولهم وفي كتابهم وفي أخلاقهم.

فالكفار يُدخلون على المسلمين الشك حتى أن بعض زعمائهم صرَّح قائلًا: «لا تحاولوا أن تُخرجوا المسلم من دينه إلى دين النصارى ولكن يكفي أن تُشككوه في دينه، لأنكم إذا شككتُموه في دينه سلبتموه الدين وهذا كافٍ».

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يحميه من الشهوات لأن الإنسان الذي ليس عنده دين إذا ذهب إلى بلاد الكفر انغمس في المعاصي؛ لأنه يجد زهرة الدنيا هناك، من خمرٍ وزنا ولواط وغير ذلك.

الشرط الثالث: أن يكون محتاجاً إلى ذلك ... مثل أن يكون مريضاً يحتاج إلى السفر إلى بلاد الكفر للاستشفاء، أو يكون محتاجاً إلى علم لا يوجد في بلاد الإسلام فيذهب إلى هناك ... أو يكون الإنسان محتاجاً إلى تجارة، يذهب ويتجر ويرجع.

والسفر إلى بلاد الكفر للدعوة يجوز إذا كان له أثر وتأثير هناك فإنه جائز لأنه سفر لمصلحة ... وبلاد الكفر كثير من عوامهم قد عمى عليهم الإسلام لا يدرون عن الإسلام شيئاً بل قد ضلُّوا وقيل لهم: إن الإسلام دين وحشية وهمجية.

❁ **القسم الثاني: هجرة العمل**، وهى أن يهجر الإنسان ما نهى الله عنه من المعاصي والفسوق كما قال النبي ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ**»^(١) فاهجر كل ما حرم الله عليك سواء كان مما يتعلق بحقوق الله أو مما يتعلق بحقوق عباد الله ... فتهجر السب والشتم والقتل والغش وأكل المال بالباطل وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام وكل شيء حرمه الله ... تهجره، حتى لو أن نفسك دعتك إلى هذا وألحت عليك فذكرها أن الله حرم ذلك حتى تهجره وتبعد عنه.

❁ **القسم الثالث: هجرة العامل**، فالعامل قد تجب هجرته أحياناً.

قال أهل العلم: مثل الرجل المجاهر بالمعصية الذى لا يبالي بها فإنه يُشرع هجره إذا كان فى هجره فائدة ومصلحة.

والمصلحة والفائدة أنه إذا هُجر عَرَفَ قدر نفسه ورجع عن المعصية. أما إذا كان الهجر لا يُفيد ولا ينفع وهو من أجل معصية لا من أجل كفر لأن الكافر المُرتدَّ يُهجر على كل حال - أفاد أم لم يُفد - لكن صاحب المعصية التى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

دون الكفر إذا لم يكن في هجره مصلحة فإنه لا يحل هجره لأن الرسول ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»^(١).

فيبقى النظر هل الهجر يفيد أم لا، فإن أفاد فإنه يهجر ... ودليل ذلك قصة كعب بن مالك، وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فهجرهم النبي ﷺ، وأمر المسلمين بهجرهم لكنهم انتفعوا بذلك انتفاعاً عظيماً، ولجأوا إلى الله وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، وضاعت عليهم أنفسهم وأيقنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه فتابوا وتاب الله عليهم^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢) وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَغْزُو جَيْشُ الْكُعْبَةِ فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ» قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسَاقِفُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ»^(٣).

❖ تلك الكعبة التي بناها آدم عليه السلام.. وقيل: إن الذي بناها الملائكة لكنها هُدمت وبقيت قواعدها مدفونة تحت الرمال.. إلى أن أمر الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفع قواعدها وبنائها من جديد.

❖ وتمر الأيام ويأتي أبرهة من بلاد اليمن ليغزو الكعبة من أجل أن يهدمها.. وكان معه فيلٌ ضخم.. فلما اقترب من الكعبة برك الفيل على الأرض وأبى أن يتقدم خطوة واحدة.. فإذا وجهه نحو اليمن هرول وأسرع.. فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل. أي: وسلط عليهم من جنوده طيراً أتتهم جماعات،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

(٢) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ ابن عثيمين رحمته الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢١١٨) كتاب البيوع، ومسلم (٢٨٨٤) كتاب الفتن.

متتابعة بعضها في إثر بعض، وأحاطت بهم من كل ناحية ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أى تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجر، كأنها رصاصات ثقابة، لا تصل إلى أحدٍ إلا قتلته ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أى فجعلهم كورق الشجر، الذى عصفت به الريح، وأكلته الدواب ثم رائته، فأهلكهم عن بكرة أبيهم... وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة.

وهكذا حمى الله الكعبة من كيد أبرهة الذى جاء لى يهدم بيت الله... وفى آخر الزمان يغزو جيش عظيم الكعبة مرة أخرى.

﴿ وقوله: «حتى إذا كانوا ببهاء من الأرض» أى بأرض واسعة، خسف الله بأولهم وآخرهم.

خسفت بهم الأرض وساخوا فيها هم وأسواقهم وكل من معهم. وفى هذا دليل على أنهم جيش عظيم لأن معهم أسواقهم للبيع والشراء وغير ذلك.

فيخسف الله بأولهم وآخرهم.

فقالت عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟

فهؤلاء جاءوا للبيع والشراء، وليس فى نيتهم أى قصد لغزو الكعبة. وفى رواية أنها قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ. قَالَ: «نَعَمْ فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَلَى نِيَاتِهِمْ»^(١).

أَمَّا (الْمُسْتَبْصِر) فَهُوَ الْمُسْتَبِين لِدَلِيلِكَ الْقَاصِدَ لَهُ عَمْدًا.... وَأَمَّا (الْمَجْبُور) فَهُوَ الْمُكْرَه.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٤) كتاب الفتن وأشراف الساعة.

وَأَمَّا (ابْنُ السَّيْلِ) فَالْمُرَادُ بِهِ سَالِكُ الطَّرِيقِ مَعَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ.
وَيَهْلِكُونَ مَهْلِكًا وَاحِدًا: أَى يَقَعُ الْهَلَاكُ فِي الدُّنْيَا عَلَى جَمِيعِهِمْ، (وَيَصْدُرُونَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَصَادِرَ شَتَّى)، أَى يُبْعَثُونَ مُخْتَلِفِينَ عَلَى قَدَرِ نِيَّاتِهِمْ، فَيُجَازُونَ بِحَسَبِهَا.
وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَقْهِ التَّبَاعُدُ مِنْ أَهْلِ الظُّلْمِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ
مُجَالَسَتِهِمْ، وَمُجَالَسَةِ الْبُغَاةِ وَنَحْوِهِمْ مِنَ الْمُبْطِلِينَ؛ لِئَلَّا يَنَالَهُ مَا يُعَاقَبُونَ بِهِ...
وَفِيهِ أَنَّ مَنْ كَثُرَ سَوَادُ قَوْمٍ جَرَى عَلَيْهِ حُكْمُهُمْ فِي ظَاهِرِ عُقُوبَاتِ الدُّنْيَا^(١).
قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].



(٣) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ
وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَفْرُغْتُمْ فَانْفِرُوا»^(٢).

لقد كانت مكة تحت سيطرة المشركين من كفار قريش فترة من الزمان..
فحاربوا النبي ﷺ وأصحابه حتى أخرجوا الرسول ﷺ فهاجر إلى المدينة
المنورة وأقام فيها للإسلام دولة عظيمة.. ثم عاد بعد ثمان سنوات إلى مكة
فاتحًا منتصرًا، فصارت مكة بلد إيمان وإسلام ولم تصبح بلد كفر.. فلم يكن
منها هجرة بعد ذلك.

وفي هذا دليل: على أن مكة لن تعود لتكون بلاد كفر بل ستبقى بلاد إسلام
إلى أن تقوم الساعة أو إلى أن يشاء الله.

ثم قال: «ولكن جهاد ونية» أى الأمر بعد هذا جهاد... أى يخرج أهل مكة من
مكة إلى الجهاد.

(١) مسلم بشرح النووي (١٨/١٠-١١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٩٠٠) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٦٤) كتاب الإمارة.

وَمَعْنَاهُ: لَا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ لِأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ.

و«النية»: أى النية الصالحة للجهاد فى سبيل الله وذلك بأن ينوى الإنسان بجهاده، أن تكون كلمة الله هى العليا.

✽ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْهَجْرَةَ الْفَاضِلَةَ الْمُهَمَّةَ الْمَطْلُوبَةَ الَّتِي يَمْتَنَزُ بِهَا أَهْلُهَا امْتِيَاظًا ظَاهِرًا انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَمَضَتْ لِأَهْلِهَا الَّذِينَ هَاجَرُوا قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ قَوًى وَعَزَّ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ عِزًّا ظَاهِرًا بِخِلَافِ مَا قَبْلَهُ.

✽ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ». مَعْنَاهُ: أَنَّ تَحْصِيلَ الْخَيْرِ بِسَبَبِ الْهَجْرَةِ قَدْ انْقَطَعَ بِفَتْحِ مَكَّةَ وَلَكِنْ حَصُولُهُ بِالْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ. وَفِي هَذَا: الْحَثُّ عَلَى نِيَّةِ الْخَيْرِ مُطْلَقًا، وَأَنَّهُ يَثَابُ عَلَى النِّيَّةِ ^(١).

✽ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا اسْتَفْرُغْتُمْ فَانْفِرُوا» يعنى: إِذَا اسْتَفْرَكُم وَلَّى أَمْرُكُمْ لِلْجِهَادِ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَانْفِرُوا وَجُوبًا، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْجِهَادُ فَرَضَ عَيْنٍ.

فلا يتخلف أحدٌ إلا مَنْ عَذَرَهُ اللهُ... لقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا ﴿[التوبة: ٣٨، ٣٩]. وهذا أحد المواضع التى يكون فيها الجهاد فرض عين.

والموضع الثانى: إِذَا حَصَرَ بِلَدَةً الْعَدُوُّ... أى جاء العدو حتى وصل إلى البلد وحصر البلد صار الجهاد فرض عين ووجب على كل أحدٍ أن يُقاتل حتى على النساء والشيوخ القادرين فى هذه الحال لأن هذا قتال دفاع.

وفرق بين قتال الدفاع وقتال الطلب.

فيجب فى هذه الحال أن ينفر الناس كلهم للدفاع عن بلدهم.

الحالة الثالثة: إِذَا حَصَرَ الصَّف، والتقى الصَّفَان، صف الكفار وصف

المسلمين صار الجهاد حينئذٍ فَرَضَ عَيْنٍ وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَنْصَرِفَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وقد جعل النبي ﷺ التَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ مِنَ السَّعِ الْمُبِيقَاتِ.
الموضع الرابع: إذا احتيج إلى الإنسان ... بأن يكون السَّلاح لا يعرفه إلا فردٌ من الأفراد، وكان الناس يحتاجون إلى هذا الرجل لاستعمال هذا السلاح الجديد مثلاً فإنه يتعين عليه أن يُجاهد وإن لم يستغفره الإمام وذلك لأنه محتاج إليه.
ففى هذه المواطن الأربعة، يكون الجهاد فرض عين.
وما سوى ذلك فإنه يكون فرض كفاية.

قال أهل العلم: ويجب على المسلمين أن يكون منهم جهاد فى العام مرة واحدة... يُجاهدون أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا، لا لأجل أن يدافعوا عن الوطن لأنه وطن، لأن الدِّفاع عن الوطن من حيث هو وطن يكون من المؤمن والكافر... حتى الكفار يُدافعون عن أوطانهم لكن المسلم يُدافع عن دين الله، فيُدافع عن وطنه لا لأنه وطنه مثلاً، ولكن لأنه بلد إسلامى فيُدافع عنه حماية للإسلام.

أما الدفاع بنية الوطنية أو بنية القومية فهذا يكون من المؤمن والكافر ولا ينفع صاحبه يوم القيامة... وإذا قُتل وهو يدافع بهذه النية فليس شهيداً، لأن الرسول ﷺ سئل عن الرَّجُل يُقاتل حمية ويُقاتل شجاعة ويُقاتل ليرى مكانه أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعِلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (١) (٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمامة.

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٣٦-٣٧).

(٤) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرَجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ»^(١).

(٥) وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزَاةٍ تَبَوَّكُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أَقْوَامًا خَلَفْنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَاِدِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»^(٢).

فمعنى هذا الحديث أن المسلم إذا نوى أن يعمل عملاً صالحاً ولكن حبسه عنه حابس فإنه يُكتب له أجر ما نوى.

أما إذا كان المسلم يعمل عملاً صالحاً ثم حدث له عُذر في وقتٍ ما.. أو عجز عن ذلك العمل الذي لم يكن يتركه أبداً في حال الصحة والإقامة فإنه يُكتب له أجر العمل كاملاً.

لأن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٣).

✽ فمثلاً: إذا كان من عادته أن يصلي قيام الليل كل ليلة ولكنه حدث له ما يمنعه في ليلة من الليالي أو في بعض الليالي فلم يتمكن من القيام بسبب عُذرٍ أو مرض فإنه يُكتب له الأجر كاملاً..

وكذلك مَنْ كان عادته أن يصوم صيام تطوع ولكنه مرض فلم يتمكن في وقتٍ ما من الصيام فإنه يُكتب له الأجر كاملاً.

أما إذا كان ليس من عادته أن يفعله فإنه يُكتب له أجر النية فقط دون أجر العمل.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١١) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٣٩) كتاب الجهاد والسير.

الشَّعْب: الطريق في الجبل - والوادي: هو المكان الذي يسير فيه الماء بين جبلين.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

ودليله: أن فقراء الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله، سبَقْنَا أَهْلَ الدُّثُورِ بِالْأَجُورِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ - يعنى أن أهل الأموال سبقوهم بالصدقة والعتق فقال النبي ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ أَدْرَكْتُمْ مَنْ سَبَقَكُمْ وَلَمْ يُدْرِكْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ عَمِلَ مِثْلَ مَا عَمِلْتُمْ» فقال: «تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ ذُبِرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» ففعلوا، فَعِلِمَ الْأَغْنِيَاءُ بِذَلِكَ ففعلوا مِثْلًا فَعَلُوا!!

فجاء الفقراء إلى الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله.

فقال النبي ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» والله ذو الفضل العظيم، ولم يُقَلْ لهم: إنكم قد أدركتم أجر عملهم لكن لا شك أن لهم أجر نية العمل.

ولهذا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام فيمن آتاه الله مالاً فجعل ينفقه في سُبُلِ الْخَيْرِ ... وكان هناك رجلٌ فقير يقول: لو أن لى مالاً مثل فلان لعملت فيه عمل فلان ... قال النبي ﷺ: «فَهُوَ بَنِيَّتُهُ فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ».

أى: سواء في أجر النية ... أما العمل فإنه لا يُكْتَبُ له أجره إلا إن كان من عادته أن يعمل.

وفي هذا الحديث: إشارة إلى أن مَنْ خرج في سبيل الله في الغزو والجهاد، فإن له أجر ممشاه، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا وَلَا شِعْبًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ».

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيًّا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١]

ونظير هذا: أن الرجل إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة.

وهذا من فضل الله ﷻ أن تكون وسائل العمل فيها هذا الأجر الذي بينه الرسول ﷺ (١).

❁ وفي هذا الحديث: فضيلة النية في الخير، وأن من نوى الغزو وغيره من الطاعات فعرض له عذر منعه حصل له ثواب نيته، وأنه كلما أكثر من التأسف على فوات ذلك، وتمنى كونه مع الغزاة ونحوهم كثُر ثوابه. والله أعلم (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦) وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأحنس رضي الله عنه، وهو وأبوه وجده صحابيون، قال: كان أبي يزيد أخرج دنائير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فحُتَّت فأخذتها فأتيتها بها. فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمتُه إلى رسول الله ﷺ فقال: «لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ» (٣).

ففي هذا الحديث أن يزيد أخرج بعض الدراهم وأعطاهما لرجل في المسجد من أجل أن يتصدق بها على الفقراء.. فجاء ابنه معن فأخذها.. فربما يكون ذلك الرجل الذي وكله يزيد لم يعلم أن هذا هو ابنه أو أنه رآه من المستحقين.. فلما بلغ ذلك أباه يزيد قال له: ما أردت إياك.. يعني ما أردت أن أتصدق بهذا المال عليك..

فلما ذهب إلى النبي ﷺ قال: «لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ».

وهذا يدل على أن الأعمال بالنيات.. وأن الإنسان يتحصل على الأجر إذا نوى الخير.. فيزيد نوى أن يتصدق ولم يقصد أن يصل المال إلى ابنه.. لكن ابنه

(١) شرح رياض الصالحين (١/٣٨).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/٨٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٤٢٢) كتاب الزكاة.

أخذها وكان من المستحقين فحصل على الأجر.

والحديث يدل أيضًا على أن الإنسان يُكتب له أجر ما نوى وإن وقع الأمر على خلاف ما نوى.

فإذا أعطى المسلم زكاته لإنسانٍ وهو يظن أنه مُستحق لتلك الزكاة ثم تبين له أنه غني وليس من أهل الزكاة فإن زكاته تُجزئه وتبرأ بها ذمته وتكون مقبولة؛ لأنه نوى أن يعطيها لمن يستحقها ولكن الأمر وقع على خلاف ما نوى.

❁ وفي هذا الحديث أنه يجوز للمسلم أن يعطي ولده من زكاته لكن بشرط ألا يقصد بذلك إسقاط واجب نفقته على ابنه... بمعنى أنه إذا أراد أن يعطي ابنه زكاته من أجل ألا يطالبه بالنفقة فهذا لا يجوز ولا يجزئه ذلك لأنه أراد أن يعطيه الزكاة من أجل أن يسقط واجب نفقته.

أما لو أعطاه زكاته من أجل أن يقضى دينًا عليه أو أن يدفع له ثمن غرامة عليه بسبب حادث وقع له فإن ذلك يجزئه عن الزكاة؛ لأنه لم يقصد بذلك إسقاط واجب نفقته.

والدليل على هذا: ما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما قال لزوجته - وقد أرادت أن تتصدق - قال لها: زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتَ عَلَيْهِ.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بالصدقة وحث عليها، فأرادت زينب زوجة عبد الله بن مسعود أن تتصدق بشيء من مَالِهَا فقال لها زَوْجُهَا مَا قَالَ لِأَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا رضي الله عنه فقالت: لا! حتى أسأل النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ فقال: «صَدَقَ عَبْدُ اللَّهِ، زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَيْهِمْ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخاري (١٤٦٢) كتاب الزكاة.

(٧) وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكُ بْنُ أَهْيَبَ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَى الْقُرَشِيِّ الزُّهْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدِ الْعَشْرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: «جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرْتُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا»، قُلْتُ: فَالْشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «لَا»، قُلْتُ: فَالْثُلْثُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْثُلْثُ وَالْثُلْثُ كَثِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ إِنَّكَ إِنْ تَذَرُ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِئِ امْرَأَتِكَ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْلَفُ بَعْدَ أَصْحَابِي؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَرَدَدَتْ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ. اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هَجْرَتَهُمْ، وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، لَكِنِ الْبَائِسِ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ يَرْتُنِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ» ^(١).

يحكى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ جاءه يعوده في مرضه.. وكان ذلك في مكة مع أن سعد بن أبي وقاص من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وترك بلده ابتغاء مرضاة الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.

وكان من عادة النبي ﷺ أنه كان يعود كل من مرض من أصحابه.. وكان يسأل عنهم ويطمئن عليهم دائماً.

فلما عادته النبي ﷺ اشتكى له سعد ما يجده من الوجع.. ثم أخبره أنه يمتلك الكثير من المال وأنه لا يرثه إلا ابنة واحدة.. أى ليس له ورثة بالفرض إلا هذه البنت.. ثم قال له: «أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلْثِي مَالِي» أى أعطيه صدقة لمن يستحق. فمنعه النبي ﷺ لأنه كان مريضاً مرضاً يخشى منه الموت ولذلك منعه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

النبي ﷺ أن يتصدق بأكثر من الثلث.

لأن المريض مرض الموت المخوف لا يجوز أن يتصدق بأكثر من الثلث، لأن ماله قد تعلّق به حقّ الغير وهم الورثة. أما مَنْ كان صحيحاً ليس فيه مرض أو فيه مرض يسير لا يخشى منه الموت فله أن يتصدق بما شاء بالثلث أو بالنصف أو بالثلثين أو بماله كله لا حرج عليه.

لكن لا ينبغي أن يتصدق بماله كله إلا إن كان عنده شيء يعرف أنه سوف يستغنى به عن عباد الله.

المهم أن الرسول ﷺ منعه أن يتصدق بأكثر من الثلث، وقال: «الثلث، والثلث كثير أو كبير».

وفي هذا دليل على أنه إذا نقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع لأنّ النبي ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير».

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «أرضى ما رضى الله لنفسه» يعنى: الخمس، فأوصى بالخمس رضي الله عنه.

قال فقهاؤنا - رحمهم الله -: والأفضل أن يوصى بالخمس لا يزيد عليه اقتداءً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ».

أى كونك تُبْقَى المال ولا تتصدق به حتى إذا مت وورثه الورثة صاروا أغنياء به، هذا خيرٌ من أن تذرهم عالة لا تترك لهم شيئاً «يتكفّفون الناس» أى: يسألون الناس بأكفهم أعطونا أعطونا.

وفي هذا دليل على أن الميّت إذا خَلَفَ مالا للورثة فإن ذلك خيرٌ له.

لا يظن الإنسان أنه إذا خلف المال وورث منه قهراً عليه أنه لا أجر له في ذلك، لا... بل له أجر^(١).

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: حَثٌّ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْوَرَثَةِ، وَأَنَّ صِلَةَ الْقَرِيبِ الْأَقْرَبِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَبْعَدِ.

✽ قوله رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيٍّ أَمْرًا لَكَ» أى: حتى اللقمة التي تطعمها امرأتك تُؤجر عليها إذا قصدت بها وجه الله، مع أن الإنفاق على الزوجة أمر واجب، لو لم تنفق لقاتل أنفق أو طلق، ومع هذا إذا أنفقت على زوجتك تُريد به وجه الله آجرك الله على ذلك. وكذلك إذا أنفقت على أولادك، وإذا أنفقت على أمك وعلى أبيك، بل إذا أنفقت على نفسك تبتغي بذلك وجه الله فإن الله يُثيبك على هذا.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

لِأَنَّ زَوْجَةَ الْإِنْسَانِ هِيَ مِنْ أَحْصَى حُظُوظِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَشَهَوَاتِهِ وَمَلَازِمِهِ الْمُبَاحَةِ، وَإِذَا وَضَعَ اللَّقْمَةَ فِي فِيٍّ فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْعَادَةِ عِنْدَ الْمُلَاعَبَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ وَالتَّلَذُّذِ بِالْمُبَاحِ، فَهَذِهِ الْحَالَةُ أَبْعَدُ الْأَشْيَاءِ عَنِ الطَّاعَةِ وَأُمُورِ الْآخِرَةِ، وَمَعَ هَذَا فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ إِذَا قَصَدَ بِهَذِهِ اللَّقْمَةِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، حَصَلَ لَهُ الْأَجْرُ بِذَلِكَ... فَغَيَّرَ هَذِهِ الْحَالَةَ أَوَّلَى بِحُصُولِ الْأَجْرِ إِذَا أَرَادَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فَعَلَ شَيْئًا أَصْلَهُ عَلَى الْإِبَاحَةِ، وَقَصَدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى يَثَابَ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ كَالْأَكْلِ بِنِيَّةِ التَّقْوَى عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالنُّومِ لِلِاسْتِرَاحَةِ؛ لِيُقُومَ إِلَى الْعِبَادَةِ نَشِيطًا، وَالِاسْتِمْتَاعِ بِزَوْجَتِهِ وَجَارِيَتِهِ؛ لِيَكُفَّ نَفْسَهُ وَبَصَرَهُ وَنَحْوَهُمَا

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١/ ٤١).

عَنِ الْحَرَامِ؛ وَلِيَقْضَى حَقَّهَا؛ وَلِيُحْصَلَ وَلَدًا صَالِحًا، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدَكُمْ صَدَقَةٌ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

❁ ثم قال ﷺ: «أَخْلَفَ بَعْدَ أَصْحَابِي؟» يَعْنِي: أُوْخَلَفَ بَعْدَ أَصْحَابِي، أَيْ: هَلْ أَتَاخَرُ بَعْدَ أَصْحَابِي فَأَمُوتَ بِمَكَّةَ. فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَنْ يُخْلَفَ فَقَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ» وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لَوْ خُلِفَ ثُمَّ عَمَلَ عَمَلًا يَتَغْنَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَزَادَ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ دَرَجَةً وَرَفْعَةً.

يَعْنِي: لَوْ فُرِضَ أَنَّكَ خُلِفْتَ وَلَمْ تَتِمَّكَنْ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ وَعَمَلْتَ عَمَلًا تَتَغْنَى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَزِيدُكَ بِهِ رِفْعَةً وَدَرَجَةً... رِفْعَةً فِي الْمَقَامِ وَالْمَرْتَبَةِ وَدَرَجَةً فِي الْمَكَانِ.

فَيَرْفَعُكَ اللَّهُ ﷻ فِي جَنَّاتِ النِّعَمِ دَرَجَاتٍ، حَتَّى لَوْ عَمَلْتَ بِمَكَّةَ وَأَنْتَ قَدْ هَاجَرْتَ مِنْهَا.

❁ ثم قال النبي ﷺ: «وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخْلَفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ»، وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ، فَإِنَّ سَعْدًا ﷺ عَاشَ حَتَّى فَتَحَ الْعِرَاقَ وَغَيْرَهُ، وَانْتَفَعَ بِهِ أَقْوَامٌ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَتَضَرَّرَ بِهِ الْكُفَّارُ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَإِنَّهُمْ قُتِلُوا وَصَارُوا إِلَى جَهَنَّمَ، وَسُيِّتَ نِسَاؤُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ، وَغُنِمَتْ أَمْوَالُهُمْ وَدِيَارُهُمْ، وَوَلَّى الْعِرَاقَ فَاهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ خَلَائِقٌ، وَتَضَرَّرَ بِهِ خَلَائِقٌ بِإِقَامَتِهِ الْحَقِّ فِيهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَنَحْوِهِمْ.

❁ ثم قال النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ» سَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُمَضَى لِأَصْحَابِهِ هِجْرَتُهُمْ وَذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: ثباتهم على الإيمان لأنه إذا ثبت الإنسان على الإيمان ثبت على الهجرة.

(١) مسلم بشرح النووي (١١/١١٢).

والأمر الثاني: ألا يرجع أحدٌ منهم إلى مكة بعد أن خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله.

لأنك إذا خرجت من البلد مهاجرًا إلى الله ورسوله فهو كالمال الذي تتصدق به لا يمكن أن ترجع فيه.

«وَلَا تُرَدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ» أى: لا تجعلهم ينتكسون عن الإيمان فيرتدون على أعقابهم... لأن الكفر تأخر والإيمان تقدّم وهذا على عكس ما يقوله الملحدون اليوم حيث يصفون الإسلام بالرجعية، ويقولون: إن التّقدُّمية أن ينسلخ الإنسان من الإسلام وأن يكون علمانيًا لا يفرق بين الإيمان والكفر والعياذ بالله ولا بين الفسوق والطاعة... فالإيمان هو التّقدّم في الحقيقة.

❁ قوله ﷺ: «لَكِنَّ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ» البائِس: هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَثَرُ الْبُؤْسِ، وَهُوَ: الْفَقْرُ وَالْقِلَّةُ.

قوله: «يَرِثِي لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ كَلَامِ الرَّاوى وَلَيْسَ هُوَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ انْتَهَى كَلَامُهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لَكِنَّ الْبَائِسَ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ» فَقَالَ الرَّاوى: نَفْسِيرًا لِمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ: أَنَّهُ يَرِثِيهِ النَّبِيُّ ﷺ وَيَتَوَجَّعُ لَهُ وَيَرِيقُ عَلَيْهِ؛ لِكُونِهِ مَاتَ بِمَكَّةَ، وَاخْتَلَفُوا فِي قَائِلِ هَذَا الْكَلَامِ مَنْ هُوَ؟ فَقِيلَ: هُوَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَقَدْ جَاءَ مُفَسِّرًا فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ... قَالَ الْقَاضِي: وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: وَاخْتَلَفُوا فِي قِصَّةِ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ فَقِيلَ: لَمْ يُهَاجِرْ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى مَاتَ بِهَا.

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ أَنَّهُ هَاجَرَ وَشَهِدَ بَدْرًا ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَكَّةَ وَمَاتَ بِهَا.

وَقَالَ ابْنُ هِشَامٍ: إِنَّهُ هَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ الْهَجْرَةَ الثَّانِيَةَ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَغَيْرَهَا، وَتُوفِّيَ بِمَكَّةَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، سَنَةَ عَشْرٍ.

فعلى هذا سَبَبُ بُؤْسِهِ سُقُوطُ هِجْرَتِهِ لِرَجُوعِهِ مُخْتَارًا وَمُوتِهِ بِهَا... وَعَلَى

قول الآخرين سَبَبُ بُؤْسِهِ مَوْتُهُ بِمَكَّةَ عَلَى أَى حَالٍ كَانَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِاخْتِيَارِهِ لَمَّا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ الْكَامِلِ بِالْمَوْتِ فِي دَارِ هِجْرَتِهِ، وَالْغُرْبَةِ عَنْ وَطَنِهِ إِلَى هِجْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(١).

❖ وفي هذا الحديث فوائد عظيمة كثيرة:

منها: أن من هدى الرسول ﷺ عيادة المرضى لأنه عاد سعد بن أبي وقاص ﷺ... وفي عيادة المَرَضَى فوائد للعائد وفوائد للمعوذ.

أما العائد فإنه يؤدي حق أخيه المسلم لأن من حق أخيك المسلم أن تعوده إذا مرض.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان مشاورة أهل العلم لأن سعد بن أبي وقاص ﷺ استشار النبي ﷺ حينما أراد أن يتصرّف بشيء من ماله.

ففيه استشارة أهل العلم والرأى، وكل إنسان بحسبه... فمثلاً إذا كنت تُريد أن تُقدِّم على شيء من أمور الدين فشاور أهل العلم لأنهم أعلم بأمور الدين من غيرهم... وإذا أردت أن تشتري بيتاً فشاور أصحاب المكاتب العقارية... وإذا أردت أن تشتري سيارة فاستشر المهندسين في ميكانيكية السيارات وهكذا.

ولهذا يُقال: «ما خابَ مَنْ اسْتَخَارَ وَلَا نَدِمَ مَنْ اسْتَشَارَ».

ومن فوائد الحديث: أنه لا يجوز للمريض مرضاً مخوفاً أن يعطى أكثر من الثلث إلا إذا أجازته الورثة لأن الورثة تعلّق حقُّهم بالمال لما مَرَضَ الرَّجُلُ.. لقول النبي ﷺ: «الثلث والثلث كثير».

وفيه دليل: على أنه ينبغي أن يكون عطاؤه أقل من الثلث كما قال ابن عباس ﷺ لو أنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلْثِ إِلَى الرَّبْعِ لَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الثلث والثلث كثير».

(١) مسلم بشرح النووي (١١/١١٣-١١٤) بتصرف.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان إذا كان مريضاً مرضاً يخشى منه الموت أن يتبرع بأكثر من الثلث من ماله، لا صدقة ولا مشاركة في بناء مساجد ولا هبة ولا غير ذلك.. لا يزيد على الثلث لأن النبي ﷺ منع سعداً من أن يتصدق بأكثر من الثلث. والوصية كالعطية فلا يجوز أن يوصى الإنسان بشيء من ماله بعد موته زائداً على الثلث.

والأفضل في الوصية أن تكون بالخمس لأثر أبي بكر المتقدم آنفاً. ومنها: إذا كان مال الإنسان قليلاً وكان ورثته فقراء فالأفضل ألا يوصى بشيءٍ لا قليل ولا كثير لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرُ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً» خلافاً لما يظنه بعض العوام أنه لا بُدَّ من الوصية.. هذا خطأ.. لأنَّ الإنسان الذي ماله قليل وورثته فقراء ليس عندهم مال لا ينبغي له أن يوصى. ومنها: أنه ما من إنسان يعمل عملاً يتغنى به وجه الله إلا ازداد به رفعة ودرجة حتى وإن كان في مكان لا يحل له البقاء فيه، لأن العمل شيء والبقاء شيء آخر.

ولهذا كان القول الرَّاجح من أقوال أهل العلم أن الإنسان إذا صَلَّى في أرضٍ مغصوبة فإن صلاته صحيحة لأن النهي ليس عن الصَّلَاة بل النهي عن الغصب. ومنها: أن الإنسان إذا أنفق نفقة يتغنى وجهه الله فإنه يُثَاب عليها، حتى النفقات على أهله وعلى زوجته بل وعلى نفسه إذا ابتغى بها وجه الله أثابه الله عليها.

وفيه: إشارة أنه ينبغي للإنسان أن يستحضر نية التَّقَرُّبِ إلى الله في كل ما ينفق حتى يكون له في ذلك أجر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ صَخْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ [وَأَعْمَالِكُمْ]»^(١).
 فالله ﷻ لا ينظر إلى أجساد العباد.. هل هى قوية أو ضعيفة.. هل هى كبيرة أو صغيرة.. هل هى صحيحة أو سقيمة.. وكذلك لا ينظر إلى صور العباد هل هى جميلة أو دميمة.. لأن كل هذا لا يساوى أى شىء عند الله جلَّ وعلا. وكذلك لا ينظر للأحساب والأنساب والمناصب وغيرها من حُطام الدنيا الزائل.. وإنما ينظر إلى قلوب العباد وأعمالهم فإنه ليس بين الله وبين عباده صلة إلا بالتقوى ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقْتُمْ﴾.

فمن كان لله أتقى كان من الله أقرب وكان عند الله أكرم.

❁ فإياك أن تفتخر بقوتك أو صحتك أو جمالك أو مالك أو حسبك أو أولادك أو قصورك وسياراتك ولا بأى شىء من حُطام الدنيا الفانى... وإنما عليك أن تحمد الله وأن تسجد شكرًا لله إذا رزقك نعمة التقوى وجعلك من عباده المُتقين المُخلصين العابدين.

❁ ولا بد أن تعلم أن الله ﷻ مُطَّلِع على قلبك.. يعلم ما فيه لأنه سبحانه وتعالى يعلم السرَّ وأخفى... يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.. ويرفع قدرك فى الدنيا والآخرة على قدر ما فى قلبك من الحب والخوف والرجاء والثقة واليقين والتوكل وحسن الظن.. ويوم القيامة يكون الأجر والثواب على قدر ما فى قلبك من الإيمان والتقوى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] فإن كانت السريرة طيبة كان الثواب العظيم.. وإن كانت السريرة غير طيبة كان العذاب الأليم.

ومن أجل ذلك لا بُدَّ أن تحرص على سلامة قلبك من الشرك والرياء

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

والنفاق وكل ما يُغضب الله ﷻ.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

واعلم أن الناس لن ينفعوك.. فاحرص على أن تجعل عملك كله خالصاً لوجه الله ﷻ.. فإنك إذا فعلت ما يُرضى ربك فإن الله سيرضى عنك وسيَرْضَى عنك الناس من حولك.... وإذا فعلت ما يجلب لك سخطه فسوف يَسْخَطُ عليك ويُسْخَطُ عليك الناس من حولك.

قال ﷺ: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ» ^(١).

✽ وهنا وقفة لطيفة مع الزيادة الواردة في الحديث الأول: « وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ [وَأَعْمَالِكُمْ] » أى بزيادة كلمة « وَأَعْمَالِكُمْ ».

✽ قال الشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذه الزيادة هامة جداً، لأن كثيراً من الناس يفهمون الحديث بدونها فهماً خاطئاً، فإذا أنت أمرتهم بما أمرهم به الشرع الحكيم من مثل إعفاء اللحية، وترك التشبه بالكفار، ونحو ذلك من التكاليف الشرعية، أجابوك بأن العُمدَة على ما فى القلب، واحتجوا على زعمهم بهذا الحديث، دون أن يعلموا بهذه الزيادة الصحيحة الدالة على أن الله تبارك وتعالى ينظر أيضاً إلى أعمالهم، فإن كانت صالحة قبلها وإلا ردّها عليهم كما تدل على ذلك عديد من النصوص ... كقوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

والحقيقة أنه لا يمكن تصوّر صلاح القلوب إلا بصلاح الأعمال، ولا صلاح الأعمال إلا بصلاح القلوب، وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ أجمل بيان فى

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠١٠) (٦٠٩٧).

حديث النعمان بن بشير: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩) وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَى ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

❁ فَقَدْ سُئِلَ الرَّسُولُ ﷺ عَنِ الَّذِي يُقَاتِلُ عَلَى أَحَدِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ:

شَجَاعَةً، وَحَمِيَّةً، وَلِيُرَى مَكَانَهُ.

أَمَّا الَّذِي يُقَاتِلُ شَجَاعَةً: فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ رَجُلٌ شَجَاعٌ يُحِبُّ الْقِتَالَ ... لِأَنَّ الرَّجُلَ الشَّجَاعَ مُتَصِفٌ بِالشَّجَاعَةِ، وَالشَّجَاعَةُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ مِيدَانٍ تَظْهَرُ فِيهِ ... فَتَجِدُ الشَّجَاعَ يُحِبُّ أَنْ اللَّهُ يَسِّرَ لَهُ قِتَالًا لِيُقَاتِلَ وَيُظْهَرُ شَجَاعَتُهُ. فَهُوَ يُقَاتِلُ لِأَنَّهُ شَجَاعٌ يُحِبُّ الْقِتَالَ.

الثَّانِي يُقَاتِلُ حَمِيَّةً: حَمِيَّةٌ عَلَى قَوْمِيَّةٍ، حَمِيَّةٌ عَلَى قَبِيلَةٍ، حَمِيَّةٌ عَلَى وَطَنٍ، حَمِيَّةٌ لِأَى عَصَبِيَّةٍ كَانَتْ.

الثَّالِثُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ: أَى لِيَرَاهُ النَّاسُ وَيَعْرِفُوا أَنَّهُ شَجَاعٌ.

فَعَدَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ كَلِمَةً مُوجِزَةً مِيزَانًا لِلْقِتَالِ فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

وَلِذَلِكَ فَإِنْ أَوَّلَ مَا يُطْلَبُ مِنَ الْمُجَاهِدِ: أَنْ يَصَحَّحَ نِيَّتَهُ فِي جِهَادِهِ، فَلَا يَكُونُ جِهَادَهُ غَضَبًا لِنَفْسِهِ، أَوْ حَمِيَّةً لِقَوْمِهِ، أَوْ إِظْهَارًا لِلشَّجَاعَةِ، أَوْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥١).

طلباً لشهرة ومَحَمْدَة عند الناس، أو تطلُّعاً إلى غنيمة لذاته أو لجماعته وقومه... كالاستيلاء على المواد الخام في بلد ما، أو فتح الأسواق أمام سلع ما، أو احتكار سوق مُعينة لحسابه، أو لحساب قومه أو دولته، أو نحو ذلك، وإنما يُمحَضُّ قصده لوجه الله، ولنصرة دينه، وإعلاء كلمته، وكسب رضاه.

فمما لا شك فيه: أن الجهاد قُرْبَة وعبادة من عبادات الإسلام، بل هو أفضل ما يتطوَّع به المسلم من قُرَبات، كما دلَّت على ذلك الآيات والأحاديث. ولا تُقبل عبادة في الإسلام عند الله إلا بنية التعبُّد والامتثال لأمر الله تعالى، وقصد الإخلاص له.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ومن أجل ذلك فإنه لا ينبغي لمسلم أن يُجاهد من أجل القومية العربية أو من أجل الدفاع عن الأرض فقط.. بل لأبَدٍّ أن يصحب ذلك أعظم نية.. ألا وهي الدفاع عن الإسلام ونُصرة المسلمين في كل مكان وليس في بلدك فحسب. أما قتال الدفاع: أى لو أن أحداً صال عليك في بيتك يريد أخذ مالك أو يريد أن ينتهك عرض أهلِكَ مثلاً فإنك تُقاتله كما أمرك بذلك النبي عليه الصَّلَاة والسلام.

فقد سُئل عن الرَّجل يأتيه الإنسان ويقول له: أعطني مالك؟ قال: «لا تُعطه». قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «قاتله»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «إن قتلَكَ فأنت شهيدٌ». قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «إن قتلته فهو في النَّار»^(١) لأنه معتد ظالم حتى وإن كان مسلماً.... إذا جاءك المسلم يريد أن يُقاتلك من أجل أن يُخرجك من بلدك أو من بيتك فقاتله فإن قتلته فهو في النَّار وإن قتلَكَ فأنت شهيد.

(١) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ٦٩٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٠) كتاب الإيمان.

(١٠) وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ النَّفْعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(١).

❁ فقولُه: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيفَيْهِمَا» أى: كان كل واحدٍ منهما يُريد أن يقتل الآخر فسلَّ عليه سيفه أو مُسدسه أو بندقيته أو غير ذلك من آلات القتل... وليس المقصود السيف بعينه وإنما المقصود أى أداة للقتل.

« فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ »، فقال أبو بكره للنبي صلى الله عليه وسلم: هذا القاتل؟ يعنى أن كونه في النار واضح لأنه قتل نفساً مؤمنة متعمداً... والذي يقتل نفساً مؤمنة متعمداً بغير حق فإنه في نار جهنم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

أى: أننا سلّمنا بأن القاتل في النار؛ لأنه قتل مؤمناً فما بال المقتول.. لماذا يكون في النار؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» أى: أنه كان حريصاً على قتل صاحبه لولا أن صاحبه تفوق عليه بقوته فاستطاع أن يقتله.. ولو تمكّن هو من قتله لقتله ولم يتركه أبداً على قيد الحياة... فيكون بنيتة القتل وأخذه بالسبب الموصل للقتل كأنه قاتل.

وهذا دليلٌ على أن الأعمال بالنيات وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٢) وقوله فيمن أتى ليأخذ مالك: «إِنْ قَتَلْتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ وَإِنْ قَتَلْتَكَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).

وفي هذا الحديث دليلٌ على عِظَم القتل، وأنه من أسباب دخول النار. ﴿وَهنا وقفة في غاية الأهمية: أنه لا بُدَّ أن تعلم أَنَّ الدِّمَاءَ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَ الصَّحَابَةِ ﷺ كَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ فِي هَذَا الْوَعِيدِ.

وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَقِّ إِحْسَانُ الظَّنِّ بِهِمْ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَتَأْوِيلُ قِتَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ مُجْتَهِدُونَ مُتَأَوِّلُونَ لَمْ يَقْصِدُوا مَعْصِيَةَ وَلَا مَحْضَ الدُّنْيَا، بَلْ اعْتَقَدَ كُلُّ فَرِيقٍ أَنَّهُ الْمُحِقُّ، وَمُخَالَفَهُ بَاغٌ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ قِتَالُهُ لِيَرْجِعَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ. وَكَانَ بَعْضُهُمْ مُصِيبًا، وَبَعْضُهُمْ مُخْطِئًا مَعْذُورًا فِي الْخَطَا؛ لِأَنَّهُ لَا جِتْهَادَ، وَالْمُجْتَهِدُ إِذَا أَخْطَأَ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ... وَكَانَ عَلَيَّ ﷺ هُوَ الْمُحِقُّ الْمُصِيبُ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ. هَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَكَانَتْ الْقَضَايَا مُشْتَبِهَةً حَتَّى إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الصَّحَابَةِ تَحَيَّرُوا فِيهَا فَاعْتَزَلُوا الطَّائِفَتَيْنِ، وَلَمْ يَقَاتِلُوا، وَلَمْ يَتَّقِنُوا الصَّوَابَ، ثُمَّ تَأَخَّرُوا عَنْ مُسَاعَدَتِهِ مِنْهُمْ^(١).

بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ

(١١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضعًا وَعشرينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ الَّتِي تَحْبُسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ثَبِّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»^(٢).

فِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْمُتَفَرِّدِ بِخَمْسَةِ وَعِشْرِينَ جُزْءًا»

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧) كتاب الأذان، مسلم (٦٤٩) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَنْهَرُهُ»: أَي يُخْرِجُهُ وَيُنْهَضُهُ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً» وَفِي رِوَايَةٍ: «بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً» وَالْجَمْعُ بَيْنَهَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا فَذَكَرَ الْقَلِيلَ لَا يَنْفَى الْكَثِيرَ، وَمَفْهُومُ الْعَدَدِ بَاطِلٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْأُصُولِيِّينَ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ يَكُونُ أَخْبَرَ أَوْ لَا بِالْقَلِيلِ، ثُمَّ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِزِيَادَةِ الْفَضْلِ فَأَخْبَرَ بِهَا.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الْمُصَلِّينَ وَالصَّلَاةِ، فَيَكُونُ لِبَعْضِهِمْ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ وَلِبَعْضِهِمْ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ، بِحَسَبِ كَمَالِ الصَّلَاةِ وَمُحَافَظَتِهِ عَلَى هَيَأَتِهَا وَخُشُوعِهَا، وَكَثْرَةِ جَمَاعَتِهَا وَفَضْلِهِمْ، وَشَرَفِ الْبُقْعَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ... فَهَذِهِ هِيَ الْأَجُوبَةُ الْمُعْتَمَدَةُ (١).

❦ ومعنى الحديث أن المسلم إذا صلى في المسجد مع الجماعة كانت هذه الصلاة أفضل من صلاته في بيته بسبع وعشرين مرة.. وذلك لأن الصلاة مع الجماعة فرض عين.. وأنه يجب على المسلم أن يصلي مع الجماعة في المسجد إلا إذا كان عنده عذرٌ يمنعه من ذلك.

وقد أشار الله (جلَّ وعلا) في كتابه إلى ذلك حيث قال: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]

فأوجب الله الجماعة في حال الخوف... فإذا أوجبها في حال الخوف ففي حال الأمن من باب أولى وأحرى.

ثم ذكر السبب في ذلك: «بأن الرجل إذا توضأ في بيته فأُسْبِغَ الوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يَنْهَازُهُ أَوْ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةَ لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَ اللَّهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ».

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ٢١٠-٢١١).

فكل خطوة يخطوها إلى المسجد يرفعه الله بها درجة ويحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد.. وكلما كان المكان بعيداً كلما ازدادت رفعة الدرجات ومغفرة الخطايا والسيئات.

« فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ الَّتِي تَحْبِسُهُ » وهذه نعمة عظيمة.. فلو أنك دخلت المسجد وصليت تحية المسجد أو سنة الصلاة ثم جلست تنتظر الصلاة... فإذا انتظرت نصف ساعة يكتب لك أنك كنت تُصلي لمدة نصف ساعة.

❁ وفوق ذلك كله: «وَالْمَلَائِكَةُ يَصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ» فماذا تقول الملائكة وبأى شيء تدعو لك طوال فترة انتظارك للصلاة؟ يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه.. ومن المعلوم أن دعاء الملائكة لك أفضل من دعائك أنت لنفسك؛ لأن الملائكة ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

لكن بشرط ألا تؤذى أحداً وأن تظل محتفظاً بوضوئك. ❁ وكل ذلك الأجر مشروطاً بأعظم شرط ألا وهو: ألا تكون نيتك عند خروجك من بيتك إلا للصلاة.

والشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ» فإنه يدل على اعتبار النية في حصول هذا الأجر العظيم.

أما لو خرج من بيته لا يريد الصلاة فإنه لا يكتب له هذا الأجر... مثل أن يخرج من بيته إلى دكانه فلمَّا سمع الأذان ذهب ليُصلي... فإنه لا يحصل على هذا الأجر لأن الأجر إنما يحصل لمن خرج من البيت لا يُخرجه إلا الصلاة.

لكن ربما يكتب له الأجر من حين أن ينطلق من دكانه أو من مكان بيعه وشرائه إلى أن يصل إلى المسجد ما دام انطلق من هذا المكان وهو على طهارة.

(١٢) وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِيَمَا يَرُوى عَنْ رَبِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ: فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» كتابته للحسنات والسيئات تشمل معنيين:

المعنى الأول: كتابة ذلك في اللوح المحفوظ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَتَبَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣]. فَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى كَتَبَ السَّيِّئَاتِ وَالْحَسَنَاتِ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ.

والمعنى الثاني: كتابته إِيَّاهُمَا إِذَا عَمَلَهَا الْعَبْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَتِهَا بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حُكْمَتُهُ وَبِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ عَدْلُهُ وَفَضْلُهُ.

«فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً».

ومثال ذلك: أَنْ يَهْمُ الْإِنْسَانُ بِفَعْلٍ طَاعَةٍ أَوْ فَعْلٍ خَيْرٍ بَعِيْنِهِ ثُمَّ يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَعْلٍ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ... بَلْ قِيلَ إِنَّهُ بِمَجْرَدِ أَنْ يَهْمَ بِفَعْلٍ أَى طَاعَةٍ تُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ إِنْ لَمْ يَفْعَلْهَا حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ حَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ تِلْكَ الطَّاعَةِ... وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.. فَهُوَ سَبَّحَانَهُ يَجْزِي عَبْدَهُ بِمَجْرَدِ أَنْ يَنْوِيَ فَعْلَ الْخَيْرِ أَوْ الطَّاعَةِ.

مثاله: رَجُلٌ هَمَّ أَنْ يَتَوَضَّأَ لِيَقْرَأَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ وَعَدَلَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٣١) كتاب الإيمان.

هَمَّ أَنْ يَتَصَدَّقَ وَعَيَّنَ الْمَالَ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِهِ ثُمَّ أَمْسَكَ وَلَمْ يَتَصَدَّقْ فَيُكْتَبَ لَهُ بِذَلِكَ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ ... هَمَّ أَنْ يَصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ فَأَمْسَكَ وَلَمْ يُصَلِّ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ.

«وإنَّ هَمَّ بِهَا فَعْمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ».

وهذا التَّفَاوُتُ مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالْمَتَابَعَةِ فَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِي عِبَادَتِهِ أَخْلَصَ لِلَّهِ كَانَ أَجْرُهُ أَكْثَرَ وَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَتْبَعَ فِي عِبَادَتِهِ لِلرَّسُولِ ﷺ كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَكْمَلَ وَثَوَابُهُ أَكْثَرَ.

وَأَمَّا السَّيِّئَةُ فَقَالَ: «وإنَّ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ حَسَنَةً كَامِلَةً» .
كَرَّجَلٌ هَمَّ أَنْ يَسْرِقَ وَلَكِنْ ذَكَرَ اللَّهَ ﷻ فَأَدْرَكَهُ خَوْفُ اللَّهِ فَتَرَكَ السَّرْقَةَ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ حَسَنَةٌ كَامِلَةٌ لِأَنَّهُ تَرَكَ فِعْلَ الْمَعْصِيَةِ لِلَّهِ فَأُثِيبَ عَلَى ذَلِكَ.
كَمَا جَاءَ ذَلِكَ مُفَسَّرًا فِي لَفْظٍ آخَرَ: «لأنَّه تَرَكَهَا مِنْ جَرَّأِي»^(١) أَيْ مِنْ أَجْلِي.
فَإِنْ عَمِلَ السَّيِّئَةَ كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ لَا تَزِيدُ ... لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
[الأنعام: ١٦٠].

وهذا الحديث فيه: دَلِيلٌ عَلَى اعْتِبَارِ النِّيَّةِ وَأَنَّ النِّيَّةَ قَدْ تُوصِلُ صَاحِبَهَا إِلَى الْخَيْرِ.
وَسَبَقَ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا نَوَى الشَّرَّ وَعَمِلَ الْعَمَلَ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى الشَّرِّ وَلَكِنَّهُ عَجَزَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يُكْتَبُ عَلَيْهِ إِثْمُ الْفَاعِلِ ... كَمَا سَبَقَ فَيَمُنُ التَّقِيَا بِسَيْفِيهِمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ: «إِذَا التَّقِيَا الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفِيهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالْمَقْتُولِ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^{(٢)(٣)}.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٠١) كتاب التوحيد، ومسلم (١٢٩) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣١) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

(٣) (شرح رياض الصالحين) (١/٥٦-٥٧) بتصرف.

فأما الهم الذي لا يُكتب فهي الخواطر التي لا تُوطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية وعزم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى آوَاهُمُ الْمَيِّتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ تَعَالَى بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.

قال رجلٌ منهم: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَتَأَيَّ بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمِينَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَازَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ عِنْدَ قَدَمَيَّ فَاسْتِيقِظَا فَشَرَبَا غُبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَاَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ.

قال الآخر: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَفِي رِوَايَةٍ: كُنْتُ أَحَبُّهَا كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرَّجَالُ النِّسَاءَ، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فَاْمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السَّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُحَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضُ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَاَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطِيتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّلَاثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ

الله أَدَّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ
فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ
مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ
الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ^(١).

✽ هذه القصة تُرشدنا إلى سبيل الخلاص عندما تُحيط بنا الكربات،
وينقطع جبل الرجاء من العباد، ففي هذه الأحوال هناك باب مَنْ لا ينقطع منه
الرجاء، فهو حاضرٌ أبداً، وقادرٌ أبداً، يُجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء..
وقد أخبرنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث بقصة أصحاب الغار الذين وقعت
صخرة على فم غارهم فأغلقتها، فتوسل كل واحدٍ منهم إلى ربه بأرجى عملٍ
عَمِلَهُ، ودعا الله به، فاستجاب الله دعاءهم، وكشف بلاءهم، وفرج كربهم.

✽ هذه القصة تُحدثنا عن ثلاثة رجال خرجوا من ديارهم ليتنزهوا أو
يرتادوا لأهلهم، ويطلبون لهم القوت، وبينما هم في سيرهم تلبّدت السماء
بالغيوم، وتساقط المطر غزيراً مما أحوجهم إلى أن يبحثوا عن مكانٍ يأويهم من
المطر، فوجدوا طلبتهم في غار قريب منهم، ولكن الغار الذي دخلوه مُحتمين به
من الأمطار أصبح لهم قبراً، فقد جرفت السيول الشديدة التي شكّلتها الأمطار
الصخور من أعالي الجبال، وانحدرت صخرة عظيمة من الجبل، ومضت في
طريقها حتى استقرت على فم الغار فسدّته، وكانت من العِظَم بحيث لا تُجدى
قوتهم شيئاً في دفعها وتحريكها.

لقد أصبحوا بعد انطباق الصخرة عليهم في حالٍ أشد من الحال التي كانوا
فيها، فقد كانوا يستطيعون الصبر على الأمطار التي كانت تتساقط عليهم، أما
هذه الحال فإنها تؤدي إلى هلاكٍ مُحقق.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٧٢) كتاب الإجارة، ومسلم (٢٧٤٣) كتاب الذكر والدعاء والتوبة
والاستغفار.

لقد أصبحوا محصورين في هذا الغار الذي لا حيلة لهم باختراقه بقوتهم الذاتية، ولا سبيل عندهم لإخبار أقوامهم... فوسائل الاتصال الحديثة غير موجودة في تلك الأيام، ولو أراد أقوامهم أن يبحثوا عنهم عندما تطول غيبتهم فلن يهتدوا إلى مكانهم، فالآثار التي تتركها أقدام الضائعين والتي كان قصاص الأثر ولا يزالون يتتبعون بها من يريدون البحث عنه ضاعت، فإن الأمطار الشديدة، والسيول التي تُشكلها تزيل آثار الأقدام، كما تزيلها الرياح السوافي من الرمال، وحتى لو مرَّ بعض الناس بقربهم فإنهم لا يتنبهون إليهم، ولا يعرفون بمكانهم... وصراخهم لن يصل صدها إلى أبعد من جدران الكهف الذي يحيط بهم.

في مثل هذا الموقف يعلم العباد يقيناً أنه لا نجاة لهم إلا بالله، وأن الله وحده هو العالم بمكان وجودهم، وهو يراهم ويسمعهم، فالله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ومثل هؤلاء مثل الذين أحاطت بسفيتهم أمواج البحر في يوم عاصف، ترفعهم موجة، وتهبط بهم أخرى، وهم لا يملكون من أمرهم شيئاً.

ومثلهم مثل الذين حدث خلل في بعض محركات طائرتهم، فأخذت تتأرجح بهم في الفضاء، تستقيم مرة، وتميل أخرى، تسكن مرة، وتضطرب أخرى.

ومثلهم مثل الذين خُسفت بهم الأرض أو زُلزلت وخرَّت فوقهم عروش بيوتهم، وأصبحوا مأسورين في مساحة ضيقة تحت الانقراض... إن العباد في مثل هذه الأحوال حتى لو كانوا فجرة فاسقين، فإنهم يجأرون إلى ربهم يطلبون عونه ورعايته، فهو القادر حيث لا تعمل قدرة العباد، وهو الحافظ حيث لا تصل الوسائل التي يحفظ بها العبادُ العباد ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِهِمْ رِيحٌ طَيْبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا

أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢].

وبعض العباد في مثل هذه المواقف يكتفى بالدعاء، وآخرون يتوسلون إلى الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وآخرون يتوسلون إلى الله بصالح أعمالهم، وهذا ما أشار أحدهم به فقد طلب من صاحبيه أن يتوسل كُلُّ منهما بأرجى ما عمله قاصداً فيه وجه الله.

وقد ذكر كل واحدٍ منهم عملاً صالحاً عمله لله، وشفع ذلك بدعاء ربه أن يفرج عنهم شيئاً مما هم فيه إن كان صادقاً فيما أخبر به... وكانت الصخرة تنفرج شيئاً كلما ذكر واحدٌ منهم عمله ودعا بالتفريج، حتى إذا أتم الثالث خبره ودعاه انزاحت الصخرة، وخرجوا يمشون.

وكان في ذلك أعظم دلالة على أن الله كان يسمع شكائهم، ويعلم حالهم، وصدقهم فيما قالوه، فأزال ضرهم، وفرج كربتهم، وكان خبرهم عبرة لغيرهم، ممن أصابه الضر كما أصابهم.

وكان فيما حدثوا به من صالح أعمالهم التي أنجاهم الله بها ما يدل على صلاحهم وتقواهم من جهة، ويدل من جهة أخرى على عظم هذه الأعمال وأنها محبوبة عند الله تعالى.

وقد توسل أولهم ببره بوالديه، وكان يعمل راعياً... وأهل الرعى يعتمدون على حليب أغنامهم وأبقارهم وجمالهم، وكان من أمره أنه يحلب بعد عودته مواشيه، ثم يبدأ بوالديه فيسقيهما قبل أولاده وزوجته.

وفي أحد الأيام ابتعد في طلب المرعى، فلم يعد إلا في وقت متأخر من الليل، فحلب كما يحلب، وجاء بالحلاب إلى والديه، فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما، وكره أن يسقى صغاره قبلهما، فبقى ليله ساهراً، إناء الحليب على يده، وصغاره يبكون عند رجليه يريدون طعامهم، وهو يكره إيقاظ والديه، حتى

طلع الفجر، فسقاها ماء، ثم سقى صغاره وأهله بعدهما.

ولا يعلم أحدٌ غير الله مدى المشقة التي عاناها هذا الرجل في تلك الليلة... فالأمر لم يكن سهلاً عليه، فهو رجل يرعى الغنم، وقد سار بعيداً عن الديار، فأجهدته المسير وأرهقه، وزاده رهقاً أنه لم يتناول عشاءه... أضف إلى هذا وذاك أن صغاره يبكون... وكم يألّم الآباء إذا رأوا صغارهم جوعى باكين.

إنها صورة فريدة لما يصنعه الإيمان... فالمبادئ الأرضية، والتعاليم البشرية لا يمكن أن ترتقى بالإنسان ليلبغ هذا المبلغ من قوة الاحتمال، وتُبل العواطف، وتقدير الآباء وتوقيرهم.

وتوسل الثانى إلى ربه بمخافته من الله... تلك المخافة التي دفعته إلى ترك الفاحشة، وكبت الشهوة، وكان من أمره أنه أراد ابنة عمٍّ له على نفسها، وكانت أحب الناس إليه، فكان يعصمها إيمانها منه، فتأبى عليه، حتى أصابتها فاقة وحاجة اضطررتها إلى موافقته على رأيه والخضوع لرغبته، بعد أن دفع لها مبلغاً كبيراً من المال اشترطت عليه أن يدفعه لها قبل أن تُمكنه من نفسها، ولكنه عندما قدر عليها وقعد منها مقعد الرجل من زوجته انتفضت وارتجفت، فلما استعلم منها عن سبب رجفتها وانتفاضتها أخبرته أن ذلك من مخافة الله، فإنها لم ترتكب هذه الفاحشة من قبل.

فقام عنها مخافة الله، وترك لها الذى أعطاه إياه.

وتوسل الرجل الثالث بحفظه لأموال أجير ترك ماله وذهب، فثمر له ماله حتى أصبح مالاً عظيماً، فلما جاءه الأجير بعد غيبة طويلة يطلب ذلك الأجر القليل، أعطاه كل المال الذى نتج عن ماله، فأخذه، ولم يترك منه شيئاً.

إن ما قاموا به نماذج راقية، لا يعرفها العالم المتحضر اليوم، إلا من رحم الله، وقد فرج الله عن هؤلاء الأخيار كربهم، وكشف عنهم، وأطلق أسرهم.

✽ الدروس المستفادة:

- (١) مشروعية التوسل إلى الله بصالح الأعمال، كما توسل هؤلاء الثلاثة إلى الله بأعمالهم الصالحة التي عملوها فأنجاهم الله.
- (٢) أثر التقوى في تخليص العبد من كربه وبلائه، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].
- (٣) مشروعية الدعاء عند حلول الكرب والبلاء، وقد أمر الله بدعائه، فمن لا يدعو الله يغضب عليه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].
- (٤) بر الوالدين من أعظم الأعمال الصالحة التي يحبها الله وتُقرب إليه، وتُخلص العبد من كرب الدنيا، وكرب يوم القيامة.
- (٥) مخافة الله من العبادات العظيمة التي تدفع النقم، وتقي الفواحش، وتُقرب من الله... فقد كان الخوف من الله السبب في ترك ذلك الرجل الفاحشة، وكان ذلك أحد الأسباب في خلاصهم من الغار.
- (٦) فضل محافظة العبد على حقوق العباد وأموالهم... فقد حافظ صاحب المال على أجرة ذلك الأجير ونمّاه له، ودفع إليه كل ما نتج عنه عندما جاء يطلب حقه.
- (٧) بركة العمل في الزراعة وتربية الأنعام والمواشي، فقد عمل صاحب الأرض لعامله في أجره، فأصبح المال القليل كثيرًا، وبارك الله فيه فأصبح أضعافًا مضاعفة.
- (٨) كان صاحب العمل محسنًا إلى العامل بتنمية ذلك المال، ولكن الأجير لم يُحسن إلى رب العمل، فكان الواجب عليه أن يترك له من المال مقدار جهده وتعبه^(١).

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص: ٢٠٧-٢١٣) باختصار.

(٢) باب التوبة

❁ قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب... فَإِنْ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا تَتَعَلَّقُ بِحَقِّ آدَمِي، فَلَهَا ثَلَاثَةٌ شُرُوطٌ:
أَحَدُهَا: أَنْ يَقْلَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يَعِزَّمَ أَلَّا يَعُودَ إِلَيْهَا أَبَدًا. فَإِنْ فَقَدَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ لَمْ تَصَحَّ تَوْبَتُهُ.

وإِنْ كَانَتْ الْمَعْصِيَةُ تَتَعَلَّقُ بِآدَمِي فُشُرُوطُهَا أَرْبَعَةٌ: هَذِهِ الثَّلَاثَةُ، وَأَنْ يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا... فَإِنْ كَانَتْ مَالًا أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ حَدًّا قَذَفَ وَنَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ وَإِنْ كَانَتْ غِيبةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا. وَيَجِبُ أَنْ يَتُوبَ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ الْبَاقِي. وَقَدْ تَظَاهَرَتْ دَلَائِلُ الْكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ عَلَى وَجُوبِ التَّوْبَةِ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحریم: ٨] ^(١).

❁ التوبة لغة: من تاب يتوب إذا رجع... وشرعًا: الرجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته.

وأعظمها وأوجبها التوبة من الكفر إلى الإيمان.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾

[الأنفال: ٣٨]. ثم يليها التوبة من كبائر الذنوب.

(١) رياض الصالحين / للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٧).

ثم المرتبة الثالثة التوبة من صغائر الذنوب.

والواجب على المرء أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل ذنب.

❁ ولقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ ثلاثة شروطٍ للتوبة..

ولكنها بالتَّتَبُّع تبلغ ستة شروط وهي:

الشرط الأول: إخلاص النية لله:

وذلك بأن يقصد الإنسان بتوبته وجه الله عَزَّوَجَلَّ وأن يتوب الله عليه ويتجاوز عن سيئاته.. ولا يقصد بذلك مُراءاة الناس والحرص على التقرب إليهم أو يقصد دفع الأذى عنه.

وإنما يقصد بتوبته وجه الله والدار الآخرة.

الشرط الثاني: الإقلاع عن المعصية:

والذنوب والمعاصي أنواع...

فإن كان ذنبه أنه قد ترك واجباً.. فالإقلاع عنه بفعله.. مثل أن يكون الإنسان لا يصلي فتوبته أن يصلي.. أو يكون لا يُزَكِّي فتوبته أن يُخرج الزكاة.. أو يكون مُقصرًا في بر الوالدين فتوبته أن يبر والديه.. أو يكون مُقصرًا في صلة الرحم فتوبته أن يصِل أرحامه.

وإن كانت المعصية بفعل مُحرم فالواجب أن يُقلع فورًا عن ذلك الشيء المحرم ولا يؤخر التوبة ولا لحظة واحدة.

فإن كانت المعصية في الكذب فالواجب أن يترك الكذب فورًا وأن يتحلى بالصدق.. وإن كانت المعصية في شرب الخمر فالواجب أن يترك شرب الخمر فورًا.. وإن كانت المعصية في التعامل بالربا فالواجب عليه أن يتخلص من الربا فورًا وأن يتخلص من المال الذي اكتسبه من الربا.. وهكذا.

فإن لم يُقلع الإنسان عن تلك المعاصي فتوبته مردودة عليه.

فإذا كان الذنب يتعلق بحق الله ﷻ فهذا يكفي أن تتوب بينك وبين ربك ولا يجوز أن تُحدث الناس بما صنعت من المحرم أو ترك الواجب.. لأن هذا بينك وبين الله... فإذا كان الله قد مَنَّ عليك بالستر، وسترَك عن العباد فلا تُحدث أحدًا بما صنعت إذا تُبِت إلى الله... وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ». ومن المجاهرة كما جاء في الحديث: «أن يفعل الذنب ثم يُصبح يُحَدِّثُ بِهِ النَّاسَ يَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا...»^(١).

إلا أن بعض العلماء قال: إذا فعل الإنسان ذنبًا فيه حَدٌّ فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذي يُقيم الحدود مثل الأمير ويقول إنه فعل الذنب الفلاني ويريد أن يُطَهَّرَ منه... ومع ذلك فالأفضل أن يستر على نفسه.

أما إذا كان الذنب بينك وبين الخلق فإن كان مالا فلا بُدَّ أن تُؤديه إلى صاحبه ولا تُقبل التوبة إلا بأدائه.

الشرط الثالث: الندم على فعل المعصية:

وذلك بأن يندم على كل ما فعله من الذنوب والمعاصي وأن ينكسر قلبه لله (جَلَّ وعلا) وأن يتحسر على ما مضى من عمره في معصية الله ﷻ قال ﷺ «النَّدَمُ تَوْبَةٌ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٢).

الشرط الرابع: العزم على عدم العودة في المستقبل إلى تلك المعصية:

فإن كان يريد أن يعود إلى المعصية عندما تسمح الظروف بذلك فإن التوبة لا تصح.. وذلك مثل رجل كان يشرب الخمر والمخدرات ثم افتقر فلم يَعُد يشرب تلك الأشياء، ولكنّه كان عازمًا على أن يعود إلى شرب الخمر والمخدرات إذا رزقه الله مالا.. فهذا لا تصح توبته.. بل الواجب أن يعزم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) رواه الطبرانى في الكبير، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٦٨٠٣) - ورواه أحمد، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٨٠٢) بلفظ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ».

المسلم على عدم العودة مرة أخرى إلى معصية الله.. فإن وقع في المعصية مرة أخرى دون قصدٍ أو تعمُّدٍ منه فعليه أن يُجدِّد التوبة ولا ييأس من رحمة الله ما دام أنه لا يقصد العودة إلى المعصية ولا يستحلِّ فعل المعصية.

الشرط الخامس: التحلل من المظالم:

فالذنب إذا كان يتعلق بحق الله ﷻ فهذا يكفي أن تتوب منه بينك وبين ربك.. أما إذا كان بينك وبين الخلق فلا بد أن تتحلل من المظالم.

فإذا أخذت من شخصٍ مالاً وجحدته فلا بد أن ترده إليه مرة أخرى وتطلب منه أن يسامحك.. وإذا كان قد مات فإنك تعطى المال لورثته... فإن لم تعرف ورثته ولم تستطع الوصول إليهم فتصدَّق عنه ليكون ذلك في ميزان حسناته.

وإذا كنت قد اغتبت شخصاً فاطلب منه أن يسامحك.. فإن كان ذلك سيؤغر صدره عليك فعليك أن تدعو وتستغفر له وتذكره بكل خير في المجالس التي اغتبه فيها..

وإن كنت قد سعت بين اثنين بالنميمة فعليك أن تصلح بينهما وأن تذكر لهما الحقيقة وتطلب منهما العفو والصفح عنك. وهكذا في سائر المظالم.

قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرِضٍ فَلْيُتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دَرَاهِمٌ إِلَّا الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»^(١).

فيجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يردَّ المظالم إلى أصحابها من قبل أن يجد نفسه يوم القيامة مُفلساً من الحسنات... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فُتيت حسناته أخذ من سيئات مَنْ ظلمهم فطُرح عليه ثم يُطرح في النار... أعاذنا الله جميعاً من نار جهنم.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٣٤) كتاب الرقاق.

الشرط السادس: السجدة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها:

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَبِ»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢).

وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثاراً كثيرة تدل على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يشد بعضها بعضاً متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب، أغلق باب التوبة، ولم يفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتد إلى يوم القيامة»^(٣).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا عَرْضُهُ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدٍ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا حَرِيًّا...﴾ الآية»^(٤).

من بركات التوبة والاستغفار

أولاً: محبة الله ﷻ للتائبين:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ثانياً: حصول المغفرة من الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. قال ابن كثير: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ أى: كل مَنْ تَابَ إِلَى تَبَّتْ عَلَيْهِ مِنْ أَى ذَنْبٍ كَانَ، حَتَّى إِنَّهُ تَابَ تَعَالَى عَلَى مَنْ عَبَدَ الْعَجَلَ مِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ... وقوله: ﴿تَابَ﴾

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٣) فتح البارى (١١/ ٣٥٤: ٣٥٥).

(٤) حسن: رواه أحمد، والبخارى فى التاريخ، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣١٣٧)، وصحيح الجامع (٤١٩١).

أى: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق^(١).

ثالثاً: الفلاح فى الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

[النور: ٣١].

قال السعدى فى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، لأن المؤمن يدعوهُ إيمانه إلى التوبة، ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة ... وهى الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً^(٢).

رابعاً: تبديل السيئات إلى حسنات:

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أى: تبدل أفعالهم وأقوالهم التى كانت مستعدة لعمل السيئات ... تبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً ومعصيتهم طاعة وتبدل نفس السيئات التى عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة ... تُبدل حسنات كما هو ظاهر الآية. وورد فى ذلك حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: يا رب إن لى سيئات لا أراها هاهنا... والله أعلم^(٣).

خامساً: تكفير السيئات ودخول الجنات:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ

(١) تفسير ابن كثير (٥/٣٠٨).

(٢) تفسير السعدى (ص ٦٦٠).

(٣) تفسير السعدى (ص ٦٨٥).

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ [التحریم: ٨].

قال السعدی رحمه الله: «قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح»^(١).

سادساً: منع العذاب في الدنيا:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان فيهم أمانان: النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار)^(٢).

سابعاً: الإمداد بالأموال والبنين وإنزال الغيث:

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أى: إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأتت لكم من بركات الأرض، وأتت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أى: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخلّلها بالأنهار الجارية بينها)^(٣).

وروى ابن أبي الدنيا بسنده إلى الشعبي قال: «خرج عمر يستسقى بالناس، فما زاد على الاستغفار حتى رجع، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما نراك استسقيت! فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح^(٤) السماء التي يُستنزل بها المطر... ثم قرأ:

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٣٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٥١١-٥١٢) برقم: (١٦٠٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٣٣).

(٤) قال ابن الأثير: «المجاديح» واحدها مجدح والياء زائدة للإشباع. والقياس أن يكون واحدها مجداح. والمجدح: نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر. فجعل الاستغفار مشبهًا

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ ثُمَّ قَرَأْ: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾.

وجاء رجل إلى الحسن البصري يشكو إليه شدة الجذب ونقص الماء فقال له: استغفر الله.. وشكى آخر الفقر فقال له: استغفر الله.. وقال ثالث: يا أبا سعيد ادعُ الله أن يرزقني الولد فإني عقيم، فقال له: استغفر الله.. وشكى رابع جفاف بستانه فقال له: استغفر الله.. فقال أحد الجالسين: أذاك رجالٌ يشكون أنواعاً من البلاء فأمرتهم جميعاً بالاستغفار، فقال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: إن الله تعالى يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾.

ثامناً: المتاع الحسن وزيادة القوة:

إن من أسباب القوة ومضاعفتها كثرة الاستغفار كما قال الله تعالى عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣].

وقال: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا بَحْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ عند قوله تعالى: ﴿يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتنعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلكت قبلكم.

تاسعاً: مَنْ خَتَمَ لَهُ بِالْإِسْتِغْفَارِ دَخَلَ الْجَنَّةَ:

فعن شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ،

⁼ بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولاً بالأنواء... وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير: (١/ ٢٤٣).

أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

عاشراً: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها عليه، والله تبارك وتعالى يفرح بتوبة التائبين:

قال النبي ﷺ: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَأَيَسَ مِنْهَا، فَآتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^{(٢)(٣)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٤).

(١٥) وَعَنْ الْأَعْرَبِيِّ يَسَارُ الْمُزْنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً».

وفي رواية: «إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً»^(٥).

فها هو النبي ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. ومع ذلك فهو يتوب في اليوم واللييلة مائة مرة.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٠٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة.

(٣) مفاتيح البركات والخيرات / أ. جاسر بركات (ص ٢٤٧-٢٥٣) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

ففى هذين الحديثين: دليلٌ على وجوب التَّوبَةِ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمر بها فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ» فإذا تاب الإنسان إلى ربه حَصَلَ بِذلك فائدتين: الفائدة الأولى: امتثال أمر الله ورسوله ﷺ... وفى امتثال أمر الله ورسوله كل خير. فعلى امتثال أمر الله ورسوله تدور السعادة فى الدنيا والآخرة. والفائدة الثانية: الاقتداء برسول الله ﷺ حيث كان ﷺ يتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة.

❦ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ فى قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّى لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

وَالْمُرَادُ هُنَا: مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْفَتَرَاتِ وَالْغَفَلَاتِ عَنِ الذِّكْرِ الَّذِى كَانَ شَأْنَهُ الدَّوَامَ عَلَيْهِ، فَإِذَا أَفْتَرَ عَنْهُ أَوْ غَفَلَ عَدَّ ذَلِكَ ذَنْبًا، وَاسْتَغْفَرَ مِنْهُ.. وَقِيلَ: هُوَ هَمٌّ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ، وَمَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ، فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَقِيلَ: سَبَبُهُ اشْتِغَالُهُ بِالنَّظَرِ فى مَصَالِحِ أُمَّتِهِ وَأُمُورِهِمْ، وَمُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ وَمُدَارَاتِهِ، وَتَأْلِيفِ الْمُؤَلَّفَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَسْتَغْلِبُ بِذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ مَقَامِهِ، فَيَرَاهُ ذَنْبًا بِالنَّسْبَةِ إِلَى عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ، وَأَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، فَهِيَ تُزُولُ عَنْ عَالِي دَرَجَتِهِ، وَرَفِيعِ مَقَامِهِ مِنْ حُضُورِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمُشَاهَدَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ وَفَرَاغِهِ مِمَّا سِوَاهُ، فَيَسْتَغْفِرُ لِدَلِكِ، وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنَّ هَذَا الْغَيْنَ هُوَ السَّكِينَةُ الَّتِى تَغْشَى قَلْبَهُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وَيَكُونُ اسْتَغْفَارُهُ إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ، وَمُلَازِمَةً الْخُشُوعِ، وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ.

قَوْلُهُ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّى أَتُوبُ فى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ».

هَذَا الْأَمْرُ بِالتَّوْبَةِ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ سَبَبِ اسْتَغْفَارِهِ وَتَوْبَتِهِ ﷺ... وَنَحْنُ إِلَى الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ أَحْوَجُ ^(١).

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/٣٨-٣٩) بتصرف.

❖ وفي هذين الحديثين: دليلٌ على أن نبينا محمداً ﷺ أشدُّ الناس عبادةً لله وهو كذلك.

فإنه أحسانا لله وأتقانا لله وأعلمنا بالله صلوات الله وسلامه عليه. وفيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام مُعلم الخير بلسانه وفعاله. فكان يستغفر الله ويأمر الناس بالاستغفار حتى يتأسوا به امتثالاً للأمر واتباعاً للفعل.

وهذا من كمال نُصحِهِ صلوات الله وسلامه عليه لأُمَّته. فينبغي لنا نحن أيضاً أن نتأسى به، إذا أمرنا الناس بأمر أن نكون أول من يمثل هذا الأمر. وإذا نهيناهم عن شيء أن نكون أول من ينتهى عنه لأن هذا هو حقيقة الداعي إلى الله بل هذه حقيقة الدعوة إلى الله ﷻ أن تفعل ما تأمر به وتترك ما تنهى عنه كما كان الرسول ﷺ يأمرنا بالتوبة وهو (عليه الصلاة والسلام) يتوب أكثر منا^(١).



(١٦) وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَادِمِ رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا، فَاتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، وَقَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

❖ هذه قصة رجل ضرب به الرسول ﷺ المثل لفرح الرب بتوبة عبده،

(١) (شرح رياض الصالحين) (١/٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٠٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة.

وكان من قصة هذا الرجل أنه سافر وحده، حاملاً على بعبيره طعامه وشرابه، وانطلق مُخترقاً بريّة لا يستطيع الوصول إلى مقصده إلا باختراقها، وقد دلّت روايات الحديث على أن هذه البرية لا ينجو منها إلا مَنْ كان عارفاً بمعابرها وطرقاتها.. وكان معه من الماء والطعام ما يكفى للمدة التى يحتاج المسافر لاختراقها، فقد وصفت الأحاديث هذه البرية بأنها فلاة، أى خالية، وهى التى لا نبات فيها، وأنها قفر، وأنها مهلكة أى لعدم وجود الماء والطعام فيها.

ورأى ذلك المسافر فى وقت الظهيرة شجرة فى تلك البرية، وكان التعب أخذ منه كل مأخذ، فنزل وقال فى ظلها-أى: نام القيلولة-... ونوم الظهيرة يرغب فيه كثيرٌ من الناس، وخاصة الذين أرهاقهم التعب كما أرهاق هذا المسافر.

وما إن أغمض عينيه، حتى ذهب راحلته، فلما قام ولم يجدها، فزع فزعاً شديداً... لا لخسارة راحلته وطعامه، فذلك أمره سهل، بل لأن ضياعها فى هذه الفلاة القفر يعنى هلاكه، ولذا فإنه أخذ يركض هاهنا وهاهنا، ينظرها فلم يجدها.

وعاد إلى الموضع الذى كان فيه تعباً عطشاً... ولشدة معاناته أخذه النوم مرة أخرى، فلما أفاق وجد راحلته فوق رأسه، ففرح فرح الذى نجا من الموت والهلاك... ولشدة فرحه أخطأ فقال وهو يخاطب ربه: اللهم أنت عبدى وأنا ربك.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن الله أشد فرحاً بتوبة التائب من هذا الذى أضلته ناقته على الصفة التى ذكرها الرسول ﷺ.

❁ وفي هذا الحديث عدة فوائد منها :

❁ فضل التوبة... فالتوبة تُرضى الرب تبارك وتعالى، والله أشد فرحاً بتوبة التائب من هذا الذى وجد ناقته بعد فقد إياها فى أرض مهلكة.

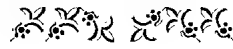
❁ إثبات صفة الفرحة لله... وفرح الله صفة تليق بجلاله وكماله، لا تُشبه فرح المخلوقين، على حدّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

✽ لطف الله بعباده ورحمته بهم، حيث ردَّ لهذا الرجل ناقته بعد أن أيس منها.
✽ على المرء أن يحتاط لأمره.. فلو عقّل هذا الرجل راحلته لما وقع له ما وقع.

✽ يجوز أن يحكى المرء ما وقع من غيره من الألفاظ التي لا يقر عليها...
كما حكى الرسول ﷺ مقالة هذا الرجل، وكما أخبر القرآن بقول الذين قالوا الكفر، كقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤] ^(١).

✽ وفيه دليل: على أن الإنسان إذا أخطأ في قولٍ من الأقوال ولو كان كفرًا سبق لسانه إليه فإنه لا يؤاخذ به... فهذا الرجل قال كلمة كفر لأن قول الإنسان لربه أنت عبدى وأنا ربك هذا كفر لا شك فيه.

لكن لما صدر هذا عن خطأ من شدة الفرح صار غير مؤاخذ به.



(١٧) وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» ^(٢).

(١٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ^(٣).

(١٩) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ هَزْوَئٌ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ» ^(٤).

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٢٥٢-٢٥٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

أما حديث أبي موسى فقد قال الرسول ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ... الحديث».

فهذا من كمال رحمة الله بعباده... وهذا من كرمه وجوده ﷻ أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ حَتَّى وَإِنْ تَأَخَّرَتْ.. فَإِذَا أَذْنَبَ الْإِنْسَانُ فِي النَّهَارِ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَمَهِّلُهُ حَتَّى يَتُوبَ فَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُ وَلَوْ تَابَ بِاللَّيْلِ.. وَكَذَلِكَ يَتُوبُ عَلَيْهِ وَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُ إِذَا أَذْنَبَ بِاللَّيْلِ وَتَابَ فِي النَّهَارِ.

فَاللَّهُ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) يُحِبُّ التَّوْبَةَ وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.. وَيَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ وَإِنْ تَأَخَّرَتْ.. لَكِنِ الْمُبَادَرَةُ بِالتَّوْبَةِ وَاجِبَةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَى يَمُوتُ.. فَقَدْ يَفْجَأُهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ يَتُوبَ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ الْيَدِ لِلَّهِ ﷻ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَى وَهُوَ كَذَلِكَ بَلْ لَهُ يَدَانِ جَلَّ وَعَلَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. وَهَذِهِ الْيَدُ الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ بَلِ الْيَدَانِ يُجِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِمَا وَأَنْهُمَا ثَابِتَتَانِ لِلَّهِ ﷻ.

وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ نَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مِثْلُ أَيْدِينَا لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وَهَكَذَا كُلُّ مَا مَرَّرَ بِكَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ فَأَثْبَتَهَا اللَّهُ ﷻ لَكِنْ بَدُونَ أَنْ تُمَثِّلَهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ ﷻ.

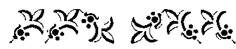
❁ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ وَالَّذِي بَعْدَهُ أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا فَقَدْ انْتَهَى زَمَنُ قَبُولِ التَّوْبَةِ.. لِأَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الْكُبْرَى طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.. فَإِذَا طَلَعَتْ مِنَ الْمَغْرِبِ بَدَلًا مِنَ الْمَشْرِقِ وَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا جَمِيعًا سِوَاءَ كَانُوا مِنَ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى أَوْ غَيْرِهِمْ.. بَلْ وَتَابُوا جَمِيعًا إِنْ كَانُوا مِنْ عَصَاةِ الْمُسْلِمِينَ.. وَلَكِنْ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ إِيْمَانًا وَلَا تَوْبَةً فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ.

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثاراً كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضاً متفقة على أن الشمس إذا طلعت من المغرب، أغلق باب التوبة، ولم يُفتح بعد ذلك، وأن ذلك لا يختصُّ بيوم الطلوع، بل يمتدُّ إلى يوم القيامة»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ بِالْمَغْرِبِ بَابًا عَرْضَهُ مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا لِلتَّوْبَةِ، لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ قِبَلِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ...﴾ الآية»^(٣).

أما حديث ابن عمر: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْرَرْ» أى: ما لم تصل الروح الحلقوم، فإذا وصلت الروح الحلقوم فلا توبة.... وقد بيّنت النصوص الأخرى أنه إذا حضر الموت فلا توبة... لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [النساء: ١٨].
فعلينا أن نبادر بالتوبة والعودة إلى الله (جلَّ وعلا) قبل أن تُغرر الروح أو تطلع الشمس من مغربها فلا تُقبل لنا توبة.



(٢٠) وَعَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زُرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءُ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رَضًا بِمَا يَطْلُبُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ قَدْ حَكَكَ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٥٤: ٣٥٥).

(٣) حسن: رواه أحمد، والبخاري في التاريخ، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٣٧)، وصحيح الجامع (٤١٩١).

الْحُقَيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتَ أَمْرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا أَوْ مُسَافِرِينَ أَنْ لَا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيَهُنَّ إِلَّا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ. فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهُوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٌّ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: «هَؤُلُمْ» فَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَغْضُضُ: قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرَبِ مَسِيرَةً عَرَضَهُ أَوْ يَسِيرَ الرَّاكِبُ فِي عَرَضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا. قَالَ سُفْيَانُ أَحَدُ الرُّوَاةِ: قَبْلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ^(١).

❁ هذا الحديث من أحاديث التَّوْبَةِ التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ مَتَى تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ. لَكِنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى فَوَائِدَ:

منها: أَنَّ زُرَّ بْنَ حَبِيشٍ أَتَى إِلَى صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْعِلْمِ، فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَاحَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًى بِمَا يَطْلُبُ».

وهذه فائدة عظيمة تدلُّ عَلَى فَضِيلَةِ الْعِلْمِ وَطَلْبِ الْعِلْمِ ... وَالْمَرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ، أَيْ الْعِلْمُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

حَتَّى إِنْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَالَ: «إِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَفْضَلَ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالسَّلَاحِ» لِأَنَّ حِفْظَ الشَّرِيعَةِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعِلْمِ وَالْجِهَادُ بِالسَّلَاحِ مَبْنَى عَلَى الْعِلْمِ، لَا يَسِيرُ الْمُجَاهِدُ وَلَا يُقَاتِلُ وَلَا يُحْجَمُ وَلَا يُقَسَمُ الْغَنِيمَةُ وَلَا يُحْكَمُ بِالْأَسْرِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ، فَالْعِلْمُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ.

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وحسنه الألباني في الإرواء (١٠٤).

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب واحتراماً له وتعظيماً له.

ثم ذكر زر بن حبیش لصفوان بن عسال أنه حَكَّ في صدره المسح على الخُفين بعد البول أو الغائط.

يعنى أن الله تعالى ذكر في القرآن قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [البائدة: ٦].

فيقول: إنه حَكَّ في صدرى أى: صار عندى توقُّف وشك في المسح على الخُفين بعد البول أو الغائط هل هذا جائز أو لا؟

فبيّن له صفوان بن عسال رضي الله عنه أن ذلك جائز لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم إذا كانوا سفراً أو مسافرين ألا ينزعوا خفافهم إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم فلا... فدلّ هذا على جواز المسح على الخُفين... بل إن المسح على الخُفين أفضل إذا كان الإنسان لابساً لهما.

ومنها: أنه ينبغي إذا أشكل عليه شيء أن يسأل ويبحث عمّن هو أعلم بهذا الشيء حتى لا يبقى في قلبه حرج مما سمع.

قال الإمام أحمد: «ليس في قلبى من المسح شك» أو قال: «شيء فيه أربعون حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه»... ولكن لا بُدَّ من شروط لجواز المسح على الخُفين:

الشَّرط الأول: أن يضعهما على طهارة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه حينما أراد أن ينزع خُفى النَّبىِّ صلى الله عليه وسلم قال: «دَعُهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ فَمَسَحَ عَلَيْهِمَا».

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمَسْحُ عَلَيْهِمَا فِي الْحَدَثِ الْأَصْغَرِ وَلِهَذَا قَالَ صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: «إِلَّا مَنْ جَنَابَةٌ لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبُولٍ وَنَوْمٍ» فَإِذَا صَارَ عَلَى الْإِنْسَانِ جَنَابَةٌ فَإِنَّهُ لَا يُجْزَى أَنْ يَمْسَحَ عَلَى الْجُورِبَيْنِ أَوْ الْخَفَيْنِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ نَزْعِهِمَا وَغَسْلِ الْقَدَمَيْنِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّهَارَةَ الْكُبْرَى لَيْسَ فِيهَا مَسْحٌ إِلَّا لِلضَّرُورَةِ فِي الْجَبِيرَةِ وَلِهَذَا لَا يَمْسَحُ فِيهَا الرَّأْسَ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: أَنْ يَكُونَ الْمَسْحُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي حَدَّثَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ لِلْمُقِيمِ وَثَلَاثَةُ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهَا لِلْمَسَافِرِ.

فَإِذَا انْتَهَتْ الْمُدَّةُ فَلَا مَسْحَ، لَا بُدَّ أَنْ يَخْلَعَ الْجُورِبَيْنِ أَوْ الْخَفَيْنِ ثُمَّ يَغْسِلَ الْقَدَمَيْنِ وَلَكِنْ إِذَا انْتَهَتْ الْمُدَّةُ وَأَنْتَ عَلَى طَهَارَةٍ فَاسْتَمِرَّ عَلَى طَهَارَتِكَ، لَا تَنْتَقِضُ الطَّهَارَةُ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَتَوَضَّأَ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْمُدَّةِ فَلَا بُدَّ مِنْ غَسْلِ الْقَدَمَيْنِ.

ثُمَّ إِنْ زَرَّ بَنَ حَبِيشَ سَأَلَ صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ: هَلْ سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ فِي الْهُوَى شَيْئًا.

الهُوَى: الْمَحَبَّةُ وَالْمِيلُ، فَقَالَ: نَعَمْ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّةَ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي كَانَ جَهْورِي الصَّوْتِ فَجَاءَ يَنَادِي يَا مُحَمَّدُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ.

فَقِيلَ: وَيْحَكَ تُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وَلَكِنْ الْأَعْرَابُ لَا يَعْرِفُونَ الْأَدَابَ كَثِيرًا لِأَنَّهُمْ بَعِيدُونَ عَنِ الْمَدَنِ وَبَعِيدُونَ عَنِ الْعِلْمِ.

فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ كَمَا سَأَلَ الْأَعْرَابِيُّ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَكْمَلَ النَّاسَ هَدِيَا يَعْطَى كُلَّ إِنْسَانٍ بِقَدْرِ مَا يَتَحَمَلُهُ عَقْلُهُ.

فخاطبه بمثل ماخاطب به النبي ﷺ، قال له الأعرابي: «المرء يحب القوم ولمَّا يلحق بهم» يعنى يحب القوم ولكن عمله دون عملهم لا يساويهم في العمل، مع مَنْ يكون... أَيْكون معهم أَوْ لا؟
فقال النبي ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

هذه بشرى للإنسان أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا صَارَ مَعَهُمْ وَإِنْ قَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ فِي الْجَنَّةِ وَيَجْمَعُهُ اللَّهُ مَعَهُمْ فِي الْحَشْرِ وَيَشْرَبُونَ مِنْ حَوْضِ الرَّسُولِ ﷺ جَمِيعًا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سَنَانِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فَيَمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فُذِّلَ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتَسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فُذِّلَ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ بَهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ. فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمَى فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أَى حَكَمًا - فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»^(٢).

(١) (شرح رياض الصالحين) للشيخ العلامة ابن عثيمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/ ٧٢-٧٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٧٦٦) كتاب التوبة.

وفي رواية في الصحيح: «فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ، فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا» وفي رواية في الصحيح: «فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي، وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي وَقَالَ: قَيْسُوا مَا بَيْنَهُمَا، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ فَعُفِّرَ لَهُ». وفي رواية: «فَنَأَى بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا».

❁ هذه قصة تفتح باب الأمل لكل عاصٍ، مهما عَظُمَ ذنبه، وكبر جُرمه... قصة رجل أسرف على نفسه في المعاصي والذنوب، فقد أخبرنا رسولنا ﷺ أن هذا الرجل قتل مائة نفس، ولكن هذه الذنوب لم تقتل من نفسه كل نوازع الخير ودوافعه، بل بقي في أعماق نفسه بصيصٌ من نور، وبقية من مخافة ربه... ولعله تساءل فيما بينه وبين نفسه، هل انقطعت علاقته بربه، فلا يمكنه أن يعود إليه، ويرجع إليه، أم أن هناك أملاً، وأين هو من ربه إن آب إليه؟

لم يستطع أن يُفَتِّي نفسه، فمثله من الغرقى في الذنوب لا علم عندهم، ولذا خرج من بيته يبحث عن عالمٍ يُفَتِّيهِ، ويجيب عن سؤاله، وهو يعلم أن مسأله كبيرة، لا يستطيع أن يُفَتِّيهِ فيها إلا من عَظُمَ علمه، ولذا فإنه لم يسأل عن عالم، بل سأل عن أعلم أهل الأرض.

ولم يُقَدِّرْ لمن دَلَّه على مَنْ يُفَتِّيهِ أن يدلّه على أعلم أهل الأرض فعلاً، وإنما دَلَّوه على رجل راهبٍ... والرُّهبان كثيرون العبادة، قليلو العلم، والعوام قد يُخدعون بأمثال هؤلاء، فيظنون أن كثرة العبادة، تعنى كثرة العلم، فيقبلون على هؤلاء يتعلمون منهم، ويستفتونهم... ويخطئ أمثال هذا الراهب إن خُدِعَ بإقبال الناس عليه، فأفتاهم بغير علم... والواجب على هؤلاء أن يُصَرِّحُوا للناس بحقيقة أمرهم، ويقولوا لهم فيما لا يعلمونه: الله أعلم، اسألوا غيرنا ممن عنده علم.

أقبل ذلك الرجل إلى ذلك الراهب الذي دَلَّ عليه، واستمع الراهب لمسأله، فاستعظم ذنبه، وظن أن رحمة الله تضيق عنه، وأن مثل هذا الرجل لا تسعه رحمة الله.... وحسبك بذلك جهلاً.

ولو كان الأمر على ما ظنه ذلك الراهب لازداد أهل الفجور جرماً... فالمجرم عندما يئأس من رحمة الله، ويعلم أنه لا سبيل له للعودة إلى الله، فإن ذلك يُغريه بالإيغال في الإفساد والإجرام... يَدُلُّك على صدق هذا فعل هذا الرجل، فعندما علم منه أن التوبة محجورة عنه، وأن رحمة الله لا تسعه ازداد طُغياناً، ومَدَّ يده إلى هذا الراهب فقتله، وأتمَّ بقتله المائة.

ويبدو أن ذلك الراهب كان مع قلة علمه، غير عارف بطبائع الرجال، ولو كان عالماً بذلك لما سارع بالإجابة قبل أن يحتاط لنفسه بالحيلة المناسبة، كأن يُحضر حوله بعض أتباعه من الرجال الأشداء، أو يجيبه من وراء جدران صومعته، فأمثال هذا الرجل لا يُبالون بالقتل لأنفهِ الأسباب، لاعتيادهم القتل والولوغ في الدماء.

قتل ذلك الرجل الراهب، ولكنه لم يقتنع بجوابه، فالأمل عنده بالله عظيم... وهذا الذي أفتاه جاهلٌ بالله، ولكنه يحتاج إلى مَنْ يؤكد له ذلك، ويُعرفه بالصواب، وبحث مرة أخرى عن عالمٍ يعرض عليه مُعضلته، فَدَلَّ على عالم بالله، وكان عالماً حقاً، ولذلك قال العالم لذلك الرجل مُستغرباً: وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وبين التوبة؟! وهذا السؤال الذى يحمل معنى الاستنكار والاستغراب يدل على أن هذا العلم كان عنده بديهياً لا يحتاج إلى كثير تفكير، ولا يحتاج إلى سؤال، إن رحمة الله واسعة، تَسَعُ هذا وأمثاله، ولا يَعْظُمُ على الله ذنبٌ أبداً مهما عَظُمَ وكَثُرَ.

ولم يكن هذا الرجل عالماً فحسب، بل كان مُريئاً ومُرشدًا، ولذا فإنه لم يكتفِ بإجابته بأن باب التوبة مفتوح على مصراعيه، بل دَلَّه على الطريق الذى يجب عليه أن يسلكه... فالغارق في الذنوب يجب أن يغير منهج حياته، فيترك القوم الضالين الذين يصحبهم ويعيش معهم، وعليه أن يترك ما كان عليه، ويتنقل إلى بيئة صالحة، تفعل الخيرات، وتنأى عن المنكرات، وقد أمر ذلك العالم هذا التائب بأن يترك دياره فإنها بلاد سوء، ويهاجر إلى أرضٍ أخرى



حددها له، فيها قوم يعبدون الله فيصحبهم، ويعبد الله معهم. ولم يُضع هذا الرجل وقته، فقد مضى إلى تلك الديار، يطلب حياة جديدة، حياة الطهر والصلاح والاستقامة، ليغسل نفساً تقدّرت بالذنوب، ويحييها بالإيمان والصلاح.

وعندما وصل منتصف الطريق حضر أجله، ودنّت ساعته، ولشدة رغبته في التوبة نأى ب صدره جهة الأرض الطيبة وهو في النزع الأخير، ومات مُقبلاً على الله، راحلاً إلى الديار الصالحة ليعبده، تاركاً وراءه حياة مليئة بالخطايا والذنوب... فما مصيره؟ وما موقعه من ربه؟

أخبرنا الرسول ﷺ أن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب اختصموا فيه، كل واحدٍ من الفريقين يريد أن يلي أمره، ويتكفل به... هؤلاء يقولون: هذا قتل مائة نفس، وأولئك يقولون: لقد تاب وأناب، وجاء مُقبلاً.

فأرسل الله لهم ملكاً في صورة إنسان، فأمرهم أن يقيسوا ما بين الأرضين: أرض الظلم والفساد، وأرض الأخيار الصُّلحاء، فأمر الله الأرض الخيرة أن تتقارب، والأرض الظالم أهلها أن تتباعد، فوجدوه أقرب إلى أرض الصالحين بشبر... ولعله الشبر الذي تحرّكه عندما نأى ب صدره وهو في النزع، فتولته ملائكة الرحمة، وغُفرت له ذنوبه العظيمة: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

❖ ففي هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة منها:

- (١) سعة رحمة الله بقبول توبة التائبين، مهما كثرت ذنوبهم، وكثرت خطاياهم، ولذا فإن الذين يياسون من رحمة الله جُهلاء بالله، لا يعلمون سعة رحمته.
- (٢) قبول توبة القاتل إن تاب توبة صادقة... وقد نازع في ذلك بعض أهل العلم، والحديث صريح في قبول توبته، وهذا ليس قصراً على الأمم السابقة... ويدل له قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ

اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُولُ^{٦٨} وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴿٦٩﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

فقد استثنى الله التائبين الذين يعملون الصالحات من الذين يُضاعف لهم العذاب من المشركين والقتلة المجرمين والزناة.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن كل ذنبٍ دون الشرك فهو قابل للمغفرة، إن شاء الله عذب صاحبه، وإن شاء غفر له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(٣) على العالم أن يرشد التائبين إلى الأعمال التي تُرسخ الإيمان في قلوبهم، وتخلصهم من الشرور التي كانوا يعيشونها كما دَلَّ هذا العالم الرجل التائب إلى ترك أرضه والرحيل إلى قوم صالحين يعبد الله معهم.

(٤) فضل العالم على العابد... فقد أفتى العالم بعلم، وأفتى الراهب بجهل.

(٥) الملائكة الموكلون ببني آدم قد يختلف اجتهداهم في الحكم عليهم، وقد يرفعون الأمر إلى ربهم للقضاء بينهم فيما اختلفوا فيه.

(٦) خصص الله ملائكة يتولون أرواح المؤمنين حين تقبض أرواحهم يُسمَّون بملائكة الرحمة، أما الملائكة الذين يتولون أرواح الفجرة الظالمين فهم ملائكة العذاب.

(٧) قدرة الملائكة على التشكُّل في صورة البشر، كما فعل ذلك المَلَك الذي قضى بين ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

(٨) فضل بني آدم حيث أرسل الله المَلَك الذي قضى بين الملائكة في صورة رجل من بني آدم.

(٩) لا يجب على العالم الذي لم يتولَّ منصب القضاء أن يقيم حكم الله في المجرمين، فهذا العالم اعترف له هذا الرجل بقتل مائة نفس فلم يسجنه، ولم

يحق في أمره، بل أرشده إلى التوبة والهجرة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِهِ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ. قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عُدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ. وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاقَعْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَكَانَ مِنْ خَبْرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَاللَّهُ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فَغَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَارًا. وَاسْتَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أَهْبَةً غَزَوْهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ «يُرِيدُ بِذَلِكَ الدِّيَّانُ» قَالَ كَعْبٌ: فَقُلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيُخْفِي بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعُرُ، فَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَطَفِقتُ أَغْدُو لِكِي أَتَجَهَّزَ مَعَهُ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا، ثُمَّ

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٢٤٧-٢٥٠) بتصرف.

غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتِمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكُهُمْ، فَيَا لَيْتَنِي فَعَلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدِّرْ ذَلِكَ لِي، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُحْزِنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً، إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النَّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مَمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعْفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ تَبُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظَرُ فِي عِطْفِيهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بئس ما قُلْتَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبِيضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ»، فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمَنَافِقُونَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَنِي، فَطَفَقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ: بِمِ الْأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَظْلَلَ قَادِمًا زَاغَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجِ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخْلَفُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بَضْعًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمُ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَ» فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: «مَا خَلَفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدُ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ

صدق تجد عليّ فيه إنّي لأرجو فيه عُبَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، والله ما كان لى من عُذْرٍ، والله ما كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرُ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ قَالَ: فقال رسول الله ﷺ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضَى اللَّهُ فِيكَ» وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقَالُوا لى: والله ما عَلِمْنَاكَ أَذْنِبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، لَقَدْ عَجَزْتَ فِي أَنْ لَا تُكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتَغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَكَ. قَالَ: فوالله ما زَالُوا يُؤْتِبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَكْذَبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ: هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُمَا؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمَرِيُّ، وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ. قَالَ: فَذَكَّرُوا لى رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسُوءَ. قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لى.

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، قَالَ: فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنْكَرْتُ لى فِي نَفْسِي الْأَرْضُ، فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً. فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الذَّهْلَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يَكْلُمْنِي أَحَدٌ، وَآتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَلْ حَرَكَ شَفْتَيْهِ بَرْدَ السَّلَامِ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أَصَلَّى قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ، وَإِذَا التَفْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَى مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعَلَّمْنِي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشِدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ

المدينة إِذَا بَطِئُ مِنْ نَبْطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفَّقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَى حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ عَسَانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بَدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضِيعَةٍ، فَالْحَقُّ بِنَا نَوَاسِكَ، فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنَوُّرَ فَسَجَرْتُهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ مِنَ الْخَمْسِينَ وَاسْتَلَبْتُ الْوَحْيَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا فَلَا تَقْرُبْنَهَا، وَأَرْسَلْ إِلَى صَاحِبِي بِمِثْلِ ذَلِكَ. فَقُلْتُ لَا مَرَأَتِي: الْحَقُّ بِأَهْلِكَ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالَ بْنِ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: «لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرُبَنَّكَ». فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَتِكَ، فَقَدْ أَذِنَ لَامْرَأَةِ هِلَالِ ابْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: لَا اسْتَأْذَنْ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَاذَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ، فَكَمُلَ لَنَا خُمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا.

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَيَّ سَلَعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ فَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتُوبَةِ اللَّهِ ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّيْ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قَبْلِي وَأَوْفَى

عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبِي فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبَسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ أَنَأَمُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَلَقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّتُونَنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ﷺ يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَانِي، وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، فَكَانَ كَعَبٍّ لَا يَنْسَاهَا لَطَلْحَةُ. قَالَ كَعَبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: «أُبَشِّرُ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدْتَكَ أُمُّكَ»، فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَتَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، فَقُلْتُ: إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصَّدَقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحْدِثَ إِلَّا صَدَقًا مَا بَقِيْتُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صَدَقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كِذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا بَقِيَ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾. حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿[التوبة: ١١٧، ١١٨]، حَتَّى بَلَغَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قَالَ كَعَبٌ: وَاللَّهُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ

كَذَّبُوا، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَسِيخُفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَنْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ إِيمَانِكُمْ فَاتُوا بِمَا كُنتُمْ لَكُمْ لِرَضْوَانِهِمْ فَإِنْ رَضُوا عَنْهُمْ فَلْيَرْضَ اللَّهُ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قال كعب: كُنَّا خُلَفَاءَ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبْلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ، فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾. وليس الذي ذَكَرَ مِمَّا خُلِفْنَا تَخَلُّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ^(١).

وفي رواية: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ».

وفي رواية: «وَكَانَ لَا يَقْدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلَّا نَهَارًا فِي الضُّحَى. فَإِذَا قَدِمَ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ رُكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِ».

✽ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: مناقب كعب بن مالك وهي:

(١) حضوره جميع الغزوات التي غزاها النبي، ما عدا غزوة بدر، وغزوة تبوك، ولم يعتب عليه في بدر؛ لأن النبي لم يعزم على الصحابة في الخروج، لأنه ما كان يريد الغزو، وإنما كان يريد غير قريش، وبذلك تكون الغزوة الوحيدة التي تخلف عنها ويُلَامَ عليها هي غزوة تبوك.

(٢) شهوده ليلة العقبة حيث أخذ عليهم العهد والميثاق على الإسلام والجهاد في سبيل الله... وهذه الليلة كانت أعظم عند كعب، من شهوده بدرًا،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

لقوله: (وما أحب أن لي بها مشهد بدر).

(٣) عظيم صدقه، حتى إن كان هذا الصدق ينتقص من قدره ويفضح أمره، ويظهره أكثر تقاعسًا عن شهود الغزو، وذلك علمناه من:

أ- إخباره أنه ما كان في يوم أقدر استطاعة، ولا أيسر حالًا عنه في غزوة تبوك، حتى إنه لأول مرة في حياته يملك راحلتين.

ب- ذكره ما كان من أمره في تأخير وتسويق التجهز للغزو، ولم يذكر أيضًا عذرًا له في ذلك.

ج- اعترافه بين يدي رسول الله، أن تخلفه لم يكن لعذر بل صدقه القول، أنه ما كان قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه في غزوة تبوك.

(٤) إذا كان هذا هو صدق كعب بن مالك، فمن المناسب أن نذكر ما جناه كعب من هذا الصدق، وذلك ليكون دافعًا لنا لتحرى الصدق في حياتنا كلها.

أ- تجنب سخط الرسول ﷺ.

ب- نجاه الله بصدقه من الهلاك مع الذين هلكوا.

ج- أنزل الله عز وجل فيه وفي صاحبيه، قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، أثنى عليهم فيه خير الثناء حيث وصف حزنهم لتخلفهم عن رسول الله.

د- تحريره الصدق ببقية حياته، حتى إنه لا يرى أحدًا من أصحاب الرسول، مع جلالة قدرهم، وعلو منزلتهم، كان مثله في صدق الحديث... يقول كعب: (فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني).

هـ- ذكره الحسن في المسلمين، خاصة أهل العلم والفضل بحسن توبته وصدقه.

(٥) نأخذ من الحديث فقه الصحابي كعب بن مالك، وذلك أنه علم أنه لن يُنجاه بين يدي رسول الله إلا الصدق، وأن الكذب لا ينفع ولا يُغني عن الحق شيئًا.

(٦) كما نأخذ منه أيضًا قوة يقينه بعلم الله بأحوال العباد، وإحاطة سمعه لما يقولون... لقول كعب: (لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ).

(٧) نأخذ من الحديث أيضًا يقينه باتصال النبي الدائم بالله ﷺ وأن الوحي لا ينقطع عنه في كل الأمور كبيرها وصغيرها.

(٨) إجلال كعب للنبي ﷺ وتعظيم قدره، وأنهم كانوا يرون كل أهل الأرض من ملوك ووزراء وكبراء دونه.

(٩) نأخذ من الحديث يقينه بأن النبي ﷺ لا يعلم شيئًا من الغيب، وأن كل الذي نبأ به من أمور الغيب إنما هو بوحي من الله ﷻ.

الفائدة الثانية: حرص النبي ﷺ على تربيته الأمة على العقيدة الصحيحة، والتي منها أن الأمر كله لله، يحكم بما يشاء وكيف يشاء، ومتى شاء، لا مُعقب لحُكمه، ولا رادٍّ لأمره... وذلك من قوله: «فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ».

الفائدة الثالثة: فيه تقدير الصحابة لمن شهد بدرًا، وأنهم كانوا يرونهم قدوة لهم وأُسوة... لقول كعب: (قد ذكروا لي رجلين قد شهدا بدرًا، فمضيت حين ذكروهما لي)، وفيه أن الإنسان يتصبر في مصيبتِه إذا علم أن غيره يشاركه فيها؛ لأن كعبًا أراد أن يعود للنبي ﷺ ويُكذب نفسه، إلا أنه مضى لما علم أن مرارة ابن الربيع وهلال بن أمية قد قال لهما الرسول ﷺ مثل ما قال له.

الفائدة الرابعة: في الحديث ما كان من طاعة الصحابة لنبههم ﷺ: وعدم مخالفته أمره، ويتبين ذلك من:

(١) اجتناب الناس للثلاثة الذين خَلَفُوا، طاعة لأمر رسول الله.

لقول كعب: (فاجتنبنا الناس)، وقوله: (وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد). حتى ابن عمه أحب الناس إليه، أبي قتادة، لم يرد عليه السلام.

(٢) لما أمر الرسول ﷺ الثلاثة الذين خَلَفُوا أن يعتزلوا نساءهم. ولا يقربوهن، استفسر كعب أولاً عن مقصود الرسول ﷺ بالاعتزال، هل يعني الطلاق؟ مخافة أن يكون قصده الطلاق، فلا يبادر به ويتأخر عن الطاعة، فلما علم أنه الاعتزال فقط، أمر امرأته أن تلحق بأهلها.

(٣) في الحديث عظيم أسف وحزن الصحابة على ما يقع منهم من معصية الله ورسوله... يظهر ذلك من قول كعب: (أما صاحبائي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان).

الفائدة الخامسة: وهي فائدة جليلة، تتلخص في أهمية الرأي العام في المجتمع المسلم، وتأثيره على أهل المعاصي، وأن هذا أبلغ بكثير من إيداعهم السجن.

الفائدة السادسة: في الحديث ما عليه الكفار من الحرص على إضلال المسلمين، وتحيين كل فرصة لذلك، حتى لو اصطادوا في الماء العكر.

ويجب علينا أن لا ننخدع بقولهم المعسول، فنكون قد كذبنا الله وصدقناهم، فالله يقول: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١]. فماذا يدفع ملكاً من ملوك الأرض أن يكتب إلى أحد من المسلمين في ظروف كهذه؟ يُذكره بما يلاقيه من جفاء النبي ﷺ له، وهوانه على الناس، ورغبة الملك في اللحاق به فقال له: (فالحق بنا نواسك) ... وما أشبه الليلة بالبارحة، يذهبون لفقراء المسلمين، يُغرونهم بالمال في المجاعات ليرتدوا عن إسلامهم، ويمنحون أوائل الطلاب والنوابغ منهم في العلم، المنح الدراسية المجانية، فيذهب أولاد المسلمين إليهم في عقر دارهم، في سن مبكرة، يتشربون منهم عاداتهم ويأخذون عنهم تقاليدهم، ويرجعون إلى أهلهم بأسوأ حال - إلا من رحم الله -.

الفائدة السابعة: في الحديث ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، من حُبِّ الله ورسوله... يتبين ذلك من خروج كعب إلى مسجد رسول الله ﷺ، ويسلم عليه، ويتمنى في نفسه أن يحرك الرسول شفتيه تحريكاً فقط بردّ السلام، بل ينظر إليه في خفية حُبّاً لرؤية الرسول ﷺ.

الفائدة الثامنة: الثبات على العزيمة والرشد، في أشد الظروف وأحلكها، فهذا ملك غسان يرسل -بنفسه- كتاباً إلى كعب، يُذكره بما هو فيه ويُغريه بما يمكن أن يكون فيه، في وقتٍ قد ضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ، فماذا فعل كعب؟، هل شاور نفسه؟ هل فكر في أمره؟ انظروا ماذا فعل في كتاب ملك غسان، لقد حرقه.

الفائدة التاسعة: في الحديث بيان ما يصيب المؤمن من فرح وسرور من توبة الله عليه... يتبين ذلك مما يلي:

- ١ - سجود كعب بن مالك شُكراً لله لما سمع صوت الصارخ من أعلى الجبل يبشره... وفي ذلك مشروعية سجود الشكر عند نزول النعم، وكذا عند رفع النقم.
- ٢ - سَمِيَ كعب التوبة فرجاً فقال: (وعرفت أن قد جاء الفرج).
- ٣ - إهداء كعب بن مالك ثوبيه، مع أنه لا يملك غيرهما، للذي بشره، واستعار ثوبين غيرهما يخرج بهما.
- ٤ - تصدق كعب بن مالك بكل ماله - إلا سهمه بخير - تعبيراً عن فرحه بتوبة الله عليه، وشكره على ذلك... وكان يريد ابتداءً أن يتصدق بكل ماله، لولا مراجعة الرسول له.

الفائدة العاشرة: على جماعة المسلمين أن يفرحوا بتوبة أخيه المسلم، ورجوعه إلى حظيرة الطاعة، كما رأينا ذلك جلياً في موقف الصحابة من كعب رضي الله عنهم أجمعين^(١).

(١) يتصرف من كتاب (شمائل الرسول ﷺ) / للشيخ أحمد عبد الفتاح الزواوي.

(٢٣) وَعَنْ أَبِي نُجَيْدٍ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ الْخَزَاعِيِّ رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزَّانَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ وَلِيَّهَا فَقَالَ: «أَحْسِنُ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعْتَ فَائِئِنِّي بِهَا» فَفَعَلَ. فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَشَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فُرْجَمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ زَنْتَ، قَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ؟» ^(١).

❦ لقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت حدًا فأقمه علي... أى أصبت ذنبًا يوجب الحد فأقمه علي.
فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فائتني بها» ففعل.
فقوله ﷺ لولي الغامدية: «أحسن إليها فإذا وضعت فائتني بها».
هذا الإحسان له سببان:

أحدهما: الخوف عليها من أقاربها أن تحملهم الغيرة ولحقوق العار بهم أن يؤذوها، فأوصى بالإحسان إليها تحذيرًا لهم من ذلك.
والثاني: أمر به رحمة لها إذ قد تابت، وحرّض على الإحسان إليها لما في نفوس الناس من النفرة من مثلها، وإسماعها الكلام المؤذي ونحو ذلك فنهى عن هذا كله.

فلما وضعت جيء بها فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فُرْجَمَتْ.

وفى هذا استخفاف جمع أثوابها عليها وشدها بحيث لا تنكشف عورتها في تقلبها وتكرار اضطرابها... واتفق العلماء على أنه لا تُرجم إلا قاعدة، وأمّا الرّجل فإنه يُرجم قائمًا ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٩٦) كتاب الحدود.

(٢) مسلم بشرح النووي (١١/٢٩٢) بتصرف.

❁ وفي الرواية الأخرى: فَقَالَ لَهَا: «حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكَ».

فِيهِ: أَنَّهُ لَا تُرْجَمُ الْحُبْلَى حَتَّى تَضَعَ، سَوَاء كَانَ حَمْلُهَا مِنْ زِنَا أَوْ غَيْرِهِ، وَهَذَا مُجْمَع عَلَيْهِ لِئَلَّا يُقْتَلَ جَنِينُهَا، وَكَذَا لَوْ كَانَ حَدَّهَا الْجُلْد وَهِيَ حَامِلٌ لَمْ تُجْلَدْ بِالإِجْمَاعِ حَتَّى تَضَعَ.

وَفِيهِ: أَنَّ الْمَرْأَةَ تُرْجَمُ إِذَا زَنَتْ وَهِيَ مُحْصَنَةٌ كَمَا يُرْجَمُ الرَّجُلُ، وَهَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ مُحْصَنَةً؛ لِأَنَّ الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ وَالْإِجْمَاعَ مُتطَابِقَانِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُرْجَمُ غَيْرُ الْمُحْصَنِ.

وَفِيهِ: أَنَّ مَنْ وَجَبَ عَلَيْهَا قِصَاصٌ وَهِيَ حَامِلٌ لَا يُقْتَصَّ مِنْهَا حَتَّى تَضَعَ، وَهَذَا مُجْمَع عَلَيْهِ، ثُمَّ لَا تُرْجَمُ الْحَامِلُ الزَّانِيَةُ وَلَا يُقْتَصَّ مِنْهَا بَعْدَ وَضْعِهَا حَتَّى تَسْقَى وَلَدَهَا اللَّبَنَ وَيَسْتَغْنَى عَنْهَا بِلَبَنِ غَيْرِهَا.

❁ قَوْلُهُ: (فَكَفَّلَهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّى وَضَعَتْ)

أَيَّ قَامَ بِمُؤَنَّتِهَا وَمَصَالِحِهَا، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الْكَفَالَةِ الَّتِي هِيَ بِمَعْنَى الضَّمَانِ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ فِي الْحُدُودِ الَّتِي لِلَّهِ تَعَالَى^(١).

❁ «ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فُرْجَمَتْ» أَي: بِالْحِجَارَةِ، - وَهِيَ لَيْسَتْ حِجَارَةً كَبِيرَةً وَلَا صَغِيرَةً - حَتَّى مَاتَتْ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَدَعَا لَهَا دُعَاءَ الْمَيِّتِ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تَصَلَّى عَلَيْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ زَنَتْ ... أَي: وَالزَّانِي مِنْ كِبَائِرِ الذَّنُوبِ.

فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ عَلَى سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسَعَتْهُمْ» يَعْنِي تَوْبَةً وَاسِعَةً لَوْ قُسِمَتْ عَلَى سَبْعِينَ كُلَّهُمْ مُذْنِبٌ لَوَسَعَتْهُمْ وَنَفَعَتْهُمْ.

«وَهَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» أَي: هَلْ وَجَدْتَ أَفْضَلَ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ؟ ... امْرَأَةٌ جَاءَتْ فَجَادَتْ بِنَفْسِهَا يَعْنِي: سَلَّمَتْ نَفْسَهَا مِنْ أَجْلِ

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ٢٨٧-٢٨٨) بتصرف.

التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ والخلوص من إثم الزنى. ما هناك أفضل من هذا؟!
 ﴿ففى هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة:

منها: أن الزَّانِي إذا زنى وهو مُحْصَن - يعنى: قد تزوج - فإنه يجب أن يُرْجَم وجوباً... وقد كان هذا فى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ آية قرأها المسلمون وحفظوها ووعوها ونفذوها.

رجم النبى ﷺ ورجم الخلفاء من بعده ولكن الله بحكمته نسخها من القرآن لفظاً وأبقى حكمها فى هذه الأمة. فإذا زنى المحصن - وهو الذى قد تزوج - فإنه يُرْجَم حتى يموت... يوقف فى مكانٍ واسع ويجتمع الناس ويأخذون من الحصى يرمونه به حتى يموت.

وهذه من حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ، أى: أنه لم يأمر الشرع بأن يُذبح بالسيف وينتهى أمره، بل يُرْجَم بهذه الحجارة حتى يتعذب ويذوق ألم العذاب فى مقابل ما وجده من لذة الحرام لأن هذا الزَّانِي تلذذ جميع جسده بالحرام فكان من الحكمة أن ينال هذا الجسد من العذاب بقدر ما نال من اللذة.

ولهذا قال العلماء -رحمهم الله-: إنه لا يجوز أن يُرْجَم بالحجارة الكبيرة لأن الحجارة الكبيرة تُجْهِزُ عليه ويموت سريعاً فيستريح ولا بالصغيرة جداً لأن هذه تؤذيه وتُطِيلُ موته. ولكن بحصى متوسط حتى يذوق الألم ثم يموت.

فإذا قال قائل: أليس قد قال النبى ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»^(١) والقتلة بالسيف أريح للمرجوم من الرجم بالحجارة؟

قلنا: بلى قد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام لكن إحسان القتلة يكون بموافقتها للشرع.

فالرجم إحسان لأنه موافق للشرع، ولذلك لو أن رجلاً جانيًا جنى على

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.

شخص فقتله عمدًا وغرر به قبل أن يقتله فإننا نغرر بهذا الجاني إذا أردنا قتله قبل أن نقتله.

مثلاً لو أن رجلاً جانيًا قتل شخصًا فقطع يديه ثم رجله ثم لسانه ثم رأسه. فإننا لا نقتل الجاني بالسيف!! بل نقطع يديه ثم رجله ثم لسانه ثم نقطع رأسه مثلما فعل... ويُعتبر هذا إحسانًا في القتلة... لأن إحسان القتلة أن يكون موافقًا للشرع على أي وجه كان.

وفي هذا الحديث دليل على جواز إقرار الإنسان على نفسه بالزنى من أجل تطهيره بالحد لا من أجل فضحه نفسه. فالإنسان الذي يتحدث عن نفسه أنه زنى عند الإمام أو نائبه من أجل إقامة الحد عليه هذا لا يُلام ولا يُذم. وأما الإنسان الذي يخبر عن نفسه أنه زنى.. يخبر بذلك عامة الناس فهذا فاضحٌ نفسه وهو من غير المعافين لأن الرسول ﷺ يقول: «كل أمتي مُعافي إلا المُجاهرين» قالوا: مَنْ المُجاهرون؟ قال: «الذي يفعل الذنب ثم يستره الله عليه ثم يصبح يتحدث به»^(١).

إذا قال قائل: هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضي ليُقر عنده فيُقام عليه الحد أو الأفضل أن يستر نفسه؟

فيه تفصيل: قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحًا وندم وعرف من نفسه أنه لن يعود فهذا الأفضل ألا يذهب ولا يخبر عن نفسه بل يجعل الأمر سرًّا بينه وبين الله... ومَنْ تاب تاب الله عليه.

وأما مَنْ خاف ألا تكون توبته نصوحًا وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى فهذا الأفضل في حقّه أن يذهب إلى ولي الأمر - القاضي أو غيره - ليُقر عنده فيُقام عليه الحد^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) (شرح رياض الصالحين) (١/ ٨١-٨٣) بتصرف.

(٢٤) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لَابْنَ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ»^(١).

ففى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ عن آفة الطمع الذى يملأ قلوب أكثر بنى آدم.. وأن ابن آدم لا يشبع من المال والذهب أبداً حتى أنه لو كان يمتلك وادياً من الذهب الصافى.. وذلك الوادى قد يكفى أهل الأرض جميعاً ومع ذلك فهو لا يكتفى بذلك بل يتمنى أن يمتلك واديين من الذهب.

ثم يوضح النبى ﷺ أنه لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.. وذلك إذا مات ودُفن تحت التراب وترك الدنيا بما فيها ففى هذه اللحظة يُدرك حقيقة الدنيا... ومع ذلك فالنبى ﷺ يحث الناس على التوبة من الطمع والجري وراء حُطام الدنيا الفانى... وذلك لأن الطَّمَاع قد لا يحترز عند جمع المال فيجمع الحلال مع الحرام.. فيخبر النبى ﷺ أن دواء ذلك فى التوبة والزهد فى الدنيا والرغبة فيما عند الله (جلّ وعلا).



(٢٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَضْحَكُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسَلِّمُ فَيُسْتَشْهِدُ»^(٢).

فالله ﷻ يضحك إلى رجلين... وسبب ضحك الله (جلّ وعلا) أن هذين الرجلين كان بينهما من العداوة فى الدنيا ما يعجز القلم عن وصفه حتى أن أحدهما قتل الآخر... فيقدر الله ﷻ أن تنقلب تلك العداوة إلى محبة يعجز القلم عن وصفها... فقد قُتل أحدهما ودخل الجنة... وتاب القاتل وأسلم ونال

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٢٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٠) كتاب الإمارة.

الشهادة فدخل الجنة فاجتمعا في الجنة بعد أن نزع الله ما في صدورهما من غلٍّ وملاً قلوبهما بالحب.. ولا عجب في ذلك فقد قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مَُّنْقَلِبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فكان هذا هو وجه العجب من هذين الرجلين.

وفي هذا الحديث دليل على أن الكافر إذا أسلم وتاب من كفره فإن الله يتوب عليه حتى ولو كان قد قتل أحداً من المسلمين قبل أن يتوب فيُسلم.. وذلك لأن الإسلام يهدم ما قبله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣) باب الصبر

✽ ما أعظم الصبر في حياة المسلم... فالصبر عبادة من أعظم العبادات التي نتقرب بها إلى الله ﷻ.

✽ لكن لا بُدَّ أن نعلم أن الصبر ثلاثة أنواع:

(١) الصبر على الطاعة.

(٢) الصبر عن المعصية.

(٣) الصبر على قضاء الله ﷻ.

✽ فاما النوع الأول وهو الصبر على الطاعة... فالواجب علينا أن نحرص على طاعة الله وأن نجاهد أنفسنا في الصبر على الطاعة؛ لأن الطاعة تحتاج إلى صبر... فالمحافظة على الصلوات الخمس وبخاصة صلاة الفجر تحتاج إلى صبر كبير.... والمحافظة على صيام رمضان ثم الاجتهاد في صيام النوافل تحتاج إلى صبر.. وإيتاء الزكاة والحرص على بذل المال دائماً يحتاج إلى صبر... وأداء مناسك الحج بما فيها من مشقة شديدة يحتاج إلى صبر... وحفظ القرآن يحتاج إلى صبر... وهكذا فكل طاعة تحتاج إلى الصبر. وكلما احتاج الأمر إلى الصبر كلما ازداد الثواب والأجر.

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

✽ وأما النوع الثاني: فهو الصبر عن المعصية.

ومما لا شك فيه أن مُجاهدة النفس في البُعد عن المعاصي تحتاج إلى صبر شديد؛ لأن النفس أمارة بالسوء -إلا ما رحم ربي- فهي تُحب الشهوات وتحضُّ صاحبها على الوقوع فيها.

فإن خالف العبد نفسه وشيطانه وهواه فقد انتصر ووصل إلى شاطئ الأمان بفضل الله أولاً ثم بالصبر.

❁ وأما النوع الثالث: فهو الصبر على قضاء الله (جلّ وعلا):

فالحياة لا تخلو أبداً من الابتلاءات والشدائد.. وذلك لأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان... ولن تكون الراحة الكاملة إلا في جنة الرحمن (جلّ وعلا).

قال الحق ﷻ: ﴿الْمَ (١) أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٤].

وقال ﷻ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ» (١).

ولذلك لا بُدَّ أن تعلم أن طريق الجنة هو الصبر.

ولذا قال ﷻ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (٢).

والمكاره لا بد لها من الصبر.

❁ والإنسان عند حلول المصيبة له أربع حالات:

الحال الأولى: أن يتسخط. والحال الثانية: أن يصبر.

والحال الثالثة: أن يرضى. والحال الرابعة: أن يشكر.

هذه أربع حالات تكون للإنسان عندما يُصاب بالمصيبة.

أما الحال الأولى: أن يتسخط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه.

التسخط بالقلب أن يكون في قلبه شيء على ربه من السخط والشره على الله

والعياذ بالله وما أشبهه... ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة.

وأما باللسان فإن يدعو بالويل والثبور... يا ويلاه يا ثبوره، وأن يسب

الدَّهْرَ فيؤذي الله ﷻ وما أشبهه... كما قال تعالى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ

الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلُبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» (٣).

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٤٥) كتاب المرضى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٨٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٢٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب.

التسخط بالجوارح مثل أن يلطم خدّه أو يصفع رأسه أو يتنف شعره أو يشق ثوبه وما أشبه هذا.

هذا حال السخط ... حال الهلعين الذين حُرِّموا من الثواب ولم ينجوا من المصيبة بل الذين اكتسبوا الإثم، فصار عندهم مصيبتان: مصيبة في الدين بالسخط، ومصيبة في الدنيا لما أتاهم ما يؤلمهم.

أما الحال الثانية: فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه ... فهو يكره المصيبة ولا يحبها ولا يحب أنها وقعت لكن يُصبر نفسه ولا يتحدث باللسان بما يُسخط الله ولا يفعل بجوارحه ما يُغضب الله ولا يكون في قلبه على الله شيء أبداً ... صابر لكنه كارهٌ لها.

والحال الثالثة: الرضى بأن يكون الإنسان منشراحاً صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاءً تاماً وكأنه لم يُصَب بها.

والحال الرابعة: الشكر فيشكر الله عليها ... وكان الرسول ﷺ إذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال.

فيشكر الله من أجل أن الله يُرتب له من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه.

ولهذا يُذكر عن بعض العابدات أنها أُصيبت في أصبعها فقطعت فحمدت الله على ذلك فقالوا لها: كيف تحمدين الله والأصبع قد أصابه ما أصابه؟! قالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها^(١).

❀ قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

لقد أمر الله المؤمنين بتلك الأوامر الأربعة: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٨٥) بتصرف.

واختلف تفسير أهل العلم لتلك الأوامر الأربعة فمنهم مَنْ قال: الصبر عن المعصية والمصابرة على الطاعة والمرابطة كثرة الخير وتتابع الخير والتقوى تُعْمُ ذلك كله.

✽ وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَةِ:

حَضَّ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى الْفَلَاحِ - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وَأَنَّ الطَّرِيقَ الْمَوْصِلَ إِلَى ذَلِكَ لَزُومُ الصَّبْرِ، الَّذِي هُوَ حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُهُ، مِنْ تَرْكِ الْمَعَاصِي، وَمِنْ الصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَعَلَى الْأَوَامِرِ الثَّقِيلَةِ عَلَى النَّفُوسِ، فَأَمَرَهُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ. والمصابرة أى الملازمة والاستمرار على ذلك، على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة: وهى لزوم المحل الذى يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم. لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحسوب الدينى والدينى والأخروى، وينجون من المكروه كذلك.

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى الْفَلَاحِ بِدُونِ الصَّبْرِ وَالْمَصَابِرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ الْمَذْكُورَاتِ، فَلَمْ يُفْلَحْ مَنْ أَفْلَحَ إِلَّا بِهَا، وَلَمْ يَفُتْ أَحَدًا الْفَلَاحُ إِلَّا بِالْإِخْلَالِ بِهَا أَوْ بِبَعْضِهَا^(١).

✽ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أخبر تعالى أنه لا بد أن يبتلى عباده بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ؛ لِأَنَّ السَّرَّاءَ لَوْ اسْتَمَرَّتْ لِأَهْلِ

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ (ص ١٦٢).

الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد... وحكمة الله تقتضى تمييز أهل الخير من أهل الشر.

فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلى عباده ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ أى: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله، أو الجوع، لهلكوا... والمحنُ تُمحّص ولا تُهلك.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال... من الملوك الظلمة، وقُطاع الطريق وغير ذلك. ﴿وَالْأَنفُسِ﴾ أى: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض فى بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أى: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه.

فهذه الأمور، لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير، أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين.

فالجازع حصلت له المصيبتان: فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامتنال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط، قولاً وفعلاً واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التى حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة فى حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خيرٌ له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله، وفاز بالثواب... فلهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أى: بشرهم بأنهم يُوفَّون أجرهم بغير حساب... فالصابرون، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة^(١).

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى (ص/ ٧٢-٧٣).

﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

وهذا عام في جميع أنواع الصبر... الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها... والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها... فوعده الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أى: بغير حَدٍّ ولا عَدٍّ ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومَحِلُّهُ عند الله، وأنه مُعِينٌ على كل الأمور.

﴿ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿ وَغَفَرَ ﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أى: لمن الأمور التى حَثَّ الله عليها وأكَّدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحظوظ العظيمة، ومن الأمور التى لا يُوفَّقُ لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن تَرَكَ الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شىء عليها... والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على مَنْ يَسِّرُهُ الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذُّذ فيه^(١).

وفي هذه الآية حثٌّ على صبر الإنسان على أذية الناس ومغفرته لهم ما أساءوا إليه... ولكن ينبغى أن تعلم أن المغفرة لمن أساء إليك ليست محموداً على الإطلاق فإن الله قيَّد هذا بأن يكون العفو مقروناً بالإصلاح فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. أما إذا لم يكن فى العفو والمغفرة إصلاح فلا تعفُ ولا تغفر.

مثاله: لو كان الذى أساء إليك شخصاً معروفاً بالشر والفساد وأنك لو عفوت عنه لكان فى ذلك زيادة فى شره. ففى هذه الحال الأفضل ألا تعفو عنه بل

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى (ص ٩٠١).

تأخذ بحقك من أجل الإصلاح، أما إذا كان الشخص إذا عفوت عنه لم يترتب على العفو عنه مفسدة فإن العفو أفضل وأحسن لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وإذا كان أجرك على الله كان خيراً لك من أن يكون ذلك بمعاوضة تأخذ من أعمال صاحبك الصالحة.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

[البقرة: ١٥٣].

أمر الله تعالى المؤمنين، بالاستعانة على أمورهم الدينية والدينية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره.

فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها... فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر.

فأنت إذا أصبت بشيء يحتاج إلى صبر فاصبر وتحمل «وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّابِرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(١).

وأما الصلاة فإنها تُعين على الأمور الدينية والدينية حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر عنه أنه «إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَنَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»^(٢).

وبيّن الله في كتابه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر... فإذا استعان الإنسان بالصلاة على أمره يسّر الله له ذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربّه... فيقف الإنسان فيها بين يدي الله ويناجيه ويدعوه ويتقرب إليه بأنواع القربات التي تكون في هذه الصلاة فكانت سبباً للمعونة.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يعني بذلك: كلمة المعية الخاصة لأن معية الله

سبحانه تنقسم إلى قسمين:

(١) صحيح: رواه أحمد، والخطيب البغدادي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٦).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(١) معية عامة شاملة لكل أحدٍ وهى المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. وفى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وهذه المعية العامة شاملة لجميع الخلق ... فما من مخلوق إلا والله معه يعلمه ويحيط به سلطاناً وقدرة وسمعاً وبصراً وغير ذلك.

(٢) أما المعية الخاصة فهى المعية التى تقتضى النصر والتأييد ... وهذه خاصة بالرسل وأتباعهم ليست لكل أحدٍ، ف﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

و﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ... وفى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ دليل على أنه مُعانٍ من قبل الله، وأن الله يُعين الصابر ويؤيده ويكلّؤه حتى يتم له الصبر على ما يحبه الله عز وجل.

﴿وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

[محمد: ٣١].

لنبلونكم: لنختبرنكم ... فالابتلاء بمعنى الاختبار.

يعنى أن الله اختبر العباد فى فرض الجهاد عليهم ليعلم من يصبر ومن لا يصبر ولهذا قال الله فى آية أخرى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هَلَهُمْ [محمد: ٤-٦].

وقوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ﴾ قد يتوهم بعض من قَصُرَ علمه أن الله سبحانه لا يعلم الشئ حتى يقع وهذا غير صحيح ... فالله يعلم الأشياء قبل وقوعها كما قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وَمَنْ ادَّعى أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ بِالشَّيْءِ إِلَّا بَعْدَ وَقْعِهِ فَإِنَّهُ مَكْذُوبٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ عَلِمَ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ!!

لكن العلم الذى فى هذه الآية ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ﴾ هو العلم الذى يترتب عليه الثواب أو العقاب؛ لأن علم الله بالشىء قبل أن يكون لا يترتب عليه شىء من جهة فعل العبد لأن العبد لم يُبَلَّ به حتى يتبين الأمر، فإذا اختبر به العبد حينئذ يتبين أنه استحق الثواب أو العقاب فيكون المراد بقوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهَدِينَ﴾ أى: علماً يترتب عليه الجزاء.

وقوله: ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ أى: الذين يصبرون على ما كُلفوا به من الجهاد ويحملونه ويقومون به.

وقوله: ﴿وَبَلَّغُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ أى: نخبرها وتبين لنا وتظهر لنا ظهوراً يترتب عليه الثواب والعقاب^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦) وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْحَارِثِ بْنِ عَاصِمٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا»^(٢).

﴿الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ﴾.

الطُّهُورُ: يعنى بذلك طهارة الإنسان.

شَطْرُ الْإِيمَانِ: نصف الإيمان.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/٨٨-٩٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

وذلك لأن الإيمان تخلية وتحلية.

قيل في قوله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ» يشمل طهور الماء، والتميم، وطهارة القلب من الشرك والشك والغل والحقد على المسلمين، وغير ذلك مما يجب التطهر منه فهو يشمل الطهارة الحسية والمعنوية... «شَطْرُ الْإِيمَانِ»: نصفه، والنصف الثاني هو التحلّي بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة؛ لأن كل شيء لا يتم إلا بتنقيته من الشوائب وتكميله بالفضائل... فالتكميل بالفضائل نصف، والتنقية من الرذائل نصف آخر، ولهذا قال: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ» وأما شرطه الثاني فهو التكميل بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة.

وقيل في معناه: إنما كان كذلك لأن الإيمان يُطهر نجاسة الباطن... والوضوء يطهر نجاسة الظاهر... ويُحتمل أن المراد الترغيب في إكمال الوضوء وتعظيم ثوابه حتى كأنه بلغ إلى نصف ثواب الإيمان... والله سبحانه وتعالى أعلم.

وتظهر أهمية الوضوء في: أن طهارة الظاهر أمانة لطهارة الباطن؛ إذ الظاهر عنوانه... فكما أن طهارة الظاهر ترفع الخَبَث والحدث فكذا طهارة الباطن في التوبة تفتح باب السلوك للسائرين إليه سبحانه وتعالى ولهذا جمعهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد اشتهر أن مَنْ أراد الوفود إلى العظماء يتحرى تطهير ظاهره من الدنس ولبس الثياب النقية الفاخرة... فوافد مالك الملوك ذي العزة والجبروت أولى^(١).

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ﴾. والحمد لله: هو الثناء على الله بالجميل الاختياري والإذعان له والرضا بقضائه.

والميزان: المراد منه حقيقته: أي ما تُوزَن به الأعمال؛ إما بأن تُجَسَّم الأعمال أو تُوزَن صحائفها، فتطيش بالسيئة وتثقل بالحسنة.

(١) ابن الإسلام (ص: ٦١).

وهذه الكلمة كان لها هذا الثواب العظيم بحيث تملأ كفة الميزان مع سعتها، لأن معاني الباقيات الصالحات في ضمنها... لأن الثناء تارة يكون بإثبات الكمال، وتارة بنفى النقص، وتارة بالاعتراف بالعجز، وتارة بالتفرد بأعلى المراتب... والألف واللام في الحمد لاستغراق جنس المدح.

والحمد مما علمناه وجهلناه، وإنما يستحق الإلهية مَنْ اتصف بذلك، فاندرج الجميع تحت «الحمد لله».

❦ وقوله: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنَّ - أَوْ قَالَ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

أى أن «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَنَّ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»... وذلك لأن كلمة (سبحان الله) مشتملة على تنزيه الخالق (جلّ وعلا) من كل نقص.. وكلمة (الحمد لله) مشتملة على وصف الله بكل كمال... ولذا فقد جمعت هاتان الكلمتان بين التخلية والتحلية.

فالتسبيح: تنزيه الله عما لا يليق به في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه. فالله مُنَزَّه عن كل عيب في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه... لا تجد في أسمائه اسماً يشتمل على نقصٍ أو على عيبٍ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالله عَزَّوَجَلَّ له الوصف الأكمل الأعلى من جميع الوجوه، وله الكمال المنزه عن كل عيب في أفعاله... كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ [الدخان: ٣٨]. فليس في خلق الله لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنَّمَا هُوَ خَلَقَ مَبْنًى عَلَى الْحِكْمَةِ.

كذلك أحكامه لا تجد فيها عَيْباً وَلَا نَقْصاً كما قال الله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

والله عَزَّوَجَلَّ يُحَمَّدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يُسَرُّ به قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أصابه سوى ذلك قال: «الحمد لله على كُلِّ حَالٍ»^{(١)(٢)}.

❁ قوله ﷺ: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ».

فهى نورٌ للعبد فى قلبه وفى وجهه وفى حياته وفى قبره ويوم القيامة.. وأكثر الناس نورًا أكثرهم صلاةً وأشدهم خشوعًا فيها.

وقيل معناها: أنها تمنع من المعاصى وتتهى عن الفحشاء والمنكر وتهدى إلى الصواب كما أن النور يُستضاء به... وقيل معناها أن يكون أجرها نورًا لصاحبها يوم القيامة... وقيل لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف وانسراح القلب ومكاشفات الحقائق لفراغ القلب فيها وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه... وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَسْعَيْنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾... وقيل معناها أنها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة ويكون فى الدنيا أيضًا على وجهه البهاء بخلاف مَنْ لم يُصَلِّ^(٣).

❁ وقوله ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ».

فهى برهانٌ على إيمان العبد وبقينه فيما عند الله.. وذلك لأن المال محبوبٌ إلى النفس.. والنفس فى أغلب أحوالها تكون شحيحةً بالمال.. فإذا بذل الإنسان ماله لله فإن ذلك يكون برهانًا على إيمانه وبقينه وحبه لله؛ لأن الإنسان لا يبذل ما يُحب إلا لما هو أحب إليه منه.

❁ وقوله ﷺ: «وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ».

أى: فيه نور... لكنه نور مع حرارة كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

(١) صحيح: رواه الحاكم وابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٩٢/١) بتصرف.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٢٧/٣).

فَالضَّوءُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ حَرَارَةٍ وَهَكَذَا الصَّبْرُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ حَرَارَةٍ وَتَعَبٍ لِأَن فِيهِ مَشَقَّةٌ كَبِيرَةٌ وَلِهَذَا كَانَ أَجْرُهُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

فَالْفَرْقُ بَيْنَ النُّورِ فِي الصَّلَاةِ وَالضِّيَاءِ فِي الصَّبْرِ، أَنَّ الضِّيَاءَ فِي الصَّبْرِ مَصْحُوبٌ بِحَرَارَةٍ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّعَبِ الْقَلْبِيِّ وَالْبَدْنِيِّ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ. ❀ وَقَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ».

فَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ.. فَإِذَا كَانَ يُكُونُ حُجَّةً لَكَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ وَتَدَبَّرْتَهُ وَعَمَلْتَ بِمَا فِيهِ وَتَحَاكَمْتَ إِلَيْهِ وَقَمْتَ بِوَأَجِبَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مِنْ: التَّصَدِيقِ بِالْأَخْبَارِ، وَامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَتَعْظِيمِ هَذَا الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَاحْتِرَامِهِ. فَفِي هَذِهِ الْحَالِ يُكُونُ حُجَّةً لَكَ.

وَإِذَا كَانَ يُكُونُ الْقُرْآنُ حُجَّةً عَلَيْكَ إِذَا هَجَرْتَهُ هَجْرَ تَلَاوَةٍ وَتَدَبُّرٍ وَعَمَلٍ وَتَحَاكُمٍ وَلَمْ تَقُمْ بِوَأَجِبَ هَذَا الْقُرْآنَ مِنَ التَّصَدِيقِ بِالْأَخْبَارِ وَامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي وَتَعْظِيمِ الْقُرْآنَ وَاحْتِرَامِهِ.

❀ وَأَمَّا قَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُؤَبِّقُهَا».

فَمَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَسْعَى بِنَفْسِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيعُهَا لِلَّهِ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ فَيُعْتِقُهَا مِنَ الْعَذَابِ... وَمِنْهُمْ مَنْ يَبِيعُهَا لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَى بِاتِّبَاعِهِمَا فَيُؤَبِّقُهَا أَيْ: يُهْلِكُهَا.

❀ وَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَيْ: كُلُّ النَّاسِ يَبْدَأُ يَوْمَهُ مِنَ الْغَدْوَةِ بِالْعَمَلِ وَهَذَا شَيْءٌ مُشَاهِدٌ.

فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فَهَذَا النَّوْمُ الَّذِي يُكُونُ فِي اللَّيْلِ هُوَ وَفَاةٌ صَغْرَى تَهْدَأُ فِيهِ الْأَعْصَابُ، وَيَسْتَرِيحُ فِيهِ الْبَدَنُ وَيَسْتَجِدُّ نَشَاطَهُ لِلْعَمَلِ الْمَقْبَلِ وَيَسْتَرِيحُ مِنَ الْعَمَلِ الْمَاضِي.

فَإِذَا كَانَ الصَّبَاحُ وَهُوَ الْغَدْوَةُ سَارَ النَّاسُ وَاتَّجَهُوا.. كُلُّ لِعَمَلِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ

يتجه إلى الخير وهم المسلمون ومنهم من يتجه إلى الشر وهم الكفار والعياذ بالله.

المسلم أول ما يغدو يتوضأ ويتطهر «والطهور شرط الإيمان» كما في هذا الحديث ثم يذهب فيصلّى فيبدأ يومه بعبادة الله عزّ وجلّ، بل يفتتحه بالتوحيد لأنه يُشرع للإنسان إذا استيقظ من نومه أن يذكر الله عزّ وجلّ وأن يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ إلى آخر السورة [آل عمران: ١٩٠-٢٠٠].

هذا المسلم.. هذا الذي يغدو في الحقيقة بائع نفسه لكن هل باعها بيعاً يعتقها فيه؟! نعم.

نعم. المسلم باعها بيعاً يعتقها فيه.

والكافر يغدو إلى العمل الذي فيه الهلاك ... لأن معنى «أوبقها» أى: أهلكها؛ وذلك أن الكافر يبدأ يومه بمعصية الله^(١).

بِأَمْرِ اللَّهِ

(٢٧) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ: «مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعَفِّهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(٢).

✽ لقد كان النبي ﷺ أجود الناس وأكرمهم.. فلقد كان ﷺ أجود من الريح المرسلة.. وكان لا يسأله أحدٌ إلا أعطاه... وما عهد عن النبي ﷺ أنه منع سائلاً أبداً بل كان يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر أبداً.. مع أنه ﷺ كان يعيش حياة

(١) شرح رياض الصالحين (٩٤/١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة.

الفقراء وينام على الحصير حتى يُؤثّر في جنبه الشريف ويربط على بطنه حجراً من شدة الجوع وكان لا يشبع ثلاثة أيام من ردىء التمر ولا من خبز الشعير.. وكان يمر عليه هو وأزواجه الهلال تلو الهلال تلو الهلال.. ثلاثة أهلة في شهرين مُتتابعين ولا يُوقد في أبياته نار.

❁ وفي هذا الحديث جاء ناسٌ من الأنصار فسألوا النبي ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده ﷺ.. فلما نفذ ما عنده قال لهم: « مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرُهُ عَنْكُمْ » أى: لا يمكن أن أُمْنَعْ عنكم أى خير عندي.. ثم حَثَّهم النبي ﷺ على الاستعفاف والاستغناء والصبر فقال لهم ﷺ: « وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ. وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ ».

❁ فهذه ثلاثة أمور:

أولاً: « وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ ».. فمن يستغفِر عن أكل الحرام يُعْفِهِ الله.. ومن يستغفِر عن النظر إلى النساء وعن التطلُّع إلى فعل الفواحش يُعْفِهِ الله ويرزقه زوجةً صالحةً طيبةً في الحلال.. ومن يستغفِر عن سؤال الناس يُعْفِهِ الله (جلَّ وعلا)... ولذا جاءت الوصية الغالية من النبي ﷺ: « إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ... ».

ثانياً: « وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ».. أى: مَنْ يَسْتَغْنِ بما عند الله ﷻ فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيهِ عما في أيدي الناس.. أما مَنْ يَسْأَلُ الناس ولا يسأل الله فإنه يظل فقير النفس والقلب ولو كان يملك الدنيا كلها.. ولذلك لما جاء الرجل إلى النبي ﷺ وسأله قائلاً: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلْتُهُ أَحْبَبَنِي اللَّهُ، وَأَحْبَبَنِي النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ »^(١).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٩٢٢).

ثالثاً: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ» أى: يرزقه الله الصبر... فَمَنْ حَبَسَ نَفْسَهُ عَنْ سُؤَالِ النَّاسِ، وَصَبَرَ عَلَى مَا أَصَابَهُ فِي الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ وَلَمْ يَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئاً.. وَحَبَسَ نَفْسَهُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُصَبِّرُهُ وَيُعِينُهُ عَلَى الصَّبْرِ.

ثم قال الرسول ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» أى: ما مَنَّ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ بِعَطَاءٍ مِنْ رِزْقٍ أَوْ غَيْرِهِ خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ.

لأن الإنسان إذا كان صبوراً فإنه يصبر على الطاعة ويداوم عليها.. ويصبر عن كل المعاصي ويتعد عنها.. ويصبر على القضاء والقدر وعلى كل بلاء يُصِيبُهُ.. ويتحمل كل شيء في سبيل الله ولا يتسخط أبداً..

فإذا كان الإنسان قد مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِنِعْمَةِ الصَّبْرِ فَقَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ أَكْثَرَ عَطَاءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كُلِّهَا... وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨) وَعَنْ أَبِي يَحْيَى صُهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

فالنبي ﷺ في هذا الحديث يُظهر العجب من حال المؤمن على وجه الاستحسان.. وكأنه يقول: إن شأن المؤمن كله إلى خير.. ثم فصل ووضح بعد ذلك فقال ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» فالناس يعيشون بين السراء والضراء.

فعند السراء ينقسمون إلى قسمين:

فمنهم مَنْ إذا أَصَابَتْهُ السَّراءُ مِنْ نِعْمَةٍ دِينِيَّةٍ كَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَوْ نِعْمَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ كَالْمَالِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنْصِبِ وَالْجَاهِ تَجَدَّدَ شَاكِرًا لِلَّهِ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ.. مُسْتَعْمِلًا تِلْكَ النِّعْمَةَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٩) كتاب الزهد والرفائق.

ومنهم مَنْ إذا أصابته السراء من نعمة دنيوية فإنه يُصاب بالكبر والبطر بل ويستعمل تلك النعمة في معصية الله عزَّ وجلَّ.

❁ ومنهم مَنْ إذا أصابته الضراء صبر على أقدار الله وأحسن الظن بالله، وانتظر الفرج واحتسب الأجر على الله فكان ذلك خيرًا له؛ لأنه ينال بذلك ثواب الصابرين.

ومنهم مَنْ إذا أصابته الضراء لم يصبر بل تسخَّط على أقدار الله وسبَّ الدهر وسبَّ الزمن فباء بسخط الله وعقابه.

فالمؤمن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه... يعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء فلن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء فلن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه رُفعت الأفلام وجفت الصحف... فلماذا الاعتراض والتسخط على أقدار الله - جل وعلا -؟!

سأل أحد المرضى بالهواجس والهموم طبيبَ القلق والاضطراب، فقال له الطبيب المسلم: اعلم أن العالم قد فرغ من خلقه وتدييره، ولا يقع فيه حركة ولا همس إلا بإذن الله، فلمَ الهمُّ والغمُّ؟! «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(١).

❁ وفي هذا الحديث: الحثُّ على الإيمان وأن المؤمن دائمًا في خيرٍ ونعمة. وفيه الحثُّ على الصبر على الضراء وأن ذلك من خصال المؤمنين. فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا مُحْتَسِبًا تنتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى وتحسب الأجر على الله فذلك عنوان الإيمان، وإن رأيت بالعكس فلمَ نفسك وعدل مسيرك وتب إلى الله.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

وفي هذا الحديث: الحث على الشكر عند السَّراء لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق الله له وهو من أسباب زيادة النعم ...

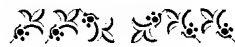
كما قال الله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإذا وفق الله العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثانية، فإذا وفق
فهى نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة ... وهكذا لأن الشُّكر قَلَّ مَنْ يقوم به فإذا
مَنَّ الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة.

ولهذا قال بعضهم:

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة
فكيف بُلُوغُ الشُّكْرِ إلا بفضلِهِ

علىَّ له فى مثْلِها يَحِبُّ الشُّكْرُ
وإن طالت الأيام واتصل العمرُ^(١)



(٢٩) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَإِكْرَبَ أَبْتَاهُ، فَقَالَ: «لَيْسَ عَلَيَّ أَبِيكَ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ» فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبْتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبْتَاهُ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ مَاوَاهُ، يَا أَبْتَاهُ إِلَى جَبْرِيلَ نَنَعَاهُ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ؟» (٢).

لا شك أن موت النبي ﷺ هو أعظم مصيبة أصيب بها المسلمون ولذلك قال ﷺ: «إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ، فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ»^(٣).

❁ قال صاحب كتاب (تسلياة أهل المصائب):

ومن أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٩٧-٩٨) بتصرف.

(۲) صحیح: رواہ البخاری (۴۴۶۲) کتاب المغازی.

(٣) رواه البيهقي في الشعب، والطبراني، وابن عدي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧).

مصيبة يُصاب بها المسلم... لأن بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد الذين ارتدوا عن الدين من الأعراب... فهذا أول انقطاع عرى الدين ونقصانه وغير ذلك من الأمور التي لا تُحصى.

❁ قال أبو العتاهية مُسلياً بعض إخوانه في موت ولدٍ له اسمه محمد:

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلّد

واعلم بأن المرء غير مُخلّد

أو ما ترى أن المصائب جمّة

وترى المنية للعباد بمرصد

من لم يُصب ممن ترى بمصيبةٍ

هذا سبيلٌ لست فيه بأوحد

فإذا ذكرت محمداً ومصابه

فاذكر مصابك بالنبى محمد^(١)

وفي هذا الحديث يذكر أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ لما كان في سكرات الموت جعل يتغشاها الكرب... أى من شدة ما يُصيبه لأنه ﷺ كان يُوعك كما يُوعك الرجال من الناس وذلك من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ومن أجل أن يكون أسوة وقدوة للناس في كل أحوالهم في السراء والضراء.

فقال فاطمة ابنته رضي الله عنها: «واكرب أبتاه» فهى تتوجع وتتألم من أجل أبيها رسول الله ﷺ.. وإذا بالحبيب ﷺ يقول لها: «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم»

(١) «مختصر تسليّة أهل المصائب» لأبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد المنبجى الحنبلى / اختصار وتحقيق محمود المصري (ص: ١٧).

لأنه سينتقل من بلاء الدنيا وأحزانها وآلامها إلى جوار الرحمن الرحيم في الرفيق الأعلى.. ولذا كان ﷺ يقول وهو في سكرات الموت: «اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى»، وينظر إلى سقف البيت.

فلما توفى النبي ﷺ جعلت فاطمة (رضي الله عنها) تندبه ندبًا خفيفًا لا يدل على التسخط من قضاء الله وقدره.

فجعلت تقول: «يا أبتاه أجب ربًّا دعاه»؛ لأن الله هو الذي بيده ملكوت كل شيء، آجال الخلق بيده، تصرف الخلق بيده، كل شيء إلى الله. إلى الله المنتهى وإليه الرجعى.

فأجاب داعى الله وهو أنه ﷺ إذا توفى صار كغيره من المؤمنين يُصعد برُّوحه حتى توقف بين يدي الله عز وجل فوق السماء السابعة.

ثم قالت: «يا أبتاه جنة الفردوس مأواه» وذلك لأن النبي ﷺ أعلى الخلق منزلة ومكانة في الجنة... فله درجة في الجنة لا تكون لغيره ﷺ وهى درجة (الوسيلة) كما قال الرسول ﷺ: «اسألوا لى الوسيلة فإنها أعلى درجة في الجنة ولا تكون إلا لعبيد من عباد الله فأرجو أن أكون أنا هو». ولا شك أن الرسول ﷺ مأواه جنة الفردوس، وجنة الفردوس هى أعلى درجات الجنة، وسقفها الذى فوقها عرش الرب عز وجل، والرسول عليه الصلاة والسلام فى أعلى درجة منها.

ثم قالت: «يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».. والنعى هو الإخبار بموت الميت.. وكأنها تقول: إننا ننعاه إلى جبريل؛ لأنه هو الذى كان يأتيه بالوحى من السماء.. فإذا كان النبي ﷺ قد مات فقد انقطع الوحى من السماء، وانقطع نزول جبريل بالوحى مرة أخرى.

فلما دُفن النبي ﷺ قالت فاطمة (رضي الله عنها): «أطابت نفوسكم أن تحشوا على رسول الله ﷺ التراب؟».

وذلك من شدة حزنها ووجدتها على موت النبي ﷺ وهي تعرف كيف كانت محبة الصحابة للنبي ﷺ...

والجواب: أنها طابت لأن هذا أمر الله وتلك إرادة الله وشرعه.. ولو كان النبي ﷺ يُفدى بكنوز الأرض كلها لفداه الصحابة ﷺ ولكن الله عز وجل هو الذى قال للنبي ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].. وهو الذى قال للنبي ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ أَلْحُدَّ أَفْئِينَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴿[الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

✽ قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: لما توفى ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دُهِش فخلوط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بُعث إليه^(١).

✽ وفي هذا الحديث بيان أن رسول الله ﷺ كغيره من البشر يمرض ويجوع ويعطش ويبرد ويحتر، وجميع الأمور البشرية تعترى النبي ﷺ كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون»^(٢).

وفيه: ردٌّ على هؤلاء القوم الذين يُشركون بالرسول ﷺ.

يَدْعُونَ الرِّسُولَ وَيَسْتَعِثُّونَ بِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُم وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ لَا يَسْأَلُ اللَّهَ وَيَسْأَلُ الرِّسُولَ! كَأَنَّ الَّذِي يَجِيبُ هُوَ الرِّسُولُ... وَلَقَدْ ضَلُّوا فِي دِينِهِمْ وَسَفَّهُوا فِي عَقُولِهِمْ، فَإِنَّ الرِّسُولَ ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا فَكَيْفَ يَمْلِكُ لغيره. قال تعالى أمراً نبياً ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

(١) لطائف المعارف (ص: ١١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٧٢) كتاب المساجد.

❁ وفي هذا الحديث إرادة الله - سبحانه وتعالى - الخير بالنبي ﷺ وذلك أنه يضاعف عليه شدة الألم، سواء في المرض أو في سكرات الموت، ليضاعف له الأجر يوم القيامة.

يتفرع على ذلك: أن نعلم أن من مقتضيات حكمة الله ﷻ ربط الأسباب بالمسببات... فربط الأجر بالعمل، حتى مع الأنبياء وهم أحب الخلق إليه، وكان من الممكن أن يجازي الأنبياء بالأجر العظيم دون أن يضاعف عليهم شدة المرض وشدة سكرات الموت... فعلى المسلم أن يصبر ويسترجع في كل ما يلاقه في دُنياه، من مصائب وكرب وفتن وأمراض، فلعل الله ﷻ يريد أن يرفع درجته في الآخرة... وقد بينت ذلك في أكثر من موضع.

❁ وفيه: ما يجب أن يكون عليه المسلم من حسن الظن بالله عند الموت، وأن يُغلب الرجاء على الخوف... لقول النبي ﷺ: «ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم»، وعلى المسلم أن يتذكر في ذلك الوقت، ما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: أنا عند ظنّ عبدي بي».

❁ وفيه: تعظيم الرسول ﷺ في نفوس الصحابة رضي الله عنهم حيث قالت فاطمة رضي الله عنها لأنس رضي الله عنه: «يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب» فبرغم أن هذا الأمر ضروري، بل هي سنة النبي ﷺ عند الدفن، إلا أنها استعظمت أن يقوم الصحابة بفعل يخالف في ظاهره المحبة والتعظيم.

❁ وفيه: جواز نعي الميت بما هو أهله، وليس هذا من النياحة.. لقول فاطمة رضي الله عنها: «يا أبتاه أجب ربًّا دعاه يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه يا أبتاه إلى جبريل ننعاه». ولكن ينبغي على المسلم، ألا يذكر في نعيه لميت، أنه في جنة الفردوس^(١)، أو أنه مغفور له... أو غير ذلك حتى لا نتألى على الله.. وإنما عليك أنت ومن معك بكثرة الدعاء للميت بالرحمة والمغفرة والتثبيت والفوز بالجنة والرضوان.

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٤٠٩-٤١٠) بتصرف.

(٣٠) وَعَنْ أَبِي زَيْدٍ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ حَارِثَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحِبِّهِ وَابْنِ حَبِّهِ ﷺ قَالَ: أَرْسَلْتُ بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ ابْنِي قَدْ احْتَضَرَ فَأَشْهَدُنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ» فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنَهَا. فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالُ ﷺ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ، فَأَقْعَدَهُ فِي حَجْرِهِ وَنَفْسُهُ تَقْعَقُعُ، فَقَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ».

وفى رواية: «فِي قُلُوبٍ مِّنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرَحِمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»^(١).
كان زيد بن حارثة قد اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ وأهداه لعمته خديجة بنت خويلد ﷺ.. فلما تزوجها النبي ﷺ ورأت حبه لزيد ابن حارثة وهبته للنبي ﷺ فكان يُسَمَّى حِبَّ النَّبِيِّ ﷺ.. ولما تزوج زيد وأنجب أسامة كان أسامة يُسَمَّى الحِبِّ ابْنِ الحِبِّ.

وهنا يذكر أسامة أن إحدى بنات الرسول ﷺ أرسلت إليه رسولا تقول له: إن ابنها قد احتضر أي حضره الموت، وأنها تطلب من الرسول ﷺ أن يحضر، فبلغ الرسول ﷺ رسول الله ﷺ فقال له: «مُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

أمر الرسول ﷺ الرسول بهذا!!

قوله: «فَلْتَصْبِرْ» أي: فلتحبس نفسها عن السخط وتحمل المصيبة.
وقوله: «وَلْتَحْتَسِبْ» أي: تحتسب الأجر على الله بصبرها لأن من الناس من يصبر ولا يحتسب.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.
وَمَعْنَى «تَقْعَقُعُ»: تَتَحَرَّكُ وَتَضْطَرِبُ.

يصبر على المصيبة ولا يتصجر، لكنه ما يؤمل أجرها على الله فيفوته بذلك خير كثير ... لكن إذا صبر واحتسب الأجر على الله فهذا هو الاحتساب.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى». معناه الْحَثُّ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّسْلِيمِ لِقَضَاءِ اللَّهِ ... وَتَقْدِيرِهِ إِنَّ هَذَا الَّذِي أَخَذَ مِنْكُمْ كَانَ لَهُ لَا لَكُمْ فَلَمْ يَأْخُذْ إِلَّا مَا هُوَ لَهُ فَيَنْبَغِي أَلَّا تَجْزَعُوا كَمَا لَا يَجْزَعُ مَنْ اسْتُرِدَّتْ مِنْهُ وَدِيعَةٌ أَوْ عَارِيَةٌ.

وقوله ﷺ: «وَلَهُ مَا أُعْطِيَ» معناه أَنَّ مَا وَهَبَهُ لَكُمْ لَيْسَ خَارِجًا عَنْ مِلْكِهِ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ.

✽ وقوله ﷺ: «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى».

معناه اصْبِرُوا وَلَا تَجْزَعُوا فَإِنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ قَدْ انْقَضَى أَجَلُهُ الْمُسَمًّى فَمُحَالٌ تَقَدُّمُهُ أَوْ تَأَخُّرُهُ عَنْهُ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ هَذَا كُلَّهُ فَاصْبِرُوا وَاحْتَسِبُوا مَا نَزَلَ بِكُمْ^(١).

✽ ولكن ابنة النبي ﷺ أقسمت أن يأتيها النبي ﷺ.. فعاد الرسول وأبلغ النبي ﷺ بذلك فقام النبي ﷺ ومعه جماعة من أصحابه وانطلق إليها... فلما وصل عندها ورفع إليه الصبي ونفسه تقعقع أي: تضطرب فتصعد وتنزل فبكى النبي ﷺ ودمعت عيناه.. فقال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟

لأنه ظنَّ أن النبي ﷺ بكى جزعاً.. فقال له النبي ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرُّحَمَاءُ».

معناه أَنَّ سَعْدًا ظَنَّ أَنَّ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْبُكَاءِ حَرَامٌ، وَأَنَّ دَمْعَ الْعَيْنِ حَرَامٌ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَسِيَ فَذَكَرَهُ، فَأَعْلَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مُجَرَّدَ الْبُكَاءِ وَدَمْعُ بَعَيْنٍ لَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ بَلْ هُوَ رَحْمَةٌ وَفَضِيلَةٌ وَإِنَّمَا الْمُحَرَّمُ النَّوْحُ وَالنَّدْبُ وَالْبُكَاءُ

الْمَقْرُونِ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا^(١).

❦ ففي هذا الحديث دليلٌ على وجوب الصبر لأن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»^(٢).

وفيه دليل على أن هذه الصيغة من العزاء أفضل صيغة.

أفضل من قول بعض الناس: «أعظم الله أجرك، وأحسن عزاءك، وغفر لميتك» هذه صيغة اختارها بعض العلماء لكن الصيغة التي اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل، لأن المصاب إذا سمعها اقتنع أكثر.

والتعزية في الحقيقة ليست تهينة كما ظنها بعض العوام! يحتفل بها ويوضع لها الكراسى وتوضع لها الشموع ويحضر لها القراء والأطعمة!!^(٣) لا؛ بل التعزية تسلية وتقوية للمصاب أن يصبر.



(٣١) وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا يَعْلَمُهُ السَّحَرُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ. فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ

(١) مسلم بشرح النووي (٦/٣١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز - ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٣) وفي هذا أيضًا تبذير وإسراف منهى عنهما، وإحداث في العبادة لا يرضاه الله، وهناك آفة خطيرة مترتبة على اعتياد الناس الإتيان بقارئ للقرآن في هذا المأتم وهي: ترسيخ عقيدة فاسدة في أذهان الناس بأن القرآن للأموات يلتمسون منه البركة بعد موتهم - على فهمهم - للنجاة من عذاب الله، وإن كانوا معرضين عن تلاوته والعمل بأحكامه في الحياة.

حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلَ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ، فَاتَى الرَّاهِبُ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَى أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدَلَّ عَلَيَّ ... وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ. فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَاتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةً فَقَالَ: مَا هَهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنْ آمَنْتَ بِاللَّهِ تَعَالَى دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَنْ بِاللَّهِ تَعَالَى فَشَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَاتَى الْمَلِكُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِئَءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَى قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ .. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تَعَالَى، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِئَءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمُنْشَارِ فَوَضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ، ثُمَّ جِئَءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضِعَ الْمُنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَّاهُ، ثُمَّ جِئَءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرُقُورٍ وَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَاكْفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَعَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى

الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كناتي، ثم ضع السهم في كبِد القوس ثم قل: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كناتيه، ثم وضع السهم في كبِد القوس، ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَات. فقال الناس: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتُ تَحْذَرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأَخْذِ بِأَفْوَاهِ السَّكِكِ فَخُذَّتْ وَأُضْهِرِمَ فِيهَا النَّيْرَانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحَمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، ففعلوا حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يَا أُمَّاهِ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ^(١).

❦ وأما شرح قصة الحديث فهي أنه كان هناك ملك اسمه (ذو نواس) وكان يعيش في بلدة تُسمى (نجران) في اليمن.

وكان هذا الملك عنده ساحر يعمل له كل ما يستطيع من الحيل والأعمال السحرية؛ لكي يقنع الناس بأن هذا الملك هو إله الكون الذي يستحق أن يُعبد من دون الله (جل وعلا).

وهذا الساحر في الحقيقة هو أهون الناس على الملك، فإذا وجد الملك من هو أفضل منه تخلص منه في التو واللحظة... بل إن حدث منه أي شيء يغضب الملك فسرعان ما يتحول الملك إلى إعصارٍ مُدمِّرٍ يعصف بحياة الساحر بلا تردد.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٥) كتاب الزهد والرقائق.

«ذِوَةُ الْجَبَلِ»: أعلاه - و«الْفَرْقُورُ»: نوع من السفن و«الصَّعِيدُ» هنا: الأرض البارزة و«الْأَخْذُودُ»: الشقوق في الأرض كالنهر الصغير و«أُضْهِرِمَ» أَوْقَدَ و«انْكَفَأَتْ» أَيْ: انْقَلَبَتْ و«تَقَاعَسَتْ» تَوَقَّفَتْ وَجَبُنَتْ.

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه كان لأحد الملوك ساحر، كبرت سنُّه، فخشى أن يضيع علمه، فطلب من الملك أن يُرسل له غلامًا ذكيًا نابهاً، كي يُورثه علمه وضلاله، وقد حقق له الملك مقصوده، فأرسل له بالغلام.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: لماذا طلب الساحر من الملك أن يبعث إليه غلامًا صغيرًا ولا يبعث إليه شابًا أو شيخًا كبيرًا؟!

والجواب: لكى يتعلم الغلام السحر من صغره ويبقى مع الملك أكبر وقتٍ ممكن ليخدمه فى تنفيذ ما يريد.. ونحن نعلم جميعًا أن التعليم فى الصَّغَر كالنقش على الحجر.

ولكن الله تعالى قد أراد بهذا الغلام خيرًا!

مرَّ هذا الغلام يومًا من الأيام براهب، فسمع منه فأعجبه كلامه، لأنَّ هذا الراهب - يعنى العابد - عابد لله ﷻ، لا يتكلم إلا بالخير، وقد يكون راهبًا عالمًا لكن تغلب عليه العبادة.

المهم أنه أعجبه وصار إذا خرج هذا الغلام من عند أهله جلس عند الراهب فتأخَّر على السَّاحِر.

فجعل السَّاحِر يضربه، لماذا تتأخَّر؟ فشكا الغلام إلى الراهب ما يجده من السَّاحِر من الضرب إذا تأخَّر.

فلقَّنه الراهب أمرًا يتخلص به، من ذلك فقال له: إذا ذهبت إلى السَّاحِر وخشيت أن يُعاقبك فقل إن أهلى حبسونى، أى: تأخَّرت عند أهلى، وإذا أتيت عند أهلك فقل إنَّ السَّاحِر حبسنى، حتى تنجو من هذا ومن هذا.

ففعل ذلك... فصار الغلام يأتى إلى الراهب ويسمع منه ثم يذهب إلى السَّاحِر، فإذا أراد أن يُعاقبه على تأخُّره قال: إنَّ أهلى حبسونى وإذا رجع إلى أهله وتأخَّر عند الراهب قال: إنَّ السَّاحِر حبسنى.

✽ وفى يوم من الأيام كان الغلام فى طريقه إلى الراهب، فوجد الناس مذعورين خائفين.. فنظر فوجد أسدًا كبيرًا قد قطع الطريق على الناس.. فاغتم الغلام هذه الفرصة وقال فى نفسه: اليوم أعرف وأتيقن أيهما أفضل عند الله: الساحر أم الراهب.

فأخذ الغلام حجرًا صغيرًا وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذا الأسد حتى يمضى الناس.. فرمى الحجر فقتل الأسد ومضى الناس وهم يظنون أن الغلام قتل الأسد بسبب نبوغه فى السحر.

فعرف الغلام أن أمر الرَّاهب خير من أمر السَّاحر وهذا أمر لاشك فيه لأن السَّاحر إما مُعتدٍ ظالم وإما كافر مُشرك... فإن كان يستعين على سحره بالشَّياطين يتقرب إليهم ويعبدهم ويدعوهم ويستغيث بهم فهو كافر مشرك، وإن كان لا يفعل هذا لكن يعتدى على الناس بأدوية فيها سحر فهذا ظالم مُعتدٍ.

أمَّا الرَّاهب فإن كان يعبد الله على بصيرة فهو مهتدٍ، وإن كان عنده شىء من الجهل والضَّلال فنيته طيبة وإن كان عمله سيئًا.

المهم أن هذا الغلام أخبر الراهب بما جرى فقال له الرَّاهب: أنت اليوم خيرٌ منى... وذلك لأن الغلام دعا الله فاستجاب الله له.

وهذا من نعمة الله على العبد أنَّ الإنسان إذا شك فى الأمر ثم طلب من الله آية تبين له شأن هذا الأمر فبيَّنه الله له فإن هذا من نعمة الله عليه.

ومن هنا شُرعت الاستخارة للإنسان إذا همَّ بالأمر وأشكل عليه هل فى إقدامه خير أم فى إحجامه خير، فإنَّه يستخير الله... وإذا استخار الله بصدق وإيمان فإن الله يعطيه ما يستدل به على أن الخير فى الإقدام أو الإحجام، إما بشىء يُلقيه فى قلبه ينشر صدره لهذا أو لهذا وإما برؤيا يراها فى المنام، وإما بمشورة أحد من النَّاس وإما بغيره^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/١٠٥).



فقال له الراهب: أى بُنى أنت اليوم أفضل منى... قد بلغ من أمرك ما أرى.. ولكن اعلم أنك ستعرض لابتلاءٍ شديد، فإذا وقعت في هذا البلاء فلا تدُلَّ الناس على مكاني ولا تخبرهم عنى.

وهذا درسٌ عظيم في التواضع لأن الراهب أفضل من الغلام - بلا شك - فهو الذى علّمه التوحيد ولقّنه العلم... وعلى الرغم من ذلك يقول له: أنت اليوم أفضل منى.

وقد أجرى الله على يد الغلام شفاء المرضى، وإبراء الأكمه والأبرص، وكان يخبر الناس أن الشافي هو الله، وأن مَنْ آمَن بالله فإنه يشفيه... فكان يتخذ من المعالجة طريقاً لنشر الإيمان والتوحيد.

✽ فسمع جليس الملك - وكان أعمى - أن هناك غلاماً يداوى الناس من كل الأمراض.

فما كان من جليس الملك إلا أن أحضر الهدايا الثمينة والأموال الكثيرة وذهب لهذا الغلام فوجد زحاماً شديداً على بابه فاستأذن من هؤلاء الناس ودخل على الغلام.. وإذا بالمفاجأة الكبرى!!

لقد علم جليس الملك أن الغلام الذى يداوى الناس من الأمراض هو ساحر الملك.. فقال له جليس الملك: لقد جمعت لك كل هذه الهدايا والأموال على أن تشفينى وترد إلى بصرى.

فقال له الغلام: إني لا أشفى أحداً إنما يشفى الله فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك...

هكذا بدأ الغلام يضع بذرة التوحيد في قلب جليس الملك ليعلم أن الله وحده هو النافع الضار وأنه بيده مقاليد السماوات والأرض وأنه هو وحده الذى يملك الشفاء.

فرفع جليس الملك رأسه إلى السماء وقال: أشهد أن لا إله إلا الله.
فقام الغلام فدعا الله أن يشفى جليس الملك وأن يرُدَّ إليه بصره.
فشفاه الله وردَّ إليه بصره.. فصرخ جليس الملك من شدة الفرح وهو يردد:
أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.
فقال له الغلام: لا تُخبر الملك عنى ولا تدله علىّ.
فوعده جليس الملك بذلك، ثم خرج وهو فى قمة السعادة.
❁ فلما أسلم جليس الملك ذهب إلى زوجته وأولاده وهو فى قمة السعادة
لأن الله عزَّ وجلَّ قد رَدَّ عليه بصره... وفرحت زوجته وفرح أولاده فرحاً شديداً...
لكنه لم يخبرهم بقصة إسلامه على يد الغلام لأنه وعده بذلك.
❁ وفى اليوم التالى جاء أحد حُرَّاس الملك إلى قصر جليس الملك الذى
رَدَّ الله عليه بصره وأخبره أن الملك يطلب لقاءه فذهب معه دون أن يحتاج إلى
مَن يقوده فى طريقه إلى الملك كما كان يفعل من قبل.
❁ فلما دخل على الملك قال له الملك: هنيئاً لك على أنك عُدت مُبصراً
مرة أخرى.
فقال جليس الملك: الحمد لله وحده على نعمة الشفاء من العمى.
فغضب الملك وقال له: وهل هناك إلهٌ فى هذه المملكة غيرى؟
قال جليس الملك: الله الذى خلَقك ورزقك وجعلك ملكاً... وإذا أراد أن ينزع
منك المُلْك وأن ينزع منك كل شىء حتى روحك فإنه وحده القادر على ذلك.
❁ فما كان من الملك إلا أن أمر الحُرَّاس أن يأخذوه ليعذبوه حتى يدلهم
على مَن جعله يُسلم ويدخل فى دينٍ غير دين الملك.
فأخذوه وظلوا يعذبونه حتى دلَّهم على الغلام.
❁ ومع أن هذا الرجل كان جليساً للملك إلا أن الملوك ليس عندهم وفاءٌ

لمن حولهم.. فما إن تعارضت وجهة الجليس مع وجهة الملك وإذا به يأمر بتعذيبه في التور واللحظة.

«فجىء بالغلام، فقال له الملك: أى بُنى قد بلغ من سحرك ما تُبرئ به الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إني لا أشفى أحداً إنما يشفى الله... فأخذه فلم يزل يُعذبه حتى دَلَّ على الراهب».

✽ علم الملك أن الغلام وراء هذه الدعوة الجديدة في مملكته: دعوة التوحيد وإنكار ربوبية الملك... فماذا يفعل هذا الطاغية لاحتواء هذه الدعوة؟ إن بطشه بالغلام الذى أحبه الناس وعرفوا إحسانه إليهم، وأنه هو الذى قتل الأسد، وأنه يُبرئ الأكمه والأبرص ويداويهم من سائر الأدواء.. سوف يزيد من محبته ويجعله بطلاً أو شهيداً، ويصبح موته وقوداً دافعاً لاستمرار دعوته؛ فلا بد من محاولة الاستمالة أولاً، فهو يعرف جيداً حقيقة دعوة الغلام وأنها تهدف إلى تحقيق العبودية لله وحده ونبذ عبودية الملك، ومع ذلك يقول له: «أى بُنى».

والنداء بالبنوة أول محاولات الاستمالة والتلطُّف، فهو يقول له: أنت ابنى وأنا الذى توليت تربيتك، ثم يقول له: «قد بلغ من سحرك ما تُبرئ به الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل».

فهو يريد أن يقول له: لا مانع عندى من استمرارك فى ما تفعل، بشرط أن تقول للناس: إن هذا من السحر الذى تعلمته فى مدرسة الملك، وأن ما تدعو إليه هو بتوجيهات الملك وتحت إشرافه وبرعايته... وهو يقول له ذلك وهو على يقين من أنه هو الذى قال لجليسه ولغيره: ربى وربك الله، وأنه سبحانه الذى يشفى الناس.

رفض الغلام إذاً أن يُسمَّى ما يفعله سحراً، وأبى إلا أن يُجابه الملك بأن دعوته هى دعوة التوحيد الخالص بمقولته العظيمة: «إني لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله تعالى»، وفشلت محاولة الاحتواء وإلباس الحق ملابس

الجاهلية... فانكشف الملك على حقيقته ولجأ إلى الأسلوب المعتاد: البطش والتنكيل... فجىء بالراهب، ف قيل له: ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه».

فجىء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه».

✽ لقد حدث لجليس الملك مثلما حدث للراهب... لقد ذاق الرجل حلاوة الإيمان فهان عليه أن يُقدم حياته لله (جل وعلا) بدلاً من أن يعيش مُنعماً في قصر الملك وهو بعيد عن الله (سبحانه وتعالى).

ثم جىء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه... فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت... فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى.

✽ فأرسله الملك مع نفرٍ من أصحابه، فقال لهم: اذهبوا به في سفينة صغيرة وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاخذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، ورجع يمشى إلى الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله تعالى.

✽ ثم تحوّل الغلام من مأمورٍ إلى أمرٍ.. فقام يأمر الملك، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال الملك: وما هو؟

قال الغلام: تجمع الناس في صعيدٍ واحد، ثم تصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: «بسم الله ربّ الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني».



❖ فقام الملك وجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبَهُ على جذعٍ، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده على صدغه فمات.
فقال الناس: «آمنا بالله رب الغلام».

❖ فعل الملك ما أمره به الغلام.. وكان هذا الملك في غاية الغباء لأنه لو ترك الغلام يدعو الأمة إلى توحيد الله لما آمن معه إلا القليل ولكنه لما قُتل الغلام؛ آمنت الأمة كلها وقاموا جميعًا على قلب رجلٍ واحد فقالوا: آمنا بالله رب الغلام.

فجاء حاشية الملك فقالوا له: رأيت ما كنت تحذر؟! قد والله نزل بك ما كنت تحذر... قد والله آمن الناس، فأمر بالأخاديد (الحُفر) بأفواه السكك فحُذَّت «أى حُفرت»، وأُضرم فيها النيران، وقال: مَنْ لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا... حتى جاءت امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعست أن تقع فيها (أى ترددت وهمّت أن ترجع)، فقال لها الغلام (أى ابنها الصبي): يا أمه! اصبرى، فإنك على الحق».

❖ نعم.. لقد قامت البطانة السيئة لتُخبر الملك بأن الأمة قد آمنت بالله ﷻ فما كان من الملك - الذى لا يملك الحجة ولا الإقناع - إلا أن لجأ إلى البطش والعنف، فأمر زبانيته أن يحفروا الأخاديد في أفواه السكك حتى لا يترك مكانًا يستطيع الناس أن يهربوا منه.

وجيء بالموحدين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان منذ ساعات معدودات وخيّرهم بين الكفر وبين دخول نار الدنيا، فاختاروا جميعًا أن يموتوا على التوحيد والإيمان وأن يدخلوا نار الدنيا على أن يكفروا بالله ﷻ ويدخلوا نار الآخرة التى هى أشد من نار الدنيا سبعين مرة.
ويأتى هذا المشهد الأخير المؤثر.

قال ﷺ: «حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق».

ويا له من مشهد مهيب أن يُنطق الله هذا الطفل الصغير، ليربط على قلب أمه ولتعلم يقيناً أنها على الحق.

❁ وهكذا رحل هؤلاء الشهداء الأبرار عن دنيا الناس؛ لیسعدوا بالنعيم المقيم في جنة الرحمن (جل وعلا).

❁ ولقد ذكر الله قصتهم في سورة البروج، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ④ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩﴾ [البروج: ٤-١٠].

أولئك هم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله في كتابه وذكرهم الرسول ﷺ في سنته.

لم ينتقموا منهم ويحرقوهم إلا لأنهم آمنوا بالله... وهذه هي سنة الله في خلقه المؤمنين الموحدين.

ولا تزال الحرب بين الإيمان وأهله والكفر وأهله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الدروس المستفادة

- (١) حرص أهل الشرّ على استمرار شرّهم من بعدهم، كما حرص الساحر على تعليم من يرث علمه الفاسد، ليبقى هذا العلم حياً يُضِلُّ به عباد الله.
- (٢) أن السحر من كبائر الذنوب... ومن أهل العلم من ذهب إلى أن السحر كفر؛ لأن السحر لا يتم إلا مع الكفر وتعظيم الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَلَيْكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]
 (٣) اختار الملك الغلام ليكون الساحر الذى يثبت دعائهم ملكه، وأراد الله له أن يكون الداعية الصالح الذى يُدمر ملكه، ويهدى الناس إلى الدين الحق، وفى ذلك آية للمعتبرين... فالله يهيئ لدينه رجالاً.

(٤) الإيمان لا يحتاج إلى وقتٍ طويل كى يستقر فى القلوب، ويحيى النفوس... فالقوم الذين رضوا بعذاب النار لم يكن مضى على إيمانهم ساعات قليلة... ومثل هؤلاء سحرة فرعون آمنوا، فلم يردعهم جبروت فرعون وعذابه عن الإيمان.

(٥) قد يُجرى الله على يد بعض أوليائه كرامات يؤيده بها، ويثبت بها إيمانه ويقينه... فالغلام لم يكن نبياً، وقد استجاب الله له فى قتل الدابة، وأجرى على يديه إبراء الأكمه والأبرص، ومداواة المرضى، واستجاب دعاءه فى تخليصه من القتل، والقضاء على أعوان الملك الذين أمرهم بقتله.

(٦) التضحية بالنفس فى سبيل الله ليست من الانتحار فى شيء.. فالغلام دَلَّ الملك على الطريقة التى يقتله بها... والمؤمنون كان بعضهم يُلقى فى النار، وآخرون يقتحمونها، ولم يكن اقتحامهم لها انتحاراً، بل كان فيه إغاظة للظالمين، وإرضاء لله رب العالمين.

(٧) شدة عداة أهل الكفر لأهل الإيمان... فقد نشر أعوان الملك الراهب وجليس الملك بالمنشار، وأحرقوا الناس بالنيران.

(٨) حفظ الله لأوليائه، وإذلاله لأعدائه، فقد حفظ الغلام من القتل، واستجاب دعاءه، فأهلك من أرادوا به سوءاً.

(٩) وجوب الصبر على الأذى فى الله، كما صبر الراهب وجليس الملك والغلام، وكما صبر المؤمنون على الحرق بالنار.

(١٠) جواز الكذب في الحرب ونحوها... فقد أرشد الراهبُ الغلامَ إلى أن يدَّعى أن الساحر حبسه إذا سأله أهله، وأن أهله حبسوه إذا سأله الساحر.

(١١) قد يضعف رجل العقيدة عن احتمال الأذى، وقد ييوح بأسرار لا يجوز له البوح بها من شدة العذاب... فجلس الملك الذي ردَّ الله عليه بصره دَلَّ على الغلام تحت وطأة العذاب، والغلام دَلَّ على الراهب لما ناله من العذاب، ومع ذلك فلم يُنقص اعترافهما من مكانتهما، ولكنهما احتملا العذاب الذي أدَّى بهما إلى الموت عندما طُلب منهما التنازل عن عقيدتهما، والكفر بالله.

(١٢) قد يكون التلميذ أفضل من شيخه... فقد حقق الغلام ما لم يستطع الراهب تحقيقه، ويبقى للراهب فضل هداية الغلام.

(١٣) التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة... حيث دَلَّ الغلام الملك على الطريقة التي يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله، ولو كان الوصول لذلك على حساب حياته هو^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا».

❦ ففي هذا الحديث يحكي أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة تبكي عند قبر فقال لها: «اتقي الله واصبري».. وهذا من حُسن خلق النبي ﷺ ورحمته بكل مَنْ

(١) قصص الرسول ﷺ / د. محمود المصري (ص ١٠٠-١٣٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

حوله... فقد كان يستطيع أن يسير دون أن يلتفت إليها ولكنه ﷺ أحسَّ بحزن هذه المرأة وب حاجتها إلى مَنْ يُصبرها.

فما كان منها إلا أن قالت للنبي ﷺ: «إليك عنى فإنك لم تُصَبِّ بمصيبتى».. وهذا يدل على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغاً عظيماً.

فلما قالت ذلك للنبي ﷺ لم يَقُلْ لها: ألا تعرفين مَنْ أنا؟... بل ولم ينتقم منها أو يُعاقبها؛ لأنه يعذرهما ويعلم أن الحزن قد أخرجها عن وعيها حتى قالت هذا الكلام.

✽ فلما قيل لها: إنه النبي ﷺ.. ما كان منها إلا أن أتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين.. وهذا من تواضع النبي ﷺ وحرصه على أن يكون متواصلاً مع أمته يُعلمهم ويتابع أحوالهم وليكون عوناً لهم على أمور دينهم ودنياهم.

فقالت له المرأة: لم أعرفك.. أى أننى أعتذر إليك يا رسول الله إن كان قد بَدَّرَ منى أى كلامٍ يُغضبك فإنى من شدة حزنى لم أعرف مَنْ الذى يُكلمنى.

فلم يُعاتبها النبي ﷺ على أى كلمة قالتها بل عذرهما لشدة حُزنهما، وإنما عاتبها لعدم صبرها على قضاء الله فقال لها ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

وكانه يقول لها: إن الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان هو أن يصبر أول ما تصيبه المصيبة.. أما أن يتسخط ثم يصبر بعد ذلك فإن هذا ليس الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان وإنما يكون تسلياً.

✽ وهنا فائدة مهمة وهى: أنه لا يجوز للمرأة أن تذهب لزيارة القبور بمفردها حتى لا تتعرض لمن يتحرش بها فى تلك الأماكن المهجورة.. وإنما إذا أرادت أن تذهب لزيارة موتاهها فإنها تذهب مع أحد محارمها غير متزينة ولا متعطرة وتكون مرتدية حجابها الشرعى.. فإذا ذهبت إلى القبر فإنما تذهب

للعظة والعبرة ولزيارة موتاه.. فلا تلطم خدًا ولا تشق جيبًا ولا تدعو بدعوى الجاهلية... وإنما تقف خاشعة تدعو لميتها.. فإن بكت فلا بأس بذلك شريطة ألا يكون ذلك البكاء تسخُّطًا واعتراضًا على قضاء الله وقدره (سبحانه وتعالى).
 ❁ وأخيرًا لا بد أن نعلم أن الله جعل الجنة ثوابًا لمن صبر واحتسب عند الصدمة الأولى.

بعض فوائد الحديث

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

(١) مداومته وحرصه ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على كل حال... لقوله للمرأة: «اتقي الله واصبري» ولم يقل ﷺ: إن المرأة الآن مصدومة، ولا يصح توجيه الخطاب إليها... ولما جاءته لتعتذر إليه، نصحها مرة أخرى، فقال لها: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى».

(٢) حكمته ورفقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... أما حكمته، أنه أمر المرأة أولاً بتقوى الله، أي بالأمر العام، الذي هو سبب امتثال العبد لكل أمرٍ وبُعدّه عن كل نهْي، لتشعر بالخوف من الله، - سبحانه وتعالى -، ووجوب طاعته والبعد عن معصيته.

أما رفقهُ ﷺ في الأمر فيتضح من:

أ- أن نصحه للمرأة ما زاد عن قوله: «اتقي الله واصبري».

ب- أنه ما نهر المرأة وما عاتبها أولاً وآخرًا... أولاً: لما لم تعرفه وقالت له: (إنك لم تُصَبِّ بمصيبتي). وفي رواية عند البخاري: (فإنك خلوت من مصيبتي) وآخرًا: لما عرفته واعتذرت إليه، فقالت: (يا رسول الله لم أعرفك)، والغريب أنه ﷺ غيّر سياق الموضوع ولم يُشعرها بحرج من عدم معرفته، وقال لها: «إنما الصبر عند أول صدمة».

ج - تواضعه ﷺ ويتضح ذلك من:

أن المرأة لم تعرفه عندما قال لها: «اتقى الله واصبري». فلو أنه كان يمشي بحاشية وأتباع، يمشون خلفه أو كانت له مشية معينة أو أنه كان له زىٍّ خاص، أو يتبع أسلوبًا معينًا في الكلام يختلف عن الناس لعرفته المرأة، أو حتى ظنت أنه من أكابر القوم ومن خاصتهم، ولراعت ذلك في ردها.

- أنه ﷺ لم يجعل بوابين على أبواب بيته... أما ما ورد في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان له بوابون، يستأذنهم الداخل على رسول الله ﷺ فيحمل على أن هذا الأمر لم يكن على الدوام، ولم يكونوا منقطعين لهذا العمل، ووقوفهم عند البيت كان وقت المصلحة، ولكن الأصل عدم وجودهم.

(٣) مهابته وإجلاله في نفوس أصحابه ﷺ ويتضح ذلك من شدة الكرب والفرع الذي انتاب المرأة، لما عرفت أن الذي حدثها هو النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: تأدب الصحابة ﷺ مع النبي ﷺ ومن ذلك:

(١) أن بعض الصحابة أنكروا على المرأة الطريقة التي ردت بها على رسول الله ﷺ ولو أنهم اعتادوا الكلام معه بغير توقير وإجلال، ما أنكروا على المرأة.

(٢) ذهاب المرأة إليه ﷺ تعتذر إليه عما بدر منها، وتبين له سببه، فقالت: (يا رسول الله لم أعرفك)، ولو كانوا لا يعرفون عن رسول الله ﷺ التسامح والعفو وعدم الغضب لنفسه، ما اقتصرت المرأة على تلك الكلمة البسيطة.

الفائدة الثالثة: أن الصبر درجات، وأعظم هذه الدرجات، هو الصبر عند الوهلة الأولى من نزول المصائب... وهذا هو الصبر الذي يكافئ الله - سبحانه وتعالى -، عليه بعظيم الأجر والثواب... قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ويتفرع عليه: جميل منة الله على عباده، أن خفف على الإنسان عظيم وقع

المصيبة عليه، بمرور الأوقات ومُلاقاة الأصحاب وتسلية الأحباب... فمن يظن بعد موت الأب أو الأم، أنه سيأتي عليه يوم يضحك فيه، أو حتى يأكل ويشرب، وعلى الإنسان أن يحمد الله كثيراً على هذه النعمة الجليلة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّةً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ»^(٢).

فهذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن رب العزة (سبحانه وتعالى)... فهو حديثٌ قُدسي - كما يُسميه أهل العلم -.

فيخبر النبي ﷺ أَنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّةً مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ».

فيخبر الله ﻋَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ فَقَطْ هُوَ الَّذِي يَحْتَسِبُ وَيَصْبِرُ وَيَرْجُو الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا).. وَأَنْ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ قَدْ يَصْبِرُ لَكِنَّهُ لَا يَحْتَسِبُ وَلَا يَرْجُو الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

وَالصَّافِي: مَنْ يَصْطَفِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَخْتَارُهُ مِنْ وَلَدٍ، أَوْ أَخٍ، أَوْ عَمٍّ، أَوْ أَبٍ، أَوْ أُمٍّ، أَوْ صَدِيقٍ... الْمَهْمُ أَنَّ مَا يَصْطَفِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَخْتَارُهُ وَيَرَى أَنَّهُ ذُو صَلَوةٍ مِنْهُ قَوِيَّةٍ. إِذَا أَخَذَهُ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ احْتَسَبَهُ الْإِنْسَانُ، فَلَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ.

ففي هذا: دليل على فضيلة الصبر على قبض الصافي من الدنيا وأن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يجازي الإنسان إذا احتسب صفيته بالجنة.

❁ ففي هذا الحديث أَنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ رَحْمَةِ الْأُمِّ بِطِفْلِهَا

(١) شمائل الرسول ﷺ (٢/ ٢٩٩-٣٠١) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

الرضيع.. فهو وإن حرم العبد من أحد أحبابه إلا أنه جعل ثوابه الجنة إن صبر واحتسب...

❁ وأن الشر لا يُنسب إلى الله... فإذا فَقَدَ الإنسان أحد أحبابه فقد يكون موت هذا الحبيب شرًّا من وجهة نظر الذي فقدته لكنه عين الخير في تقدير الله ﷻ.. فقد قَدَّرَ الله له ذلك من أجل حكمة لا يعلمها إلا الله... ومن أجل حكمة أخرى ألا وهي أن يصبر ويحتسب فيفوز بجنة عرضها السماوات والأرض... فما أرحم الله الذي قال في كتابه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٤) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونَ، فَأَخْبَرَهَا: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونَ فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أخبر النبي ﷺ أن الطاعون عذابٌ أرسله الله ﷻ على مَنْ يَشَاءُ من عباده.. ومع ذلك فقد جعله الله رحمة للمؤمنين؛ لأن مَنْ نزل الطاعون ببلده فبقى فيها صابراً مُحْتَسِبًا وهو يعلم أنه لا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ له.. فإن أُصِيبَ بالطاعون فمات فقد فاز؛ لأن الله ﷻ يَكْتُبُ له مثل أجر الشهيد.

ونحن نعلم ما للشهيد عند ربه (جلّ وعلا).. فقد قال النبي ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْعُ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُرْوَجُّ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ رُوحَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ،

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧٣٤) كتاب الطب.

وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ الْيَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ»^(١).

✽ وقد أخبر النبي ﷺ أن الطاعون إذا نزل ببلدة.. فكل مَنْ بقى فيها محتسبًا فهو كالمرابط في سبيل الله، وإن مات مات شهيدًا.. وإن فرَّ منه كان كالفارِّ من الزحف.

قال ﷺ: «الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِأُمَّتِي، وَوُخِزَ أَعْدَاؤُكُمْ مِنَ الْجِنِّ ... غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ، تَخْرُجُ بَيْنَ الْأَبَاطِ وَالْمَرَاقِّ، مَنْ مَاتَ فِيهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ أَقَامَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرَابِطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ فَرَّ مِنْهُ كَانَ كَالْفَارِّ مِنَ الزَّحْفِ»^(٢).

ولقد أمرنا النبي ﷺ بأننا إذا سمعنا أن الطاعون قد وقع في أرض فإننا لا نَقْدُم عليها، لأن الإقدام عليها إلقاء بالنفس إلى التهلكة، ولكنه إذا وقع في أرض فإننا لا نخرج منها فرارًا منه لأنك مهما فررت من قدر الله إذا نزل بالأرض فإن هذا الفرار لن يُغْنِيَ عنك من الله شيئًا.

قال ﷺ: «الطَّاعُونَ بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٨٢).

(٢) حسن: رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٤٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

(٣٥) وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ» يُرِيدُ عَيْنَهُ ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر الله ﷻ أنه إذا ابتلى عبداً من عباده بإطفاء نور حبيبته - أى عينيه - فصبر واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقد سمى الله العينين بهذا الاسم (حبيبتيه) ؛ لأن الإنسان من خلالهما يحب الدنيا ويحب ما فيها...

ولذا فإن العبد إذا وُلِدَ أعمى لا يرى شيئاً فإنه لا يحزن على فوات أى شىء من الدنيا؛ لأنه لم يرها أصلاً.. وإنما يكون الألم الشديد لمن وُلِدَ مُبْصِراً ورأى الدنيا وزينتها الفانية، ثم فقد بصره بعد ذلك.

ولأن العينين هما أغلى شىء عند الإنسان فإن الله ﷻ إذا قبضهما وحرم العبد من نعمة البصر فصبر واحتسب لم يجعل الله له جزاءً من الحسنات ولو كانت كثيرة وإنما جعل ثوابه الجنة مباشرة ؛ لأنه حُرِمَ من جنته فى الدنيا - نعمة البصر - فصبر واحتسب فكان الجزاء جنة بجنة... وشتان ما بين الجنتين.

❁ واعلم أن الله إذا حرم عبداً من نعمة البصر فإنه يعوضه فى بقية الحواس بما يُخَفِّفُ عنه ألم الحرمان من تلك الحاسة التى فقدتها... بل لقد رأيت أن أكثر الذين حُرِّموا من نعمة البصر قد منحهم الله قوة فى الحفظ وطهارة فى القلب لانعدام الذنوب التى تأتى أكثرها من النظر إلى المحرمات.. فيصبح القلب طاهراً ويصبح العقل حاضراً.

وقد رأينا منهم الكثير والكثير من العلماء وحفظة القرآن... فهذا من لطف الله ورحمته بأهل البلاء فى الدنيا والآخرة.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٦٥٣) كتاب المرضى.

(٣٦) وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رِيَّاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ الْمَرْأَةُ السُّودَاءُ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكْشَفُ، فَادْعُ اللَّهَ تَعَالَى لِي، قَالَ: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعَافِيكَ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكْشَفُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لَا أَتَكْشَفَ، فَدَعَا لَهَا^(١).

✽ في البداية لا بُدَّ أن نعلم أن أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين:

(١) قَسَمُ نَشَهِدْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ بِأَوْصَافِهِمْ... وَقَسَمُ نَشَهِدْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ بِأَعْيَانِهِمْ. فأمَّا الذين نَشَهِدْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ بِأَوْصَافِهِمْ فهم أهل الإيمان والتقوى.. فقد قال تعالى عن الجنة أنها ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ﴿٧﴾ جَزَّأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿البينة: ٧، ٨﴾.

فنشهد لأهل الإيمان والتقوى بأنهم من أهل الجنة.. لكن لا نقول فلان في الجنة؛ لأننا لا نستطيع أن نشهد لمُعَيَّن بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنَصٍّ من القرآن أو السُّنَّة.

لكن إذا مات رجلٌ مشهودٌ له بالخير نقول: نرجو أن يكون من أهل الجنة لكن لا نشهد أنه من أهل الجنة؛ لأن هذا في علم الله (جلَّ وعلا).

(٢) أما القسم الآخر: فهم الذين نَشَهِدْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ بِأَعْيَانِهِمْ.. وهم الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة: مثل العشرة المبشرين بالجنة.

ومثل: ثابت بن قيس بن شَمَّاس ومثل سعد بن معاذ ومثل عبد الله ابن سلام ومثل بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم ممن عَيَّنَّهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام. هؤلاء نَشَهِدْ لَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ ونقول: نَشَهِدُ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، ونشهد بِأَنَّ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٥٢) كتاب المرضى - ومسلم (٢٥٧٦) كتاب البر والصلة.

عمر في الجنة وهكذا.

❖ ومن بين هؤلاء الذين نشهد لهم بأعيانهم أنهم من أهل الجنة: هذه المرأة السوداء التي قال عنها ابن عباس لتلميذه عطاء: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟». فهذه المرأة جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي له من أنها تُصرع وتتكشف وطلبت منه أن يدعو لها. فقال لها ﷺ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ لِكَ وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلِكَ الجنة؟».

فالمرأة أمامها فرصة عظيمة للشفاء بدعاء النبي ﷺ.. ولكنها مع ذلك لما خيّرها النبي ﷺ بين الدعاء والشفاء وبين الجنة اختارت الجنة واختارت أن تصبر على هذا البلاء حتى تدخل الجنة.

ولكن كان عندها مشكلة تُورقها؛ لأنها مسلمة عفيفة عندها حياء فقالت للنبي ﷺ: إني أتكشّف فادعُ الله ألا أتكشّف، فدعا لها النبي ﷺ.. فكانت بعد ذلك تُصرع ولا تتكشف.

وأرجو من حضراتكم أن تقارنوا بين هذه المرأة التي تتكشف دون إرادتها؛ لأنها مُصابة بالصَّرع.. ومُحال أن يُفتن بها أحدٌ وهي مصروعة.. وبين امرأة أخرى تتعري بإرادتها لأنها تتبع بيوت الأزياء العالمية فتمشى شبه عارية لتفتن شباب المسلمين؛ ليكون ذلك في ميزان سيئاتها هي ووليها المسئول عنها.

❖ والصَّرع نعوذ بالله منه نوعان:

(١) صرع بسبب تشنُّج الأعصاب: وهذا مرض عضوى يمكن أن يُعالج من قِبَل الأطباء بإعطاء العقاقير التي تُسكِّنه أو تُزيله بالمرة.

(٢) وقسم آخر بسبب الشياطين والجن: يتسلَّط الجنُّ على الإنسان فيصرعه ويدخل فيه، ويضرب به على الأرض ويُغمى عليه من شدّة الصَّرع ولا يشعر. ويتلبَّس الشيطان أو الجنى بنفس الإنسان ويبدأ يتكلم على لسانه... والذي

يسمع الكلام يقول إن الذي يتكلم الإنسى ... ولكنه الجنى ولهذا تجد في بعض كلامه الاختلاف لا يكون ككلامه وهو مستيقظ لأنه يتغير بسبب نطق الجنى.

هذا النوع من الصرع نسال الله أن يُعيننا وإياكم منه ومن غيره من الآفات: هذا النوع علاجه بالقراءة من أهل العلم والخير.

أحياناً يُخاطبهم الجنى ويتكلم معهم ويُبين السبب الذى جعله يصرع هذا الإنسى.

وأحياناً لا يتكلم وقد ثبت هذا - أعنى صرع الجنى للإنسى - بالقرآن والسنة والواقع.

ففى القرآن قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. وهذا دليل على أن الشيطان يتخبط الإنسان من المس وهو الصرع.

وهذا النوع من الصرع له علاج يدفعه وله علاج يرفعه.

❁ فهو نوعان:

(١) أمّا دفعه: فبأن يحرص الإنسان على الأوراد الشرعية الصباحية والمساءية، وهى معروفة فى كتب أهل العلم منها: آية الكرسي فإن من قرأها فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربهُ شيطان حتى يُصبح.

ومنها: سورة الإخلاص والفلق والناس ومنها: أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فليحرص الإنسان عليها صباحاً ومساءً فإن ذلك من أسباب دفع أذية الجن.

(٢) وأما الرفع: فهو إذا وقع بالإنسان فإنه يُقرأ عليه آيات من القرآن فيها تخويف وتذكير واستعاذة بالله ﷻ حتى يخرج^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١١٤-١١٦) بتصرف كبير.

(٣٧) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَتِي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»^(١).
 * في هذا الحديث يحكي النبي ﷺ بعض ما جرى لنبي من الأنبياء من الإيذاء الذي تعرّض له من قومه.. وهو مع ذلك لا يرد عليهم الأذى ولا يدعو عليهم مع أنهم قد ضربوه حتى نزفت الدماء الشريفة من جسده وهو يمسح الدم عن وجهه وليس عن قدمه.. فلقد ضربوه على وجهه حتى نزفت الدماء منه وهو يمسح الدم ويدعو لهم قائلاً: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» ولا عجب في ذلك فلقد أخبر النبي ﷺ أن الأنبياء هم أشد الناس بلاءً.

قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُنْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا، اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ، حَتَّى يَتْرَكَ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»^(٢).

ولقد كان الرسل والأنبياء يتعرضون للإيذاء الشديد الذي قد يصل أحياناً إلى القتل ومع ذلك فقد كانوا جميعاً لا يغضبون لأنفسهم، وإنما يغضبون إذا انتهكت محارم الله ﷻ.

قال الإمام ابن القيم رحمته الله: «يَا مُخَنَّثَ الْعِزْمِ أَيْنَ أَنْتَ وَالطَّرِيقُ طَرِيقُ تَعَبٍ فِيهِ آدَمُ، وَنَاحٍ لِأَجَلِهِ نُوحٌ، وَرُمِي فِي النَّارِ الْخَلِيلُ، وَأُضْجِعَ لِلذَّبْحِ إِسْمَاعِيلُ، وَيُوعِ يَوْسُفَ بَثْمَنٍ بِخَسٍ، وَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بَضْعَ سَنِينَ، وَنُشِرَ بِالْمُنْشَارِ زَكَرِيَّا، وَدُبِحَ السَّيِّدُ الْحَصُورُ يَحْيَى، وَقَاسَى الضُّرَّ أَيُّوبُ، وَزَادَ عَلَى الْمَقْدَارِ بَكَاءُ دَاوُدَ،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ^(١).

✽ وسار على نفس الطريق أصحاب النبي ﷺ فتعرض للإيذاء: أبو بكر وقتل عمر، واغتيل عثمان وطعن عليّ.... بل وتعرض للإيذاء الشديد الأئمة الكبار الذين جاءوا بعد أصحاب النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلُنَّ الْبَاسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

✽ ولقد أخبرنا النبي ﷺ بذلك لتتأسى به وبجميع الأنبياء في صبرهم على الأذى وشفقتهم على قومهم... حتى إذا أودى أحدها وهو في طريق الدعوة يصبر ويحتسب ويتذكر ما حدث لصفوة خلق الله من الأنبياء والمرسلين.

(٣٨) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»^(٢).

(٣٩) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا. قَالَ: «أَجَلْ إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُم» قُلْتُ: ذَلِكَ أَنْ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: «أَجَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقُهَا»^(٣).

(١) «الفوائد» للإمام ابن القيم (ص: ٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٤٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧٣) كتاب البر والصلة. و«الْوَصَبُ» المرض.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٤٨) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة. و«الْوَعَكُ»: مَغْتُ الْحُمَى، وقيل: الْحُمَى.

❦ ففي هذين الحديثين يخبر النبي ﷺ أن المسلم لا يُصيبه مرض ولا تعب ولا هم ولا حزن ولا أذى ... حتى إن أُصيب بشوكة صغيرة في قدمه إلا كفر الله بها من خطاياها.

ومن المعلوم أن الحياة لا تخلو أبداً من الآلام والأحزان والأمراض والأوجاع... فلا تستقيم الحياة على وتيرة واحدة.. فيومٌ تساء ويومٌ تسرُّ ❦ كل يومٍ هو في شأنٍ ❦ [الرحمن: ٢٩].

فإذا أُصبت بشيء من تلك الآلام أو الأحزان أو الأمراض فلا تظن أنه سيذهب سُدى... فإنك إذا صبرت واحتسبت فإن الله ﷻ يغفر ذنوبك ويزيد من حسناتك.. بل ويرفع درجاتك في الجنة.

فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يُبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبْلَغَهُ إِيَّاهَا» (١).

وقال ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ ابْتِلَاؤُ اللَّهِ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَرَهُ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى يُبْلَغَهُ الْمَنْزِلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» (٢)... فاحرص دائماً عند البلاء أن تصبر وتحسب الأجر والثواب عند الله حتى تفوز بالأجر والثواب من عند الله ﷻ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصَبِّ مِنْهُ» (٣).

فالنبي ﷺ يخبر في هذا الحديث أن الله ﷻ إذا أراد بعبده خيراً يُصب منه..

(١) حسن: رواه ابن حبان، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وأبو يعلى، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٩٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٦٤٥) كتاب المرضى.

وَضَبَطُوا «يُصَبِّ»: بَفَتْحِ الصَّادِ وَكَسْرِهَا.

أى يُقدر عليه المصائب ويبتليه ويرزقه الصبر عليها.. لأن الله إذا ابتلى عبداً ولم يصبر هذا العبد ولم يحتسب بل اعترض وتسخط على قضاء الله فإن هذا لا يكون خيراً للعبد أبداً.

فمن كمال رحمة الله ﷻ أنه لا يبتلى إلا مَنْ يحب.. فقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(١).

فإذا أحب الله عبداً وابتلاه فإنه يرزقه الصبر على ذلك البلاء واحتساب الأجر عند الله ليفوز بتكفير السيئات وزيادة الحسنات ورفعته الدرجات.

ولكون المرض والبلاء نعمة كان الصالحون يفرحون به كما يفرح الواحد منا بالرخاء، فقد ذكر النبي ﷺ ابتلاء الأنبياء والصالحين بالمرض والفقر وغيرهما ثم قال: «وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»^(٢). قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ مَنْ قَبْلَكُمْ كَانَ إِذَا أَصَابَ أَحَدَهُمْ بَلَاءٌ عَدَّهُ رِخَاءً، وَإِذَا أَصَابَهُ رِخَاءٌ عَدَّهُ بَلَاءً»^(٣).

وقال بعضهم: «ارْضَ عَنْ اللَّهِ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ بِكَ، فَإِنَّهُ مَا مَنَعَكَ إِلَّا لِيُعْطِيكَ، وَلَا ابْتِلَاكَ إِلَّا لِيُعَافِيكَ، وَلَا أَمْرُضَكَ إِلَّا لِيُشْفِيكَ، وَلَا أَمَاتَكَ إِلَّا لِيُحْيِيكَ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُفَارِقَ الرَّضَى عَنْهُ طَرَفَةَ عَيْنٍ، فَتَسْقُطَ مِنْ عَيْنِهِ»^(٤).

فمن كمال رحمة الله أن يُطهر العبد من ذنوبه وآثامه في الدنيا من خلال المصائب والابتلاءات حتى لا يلقي الله بذنوبه وآثامه... فإذا أحبَّ عبده وأراد به خيراً تابع عليه البلاء ليُطهره من تلك الذنوب التي قد تُهلكه في الآخرة حتى

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١١٠).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٤٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣٢٧/٤).

(٤) مدارج السالكين (٢١٦/٢).



يخرج من الدنيا وليس عليه خطيئة.

قال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمَسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوفِّيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

بُخَارِيَّ ٢٦٧١ مُسْلِمٌ ٢٦٨٠

(٤١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لَضَرِّ أَصَابِهِ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعْلَأْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»^(٢).

✽ يُكْرَهُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ عِنْدَمَا يَشْتَدُّ عَلَيْهِ الْبَلَاءُ إِلَّا أَنْ يَخْشَى الْفِتْنَةَ فِي دِينِهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتَبُ»^(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمُرُهُ إِلَّا خَيْرًا»^(٤).

تَمَنَّى الْمَوْتَ يَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ

وَالْتَحْقِيقُ فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ: أَنْ تَمَنَّى الْمَوْتَ يَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ:

✽ مِنْهَا: تَمَنِّيهِ لَضَرِّ دُنْيَوِي يَنْزِلُ بِالْعَبْدِ فَيُنْهَى حِينَئِذٍ عَنْ تَمَنِّي الْمَوْتَ.

وَوَجْهُ كِرَاهِيَّتِهِ فِي هَذَا الْحَالِ أَنْ الْمَتَمَنِّيَ لِلْمَوْتَ لَضَرِّ نَزَلَ بِهِ إِنَّمَا يَتَمَنَاهُ

(١) صحيح: رواه الترمذی، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٣٠٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاری (٥٦٧١) كتاب المرضی، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه البخاری (٧٢٣٥) كتاب التمني.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

تعجيلًا للاستراحة من ضُرِّه وهو لا يدرى إلى ما يصير بعد الموت فلعله يصير إلى ضُرٍّ أعظم من ضُرِّه فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «إنما يستريح من غُفر له»^(١)، فلهذا لا ينبغي له أن يدعو بالموت إلا أن يشترط أن يكون خيرًا له عند الله عزَّ وجلَّ.

❁ ومنها: تمنُّيه خوف الفتنة في الدين فيجوز حينئذ. وقد تمنَّاه ودعا به خشية فتنة الدين خلق من الصحابة وأئمة الإسلام... وفي حديث المنام: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون».

❁ تمنى الموت عند حضور أسباب الشهادة: فيجوز ذلك أيضًا، وسؤال الصحابة الشهادة وتعرُّضهم لها عند حضور الجهاد كثير مشهور وكذلك سؤال مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنفسه وأهل بيته الطاعون لما وقع بالشام.

❁ ومنها تمنى الموت لمن وثق بعمله شوقًا إلى لقاء الله عزَّ وجلَّ: فهذا يجوز أيضًا وقد فعله كثير من السلف.

❁ قال أبو الدرداء: أحب الموت اشتياقًا إلى ربي.

وقال عنبسة الخولاني: كان مَنْ قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد.

وقال بعضهم: طال شوقي إليك فعجِّل قدومي عليك.

وقال بعضهم: لا تطيب نفسي بالموت إلا إذا ذكرت لقاء الله عزَّ وجلَّ فإنني حينئذ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه في اليوم الحار الشديد حرَّه إلى الماء البارد الشديد برده.

❁ وفي هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا قريب نائي شوق ظمأ إلى زلال الماء

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٤١٩٢) باقى مسند الأنصار، وصححه العلامة الألبانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى السلسلة الصحيحة (١٧١٠)، وقال: صحيح لكثرة طرقه.

✽ سئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم العبد الآبق على سيده الغضبان.

✽ رُئِيَ أحد الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا لم يُرَ مثل الكريم إذا حلَّ به مطيع.. الدنيا كلها شهر الصيام للمتقين وعيد فطرهم يوم لقاء ربهم... وصدق مَنْ قال:

وقد صُمت عن لذات دهرى كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ»^(١).

✽ فإن كنت تخشى على نفسك من الفتنة في الدين ووصل بك الأمر إلى أنك تتمنى الموت لا محالة فتمنى الموت بصفة يرضاها الله ﷻ.. وهذا ما أخبرك به النبي ﷺ أن تقول: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام نهى أن يتمنى الإنسان الموت للضر الذي نزل به، فكيف بمن يقتل نفسه إذا نزل به الضر!

كما يوجد من بعض الناس الذين إذا نزلت بهم المصائب خَنَقُوا أَنْفُسَهُمْ أَوْ نَحَرُوا أَوْ أَكَلُوا سُمًّا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنْ هُوَ لَا ارْتَحَلُوا مِنْ عَذَابٍ إِلَى أَشَدِّ مِنْهُ -إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﷻ شَيْئًا آخَرَ-.

لأن الذي يقتل نفسه يُعَذَّبُ بما قَتَلَ به نفسه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا كما جاء ذلك عن الرسول ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١١٥) كتاب الفتن، ومسلم (١٥٧) (٤٧/١٨) كتاب الفتن وأشرط الساعة، واللفظ لمسلم.

قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا، فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِ ﷺ قَالَ: شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لِيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَّابُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٣).
وفي رواية: «وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً».

❁ كان خباب ﷺ قيناً^(٤)، وأراد الله له الهداية مبكراً، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم^(٥)، فكان من المستضعفين الذين عذبوا بمكة لكي يرتد عن دينه.

وما إن وصل خبر إسلامه إلى «أم أنمار» - التي كانت تملكه - حتى مضت

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٧٨) كتاب الطب، ومسلم (١٠٩) كتاب الإيمان.

(٢) والتحقيق في هذه المسألة أن المتحرر إذا كان قد انتحر يأساً من رحمة الله فهو كافرٌ مُخَلَّدٌ في نار جهنم - والعياذ بالله - وإذا لم يكن يائساً من رحمة الله .. بل كان موحداً حسن الظن بالله عابداً يؤدي ما افترضه الله عليه .. لكنه أصابه بلاءٌ شديدٌ فلم يصبر فقتل نفسه فهو مرتكبٌ لكبيرة من الكبائر .. وهو في مشيئة الله .. إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ... ورحمته سبقت وغلبت غضبه ﷻ.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٦١٢) (٣٨٥٢) كتاب المناقب.

(٤) قيناً: حداًداً.

(٥) سير أعلام النبلاء (٤٧٩/٢).



إليه مع أخيها «سباع بن عبد العُزى» ومعهما مجموعة من فتيان «خُزاعة» ومضوا إلى خَبَاب وبعد أن تيقنوا من خبر إسلامه قاموا جميعًا بضربونه ويعذبونه أشد أنواع التعذيب.

فكانوا إذا اشتدت الهاجرة وكادت الشمس أن تُذيب الصخور أخرجوه إلى بطحاء مكة، ونزعوا عنه ثيابه وألبسوه دروع الحديد ومنعوا عنه الماء حتى إذا بلغ منه الجهد كل مبلغ طلبوا منه أن يكفر بدين محمد ﷺ وأن يقول خيرًا في اللات والعُزى... فيأبى خَبَاب بكل عزة وثبات أن يفعل ما يريدون.

❁ لقد كان حظ «خَبَاب» من العذاب كبيرًا، ولكن صبره وتضحيته من أجل الحق كانت أكبر وأعظم بكثير.

لقد كانوا يقاومون إيمانه بالعذاب، وكان هو يقاوم العذاب بالصبر والتضحية.

فكان المشركون يُذيقونه أنواعًا من التنكيل... يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة، وأضجعوه مراتٍ عديدة على فحامٍ ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا، حتى لا يستطيع أن يقوم^(١).

لقد حوّلوا كل الحديد الذي كان عنده يصنع منه السيوف إلى قيود وسلاسل يُحمى عليها في النار حتى تستعر وتتوهج ثم يُطوقون بها جسده ويديه وقدميه.

وكان ﷺ صابرًا محتسبًا.. لكنه لما اشتدَّ عليه العذاب في ذلك اليوم وذهب ليشتكى للنبي ﷺ ويطلب منه أن يدعو له ولأمثاله بالخلاص من ذلك العذاب صبره النبي ﷺ بذكر مَنْ ابتلى بأشد منه ثم فتح له ولأمثاله باب الأمل بأن التمكين قادم ولكنكم تستعجلون.

(١) رحمة للعالمين (١/ ٥٧).

إن النبي ﷺ لا يدخر جهداً في نصح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله ﷻ ووعد، فقد أتاه خباب بعد أن عذب هذا العذاب الأليم... والنبي ﷺ يعلمه بل ويعلم الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لا بُدَّ لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله ﷻ وأعزهم... فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات^(١).

وتلك هي سنة الله في عباده المؤمنين... تلك السنة التي لا تتبدل ولا تتغير أبداً.

قال تعالى: ﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١-٣].
وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

✽ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بُدَّ أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لمولاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويُخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشّه إلا بالامتحان... إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففى كير جهنم، فإذا هُذَّب العبد ونُقِيَ أُذن له في دخول الجنة^(٢).

✽ وفي هذا الحديث آية من آيات الله.. حيث وقع الأمر مطابقاً لما أخبر به

(١) مواقف إيمانية / د. أحمد فريد (ص: ٢٥٤) بتصرف.

(٢) زاد المعاد للإمام ابن القيم (١٨/٣).

النبي ﷺ حينما قال: « والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكبُ مِنْ صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلا الله والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون ».

وفيه أيضًا: دليل على وجوب الصبر على أذية أعداء المسلمين. وإذا صبر الإنسان ظفر!!

فالواجب على الإنسان أن يُقابل ما يحصل من أذية الكفار بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين أثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب وأثرهم يومئذ في القسمة.

فَقَالَ رَجُلٌ: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله.

فَقُلْتُ: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال: فتغير وجهه حتى كان كالصَّرف. ثم قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورَسُولُهُ؟» ثم قال: «يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر» فقلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً^(١).

✽ لما انتصر النبي ﷺ وأصحابه في غزوة حنين وغنم فيها غنائم كثيرة جدًا من إبل وغنم ودراهم ودنانير. ثم إن الرسول ﷺ نزل بالجعرانة وهي محلٌّ عند منتهى الحرم من جهة الطائف.

نزل بها وصار يُقسم الغنائم... وقسم في المؤلفة قلوبهم - أي في زعماء القبائل - يؤلفهم على الإسلام، وأعطاهم عطاءً كثيرًا حتى كان يُعطى الواحد منهم مائة من الإبل.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٥٠) كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٠٦٢) كتاب الزكاة.

وقوله: «كالصَّرف»: وهو صينغ أخمر.

فقال رجل من القوم: «والله إنَّ هذه قسمة ما عُدِلَ فيها وما أريد فيها وجه الله» ... نعوذ بالله!!

يقول هذا القول في قسمة قسمها رسول الله ﷺ ... لكن حُبَّ الدُّنيا والشَّيطان يوقع الإنسان في الهلكة.

هذه الكلمة كلمة كفر، أن ينسب الله ورسوله إلى عدم العدل وإلى أن النبي ﷺ لم يُرد بها وجه الله.

ولا شك أن النبي ﷺ أراد بها وجه الله ... أراد أن يؤلف كبار القبائل والعشائر من أجل أن يتقوى الإسلام، لأن أسياذ القوم إذا ألفوا الإسلام وقوى إيمانهم بذلك حصل منهم خيرٌ كثير وتبعهم على ذلك قبائل وعشائر، واعتز الإسلام بهذا. ولكن الجهل والعياذ بالله يُوقع صاحبه في الهلكة.

فعبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سمع هذه الكلمة تُقال في رسول الله ﷺ أخبره بها ورفعها إليه ... أخبره بأن هذا الرَّجل يقول كذا وكذا فتغير وجه الرسول ﷺ حتى كان كالصرف - أي كالذهب - من صُفرته وتغيُّره.

ثم قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله» وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام! إذا كانت قسمة الله ليست عدلاً وقسمة رسوله ﷺ ليست عدلاً فمن يعدل إذا!

ثم قال: «يرحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر».

وكان النبي ﷺ كان يتسلَّى ويتصبر بما حدث لإخوانه من الأنبياء من قبله.. فلقد قال له الله (جَلَّ وعلا): ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ففى هذا الحديث: دليل على أن للإمام أن يُعطى من يرى في عطيته المصلحة ولو أكثر من غيره، إذا كان في هذا مصلحة للإسلام!



وفيه: أن الرسول عليه الصلاة والسلام يعتبر بمن مضى من الرسل، ولهذا قال: لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر ... لأن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. ويقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]. فأمر الله نبيه أن يقتدى بهدى الأنبياء قبله. وهكذا ينبغي لنا نحن أن نقتدى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الصبر على الأذى وأن نحسب الأجر على الله وأن نعلم أن هذا زيادة في درجاتنا مع الاحتساب وتكفير لسيئاتنا^(١).



(٤٤) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(٣).

❁ لا شك أن مقاليد الأمور كلها بيد الخالق عز وجل. فقد قال الله عن نفسه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، وقال تعالى عن نفسه: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، والإنسان لا يخلو أبدًا من معصية أو خطأ أو تقصير في واجب.. فإن لم تتداركه رحمة الله ومغفرته لقي الله بتلك الذنوب والخطايا.. فإذا أراد الله بذلك العبد خيرًا عجل له العقوبة في الدنيا... إما في نفسه أو أهله أو ماله أو في أي شيء عزيز عليه.. المهم أن يعجل له العقوبة لتكون كفارة لسيئاته إذا سلم من التبرم من الأقدار.. فإذا عجل له العقوبة وكفر الله بها عن سيئاته فإن هذا العبد

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٢٤-١٢٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه الترمذی، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٣٠٨).

(٣) حسن: رواه الترمذی، وابن ماجه، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٢١١٠).

يَلْقَى اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ طَاهِرًا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي.. حَتَّى إِنَّهُ لَيُشَدَّدُ عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ مَوْتِهِ إِذَا كَانَ عِنْدَهُ بَعْضُ السَّيِّئَاتِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ.. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَرْبَابِ الْمُخَالَفَاتِ وَنَزَلَ بِهِ بَلَاءٌ كَانَ زِيَادَةً فِي دَرَجَاتِهِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ حَدِيثٌ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلَ».

لَكِنْ إِذَا أَرَادَ اللهُ بَعْدَهُ الشَّرَّ لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَى ذُنُوبِهِ فِي الدُّنْيَا بَلْ أَمْهَلَهُ وَاسْتَدْرَجَهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ النَّعْمَ وَدَفَعَ عَنْهُ الْبَلَايَا حَتَّى يَبْطُرَ وَيَفْرَحَ وَيَتَكَبَّرَ.. فإِذَا مَاتَ لَقِيَ رَبَّهُ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيُعَاقِبُهُ اللهُ عَلَيْهَا كَامِلَةً... فإِذَا رَأَيْتَ إِنْسَانًا يَبَارِزُ اللهُ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي وَقَدْ أَسْبَغَ اللهُ عَلَيْهِ النَّعْمَ وَدَفَعَ عَنْهُ النَّقْمَ وَالْبَلَايَا فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ أَرَادَ بِهِ شَرًّا؛ لِأَنَّ اللهَ قَدْ أَخَّرَ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

❦ وَأَمَّا حَدِيثٌ: «إِنْ عَظَّمَ الْجَزَاءَ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ».

يَعْنَى: أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الْبَلَاءُ شَدِيدًا كُلَّمَا كَانَ الْجَزَاءُ كَبِيرًا.. فَالْبَلَاءُ الْيَسِيرُ لَهُ أَجْرٌ يَسِيرٌ.. وَالْبَلَاءُ الشَّدِيدُ لَهُ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا صَبَرَ الْعَبْدُ عَلَى قَضَاءِ اللهِ وَلَمْ يَتَسَخَّطْ أَوْ يَعْتَرِضْ... وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّهُ إِذَا ابْتَلَى عِبَادَهُ بِالْبَلَاءِ الشَّدِيدِ فَإِنَّهُ يُعْطِيهِمُ الْأَجْرَ الْكَبِيرَ.. فإِذَا عَظَّمَ الْأَجْرَ هَانَتِ الْمَصَائِبُ. «وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»؛ لِأَنَّهُ لَوْ تَرَكَهُمْ وَزَهَرَتِ الدُّنْيَا رَبَّمَا اسْتَغْرَقَتْ فِيهَا قُلُوبُهُمْ فَاسْتَغْلَوْا بِهَا عَنْ رَبِّهِمْ (جَلَّ وَعَلَا) كَمَا حَدَّثَ لِلْكَفَّارِ وَأَرْبَابِ الْغَفَلَاتِ.. فَمَنْ أَرَادَ اللهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْهِ قَطَعَ عَنْهُ الْعَلَائِقَ وَأَنْزَلَ بِهِ أَنْوَاعَ الْبَلَايَا لَتَقُودَهُ إِلَى الرَّجُوعِ إِلَى مَوْلَاهُ ﷻ فِي كُلِّ سَاعَةٍ.

وَهَذِهِ بُشْرَى عَظِيمَةٌ لِلْمُؤْمِنِ.. أَنَّ اللهَ إِذَا ابْتَلَاهُ بِمَصِيبَةٍ فَلَا يَظُنُّ أَنَّ اللهَ يُبْغِضُهُ بَلْ قَدْ يَكُونُ هَذَا عَلَامَةً عَلَى مَحَبَّتِهِ لَهُ.

«فَمَنْ رَضِيَ» بِمَا جَرَى بِهِ الْقَدَرُ وَلَمْ يَتَبَرَّمْ وَلَمْ يَتَضَجَّرْ «فَلَهُ الرِّضَا» بِالْفَيْضِ

الرباني والثواب الجزيل والأجر الجميل.

«ومن سخط» من ذلك وتبرّم من تلك المقادير جرى المقدور؛ لأنه لا مانع لما أراد سبحانه «فله السُّخط» أى: باء بسخط الله وعقابه لا اعتراضه على الأقدار الإلهية والأحكام الربانية.. وليس ذلك من شأن العبيد؛ لأن الله يفعل ما يريد.

قال رسول الله ﷺ: «يُودُّ أَهْلَ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيطِ» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ ابْنُ، لأبَى طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَشْتَكِي، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ، فَقَبَضَ الصَّبِيَّ، فَلَمَّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قَالَ: مَا فَعَلَ ابْنِي؟ قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ وَهِيَ أُمُّ الصَّبِيِّ: هُوَ أَسْكَنَ مَا كَانَ، فَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ الْعِشَاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَتْ: وَاَرُوا الصَّبِيَّ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا» فَوَلَدَتْ غُلَامًا ... فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ: اَحْمِلْهُ حَتَّى تَأْتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَبَعَثَ مَعَهُ بَتَمَرَاتٍ، فَقَالَ: «أَمَعُهُ شَيْءٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، تَمَرَاتٌ فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فِيِّ الصَّبِيِّ ثُمَّ حَنَكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ (٢).

وفي رواية للبخاري: قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: فَرَأَيْتُ تِسْعَةَ أَوْلَادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ، يَعْنِي مِنْ أَوْلَادِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُؤَلُّودِ.

وفي رواية لمسلم: مَاتَ ابْنُ لَأبَى طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَحَدُهُ، فَجَاءَ فَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ عِشَاءً فَأَكَلَ وَشَرِبَ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا، فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ

(١) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨١٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٧٠) كتاب العقيقة، ومسلم (٢١٤٤) كتاب الآداب.

وَأَصَابَ مِنْهَا قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهَا؟ قَالَ: لَا، فَقَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ. قَالَ: فَغَضِبَ، ثُمَّ قَالَ: تَرَكْتَنِي حَتَّى إِذَا تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي بِابْنِي، فَاَنْطَلَقَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا».

قال: فَحَمَلْتُ، قال: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لَا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا فَدَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ، فَاحْتَبَسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ، وَاَنْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبِّ أَنَّهُ يُعَجِّبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ ﷺ وَأَدْخَلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ، وَقَدْ احْتَبَسْتُ بِمَا تَرَى. تقول أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ، اَنْطَلَقُ، فَاَنْطَلَقْنَا، وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَدِمَا فَوَلَدْتُ غُلَامًا. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ لَا يُرِضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ فَاَنْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

✽ نحن نعلم أن أبا طلحة كان قد تقدّم لأم سليم من أجل أن يتزوجها وعرض عليها ما لا كثيرًا فرفضت؛ لأنه كان مُشركًا فعرضت عليه أن يُسلم ليكون ذلك مهرًا لها.. فأسلم أبو طلحة فكان مهر أم سليم (الإسلام) وهو أعظم مهر عرفه التاريخ. فلما تزوجها أبو طلحة أنجبت له طفلًا جميلًا تعلق قلبه به.

وكان النبي ﷺ يزورهم ويُداعب هذا الطفل ويقول له: «يا أبا عُمَيْر ما فعل النُّعَيْر».

وفي يوم من الأيام مرض هذا الطفل الصغير.. فخرج أبو طلحة لبعض حاجاته.. فلما عاد كان الطفل قد مات وهو لا يعلم.

فلما رجع سأل أمّه عنه فقال: كيف ابني؟ قالت: «هو أسكن ما يكون» وصدقت في قولها... هو أسكن ما يكون لأنه مات ولا سُكون أعظم من الموت. وأبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهم أنه أسكن ما يكون من المرض وأنه في عافية.

فقدّمت له العشاء فتعشّى على أن ابنه برىء من المرض ... ثم أصاب منها -يعنى جامعها-، فلما انتهى قالت له: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهَا؟ قَالَ: لَا، فَقَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ.

فلما أصبح أبو طلحة رضي الله عنه وَوَارَى الصَّبِيَّ وعلم بذلك الرسول ﷺ. فسأل: «هل أعرستم الليلة؟». قال: نعم فدعا لهما بالبركة «اللَّهُمَّ بَارِكْ لهما في ليلتهما» فولدت غلامًا سمّاه عبد الله، وكان لهذا الولد تسعة أولاد كلهم يقرءون القرآن بركة دعاء الرسول ﷺ.

وفي هذا الحديث: أَنَّ الرسول ﷺ لما جاء أنس بن مالك بأخيه من أمِّهِ (ابن أبي طلحة) جاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام ومعه تمرات فأخذه النبي ﷺ ومضع التمرات ثم جعلها في فِي الصَّبِيِّ أَى: أدخلها في فمه وحنكه أَى: أدخل أصبعه وداره في حنكه وذلك تبرُّكًا بريق الرسول (عليه الصلاة والسلام) ليكون أول ما يَصِلُ إلى بطن هذا الصَّبِيِّ ريق الرسول (عليه الصلاة والسلام)... وكان الصحابة يفعلون هذا إذا وُلِدَ لهم أولاد بنين وبنات جاءوا بهم إلى رسول الله ﷺ وجاءوا بالتمرّات معهم من أجل أن يُحنكهم.

❁ لأن في ذلك فائدتين:

الأولى: بركة ريق النبي ﷺ وكان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بريق النبي ﷺ وبعرقه، حتى إنه من عاداتهم أنه إذا كان في الصباح وَصَلُّوا الفجر أتوا بآنية فيها ماء، فغمس الرسول ﷺ يديه في الماء، وعرك يديه في الماء، فيأتى الصبيان بهذا الماء، ثم ينطلقون به إلى أهلهم يتبركون بأثر النبي ﷺ.

وكان الصحابة إذا توضأ النبي عليه الصلاة والسلام كادوا يقتتلون على وضوئه ... أَى فضل الماء يتبركون به، وكذلك من عرقه وشعره.

حتى كان عند أم سلمة - إحدى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وإحدى أمهات المؤمنين - عندها جُلجل من فضة أَى مثل (الطابوق) فيه

شعرات من شعرات النبي ﷺ يستشفون بها ... أى: يأتون بشعرتين أو ثلاثٍ فيضعونها في الماء، ثم يُحركونها من أجل أن يتبركوا بهذا الماء ... لكن هذا خاص بالنبي (عليه الصلاة والسلام) ^(١).

الفائدة الثانية: من التمر الذى كان يحنكه الصبيان ... أن التمر فيه خير وبركة وفيه فائدة للمعدة فإذا كان أول ما يصيب الطفل مما يصل إلى معدته من التمر كان ذلك خيرًا للمعدة.

❁ ففى هذا الحديث: دليلٌ على قُوَّةِ صبر أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأن ابنها الذى مات بلغ بها الحال إلى أن تقول لزوجها هذا القول وتوارى هذه التورية وقدّمت له العشاء ونال منها ثم قالت: ادفنوا الولد.

وفى هذا الحديث: آية من آيات الله ﷻ حيث دَعَا النبي ﷺ لهذا الصبى فبارك الله فيه وفى عقبه وكان له كما ذكرنا تسعة من الولد كلهم يقرءون القرآن ببركة دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفيه: أنّه يُستحب التسمية بعبد الله ... فإن التسمية بعبد الله وبعبد الرحمن أفضل ما يكون.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ» ^(٢).
وأما ما يُروى أنّ: «خير الأسماء ما حُمِّدَ وَعُبِّدَ» ^(٣) فلا أصل له وليس حديثًا عن رسول الله ﷺ.

(١) مع التنبيه على أنه لا يعلم بقاء أى أثر من آثار النبي ﷺ لِيُتَبَرَّكَ بها ... وهذا من عظيم حكمة الله، درءًا لنازعة الشرك، وسدًا للذريعة ... وأيضًا لم يتبرك المسلمون بأبى بكر أو بعمر بعد الرسول، مما يدل على أن هذا خاص بالرسول ﷺ ... وراجع كتاب (التوسل - أنواعه وأحكامه) للعلامة الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه فريد فى بابه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٢) كتاب الآداب.

(٣) قال العجلونى فى كشف الخفا (٢٤٤): «قال السخاوى: وأما ما يُذكر على الألسنة «خير الأسماء ما حُمِّدَ أو عُبِّدَ» فباطل». اهـ.

ففي الحديث الصحيح: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ»^(١) لأنها مُطَابِقَةٌ لِلْوَاقِعِ.

فكل واحد من بنى آدم فهو حارث يعمل، وكل واحد من بنى آدم فهو هَمَامٌ يَهِيمُ وَيُنَوِي وَيَقْصِدُ وَلَهُ إِرَادَةٌ^(٢).

✽ فهذا موقف إيماني من أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مع أن النساء أشد هلعًا وجزعًا في مثل هذه المواقف، ولكنه الإيمان الذي يغيّر طبائع النفوس ويعلو بهمم العباد، ويرفعهم في الدنيا والآخرة... وعمّت بركة هذا الموقف الإيماني ذرية أبى طلحة وأم سليم ببركة دعوة النبي ﷺ... فكان في أولاد أولادهما تسعة كُلُّهُمْ خَتَمَ الْقُرْآنَ.

قال الحافظ: وفي قصة أم سليم هذه من الفوائد أيضًا: جواز الأخذ بالشدة وترك الرخصة مع القدرة عليها، والتسليّة عند المصائب، وتزئيم المرأة لزوجها وتعرضها لطلب الجماع منه، واجتهادها في عمل مصالحه، ومشروعية المعارض الموهمة إذا دعت الضرورة إليها، وشرط جوازها ألا تبطل حقًا لمسلم... وكان الحامل لأم سليم على ذلك المبالغة في الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء إخلافه عليها ما فات منها، إذ لو أعلمت أبا طلحة بالأمر في أول الحال تنكّر عليه وقته... ولم تبلغ الغرض الذي أرادته، فلما علم الله صدق نيتها بلغها مُنَاهَا وأصلح لها ذريتها... وفيه إجابة دعوة النبي ﷺ، وَأَنْ مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوْضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ، وبيان حال أم سليم من التجلّد وجودة الرأى وقوة العزم^{(٣)(٤)}.

﴿مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوْضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ﴾

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٤٠)، والكلم الطيب (٩٠٤).

(٢) بتصرف من شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ

(٣) فتح الباري (١/ ١٧١).

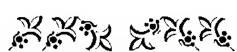
(٤) مواقف إيمانية (٣٠٤-٣٠٦).

(٤٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» ^(١).

✽ من المعلوم أن أكثر الناس يظنون أن الرجل الشديد هو الذي يمتلك قوة يستطيع من خلالها أن يصرع الرجال.. لكن النبي ﷺ يوضح لنا عكس ذلك.. وأن الشديد ليس هو الذي يصرع الرجال بل الشديد هو الذي يصرع نفسه ويملكها عند الغضب.

فالغضب سبب كل شر وبلاء.. فقد يغضب الإنسان ولا يملك نفسه عند الغضب فيضرب امرأته أو يطلقها.. وقد تكون هذه الطلقة الأخيرة فتضيع الزوجة ويتشرد الأولاد.. وقد يغضب فيخسر ماله بالحرق أو التكسير أو بغير ذلك.. وقد يغضب فيخسر أعز أصحابه أو يضرب ابنه وهو غضبان فيكسر عظامه أو يقتله..
فالغضب جمرة من جمرات الشيطان.

ولهذا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصني. قال: «لا تغضب». قال: أوصني. قال: «لا تغضب». قال: أوصني. قال: «لا تغضب» ^(٢).
ومن أجل ذلك نهى النبي ﷺ أن يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان.. لأن الغضب قد يمنع القاضى من أن يحكم بالعدل فيظلم أحد المتحاكمين إليه دون أن يدري.



(٤٧) وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَرَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ وَاحِدُهُمَا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ. وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١١٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٩) كتاب البر والصلة.

«وَالصُّرْعَةُ» بضم الصاد وفتح الراء، وأصله عند العرب من يصرع الناس كثيرا.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦١١٦) كتاب الأدب.

لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
 ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ». فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(١).
 ﴿هنا يحكى سليمان بن صُردٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.. فَهَنِيئًا
 لِكُلِّ مَنْ اكْتَحَلَتْ عَيْنَاهُ بَرُوءَةَ النَّبِيِّ ﷺ.﴾

فكان هناك رجلان يستبان.. أى: يسب كل واحدٍ منهما الآخر.. وكان
 أحدهما قد احمرَّ وجهه من شدة الغضب وانتفخت أوداجه.. والأوداج هى ما
 أحاط بالعُنق من العروق التى يقطعها الذابح عند الذبح.

فقال رسول الله ﷺ: «إِنِّى لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ».
 أى من شدة الغضب ببركة الكلمات وتأثير همته الشريفة فى دفع ذلك عنه.
 وهذا الحديث الشريف مُستمد من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ
 نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فما هى تلك الكلمة؟

قال ﷺ: «لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ».
 أى: أعتصم بالله من الشيطان الرجيم.. لأن ما أصابه من الغضب كان بسبب
 نفخ الشيطان.

وعلى هذا فالمشروع للإنسان أنه إذا غضب فعليه أن يكظم غضبه وأن
 يصبر وأن يستعِذ بالله من الشيطان الرجيم وأن يتوضأ؛ لأن الوضوء يُطفئ
 الغضب.

وإذا كان قائمًا فليقعد وإذا كان قاعدًا فليضطجع.. وإن خاف خرج من
 المكان الذى هو فيه حتى لا ينفذ غضبه فيندم حين لا ينفع الندم.

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٨٢) كتاب بدء الخلق، و(٦١١٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦١٠) كتاب
 البر والصلة والآداب.

(٤٨) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ يُزَوِّجُهُ مِنْهَا مَا شَاءَ»^(١).

(٤٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَوْصِنِي، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ» فَرَدَّدَ مَرَارًا قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»^(٢).

✽ من المعلوم أنه قد لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من الغضب مرارًا وتكرارًا كلما حدث شيء يستثير غضب الإنسان.. وكأن المعنى: لا تكن سريع الغضب يستثيرك كل شيء ولا تنفعل في غضبك انفعالا يتسبب في إيذاك أو إيذاء غيرك فتندم بعد ذلك.. بل كُن مطمئنًا متأنياً لأن الغضب جمرة يُلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يغلي القلب وينفعل الإنسان ويفعل ما لا يُحمد عقباه.

وإنما أوصى النبي ﷺ هذا الرجل ألا يغضب دون أن يوصيه بتقوى الله أو بالصلاة أو بالصيام أو ما أشبه ذلك، لأن حال هذا الرجل تقتضى ذلك، ولهذا أوصى غيره بغير هذا الشيء... أوصى أبا هريرة أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وأن يُوتر قبل أن ينام، وأوصى أبا الدرداء بمثل ذلك، أما هذا فأوصاه ألا يغضب... وأوصاه ألا يغضب لأن النبي ﷺ علم من حاله أنه غَضوبٌ كثير الغضب، فلذلك قال: «لَا تَغْضَبْ».

والغضب يحمل الإنسان على أن يقول كلمة الكفر، أو أن يُطلق زوجته، أو أن يضرب أمه، أو أن يعق أباه، كما هو مُشاهد ومعلوم.

والإنسان الذى يتعود على سرعة الغضب يصبح الغضب طبعاً فيه.. فإذا غضب اليوم من شيء فغداً يغضب من شيئين أو ثلاثة ويظل يتمادى في الغضب حتى يتهور فيسب الناس وقد يضربهم ويأتى يوم القيامة مُفلساً من الحسنات

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٦٥١٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦١١٦) كتاب الأدب.

بعد أن أخذها أصحاب المظالم.

✽ فاحرص على أن تتبعد عن أسباب الغضب إلا إذا كان الغضب لله ﷻ ولشرعه ... ولذلك كان الجهاد في سبيل الله ﷻ غلبة من المؤمنين لشرع رب العالمين سبحانه ... فيغضبون من الكفار ويجاهدون في سبيل الله، وأما الغضب من أمر الدنيا فلا تستدع أسبابه، ولا تغضب.

✽ ولذا فهذا الرجل طلب من النبي ﷺ أن يوصيه وصية وجيزة جامعة لخصال الخير ليحفظها عنه خشية أن لا يحفظها لكثرتها فوصاه النبي ﷺ أن لا يغضب. ثم ردّد هذه المسألة عليه مرارًا والنبي ﷺ يردد عليه هذا الجواب ... فهذا يدل على أن الغضب جماع الشر وأن التحرّز منه جماع الخير.

✽ ونحن نعلم أن الغضب سبب كل بلاء وشر.

فالغضب يُغضب الرحمن ويُرضى الشيطان ويؤدى إلى التقاطع وإفساد ذات البين ويتولد منه الحقد والحسد وقد يؤدى إلى ارتكاب الجرائم وحصول العداوات .. وكثيرًا ما يعقبه الندم ولكن بعد فوات الأوان.

✽ ومن أجل ذلك حذرنا النبي ﷺ من الغضب.

علاج الغضب

ولكى نستطيع أن نعالج الغضب فعلى كل من يغضب أن يفعل ما يلى:

(١) أن يذكر الله ﷻ، فيدعوه ذلك إلى الخوف منه، ويبعثه الخوف منه إلى طاعته، فعند ذلك يزول الغضب.

قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ بِكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] قال عكرمة: يعنى إذا غضبت.

(٢) أن يتحوّل من الحال التى كان عليها، فإن كان قائمًا جالس، وإن كان جالسًا اضطجع.

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»^(١).

(٣) أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ، والعفو والحلم، والاحتمال، فيرغب في ثواب ذلك، فتمنعه شدة الحرص على ثواب هذه الفضائل عن التشفي والانتقام، وينطفئ عنه غيظه.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرًا إِلَّا تُمَّ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] ... وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبداً ابتغاء وجه الله»^(٢).

(٤) أن يسكت لأنه يكون في هذه الحالة أقرب إلى الخطأ، فالسكوت أسلم. قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم فليسكت»^(٣).

(٥) أن يعلم أن القوة الحقيقية هي التحكم في النفس عند الغضب. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرْعَةِ»^(٤)، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٥).

(٦) أن يتذكر أن الشيطان هو الدافع له، والمُعِين عليه.

(٧) أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم، ومذمة الانتقام.

(٨) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمير العدو في هدم أعراضه،

والشماتة بمصائبه^(٦).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٤).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧٥٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٣).

(٤) «الصُّرْعَةُ»: بفتح الراء: الذي يصرعُ الناس ويغلبهم. و«الصُّرْعَةُ»: بسكون الراء: الضعيف الذي يصرعه الناس ويغلبونه.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٦١١٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٦) منهاج الطفل المسلم / د. محمود المصري (ص ٦٣-٦٥).

(٥٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةُ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»^(١).

قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء» بالمصائب والمتاعب نازلاً «بالمؤمن والمؤمنة في نفسه» بالمرض والفقر، والغربة، التي هي في الظاهر كربة، وإن نظرت إليها وأنها واردة إليك من أرحم الراحمين انقلبت من كونها محنة إلى كونها منحة «وولده» بالموت والمرض أو عدم الاستقامة أو نحوه مما يؤلم الوالد بحسب الطبع البشري «وماله» بالتلف ببعض الأسباب من حرق أو سرقة أو نحو ذلك «حتى» غاية لنزول البلاء بأرباب الإيمان... أي أن البلاء لا يزال بالإنسان -أي: الصابر كما يدل عليه لفظ المؤمن والمؤمنة- إلى أن يغفر الله له به الخطايا فـ «يلقى» أي المبتلى «الله تعالى» ولقاء الله كناية عن الموت «وما عليه خطيئة» أي ذنب.

وقوله خطيئة ظاهر عمومه شمول الكبائر والتبعات، فإن ثبت على ذلك وأنه مراد فذلك من محض فضل الكريم الجواد، إذ صالح العمل ومنه الصبر والاحتساب إنما يكفر الصغائر المتعلقة بحقوق الله تعالى^(٢).

ففيه دليل على أن المصائب في النفس والولد والمال تكون كفارة للإنسان، حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة، ولكن هذا إذا صبر. أما إذا تسخط فإن من تسخط فله السخط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥١) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فَتَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحَرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، فَاسْتَأْذَنْ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ. فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ: هِيَ

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی الصحیحة (٢٢٨٠)، وصحیح الجامع (٥٨١٥).

(٢) دليل الفالحين / محمد بن علان الصديقي الشافعي (١/ ١٦٥-١٦٦) بتصرف.

يا ابنَ الخطَّاب، فوالله ما تُعطينا الجَزَلَ ولا تَحْكُمُ فينا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ^(١).

✽ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الخليفة الثاني بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.. وكان يسير على سيرته في الزهد والعدل والرحمة والتواضع.

وكان عمر رضي الله عنه يُقَرَّبُ مِنْهُ الصَّالِحِينَ وَالْعُلَمَاءُ فِي مَجْلِسِهِ.. وَكَانَ أَكْثَرَ جُلَسَائِهِ الْقُرَّاءَ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ.. سِوَاءَ كَانُوا شِوْخًا أَوْ شَبَابًا.. وَكَانَ يُشَاوِرُهُمْ وَيَتَنَاقَشُ مَعَهُمْ فِي قَضَايَا الْأُمَّةِ مِنْ أَجْلِ جَلْبِ الْخَيْرِ لِلْأُمَّةِ.

وهكذا ينبغي أن يحرص كل حاكم على أن يكون جُلَسَاؤُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ؛ لِأَنَّهُ إِنْ صَحِبَ الصَّالِحِينَ نَفَعَ اللَّهُ بِهِ الْأُمَّةَ.. وَإِنْ صَحِبَ الطَّالِحِينَ هَلَكَ وَأَهْلَكَ الْأُمَّةَ.

المهم أن عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنِ نَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَهُ مِنْ أَجْلِ الدَّخُولِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ رضي الله عنه فاستأذن له ثم دخل معه.. فلما دخل عليه عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَكَانَ مِنْ كِبَارِ قَوْمِهِ فَقَالَ لِعُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ: هَيْهَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ فِيْنَا بِالْعَدْلِ.

فغضب عمر رضي الله عنه؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا بِالْعَدْلِ.. نَعَمْ.. لَقَدْ غَضِبَ عُمَرُ وَهَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ شَيْئًا مِنَ الْعُقُوبَةِ لَجَفَائِهِ وَسُوءِ أَدَبِهِ مَعَهُ.

ولكن ابن أخى عيينة بن حصن (الحُرُّ بْنُ قَيْسٍ) قال له: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٦٤٢) كتاب تفسير القرآن، و(٧٢٨٦) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

الجزل: العطاء الكثير - خذ العفو: الحلم والصفح - العرف: المعروف.



فوقف عندها عمر رضي الله عنه ولم يتجاوزها لأنه كان وقفاً عند كتاب الله ﷻ.
 فوقف عمر رضي الله عنه ما ضرب الرجل وما بطش به لأجل الآية التي تليّت عليه.
 وانظر إلى أدب الصحابة رضي الله عنهم عند كتاب الله لا يتجاوزون.
 إذا قيل لهم: هذا قول الله وقفوا، مهما كان.
 فقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: خذ ما عفا من الناس وما تيسر ولا تطلب
 حَقَّكُ كُلَّهُ لَأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَكَ.
 وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي أُمِّر بما عرفه الشرع وعرفه الناس، ولا تأمر
 بمنكر، ولا بغير العرف ... لأن الأمور ثلاثة أقسام:

(١) منكر يجب النهي عنه.

(٢) وعُرفٌ يُؤمَرُ به.

(٣) وما ليس بهذا ولا بهذا فإنه يسكت عنه.

وأما قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فالمعنى أن مَنْ جهل عليك وتطاول
 عليك فأعرض عنه، لا سيما، إذا كان إعراضك ليس ذُلًّا وخُتُوْعًا^(١).

ثم قال له: وإن هذا من الجاهلين.

فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن عفى عنه ولم يُعاقبه؛ لأنه كان وقفاً عند كتاب
 الله ﷻ ... ولذا فإنه ينبغي لك إذا جهل عليك أحدٌ أو أغضبك أن تتذكر كتاب
 الله وسنة رسول الله ﷺ من أجل أن تسير على هدى رسول الله ﷺ الذي ضرب
 للكون كله المثل والأسوة والقدوة في العفو والصفح ممثلاً قول الله ﷻ:
 ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣١) وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿

[فصلت: ٣٤-٣٥]

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٣٥) بتصرف.

(٥٢) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أصحابه أنه ستكون بعده أثره.. أى بعد موته ﷺ ستكون بعده أثره.. أى استئثار بالشئ عمّن له فيه حق.

ويقصد بذلك النبى ﷺ أنه سوف يكون هناك ولاة على المسلمين يستأثرون بأموال المسلمين وينفقونها حيث شاءوا ويمنعون المسلمين من حقهم فيها... وهذا لا شك أنه ظلمٌ للمسلمين بحرمانهم من حقوقهم.

فقالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟

فلم يطلب منهم النبى ﷺ أن يحاربوهم أو يخرجوا عليهم بل قال لهم ﷺ: «تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ».

يعنى: لا يمنعكم استئثارهم بالمال أن تؤدوا الحق الذى عليكم من السمع والطاعة وعدم الخروج عليهم وعدم التشويش عليهم... فأوصاهم النبى ﷺ بالسمع والطاعة والصبر على هذا الظلم وعدم منازعتهم الأمر.

ثم قال لهم: «وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ» أى: اسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدوا الحق الذى عليهم لكم... وهذا من حكمة النبى ﷺ؛ لأنه ﷺ يعلم أن الناس لا يصبرون على هذا الظلم والحرمان من حقوقهم.. وأن استئثار الولاة بالمال دون الرعية يُوجب أن تثور الرعية لتطالب بحقوقها.. ولكن الرسول ﷺ أمرهم بالصبر وبأداء الحق الذى عليهم ثم اللجوء إلى الله بأن يسأله سبحانه وتعالى الحق الذى لهم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٣) كتاب الإمارة.

«وَالْأَثَرَةُ»: الانفراد بالشئ عمّن له فيه حق.

ولا بد أن نعلم هنا أنه كما نكون يُولى علينا.

فإذا أسأنا فيما بيننا وبين الله فإن الله ﷻ يُسلِّط علينا من يستأثر علينا ويظلمنا.. كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَصِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[الأنعام: ١٢٩].

وإذا أصلحنا ما بيننا وبين الله يسر الله لنا ولاة صالحين ينشرون العدل والرحمة بين الرعية.

قال رجلٌ لعلی بن أبی طالب رضی اللہ عنہ: لماذا كثرت الفتن في عهدك ولم تكن كذلك في عهد أبی بكرٍ وعمر رضی اللہ عنہما؟! ... فقال له علی رضی اللہ عنہ: لأن أبا بكرٍ وعمر كانا ولاة على أمثالي وأنا والٍ على أمثالك.

ومع ذلك نقول: أنه لا شك أن صلاح الراعى هو الأصل.. وأنه إذا صلح الراعى صلحت الرعية كلها.. لأن له سلطة يستطيع من خلالها تقويم المعوج وتأديب المسيء ومنع الظلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣) وَعَنْ أَبِي يَحْيَى أَسِيدِ بْنِ حُضَيْرٍ رضی اللہ عنہ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمِلْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»^(١).

وفي هذا الحديث يُخبر أسيد بن حضير رضی اللہ عنہ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي كَمَا اسْتَعْمِلْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا... أَى: أَلَا تَجْعَلْنِي عَامِلًا عَلَى بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ كَمَا اسْتَعْمِلْتَ فُلَانًا فَجَعَلْتَهُ عَامِلًا عَلَى أَحَدِ الْبُلْدَانِ: فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَهُ» أَى: اسْتَثَارَ بِالْأَمْرِ وَالْحُكْمِ وَالْوَلَايَةِ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧٩٢) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٥) كتاب الإمارة.

«وَأَسِيدٌ بِضَمِّ الهمزة. «وَحُضَيْرٌ» بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ مضمومة وضادٌ مُعْجَمَةٌ مفتوحة، والله أعلم.

«فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ» أى: عليكم أن تصبروا ولا تُنازعوا أحداً على المُلْك أو الولاية حتى تلقوني على الحوض يوم القيامة فتشربوا من يدى شربة هنيئة مريئة لا تظمأون بعدها أبداً.. ثم إذا دخلتم الجنة سترون المُلْك العظيم الذى لا يُنازعكم فيه أحد أبداً.

❁ وما أجمل أن يكون اللقاء مع النبى ﷺ على الحوض.. فإنه يُحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا وأعطش ما كانوا وأعرى ما كانوا.. فيقفون فى أرض المحشر حفاة عُراة غُرلاً غير مختونين... والشَّمْس تدنو من الرؤوس حتى تكون كمقدار ميل.

فيشتد العطش على الناس أكثر وأكثر.. ويطول الوقوف والانتظار وقد ازدحمت الأمم من لدُن آدم ﷺ إلى آخر رجل يموت فى هذا الكون... واشتاق النَّاس جميعاً إلى شربة ماء بعد أن تشقت حلوقهم من العطش.

❁ وهنا يظهر لكل أمة حوض نبيها.. فيشرب منه أتباعه الذين آمنوا معه ويُحرَم منه الذين كفروا فتطردهم الملائكة عن الحوض.

❁ ويظهر حوض نبينا لأمته فيهرع الناس إليه.. فمنهم مَنْ يشرب - وهم أهل الإيمان - ومنهم مَنْ يُطرد - وهم الذين ارتدوا عن دينه والذين ابتدعوا فى دينه.

❁ وحوض النبى ﷺ واسع الأرجاء.. ماؤه أبيض من اللبن وطعمه أحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك.. كيزانه عدد نجوم السماء.. تَرْدُ عليه أمتة ﷺ.. فمن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٤) وَعَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فى بعض أَيَّامِهِ التى لَقِيَ فيها الْعَدُوَّ، اُنْتَظَرَ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ

الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١).

✽ عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في بعض غزواته فانتظر حتى زالت الشمس، وذلك من أجل أن تقبل البرودة ويكثر الظل وينشط الناس، فانتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم خطيباً.

وكان ﷺ يخطب الناس خطباً دائمة ثابتة كخطبة يوم الجمعة، وخطباً عارضة إذا دعت الحاجة إليها قام فخطب عليه الصلاة والسلام... وهذه كثيرة جداً، فقال في جملة ما قال: «لا تتمنوا لقاء العدو».

أى: لا ينبغي للإنسان أن يتمنى لقاء العدو ويقول: اللهم ألقني عدوى. ✽ قال الإمام النووي رحمته الله: إِنَّمَا نَهَى عَنْ تَمَنَّى لِقَاءِ الْعَدُوِّ لِمَا فِيهِ مِنْ صُورَةِ الْأَعْجَابِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى النَّفْسِ، وَالْوُثُوقِ بِالْقُوَّةِ، وَهُوَ نَوْعٌ بَغْيٌ، وَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ بَغَى عَلَيْهِ أَنْ يَنْصُرَهُ... وَلِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ قِلَّةَ الْإِهْتِمَامِ بِالْعَدُوِّ وَاحْتِقَارَهُ، وَهَذَا يُخَالِفُ الْإِحْتِيَاطَ وَالْحَزَمَ.

«وَأَسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ» أى: قل اللهم عافنى.

وَقَدْ كَثُرَتْ الْأَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِسُؤَالِ الْعَافِيَةِ، وَهِيَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْعَامَّةِ الْمُتَنَاوِلَةِ لِدَفْعِ جَمِيعِ الْمَكْرُوهَاتِ فِي الْبَدَنِ وَالْبَاطِنِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ الْعَامَّةَ لِي وَلِأَحِبَّائِي وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ.

«فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ» وَابْتَلَيْتُمْ بِذَلِكَ «فَاصْبِرُوا» هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الْحَدِيثِ أى:

اصبروا على مقاتلتهم واستعينوا بالله عز وجل وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا. فَهَذَا حَتْ عَلَى الصَّبْرِ فِي الْقِتَالِ وَهُوَ آكَدُ أَرْكَانِهِ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آدَابَ الْقِتَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَّوْا
فَنَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا
مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» .

فَمَعْنَاهُ: ثَوَابُ اللَّهِ، وَالسَّبَبُ الْمَوْصُلُ إِلَى الْجَنَّةِ عِنْدَ الضَّرْبِ بِالسُّيُوفِ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَشَى الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَاحْضَرُوا فِيهِ بِصَدَقٍ وَاثْبُتُوا^(١) .

فالجنة تحت ظلال السُّيُوفِ التي يحملها المجاهد في سبيل الله. وإن
المجاهد في سبيل الله إذا قُتِلَ صار من أهل الجنة ... كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا
تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ فَرِحِينَ بِمَا
ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ مَنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرَى السَّحَابِ وَهَازِمَ
الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَأَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» وهذا دُعَاءٌ يَنْبَغِي لِلْمُجَاهِدِ أَنْ يَدْعُو بِهِ إِذَا لَقِيَ
الْعَدُوَّ .

فهنا توسل الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات الشرعية والآيات الكونية.
توسَّلَ بِإِنْزَالِ الْكِتَابِ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَوْ يَشْمَلُ كُلَّ كِتَابٍ وَيَكُونُ الْمُرَادُ
بِهِ الْجَنَسُ أَيْ: مَنْزِلَ الْكُتُبِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى غَيْرِهِ .
«وَمُجْرَى السَّحَابِ» هذه آية كونية، فالسحاب المُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
لَا يُجْرِيهِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ .

لو اجتمعت الأمم كلها بآلاتها ومعداتها على أن تُجْرِيَ هذا السحاب أو أن

(١) مسلم بشرح النووي (١٢/٦٨-٦٩) بتصرف .

تصرف وجهه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وإنما يُجرّيه مَنْ إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

«وهازم الأحزاب» فَإِنَّ اللَّهَ هَزَمَهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَهْزِمُ الْأَحْزَابَ.

ومنه: أَنَّ اللَّهَ هَزَمَ الْأَحْزَابَ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ، وَالتَّى قَدْ تَجَمَّعَ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ لِيُقَاتِلُوا الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هَزَمَهُمْ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ رِيْحًا وَجُنُودًا زَلَزَلَتْهُمْ وَكَفَّاتْ قُدُورَهُمْ وَأَسْقَطَتْ خِيَامَهُمْ وَصَارَ لَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/١٣٩) بتصرف.

(٤) باب الصدق

❦ قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩]

أى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فى أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ... الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خالية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهذى إلى البر، وإن البر يهذى إلى الجنة^(١).

❦ وقال الله تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

هذه فى جملة الآية الطويلة التى ذكرها الله فى سورة الأحزاب وهى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. فذكر الله الصادقين والصادقات فى مقام الثناء وفيما لهم من الأجر العظيم.

❦ وقال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾.

أى لو عاملوا الله بالصدق لكان خيراً لهم ولكن عاملوا الله بالكذب فنافقوا وأظهروا خلاف ما فى قلوبهم وعاملوا النبى ﷺ بالكذب فأظهروا أنهم متبوعون له وهم مخالفون له. فلو صدقوا الله بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم لكان خيراً لهم ولكنهم كذبوا الله فكان شراً لهم.

(١) تيسير الكريم الرحمن / الشيخ عبد الرحمن السعدى رَحِمَهُ اللهُ (ص ٣٩٦).

وقال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

فدل ذلك على أن الصّدق أمره عظيم وأنه محلّ للجزاء من الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٥٥) فالأول: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١).

✽ ما أجمل أن يكون المؤمن صادقًا... فالمؤمن لا يكذب ... ولماذا يكذب وهو يعلم أن الله يعاقب الكذابين في الدنيا ويعذبهم في الآخرة.

✽ وكيف لا يكون صادقًا وهو يعلم أن الصادق حبيب الرحمن وأن الله يحبه ويرضى عنه ويدخله جنته.

✽ وكيف لا يكون صادقًا وهو يعلم أن أسوته وقدوته هو الحبيب محمد ﷺ الذي كان الناس يسمونه بالصادق الأمين.

✽ إن الله ﷻ يحض عباده المؤمنين على أن يكونوا مع الصادقين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

[التوبة: ١١٩].

✽ بل ويوضح الحق (جل وعلا) أن الصّدق ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

✽ ومن ثمّ فإنه (سبحانه وتعالى) يحذرنا من الكذب فإن الكذب يشين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

صاحبه في الدنيا والآخرة... قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَقِيمَةَ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]

- والآيات التي تحض على الصدق وتحذر من الكذب كثيرة كثيرة.

❁ قوله ﷺ: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ» أي: إن الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال يهدي إلى البر.. فالصدق يكون باللسان وكذلك بالأركان وبالأحوال.. فمن كان صادقاً في كلامه ومن كانت أحواله وأفعاله مُطابقة لكلامه فهو الصادق.. فإن كان كذلك فإن هذا الصدق يهدي إلى البر.

أي العمل الصالح الخالص من كل مذموم... والبر: اسم جامع للخير كله، وقيل البر الجنة، ويجوز أن يتناول العمل الصالح والجنة.

«وإن البر يهدي إلى الجنة» فصاحب البر يهديه برّه إلى الجنة... ولذلك فإن المسلم يحرص دائماً على أن يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار.

❁ وقوله: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا».

وفي رواية: «ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا».

الصَّدِّيقُ في المرتبة الثانية من الذين أنعم الله عليهم... كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]. فالرجل الذي يتحرى الصدق يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ومعلوم أن الصَّدِّيقَ درجة عظيمة لا ينالها إلا أفاضل الناس.

وتكون في الرجال وتكون في النساء... قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

وأفضل الصَّدِّيقين على الإطلاق أصدقهم، وهو أبو بكر رضي الله عنه، عبد الله بن عثمان بن أبي قحافة الذي استجاب للنبي ﷺ حين دعاه إلى الإسلام ولم

يحصل عنده أى تردّد وأى توقّف ... بمجرد ما دَعاہ الرسول ﷺ إلى الإسلام أسلم، وصدّق النبی ﷺ حين كذبه قومه، وصدّقه حين تحدث عن الإسراء والمعراج، وكذّبه الناس وقالوا: كيف تذهب يا محمد من مكة إلى بيت المقدس وترجع في ليلة واحدة ثم تقول إنك صعدت إلى السماء هذا لا يمكن! ثم ذهبوا إلى أبى بكر وقالوا له: أما تسمع ما يقول صاحبك؟ قال: ماذا قال؟ قالوا: إنّه قال كذا وكذا، قال: «إن كان قد قال ذلك فقد صدق»، فمنذ ذلك اليوم سُمى الصّدّيق (رضي الله عنه).

❖ وقوله: «وإنّ الكذب يهدى إلى الفجور» الفجور يعنى الخروج عن طاعة الله ... لأنّ الإنسان يفسق ويتعدّى حدوده ويخرج عن طاعة الله إلى معصيته ... وأعظم الفجور الكفر.

فإن الكفرة فجرة كما قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا سَمِعْتُمْ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾﴾ [المطففين: ٧، ١١]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤].

فالكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار.

❖ وقوله: «وإنّ الرّجل ليكذب» وفي لفظ: «لا يزال الرّجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» والكذب من الأمور المحرّمة ... بل قال بعض العلماء:

إنّه من كبائر الذنوب لأن الرسول ﷺ توعده بأنه يكتب عند الله كذاباً.

فالكذب كله حرام، وكله يهدى إلى الفجور ولكن يُستثنى منه ما ورد في الحديث أنّه يُستثنى من ذلك ثلاثة أشياء: في الحرب والإصلاح بين الناس وحديث المرأة زوجها وحديثه إياها.

ولكن بعض أهل العلم قال: إنَّ المراد بالكذب في هذا الحديث التَّورية وليس الكذب الصريح.

وقال: التَّورية قد تُسمَّى كذبًا كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ: ثُنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ ﷻ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وواحدة في شأن سارة...»^(١) الحديث ... وهو لم يكذب وإنما ورَّى تورية هو فيها صادق.

وسواء كان هذا أو هذا فإن الكذب لا يجوز إلا في هذه الثلاث على رأى كثير من أهل العلم.

وأشدُّ شيء في الكذب أن يكذب ويحلف ليأكل أموال الناس بالباطل، مثل أن يدَّعى عليه بحق ثابت فينكر ويقول: والله مَالِكٌ عَلَىَّ حق، أو يدَّعى ما ليس له فيقول: لى عندك كذا وكذا وهو كاذب ... فهذا إذا حَلَفَ على دعواه وكذب فإن ذلك هو اليمين الغموس التى تغمس صاحبها في الإثم ثم تغمسه في النار والغياذ بالله.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لِقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»^{(٢)(٣)}.

﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ يَقُولُ بَلَغَ أَشُدُّكَ﴾

(٥٦) الثَّانِي: عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعِ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ، فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَالْكَذِبَ رَيْبَةٌ»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٢٧١) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ١٦١-١٦٣) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٧٨).

قَوْلُهُ: «يَرِيْبُكَ» هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا، وَمَعْنَاهُ: اَتْرُكُ مَا تَشْكُ فِي حِلِّهِ، وَاعْدِلْ إِلَى مَا لَا تَشْكُ فِيهِ.

✽ قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلِ الشَّيْخِ:

هَذَا الْحَدِيثُ عَظِيمٌ أَيْضًا، وَهُوَ فِي الْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: «فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ». فَهَذَا الْحَدِيثُ قَالَ فِيهِ الْحَسَنُ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ «دَعِ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ».

«دَعِ مَا يَرِيْبُكَ» يَعْنِي: مَا تَشْكُ فِيهِ، وَلَا تَطْمَئِنُّ لَهُ، وَتَخَافُ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الرَّيْبَ هُوَ الشُّكُّ وَعَدَمُ الطَّمَأْنِينَةِ.

يَعْنِي: إِذَا أَتَاكَ أَمْرٌ فِيهِ عَدَمُ طَمَأْنِينَةٍ لَكَ، أَوْ أَنْتَ إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ، أَوْ إِذَا أَرَدْتَ عَمَلَهُ، اسْتَرَبْتَ مِنْهُ، وَصَرْتَ فِي خَوْفٍ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، فَدَعِهِ إِلَى شَيْءٍ لَا يَرِيْبُكَ؛ لِأَنَّ الْاسْتِبْرَاءَ مَأْمُورٌ بِهِ ... فَتَرَكَ الْمَشْتَبَهَاتِ إِلَى الْيَقِينِ هَذَا أَصْلُ عَامٍ ... وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلٌّ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ الْمَرْءَ يَبْحَثُ عَنِ الْيَقِينِ؛ لِأَنَّ فِيهِ الطَّمَأْنِينَةَ، وَإِذَا حَصَلَ لَهُ الْيَقِينُ سِيدَعَ مَا شَكَّ فِيهِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ خَيْرٌ تَطْمَئِنُّ لَهُ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ، فَأَنْتَ تَأْتِي إِلَى مَا تَتَلَفُظُ بِهِ مِنْ أَقْوَالٍ، فَتَزْنِي بِهَذَا الْمِيزَانَ، مَا تَأْتِيهِ مِنْ أَعْمَالٍ فَتَزْنِي بِهَذَا الْمِيزَانَ، وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ وَهُوَ بَدَاخِلُهُ غَيْرُ مُرْتَاحٍ لَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَغْشَاهُ، فَهَذَا مُخَالَفٌ لِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ ... كَذَلِكَ أَعْمَالٌ لَا يَرْتَاحُ لَهَا، أَوْ صَحْبَةٌ لَا يَرْتَاحُ لَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ يَأْتِيهَا وَهُوَ غَيْرُ مُطْمَئِنٍّ لَذَلِكَ، وَهَذَا - لَا شَكَّ - أَنَّهُ مُخَالَفَةٌ لِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ: «دَعِ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ» وَهَذَا تَوْجِيهِ نَبِيِّ عَظِيمٍ الْفَائِدَةِ عَظِيمٍ الْعَائِدَةِ ... وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - يَسْتَعْمِلُونَ هَذَا ... وَهَذَا الْحَدِيثُ أَصْلٌ فِي الْوَرَعِ، أَصْلٌ فِي تَرْكِ الْمَشْتَبَهَاتِ، أَصْلٌ فِي التَّخَوُّفِ مِنَ

أى نوع من الحرام. والورع سهل... قال بعض السلف: «إذا أتانى أمر وفيه ريبة تركته، وما أسهلها على النفس».

وهذا - ولا شك - عند نفس المؤمن الذى أحبب لربه، فإنه إذا أتاه ما يريبه يتركه، ويكون فى ذلك راحة النفس وطمأنينة القلب، وهذا أمرٌ واضح فى الشريعة^(١).

✽ وهذا الحديث من أحاديث الأربعين النووية وهو حديث جامع مهم وهو باب عظيم من أبواب الورع والاحتياط.

وقد سلك أهل العلم - رحمهم الله - فى أبواب الفقه هذا المسلك وهو الأخذ بجانب الاحتياط وذكروا لذلك أشياء كثيرة.

منها: إنسان أصاب ثوبه نجاسة، ولا يدرى هل هى فى مقدم الثوب أو فى مؤخره... إن غسل المقدم صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون فى مؤخر الثوب، وإن غسل المؤخر صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون فى مقدم الثوب! فما هو الاحتياط؟

الاحتياط أن يغسل مقدمه ومؤخره حتى تزول ريبته ويطمئن.

✽ قال النبى ﷺ: «فإنَّ الصَّدقَ طَمَأْنِينَةٌ» وهذا وجه الشاهد من هذا الحديث لهذا الباب.

فالصَّدق طمأنينة لا يندم صاحبه أبداً، ولا يقول ليتنى وليت؛ لأنَّ الصَّدق منجاة والصَّادقون يُنجيهم الله بصدقهم... وتجد الصَّادق دائماً مطمئناً لأنه لا يتأسف على شىء حصل أو يحصل فى المستقبل لأنه قد صدق، و«مَنْ صدَّقَ نجاً». أما الكذب فبيّن النبى عليه الصلاة والسلام أنه ريبة ولهذا تجد أول مَنْ يرتاب هو الكاذب نفسه... فيرتاب هل يصدقه الناس أو لا يُصدَّقونه.

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٣١-١٣٢).

إذا... نأخذ من هذا الحديث أنه يجب على الإنسان أن يدع الكذب إلى الصدق لأن الكذب ريبة والصدق طمأنينة وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧) الثالث: عن أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل... قال هرقل: فماذا يأمركم - يعني: النبي ﷺ - قال أبو سفيان: قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق، والعفاف، والصلة»^(١).

✽ أبو سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه ولد قبل عام الفيل بعشر سنين، وأسلم ليلة الفتح وكان من المؤلفة، ثم حسن إسلامه. وشهد حنيناً وأعطاه ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية، وأعطى لابنيه يزيد ومعاوية، فقال أبو سفيان: «والله إنك لكريم فذاك أبي وأمي، ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فنعم المسلم أنت، فجزاك الله خيراً» ثم شهد الطائف وفقت عينه يومئذ وفقت عينه الأخرى يوم اليرموك... استعمله النبي على نجران، فمات النبي ﷺ وهو عليها.

قدم أبو سفيان ومعه جماعة من قريش إلى هرقل في الشام، وهرقل كان ملك النصارى في ذلك الوقت وكان قد قرأ في التوراة والإنجيل وعرف الكتب السابقة وكان ملكاً ذكياً، فلما سمع بهم أي بأبي سفيان ومن معه وهم قادمون من الحجاز دعاهم وجعل يسألهم عن حال النبي ﷺ وعن نسبه وعن أصحابه وعن توقييرهم له، وعن وفائه ﷺ وكلما ذكر شيئاً أخبروه فعرف أنه النبي الذي أخبرت به الكتب السابقة، ولكنه والعياذ بالله شح بملكه فلم يسلم للحكمة التي أرادها الله ﷻ^(٢).

المهم أن هرقل سأل أبا سفيان عن النبي ﷺ فقال له: فماذا يأمركم؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/١٦٤-١٦٥) بتصرف كبير.

فقال له أبو سفيان: يقول - أى النبى ﷺ -: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» أى: يعبدوا الله وحده ولا يعبدوا معه ملكًا ولا رسولًا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا غير ذلك؛ لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده.. وهذا ما جاءت به الرسل جميعًا.

قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الشِّرْكَ﴾ [النحل: ٣٦]. أى: اعبدوا الله واجتنبوا الشرك.

هذه دعوة الرسل ... فجاء النبى ﷺ بما جاءت به الأنبياء من قبله.

﴿واتركوا ما يقول آبائكم﴾ أى: اتركوا كل ما كان عليه آبائكم من عبادة الأصنام وفعل الفواحش وغيرها مما جاء الإسلام بتحريمه.

وهى كلمة جامعة لترك ما كانوا عليه فى الجاهلية ... وإنما ذكر الآباء تنبيهًا على عذرهم فى مخالفتهم له ؛ لأن الآباء قدوة عند الفريقين: أى عبدة الأوثان والنصارى.

وأما ما كان عليه آبائهم من الأخلاق الفاضلة كالشجاعة والكرم فإنه لم يأمرهم بتركها.

﴿وقوله: «وَكَانَ يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ» الصَّلَاةُ صَلَوةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ وَهِيَ أَكْدَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَبِهَا يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ، فَهِيَ الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(١).

﴿وقوله: «وَيَأْمُرُنَا بِالصَّدَقِ» وهذا هو الشاهد من الحديث وهذا كقوله

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٤٣).

تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]
والصدق قسمان: صدق مع الله، وصدق مع عباد الله... وِضْدُ الصِّدْقِ الكذب،
وهو الإخبار بخلاف الواقع، وهو من أخلاق المنافقين.
كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ - وذكر منها- إِذَا
حَدَّثَ كَذَبَ»^(١).

❁ وقوله: «وَالْعَفَافِ» أى: العفة... والعفة نوعان:
عفة عن شهوة الفرج.. وعفة عن شهوة البطن.
فأما العفة عن شهوة الفرج فقد حرم الله الزنا وكل ما يُوصل إليه.
قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]
ومن أجل ذلك اتخذت الشريعة الإسلامية اتجاهين لضمان عدم وقوع
أفرادها في الزنا:
الأول: اتجاه وقائي يمنع من وقوع الفاحشة عن طريق سدِّ المنافذ المؤدية
إليها سَدًّا مُحْكَمًا.
الثاني: اتجاه علاجي عن طريق تيسير سُبُلِ التَعَفُّفِ من خلال الزواج
الحلال.

❁ فأما الضمانات الوقائية فهي:

- أن الله منع الزواج ممن عُرِفَ (أو عُرِفَتْ) بالفاحشة إذا لم يَتُبْ.
- أن الله حرم حُبِّ إشاعة الفاحشة في البلاد وبين العباد.
- أن الله فرض الحجاب على النساء وحرَمَ التبرج.
- تشريع الاستئذان والأمر بغَضِّ البصر.
- تحريم مَسِّ المرأة الأجنبية ومصافحتها.

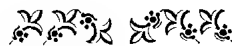
(١) متفق عليه زواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.



- تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.
- قرار المرأة في بيتها وعدم خروجها إلا لضرورة.
- تحريم سفر المرأة بغير محرم.
- تحريم خروج المرأة متعطرة.
- تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها.
- عدم وصف المرأة لامرأة أخرى.
- تحريم الخضوع بالقول.
- الحض على الزواج لمن استطاع إليه سبيلاً.. والحض على الصيام لمن لم يستطع إليه سبيلاً.
- ✽ وأما النوع الثاني من العفاف: فهو العفاف عن شهوة البطن.. أى: العفاف عن أكل الحرام والعفاف عما في أيدي الناس.
- بحيث لا يسأل الإنسان أحداً شيئاً؛ لأن السؤال مذلة والسائل يده دنيا سُفلى... والمُعطى يده عُلياً فلا يجوز أن تسأل أحداً، أى: إلا ما لا بُدَّ منه كما لو كان الإنسان مضطراً أو مُحتاجاً حاجة شبه ضَرورية فحينئذٍ لا بأس أن يسأل.
- ✽ قوله: «والصَّلَة»:

والصَّلَة أن تَصِل ما أمر الله به أن يُوصَلَ من الأقارب الأدنى فالأدنى وأعلامهم الوالِدان، فإنَّ صلة الوالدين بِرٌّ وِصلة... والأقارب لهم من الصلة بقدر ما لهم من القرب... فأخوك أوكد صلة من عمك... وعمُّك أشدُّ صلة من عمِّ أبيك وهكذا.

والصَّلَة جاءت في الكتاب والسُّنة غير مُقيَّدة، وكُل ما جاء في الكتاب والسُّنة غير مقيد، فإنه يُحمَل على العُرف، فما جرى العرف على أنَّه صلة فهو صلة.



(٥٨) الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي ثَابِتٍ، وَقِيلَ: أَبِي سَعِيدٍ، وَقِيلَ: أَبِي الْوَلِيدِ، سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَهُوَ بَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(١).

❁ «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ..» فاعبد المسلم لا يسأل إلا الله؛ لأنه تعلّم من النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...» فمن سأل الله الشهادة.. والشهادة لا تكون إلا بالجهاد والقتال في سبيل الله ﷻ لتكون كلمة الله هي العليا.. فإذا علِمَ الله منه صدق القول والنية بَلَغَهُ اللَّهُ منازل الشهداء يوم القيامة حتى وإن مات على فراشه.

والشهادة مرتبة عالية من الصّدّيقية كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

منها: الشهادة بأحكام الله ﷻ على عباد الله وهذه شهادة العلماء التي قال الله فيها: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]

والشهادة أنواع كثيرة:

وقد ذهب كثير من العلماء في تفسير قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ ❁ إلى أنهم العلماء... ولا شك أن العلماء شُهَدَاءُ، فيشهدون بأن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ويشهدون على الأمة بأنها بلغت شريعة الله ويشهدون في أحكام الله هذا حلال وهذا حرام، وهذا واجب، وهذا مستحب، وهذا مكروه، ولا يعرف هذا إلا أهل العلم، لذلك كانوا شهداء.

❁ ولكن هناك شهداء غير الذين يُقتلون في سبيل الله.

❁ عن أم حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْمَائِدُ فِي الْبَحْرِ الَّذِي

يُصِيبُهُ الْقَتْلُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدٍ وَالْغَرِيقُ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ» (١).

المائد: هو الذى يموت بسبب دوار البحر فله أجر شهيد.

✽ وعن ربيع الأنصارى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطَّاعُنُ، وَالطَّاعُونُ، وَالْهَدْمُ، وَأَكْلُ السَّبْعِ، وَالْغَرَقُ، وَالْحَرَقُ، وَالْبَطْنُ، وَذَاتُ الْجَنْبِ شَهَادَةٌ» (٢).

✽ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ زَمَانَ صَبْرٍ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِ أَجْرُ خَمْسِينَ شَهِيدًا مِنْكُمْ» (٣).

✽ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إِنْ مَنْ يَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ وَتَأْكُلُهُ السَّبَاعُ وَيَغْرُقُ فِي الْبَحَارِ لَشَهِيدٌ عِنْدَ اللَّهِ» (٤).

✽ قلت: وذلك لمن مات على التوحيد... أما من مات على الشرك فلا يكون شهيداً ولا يرزقه الله نعمة الشهادة.

وقال ﷺ: «الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» (٥).

وقال ﷺ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٦).

✽ والموت بداء البطن... لقول رسول الله ﷺ: «... وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ» (٧).

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٤٩٣) كتاب الجهاد، وصححه الألبانى رحمته الله في صحيح الجامع (٦٦٤٢).

(٢) صحيح: رواه الطبرانى في الكبير (٦٨/٥)، وابن قانع وصححه الألبانى رحمته الله في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٩٥)، وصحيح الجامع (٣٩٥٣).

(٣) صحيح: رواه الطبرانى في الكبير (١٨٢/١٠)، وصححه الألبانى رحمته الله في صحيح الجامع (٢٢٣٤).

(٤) إسناده صحيح: أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»، كتاب الجهاد، باب في الشهادة (٢٦٩/٥)، موقوفاً بإسناد صحيح، والطبرانى في الكبير (٣٤٥/٩). قال الحافظ في «الفتح» (٥٢/٦): إسناده صحيح، وأخرجه سعيد بن منصور في «سننه».

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٣٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩١٦) كتاب الإمارة.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤) كتاب الأذان، ومسلم (١٩١٤) كتاب الإمارة.

(٧) صحيح: رواه مسلم (١٩١٥) كتاب «الإمارة».

✽ وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ عاد عبد الله بن رواحة قال: فما تحوَّز له عن فراشه فقال: «أندري مَنْ شهداء أُمّتي؟»، قالوا: قتل المسلم شهادة قال: «إن شهداء أُمّتي إذاً لقليل! قتل المسلم شهادة، والطاعون شهادة، والمرأة يقتلها ولدها جمعاء شهادة (يجرها ولدها بسرره إلى الجنة)»^(١).

✽ الموت بالحرق وذات الجنب:

قال ﷺ: «الشَّهَادَةُ سَبْعُ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَقْتُولُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدٌ، وَالْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمُعٍ^(٢) شَهِيدَةٌ»^(٣).

وقال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٤).

✽ وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٥).

ولكن أعلى الشهداء هم الذين يقتلون في سبيل الله... كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١١٦) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧١]

(١) إسناده صحيح: رواه أحمد (١٧٣٤١)، والدارمي (٢٤١٤)، وصححه إسناده العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَحْكَامِ الْجَنَائِزِ.

(٢) هو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع: «أى تموت وفي بطنها ولد، وقيل التي تموت بكرًا، والجُمُع بالضم بمعنى المجموع، كذخر بمعنى المذخور، وكسر الكسائي الجيم، والمعنى أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكرة». قلت: والمراد هنا الحمل قطعًا بدليل الحديث المتقدم بلفظ «يقتلها ولدها جمعاء».

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وأحمد، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صحيح الجامع (٣٧٣٩).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني فِي صحيح الجامع (٦٤٤٥).

(٥) صحيح: رواه النسائي، وأحمد، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صحيح الجامع (٦٤٤٧).

وهؤلاء هم الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا.

(٥٩) الخامس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غَزَا نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ. وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بَيْتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خِلْفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلَادَهَا. فَغَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبُسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارُ لَتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فليبايعني من كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ ... فلزقت يد رَجُلٍ بيده فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فلتبايعني قبيلتك، فلزقت يد رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعَهَا فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، فَلَمْ تَحُلِ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ لَمَّا رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزَنَا فَأَحْلَاهَا لَنَا»^(١).

✽ كان القادة العسكريون يحشدون لمواجهة أعدائهم أكثر عدد يستطيعونه من الجند، ويظنون أن الكثرة أحد أسباب الانتصار في الحروب، ولكن نبي الله يوشع الذي فتح الله على يديه الأرض المقدسة لبني إسرائيل من بعد موسى لم يهتم بكثرة العدد عند مواجهة أعدائه، وإنما اهتم بالتنوع في المقاتلة، ولذا أخرج من صفوف جنده أولئك الذين تعلق قلوبهم بأمر من الأمور الدنيوية التي تملك على العباد نفوسهم.

✽ وفي هذا الحديث يحدثنا الرسول ﷺ أن نبيًا من أنبياء الله غزا غزوة لفتح إحدى القرى ... وهذا النبي هو يوشع بن نون عليه السلام أحد أنبياء بني إسرائيل^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٢٤) كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٧٤٧) كتاب الجهاد والسير.

«الخلفاء»: جمع خَلِيفَةٍ، وهي الناقَةُ الحامل.

(٢) صحَّ بذلك الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا حُبِسَتْ الشَّمْسُ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ إِلَّا عَلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ»



وكان قد صحب موسى في حياته، وسار معه في رحلته إلى الخضر عليه السلام وقد أوحى الله إليه بعد وفاة موسى، واستخلفه موسى على بنى إسرائيل من بعده، وهو الذى تم على يديه فتح الأرض المقدسة.

وقد حرص نبى الله يوشع عند انطلاقة لفتح المدينة التى يقصدها على أن يكون جيشه قويًا متماسكًا، ولذلك أخرج من جيشه المقاتلين الذين قد يكونون سببًا فى الهزيمة، لانشغال قلوبهم انشغالا كبيرا بمسائل الدنيا التى لا يستطيعون التخلص من أعمال قلوبهم وعقولهم بشأنها، فقد استثنى ثلاثة أصناف من المقاتلين وأمرهم بعدم الخروج معه.

الصنف الأول: الذى عقد نكاحه، ولم يدخل بزوجه، ولا شك أن هذا الصنف يكون متعلقا قلبه بزوجه أشد التعلق، وبخاصة إذا كان فى مرحلة الشباب.

والصنف الثانى: المشغول ببناء لم يكمل بناءه بعد.

والثالث: الذى اشترى غنمًا أو نوقًا حوامل وهو ينتظر أن تلد أو تُنتج.

إن المبدأ الذى اعتمده هذا النبى يدل على أنه قائد فذ، صاحب نظرية فى قيادة الجيوش وإعدادها للقتال الذى يكون به النصر... إن الجيوش لا تنصرف بكثرة عددها، بل بالنوعية التى تقاتل، فالنوعية أهم من العدد والكمية.

ولذا أخرج من جيشه المشغولى القلوب، الذين يكونون فى أرض المعركة وقلب الواحد منهم مُعلقٌ بالزوجة التى سيدخل بها، أو البناء الذى سيسكنه، أو الماشية والأنعام التى ستلد وتُنتج.

وفعله هذا شبيه بما أمر به طالوت جيشه من عدم الشرب من النهر، إلا من

⁼ لىالى سار إلى بيت المقدس» رواه أحمد والخطيب البغدادى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦١٢).

اغترف غرفة بيده، فشرّبوا منه إلا قليلاً منهم ... وبذلك صفّى طالوت جيشه من العناصر الضعيفة التي قد تكون سبباً في الهزيمة.

وقد أخبر الله رسوله ﷺ أن نكوص المنافقين في معركة أحد كان فيه خيرٌ للمؤمنين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

خرج يوشع بجيشه مُتجهًا إلى القرية التي يريد غزوها، فدنا من القرية في عصر ذلك اليوم، ومعنى ذلك أن فرصته في فتح المدينة ليست قوية؛ لأن القتال في الليل ليس سهلاً، ... وكان ذلك اليوم يوم الجمعة، وعليه أن يُوقف القتال إذا غربت الشمس، لأن دخول الليل يعنى دخول يوم السبت، والقتال مُحَرَّم على بنى إسرائيل في يوم السبت ... ومعنى ذلك أنه سيعود عن القرية قبل فتحها، وهذا سيُعطي أهل القرية فرصة لتقوية جيشهم، وإصلاح أسوارهم، وإعداد المزيد من السلاح، فتوجّه يوشع إلى الشمس مُخاطبًا لها قائلاً: إنك مأمورة، وأنا مأمور، ثم دعا ربه قائلاً: اللهم احبسها علينا ... واستجاب الله دعاءه، فأُخِرَ الغروب حتى تم النصر.

إن إيمان يوشع كان عظيمًا ... فهو يوقن بقدرة الله على كل شيء، وهو قادر على إطالة النهار حتى يتم الفتح قبل الغروب، ولا يستعصى مثله على الله، ونحن نعلم اليوم أن النهار والليل يحدثان من دوران الأرض حول نفسها ... والذي يظهر - وعلم ذلك عند الله - أن دورة الأرض تباطأت بقدرة الله حتى تم الفتح.

ولم يُبَحِ الله الغنائم لأمة من الأمم من قبلنا، فكانت الغنائم تُجمع ثم تنزل نار من السماء فتأكل الغنائم إن لم يَغُلْ أحدٌ من الجيش شيئاً منها، فإن غُلَّ من الغنيمة شيءٌ فلا تأكلها، وهذا يعنى أن الله غير راضٍ عنهم.

وعندما جُمِعت الغنائم ونزلت النار لم تأكل منها شيئاً، فقال يوشع: فيكم غلول، وكشف الغالين بأن بايع من كل قبيلة رجلاً، فلصقت يده بيد رجل القبيلة

التي فيها الغلول، فبايع أفراد القبيلة التي فيها الغلول، فلصقت يده بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، عند ذلك جاءوا بقطعة كبيرة من الذهب مصنوعة على شكل رأس بقرة... فوضعت مع الغنائم، فنزلت النار فأكلتها.... وقد نُسخ هذا الحكم في حقنا، فأبيحت لنا الغنائم، رحمة من الله بنا، وتفضلاً علينا، وكان إباحة الغنائم إحدى خصائص هذه الأمة.

عبر الحديث وفوائده

(١) غزو يوشع بمن معه من بنى إسرائيل يدل على أن القتال كان مفروضاً على الأمم من قبلنا، وليس خاصاً بنا... وقد عاقب الله بنى إسرائيل بآلتيه أربعين سنة عندما أبوا مقاتلة الجبارين.

وقد دَلَّ على أن جَمْعاً كبيراً من الأنبياء قاتلوا... قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتِيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ودَلَّ على فرضه على بنى إسرائيل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِمِلَّا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

(٢) في الحديث إرشاد لأولى الأمر أن لا يكلوا القيام بالمهمات الكبرى للذين شُغلت قلوبهم بما يُعيقهم عن القيام بها.

(٣) تحتاج قيادة الجيوش إلى خبرة بطباع النفوس، واختيار النوعيات التي يمكنها الصبر في ميدان القتال، واستبعاد النوعيات التي قد يُؤتَى الجيش من قبلها، كما فعل يوشع عليه السلام.

(٤) في الحديث آيات ظاهرة ومعجزات باهرة تدل على قدرة الله وتأنيده رسله، وإعانتهم على ما أُنيط بهم من مهمات... فمن ذلك أن الله حبس الشمس

وأطال النهار حتى تمكن المقاتلون من إحراز النصر، وعرف رسول الله ﷺ بالقبيلة التي فيها الغلول، والأفراد الذين غلّوا، على النحو المذكور في الحديث.

(٥) كانت الغنائم غير مباحة للأمم من قبلنا، وخصّنا الله دون الأمم بأن أحلّ لنا الغنائم.

(٦) إثم الغلول... فالنار لم تكن تأكل الغنائم إذا ما غلّ منها، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أن رجلاً غلّ شملة فاشتعلت عليه في قبره ناراً، وأن الذي يغل يأتي بما غلّ يوم القيامة يحمله على ظهره.

(٧) كان في بني إسرائيل رجالٌ صالحون مجاهدون في سبيل الله، يفتح الله عليهم وينصرهم.

(٨) على الرغم من تصفية يوشع لجيشه من الذين قد يؤتى من قبلهم إلا أن الجيش بقي فيه بعض من ضَعُف إيمانه، وهم الذين غلّوا من الغنيمة^(١).

(٦٠) السادس: عن أبي خالد حكيم بن حزام رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقَّتْ بركةُ بيعهما»^(٢).

❁ «البيعان»: البائع والمُشتري، وأطلق عليهما اسم البيع من باب التَّغليب، كما يُقال: القمران للشمس والقمر... والعمران لأبي بكر وعمر.

وقوله: «بالخيار» أي: كل منهما يختار ما يريد «ما لم يتفرقا» أي ما دام في مكان العقد لم يتفرقا فإنهما بالخيار.

ومثاله: رجل باع على آخر سيارة بعشرة آلاف فما دام في مكان العقد ولم يتفرقا فهما بالخيار إن شاء البائع فسخ البيع، وإن شاء المشتري فسخ البيع...

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ١١٥-١٢٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٧٩) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٣٢) كتاب البيوع.

وذلك من نعمة الله سبحانه وتعالى وتوسيعه على العباد؛ لأن الإنسان إذا كانت السلعة عند غيره صارت غالية في نفسه يحب أن يحصل عليها بكل وسيلة، فإذا حصلت له فربما تزول رغبته عنها؛ لأنه أدركها، فجعل الشارع له الخيار لأجل أن يتروى ويتزود بالتأني والنظر.

فما دام الرجلان لم يتفرقا فهما بالخيار وإن طال الوقت لعموم قوله: «ما لم يتفرقا».

قوله: «فإن صدقا وبينا» إن صدقا فيما يصفان السلعة به من الصفات المرغوبة، وبينا فيما يصفان به السلعة من الصفات المكروهة. فمثلاً لو باع له هذه السيارة، وقال: هذه السيارة جديدة موديلها كذا ونظيفة وظل يمدحها بما ليس فيها نقول هذا كذب فيما قال... وإذا باعها السيارة وفيها عيب ولم يخبره بالعيب نقول: هذا كتم ولم يُبين... والبركة في الصدق والبيان، فالفرق بين الصدق والبيان أن الصدق فيما يكون مرغوباً من الصفات... والبيان فيما يكون مكروهاً من الصفات، فكتمان العيب هذا ضد البيان ووصفه السلعة بما ليس فيها هذا ضد الصدق^(١).

فالشاهد أنهما إن صدقا وبينا فإن الله عز وجل سيبارك لهما في ذلك البيع.. سيبارك للبائع في المال الذي أخذه.. وسيبارك للمشتري في السلعة التي اشتراها سواء كانت شقة أو سيارة أو غير ذلك. وإن كتما عيوب السلعة وكذبا فإن الله عز وجل يمحق بركة البيع.. فلا يجد البائع بركة في المال الذي أخذه.. ولا يجد المشتري بركة في السلعة التي اشتراها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٧٣-١٧٤) بتصرف.

(٥) باب المراقبة

❖ قال الله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرَّصَادٍ﴾ [الفجر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

❖ «المراقبة»: دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله.

❖ قال ذو النون: علامة المراقبة إثارة ما أنزل الله، وتعظيم ما عظم الله، وتصغير ما صغر الله.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله ﷻ.

المراقبة.. علم القلب بقرب الرب

❖ لما سُئِلَ المحاسبى عن المراقبة قال: أولها علم القلب بقرب الرب (جل وعلا).

❖ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (ينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل يحركه عليه هوى النفس أو المحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان لله تعالى، أمضاه، وإلا تركه... وهذا هو الإخلاص).

❖ قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر.

فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها، ومراقبته في

المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة^(١).

موعظة بليغة

❁ قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: «...إذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه (جَلَّ وعلا) ليس بغائب عنه، وأنه مُطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي لأن قلبه، وخشى الله تعالى، وأحسن عمله لله (جَلَّ وعلا). ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يتلهم أيهم أحسنُ عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. وقال في سورة الملوك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملوك: ٢].

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِقَ من أجلها هي أن يُتلى: أي يُختبر بإحسان العمل فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار... ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي ﷺ عن هذا ليُعلمه لأصحاب النبي ﷺ فقال: (أخبرني عن الإحسان، - أي: وهو الذي خلق الخلق لأجل الاختبار فيه - فبين النبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هو هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل

(١) إغاثة اللفهان (ص ٣٩٢).

خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

هكذا فسّر رسول الله ﷺ الإحسان تفسيراً لا يستطيعه أحد من المخلوقين غيره لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم.

❁ وقال الإمام الشنقيطي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ سُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

[هود: ٥].

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده... فهو عالم بما تنطوى عليه الضمائر، وما يعلن، وما يسر، والآيات المبينة لهذا كثيرة جداً، كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله جل وعلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

❁ واعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر، ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمل خلقه، رقيبٌ عليهم، ليس بغائبٍ عما يفعلون.

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكاً قتلاً للرجال، سفاكاً للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمة ظلماً... وسيّافه قائمٌ على رأسه، والنطع مبسوطٌ للقتل، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا، بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك^(١).

ولا شك - والله المثل الأعلى - أن رب السموات والأرض (جل وعلا) أشد علماً، وأعظم مراقبة، وأشد بطشاً، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك... وجماءه في أرضه محارمه^(٢). اهـ.

ما الذى يُعينك على مراقبة الله (جل وعلا)؟

وأخيراً: ما الذى يُعينك على مراقبة الله (جل وعلا)؟.

✽ إن من أعظم الأشياء التى تُعينك على مراقبة الله أن تتعرف على الله بأسمائه وصفاته... فإذا علمت أن الله هو الرقيب الحسيب الشهيد المحصى العليم السميع البصير كان ذلك حادياً لأن تستحضر رقابته عليك في كل زمان ومكان.. وهذا هو الترجمة الحقيقية لقول النبى ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٣).

✽ وإن مما يعينك على مراقبة الله (جل وعلا): البُعد عن أصدقاء السوء والحرص على الرفقة الصالحة... ومن هنا جاءت وصية الحبيب ﷺ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»^(٤).

✽ وإن مما يُعينك على مراقبة الله (جل وعلا): الخوف من سوء الخاتمة فإن الخوف من سوء الخاتمة طيّر نوم العابدين وجعلهم دائماً خائفين وجليين يخشون من سوء الخاتمة.. فكان أحدهم يظل الليل كله يقرأ قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ

(١) ونظير ذلك ما استحدثت في المستشفيات والمصانع والمحلات التجارية حيث تُبث الكاميرات التليفزيونية في شتى المواقع لمراقبة العمال واللصوص، الذين ينزجرون بذلك لاحتمال تسلط الكاميرا عليهم وبالتالي انكشاف أمرهم... والله المثل الأعلى.

(٢) «أضواء البيان» (٩/٣، ١٠) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

(٤) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٧٣٤١).

لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٧٤﴾ [الزمر: ٧٤] ويبكى خوفاً من سوء الخاتمة.

وكان النبي ﷺ يدعو ويقول: «..وأعوذُ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»^(١).

بل كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يا مُقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٢).

❁ وإن من أعظم الأسباب التي تعينك على مراقبة الله (جل وعلا):

استحضار نعيم الجنة وعذاب النار... فالعاقل هو الذي يحاسب نفسه في الدنيا ويلزمها بطاعة الله لكي يفوز بالنعيم والرضوان في جنة الرحيم الرحمن (جل وعلا).. فكل نعيم دون الجنة سراب وكل عذاب دون النار عافية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١) فالأول: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتُصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيَصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوُلُونَ فِي

(١) صحيح: رواه النسائي والحاكم، من حديث أبي اليسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صحيح الجامع (١٢٨٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صحيح الجامع (٤٨٠١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٩١).

الْبَيَانِ» ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «فَإِنَّهُ جَبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

✽ هذا الحديث حديث عظيم أيضًا، سمَّاه بعض أهل العلم أم السنة، يعنى: كما فى القرآن أم القرآن، فهذا الحديث أم السنة؛ لأن جميع السنة تعود إلى هذا الحديث.

فإن الحديث فيه بيان العقيدة، والعقيدة مبنية على أركان الإيمان الستة، وفيه بيان الشريعة، وذلك بذكر أركان الإسلام الخمسة ... وفيه ذكر الغيبات والأمارات؛ بل قبل ذلك فيه ذكر آداب السلوك، والعبادة، وصلاح توجيه القلب، والوجه إلى الله (جَلَّ وعلا) بذكر الإحسان، وفيه ذكر الساعة وأمارتها، وهذا نوع من ذكر الأمور الغيبية ودلالات ذلك.

✽ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «بينما نحن جُلوسٌ عند رسول الله ﷺ هكذا كان الصحابة يجلسون عند رسول الله ﷺ ليتعلموا بين يديه.. وذلك لأن النبى ﷺ كان لا يُضِيع وقته أبدًا.. فهو إما مع أصحابه يُعلمهم ويُزكِّيهم.. وإما مع أهله يعلمهم ويرعى شئونهم.. وإما فى الجهاد فى سبيل الله.. وإما فى الطاعة والعبادة... فواجبٌ على كل مسلمٍ أن يتشبه بالنبى ﷺ وأن يُحافظ على وقته؛ لأن الوقت هو الحياة وهو أغلى ما يمتلكه العبد فى هذه الحياة الدنيا.

✽ المهم أنه بينما كان الصحابة جالسين عند النبى ﷺ: «إذ طلع عليهم رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر».

فى هذا مدح لهذه الصفة وإحداهما مكتسبة والأخرى جبلية... أما شدة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

ومعنى: «تَلِدُ الأُمَّةُ رَبَّتَهَا» أى: سيِّدَتَهَا، ومعناه: أن تكثر السرارى حتى تلد الأمة الشريفة بنتاً لسيدها... وبنْتُ السَّيِّدِ فى معنى السَّيِّدِ... وقيل غير ذلك - و«العالة»: الفقراء. وقولُه: «مَلِيًّا» أى: زماناً طويلاً، وكان ذلك ثلاثاً.

سواد الشعر، فهذه جبليّة لا تُكتسب، ولا يجوز أن يصبغ بالسواد لمن ليس بذي سواد، وأما شدة بياض الثياب، فسياق هذا الحديث يقتضى مدح مَنْ كان على هذه الصفة ... ولهذا كان النبي ﷺ يحب الثياب البيض، وكان يلبسها، وأمر بتكفين الموتى فيها - عليه الصلاة والسلام -^(١).

قال: «ولا يرى عليه أثر السفر» يعنى: أنه لا يعرفونه في المدينة، وأتى بهذه الصفة الجميلة شدة سواد الشعر، ليس عليه أثر غبار أو تراب.

وعادة المسافرين أن لا يكون كذلك، وأيضاً «شديد بياض الثياب» كأنه خرج من بيته في نظافة أهله الساعة، فكيف يكون ذلك؟ فإذاً في قوله: «ولا يرى عليه أثر السفر» إشعار بأنه مُستغرب أن يكون على هذه الصفة؛ لهذا قال بعدها: «ولا يعرفه منا أحد» وقد جاء في بعض الروايات أن جبريل ﷺ كان ربما أتاهم على صورة دحية الكلبي (أحد الصحابة) فيسأل النبي ﷺ فيجيب، وهذا غير مُراد هنا؛ لأنه لا يتوافق مع قوله: «ولا يعرفه منا أحد» خلافاً لمن قال غير ذلك.

وهذا فيه فضل التعليم، فإن جبريل ﷺ أتى متعلماً ومُعَلِّماً ... متعلماً من جهة الهيئة والسؤال والأدب، ومُعَلِّماً حيث سأل لأجل أن يستفيد الصحابة -رضوان الله عليهم- وتستفيد الأمة من بعدهم^(٢).

❁ قوله: «حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند رُكْبتيه إلى رُكْبتيه» أى: أسند جبريل ﷺ رُكْبتيه إلى رُكْبتي النبي ﷺ.

«وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ» قال العلماء: وضع جبريل كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ نفسه لا على فَخْذَيْهِ النبي ﷺ ... وذلك من كمال الأدب في جلسة المتعلم أمام

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٠٦١)، والترمذى (٩٩٤)، وابن ماجه (١٤٧٢)، وأحمد (٢٢٢٠)، وصححه الشيخ الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٣٦)، ولفظه: «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم».

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٥٢-٥٣) والشرح للشيخ صالح آل الشيخ.

المُعلم، بأن يجلس بأدب.

وفي هذا أن طالب العلم ينبغي له أن يكون مُهيئاً نفسه، ومهيئاً المسؤول للإجابة على سؤاله في حُسن الجلسة، وفي حسن وضع الجوارح، وفي القرب منه، وهذا نوع من الأدب المهم، فإن سؤال طالب العلم للعالم، أو سؤال المتعلم لطالب العلم له أثر في قبول العالم للسؤال، وفي انفتاحه للجواب.

❁ وقد ذُكر في آداب طلب العلم، وفي الكلام عليه أن بعض العلماء من علماء السلف كانوا يَنشطون لبعض تلاميذهم فيعطونه، وبعضهم لا يَنشطون له فيعطونه بعض الكلام الذي يكون عامًّا، أو لا يكون مكتملاً من كل جهاته... وذلك راجع إلى حسن أدب طالب العلم أو المتعلم.

فإنه كلما كان المتعلم أكثر أدباً في جلسته، وأكثر أدباً في لفظه، وفي سؤاله كان أوقع في نفس المسؤول؛ فيحرص ويتهيأ نفسياً لجوابه؛ لأنه من احترام احترام، ومن أقبل أقبل عليه.. فهذا فيه أن تتأدب جميعاً بهذا الأدب^(١).

❁ المهم أنه جلس هذه الجلسة ثم قال: «يا محمد أخبرني عن الإسلام»، ولم يقل: يا رسول الله أخبرني، فهذا صنيع أهل البادية الأعراب؛ لأن الأعراب إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يقولون: يا محمد.

أما الذين سَمِعُوا أدب الله ﷻ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ: يا محمد، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ: يا رسول الله؛ لأنَّ الله قال في كتابه: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. وهذا يشمل دعاءه عند النداء باسمه. ويشمل دُعَاءَهُ إِذَا أَمَرَ أَوْ نَهَى.. فلا نجعل أمره كأمر النَّاسِ إِنْ شِئْنَا امْتَثَلْنَا وَإِنْ شِئْنَا تَرَكَنَا ولا نجعل نهيه كنهى النَّاسِ إِنْ شِئْنَا تَرَكَنَا وَإِنْ شِئْنَا فَعَلْنَا.

❁ وقال: «يا محمد، أخبرني عن الإسلام»، أي: ما هو الإسلام.

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٥٣).

فقال النبي ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» شهادة (أن لا إله إلا الله) و (أن محمداً رسول الله) هي الركن الأول من أركان الإسلام، ومعنى (لا إله إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، وهي نفى وإثبات. (لا إله) نافية جميع العبادة لغير الله، (إلا الله) مثبتة جميع العبادة لله وحده لا شريك له.

وأما كلمة (محمد رسول الله) فمعناها: الإقرار برسالة محمد ﷺ والإيمان بها والانقياد لها قولاً وفعلاً واعتقاداً، واجتناب كل ما ينافيها من الأقوال والأعمال والمقاصد والتروك... وبعبارة أخرى معناها: طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع^(١).

وهذه الكلمة أرسل الله بها جميع الرسل، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. أى: ابتعدوا عن الشرك.

هذه الكلمة إذا حققها الإنسان وقالها من قلبه ملتزماً بما تقتضيه من الإيمان والعمل الصالح فإنه يدخل الجنة بها.

قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

❦ وقوله: «وتقييم الصلاة» فهذا هو الركن الثاني.

فإن الصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين وهي أم العبادات وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن... فهي التي أمر الله بها وهي الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهي ملجأ المؤمن في الكربات وهي التي يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسموات وهي أمانة المعذبين والأموات وهي العاصمة من الشهوات والناحية عن المنكرات

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (١/ ٨٦-٨٧) فتوى رقم (٦١٤٩).

وهي الحادى للنعيم المقيم فى الجنات.

والصلاة سُميت صلاة لأنها صلة بين العبد وبين ربه ﷻ.. ولذا فإن الإنسان إذا قام يُصلى فإنه يُناجى ربه ويحاوره.. كما ثبت فى الحديث الصحيح أن الله ﷻ قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَضْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^(١).

فتأمل معى تلك المحاورة والمناجاة التى تكون بين العبد وبين ربه جلّ وعلا.. ومع ذلك فالكثير منا فى هذه المناجاة مُعرضٌ بقلبه مشغولٌ بحُطام الدنيا الزائل مع أنه يُناجى مَنْ يعلم ما فى الصدور ﷻ.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعد ولا تُحصى.

وحسبنا أنها العبادة الوحيدة التى منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سموات لعلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهى الفريضة الوحيدة التى فُرِضت فى السماء.

❁ وكانت الصلوات المفروضة خمسين صلاة.. فظل النبى ﷺ يسأل ربه التخفيف حتى جعلها خمس صلوات ولكنها بأجر وثواب خمسين صلاة.

وليس هذا من قبيل الحسنة بعشر أمثالها، بل من قبيل الفعل الواحد يجرى عن خمسين فعلاً.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

فالخمس صلوات هذه عن خمسين صلاة، فكأنما صلينا خمسين صلاة، كل صلاة الحسنه بعشر أمثالها، لأنه لو كان هذا من باب مضاعفة الحسنات لم يكن هناك فرق بين الصلوات وغيرها، لكن هذه خاصة ... وهذا يدل على عظم هذه الصلوات، ولهذا فرضها الله على عباده في اليوم واللييلة خمس مرات لا بد منها... لا بد أن تكون مع الله عز وجل خمس مرات في اليوم تنجيته.

لو أن أحدا من الناس حصل له مقابلة بينه وبين الملك خمس مرات باليوم لعد ذلك من مناقبه ولفرح بذلك.

أنت تناجي ملك الملوك عز وجل في اليوم خمس مرات على الأقل، فلماذا لا تفرح بهذا! احمد الله على هذه النعمة وأقم الصلاة.

وقول النبي ﷺ: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ» يعنى تأتي بها قويمه سألمة بشرطها وأزكانها وواجباتها^(١).

لقد بلغت الصلاة مبلغا عظيما وقدرا عاليا في قلب النبي ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبنا أن نتأمل قول النبي ﷺ: «حُبَّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٢).

قال المروزي: ولو لم يستدل المؤمن على أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد ﷺ من حب الصلاة وجعل قررة عينه فيه دون سائر الأعمال كلها، وإن كان موحبا لجميع الطاعات، ولكنه خص الصلاة فأخبر أن قررة عينه جعلت في الصلاة لربه لكفاه بذلك دليلا^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ١٩١-١٩٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١).

وقد كان النبي ﷺ يفرع إلى الصلاة.... ففرع إليها ليلة الأحزاب.
قال حذيفة رضي الله عنه: «رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى»^(١)
وفرع إليها يوم بدر:... عن (علي) رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح.
✽ وكان يفرع إليها كذلك عند تجدد النعم.
فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكراً لله عز وجل.

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»^(٢).

بل إنه ﷺ في مرض الموت وفي آخر لحظات حياته يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «أصلى الناس؟» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «أصلى الناس؟»^(٣).

وتأملوا معي كيف كانت صلاته ﷺ كما وصفها حذيفة رضي الله عنه.

- روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه، قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ^(١).

وفي رواية للنسائي: لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره.

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ قوما من جُهينة، فقاتلوا قتالاً شديداً»... الحديث، وفيه: «وقالوا -أى: المشركون- إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد»^(٢).

ولكونها كانت «قُرّة عينه ﷺ كان ﷺ يُطيل القيام والتهجد، ولا يقوى على مفارقتها».

❦ قوله: «وَتُؤْتَى الزَّكَاةُ»:

نحن نعلم أن الناس لا يستوون في أمر الدنيا... فمنهم الغنى ومنهم الفقير. ومن عظمة هذا الدين أنه بثَّ روح الرحمة بين أبنائه حتى يرحم القوى الضعيف ويرحم الغنى الفقير فيعطيه شيئاً يسيراً من ماله ليستعين به على أمور دنياه...

وحتى ينشط الغنى لفعل الخير أجزل الله له العطاء والأجر والثواب.. هذا غير البركة التي تدب في ماله وأن الله يُخلفه خيراً في ماله في الدنيا ويرزقه الأجر والثواب في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]
وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

والزكاة: جزءٌ بسيطٌ يؤدي بها الإنسان رُكناً من أركان الإسلام يُطهر بها نفسه

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٤٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

من البخل والرذيلة ويُطَهَّرُ بها صفحات كتابه من الخطايا ... كما قال النبي ﷺ: «الْصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»^(١).

وأفضل الصدقات الزكاة ... فديرهم تُخرجه في زكاتك أفضل من درهم تُخرجه تطوعاً؛ لأن الله تعالى قال في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»^(٢) وَرَكْعَةً مِنْ صَلَاةٍ مَفْرُوضَةٍ أَفْضَلُ مِنْ رَكْعَةٍ مِنْ صَلَاةٍ تَطَوُّعٍ.

والزكاة مأخوذة من الزكاء، وهو: النماء... زكا الشيء: إذا نما، وزاد، ورجلٌ زكى، أى: زائد الخير.. وسُمي إخراج جزء من المال زكاة، أى: زيادة مع أنه نقصٌ منه؛ لأنها تكثر بركته بذلك، أو تُكثَرُ أجر صاحبه. وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يُقال زكا فلان: أى: طَهَّرَ^(٣).

قال الراغب الأصفهاني: أصل الزكاة النمو الحاصل عن بركة الله تعالى ويعتبر ذلك بالأموال الدنيوية والأخروية... يُقال: زكا الزرع إذا حصل منه نمو وبركة.

ومنه الزكاة لما يُخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء. وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو لتزكية النفس - أى: تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً فإن الخيرين موجودان فيها. وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فإن التزكى هو التطهُّر والتبرُّك بترك السيئات

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٣) فتح القدیر: الشوكاني (١/١٢١).

(٤) انظر غريب القرآن للأصفهاني (١/٢١٣).

الموجب زكاة النفس كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] ولهذا تُفسَّر الزكاة تارة بالنماء والزيادة وتارة بالنظافة والإمالة... والتحقيق أن الزكاة تجمع بين الأمرين: إزالة الشر وزيادة الخير وهذا هو العمل الصالح وهو الإحسان^(١).

❁ وقد يسأل سائل: ما هي الحكمة من مشروعية الزكاة؟ وما هي ثمرات الزكاة؟

والجواب: شرعت الزكاة لحكمة سامية، وأهداف نبيلة، لا تُحصى كثرة، منها:
(١) تطهير المال وتنميته، وإحلال البركة فيه، وذهاب شره ووبائه، ووقايته من الآفات والفساد.

(٢) تطهير المُزَكَّى من الشُّح والبُخل، وأرجاس الذنوب والخطايا، وتدريبه على البذل والإنفاق في سبيل الله.

(٣) مواساة الفقير، وسد حاجة المعوزين والبائسين والمحرومين.

(٤) تحقيق التكافل والتعاون والمحبة بين أفراد المجتمع، فحينما يعطى الغنى أخاه الفقير زكاة ماله يستلُّ بها ما عسى أن يكون في قلبه من حقد وتمنٍّ لزوال ما هو فيه من نعمة الغنى، وبذلك تزول الأحقاد ويَعُمُّ الأمن.

(٥) إن في أدائها شكراً لله تعالى على ما أسبغ على المسلم من نعمة المال، وطاعة لله عَزَّوَجَلَّ في تنفيذ أمره.

(٦) أنها تدل على صدق إيمان المُزَكَّى؛ لأن المال المحبوب لا يخرج إلا لمحبوب أكثر محبة... ولهذا سُميت صدقة؛ لصدق طلب صاحبها لمحبة الله، ورضاه.

(٧) أنها سبب لرضا الرب، ونزول الخيرات، وتكفير الخطايا، وغيرها^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٨).

(٢) الفقه الميسر (ص ١٨٢).

وفي الزكاة أيضًا إغناء للفقراء عن التسلُّط؛ لأنَّ الفقير إذا رأى أن الغنى لا يعطيه شيئًا فإنه يخشى منه أن يتسلَّط وأن يكسر الأبواب وينهب الأموال لأنَّه لا بُدَّ أن يعيش فيأكل ويشرب، فإذا كان لا يُعطى شيئًا فإن الجوع والعطش والعُرى يدفعونه على أن يتسلط على الناس بالسَّرقَة والنَّهب وغير ذلك.

وفي الزكاة أيضًا: جَلْبُ للخيرات من السَّماء ... فإنه قد ورد في الحديث: «مَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ»^(١).

فإذا أَدَّى النَّاسُ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ لَهُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَحَصَلَ فِي هَذَا نُزُولُ الْمَطَرِ وَنَبَاتُ الْأَرْضِ وَشَبَعُ الْمَوَاشِي وَسَقَى النَّاسَ بِهَذَا الْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْكَثِيرَةِ.

وفي الزكاة أيضًا: إِعَانَةُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... لأن من مصارف الزكاة الجهاد في سبيل الله ... كما قال الله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفي الزكاة تحرير العبيد فإنَّ الإنسان يجوز له أن يشتري عبدًا مملوكًا من الزكاة فيعتقه؛ لأنَّ الله قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠].

ومن بركات الزكاة: ما أخبر الله تعالى به أن رحمته كُتِبَتْ لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وجعل إسلام الكافر لا تتحقق له الأخوة الدينية إلا بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ... فقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

أن الزكاة سبب للحصول على طعم الإيمان ... قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

نفسه وافدة عليه كل عام»^(١).

وهي سبب عظيم في قضاء الحوائج وتفريج الكربات.

قال ﷺ: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٢).

أنها تزكي المال وتُنميهِ، وتكون سبباً في البركة في المال ... كما في الحديث: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»^(٣).

وفي الزكاة: فَكُ الدُّمَمِ مِنَ الدُّيُونِ ... فكم من إنسان ابتلى بتراكم الديون عليه فتوَدَّى عنه من الزكاة فيحصل في هذا خير كثير ... فِكَأُ لِدِمَّتِهِ وَرَدُّ حَقٍّ لِمَنْ لَهُ الْحَقُّ.

وفي الزكاة: إِعَانَةُ الْمُسَافِرِينَ الَّذِينَ تَنْقَطِعُ بِهِمُ السُّبُلُ ... فقد يضيع مال المسافر الذي أتى به معه ولا يجد ما يوصله إلى بلده، فهذا يُعْطَى من الزكاة ما يوصله إلى بلده ولو كان غنياً في بلده.

أنها سبب دعاء الملائكة ... فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(٤).

أنها سبب في اتقاء النار: عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»^(١).

أنها من أسباب دخول الجنة ... فقد جاء رجل إلى الرسول ﷺ، وقال: ذلني على عمل أعمله يدينني من الجنة ويباعدني من النار، فقال الرسول ﷺ: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك»، فلما أدبر الرجل، قال الرسول ﷺ: «إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

مصارف الزكاة

مصارف الزكاة ثمانية أوردها الله (جل وعلا) في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وإيضاح هذه الأصناف، كما يلي:

(١) الفقراء:

جمع فقير، وهو مَنْ ليس لديه ما يسد حاجته، وحاجة مَنْ يعول، من طعام وشراب وملبس ومسكن، بألا يجد شيئاً، أو يجد أقل من نصف الكفاية، ويُعطى من الزكاة ما يكفيه سنة كاملة.

(٢) المساكين:

جمع مسكين، وهو مَنْ يجد نصف كفايته أو أكثر من النصف، كمن معه مائة، ويحتاج إلى مائتين، ويُعطى من الزكاة ما يكفيه لمدة عام.

(٣) العاملون عليها:

جمع عامل، وهو مَنْ يبعثه الإمام لجباية الصدقات، فيعطيه الإمام ما يكفيه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٣٩) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣) كتاب الإيمان.

مدة ذهابه وإيابه ولو كان غنياً... لأن العامل قد فرَّغ نفسه لهذا العمل، والعاملون هم كل مَنْ يعمل في جبايتها، وكتابتها، وحراستها، وتفريقها على مستحقيها.

(٤) المؤلفنة قلوبهم:

وهم قوم يُعْطَوْنَ الزكاة؛ تأليفاً لقلوبهم على الإسلام إن كانوا كفاراً، وتثبيتاً لإيمانهم إن كانوا من ضعاف الإيمان المتهاونين في عباداتهم، أو لترغيب ذويهم في الإسلام، أو طلباً لمعونتهم أو كَفَّ أذاهم.

(٥) في الرقاب:

جمع رقبة، والمراد بها العبد المسلم أو الأمة... يُشْتَرَى من مال الزكاة وَيُعْتَق... أو يكون مُكَاتَبًا فَيُعْطَى من الزكاة ما يسدده به نجوم كتابته؛ ليصبح حُرّاً نافذ التصرف، وعضواً نافعاً في المجتمع، ويتمكن من عبادة الله تعالى على الوجه الأكمل... وكذا الأسير المسلم يُفْكَ من الأعداء من مال الزكاة.

(٦) الغارمون:

جمع غارم، وهو المدين الذي تحمّل ديناً في غير معصية الله، سواء لنفسه في أمرٍ مباح، أو لغيره كإصلاح ذات البين، فهذا يُعْطَى من الزكاة ما يسدده به دينه... والغارم للإصلاح بين الناس يُعْطَى من الزكاة، وإن كان غنياً.

(٧) في سبيل الله:

المراد به الغُزاة في سبيل الله المتطوعون الذين ليس لهم راتب في بيت المال... فَيُعْطَوْنَ من الزكاة، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء.

(٨) ابن السبيل:

وهو المسافر المنقطع عن بلده الذي يحتاج إلى مال؛ ليوصل السفر إلى بلده، إذا لم يجد مَنْ يُقرضه^(١).



مَنْ هُم الَّذِينَ لَا تُدْفَعُ لَهُمُ الزَّكَاةُ؟

(١) الْأَغْنِيَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ الْقَادِرُونَ عَلَى الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ:

وذلك لقوله ﷺ: «لَا حَظَّ فِيهَا لَغْنَى وَلَا لِقْوَى مُكْتَسَبٌ»^(١).

(٢) الْكُفَّارُ:

وذلك لأن النبي ﷺ قال عن الزكاة: «تُؤَخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ».

أى: أغنياء المسلمين وفقراءهم دون غيرهم ... ولأن من مقاصد الزكاة إغناء فقراء المسلمين، وتوطيد دعائم المحبة والإخاء بين أفراد المجتمع المسلم، وذلك لا يجوز مع الكفار.

(٣) الْفَاسِقُ الْمُبْتَدِعُ أَوِ الْعَاصِي ... إِلَّا إِذَا تَابَ:

حتى لا يكون المال عوناً له على معصية الله (جل وعلا):

(٤) الْأَصُولُ وَالْفُرُوعُ وَالزَّوْجَةُ الَّذِينَ تَجِبُ نَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ: فلا يجوز دفع الزكاة إلى

مَنْ تَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ نَفَقَتُهُمْ كَالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْأَجْدَادِ وَالْجَدَّاتِ، وَالْأَوْلَادِ، وَأَوْلَادِ الْأَوْلَادِ ... لأن دفع الزكاة إلى هؤلاء يُغْنِيهِمْ عَنِ النِّفَقَةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ، وَيُسْقِطُهَا عَنْهُ، وَمَنْ ثُمَّ يَعُودُ نَفَعَ الزَّكَاةَ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّهُ دَفَعَهَا إِلَى نَفْسِهِ.

(٥) الْعَبْدُ:

لا تُدْفَعُ الزَّكَاةُ إِلَى الْعَبْدِ؛ لِأَنَّهُ مَالُ الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ، فَإِذَا أُعْطِيَ الزَّكَاةُ انْتَقَلَتْ إِلَى مَلِكِ سَيِّدِهِ؛ وَلِأَنَّهُ نَفَقَتُهُ تَلْزِمُ سَيِّدَهُ، وَيُسْتَثْنَى مِنْ ذَلِكَ: الْمُكَاتَّبُ فَإِنَّهُ يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ مَا يَقْضِي بِهِ دَيْنَ كِتَابَتِهِ.

(٦) آلُ النَّبِيِّ ﷺ:

لا تحل الزكاة لآل النبي ﷺ إكراماً لهم لشرفهم.

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤١٩).

لقوله ﷺ: «إنها لاتحل لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»^(١).

❦ قوله ﷺ: «وتصوم رمضان».

ورمضان شهرٌ بين شعبان وشوّال ... وسُمّي رمضان بهذا، قيل: لأنّه كان أول تسمية الشهور فصادف أنّه كان في شدّة الرّمضاء والحر فسُمّي رمضان. وقيل: لأنّه تُطفأ به حرارة الذُّنوب لأن الذُّنوب حارة «وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» والمهم أن هذا الشهر معلوم للمسلمين ذكره الله تعالى باسمه في كتابه فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولم يذكر الله اسمًا لشهرٍ من الشهور سوى هذا الشهر.

وصيام رمضان ركن من أركان الإسلام لا يتم الإسلام إلا به ولكنه لا يجب إلا على مَنْ تَمَّت فيه الشُّروط الآتية:

أن يكون مُسلمًا، وأن يكون بالغًا، وعاقلاً، قادرًا، مُقيمًا، سَالِمًا من الموانع، هذه ستة شروط:

- فإن كان صغيرًا لم يجب عليه الصَّوم.

- فإن كان مجنونًا لم يجب عليه الصَّوم.

- فإن كان كافرًا لم يجب عليه الصوم.

فإن كان عاجزًا فعلى قسمين:

أ- إن كان عجزه يُرجى زواله كالمرض الطَّارئ أفطر ثم قضى أيامًا بعدد ما أفطر.

ب- وإن كان عاجزًا لا يُرجى زواله كالكِبَر والأمراض التي لا يُرجى برؤها فإنّه يُطعم عن كل يوم مسكينًا.

- ومقيمًا ضده المُسافر... فالمسافر ليس عليه صوم ولكنه يقضى من أيامٍ أُخر.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.

سالمًا من الموانع احترازًا من الحائض والنفساء، فإنَّهما لا يجب عليهما الصَّوم ولا يجوز لهما ولكنهما تقضيان.

صوم رمضان يكون بعدد أيامه إمَّا تسعة وعشرين وإمَّا ثلاثين حسب رؤية الهلال؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلَاثِينَ»^(١).

❦ قوله: «وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

فالحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام.
الحجُّ في اللغة: القصد.

وفي الشرع: التعبُّد لله بأداء المناسك في مكانٍ مخصوص في وقتٍ مخصوص، على ما جاء في سنة رسول الله ﷺ.

ولا بُدَّ أن نعلم أن الحج فريضة على المسلم والمسلمة عند القدرة وهو أحد أركان الإسلام.

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولقوله تعالى: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس...». وذكر منها الحج.

وقد أجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع مرة واحدة في العمر.

❦ وأما عن العمرة: فمن أهل العلم من قال أنها سنة مؤكدة.

ومنهم من قال أن العمرة واجبة على المسلم والمسلمة مرة في العمر عند القدرة وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠٠) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٨١) كتاب الصيام.

والحج له شروط منها: البلوغ، والعقل، والإسلام، وَالْحُرِّيَّة، والاستطاعة...
خمسَ شروط، فإذا اِخْتَلَّ شَرْطٌ وَاحِدٌ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ.

ولكن العجز عن الحج إن كان بالمال فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ لَا بِنَائِهِ.
وإن كان بالبدن... إن كان عَجْزًا يُرْجَى زَوَالُهُ انتظر حتى يُعَافِيَهُ اللَّهُ وَيَزُولَ
الْمَانِعُ وَإِنْ كَانَ لَا يُرْجَى زَوَالُهُ كَالْكِبَرِ، فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ أَنْ يُتَيْبَ عَنْهُ مَنْ يَأْتِي
بِالْحَجِّ.... لِأَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ: إِنَّ أَبِي أَدْرَكَتْهُ فَرِيضَةُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ
شَيْخًا لَا يُثْبِتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَاحِجُ عَنْهُ، قَالَ: «نَعَمْ»^(١).

فَأَقْرَمَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَنَّهَا سَمَّتْ هَذَا فَرِيضَةً مَعَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ لَكِنَّهُ قَادِرٌ
بِمَالِهِ فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ: حُجِّي عَنْهُ.

هذه خمسة أركان هي أركان الإسلام.

✽ فقال جبريل للنبي ﷺ لَمَّا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ قَالَ لَهُ: «صَدَقْتَ».

قال عمر: «فَعَجَبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ».

وسبب تعجبهم أن هذا خلاف عادة السائل الجاهل... إنما هذا كلام خبير
بالمستول عنه، ولم يكن في ذلك الوقت مَنْ يَعْلَمُ هَذَا غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ.

✽ قَوْلُهُ: «فَاخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ».

وَالْإِيمَانُ مَحِلُّهُ الْقَلْبُ وَالْإِسْلَامُ مَحِلُّهُ الْجَوَارِحُ... وَلِهَذَا نَقُولُ: الْإِسْلَامُ
عَمَلٌ ظَاهِرٌ وَالْإِيمَانُ أَمْرٌ بَاطِنٌ فَهُوَ فِي الْقَلْبِ.

فَالْإِيمَانُ: هُوَ اعْتِقَادُ الْإِنْسَانِ لِلشَّيْءِ اعْتِقَادًا جَازِمًا بِهِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الشَّكُّ
وَلَا الْإِحْتِمَالُ.

فَقَالَ لَهُ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ
بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» هذه ستة أركان هي أركان الإيمان.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥١٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٣٤) كتاب الحج.

❖ **قوله: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ»:** الإيمان بالله هو التصديق بأنه سبحانه موجود موصوف بصفات الجلال والكمال مُنَزَّه عن صفات النقص، وأنه واحدٌ حقٌّ صمد فردٌ خالق جميع المخلوقات مُتصرف فيما يشاء ويفعل في مُلكه ما يُريد.

وَالْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ: هو التصديق بأنهم عباد مُكْرَمُونَ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

والملائكة: هم عَالَمٌ غيبي خلقهم الله سبحانه وتعالى من نُورٍ وجعل لهم أعمالاً خاصّة ... كُلٌّ منهم يعمل بما أَمَرَهُ اللهُ بِهِ ... وقد قال الله في ملائكة النار: ﴿عَلَيْهَا مَلَكُوتُكَ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

فهم ليس عندهم استكبار عن الأمر ولا عجز عنه ... يفعلون مَا أُمِرُوا بِهِ وَيَقْدِرُونَ عليه بخلاف البشر.

❖ **وقوله: «وَكُتِبَ» وهو الركن الثالث:**

والكتب: جمع كتاب والمراد به الكتاب الذي أنزله الله على الرُّسل، فكلُّ رُسُولٍ لَهُ كتاب كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]. وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

❖ **ويشمل الإيمان بالكتب عدة أمور:**

أولاً: الإيمان الجازم بأن كلها مُنَزَّلَةٌ من عند الله ﷻ على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين.

ثانياً: الاعتقاد بأنها كلام الله ﷻ لا كلام غيره، وأن الله - تعالى - تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذي أراد ... فمنها المسموع منه من وراء حجاب بلا واسطة، ومنها ما يسمعه المَلَكُ ويأمره بتبليغه إلى الرسول البشرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا

فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٌ ﴿[الشورى: ٥١].

ومنها ما خطه بيده ﷺ ... كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخَذُهَا بِأَحْسَنِهَا﴾
[الأعراف: ١٤٥].

ثالثًا: الاعتقاد بكل ما فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم هذه الكتب الانقياد لها والحكم بما فيها.

رابعًا: الاعتقاد بأن جميع الكتب المنزلة يُصدق بعضها بعضًا.
كما قال تعالى في الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [المائدة: ٤٦].
وقال في القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾
[المائدة: ٤٨].

خامسًا: الإيمان بأن نسخ الكتب الأولى بعضها ببعض حق.
كما نُسخت بعض شرائع التوراة بالإنجيل قال الله - تعالى - في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَلَا حُدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وكما نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

سادسًا: ينبغي أن نعتقد كذلك أن نسخ القرآن بعض آياته ببعض حق كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

سابعًا: الاعتقاد بأن القرآن لا يأتي بعده كتاب ينسخه، ولا مُغيّر ولا مُبدل لشيء من شرائعه بعده، وأن الله ﷻ قد تكفل بحفظه فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

❖ ما هي الكتب المنزلة التي أخبرنا الله بها؟

القرآن: وهو الكتاب المنزل من الله على النبي محمد ﷺ.

التوراة: وهي الكتاب المنزل من الله على نبي الله موسى ﷺ.

الإنجيل: وهو الكتاب المنزل من الله على نبي الله عيسى ﷺ.

الزبور: وهو الكتاب المنزل من الله على نبي الله داود ﷺ.

صحف إبراهيم عليه السلام.

❖ قوله: «ورسله» هذا هو الركن الرابع.

الرُّسُل هم البَشَر الذين أرسلهم الله إلى الخلق وجعلهم واسطة بينهم وبين عباده في تبليغ شرائعه ... وهم بشرٌ خلقوا بين أبٍ وأمٍّ إلا عيسى ابن مريم فإن الله خلقه من أمٍّ بلا أب. أرسلهم الله سبحانه وتعالى رَحْمَةً بالعباد وإقامة للحجة عليهم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وهم عددٌ كثير أولهم نُوح وآخرهم مُحَمَّد ﷺ ... ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وقد صحَّ في الصحيحين وغيرهما في حديث الشفاعة: «أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فيقولون له: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ».

أمَّا دليل كون النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرُّسُل فهو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «أنا خاتم النبيين»^(١) ... فعلياً أن نؤمن أن جميع الأنبياء صادقون فيما بلَّغوا به عن الله وفي رسالتهم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٣٥) كتاب المناقب، ومسلم (٢٢٨٦) كتاب الفضائل.

علينا أن نؤمن بأسماء من عيّنت أسماؤهم لنا ومن لم تعين أسماؤهم لنا فإننا نؤمن بهم على سبيل الإجمال.

علينا أن نؤمن أن ما من أمة إلا أرسل الله إليها رسولا لتقوم عليهم الحجة... كما قال الله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وعلينا أن نصدق بكل ما أخبر به الرسل إذا صحَّ عنهم من جهة النقل ونعلم أنه حق.

وعلينا أن نتبع خاتمهم محمداً ﷺ، لأنه هو الذي فرض علينا اتباعه... قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. فأمرنا الله باتباعه... وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]^(١).

والإيمان برسول الله: هو التصديق أنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى... أيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم وأنهم بلغوا عن الله رسالاته، ويبنوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وأنه يجب احترامهم، وأن لا يفرق بين أحد منهم.

❖ **والإيمان باليوم الآخر:** هو التصديق بيوم القيامة وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وأنهما دارا ثوابه جزائه للمحسنين والمسيئين إلى غير ذلك مما صحَّ من النقل^(٢).

والمراد باليوم الآخر هو اليقين التام بفناء هذا العالم وانتهاء الحياة الدنيا وإقبال الحياة الآخرة وأن الله سيعتث الناس جميعاً ليحاسب كل إنسان على

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٤٧).

عمله.. فمنهم مَنْ يدخل الجنة ومنهم مَنْ يدخل النار.

✽ والإيمان باليوم الآخر واجب لأنه أحد أركان الإيمان الستة التي تُبنى عليها عقيدة المؤمن.

✽ وقوله ﷺ: «وَأَنْ تَوْفُنَ بِالْقَدْرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ» هذا الركن السادس.

القدر: هو تقدير الله سبحانه وتعالى، لِمَا يكون إلى يوم القيامة .. وذلك أن الله سبحانه خلق القلم فقال له: اكتب، قال: ربّ، وما أكتب؟

قال: اكتب ما هو كائن ... فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وقد ذكر الله هذا في كتابه إجمالاً، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. من قبل أن نبرأها: من قبل أن نخلقها، أى: من قبل أن نخلق الأرض، ومن قبل أن نخلق أنفسكم، ومن قبل أن نخلق المصيبة فإن الله كتب هذا من قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

✽ قال أهل العلم: ولا بد للإيمان بالقدر من أن تؤمن بكل مراتبه الأربع.

فالإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، مَنْ أقرّ بها جميعاً فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومَنْ انتقص واحداً منها أو أكثر فقد اختلّ إيمانه بالقدر ... وهذه الأركان الأربعة هي:

✽ المرتبة الأولى: العلم:

فالله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون .. وعلم الله تعالى أزلّ لا أول له ولا ابتداء، ولا يزيد ولا ينقص .. فلا يخفى على الله شيء مهما دقّ، ولا يغيب عنه شيء مهما حُجب.

وهو عالمٌ بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومَن منهم من أهل الجنة، ومَن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم، ويخلق السموات والأرض.

وكل ذلك مقتضى اتصافه - تبارك وتعالى - بالعلم، ومقتضى كونه - تبارك وتعالى - هو العليم الخبير السميع البصير.

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقال: ﴿لِنَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

[الطلاق: ١٢].

✽ المرتبة الثانية: الكتابة:

وهذا أمرٌ ثابت إذ أن كل شيءٍ قدره الله تعالى في الكون مكتوب بعلم الله تعالى وحكمته قبل أن يُخلق جملة وتفصيلاً.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

عن أبي حفصة رضي الله عنه قال: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعَمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ، قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

وهذا المكتوب جملة في اللوح المحفوظ يُنسخ تفصيلاً، لكل فرد بما يَخُصُّه في مواضع أخرى.

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١٨).

وقد كان أول أمر الكتابة قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة... ودليل ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(١).

✽ المرتبة الثالثة: المشيئة:

وهي الإرادة الكلية الشاملة لجميع المخلوقات، وفيها أنه لا يكون في مُلك الله تعالى إلا ما يشاء.... فلا يقع فيه شيء كرهاً عن الله تعالى ولا بغير إرادته ولا بغير فعله وعلمه، بل كلُّ بإرادته وفعله وتكوينه وأمره.. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن... قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

✽ المرتبة الرابعة: الخلق والإيجاد:

وهو القدرة على الإيجاد والإنشاء والتكوين، فكل شيء مخلوق لله تعالى بأمره وفعله وقوته وحكمته، لا يُنسب شيء من ذلك لمخلوق... قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

✽ قوله: «فأخبرني عن الإحسان». قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الإحسان: ضد الإساءة... والمُراد بالإحسان هنا إحسان العمل فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه... يعني مثلاً تُصَلِّيَ وكأنك ترى الله ﷻ.. وتُزَكِّي وكأنك تراه.. وتَصُوم وكأنك تراه.. وتحج وكأنك تراه.. وهكذا بقية الأعمال.

وكون الإنسان يعبد الله كأنه يراه فإن ذلك دليلٌ على الإخلاص لله ﷻ.

وعلى إتقان العمل في متابعة الرسول ﷺ لأن كل مَنْ عَبدَ الله على هذا الوَصف فلا بد أن يقع في قلبه من محبة الله وتعظيمه ما يَحمله على إتقان العمل وإحكام العمل.

❁ «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أى: فَإِنْ لَمْ تَعْبُدِ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ فَاعْبُدْهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُرَاقَبَةِ وَالْخَوْفِ، «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ومعلوم أن عبادة الله على وجه الطَّلَب أكمل من عبادته على وجه الهرب. فيها هنا مرتبتان:

المرتبة الأولى: أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه مرتبة الطَّلَب. والثانية: أن تعبدَه كأنك تعلم أنه يراك وهذه مرتبة الهرب، وكلتا هما مرتبتان عظيمتان، لكن الأولى أكمل وأفضل^(١).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الَّتِي أُوتِيَهَا النَّبِيُّ ﷺ لِأَنَّا لَوْ قَدَرْنَا أَنْ أَحَدَنَا قَامَ فِي عِبَادَةٍ وَهُوَ يُعَايِنُ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَتْرُكْ شَيْئًا مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُضُوعِ وَالْخُشُوعِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَاجْتِمَاعِهِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِتَتْمِيمِهَا عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِهَا إِلَّا أَتَى بِهِ فَقَالَ ﷺ: اْعْبُدِ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ كَعِبَادَتِكَ فِي حَالِ الْعِيَانِ.

فَمَقْصُودُ الْكَلَامِ الْحَثُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الْعِبَادَةِ وَمُرَاقَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي إِتْمَامِ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَقَدْ نَدَبَ أَهْلُ الْحَقَائِقِ إِلَى مُجَاسَسَةِ الصَّالِحِينَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ تَلَبُّسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّقَائِصِ اخْتِرَامًا لَهُمْ وَاسْتِحْيَاءً مِنْهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَا يَرَاُ اللَّهَ تَعَالَى مُطْلِعًا عَلَيْهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ؟ !! . قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ اشْتَمَلَ عَلَى شَرْحِ جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٣).

وإِخْلَاصِ السَّرَائِرِ وَالتَّحَفُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ وَتُتَشَعَّبُ مِنْهُ^(١).

❖ **ثم قال جبريل: «أخبرني عن الساعة»** أى: عن قيام الساعة التى يُبعث فيها الناس ويُجازون فيها على أعمالهم... فقال النبى ﷺ: «مَا الْمُسْتَوَل عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

«المستول عنها» يعنى نفسه عليه الصَّلاة والسلام «بأعلم من السَّائل» يعنى جبريل... يعنى إذا كنت أنت يا جبريل تجهلها فأنا كذلك أجهلها. فهذان رُسولان كريمان أحدهما رسولٌ ملكى، والثانى رسولٌ بشرى وهما أكمل الرُّسل.

فأكمل الرُّسل من الملائكة جبريل، وأكمل الرُّسل من البشر محمد ﷺ، ومع ذلك فكلُّ منهما ينفى أن يكون له علم بالسَّاعة؛ لأنَّ علم السَّاعة عند مَنْ بيده إقامتها ﷻ وهو تبارك وتعالى كما قال الله فى آياتٍ متعددة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. فعلمها عند الله، فمن ادَّعى علم السَّاعة فإنه كاذب، ومن أين له أن يعلم ورسول الله ﷺ لا يعلم وجبريل لا يعلم وهما أفضل الرسل، ولكن السَّاعة لها أمارات كما قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]. أى: علاماتها.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قوله ﷺ: «مَا الْمُسْتَوَل عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» فِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ وَالْمُفْتَى وَغَيْرِهِمَا إِذَا سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْقُصُهُ بَلْ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى وَرَعِهِ وَتَقْوَاهُ وَوُفُورِ عِلْمِهِ.

ولهذا لما أخبر النبى ﷺ جبريل أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ بِذَلِكَ قَالَ: «فَأَخْبَرْنِي عَنْ

(١) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٢٢-٢٢٣) بتصرف.

أماراتها» أى: علاماتها الدالة على قربها.
فقال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العرأة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

❖ الأول: «أن تلد الأمة ربتها».

فقيل: المراد به أن يستولى المسلمون على بلاد الكفر فيكثر التسرى فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها؛ لشرفه بأبيه.

وعلى هذا فالذى يكون من أشرط الساعة استيلاء المسلمين على المشركين وكثرة الفتوح والتسرى ... وقيل: معناه أن تفسد أحوال الناس حتى يبيع السادة أمهات أولادهم ويكثر ترددهن في أيدي المشتريين وربما اشتراها ولدها ولا يشعر بذلك.

فعلى هذا الذى يكون من أشرط الساعة غلبة الجهل بتحريم بيعهن.
وقيل: معناه أن يكثر العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمه معاملة السيد أُمته من الإهانة والسب^(١).

❖ الثانى: «وأن ترى الحفاة العرأة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»:

الحفاة الذين ليس لهم نعال من الفقر، والعرأة ليس لهم كسوة من الفقر، العالة الفقراء يتطاولون في البنيان يعنى أنهم لا يلبثون إلا أن يكونوا أغنياء يتطاولون في البنيان حسًا ومعنى.

حسًا بأن يرفعوا بنيانهم إلى السماء ... ومعنى بأن يُحسنوها ويزينوها ويدخلوا عليها كل ما يكون من مُكمّلاتها، لأنّ لديهم وفرة من المال.

ثم انطلق جبريل عليه الصّلاة والسلام ولبثوا ما شاء الله أن يلبثوا، ثم قال النبى ﷺ لعمر: «أتدرى من السائل؟» قال: الله ورسوله أعلم.

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٤٨).

قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فِيهِ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ وَالْإِحْسَانَ تُسَمَّى كُلُّهَا دِينًا... وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَجْمَعُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ وَالْآدَابِ وَاللِّطَائِفِ بَلْ هُوَ أَصْلُ الْإِسْلَامِ.

وَمِمَّا لَمْ نَذْكُرْهُ مِنْ فَوَائِدِهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ الْعَالِمِ إِذَا عَلِمَ بِأَهْلِ الْمَجْلِسِ حَاجَةً إِلَى مَسْأَلَةٍ لَا يَسْأَلُونَ عَنْهَا أَنْ يَسْأَلَ هُوَ عَنْهَا لِيَحْصَلَ الْجَوَابُ لِلْجَمِيعِ... وَفِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَرْفُقَ بِالسَّائِلِ وَيُدْنِيَهُ مِنْهُ لِيَتِمَّكَنَ مِنْ سُؤَالِهِ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُنْقَبِضٍ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْسَّائِلِ أَنْ يَرْفُقَ فِي سُؤَالِهِ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢) الثَّانِي: عَنْ أَبِي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ، وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١).

هذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله، وحقوق عباده، فإنَّ حقَّ الله على عباده أن يتقوه حق تقاته.

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه... فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه، وسخطه، وعقابه وقاية من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه.

ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشُّبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى.

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٩٧).

قال عمر بن عبد العزيز رحمته الله: ليس تقوى الله بصيام النهار، ولا بقيام الليل، والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض الله... فمن رُزق بعد ذلك خيرًا فهو خير إلى خير.

وقال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين، حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الحرام.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يُثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين.

وقال رجل ليونس بن عبيد أوصني قال: أوصيك بتقوى الله، والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

❦ وقوله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت» مراده في السر والعلانية حيث يراه الناس، وحيث لا يرونه.. ولذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك خشيتك في الغيب والشهادة».

فمن علم أن الله عز وجل يراه حيث كان، وأنه مطلع على باطنه وظاهره، وسره وعلانيته، واستحضر ذلك في خلواته أوجب له ذلك ترك المعاصي في السر.

كان وهيب بن الورد يقول: (خَفِ الله على قدر قدرته عليك، واستح منه على قدر قربك منه).

وقال له رجل عطنى فقال: (اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك).

وصفة القول أن يُقال أنه مما يُعين على التقوى: التدرُّب على مراقبة الله عز وجل، وإحساس القلب بقربه وإطلاعه فيستحي العبد عند ذلك من المعصية، ويبذل جهده في أداء الطاعة على أحسن وجوها.

❦ وهذه بعض الآثار في تقرير هذا المعنى:

ذكر عن أعرابي قال: (خرجتُ في بعض الليالي المظلمة، فإذا بجارية جميلة،

فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجر من عقل إذا لم يكن لك زاجر من دين!! فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب. فقالت: فأين مُكوكبها؟).
وسئل الجُنيد بِمَ يُستعان على غُضِّ البصر؟ قال: (بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظر إليه).

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب

❦ قوله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحها».

لما كان العبد مأموراً بتقوى الله ﷻ في السر والعلانية مع أنه لا بد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب بعض المحظورات، فأمره أن يفعل ما يحوبه هذه السيئة، وهو أن يتبعها بالحسنة....
قال الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً أصاب من امرأة قُبلةً، ثم أتى النبي فذكر ذلك له فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية فدعاها فقرأها عليه فقال رجل: هذه له خاصة؟ قال: «بل للناس عامة»^(١).

❦ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا، يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ عَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ»، يعنى: ما دام على هذه الحال كلما أذنب ذنباً استغفر منه^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠٧) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة.

❦ قوله ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن».

هذا من خصال التقوى ولا تتم التقوى إلا به... وإنما أفرد بالذكر للحاجة إلى بيانه. فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس... فإنه ﷺ كان قد بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن معلماً لهم، ومفتقهاً، وقاضياً... ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره ممن لا حاجة للناس به.

وقد عدَّ الله تعالى مخالقة الناس بخلق حسن من خصال التقوى بل بدأ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ❦ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وجعل النبي ﷺ حسن الخلق أكمل خصال الإيمان.

قال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» (١).

وأخبر النبي ﷺ أن صاحب الخلق الحسن يبلغ بخلقه درجة الصائم القائم... عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ» (٢).

وأخبر أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان وأن صاحبه أحب الناس إلى الله، وأقربهم من النبي ﷺ مجلساً. قال ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوَضَّعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» (٣).

وقال ﷺ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٠).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٢٦).

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا، قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا»^(١).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٢).

قال الله عَزَّ وَجَلَّ مَادِحًا نَبِيَهُ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].
وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(٣).

وبما أن رسول الله ﷺ هو القدوة الحسنة فقد اتصف بالأوصاف الخلقية المحمودة كالعلم، والحلم، والتواضع، والكرم، والصدق، والوفاء، وشدة الحياء، وحسن المعاشرة، والآداب... إلى غير ذلك من الخصال العلية والأخلاق المرضية.

وهذه أمثلة لحسن خلق السلف رضي الله عنهم نختم بها شرح هذا الحديث الشريف.
شتم رجل سلمان الفارسي فقال: (إِنْ خَفَّتْ موازيني فأنا شرُّ مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول).
وسبَّ رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: (يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضها؟)

فنكس الرجل رأسه واستحي.

وكان الفضيل بن عياض رحمته الله إذا قيل له: إن فلاناً يقع في عرضك يقول: والله لأغيطنَّ مَنْ أمره - يعني إبليس - ثم يقول: (اللهم إن كان صادقاً فاغفر لي، وإن كان كاذباً فاغفر له).

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٦٥٠).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٦٣) الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ^(١)، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ^(٢)»^(٣).

وفي رواية غير الترمذي: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا». هذا الحديث جامع لوصايا عظيمة تحتاج إلى تدبُّر وعمل ... فتدبر معي تلك الوصايا الجليلة، وتحفز للعمل:

(١) **احفظ الله**: يعني احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه.

احفظ صلاتك: وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومدح المحافظين عليها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

احفظ طهارتك؛ فإنها مفتاح الصلاة... عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»^(٤).

احفظ أيمانك: قال الله ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيرًا، ويهمل كثير منهم ما يجب بها من كفارة وغيرها، فلا

(١) كناية عن تقدير المقادير قبل الخلق.

(٢) كناية عن الفراغ من كتابة المقادير.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٤) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٥٢).

يحفظه ولا يلتزمه؛ فاحذر.

احفظ رأسك: وحفظ الرأس وما وعى يدخل فيه حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات.

احفظ بطنك: وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على ما حرم الله سبحانه وتعالى... قال الله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ويتضمن أيضًا حفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المأكول والمشرب.

احفظ كُلك: وقد جمع الله ذلك كله في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

احفظ النواهي: ومن أعظم ما يجب حفظه من نواهي الله ﷻ اللسان والفرج... قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

احفظ حدود الله: فإنك إن حفظت حدود الله وراعت حقوقه يحفظك الله؛ فإن الجزاء من جنس العمل... كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]^(٢).

✽ أما حفظ الله ﷻ للعبد فهو نوعان:

✽ أحدهما: حفظه في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وأهله وماله.

قال ﷻ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]

قال ابن عباس: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه.

وَمَنْ حَفِظَ اللَّهَ فِي صَبَاهُ وَقُوَّتِهِ، حَفِظَهُ اللَّهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ، وَمَتَّعَهُ

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

ما بين لحييه: أى لسانه - ما بين رجليه: أى الفرج.

(٢) ابن الإسلام (ص ١٣٥-١٣٦).



بسمعه، وبصره، وقوته، وعقله.

كان ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ قَدْ جاوز المائة سنة، وهو مُتَمَتِّعٌ بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبةً شديدةً فعُوتِبَ في ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.

قال بعض السلف: من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيَّعَ تقواه فقد ضيَّع نفسه، والله غني عنه.

وكان سعيد بن المسيب يقول لابنه: لأزیدن في صلاتي من أجلك؛ رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

✽ والنوع الثاني من الحفظ وهو أشرف النوعين: حفظ الله ﷻ للعبد في دينه وإيمانه... فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان... قال تعالى في حق يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال: يَحُولُ بين المؤمن، وبين المعصية التي تَجُرُّه إلى النار.

✽ ثم قال ﷺ: «احفظ الله تجده تجاهك» وفي رواية: «أمامك» أي: معك. قال قتادة: مَنْ يَتَّقِ الله يَكُنْ معه، وَمَنْ يَكُنْ الله معه فمعه الفئة التي لَا تُغْلِبُ، والحارس الذي لَا يَنَامُ، والهادي الذي لَا يَضِلُّ.

وكتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد فإن كان الله معك فمن تخاف، وإن كان عليك فمن ترجو.

والمعية معيتان: معية عامة، ومعية خاصة... فالمعية العامة هي معية السمع والبصر والإحاطة كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَايَهُمْ وَلَا

خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴿٢٣٩﴾

[المجادلة: ٧].

والمعية الخاصة ففي مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقول موسى ﷺ: ﴿إِن مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقوله ﷺ: ﴿لَا تَخْزَنَ ابْنُ اللَّهِ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].
فالمعية الأولى تستوجب من العبد الخوف والحذر والمراقبة.

والمعية الثانية تستوجب الأُنس بالله ﷻ، والرضا به، والتسليم لأمره ونهيه، وقضائه وقدره.

ثم قال ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» والسؤال إظهار ذلٍّ ونقصٍ وحاجةٍ وافتقارٍ واعترافٍ للمسؤول بأنه قادر على جلب النفع ودفع الضرر... والعبد لا يُظهر فقره ونقصه إلا إلى الله ﷻ.

وليس هناك أحد يقدر قدرة مطلقة على جلب النفع ودفع الضرر إلا الله ﷻ... قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

والله ﷻ يحب أن يُسأل كما قال بعضهم:

لَا تَسْأَلْنِ بَنِي آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللَّهُ يَغْضِبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَه وَإِذَا سَأَلْتَ بَنِي آدَمَ يَغْضَبُ

كذلك الاستعانة تكون بالله ﷻ دون غيره... لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه ودفع مضاره، ولا مُعين له على مصالح دينه ودينه إلا الله ﷻ. فمن أعانته الله ﷻ فهو المُعان، ومن خذله الله ﷻ فهو المخذول.

وَمَنْ تَرَكَ الاسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ ﷻ وَاسْتَعَانَ بِغَيْرِهِ وَكَلَهُ اللَّهُ ﷻ إِلَى مَنْ اسْتَعَانَ بِهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِبَ لَهُ نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعَ عَنْهُ ضَرًّا.

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله: لا تستعن بغير الله فيكلك إليه.

والاستعانة: طلب العون ... فلا تطلب العون من أى إنسان إلا للضرورة القصوى ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالمخلوق فاجعل ذلك وسيلة وسببًا لا ركنًا تعتمد عليه ... اجعل الركن الأصيل هو الله ﷻ.

وفي هاتين الجملتين دليل على أنه من نقص التوحيد أن الإنسان يسأل غير الله ... ولهذا تكره المسألة لغير الله ﷻ في قليل أو كثير.

والله سبحانه إذا أراد عونك يسر لك العون سواء كان بأسباب معلومة أو غير معلومة.

قد يُعينك الله بسبب غير معلوم لك فيدفع عنك من الشر ما لا طاقة لأحد به وقد يُعينك الله على يد أحد من الخلق يُسخره لك ويُذلّله لك حتى يعينك، ولكن مع ذلك لا يجوز لك إذا أعانك الله - أى يد أحد أن تنسى المُسبّب وهو الله ﷻ.

❦ ثم قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» والمراد أن كل ما يصيب العبد مما ينفعه أو يضره إنما هو بقدر الله ﷻ.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

وهذا هو مدار الوصية، فإن العبد إذا علم أنه لن يُصيبه إلا ما كتب الله له من خيرٍ وشرٍّ ونفعٍ وضرٍّ، وأن اجتهد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو النافع الضار، المعطى المانع، وأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بالطاعة، وحفظ حدوده.

فبين النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الجملة أن الأمة لو اجتمعت كلها على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك.

فإذا وَقَعَ منهم نَفْعٌ لَكَ فاعلم أَنَّهُ من الله؛ لأنَّه هو الذى كتبه ... فلم يقل النبي ﷺ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك، بل قال: «لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ».

فالناس بلا شك ينفع بعضهم بعضًا ويُساعد بعضهم بعضًا لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان ... فالفضل لله فيه أولاً عَزَّوَجَلَّ.. فهو الذى سَخَّرَ لَكَ مَنْ يَنْفَعُكَ ويُحَسِّنُ إِلَيْكَ ويُزِيلُ كَرْبَكَ ... وكذلك بالعكس لو اجتمعوا على أن يضرُّوكَ بشيء لم يضرُّوكَ إلا بشيء قد كتبه الله عليك.

والإيمان بهذا يَسْتَلْزِمُ أن يكون الإنسان مُتَعَلِّقًا بربه ومُتَكَلِّيًا عليه لا يهتم بأحدٍ، لأنَّه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضرَّوه بشيء لم يضرَّوه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

وحينئذٍ يُعَلِّقُ رجاءه بالله وَيَعْتَصِمُ بِهِ وَلَا يُهِمُّهُ الْخَلْقُ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَلِهَذَا نَجَدُ النَّاسَ فِي سَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَمَّا اعْتَمَدُوا عَلَى اللَّهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ لَمْ يَضُرَّهُمْ كَيْدُ الْكَائِدِينَ وَلَا حَسَدُ الْحَاسِدِينَ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

❁ وقوله ﷺ: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجُفَّتِ الصُّحُفُ» هو كناية عن تَقَدُّمِ المقادير كلها، والفراغ منها، من أمدٍ بعيد ... فإن الكتاب إذا فُرِغَ من كتابته، ورُفِعَ

الأقلام عنه، وطال عهده، فقد رُفعت الأقلام وجُفَّت الصحف التي كُتِبَ فيها... كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»^(١).

❖ وفي اللفظ الثاني قال: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً». يعنى اعلم علم يقين أن النصر مع الصبر فإذا صبرت وفعلت ما أمرك الله به من وسائل النصر فإن الله تعالى ينصرك.

والصبر هنا يشمل الصبر على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة... لأن العدو يُصيب الإنسان من كل جهة فقد يشعر الإنسان أنه لن يطيق عدوه فيستحسر ويدع الجهاد.

وقد يشرع في الجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف.

وقد يستمر ولكنه يُصيبه الألم من عدوه فهذا أيضًا يجب أن يصبر عليه.

قال الله: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ كَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ كَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

فإذا صبر الإنسان وصابر ورابط فإن الله سبحانه ينصره.

❖ وقوله: «واعلم أن الفرج مع الكرب».

كلما اُكْتَرِبَتِ الأمور وضائق فإن الفرج قريب؛ لأن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُم خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٢) رياض الجنة / د. أحمد فريد (ص: ٢٦-٢٩) بتصرف.

اللَّهُ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ [النمل: ٦٢]. فكلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى.

❁ وقوله: «وإن مع العسر يسراً» فكل عُسْرٍ بعده يُسْرٌ، بل إن العُسْرَ مَحْفُوفٌ بِيُسْرٍ.

يُسْرٌ سَابِقٌ وَيُسْرٌ لَاحِقٌ ... قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرِينَ».

فهذا الحديث الذي أوصى به عبد الله بن عباس ينبغى للإنسان أن يكون على ذكرٍ له دائماً، وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة التي أوصى بها النبي ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٤) الرَّابِعُ: عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُؤَبَّاتِ» ^(٢).

❁ من المعلوم أن أنس بن مالك رضي الله عنه عاش بعد النبي ﷺ ما يقرب من تسعين سنة فتغيرت الأمور في عهده رضي الله عنه واختلفت أحوال الناس عما كان على عهد النبي ﷺ فصار بعضهم يتهاونون في بعض الأمور العظيمة مثل صلاة الجماعة.. فقد كان أصحاب الرسول ﷺ لا يتخلف أحدٌ منهم عن الصلاة في جماعة إلا من عُذِرَ أو مَرَضِيَ.

وفي زماننا هذا صار كثيرٌ من الناس لا يتهاونون في صلاة الجماعة فحسب بل في الصلاة نفسها فتراهم لا يُصَلُّون ... أو يصلون ويتركون أو يؤخرون

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٥٨-٢٦٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٩٢) كتاب الرقاق.

«الْمُؤَبَّاتُ» الْمُهْلِكَاتُ.

الصلاة عن وقتها.. فكل هذه الأعمال أصبحت يسيرة عند بعض الناس لكنها كانت في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه من الموبقات.

❁ وكذلك الكذب.. فكثير من الناس في زماننا هذا يكذبون ويتحرون الكذب ويرونه شيئاً هيناً مع أنه كان على عهد النبي ﷺ وأصحابه من الموبقات.. وكان النبي ﷺ يحذرهم جميعاً من الكذب ويقول: «وَيَاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١).

❁ وكذلك الغش.. فقد كان النبي ﷺ يقول: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(٢).

فكان الصحابة يحذرون ويحذرون من الغش ويعتبرونه من الموبقات.. أما الآن فحدث ولا حرج فقد انتشر الغش انتشار النار في الهشيم حتى صار بعض الناس يتفاخر بالغش ويعتبره شطارة في البيع والشراء... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❁ بل هناك مَنْ يجمع بين الغش والخداع والكذب فيجحد ما عليه للناس، أو يدعى عليهم ما ليس له ويحاكمهم عند القاضى ويحلف بالله على ذلك.. وتلك هي اليمين الغموس التي يقطع به المسلم حق أخيه فتغمسه تلك اليمين في نار جهنم - عافانا الله وإياكم -... وهكذا فقد كانت تلك الأمور على عهد النبي ﷺ وأصحابه من الموبقات المهلكات فصارت في أعين بعض الناس أدق من الشعر... وذلك لأنه كلما قوى الإيمان عظمَت المعصية في قلب الإنسان.. وكلما ضعف الإيمان خفَّت المعصية في قلب الإنسان ورآها أمراً هيناً ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.
البر: الطاعة وفعل البر وهي كلمة جامعة لأبواب الخير - الفجور: الميل إلى الفساد والانبعاث في المعاصي.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١) كتاب الإيمان.

وهذا كما جاء في الخبر «لا تنظر إلى صغر المعصية وانظر إلى عظمة من عصيت» وفي الخبر الآخر «المؤمن يرى ذنبه كأنه قاعد تحت أصل جبل يوشك أن يقع عليه، والكافر يرى ذنبه كأنه ذباب أطاح به هكذا وهكذا». وفي الحديث دليل على كمال مراقبة القوم لله تعالى وكمال استحيائهم منه، حتى إنهم يرون تلك الأمور التي استهون غيرهم الوقوع فيها مهلكات لهم لعظم شهودهم جلال الله تعالى وعظمته. وفيه أن الإنسان ينبغي له أن يحذر من صغار الذنوب فلعلها تكون المهلكة له في دينه، كما يحترز من يسير السموم خشية أن يكون فيها حتفه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥) الخَامِس: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث إثبات الغيرة لله (سبحانه وتعالى)... وسبيل أهل السنة والجماعة في مثل هذا الحديث وفي غيره من أحاديث الصفات وآيات الصفات أنهم يشتونها لله سبحانه على الوجه اللائق به... يقولون: إن الله يغار لكن ليست كغيرة المخلوق، وإن الله يفرح ولكن ليس كفرح المخلوق، وإن الله له من الصفات الكاملة ما يليق به، ولا تشبه صفات المخلوقين.

وقد جاء في هذا الحديث الشريف أن الله عَزَّ وَجَلَّ يغار، وأن غيرته عَزَّ وَجَلَّ تكون من إتيان محارمه... ووجه ذلك؛ أن المسلم الذي يطيع هواه أو ينقاد للشيطان ويقع في محارم الله، فكأنه جعل لغير الله فيه نصيباً... ولما كانت الطاعة خاصة بالله عَزَّ وَجَلَّ ويأبى أن يشاركه فيها غيره، كان ذلك مبعثاً لأن يستثير العاصي غضب مولاه وغيرته عليه، وما ذلك إلا لأن المولى - سبحانه وتعالى -

(١) دليل الفالحين (٢٠١/١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٢٣) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة.

والغيرة: بفتح الغين، وأصلها: الأنفة.

لا يرضى لعباده المعصية كما لا يرضى لهم الكفر، ومن ثم تكون من جانب الله تعالى غير حقيقيّة على ما يليق بجلاله وكماله، ومن لوازمها: كراهية وقوع العبد في المعاصي وإشراكه غير الله فيما هو حقّ المولى وحده من التزام بأوامره، واجتناب لمعاصيه^(١).

فالشاهد من الحديث أن الغيرة صفة حقيقية لله عزّ وجلّ ولكنها ليست كغيرة المخلوق... ولذا فإن الله بحكمته أحلّ لعباده أشياء وحرّم عليهم أشياء وأوجب عليهم أشياء.

فما أوجبّه عليهم فهو خيرٌ لهم في دينهم ودنياهم وفي حاضرهم ومستقبلهم... وما حرّمه عليهم فإنه شرٌّ لهم في دينهم ودنياهم وحاضرهم ومستقبلهم... فإذا حرّم الله على عباده أشياء فإنه عزّ وجلّ يغار أن يأتي الإنسان محارمه.

فإذا تجرأ الإنسان وعصى الله وأتى محارمه فإن الله عزّ وجلّ يغار ولا سيما إذا وقع العبد في الزنى أو اللواط - عياداً بالله -.

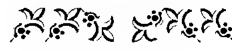
فإنه ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْبِرُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أُمَّتُهُ» لأنّ الزّنى فاحشة ومن ثمّ حرّم الله على عباده الزّنى وجميع وسائل الزّنى... كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فإذا زنى العبد والعياذ بالله فإن الله يغار غيرة أشد وأعظم من غيرته على ما دونه من المحارم.

ومن باب أولى وأشد اللواط وهو إتيان الذكر الذّكر... فإن هذا أعظم وأعظم ولهذا جعله الله تعالى أشد في الفحش من الزّنى... فقال لوط لقومه: ﴿اتَّأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

قال هنا: ﴿الْفَحِشَةُ﴾ وفي الزّنى قال: ﴿فَحِشَةً﴾ أي: فاحشة من

الفواحش، أمّا اللواط فجعله الفاحشة العظمى - نسأل الله العافية - .

وكذلك أيضًا السرقة وشرب الخمر وكل المحارم يغار الله منها، لكن بعض المحارم تكون أشدّ غيرة من بعض حسب الجرم والمضار التي تترتب على ذلك^(١).



(٦٦) السادس: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَسْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَاتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ نُحْسِنُ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا. فَقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ. أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ شَكَ الرَّأْيِ. فَأُعْطِيَ نَاقَةً عَشْرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَاتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ. وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقْرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. فَاتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي فَأُبْصِرُ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصْرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَانْتَجَ هَذَانِ وَوُلِدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَاِدٍ مِنَ الْغَنَمِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صَوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مُسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بَيَ الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحَقُّ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذُرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. وَاتَى الْأَقْرَعَ فِي صَوْرَتِهِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/٢٦٢).

وهيئته، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصِيرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ. وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنٌ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاءَ أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ مَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَا لَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»^(١).

✽ في هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أن ثلاثة من بنى إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى...

فقوله: «ثلاثة من بنى إسرائيل».. فمن المعلوم أن إسرائيل هو يعقوب عليه السلام وهو الذى كان من ذريته بنى إسرائيل وأنبياء بنى إسرائيل.

✽ ولقد جاءت أخبار كثيرة عن بنى إسرائيل وهى ثلاثة أقسام:

الأول: ما جاء فى القرآن... والثانى: ما جاء فى صحيح السنة... والثالث: ما جاء عن أحبارهم وعن علمائهم.

فأما الأول والثانى فلا شك فى أنه حق، ولا شك فى قبوله، مثل قوله تعالى: ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالَ لِلنَّبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٦٤) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٩٦٤) كتاب الزهد والرفائق.

«وَالنَّاقَةُ الْعُشْرَاءُ»: هِىَ الْحَامِلُ.

قوله: «أَنْتَجَ» فى رواية: «فَتَنَجَ» معناه: تَوَلَّى نِتَاجَهَا، وَالنَّاتِجُ لِلنَّاقَةِ كَالْقَابِلَةِ لِلْمَرْأَةِ.

وقوله: «وَلَدَ هَذَا»: أَيْ: تَوَلَّى وَلَادَتَهَا، وَهُوَ بِمَعْنَى أَنْتَجَ فى النَّاقَةِ. فَالْمَوْلَدُ، وَالنَّاتِجُ، وَالْقَابِلَةُ بِمَعْنَى لَكِنَّ هَذَا لِلْحَيَوَانِ وَذَلِكَ لغيره.

وقوله: «انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ»: أَيْ الْأَسْبَابُ.

وقوله: «لَا أَجْهَدُكَ» معناه: لَا أَشُقُّ عَلَيْكَ فى رَدِّ شَيْءٍ تَأْخُذُهُ أَوْ تَطْلُبُهُ مِنْ مَالِي.

وفى رواية البخارى: «لَا أَحْمَدُكَ»، ومعناه: لَا أَحْمَدُكَ بِتَرْكِ شَيْءٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، كَمَا قَالُوا: لَيْسَ عَلَى طَوْلِ الْحَيَاةِ نَدَمٌ أَى عَلَى فَوَاتِ طَوْلِهَا.

نُقِلَتْ فِي سَكِيلِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٤٦﴾.

ومن السنة مثل هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ.

❖ وأما ما روى عنهم عن أحبارهم وعلمائهم فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد الشرع بطلانه، فهذا باطل يجب رده وهذا يقع كثيراً فيما نُقِلَ من الإسرائيليات في تفسير القرآن، فإنه يُنْقَلُ في تفسير القرآن كثير من الأخبار الإسرائيلية التي يشهد الشرع بطلانها.

والثاني: ما شهد الشرع بصدقه، فهذا يُقْبَلُ، لا لأنه من أخبار بنى إسرائيل، ولكن لأن الشرع شهد بصدقه وأنه حق.

والثالث: ما لم يكن في الشرع تصديقه ولا تكذيبه: فهذا يُتَوَقَّفُ فيه لا يُصَدَّقُونَ ولا يُكْذَّبُونَ؛ لأننا إن صدقناهم فقد يكون باطلاً فنكون قد صدقناهم باطلاً، وإن كذبناهم فقد يكون حقاً فقد كذبناهم بحق، ولهذا نتوقف فيه، ولا حرج من التحديث به، فيما ينفع في ترغيب أو ترهيب^(١).

❖ وتعالوا بنا للتعايش بقلوبنا وأرواحنا مع شرح هذا الحديث:

كثير من الذين ابتلاهم الله بالمرض أو الفقر يحنُّون إلى التخلُّص من أمراضهم وفقرهم، وبعضهم ينالون ما تمنوه، فيبدل الله مرضهم عافية وصحة، ويبدل فقرهم غنى، ومن هؤلاء من ينسون البلاء الذي كان بهم، فلا يشكرون الله على نعمته عليهم، ولا يألَمون للمصابين بمثل ما كانوا به مصابين، ومنهم الذين يحمدون الله على ما تفضَّل به عليهم، من إزالة ما كان بهم من ضُرٍّ... وعندما يرون المصاب بمثل ما كانوا مصابين به، يأسون لحاله، ويمدون له يد العون.

وقد حدثنا الرسول في هذا الحديث عن هذين الصنفين من الناس، الكافرين بالنعمة والشاكرين... فقد ابتلى الله ثلاثة من ذوى العاهات من بنى إسرائيل،

فأرسل إليهم ملكًا مسحهم، فأزال الضرَّ الذى بأجسادهم، وأعطاهم المال الذى يحبه كُلُّ منهم... وما هى إلا سنوات حتى أصبح لكل واحدٍ منهم مالًا كثيرًا، وأرسل الله لهم المَلَك مرة ثانية... جاء كُلًّا منهم فى مثل صورته التى كان عليها أيام مرضه وفقره، يسألهم العون والمساعدة، فبخل اثنان كُفْرًا بنعمة الله، وضمًّا بالمال الذى تفضّل الله به على كل واحدٍ منهما، وجاد الثالث، شاكرًا نعمة الله^(١).

✽ والآن إليكم قصة هؤلاء الثلاثة... فلقد كانت هناك مدينة جميلة تقع على شاطئ البحر وكانت الأشجار تحيط بها من كل مكان.

وكان يعيش فى هذه المدينة ثلاثة من الرجال الذين ابتلاههم الله ﷻ.

فأما الأول فكان مصابًا بالبرص وهو مرض خطير يصيب الجلد... وأما الثانى فكان أقرع ليس فى رأسه شعر... وأما الثالث فكان أعمى لا يرى... وفوق ذلك كله فلقد كان الثلاثة فقراء.

فأراد الله ﷻ أن يختبرهم فبعث إليهم ملكًا فى صورة رجل.

فجاء المَلَك إلى الرجل الأبرص وأخبره أنه سوف يحقق له كل ما يتمناه - بإذن الله -... فسأله: ماذا تتمنى؟

قال الأبرص: أتمنى أن يصبح جلدى جميلًا وأن يصبح لونه جميلًا، فإن الناس سيتعدون عنى ولا يتكلمون معى بسبب لونى.

فقام الملك فمسح على جلده، فأصبح جلده جميلًا ولونه جميلًا ففرح الرجل فرحًا شديدًا.

قال له المَلَك: ماذا تريد من الأموال وأى المال أحب إليك؟

قال له الرجل: أحب الإبل.

فأعطاه المَلَك ناقة حاملًا فى شهرها العاشر وقال له: بارك الله لك فيها.

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٣١٧).

❖ ثم ذهب الملك للرجل الأقرع وقال له: سوف أحقق لك كل ما تتمناه - بإذن الله - فماذا تتمنى؟

قال الأقرع: أتمنى أن يصبح لى شعر جميل فإن الناس يتعدون عنى بسبب ما أنا فيه.

فمسح المَلِك على رأسه فأصبح له شعر جميل... ففرح الرجل فرحاً شديداً.

قال له المَلِك: أى المال أحب إليك؟

قال له الرجل: أحب البقر.

فأعطاه المَلِك بقرة حاملاً وقال له: بارك الله لك فيها.

❖ ثم ذهب المَلِك للرجل الأعمى وقال له: سوف أحقق لك كل ما تتمناه - بإذن الله - فماذا تتمنى؟

قال الأعمى: أتمنى أن يرد الله إلىَّ بصرى لأرى الناس من حولى.

فمسح المَلِك على عينيه فعاد إليه بصره ففرح الرجل فرحاً شديداً.

قال له المَلِك: أى المال أحب إليك؟

قال له الرجل: أحب الغنم.

فأعطاه المَلِك شاة والدًا وقال له: بارك الله لك فيها.

❖ ومرت الأيام وأصبح الثلاثة من الأثرياء... فأصبح للأبرص وادٍ من

الإبل وأصبح للأقرع وادٍ من البقر... وأصبح للأعمى وادٍ من الغنم.

❖ وهنا جاء موعد الامتحان والاختبار.

فلقد جاء المَلِك مرة أخرى للأبرص فى صورة رجل فقير أبرص... أى جاءه

على نفس هيئته التى كان عليها قبل ذلك حتى يَرِقَّ قلبه ويتذكر نعمة الله عليه.

قال له المَلِك: أنا رجل فقير لا أملك شيئاً.. فأسألك بالله الذى أنعم عليك بهذا



الجلد الحسن وأكرمك بهذا المال أن تعطيني ناقة أسافر عليها وأحلب لبنها.
 فقال له الأبرص: لن أعطيك شيئاً... وأما عن هذا المال فلقد ورثته عن
 آبائي وأجدادي فأنا من عائلة ثرية.
 فقال له المَلَك: كأني أعرفك والله... ألم تكن أبرص يُقذرك الناس فشفاك
 الله وأعطاك هذا الجلد الحسن... وكنت فقيراً فأغناك الله.
 قال الأبرص: كلا... لقد ورثت هذا المال عن آبائي وأجدادي.
 قال له المَلَك: إن كنت كاذباً فأسأل الله أن يردك إلى ما كنت عليه.
 فعاد الرجل أبرص كما كان... فقيراً كما كان.
 ✽ وذهب المَلَك إلى الرجل الأقرع في صورة رجل أقرع وفقير... أي جاءه
 على نفس هيئته التي كان عليها قبل ذلك حتى يرق قلبه ويتذكر نعمة الله عليه.
 قال له المَلَك: أنا رجل فقير لا أملك شيئاً.. فأسألك بالله الذي أنعم عليك
 بهذا الشعر الجميل وأكرمك بهذا المال أن تعطيني بقرة.
 قال له الأقرع: لن أعطيك شيئاً.
 قال له المَلَك: كأني أعرفك والله... ألم تكن أقرع يُقذرك الناس فشفاك الله
 وأعطاك هذا الشعر الحسن... وكنت فقيراً فأغناك الله.
 قال له الأقرع: كلا.. لقد ورثت هذا المال عن آبائي وأجدادي فأنا من عائلة
 ثرية.

قال له المَلَك: إن كنت كاذباً فأسأل الله أن يردك إلى ما كنت عليه.
 فعاد الرجل أقرع كما كان... فقيراً كما كان.
 ✽ ثم ذهب المَلَك إلى الرجل الأعمى في صورة رجل أعمى وفقير... أي
 جاءه على نفس هيئته التي كان عليها قبل ذلك حتى يرق قلبه ويتذكر نعمة الله عليه.
 قال له المَلَك: أنا رجل فقير لا أملك شيئاً.. وأعمى لا أرى... فأسألك بالله

الذى أنعم عليك بنعمة البصر وأكرمك بهذا المال.. أن تعطيني شاة واحدة... فقال له الأعمى: والله لقد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصرى وكنت فقيراً فأكرمنى الله بهذا المال... فخذ ما شئت من الأغنام فوالله لا أمنع عنك أى شىء أخذته منى... فإنى أفعل ذلك طاعة لله (جل وعلا).

فقال له المَلَك: بارك الله لك فى بصرك وفى مالك... فأنا مَلَكٌ من الملائكة... وقد كان هذا اختباراً لك ولصاحبيك فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك.

✽ الدروس المستفادة:

- (١) ابتلاء الله لعباده، كما ابتلى الثلاثة، ليظهر الشاكر من الكافر، والصالح من الطالح.
- (٢) فضل الشكر فى السراء... ومن الشكر الجود بالمال على مُستحقه، وعاقبة الكفر بالنعمة... ومن الكفر البخل بالمال على مُستحقه من أهل الفقر والمسكنة... وهو ما يُسمَّى: كُفر النعمة.
- (٣) قدرة الملائكة على التمثل فى صورة البشر، كما فعل المَلَك المذكور فى الحديث.
- (٤) لا يُعَدُّ المَلَك كاذباً عندما ادَّعى أنه رجل مسكين تقطعت به الحبال فى سفره، فمراده ضرب المثل بما فعل.
- (٥) إذا بارك الله فى مال الرجل نما وكثُر، وأصبح مالاً عظيماً فقد كَثُرَ الله أموال الثلاثة الذين ابتلاهم، فأصبح لكل واحدٍ منهم وادٍ يموج بالنعمة، وأصل ذلك واحدة مما أعطى من النعم... وقد يهلك المال الكثير ويبيد فى الزمن القليل.
- (٦) ليس كثرة المال دليلاً على حب الله للعبد... فالله يختبر الذين يهبهم المال، كما اختبر الثلاثة بما أعطاهم.
- (٧) قدرة الله على شفاء الأمراض المستعصية التى يظن البشر أنه لا شفاء لها، كالبرص والقرع والعمى.

(٦٧) السَّابِعُ: عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانَةَ» ^(١).

❁ وهذا الحديث ضعيف ولذا فسوف أنتقل للحديث الذي بعده وسأكتفى بشرح الأحاديث الصحيحة والحسنة الثابتة عن النبي ﷺ حتى نعتاد جميعاً ألا نذكر إلا ما ثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨) الثَّامِنُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» ^(٢).

❁ في الحياة أمور تتصل بالإنسان في دينه أو دُنياه، وأمور لا تتصل بشيء من ذلك ... والإنسان مُطالب بأن يرعى نفسه وإخوانه المسلمين قدر استطاعته وما يتصل بذلك كله، وليته يفى به ... أما ما بعد ذلك من اللغو واللهو والمفاسد والأمور التي لا تتصل به، فلا داعي لأن يشغل نفسه بها، لئلا ينشغل بذلك عما هو أولى وأجدى ... وهذه هي ثمرة الإسلام الصحيح الكامل .. أنه يملأ على الإنسان نفسه ويملك عليه شعوره ويتحكم في سيره وسلوكه ^(٣).

ولذا قال النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ».

❁ قال الشيخ صالح آل الشيخ:

هذا الحديث - أيضاً - من الأحاديث الأربعة التي قال فيها طائفة من أهل العلم: إنه أحد أحاديث أربعة هي أصول الأدب في السُّنة.

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٣٠٥).

قال الترمذي وغيره من العلماء: مَعْنَى «دَانَ نَفْسَهُ»: حَاسَبَهَا.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩١١).

(٣) مفاهيم تربوية في شرح الأربعين النووية (ص ٢١٤) بتصرف.

فهذا الحديث أصل من الأصول في الآداب.

✽ وقال الشيخ السعدى رَحِمَهُ اللهُ:

الإسلام - عند الإطلاق - يدخل فيه الإيمان، والإحسان، وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة ... والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين، كما دَلَّ عليه فحوى الحديث.

فمنهم: المحسن في إسلامه، ومنهم المسيء.

فمن قام بالإسلام ظاهراً وباطناً فهو المحسن ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

[النساء: ١٢٥].

فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه مما يجب عليه تركه من المعاصي والسيئات، ومما ينبغى له تركه كالمكروهات، وفضول المباحات التي لا مصلحة له فيها، بل تفوت عليه الخير.

فقوله ﷺ: « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » يعم ما ذكرنا.

ومفهوم الحديث: أن مَنْ لم يترك ما لا يعنيه: فإنه مسيء في إسلامه.

وذلك شامل للأقوال والأفعال، المنهى عنها نهى تحريم أو نهى كراهة.

فهذا الحديث يُعَدُّ من الكلمات الجامعة؛ لأنها قَسَّمت هذا التقسيم الحاصر، وبيَّنت الأسباب التي يتم بها حسن الإسلام، وهو الاشتغال بما يعنى، وترك ما لا يعنى من قول وفعل، والأسباب التي يكون بها العبد مُسيئاً، وهى ضد هذه الحال - والله أعلم^(١).

✽ وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

إسلام المرء هو استسلامه لله ﷻ ظاهراً وباطناً، فأما باطناً فاستسلام العبد

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٣٤-١٣٥).

لربه بإصلاح عقيدته وإصلاح قلبه، وذلك بأن يكون مؤمناً بكل ما يجب الإيمان به على ما سبق في حديث جبريل.

وأما الاستسلام ظاهراً فهو إصلاح عَمَلِهِ الظَّاهِر كأقواله بلسانه وأفعاله بجوارحه... والناس يختلفون في الإسلام اختلافاً ظاهراً كثيراً كما أن الناس يختلفون في أشكالهم وصورهم... منهم الطويل ومنهم القصير ومنهم الضخم ومنهم مَنْ هم دون ذلك ومنهم القبيح ومنهم الجميل فيختلفون اختلافاً ظاهراً. فكَذَلِكَ يختلفون في إسلامهم لله ﷻ حتى قال الله في كتابه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولِيِّكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِ أُولِيكُمُ وَلَا يَرْجُو الْقَوْلَ إِلَّا بِالْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠].

وإذا كان الناس يختلفون في الإسلام، فإن مما يزيد في حُسن إسلام المرء أن يَدَعَ ما لا يعنيه ولا يهيمه لا في دينه ولا في دنياه... فالإنسان المسلم إذا أراد أن يجعل إسلامه حَسَنًا فليدع ما لا يعنيه^(١).

فمثلاً: لا تتدخل في أمور الناس إذا كان الأمر لا يهمك في شيء.. فإن هذا من حُسن إسلامك... وإذا كان هناك عمل وأنت مُتردد هل تفعله أم لا.. فانظر هل هو من الأمور الهامة في دينك أو دُنْيَاكَ فافعله أو اتركه.. فالسلامة أسلم.

فمن الناس مَنْ تجده مشغولاً بغيره.. فهو حريصٌ غاية الحرص على معرفة أخبار الناس من حوله فيُضيع أوقاته ويشغل قلبه ويشتت فكره فيما لا ينفعه بل يضره... ولو انشغل هذا الإنسان بربه وانشغل بذكره (جَلَّ وعلا) وطاعته.. أو حتى انشغل بما يعود عليه بالنفع في أمور دُنْيَاهُ لكان خيراً له.

أتدري ما الذي صَيَّرَ لقمان الحكيم في هذه المنزلة العالية والذكر الحسن الجميل؟ لقد سأله أحد الناس: ما الذي صَيَّرَكَ إلى ما أرى؟

قال له: «يا هذا اسمع ما أقول لك: إن الذي صيرني إلى هذا إنما هو غُصُّ بصرى، وكَفُّ لسانى، وعفة طعمى، وحفظ فرجى، وقولى بصدق، ووفائى بعهدى، وتكرمى ضيفى، وحفظى جارى، وتركى ما لا يعينى فذلك الذى صيرنى إلى ما ترى»^(١).

وهذا أبو دجانة رضي الله عنه دخلوا عليه وهو مريض فكان وجهه يتهلل، ف قيل له: ما لك وجهك يتهلل يرحمك الله؟ فقال: ما من عمل شىء أوثق عندى من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعينى، وكان قلبى سليماً للمسلمين. وذكر أبو سليمان أيضاً عن الشافعى: قيل لعمر بن عبد العزيز: ما تقول فى أهل صِفِّين؟ فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لسانى بها^(٢).

بَابُ مَنْعِ الْكَلَامِ فِي مَا لَا يُغْنِي

(٦٩) التَّاسِعُ: عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ»^(٣).

وللأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

بَابُ مَنْعِ الْكَلَامِ فِي مَا لَا يُغْنِي

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ١٤٢).

(٢) كتاب العزلة للخطابى.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٣٥٠).

(٦) باب فى التقوى

❁ ما أجمل أن يتحلى المسلم بالتقوى... فيا ترى ما هى التقوى؟

التقوى هى: امتثال أوامره تعالى واجتناب نواهيه، بفعل كل مأمور به وترك كل منهى عنه حسب الطاقة.... قال الحليمي: حقيقة التقوى فعل المأمور به والمندوب إليه واجتناب المنهى عنه والمكروه المنزه عنه لأن المراد من التقوى وقاية العبد نفسه من النار وهو إنما يقي نفسه من النار بما ذكرت^(١).

❁ وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: التقوى هى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

❁ وقال طلق بن حبيب رحمته الله: إذا وقعت الفتنة فأطفئها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟.. قال: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله ترجو ثواب الله. وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله.

خلّ الذنوب صغيرها	وكبرها ذاك التقي
واصنع كما شئت فوق	أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيره	إن الجبال من الحصى

❁ والتقوى: اسم مأخوذ من الوقاية، وهو أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله. والذي يقيه من عذاب الله هو فعل أوامر الله عز وجل، واجتناب نواهيه فإن هذا هو الذى يقيه من عذاب الله عز وجل... واعلم أن التقوى أحياناً تقترن بالبر، فيقال برّ وتقوى كما فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]. وتارة تُذكر وحدها، فإذا قرنت بالبر صار البر فعل الأوامر واجتناب النواهي... وإذا أُفردت صارت شاملة، تعم فعل الأوامر واجتناب النواهي.

(١) التعريفات للجرجاني (٦٥).

وقد ذكر الله تعالى في كتابه أن الجنة أعدت للمتقين.

فأهل التقوى هم أهل الجنة جعلنا الله وإياكم منهم... ولذلك يجب على الإنسان أن يتقى الله عَزَّوَجَلَّ، امتثالاً لأمره وطلباً لثوابه والنجاة من عقابه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن مَنْ عاش على شيء مات عليه... فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مُدَاوِمًا لتقوى ربه وطاعته، مُنِيبًا إليه على الدوام، ثَبَّتَهُ الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة.

وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: هو أن يُطَاع فلا يُعَصَى، ويُذَكَر فلا يُنْسَى، ويُشْكَر فلا يُكْفَر... وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جدًا، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه... ثم أمرهم تعالى بما يُعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يَصْلُحُ دينهم وَتَصْلُحُ دُنْيَاهُمْ وبالا اجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، وَيَحْصُلُ لَهُم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عَدُّهَا، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادى يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحدٍ يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدَّى إلى الضرر العام.

❁ وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وقييد ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه ... كما قال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر^(١).
ويستفاد من قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. أن الإنسان إذا لم يستطع أن يقوم بأمر الله على وجه الكمال فإنه يأتي منه على ما قدر عليه.

ومنه قول النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»^(٢) فرتب الرسول ﷺ الصلاة بحسب الاستطاعة وبأن يُصَلِّي قَائِمًا فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ.

وهكذا بقية الأوامر ومثله الصَّوم ... إذا لم يستطع الإنسان أن يصوم في رمضان فإنه يؤخره ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وفي الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فإذا لم تستطع الوصول إلى البيت فلا حج عليك.

لكن إن كنت قادرًا بمالك دون بدنك وَجَبَ عليك أن تقيم مَنْ يحج ويعتمر عنك ... فالحاصل أن التقوى كغيرها منوطة بالاستطاعة فمن لم يستطع شيئًا من أوامر الله فإنه يعدل إلى ما يَسْتَطِيع.

ومن اضطر إلى شيء من محارم الله حَلَّ له ما ينتفع به في دفع الضرورة لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ١٠٣١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (١١١٧) كتاب تقصير الصلاة.

حتى إن الرجل لو اضطر إلى أكل لحم الميتة أو أكل لحم الخنزير أو أكل لحم الحمار أو غيره من المحرمات فإنه يجوز له أن يأكل منه ما تندفع منه ضرورته^(١).

❖ وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه، في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة، بما هو الأصلح.

يجمعه قول النبي ﷺ: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ »^(٢). و ضد ذلك القول غير السديد، وهو القول الذي ليس بصواب، بل خطأ، إما في موضوعه وإما في محله.

أما في موضوعه بأن يكون كلامًا فاحشًا يشتمل على السبِّ والشتم والغيبة والنميمة وما أشبهه... أو في محله أي: أن يكون هذا القول في نفسه هو خير لكن كونه يُقال في هذا المكان ليس بخير؛ لأن لكل مقام مقالاً... ففي هذا المحل لا يكون قولاً سديداً، بل خطأ، وإن كان ليس حراماً بذاته.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٧٠-٢٧١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٣٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

فمثلاً لو فرض أن شخصاً رأى إنساناً على منكر ونهاه عن المنكر لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئاً أو أغلظ له في القول أو ما أشبهه لعُدَّ هذا قولاً غير سديد.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقوله القول السديد فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح... ويُصلح الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلاص بالتقوى، والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التى هى السبب فى هلاككم.

فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(١).

وعلم من هذه الآية أن من لم يتق الله ويقل قولاً سديداً فإنه حريٌّ بأن لا يُصلح الله له أعماله ولا يغفر له ذنبه... ففيه الحث على تقوى الله وبيان فوائدها. ﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

[الطلاق: ٢-٣].

يتق الله بفعل ما أمر الله به، وبترك ما نهى عنه. يجعل له مخرجاً من كل ضيق... فكلما ضاق عليه الشيء وهو متقٍ لله عز وجل جعل له مخرجاً، سواء كان في معيشة، أو فى أموال، أو فى أولاد، أو فى مجتمع، أو غير ذلك.

متى كنت متقياً الله فتق أن الله سيجعل لك مخرجاً من كل ضيق.

وما أكثر الذين اتقوا الله فجعل لهم مخرجاً... ومن ذلك قصة الثلاثة الذين

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٩١).

انطبق عليهم الغار، فنزلت صخرة على باب الغار فسدّته، فأرادوا أن يزيحوها، فعجزوا، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله إلى الله عزّ وجلّ، ففرج الله عزّ وجلّ عنهم وزالت الصخرة.

والأمثلة على هذا كثيرة... وقوله: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ هذا أيضًا فائدة عظيمة، أن الله يرزقك من حيث لا تحتسب.

فمثلاً لو فرضنا أن رجلاً يكتسب المال من طريقٍ مُحَرَّم، كطريق الغش أو الربا أو ما أشبه ذلك، ونُصَح في هذا وتركه لله، فإن الله سيجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب... ولكن لا تتعجل، ولا تظن أن الأمر إذا تأخر فلن يكون، ولكن قد يتلى الله العبد فيؤخر عنه الثواب، ليختبره هل يرجع إلى الذنب أم لا...، فمثلاً إذا كنت تتعامل بالربا، ووعظك مَنْ يعظك من الناس، وتركت ذلك، ولكنك بقيت شهراً أو شهرين ما وجدت ربحاً. فلا تيأس، وتقول: أين الرزق من حيث لا أحتسب... بل انتظر، وثق بوعده الله وصدق به، وستجده، ولا تتعجل... ولهذا جاء في الحديث: «يُستجاب لأحدكم - أي: إذا دعا - ما لم يعجل، قالوا: كيف يعجل يا رسول الله؟ قال: يقول: قد دعوت فلم يُستجب لي». اصبر، واترك ما حرم الله عليك، وانتظر الفرج والرزق من حيث لا تحتسب.

قال المفسرون: الآية عامة وقد نزلت في «عوف بن مالك الأشجعي» أسر المشركون ابنه، فأتى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة، وقال: إِنَّ العدوَّ أسر ابنى وجزعت أمه فما تأمرنى؟ فقال ﷺ له: «اتقِ الله واصبر، وأمرِك وإياها أن تستكثرا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله» ففعل هو وامرأته، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب، ومعه مائة من الإبل غفل عنها العدو فاستقاها فنزلت: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ۝١﴾^(١).

(١) القرطبي (١٨ / ١٦٠)، والطبري (٢٨ / ٩٠).

❖ وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩].

❖ هذه ثلاث فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أى: يجعل لكم ما تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وهذا يدخل فيه العلم، بحيث يفتح الله على الإنسان من العلوم ما لا يفتحها لغيره، فإنَّ التقوى يحصل بها زيادة الهدى، وزيادة العلم، وزيادة الحفظ.

فالتقوى سبب لزيادة الفهم... ويدخل فى ذلك أيضًا الفراسة... إن الله يعطى المُنْتَقَى فِرَاسَةً يميز بها حتى بين الناس، فبمجرد ما يرى الإنسان يعرف أنه كاذب أو صادق، أو أنه بُرٌّ أو فاجر، حتى أنه ربما يحكم على الشخص وهو لم يُعَاشِرْه ولم يعرف عنه شيئًا، بسبب ما أعطاه الله من الفراسة.

ويدخل فى ذلك أيضًا: ما يحصل للمُنْتَقِينَ من الكرامات التى لا تحصل لغيرهم... ومن ذلك: ما حصل لكثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم يخطب على المنبر فى المدينة، فسمعوه يقول فى أثناء الخطبة: «يا سارية الجبل، يا سارية الجبل»، فتعجبوا مَنْ يخطب وكيف يقول هذا الكلام فى أثناء الخطبة... فإذا الله سبحانه وتعالى قد كشف له عن سرية فى العراق كان قائدها سارية بن زئيم، وكان العدو قد حصرهم، فكشف الله لعمر عن هذه السرية، كأنما يشاهدها رأى عين، فقال لقائدها: «يا سارية الجبل» أى: تحصَّن بالجبل، فسمعه سارية وهو القائد، وهو فى العراق، ثم اعتصم بالجبل.... فكان النصر بفضل الله عز وجل.

هذه من التقوى، لأن كرامات الأولياء كلها جزاء لهم على تقواهم لله عز وجل... واتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالمهم أن من آثار التقوى أن الله يجعل للمتقين فرقا يفرقون به بين أشياء كثيرة لا تحصل إلا للمتقى.

الفائدة الثانية: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وتكفير السيئات يكون بالأعمال الصالحة فإن الأعمال الصالحة تُكفر الأعمال السيئة... كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجْتُبِتَ الكبائر»^(١). وقال النبي ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما»^(٢)، فالكفارة تكون بالأعمال الصالحة، وهذا يعنى أن الإنسان إذا اتقى الله سهَّلَ له الأعمال الصالحة التي يكفر الله بها عنه.

الفائدة الثالثة: قوله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بأن يسركم للاستغفار والتوبة، فإن هذا من نعمة الله على العبد أن يسره للاستغفار والتوبة^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠) فَلَاوُلُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتَقَاهُمْ» فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُؤَسِّفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ خَلِيلِ اللَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقَّهُوا»^(٤).
✽ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتَقَاهُمْ».

أى أن أكرم الناس أتقاهم لله عز وجل.. ولا عجب في هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذا الجواب موافق لتلك الآية...

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٧٣) كتاب الحج، مسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

(٣) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٦٩-٢٧٣) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) كتاب الفضائل.

«وَفَقَّهُوا» بِضَمِّ الْقَافِ عَلَى الْمَشْهُورِ، وَحُكِيَ كَسْرُهَا. أَى: عَلِمُوا أَحْكَامَ الشَّرْعِ.

فالله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

فأكرم الناس عند الله أتقاهم.. ولذا فإنه عَزَّوَجَلَّ يمدّهم بالكرامات الظاهرة والباطنة ويرفع قدرهم في الدنيا والآخرة ويحفظهم ويُلقي محبتهم في قلوب الناس من حولهم.

❁ **قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ.**

فذكر لهم أن أكرم الخلق يوسف ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم الصّلاة والسلام)... فإنه (عليه الصّلاة والسلام) كان نبياً من سلالة الأنبياء، فكان من أكرم الخلق.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَأَصْلُ الْكَرَمِ كَثْرَةُ الْخَيْرِ، وَقَدْ جَمَعَ يُوسُفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، مَعَ شَرَفِ النَّبُوءَةِ، مَعَ شَرَفِ النَّسَبِ... وَكَوْنَهُ نَبِيًّا ابْنِ ثَلَاثَةِ أَنْبِيَاءَ مُتَنَاسِلِينَ أَحَدَهُمْ خَلِيلُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... وَانْضَمَّ إِلَيْهِ شَرَفُ عِلْمِ الرُّؤْيَا، وَتَمَكَّنَهُ فِيهِ، وَرِيَاسَةُ الدُّنْيَا، وَمُلْكُهَا بِالسَّيْرِ الْجَمِيلَةِ، وَحَيَاتِهِ لِلرَّعِيَّةِ، وَعُمُومُ نَفْعِهِ إِيَّاهُمْ، وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ، وَإِنْقَاذُهُ إِيَّاهُمْ مِنْ تِلْكَ السَّنِينَ ^(١).

❁ **قَالُوا: لَسْنَا عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَنِي؟»**

معادن العرب يعني أصولهم وأنسابهم.

«خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» يعني أن أكرم الناس من حيث النسب والمعادن والأصول هم الخيار في الجاهلية، لكن بشرط إذا فقهوا. فمثلاً بنو هاشم من المعروف هم خيار قُرَيش، فيكونون هم خيارهم في الإسلام، لكن بشرط أن يفقهوا في دين الله، وأن يتعلّموا من دين الله، فإن لم يكونوا فقهاء، فإنهم وإن كانوا من خيار العرب معدناً فإنهم ليسوا أكرم الخلق

عند الله وليسوا خيار الخلق.

ففى هذا دليل على أن الإنسان يشرف بنسبه لكن بشرط أن يكون له فقه فى دينه، ولا شك أن النسب له أثر، ولهذا كان بنو هاشم أطيب الناس وأشرفهم نسباً... ومن ثم كان منهم النبى ﷺ الذى هو أشرف الخلق ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فلو لا أن هذا البطن من بنى آدم أشرف البطون ما كان فيه النبى ﷺ... فلا يُبعث الرسول ﷺ إلا فى أشرف البطون وأعلى الأنساب... والشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ: «إن أكرم الخلق أتقاهم».

فإذا كنت تريد أن تكون كريماً عند الله وذاً منزلة عنده فعليك بالتقوى فكلما كان الإنسان لله أتقى كان عنده أكرم^(١).

ﷺ

(٧١) الثانى: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا. فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ. فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(٢).

﴿الخضر نوع من البقول ليس من أحرارها وجيدها... فشبه الدنيا للرجبة فيها والميل إليها بالفاكهة الحلوة الخضرة، فإن الحلو مرغوب فيه من حيث الذوق، والأخضر مرغوب فيه من حيث النظر، فإذا اجتمعا زادت الرغبة. وفيه إشارة إلى عدم بقائها.... لأن الفاكهة والخضرة سرعان ما تعطب وتفسد بمرور الوقت.

فالدنيا حلوة فى مذاقها خضرة فى مرآها.. وقد يغتر الإنسان بها ويقبل عليها ويجعلها أكبر همه حتى ينسى آخرته.

فلقد وضح لنا النبى ﷺ أننا مهما ملكنا وجمعنا من هذه الدنيا فإننا لا نملك شيئاً على الحقيقة ولكن الله قد استخلفنا فى كل ما رزقنا امتحاناً لنا وابتلاءً لينظر

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

ماذا سنعمل فيما عندنا.. هل سنستخدمه في طاعة الله أم أنه سيشغلنا عن طاعته أم أننا سوف نستعمله في معصية الله عَزَّوَجَلَّ.

فإياك إياك أن تغترَّ بمالك أو بجاهك أو بحسبك أو بنسبك فتجعله عونًا لك على معصية الله عَزَّوَجَلَّ.. بل عليك أن تحمد الله على ما أكرمك به من نعمه وأن تستعمل تلك النعمة في طاعته ونُصرة دينه وشريعته.

❁ قوله: «فاتقوا الدنيا».

أى: اجتنبوا فتنها واحذروا أن تملِكُم محبتها والاعتزاز بها عن أوامر الله تعالى واجتناب مناهيه فيها.

«واتقوا النساء» أى: اجتنبوا الافتتان بهن: أى أن يمنعكم التمتع بهن عن القيام بأداء حقوق العبودية والتقرب إلى مرضى الله تعالى.

فهذا تحذير من أن يفتتن المسلم بامرأة تشغله عن طاعة الله حتى ولو كانت زوجته في الحلال.. لا بُدَّ أن يحذر ألا تشغله زوجته عن أداء الفرائض وفعل الطاعات.

❁ «فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» أى: افتتنوا بسبب النساء فضلُّوا وأضلُّوا.. ومن أجل ذلك كان أعداء ديننا حريصين على إفساد شبابنا من خلال فتنة النساء.. حتى قال أحدهم: كأسٌ وغانية تفعلان فى تحطيم الأمة المحمدية ما لا تفعله المدافع والصواريخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٢) الثالث: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعِفَافَ وَالْغِنَى»^(١).

❁ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى» أى: الرشاد.. وقد كان النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهدى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢١) كتاب الذكر والدعاء.

الخلق وأرشدهم ... فالمراد هنا: ثبنتني على الهدى والرشاد... وقيل معنى الهدى هنا: العلم.. أى أن النبي ﷺ سأل الله العلم.. فالنبي ﷺ محتاج إلى العلم كغيره من الناس.. بل إن الله عز وجل ما أمر النبي ﷺ أن يطلب المزيد إلا من العلم فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والهدى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتوفيق للحق، أمّا إذا قرُن معه ما يدلُّ على التوفيق للحق فإنه يُفسَّر بمعنى العلم.

❖ وأما قوله: «والتقى» أى: التقوى.. وإذا كان النبي ﷺ هو أتقى الناس جميعاً فيكون المعنى هنا ثبنتني على التقوى... وهذا مثل قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: ثبنتنا على الصراط المستقيم. والتقوى تشمل امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

❖ وأما قوله: «والعفاف» أى: أسألك العفاف والعفة عن كل ما هو حرام والتزّه عمّا لا يُباح والكفّ عنه.

❖ وأما «والغنى» فالمراد به الغنى عمّا سوى الله والاستغناء عمّا في أيدي الناس.. فالإنسان إذا وفقه الله للاستغناء عن الخلق صار عزيز النفس غير ذليل. فينبغي لنا أن نفتدى بالنبي ﷺ في هذا الدعاء.

وأن نسأل الله الهدى والتقى والعفاف والغنى... وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً وأن الذى يملك ذلك هو فاطر السموات والأرض جلّ جلاله.

وفي هذا الحديث دليل على إبطال من تعلقوا بالأولياء والصالحين في جلب المنافع ودفع المضار.. كما يفعل بعض هؤلاء الذين يدعون الرسول ﷺ إذا كانوا عند قبره.. وكذلك الذين يذهبون إلى قبور من يزعمون أنهم أولياء ويدعونهم ويسألونهم من دون الله عز وجل.

ولم يعلم هؤلاء أن الموتى سواء كانوا أنبياء أو أولياء فإنهم لا يملكون



لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف يملكون لغيرهم.

قال الله لنبية ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. وقال له: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (١١) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

بل إنهم يتبرءون تمامًا ممن يدعوهم من دون الله عز وجل... قال عيسى عليه الصلاة والسلام لما قال الله له: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴿[المائدة: ١١٦].

ليس من حق عيسى عليه السلام ولا غيره أن يقول للناس اتخذوني إلهًا من دون الله: ﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٢) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴿[المائدة: ١١٦، ١١٧].

(٧٣) الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي طَرِيفٍ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ رَأَى أَنْتَقَى اللَّهُ مِنْهَا فَلْيَأْتِ التَّقْوَى» (١).
اليمين هي الحلف بالله عز وجل أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته... ولا يجوز الحلف بغير الله سواء كان المحلوف به مُعْظَمًا شرعًا كالكعبة المشرفة أو بالنبي ﷺ أو جبريل أو حتى بأى أحدٍ من الخلق.
لقول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ» (٢)، وقال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» (٣).

فمن حلف بغير الله فهو آثم ولا يمين عليه؛ لأنها يمين غير منعقدة لقول

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥١) كتاب الأيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٤٦) كتاب الأيمان والندور، ومسلم (١٦٤٦) كتاب الأيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٠٤).

النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

ولا ينبغي للإنسان أن يُكْثِرَ من اليمين، فإن هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [البائدة: ٨٩]. على رأى بعض المُفسِّرين، قالوا: واحفظوا أيمانكم أى: لا تكثروا الحلف بالله... وإذا حلفت فينبغى أن تُقيّد اليمين بالمشيئة، فتقول: والله إن شاء الله... لتستفيد بذلك فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: أن يتيسر لك ما حَلَفْتَ عليه.

والفائدة الثانية: أنك لو حنثت فلا كفارة عليك.

فقد قال ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَاسْتَشْنَى، فَإِنْ شَاءَ مَضَى، وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ غَيْرَ حَنِثٍ»^(٢).

واليمين التى تُوجب الكفارة هى اليمين على شىء مُستقبل... أمّا اليمين على شىء ماضٍ فلا كفارة فيها، ولكن إن كان الحالف كاذبًا فهو آثم، وإن كان صادقًا فلا شىء عليه... ومثاله لو قال قائل: والله ما فعلت كذا.

فهنا ليس عليه كفارة صدق أو كذب، لكن إن كان صادقًا أنه لم يفعله فهو سَالِمٌ من الإثم، وإن كان كاذبًا أنه قد فعله فهو آثم.

واليمين التى فيها الكفارة هى اليمين على شىء مُستقبل، فإذا حلفت على شىء مُستقبل فقلت: والله لا أفعل كذا، فهنا نقول: إن فعلته فعليك الكفارة، وإن لم تفعله فلا كفارة عليك... فهذه يمين منعقدة، ولكن هل الأفضل أن أفعل ما حلفت على تركه، أو الأفضل ألا أفعل؟

فى هذا الحديث بيّن النبي عليه الصلاة والسلام أنك إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها أتقى لله منها فكفر عن يمينك وأتِ الذى هو أتقى^(٣).

فإذا قال قائل: والله لا أزور أمى أبدًا.. أو: والله لا أزور قريبى.. فهنا نقول له:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٢) صحيح: رواه النسائي، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٠٦).

استشنى: أى قال: إن شاء الله.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/٢٧٩).

بر الوالدين واجبٌ عليك وصلة الأرحام واجبة فاذهب إلى أمك واذهب إلى قريبك وكفر عن يمينك ؛ لأن النبي ﷺ قال: «فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»^(١).

وإن قال قائل: والله لا أكلم فلاناً - وهو مسلم - فإن الأتقى لله أن تكلمه ولا تهجره ؛ لأن هجر المسلم حرام.. فكلمه وكفر عن يمينك.. وعلى هذا ينبغي أن تقيس كل الأمور.

الخلاصة أن نقول: اليمين على شيء ماضٍ لا يبحث فيها عن الكفارة؛ لأنَّه ليس فيها الكفارة، لكن إما أن يكون الحالف سالماً أو يكون آثماً.

اليمين على المستقبل هي التي فيها الكفارة، فإذا حلف الإنسان على شيء مستقبل وخالف ما حلف عليه وجبت عليه الكفارة، إلا أن يقرن يمينه بمشيئة الله، فيقول: إن شاء الله، فهذا لا كفارة عليه ولو خالف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤) الخامس: عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطبُ في حجة الوداع فقال: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أَمْرَاءَكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»^(٢).

في حجة الوداع خطب النبي ﷺ يوم عرفة، وخطب يوم النحر، ووعظ النَّاسَ وذكرهم... وهذه خطبة من الخطب الرواتب، التي يُسنُّ لقائد الحجيج أن يخطب النَّاسَ كما خطبهم النبي ﷺ.

وكان من جملة ما ذكر في خطبته في حجة الوداع أنه قال: «يا أيها الناس، اتقوا ربكم» وهذه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١].

فأمر الرسول ﷺ الناس جميعاً أن يتقوا ربهم بامثال أوامره واجتناب

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٠) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٩).

نواهيهِ.. فهو الذى خلقهم ورزقهم وأعدَّهم لقبول رسالاته وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

❁ وقوله: «وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ» أى: صلُّوا الصلوات الخمس التى فرضها الله ﷻ على رسوله ﷺ وعلى أمته من فوق سبع سماوات.

❁ وقوله: «وصوموا شهركم» أى: صوموا شهر رمضان.. وأضيف الشهر للأمة لما يُسبغ عليهم فيه من الفيوض الإلهية من عتق الرقاب من النار ومغفرة الذنوب وستر العيوب والفوز برحمة علام الغيوب.

❁ وقوله: «وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ» أى: أعطوها لمُستحقِّها طيبة بها نفوسكم ولا تبخلوا بها.

❁ وقوله: «وَأَطِيعُوا أَمْرَاءَكُمْ» أى: أطيعوهم فى غير معصية الله ﷻ فمن المعلوم أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (جلَّ وعلا)... فطاعة ولاة الأمور تابعة لطاعة الله ورسوله ﷺ.

❁ فمن فعل ذلك كله: فاتقى الله وصَلَّى الصلوات الخمس وصام رمضان وأدَّى زكاة ماله للمُستحقِّين وأطاع ولى الأمر فى غير معصية الله.. فإن الجنة هى الجزاء الذى ينتظره.. ولذا قال النبى ﷺ بعد تلك الأعمال: «تدخلوا جنة ربكم».

ولما كان من ثمرات التقوى العرفان الذى به تنجلي الأمور، والنور الذى تنشرح به الصدور... ومن انشرح صدره واستنار قلبه بشهود التوحيد وأنه لا شريك له فى ملكه ولا فى شىء من أفعاله، تيقَّن أن لا حول له ولا قوَّة، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً... فخرج عما فى نفسه من التدابير، وألقى نفسه مع جرى المقادير، ففاز كما جاء فى الحديث الشريف «لا حول ولا قوَّة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» وظهر بهذا أن التوكل واليقين من ثمرات التقوى فلذا عقبها بهما فقال: «باب فى اليقين والتوكل»^(١).

(٧) باب في اليقين والتوكل

❁ في هذا الباب جمع المؤلف بين اليقين والتوكل.. وذلك لأن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين.

ولا بد أن نعلم أن اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد. وبه تفاضل العارفون. وفيه تنافس المتنافسون. وإليه شمر العاملون. وعمل القوم إنما كان عليه. وإشاراتهم كلها إليه. وإذا تزوج الصبر باليقين وُلد بينهما حصول الإمامة في الدين... قال الله تعالى، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخصَّ الله سبحانه وتعالى أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين. فقال، وهو أصدق القائلين ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].
وخصَّ أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿...وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١] أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[البقرة: ٤-٥].

❁ فاليقين: هو قوة الإيمان والثبات حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شدة يقينه.... فاليقين هو ثبات وإيمان ليس معه شكٌّ بوجه من الوجوه، فيرى الغائب الذي أخبر الله عنه ورسوله كأنه حاضرٌ بين يديه، وهو أعلى درجات الإيمان.

هذا اليقين يُثمر ثمرات جليلة، منها التوكل على الله ﷻ.

والتوكل هو: صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

ففي هاتين المرتبتين (اليقين والتوكل) يحصل للإنسان مقصوده في الدنيا والآخرة ويستريح ويعيش مطمئنًا سعيدًا، لأنه موقن بكل ما أخبر الله به ورسوله ومتوكل على الله ﷻ.

❦ قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

لقد أخبر الله ﷻ في تلك الآية عن الأحزاب الذين تجمعوا حول المدينة وحاصروها وقد بلغ عددهم عشرة آلاف من أجل أن يقضوا على النبي ﷺ وأصحابه.. وكانت لحظات عصيبة جدًا وصفها الله ﷻ في كتابه بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب: ١٠]. الظنون البعيدة ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

فانقسم الناس في هذه الأزمة العصيبة العظيمة إلى قسمين، بينهما الله ﷻ في هذه الآيات.

القسم الأول: قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]. المنافقون الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر، والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين وعندهم نقص في يقينهم، قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

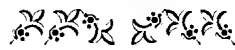
قالوا: كيف يقول محمد: إنه سيفتح كسرى وقيصر وصنعاء، وهو الآن مُحاصر من هؤلاء الناس.

القسم الثاني: المؤمنون، قال الله عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].
ففي هذه الآية يحكى الله ﷻ موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزب معهم، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص ويقين، تُظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي ولما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم، وقد أحاطوا بهم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، قالوا:

هذا ما وعدنا به الله ورسوله، من المحنة والابتلاء، ثم النصر على الأعداء ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى صدق الله فى وعده، ورسوله فيما بشرنا به.

قال المفسرون: لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة، عجزوا عن تكسيرها، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات، أضاعت له منها مدائن كسرى، وقصور الروم، فقال أبشروا بالنصر، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم، قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(١).

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أى وما زادهم ما رأوه من كثرة جُند الأحزاب، ومن شدة الضيق والحصار، إلا إيماناً قوياً عميقاً بالله، واستسلاماً وانقياداً لأوامره^(٢).



الآية الثانية قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

لما أصاب المشركون ما أصابوا من المسلمين فى غزوة أحد وعاد النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة فندم أبو سفيان، وقرّر أن يعود لمقاتلة المسلمين من أجل أن يقضى عليهم.. فلما علم النبى ﷺ بذلك ندب أصحابه للخروج واشترط ألا يخرج معه إلا الذين قاتلوا معه فى غزوة أحد فخرجوا على ما بهم من جراح طاعة واستجابة لله ورسوله ﷺ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ أى الذين أرجف لهم المرجفون من أنصار المشركين فقالوا لهم: أن قريشاً قد جمعت لكم جُموعاً لا تُحصى، فخافوا على أنفسهم..

(١) حاشية الصاوى (٣/ ٢٧٠).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٤٧٨).

فما زادهم هذا التخويف إلا إيماناً ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أى قال المؤمنون: الله كافينا وحافظنا ومُتولى أمرنا، ونعم الملجأ والنصير لمن توكل عليه (جلَّ وعلا) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ وَفَضْلٍ﴾ أى فرجعوا بنعمة السلامة، وفضل الأجر والثواب ﴿لَمْ يَمَسَّ سِتْمٌ سُوِّءٌ﴾ أى لم ينلهم مكروه أو أذى ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أى نالوا رضوان الله الذى هو سبيل السعادة فى الدارين ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ أى ذو إحسان عظيم على العباد^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

أى: اعتمد فى جميع أمورك على الواحد الأحد، الدائم الباقي الذى لا يموت أبداً، فإنه كافيك وناصرك ومُظهر دينك على سائر الأديان ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أى نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار مما لا يليق به من الشركاء والأولاد ﴿وَكَفَى بِهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أى حسبك أن الله مُطلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شىء منها.

وفى قوله: ﴿الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. دليل على امتناع الموت على الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ.

قال الله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].
فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يموت لكمال حياته فإنه دائماً هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء. ثم إنه سبحانه وتعالى لا ينام أيضاً لكمال حياته وقِيُومِيَّتِهِ... قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

[البقرة: ٢٥٥]

أَمَّا الْإِنْس وَالْجَن فَإِنَّهُمْ يَنَامُونَ وَيَمُوتُونَ.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

﴿الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾﴾

[آل عمران: ١٥٩].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى إذا عقدت قلبك على أمر بعد الاستشارة، فاعتمد على الله وفوض أمرك إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أى يحب المعتمدين عليه، المفوضين أمورهم إليه.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

﴿الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: فى أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به فى تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أى: كافيه الأمر الذى توكل عليه به، وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شىء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له ... فلماذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ أى: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أى: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه^(١).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

﴿الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾﴾ [الأنفال: ٢].

لما كان الإيمان قسمين: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام ... وإيماناً دون ذلك، ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص/ ١٠٣٣).

الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ أى: إذا ذكرت عظمتة وجلاله وسلطانه خافت قلوبهم ووجلّت وتأثرت..

ولقد كان بعض السلف إذا تليت عليه آيات الخوف يمرض أيامًا حتى يعود الناس... أى: يزوره الناس في مرضه.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إذا سمعوا كلام الله عز وجل ازدادوا إيمانًا من وجهين:

الوجه الأول: التصديق بما أخبر الله به من أمور الغيب الماضية والمستقبلية.
الوجه الثانى: القبول والإذعان لأحكام الله فيمتثلون ما أمر الله به فيزداد بذلك إيمانهم... وينتهون عما نهى الله عنه تَقَرُّبًا إِلَيْهِ وخوفًا منه فيزداد إيمانهم... فهم إذا تليت عليهم آياته ازدادوا إيمانًا من هذين الوجهين.

✽ قال السعدى رحمه الله:

ووجه ذلك أنهم يُلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزداد إيمانهم.. لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصى، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: يعتمدون في قلوبهم على ربهم فى جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا تُوجد ولا تكمل إلا به.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذى هو روح الصلاة ولُبُّها. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ

يُنْفِقُونَ ﴿ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم... والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان.. بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده... وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويؤتميه، وأن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه... ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودلّ هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥) فالأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهِيظُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَظَنَنْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسَ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص/ ٣٤٦-٣٤٧) بتصرف.

حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ - فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَحْوَضُونَ فِيهِ؟» فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَنْطِيرُونَ؛ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام عكاشة بن محصن، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَّاشَةُ»^(١).

❁ قوله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ» أى أن النبى ﷺ رأى الأمم وأنبياءهم .. وقد ورد فى رواية أخرى أن ذلك العرض كان فى ليلة الإسراء والمعراج.

❁ «فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ» أى أن النبى ﷺ رأى نبياً ومعه عددٌ قليل من الناس الذين آمنوا معه .. وعددهم ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ونحن نعلم أن نوحاً عليه السلام الذى ظلَّ يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .. وكان يدعوهم ليلاً ونهاراً .. سرّاً وجهراً .. ومع ذلك لم يؤمن معه إلا عددٌ قليلٌ جداً .. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

❁ «وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» وهذا يوضح لنا مدى المعاناة التى كان يُعانِيها كل نبىٍّ فى دعوته لأُمته ... فتخيل معى أن نبياً كريماً من صفوة خلق الله يبعثه الله لأمة يُقدَّر عددها بالآلاف فلا يؤمن معه إلا رجلٌ أو رجلان .. بل منهم مَنْ لم يؤمن معه أحدٌ !!! .. فهذا درس للدعاة حتى يصبروا على دعوتهم إن لم يستجب لهم أحدٌ .. فنحن لسنا أفضل من أنبياء الله ورسله الكرام (عليهم الصلاة والسلام).

❁ قوله: «إِذْ رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ» أى: عددٌ كبير من الناس «فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٠٥) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) (٣٧٤) كتاب الإيمان.

«الرَّهْطُ»: تصغير رَهْط، وهم دُونَ عَشْرَةِ أَنْفُسٍ - «وَالْأَفْقُ»: النَّاحِيَةُ وَالْجَانِبُ.

«وَعَكَّاشَةٌ» بِضَمِّ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الْكَافِ وَتَخْفِيفِهَا، وَالتَّشْدِيدُ أَفْصَحُ.

أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنْ أَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ أَتْبَاعًا بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

❖ ثُمَّ قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَانْظُرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخِرِ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ» وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَتْبَاعًا عَلَى الْإِطْلَاقِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ .. فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ يَكُونُ مِنْ أُمَّتِهِ وَيَكُونُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ .. وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَانَتْ أُمَّتُهُ ﷺ تُمَثَّلُ ثُلْثَى أَهْلِ الْجَنَّةِ .. وَالثَّلْثُ الْبَاقِي يُوزَعُ عَلَى (٦٩) أُمَّةً وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأُمَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ سَبْعِينَ أُمَّةً ... كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ.

قَالَ ﷺ: «إِنَّكُمْ تَتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ» ^(١).
وَقَالَ ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عَشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَّةِ» ^(٢).

❖ قَوْلُهُ: «فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ .. وَكُلُّ هَذَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ .. فَرَحْمَتُهُ وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

فَلَمَّا عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِتِلْكَ الْمُنْحَةِ الْعَظِيمَةِ طَلَبَ الْمَزِيدَ لِأُمَّتِهِ ﷺ لِأَنَّهُ يَحِبُّ الْخَيْرَ لِأُمَّتِهِ .. فَلَمَّا طَلَبَ الْمَزِيدَ لِأُمَّتِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وَقَالَ ﷺ: «لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُمِائَةٍ أَلْفٍ مُتَمَاسِكُونَ أَخِذَ بَعْضُهُمْ بِيَدِ بَعْضٍ لَا يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ .. وَجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» ^(٣).

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٢٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٤٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٢١٩) كتاب الإيمان.

وقال ﷺ: «وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بِلاَ حِسَابٍ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثَ حَثِيَّاتٍ مِنْ حَثِيَّاتِ رَبِّي»^(١).

وقال ﷺ: «أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷺ فَرَأَدَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا»^(٢).

فيا لها من فرحة لمن يدخل الجنة بغير حساب... وذلك لأن المؤمن يعلم أنه لو جاءه مَنْ يُبشِّره بالجنة، ولكن بعد أن يُحاسبه الله ثم يُدخله الجنة لكان ذلك عذاباً شديداً... لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»^(٣). وفي رواية: «مَنْ نُوقِشَ الْمُحَاسَبَةَ هَلَكَ»^(٤).

فمجرد مناقشة الحساب عذابٌ شديد... فحسبك أيها المؤمن أن يُعَدِّدَ الله عليك ذنوبك وأوزارك.

فكيف بمن يحاسبه الله وهو لا يدرى هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار؟! وبذلك تستطيع أن تستشعر مدى فرحة هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب «فاللهم اجعلنا منهم».

﴿ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ... قَالَ بَعْضُهُمْ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا - وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ... وَكُلُّ أَتَى بِمَا يَظُنُّ أَنَّهُ الصَّوَابُ.﴾

فخرج عليهم النبي ﷺ فسألهم عما يخوضون فيه فأخبروه فقال ﷺ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَطَّيِّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١١١).

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي بكر وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٣) كتاب العلم، ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٩).



هذا لفظ مسلم، وفيه: «لا يرقون».

قال الشيخ الألباني: قلت: قوله: «لا يرقون»، هو مما تفرّد به مسلم دون البخاري وغيره، ثم هو شاذُّ سنداً ومَتناً، كما بيّنته في محلّ آخر!.... وحسبُك دليلاً على شدوذه أن النبي ﷺ قد رقى غيره أكثر من مرة!.. بل ورقاه جبريل عليه السلام.

❁ وهنا يخبر النبي ﷺ أن الصحابة من شدة حرصهم على الخير أخذوا يتكلمون عن هؤلاء السبعين ألفاً عسى أن يعرفوا سبب دخولهم الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب فيفعلوا مثلهم.

فخرج عليهم النبي ﷺ وسألهم عما يخوضون فيه فلما أخبروه قال لهم: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ» أي: لا يطلبون من أحدٍ أن يرقّيه.. وطلب الرقية ليس حراماً ولكن إن سألت أحداً أن يرقّيك فقد حُرمت من أن تكون مع هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب.

ومن أجل ذلك أوصى إخواني بأن يرقى كل واحدٍ منهم أخاه دون أن يطلب منه حتى لا يُحرّم من هذا الفضل العظيم.. وكذلك أوصى أخواتي بأن ترقى كل واحدةٍ أختها دون أن تطلب منها حتى لا تُحرّم من هذا الفضل العظيم.

❁ قوله: «وَلَا يَكْتَوُونَ» أي: لا يطلبون من أحدٍ أن يكوّيهما إذا مرضوا؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الكيّ.

روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةُ عَسَلٍ، وَشَرْطَةُ مِخْبَجٍ، وَكَيَّةُ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ»^(١).

❁ قوله: «وَلَا يَتَطَيَّرُونَ» أي: لا يتشاءمون.

فمن الناس مَنْ يتشاءم عند حدوث أمرٍ ما أو عند رؤية شخصٍ ما.. والتشاؤم والتطير هو اعتقاد وقوع السوء أو حدوث المكروه عند حالٍ مُعين

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٦٨٠) كتاب الطب.

يحدث لمن يتطير ... وهذا من الشرك؛ لأن فيه معنى علم الغيب بهذه المجريات ... وعلم الغيب لا يكون إلا لله وقد صَحَّ الحديث في وصف هذا الأمر بأنه شرك ... فقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «الطيرة شرك»^(١). وقال ﷺ: «لَا طِيرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأَلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأَلُ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ»^(٢). وهذا الباب بابٌ عظيم الفساد في الاعتقاد والأقوال والأعمال.

وقد كان العرب في الجاهلية يتطيرون .. فإذا طار الطائر نحو اليسار تشاءموا وإذا طار نحو اليمين تفاءلوا ومضوا إلى الأمر الذي عزموا عليه.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: لا يعتمدون ولا يتوكلون إلا على الله عز وجل. والتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله في استجلاب المنافع ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

﴿فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحَصَّنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ﴾ فلقد كان عكاشة رضي الله عنه صاحب همة عالية .. فبمجرد أن سمع تلك البُشرى من النبي ﷺ لم يصبر بل قام وطلب من النبي ﷺ أن يدعو الله عز وجل أن يجعله منهم .. فنزل جبريل في تلك اللحظة ليُخبر النبي ﷺ أن عكاشة من هؤلاء السبعين ألفاً ... فقال النبي ﷺ لعكاشة: «أَنْتَ مِنْهُمْ» .. ويا لها من منقبة عظيمة .. فعكاشة هو الرجل الوحيد الذي نعلم يقيناً أنه سيدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

فقام رجل آخر، فقال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ.

قال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ» فردَّه النبي عليه الصلاة والسلام، لكنه ردُّ لطيف.

لم يقل: لست منهم، بل قال: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»، واختلف العلماء لماذا قال له: سبقك بها عكاشة؟ فقليل: لأنه كان يعلم بأن هذا الذي قال: ادْعُ اللَّهَ أَنْ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٩٦٠)، والسلسلة الصحيحة (٤٣٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٥٤) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٢٣) كتاب السلام.

يجعلنى منهم ... قد علم الرسول بأنه منافق والمنافق لا يدخل الجنة فضلاً عن كونه بغير حساب ولا عذاب.

وقال بعض العلماء: بل قال ذلك من أجل ألا يفتح الباب فيقوم مَنْ لا يستحق فيطلب أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وعلى كل حال، فنحن لا نعلم علماً يقينياً بأن الرسول ﷺ لم يدعُ الله له إلا لسببٍ معيّن ... فالله أعلم.

لكننا نستفيد من هذا فائدة وهو الرّدُّ الجميل من رسول الله ﷺ لأن قوله: «سبقك بها عكاشة» لا يجرحه ولا يُحزنه.

وسبحان الله ... صارت هذه مثلاً إلى يومنا هذا ... كلما طلب الإنسان شيئاً قد سبق به قيل: سبقك بها عكاشة.

✽ أورد بعض العلماء إشكالاً على هذا الحديث وقال: إذا اضطر الإنسان إلى القراءة، أى: أن يطلب من أحد أن يقرأ عليه مثل أن يُصاب بعين أو بسحر أو أُصيب بجنٍّ هل إذا ذهب يطلب مَنْ يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب؟

فقال بعض العلماء: نعم هذا ظاهر الحديث وليعتمد على الله وليتصبر ويسأل الله العافية.

وقال بعض العلماء: بل إن هذا فيمن استرقى قبل أن يصاب أى بأن قال: اقرأ علىّ أن لا تصيبني العين أو أن لا يصيبني السّحر أو الجن أو الحمى فيكون هذا من باب طلب الرقية لأمرٍ مُتَوَقَّع لا واقع وكذلك الكى.

فإذا قال إنسان: الذين يكونون غيرهم هل يُحرّمون من هذا؟

لا، لأنَّ الرسول ﷺ يقول: «ولا يكتوون» أى: لا يطلبون مَنْ يكويهم، لم يُقَل: ولا يكونون وهو عليه الصّلاة والسّلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رضي الله عنه.

سعد بن معاذ الأوسى الأنصارى أُصيب يوم الخندق في أكحله فانفجر الدَّم،
والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان.

فكواه ﷺ في العرق حتى وقف الدَّم والنبي ﷺ هو أول من يدخل الجنة
بغير حساب ولا عذاب.

فالذين يكونون مُحسنون والذين يقرءون على الناس محسنون ولكن الكلام
على مَنْ يسترَقون أى: يطلبون مَنْ يقرأ عليهم أو يكتوون أى: مَنْ يطلبون مَنْ
يكويهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٦) الثَّانِي: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ
لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ. اللَّهُمَّ
أَعُوذُ بِعَزَّتِكَ؛ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا تَمُوتُ، وَالْجَنُّ وَالْإِنْسُ
يَمُوتُونَ»^(٢).

❦ قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ» مَعْنَاهُ: لَكَ انْقَدْتُ وَبِكَ
صَدَّقْتُ ... وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.
قوله ﷺ: «وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ» أى: فَوَضَعْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ «وَإِلَيْكَ أُنَبْتُ» أى:
أَقْبَلْتُ بِهَمَّتِي وَطَاعَتِي وَأَعْرَضْتُ عَمَّا سِوَاكَ. «وَبِكَ خَاصَمْتُ» أى: بِكَ أَحْتَجُّ
وَأُدَافِعُ وَأُقَاتِلُ^(٣).

ثم توجَّه إلى ربه ﷻ قَائِلًا: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِعَزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي»
فَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْشَى مِنْ ذَلِكَ فَنَحْنُ أَوْلَى بِأَنْ نَخَافَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الضَّلَالِ
وَالْبُعْدِ عَنِ الْهَدَايَةِ .. فَلَا تَأْمَنَ عَلَى نَفْسِكَ بَلْ عَلَيْكَ دَائِمًا بِدَعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٨٩-٢٩٠) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٨٣) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧١٧) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٦٠-٦١) بتصرف.

مقلب القلوب ثبت قلمي على دينك»^(١).

ثم ختم الدعاء بالثناء على الله ﷻ فقال: «أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون».

بسم الله الرحمن الرحيم

(٧٧) الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(٢).

وفي رواية له عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ «حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(٣).

نحن نعلم أن الله ﷻ اصطفى المسلمين من الناس جميعاً .. واصطفى المؤمنين من المسلمين واصطفى الأنبياء من المؤمنين واصطفى الرسل من الأنبياء واصطفى أولى العزم الخمسة من الرسل وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (عليهم الصلاة والسلام) .. ثم اصطفى الخليلين إبراهيم ومحمداً من أولى العزم الخمسة، ثم اصطفى محمداً عليه السلام على الأنبياء والمرسلين أجمعين، فجعله سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة.

فإبراهيم عليه السلام خليل الله ومحمد عليه السلام خليل الله ... قال الله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وقال النبي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(٤) والخليل معناه الحبيب الذي بلغت محبته الغاية ... ولا نعلم أن أحداً وصف بهذا الوصف إلا محمداً وإبراهيم -عليهما الصلاة والسلام-

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٤٨٠١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٩١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٣) كتاب تفسير القرآن.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٤) كتاب التفسير.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٣٢) كتاب المساجد.

فهما الخليان.

فإذا قلت: محمد ﷺ حبيب الله فهذا نقص من حق النبي ﷺ وقدره ؛ لأن الخلّة أبلغ من المحبة .. لأن أحباب الله كثيرون .. فالله يحب المؤمنين والمقسطين والمحسنين والتائبين .. لكن الخلّة لم تثبت إلا لإبراهيم ومحمد (عليهما الصلاة والسلام).

فالصواب أن تقول: إبراهيم خليل الله ومحمد خليل الله ﷺ.

❖ قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم ﷺ حينما ألقى في النار .. وذلك أن إبراهيم ﷺ دعا قومه إلى عبادة الله ﷻ وتوحيده ونبذ الأصنام التي يعبدونها ولكنهم أصروا على الكفر والشرك.

❖ ولا يظن أحد أن إبراهيم ﷺ دعا قومه مرة واحدة بل استمر في دعوتهم ومحاورتهم مرات ومرات ومع ذلك لم يستجيبوا.

فلما يئس منهم توعدهم بأن يكسر أصنامهم فقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

- أى: سأكسر تلك الأصنام التي تزعمون أنها آلهة لأريكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

وبالفعل فقد كسرها إبراهيم ﷺ وجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ... فلما رجعوا من الاحتفال بعيدهم وجدوا آلهتهم قد كُسرت فأرادوا أن يتقموا من إبراهيم ﷺ.

أجمع قوم إبراهيم ﷺ على قتل نبيهم انتصاراً لآلهتهم، واختاروا له أفضع قتلة، وهى: الإحراق في النار، وليس في أى نار، بل بنوا بُنياناً شاهقاً، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم في جمعها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]^(١)

(١) فتح الباري (٧/ ٢٠٦).

❁ لقد انتشر هذا الخبر في المملكة كلها وجاء الناس من المدن والقرى والجبال ليشاهدوا مشهد إلقاء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في النار.

❁ لقد وضعوا إبراهيم عليه السلام في المنجنيق بعد أن قيدوا يديه ورجليه واشتعلت النار في الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء .. وكان الناس في هذه اللحظة يقفون بعيداً عن تلك الحفرة لشدة اللهب الذي يخرج منها.

❁ وهنا أصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم في النار، فجاء جبريل عليه السلام ووقف عند رأس إبراهيم عليه السلام وقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا .. وأما إلى ربي فحسبي الله ونعم الوكيل.
وفي تلك اللحظة كان خازن المطر يقول: متى يأمرني الله بأن أرسل المطر ... وذلك من أجل أن يُطفى تلك النار ... فكان أمر الله أسرع ﴿ فَلَنَايَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

❁ وهناك بعض المفسرين ينقلون عن بنى إسرائيل أن الله لما قال: ﴿يَنَارُ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أن نيران الدنيا كلها صارت برداً فلم ينتفع بها أحد من البشر .. وهذا ليس بصحيح بل كان الأمر من الله ﷻ لتلك النار التي كان فيها إبراهيم عليه السلام فقط دون غيرها وبقيت نيران الدنيا على ما هي عليه.

❁ أما الخليل الثاني فهو رسول الله ﷺ الذي قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فقد قالها النبي ﷺ وأصحابه حينما رجعوا من غزوة أحد وبهم من الجراح ما لا يعلمه إلا الله .. فأراد أبو سفيان أن يعود إليهم ليقضى عليهم فقبل للنبي ﷺ وأصحابه إن الناس قد جمعوا لكم وسيأتوا إلى المدينة، ليقضوا عليكم فقالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فإذا اجتمع عليك أهل الأرض جميعاً فقل: «حسبنا الله ونعم الوكيل»
وسوف يكفيك الله شرهم وينصرك عليهم.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٨) الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْتَدَتْهُمْ مِثْلُ أَفْتِدَةِ الطَّيْرِ»^(١).

قيل: معناه مُتَوَكَّلُونَ، وقيل: قُلُوبُهُمْ رقيقة.

الفؤاد: هو لبُّ القلب وقيل: هو القلب نفسه، وقيل: هو غشاء القلب، وقيل غير ذلك، ولكن على أية حال المعنى المتبادر إلى الذهن أنه القلب.

والمعلوم أن أهل الجنة هم أهل الخوف من الله ﻋَزَّ وَجَلَّ، وهم أهل الرجاء، وأهل التوكل على الله ﻋَزَّ وَجَلَّ، قلوبهم رقيقة... والقلب يرق وقد يقسو حتى يكون أقسى من الحجارة، مع أنه قطعة لحم... ولما دخل وفد اليمن على النبي ﷺ قال: «أتاكم أهل اليمن أرق الناس أفئدة، وألينهم قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية» إلى آخر الحديث في أوصاف أهل اليمن... والشاهد منه: «هم أرق الناس أفئدة وألينهم قلوباً»، إذاً: القلب يلين ويرق.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فكلما ازداد العبد علماً ازداد الله خشية، وتوكللاً، ورجاءً، ومهابة، وإجلالاً... فكذلك هؤلاء الفئة يدخلون الجنة قلوبهم أرق من قلوب وأفئدة الطير... والمعلوم إذا كان المعنى الخوف من الله فإن الطير معروفة بأنها أشد المخلوقات خوفاً.. فإذا ذهب طفل إلى جمهرة عظيمة من الطير طارت كلها؛ خوفاً من هذا الطفل، ولذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير» أي: في رقتها وخفتها وتوكلها على الله ﻋَزَّ وَجَلَّ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٠) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال.

قَوْلُهُ ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْعَدْتُهُمْ مِثْلُ أَفْعِدَةِ الطَّيْرِ» قِيلَ: مِثْلُهَا فِي رِقَّتِهَا وَضَعْفِهَا كَالْحَدِيثِ الْآخَرِ: «أَهْلُ الْيَمَنِ أَرْقُ قُلُوبًا وَأَضْعَفُ أَفْعِدَةً» وَقِيلَ فِي الْخَوْفِ وَالْهَيْبَةِ ... وَالطَّيْرُ أَكْثَرُ الْحَيَوَانِ خَوْفًا وَفَزَعًا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وَكَأَنَّ الْمُرَادَ قَوْمٌ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ كَمَا جَاءَ عَنْ جَمَاعَاتٍ مِنَ السَّلَفِ فِي شِدَّةِ خَوْفِهِمْ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ مُتَوَكِّلُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

(٧٩) الْخَامِسُ: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فَلَمَّا قَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَفَلَ مَعَهُ، فَأَدْرَكَتْهُمْ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ، وَنَمَنَا نَوْمَةً، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُونَا، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي، وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقِظْتُ وَهُوَ فِي يَدِي صَلْتًا، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ، - ثَلَاثًا - « وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ.

وفي رواية: قَالَ جَابِرٌ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذَاتِ الرَّقَّاعِ، فَإِذَا أَتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَسِيفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُعَلَّقٌ بِالشَّجَرَةِ، فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ: تَحَافُنِي؟ قَالَ: «لَا» فَقَالَ: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: «اللَّهُ».

وفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه: فقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قال: «الله» فسقط السيف مِنْ يَدِهِ، فأخذ رسول الله ﷺ السيفَ فقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟» فقال: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، فقال: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنْنِي رَسُولُ اللهِ؟» قال: لا، وَلَكِنِّي أَعَاهِدُكَ أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يَقَاتِلُونَكَ، فَخَلَّى سَبِيلَهُ فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ^(٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩١٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٨٤٣) كتاب صلاة المسافرين.

❁ وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ وفرط شجاعته وقوة يقينه وصبره على الأذى وحلمه على الجُهاال... وفيها جواز تفرُّق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه^(١).

إن هذه القصة ثابتة وصحيحة وهى تكشف عن مدى رعاية البارى ﷻ وحفظه لنيبه ﷺ، ثم هى تزيدك يقيناً بالخوارق التى أخضعها الله ﷻ له عليه الصلاة والسلام، مما يزيدك تبصُّراً ويقيناً بشخصيته النبوية... فقد كان من السهل الطبيعى بالنسبة لذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفع فوق النبى ﷺ وهو أعزل غارق في النوم، أن يهوى به عليه فيقتله، وإنك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتداد بنفسه والزهو بالفرصة الذهبية التى أمكنته من رسول الله ﷺ في قوله: مَنْ يمنعك منى؟ فما الذى طرأ بعد ذلك حتى عاقه عن القتل؟^(٢).

ليس لهذا تفسير إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهى، الذى يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته^(٣). فقد كانت العناية الإلهية كافية لأن تملأ قلب المشرك بالرعب وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرجفة، فيسقط من يده السيف ثم يجلس متأدباً مطرقاً بين يدى رسول الله ﷺ... وما حدث مصداق لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فليست العصمة المقصودة في الآية أن لا يتعرض الرسول ﷺ لأذى أو محنة من قومه... إذ تلك هى سنة الله في عباده كما قد علمت، وإنما المراد من

= قَوْلُهُ: «قَالَ» أى: رجع - و«الْعَصَا» الشَّجَر الذى لَهُ شَوْك - و«السَّمُرَةُ»: الشَّجَرَةُ مِنَ الطَّلْح، وهى الْعُظَامُ مِنْ شَجَرِ الْعِضَاهِ - و«اخْتَرَطَ السَّيْفَ» أى: سَلَّهُ وَهُوَ فِي يَدِهِ - «صَلَّتَا» أى: مَسَلُوهُ، وَهُوَ يَفْتَحُ الصَّادِ وَضَمَّهَا.

(١) انظر: فتح البارى (٣١٧/١٥) نقلا عن السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، (ص ٤٢٧).

(٢) انظر: فقه السيرة، (ص ٢٠٠).

(٣) انظر: دروس وعبر من الجهاد النبوى في المدينة، (ص ١٧٨).

العصمة ألا تطول إليه أى يد تحاول اغتياله وقتله لتغتال فيه الدعوة الإسلامية التى بُعث لتبليغها^(١).

✽ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

(١) حسن ثقته ﷺ بربه، ووجه ذلك:

أ- أنه ﷺ علق سيفه بغصن شجرة ثم نام، ولولا حسن ثقته بوعده الله، بكفايته وعصمته من الناس، لطلب حراسة عليه من الجيش أثناء نومه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ب- أنه ﷺ لما استيقظ ووجد الأعرابى قد سلَّ سيفه يهدده بالقتل، والنبى ﷺ ليس معه شيء يدافع به عن نفسه، والأعرابى يقول له: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟»، أى: مَنْ يَحْمِيكَ مِنِّي؟، أو مَنْ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَتْلِكَ، لم يزد النبى ﷺ عن قوله «الله»، وهذا يدل على عظيم تعلُّق قلبه ﷺ بربه، ويقينه أن أمر الأعرابى بيد الله وحده... فالله سبحانه قادر على أن يشلَّ يد الأعرابى، بل قادر على أن يقتل الأعرابى فى مكانه، أو أن يهديه إلى الحق.

وأقول: كلنا نثق بالله ﷻ ونعلم أنه يرانا ويسمعنا فى كل أحوالنا وفى جميع أقوالنا، ولكن مَنْ مَنَّا إِذَا تَعَرَّضَ لِمَا تَعَرَّضَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ لَا يَجْزَعُ وَلَا يَخَافُ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا (الله).

(٢) شجاعته ﷺ حيث إنه لما استيقظ، ووجد السيف مُسلطاً عليه، لم تتحرك له ساكنة، ولم تظهر عليه أى علامة من علامات الخوف كطلب النجدة، أو الرعدة، أو التوسُّل إلى الرجل حتى يتركه...

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح: (وفى الحديث فرط شجاعة النبى ﷺ وقوة

(١) انظر: فقه السيرة، (ص ٢٠٠).

يقينه وصبره على الأذى وحلمه عن الجُهل) ^(١).

(٣) حبه ﷺ للعفو والصفح عَمَّنْ أراد إيذاءه ... ورد في الحديث: (فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ)، ومعنى (ثم لم يعرض له)، أى لم يُعاقبه على ما فعل ... قال ابن حجر: (فمنَّ عليه لشدة رغبة النبي ﷺ في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام).

(٤) تمام عناية الله بنبيه ﷺ، فقد حماه من كل مَنْ أراد إيذاءه وقتله ﷺ، وصدق الله حيث قال: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

الفائدة الثانية:

من فوائد الثبات وحسن الثقة بالله: تخويف الأعداء وإلقاء الرعب في قلوبهم، بل ويجعلهم على يقين أننا على الحق وهم على الباطل. فهذا الرجل في الحديث الذي معنا، وقد تمكَّن من سَلِّ السيف على النبي ﷺ، ما الذي جعله يُغمد سيفه ويجلس دون أدنى إيذاء للنبي ﷺ؟! ... أليس رؤيته لشجاعة النبي ﷺ وقوة يقينه بالله تعالى؟ قال الحافظ ابن حجر: (وكان الأعرابي لما شاهد ذلك الثبات العظيم وعرف أنه حيل بينه وبين النبي عِلِمَ تحقُّ صدقه وأنه لن يصل إليه، فألقى السلاح وأمكنه من نفسه). يتفرع عليه، وجوب أن يرى أعداؤنا منا اليوم ثقتنا الكاملة بالله وتمسُّكنا بديننا، حتى ولو كنا ضعاف العُدَّة ... فهذا النبي ﷺ قد ردَّ الله عنه كيد عدوه، بثقته بالله وحده وبدون أى أسباب أخرى مادية.

الفائدة الثالثة:

إيثار الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ على أنفسهم ... حيث ورد في إحدى روايات البخارى: (فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ)، وهذا يدل على عظيم

(١) انظر: فتح البارى، (٧/٤٢٨).

حبهم للنبي ﷺ وامتثالهم للتوجيهات الربانية لهم، مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [التوبة: ١٢].

الفائدة الرابعة:

ومن شواهد حسن ثقته ﷺ بالله ﷻ ما رواه البخاري، عن ابن عباس: «**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: «**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٠) السادس: عن عمر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتُرْجُ بِطَانًا**»^(٢).
 ﴿قوله ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكُّله**» أي توكُّلاً حقيقياً تعتمدون فيه على الله ﷻ اعتماداً كاملاً في طلب الرزق وغيره.

﴿التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة... وكِلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه^(٣).

وقال الجرجاني: التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس^(٤).

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح الزواوي (١/ ٣٦٨-٣٧٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٣١٠)، وصحيح الجامع (٥٢٥٤).

معناه: تَذَهَّبُ أَوَّلُ النَّهَارِ خِمَاصًا: أي ضَامِرَةً الْبُطُونِ مِنَ الْجُوعِ، وَتَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَانًا: أي مُتَمَلِّئَةً الْبُطُونِ.

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص ٤٠٩).

(٤) التعريفات (ص ٧٤).

﴿لِرِزْقِكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ﴾ أي: لو توكلتم على الله حق توكله فسوف يرزقكم كما يرزق الطير.. فالطير لا تتوكل إلا على الله، وهي تعلم أن الذي يرزقها هو الله لكنها تطير وتأخذ بالأسباب.. فلا تعود إلا وقد حصلت على رزقها ورزق أولادها.

«تغدو خماصًا» الغدو: الذهاب في أول النهار. وخماصًا: جائعة كما قال الله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. مخمصة: مجاعة.

«تغدو خماصًا» ليس في بطونها شيء، لكنها متوكلّة على ربها عز وجل. «وتروح بطنًا» تروح، أي: ترجع في آخر النهار؛ لأنّ الرّواح هو آخر النهار. «بطنًا» أي: ممتلئة البطون من رزق الله عز وجل.

قال البيهقي في «شعب الإيمان»: ليس في هذا دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق، لأن الطير إذا غدت فإنها تغدو لطلب الرزق، وإنما أراد -والله أعلم-: لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلا سالمين غانمين كالطير تغدو خماصًا وتعود بطنًا... لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدٍهم ويغشون ويكذبون ولا ينصحون، وهذا خلاف التوكل... اهـ^(١).

وأجمع القوم على أن التوكل لا يُنافي القيام بالأسباب. فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكلٌ فاسد.

قال سهل بن عبد الله: مَنْ طعن في الحركة فقد طعن في السُّنة، وَمَنْ طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان.

فالتوكل حال النبي ﷺ والكسب سُنة... فمن عمل على حاله فلا يترك سُنته.

(١) دليل الفالحين (١/ ٢٣٤).

✽ فالمسلم يأخذ بالأسباب ولكنه يتوكل على الله وحده .. وذلك لأنه يعلم يقيناً أن الأسباب وحدها لا تنفع ولا تضر إلا بأمر الله.

✽ فمن أراد أن ينجح فلا بُدَّ أن يُذكر وفي نفس الوقت يتوكل على الله ومن أراد أن يشفى من مرضه فلا بُدَّ أن يذهب إلى الطبيب وأن يأخذ العلاج وفي نفس الوقت يتوكل على الله ويعلم يقيناً أن الشفاء من عند الله.

✽ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

تَوَكَّلْتُ فِي رِزْقِي عَلَى اللَّهِ خَالِقِي وَأَيَقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا شَكَّ رَازِقِي
وَمَا يَكُ مِنْ رِزْقِي فَلَيْسَ يَفُوتَنِي وَلَوْ كَانَ فِي قَاعِ الْبَحَارِ الْغَوَامِقِ
سَيَأْتِي بِهِ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِفَضْلِهِ وَلَوْلَمْ يَكُنْ مِنْي اللِّسَانُ بِنَاطِقِ
فَفِي أَى شَيْءٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ حَسْرَةً وَقَدْ قَسَمَ الرَّحْمَنُ رِزْقَ الْخَلَائِقِ

✽ وفي هذا الحديث دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يتوكل على الله في كل شؤون حياته .. وأنه ما من دابة إلا على الله رزقها مهما صغرت أو كبرت ... كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وأن الطيور وكل المخلوقات تعرف ربها وتعبدُهُ وتُسَبِّحُ بحمده.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

(٨١) السَّابِعُ: عن أبي عَمَّارَةَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا فُلَانُ إِذَا أُوتِيَ إِلَى فَرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ. رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا».

وفي رواية في الصَّحِيحِينَ عن الْبَرَاءِ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا آتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ وَقُلْ...» - وَذَكَرَ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ -: «وَأَجْعَلُهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ» ^(١).

✽ نحن نعلم أن النبي ﷺ كان حريصاً على أمته رحيماً بالمؤمنين ...

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].. ما ترك من خيرٍ إلا وقد دلَّنَّا عليه وما ترك من شرٍّ إلا وقد حذرنا منه.

وفي هذا الحديث يدلنا النبي ﷺ على هذا الخير فقال ﷺ: «إِذَا آتَيْتَ مَضْجِعَكَ» أى: إِذَا أَرَدْتَ النُّومَ فِي مَضْجِعِكَ.

«فَتَوَضَّأَ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ»... أى: الوضوء الكامل بأركانه وشرائطه.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثُ سُنَنِ مُسْتَحَبَّةٍ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ:

إِحْدَاهَا: الْوُضُوءُ عِنْدَ إِرَادَةِ النَّوْمِ ... فَإِنْ كَانَ مُتَوَضِّئًا كَفَاهُ ذَلِكَ الْوُضُوءُ لِأَنَّ الْمُقْصُودَ النَّوْمَ عَلَى طَهَارَةٍ مَخَافَةً أَنْ يَمُوتَ مِنْ لَيْلَتِهِ ... وَلِيَكُونَ أَصْدَقَ لِرُؤْيَاہِ وَأَبْعَدَ مِنْ تَلَاعِبِ الشَّيْطَانِ بِهِ فِي مَنَامِهِ وَتَرْوِيعِهِ إِيَّاهُ.

الثَّانِيَةُ: النَّوْمُ عَلَى الشِّقِّ الْأَيْمَنِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُحِبُّ التَّيَامُنَ وَلِأَنَّهُ أَسْرَعُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٧) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

إلى الانتباه.

الثالثة: ذَكَرُ اللهُ تَعَالَى لِيَكُونَ خَاتِمَةً عَمَلِهِ^(١).

❁ «ثم اضطجع على شِقِّكَ الأيمن».

وفيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمره أَنْ يضطجع على الجنب الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل ... وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصح من النوم على الجنب الأيسر.

وذكر أيضًا بعض أرباب السُّلوك والاستقامة أَنَّهُ أَقْرَبُ فِي اسْتِيقَاضِ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ النَّوْمَ عَلَى الْجَنْبِ الْإِيسَرِ يَنَامُ الْقَلْبُ، وَلَا يَسْتَيْقِظُ بِسُرْعَةٍ، بِخِلَافِ النَّوْمِ عَلَى الْجَنْبِ الْإِيمَنِ فَإِنَّهُ يَبْقَى الْقَلْبُ مُتَعَلِّقًا، وَيَكُونُ أَقْلَ عَمَقًا فِي مَنَامِهِ فَيَسْتَيْقِظُ بِسُرْعَةٍ.

❁ «فقل: اللهم إني أسلمت نفسي» أي ذاتي «إليك» أي أسلمت وجعلت نفسي مُتَقَادَةً لَكَ طَائِعَةً لِحُكْمِكَ رَاضِيَةً بِقَضَائِكَ قَانِعَةً بِقُدْرِكَ.

«ووجهت وجهي إليك» أي: أقبلت بذاتي إليك مُسْتَسْلِمًا رَاضِيًا قَانِعًا.
«وفوضت أمري إليك» أي: توكلت في جميع شؤوني الدنيوية والأخروية عليك وجعلتها راجعة إليك.

❁ «وألجأت ظهري إليك».

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «أي توكلت عليك، واعتمدتك في أمري كله، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسند إليه».

❁ «رغبة ورهبة إليك» الرغبة: الحرص والطمع مع الحب، والرهبة: المخافة مع تحرُّز واضطراب ... ومعنى «إليك»: صرفت رغبتى فيما أريده إليك ... وحاصل المعنى: طمعًا في ثوابك، وخوفًا من عذابك.

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٥١-٥٢).

❁ «لا ملجأ» أى: لا حصن.

❁ «ولا منجا» أى: لا خلاص.

❁ «منك إلا إليك» أى: لا حصن أعتصم به، ولا خلاص من عذابك، وأخذك إلا إليك.

❁ «آمنت بكتابك الذى أنزلت» أى: صدقت بكتابك الذى أنزلته على نبيك.

❁ «ونبيك الذى أرسلت» ... وفى بعض طرق الحديث، عن البراء رضي الله عنه أنه قال: قلت: وبرسولك الذى أرسلت؟ قال: «قل: وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتُ وَلَا تَقُلْ: وَرَسُولَكَ الَّذِي أَرْسَلْتُ».

قال أهل العلم: وذلك لأنَّ الرِّسُولَ يكون من البشر ويكون من الملائكة... كما قال الله عن جبريل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]. وأمَّا النَّبِيُّ فلا يكون إلا من البشر.

فإذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإنَّ اللفظ صالح لأنَّ يكون المراد به جبريل... لكن إذا قال: «ونبيك الذى أرسلت» اختص بمحمد صلَّى الله عليه وآله... هذا من وجه. ومن وجه آخر: أنه إذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإنَّ دلالة هذا اللفظ على النبوة من باب دلالة اللزوم، وأمَّا إذا قال: نبيك فإنه يدلُّ على النبوة دلالة مطابقة... ومعلوم أنَّ دلالة المطابقة أقوى من دلالة اللزوم.

❁ قال الإمام النووى رحمته الله:

اختلف العلماء فى سبب إنكاره صلَّى الله عليه وآله وردَّه اللفظ فقيلاً: إِنَّمَا رَدَّه لِأَنَّ قَوْلَهُ: «آمَنْتُ بِرَسُولِكَ» يَحْتَمِلُ غَيْرُ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ... وَاخْتَارَ الْمَازِرِيُّ وَغَيْرُهُ: أَنَّ سَبَبَ الْإِنْكَارِ أَنَّ هَذَا ذِكْرٌ وَدُعَاءٌ فَيَنْبَغِي فِيهِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى اللَّفْظِ الْوَارِدِ بِخُرُوفِهِ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ الْجَزَاءُ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ، وَلَعَلَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ صلَّى الله عليه وآله بِهَذِهِ

الْكَلِمَاتِ فَيَتَعَيَّنُ أَذَاؤُهَا بِحُرُوفِهَا ... وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ^(١).

وجاء في نهاية الحديث قوله ﷺ: «فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ».

قَوْلُهُ ﷺ: «مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ» أَيْ الْإِسْلَامَ وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا ... أَيْ حَصَلَ لَكَ ثَوَابُ هَذِهِ السَّنَةِ وَاهْتِمَامُكَ بِالْخَيْرِ وَمُتَابَعَتُكَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ. وفي هذا الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَجْعَلَهُنَّ آخِرَ مَا يَقُولُ مَعَ أَنْ هُنَاكَ ذِكْرًا بَلْ أَذْكَارًا عِنْدَ النَّوْمِ تُقَالُ غَيْرَ هَذَا.

مثلاً التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا نَامَ عَلَى فِرَاشِهِ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ.

هذا من الذكر ... لكن حديث البراء يدلُّ على أن ما أوصاه الرَّسُولُ ﷺ بِهِ أَنْ يَجْعَلَهُنَّ آخِرَ مَا يَقُولُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٢) الثَّامِنُ: عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِثْمَانَ بْنِ عَامِرٍ بْنِ عُمَرَ وَ بَنِ كَعْبٍ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ الْقُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بَاثِنِينَ اللَّهِ ثَالِثَهُمَا»^(٢).

لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ لِيَدْعُوَ الْكَوْنَ كُلَّهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَوْحِيدِهِ فَقَامَ الْمُشْرِكُونَ وَآذَوْهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ أَشَدَّ الْإِيذَاءِ .. فَلَمَّا اشْتَدَّ الْإِيذَاءُ أَذَّنَ النَّبِيُّ ﷺ

(١) مسلم بشرح النووي (٥٢/١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٥٣) كتاب فضائل الصحابة، ومسلم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة.

لأصحابه بالهجرة ثم هاجر بعدهم وكان معه أبو بكر الصديق رضي الله عنه والدليل والخادم.

فلما سمع المشركون بخروجه إلى يثرب (المدينة) بحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه .. فجعلوا لمن جاء به مائة بغيرٍ ولمن جاء بأبي بكرٍ مائة بغيرٍ .. فصار الناس يبحثون عنهما في الجبال والأودية والمغارات بل وفي كل مكان حتى وصلوا إلى غار ثور الذي اختبأ فيه النبي ﷺ وأبو بكر لمدة ثلاثة أيام. فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا؛ لأننا في الغار تحته، فقال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما» وفي كتاب الله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. فيكون قال الأمرين كلاهما.

فقوله: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

أى: هل يستطيع أحدٌ من البشر مهما أُوتى من القوة أن يقدر عليهما؟! والجواب: أنه ما دام الله معك فلا يستطيع أحدٌ في الكون كله أن يقدر عليك.

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

قوله ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاِثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا» معناه ثَالِثُهُمَا بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ، وَالْحِفْظِ وَالتَّسْدِيدِ ... وَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ وَفِيهِ بَيَانٌ عَظِيمٌ تَوَكَّلِ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى فِي هَذَا الْمَقَامِ ... وَفِيهِ فَضِيلَةٌ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه وَهِيَ مِنْ أَجْلِ مَنَاقِبِهِ. وَالْفَضِيلَةُ مِنْ أَوْجُهٍ: مِنْهَا هَذَا اللَّفْظُ. وَمِنْهَا بَذْلُهُ نَفْسَهُ وَمُفَارَقَتُهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَرِيَاسَتُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، وَمُلَازِمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُعَادَاةِ النَّاسِ فِيهِ، وَمِنْهَا جَعَلَهُ نَفْسَهُ وَقَايَةً عَنْهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ^(١).

❁ وفي هذه القصة دليلٌ واضح على كمال توكل النبي ﷺ على ربه ﷻ وأنه متوكلٌ عليه ومُعتمدٌ عليه في كل أموره.

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/٢١٤-٢١٥).

✽ ومع كل هذا اليقين والتوكل الذى امتلأ به قلب النبى ﷺ فقد كان يأخذ بالأسباب ويُعلم الأمة كلها أن تأخذ بالأسباب بشرط ألا تتعلق القلوب إلا بمُسبب الأسباب (جل وعلا).

فها هو النبى ﷺ فى هجرته من مكة إلى المدينة يستأجر رجلاً مشركاً ليدله على الطريق بل ويخرج مخفياً عن أعين المشركين. وفى يوم أحد كان يقاتل ويُظاهر بين درعين... وكان يدّخر القوت لأهله -صلوات ربى وسلامه عليه-.

✽ بل كان من أسماء رسول الله ﷺ: المتوكل. كما فى الحديث: «...وسميتك المتوكل»^(١) وإنما قيل له ذلك ﷺ لقناعته باليسير والصبر على ما كان يكره^(٢).

✽ بل وفى تلك القصة دليلٌ أيضاً على أنه لم يكن هناك على باب الغار حمامتان ولا نسج العنكبوت؛ لأنه لو كان ذلك موجوداً لما كانت هناك أى معجزة.. بل إن المعجزة فى أن الغار مفتوح وليس عليه أى شىء ومع ذلك لم يستطع المشركون رؤية النبى ﷺ وصاحبه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٣) النَّاسُ : عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ، واسمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ المخزومية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: « بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ »^(٣).

(١) صحيح: رواه البخارى (٢١٢٥) كتاب البيوع، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر فتح البارى (٨/ ٤٥٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٠٩).

✽ في هذا الحديث تحكى أمنا أم سلمة رضي الله عنها ماذا كان يفعل النبي ﷺ إذا خرج من بيته .. فأخبرت أنه ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: « بِسْمِ اللَّهِ » أى: بسم الله أخرج.

« تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ » أى: فوضت جميع أموري إليه سبحانه وتعالى.
« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ » أى: أَنْ أَضِلَّ في نفسي... والضلال الذى هو نقيض الهدى.... وفى الأصل ضَلَّ الشئ إذا ضاع، وَضَلَّ عن الطريق إذا حار.
« أَوْ أَضِلَّ » أو أَنْ يُضِلَّنِي غيرى.

« أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزِلَّ » كلاهما من الزلة؛ أى: الخطأ... ومعنى الأول: أَنْ أُخْطِئَ من نفسى أو أوقع غيرى به... ومعنى الثانى: أَنْ يُوَقَّعَنِي غيرى فيه.

« أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ » من الظلم، وهو وضع الشئ فى غير محله؛ معنى الأول: أَنْ أَظْلِمَ غيرى، أو نفسى، ومعنى الثانى: أَنْ يَظْلِمَنِي غيرى.

« أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ » معنى الأول: أَنْ أَفْعَلَ فعل الجُهلاء، أو أَشْتَغَلَ فى شئ لا يعيننى ... ومعنى الثانى: أَنْ يَجْهَلَ غيرى عَلَيَّ، بِأَنْ يُقَابِلَنِي مقابلة الجُهلاء بالسفاهة والمجادلة...، ونحوهما.

وفى هذا تعليم لأمتهم ﷺ، وبيان الطريقة فى كيفية استعاذتهم عند خروجهم من منازلهم.

الشَّاهد من هذا الحديث قوله: « بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ » فَإِنَّ فى هذا دليل على أَنَّ الإنسان ينبغى له إذا خرج من بيته أَنْ يقول هذا الذكر الذى منه التَّوَكُّل على الله، والاعتصام به... لأنَّ الإنسان إذا خرج من بيته فهو عُرضة لأنَّ يصيبه شئ أو يعتدى عليه حيوان من عقرب أو حية وما أشبهه، فيقول: « آمَنْتُ بِاللَّهِ، اعْتَصَمْتُ بِاللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ».

(٨٤) الْعَاشِرُ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ - يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ -: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدَيْتَ وَكُفِّيتَ وَوُقِيتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ»^(١)، زَادَ أَبُو دَاوُدَ: «فَيَقُولُ: يَعْنِي الشَّيْطَانُ لِشَيْطَانٍ آخَرَ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ»؟.

❁ وفي هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَادِمَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الثَّمَرَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي يَجْنِيهَا مَنْ قَالَ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِهِ: «بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

«بِسْمِ اللَّهِ» أَى: أَتَحَصَّنَ بِسْمِ اللَّهِ .. أَوْ: بِسْمِ اللَّهِ أَخْرَجَ.
«تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ» أَى: فَوَضَعْتُ أَمْرِي إِلَيْهِ وَعَوَّلْتُ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ عَلَيْهِ.
«وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» وَمَعْنَاهَا: لَا حَوْلَ عَنِ الْمَعَاصِي إِلَّا بِعَصْمَةِ اللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ إِلَّا بِاللَّهِ.

فَإِنْ قَالَ ذَلِكَ: «يُقَالُ لَهُ: هُدَيْتَ وَكُفِّيتَ وَوُقِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ» يُقَالُ لَهُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَلِكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.
«كُفِّيتَ» أَى: صُرِفَ عَنْكَ الشَّرُّ.

«وَوُقِيتَ» أَى: حُفِظْتَ عَنِ الْأَشْيَاءِ الْخَفِيَّةِ عَنْكَ مِنَ الْأَذَى وَالسُّوءِ.
«وَهُدَيْتَ» إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، حَيْثُ وُقِّتَ عَلَى تَقْدِيمِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ تَزَلْ مَهْدِيًّا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِكَ، وَأَقْوَالِكَ، وَأَحْوَالِكَ.
«وَتَنَحَّى عَنْهُ» أَى: بَعُدَ عَنْهُ الشَّيْطَانُ، «فَيَقُولُ لِشَيْطَانٍ آخَرَ» يَقْصِدُ أَذَاهُ، وَإِخْلَالَهُ: «كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ» يَعْنِي: مَا بَقِيَ لَكَ يَدٌ فِي رَجُلٍ قَدْ هُدِيَ بِذِكْرِ اللَّهِ، وَكُفِيَ شَرِّكَ، وَوُقِيَ مِنْ مَكْرِكَ وَكَيْدِكَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٩).

(٨٥) الْحَادِي عَشَرَ: وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَخْوَانٍ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ، وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَخَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ»^(١).

❦ قَوْلُهُ: (كَانَ أَخْوَانٍ) أَيِ اثْنَانِ مِنَ الْإِخْوَانِ (عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) أَيِ فِي زَمَانِهِ... فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ أَيِ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ (وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ) أَيِ يَعْمَلُ وَيَكْتَسِبُ أَسْبَابَ الْمَعِيشَةِ فَكَانَهُمَا كَانَا يَأْكُلَانِ مَعًا (فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ) أَيِ فِي عَدَمِ مُسَاعَدَةِ أَخِيهِ إِيَّاهُ فِي حِرْفَتِهِ وَفِي كَسْبِ آخِرِ لِمَعِيشَتِهِ فَقَالَ: (فَلَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ) بِصِغَةِ الْمَجْهُولِ... أَيِ أَرْجُو وَأَخَافُ أَنَّكَ مَرْزُوقٌ بِبِرْكَتِهِ لِأَنَّهُ مَرْزُوقٌ بِحِرْفَتِكَ فَلَا تَمُنْ عَلَيْهِ بِصُنْعِكَ^(٢).

❦ وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَذَا الشَّابَّ الَّذِي يَعْمَلُ بِحِرْفَةٍ مُعِينَةً لِمَا شَكَا أَخَاهُ طَالِبَ الْعِلْمِ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَشَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنَّهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَسُوقُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الرِّزْقَ بِسَبَبِ إِنْفَاقِهِ عَلَى أَخِيهِ الَّذِي يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَيَدْعُو إِلَى اللَّهِ .. وَفِيهَا بُشْرَى أُخْرَى وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَخِيهِ الَّذِي يَطْلُبُ الْعِلْمَ فَإِنَّ هَذَا الْعِلْمَ وَتِلْكَ الدَّعْوَةَ سَتَكُونُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ إِذَا جَدَّدَ نِيَّتَهُ وَاحْتَسَبَ مَا يُنْفِقُهُ عَلَى أَخِيهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُفَرِّغَهُ لَطَلَبِ الْعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه الترمذی، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٥٠٨٤).

«يَحْتَرِفُ»: يَكْتَسِبُ وَيَتَسَبَّبُ.

(٢) تحفة الأحوذی (٢١٦/٦) بتصرف.

(٨) باب في الاستقامة

❖ قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢].

❖ هُنا أمر الله نبيه محمداً ﷺ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ يَسْتَقِيمُوا كَمَا أُمِرُوا، فَيَسْلُكُوا مَا شَرَعَهُ اللَّهُ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَيَعْتَقِدُوا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ، وَلَا يَزِيغُوا عَنْ ذَلِكَ يَمَنَةً وَلَا يَسْرَةً، وَيَدَاوِمُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَطْغُوا بِأَنْ يَتَجَاوَزُوا مَا حَدَّهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ.

وقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها... ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة، وترهيب من ضدها^(١).

❖ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠: ٣٢].

والغرض أنهم استقاموا على شريعة الله في سلوكهم، وأخلاقهم، وأقوالهم، وأفعالهم، فكانوا مؤمنين حقاً، مسلمين صدقاً.. وقد سُئل بعض العارفين عن تعريف الكرامة، فقال: الاستقامة عين «الكرامة».

❖ وعن الحسن أنه كان يقول: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا فَارْزُقْنَا الْإِسْتِقَامَةَ... ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: تنزل عليهم ملائكة الرحمة عند الموت بآلا تخافوا مما تقدمون عليه من أهوال القيامة، ولا تحزنوا على ما خَلَفْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ وَمَالٍ وَوَلَدٍ فَنَحْنُ نَخْلُفُكُمْ فِيهِ. ﴿وَأَبْشِرُوا﴾

(١) تفسير السعدي (ص ٤٣٩-٤٤٠).

بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١﴾ أَى: وأبشروا بجنة الخلد التى وعدكم الله بها على لسان الرسل.. قال شيخ زادة: إن الملائكة تنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة ألا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد يوم القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيه قائمين على رأسه يقولان له: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التى كنت تُوعَد، وإنك سترى اليوم أموراً، لم ترَ مثلها فلا تهولنك فإنما يُراد بها غيرك» (١)(٢).

وهذا كما جاء فى حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب، كنت تعمريه اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان» (٣)... وقال زيد بن أسلم: «ييسرونه عند موته، وفى قبره، وحين يُبعث»، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً.. وهو الواقع. وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم... أَى: قُرناءكم فى الحياة الدنيا نُسدّدكم، ونوفّقكم، ونحفظكم بأمر الله.

وكذلك نكون معكم فى الآخرة نُؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور نُؤمّنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم،.. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ﴾ أَى: فى الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقرّ به العيون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أَى: مهما طلبتم، وجدتم. وحضر بين أيديكم، كما اخترتم ﴿تُزَلَّامِنَ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ أَى: ضيافة وعطاء، وإنعاماً من غفورٍ لذنوبكم، رحيم رؤوف... حيث غفر وستر ورحم ولطف» (٤).

(١) «صفوة التفاسير» (٣/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) حاشية شيخ زادة على البضاوى (٣/ ٢٦١).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى «صحيح الجامع» (١٩٦٨).

(٤) مختصر تفسير ابن كثير / للشيخ محمد نسيب الرفاعى (٤/ ١٠٠، ١٠١).

﴿وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أى جمعوا بين الإيمان والتوحيد والاستقامة على شريعة الله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى فلا يلحقهم مكروه فى الآخرة يخافون منه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى ولا هم يحزنون على ما خلفوا فى الدنيا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى أولئك المؤمنون المستقيمون فى دينهم، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى نالوا ذلك النعيم جزاء لهم على أعمالهم الصالحة^(١).

﴿وقد يسألنى أحد إخوانى وأحبابى ويقول: ما معنى الاستقامة؟ فأقول له بكل بساطة: الاستقامة أن نستقيم على نعمة التوحيد والإيمان وأن نستقيم على فعل الطاعات كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن وبر الوالدين وحسن الخلق وغيرها من الطاعات. ولا بُدَّ أن نعلم أننا لن نفوز بمحبة الله ورضوانه إلا إذا فعلنا هذه الطاعات واستقمنا عليها.

فلا يصلح أن أصلى اليوم ثم أترك الصلاة لمدة أسبوع.
ولا يصلح أن أقرأ القرآن فى الإجازة الصيفية وأهجره فى وقت الدراسة.
ولا يصلح أن أطيع أمى وأبى فى وقتٍ وأعصيهما فى وقتٍ آخر.
ولا يصلح أن أكون كريماً فى وقتٍ وأكون بخيلاً فى وقتٍ آخر.
وهكذا: لا بد أن نستقيم وأن نستمر على فعل الطاعات حتى نفوز برضوان رب الأرض والسموات.

(١) صفوة التفاسير (٣/ ١٨١).

ساعة وساعة

❁ وقد يسألني أحد إخواني وأحبابي ويقول: ألم يقل النبي ﷺ: «ساعة وساعة؟».

أقول: نعم... قال النبي ﷺ ذلك.

لكن هل تعلم ماذا كان يقصد النبي ﷺ من قوله: «ساعة وساعة»؟

لم يقصد النبي ﷺ أن نعبد الله في ساعة ونعصيه في ساعة.

أو أن نطيع الله في ساعة ونترك العبادة في ساعة أخرى.

وإنما كان النبي ﷺ يقصد أن من عظمة الإسلام أنه أباح لنا أن نتمتع ببعض

المباحات حتى تكون عوناً لنا بعد ذلك على فعل الطاعات.

وسأذكر مثلاً يوضح ذلك: لو شعر واحدٌ منا بأنه قد أصيب بالتعب من كثرة

العبادة فلا مانع من أن يخرج مع زوجته وأولاده أو حتى مع أصحابه في نزهة في

أى مكان ليس فيه معصية لله (جلّ وعلا) فيستمتع ويقضى يوماً جميلاً دون أن

ينسى أوقات الصلاة... فإن ذلك يكون عوناً له بعد ذلك على أن يعود إلى

العبادة بكل نشاط وقوة.. فتكون ساعة النزهة عوناً له على ساعة الطاعة ولذلك

قال النبي ﷺ: «ساعة وساعة» حتى يعلم الناس جميعاً أن ديننا فيه فُسحة وليس

فيه تشدد وعبوس وحرمان من مُتَع الدنيا الحلال.

بِمَا تَحِبُّونَ مِنْ دِينِ اللَّهِ

(٨٦) وَعَنْ أَبِي عمرو، وقيل: أبي عمرة سُفْيَانُ بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ

اسْتَقِمَّ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨) كتاب الإيمان.

- وقول سفيان بن عبد الله للنبي ﷺ: قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ... طلب منه أن يعلمه كلاماً جامعاً لأمر الإسلام، كافياً حتى لا يحتاج بعده إلى غيره، فقال له النبى ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم».

فقوله: «قل آمنت» فمن المعلوم أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان ... فلا يكفى أن يقول العبد: آمنت بلسانه ولم يؤمن قلبه بتلك الكلمة، ولم تشغل جوارحه بطاعة الله ﷻ ولذلك فنحن نجد أن معظم آيات القرآن تجعل الإيمان ملازماً للعمل الصالح ... وذلك كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

وقوله: «آمنت بالله» يشمل الإيمان بوجود الله ﷻ، وبربوبيته وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه، وبأخباره وكل ما يأتى من قبله ﷻ، تؤمن به ... فإذا آمنت بذلك فاستقم على دين الله، ولا تحدد عنه، لا يميناً ولا شمالاً لا تقصر ولا تزدد. فاستقم على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وذلك بالإخلاص لله ﷻ والمتابعة لرسوله.

استقم على الصلاة، وعلى الزكاة، والصيام، والحج، وعلى جميع الشرائع. وقوله: «آمنت بالله ثم ...» دليل على أن الاستقامة لا تكون إلا بعد الإيمان، وأن من شرط الأعمال الصالحة - أى: من شرط صحتها وقبولها - أن تكون مبنية على الإيمان.

فلو أن الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي، ولكن باطنه خراب، وفي شك واضطراب، أو فى إنكار وتكذيب، فإن ذلك لا ينفعه ... ولهذا اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن من شروط صحة العبادة وقبولها: أن يكون الإنسان مؤمناً بالله، أى: معترفاً به، وبجميع ما جاء من قبله ﷻ^(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (١/٣٠٠) بتصرف.

(٨٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن الإنسان إن لم يستطع أن يُسَدِّد ويُصِل إلى أعلى درجات الطاعة والاستقامة فعليه أن يُقَارِب .. وهذا من باب قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَنْقُضُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

وقوله: «سَدِّدُوا» أى: سددوا على الإصابة أى: احرصوا على أن تكون أعمالكم مُصِيبَةً لِلْحَقِّ بقدر المُسْتَطَاع، وذلك أن الإنسان مهما بلغ من التقوى، فإنه لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِئَ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ»^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ ثُمَّ لَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٣).
فالإنسان مأمور أن يُقَارِبَ وَيُسَدِّدَ بقدر ما يستطيع.

❁ «وَاَعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ».

أى أنه لن ينجو أحدٌ من النار بعمله وكذلك لن يدخل الجنة بعمله؛ لأن العمل الذى يعملُه العبد مهما جَوَّدَهُ وَحَسَّنَهُ فإنه لا يبلغ ما يجب لله عَزَّ وَجَلَّ من الشكر .. ولكن الله هو الشكور الذى يشكر القليل من العمل ويغفر الكثير من الزَّلَلِ وَيُضَاعِفُ لِلْمُخْلِصِينَ أعمالهم بغير حساب ... فإذا تقربت إلى الله بعملٍ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفة القيامة والجنة والنار. و«المُقَارَبَةُ»: الْقَصْدُ الَّذِي لَا غُلُوَّ فِيهِ وَلَا تَقْصِيرَ - وَ«السَّدَادُ»: الاستقامة والإصابة. و«يَتَغَمَّدَنِي»: يلبسنى ويسترنى.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَى الاسْتِقَامَةِ لُزُومُ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالُوا: وَهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَهِيَ نِظَامُ الْأُمُورِ؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٤٥١٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.

يسير فإنه يُعطيك الأجر الكبير.

✽ فلما قال الرسول هذا، قالوا له: ولا أنت؟! قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه».

فدل ذلك على أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله حتى النبي عليه الصلاة والسلام.

لولا أن الله منَّ عليه بأن غفر له ذنبه ما تقدم منه، وما تأخر، ما أنجاه عمله... مع أن النبي ﷺ كان معصوماً من الذنوب ﷺ.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

اعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع... ومذهب أهل السنة أيضاً أن الله تعالى لا يحب عليه شيء (تعالى الله) بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء، فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلاً منه، وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه... ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك ولكنه أخبر وخبره صدق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب المنافقين ويخلدُهم في النار عدلاً منه^(١).

✽ فإن قال قائل: هناك نصوص من الكتاب والسنة تدل على أن العمل الصالح ينجي من النار ويدخل الجنة... مثل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله تعالى:

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٣٢).

﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

فكيف نجمع بين تلك الآيات وهذا الحديث؟!.

فالجواب: أن الباء التي في تلك الآيات: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء السببية وليست باء العوض .. أى: ادخلوا الجنة بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة ..

ومن المعلوم أن الله عز وجل هو الذى هداانا ابتداءً وهو الذى وفقنا لذلك العمل الصالح .. فلما عملناه وأخلصنا النية لله تقبل الله منا ذلك العمل فأدخلنا به الجنة .. فذلك العمل كان برحمة الله ابتداءً وانتهاءً.

وليس المقصود أن دخولنا الجنة عوضاً عن تلك الأعمال الصالحة التى عملناها .. وكأن المعنى أن الجنة هي العوض عن تلك الأعمال أو أن تلك الأعمال تساوى دخولنا الجنة ... كلا .. فلو أن إنساناً عبد الله ألف سنة ما كانت تلك العبادة تساوى نعمة البصر فقط فكيف تساوى دخول الجنة.

ومن أجل ذلك لا بُدَّ أن نعتقد أننا لن ننجو من النار ولن ندخل الجنة إلا برحمة الله .

✽ قال الإمام النووى رحمه الله:

مَعْنَى الْآيَاتِ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ التَّوْفِيقِ لِلْأَعْمَالِ وَالْهُدَايَةِ لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا وَقَبُولِهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ فَيَصِحُّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ وَهُوَ مُرَادُ الْأَحَادِيثِ وَيَصِحُّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا وَهِيَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(٩) باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى

وفناء الدنيا وأحوال الآخرة وسائر أمورهما

وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

✽ إن من أعظم العبادات التي نتقرب بها إلى الله ﷻ: عبادة التفكر وذلك بأن نتفكر في بديع خلق الله ﷻ ونتأمل في عظمة تلك المخلوقات لنعرف مدى عظمة الخالق الذي أبدع في جميع مخلوقاته ﷻ.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✽ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي ثُمَّ نَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[سبأ: ٤٦].

أى ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصدين لرد الحق وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: ﴿إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ﴾ أى: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها، وهى طريق نَصَف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولى، ولا إلى ترك قولكم، من دون موجب لذلك، وهى: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرْدِي﴾ أى: تنهضوا بهمة، ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين فى ذلك، ومتناظرين، وفُرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله، مثنى وفردى، استعملتم فكريكم، وأجلتموه، وتدبرتم أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، مُنذِرٌ لكم ما يضركم، مما أمامكم من العذاب الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ، ليس بمجنون، لأن هيئاته ليست كهيئات المجانين، في خنقهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق، أدباً، وسكينةً، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً^(١).

وإنما قال: ﴿مَثْنَى وَفِرَدَى﴾ لأن الجماعة يكون من اجتماعهم تشويش خاطر والمنع من التفكير، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصافٍ وعَرَضَ كل واحدٍ منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحق أن يعدو هما، وإذا كان الواحد جيّد الفكر عرف الحق، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته ﷺ للمجنون لا يمكن، ولا يذهب إلى ذلك عاقل^(٢) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أى ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذابٍ شديدٍ في الآخرة.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان إذا قام لله بعمل، أن يتفكر ماذا فعل في هذا العمل: هل قام به على الوجه المطلوب، وهل قصّر، وهل زاد وماذا حصل له من هذا العمل من طهارة القلب، وزكاء النفس، وغير ذلك.

لا يكن كالذى يؤدي أعماله الصالحة وكأنها عادات يفعلها كل يوم، بل تفكر، ماذا حصل لك من هذا العبادة، وماذا أثرت على قلبك وعلى استقامتك.

ولنضرب لهذا مثلاً بالصلاة... قال الله ﷻ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فلنفكر، هل نحن إذا صلينا زدنا طاقة وقوة ونشاطاً على الأعمال الصالحة، حتى تكون الصلاة مُعِينَةً لنا؟

(١) تفسير السعدى (ص ٨٠٢-٨٠٣)

(٢) البحر المحيط (٧/ ٢٠١) بشيء من الاختصار.

هل أنت إذا صليت وجدت في نفسك كراهة للفحشاء والمنكر والمعاصي،
أو أن الصلاة لا تفيدك في هذا؟

ومثال آخر في الزكاة وهي: المال الواجب في الأموال الزكوية، يصرفه
الإنسان في الجهات التي أمر الله بها، وقد بين الله فوائدها، وقد قال الله لرسوله
ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فإذا أديت الزكاة فانظر هل طهرت من الأخلاق الرذيلة ... هل طهرت من
الذنوب، وهل زكّت مالك؟

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾

❁ وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿[آل عمران: ١٩٠، ١٩١]
هذه الآية هي أول الآيات العشر التي كان النبي ﷺ يقرأها كلما استيقظ من
صلاة الليل ... فينبغي للإنسان إذا استيقظ لصلاة الليل أن يقرأ من هذه الآية إلى
آخر سورة آل عمران.

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حيث الحجم والكبر والعظمة، وغير
ذلك مما أودع الله فيهما ... في هذا الخلق آيات: ففي النجوم آية من آيات الله، وفي
الشمس آية من آيات الله، وكذا القمر، وكذا الأشجار والبحار والأنهار، وفي كل ما
خلق الله في السماوات والأرض آيات عظيمة، تدل على كمال وحدانيته (جل
وعلا)، وعلى كمال قدرته، وعلى كمال رحمته، وعلى كمال حكمته.

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يكون من وجوه متعددة:

أولاً: من جهة أن الليل مظلم والنهار مضيء، كما قال الله تعالى:
﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۚ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]

ثانيًا: اختلافهما في الطول والقصر... أحيانًا يطول الليل، وأحيانًا يطول النهار، وأحيانًا يتساويان كما قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، أى: يُدخل هذا في هذا مرة فيأخذ منه، وهذا في هذا مرة فيأخذ منه... هذا من اختلافهما.

ثالثًا: اختلافهما في الحر والبرودة... تارة يكون باردًا وتارة حارًا.

رابعًا: الخصب والجذب... تارة تكون الدنيا جذبًا وقحطًا وسنين، وتارة تكون خصبةً وربيعًا وورخاءً.

خامسًا: اختلافهما في الحرب والسلم... تارة تكون حربًا وتارة تكون سلمًا وتارة تكون عزًا وتارة تكون ذلة... كما قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ومن تأمل اختلاف الليل والنهار وجد فيهما من آيات الله عز وجل ما يبهّر العقول.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْتَظِرُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أى: علامات واضحات على وحدانية الله، وكمال قدرته وعزته وعلمه ورحمته وغير ذلك من آياته.

ثم قال تعالى في وصف أولى الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، أى: يذكرون الله في كل حال.

وذكر الله عز وجل نوعان: نوعٌ مُطلق في كل وقت، وهو الذى يُشرع للإنسان دائماً... أوصى النبي ﷺ رجلاً قال له: إن شرائع الإسلام كثرت علىّ، وإنى كبير فأوصنى. فقال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه^(٢)... فذكر الله هنا مُطلق لا يتقيد بعدد، بل هو إلى الإنسان على حسب نشاطه.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٠٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٧٣) كتاب الحيض.



والنوع الثانى: ذكرٌ مُقيّد بعدد، أو فى حال من الأحوال، وهو كثير.

منها أذكار الصلوات فى الركوع والسجود وبعد السلام، وأذكار الدخول للمنزل، والخروج منه، وأذكار الركوب على الدابة وأشياء كثيرة شرعها الله ﷻ لعباده من أجل أن يكونوا دائماً على ذكره ﷻ... ومنها أذكار النوم والاستيقاظ... فالمهم أن الله شرع لعباده من الأذكار ما يجعلهم إذا حافظوا عليها يذكرون الله، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

واعلم أن الذكر أيضاً يكون على وجهين: ذكرٌ تام: وهو ما تواطأ عليه القلب واللسان.

وذكرٌ ناقص: وهو ما كان باللسان مع غفلة القلب.

قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ يتفكرون فى خلق السماوات والأرض لماذا خلقت؟ وكيف خلقت؟ وما أشبه ذلك، ثم يقولون بقلوبهم وألسنتهم ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أى: لا بد أن يكون لخلق السماوات والأرض غاية محمودة، يُحمد الرب عليها ﷻ... ليس خلق السماوات والأرض باطلاً، لإيجاد الناس فيأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام! لا، بل هى مخلوقة لغرض عظيم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

❁ وقوله: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهاً لك أن تخلق هذه السماوات والأرض باطلاً. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فيتوسلون إلى الله ﷻ بما يُثنون عليه من صفات الكمال، أن يقيهم عذاب النار... والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين:

الأمر الأول: أن يعصمك الله من الذنوب، لأن الذنوب هى سبب دخول النار.

الأمر الثانى: أن يَمُنَّ الله عليك بالتوبة والإقلاع، لأن الإنسان بشرٌ لا بد أن يعصى، ولكن باب التوبة مفتوح... قال الله: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣].

مهما عملت من المعاصي، إذا رجعت إلى الله، وثبتت، تاب الله عليك، ولكن إذا كانت المعصية تتعلق بآدمي، فلا بد من الاستبراء من حقه، إما بوفائه أو باستحلاله منه، لأنه حق آدمي لا يغفر، بخلاف حق الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ ❁ هذا من باب الحث على النظر في هذه الأمور الأربعة... أما الإبل: فتأمل كيف خلقها الله على هذا الجسم الكبير، المتحمل لحمل الأثقال، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِنْ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧].

هذه الإبل الكبيرة الأجسام القوية زللها الله لعباده، حتى كان الصبي يقودها إلى ما يريد، مع أنها لو عتت ما استطاع الناس أن يدركوها.

ولهذا كان من المشروع أن يقول الإنسان إذا استوى على ظهرها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] أي لسنا مطيقين لها لولا أن سخرها الله عز وجل.

سخرها الله لعباده، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ولهم فيها منافع ومشارب فيتخذون من جلودها بيوتاً ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، إلى غير ذلك من الآيات العظيمة التي تحملها هذه الإبل.

وقوله: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ ❁ هذه السماء العظيمة، رفعها الله عز وجل رفعاً عظيماً باهراً لا يستطيع أن يناله أحد من الخلق، حتى الجن على قوتهم يقولون: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدِ اللَّسَمِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩] يقول

الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

هذه السماوات العظيمة، كيف رفعها الله تعالى بغير عمدٍ: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، أى: ترونها مرفوعة بغير عمدٍ فاعتبروا بها. وفي هذه السماوات من آيات الله ﷻ الشيء الكثير، فهي رُفعت هذا الرفع العظيم، وفيما بينها وبين الأرض آيات عظيمة من الأفلاك، والنجوم، وغيرها. وقوله: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ هذه الجبال الصُّم العظيمة الكبيرة، لو أن الخلق اجتمعوا كلهم بقواهم ما كُونُوا مثلها.

هذه الجبال الصُّم يجب أن نتفكر فيها، كيف نصبها الله ﷻ؟

نصبها الله ﷻ على حكمة عظيمة، لأن الله يجعل في هذه الجبال التي نصبها مصالح عظيمة وكبيرة... منها أنها رواسى تُرسى الأرض وتمسكها عن الاضطراب، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، أى: أن تضطرب... فلو لا أن الله أرساها بهذه الجبال، لكانت مضطربة كالسفينة على الماء في شدة الأمواج، ولكن الله جعلها بهذه الجبال ساكنة قارة، لا تضطرب ولا تميد بأهلها.

هذه الجبال أيضًا تقى من أهوية ورياح شديدة عاصفة في بعض الأماكن، وتقى أيضًا من برودة عظيمة تأتي من ناحية القطب، وتقى من حرارة شديدة... وكذلك من سفوحها آية من آيات الله ﷻ من النبات، والأودية، والمعادن شيء عظيم كثير... فلماذا قال: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.

وقوله: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فجعلها الله سطحًا، وسخرها للعباد، وجعلها ذلولًا مُذللة، بحيث لم تكن تربتها لينة جدًا لا يستقرون عليها، ولا صلبة جدًا لا ينتفعون منها... بل جعلها (سبحانه وتعالى) رخوة مُسطحة مبسوطة، حتى ينتفع الناس على سطحها بما يسر الله (سبحانه وتعالى) لهم من

الأسباب النافعة.

وهذه الأرض المُسطحة هي أيضًا كروية، أى أنها شبه الكرة، مستديرة من كل جانب، إلا أنها مفلطحة من الناحية الشمالية والجنوبية. ولذلك لو أن أحدًا من الناس ركب طائرة متجهًا إلى المغرب - على خطٍّ مستقيم - لكان يخرج إلى المكان الذى أُلغيت منه الطائرة، وهذا يدل على أنها مستديرة، لأن الإنسان يصل طرفها بطرفها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ [محمد: ١٠]... فأمر الله بالسير وهو ينقسم إلى قسمين: سير بالقدم وسير بالقلب.

(١) أما السير بالقدم: فأن يسير الإنسان في الأرض على أقدامه، أو على راحلة من بعير أو سيارة، أو طائرة، أو غيرها حتى ينظر ماذا حصل للكافرين، وماذا كانت حال الكافرين.

(٢) وأما السير بالقلب: فهذا يكون بالتأمل والتفكير فيما نُقل من أخبارهم. والقرآن مملوء من أخبار الأولين المكذبين للرسول، والمؤيدين للرسول... وبين الله عاقبة هؤلاء وهؤلاء.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يقرأ الآيات التى فيها أخبار مَنْ سبق، وأن يسأل عن معناها ويستفسر، حتى يكون على بصيرة من الأمر... وكذلك أيضًا ما جاءت به السنة من أخبار الماضين، فإنها جاءت بالأحاديث الكثيرة النافعة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين - الشيخ ابن عثيمين (١/ ٣٠٤-٣٠٩) بتصرف.

(١٠) باب في المبادرة إلى الخيرات وحث من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد

✽ ما أجمل أن يتنافس المسلمون في الطاعات التي تُقربهم من رب الأرض والسموات.. وما أجمل أن يتنافسوا في الفوز بالحسنات والفوز بالمغفرة والرحمات والارتقاء في درجات الجنات.

✽ فنحن في سباق حقيقي... وينبغي أن يسعى كل واحدٍ منا لأن يسبق كل من حوله فيما يقربه إلى الله (جلّ وعلا).

✽ وتعالوا بنا لتأمل سويًا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٢] لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فكل واحدٍ منا يقرأ تلك الآيات ويقرأ في آخرها: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.. نعم إنه سباق حقيقي.. وكل واحدٍ يتمنى أن يكون أول المسلمين في فعل الطاعات... وأول المسلمين في الفوز بالمغفرة والرحمات... وأول المسلمين في دخول الجنات.

✽ ومن هنا جاءت الآيات الكثيرة التي تحض على المسارعة إلى الخيرات والطاعات.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وهكذا... فالآيات التي تحض على المسارعة إلى الخيرات كثيرة جدًا.

❁ ومن أجل ذلك لا بد أن تملأ همة كل واحدٍ منا من أجل أن يبذل أقصى ما في وسعه للفوز برضوان الله ورحمته ومغفرته وجنته.

❁ وعنوان هذا الباب يتضمن أمرين: الأول: المبادرة والمصارعة إلى الخير... والثاني: أن الإنسان إذا عزم على الأمر وهو خير فليمض فيه ولا يتردد. أما الأول: فهو المبادرة، وهى ضد التوانى والكسل، وكم من إنسانٍ توائى وكسل ففاته خيرٌ كثير، ولهذا قال النبي ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلِّ خيرٍ، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»^(١).

فالإنسان ينبغي له أن يسارع في الخيرات... كلما ذكر له شيء من الخير بادِر إليه... فمن ذلك الصلاة والصدقة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام، إلى غير ذلك من مسائل الخير، التى ينبغي المصارعة إليها.

فالإنسان ربما يتوانى في الشيء ولا يقدر عليه بعد ذلك، إما بموتٍ أو مرضٍ أو فواتٍ أو غير هذا... وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إذا أراد أحدكم الحجَّ فليَتَعَجَّلْ فإنه قد يَمْرُضُ المريضُ، وتَضِلُّ الرَّاحِلَةُ، وتَعْرِضُ الْحَاجَةُ»^(٢). فقد يعرض له شيء يمنعه من الفعل فسارع إلى الخير ولا تتكاسل^(٣).

بِمَا يَنْفَعُكَ مِنْ شَيْءٍ

❁ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مُوَلِّيًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

أى: كل أهل دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التى تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن، في امتثال طاعة الله،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٢) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٦٠٠٤).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٣١٠) بتصرف.

والتقرب إليه، وطلب الزُّلفى عنده... فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذى إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به، فهى الرابحة على الحقيقة، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه فى جميع الشرائع، وهو الذى خلق الله له الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات، قدرٌ زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكملها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها... ومن سبق فى الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق فى الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة... والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، وجهاد، ونفع مُتَعَدِّ وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير ويُنشطها، ما رَتَّبَ الله عليها من الثواب... قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازى كل عاملٍ بعمله ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ويُستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة فى أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها... فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!^(١)

ومن ذلك المسابقة فى الصفوف فى الصلاة... فإن النبى ﷺ قال: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»^(٢).

ورأى النبى ﷺ أقوامًا فى مؤخرة المسجد لم يسبقوا ولم يتقدموا، فقال: «لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله عزَّ وجلَّ»^(٣). فانتهاز الفرصة واسبق إلى الخير.

(١) تفسير السعدى (ص ٦٨-٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الصلاة.

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: بادروا إلى ما يوجب المغفرة بطاعة الله وامثال أوامره ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى وإلى جنة واسعة عرضها كعرض السماء والأرض... كما قال في سورة «الحديد» ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١] والغرض بيان سعتها فإذا كان هذا عرضها فما ظنك بطولها؟ ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى هيئت للمتقين لله.

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّارَى وَالظَّرَى ﴾ أى: في حال عُسرهم ويُسرهم... إن أيسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً ولو قلَّ.

﴿ وَالْكُتَيْمِينَ الْغَيْظَ ﴾ أى: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول والفعل- هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما فى القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ يدخل فى العفو عن الناس: العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل... والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلَّى بالأخلاق الجميلة وتخلَّى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله، رحمة بهم وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقير... كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها وأحسن وأعلى وأجل وهى الإحسان، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾... والإحسان نوعان: الإحسان فى عبادة



الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك: أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعى في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندي، وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات... فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنایاتهم وذنوبهم، فقال^(١): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ والفاحشة: ما يُستفحش من الذنوب، وهي كبائر الذنوب مثل: الزنى، وشرب الخمر، وقتل النفس وما أشبهها، وكل ما يُستفحش فهو فاحشة ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بما دون الفاحشة من المعاصي الصغار، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أى: ذكروا عظمتهم وذكروا عقابه، ثم ذكروا أيضًا رحمته وقبوله للتوبة وثوابها. فهم يذكرون الله من وجهين:

الوجه الأول: من حيث العظمة والعقوبة والسلطان العظيم، فيوجلون ويخجلون ويستغفرون.

والثاني: من حيث الرحمة وقبول التوبة، فيرغبون في التوبة ويستغفرون الله.. ولهذا قال: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ﴾ ومن أفضل ما يُستغفر به سيد الاستغفار: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك

(١) تفسير السعدى (ص ١٤٥).

ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، يعنى: لا أحد يغفر الذنوب إلا الله ﷻ... لو أن الأمة كلها من أولها إلى آخرها، والجنة والملائكة اجتمعوا على أن يغفروا لك ذنباً واحداً ما غفروه، لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله ﷻ.

ولكننا نسأل الله المغفرة، لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان... وأما أن يكون بيدنا أن نغفر!!... فلا يغفر الذنوب إلا الله.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

يعنى: لم يستمروا على معاصيهم وظلمهم وهم يعلمون أنها معاصى وظلم... وفى هذا دليل على أن الإصرار مع العلم أمره عظيم، حتى فى صغائر الذنوب... ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أن الإنسان إذا أصرّ ولو على الصغيرة، صارت الصغيرة كبيرة^(١).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تزيل عنهم كل محذور ﴿وَجَنَّتْ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، والبهجة والحبور والبهاء، والخير والسرور، والقصور، والمنازل الأنيقة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية فى تلك المساكن الطيبات.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يحولون عنها ولا ييغون بها بدلاً، ولا يغير ما هم فيه من النعيم ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً؛ ف«عند الصباح يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرَى»، وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الأعمال تدخل فى الإيمان، خلافاً للمرجئة.

ووجه الدلالة: إنما يتم بذكر الآية التي في سورة الحديد نظير هذه الآيات، وهى قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدنية... فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٨) - فالأول: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»^(٢).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

والمراد الأعمال الصالحة؛ هى كل عمل يعمله الإنسان خالصاً لله موافقاً فيه رسول الله ﷺ... يعنى أن العمل الصالح مأبى على أمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله... فالعمل الذى ليس بخالص ليس بصالح... لو قام الإنسان يصلى؛ ولكنه يرائى الناس بصلاته، فإن عمله لا يقبل؛ حتى لو أتى بشروط الصلاة، وأركانها، وواجباتها، وسُننها، وطمانيتها، وأصلحها إصلاحاً تاماً فى الظاهر، لكنها لا تقبل منه، لأنها خالطها الشرك... والذى يُشرك بالله معه غيره لا يقبل الله عمله.

كما فى الحديث الصحيح؛ عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(٣).

قال الإمام النووى رحمته الله:

يعنى: أَنَا غْنَى عَنِ الْمُشَارَكَةِ وَغَيْرِهَا فَمَنْ عَمِلَ شَيْئًا لِي وَلِغَيْرِي لَمْ أَقْبَلْهُ بَلْ

(١) تفسير السعدى (ص ١٤٥-١٤٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١١٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق.

أَثَرُكَ لِذَلِكَ الْغَيْرِ ... والمراد أن عمل المُرَائِي باطل لا ثواب فِيهِ وَيَأْثُمُ بِهِ ^(١).

كذلك أيضًا: لو أن الإنسان أخلص في عمله، لكنه أتى ببدعة ما شرعها الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فإن عمله لا يُقبل حتى لو كان مخلصًا، حتى لو كان يبكي من الخشوع، فإنه لا ينفعه ذلك؛ لأن البدعة وصفها النبي ﷺ بأنها ضلالة، فقال: «فإن كل مُحَدَّثَة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

ثم قال: «فتنًا كقطع الليل المظلم» أخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم، يعنى أنها مُدْلهمة مُظلمة لا يرى فيها النور والعياذ بالله، ولا يدرى الإنسان أين يذهب ... يكون حائرًا، ما يدرى أين المَخْرَج.

والفتن منها ما يكون من الشبهات، ومنها ما يكون من الشهوات.

فتن الشبهات: كل فتنة مبنية على الجهل فهى فتنة شبهة، ومن ذلك ما حصل من أهل البدع الذين ابتدعوا فى عقائدهم ما ليس من شريعة الله، أو أهل البدع الذين ابتدعوا فى أقوالهم وأفعالهم ما ليس من شريعة الله، فإن الإنسان قد يُفتن والعياذ بالله فيضل عن الحق بسبب الشبهة.

إذا... الفتن تكون من الشبهات، وتكون أيضًا من الشهوات، بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام، ولكن لأن نفسه تدعوه إليه فلا يبالى، بل يفعل الحرام... يعلم أن هذا واجب، لكن نفسه تدعوه للكسل فيترك هذا الواجب... هذه فتنة شهوة، يعنى فتنة إرادة، ومن ذلك أيضًا - بل من أعظم ما يكون - فتنة شهوة الزنى أو اللواط والعياذ بالله، وهذه من أضر ما يكون على هذه الأمة... قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» ^{(٢)(٣)}.

(١) مسلم بشرح النووي (١٨/١٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/٣١٦) بتصرف.

وقال ﷺ: « فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ »^(١).

✽ « يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ». ومن شدة تلك الفتن التي حذرنا النبي ﷺ منها .. أن الرجل يُصبح مؤمنًا ثم يرتد عن دينه خلال ساعات معدودات فيُمسى كافرًا .. أو يُمسى مؤمنًا وما تمر عليه تلك الليلة حتى يُصبح كافرًا.

لكن يا ترى ما هو السبب في ذلك؟!

«بييع دينه بعرض من الدنيا» ولا تظن أن العرض من الدنيا هو المال فقط. بل كل متاع الدنيا عرض، سواء كان مالًا أو جاهًا أو رئاسة، أو نساءً أو غير ذلك... كل ما في الدنيا من متاع فإنه عرض، كما قال تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤]. فما في الدنيا كله عرض. فهؤلاء الذين يصبحون مؤمنين ويُمسون كفارًا أو يمسون مؤمنين ويصبحون كفارًا، كلهم يبيعون دينهم بعرض من الدنيا.

فكان النبي ﷺ يحضنا على كثرة الأعمال الصالحة والمُسارعة إليها؛ لتكون سببًا للنجاة من الفتن.. أو ليُختم لنا بخيرٍ إذا وقعت الفتن وفارقنا الحياة.. ولذلك أمرنا النبي ﷺ أن نستعِذ بالله في كل صلاة من فتنة المحيا والممات فقال ﷺ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ -يعني: التشهد الأخير- فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٨٩) الثانی: عن أبي سُرُوعَةَ عُبَيْةَ بن الحارث رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ إِلَى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزَعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَجَبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: «ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تَبَرٍّ عِنْدَنَا فَكَّرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ»^(١).
وفي رواية لَهُ: «كُنْتُ خَلَفْتُ فِي الْبَيْتِ تَبَرًا مِنَ الصَّدَقَةِ فَكَّرِهْتُ أَنْ أُبَيِّتَهُ».

✽ في هذا الحديث يُخبر عقبة بن الحارث رضي الله عنه أنه صَلَّى وراء النبي ﷺ بالمدينة صلاة العصر .. وكان الصحابة أحرص الناس على الصلاة خلف النبي ﷺ ليفوزوا بشرف ضُحبة النبي ﷺ وليتعلموا بين يديه ويقتبسوا من أدب النبي ﷺ وأخلاقه.

فلما سَلَّمَ النبي ﷺ من صلاته لم ينتظر حتى يقرأ أذكار ما بعد الفريضة بل قام مُسْرِعًا فخشي الصحابة أن يكون قد أصابه مكروه.
فلما قام النبي ﷺ مُسْرِعًا وتخطَّى رِقَابَ النَّاسِ وذهب إلى بعض حُجَرِ نِسَائِهِ وفزع الصحابة من سُرْعَتِهِ .. فما كان منه ﷺ إلا أن عاد إليهم؛ ليوضح لهم ما الذي حمّله على أن يفعل ذلك .. لأنه يعلم مدى حبهم له ﷺ ... فأراد أن يُطمئنهم وفي نفس الوقت أراد أن يُعلمهم.
فأخبرهم أنه ﷺ ذكر شيئًا من التبر (قطع الذهب أو الفضة) عنده فَكَّرَهُ أَنْ يَحْبِسَهُ فَأَمَرَ بِقِسْمَتِهِ.

✽ وفي هذا الحديث درسٌ عظيم وهو أن المسلم لا بد أن يكون حريصًا على المبادرة إلى فعل الخيرات، وأنه ينبغي عليه أن يغتنم كل لحظة في فعل الخيرات؛ لأنه لا يدري متى يموت .. ولعله أن يُختم له بهذا العمل الصالح.

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٨١) كتاب الأذان.
«التَّبَرُّ»: قَطْعُ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

والمسلم الذى يؤمن بالله واليوم الآخر، لا بُدَّ أن يكون حريصًا على أن يعمل لما بعد الموت؛ لأن الدنيا مزرعة للآخرة وأن ما يزرعه هنا فسوف يحصده هناك وإذا كان الإنسان فى أمور دُنياه يكون حريصًا على اغتنام الفرص التى تجلب له المال والثراء فمن باب أولى أن يَغتنم أى فرصة تُقربه من الجنة، ومن رضوان رب الجنة (سبحانه وتعالى).

قال ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاعَكَ قَبْلَ شَغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»^(١).

❁ وفى هذا الحديث دليلٌ على أن النبى ﷺ كان أسرع الناس مبادرة إلى فعل الخيرات؛ لأنه الأسوة والقدوة ﷺ... وأنه ﷺ يحتاج إلى العمل كغيره من المسلمين... ولهذا كان ﷺ لا يتأخر عن فعل الخيرات مع أنه سيد ولد آدم ﷺ وأنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر.. وأنه يعلم قدره ومكانته عند الله.. كان يفعل كل ذلك لِنَقْتَدَى به ﷺ ولا نتكاسل عن الطاعات وفعل الخيرات.

ولهذا قال ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ»^(٢).

❁ وفى هذا الحديث دليلٌ أيضًا على جواز تخطئى الرقاب بعد السلام من الصلاة وبخاصة إذا كان هناك ضرورة أو حاجة.. وذلك لأن الصلاة قد انتهت وأصبح الناس ليسوا بحاجة إلى أن يبقوا فى أماكنهم.. وهذا بخلاف تخطئى الرقاب قبل الصلاة فإن هذا منهى عنه؛ لأنه إيذاء للناس..

ولهذا عندما كان النبى ﷺ يخطب ورأى رجلاً يتخطئى الصفوف قطع النبى

(١) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧٣) كتاب المرضى، ومسلم (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين.

خطبته وقال للرجل: «اجلس فقد آذيت».

❁ وفي هذا الحديث دليلٌ أيضاً على أن النبي ﷺ ينسى غيره من البشر .. فإن كان النبي ﷺ ينسى ما كان معلوماً لديه فمن باب أولى ألا يعلم الغيب .. كما قال الله له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وكما قال الله له: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وفي تلك الآيات قطع السبيل على مَنْ يظنون أن النبي ﷺ يعلم الغيب وعلى مَنْ يذهبون إليه عند قبره ويسألونه من دون الله ﷻ ويطلبون منه قضاء الحاجات وتفريج الكربات ... فقد جاء النبي ﷺ لحماية التوحيد وتحقيق عبادة الله (جلّ وعلا) ... ولذا قال ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...».

❁ وفي هذا الحديث دليلٌ على شدة الأمانة وعِظَمُهَا .. وأن الإنسان إذا لم يُبادر بأداء الأمانة فإنها قد تحبسه .. ولذا قال النبي ﷺ: «فَكَرِهْتُ أَنْ تَحْبِسَنِي» أي: فكرهت أن تحبسني يوم القيامة .. وقال بعض أهل العلم: أي: فكرهت أن يشغلني التفكير فيها عن التوجُّه والإقبال على الله ﷻ.

وإذا كان هذا في الأمانة فكذلك أيضاً في الدين فإنه يجب على المسلم أن يُبادر بقضاء دينه إذا كان حالاً إلا أن يسمح له صاحب الدين فلا بأس بذلك .. وذلك لأن الدين أمره عظيم.

ولذلك كان النبي ﷺ قبل أن يفتح الله عليه الفتوح إذا جرى إليه بالرجل سأل: «هل عليه دين؟» فإن قالوا: لا، تقدم وصلى عليه، وإن قالوا: نعم، سأل: «هل له وفاء؟» فإن قالوا: نعم، تقدم وصلى، وإن قالوا: لا، تأخر ولم يُصلِّ ... يترك الصلاة

على الميت إذا كان عليه دين، فقدم إليه ذات يوم رجل من الأنصار ليصلى عليه فخطا خطواتٍ ثم قال: «هل عليه دين؟» قالوا: نعم يا رسول الله، ثلاثة دنانير وليس لها وفاء، فتأخر وقال: «صلوا على صاحبكم» فعرف ذلك في وجوه القوم... تغيرت وجوههم، كيف لم يصل عليه النبي عليه الصلاة والسلام؟! فتقدم أبو قتادة رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، على دينه، فتقدم النبي صلى الله عليه وسلم فصلى عليه^(١).

ومع الأسف الآن تجد كثيرًا من الناس عليه دينٌ وهو قادر على الوفاء، ولكنه يماطل والعياذ بالله، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مطل الغنى ظلم»^(٢).
 * ولأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الأسوة والقُدوة في كل شيء فتأمل معي تلك الصور المشرقة لأمانة النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) لما بنت قريش الكعبة، وبلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا في وضع الحجر، أي القبائل تلى رفعه، فقالوا: تعالوا نُحْكَمْ أول من يطلع علينا، فطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذا الأمين، رضينا حكمه، هذا محمد... فأمر بثوب، فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف من الثوب، فرفعوه، وأخذوه الرسول، فوضعه.. وكان هذا قبل البعثة بخمس سنوات..

(٢) وبعد البعثة، لما نزل عليه جبريل عليه السلام يقول: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيته فزعًا قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها: «أبشِر، فوالله لا يُخزِيكَ الله أبدًا، والله إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»^(٣).

(٣) ولما ذهب أبو سفيان ومن معه إلى هرقل ملك الروم، لم يستطع أن ينكر هذا الخلق العظيم، ولم يقدر أن يخفيه، مع أنه حريص على أن يقلل من شأنه صلى الله عليه وسلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٩٨) كتاب الكفالة، ومسلم (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٨٧) كتاب الحوالة، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٦٠) كتاب الإيمان.

أو يطعن فيه بدافع العداء آنذاك ، لكنه لما سُئِلَ عن ما يأمر النبي ﷺ به؟ قال أبو سفيان: «إنَّه يأمر بالصَّلاة والصَّدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة»^(١).

(٤) ولما سُئِلَ جعفر بن أبي طالب ﷺ كما في قصته مع النجاشي ملك الأحباش، وذلك عندما سأله عن الدين الذي اعتنقوه، فكان من إجابته له، قوله: «حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَّتَهُ» وهكذا كان معروفًا بالأمانة قبل البعثة وبعدها.

(٥) ولما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، ماذا فعل النبي ﷺ وعنده ودائع القوم؟ أيفجعهم فيها وقد آذوه وطرده؟ لو فعل ذلك ما كان عليه لومٌ! ولكنه ترك علي بن أبي طالب ﷺ ليقوم بهذه المهمة بدلًا عنه.

وهذا هو السر في أنه ترك عليًا ينام مكانه في الفراش، وكانت هجرة علي مع الرسول ﷺ أولى ولكنه تركه ليؤدي الأمانات التي كانت لديه ﷺ.

(٦) ولما دخل مكة فاتحًا، وعاد إليها كما وعده ربه ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصر: ٨٥] ، فلما نزل بمكة، واطمأن الناس خرج حتى جاء بيت الله الحرام - الكعبة المشرفة - طاف سبْعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجنٍ في يده، فلما انتهى من الطواف دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتح الكعبة ثم دفع المفتاح مرة أخرى لعثمان بن طلحة وقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان .. اليوم يوم برٍّ ووفاء .. خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم .. يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف».

وفي هذا الحديث دليلٌ أيضًا على جواز التوكيل في قسم ما يجب على الإنسان قسمته .. ولهذا قال النبي ﷺ لأصحابه: «فأمرت بقسمته».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير.

وهذا التوكيل جائز في كل حق تدخله النيابة من حقوق الله؛ كالحج مثلاً، وأداء الزكاة، وحقوق الآدميين؛ كالبيع، والشراء، والرهن وما أشبهها.

(٩٠) الثالث: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أُحُدٍ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فَأَيَّنَ أَنَا؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ» فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ^(١).

وهذا الحديث يُذكرني بما فعله عُمير بن الحُمَام رضي الله عنه في غزوة بدر.. فإنه لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: بَنَحْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَنَحْ؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءٌ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَيْنُ أَنَا حَيِّتُ حَتَّى أَكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ^(٢).

قال النووي: فيه جواز الانغمار في الكفار، والتعرض للشهادة وهو جائز بلا كراهة عند جماهير العلماء^(٣).

وفيه قوة يقين الصحابة، وصدقهم، وتصديقهم لرسول الله ﷺ.

ولا يمكن للمسلم أن يبذل الدنيا إلا وهو مؤمن تمام اليقين بالآخرة... فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقيق، وإنما كثرت قصص البذل والتضحية والفداء عند الصحابة الكرام لقوة يقينهم، وكمال إيمانهم وزهدهم، ولم تتشرف البشرية بجيل بعدهم ظهرت فيه هذه الآيات البينات والبراهين الساطعات على اليقين والزهد والصدق... فرضى الله عنهم أجمعين، وجمعنا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠٤٦) كتاب المغازي، ومسلم (١٨٩٩) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٠١) كتاب الإمارة.

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (٦٩/١٣).

هم في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ونظير هذا أن النبي ﷺ خطب الناس يوم عيد، ثم نزل فتقدم إلى النساء فخطبهن، وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة منهن تأخذ خرصها وخاتمها، وتلقيه في ثوب بلال، يجمعه حتى أعطاه النبي ﷺ، ولم يتأخرن رضى الله عنهن بالصدقة، بل تصدقن حتى من حليهن.

❖ وفي هذا الحديث دليل على حرص الصحابة على طلب العلم ومعرفة الأمور من أجل أن يعملوا بما علموا .. فإن من بركة العلم أن تعمل به ... فقد كان الصحابي يسأل النبي ﷺ فإذا عرف الإجابة يبدأ في العمل فوراً وذلك لأنه ليس الغاية من العلم مجرد المعرفة النظرية بل التطبيق العملي .. ولذلك أنكر الله عز وجل على الذين لا يعملون بما يعلمون فقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ❶ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿ [الصف: ٢-٣].

وأخبر النبي ﷺ عن العقوبة التي تنتظر كل من يتعلم ولا يعمل بعلمه. فقال ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» ❶.

❖ وفي هذا الحديث دليل على أن من قُتل في سبيل الله فإنه في الجنة .. ولكن من هو الذي يُقتل في سبيل الله؟

الذي يُقتل في سبيل الله هو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا يقاتل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٩٨٩) كتاب الزهد.

قوله: «تَنْدَلِقُ» ومعناه تَخْرُجُ - وَالْأَقْتَابُ: الْأَمْعَاءُ، واحداً قَيْتَبٌ.

حمية ولا شجاعة ولا رياء، وإنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

❁ وأخيرًا: هل يجوز لنا أن نشهد لكل مَنْ يُقتل في سبيل الله بأنه شهيد؟

والجواب: لا .. لا نستطيع أن نشهد لأحدٍ بعينه أنه شهيد ولو كان يُقاتل خلف النبي محمد ﷺ إلا إذا أخبر الله ﷻ بأنَّه شهيد أو أخبر النبي ﷺ بأنه شهيد.. وذلك لأن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجُرْحُهُ يُغْبُ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ»^(١). فقلوه: « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ ».

هذا يدل على أن الأمر يتعلق بالنية .. وتلك النية التي محلها القلب لا يعلمها إلا الله ﷻ.

وخطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات يوم فقال: أيها الناس، إنكم تقولون فلان شهيد وفلان شهيد، ولعله أن يكون قد أقر راحلته... يعني قد حملها من الغلول... يعني لا تقولوا هكذا، ولكن قولوا: مَنْ مات أو قُتل في سبيل الله فهو شهيد.

فلا نشهد لشخصٍ بعينه أنه شهيد إلا إذا شهد له النبي ﷺ .. ولكن نقول كلامًا عامًا: مَنْ قُتِلَ في سبيل الله فهو شهيد .. أو نقول لشخصٍ بعينه: نرجو أن يكون من الشهداء .. أو نسأل الله أن يحشره في زُمرَةِ الشهداء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩١) الرَّابِعُ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ كَذَا»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٢) كتاب الزكاة.

«الْحُلُقُومُ»: مجرى النفس - و «المرىء» مجرى الطعام والشراب.



❁ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ هم أصحاب الهمة العالية .. ولذا فإنهم كانوا لا يسألون عن العمل الصالح فحسب بل كانوا يسألون عن أفضل الأعمال .. ولذا جاء سؤال هذا الرجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم أجراً؟ .. وهذا مثل سؤال الصحابة للنبي ﷺ: أى الأعمال أحب إلى الله؟ .. وهكذا فقد كانوا أحرص الناس على الإتيان بأفضل الأعمال.

❁ وفي هذا الحديث كان هذا الصحابي لا يسأل عن أفضل أنواع الصدقة وإنما كان يسأل عن الوقت الذى تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها.

فقال له ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ» يعنى: صحيح البدن صحيح النفس... لأن الإنسان إذا كان صحيحاً كان شحيحاً بالمال؛ لأنه يأمل البقاء ويخشى الفقر، أما إذا كان مريضاً، فإنه يزهد في الدنيا؛ لأنه يشعر بأنه ستركها عمّا قريب.

قال ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْغِنَى»، وفي رواية: «تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْبَقَاءَ» ولكن الرواية الأولى أحسن، وقوله: «تأمل البقاء» يعنى أنك لكونك صحيحاً تأمل البقاء وطول الحياة؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت.

مع أن الموت يأتى فجأة .. بل إن النبي ﷺ أخبر أن موت الفجأة من علامات الساعة الصغرى.

فالإنسان الصحيح قد يستبعد الموت .. أما المريض مرضاً شديداً فقد يشعر بقُرب الموت.

❁ وقوله ﷺ: «وتخشى الفقر» أى أنه يخشى أن تطول حياته وينفذ ما عنده فيصبح فقيراً محتاجاً إلى الناس ... فمثل هذا تكون أفضل الصدقة في حال صحته وشُحّه بالمال.

«ولا تمهل» أى لا تترك الصدقة، «حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا ولفلان كذا» حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلقومك، وعرفت أنك خارج من الدنيا.

قلت لمن حولك: هذه الصدقة لفلان وتلك لفلان «وقد كان لفلان» أى: قد كان المال لو ارتك .. لأن الإنسان إذا مات انتقل ملكه للورثة ولم يبق له من ماله أى شىء إلا الذى قدّمه لنفسه فى حياته.

ولذا قال رسول الله ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ»^(١).

✽ قال الإمام الخطابى رحمه الله:

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ الشُّحَّ غَالِبٌ فِي حَالِ الصَّحَّةِ، فَإِذَا سَمَحَ فِيهَا وَتَصَدَّقَ كَانَ أَصْدَقَ فِي نَبْتِهِ وَأَعْظَمَ لِأَجْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ وَآيَسَ مِنَ الْحَيَاةِ وَرَأَى مَصِيرَ الْمَالِ لغيرِهِ فَإِنَّ صَدَقَتَهُ حِينَئِذٍ نَاقِصَةٌ بِالنَّسْبَةِ إِلَى حَالَةِ الصَّحَّةِ وَالشُّحِّ رَجَاءُ الْبَقَاءِ وَخَوْفُ الْفَقْرِ^(٢).

✽ ففى هذا الحديث دليل على أن الإنسان لا بد أن يحرص على أن يُبادر بالصدقة فى حال صحته قبل أن يُبادره الموت .. لأنه إذا تصدق فى حال حضور الأجل كان ذلك أقل فضلاً مما لو تصدق وهو صحيحٌ شحيحٌ.

وفى هذا دليل على أن الإنسان إذا تكلم فى سياق الموت فإنه يُعتبر كلامه إذا لم يذهل... فإن أذهل حتى صار لا يشعر بما يقول فإنه لا عبرة بكلامه... لقوله: «حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان».

✽ وفى هذا الحديث دليل أيضاً على أن الروح تصعد من أسفل البدن إلى

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧٣/٧).

أعلاه ثم يأتي ملك الموت ﷺ ويقبض روحه من أعلى ...

ولهذا قال ﷺ: «حتى إذا بلغت الحلقوم» وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (٨٣) وَأَنْتَ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤]. فأول ما يموت من الإنسان أسفله ثم تصعد الروح من أسفل لأعلى حتى تصل إلى الحلقوم ثم يقبضها ملك الموت بعد أن يُنادى عليه بالنداء الذي يستحقه.

فإن كان من أهل الإيمان ينادى عليه ملك الموت قائلاً: «يا أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان» وإن كان كافراً يُنادى عليه ملك الموت قائلاً: «يا أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٢) الخامس: عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أخذ سيفاً يوم أحد فقال: «مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا؟» فبسطوا أيديهم، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا. قَالَ: «فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟» فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ أَبُو دْجَانَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا أَخْذُهُ بِحَقِّهِ، فَأَخْذَهُ ففَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ^(٢).

❖ لقد حدث هذا الموقف العظيم في غزوة أحد .. وغزوة أحد هي إحدى الغزوات الكبيرة التي خاضها النبي ﷺ بنفسه.

وكان سبب تلك الغزوة أن قريشاً لما هُزمت في غزوة بدر وقتل الزعماء والصناديد والأشراف منهم أرادت قريش أن تأخذ بالثأر من النبي ﷺ وأصحابه .. فاتفقت قريش على أن تقوم بحربٍ شاملة ضد المسلمين، تشفى غيظها، وتروى غلة حقدِها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٧٠) كتاب فضائل الصحابة.

اسم أبي دجاجة: سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ - قوله: «أحجم القوم»: أي توقّفوا - و«فلق به»: أي شق. «هام المشركين»: أي رءوسهم.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سبباً لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه؛ لعلنا أن نُدرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار.

وجاءوا إلى المدينة يُريدون غزو الرسول ﷺ وأصحابه... فاستشار النبي ﷺ أصحابه حين علم بقدمهم، فأشار عليه بعضهم بالبقاء في المدينة، وأنهم إذا دخلوا المدينة أمكن أن يرموهم بالنبل وهم متحصنون في البيوت، وأشار بعضهم ولا سيما الشباب منهم والذين لم يحضروا غزوة بدر أشاروا أن يخرج إليهم.

فدخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته^(١)، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: يا نبي الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»^(٢).

وهناك عند جبل أحد التقى الجيشان فقام النبي ﷺ وصف أصحابه استعداداً للقتال.

واختار النبي ﷺ ثلثة من الرماة الماهرين قوامها خمسون مقاتلاً وجعل القيادة لعبد الله بن جبير وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت ظروف تلك المعركة.. وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم.

فلما اندلعت المعركة والتقى الجيشان كان النصر في بداية المعركة للمسلمين وانهمز المشركون وولوا الأدبار، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم.. فلما رأى الرماة هزيمة المشركين قال بعضهم لبعض: هيا ننزل لنجمع الغنائم.

(١) لأمة الحرب: عدتها.

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١).

فذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه بأمر النبي ﷺ لهم أن يبقوا في مكانهم، سواء كانت للمسلمين أو عليهم، ولكنهم رضي الله عنهم ظنوا أن الأمر قد انتهى، لأنهم رأوا المشركين ولّوا ولم يبق إلا نفر قليل.

فلما رأى فرسان قريش أن الجبل قد خلا من الرماة، هجموا على المسلمين من خلفهم وقتلوا سبعين من خيار الصحابة... وكان منهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ وأسد الله وأسد رسوله ﷺ... فلما هُزم المسلمون وأصيبوا بهذه المصيبة الكبيرة قالوا: أتى هذا.. كيف نُهزم ونحن جُند الله ومعنا رسول الله ﷺ.. وهؤلاء هم الكفار أعوان الشياطين؟!!

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. أنتم السبب لأنكم عصيتم... كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِيتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَأْتِحِثُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. يعني حصل ما تكرهون.

فحصل ما حصل لحكم عظمة، ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة آل عمران، وتكلم عليها الحافظ ابن القيم رحمته الله كلاماً جيداً لم أر مثله، في كتاب «زاد المعاد» في بيان الحكم العظيمة من هذه الغزوة.

✽ وتعالوا بنا لنرجع لهذا الموقف العظيم الذي جاء في هذا الحديث عندما أخذ النبي ﷺ سيفاً وقال لأصحابه: «مَنْ يَأْخُذْ مِنِّي هَذَا السَّيْفَ؟» كلهم قال: نأخذه... رفعوا أيديهم وبسطوها.. كل واحد يقول: أنا أنا، فقال: «فمَنْ يَأْخُذْهُ بِحَقِّهِ؟» فأحجم القوم، لأنهم لا يعلمون ما حقه، فهم يخشون أن يكون حقه كبيراً جداً لا يستطيعون القيام به، ويخشون أيضاً أن يعجزوا عن القيام به، فيكونون قد أخذوا هذا السيف على العهد من رسول الله ﷺ ثم لا يوفون به، ولكن الله وفق أبا دجاجة رضي الله عنه فقال: أنا أخذه بحقه فأخذه بحقه، وهو أن يضرب



به حتى ينكسر ... أخذه بحقه ﷺ ... وقاتل به وقلق به هام المشركين ﷺ .
 وفي رواية أخرى: أن الزبير بن العوام ﷺ طلب من النبي ﷺ أن يأخذ
 السيف ولكن النبي ﷺ أعرض عنه .. فلما أخذ السيف أبو دجانة قال الزبير بن
 العوام: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعني وأعطاه أبا
 دجانة، وقلت - أي: في نفسي - : أنا ابن صفية عمته، ومن قريش وقد قمت إليه،
 فسألت إياه قبله فاتاه إياه وتركني، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته فأخرج عصابة
 له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت.
 فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسَّفح لدى النخيل
 ألا أقوم الدهر في الكيول^(١) أضرب بسيف الله والرُّسول

فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله ... وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً
 إلا ذفَّ عليه، فجعل كل واحدٍ منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع
 بينهما فالتقيا، فاختلعا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعصَّت
 بسيفه فضربه أبو دجانة فقتله^(٢). ثم أمعن أبو دجانة في هدِّ الصفوف، حتى
 خلص إلى قائدة نسوة قريش وهو لا يدرى بها.

قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلما
 حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به
 امرأة.

وكانت تلك المرأة هي (هند بنت عتبة) .

ولقد ثبت أبو دجانة ﷺ يوم أحد، وترس بنفسه على رسول الله ﷺ،

(١) الكيول: آخر الصفوف. يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصفوف، بل يظل أبداً في المقدمة.

(٢) ابن هشام (٢/ ٦٨ - ٦٩).



فحني ظهره عليه، والنبل يقع فيه، حتى كثرت به الجراح... ولم تتوقف غزوة أحد حتى جندل بسيفه بضعة رجال من أبطال المشركين.

وفي هذا دليل: على أنه ينبغي للإنسان أن يبادر بالخير وألا يتأخر، وأن يستعين بالله ﷻ، وهو إذا استعان بالله وأحسن الظن به أعانه الله.

كثير من الناس ربما يستكثر العبادة، أو يرى أنها عظيمة يستعظمها، فينكص على عقبه، ولكن يقال للإنسان استعن بالله وتوكل على الله، وإذا استعنت بالله وتوكلت عليه ودخلت فيما يرضيه ﷻ، فأبشر بالخير، وأن الله تعالى سيعينك... كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي هذا دليل أيضًا: على حسن رعاية النبي ﷺ لأمته، لأنه لم يخص بالسيف أحدًا من الناس، ولكنه جعل الأمر لعموم الناس... وهكذا ينبغي للإنسان الذي استرعه الله رعية ألا يحابي أحدًا، وألا يتصرف تصرفًا يُظن أنه مُحاب فيه، لأنه إذا حابي أحدًا أو تصرف تصرفًا يُظن أنه حابي فيه، حصل من القوم فرقة وهذا يؤثر على الجماعة... نعم لو امتاز أحد من الناس بميزة لا توجد في غيره، ثم خصه الإنسان بشيء، ولكنه يبين للجماعة أنه خصه لامتياز به شيء لا يوجد فيهم فهذا لا بأس به^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٣) السادس: عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج. فقال: «اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم ﷺ^(٢).

❁ في هذا الحديث يُخبر الزبير بن عدي أنهم جاءوا إلى خادم الرسول ﷺ أنس بن مالك رضي الله عنه الذي عاش إلى سنة تسعين من الهجرة النبوية.. وذلك لأن

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٢٤).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٨) كتاب الفتن.

النبي ﷺ كان قد دعا له بطول العمر وكثرة المال وكثرة الذرية فقال ﷺ: «اللهم ارزقهُ مَالًا وولَدًا، وبارك له فيه». قال: فإنني لمن أكثر الأنصار مَالًا.. وحدثتني أُمينة ابنتي: أنه دُفِن من صُلبي إلى مَقْدَم (الحجَّاج) البصرة بضْع وعشرون ومائة^(١).

وكان قد أدرك ذلك الوقت الكثير من الفتن .. فجاءوا يشكون إليه ما يجدونه من ظُلم الحجَّاج بن يوسف الثقفي .. وهو أحد الأمراء لخلفاء بني أمية .. وكان معروفًا بالظلم وسفك الدماء .. وهو الذي حاصر عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في مكة ... فكان يرمى الكعبة المشرفة بالمنجنيق حتى هدم جزءًا كبيرًا منها .. وكان آخر مَنْ قُتل على يد الحجَّاج بن يوسف (سعيد بن جبيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) الذي دعا قبل أن يُقتل وقال: اللهم لا تُسلطه على أحدٍ بعدى.

فمات بعده الحجَّاج بن يوسف بأيام قليلة.

المهم أنه لما جاء هؤلاء إلى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يشكون من ظلم الحجَّاج قال لهم أنس: «اصبروا» فأمرهم بالصبر على ظلم الولاية .. وذلك لأن في الخروج عليهم مفسدة عظيمة قد تُسفك بسببها دماء المسلمين ظلما وعدوانا. وأمرهم بالصبر؛ لأن الولاية قد يُسلطون على الناس بسبب ظلم الناس أنفسهم ... كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

[الأنعام: ١٢٩].

فالولاية يُسلطون على الناس بسبب ظلم الناس وانحرافهم عن شرع الله وسُنة رسول الله ﷺ وانغماسهم في الذنوب والمعاصي ... وكما جاء في الأثر - وهو ليس بحديث -: «كما تكونوا يُولَّى عليكم».

ولذا لما سُئل على بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لماذا كُثرت الفتن في عهدك ولم تكن كذلك في عهد أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما؟

(١) صحيح: رواه البخاري (١٩٨٢) كتاب الصوم.

قال: لأن أبا بكر وعمر كانا ولاةً على أمثالي وأنا والٍ على أمثالكم.

ويذكر أن بعض خلفاء بني أمية - عبد الملك بن مروان - جمَعَ وجهاء الناس، لما سمع أن الناس يتكلمون في الولاية، وقال لهم: أيها الناس، أتريدون أن نكون لكم كما كان أبو بكر وعمر؟ قالوا: بلى نريد ذلك، قال: كونوا كالرجال الذين تولى عليهم أبو بكر وعمر لنكون لكم كأبي بكر وعمر.

وهذا يعني أن الناس على دين ملوكهم .. فإن كان ولاة الأمر ظالمين فإن ذلك يكون غالباً بسبب ظلم الناس وبُعدهم عن دين ربهم (جلّ وعلا).

ولهذا قال أنس بن مالك لهؤلاء: «اصبروا» ثم أخبرهم بما سمعه من النبي ﷺ فقال لهم:

«فإنه لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشْر منه حتى تلقوا ربكم»، سمعته من نبيكم محمد ﷺ.

يعني أن الرسول ﷺ قال: «لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشْر منه». شرُّ منه في الدين، وهذا الشر ليس شرّاً مطلقاً عاماً، بل قد يكون شرّاً في بعض المواضع، ويكون خيراً في مواضع أخرى وهكذا.

✽ فإن الناس إذا هجروا كتاب الله وسُنّة رسول الله ﷺ وانغمسوا في شهوات الدنيا وملذاتها وبارزوا الله بالمعاصي ولم يتوبوا فإن الله ﷻ يُسلط عليهم أمراءهم ويبتليهم بشتّى أنواع الابتلاءات.

كما قال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خِصَالُ خَمْسٍ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ؛ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا؛ إِلَّا فُشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْ لَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا، وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ

وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ﷻ وَيَتَحَرَّوْا فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ^(١).

وهكذا... كلما ابتعد الناس عن طاعة الله ﷻ وانغمسوا في شهوات الدنيا وانتشر الظلم فيما بينهم فَإِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ.

ولذا قال النبي ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها مَنْ قبلكم فتُهْلِكُكم كما أهْلَكْتُهم»^(٢).

وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام... هذا الذي أهلك الناس اليوم، التنافس في الدنيا والبُعد عن طاعة الله وظلم بعضهم لبعض.

❁ وفي هذا الحديث وجوب الصبر على ظلم ولادة الأمور.. وبدلاً من أن ننشغل بهؤلاء الولاة.. علينا أن ننشغل بأنفسنا فنصلح أحوالنا ونقبل على الله (جلً وعلا) وندعو الناس من حولنا حتى تنحصر دائرة الفساد وتتسع دائرة الخير والصلاح... فإذا حدث ذلك فإن الله ﷻ سَيُصْلِحْ لنا ولادة أمورنا أو يُبدلنا خيراً منهم «فكما تكونون يُولَى عليكم».

❁ فإذا صبرت على ظلم ولى الأمر فاعلم أن الله ﷻ سَيَقْتَصْ لك منه يوم القيامة عندما تقف أنت وهو بين يدي الله فيقتص للمظلوم من الظالم.. فتأخذ من حسناته - إن كانت له حسنات - بقدر مظلمتك.. ويأتى غيرك ويأخذ وتأتى الرعية كلها لتأخذ.... ومن هنا تأتى النصيحة الواجبة علينا لكل مَنْ ولى شيئاً من أمور المسلمين بأن يتقى الله في رعيته ولا يظلم أحداً؛ لأنه إن ظلمهم فسوف يكونون جميعاً خصماء له يوم القيامة بين يدي الله ليأخذوا من حسناته فإن فني

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٥٨) كتاب الجزية، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

حسناته أخذ من سيئاتهم جميعاً فطرح عليه ثم طرح في النار.
 كما قال النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فِينِيتُ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

أما إن كان الراعى رحيماً برعيته آخذاً بأيديهم إلى كل خير فهنيئاً له ثم هنيئاً له .. فإنه يأتي يوم القيامة وأعمال كل رعيته في ميزان حسناته ؛ لأنه هو الذي هيأ لهم ذلك المناخ الإيماني ... وهو الذي أعطاهم الأمان ليعبدوا الله دون خوفٍ أو فزعٍ بل كان عوناً لهم على طاعة الله.

وبالجملة: فالمقصود هنا من هذا الحديث أن يُسارع الناس إلى طاعة الله ولا يجعلوا الدنيا أكبر همهم ليرفع الله عنهم ظلم الولاة وليظفروا برحمة الله ومغفرته .. وليس معنى ذلك أن يتركوا الدنيا وإنما يأخذوا من الدنيا بقدر ما يعينهم على آخرتهم.

فاللهم اجعل ولاة أمور المسلمين رحمة عليهم ولا تجعلهم نقمة عليهم يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٤) السَّاعِ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًّا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًّا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهَرًا، أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٢٣١٥)، والسلسلة الضعيفة (١٦٦٦).

✽ هذا الحديث ضعيف .. وقد تعاهدنا من باب الأمانة العلمية ألا نشرح إلا حديثاً صحيحاً أو حسناً وألا نشرح حديثاً ضعيفاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٥) الثامن: عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لَأُعْطِينَ هذه الراية رجلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهَ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهَ عَلَى يَدَيْهِ» قال عمر رضي الله عنه: ما أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءً أَنْ أُدْعَى لَهَا، فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا، وَقَالَ: «امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهَ عَلَيْكَ» فَسَارَ عَلَى شَيْءٍ، ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَصَرَخَ: يَا رَسُولَ الله، عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ؟ قَالَ: «قَاتِلُهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله»^(١).

✽ وقبل أن أبدأ في شرح الحديث لا بُدَّ أن أذكر الرواية الأخرى التي هي أكثر وضوحاً من هذه الرواية... قال رسول الله ﷺ: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهَ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهَ وَرَسُولُهُ»، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ». فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَارْسُلُوا إِلَيْهِ». فَأَتَى بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيُّ: يَا رَسُولَ الله، أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهَ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٥) كتاب فضائل الصحابة.

«فَتَسَاوَرْتُ»: أى وثبت مُتَطَلِّعًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢١٠) كتاب المغازى - ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر، وكان من صور بطولته فيها أن خرج له
مرحب (ملكهم) وهو يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرُ أَتَى مَرْحَبُ شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلُ مُجَرَّبُ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فَقَالَ عَلَى:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتُ أُمِّي حَيْدَرَهُ كَلَيْتَ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمَنْظَرَةِ
أَوْفِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَةِ

فَضْرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ كَانَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ^(١).

وخيبر مزارع وحصون لليهود، كانت نحو مائة ميل في الشمال الغربي من
المدينة، سكنها اليهود كما سكن طائفة منهم المدينة نفسها؛ لأن اليهود يقرءون
في التوراة أنه سيبعث نبي، وسيكون مهاجرة إلى المدينة، وتسمى في العهد
القديم يثرب، لكنه نُهي عن تسميتها يثرب... وأنه سيهاجر إلى المدينة وسيقاتل
وينتصر على أعدائه، فعلموا أن هذا حق وذهبوا إلى المدينة وسكنوها، وسكنوا
خيبر، وكانوا يظنون أن هذا النبي سيكون من بنى إسرائيل، فلما بُعث من بنى
إسماعيل من العرب حسدوهم، وكفروا به والعياذ بالله، بعد أن كانوا يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]. وقالوا:
ليس هذا هو النبي الذي بُشرنا به.

وحصل منهم ما حصل من العهد مع النبي عليه الصلاة والسلام، ثم
الخيانة... وكانوا في المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة،
وكلهم عاهد النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنهم نقضوا العهد كلهم.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٧) كتاب الجهاد والسير.

فهمهم الله - والحمد لله - على يد النبي ﷺ، وكان آخرهم بنى قريظة الذين حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بأن تقتل مقاتلتهم، وتُسي نساؤهم وذريتهم، وتُغنم أموالهم، وكانوا سبعمائة، فأمر النبي ﷺ بقتلهم فحصدوهم عن آخرهم، وهكذا اليهود أهل غدر وخيانة ونقض للعهود، منذ بُعث فيهم موسى عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة، هم أغدر الناس بالعهد، وأخونهم للأمانة، ولذلك لا يُوثق بهم أبداً، لا صرفاً ولا عدلاً، ومن وثق بهم أو وثق منهم فإنه في الحقيقة لم يعرف سيرتهم منذ عهد قديم^(١).

✽ قال النبي ﷺ يوم خيبر: أي يوم غزوة خيبر.

ولقد كانت خيبر هي من أكبر مراكز الشر اليهودية التي كانت قد تجمعت لحرب الإسلام والمسلمين وكانت مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع وهي على بُعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة من جهة الشمال.

وكان النبي ﷺ بعد صلح الحديبية قد اطمأن وشعر بالأمان من ناحية كفار قريش بعد هذا الصلح الذي عقده معه ﷺ فأراد النبي ﷺ أن يُحاسِب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما فتح النبي ﷺ حصون خيبر صالح اليهود الذي يعيشون فيها على أن يبقوا فيها مزارعين بالنصف... لهم نصف الثمرة وللمسلمين نصف الثمرة، وبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، أجلاهم إلى الشام إلى أذرعات.

✽ وهذا الحديث يحكى لنا موقفاً عظيماً حدث قبل أن تبدأ الغزوة فقال ﷺ: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

والراية هي ما يُسمَّى في عصرنا الحالي (العَلَم) يحمله قائد الجيش من أجل أن يهتدى به الجيش ويمشى وراءه ... وكذلك فإن بقاء تلك الراية مرفوعة أثناء القتال يرفع من الروح المعنوية للجيش فإذا سقطت الراية انهارت الروح المعنوية للجيش.

✽ فلما قال النبي ﷺ ذلك... قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ما أحبيت الإمارة إلا يؤمئذٍ.. وذلك رجاء أن يفوز بما أخبر به النبي ﷺ من أن ذلك الرجل الذى سىأخذ الراية يُحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ﷺ.

فطمحت نفس عمر وتناولت للفوز بتلك الراية... وبات الناس في تلك الليلة يخوضون ويتكلمون وكل واحدٍ منهم يرجو أن يُعطاه.

فلما أصبحوا دعا النبي ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه ابن عمه. فقالوا: يا رسول الله إنه يشتكى عينيه .. يعنى عنده رمدٌ في عينيه فدعا به فجاء فبصق النبي ﷺ في عينيه فبرأ بإذن الله وكأنه لم يكن به وجع .. ثم أعطاه النبي ﷺ الراية وقال له: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

✽ قال الإمام النووى رحمه الله:

هَذَا الْإِلْتِفَاتُ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَيْ لَا تَلْتَفِتْ بِعَيْنَيْكَ لَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا؛ بَلْ امْضِ عَلَى جِهَةِ قَصْدِكَ. وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ الْحَثُّ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى ذَلِكَ... وَحَمَلُهُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ بِعَيْنِهِ حِينَ احتَاجَ. وَفِي هَذَا حَمْلُ أَمْرِهِ ﷺ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ لَا تَنْصَرِفَ بَعْدَ لِقَاءِ عَدُوِّكَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ ^(١).

✽ «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

هذه الكلمة كلمة عظيمة، لو وُزنت بها السموات والأرض لرجحت

(١) مسلم بشرح النووى (٢٥٢/١٥).

بالسموات والأرض... هذه الكلمة يدخل بها الإنسان من الكفر إلى الإسلام، فهي باب الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» يعنى إذا قالوا: نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإنهم لا يُقاتلون، فقد منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها، أى بحق لا إله إلا الله، أى بالحقوق التابعة لها، لأن لا إله إلا الله ليست مجرد لفظة يقولها الإنسان بلسانه، بل لها شروط ولها أمور لا بُدَّ أن تتم.

ولهذا قيل لبعض السلف: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ فقال: نعم، مفتاح الجنة لا إله إلا الله، لكن لا بُدَّ من عمل، لأن المفتاح يحتاج إلى أسنان. وقد صدق ﷺ: المفتاح يحتاج إلى أسنان، لو جئت بمفتاح بدون أسنان ما فتح لك.

إذا... قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إلا بحقها» يشمل كل شيء يكفر به الإنسان مع قول لا إله إلا الله... فإن من كفر وإن كان يقول لا إله إلا الله محمداً رسول الله، ولكنه أتى بمكفر فإن هذه الكلمة لا تنفعه.

ولهذا كان المنافقون يقولون: لا إله إلا الله، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم.. هيئتهم، وشكلهم كأنهم أكمل المؤمنين إيماناً، ويأتون للرسول ﷺ يقولون له: نشهد أنك لرسول الله، فقال ربُّ العزة والجلال الذى يعلم ما فى الصدور: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

ولما منع الزكاة من منعها من العرب بعد وفاة النبي ﷺ، واستعد أبو بكر رضي الله عنه لقتالهم، تكلم معه من تكلم من الصحابة، وقالوا: كيف تقاتلهم وهم يقولون: لا إله إلا الله؟ قال ﷺ: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة... الزكاة حق المال، وقد قال النبي ﷺ: «إلا بحقها» فقاتلهم ﷺ على ذلك وانتصر والله الحمد^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٠-٣٣١) بتصرف.

﴿وحسابه على الله تعالى﴾ معناه: أَنَا نَكُفُّ عَنْهُ فِي الظَّاهِرِ، وَأَمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنْ كَانَ صَادِقًا مُؤْمِنًا بِقَلْبِهِ، نَفَعَهُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ وَنَجَا مِنَ النَّارِ، كَمَا نَفَعَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِلَّا فَلَا يَنْفَعُهُ بَلْ يَكُونُ مُنَافِقًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. وَفِيهِ: أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي صِحَّةِ الْإِسْلَامِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَإِنْ كَانَ أَخْرَسَ أَوْ فِي مَعْنَاهُ كَفَّتُهُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

﴿وفي الرواية الأخرى:

«فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» هِيَ الْإِبِلُ الْحُمْرُ، وَهِيَ أَنْفُسُ أَمْوَالِ الْعَرَبِ، يَضْرِبُونَ بِهَا الْمِثْلَ فِي نَفَاسَةِ الشَّيْءِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أَعْظَمُ مِنْهُ. وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَنَّ تَشْبِيهَ أُمُورِ الْآخِرَةِ بِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ لِلتَّقْرِيبِ مِنَ الْأَفْهَامِ، وَإِلَّا فَذَرَّةٌ مِنَ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ خَيْرٌ مِنَ الْأَرْضِ بِأَسْرِهَا وَأَمْثَالِهَا مَعَهَا، لَوْ تُصَوِّرَتْ.

﴿وفي هذا الحديث مجموعة من الفوائد ... منها:

الفائدة الأولى: إطلاع الله ﷻ، نبيه ﷺ ببعض أمور الغيب، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، حيث أعلم أصحابه ﷺ أَنَّهُ سَتَكُونُ مَوَاجِهَةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ، وَسَتَكُونُ الْغَلْبَةُ فِيهَا لِلْمُسْلِمِينَ... قال: «لَأَعْطِينَ هَذِهِ الرَايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، وَأَقُولُ: إِنَّهَا مِنْ دَلَائِلِ نُبُوته؛ لِأَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَا يَعْلَمُ الْمُنْتَصِرُ فِيهَا وَالْمَهْزُومَ، إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الَّذِي بِيَدِهِ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَالْغَيْبُ عِنْدَهُ حَاضِرٌ، فَمَنْ أَوْحَى لِنَبِيِّهِ بِنَتِيجَةِ الْمَوْقِعَةِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، مَا تَجَرَأَ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ مَا سَيَحْدُثُ فِي الْغَدِ الْقَرِيبِ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَسْتَنْ، أَيْ لَمْ يَقُلْ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» لِأَنَّ الَّذِي أَخْبَرَهُ بِالنَّصْرِ غَدًا لَنْ يُخْلَفَ وَعْدُهُ، فَكَأَنَّهُ يَخْبِرُ بِمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ.

الفائدة الثانية: تعليم النبي ﷺ أصحابه أن الفتح والنصر بيد الله ﷻ، لا

بيد غيره، وهى من أمور العقيدة، التى ينبغى أن نتعلمها جميعاً، ونعلمها أولادنا. فإذا كان الأمر كذلك، وجب على المسلمين أن يستنصروا الله وحده على أعدائهم، وألا يأملوا فى وجه أحدٍ غيره... قال رسول الله ﷺ: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه»، يُصدق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فبيّنت الآية غاية البيان، أن النصر بيد الله... وإذا كان الله مع فئة ونصرها، فلن يغلبها أحد، حيث لا قوة تنفع مع قوته (سبحانه وتعالى).

وكما يكون النصر من عنده، فالخذلان وعدم التوفيق أيضاً بيديه، وإذا حدث، فلا ينفع أبداً نصر أحدٍ لنا مع عدم توفيق المولى ﷻ. يتفرع على ما سبق، وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه.. وكذا سنة نبينا ﷺ؛ لأن هذا شرط فى نُصرة الله لنا.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وما عند الله لا يُؤخذ إلا بطاعته وإرضائه.

الفائدة الثالثة: مناقب على ﷺ:

- (١) جعل الله فتح خيبر على يديه، وهذه تكرمة عظيمة من الله له؛ لأن الفتح عملٌ يحبه الله ورسوله ﷺ، لما فيه من انتشار الإسلام وعلو كلمة التوحيد.
- (٢) ثبوت حب الله ورسوله ﷺ لعليّ، وثبوت حب عليّ لله ورسوله، وهما معاً منقبتان عظيمتان لعليّ ﷺ.

الفائدة الرابعة: الحث على حب عليّ، لكون الله يحبه وكذلك رسوله ﷺ،
ولا يسع أحداً من المسلمين ألا يحب أحداً من أصحاب النبي ﷺ، خاصة الخلفاء الراشدين، أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ ﷺ، ثم العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل العقبة الأولى والثانية، ثم بقية الأصحاب رضوان

الله عليهم جميعاً، الذين اصطفاهم الله ﷻ، لنصرة نبيه، وحمل راية الإسلام، ونشر الدعوة، وهم الذين مات النبي ﷺ، وهو عنهم راضٍ.

الفائدة الخامسة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير ومعرفة أهل الفضل، وحبهم أن ينالهم شرف حب الله ورسوله وأن يكون النصر على أيديهم، لقوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاهَا).

وقوله: (فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يُعطاهَا) ومعنى «يدوكون» أي يخوضون في الحديث، كأنهم قضوا ليلتهم كلها، كُلُّ منهم يُخمن مَنْ ينطبق عليه شروط إعطاء الراية... ويمكن أن نستدل بقوله: (كلهم يرجو أن يُعطاهَا) أنهم كانوا جميعاً يحبون الله ورسوله، كما يأملون حب الله ورسوله لكل واحدٍ منهم، لذا رأى كُلُّ منهم الشرط ينطبق عليه، وهذه فضيلة ظاهرة لهم.

الفائدة السادسة: تغليب جانب الدعوة لغير المسلمين على جانب القتال... وقد ذكر ابن حجر، بأن تألف الكافر حتى يُسلم، أولى من المبادرة إلى قتله، لقوله ﷺ: «فو الله لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النعم».

ويتفرع على التبشير بهذا الأجر العظيم، المترتب على هداية أحد الناس، حتّى المسلمين على الدعوة إلى الله، وترغيبهم في ذلك، وأن على المسلم أن يبذل غاية جهده ليتحقق مراد الله وهو هداية الناس.

الفائدة السابعة: الهداية بيد الله، سبحانه وتعالى، يهدي مَنْ يشاء وقتما شاء... وأن الداعي إلى الله، هو سببٌ فقط في تلك الهداية، لقوله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً»، ونأخذ منه أيضاً، حب الله سبحانه وتعالى أن يعود الناس لحظيرة الإسلام، وأن رحمته قد سبقت غضبه، وأن العفو عنده مُقدّم على العقاب... ودليله، أنه رتب الأجر العظيم على هداية رجلٍ واحد^(١).

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ١٩٠-١٩٢).

الفائدة الثامنة: لا علاقة بين هذا الحديث وإمامة علي عليه السلام:

ذهب الروافض إلى أن علياً عليه السلام هو الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله، واستدلوا بمجموعة من الأحاديث تدل على فضله ولا تدل على إمامته، منها هذا الحديث وزادوا فيه زيادات باطلة لا تصح عند علماء الحديث، كما أنه لا ملازمة بين كونه محباً لله ورسوله ومحبوباً لهما وبين كونه إماماً بلا فضل أصلاً... على أنه لا يلزم من إثباتهما له نفيهما عن غيره، كيف وقد قال الله تعالى في حق أبي بكر ورفقائه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال في حق أهل بدر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنِينَ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

ولا شك أن من يحبه الله يحبه رسوله، ومن يحب الله من المؤمنين يحب رسوله صلى الله عليه وآله... وقال في شأن أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ولما سُئِلَ صلى الله عليه وآله: مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قال: عائشة. قيل: ومن الرجال؟ قال: أبوها^(١). وإنما نصَّ على المحبة والمحبوبة في حق عليٍّ مع وجودهما في غيره لنكتة دقيقة تحصل من ضمن قوله: «يفتح الله على يديه»^(٢). وهى أنه لو ذكر مجرد الفتح لربما توهم أن ذلك غير موجب لفضيلته لما ورد في قوله صلى الله عليه وآله: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». فأزال ذلك التوهم بإثبات هاتين الصفتين له، فصار المقصود منه تخصيص مضمون «يفتح الله على يديه» وما ذكر من الصفات لإزالة ذلك التوهم^(٣).

❖ وفي قوله صلى الله عليه وآله: «انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم» ولم يقل له: قاتلهم حتى يكونوا مثلنا، وذلك لأن الكفار لا يُقاتلون على الإسلام ويُرغمون

(١) فتح الباري (٧/ ٢٢) - والحديث رواه البخاري (٣٦٦٢) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٨٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) مختصر التحفة الاثنى عشرية: ص (٧٠).

عليه، وإنما يُقاتلون لِيُذَلَّوا لأحكام الإسلام، فإن أسلموا فلهم وإن كفروا فعليهم، ولكن يذلوا لأحكام الإسلام فيعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون أو يدخلون في الإسلام.

وقد اختلف العلماء -رحمهم الله-: هل هذا خاص بأهل الكتاب أى مقاتلتهم حتى يعطوا الجزية، أو أنه عام لجميع الكفار؟ فأكثر العلماء يقولون: إن الذى يُقاتل حتى يُعطى الجزية أو يُسلم هم أهل الكتاب: اليهود والنصارى وأما غيرهم فيقاتلون حتى يُسلموا، ولا يُقبل منهم إلا الإسلام.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُمْنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فقال: قاتلوهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾.

والصحيح أنه عام، ودليل ذلك: أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وهم ليسوا أهل كتاب، كما أخرجه البخارى... ودليل آخر: حديث بريدة بن الحصيب الذى أخرجه مسلم، أن النبى ﷺ كان إذا أمر أميراً على جيشٍ أو سرية أوصاه ومن معه من المسلمين خيراً، وذكر فى الحديث أنه يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا يقاتلهم^(١).

بِمَا يَنْبَغِي

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩١).

(١١) باب في المجاهدة

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أى: الذين جاهدوا النفس والهوى والشیطان. وجاهدوا الكفار أعداء الدين وهاجروا فى سبیل الله وبذلوا مجهودهم فى اتباع مرضاته.

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أى: الطرق الموصلة إلینا، وذلك، لأنهم مُحسنون. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون، والنصر، والهداية ... دَلَّ هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب، أهل الجهاد. وعلى أن مَنْ أحسن فيما أمر به، أعانه الله، ويسّر له أسباب الهداية. وعلى أن مَنْ جَدَّ واجتهد فى طلب العلم الشرعى، فإنه يحصل له من الهداية، والمعونة على تحصيل مطلوبه، أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسّر له أمر العلم ... فإن طلب العلم الشرعى، من الجهاد فى سبیل الله، بل هو أحد نَوَعِ الجهاد، الذى لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين. والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رَدِّ نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين^(١).

بِمَعْنَى الْجَاهِدِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أى: الموت ... أى: استمر فى جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات ... فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائماً فى العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً^(٢).

(١) تفسير السعدى (ص ٧٤٧).

(٢) تفسير السعدى (ص ٤٩٧).

❁ وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾: شامل لأنواع الذكر كلها، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أى: انقطع إليه؛ فإنَّ الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتِّصاف بمحبَّة الله وما يُقَرِّب إليه ويُدْنِي من رضاه^(١).

❁ وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وهذا شاملٌ عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التى هى أحقر الأشياء، وجُوزى عليها فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى ... كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ وهذه الآية فيها غاية الترغيب فى فعل الخير ولو كان قليلاً والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً^(٢).

❁ وقال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تُجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

أى أى شىء تفعلوه أيها الناس من وجوه البر والخير تلقوا أجره وثوابه عند ربكم ﴿هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أى تجدوا ذلك الأجر والثواب يوم القيامة خيراً لكم مما قدمتم فى الدنيا من صالح الأعمال، فإن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خيرٌ للأبرار^(٣).

❁ قال الشيخ عبد الرحمن السعدى رَحِمَهُ اللهُ:

الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة.

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٥٨).

(٢) تفسير السعدى (ص ١١٠٠) بتصرف.

(٣) صفوة التفاسير (٤٤٦/٣).

وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات^(١).

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِرَبِّهِمْ﴾

✽ وأما عن المجاهدة فلقد خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ لعبادته والانشغال بطاعته.. ولكن الطاعة تحتاج إلى مُجاهدة النفس والهوى والشيطان...

إنها حربٌ ضروس من هؤلاء الأعداء الثلاثة على المسلم لكي يتكاسل عن العبادة أو يتركها بالكلية.. ولكي ينغمس في الذنوب والمعاصي.

✽ يريد العبد أن يصلي صلاة الفجر في المسجد في برد الشتاء القارس فتزين له نفسه وهواه وشيطانه النوم في الفراش الدافئ... ويريد العبد أن ينفق من ماله على الفقراء واليتامى والمساكين فيُخوفه الشيطان من الفقر ويوسوس له بأن أهله أحق بهذا المال... ويريد العبد أن يجلس ليقراً القرآن فيُزين له الشيطان سهرة جميلة يلهو فيها مع أصحابه ويهجر القرآن.

تريد الفتاة المسلمة أن تلبس حجابها فيُزين لها شياطين الإنس أنها أجمل بدون حجاب... وأنها لو تحجبت فسوف تُصبح منبوذة في المجتمع.... وهكذا.

✽ وهنا تأتي مجاهدة النفس... فيستعين العبد بربه عَزَّوَجَلَّ ويُجاهد نفسه وهواه وشيطانه من أجل أن يطيع الله (جلَّ وعلا) ويستجيب لنداء الحق.

✽ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩]

وأمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نعبده لآخر لحظة في العمر فقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٦٠).

أنواع النفوس

❁ لا بد أن نعلم أن هناك مَنْ يستجيب لأمر الله بيسرٍ وسهولة ومنهم مَنْ يستجيب ولكن بصعوبة... ومنهم مَنْ لا يستجيب أبدًا؛ وذلك لأن نفوس البشر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) **النفس الأمارة بالسوء**: وهى النفس التى تحض صاحبها دومًا على الوقوع فى المعاصى ولا تستجيب لأمر الله ولا لأمر رسول الله ﷺ.

(٢) **النفس اللوامة**: وهى النفس التى تنوّرت بنور القلب ولكنها لا تخلو من غفلة تصيبها أحيانًا.... فإذا وقعت فى ذنبٍ فإنها تلوم نفسها ولذلك سُمّيت بالنفس اللوامة.

(٣) **النفس المطمئنة**: وهى التى تنقاد إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ دون مشقة أو تكلف؛ لأنها استنارت بنور الإيمان وتخلّصت من صفاتها الذميمة وتخلّقت بالأخلاق الحميدة.

❁ ولا شك أن النفس المطمئنة واللوامة لا يصدر عنهما إلا الأخلاق الحميدة.. فالنفس المطمئنة يكون منها اليقين والخشوع والطاعة.. والنفس اللوامة هى مبعث التوبة والاستغفار والإنابة.

أما النفس الأمّارة بالسوء فهى التى تحتاج إلى المجاهدة؛ لأنها منبع الشرور والآثام.

❁ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (باب فى المجاهدة):

والمجاهدة تعنى أن يُجاهد الإنسان نفسه وأن يجاهد غيره .
ومجاهدة الإنسان غيره أيسر بكثير من مجاهدته نفسه .. ولا تتم مجاهدة الغير إلا بمجاهدة النفس أولاً.

وإذا أراد الإنسان أن يُجاهد نفسه فإنه يجاهد نفسه على شيئين: على فعل

الطاعات وعلى ترك المعاصي والسيئات.

ففعّل الطاعات ثقيلٌ جدًّا على النفس إلا مَنْ أعانه الله وخَفَّفَ عليه الطاعات .. وترك المعاصي كذلك ثقيلٌ على النفس إلا مَنْ خَفَّفَهُ الله عليه.

ولذلك فإن الإنسان إن لم يُعنه الله على نفسه فإنه يعيش في معاناة شديدة طوال حياته ليحملها على فعل الخير وليصرفها عن الوقوع في المعاصي.

❦ ومن أهم الأشياء أن يُجاهد الإنسان نفسه على الإخلاص لله ﷻ في العبادة .. وذلك لأن الإخلاص هو الذى يترتب عليه قبول أعمال العباد .. وذلك لأن العبد قد يفعل الخير الكثير ومع ذلك قد لا يتحصل على حسنة واحدة؛ لأنه لم يُرد بعمله وجه الله ﷻ فمجاهدة النفس على الإخلاص من أشق ما يكون .. وذلك لأن النفس تحب المدح والثناء .. والإنسان يُحب أن يكون محبوبًا بين الناس وأن يُقال عنه: هذا رجلٌ صالح .. هذا رجلٌ عابد ... ومن أجل ذلك كان جزاء المُخلصين أن مَنْ قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه حرَّمه الله على النار وأدخله الجنة.

كذلك من الأشياء التى يُجاهد الإنسان فيها نفسه: فعل الطاعات الشاقة مثل الصوم والصلاة في الجماعة .. فالصوم فيه ترك المألوف من الطعام والشراب والنكاح فتجده شاقًّا على النفس إلا مَنْ يَسِّرَهُ الله عليه.

والصلاة في الجماعة شاقة على النفس .. لكن المسلم يُجاهد نفسه مرة بعد مرة حتى تصبح صلاة الجماعة أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ومن أجل أن يَتيسَّر للعبد مجاهدة النفس في الصيام جعل الله له الأجر العظيم في الصيام.

قال ﷺ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

وقال ﷺ: « مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ حَرَّ جَهَنَّمَ عَنْ وَجْهِهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا »^(١).

وقال ﷺ: « مَنْ خُتِمَ لَهُ بِصِيَامٍ يَوْمٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ »^(٢).

❁ ومن أجل أن يتيسر للعبد مجاهدة النفس في الصلاة في الجماعة جعل الله له الأجر العظيم في صلاته في المسجد في جماعة ..

قال رسول الله ﷺ: « صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا »^(٣).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ »^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « مَنْ عَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا، كُلَّمَا غَدَا، أَوْ رَاحَ »^(٥).

وهكذا تكون مجاهدة النفس في جميع أنواع الطاعات.

❁ وأما مجاهدة النفس على ترك المحرمات فلا بد أن نعلم أنه ما أكثر المحرمات التي يشق على بعض الناس تركها. ونُعْطَى على ذلك مثلاً كالتدخين.

فإن كثيراً من الناس ممن ابتلى بالتدخين يقول لك: أنا لا أستطيع أن أتركه .. مع أنه لو استعان بالله عَزَّ وَجَلَّ وتركه عدة أيام وابتعد عن الذين يشربونه واختلط بأناس لا يُدخنون فسوف يتركه نهائياً خلال عدة أيام ..

(١) صحيح: رواه الشائبي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٢٩).

(٢) صحيح: رواه البزار، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٢٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧) كتاب الأذان، ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

(٤) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٢٨).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٢) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

ولكن الأمر يحتاج إلى استعانة بالله ومجاهدة قوية للنفس.

✽ أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلى قسمين:

(١) مجاهدة بالعلم والبيان.

(٢) مجاهدة بالسلاح.

أما مَنْ نجاهدهم بالعلم والبيان: فهو الذى يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين... مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان.

قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهاد الكفار يكون بالسلاح، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان.

ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلم بأن في أصحابه منافقين، ويعلمهم بأعيانهم ولكنه لا يقتلهم واستؤذن في قتلهم فقال: «لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه»^(١).

فكذلك الذين ينطوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع لا نقاتلهم بالسلاح، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان.

فلا بد من مجاهدة أهل البدع وأهل النفاق بالعلم والبيان، وبيان بطلان ما هم عليه بالأدلة المقنعة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى من بعدهم.

✽ أما النوع الثانى من جهاد الغير: فهو الجهاد بالسلاح وهذا فى جهاد الأعداء الذين يُظهرون العداوة للإسلام ويصرحون بذلك

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٠٥) كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٨٤) كتاب البر والصلة والآداب.

فيجب على المسلمين أن يُقاتلوا أعداء الدين الذي يبذلون أموالهم لمحاربة الإسلام والمسلمين في كل مكان... ولكن مع الأسف فالمسلمون اليوم في ضعفٍ شديد، وفي هوانٍ وذُلٍّ يقاتل بعضهم بعضًا أكثر مما يقاتلون أعداءهم... هم فيما بينهم يتقاتلون أكثر مما يتقاتلون مع أعدائهم، ولهذا سُلط الأعداء علينا، وصِرنا كالكرة في أيديهم يتقاذفونها حيث يشاءون.

لهذا يجب على المسلمين أن يتبهاوا لهذا الأمر، وأن يعدوا العدة لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٦) فالأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَكِنْ سَأَلَنِي لِأُعْطِيَنَّهُ، وَلَكِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» ^(٢).

أولياء الله هم أهل الإيمان والتقوى ولذا قال الحق ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ^(٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ أَنْ يَكَلِّمَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم وثوابهم، فقال:

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٤-٣٣٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

«آذَنْتُهُ»: أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ - «اسْتَعَاذَنِي» رُوي بالنون وبالباء.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأهوال.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يُسلفوا إلا صالح الأعمال. وإذا كانوا لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتنال الأوامر واجتناب النواهي.

فكل من كان مؤمناً تقيّاً كان لله تعالى وليّاً... لذلك كانت ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي: الشاء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وفي القبر، ما يُبشّر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم.

وفي الآخرة، تمام البشري، بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا بُدَّ لِإِكْلِمَتِ اللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حقٌّ، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحدٌ أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور،

والظفر بكل مطلوبٍ محبوب... وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، ربَّه الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم يُقيده^(١).

❁ والخلاصة أن ولي الله هو القائم بطاعته المخلص في عبادته، والموالة هي المحبة والنصرة... ومن أعظم ما يتبين به الولي: أن يكون مُجاب الدعوة، راضياً عن الله ﷻ في كل حال، تاركاً لمناهيه، تاركاً لما يتكالب عليه الناس من طلب العلو في الدنيا والحرص على رياستها، لا يكون له شُغلٌ بملاذ الدنيا، ولا بالتكاثر فيها، ولا بتحصيل أسباب الغنى وكثرة اكتساب الأموال والعروض... إذا وصل إليه القليل صبر، وإذا وصل إليه الكثير شكر... يستوى عنده المدح والذم، والفقر والغنى، والظهور والخمول... غير مُعجبٍ بما مَنَّ الله عليه من خصال الولاية... إذا زاده الله رفعة زاد في نفسه تواضعاً وخضوعاً... حسن الأخلاق، كريم الصحبة، عظيم الحلم، كثير الاحتمال.

وَمَنْ وُهِبَتْ لَهُ هَذِهِ الْمَوْهُوبَاتِ الْجَلِيلَةِ، وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، فَغَيْرُ بَعِيدٍ وَلَا مُسْتَنَكِرٍ أَنْ تَظْهَرَ عَلَيْهِ الْكَرَامَاتُ الَّتِي لَا تَنَافِي الشَّرِيعَةِ، وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ ﷻ الْوَسِيعَةِ، لِأَنَّهُ إِذَا دَعَاهُ أَجَابَهُ وَإِذَا سَأَلَهُ أَعْطَاهُ.

فالكرامة ثابتة بالشرعية المطهرة، ولكن ينبغي أن يُعلَم أنه ليس كل خارقة كرامة... فالخارقة إما أن تكون خارقة رحمانية، أو خارقة شيطانية، والمقياس الذي لا يجوز هو مقياس الكتاب والسنة، فلا بُدَّ أن يُقاس نفس الشخص الذي أتت على يديه الخارقة بمقياس الكتاب والسنة، وأن تُقاس نفس الخارقة بمقياس الكتاب والسنة... كما قال الإمام الشافعي: إذا رأيتم الرجل يسير على

(١) تفسير السعدي (ص ٤١٢).

الماء أو يطير في الهواء فانظروا في عمله، أى: لا تحكموا له بأنه من أولياء الله بمجرد ظهور هذه الخارقة فقد يكون ولياً للشيطان.

والكرامة ثابتة بالكتابة والسنة كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلْأَلْبِسِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧] فمريم كانت صديقة ولية الله ﷺ، ولم تكن نبية، فما كان يجده زكريا عندها من رزقٍ كان على سبيل الكرامة.

كذلك قصة أصحاب الكهف الذين ضرب الله على آذانهم فناموا في الكهف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعة، كان ذلك كذلك على سبيل الكرامة.

أما أدلة السنة فمن ذلك ما ورد في الصحيح من قصة أضياف جابر بن عبد الله ﷺ أنهم كانوا كلما أكلوا من القصعة ربا - أى: زاد - من أسفلها أكثر منها حتى أطعم النبي ﷺ منها الجيش.

كذلك حبيب بن عدى ﷺ لما أسره المشركون كانوا يجدون في يده قطفاً من العنب وليس بمكة ثمرة وما كان إلا رزقاً رزقه الله ﷺ إياه.

أما كرامات السلف ﷺ فهي كثيرة فمن ذلك أن إحدى الصحابيات ذهب بصرها من تعذيب المشركين. فقالوا: ما أذهب إلا اللات والعزى. فقالت: كلا والله ... ودعت الله ﷺ، فردَّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن أبا مسلم الخولاني. أحد أئمة التابعين ألقى في النار فوجد في النار قائماً يصلى.. ولما قابله عمر ﷺ ذهب به إلى أبي بكر، وقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه السلام. ودعا أبو مسلم على امرأة أفسدت زوجته فعميت... فتأبى فدعا لها فردَّ الله عليها بصرها.

ومن ذلك أن صلة بن أشيم - أحد العبَّاد - مات فرسه فى الغزو، فقال:

اللَّهُمَّ لا تجعل لمخلوقٍ عليّ منة ... ودعا الله فأحياه، فلما وصل إلى بيته، قال: يا بُنَيَّ خذ السرج، فإن الفرس عارية، فأخذ السرج فمات الفرس. ومن ذلك أن الحسن البصري دعا على رجل فقال: إن كنت كاذبًا فَعَجَّلَ اللهُ حتفك ... فمات الرجل مكانه.

✽ والعبد لا يصل إلى هذه الدرجة العالية من الولاية، حتى يصل معها إلى درجات عالية من محبة الله ﷻ، والرضا به ... كان سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) مُستجاب الدعوة، وكان يدعو للناس لمعرفة من ذلك، فذهب بصره في آخر عمره، فقيل له: ألا دعوت لبصرك. فقال: قضاء الله أحب إليّ من بصرى. ✽ فقله ﷻ: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا. فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ » أى: فقد أعلمته أنني مُحاربٌ له، حيث إنه كان محاربًا لى بمعاداته وليًّا من أوليائي. فأولياء الله ﷻ تجب موالاتهم ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة: ٥٥]، وتحرم معاداتهم.

وأعداء الله ﷻ تجب معاداتهم، وتحرم موالاتهم ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١]. ثم بيّن الحديث القدسي الشريف، كيف تصير وليًّا من أولياء الله ﷻ، فقال: «وما تقرب إليّ عبدي بشيءٍ أحب إليّ ممّا افترضت عليه». فطريق ولاية الله ﷻ يبدأ باستكمال الفرائض.

قال عمر (رضي الله عنه): أفضل الأعمال أداء ما افترض، والورع عما حرّم الله، وحسن النية فيما عند الله ﷻ ... ومن أعظم الفرائض ترك المعاصي، كما دلّ على ذلك قوله ﷺ: « إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ »^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

فالصلوات الخمس مثلاً أحب إلى الله من قيام الليل، وأحب إلى الله من النوافل... وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها ... كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل.

ووجه ذلك أن الفرائض ألزم الله بها العباد .. وهذا دليل على شدة محبته لها (سبحانه وتعالى) فلما كان يحبها كل هذا الحب ألزم بها عباده؛ لأنه يحب لهم الخير .. أما النوافل فالإنسان له كامل الحرية فيها إن شاء أن يتنفل تنفل وفاز بالأجر والثواب، وإن كان لا يستطيع أن يتنفل فليس عليه وزر ولا ذنب...

ولكن الشيطان أحياناً يُزين للعبد الإكثار من النوافل ويجعله يتكاسل عن أداء الفرائض .. وهذا من تزيين الشيطان فلنحذر جميعاً من مكائد الشيطان ولنحرص على أداء الفرائض التي يحبها الله ﷻ.

❦ قوله ﷻ في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» والنوافل: هي ما عدا الفرائض من أجناس الطاعات.

قال العلماء: ما بال النوافل هي السبب الموصول إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض؟

وأجاب بعضهم: بأن العبد يفعل الفريضة مخافة العقوبة ورجاء الأجر، أما النوافل فليس هناك عقوبة في تركها، وإنما يفعلها العبد بإخلاص نية التقرب والتجيب إلى الله ﷻ ... فلما خلصت النية في النوافل، كانت هي السبب الموصول إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض ... ولا يخفى أن النافلة هي التي تأتي زائدة على الفرائض، فطريق ولاية الله ﷻ يبدأ بالفرائض، ثم الإكثار من النوافل كما قال بعضهم: مَنْ شغله الفرض عن النفل فهو معذور، وَمَنْ شغله النفل عن الفرض فهو مغرور.

❦ قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ».

قال الحافظ: وَقَدْ اسْتَشْكَلَ كَيْفَ يَكُونُ الْبَارِي جَلَّ وَعَلَا سَمَعَ الْعَبْدَ وَبَصَرَهُ... إلخ؟ وَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجِهٍ - وَذَكَرَ سَبْعَةَ أَوْجِهٍ - أَقْرَبُهَا لِلصَّوَابِ: أَنَّ الْعَبْدَ بِكُلِّيَّتِهِ يَكُونُ مَشْغُولًا بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَا يُصْنَعُ بِسَمْعِهِ إِلَّا إِلَى مَا يُرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ بَصَرَهُ إِلَّا فِيمَا أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ يَدَهُ إِلَّا فِي طَاعَتِهِ، وَلَا يَحْرُكُ قَدَمَهُ إِلَّا فِي مَرْضَاتِهِ.

وقال الشوكاني: إِنْ اللَّهُ يَمْدُ جَوَارِحَ الْعَبْدِ بِنُورٍ... فَبِهَذَا النُّورِ يَسْمَعُ، وَبِهِ يُبْصِرُ، وَبِهِ يَبْطِشُ، وَبِهِ يَمْشِي... وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِأَدْلَةٍ مِنْهَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ دَعَائِهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا»^(١).

❀ وقال الشيخ محمد رشيد رضا:

إِنَّهُ تَوْفِيقُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَحَالِفُ الْعَبْدَ، فَإِذَا سَمِعَ فِتْوَفِيقَ اللَّهِ، وَإِذَا أَبْصَرَ فِتْوَفِيقَ اللَّهِ، وَإِذَا مَدَّ يَدَهُ فِتْوَفِيقَ اللَّهِ... أَى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوَفِّقُ عَبْدَهُ لِلصَّوَابِ، وَيَهْدِيهِ لِلرَّشَادِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].
❀ ثُمَّ قَالَ: «وَلِنْ سَأَلْنِي لِأَعْطِيَنَّهُ» أَى: أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ يَصِيرُ فِي دَرَجَةِ عَالِيَةِ سَامِيَةِ، تَوْهَلَهُ أَنَّهُ إِذَا سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعْطَاهُ، وَإِذَا اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَى: احْتَمَى بِجَنَابِهِ - أَعَاذَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

رَوَى الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ». وَأَنَّ الْبَرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ: أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ. فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَا فَهُمْ، فَمَنَحُوا أَكْتَا فَهُمْ، ثُمَّ التَّقَوْا مَرَّةً

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣١٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٦٣) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

أُخْرَى، فَقَالُوا: أَفْسِمَ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَفْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَفَاهُمْ، وَالْحَقَّتَنِي بَنِيَّكَ ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَفَاهُمْ، وَقَتِلَ الْبَرَاءُ ﷺ شَهِيدًا^(١).

﴿ وَلَئِنْ أَسْتَعَاذَنِي لِأُعَيْدَنَّهُ ﴾ يعنى: لئن اعتصم بى ولجأ إلى من شر كل
 ذى شرٍّ لأُعَيْدَنهُ، فيحصل له بإعطائه مسئوله وإعادته مما يتعوذ منه المطلوب،
 ويزول عنه المرغوب.

❁ قوله ﷺ في الحديث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

لما أحب المؤمن ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، وكره ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ، أحب الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمن ما يحبه المؤمن، وكره له ما يكره.... والموت يكرهه الناس كلهم؛ لأنه أكبر مصيبة في الدنيا، والله عَزَّوَجَلَّ قضى على الخلق كلهم بالموت والفناء، فسمي الله عَزَّوَجَلَّ اختلاف الإرادتين في حقه عَزَّوَجَلَّ تَرَدُّدًا، فقال: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

❁ وفي هذا الحديث عدة فوائد :

أولاً: إثبات الولاية لله ﷻ... وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين:
ولاية عامة وهى السلطة على جميع العباد، والتصرف فيهم بما أراد كل
إنسان... فإن الذى يتولى أموره وتديره وتصرفه هو الله ﷻ.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق.

أما الولاية الخاصة: مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاهُمْ أَطْلَعُوهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى

أَظْلُمْتُ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾، والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان، يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سبب منه... أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسبب من الإنسان فهو الذى يتعرض لولاية الله حتى يكون الله ولياً له، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣].

ومن فوائد هذا الحديث: فضيلة أولياء الله، وأن الله سبحانه وتعالى يُعَادَى مَنْ عَادَاهُمْ، بل يكون حرباً عليهم ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة، لأن الله تعالى قال: «ما تقرب إلىَّ عبدى بشئ أحب إلىَّ مما افترضته عليه».

ومن فوائده: إثبات المحبة لله ﷻ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض. فالله ﷻ يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة، وتتفاوت محبته سبحانه وتعالى على حسب ما تقتضيه حكمته.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات فإنه يكون بذلك مُعَافًاً في جميع أموره... لقوله تعالى في هذا الحديث القدسى: «وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه...» إلخ.

وفيه دليل أيضاً: على أن مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحِبَّهَ اللهُ فالأمر سهلٌ عليه إذا يسَّرَهُ اللهُ له... يقوم بالواجبات، ويكثر من التطوع بالعبادات، فبذلك ينال محبة الله وينال ولاية الله.

ومن فوائد هذا الحديث: إثبات عطاء الله ﷻ وإجابة دعوته لوليه، لقوله: «لئن سألتنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه». وأتى به المؤلف في باب المجاهدة لأن النفس تحتاج إلى جهادٍ في القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

(٩٧) الثاني: عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَى شَيْءٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»^(١).

❁ وهذا من كمال رحمة الله ﷻ بعباده .. فهو الغنى عن عباده لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .. فهو القائل (سبحانه وتعالى): «...يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا...»^(٢).

ومع ذلك يقول ﷻ: «إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شَيْءًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا».

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

وَمَعْنَاهُ: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِطَاعَتِي تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بِرَحْمَتِي، وَالتَّوْفِيقِ، وَالْإِعَانَةِ، وَإِنْ زَادَ زِدْتُ. فَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي وَأَسْرَعَ فِي طَاعَتِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً. وَالْمُرَادُ أَنَّ جَزَاءَهُ يَكُونُ تَضْعِيفُهُ عَلَى حَسَبِ تَقَرُّبِهِ^(٣).

قلت: والأولى في باب الأسماء والصفات أن تُثبت لله ﷻ ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له نبيه ﷺ دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل .. فثبت لله ﷻ صفة الهرولة ولا نسأل عن كيفيةها .. ونوقن أنها ليست كهرولة المخلوقين .. فالله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٣٦) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٥/١٧).

(٩٨) الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

«نِعْمَتَانِ» أى: نعمتان عظيمتان.

«مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» من الغبن وهو الشراء بأضعاف الثمن أو البيع بدون ثمن المثل ... يعنى أن هذين الجنسيتين من النعم مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس .. أى مغلوبٌ فيهما: وهما الصحة والفراغ.

فكثيرٌ من الناس تجد الواحد منهم بصحة وعافية وعنده وقت وفراغ .. ومع ذلك تضيق أوقاته ويضيع عمره بلا فائدة تعود عليه فى دينه أو دُنياه .. ولا يعرف الثمرة المريرة لما يفعله من إهدار صحته ووقته فى غير طاعة الله إلا إذا حضره أجله.

والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] وقال ﷺ فى سورة المنافقون: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

فيتمنى الإنسان أن يعود إلى الدنيا ولو لدقيقة واحدة من أجل أن يسجد لله سجدة فتكون فى ميزان حسناته.

ومن أجل ذلك قال النبى ﷺ لرجل وهو يعظه:

«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»^(٢).

❁ وأنشد أبو عبد الله بن أيوب:

اغتنم فى الفراغ فَضْلَ ركوع
فعسى أن يكون موتك بَغْتَةً

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٧٧).

فكم صحيحٍ رأيت من غير سقمٍ ذهبَتْ نفسه الصحيحة فُلَّتْهُ^(١)

✽ وعن ميمون بن مهران أنه قال: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز يوماً وعنده سابق البربري الشاعر وهو ينشد شعراً، فانتَهى بشعره إلى هذه الأبيات:

وكم من صحيحٍ باتٍ للموت آمناً أتته المنايا بغتةً بعدما هجع
ولم يستطع إذ جاءه الموت بغتةً فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقنَّعاً ولا يسمعُ الداعي وإن صوته رفع
وقُرِّب من لحدٍ صار مقيلاًه وفارق ما قد كان بالأمس قد جَمَعَ
ولا يترك الموت الغنى لماله ولا مُعدماً في الحال ذا حاجة يدع

قال: فلم يزل عمر رضي الله عنه يبكي ويضطرب، حتى غشى عليه^(٢).

✽ وعن صالح بن موسى الطلحي عن أبيه قال: اجتهد الأشعري قبل موته اجتهداً شديداً، فقليل له: لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها، أخرجت جميع ما عندها... والذي بقي من أجلّ أقل من ذلك!.
قال: فلم يزل على ذلك حتى مات^(٣).

✽ وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة عبادة... المبادرة! فإنما هي الأنفاس لو قد حُبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تقرّبون بها إلى الله عز وجل.
رحم الله امرءاً نظر لنفسه، وبكى على ذنوبه! ثم قرأ هذه الآية:
﴿إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم: ٨٤].

ثم يبكي ويقول: آخر العدد خروج نفسك... آخر العدد فراق أهلك.

(١) الزهد الكبير / للبيهقي (ص: ٢٣٥).

(٢) الزهد الكبير (ص: ٢٦٣).

(٣) قصر الأمل (ص: ١٠٨) وإحياء علوم الدين (٤ / ٦٦٩).

آخر العدد دخولك في قبرك^(١).

❁ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

التؤدة في كل شيء خير، إلا في أمر الآخرة^(٢).

❁ وعن عبد الواحد بن صفوان قال: كنا مع الحسن في جنازة، فقال: رحم الله امرءًا عمل لمثل هذا اليوم. إنكم اليوم تقدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور. فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب^(٣).

❁ والإنسان قد لا تفوته هاتان نعمتان (الصحة والفراغ) بالموت بل قد تفوته قبل الموت بأن يمرض ويعجز عن القيام بما أوجبه الله عليه.. ولهذا ينبغي للإنسان أن يغتنم الصحة والفراغ في طاعة الله قبل أن يندم حين لا ينفع الندم.

❁ والعبد إذا كان يستثمر الصحة والفراغ في طاعة الله فإنه يكتب له الأجر كاملاً إذا مرض أو سافر... قال عليه السلام: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٤).

❁ وفي هذا دليل على أن نعم الله تتفاوت، وأن بعضها أعظم من بعض.. فأعظم نعمة أنعم الله بها على عبده هي نعمة الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فإذا وجد الإنسان أن الله قد أنعم عليه بالإسلام وشرح الله صدره له فإن هذه أكبر النعم.

وكذلك نعمة العقل.. ونعمة الزوجة الصالحة.. ونعمة الأولاد الصالحين.. ونعمة الأمن في الأوطان.. ونعمة الرزق الوفير.. ونعمة الدعوة إلى الله...

(١) الإحياء (٤ / ٦٦٨).

(٢) الزهد / للإمام أحمد (١ / ٢٩).

(٣) قصر الأمل (ص: ١٠٥) نقلًا عن رحلة إلى الدار الآخرة / د. محمود المصري.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

وذلك بأن يستعملك الله ويُشرفك بالدعوة إلى دينه وسُنّة نبيه ﷺ .. ومهما تكلمنا عن النعم فلن نستطيع أن نُحصيها فلقد قال الله تعالى: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾ [النحل: ١٨].

ماذا تصنع في دقيقة واحدة؟

وجدت أن الدقيقة من الزمن يمكن أن يُفعل فيها خيرٌ كثير، إما قراءة آيات... كل آية فيها عشرات الحروف، كل حرفٍ بعشر حركات، فتصبح مئات الحسنات.

أخى المسلم: اعلم أن معظم هذه المشاريع لا تُكلف شيئاً أو تعباً أو بذل جهد، بل قد تقوم بها وأنت تسير على قدميك أو راكباً أو واقفاً أو جالساً، وهذه المشاريع كالآتي:

(١) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقرأ سورة الفاتحة (٥) مرات فتحصل على أكثر من (٧٠٠٠) حسنة.

(٢) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقرأ سورة الإخلاص (١٥) مرة فإنها تعدل قراءة القرآن (٥) مرات.

(٣) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير (٢٠) مرة وأجرها كعتق (٨) رقاب في سبيل الله من ولد إسماعيل عليه السلام.

(٤) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول سبحان الله وبحمده (١٠٠) مرة، ومن قال ذلك في يوم غُفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر.

(٥) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله أكثر من أربعين مرة، وهي كنز من كنوز الجنة.

(٦) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، أكثر من (١٠) مرات، وهى كلمات تُعادل أضعافاً مضاعفة من أجور التسييح والذكر.

(٧) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تستغفر الله أكثر من (١٠٠) مرة، فالاستغفار سبب للمغفرة، ودخول الجنة، وللمتاع الحسن وزيادة القوة، ودفع البلاء، وتيسير الأمور، ونزول المطر، والإمداد بالأموال والبنين.

(٨) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تصلى على النبى ﷺ (٢٠) مرة فيصلى الله عليك مقابلها (٢٠٠) مرة.

(٩) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم (٥٠) مرة، وهى كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن.

(١٠) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر (٢٥) مرة، وهذه الكلمات أحب الكلام إلى الله.

(١١) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تقول: لا إله إلا الله (٥٠) مرة تقريباً.

(١٢) في دقيقة واحدة: تستطيع أن ترفع يديك وتدعو بما شئت من جوامع الكلم.

(١٣) في دقيقة واحدة: تستطيع أن تنهى عن منكراً أو تأمر بمعروف أو تقدم نصيحة لأخ أو تشفع شفاعة حسنة، أو تواسى مهموماً أو تُميط الأذى عن الطريق أو تصافح عدداً من الأشخاص.

✽ دقيقة واحدة فقط يمكن أن تزيد في عمرك، في عطائك، في فكرك، في فهمك، في حفظك، في حسناتك.

دقيقة واحدة تُكتب في صحيفة أعمالك إذا عرفت كيف تستثمرها، وتحافظ عليها، فانظر كم من دقيقة؛ بل من ساعة، بل من يوم، بل من شهر، بل من سنة

ذهبت منّا هدرًا، وضاعت منا لغوًا وعبثًا، وطارت هباءً منشورًا؟! وليت من ضيّعها ينجو رأسًا لا له ولا عليه، بل تجد خلاف ذلك من ذنوب وخطايا وسيئات... والله المستعان.

ويستطيع من صلى ركعتين خفيفتين يقتصر فيهما على الواجبات فقط كقراءة الفاتحة، وثلاثة تسبيحات في الركوع والسجود.

أقول: يستطيع أن يصليهما فيما يقارب الدقيقة، فمن صلى كل يوم ركعتين ضحى نافلة صلى في السنة أكثر من سبعمائة ركعة، وكل ركعة فيها سجدتان، أى: يسجد في السنة في صلاة الضحى أكثر من ألف وأربعمائة سجدة. وفي الحديث الصحيح: «إنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة»^(١).

في الدقيقة الواحدة تستطيع أن تُرضى الرب، وتمحو الذنب، وأن تكتب لك عند الله بها أجرًا، وتمحو بها وزرًا، وتجعلها لك عنده ذخرا. وتستطيع في الدقيقة مع الدقيقة أن تؤلف، وأن تكتب، وأن تحفظ، وأن تنمي موهبتك وأن تجود ذاكرتك، وأن تزيد من علمك، وأن تحافظ على وردك وأن تعمق ثقافتك، وتوسع معارفك، وتنوع مواهبك، لكن الأمر يحتاج يا أخى إلى همّة... أعوذ بالله من موت الهمم، وبرود العزائم وخسة الطبع^(٢).

هذا هو عمرك الثاني

✽ وتستطيع أيها الأخ الحبيب أن تطيل عمرك فتكون بمثابة الأحياء وأنت ميت وتؤدي رسالة الأحياء وأنت مقبور. وذلك إذا تركت وراءك ما ينتفع به الناس من علمٍ نافع أو عملٍ صالح، أو ذرية مباركة لتكون امتدادًا لحياتك...

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي صحيح الجامع (١٠٦٩).

(٢) حقائق ذات بهجة - الشيخ / عائض القرني (ص: ٥ - ٧) بتصرف.

ولذا قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له»^(١).

وقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ حَسَنَةٍ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ...»^(٢).

وقال ﷺ: «إِنْ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنُ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا نَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَه، وَمَصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاه، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاه، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاه، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صَحْتِهِ وَحَيَاتِهِ، تَلَحُّقَهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»^(٣).

وقال ﷺ: «أَرْبَعَةٌ تَجْرَى عَلَيْهِمْ أَجُورُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ: مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ عَلَّمَ عِلْمًا أَجْرَى لَهُ عَمَلُهُ مَا عُمِلَ بِهِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَجْرُهَا يَجْرَى لَهُ مَا وَجَدَتْ، وَرَجُلٌ تَرَكَ وَلَدًا صَالِحًا فَهُوَ يَدْعُو لَهُ»^(٤).

وقال ﷺ: «سَبْعٌ يَجْرَى لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ، وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بُئْرًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٩) الرابع: عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟»^(٦).

(١٠٠) ونحوه في الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعبة^(٧).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

(٣) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٢٢٣١).

(٤) حسن: رواه أحمد، والطبراني، وحسنه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٨٧٧).

(٥) حسن: رواه البزار، وسمويه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٠٢).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٢٠) كتاب صفة القيامة.

(٧) متفق عليه: رواه البخاري (١١٣٠) كتاب التهجد - ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة.

❁ لقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها وسائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أعلم الناس بما يفعله النبي ﷺ في بيته .. ولذا فقد وصفت أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ... أي: حتى تتشق قدماه ﷺ . فكان ﷺ يقوم أحياناً أكثر الليل .. وأحياناً نصف الليل .. وأحياناً ثلث الليل؛ لأنه ﷺ يعطى نفسه حقها من الراحة مع القيام التام بعبادة ربه ﻋَزَّوَجَلَّ . ولذا قال تعالى في سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَيْكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] .

فكان ﷺ يقوم أدنى من ثلثي الليل ... يعني: فوق النصف ودون الثلثين ونصفه وثلثه حسب نشاطه (عليه الصلاة والسلام).

فإذا كان يقوم (عليه الصلاة والسلام) مثلاً في ليلة من ليالي الشتاء وهي اثنتا عشرة ساعة .. يقوم أدنى من ثلثي الليل ... فلنقل إنه ﷺ يقوم سبع ساعات تقريباً وهو يصلي (عليه الصلاة والسلام) في الليل الطويل، تصور كيف يكون حاله (عليه الصلاة والسلام)؟ ومع هذا فقد صَبَرَ نفسه وجاهد نفسه، وقال: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً».

وفي هذا دليل: على أن الشكر هو القيام بطاعة الله، وأن الإنسان كلما ازداد في طاعة ربه ﻋَزَّوَجَلَّ فقد ازداد شكراً لله ﻋَزَّوَجَلَّ .

❁ قَالَ الْقَاضِي: الشُّكْرُ مَعْرِفَةُ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ وَالتَّحَدُّثُ بِهِ. وَسُمِّيَتْ الْمُجَازَاةُ عَلَىٰ فِعْلِ الْجَمِيلِ شُكْرًا؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَشُكْرُ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ اعْتِرَافُهُ بِنِعْمِهِ وَثَنَؤُهُ عَلَيْهِ وَتَمَامُ مُوَاطَّئِهِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ ... وَأَمَّا شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَفْعَالٌ عِبَادِيَّةٌ فَمُجَازَاتُهُ إِيَّاهُمْ عَلَيْهَا، وَتَضْعِيفُ ثَوَابِهَا، وَثَنَؤُهُ بِمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، فَهُوَ الْمُعْطَىٰ وَالْمُثْنَىٰ سُبْحَانَهُ، وَالشُّكُورُ مِنْ أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بِهَذَا الْمَعْنَى. والله أعلم^(١).

وفي هذا دليل : على أن النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر... كل ما تقدم من ذنبه قد غفر الله له، وكل ما تأخر قد غفر الله له.

وقد يخص الله أقوامًا فيغفر لهم ذنوبهم بأعمال صالحة قاموا بها مثل أهل بدر. فأهل بدر كانوا ثلاثمائة وبضع عشر رجلاً، منهم حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ قال لعمر في قصة مشهورة: «أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

❖ ولقد جعل الله عز وجل لنا الأسوة والقدوة في الحبيب المصطفى ﷺ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فيا ليتنا نقتدى بالنبي ﷺ في الحرص على قيام الليل والمداومة عليه ولا بد أن نعلم أن قيام الليل لا يداوم عليه إلا المخلصون... لأنهم يعلمون يقيناً أنه لا يراهم إلا الله فهم يخفون أعمالهم عن أعين الناس ويريدون بها وجه الله تعالى.

❖ قال قتادة رضي الله عنه: «كان يُقال: ما سهر الليل منافق».

وقيام الليل من أعظم الوسائل لتزكية النفس.

وإن من يتخرج من مدرسة الليل يُؤثّر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله... والمتخلف عنها يابس. قاسٍ تقسو قلوب الناظرين إليه... والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم، شاهده، وأرشدك إليك فقال:

«حسبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تقسو القلوب برؤيتهم» بل تموت القلوب برؤيتهم فلم كان ذلك إن لم يكن ليل الأولين يقظة وليل غيرهم نومًا. ونهار الأولين جدًّا ونهار الآخرين شهوة».

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٧) كتاب الجهاد، ومسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة.

(١٠١) الخامس: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشرُ أحيا الليلَ، وأيقظ أهله، وجدَّ وشدَّ المِئزرَ»^(١).

من المعلوم أن النبي ﷺ كان طوال العام يقوم الليل حتى تتفطر قدماه .. فكان يُصلي أكثر من نصف الليل أو نصفه أو ثلثه .. أما في ليالي العشر الأواخر من رمضان فإن النبي ﷺ كان يقوم الليل كله .. أى أنه كان يُحيي الليل كله بالعبادة .. وليس معناه أنه يقضى الليل كله في الصلاة ... بل ربما أنه كان يُصلي أحياناً ويذكر الله أحياناً أخرى ويقرأ القرآن أحياناً .. وهكذا كان يقضى الليل كله في الطاعة والعبادة ..

ولم يكن النبي ﷺ يُحيي الليل كله بالعبادة سوى في العشر الأواخر من رمضان .. أما باقى العام فكما ذكرنا أنه ﷺ كان يصلي أحياناً أكثر من نصف الليل أو نصفه أو ثلثه.

❖ فلماذا كان النبي ﷺ يهتم كل هذا الاهتمام بالعشر الأواخر من رمضان؟ .. لأنه كان يتحرى ليلة القدر التى أخبر الله ﷻ عن فضلها فقال:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۚ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) نَزَّلَ الْمَلَكُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾

[سورة القدر].

❖ وقد انتظمت هذه السورة الكريمة جملة فضائل لهذه الليلة:

- ١- أن الله ﷻ أنزل القرآن في هذه الليلة ... كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣].
- ٢- أن الله ﷻ عظم شأنها بذكرها بقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.
والمراد: العشرُ الأواخرُ من شهر رمضان: «وَالْمِئْزَرُ»: الإزارُ وهو كنايةٌ عن اعتزالِ النساء، وقيل: المرادُ تسميتهُ للعبادة ... يُقالُ: شدَدْتُ لهذا الأمرِ مِئْزَرِي، أى: تشمرتُ وتفرغتُ له.

٣- أن العبادة فيها خيرٌ من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

٤- أن الملائكة تنزل في هذه الليلة... قيل: تنزل بالرحمات والبركات والسكينة وقيل: تنزل بكل أمر قضاه الله وقدره لهذه السنة، كما قال سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (١) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿الدخان: ٤-٥﴾.

٥- أن الأمن والسلام يحل في هذه الليلة على أهل الإيمان، وتسليم الملائكة يتوالى عليهم فيها.

٦- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه» (١)(٢).
✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى (شَدِّ الْمِئْزَرِ) فَقِيلَ: هُوَ الْاجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ زِيَادَةً عَلَى عَادَتِهِ ﷺ فِي غَيْرِهِ وَمَعْنَاهُ التَّشْمِيرُ فِي الْعِبَادَاتِ... يُقَالُ شَدَدْتُ لِهَذَا الْأَمْرِ مِئْزَرِي أَيْ تَشَمَّرْتُ لَهُ وَتَفَرَّغْتُ وَقِيلَ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ اعْتِرَالِ النِّسَاءِ لِلِاشْتِغَالِ بِالْعِبَادَاتِ... وَقَوْلُهَا: أَحْيَا اللَّيْلَ أَيْ اسْتَغْرَقَهُ بِالسَّهْرِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا... وَقَوْلُهَا: وَأَيُّقُظُ أَهْلَهُ أَيْ: أَيُّقُظُهُمُ لِلصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ وَجَدَّ فِي الْعِبَادَةِ زِيَادَةً عَلَى الْعَادَةِ... فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَزَادَ مِنَ الْعِبَادَاتِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَاسْتِحْبَابُ إِحْيَاءِ لَيَالِيهِ بِالْعِبَادَاتِ (٣).

(١٠٢) السادس: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ أَحْرَصٌ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا كَانَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٤) كتاب فضل ليلة القدر، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل / الشيخ مصطفى العدوي (جزء عم) (٢/ ٤٤٨).

(٣) مسلم بشرح النووي (٨/ ١٠١).

كَذًا وَكَذًا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ^(١) اللَّهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ^(٢).

✽ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ» يعنى فى إيمانه، وليس المقصود هنا قوة الجسد أو البدن. لأن الإنسان القوى فى جسده قد يستعمل تلك القوة فى طاعة الله أو فى معصية الله .. أما المؤمن القوى فى إيمانه فإن إيمانه سيحمله على أن يقوم بما أوجبه الله عليه .. بل وسيجتهد فى النوافل ليفوز بمحبة الله (جلّ وعلا) .. أما صاحب الإيمان الضعيف فإن إيمانه الضعيف قد لا يحمله على فعل الواجبات أو ترك المحرمات والمكروهات.

✽ وفى قوله: «خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ» يعنى المؤمن القوى الإيمان خير من المؤمن الضعيف، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف... ثم قال عليه الصلاة والسلام: «وفى كُلِّ خَيْرٍ» يعنى المؤمن القوى، والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير، وإنما قال: «وفى كُلِّ خَيْرٍ» لثلاثيهم أحدٌ من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه، بل المؤمن الضعيف فيه خير... فهو خيرٌ من الكافر لا شك.

فهنا قال النبى ﷺ: «وفى كُلِّ خَيْرٍ» أى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف، لكن القوى خير وأحب إلى الله.

✽ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قوله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» وَالْمُرَادُ بِالْقُوَّةِ هُنَا: عَزِيمَةُ النَّفْسِ وَالْقَرِيحَةُ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ صَاحِبُ هَذَا الْوَصْفِ أَكْثَرُ إِقْدَامًا عَلَى الْعَدُوِّ فِي الْجِهَادِ، وَأَسْرَعَ خُرُوجًا إِلَيْهِ،

(١) قال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «قَدَرُ الله وما شاء فعل»، وبعضهم ضبطها (قَدَّرَ الله وما شاء فعل) أى قَدَّرَ الشيء الواقع ... والمعنى الأول أظهر، أى: أن هذا الواقع هو قدر الله أى مقدور الله، وما شاء الله فعل». شرح كتاب التوحيد: (٢٥٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) (٣٤) كتاب القدر.

وَذَهَابًا فِي طَلَبِهِ، وَأَشَدَّ عَزِيمَةً فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي كُلِّ ذَلِكَ، وَاحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَرْغَبَ فِي الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْأَذْكَارِ، وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ، وَأَنْشَطَ طَلَبًا لَهَا وَمُحَافَظَةً عَلَيْهَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ فَمَعْنَاهُ فِي كُلِّ مِنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ خَيْرٌ لَا شَرَاكِهِمَا فِي الْإِيمَانِ مَعَ مَا يَأْتِي بِهِ الضَّعِيفُ مِنَ الْعِبَادَاتِ»^(١).

ثم قال ﷺ: «أحرص على ما ينفعك» هذه وصية من الرسول ﷺ إلى أمته، وهي وصية جامعة مانعة «أحرص على ما ينفعك» يعنى اجتهد في تحصيله ومباشرته... وضد الذي ينفع: الذي فيه الضرر، وما لا نفع فيه ولا ضرر، وذلك لأن الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ ينفع الإنسان، وقسمٌ يضره، وقسمٌ لا ينفع ولا يضر.

فالإنسان العاقل الذي يقبل وصية النبي ﷺ هو الذي يحرص على ما ينفعه... وما أكثر الذين يضيعون أوقاتهم اليوم في غير فائدة، بل في مضرة على أنفسهم وعلى دينهم، وعلى هذا فيجدر بنا أن نقول لمثل هؤلاء: إنكم لم تعملوا بوصية النبي ﷺ؛ إما جهلاً منكم وإما تهاوناً... لكن المؤمن العاقل الحازم هو الذي يقبل هذه النصيحة، ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه.

وقوله ﷺ: «واستعن بالله» ما أروع هذه الكلمة بعد قوله: «أحرص على ما ينفعك» لأن الإنسان إذا كان عاقلاً ذكياً فإنه يتتبع المنافع ويأخذ بالأنفع، وربما تغرّه نفسه حتى يعتمد على نفسه وينسى الاستعانة بالله، وهذا يقع لكثير من الناس، حيث يُعجب بنفسه ولا يذكر الله ﷻ ويستعين به، فإذا رأى من نفسه قوة على الأعمال وحرصاً على النافع وفعلأله، أعجب بنفسه ونسى الاستعانة بالله... ولهذا قال ﷺ: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله» أي لا تنسَ

الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير .

وفي الحديث: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع» يعنى حتى الشيء اليسير لا تنس الله عز وجل .

ثم قال: «ولا تعجز» يعنى استمر فى العمل ولا تعجز وتتأخر، وتقول: إن المدى طويل والشغل كثير ... فما دُمت قد صممت فى أول الأمر أن هذا هو الأنفع لك واستعنت بالله وشرعت فيه فلا تعجز .

ثم قال ﷺ: «فإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا» يعنى بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر، ثم يخرج الأمر على خلاف ما تريد فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا، لأن هذا أمر فوق إرادتك ... أنت فعلت الذى تؤمر به ولكن الله عز وجل غالب على أمره ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] .

ونضرب مثلاً لذلك: إذا سافر رجل يريد العمرة ولكنه فى أثناء الطريق تعطلت السيارة، ثم رجع فقال: لو أنى أخذت السيارة الأخرى لكان أحسن ولما حصل التعطل ... نقول: لا تقل هكذا لأنك أنت بذلت الجهد، ولو كان الله عز وجل أراد أن تبلغ العمرة ليسر لك الأمر، ولكن الله لم يرد ذلك .

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله وأخلفت الأمور فحينئذ يفوض الأمر إلى الله لأنه فعل ما يقدر عليه ... ولهذا قال: «إن أصابك شىء» يعنى بعد بذل الجهد والاستعانة بالله عز وجل: «فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا» .

«ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» أى هذا قدر الله أى تقدير الله وقضائه، وما شاء الله عز وجل فعله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] . لا أحد يمنعه فى ملكه أن يفعل ما يشاء .

ولكن يجب أن نعلم أنه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئاً إلا لحكمة خفيت

علينا أو ظهرت لنا ... والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

فبين أن مشيئته مقرونة بالحكمة والعلم ... وكم من شيء كره الإنسان وقوعه فصار في العاقبة خيراً له ... كما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] (١).

فأنت إذا بذلت الجهد واستعنت بالله وصار الأمر على خلاف ما تريد لا تندم ولا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا؛ لأنك إذا قلت هذا انفتح عليك من الوسواس والندم والأحزان ما يكدر عليك الصفو فقد انتهى الأمر وراح، وعليك أن تسلم الأمر للجبار عز وجل ... قل: قدر الله وما شاء فعل.

ما حكم استعمال كلمة «لو»؟

✽ تدبر معي إلى ما قاله شيخنا المبارك ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حينما سُئِلَ عن حكم استعمال كلمة «لو» ... فقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ:

استعمال «لو» فيه تفصيل على الوجوه التالية:

الوجه الأول: أن يكون المراد بها مجرد الخبر فهذه لا بأس بها .. مثل أن يقول الإنسان لشخصٍ لو زُرْتَنِي لأكرمْتُكَ، أو لو علمتُ بك لجئتُ إليك.

والوجه الثاني: أن يقصد بها التمني فهذه على حسب ما تمنّاها ... إن تمنى بها خيراً فهو مأجور بنيتها، وإن تمنى بها سوى ذلك فهو بحسبه.

ولهذا قال النبي ﷺ في الرجل الذي له مال ينفقه في سبيل الله وفي وجوه الخير .. ورجل آخر ليس عنده مال قال: لو أن لي مثل مال فلانٍ لَعَمِلْتُ فيه مثلَ عَمَلِ فلانٍ. فقال رسول الله ﷺ: «هما في الأجر سواء».

والثاني رجل ذو مال لكنه ينفقه في غير وجوه الخير فقال رجل آخر لو أن لي

مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان .. فقال رسول الله ﷺ: «هما في الوزر سواء»^(١). فهي إذا جاءت للتمنى تكون بحسب ما تمناه العبد إن تمنى خيراً فهي خير، وإن تمنى سوى ذلك فله ما تمنى.

والوجه الثالث: أن يُراد بها التحسُّر على ما مضى فهذه منهيٌّ عنها لأنها لا تفيد شيئاً وإنما تفتح الأحزان والندم... وفي هذه يقول الرسول ﷺ: «المؤمن القوى خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا؛ فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(٢). وحقيقة أنه لا فائدة منها في هذا المقام؛ لأن الإنسان عمل ما هو مأمورٌ به من السعى لما ينفعه؛ ولكن القضاء والقدر كان بخلاف ما يرى، فكلمة «لو» في هذا المقام إنما تفتح باب الندم والحزن؛ ولهذا نهى عنها رسول الله ﷺ لأن الإسلام لا يريد من الإنسان أن يكون محزوناً ومهموماً بل يريد منه أن يكون منشراح الصدر، وأن يكون مسروراً طليق الوجه... ونبه الله المؤمنين لهذه النقطة بقوله: ﴿إِنَّمَا التَّجَوُّى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣) السابع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُجِبَتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»^(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ وَجَوَامِعِهِ الَّتِي أُوتِيَهَا ﷺ مِنْ

(١) صحيح: رواه الترمذی، وأحمد، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاری (٦٤٨٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة.

وفي رواية لمسلم: «حُفَّتْ» بدل «حُجِبَتْ» وَهُوَ بِمَعْنَاهُ: أَيْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا هَذَا الْحِجَابُ فَإِذَا فَعَلَهُ دَخَلَهَا.

التَّمْثِيلُ الْحَسَنُ ... ومعناه لا يوصل الْجَنَّةَ إِلَّا بِارْتِكَابِ الْمَكَارِهِ وَالنَّارِ بِالشَّهَوَاتِ، وَكَذَلِكَ هُمَا مَحْجُوبَتَانِ بِهِمَا فَمَنْ هَتَكَ الْحِجَابَ وَصَلَ إِلَى الْمَحْجُوبِ ... فَهَتْكَ حِجَابَ الْجَنَّةِ بِاقْتِحَامِ الْمَكَارِهِ، وَهَتْكَ حِجَابَ النَّارِ بِارْتِكَابِ الشَّهَوَاتِ ... فَأَمَّا (الْمَكَارِهِ) فَيَدْخُلُ فِيهَا الْاجْتِهَادُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُوَاطَّئَةُ عَلَيْهَا وَالصَّبْرُ عَلَى مَشَاقِّهَا، وَكَظْمُ الْغَيْظِ، وَالْعَفْوُ، وَالْحِلْمُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى الْمُسِيءِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَأَمَّا (الشَّهَوَاتُ) الَّتِي النَّارُ مَحْفُوفَةٌ بِهَا، فَالظَّاهِرُ أَنَّهَا الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَةُ كَالْخَمْرِ، وَالزُّنَا، وَالنَّظَرِ إِلَى الْأَجْنَبِيَّةِ، وَالْغِيْبَةِ، وَاسْتِعْمَالِ الْمَلَاهِي، وَنَحْوِ ذَلِكَ ... وَأَمَّا الشَّهَوَاتُ الْمُبَاحَةُ فَلَا تَدْخُلُ فِي هَذِهِ لَكِنْ يُكْرَهُ الْإِكْتَارُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ يَجْرَّ إِلَى الْمُحَرَّمَةِ، أَوْ يُقَسِّى الْقَلْبَ، أَوْ يَشْعَلَ عَنِ الطَّاعَاتِ، أَوْ يُحَوِّجَ إِلَى الْإِعْتِنَاءِ بِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا لِلصَّرْفِ فِيهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ^(١).

وهكذا فقد أخبر النبي ﷺ أن النار قد أُحِيطَتْ بِالشَّهَوَاتِ وَأَنَّ الْجَنَّةَ قَدْ أُحِيطَتْ بِالْمَكَارِهِ .. يَعْنِي: أُحِيطَتْ بِمَا تَكْرَهُهُ النُّفُوسُ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَاطِلَ مَحْبُوبٌ لِلنَّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ وَالْحَقُّ مَكْرُوهٌ لَهَا .. فَإِذَا جَاهَدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ وَتَجَاوَزَ هَذَا الْمَكْرُوهَ بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ الْمَحْرَمَاتِ فَسَوْفَ يَصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

✽ فالزنى - عياداً بالله - محبوبٌ إِلَى النِّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ .. فَإِذَا هَتْكَ الْإِنْسَانُ هَذَا الْحِجَابَ فَإِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ سَبَبًا لَدُخُولِهِ النَّارِ.

وكذلك شُرْبُ الْخَمْرِ .. فَهُوَ مَحْبُوبٌ إِلَى النِّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ وَبِخَاصَّةٍ حِينَمَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِي صَحْبَةِ أَصْدِقَاءِ السُّوءِ .. وَلِذَلِكَ جَعَلَ الشَّارِعَ لَشُرْبِ الْخَمْرِ عَقُوبَةً رَادِعَةً بِأَنْ يُجْلَدَ شَارِبُهَا.

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٤١-٢٤٢).

فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وشرب الخمر فإن ذلك سيكون سبباً لدخوله النار والعياذ بالله.

وكذلك الغيبة والنميمة محبوبة إلى النفس الأمارة بالسوء وبخاصة عند اجتماع الأصدقاء .. فإذا هتك الإنسان ذلك الحجاب وخاض في أعراض الناس فإن ذلك سيكون سبباً لدخوله النار.

وهكذا في كل شهوة محرمة كالسرقة والغش وسائر المحرمات، وعلاج ذلك كله في قوله ﷺ: «وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»، فإذا تجاوز المسلم تلك الشهوات ولم يهتك حجابها ... وانشغل بفعل الطاعات التي هي قد تكون مكروهة إلى النفس فإن ذلك سيكون سبباً لدخوله الجنة.

ولهذا قد تجد الإنسان يسمع صوت المؤذن في صلاة الفجر وهو نائم في فراشه الوثير الدافئ في الشتاء البارد .. فإذا أثر الراحة فاته الخير الكثير وإذا هتك حجاب المكروه فقام وتوضأ بالماء البارد وذهب إلى المسجد ليُصلي صلاة الفجر وصل إلى الجنة .. فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١) والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر ..

❁ وكذلك الصدقة مكروهة إلى النفس الأمارة بالسوء .. فإذا اقتحم الإنسان تلك العقبة وهتك حجاب المكروه فأخرج المال وتصدق فقد سار في طريقه إلى الجنة.

❁ وكذلك الحجاب مكروهٌ جداً إلى النفس الأمارة بالسوء ... فالفتاة المسلمة قد تحب أن تخرج مُتزينَة حتى تشعر بجمالها وأن الكل يمدحها ويمدح ثيابها الجميلة وشعرها الناعم .. فإذا هتك حجاب المكروه فارتدت حجابها وتشبهت بأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ فسوف يكون ذلك سبباً في دخولها الجنة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

❁ وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. قد يكون مكروهًا شديدًا على النفوس؛ لأن الإنسان يخشى أن يكون ثقیلاً على الناس إذا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر فإذا هتك حجاب المكروه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله فإن هذا سيكون سبباً لدخوله الجنة.

❁ وكذلك الجهاد في سبيل الله مكروه إلى النفس ❁ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ❁ [البقرة: ٢١٦] ... بلى إنه مكروهٌ للنفس فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب كان ذلك سبباً لدخول الجنة.

واستمع إلى قول الله تعالى: ❁ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٣٩﴾ فَرِحِينَ بِمَاءِ اتِّتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٤٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ❁ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]. فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة.

❁ وهكذا .. فالنار حُفَّتْ بالشهوات والجنة حُفَّتْ بالمكاره .. فجاهد نفسك على ترك المحرمات وفعل الواجبات وإن كرهت ذلك .. واعلم أنك إن أكرهت نفسك على طاعة الله فسوف تحب الطاعة وتألفها حتى تُصبح أحب إلى نفسك من كل متاع الدنيا الزائل ... وهذا كله من باب مُجاهدة النفس .. ولن يكون ذلك إلا بالاستعانة بالله ﷻ ثم مجاهدة النفس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤) الثامن: عن أبي عبد الله حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمَائَةِ، ثُمَّ مَضَى. فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا،

يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا: إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ» فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ» ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ^(١).

(١٠٥) التاسع: عن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةً، فَأَطَالَ الْقِيَامَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ! قِيلَ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعَهُ^(٢).

❁ لقد بلغت الصلاة مبلغًا عظيمًا وقدرًا عاليًا في قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذي يتنفسه الإنسان. وحسبنا أن نتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٣).

قال المروزي: ولو لم يستدل المؤمن على أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم من حب الصلاة وجعل قُرَّةَ عَيْنِهِ فِيهِ دُونَ سَائِرِ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا، وَإِنْ كَانَ مُحِبًّا لِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ، وَلَكِنَّهُ خَصَّ الصَّلَاةَ فَأَخْبَرَ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ جُعِلَتْ فِي الصَّلَاةِ لِرَبِّهِ لِكِفَايَةِ ذَلِكَ دَلِيلًا^(٤).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يَفْزَعُ إِلَى الصَّلَاةِ.... ففزع إليها ليلة الأحزاب. قال حذيفة رضي الله عنه: «رَجَعْتُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ فِي شِمْلَةٍ يَصَلِّي، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»^(٥).

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٣٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٧٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٤) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١).

(٥) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

وفزع إليها يوم بدر: ... عن (عليّ) عليه السلام قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ويدعو حتى أصبح.

❖ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدد النعم.

فمن ذلك أن الله عز وجل لما أنعم على نبيه صلى الله عليه وسلم بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكرًا لله عز وجل.

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الصلاة حبًّا جمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها»^(١).

بل إنه صلى الله عليه وسلم فى مرض الموت وفى آخر لحظات حياته يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «أصلى الناس؟» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «أصلى الناس؟»^(٢).

❖ وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا من جُهيّنة، فقاتلوا قتالًا شديدًا»... الحديث، وفيه: «وقالوا -أى: المشركون- إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد»^(٣).

❖ ولكونها كانت «قرة عينه صلى الله عليه وسلم كان صلى الله عليه وسلم يطيل القيام والتهجد، ولا يقوى على مفارقتها».

❖ وفى هذا الحديث ذكر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى إحدى الليالى .. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى معه بعض أصحابه أحيانًا فى قيام الليل .. فمرة صلى معه حذيفة ومرة صلى معه ابن مسعود ومرة صلى معه ابن عباس رضي الله عنهم .. لكن فى أكثر الأحوال كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى قيام الليل وحده وذلك لأن

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى رحمته الله فى صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٤٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

صلاة الليل لا تُشرع فيها الجماعة إلا في شهر رمضان.. لكن لا بأس أن تُقام الجماعة فيها أحياناً وليس دائماً بدليل الحديثين.

❁ وفي هذا الحديث يخبر حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ فافتتح بسورة البقرة بعد قراءة الفاتحة فأطال فيها النبي ﷺ فظن حذيفة أن النبي ﷺ سوف يركع عند الآية رقم مائة ولكن النبي ﷺ أكمل سورة البقرة كاملة.. فقال حذيفة في نفسه: لعله سيركع بعد أن يكمل سورة البقرة ولكن النبي ﷺ بدأ في سورة النساء فقرأها كاملة... فقال حذيفة: لعله سيركع بعد سورة النساء؛ ولكن النبي ﷺ مضى في قراءته حتى أكمل قراءة سورة النساء ثم قرأ سورة آل عمران كاملة.. وكل ذلك والنبي ﷺ يقرأ قراءة متأنية لا يتعجل فيها.. بل كان إذا مرّ بآية فيها تسبيح لله سبحانه.. وإذا مرّ بآية رحمة كان يقف عندها ويسأل الله الجنة... وإذا مرّ بآية وعيد كان يقف عندها ويستعيد بالله من النار.

فجمع عليه الصلاة والسلام بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكير؛ لأن الذي يسأل عند السؤال ويتعوذ عند التعوذ ويُسبح عند التسبيح، لاشك أنه يتأمل قراءته ويتفكر فيها، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر؛ قراءة وتسبيحاً ودعاءً وتفكيراً... والنبي عليه الصلاة والسلام في هذا كله لم يركع، فهذه السور الثلاث: البقرة والنساء وآل عمران أكثر من خمسة أجزاء، فتدبر إذا كان الإنسان يقرأها بتأني، ويستعيد عند آية الوعيد، ويسأل عند آية الرحمة، ويُسبح عند آية التسبيح. كم تكون المدة؟ لاشك أنها تكون طويلة، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقوم حتى تتورم قدماءه وتتفطر.

حتى إن ابن مسعود وهو شاب لما صلى معه ليلة من الليالي يقول أطال النبي ﷺ القيام حتى هممت بأمر سوء، قيل: بِمَ هممت، قال: هممت أن أجلس وأدعه... عجز أن يصبر من طول القيام.

❦ ثم ركع النبي ﷺ بعد ذلك كله ... بعد أن أتمَّ قراءة السور الثلاث فقال: «سبحان ربي العظيم» فكان وقت الركوع مثل وقت القيام .. ثم رفع من ركوعه وقال: «سمع الله لمن حمده» ربنا ولك الحمد فكان قيامه بعد الركوع نحوًا من ركوعه .. ثم سجد بعد ذلك فقال: «سبحان ربي الأعلى» وأطال سجوده ﷺ حتى كان سجوده نحوًا من قيامه.

فكان ركوعه ﷺ بمقدار قراءة سورة البقرة والنساء وآل عمران .. وكان قيامه من ركوعه مثل ذلك .. وكان سجوده مثل ذلك .. وهكذا كانت صلاته كلها متناسقة ومتساوية .. فإذا أطال القيام أطال الركوع والقيام الذي بعد الركوع والسجود والجلوس الذي بين السجدين .. وإذا خفف النبي ﷺ القراءة خفف الركوع والسجود من أجل أن تكون صلاته متساوية .. فكان يفعل ذلك في الفريضة والنافلة.

❦ وهكذا كانت محبة النبي ﷺ للصلاة ولذا كان يقول ﷺ: « وجُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة »^(١).

❦ وهذا الحديث دليلٌ على أنه يجوز تقديم بعض السور على بعض؛ لأن النبي ﷺ قدَّم سورة النساء على آل عمران .. ولعلَّ هذا كان قبل السنة الأخيرة .. فإن النبي ﷺ في السنة الأخيرة كان يُقدِّم سورة آل عمران على سورة النساء وكان ﷺ يقرن بين البقرة وآل عمران في مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «اقرأوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقَان من طير صواف تُحاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة»^(٢)، فالمهم أن الترتيب في الأخير كان تقديم سورة آل عمران على سورة النساء.

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وكذلك فإنه ينبغي للإنسان في صلاة الليل إذا مرَّ بآية رحمة أن يقف ويسأل، مثل لو مرَّ بذكر الجنة يقف ويقول: اللهم اجعلني من أهلها، اللهم إني أسألك الجنة، وإذا مرَّ بآية وعيد يقف ويقول: أعوذ بالله من ذلك، أعوذ بالله من النار، وإذا مرَّ بآية تسبيح يعنى: تعظيم الله سبحانه وتعالى يقف ويُسبح الله ويُعظمه... هذا في صلاة الليل، أما في صلاة الفريضة لا بأس أن يفعل هذا ولكنه ليس بسنة، إن فعله فإنه لا يُنهي عنه، وإن ترك فإنه لا يؤمر به، بخلاف صلاة الليل، فإن الأفضل أن يفعل ذلك... أى يتعوذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ويُسبح عند آية التسبيح^(١).

✽ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: همة النبي ﷺ في العبادة والتمسك بها الطويل جداً في صلاة الليل.

الفائدة الثانية: في مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

١- تشرّفه رضي الله عنه بالصلاة مع النبي ﷺ قيام الليل وليس معهما أحد، وكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

٢- صبره على التعب الذى أصابه من طول القيام وتحامله على نفسه حتى أتم الصلاة قائماً.

٣- سمى الجلوس في الصلاة أمر سوء، بالرغم أن الجلوس في صلاة النافلة جائز شرعاً، حتى ولو لم يشعر المصلى بالتعب فما بالكم إذا شعر بالتعب الشديد، ولكن الأمر السوء عنده ليس الجلوس ذاته ولكنه مخالفة هيئة النبي ﷺ وقد يكون سمّاه سوءاً لأمرٍ آخر، هو أنه سيستريح بالجلوس ويذهب عنه التعب الذى يشعر به، والنبي ﷺ ما زال يتحمل تعب القيام.

(١) شرح رياض الصالحين (١/٣٥٤).

٤ - لم يلتفت ﷺ إلى الأجر الزائد الذى سيناله إذا واصل القيام مع تعبهِ الشديد، أو الأجر الفائت بالجلوس، وإن كان هذا أمراً عظيماً عند الصحابة رضي الله عنهم ولكن الذى التفت إليه وشغله كثيراً هو مخالفة هيئة النبى ﷺ.

ولا غرابة فى ذلك؛ لأن الذى علمهم كيف يحصلون على أجر الصلاة والصوم وسائر العبادات، هو النبى ﷺ... ويمكن أنه ﷺ لم يلتفت للأجر الفائت من الجلوس لا اعتقاده أن سوء الأدب الذى سيلحقه من مخالفة هيئة النبى ﷺ أعظم خسارة من الأجر الفائت بتحمُّل طول القيام مع التعب الشديد.

أخى الحبيب: إذا كانت مخالفة هيئة النبى ﷺ فى القيام أو الجلوس - وهى أمر لا يؤاخذ عليه المولى - سبحانه وتعالى - أمر سوء عند الصحابة، فما بالكم بمخالفة أمره ونهيه ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦) العاشر: عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ اِثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(٢).

✽ قال الحافظ ابن رجب ما ملخصه:

وتفسير هذا أن ابن آدم فى الدنيا لا بد له من أهلٍ يُعاشِرهم ومالٍ يعيش به، فهذان صاحبان يُفارقانه ويُفارقهما... فالسعيد مَنْ اتخذ من ذلك ما يُعينه على ذكر الله تعالى، وينفعه فى الآخرة فيأخذ من المال ما يبلغ به إلى الآخرة، ويتخذ زوجةً صالحةً تُعينه على إيمانه.

فأما مَنْ اتخذ أهلاً ومالاً يشغله عن الله تعالى فهو خاسر كما قالت الأعراب: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١].

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٠) كتاب الزهد والرقائق.

وقال تعالى: ﴿لَا تِلْكَ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فإذا مات ابن آدم وانتقل من هذه الدار لم ينتفع من أهله وماله بشيء إلا بدعاء أهله له واستغفارهم وبما قدمه من ماله بين يديه ...

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فأما مَنْ خَلَفَ مَنْ يَدْعُو لَهُ مِنْ أَهْلِهِ أَوْ قَدَّمَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ فَإِنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ. كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به»^(١). فأهله لا ينفعه منهم بعد موته إلا مَنْ استغفر له ودعا له، وقد يكون الأجنبي أنفع للميت من أهله.

قال بعض الصالحين: وأين مثل الأخ الصالح أهلك يقتسمون ميراثك وهو قد تفرّد بحزنك يدعو لك وأنت بين أطباق الأرض. وأكثر الورثة لا يوفون دين مورثهم فيتركونه مُرْتَهَنًا مُحْتَبَسًا بِدِينِهِ. كما قال النبي ﷺ لقوم مات منهم ميت: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ مُحْتَبَسٌ بِدِينِهِ فَاسْلِمُوهُ أَوْ فُكُّوهُ»^(٢).

فهذا أحد الأخلاء الثلاثة وهو الأهل يَصِلُونَ مع خليلهم إلى باب القبر وهو اللحد ثم يرجعون عنه.

❁ وأما الخليل الثاني وهو المال فيرجع عن صاحبه أولاً ولا يدخل معه قبره ... ورجوعه كناية عن عدم مصاحبته له في قبره ودخوله معه ... فلا ينتفع

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٨١٠).

الميت بشيء من ماله بعد موته إلا بما كان قدّمه بين يديه فإنه يقدّم عليه، وهو داخل في عمله الذي يصحبه في قبره... فأما ما خلفه وتركه فهو لورثته لا له، وإنما كان خازناً لورثته.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْفَيْتَ، أَوْ لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»^(١).

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا آخَرَ»^(٢).

فلا ينتفع العبد من ماله إلا بما قدّمه لنفسه، وأنفقه في سبيل الله ﷻ. فأما مآكله ولبسه فإنه لا له ولا عليه إلا أن يكون فيه نية صالحة وقيل: بل يُثَاب عليه مُطْلَقًا.

فأما ما أنفقه في المعاصي فهو عليه لا له وكذلك ما أمسكه ولم يؤدّ حق الله فيه فإنه يُمَثَّل له شجاعاً أقرع يتبعه، وهو يفر منه حتى يأخذ لهزمته^(٣)، ويقول: أنا مالك أنا كنزك ويلقمه يده فيقضمها قضم الفحل.

وإذا كان المكنوز ذهباً أو فضة جعل صفائح فأحمى عليها ثم كوى به جنبه وجنبه وظهره... لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٨) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

(٣) يعني شدقيه.

لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ ﴿التوبة: ٣٤، ٣٥﴾.

فمن تحقق هذا فليقدم لنفسه من ماله ما يحب... فإنه إذا قدم كان له وبين يديه ينتفع به في دار الإقامة.

وإذا خلفه كان لغيره لا له، وقد يكون هو ممن يحبسه عن النفقة في سبيل الله فيراه يوم القيامة في ميزان غيره فيتحسر على ذلك، ويدخل وارثه به الجنة. فالعاقل هو مَنْ قَدَّمَ من ماله ما يحب فيفوز به في دار الإقامة فإن مَنْ أَحَب شيئاً استصحبه معه، ولا يدعه لغيره فيندم حين لا ينفعه الندم.

قال الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

كان ابن عمر لا يُعجبه شيءٌ من ماله إلا قدمه لله حتى إنه كان يوماً راكباً على ناقته فأعجبه فنزل عنها في الحال وقلدها وجعلها هدياً لله عز وجل.

وكان له جارية يحبها حباً شديداً فأعتقها وزوجها بمولاه نافع.

دخل رجل على أبي ذر فجعل يُقَلِّبُ بصره في بيته فقال: يا أبا ذر أين متاعكم؟ قال: (إن لنا بيتاً نُوجِّهُ إليه صالح متاعنا. قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا. قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه).

مَنْ قَدَّمَ اليوم شيئاً قَدِمَ عليه غداً وَمَنْ لَمْ يُقَدِّمْ شيئاً قَدِمَ على غير شيءٍ فطال فقره في دار الإقامة.

إذا أنت لم ترحل بزازٍ من التقي وأبصرت بعد الموت مَنْ قد تزودا

ندمت على ألا تكون شركته وأرصدت ما قد كان من قبل أرصدا

❖ أما الخليل الثالث: فهو العمل، وهو الخليل الذي يدخل مع صاحبه في قبره فيكون معه فيه، ويكون معه إذا بُعث، ويكون معه في مواقف القيامة، وعلى الصراط، وعند الميزان، وبه تُقَسَّمُ المنازل في الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ﴾

[الروم: ٤٤]

قال بعض السلف: يمهدون لأنفسهم في القبر:

يعنى أن العمل الصالح يكون مهادًا لصاحبه في القبر حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد بل كل عامل يفرش عمله، ويتوسده من خير أو شر.

فالعامل من عمر بيته الذى تطول إقامته فيه.

قال بعض السلف: اعمل للدنيا على قدر مُكثك فيها، واعمِل للآخرة على قدر مُكثك فيها.

وقال بعضهم: لابن آدم بيتان؛ بيت على الأرض، وبيت فى بطن الأرض، فعمد إلى الذى على وجه الأرض فزخرفه وزينه وجعل فيه أبوابًا للشمال وأبوابًا للجنوب، وجعل فيه ما يصلحه لشتائه وصيفه، ثم عمَد إلى الذى فى بطن الأرض فأخربه. فإذا قيل له: هذا البيت الذى أصلحته كم تقيم فيه؟ قال: لا أدرى. قيل له: والذى أخربته كم تقيم فيه؟ قال: فيه مقامى، قال: تُقر بهذا على نفسك وأنت رجل تعقل؟!!

والمؤمن يأتية عمله الصالح فى قبره فى أحسن صورة فيبشره بالسعادة من الله عَزَّوَجَلَّ والكافر بعكس ذلك.

الأعمال الصالحة تحيط بالمؤمن فى قبره:

فى صحيح ابن حبان عن أبى هريرة مرفوعاً: «والذى نفسى بيده إنه ليسمع قرع نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمناً، كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة:

مَا قَبِلِي مَدْخَلٌ ... وذكر سائر الأعمال»^{(١)(٢)}.

قال بعضهم:

تَزُودُ قَرِينًا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ
وَأِنْ كُنْتَ مَشْغُولًا بِشَيْءٍ فَلَا تَكُنْ بَغِيرِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ اللَّهُ تَشْغَلُ
فَلَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ إِلَى قَبْرِهِ إِلَّا الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ
إِلَّا إِنَّمَا الْإِنْسَانُ ضَيْفٌ لِأَهْلِهِ يُقِيمُ قَلِيلًا عَنْدهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٧) الحادى عشر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثله ذلك»^(٣).

❦ وإذا أردت أن تفوز بالجنة فالنبى ﷺ يُطمئنك في هذا الحديث ويقول لك: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله» فأبشر فالجنة قريبة جدًا لدرجة أنها أقرب إليك من شراك نعلك .. وهو السير أو الرباط الذى يكون على ظهر القدم.

نعم .. الجنة قريبة جدًا؛ لأنها قد تكون في كلمة تقولها من رضوان الله لا تظن أن تبلغ ما بلغت فترفعك في الجنة سبعين خريفًا .. وقد تكون في مسحة على رأس يтим .. وقد تكون في قبلة على يد أمك أو أبيك .. وقد تكون في بسملة في وجه أخيك المسلم .. وقد تكون في ركعة في جوف الليل .. وقد تكون في درهم تدفعه لامرأة فقيرة .. وقد تكون في دلالة أعمى على الطريق .. وقد تكون في إصلاح بين متخاصمين .. وقد تكون في كلمة توقظ قلب إنسانٍ من غفلته ... أرأيت كيف أن الجنة سهلة وقريبة ... وأن الأعمال الموصلة إليها يسيرة وسهلة

(١) الإحسان (٣١١٣) وإسناده حسن.

(٢) رياض الجنة (١٩٤-١٩٨) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٨) كتاب الرقاق.

لا تُكلفك أى شىء سوى أن تُخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ.

❁ وكذلك - فى المقابل - فالنار قريبة جدًا حتى قال عنها النبى ﷺ: «وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ» أى أنها أقرب إليك من شِراك نعلك.

فقد تكون فى كلمة تقولها من سخط الله لا تلقى لها بالاً فتتهوى بك فى النار سبعين خريفًا .. وقد تكون فى كذبة تكذبها على الناس من حولك .. وقد تكون فى غيبة لأحد إخوانك ... أو فى نيممة تُشعل بها النار بين أصحابك .. أو فى عبوسك فى وجه والديك .. أو فى قطيعة أرحامك .. أو فى أكل الحرام .. أو فى قذف المحصنات .. أو فى ترك الصلاة أو فى سخرية من صاحب عاهة .. أو فى ظلم إنسانٍ ضعيف .. أو غير ذلك ..

❁ فاحرص على كل ما يُقربك من الجنة .. واحذر من كل ما يُقربك من النار. فدلالة الحديث هنا أن الجنة قريبة جدًا لمن جاهد نفسه بفعل الطاعات .. وجاهد نفسه بترك المنكرات ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨) الثانى عشر: عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى خادم رسول الله ﷺ، وَمِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أبيتُ مع رسول الله ﷺ، فَاتِيهِ بَوْضُوئِهِ، وَحَاجَتِهِ فَقَالَ: «سَلْنِي» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فى الْجَنَّةِ. فَقَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَاعِنْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»^(١).

(١٠٩) الثالث عشر: عن أبى عبد الله ويُقَالُ: أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ ثَوْبَانَ مَوْلَى رسول الله ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لله سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ الله بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٩) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٨) كتاب الصلاة.

❁ ففي الحديث الأول أن ربيعة بن كعب الذي كان خادماً للنبي ﷺ يأتيه كل يوم بماء الوضوء خمس مرات في الصلوات الخمس .
وكان ربيعة فقيراً جداً من أهل الصُّفَّة الذين هم أضياف الإسلام وكان عددهم يربو على السبعين ويقترب من الثمانين ... وهم رجالٌ هاجروا إلى المدينة وليس لهم مأوى فجعل النبي ﷺ مكاناً لهم في صُفَّة المسجد النبوي . وكان الصحابة يأتونهم باللبن والطعام وغير ذلك مما يتصدقون به .

❁ قال ربيعة: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيه بوضوئه .. أى بماء الوضوء ... فأراد النبي ﷺ أن يكافئه .. وذلك لأن النبي ﷺ كان لا يترك أحداً يفعل معه معروفاً إلا ويكافئه ... حتى قال النبي ﷺ: « مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَأْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا نَفَعْنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعْنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ^(١) .

وكان ﷺ يقول: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ»^(٢) .

فلما أراد النبي ﷺ أن يكافئ ربيعة قال له ﷺ: «سَلْنِي» يعنى: اسأل ما بدا لك ... وقد يتوقع أى إنسان أن ربيعة سيطلب شيئاً من متاع الدنيا وبخاصة وأنه فقيرٌ وأنه من أهل الصُّفَّة ... ولكن ربيعة كان صاحب همة عالية فما كان منه إلا أن قال للنبي ﷺ: « أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ » وكأنه يريد أن يقول: كما كنت مُرافقاً لك في الدنيا، فأرجو ألا أُحرم من مرافقتك في الجنة ولذلك أسألك مرافقتك في الجنة .
فأراد النبي ﷺ أن يُعطيه الفرصة لعله يكون بحاجة إلى أى شىء من متاع الدنيا، فقال له: « أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ » .

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦١) .

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى «الأدب المفرد»، وأبو داود، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى الإرواء (١٦١٧) .

فقال ربيعة: هو ذاك... يعنى: لا أريد شيئاً غير ذلك. فقال له النبى ﷺ: «فَاعْنِى عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ».

✽ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ الْحَثُّ عَلَى كَثْرَةِ السُّجُودِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهِ ... وَالْمُرَادُ بِهِ السُّجُودُ فِي الصَّلَاةِ وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ يَقُولُ تَكْثِيرُ السُّجُودِ أَفْضَلُ مِنْ إِطَالَةِ الْقِيَامِ. وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ ۝ وَلِأَنَّ السُّجُودَ غَايَةُ التَّوَاضُّعِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَفِيهِ تَمْكِينُ أَعْزَّ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ وَأَعْلَاهَا وَهُوَ وَجْهُهُ مِنَ التُّرَابِ الَّذِى يُدَاسُ وَيُمْتَهَنُ^(١).

وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام، لأن كل صلاة فى كل ركعة منها ركوع وسجودان.

فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام... وذكر السجود دون غيره لأن السجود أفضل هيئة للمصلى، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وإن كان المصلى قريباً من الله قائماً كان أو راکعاً أو ساجداً أو قاعداً، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وقد قال النبى ﷺ لثوبان: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ»^(٢).

وقد وَضَّحَ النبى ﷺ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَجَدَ سَجْدَةً فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً أَى مَنْزِلَةً عِنْدَهُ، وَفِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَكَذَلِكَ يَحِطُّ عَنْهُ بِتِلْكَ السَّجْدَةِ خَطِيئَةٌ فَإِذَا رَفَعَ لَهُ دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ فَقَدْ فَازَ بِمَا يَرْجُو وَنَجَا مِمَّا يَخَافُ.

✽ فالسجود نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده الصالحين.

(١) مسلم بشرح النووى (٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٨) كتاب الصلاة.

فالسجود أبلغ هيئات العبودية ... وتأمل الحكمة في أمرك بالسجود إذ أمرك الله بالسجود خشوعاً وتذلاً بين يديه، ليردك بذلك إلى أصل العبودية وأعلى درجات الاستكانة إن كنت قد سرت فيك نزعة كبر أو نفخة استعلاء.

ويكفي السجود شرفاً أن الله جعل علامته في أشرف أعضاء الإنسان وهو الوجه حين قال: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مَنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد فسر مجاهد هذه العلامة بأنها الخشوع، وفسرها غيره بأثر الخشوع وهو النور والبهاء الذي يعلو وجوه الساجدين.

ويكفي السجود فضلاً أن النبي ﷺ يعرف أمته يوم القيامة بكونهم غراً من أثر السجود ... أي بيض الوجوه منه، فمن كان أكثر سجوداً في الدنيا كان وجهه أعظم ضياءً وأشد إشراقاً من غيره يوم القيامة، فيتعرف عليه النبي ﷺ أسرع من غيره ... وقد سجدت الأمم من قبلنا فلم يظهر على جباههم شيء، فتلك علامة مميزة لهذه الأمة في موقف الحشر تعرف بها بين الأمم.

ويكفي السجود كرمًا أن الله حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود. وفي هذا الحديث دليل على أن الرسول ﷺ لا يملك أن يدخل أحداً الجنة، ولهذا لم يضمن لهذا الرجل أن يعطيه مطلوبه، ولكنه قال له: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» فإذا قام بكثرة السجود التي أوصاه بها رسول الله ﷺ، فإنه حريٌّ بأن يكون مرافقاً للرسول ﷺ في الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٠) الرابع عشر: عن أبي صفوان عبد الله بن بسرٍ الأسلميّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ»^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦).

«بسر» بضم الباء وبالسین المهملة.

❁ وذلك لأن الإنسان إذا طال عمره في طاعة الله ازداد قُرْبًا من الله ﷻ وازداد رفعة في الآخرة .. فكل ساعة تمر من عمره يكون فيها صلاة أو قراءة قرآن أو ذكر لله أو غير ذلك من الطاعات فإنها تُقربه من الله وتزيده رفعة في الدنيا والآخرة.

❁ وطول العمر منحة من الله ﷻ ليس للعبد أى تصرف فيه .. وذلك لأن الأعمار بيد الله وحده ولا يملك إنسان أن يزيد في عمره ساعة ولا أن ينقص من عمره لحظة ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

وأما حُسن العمل فإن الإنسان يستطيع أن يُحسن عمله بأن يستعين بالله ﷻ ويجتهد في أن يعمل أعمالاً صالحة تُقربه من الله.

وقد أخبر النبي ﷺ أن بعض الأعمال الصالحة سبب لطول العمر .. وذلك مثل بر الوالدين وصلة الرحم .. فقد قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».. وفي رواية: «فَلْيَرِّ وَالِدَيْهِ، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(١). قَالَ الطَّبِيبُ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّ الْأَوْقَاتِ وَالسَّاعَاتِ كَرَأْسِ الْمَالِ لِلتَّاجِرِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَجَرَ فِيمَا يَرْبُحُ فِيهِ ... وَكُلَّمَا كَانَ رَأْسُ مَالِهِ كَثِيرًا كَانَ الرَّبْحُ أَكْثَرَ فَمَنْ انْتَفَعَ مِنْ عُمُرِهِ بِأَنْ حَسُنَ عَمَلُهُ فَقَدْ فَازَ وَأَفْلَحَ وَمَنْ أَضَاعَ رَأْسَ مَالِهِ لَمْ يَرْبُحْ وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا^(٢).

❁ والأحاديث الصحيحة تدل على أن عمر المؤمن كلما طال ازداد بذلك ما له عند الله من خير، فلا ينبغي له أن يتمنى انقطاع ذلك ... اللهم إلا أن يخشى الفتنة على دينه، فإنه إذا خشى الفتنة على دينه فقد خشى أن يفوته ما عند الله من خير... والموت خير له على هذه الحال.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

(٢) تحفة الأحوذى (٢٠٢/٦).

قال ميمون بن مهران: لا خير في الحياة إلا لتائب أو رجل يعمل في الدرجات.

✽ عن أبي سلمة، عن طلحة بن عبيد الله أن رجلين من «بلى» قديما على رسول الله ﷺ وكان إسلامهما جميعاً، فكان أحدهما أشد اجتهاداً من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستشهد ثم مكث الآخر بعده سنة ثم توفي.

قال طلحة: فرأيت في المنام، بينا أنا عند باب الجنة، إذا أنا بهما، فخرج خارج من الجنة فأذن للذي توفي الآخر منهما، ثم خرج فأذن للذي استشهد، ثم رجع إليّ فقال: ارجع فإنك لم يأن لك بعد.

فأصبح طلحة يحدث الناس فعجبوا لذلك فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وحدثوه الحديث: فقال: «مِنْ أَىِّ ذَلِكَ تَعْجَبُونَ؟» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا كَانَ أَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ اجْتِهَادًا، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ، وَدَخَلَ هَذَا الْآخِرُ الْجَنَّةَ قَبْلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ قَدْ مَكَثَ هَذَا بَعْدَهُ سَنَةً؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «وَأَدْرَكَ رَمَضَانَ فَصَامَ، وَصَلَّى كَذَا وَكَذَا مِنْ سَجْدَةٍ فِي السَّنَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَا بَيْنَهُمَا أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

✽ «الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسيحة أو بركة. ومنهم من يسأل الرجعة إلى الدنيا لذلك، فلا يقدر على ذلك قد حيل بينهم وبين العمل وغلقت منهم الرهون.

ورؤى بعضهم في المنام فقال: ندمنا على أمرٍ عظيم... نعلم ولا نعمل، وأنتم تعلمون ولا تعملون، والله لتسيحة أو تسيحتان، أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدهما أحب إليه من الدنيا وما فيها»^(٢).

(١) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣١٦).

(٢) لطائف المعارف (ص: ٣٢٨).

❁ وأخيراً لا بُدَّ أن نعلم أن مُجرد طول العمر ليس خيراً للإنسان إلا إذا كان معه أعمالٌ حسنة صالحة.. لأنه أحياناً يكون طول العمر شراً للإنسان.. كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فهؤلاء الكفار يملئ الله لهم - أى يمد لهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات - لا لخير لهم، ولكنه شر لهم والعياذ بالله، لأنهم سوف يزدادون بذلك إثماً.

ومن ثمَّ كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء... قال: لا تقل أطال الله بقاءك إلا مقيداً، قل: أطال الله بقاءك على طاعته، لأن طول البقاء قد يكون شراً للإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١١) الخامس عشر: عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رضي الله عنه، عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ غِيبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَيْسَ لَكَ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيْسَ لَكَ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدٍ انْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اعْتَذِرْ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْجَنَّةُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، إِنِّي أَجْدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أَحَدٍ. قَالَ سَعْدُ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسُ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعَنَةً بِرُمَحٍ، أَوْ رُمِيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمِثْلُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتَهُ بِنَاتِهِ. قَالَ أَنَسُ: كُنَّا نَرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، إِلَى آخِرِهَا ^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٣) كتاب الإمامة.

قوله: «لَيْسَ لَكَ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ» روى بضم الياء وكسر الراء: أى لَيْطُظْهَرَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ، وَرُؤِيَ بِفَتْحِهِمَا وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

✽ إن للجنة رائحة عطرة زكية لا يستطيع أهل الدنيا وصف جمالها ..
وتلك الرائحة قد يشمها المؤمن من مسيرة أربعين عامًا أو سبعين عامًا أو مائة
عامٍ أو خمسمائة عام... بل قد يشم رائحتها وهو ما زال حيًّا في الدنيا.

✽ لما ماتت ليلى وعَلِمَ قيس بموتها أخذ يجرى كالمجنون ليجث عن قبرها
فظل يشم القبور قبراً قبراً حتى عرف قبرها من ريحها فأخذ يبكي عند قبرها.

✽ بل لما عرف يوسف عليه السلام إخوته في أرض مصر وأرسل معهم قميصه
ليلقوه على وجه أبيه يعقوب عليه السلام ليعود بصيراً بعد أن فقد عينيه من شدة الحزن
لفراق يوسف.

فما أن خرج إخوته من أرض مصر حتى شم يعقوب رائحة قميص يوسف
وهو في شمال فلسطين... وذلك لشدة شوقه لابنه يوسف عليه السلام.

فما ظنك بمن يشواق إلى الجنة... فعلى قدر شوقك تشم رائحتها من على
بُعدٍ... حتى يصل بك الشوق إلى أن تشم رائحتها وأنت ما زلت في هذه الحياة
الدنيا.

قال عليه السلام: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد
من مسيرة سبعين عامًا»^(١).

✽ ونحن نعلم جميعاً كيف كان بعض أصحاب الرسول ﷺ يجدون ريح
الجنة وهم في أرض الشرف والجهاد.

فها هو أنس بن النضر رضي الله عنه يقول لسعد بن معاذ رضي الله عنه: يا سعد بن معاذ
الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد^(٢).

- بل وهذا سعد بن الربيع رضي الله عنه يقول لزيد بن ثابت رضي الله عنه لما أرسله إليه
النبي ﷺ بعد غزوة أحد فوجده في الرمق الأخير فقال له: يا سعد، إن رسول الله

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٤٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٣) كتاب الإمارة.

ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: «أخبرني كيف تجدك؟» فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ مكروهٌ وفيكم عينٌ تطرف. وفاضت نفسه من وقته^(١).

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحياناً لا تدركه العباد... وريح يُدرك بحاسة الشم للأبدان، كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قُربٍ ومن بُعْدٍ، وأما في الدنيا فقد يدركه مَنْ شاء الله من أنبيائه ورسله وأوليائه، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول. والله أعلم^(٢).

❖ وفي هذا الحديث ذكر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عمه أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تغيب عن غزوة بدرٍ؛ لأن النبي ﷺ لم يُخبر أحدًا أنه خارج للقتال، وإنما ندب النبي ﷺ بعض أصحابه للخروج من أجل الحصول على العير التي جاء بها أبو سفيان.. فلما خرج النبي ﷺ ومعه ثلاثمائة وبضع عشر رجلاً للحصول على العير قدّر الله أن يتحوّل الأمر إلى قتالٍ بين معسكر الإيمان والتوحيد وبين معسكر الشرك والكفر.

فحزن أنس بن النضر لأنه لم يشهد غزوة بدرٍ فما كان منه إلا أن عاهد الله أن يبذل كل ما في وسعه إن شهد غزوة أخرى. فلما هُزم المشركون في غزوة بدر أرادوا أن يثأروا من النبي ﷺ وأصحابه في غزوة أحد التي كانت بعد غزوة بدرٍ بسنة كاملة.

فخرج النبي ﷺ وأصحابه وكان معهم أنس بن النضر. وكان النصر في بداية المعركة للنبي ﷺ وأصحابه.. فلما انشغل المسلمون

(١) رواه الحاكم (٢/٢٠١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) مختصر حادي الأرواح (ص: ٨٥) بتصرف.

بجمع الغنائم ونزل الرُّمّة من على الجبل لجمع الغنائم مع أن النبي ﷺ أمرهم ألا يبرحوا الجبل سواء كان النصر للمسلمين أو للمشركين لكنهم نزلوا جميعاً إلا عشرة من الرُّمّة وعلى رأسهم قائد الرُّمّة عبد الله بن جُبَيْر - وكانوا خمسين رامياً - فهجم المشركون على المسلمين فقتلوا منهم سبعين صحابياً وأرادوا بعد ذلك قتل النبي ﷺ .. فما كان من أنس بن النضر إلا أن بذل نفسه لله وأخذ يُقاتل بكل ما في وسعه وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين -.

ثم تقدم ﷺ فاستقبله سعد بن معاذ فسأله: إلى أين؟ قال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد.

فأخذ أنس يجرى وحده داخل أرض المعركة حتى أصيب في بضع وثمانين موضعاً من جسده واستشهد .. ولكنه قبل أن ينال الشهادة شَمَّ رائحة الجنة فنزل جبريل ﷺ بتلك الآية التي نزلت في أنس بن النضر وأمثاله: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وما وصل أنس بن النضر إلى ذلك إلا بالصدق مع الله ثم مُجاهدة النفس على طاعة الله وبذل النفس من أجله.

وهكذا فالمواقف الشريفة الفاضلة يُوفَّق لها الشرفاء الفضلاء.

فقد جاء في الصحيح عن أنس بن مالك أن الرُّبِيع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت سننها فعرضوا عليهم الأرض - أي الدية - فأبوا، فطلبوا العفو فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله أتُكسر سنّة الرُّبِيع - أي أخته - والذي بعثك بالحق لا تُكسر سننها. قال: «يا أنس كتاب الله القصاص». فعفا القوم. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(١).

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٧٠٣) كتاب الصلح.

فالمؤمن صادق مع الله عَزَّوَجَلَّ يحب مراد الله، ويؤثر محبوبه .. والله عَزَّوَجَلَّ يحب للمؤمن ما يحبه المؤمن لنفسه... كما ورد في الحديث القدسي: «وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

وقد روى كذلك أن أنس بن النضر مرَّ يوم أحدٍ على جماعة فيهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: ما يُقعدكم؟ قالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ... ثم جالد بسيفه حتى قُتِلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فهذه شواهد قوية على أن الذين يُوفَّقون للمواقف الإيمانية الشريفة هم أكابر المؤمنين وأشرافهم.

❁ ومن أجل ذلك قال تعالى في حق أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكل من كان على شاكلته: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

❁ وقد أثنت عليهم تلك الآية بصفات حميدة:

الأولى: أنهم رجال، وهذه اللفظة تعطى للسامع انطباع القوة والشجاعة والهمة العالية... مثاله قوله تعالى في الثناء على أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ حُبَّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. ولم تُذكر لفظه رجال في القرآن إلا للمديح.

الثانية: أن هؤلاء الرجال فيهم صفة الصدق وهي صفة كمال، قلَّ من يتصف بها.

الثالثة: أن هؤلاء الرجال عاهدوا الله - سبحانه وتعالى -، فكان خروجهم للجهاد لله، وفي ذلك تزكية عظيمة لهم؛ إذ إن نية خروجهم لا يشوبها أى شائبة، بل كانت وفاء للعهد مع الله... والذي يدل على تلبُّسهم بهذا العهد ووفائهم به أنه قال: صَدَقُوا.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

الرابعة: وهى من كمال صدقهم مع الله وإخلاص النية، مع كمال رجولتهم أنهم لم يبدلوا أى تبديل ولم يدخل فى عهدهم أى تسويق أو شبهة رياء، وهذا من باب التوكيد الشديد على وفائهم بالعهد وصدق نياتهم.

فقد ينوى الإنسان عمل الخير إذا استطاع وهو صادق فى نيته، ولكن إذا جاء الاختيار ويسر له العمل ووافته الفرصة تقاعس وسوف أو بخل واستغنى كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾.

(١١٢) السادس عشر: عن أبى مسعود عُقْبَةَ بن عمرو الأنصارى البدرى رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحَامِلُ عَلَى ظُهُورِنَا. فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٩٧]، الآية (١).

قال أبو مسعود بن عمرو رضي الله عنه: لما نزلت آية الصدقة .. أى الآية التى حثَّ الله فيها المؤمنين على الصدقة ليعطوا إخوانهم الفقراء والمساكين ابتغاء مرضاة الله.

وسُمِّيت صدقة لأن بذل المال لله عز وجل دليل على صدق الإيمان بالله، فإن المال من الأمور المحبوبة للنفوس... قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمَعٍ﴾ [الفجر: ٢٠].

جمعا أى كثيرا عظيما... وحيث أن المحبوب لا يُبذل إلا لمن هو أحب منه، فإذا بذله الإنسان ابتغاء وجه الله كان ذلك دليلا على صدق الإيمان.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٨) كتاب الزكاة.
«وَنُحَامِلُ»: أى يَحْمِلُ أَحَدُنَا عَلَى ظَهْرِهِ بِالْأَجْرَةِ، وَيَتَصَدَّقُ بِهَا.

قال أبو مسعود: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نَحْمِلُ عَلَى ظُهُورِنَا.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

معناه: نَحْمِلُ عَلَى ظُهُورِنَا بِالْأُجْرَةِ وَنَتَصَدَّقُ مِنْ تِلْكَ الْأُجْرَةِ أَوْ نَتَصَدَّقُ بِهَا كُلَّهَا فَفِيهِ التَّحْرِيسُ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِالصَّدَقَةِ وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَتَوَصَّلُ إِلَى تَحْصِيلِ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ مِنْ حَمْلٍ بِالْأُجْرَةِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُبَاحَةِ ^(١).

فالشاهد أنه لما نزلت تلك الآية أسرع الصحابة ببذل الصدقات إلى رسول الله ﷺ .. كُلٌّ عَلَى حَسَبِ قُدْرَتِهِ وَطَاقَتِهِ ... وتلك هي عادة أصحاب الرسول ﷺ أنهم إذا نزلت الآية وفيها أمرٌ من الله بادرُوا بتنفيذ أمر الله ﷻ وَلَمْ يَتَأَخَّرُوا أَوْ يَتَرَدَّدُوا أَبَدًا .. وكذلك إذا نزلت الآية بالنواهي بادرُوا بتركها في التَّوَّ واللَّحْظَةِ.

ونحن جميعًا نعلم ما حدث عندما كان الصحابة يشربون الخمر عند أحد الصحابة ونزلت آية تحريم الخمر التي في سورة المائدة فأنزلوا الأقداح من على أفواههم وقالوا جميعًا: انتهينا ربنا انتهينا... وأخذوا يسكبون الخمر في الطرقات حتى جرت في الطرقات ولم يتركوا في بيوتهم قطرة خمرٍ واحدة.

❁ فلما نزلت آية الصدقة أخذ الصحابة يتصدقون .. كل واحدٍ منهم على قدر طاقته.

فجاء رجلٌ بصدقة كبيرة .. وهو عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال المنافقون: هذا مُرَاءٍ لَا يَرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ ..

وجاء رجلٌ آخر فتصدق بصاع فقالوا: إِنْ اللهُ لَغَنَى عَنْ صَاعِ هَذَا .
فأنزل الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ أي: يعيبون ويطعنون ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ فيقولون: مُرَاءُونَ، قصدهم الفخر والرياء.

(١) مسلم بشرح النووي (٧/١٤٧).

﴿و﴾ يلمزون ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا... ويقولون: الله غنى عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ .

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .
فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تتبّعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم... والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفرًا بالله تعالى وبُغضًا للدين.
ومنها: أن اللمز مُحرم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن مَنْ أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي إعانتة، وتنشيطه على عمله...وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على مَنْ أنفق مالا كثيرا بأنه مُراءٍ، غلطٌ فاحشٌ، وحكمٌ على الغيب، ورجمٌ بالظن، وأى شرٍّ أكبر من هذا؟!!!

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: «الله غنى عن صدقة هذا» كلام مقصوده باطل، فإن الله غنى عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير.

بل وغنى عن أهل السماوات والأرض، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه، فالله - وإن كان غنيا عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وفي هذا القول من التشييط عن الخير ما هو ظاهر بين، ولهذا كان جزاؤهم أن ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(١).

(١) تفسير السعدى (ص ٣٨٤).



❦ ففى هذا: دليل على حرص الصحابة على استباق الخير، ومجاهدتهم أنفسهم على ذلك.

وفى هذا: دليل أيضًا على أن الله ﷻ يدافع عن المؤمنين... وانظر كيف أنزل الله آية فى كتاب الله مدافعة عن المؤمنين الذين كان هؤلاء المنافقون يلمزونهم. وفيه: دليل على شدة العداوة من المنافقين للمؤمنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٣) السابع عشر: عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبى إدريس الخولانى، عن أبى ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه، عن النبى ﷺ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادى كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادى كلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادى كلُّكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر، يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه». قال سعيد: كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

ورويانا عن الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

✽ هذا النوع من الأحاديث يُسَمَّى بالحديث القدسي أو الحديث الإلهي أما ما كان من حديث النبي ﷺ فإنه يُسَمَّى بالحديث النبوي.

قال تعالى: « يَا عِبَادِيَ إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا ».

فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَظْلِمُ عَبْدَهُ بزيادة سيئة لم يعملها ولا بنقص حسنة عملها بل هو سبحانه وتعالى الحكم العدل.. لأنَّ حُكْمَهُ وثوابه يدور بين الفضل والعدل... فضلٌ لمن عمل الحسنات بأن يجزيه على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.. وأما السيئة فإن لم يغفرها فإنها تُكتب سيئة واحدة.... كما قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا أَمْلَاحُهَا وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الظُّلْمَ وأوجب على نفسه الرحمة.. قال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أى: ينقصها من حسنات عبده أو يزيدها في سيئاته... كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾.

﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا ﴾ أى إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصًا ومحبةً وكمالاً.

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى زيادة على ثواب العمل بنفسه من التوفيق لأعمالٍ أُخَر وإعطاء البر الكثير والخير الغزير^(١).

✽ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الصواب الذى دَلَّت عليه النصوص أن الظلم الذى حرمه الله على نفسه وتنزَّه عنه فعلاً وإرادة - هو ما فسر به سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يُحْمَل المرء سيئات غيره، ولا يُعَذَّب بما لم تكسب يداه، ولم يكن سعى فيه، ولا ينقص من حسناته، فلا يُجَازَى بها أو ببعضها، إذا قارنها - أو طرأ عليها - ما يقتضى إبطالها - أو اقتصاص المظلومين منها، وهذا الظلم الذى نفى الله - تعالى - خوفه عن العبد بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]^(٢).

✽ قوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهُ بَيْنَكُمْ وَمُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا»، أى: لا يظلم بعضكم بعضاً.

وظلم العباد يكون بأمرين:

(١) ظلمهم فى دينهم: وذلك بصرفهم عن دينهم الحق وعقيدتهم بإثارة الشبهات التى ينحرف بها العبد عن عقيدته .. أو بكتمان الحق أو إثارة الشهوات التى تُوقع العبد فى الرذيلة.

(٢) ظلمهم فى النفس والعقل: وذلك بمنعهم حقوقهم أو فعل ما يضر بهم.

- وهذا النوع من الظلم لا يخرج عن صورتين:

أ- ظُلمٌ باللسان: كالغيبة والنميمة واللعن والسب والشتم وشهادة الزور وقذف المحصنات والسخرية والاستهزاء وإفشاء السر.

ب- ظُلمٌ بالفعل: كالقتل والسحر واقتطاع شىء من أرضه بغير حق والسرقة والغدر والخيانة والمماطلة فى حقه والغش وغير ذلك.

(١) تفسير السعدى (ص ١٨١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٨).

❁ وهناك تقسيم آخر لظلم العباد يُقسمه إلى ثلاثة أقسام:

بَيْنَهَا الرسول ﷺ في قوله وهو يخطب الناس في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم فاشهد»^(١).
فهذه ثلاثة أشياء: الدماء والأموال والأعراض.

ثم قال الله تعالى: «يا عبادي كلکم ضالُّ إلا مَنْ هديته فاستهدوني أهدكم» ضال يعني تائهاً. أى لا يعرف الحق... وضال يعني غاويًا لا يقبل الحق.
❁ فالناس في الضلال قسمان:

قسمٌ تائه: لا يعرف الحق مثل النصارى.. فإن النصارى ضالون تائهون لا يعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبي ﷺ، فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق في أنهم علموا الحق ولم يتبعوه.
وقسمٌ غاوي: أى اختار الغي على الرشد بعد أن علم بالرشد، وهؤلاء مثل اليهود، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه، بل ردُّوه.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]. هداهم الله وبيَّن لهم ودلَّهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى، واستحبوا الغي على الرشد... فالناس كلهم ضالون إلا مَنْ هداه الله.

لكن ما هى هداية القسم الأول وهو الضال الذى لم يعرف الحق؟
هداية القسم الأول أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه، وهذه الهداية حَقٌّ على الله... حَقٌّ على الله أو جبه الله على نفسه... فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى.
يعنى بمعنى البيان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]. وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴿البقرة: ١٨٥﴾. هدى للناس عموماً.
ولكن الهداية الثانية وهى هداية التوفيق لقبول الحق هذه هى التى يختص
الله بها مَنْ يشاء من عباده... فالهداية هدايتان؛ هداية بيان الحق، وهذه عامة
لكل أحد، وقد أوجبها الله على نفسه، وبيّن لعباده الحق من الباطل.
وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به، تصديقاً للخبر وقياماً بالطلب، وهذه
خاصة يختص الله بها مَنْ يشاء من عباده.

❁ والناس فى هذا الباب ينقسمون إلى أقسام:
القسم الأول: مَنْ هُدَى الهديتين، أى علّمه الله ووفقه للحق وقبوله.
والقسم الثانى: مَنْ حُرِمَ الهديتين فليس عنده علم وليس له عبادة .
والقسم الثالث: مَنْ هُدَى بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يُهَدَ هداية التوفيق،
وهذا شر الأقسام والعياذ بالله.

والمهم أن الله ﷻ يقول: «كلكم ضال» أى كلكم لا يعرف الحق، أو كلكم
لا يقبل الحق، «إلا مَنْ هديته فاستهدونى أهدكم» يعنى اطلبوا الهداية منى، فإذا
طلبتموها فإننى أجيبكم وأهديكم إلى الحق.

ولكن أكثرنا معرض عن هذا، فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة وعلى ما
يفعل الناس... ما كأننا مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى فى طلب الهداية...
فالذى يليق بنا أن نسأل الله دائماً الهداية، والإنسان فى كل صلاة يقول: «رب
اغفر لى وارحمنى واهدنى»، بل إنه فى الصلاة يقول على سبيل الركنية: ﴿أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

والذى يليق بنا أن نتبه وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله ﷻ فى الهداية، سواء
الهداية العلمية أو الهداية العملية... أى هداية الإرشاد والدلالة أو هداية
التوفيق، فلا بد أن نسأل الله دائماً الهداية.

«فاستهدوني أهدكم» وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسى كما تشمل الطريق المعنوى، فالهداية للطريق المعنوى هى الهداية إلى دين الله، والهداية للطريق الحسى كأن تكون فى أرضه قد ضللت الطريق وضعت، فإنك تسأل الله الهداية ... ولهذا قال الله عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]. أى السبيل المستوى الموصل للمقصود بدون تعب ... وقد جرب هذا، فإن الإنسان إذا ضاع فى الصحراء فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول: رب اهدنى سواء السبيل، أو عسى ربه أن يهدىنى سواء السبيل، وذلك لأننا محتاجون إلى الله فى الهديتين؛ هداية الطريق الحسى، كما أننا محتاجون إلى الله فى الهداية إلى الطريق المعنوى.

ثم قال ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم» هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعرى ذكرهما الله ﷻ بعد أن ذكر الهداية، لأن الهداية فيها غذاء القلب فى العلم والإيمان، والجوارح بالعمل الصالح.

وأما الطعام والشراب والكسوة فهى غذاء البدن ... لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ولا يستتر إلا بالكسوة، ولهذا قال: «يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم».

وصدق ربنا ﷻ؛ كلنا جائع إلا من أطعمه الله، ولولا أن الله تعالى يسر لنا ما يكون به طعامنا لهلكنا ... يقول الله تعالى مبيّنًا ذلك فى سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

والجواب: بل أنت يا رب الذى زرعت، لأن الله يقول: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا مَّا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) إِنَّا الْمَغْرُمُونَ﴾ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥-٦٧].

وتأمل كيف قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه، لأنه إذا نبت وشاهده الناس تعلقت قلوبهم به، فإذا جعل حطامًا بعد أن تعلقت به القلوب صار ذلك أشد نكاية... ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾. يعنى من السحاب ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]؛ لأن الماء الذى نشرب من السحاب، يُنْزِلُهُ اللهُ ﷻ عَلَى الْأَرْضِ كَالْأَنْهَارِ، ثُمَّ يُسْتَخْرَجُ بِالْأَدْوَاتِ الَّتِي سَخَرَهَا اللهُ ﷻ لِلنَّاسِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِحِسْبِهِ... وهذا من حكمة الله ﷻ أَنْ اسْتَوْدَعَ الْمَاءَ فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَلَوْ بَقِيَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ لَفَسَدَ، وَأَفْسَدَ الْهَوَاءَ وَأَهْلَكَ الْمَوَاشِيَ، بَلْ وَأَهْلَكَ الْآدَمِيَّينَ مِنْ رَائِحَتِهِ وَنَتْنِهِ، وَلَكِنَّ اللهُ ﷻ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ جَعَلَ هَذِهِ الْأَرْضَ تَشْرِبُهُ، وَتَسْلُكُهُ يَنْبَاعٍ فِيهَا، حَتَّى تَأْتِيَ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ فَيَحْفَرُونَهُ فَيَصِلُونَ إِلَيْهِ.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ وَاللهُ ﷻ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ، وَلَوْ اجْتَمَعَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُنْزِلُوا قَطْرَةً مِنَ السَّمَاءِ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَلَكِنَّ اللهُ ﷻ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُهُ بِقُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَاسْتَطَاعَ اللهُ ﷻ يَكُونُ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ... فَبِالْقَوْلِ بَأَنْ نَسْأَلَ اللهُ ﷻ أَنْ يَطْعَمَنَا وَأَنْ يَرْزُقَنَا، وَأَمَّا بِالْفِعْلِ فَلَهُ جِهَتَانِ:

الجهة الأولى: العمل الصالح، فَإِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ سَبَبُ كَثْرَةِ الْأَرْزَاقِ وَسَعَتِهَا... قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الجهة الثانية: من جهتى الاستطعام بالفعل... أَنْ نَحْرِثَ الْأَرْضَ، وَنَحْفَرَ الْآبَارَ وَنَسْتَخْرِجَ الْمِيَاهَ، وَنَزْرِعَ الْحَبُوبَ، وَنَغْرِسَ الْأَشْجَارَ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

واستطعام الله ﷻ يحتاج إلى أمرٍ مهم وهو حسن الظن بالله (جل وعلا)، أى أن تحسن الظن بربك أنك إذا استطعته أطعمك، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاهٍ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك فإنك قد تكون مخذولاً والعياذ بالله، ولكن استطعم الله وأخلص له وحده فى ذلك.

﴿يا عبادى كلكم عارى إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم﴾ كلكم عارى إلا من كسوته... وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب بل يخرج مجرداً بغير ثياب، ولا شعرٍ يكسوه... وهذا من حكمة الله ﷻ.

فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبشارنا، بادية جلودنا، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حساً، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنى... لأن التقوى لباس المؤمن كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ولهذا ذكر بعض العابرين للرويا أن الإنسان إذا رأى نفسه فى المنام عارياً فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار، لأن هذا دليل على نقصان تقواه، فإن التقوى لباس^(١).

﴿ثم قال تعالى: «يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم»﴾ هذا أيضاً من تمام نعمة الله على العبد، أنه (جل وعلا) يعرض عليه أن يستغفر إلى الله ويتوب إليه مع أنه يقول: «إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً» أى جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها الله، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه... ولهذا قال: «فاستغفرونى أغفر لكم» أى اطلبوا منى المغفرة حتى أغفر لكم.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٦٨-٣٧١) بتصرف كبير.

ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان: اللهم اغفر لي، بل لا بُدَّ من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

❦ والتوبة الصادقة هي التي تجمع الشروط الآتية:

(١) الإخلاص في التوبة:

وذلك بأن يتوب العبد ابتغاء مرضاة الله (جلَّ وعلا) ... لا للخوف من أى مخلوق أو لأنه عاجز عن فعل المعصية أو لأنه يخشى على سمعته وجاهه، أو لأى حظٍّ دنيوى.

(٢) الإقلاع عن الذنوب:

فإنه - والله - تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب ... ولذلك يجب على التائب أن يترك المعصية فور توبته إلى الله (جلَّ وعلا).

(٣) الندم على فعل تلك الذنوب:

إن الندم توبة ... والعبد إذا لم يندم على ما فعل من المعاصى كان ذلك دليلاً على رضاه بفعلها، وهذا كله يقدر في توبة العبد.

(٤) العزم على ألا يعود إليها أبداً:

وينبغى على التائب أن يعزم على أن لا يعود إلى مقارفة الذنوب مرة أخرى ... ولكنه إن فعل ذلك ثم عاد إلى نفس الذنب أو إلى غيره من الذنوب فإن توبته عن الذنب الماضى صحيحة ويلزمه أن يتوب من الذنوب التى وقع فيها بعد ذلك.

(٥) التحلل من المظالم:

قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرِضٍ فَلْيُتَحَلَّلْهُ الْيَوْمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دَرَاهِمٌ إِلَّا الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»^(١).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٣٤) كتاب الرقاق.

فيجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يردَّ المظالم إلى أصحابها من قبل أن يجد نفسه يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات... فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فُتحت حسناته أُخذ من سيئات مَنْ ظلمهم فتُطرح عليه ثم يُطرح في النار... أعاذنا الله جميعًا من نار جهنم.

(٦) التوبة قبل الغرغرة وقبل طلوع الشمس من مغربها:

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(٢).

ثم قال ﷻ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوْنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي». فشأن العباد أقل وأذل من أن ينفعوا الله ﷻ بطاعتهم... بل العباد أنفسهم ينتفعون بطاعتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم.

فلو أن العباد جميعًا كانوا أتقياء بررة على أتقى قلب رجل واحد منهم - وهو قلب نبينا محمد ﷺ - ما زاد ذلك في ملك الله ﷻ شيئًا، لأن ملكه كامل ﷻ، ولو أنهم جميعًا أشقياء فجرة على أفجر قلب رجل واحد منهم، ما نقص ذلك من ملك الله شيئًا... قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ولهذا قال الله تعالى بعد هذه الجملة: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا» لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا متقين، على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملك الله شيئًا، لأن المُلْك مُلكه لا للطائعين ولا للعاصين.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

ثم قال (جلّ وعلا): «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك في مُلكي شيئاً» لو كان الناس كلهم من جنٍّ وإنسٍ وأولهم وآخرهم، لو كانوا كلهم فُجَّارًا وعلى أفجر قلب رجلٍ، فإن ذلك لا ينقص من مُلك الله شيئاً... قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

فالله (جلّ وعلا) لا ينقص مُلكه بمعصية العُصاة، ولا يزيد بطاعة الطائعين^(١).
ثم تَمَنَّيَ الله ﷻ بكمال سمعه وبصره، وكمال قدرته، وكمال غناه، فقال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قأموا في صعيدٍ واحدٍ، فسألوني فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

فمن كمال سمع الله ﷻ أن يسمع الإنس والجن الأولين والآخرين إذا اجتمعوا في مكانٍ واحدٍ واجتهدوا في إنزال الرغبات والطلبات بالله ﷻ، على اختلاف اللغات، واختلاف اللهجات، واختلاف الطلبات، فالله تعالى لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ... ومن كمال قدرة الله ﷻ أنه يُجيب الجميع في وقتٍ واحدٍ لا يشغله إجابة داعٍ عن داعٍ آخر... ومن كمال غنى الله ﷻ، لا ينقص ما عند الله ﷻ إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ... والمخيط إذا أُدْخِلَ البحر لا يُنْقُصُ منه شيئاً... قال تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ - أَي لَا تَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ - سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ - أَي لَمْ يَنْقُصْ - مَا فِي يَمِينِهِ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٧٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: «مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ» الْمَخِيطُ: هُوَ الْإِبْرَةُ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا تَقْرِيبٌ إِلَى الْأَفْهَامِ وَمَعْنَاهُ: لَا يُنْقُصُ شَيْئًا أَصْلًا، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ» أَيْ لَا يَنْقُصُهَا نَفَقَةٌ لِأَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يَدْخُلُهُ نَقْصٌ وَإِنَّمَا يَدْخُلُ النِّقْصُ الْمَحْدُودَ الْفَانِي ... وَعَطَاءُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِمَا نَقْصٌ ... فَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْمَخِيطِ فِي الْبَحْرِ لِأَنَّهُ غَايَةُ مَا يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ وَالْمَقْصُودُ التَّقْرِيبُ إِلَى الْإِفْهَامِ بِمَا شَاهَدُوهُ فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرْئِيَّاتِ عَيَانًا وَأَكْبَرِهَا وَالْإِبْرَةُ مِنْ أَصْغَرِ الْمَوْجُودَاتِ مَعَ أَنَّهَا صَقِيلَةٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مَاءٌ^(١).

❁ ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِّكُمْ بِهَا»، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، كَمَا ابْتَدَأَ الْحَدِيثَ الْقُدْسِيَّ بِتَحْرِيمِ الظُّلْمِ، انْتَهَى بِكَمَالِ الْعَدْلِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا، وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ... قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

والعبد قد ينال في الدنيا من بركة الحسنة ثوابًا مُعْجَلًا، أو من شؤم المعصية عقابًا مُعْجَلًا ... كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنْ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءٌ فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَعَةٌ فِي الرِّزْقِ، وَمُودَةٌ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنْ لِلْسَيِّئَةِ ظُلْمَةٌ فِي الْوَجْهِ، وَسَوَادٌ فِي الْقَلْبِ، وَضِيقٌ فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةٌ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ».

أما توفية الأعمال في يوم القيامة ... حيث ينال المحسن جزاء إحسانه كاملاً، والمسيء جزاء إساءته، أو يعفو الله عَزَّ وَجَلَّ ... قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٠٠-٢٠١).

«فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» أى: فمن وجد ثوابًا ونعيمًا أو حياة طيبة فليحمد الله؛ لأن الله عز وجل هو الذى هداه ووفقه للعمل الصالح ثم تقبل منه عمله الصالح وأجزل له الثواب والعطاء فى الدنيا والآخرة.

«وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» لأنه هو الذى أثر الشهوات على رضا الله عز وجل وانغمس فى المعاصى والسيئات ولم يفكر لحظة واحدة أن يتوب وأن يعود إلى ربه وخالقه (جل وعلا) الذى يغفر الذنوب ويستر العيوب ويبدل السيئات إلى حسنات .

فهذا الحديث حديث عظيم، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه ... وممن أفرد له مؤلفاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فإنه شرح هذا الحديث فى كتاب مستقل ... فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله. ولقد كان السلف رضي الله عنهم يعظمون شأن هذا الحديث.

وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه ... وقيل: هو أشرف حديث لأهل الشام.

(١٢) باب الحث على الزيادة من الخير في أواخر العمر

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ ﴾ [فاطر: ٣٧] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْمُحَقِّقُونَ: معناه أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً؟ وَيُؤَيِّدُهُ الْحَدِيثُ الَّذِي سَنَدُكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ... وَقِيلَ: معناه ثمانى عَشْرَةَ سَنَةً، وَقِيلَ: أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَه الْحَسَنُ وَالْكَلْبِيُّ وَمَسْرُوقٌ وَنُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا... وَنَقَلُوا أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كَانُوا إِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً تَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ ... وَقِيلَ: هُوَ الْبُلُوغُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجَمْهُورُ: هُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَقِيلَ: الشَّيْبُ، قَالَه عِكْرِمَةُ وَابْنُ عُيَيْنَةَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أَى: أَوَلَمْ نَتْرَكْكُمْ وَنُْمْهِلْكُمْ فِي الدُّنْيَا عُمُرًا مَدِيدًا يَكْفَى لِأَنْ يَتَذَكَّرَ فِيهِ مَنْ يَرِيدُ التَّذَكُّرَ وَالتَّفَكُّرَ؟ فَمَاذَا صَنَعْتُمْ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الَّتِي عَشْتُمُوهَا؟ وَمَا لَكُمْ تَطْلُبُونَ عُمُرًا آخَرَ؟

وَفِي الْحَدِيثِ: «أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرِي آخَرَ أَجَلُهُ حَتَّى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً»^(١).

وَمَعْنَى «أَعَذَرَ» أَى بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعَذْرِ ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ أَى وَجَاءَكُمْ الرِّسُولُ الْمُنْذِرُ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ الَّذِي بُعِثَ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَقِيلَ: ﴿النَّذِيرُ﴾ هُوَ الشَّيْبُ ... وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ^(٢).

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أَى فَذُوقُوا الْعَذَابَ يَا مَعْشَرَ الْكَافِرِينَ، فَلَيْسَ لَكُمْ الْيَوْمَ نَاصِرٌ وَلَا مُعِينٌ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ^(٣).

﴿ لَا بَدَ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مَدَارَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي حَيَاةِ الْعَبْدِ يَدُورُ عَلَى خَوَاتِيمِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَتَرْجَمَ لَهُ بِقَوْلِهِ: «بَابُ مَنْ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعَذَرَ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ» وَذَكَرَ الْآيَةَ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي مِقْدَارِ الْعُمُرِ.

(٢) تَرْجَمَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ يَعْنِي: الشَّيْبُ، وَرَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةَ..

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ النَّذِيرَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الصَّحِيحُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ وَهُوَ الْأَظْهَرُ.

(٣) التفسير الكبير (٢٦/ ٣٠).

الأعمال في آخر العمر .. فمن خُتِمَ له بخير فاز بخير الآخرة ووجد الراحة والنعيم والسرور .. ومن خُتِمَ له بشرٌ فقد خسر كل شيء ..

ولذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(١)... زاد الإمام البخاري قوله ﷺ: «فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ».

ولهذا كان من الدعاء المأثور: اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عَمْرِي آخِرَهُ وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ ... وَصَحَّحَ عَنْ النَّبِيِّ (عليه الصلاة والسلام) أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٢).

❁ وقد أخبر النبي عن الغالب من عمر الإنسان فقال ﷺ: «أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِينَ، إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلُهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»^(٣)، فينبغي على الإنسان أنه كلما طال به العمر أن يُكثر من الأعمال الصالحة وأن يجتهد في طاعة الله؛ لأنه لا يدرى متى يموت .. بل أقول هذا الكلام أيضاً للشباب؛ لأن الإنسان قد يموت صغيراً أو شاباً أو كبيراً فالموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل.

❁ يقول الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: يجب على مَنْ لا يدرى متى يبغته الموت أن يكون مستعداً، ولا يغتر بالشباب والصحة، فإن أقل مَنْ يموت الأشياخ، وأكثر مَنْ يموت الشُّبان، ولهذا يَنْدُرُ مَنْ يَكْبُرُ... فالحذر الحذر من المعاصي. فإن عواقبها سيئة، فكم من معصية لا يزال صاحبها في هبوطٍ أبداً من تعثير أقدامه، وشدة فقره وحسراته على ما يفوته من الدنيا^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٣٢) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وأبو يعلى، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٣).

(٤) صيد الخاطر للإمام ابن الجوزي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦) بتصرف.

ولقد قال ﷺ: «اَعْتَنِمَ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»^(١).

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قبل أن تُوزَنَ عليكم، وتجهزوا للعرض على الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾

[الحاقة: ١٨].

ولذلك فإن على كل مسلم أن يقف مع نفسه وقفة يحاسبها في الدنيا على كل فعلة فعلها وعلى كل كلمة قالها،... فإن من حاسب نفسه في الدنيا خَفَّ عليه الحساب في الآخرة^(٢).

كلمات على فراش الموت

﴿ولقد كان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حتى عند سكرات الموت!!!... فلتأمل سويًا تلك الكلمات.

قيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه: كيف تجددك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]... ثم مات.

ولما حضرت معاذًا رضي الله عنه الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظم الهواجر ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر.

ولما حضرت بلالًا الوفاة قالت امرأته: وأحزنناه. فقال: بل واطرباه.. غداً

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).

(٢) رحلة إلى الدار الآخرة/ د. محمود المصري (ص ١٩-٢٠) بتصرف.

نلقى الأجيّة محمداً وحزبه.

وحكى أن هارون الرشيد انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ۖ﴾ (٢٨) هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

هكذا كانوا يرون الحقيقة الكبرى (الموت) واضحة جليّة جلاء الشمس في رابعة النهار.

- بل هذا الإمام ابن الجوزي يبكى عند الموت فيقول له تلاميذه: يا إمام ألسنت قد فعلت كذا وكذا؟! فقال: والله إنني أخشى أن أكون فرطت ونافقت فيحقّ علىّ قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْهُمْ مِن لَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (١٧) وَبَدَأْهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨].
ثم قال: ولقد تاب على يديّ في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف. وأسلم على يديّ أكثر من مائتي نفس.

وكم سالت عين متجبرٍ بوعظي لم تكن تسيل من قبل ويحقّ لمن تلمّح هذا الإنعام أن يرجو التمام.

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي.

ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رَقَّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت لنفسى: كيف بك إن نَجَوْا هؤلاء جميعاً وهلكت: فصِحتُ بلسانٍ وجدى: إلهى وسيدى إن قضيت علىّ بالعذاب غداً فلا تخبرهم بعذابى، صيانة لكرمك لا لأجلى، لئلا يقولوا عَذَّبَ اللهُ مَنْ دَلَّ عليه^(١).

﴿فألواجب على الإنسان أن يحرص في أواخر عمره على الإكثار من طاعة الله ليفوز بحسن الخاتمة .. ونفس الكلام يُقال للشباب لكنه أوجب في حق مَنْ تَقَدَّمَ به العمر؛ لأنه يكون قد اقترب من نهاية العمر .. ولعلكم تعلمون

(١) صيد الخاطر: (ص: ٢٤٩) بتصرف.

أن في سباق الخيل ... فإن الخيل يجرى في مضمار السباق بسرعة متوسطة فإذا ما اقترب من نهاية السباق جمع كل قوته وسرعته وأخرج كل ما عنده ليفوز بالسباق ... ونحن في سباق إلى الجنة وينبغي للإنسان إذا كان في آخر عمره أن يخرج أفضل ما عنده من الطاعات ليفوز في السباق.

(١١٤) فالأَوَّل: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَى أَمْرِي أَخْرَاجَهُ حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً» ^(١).

✽ فإذا بلغ العبد الستين أو السبعين من عمره فهو أولى الناس بالاجتهاد في طاعة الله ليختم حياته بالطاعة فيسعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

✽ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ: (أَعَذَّرَ اللَّهُ) الإِعْذَارُ إِزَالَةُ الْعُذْرِ ... وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ اعْتِذَارٌ كَانَ يَقُولُ: لَوْ مَدَّ لِي فِي الْأَجَلِ لَفَعَلْتُ مَا أُمِرْتُ بِهِ... يُقَالُ: أَعَذَّرَ إِلَيْهِ إِذَا بَلَغَهُ أَفْصَى الْغَايَةِ فِي الْعُذْرِ وَمَكَّنَهُ مِنْهُ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ فِي تَرْكِ الطَّاعَةِ مَعَ تَمَكُّنِهِ مِنْهَا بِالْعُمْرِ الَّذِي حَصَلَ لَهُ فَلَا يَتَّبَعِي لَهُ حِينَئِذٍ إِلَّا الْإِسْتِغْفَارُ وَالطَّاعَةُ وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْآخِرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ ... وَنَسَبَةُ الإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ مَجَازِيَّةٌ ... وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتْرُكْ لِلْعَبْدِ سَبَبًا فِي الإِعْذَارِ يَتَمَسَّكُ بِهِ. وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَا يُعَاقَبُ إِلَّا بَعْدَ حُجَّةٍ. قَوْلُهُ: (أَخْرَاجَهُ) يَعْنِي أَطَالَهُ (حَتَّى بَلَغَهُ سِتِّينَ سَنَةً).

وَفِي رِوَايَةِ مَعْمَرٍ: «لَقَدْ أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَى عَبْدٍ أَحْيَاهُ حَتَّى يَبْلُغَ سِتِّينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً ... لَقَدْ أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَيْهِ، لَقَدْ أَعَذَّرَ اللَّهُ إِلَيْهِ».

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: إِنَّمَا كَانَتِ السُّتُونُ حَدًّا لِهَذَا لِأَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُعْتَرِكِ وَهِيَ سِنٌ

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٩) كتاب الرقاق.

قال العلماء معناه: لَمْ يَتْرُكْ لَهُ عُذْرًا إِذْ أَمْهَلَهُ هَذِهِ الْمُدَّةَ ... يُقَالُ: أَعَذَّرَ الرَّجُلُ إِذَا بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْعُذْرِ.

الْإِنَابَةِ وَالْخُشُوعَ وَتَرَقَّبِ الْمَنِيَّةَ ... فَهَذَا إِعْذَارٌ بَعْدَ إِعْذَارٍ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ بِعِبَادِهِ حَتَّى نَقْلَهُمْ مِنْ حَالَةِ الْجَهْلِ إِلَى حَالَةِ الْعِلْمِ ثُمَّ أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يُعَاقِبْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ وَإِنْ كَانُوا فُطِرُوا عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الْأَمَلِ لَكِنَّهُمْ أَمَرُوا بِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ فِي ذَلِكَ لِيُمَثِّلُوا مَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَيَنْزَجِرُوا عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ... وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اسْتِكْمَالَ السَّتِينِ مَظَنَّةٌ لِانْقِضَاءِ الْأَجَلِ.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْأَسْنَانُ أَرْبَعَةٌ: سِنُ الطُّفُولِيَّةِ ثُمَّ الشَّبَابِ ثُمَّ الْكُهُولَةِ ثُمَّ الشَّيْخُوخَةِ وَهِيَ آخِرُ الْأَسْنَانِ ... وَغَالِبُ مَا يَكُونُ مَا بَيْنَ السَّتِينِ وَالسَّبْعِينَ فَحِينَئِذٍ يَظْهَرُ ضَعْفُ الْقُوَّةِ بِالنَّقْصِ، فَيَنْبَغِي لَهُ الْإِقْبَالُ عَلَى الْآخِرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْحَالَةِ الْأُولَى مِنَ النَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ^(١).

وكما قيل: إن العمر الذي يمضي فلن يعود .. ولذا فالواجب على من بلغ سن الستين أن يعمل دراسة جدوى لأعظم مشروع في حياته وهو مشروع الطاعة والعبادة الموصلة إلى رضوان الله وجنته بدلاً من أن يفقد الفرصة الأخيرة فيخرج من الدنيا صفر اليدين لم يعمل خيراً قط .. فهذا هي الفرصة أمامك أيها الوالد الكريم .. وأيتها الوالدة الكريمة للتوبة والعودة إلى الله وبذل المُسْتَطَاعِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ وَيُبَدِّلَ السَّيِّئَاتِ إِلَى حَسَنَاتٍ وَيَكْتُبَ لَهُمُ السَّعَادَةَ فِي نَعِيمِ الْجَنَاتِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٥) الثَّانِي: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرِ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ: لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءُ مِثْلِهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ، فَدَعَانِي ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ، فَمَا رَأَيْتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]،

(١) فتح الباري / للحافظ ابن حجر (١١/٢٤٤) بتصرف.

فقال بعضهم: أَمَرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نَصَرْنَا وَفَتَحَ عَلَيْنَا. وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي: أَكْذَلِكَ تَقُولُ يَا بَنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةٌ أَجْلُكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، فقال عمر رضي الله عنه: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ ^(١).

✽ لقد أخبر ابن عباس رضي الله عنه خبر الأمة وترجمان القرآن أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يُدخله مع أشياخ بدر.. أَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

فلقد كان عمر رضي الله عنه لا يحتكر الرأي لنفسه بل كان يطبق مبدأ الشورى الذى تعلّمه من القرآن ومن النبى صلّى الله عليه وآله.. كما قال تعالى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والشورى الشرعية أن ولى الأمر إذا أشكل عليه أمر من الأمور جمع الناس له من ذوى الرأي والأمانة من أجل أن يستشيرهم فى القضية الواقعة، فكان من هدى عمر رضي الله عنه ومن سُنَنِهِ الْمَشْكُورَةِ، وَسَعِيهِ الْحَمِيدِ، أَنَّهُ يَشَاوِرُ النَّاسَ يَجْمَعُهُمْ لِيَسْتَشِيرَهُمْ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فكان يُدخل عبد الله بن عباس مع كبار الصحابة من أشياخ بدر.. وكان ابن عباس فى ذلك الوقت صغير السن بالنسبة لهؤلاء الأكابر. فلما رأوا أن عمر يُدخل ابن عباس معهم وجدوا فى أنفسهم؛ لأنَّ عُمَرَ يُدْخِلُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَلَا يُدْخِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَهُمْ فِي نَفْسِ سَنِّ ابْنِ عَبَّاسٍ.. فقال: «إِنَّهُ مَنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ» يشير بذلك إلى قرابته من رسول الله ﷺ وإلى علمه وفطنته.

فأراد عمر رضي الله عنه أن يُريهم قدر ومكانة ابن عباس فى العلم والفهم والفطنة

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٢٩٤) كتاب المغازى.

والذكاء حتى يعرفوا لماذا يخص ابن عباس بهذا الفضل.

فعرض عليهم هذه السورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣].

وسألهم عن تفسيرها ومغزاها .. فما كان منهم إلا أن انقسموا إلى قسمين: فمنهم من قال: إن الله أمرنا أن نحمده ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا .. وأما القسم الثاني فسكت ولم يتكلم.

فما كان من عمر رضي الله عنه إلا أن سأل ابن عباس رضي الله عنه وقال له: ما تقول في هذه السورة؟

قال: هو أجل رسول الله ﷺ، يعني علامة قرب أجله، أعطاه الله إياه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يعني فتح مكة فإن ذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم فيها إلا ما علمت، وظهر بذلك فضل عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

وفيه فضيلة ظاهرة لابن عباس وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين، وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا لإظهار نعمة الله عليه وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته وغير ذلك من المقاصد الصالحة لا للمفاخرة والمباهاة ... وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ولهذا قال علي رضي الله تعالى عنه: أو فهما يؤتيه الله رجلاً في القرآن^(١).

وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يفتن لمغزى الآيات الكريمة .. وذلك لأن المعنى الظاهر قد يكون أمراً سهلاً لكن مغزى الآيات هو الذي قد يخفى

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٨-٦٠٩).

على كثير من الناس ويحتاج إلى فهم يؤتیه الله مَنْ يشاء من عباده.

❁ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كَانَ عمر يدْعُو ابن عَبَّاسٍ وَيُقَرِّبُهُ وَيَقُولُ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَاكَ يَوْمًا فَمَسَحَ رَأْسَكَ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَتَّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّوْبِيلَ»^(١)... ففعل عمر رضي الله عنه هذا؛ تقريرًا لجلالة قدر ابن عباس، وبيانًا لكبير منزلته في العلم والفهم... وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عمر رضي الله عنه كان يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وكان يقول إذا أقبل: جاء فتى الكهول، ذو اللسان السَّوُول، والقلب العقول^(٢)

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي سبِّح الله مصحوبًا بالحمد... فالباء هنا للمصاحبة، وذلك لأنه إذا كان التسبيح مصحوبًا بالحمد فإنه به يتحقق الكمال، لأن الكمال لا يتحقق إلا بانتفاء العيوب، وثبوت صفات الكمال... فانتفاء العيوب مأخوذ من قوله سبحانه، لأن التسبيح معناه التنزيه عن كل نقص وعيب... وثبوت الكمالات مأخوذ من قوله وبحمدك، لأن الحمد هو وصف المحمود بالصفات الكاملة.

❁ أما قوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ فمعناه: اطلب منه المغفرة... والمغفرة: هي التجاوز عن الذنب والستر، يعنى المغفرة تجمع بين ستر الذنب والتجاوز عنه.

❁ وأما قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ففيه أن الله ﷻ موصوف بكثرة التوبة لقوله: ﴿تَوَّابًا﴾، وهي صيغة مبالغة لكثرة مَنْ يتوب الله عليه.

والله ﷻ توابٌ على عبده توبة سابقة لتوبته، وتوبة لاحقة لها... كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، فالتوبة السابقة أن يوفق الله العبد للتوبة... والتوبة اللاحقة أن يقبل الله منه التوبة إذا تاب إليه.

(١) فتح الباري (١/ ١٧٠).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٠٣).

✽ وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله ﷻ في التوبة.

والثاني: الندم على ما حصل منه من الذنب.

والثالث: الإقلاع عن الذنب في الحال.

والرابع: العزم على ألا يعود.

والخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبل فيه.

فإن التوبة لا تُقبل عند غرغرة الروح .. فقد قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨] ..

وكذلك لا تُقبل التوبة عند طلوع الشمس من مغربها .. وهى علامة من علامات الساعة الكبرى .. فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ أَيْدِي رَيْكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَنِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] .

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» ^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغِرِ» ^(٢).

وينبغي للإنسان أن يُكثر من هذا الذكر في الركوع والسجود: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي». فإنه جامع بين الذكر والدعاء... وكان النبي ﷺ يُكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده بعد نزول هذه السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣).

(١١٦) الثالث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صَلَّى رسول الله ﷺ صلاةً بعد أن نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»^(١).

وفي رواية في الصحيحين عنها: كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ. معني: «يتأَوَّلُ الْقُرْآنَ» أي: يعمل ما أُمِرَ بِهِ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

وفي رواية لمسلم: كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». قالت عائشة: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أخذتها تقولها؟ قال: «جُعِلَتْ لِي علامةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ».

وفي رواية له: كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ. أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ». قالت: قلت: يا رسول الله أراك تُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟ فقال: «أَخْبَرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَتُحْ مَكَّةَ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا».

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

قَوْلُهَا (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ... يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ) وَفِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى (أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ) مَعْنَى يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ: يَعْمَلُ مَا أُمِرَ بِهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٦٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٤٨٤) كتاب الصلاة.

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ... وَكَانَ ﷺ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ الْبَدِيعَ فِي الْجَزَالَةِ الْمُسْتَوْفَى مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْآيَةِ وَكَانَ يَأْتِي بِهِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِأَنَّ حَالَةَ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا فَكَانَ يَخْتَارُهَا لِإِدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ لِيَكُونَ أَكْمَلَ.

وَقَوْلُهُ: (وَبِحَمْدِكَ) أَيْ وَبِحَمْدِكَ سَبَّحْتُكَ ... وَمَعْنَاهُ بِتَوْفِيقِكَ لِي وَهِدَايَتِكَ وَفَضْلِكَ عَلَيَّ سَبَّحْتُكَ لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي ... فَفِيهِ شُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ وَالْإِعْتِرَافُ بِهَا وَالتَّفَوُّيْضُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ كُلَّ الْأَفْعَالِ لَهُ^(١).

هكذا كان النبي ﷺ يُكثِرُ فِي آخِرِ أَيَامِهِ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» وَهُوَ الَّذِي غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ .. فَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ وَالْعُودَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

فِيَا لَيْتَنَا نَحْرُصُ عَلَى الْاسْتِغْفَارِ.. فَلَقَدْ كَانَ هُنَاكَ أَمَانَانِ لِلْبَشَرِيَّةِ: الْأَمَانُ الْأَوَّلُ هُوَ وَجُودُ النَّبِيِّ ﷺ.. فَلَمَّا تَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ بَقِيَ الْأَمَانُ الثَّانِي الْأَوْ هُوَ الْاسْتِغْفَارُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِمُعَذِّبِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَسْرَهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ»^(٢).

وَقَالَ ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»^(٣).

فَالْعَبْدُ لَا يَدْرِي وَلَا يَعْلَمُ ذَنْبَهُ كُلِّهَا فَعَلَيْهِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ.

❁ بَلْ إِنْ الْعَبْدُ إِذَا قَالَ دَعَاءَ سَيِّدِ الْاسْتِغْفَارِ ثُمَّ مَاتَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﷺ فَقَالَ: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ

(١) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٦٨-٢٦٩) بتصرف.

(٢) حسن: رواه البيهقي في شعب الإيمان، والضياء في المختارة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٥٥).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ... مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٧) الرابع: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: إِنَّ اللَّهَ تعالى تَابَعَ الْوَحْيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ وَفَاتِهِ، حَتَّى تُوَفَّى أَكْثَرُ مَا كَانَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ^(٢).

✽ قال الحافظ ابن حجر رحمته الله:

وَالسَّرُّ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْوُفُودَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ كَثُرُوا وَكَثُرَ سُؤَالُهُمْ عَنِ الْأَحْكَامِ فَكَثُرَ النَّزُولُ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

قَوْلُهُ: (حَتَّى تُوَفَّاهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ) أَيِ الزَّمَانِ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ وَفَاتُهُ كَانَ نَزُولُ الْوَحْيِ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَزْمِنَةِ.

وَهَذَا الَّذِي وَقَعَ أَحْيَرًا عَلَى خِلَافِ مَا وَقَعَ أَوَّلًا فَإِنَّ الْوَحْيَ فِي أَوَّلِ الْبَعْثَةِ فُتِرَ فِتْرَةً ثُمَّ كَثُرَ وَفِي أَثْنَاءِ النَّزُولِ بِمَكَّةَ لَمْ يَنْزَلْ مِنَ السُّورِ الطُّوَالِ إِلَّا الْقَلِيلُ ... ثُمَّ بَعْدَ الْهَجْرَةِ نَزَلَتْ السُّورُ الطُّوَالُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى غَالِبِ الْأَحْكَامِ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ الزَّمَنُ الْأَخِيرُ مِنَ الْحَيَاةِ النَّبَوِيَّةِ أَكْثَرَ الْأَزْمِنَةِ نَزُولًا بِالسَّبَبِ الْمُتَقَدِّمِ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٨) الخامس: عن جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ»^(٤).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٨٢) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٣٠١٦) كتاب التفسير.

(٣) فتح البارى (٨/٦٢٤) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٨) كتاب الجنة وصفة أهلها.

وهذا من كمال رحمة الله (جَلَّ وعلا) أن العبد يُبعث يوم القيامة على نفس الحالة التي مات عليها...

فمن مات ساجداً يُبعث يوم القيامة ساجداً .. وَمَنْ مات مُحرماً في الحج يُبعث يوم القيامة مُلبياً ... وهكذا فَكُلِّ مَنْ مات على طاعة يُبعث على نفس الحالة التي مات عليها.

❁ وفي المقابل: فمن مات على معصية - عياداً بالله من سوء الخاتمة - فإنه يُبعث يوم القيامة على الحالة التي مات عليها.
أسأل الله أن يرزقني وإياكم حُسن الخاتمة.

عن ابن عباس أن رجلاً كان مع النبي ﷺ مُحرماً فوقصته^(١) ناقتَه فمات، فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بِمَاءٍ وَسِدْرٍ وَكَفَّنُوهُ فِي ثَوْبِهِ وَلَا تَمْسُوهُ بِطِيبٍ وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلْبِياً» وفي رواية «ملبداً»^{(٢)(٣)}.

ﷺ

(١) وقص: وقصت الدابة براكبتها: رمت به، فكسرت عنقه.

(٢) ملبداً: تلييد الشعر أن يجعل فيه شيء من صمغ عند الإحرام، لئلا يشعث ويقمل إبقاءً على الشعر، وإنما يلبد مَنْ يطول مُكثه في الإحرام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٦٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٢٠٦) كتاب الحج.

(١٣) باب في بيان كثرة طرق الخير

❖ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [الجاثية: ١٥]، والآيات في الباب كثيرة.

❖ إن من كمال رحمة الله ﷻ أنَّهُ لا يحرمنا الثواب على أى عملٍ صالحٍ نعمله مهما كان صغيراً أو كبيراً.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقال ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^(١).

❖ وقد يفعل الإنسان الخير لنفسه من خلال طاعة بدنية كالصلاة والصيام والجهاد... أو طاعة مالية كالزكاة والصدقة والنفقات... أو طاعة بدنية مالية كالجهاد فقد يكون بالنفس والمال.

❖ وقد يفعل الإنسان الخير لغيره: كبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الجار وكفالة اليتيم وقضاء حوائج الناس وإسداء النصيحة وتنفيس الكربات وتبشير المسلم بما يسره والشفاعة الحسنة وصنائع المعروف وإغاثة الملهوف وإصلاح ذات البين وإماطة الأذى عن الطريق ونصرة المظلوم وجبر الخواطر وتعليم الناس العلم الشرعى وغير ذلك من أبواب الخير الكثيرة التى وردت فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فما أجمل أن يحمل المؤمن فى قلبه الخير لكل الناس من حوله ثم يُحوّل هذه المشاعر وتلك الأحاسيس إلى واقع ملموسٍ فى دنيا الناس... فتتحرك

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢١) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٠٥) كتاب الزكاة.

جوارحه من أجل بذل المعروف وإيصال الخير لكل الناس من حوله.. فيُفرج هم المكروبين ويمد يد العون للفقراء واليتامى والمساكين.

راجيًا من وراء ذلك كله وجه الله والفوز برضوانه ومحبه ﷺ.

✽ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم، وأحبُّ الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبَةً، أو تقضى عنه دينًا، أو تطردُّ عنه جوعًا، ولأنَّ أمشي مع أخى المسلم في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا، ومن كفَّ غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزلُّ الأقدام، وإنَّ سوء الخُلُق يُفسدُ العملَ، كما يُفسدُ الخلُّ العسل»^(١).

اقضِ الحوائجَ ما استطعتَ ستَ وكنْ لهمَّ أخيكَ فارحَ

فلخَيْرُ أيامِ الفتى يومٌ قضى فيه الحوائجَ

والأصل في المسلم أن يعين إخوانه على نوائب الدهر، ومتاعب العمر، ومصائب الحياة؛ بسدِّ خلَّتْهم، والشد من أزْرهم، وقضاء حاجتهم، والقيام على مصالحهم، وإعانة محتاجهم، ومساعدة ضعيفهم، ورعاية شئونهم، ومُناصرة مظلومهم، والأخذ على يد ظالمهم؛ لتستقيم حياتهم، ويصلح بهم ولهم معاشهم، فكأنهم جسدٌ واحدٌ، مختلط المشاعر، متَّحدُ الشعائر، متمازجُ الأحاسيس، متوافقُ العواطف.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو، تداعى

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني في «المعجم الكبير»، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٩٠٦)، و «صحيح الجامع» رقم (١٧٦).

له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

ولا خير فيمن يحجب خيرَه عن غيره، ويزوى معروفه عمَّن يستحقه، ولا يعطى كل ذى حَقٍّ حَقَّهُ.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لقد أتى علينا زمانٌ، وما أحدٌ أحقَّ بديناره ودرهمه من أخيه المسلم... ثم الآن الدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كم من جارٍ متعلق بجاره يوم القيامة، يقول: يا رب، هذا أغلق بابَه دوني، فمَنع معروفه»^(٢).

ومَن يكون هذا حاله، فوجوده كعدمه، وحضوره كغيابه، وموته كحياته فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أقوامًا يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويُقرها فيهم ما بذلوا، فإذا منعوها، نزعها منهم، فحوَّلَها إلى غيرهم»^(٣).

وقال فيض بن إسحاق رحمته الله: كنت عند الفضيل بن عياض رحمته الله: فجاء رجل فسأله حاجة، فألحَّ في السؤال عليه، فقلت: لا تُؤذِ الشيخ، فزجرني الفضيل، وصاح عليّ، وقال: أما علمت أن حوائج الناس إليكم نعمٌ من الناس عليكم؟! فاحذروا أن تملوا النعم فتحوَّلَ نَقَمًا... ألا تحمد ربك أن جعلك موضعًا تُسأل، ولم يجعلك تُسأل»^(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا بعث عُماله شرط عليهم أمورًا؛ منها: ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، فإن فعلتم شيئًا من ذلك حَلَّتْ بكم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى في الأدب المفرد، وصححه الألبانى في الصَّحِيحَة: (٢٦٤٦)، وصَّحَّح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ: (٢٥٦٤)، وصَّحَّحِ الْأَدَبِ الْمُفْرَدَ: (٨١).

(٣) حسن: أخرجه ابن أبى الدنيا في قضاء الحوائج، والطبرانى في الكبير، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٢١٦٤).

(٤) كتاب الحداثق / ابن الجوزى، (٢ / ٣٨٥).

العقوبة، ثم يشيعهم^(١).

وليس الأمر بالعسير، وإنما يحتاج من العبد الصالح نية حسنة، وإرادة صادقة، وكفًا ممتدة، ونفسًا هينة لينة، وقلبا ممتلئًا بحب الخير للغير، وتحريرًا لمواضع الإحسان، وحرصًا على البذل والعطاء... وإنَّ العبد ليدرك بنيته ما لا يدرك بِعَمَلِهِ.

قال عبدان بن عثمان الأزدي: ما سألني أحدٌ حاجة إلا قمت له بنفسى، فإن تمَّ وإلا قمت له بمالى، فإن تمَّ وإلا استعنت له بالإخوان، فإن تمَّ وإلا استعنت بالسلطان^(٢).

أتى سائل سفيان بن عيينة، فلم يكن معه ما يعطيه، فبكى، فقيل: يا أبا محمد! ما الذى أبكاك؟ قال: أى مصيبة أعظم من أن يؤمَّلَ فيك رجلٌ خيرًا فلا يصيبه^(٣).

وقال حكيم بن حزام: ما أصبحت وليس بياىى صاحب حاجة، إلا علمتُ أنها من المصائب التى أسأل الله الأجر عليها^(٤).

وفعل المعروف حماية من كل وبال، وصيانة للنفس فى أى حال، ووقاية من كل ما يُتَّقى، ودرع حصينة من أى أذى، وهو سبب لحسن الخاتمة، ومهاد لطيب العاقبة.

قال رسول الله ﷺ: «صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقْضِى مَصَارِعَ الشُّوْءِ وَالْآفَاتِ وَالْهَلَكَاتِ، وَأَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمُ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ»^(٥).

(١) مشكاة المصابيح / التبريزى، تحقيق الألبانى، (٢ / ١١٠١)، (٣٧٣٠).

(٢) سير أعلام النبلاء / الذهبى (١٠ / ٢٧١).

(٣) وفيات الأعيان / ابن خلكان (٢ / ٥٩٣).

(٤) سير أعلام النبلاء / الذهبى (٣ / ٥١).

(٥) صحيح: أخرجه الحاكم فى المستدرک، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٩٥).

وصانع المعروف مأجورٌ على فعله، مُثابٌّ على عمله، سواء كان لفقير أو لغنيٍّ؛ لكبيرٍ أو لصغيرٍ.. لعظيمٍ أو لحقيرٍ... لبشرٍ أو لمن ليس من جنس البشر!!
 فعن علقمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَنَعَتْهُ إِلَى غِنَى أَوْ فَقِيرٍ فَهُوَ صَدَقَةٌ» ^(١).

ولو لم يكن في المعروف إلا الأجر والثواب، وإعانة رب الأرباب، لكفى داعيًا إليه، ومُرجبًا فيه؛ وحاتًا عليه.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه، ومَن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة» ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٩) الأول: عن أبي ذرٍّ جُنْدَب بن جُنَادَةَ رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أيُّ الأعمالِ أَفْضَلُ؟ قال: «الإيمانُ بالله، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ». قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قال: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قال: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ» قُلْتُ: يا رسول الله أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قال: «تَكُفُّ شَرَكٌ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» ^(٣).

❖ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ يسألون دائمًا عن أفضل الأعمال؛ لأن همتهم في السماء عالية لا ترضى بأقل الأعمال.. بل بأفضل الأعمال وأحبها

(١) حسن: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٥٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥١٨) كتاب العتق، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

«الصانع» بالصاد المهملة هذا هو المشهور - ورؤى «صائغًا» بالمعجمة: أي ذَا صِيَاعٍ مِنْ فَقْرٍ أَوْ عِيَالٍ، ونحو ذلك - «والأخرق»: الَّذِي لَا يُتَّقِنُ مَا يُحَاوِلُ فِعْلَهُ.

إلى الله... فهذا ابن مسعود رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

وهم إذا سألوا فإنهم يسألون من أجل أن يعملوا وليس من باب المعرفة النظرية.. بل كانوا أحرص الناس على العمل بما يعلموا.

❁ وفي هذا الحديث يسأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له: يا رسول الله أى الأعمال أفضل؟.. أى: أيها أكثر ثواباً عند الله تعالى وأفضلها وأحبها عند الله.

فقال له صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

فالإيمان بالله جزاؤه الخلود في الجنة والفوز برضى الرحمن (جَلَّ وعلا) ولا شىء فوق ذلك.

والإيمان بالله هو الإيمان بوجوده (سبحانه وتعالى) والإيمان بوحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

وَأَمَّا قَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ سُئِلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ففیه تصريح بأن العمل يُطلق على الإيمان... وَالْمُرَادُ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ الْإِيمَانُ الَّذِي يَدْخُلُ بِهِ فِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ التَّصَدِيقُ بِقَلْبِهِ وَالنُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ فَالتَّصَدِيقُ عَمَلُ الْقَلْبِ وَالنُّطْقُ عَمَلُ اللِّسَانِ^(١).

وأما الجهاد فذروة سنام الإسلام.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَجٍ يُخْرِجُكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ۝١٠ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُقْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرَ لَكُمْ

ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾

[الصف: ١٠-١٢].

❖ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ: مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).

❖ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٢).

❖ وقد استشكل على بعض الناس أن النبي ﷺ في بعض الأحاديث كان يُسأل: أَى الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ فيقول مثلاً: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» ثم «بِرِ الْوَالِدَيْنِ».. وفي حديثٍ آخر يقول: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» ثم «الْجِهَادُ»، وفي حديثٍ ثالث يقول: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

فكيف نجمع بين تلك الأقوال؟

قال الإمام الحليمي أن شيخه الإمام القفال الشاشي الكبير جَمَعَ بَيْنَهَا بِوَجْهَيْنِ

فقال رحمته الله:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ ذَلِكَ اخْتِلَافٌ جَوَابٍ جَرَى عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ... فَإِنَّهُ قَدْ يُقَالُ خَيْرُ الْأَشْيَاءِ كَذَا وَلَا يُرَادُ بِهِ خَيْرُ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَشْخَاصِ بَلْ فِي حَالٍ دُونَ حَالٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ... وَاسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ بِأَخْبَارٍ مِنْهَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَبَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَحْجَّ أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِينَ غَزْوَةً... وَغَزْوَةٌ لِمَنْ حَجَّ أَفْضَلُ مِنْ أَرْبَعِينَ حَبَّةً».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

الوجه الثاني: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ كَذَا أَوْ مِنْ خَيْرِهَا أَوْ مِنْ خَيْرِكُمْ مَنْ فَعَلَ كَذَا فَحُذِفَتْ (مِنْ) وَهِيَ مُرَادَةٌ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ أَعْقَلَ النَّاسِ وَأَفْضَلُهُمْ وَيُرَادُ أَنَّهُ مِنْ أَعْقَلِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ ... وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ» وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ خَيْرَ النَّاسِ مُطْلَقًا^(١).

❁ ثم سأل أبو ذر، وقال للنبي ﷺ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا».

❁ أَمَّا قَوْلُهُ ﷺ فِي الرِّقَابِ: «أَفْضَلُهَا أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» فَالْمُرَادُ بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتِقَ رَقَبَةً وَاحِدَةً أَمَّا إِذَا كَانَ مَعَهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ وَأَمْكَنَ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا رَقَبَتَيْنِ مَفْضُولَتَيْنِ أَوْ رَقَبَةً نَفِيسَةً مُثْمَنَةً فَالرَّقَبَتَانِ أَفْضَلُ... وَهَذَا بِخِلَافِ الْأُضْحِيَّةِ فَإِنَّ التَّضْحِيَّةَ بِشَاةٍ سَمِينَةٍ أَفْضَلُ مِنَ التَّضْحِيَّةِ بِشَاتَيْنِ دُونَهَا فِي السَّمَنِ. قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي الْأُضْحِيَّةِ اسْتِكْثَارُ الْقِيَمَةِ مَعَ اسْتِقْلَالِ الْعَدَدِ أَحَبُّ إِلَى مَنْ اسْتِكْثَارِ الْعَدَدِ مَعَ اسْتِقْلَالِ الْقِيَمَةِ ... وَفِي الْعَتَقِ اسْتِكْثَارُ الْعَدَدِ مَعَ اسْتِقْلَالِ الْقِيَمَةِ أَحَبُّ إِلَى مَنْ اسْتِكْثَارِ الْقِيَمَةِ مَعَ اسْتِقْلَالِ الْعَدَدِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْأُضْحِيَّةِ اللَّحْمُ ... وَلَحْمُ السَّمِينِ أَوْفَرُ وَأَطْيَبُ وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْعِتْقِ تَكْمِيلُ حَالِ الشَّخْصِ وَتَخْلِيصُهُ مِنْ ذُلِّ الرِّقِّ ... فَتَخْلِيصُ جَمَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ تَخْلِيصِ وَاحِدٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

❁ قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ.. أَي: إِنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ لَمْ أَسْتَطِعْ.. قَالَ ﷺ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْأَخْرَقُ هُوَ الَّذِي لَيْسَ بِصَانِعٍ... يُقَالُ رَجُلٌ أَخْرَقَ وَامْرَأَةٌ خَرَقَاءُ لِمَنْ لَا صَنْعَةَ

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٠٢-١٠٣) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٠٤-١٠٥) بتصرف.

لَهُ فَإِنْ كَانَ صَانِعًا حَازِقًا قِيلَ رَجُلٌ صَنَعَ بِفَتْحِ النَّوْنِ وَامْرَأَةً صَنَاعٌ بِفَتْحِ الصَّادِ^(١).
 ✽ قال أبو ذر رضي الله عنه: «رَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكْفُ شَرَّكَ
 عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ».

وهذا أدنى شيء يستطيع أن يفعله الإنسان .. وهو أن يكف شره عن الناس .. وهذا أمر يستطيع أن يفعله أى إنسان .. فإن فعل ذلك وكف شره عن الناس فإنها تكون صدقة منه على نفسه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٠) الثانى: عن أبى ذر رضي الله عنه أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ. وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(٢).

قال صلى الله عليه وسلم: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» السُّلَامَى هِيَ الْعِظَامُ أَوْ مَفَاصِلُ الْعِظَامِ .. يَعْنَى أَنَّهُ يَصْبِحُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ عَلَى كُلِّ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِهِ ... أَى عَلَى كُلِّ مَفْصَلٍ مِنْ مَفَاصِلِهِ.

ومن المعلوم أن البدن فيه ثلاثمائة وستون مفصلاً ما بين صغير وكبير كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَلَى سِتِينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصَلٍ عَلَى كُلِّ مَفْصَلٍ صَدَقَةٌ»، فَيُصْبِحُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتُونَ صَدَقَةً.

«يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ» إِذَا أَصْبَحَ سَلِيمًا مِنَ الْآفَاتِ بَاقِيًا عَلَى الْهِئَةِ الَّتِي تَتِمُّ بِهَا مَنَافِعُهُ وَأَفْعَالُهُ «صَدَقَةٌ» عَظِيمَةٌ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى عَظِيمِ مَتْنِهِ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ تَدْفَعُ الْبَلَاءَ ... فَبُجُودُهَا عَنْ أَعْضَائِهِ يُرْجَى دَوَامُ انْدِفَاعِ

(١) مسلم بشرح النووي (٢/٩٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

«السُّلَامَى»: الْوِفْصَلُ.

البلاء عنها^(١).

❁ ولكن تلك الصدقات ليست صدقات مالية فقط بل هي صدقات تشمل كل أبواب الخير « فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ » أى قول: سبحان الله صدقة. « وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ » أى قول: لا إله إلا الله صدقة. « وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ » أى قول: الحمد لله صدقة. « وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ » أى قول: الله أكبر صدقة ... والأمر بالمعروف صدقة؛ لأنك تدل الناس على الخير .. والنهى عن المنكر صدقة؛ لأنك تمنع الناس من الوقوع فى الشر وكل ما يغضب الله ..

وليس المقصود هو الاختصار على تلك الأشياء .. وإنما ذكر لنا النبى ﷺ ذلك لنعلم أن كل خير نفعله فهو صدقة سواء كان ذلك يعود علينا بالخير أو على غيرنا .. لكن المقصود أن تتصدق عن نفسك كل يوم بثلاثمائة وستين صدقة ... وكأنك تقول: فإن لم أستطع. فإذا بالنبى ﷺ يقول لك: « وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى » .. وهذا دليل على أن صلاة الضُّحَى سنة كل يوم لكى تقضى الصدقات التى عليك كل يوم (٣٦٠ صدقة).

قال أهل العلم: يتدئ وقت صلاة الضحى من بعد شروق الشمس بثلاث ساعة تقريباً ويستمر إلى قبيل صلاة الظهر بثلاث ساعة تقريباً.

لكن قال العلماء: إن تأخير ركعتى الضحى إلى آخر الوقت أفضل من تقديمها، كما كان النبى ﷺ يستحب أن يؤخر صلاة الضحى إلى آخر الوقت، إلا مع المشقة.

فالحاصل أن الإنسان قد فتح الله له الكثير والكثير من أبواب الخير .. وأن كل ما يفعله من ذلك الخير فإن الحسنه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

(١) دليل الفالحين (١/ ٢٩٧).

(١٢١) الثالث عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى أَعْمَالٍ أُمْتَى حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدَتْ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الْأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدَتْ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النَّخَاعَةُ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ»^(١).

✽ قوله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى أَعْمَالٍ أُمْتَى حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا» أَيْ أَنْ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ الْأَعْمَالُ مِنْ خِلَالِ الْوَحْيِ عَنْ طَرِيقِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فعرض الله ﻋَزَّ وَجَلَّ على نبينا محمد ﷺ المحاسن والمساوي من أعمال الأمة، فوجد من محاسنها «الأذى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ»، ويُمَاطُ: يَعْنَى يُزَالُ، وَالْأَذَى مَا يُوْذِي الْمَارَّةَ مِنْ شَوْكٍ، وَأَعْوَادٍ، وَأَحْجَارٍ، وَزَجَاجٍ، وَأَرْوَاثٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. كُلُّ مَا يُوْذِي فِإِمَاطَتِهِ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) أَنَّ إِمَاطَةَ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، فَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَفِيهِ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ ... وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢).

وَعَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَمَاطَ أَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ وَمَنْ تَقَبَّلَتْ مِنْهُ حَسَنَةٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَنْحِيزَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤).

فَإِذَا وَجَدْتَ فِي الطَّرِيقِ أَى شَيْءٍ يُوْذِي النَّاسَ فَأَمِطْهُ عَنِ الطَّرِيقِ لِأَنَّ هَذَا مِنْ مَحَاسِنِ أَعْمَالِكَ وَهُوَ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِ الْإِيمَانِ وَهُوَ صَدَقَةٌ لَكَ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٥٣) كتاب المساجد

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

(٣) حسن: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٩٨).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة.

وإذا كان هذا من المحاسن ومن الصدقات، فإن وضع الأذى في طريق المسلمين من مساوئ الأعمال... فهؤلاء الناس الذين يلقون القشور... قشور البطيخ أو البرتقال أو الموز أو غيرها في الأسواق في ممرات الناس، لاشك أنهم إذا آذوا المسلمين فإنهم مأزورون... قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

قال العلماء: ولو زلق به حيوان، أو إنسان فانكسر، فعلى من وضعه ضمانه... يضمنه بالدية أو بما دون الدية إذا كان لا يحتمل الدية... المهم أن هذا من أذية المسلمين.

وكذلك ما يفعله بعض الناس من إراقة المياه في الشوارع والأسواق مما يتسبب في فساد الأسفلت بسبب أن كثرة المياه تذيب الأسفلت.. وكذلك فتلك المياه تسبب الأذى للناس... فربما تمر سيارة فتغرق ملابسه بالمياه المختلطة بالأتربة.. إلى غير ذلك.

فينبغي علينا ألا نلقى أى شىء يؤذى الناس في الطرقات.. وكذلك ينبغي علينا أن نُميط الأذى عن طريق الناس فلنا بذلك صدقة.

❁ ثم قال ﷺ: «ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تُدفن» النخاعة يعنى النخامة، وسُميت بذلك لأنها تخرج من النخاع، النخامة تكون في المسجد لا تُدفن، لأن المسجد في عهد الرسول ﷺ مفروش بالحصى الصغار... فالنخامة تُدفن في التراب، أما عندنا الآن فليس هناك تراب، ولكن إذا وجدت فإنها تحك بالمنديل حتى تذهب.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِي أَعْمَالِهَا النَّخَاعَةُ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ» هَذَا ظَاهِرُهُ أَنَّ هَذَا الْقُبْحَ وَالذَّمَّ لَا يَخْتَصُّ بِصَاحِبِ النَّخَاعَةِ بَلْ يَدْخُلُ فِيهِ هُوَ

وَكُلُّ مَنْ رَأَاهَا وَلَا يُزِيلُهَا بِدَفْنٍ أَوْ حَكٍّ وَنَحْوِهِ.

وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ فَلَا يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَكِنْ عَنْ شِمَالِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ» فِيهِ نَهْيُ الْمُصَلِّي عَنِ الْبُصَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَلْيَبْزُقْ تَحْتَ قَدَمِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ» هَذَا فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ أَمَّا الْمُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَبْزُقُ إِلَّا فِي ثَوْبِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «الْبُزَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ» فَكَيْفَ يَأْذَنُ فِيهِ ﷺ وَإِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبُصَاقِ عَنِ الْيَمِينِ تَشْرِيفًا لَهَا... وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: «فَلَا يَبْصُقُ أَمَامَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنْ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا».

قَالَ الْقَاضِي: وَالنَّهْيُ عَنِ الْبُزَاقِ عَنْ يَمِينِهِ هُوَ مَعَ إِمْكَانِ غَيْرِ الْيَمِينِ فَإِنْ تَعَذَّرَ غَيْرُ الْيَمِينِ بَأَنْ يَكُونَ عَنْ يَسَارِهِ مُصَلٍّ فَلَهُ الْبُصَاقُ عَنْ يَمِينِهِ لَكِنْ الْأَوَّلَى تَنْزِيهُ الْيَمِينِ عَنْ ذَلِكَ مَا أَمَكَّنَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبُزَاقَ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ مُطْلَقًا سِوَاءِ احْتِيَاجِ إِلَى الْبُزَاقِ أَوْ لَمْ يَحْتَجْ... بَلْ يَبْزُقُ فِي ثَوْبِهِ فَإِنْ بَزَقَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَدْ ارْتَكَبَ الْخَطِيئَةَ وَعَلَيْهِ أَنْ يُكَفِّرَ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ بِدَفْنِ الْبُزَاقِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا» فَمَعْنَاهُ إِنْ ارْتَكَبَ هَذِهِ الْخَطِيئَةَ فَعَلَيْهِ تَكْفِيرُهَا كَمَا أَنَّ الزَّنَى وَالْخَمْرَ وَقَتْلَ الصَّيْدِ فِي الْإِحْرَامِ مُحَرَّمَاتٌ وَخَطَايَا وَإِذَا ارْتَكَبَهَا فَعَلَيْهِ عُقُوبَتُهَا... وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِدَفْنِهَا فَالْجُمْهُورُ قَالُوا الْمُرَادُ دَفْنُهَا فِي تُرَابِ الْمَسْجِدِ وَرَمْلِهِ وَخَصَاتِهِ إِنْ كَانَ فِيهِ تُرَابٌ أَوْ رَمْلٌ أَوْ حَصَاةٌ وَنَحْوُهَا وَإِلَّا فَيُخْرِجُهَا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢) الرابع عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلُّون كما نُصَلِّي، وَيُصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِقُضُولِ أَمْوَالِهِمْ قال: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ: إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ، وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»^(١).

✽ في هذا الحديث يظهر جلياً كيف كان التنافس بين أصحاب الرسول صلَّى الله عليه وآله في فعل الخيرات والحرص على الطاعات.

فلقد ذهب بعضهم إلى النبي صلَّى الله عليه وآله وقالوا له: «يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور».. أهل الدثور هم أهل الأموال الأغنياء..

ذهب أهل الدثور بالأجور.. أى أنهم استأثروا بالأجور.. فهم يصلون كما نُصَلِّي ويصومون كما نصوم ولكن عندهم أموال كثيرة يتصدقون بها ونحن ليس عندنا ما نتصدق به...

فهم يغبطون إخوانهم بما أنعم الله به عليهم من الأموال التي يتصدقون بها.. ولم يقولوا: إخواننا عندهم أموال كثيرة يركبون بها الدواب الفارهة ويسكنون القصور الشاهقة ويلبسون أجمل الثياب... فهم قد اشتكوا إلى رسول الله شكوى غبطة لا شكوى حسد أو اعتراض على الله عَزَّ وَجَلَّ.. فهم يطلبون من النبي صلَّى الله عليه وآله أن يدلهم على طاعة يتميزون بها عن هؤلاء الأغنياء الذين يتصدقون بأموالهم.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.

«الدُّثُورُ»: الأموال، واجدها: دَثَرٌ.

فقال النبي ﷺ: «أَوْ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدُقُونَ بِهِ» يعنى إذا فاتتكم الصدقة بالمال فهناك الصدقة بالأعمال الصالحة «إِنْ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ».

وهذا مبنى على معنى الصدقة فى الشريعة؛ فإن الصدقة فى الشريعة ليست هى الصدقة بالمال ... والصدقة بالمال نوع من أنواع الصدقة. فالصدقة إيصال الخير، والنفع للغير؛ ولهذا يوصف الله (جل وعلا) بأنه مُتَّصِدٌّ عَلَى عِبَادِهِ. كما ثبت فى صحيح مسلم بن الحجاج رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا سَأَلُوهُ عَنْ مَسْأَلَةِ الْقَصْرِ فِي السَّفَرِ.

فقال - عليه الصلاة والسلام -: «صَدَقَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»^(١).

فَاللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) يَتَصَدَّقُ عَلَى عِبَادِهِ، بِمَعْنَى: يُوَصِّلُ الْخَيْرَ وَمَا يَنْفَعُهُمْ لَهُمْ... فَالْصَّدَقَةُ: إِيْصَالُ الْخَيْرِ لِلْغَيْرِ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الْإِيْصَالُ مُتَعَدِّيًا، وَقَدْ يَكُونُ لَازِمًا... يَعْنَى: قَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ يُوَصِّلُ الْخَيْرَ لِنَفْسِهِ فَيَكُونُ مُتَّصِدًّا، وَيُوَصِّلُ الْخَيْرَ لْغَيْرِهِ فَيَكُونُ مُتَّصِدًّا عَلَى غَيْرِهِ.

ثُمَّ انْتَقَلَ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) إِلَى نَوْعٍ مِنَ الصَّدَقَةِ مُتَّعِدٍّ، فَقَالَ: «وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ» هَذَا تَمَثِيلٌ لِأَنْوَاعِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي فِيهَا النِّفْعُ الْمُتَّعَدَّى... فَذَكَرَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ... وَالْمَعْرُوفُ: هُوَ مَا عُلِمَ حُسْنُهُ... فَمَا عُرِفَ فِي الشَّرِيعَةِ حُسْنُهُ، فَهُوَ مَعْرُوفٌ.

وَالْمُنْكَرُ، ضِدُّهُ: مَا عُرِفَ فِي الشَّرِيعَةِ سُوءُهُ وَنِكَارَتُهُ، فَمِنْ أَمْرٍ بِمَا عُرِفَ فِي الشَّرِيعَةِ حُسْنُهُ فَقَدْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ (وَأَعْلَاهُ التَّوْحِيدُ)، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ - وَهُوَ مَا أَنْكَرَ فِي الشَّرِيعَةِ (وَأَعْلَاهُ الشُّرْكُ بِاللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا) - فَقَدْ نَهَى عَنِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٨٦) كتاب صلاة المسافرين.

المنكر... فإذا كل أمرٍ بمعروف صدقة لك، وكل نهى عن المنكر صدقة.

وتعليم العلم يدخل في ذلك، فهو من أنواع الصدقات، فمن لازم العلم تعلُّماً وتعليماً فإنه يتصدق في كل لحظة تمر عليه على نفسه، وكذلك على غيره؛ ولهذا أهل العلم أعظم الناس أجوراً إن صلحت نياتهم^(١).

❁ ولكن لا بُدَّ للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط:

الشرط الأول: أن يكون الأمر الناهي عالمًا بحكم الشرع، فإن كان جاهلاً فإنه لا يجوز أن يتكلم.

فمن منكرات الأمور: أن يتكلم الإنسان عن الشيء يقول: إنه معروف وهو لا يدرى أنه معروف أو يقول: إنه منكر وهو لا يدرى أنه منكر.

الشرط الثاني: أن يكون عالمًا بأن المُخاطَب قد ترك المأمور أو فعل المحظور.

الشرط الثالث: أن لا يترتب على النهي عن المنكر ما هو أنكر منه، فإن ترتَّب على ذلك ما هو أنكر منه، فإنه لا يجوز من باب درء أعلى المفسدتين بأدناهما.

فلو فرض أن شخصاً وجدناه على منكرٍ كأن يشرب الدخان مثلاً، ولو نهيناه عن شرب الدخان ذهب يشرب الخمر، فإننا لا ننهاء إذا كنا نعلم أن هذا الرجل سيُقَدِّم على ما هو أعظم فإننا لا ننهاء عن شرب الدخان عندئذ، لماذا؟ لأن شرب الدخان أهون من شرب الخمر... ودليل هذه المسألة قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. فسبُّ آلهة المشركين مصلحة مشروعة، لكن إذا ترتَّب عليها سبُّ الله عزَّ وجلَّ، وهو أهلٌ للثناء والمجد فإنه يُنْهَى عنه.

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٢١٤-٢١٥) بتصرف.

فالحاصل أنه لا بُدَّ أن لا يؤدي الإنكار إلى ما هو أنكر من المنكر؛ درءاً لأعلى المفسدتين بأدناهما.

ثم إنه يجب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن ينوَى بهذا إصلاح الخلق، لا الانتصار عليهم^(١).
 ❀ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَالثَّوَابُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ أَكْثَرُ مِنْهُ فِي التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّهْلِيلِ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرَضٌ كِفَايَةٌ وَقَدْ يَتَعَيَّنُ وَلَا يُتَصَوَّرُ وَقُوعُهُ نَفْلًا ... وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّهْلِيلُ نَوَافِلٌ ... وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَجْرَ الْفَرْضِ أَكْثَرُ مِنْ أَجْرِ النَّفْلِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَّمَا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ».

وَقَدْ قَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ ثَوَابَ الْفَرْضِ يَزِيدُ عَلَى ثَوَابِ النَّافِلَةِ بِسَبْعِينَ دَرَجَةً^(٢).
 ❀ ثم قال النبي ﷺ: «وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ».

يعنى إذا أتى الرجل امرأته في الحلال يريد بذلك إعفافها وإعفاف نفسه أو ينوَى بذلك أن يرزقه الله الذرية الصالحة فإن ذلك يكون له به صدقة.
 ❀ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجَمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوْ الْفِكْرِ فِيهِ أَوْ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٩٠).

(٢)، (٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٢٨) بتصرف.

يعنى أنه لو زنى ووضع شهوته فى الحرام كان عليه وزر... وكذلك إذا استغنى بالحلال عن الحرام وجامع زوجته فى الحلال فله أجر. ومن ذلك أيضًا: إذا أكل الإنسان طعامًا، فإنه ينال شهوته بالأكل والشرب، ومع ذلك لكونه يستغنى به عن الحرام فإنه يُكتب له به أجر، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبى وقاص: «وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِيٍّ أَمْرَاتِكَ»^(١)، كما روى الشيخان عن أبى مسعود الأنصارى عن النبى ﷺ قال: «إِذَا أَنْفَقَ الْمُسْلِمُ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٢).

❁ وهذه من منن الله العظيمة على أفراد هذه الأمة إذ جعل لهم من أعمالهم الدنيوية التى يقومون بها بالليل والنهار - وهم مضطرون إليها ولا ينفكون عنها - جعل لهم فيها أجرًا وثوابًا إذا هم قاموا بها إيمانًا واحتسابًا، تقربًا إلى الله وطلبًا لفضله ومرضاته... ومن تلك الأعمال النفقة على الأهل وإطعام الزوجة اللقمة فى فمها، وحتى معاشرتها لقضاء الوطر.

❁ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم منة الله ﷻ على هذه الأمة... ومظاهر ذلك:

(١) أن الله جعل ما يفعله العبد ويقوم به من العادات كالإنفاق على الأهل والولدان، وما يتلذذ به كمضاجعة الزوجة وإطعامها اللقمة فى فمها، جعل منها أعمالًا يُؤجر عليها العبد وتكون فى ميزان أعماله يوم القيامة عبادات... قال الإمام النووى: (إن الحظ إذا وافق الحق لا يقدر فى ثوابه؛ لأن وضع اللقمة فى فم الزوجة يقع غالبًا فى حال المداعبة، ولشهوة النفس فى ذلك مدخلٌ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥١) كتاب النفقات، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة.

ظاهر ومع ذلك إذا وجد القصد في تلك الحالة إلى ابتغاء الثواب حصل له بفضل الله^(١).

(٢) مَكَّنَ الله ﷻ عبده المؤمن أن يكون دائماً متصلاً به مُستحضرًا ثوابه ورؤيته له، وذلك بأن شرع له أن يبتغى وجهه الكريم في كل عملٍ يقوم به سواء كان هذا العمل فيه مجاهدة أو كان لذة للنفس.

(٣) إرادة الله ﷻ الشرعية أن يغتنم العبد كل وقته بما يفيده وينفعه في الآخرة، فلا يُضيع على نفسه شيئاً من عمره هباءً، لقدرة على أن يكون كل عمله بأجرٍ وثواب، ويتفرع عليه عظيم قدر وقت المؤمن إذ يمكنه أن يستثمره كله في طاعته سبحانه وتعالى.

(٤) يَسَّرَ - سبحانه وتعالى - لكل مسلمٍ أبواباً من الخير كثيرة، ضمن بها لكل عبدٍ ألا يعدم عملاً صالحاً له فيه الأجر والثواب... فَمَنْ مَنَّا يعجز أن ينوى بنومه ليلاً التقوى للعبادة وأداء صلاة الفجر في جماعة المسلمين وكذلك إذا أكل وشرب... وَمَنْ مَنَّا يعجز أن يجامع زوجته بنية إنجاب الذرية الصالحة التي تقوم بأمر الدين وهكذا.

ويتبين من ذلك أن الكثير منا مغبون يضيع عليه حسنات كثيرة لعدم استحضار النية عند قيامه بعباداته.

(٥) كرمه ﷻ حيث يقبل - مع غناه عن العباد وافتقارهم إليه - القليل ويثيبهم عليه... ودليله قوله ﷺ: «إذا أنفق المسلم نفقة». قال ابن حجر رحمه الله: «وحذف المقدار من قوله: «إذا أنفق» لإرادة التعميم ليشمل الكثير والقليل»^(٢). وأقول: إن تنكير كلمة «نفقة» يفيد التحقير... أي أدنى نفقة. كما أن من

(١) نقله ابن حجر في الفتح (١/١٣٧) من كلام النووي رحمه الله تعالى.

(٢) فتح الباري (٩/٤٩٨).

كرمه - سبحانه وتعالى - أنه هو الذى رزق العباد ثم إذا هم أنفقوها فيما يحبونه ويتلذذون به باحتسابٍ ونية أثابهم على ذلك.

الفائدة الثانية: من شروط قبول العبادة واستحقاق العباد الأجر والثواب عليها أن يتغى العبد بها وجه الله ... أى يطلب بها ثواب الله ورضاه والتقرب إليه، وأن يقصد بالقيام بها طلب الأجر، وهو المقصود من قوله ﷺ: «وهو يحتسبها»، ولكن كيف يحتسب العبد النفقة على أهله.

قال الإمام النووي: (وطريقه فى الاحتساب أن يتذكر أنه يجب عليه الإنفاق على الزوجة وأولاده وغيرهم ممن تجب نفقته على حسب أحوالهم واختلاف العلماء فيهم وأن غيرهم ممن ينفق عليه مندوب إلى الإنفاق عليهم فينفق بنية أداء ما أمر به وقد أمر بالإحسان إليهم) ^(١).

الفائدة الثالثة: كل عمل يستطيع كسبه من الحرام فيعدل عنه إلى الحلال والمشروع من الدين فإن له فيه أجراً، لقوله ﷺ: «أرايتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر؟! فكذلك إذا وضعها فى الحلال»، فالرجل الذى يستطيع أن يكسب عيشه من حرام فعف عنه والتمس رزقاً حلالاً كان له فى ذلك أجر ^(٢).

(١٢٣) الخامس عن أبى ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لى النبىُّ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ» ^(٣).

احرص على أن تفعل أى معروف وأن تعمل أى خير ولا تحتقر أى معروف مهما كان فلربما تحتاج يوم القيامة حسنة واحدة تدخل بها الجنة .. فأنت لا تدري ما العمل الذى ستدخل به الجنة.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٧ / ٨٩).

(٢) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١ / ٢٨٨-٢٨٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب.

فقد تقوم الليل كله تصلى وتبكي من خشية الله .. فإذا أصبح الصباح وخرجت من بيتك ذاهباً إلى عملك فرأيت طفلاً يتيماً فمسحت على رأسه وأعطيته قطعة شيكولاتة صغيرة... فلربما تدخل الجنة بما فعلته مع ذلك الطفل اليتيم... وليس في ذلك تقليل لشأن القيام .. لكن أفضل الأعمال ما تعدى نفعه للغير.

فإذا وجدت خيراً تظن أن ثوابه قليل فلا تحتقر هذا الخير وافعله عسى أن يكون سبباً لدخولك الجنة.

❁ قوله ﷺ: «ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

ربما تدخل الجنة ببسمة ابتسمتها في وجه مسلم يائس من الحياة فأعدت إلى قلبه الأمل ببسمة... ولذا أخبر النبي ﷺ أن «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة».

ولذا فعليك أن تكثر من التبسم.

فهذا هو هدى نبينا ﷺ... فعن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»^(١).

واعلم أن ثمرات التبسم لا تقتصر على تكثير الحسنات وتكفير السيئات وكسب قلوب الناس بل إنه يبعث على السرور والانشراح ويجعلك تستمتع بمباهج الحياة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٤) السادس: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ،

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی مختصر الشائل (١٩٤)، هداية الرواة (٤٦٧٦).

وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَدَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(١).

ورواه مسلم أيضًا من رواية عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثُمِائَةِ مِفْصَلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمَدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ السَّتِّينَ وَالثَّلَاثُمِائَةِ، فَإِنَّهُ يُمْسَى يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحَزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ».

✽ قال الإمام النووي رحمته الله:

قوله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ» السُّلَامَى: أَعْضَاءُ الْإِنْسَانِ، وَذَكَرَ أَنَّهَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ عَضْوًا. عَلَى كُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، وَكُلُّ عَمَلٍ بِرٍّ مِنْ تَسْبِيحٍ أَوْ تَهْلِيلٍ أَوْ تَكْبِيرٍ أَوْ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، فَمَنْ أَدَّى رَكَعَتَيْنِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمِهِ فَقَدْ أَدَّى زَكَاةَ بَدَنِهِ فَيَحْفَظُ بَقِيَّتَهُ.

وجاء في الحديث أن ركعتين في الضحى تقوم مقام ذلك^(٢).

وفي الحديث: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ»^(٣).

✽ قوله ﷺ: «كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ» يعني كل يوم يصبح على كل عضوٍ من أَعْضَائِنَا صَدَقَةٌ، أَي: ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ فِي الْيَوْمِ، فَيَكُونُ فِي الْأُسْبُوعِ أَلْفَانِ وَخَمْسُمِائَةٍ وَعِشْرُونَ. لَكِنْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَةَ عَامَةٌ فِي كُلِّ الْقُرْبَاتِ، فَكُلُّ الْقُرْبَاتِ صَدَقَاتٌ، وَهَذَا شَيْءٌ لَيْسَ بِصَعْبٍ عَلَى الْإِنْسَانِ، مَا دَامَ كُلُّ قُرْبَةٍ صَدَقَةٌ... فَمَا أَيْسَرُ أَنْ يُؤَدِيَ الْإِنْسَانُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٩).

❁ ثم قال ﷺ: «تعدل بين الاثنين صدقة» تعدل أي: تفصل بينهما إما بصلح وإما بحكم... والأولى العدل بالصلح إذا أمكن ما لم يتبين للرجل أن الحكم لأحدهما، فإن تبين أن الحكم لأحدهما حرم الصلح... وهذا قد يفعله بعض القضاة، يحاول أن يصلح مع علمه أن الحق مع المُدَّعي أو المُدَّعى عليه، وهذا مُحَرَّم؛ لأنه بالإصلاح لا بُدَّ أن يتنازل كل واحد عما ادَّعاه فيُحال بينه وبين حقه. إذا... العدل بين اثنين بالصلح أو بالحكم يكون صدقة... لكن إن علم أن الحق لأحدهما فلا يُصلح، بل يحكم بالحق.

❁ «وتعين الرجل في دابته» كأن تساعد على ركوب دابته أو سيارته إن كان عاجزاً عن ذلك.. أو ترفع له متاعه على الدابة أو تضع متاعه في شنطة السيارة فهذا كله صدقة في ميزان حسناتك...

❁ «والكلمة الطيبة صدقة» فقد تقول كلمة تكون سبباً في هداية إنسان من الكفر إلى الإسلام أو من المعصية إلى الطاعة.. وقد تقول كلمة تواسى بها حزينا أو تصلح بها بين مُتخاصمين أو تفتح الأمل في قلب يائس أو تُرضى بها والديك أو غير ذلك.

❁ «وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة» أي: صدقة على نفسك.. لأنك بكل خطوة تفوز بحسنة وتمحى عنك سيئة وترفع بها درجة.

❁ «وتميط الأذى عن الطريق صدقة» لأنك بذلك تُزيل الأذى عن طريق الناس فتكون سبباً في نجاتهم من الأذى الذي قد يحدث لهم من الشوك أو الزجاج أو الأحجار أو القمامة التي تُلقي على الطريق أو غير ذلك.. فتكون بذلك سبباً في نفع الناس ودفع الأذى عنهم في آنٍ واحد.. فكل هذا من الصدقات.

❁ فالشاهد: أن النبي ﷺ يحثنا على أن نُكثر من فعل الخيرات ومن فعل المعروف الذي يعود بالخير على أنفسنا وعلى كل الناس من حولنا.



(١٢٥) السابع: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»^(١).

✽ كتب سلمان رضي الله عنه إلى أبي الدرداء رضي الله عنه: يا أخى، عليك بالمسجد فالزمه؛ فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الْمَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ مُؤْمِنٍ»^(٢).

ما أجمل أن تتعلق قلوبنا بالمساجد فنسعد حين نذهب إلى المساجد ونشعر بالغربة والوحشة عندما نخرج منها.

فالمسلم لا يكتفى بمجرد صلاته في المسجد بل يحرص كل الحرص على أن يعتكف في المسجد ويحضر دروس العلم فيه ويجلس في حلقات تلاوة القرآن ليتعلم كيف يقرأ كتاب الله... فهو إنسان قد تعلق قلبه ببيت الله (جل وعلا).

✽ والنبي ﷺ في هذا الحديث يخبر أن (مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ) أى: مَنْ ذهب إلى المسجد غدوة.. أى ذهب أول النهار.. وذلك مثل أن يذهب لصلاة الفجر... «أَوْ رَاحَ» الرواح يُطلق على ما بعد الزوال.. مثل الذهاب إلى المسجد في صلاة الظهر أو العصر.

وقد يُطلق الرواح على مجرد الذهاب، كما في قول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى...» فَإِنْ مَعْنَى رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى: أى ذهب إلى المسجد في الساعة الأولى، لكن إذا ذُكرت الغدوة مع الرواح، صارت الغدوة أول النهار والرواح آخر النهار.

✽ فمن غدا إلى المسجد أو راح من أجل الصلاة أو طلب العلم أو الاعتكاف

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

«النُّزْلُ»: الْقُوَّةُ وَالرِّزْقُ وَمَا يَهَيِّئُ لِلضَّيْفِ.

(٢) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية، وحسنه الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (٦٧٠٢).

أو قراءة القرآن طلباً لمرضاة الله فإن الله يُعد له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح ..
والنُّزْلُ: هو ما يُعدُّ للضيف .. ولك أن تتصور ما أعدّه الله في الجنة لضيوف الرحمن
رُؤَاد المساجد فقد قال تعالى: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ،
وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٦) الثامن: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا نِسَاءَ
الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِبَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ»^(٢).

✽ إن للجار منزلة عظيمة في الإسلام .. فقد أوصى الله ﷻ بالإحسان إلى
الجار .. وكذلك أوصى النبي ﷺ بالإحسان إلى الجار.

قال الله سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ^(٣) وَالْجَارِ الْجُنُبِ^(٤)﴾ [النساء: ٣٦].

وعن ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني
بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه»^(٥) ^(٦).

✽ وفي هذا الحديث يوصي النبي ﷺ النساء المسلمات بالإحسان إلى
الجار.

فقال ﷺ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِبَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٦٦) كتاب الهبة، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.

قال الجوهري: الْفَرَسَنُ مِنَ الْبُعِيرِ: كَالْحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قَالَ: وَرُبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي الشَّاةِ.

(٣) الجار ذِي الْقُرْبَى: الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ.

(٤) الجار الْجُنُبِ: الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ.

(٥) أي: ظننت أنه سيبلغني عن الله الأمر بتورث الجار جاره. وفي هذا تأكيدٌ عظيمٌ على الحث على رعاية حقوقه.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٢٤) كتاب البر والصلة والآداب.

والفريسن من البعير كالحافر من الدابة .. وربما استعير في الشاة.
✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَعْنَاهُ: لَا تَمْتَنِعْ جَارَةً مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْهَدِيَّةِ لِجَارَتِهَا لِاسْتِقْلَالِهَا وَاحْتِقَارِهَا
الْمَوْجُودِ عِنْدَهَا بَلْ تَجُودُ بِمَا تَيَسَّرَ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا كَفَرِسِنْ شَاةٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ
الْعَدَمِ ... وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وقال
النبي ﷺ: «اتقوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١).

فإذا كان عندك حفنة من التمر أو بعض الخبز أو أى شىء ولو كان ليس له
قيمة عندك فلا حرج أن تقدميه هدية لجارتك .. فقد قال النبي ﷺ لأبى ذر
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(٢)، فإن الهدية
تجلب المحبة بين القلوب ولذا قال ﷺ: «تَهَادُّوا تَحَابُّوا»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٧) التاسع: وعن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ
وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى
عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٤).

✽ ففى هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أن الإيمان ليس شعبة واحدة ولا
خصلة واحدة ولكنه شُعَبٌ كثيرة تصل إلى بضع وسبعين شعبة .. يعنى من
ثلاث وسبعين إلى تسع وسبعين شعبة ... ولكن أفضلها كلمة واحدة ألا وهى:
لا إله إلا الله .. التى من أجلها خلق الله السماوات والأرض وأنزل الكتب

(١) مسلم بشرح النووي (١٦٨/٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٥) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) حسن: رواه أبو يعلى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٠٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

«البضع» من ثلاثة إلى تسعة، بكسر الباء وقد تَفَتَّحَ - «والشعبة»: القطعة.

وأرسل الرسل وخلق الجنة والنار ... فمن قال لا إله إلا الله وعاش من أجلها ومات عليها أدخله الله الجنة.. ومن أبى أن يقولها وعاش على الشرك والكفر ولم يتب ومات على ذلك أدخله الله النار.

❁ ولا يقبل الله من الإنسان أى شعبة من شعب الإيمان إلا إذا صحَّ توحيده وصحَّت عقيدته وتحققت عنده شروط لا إله إلا الله وهى: العلم واليقين والقبول والانقياد والصدق والإخلاص والمحبة ... فهى سبعة شروط لا بد من تحقيقها.

وَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو حَاتِمٍ ابْنُ حَبَّانَ: تَبَعْتُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مُدَّةً، وَعَدَدْتُ الطَّاعَاتِ، فَإِذَا هِيَ تَزِيدُ عَلَى هَذَا الْعَدَدِ شَيْئًا كَثِيرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى السُّنَنِ، فَعَدَدْتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْإِيمَانِ، فَإِذَا هِيَ تَنْقُصُ عَنِ الْبُضْعِ وَالسَّبْعِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَرَأْتُهُ بِالتَّدْبِيرِ، وَعَدَدْتُ كُلَّ طَاعَةٍ عَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْإِيمَانِ فَإِذَا هِيَ تَنْقُصُ عَنِ الْبُضْعِ وَالسَّبْعِينَ، فَضَمَمْتُ الْكِتَابَ إِلَى السُّنَنِ وَأَسْقَطْتُ الْمُعَادَ فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ عَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَبِيُّهُ ﷺ مِنَ الْإِيمَانِ: تِسْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ، فَعَلِمْتُ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ^(١).

❁ وقد يسأل سائل ويقول: ولماذا لم يذكر النبي ﷺ تلك الشعب كلها؟

والجواب: لم يذكرها النبي ﷺ لأجل أن يجتهد الإنسان بنفسه، ويتتبع نصوص الكتاب والسنة حتى يجمع هذه الشعب ويعمل بها... وهذا كثير أي أنه يكون في القرآن والسنة أشياء مبهمه يُبهمها الله ورسوله ﷺ من أجل امتحان الخلق ليتبين الحريص من غير الحريص.

فمثلاً ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، أو في السبع الأواخر من

رمضان، لكن لا تعلم في أي ليلة هي، من أجل أن يحرص الناس على العمل في كل الليالي رجاء هذه الليلة، ولو علمت بعينها لاجتهد الناس في هذه الليلة وكسلوا عن بقية الليالي... ومن ذلك ساعة الإجابة في يوم الجمعة: «فيها ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه»^(١) هذه أيضاً مُبهِمة من أجل أن يحرص الناس على التحرّي والعمل... كذلك في كل ليلة ساعة إجابة لا يوافقها أحدٌ يدعو الله سبحانه وتعالى إلا استجاب له.

كذلك أخبر النبي (عليه الصلاة والسلام): «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»^(٢) ولم يعدها.

وعلى هذا فإن قول النبي ﷺ هنا: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة»، ترك تعيينها من أجل أن نحرص نحن على تَتَبُّعها في الكتاب والسُّنة، حتى نجمع هذه الشُّعب، ثم نقوم بالعمل بها، وهذا من حكمة النبي ﷺ التي آتاه الله تعالى.

يقول الرسول ﷺ عن هذه الشُّعب: «أفضلها» أو «أعلاها قول: لا إله إلا الله» هذه الكلمة العظيمة لو وزنت السموات السبع والأرضين السبع وجميع المخلوقات لرجحت بهن، لأنها أعظم كلمة، وهي كلمة التوحيد التي إذا قالها الإنسان صار مسلماً، وإذا استكبر عنها صار كافراً... فهي الحدُّ الفاصل بين الإيمان والكفر.

ولذلك كانت أعلى شُعب الإيمان وأفضلها: «لا إله إلا الله»؛ أي لا معبود بحق إلا الله (عز وجل)، فكل المعبودات من دون الله باطلة إلا الله وحده لا شريك له.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٩٢) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٧) كتاب الذكر والدعاء.

«أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها» يعني الشيء الهين «إماطة الأذى عن الطريق»... «الأذى»: ما يؤذي المارة من شوكٍ أو خشبٍ أو حجرٍ أو غير ذلك... فإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان، وهذا يدل على سعة الإيمان وأنه يشمل الأعمال كلها.

«والحياء شعبة من الإيمان»، فالحياء من الله يُوجب للعبد أن يقوم بطاعة الله، وأن ينتهي عما نهى الله... والحياء من الناس يُوجب للعبد أن يستعمل المروءة، وأن يفعل ما يُجمله ويُزينه عند الناس، ويتجنب ما يُدنسه ويشينه، فالحياء كله من الإيمان.

وسئل النبي (عليه الصلاة والسلام) عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»، فإذا جمعت هذا الحديث بذاك الحديث الآخر تبين لك أن الإيمان كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة يشمل العقيدة، ويشمل القول، ويشمل الفعل... فيشمل عمل القلب - عقيدة القلب وعمل القلب - وقول اللسان وعمل الجوارح.

«لا إله إلا الله»: هي قول اللسان... «إماطة الأذى عن الطريق»: عمل الجوارح، «الحياء»: عمل القلب، «الإيمان بملائكته وكتبه»: اعتقاد القلب. فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يتضمن كل هذه الأربعة: اعتقاد القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح... وأدلة ذلك من الكتاب والسنة كثيرة.

في هذا الحديث: حثٌّ على إماطة الأذى عن الطريق، لأنه إذا كان من الإيمان فافعله يزدد إيمانك ويكمل.... فإذا وجدت أذى في الطريق؛ حجراً أو زجاجاً أو شوكاً أو غير ذلك، فأزله فإن هذا من الإيمان^(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٣٦٧-٣٦٨) بتصرف.

(١٢٨) العاشر : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بَيْئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبَيْئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِيهِ، حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ». قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ فَقَالَ : «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»^(١).

وفي رواية للبخاري : «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ» .

وفي رواية لهما : «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ، فَسَقَتْهُ فَغَفِرَ لَهَا بِهِ» .
 هاتان قصتان لرجل وامرأة، رأى كُلُّ منهما كلبًا عطشًا ، فرحمه وسقاه، فشكر الله لكل منهما، وغفر له ذنوبه ... وهكذا الإحسان إلى الحيوان تُغفر به الذنوب، ويُقرب العبد إلى ربه.

✽ أما الرجل فإنه كان يسير خارج دياره ، بعيدًا عن المساكن ، فعطش عطشًا شديدًا، فمرَّ ببئرٍ لا يوجد عليها سقاء، فنزل إلى أسفل البئر، فشرب حتى ارتوى، وصعد، فوجد كلبًا قد عطش عطشًا شديدًا، ولشدة عطشه كان يمد لسانه فيضعه على التراب الرطب الذي بجوار البئر، ليخفف العطش الذي به.
 لقد ميَّز الله الإنسان بخصائص لا تملكها كثيرٌ من الحيوانات، ومن ذلك قدرة الإنسان على الاستسقاء من البئر بالدلو إن وجد، أو بالنزول إلى أسفل البئر كما فعل ذلك الرجل ... أما هذا الكلب فلا يستطيع أن يفعل شيئًا من ذلك، وكان سيهلك عطشًا إن لم يسقه أحد.

نظر الرجل إلى ذلك الكلب العطش، وتذكَّر حاله قبل أن يروى ظمأه، فقد بلغ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٦٣) كتاب الشرب والمساقاة، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام.

«الْمُوقُ»: الْخُفُّ - «وَيُطِيفُ»: يَدُورُ حَوْلَ «رَكِيَّةٍ» وَهِيَ الْبَيْئْرُ.

العطش بالكلب مثل الحال التي كانت به، ولكن أتى له أن يسقى الكلب، ولا دلو عنده ينزع به الماء، لقد نزل بنفسه إلى البئر فشرب، أما الكلب فلا بد من حمل الماء إليه ليشرب، ولم يجد وسيلة لإخراج الماء من البئر إلا بنزع خُفِّه ونزول البئر، ونقل الماء بها إلى الكلب ... وبما أنه لا يستطيع أن يمسك الخُفَّ بيديه لحاجته إلى يديه طليقتين كي يتمكن من نزول البئر وصعوده باستعماله لهما.

والإنسان يأنف أن يحمل خُفَّه بفمه ... فالخُفُّ لباس الرجل، يدوس الإنسان به الأرض، وقد يكون قذراً، وقد تفوح منه روائح عفنة، ولا يكاد الإنسان يُقرب في العادة خُفَّه أو نَعْلَه من فمه وأنفه، فضلاً عن أن يحمله بفمه. ولكن قوة الرحمة التي حَلَّتْ في قلبه دفعته إلى فعل ما فعله، فسقى الكلب بهذه الطريقة، فشكر الله له فعله، وغفر له ذنبه، وأدخله رحمته.

✽ أما المرأة التي سقت كلباً غفر لها، فإنها إحدى بغايا بنى إسرائيل اللواتي كنَّ يتعاطين الزنا، ويجعلنه مهنة يرتزقن منها، وعلى الرغم من مشاركتها للرجل في رحمتها للكلب العطش، ومغفرة الله لها بفعلها ذاك، فإن بينهما فروقاً بيّنة.

فقد كانت المرأة أعظم ذنباً من الرجل؛ لأنها كانت تتعاطى الزنا، ولم يُذكر مثل ذلك في الرجل ... فذنبها أشد وأعظم من هذه الجهة، ولم تكن قبل سقيها الكلب عطشة لبُعدها عن ديارهما كما كان الرجل ... وهذا الفرق بينهما يجعل دافع سقى الكلب عند المرأة دافعاً ذاتياً؛ لأن الرجل عندما رأى حال الكلب كان قد عانى من العطش مثل الذي عاناه الكلب، أما المرأة فلم يقع لها ذلك، ولذا فإن الدافع لها هو تألُّمها لرؤية الكلب العطش ورحمتها إياه، ولم تمر بتجربة مشابهة لحالة الكلب في عطشه كما حصل مع الرجل.

ولكن معاناة الرجل في سقيه الكلب كانت أشد من معاناة المرأة. فالمرأة جاءت إلى البئر، وكان مأواه قريباً، فلما لم تجد دلوّاً تُخرج الماء به

خلعت موقها، وهو الحذاء أو الخُف، وربطته بخمارها، وجعلته بذلك سقاءً تستقى به من البئر، فأخرجت الماء بهذه الطريقة، وسقت الكلب.

أما الرجل فيبدو أن ماء البئر كان بعيداً، وليس عنده من الثياب ما يكفى لربط خُفه، ونزع الماء بالطريقة التى تحدثنا عنها آنفاً، ولذا فإنه بذل جهداً مضاعفاً، وحَمَلَ الماء بطريقة يأنف كثيرٌ من الرجال والنساء أن يحمل الماء بها. وعلى الرغم من الفروق التى بين حالى الرجل والمرأة إلا أن الله غفر لكلٍّ منهما، وقد اشتركا فى عمل واحد... فقد رَحِمَ كُلُّ منهما كلباً عطِشاً، وسقاه، فرحمه الله برحمته للكلب، وغفر له^(١).

وهذا مصداق قول النبى عليه الصلاة والسلام: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله»^(٢) عملٌ يسير شكر الله به عامل هذا العمل، وغفر له الذنوب، وأدخله الجنة.

ولما حدّث النبى ﷺ الصحابة بهذا الحديث، وكانوا أشد الناس حرصاً على العلم، لا من أجل أن يعلموا فقط، ولكن من أجل أن يعلموا فيعملوا، سألوا النبى عليه الصلاة والسلام، قالوا: يا رسول الله، إن لنا فى البهائم أجراً؟ قال: «فى كل ذات كبدٍ رطبة أجر» لأن هذا كلب من البهائم، فكيف يكون لهذا الرجل الذى سقاه هذا الأجر العظيم... فاستغربوا ذلك ولهذا سألوا النبى ﷺ فقال: «فى كل ذات كبدٍ رطبة أجر» الكبد الرطبة تحتاج إلى الماء؛ لأنه لولا الماء ليست وهلك الحيوان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٩) الحادى عشر: وعن أبى هريرة رَوَاهُ ﷺ عن النبى ﷺ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَأَنَّهُ تُؤْذَى الْمُسْلِمِينَ»^(٣).

(١) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر رَوَاهُ ﷺ (ص ٢٢٥-٢٢٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٨) كتاب الرقاق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩١٤) كتاب البر والصلة.

وفي رواية: «مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُنَحِّينَ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ».

وفي رواية لهما: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخْرَهُ فَشَكَرَ اللَّهَ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ».

✽ أخبرنا رسول الله ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، ويخبرنا رسولنا ﷺ في قصة هذا الحديث أن رجلاً أدخله الله الجنة بتنحيته غُصْنِ شَوْكٍ عن طريق المسلمين حتى لا يؤذيهم.

✽ فهذا الحديث يحكى قصة رجل كان مازاً في إحدى الطرقات، فوجد غُصْنَ شجرة ذات شوكٍ يمتد على طريق المسلمين، فيتأذى منه المارُّون، فعزم على قطع ذلك الغصن، وإبعاده عن الطريق، وكان هدفه - الذى صرَّح به - تنحية الأذى عن طريق المسلمين، فغفر الله له عمله، وأدخله جنته، ورآه الرسول ﷺ يتقلب في الجنة بعمله هذا.

لقد عمل هذا الرجل قليلاً، وأجر كثيرًا، ورحمة الله واسعة، وفضله عظيم... وما فعله هذا الرجل حَثٌّ عليه ديننا... فقد أمرنا ﷺ بمثل فعله، فقال: «نَحِّ الْأَذَى مِنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ»^(١) وحذرنا تحذيرًا شديدًا من إيذاء المسلمين في طرقهم، وفي ذلك يقول ﷺ: «مَنْ آذَى الْمُسْلِمِينَ فِي طُرُقِهِمْ، وَجِبَتْ عَلَيْهِ لَعْنَتُهُمْ»^(٢).

والنصوص الواردة في هذا الموضوع كثيرة، وهى تدل على الخلق الراقى الذى يتصف به المسلمون العاملون بالإسلام، فهم يحرصون على نظافة

(١) صحيح: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٧٤٧).

(٢) حسن: رواه الطبرانى في الكبير، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٥٩٢٣).

طرقاتهم، وعدم تقذيرها وتوسيعها، ورفع الأذى عنها... يتصفون به دينًا يدينون الله به، ويرجون منه عليه الأجر والثواب، ولا يتكلفونه تكلفًا.

❁ ومن عبر هذه القصة وفوائدها:

(١) بيان فضل تنحية الأذى عن طريق المسلمين، وما فيه من أجرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل.

(٢) سعة رحمة الله، وعظم أجره، فقد أثنى هذا الرجل الكثير بإدخاله الجنة بالعمل القليل، وهو إمطة الأذى عن الطريق.

(٣) مدى مخالفة المسلمين لتعاليم دينهم، فترى بعضهم لا يكتفى بعدم تنحية الأذى عن طريق المسلمين، بل يرمى مخلفات منزله، وبقياء ما يأكله في طريق المسلمين.

(٤) الشجرة التي يجوز قطعها هي المؤذية للمسلمين، أما إذا كانت نافعة للمسلمين كالشجرة التي يستظل الناس في ظلها، فلا يجوز قطعها، وقد تهدد الرسول ﷺ قاطعها بالنار... ففي الحديث: «قاطع السدر يصبوب الله رأسه في النار» (١)(٢).

ففيه: دليل على فضيلة إزالة الأذى عن الطريق، وأنه سبب لدخول الجنة.

(٥) وفيه أيضًا: دليل على أن الجنة موجودة الآن؛ لأن النبي ﷺ رأى هذا الرجل يتقلب فيها، وهذا أمرٌ دلَّ عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة؛ أن الجنة موجودة الآن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

أُعدت: يعنى هُيئت، وهذا دليل على أنها موجودة الآن، كما أن النار أيضًا

(١) صحيح: رواه البيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٩٩).

(٢) صحيح القصص النبوي (ص ٢٤٢-٢٤٤) بتصرف.

موجودة الآن، ولا تفنيان أبداً، خلقهما الله ﷻ للبقاء لا فناء لهما، ومن دخلهما لا يفنى أيضاً... فمن كان من أهل الجنة كان خالداً مخلداً فيها أبداً الأبدين، ومن كان من أهل النار دخلها خالداً مخلداً فيها أبداً الأبدين.

(٦) وفي هذا الحديث: دليل على أن من أزال عن المسلمين الأذى فله هذا الثواب العظيم في أمر حسّي، فكيف بالأمر المعنوي؟ هناك بعض الناس والعياذ بالله أهل شرّ وبلاء، وأفكارٍ خبيثة، وأخلاق سيئة، يصدّون الناس عن دين الله، فيأزلة أفكار هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثير وأعظم أجراً عند الله... فإذا أزيل أذى هؤلاء، إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية، يُردّ عليها، وتبطل أفكارهم.

والواجب على ولاية الأمور أن يزيلوا الأذى عن طريق المسلمين. أى أن يزيلوا كلّ داعية إلى شر، أو إلى إلحاد، أو إلى مجون، أو إلى فسوق، بحيث يُمنع من نشر ما يريد من أى شىء كان من الشر والفساد، هذا هو الواجب^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٠) الثّاني عشر: وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ التَّوَضُّوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَا فَقَدْ لَغَا»^(٢).

✽ فالأغتسال والذهاب إلى صلاة الجمعة مبكراً والاستماع والإنصات إلى الإمام له فضلٌ عظيمٌ كما جاء في الحديث. فمن السنة التبكير إلى الصلاة، ساعياً إليها بالسكينة والوقار.

(١) شرح رياض الصالحين (١/٣٩٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وكلما بكر الإنسان بالذهاب إلى صلاة الجمعة كلما كان الأجر عظيمًا.

✽ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»^(١).

✽ وعن أوس بن أوس أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ عَمَلٌ سَنَةِ أَجْرٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(٢).

✽ فقولُه ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ».

وفي الرواية الأخرى: «مَنْ اغْتَسَلَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ. ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ. ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ. غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى، وَفُضِّلَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ»^(٣).

وقوله في هذا الحديث: «مَنْ تَوَضَّأَ» لا يُعارض ما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «غُسْلُ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»^(٤) فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الثَّانِي فِيهِ زِيَادَةٌ عَلَى الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ، فَيُؤْخَذُ بِهَا، كَمَا أَنَّهُ أَيْضًا أَصَحُّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَخْرَجَهُ الْأَئِمَّةُ السَّبْعَةُ، وَهَذَا لَمْ يَخْرُجْهُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨١) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٨٥٨) كتاب الأذان، ومسلم (٨٤٦) كتاب الجمعة.

إلا مسلم، فيجب أولاً على مَنْ أراد حضور الجمعة، أن يغتسل وجوباً، فإن لم يفعل كان آثماً، ولكن الجمعة تصح؛ لأن هذا الغسل ليس عن جنابة حتى نقول إن الجمعة لا تصح، بل هو غسل واجب كغيره من الواجبات، إذا تركه الإنسان آثماً، وإن فعله أثنى.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ اسْتِحْبَابُ تَحْسِينِ الْوُضُوءِ ... وَمَعْنَى إِحْسَانِهِ الْإِتْيَانُ بِهِ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَدَلِكُ الْأَعْضَاءِ وَإِطَالَةُ الْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلُ وَتَقْدِيمُ الْمَيَامِنِ وَالْإِتْيَانُ بِسُنَنِهِ الْمَشْهُورَةِ وَفِيهِ أَنَّ التَّنْفُلَ قَبْلَ خُرُوجِ الْإِمَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُسْتَحَبٌّ. وَفِيهِ أَنَّ النَّوَافِلَ الْمُطْلَقَةَ لَا حَدَّ لَهَا لِقَوْلِهِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَصَلِّ مَا قُدِّرَ لَهُ».

وفي هذا الحديث: دليل على فضيلة الاستماع إلى الخطبة والإنصات، فالاستماع: أن يراها بسمعه، والإنصات: ألا يتكلم، هذا هو الفرق بين الاستماع والإنصات... فيستمع الإنسان ويتابع بسمعه كلام الخطيب ولا يتكلم. وفيه أن الكلام بعد الخطبة قبل الإحرام بالصلاة لا بأس به.

❁ قوله رَحِمَهُ اللهُ: «غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَى الْمَغْفِرَةِ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَنَّ الْحَسَنَةَ بَعْشَرَ أَمْثَالِهَا، وَصَارَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ الَّذِي فَعَلَ فِيهِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الْجَمِيلَةَ فِي مَعْنَى الْحَسَنَةِ الَّتِي تُجْعَلُ بَعْشَرَ أَمْثَالِهَا. قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا: وَالْمُرَادُ بِمَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَخُطْبَتِهَا إِلَى مِثْلِ الْوَقْتِ مِنَ الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ حَتَّى تَكُونَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ بِلا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ وَيُضْمُّ إِلَيْهَا ثَلَاثَةٌ فَتَصِيرُ عَشْرَةً.

❁ قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ مَسَّ الْحَصَا لَغَا» فِيهِ النَّهْيُ عَنْ مَسِّ الْحَصَا وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَبَثِ فِي حَالَةِ الْخُطْبَةِ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى إِقْبَالِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى الْخُطْبَةِ. وَالْمُرَادُ بِاللَّغْوِ هُنَا الْبَاطِلُ الْمَذْمُومُ الْمَرْدُودُ^(١).

وقد كان في عهد الرسول ﷺ يُفرش المسجد بالحصى وهى الحصى الصغار مثل العدس، أو أكبر قليلاً، أو أقل... يُفرش بها بدل الفرش التى نفرشها الآن، فكان بعض الناس ربما يعبث بالحصى، يحركها بيده، أو يمسحها بيده، أو ما أشبه ذلك، فقال ﷺ: «مَنْ مَسَّ الحصى فقد لغا» لأن مَسَّ الحصى يُلهيه عن الاستماع للخطبة، وَمَنْ لغا فلا جمعة له... يعنى يُحرَم ثواب الجمعة التى فضلت بها هذه الأمة عن غيرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١) الثالث عشر: وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ، أَوْ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ يَبْطِشُهَا بِيَدَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»^(١).

❁ لم يفرض الله على عباده شيئاً إلا لحكمة، فهو لا يشرع شيئاً اعتباطاً ولا عبثاً، كما لا يخلق شيئاً باطلاً. وقد نعلم هذه الحكمة، وقد تخفى علينا، أو على بعضنا، ولكن جهلنا بها لا ينفى وجودها.

وللوضوء الذى فرضه الله على المسلمين إذا قاموا إلى الصلاة حِكْمٌ وفوائد وآثار طيبة، بعضها أخروى، وبعضها دنيوى... بعضها روحى، وبعضها مادى، وبعضها نفسى، وبعضها بدنى.

فمن الآثار الروحية أو الأخروية: ما صحَّت به الأحاديث من أن المسلم إذا تَوَضَّأَ فأحسن الوضوء خرجت خطاياهُ من جَسَدِهِ، حتى تخرج من تحت أظفاره.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٤) كتاب الطهارة.

ونحن لا نرى الخطايا تخرج من تحت الأظفار، لأننا لم نُؤتَ من الحواس ما نبصر به الخطايا، ولكننا نؤمن بكل ما صحَّ عن رسول الله ﷺ.
وعن عثمان رضي الله عنه: أنه توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: مَنْ توضأ مثل وضوئي هذا، ثم أتى المسجد فركع ركعتين، ثم جلس، غُفر له ما تقدم من ذنبه^(١).
قال: وقال رسول الله ﷺ: «لا تغتروا».

هذه الجملة توجيه نبوي مهم. وتحذير للمسلم من الوقوع في المعصية بارتكاب المحظور وترك المأمور، اتكالا على أنه بالوضوء يُغفر له، فهذا من الغرور المهلك، فينبغي أن يظل المؤمن بين الرجاء والخوف، فلا يغلبه الرجاء حتى يأمن مكر الله، ولا يغلبه الخوف حتى يئأس من روح الله.

هذه الأحاديث النبوية في فضل الوضوء وآثاره في إخراج الخطايا مع ماء الوضوء من جسد المتوضئ: لها أثرها كذلك في نفس المتوضئ، بما يشعر به من رضا وانسراح صدر، وسكينة نفس، بما أدى من واجب، وما حصل من فضل الله تعالى ومثوبته. حتى إنك لتسمع من كثير من المسلمين قولهم: الوضوء سلاح المؤمن. فهو يحس كأن الوضوء عدة وقوة له.

فالتطهارة المعنوية التي ينبغي أن يقصدها المسلم، هي تطهيره من الذنوب، فإذا غسل وجهه، خرجت كل خطايا نظر إليها بعينه.. وذكر العين والله أعلم إنما هو على سبيل التمثيل، وإلا فالأنف قد يخطئ والفم قد يخطئ، فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها، ولكن ذكر العين؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ في النظر.

فلذلك إذا غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه، حتى يكون

(١) صحيح: رواه البخاري (١٥٩) كتاب الوضوء.

نقيًا من الذنوب، ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يعنى ظاهراً وباطناً، حساً ومعنى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]. فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى، أى أن وضوءه يكون تكفيراً لخطيئاته، حتى يكون بهذا الوضوء محتسباً الأجر على الله ﷻ.

ولا يقف الأمر عند هذا الجانب النفسى، بل ترى للوضوء آثاره فى الجانب الصحى والوقائى للمسلم. بما يهيئه من نظافة الأعضاء التى تتعرض للأتربة والتلوث والاتساخ من جسم الإنسان، مثل الوجه والفم والأنف واليدين والرأس والأذن والرجلين، فالمسلم إذا توضأ: بدأ بغسل اليدين إلى الرسغين، ثم تمضمض فنظف فمه، واستنشق فنظف أنفه، واستخدم السواك فنظف أسنانه، وغسل وجهه، ثم غسل يديه إلى المرفقين، ثم مسح رأسه وأذنيه، وغسل رجله، ويُسَنُّ له أن يغسل كل عضوٍ ثلاث مرات، اقتداءً برسوله ﷺ، وأن يُخلل أصابع يديه ورجليه... وهو يُكرر ذلك عدة مرات فى كل يوم، قد تكون ثلاث مرات أو أربعاً أو خمساً بعدد صلوات اليوم^(١).

وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء، ولكن الله خفف فى الرأس، لأن الرأس يكون فيه الشعر، والرأس هو أعلى البدن، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر، لكان فى هذا مشقة على الناس، ولا سيما فى أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله ﷻ أن جعل فرض الرأس المسح فقط، فإذا توضأ الإنسان لاشك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيراً حسياً، وهو يدل على كمال الإسلام، حيث فرض على مُعتقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التى هى غالباً ظاهرة بارزة.

(١) فقه الطهارة / د. يوسف القرضاوى (ص ١٩٩-٢٠٢) بتصرف.

وهذا لا شك له أثره الصحي على هذه الأعضاء المتوضئة الطاهرة، وعلى الجسم كله معها، ويقى المسلم من أمراض كثيرة قد يتعرض لها غيره ممن لا يعرفون الوضوء.

❁ لكن لا بد لنا من وقفة هنا مع قوله ﷺ: «فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كانت بطشتها يده مع الماء»، فكلمة (بطش) بمعنى: أمسك.. فهنا خرجت من يديه كل خطيئة كانت أمسكتها يده، أو أي شيء من الحرام وقع فيه... أما أن يضرب مسلماً أو يلطمه على وجهه ومن ثم يتوضأ ويقول: ذهبت، فلم تذهب؛ لأنه حق الواجب فيه القصاص، فلا يذهب حتى يقتص منك أو يعفو عنك... إذاً: ليس حق الإنسان من الذنوب التي يكفرها الوضوء بل لا بد من ردّها أو التحلّل منها.

فلا يفهم أحدٌ بطشة اليد فهمًا خطأ... فبطش بمعنى: أمسك، وهذا هو أصل كلمة بطش، ومنها قول النبي ﷺ في الحديث: «يصعق الناس يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى باطش بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أو أخذ بصعقته الأولى؟!»، أي: يوم الطور؛ ولأنه صعق في الدنيا لم يصعق يوم القيامة، فالنبي ﷺ يقول: «لا أدري»، أي: أي الأمرين.. لكن المهم أن الناس يصعقون يوم القيامة ويكون أول من يفيق النبي ﷺ، «فإذا بموسى باطش»، بمعنى: مُمسك بقائمة العرش... فالمقصود أن كلمة بطش تفيد معنى أمسك بالشيء.

يقول ﷺ: «فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء»، إذا مشى إلى ذنب أو معصية فإذا تاب إلى الله فقام فتوضأ فإن الله يكفر عنه ذنوبه حتى يخرج نقيًا من الذنوب... والمراد هنا صغائر الذنوب التي ليس فيها حقٌ لمسلم، وإنما هي ذنوب بينك وبين الله عز وجل، أما ما فيه حقوق للناس فلا بد من إعطاء الناس حقوقهم... فإذا شتمت إنساناً أو أخذت ماله أو سفكت دمه أو ضربته، فإما أن تدفعها له في الدنيا بأن يقتص منك، أو تدفع له الجناية على ما

فعلت أو تستحلها منه، وإما أن يأخذها منك يوم القيامة حتى ولو كنت من أهل الجنة... فإنه إذا مرَّ الناس على الصراط وعبروه حُبسوا على قنطرة بينه وبين الجنة فيتقاصون مظالم كانت بينهم... مظالم كانت للعباد مع أنهم من أهل الجنة، فقد خرجوا من الصراط ولم يبقَ إلا أن يدخلوا الجنة... فلا يدخلوها حتى يتحللوا من المظالم التي بينهم... فالإنسان قبل أن يدخل الجنة إذا كانت عليه مظلمة لفلان فإنه يأخذ من حسناته ما ينتفع به ويدخل به الجنة، ولعل هذا كان قد استحق منزلة ثم نزل عنها بسبب أن فلاناً أخذ من حسناته كذا وكذا، فصعد هذا درجة في الجنة ونزل هذا الذي ظلمه درجة من الجنة... فاحذر من ظلم العباد^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢) الرَّابِعُ عَشَرَ : وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «الصلواتُ الخَمْسُ، والْجُمُعَةُ إلى الْجُمُعَةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ مُكْفَّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُمِعَتِ الْكِبَائِرُ»^(٢).

❁ لماذا جمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين الصلوات الخمس والجمعة ورمضان؟

لأن الصلاة كانت هي القاسم المشترك بين الثلاثة.. فالصلوات الخمس هي الركن الثاني بعد الشهادتين... والجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلمين وفيه يجتمع المسلمون في صلاة الجمعة التي تُغسل فيها القلوب وتزكَّى النفوس في خطبة يوم الجمعة.. وشهر رمضان يجتمع فيه المسلمون في الصلوات الخمس وكذلك في صلاة التراويح. فالصلاة هي أعظم شيء في حياة المسلم بعد التوحيد ولذا فقد اعتنى الإسلام بشأن الصلاة اهتماماً كبيراً.

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

فهى عمود الدين، ومفتاح الجنة، وخير الأعمال، وأول ما يُحاسب عليه المؤمن يوم القيامة. يذكرها القرآن فى دعاء الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ويمدح بها الذبيح إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]، ويأمر الله كلمه موسى بإقامتها أول ما يأمر به فى ساعات الوحى الأولى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣، ١٤]، ويوحى إليه وإلى أخيه هارون: ﴿أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: ٨٧]، وفى وصية لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وينطق المسيح عيسى فى مهده: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، ويأمر الله بها خاتم أنبيائه: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويجعلها صفة جوهرية من صفات المتقين تتلو الإيمان بالغيب ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، ويبدأ بها ويختتم أوصاف المؤمنين المفلحين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

ويؤكد المحافظة عليها فى الحضر والسفر، والأمن والخوف، والسلم والحرب: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [٢٣٨] فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴿[البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩]، أى فصلوا فى حال الخوف والحرب مشاة أو راكبين كيف استطعتم، بغير ركوع ولا سجود، بل بالإشارة والإيماء. وبدون اشتراط استقبال القبلة للضرورة هنا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

تلك هى مكانة الصلاة فى الإسلام... ولهذه المكانة كانت أول عبادة فرضت

على المسلمين، فقد فرضت في مكة قبل الهجرة، وكانت طريقة فرضيتها دليلاً آخر على عناية الله بها، إذ فرضت العبادات كلها في الأرض، وفرضت الصلاة وحدها في السماء، ليلة الإسراء والمعراج، بخطاب مباشر من رب العالمين إلى خاتم المرسلين ﷺ^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الصلوات الخمس تكفر الخطايا من بين صلاة الفجر إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء، ومن العشاء إلى الفجر. فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس، فإنها تمحو الخطايا، لكن قال: «إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرُ» يعني إذا اجتنبت كبائر الذنوب.

وَالْكَبَائِرُ هِيَ: مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ [وكان فيه حدٌ في الدنيا أو وعيدٌ في الآخرة، أو نفى إيمانٍ أو لعنٌ أو تبرؤٌ أو ليس منا].

وقد ضمن الله - تعالى - في كتابه العزيز - لمن اجتنب الكبائر المحرمات أن يكفر عنه الصغائر من السيئات... لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

فقد تكفل الله تعالى بهذا النص لمن اجتنب الكبائر أن يدخله الجنة^(٢).

❁ ومعنى الحديث: أن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان يكفر الله بها الصغائر التي وقع فيها العبد.. أما الكبائر فإنها تحتاج إلى توبة خاصة من كل كبيرة يرتكبها العبد. فإن ارتكب العبد بعض الصغائر بعد صلاة الظهر ثم صلى العصر فإن الله يغفر له ما كان من الصغائر فيما بين الظهر والعصر ما لم يكن مستحلاً لتلك الصغائر... وهكذا في جميع الصلوات.

(١) العبادة في الإسلام / د. يوسف القرضاوي (ص ١٧٧-١٧٩) بتصرف كبير.

(٢) الكبائر / للإمام الذهبي (ص ٣).

والجمعة إلى الجمعة تمحو ما بَدَرَ منه من الصغائر خلال الأسبوع .. مع أنها قد غُفرت فيما بين الصلوات الخمس .. وكأنها تأكيدٌ لتوبة الله على العبد، بل وكأنها عناية خاصة .. ثم يأتي رمضان فيمحو ما بَدَرَ من العبد طوال العام وكأنه عناية أخص من الخاصة من أجل أن يعلم العبد أنه لا يستغنى عن الله **عَزَّوَجَلَّ** طرفه عينٍ ولا أقل من ذلك.... فإن كانت الصغائر قد غُفرت فإنَّ الصلوات بعد ذلك تكون رفعة لدرجاته في الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣) الخَامِسُ عَشَرُ : وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **ﷺ**: «أَلَا أدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قالوا: بلى يا رَسُولَ اللهِ، قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَمُ الرِّبَاطُ»^(١).

❁ لقد كان النبي **ﷺ** يُنَوِّعُ في خطابه لأصحابه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** .. فتارة يذكر لهم الحديث مباشرة .. وتارة يكون ذلك بصورة عملية يراها الصحابة .. وتارة يعطيهم المعلومة من خلال سؤالٍ ليثير انتباههم .. وهذا ما فعله النبي **ﷺ** في هذا الحديث.

قال لهم: «أَلَا أدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟». وهل هناك أحدٌ لا يرغب في هذا الخير؟! ... فمن المعلوم أنهم سيقولون: نعم يا رسول الله... أخبرنا عن ذلك فإننا نريد أن نعرف ما الذي يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

فلما أصبحت القلوب مُتَّهِيَةً لمعرفة ذلك قال لهم **ﷺ**: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَمُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

الرِّبَاطُ « هذه ثلاثة أشياء:

❁ «إسباغ الوضوء على المكاره»: يعنى أن الإنسان يتوضأ ويُسبغ وضوءه على كُرِهٍ منه: إما لكونه فيه حُمَى ينفر من الماء فيتوضأ على كُرِهٍ... وإما أن يكون الجو باردًا، وليس عنده ما يُسَخِّن به الماء فيتوضأ على كُرِهٍ... وإما أن يكون هناك أمطار تحُول بينه وبين الوصول لمكان الوضوء فيتوضأ على كُرِهٍ... المهم أنه يتوضأ على كُرِهٍ ومشقة لكن بدون ضرر... أما مع الضرر فلا يتوضأ بل يتيمم، هذا مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات، ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يَشُق على نفسه ويذهب يتوضأ بالماء البارد ويترك الساخن، أو يكون عنده ما يُسَخِّن به الماء، ويقول: لا.. بل أريد أن أتوضأ بالماء البارد؛ لأنال هذا الأجر، فهذا غير مشروع، لأن الله يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ ورأى النبي ﷺ رجلاً واقفاً في الشمس قال: ما هذا؟ قالوا: نذر أن يقف في الشمس، فنهاه عن ذلك وأمره أن يستظل... فالإنسان ليس مأموراً ولا مندوباً في أن يفعل ما يَشُق عليه ويضره، بل كلما سهلت عليه العبادة فهو أفضل، لكن إذا كان لا بد من الأذى والكُرِه فإنه يُؤَجَر على ذلك؛ لأنه بغير اختياره.

كذلك «كثرة الخطأ إلى المساجد» فيه دليل على أن الجماعة تكون في المسجد ولا تكون في البيت، وأن الإنسان إذا كثرت خطاه إلى المساجد: يرفع الله له به الدرجات ويمحو عنه الخطايا... وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الرجل إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة. وهذه نعمة عظيمة، فإذا وصل المسجد وصلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلَّاه، تقول: اللهم صَلِّ عليه، اللهم اغفر له، اللهم ارحمه... ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة، «وكثرة الخطأ» معناه أن يأتي الإنسان للمسجد ولو من بُعد.

وليس المعنى أن يتعمد السير في الطريق البعيد أو أن يُقارب الخطأ... فهذا

غير مشروع، بل يمشى على عادته ولا يتقصد البُعد ... يعنى: مثلاً لو كان بينه وبين المسجد طريق قريب وآخر بعيد لا يترك القريب ويمشى فى البعيد ... لكن إذا كان بعيداً ولا بد أن يمشي إلى المسجد فإن كثرة الخطأ إلى المساجد مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات.

وأما «انتظار الصلاة بعد الصلاة»: بمعنى أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوق إلى الصلاة الأخرى وهكذا يكون قلبه مُعلقاً بالمساجد: كلما فرغ من صلاة فهو ينتظر الصلاة الأخرى ... هذا أيضاً مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ... قال: «فذلکم الرباط فذلکم الرباط»: يعنى المرباطة على الخير، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

فمن انتظر الصلاة بعد الصلاة شوقاً إليها فإن الله يمحو عنه خطاياہ ويرفع له الدرجات.

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: مَحَوُ الْخَطَايَا كِنَايَةٌ عَنْ غُفْرَانِهَا. قَالَ: وَيُحْتَمَلُ مَحَوَهَا مِنْ كِتَابِ الْحَفَظَةِ وَيَكُونُ دَلِيلًا عَلَى غُفْرَانِهَا ... وَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ إِعْلَاءُ الْمَنَازِلِ فِي الْجَنَّةِ^(٢).

وقوله ﷺ: «فذلکم الرباط» أصل الرباط: الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، وهذا من أعظم الأعمال فلذلك شبه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة فى هذا الحديث ... أى: أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد فى سبيل الله.

وقيل: إن الرباط هاهنا اسمٌ لما يربط به الشئ، والمعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفُّ عنها.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (٣/ ١٧٩).

(١٣٤) السَّادِسَ عَشَرَ: عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

✽ قَالَ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر.. وذلك لأن صلاة الفجر تقع في أبرد وقتٍ من الليل .. وأما صلاة العصر فإنها تقع في أبرد وقتٍ في النهار وذلك بعد الزوال .. فمن حافظ عليهما في وقتهما وصلَّاهما في المسجد إن كان رجلاً... لأن صلاة الجماعة واجبة في حقه .. وإن كانت امرأة فإنها تُصليها في البيت أو المسجد إن أرادت ولكن في أول الوقت.

قال الخطابي: سُمِّيَا بَرْدَيْنِ لأنهما يُصَلِّيَانِ في بردي النهار وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب شدة الحر.

✽ وفي الحقيقة أن صلاة الفجر والعصر لهما مزية خاصة. فقد أخبر النبي ﷺ أن مَنْ صَلَّاهُمَا لِنِ يَدْخُلَ النَّارَ.

فَقَالَ ﷺ: «لَنْ يُلْجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» يعنى الفجر، والعصر»^(٢).

بل وأخبر النبي ﷺ أن الملائكة تشهد صلاة الفجر والعصر ويشهدون عند الله عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ صَلَّاهُمَا.

قَالَ ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَرْجِعُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَآتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.
«الْبَرْدَانِ»: الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٣٤) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد.

❦ بل وأخبر النبي ﷺ أن مَنْ حافظ على صلاة العصر فإن له أجره مرتين.
عن أبى بصرة الغفارى رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بالمُخَمَّص^(١) وقال: «إن هذه الصلاة عُرِضَتْ على مَنْ كان قبلكم فضيعوها فمَنْ حافظ عليها كان له أجره مرتين»^(٢).

بل أخبر النبي ﷺ أن المحافظة على صلاتي الفجر والعصر من أسباب الفوز بالنظر إلى وجه الله ﷻ.

عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبُوا على صلاةٍ قبل طُلُوع الشمس، وقبل غُرُوبها فافعلُوا»^(٣).
❦ «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر» هذا فيه تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس المعنى تشبيه المرئى بالمرئى، لأن الله ليس كمثله شىء، ولكنكم ترونه رؤية حقيقية مؤكدة كما يرى الإنسان القمر ليلة البدر، وإلا فإن الله ﷻ أَجَلُّ وأعظم من أن يُشابهه شىء من مخلوقاته.

ثم قال النبي ﷺ في آخر هذا الحديث: «فإن استطعتم ألا تُغلبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلُوا» يعنى بالتي قبل طلوع الشمس: الفجر، والتي قبل غروبها: العصر.. فهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات.. وأفضلهما صلاة العصر؛ لأنها هي الصلاة الوسطى التى قال الله تعالى عنها: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وقد صَحَّ عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة الأحزاب: «ملا الله بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا

(١) المُخَمَّص: اسم طريق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٣٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

عن الصلاة الوسطى صلاة العصر». وهذا نص صريح من رسول الله ﷺ أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر^(١).

❖ وقفة لطيفة:

فوجه تخصيصها بالذكر أن وقت الصبح يكون عند النوم ولذته، ووقت العصر يكون عند الاشتغال بتمتات أعمال النهار وتجارته وتميئة العشاء، ففي صلاته لهما مع ذلك دليل على خلوص النفس من الكسل ومحبتها للعبادة... ويلزم من ذلك إتيانه بجميع الصلوات الأخر، وأنه إذا حافظ عليهما كان أشد محافظة على غيرهما، فالإقتصار عليهما لا لإفادة أن من اقتصر عليهما بأن أتى بهما دون باقي الخمس يحصل له ذلك لأنه خلاف النصوص.

فمن صلاها مع ذلك استحق دخول الجنة من غير سابقة عذاب^(٢).

﴿مَنْ صَلَّى الْخَمْسَ بِمَعْرِفَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ﴾

(١٣٥) السَّابِعُ عَشَرَ: عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(٣).

❖ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا كان من عادته أن يكون مواظبًا على أى عملٍ صالحٍ ثم مرض أو سافر فإنه يُكتب له الأجر كاملاً.

فإذا كان الإنسان مواظبًا على الصلوات الخمس في المسجد.. وكان محافظًا على السنن الرواتب الخاصة بالصلوات الخمس.. وكان يصلى قيام الليل ويقرأ كل يوم ثلاثة أجزاء من القرآن ويكثر من ذكر الله ﷻ... فإذا مرض هذا الإنسان أو سافر فلم يُصلِّ إلا الصلوات الخمس فقط فإنه يُكتب له ما كان

(١) شرح رياض الصالحين (١/٤٠٢).

(٢) دليل الفالحين (١/٣١٧).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.



يعمله وهو صحيحٌ مقيمٌ دون أن ينقص أى شىء من أجره.

❁ وفى هذا تنبيه على أنه ينبغي لنا أن نجتهد فى طاعة الله ما دُمنا فى حال الصحة والفراغ حتى إذا عجزنا عن ذلك لمرضٍ أو سفرٍ كُتب لنا الأجر كاملاً. ولهذا قال النبى ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»^(١).

وقال ابن عمر: «وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٦) الثَّامِنُ عَشَرَ: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^(٣) رواه البخارى... ورواه مسلم من رواية حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

❁ قوله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ» المعروف ما يتعارف الناس على حُسنه، أو ما عُرف فى الشرع حُسنه، إن كان مما يتعبد به لله، فهو ما عُرف فى الشرع حُسنه، وإن كان مما يتعامل به الناس فهو مما تعارف الناس على حُسنه.

مثل الإحسان إلى الخلق بالمال أو بالجاء أو بالتبسم فى وجه أخيك أو إسداء النصيحة الخالصة له أو ستر المسلم أو تنفيس الكرب عنه أو إدخال السرور عليه أو تبشيره بما يسره أو قضاء حوائجه أو إصلاح ذات البين أو إماطة الأذى عن الطريق أو عيادة المريض .. أو غير ذلك ..

ولذا قال النبى ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق، موقوفاً على ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٠٢١) كتاب الأدب.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٥) كتاب الزكاة.

(١٣٧) التاسع عشر: وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُْرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزُوهَ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(١).

وفي رواية له: «فَلَا يَغْرِسُ الْمُسْلِمُ غَرْسًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا طَيْرٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية له: «لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ وَلَا دَابَّةٌ وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ».

(١٣٨) وروياه جميعاً مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

❖ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أَنَّ مَنْ غَرَسَ غَرْسًا أَوْ زَرَعَ زَرْعًا فَأَكَلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ طَيْرٌ أَوْ حَيْوَانٌ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.. أَوْ حَتَّى سُْرِقَ مِنْهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ صَدَقَةٌ.

❖ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فَضِيلَةُ الزَّرْعِ وَأَنَّ أَجْرَ فَاعِلِهِ ذَلِكَ مُسْتَمِرٌّ مَا دَامَ الْغِرَاسُ وَالزَّرْعُ وَمَا تَوَلَّدَ مِنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَطْيَبِ الْمَكَاسِبِ وَأَفْضَلِهَا فَقِيلَ: التَّجَارَةُ وَقِيلَ الصَّنْعَةُ بِالْيَدِ وَقِيلَ الزَّرَاعَةُ وَهُوَ الصَّحِيحُ.

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَيْضًا أَنَّ الثَّوَابَ وَالْأَجْرَ فِي الْآخِرَةِ مُخْتَصَّ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يُثَابُّ عَلَى مَا سُْرِقَ مِنْ مَالِهِ أَوْ أَتْلَفَتْهُ دَابَّةٌ أَوْ طَائِرٌ وَنَحْوُهُمَا^(٣).

❖ فِهَذَا الْغَرْسُ يَعُودُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْخَيْرِ وَالنَّفْعِ وَالْمَصْلَحَةِ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٥٢) كتاب المساقاة.

قوله: «يَرْزُوهَ» أى ينقصه.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٢٠) كتاب المزارعة، ومسلم (١٥٥٣) كتاب المساقاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٣٠٦/١٠) بتصرف.

أما المصلحة الدينية: فإنه إن غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو طير أو حيوان أو حتى سُرِق منه فإن له به صدقة سواء كان ينوي ذلك أو لم ينو ذلك فإن الأجر محفوظ له.

وأما المصلحة الدنيوية: فإن مصلحة الغرس والزرع ليست كمصلحة الدراهم والنقود.. فالنقود تُوضع في الصناديق أو البنوك الإسلامية ولا ينتفع بها سوى صاحبها.. أما الغرس والزرع فينتفع به صاحبه وكل من حوله.. بل قد ينتفع بذلك الزرع البلد كلها.. وقد يصل النفع إلى البلاد المجاورة من خلال تصدير ذلك الزرع.

وفيه دليل: على كثرة طرق الخير، وأن ما انتفع به الناس من الخير، فإن لصاحبه أجرًا، وله فيه الخير، سواء نوى أو لم ينو... وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. فذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الأشياء فيها خير سواء نويت أو ما نويت... من أمر بصدقة أو إصلاح بين الناس فهو خيرٌ ومعروف، نوى أم لم ينو، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله. فإن الله يقول: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وفي هذا دليل: على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها، كانت خيرًا لصاحبها وإن لم ينو... فإن نوى زاد خيرًا على خير، وآتاه الله تعالى من فضله أجرًا عظيمًا. أسأل الله العظيم أن يَمُنَّ عليَّ وعليكم بالإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ... إنه جواد كريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٩) العَشْرُونَ: وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَرَادَ بَنُو سَلِيمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: «بَنِي سَلِيمَةَ دِيَارُكُمْ،

تُكْتَبُ آثَارُكُمْ، دِيَارُكُمْ، تُكْتَبُ آثَارُكُمْ»^(١).

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ بِكُلِّ خُطْوَةٍ دَرَجَةٌ».

(١٤٠) ورواه البخاري أيضاً بمعناه من رواية أنس رضي الله عنه^(٢).

(١٤١) الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: عَنْ أَبِي الْمُنْذِرِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخَطِّئُهُ صَلَاةٌ فَقِيلَ لَهُ، أَوْ فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرَكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَفِي الرَّمْضَاءِ فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنْ مَنَزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ»^(٣).

وفي رواية: «إِنَّ لَكَ مَا احْتَسَبْتَ».

❁ ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ فضل المشي إلى المساجد.

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على فضل المشي إلى المساجد .. يُخبر فيها النبي ﷺ أن من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فإن الله ﷻ يُعَدُّ لَهُ نَزْلًا فِي الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ وَأَنْ كُلَّ خُطْوَةٍ يَحِطُّ بِهَا خُطْيَةً وَالْأُخْرَى يَرْفَعُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً.. بَلْ كَانَتْ كُلُّ خُطْوَةٍ يُكْتَبُ لَهُ بِهَا عَشْرُ حَسَنَاتٍ .. وفي رواية أن كل خطوة تمحو سيئة والأخرى تُكْتَبُ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ، وَأَنَّهُ يُكْتَبُ بِذِهَابِهِ إِلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ أَجْرُ خَمْسِ حِجَابَاتٍ نَافِلَةٍ .. وَأَنَّهُ إِذَا مَشَى إِلَى الْمَسْجِدِ فَهُوَ زَائِرُ اللَّهِ .. وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ.

❁ وحتى لا يكون كل هذا الكلام من كيس فإليكُم أحاديث النبي ﷺ التي

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٦٥) كتاب المساجد.

و«بُنُو سَلَمَةَ» بكسر اللام: قبيلة معروفة من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - و«آثَارُهُمْ» خُطَاهُمْ.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٨٨٧) كتاب فضائل المدينة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٦٣) كتاب المساجد.

«الرَّمْضَاءُ» الْأَرْضُ الَّتِي أَصَابَهَا الْحَرُّ الشَّدِيدُ.

ثبت لكم كل هذا الأجر الذي ذكرته.

✽ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له في الجنة نُزْلاً كلما غدا أو راح»^(١).

✽ وعنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»^(٢).

✽ وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصار لا أعلم أحداً أبعد من المسجد منه، وكانت لا تُحِطُّهُ صلاةٌ، ف قيل له: لو اشتريت حماراً لتركبه في الظلِّماء وفي الرمضاء قال: ما يسرُّني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يُكتب لي ممشاى إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «قد جمع الله لك ذلك كُلَّهُ»^(٣).

✽ وعن جابر رضي الله عنه قال: خَلْتُ البقاعَ حول المسجد، فأراد بنو سَلَمَةَ أن يتنقلوا قُرب المسجد، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال لهم: «بلغني أنكم تُريدون أن تنتقلوا قُرب المسجد؟» قالوا: نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال: «بنى سلمة دياركم تُكتب آثاركم، دياركم تُكتب آثاركم» فقالوا: ما يسرُّنا أنَّا كُنَّا تحولنا»^(٤).

✽ وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدُهم إليها ممشى فأبعدُهم. والذي ينتظر الصلاة حتى يُصلِّيها مع الإمام أعظمُ أجراً من الذي يُصلِّيها ثم ينام»^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٦) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٦٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٦٦٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٢) كتاب المساجد.

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١).

✽ وعن عتبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا تطهر الرجل، ثم أتى المسجد يركع الصلاة، كتب له كتابه أو كاتبه بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسناتٍ .. والقاعد يركع الصلاة كالقانت، ويكتب من المصلين، من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه»^(٢).

✽ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من راح إلى مسجد الجماعة؛ فخطوة تمحو سيئة، وخطوة تكتب له حسنة، ذاهباً وراجعاً»^(٣).

✽ وعن عثمان رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأصبح الوضوء، ثم مشى إلى صلاة مكتوبة فصلاها مع الإمام، غفر له ذنبه»^(٤).

✽ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إسباغ الوضوء في المكاره وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة تغسل الخطايا غسلًا»^(٥).

✽ وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من خرج من بيته متطهراً إلى صلاة مكتوبة فأجره كأجر الحاج المكرم، ومن خرج إلى تسبيح الضحى لا ينصبه إلا إياه فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين»^(٦).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤).

(٣) حسن: رواه أحمد والطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٩٩).

(٤) صحيح: رواه ابن خزيمة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٠).

(٥) صحيح: رواه أبو يعلى، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٦).

(٦) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٢٨).

❖ وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، إِنْ عَاشَ رُزِقَ وَكُفِيَ، وَإِنْ مَاتَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ: مَنْ دَخَلَ بَيْتَهُ فَسَلَّمَ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللَّهِ»^(١).

❖ وعن سلمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور أن يُكرم الزائر»^(٢).

وفي هذا الحديث: دليل على أنه إذا نُقل للإنسان شيء عن أحد، فإنه يتثبت قبل أن يحكم بالشيء... ولهذا سأل النبي ﷺ بنى سلمة قبل أن يقول لهم شيئاً، قال: بلغني أنكم تريدون كذا وكذا، قالوا: نعم... فيؤخذ منه ما ذكرت أنه ينبغي للإنسان إذا نُقل له شيء عن أحد أن يتثبت قبل أن يحكم بمقتضى الشيء الذي نُقل له، حتى يكون إنساناً رزيناً ثقيلاً معتبراً... أما كونه يصدق بكل ما نُقل، فإنه يفوته بذلك الشيء الكثير، ويحصل له ضرر عظيم، بل الإنسان ينبغي عليه أن يتثبت.

ودلّ ذلك على أن المجيء إلى المسجد على القدمين أفضل من المجيء على مركوبٍ لأنه يُحسب لك أجر الخطأ... ولكن إذا كان الإنسان معذوراً فلا بأس أن يأتي بالسيارة... وخطوة السيارة دورة لعجلتها إذا دار عجلها دورة واحدة فهذه خطوة لأنه عند دورانه يرتفع الذي باشر الأرض ثم يدور حتى يرجع ثانية إلى الأرض فهو كرفع القدم من الأرض ثم وضعها مرة ثانية... فإذا كان الإنسان معذوراً فلا بأس أن يأتي بالسيارة وهذا أيضاً من فضائل المشي إلى المساجد أن الله تعالى يكتب للإنسان الخطوات كلما ذهب وكلما رجع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٣).

(٢) حسن: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في الصحيحة (١١٦٩).

(١٤٢) الثَّانِي وَالْعَشْرُونَ : عَنْ أَبِي مُحَمَّد عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصَدِّيقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن طرق الخير وخصال الخير كثيرة جداً .. وأن الله ﷻ شرعها لعباده من أجل أن يفوزوا برضوانه وجنته إذا عملوا بها أو ببعضها .. وذلك لأن النبي ﷺ قال عن الصدقة أنها: «تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»^(٢)، وأن «صدقة السرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ»^(٣).

❁ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَدْ حَضَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبْوَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ لَا تُحْصَى كَثْرَةُ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ ﷺ كَانَ عَالِمًا بِالْأَرْبَعِينَ الْمَذْكُورَةِ وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْهَا لِمَعْنَى هُوَ أَنْفَعُ لَنَا مِنْ ذِكْرِهَا وَذَلِكَ خَشْيَةً أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ لَهَا مُزْهِدًا فِي غَيْرِهَا مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ... قَالَ: وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَهُمْ تَطَلَّبَهَا فَوَجَدَهَا تَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ فَمِمَّا زَادَهُ إِعَانَةُ الصَّانِعِ وَالصَّنْعَةُ لِلْآخَرِ وَإِعْطَاءُ شِسْعِ النَّعْلِ وَالسَّتْرُ عَلَى الْمُسْلِمِ وَالذَّبُّ عَنْ عَرَضِهِ وَإِدْخَالُ الشُّرُورِ عَلَيْهِ وَالتَّفْسُحُ فِي الْمَجْلِسِ وَالِدَّلَالَةُ عَلَى الْخَيْرِ وَالْكَلَامُ الطَّيِّبُ وَالْغَرَسُ وَالزَّرْعُ وَالشِّفَاعَةُ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَالْمُصَافَحَةُ وَالْمَحَبَّةُ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ لِأَجْلِهِ وَالْمُجَالَسَةُ لِلَّهِ وَالتَّزَاوُرُ وَالنُّصْحُ وَالرَّحْمَةُ... وَكُلُّهَا فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ وَفِيهَا مَا قَدْ يُنَازَعُ فِي كَوْنِهِ دُونَ مَنِيحَةِ الْعَنْزِ.

❁ فالشاهد أننا لا بد أن نحرص على فعل الخير مهما كان صغيراً .. فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ».

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٦٣١) كتاب الهبة وفضلها.

«المنيحة»: أن يعطيه إياها ليشرب لبنها ثم يردّها إليه.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط، والصغير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٥٩).

(١٤٣) الثالث والعشرون: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١).

وفي رواية لهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِكْلِمَةً طَيِّبَةً».

❀ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه ما من إنسان إلا وسيقف بين يدي الله ﻋَزَّ وَجَلَّ لِيُحَاسِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ولهذا قال النبي ﷺ هنا في الحديث: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ» يعنى: يكلمه الله يوم القيامة بدون مترجم. يكلم الله كل عبد مؤمن، فيقرره بذنوبه، يقول له: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، فإذا أقرَّ بها وظن أنه قد هلك قال: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أعفرها لك اليوم».

❀ عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرَهُ، فَيَقْرُرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ.. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ»^(٢).

❀ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يُدْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ فَيَسْتُرُهُ مِنَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا وَيُدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقُولُ لَهُ: اقْرَأْ يَا ابْنَ آدَمَ كِتَابَكَ... قَالَ: فَيَمُرُّ بِالْحَسَنَةِ فَيَبْيُضُّ لَهَا وَجْهَهُ، وَيَمُرُّ بِالسَّيِّئَةِ فَيَسْوَدُّ لَهَا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤١) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.

وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبدى؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإنى) أعرفُ بها منك، قد غفرتها لك... قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضاً: طوبى لهذا العبد الذى لم يعصِ قط... فلا يدرون ما قد لقى فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه^(١).

❁ إنه مشهّدٌ عظيم لا يستطيع إنسان أن يعلم مدى رهبته... فإن الإنسان إذا ما وقف أمام ملك من ملوك الدنيا فإنه يرتجف فؤاده خوفاً وفزعاً أن يصدر منه ما يُغضب صاحب السلطان فما ظنكم بالوقوف بين يدى الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

❁ قوله ﷺ: «فينظر أيمن منه» يعنى عن يمينه «فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه» أى: على يساره. «فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه».

فقال النبى ﷺ: «فاتقوا النار ولو بشق تمرة» أى: بنصف تمرة.. فما أجمل أن تكون نصف تمرة سبباً للنجاة من النار.. وذلك حتى لا نحتقر فعل أى خير ولو كان قليلاً.

❁ «فمن لم يجد بكلمة طيبة». يعنى إن لم يجد شق تمرة فليتق النار بكلمة طيبة.

والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن... فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم، وكذلك تشمل التسييح والتهليل، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتشمل تعليم العلم، وتعلُّم العلم، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول... يعنى إذا لم تجد شق تمرة فإنك تتقى النار ولو بكلمة طيبة.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) في زوائد الزهد بإسناد حسن.

فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويُسرّها ... فالحمد لله أن شق التمرة تُنَجِّي من النار، وأن الكلمة الطيبة تُنَجِّي من النار. نسأل الله أن ينجينا وإياكم من النار.

﴿ قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: وَجْهٌ كَوْنُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ صَدَقَةً أَنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ يَفْرَحُ بِهِ قَلْبُ الَّذِي يُعْطَاهُ وَيَذْهَبُ مَا فِي قَلْبِهِ... وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ فَاشْتَبَهَا مِنْ هَذِهِ الْحَيَثُوتِ. ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٤) الرَّابِعُ وَالْعَشْرُونَ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(١).

﴿ ففى هذا الحديث دليلٌ على أن رضا الله عز وجل قد يُنال بأدنى سبب .. لأنه هو الودود (سبحانه وتعالى) الذى يتودد إلى عباده وهو الغنى عنهم .. فالله يرضى عن الإنسان إذا انتهى من طعامه فقال: الحمد لله .. ويرضى عنه إذا شرب فقال: الحمد لله. ﴾

ولابد أن نعلم للطعام والشرب آداباً فعلية وقولية.

﴿ أما آداب الطعام الفعلية والقولية فهى:

تحرّى أكل الحلال وعدم الأكل على شبع وعدم الأكل فى آنية الذهب والفضة ودعوة مَنْ حضر ودعوة الخادم وإطعامه وإشراك الجار فى الطعام وعدم الإسراف والحرص على الاجتماع وتكثير الأيدي على الطعام وغسل اليد قبل الطعام وانتظار الطعام الساخن حتى يبرد، وعدم تحقير الطعام وذكر الله عند الطعام، والتسمية أول الطعام والأكل باليد اليمنى والأكل بثلاثة أصابع والأكل مما يليه والأكل من جوانب القصعة وليس من وسطها؛ لأن البركة تنزل فى وسطها وعدم الإسراع فى الأكل واجتناب كل ما يؤذى الآكلين وعدم النظر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء.

«وَالْأَكْلَةُ» بفتح الهمزة: وهى الغدوة أو العُشوة.

إليهم حتى لا يُحَرَجُوا وعدم القران بين تمرتين أو لقتين ورفع الطعام الساقط على الأرض وإطعام الزوجة باليد وتقديم الطعام للضيوف وعدم الإفراط في الأكل والحرص على لعق الصفحة والأصابع وحمد الله بعد الطعام وغسل اليدين والفم والدعاء لصاحب الطعام.

❖ وأما عن آداب الشرب الفعلية والقولية فهي:

التسمية في أوله والشرب قاعداً إن أمكن والشرب باليد اليمنى وعلى ثلاث مرات وعدم الشرب من فم السقاء (الزجاجة) والتنفس أثناء الشرب وعدم التنفس في الإناء وعدم الشرب في أواني الذهب والفضة والبعد عن المشروبات المحرمة وعدم الإسراف في الشرب واستحباب شرب ألبان البقر وأن يتمضمض بعد شرب اللبن وتقديم الأيمن فالأيمن وأن يكون ساقى القوم آخرهم شرباً وأن يحمد الله بعد الشرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥) الخَامِسُ والعَشْرُونَ: عن أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ قَالَ: «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ»^(١).

❖ سبق شرح هذا الحديث من خلال شرح بعض الأحاديث السابقة. ولكن المعنى الذي ينبغي أن نقف عنده هنا هو أنه ينبغي للإنسان العاقل أن يُبادر وأن يُسارع إلى فعل الخير حتى لا يندم حين لا ينفع الندم .. فعليه أن يُسارع وأن يمتثل قول الله (جَلَّ وَعَلَا): ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨]

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٢٢) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٠٨) كتاب الزكاة.

ولأن الإنسان إذا انفتح له باب الخير أول مرة ثم لم يفعل فإنه يوشك أن يؤخره الله عَزَّوَجَلَّ... وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله»^(١) فالمهم أنه ينبغي للإنسان العاقل الحازم المؤمن أن يتتهد سبل الخير، وأن يحرص غاية الحرص على أن يأخذ من كل بابٍ منها بنصيب حتى يكون ممن سارع في الخيرات.

✽ ونحن لا بُدَّ أن يكون همنا الأكبر هو الفوز بالجنة وبرضوان رب الجنة (سبحانه وتعالى).

✽ ونحن نعلم أن سلعة الله غالية كما قال النبي ﷺ: «.. ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هي الجنة»^(٢).

فالجنة تحتاج لمن يدفع مهرها من صيام وقيام وعبادات وطاعات. ونحن جميعاً في ميدان السباق الحقيقي .. فلا بُدَّ أن نحرص على أن تكون سباقاً إلى كل خير حتى تكون مع السابقين إلى الجنة.

✽ قال أبو حامد الغزالي رحمته الله:

«والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك، وضاق به صدرك، وتنغص بسبب الحسد عيشك، وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة... وفيها أقوام سبقوك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها»^(٣).

فهل ضاق صدرك يوماً لأن جارك سبقك في صلاة الفجر أو تكبيرة الإحرام؟! هل تحرقت ساعة لأن غيرك أنفق أكثر مما أنفقت أو بذل من وقته وجهده لله ما حُرمت منه أو تقدم في ميدان من ميادين الخير وتأخرت؟! أرجو ذلك!!

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٤٥٠) كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وصححه العلامة الألباني رحمه

الله في صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٣) الإحياء (٤/ ٥٣٧) بتصرف.

(١٤) باب في الاقتصاد في الطاعة

﴿ إِنَّ مِنْ مُحَاسِنِ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ أَنَّهُ دِينٌ يُدْعُو إِلَى التَّوَسُّطِ وَالْإِعْتِدَالِ .. وَيَنْبِذُ التَّشَدُّدَ وَالْإِفْرَاطَ .

فَالنَّفْسُ إِذَا كَلَّفَتْهَا مَا هُوَ فَوْقَ طَاقَتِهَا فَإِنَّهَا لَا تُطِيقُ ذَلِكَ وَقَدْ تَنَفَّلَتْ وَتَنَحَّرَفَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

فَالْإِسْلَامُ مِنْهُجُ حَيَاةٍ يَكْفُلُ لَنَا السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .. وَهُوَ مِنْهُجُ كُلِّ يُسْرٍ وَسَهْوَةٍ وَسَعَادَةٍ .

﴿ وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ بِالتَّوَسُّطِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا وَالْبُعْدَ عَنِ الْغُلُوِّ وَالتَّشَدُّدِ وَتَكْلِيفِ النَّفْسِ فَوْقَ طَاقَتِهَا .

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه: ١-٢] .

﴿ طه ﴾ مِنْ جُمْلَةِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يُفْتَتَحُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ السُّورِ .. وَهِيَ لَيْسَتْ اسْمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ .

وَابْتِدَاءُ السُّورَةِ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ وَتَصْدِيرُهَا بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ يَجْذِبُ أَنْظَارَ الْمُعْرِضِينَ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ ... إِذْ يَطْرُقُ أَسْمَاعُهُمْ لِأَوَّلِ وَهْلَةِ أَلْفَاظٍ غَيْرِ مَأْلُوفَةٍ فِي تَخَاطُبِهِمْ، فَيَتَبَهَوْنَ إِلَى مَا يُلْقَى إِلَيْهِمْ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، وَفِي هَذِهِ الْحُرُوفِ وَأَمْثَالِهَا تَنْبِيهٌُ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ فَإِنَّ هَذَا الْكِتَابَ مَنْظُومٌ مِنْ عَيْنِ مَا يَنْظُمُونَ مِنْهُ كَلَامَهُمْ، فَإِذَا عَجَزُوا عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ، فَذَلِكَ أَعْظَمُ بَرَهَانٍ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ^(١) ... يَقُولُ الْعَلَامَةُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مَعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا ... وَهُوَ قَوْلُ جَمْعٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ . وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْإِمَامُ «ابْنُ تَيْمِيَّةٍ» ثُمَّ قَالَ: وَلِهَذَا كُلُّ سُورَةٍ افْتَتَحَتْ

بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته مثل ﴿الْعَمَّ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴿البقرة: ٢-١﴾ ﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿[الأعراف: ١-٢]﴾ ﴿الْعَمَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿[لقمان: ١-٢]﴾ ﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿[الدخان: ١-٣]﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن^(١).

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ أى: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين، وتعجز عنه قوى العاملين. وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصلاً للسعادة والفلاح والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طُرقه وأبوابه، وجعله غذاءً للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه من الخير في الدنيا والآخرة^(٢).

فالله عَزَّ وَجَلَّ ما أنزل هذا القرآن على النبي ﷺ ليشقى به هو ومن اتبعه .. بل لينال به سعادة الدنيا والآخرة هو ومن اتبعه .. وذلك كما قال تعالى في نفس السورة: ﴿فَإِذَا مَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدِ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْيَتْنا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيهِ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشْدُّ وَأُنْفًى ﴿[طه: ١٢٣-١٢٧]﴾.

﴿ قال صاحب الظلال رحمه الله في قوله تعالى :

﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ .. ما أنزلنا عليك القرآن ليؤدى إلى شقائك به أو بسببه. ما أنزلناه لتشقى بتلاوته والتعبد به حتى يجاوز ذلك طاقتك، ويشق

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥٧٩).

عليك فهو مُيسرٌ للذكر، لا تتجاوز تكاليفه طاقة البشر، ولا يكلفك إلا ما في وسعك، ولا يفرض عليك إلا ما في طوقك والتعبُّد به في حدود الطاقة نعمة لا شقوة، وفرصة للاتصال بالملاء الأعلى، واستمداد القوة والطمأنينة، والشعور بالرضى والأنس والوصول..

وما أنزلناه عليك لتشقى مع الناس حين لا يؤمنون به. فلست مُكلفًا أن تحملهم على الإيمان حملاً ولا أن تذهب نفسك عليهم حسرات وما كان هذا القرآن إلا للتذكير والإنذار^(١).

ولهذا قال: ﴿إِلَّا نَذْكِرَ لِمَن يَخْشَى﴾ إلا ليتذكر به مَنْ يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب لأجل المطالب، فيعمل بذلك... ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المُفصلة، التي كان مستقرًّا في عقله حُسنها مُجملاً فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سمَّاه الله ﴿نَذْكِرَ﴾ والتذكُّر لشيء كان موجودًا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله.

وخصَّ بالتذكُّر ﴿لِمَن يَخْشَى﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به مَنْ لم يؤمن بجنة ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله مثقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذْكُرْهُم مِّنْ يَخْشَى﴾ (١) وَنَجِّنَهَا مِنَ الْآسَافِ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿ (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].
أى: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويُسهلها أبلغ تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله.

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٢٧).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥٧٩-٥٨٠).

وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهّله تسهياً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات.

وهذه جملة لا يمكن تفصيلها؛ لأن تفاصيلها جميع الشرعيات ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات^(١).

وهذه الآية نزلت في آيات الصيام، حتى لا يظن الظان أنه أنزل على الناس للمشقة والتعب... فبين الله تعالى أنه يريد بنا اليسر، ولا يريد بنا العسر.

ولهذا من سافر لم يجب عليه الصوم، ويقضى من أيام آخر، ومن مرض لم يجب عليه الصوم، ويقضى من أيام آخر... فهذا من التيسير ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها قال: «مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما دأوم صاحبه عليه»^(٢).

وفي رواية أخرى للحديث: عن عائشة، قالت: دخل على رسول الله ﷺ، وعندي امرأة، فقال: «من هذه؟» فقلت: امرأة لا تنام... تَصَلِّي، قال: «عليكم من العمل ما تطيعون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما دأوم عليه صاحبه»^(٣).

✽ فعندما دخل النبي ﷺ على أمنا عائشة رضي الله عنها فوجد عندها امرأة سألها

(١) تفسير السعدى (ص ٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٧٨٥) كتاب صلاة المسافرين.

«ومَه» كلمة نهى وزجر - ومعنى «لا يمل الله» أى: لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم، ويعاملكم معاملة المأل حتى تملوا فتتركوا، فينبغى لكم أن تأخذوا ما تطيقون الدوام عليه ليدوم ثوابه لكم وفضله عليكم.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٨٥) كتاب صلاة المسافرين.

ابتداءً: «مَنْ هَذِهِ؟».

وهذا دليل على أنه ينبغي على الإنسان إذا دخل على زوجته ورأى عندها امرأة أن يسألها: «مَنْ هَذِهِ؟» لأنها قد تكون ممن لا يرغب هو في دخولها البيت.. لأنها مشهورة بالغيبة والنميمة أو تكون ممن اشتهرت بإفشاء أسرار البيوت.. أو تكون ممن يُفسدون بين الأزواج.

✽ فقالت أمنا عائشة رضي الله عنها: هذه فلانة.. وأخذت تذكر من صلاتها.. وفي رواية أنها ذكرت أنها الحولاء بنت ثُوَيْتٍ.. وفي رواية قالت: امرأة لا تنام... أى من كثرة صلاتها.

فقال النبي ﷺ: «مَهْ» وهى تعنى أمرٌ بالكفِّ... فهى عند النحويين اسم فعل بمعنى اكفّف... وصَهْ: بمعنى اسكت.

والمعنى أن النبي ﷺ أمر هذه المرأة أن تكفّ عن كثرة الصلاة لأنها قد تشق عليها بعد ذلك وتعجز عنها في المستقبل فتتركها بالكلية.

✽ ثم إن النبي ﷺ أمرنا أن نأخذ من العمل بما نطبق فقال ﷺ: «عليكم بما تُطيقون» يعنى: إذا أردتم أن تجتهدوا فى أى عبادة فلا تُكلفوا أنفسكم فوق الطاقة فإن الإنسان إذا كلف نفسه فوق طاقتها فإنه سوف يملّ ويشعر بالتعب وينحسر وينقطع عن العمل بالكلية.

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا»، يعنى أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيكم من الثواب بقدر عملكم مهما داومتم، فإن الله تعالى يُثيبكم عليه.

وهذا الملل الذى يفهم من ظاهر الحديث، أن الله يتصف به ليس كمللنا نحن... لأن مللنا نحن ملل تعب وكسل، وأما ملل الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه صفة يختص بها عَزَّ وَجَلَّ... والله - سبحانه وتعالى - لا يلحقه تعب ولا يلحقه كسل... قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾

[ق: ٣٨]. هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما خلقها الله تعالى فى ستة

أيام: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة... قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ يعني ما تعبنا بخلقها في هذه المدة الوجيزة مع عظمها^(١).

﴿تقول أمتنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا﴾: وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه.

ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ».

﴿والمعنى﴾: ألا يُقبل العبد على نافلة من النوافل بشدة ثم يتركها مرة واحدة بل الأفضل أن يبدأ بالتدرج من الأقل إلى الأكثر دون أن يكلف نفسه فوق الطاقة... وكذلك عليه أن يداوم على الطاعة، أو أى عمل صالح ولا ينقطع أبدًا ولو اكتفى بقدر قليل يستطيع أن يداوم عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا وَقَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟»، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لَهِ وَلَكِنِّي أَخْشَاكُمْ لَكُمْ أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢).

﴿في هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ثلاثة نفر جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ ليسألوا زوجاته أمهات المؤمنين (رضى الله عنهن) عن عمل النبي ﷺ الذى يعمل فى بيته.

وذلك لأن عمل النبي ﷺ إما أن يكون عملاً ظاهراً يعرفه الناس جميعاً

(١) شرح رياض الصالحين (١/٤١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٦٣) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٠١) كتاب النكاح.

كالذى يفعله فى المسجد وأمام أصحابه فى كل مكان .. فهذا عملٌ ظاهر يراه كل أصحاب الرسول ﷺ ... وإما أن يكون سرًّا لا يعرفه أحد إلا أزواجه ومَن يخدمونه كأنس بن مالك وابن مسعود وغيرهما.. فلما جاء هؤلاء الثلاثة إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألونهن عن عبادة النبى ﷺ فى السر - يعنى فى بيته - وأخبروا بها فكأنهم تقالُّوها .. أى ظنوا أنها قليلة .. وهذا هو بداية الغلو... أن يظن إنسانٌ على وجه الأرض أن عبادة النبى ﷺ كانت قليلة وهو أعبد خلق الله. ولماذا ظن هؤلاء أن عبادة النبى ﷺ كانت قليلة؟

لأنه ﷺ كان يصوم ويفطر ويصلى ويرقد ويتزوج النساء.. فهو أعظم مثال لوسطية الإسلام.

لكنهم تقالُّوها لأنهم كانوا شبابًا وعندهم نشاطٌ زائدٌ على حب الخير والعبادة .. ولكن النشاط ليس مقياسًا .. وإنما المقياس هو ما جاء به الشرع.

فجاء النبى ﷺ ، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا»، قالوا: نعم؛ لأن أحدهم قال: أصلى الليل ولا أرقد.. والثانى قال: أصوم النهار أبدًا ولا أفطر، والثالث قال: أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فأقروا على أنفسهم بأنهم قالوا ذلك.

وهذا بالطبع خلاف الشرع وخلاف هدى النبى ﷺ.. فكيف لإنسانٍ أن يصلى الليل كله ولا يرقد طوال العمر .. وكيف لإنسانٍ أن يصوم العمر كله صيفًا وشتاءً ولا يفطر أبدًا .. وكيف لإنسانٍ أن يعيش بلا زوجة .. وبخاصة إذا كان شابًا .. فهذا كله من المشقة التى تخالف وسطية الإسلام.

✽ فلما أقروا على أنفسهم بذلك وعلم النبى ﷺ بل وتأكد أنهم قالوا هذا.. فقال لهم: «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» يعنى مَن رَغِبَ عن طريقيتى واتخذ عبادة أشد، فإنه ليس منى.

❖ ففى هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يعيش الوسطية الحقيقية للإسلام وأن يقتصد فى العبادة .. بل ويقتصد فى جميع أموره .. وذلك لأنه إن قَصَّر فسوف يفوته الخير الكثير .. وإن شَدَّد على نفسه فسوف يملّ ويعجز عن تلك العبادة فى المستقبل ويدعها بالكلية...

فالاقتصاد فى كل شىء من سنة النبى ﷺ .. فمن أراد أن يقتدى بالنبى ﷺ فعليه أن يقتصد مثل النبى ﷺ.

❖ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: عظيم أمر السنة الشريفة، ووجوب اتباعها، والرضى بها منهجاً وسلوكاً. حيث إن النبى ﷺ قد حكم على مَنْ رغب عنها بوصفٍ شديد حيث قال: «فليس منى». قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: (وقوله: فليس منى، إن كانت الرغبة عن السنة بضربٍ من التأويل يُعذّر صاحبه فيه فيكون المعنى: ليس على طريقتى، ولا يلزم أن يخرج من الملة ... وإن كان إعراضاً وتنطُعاً يُفضى إلى اعتقاد أرجحية عمله، فمعنى «فليس منى» أى ليس على ملتى لأن اعتقاد ذلك نوعٌ من الكفر). انتهى (١).

الفائدة الثانية: كما أن النقص فى أمور الدين مذموم، فإن الزيادة أيضاً مذمومة... فهؤلاء نفر أرادوا أن يزيدوا فى أمور العبادة بما لم يفعله النبى ﷺ فزجرهم ﷺ عن تلك الزيادة.

وأقول: إذا كان النبى ﷺ قد وَبَّخ مَنْ زاد فى عبادة لها أصلٌ فى الدين، كان ﷺ يفعلها، بل يداوم عليها، وهى صيام النفل وقيام الليل، فكيف الحال بأناس ابتدعوا فى دين الله ﷻ ما ليس له أصل فى الكتاب ولا فى السنة، وتمسكوا بهذه البدع وتعلّقوا بها أشدّ التعلّق أكثر من تعلّقهم بسنة المصطفى ﷺ ... كابتداع

(١) انظر «فتح البارى» (١٠٦/٩).

أوراد وصلوات واحتفالات - يزعمون أنها دينية - ليست على هدى النبوة في شيء... أسأل هؤلاء كيف سيكون توبيخ النبي ﷺ لهم يوم القيامة؟ بل كيف سيكون تبرؤه منهم، وهو الذي قال: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد». ويتفرع عليه أن مدار الأمر ليس على كثرة العبادة والتشدد فيها، ولكن مدار الأمر على اتباع سنة النبي ﷺ، دون تفريط أو مغالاة.

الفائدة الثالثة: قد تطلق السنة في الأحاديث النبوية ولا يُراد بها الأعمال التي يُثاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها، بل يُقصد بها الهدى النبوي... كما في قوله ﷺ: «فمن رغب عن سُنتي فليس مني». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (المراد بالسنة الطريقة لا التي تقابل الفرض... ومعنى الرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره، والمراد مَنْ ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني) (٢)(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٨) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا (٣).

❦ قال النبي ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» ثَلَاثًا.

قال الإمام النووي رحمه الله: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» أى: المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم (٤). فهم المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية.. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تُشدُّوا فيُشدد الله عليكم».

(١) انظر «فتح الباري» (٩/ ١٠٥).

(٢) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٥٢-٥٣) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٠) كتاب العلم.

«الْمُتَنَطِّعُونَ»: الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُشَدِّدُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشْدِيدِ...

(٤) مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٢٠).

﴿ ولا بد أن نعلم أن من نعمة الله على هذه الأمة وتشريفه لها أن جعلها أمة وسطاً خياراً عُدولاً فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فهى خير الأمم التى أخرجت للناس ... وقد وصفها المولى عليه السلام وشهد لها بذلك ... فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم اصطفى الله سبحانه وتعالى لها رسولاً من خيارها وأوسطها نسباً ومكانة فبعثه فيها نبياً رسولاً: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وأنزل عليها أشرف كتبه وجعله مهيمناً على الكتب قبله شاملاً لخير ما جاءت به: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

بهذا الرسول الكريم، وهذا القرآن العظيم، شُرفت هذه الأمة، وبمتابعتها والاهتداء بهديهما كانت خير الأمم وأوسطها وأعدلها.

وكان أسعد هذه الأمة باتباعهما وأحرصهم على هديهما قولاً وعملاً واعتقاداً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ثم تابعوهم، ثم التابعون لهم بإحسان من القرون الثلاثة المفضلة التى شهد لها النبى صلى الله عليه وآله بالخيرية فى قوله: «خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

فهؤلاء هم خيار الأمة ثم يلحق بهم كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الهدى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله فى كل زمانٍ ومكانٍ فهؤلاء جميعاً خيار هذه الأمة وأوسطها وأعدلها.

فإنه بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جوار ربه، ومضى عصر الخلافة الراشدة بدأ فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ظهور التفرق والاختلاف..

فخرجت الخوارج ببدعها، وظهرت الشيعة بغلوها وفتنها، ثم توالى ظهور البدع وتكونت الفرق، وتوارثت الأجيال كثيراً من الانحرافات العقدية والسلوكية وغيرها، وابتعدت عن منهج الاعتدال والتوسط الذى رسمه القرآن الكريم وممارسه فى الحياة سيد المرسلين ﷺ^(١).

❖ ولقد حكى لنا القرآن قصة بنى إسرائيل حين قتلوا قتيلاً فآذأروا فيه وتنازعوا حتى كادت الفتنة أن تسود بينهم، فقال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]. يعنى وتأخذوا جزءاً منها فتضربوا به القتيل، فيُخبركم مَنْ الذى قتله، فقالوا له: ألتخذنا هزواً، فلو أنهم استسلموا وسلّموا لأمر الله وذبحوا أى بقرة كانت، لحصل مقصودهم، لكنهم تعنتوا فهلكوا، قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هى، ثم قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها، ثم قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ما هى وما عملها.

فشدّدوا فشدّد الله عليهم حتّى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من مِلءٍ جلدها ذهباً، فاشتروها بمِلءٍ جلدها ذهباً فذبحوها فضرّبوه ببعضها فقام، فقالوا: مَنْ قتلك؟ قال: هذا وأشار على ابن أخيه ثم مآل ميتاً^(٢).

❖ فمن التشدّد ما يفعله بعض المتشدّدين من طلبه العلم المجتهدين فى باب التوحيد حيث تجدهم إذا مرّت بهم آيات صفات الرب ﷻ جعلوا يُنقبون عنها، ويسألون أسئلة ما كُلّفوا بها، ولا درج عليها سلف الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم، فتجد الواحد ينقب عن أشياء ليست من الأمور التى كُلّف بها تنظّفاً وتشدّقاً... فنحن نقول لهؤلاء: إنه يسعكم ما وسع الصحابة رضي الله عنهم فأمسكوا، وإن لم يسعكم ثِقوا بأنكم ستقعون فى شدة وفى حرج وفى قلق.

(١) الوسطية فى القرآن الكريم / د. على الصلابى (ص ٥-٦).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٧٦).

ومثال ذلك أن بعض الناس يقول: إن الله عز وجل له أصابع، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرفه حيث يشاء»^(١) فيأتى هذا المتنطع، فيبحث كم عدد هذه الأصابع؟ وهل لها أنامل؟ وكم أناملها؟ وما أشبه ذلك.

كذلك مثلاً: «يُنزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث الأخير»^(٢) يقول: كيف يُنزل؟ ولمْ ثلث الليل؟ وثلث الليل يدور على الأرض كلها... معنى هذا أنه نازل دائماً... وما أشبه ذلك من الكلام الذى لا يُؤجرون عليه، ولا يُحمدون، بل هم إلى الإثم أقرب منهم إلى السلامة، وهم إلى الذم أقرب منهم إلى المدح. هذه المسائل التى لم يُكلف بها الإنسان، وهى من مسائل الغيب، ولم يسأل عنها من هو خير منه، وأحرص منه على معرفة الله بأسمائه وصفاته، يجب عليه أن يمسك عنها، وأن يقول: سمعنا وأطعنا وصدقنا وآمنا، أما أن يبحث عن أشياء دقيقة ما لها فائدة، فإن هذا لا شك أنه من التنطع^(٣).

❁ ومن ذلك ما يفعله بعض المتشددین فی الوضوء .. حيث تجده يتوضأ ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً وهو في عافية من ذلك.. فيظل يتوضأ حتى ربما تفوته الصلاة.. بل وربما يمل بعد ذلك من الوضوء والصلاة فيترك الصلاة.

❁ وكذلك في الاغتسال من الجنابة تجد بعض المتشددین يتكلف إدخال الماء في أذنه أو في أنفه .. وهذا كله يدخل تحت قول الرسول ﷺ: «هلك المتنطعون».

❁ ومن ذلك أيضاً ما يفعله بعض الناس من التشديد على نفسه في الصلاة حتى يمل ويتركها .. وبعضهم يتشدد على نفسه في الصيام وهو مريض مرضاً

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/٤١٧).

شديداً وقد أباح الله له الفطر؛ لأنه يحتاج إلى الطعام والشراب والدواء ولكنه
يُشدّد على نفسه فيبقى صائماً وهو مريض فيزداد مرضاً.. فهذا يدخل تحت قول
الرسول ﷺ: «هلك المتنطعون».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فهرس الموضوعات

- ٥ مقدمة الناشر
- ٧ ترجمة الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ
- ١٠ مقدمة المؤلف.. الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ
- ١٣ مقدمة الشارح
- ١٧ دعوة مباركة
- ١٨ (١) باب الإخلاص وإحضار النية
- ٥٩ (٢) باب التوبة
- ٩٨ (٣) باب الصبر
- ١٧٨ (٤) باب الصدق
- ١٩٨ (٥) باب المراقبة
- ٢٥٨ (٦) باب في التقوى
- ٢٧٤ (٧) باب في اليقين والتوكل
- ٣٠٨ (٨) باب في الاستقامة
- ٣١٦ (٩) باب في التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى
- ٣٢٤ (١٠) باب في المبادرة إلى الخيرات
- ٣٦٢ (١١) باب في المجاهدة
- ٤٣٦ (١٢) باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر
- ٤٥٠ (١٣) باب في بيان كثرة طرق الخير

- (١٤) باب في الاقتصاد في الطاعة ٥١٣
- ❁ فهرس الموضوعات ٥٢٦

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي عندما كتبت وحديث القرون الكريم وبحوار فكتاب رياض الصالحين
للإمام النووي وكنت أحدا الصرا في هذا الكتاب لكي كنت لا أتهم الكتاب من الأحاديث
وتبينت أن هذا كتابا سهلا فيه شرح لمقالة الأحاديث التي تبلغ ١٢٧٤ حديثا
وقد الإمام يشرح الله يسر في شرح هذا الكتاب فلو كانت حياتي تشرح هذا الكتاب
المفيع الذي استطاع الإمام النووي من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية
والعقائد الإسلامية العبادات والمعاملات فوجدته كتابا سهلا لكل من قاستهت بآله
أشرف على شرحه في هذا الكتاب من العبادات وعلمية الفهم وحقق كل الأحاديث الواردة فيه
بفضل الله عز وجل أحمد حمدي في شرح هذا الكتاب المفيع الذي لا يستطيع عليه
بعض الناس أيضا الكثير الكثير الكثير ولعلكم تجدون مسرورا في كتابي هذا تسعون
بشر من هذه الكتاب الفهم

أي سيأتي لكم إخواني وأخواتي بأعلى وأعلى أن أفرحوا على أن يكتبوا هذا الكتاب الفهم
لأنني جميعا على التبعين الصالحين كتاب الله سنة رسول الله ﷺ كتبت به بركات
على الإسلام والمسلمين في كل مكان

أسأل الله بزر أن ينشئني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي زكريا
(رحمة الله عليهما) وبزر أن حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينشئ به
وأرجو ألا تنخدعوا على بلخرة صالحة يظهر الغيب بأن يرزقني الله بزر الإخلاص في العمل
والعمل وأن يرزقني حسن الخاتمة وأن يجعلني بكم في الفردوس الأعلى مع العبيد المخلصين

الفقر إلى عفو الرحيم العفو

عفو الرحيم

شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد المصطفى
أبو عمار

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

الجزء الثاني



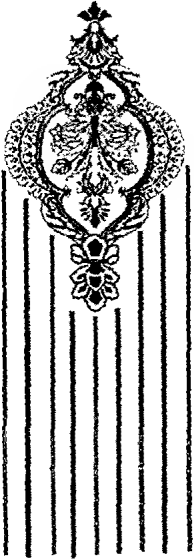
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شَيْخ

بَيَاضُ الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

أولاً الحاج عوف بن أبي حمزة

١٢٧ سيدان الأزهري، أستاذ الجامع الأزهر، القاهرة، ٢٥١٤٧٣٢٠
أستاذ الأثر، خليف الجامع الأزهر، ١٠١٤٣١١١٤، ليبيا، ٢٥١٤٧٩٧٤

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

شَيْخ رِايَضُ الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

لِلْإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

شَنْحُ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَصْرِفِ

أَبُو عَمَّارٍ
الْجُزْءُ الثَّانِي

مَكْتَبَةُ الصَّفَا لِلنَّشْرِ وَالتَّوَزُّعِ

تأليفه ٢٠١٤٧٣٢٠ - تأليفه ٢٠١٤٧٩٧٤



(١٤٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»^(١).

وفي رواية له: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَاعْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلْجَةِ، الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا».

❁ قوله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ» أى إن هذا الدين الذى بعث الله به محمداً ﷺ.. والذى ارتضاه الله لعباده ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هو دين اليسر.. كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالله ﷻ رفع عن هذه الأمة الإصر الذى كان على الأمم من قبلنا.. ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن التوبة فى بنى إسرائيل كانت بأن يقتل بعضهم بعضاً.. وأما توبة هذه الأمة فهى بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة إليه مرة أخرى... وأحل الله لنا الغنائم ولم تكن كذلك للأمم من قبلنا... وجمع الله ذلك كله بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].. فالله رفع الحرج والمشقة عن هذه الأمة.

فالنصوص كلها تدل على أن هذا الدين يسرٌ، وهو كذلك.

ولو تفكر الإنسان فى العبادات اليومية لوجد الصلاة خمس صلوات ميسرة موزعة فى أوقات، يتقدمها الطهر... طهر للبدن وطهر للقلب، فيتوضأ الإنسان عند كل صلاة، ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩) كتاب الإيمان.

قوله: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»: أى: غلبه الدين وعجز ذلك المُشَادُّ عن مُقاومة الدين لكثرة طرقه. «وَالْغَدْوَةُ» سَيْرُ أَوَّلِ النَّهَارِ. «وَالرَّوْحَةُ»: آخِرُ النَّهَارِ «وَالدَّلْجَةُ» آخِرُ اللَّيْلِ. وهذا استعارة، وتمثيل... ومعناه: استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال فى وقت نشاطكم، وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون وتبُلْغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير فى هذه الأوقات ويستريح هو ودابته فى غيرها فيصل المقصود بغير تعب، والله أعلم.



ورسوله.. اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين.

فيطهر بدنه أولاً ثم قلبه بالتوحيد ثانياً، ثم يصلى.

ولو تفكرت أيضاً فى الزكاة، وهى الركن الثالث من أركان الإسلام، تجد أنها سهلة... فأولاً لا تجب إلا فى الأموال النامية، أو ما فى حكمها، ولا تجب فى كل مال، بل فى الأموال النامية التى تنمو وتزيد كالتجارة، أو ما فى حكمها كالذهب والفضة وإن كان لا يزيد، أما ما يستعمله الإنسان فى بيته، وفى مركوبه، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ليس على المؤمن فى عبده ولا فرسه صدقة»... جميع أوانى البيت وفرش البيت والسيارات وغيرها مما يستعمله الإنسان لخاصة نفسه، فإنه ليس فيه زكاة.

ثم الزكاة الواجبة يسيرة جداً، فهى ربع العشر، يعنى: واحد من أربعين، وهذا أيضاً يسير، ثم إذا أدت الزكاة فإنها لن تُنقص مالك، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال»^(١)، بل تجعل فيه البركة وتُثمِّيه وتُزكِّيه وتطهره.

وانظر إلى الصوم فهو أيضاً يسير فليس كل السنة ولا نصف السنة ولا ربع السنة، بل شهرٌ واحد من اثنى عشر شهراً... وفوق ذلك فهو مُيسَّر، إذا مرضت فأفطر، وإذا سافرت فأفطر، وإذا كنت لا تستطيع الصوم فى كل دهرك فأطعم عن كل يوم مسكيناً.

والحج أيضاً مُيسَّر... قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ومن لم يستطع: إن كان غنياً بماله أناب مَنْ يَحُجُّ عنه، وإن كان غير غنى بماله ولا بدنه سقط عنه الحج.

والحاصل أن الدين يُسر... يُسرُّ فى أصل التشريع، ويُسر فيما إذا طرأ ما يوجب الحاجة إلى التيسير... قال النبى - عليه الصلاة والسلام - لعمران ابن حصين:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة.

«صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(١) فالدين يُسر. ثم قال النبي ﷺ: «وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» يعنى: لن يطلب أحدٌ التشدد في الدين إِلَّا غَلَبَ وهُزِمَ، وَكَلَّ وَمَلَّ وَتَعَبَ، ثم استحسر فترك... هذا معنى قوله: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ» يعنى: أنك إذا شددت الدين وطلبت الشدة، فسوف يغلبك الدين، وسوف تهلك، كما قال النبي ﷺ في الحديث السابق: «هلك المتنطعون».

❖ قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، فَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى النَّاسُ قَبْلَنَا أَنَّ كُلَّ مُتَنَطِّعٍ فِي الدِّينِ يَنْقَطِعُ... وَلَيْسَ الْمُرَادُ مَنَعَ طَلَبِ الْإِكْمَالِ فِي الْعِبَادَةِ فَإِنَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ بَلْ مَنَعَ الْإِفْرَاطِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْمَلَالِ أَوْ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّطَوُّعِ الْمُفْضِي إِلَى تَرْكِ الْأَفْضَلِ أَوْ إِخْرَاجِ الْفَرَضِ عَنْ وَقْتِهِ كَمَنْ بَاتَ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ وَيُغَالِبُ النَّوْمَ إِلَى أَنْ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ فَنَامَ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي الْجَمَاعَةِ أَوْ إِلَى أَنْ خَرَجَ الْوَقْتُ الْمُخْتَارُ أَوْ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَخَرَجَ وَقْتُ الْفَرِيضَةِ.

وَفِي حَدِيثٍ مَحْجَنٍ بِنِ الْأَدْرِعِ عِنْدَ أَحْمَدَ: إِنَّكُمْ لَنْ تَنَالُوا هَذَا الْأَمْرَ بِالْمُغَالَبَةِ وَخَيْرُ دِينِكُمْ الْيُسْرَةُ... وَقَدْ يُسْتَفَادُّ مِنْ هَذَا الْإِشَارَةِ إِلَى الْأَخْذِ بِالرُّخْصَةِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّ الْأَخْذَ بِالْعَزِيمَةِ فِي مَوْضِعِ الرُّخْصَةِ تَنْطَعُ كَمَنْ يَتْرُكُ التَّيَمُّمَ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ فَيُفْضِي بِهِ اسْتِعْمَالَهُ إِلَى حُصُولِ الضَّرَرِ.

❖ قَوْلُهُ: (فَسَدِّدُوا) أَيِ الزُّمُومِ السَّدَادَ وَهُوَ الصَّوَابُ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ... قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: السَّدَادُ التَّوَسُّطُ فِي الْعَمَلِ.

❖ قَوْلُهُ: (وَقَارِبُوا) أَيِ إِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا الْأَخْذَ بِالْإِكْمَالِ فَاعْمَلُوا بِمَا يَقْرُبُ مِنْهُ.

❖ قَوْلُهُ: (وَأَبْشَرُوا) أَيِ بِالثَّوَابِ عَلَى الْعَمَلِ الدَّائِمِ وَإِنْ قَلَّ... وَالْمُرَادُ

تَبَشِيرُ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْعَمَلِ بِالْإِكْمَالِ بِأَنَّ الْعَجْزَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ صَنِيعِهِ لَا يَسْتَلْزِمُ

نَقَصَ أَجْرَهُ ... وَأَبْهَمَ الْمُبَشِّرَ بِهِ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا.

❖ قَوْلُهُ: (وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ) أَيِ اسْتَعِينُوا عَلَى مُدَاوَمَةِ الْعِبَادَةِ بِإِقَاعِهَا فِي الْأَوْقَاتِ الْمُنَشَّطَةِ ... وَالْغَدْوَةُ سَيْرٌ أَوَّلُ النَّهَارِ، وَالرَّوْحَةُ: السَّيْرُ بَعْدَ الزَّوَالِ، وَالذَّلْجَةُ: سَيْرٌ آخِرُ اللَّيْلِ وَقِيلَ سَيْرُ اللَّيْلِ كُلُّهُ وَلِهَذَا عَبَّرَ فِيهِ بِالتَّبْعِيضِ.

وَلِأَنَّ عَمَلَ اللَّيْلِ أَشَقُّ مِنْ عَمَلِ النَّهَارِ وَهَذِهِ الْأَوْقَاتُ أَطْيَبُ أَوْقَاتِ الْمُسَافِرِ وَكَأَنَّهُ ﷺ خَاطَبَ مُسَافِرًا إِلَى مَقْصِدٍ فَنَبَّهَهُ عَلَى أَوْقَاتِ نَشَاطِهِ لِأَنَّ الْمُسَافِرَ إِذَا سَافَرَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ جَمِيعًا عَجَزَ وَانْقَطَعَ وَإِذَا تَحَرَّى السَّيْرَ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الْمُنَشَّطَةِ أَمَكَّتَهُ الْمُدَاوَمَةُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ ... وَحُسْنُ هَذِهِ الْإِسْتِعَارَةِ أَنَّ الدُّنْيَا فِي الْحَقِيقَةِ دَارُ نُقْلَةٍ إِلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ بِخُصُوصِهَا أَرْوَحُ مَا يَكُونُ فِيهَا الْبَدَنُ لِلْعِبَادَةِ^(١).

❖ قَوْلُهُ ﷺ: «الْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا»: وَالْقَصْدُ الْأَخْذُ بِالْأَمْرِ الْأَوْسَطِ وَمُنَاسَبَةُ إِيْرَادِ الْمُصَنِّفِ لِهَذَا الْحَدِيثِ عَقِبَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي قَبْلَهُ ظَاهِرَةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا تَضَمَّنَتْ التَّرْغِيبَ فِي الْقِيَامِ وَالصِّيَامِ وَالْجِهَادِ فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْأَوَّلَى لِلْعَامِلِ بِذَلِكَ أَنْ لَا يُجْهِدَ نَفْسَهُ بِحَيْثُ يَعِجُزُ وَيَنْقَطِعُ بَلْ يَعْمَلُ بِتَلَطُّفٍ وَتَدْرِيجٍ لِيَدُومَ عَمَلُهُ وَلَا يَنْقَطِعُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٠) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟» قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِرِزْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُلُّوهُ، لِيُصَلَ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرَقْدْ»^(٣).

❖ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ النَّبَوِيَّ يَوْمًا فَرَأَى حَبْلًا مَرْبُوطًا بَيْنَ سَارِيَتَيْنِ -

(١) فتح الباري (١١٧/١-١١٨) بتصرف.

(٢) فتح الباري (١١٨/١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١١٥٠) كتاب التهجد، ومسلم (٧٨٤) كتاب صلاة المسافرين.

أى: بين عمودين - فما كان من النبى ﷺ إلا أن سأل وقال: «ما هذا الجبل؟» فقالوا: هذا جبل زينب تربطه بين الساريتين وتصلى .. فإذا تعبت من كثرة الصلاة فإنها لا تجلس بل تتعلق بالجبل وتستمر واقفة تصلى ... فلم يُقل النبى ﷺ: بارك الله فيها .. ما شاء الله .. ما هذه الهمة العالية. بل قال ﷺ: «حُلّوه» .. أى: اقطعوه وأزيلوه.

ثم قال ﷺ: «لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ إِذَا فَرَّ فَلَيرْقُدْ».

❁ ففى هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان ألا يُكَلِّف نفسه ما لا تُطِيق وألا يتنطع فى العبادة وأن يُصَلِّى ما دام نشيطاً .. فإذا أَحَسَّ بالتعب فعليه أن يجلس أو يرقد ليستريح وليستطيع أن يُعَاوِد العبادة بعد أن يعود إليه نشاطه مرة أخرى. وذلك لأنه إذا صَلَّى وهو مُتَعَبٌ فإنه لن يستطيع أن يخشع .. بل إنه ربما يريد أن يدعو لنفسه وهو ساجد فيدعو على نفسه؛ لأنه نائم .. فبدلاً من أن يقول: اللهم اغفر لى .. فيقول: اللهم لا تغفر لى.

❁ وإن كان هذا الأمر قد وَرَدَ فى الصلاة فإنه يشمل جميع أنواع العبادة .. فلا تُكَلِّف نفسك فوق طاقتها حتى لا تملّ وتسأم من العبادة بل عامل نفسك بالرفق واللين.

❁ وكذلك إن كنت تُصَلِّح أى شىء وشعرت بالتعب فارقد حتى ترتاح ثم واصل عملك.

وإذا كنت تُذَكِّر وشعرت بالتعب فارقد حتى ترتاح ثم واصل المُذَكِّرة ... وهكذا فى كل أمور دينك ودُنْيَاكَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥١) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّى، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعَسٌ لَا يَدْرِى

لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه»^(١).

✽ ما يُقال في شرح هذا الحديث هو ما قد قيل في الحديث السابق .. فالنبي ﷺ يوصينا - وهو الذي ما ترك خيراً إلا وقد دلنا عليه وما ترك شراً إلا وقد حذرنا منه - فهو ﷺ يوصينا بأن يصلي أحداً وهو نشيط فإذا شعر بالتعب أو غلبه النعاس وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم وحتى يستعيد نشاطه فيصلي بعد ذلك وهو نشيط.

ثم وضح النبي ﷺ العلة من ذلك فقال: «فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه».

فقد يريد أن يقول: اللهم أدخلني الجنة .. فيقول: اللهم لا تدخلني الجنة.
وقد يريد أن يقول: اللهم اغفر لي وارحمني .. فيقول: اللهم لا تغفر لي ولا ترحمني ... وهكذا.

وفي النهاية فلا بد أن نعلم أن الإنسان لنفسه عليه حق .. فإذا أجبر نفسه على فعل أى عبادة وهو مريض أو تعبان فإنه يكون بذلك قد ظلم نفسه ..
فما أجمل هذا الدين الذى يُعلمنا الوسطية بلا إفراط ولا تفريط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٢) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ أَصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ، فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصِداً وَخُطْبَتُهُ قَصِداً»^(٢).

✽ في هذا الحديث يخبر جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يصلي مع النبي ﷺ صلاة الجمعة فكانت خطبته قصداً وصلاته قصداً .. أى: أنها وسط بين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٢) كتاب الوضوء، ومسلم (٧٨٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٦٦) كتاب الجمعة.

قوله: قَصِداً: أى بَيْنَ الطُّولِ وَالْقَصْرِ.

التخفيف المُخل وبين التثقيل المُمل... فهي خطبة ليست طويلة وليست قصيرة.. وكذلك الصلاة.. وهذا من حكمة النبي ﷺ ومن فقهه النبي ﷺ حتى تقتدى به وتفعل مثله ﷺ... ففي هذا الزمان نجد أن بعض الخطباء يتعمدون إطالة الخطبة حتى يملّ الناس ويخرجوا من الصلاة بغير فائدة.. وهذا بالطبع مخالف لهدى النبي ﷺ.

عن واصل بن حيان قال: قال أبو وائل: خطبنا عمار، فأوجز وأبلغ. فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغت وأوجزت. فلو كنت تنفّست! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ طول صلاة الرجل، وقصر خطبته، مِثْنَةٌ مِنْ فِقْهه فأطيلوا الصلاة واقصّروا الخطبة وإن من البيان سحراً»^(١).

وفي رواية لأحمد: «خطبنا عمار بن ياسر فتجوّز في خطبته، فقال له رجل من قريش: لقد قلت قولاً شفاءً، فلو أنك أطلت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ نهى أن نُطيل الخطبة»^(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وليس هذا الحديث مخالفاً للأحاديث المشهورة في الأمر بتخفيف الصلاة لقوله في الرواية الأخرى: «وكانت صلاته قصداً وخطبته قصداً»؛ لأن المراد بالحديث الذي نحن فيه أن الصلاة تكون طويلة بالنسبة إلى الخطبة لا تطويلاً يشق على المأمومين... وهي حينئذ قصد أي معتدلة، والخطبة قصد بالنسبة إلى وضعها^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٣) وَعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً فَقَالَ: مَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٩) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣٢٠ / ٤) بسند صحيح.

(٣) مسلم بشرح النووي (٢٢٦ / ٦).

سَأَلْتُ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ لَهُ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِأَكْلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ: نَمْ فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ لَهُ: نَمْ ... فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ، فَصَلَِّا جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلَا هَلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ... فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»^(١).

❁ قال أبو جُحَيْفَةَ وَهَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَخَى النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ

ﷺ.

فإنه لما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى يثرب (المدينة) وبعد أن بنى النبي ﷺ مسجده آخى بين المهاجرين والأنصار، وذلك لتقوية الجبهة الداخلية وزيادة ترابطها، وحتى يواسى الأنصار إخوانهم المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم لنصرة دين الله وإعزاز شرعه ... ومدح الله ﷻ إِيَّاهُ الْآنَ الْآنَصَارَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُذُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتأخين كالمواساة بين الاثنين، والمواساة ليست مُحَدَّدة بأمور معينة، بل مُطْلَقة لتعنى كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عونًا ماديًا، أو رعاية ونصيحة وتزاورًا ومحبة ... كما ترتب على المؤاخاة أن يتوارث المتأخون دون ذوى أرحامهم مما يرقى بالعلاقات بين المتأخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أخوة الدم^(٢). ثم نُسخ هذا التوارث بقول الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى

(١) صحيح: رواه البخارى (٦١٣٩) كتاب الأدب.

(٢) المجتمع المدني في عهد النبوة خصائصه وتنظيماته الأولى (٧٤، ٧٦) باختصار د. أكرم العمرى.

بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴿[الأفال: ٧٥]﴾. وذلك بعد أن تغيرت أحوال المهاجرين بإصابة الغنائم، ومعرفة مسالك طلب الرزق في وطنهم الجديد.

ولقد ذكر أصحاب المغازي أَنَّ الْمُؤَاخَاةَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَقَعَتْ مَرَّتَيْنِ الْأُولَى قَبْلَ الْهَجْرَةِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً عَلَى الْمُؤَاَسَاةِ وَالْمُنَاصَرَةِ فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ أُخُوَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ وَذَلِكَ بَعْدَ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ^(١).

❁ وقد يسأل سائل ويقول: كيف آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء إذا كان سلمان قد أسلم بعد غزوة أحد وكان أول غزوة شهداها هي غزوة الخندق؟ والجواب عن ذلك أن النبي ﷺ قد ابتداء في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة وبعد ما بنى مسجده ﷺ.. ثم لم تنقطع المؤاخاة بعد ذلك فقد كان النبي ﷺ يؤاخى بين من يأتي بعد ذلك وهلمَّ جرًّا.. وليس باللازم أن تكون المؤاخاة قد وقعت دفعة واحدة.. ولذا فإن سلمان لما أسلم بعد غزوة أحد آخى النبي ﷺ بينه وبين أبى الدرداء ﷺ.

❁ فجاء سلمان ذات يوم لزيارة أخيه أبى الدرداء فلم يجده في البيت ووجد امرأته أم الدرداء تلبس ثياباً رثة ولم تكن مُتَزِينَةً لزوجها.

فقال لها: ما شأنك؟ فقالت له: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.. يعنى أنه مُعْرَضٌ عن الدنيا وعن الزوجة وعن الطعام وعن كل شىء..

فلما جاء أبو الدرداء صنع لسلمان طعاماً وقَدَّمَهُ إِلَيْهِ وقال له: كُلْ فَإِنِى صَائِمٌ - أى صيام نافلة - فقال له سلمان: ما أنا بأكل حتى تأكل... وذلك لأنه قد علم من زوجته أنه يصوم دائماً ولا يُفْطِرُ حتى أثر ذلك على حياته وعلاقته بزوجه فلقد أصبح زاهداً في الدنيا وما فيها.

فأفطر أبو الدرداء وأكل مع سلمان ثم نام.

فلما أقبل الليل قام أبو الدرداء ليُصلي قيام الليل، فقال له سلمان: «نَمْ فنام.. ثم قام مرة أخرى بعد فترة ليُصلي فقال له سلمان: «نَمْ فنام» فلما كان الثلث الأخير من الليل قال له سلمان: قم الآن.. فقام أبو الدرداء وصلى مع سلمان قيام الليل... ومن المعلوم أن صلاة قيام الليل لا تُصلى جماعة ولكنها تجوز أحياناً إذا لم يكن ذلك على سبيل المداومة.. وقد صلى حذيفة بن اليمان مع النبي ﷺ قيام الليل.. وكذلك صلى ابن مسعود مع النبي ﷺ قيام الليل وكذلك ابن عباس (رضى الله عنهم جميعاً).

ثم قال له سلمان: «إن لنفسك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لربك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»... وهذا القول الذي قاله سلمان هو القول الذي قاله النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلما قال سلمان ذلك لأبي الدرداء.. وخرجا ليُصليا الصبح مع النبي ﷺ فذكر أبو الدرداء للنبي ﷺ ما قاله له سلمان.. فقال له النبي ﷺ: «صدق سلمان». ففي هذا دليل: على أن الإنسان لا ينبغي له أن يكلف نفسه بالصيام والقيام، وإنما يصلي ويقوم على وجه يحصل به الخير، ويزول به التعب والمشقة والعناء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٤) وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لَا صَوْمَ مِنَ النَّهَارِ، وَلَا قَوْمَ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ قُلْتُ: فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ، قُلْتُ: فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: فَصُمْ

يَوْمًا وَأَفْطَرُ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ ﷺ، وَهُوَ أَعَدَلَ الصِّيَامِ.

وفي رواية: «هُوَ أَفْضَلُ الصِّيَامِ» فَقُلْتُ: فَإِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»... وَلَئِنْ أَكُونُ قَبِلْتُ الثَّلَاثَةَ الْآيَامِ الَّتِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي.

وفي رواية: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَلَا تَفْعَلْ: صُمْ وَأَفْطِرْ، وَنَمْ وَقُمْ فَإِنَّ لَجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنَيْكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِرُوحِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَثْمَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ» فَشَدَّدْتُ فُشْدَدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً، قَالَ: «صُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ» قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامَ دَاوُدَ؟ قَالَ: «نِصْفُ الدَّهْرِ» فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وفي رواية: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ، وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَمْ أُرِدْ بِذَلِكَ إِلَّا الْخَيْرَ، قَالَ: «فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَاقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرِينَ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ» قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنِّي أَطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ» فَشَدَّدْتُ فُشْدَدَ عَلَيَّ، وَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمُرٌ» قَالَ: فَصُرْتُ إِلَى الَّذِي قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ قَبِلْتُ رُخْصَةَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ.

وفي رواية: «وَإِنَّ لَوْلَدَكَ عَلَيْكَ حَقًّا» وفي رواية: «لَا صَامَ مِنْ صَامِ الْأَبَدِ» قَالَهُ ثَلَاثًا. وفي رواية: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ: كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا

وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفْرُ إِذَا لَاقَى».

وفي رواية قَالَ: أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، وَكَانَ يَتَعَاهَدُ كِتْنَتَهُ أَيْ: امْرَأَةً وَلَدَهُ فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ لَهُ: نِعَمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا وَلَمْ يُفْتَشْ لَنَا كَنْفًا مُنْذُ أَتَيْنَاهُ فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «الْقِنَى بِهِ» فَلَقِيَتْهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قُلْتُ: كُلُّ يَوْمٍ، قَالَ: «وَكَيْفَ تَحْتِمُ؟» قُلْتُ: كُلَّ لَيْلَةٍ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا سَبَقَ وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْعَ الَّذِي يَقْرُؤُهُ، يَعْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ لِيَكُونَ أَخْفَ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَى وَصَامَ مِثْلَهُنَّ كِرَاهِيَةً أَنْ يَتْرَكَ شَيْئًا فَارَقَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ^(١).

كُلُّ هَذِهِ الرُّوَايَاتِ صَحِيحَةٌ مُعْظَمُهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَقَلِيلٌ مِنْهَا فِي أَحَدِهِمَا.

✽ المداومة على قليل الدواء تورث الشفاء، وتناول الجرعة الكبيرة منه ثم الانقطاع لا يحدث الأثر المرجو، بل يحقق مبتغى الشيطان وهو انقطاعك وعدم دوامك؛... لذا كان من أسهل ما يوصل عدوك إلى هدفه: الغلو وتحميل نفسك فوق طاقتها والغفلة عن سنة التدرُّج... وتفصيل خطة الشيطان وبين ثناياها: إفراط في بداية الطريق يورث التفريط آخره، وهو ما يسميه الأطباء اليوم بظاهرة الانتكاسة، فبعد أن يتناول المريض الدواء زمنًا وتبدو عليه أمارات الشفاء؛ يرتكس ويتكس من جرَّاء ما شدد على نفسه في الأول.

وهو ما حذر منه من قديم الزمن الحسن البصري حين قال: «إِنْ هَذَا الدِّينُ دِينٌ وَاصِبٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ يَدْعُهُ وَإِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ... وَكَانَ يُقَالُ: لِيَأْخُذَ أَحَدُكُمْ مِنَ الْعَمَلِ مَا يُطِيقُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا قَدَرُ أَجَلِهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا رَكِبَ بِنَفْسِهِ الْعَنْفَ وَكَلَفَ نَفْسَهُ مَا لَا يُطِيقُ أَوْشَكَ أَنْ يَتْرَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَتَّى لَعَلَّهُ لَا يَقِيمُ الْفَرِيضَةَ وَإِذَا رَكِبَ نَفْسَهُ التَّيْسِيرَ وَالتَّخْفِيفَ وَكَلَفَ نَفْسَهُ مَا تُطِيقُ كَانَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤١٨، ٣٤١٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

أكيس وكان يُقال: شر السير الحقة»^(١).

✽ فليس هناك أجمل من الوسطية في كل شيء ... فالتشدد يقود صاحبه إلى التفريط والضياع لأنه يتنافى مع فطرة الإنسان المعتدلة التي ترشد صاحبها إلى التمسك بدينه وفي نفس الوقت لا تُنسيه دُنياه.

ولذا قال ﷺ: «.... ولن يُشاد الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا»^(٢).

وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ»^(٣).

✽ ومن أجل ذلك نقول: لا ينبغي للإنسان أن يُحمّل بدنه ما لا يطيق فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها صاحبها لم تصل به حيث يريد.

✽ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: لم يُعظم الصحابة النبي ﷺ فحسب بل عظموا كل شيء يخصه... وتعدّى الأمر إلى أن عظموا كل ما التزموا به أمامه من العبادات أو الأعمال التي فارقهم - بموته ﷺ - وهم يحافظون عليها... وهذا المسلك منهم ﷺ يدعو - والله - إلى التدبّر والتفكير في أدبهم وإجلالهم للنبي ﷺ ويتضح ذلك من:

(١) الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص لم يلتزم للنبي ﷺ أو يعاهده على تلك العبادات التي ذكرها في الحديث. وهى صوم يوم وإفطار يوم وختم القرآن في سبعة أيام. وإنما اعتبر نُصح الرسول ﷺ له بذلك والتزامه ﷺ بتلك العبادات طيلة حياة النبي ﷺ كالعهد مع النبي ﷺ الذي يجب الوفاء به.

(٢) العبادات التي التزم بها عبد الله بن عمرو ﷺ ليس من الواجب ولا الفروض ولكنها من السنن.

(١) الزهد لابن المبارك (١/ ٤٦٨) بتصريف يسير - والحققة: شدة السير وأتعبه للظهر.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٩) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) بلغت المشقة بعبد الله بن عمرو رضي الله عنه أقصاها، لما كبر سنُّه، من المواظبة على تلك العبادات.

ومع كل ما ذكر لم يستطع عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن يترك تلك العبادات، مع أنه يعلم تمامًا أن المشقة تُوجب التخفيف، ويتذكر جيدًا أن النبي صلى الله عليه وآله راجعه ليُخَفِّفَ عن نفسه، وما تركها رضي الله عنه مخافة ضياع ثوابها - لأنه يعلم أن الله يكتب للمريض ما كان يفعله وهو صحيح - وإنما لم يتركها كراهية أن يترك شيئًا فارق عليه النبي صلى الله عليه وآله ... قال الإمام النووي رحمته الله (معناه أنه كبر وعجز عن المحافظة على ما التزمه ووظفه على نفسه عند رسول الله صلى الله عليه وآله فشقَّ عليه فعله لعجزه ولم يعجبه أن يتركه لالتزامه له، فتمنى لو قبل الرخصة فأخذ بالأخف) ^(١). وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله: (ومع عجزه وتمنيه الأخذ بالرخصة لم يترك العمل بما التزمه) ^(٢).

الفائدة الثانية: شفقة النبي صلى الله عليه وآله بأصحابه، حيث راجع الصحابي عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه في أمر زوجته حتى يعطيها حقها، كما راجعه في أمر عبادته حتى لا يشق على نفسه ويجهدها مما قد يضطره إلى قطع تلك العبادة إذا كبر سنُّه ... وهذا فيه بُعد نظر جميل من النبي صلى الله عليه وآله.

الفائدة الثالثة: حياؤه صلى الله عليه وآله وحكمته ... أما حياؤه فإنه صلى الله عليه وآله لم يصارح عبد الله ابن عمرو رضي الله عنه بما بدر منه تجاه زوجته منذ زواجهما، أما حكمته صلى الله عليه وآله فتتضح من معالجته لأصل المشكلة وهي تفرُّغ عبد الله بن عمرو للعبادة وانشغاله بها طوال ليله ونهاره.

الفائدة الرابعة: حب الصحابة رضي الله عنهم للعبادة ... لقد ودوا لو استغرقت كل أوقاتهم، لولا أن النبي صلى الله عليه وآله كان يرشدهم دائمًا إلى القصد وإعطاء كل ذي حقَّ

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٨/٤٣).

(٢) انظر فتح الباري (٤/٢٢٠).

حقه. قال ﷺ: «فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا»^(١).

الفائدة الخامسة: حياء الصحابة ﷺ وتقدمهم التعريض على التصريح فيما يחדش الحياء، ولو كان المتحدث إليه من المحارم.

يتضح ذلك جليًا من قول زوجة عبد الله بن عمرو: (لم يطأ لنا فراشًا ولم يُفتش لنا كنفًا). وهذا أمر نفتقده كثيرًا في كلامنا اليوم، فنأتي بكلام يחדش الحياء بمصلحة وبغير مصلحة، وفي جدنا وهزلنا^(٢).

بِمَا يَحِلُّ مِنْهُ

(١٥٥) وَعَنْ أَبِي رُبَيْعٍ حَنْظَلَةَ بْنِ الرَّبِيعِ الْأُسَيْدِيِّ الْكَاتِبِ أَحَدِ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ كَأَنَّا رَأَى عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسَنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا... قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا... فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تَذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ كَأَنَّا رَأَى الْعَيْنِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٢) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (٢/ ٢٩٠-٢٩٢) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٠) كتاب التوبة.

قوله: «رُبَيْعِي» بِكَسْرِ الرَّاءِ. «وَالْأُسَيْدِيُّ» بِضَمِّ الهمزة وفتح السَّيْنِ وبعدها ياء مكسورة مُشَدَّدة. وقوله: «عَافَسْنَا» هُوَ بِالْعَيْنِ وَالسَّيْنِ الْمُهْمَلَتَيْنِ أَيْ: عَاجَلْنَا وَلَا عَبَأَ - «وَالضَّيْعَاتِ» الْمَعَايِشُ.

❁ الإسلام دينٌ واقعى لا يُخلَق فى أجواء الخيال المثالية الواهمة ، ولكنه يقف مع الإنسان على أرض الحقيقة والواقع. ولا يعامل الناس كأنهم ملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع. ولكنه يعاملهم على أنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق.

لذلك لم يفرض على الناس - ولم يفترض فيهم - أن يكون كل كلامهم ذكراً، وكل صمتهم فكراً، وكل سماعهم قرآناً، وكل فراغهم فى المسجد. وإنما اعترف بهم وبفطرتهم وغرائزهم التى خلقهم الله عليها.

وقد خلقهم سبحانه يفرحون ويمرحون ، ويضحكون ويلعبون، كما خلقهم يأكلون ويشربون.

ولقد بلغ السمو الروحى ببعض أصحاب النبى ﷺ مبلغاً ظنوا معه أن الجسد الصارم، والتعبُّ الدائم، لا بُدَّ أن يكون ديدنهم، وأن عليهم أن يُديرُوا ظهورهم لكل مُتَع الحياة، وطيبات الدنيا، فلا يلهون ولا يلعبون، بل تظل أبصارهم مشدودة إلى السماء، وأفكارهم متجهة إلى الآخرة ومعانيها، بعيدة عن الحياة ولهوها. وتظل أعينهم من خشية الله دامعة، وقلوبهم من ذكر الله خاشعة، وأكفهم إلى الله ضارعة، فإذا تَخَلَّوْا عن هذه الحال الربانية الراقية بعض الأوقات اتهموا أنفسهم بالنفاق^(١).

وإذا بالنبى ﷺ يوضح لهم المنهج الوسط فى هذه المسألة فيقول: «ساعة وساعة» فإن الحياة إذا كانت جامدة فلن يستطيع المسلم أن يُعطى فى الجوانب الأخرى... بل إن الساعة التى يُرَوِّح فيها المسلم عن نفسه بالتمتع بالمباحات فى حدود المعقول تكون عوناً له على عبادة الله وعلى خدمة دين الله (جلَّ وعلا).

والمثل الإنسانى الأعلى، والأسوة الإنسانية المثلى فى ذلك هو الرسول

(١) فقه اللهو والترويح / د. يوسف القرضاوى (ص ١٣).

الخاتم محمد ﷺ... فقد كانت حياته ﷺ مثلاً رائعاً للحياة الإنسانية المتكاملة: فهو في خلوته يُصلى ويُطيل الخشوع والبكاء حتى تتورم قدماه، وهو في الحق لا يبالي بأحد في جنب الله، ولكنه مع الحياة والناس بشرٌ سَوِيٌّ، يحب الطيبات، ويبش ويتسم للناس، ويُلاعب الأطفال، ويُداعب أزواجه، ويُطيب نفوسهن ويمزح ولا يقول إلا حقاً.

كان ﷺ يحب السرور وما يجلبه ويكره الحزن وما يدفع إليه من ديون ومتاعب ويستعيز بالله من شره، ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»^(١).

وكذلك كان أصحابه الطيبون الطاهرون، يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون، معرفة منهم بحظ النفس، وتلبية لنداء الفطرة، وتمكيناً للقلوب من حقها في الراحة واللهو البريء، لتكون أقدر على مواصلة السير في طريق الجِدِّ، وإنه لطريقٌ طويل.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: رَوِّحُوا عَنِ الْقُلُوبِ وَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ، فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ^(٢) (٣).

❁ وفي هذا الحديث نجد أن حنظلة الكاتب أحد كُتَّاب الوحي لرسول الله ﷺ، أنه قال: لقيني أبو بكر ﷺ فقلت: نافق حنظلة، يعني: نفسه، ومعنى نافق: يعني: صار من المنافقين... قال ذلك ظناً منه ﷺ أن ما فعله من النفاق. فقال أبو بكر: وأنا أجد مثل ذلك.

فانطلقا إلى النبي ﷺ فقال له حنظلة: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال ﷺ: «وما ذاك؟» فقال: يا رسول الله نكون عندك تُذكرنا بالنار والجنة كأننا رأى العين... أي: كأننا نراهما أمام أعيننا.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٦٣) كتاب الدعوات.

(٢) رواه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (١٢٩/٢).

(٣) فقه اللهو والترويح (ص ١٥-١٦).

فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ... يعنى: لهونا معهم ونسينا ما كنا عليه عند النبي ﷺ.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده، لو تدومون على ما تكونون عليه عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقتكم» أى: من شدة اليقين تصافحكم إكراماً لكم وتثبيتاً لكم؛ لأنه كلما زاد يقين العبد، فإن الله سبحانه وتعالى يثبته ويقويه... كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ساعة وساعة. ساعة وساعة» يعنى: ساعة لعبادة الله ﷻ، وساعة مع الأهل والأولاد، وساعة للنفس حتى يعطى الإنسان لنفسه راحتها، ويعطى ذوى الحقوق حقوقهم... وفي النهاية فكلها ساعات لله ﷻ.

وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها، وذلك أن المسلم يُقسم وقته وحياته على الحقوق والواجبات ولا ينسى في خضم كل هذا أن يستمتع بشيء من المباحات لتكون عوناً له بعد ذلك على القيام بالحقوق والواجبات... وذلك لأن الإنسان إذا أتعب نفسه وشدد عليها فإنها تملّ وتكون سبباً في ضياع الحقوق والواجبات.

✽ وهذا كما يكون في العبادة وفي حقوق الأهل والنفس والضيف فإنه يكون كذلك في طلب العلم والمذاكرة... فإن الإنسان إذا كان يطلب العلم ورأى في نفسه مللاً من مراجعة أو مذاكرة كتاب ما فعليه أن ينتقل إلى غيره حتى يُريح نفسه ويستطيع أن يستفيد من الكتاب الآخر ولا يُضيع وقته وعمره.. وهكذا فلنحرص بين الحين والحين على الترفيه عن النفس حتى لا نمل.. ولنحرص على أن نستمتع أحياناً ببعض المباحات لتكون عوناً لنا على أداء الحقوق والواجبات.

(١٥٦) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ فِي الشَّمْسِ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ»^(١).

✽ ذكر المؤلف رحمته الله في باب الاقتصاد في العبادة هذا الحديث الذي نذر فيه رجل يُقال له: أبو إسرائيل، أن يقوم في الشمس ولا يقعد، وأن يصمت ولا يتكلم، وأن يصوم... وكان النبي ﷺ يخطب فرأى هذا الرجل قائماً في الشمس، فسأل عنه فأخبر عن قصته، فقال النبي ﷺ: «مرّوه فليقعد وليستظل وليتكلم وليتم صومه».

وهذا النذر كان قد تضمن أشياء محبوبة إلى الله ﷻ وأشياء غير محبوبة... أما المحبوبة إلى الله فهي الصوم؛ لأن الصوم عبادة، والنبي ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِيعْهُ» وأما وقوفه قائماً في الشمس من غير أن يستظل، وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى الله ﷻ، فلهذا أمر النبي ﷺ هذا الرجل أن يترك ما نذر. وليُعلم أن النذر أصله مكروه... بل قال بعض العلماء: إنه محرم، وإنه لا يجوز للإنسان أن ينذر؛ لأن الإنسان إذا نذر كلف نفسه ما لم يكلفه الله، ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر، وقال: «إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»^(٢) ولكن إذا قدر أن الإنسان نذر فالنذر أقسام: قسمٌ حكمه حُكم اليمين، وقسمٌ آخر نذر معصية، وقسمٌ ثالث نذر طاعة.

أما الذي حكمه حُكم اليمين: فهو الذي قصد الإنسان به تأكيد الشيء، نفياً أو إثباتاً أو تصديقاً أو تأكيداً. ومثاله إذا قيل للرجل: أخبرتنا بكذا وكذا، ولكنك لم تصدّق، فقال: إن كنت كاذباً فلله علىّ نذر أن أصوم سنة، فلا شك أن غرضه

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٧٠٤) كتاب الإيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠٨) كتاب القدر، ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

من ذلك أن يؤكد قوله ليصدق الناس.. هذا حكمه حكم اليمين؛ لأنه قصد بذلك تأكيد ما قال، وكذلك أيضًا إذا قصد الحث مثل أن يقول: إن لم أفعل كذا فله على نذر أن أصوم سنة، فهذا أيضًا قصد الحث وأن يفعل ما ذكر، حكمه حكم اليمين أيضًا... ودليل هذا قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١) وهذا نوى اليمين فله ما نوى.

أما القسم الثاني: فهو المَحْرَم... فالمُحْرَم إذا نذره الإنسان يَحْرُم عليه الوفاء به... مثل أن يقول: لله عليه نذر أن يشرب الخمر، فهذا نذر محرم فلا يحل له أن يشرب الخمر، ولكنه عليه كفارة يمين على القول الراجح.

وإن كان بعض العلماء قال: إنه لا شيء عليه؛ لأنه نذرٌ غير منعقد. ولكن الصحيح أنه نذرٌ منعقد، ولكن لا يجوز الوفاء به... ومثل ذلك أن تقول المرأة: لله عليها نذر أن تصوم أيام حيضها فهذا حرام، ولا يجوز أن تصوم أيام الحيض، وعليها كفارة يمين.

أما القسم الثالث: فهو نذر الطاعة، أن ينذر الإنسان نذر طاعة، مثل أن يقول: لله على نذر أن أصوم الأيام البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر... فيلزمه أن يوفى بنذره، لقول النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ»^(٢) أو يقول: لله على نذر أن أصلي ركعتين في الضحى فيلزمه أن يوفى بنذره؛ لأنه طاعة، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ».

فإن اشتمل نذره على طاعة وغير طاعة، وجب أن يوفى بالطاعة، أما غير الطاعة فلا يوفى، ويكفر كفارة يمين.. مثل قصة هذا الرجل حيث نذر أن يقوم في الشمس، وألا يستظل وألا يتكلم وأن يصوم، فأمره النبي ﷺ أن يصوم؛ لأنه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

طاعة، ولكنه قال في القيام وعدم الاستئلال وعدم الكلام: «مُروه فليستظل، وليقعد وليتكلم» وكثير من الناس اليوم إذا استبعد الأمر أو أشفق عليه ينذر.... فمثلاً: إذا مرض له إنسان، قال: لله على نذر إن شفى الله مريضى لأفعلن كذا وكذا... فهذا منهى عنه، إما نهى كراهة أو نهى تحريم، أسأل الله العافية لمريضك بدون نذر، لكن لو فرضنا أنه نذر إن شفى الله مريضه أن يفعل كذا وكذا، فشفاه الله، وجب عليه أن يوفى بالنذر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/٤٢٦-٤٢٧).

(١٥) باب في المحافظة على الأعمال

✽ لما تحدثنا في الباب السابق عن الاقتصاد في الطاعة وعدم التشدد والغلو.. كان لا بُدَّ أن نتحدث عن المحافظة على الطاعة حتى لا يظن أحد أن نبذ التشدد يعطينا الحق في أن نُفَرِّط ونقصر في العبادة... بل يجب علينا أن نحافظ على الأعمال حتى ولو كانت قليلة.

✽ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ألم يأت الوقت الذي تلين فيه قلوبهم وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ؟ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك^(١).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

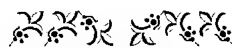
(١) تفسير السعدي (ص ٩٩٩-١٠٠٠).

أى فطال عليهم الزمن الذى بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلبت قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... قال ابن عباس: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواضع القرآن.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَقُوتُوا﴾ أى وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعاليم دينهم، من فرط قسوة القلب ... قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تناول عليهم الزمن بدّلوا كتاب الله الذى بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ... فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعيد ولا وعيد^(١).

✽ وحتى لا تقسو القلوب فنحن نحتاج إلى أن نحافظ على العبادات التى أكرمنا الله بها ... وذلك أن كثيراً من الناس ربما يكون نشيطاً مُقبلاً على الخير فيجتهد، ولكنه بعد ذلك يفتر ثم يتقاعس ويتهاون.

وهذا يجرى كثيراً للشباب ... لأن الشاب يكون عنده اندفاع قوى أو تأخر شديد، إذ إن غالب تصرفات الشباب إنما تكون مبنية على العاطفة دون التعقل ... فتجد الواحد منهم يندفع ويستبد في العبادة، ثم يعجز أو يتكاسل فيتأخر، ولهذا ينبغى للإنسان أن يكون مقتصدًا في الطاعة غير منجرف، وأن يكون محافظاً عليها؛ لأن المحافظة على الطاعة دليل على الرغبة فيها، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قلَّ ... فإذا حافظ الإنسان على عبادته واستمر عليها كان هذا دليلاً على محبته وعلى رغبته في الخير^(٢).



(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٤٥١).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/٤٢٨).

❖ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أى: أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خَصَّ الله عيسى ﷺ؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى ﷺ، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ الذى هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقْسِي قُلُوبَهُمْ وَيَبْغُوا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآيات.. ولهذا كان النصارى أليين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى ﷺ.

﴿وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة.. فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم.. قَصْدُهُم بِذَلِكَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعَ ذَلِكَ ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أى: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصرُوا مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةٍ ابْتَدَاعَهُمْ، وَمِنْ جِهَةٍ عَدَمِ قِيَامِهِمْ بِمَا فَرَضُوهُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ. فَهَذِهِ الْحَالُ هِيَ الْغَالِبُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُسْتَقِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، وَلِهَذَا قَالَ ^(١): ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ أى: فأعطينا الصالحين من أتباع عيسى الذين ثبتوا على العهد وآمنوا بمحمد ﷺ ثوابهم مُضَاعَفًا ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى: وكثيرٌ مِنْ

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٠٣).

النصارى خارجون عن حدود الطاعة منتهكون لمحارم الله.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصْذَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَالَّتِي﴾ تغزل غزلًا قويًّا فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنْكَا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي... فكَذلك مَنْ نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْنِيكَ الْيَقِينُ﴾ أى: الموت... أى: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات... فامثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في العبادة حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٧) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حَزْبِهِ مِنَ اللَّيْلِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ

(١) تفسير السعدي (ص ٥١٣).

(٢) تفسير السعدي (ص ٤٩٧).

كَأَنَّمَا قرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان إذا اعتاد أن يقوم بعبادة مُعينة فلا بُدَّ أن يُحافظ عليها حتى ولو بعد ذهاب وقتها.

✽ «مَن نام عن حزبه من الليل» الحزب: هو الجزء من الشيء .. ومنه أحزاب القرآن .. وكذلك منه الأحزاب من الناس ..

فإذا كان الإنسان لديه عادة أن يُصلى قيام الليل ولكنه في ليلة من الليالي نام بسبب مرضٍ أو تعبٍ أو غير ذلك .. فإذا قضاه فيما بين صلاتي الفجر والظهر فكأنما صلَّاه في ليلته...

وفيه تقييد النبي ﷺ القضاء فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، وهناك أحاديث تدل على أن صلاة الفجر لا صلاة بعدها حتى تطلع الشمس، ولا بعد طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رمح ... فيقيد عموم هذا الحديث، وأن القضاء يكون من بعد ارتفاع الشمس قيد رمح، وقد يقال بأنه لا يُقَيَّد؛ لأن القضاء متى ذكره الإنسان قضاه لعموم قول النبي ﷺ: «مَن نام عن صلاة أو نسيها فليُصلها إذا ذكرها، لا كفارة له إلا ذلك»^(٢).

فإذا فاتته قيام الليل ولم يستطع أن يقضيه فيما بين الصبح والظهر بسبب انشغاله في عمله .. فلا بأس أن يُصلِّيه فيما بين الظهر والعصر.

✽ ولكن إذا كان يُوتر في الليل فإنه إذا فاتته صلاة الليل وقضاها بالنهار فإنه لا يوتر ولكنه يشفع الوتر: أي يزيده ركعة .. فإن كان يوتر بركعة فليقضها ركعتين وإن كان يُوتر بثلاث ركعات فليقضها أربعاً .. وهكذا.

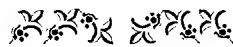
ودليل ذلك: حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان إذا غلبه نوم أو وجع من الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٨٤) كتاب المساجد.

وَيُؤَخَذُ مِنَ الْحَدِيثِ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ الْمَدَاوِمَةُ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَأَلَّا يَدَعَ مَا نَسِيَهُ إِذَا كَانَ يُمْكِنُ قَضَاؤُهُ، أَمَا مَا لَا يُمْكِنُ قَضَاؤُهُ فَإِنَّهُ إِذَا نَسِيَهُ سَقَطَ... مِثْلُ سُنَّةِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الَّتِي تُسَمَّى تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ إِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ الْمَسْجِدَ وَنَسِيَ وَجَلَسَ وَطَالَتِ الْمُدَّةُ، فَإِنَّهُ لَا يَقْضِيهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ سُنَّةٌ مُقْبِدَةٌ بِسَبَبٍ، فَإِذَا تَأَخَّرَتْ عَنْهُ سَقَطَتْ سُنَّتُهَا... وَهَكَذَا كُلُّ مَا قُيِّدَ بِسَبَبٍ فَإِنَّهُ إِذَا زَالَ سَبَبُهُ لَا يُقْضَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا مِنَ الْوَاجِبَاتِ كَالصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ، وَأَمَا مَا قُيِّدَ بِوَقْتٍ فَإِنَّهُ يُقْضَى إِذَا فَاتَ كَالسَّنَنِ الْوَرَاتِبِ إِذَا نَسِيَ الْإِنْسَانُ صَلَاتَهَا حَتَّى خَرَجَ الْوَقْتُ فَإِنَّهُ يَقْضِيهَا بَعْدَ الْوَقْتِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَكَذَلِكَ لَوْ فَاتَ الْإِنْسَانُ صِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ - الْأَيَّامُ الْبَيْضُ - فَإِنَّهُ يَقْضِيهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ صِيَامُهَا وَاسِعًا فَتَجُوزُ فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ وَفِي وَسْطِهِ وَفِي آخِرِهِ، لَكِنِ الْأَفْضَلُ فِي الْأَيَّامِ الْبَيْضِ: الثَّلَاثُ عَشَرَ، وَالرَّابِعُ عَشَرَ، وَالْخَامِسُ عَشَرَ^(١).



(١٥٨) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»^(٢).

✽ لَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مُجْتَهِدًا شَدِيدَ الْجَهْدِ، قَائِمَ اللَّيْلِ، صَائِمَ النَّهَارِ ﷺ... فَصَارَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ بَعْضُهُ وَيَنَامُ بَعْضُهُ، حِينَ عَلَّمَهُ وَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ خَيْرَ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَخَيْرُ الْقِيَامِ قِيَامُ دَاوُدَ (عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)... فَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ... وَاسْتَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَلَى ذَلِكَ،

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٥٢) كتاب الجمعة، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

وخشي عليه النبي ﷺ أن يمل فقال: «لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فتركه... فما ترك عبد الله بن عمرو بن العاص قيام الليل»، وقد تعب بعد النبي ﷺ، وأرهقه القيام وأتعبه الصيام، وكانوا يقولون: أنت شيخ كبير، لماذا تفعل هذا الأشياء كلها؟! فكان يقول: فارقني رسول الله ﷺ على شيء، وأكره أن ألقاه غداً على غيره... انظروا! الحياء من رسول الله ﷺ منعه من ترك المحافظة على ما اعتاده.

✽ قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان».

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله:

لَمْ أَقِفْ عَلَى تَسْمِيَّتِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الطَّرِيقِ، وَكَأَنَّ إِبْهَامَ مِثْلَ هَذَا لِقَصْدِ السُّتْرَةِ عَلَيْهِ كَالَّذِي نَامَ حَتَّى أَصْبَحَ... وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَقْصِدْ شَخْصًا مُعَيَّنًا، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَنْفِيرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الصَّنِيعِ الْمَذْكُورِ^(١).

✽ ومن أجل ذلك فلا بُدَّ أن نهتم بالأمر أو القضية نفسها دون ذكر الأشخاص.. ولذا كان النبي ﷺ إذا أراد أن يوجّه شخصاً أو يُصحح خطأً لشخص ما فإنه كان لا يذكر اسمه وإنما كان يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا» أو «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا».

وفي الحقيقة أن عدم ذكر اسم الشخص الذي أخطأ فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: هي الستر على هذا الشخص «ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة».

وأما الفائدة الثانية: فهي أن هذا الشخص ربما يتغير حاله فيما بعد فلا يستحق الحكم الذي يُحكم عليه في الوقت الحاضر.. بل قد يكون عدم ذكر اسمه سبباً في توبته... فإذا ذكر اسمه قد يكون سبباً في فتنته واستمراره على الخطأ الذي يفعله.

(١) فتح الباري (٣/٤٦).

فلو كان هذا الشخص يشرب الخمر فذكرت اسمه للناس وقلت لأحدهم: لا تكن مثل فلان فإنه يشرب الخمر .. فإذا تاب شارب الخمر هذا فسيظل مقروناً في أذهان الناس أنه فلان الذي كان يشرب الخمر .. ولا شك أن هذا ربما يكون فتنة له .. ولربما يرجع إلى المعصية بسبب ذلك .. ومن أجل ذلك كان الأفضل هو الستر على الناس وعدم ذكر أسمائهم.

❁ وفي قوله ﷺ: «كان يقوم من الليل فترك قيام الليل».

أى: كان يقوم بعض الليل فتركه .. وفي هذا الحديث: دليل على أن قيام الليل ليس بواجبٍ إذ لو كان واجباً لذمه النبي ﷺ لأنه قد ترك واجباً. وفي هذا الحديث استحباب الدوام على ما اعتاده الإنسان من الخير من غير تفريط .. وكذلك يُستنبط من الحديث كراهة قطع العبادة وإن لم تكن واجبة؛ لأن هذا يُنبئ عن رغبة هذا الإنسان عن تلك الطاعة وكراهته لها .. وهذا خطرٌ عظيم.

وإن كان الإنسان قد يترك الشيء لعذر، فإذا تركه لعذر فإن كان مما يمكن قضاؤه قضاءه، وإن كان مما لا يمكن قضاؤه فإن الله تعالى يعفو عنه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن مَنْ مرض أو سافر كُتِبَ له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً... وكذلك إذا تركه لعذر فإنه يقضيه.

بِمَا يَسْتِغْفِرُ بِهِ

(١٥٩) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يُصلي قيام الليل إحدى عشرة ركعة .. فإن فاتته قيام الليل - وكان هذا نادراً - فإنه كان يقضيه فيما بين الشروق

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

والظهر اثنتى عشرة ركعة.. ولذلك فمن كان يوتر بثلاث ركعات ونام عن وتره لمرضٍ أو لغيره فإنه يقضى الوتر فيما بين الشروق والظهر أربع ركعات وإن كان يوتر بخمسة فليُصلِّ ستاً.. وهكذا فيزيد ركعة على الوتر.

❁ وفى هذا دليلٌ على أن العبادة المؤقتة إذا فاتت عن وقتها بسبب عذرٍ كمرضٍ أو غيره فإنها تُقضى.. أما العبادة المقرونة بسببٍ فإنه إذا زال سببها فإنها لا تُقضى...

مثل سنة تحية المسجد.. فإنه إذا دخل المسجد وجلس ناسياً ولم يذكر إلا بعد فترة طويلة فإنها تسقط.. وكذلك سنة الوضوء.. فإنه إذا توضأ الإنسان فإن من السنة أن يُصلى ركعتين.. فإذا نسى ولم يذكر إلا بعد فترة طويلة سقطت عنه.. وذلك لأن المقرون بسببٍ لا بُدَّ أن يكون موالياً للسبب فإذا فصل بينهما سقط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١٦) باب في الأمر بالمحافظه على السنة وآدابها

✽ «الأمر بالمحافظه على السنة»، السنة: يُراد بها سنة الرسول ﷺ، وهى طريقته التى كان عليها فى عباداته وأخلاقه ومعاملاته... فهى أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته. هذه هى السنة... ويُطلق الفقهاء السنة على العمل الذى يترجح فعله على تركه، وهو الذى يُثاب على فعله، ولا يُعاقب على تركه.

إن اتباع سنة النبى ﷺ هو مقتضى شهادة لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ... والطريق الصحيح لمعرفة قضايا الاتباع هو ما سار عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.

ويكون الاتباع للنبى ﷺ فى الاعتقادات: بأن يعتقد العبد ما اعتقده النبى ﷺ، على الوجه الذى اعتقده - من ناحية الوجوب أو البدعية، أو لكونه من أسس الدين أو ناقصاً لأصله أو قادحاً فى كماله...، من أجل أنه اعتقده ﷺ.

ويكون الاتباع للنبى ﷺ فى الأقوال: بامتنال مدلولها، وما جاءت به من معانى، لا أن تُكرر ألفاظها وتُردد نصوصها فحسب... فمثلاً: الاتباع لقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»^(١) يكون بالصلاة كصلاته... والاتباع لقوله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا»^(٢) بترك الحسد والنجش... والاتباع لقوله ﷺ: «من سئل عن علم علمه ثم كتبه ألجم يوم القيامة بلجامٍ من نار»^(٣) بنشر الإنسان لعلمه الصحيح النافع وعدم كتمان له.

كما يكون الاتباع للنبى ﷺ فى الأفعال: بأن نفعل مثل فعله، على الوجه الذى

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣١) كتاب الأذان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٢٨٤).

فعله، من أجل أنه فعله.

ولتوضيح الاتباع في الفعل: لو أردنا أن نفتدى بالنبى ﷺ في صومه فلا بُدَّ أن نصوم على الصورة التى صامها ﷺ... بحيث نُمسك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، بقصد التقرب إلى الله - تعالى - فلو أمسك أحدنا عن بعض المفطرات فقط لم يكن متبعًا، كما لو أمسك في جزء من الوقت فقط لم يكن متبعًا.

كما لا بد أن نصوم على الوجه الذى صامه ﷺ من ناحية القصد بحيث نريد بصيامنا وجه الله - تعالى - وصيام الواجب - أداء أو قضاء أو نذرًا - أو النفل، كالقصد الذى صام لأجله ﷺ^(١).

ويكون الاتباع للنبى ﷺ في التروك: بأن نترك ما ترك، على الصفة والوجه الذى ترك، من أجل أنه ترك، وهى القيود نفسها في الاتباع في الأفعال. ولتوضيح ذلك: قام النبى ﷺ بترك الصلاة عند طلوع الشمس، فترك المتأسى الصلاة في ذلك الوقت على الوجه الذى ترك النبى ﷺ، لأجل أنه ترك^(٢).

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أى ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خيرٍ وصلاح، وينهى عن كل شرٍّ وفساد... قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفىء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبى ﷺ أو نهى عنه من واجبٍ، أو

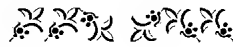
(١) إذا ثبتت كفيات أو مقاصد خاصة بالنبى ﷺ كالوصال في الصوم والوجوب في قيام الليل: فلا يجوز مشاركة النبى ﷺ فيما اختص به من كيفية أو قصد: وتبقى قضية الاتباع مرتبطة بالمقاصد والكفيات التى شرعها ﷺ لأمته.

(٢) انظر: الفتاوى لابن تيمية: (٤٠٩/١٠)، والإحكام للأمدى (٢٢٦/١، ٢٢٧).

مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفىء وغيره^(١).

عن ابن مسعود أنه قال: «لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله» فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها: «أم يعقوب» وكانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديث بلغنى عنك أنك قلت كذا وكذا!! وذكرته له، فقال ابن مسعود: وما لى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله تعالى؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته! فقال: إن كنت قرأته لقد وجدته، أما قرأت قول الله ﷻ: ﴿وَمَاءَ أُنْكُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهُنَّكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾^(٢)؟

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: خافوا ربكم بامثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى فإن عقابه أليم وعذابه شديد، لمن عصاه وخالف ما أمره به^(٣).



❖ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِن هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ليس نطقه صادرًا عن هوى نفسه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، فى نفسه وفى غيره.. ودل هذا على أن السنة وحى من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحى يوحى^(٤).

(١) التفسير الكبير للرازى (٢٩/٢٨٦).

(٢) رواه البخارى ومسلم... قال العلماء: الوشم هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل، والمستوشمة هى التى تطلب أن يفعل بها ذلك، والنَّامِصَةُ هى التى تنتف الشعر من الحاجب، والمتفلجة هى التى تتكلف تفريج ما بين أسنانها من أجل الحسن، وكل ذلك منهى عنه؛ لأن فيه تغييرًا لخلق الله.

(٣) صفوة التفاسير (٣/٣٣٢).

(٤) تفسير السعدى (ص ٩٧٣).

❖ قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله: رَأْسُ الْأَدَبِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ: كَمَالُ التَّسْلِيمِ لَهُ، وَالْإِنْقِيَادُ لِأَمْرِهِ. وَتَلَقَّى خَبْرَهُ بِالْقَبُولِ وَالتَّصَدِيقِ، دُونَ أَنْ يُحَمِّلَهُ مُعَارَضَةً بِخَيَالٍ بَاطِلٍ، يُسَمِّيهِ مَعْقُولًا. أَوْ يُحَمِّلَهُ شُبُهَةً أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدِّمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرِّجَالِ، وَزُبَالَاتِ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحِّدُهُ بِالتَّحْكِيمِ وَالتَّسْلِيمِ، وَالْإِنْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ. كَمَا وَحَّدَ الْمُرْسِلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذَّلِّ، وَالْإِنَابَةِ وَالتَّوَكُّلِ ^(١).

❖ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

هذه الآية هي الميزان، التي يُعَرَفُ بها مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ حَقِيقَةً، وَمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ دَعْوَى مَجْرَدَةٍ... فَعَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ، اتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ ﷺ، الَّذِي جَعَلَ مَتَابِعَتَهُ وَجَمِيعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، طَرِيقًا إِلَى مَحَبَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ... فَلَا تُنَالُ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرِضْوَانُهُ وَثَوَابُهُ، إِلَّا بِتَصَدِيقِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَجَازَاهُ جِزَاءَ الْمُحِبِّينَ، وَغَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ، وَسَتَرَ عَلَيْهِ عَيْبَهُ ^(٢).

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ تِلْكَ حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ» ^(٣) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ أَي: أَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَي: أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ أَي: لَا يَحِبُّ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ وَعَصَى رِسْلَهُ بَلْ يِعَاقِبُهُ وَيُخْزِيهِ ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [التحریم: ٨]

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٢).

(٢) تفسير السعدى (ص ١٢٩-١٣٠).

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨).

✽ بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الله ﷻ يُحِبُّ وَيُحِبُّ... وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر أن الله ﷻ يُحِبُّ، لحُجج عقلية، دفعوا بها النصوص الصريحة الصحيحة.

الفائدة الثانية: لما ادَّعى قومُ حب الله ﷻ، وكان لكلِّ دعوى دليل لإثبات صدقها، اشترط الله لصدق هذه الدعوى - بل أقول: والمثوبة عليها - متابعة الرسول ﷺ فإن كانت دعوتهم صادقة اتبعوه، وإلا حادوا عن الاتباع.

الفائدة الثالثة: يُؤْخَذُ من الآية الكريمة، أنه كلما كان الإنسان صادقاً في حب الله ﷻ، كانت المتابعة عليه أسهل وأخف... والعكس بالعكس.

الفائدة الرابعة: إذا كان شرفاً لك أن تحب الله ﷻ، فإن الله يكافئك على هذا الحب (إذا اتبعت) بما هو أعظم من حبك، ألا وهو أن يحبك الله. وشتان بين الأمرين... وكما قالوا: ليس الشأن أن تُحِبَّ ولكن الشأن أن تُحَبَّ، وهل في الوجود أعظم من أن يحبك الله ﷻ؟.. وهل يعذب الله أحداً يحبه؟..

الفائدة الخامسة: كما أن الناس يختلفون في متابعة النبي ﷺ فكذلك يختلف حب الله لهم... فكلما قوى الاتباع قوى الحب، وكلما ضَعُفَ الاتباع ضَعُفَ الحب... لأن القاعدة: (أنه إذا ارتبط الحكم بوصفٍ مُعين، قوى الحكم كلما قوى الوصف)، وهذا كثير في القرآن والسنة، ومثاله قوله - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، فكلما قوى إيمان العبد بالغيب، وكان على الصلاة محافظاً وللزكاة فاعلاً، كان له نصيبٌ أكثر من هدى القرآن، ورأى في القرآن من الآيات والهدايات ما لم ير غيره... وهذا مُشَاهَد.

وكلما كثرت الشبهات في قلب الإنسان، وانقاد لها ولم يجاهدها، بل دعا

إليها، كان انتفاعه بهدايات القرآن أقل .

الفائدة السادسة: إن ادّعى أحدٌ أمامك، مهما كانت منزلته بين الناس، أنه يحب الله ﷻ، فلا تغتر بهذه الدعوى، إلا إذا رأيت منه حُسن الاتباع، ولو مشى على الماء، وطار في السماء ... كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: ويبقى بعد ذلك الإخلاص في العمل، وهذا لا يعلمه إلا الله ﷻ.

الفائدة السابعة: لم يعد الله ﷻ المتبعين للسنة بمحبته فقط ... وإن كان فيها الكفاية والوقاية، بل زاد على ذلك مغفرة الذنوب ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فماذا بقي، فسينال العبد المطلوب بحب الله إياه، ويأمن من المرهوب بمغفرة الذنوب ... فتأمل كيف كان في الاتباع كل خير، وفي الابتداء كل شر.

الفائدة الثامنة: ما ثواب حب الله للعبد في الدنيا قبل الآخرة؟ أقول: إن الثواب عظيم... قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ يَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»^(١).

الفائدة التاسعة: قد يسأل سائل: هل في آية الباب اشتراط حبّ المسلم للنبي ﷺ لنيل حب الله ﷻ، أم يكفي الاتباع وحده؟ أقول: يجب حب النبي ﷺ لأن الآية اشترطت المتابعة، وهي الطاعة الكاملة، في كل ما أمر النبي ﷺ ونهى، فيدخل في ذلك حبه أكثر من النفس... لما ورد عن عبد الله بن هشام بن زهرة رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي. فقال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه». قال عمر: فلأنت الآن والله أحب إلي من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»^(١).

وفي رواية: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^{(٢)(٣)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوة حسنة، تقتدون به ﷺ في إخلاصه، وجهاده، وصبره، فهو المثل الأعلى الذى يجب أن يقتدى به، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى، بل عن وحى وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه، وسلوك طريقه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أى لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أى وأكثر من ذكر ربه، بلسانه وقلبه.

قال ابن كثير: أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومجاهدته ومرابطته، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ والمعنى: هلاً اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ!!^(٤).

❖ فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة... فالأسوة الحسنة، في

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٣٢) كتاب الإيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

(٣) شمائل الرسول ﷺ / (١/ ٢٨-٣٢) بتصرف كبير.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٨٨).

الرسول ﷺ، فإن المتأسى به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول المشركين حين دعته الرسل للتأسى بهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَآثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو الله، واليوم الآخر، فإن ذلك ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسى بالرسول ﷺ^(١).

✽ وأخذ العلماء من هذه الآية: أن أفعال النبي ﷺ حجة يُحتج بها ويُقتدى به فيها، إلا ما قام الدليل على أنه خاصٌّ به... فما قام الدليل على أنه خاصٌّ به فهو مختصٌّ به... مثل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتِيَتْ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمْرَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. فما كان من خصائصه فهو من خصائصه.

ومن ذلك أيضًا: الوصال في الصوم، أى أن يسرد الإنسان صوم يومين بلا فطر، فإن النبي ﷺ نهى عنه، قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، يعنى فكيف تنهانا؟ فقال: «لست كهيتكم، إني أطعم وأسقي»، وفي لفظ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(٢) يعنى يطعمه الله ويسقيه بما يمد به من ذكره، وتعلق قلبه به حتى ينسى الأكل والشرب، ولا يحس بألم الجوع، ونحن نعلم الآن أن الرجل لو شغل بأمر من أمور الدنيا نسي الأكل والشرب، حتى أن الشعراء يتمثلون بهذا بقولهم لها: أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد يعنى أن أحاديثها بك إذا قامت تتحدث ألهاها ذلك عن الشراب وعن الزاد.

(١) تفسير السعدى (٧٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٢٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٢) كتاب الصيام.

فالنبي (عليه الصلاة والسلام) من قوة تعلُّقه بربه، إذا قام من الليل يتهجّد، فإن الله تعالى يُعطيه قوة، بما يحصل له من الذكر، تكفيه عن الأكل والشرب، أما نحن فلسنا كهَيْئته، ولهذا منع الوصال، ويُنّ أنه من خصائصه ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].
يُفَسِّمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ❁ أَيْ إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ، فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا حَكَمْتَ بِهِ، وَيُنْقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا، مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ^(٢).

❁ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فِي شُرَيْجٍ مِنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ؟! فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ» وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صُرَيْجِ الْحُكْمِ، حِينَ أَحْفَظَهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَكَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرِ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ... قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسَبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ ❁ الْآيَةُ^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٣-٤٣٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٨).

(٣) متفق عليه. رواه البخاري (٢٣٦٠) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٣٥٧) كتاب الفضائل.

﴿ وَعَنْ سَلَمَةَ، وَلَدِ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَ: خَاصَمَ رَجُلٌ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَضَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ، فَقَالَ: إِنَّمَا قَضَى لَهُ لِأَنَّهُ ابْنُ عَمَّتِهِ، فَزَلْتُ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(١).

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه المراتب وكملها؛ فقد استكمل مراتب الدين كلها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

نزلت هذه الآية في عبد الله بن حذافة رضي الله عنه إذ بعثه النبي في سرية وأمره عليهم.

﴿ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدَى السَّهْمِيِّ؛ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ ^(٢).
وها هي تفاصيل تلك السرية:

﴿ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ: وَجَدَ ^(٣) عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمْرُكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي؟

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٤/ ١٣٠٠ رقم ٦٦٠)، والحميدى في مسنده (١/ ١٤٣، ١٤٤ رقم ٣٠٠) - ومن طريقهما الهروى في «ذم الكلام» (٢/ ٢٤٨ رقم ٣١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٨٣٤) كتاب الإمارة.

(٣) وجد: حَزَنٌ وَغَضَبٌ.

قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَاجْمَعُوا حَطَبًا...، فَجَمَعُوا.
 قَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقِدُوهَا، فَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَهَمَّ الْقَوْمُ أَنْ يَدْخُلُوهَا، قَالَ:
 فَقَالَ لَهُمْ شَابٌّ مِنْهُمْ: إِنَّمَا فَرَرْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّارِ، فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى
 تَلْقُوا النَّبِيَّ ﷺ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا فَادْخُلُوهَا.
 قَالَ: فَارْجِعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبِرُوهُ.
 فَقَالَ لَهُمْ: «لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا جَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.
 فأمر الله سبحانه وتعالى بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتنال أمرهما،
 الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولى الأمر وهم: الولاة
 على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم
 ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا
 يأمرُوا بمعصية الله... فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.
 ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول،
 فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، وَمَنْ يُطِعه فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وأما أولو الأمر
 فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية^(٢).

وأولو الأمر يشمل العلماء والأمراء؛ لأن العلماء ولاة أمورنا في بيان دين
 الله.... والأمراء ولاة أمورنا في تنفيذ شريعة الله... ولا يستقيم العلماء إلا
 بالأمراء، ولا الأمراء إلا بالعلماء، فالأمراء عليهم أن يرجعوا إلى العلماء
 ليستبينوا منهم شريعة الله، والعلماء عليهم أن ينصحوا الأمراء، وأن يُخوفوهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٤٠) كتاب المغازي، ومسلم (١٨٤٠) كتاب الإمامة.

(٢) تفسير السعدي (ص ١٨٦).

بالله، وأن يعظوهم حتى يطبقوا شريعة الله في عباد الله ﷺ.

ثم قال: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يعني إن اختلفتم في شيء من الأشياء، فليس قول بعضكم حجة على الآخر، ولكن هناك حكم الله ﷻ ورسوله ﷺ فعليكم بالرجوع إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ... أما الرجوع إلى الله، فهو الرجوع إلى كتابه (إلى القرآن العظيم)، وأما الرجوع إلى رسول الله ﷺ، فهو الرجوع إلى سنته ﷺ إن كان حياً بمراجعته شخصياً، وإن كان ميتاً فبما صحَّ من سنته ﷺ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهذا حثٌّ على الرجوع إلى الله ورسوله، وأن الرجوع إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يعني أحسن عاقبة... فالرجوع إلى الله ورسوله خير للأمة وأحسن عاقبة، مهما ظن الظان أن الرجوع إلى الكتاب والسنة قد يُعجز الناس، وقد لا يطيقون ذلك فهذا ظنُّ خاطئ لا قيمة له، فبعض الناس يظنون أن الرجوع إلى الإسلام الذي كان في صدر هذه الأمة لا يتناسب مع الوقت الحاضر والعياذ بالله، ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام حاكم وليس محكوماً عليه، وأن الإسلام لا يتغير باختلاف الأزمان أو الأماكن أو الأشخاص... الإسلام هو الإسلام، فإن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر، فلنرجع إلى الكتاب والسنة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي أحسن مآلاً وعاقبة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٤-٤٣٥).

وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مُطلقاً... فلو لا أنه معصوم في كل ما يُبلغ عن الله لم يأمر بطاعته مُطلقاً، ويمدح على ذلك. وهذا من الحقوق المشتركة... فإن الحقوق ثلاثة:

حَقُّ الله تعالى لا يكون لأحدٍ من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسمٌ مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة.

وقسمٌ مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله ومحبتهما وطاعتهما، كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿فَمَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وله من الثواب والخير ما رُتِّبَ على طاعة الله﴾ ﴿وَمَنْ تَوَلَّى﴾ عن طاعة الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ أى: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مُبلغاً ومُبيناً وناصحاً، وقد أدّيت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتمدوا أم لم يهتمدوا... كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ... ﴿الآيات (١)﴾.

وفي هذه الآية: دليل على أن ما ثبت في السنة فإنه كالذي ثبت في القرآن، أى أنه من شريعة الله ويجب التمسك به، ولا يجوز لأحدٍ أن يفرق بين الكتاب والسنة، ولقد أخبر النبي (عليه الصلاة والسلام) مُحذراً حينما قال ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَقْعُدَ الرَّجُلُ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ... أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» (٢).

(١) تفسير السعدى (ص ١٩٢-١٩٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٨١٨٦).

وقال ﷺ: «لَا أَلْفَيْنَ أَحَدَكُمْ مُتَكِيًا عَلَى أَرِيكْتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»^(١).

وقال ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ.. أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانٌ عَلَى أَرِيكْتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ...»^(٢).

يعنى أنه ﷺ يُحذِّرُ من أنه ربما يأتى زمان على الناس يقولون: لا نتبع إلا ما فى القرآن... أما ما فى السُّنة فلا نأخذ به.

وهذا أمر قد وقع بالفعل... فوجد من الملاحدة من يقول: لا نقبل السُّنة، لا نقبل إلا القرآن... والحقيقة أنهم كذبة، فإنهم لم يقبلوا لا السُّنة ولا القرآن؛ لأن القرآن يدل على وجوب اتباع السُّنة... وإن ما جاء فى السُّنة كالذى جاء فى القرآن، لكن هم يُموهون على العامة، ويقولون: إن السُّنة ما دامت ليست قرآناً يُتلى ويُتواتر بين المسلمين، فإن ما فيها قابل للشك، وقابل للنسيان، وقابل للوهم، وما أشبه ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ❁ أى أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهو منهاجه وسُنَّته وشريعته... فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبل، ومن خالفه فهو مردودٌ على قائله وفاعله كائنًا من كان.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧١٧٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٤٣).

كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، أَيْ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ... فَمَعْنَى الْآيَةِ أَيْ: فليخش مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ الرَّسُولِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أَيْ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ كُفْرٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ بِدْعَةٍ ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا بِقَتْلِ أَوْ حَدٍّ أَوْ حَبْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ... قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ كَمِثْلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّائِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا»^{(٢)(٣)}.

❖ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ❖

[الشورى: ٥٢-٥٣].

الخطاب هنا للنبي ﷺ... أخبره الله ﷻ أَنَّهُ يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ يَعْنِي يَدُلُّ إِلَيْهِ وَيُبَيِّنُهُ لِلنَّاسِ... وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ بَيْنَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ﴾ يَعْنِي الصِّرَاطُ الَّذِي نَصَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَهُوَ شَرِيعَتُهُ، وَأَضَافَهُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي نَصَبَهُ وَلِأَنَّهُ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ، كَمَا أَنَّهُ أَضَافَهُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَسْلُكُونَهُ.

فالنبي (عليه الصلاة والسلام) يهدي الناس إلى الصراط، ويدلهم عليه، ويهديهم إليه ويرغبهم في سلوكه، ويحذرهم من مخالفته... وهكذا مَنْ خلفه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨٤) كتاب الفضائل.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٣٠٠).

من أمته من العلماء الربانيين، فإنهم يدعون إلى الصراط المُستقيم، صراط الله... فإذا قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَتَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. فإن هذه الآية نزلت حين اغتَمَّ النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان عمه أبو طالب مشركًا، ولكنه كان يُدافع عنه، ويرفع منزَلته، ويُدبُّ عنه، ويقول فيه المدائح والقصائد العظيمة، لكن حُرِّم خير الإسلام والعياد بالله، ومات على الكفر.

فهنا يقول: ﴿إِنَّكَ لَأَتَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وفي الآية التي ذكرها المؤلف يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. قال أهل العلم: والجمع بينهما أن الآية التي فيها إثبات الهداية يُراد بها هداية الدلالة، يعنى أنك تدلّ الخلق، وليس كل مَنْ دُلَّ على الصراط اهتدى، وأما الهداية التي نفاها الله عن رسوله (عليه الصلاة والسلام) حيث قال: ﴿إِنَّكَ لَأَتَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فهي هداية التوفيق... لا أحد يستطيع أن يوفق أحدًا للحق، ولو كان أباه، أو ابنه، أو عمه، أو أمه، أو خاله، أو جدته أبدًا... مَنْ يضلل الله فلا هادي له.

ولكن علينا أن ندعو عباد الله إلى دين الله، وأن نرغبهم فيه، وأن نبينه لهم، ثم إن اهتدوا فلنا ولهم، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم... قال الله تعالى: ﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ [الشعراء: ١-٣]. يعنى لعلك تهلك نفسك بالهم والغم، إذا لم يكونوا مؤمنين، فلا تفعل، فإن الهداية بيد الله، بل أذ ما عليك وقد برئت ذمتك^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَأَتَهْدَى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وَأَذْكُرَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي خُصِّصْتُ بِهَا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَحْيَ يَنْزِلُ

فِي بُيُوتِكُنَّ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ... وَعَائِشَةُ الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ ﷺ أُولَاهُنَّ وَأَحْظَاهُنَّ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَأَخْصَهُنَّ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَمِيمَةِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِ امْرَأَةٍ سِوَاهَا، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ^(١).

❁ وفي تفسير آخر:

﴿وَأَذْكُرَكُمَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي واقْرَأْ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَسُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنْ فِيهِمَا الْفَلَاحُ وَالنَّجَاحُ.
قال الزمخشري: ذكّرهن أن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن ألا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين: آيات بينات تدل على صدق النبوة، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي عالماً بما يصلح لأمر العباد، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم.
فإنه سبحانه وتعالى يدرك أسرار الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتُسَرُّ.
فلطفه وخبرته، يقتضي حثّهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال ... ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق، ما لا يدريه ... ويُرِيهِ مِنَ الْأَسْبَابِ، التي تكررّها النفوس ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٤٩٢).

(٢) الكشف (٣/٤٢٥).

(٣) تفسير السعدى (ص ٧٨١).

(١٦٠) فالأول: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم: إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

❁ قال ﷺ: «دعوني ما تركتكم» أو «دروني ما تركتكم».

لماذا قال النبي ﷺ ذلك؟

لأن بعض الصحابة رضي الله عنهم من شدة حرصهم على طلب العلم ومعرفة سنة النبي ﷺ كانوا يسألون النبي ﷺ ويكثر من السؤال عن بعض الأشياء التي قد لا تكون مُحَرَّمَة فتُحَرِّم من أجل مسألتهم .. أو قد لا تكون واجبة فتصبح واجبة من أجل مسألتهم .. ولذا أمرهم النبي ﷺ أن يدعوه ويتركوه ما دام لم يأمرهم ولم ينههم.

❁ وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: إن رسول الله ﷺ خطب فقال «يا أيها الناس إن الله قد افترض عليكم الحج»، فقال رجل، فقال: أكل عام يا رسول الله؟، قال: فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات، قال: «لو قلت: نعم، لوجبت، ولو وجبت ما فُتِمْتُم بها، دروني ما تركتكم، فإنما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم»، وذكر أن هذه الآية التي في المائدة نزلت في ذلك ❁ يتأنيهاً الذيك ءامنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم❁^(٢).

ثم علل ذلك بقوله: «إنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» يعني أن الذين من قبلنا أكثروا المسائل على الأنبياء، فشدد عليهم كما شددوا على أنفسهم ثم اختلفوا على أنبيائهم أيضاً... فليتهم لما سألوا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٨٨) كتاب الاعتصام، ومسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٧٠٤) والطبري في جامع البيان (٥٣/٧) وسنده صحيح وأصله في صحيح مسلم

(١٣٣٧) دون النصريح بسبب النزول.

فأجيبوا قاموا بما يلزمهم، ولكنهم اختلفوا على الأنبياء.

والاختلاف على الأنبياء يعنى مخالفتهم ... وهنا مثال جاء به القرآن مصداقاً لقول النبي ﷺ هذا ... اختلف بنو إسرائيل في قتييل قُتل بينهم، فادّعت كل قبيلة أن الأخرى هى التى قتلتها، وادّارءوا فيها، وتنازعوا فيها، ورفعوا الأمر إلى نبيهم موسى (عليه الصلاة والسلام).

❁ وها هى القصة باختصار:

كان فى بنى إسرائيل شابٌ فقيرٌ فى كل شىء... فقير فى المال وفقير فى الأخلاق ليس عنده دين ولا أمانة.

وكان له عمٌ غنىٌّ كثير المال وكانت له ابنة جميلة جداً.

فكان هذا الشاب يتمنى موت عمه فى أقرب وقتٍ من أجل أن يرث المال الكثير ويتزوج ابنة عمه الجميلة.

ولكن عمه عاش طويلاً وكان فى غاية الصحة والعافية.

فتعجّل هذا الشاب موت عمه من أجل أن يستمتع بالمال.

وأخذ هذا الشاب يدبر تلك المؤامرة الحكيمة لقتل عمه... إلى أن استطاع فى ليلة من الليالى أن يقتل عمه... وحتى لا يعرف الناس أنه هو الذى قتل عمه، أخذ جثة عمه وألقاها أمام بيت أحد أقاربه وجلس يبكى على باب البيت وكأنه حزينٌ على موته.

فلما مرّ الناس عليه وجدوه يبكى ويتهم أهل هذا البيت بقتل عمه.

فخرج أصحاب البيت وأقسموا أنهم لم يقتلوه.

وضاع الحق بين الناس ولم يعرفوا مَنْ القاتل!!!

وذهبوا إلى نبي الله موسى ﷺ وأخبروه بخبر هذا الرجل المقتول.

فقام نبي الله موسى ﷺ وجمع الناس وقال لهم: أسألكم بالله مَنْ الذى

يعلم قاتل هذا الرجل؟ ... فلم يرد أحد.

فقال له رجل منهم: يا نبي الله لماذا لا تسأل ربك حتى يخبرك بخبر القاتل.

فسأل موسى ربه (جل وعلا) فأوحى إليه بأن يأمرهم أن يذبحوا بقرة.

فتعجب الناس من ذلك وظنوا أن موسى ﷺ يستهزئ بهم.

فقال لهم موسى ﷺ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]: أى

أعوذ بالله أن أخبركم بشيء لم يأمرني الله به أو أن استهزئ بشيء من أوامر الله فلقد أخبرتكم بما أمر الله به.

✽ ولقد كان يكفهم أن يذبحوا أى بقرة؛ لأن الله (جل وعلا) لم يحدد لهم

أى مواصفات لتلك البقرة ولكن شددوا فشدد الله عليهم.

فسألوا عن سنّها فأخبرهم بأنها متوسطة العمر لا كبيرة ولا صغيرة.

وأمرهم أن ينفذوا أمر الله (جلّ وعلا) دون أى تأخير لكن بنى إسرائيل كانوا

لا يطيعون الأوامر بل كانوا يتهربون ويتحايلون على تلك الأوامر بأدنى الحيل حتى لا ينفذوها.. وكانوا يكثرون من الأسئلة بقصد التهرب من الأوامر وتضييع الوقت.

فسألوا نبي الله موسى ﷺ: ما لونها؟

فأجابهم بأنها بقرة صفراء فاقع لونها - أى شديدة الصفرة - جميلة المنظر..

تَسُرُّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ شِدَّةِ حُسْنِهَا وَبِهَائِهَا.

ثم شددوا أيضاً: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن

شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠].

فأخبرهم بأنها بقرة ليست مُذَلَّلَةٌ أو مُعَدَّةٌ للحرث ولا لسقى الأرض

بالساقية.. سالمة من العيوب ليس فيها أى لون يخالف لونها فهى صفراء خالصة الصفرة.

فلما حددها بهذه الصفات: ﴿قَالُوا أَلَكُنْ جِثَّةً بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

✽ أخذوا تلك المواصفات من موسى ﷺ، وراحوا يبحثون عن بقرة تتصف بها.

بحثوا عند بنى إسرائيل، فلم يجدوا إلا بقرة واحدة فقط تتصف بهذه الصفات ... كانت تلك البقرة لشابٍّ يتيم فقير. كان بارًّا بأبيه الذى مات، وبارًّا بأمه التى ما زالت تعيش.

فساوموه على بيعها لهم، فساومهم، وبقي يساومهم، ويرفع سعرها تدريجيًّا، وهم يراجعونه ويساومونه... رفع سعرها من مائة دينار، إلى مائتين. ثم إلى أربعمائة. ثم إلى ثمانمائة.

ثم طلب منهم أن يضعوها فى الميزان، وأن يدفعوا له ثمنها بما يساوى وزنها ذهبًا!

فاضطروا إلى الموافقة لعدم وجود بقرة غيرها. ودفعوا للشاب ما طلبه، فصار من كبار الأغنياء لبرِّه بوالديه.

أخذوا البقرة وذبحوها، ثم أخذوا جزءًا منها، وضربوا بها جسد القتيل. فأحيا الله القتيل فنظر حوله فوجد أناسًا كثيرين فسأله أحدهم: مَنْ الذى قتلك؟

فقال: قتلنى ابن أخى طمعًا فى ثروتى.. ثم مات القتيل مرة أخرى. فألقى القبض على القاتل وحُرم من الميراث عقوبة له على جريمته... ومنذ ذلك اليوم لم يرث قاتل من ميراث المقتول.

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعْجِى اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة: ٧٣].

أى: كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له... كذلك أمره فى سائر

الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياءهم في ساعة واحدة.

✽ وعلى الرغم من إعجاب ودهشة بنى إسرائيل لما حصل من موسى ﷺ فإنهم ظلّوا على عنادهم وبقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها.

✽ فالشاهد من هذا الحديث أنه في عهد النبي ﷺ كان لا ينبغي أن يسأل أحدٌ عن أى شىء مسكوتٍ عنه ... ولهذا قال ﷺ: «ذرونى ما تركتكم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم».

أما في عهدنا وبعد انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ فاسأل عن كل شىء تحتاج إليه؛ لأن الأمر مستقر الآن وليس هناك زيادة ولا نقص، لكن في عهد التشريع يمكن أن يُزاد ويمكن أن يُنقص ... وبعض العوام يفهم من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّلَ لَكُمْ تَسْوِكُمْ﴾ [البائدة: ١٠١].

وقوله ﷺ: «ذرونى ما تركتكم...» يفهم من ذلك فهماً خاطئاً، فتجده يفعل الحرام، ويترك الواجب ولا يسأل ويستدل بهذه الأدلة وتلك النصوص ويُزين له الشيطان ذلك والعياذ بالله.

بل الواجب على الإنسان أن يتفقه في دين الله ... قال النبي (عليه الصلاة والسلام): «مَنْ يُرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

✽ ثم قال ﷺ: «فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه».

فأى شىء ينهانا عنه الرسول ﷺ فإننا نتجنبه.. وذلك لأن الشىء المنهى عنه متروك .. فالنهى هو أمرٌ بالتَّرك .. ومن المعلوم أن التَّرك ليس فيه مشقة على أحد .. فكل إنسانٍ يستطيع أن يترك الشىء الذى نهى عنه الرسول ﷺ .. إلا أن هذا مُقيد بالضرورة... فإذا اضطرَّ الإنسان إلى شىءٍ مُحرم ولم يجد سواه وسوف تندفع به ضرورته فإنه يكون حلالاً.

وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] ولقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ...﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].
فيكون قول الرسول ﷺ: «ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» يكون مُقيداً بحال الضرورة... يعنى أنه إذا وُجدت ضرورة إلى شيء مُحرم صار هذا المحرم حلالاً بشرطين:

الشرط الأول: ألا تندفع ضرورته بسواه.

الشرط الثانى: أن يكون مُزيلاً للضرورة. وبهذين القيدَين نعرف أنه لا ضرورة إلى دواءٍ مُحرم... يعنى لو كان هناك دواء ولكنه حرام، فإنه لا ضرورة إليه. لأن الله ما جعل شفاءنا فيما حُرِّم علينا^(١).

❁ والمنهى عنه قسمان: منهى عنه للتحريم، ومنهى عنه للأفضلية.

يعنى: يكون النهى فيه للكرهية أو للتنزيه... وما كان للتحريم يجب فيه الاجتناب، وما كان للكرهية فيُستحب فيه الاجتناب.

إذا تقرر هذا، فالمنهى عنه خلاف الأصل؛ لأن الأصل فى الشريعة ليس هو النهى، وإنما الأصل فيها الأمر، والمنهيات بالنسبة للأوامر قليلة^(٢).

ومن رحمة الله ﷻ أنه ما نهانا عن شيء نحتاج إليه فى حياتنا ولا نستغنى عنه أبداً.

وهذا من لطف الله (جل وعلا) بالعباد؛ فإنه (جل وعلا) ما جعل شيئاً منهياً عنه فيه إقامة الحياة، بل كل المنهيات عنها إنما ابتلى الله (جل وعلا) العباد بها. فما نهانا الله إلا عن شيء فيه ضررٌ لنا.. وما أمرنا بشيء إلا فيه خيرٌ لنا.
❁ وأما قوله ﷺ: «وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٤٥).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ١١٨-١١٩) بتصرف.



وذلك لأن الأوامر كثيرة، ليست مثل المنهيات.. ومنها ما قد لا يستطيعه العبد، ولهذا جاءت القواعد - بناء على هذا الحديث - : «لا واجب مع العجز». يعني: أن المرء إذا عجز عن الشيء فلا يجب عليه... كما جاء في حديث عمران: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

فهنا يأتي ما استطاع، وقد قال (جل وعلا): ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾

[البقرة: ٢٨٦]

وقال (جل وعلا): ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال (جل وعلا): ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ^(١).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» لِأَنَّ الْأَمْرَ فِعْلٌ وَإِجَابٌ، وَقَدْ يَكُونُ شَاقًّا عَلَى النَّفْسِ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَقُومَ بِهِ، فَلِهَذَا قَيَّدَهُ بِقَوْلِهِ: «فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مُقَيَّدٌ بِقَيْدٍ آخَرَ، وَهُوَ أَلَّا يَوْجِدَ مَانِعٌ يَمْنَعُ، فَإِذَا وُجِدَ مَانِعٌ يَمْنَعُ، فَهَذَا يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: «فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ». وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: لَا وَاجِبَ مَعَ عَجْزٍ، وَلَا مُحْرَمَ مَعَ الضَّرُورَةِ... وَالشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» فَإِنَّ هَذَا يَدْخُلُ فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى السُّنَّةِ وَأَدَائِهَا.

وَأَمَّا مَا سَكَتَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَهُوَ عَفْوٌ.... الْمَسْكُوتُ عَنْهُ مَعْفُوٌّ عَنْهُ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. فَالْأَشْيَاءُ إِمَّا مَأْمُورٌ بِهَا، أَوْ مَنْهُيٌّ عَنْهَا، أَوْ مَسْكُوتٌ عَنْهَا... فَمَا سَكَتَ عَنْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّهُ عَفْوٌ لَا يَلْزِمُنَا فَعْلُهُ وَلَا تَرْكُهُ ^(٢).

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٢٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٤٦).

(١٦١) الثاني: عَنْ أَبِي نَجِيحٍ الْعَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهُمْ مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ فَأَوْصِنَا. قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا. فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَالِكَةٌ»^(١).

❁ هذا الحديث أصل في بابه في بيان الاستمساك بتقوى الله (جل وعلا) والوصية بذلك، والاستمساك بالسمع والطاعة، وبالسنة وبطريقة الخلفاء الراشدين المهديين من بعد النبي (عليه الصلاة والسلام).

قال العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون» وكان هذا دأب النبي ﷺ أنه كان يعظ أصحابه أحياناً على وجه راتب كما في يوم الجمعة وخطب العيدين وغيرها إذا كان هناك سبب يقتضى موعظة كان النبي ﷺ يقوم ويعظ الناس.

«وعظنا رسول الله ﷺ موعظة» الوعظ هو التذكير بالأمر والنهي، وبحقوق الله (جل وعلا) في الأمر والنهي - يعنى: فيما أمر به ونهى عنه - .
فالموعظة قد تكون بترغيب، وقد تكون بترهيب^(٢).

قوله: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون».

هذا يبين كمال أحوال الصحابة الإيمانية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنهم قالوا: وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، ما قالوا: صرخنا أو صرعنا أو همنا على

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٩).

و«النَّوَاجِذُ»: الْأَنْبَابُ، وَقِيلَ: الْأَضْرَاسُ.

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٢٢٨) بتصرف.

وجوهنا.. كما أحدث ذلك الصوفية في منتصف القرن الثاني.. والصحابة كانوا أبرّ منهم قلوبًا وأعمقهم علمًا، وهم تلامذة النبي ﷺ الذين ربّاهم على عينه فلا يمكن لمن أتى بعدهم أن يكون خيرًا منهم مهما كان أكثر اجتهادًا وطاعة لله ﷻ.. كما قال ابن مسعود للتابعين: لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيرًا منكم.. كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة.

وقولهم: «كأنها موعظة مودع فأوصنا»، لأن المودّع يستفرغ طاقته في النصيحة، والطاعة، والعبادة، فينبغي للمؤمن أن يصلى صلاة مودّع ويصوم صيام مودّع، فإن هذا أدعى إلى كمال الإخلاص والمتابعة في الطاعة والعبادة. ولأن المودّع إذا أراد المغادرة، فإنه يعظ من خلفه بالمواعظ البليغة التي تكون ذكرى لهم فلا ينسونها.. ولهذا تجد الإنسان إذا وعظ عند الفراق لسفر أو غيره، فإن الموعظة تمكث في قلب الموعوظ، وتبقى.

لهذا قالوا: كأنها موعظة مودع فأوصنا.

❦ قوله ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله».

والتقوى أن يأخذ العبد بأسباب الوقاية من سخط الله ﷻ وعذابه بفعل المأمور، وترك المحذور.

وقيل: هي ترك ما تهوى لما تخشى.

وقيل: هي أن تعمل بطاعة الله ﷻ على نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله تخاف عقاب الله.

وقيل: هي علم القلب بقرب الرب ﷻ.

وهي وصية الله ﷻ للأولين والآخرين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾

وقيل: (هى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل).

وسُئِلَ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التقوى فقال: (هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه. قال: ذاك التقوى).

وأخذ هذا ابن المعتز وقال:

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا فَهُوَ التَّقَى
وَاضْعَ كَمَا شِ فَوْقَ أَر ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجَبَالَ مِنَ الْحَصَى

❁ وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشى».

ففيه السمع والطاعة لولاية أمور المسلمين الذين يحكمونهم بشرع الله عَزَّ وَجَلَّ ... وهذا الإطلاق مُقَيَّدٌ فى مواضع أُخرى كقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما الطاعة فى المعروف» يعنى فيما يُقره الشرع أما ما يُنكره الشرع فلا طاعة لأحد فيه ... كما قال الصديق الأكبر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما استُخلف: أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

وقصة عبد الله بن حذافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى أمَّره النبى ﷺ على سرية فأغضبه فأمرهم أن يوقدوا نارا ثم أمرهم بالدخول فيها، فقالوا: إنما آمنا برسول الله ﷺ هروبا من النار، فلما عُرض ذلك على النبى ﷺ قال: «لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً».

فطاعة الأمراء، والعلماء، والوالدين لا تكون فى معصية الله عَزَّ وَجَلَّ ...

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ مطلقة، وطاعة الرسول ﷺ مطلقة ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. أما طاعة أولى الأمر فهى مُقيدة بما لا يخالف أمر الله

﴿وَكُلٌّ أَوْ أَمْرٌ رَسُولُهُ﴾ .

فمثلاً: لو أمر ولي الأمر أن تترك رعيته الصلاة وأن تخلع النساء الحجاب قلنا له: لا سمع ولا طاعة .. لأن الصلاة فريضة والحجاب واجبٌ على المرأة ولا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.

لكن يجب أن يُطاع في غير هذا... يعنى ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقاً، لا... إنما تسقط طاعته في هذا الأمر المعين الذى هو معصية الله، أما ما سوى ذلك، فإنه تجب طاعته... وقد ظن بعض الناس أنها لا تجب طاعة ولي الأمر إلا فيما أمر الله به، وهذا خطأ؛ لأن ما أمر الله به فإنه يجب علينا أن ننفذه، ونفعله، سواء أمرنا به وليُّ الأمر أم لا.

فالأحوال ثلاثة: إما أن يكون ما أمر به ولي الأمر مأموراً به شرعاً، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلاً، فهذا يجب امتثاله لأمر الله ورسوله ولأمر ولي الأمر. وإما أن يأمر ولي الأمر بمعصية الله، من ترك واجب أو فعل محرم، فهذا لا طاعة له ولا سمع، وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعى، ولا معصية شرعية، فهذا تجب طاعته فيه؛ لأن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فطاعة ولي الأمر من غير معصية طاعة الله ولرسوله ﷺ^(١).

﴿قوله ﷺ: «وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشى».

يعنى: إن تأمر عليكم رجل من الحبشة ولم يكن من العرب .. فتولى بطريقة شرعية وجعل الله له السلطة .. فإن الواجب علينا أن نسمع له ونطيع في كل شيء إلا في معصية الله ﷻ...

ولو قلنا بعدم السمع له والطاعة لأصبح الناس في فوضى .. كُلُّ يعتدى على الآخر .. وكُلُّ يُضيع حقوق الآخرين.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٦٨).

ثم قال ﷺ: «فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً». وهذا علم من أعلام النبوة ... فمن عاش من الصحابة (رضي الله عنهم) عاصر هذا الاختلاف.

فقد ظهرت الفتن والاختلافات منذ زمن الصحابة (رضي الله عنهم) وظلت الفتن تكثر وتنتشر وتتوغل في بلاد المسلمين حتى أصبح الحليم حيراناً في زماننا هذا.. وأصبح الرجل يمر بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه في القبر من شدة الفتن التي نعيش فيها.

المهم أنه ظهرت الفتن في زمن الصحابة .. وكانت بدايتها بقتل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ثم بقتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه).

وفي زمن الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ظهرت الخوارج وذلك في موقعة صفين بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما). وكانوا ستة آلاف وأرسل إليهم ابن عمه عبد الله بن عباس فرجع بألفين ... ثم قاتلهم علي (رضي الله عنه) في موقعة النهروان فقتل ألفين وبقي ألفان ... وظهر كذلك الشيعة السبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي، وهم الذين ألّهُوا علي بن أبي طالب، وقال مقالته المشهورة: ولما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناراً ودعوت قنبراً وقنبر: هو غلام علي (رضي الله عنه).

وقال بعضهم لابن عمر (رضي الله عنهما): إن عندنا قومًا بالكوفة يقولون: إن الأمر أنف أي مُستأنف أي بلا قدرٍ سابق (وهم القدرية) الذين ينفون كل مراتب الإيمان بالقضاء والقدر من العلم والكتابة وإثبات مشيئة الله عز وجل النافذة وخلق أفعال العباد.

فقال عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما): (أخبرهم أنهم ليسوا مني ولست منهم). فظهرت الفرق التي أخبر عنها المعصوم (عليه السلام)، وافتقرت الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ... واحدة ناجية تصير إلى جنة عالية قطوفها دانية.

✽ وأما عن الفتنة التي حدثت بين الصحابة رضي الله عنهم فلقد أجمع أهل السنة والجماعة على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم - بعد مقتل عثمان رضي الله عنه - والاسترجاع على تلك المصائب والاستغفار للقتلى من الطرفين والترحم عليهم.

قال أحد السلف لما سُئل عن القتال بين الصحابة رضي الله عنهم: «تلك دماء وأشلاء طهر الله منها أيدينا فلا نلوث بها ألسنتنا... ثم قرأ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

فالواجب حفظ فضائل الصحابة والاعتراف بسابقتهم ونشر مناقبهم والاعتقاد أن كل واحدٍ منهم مجتهد لم يتعمد الخطأ فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر وخطؤه مغفور.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(١).

وعن عبد الله بن مغفل أن النبي ﷺ قال: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبي لهم أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله أوشك أن يأخذه»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ﻳُﺘَﺠَلَّى اختارني، واختار لي أصحابًا، فجعل لي منهم وزراء وأنصارًا وأصهارًا، فمن سبَّهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرفٌ ولا عدل»^(٣)... أي: لا يقبل منه فريضة ولا نافلة.

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٦٧٣) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه أحمد في المسند (٨٧ / ٤)، (٥٧ / ٥٤، ٥٧)، وقال محققه: إسناده حسن، ورواه أيضًا الترمذي رقم (٣٨٦٢) وغيره.

(٣) أخرجه الحاكم (٦٣٢ / ٣)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وقال الإمام الذهبي رحمه الله: إنما يعرف فضائل الصحابة رضي الله عنهم من تدبر أحوالهم وسيرهم وآثارهم في حياة رسول الله ﷺ ، وبعد موته من المسابقة إلى الإيمان، والمجاهدة للكفار، ونشر الدين، وإظهار شعائر الإسلام، وإعلاء كلمة الله ورسوله، وتعليم فرائضه، وسُنَّته، ولولا هم ما وصل إلينا من الدين أصل ولا فرع، ولا علمنا من الفرائض والسنن سنة ولا فرضاً، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئاً.

فمن طعن فيهم، أو سبهم، فقد خرج من الدين، ومَرَقَ من ملة المسلمين؛ لأن الطعن لا يكون إلا عن اعتقاد مساويهم، وإضمار الحقد فيهم، وإنكار ما ذكره الله تعالى في كتابه من ثنائه عليهم وفضائلهم ومناقبهم وحبهم.

❦ قوله ﷺ: « فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ ، عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ ».

وفي هذا حِصٌّ شديد على أن يتمسك المسلم بسنة رسول الله ﷺ خاصة عند اختلاف الناس ... فعلاج الاختلاف وسبيل النجاة عند الاختلاف التمسك بالسنة؛ لأن ظهور البدع والاختلاف ينشأ من تقديم الآراء والأهواء على سنة النبي ﷺ وتقديم العقول الناقصة على الشرع الكامل ... فإذا حدث خلاف بين المسلمين ثم تحاكموا إلى السنة لا بُدَّ أن يجتمعوا... لأن السنة الواحدة لا تختلف ولكن إذا قَدَّمَ كل واحد رأيه وهواه ورأى شيخه، على سنة النبي ﷺ لا يمكن أن يجتمعوا.. لأن السنة تُجَمِّعُ والبدعة تُفَرِّقُ.

وهذا هو الواجب على العباد حين الاختلاف.

إذا اختلفوا في العقائد فعليهم أن يبحثوا في سنة المصطفى ﷺ وإذا اختلفوا في الشرائع وفي الأحكام فعليهم أن يبحثوا في سنة المصطفى ﷺ وإذا كثرت الاختلاف بينهم في أمور الفتن والآراء ... إلى آخره فعليهم أن يرجعوا إلى سنة المصطفى ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين؛ فإن فيها النجاة.

ولم نر مسألة من المسائل التي من أجلها اختلف الناس في تاريخ الإسلام كله، من أوله إلى يومنا هذا إلا وفي السنة بيانها، لكن يؤتى الناس من جهة أنهم لا يرغبون في السنة، لا يرغبون في امثال وصية المصطفى ﷺ وأمره ونهيه وبيانه ﷺ؛ لهذا أوصى ﷺ هذه الوصية العظيمة، فقال: «فعلیکم بستی».

والسنة المقصود هنا بها الهدى والطريقة التي كان عليها ﷺ... والسنة بيان للقرآن... فما كان من كلامه ﷺ، وما كان من أفعاله - فإن في ذلك السنة، وهى الطريقة والهدى الذى كان عليه ﷺ.

وهذا فيه بيان واضح لمعنى القرآن، حيث قال (جل وعلا): ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فقله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ «الذكر» هنا هو سنة المصطفى ﷺ^(١).

فأنزل الله السنة مبينة لما أجمل في القرآن.... فنحن نقرأ في القرآن ﴿وَأَقِمْوُ الصَّلَاةَ﴾ لكن ليس هناك أى توضيح في القرآن لكيفية الصلاة ومواقيتها وعددها فتجد هذا واضحا في سنة النبي ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢)... ونقرأ في القرآن ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ولا توجد آية واحدة في القرآن تشرح مناسك الحج.. ولكن نجد ذلك واضحا في سنة النبي ﷺ: «خذوا عني مناسككم»^(٣).

وسنته (عليه الصلاة والسلام) هى: طريقته التي يمشى عليها، عقيدة، وخلقا، وعملا، وعبادة وغير ذلك... نلزم سنته، ونجعل التحاكم إليها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. فسنة النبي (عليه الصلاة والسلام) هى سبيل النجاة لمن أراد الله نجاته من الخلافات والبدع.

(١) شرح الأربعين النووية (ص/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٣١) كتاب الأذان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٢٩٧) كتاب الحج.

❁ وتأملوا معي كيف كان حرص سلفنا الصالح على اتباع سنة النبي ﷺ:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مقدمة «طريق الهجرتين وباب السعادتين»:

قال الجنيد بن محمد: الطرق كلها مسدودة إلا طريق مَنْ اقتفى آثار النبي ﷺ فإن الله عز وجل يقول: «وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك».

❁ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليختلجن رجالٌ دوني فأقول: يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سُحِقًا لمن بدَّل بعدى»^(١).

❁ وعن عمر بن عبد العزيز لما بايعه الناس: صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنة، ولا بعد أمتكم أمة، ألا وإن الحلال ما أحلَّ الله في كتابه على لسان نبيه حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرم الله على لسان نبيه حرام إلى يوم القيامة، ألا وإنني لست بمُبتدع ولكني مُتبع.

ويقول سفيان الثوري ليوسف بن أسباط ناصحًا: يا يوسف إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة، فابعث إليه بالسلام، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، فقد قلَّ أهل السنة والجماعة^(٢).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبدٍ على سبيل وسنة، ذَكَرَ الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسَّه النار أبدًا، وإنَّ اقتصارًا في سبيل وسنة، خير من اجتهادٍ في خلاف سبيل وسنة^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/٣٤)، وابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص: ٩).

(٣) اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/٥٤)، وابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص: ١٠)، وذكره

الشاطبي في الاعتصام (١/٨١، ٩٤)، والبعث في شرح السنة (١/٢٠٨).

وهذا هو فاروق الأمة عمر رضي الله عنه: أتى إلى الحجر الأسود فقبله ثم قال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك» ^(١).

ثم قال: إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا ^(٢).

وقال علي رضي الله عنه: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه» ^(٣).

ولقد بلغ حرص صحابة النبي صلى الله عليه وسلم على الاتباع وتحذيرهم من الابتداع وخوفهم منه مبلغاً عظيماً.

فهذا صديق الأمة الأكبر يخشى على نفسه ويخشى على إيمانه -الذي لو وُزن بإيمان الأمة لرجح- إن ترك شيئاً من أمره صلى الله عليه وسلم.

فيقول: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ ^(٤).

ويقول رضى الله عنه وأرضاه: أى أرضي ثقلني وأى سماء ثقلني إن قلت في آية من كتاب الله برأى، أو بما لا أعلم ^(٥).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَتَنًّا فَلَيْسَتْ بِي مَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنْ الْحَيُّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أَبْرُ هَذِهِ الْأُمَّةَ قُلُوبًا، وَأَعْمَقُهَا عِلْمًا، وَأَقْلَهَا تَكَلُّفًا، قَدْ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لَصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم وَإِقَامَةِ دِينِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧) كتاب الحج، ومسلم (١٢٧٠) كتاب الحج.

(٢) أعلام الموقعين (١/ ٥٥١) وقال ابن القيم معلقاً: وأسانيد هذا الأثر عن عمر في غاية الصحة.

(٣) المرجع السابق (١/ ٨٥١).

(٤) الاعتصام (١/ ٨٠) ط. دار إحياء التراث.

(٥) أعلام الموقعين (١/ ٤٥) ط. دار الجيل.

فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم، فإنهم على الهدى المستقيم»^(١). اهـ.
 ﴿وقوله ﷺ: «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُوا عليها» ولم يقل
 ﷺ: عضوا عليهما؛ لأن سنة الخلفاء الراشدين من سنته ﷺ فقد كانوا ﷺ
 أعلم الناس بالسنة وأتبعهم لها.

والخلفاء جمع خليفة: وهم الذين خلفوا النبي ﷺ في أمته علمًا وعملاً
 ودعوةً وجهادًا وسياسةً... وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر،
 وعمر، وعثمان، وعلى - ﷺ وألحقنا بهم في جنات النعيم - هؤلاء الخلفاء
 الأربعة ومن بعدهم من خلفاء الأمة، الذين خلفوا النبي ﷺ في أمته، هم الذين
 أمرنا باتباع سنتهم... ولكن ليعلم أن سنة هؤلاء الخلفاء تأتي بعد سنة الرسول
 (عليه الصلاة والسلام)، فلو تعارضت سنة خليفة من الخلفاء مع سنة النبي
 محمد ﷺ، فإن الحكم لسنة النبي محمد ﷺ لا لغيرها، لأنها - أعنى سنة
 الخلفاء - تابعة لسنة النبي ﷺ.

فالمهم أن سنة الخلفاء تأتي بعد سنة الرسول ﷺ... قال ابن عباس رضي الله عنهما:
 يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال
 أبو بكر وعمر!! هذا وهما أبو بكر وعمر، فكيف بمن عارض قول الرسول ﷺ
 بقول من دون أبي بكر وعمر بمراحل.

﴿عَضُوا عليها بالنواجذ» والنواجذ: هي الأضراس، وأشد ما يكون
 الاستمساك إذا أراد المرء أن يستمسك بشيء بأسنانه أن يعض عليه بأضراسه؛
 لأنها أشد الأسنان.

وهو كناية عن شدة التمسك... فإذا تمسك الإنسان بيديه بالشيء وعَضَ
 عليه بأقصى أسنانه، فإنه يكون ذلك أشد تمسكًا مما لو أمسكه بيد واحدة، أو

(١) أخرجه أبو عمر بن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/٩٧)، والهروى ورقمه (٨٦) وفيه من
 طريق قتادة عنه فهو منقطع - قاله الألباني في تخريج مشكاة المصابيح (ص: ١٩٣).

بيدين بدون عَصٍّ... فهذا يدل على أن النبي ﷺ أمرنا أن نتمسك أشد التمسك بستته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده (عليه الصلاة والسلام).

✽ «وإياكم ومُحدثات الأمور» يعنى: أذكركم من المُحدثات في دين الله ﷻ وفيما يتعبد به الإنسان لربه (جلّ وعلا).

أما المُحدثات في أمور الدنيا فهذه ليس فيها إنكار إلا إذا كان في شىء قد ورد فيه نصّ على تحريمه أو كان داخلاً في قاعدة عامة تدل على التحريم..

فمثلاً: الطائرات والسيارات والدراجات لا نقول عنها أنها مُحدثة لأنها لم تكن على عهد رسول الله ﷺ.. لأن هذه من الأمور الدنيوية.. وكذلك الثياب وأنواعها، لا نقول: لا تلبس إلا ما كان يلبسه الصحابة... بل البس ما شئت مما أحلّ الله لك؛ لأن الأصل الحِلّ، إلا ما نصّ الشرع على تحريمه، كتحرير الحرير والذهب على الرجال، وتحريم ما فيه الصورة وما أشبه ذلك.

فالبدعة المُحدثة هي أن يبتدع الإنسان شيئاً في الدين لم يفعله النبي ﷺ ولا الخلفاء الراشدون.. يقصد بذلك أن يتعبد لله به.

✽ «فإن كل بدعة ضلالة» يعنى أن كل بدعة في دين الله ﷻ فهي ضلالة، وإن ظن صاحبها أنها خير وأنها هدى.

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المُحدثات البدائع

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف... والبدعة كما عرفها الإمام الشاطبي: «طريقة مُخترعة في الدين تُضاهى الشرعية يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية أو مزيد من التعبد لله ﷻ».

✽ وقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة» يشمل ما كان مبتدعاً في أصله، وما كان مُبتدعاً في وصفه... فمثلاً لو أن أحداً أراد أن يذكر الله بأذكار مُعينة بصفتها أو عددها، بدون سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ، فإننا ننكر عليه ولا ننكر أصل الذكر، ولكن ننكر ترتيبه على صفة معينة بدون دليل.

(١٦٢) الثالث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى». قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»^(١).

✽ الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعدّه الله لأوليائه وأهل طاعته... وهي نعيمٌ كامل لا يشوبه نقص، ولا يُعكر صفوه كدر. وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يُحير العقل ويذهله، لأنّ تصوّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

استمع إلى قوله ﷺ في الحديث القدسي «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قال الرسول ﷺ: «اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» [السجدة: ١٧] ^(٢).

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا... فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافهٌ حقير، لا يساوي شيئاً... ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(٣).

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى^(٤)... قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن كل مَنْ مات على التوحيد من أُمته فسوف يدخل الجنة.. لأنه من المعلوم أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإيمان والتوحيد.

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٣٢٥٠) كتاب بدء الخلق.

(٤) الجنة والنار/ د. عمر الأشقر رحمته الله (ص ١١٣).

فأخبر النبي ﷺ أن كل أمته ستدخل الجنة إلا من رفض أن يدخل الجنة!!
وقد يسأل سائل ويقول: وهل هناك أحدٌ في الكون كله يرفض أن يدخل الجنة؟!

وهذا هو نفس السؤال الذي سأله الصحابة للنبي ﷺ فقالوا له: ومن يأبى يا رسول الله؟

فوضح لهم النبي ﷺ كيف يرفض الإنسان أن يدخل الجنة فقال ﷺ: «مَنْ أطاعني دخل الجنة، وَمَنْ عصاني فقد أبى» فيا مَنْ أردت أن تدخل الجنة .. اعلم أنه لا طريق إلى الجنة إلا خلف النبي محمد ﷺ .. فمن أطاعه فسوف يدخل الجنة وَمَنْ عصاه فقد أبى أن يدخل الجنة.

ولكن لَا بُدَّ أن نعلم أن عَصَاة الموحدين في مشيئة الله .. إن شاء عَذَّبهم وإن شاء عفا عنهم .. ولكن إن دخل أي أحدٍ من عَصَاة الموحدين النار فلا بُدَّ أن يخرج من النار بعد ذلك ويدخل الجنة لأنه لَا يُخَلَّدُ مُوَحَّدٌ في النار أبدًا .. فهذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٣) الرَّابِعُ: عن أَبِي مُسْلِمٍ، وَقِيلَ: أَبِي إِيَّاسٍ سَلَمَةُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشْمَالِهِ فَقَالَ: «كُلْ يَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتُ» مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ^(١).

✽ لقد كان رسول الله ﷺ مُسْتَجَاب الدعوة فيما يدعو فيه ربه من قضاء الحوائج وتفريج الكرب وشفاء المرض وتحقيق المطالب وحلول البركة، حتى تواتر هذا الأمر عنه، فكان ذلك شاهداً من حاله بتصديق الله له بإجابة دعائه.

وهنا في هذا الحديث يحكى أحد الصحابة أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١) كتاب الأشربة.

يأكل معه .. وهذا من تواضع النبي ﷺ فقد ذكر هذا الرجل دون أن يذكر اسمه ... وهذا دليل على أنه ليس من سادة وأشراف القوم .. فقد كان النبي ﷺ يحب الفقراء والمساكين ويُجالسهم .. بل كان يدعو ويقول: «اللهم أحييني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زُمرة المساكين»^(١).

فكان هذا الرجل يجلس مع النبي ﷺ ويأكل معه .. فنظر إليه النبي ﷺ فوجده يأكل بشماله .. وقد كان النبي ﷺ ينهى عن الأكل بالشمال فكان يقول ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»^(٢).

فلما لاحظ النبي ﷺ أن هذا الرجل يأكل بشماله خاف عليه وأشفق عليه أن يأكل كما يأكل الشيطان فقال له ﷺ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» فلم يقل له الرجل: عندي مرض في يدي اليمنى .. أو أى عُذرٍ آخر .. وإنما تكلم مع سيد ولد آدم ﷺ بشيء من الكبر وقال له: «لا أستطيع» .. وكان من الممكن أن يقول للنبي ﷺ: ساعدنى يا رسول الله فأنا لا أستطيع ..

فلو قال ذلك للنبي ﷺ لدعا له النبي ﷺ حتى يُيسر الله له أن يأكل بيمينه .. ولكنه قالها بكل كبرٍ: «لا أستطيع» فدعا عليه النبي ﷺ وقال له: «لا استطعت» فما رفعها مرة أخرى إلى فمه.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الدُّعَاءِ عَلَى مَنْ خَالَفَ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ بِلَا عُذْرٍ وَفِيهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فِي كُلِّ حَالٍ حَتَّى فِي حَالِ الْأَكْلِ وَاسْتِحْبَابُ تَعْلِيمِ الْأَكْلِ آدَابِ الْأَكْلِ إِذَا خَالَفَهُ^(٣).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وعبد بن حميد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٢٧٩/١٣).

❖ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: وجوب تعظيم أمر النبي ﷺ، والتواضع لسنته والمبادرة إلى طاعته، حيث إن هذا الرجل لما لم يبادر لطاعته ﷺ كبراً، دعا عليه بأمر عظيم وهي أن تُسَلَّ يده، واستجاب الله دعاءه على الفور، مما يؤكد عظم أمر الطاعة، ووجوب التواضع للسنة... ونخشى أن يصيب هذا الدعاء كل من ترفع عن السنة إلى قيام الساعة، فيصيبه وبأل ذلك في الدنيا أو الآخرة.

الفائدة الثانية: كيف يدعو النبي ﷺ على أحد من أصحابه بهذا الدعاء العظيم، وهو الذي زكاه الله ﷻ فقال فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أقول: إن هذا الخلق كان هو السمة الغالبة عليه ﷺ، ولكن لا يمنع ذلك أن يُظهر الشدة في بعض الأوقات، مضطراً ويكون ذلك لصالح الفرد والأمة. فهذا الرجل الذي تكبر عن الطاعة فيما أمر، هل ترون أنه سيستمر على ما كان عليه، أم سيتوب إلى الله ويستغفره مما بدر منه، ويستقيم بقية حياته.. بالطبع سيستقيم، فيكون الدعاء في حقه، رحمة منه ﷺ؛ لأنه علاجٌ لداء عظيم... فلا ن يذهب هذا الكبر بذهاب يده، خيرٌ له من أن يبقى في قلبه وتبقى يده.

وهناك احتمال آخر أن هذا الرجل كان من المنافقين، لذلك استجاز النبي ﷺ أن يدعو عليه بذلك... وقد نقل النووي في شرح مسلم عن القاضي عياض هذا الاحتمال.

وهناك أمرٌ آخر وهو ظهور معجزة من معجزاته ﷺ... وتجلّى ذلك في استجابة الله له في الحال، ومن ثمَّ يكون في هذا الأمر موعظةٌ وزجرٌ لمن يتكبر على سنة الرسول ﷺ. وفي هذا مصلحة عظيمة لهذا الرجل ولغيره من المسلمين.



الفائدة الثالثة: في الحديث دليل على أن الصحابة يمكن أن تقع منهم المعاصي بل الكبائر، لأنهم بشر، وغير معصومين... والشاهد على ذلك أن حدود السرقة والخمر والزنى والقذف، قد أُقيمت كلها في عصر النبوة وإن كان ذلك على نُدرة شديدة.

الفائدة الرابعة: في الحديث تعظيم أمر الكبر وخطورته؛ لأن دعاء النبي ﷺ على هذا الرجل، كان بسبب الكبر الذي منعه من امتثال الأمر... وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم الكبر، وتهديد ووعيد لمن تلبس بهذه الصفة.

الفائدة الخامسة: من عظيم أمر الكبر، أنه هو المعصية الوحيدة، التي أبى الله ﷻ، إلا أن يفصح عبده بها في الدنيا... فالإنسان المتكبر المتلبس بهذه الصفة، لا يمكن أن يسترها عن الناس، فتظهر في احتقاره الناس، أو رد الحق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٤) الخامس: عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَتَسُونَّ صُفُوفُكُمْ أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ»^(٢).

وفي رواية لمسلم: كان رسول الله ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا، فَقَامَ حَتَّى كَادَ أَنْ يُكَبَّرَ، فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ فَقَالَ: «عِبَادَ اللَّهِ لَتَسُونَنَّ صُفُوفُكُمْ أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ».

✽ كان النبي ﷺ أحرص الناس على الصلاة.. وكانت تشغل عليه حياته كلها حتى قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».. وكان النبي ﷺ يحب أن تكون الصلاة على أكمل وجه؛ لأنه سيكون واقفًا بين يدي الخالق (سبحانه وتعالى).

فإذا كانت الصلاة في جماعة - في الصلوات الخمس أو الجمعة أو غيرها - فإنه كان يمر ﷺ بين الصفوف ليُسويها قبل أن تبدأ الصلاة.

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٥٣-٥٥) بتصرف كبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤٣٦) كتاب الصلاة.

وفي يومٍ من الأيام كان النبي ﷺ يُسوي الصفوف حتى كأنما يُسوي القِداح.. والقِداح هي ريش السهم أو هي خشب السهام حين تُنحت وتُبرى.. والمعنى أنه ﷺ كان يبالي في تسوية الصفوف بحيث لا يتقدم أحدٌ على أحدٍ أبداً.

يقول راوي الحديث: «حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه» يعني فهمنا وعرفنا أن التسوية لا بُدَّ منها، خرج ذات يوم فرأى رجلاً بادياً صدره، فقال: «عباد الله، لتُسَوِّفَ صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم» فدلَّ هذا على سبب قول الرسول ﷺ: «لتُسَوِّفَ صفوفكم»؛ لأن سببه أنه رأى رجلاً بادياً صدره فقط، يعني ظاهراً صدره قليلاً من على الصف، فدلَّ ذلك على أن من هدى النبي ﷺ، أنه يتفقد الصف، وأنه يتوعد من يتقدم على الصف بهذا الوعيد: «لتُسَوِّفَ صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم».

واختلف العلماء -رحمهم الله- في معنى مخالفة الوجه.

فقال بعضهم: إن المعنى أن الله يخالف بين وجوههم مخالفة حسيّة، بحيث يلوى الرقبة، حتى يكون وجه هذا مخالف لوجه هذا... والله على كل شيء قدير، فهو هَيَّوْكَانَ قَلْبَ بعض بنى آدم قردة، فقال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ فكانوا قردة. فهو قادر على أن يلوى رقبة إنسان حتى يكون وجهه من عند ظهره، وهذه عقوبة حسية.

وقال بعض العلماء: بل المراد بالمخالفة المخالفة المعنوية، يعني مخالفة القلوب... لأن القلب له اتجاه، فإذا اتفقت القلوب على وجهة واحدة حصل في هذا الخير الكثير، وإذا اختلفت تفرقت الأمة.

فالمراد بالمخالفة مخالفة القلوب، وهذا التفسير أصح؛ لأنه قد ورد في بعض الألفاظ: «أَوْ لِيَخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ».

وعلى هذا فيكون المراد بقوله: «أَوْ لِيَخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ» أي: بين

وجهاً نظركم، وذلك باختلاف القلوب... وعلى كل حال ففى هذا دليل على وجوب تسوية الصفوف، وأنه يجب على المأمومين أن تُسَوَّى صفوفهم، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فقد عرَّضوا أنفسهم لعقوبة الله والعياذ بالله.

والواجب على الأئمة أن ينظروا فى الصف، فإذا وجدوا فيه اعوجاجاً أو تقدماً أو تأخراً، نبهوا على ذلك... وكان النبى ﷺ أحياناً يمشى بين الصفوف يُسويها بيده الكريمة (عليه الصلاة والسلام) من أول الصف لآخره.. ولما كثر الناس فى زمن الخلفاء أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً يُسوى الصفوف إذا أُقيمت الصلاة، فإذا جاء وقال: إنها قد استوت كبر للصلاة، وكذلك فعل عثمان رضى الله عنه، كان قد وكل رجلاً يُسوى صفوف الناس، فإذا جاء وقال قد استوت كبر... وهذا يدل على اعتناء النبى ﷺ والخلفاء الراشدين بتسوية الصف. ولكن - مع الأسف - الآن تجد بعض المأمومين لا يُبالون بالتسوية... يتقدم إنسان ويتأخر إنسان ولا يبالى، وربما يكون مستوياً مع أخيه فى أول الركعة، ثم عند السجود يحصل من الاندفاع تقدُّم أو تأخر، ولا يساؤون الصف فى الركعة الثانية، بل يبقون على ما هم عليه، وهذا خطأ، فالمهم أنه يجب تسوية الصف.

فإذا قال قائل: إذا كان هناك إمام ومأموم فقط، فهل يتقدم الإمام قليلاً أو يساوى المأموم؟ الجواب: أنه يساوى المأموم؛ لأنه إذا كان إمام ومأموم.. فالصف واحد لا يمكن أن يكون الإمام خلفه المأموم وحده، بل هما صف واحد، والصف الواحد يُسَوَّى فيه... خلافاً لما قاله بعض أهل العلم: إنه يتقدم الإمام قليلاً؛ لأن هذا لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه، وهو أن يُسَوَّى بين الإمام والمأموم إذا كانا اثنين^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/٤٥٣-٤٥٤) بتصرف.

(١٦٥) السَّادِسُ: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: احترق بيتٌ بالمدينة على أهله من الليل فلما حدث رسول الله ﷺ بشأنهم قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَظْفِقُواهَا عَنْكُمْ»^(١).

❖ لقد خلق الله تلك النار وأنشأ شجرتها وامتنَّ بها على عباده فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ أي: هل أنتم الذين خلقتهم شجرها أم نحن الخالقون المخترعون.

قال ابن كثير رحمته الله: وَلِلْعَرَبِ شَجَرَتَانِ: إِحْدَاهُمَا (الْمَرْخُ) وَالْأُخْرَى (الْعُقَارُ) إِذَا أُخِذَ مِنْهُمَا غُصْنَانِ أَخْضَرَانِ فَحُكَّ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ تَنَاطَرَ مِنْ بَيْنَهُمَا شَرُّ النَّارِ^(٢)، وقيل: أراد جميع الشجر الذي تُوقد منه النار، لما روى عن ابن عباس أنه قال: ما من شجرة ولا عود إلا وفيه النار سوى العُنب^(٣): ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرَةً﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكيراً للنار الكبرى «نار جهنم» إذا رآها الرائي ذكر بها نار جهنم، فيخشى الله ويخاف عقابه.

وفي الحديث: «ناركم هذه التي تُوقدون جزءً من سبعين جزءاً من نار جهنم، فقالوا يا رسول الله: إن كانت لكافية!! فقال: والذي نفسي بيده لقد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كُلُّهن مثل حرها»^(٤).

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي: المنتفعين أو المسافرين... وخصَّ الله المسافرين لأن نفع المسافرين بها أعظم من غيره، ولعلَّ السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين وُلد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٩٤) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢٠١٦) كتاب الأشربة.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٤٣٨/٣).

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين (١٦٦/٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٦٥) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٤٣) كتاب الجنة.



للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار^(١).

ومع كل تلك الفوائد التي يجنيها العبد من منافع النار إلا أنها مع ذلك مُضِرَّة .. وقد تقضى على الأخضر واليابس .. قد تحرق قرية كاملة أو تحرق غابة كبيرة بكل ما فيها من أشجار وأغصان ... ومن أجل ذلك قال ﷺ: «إن هذه النار عدو لكم» فهي صديق لمن يُحسن استخدامها ويتذكر بها نار الآخرة فيخشى الله ويُقبل على العبادة .. وهى فى نفس الوقت عدو إذا لم يُحسن الإنسان ضبطها وقيدها ففرط أو تعدى .. فأما التفریط وذلك بالألّا يُبعد ما يكون سبباً لاشتعالها ... وأما التعدى وذلك بأن يوقد النار بجوار ما يشتعل سريعاً كالغاز أو البنزين.

ومن أجل ذلك فإنه ينبغي أن تُنفذ وصية النبى ﷺ حينما قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّارُ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ» فلا بد من إطفاء أى نار حتى لا تتسبب فى حريق البيت أثناء النوم .. فهذا أمرٌ فى غاية الخطورة على حياتنا.

❖ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ فى قول النبى ﷺ فى الرواية الأخرى:

«لا تتركوا النارَ فى بُيُوتِكُمْ حينَ نَئامٍ» هَذَا عَامٌّ تَدْخُلُ فِيهِ نَارُ السَّرَاجِ وَغَيْرُهَا ... وَأَمَّا الْقَنَادِيلُ الْمُعَلَّقَةُ فى الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا فَإِنْ خِيفَ حَرِيقٌ بِسَبَبِهَا دَخَلَتْ فى الْأَمْرِ بِالْإِطْفَاءِ وَإِنْ أَمِنَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ الْغَالِبُ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهَا لِإِنْفَاءِ الْعِلَّةِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلَّلَ الْأَمْرَ بِالْإِطْفَاءِ فى الْحَدِيثِ بِأَنَّ الْفَوَيْسِقَةَ تُضَرِّمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ فَإِذَا انْتَفَتِ الْعِلَّةُ زَالَ الْمَنْعُ^(٢).

قَوْلُهُ ﷺ: «فَإِنَّ الْفَوَيْسِقَةَ تُضَرِّمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ» الْمُرَادُ بِالْفَوَيْسِقَةِ الْقَارَةُ ... وَتُضَرِّمُ أَيْ تُحْرِقُ سَرِيعاً^(٣).

(١) تفسير السعدى (ص ٩٩٤).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣ / ٢٧١).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٣ / ٢٦٦).

ومن ذلك أيضًا فإنه ينبغي أن نحرص على تغطية أفياش الكهرباء حتى لا يحدث مكروه لأطفالنا.

ومن ذلك أيضًا فإنه ينبغي أن نتأكد من صمامات الغاز التي تكون في بيوتنا حتى لا يحدث منها أى تسريب يتسبب في أى حرائق في بيوتنا - عيادًا بالله - .
وإذا كان كل هذا الاحتراز من نار الدنيا التي هي جزء من سبعين جزءًا من نار الآخرة فمن باب أولى أن نحترز من نار الآخرة .. وذلك لا يكون إلا بالإقبال على الله بالتوبة الصادقة والأعمال الصالحة التي تُزينها بالإخلاص والمتابعة .. وكذلك بالبُعد عن المعاصي التي تُهلك صاحبها في نار جهنم - عافانا الله وإياكم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٦) السَّابِعُ: وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَعَّ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا . وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١).

❦ في هذا الحديث الذي ساقه النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب فضل العلم تعلُّمًا وتعليمًا لله، الذي رواه أبو موسى عن النبي ﷺ في هذا مثل بديع عجيب ... فقد مثل النبي ﷺ ما بعثه الله به من العلم والهدى بغيث - يعني بمطر - ووجه الشبه أنه بالغيث تحيي الأرض وبالوحي تحيي القلوب .

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٩) كتاب العلم، ومسلم (٢٢٨٢) كتاب الفضائل .

«فَقَّهٌ» أى: صارَ فَقِيهًا.

ولهذا سَمَّى الله سبحانه وتعالى ما بعث به محمداً ﷺ سَمَاءً رَوْحًا، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾.

فالوحي غيث؛ لكنه كما مثل الرسول ﷺ نزل على الأرض فصارت الأرض ثلاثة أقسام: قسم قبل المطر وشرب وأنبت العشب الكثير والكلأ فانتفع الناس بذلك؛ لأن الأرض أنبتت... والقسم الثاني: قيعان لا تُنبِت لكن أمسكت الماء ولم تشربه فسقى الناس منه وارتووا وزرعوا... القسم الثالث: أرض قيعان بلعت الماء ولم تُنبِت فلم تنتفع ولم تنتفع الناس فهي أرض سباح، سبخة تبلع الماء؛ ولكنها لا تُنبِت.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْأَرْضَ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ وَكَذَلِكَ النَّاسُ... فَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ الْأَرْضِ يَنْتَفِعُ بِالْمَطَرِ فَيَحْيَى بَعْدَ أَنْ كَانَ مَيِّتًا وَيُنْبِتُ الْكَلَاءَ فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ وَالِدَّوَابُّ وَالزَّرْعُ وَغَيْرُهَا وَكَذَا النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنَ النَّاسِ يَبْلُغُهُ الْهُدَى وَالْعِلْمُ فَيَحْفَظُهُ فَيَحْيَا قَلْبُهُ وَيَعْمَلُ بِهِ وَيَعْلَمُهُ غَيْرُهُ فَيَنْتَفِعُ وَيَنْفَعُ... وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْأَرْضِ مَا لَا يَقْبَلُ الْإِنْتِفَاعَ فِي نَفْسِهَا لَكِنْ فِيهَا فَائِدَةٌ وَهِيَ إِمْسَاكُ الْمَاءِ لِعِزِّهَا فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ وَالِدَّوَابُّ وَكَذَا النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ حَافِظَةٌ لَكِنْ لَيْسَتْ لَهُمْ أَفْهَامٌ ثَاقِبَةٌ وَلَا رُسُوخَ لَهُمْ فِي الْعَقْلِ يَسْتَنْبِطُونَ بِهِ الْمَعَانِي وَالْأَحْكَامَ وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ اجْتِهَادٌ فِي الطَّاعَةِ وَالْعَمَلِ بِهِ... فَهُمْ يَحْفَظُونَهُ حَتَّى يَأْتِيَ طَالِبٌ مُّحْتَاجٌ مُّتَعَطِّشٌ لَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أَهْلٌ لِلنَّفْعِ وَالْإِنْتِفَاعِ فَيَأْخُذُهُ مِنْهُمْ فَيَنْتَفِعَ بِهِ فَهُوَ لِأَنَّ نَفْعَهُمَا بَلَّغَهُمْ... وَالنَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ الْأَرْضِ السَّبَاخُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ وَنَحْوُهَا فَهِيَ لَا تَنْتَفِعُ بِالْمَاءِ وَلَا تُمْسِكُهُ لِيَنْتَفِعَ بِهَا غَيْرُهُ وَكَذَا النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنَ النَّاسِ لَيْسَتْ لَهُمْ قُلُوبٌ حَافِظَةٌ وَلَا أَفْهَامٌ وَاعِيَةٌ فَإِذَا سَمِعُوا الْعِلْمَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَلَا يَحْفَظُونَهُ لِنَفْعِ غَيْرِهِمْ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْعِلْمِ مِنْهَا ضَرْبُ الْأَمْثَالِ وَمِنْهَا فَضْلُ الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ وَشِدَّةُ الْحَثِّ عَلَيْهِمَا وَدَّمَ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْعِلْمِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

❀ وفي هذا الحديث دليلٌ على حُسن تعليم النبي ﷺ لأصحابه ولأئمة ذلك من خلال ضرب الأمثال التي تُقَرِّبُ الأفهام فتجعل المستمع حاضر الذهن مستوعباً لكل كلمة سمعها.

❀ وفي هذا الحديث دليلٌ أيضاً على أن مَنْ فقه في دينه وتعلَّم سنة النبي ﷺ وعمل بهذا العلم وبلغه لمن حوله فهذا من أفضل الناس .. ويليهِ مَنْ تعلَّم ولكنه لم يتفقه ولم يستفد من علمه ولكنه أفاد غيره .. ويليهِ في المرتبة الأخيرة مَنْ لا خير فيه فهو يستمع ولا ينتفع بالعلم ولا يستوعبه ولا ينفع به غيره.

فاللهم اجعلنا من العلماء العاملين الذين يتفجعون وينفعون الناس من حولهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٧) الثَّامِنُ: عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّ عَنْهَا وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْلُتُونَ مِنْ يَدَيَّ»^(٢).

❀ ففي هذا الحديث يضرب النبي ﷺ للأمة مثلاً يوضح لهم مدى حبه ﷺ لأئمة وحرصه عليهم ورغبته في نجاتهم جميعاً من النار.

قال تعالى في وصف النبي ﷺ ورحمته بالأمة: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [التوبة: ١٢٨].

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨٥) كتاب الفضائل.

«الْجَنَادِبُ»: نَحْوُ الْجَرَادِ وَالْفَرَاشِ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذِي يَقَعُ فِي النَّارِ - «وَالْحُجْزُ»: جَمْعُ حُجْرَةٍ، وَهِيَ مَعْقِدُ الْإِزَارِ وَالسَّرَاوِيلِ.

يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم. ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مُقَدَّمًا على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره^(١).

﴿قَالَ ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا».. فأراد النبي ﷺ بهذا المثل أن يبين حاله مع أمته وخوفه على تلك الأمة المباركة.. وذكر أن حاله مع أمته كحال رجل في بركة أوقد نارًا فجعل الجراد والفراش يطير بسرعة نحو النار ويقع فيها... لأن هذه هي عادة الجراد والفراش حين يرى النار.

قال ﷺ: «وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ» يعني لأمنعكم من الوقوع فيها ولكنكم «تَقْلَتُونَ مِنْ يَدِي» وتقعون في النار.

﴿قَالَ الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَقْصُودُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﷺ شَبَّهَ تَسَاقُطَ الْجَاهِلِينَ وَالْمُخَالِفِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ فِي نَارِ الْآخِرَةِ وَحَرَصِهِمْ عَلَى الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ مَعَ مَنَعِهِ إِيَّاهُمْ وَقَبْضِهِ عَلَى مَوَاضِعِ الْمَنَعِ مِنْهُمْ بِتَسَاقُطِ الْفَرَاشِ فِي نَارِ الدُّنْيَا لِهَوَاهُ وَضَعْفِ تَمْيِيزِهِ... وَكِلَاهُمَا حَرِيصٌ عَلَى هَلَاكِ نَفْسِهِ سَاعَ فِي ذَلِكَ لِجَهْلِهِ^(٢).

ففي هذا دليل: على حرص النبي ﷺ على حماية أمته من النار، وأنه يأخذ

(١) تفسير السعدي (ص ٣٩٨).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٥/٧٣).

بحجزها ويشدها حتى لا تقع في هذه النار، ولكننا نفلت من ذلك ونأبى إلا الورد ... نسأل الله أن يعاملنا بعفوه.

✽ وقد كان النبي ﷺ حريصاً كل الحرص على جلب الخير للأمة ودفع الشر عنها في الدنيا والآخرة ... وها هي بعض الصور التي توضح لنا كيف كان حرص النبي ﷺ على أمته.

✽ فيها هو يبكي خوفاً وشفقة على أمته.

ففي الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل: ﴿ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن يَبْعَثْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عز وجل: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبِّكَ أَعْلَمُ- فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَاتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللَّهُ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ»^(١).

✽ وها هو ﷺ يدخر دعوته شفاعاً لأُمته يوم القيامة لينقذهم من النار... ففي الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإنى اختبأت دعوتي شفاعاً لأُمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أُمتي لا يُشرك بالله شيئاً»^(٢).

✽ بل ها هو ﷺ يخبر أن سبعين ألفاً من أُمته سيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... ولا يكتفى النبي ﷺ بهؤلاء السبعين ألفاً بل يسأل الحق (جل وعلا) أن يزيد من عدد هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب -حُبّاً لأُمته ﷺ-.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٩) كتاب الإيمان.

❁ قال ﷺ: «أعطيت سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر قلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»^(١).

وفي رواية قال ﷺ: «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربي»^(٢).

❁ ومن هنا فإنه ينبغي بل يجب أن نتبع سنة النبي ﷺ في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه .. وأن نعلم يقيناً أن النبي ﷺ لم يأمرنا بشيء إلا وفيه كل الخير .. ولم ينهنا عن شيء إلا وهو عين الشر .. فإن النبي ﷺ ما ترك خيراً إلا وقد دللنا عليه .. وما ترك شراً إلا وقد حذرنا منه.

❁ وكذلك لا بد أن نعلم حقوق النبي ﷺ على أمته لنقوم بها قدر استطاعتنا ... لأننا مهما فعلنا فلن نوفيه حقه ﷺ.

فمن حقوق النبي ﷺ على أمته: الإيمان به ﷺ ومحبة دون غلو وطاعته في كل أمر والانتفاء عن كل ما نهى عنه ﷺ والاتباع له في أقواله وأعماله وأحواله وتصديقه في كل ما أخبر عنه ﷺ وتعظيمه وتوقيره والأدب معه ﷺ والتحلي بأخلاقه ﷺ وتبليغ دعوته وسنته ﷺ للكون كله والدفاع عنه ﷺ والصلاة عليه ﷺ.

ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ

(١٦٨) التاسع: وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِلَعْقِ الْأَصَابِعِ وَالصَّحْفَةِ وَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ»^(٣).

وفي رواية له: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلَا يَمْسَحَ يَدُهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٠٥٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١١١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) كتاب الأشربة.

يدري في أي طعامه البركة» .

وفي رواية له: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمْ اللَّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَدَى، فَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ» .

✽ من المعلوم أن النبي ﷺ ما ترك خيراً إلا وقد ذلَّ أمته عليه، وما ترك شراً إلا وقد حذر أمته منه.

وفي هذا الحديث يُعلمنا النبي ﷺ أدباً عظيماً من آداب الطعام: ألا وهو أنه إذا فرغ أحدنا من الطعام فلا بُدَّ أن يحرص على أن يلعق أصابعه الثلاثة قبل أن يمسحها بالمنديل وقبل أن يغسلها بالماء .. وكذلك يلعق ما تبقى من الطعام في الصفحة (أو الطبق).

لكن لماذا أمرنا النبي ﷺ بذلك؟

لأنه يريد ألا تفوتنا البركة التي في الطعام .. ولذا قال ﷺ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّهَا الْبَرَكَةُ» .. فقد تكون بركة ذلك الطعام فيما بقي على أصابعه الثلاثة التي يأكل بها .. أو قد تكون فيما تبقى من الطعام في الصفحة.

ولهذا فمن السنة أن تضع أمامك ما يكفيك من الطعام حتى إذا بقي منك شيءٌ يسير تلعبه ولا تترك شيئاً للشيطان.

ولهذا قال الأطباء: إنَّ في لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة عجيبة وهو تيسير الهضم؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تُيسر الهضم ... ونحن نقول: هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به، وإلا فالأصل أننا نلعبها امتثالاً لأمر النبي ﷺ.

وفي هذا الحديث أدبٌ آخر من آداب الطعام ألا وهو: أنه إذا كنت تأكل فسقطت منك لقمة على الأرض فلا تدعها للشيطان الذي يحضر الإنسان في كل شئونه من

أَكَلَ وَشَرِبَ وَجَمَاعٍ وَغَيْرِهِ .. فَإِنْ لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ قَبْلَ الْأَكْلِ فَإِنَّهُ يَشَارِكُكَ فِي الْأَكْلِ ... وَلِهَذَا تُنَزَعُ الْبَرَكَةُ مِنَ الطَّعَامِ إِذَا لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ قَبْلَ الْأَكْلِ .. فَإِذَا سَمِيتَ اللَّهَ قَبْلَ الطَّعَامِ ثُمَّ بَدَأْتَ فِي الْأَكْلِ .. وَبَيْنَمَا أَنْتَ تَأْكُلُ سَقَطَتْ مِنْكَ لُقْمَةٌ عَلَى الْأَرْضِ فَلَا تَتْرَكُهَا لِلشَّيْطَانِ بَلْ خُذْهَا وَأَمِطْ عَنْهَا الْأَذَى وَمَا عُلِقَ بِهَا مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ كُلْهَا فَقَدْ تَكُونُ الْبَرَكَةُ فِي تِلْكَ اللَّقْمَةِ .. وَإِنْ لَمْ تَكُنْ بِهَا الْبَرَكَةُ فَلَا تَتْرَكُهَا لِلشَّيْطَانِ.

وبذلك تكون قد حققت ثلاثة فوائد: الامتثال لأمر النبي ﷺ والتواضع وحرمان الشيطان من أكل تلك اللقمة.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنْوَاعٌ مِنْ سُنَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا اسْتِحْبَابُ لَعْقِ الْيَدِ مُحَافَظَةً عَلَى بَرَكَةِ الطَّعَامِ، وَتَنْظِيفًا لَهَا، وَاسْتِحْبَابُ الْأَكْلِ بِثَلَاثِ أَصَابِعٍ، وَلَا يَضُمُّ إِلَيْهَا الرَّابِعَةَ وَالْخَامِسَةَ إِلَّا لَعَذْرَ بَأْنِ يَكُونُ مَرَقًا وَغَيْرِهِ مِمَّا لَا يُمْكِنُ بِثَلَاثٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ ... وَاسْتِحْبَابُ لَعْقِ الْقُصْعَةِ وَغَيْرِهَا وَاسْتِحْبَابُ أَكْلِ اللَّقْمَةِ السَّاقِطَةِ بَعْدَ مَسْحِ أَذَى يُصِيبُهَا هَذَا إِذَا لَمْ تَقَعْ عَلَى مَوْضِعٍ نَجَسٍ فَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى مَوْضِعٍ نَجَسٍ تَنَجَسَتْ وَلَا بَدَّ مِنْ غَسْلِهَا إِنْ أُمِكنَ فَإِنْ تَعَذَّرَ أَطْعَمَهَا حَيَوَانًا وَلَا يَتْرَكُهَا لِلشَّيْطَانِ ... وَمِنْهَا إِبْثَاتُ الشَّيَاطِينِ وَأَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ وَمِنْهَا جَوَازُ مَسْحِ الْيَدِ بِالْمِنْدِيلِ لَكِنَّ السُّنَّةَ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ لَعْقِهَا.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ» فِيهِ التَّحْذِيرُ مِنْهُ وَالتَّنْبِيهُ عَلَى مُلَازِمَتِهِ لِلْإِنْسَانِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَأَهَّبَ وَيَحْتَرِزَ مِنْهُ وَلَا يَغْتَرَّ بِمَا يَزِينُهُ لَهُ ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «يُلْعَقُهَا أَوْ يُلْعَقُهَا» مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَا يَمْسَحُ يَدَهُ حَتَّى يُلْعَقَهَا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَحَتَّى يُلْعَقَهَا غَيْرُهُ مِمَّنْ لَا يَتَقَدَّرُ ذَلِكَ كَزَوْجَةٍ وَجَارِيَةٍ وَوَلَدٍ وَخَادِمٍ يُحِبُّونَهُ وَيَلْتَدُّونَ بِذَلِكَ وَلَا يَتَقَدَّرُونَ وَكَذَا مَنْ كَانَ فِي مَعْنَاهُمْ كِتْلَمِيدٌ يَعْتَقِدُ بَرَكَتَهُ - أَيْ بَرَكَةَ لَعْقِ الطَّعَامِ الْمَتَبَقِيِّ عَلَى الْأَصَابِعِ - وَكَذَا لَوْ أَلْعَقَهَا شَاةٌ

ونحوها ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «لاتدرون في أيها البركة» معناه والله أعلم أَنَّ الطعام الذي يحضره الإنسان فيه بركة ولا يدرى أَنَّ تِلْكَ البركة فيمَا أَكَلَهُ أَوْ فيمَا بَقِيَ عَلَى أَصَابِعِهِ أَوْ في مَا بَقِيَ فِي أَسْفَلِ الْقَصْعَةِ أَوْ فِي اللَّقْمَةِ السَّاقِطَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظَ عَلَى هَذَا كُلِّهِ لِتَحْصُلِ البركة ... وَأَصْلُ البركة الزيادة وَتُبُوْتُ الخَيْرِ وَالإِمْتَاعِ به والمراد هنا والله أعلم مَا يَحْصُلُ بِهِ التَّغْذِيَةُ وتسلم عاقبته مِنْ أَدَى وَيَقْوَى عَلَى طَاعَةِ الله تعالى وغير ذَلِكَ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٩) العَاشِرُ: عن ابن عباس رضِيَ الله عنهما قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حُفَاةٌ عُزَاةٌ غُرْلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا أَنَا كُنَّا فَعِلِينَ﴾، أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، أَلَا وَإِنَّهُ سَيَجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتُ الشَّمَالِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فَيَقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ^(٢).

﴿فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حَبْرُ الْأُمَّةِ وَتَرْجَمَانُ الْقُرْآنِ الَّذِي دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ»^(٣).

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ .. أَى قَامَ فِيهِمْ خَطِيئًا .. وَكَانَ مِنْ عَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ فِي أَصْحَابِهِ الْخُطْبَ الرَّابِعَةَ كَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدِينَ وَالْكَسُوفِ وَالْإِسْتِسْقَاءِ ... وَكَانَ أحيانًا يَخْطُبُ خُطْبًا عَارِضَةً بِحَسَبِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٢٩٧-٢٩٨) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٢٦) كتاب الرقاق، و(٤٦٢٥) كتاب التفسير - ومسلم (٢٨٦٠) كتاب الجنة.

«غُرْلًا» أَيْ: غَيْرَ مَخْتُونِينَ.

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٤٣) كتاب الوضوء.

الأحوال والمناسبات أو بسبب بعض الأمور العارضة التي يحتاج فيها أصحابه إلى بيان الحق في مسألة ما أو التحذير من شيء قد يسبب لهم ضرراً في دينهم أو دنيائهم أو لتعليمهم الحلال والحرام وما بينهما من أمورٍ مشتبهات خوفاً عليهم وعلى دينهم.

❁ وفي هذا الحديث يخبر ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاةٌ عُراةٌ غُرلاً» وهنا يُخبر النبي ﷺ أن الناس جميعاً سيُحشرون يوم القيامة في صعيدٍ واحدٍ على أرضٍ ليس فيها جبال ولا أشجار ولا أودية ولا بناء... الكل بارز وظاهر ومكشوفٌ في أرض المحشر... لكن كيف تكون هيئتهم عند حشرهم؟ يخبر النبي ﷺ أنهم سيُحشرون حُفاة لا يلبسون النعال ولا الأحذية... عُراة ليس عليهم كسوة... غُرلاً: أى غير مختونين.

نعم غير مختونين... والختان هو قطع الجلد التي تكون على الحشفة... وتُقطع من أجل الطهارة عند الرجل وضبط الشهوة عند المرأة.

فالأرض تُخرج من بطنها كل الأمانات.. يخرج الناس جميعاً من قبورهم لأرض المحشر... ومن جملة الأمانات التي تردّها الأرض: هي تلك الجلد الصغيرة التي قُطعت من الإنسان عند الختان فتردها الأرض إليه مرة أخرى لتكون الأمانة قد وصلت كاملة.. ولذلك يُحشر الناس غير مختونين مع أن أكثرهم قد خُتن في الدنيا^(١).

(١) ومن العلماء من قال: إنه لا يجب الختان لا على الرجال، ولا على النساء، وأن الختان من الفطرة المستحبة، وليس من الفطرة الواجبة.

ومنهم من توسّط بين القولين فقال: الختان واجب في حق الذكور، وسُنّة في حق الإناث، وهذا القول أوسط الأقوال وأعدلها، فإنه واجب في حق الرجال؛ لأن الرجل إذا بقيت هذه الجلد فوق حشفته، فإنها ستكون مَجْمَعاً للبول، فيكون في ذلك تلويث للرجل، وربما يحدث إثر هذا التهابات فيما بين الجلد والحشفة، ويتضرر الإنسان... فالصحيح أن الختان واجب على الذكور، وسُنّة في حق الإناث، وهذا أعدل الأقوال وأحسنها.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

يعنى أن الله يحشرهم كما بدأهم أول خلق... يخرجون من بطون الأرض كما خرجوا من بطون أمهاتهم، حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ ثم قال ﷻ: ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ أى: مؤكدًا، أكده الله على نفسه... لأن من البشر مَنْ كَذَّبَ بالحشر والعياذ بالله، وقال: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]. فقال الله ﷻ: ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

ولما حَدَّثَ النبي ﷺ بهذا الحديث، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: واسوءتاه، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال النبي ﷺ: «يا عائشة، الأمر أعظم من أن يُهمهم ذلك»^(١). الأمر عظيم، ما ينظر أحدٌ لأحد ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرَّةُ مِنْ أَخِيهِ﴾^(٢٤) وأُمِّهِ، وَأَبِيهِ^(٢٥) وَصَجِيهِ، وَبَنِيهِ^(٢٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَ ذِشْنُ يَغِيهِ ﴿[عبس: ٣٤-٣٧]﴾.

حتى الأنبياء والرسل.. الكل يقول: نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى - ما عدا النبى محمد ﷺ يقول: «أنا لها أنا لها».. الأنبياء والرسل يقولون عند عبور الصراط: اللهم سلِّم. اللهم سلِّم.. فالأمر عظيم والخطب شديد.. ولا يدرى أحدنا هل سينجو أم لا.. ولن ينجو أحدٌ إلا برحمة الله أولاً.. ثم بالأعمال الصالحة... ولا أجد كلمة في هذا المقام إلا قول النبى ﷺ: «لمثل هذا اليوم فأعدوا».

﴿ثم قال النبى ﷺ: «ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم ﷺ»﴾. لقد أخبرنا الحبيب ﷺ أن الناس يوم القيامة يُحشرون حُفَاةٌ عُرَاةٌ غُرْلًا ثم يُكسى العباد بعد ذلك... فالصالحون يُكسَوْنَ الثياب النفيسة الكريمة والطالحون يُسربلون بسرابيل القطران ودروع الجَرَبِ وغيرها من الملابس التى تليق بكفرهم ومعصيتهم.

ولكن يا ترى مَنْ أول مَنْ يُكسى يوم القيامة؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٥٩) كتاب الجنة.

والجواب يأتي على لسان الحبيب ﷺ حيث يقول: «أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ».

✽ وعن علي رضي الله عنه قال: «أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ قُبُطِيَّتَيْنِ^(١) ثُمَّ يُكْسَى مُحَمَّدٌ ﷺ حُلَّةً حَبْرَةً^(٢) عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ^(٣)».

قال ابن حجر: «وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد: «وأول من يُكْسَى من الجنة إبراهيم... يُكْسَى حُلَّةً من الجنة، ويُؤْتَى بكرسى فيطرح عن يمين العرش، ثم يُؤْتَى بى - أى: بالنبي ﷺ - فأكسى حُلَّةً من الجنة لا يقوم لها البشر»^(٤).

✽ وتكلم العلماء في حكمة تقديم إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) بالكسوة... فروى أنه لم يكن في الأولين والآخرين لله ﷻ عَبْدٌ أخوف من إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، فتعجل له كسوته أماناً له ليطمئن قلبه.

ويُحتمل أن يكون ذلك لما جاء به الحديث من أنه أول مَنْ أُمر بلبس السراويل إذا صلى مبالغة في التستر، وحفظاً لفرجه من أن يماس مُصلاه ففعل ما أُمر به، فيُجزى بذلك أن يكون أول من يُستر يوم القيامة.

ويُحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار وجردوه ونزعوا عنه ثيابه على أعين الناس كما يفعل بمن يُراد قتله... وكان ما أصابه من ذلك في ذات الله ﷻ، فلما صبر واحتسب وتوكل على الله تعالى دفع الله عنه شر النار في الدنيا والآخرة، وجزاه بذلك العُرى أن جعله أول من يُدفع عنه العُرى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد... وهذا أحسنها، والله أعلم.

(١) قبطيتين: مثني قبطية وهي ثوب من كتان أبيض رقيق.

(٢) حبرة: الثوب الناعم الموشى: أى المنقوش.

(٣) خبر صحيح: أخرجه ابن المبارك كما في زوائد الزهد (٣٦٤) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٤٨).

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٨٤).

وإذا بُدئ في الكسوة بإبراهيم وثني بمحمد ﷺ أوتى محمد ﷺ بحلة لا يقوم لها البشر لينجبر التأخير بنفاسة الكسوة، فيكون كأنه كُسى مع إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ... قاله الحلیمی ^(١).

❁ ثم أخبر النبي ﷺ أنه سيُجاء برجالٍ من أمته فيؤخذ بهم ذات الشمال .. أى إلى طريق أهل النار والعياذ بالله.

فيقول النبي ﷺ: «يا رب أصحابي» يعنى أنه ﷺ يريد أن يشفع لهم عند ربه ﷻ فيقال له: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» فيقول النبي ﷺ كما قال العبد الصالح، يعنى به عيسى ابن مريم ﷺ حين يقول يوم القيامة إذا قال الله تعالى له: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. كما يزعم النصارى الذين يقولون: إنهم متبعون له: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. لأن الألوهية ليست حقاً لأحدٍ إلا لله رب العالمين.

ثم يقول: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عِلْمُ الْغُيُوبِ﴾ (٣٣) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿

[المائدة: ١١٦، ١١٧].

فإذا قيل للنبي ﷺ يوم القيامة: إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، قال كما قال عيسى ابن مريم: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم يقال للرسول عليه الصلاة والسلام: «إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: «سُحْقاً سُحْقاً» ^(٢).

(١) فتح الباري (١١/ ٣٨٤، ٣٨٥) الفتن الملاحم (ص ١٩٨) لابن كثير

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٦٣).

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها؛ قالت: قال النبي ﷺ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَيَّ أَعْقَابِهِمْ»^(١).

وقال ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مَرَّبَى شَرَبَ، وَمَنْ شَرَبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا... وَلِيرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرَفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»^(٢).

قال القرطبي: قال علماؤنا -رحمة الله عليهم أجمعين-: فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المُبْعَدِينَ عنه.... وأشدهم طردًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم... كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تبائن ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مُبدلون.

وكذلك الظَّلَمَةُ المسرفون في الجور والظلم وتطميمس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المُستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع... ثم البُعد قد يكون في حال، ويُقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد، وعلى هذا يكون نور الوضوء يُعرفون به، ثم يُقال لهم: سُحْقًا... وإن كانوا من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ يُظهرون الإيمان ويُسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر، ثم يُكشَف لهم الغطاء فيُقَال لهم: سُحْقًا سُحْقًا، ولا يُخلَّد في النار إلا كل جاحد مبطل، ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(٣).

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها؛ قالت: قال النبي ﷺ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ نَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: هَلْ شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَاللَّهِ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَيَّ أَعْقَابِهِمْ»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٩٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩٣) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٣) التذكرة (١/٥٩٠).

فارقتهم» وقالوا: إن الصحابة كلهم قد ارتدوا عن الإسلام.. وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان.. أما (عليّ) وآل البيت فهم الذين لم يرتدوا.

ولا شك أنهم كاذبون... لأن الخلفاء الأربعة وعامة أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه وتعلموا وتربوا بين يديه لم يرتد منهم أحد - بإجماع المسلمين - وإنما ارتد قومٌ من الأعراب الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم.. وكان ذلك بعد وفاة النبي ﷺ فارتدوا ومنعوا الزكاة حتى قاتلهم أبو بكرٍ رضي الله عنه فعاد أكثرهم إلى الإسلام.

وهذا الحديث ليس قدحاً في الصحابة الكرام رضي الله عنهم بل معناه: أن الذين يُطردون عن الحوض هم الذين ارتدوا عن الإسلام في عهد أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فقاتلهم أبو بكر، فماتوا على الكفر.

ومعلوم عند كل مؤمن أنه لم يرتد من الصحابة المشهورين أحد، وإنما ارتد قومٌ من جُفافة و جهلة الأعراب ممن لم يكن له نُصرة للدين، ولا مخالطة للنبي ﷺ ولا طول مجالسة، ولا طلب للعلم، ولا حفظ للحديث.

وأيضاً من هؤلاء الذين يراهم النبي ﷺ فيعرفهم، ويظنهم أصحابه هم المنافقون... كعبد الله بن أبي ابن سلول وغيره، ممن كانوا يُطنون الكفر ويُظهرون الإسلام... والله تعالى أعلم بسرائرهم^(١).

فهؤلاء هم من مات النبي ﷺ وهم على دينه، ثم ارتدوا بعد ذلك، كما ارتدت كثير من قبائل العرب بعد موت النبي ﷺ... فهؤلاء في علم النبي ﷺ من أصحابه لأنه مات وهم على دينه ثم ارتدوا بعد وفاته... ولذا يُقال له: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري^(٢).

فظاهر أن هذا في حق المرتدين بعد موت النبي ﷺ.

(١) العالم الأخير (ص ٢٧٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٥٨٥) كتاب الرقاق.

❁ ولا بُدَّ أن نعلم أن الذين يطعنون في الصحابة تضمَّن طعنهم أربعة محاذير ومنكرات عظيمة والعياذ بالله: الطعن في الصحابة، والطعن في الشريعة، والطعن في النبي ﷺ، والطعن في رب العالمين تبارك وتعالى، لكنهم قوم لا يفقهون ❁ صُمِّبَكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ❁ [البقرة: ١٨].

أما كونه طعنًا في الشريعة: فلأن الذين نقلوا إلينا الشريعة هم الصحابة، وإذا كانوا مرتدين، والشريعة جاءت من طريقهم، فإنها لا تقبل؛ لأن الكافر لا يقبل خبره، بل الفاسق أيضًا... كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِِنْ جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦].

وأما كونه طعنًا في رسول الله ﷺ فذلك لأن نجابة التلميذ من نجابة الأستاذ .. فإذا كان الصحابة وهم تلاميذ النبي ﷺ قد ارتدوا وكفروا فهذا الكلام طعنٌ فيمن ربَّاهم وهو النبي ﷺ.

وأما كونه طعنًا في رب العالمين .. فلأن الرافضة لما زعموا أن الصحابة قد ارتدوا فقد طعنوا في النبي ﷺ الذي رباهم وطعنوا فيمن اختار النبي ﷺ لتلك الرسالة واختار أصحابه لصُحبته - وهو رب العالمين سبحانه وتعالى - وهذا كلامٌ لا يقوله عاقلٌ فضلًا عن أن يكون مؤمنًا.

ولهذا نعتقد أن هذه فرية عظيمة على الصحابة (رضي الله عنهم) وعدوان على الله ورسوله ﷺ وشريعة الله ... ولا شك أننا نكرنُ الحبَّ لجميع أصحاب النبي ﷺ، ولآل النبي ﷺ المؤمنين... ونرى أن لآله المؤمنين حَقَّين: حق الإيمان، وحق قُرْبهم من رسول الله ﷺ... قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. يعنى: إلا أن تودوا قرابتي.

(١٧٠) الْحَادِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عَنِ الْخَذْفِ وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ»^(١).

وفي رواية: أَنَّ قَرِيبًا لَابْنِ مُغْفَلٍ خَذَفَ، فَتَنَاهُ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الْخَذْفِ وَقَالَ: «إِنَّهَا لَا تَصِيدُ صَيْدًا»... ثُمَّ عَادَ فَقَالَ: أَحَدَّثُكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ عُدْتَ تَخْذِفُ؟ لَا أَكَلِّمُكَ أَبَدًا.

❁ ففي هذا الحديث يحكى عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْخَذْفِ وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلَا يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ».

أما الخذف وهو رمى الإنسان بحصاة أو نواة ونحوهما يجعلهما بين أصبعيه السبَّابتين أو الإبهام والسَّبَّابة.

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.. وعَلَّلَ ذلك النهى بأنه لَا يُتَنَفَّعُ بِهِ فِي أَنْ يَصِيدَ صَيْدًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ نَفُوذٌ وَلَا أَنْ يَنْكَأَ عَدُوًّا أَوْ يَدْفَعَهُ.. لِأَنَّ الْعَدُوَّ إِنَّمَا يُنْكَأُ بِالسَّهَامِ وَلَيْسَ بِهَذِهِ الْحَصَاةِ الصَّغِيرَةِ.

❁ ثم حكى بعد ذلك عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى قَرِيبًا لَهُ يَخْذِفُ فَتَنَاهُ عَنِ الْخَذْفِ وَأَخْبَرَهُ بِكُلِّ وَضُوحٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ ذَلِكَ.. فَأَصْبَحَ قَرِيبُهُ عَالِمًا بِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثم إنه رآه مرة أخرى وهو يخذف... فغضب عبد الله بن مغفل، وقال له: أَخْبَرْتُكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ نَهَى عَنِ الْخَذْفِ ثُمَّ تَعَوَّدَ وَتَخْذِفُ مَرَّةً أُخْرَى.. لَا أَكَلِّمُكَ أَبَدًا.. فَهَجَرَهُ لِأَنَّهُ خَالَفَ نَهْيَ النَّبِيِّ ﷺ.

وهذا كما فعل عبد الله بن عمر مع أحد أبنائه، حين حَدَّثَ ابْنُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»^(٢) فَقَالَ أَحَدُ أَبْنَائِهِ، وَهُوَ بِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٠) كتاب الأدب، ومسلم (١٩٥٤) كتاب الصيد والذبائح.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩٠٠) كتاب الجمعة - ومسلم (٤٤٢) كتاب الصلاة.

ابن عمر: «والله لَنَمْنَعُهُنَّ» لأن النساء تغيرت بعد عهد النبي ﷺ، والناس تغيروا، فأقبل عليه أبوه عبد الله بن عمر، وجعل يَسُبُّه سَبًّا عَظِيمًا، ما سَبَّهُ مثله قط، وقال: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ.

ثم هجره حتى مات، ولم يُكَلِّمْهُ.... فَدَلَّ هَذَا عَلَى عِظَمِ تَعْظِيمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ لَاتِّبَاعِ السُّنَّةِ.

وهكذا يجب على كل مسلم أن يُعَظِمَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ.

❁ وقد يقول قائل: وهل مثل هذا الفعل يُوجب الهجر..

وقد نهى النبي ﷺ عن هجر المؤمن فوق ثلاث.

والجواب: أن النبي ﷺ وإن كان قد نهى عن هجر المؤمن فوق ثلاث فإن هذا نهى عن أن يهجر المؤمن أخاه فوق ثلاثٍ من أجل حفظ نفسه أو من أجل الدنيا.

أما إذا كان هذا الإنسان مُصِرًّا على المعاصي أو كان من أهل البدع فقد أباح لنا النبي ﷺ أن نهجره حتى يُقْلَعَ عن معصيته أو عن بدعته.. فإن لم يُقْلَعَ عن المعصية أو البدعة فيجوز أن يستمر الهجر ولو لسنوات ولا يَأْثُمُ الْمُسْلِمُ عَلَى هَذَا الْهَجْرِ... وَيُسَمَّى هَذَا النَّوعُ مِنَ الْهَجْرِ: الْهَجْرُ لِلزَّجْرِ.. أَيْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَزْجِرَهُ هَذَا عَنْ الْبَدْعَةِ أَوْ الْمَعْصِيَةِ.

ونحن نعلم أن النبي ﷺ الذي نهى عن هجر المؤمن فوق ثلاثٍ قد أمر بهجر الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.. واستمر الهجر خمسين ليلة لأنه كان هَجْرًا بِسَبَبِ تِلْكَ الْمَخَالَفَةِ وَلَمْ يَكُنْ هَجْرًا مِنْ أَجْلِ دُنْيَا.

أما إن كنا سنهجر رجلًا عاصيًا أو مبتدعًا ورأينا أن الهجر سيجعله يزداد عصيانًا أو إصرارًا على بدعته فإننا في هذه الحالة لا نهجره بل نبذل له النصيحة الرقيقة المهدبة وندعو له بظهر الغيب بالهداية.

(١٧١) وَعَنْ عَابِسِ بْنِ رِبِيعَةَ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْبَلُ الْحَجَرَ - يَعْنِي الْأَسْوَدَ - وَيَقُولُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يُقْبَلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ ^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يطوف بالبيت فقبل الحجر الأسود.. ونحن نعلم جميعاً أن الحجر الأسود من أحجار الجنة كما قال النبي ﷺ: «الحجر الأسود من الجنة» ^(٢). وشرع الله لنا أن نُقبله امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى.. ولكن لا نعتقد أنه ينفع أو يضر.

ولذا قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قبله: «إني لأعلم أنك حجرٌ لا تنفع ولا تضر».. وصدق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالأحجار والأشجار والسموات والأرض لا تنفع ولا تضر لأن النفع والضّر يد الله عَزَّ وَجَلَّ.

ولكن بين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن تقييله إياه لمجرد اتباع النبي ﷺ، فقال: «ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» يعني فأنا أقبلك اتباعاً للسنّة، لا رجاء للنفع، أو خوف الضرر.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، فَأَرَادَ بِهِ بَيَانَ الْحَثِّ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تَقْيِيلِهِ وَتَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ لَوْلَا الْإِقْتِدَاءُ بِهِ لَمَا فَعَلَهُ وَإِنَّمَا قَالَ: (وَإِنَّكَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ) لِئَلَّا يَغْتَرَّ بَعْضُ قَرِيبِي الْعَهْدِ بِالسَّلَامِ الَّذِينَ كَانُوا أَلْفُوا عِبَادَةَ الْأَحْجَارِ وَتَعْظِيمَهَا وَرَجَاءَ نَفْعِهَا وَخَوْفَ الضَّرَرِ بِالتَّقْصِيرِ فِي تَعْظِيمِهَا... وَكَانَ الْعَهْدُ قَرِيبًا بِذَلِكَ فَخَافَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَرَاهُ بَعْضُهُمْ يُقْبَلُهُ وَيَعْتَنِي بِهِ فَيَشْتَبِهَ عَلَيْهِ... فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ بِذَاتِهِ وَإِنْ كَانَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٩٧) كتاب الحج، ومسلم (١٢٧٠) كتاب الحج.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٤).

امْتِثَالُ مَا شَرَعَ فِيهِ يَنْفَعُ بِالْجَزَاءِ وَالثَّوَابِ ... فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضَرٍّ وَأَنَّهُ حَجَرٌ مَخْلُوقٌ كَبَاقِي الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَأَشَاعَ عُمَرُ هَذَا فِي الْمَوْسِمِ لِيُشْهَدَ فِي الْبُلْدَانِ وَيَحْفَظَهُ عَنْهُ أَهْلُ الْمَوْسِمِ الْمُخْتَلِفُونَ الْأَوْطَانَ^(١).

ولهذا لا يُشْرَعُ أَنْ تُقْبَلَ أَى شَيْءٍ مِنَ الْكَعْبَةِ إِلَّا الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ فَقَطْ .. أما الركن اليماني فليس فيه إلا الاستلام باليد اليمنى ولا تُقْبَلُهُ .. ولا يكون الاستلام باليد اليسرى سواء للحجر الأسود أو الركن اليماني؛ لأن اليد اليسرى لا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا لِإِزَالَةِ الْأَذَى.

✽ فنحن نُقْبَلُ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَنُسْتَلِمُهُ بِالْيَدِ الْيُمْنَى .. فَإِنْ لَمْ يُمَكَّنْ تَقْبِيلُهُ نُسْتَلِمُهُ وَنُقْبَلُ الْيَدَ الْيُمْنَى الَّتِي اسْتَلَمْنَاهَا بِهَا .. فَإِنْ لَمْ يُمَكَّنْ اسْتِلَامُهُ بِسَبَبِ الزَّحَامِ فَإِنَّا نُشِيرُ إِلَيْهِ وَلَا نُقْبَلُ الْيَدَ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْيَدَ لَمْ تَلْمَسِ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ. أما بقية الأركان كالركن الشامي والعراقي .. يعنى الشمال الشرقى والشمال الغربى ... فهذان الركنان لَا يُقْبَلَانِ وَلَا يُمَسَّحَانِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمَا لَيْسَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وذلك أن قريشاً لما أرادوا بناء الكعبة، قالوا: لن نبنيها إلا بمالٍ طيب، لا نبنيها بأموال الربا - وانظر كيف عَظَّمَ اللهُ بَيْتَهُ حَتَّى عَلَى أَيْدَى الْكُفَّارِ - فجمعوا المال الطيب، فلم يكف لبنائها على قواعد إبراهيم، ثم فكروا من أى جانب ينقصونها. قالوا: ننقصها من الشمال؛ لأن الجانب اليماني الجنوبي فيه الحجر الأسود، ولا يمكن أن ننقصها من جانب الحجر الأسود، فنقصوها من هناك، فلم تكن على قواعد إبراهيم، ولذلك لم يُقْبَلِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَمْ يَمْسَحِ الرُّكْنَ الشَّمَالِي الشَّرْقِيَّ وَلَا الرُّكْنَ الشَّمَالِي الْغَرْبِيَّ.

✽ وبالجملة فالحجر الأسود لا يُتَبَرَّكُ بِهِ، وَإِنَّمَا يُتَعَبَدُ لِلَّهِ بِمَسْحِهِ وَتَقْيِيلِهِ؛ اتِّبَاعًا لِلرَّسُولِ ﷺ ... وبذلك تحصل بركة الثواب. ولهذا قال عمر رضي الله عنه: إِنِّي لَا أَعْلَمُ

أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك؛ ما قبلتك». فتقبله عبادة مَحْضَةٌ خلافًا للعامة، يظنون أن به بركة حَسِيَّة، ولذلك إذا استلمه بعض هؤلاء مسح على جميع بدنه تبرُّكًا بذلك^(١).

وفى هذا دليل: على أن كمال التعبد أن ينقاد الإنسان لله ﷻ، سواء عرف السبب والحكمة في المشروعية أم لم يعرف... فعلى المؤمن إذا قيل له: افعل أن يقول: سمعنا وأطعنا... إن عرفت الحكمة فهو نورٌ على نور، وإن لم تعرف فالحكمة أمر الله ورسوله.

ولهذا قال الله في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وسئلت عائشة رضي الله عنها: لماذا تقضى الحائض الصوم ولا تقضى الصلاة؟ فقالت: كان يُصيّبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة... كأنها رضي الله عنها تقول: إن وظيفة المؤمن أن يعمل بالشرع، سواء عرف الحكمة أم لم يعرفها، وهذا هو الصواب^(٢).

❦ ولا مانع من أن نتعرض لنبذة يسيرة عن التبرُّك الممنوع. فالتبرُّك في الأصل هو طلب البركة... وطلب البركة لا يخلو من أمرين: (١) أن يكون التبرُّك بأمرٍ شرعي معلوم: مثل القرآن.

قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]. فمن بركته أن من أخذ به حصل له الفتح، فأنقذ الله بذلك أممًا كثيرة من الشرك... ومن بركته أن الحرف الواحد بعشر حسنات، وهذا يوفر للإنسان الوقت والجهد....، إلى غير ذلك من بركاته الكثيرة.

(٢) أن يكون بأمرٍ حَسِّيٍّ معلوم: مثل: التعليم، والدعاء، ونحوه؛ فهذا الرجل يُتبرك بعلمه ودعوته إلى الخير؛ فيكون هذا بركة لأننا نلنا منه خيرًا كثيرًا.

(١) القول المفيد (ص ٢١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٦٨).

ومن ذلك ما جعل الله على يد شيخ الإسلام ابن تيمية من البركة التي انتفع بها الناس في حياته وبعد موته^(١).

❁ والتبرك ينقسم من حيث الأصل إلى قسمين:

الأول: تبرُّك ديني شرعي: وهو أن يريد المتبرك بهذا التبرك التقرب إلى الله تعالى، كأن يريد الثواب من الله تعالى أو النجاة من عذابه.

الثاني: تبرُّك دُنْيَوِي: وهو أن يريد الإنسان بتبرُّكه مصلحة دُنْيَوِيَّة، كالشفاء من مرض ونحو ذلك.

والشئ الذي يُتبرك به - أي تطلب البركة بواسطته - قد يكون فيه بركة دينية، وقد يكون فيه بركة دُنْيَوِيَّة، وقد يكون فيه بركة دينية ودُنْيَوِيَّة معاً.

فمثال الأول: المساجد الثلاثة، لما فيها من الأجر العظيم لمن صلى فيها وغير ذلك.

ومثال الثاني: الماء واللبن، لما فيهما من المنافع الدُنْيَوِيَّة الكثيرة.

ومثال الثالث: القرآن، ففيه منافع دينية ودُنْيَوِيَّة كثيرة ... ويكفي أن مَنْ تمسَّك به أفلح في الدنيا والآخرة، وهو شفاء للقلوب والأبدان.

ومن ذلك: خير البشر نبينا محمد ﷺ، فمن اقتدى به وسار على هديه سَعِدَ في الدنيا والآخرة، ووصلحت دُنْيَاهُ وآخِرَتُهُ ... وأيضاً في جسده وآثاره عليه الصلاة والسلام بركات دينية ودُنْيَوِيَّة.

❁ والتبرك الممنوع ينقسم من حيث حكمه إلى قسمين:

(١) تبرُّك شرعي: وهو أن يعتقد المتبرِّك أن المتبرِّك به - وهو المخلوق - يهب البركة بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالاً^(٢) ... لأن الله تعالى وحده موجد

(١) القول المفيد (ص ٢١١-٢١٢) بتصرف.

(٢) كتاب التبيان (ص ٢٦، ٢٧)، وكتاب التنشيط (ص ٦٠-٦٥)، كلاهما للرستمي الحنفي نقلاً عن كتاب جهود علماء الحنفية لشمس الدين الأفغاني (٣/ ١٥٧٥-١٥٧٨)، وينظر: التيسير، باب من

البركة وواهبها ... فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «البركة من الله»^(١)، فطلبها من غيره، أو اعتقاد أن غيره يهبها بذاته شركٌ أكبر.

(٢) تبرُّكٌ بدعى: وهو التبرك بما لم يرد دليل شرعى يدل على جواز التبرك به، معتقداً أن الله جعل فيه بركة ... أو التبرك بالشئ الذى ورد التبرك به فى غير ما ورد فى الشرع التبرك به فيه.

وهذا بلا شك محرم؛ لأن فيه إحداث عبادة لا دليل عليها من كتاب أو سنة.

❖ وهذا القسم من التبرك - وهو التبرك البدعى - ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التبرك الممنوع بالأولياء والصالحين:

ولقد وردت أدلة كثيرة تدل على مشروعية التبرك بجسد وآثار النبي ﷺ: كشعره وعرقه وثيابه وغير ذلك.

وآثار النبي ﷺ كلها قد فقدت، ومنبره احترق سنة ٦٥٤ هـ فلا يوجد شئ من آثاره الآن على سبيل القطع واليقين ... فلم يبقَ إلا التبرك باتباعه عليه الصلاة والسلام، فمن آمن به ﷺ واتبَّعه حصل له خيرٌ كثيرٌ فى الدنيا والآخرة من بركة الرسول (عليه الصلاة والسلام) بسبب إيمانه به، وطاعته له.

أما غير النبي ﷺ من الأولياء والصالحين فلم يرد دليلٌ صحيح صريح يدل على مشروعية التبرك بأجسادهم ولا بآثارهم^(٢)، ولذلك لم يرد عن أحدٍ من أصحاب النبي ﷺ، ولا عن أحد من التابعين أنهم تبركوا بجسد أو آثار أحد من

⁼ تبرك بشجرة أو حجر (ص ١٤٨).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣٩) كتاب الأشربة، ومسلم (٧٧١) كتاب الصلاة.

عن النبي ﷺ أنه كان يقول فى دعائه فى استفتاح الصلاة: «والخير كله فى يديك».

(٢) بركة المسلم هى فى طاعته لله تعالى، وما يُجرى الله على يديه من النفع للمسلمين، وما يُغيث الله تعالى به العباد من المطر والخير والنصر، وما يدفع عنهم من الشر ببركة طاعته وصلاحه ودعائه، فهذا حق وثابت، وليس من التبرك الممنوع ... يُنظر: مجموع الفتاوى (١١٣/١١) و (٩٦/٢٧).

الصالحين ... فلم يتبركوا بأفضل هذه الأمة بعد نبيها، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولا غيره من العشرة المبشرين بالجنة، ولا بأحد من أهل البيت.

ومن أنواع التبرك المحرم بالصالحين:

- (أ) التمسح بهم^(١) ولبس ثيابهم أو الشرب بعد شربهم طلباً للبركة.
 (ب) تقبيل قبورهم^(٢)، والتمسح بها، وأخذ تراياها طلباً للبركة.
 (ج) عبادة الله عند قبورهم تبركاً بها، معتقداً فضل التعبد لله تعالى عندها، وأن ذلك سببٌ لقبول هذه العبادة، وسبب لاستجابة الدعاء.

النوع الثاني: التبرك بالأزمان والأماكن والأشياء التي لم يرد في الشرع ما يدل على مشروعيتها التبرك بها.

ومن أمثلة هذه الأشياء:

١ - الأماكن التي مرَّ بها النبي ﷺ، أو تعبد الله فيها اتفاقاً من غير قصدٍ لها لذاتها، وإنما لأنه ﷺ كان موجوداً في هذه الأماكن وقت تعبد الله تعالى بهذه العبادة... ولم يرد دليل شرعي يدل على فضلها.

ومن هذه الأماكن: جبل ثور، وغار حراء، وجبل عرفات^(٣)، والأماكن التي

(١) وقد ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي في رسالة «الحكم الجديرة بالإذاعة» ص ٥٦ أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد، فمسح يديه على ثيابه، ومسح بهما وجهه، فغضب الإمام أحمد، وأنكر ذلك أشد الإنكار، وقال: عَمَّن أخذتم هذا الأمر؟!.

(٢) قال الإمام عز الدين بن جماعة الكنانى الشافعى في هداية السالك (ص ١٣٩٠، ١٣٩١): «عَدَّ بعض العلماء من البدع الانحناء للقبر المقدس عند التسليم، قال: يظن مَنْ لا علم له أنه من شعار التعظيم... وأقبح منه تقبيل الأرض للقبر، لم يفعله السلف الصالح... والخير كله في اتباعهم - رحمهم الله تعالى ونفعنا بهم - وَمَنْ خَطَرَ بِيَالِه أَنْ تقبيل الأرض أبلغ في البركة فهو من جهالته وغفلته؛ لأن البركة إنما هي فيما وافق الشرع وأقوال السلف وعملهم... وليس عجيب ممن جَهِل ذلك فارتكبه، بل عجيب ممن أفتى بتحسينه مع علمه بقبحه ومخالفته لعمل السلف، واستشهد لذلك بالشعر... نسأل الله أن يوفقنا في القول والعمل، وأن يعصمنا من الهوى والزلل بمنه وكرمه». وينظر: رسالة التوحيد للدهلوى الهندي (ص ٢٣، ٢٤).

(٣) ويسمى جبل «إلال» على وزن «هلال»، ويُسميه العامة «جبل الرحمة»، ينظر: الاقتضاء (ص ٨١٠)،

مَرَّ بها النبي ﷺ في أسفاره، والمساجد السبعة التي قُرب الخندق.
فلا يجوز للمسلم قصد زيارة هذه الأماكن للتعبُّد لله تعالى عندها، أو فوقها،
بصلاة أو دعاء أو غيرهما، كما لا يجوز للمسلم مسح شيء من هذه الأماكن
لطلب البركة.

(٢) التبرُّك ببعض الأشجار وبعض الأحجار وبعض الأعمدة وبعض الآبار
والعيون التي يظن بعض العامة أن لها فضلاً، إما لظنهم أن أحد الأنبياء والأولياء
وقف على ذلك الحجر، أو لاعتقادهم أن نبياً نام تحت تلك الشجرة.
ولا شك أن التبرُّك بالأشجار والأحجار والعيون ونحوها، بأي نوع من
أنواع التبرُّك، من مسح أو تقبيل، أو اغتسال، أو غيرها مما سبق ذكره محرم
بإجماع أهل العلم^(١).

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه ليس هناك حجر أو غيره
يُشرع مسحه أو تقبيله تبرُّكاً، حتى مقام إبراهيم الخليل عليه السلام.
ومسح الحجر الأسود وتقبيله وكذلك مسح الركن اليماني في أثناء الطواف
إنما هو من باب التعبُّد لله تعالى، واتباع سنة النبي ﷺ.
النوع الثالث: التبرُّك بالأماكن والأشياء الفاضلة؛

وردت نصوص شرعية كثيرة تدل على فضل وبركة كثير من الأماكن،

= رسالة: «جبل إلال بعرفات» للشيخ بكر أبو زيد.

(١) قال شيخ الإسلام في الاقتضاء (ص ٨٠٨، ٨٠٩): «اتفق العلماء على ما مضت به السنة من أنه لا يُشرع
الاستلام والتقبيل لمقام إبراهيم عليه السلام، الذي ذكره الله في القرآن، فقال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ
مُصَلًّى﴾، فإذا كان هذا بالسنة المتواترة، وباتفاق الأئمة لا يُشرع تقبيله بالفم، ولا مسحه باليد، فغيره
من مقامات الأنبياء أولى ألا يُشرع تقبيلها بالفم ولا مسحها باليد. وأيضاً، فإن المكان الذي كان النبي
ﷺ يصلي فيه في المدينة النبوية دائماً لم يكن أحد من السلف يستلمه ولا يقبله، ولا المواضع التي
صلى فيها بمكة وغيرها، فإذا كان الموضع الذي كان يطؤه بقدميه الكريمتين ويصلي عليه لم يُشرع
لأمته التمسح به ولا تقبيله، فكيف بما يُقال: إن غيره صلى فيه أو نام عليه».

كالكعبة المشرفة، والمساجد الثلاثة... وكثير من الأزمان قليلة القدر ويوم عرفة... وكثير من الأشياء الأخرى، كماء زمزم، والسحور للصائم، والتبكير في طلب الرزق ونحوه، وغير ذلك.

والتبرك بهذه الأشياء يكون بفعل العبادات وغيرها مما ورد في الشرع ما يدل على فضلها فيها

فمثلاً يكون التبرك بالكعبة المشرفة بالطواف بها، والتعبد لله تعالى باستلام الحجر الأسود والركن اليماني، أو تقبيل الحجر الأسود حال الطواف فقط، وبالصلاة داخلها... والتبرك بالمسجد الحرام بالصلاة والاعتكاف فيه، ونحو ذلك... والتبرك بليلة القدر بقيامها بالصلاة وقراءة كتاب الله تعالى ونحو ذلك... وماء زمزم بشربه والاعتسال منه طلباً للشفاء من الأمراض ونحو ذلك، وهكذا بقية الأشياء المباركة الفاضلة^(١).

وإذا كان لا يجوز التبرك بالحجر الأسود الذي هو أفضل الكعبة.. فمن باب أولى أنه لا يجوز التمسح والتبرك بالقبور ومقامات الأولياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) بتصرف من كتاب (تسهيل العقيدة الإسلامية / أ.د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين).

(١٧) باب في وجوب الانقياد

لِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ وَمَا يَقُولُهُ مَنْ دَعَى إِلَى ذَلِكَ
 وَأَمْرٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيٌ عَنْ مَنكَرٍ

❁ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

❁ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام لتأكيد القسم أى فوربك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حَكَمًا بينهم ويرضوا بحُكْمِك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى ثم لا يجدوا فى أنفسهم ضيقًا من حُكْمِك وينقادوا انقيادًا تامًا كاملاً لقضائك، من غير مُعارضة ولا مُدافعة ولا منازعة... فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان^(١).

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ: فالتحكيم في مقام الإسلام .. وانتفاء الحرج في مقام الإيمان .. والتسليم في مقام الإحسان .. فمن استكمل هذه المراتب وكَمَلَهَا فقد استكمل مراتب الدين كلها^(٢).

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

❁ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].
 أى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم حين

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٢١).

(٢) تفسير السعدي (ص ١٨٧).

يُدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ، سِوَاءِ وَافِقِ أَهْوَاءِهِمْ أَوْ خَالِفِهَا، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أَي: سَمِعْنَا حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَجَبْنَا مَنْ دَعَانَا إِلَيْهِ، وَأَطَعْنَا طَاعَةً تَامَةً، سَالِمَةً مِنَ الْحَرَجِ.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حَصَرَ الْفَلَاحَ فِيهِمْ، لِأَنَّ الْفَلَاحَ: الْفُوزُ بِالْمَطْلُوبِ، وَالنَّجَاةُ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَلَا يَفْلَحُ إِلَّا مَنْ حَكَّمَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَأَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... وَلَمَّا ذَكَرَ فَضْلَ الطَّاعَةِ فِي الْحُكْمِ خُصُوصًا، ذَكَرَ فَضْلَهَا عُمُومًا، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فَيَصْدُقُ خَبَرُهُمَا وَيُمَثِّلُ أَمْرَهُمَا، ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ أَي: يَخَافُهُ خَوْفًا مَقْرُونًا بِمَعْرِفَةٍ، فَيَتْرَكُ مَا نَهَى عَنْهُ، وَيَكْفِ نَفْسَهُ عَمَّا تَهْوَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بَتْرَكِ الْمُحْظُورِ، لِأَنَّ التَّقْوَى - عِنْدَ الْإِطْلَاقِ - يَدْخُلُ فِيهَا، فَعَلِ الْمَأْمُورَ، وَتَرَكَ الْمَنْهَى عَنْهُ، وَعِنْدَ اقْتِرَانِهَا بِالْبَرِّ أَوْ الطَّاعَةِ - كَمَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ - تُفَسَّرُ بِتَوْقَى عَذَابِ اللَّهِ، بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بِنَجَاتِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، لِتَرْكِهِمْ أَسْبَابَهُ، وَوُصُولِهِمْ إِلَى الثَّوَابِ، لِفَعْلِهِمْ أَسْبَابَهُ... فَالْفُوزُ مُحْصُورٌ فِيهِمْ... وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِوَصْفِهِمْ، فَإِنَّهُ يَفُوتُهُ مِنَ الْفُوزِ بِحَسَبِ مَا قَصَّرَ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ كُلفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُنْطِيقُ: الصَّلَاةَ وَالْجِهَادَ وَالصَّيَامَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ

(١) تفسير السعدي (ص ٦٦٧).

تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
 غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» فَلَمَّا افْتَرَاهَا الْقَوْمُ، وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى
 فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامِنَ الرُّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
 وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُ بَيْنَ بَيْتٍ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
 الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا
 إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قَالَ:
 نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا
 وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قَالَ: نَعَمْ ﴿وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
 فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قَالَ: نَعَمْ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يذكر أبو هريرة رضي الله عنه أنه لما أنزل الله على نبيه ﷺ هذه
 الآية: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ
 يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾، اشتدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ.

وذلك لأن ما يخطر في النفس من الحديث أمرٌ لا ساحل له .. فالشيطان قد
 يأتي إلى الإنسان ويحدثه بأشياء منكرة عظيمة .. منها ما يتعلق بذات الله ﷻ ..
 ومنها ما يتعلق بالأمور الدينية ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية وغير ذلك من
 الأشياء التي يُلقيها الشيطان في قلب الإنسان فشَقَّ ذلك على أصحاب الرسول
ﷺ أصحاب القلوب النقية التقية فجاءوا إلى النبي ﷺ وهم في غاية الحزن
 والهمِّ فجثوا على رُكبهم ... وذلك لأن الإنسان إذا نزل به أمرٌ شديد فإنه يجثو
 على رُكبتيه .. فلما فعلوا ذلك قالوا للنبي ﷺ كُلُّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ:
 الصَّلَاةَ وَالْجِهَادَ وَالصَّيَامَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا
 ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ وهذه شديدة لا أحد

يُطبق أن يمنع نفسه عما تُحدثه به من الأمور التي لو حُوسب عليها لهلك.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا» أهل الكتابين هم اليهود والنصارى، اليهود كتابهم التوراة، وهى أشرف الكتب المُنزلة بعد القرآن، والنصارى كتابهم الإنجيل وهو مُتمم التوراة... واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم، وقالوا: سمعنا وعصينا، فهل تُريدون أن تكونوا مثلهم؟ «ولكن قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

❁ وهكذا يجب على كل مسلم إذا سمع أمر الله وأمر رسول الله ﷺ أن يكون شعاره دائماً: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويمثل بقدر ما يستطيع فإنه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

والمسلم الحقيقي لا يسأل: هل هذا الأمر واجب أو مُستحب بل يفعله؛ لأن النبي ﷺ فعله أو أمر بفعله.. فمن امتثل الأمر وكان واجباً فقد أبرأ ذمته وإن كان مُستحباً فقد حصل الخير الكثير.

ولذلك فنحن لا نعلم أن أحداً من الصحابة كان إذا سمع أمر النبي ﷺ كان يقول له: يا رسول الله هل هذا الأمر واجب أم مُستحب... ما سمعنا بهذا أبداً.. لأنهم كانوا يفعلون الطاعة بحب.

أما نحن فنقول: هل هذا الأمر واجب أم مُستحب... هذا النهى للتحريم أم للكره... لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أثمت بذلك أم لا، لأجل أنه إذا قيل لك: إنك آثم تُجدد توبتك، وإذا قيل: إنك غير آثم يستريح قلبك... أما حين يُوجّه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب، كما كان أدب الصحابة مع الرسول (عليه الصلاة والسلام)... يفعلون كل ما يأمر به النبي ﷺ ويتركون كل ما نهى عنه النبي ﷺ.

✽ وبالعودة إلى الحديث عندما ذهب الصحابة إلى النبي ﷺ بعد نزول تلك الآية حتى جثوا على الركب .. أقول لكم : إن من كمال رحمة الله أنه لا يحاسبك على ما حدثت به نفسك ما لم تتكلم أو تعمل به.

فقد قال ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(١). الحمد له، رفع الحرج، كل ما حدثت به نفسك، ولكنك ما ركنت إليه، ولا عملت، ولا تكلمت، فهو معفو عنه، حتى ولو كان أكبر من الجبال. فاللهم لك الحمد.

حتى إن الصحابة قالوا: يا رسول الله نجد في نفوسنا ما نحب أن تكون حُممةً -يعنى فحمة محترقة- ولا نتكلم به قال: «ذاك صريح الإيمان»^(٢).

يعنى ذاك هو الإيمان الخالص؛ لأن الشيطان ما يُلقى مثل هذه الوسوس في قلبٍ خربٍ ... في قلبٍ فيه شك ... إنما يتسلط الشيطان - أعاذنا الله منه - على قلبٍ مؤمن خالص؛ ليُفسده.

ولما قيل لابن عباس أو ابن مسعود: إن اليهود إذا دخلوا في الصلاة لا يُوسوسون، قال: وما يصنع الشيطان بقلبٍ خراب ... فاليهود كفار، قلوبهم خربة، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم؛ لأنها باطلة من أساسها ... الشيطان يوسوس للمسلم الذي يُصلى صلاة صحيحة مقبولة ليُفسدها ... يأتي للمؤمن صريح الإيمان ليُفسد هذا الإيمان الصريح.

✽ ولذلك لما سُئل الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: ماذا يفعل مَنْ وسوس إليه الشيطان بقوله: «مَنْ خلق الله» فقال: لقد دَلَّتْ هذه الأحاديث الصحيحة على أنه يجب على مَنْ وسوس إليه الشيطان بقوله: مَنْ خلق الله؟ أن ينصرف عن مجادلته إلى إجابته بما جاء في الأحاديث .. وخُلاصتها أن يقول: «آمَنَت بالله ورسله، الله أحد،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٦٩) كتاب الطلاق، ومسلم (١٢٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٢) كتاب الإيمان.

الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد». ثم يتفل عن يساره ثلاثاً، ويستعين بالله من الشيطان، ثم ينتهي عن الانسياق مع الوسوسة.

وأعتقد أن مَنْ فعل ذلك طاعة لله ورسوله ﷺ، مُخلصاً في ذلك أنه لا بُدَّ أن تذهب الوسوسة عنه، ويندحر شيطانه لقوله ﷺ: «فإن ذلك يذهب عنه»^(١).

وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية... فإن المجادلة قلما تنفع في مثلها. ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتعرّفوا إلى سُنَّة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعِزَّكم^(٢).

❁ ثم إن الصحابة رضي الله عنهم لما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ❁ ولانت لها نفوسهم، وذلت لها ألسنتهم أنزل الله بعدها: ﴿ءَامَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ ❁ -يعني والمؤمنون آمنوا- ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ ❁ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ❁ [البقرة: ٢٨٥]. فبين الله عز وجل في هذه الآية الشاء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين لأنهم قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

ثم أنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

فالذى ليس فى وسع الإنسان لا يكلفه الله به، ولا حرج عليه فيه، مثل الوسواس التى تهجم على القلب، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ولم يُصدق بها ولم يرفع بها رأسًا فإنها لا تضره؛ لأن هذه ليست داخلية فى وسعه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول:

(١) صحيح: أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢٤٦) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ بِأَتِيهِ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَكَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ. فَيَقُولُ: فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟ فَيَذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدَكُمْ فَلْيَقْرَأْ أَمْنُتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ يُذْهِبُ عَنْهُ».

(٢) السلسلة الصحيحة (١١٨) - والفتوى للشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ.

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

فقد يحدث الشيطان الإنسان في نفسه عن أمور فظيعة عظيمة، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها زالت عنه ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: نعم. يعنى قال الله: نعم، لا أو اخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: نعم. ولهذا قال الله تعالى في وصف رسوله محمد ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال الله: نعم.

ولهذا لا يكلف الله تعالى في شرعه ما لا يطيقه الإنسان، بل إذا عجز عن الشيء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل، أما أن يكلف ما لا طاقة له به فإن الله تعالى قال هنا: نعم... يعنى: لا أحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال الله: نعم... فاعفُ عنا، واغفر لنا، وارحمنا، هذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى، ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ يعنى تقصيرنا في الواجب، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ يعنى انتهاكنا للمحرم، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يعنى وفقنا للعمل الصالح... فالإنسان إما أن يترك واجباً أو يفعل مُحَرَّمًا... فإن ترك الواجب فإنه يقول: اعفُ عنا... أى اعفُ عنا ما قصّرنا فيه من الواجب.

وإن فعل المحرم، فإنه يقول: اغفر لنا، يعنى ما اقترفنا من الذنوب، أو يطلب تثبيتاً وتأيداً وتنشيطاً على الخير في قوله: ﴿وَارْحَمْنَا﴾، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى.

﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أى متولى أمورنا في الدنيا والآخرة، فتولنا في الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار، ولكنه أعم حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان؛ لأن الشيطان رأس الكافرين. إذا... نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة: أن الله سبحانه وتعالى لا يُحْمَلْنَا ما لا طاقة لنا به، ولا يُكَلِّفُنَا إلا وسعنا، وأن الوسوس التي تجول في صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها، فإنها لا تضر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٤٧٠-٤٧١) بتصرف.

(١٨) باب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور

❖ قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] ، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ، أى: الكتاب والسنة... وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] ، والآيات في الباب كثيرة معلومة.

❖ إن الله ﷻ أكمل لنا الدين وأتم علينا نعمته ولم يرخص لنا سوى الإسلام ديناً.. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فمن ابتدع بعد ذلك أى شىء في دين الله ﷻ فقد اتهم ربه ﷻ واتهم نبيه ﷺ بأنه لم يبلغ الأمة كل ما جاءه من عند الله (جل وعلا)... بل وطعن في الإسلام نفسه والعياذ بالله.

والبدعة: هي الفعل المخالفة للسنة^(١).

قال الشاطبي رحمه الله: البدعة: طريقة في الدين مُخْتَرَعَةٌ تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ - سبحانه -.

والبدعة في الشرع: كل مَنْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ سبحانه وتعالى بغير ما شرع عقيدة أو قولاً أو فعلاً... فمن تعبد لله بغير ما شرعه الله من عقيدة أو قول أو فعل فهو مبتدع. فإذا أحدث الإنسان عقيدة في أسماء الله وصفاته مثلاً فهو مبتدع، أو قال قولاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع، أو فعل فعلاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع.

(١) كتاب التعريفات (ص ٤٤).

❁ وفي البدع عدة محاذير .. منها :

(١) البدعة ضلالة بنص القرآن والسنة :

وذلك أن ما جاء به النبي ﷺ فهو الحق... وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]. هذا دليل القرآن... ودليل السنة قوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة»، ومعلوم أن المؤمن لا يختار أن يتبع طريق الضالين الذين يتبرأ منهم المصلي في كل صلاة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

(٢) أن في البدعة خروجاً عن اتباع النبي ﷺ :

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. فمن ابتدع بدعة يتعبد لله بها فقد خرج عن اتباع النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ لم يشرعها، فيكون خارجاً عن شرعة الله فيما ابتدعه.

(٣) أن البدعة تنافي تحقيق شهادة أن محمداً رسول الله :

لأن من حقق شهادة أن محمداً رسول الله فإنه لا يخرج عن التعبد بما جاء به... بل يلتزم شريعته ولا يتجاوزها ولا يقصر عنها.. فمن قصر في الشريعة أو زاد فيها فقد قصر في اتباعه، إما بنقص أو بزيادة، فحينئذ لا يحقق شهادة أن محمداً رسول الله.

(٤) أن مضمون البدعة الطعن في الإسلام :

فإن الذي يبتدع تتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمل، وأنه كمل الإسلام بهذه البدعة... وقد قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣]. فيقال لهذا المبتدع: أنت الآن أتيت بشريعة غير التي كمل عليها الإسلام، وهذا يتضمن الطعن في الإسلام وإن لم يكن الطعن فيه باللسان، لكن الطعن فيه هنا بالفعل... أين رسول الله ﷺ ، ثم أين الصحابة عن هذه العبادة التي ابتدعتها؟ أمهم في جهل منها؟ أم في تقصير



عنها؟ إذا... فهذا يكون طعنًا في الشريعة الإسلامية.

(٥) أنه يتضمن الطعن في رسول الله ﷺ :

وذلك لأن هذه البدعة التي زعمت أنها عبادة إما أن يكون الرسول ﷺ لم يعلم بها، وحينئذ يكون جاهلاً - حاشا لله - وإما أن يكون قد علم بها ولكنه كتمها، وحينئذ يكون كاتمًا للرسالة أو لبعضها، وهذا خطيرٌ جدًا.

(٦) أن البدعة تفرق شمل الأمة :

لأن الأمة الإسلامية إذا فُتح الباب لها في البدع .. فصار هذا يبتدع شيئًا، وهذا يبتدع شيئًا، وهذا يبتدع شيئًا، كما هو الواقع الآن، فتكون الأمة الإسلامية كل حزبٍ منها بما لديه فرح... كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]. كل حزب يقول: الحقُّ معي، والضلال مع الآخر، وقد قال الله لنبيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥١) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩، ١٦٠].

(٧) صاحب البدعة يضل عن الصراط ويضل غيره :

قال الحسن البصري رحمه الله: «إنما هلك مَنْ كان قبلكم حين تشعبت بهم السُّبل وحادوا عن الطريق فتركوا الآثار وقالوا في الدين برأيهم فضلوا وأضلوا»^(١).
ولذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «اتبع طُرُق الهدى ولا يضررك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين»^(٢).
وسئل إبراهيم الخواص رحمه الله عن العافية فقال: «العافية أربعة أشياء: دينٌ بلا بدعة، وعملٌ بلا آفة، وقلبٌ بلا شغل، ونفسٌ بلا شهوة»^(٣).

(١) الاعتصام (١/ ١٠٢).

(٢) الاعتصام (١/ ٨٣).

(٣) الاعتصام (١/ ٨٥).

(٨) المبتدع يجعل نفسه مُشرعاً ونذاً لله (جل وعلا) :

والمبتدع في الدين يُعطى نفسه منزلة ليست له.

فإن المُشرع الفرد لعباده جميعاً هو الله (جل وعلا)، فكيف يجيء أحدٌ

- مهما كانت نيته ومنزلته - ليضم إلى أحكام الله أحكاماً من عند نفسه.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ

وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]

(٩) المبتدع يُعسر الدين ويُخرجه عن طبيعته السمحة :

«فالدين قد جاء مُيسراً للناس.. والذين يتدعون فيه، يخرجون بهذا الدين

عن طبيعته السمحة المُيسرة الميسرة... فهم يُعنتون الناس، وَيَشْقُون عليهم،

ويضيفون إليه ما يجعله آصاراً وأغلالاً على المكلفين».

(١٠) كأن المبتدع يظن أن الدين لم يكتمل :

وكان المبتدع يظن أن الدين لم يكتمل فهو بذلك يضيف إليه أشياء من عنده

ليُكمّله!!!!

✽ قال ابن الماجشون رحمه الله: سمعت مالكا رحمه الله يقول: «من ابتدع في

الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة... لأن الله يقول:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].. فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم

ديناً»^(١).

(١١) صاحب البدعة لا يرجي له توبة :

وصاحب البدعة لا يرجي له توبة بخلاف أهل المعاصي.

- فالعاصي يعلم أنه على معصية... فلذلك قد يفكر في التوبة يوماً ما، أما

المبتدع فهو يعتقد أن البدعة التي يفعلها هي عين السنة فكيف يتوب منها.



- ولذلك قال ﷺ: «إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة»^(١).

❁ قال سفيان الثوري رحمه الله: «البدعة أحب إلى إبليس من المعصية... المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»^(٢).

(١٢) البدعة إثمها متجدد لا ينقطع ما دام يُعمل بها:

صاحب البدعة إثمه متجدد طالما أنه يُعمل بتلك البدعة... بل إنه يتحمل وزر مَنْ يعمل بتلك البدعة إذا كان سبباً في دعوته إليها... ولذا قال ﷺ: «...وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ فَعَلَيْهِ وَزَرُهَا وَوزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مَنْ غَيْرَ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٣).

(١٣) صاحب البدعة لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً^(٤):

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»^(٥).

(١٤) الله يبغض كل صاحب بدعة:

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلحد في الحرم، ومُبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومُطَلَب دم امرئ بغير حق ليُهرق دمه»^(٦).

(١٥) البدع تُميت السنن:

فكلما أحدث الناس بدعة كان في مقابل ذلك أن تموت سنة من سنن النبي

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي، والضياء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٩٩).

(٢) تلييس إبليس (ص ١٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

(٤) أي: لا يقبل منه فريضة ولا نافلة.

(٥) رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٩)، وكان الشيخ الألباني قد صححه في صحيح

الترغيب (٥٤) ثم تراجع عن تصحيحه.

(٦) صحيح: رواه البخاري (٦٨٨٢) كتاب الديات.

... وذلك لأن صاحب البدعة يُوهم الناس أن بدعته هي السُّنة فإذا تعارضت مع سُنّة من سُنن النبي ﷺ طرح السُّنة وتمسك ببدعته ودعا الناس إليها.
- ولذا قال أحد السلف: «ما أحيّا قومٌ بدعة إلا أَماتوا مثلها من السُّنة».
(١٦) صاحب البدعة لا يُختم له بخير:

فمن عاش على البدع وأصرَّ عليها حتى آخر لحظة في حياته ولم يُتَبَّ فإنه لا يُختم له بخير.

- وقد علمنا قول ابن مسعود رضي الله عنه: «لو تركتم سنة نبيكم لضللتم».
❦ قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: فأمّا الذين ابيضَّت وجوههم فأهل السُّنة والجماعة وأولو العلم. وأمّا الذين اسودَّت وجوههم فأهل البدع والضلالة»^(١).

(١٧) المبتدع يحرم من الشرب من حوض النبي ﷺ:

قال ﷺ: «إني فرطكم على الحوض، من مرَّ بي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردَّن على أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثمَّ يحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحْقاً سُحْقاً لمن بدلَ بعدي»^(٢).

(١٧٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

هذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الدين... كما قال الإمام أحمد رحمته الله:
أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر: «إنما الأعمال بالنيات»،

(١) أصول الاعتقاد (١/٧٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٨٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢٩١) كتاب الفضائل.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأفضية.

وحديث عائشة: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، وحديث النعمان ابن بشير: «الْحَلَالُ بَيْنَ وَالحَرَامِ بَيْنَ»، وَعَدَّ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَةَ وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ هِيَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ.

❁ وهذا الحديث هو نصف العلم؛ لأن الأعمال إما ظاهرة وإما باطنة... فالأعمال الباطنة ميزانها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١)، وميزان الأعمال الظاهرة حديث عائشة هذا: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» أى: مردود على صاحبه غير مقبول منه.

فهناك شرطان لقبول العمل كما قال بعض السلف: ما عمل آدمي عملاً إلا ونُشر له ديوانان: لِمَ فعلت، وكيف فعلت؟ فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني: سؤال عن المتابعة.

ودل على ذلك قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل الصالح: هو الموافق للشرع وهو شرط المتابعة... وعدم الإشراك إشارة إلى الإخلاص.

كذلك قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجه لله عز وجل هو إخلاص القصد والنية، والإحسان هو متابعة سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

كذلك قوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه... فإن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لا يُقبل وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لا يُقبل، حتى يكون صواباً خالصاً. وفي هذا الحديث بيان لحكم الأعمال الظاهرة التي يقوم بها العبد، فإذا كانت مما هو معلوم من هدى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، إما أمراً منه أو فعلاً أو

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

تقريراً، فهذا من الأعمال المشروعة التي يُثاب عليها العبد إذا صَحَّت نيته، أما إذا كان مخالفاً لهدى الكتاب والسُّنة، فهذه هي البدعة سواء أكان ذلك في العقائد أو الأعمال الظاهرة أو غيرها، وهو بيان لاشتراط المتابعة لهدى النبي ﷺ؛ ليكون العمل مقبولاً مع شرط الإخلاص الذي دَلَّ عليه قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» والصواب هو ما كان على هدى النبي ﷺ. وهو ما دَلَّ عليه قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

فإذا علمنا ذلك تبين لنا أن كل عمل يُؤْتَى به على وجه التعبُّد والتقَرُّب إلى الله تعالى فيه، فلا بُدَّ من عَرَضِهِ على هدى الرسول ﷺ، فإن كان من هديه، فهذا هو المشروع، وهو الذي يُثاب صاحبه عليه إذا صَحَّت نيته، وقصد به وجه الله وحده... وإذا كانت هذه العبادة لم تُنقل عن النبي ﷺ، أو أتى به على كيفية، أو هيئة لم تكن معروفة في عهده ﷺ، ولا عهد أصحابه، ولا في عهد سلف هذه الأمة، فهو مردودٌ على صاحبه، وغير مقبول؛ لمخالفة هدى الرسول ﷺ... واستحق ذلك العمل أن يُسمَّى بدعة، ومعلوم أن كل بدعة ضلالة، وذلك مثل ما يفعله بعض المتصوفة من الأذكار التي ابتدعوها ولم تكن معروفة في عهد السلف الصالح، كاجتماعهم في حلقة، فيقوم أحدهم ويقول لهم: سَبِّحُوا كَذَا، هَلِّلُوا كَذَا، كَبِّرُوا كَذَا... فإن ابن مسعود رضي الله عنه لما أخبر عن أناسٍ في المسجد يعملون هذا العمل ذهب إليهم، ووقف، وأنكر عليهم ذلك ^(١).

❦ وفي اللفظ الثاني: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وهو أشد من الأول؛ لأن قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا» يعني لَا بُدَّ أن نعلم بأن كل عملٍ عملناه لَا بُدَّ أن يكون موافقاً لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وإلا فهو مردود... وهو يشمل العبادات ويشمل المعاملات... ولهذا لو باع الإنسان بيعاً فاسداً، أو رهن رهنًا فاسداً أو أوقف وقفًا فاسداً، فكله غير صحيح ومردود على صاحبه ولا ينفذ.

(١) من هدى المصطفى / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٤٧-٤٩) بتصرف.

(١٧٤) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ» وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وَيَقْرُنُ بَيْنَ أُصْبَعَيْهِ، السَّبَابَةَ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» ثُمَّ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ. مَنْ تَرَكَ مَا لَا فَلَاحَ لَهُ، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضِيَاعًا، فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ»^(١).

❖ ففى هذا الحديث يخبر جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان إذا خطب ... يعنى: يوم الجمعة احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه ... حتى كأنه مُنذر جيشٍ يقول: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ».

❖ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْخَطِيبِ أَنْ يُخَمِّمَ أَمْرَ الْخُطْبَةِ وَيَرْفَعَ صَوْتَهُ وَيُجْزِلَ كَلَامَهُ وَيَكُونَ مُطَابِقًا لِلْفَصْلِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِنْ تَرْغِيبٍ أَوْ تَرْهيبٍ وَلَعَلَّ اشْتِدَادَ غَضَبِهِ كَانَ عِنْدَ إِنْذَارِهِ أَمْرًا عَظِيمًا وَتَحْدِيدِهِ خُطْبًا جَسِيمًا^(٢) ... وإنما كان النبى ﷺ يفعل ذلك ؛ لأنه أقوى فى التأثير على السامع .. فكان ﷺ يفعل هذا من أجل مصلحتهم .. وإلا فإنه من المعلوم أن النبى ﷺ كان أحسن الناس خُلُقًا وأكثر الناس رفقًا ورحمة بكل من حوله ... لكن لكل مقام مقال .. فالخطبة ينبغى أن تؤثر فى النفوس وتُحرك القلوب.

وكان ﷺ يقول: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ويقرن بين السَّبَابَةِ والوسطى، يعنى بين الإصبعين.

والسبابة هى الإصبع الذى بين الإبهام والوسطى، وتسمى السَّبَابَةُ لأن الإنسان إذا أراد أن يسب أحداً أشار إليه بها... وتسمى السَّبَابَةُ أيضاً لأن

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢٢٢/٦).

الإنسان عند الإشارة إلى تعظيم الله ﷻ يَرْفَعُ يَدَيْهِ، ويشير بها إلى السماء.

❖ فبعثة النبي ﷺ هي أول علامة من علامات الساعة الصغرى .. وهي دليل على قرب قيام الساعة.

قال القرطبي: « أولها النبي ﷺ لأنه نبي آخر الزمان، وقد بُعث وليس بينه وبين القيامة نبي » ^(١).

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فالنبي ﷺ هو خاتم الأنبياء وليس بعده نبي .. وإنما تكون بعده القيامة. ❖ وأما عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان فإنه لا ينزل إلى الأرض مرة أخرى كنبى وإنما ينزل ليحكم الأرض بشريعة النبي ﷺ (شريعة الإسلام) .. كما سيأتى.

❖ ومن هنا نعلم أن أول علامة من علامات الساعة الصغرى: بعثة النبي ﷺ الذى أرسله الله ﷻ رحمة للعالمين.

والمعنى أن أجل الدنيا قريب وأنه ليس ببعيد ... وهذا كما فعل ﷺ ذات يوم حيث خطب الناس في آخر النهار، والشمس على رءوس النخل، فقال: «إنه لم يبقَ من دنياكم إلا مثل ما بقى من هذا اليوم» ^(٢).

فإذا كان الأمر كذلك والنبي ﷺ قد مات منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، ولم تُقم القيامة دَلَّ هذا على أن الدنيا طويلة الأمد، ولكن ما يقدره بعض الجيولوجيين من عمر الدنيا الماضى بملايين الملايين فهذا خرس، لا يُصدَّق ولا يُكذَّب، فهو كأخبار بنى إسرائيل؛ لأنه ليس لدينا علم من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ في مقدار ما مضى من الدنيا، ولا في مقدار ما بقى منها على وجه التحديد.

(١) «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص ٦٢٦).

(٢) رواه أحمد (٦١٧٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

❁ ثم قال ﷺ: «أما بعد».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ اسْتِحْبَابُ قَوْلِ أَمَّا بَعْدُ فِي خُطْبِ الْوَعظِ وَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدِ وَغَيْرِهَا، وَكَذَا فِي خُطْبِ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ ... وَقَدْ عَقَدَ الْبُخَارِيُّ أَبَا فِي اسْتِحْبَابِهِ وَذَكَرَ فِيهِ جُمْلَةً مِنَ الْأَحَادِيثِ. وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَوَّلِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ فَقِيلَ: دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: يَعْرُبُ بْنُ قَحْطَانَ، وَقِيلَ: قَسُّ بْنُ سَاعِدَةَ^(١).

❁ ثم قال ﷺ: «أما بعد، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

وقد سبق شرح معناها في الأحاديث السابقة باستفاضة والله الحمد.

❁ ثم قال ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه».

وهو موافق لقول الله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿١﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه ... فالرسول أولى به من نفسه، لأنه (عليه الصلاة والسلام)، بذل لهم من النصيح، والشفقة، والرفقة، ما كان به أرحم الخلق، وأرفهم ... فرسول الله، أعظم الخلق مِنَّةً عليهم، من كل أحد ... فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسببه ﷺ.

فلذلك، وجب عليهم إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول، أن يُقدِّم مراد الرسول، وأن لا يُعارض قول الرسول، بقول أحد، كائنًا مَنْ كان، وأن يَفِدُوهُ بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

وهو ﷺ، أبُّ للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يربي الوالد أولاده.

(١) مسلم بشرح النووي (٦/٢٢٢).

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم... أى: فى الحرمة والاحترام، والإكرام، لا فى الخلوة والمحرمية^(١).

❁ ثم قال ﷺ: «من ترك مالا فله» يعنى: من ترك من الأموات مالا فله، يرثونه حسب ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، «ومن ترك ديناً أو ضياعاً» يعنى أولاداً صغاراً يضيعون «فإلى وعلى» يعنى فأمرهم إلى، وأنا وليهم، والدين على أنا أقضيه... هكذا كان ﷺ حينما فتح الله عليه.

أما قبل ذلك فكان يؤتى بالرجل ليصلى عليه فيسأل: «هل عليه دين؟» إن قالوا: نعم، وليس له وفاء ترك الصلاة عليه... فجىء إليه فى يوم من الأيام برجل من الأنصار فتقدم ليصلى عليه، ثم سأل: «عليه دين؟» قالوا: نعم... ثلاثة دنائير، فتأخر وقال: «صلوا على صاحبكم»^(٢) فعرف ذلك فى وجوه القوم... ثم قام أبو قتادة رضي الله عنه وقال: صل عليه يا رسول الله وعلى دينه... فالتزمها أبو قتادة رضي الله عنه فتقدم النبى ﷺ فصلى.

وفى هذا دليل: على عظم الدين، وأنه لا ينبغى للإنسان أن يستدين إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

بَابُ مَنْ تَرَكَ مَالًا

(١٧٥) وَعَنْ الْعُرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه، حَدِيثُهُ السَّابِقُ فِي بَابِ الْمُحَافَظَةِ عَلَى

السُّنَّةِ^(٣).

بَابُ مَنْ تَرَكَ مَالًا

(١) تفسير السعدى (ص ٧٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٩٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

﴿ (١٩) بَابُ فِيمَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةٍ أَوْ سَيِّئَةٍ ﴾

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

هذا من جملة ما يدعو به عباد الرحمن، الذين ذكر الله أوصافهم في آخر سورة الفرقان: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٦٣: ٧٤]. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: قرنائنا من أصحابٍ وأقربانٍ وزوجاتٍ ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: تقرُّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم، وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مُطِيعِينَ لربهم عالمين عاملين... وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم، في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك، هبة لهم فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح مَنْ ذُكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، ويتنفع بهم.

﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: أوصلنا يا ربنا، إلى هذه الدرجة العالية... درجة الصديقين، والكَمَل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين، في أقوالهم، وأفعالهم، يُقتدى بأفعالهم ويُطْمَنُّ لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون، ويهتدون.

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به.

وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِأَيْدِنَا يُوقِنُونَ﴾.

فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام، الذي يُوصل صاحبه إلى درجة اليقين خيراً كثيراً، وعطاءً جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل ... ولهذا - لما كانت هممهم ومطالبهم عالية - كان الجزاء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: المنازل الرفيعة، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهي، وتلذذه الأعين، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا... كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيَعْمُ غُلَامٌ الْكَافِرِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مِنْ حَسَنَةٍ وَسَلَامًا﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

أي: ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ... وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يهتدى به المهتدون، ويمشى خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرؤن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته ... ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل للخيرات كلها، من حقوق الله، وحقوق العباد.

(١) تفسير السعدي (ص ٦٨٦-٦٨٧).

﴿وَأَقِمَّ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن مَنْ كَمَلَهُمَا كما أمر، كان قائماً بدينه، وَمَنْ ضَيَّعَهُمَا، كان لما سواهما أضيع.... ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حَقُّه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكُنُوا لَنَا﴾ أى: لا لغيرنا ﴿عَبِيدِينَ﴾ أى: مُدِّمِينَ على العبادات القلبية والقلوية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله ^(١).

﴿وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى وَضَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ جَعَلَهُمْ أُمَّةً بِسَبَبِ أَنَّهُمْ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

لما صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله، وصبروا على أقدار الله، صبروا على طاعة الله ففعلوا ما أمر به، وصبروا عن معصية الله فتركوا ما نهى عنه، وصبروا على أقدار الله التي تأتيهم من أجل دعوتهم إلى الحق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: علماء بالشرع، وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى... فالكتاب الذي أنزل إليهم، هدى، والمؤمنون به منهم، على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهى درجة الصديقين... وإنما نالوا هذه الدرجة العالية ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى فى سبيله، وكَفُّوا أنفسهم عن جماحها فى المعاصى، واسترسلها فى الشهوات.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أى: وصلوا فى الإيمان بآيات الله، إلى درجة

(١) تفسير السعدى (ص ٦١١).

اليقين، وهو العلم التام، الموجب للعمل... وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلُّماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين. فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك... فبالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدين^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٦) عَنْ أَبِي عَمْرٍو جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ قَوْمٌ غُرَاءُ مُجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ. مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَتُهُمْ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي آخِرِ الْحَشْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بَرٍّ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجِزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمِينَ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوزَرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٢).

(١) تفسير السعدي (ص ٧٧١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

قَوْلُهُ: «مُجْتَابِي النَّمَارِ» هُوَ بِالْجِيمِ وَبَعْدَ الْأَلِفِ بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ. وَالنَّمَارُ: جَمْعُ نَمْرَةٍ، وَهِيَ: كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخَطَّطٌ. وَمَعْنَى «مُجْتَابِيهَا» أَيْ: لَا يَسِيهَا قَدْ خَرَقُوهَا فِي رءوسهم. «وَالْجَوْبُ»: الْقَطْعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]، أَيْ: تَحْتُوهُ وَقَطَعُوهُ. وَقَوْلُهُ «تَمَعَّرَ» هُوَ بِالْعَيْنِ

❖ لا بد أن نعلم أنه كلما ازداد الإيمان في قلب العبد فإنه يكون أكثر مواساة لكل من حوله.

ولذلك كان النبي ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه.

وكان الصحابة أعظم الناس مواساة فيما بينهم.

❖ ونحن نعلم أن كل إنسان لا بد أن يتعرض لأي ابتلاء في هذه الحياة الدنيا... فمنهم من يمرض.. أو يفقر.. أو يموت له قريب.. أو يعانى من الهم والغم... وكل هؤلاء يحتاجون إلى من يواسيهم ويَجبر خاطرهم ويساهم في حل مشاكلهم وتفريج همومهم.

ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

وها نحن في هذا الحديث العظيم نرى صورة مُشرقة للمواساة بين المسلمين.. ففى هذا الحديث العظيم نرى كيف كان حرص النبي ﷺ وشفقته على أصحابه وأمتة... فبينما كان أصحاب الرسول ﷺ عند رسول الله ﷺ في أول النهار إذ جاء قومٌ عامتهم من مُضَر أو كلهم من مُضَر، مُجتابى النمار، مُتقلدى السيوف... يعنى أن الإنسان ليس عليه إلا ثوبه قد اجتابه يستر به عورته، وقد ربطه على رقبتة، ومعهم السيوف استعداداً لما يؤمرون به من الجهاد ﷺ.

فتمعَّر وجه النبي ﷺ... يعنى تغيَّر وتلوَّن لما رأى فيهم من الحاجة، وهم من مُضَر، من أشراف قبائل العرب، وقد بلغت بهم الحاجة إلى هذا الحال... فدخل بيته ثم خرج ثم أمر بلالاً فأذن ثم صلى ثم خطب الناس (عليه الصلاة والسلام)،

= المهمله، أى: تَغَيَّر. وَقَوْلُهُ: «رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ» بفتح الكاف وضَمِّها، أى: صَبْرَتَيْنِ. وَقَوْلُهُ: «كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ» هو بالذال المعجمة، وفتح الهاء والباء الموحدة، قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ وَغَيْرُهُ. وَصَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: «مُذْهَنَةٌ» بِدَالٍ مَهْمَلَةٍ وَضَمِّ الهاءِ وبالنون، وَكَذَا صَبَطَهُ الْحُمَيْدِيُّ، وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ. وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوُجْهِينِ: الصَّفَاءُ وَالِاسْتِنَاةُ.

فحمد الله كما هي عادته، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

سبب قراءة هذه الآية أنها أبلغ في الحث على الصدقة عليهم، ولما فيها من تأكيد الحق لكونهم إخوة.

✽ ثم أخذ النبي ﷺ يحثهم على الصدقة وهو يقول: «تصدق رجل بديناره، تصدق بدرهمه، تصدق بثوبه، تصدق بصاع برّه، تصدق بصاع تمره، حتى ذكر ولو شق تمره».

وكان أصحاب الرسول ﷺ أحرص الناس على فعل الخير وأشدّهم مسابقة إلى كل خير.. فذهب رجلٌ من الأنصار إلى بيته فجاء بصُرةٍ كادت يده أن تعجز عن حملها.. بل قد عجزت من كثرة الأشياء التي أتى بها من بيته ﷺ.. فلما رآه الصحابة أسرعوا جميعاً إلى بيوتهم وجاء كل واحدٍ منهم بما في وسعه واستطاعته.. وبدأت الخيرات تتابع حتى أصبح أمام النبي ﷺ الكثير والكثير من الطعام والثياب.. فبدأ وجه النبي ﷺ يتهلل بعد أن كان حزيناً لحال هؤلاء الناس... صار وجهه ﷺ يتهلل كأنه مذهبة.. يعني من شدة بريقه ولمعانه وسروره ﷺ.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَمَّا سَبَبُ سُورِهِ ﷺ فَفَرَحًا بِمُبَادَرَةِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَبَذْلِ أَمْوَالِهِمْ لِلَّهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلِدْفَعِ حَاجَةِ هَؤُلَاءِ الْمُحْتَاجِينَ وَشَفَقَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى... وَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا رَأَى شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَنْ يَفْرَحَ وَيُظْهِرَ سُورَهُ وَيَكُونَ فَرَحُهُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٤٤).

ثم قال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ».

والمراد بالسُّنة في قوله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً» أى: ابتداء العمل بسُّنة، وليس مَنْ أحدث... لأن مَنْ أحدث في الإسلام ما ليس منه فهو ردّ وليس بحسن... لكن المراد بمن سَنَّها أى: صار أول مَنْ عمل بها، كهذا الرجل الذى جاء بالصدقة (ﷺ)... فدلّ هذا على أن الإنسان إذا وُفّق لسُنّة حسنة في الإسلام، سواء بادر إليها أو أحيّاها بعد أن أميتت فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها من بعده.

❦ وذلك لأن السُّنة في الإسلام ثلاثة أقسام:

سُنة سيئة: وهى البدعة.. فهى سيئة، وإن استحسنتها مَنْ سَنَّها.

لقول النبى ﷺ: «كل بدعة ضلالة»^(١).

وسُنة حسنة: وهى على نوعين:

النوع الأول: أن تكون السُّنة مشروعة ثم يُترك العمل بها.. ثم يُجدها مَنْ يُجدها... مثل قيام رمضان بإمام، فإن النبى ﷺ شرع لأمته فى أول الأمر الصلاة بإمام فى قيام رمضان، ثم تخلف خشية أن تُفرض على الأمة، ثم تُترك الأمر فى آخر حياة النبى ﷺ، وفى عهد أبى بكر (ﷺ)، وفى أول خلافة عمر... ثم رأى عمر (ﷺ) أن يجمع الناس على إمام واحد ففعل... فهو (ﷺ) قد سَنَّ فى الإسلام سُنة حسنة؛ لأنه أحيّا سُنة كانت قد تُركت.

والنوع الثانى: من السنن الحسنة أن يكون الإنسان أول مَنْ يبادر إليها، مثل حال الرجل الذى بادر بالصدقة حتى تتابع الناس، ووافقوه على ما فعل.

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٧) كتاب الجمعة.

فالحاصل أن مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةَ حسنة - ولا سُنَّةَ حسنة إلا ما جاء به الشرع - فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها من بعده ^(١).

❁ فهيا يا أحبابي ندل الناس على الخير ليفعلوه وليكون ذلك في ميزان حسناتنا يوم القيامة فقد قال النبي ﷺ: «الدَّالُّ على الخير كفاعله» ^(٢).

- فإذا رأيتم إخوانكم لا يُصلون فشجعوهم على الصلاة وسيكون ذلك في ميزان حسناتكم.. وإذا رأيتموهم لا يقرأون القرآن فشجعوهم على قراءته وسيكون ذلك في ميزان حسناتكم.. وإذا رأيتموهم لا يستعملون السواك فشجعوهم على استعماله ولكم الأجر إلى يوم القيامة... وهكذا في كل سُنَّة ينساها المسلمون ينبغي علينا أن نذكرهم بها وسيكون ذلك في ميزان حسناتنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٧) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» ^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يذكر النبي ﷺ أنه لما قتل قابيل هابيل وكان هابيل هو أول مقتول على وجه الأرض فلم يُقتل أحدٌ قبله... وقد كان هابيل أقوى من قابيل ويستطيع أن يقتله ولكنه لم يفعل لأنه كان أتقى من قابيل... ولذا قال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِلَيَّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢٨)
﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِيَأْتِي وَإِنَّمَا فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾

[المائدة: ٢٨-٢٩].

فكان قابيل هو أول قاتل في هذا الكون.. وهو أول مَنْ سَنَّ القتل في هذا الكون.. وكان هابيل هو أول مَنْ سَنَّ الورع عن القتل والعفو والتسامح.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٨٠-٤٨١).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٦٠٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٢١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة.

فجاءت ذرية آدم عليه السلام بعد ذلك .. فكان منهم مَنْ يقتدى بهابيل الطيب الذى كان يخاف من الظلم والعدوان.

ومن ذرية آدم مَنْ يقتدى بابن آدم القاتل، فيبغى ويعتدى، ويظلم ويؤذى، ويتبع الشيطان... وهؤلاء كثيرون موجودون على وجه الأرض، فى كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وقد دعانا رسول الله ﷺ إلى أن نقتدى بابن آدم الطيب .
عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ عِنْدَ فِتْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه : أَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةُ الْقَاعِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» .

قَالَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَى بَيْتِي وَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي ؟

قَالَ : «كُنْ كَابْنِ آدَمَ» .

وَيَبِّينَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ ابْنَ آدَمَ الْقَاتِلَ يَتَحَمَّلُ جُزْءًا مِنْ دَمِ كُلِّ إِنْسَانٍ يُقْتَلُ ظُلْمًا، حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال : «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» ^{(٢)(٣)} .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٢١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة.

(٣) القصص القرآنى / د. صالح الخالدى (١/١٤٧-١٤٨).

(٢٠) باب في الدلالة على الخير

والدعاء إلى هدى أو ضلالة

❖ الدلالة على الخير يعنى أن يبين الإنسان للناس الخير الذى ينتفعون به فى أمور دينهم ودنياهم... وَمَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَهُوَ كِفَاعُهُ، وأما الدعوة إليه فهى أخص من الدلالة؛ لأن الإنسان قد يدل فبيّن ولا يدعو، فإذا دعا كان هذا أكمل وأفضل، والإنسان مأمور بالدعوة إلى الخير أى الدعوة إلى الله ﷻ... كما قال تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ وآخر الآية: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

❖ وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

أى: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم إلى سبيل ربك المستقيم المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ أى: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين.

فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهى المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها... والنواهي من المضار وتعدادها... وإما بذكر إكرام مَنْ قام بدين الله وإهانة مَنْ لم يَتَّقْ به.

وإما بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل وما أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل... فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيُجادل بالتي هى أحسن، وهى الطرق التى

تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدوها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته وسيُجازيه عليها. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية فهداهم ثم من عليهم فاجتباهم^(١).

فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الإنسان ينبغي له أن يكون داعياً إلى الله... ولكن لا يمكن أن تتم الدعوة إلا بعلم الإنسان بما يدعو إليه؛ لأن الجاهل قد يدعو إلى شيء يظنه حقاً وهو باطل، وقد ينهى عن شيء يظنه باطلاً وهو حق... فلا بُدَّ من العلم أولاً فيتعلم الإنسان ما يدعو إليه.

الدعوة إلى الله تعالى (وظيفة الأنبياء)

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

❁ وقال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«فالدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته، لهم من

(١) تفسير السعدي (ص ٥١٩).

حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً.

وتبليغ سُنَّته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن ذلك التبليغ يفعلُه كثيرٌ من الناس، وأما تبليغ السُنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم... جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

السبيل إلى دعوة الناس

❁ إن الداعية الصادق هو الذي يعلم من أين يدخل إلى قلوب الناس من حوله فهو دائماً يرفع شعار البسمة والرحمة ممثلاً قول الله ﷻ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

❁ قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا؛ فإنهم لا يقدرُون على تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم على دنياهم... فترك الدنيا فضيلة، وتركُ الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة مَنْ لم يَقُمْ بالفريضة!

فإن صعب عليهم ترك الذنوب، فاجتهد أن تُحبَّبَ الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله؛ فإن القلوب مفطورة على محبته فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنوب والإصرار عليها والاستقلال منها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٨) وَعَنْ أَبِي مسعود عُبَيْدَةَ بْنِ عَمْرٍو الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٣) كتاب الإمارة.

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ فَضِيلَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ وَالْمُسَاعَدَةُ لِفَاعِلِهِ وَفِيهِ فَضِيلَةُ تَعْلِيمِ الْعِلْمِ وَوُضَائِفِ الْعِبَادَاتِ لَا سِيَّمَا لِمَنْ يَعْمَلُ بِهَا مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ وَغَيْرِهِمْ وَالْمُرَادُ بِمِثْلِ أَجْرٍ فَاعِلِهِ أَنَّ لَهُ ثَوَابًا بِذَلِكَ الْفِعْلِ كَمَا أَنَّ لِفَاعِلِهِ ثَوَابًا وَلَا يُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ قَدَرُ ثَوَابِهِمَا سَوَاءً^(١).

❖ والمقصود أنه قد يكون هناك إنسان قد مَنَّ الله عليه بالمال الحلال الوفير .. وهو من خير الناس فلا يستعمل هذا المال إلا فيما يُرضى الله .. فتراه يبنى المساجد ويكفل اليتامى والأرامل ويبني المدارس ويكفل طلبة العلم ويفعل الخير الكثير وهو يعلم يقيناً أن الله ﷻ سِيُخْلِفُ عليه أضعاف أضعاف ما أنفقته.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾

[سبأ: ٣٩]

وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ أَقْسَمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ»^(٢).

❖ وقد يكون هناك إنسان آخر عنده مَالٌ كثير من الحلال ولكنه لا يدري كيف يُنْفِقُ المال في أوجه الخير ولا يعرف أوجه الخير التي ينبغي أن يُنْفِقَ فيها هذا المال... فيأتيه رجلٌ فقير ولكنه يعلم أماكن الفقراء واليتامى والمحتاجين.. فيذهب إلى ذلك الرجل الغني فيدله على هؤلاء الفقراء واليتامى والمحتاجين.. فإذا ذهب إليهم ذلك الرجل الغني وأعطاهم زكاة ماله وفرج كُرباتهم كان له الأجر الكبير... وكان للرجل الذي دَلَّه عليهم مثل أجره مع أنه لم يُنْفِقْ جنيهاً واحداً «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلُهُ».

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٥٨-٥٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

❁ وقد يكون هناك رجلٌ عالمٌ يُعلم الناس في كل مكان ويجنى الثواب الجزيل على تعليم الناس وهدايتهم ... وهناك رجلٌ آخر يحب الدين ويحب أهل العلم وليس عنده علم لكنه يحب الخير .. فيذهب إلى أصدقائه وجيرانه ويتصل بهم ويرسل لهم الرسائل ليدلهم على هذا العالم الجليل ليتعلموا على يديه .. فكل من يتعلم وكل من يهتدى فهم في ميزان حسنات ذلك العالم وكذلك الرجل الذي دلَّهم عليه «الدَّالُّ على الخير كفاعله».

❁ وقد يكون هناك طبيب يتمنى أن يفعل الخير ... فيأتيه رجلٌ ويدله على أماكن المرضى الفقراء فيذهب إليهم ويُدأويهم .. فكل من يكتب الله له الشفاء على يد ذلك الطبيب فهو في ميزان حسنات الطبيب والرجل الذي دلَّ الطبيب عليهم «الدَّالُّ على الخير كفاعله».

❁ فإن لم تكن تملك مالا ولا علما ولا منصبا لخدمة الناس ونفعهم فاحرص على أن تدل الناس من حولك على فعل الخير وسيكون لك مثل أجرهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامٍ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»^(١).

❁ «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى» الدعوة إلى الهدى والخير والصلاح تكون بالقول والعمل .. فمن الناس مَنْ يدعو إلى الجنة بقوله وعمله .. كمن يدعو الناس إلى الصلاة وهو يُصلي ويواظب على الصلاة ... فهذا من أفضل الناس؛ لأن الناس يُصدقونه ويتبعونه ؛ لأن أعماله وأحواله تُصدق أقواله.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

ومن الناس مَنْ يدعو إلى الجنة بقوله ويصدهم عنها بعمله .. كمن يدعو الناس إلى الصلاة وهو لا يُصَلِّي .. فهذا لا يُصدقُه أحد ولا يتبعه أحد.

فما أجمل أن تدعو الناس إلى الطاعة التي تفعلها أنت .. أو تدعوهم إلى الخلق الذي تتحلَّى به أنت .. أو تدعوهم إلى الخير الذي تفعله أنت .. فمن تبعك وفعل مثلك فلك مثل أجره وأجر مَنْ تبعك إلى يوم القيامة.

فإن دعوت الناس إلى كفالة الأيتام .. فكل مَنْ يكفل يتيماً يكون لك مثل أجره وأجر مَنْ تبعك إلى يوم القيامة .. وإن دعوت الناس إلى صلاة الضحى أو قيام الليل أو صيام النوافل أو المحافظة على الأذكار أو عمل المشروعات الخيرية التي تعود بالنفع على الناس .. فكل مَنْ يفعل ذلك يكون لك مثل أجره وأجر مَنْ تبعك إلى يوم القيامة.

❀ وعلى العكس .. فمن دعا الناس إلى لهو أو إلى معصية أو إلى ترك العبادات أو إلى إيذاء الناس أو سرقة أموالهم .. فكل مَنْ يفعل ذلك فله مثل وزره ووزر مَنْ تبعه إلى يوم القيامة.

❀ وكما أسلفت .. فالدعوة إلى الهدى تكون بالقول والفعل .. وبخاصة من الذين يقتدى الناس بهم .. فإنه إذا كان يُقتدى به ثم قال: افعل كذا أو افعلى كذا فكأنه دعا الناس إلى فعله .. فإن دعاهم إلى خير فله مثل أجرهم دون أن يُنقص ذلك من أجورهم شيئاً .. وإن دعاهم إلى شرٍّ فله مثل وزرهم دون أن يُنقص ذلك من أوزارهم شيئاً.

فاللهم اجعلنا دُعاة إلى الخير والهدى.

❀ وفي هذا الحديث عدة فوائد عظيمة .. منها:

الفائدة الأولى: عظيم ما أعدَّه الله ﷻ وأدَّخره لنبه ﷺ في الآخرة من الأجر والثواب... وذلك لأنه هو الذي دعا الأمة كلها إلى فعل الخيرات والطاعات

فله مثل أجور أمته كلها إلى يوم القيامة.

الفائدة الثانية: فضيلة الإرشاد لأعمال الخير، وتعليم الناس، والتواصى بالحق، ومساعدة فاعل الخير قدر الإمكان... لقوله: «مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى».

الفائدة الثالثة: الحث على تَلَقُّى العلم، حيث إن المسلم لن يدل على خير ويُعَلِّمه الناس، حتى يعلم أن هذا العمل خير، وموافق لسنة المصطفى ﷺ، حتى لا يدعو إلى بدعة أو يقع في محذور آخر، دون أن يدري.

والذى يدل على وجوب العلم أولاً قبل العمل، قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وبَوَّبَ الإمام البخارى رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه الآية باباً سَمَّاهُ (باب العلم قبل العمل)، ولكن يجب أن يفهم هذا الكلام فهماً صحيحاً، ويكون وسطاً، بين مَنْ ينصح ويأمر الناس دون أى علم، ودون أن يحقق شيئاً حتى أمر التوحيد.. وبين مَنْ يأخذ العلم جُلَّ وقته، ويترك النصح لأفراد المسلمين بحُجة تَلَقُّى العلم أولاً.

الفائدة الرابعة: سعة ما عند الله ﷻ من الأجر والمثوبة لعباده المؤمنين، حيث يعطى مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى أجره وأجر مَنْ عمل بدعوته إلى يوم القيامة.

الفائدة الخامسة: علمنا من الحديث أن أحداً لا يحمل عن أحدٍ وزره، حتى ولو كان هو الذى أضله... ولكن الذى دعا إلى ضلالة يحمل مثل وزر مَنْ أضله، أى أنه يحمل وزرين: وزر الضلال ووزر الإضلال... وعلى هذا المعنى يفهم قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شمائل الرسول ﷺ / أحمد عبد الفتاح الزواوى (٢/ ٨٦-٨٧) بتصرف.

(١٨٠) وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قَالَ: «فَارْسِلُوا إِلَيْهِ» فَأَتَى بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرِئَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ. فَقَالَ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتِلْهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله وحده عند شرحنا للحديث رقم (٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فَتًى مِنْ أَسْلَمَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ الْغَزَا وَلَيْسَ مَعِيَ مَا أَتَجَهَّزُ بِهِ؟ قَالَ: «أَنْتِ فُلَانًا فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ تَجَهَّزَ فَمَرَضَ» فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: أَعْطِنِي الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ أَعْطِيهِ الَّذِي تَجَهَّزْتُ بِهِ، وَلَا تَحْبِسِي مِنْهُ شَيْئًا، فَوَاللَّهِ لَا تَحْبِسِينَ مِنْهُ شَيْئًا فَيَبَارَكَ لَكَ فِيهِ^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يخبر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم الرسول ﷺ أَنَّ فَتًى مِنْ قَبِيلَةِ أَسْلَمَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَهُ لِلْغَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لَأَنَّهُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢١٠) كتاب المغازي ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

قوله: «يَدُوكُونَ»: أَي يَخُوضُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ، قَوْلُهُ: «رِسْلِكَ» بكسر الراء وفتحها لُغْتَانِ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٤) كتاب الإمارة.

ليس عنده المال الذى يكفيه لشراء ما يحتاج إليه فى الغزو من سلاح ودابة قوية وغير ذلك من مستلزمات الجهاد ... فأرشده النبى ﷺ ودلّه على رجل آخر كان قد تجهّز براحلته وسلاحه من أجل الغزو والجهاد ولكنه أُصيب بمرضٍ أقعده عن الخروج إلى الجهاد ... فذهب هذا الفتى المُحب للجهاد إلى ذلك الرجل المريض فأخبره أن النبى ﷺ يُقرئه السلام ... وأخبره بأنه يريد الجهاد وليس عنده ما يتجهّز به .. وأن النبى ﷺ دلّه عليه ليأخذ منه ما تجهّز به ليذهب ويجاهد فى سبيل الله ﷻ .. فما كان من هذا الرجل إلا أن قال لزوجته: يا فلانة أعطيه الذى تجهّزْتُ به، ولا تحبّسى منه شيئاً، فوالله لا تحبّسين منه شيئاً فيُبارك لك فيه.

ففى هذا دليلٌ على أن الإنسان إذا دلَّ أحداً على الخير فإنه يفوز بالأجر والثواب.. وقد قال النبى ﷺ: «الدَّالُّ على الخير كفاعله».

وفيه دليلٌ أيضاً على أن الإنسان إذا أراد أن يعمل عملاً صالحاً ولكن حال المرض بينه وبين ذلك العمل الصالح فإنه ينبغى أن يدفع ما تجهّز به وأعدّه للقيام بهذا العمل الصالح إلى مَنْ يقوم به حتى يُكتب له الأجر كاملاً .. وذلك لأن الإنسان إذا نوى خيراً أو طاعة وتجهّز لذلك وأخذ بالأسباب فحال المرض بينه وبين ذلك الخير أو تلك الطاعة فإنه يُكتب له الأجر كاملاً بفضل الله (جلّ وعلا) ... قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِثْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ قَالَ: هَاجَرَ خَالِدُ بْنُ حِزَامٍ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَنَهَشَتْهُ حَيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ فَمَاتَ، فَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: فَكُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ

وَأَنْتَظِرُ قُدُومَهُ وَأَنَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَمَا أَحْزَنَنِي شَيْءٌ حُزَنَ وَفَاتِهِ حِينَ بَلَغَنِي؛
لِأَنَّهُ قَلَّ أَحَدٌ مِمَّنْ هَاجَرَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا مَعَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ، أَوْ ذَوِي رَحِمِهِ، وَلَمْ يَكُنْ
مَعِيَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي أَسَدِ ابْنِ عَبْدِ الْعُزَّى^(١).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ فَضِيلَةُ الدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَفِيهِ أَنَّ مَا نَوَى الْإِنْسَانُ صَرْفَهُ فِي جِهَةٍ بَرٍّ
فَتَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْجِهَةُ يُسْتَحَبُّ لَهُ بِذَلِكَ فِي جِهَةٍ أُخْرَى مِنَ الْبَرِّ وَلَا يُلْزَمُهُ
ذَلِكَ مَا لَمْ يَلْتَزِمْهُ بِالنَّذْرِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/ ١٠٥٠ رقم ٥٨٨٨)، وأبو نعيم الأصبهاني في «معرفة
الصحابة» (٢/ ٩٥٣-٩٥٤ رقم ٢٤٦٥).
(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٥٩-٦٠).

(٢١) باب في التعاون على البر والتقوى

﴿التعاون معناه التساعد، وأن يعين الناس بعضهم بعضًا على البر والتقوى... فالبر: فعل الخير، والتقوى: اتقاء الشر.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

[المائدة: ٢].

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ أي: ليُعين بعضكم بعضًا على البر. وهو: اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله، وحقوق الأدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسمٌ جامع، لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة... وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره عليها من إخوانه المؤمنين، بكل قول يبعث عليها، وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ أي: لا يكن أحدكم عونًا لأخيه على فعل كل ما يُغضب الله من المعاصي التي يَأْثُم العبد عليها ويَبْوء بسببها بغضب الله وعقابه. ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ هو: التعدي على الخلق، في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم... فكل معصية وظلم، يجب على العبد، كَفُّ نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على مَنْ عصاه وتجرأ على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل^(١).

والأمر في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ أمر إيجاب فيما يجب، واستحباب فيما

(١) تفسير السعدي (ص ٢٢٨).

يُستحب... وكذلك في التقوى أمر إيجاب فيما يحرم، وأمر استحباب فيما يُكره.
 * وأما الدليل الثاني في التعاون على البر والتقوى فهو قوله تعالى:
 ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ سورة العصر. فأقسم الله بالعصر الذي هو الزمن (الليل والنهار) محل أفعال العباد وأعمالهم.. فالزمن هو وعاء الأعمال.. فمن الناس مَنْ يملؤه بالخير ومنهم مَنْ يملؤه بالشر.. فأقسم الله تعالى بالعصر ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أى: إن كل إنسانٍ خاسر... وذلك يشمل كل إنسان: مؤمن وكافر.. طائع وفاسق.. ذكر وأنثى.. والخسارة قد تكون مُطلقة.. كحال مَنْ خسر الدنيا والآخرة، وقد تكون خسارة من بعض الوجوه دون بعض كمن خسر الدنيا ولكنه ربح الآخرة أو كمن ربح الدنيا وخسر الآخرة.

فأقسم الله بالعصر على أن الإنسان في خسر إلا مَنْ جمع هذه الصفات الأربع: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فأصلحوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح، وأصلحوا غيرهم بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

فالإيمان يكون بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به، مما أخبر به الله ورسوله... وقد بيّنه الرسول ﷺ في قوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»^(١).

ولا يكون الإيمان بدون علم.. فهو فرغٌ عنه لا يتم إلا به.. فإن الإنسان إذا لم يكن عنده علم فقد يفعل شيئاً مخالفاً لأصول الإيمان والتوحيد وهو يظن أنه من الإيمان.

وأما عمل الصالحات فهو كل عملٍ يُقرب العبد إلى الله (جلّ وعلا)..

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

ولا يكون العمل صالحاً إلا بشرطين اثنين هما: الإخلاص لله عز وجل والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله والدار الآخرة ولا تقصد بعملك مُراءاة الناس لأن الله عز وجل قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتَهُ وَشَرَكَهُ»^(١).

وأما المتابعة: فهي المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم بحيث لا تأتي ببدعة تجعل العمل مردوداً عليك ... فقد قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢). أى مردودٌ عليك.

والعمل الصالح هذا شاملٌ لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

فأما التواصى بالحق، الذى هو الإيمان والعمل الصالح، أى: يوصى بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه، ويُرغبه فيه.

والتواصى بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأمرين الأولين، يُكْمَل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يُكْمَل غيره... وبتكميل الأمور الأربعة، يكون العبد قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم^(٣).

قال الشافعى رحمته الله: لو لم يُنزل الله على عباده سورة غير هذه السورة لكفّتهم لأنها جامعة مانعة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٧١٨) كتاب الأقضية.

(٣) تفسير السعدى (ص ١١٠٢).

(١٨٢) عن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(١).

✽ «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا» ؛ لأن هذا من باب التعاون على البر والتقوى .. ويكون تجهيز الغازي بتزويده بالراحلة والسلاح والمتاع .. فإن فعل ذلك فقد غزا أي: كُتِبَ له أجر الغازي ؛ لأنه أعانه على ذلك.

«وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا» فالدولة الإسلامية لها جبهة خارجية وجبهة داخلية .. أما الجبهة الخارجية فيتكفل بها الجيش الإسلامي المجاهد في سبيل الله .. وأما الجبهة الداخلية فيتكفل بها رجال الشرطة في تلك البلدة. فإذا خرج الغزاة مجاهدين في سبيل الله ناشرين وناصرين للإسلام فهناك عناية خاصة بالجبهة الداخلية: ألا وهي العناية بأسر المجاهدين والقيام بشؤونهم .

وفي الحقيقة أن من أبرز معالم العناية بالجبهة الداخلية: العناية بأسر المُجاهدين، والقيام بحاجات نسائهم وأولادهم، وصيانة حُرُماتهم، فهم مشغولون بالدُّود عن حياض الأمة، ويُعرِّضون أرواحهم للخطر في سبيلها، فلا أقل من أن ترعى الأمة أهلهم وعائلاتهم في غيبتهم... حتى إن رسولنا الكريم ﷺ ليعتبر هذه الرعاية ضرباً من الجهاد في سبيل الله.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح المتفق عليه: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا».

فما أجمل هذا وما أروع! أن تُعدَّ خلافة الغازي بخير في أهله وماله ضرباً من الغزو، ومشاركة في الجهاد... فهذا يُقاتل العدو، وهذا يحفظ له أهله وولده. وقريبٌ من ذلك رعاية ما خلفه وراءه من مالٍ، من أرضٍ وحرثٍ، أو مصنعٍ،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٥) كتاب الإمارة.

أو محل تجارة، أو غير ذلك... فينبغي أن يتقرب المجتمع المدني إلى الله بحفظه، واعتباره كمال اليتيم، لا يقرب إلا بالتى هى أحسن، ولا يُعتبر مالا (سائبا) حيث غاب عنه صاحبه، ويُطبق عليه المثل القائل: (المال السائب يُعلم السرقة).

إذا... فإعانة الغازى تكون على وجهين: الأول: أن يُعينه فى رحله ومتاعه وسلاحه... والثانى: أن يُعينه فى كونه خلف عنه فى أهله؛ لأن هذا من أكبر العون، فإن كثيرا من الناس يُشكل عليه من يكون عند أهله يقوم بحاجاتهم، فإذا قام هذا الرجل بحاجة أهله وخلفه فيهم بخير فقد غزا.

ومن ذلك ما جرى لعلى بن أبى طالب (رضي الله عنه) حين خلفه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى غزوة تبوك... خلفه فى أهله، فقال: يا رسول الله، أتعنى مع النساء والصبيان! فقال له: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي»^(١) يعنى أن أخلفك فى أهلى، كما خلف موسى هارون فى قومه، حينما ذهب إلى ميقات ربه.

✽ التحذير من خيانة المجاهد فى أهله :

أما من خان المُجاهد فى أهله، فقد ارتكب إثما عظيما، ويضعف الوزر عليه، فإن المعصية يتأضعف إثمها بما يُصاحبها من مُلابسات.

فالزانى بامرأة المُجاهد، أو بحليلة الجار: أعظم عقوبة عند الله من الزانى بامرأة عادية... وقد روى مسلم، عن بُريدة (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلِفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيُخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟»، وفى رواية: «فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ»، فَالْتَقَتْ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم)، فَقَالَ: «فَمَا ظَنُّكُمْ؟»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤١٦) كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٧) كتاب الإمارة.

ومعنى: «فَمَا ظَنُّكُمْ؟»: أى ما تظنون فى رغبته فى أخذ حسناته والاستكثار منها فى ذلك المقام ... أى: لا يُبقى منها شيئاً إن أمكنه!

وقد رواه النسائى، وزاد فيه: «أَتَرُونَ يَدْعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئاً؟»^(١).

قال ابن النحاس: (وقد روى هذا الحديث من وجوه لا تُحصى، وعن عدد من الصحابة).

قال أبو عبد الله الحليمى مُعلِّقاً على هذا الحديث: هذا - والله أعلم - لعِظَمِ حَقِّ الْمُجَاهِدِ عَلَى الْقَاعِدِ، فَإِنَّهُ نَابَ عَنْهُ، وَأَسْقَطَ بِجِهَادِهِ فِرْضَ الْخُرُوجِ عَنْهُ، وَوَقَاهُ مَعَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ حَصَانًا لَهُ، وَجُنَّةً دُونَهُ، فَكَانَتْ خِيَانَتُهُ لَهُ فِي أَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ خِيَانَةِ الْجَارِ فِي أَهْلِهِ، كَمَا يَكُونُ خِيَانَةُ الْجَارِ أَعْظَمَ مِنْ خِيَانَةِ الْبَعِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

وقد جاء فى حديث المقداد، عند أحمد والطبرانى: «وَلِأَنَّ يَزْنِي الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ: أَيْسَرُ (أى أهون) مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِأَمْرَأَةٍ جَارِهِ»^(٣).

فانظر كيف جعل الحديث حرمة نساء المجاهدين كحرمة الأمهات، وهذا يتمثل فى أمرين:

الأول: فى بَرِّهِنَ والإحسان إليهنَّ، وقضاء حوائجهنَّ.

والثانى: فى تحريم التعرُّضَ لَهُنَّ بِرِيَّةٍ مِنْ خَلْوَةٍ أَوْ نَظَرٍ بِشَهْوَةٍ، أَوْ حَدِيثٍ مُحْظُورٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ... ومعنى هذا: أَنْ مَنْ زَنَى بِأَمْرَأَةِ الْمُجَاهِدِ فَكَأَنَّمَا زَنَى بِأُمِّهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وفى الحديث الذى رواه عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى

(١) رواه النسائى (٣١٩١)، وفى الكبرى (٣/ ٣٤)، فى الجهاد، عن بريدة بن الحصيب.

(٢) نقله ابن النحاس فى مشارع الأشواق (١/ ٣٠٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٤٣).

فَرَّاشِ الْمُغَيَّبَةِ، مَثَلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ أَسْوَدُ (أى حية) مِنْ أَسَاوِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)،
والمغيبية : التى غاب عنها زوجها، لا سيما فى الجهاد.

وبهذا يحيا المُجاهد فى جهاده بنفسٍ مطمئنة، واثقاً بأنَّ من ورائه مجتمعاً
أميناً على مَنْ خَلَفَهُ وما خَلَفَهُ ... وهذا له أثره وأهميته فى بقاء (الرُّوح المعنوية)
فى الجيش المسلم قوية وثابتة، لا يعتريها وَهَنٌ ولا خَوَرٌ^(٢).

ويؤخذ من هذا أن كل مَنْ أعان شخصاً على طاعة الله فله مثل أجره.
فإذا أعنت طالب علم فى شراء الكتب له، أو تأمين السكن، أو النفقة، أو ما
أشبه ذلك، فإن لك أجراً - أى: مثل أجره - من غير أن يُنقص من أجره شيئاً،
وهكذا أيضاً لو أعنت مُصلياً على تسهيل مهمته فى صلاته فى مكانه ووثابه، أو فى
وضوئه، أو فى أى شىء فإنه يُكتب لك فى ذلك أجر.

فالقاعدة العامة أن مَنْ أعان شخصاً على طاعة الله كان له مثل أجره، من غير
أن يُنقص من أجره شيئاً^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٣) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بَعَثَ بَعْثًا إِلَى بَنِي
لَحِيانٍ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَالَ: «لَيَنْبَغُ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالْأُجْرُ بَيْنَهُمَا»^(٤).

❁ أى: أن النبى ﷺ بعث سرية لغزو بنى لحيان .. وقد اتفق العلماء على
أن بنى لحيان كانوا فى ذلك الوقت كفاراً فبعث إليهم النبى ﷺ بعثاً ليغزوهم
وأمر ذلك البعث أن يخرج من كل قبيلة نصف عدد رجالها وأن يبقى النصف
الآخر ليحفظوا المجاهدين فى نساءهم وأولادهم وليقوموا بشئونهم .. والأجر

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٤٠٥).

(٢) فقه الجهاد / د. يوسف القرضاوى (١/ ٦٦٢-٦٦٤) بتصرف.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٦) كتاب الإمارة.

بينهما ... وأما كون الأجر بينهما فهو محمولٌ على ما إذا خلف المقيمُ الغازي في أهله بخيرٍ كما شرحناه في الحديث السابق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ فَقَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللَّهِ» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَلَكَ أَجْرٌ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يخبر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ .. وَالرَّكْبُ هُمْ أَصْحَابُ الْإِبِلِ خَاصَّةً .. وَأَصْلُهُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي عَشْرَةِ فَمَا دُونَهَا .. وَأَمَّا الرَّوْحَاءُ فَهِيَ مَكَانٌ عَلَى بُعْدِ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا مِنَ الْمَدِينَةِ .. وَكَانَ هَذَا الْلِقَاءُ فِي حِجَةِ الْوَدَاعِ.

فَقَالَ لَهُمُ ﷺ: «مَنْ الْقَوْمُ؟».

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْلِقَاءَ كَانَ لَيْلًا فَلَمْ يَعْرِفُوهُ ﷺ وَيُحْتَمَلُ كَوْنُهُ نَهَارًا لَكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْهُ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ لِعَدَمِ هِجْرَتِهِمْ فَأَسْلَمُوا فِي بُلْدَانِهِمْ وَلَمْ يَهَاجِرُوا قَبْلَ ذَلِكَ^(٢).

فَلَمَّا قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللَّهِ» فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَلَكَ أَجْرٌ».

❦ ففي هذا الحديث مجموعة من الفوائد منها:

(١) أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَسْأَلَ عَمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ إِذَا دَعَتْ الْحَاجَةَ لِذَلِكَ .. لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ سَأَلَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟»؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُخْشَى أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْأَعْدَاءِ فَيَغْدَرُوا بِهِ .. أَمَّا إِذَا لَمْ تَدْعُ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ فَلَا تَسْأَلْ عَنِ الشَّخْصِ وَتَقُولَ: مَنْ أَنْتَ؟

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٦) كتاب الحج.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤٢/٩).

لأن هذا قد يكون تدخلاً فيما لا يعينك «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعِينُهُ»^(١).

(٢) أن الإنسان إذا وصف نفسه بالصفات الحميدة ولم يقصد بذلك الفخر فلا بأس بذلك.. لأن هؤلاء الصحابة لما سُئِلُوا: مَنْ أَنْتُمْ؟ قالوا: المسلمون.. وهذا وصف مدح.. لكن إن كان المسلم يذكره على سبيل الخبر فلا بأس بذلك كأن يقول: أنا مسلم لمجرد الخبر.. أو يقول ذلك على سبيل التحدث بنعمة الله فلا بأس بذلك.. كأن يقول: الحمد لله الذي جعلني من المسلمين.

(٣) أن مَنْ أعان شخصاً على طاعة فله مثل أجره.. فهذه المرأة ستعين طفلها على الحج ومناسكه من أولها لآخرها ولذلك لما سألت النبي ﷺ وقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر».

(٤) أن المسلم لا بُدَّ أن يغتتم وجود العالم ليسأله عما يشكك عليه من أمور دينه.. فهؤلاء الصحابة لما عرفوا أنه رسول الله ﷺ جعلوا يسألونه ليستفيدوا من علمه ﷺ.

(٥) ومن فوائده أيضاً: أن الصبي إذا حَجَّ به وليه فله أجر، والحج يكون للصبي لا للولي، وقد اشتهر عند عامة الناس أن الصبي يكون حجه لوالديه، وهذا لا أصل له، بل حج الصبي له، لقول النبي ﷺ لما قالت المرأة: ألهذا حج؟ قال: «نعم ولك أجر» فالحج له... وليعلم أن الصبي بل كل مَنْ دون البلوغ يُكْتَبُ له الأجر، ولا يُكْتَبُ عليه الوزر.

واستدل بعض العلماء بقوله: «نعم» له حج.. أنه إذا أحرم الصبي لزمه جميع لوازم الحج. يلزمه الطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ومِنَى، ورمى الجمرات... يفعل ما يقدر عليه، وما لا يقدر عليه يُفعل عنه، إلا

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، وصححه الألبانی فی «صحيح الجامع» (٥٩١١).

الطواف والسعى فإنه يُطاف ويُسعى به.

وقال بعض أهل العلم: لا بأس أن يتحلل الصبي ولو بدون سبب؛ لأنه قد رُفِعَ عنه القلم، وليس بمُكَلَّف، ولا يُقال: إن نفل الحج كفره، لا يجوز الخروج منه، وهذا الصبي متنفل فلا يجوز له أن يخرج.. لأن الأصل أن الصبي من غير المكلفين، فلا تُلزمه بشيء وهو غير مُكَلَّف، وهذا مذهب أبي حنيفة رحمته الله أن الصبي لا يُلزم بإتمام الحج، ولا بواجبات الحج، ولا باجتناّب محذوراته، وأن ما جاء منه قُبِلَ، وما تخلف لا يُسأل عنه.

(٦) وفي هذا الحديث أيضًا: ما يدل على أن الصبي وإن كان غير مميز فإنه يصح منه الحج ولكن كيف تصح نيته وهو غير مميز؟ قال العلماء: ينوى عنه وليه بقلبه أنه أدخله في الإحرام، ويفعل وليه كل ما يعجز عنه.

وفي هذه المناسبة نود أن نُبين: هل يجب على مَنْ دخل في الحج أن ينوى الطواف بنية مستقلة والسعى بنية مستقلة والرمي كذلك، أو لا يشترط؟

هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء.... من العلماء مَنْ قال: إذا أحرم الإنسان بالحج وطاف وسعى على النية الأولى، يعنى لم يُجدد نيته عند الطواف ولا عند السعى، فإن حَجَّه صحيح، لأن الطواف والسعى والوقوف والرمي والمبيت كلها أجزاء من عبادة فتكفى النية الأولى، كما أن الإنسان إذا صلى ونوى عند الدخول في الصلاة أنه دخل في الصلاة، فإنه لا يلزمه أن ينوى الركوع ولا السجود ولا القيام ولا القعود؛ لأنها أجزاء من العبادة، فكذاك الحج^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «الْحَازِنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُتَفَقَدُ مَا أُمِرَ بِهِ، فَيُعْطِيهِ كَامِلًا مَوْفَرًا، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ إِلَى

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٩٧) بتصرف.

الذى أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقِينَ»^(١).

وفى رواية: «الذى يُعْطَى مَا أُمِرَ بِهِ».

✽ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ، وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا كَسَبَ، وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ، لَا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئًا».

وفى رواية: «مِنْ طَعَامِ زَوْجِهَا»^(٢).

✽ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَعْنَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ الْمُشَارِكَ فِي الطَّاعَةِ مُشَارِكٌ فِي الْأَجْرِ.

وَمَعْنَى الْمُشَارَكَةِ أَنَّ لَهُ أَجْرًا كَمَا لِصَاحِبِهِ أَجْرٌ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يُزَاحِمَهُ فِي أَجْرِهِ وَالْمُرَادُ الْمُشَارَكَةُ فِي أَصْلِ الثَّوَابِ فَيَكُونُ لَهُذَا ثَوَابٌ وَلِهَذَا ثَوَابٌ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَكْثَرَ وَلَا يُلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مِقْدَارُ ثَوَابِهِمَا سَوَاءً بَلْ قَدْ يَكُونُ ثَوَابُ هَذَا أَكْثَرَ وَقَدْ يَكُونُ عَكْسُهُ ... فَإِذَا أُعْطِيَ الْمَالِكُ لِحَازِنِهِ أَوْ امْرَأَتِهِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِائَةً دِرْهَمٍ أَوْ نَحْوَهَا لِيُوصِلَهَا إِلَى مُسْتَحِقِّ الصَّدَقَةِ عَلَى بَابِ دَارِهِ أَوْ نَحْوِهِ فَأَجْرُ الْمَالِكِ أَكْثَرُ وَإِنْ أَعْطَاهُ رَمَانَةً أَوْ رَغِيفًا وَنَحْوَهُمَا مِمَّا لَيْسَ لَهُ كَثِيرٌ قِيَمَةٍ لِيَذْهَبَ بِهِ إِلَى مُحْتَاجٍ فِي مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ يَحِثُّ يُقَابِلُ مَشَى الدَّاهِبِ إِلَيْهِ بِأَجْرَةٍ تَزِيدُ عَلَى الرَّمَانَةِ وَالرَّغِيفِ فَأَجْرُ الْوَكِيلِ أَكْثَرُ وَقَدْ يَكُونُ عَمَلُهُ قَدَرِ الرَّغِيفِ مَثَلًا فَيَكُونُ مِقْدَارُ الْأَجْرِ سَوَاءً^(٣).

✽ وفى هذا الحديث نجد أن هذا الخازن قد اتصف بتلك الأوصاف

الأربعة: المسلم - الأمين - الذى يُنفذ ما أُمِرَ به - طيبة بها نفسه.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٣٨) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٢٣) كتاب الزكاة.

وَضَبَطُوا «الْمُتَصَدِّقِينَ» بفتح القاف مع كسر النون على التثنية، وعكسه على الجمع وكلاهما صحيح

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٢٤) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٥٦/٩ - ١٥٧).

فهو خازنٌ مسلمٌ احترازًا من أن يكون كافرًا .. لأن الخازن الكافر ليس له أجر وإن كان أمينًا لأن الكفار ليس لهم أجرٌ في الآخرة على أى خيرٍ عملوه في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]
وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧]
أما إذا أسلم فإنه يُسلم على ما أسلف من الخير ويكتب له أجر وثواب ما كان يعمل من الخير قبل أن يُسلم.

ولذلك لما جاء حكيم بن حزام رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّنُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ هَلْ لِي فِيهَا مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ»^(١).

وفي رواية: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَىٰ صَالِحِ مَا سَلَفَ لَكَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَدْعُ شَيْئًا صَنَعْتُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا صَنَعْتُ لِلَّهِ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلَهُ ... وَكَانَ أَعْتَقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ رَقَبَةٍ فَأَعْتَقَ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلَهَا وَسَاقَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِائَةَ بَدَنَةٍ وَسَاقَ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلَهَا.

❦ فالوصف الأول لذلك الخازن أنه مسلم.

الوصف الثاني: الأمين .. فهو يؤدي كل ما أوْتُمِنَ عليه فلا يأخذ منه شيئًا ولا يُضيعه أو يُفسده.

الوصف الثالث: الذي يُنفذ كل ما أُمر به .. وذلك لأنك قد تجد إنسانًا أمينًا لكنه كَسُول .. أما هذا الخازن فهو يجمع بين القوة والأمانة ... فهو أمين ويُنفذ ما أُمر به.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٣٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٢٣) كتاب الإيمان.



الوصف الرابع: أن تكون طيبة به نفسه .. فهو يُنفذ ما أمر به ويعطى ولا يَمُنّ على الفقير الذي يأخذ منه .. فهذا يكون أحد المُتصدقين مع أنه لم يدفع جُنيهاً واحداً.

مثال ذلك: إذا كان هناك رجل أعمال وعنده رجل يعمل أميناً على الخزينة .. فأعطاه رجل الأعمال عشرة آلاف جنيه وأمره أن يوزعها على بعض الفقراء .. فوزعها على نفس الوصف الذي وصف النبي ﷺ به الخازن المسلم فإنه يكون له نفس أجر رجل الأعمال ... أى كأنه تصدَّق بعشرة آلاف جنيه دون أن يُنقص من أجر المتصدق شيئاً .. رغم أنه لم يدفع جُنيهاً واحداً ... فهذا فضل الله يُؤتيه من يشاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢) باب في النصيحة

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فهذا عقدٌ عقده الله ﷻ بين المؤمنين .. فإذا وجدنا شخصاً في مشارق الأرض أو في مغاربها يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره فهو أخٌ لنا نحبه ونواليه وننصره ونُقدم له النصيحة الخالصة لوجه الله ﷻ.

ومن أجل ذلك صدر المصنف رَحِمَهُ اللهُ باب النصيحة بتلك الآية العظيمة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

❁ وإذا كنا نتحدث هنا عن النصيحة فلا بد أن نعلم أن النصيحة لها مكانة عظيمة في دين الله (جل وعلا) وذلك لما يترتب عليها من صلاح المجتمع ونقاؤه وطهارته.

ومن المعلوم أن بذل النصيحة من أعظم مقومات ترسيخ الأخوة الإيمانية في المجتمع المسلم وبخاصة إذا كانت النصيحة خالصة لوجه الله وخرجت برحمة وحنان وبصورة تجعل الإنسان يشعر بحرص إخوانه على إيصال الخير إليه.

❁ ومن أجل مكانة النصيحة في دين الله (جل وعلا) جعلها النبي ﷺ عماد الدين وقوامه فقال ﷺ: «الدين النصيحة»^(١).

بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

بذل النصيحة من صفات الأنبياء

❁ ولقد كان الأنبياء يبذلون النصيحة لقومهم من أجل أن يأخذوا بأيديهم إلى طاعة الله (جل وعلا).

قال تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ نُوْحٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

وقال تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ هُودٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

وقال تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ صَالِحٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

❁ وقال تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ شَعِيبٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾

[الأعراف: ٩٣].

❁ ووصى إبراهيم ﷺ بنيه بأن يموتوا على الإسلام.... قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

❁ بل كان الصالحون يحرصون على بذل النصيحة..

فها هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة ليبذل النصيحة لنبي الله موسى ﷺ كما وصفه الحق (جل وعلا) فقال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يُمُوتُنَّ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّصِيحِينَ﴾

[القصص: ٢٠].

(١٨٦) فَلَاوُلْ: عَنْ أَبِي رُقَيْةَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ». قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»^(١).

✽ هذا الحديث جليل القدر وعظيم الشأن، ثم هو قليل الألفاظ، كثير الفوائد والمعاني... بل إن أحكام الإسلام داخلَةٌ تحته؛ لأنه يُنص على أن عماد الدين وقوامه النصيحة، فوجودها يبقى الدين قائماً في المسلمين، وبعدها يدخل النقص على المسلمين في جميع شؤون حياتهم.

وأهمية هذا الحديث تأتي من أهمية النصيحة التي جعلها رسول الله ﷺ قوام الدين وعماده.. وقد حدّد ﷺ الناصح والمنصوح بشكل واضح... فالناصح هو كل مسلم آمن بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً.... وكل هذا قد بيّنه ﷺ في قوله: «الدين النصيحة» فمن التزم بدين الإسلام وجب أن يكون ناصحاً. أما المنصوح: فقد بيّنه ﷺ بقوله: «النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم».

ولربما يسأل المرء نفسه: كيف تكون النصيحة لهذه الأصناف؟
الجواب وبالله التوفيق:

(١) **النصيحة لله**: النصيحة لله تعالى معناها منصرف إلى الإيمان به، ونفى الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه - سبحانه وتعالى - من جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، وموالاة مَنْ أطاعه ومُعَاداة مَنْ عصاه، وجهاد مَنْ كفر به، والاعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور والدعوة إلى جميع الأصناف المذكورة، والحث عليها، والتلطف مع جميع الناس ودعوتهم إليها....

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

وخلاصة القول: أن يكون الإنسان مطيعاً لله بفعل أمره وترك نهيهِ، ووصفه بصفات الكمال والعظمة، وتنزيهه من النقص.

❁ ومن النصيحة لله ﷻ أن يكون المسلم ذاكراً لله دائماً بقلبه ولسانه وجوارحه.

❁ ومن النصيحة لله ﷻ أن يسعى المسلم لنشر دين الله ﷻ في كل أقطار الأرض بعلمه أو بماله من خلال شراء الكتب والأشرطة والسيدات وتوزيعها على الناس في كل أقطار العالم .. وفتح القنوات والمواقع الإسلامية وكفالة طلبة العلم الذين يُبلغون دين الله في أقطار الأرض .

❁ ومن النصيحة لله ﷻ أن يُدافع المسلم عن الله ﷻ ورسوله ﷺ وأن يُدافع عن دينه ويدفع عنه الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام.

❁ ومن النصيحة لله ﷻ أن تكون غيرة المسلم لله إذا انتهكت حُرُمات الله (سبحانه وتعالى).

(٢) النصيحة لكتاب الله: النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى: الإيمان بأنه كلام الله تعالى - حروفه ومعانيه - منه بدأ وإليه يعود، مُنزَّلٌ غير مخلوق، تكلم الله به حقاً، وألقاه إلى جبريل فنزل به جبريل ﷺ على محمد ﷺ ... ثم الاهتمام بتلاوته والخشوع عندها، وحفظه، وتفسيره، والذَّبُّ عنه، ودحض تأويل المحرفين وتعرُّض الطاعنين، والتصديق بما فيه، والاعتقاد بأنه منهج للحياة شامل كامل صالح لكل زمانٍ ومكان، وبذل ما في الوسع لإقامة حُكمه، والعمل به، والوقوف عند أحكامه وتفهُم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتصديق بأخباره والتفكير في عجائبه، والعمل بمُحكمه والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه. والاهتمام بتعلُّمه وتعليمه عملاً بقوله ﷺ: «خيركم مَنْ تعلَّم القرآن وعَلَّمه»^(١).

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن.

(٢) **النصيحة لرسول الله ﷺ**: النصيحة لرسول الله ﷺ تصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونُصْرته حياً وميتاً، ومعاداة مَنْ عاداه، وموالاة مَنْ والاه، وإعظام حقه، وتوقيره، وإحياء طريقته وسُنَّته، وبَثُّ دعوته ونشر شريعته، ونفى التهمة عنها، ونشر علومها والتفقه في معانيها، والتلطُّف في تعلُّمها وإعظامها، وإجلالها، والتأدُّب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلُّق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومُجانبة مَنْ ابتدع في سُنَّته أو تعرَّض لأحدٍ من أصحابه... فالنصيحة للرسول ﷺ هي محبته حباً يفوق محبة النفس والأهل والولد والناس أجمعين عملاً بقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١).

(٤) **النصيحة لأئمة المسلمين**: وتكون بإعانتهم على ما حُمِّلوا القيام به، ومعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وتنبيههم وتذكيرهم برفقٍ ولُطفٍ، وإعلامهم بما غفلوا عنه ما لم يبلغهم من حقوق المسلمين، وتألف قلوب الناس لطاعتهم، والاتصال بهم وإخبارهم بعيوبهم بكلِّ أدبٍ.. وتذكيرهم بالله تعالى واليوم الآخر، وأمرهم بالمعروف ونهيه عن المنكر، وحثُّهم على الزهد والورع والعدل، ومُجانبة الظلم.

ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم ضعف أو سوء عشرة أو فجور أو ظلم؛ ما أقاموا الصلاة، وأن لا يُغرَّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعى لهم بالصلاح... وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين؛ مَنْ يقومون بأمور المسلمين ويحكمون شرع الله تعالى، وقد يتأول ذلك على الأئمة الذين هم العلماء فتكون

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

نصيحتهم بتوقيرهم وأخذ العلم عنهم، واتباعهم في الأحكام وإحسان الظن بهم.

(٥) **النصيحة لعامة المسلمين:** هي في إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكفّ الأذى عنهم؛ فيعلمهم ما يجهلون من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم وسد خلاّتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم، وترك غشّهم وحسدّهم، وأن يحبّ لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه، والذّبّ عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثّهم على التخلّق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة وتنشيطهم إلى الطاعات^(١).

آداب النصيحة

❁ وهناك آداب ينبغي أن نتحلّى بها عند بذل النصيحة لمن حولنا:

(١) أن تكون النصيحة خالصة لوجه الله:

بحيث لا يرجو الناصح إلا وجه الله والدار الآخرة ولا يكون ذلك لمطمع دنيوى أو لطلب الرياء والسمعة.

(٢) أن تكون عن دراية وعلم:

لأن الإنسان إذا لم يكن على علم فقد ينصح بمنكر، وقد ينهى عن معروف، فلا بُدّ من العلم بذات الأمر الذى فيه النصيحة، وليس شرط العلم أن يكون حافظاً للقرآن الكريم كاملاً، وحافظاً للصحيحين، لا.. بل المقصود هو العلم بذات الأمر المنصوح به.

(٣) أن يتحلّى الناصح بخلق الرفق:

كذلك على الناصح أن يتخلّق بالرفق، أى: أن تكون النصيحة برفق ولين...

(١) النصيحة / أ. عبد الله بن عبد الحميد الأثرى (ص ٧-١٠) بتصرف.

وقد أمر الله تعالى باللين مع مَنْ هو أكفر أهل الأرض في زمنه (فرعون) فقال لنبيه موسى وهارون عليهما السلام حينما أمرهما بالذهاب إلى فرعون الطاغية المتكبر: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، والنبى ﷺ يقول: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»^(١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ يُحَرِّمَ الرِّفْقَ يُحَرِّمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ»^(٢).

قال ربنا ﷻ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، فمن لوازم النصيحة الرفق، أن تكون رفيقاً رحيماً في نصيحتك.

(٤) اختيار الأسلوب المناسب للنصيحة:

وهذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص... فبعض الناس يحتاج إلى النصيحة بشكل مباشر وبعضهم يحتاج إلى النصيحة بشكل غير مباشر... كما كان النبى ﷺ يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا... أو يفعلون كذا...».

- بل وفي أكثر الأحوال يحتاج الناس إلى النصيحة من خلال القدوة المتمثلة في شخص الناصح الذى يبذل لهم النصيحة.

- ولا ننسى أيضاً أن بذل النصيحة للصغير يختلف عن بذلها للكبير... وكذلك فإن بذلها لصاحب المكانة المرموقة يختلف عن بذلها للرجل البسيط.

- فالحاصل أنه ينبغي لمن يبذل النصيحة أن يتحلى بالذكاء وفقه النفس حتى يعلم متى يتكلم ومتى يصمت ومتى يبذل النصيحة بشكل مباشر ومتى يبذلها بشكل غير مباشر.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) أن لا يكون الهدف منها التشهير أو الانتقاص:

فالواجب على الناصح أن يجعل المنصوح يشعر بأن المقصود إرادة الخير له... وأن تلك النصيحة ليس من ورائها أى مطمع سوى الفوز برضوان الله والحرص على جلب المنفعة لإخوانه المسلمين امتثالاً لقول سيد المرسلين ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

(٦) أن تشمل النصيحة أمر الدين والدنيا:

فإذا رأيت أخاك مُقَصِّراً في طاعة الله أو جريئاً على معصية الله ﷻ فليكن فعليك أن تبذل له النصيحة بكل رحمة وحنان... وكذلك إذا رأيته مُقْبِلاً على أمرٍ من أمور الدنيا وعلمت أن مصلحته في أن يتعد عن ذلك الأمر فانصحه في ذلك فإن الواجب على المسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير في أمور الدنيا والآخرة.

(٧) لا تنصح أخاك إلا سراً:

❦ قال مسعر بن كدام رحمته الله: «رحم الله من أهدى إلى عيوبى في سرِّ بينى وبينه، فإن النصيحة في الملاءم تقريع»^(٢).

❦ ولذلك قال الإمام الشافعى رحمته الله:

تعهدنى بنصحك فى انفراد	وجنبنى النصيحة فى جماعه
فإن النصح بين الناس نوع	من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتنى وعصيت أمرى	فلا تجزع إذا لم تُعط طاعه

وقال: «من وعظ أخاه سراً فقد وعظه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٩٠).

(٣) مقدمة المجموع شرح المذهب (١/ ٣١).

❖ ولذلك فينبغي أن نحرص كل الحرص على بذل النصيحة للغير سرًّا حتى لا نجرح مشاعره ونؤذي أحاسيسه فيكون ذلك حائلًا بينه وبين قبول النصيحة والانتفاع بها.

(٨) على الناصح أن يتخلق بخلق الصبر :

وأخيرًا فإن الذي يبذل النصيحة للناس عليه أن يتحلى بالصبر وذلك؛ لأن أكثر الناس لا يستجيبون في التو واللحظة بل إن بعضهم قد يسمع النصيحة فلا يستجيب لها إلا بعد سنوات... ولذلك فعلى الناصح أن يعلم يقينًا أنه ليس عليه إلا البلاغ. أما الهداية فلا يملكها أحد إلا الله ﷻ وإن فقد قال تعالى للحبيب محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

[القصص: ٥٦].

- ونحن نعلم أن النبي ﷺ عُرِضَتْ عليه الأمم فرأى النبي ومعه الرُّهَيْط ورأى النبي ومعه الرجل والرجلان ورأى النبي وليس معه أحد^(١) ... أي: لم يؤمن معه من قومه أحد.

- بل ونحن نعلم أيضًا كيف تحمَّل النبي ﷺ الأذى من مشركي قريش وغيرهم وكيف أنهم دبّروا المؤامرات تلو المؤامرات لقتل الحبيب محمد ﷺ ومع ذلك كان يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٢) بل وعند فتح مكة لم ينتقم من أهل مكة ولم يُعلق لهم المشانق بل قال لهم بلسان الرحمة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٥٢) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير.

(٣) رواه البيهقي في الكبرى (١١٨/٩).

(١٨٧) الثَّانِي: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى: إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ^(١).

(١٨٨) الثَّلَاثُ: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث بايع جرير بن عبد الله رسول الله ﷺ على ثلاثة أشياء: الأولى حَقُّ محضٍ لله عَزَّ وَجَلَّ وهو إقام الصلاة .. والثانية حَقُّ جامعٍ بين حق الله وحق العباد وهي الزكاة .. والثالثة: حَقُّ محضٍ لعباد الله... وهي النصح لكل مسلم.

✽ أما الحق الأول فهو إقام الصلاة: ومعنى «إقام الصلاة» أن يأتي بها الإنسان على الوجه المطلوب فيحافظ على أوقاتها ويقوم بأركانها وواجباتها وشروطها ويتم ذلك بمُستحباتها .. ومن إقامة الصلاة أن يُصليها الرجال في الجماعة في المسجد .. أما المرأة فهي غير مُطالبة بالصلاة في المسجد بل إنها تنال ثواب صلاة الجماعة في المسجد بصلاتها في بيتها في أول الوقت.

أما الرجل فإنه إذا صلى في البيت بدون عُذر، ولم يُصلِّ في المسجد مع الجماعة فإن صلاته صحيحة ولكنه آثم .. وهذا هو رأى الجمهور - أى: جماهير أهل العلم -.

ومن إقامة الصلاة أن يُصليها المسلم بخشوع وأن يكون حاضر القلب في صلاته.

✽ وأما قوله: «إيتاء الزكاة» يعنى إعطاءها لمستحقها... وهذه جامعة بين حق الله وحق العباد... أما كونها حقاً لله فلا أن الله فرض على عباده الزكاة وجعلها من أركان الإسلام، وأما كونها حقاً للآدمي فلما فيها من قضاء حوائج

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٦) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

المحتاجين، وغير ذلك من المصالح المعلومة في معرفة أهل الزكاة. وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ لِكَوْنِهِمَا قَرِيبَتَيْنِ وَهُمَا أَهَمُّ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَأَظْهَرُهَا... وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّوْمَ وَغَيْرُهُ لِدُخُولِهَا فِي السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. ❀ وأما قوله: «النَّصْحُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» فهذا هو الشاهد من الحديث للباب، أى: أن ينصح لكل مسلم، قريب أو بعيد، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى.

وكيفية النصح لكل مسلم هى كما ذكره فى حديث أنس بعده «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» هذه هى النصيحة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك، بحيث يَسُرَّكَ ما يَسُرُّهم ويسوءك ما يسوءهم، وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به... وهذا الباب واسعٌ كبيرٌ جدًا.

فنفى النبى (عليه الصلاة والسلام) الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فى كل شىء... ونفى الإيمان قال العلماء: المراد به نفى الإيمان الكامل، يعنى لا يكمل إيمانك حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وليس المراد انتفاء الإيمان بالكلية^(١).

❀ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

ومما يتعلق بحديث جرير منقبة ومكرمة لجرير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رواها الحافظ أبو القاسم الطبرانى بإسناده، اختصارها أن جريراً أمر مولاه أن يشتري له فرساً، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم، وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن، فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من ثلاثمائة درهم، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك يا أبا عبد الله. فقال: فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيده مائة فمائة، وصاحبه يرضى وجرير يقول: فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها... ففعل له فى ذلك. قال: إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٠٨).

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/٥٣).

(٢٣) باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

﴿ قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: ولتكن منكم طائفة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو الدين: أصوله وفروعه وشرائعه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو ما عُرف حُسنه شرعاً وعقلاً ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عُرف قبحه شرعاً وعقلاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤] المدركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب... ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات... فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نُصحاً، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وجمعًا بين تكميل الخلق، والسعى في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان^(١).

(١) تفسير السعدي (ص ١٤٠).

✽ بعض فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: في الآية بيان فضل النبي ﷺ على هذه الأمة.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله.. وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطه نبيُّ قبله ولا رسول من الرسل... فالعمل على مناجاه وسبيله يقوم بالقليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه). انتهى^(١).

الفائدة الثانية: بيان فضل الإيمان بالله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث إن الآية لما أخبرت أن أمة محمد ﷺ هي خير الأمم، أتت بوصفين هما بمثابة القيد لهذه الخيرية... لذا قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح... ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]؛ ولهذا لما مدح الله ﷻ هذه الأمة بهذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾. انتهى^(٢).

✽ ويتفرع على هذه عدة أمور؛ منها:

(أ) هذه الخيرية لا تثبت لكل أمة الإسلام على مَرِّ العصور بنفس القوة، وإنما تقوى وتضعف على حسب ما تقوم به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

(ب) لا ينبغي لأحدٍ أن يتباهى بهذه الآية ويفرح بها إلا إذا اتصف بهاتين الصفتين، وإلا كانت الآية حجة عليه.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٣٩٢).

(٢) انظر المصدر السابق، (١/ ٣٩٧).

(ج) الحثُّ على التمسُّك بهاتين الصفتين لتحقيق الخيرية التى مَنَّ الله ﷻ بها على هذه الأمة.

الفائدة الثالثة: لا ينبغي أبدًا لأحدٍ من المسلمين أن يظن أن أى أمة (غير أمة الإسلام) هى خيرٌ من أمتنا أو أن ما عندها هو خير مما عندنا- مما يتصل بأمور العقيدة والشريعة وما يتفرع منهما وما ينبغي عليهما-؛ لأن فى ذلك تكذيبًا لصريح القرآن الكريم... فلو قال قائل: إن هذه الخيرية قد نُزعت منا لتقصيرنا فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قلت له: بحمد الله لم تُنزع مِنَّا لأن معنا أصل الإيمان بالله ورسوله... وهذا الأصل لا يشاركنا فيه أحدٌ ألبتة فى كل أنحاء المعمورة.

الفائدة الرابعة: فى الآية دليل واضح على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أفضل من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وآمن بالله... فمنهم نتعلم وبهم نقتدى؛ لأن الآية الكريمة قيدت الخيرية بالإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وورد فى الحديث الصحيح، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال النبىُّ ﷺ: «خير النَّاسِ قرنى ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» قال عمران: لا أدري أذكر النبىُّ ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة^(١).

الفائدة الخامسة: إرادة الله - سبحانه وتعالى - الشرعية أن تكون هذه الأمة هى خير الأمم... ولذلك يجب على هذه الأمة أن تأخذ بكل أسباب العزة والقوة والتقدم المحمود تحقيقًا لإرادة الله ﷻ.

الفائدة السادسة: يجب على كل مؤمن أن يربى نفسه على أن يكون نفعه متعديًا لغيره وألا يقتصر على نفسه... تعلَّمنا ذلك من أمر الله لنا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو من أعظم أبواب إيصال الخير إلى الغير.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

الفائدة السابعة: تختلف الأمم في الأفضلية والخيرية اختلافاً بيّناً بحسب تفاضل أنبيائها وكتبها وشرائعها... ولما كان نبينا ﷺ هو خير الأنبياء، وكتابنا القرآن الكريم هو خير الكتب وشريعة الإسلام هي أفضل الشرائع وأكملها، كانت هذه الأمة هي خير أمة أخرجت للناس^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

❦ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أى: ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فى المحبة والموالة، والانتماء والنصرة.

❦ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما عُرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل فى أمرهم أنفسهم.

❦ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة.

❦ ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

❦ ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أى: يُدخلهم فى رحمته، ويشملهم بإحسانه.

❦ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: قوى قاهر... ومع قوته، فهو حكيم، يضع كل شىء موضعه اللائق به الذى يُحمد على ما خلقه وأمر به^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٢٥٢-٢٥٣).

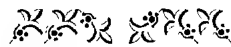
(٢) تفسير السعدى (ص ٣٨٢).

❁ وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أى: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أى: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذَلِكَ﴾ الكفر واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أى: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم، وبُعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم، عقوبات.

ومن معاصيهم التى أحلَّت بهم المثلَّات وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أى: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهاى بعضهم بعضاً. فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذى سكت عن النهى عن المنكر، مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم. فلو كان لديهم تعظيمٌ لربهم، لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه. وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفساد العظيمة^(١).



❁ وقد أورد المصنف رحمه الله الآيات التى تتحدث عن قصة أصحاب السبت .. وسأذكر شرحها على سبيل الاختصار.

قال تعالى: ﴿وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أى واسأل يا محمد اليهود عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التى كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلَّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟

(١) تفسير السعدى (ص ٢٥٤-٢٥٥).

ألم يمسخهم الله قردة وخنزير؟ قال ابن كثير: وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أى يتجاوزون حدَّ الله فيه وهو اصطيادهم يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا﴾ أى حين كانت الحيتان «الأسماك» تأتيهم يوم السبت - وقد حُرِّمَ عليهم الصيدُ فيه - كثيرةٌ ظاهرةٌ على وجه الماء ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أى وفى غير يوم السبت وهي سائر الأيام لا تأتيهم بل تغيب عنهم وتختفى ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى مثل ذلك البلاء العجيب نخبرهم ونمتحنهم بإظهار السمك لهم على وجه الماء فى اليوم المُحرَّم عليهم صيده... وإخفائها عنهم فى اليوم الحلال بسبب فسقهم وانتهاكهم حرَمَاتِ الله ... قال القرطبي: روى أنها كانت فى زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نُهيئُهم عن أخذها يوم السبت ... فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء فيأخذونها يوم الأحد ويحتالون فى صيدها ^(١) ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا إِلَهَ مِثْلُ اللَّهِ مَعْبُدُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياذ السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمُنكرة ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا إِلَهَ مِثْلُ اللَّهِ مَعْبُدُهُمْ﴾ أى لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكهم إياهم؟ ^(٢) ﴿قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى قال الناهون: إنما نعظمهم لنُعذّر عند الله بقيامنا بواجب النصّح والتذكير ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْفُقُونَ﴾ أى ينزعون عمّا هم فيه من الإِجرام.

(١) تفسير القرطبي (٣٠٦/٧).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٥٩/٢).

قال الطبري: أى لعلمهم أن يتقوا الله فينبوا إلى طاعته ويتوبوا من معصيتهم إياه وتعدّيهم الاعتداء في السبت^(١) ﴿ فَلَمَّا سَأُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى فلما تركوا ما ذكّرهم به صلحاؤهم ترك الناسى للشىء وأعرضوا عن قبول النصيحة إعراضا كليا ﴿ أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ أى نجّينا الناهين عن الفساد في الأرض ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أى وأخذنا الظالمين العصاة بعذاب شديد وهم الذين ارتكبوا المنكر ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى بسبب فسقهم وعصيانهم لأمر الله ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أى فلما استعصوا وتكبروا عن ترك ما نُهوا عنه ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ أى مسخناهم إلى قردة وخنازير... والمعنى أنهم عذبوا أولاً بعذاب شديد فلما لم يرتدعوا وتمادوا في الطغيان مسخوا قردة وخنازير... والحاصل أن أصحاب القرية انقسموا ثلاث فرق: فرقة عصت فحلّ بها العذاب، وفرقة نهت ووعظت فنجّاهها الله من العذاب، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تقارف المعصية وقد سكت عنها القرآن^(٢).

لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيؤدّبوا... ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الناجين أم الهالكين^(٣).

(١) الطبري (١٣/ ١٨٥).

(٢) صفة التفاسير (١/ ٤٤٣-٤٤٤).

(٣) قلت: بل نحن مع الذين قالوا بهلاك الساكتين كما هلك الظالمون لأنهم استحقوا ذلك بسكوتهم وعدم نصحتهم... فلعل سكوتهم كان سببا لتمادى الظالمين بظلمهم - إذ عدم التناهي عن المنكر له عقاب عند الله... قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] ولا شك أن السكوت عن فعل الظالم هو ظلمٌ بحد ذاته، واشتراك مع الظالم بظلمه، وإن كانوا لا يقصدون ذلك... وإن الرسول ﷺ أمرنا أن نأخذ على يد الظالم ونأطره على الحق أطرا وإذا لم نفعل فإن الله تعالى يُعاجلنا بعقابٍ منه، جزاء إهمالنا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مختصر تفسير ابن كثير (١/ ٢٤٩) للشيخ محمد نسيب الرفاعي.

❦ وإذا أردنا أن نتكلم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا بد أن نعلم أولاً أن المعروف هو كل ما عرّفه الشرع وأقره من العبادات القولية والفعلية الظاهرة والباطنة... والمنكر: كل ما أنكره الشرع ومنعه من أنواع المعاصي، من الكفر والفسوق والعصيان، والكذب، والغيبة، والنميمة، وغير ذلك.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به مَنْ يكفي حصل المقصود، وإذا لم يَقُمْ به مَنْ يكفي وجب على جميع المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فبدأ بالدعوة إلى الخير، ثم ثنّى بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذلك لأن الدعوة إلى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... والدعوة إلى الخير هي بيان الخير للناس، بأن يدعوهم إلى الصلاة وإلى الزكاة وإلى الحج، وإلى الصيام وإلى بر الوالدين وإلى صلة الأرحام وما أشبه ذلك، ثم بعد هذا يأتي دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١).

الآداب التي ينبغي أن تتوافر

في الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر

❦ أولاً: إخلاص النية لله تعالى:

فإنه على قدر الإخلاص في العمل تكون الثمرة... فعلى كل مَنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يبتغي بعمله وجه الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى...»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٠٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١) كتاب بدء الوحي - ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

❁ ثانياً: العلم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَبِ﴾

[الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يُفقهه في الدين»^(١).

فعلى من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون ملماً بما يأمر به وينهى عنه من جهة الأحكام والأدلة، وكونه فيه خلاف أو لا خلاف فيه إلى آخره. ومن أمر ونهى بغير علم أفسد أضعاف ما يصلح.

❁ ثالثاً: الرحمة والرفق:

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ لَمْ يَكُنْ فَظًا غَلِيظًا الْقَلْبُ لَا تَفْضَحُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالى لموسى وهارون ﷺ عندما ذهبا للدعوة فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

لما قرأ قتادة (رحمته) تلك الآية قال: سبحانك إن كان هذا حلمك بفرعون الذى قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ فكيف يكون حلمك بعبد قال: «سبحان ربى الأعلى»؟!!!

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم - ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

وقال رحمه الله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه»^(١).
وقال رحمه الله: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»^(٢).

❁ قال الإمام النووي رحمه الله:

وينبغي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب... فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: مَنْ وعظ أخاه سِرًّا فقد نصحه وزانه، وَمَنْ وعظه علانية فقد فضحه وشانه»^(٣).

قال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف ولا ينهي عن المنكر إلا مَنْ كان فيه ثلاث خصال: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهي، عدل بما يأمر، عدل بما ينهي، عالم بما يأمر، عالم بما ينهي.

❁ وقال أحمد: الناس محتاجون إلى مُدارة ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجل مُعلنٌ بالفسق فلا حُرمة له... قال: وكان أصحاب ابن مسعود إذا مَرُّوا بقوم يرون منهم ما يكرهون، يقولون: مهلاً رحمكم الله، مهلاً رحمكم الله. وقال أحمد: يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر لنفسه... والله أعلم^(٤).

❁ رابعاً: الصبر والثبات:

قال تعالى حاكياً عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَبْنِئْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].
وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مسلم بشرح النووي (٢ / ٣٢) بتصرف.

(٤) جامع العلوم والحكم/ للإمام ابن رجب الحنبلي (ص: ٢٤٦، ٢٤٧) بتصرف.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٢].

فكان الله يطلب من الداعية الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يتصف بصبر الإبل وسمو السماء وثبات الجبال وذلة الأرض.. فإذا اتصف بتلك الصفات جاءه الخطاب من الحق (جل وعلا): ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾. ولا شك أن من يأمر وينهى سوف يجد الطريق شاقاً مملوءاً بالأشواق فعليه أن يصبر ويحتسب كل ذلك عند الله.

ومن تعايش مع سيرة الحبيب ﷺ يعلم كيف عانى النبي ﷺ وكيف صبر على أذى المشركين... وفي النهاية.. فالكل موقوف أمام الله وسيحكم بين العباد في هذا اليوم العصيب.

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

❁ خامساً: ألا يفتش عن عورات الناس:

قال الإمام النووي:

قال أقضى القضاة الماوردي: ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات... فإن غلب على الظن استسرار قوم به لأمانة وآثار ظهرت، فذلك ضربان:

أحدهما: أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلا برجل ليقنتله، أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في هذه الحال أن يتجسس، ويقدم على الكشف والبحث حذراً من فوات ما يُستدرك... وكذا لو عرف ذلك غير المحتسب من المتطوعة، جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار.

الضرب الثاني: ما قصر عن هذه الرتبة فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه... فإن سمع صوت الملاهي المنكرة من دارٍ أنكرها خارج الدار، لم يهجم عليها بالدخول؛ لأن المنكر ظاهر، وليس عليه أن يكشف عن الباطن^(١).

❁ **سادساً: لا يشترط في الأمر والنهي أن يكون كامل الحال:**

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قال العلماء: ولا يشترط في الأمر والنهي أن يكون كامل الحال، ممثلاً بما يأمر به، مجتنباً ما ينهى عنه... بل عليه الأمر، وإن كان مُخْلاً بما يأمر به، والنهي وإن كان متلبساً بما ينهى عنه... فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاها، فإذا أخلَّ بأحدهما كيف يُباح له الإخلال بالآخر؟^(٢).

❁ **سابعاً: أن يجب الخير والهداية للناس من حوله:**

قال رَحِمَهُ اللهُ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه...»^(٣).

ومعنى لا يُسلمه: أى لا يتركه واقعاً في الإثم ويتخلَّى عنه. ويقول: مالى وماله... فهذه الكلمة غريبة، ودخيلة على المجتمع المسلم يردها هذا الحديث... فحق الموالاة والأخوة والنصرة يُوجب على المسلم أن ينصح لأخيه ويتدخل فيما يعينه وينفعه فيقوم عوجه ويصلح من أمره ما وسعه وذلك أرقى درجات الإيمان.

فعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٤).

(١) مسلم بشرح النووي (٢ / ٣٣، ٣٤) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢ / ٣٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

إخواني وأحابي: إن أجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عظيم وهو من المجاهدين ... فعن علي عليه السلام قال: «للجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنان الفاسقين».

فمن أمر بالمعروف شدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى الذي عليه وأحرز دينه ومن شنأ الفاسقين غضب الله ومن غضب الله يغضب الله له.

والناس في هذه الحياة أصناف. فمنهم صنف ضال لا خير فيه وهو شر على غيره. ومنهم صنف سلبي لا خير فيه ولا شر منه... ومنهم صنف صالح في ذاته لكن لا خير فيه لغيره... ومنهم صنف صالح في ذاته ولكن فيه خير وإصلاح لغيره.

ولا شك أن أكمل الناس نفساً وأرفعهم درجة هو الذي صلح في ذاته، ثم امتد بالإصلاح إلى الآخرين... وهؤلاء هم الأمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، المتبرعون بفعل الخير المتطوعون لإنقاذ الناس.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]^(١).

❁ ثامناً: أن يفعل ذلك على قدر طاقته:

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وبذلك فإن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يفعل ذلك كله على قدر طاقته واستطاعته ويترك النتائج لمن يملك الهداية (سبحانه وتعالى). ومن أجل ذلك قال عليه السلام: «ومن لم يستطع فبقبله وذلك أضعف الإيمان».

(١) المختار في أحكام وآداب الحديث في شهر رمضان/ إعداد مجموعة من طلبة العلم في القصيم (ص: ١٩٤، ١٩٥) ط. دار الوطن العربي.

وهذا أكبر دليل على أن هذا الأمر يتوقف على القدرة والاستطاعة وأن الذى لا يستطيع أن ينكر إلا بقلبه لا يؤمر بأن ينكر بيده أو بلسانه.

❁ ولا يختص الأمر والنهي بأصحاب الولايات :

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ :

قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لأحد المسلمين... قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاية فى الصدر الأول والعصر الذى يليه، كانوا يأمرون الولاية بالمعروف وينهونهم عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من غير ولاية والله أعلم... ثم إنه إنما يأمر وينهى مَنْ كان عالمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة، كالصلاة والصيام، والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومما يتعلق بالاجتهاد، لم يكن للعوام مدخل فيه ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء.

ثم العلماء إنما ينكرون ما أجمع عليه أما المختلف فيه فلا إنكار فيه.

❁ تاسعاً: النظر فى مراتب إنكار المنكر من حيث المصالح والمفاسد :

يختلف المنكر قوة وضعفاً، فتارة يكون من الشرك، وتارة يكون من المعاصى، هذا من جانب.

فإذا كان المنكر الذى أمامك درجات فى حد ذاته، فابدأ بأكبره وأعظمه. ولنوضح ذلك بالمثال التالى:

لنفرض أن أمامك زانياً خماراً مشرّكاً؛ وتريد أن تنكر عليه^(١). فهنا تبدأ معه

(١) والإنكار هنا هو الدعوة... والدعوة هى الإنكار وإن قُسمت اصطلاحاً.

بما يصلح معتقده وينقى سريره، ويثبت إيمانه، وبما يردّه إلى التوحيد... فلو قال لا إله إلا الله ودخل في الإسلام، جاء بها مستجمعا لشروطها، ولم يرتكب مانعا من موانع الاستفادة منها، وعنده ما عنده من الكبائر. لو مات عند هذه الخطوة لكان من المسلمين، وكان من أهل الجنة... إن دخل النار طهر منها، وإن لم يدخلها شمله قول الله تعالى: ﴿وَيَعْرِفُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].
إذا... فلنبداً في معالجة المنكر بأهمه وأعظمه، ولتدرج تدرجاً تنازلياً لا تصاعدياً.

✽ وأما مراتب إنكار المنكر من جانب آخر، فقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أربع مراتب وهي:

المرتبة الأولى: أن يغلب على ظنك أنك إذا أنكرت هذا المنكر أن يحل محله معروف.

المرتبة الثانية: أن يغلب على ظنك أنك إذا أنكرت المنكر أن يخفّ المنكر.
المرتبة الثالثة: أن يتساويا... أي بمعنى أنه قد يترك المنكر الذي هو واقع فيه، لكن ينتقل إلى منكرٍ يساويه.

المرتبة الرابعة: أن ينتقل من منكرٍ إلى ما هو أشد وأنكى منه.

✽ قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

أما الأولان فمشروعان: يعنى إذا كان إنكار المنكر يؤدي إلى إحلال معروف، أو يخفف المنكر فهذا لا يختلف عليه.

وأما الثالثة إذا تساويا: يعنى إذا خرج من كبيرة أنكرتها عليه، وذهب وارتكب كبيرة مشابهة لها. فيقول رحمه الله: «أما هذا فمحل اجتهد». بمعنى أن الإنسان يجتهد إن رأى المصلحة في الإنكار عليه أنكر، وإن رأى المصلحة في تركه فليتركه.

وأما الرابعة وهي الخطرة: وقد قال: «إذا رأيت من هو على منكر وأنكرت



عليه وترك ما هو فيه لذهب وارتكب ما هو أشد منه». ويضرب رَحِمَهُ اللَّهُ لهذا بمثال:

يقول: فلو أن رجلاً كان مُعْرِماً بقراءة كتب الجنس والروايات والغرام ومُنْهَمِكاً في هذا الأمر. وعنده رغبة في القراءة والاطلاع. ولكنك إذا أنكرت عليه وترك هذا المنكر لانتقل إلى كتب الابتداع والإلحاد. أيهما أشد ضرراً؟... يقول: (تركه على كتب الجنس الصادر عن مرض الشهوة. لئلا ينتقل إلى كتب الابتداع والإلحاد الصادر عن مرض الشبهة).

ومعلوم أن مرض الشبهة أشد وأنكى من مرض الشهوة.

فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (مثل هذا دعه لا تنقله من سوءٍ إلى ما هو أشد منه).

✽ وينقل الإمام ابن القيم عن شيخه (شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ) أنه قال: (مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار يقوم منهم يشربون الخمر فأنكر عليهم مَنْ كان معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدّهم الخمر عن قتل النفوس، وسبي الذرية، وأخذ الأموال فدَعَهُمْ) ^{(١)(٢)}.

بِقَوْلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ

(١٨٩) فالأوّل: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» ^(٣).

✽ قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَدْ تَطَابَقَ عَلَى وَجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ

(١) أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حياة الأمة: عبد الله بن حسن آل قعود (ص: ٢٨ - ٣١) بتصرف.

(٢) إعلام الموقعين: للإمام ابن القيم (٣ / ١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

وَأَجْمَاعُ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ النَّصِيحَةِ الَّتِي هِيَ الدِّينُ.

وَأَمَّا قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فَلَيْسَ مُخَالَفًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ ... لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُفِّتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ ... مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كُفِّ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِذَا فَعَلَهُ وَلَمْ يَمَثِلِ الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتَبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْفَاعِلِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا الْقَبُولُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَرَضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ سَقَطَ الْحَرَجُ عَنِ الْبَاقِينَ وَإِذَا تَرَكَهُ الْجَمِيعُ أَثِمَ كُلُّ مَنْ تَمَكَّنَ مِنْهُ بِلَا عُذْرِ وَلَا خَوْفٍ ... ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَعَيَّنُ كَمَا إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا هُوَ أَوْ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ إِزَالَتِهِ إِلَّا هُوَ كَمَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ غُلَامَهُ عَلَى مُنْكَرٍ أَوْ تَقْصِيرٍ فِي الْمَعْرُوفِ ... قَالَ الْعُلَمَاءُ رحمهم الله: وَلَا يَسْقُطُ عَنِ الْمُكَلَّفِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ لِكَوْنِهِ لَا يُفِيدُ فِي ظَنِّهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِعْلُهُ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ لَا الْقَبُولُ وَكَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ^(١).

❁ واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيَّع أكثره في هذا الزمان .. فإذا كثر الخَبَثُ فَإِنَّ الْعِقَابَ سَوْفَ يَعْمُ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ... وإذا لم يأخذ الناس على يد الظالم أو شك أن يعمهم الله بعقابٍ من عنده .. وإذا دعوا الله ﷻ فإنه لا يستجيب لهم.

كما قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» ^(٢).

(١) مسلم بشرح النووي (٢/٢٩-٣٠) بتصرف.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

وَأَمَّا صِفَةُ النَّهْيِ وَمَرَاتِبُهُ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ».. فَقَوْلُهُ ﷺ: «فَبِقَلْبِهِ» مَعْنَاهُ فَلْيُكْرِهْهُ بِقَلْبِهِ وَلَيْسَ ذَلِكَ بِإِزَالَةٍ وَتَغْيِيرٍ مِنْهُ لِلْمُنْكَرِ وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي فِي وَسْعِهِ ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ» مَعْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَقْلَهُ ثَمَرَةً.

فَإِنْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنْ تَغْيِيرُهُ بِيَدِهِ يُسَبِّبُ مُنْكَرًا أَشَدَّ مِنْهُ مِنْ قَتْلِهِ أَوْ قَتْلِ غَيْرِهِ كَفَّ يَدَهُ، وَاقْتَصَرَ عَلَى الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ وَالْوَعْظِ وَالتَّخْوِيفِ، فَإِنْ خَافَ أَنْ يُسَبِّبَ قَوْلُهُ مِثْلَ ذَلِكَ غَيْرَ بِقَلْبِهِ وَكَانَ فِي سَعَةٍ^(١).

وَدَلَّ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ» عَلَى أَنْ إِنْكَارَ الْمُنْكَرِ يَجِبُ بِحَسَبِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ... أَمَا إِنْكَارُ الْقَلْبِ فَلَا بُدَّ مِنْهُ، فَإِذَا لَمْ يَنْكَرِ الْقَلْبُ الْمُنْكَرَ، دَلَّ عَلَى ذَهَابِ الْإِيمَانِ مِنْهُ ... سَمِعَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَجُلًا يَقُولُ: هَلَكَ مَنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ. فَقَالَ: هَلَكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ الْمَعْرُوفَ وَالْمُنْكَرَ.

فَالْإِنْكَارُ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ يَكُونُ بِحَسَبِ الطَّاقَةِ، أَمَا مَعْرِفَةُ الْمَعْرُوفِ وَالْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ فَفَرْضٌ لَا يَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ هَلَكَ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ بُغْضٌ مِمَّا يُبْغِضُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ؛ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ الْإِيمَانُ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ... فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُبْغِضًا لِمَنْ شَاءَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ أَصْلًا؛ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِيمَانٌ أَصْلًا».

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَعْمَلُ أَعْمَالَ الْخَيْرِ كُلِّهَا إِلَّا خَصْلَتَيْنِ: الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ طُمِسَتْ سَهْمَيْنِ مِنْ سَهَامِ الْإِسْلَامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ غُفِرَ لَكَ وَإِنْ شَاءَ عَذِبَكَ».

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٢-٣٣) بتصرف.

❁ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

وينبغي لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون فقيهاً قبل الأمر، رفيقاً عند الأمر، ليسلك أقرب الطرق في تحصيله .. حليماً بعد الأمر، لأن الغالب أنه لا بد أن يصيبه أذى ... كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

قال سفيان الثوري: «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى»^(١).

ومن الحكمة والفتنة أن لا يُغير المنكر مَنْ كان على يقين أن تغييره للمنكر سيرتب عليه منكرٌ أكبر من الأول.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ وَنُورَ ضَرِيحَهُ يَقُولُ: مَرَرْتُ أَنَا وَبَعْضُ أَصْحَابِي فِي زَمَنِ التَّارِ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مَعِيَ، فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تُصَدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ وَنَسْبِ الذُّرِّيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ فَدَعَهُمْ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٠) الثَّانِي: عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ

(١) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ٢٠٤).

(٢) إعلام الموقعين (٣/ ١٦).



جَاهِدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وليس وراءَ ذلك مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ^(١).

قَوْلُهُ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ»، أى: ما من رسول من الرسل المتقدمة. ويعنى بذلك: غالب الرسل، لا كُلَّهُمْ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الآخر الذى أخبر فيه عن مجيء الأنبياء فى أممهم يوم القيامة؛ فإنه قال فيه: «يَأْتِي النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»^(٢) والحواريون: جمع حواري، وهم خُلَصَانُ الأنبياء^(٣)، الذين أخلصوا فى حب أنبيائهم، وخلصوا من كُلِّ عَيْبٍ ...

قال ابنُ الأنباري: هم الْمُخْتَصَّصُونَ الْمُفْضَلُونَ. وَسُمِّيَ خَبِزُ الْحَوَارِي؛ لَأَنَّهُ أَشْرَفُ الْخَبِزِ. وقيل: هم الناصرون للأنبياء. كما قال عليه الصلاة والسلام: «لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ»^(٤)، وحواريّ الزبير^(٥).

وهؤلاء الحواريون والأصحاب المقربون من ذلك النبي لا يكتفون بقربهم منه وَحُبِّهِمْ لَهُ بَلْ كَانُوا يَحْرِصُونَ غَايَةَ الْحِرْصِ عَلَى اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَلِذَا قَالَ ﷺ: «يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ».

✽ ثم تمر الأيام وتأتى الأجيال وراء الأجيال ويتناقص الإيمان فى قلوبهم ... ولذا فإنهم يقولون ما لا يفعلون، أى يتشبعون بما لم يُعْطُوا وينسبون لأنفسهم ما لا يفعلوه من طاعة أو حالٍ أو مقام «ويفعلون ما لا يؤمرون» أى: يفعلون خلاف المأمور به من المنكرات التى لم يأتِ بها الشرع.

«فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ» ليزيل هذا المنكر دون أن يُسبب مفسدة أو منكراً أعظم من الأول «فهو مؤمن» كامل الإيمان .. «وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ» بأن أنكر عليهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٥٢) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٤٨).

(٤) أى: خاصة الأنبياء.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤١٥) كتاب فضائل الصحابة.

واستعان بمن يدفع ذلك المنكر «فهو مؤمن .. ومن جاهدتهم بقلبه فهو مؤمن» وتتفاوت مراتب كمال الإيمان بتفاوت ثمراته «وليس وراء ذلك» أى: كراهة المنكر بالقلب «من الإيمان حبة خردل» فليس هناك مرتبة أقل من الإنكار بالقلب ... وذلك بأنك إن لم تستطع أن تُزيل المنكر فاحرص على أن تزول أنت عنه وتترك مكان المنكرات والمعاصي.

قال القرطبي: الإيمان هنا بمعنى الإسلام، والمراد أن آخر خصال الإيمان المتعينة على العبد وأضعفها الإنكار بالقلب ولم يبق بعدها رتبة أخرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩١) الثالث: عن أبي الوليد عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بايعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ بُرْهَانٌ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً»^(١).

✽ إن السمع والطاعة لولاءة أمر المسلمين أصل من أصول الدين الذي ندين الله به، فإنه لا دين إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمامة، ولا إمامة إلا بسمع وطاعة... وقد أجمع أهل السنة والجماعة على وجوب السمع والطاعة لولاءة الأمور استنادًا إلى النصوص الواردة في ذلك، ومنها.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ

مِنْكُمْ» [النساء: ٥٩]

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد بأولي الأمر: مَنْ أوجب الله طاعته من الولاة والأُمراء، وهو قول جماهير السلف والخلف من المفسرين، والفقهاء،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٥٦) كتاب الفتن، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة.

«الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ»: أى: في السَّهْلِ وَالصَّعْبِ - «وَالْأَثَرَةُ»: الاختصاصُ بِالمُشْتَرَكِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهَا - «بَوَاحًا»: أى ظَاهِرًا لَا يَخْتَمِلُ تَأْوِيلًا.



وغيرهم... وقيل: هم العلماء وقيل: هم الأمراء والعلماء»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «والظاهر والله أعلم أنها عامّة في كلّ أولى الأمر من الأمراء والعلماء»^(٢).

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ أنه قال: «على المرء المسلم السَّمْعُ والطَّاعَةُ فيما أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٣).

قال الإمام القليعي: «ولا يفهم من ذلك أنه إذا أُمِرَ بمَعْصِيَةٍ فلا يُسمع له مُطلقاً في كلّ أوامره، بل يُسمع له ويُطاع مُطلقاً إِلَّا في المَعْصِيَةِ، فلا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٤).

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السَّمْعُ والطَّاعَةُ في عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»^(٥).

قال العلماء: معناه: تجب طاعة وُلاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمَعْصِيَةٍ، فإن كانت مَعْصِيَةٍ فلا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ.

✽ فهنا بنا نعود مرة أخرى إلى حديث عبادة بن الصامت لتتعايش معه بقلوبنا وأرواحنا.

✽ قال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة»
أى: بايع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ رسول الله ﷺ على السمع والطاعة.. أى لكل مَنْ وَلَّاهُ الله الأمر عليهم.. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقد سبق أن وَضَحْنَا مَنْ هم أولو الأمر وقلنا

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/٢٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٥١٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٤٤) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٩) كتاب الإمارة.

(٤) تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص ١١٤).

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.

أنهم طائفتان: العلماء والأمراء .. فالعلماء هم أولو الأمر في العلم والبيان .. والأمراء هم أولو الأمر في التنفيذ والسلطان.

فكانت البيعة على السمع والطاعة في كل شيء إلا في معصية الله عز وجل؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه حين تولى الخلافة، قال: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.

لأنه كيف نطيع عبداً مثلنا إذا أمرنا بمعصية الخالق (جلّ وعلا) فالأمراء والسلاطين عبيدٌ لله .. فكيف نطيعهم في معصية مَنْ خَلَقْنَا وخلقهم؟!!

❖ وقوله: «في العسر واليسر» يعنى بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لأولى الأمر في العسر واليسر .. يعنى سواء كنا في سعة من المال أو كنا مُعسرين ليس معنا إلا القليل .. ففى كلا الحالين لا بُدَّ أن نسمع ونطيع لأولى الأمر ما دام أن النبى ﷺ قد أمرنا بذلك .. ونحن قد بايعناه على ذلك.

❖ قوله: «والمنشط والمكره» أى: علينا أيضاً بالسمع والطاعة فى أى أمرٍ ليس فيه معصية لله (جلّ وعلا) سواء كان هذا الأمر يوافقنا ويلائمنا أو كنا كارهين لهذا الأمر لا نريدُه ولا نهواه .. ففى الحاليتين لا بُدَّ أن نسمع ونطيع.

❖ «وعلى أثره علينا» .

قال الإمام النووي رحمته الله: «الأثرُ: الاستِثْارُ والإِختِصاصُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ أَيْ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اخْتَصَّ الْأَمْرَاءُ بِالدُّنْيَا وَلَمْ يَصِلْكُمْ حَقُّكُمْ مِمَّا عِنْدَهُمْ»^(١).

أيها الناس: إن الله سبحانه وتعالى حمّل الوُلاة، وأوجب عليهم العدل بين الناس ، فإذا لم يُقيموه أثموا... وحمّل الرعيّة السمع والطاعة لهم، فإن قاموا بذلك كان الفوز والفلاح، والنجاة من الفتن، وإلا أثموا.

(١) شرح مسلم (١٢/ ٢٢٥).

ففى «صحيح مسلم» من حديث علقمة بن وائل الحضرمي، عن أبيه، قال: سأل مسلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، أرايت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سألته، فأعرض عنه، ثم سألته في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس، وقال: «اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا، وعليكم ما حملتم»^(١).

✽ قوله: «وعلى أثرة علينا» أى: علينا أن نسمع لهم ونطيع حتى لو استأثروا علينا بالأموال وغيرها من متاع الدنيا الزائل.. وحتى لو سكنوا القصور وكنا نسكن في الأكواخ ونعيش على الكفاف... فيجب علينا السمع والطاعة ابتغاء مرضاة الله عز وجل.. لأن الدنيا كلها إلى زوال فهي متاع زائل وسوف نتقل جميعاً إلى الدار الآخرة حيث يحاسب الله عز وجل كل إنسان على ما قدمه وعلى ما فعله في هذه الحياة الدنيا.

وقد أمرنا النبي ﷺ بالسمع والطاعة حتى لو استأثروا علينا بالمال.. بل حتى لو أخذوا أموالنا.. فقد قال ﷺ: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأَخَذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِع»^(٢) ولا بد أن نعلم أننا سوف نقتص من كل من ظلمنا يوم القيامة، وسنأخذ من حسناتهم بقدر مظلمتنا.. فإن فئيت حسنات من ظلمنا فسوف يؤخذ من سيئاتنا وتطرح عليه ثم يطرح في النار.

✽ ثم قال: «وَأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ» يعنى لا ننازع ولاية الأمور ما ولاهم الله علينا، لنأخذ الإمرة منهم، فإن هذه المنازعة توجب شراً كثيراً، وفتناً عظيمة، وتفرقاً بين المسلمين.

✽ «وَعَلَى الْأَلَّا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ» فذلك أربعة شروط إذا رأيناها فحينئذ يجوز أن ننازع الأمر أهله ونحاول

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٦) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٧) كتاب الإمارة.

إزالتهم عن ولاية الأمر .. وإليك هذه الشروط الأربعة:

(١) أن نرى كُفْرًا بواحًا .. فلا يجوز أن نخرج على الأئمة وولاية الأمر بمجرد الظن بل لا بُدَّ من علم نتيقن من خلاله أن ما يفعلونه هو كفرٌ بواح. (٢) أن نعلم أن هذا كفرٌ وليس فسقًا ... فلا يجوز الخروج على ولاة الأمور لفسقهم .. كأن يشربوا الخمر أو يزنوا أو يظلموا ... لا يجوز الخروج عليهم؛ لأن المفسدة التي ستحدث من وراء ذلك أكبر بكثير .. لكن إذا رأينا كُفْرًا بواحًا يجوز لنا الخروج عليهم.

(٣) الكفر البواح ... وهذا معناه الكفر الصريح، والبواح الشيء البين الظاهر ... فأما ما يحتمل التأويل فلا يجوز الخروج عليهم ... يعني لو قدرنا أنهم فعلوا شيئاً نرى أنه كفر، لكن فيه احتمال أنه ليس بكفر، فإنه لا يجوز أن ننازعهم أو نخرج عليهم ونولهم ما تولوا.

لكن إذا كان بواحاً صريحاً مثل لو أن ولي من ولاة الأمور قال لشعبه: إن الخمر حلال، اشربوا ما شئتم، وإن اللواط حلال، وإن الزنى حلال .. ازنوا بمن شئتم، فهذا كفرٌ بواح ليس فيه إشكال ... فهذا يجب على الرعية أن يُزيلوه بكل وسيلة ... لأن هذا كفرٌ بواح.

(٤) «عندكم فيه من الله برهان» ... يعني عندنا دليل قاطع على أن هذا كفر، فإن كان الدليل ضعيفاً في ثبوته، أو ضعيفاً في دلالة، فإنه لا يجوز الخروج عليهم؛ لأن الخروج فيه شرٌّ كثيرٌ جداً ومفاسد عظيمة.

وإذا رأينا هذا مثلاً فلا تجوز المنازعة حتى تكون لدينا قدرة على إزاحته ... فإن لم يكن لدينا قدرة فلا تجوز المنازعة؛ لأنه ربما إذا نازعنا وليس عندنا قدرة يُقضى على البقية الصالحة، وتتم سيطرته.

فهذه الشروط .. شروط للجواز أو للوجوب - وجوب الخروج على ولي الأمر - لكن بشرط أن يكون لدينا قدرة، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا يجوز

الخروج؛ لأن هذا من إلقاء النفس في التهلكة.

✽ حق الناس على ولاة الأمر أن يعدلوا فيهم، وأن يتقوا الله تعالى فيهم، وألا يشقوا عليهم، وألا يولوا عليهم مَنْ يجدون خيرًا منه، فإن النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ»^(١) دعاء من الرسول (عليه الصلاة والسلام): أَنْ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا كَانَ أَمُّ كَبِيرًا وَشَقَّ عَلَيْهِمْ، قال: «فاشقق عليه»، وما ظنك بشخصٍ شَقَّ اللهُ عليه والعياذ بالله... إنه سوف يخسر ويضيع... وأخبر النبي (عليه الصلاة والسلام) أنه: «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ»^(٢). لأنه يجب على الأمير أن ينصح للرعية، ويختار لها الأصلح.

وأما قول بعض الناس: إنه لا تجب علينا طاعة ولاة الأمور إلا إذا استقاموا استقامة تامة، فهذا خطأ وهذا غلط وهذا ليس من الشرع في شيء، بل هذا من مذهب الخوارج، الذين يريدون من ولاة الأمور أن يستقيموا على أمر الله في كل شيء، وهذا لم يحصل من زمن فقد تغيرت الأمور.

ويذكر أن أحد ملوك بني أمية سمع أن أناسًا يتكلمون فيه وفي خلافته، فجمع أشرف الناس ووجهاءهم وتكلم فيهم، وقال لهم: إنكم تريدون منا أن نكون مثل أبي بكر وعمر؟ قالوا: نعم، أنت خليفة وهم خلفاء، قال: كونوا أنتم مثل رجال أبي بكر وعمر نحن مثل أبي بكر وعمر.

وهذا جوابٌ عظيم... فالناس إذا تغيروا لَا بُدَّ أَنْ يُغَيِّرَ اللهُ ولا تهم، كما تكونون يُؤَلَّى عليكم. أما أن يريد الناس من الولاية أن يكونوا مثل الخلفاء وهم أبعد ما يكونون عن رجال الخلفاء، هذا غير صحيح... والله حكيم ﷻ:

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٢) كتاب الإيمان.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] ^(١).

✽ ويجب على الرعية أن ينصحوها لولى الأمر نصيحة خالصة لوجه الله عز وجل ومُغلَفة بالأدب حتى يتقبل منهم النصيحة.

✽ ويجب على الرعية أن تُصلح حالها مع الله حتى يُصلح الله لهم ولالة أمورهم .. فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف يشاء.

✽ وعلينا أن نُكثر من الدعاء لولالة الأمور بأن يُصلحهم الله عز وجل وأن يأخذ بناصيتهم إليه، وأن يستعملهم في حفظ الدين وتحكيم الشريعة ومحاربة أعداء الإسلام.

كان الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله يقول: لو كان لى دعوة مُستجابة لاختبأتها للحاكم .. قالوا: لماذا؟

قال: لأن بصلاحه تصلح الرعية كلها.

✽ وينبغى علينا أن نبذل النصيحة لأولياء الأمور بطريقة مباشرة إن استطعنا .. فإن لم نستطع فنبذلها لمن يستطيع أن يوصلها له .. لكن لنحرص على ألا نخوض في أعراضهم بالغيبة والقذف والبُهتان؛ لأن هذا سيكون في ميزان سيئاتنا .. وإذا وصل إليهم فإنه سيُوغر صدورهم على رعيتهم فيزدادون ظُلمًا لهم .. ونحن لا نريد أن نُغير منكرًا بمنكرٍ أشد منه.

وليس معنى ذلك أن نسكت على الخطأ ولا نغير المنكر .. كلا .. بل نغير ولكن بالوسائل المشروعة التى تعلمناها من النبى ﷺ.

✽ قوله: «وعلى أن نقول بالحق أينما كُنَّا لا نخاف في الله لومة لائم».

يعنى أن نقوم بالحق الذى هو دين الإسلام وشرائعه العظام أينما كنا، يعنى فى أى مكان، سواء فى البلد، أو فى البر، أو فى البحر، أو فى أى مكان، وسواء فى

بلاد الكفر، أو في بلاد الإسلام، نقوم بالحق أينما كنا، لا تأخذنا في الله لومة لائم، يعنى لا يهمنا إذا لامنا أحد في دين الله، لأننا نقوم بالحق. فمثلاً لو أراد الإنسان أن يطبق سنة يستنكرها العامة، فإن هذا الاستنكار لا يمنع الإنسان من أن يقوم بهذه السنة... ولكن علينا أن نقول كلمة الحق بكل أدب ورفق ورحمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٢) الرابع: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»^(١).

﴿مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ، وَالْوَاقِعِ فِيهَا﴾ «الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ» يشمل معنيين: المعنى الأول: أى مثل الذى استقام على دين الله عز وجل فقام بالواجب وترك المحرم..

والمعنى الثانى: أى مثل من وسد إليه أمرها وجعل له الولاية عليها، والقيام بحفظها ورعايتها من الولاية والقضاة؛ يعينهم فى ذلك من المسترشدين والدعاة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

والدليل على المعنى الثانى تلك الرواية الأخرى والتى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم: «مثل القائم على حدود الله».

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٤٩٣) كتاب الشركة.

«القائم فى حدود الله تعالى» معناه: المنكر لها، القائم فى دفعها وإزالتها والمراد بالحدود: ما نهى الله عنه - «استهملوا» اقترعوا.

❁ أما قوله: «وَالْوَاقِعِ فِيهَا» أى: الواقع فى حدود الله الذى يفعل المحرم ويترك الواجب.

❁ «كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ» أى: اقترعوا أيهم يكون أعلى السفينة وأيهم يكون أسفلها.

«فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا» أى: صار بعضهم أعلى السفينة والآخرين أسفل السفينة.

«وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ» أى: أن الذين فى أسفل السفينة كانوا إذا طلبوا الماء ليشربوا أو ليستعملوه فى أى شىء آخر «مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ» أى: اضطروا إلى أن يمرؤا على من فوقهم حتى يستطيعوا أن يحصلوا على الماء من النهر.

«فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيغِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا» أى: لو أننا خرقنا خرقاً فى أسفل السفينة لنحصل منه على الماء بدلاً من أن نصعد إلى أعلى السفينة كلما احتجنا إلى الماء فترجع من فوقنا .. فهذا يكون أفضل.

فقال ﷺ: «فَإِنْ تَرَكَوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا»؛ لأنهم إذا خرقوا خرقاً فى أسفل السفينة دخل الماء، ثم أغرق السفينة، «وإن أخذوا على أيديهم» ومنعواهم من ذلك «نَجُوا وَنَجُوا جَمِيعًا» يعنى نجا هؤلاء وهؤلاء.

❁ وهذا المثل الذى ضربه النبى ﷺ هو من الأمثال التى لها مغزى عظيم ومعنى عالٍ... فالناس فى دين الله كالذين فى سفينة فى لجة النهر .. فهم تتقاذفهم الأمواج، ولا بد أن يكون بعضهم إذا كانوا كثيرين فى الأسفل وبعضهم فى الأعلى، حتى تتوازن حمولة السفينة، وحتى لا يضيق بعضهم على بعض، وفيه أن هذه السفينة المشتركة بين هؤلاء القوم إذا أراد أحد منهم أن يخربها، فإنه لا بُدَّ أن يمسكوا على يديه، وأن يأخذوا على يديه، لينجوا جميعاً، فإن لم

يفعلوا هلكوا جميعاً... هكذا دين الله، إذا أخذ العقلاء وأهل العلم والدين على الجهال والسفهاء نجوا جميعاً، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً... كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي هذا المثل دليل: على أنه ينبغي لمُعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال، ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس... قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وكم من إنسانٍ تشرح له المعنى شرحاً كثيراً وتُرده عليه فلا يفهم، فإذا ضربت له مثلاً بشيء محسوس يعرفه، فهم^(١).

❁ وفي هذا الحديث: إثبات القرعة وأنها جائزة... وقد وردت الآيات والأحاديث بالقرعة في موضعين من كتاب الله، وفي ستة مواضع من سنة الرسول ﷺ... أما عن الموضعين من كتاب الله، وكلكم يقرأهما والحمد لله:

❁ الموضع الأول في سورة آل عمران: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فإنه لما كان عمران ذلكم العالم الجليل والد مريم قد مات وهي في بطن أمها فقد أراد علماء وشيوخ ذلك الزمان أن يربوا مريم ويكفلوها.

- وكان كل واحدٍ منهم حريصاً كل الحرص على أن ينال هذا الشرف وذلك بأن يكفل ابنة شيخهم وعالمهم الجليل وإمامهم عمران.

فقام زكريا عليه السلام وقال: أنا أكفلها لأنها قريبتى .. فزوجتني خالتها وأنا نبي هذه الأمة فأنا أولى الناس بها.

فقال العلماء والشيوخ: ولماذا لا يكفلها أحدنا؟ فنحن أيضاً نحرص على الفوز بهذا الأجر والثواب.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٣) بتصرف.

وفي النهاية اتفقوا جميعاً على إجراء قُرعة يتم من خلالها اختيار مَنْ يكفل مريم .. فمن وقعت عليه القُرعة فهو الذى سيكفلها ويربها ويكون له شرف خدمتها حتى تكبر وتخدم بيت المقدس وتتفرغ لعبادة الله (جل وعلا).

وتمَّت القُرعة .. وذلك بأنهم جاؤوا بمريم ووضعوها وهى مولودة صغيرة على الأرض ووضعوا إلى جوارها أقلام الذين يرغبون فى كفالتها ثم أحضروا طفلاً صغيراً وأمروه أن يختار قلماً من تلك الأقلام الموضوعة بجوار مريم. فما كان من الطفل إلا أنه أخرج قلم زكريا عليه السلام.

فاعترض العلماء والشيوخ وقالوا: نريد أن تكون القُرعة ثلاث مرات. فوافق نبي الله زكريا عليه السلام.

وقاموا بإجراء القُرعة الثانية وذلك بأن حفر كل واحد منهم اسمه على قلم خشبي وقالوا: نُلقي أقلامنا فى النهر فمن سار قلمه ضد التيار وحده فهو الذى سيكفل مريم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وألقوا أقلامهم فى النهر فسارت كل الأقلام مع التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام فقد سار قلمه وحده ضد التيار .. ومع ذلك لم يقتنعوا وأصرّوا أن يعملوا القُرعة للمرة الثالثة.

وبالفعل أجروا القُرعة للمرة الثالثة وقالوا: فى هذه المرة الأخيرة سنُلقي أقلامنا فى النهر فمن سار قلمه مع التيار وحده يكفل مريم.

وألقوا الأقلام فسارت كل الأقلام ضد التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام فقد سار قلمه مع التيار .. وهنا فقط وافقوا على أن يعطوا مريم لزكريا عليه السلام ليكفلها. فأخذها زكريا عليه السلام ليربها ويُعلمها ويكرمها... وهذا من سعادتها، لتقتبس



من هذا النبي الكريم العلم النافع والعمل الصالح.

وأصبح بعد ذلك لها مكان خاص تعيش فيه في المسجد .. محراب تتعبد فيه لله (جل وعلا) فقد أخذت الصلاة والعبادة والذكر كل وقتها.

❁ وأما الموضع الثاني ففي سورة الصافات... قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ❁ [الصافات: ١٣٩-١٤٤].

يونس أحد الأنبياء ركب مع قوم في سفينة فضاقت بهم، وقالوا: إن بقينا كلنا على ظهرها هلكنا وغرقت، لا بُدَّ أن نُنْزِلَ بعضنا في البحر، فمَنْ نُنْزِلُ؟ أول راکب، أم أكبر راکب، أم أكبر بدنًا؟ فعملوا قرعة، فصارت القرعة على جماعة، منهم يونس عليه السلام... لأن الآية تقول: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ إذن معه ناس، أنزلوهم، لكن الذين معه الله أعلم بهم لا نعرف ماذا صار لهم.

أما هو فالتقمه حوتٌ عظيم، أى: ابتلعه بلعًا فصار في بطن الحوت، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فسمع صوته الملائكة فشفعت له عند الله فقبل شفاعتهم فأمر الحوت فلفظه الحوت على سيف البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، مثل قرع النجد... فقرع النجد لين وأوراقه لينة، ومن خصائصه أنه لا يقع عليه الذباب، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى ترعرع بعد أن بقي في بطن الحوت فترة، ثم أنجاه الله عز وجل ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٣) الخامس: عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ هِنْدَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ حَدِثَةً رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمْرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ» ^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٥٤) كتاب الإمارة.

❁ في هذا الحديث يُخبر النبي ﷺ أنه سيكون علينا أمراء .. أى سيتولى علينا أمراء من قبل ولى الأمر الذى له البيعة .. وأنه سيكون فى هؤلاء الأمراء ما نعرف وما نُنكر .. أى أنهم لا يستقيمون على أمر الله ولا يقيمون حدود الله .. وقد نرى منهم أحياناً ما لا نُنكره .. لكن فى أغلب الأحوال نرى منهم ما نُنكره.

فمن أنكر عليهم أو حتى كره فعلهم وأنكره بقلبه فقد سلّم ..

فقوله ﷺ: «فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرَى»، معناه مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ الْمُنْكَرَ فَقَدْ بَرَى مِنْ إِثْمِهِ وَعُقُوبَتِهِ وَهَذَا فِي حَقِّ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ انْكَارَهُ بِيَدِهِ وَلَا لِسَانِهِ فَلْيَكْرَهُهُ بِقَلْبِهِ وَلْيَبْرَأْ. وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ» معناه وَلَكِنْ الْإِثْمَ وَالْعُقُوبَةَ عَلَى مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ لَا يَأْتُمُ بِمَجْرَدِ السَّكُوتِ، بَلْ إِنَّمَا يَأْتُمُ بِالرَّضَى بِهِ أَوْ بِأَنْ لَا يَكْرَهُهُ بِقَلْبِهِ أَوْ بِالْمُتَابَعَةِ عَلَيْهِ^(١).

❁ فسألوا الرسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «لا .. ما

أقاموا فيكم الصلاة».

فَفِيهِ مَعْنَى مَا سَبَقَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْخُلَفَاءِ بِمَجْرَدِ الظُّلْمِ أَوْ الْفُسْقِ مَا لَمْ يَغْيُرُوا شَيْئًا مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ.

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّا إِذَا رَأَيْنَا مِنَ الْأُمَرَاءِ مَا نَكْرَهُ فَإِنَّا نَكْرَهُ ذَلِكَ وَنُنْكَرُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ أَدَبٍ.. فَإِنْ اهْتَدَوْا فَالْحَمْدُ لِلَّهِ .. وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا فَقَدْ بَرَأَتْ ذِمَّتُنَا أَمَامَ اللَّهِ وَأَلْقَيْنَا الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ وَسَوْفَ يُحَاسِبُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

❁ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكَرَامُ: إِنْ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَجُوبُ انْكَارِ الْمُنْكَرِ بِالضُّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا السُّنَّةُ، وَكَانَ عَلَيْهَا سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَمِنْهَا: أَنْ يُنَاصَحَ وَلَا تُؤْمَرُ الْأُمُورُ سِرًّا فِيمَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنْ مُنْكَرَاتٍ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى

= معناه: مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ انْكَارًا بِيَدِهِ وَلَا لِسَانٍ فَقَدْ بَرَى مِنْ الْإِثْمِ وَأَدَّى وَظِيفَتَهُ، وَمَنْ أَنْكَرَ بِحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الْمَعْصِيَةِ، وَمَنْ رَضِيَ بِفَعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ، فَهُوَ الْعَاصِي.

(١) مسلم بشرح النووي (١٢/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

رؤوس المنابر، وفي مجامع الناس؛ لما يَنْجُمُ عن ذلك - غالباً - من تأليب العامة، وإثارة الرعاع عليهم، وإشعال الفتن^(١).

والعمدة في ذلك ما أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة»، والحاكم في «المستدرک» بسندٍ صحيح، صحَّحه الألباني في كتابه «ظلال الجنة في تخريج السنة» من حديث عياض بن غنم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ، فَلَا يُبْدِ لَهُ عَلَانِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ، فَيُخْلُوَ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ»^(٢).

فهذا الحديث أصلٌ في إخفاء نصيحة السلطان، وأن الناصح إذا قام بالنصح على هذا الوجه، فقد برئ وخَلَّتْ ذِمَّتُهُ... والحُجَّةُ إنما هي في حديث رسول الله ﷺ لا في قولٍ أو فعلٍ أحدٍ من الناس مهما كان.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٥١) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿[النور: ٥١-٥٢].

أيها الإخوة الكرام: إن النصيحة لؤلاة الأمور يجب أن تكون سراً بُنَاءً على هذا الحديث العظيم.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمته الله^(٣): «ليس من منهج السلف التشهير بعُيُوب الوُلاة، وذِكْرُ ذلك على المنابر؛ لأن ذلك يُفضي إلى الانقلابات، وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويُفضي إلى الخروج الذي يضرُّ ولا ينفع... ولكن الطريقة المُتَّبعة عند السلف: النصيحةُ فيما بينهم وبين السُّلطان، والكتابة إليه،

(١) انظر كتاب معاملة الحكام / لابن برجس (ص ٤٣).

(٢) السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٢٢)، وظلال الجنة (٢/ ٥٢١-٥٢٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١٠٩٨).

(٣) من فتاوى للشيخ مطبوعة في آخر رسالة حقوق الراعي والرعية (ص ٢٧-٢٨).

أو الاتصال بالعلماء الذين يتصلون به حتى يُوجَّه إلى الخير. وإنكار المنكر بدون ذكر الفاعل: فينكر الربا من دون ذكر مَنْ فعله. ويكفى إنكار المعاصي والتحذير منها من غير ذكر أن فلاناً يفعلها لا حاكماً ولا غير حاكم ...

ولما وقعت الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه قال بعض الناس لأسامة بن زيد رضي الله عنه: «ألا تُتَكَّر على عثمان؟» فقال: «أُنكِرُ عليه عند الناس؟! بل أنكر عليه بيني وبينه، ولا أفتَحُ بابَ شرِّ على الناس».

ومما يدلُّ على إخفاء النصيحة للسلطان والمنع من إعلان الإنكار عليه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث سَعِيدِ بْنِ جُمَهَانَ قَالَ: أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَهُوَ مَحْجُوبُ الْبَصِيرَةِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ - إِلَى أَنْ قَالَ - : قُلْتُ: فَإِنَّ السُّلْطَانَ يَظْلِمُ النَّاسَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ، قَالَ: فَتَنَآوَلَ يَدِي فَغَمَزَهَا بِإِصْبَعِهِ شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: «وَيَحْكُ يَا ابْنَ جُمَهَانَ عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ، عَلَيْكَ بِالسَّوَادِ الْأَعْظَمِ ... إِنْ كَانَ السُّلْطَانُ يَسْمَعُ مِنْكَ، فَأَتَيْهِ فِي بَيْتِهِ، فَأَخْبِرْهُ بِمَا تَعْلَمُ، فَإِنْ قَبِلَ مِنْكَ، وَإِلَّا فَدَعُهُ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِأَعْلَمَ مِنْهُ».

❖ ومن دُرر العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمته الله قوله:

«فإنَّ مُخَالَفَةَ السُّلْطَانِ فيما ليس من ضروريَّات الدِّينِ عَلَنًا، وإنكار ذلك عليه في المحافل، والمساجد، والصُّحف، ومواضع الوعظ - وغير ذلك - ليس من باب النصيحة في شيء، فلا تَعْتَرَّ بِمَنْ يَفْعَلُ ذلك، وإن كان عن حَسَنِ نِيَّةٍ؛ فَإِنَّهُ خِلَافٌ ما عليه السَّلَفُ الصَّالِحُ الْمُقْتَدَى بِهِمْ... والله يَتَوَلَّى هَذَا» ^{(١)(٢)}.

ودلَّ هذا أيضًا على أنه لا يجوز لنا أن نُقاتِلَ الأُمَرَاءَ إذا رأيناهم يرتكبون بعض المنكرات؛ لأنَّ مُقَاتَلَتَهُمْ ستفتَحُ بابَ شرٍّ كبيرٍ ولن يزيدهم ذلك إلا شَرًّا.. ولقد اشترط النبي ﷺ في هذا الحديث شرطًا لقتالهم فقال: «ما أقاموا

(١) مقاصد الإسلام (ص ٣٩٣).

(٢) الصحيح من الأثر في خطب المنبر / الشيخ فيصل الحاشدي (٤٢٣-٤٢٦) بتصرف.

فيكم الصلاة» فدلّ هذا على أنهم إذا لم يقيموا فينا الصلاة فإننا نقاتلهم ولكن بشرط أن يكون لدينا القدرة على ذلك .. لأنه إذا لم يكن لدينا القدرة على ذلك فسوف يقضى على كل الصالحين في هذه البلدة التي يحكمها.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن تارك الصلاة تركاً مطلقاً قد تركها جُحوداً لا يُصلى مع الجماعة ولا يُصلى في بيته فهو كافر .. وقد علمنا أنه لا يجوز قتال ولاية الأمور إلا إذا رأينا كفرًا بواحا عندنا فيه من الله برهان، فإذا أذن لنا النبي ﷺ أن نقاتلهم إذا لم يقيموا الصلاة، دلّ ذلك على أن ترك الصلاة كفرٌ بواحٌ عندنا فيه من الله برهان.

فاللهم ارزق أمتنا ولاية صالحين مُصلحين يأخذون بأيدي الأمة إلى طاعة الله وإلى تحكيم شرع الله ﷻ .. وارزقهم البطانة الصالحة التي تكون عوناً لهم على الخير يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٤) السَّادُسُ: عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ الْحَكَمِ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَرَعَا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَنِلُّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتُحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالتَّى تَلِيَهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»^(١).

❁ وقبل أن أبدأ في شرح هذا الحديث أريد أن أقف وقفة لطيفة عند إسناد هذا الحديث ... فالحديث مروى عن عُرْوَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ حَبِيبَةَ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ... هَذَا الْإِسْنَادُ اجْتَمَعَ فِيهِ أَرْبَعُ صَحَابِيَّاتٍ زَوْجَتَانِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَبِيتَانِ لَهُ بَعْضُهُنَّ عَنْ بَعْضٍ وَلَا يُعْلَمُ حَدِيثُ اجْتِمَاعٍ فِيهِ أَرْبَعُ صَحَابِيَّاتٍ بَعْضُهُنَّ عَنْ بَعْضٍ غَيْرُهُ ... وَأَمَّا اجْتِمَاعُ أَرْبَعَةِ صَحَابَةٍ أَوْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٨٠) كتاب الفتن.

أَرْبَعَةً تَابِعِينَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَوَجَدْتُ مِنْهُ أَحَادِيثَ^(١).

✽ عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.

أسلمت زينب رضي الله عنها قديمًا وهاجرت مع رسول الله ﷺ .. ثم تزوجها رسول الله ﷺ وأصبحت أمًا للمؤمنين .. وكانت قبله تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ثم طلقها فاعتدت، ثم زوّجها الله من رسوله ﷺ وأنزل فيها: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطْرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [الأحزاب: ٣٤] وكانت تفتخر على نساء رسول الله ﷺ وتقول: زوّجكن أهاليكن وزوّجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات^(٢) .. ومناقبها كثيرة جدًا رضي الله عنها ... وأجمع أهل السير أنها أول نساء رسول الله ﷺ موتًا بعده، ودُفنت بالبقيع وصلى عليها عمر بن الخطاب، وهى أول امرأة جُعل عليها النعش.

✽ لقد أخبرت زينب رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وهو فى غاية الفزع وهو يقول: «لا إله إلا الله» تحقيقًا للتوحيد وتثبيتًا له وتطمينًا للقلوب ... ثم أخذ يُحذّر العرب ويقول: «ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترَب».

وحذر العرب؛ لأن العرب هم حاملو لواء الإسلام.. فالله تعالى بعث محمدًا ﷺ فى الأميين، فى العرب: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢، ٣]. فبين النبي (عليه الصلاة والسلام) هذا الوعيد للعرب؛ لأنهم حاملو لواء الإسلام.

وقوله: «مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ» الشر هو الذى يحصل بياجوج ومأجوج، ولهذا فسّره بذلك فقال: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ» وأشار بالسبابة والإبهام... يعنى أنه جزءٌ ضعيف، ومع ذلك فإنه يُهدّد العرب.

(١) مسلم بشرح النووي (٣/١٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٤٢٠) كتاب التوحيد.

فالعرب الذين حملوا لواء الإسلام من عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى يومنا هذا، مُهدّدون من قِبَل يأجوج ومأجوج الذين يفسدون في الأرض، كما حكى تعالى عن ذى القرنين أنه قيل له: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فهم أهل الشر وأهل الفساد.

ويأجوج ومأجوج قبيلتان كان لهما أنواع من الإفساد، حتى بنى ذو القرنين السد، فصار السدُّ حائلاً بينهم وبين الوصول إلى الناس، وهم داخل سدّهم بلا شك عندهم طعامهم وشرابهم، ولهم حياتهم ومعيشتهم الخاصة... ولا يزال يأجوج ومأجوج يجتهدون في سبيل هدم هذا السد، فهم يحفرون وينقبون ويجتهدون.

❁ ولقد أخبرنا النبي ﷺ عن كيفية خروجهم.

وذلك أنهم يحاولون في كل يوم أن يهدموا هذا السد.. فيحفرون في السد كل يوم حتى إذا رأوا شعاع الشمس قال زعيمهم: ارجعوا فستحفرونه غداً. فيعودون في اليوم التالي فيجدوه قد عاد كما كان قبل أن يحفروه. ولا يزالون على تلك الحالة حتى يأتي الموعد الذي حدده الله لخروجهم فيذهبون إلى السد ويحفرونه حتى إذا رأوا شعاع الشمس قال زعيمهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله.

وكان كلمة «إن شاء الله» هي كلمة السر.. فإذا بهم يعودون في اليوم التالي فيجدون السد على هيئته كما تركوه بالأمر فيحفرونه ويخرجون على الناس ويعيثون في الأرض فساداً.

فلا يتركوا شيئاً من الزروع والحبوب والثمار والماشية والأغنام إلا أكلوه.. بل ويشربون الماء كله فلا يتركون للناس نقطة ماءٍ واحدة. ويصبح الناس في همٍّ وغمٍّ لا يعلمه إلا الله.

ويكون في هذا الوقت قد نزل نبي الله عيسى عليه السلام وقتل المسيح الدجال وأصبح كل الناس مؤمنين.

قَالَ عليه السلام: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مَدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَسْتَتْنِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَنْشَفُونَ الْمِيَاءَ، وَيَتَخَصَّنَ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِّ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا^(١) فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا،... وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنْ دَوَّابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكُرُ شُكْرًا^(٢) مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ»^(٣).

❁ وفي آخر الحديث قالت أمنا زينب رضي الله عنها: يا رسول الله أنهلك وفيما الصالحون! قال: «نعم إذا كثرت الخبث»... الصالح لا يهلك وإنما هو سالم ناج، لكن إذا كثرت الخبث هلك الصالحون... لقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

والخبث هنا يراد به شيان: الأول: الأعمال الخبيثة، والثاني: البشر الخبيث. فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة في المجتمع ولو كانوا مسلمين فقد عرّضوا أنفسهم للهلاك. وإذا كثرت فيهم الكفار فقد عرّضوا أنفسهم للهلاك أيضًا... ولهذا حذر النبي (عليه الصلاة والسلام) من بقاء اليهود والنصارى والمشركين في جزيرة العرب... حذر من ذلك فقال: «أخرجوا اليهود والنصارى

(١) هو: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٢) أى: تسمن وتمتلئ شحمًا.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٦).

من جزيرة العرب».

وقال في مرض موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

وقال في آخر حياته: «لئن عشتُ لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة

العرب».

أو قال: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعُ فيها إلا مسلمًا»... هكذا صحَّ عنه (عليه الصلاة والسلام).

ولهذا من تأمل أحوالنا اليوم وقارن بينها وبين أحوالنا بالأمس، وجد الفرق الكبير... ولولا الناشئة الطيبة التي منَّ الله عليها بالاستقامة، والتي نسأل الله أن يثبتها عليه... لولا هذا لرأيت شرًّا كثيرًا... ولكن لعل الله أن يرحمنا بعفوه، ثم هؤلاء الشباب الصالح الذين لهم نهضة طيبة أدام الله عليهم فضله، وأعازنا وإياهم من الشيطان الرجيم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٥) السَّابِعُ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدُّ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(٢).

✽ هذا الحديث من الأحاديث الجامعة وأحكامه ظاهرة.. وهو حديث كثير الفوائد... جلس النبي ﷺ يوماً يُعَلِّمُ أصحابه ويُريهم كعادته ﷺ فقال لهم: «إياكم والجلوس في الطرقات» فهو ﷺ يحذرهم خوفاً عليهم فقد قال الله

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٢٦-٥٢٧) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٦٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢١٢١) كتاب اللباس والزينة.

تعالى عن النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].. فالنبي ﷺ حريصٌ علينا وهو رؤوفٌ رحيمٌ بنا ﷺ.

وفي هذا الحديث يحذّرهم النبي ﷺ ويحذّرنا من الجلوس في الطرقات... لأن الجلوس فيها يؤدي إلى كشف عورات الناس والنظر إلى أغراضهم الشخصية.. وربما يُفرض الأمر إلى السُّخرية منهم أو الوقوع في الغيبة بأن يتكلموا في عرض مَنْ مَرَّ أمامهم.

فلما قال النبي ﷺ لأصحابه: «ياكم والجلوس في الطرقات» وحذّره. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدُّ، يعني أننا نجلس نتحدث، ويأنس بعضنا ببعض، ويألف بعضنا بعضًا، ويحصل في ذلك خير؛ لأن كل واحدٍ منا يعرف أحوال الآخر.

فلما رأى النبي ﷺ حرصهم الشديد على الجلوس في الطرقات لم يُشدد عليهم ولم يمنعهم من هذه المجالس؛ لأنه ﷺ كان - وما زال بهديه وسُنّته - بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ.. فقال لهم: «إن أبيتم إلا المجلس» يعني إلا الجلوس «فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «غُضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر» خمسة أشياء:

وسأذكر لكم تلك الخمسة التي ذكرها النبي ﷺ وسأزيد عليها بعض الآداب التي تعلمناها أيضًا من سُنّة الحبيب المصطفى ﷺ.

﴿فتعالوا بنا لتتعرف سويًا على بعض حقوق وآداب الطريق:

(١) ألا نخرج إلى الطريق إلا لحاجة:

وذلك لأن كثرة الخروج في الطريق تُعرّض المسلم لكثرة الفتن فلا ينبغي أن يخرج إلا إلى المدرسة أو الجامعة أو العمل أو الذهاب لصلة رحم أو زيارة مريض

أو فعل خيرٍ أو شراء احتياجات البيت أو غير ذلك من المصالح الدينية والدينية.
قال رسول الله ﷺ لمن سأله: ما النجاة؟ قال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ
وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(١).

(٢) غَضُّ الْبَصَرِ:

فإن المسلم لا بُدَّ أن يغض بصره عن الحرام ... فقد قال تعالى: ﴿قُلْ
لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

(٣) كَفُّ الْأَذَى عَنِ النَّاسِ:

ومن آداب الطريق: كَفُّ الْأَذَى عَنِ النَّاسِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ.
فقد قال النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(٢).
بل إن من محاسن هذا الدين أن كان كَفُّ الْمَرْءِ شَرَّهُ وَأَذَاهُ عَنِ النَّاسِ صدقة
يتصدق بها على نفسه.

(٤) رَدُّ السَّلَامِ:

فقد قال النبي ﷺ: «خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ: رَدُّ السَّلَامِ وَتَشْمِيتُ
الْعَاطِسِ وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ»^(٣).
فيجب على كل مسلم إذا سلَّم عليه أحدٌ من المسلمين أن يرد عليه السلام
بأحسن منه أو مثله.

(٥) الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ:

فمن آداب الطريق أن المسلم إذا وجد أخاه المسلم واقعًا في منكر أن ينهاه
بكل رفيقٍ ورحمة عن هذا المنكر.

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (١٣٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاری (١٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاری (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

وإذا وجد أخاه غافلاً عن أى طاعة أن يأمره بالمعروف.

فقد قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

وعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^(٢).

(٦) أن يمشى متواضعاً :

فقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَصْغُرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

(٧) هداية السبيل :

فإذا وجد الجالس (أو السائر) في الطريق مَنْ ضَلَّ طريقه، أو لا يعرف مقصده، فعليه أن يده له ويرشده، ويهديه إلى مقصده، فإن هذا من البر، ومن خُلق المسلم، ومن حق الطريق... كما قال ﷺ: « إِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَجْلِسُوا فَاهْدُوا السَّبِيلَ وَرُدُّوا السَّلَامَ وَأَعِينُوا الْمَظْلُومَ »^(٣) وَيَحْرُمُ كَذَلِكَ إِضْلَالُ أَحَدٍ عَنِ الطَّرِيقِ إِذَا سَأَلَ عَنْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى رحمته الله في صحيح الجامع (١٤٠٧).

مقصده، فضللّه الجالسون لكي يتسلّوا بذلك. وتشتد الحرمة إذا كان الذي يسأل عن الطريق أعمى. بل الواجب الأخذ بيده، وإيصاله إلى مقصده^(١).

(٨) إمطة الأذى عن الطريق:

فإن ذلك من شعب الإيمان ... كما قال ﷺ: «الإيمان بضْعٌ وسَبْعُونَ، أو بضْعٌ وستون شُعبةً، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق...»^(٢). وهو صدقة... لقوله ﷺ: «كل سُلامى من الناس عليه صدقة - ومنها - وتميط الأذى عن الطريق صدقة»^(٣).

(٩) المحافظة على نظافة الطريق:

وذلك يكون بعدم إلقاء النفايات، والأوساخ، والنجاسات في ممرات الناس ومجالسهم وتجنب البول والغائط في الطرقات، والأماكن العامة. وكذلك رفع الأطعمة وفُتات الخبز عن قارعة الطريق... وإبعاد الأوراق التي كُتب فيها أسماء كريمة، أو كلمات قرآنية عن ممرات الناس... ولا مانع من حرقها لصونها من العبث.

(١٠) عدم قضاء الحاجة في طريق الناس:

فإن قضاء الحاجة في طريق الناس يجلب اللعن لفاعله ... فقد قال النبي ﷺ: «اتقوا اللاعنين»، قالوا: وما اللاعنان: يا رسول الله؟ قال: «الذى يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»^(٤).

قال الخطابي: المراد باللاعنين: الأمران الجالبان للعن. والحديث يدل على تحريم التخلى في طرق الناس وظلهم لما فيه من أذية

(١) موسوعة الآداب الإسلامية (٣/ ٥٦٨) أ. عبد العزيز ندا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩) كتاب الطهارة.

المسلمين بتنجيس مَنْ يَمُرُّ به وتنته واستقذاره.

(١١) تَجَنُّبُ الْأَكْلِ فِي الطَّرَقَاتِ:

وذلك لأن الأكل في الطرقات يتنافى مع الأدب والمروءة... فالمسلم لا يأكل إلا في البيت أو في مكانٍ مُغلقٍ كالمطاعم ونحو ذلك.

(١٢) رفع الطعام عن قارعة الطريق:

رفع الأطعمة وفُتات الخبز عن قارعة الطريق، وإبعاد الأوراق التي فيها أسماء كريمة أو كلمات قرآنية عن ممرات الناس... ولا مانع من حرقها؛ لصونها من العبث وتعظيمًا لاسم الله سبحانه وتعالى وكلامه.

(١٣) تَجَنُّبُ رَفْعِ الصَّوْتِ فِي الطَّرَقَاتِ:

سواء كان ذلك في البيع والشراء... أو كان ذلك مرورًا بالسيارات... أو تشغيل مكبرات الصوت في الأفراح وغير ذلك مما تنفّر منه الطباع السليمة.

(١٤) أَلَا يَحْمِلُ مَا يُزْعِجُ النَّاسَ أَوْ يُضَرُّهُمْ:

فلا يجوز لمسلم أن يمشى بين الناس وهو يحمل سلاحًا من أى نوع كان بطريقة مخيفة... كأن يحمل السيف خارجًا من غمده.

فما دام الضرر محتملاً فإن منعه ومنع أسبابه واجب... ولذلك أمر النبي ﷺ مَنْ مَرَّ بِسِلَاحٍ فِي مَسْجِدٍ أَوْ سُوقٍ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ الْمَوَاضِعِ الْجَامِعَةِ لِلنَّاسِ أَنْ يُمْسِكَ بِالسِّلَاحِ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُؤْذِي الْآخَرِينَ حَتَّى يَمْنَعَ ضَرَرَهُ عَنِ النَّاسِ. فعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَجْلِسٍ أَوْ سُوقٍ وَبِيَدِهِ نَبْلٌ فَلْيَأْخُذْ بِنِصَالِهَا ثُمَّ لِيَأْخُذْ بِنِصَالِهَا ثُمَّ لِيَأْخُذْ بِنِصَالِهَا»^(١).

(١٥) الْإِلْتِزَامُ بِآدَابِ الْمَشْيِ:

وذلك بأن يمشى متواضعًا.. وأن يُسَلِّمَ الماشي على القاعد إذا مرَّ به.. وألا

(١) رواه مسلم (٢٦١٥) كتاب البر والصلة والآداب.

يُكثر من الالتفات.. وأن يتجنب المشيات المذمومة.. وألا تسير المرأة في وسط الطريق بل تمشي في جانب الطريق.

(١٦) إعانة الرجل في حمله على دابته أو رفع متاعه :

ومن آداب الطريق المستحب فعلها أنك إذا رأيت رجلاً يريد أن يركب دابته وكان ذلك يشق عليه، فإنك تُعينه على ذلك، أو تُعينه في حمل متاعه، ويمكن فعل ذلك الآن... فإن بعض كبار السن قد لا يتمكن من الركوب في (العربات المتحركة) بسهولة، وخصوصاً إذا كانت كبيرة.

وفعل ذلك كله من الصدقة التي يُؤجر المسلم عليها.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل سُلامى عليه صدقة، كل يوم، يُعين الرجل في دابته يُحامله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة... الحديث»^(١).

(١٧) أن تحلم على الناس ولا تجهل عليهم :

فلا تعامل الناس بأخلاقهم بل تعفو عنهم وتحلم عليهم إذا أساءوا إليك وتصبر على أذاهم قدر استطاعتك.

(١٨) عدم مخالفة القوانين المتعلقة بتنظيم السير :

فلا ينبغي للإنسان في الطريق أن يسير بسيارته عكس اتجاه السير، أو أن يقطع إشارة المرور، أو يمشي في طريق ممنوع، أو يستعمل البوق بدون داع، أو غير ذلك مما يؤذي الناس، وقد يتسبب له ولغيره في الأضرار الفادحة. فهذا كله لا يتفق مع ما يدعو إليه الإسلام^(٢).

(١٩) إعانة المظلوم :

وهذا واجب على المسلم عموماً... ومن حق المسلم على أخيه المسلم.

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية (١/ ٥٧٠).

وكذلك فإنه من حق الطريق... فينبغي لمن رأى مظلومًا في الطريق، أو إنسانًا يتعرض للأذى، أو يُسلب حقه، ينبغى له أن يتدخل لمساعدته ونصرتة، والوقوف معه. ويدخل في ذلك مَنْ رأى أشخاصًا يحاولون سلب مال إنسان، أو اختطافه، أو خطف زوجته، أو نحو ذلك، فإنه لو خاف كل واحدٍ على نفسه ووقف موقفًا سلبيًّا لعم الفساد والفوضى، ولدارت الدائرة حتى لا ينجو منها أحد^(١).

(٢٠) اغتنام الوقت الضائع:

وذلك بإشغاله بذكر الله تعالى، وتسبيحه وتحميده.. أو الصلاة والسلام على رسوله محمد ﷺ.. أو مراجعة شيء من المحفوظ من آيات القرآن الكريم.. أو نحوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٦) الثامن: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهبٍ في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ» فقل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ، انتفع به. قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَخْذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

❦ أتى المؤلف رحمته الله بهذا الحديث في باب: (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)؛ لأن فيه تغيير المنكر باليد... فإن لبس الرجل الذهب مُحرم ومنكر، كما قال النبي (عليه الصلاة والسلام) في الذهب والحريز: إنهما أحلا لنساء أمتي وحُرِّما على ذكورها.

فلا يجوز للرجل أن يلبس خاتمًا من ذهب، ولا أن يلبس قلادة من ذهب،

(١) موسوعة الآداب الإسلامية (١/ ٥٦٨، ٥٦٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٩٠) كتاب اللباس والزينة.

ولا أن يلبس ثياباً فيها أزرّة من ذهب، ولا غير ذلك... بل يجب أن يتجنب الذهب كله، وذلك لأن الذهب إنما يلبسه من يحتاج إلى الزينة والتجمل، كالمرأة التي تتجمل لزوجها حتى يرغب فيها.

قال الله ﷻ: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]

يعنى: النساء.. فالنساء يُنشأن في الحلية ويرتبن عليها.

أما الرجل فإنه لا يحتاج إلى التزيّن إلا لزوجته في الحلال.. ولذا فإنه لا يجوز له أن يلبس الذهب.. وأما لبس الفضة فلا بأس به، يجوز أن يلبس الرجل خاتماً من فضة، ولكن بشرط ألا يكون هناك عقيدة في ذلك، كما يفعله بعض الناس الذين اعتادوا عادات النصارى في مسألة الدبلة، التي يلبسها البعض عند الزواج... يقولون: إن النصارى إذا أراد الرجل منهم أن يتزوج، جاء إليه القسيس - بمنزلة العالم عند المسلمين - وأخذ الخاتم ووضع في أصابعه: إصبع بعد إصبع، حتى ينتهى إلى ما يريد ثم يقول: هذا الرباط بينك وبين زوجتك... فإذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقداً ذلك فهو تشبه بالنصارى، مصحوب بعقيدة باطلة... فلا يجوز حينئذ للرجل أن يلبس هذه الدبلة^(١).

أما لو لبس خاتماً عادياً بغير عقيدة، فإن هذا لا بأس به... وليس التختّم من الأمور المستحبة، بل هو من الأمور التي إذا دعت الحاجة إليها فُعلت وإلا فلا تُفعل... بدليل أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) كان لا يلبس الخاتم. لكنه لما قيل له: إن الملوك والرؤساء لا يقبلون الكتاب إلا بختم، اتخذ خاتماً نقش في فصّه:

(١) أى إذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقداً أنها شعيرة من شعائر الزواج، وأنه لا يصلح الزواج بدونها، فقد وقع في محرم، سواء كانت الدبلة فضة أم ذهباً. هذا بجانب بعض المعتقدات الفاسدة المصاحبة لهذا الأمر خاصة عند النساء.. وهى تشاؤم المرأة إذا خلع الرجل الدبلة وتنصب هذا دليلاً على احتمال الفراق أو حدوث المشاكل، والحقيقة أن سبب المشاكل الفعلى هو هذا الاعتقاد الفاسد مع المخالفات الأخرى التى تصحب الزواج ولمعرفة المزيد عن حكم الدبلة، يُراجع كتاب «آداب الزفاف» للعلامة الألبانى رحمه الله (ص ١٤٠-١٤٢).



«محمد رسول الله» حتى إذا انتهى من الكتاب ختمه بهذا الخاتم.

وفي هذا الحديث: دليل على استعمال الشدة في تغيير المنكر إذا دعت الحاجة إلى ذلك... لأن النبي ﷺ لم يَقُلْ له: إن الذهب حرام فلا تلبسه، أو فاخلعه، بل هو بنفسه خلعه وطرحه في الأرض... ومعلوم أن هناك فرقاً بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين تغيير المنكر... لأن تغيير المنكر يكون من ذى سلطة قادر، مثل الأمير ومن جعل له تغييره... مثل الرجل في أهل بيته، والمرأة في بيتها وما أشبه ذلك، فهذا له السلطة أن يغير بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه.

أما الأمر فهو واجب بكل حال، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجب بكل حال؛ لأنه ليس فيه تغيير، بل فيه أمر بالخير ونهي عن الشر، وفيه أيضاً دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر. فهذه ثلاث مراتب: دعوة، وأمر ونهي، وتغيير.

وفيه أيضاً دليل: على جواز إتلاف ما يكون به المنكر؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام طرحه لما نزرعه من يده ولم يَقُلْ له: خُذْه وأعطه أهلك مثلاً... ولهذا كان من فقه هذا الرجل أنه لما قيل له: خُذْ خاتمك، قال: لا آخذ خاتماً طرحه النبي ﷺ... لأنه فهم أن هذا من باب التعزير وإتلافه عليه؛ لأنه حصلت به المعصية.

وفي هذا الحديث: دليل على أن لبس الذهب موجب للعذاب بالنار والعياذ بالله... لقوله عليه الصلاة والسلام: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده» فإن الرسول ﷺ جعل هذا جمرة من نار، يعنى يُعَذَّبُ بها يوم القيامة، وهو عذاب جزئى أى: على بعض البدن.. على الجزء الذى حصلت به المخالفة... ونظيره قوله ﷺ فيمن جرَّ ثوبه أسفل من الكعبين، قال: «ما أسفل

من الكعابين من الإزار ففي النار^(١) ونظيره أيضًا حين قَصَّر الصحابة في غسل أرجلهم، فقال النبي ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ»^(٢).

فهذه ثلاثة نصوص من السنة كلها فيها إثبات أن العذاب بالنار قد يكون على جزءٍ مُعَيَّن من البدن.

وفي القرآن أيضًا من ذلك كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]. مواضع مُعَيَّنَة، فالعذاب كما يكون عامًّا على جميع البدن، قد يكون خاصًّا ببعض أجزائه وهو ما حصلت به المخالفة.

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: بيان كمال صدق الصحابة في إيمانهم، فإن هذا الرجل لما قيل له: خُذْ خَاتَمَكَ انتفع به. قال: لا آخِذُ خَاتَمًا طَرَحَهُ النَّبِيُّ (عليه الصلاة والسلام)، وذلك من كمال إيمانه ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا: أن الإنسان يستعمل الحكمة في تغيير المنكر... فهذا الرجل كما ترون استعمل معه النبي ﷺ شيئًا من الشدة... لكن الأعرابي الذي بال في المسجد لم يستعمل معه النبي ﷺ الشدة... ولعل ذلك لأن هذا الذي لبس خاتم الذهب عَلِمَ النبي ﷺ أنه كان عالمًا بالحكم والتحريم ولكنه متساهل، بخلاف الأعرابي، فإنه كان جاهلًا لا يعرف... فقد جاء ووجد هذه الفُسْحَة في المسجد، فجعل يبول، يحسب نفسه أنه في الصحراء!!

ولما قام إليه الناس يزجرونه، نهاهم النبي ﷺ عن ذلك... وكذلك استعمل النبي ﷺ اللين مع معاوية بن الحكم السُّلَمي حين تكلم في الصلاة... وكذلك مع الرجل الذي جامع زوجته في نهار رمضان... فلكل مقام مقال.

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠) كتاب العلم - ومسلم (٢٤١) كتاب الطهارة.

فعليك يا أخى المسلم أن تستعمل الحكمة فى كل ما تفعل وكل ما تقول، فإن الله تعالى يقول فى كتابه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٧) التَّاسِعُ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ عَائِذَ بْنَ عَمْرِوٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ: أَيُّ بُنَى، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ» فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ. فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَإِنَّمَا أَنْتَ مِنْ نُحَالَةِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالَ: وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُحَالَةٌ إِنَّمَا كَانَتْ النُّحَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفِي غَيْرِهِمْ (٢) (٣).

✽ إن النبى ﷺ الذى أرسله الله ﷻ رحمة للعالمين كان يؤصى دائماً كل من يلى أمر المسلمين أن يرفق بهم وأن يرحمهم .. وكان يحذّرهم من ظلم الرعية وعدم الرفق بهم.

✽ وفى هذا الحديث أن عائذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عبيد الله بن زياد فقال له: أى بنى إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» يقول: إن شرّ الرّعاء الحطمة .. والحطمة هو العنيف فى رعاية الإبل لا يرفق بها فى سوقها ومرعاها بل يحطمها فى سوقها ومرعاها وفى سقيها وغيره ويزحم بعضها ببعض ويلقى بعضها بحيث يؤذيها ويحطمها ... وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ للوالى السيئ القاسى القلب الذى يظلم الرعية.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٣٠-٥٣٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٣) الرّعاء: جمع راع - الحطمة: العنيف فى رعيته الذى لا يرفق بهم - المقصود بالنخالة: أى لست من فضلائهم وعلمائهم.

❁ والسؤال: لماذا قال عائذ بن عمرو هذا الكلام لعبيد الله بن زياد؟

والجواب: لأنه كان غلامًا سفيهاً سفك الدماء سفكاً شديداً .. وكان هو الذي أمر بقتل الحسين بن علي عليه السلام حفيد النبي صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة. ❁ وما هي قصة قتل الحسين عليه السلام باختصارٍ شديد.

الحسين بن علي عليه السلام تعرض لفتنة عظيمة .. وحلَّ به كربٌ وبلاءٌ في كربلاء، وذلك أن أهل العراق أرادوا الوقعة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية، فكتبوا إلى الحسين بأن يخرج إليهم، ووعدوه أن ينصروه وأن يؤازروه وأن يؤمّروه عليهم حتى لا يترك الأمر ليزيد الذي اتُّهم في دينه، والله يتولاه. ورأى الحسين عليه السلام أن هذا العرض قد يحقق خيراً يريده للناس ولا يريده لنفسه... إنه يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يا عبد الرحمن بن سُمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»^(١).

فمضى عليه السلام وقد أشار عليه بعض الصحابة بعدم الخروج فأبى إلا الخروج ليقضى الله أمراً كان مفعولاً... ووثق الحسين بعهود ومواثيق أهل العراق، وأقبل يسير نحو الكوفة حتى إذا نزل بكربلاء رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعدة... فكم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقلُّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو... فأنزلته بك وشكوته إليك رغبة فيه إليك عمّا سواك، ففرجته وكشفته وكفيتني فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية^(٢).

ولما نزل في كربلاء قال: ما هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كربٌ وبلاء،... وعلم الأعداء بقدومه فأحاطوا به من كل مكان...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٢٢) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (١٦٥٢) كتاب الإمارة.

(٢) البداية والنهاية جزء ٨.

وكان ﷺ يقوم الليل هو ومن معه يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ويقرأون قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لَئِنْ دَعَوْا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وتحرش به الأعداء ونالوا منه سبًا وشتمًا وما كان له إلا أن يدافع عن نفسه وأهله الذين اصطحبهم معه، وقد وقف لهم وقوف الجبال الراسية حتى قُتل جميع من معه وبقي وحده يقاتل حتى قُتل، وقُطع رأسه في يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ، وكان ذلك بأمر من عُبيد الله بن زياد، فلما أحضر بين يديه أخذ عودًا ينكت به في ثنايا الحسين، ويقول: لقد كان جميلًا... قال زيد بن أرقم: أرفع القضيبي فوالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيت شفتي رسول الله ﷺ على هاتين الثيتين يُقبلهما... وأرسل رأس الحسين إلى يزيد فلما رآه حزن حزنًا شديدًا وقال: لعن الله ابن مرجانة - يعنى عُبيد الله بن زياد - لو قبل طلبه في عدم القتل وأعطاه سؤاله، لقد بغضني إلى الناس بقتل الحسين وزرع لي في قلوبهم العداوة والبغضاء، وكان الذي رمى الحسين رجل اسمه حصين بن تميم... رماه بسهم في عنقه حتى سال الدم فتلقاه الحسين وهو يقول رافعًا يديه إلى السماء مملوءتان دمًا: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تذر على الأرض منهم أحدًا... ودعا عليهم دعاءً بليغًا وقد استجاب الله دعاءه فما مكث الرامي إلا يسيرًا حتى صَبَّ الله عليه الظمأ فجعل لا يروى ويُسقى الماء مبردًا فلا يُطفئ عطشه ولا يروى ظمأه لأن النار تشتعل في فؤاده، فما لبث إلا قليلًا حتى مات من شدة العطش... والماء البارد بين يديه.

ومرت الأيام وابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد - يفتخر بقتل الحسين ويتعالى بسفك دمه ويحسب أن الدنيا ستخلو له، وأن الحياة ستبقى له، وأن يزيد سيمنعه من عذاب الله ويحول بينه وبين الموت.. ونسى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ أَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عما يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢]

وفي اليوم الذي قُتل فيه الحسين وهو يوم عاشوراء سلط الله على ابن مرجانة - عبيد الله بن زياد - المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي أرسله إبراهيم بن الأشتر فالتقوا في أول سنة سبع وستين بالخازر قريباً من الموصل وقُتل ابن زياد يوم عاشوراء وأرسل ابن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار فلما وضع بين يديه جاءت حية عظيمة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت في فم ابن زياد وخرجت من منخره ودخلت من منخره وخرجت من فمه وهكذا ترددت عدة مرات.

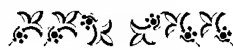
وهكذا ينتقم الله لأوليائه من كل ظالم عنيد، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحداً^(١).

وكانت أمه مرجانة من بنات ملوك الفرس تقول له: قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ لا ترى الجنة.... وقد أفضى إلى ما قدم ويتمنى أنه ما فعل فعله.... كيف وخصمه يوم القيامة ريحانة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، فبأى جواب يجيب؟ وبأى عمل يقدم؟^(٢).

❖ فيستفاد من هذا الحديث فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه لا يجوز للإنسان الذي ولّاه الله على أمرٍ من أمور المسلمين أن يكون عنيفاً عليهم، بل يكون رفيقاً بهم.

الفائدة الثانية: وجوب الرفق بمن ولّاه الله عليهم بحيث يرفق بهم في قضاء حوائجهم وغير ذلك، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط، يعني لا يكون ليناً مع ضعف ولكن ليناً بحزم وقوة ونشاط.



(١) البداية والنهاية (جزء ٨)، تاريخ الطبري (جزء ٣)، سير أعلام النبلاء (جزء ٣).

(٢) اتق دعوة المظلوم (٦٥ - ٦٨).

(١٩٨) العاشر: عَنْ حذيفة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ»^(١).

❁ قوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» أَيْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُقْسِمُ بِاللَّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ ... وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقْسِمُ أَحْيَانًا وَيَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» لِأَنَّ نَفْسَ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ أَطْيَبُ الْأَنْفُسِ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَذَلِكَ لِأَنَّ أَنْفُسَ الْعِبَادِ بِيَدِ اللَّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ .. يَهْدِيهَا إِنْ شَاءَ، وَيُضِلُّهَا إِنْ شَاءَ، وَيُمِيتُهَا إِنْ شَاءَ، وَيُبْقِيهَا إِنْ شَاءَ، فَلَا أَنْفُسَ بِيَدِ اللَّهِ هِدَايَةً وَضَلَالَةً، وَإِحْيَاءً وَإِمَاتَةً.

❁ ثُمَّ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُقْسِمَ عَلَيْهِ وَهُوَ: «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» لِأَنَّا إِنْ لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ فَسَوْفَ يَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْنَا عِقَابًا شَدِيدًا ثُمَّ إِذَا دَعَوْنَاهُ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) أَنْ يَرْفَعَ عَنَّا هَذَا الْعِقَابَ وَذَلِكَ الْعَذَابَ فَلَنْ يَسْتَجِيبَ دَعَاءَنَا.

❁ وَقَدْ ذَكَرْنَا قَبْلَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ تَرْكِهِ .. فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ - وَلَكِنْ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ - وَأَنْ نَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ - وَلَكِنْ بِغَيْرِ مُنْكَرٍ -.

فَإِذَا رَأَيْنَا أَخًا لَنَا قَدْ تَرَكَ وَاجِبًا أَوْ قَصَّرَ فِيهِ أَمْرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَحَذَرْنَا مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ الْوَاجِبِ .. وَإِذَا رَأَيْنَاهُ قَدْ أَتَى مُنْكَرًا نَهَيْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَلَكِنْ بِكُلِّ رَحْمَةٍ.

حَتَّى نَكُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً .. لِأَنَّا إِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ فَسَوْفَ تَتَفَرَّقُ الْأُمَّةُ وَسَوْفَ يَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهَا عَذَابًا ثُمَّ لَا يَسْتَجِيبُ دَعَاءَنَا إِذَا دَعَوْنَاهُ بِأَنْ يَرْفَعَ عَنَّا هَذَا الْعَذَابَ. وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ قَصْدُنَا هُوَ إِصْلَاحُ مَنْ نَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ نَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ .. وَلَا يَكُونَ قَصْدُنَا الْإِنْتِقَامَ مِنْهُ أَوْ الْإِسْتِثَارَ عَلَيْهِ.

لَأَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ يُصِيبُهُ الْكِبَرُ وَالْعُجْبُ بِنَفْسِهِ وَبِعَمَلِهِ وَيَحْتَقِرُ أَخَاهُ ..

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٠).

وربما يستبعد أن يرحمه الله فيحبط الله عمله.

كما جاء ذلك في الحديث الذي صَحَّ عن النبي ﷺ أن رجلاً قال لرجل آخر مُسرف على نفسه: «والله لا يغفر الله لفلان» فقال الله عز وجل: «مَنْ ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان.. فإني قد غفرتُ لفلان، وأحببتُ عملك»^(١).

فانظر إلى هذا الرجل، تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته.. هلك كل عمله وسعيه؛ لأنه حَمَلَه إعجابه بنفسه، واحتقاره لأخيه، واستبعاده رحمة الله على أن يقول هذه المقالة.. فكانت النتيجة أن أوبقت هذه الكلمة دُنياه وآخرته.

وفي هذا الحديث: دليل على جواز القَسَم بدون أن يُستقسم الإنسان، أى: جواز القسم دون أن يُطلَب من الإنسان أن يُقسم، ولكن هذا لا ينبغي إلا في الأمور التي لها أهمية ولها شأن، فهذه يقسم عليها الإنسان، أما الشيء الذي ليس له أهمية ولا شأن، فلا ينبغي أن تحلف عليه إلا إذا استُحلفت للتوكيد فلا بأس. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم واجبات الدين وفروضه، حتى إن بعض العلماء عدَّه رُكنًا سادسًا من أركان الإسلام. والصحيح أنه ليس رُكنًا سادسًا من أركان الإسلام، وإنما هو من أوجب الواجبات^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٩) الْحَادِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدَلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(٣).

(٢٠٠) الثَّانِي عَشَرَ: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ طَارِقِ بْنِ شِهَابِ بْنِ الْبَجَلِيِّ الْأَحْمَسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرَزِ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٥٣٣/١) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٢٢٠٩).

حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^(١).

قَوْلُهُ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْجِهَادِ» وَفِي رِوَايَةٍ: أَفْضَلُ الْجِهَادِ «كَلِمَةُ عَدْلٍ» أَيْ: كَلِمَةُ حَقٍّ كَمَا فِي رِوَايَةٍ ... وَالْمُرَادُ بِالْكَلِمَةِ مَا أَفَادَ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ لَفْظٍ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ كِكِتَابَةٍ وَنَحْوَهَا «عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» أَيْ: صَاحِبِ جَوْرِ وَظُلْمٍ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَإِنَّمَا صَارَ ذَلِكَ أَفْضَلَ الْجِهَادِ لِأَنَّ مَنْ جَاهَدَ الْعَدُوَّ كَانَ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ لَا يَدْرِي هَلْ يَغْلِبُ أَوْ يُغْلَبُ ... وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ مَقْهُورٌ فِي يَدِهِ فَهُوَ إِذَا قَالَ الْحَقُّ وَأَمَرَهُ بِالْمَعْرُوفِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلتَّلَفِ وَأَهْدَفَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ فَصَارَ ذَلِكَ أَفْضَلَ أَنْوَاعِ الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ غَلَبَةِ الْخَوْفِ.

وَقَالَ الْمُظْهِرُ: وَإِنَّمَا كَانَ أَفْضَلَ لِأَنَّ ظُلْمَ السُّلْطَانِ يَسْرِي فِي جَمِيعِ مَنْ تَحْتَ سِيَاسَتِهِ وَهُوَ جَمٌّ غَفِيرٌ ... فَإِذَا نَهَا عَنْ الظُّلْمِ فَقَدْ أَوْصَلَ النِّفْعَ إِلَى خَلْقٍ كَثِيرٍ بِخِلَافِ قَتْلِ كَافِرٍ^(٢).

❁ وَلَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ السُّلْطَانَ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ خَيْرٌ وَبَطَانَةٌ سُوءٌ .. فَبَطَانَةُ الْخَيْرِ: تَنْظُرُ مَا يُرْضَى اللَّهُ فَتَدُلُّ الْحَاكِمَ عَلَيْهِ وَتَقُولُهُ لَهُ ... وَأَمَّا بَطَانَةُ السُّوءِ: فَإِنَّهَا تَنْظُرُ مَا يُرْضَى السُّلْطَانَ فَتَقُولُهُ لَهُ وَتُزِينُهُ لَهُ وَتُلْبِسُهُ ثُوبَ الْحَقِّ.

وَقَوْلُهُ: «عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» لِأَنَّ كَلِمَةَ الْحَقِّ عِنْدَ السُّلْطَانِ الْعَادِلِ لَا تَضُرُّ قَائِلَهَا بَلْ تَنْفَعُهُ ... لِأَنَّ السُّلْطَانَ الْعَادِلَ يَقْبَلُهَا وَيَنْفَعُ بِهَا الرِّعْيَةَ فَتَكُونُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِ مَنْ قَالَهَا لَهُ.

أَمَّا السُّلْطَانُ الْجَائِرُ فَإِنَّهُ يَنْتَقِمُ مِمَّنْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ عِنْدَهُ.

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٠).

«الْفَرْزُ» وَهُوَ رَكَابُ كَوْرِ الْجَمَلِ إِذَا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَوْ خَشَبٍ، وَقِيلَ: لَا يَخْتَصُّ بِجِلْدٍ وَخَشَبٍ.

(٢) تحفة الأحوذى (٢٤/٦).

✽ فالآن عندنا أربعة أحوال:

- (١) كلمة حق عند سلطان عادل، وهذه سهلة.
 - (٢) كلمة باطل عند سلطان عادل، وهذه خطيرة، لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك، بما تزينه له من الزخارف.
 - (٣) كلمة حق عند سلطان جائر، وهذه أفضل الجهاد.
 - (٤) كلمة باطل عند سلطان جائر، وهذه أقبح ما يكون.
- فهذه أقسام أربعة، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان الجائر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠١) الثالث عشر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَسَلَ النَّقْصَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يُلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَدَعِ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَجِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ» ثُمَّ قَالَ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَنَسِفُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٨١] ثُمَّ قَالَ: «كَلَّا، وَاللَّهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرَّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرَّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ»^(١).

هذا لفظ أبي داود، ولفظ الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٢٢).
قَوْلُهُ: «تَأْطِرُونَهُمْ» أَيْ تَعْطِفُونَهُمْ - «وَلَتَقْصُرُنَّهُ» أَيْ لَتَحْسِبُنَّهُ.

فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكُلُوهُمْ وَشَارِبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: «لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا».

❁ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف .. وقد تواعدنا - من باب الأمانة العلمية - ألا نشرح حديثًا ضعيفًا؛ لأن عندنا من الأحاديث الصحيحة ما يكفينا .. وحتى نتعود ألا نروى إلا حديثًا صحيحًا.

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَدَى بِهِ

(٢٠٢) الرَّابِعَ عَشَرَ: عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [البائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»^(١).

❁ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَا بَعْدَ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّكُمْ تَقْرءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ ظَاهِرُهَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا اهْتَدَى بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ ضَلَالُ النَّاسِ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَقَامَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... هَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ ..

لَكِنِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اشْتَرَطَ لَكُونَ مَنْ ضَلَّ لَا يَضُرُّنَا أَنْ نَهْتَدِيَ نَحْنُ ... فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَمِنْ الْإِهْتِدَاءِ: أَنْ نَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْ نَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ... وَلِهَذَا قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَغْيُرُوهُ، أَوْ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ» يَعْنِي أَنَّهُمْ يَضُرُّهُمْ مَنْ ضَلَّ، إِذَا كَانُوا يَرُونَ الضَّالَّ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

ولا يأمرونه بالمعروف، ولا ينهونه عن المنكر، فإنه يوشك أن يعمهم الله بالعقاب: الفاعل والغافل ... الفاعل للمنكر.. والغافل الذي لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر.

❁ وفي تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى قال:

قَوْلُهُ: «قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ» ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أَي: الزُّمُّوا حِفْظَ أَنْفُسِكُمْ عَنِ الْمَعَاصِي فَإِذَا حَفِظْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لَمْ يَضُرَّكُمْ إِذَا عَجَزْتُمْ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ضَلَالٌ مَنْ ضَلَّ بَارَتْكَابِ الْمَنَاهِي إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اجْتِنَابِهَا (فإنكم) أَي أنكم تقرأون هذه الآية وتَجْرُونَ عَلَى عُمُومِهَا وَتَمْتَنِعُونَ عَنِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ (فإنى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ) أَي: الْمُطِيقِينَ لِإِزَالَةِ الْمُنْكَرِ مَعَ سَلَامَةِ الْعَافِيَةِ «إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ» أَي: عَلمُوا ظُلْمَهُ وَفَسَقَهُ وَعِصْيَانَهُ «فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ» أَي: لَمْ يَكْفُوهُ عَنِ الظُّلْمِ يَقُولُ أَوْ فِعْلُ «أَوْشَكَ» أَي: قَارَبَ أَوْ أَسْرَعَ «أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» إِمَّا فِي الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا لِتَضْيِيعِ فَرَضِ اللَّهِ بِلا عُدْرِ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: خَافَ الصَّدِيقُ أَنْ يَتَأَوَّلَ النَّاسُ الْآيَةَ غَيْرَ تَأْوِيلِهَا فَيَدْعُوهُمْ إِلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ وَأَنَّ الَّذِي أُذِنَ فِي الْإِمْسَاكِ عَنْ تَغْيِيرِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ الشَّرْكُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ الْمُعَاهِدُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ يَتَدَيَّنُونَ بِهِ وَقَدْ صَوَّلِحُوا عَلَيْهِ.. فَأَمَّا الْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ وَالرَّيْبُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ.

❁ وَقَالَ النَّوَوِيُّ: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فَلَيْسَتْ مُخَالَفَةً لَوْجُوبِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لِأَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ مَا كُفِّتُمْ بِهِ فَلَا يَضُرُّكُمْ تَقْصِيرُ غَيْرِكُمْ ... مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمِمَّا كُفِّ بِهِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا فَعَلَهُ وَلَمْ يَمْتَثِلِ
الْمُخَاطَبُ فَلَا عَتَبَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِ لِكَوْنِهِ أَدَّى مَا عَلَيْهِ^(١).

وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان العناية بفهم كتاب الله ﷻ، حتى لا يفهمه على غير ما أراد الله، وأن الناس قد يظنون المعنى على خلاف ما أراد الله في كتابه، فيضلوا بتفسير القرآن... ولهذا جاء في الحديث الوعيد على مَنْ قال في القرآن برأيه، أى فسّره بما يرى ويهوى، لا بمقتضى اللغة العربية والشرعة الإسلامية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) تحفة الأحوذى (٦/١٨-١٩) بتصرف.

(٢٤) باب تغليظ من أمر بمعروف

أونهى عن منكر وخالف قوله فعله

✽ لما كان الباب الذى قبله فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كان المناسب ذكر هذا الباب فى تغليظ عقوبة من أمر بمعروف ولم يفعل، أو نهى عن منكر وفعله - والعياذ بالله - وذلك أن من هذه حاله، لا يكون صادقاً فى أمره ونهيه؛ لأنه لو كان صادقاً فى أمره، معتقداً أن ما أمر به معروف، وأنه نافع، لكان هو أول من يفعله لو كان عاقلاً. وكذلك لو نهى عن منكر، وهو يعتقد أنه ضار، وأن فعله إثم، لكان أول من يتركه لو كان عاقلاً.

فإذا أمر بمعروف ولم يفعله، أو نهى عن منكر وفعله، علم أن قوله هذا ليس مبنياً على عقيدة والعياذ بالله.

ولهذا أنكر الله على من فعل ذلك فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. والاستفهام هنا للإنكار^(١).

✽ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أى: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أى: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وسُمي العقل عقلاً؛ لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه... فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك.. قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت فى سبب بنى إسرائيل فهى عامة لكل أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كبر مقتاً عند

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٣٦).

اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾، وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يَقُمْ بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنها دَلَّت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه... فترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما.

وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الأخير، وأيضا فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة^(١).

﴿ومثل ذلك: مَنْ يأمر الناس بالصلاة ثم لا يُصلي هو.. وَمَنْ يأمر الناس بالصدق وهو كاذب.. وَمَنْ يأمر الناس بترك الربا وهو يتعامل بالربا أو يأخذ الربا بالمكر والاحتيال.. فهل مَنْ يفعل ذلك عاقل؟!﴾

ولهذا قال أيوب السخيتاني رَحِمَهُ اللهُ فِي أَهْلِ الْحِيلِ وَالْمَكْرِ: «إِنَّهُمْ يَخَادِعُونَ اللَّهَ كَمَا يَخَادِعُونَ الصَّبِيَّانَ، لَوْ أَنَّهُمْ أَتَوْا الْأَمْرَ عَلَى وَجْهِهِ لَكَانَ أَهْوَنَ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أَي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لِمَ تَقُولُونَ بِاللَّسْتُكُمْ شَيْئًا وَلَا تَفْعَلُونَهُ؟ وَلَا أَى شَيْءٍ تَقُولُونَ نَفْعَلُ مَا لَا تَفْعَلُونَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ؟ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ عَلَى جَهَةِ الْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ... قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يَعِدُ وَعَدًا، أَوْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يَفِي بِهِ... وَفِي الصَّحِيحِينَ: «آيَةُ الْمَنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اتَّمَنَ

(١) تفسير السعدي (ص ٤١-٤٢).

خان^(١) ثم أكَّد الإنكار عليهم بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى عَظُمَ فعلكم هذا بُغْضًا عند ربكم ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أى أن تقولوا شيئاً ثم لا تفعلونه، وأن تعدوا بشيء ثم لا تفون به.

قال ابن عباس: كان ناسٌ من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله ﷻ دَلَّنَا على أَحَبِّ الأَعْمَالِ إليه فنعمل به.. فأخبر الله نبيه أن أَحَبَّ الأَعْمَالِ إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يُقروا به، فلما نزل الجهاد كَرِهَ ذلك ناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره فنزلت الآية^(٣)... وقيل: هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا يَأْتُمِرَ به، وينهاه عن المنكر ولا ينتهى عنه... كقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]^(٤)؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

أى أن نبى الله شعيباً قال لقومه: لقد نهيتكم عن الشرك وعن نقص المكيال والميزان .. وما دُمت قد نهيتكم عنه فلا يمكن أن أنهاكم عن شيء وأنا أفعله .. بل إذا أمرتكم بشيء فلا بُدَّ أن أكون أول مَنْ يفعله وإذا نهيتكم عن شيء فلا بُدَّ أن أكون أول مَنْ ينتهى عنه..

وذلك لأن الأنبياء والمرسلين هم أشد الناس تعظيماً لله ﷻ وامثالاً لأمره واجتناباً لنهيه .. وهم أنصح الخلق للناس.

وفى هذا دليل: على أن الإنسان الذى يفعل ما ينهى عنه، أو يترك ما أمر به،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩١).

(٣) المختصر (٣/ ٤٩٢) وهذا القول هو اختيار الطبرى.

(٤) صفوة التفاسير (٣/ ٣٥٠).

مخالف لطريقة الرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنهم لا يمكن أن يخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠٣) وَعَنْ أَبِي زَيْدٍ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَا، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَانْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتِهِ»^(١).

✽ يخبر النبي ﷺ أنه «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي: تأتي به الملائكة .. لكن لماذا تأتي به الملائكة؟

لنلقيه في النار إلقاءً شديداً بحيث لا يدخل النار برفق - وحسبه أنه سيدخل النار - لكنه يلقى كما يلقى الحجر في البحر فتندلق أقتاب بطنه .. أي تندلق أمعاؤه ... أي تخرج من بطنه من شدة الإلقاء في النار. فإذا اندلقت أمعاؤه فإنه «يدور بها كما يدور الحمار في الرحا» ... وهنا شبهه بالحمار احتقاراً لشأنه ..

وسبب تشبيهه بالحمار الذي يدور في الرحا أنه كان في المطاحن القديمة قبل تلك الآلات الحديثة كانوا يأتون بحجرين كبيرين ويُنْقَشَانِ فيما بينهما - أي: يُنْقَرَانِ - ويوضع للأعلى منهما فتحة تدخل فيها الحبوب التي يريدون أن يطحنوها ... وفيها خشبة كبيرة يربطونها بمتن الحمار ويبدأ الحمار في الدوران حول الحجرين لتطحن الرحا الحبوب .

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٩٨٩) كتاب الزهد. قوله: «تَنْدَلِقُ» وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ - و«الْأَقْتَابُ»: الْأَمْعَاءُ، وَاجِدْهَا قَتَبٌ.

فهذا الرجل الذى يُلقَى فى النار يدور حول أمعائه كما يدور الحمار حول الرّحا .. فيجتمع إليه أهل النار فيقولون له: ما لك؟ ما الذى جاء بك إلى هنا وأنت الذى كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتذكر الناس بالله.

فيقول مُعترفًا بجريمته: كنت أُمّر بالمعروف ولا آتية... أى: كنت أقول للناس: صَلُّوا وأنا لا أصلى .. وأقول لهم: ادفَعُوا زكاة أموالكم وأنا لا أَزْكِي .. وأقول لهم: بِرُّوا آبَاءَكُمْ وأنا عاقٌّ لهما .. وهكذا كنت أُمّر بالمعروف ولا أفعل منه أى شىء.

«وأنهى عن المنكر وآتية» أى: كنت أقول للناس: لا تشربوا الخمر وأنا أشربها .. لا تأكلوا الربا وأنا أكل الربا.. لا تغشوا وأنا أغش .. لا تقطعوا أرحامكم وأنا أقطع أرحامى ... وهكذا كان يفعل فى سائر الأشياء المحرمة.

❁ ولذا فالواجب على الإنسان إذا أمر الناس بمعروفٍ أن يبدأ هو بنفسه فيفعله .. وإذا نهاهم عن المنكر أن يبدأ هو بنفسه فينتهى .. لأن أعظم الناس حقًّا عليك بعد النبى ﷺ وأصحابه نفسك ..

❁ قال الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «يَطَّلُعُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقولون لهم: ما أدخلكم النَّارَ؟ وإِنَّمَا أَدْخَلَنَا اللهُ تَعَالَى الْجَنَّةَ بِفَضْلِ تَأْدِيبِكُمْ وتعليمكم، فقالوا: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَفْعَلُهُ» (١).

❁ قال كعب: «فى آخر الزَّمان علماء يُزهدون النَّاسَ فى الدُّنيا ولا يزهدون، ويُخَوِّفون، ولا يخافون، وينهون عن غشيان الولاية ويأتون... يُؤثِّرون الدُّنيا على الآخرة، يأكلون بألسنتهم.. يُقَرِّبون الأغنياء دون الفقراء، أولئك الجَبَّارون أعداء الرّحمن» (٢).

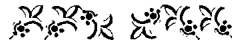
(١) تنبيه الغافلين (٩١).

(٢) تنبيه الغافلين (٩٢).

❁ قال حاتم الأصم: «ليس في القيامة أشدّ حسرة من رجلٍ علّم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به وفازوا بسببه وهلك» .

❁ قال الشاعر:

يا أيّها الرّجلُ المُعلِّمُ غيره	هلاّ لنفسك كان ذا التّعليمُ
تَصِفُ الدّواءَ لذى السّقام وذى الضّنا	كى ما يَصِحّ به وأنت سقيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك تُعذّرُ إن وعظت ويُقتدى	بالقول منك ويُقبَلُ التّعليمُ
لا تنه عن خُلُقٍ وتأتى مثله	عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ ^(١)



(١) أدب الدنيا والدين (٣٩، ٤٠) .

(٢٥) باب الأمر بأداء الأمانة

✽ ما أجمل أن يكون المسلم أميناً مع ربه (جلّ وعلا).. أميناً مع الناس وهو يعلم أن أسوته وقدوته هو النبي محمد ﷺ الذي كان المشركون يُلقبونه قبل وبعد البعثة بالصادق الأمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

✽ وقد يظن أحدنا أن الأمانة هي مجرد حفظ الأموال ودفعها لأصحابها... ولم يعلم أن الأمانة لها صورٌ كثيرة.

صور الأمانة

✽ إن الأمانة التي أمرنا الله - تعالى - أن نحافظ عليها، ونؤديها لأصحابها لا تكون بحفظ أموال الناس فحسب، وإنما تكون في أشياء أخرى كثيرة:

✽ فإن أعطاك أحدٌ أى شىء حتى ولو كان رخيصاً، وقال لك احفظه لى وديعةً عندك حتى أطلبه منك فهو أمانة.

✽ وحفظ أسرار الآخرين أمانة.

✽ ونقل رسالة كلفك بها إنسانٌ كاملةً دون زيادةٍ أو نقصان أمانة.

✽ وأن تشهد في موقفٍ ما بما رأيته بالضبط من غير تغيير أمانة.

✽ والوقت أمانةٌ فلا نقضيه إلا في كل ما هو مفيدٌ، ولا نُضيِّعه فيما يُغضب الله.

✽ وأداء العبادات التي كلفنا الله بها كالصوم والصلاة هي أهم أمانة،

فالصلاة عندما تُؤديها في وقتها، ونُتم ركوعها وسجودها باهتمام وخشوع دون تقصير أو إهمال نكون بذلك قد أدينا الأمانة.

✽ وعدم الغش في البيع أو الشراء أمانة... والتاجر الأمين هو من ينصح

المشتري، ولا يبيعه سلعة قبل أن يوضح له كل ما فيها، ولا يحاول أن يخفى

عيوبها... ويتعد عن الغش بكل أنواعه.

قال رسول الله ﷺ: «... مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(١).

✽ والمحافظة على المواعيد أمانة، فإذا أعطيت زميلاً لك موعداً باللقاء فعليك أن تذهب إليه في الموعد المحدد بالضبط، ولا تتأخر أو تتخلف عن الموعد.

✽ وطلب العلم أمانة، وإفادة الناس بما تعلمناه أمانة.

✽ وجسم الإنسان أمانة... علينا أن نحافظ عليه، ولا نستخدمه إلا في الخير وكل ما هو مفيد.

✽ وتأدية العمل بإتقان ودون إهمال أمانة... فالتلميذ أمين على دروسه وواجباته المدرسية، ولا يغش في الامتحان ولا يغشش غيره... والمعلم أمين على العلم والمتعلمين... والموظف أمين على وظيفته وعليه مساعدة كل الناس دون إبطاء أو تقصير... والجندي أمين على وطنه يحافظ عليه من الأعداء... والأم أمانة على بيتها وتربية أولادها.

وكل ما يكلف به الإنسان من عمل مفيد له وللناس أمانة عليه أن يؤدّيها^(٢).



✽ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

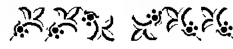
الأمانات: كل ما ائتمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به... فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة مؤفّرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولاً بها... ويدخل في ذلك، أمانات الولايات والأموال، والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله. وقد ذكر الفقهاء أن مَنْ ائتمن أمانة وجب عليه حفظها في حرز مثلها.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١) كتاب الإيمان.

(٢) الأمانة (ص: ٤-٥) - مكتبة سفير.

قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها، لا تُدْفَع وتُؤَدَّى لغير المؤمن، ووكيله بمنزلته؛ فلو دفعها لغير ربها، لم يكن مؤدياً لها^(١).



❖ وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

يُعَظَّم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية. وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنت إن قمت بها وأديتها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومى بها، ولم تؤديها، فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أى خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانياً لربهن، ولا زهداً في ثوابه... وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً... ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً... ومؤمنون: قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

فله تعالى الحمد، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالّين

على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده. مع أن المحكوم عليهم، كثيرٌ منهم مَنْ لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه^(١).

فإذا قال قائل: كيف يعرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال، وهي جماد ليس لها عقل ولا تشعر.

فالجواب: أن كلَّ جماد فهو بالنسبة لله ﷻ عاقل يفهم ويمثل ... أرأيت إلى قوله تعالى فيما أخبر به النبي ﷺ: «إن الله تعالى لما خلق القلم قال له: اكتب». فخاطب الله القلم وهو جماد، وردَّ عليه القلم قال: «وماذا أكتب؟» لأنَّ الأمر مُجْمَل ولا يمكن الامتثال للأمر المُجْمَل إلا ببيانه.. قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٢). فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة.. هذا أمر وتكليف وإلزام.

بل إن الله ﷻ أخبر أن الكون كله يُسبح بحمد الله ويسجد لله (جلَّ وعلا) فقال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا نفقهون تسبيحهم﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ [الحج: ١٨].

بل أخبر النبي ﷺ أن عرش الرحمن قد اهتزَّ فرحًا بقدوم روح سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ... فقال ﷺ: «اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»^(٣).

وأخبر النبي ﷺ أن حجرًا كان يُسلَّم عليه قبل البعثة.. بل وأخبر ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنهم كانوا يسمعون صوت تسبيح الطعام والحصي في يد النبي ﷺ والأمثلة على ذلك كثيرة لا حصر لها.

(١) تفسير السعدي (ص ٧٩١).

(٢) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاری (٣٨٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٦٦) كتاب فضائل الصحابة.

فهنا بين الله ﷻ أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبت أن تحملها.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. فخاطبهما بالأمر وقال: ائتيا طوعًا أو كرهًا، فقالتا: أتينا طائعين... ففهمت السموات والأرض خطاب الله، وامثلتا وقالتا: أتينا طائعين... وعصاة بني آدم يقولون: سمعنا وعصينا.

الأمانة حملها الإنسان، ولكن كيف حملها؟ حملها بأمرين: العقل والرسول... العقل الذي أعطاه الله ﷻ، وفُضِّله به على كثير ممن خلق تفضيلاً... والرسول الذين أرسلهم الله ﷻ للإنسان، وبينوا له الحق من الضلال، فلم يبق له عذر، ولكن مع ذلك وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول، فاختلف العلماء هل «الإنسان» هنا عام، أم خاص بالكافر؟... فقال بعض العلماء: إنه خاص بالكافر، فهو الظلوم الجهول، أما المؤمن فهو ذو عدل وعلم وحكمة ورشد... وقال بعض العلماء: بل هو عام.. والمراد الإنسان بحسب طبيعته، أما المؤمن فإن الله منَّ عليه بالهداية، فيكون مُسْتَشْنَى من هذا.. وأياً كان فمن قام بالأمانة انتفى عنه وصف الظلم والجهالة التي في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]^(١).

إن الأمانة من أبرز أخلاق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب - في سورة الشعراء - يخبرنا الله ﷻ أن كل رسولٍ من هؤلاء قد قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

ورسولنا محمد ﷺ قد كان في قومه قبل الرسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنه الصادق الأمين... وكان الناس يختارونه لحفظ ودائعهم وأماناتهم عنده.

ولما هاجر ﷺ وكل على بن أبي طالب ﷺ بردّ الودائع إلى أصحابها. وجبريل عليه السلام أمين الوحي، وقد وصفه الله بذلك في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٣﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤] ^(١). وقال القرطبي: «الأمانة تعم جميع وظائف الدين.. ونسب هذا القول لجمهور المفسرين، فالأمانة هي الفرائض التي اتّمتن الله عليها العباد، واختلف في تفاصيل بعضها على أقوال: فقليل هي أمانات الأموال كالودائع وغيرها وقيل: في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال، وقيل: من الأمانة أن اتّمتت المرأة على فرجها، وقال بعضهم: غُسل الجنابة أمانة، وقيل: الأمانة هي الصلاة (إن شئت قلت: صليت، وإن شئت قلت: لم أصل) وكذلك الصيام وغُسل الجنابة... وعلى ذلك فالفرج أمانة ^(٢)، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة واليد أمانة، والرجل أمانة.

قال: «ولا إيمان لمن لا أمانة له» ^(٣)، وقيل: هذه الأمانة هي ما أودعه الله تعالى في السموات والأرض والجبال والخلق من الدلائل على ربوبيته أن يُظهرها فأظهرها إلا الإنسان فإنه كتمها وجحدتها... والمراد بالإنسان على ذلك هو الكافر والمنافق ^(٤).

مجالات الأمانة

والمجالات التي تدخل فيها الأمانة كثيرة منها:

الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية

(١) نضرة النعيم (٣/ ٥٠٩).

(٢) أي حفظ الفرج.

(٣) أي لمن لم يحفظ هذه الأمانات التي استودعها الله إياه.

(٤) انظر هذه الآراء وغيرها في تفسير القرطبي (١٤/ ٢٥٣-٢٥٨).

والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة ونقل الحديث والأسرار والرسالات والسمع والبصر وسائر الحواس، ولكل واحدة من التفصيل ما يناسبها^(١).

انقسام الناس عند حمل الأمانة

❖ ولقد علم الحق (جل وعلا) أنه إذا حمّل الناس التكاليف الشرعية فإن الناس سينقسمون إلى ثلاثة أقسام... ولذا قال تعالى في الآية التي تليها: ﴿لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

❖ فانقسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

١- فمنهم قسم ترك الأمانة ظاهراً وباطناً بل وكفر بتلك الأمانة (وهم المشركون).

٢- ومنهم قسم تظاهر بحمل الأمانة لكنه مُبَغِضٌ وكارهٌ لها في الباطن (وهم المنافقون)... كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

٣- والقسم الثالث هم الذين يحملون الأمانة ظاهراً وباطناً (وهم المؤمنون).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(٢).
وفي رواية: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

(١) الأخلاق الإسلامية (١/ ٦٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «أربعٌ من كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(١).

✽ «آية المنافق ثلاث» آية: يعني علامة .. فعلامه المنافق ثلاث كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُنَا بِنَبِيٍّ إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]. يعني أو لم يكن لهم علامة على صدق ما جاء به النبي ﷺ، وصحة شريعته وأن هذا القرآن حق: ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُؤُنَا بِنَبِيٍّ إِسْرَءِيلَ﴾، ويعلمون أنه هو الذي بشر به عيسى (عليه الصلاة والسلام)... وكذلك قوله: ﴿وَأَيُّهُمْ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ١٤].

✽ «آية المنافق ثلاث» آيته: يعني علامته ثلاث «إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» يعني أن هذه من علامات المنافقين.

إذا رأيت الرجل يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا أؤتمن، فهذه من علامات المنافقين... لأن أصل النفاق مبني على التورية والستر، والمنافق يستر الخبيث ويظهر الطيب، يستر الكفر ويظهر الإيمان - هذا إذا كان نفاقاً اعتقادياً.. ولكن المقصود هنا النفاق العملي -.

والكاذب كذلك يُخبر بخلاف الواقع، والواعد الذي يعد ويخلف كذلك، وكذلك الذي يخون إذا أؤتمن... فهذه علامات النفاق والعياذ بالله.

✽ فالمؤمن لا يكذب لأن الكذب من صفات المنافقين.. وقد حذرنا النبي ﷺ من الكذب فقال ﷺ: «وَيَا كُفَّاهُ الْكُذْبِ، فَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكُذْبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: «والكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم؛ لسوء عاقبته، وَحُبُّ نَتَائِجِهِ؛ لأنه يُنتِجُ النَمِيمَةَ، والنَمِيمَةُ تُنتِجُ البَغْضَاءَ، والبَغْضَاءُ تَوُولُ إِلَى العَدَاوَةِ، وليس مع العداوة أَمْنٌ ولا راحة؛ ولذلك قيل: مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُهُ»^(١).

وأشوأ أنواع الكذب هو الكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾
[الزمر: ٦٠].

وقال ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

❁ قوله ﷺ: «وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ».

فإخلاف الوعد حرام .. لأنه يجب الوفاء بالوعد سواء كنت وعدته مالا أو مساعدة من أي نوع أو أعطيته موعدا لا بد أن تكون صادقا في وعدك ولا تُخلفه أبدا؛ لأن هذا من صفات المؤمنين...

وقد يتعجل بعض الناس في الحكم على إنسانٍ بالنفاق إذا أعطى أحدهم موعدا ولم يأت ... والحقبة أن المسألة فيها تفصيل .. فلو أعطى إنسانُ موعدا لمقابلة أخيه وكان في تلك اللحظة قد أضمر في قلبه أنه لن يذهب إليه فهو نوعٌ من النفاق العملي .. أما إذا أعطاه الموعد وهو ينوي أن يُقابله في الموعد لكن حدث له ما يمنعه من الذهاب إليه فهذا معذور وليس منافقا.

❁ قوله ﷺ: «وَإِذَا أُوتِمَنَ خَانَ».

عَدَّ الإمام الذهبي الخيانة من الكبائر، وقال: الخيانة قبيحة في كل شيء.. وبعضها شرٌّ من بعض.. وليس مَنْ خَانَكَ فِي فَلْسٍ كَمَنْ خَانَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ

(١) أدب الدنيا والدين (ص ٢٦٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

وارتكب العظائم^(١).

فالحيانة تكون في الأموال .. بأن يأخذ الإنسان مالاً على سبيل القرض ولا يرده إليك .. أو يأخذ مالاً ليشغله لك ثم يخونك ولا يرده إليك .. وتكون أيضاً في الأعراض .. بأن يخون أخاه في أهله ... وتكون أيضاً في الأسرار .. بأن يفشي أسرار أخيه . وتكون في أشياء كثيرة ...
أسأل الله أن يحفظني وإياكم من الكذب والخيانة ومن كل صفات المنافقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠٥) وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أُنْتَظِرُ الْآخَرَ: حَدَّثَنَا: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ^(٢) قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ» وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا قَالَ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظُلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ^(٣)، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ^(٤)، كَجَمْرِ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَتَنْقُطُ^(٥)، فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً^(٦) وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ،

(١) الكبائر (ص ١٥٠).

(٢) (جذر): الأصل من كل شيء، انظر: «النهاية في غريب الحديث» (١/ ٢٥٠).

(٣) (الوقت): جمع وكتة، وهي الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه، ومنه قيل للبسر إذا وقعت فيه نقطة من الأرتاب: قد وكت. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ٢١٨).

(٤) (المجل): هو ما يكون في الكف من أثر العمل بالأشياء الصلبة الخشنة، كهينة البشر. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٣٠٠)، و«صحيح البخاري» (٦٤٩٧)، كتاب الرقاق.

(٥) (نقط): يقال: نطقت يده؛ أي: قرحت من العمل، والنقطة: بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماء. انظر: «لسان العرب» (٧/ ٤١٦-٤١٧).

(٦) (منتبراً): المنتبر كل مرتفع، ومنه اشتق المنبر، يقال: انتبر الجرح إذا ورم وامتلاً ماء. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٥/ ٧-٨)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٩).

فَيَقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ ثِقَالٍ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ» وَلَقَدْ أَتَى عَلَى زَمَانٍ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَيْنٌ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَى سَاعِيهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فَلَانًا وَفُلَانًا^(١).

❁ قوله ﷺ: «إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ» يَعْنِي فِي أَصْلِهَا، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مَا يُثَبِّتُ وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْأَصْلَ، فَجَاءَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ مُؤَيِّدًا لِلْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا... وَعَلِمُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَازْدَادُوا بِذَلِكَ إِيْمَانًا وَثَبَاتًا وَأَدَاءً لِلْأَمَانَةِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ تُقْبَضُ الْأَمَانَةُ وَتُرْفَعُ مِنَ الْقَلْبِ... يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ وَتُرْفَعُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، وَلَا يَبْقَى لِلْأَمَانَةِ فِي الْقَلْبِ أَثَرٌ، إِلَّا كَأَثَرِ الْوَكْتِ؛ أَيْ: كَالنَّقْطَةِ السَّوْدَاءِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ الْآخَرَى فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَلَا يَبْقَى لِلْأَمَانَةِ أَثَرٌ إِلَّا كَالْمَجْلِ، ثُمَّ يَبِينُ النَّبِيُّ ﷺ كَيْفَ تُقْبَضُ الْأَمَانَةُ فِي الْمَرَحَلَةِ الثَّانِيَةِ؛ فَيَقُولُ: «كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَנَفَطَ»؛ أَيْ: انْتَفَخَ الْجِلْدُ، وَتَوَرَّمَ، وَإِنْ ضَغَطْتَ عَلَيْهِ، فَلَا تَرَى فِيهِ شَيْئًا؛ فَيُظْهِرُ أَنَّ الْأَمَانَةَ مُوجُودَةٌ، لَكِنْ لَوْ فَتَشْتَ وَنَقَبْتَ عَنْ حَقِيقَةِ وَجُودِهَا لَنْ تَجِدَ لَهَا أَثَرًا.

فَتَرَى الرَّجُلَ يَدَّعِي الْأَمَانَةَ وَيُظْهِرُهَا، وَلَكِنْ كَلَوْ نَقَبْتَ وَفَتَشْتَ عَنْ حَقِيقَةِ هَذِهِ الْأَمَانَةِ، فَلَنْ تَرَى لَهَا أَثَرًا؛ كَالْجَمْرِ الَّذِي دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَنَفَطَ الْجِلْدُ لَهُ، فَانْتَبَرُ وَانْتَفَخَ، وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ ذَاتَهُ خَالٍ مِنْ أَيْ شَيْءٍ.

يَقُولُ حَذِيفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَيَصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيَقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا! ... أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي تَحْيَاهُ الْأُمَّةُ الْآنَ؟ يُشَارُ بِالْبَنَانِ لِرَجُلٍ أَمِينٍ، سِوَاهُ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ تَاجِرًا أَوْ حَتَّى عَالِمًا...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩٧) كتاب الرقاق، ومسلم (١٤٣) كتاب الإيمان.

فالأمانة - لا أقول - نُزِعَتْ من التُّجَّار؛ بل نُزِعَتْ من كثيرٍ ممَّن ينتسبون إلى العلم... فكم ممَّن يُشار إليهم الآن بالبنان من أهل العلم فقدوا الأمانة أو خانوها؛ لأن الأمانة لا يُراد بها فقط الودائع التي تُحفظ عند بعض الناس لبعضهم، لا؛ بل هذا مفهومٌ قاصرٌ جدًّا لمعنى الأمانة.

فالأمانة لها معنىٌ أوسع ومفهومٌ أشمل؛ كما قال الله (جَلَّ وَعَلَا): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الأمانة هي الفرائض التي افترضها الله على عباده»^(١). وقال أبو العالية: «الأمانة هي ما أمروا به وما نُهوا عنه»^(٢).

وقال قتادة - وهو أجمل الأقوال عندي: «الأمانة هي الدين»^(٣).

فالدين كله أمانة الفرائض أمانة، والصلاة أمانة؛ والصيام أمانة، والزكاة أمانة، والحج أمانة، وكلُّ شرائع الدين أمانة .. فالمال أمانة، والعلم أمانة، والولاية أمانة، والوظيفة أمانة، والزوجة أمانة، والأولاد أمانة، والنظر أمانة، والسمع أمانة، والجوارح أمانة.

فالدين كله أمانة ... وسُئِلَ عن هذه الأمانة بمفهومها الشامل الكامل الذي خَشِيتُ كُلَّ المخلوقات من حملها، وتقدَّم الإنسان الضعيفُ القصيرُ العمرُ الذي تتحكم فيه الأهواء والشهوات؛ ليتحمل هذا الحِملَ الثقيلَ، وتلك الأمانة العظيمة؛ فمن أَدَّأها فهو الأمين، ومن خانها فهو الخائن والظلوم الجهول!!

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (سورة الأحزاب: ٧٢)، عن ابن عباس، وورد مثله عن سعيد بن جبير.

(٢) انظر «تفسير البغوي» (٦/ ٣٨٠)، و«تفسير ابن كثير» (النساء: ٥٨). وعزاه في «الدر المنثور» (٨/ ٢١٨) لابن أبي حاتم في «تفسيره» وغيره.

(٣) كما عند الطبري في «تفسيره» (سورة الأحزاب: ٧٢) (٢٠/ ٣٣٩)، قال: «يعنى به: الدين والفرائض والحدود، وهو قول الضحاك»؛ كما عزاه السيوطي في «الدر» للفرجاني.

فلا يكاد أحدهم يؤدى الأمانة، فيقال: «إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا»، فيأتيه الناس من أبعد مكانٍ لأمانته، وَ «يُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلُهُ وَمَا أَظْرَفُهُ وَمَا أَجْلَدُهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ».

يقول حذيفة: «وَلَقَدْ أَتَى عَلَى زَمَانٍ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بِأَيْعَتْ»، لأن الأصل في الناس حينئذٍ هو الأمانة، «لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهٗ عَلَى الْإِسْلَامِ»، أى: هذا الذى أبايعه وأتعامل معه إن كان من المسلمين، فإنه يُراقب ربه (جلَّ وعلا) ويُنفذ تعاليم إسلامه، ويحول هذا الإسلام فى واقعه إلى منهج حياة... فالمسلم لا يخون، ولا يكذب، ولا يغش؛ بل إن المسلم الصادق يَصْدُقُ مع أخيه المسلم.

«وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهٗ عَلَى سَاعِيهِ»، أى: ولى الأمر المسلم... فإن غَشَّ النصرانيُّ فهو يعلم يقيناً أن ولى الأمر سيأخذُ منه الحق لمن غشه.

فتصور هذا المجتمع كيف تكون الحياة فيه؟!!

«فَأَمَّا الْيَوْمَ: فَمَا كُنْتُ أَتَابِعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا»، وهذا الكلام يقوله حذيفة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

فالأمانة تُقبض كما يقبض العلم، كما أخبر النبي ﷺ، حتى يصير الرجل خائناً بعد أن كان أميناً... فالأمانة حِمْلٌ ثَقِيلٌ، ومفهومٌ ضخم.

❖ فمن أعظم المعانى التى بَيَّنَّها النبي ﷺ فى تضييع الأمانة؛ إسناد الأمر إلى غير أهله.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكِرَهُ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثُهُ قَالَ: «أَيْنَ - أَرَاهُ - السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ

الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَاعَاتٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ»، قيل: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «الرَّجُلُ النَّافِهُ - وفي لفظ: «السَّفِيه» - يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»^(٢).

فالوظائف على اختلافها قد وُسِّدت - في الغالب - إلى غير أهلها.. إلى غير القادرين على تسييرها بما يرضى الربَّ سبحانه وتعالى... وفي ذلك تضييعٌ للأمانة، وتضييعٌ لحقوق الناس، واستخفافٌ بمصالح القوم، وإيغارٌ للصدور، وإثارةٌ للفتن بين الناس، وإذا ضيَّعَ مَنْ يتولى أمر الناس الأمانة، فالناس تبعٌ له، يُضيِّعون - هم من باب أولى - الأمانات فيما بينهم... فصلاح حال الولاية صلاحٌ لحال الرعية... نسأل الله أن يُصلح أحوالنا، وأن يردَّ الجميع إلى دينه ردًّا جميلاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠٦) وَعَنْ حَدِيثَةٍ، وَأَبَى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُرْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمَدُوا إِلَى مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحِهِ فَيَقُولُ عِيسَى: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ فَيَقُومَانِ جَنْبَتَي الصَّرَاطِ

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٩) كتاب العلم، و(٦٤٩٦) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٦٥٠).

يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَكُمْ كَالْبَرْقِ» قُلْتُ: بِأَبَى وَأُمِّى، أَى شَىءٍ كَمَرَّ الْبَرْقُ؟ قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحُ ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرُ وَأَشَدُّ الرِّجَالِ تَجَرَّى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِىءَ الرَّجُلُ لَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا، وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِبُ مُعَلَّقَةٌ مَا مَوْرَةٌ بِأَخَذٍ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرَّدَسٌ فِي النَّارِ وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا»^(١).

✽ يُخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَجْمَعُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرًّا غَيْرَ مَخْتُونِينَ ✽ ﴿كَأَبَدْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] .. وَالشَّمْسُ تَدْنُو فَوْقَ الرُّؤُوسِ حَتَّى تَكُونَ كَمَقْدَارِ مِيلٍ .. وَيَفِيضُ الْعَرَقُ فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعِرْقَ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصِلُ إِلَى حَقْوِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَا .. وَيُؤْتَى بِجَهَنَّمَ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ فَلَا يَبْقَى مَلِكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَى عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَقَالَ: يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فِي هَذَا الْوَقْتُ الْعَصِيبُ يَقُومُ النَّاسُ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] .. وَتُقَرَّبُ لَهُمُ الْجَنَّةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]. فَإِذَا رَأَوْهَا اشْتَاقُوا لِلدَّخُولِ.

وَفِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَصِيبُ يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالتَّمَتُّعِ بِنَعِيمِهَا الَّذِي لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . فَيَجْتَمِعُونَ وَيَقُولُونَ: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ حَتَّى نَدْخُلَ الْجَنَّةَ ... فَيَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ ﷺ وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ فَيَقُولُ لَهُمْ: «وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ».

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

قوله: «وَرَاءَ وَرَاءَ» وَمَعْنَاهُ: لَسْتُ بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تُذَكَّرُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَاضُّعِ. وَقَدْ بَسَطْتُ مَعْنَاهَا فِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والخطيئة التى وقعت منه أن الله سبحانه وتعالى قال له ولزوجه حين أسكنهما الجنة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فإنه لما خلق الله آدم وفضلله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجه؛ ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة، والأكل منها ﴿رَغْدًا﴾ أى: واسعًا هنيئًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أى: من أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١٨) ﴿وَأَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة، الله أعلم به.

وإنما نهاهما عنها امتحانًا وابتلاءً، أو لحكمة غير معلومة لنا.

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دلَّ على أن النهى للتحريم؛ لأنه رتب الظلم عليه.

فلم يزل عدوهما إبليس يوسوس لهما ويُزين لهما تناول ما نُهيَا عنه حتى أرلَّهما... أى: حملهما على الزلل بتزيينه ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أقسم لهما بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فاغترَّ به وأطاعاه، وأكلا من الشجرة... فكان سبب إخراجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته^(١).

فالشاهد أن آدم ﷺ تذكر خطيئته هو وزوجته، وهى أكلهما من الشجرة التى حظرها الله عليهما، ولكنه تاب إلى الله تعالى من ذلك، فأمره الله سبحانه أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض فهبطا وكانت منهما هذه الذرية... فمنهم الشهداء والرسل والأنبياء والصالحون، ومنهم غير ذلك من أهل الفساد والكفر والنفاق والإلحاد والضلال.

فعندما يذهب الناس إلى آدم ﷺ فى هذا الموقف العظيم يوم القيامة يعتذر

(١) تفسير السعدى (ص ٣٩) بتصرف.

عن مساعدتهم ويتذكر خطيئته التي أخرجته من الجنة.

أما القصة التي تُروى عن ابن عباس رضي الله عنه في سبب خروج آدم وحواء من الجنة، وأن حواء حملت فجاءها الشيطان فقال: سَمِّيا الولد عبد الحارث، أو لأجعلن له قرناً، فيخرج من بطنك فيشقه فأبياً أن يُطيعا، فجاءهما في المرة الثانية، فأبياً أن يُطيعا، فجاءهما في المرة الثالثة فأدركهما حب الولد فسمّياه عبد الحارث، وجعل ذلك تفسيراً لقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَبْلاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَبْلاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] فإن هذه القصة قصة مكذوبة ليست بصحيحة

فنحن نعلم من خلال حديث الشفاعة وما تقرر من عصمة الأنبياء أن هذا الفعل لا يصح من آدم عليه السلام أبداً؛ لأنه شرك ... والشرك لا يقع من الأنبياء ^(١).

﴿المهم أنه بعد أن يعتذر آدم عليه السلام عن الشفاعة ويقول لهم: «لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ» فيذهب الناس إلى إبراهيم خليل الرحمن (جلّ وعلا) فيطلبون منه الشفاعة فيعتذر ويقول: «لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ» ... قَالَ صَاحِبُ التَّحْرِيرِ: هَذِهِ كَلِمَةٌ تُذَكِّرُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَّاضُعِ ... أَيْ لَسْتُ بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ.

قَالَ: وَقَدْ وَقَعَ لِي مَعْنَى مَلِيحٍ فِيهِ وَهُوَ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ الْمَكَارِمَ الَّتِي أُعْطِيَتْهَا كَانَتْ بِوَسَاطَةِ سِفَارَةِ جِبْرِيلَ عليه السلام وَلَكِنْ أَثْوَا مُوسَى فَإِنَّهُ حَصَلَ لَهُ سَمَاعُ الْكَلَامِ بَغَيْرِ وَاسِطَةٍ... قَالَ وَإِنَّمَا كَرَّرَ وَرَاءَ وَرَاءَ لِكُونَ نَبِيًّا مُحَمَّدٍ عليه السلام حَصَلَ لَهُ السَّمَاعُ بَغَيْرِ وَاسِطَةٍ فَقَالَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: «أَنَا وَرَاءَ مُوسَى عليه السلام الَّذِي هُوَ وَرَاءَ مُحَمَّدٍ عليه السلام» ^(٢).


(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٤٧) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٣/٨٦).

ثم يدلهم أن يذهبوا إلى موسى عليه السلام ويقول: «اعمدوا إلى موسى عليه السلام الذى كلمه الله تكليماً». فيذهب الناس إلى موسى عليه السلام ويطلبون منه الشفاعة لدخول الجنة فيعتذر ويقول: «لست بصاحب ذلك» ثم يدلهم على أن يذهبوا إلى عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه.. فيذهب الناس إلى عيسى عليه السلام.

وتأمل معى كيف تعب الناس كل هذا التعب حتى يدخلوا الجنة.. وهى فى الحقيقة تستحق هذا التعب وأكثر من ذلك.. فهى سلعة الله الغالية «.. ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله هى الجنة»^(١).

وعندما يذهب الناس إلى عيسى عليه السلام يعتذر لهم ويقول: لست بصاحب ذلك اذهبوا إلى محمد عليه السلام فإنه عبدٌ غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. فيذهبوا إلى النبى عليه السلام فيقوم فيؤذن له بالشفاعة.

هذا هو مقام ومكانة النبى محمد عليه السلام.. فإنه سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة.  وهنا يخبر النبى عليه السلام ويقول: وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً لتطالباً كل من يريد الجواز على الصراط بحقهما.

فإنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسرٌ دقيقٌ منصوبٌ على ظهر جهنم... وهى عقبة فى طريق الداهيين إلى دار السلام (الجنة) وممرٌ خطيرٌ للغاية يشهد لخطورته أن الرسول عليه السلام يقف على جنباته والناس يمرون، وهو: يدعو «رب سَلِّمْ سَلِّمْ»^(٢). ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا... فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى وكأنه البرق الخاطف.

ومنهم من يمر كمَرَّ الريح، ومنهم من يمرُّ فى سرعة الطير، ومنهم من يمر

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٥) كتاب الإيمان.

كشدَّ الرجال تجرى بهم أعمالهم .. فكل مَنْ كان في هذه الدنيا أسرع إلى التزام صراط الله ﷻ واتباع شريعته، كان على هذا الصراط أسرع مروراً، ومَنْ كان مُتباطئاً عن الشرع في الدنيا، كان سيره هناك بطيئاً.

والنبي ﷺ الذي يحب أمته ويخشى عليهم في الدنيا والآخرة .. يقوم على الصراط ويقول: «يا رب سلِّم سلِّم» .. ويظل الناس يتفاوتون في سرعة مرورهم على الصراط حتى يجيء آخرهم يزحف على الصراط زحفاً.

أما الكفار الخُلص فإنهم لا يصعدون هذا الصراط ولا يمرون عليه، بل يُذهَب بهم إلى جهنم قبل أن يصعدوا هذا الصراط، ويُذهَب بهم إلى جهنم ورداً.... إنما يصعده المؤمنون والمنافقون .. فأما المنافقون فسرعان ما تنطفئ أنوارهم على الصراط فيسقطون في النار ولا يخرجون .. وأما المؤمنون فمن كان له ذنوب لم تُغفر فإنه قد يقع في نار جهنم، ويُعَذَّب بحسب أعماله.

ثم يخرج من النار ويدخل الجنة؛ لأنه لا يُخلَّد موحداً في النار .

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن على حافتي الصراط كلاليبٌ مُعلَّقة - مثل الخطاطيف - وهي مأمورة بأخذ مَنْ أمرها الله بأخذه .. فمنهم مَنْ يُخدش لكنه يمر من على الصراط وينجو بجروحه الشديدة .. ومنهم مكدوسٌ في نار جهنم لا يستطيع النجاة.

وهنا يقول أبو هريرة (رضي الله عنه) -أحد رواة الحديث-: وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنْ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفاً.. أى سبعون سنة .. عافانا الله وإياكم.

❁ فلنحرص من الآن على أن نجتهد في طاعة الله وعلى أن نُسرع في تلك الطاعة حتى نكون أسرع مروراً على الصراط يوم القيامة.

(٢٠٧) وَعَنْ أَبِي حُبَيْبٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا وَقَفَ الزُّبَيْرُ يَوْمَ الْجَمَلِ دَعَانِي فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لَا أُرَانِي إِلَّا سَاقُتْلُ الْيَوْمَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمَمِي لَدَيْنِي أَفْتَرَى دِينَنَا يُبْقَى مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟ ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ بَعِ مَالَنَا وَأَقْضِ دَيْنِي، وَأَوْصِيَ بِالثُّلُثِ، وَثُلُثِهِ لِبْنِيهِ، يَعْنِي لِبْنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ثُلُثُ الثُّلُثِ. قَالَ: فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّيْنِ شَيْءٌ فَثُلُثُهُ لِبْنِيكَ، قَالَ هِشَامٌ: وَكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ: قَدْ وَازَى بَعْضَ بَنِي الزُّبَيْرِ حُبَيْبٍ وَعَبَادٍ، وَلَهُ يَوْمٌ تِسْعُ بَنِينَ، وَتِسْعُ بَنَاتٍ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ فَجَعَلَ يُوَصِّينِي بِدِينِهِ وَيَقُولُ: يَا بُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِمَوْلَايَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ: يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلَاكَ؟ قَالَ: اللَّهُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دِينِهِ إِلَّا قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ أَقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيهِ. قَالَ: فَقَتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا أَرْضَيْنِ، مِنْهَا الْغَابَةُ وَإِحْدَى عَشْرَةَ دَارًا بِالْمَدِينَةِ. وَدَارَيْنِ بِالْبَصْرَةِ، وَدَارًا بِالْكُوفَةِ وَدَارًا بِمَصْرٍ. قَالَ: وَإِنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأْتِيهِ بِالْمَالِ، فَيَسْتَوْدِعُهُ إِيَّاهُ، فَيَقُولُ الزُّبَيْرُ: لَا وَلَكِنْ هُوَ سَلَفٌ إِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ. وَمَا وَلِي إِمَارَةً قَطُّ وَلَا جَبَايَةً وَلَا خَرَجًا وَلَا شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي غَزْوٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَوْ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ رضي الله عنهم، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفِي وَمِائَتِي أَلْفٍ، فَلَقِيَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّيْنِ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ: مِائَةُ أَلْفٍ. فَقَالَ: حَكِيمٌ: وَاللَّهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسْعُ هَذِهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَرَأَيْتَكَ إِنْ كَانَتْ أَلْفِي أَلْفٍ؟ وَمِائَتِي أَلْفٍ؟ قَالَ: مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِِي. قَالَ: وَكَانَ الزُّبَيْرُ قَدْ اشْتَرَى الْغَابَةَ بِسَبْعِينَ وَمِائَةَ أَلْفٍ، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بِأَلْفٍ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَيْءٌ فَلْيُؤَاغِبْنَا بِالْغَابَةِ، فَأَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، وَكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا، قَالَ: فَإِنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُموها فِيمَا تُؤَخَّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ، فَقَالَ

عَبْدُ اللَّهِ: لَا، قَالَ: فَأَقْطَعُوا لِي قِطْعَةً، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَكَ مِنْ هَاهُنَا إِلَى هَاهُنَا. فَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْهَا فَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ، وَوَفَّاهُ وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَشْهُمٍ وَنِصْفٌ، فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ زَمْعَةَ. فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: كَمْ قُومَتِ الْغَابَةُ؟ قَالَ: كُلُّ سَهْمٍ بِمِائَةِ أَلْفٍ قَالَ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَشْهُمٍ وَنِصْفٌ، فَقَالَ الْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، وَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ. وَقَالَ ابْنُ زَمْعَةَ: قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: كَمْ بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَ: سَهْمٌ وَنِصْفٌ سَهْمٌ، قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُ بِخَمْسِينَ وَمِائَةِ أَلْفٍ. قَالَ: وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ. فَلَمَّا فَرَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ قَضَاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ: اقْسِمْ بَيْنَنَا مِيرَاثًا. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بِالْمَوْسِمِ أَرْبَعَ سِنِينَ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا فَلِنَقْضِهِ. فَجَعَلَ كُلُّ سَنَةٍ يُنَادِي فِي الْمَوْسِمِ، فَلَمَّا مَضَى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسَمَ بَيْنَهُمْ وَدَفَعَ الثُّلُثَ وَكَانَ لِلزُّبَيْرِ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، فَأَصَابَ كُلَّ امْرَأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ أَلْفٍ وَمِائَتَا أَلْفٍ^(١).

✽ كان الصحابي الكبير حواري رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة... شهد بدرًا وما بعدها، وهاجر الهجرتين، وهو أول مَنْ سَلَ سَيْفًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ... أسلم وهو ابن ست عشرة سنة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وعُذِّبَ فِي اللَّهِ، وثبت وكان يقول: لا أكفر أبدًا.

✽ وفي هذا الحديث الجميل فوائد كثيرة، وعرض لجوانب رائعة من حياة جيل الصحابة العظيم.

✽ فالزبير رضي الله عنه في الساعة العصيبة التي تَوَقَّعَ فِيهَا قُرْبَ أَجَلِهِ كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ أَنْ يُقْضَى دَيْنُهُ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَذِمَّتُهُ بِرِيئَةٍ مِنْ أَى حَقٍّ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ.

(١) صحيح: رواه البخارى (٣١٢٩) كتاب فرض الخمس.

وهذا يدل على شأن الدين وضرورة الاهتمام بقضائه.

✽ والزبير رضي الله عنه امتثل أمر رسول الله ﷺ بالوصية وقد ذكر الحديث أنه ﷺ أوصى ابنه بأن يقضى دينه وقال لابنه: إن الشيء الذي يهمله هو هذا الدين... وتساءل لكثرة الدين: هل يبقى هذا الدين من تركته شيئاً.

ومعلوم أن الورثة لا يتقاسمون ما تركه لهم مُورثهم إلا بعد وفاء الدين، فإذا استهلك الدين المال لم يبقَ لهم شيء.

✽ وهناك في الوصية شيءٌ لطيف، وذلك قوله: يَابُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَازِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَهْمَةِ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِمَوْلَايَ. ويُقسم عبد الله أنه ما عرف ما أراد أبوه حتى سألته: يَا أَبَتِ مَنْ مَوْلَاكَ؟ قَالَ: الله.

ويمثل الولد أمر أبيه ويقول: والله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقض عنه دينه، فيقضيه.

وفي ذلك ما فيه من صدق التوكل على الله، ووافر اليقين وعظيم الثقة بالاستعانة بالله.

✽ فقد مات الزبير وله تسعة بنين وتسع بنات. وفصّلت كتب التراجم وشروح الحديث أسماءهم.

وقد تُوفى عن أربع زوجات وهن (أم خالد والرباب وزينب وعاتكة).

✽ وفي الحديث أن الزبير ما ولى إمارة قط، ولا ولى جباية خراج قط... أى لم يعمل موظفاً في الحكومة، وقد قال ذلك عبد الله بن الزبير ليبين أن كثرة ماله ما حصلت من هذه الجهات المقتضية لظن السوء بأهلها، بل كان ماله مما يكسبه من الغنيمة وغيرها من الأعمال التي لا علاقة للأموال العامة بها.

✽ وفي الحديث تصوير واقعي للمستوى الرفيع الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم... فالزبير كان موضع ثقة الناس، يلجأ إليه كثير من الناس ليدعوا أموالهم عنده، ولكن حرصه الشديد على أموال الناس كان يحمله على

أن يتفق مع هؤلاء المودعين على أن هذه الأموال سلف تستقر في ذمته، فيقترضها، ويفعل ذلك لمصلحة هؤلاء الذين وثقوا به.

ذلك لأن الوديعة إذا تلفت بغير تفريط من المستودع، فليس عليه ضمان سواء ذهب معها شيءٌ من مال المستودع أم لم يذهب. ولا يضمن إلا بالتعدّي^(١). أما الدين فيستقر في الذمة سواء تلف مال الإنسان أم لا.. وهكذا فإن تصرف الزبير أو ثق لصاحب المال، وأبقى لمروءة الزبير رضي الله عنه.

❁ وفي الحديث بيان لإباء عبد الله بن الزبير وتعففه وعزة نفسه، إذ لم يقبل من أحد الهبة أو أن يُحلله من دينه، ولم يقبل عرض تأخير السداد. وهذا ما ربّى الإسلام عليه أتباعه من التعفف والحرص على أداء الأموال لأصحابها، والبُعد عن الشبهات.

❁ ويدل الحديث على هذا المستوى الرفيع الذي كان يحياه الصحابة رضي الله عنهم ومن التعاون والتسامح وإغاثة الملهوف، وإعانة الذي في أزمة أو حاجة... فعبد الله بن جعفر عندما شعر بأن تركة الزبير لا تفي بالديون الكثيرة عرض على ابن الزبير أن يُحلله ويتنازل عن حقه، فأبى ابن الزبير.. وإذا عرفنا ضخامة المبلغ أدركنا كرم ابن جعفر وإشفاقه على أبناء الزبير، ورغبته الصادقة في تنفيس كربتهم... وكذلك فإن ابن عمه حكيم بن حزام كان يهمله دين الزبير ولما علم مقداره، قال لعبد الله: مَا أَرَاكُمْ تُطِيقُونَ هَذَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بِي. ولكن عبد الله أبى ولم يحتج إلى شيء من ذلك.

والقصة بكاملها تدور حول مغزى مهم وهو الاهتمام بشأن الدين، وأداء الحقوق إلى أصحابها... فإذا كان الزبير - مع ما سبق له من السوابق وثبت له من المناقب ومع أنه من المُبشرين بالجنة - خاف من مطالبة أصحاب الحقوق

(١) انظر كفاية الأخيار (٢/ ١١)، ومعجم الفقيه الحنبلي (١٠١٦) وكتب الفقه باب الوديعة.

له بعد موته، وأهمه شأن الدين جدًّا فما قولنا بالناس الآخرين الذين لم يثبت لهم شيء مما ثبت للزير ... إن أمر الدين لشديد.

وهذا المعنى قررته نصوص كثيرة في الكتاب والسنة ... من ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(١).

إذا أخذ المرء المال يريد وفاءه فإن الله تعالى يؤدي عنه إما بأن يفتح عليه في الدنيا وإما بأن يتكفل عنه في الآخرة ... وفي الغالب أنه يؤدي عنه في الدنيا، وأما مَنْ فاجأه الإعسار أو مات وله مال لا يعرفه ورثته وضاع على الدائن ماله فإن الله يتولاه في الآخرة بأن يتكفل عنه لصاحب الدين ولا يؤخذ من حسناته.

أما مَنْ كان يريد أكل المال فهو مُهْدَدٌ بالإتلاف من الله ... ويقع هذا الإتلاف في الدنيا في معاشه أو في نفسه. وإن لم يقع هذا الإتلاف في الدنيا أتلفه الله بعذابه في الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وردُّ الدين من مقابلة الإحسان بالإحسان ... فجزاء الذي فرج كُربتك أن تُردَّ إليه ماله إن أيسرت، والنية في هذا مهمة جدًّا، والله سبحانه يعلمها، ومدار الأعمال كلها عليها.

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا يَسُرُّنِي أَنْ لَا يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثٌ، وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْءٌ أَرَصُّهُ لِدَيْنٍ»^(٢).

فهو ﷺ لا يريد أن يبقى عنده من هذا المال الكثير شيء لو صار إليه إلا دينارًا يرصده لدين ... وهذا دليل على الاهتمام بوفاء الدين.

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٣٨٧) كتاب الاستقراض.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٣٨٩) كتاب الاستقراض.

وأخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمَغْرَمِ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(١).

فقد كان ﷺ يستعيز من الدين خشية ألا يقدر على الوفاء .. ولأنه - في الغالب - ذريعة إلى الكذب في الحديث والخلف في الوعد.

فلا استعاذة من الدين ليست لذاته، بل لما يخشى من غوائله.

فلا أسلم للإنسان ألا يقترض إلا عند الحاجة أو الضرورة.

وقد قيل لرجل صالح من العلماء كان يسكن بيتاً يحتاج إلى طلاء: لِمَ لا تستدين وتكمل البيت؟ قال: إني لو فعلت لم أسترح في نوم ولا يقظة، وكنت أشعر أن الدائن ينام في فراشي ويشاركني وسادتي، وأنا لا أحب أن ينام معي أحد. إن الدين همٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار.

ومما يدل على أهمية الدين وتأثر صاحبه الذي يلقي الله وزمته مشغولة بحقوق الناس .. الحديث الصحيح عن ثوبان، مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَارَقَ الرُّوحَ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ، دَخَلَ الْجَنَّةَ: مِنَ الْكِبَرِ، وَالْغُلُولِ، وَالَّذِينَ»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مَعْلُوقَةٌ بِدِينِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ»^(٣).

وكان ﷺ لا يُصَلِّي على جنازة مَنْ عليه دين ولم يترك ما يسدُّه حتى يتكفل أحد الصحابة بقضاء دينه .. فلما فُتحت الفتوح صار يُصَلِّي عليه.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ؟»، قَالُوا: لَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةِ أُخْرَى، فَقَالَ: «هَلْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٩٧) كتاب الاستقراض، ومسلم (٥٨٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤١١).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٧٩).

عَلَيْهِ مِنْ دِينٍ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، قَالَ: أَبُو قَتَادَةَ عَلَى دِينِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَفْرَأُ وَإِنْ شِئْتُمْ: ﴿الَّتِي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾» [الأحزاب: ٦] فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ^(٢).

إن هذا يبين لنا أهمية الدين، وضرورة قضائه حتى ينجو الميت.

وبقيت مسألة مهمة تتعلق بالدائن ومسألة بالمدين:

أما المدين فإنه مُطَالَب بالمسارعة بسداد الدين عندما يتيسر له المبلغ، ولا سيما في زماننا هذا الذي شاع فيه التضخم ونزول القيمة الشرائية للعملة الورقية... وقد عدَّ الشارع امتناع المرء الميسور عن أداء ما بذمته من الدين ظلمًا فقال ﷺ: «مَطْلُ الْغَنَى ظُلْمٌ»^(٣).

وأمر المدين بحسن القضاء... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمٌّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِمُصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرَوْا لَهُ بُعِيرًا فَأَعْطَوْهُ إِيَّاهُ» وَقَالُوا: لَا نَجِدُ إِلَّا سِنًا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «اشْتَرَوْهُ، فَأَعْطَوْهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»^(٤).

وهو يدل على حُسن خلق النبي ﷺ وعِظَمَ حلمه وتواضعه وإنصافه، وعلى أن مَنْ عليه دينٌ لا ينبغي له مُجَافَاةُ صاحب الحق. وعلى جواز المطالبة بالدين إذا حَلَّ الأجل.

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٩٥) كتاب الكفالة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٩٩) كتاب الاستقراض، ومسلم (١٦١٩) كتاب الفرائض.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٩٠) كتاب الاستقراض، ومسلم (١٦٠١) كتاب البيوع.

إن هذه العناية البالغة بردّ الدين إلى صاحبه ترجع إلى أصل يرعاه الإسلام ويؤكدّه وهو أن المال مَصُونٌ في الإسلام ... يقول ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(١). فانظروا أختي كيف قرن الرسول الأعظم ﷺ الدماء بالأموال، وكيف جعل حرمتها مساوية لحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام.

فليتق الله هؤلاء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

وهذا الحرص الشديد على أداء الديون بعد وفاة الإنسان الذي نواجهه في هذه القصة، من قبل الزبير في وصيته، ومن قبل ابنه بعد الوفاة ... هذا الحرص وجدناه عن غير الزبير وابنه ... وقد تكون هناك قصص جرت لعدد من الصحابة رضوان الله عليهم ... ومن ذلك قصة سعيد بن العاص رضي الله عنه وقيام ابنه بتنفيذ وصية والده بعد دفنه فوراً.

❁ وفي الحديث ما يدل على مشروعية الوصية، فهذا سيدنا الزبير رضي الله عنه عندما أحسّ بدنوّ أجله نادى ابنه ليلبغه وصيته التي كانت تدور حول أمرين: أولهما: قضاء دينه، والاستعانة بالله لتحقيق ذلك.

وثانيهما: وصيته لأولاد ابنه عبد الله، وهم مساوون في الأعمار لأعمامهم، وكلهم لا يحق لهم أن يرثوا؛ لأنهم محجوبون بأبيهم وأعمامهم، فأوصى لهم بالثلث بعد قضاء الدين. وقد كانت هذه الوصية شفوية. ويبدو أنّ الظرف الحرج الذي كان فيه الزبير لم يُنَحْ له الكتابة.

وليس من شك أن الكتابة في الأمور كلها أدق وأوثق ولا سيما في الأمور المادية ... ومن هنا كان الأمر بالكتابة في الدين والوصية والأمور الأخرى .. وإذا كان مع الكتابة شهود يكتبون شهادتهم كان ذلك أحسن. فالكتابة وثيقة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

تطرد النسيان وتنفى التلاعب والكذب، وتنبأ بالإنسان عن التهمة وسوء الظن وضياع الحقوق... ولكن العقود والوصايا تثبت بالشهود ولو كانت شفوية، ومن هنا جاءت الأحاديث الصحيحة الثابتة في الحَضِّ على كتابة الوصية.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ - وَفِي رَوَايَةٍ: ثَلَاثَ لَيَالٍ -، إِلَّا وَصَّيْتُهُ مَكْتُوبَةً عِنْدَهُ»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: «مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي مَكْتُوبَةٌ»^(١).

والحق أن الوصية تقطع دابر المشكلات، وتوضح الأمور، وتبين الحقوق التي للإنسان، والحقوق التي للناس، وتُتيح له التصرف بثُلث ماله بعد موته، ولكن الشرع حذّر من الجور في الوصية أو التعسف في استعمال حقه بأن يوصي بفعل أمور حرّمها الشرع، وقد يكون هذا من الأعمال السيئة التي يختم المرء بها حياته ويستمر تحمُّله لآثامها بعد موته والعياذ بالله.

والحديث مَثَلٌ واضحٌ على بَرِّ الولد بأبيه بعد وفاة الوالد... فقد حرص عبد الله على أن يقوم بما أوصاه به أبوه، وقد بذل قصارى جهده لأداء ما على أبيه من الديون، وهذا من البر الذي أوصى به الشرع وحضّ عليه وجعله من أعظم القربات.

وفي الحديث إكرام الله للزبير، فقد بارك الله تعالى في المال الذي خلفه، حتى وفّى الدّين كله، وكان للورثة منه مبالغ مجزئة.

قال ابن حجر: «وفيه بركة العقار والأرض لما فيه من النفع العاجل والآجل بغير كثير تعب ولا دخول في مكروه كاللغو الواقع في البيع والشراء»^(٢)^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٣٨) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية.

(٢) فتح الباري (٦/٢٣٥).

(٣) بتصرف من كتاب (من هدى النبوة) / د. محمد بن لطفى الصباغ.

(٢٦) باب تحريم الظلم.. والأمر ببرد المظالم

✽ ليس هناك شيء في هذا الكون أبشع من الظلم... لأن الظلم عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

✽ فلقد بدأ الظلم منذ بداية الخلق عندما وقعت أول جريمة في هذا الكون وذلك عندما قتل قابيل أخاه هابيل... وانتشر الظلم بعد ذلك بين الناس وظل يتصاعد حتى وصل إلى أعلى درجاته في العصر الجاهلي قبل بعثة النبي محمد ﷺ، الذي جاء ليحذر الكون كله من عواقب الظلم الوخيمة في الدنيا والآخرة.

فالظلم إيذانٌ بهلاك الأمم.. وهو يجلب غضب الرب وسخطه... ودعوة المظلوم على الظالم لا تُرد... والظالم يُحرّم من محبة الخالق جل وعلا ومن محبة الخلق... والظالم يُحرّم من نعمة الهداية... وإن لم يتحلل الظالم من تلك المظالم فإنه يأتي يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات التي تُوزّع على كل من ظلمهم... فالظلم ظلمات يوم القيامة.

- بل حسبك أن تتأمل معنى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]... وتالله لو لم ينزل في حق الظالمين إلا تلك الآية لكانت كافية لأن تردع أي ظالم عن ظلمه للناس من حوله.

وأقول: إن كان الله عز وجل سيدخل امرأة النار؛ لأنها حبست هرة (قطعة) فماذا يكون مصير من يظلم أهل التوحيد والإيمان.

✽ فلا يغتر الظالمُ بامهال الله له؛ فإن الله سبحانه وتعالى يُمهّل ولا يهمل.

✽ قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَمِنْهَا حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه الْمُتَقَدِّمُ فِي آخِرِ بَابِ الْمُجَاهَدَةِ.

(٢٠٨) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.. حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ»^(١).

❁ (باب تحريم الظلم والأمر برّد المظالم)، يعنى إلى أهلها.

هذا الباب يشتمل على أمرين: الأمر الأول: تحريم الظلم، والأمر الثانى: وجوب ردّ المظالم... واعلم أن الظلم هو النقص، قال الله تعالى: ﴿كَلَّمَا الْجَنَنَيْنِ ءَأَنَّتْ أَكْهَأَ وَلَمْ تَظْلِمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]. يعنى لم تنقص منه شيئاً... والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان، وإما بالتفريط فيما يجب عليه، وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين، إما ترك واجب، وإما فعل محرم.

والظلم نوعان: ظلم يتعلق بحقوق الله ﷻ، وظلم يتعلق بحقوق العباد، وأعظمهما المتعلق بحقوق الله والإشراك به... فإن النبى ﷺ سئل: أى الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خالقك»^(٢) ويليه الظلم فى الكبائر، ثم الظلم فى الصغائر.

أما فى حقوق العباد: فالظلم يدور على ثلاثة أشياء، بينها النبى ﷺ فى خطبة حجة الوداع، فقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا»^(٣).

والظلم فى النفس هو الظلم فى الدماء... ويكون بأن يعتدى الإنسان على حق غيره... بسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك... والظلم فى الأموال بأن يعتدى الإنسان ويظلم غيره فى الأموال، إما بعدم بذل الواجب، وإما بإتيان محرم، وإما بأن يمتنع من واجبٍ عليه، وإما بأن يفعل شيئاً محرماً فى مال غيره.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

وأما الظلم في الأعراض، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنى، واللواط، والقذف، وما أشبه ذلك^(١).

❁ ولا بد أن نعلم أن الأصل في الإنسان الظلم والجهل حتى يُطهر الله قلبه ويوفقه لأن يكون رحيماً عادلاً.

ومما يدل على أن الظلم من طبيعة البشر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قول مَنْ يقول: الأصل في الإنسان العدالة فهو باطل، بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل، كما قال - تعالى -: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنسان خُلِقَ في الأصل ظَلُومًا جَهُولًا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يُعلمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشدَه، فمن أراد به خيرًا، علَّمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومن لم يُرد به خيرًا، أبقاه على أصل الخلقة، فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم.... وقد جعل الله - سبحانه - للعدل المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه»^(٢).

❁ وكل الظلم بأنواعه محرم، ولن يجد الظالم مَنْ ينصره أمام الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي أنه يوم القيامة، لا يجد الظالم حميمًا أي صديقًا ينجيه من عذاب الله، ولا يجد شفيعًا يشفع له فيطاع؛ لأنه منبوذ بظلمه وغشمه وعدوانه... وقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٠ - ٥٥١).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٦، ١٣٧).

أنصاري ﴿ [البقرة: ٢٧٠] . يعنى لا يجدون أنصاراً ينصرونهم ويُخرجونهم من عذاب الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم .

✽ ثم ذكر المصنف رحمه الله حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « اتقوا الظلم » أى: احذروا الظلم واجتنبوه فلا تظلموا أحداً: لا أنفسكم بالوقوع في الشرك أو المعاصي .. ولا تظلموا غيركم بأى نوع من أنواع المظالم . لماذا؟ لأن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة .

فيوم القيامة ليس هناك نور إلا من رزقه الله النور على قدر إيمانه وإخلاصه وأعماله الصالحة ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] .. فمن كان مؤمناً جعل الله له النور على قدر إيمانه .. لكن إن كان ظالماً فإنه يفقد من ذلك النور بقدر ما حصل منه من الظلم .. لأن النبي ﷺ قال: « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

فلقد كان النبي ﷺ أحرص الناس، وأشفقهم على أمته، فلا يزال يحثهم على فعل ما ينفعهم، ويقربهم إلى ربهم، ويحذرهم أشد التحذير من كل ما يعود عليهم بالضرر .. فما ترك النبي ﷺ خيراً إلا وقد دَلَّ أمته عليه .. ولم يترك شراً إلا وقد حذَّر أمته منه .

ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

فلا يحصل الأمن التام يوم القيامة إلا لمن سَلِمَ من الظلم، قليله وكثيره ... ويحصل عليه من عدم الأمن بقدر ما لديه من الظلم، فلهذا يحذرننا ﷺ من الظلم غاية التحذير .

وأعظم أنواع الظلم على الإطلاق هو الشرك بالله، كما قال ﷺ: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ، وقال ﷺ: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ ﴾

مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿الحج: ٣١﴾.

ومن الظلم ترك الصلاة والتهاون في أدائها، ومنع الزكاة، وترك إخراجها، وترك الصيام مع القدرة، وترك الحج مع الاستطاعة.

ومن الظلم وأعظمه: ترك التحاكم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واستبدالها بقوانين وضعية مخالفة لشريعة الإسلام ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ومن أنواع الظلم عقوق الوالدين، وعدم برهما، وترك الإحسان إليهما، وكذلك قطيعة الرحم التي أمر الله أن تُوصَلَ، وقد توعدَّ الله على ذلك أشد الوعيد، كما قال ﷺ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿[محمد: ٢٢، ٢٣].

ومن أنواع الظلم عدم الوفاء بما وجب، كالتقصير بحقوق الزوجات والأصدقاء، والأصحاب، وكل مَنْ له عليك حق، إما من باب المعاوضات، أو من باب المكافآت، أو الديون الواجبة ... فلا يجوز المماطلة بشيء من ذلك، لقوله ﷺ: «مَطْلُ الْغَنَى ظُلْمٌ»^(١).

ويدخل في الظلم الذي حذرنا منه ﷺ في هذا الحديث ظلم الناس بالقدر فيهم، والكلام في أعراضهم، والطعن عليهم، والاستهزاء بهم، والتنقص لهم، كما قال (عليه الصلاة والسلام) في خطبة حجة الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا».

فالظلم كله ظلمات يوم القيامة، يُعاقَب عليه فاعله يوم القيامة على قدر ظلمه ... فقد بيَّن المصطفى ﷺ أنه يُؤْخَذ من حسنات الظالم فتُعْطَى للمظلوم، فإن لم يكن لهم حسنات أو فُتيت حسناتهم، أُخِذ من سيئات المظلومين،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

فَطَرَحَتْ عَلَى الظَّالِمِينَ ثُمَّ طَرَحُوا فِي النَّارِ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].
وما أحسن قول القائل:

لَا تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَالظُّلْمُ يَرْجِعُ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدَمِ
تَنَامُ عَيْنَاكَ وَالْمَظْلُومُ مُتَنَبِّهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنَمْ
وَلَا خَر:

أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ الظُّلْمَ شُؤْمٌ وَمَا زَالَ الْمَسِيءُ هُوَ الظُّلْمُ
إِلَى الدِّيَانِ يَوْمَ الْعَرْضِ نَمِضِي وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ

وقد حرم الله الظلم على نفسه، وجعله مُحَرَّمًا بين عباده، كما في الحديث
القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا
تَظْلَمُوا»^(١).

✽ واعلم أن الظلم على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نوع لا يغفره الله، وهو الشرك بالله، فإن الله لا يغفر لمن أشرك
به، ومات على شركه ... يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا
دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

النوع الثاني: نوع لا يترك الله منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض، فإن
حقوق العباد مبنية على المُشَاحَّة ... وقد قال ﷺ: «اتَدْرُونَ مِنَ الْمُفْلِسِ؟» قَالُوا:
الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ
الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا،
وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ،
وهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَيَا فَيُنِيتُ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرِحَ فِي النَّارِ».

النوع الثالث: نوع تحت مشيئة الله (جلّ وعلا) إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عنه، وهى الذنوب التى بين العبد وربّه، فيما هو دون الشرك.
واعلم أن الواجب على مَنْ ظلم نفسه، أو قصّر فى حق ربه (جلّ وعلا)، أو ظلم عباد الله أن يُبادر إلى التوبة النصوح، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، إذا تاب العبد منها توبة نصوحاً... والتوبة النصوح هى ما اشتملت على الشروط التالية.

١- الإقلاع عن الذنب.

٢- الندم على ما فات.

٣- أن يعزم على أن لا يعود لمثل فعله.

فإن كان لأحدٍ من الخلق حقٌّ عليه، فيُشترط أيضاً أن يرد الحق لصاحبه، ولا بد أن يكون هذا قبل أن تطلع الشمس من مغربها، وقبل أن تبلغ الروح الحلقوم.

فالواجب على كل مسلم أن يبتعد عن الظلم، فإن حصل منه شىء من ذلك بادر إلى التوبة، وعليه أن يتبع أوامر الله، وأوامر نبيه ﷺ، وأن يعامل الناس بما يحب أن يُعاملوه به، فإنه متى فعل ذلك سلم من ظلم الناس^(١).

❁ ثم قال النبى ﷺ: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»... قَالَ الْقَاضِي: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْهَلَاكَ هُوَ الْهَلَاكَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنَّهُمْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ... وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ هَلَاكَ الْآخِرَةِ وَهَذَا الثَّانِي أَظْهَرَ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَهْلَكَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢).

والشُّحُّ: الحرص على المال... وقوله ﷺ: «فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم» لأن

(١) من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٢٦٦-٢٦٩) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/٢٠٢).

الحرص على المال، يُوجب للإنسان أن يكسب المال من أى وجه كان، من حلال أو حرام، بل قال النبي عليه الصلاة والسلام: «حملهم» أى حمل مَنْ كان قبلنا على «أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» يسفك الشحيح الدماء إذا لم يتوصل إلى طمعه إلا بالدماء، كما هو الواقع عند أهل الشح... يقطعون الطريق على المسلمين، ويقتلون الرجل، ويأخذون متاعه، ويأخذون بغيره، وكذلك أيضًا يعتدون على الناس في داخل بيوتهم، ويهتكون حُجُبَ بيوتهم، فيأخذون المال بالقوة والغلبة.

فحذر النبي ﷺ من أمرين: من الظلم ومن الشح... فالظلم هو الاعتداء على الغير، والشح هو الطمع فيما عند الغير.

وقيل: الشح هو الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده.

فكل ذلك حرام... ولهذا قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]. فدلَّت الآية على أن مَنْ لم يُوقَ شُحَّ نفسه فلا فلاح له... فالمفلح مَنْ وقاه الله شُحَّ نفسه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلَحَاءُ مِنَ الشَّاةِ الْقَرَنَاءُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يُقسم الصادق المصدق الذى لا ينطق عن الهوى ﷺ أن الحقوق لا بُدَّ أن تُؤدَّى إلى أهلها يوم القيامة ولن يضيع حق أحدٍ من البشر.. بل حتى البهائم لن يضيع حقها.. فتأتى الشاة الجلحاء التى ليس لها قرن فيقتص الله لها من الشاة القرناء التى لها قرن فنطحتها به فى الدنيا.. ومع أن البهائم لا تعقل ولا تفهم إلا أن الله بحكمته وعدله يحكم بينهم ليُرى عباده

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

كمال عدله وليعلموا أن الحقوق لا تضيع بين البهائم فكيف بنى آدم ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو قال: «إذا كان يوم القيامة مُدَّ الأديم، وحُشِر الدواب والبهائم والوحش، ثم يحصل القصاص بين الدواب... يُقتص للشاء الجَمَاء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب، قال لها كونى تراباً... قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلْتَنِي كُتُّ رَبِّا﴾ [النبا: ٤٠].»

❁ وروى أحمد بإسناد صحيح عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تتطحان، فقال: «يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي فِيمَ تَتَطْحَانِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي، وَسَيَقْضَى بَيْنَهُمَا»^(١).

❁ قال الإمام النووي: هذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يُعاد أهل التكليف من آدميين وكما يُعاد الأطفال والمجانين ومن لم تبلغه دعوة... وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة... قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥] وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع، وجب حمله على ظاهره...

قال العلماء: وليس من شرط الحشر والإعادة في القيامة المُجازاة والعقاب والثواب، وأما القصاص من القرناء للجلحاء فليس هو من قصاص التكليف إذ لا تكليف عليها بل هو قصاص مقابلة،... والجلحاء: هي الجَمَاء التي لا قرن لها^(٢).

قال الشيخ ابن عثيمين: أمَّا القصاص فيشمل البهائم؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ: «أَنَّهُ يُقْتَصُّ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(٣)، وهذا قصاص، لكنها لا تُحاسب حساب تكليف وإلزام؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب^(٤).

(١) رواه أحمد (٢١٤٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٨٨).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٤) شرح الواسطية (ص ٣٦٥).

✽ وقال الشيخ الألباني:

«فإن قيل: الشاة غير مكلفة، فكيف يُقتص منها؟ قلنا: إن الله تعالى فعَّال لما يريد، ولا يُسأل عما يفعله، والغرض منه إعلام العباد أن الحقوق لا تضيع، بل يقتص حق المظلوم من الظالم»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٠) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَالنَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَلَا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ، حَتَّى حَمِدَ اللَّهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَأُطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ، وَقَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ: أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ إِنْ يَخْرُجَ فِيكُمْ فَمَا خَفَى عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ، أَنْ رَبَّكُمْ، لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ. أَلَا إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثَلَاثًا - وَيَلِكُمْ أَوْ: وَبِحُكْمِكُمْ، انظُرُوا: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يخبر عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهم كانوا يتحدثون عن حجة الوداع .. وكان النبي ﷺ حتى بين أظهرهم.

وحجة الوداع هي الحجة التي حجَّها النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة.

ولم يحج النبي ﷺ من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر، وعُرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع؛ لأنه ﷺ ودَّع الناس فيها ولم يَحُج بعدها، وحجة البلاغ لأنه ﷺ بلَّغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بيَّنه، فلما

(١) السلسلة الصحيحة (٤/٦١٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٠٢) كتاب المغازي، ومسلم (١٦٩) كتاب الإيمان.

بَيْنَ لَهُمْ شَرِيعَةَ الْحَجِّ وَوَضَحَهُ وَشَرَحَهُ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَعْرَةَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ^(١).

ولما نزلت هذه الآية بكى بعض الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكأنهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرسول ﷺ.

ولما قيل لسيدنا عمر: ما يُبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان ^(٢)، وكان عدد الذين مع رسول الله أكثر من مائة ألف ^(٣).

وقد ذُكر أنه ﷺ حجَّ قبل الهجرة مرتين، ولكن الظاهر والله أعلم أنه حجَّ أكثر من ذلك ... لأنه كان هناك في مكة، وكان يخرج في الموسم يدعو الناس والقبائل إلى دين الله ﷻ فيبعد أنه يخرج ولا يحج. وعلى كل حال فالذي يهمننا أنه ﷺ حجَّ في آخر عمره في السنة العاشرة من الهجرة، ولم يحجَّ قبلها بعد هجرته، وذلك لأن مكة كانت بأيدي المشركين إلى السنة الثامنة من الهجرة، ففتحها النبي ﷺ في رمضان في السنة الثامنة، ثم خرج بعد ذلك إلى الطائف، وغزا ثقيفاً وحصلت غزوة الطائف المشهورة، ثم رجع بعد هذا ونزل في الجعرانة، وأتى بعمره ليلاً، ولم يطلع عليه كثير من الناس، ثم عاد إلى المدينة ... هذا في السنة الثامنة.

وفي السنة التاسعة: كانت الوفود تردُّ إلى النبي ﷺ من كل ناحية، فبقى في المدينة، ليتلقى الوفود، حتى لا يثقل عليهم طلبه، حتى إذا جاء الوفود إلى المدينة وجدوا النبي ﷺ ولم يتعبوا في طلبه ويلحقونه يميناً وشمالاً، فلم يحجَّ في السنة التاسعة لتلقَّى الوفود ... هذا من وجه.

ومن وجهٍ آخر: في السنة التاسعة حجَّ مع المسلمين المشركون لأنهم لم يُمنَعوا من دخول مكة ثم مُنَعوا من دخول مكة، وأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٤٠٧) كتاب المغازي.

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شعبة (٢/ ٥٧٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٣٨٦).

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴿٢٨﴾ [التوبة: ٢٨]. وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بألا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان... وكان أمير الناس في تلك الحجة - أعنى حجة سنة تسع - أبا بكر رضي الله عنه ثم أرفده النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب في السنة العاشرة... وأعلن النبي ﷺ أنه سيحج، وقدم المدينة بشرًا كثير يُقدِّرون بأكثر من مائة ألف... والمسلمون كلهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا، أي لم يتخلف من المسلمين إلا القليل، فحجوا مع النبي ﷺ هذه الحجة التي سُميت «حجة الوداع»، لأن النبي ﷺ ودَّع الناس فيها بقوله: «لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا» فصار الأمر كذلك، فإنه توفى بعد رجوعه من المدينة في ربيع الأول، أي بعد حجه... فمضى محرم وصفر واثنا عشر يومًا من ربيع الأول ثم توفى النبي (صلوات الله وسلامه عليه).

وكان ﷺ في حجة الوداع يخطب الناس... خطبهم في عرفة، وخطبهم في منى، فذكر المسيح الدجال، وعظَّم من شأنه، وحذر منه تحذيرًا بالغًا، وفعل ذلك أيضًا في المدينة، ذكر الدجال وحذر منه، وبالع في شأنه، حتى قال الصحابة: كنا نظنُّ أنه في أفراخ النخل أي قد جاء ودخل، من شدة قول النبي ﷺ فيه، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه ما من نبي إلا أنذر قومه، من فتنه الدجال^(١).

أجل.. لقد كان الأنبياء يُحذرون أقوامهم من فتنة المسيح الدجال مع أنهم يعلمون يقينًا أنه لن يخرج إلا في آخر الزمان، ومع ذلك فهم يُحذرون أقوامهم منه؛ لأنهم يعلمون يقينًا خطر فتنته.

﴿ثم قال لهم النبي ﷺ: «وَإِنَّهُ إِنْ يَخْرُجَ فِيكُمْ فَمَا خَفَى عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ»، ثم ذكر النبي ﷺ بعض علامات الدجال فقال ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ، لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ - أَى الدجال - أَعْوَرُ عَيْنَ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٣).

فمن صفاته: أنه أعور العين اليمنى .. والله عَزَّوَجَلَّ ليس بأعور بل هو كاملٌ في صفاته وليس في صفاته أى نقصٍ (سبحانه وتعالى).

ومن علاماته أنه مكتوبٌ بين عينيه كلمة كافر ولكن مُقطعة (ك . ف . ر) .. وتلك الكلمة يقرأها المؤمن فقط حتى وإن كان لا يعرف القراءة والكتابة .. ويعجز الكافر عن قراءتها حتى ولو كان معه شهادة الدكتوراة.

فإن قال قائل: إذا كان فيه العلامة الحسية فكيف يُفتن الناس به؟ نقول: إن الله قال في كتابه: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. الذين أضلهم الله لا تنفعهم علامات الضلال تحذيرًا، ولا علامات الهدى تبشيرًا، ولا يستفيدون من آيات الله ودلائل وحدانيته وألوهيته، وإن كانت العلامات ظاهرة.

❁ وإن الدجال ستكون معه مجموعة من الخوارق والإمكانات التى ستكون سببًا فى فتنه غير المؤمنين الذين اعتصموا بالله عَزَّوَجَلَّ.

❁ وأما عن القدرات والإمكانات التى ستكون مع الدجال... والتى ستكون سببًا فى فتنه أصحاب القلوب المريضة فهى:

(١) جنته وناره:

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذى يروونه نارًا فإنما هو ماءٌ بارد وإن الذى يروونه ماءً باردًا فإنه نارٌ.

❁ قال رسول الله ﷺ: «معه (أى الدجال) جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار»^(١).

(٢) سرعة انتقاله بين البلدان:

ومن فتنه الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال.

فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ، كما عند مسلم - فقالوا: يا رسول الله

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

وما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح».

ولذلك فهو سيدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

(٣) استجابة السماء والأرض لأمره!!!

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتُمْطر ويأمر الأرض فتُنبِت ويدعو الماشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

❁ قال ﷺ: «... فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَنْبِتُ، وَتَرْوِحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتَهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دَرًّا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصْبِحُونَ مُمَجِّلِينَ مَا بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَيَنْطَلِقُ وَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ...» (١)(٢).

(٤) الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «... وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لِلْأَعْرَابِيِّ: أَرَأَيْتَ أَنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيَمَثِّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَقُولَانِ: يَا بَنِي أَتَبِعُهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ..» (٣).

(٥) يقتل شاباً ثم يحييه (بإذن الله):

❁ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَا حَدِيثًا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٧) كتاب الفتن.

(٢) قال الإمام النووي: أما (ترويح) فمعناها ترجع آخر النهار، و(السارحة) هي الماشية التي تسرح أي تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الدُّرَى) وهي الأعلى، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغ) أي أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمدته خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع.

قوله ﷺ: (فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل) هي ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون. قال القاضي: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووي (١٨/٨٩)].

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

طَوِيلًا عَنِ الدَّجَالِ، فَكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا، قَالَ: «يَأْتِي، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ الْمَدِينَةِ، فَيَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ السَّبَاحِ الَّتِي تَلِي الْمَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ - أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ - فَيَقُولُ لَهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، أَتَشْكُونَ فِي الْأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، قَالَ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْآنَ - قَالَ: فَيَرِيدُ الدَّجَالُ - أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِ»^(١).

✽ والسبب في استجابة بعض الناس لفتنته أن الناس قبل ظهوره بثلاث سنوات يعيشون في جذبٍ وقحطٍ شديد ... فقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يحدث جذبٌ وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «وإِنَّ قَبْلَ خُرُوجِ الدَّجَالِ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ شِدَادٍ، يُصِيبُ النَّاسَ فِيهَا جُوعٌ شَدِيدٌ، يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الْأُولَى أَنْ تَحْبِسَ ثُلُثَ مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسَ ثُلُثَ نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ فَتَحْبِسَ ثُلُثِي مَطَرِهَا، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَحْبِسَ ثُلُثِي نَبَاتِهَا، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ، فَتَحْبِسَ مَطَرَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُقَطِرُ قَطْرَةً، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ، فَتَحْبِسَ نَبَاتَهَا كُلَّهُ، فَلَا تُنْبِتُ حَضْرَاءً، فَلَا تَبْقَى ذَاتُ ظِلْفٍ إِلَّا هَلَكَتْ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ»، قِيلَ: فَمَا يُعِيشُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ؟ قَالَ: «التَّهْلِيلُ، وَالتَّكْيِيرُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَيُجْرَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ مُجْرَى الطَّعَامِ»^(٢).

ولقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن المدة التي يمكنها المسيح الدجال في الأرض فقالوا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يوماً. يومٌ كسنة ويومٌ كشهر. ويومٌ كجمعة. وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله فذلك

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٨) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

اليوم الذى كسنة، أتكفيها فيه صلاة يوم؟ قال: «لا... اقدروا له قدره»^(١).

لما حدث النبى ﷺ الصحابة بهذا الحديث، لم يستشكلوا كيف تبقى الشمس سنة كاملة ما تدور على الأرض، وهى تدور عليها فى كل أربع وعشرين ساعة، فقدرة الله فوق ذلك، وأن الله على كل شىء قدير، والصحابة لا يسألون فى الغالب عن المسائل الكونية والقدرية؛ لأنهم يعلمون قدرة الله عز وجل، لكن يسألون عن الأمور التى تهمهم، وهى الأمور الشرعية، فلما حدثهم بأن اليوم الأول كسنة: قالوا: يا رسول الله اليوم الذى كسنة، هل تكفيها فيه صلاة واحدة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» يعنى قدروا ما بين الصلاتين وصلوا.

مثلاً: إذا طلع الصبح نصلى الصبح.

ثم نُقدِّر عدد الساعات التى بين الصبح والظهر فنصلى الظهر.. ثم نقدر عدد الساعات التى بين الظهر والعصر.. والتى بين العصر والمغرب.. والتى بين المغرب والعشاء.. وهكذا.. لأن الشمس ستظل مشرقة لمدة ستة أشهر ثم تغيب ستة أشهر أخرى.. فلا بُدَّ أن نقدر وقت الصلاة بالساعات التى بين الصلوات.

إذا... نصلى فى اليوم الأول صلاة سنة، والصيام نصوم شهراً، ونُقدِّر للصوم، والزكاة كذلك.

وكان بعض أهل العلم يستخدمون تلك المعلومة كلغزٍ من الألغاز فيقولون لطلبة العلم: رجلٌ عنده مال لم يمضِ عليه إلا يومٌ ومع ذلك فقد وجبت فيه الزكاة.. فكيف ذلك؟

فلا يعرف أحد أن يُجيب.. فيُجيب الشيخ: إنه أول يومٍ يظهر فيه المسيح الدجال؛ لأنه سيكون بمقدار سنة كاملة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٧) كتاب الفتن.

❁ فالיום الأول نُصلى فيه صلاة سنة كاملة.

كذلك اليوم الثاني نقدر فيه صلاة شهر، والثالث صلاة أسبوع، وبعده تعود الأيام كما هي ... وفي إلهام الله للصحابة أن يسألوا هذا السؤال عبرة؛ لأنه يوجد الآن في شمالي الأرض وجنوبي الأرض، يوجد أناسٌ تغيب عنهم الشمس ستة أشهر، وتطلع عليهم ستة أشهر ... ولولا هذا الحديث لأشكل على الناس، كيف يُصلى هؤلاء، وكيف يصومون، لكن الآن نطبق هذا الحديث على حال هؤلاء فنقول: هؤلاء الذين تكون الشمس عندهم ستة أشهر كاملة يقدرّون للصلاة وقتها، كما أرشد النبي ﷺ الصحابة في أيام الدجال^(١).

❁ ثم قال النبي ﷺ: «ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم أشهد - ثلاثاً - ويلكم أو: ويحكم، انظروا: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» قيل في معناه: سبعة أقوال: أحدها: أن ذلك كفرٌ في حق المستحلِّ بغير حق .. والثاني: المراد كفر النعمة وحق الإسلام .. والثالث: أنه يقرب من الكفر ويؤدي إليه .. والرابع: أنه فعلٌ كفعل الكفار .. والخامس: المراد حقيقة الكفر ومعناه لا تكفروا بل دُوموا مسلمين .. والسادس: حكاية الخطابي وغيره أن المراد بالكفار المتكفرون بالسلاح يقال تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه ... قال الأزهرى في كتابه تهذيب اللغة: يقال لابس السلاح كافراً .. والسابع: قاله الخطابي معناه لا يكفر بعضكم بعضاً فتستحلوا قتال بعضكم بعضاً.

وأظهر الأقوال الرابع وهو اختيار القاضي عياض رحمه الله^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٧٣).

(٢١١) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوْقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

✽ النَبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَوْعٍ مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ وَهُوَ ظُلْمُ النَّاسِ بِالْتَّعَدَّى عَلَى أَرْضِيهِمْ.. وَذَلِكَ بِأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُهُمْ قِطْعَةً مِنْ أَرْضِ جَارِهِ لِيُضْمَهَا إِلَى أَرْضِهِ سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ دُونَ عِلْمِ جَارِهِ أَوْ كَانَ ذَلِكَ بِالْقُوَّةِ عَلَى مَرَأَى وَمُسْمَعٍ مِنْ جَارِهِ.. فَهَذَا مِنَ الْكِبَائِرِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»^(٢).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَنَارُ الْأَرْضِ حُدُودُهَا؛ فَإِذَا غَيَّرَ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، بِأَنْ أَدْخَلَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ غَيْرِهِ، فَإِنَّهُ مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ... وَاللَّعْنَةُ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَهُنَاكَ عَقُوبَةٌ أُخْرَى ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي نَشْرَحُهُ.. وَهُوَ أَنَّ هَذَا الظَّالِمَ إِذَا ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ - يَعْنِي إِذَا أَخَذَ قِطْعَةً مِنْ أَرْضٍ ظُلْمًا تُقَدَّرُ مَسَاحَتُهَا بِشَبْرٍ - طَوْقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ... لِأَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَكَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ إِشَارَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطَّلَاق: ١٢]. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمِمَّاثِلَةَ هَاهُنَا لَيْسَتْ فِي الْكَيْفِيَّةِ؛ لِأَنَّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْفَرْقِ كَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَسَافَةِ... فَالسَّمَاءُ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَوْسَعُ، وَأَعْظَمُ.. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا يَبْتَثِيرُ﴾ [الذَّارِيَات: ٤٧]. أَيْ بِقُوَّةٍ... وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النَّبَأ: ١٢]. أَيْ قُوَّةً.

فَالْإِنْسَانُ إِذَا ظَلَمَ قَيْدَ شَبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّهُ يُطَوَّقُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... أَيْ يُجْعَلُ لَهُ طَوْقًا فِي عُنُقِهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، يَحْمِلُهُ أَمَامَ النَّاسِ أَمَامَ الْعَالَمِ،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٥٣) كتاب المظالم، ومسلم (١٦١٢) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٧٨) كتاب الأضاحي.

يُخْزَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. وقول: «قيد شبر من الأرض» ليس هذا على سبيل القيد، بل هو على سبيل المبالغة يعنى، فإن ظلم ما دونه طُوقه أيضًا، لكن العرب يذكرون مثل هذا للمبالغة، يعنى ولو كان شيئًا قليلًا فإنه سيطوقه يوم القيامة.

وفى هذا الحديث دليل: على أن مَنْ مَلَكَ الْأَرْضَ مَلَكَ قَعْرَهَا إِلَى الْأَرْضِ السَّابِغَةِ ... فليس لأحد أن يضع نفقًا تحت أرضه إلا بإذنه ... يعنى لو فُرض أن لك أرضًا مسافتها ثلاثة أمثار بين أرضٍ لجارك، فأراد جارك أن يفتح نفقًا بين الأرضين ويمرّ من تحت أرضك، فليس له الحقّ في ذلك؛ لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى الأرض السابغة ... كما أن الهواء لك إلى السماء، فلا أحد يستطيع أن يبنى على أرضك سقفًا إلا بإذنك.

قال أهل العلم: ولو كان عند جارك شجرة، فامتدت أغصانها إلى أرضك، وصار الغصن إلى أرضك، فإن الجار يلويه عن أرضك، وإن لم يمكن كيّهُ فإنه يُقَطَّع، إلا بإذن منك وإقرار؛ لأن الهواء لك وهو تابع للقرار^(١).

❁ وهناك قصة لطيفة بمناسبة هذا الحديث ... عن هشام بن عروة، عن أبيه أن أَرْوَى بنت أُوَيْسٍ ادَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ أَخَذْتُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: وَمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا. فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَعَمَّ - فَأَعَمَّ - بَصَرُهَا وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا. قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا ثُمَّ بَيْنَا - بَيْنَمَا - هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ^(٢).

❁

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦١٠) كتاب البيوع.

(٢١٢) وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ^(١).

❖ في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ قد لا يعاقب الظالم من أول مرة بل يُعطيه الفرصة لعله يتوب ويرد المظالم إلى أصحابها ويتحلل منها .. فإذا استمرَّ الظلم واستمر عليه وأخذ يظلم الناس من حوله بلا رحمة ولا هوادة فإن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يستدرجه ويُملي له .. أى يُمهله حتى يتمادى فى ظلمه وتجتمع عليه الأوزار تلو الأوزار وتتكدس عليه المظالم فيأخذه الله ﻋَزَّ وَجَلَّ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ولا يُفْلِتُهُ .. ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

فيجب على الظالم أن يتوب إلى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ وأن يُدرك نفسه قبل فوات الأوان فيتحلل من المظالم ولا يغتر بحلم الله وإمهاله .. لأنه إن لم يتب فسوف يندم فى يومٍ لا ينفع فيه الندم ولا تُجدى فيه الحسرة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

من عقوبات الظالمين فى الدنيا

❖ لقد أعدَّ الله تعالى فى الدنيا العديد من العقوبات للظالمين، جزاءً وفاقا، وما ظلمهم الله تعالى شيئا، ولكنهم كانوا أنفُسهم يظلمون.

❖ فمن عقوبة الله تعالى للظالمين فى الدنيا:

محق البركة، وخراب البيوت. فمهما كان الظالم غنياً فأمواله لا بركة فيها،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة والآداب.

ومهما كان على البنيان فهي أقرب إلى الانهيار بسبب ظلم العباد.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

خاوية: أى: خالية من أهلها خرابًا، ليس بها ساكن.

❀ ومن عقاب الله تعالى للظالم في الدنيا:

أن يسلط عليه ظالمًا غيره، أقوى وأشد منه، ليزوق مما كان يسقيه لغيره...

وفي الأخبار: «مَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي سَلَّطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ».

❀ ومن عقاب الله تعالى للظالم في الدنيا:

أنه يحيا في الدنيا، ويعلم في قرارة نفسه أن الله ﷻ لا يحبه، بل يلعنه

ويُبغضه، كما قال جلَّت قدرته:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧].

إن الظالم ملعون بنص القرآن الكريم، فكيف يحبه رب العالمين؟!

قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ولعن الظالم أى: الإبعاد والطرود من الخير والرحمة.

❀ ولا بد أن نعلم أن الظالم لا يرى فلاحًا ولا نجاحًا في حياته...

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

❀ والظلم إيذان بهلاك الظالمين.. فقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى

أَهْلَكْتُهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

❀ بل إن الظالم يُحرَم من نعمة الهداية... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].



❁ ومن عقوبات الله تعالى للظالمين في الدنيا :

شدة السكرات عند الممات، والتقيح والذم كما قال جل شأنه :

❁ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ❁ [الأنعام: ٩٣].

من عقوبات الظالمين في الآخرة

❁ إن كل ما يلقاه الظالم في الدنيا من العقوبة لا يساوى شيئاً من عقوبة الآخرة، بل لا يُقاس أصلاً بين الدنيا والآخرة.

بل قد يعيش الظالم، ويُعمَّر، ويرحل عن الدنيا، ولا نراه يعاني من عقوبة الله في الدنيا، ولماذا؟

أمهله الله تعالى حتى يرى العذاب كله في يوم القيامة حيث الحسرة والندامة... وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

❁ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِئْدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا أَفْسَستُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ

أَلْقَهَارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾ [إبراهيم: ٤٢-٥٢].

وقد أعدَّ الله سبحانه للظالمين من العذاب ما لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى ...
كما قال ﷺ:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

إن أهل الظلم مع فقدهم للهداية الربانية يفقدون مع ذلك النصير ... كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]

أى: فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال^(١).

وكذلك لا يجد أهل الظلم لهم أى حميم، أو شفيع لهم فيطاع ... كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٣) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَٰلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَٰلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِدَٰلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٠).

(٢) الظلم والظالمون (١٥-١٧) بتصرف.

فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

✽ كان معاذ رضي الله عنه ثمرة مباركة من ثمرات الدعوة إلى الله تعالى. فلقد أسلم على يدى مصعب بن عمير رضي الله عنه الذى كان يعتمد فى دعوته على الرحمة والحكمة والموعظة الحسنة - وهذه والله من أفضل أساليب الدعوة إلى الله -.

وفى ليلة العقبة كان معاذ مع الاثنين والسبعين الذين شهدوا تلك البيعة المباركة.. فوضع يده فى يد الحبيب ﷺ وبايعه ليُسَطر بذلك صفحة ناصعة البياض على جبين التاريخ.

وما أن عاد معاذ رضي الله عنه إلى المدينة حتى أيقن أن الخير الذى حصل له لم يكن إلا بركة الدعوة إلى الله تعالى، فقام يحمل لواء الإسلام خفًا عاليًا ليأخذ بأيدى الناس من حوله إلى جنة الرحمن (جل وعلا) التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكان من بركة دعوته أن الله جعله سببًا فى إسلام سيد من سادات (بنى سَلَمَة) وهو عمرو بن الجموح رضي الله عنه.

✽ وكان معاذ بن جبل منذ أن أسلم قد انشغل بحفظ القرآن وطلب العلم حتى أصبح فى فترة يسيرة واحدًا من الأربعة الذين أمر النبى ﷺ أصحابه أن يتعلموا القرآن على أيديهم.

فعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأُبَيٍّ، وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمِ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ»^(٢).

بل وأصبح معاذ أعلم الأمة بالحلال والحرام بعد رسول الله ﷺ. عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمْتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهَا فِي دِينِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٩٩) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٢٤٦٤) كتاب فضائل الصحابة.

الله عمر، وأصدقها حياءَ عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ...»^(١).

وفوق ذلك فلقد أصبح من أعلم العلماء الذين لا يُشَقُّ لهم غبار .. حتى شهد له النبي ﷺ أنه سيكون مقدّم العلماء يوم القيامة.

فعن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن معاذ بن جبل أمام العلماء رتوة»^(٢). والرتوة هي الدرجة والمنزلة.

وعلم أصحاب النبي ﷺ مكانة - معاذ - فكانوا يحملون له كل الحب والتقدير في قلوبهم.

✽ فعن عبد الله بن مسعود أنه قال: إن معاذًا كان أمة قانتًا لله.

قال: فقال رجل من أشجع يقال له: فروة بن نوفل: نسي ... إنما ذاك إبراهيم ﷺ، قال: فقال عبد الله: مَنْ نسي؟ إنما كنا نُشَبِّهه بإبراهيم. قال: وسُئِلَ عبد الله عن الأمة: فقال معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله^(٣).

✽ وهنا في هذا الحديث يحكى معاذ بن جبل أن النبي ﷺ بعثه إلى اليمن ليُعَلِّمَ الناس القرآن والعلم الذي تعلمه على يد النبي ﷺ ... وكان ذلك في شهر ربيع من السنة العاشرة من الهجرة.

فلقد كان الحبيب ﷺ يضع الرجل المناسب في المكان المناسب فهو يعلم طاقات الرجال من حوله فكان يوظف تلك الطاقات في خدمة الإسلام والمسلمين على أكمل وجه.

وها هو النبي - عليه الصلاة والسلام - يرى جموع قريش تدخل في دين الله أفواجًا، بعد فتح مكة. ويشعر بحاجة المسلمين الجدد إلى مُعَلِّمٍ كبير يُعَلِّمُهُم الإسلام، ويفقههم بشرائعه ... فيعهدُ بخلافته على مكة لعُتَّاب بن أُسَيْد،

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٩٥).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٠٧)، وقال العدوي: وهو صحيح بمجموع طرقه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٣/ ٢٧٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي.

ويستبقى معه معاذ بن جبل ليعلم الناس القرآن ويفقههم في دين الله.

ولما جاءت رسل ملوك «اليمن» إلى رسول الله ﷺ تعلن إسلامها وإسلام من وراءها، وتسأله أن يبعث معها من يعلم الناس دينهم؛ انتدب لهذه المهمة نفرًا من الدعاة الهداة من أصحابه، وأمر عليهم معاذ بن جبل رضي الله عنه.

ثم أخبره النبي ﷺ بطبيعة المكان الذي سيذهب إليه ليكون على استعدادٍ للتعامل مع هذا المجتمع الجديد.. فقال له ﷺ: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب» فأخبره بذلك ليكون مستعدًا لهم.. لأن الذي يجادل أهل الكتاب لا بُدَّ أن يكون معه من العلم والحجة ما يفوق الذي عندهم.

✽ ثم وجهه النبي ﷺ إلى أول شئ يدعوهم إليه وهو التوحيد والرسالة فقال له ﷺ: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله».

أن يشهدوا أن لا إله إلا الله... أى لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى: فهو المستحق للعبادة، وما عداه فلا يستحق العبادة، بل عبادته باطلة... كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]... «وأنى رسول الله»، يعنى مُرسَلُهُ الذى أرسله إلى الإنس والجن، وختم به الرسالات، ومن لم يؤمن به فإنه من أهل النار.

ثم قال له: «فإن هم أطاعوا لذلك» يعنى شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة» وهى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر... لا يجب شئ من الصلوات اليومية إلا هذه الخمس... فالسنن الرواتب ليست بواجبة، والوتر ليس بواجب، وصلاة الضحى ليست بواجبة.

ثم قال له: «فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم» وهذه هى الزكاة^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٥٧) بتصرف.

فالزكاة فريضة من فرائض الإسلام وركنٌ من أركانه الخمسة بل هي أهم الأركان بعد الصلاة التي هي عماد الدين ..

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

فهى صدقة واجبة فى المال تؤخذ من الغنى وترد فى الفقير.

وقوله: «تُرَدُّ فى فقرائهم» أى تُصَرَف فى فقراء البلد؛ لأن فقراء البلد أحقُّ مَنْ تُصَرَف إليهم صدقات أهل البلد.

ولأن الأقربين أولى بالمعروف .. ولأنهم كذلك يعرفونك ويعرفون المال الذى عندك ويعرفون أنك غنى فإن لم تُعْطهم من زكاة مالك فسوف تمتلئ قلوبهم حقداً عليك.

ثم قال ﷺ: «فإن هم أطاعوك لذلك» أى: انقادوا إليك ووافقوا على إخراج الزكاة «فإياك وكرائم أموالهم» أى: لا تأخذ من أموالهم أطيب ما عندهم، ولكن خذ المتوسط ... لا تظلم ولا تُظلم.

«واتق دعوة المظلوم» يعنى أنك إذا أخذت من نفائس أموالهم، فإنك ظالم لهم، وربما يدعون عليك، فاتق دعوتهم، «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» تصعد إلى الله تعالى، ويستجيبها، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث فى الباب الذى ذكره المؤلف فيه، أن الإنسان يجب عليه أن يتقى دعوة المظلوم.

ومن فوائد هذا الحديث:

(١) وجوب إرسال العلماء والدعاة إلى شتى بقاع الأرض لدعوة الناس إلى الله وتعليمهم الكتاب والسنة.

(٢) ينبغى أن تذكر للداعية حال أهل البلدة التى سيذهب إليها ليتأهب لذلك ويُنزلهم منازلهم ويستعد لهم بالعلم الشرعى والقضايا التى تناسب أحوالهم.

(٣) أن يهتم الداعية إذا ذهب إلى بلدٍ غير مسلم أن يكون أول ما يدعوهم

إليه هو «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله» ليحققوا التوحيد لله (جلَّ وعلا) ... فلا ينشغل بالفروع عن الأصول... يجعلهم أولاً يحققوا التوحيد ثم يأمرهم بالفرائض ثم ينهاهم عن المعاصي والسيئات.

(٤) أن يُعرفهم أن الصلاة هي أهم شيء بعد الشهادتين .. وبخاصة الصلوات الخمس.

(٥) أن الزكاة واجبة وهي فرض من فروض الإسلام، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، والثاني بعد الشهادتين. ولهذا قال ﷺ: «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تُؤخذ من أغنيائهم».

(٦) أن الزكاة تُصرف في فقراء البلد؛ لقوله: «فتردّ في فقرائهم» ولا تُخرج عن البلد إلا لسبب ... أما ما دام في البلد مستحقون، فإنهم أولى من غيرهم.

(٧) أنه يجوز صرف الزكاة في صنفٍ واحد من أصناف الزكاة، وأصناف الزكاة ثمانية: الفقراء والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل ... فإذا أداها المُزكى إلى صنفٍ من هذه الأصناف أجزأ، بل إذا أداها إلى فردٍ في نوع من هذه الأنواع أجزأ. مثل لو أعطى مُزكّ زكاته كلها فقيراً واحداً فلا حرج.

(٨) تحريم الظلم .. وأنه لا يجوز للساعي على الزكاة أن يأخذ أكثر من الواجب أو أن يأخذ أطيب أموالهم .. بل عليه أن يأخذ القدر الواجب وأن يأخذ من أوسط أموالهم.

(٩) أن دعوة المظلوم مستجابة .. وذلك لقول النبي ﷺ عن دعوة المظلوم: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

(١٠) أنه يجب على المسلم أن يتقى الظلم وأن يتقى دعوة المظلوم.

(٢١٤) وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللَّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي اسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَانِي اللَّهُ، فَيَأْتِيَنِي فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ إِلَيَّ، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا! وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بَغِيرَ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةً تَبْعُرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى بَيَاضَ إِبْطِيهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ» ثَلَاثًا^(١).

❦ ففى هذا الحديث نجد أن النبى ﷺ أرسل رجلاً من الأزد يُقال له: ابن اللَّتْبِيَّةِ ليجمع الصدقة من المسلمين - أى الزكاة - .. فلما ذهب ليجمعها كان بعضهم يعطيه الزكاة المفروضة عليه .. وكان بعضهم يعطيه الزكاة ويعطيه فوقها مالا على سبيل الهدية له. فلما عاد إلى النبى ﷺ قال: «هذا لكم - أى الزكاة التى جمعتها - وهذا أُهدى إليَّ .. فغضب النبى ﷺ خوفاً وشفقة على هذا الرجل حتى لا يأكل مالا حراماً من الرشوة.

فقام رسول الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي اسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَانِي اللَّهُ، فَيَأْتِيَنِي فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ إِلَيَّ، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا!».

فأول شىء فعله النبى ﷺ أنه جمع الناس ليحذرهم من الوقوع فى الرشوة ... ولكن أخلاق النبى ﷺ لم تسمح له أن يُشهر بهذا الرجل الذى فعل ذلك ويذكر اسمه .. بل تعامل معه من باب قوله ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا» فبهذا يُعلم الناس الحكم الشرعى دون أن يجرح مشاعر من فعل ذلك ويُشهر به.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٩٧) كتاب الهبة - ومسلم (١٨٣٢) كتاب الإمارة.

❁ ولقد حذرنا الله ﷻ من الرشوة وحذرنا النبي ﷺ ... فالرشوة حرام وهى من أكل أموال الناس بالباطل.

وهى ما يُدفع من مال إلى ذى سلطان أو وظيفة عامة، ليحكم له أو على خصمه بما يريد هو، أو ينجز له أو يؤخر لغريمة عملاً، وهلمَّ جرّاً. وقد حرّم الإسلام على المسلم أن يسلك طريق الرشوة للحكام وأعوانهم، كما حرّم على هؤلاء أن يقبلوها إذا بُذلت لهم، وحظر على غيرهم أن يتوسطوا بين الأخذين والدافعين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وقال ﷺ: «لعنة الله على الراشى والمرتشى»^(١).

وعن ثوبان قال: لعن رسول الله ﷺ: «الراشى والمرتشى والرائش»^(٢). وإذا كان آخذ الرشوة قد أخذها ليظلم فما أشد جرمه، وإن كان سيتحرى العدل فذلك واجب عليه لا يؤخذ في مقابله مال.

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليقدّر ما يجب عليهم في نخيلهم من خراج، فعرضوا عليه شيئاً من المال يبذلونه له، فقال لهم: «فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سُحت، وإنّا لا نأكلها»^(٣).

ولا غرابة في تحريم الإسلام للرشوة، وتشديده على كل من اشترك فيها، فإن شيوعها في أى مجتمع شيوخ للفساد والظلم من حكمٍ بغير الحق أو امتناع عن الحكم بالحق، وتقديم من يستحق التأخير، وتأخير من يستحق التقديم،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١١٤).

(٢) ضعيف: رواه أحمد، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٦٨٤).

(٣) صحيح: رواه مالك فى الموطأ، وصححه الألبانى فى غاية المرام (٤٥٩).

وشيوع روح النفعية في المجتمع لا روح الواجب.

والإسلام يُحرِّم الرشوة في أى صورة كانت، وبأى اسم سُمِّيت.

وإن تسميتها باسم «الهدية» لا يُخرجها من دائرة الحرام إلى الحلال.

وفي الحديث: «مَنْ استعملناه على عملٍ فرزقناه رزقًا - أى: منحناه راتبًا - فما أخذه بعد ذلك فهو غلول»^(١).

قال الإمام الغزالي: «إذا ثبتت هذه التشديدات فالقاضى والوالى - ومَنْ فى حُكُمهما - ينبغى أن يقدر نفسه فى بيت أمه وأبيه... فما كان يُعطى بعد العزل وهو فى بيت أمه يجوز له أن يأخذه فى ولايته، وما يعلم أنه إنما يُعطاه لولايته فحرام أخذه... وما أشكل عليه فى هدايا أصدقائه أنهم هل كانوا يعطونه لو كان معزولاً؟ فهو شبهة فليجتنبه»^(٢).

ومَنْ كان له حقٌّ مُضَيِّعٌ لم يجد طريقة للوصول إليه إلا بالرشوة، أو وقع عليه ظلم لم يستطع دفعه عنه إلا بالرشوة فالأفضل له أن يصبر حتى يُيسر الله له أفضل السُّبل لرفع الظلم، ونيل الحق.

فإن سلك سبيل الرشوة من أجل ذلك فالإثم على الآخذ المُرتشى وليس عليه إثم الراشى فى هذه الحالة ما دام قد جَرَّب كل الوسائل الأخرى فلم تأتِ بجدوى... وما دام يرفع عن نفسه ظلمًا أو يأخذ حقًا له دون عدوانٍ على حقوق الآخرين^(٣).

❁ ثم قال ﷺ: «والله لا يأكل أحدٌ منكم شيئًا بغير حَقِّه إلا لَقِيَ الله تعالى يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فلا أعْرِفَنَّ أحدًا منكم لَقِيَ الله يحمله بغيرِ له رُغَاءً، أو بقرّة لها خوارٌ، أو شاةٌ تَبْعُرُ» ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى بَيَاضَ إِبْطِئِهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ» ثلاثًا.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢٣).

(٢) «إحياء علوم الدين»، كتاب الحلال والحرام من ربع العادات (ص/ ١٣٧).

(٣) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوى (٢٨٦-٢٨٨) بتصرف.

ففى هذا الحديث بيان أن هدايا العمال حرامٌ وغلولٌ ؛ لأنه خان فى ولايته وأمانته .. ومن أجل ذلك ذكر النبى ﷺ أن كل مَنْ أكل شيئاً بغير حقه من الحرام فسوف يلقى الله عز وجل يوم القيامة وهو يحمله على ظهره .. فلو أخذ بغيراً - جملاً - من السرقة أو الرشوة المحرمة فسوف يلقى الله يوم القيامة وهو يحمله على ظهره وله رُغاء - صوت البعير - ... ولو أخذ بقرة من السرقة أو الرشوة فسوف يلقى الله يوم القيامة وهو يحمل تلك البقرة على ظهره ولها خوار - صوت البقرة - ولو أخذ شاة من السرقة أو الرشوة فسوف يلقى الله يوم القيامة وهو يحمل تلك الشاة على ظهره وهى تيعر - أى تصيح - ... ومن أجل خطورة هذا الأمر فقد رفع النبى ﷺ يديه حتى رُوى بياض إبطيه وقال: «اللهم هل بلغت ثلاثاً».

❦ قَالَ فِرَاتُ بْنُ مُسْلِمٍ: اشْتَهَى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ التُّفَّاحَ فَلَمْ يَجِدْ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَشْتَرِي بِهِ فَرَكِبْنَا مَعَهُ فَتَلَقَّاهُ غِلْمَانُ الدَّيْرِ بِأَطْبَاقٍ تَفَّاحٍ فَتَنَاوَلَ وَاحِدَةً فَشَمَّهَا ثُمَّ رَدَّ الْأَطْبَاقَ فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ... فَقُلْتُ أَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَقْبَلُونَ الْهَدِيَّةَ فَقَالَ إِنَّهَا لِأَوْلَئِكَ هَدِيَّةٌ وَهِيَ لِلْعَمَالِ بَعْدَهُمْ رِشْوَةٌ^(١).

بَابُ مَا يَنْهَى عَنْهُ

(٢١٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، مِنْ عَرَضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»^(٢).

❦ قَالَ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، مِنْ عَرَضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ» أى: فى الدنيا قبل أن يخرج منها وعليه مظالم يُعاقب عليها .. «قَبْلَ أَنْ

(١) فتح البارى (٥/ ٢٦١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

لَا يَكُونُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ» وذلك يوم القيامة ... فإن الإنسان في الدنيا يستطيع أن يتحلل من المظالم التي عليه إما بأدائها إلى أصحابها أو استحلالهم منها .. لكن إن لم يتحلل منها في الدنيا وجاء بها يوم القيامة فليس هنا إلا الحسنات والسيئات .. فإن كان الظالم له حسنات أخذت منه تلك الحسنات وقُدِّمت لمن ظلمهم .. فإن فَنِيَتْ حسناته وبقي عليه مظالم أخذ من سيئاتهم وطُرحت على الظالم ثم طُرِحَ في النار.

✽ فظاهر الحديث أنه يجب على الإنسان أن يتحلل من كل المظالم وبخاصة ما كانت في الأعراض؛ لأنها من أشد المظالم ... ولذلك ذكرها النبي ﷺ وحدها مع أنها داخلة في جملة المظالم.

وذلك أن المظالم إما أن تكون بالنفس، أو بالمال، أو بالعرض، لقول النبي ﷺ: «إِنْ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ»^(١).

فإن كانت بالنفس: مثل أن يكون قد جنى عليه، أو ضربه حتى جرحه، أو قطع عضوًا من أعضائه أو قتل له قتيلاً، فإنه يتحلل منه بأن يُمكنَّ صاحب الحق من القصاص، أو من بذل الدية، إذا لم يكن القصاص، أو اختيرت الدية.

أما إن كانت في المَال: فإنه يعطيه ماله، إذا كان عنده مَالٌ لأحد، فالواجب أن يعطيه لصاحبه، فإن لم يستطع الوصول إليه أو كان صاحب المال قد مات فإنه يبحث عن الورثة فإن لم يكن له ورثة أو كان له ورثة ولكنه لم يستطع الوصول إليهم فإنه يتصدق بهذا المال وينوي أن يصل ثوابه لصاحب المال ... والله سبحانه وتعالى يعرف صاحب المال وسيوصل له حقه وافرًا يوم القيامة.

أما إن كانت في العَرَض: مثل أن يكون قد سَبَّ شخصًا في مجالس أو اغتابه، فلا بُدَّ أن يتحلل منه إذا كان قد علم بأنه سَبَّه، فيذهب إليه، ويقول: أنا فعلت كذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧) كتاب العلم - ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

وفعلت كذا، وأنا جئتكم معذراً، فإن عذره فهذا من نعمة الله على الجميع؛ لأن الله يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]. وإن لم يعف فليعطه مالا... يُشبعه من المال حتى يُحلله... فإن أبى فإن الله تعالى إذا علم أن توبة الظالم توبة حقيقية، فإنه سبحانه وتعالى يرضى المظلوم يوم القيامة.

وقال بعض العلماء: إن كان المظلوم لم يعلم فلا حاجة أن يُعلمه، مثل أن يكون قد سبّه في مجلس من المجالس، وتاب فإنه لا حاجة أن يُعلمه، ولكن يستغفر له ويدعو له، ويثنى عليه بالخير في المجالس التي كان يسبّه فيها، وبذلك يتحلل منه.

والمهم أن الأمر خطير، وحقوق الناس لا بُدَّ أن تُعطى لهم، إما في الدنيا وإما في الآخرة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٦) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٢).

وفي رواية: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(٣).

قَالَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: قَوْلُهُ: (أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ) مَعْنَاهُ: أَيُّ خِصَالِهِ وَأُمُورِهِ وَأَحْوَالِهِ .. قَالُوا: وَإِنَّمَا وَقَعَ اخْتِلَافُ الْجَوَابِ فِي خَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لِاخْتِلَافِ حَالِ السَّائِلِ وَالْحَاضِرِينَ ... فَكَانَ فِي أَحَدِ الْمَوْضِعَيْنِ الْحَاجَةُ إِلَى إِفْشَاءِ السَّلَامِ وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ أَكْثَرُ وَأَهَمُّ لِمَا حَصَلَ مِنْ إِهْمَالِهِمَا وَالتَّسَاهُلِ فِي أُمُورِهِمَا وَنَحْوِ ذَلِكَ وَفِي الْمَوْضِعِ الْآخَرِ إِلَى الْكَفِّ عَنِ إِذَاءِ الْمُسْلِمِينَ^(٤).

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٦٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٠) كتاب الإيمان - ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

(٤) مسلم بشرح النووي (٢/١٣-١٤).

والمسلم يُطْلَق على معانٍ كثيرة، منها المُستسلم.. فالمُستسلم لغيره يُقال له: مسلم... ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَّا قُلْنَا لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. أى: قولوا استسلمنا، ولم نقاتلكم... والقول الثانى فى الآية: إن المراد بالإسلام، الإسلام لله عز وجل وهو الصحيح.

والمعنى الثانى: يُطْلَق الإسلام على الأصول الخمسة التى بينها النبى ﷺ لجبريل حين سألته عن الإسلام، فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت»^(١).

ويُطْلَق الإسلام على السلامة، يعنى أن يسلم الناس من شره، فيقال: أسلم بمعنى دخل فى السلم، أى: المُسالمة للناس، بحيث لا يؤذى الناس... ومنه هذا الحديث: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

سَلِمَ المسلمون من لسانه فلا يسبهم، ولا يلعنهم، ولا يغتابهم، ولا ينم بينهم، ولا يسعى بينهم بأى نوع من أنواع الشر والفساد، فهو قد كفَّ لسانه... وكفَّ اللسان من أشد ما يكون على الإنسان، وهو من الأمور التى تصعب على المرء وربما يستسهل إطلاق لسانه^(٢).

ولذلك قال النبى ﷺ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا»^(٣).

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا - وأشار إلى لسانه -» قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمَوْأخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «تَكَلَّمَ بِكَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/٥٦٣).

(٣) حسن: رواه الترمذى، وابن خزيمة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١).

تُكْفِرُ اللِّسَانَ: أى تذلل وتخضع له.

أَمْكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(١).
وفي رواية: «إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ».
ولذلك ضمن النبي ﷺ الجنة لمن يضمن له لسانه وفرجه عن كل أنواع الحرام.

فقال ﷺ: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رَجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).
احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبانٌ
كم في المقابر من قتيلٍ لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان!^(٣)
❁ قوله ﷺ: «المسلم» معناه المسلم الكامل وليس المراد نفى أصل الإسلام عن مَنْ لم يكن بهذه الصفة.. بل هذا كما يُقال: الناس العرب والمال الإبل... فكل هذا على سبيل التفضيل وليس الحصر.
ثُمَّ إِنَّ كَمَالَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِ مُتَعَلِّقٌ بِخِصَالٍ أُخْرَى كَثِيرَةٌ وَإِنَّمَا خَصَّ مَا ذَكَرَ لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحَاجَةِ الْخَاصَّةِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» معناه مَنْ لَمْ يُؤْذِ مُسْلِمًا بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ... وَخَصَّ الْيَدَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ مُعْظَمَ الْأَفْعَالِ بِهَا وَقَدْ جَاءَ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ بِإِضَافَةِ الْإِكْتِسَابِ وَالْأَفْعَالِ إِلَيْهَا^(٤).

❁ فالمسلم الكامل هو الذي يَكْفُفُ لسانه عن الناس فلا يذكرهم إلا بكل خير ولا يَسُبُّ ولا يَشْتُم ولا يَقْذِف ولا يَغْتَاب ولا يَنْتُم.. فهو رجلٌ مُسَالِمٌ لكل مَنْ حوله أينما وقع نفع.. حتى أنه إذا سمع كلامًا سيئًا عن أحد إخوانه لا يطير به فرحًا وينشره بين الناس بل يُدافع عن عرض أخيه ويرفض أن يسمع غيبة أخيه

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(٣) جواهر الأدب (ص ٧١٨).

(٤) مسلم بشرح النووي (١٤/٢) بتصرف.

بأذنه لأنه يحب المسلمين ؛ ولأنه يعلم أن وزر المستمع للغيبة كالمغتتاب تمامًا.
 ❁ وكذلك المسلم الكامل هو الذي يكف يده عن الناس فلا يعتدى عليهم بالضرب أو المقاتلة أو أخذ أموالهم أو الاعتداء على بيوتهم أو نسائهم أو أولادهم.. بل يحرص على ألا يستعمل يده إلا في العمل وفعل الخير ومساعدة إخوانه والدفاع عنهم. فمن سلم المسلمون من لسانه ويده فهذا هو المسلم الكامل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٧) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ عَلَى ثَقَلِ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةٌ، فَمَاتَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ فِي النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا ^(١).

❁ نحن نعلم أن الظلم على ثلاثة أقسام:

أحدها: أكل المال بالباطل، وثانيها: ظلم العباد بالقتل والضرب والكسر والجراح... وثالثها: ظلم العباد بالشتم واللعن والسب والقذف.

فالغلول هو من النوع الأول من الظلم ألا وهو: أكل المال بالباطل.

وفي هذا الحديث أن هذا الرجل (كِرْكِرَةٌ) كان على ثقل ^(٢) النبي ﷺ فلما مات فوجئ الصحابة أن النبي ﷺ يقول عنه: «هو في النار» فذهبوا يبحثون عن السبب في قول النبي ﷺ فوجدوا عباءة قد غلَّها.. أي أخذها من الغنائم قبل أن يقسمها النبي ﷺ على المُجاهدين.

❁ ولقد كان النبي ﷺ يشدد في الغلول جدًا، ويقول: «هو عارٌّ ونازٌّ وشَنَارٌ على أهله يوم القيامة» ^(٣).

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٠٧٤) كتاب الجهاد والسير.

(٢) الثَّقَل: العيال وما يتقفل حمله من الأمتعة.

(٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، إِلَى جَنْبِ بَعِيرٍ مِنَ الْمَقَاسِمِ، ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْبَعِيرِ، فَأَخَذَ مِنْهُ قَرْدَةً، يَعْنِي وَبْرَةً، فَجَعَلَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا مِنْ غَنَائِمِكُمْ، أَذُوا الْخَيْطِ، وَالْمَخِيطُ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌّ، عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

ولما أصيب غلامه مدعم قالوا: هَيِّئْ لَهُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْرٍ مِنَ الْمَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلَ عَلَيْهِ نَارًا» فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكِ - أَوْ شِرَاكَيْنِ - لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «شِرَاكِ مِنْ نَارٍ - أَوْ: شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ -»^(١).

وقال أبو هريرة: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْعُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُعَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاخٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَلْفِينَ أَحَدَكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ»^(٢).

❦ وقالوا في بعض غزواتهم: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ -» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ،

= وَشَنَارٌ وَنَارٌ» رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣٠٠).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢٣٤) كتاب المغازي، ومسلم (١١٥) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٧٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٣١) كتاب الإمارة.

كما رواه أحمد في المسند (٩٣٠٥)، عن أبي هريرة، والثُعَاء: صوت الشاة، والحَمْحَمَة: صوت الفرس عند العلف وهو دون الصهيل، والصامت: الذهب والفضة، وقوله: «رِقَاعٌ تَخْفِقُ» أي: تقعقع وتضطرب، والمراد بها الثياب التي غلَّها.

أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ»^(١).

وتوفي رجل يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ». فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ النَّاسِ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ غُلَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». فَفَتَّشْنَا مَتَاعَهُ فَوَجَدْنَا خَرَزًا مِنْ خَرَزِ يَهُودَ لَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ^(٢).

وكان إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً، فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم، فيُخَمِّسُهُ، وَيُقَسِّمُهُ... فجاء رجلٌ بعد ذلك بِزِمَامٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «سَمِعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَحِيَّ بِهِ؟» فَاعْتَذَرَ، فَقَالَ: «إِنِّي لَنْ أَقْبَلَهُ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تُوَاظِنِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣). انتهى^(٤).

وإنما شدد عليه هذا التشديد ليرتدع هو وأمثاله عن الطمع في المال العام... وليحرص كل واحدٍ منهم على أن يؤدّي هذا المال في وقته ليوزع على أهله قبل أن يتفرقوا^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٨) وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلَاثُ مُتَوَالِيَاتٍ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.. أَيْ شَهْرٌ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٤) كتاب الإيمان.

(٢) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٨١)، والإرواء (٧٢٦).

(٣) حسن: رواه أبو داود، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٤٨).

(٤) زاد المعاد (١٠٨/٣).

(٥) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/٧٧٣-٧٧٤) بتصرف.

وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ الْبُلْدَةُ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدَى كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلَا لِيُبْلِغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضٌ مِنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضٍ مَنْ سَمِعَهُ» ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١).

✽ في هذا الحديث ذكر أبو بكره رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب في المسلمين يوم النحر .. وكان ذلك في حجة الوداع وهي الحجة الوحيدة التي حجَّها النبي ﷺ في الإسلام.

ولقد لاحظنا أن النبي ﷺ كرَّر خطبته ... فقد خطب في عرفة، وفي منى مرتين، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب، فعلى الدعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ، فيكرروا خطبهم، ويكرروا بعض معانيها التي يرون حاجة لتكرارها، حتى يستوعبها السامعون ويحفظوها ... لأن القصد من خطب الخطيب إفادة السامعين بما يقول، فإذا كانت الفائدة لا تحصيل أو لا تتم إلا بتكرار الخطب من حيث عددها، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها، فليكررها الداعية، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديد في خطبته ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معاني معينة في أذهان السامعين .. إن الداعية همَّه أن يُفيد السامعين وليس همه أن يُظهر براعته في الخطب، وفي تنوع معانيها دون نظر ولا اعتبار إلى ما يحتاجه السامعون، ودون اعتبار لفهمهم هذه المعاني واستيعابهم لها^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٧٤١) كتاب الحج، و(٤٤٠٦) كتاب المغازي - ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٨).

﴿وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» فَقَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَتَمَسَّكُونَ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فِي تَحْرِيمِ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَكَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ تَأْخِيرُ الْقِتَالِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ مُتَوَالِيَاتٍ فَكَانُوا إِذَا احتَاجُوا إِلَى قِتَالٍ أَخْرَوْا تَحْرِيمَ الْمُحَرَّمِ إِلَى الشَّهْرِ الَّذِي بَعْدَهُ وَهُوَ صَفَرٌ ثُمَّ يُؤَخَّرُونَهُ فِي السَّنَةِ الْأُخْرَى إِلَى شَهْرٍ آخَرَ.

وَهَكَذَا يَفْعَلُونَ فِي سَنَةٍ بَعْدَ سَنَةٍ حَتَّى اخْتَلَطَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَصَادَفَتْ حَجَّةُ النَّبِيِّ ﷺ تَحْرِيمَهُمْ وَقَدْ تَطَابَقَ الشَّرْعُ وَكَانُوا فِي تِلْكَ السَّنَةِ قَدْ حَرَّمُوا ذَا الْحِجَّةِ لِمُوَافَقَةِ الْحِسَابِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْإِسْتِدَارَةَ صَادَفَتْ مَا حَكَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: كَانُوا يَنْسُونَ أَى يُؤَخَّرُونَ ... وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ فَرُبَّمَا احتَاجُوا إِلَى الْحَرْبِ فِي الْمُحَرَّمِ فَيُؤَخَّرُونَ تَحْرِيمَهُ إِلَى صَفَرٍ ثُمَّ يُؤَخَّرُونَ صَفَرٍ فِي سَنَةٍ أُخْرَى فَصَادَفَ تِلْكَ السَّنَةَ رُجُوعُ الْمُحَرَّمِ إِلَى مَوْضِعِهِ^(١).

﴿ثم وضع النبي ﷺ أن عدة الشهور اثنا عشر شهراً، وهى: المُحَرَّم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

هذه هى الأشهر الاثنا عشر شهراً، التى جعلها الله أشهُراً لعباده منذ خلق السموات والأرض... كانوا فى الجاهلية يُحلون المُحَرَّم، ويُحرمون صفر.

وبَيَّن (عليه الصلاة والسلام): أن هذه الاثنى عشر شهراً منها أربعة حُرُم: ثلاثة متوالية، وواحدٌ منفرد ... الثلاثة المتوالية هى: ذو القعدة وذو الحجة والمُحَرَّم، جعلها الله تعالى أشهُراً محرمة، يحُرَّم فيها القتال، ولا يعتدى فيها أحدٌ على أحد؛ لأن هذه الأشهر هى أشهر سير الناس إلى حج بيت الله، فجعلها

الله ﷻ مُحَرَّمَةٌ لِّمَا يَقَعُ الْقِتَالُ فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ وَالنَّاسُ سَائِرُونَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَهَذِهِ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ ﷻ.

والصحيح: أن القتال ما زال مُحَرَّمًا، وأنه لم يُنسخ إلى الآن، وأنه يَحْرُمُ ابتداء القتال فيها^(١).

❁ وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ الْأَرْبَعَةَ هِيَ هَذِهِ الْمَذْكُورَةُ فِي الْحَدِيثِ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِي الْأَدَبِ الْمُسْتَحَبِّ فِي كَيْفِيَّةِ عَدَّهَا فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ: يُقَالُ: الْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ لِيَكُونَ الْأَرْبَعَةُ مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ... وَقَالَ عُلَمَاءُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَجَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ: هِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ ثَلَاثَةٌ سَرْدٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ... وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ.

مِنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ... وَعَلَى هَذَا الْإِسْتِعْمَالِ أَطْبَقَ النَّاسُ مِنَ الطَّوَائِفِ كُلِّهَا... وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَرَجَبٌ مُضَرٌ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» وَإِنَّمَا قَيْدُهُ هَذَا التَّقْيِيدُ مُبَالِغَةٌ فِي إِضَاحِهِ وَإِزَالَةِ اللَّبْسِ عَنْهُ... قَالُوا: وَقَدْ كَانَ بَيْنَ بَنِي مُضَرَ وَبَيْنَ رَبِيعَةَ اخْتِلَافٌ فِي رَجَبٍ فَكَانَتْ مُضَرٌ تَجْعَلُ رَجَبًا هَذَا الشَّهْرَ الْمَعْرُوفَ الْآنَ.. وَهُوَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.. وَكَانَتْ رَبِيعَةُ تَجْعَلُهُ رَمَضَانَ... فَلِهَذَا أَضَافَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مُضَرَ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ^(٢).

❁ ثُمَّ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» سَأَلَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُلْفِتَ انتباههم وَيَسْتَحْضِرَ فُهْومَهُمْ وَهَمَمَهُمْ.. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَظِيمٌ.

فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ... وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ اسْتَبَعَدُوا أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَهْرٍ ذِي الْحِجَّةِ وَهُوَ يَعْرِفُهُ.. وَلَكِنَّهُمْ مِنْ كَمَالِ أَدْبِهِمْ وَتَوْقِيرِهِمُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمْ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٦٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (١١/ ٢٤١-٢٤٢).

يقولوا: هذا شهر ذى الحجة بل قالوا: الله ورسوله أعلم.

❁ وهنا سكت النبي ﷺ حتى قال أبو بكره رضي الله عنه: حتى ظننا أنه سيُسَمِّيه بغير اسمه.

وقد يسأل سائل: لماذا سكت النبي ﷺ؟

سكت حتى ينتبه الناس.. لأن الإنسان إذا تكلم ثم سكت انتبه الناس: ما الذي أسكته؟ وهذه طريقة مُتَّبَعَة في الإلقاء.. أن الإنسان إذا رأى من الناس الذين حوله عدم إِنْصَات يسكت حتى ينتبهوا؛ لأن الكلام إذا كان مُسْتَرَسلاً فقد يَحْصُلُ للسامع غفلة، لكن إذا توقف فإنهم سيتنبهون، لماذا وقف.

قال القرطبي: سؤال النبي ﷺ عن الثلاثة: أى عن اليوم والشهر والبلد، وسكوته بعد كل سؤالٍ منها كان لاستحضار فهمهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه.... فعلى العلماء والدعاة أن يقدموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السامعين ويشدهم إلى كلامهم^(١).

وقال الإمام النووي: هَذَا السُّؤَالُ وَالسُّكُوتُ وَالتَّفْسِيرُ أَرَادَ بِهِ التَّفْخِيمَ وَالتَّقْرِيرَ وَالتَّنْبِيهَ عَلَى عِظَمِ مَرْتَبَةِ هَذَا الشَّهْرِ وَالْبَلَدِ وَالْيَوْمِ وَقَوْلُهُمْ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ هَذَا مِنْ حُسْنِ أَدَبِهِمْ وَأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ ﷺ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنَ الْجَوَابِ فَعَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ مُطْلَقَ الْإِخْبَارِ بِمَا يَعْرِفُونَ^(٢).

❁ المهم أن النبي ﷺ بعدما سكت قال: «أليس ذا الحجة» فقال الصحابة: بلى يا رسول الله.. ثم قال النبي ﷺ: «أى بلد هذا؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.. وهم يعلمون جيداً أنها مكة المكرمة لكنهم قالوا ذلك أيضاً لأدبهم واحترامهم للرسول ﷺ.. فلم يقولوا: وهل هذا سؤال.. إنها

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٨).

(٢) مسلم بشرح النووي (١١/ ٢٤٣).

مكة المكرمة .. بل قالوا: الله ورسوله أعلم .. ثم سكت النبي ﷺ مرة أخرى حتى ظنوا أنه ﷺ سيُسمى مكة باسمٍ آخر وسيُغير اسمها فإذا به ﷺ يقول: «أليس البلدة؟» .. والبلدة اسم من أسماء مكة.

ثم قال ﷺ: «أى يومٍ هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم .. ففعلوا كما فعلوا كل مرة؛ لأن الأدب والاحترام لا يتغيران أبداً. فقال ﷺ: «أليس يوم النحر» قالوا: بلى يا رسول الله.

ثم قال ﷺ: «إِنَّ دَمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا» فأكد عليه الصلاة والسلام تحريم هذه الثلاثة: الدماء والأموال والأعراض، فكلها محرمة.

والدماء تشمل النفوس وما دونها، والأموال تشمل القليل والكثير، والأعراض تشمل الزنى واللواط والقذف، وربما تشمل الغيبة والسب والشتم والقذف... فهذه الأشياء الثلاثة حرام على المسلم أن يتطهكها من أخيه المسلم. فلا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

المرادُ بهذا كله بيان تأكيد غِلْظ تحريم الأموال والدماء والأعراض، والتحذير من ذلك.

ثم قال ﷺ: «ألا فلا ترجعوا بعدي كُفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض». ففى هذا الحديث حذَرُ النبي ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ يَقْتُلُوا، كما كان يفعل أهل الجاهلية، الذين كانوا يُغيرون بعضهم على بعض، طمعاً في الغنائم والأسلاب، أو حَمِيَّةَ لِبَعْضِ أبنَاءِ قَبِيلَتِهِمْ، أو طاعةً لِبَعْضِ شيوخهم وزعمائهم، أو استجابةً لدسائس بعض الأشرار من غيرهم كاليهود... أو لغير ذلك من الأسباب. وقد تتقاتل القبيلتان بسببٍ تافه، ومع هذا تستمر الحرب أربعين عاماً أو تزيد، كما في حرب البسوس بين بكر وتغلب، التي انطلقت شرارتها من أجل ناقة!

وقد رأينا قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب قبل الإسلام، ظلتا تحارب إحداهما الأخرى سنين طويلة، تنتصر هذه مرّة، وتنهزم أخرى.. يُؤجّج نار الحرب بينهما اليهود الذين كانوا يجاورونهم. وكان بعضهم حلفاء للأوس، وبعضهم حلفاء للخزرج.

فلا غرو أن يُحذّر الرسول أمته في حَجَّةِ الوداع أن يعودوا إلى عهد الجاهلية الجَهلاء، في النزاع والقتال بعضهم لبعض، وقال بصريح العبارة كما في الحديث عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» - أَيْ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِنصَاتِ - حَتَّى يُصَدَّرَ إِعْلَانُهُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي حَالَةِ هَدْوٍ - ثُمَّ قَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». ومعنى هذا الحديث: أن القتال بين المسلمين ضَرْبٌ مِنَ الْكُفْرِ أَوْ يُوَدِّى إِلَى الْكُفْرِ، أَوْ هُوَ يُشْبِهُ عَمَلَ الْكُفَّارِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ... وَرَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(١).

وعن أبي بكرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»^(٢).

بل حرّم رسول الله ﷺ على المسلم أن يُشير - مُجَرَّدَ إِشَارَةٍ - إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، وَلَوْ كَانَ مَازِحًا ... قَالَ ﷺ: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»^{(٣) (٤)}.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) كتاب الفتن.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.

«لَا يُشِيرُ» .. الْأَصْلُ أَنَّهَا «لَا يُشِيرُ» .. لَكِنَّا هُنَا نَهَى بِلَفْظِ الْخَبَرِ .. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَضَاكِرْ عَلَيْهِمْ﴾.

(٤) فقه الجهاد / د. يوسف القرضاوى (٢/ ١٠٦٤-١٠٦٥) بتصرف.

وهذه المسألة بحسب النصوص فيها تفصيل: إن قاتل المسلم مُستَحِلًّا لقتله
 بغير إذن شرعي فهو كافر كُفْرًا مُخْرَجًا عن الملة، وإن قاتله بتأويل، أو لقصد
 رئاسة، أو لقصد سلطان، فهذا لا يَكْفُرُ كُفْرَ رِدَّةٍ، ولكنه كَفَرٌ دون كفر، ودليل
 ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ
 إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ
 وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ①﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴿②﴾
 [الحجرات: ٩، ١٠]. وهذا هو الجمع بين هذه الآية وبين الحديث... فيقال: إن
 تقاتل المسلمون مُستَحِلًّا كل واحدٍ دم أخيه فهو كافر كُفْرًا مُخْرَجًا عن الملة،
 وإن كان لرئاسة أو عصبية أو حمية أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يَكْفُرُ كُفْرَ رِدَّةٍ، بل
 يكون كُفْرُهُ كُفْرًا دون كفر، وعليه أن يتوب ويستغفر.

ثم قال (عليه الصلاة والسلام): «ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟» يسأل
 الصحابة رضي الله عنهم. قالوا: نعم، أي: بلغت... فتأمل كيف يُقَرِّرُ النبي عليه الصلاة
 والسلام، أنه بَلَغَ في المواطن العظيمة الكثيرة الجَمْع، في عرفة خطبهم (عليه
 الصلاة والسلام) قال: «ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، فجعل يرفع أصبعه إلى
 السماء وينكتها إلى الناس، يقول: اللهم اشهد عليهم أنني بلغتهم.
 وكذلك أشهد ربه على أنه بَلَغَ أُمَّتَهُ، وأقروا بذلك في يوم النحر.

ونحن نَشْهَدُ ونُشْهَدُ الله وملائكته وَمَنْ سَمِعْنَا مِنْ خَلْقِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَغَ
 البلاغ المبين وأنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة، فما ترك خيرًا إلا ودَّلَ
 أُمَّتَهُ عَلَيْهِ، ولا شرًّا إلا وحذرهم منه، وأنه ترك أُمَّتَهُ عَلَى الْمَحْجَةِ الْبِيضَاءِ.

والصحابة رضي الله عنهم بَلَغُوا جميع ما سمعوه منه عليه الصلاة والسلام.

ما كتموا من سُنَّتِهِ شَيْئًا، وبلغوا ما جاء به من الوحي، ولم يكتُموا منه شَيْئًا،
 فجاءت الشريعة والله الحمد كاملة من كل وجه... بلغها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ربه ثم

بلغها الصحابة رضي الله عنهم ثم التابعون عَمَّنْ قبلهم وهكذا إلى يومنا هذا والله الحمد.
ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يُبلغ الشاهد الغائب .. يعنى يبلغ مَنْ شهدته
وسمع خطبته أن يبلغ باقى الأمة، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه ربما يكون
مُبَلِّغٌ أوعى للحديث من سامع، وهذه الوصية من الرسول عليه الصلاة والسلام
وصية لمن حضر فى ذلك اليوم، ووصية لمن سمع حديثه إلى يوم القيامة...
فعلينا إذا سمعنا حديثاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبلغه إلى الأمة^(١).

❁ ويُستفاد من هذا الحديث: تحذير النبى ﷺ أمته من قتال بعضهم بعضاً
.. ولكن بكل أسف فقد وقعت الفتنة منذ مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .. ووقع
بينهم السيف والقتال وما زال إلى يومنا هذا .. ولكنه يختلف قِلَّةً وكثرة
 باختلاف الزمان والمكان .. فقد يكون فى وقتٍ أكثر من وقتٍ آخر وقد يكون فى
زمان أكثر من غيره... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فيجب على المسلم أن يتقى دماء إخوانه المسلمين ما استطاع.
لكن إن دخل عليك مسلم يريد أن يقتلك أو أن ينتهك عرضك أو أن يسرق
مالك فلك أن تدافع عن نفسك وعرضك ومالك ... ولكن عليك أن تدفعه
بالأسهل فإن لم يندفع فادفعه بوسيلة أشد من الأولى .. فإن لم يندفع إلا بالقتل
فاقتله فإن قتلته فهو فى النار .. وإن قتلته فأنت شهيد - بإذن الله - كما جاء فى
الحديث عن النبى ﷺ .

قال ﷺ: « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ
قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ »^(٢).

❁ وفى هذا الحديث أيضاً تحذير من الوقوع فى أعراض المسلمين .. فلا

(١) شرح رياض الصالحين (١/٥٦٧-٥٦٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٤٥).

يجوز لمسلم أن ينتهك عرض أخيه المسلم بالغيبة أو السب أو الشتم أو القذف أو انتهاك حرمة أو ما هو فوق ذلك .. فإذا رأيت من أخيك أى شىء فى عباداته أو معاملاته أو أخلاقه فعليك أن تقدم له النصيحة الخالصة لوجه الله .. وتكون النصيحة فيما بينك وبينه .. فلا تفضحه أمام الناس ؛ لأنك إذا فضحته فلن يستمع لنصيحتك أما إذا نصحته فى السر فسيشعر بحبك له وحرصك عليه وسيكون ذلك أدعى للاستجابة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢١٩) وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ إِبْنِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْحَارِثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فقال رجلٌ: «وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» فقال: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ»^(١).

❁ فى هذا الحديث أن من اقتطع حق امرئ مسلم بأن حلف كاذباً لياخذ حق أخيه - وهى ما تسمى باليمين الغموس التى تغمس صاحبها فى النار - فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة.

قوله ﷺ: «فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» ففیه الجوابان المتقدمان المتكرران فى نظائره: أحدهما: أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ لِذَلِكَ ... إِذَا مَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ وَيُخَلَّدُ فِي النَّارِ. والثانى: مَعْنَاهُ فَقَدْ اسْتَحَقَّ النَّارَ وَيَجُوزُ الْعَفْوُ عَنْهُ وَقَدْ حُرِّمَ عَلَيْهِ دُخُولُ الْجَنَّةِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ مَعَ الْفَائِزِينَ^(٢).

❁ وقوله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ» ليس معناه أن من اقتطع حق امرئ كافر فليس حراماً .. بل هو حرام وذلك لأن المسلم حُرِّمَ عليه أن يسرق المسلم وغير المسلم أو أن يقتل المسلم وغير المسلم - إلا أن يكون غير

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٢١٤).

المسلم مُحَارِبًا - وَحُرْمَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَزْنِيَ بِالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَغَيْرِ الْمُسْلِمَةِ وَهَكَذَا فِي سَائِرِ الْمَحْرَمَاتِ.

❁ فَمَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِالْيَمِينِ الْغَمُوسَ فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ .. فَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ لِمَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ الْمُسْلِمِ وَمَاتَ قَبْلَ التَّوْبَةِ أَمَّا مَنْ تَابَ فَتَنْدِمَ عَلَى فِعْلِهِ وَرَدَّ الْحَقَّ إِلَى صَاحِبِهِ وَتَحَلَّلَ مِنْهُ وَعَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ فَقَدْ سَقَطَ عَنْهُ الْإِثْمُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وما دُمنا قد تكلمنا عن اليمين الغموس فلا بد أن نعرف ما هي اليمين الغموس.

فاليمين الغموس أن يحلف الإنسان على أمرٍ متعمدًا الكذب، ليهضم بها حقَّ غيره .. وتُسمى: الزور، والفاجرة ... وسُميت في الأحاديث: يمين صبرٍ (أى: التى يصبر فيها نفسه على الجزم باليمين الكاذبة) ويمينًا مصبورة.

قال فى النهاية: غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها فى النار.

حكمها: هى كبيرة من الكبائر، وفاعلها آثمٌ باتفاق المسلمين.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَارٍ، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَانُ، وَالْمُنْفِقُ»

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٧٥) كتاب الإيمان والنذور.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٧٦) كتاب الإيمان والنذور، ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

سَلَعَتُهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ»^(١).

وقد يسأل سائل: هل اليمين الغموس تلزمها الكفارة؟

والجواب: أنه اختلف أهل العلم في ذلك .. ولكن الراجح أن اليمين الغموس لا تحتاج إلى كفارة بل تحتاج إلى التوبة والندم على الوقوع فيها وردَّ الحق إلى صاحبه والتحلل منه والعزم على عدم العودة إلى ذلك.

❁ وفي آخر الحديث لما علم الصحابة أن الله أوجب النار على مَنْ اقتطع حق أخيه المسلم باليمين الغموس بل وحرم عليه الجنة فقالوا: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال: «وإن قضيباً من أراك» وهو السواك..

وهذا يجعل المسلم يحرص كل الحرص على ترك الحرام قليله وكثيره وعلى ترك الذنوب صغيرها وكبيرها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٠) وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ عُمَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمْنَا مَخِيطاً فَمَا فَوْقَهُ، كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ، كَانَتْ أُنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ قَالَ: «وَمَا لَكَ؟» قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: «وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى»^(٢).

❁ قوله ﷺ في الحديث: «مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ» يدلُّ على أنه لا يجوز له أن يقتطع منه شيئاً لنفسه، لا أجرة ولا غيرها، ولا لغيره إلا أن يأذن له الإمام، الذي تلزمه طاعته. وَ(الْمَخِيطُ): الإبرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٣) كتاب الإمارة.

(٢٢١) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، وَفُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٌ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث أنه لما كان يوم غزوة خيبر التى كانت فى السنة السابعة للهجرة قُتل بعض أصحاب الرسول ﷺ فأقبل نفرٌ من أصحاب الرسول ﷺ فقالوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ وفُلَانٌ شَهِيدٌ .. حتى مَرُّوا على رجلٍ فقالوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ ... لكن هذا الرجل كان عنده مشكلة كبيرة ولذا قال عنه النبى ﷺ: «كلا إنى رأيته فى النار فى بُردة غَلَّها أو عباءة».

فهذا الرجل سرق بُردة وهى الشملة أو النَمِرَة .. أما العباءة فهى معروفة وتُسَمَّى العباية.

فهذا الرجل رآه النبى ﷺ فى النار بسبب عباية سرقها من الغنائم قبل أن يقسمها النبى ﷺ بين أصحابه .. سرقها الرجل ولم يلبسها ودخل النار بسببها ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا ما يُسَمَّى بالغلول ... وهو أن يسرق الرجل أو يخون من الغنيمة قبل أن تُقَسَّم على المُجاهدين ... وقيل: إن الغلول هو الخيانة فى كل شىء.

❦ وفى رواية أخرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ نَعْنَمْ ذَهَبًا وَلَا وَرِقًا - أَيْ: فِضَّةً - غَنِمْنَا الْمَتَاعَ وَالطَّعَامَ وَالثِّيَابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَى الْوَادِى، وَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُدَامٍ يُدْعَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ، فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِى، قَامَ عَبْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهْمٍ، فَكَانَ فِيهِ حَنْفَةٌ، فَقُلْنَا: هَيْنِئًا لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلَّا وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ الشُّمْلَةَ لَتَلْتَهُبُ عَلَيْهِ نَارًا

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٤) كتاب الإيمان.

أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ»، قَالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكِ أَوْ شِرَاكَيْنِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ»^(١).

فهذا رجل سرق شملة من الغنيمة قبل أن تُقَسَّم .. أى أنه غلَّ من الغنيمة .. فلما قال الصحابة: هنيئًا له الشهادة يا رسول الله ﷺ قال: «كلا .. والذي نفس محمد بيده إن الشملة لتلتهب عليه نارا».

فيأتى رجل آخر قد غلَّ شِرَاكًا أَوْ شِرَاكَيْنِ .. والشِرَاك هو السَّير المعروف الذى يكون فى النعل على ظهر القدم (رباط الحذاء).

فقال له ﷺ: «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ» تَنْبِيهُ عَلَى الْمُعَاقَبَةِ عَلَيْهِمَا .. وَقَدْ تَكُونُ الْمُعَاقَبَةُ بِهِمَا أَنْفُسُهُمَا فَيُعَذَّبُ بِهِمَا وَهُمَا مِنْ نَارٍ وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى أَنْهُمَا سَبَبٌ لِعَذَابِ النَّارِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

✽ فهذا الرجل خرج مع النبى ﷺ مجاهدًا فى سبيل الله .. ونحن نعلم أن الجهاد فى سبيل الله ذروة سنام الإسلام .. وأن الشهادة فى سبيل الله تكفر كل شىء إلا الدين .. وأن الله ﷻ هو الذى يتولَّى سداد دين الشهيد يوم القيامة.

لكن هذا الرجل لما غلَّ وأخذ العباة وكتمها لأنه يريد أن يختص بها لنفسه فعُذِبَ بها فى نار جهنم. وانتفت عنه هذه الصفة العظيمة وهى الشهادة؛ لأن النبى ﷺ قال: «كلا» يعنى ليس بشهيد؛ لأنه غلَّ هذا الشىء البسيط. فأحبط جهاده وصار فى النار ... قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. ففى هذا دليل على أنه لا ينبغى لنا أن نحكم على شخصٍ بأنه شهيد، وإن قُتِلَ فى معركة بين المسلمين والكفار .. لا نقول: فلان

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٣٤) كتاب المغازى، ومسلم (١١٥) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٧٠/٢).

شهيد؛ لاحتمال أن يكون غَلَّ شيئاً من الغنائم أو الفىء ولو غَلَّ قِرْشاً واحداً، أو مسماراً زال عنه اسم الشهادة، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صالحة، بأن ينوى بذلك الحمية أو أن يُرى مكانه.

ولهذا سئل النبي (عليه الصلاة والسلام) عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل ليُرى مكانه، أى ذلك في سبيل الله؟ قال: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١) والنية أمرٌ باطنى في القلب لا يعلمه إلا الله.

ولهذا قال النبي (عليه الصلاة والسلام): «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أى: ما من مجروح يُجرح في سبيل الله، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ» قد نظن أنه يقاتل في سبيل الله ونحن لا نعلم، «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ»، «إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَتَغَبَّ دَمًا، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمَسْكِ»^(٢).

ولهذا ترجم الإمام البخارى رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» قال: باب لا يُقال: فلان شهيد... يعنى: لا تُعَيَّنْ وتقول: فلان شهيد، إلا إذا عَيَّنَهُ الرِّسُولُ (عليه الصلاة والسلام)، أو ذَكَرَ عِنْدَ الرِّسُولِ ﷺ وأقره، فحينئذ يُحَكِّمُ بِشَهَادَتِهِ بَعِينَهُ، وإلا فلا تشهد لشخصٍ بَعِينَهُ^(٣).

لكن نستطيع أن نقول لمن قُتِلَ في سبيل الله: نرجو أن يحشره الله في زُمرَةِ الشهداء أو أن يتقبله الله في الشهداء.. أو أن نقول على وجه العموم: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ.

❁ ومن أحكام هذا الحديث:

غِلْظُ تَحْرِيمِ الْغُلُولِ .. وَمِنْهَا أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ حَتَّى الشَّرَاكُ وَمِنْهَا أَنَّ الْغُلُولَ يَمْنَعُ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الشَّهَادَةِ عَلَى مَنْ غَلَّ إِذَا قُتِلَ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٠).

وَمِنْهَا جَوَازُ الْحَلِفِ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ» وَمِنْهَا أَنَّ مَنْ غَلَّ شَيْئًا مِنَ الْغَنِيمَةِ يَجِبُ عَلَيْهِ رَدُّهُ وَأَنَّهُ إِذَا رَدَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُحَرِّقُ مَتَاعَهُ سِوَاءَ رَدِّهِ أَوْ لَمْ يَرُدَّهُ فَإِنَّهُ ﷺ لَمْ يُحَرِّقْ مَتَاعَ صَاحِبِ الشَّمْلَةِ وَصَاحِبِ الشَّرَاكِ وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَفَعَلَهُ وَلَوْ فَعَلَهُ لَنُقِلَ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ: «مَنْ غَلَّ فَاحْرِقُوا مَتَاعَهُ وَاضْرِبُوهُ»... وَفِي رِوَايَةٍ: «وَاضْرِبُوا عُنُقَهُ» فَضَعِيفٌ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٢) وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْحَارِثِ بْنِ رَبِيعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدِّينَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ قَالَ لِي ذَلِكَ»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث دليل على أن المسلم إذا جاهد في سبيل الله وكان صابراً محتسباً (مخلصاً) مقبلاً غير مدبر فنال الشهادة فإن ذلك يكفر عنه كل سيئاته وخطاياهم إلا شيئاً واحداً.. ألا وهو الدين... وذلك لأن الشهادة تكفر ما كان منك من تقصير في حقوق الله تعالى ولا تكفر حقوق آدميين.

وفى هذا دليل على عظم الدين وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتساهل فيه... فلا ينبغي للإنسان أن يستدين إلا لحاجة ضرورية وليس من أجل الكماليات.. وإذا

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٧٠-١٧١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٥) كتاب الإمارة.

استدان فلا بُدَّ أن يستحضر نية أداء الدين.

وتعالوا بنا لنعرف كيف كان النبي ﷺ يُعلمنا الاعتدال في حياتنا لكي نبتعد عن الدين.

فمما ينبغي للمسلم أن يعرفه من أحكام دينه أنه يأمره بالاعتدال في حياته والاقتصاد في معيشته: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وحين طلب القرآن من المؤمنين أن يُنفقوا، لم يطلب منهم إلا إنفاق بعض ما رزقوا.. لا كله... ومن أنفق بعض ما يكتسب فقلما يفتقر... ومن شأن هذا التوسط والاعتدال ألا يُحوج المسلم إلى الاستدانة، وخصوصاً أن النبي ﷺ كرهها للمسلم، فإن الدين في نظر الرجل الحرَّ همٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار... وكان النبي ﷺ يستعِذ بالله منه ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ»^(١). وكان يقول في صلاته: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْتَمِ وَالْمَغْرَمِ»، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِذُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْمَغْرَمِ؟ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»^(٢).

فبيِّن ما في الاستدانة من خطرٍ على الأخلاق نفسها.. وكان لا يُصلى على الميت إذا عرف أنه مات وعليه ديون لم يترك وفاءها، تخويفاً للناس من هذه العاقبة، حتى أفاء الله عليه من الغنائم والأنفال، فكان يقوم هو بسدادها.

وقال ﷺ: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ»^(٣).

وفي ضوء هذه التوجيهات لا يلجأ المسلم إلى الدين إلا للحاجة الشديدة،

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢١٦٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٩٧) كتاب الاستقراض، ومسلم (٥٨٩) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٦) كتاب الإمارة.

وهو حين يلجأ إليه لا تفارقه نية الوفاء أبداً.

قال ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يَرِيدُ إِتْلَافِهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(١).

فإذا كان المسلم لا يلجأ إلى الدين المباح [أى بغير فائدة] إلا نزولاً على حُكم الضرورة وضغط الحاجة فكيف إذا كان هذا الدين مشروطاً بالفوائد الربوية؟!^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ . فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضَى مَا عَلَيْهِ، أَخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(٣).

❁ قوله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟» فهذا الاستفهام هنا للاستعلام الذى يُراد به الإخبار .. وذلك لأن المُستفهم تارة يستفهم عن جهل ولا يدرى فيسأل غيره ليعلم .. وتارة يستفهم لتنبيه المُخاطَب لما يُلقى إليه أو لتقرير الحُكم كما حدث فى هذا الحديث .. فالنبي ﷺ يستفهم لتنبيه المُخاطَب ولتقرير الحُكم .. فهو ﷺ سوف يُخبر أصحابه فى هذا الحديث بأمرٍ لا يعلمونه أو لا يعلمون مُراد النبي ﷺ منه ... ولذا لما سألهم النبي ﷺ: «أتدرون من المفلس؟» قالوا:

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٣٨٧) كتاب الاستقراض.

(٢) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢٣٣-٢٣٤) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فأراد النبي ﷺ أن يوضح لهم مراده فقال ﷺ: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة» أي أنه يأتي بحسنات عظيمة كالجبال .. فهو صاحب ثروة ولكن ليست ثروة مادية وإنما ثروة من الحسنات .. وهى التى يحتاج إليها المسلم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) ﴿لَا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ولكن هذا الرجل عنده مظالم كثيرة، ولذا قال عنه النبي ﷺ: «يأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا» .. أى أنه قد اعتدى على الناس من حوله بجميع أنواع الاعتداءات وظلمهم .. وهؤلاء الذى اعتدى عليهم وظلمهم يريدون أخذ حقوقهم التى لم يستطيعوا أن يأخذوها فى الدنيا. فيقتص الله ﷻ لهمؤلاء المظلومين من هذا المفلس الظالم.

فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، وهذا من حسناته بالعدل والقصاص بالحق ... فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطُرحت عليه ثم طُرِحَ فى النار، والعياذ بالله.

هكذا تنتهى كل حسناته .. فثواب الصلاة ينتهى وثواب الزكاة ينتهى وكذلك ثواب الصيام .. وكل حسناته تنتهى بسبب تلك المظالم .. فإذا انتهت حسناته وبقي عليه مظالم كثيرة فإنه يؤخذ من سيئات المظلومين فطُرِحَ عليه ثم يُطرح فى النار بسبب ضياع حسناته كلها وتراكم الذنوب والسيئات عليه ... فهذا هو المفلس الحقيقى ... أما مفلس الدنيا فإن الدنيا لا تدوم على حال .. فقد يذهب عنه الفقر ويغتنى .. وقد يكون الإنسان غنياً ويفتقر .. لكن الإفلاس الحقيقى هو أن يُفلس الإنسان من حسناته التى تعب من أجلها.

✽ ولنا هنا وقفات في غاية الأهمية:

(١) أن هذا الرجل المفلس كان له حسنات كثيرة .. والحسنات هي ثواب الأعمال الصالحة ... ولكي يحصل الإنسان على ثواب وحسنات من وراء عمله الصالح فلا بد أن يكون مُخلصاً لله ﷻ في هذا العمل وأن يكون مُتبعاً لرسول الله ﷺ . فمعنى ذلك أن هذا الرجل كان مُخلصاً لله ومُتبعاً لرسول الله ﷺ ولذلك كُتبت له تلك الحسنات الكثيرة .. ولو لم يكن مُخلصاً ولا مُتبعاً لم يكن له أى ثواب على تلك الأعمال ... والإخلاص والمتابعة يحتاجان إلى جهد ومشقة واستحضار وتجديد النية الصالحة ومعرفة سُنة النبي ﷺ في كل عمل من أجل اتباعه .. فبعد كل هذا التعب ضاع عمل هذا المفلس؛ لأنه كان ظالماً لمن حوله ... وهذا يدل على خطورة المظالم وسوء عاقبتها.

(٢) أن هذا المفلس الذى فعل طاعات كثيرة وفاز بحسنات كثيرة ولكنه كان قد وقع في مظالم كثيرة .. كان من الممكن أن يحسب الله له حسناته ويحسب له سيئاته التى جناها من وراء تلك المظالم ويخصم هذه من تلك ويجعله يرى الباقي يوم القيامة .. بمعنى أنه لو كان عمل أعمالاً صالحة جنى من ورائها مليار حسنة طوال حياته ... وفى المقابل كان قد وقع في مظالم جنى من ورائها مليار سيئة .. فكان من الممكن أن يخصم الله منه المليار سيئة مقابل المليار حسنة فتكتب تلك الحسنات في ميزان حسنات الذين ظلمهم هذا المفلس ثم يأتى يوم القيامة فلا يرى أى حسنة له فيظن أن الله لم يتقبل منه أى عمل صالح ... فهذه وإن كانت حسرة شديدة عليه ولكن الأشد منها أن يأتى المفلس يوم القيامة فيرى لنفسه جبلاً من الحسنات ويفرح بها فرحة شديدة ويهيب نفسه أنه سيدخل الجنة .. وفجأة يجد المظلومين قد أحاطوا به من كل جانب .. وكل واحدٍ منهم يأخذ من حسناته بقدر مظلمته. فيرى المفلس جبال الحسنات تتلاشى أمام عينيه حتى تنتهى فيتحسر عليها حسرة شديدة .. ثم تزداد

حسرتة؛ لأن بعض المظلومين ما زالوا يحيطون به يريدون أن يأخذوا من حسناته فيقول لهم: ليس عندي حسنات .. فيأمر الله ﷻ الملائكة أن تأخذ من سيئات المظلومين فتطرح على المفلس ثم يُطرح في النار .. فهل رأيتم حسرة أشد من هذه الحسرة؟!

✽ من أجل ذلك يا ليتنا نتقى ظلم العباد ومظالمهم .. ومن كان ظالمًا لأحدٍ في أي شيء فليُعطه حقه وليتحلل منه اليوم - أي في الدنيا - قبل أن يكون مُفلسًا يوم القيامة ويعيش هذا المشهد البئيس عياذًا بالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٤) وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» (١).

✽ ففي هذا الحديث دليلٌ على أن الرسول ﷺ بشرٌ مثلنا وأنه ليس ملكًا من الملائكة .. بل هو بشرٌ يعتريه ما يعترى البشر بمقتضى الطبيعة البشرية ... فهو ﷺ يجوع ويعطش ويأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويذكر وينسى ويتزوج كما يتزوج البشر ويفرح ويحزن ... ولذلك أمره الله ﷻ أن يُعلن ذلك أمام الملائكة جميعًا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله. ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ عبدٌ من عبيد ربى، ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: فُضلت عليكم بالوحي، الذى يوحى الله إليّ، الذى أجله الإخبار لكم، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: لا شريك

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٦٩) كتاب الأحكام، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأفضية.

«أَلْحَنَ» أى: أعلم.

له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذى يقربكم منه، ويُنيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه^(١).

وبهذا تنقطع شبهة الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويدعونه ويطلبون منه كشف الضرّ وجلب الخير .. فإنه (عليه الصلاة والسلام) لا يملك ذلك بل الذى يملك ذلك هو الله فاطر السماوات والأرض .. ولذا أمر نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إني فقيرٌ مُدبرٌ، لا يأتيني خير، إلا من الله، ولا يدفع عني الشر، إلا هو، وليس لى من العلم إلا ما علمنى الله تعالى. ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أى: لفعلت الأسباب التى أعلم أنها تنتج لى المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يُفضى إلى سوءٍ ومكروهٍ، لعلمى بالأشياء قبل كونها، وعلمى بما تُفضى إليه.

ولكنى - لعدم علمى - قد ينالنى ما ينالنى من السوء، وقد يفوتنى ما يفوتنى، من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أنى لا علم لى بالغيب. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية، والأخروية، وأبين الأعمال المُفضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والندارة، وإنما ينتفع بذلك، ويقبله المؤمنون ... وهذه الآيات الكريمت، مُبينة جهل من يقصد النبى ﷺ ويدعوه لحصول نفع، أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضر،

عَمَّنْ لَمْ يَدْفَعَهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا لَهُ مِنَ الْعِلْمِ، إِلَّا مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَنْفَعُ مَنْ قَبْلَ مَا أُرْسِلَ بِهِ، مِنَ الْبَشَارَةِ وَالنَّذَارَةِ، وَعَمِلَ بِذَلِكَ. فَهَذَا نَفْعُهُ ﷺ الَّذِي فَاقَ نَفْعَ الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْأَخْلَاءِ وَالْإِخْوَانِ، بِمَا حَثَّ الْعِبَادَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَحَذَرَهُمْ عَنْ كُلِّ شَرٍّ، وَبَيَّنَّهُ لَهُمْ، غَايَةَ الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ^(١).

❁ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ» مَعْنَاهُ التَّنْبِيهُ عَلَى حَالَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَأَنَّ الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ مِنَ الْغَيْبِ وَبَوَاطِنِ الْأُمُورِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يُطْلِعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِ الْأَحْكَامِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالظَّاهِرِ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ فَيَحْكُمُ بِالْبَيِّنَةِ وَبِالْيَمِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الظَّاهِرِ مَعَ إِمْكَانِ كَوْنِهِ فِي الْبَاطِنِ خِلَافَ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ إِنَّمَا كُلَّفَ الْحُكْمَ بِالظَّاهِرِ وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» وَفِي حَدِيثِ الْمُتَلَاعِينِ: «لَوْ لَا الْإِيمَانُ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ» وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَأُطْلِعَهُ ﷺ عَلَى بَاطِنِ أَمْرِ الْخَصْمَيْنِ فَحَكَمَ بَيْنَ نَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى شَهَادَةِ أَوْ يَمِينٍ لَكِنْ لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّتَهُ بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ أَجْرَى لَهُ حُكْمُهُمْ فِي عَدَمِ الْإِطْلَاعِ عَلَى بَاطِنِ الْأُمُورِ لِيَكُونَ حُكْمُ الْأُمَّةِ فِي ذَلِكَ حُكْمَهُ فَأَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي يَسْتَوِي فِيهِ هُوَ وَغَيْرُهُ لِيَصْلَحَ الْإِقْتِدَاءُ بِهِ وَتَطْيِبُ نَفُوسُ الْعِبَادِ لِلْإِقْنَادِ لِلْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْبَاطِنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

❁ وَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَفِي قَوْلِهِ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: «وَإِنَّمَا تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ» يَعْنِي: فَإِذَا كُنْتَ بَشَرًا مِثْلَكُمْ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ مِنَ الْمُحَقِّ مِنْكُمْ وَمَنِ الْمُبْطِلِ.

(١) تفسير السعدي (ص ٣٤٢).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٢/٧-٨).

«تختصمون إليَّ»: يعنى تتحاكمون إليَّ فى الخصومة، فيكون بعضكم ألحن من البعض الآخر فى الحجة، أى: أفصح وأقوى كلامًا ... يُقال: فلان حجيج وفلان ذو جدل، يقوى على غيره فى الحجة ... كما قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٣٢]. أى: غلبنى فى الخطاب والمخاصمة، فهكذا هنا ألحن يعنى أبين وأفصح وأظهر.

وهذا مُشاهد ... فقد تجد اثنين يتحاكمان إلى القاضى، أحدهما يكون عنده لسان وعنده بيان وحجة وقوة وجدل، والثانى دون ذلك وإن كان الحكم معه ... فيحكم القاضى للأول، ولهذا قال: «وإنما أقضى بنحو ما أسمع». وفى قوله: «أقضى بنحو ما أسمع» فُسحة كبيرة للقضاة، وأنهم لا يُكَلَّفون بشيء غاب عنهم، بل يقضون حسب البيانات التى بين أيديهم، فإن أخطئوا فلهم أجر، وإن أصابوا فلهم أجران، ولا يُكَلَّفون ما وراء ذلك، بل ولا يحل لهم أن يحكموا بخلاف الظاهر؛ لأنهم لو حكموا بخلاف الظاهر لأدى ذلك إلى الفوضى، وأدى ذلك إلى الاشتباه وإلى التهمة، ولقيل: القاضى يحكم بخلاف الظاهر لسبب من الأسباب. لهذا كان الواجب على القاضى أن يحكم بالظاهر، والباطن يتولاه الله عز وجل^(١).

﴿لكن تأمل معى كيف توعد النبى ﷺ من قضى له بغير حق .. فقد قال ﷺ فى الرواية الأخرى: «وإنه يأتينى الخصم، فلعلَّ بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من النار، فليحملها أو يذرها»^(٢).

ففى هذا الحديث التحذير الشديد من أن يحكم الحاكم أو يقضى القاضى من غير الوثائق التى بين يديه مهما كانت الظروف .. حتى لو كان ذلك لأقرب الأقربين.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧١٣) (٥) كتاب الأفضية.

وقد يسأل سائل ويقول: هل يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه أم لا؟ فقول: لا يجوز: لأنه قال: «فأقضى له بنحو ما أسمع»، ولأنه لو قضى بعلمه لأدى ذلك إلى التهمة؛ لأن العلم ليس شيئاً ظاهراً يعرفه الناس حتى يحكم له به ... وقال بعض العلماء: بل يحكم بعلمه، وقال آخرون: بل يتوقف إذا وصلت البيئة إلى ما يخالف علمه.

والأصح أنه لا يحكم بعلمه إلا في مسائل خاصة ... ومثال ذلك إذا حكم بعلمه بمقتضى حجة المتخاصمين في مجلس الحكم ... فمثلاً إذا تحاكم إليه شخصان فأقر أحدهما بالحق، ثم مع المداولة والأخذ والرد أنكر ما أقر به أولاً... فهنا للقاضي أن يحكم بعلمه لأنه عِلْمُهُ في مجلس الحكم.

ومثال آخر: إذا كان الأمر مشتهراً، مثل أن يشتهر أن هذا الملك وقف عام للمسلمين أو يشتهر أنه ملك فلان ويشتهر ذلك بين الناس فهنا له أن يحكم بعلمه، لأن التهمة في هذه الحال منتفية، ولا يُتهم القاضي بشيء، ولا يمكن أن يتجرأ أحد للحكم بعلمه وهو خاطئ بناء على أنه أمر مشهور.

والقول الصحيح في هذا هو التفصيل، وإلا فإن الواجب أن يكون القضاء على حسب الظاهر لا على حسب علم القاضي. وإذا جاء الشيء على خلاف علمه تُحوَّل المسألة إلى قاضي آخر، ويكون هو شاهد من الشهود، مثل أن يدعى شخص على آخر بمائة ريال فينكر المدعى عليه والقاضي عنده علم بثبوت المائة على المدعى عليه، فلا يحكم هنا بعلمه ولا يحكم بخلاف علمه، بل يقول: أحولها على قاضي آخر، وأنا لك أيها المدعى شاهد ... فتحوَّل القضية إلى قاضي آخر، ثم يكون القاضي هذا شاهداً، فيحكم يمين المدعى وشهادة القاضي^(١).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجَمَاهِيرِ عُلَمَاءِ
الْإِسْلَامِ وَفُقَهَاءِ الْأَمْصَارِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَمَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا
يُحِلُّ الْبَاطِنَ وَلَا يُحِلُّ حَرَامًا فَإِذَا شَهِدَ شَاهِدًا زُورًا لِإِنْسَانٍ بِمَالٍ فَحَكَمَ بِهِ
الْحَاكِمُ لَمْ يَحِلَّ لِلْمَحْكُومِ لَهُ ذَلِكَ الْمَالُ ... وَلَوْ شَهِدَا عَلَيْهِ بِقَتْلِ لَمْ يَحِلَّ لِلْوَلِيِّ
قَتْلُهُ مَعَ عِلْمِهِ بِكَذِبِهِمَا وَإِنْ شَهِدَا بِالزُّورِ أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ لَمْ يَحِلَّ لِمَنْ عِلْمُ
بِكَذِبِهِمَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ حُكْمِ الْقَاضِي بِالطَّلَاقِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٥) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي
فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»^(٢).

❁ لَقَدْ أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديث في باب تحريم الظلم والأمر بردِّ
المظالم ... أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ» أَي: فِي سَعَةٍ مِنْ دِينِهِ،
«مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا» يَعْنِي: مَا لَمْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا أَوْ ذَمِيًّا أَوْ مُعَاهِدًا أَوْ مُسْتَأْمِنًا ...
فَهَذِهِ هِيَ الدِّمَاءُ الْمَحْرَمَةُ، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٌ: دَمُ الْمُسْلِمِ، وَدَمُ الذَّمِّيِّ، وَدَمُ
الْمُعَاهِدِ، وَدَمُ الْمُسْتَأْمِنِ، وَأَشَدُّهَا وَأَعْظَمُهَا دَمُ الْمُؤْمِنِ، أَمَّا الْكَافِرُ الْحَرْبِيُّ فَهَذَا
دَمُهُ غَيْرُ حَرَامٍ، فَإِذَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ دَمًا حَرَامًا فَإِنَّهُ يَضِيقُ عَلَيْهِ دِينُهُ، أَي: أَنَّ
صَدْرَهُ يَضِيقُ بِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا
وَعُذِّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

لَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) حُكْمَ الْقَتْلِ الْعَمْدِ وَجَرِيمَتِهِ النِّكَرَاءِ وَعَقُوبَتِهِ

(١) مسلم بشرح النووي (٩/١٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٨٦٢) كتاب الديات.

الشديدة فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾
 أى ومن يقدم على قتل مؤمن عالماً بإيمانه متعمداً لقتله فجزاؤه جهنم مخلداً
 فيها على الدوام ... وهذا محمول عند الجمهور على من استحل قتل المؤمن
 كما قال ابن عباس لأنه باستحلال القتل يصبح كافراً ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ أى وبناله السخط الشديد من الله والطرده من
 رحمة الله والعذاب الشديد فى الآخرة^(١).

أما إن لم يكن القاتل مُستحلاً قتل أخيه المؤمن فإن الخلود الذى يكون فى
 حقه هنا فى قوله تعالى: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ يكون المقصود به هو طول المُكث فى
 النار .. لكنه لا يُخلد مُوحداً فى النار أبداً فلا بد أن يخرج من النار بعد فترة وأن
 يدخل الجنة ما دام قد مات على الإيمان والتوحيد.

وهذه الآية تدل على أن إصابة الدم الحرام من كبائر الذنوب .. ولكن إذا
 تاب العبد من هذا القتل وتحلل من المظالم فإنه تصح توبته ..

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا
 يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾
 يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:
 ٦٨-٧٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

❁ ولكن كيف تكون توبة من قتل مؤمناً متعمداً؟

لا بد أن نعلم أولاً أن قتل المؤمن عمداً يتعلق به ثلاثة حقوق: الحق الأول:
 حق الله، الحق الثانى: حق المقتول، الحق الثالث: حق أولياء المقتول.

(١) صفوة التفسير (١/ ٢٧٢).

أما حق الله فإذا تاب العبد منه تاب الله عليه، ولا شك في هذا، وأما حق المقتول: فالمقتول حقه عنده، وهو قد قُتل الآن، ولا يمكن التحلُّل منه في الدنيا، ولكن هل توبته تقتضى أن يتحمل الله عنه حق المقتول فيؤديه عنه أم لا بُدَّ من أخذه بالاقتصاص منه يوم القيامة؟

هذا محل نظر .. فمن العلماء مَنْ قال: إن حق المقتول لا يسقط بالتوبة؛ لأن من شروط التوبة رد المظالم إلى أهلها، والمقتول لا يمكن رد مظلمته إليه؛ لأنه قُتل، فلا بد أن يقتص من قاتله يوم القيامة، ولكن ظاهر الآيات الكريمة التي ذكرناها في سورة الفرقان يقتضى أن الله يتوب عليه توبة تامة، وأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا علم من عبده صدق التوبة فإنه يتحمل عنه حق أخيه المقتول.

أما الحق الثالث: فهو حق أولياء المقتول، وهذا لا بُدَّ من التخلص منه؛ وذلك بأن يُسَلِّم نفسه إليهم، ويقول لهم: أنا قتلت صاحبكم، فافعلوا ما شئتم، وحينئذ يُخَيِّرُون بين أمور أربعة: إما أن يعفو عنه مجاناً، وإما أن يقتلوه قِصاصاً، وإما أن يأخذوا الدية منه، وإما أن يصلحوه مُصَالِحَةً على أقل من الدية أو على الدية، وهذا جائز بالاتفاق^(١).

❁ وهذا الحديث يدل على عِظَم قتل النفس وأنه من أكبر الكبائر.

فلقد قَدَّس الإسلام الحياة البشرية، وصان حُرمة النفوس، وجعل الاعتداء عليها أكبر الجرائم عند الله، بعد الكفر به تعالى.

وَقَرَّرَ الْقُرْآنُ: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ذلك أن النوع الإنساني كله أسرة واحدة... والعدوان على نفسٍ من أنفسه هو في الحقيقة عدوان على النوع، وتجروُّ عليه.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٥).

وتشتد الحرمة إذا كان المقتول مؤمناً بالله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ٩٣].

قال ﷺ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»^(١).

وقال ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا»^(٢).

وقال ﷺ: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا أو قتل مؤمناً متعمداً»^(٣).

وَعَدَّ النَّبِيُّ ﷺ قِتَالَ الْمُسْلِمِ بَابًا مِنَ الْكُفْرِ، وَعَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ كَانُوا يَشْنُونَ الْحَرْبَ وَيُرِيقُونَ الدَّمَاءَ مِنْ أَجْلِ نَاقَةٍ أَوْ فَرَسٍ ...
قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(٤).

وقال ﷺ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(٥).

ومن أجل ذلك نهى النبي ﷺ عن كل عمل يؤدي إلى القتل، أو القتال ولو كان إشارة بالسلاح فقال ﷺ: «لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»^(٦).

وقال ﷺ: «مَنْ أَسَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ، حَتَّى يَدْعَهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ»^(٧) بل قال ﷺ: «لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلماً»^(٨) أى يخيفه ويفزعاه.

(١) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٧٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٨٦٢) كتاب الديات.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥٢٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٤) كتاب الإيمان.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢١) كتاب العلم، ومسلم (٦٥) كتاب الإيمان.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.

(٧) صحيح: رواه مسلم (٢٦١٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٨) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٥٨).

ولا يقف الإثم عند حدِّ القاتل وحده، بل كل مَنْ شاركه بقولٍ أو فعلٍ، يصيبه من سخط الله بقدر مشاركته .. حتى مَنْ حضر القتل يناله نصيبه من الإثم.

حرمة دم المعاهد والذمي:

وإنما عُنيت النصوص بالتحذير من قتل المسلم وقتاله؛ لأنها جاءت تشريعاً وإرشاداً للمسلمين في مجتمع إسلامي، وليس معنى هذا أن غير المسلم دمه حلال، فإن النفس البشرية معصومة الدم حرّمها الله وصانها بحكم بشريتها، ما لم يكن غير المسلم محارباً للمسلمين .. فعند ذلك قد أحلَّ هو دمه. أما إذا كان معاهداً أو ذمياً فإن دمه مصون لا يحل لمسلم الاعتداء عليه .. وفي ذلك يقول نبي الإسلام ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ -أى لم يشمها-، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١).

متى تسقط حرمة الدم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وهذا الحق الذي ذكره القرآن أن يكون جزاءً على جريمة من ثلاث:

(١) القتل ظلماً ... فمن ثبتت عليه جريمة القتل وجب عليه القصاص نفساً بنفس، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(٢) المجاهرة بارتكاب فاحشة الزنا بحيث يراه أربعة من خيار الناس رؤية عيانية وهو يرتكبها، ويشهدون عليه بذلك، بشرط أن يكون قد عَرَفَ طريق الحلال بالزواج ... ويقوم مقام الشهادة أن يُقر على نفسه أمام الحاكم أربع مرات.

(٣) الخروج على دين الإسلام بعد الدخول فيه، والمجاهرة بهذا الخروج تحدياً للجماعة الإسلامية ... والإسلام لا يُكره أحداً على الدخول فيه، ولكنه

(١) صحيح: رواه البخارى (٣١٦٦) كتاب الجزية.

يرفض التلاعب بالدين، شأن اليهود الذين قالوا: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ۚ آخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وقد حصر النبي ﷺ استحابة الدم المحرم في هذه الثلاثة فقال: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثِّبُّ بِالرَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١).

ولكن حق استحابة الدم بإحدى هذه الثلاث إنما يستوفيه ولي الأمر وليس للأفراد أن يستوفوه بأنفسهم حتى لا يضطرب الأمن، وتسود الفوضى ويجعل كل فرد من نفسه قاضياً ومُنفذاً، إلا في حالة القتل العمد العدوان الذي يُوجب القصاص فإن الإسلام أباح لأولياء المقتول أن يستوفوا القصاص بأيديهم في حضرة ولي الأمر: شفاءً لصدورهم، وإطفاءً لكل رغبة في الثأر عندهم، وامتنالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٦) وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ عامِرِ الأنصاريّة، وهى امرأة حمزة رضي الله عنه، قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

❁ قوله ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هذا أيضاً مما يدل على تحريم الظلم في الأموال الذى هو خلاف العدل. وفى قوله: «يتخوضون»: دليل على أنهم يتصرفون تصرفاً طائشاً غير مبنى على أصول شرعية، فيفسدون الأموال ببذلها فيما يضر ... مثل مَنْ يبذل أمواله

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧٨) كتاب الديات، ومسلم (١٦٧٦) كتاب القسامة.

(٢) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (٢٨١-٢٨٤) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣١١٨) كتاب فرض الخمس.

في الدخان، أو في المخدرات، أو في شرب الخمر أو ما أشبه ذلك، وكذلك أيضًا يتخوضون فيها بالسرقا والغصب وما أشبه ذلك، وكذلك يتخوضون فيها بالدعاوى الباطلة، كأن يدعى ما ليس له وهو كاذب وما أشبه هذا.

فالمهم أن كل من يتصرف تصرفًا غير شرعي في المال - سواء ماله أو مال غيره - فإن له النار والعياذ بالله يوم القيامة إلا أن يتوب، فيرد المظالم إلى أهلها، ويتوب مما يبذل ماله فيه من الحرام؛ كالدخان والخمر وما أشبه ذلك، فإن من تاب تاب الله عليه ... لقول الله تعالى: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ٥٤ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٥ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَذِّبَتِ فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿[الزمر: ٥٣-٥٩].

وفي هذا الحديث: تحذير من بذل المال في غير ما ينفع والتخوض فيه؛ لأن المال جعله الله قيامًا للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، فإذا بذله في غير مصلحة كان من المتخوضين في مال الله بغير حق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٦-٥٧٧) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢٧) باب تعظيم حُرُمات المسلمين

وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

❁ لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْمُسْلِمَ لَهُ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ حَقُّوْكَ كَثِيْرَةٌ وَضَّحَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَوَاضِعَ كَثِيْرَةٍ مِنَ السُّنَّةِ.

فَالْمُسْلِمُ لَهُ حَقٌّ عَلَى أَخِيهِ فِي الْإِعَانَةِ بِالْمَالِ وَالْإِعَانَةِ بِالنَّفْسِ فِي قَضَاءِ الْحَاجَاتِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ فِي غِيْبَتِهِ وَالْعَفْوِ عَنِ الزَّلَاتِ وَالْهَفْوَاتِ وَزِيَارَتِهِ فِي اللَّهِ وَالِدَعَاءِ لَهُ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ وَحِفْظِ سِرِّهِ وَأَنْ يُحِبَّ لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَأَنْ يُشَارِكَهُ فِي أَحْزَانِهِ وَأَفْرَاحِهِ وَأَنْ يَهْدِيَ لَهُ وَيَقْبَلَ مِنْهُ هَدِيَّتَهُ وَأَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُرَاعِيَ مَشَاعِرَهُ وَأَنْ يُؤَثِّرَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَنْ يَخْلُفَهُ بِخَيْرٍ فِي أَهْلِهِ وَأَنْ يَعُوْدَهُ - أَيْ يَزُوْرَهُ - إِذَا مَرَضَ وَأَنْ يَتَّبِعَ جَنَازَتَهُ إِذَا تُوفِيَ وَأَلَّا يَنْسَاهُ مِنْ دَعَائِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ .. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ.

وَنَحْنُ فِي هَذَا الْبَابِ نَتَحَدَّثُ عَنْ تَعْظِيْمِ حُرُمَاتِ الْمُسْلِمِيْنَ وَبَيَانِ بَعْضِ حَقُوقِهِمْ وَالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتِهِمْ.

❁ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠]. مَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِهِ: أَيْ مَا جَعَلَهُ مُحْتَرَمًا مِنَ الْأَمَاكِنِ أَوِ الْأَزْمَانِ أَوِ الْأَشْخَاصِ... فَالَّذِي يُعْظِمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَوْ يَشُقُّ عَلَيْهِ تَعْظِيْمَ هَذَا الْمَكَانِ كَالْحَرَمَيْنِ مَثَلًا وَالْمَسَاجِدَ، أَوِ الزَّمَانَ كَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ وَرَجَبٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلْيَحْمِلْ عَلَى نَفْسِهِ وَلْيَكْرَهَا عَلَى التَّعْظِيْمِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: تَعْظِيْمُ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِيْنَ، وَتَنْزِيْلُهُمْ مَنْزِلَتَهُمْ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ... قَالَ النَّبِيُّ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ): «بِحَسَبِ أَمْرِي مِنَ الشَّرِّ

أن يحقر أخاه المسلم»^(١). والمعنى: يكفيه من الشر أن يحقر أخاه المسلم بقلبه، أو أن يعتدى فوق ذلك بلسانه أو بيده على أخيه المسلم، فإن ذلك حسبه من الإثم والعياذ بالله... وكذلك أيضًا تعظيم ما حرمه الله ﷻ في المعاهدات التي تكون بين المسلمين وبين الكفار، فإنه لا يحل لأحد أن ينقض عهدًا بينه وبين غيره من الكفار.

❦ ولكن المعاهدين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم: أتموا عهدهم فهؤلاء تُتمم عهدهم.

وقسم آخر: خانوا أو نقضوا... قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

فهؤلاء يُنتقض عهدهم كما فعلت قريش في الصلح الذي جرى بينها وبين النبي ﷺ في الحديبية، فإنهم وضعوا الحرب بينهم عشر سنين، ولكن قريشًا نقضوا العهد... فهؤلاء ينتقض عهدهم، ولا يكون بيننا وبينهم عهد، وهؤلاء قال الله فيهم: ﴿أَلَا تَقْلُبُلُوْنَ قَوْمًا نَّكَثُوْا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوْا بِإِخْرَاجِ الرَّسُوْلِ وَهُمْ بَكَدُوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣].

والقسم الثالث: من لم ينقض العهد لكن نخاف منه أن ينقض العهد، فهؤلاء نُخبرهم بألا عهد بيننا وبينهم... كما قال تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

فهذه من حرمان الله ﷻ، وكل شيء جعله الله محترمًا من زمانٍ أو مكانٍ أو عيانٍ فهو من حرمان الله ﷻ، فإن الواجب على المسلم أن يحترمه.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

[الحج: ٣٠]^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٧٨).

❖ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

والشعائر: هى العبادات الظاهرة .. سواء كانت تلك العبادات صغيرة أو كبيرة .. مثل الأذان والصلاة وأعمال الحج كالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة وغيرها من شعائر الإسلام ..

فمن عظم تلك الشعائر كان ذلك دليلاً على أنه من المتقين ؛ لأن التقوى هى التى تحمل العبد على تعظيم الشعائر.

قال القرطبي: أضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى فى القلب وفى الحديث: «التقوى ههنا» وأشار إلى صدره^(١).

❖ وقال تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

والمعنى أن يتذلل المؤمن لإخوانه ويتواضع لهم ويلين لهم فى المقال والأفعال؛ لأن المؤمن لا بُدَّ أن يكون رحيماً بإخوانه المؤمنين .. كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفى قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، دليل على أن المؤمن مأمورٌ بالتواضع مع إخوانه المؤمنين حتى وإن كان أغنى منهم أو أرفع منهم منزلة ومقاماً ... وأنه إن تواضع لله فإن الله يرفع قدره ومكانته عنده (سبحانه وتعالى) وعند عباده المؤمنين.

إن نعمة التواضع من أجل وأعظم النعم التى يمتن الله بها على عباده ... ولقد كان نصيب النبى ﷺ من هذا الخلق هو النصيب الأعظم ... فلقد كان الحبيب ﷺ سيد المتواضعين حتى إنه لما أراد أن يخبر الأمة عن قدره ومكانته عند الله عز وجل قال بعدها: «ولا فخر» وهذا من فرط تواضعه ﷺ حتى لا يظن أحداً أن النبى ﷺ يقول ذلك تفاخراً ... قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر



وبيدى لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ: آدم فمن سواه إلا تحت لوائى وأنا أول شافع وأول مُشفّع ولا فخر»^(١).

فالتواضع: صفة من صفات عباد الرحمن ... قال الله تبارك وتعالى:
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].
❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رَحِمَهُ اللهُ:

«ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أى: ساكنين متواضعين لله وللخلق... فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة، والتواضع لله ولعباده»^(٢).

ووصف الله عباده الذين هداهم للإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهم للمؤمنين أذلة، من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم، ورفقهم، ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذى يُطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم، على معاداتهم، وبذلوا جهدهم فى كل سببٍ يحصل به الانتصار عليهم^(٣).

قال ابن الحاج يرحمه الله: «مَنْ أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى؛ فإن العزة لا تقع إلا بقدر النزول، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أصل الشجرة، صعد إلى أعلاها، فكأن سائلاً سأل: ما صعد بك هنا - أعنى فى رأس الشجرة، وأنت تحت أصلها-؟!، فكأن لسان حاله يقول: مَنْ تواضع لله رفعه»^(٤).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (١٤٦٨).

(٢) «تفسير ابن سعدى» (ص ٥٨٦).

(٣) «تفسير ابن سعدى» (ص ٢٤٨).

(٤) «المدخل» لابن الحاج (١٢٢/٢).

﴿وقال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى من أجل حادثة «قائيل وهابيل» وبسبب قتله لأخيه ظلماً فرضنا وحكمنا على بنى إسرائيل أن مَنْ قتل منهم نفساً ظلماً بغير أن يقتل نفساً فيستحق القصاص وبغير فسادٍ يوجب إهدار الدم كالردة وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى فكأنه قتل جميع الناس ...

قال البيضاوى: من حيث أنه هتك حُرمة الدماء وسَنَّ القتل وجَرَأَ الناس عليه... والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرُّض لها وترغيباً في المحاماة عليها^(١) ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أى ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقاذها من الهلكة فكأنه أحيا جميع الناس... قال ابن عباس في تفسير الآية: من قتل نفساً واحدة حرَّمها الله فهو مثل مَنْ قتل الناس جميعاً وَمَنْ امتنع عن قتل نفسٍ حرَّمها الله وصان حُرمتها خوفاً من الله فهو كمن أحيا الناس جميعاً^(٢).

وذلك لأن حُرمة المسلمين واحدة.. فمن انتهك حُرمة مسلمٍ واحدٍ فكأنما انتهك حُرمة المسلمين أجمعين..

كما أن مَنْ كَذَّبَ رسولاً واحداً فكأنما كذب جميع الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، مع أن قوم عادٍ لم يُكذبوا إلا نبي الله هود عليه السلام... ولكنهم لما كذبوا نبياً واحداً فكأنهم كذبوا جميع الأنبياء والمرسلين.

(١) البيضاوى (١٥١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٥٠٩/١).

﴿أما قوله ﷺ: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فقوله ﷺ: ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يُستفاد منه أن مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِنَفْسٍ فهو معذور.. وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَكَبَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].. فإن قتل شخصًا بحق أي بنفس أخرى فلا إثم عليه ولا لوم.. بل ويرث القاتل من المقتول إذا كان قتله بحق.. ولا يرث القاتل من المقتول إذا كان قتله بغير حق.

ولنضرب لهذا مثالًا بثلاثة إخوة.. قتل الكبير منهم الصغير عمدًا فالذى يرث الصغير أخوه الأوسط، وأخوه الكبير لا يرثه لأنه قتله بغير حق. ثم طالب الأوسط بدم أخيه الصغير، فقتل أخاه الكبير قصاصًا، فهل يرث الأوسط من أخيه الكبير وهو قاتله؟ نعم يرث لأنه قتله بحق.. والكبير الذي قتل الصغير لا يرث؛ لأنه قتله بغير حق.

فالقتل بحق لا لوم فيه وليس له أثر؛ لأنه قصاص.. والله تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقوله ﷺ: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ والفساد في الأرض ليس معناه أن يُسلط الإنسان الحفَّار فيهدم بيتًا ولو كان ذلك بغير حق. فهذا وإن كان فسادًا، لكن لا يحل به دم مسلم.... الفساد في الأرض إنما يكون بنشر الأفكار السيئة، أو العقائد الخبيثة، أو قطع الطريق، أو ترويع المخدرات أو ما أشبه ذلك، هذا هو الفساد في الأرض.. فمن أفسد في الأرض على هذا الوجه فدمه هدر حلال، يُقتل لأنه ساع في الأرض بالفساد.

بل إن الله قال في نفس السورة: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

على حسب جريمتهم .. إن كانت كبيرة فبالقتل، وإن كانت دونها فبالصلب، وإن كانت دونها فتُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

تُقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، وإن كان دون ذلك فيُنْفَوْا من الأرض، إما بالحبس مدى الحياة كما قال بذلك بعض أهل العلم، وإما بالطرد عن المدن كما قاله آخرون ... لكن إذا كان لا يندفع شرهم بطردهم من المدن حُبِسُوا إلى الموت.

فالحاصل أن الله بَيَّنَّ في هذه الآية أن قتل نفسٍ واحدة بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض كقتل جميع الناس ... وإحياء نفسٍ واحدة كإحياء جميع الناس ... وهذا يدل على عِظَمِ القتل، ولو أن إنساناً أحصى كم قُتِلَ من بنى آدم بغير حق لم يقدر.. ومع ذلك فكل نفس تُقْتَلُ فعلى ابن آدم الأول الذى قتل أخاه كَفُلَّ منها، وعليه من إثمهِ نصيب.

وهكذا أيضاً مَنْ سَنَّ القتل بعد أمن الناس وصار يغتال الناس وما أشبه ذلك ... وتجراً الناس على هذا من أجل فعله، فإن عليه من الإثم نصيباً؛ لأنه هو الذى كان سبباً فى هذا ... وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم الدين^(١).

❁ فمن ذرية آدم مَنْ يقتدى بابن آدم الطيبِ الخَيْرِ، فيكون مُتَّبِعاً للحق، متّصلاً بالله، بعيداً عن الظلم والعدوان .. وهؤلاء موجودون على وجه الأرض، فى كل زمانٍ ومكان.

ومن ذرية آدم مَنْ يقتدى بابن آدم القاتل، فيبغى ويعتدى، ويظلم ويؤذى، ويتبع الشيطان ... وهؤلاء كثيرون موجودون على وجه الأرض، فى كل زمانٍ ومكان.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨١-٥٨٢).

وقد دعانا رسول الله ﷺ إلى أن نقتدى بابن آدم الطيب .
عن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه ، أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان رضي الله عنه : أشهد
أن رسول الله ﷺ قال : «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير
من الماشي ، والماشي خير من الساعي» .

قال : أفرأيت إن دخل على بيتي وبسط يده إلي ليقتلني ؟
قال : «كن كابن آدم»^(١) .

وبين لنا رسول الله ﷺ ، أن ابن آدم القاتل يتحمل جزءاً من دم كل إنسان
يقتل ظلمًا ، حتى قيام الساعة .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «لا تقتل نفس ظلمًا إلا
كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل»^{(٢)(٣)} .

(٢٢٧) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن للمؤمن
كالبنيان يشد بعضه بعضًا»^(٤) وشبك بين أصابعه .

✽ إن الاجتماع والألفة بين المؤمنين قوة ، وإن التفرق والتشتت ضعف ،
فإن الإنسان قليل بنفسه كثير بإخوانه .

وما المرء إلا بإخوانه كما تقبض الكف بالمعصم

ولا خير في اليد مقطوعة ولا خير في الساعد الأجذم

يقول عمر رضي الله عنه : «ما أعطى عبدٌ بعد الإسلام خير من أخٍ صالح يذكره بالله ،
فإذا رأى أحدكم من أخيه ودًا فليتمسك به» .

(١) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٢٣) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٨٦٧) كتاب الديات ، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة .

(٣) القصص القرآني / د . صالح الخالدي (١/١٤٧-١٤٨) .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٢٤٤٦) كتاب المظالم والغصب ، ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة .

ويقول الحسن - عليه رحمة الله - : «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة، ويعينونا على الشدائد في العاجلة».

إن يختلف نسبٌ يؤلف بيننا دينٌ أقمناه مقام الوالد
أو يختلف ماءُ الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمام واحد
يقول عمر رضي الله عنه : «والله لولا أن أجلس مع إخوة لى يتتقون أطايب القول، كما يُتقى أطايب الثمر لأحببت أن ألحق بالله الآن».

❖ وها هي جماعة من النمل، تُصادف بغيراً فيقول بعضها: تفرقن عنه لا يحطمكن بخفه، فقالت حكيمة منهن: اجتمعن عليه تقتلنه.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا انفردن تكسرت أحاداً
بنيانٌ واحد... جسدٌ واحد... أمة واحدة.

لو كبرت في جموع الصين مثذنة سمعت في الغرب تهليل المصلين

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾
[آل عمران: ١٠٣] ^(١).

قال علي رضي الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عُدّة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿[الشعراء: ١٠٠-١٠١].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : والله لو صُمت النهار لا أفطره، وقمت الليل لا أنامه، وأنفقت مالى غَلَقًا غَلَقًا في سبيل الله ثم أموت يوم أموت وليس في قلبى حُبٌّ لأهل طاعة الله وبُغْضٌ لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئاً...

(١) هكذا علمتني الحياة/ د. على القرني (ص ٦٧، ٦٨).

وقال ابن السماك عند موته: اللهم إنك تعلم أنى إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قرينة لى إليك.
وقال عمر رضي الله عنه: إذا أصاب أحدكم ودًا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك.

وقال مجاهد: المتحابون فى الله إذا التقوا فكشروا - أى: ضحكوا - بعضهم إلى بعض تتحات - أى: تتساقط - عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس... وقال الفضيل: نظر الرجل إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة^(١).

❁ وقفة لطيفة :

❁ لقد عبّر القرآن أصدق التعبير عن الأخ فى الله ونعته بالنفس وليس بعد القرآن وعُلو بيانه وعُلو رياضه عُلو.
❁ قال الله تعالى فى توبة بنى إسرائيل: ﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] أى: إخوانكم.

❁ وقال تعالى: ﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] أى: إخوانكم.
❁ وقال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أى: بإخوانهم خيرًا.

❁ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أى: إخوانكم.
فجعل الأخ بمنزلة النفس.

❁ ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥].
أى: يقتل بعضكم بعضكم.

❁ وقال تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]

قال ابن عرفة: «أى بأهل الإيمان وأهل شريعتهم»^(١).

❁ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

[النور: ٦١]

قال سعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والزهرى: يعنى: «فيسلم بعضكم على بعض»^(٢).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال الله تعالى: «إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي - من ولد ووالد -، فيقتله بالسيف»^(٣).

وقال ابن كثير: وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه السلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر»^(٤).

وقال السعدى الشيرازى:

قال لى المحبوب لما زُرته من يبابى؟ قلتُ بالباب أنا
قال لى: أخطأت تعريف الهوى حينما فَرَّقْتَ فيه بيننا

(١) «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» للفيروزأبادى (٩٨ / ٥) طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢٧٧ / ١٠).

(٣) تفسير ابن كثير (١٣٠ / ١).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

ومضى عامٌ فلما جئته أطرقُ الباب عليه مُوهناً
قال لي؟ مَنْ أَنْتَ؟ قلت انظر فما ثَمَّ إلا أَنْتَ بالباب هنا
قال لي: أَحسنت تعريف الهوى وعرفت الحب فادخل يا أَنَا^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٢٨) وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا، أَوْ أَسْوَاقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ»^(٢).

❁ لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَوَّلًا أَنَّ مِنْ فَنُونِ اللُّهُو الْمَشْرُوعَةِ اللَّعِبُ بِالسَّهَامِ وَالْحِرَابِ.

وكان النبي ﷺ يمر على أصحابه في حلقات الرمي [التصويب] فيشجعهم ويقول: «ارموا وأنا معكم».

ويرى عليه الصلاة والسلام أن هذا الرمي ليس هواية أو لهوًا فحسب، بل هو نوع من القوة التي أمر الله بإعدادها ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال عليه الصلاة والسلام في ذلك: «إلا إن القوة الرمي، إلا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(٣).

غير أنه ﷺ حذّر اللاعبين من أن يتخذوا من الدواجن ونحوها غرضًا لتصويبهم وتدريبهم... وكان ذلك مما اعتاده بعض العرب في الجاهلية.

وقد رأى عبد الله بن عمر جماعة يفعلون ذلك. فقال: «إن النبي ﷺ لعن مَنْ

(١) من أشعار الشاعر «السعدي الشيرازي».

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٧٥) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٥) كتاب البر والصلة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧) كتاب الإمارة.

اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»^(١).

وإنما لعن مَنْ فعل ذلك، لما فيه من تعذيبٍ للحيوان وإتلافٍ نفسه فضلاً عن إضاعة المال ... ولا ينبغي أن يكون لهو الإنسان ولعبه على حساب غيره من الكائنات الحية.

ومن أجل ذلك نهى النبي ﷺ عن التحريش بين البهائم^(٢) وذلك بتسليط بعضها على بعض ... وكان من العرب مَنْ يأتون بكبشين أو ثورين يتناطحان حتى يهلكا أو يُقاربيا الهلاك، وهم يتفرجون ويضحكون.

قال العلماء: وجه النهي عن التحريش أنه إيلاٌ للحيوانات، وإتعاًبٌ لها، دون فائدة إلا لمجرد العبث^(٣).

❁ وكذلك نهى النبي ﷺ مَنْ مَرَّ في المسجد أو السوق ومعه نبلٌ (أى: سهم) أن يتركه دون أن يُمسك على نصاله؛ لأن ذلك قد يؤذى المسلمين .. فإذا أمسك الإنسان بنصاله وقى الناس شرّه.

ومثل ذلك أيضاً: العصي ... إذا كان معك عصاً فأمسكها طولاً، يعنى اجعل رأسها إلى السماء ولا تجعلها عرضاً؛ لأنك إذا جعلتها عرضاً آذيت الناس الذين وراءك، وربما تؤذى الذين أمامك.

ومثله: الشمسية أيضاً؛ إذا كان معك شمسية وأنت في السوق فارفعها، لئلا تؤذى الناس.

فكل شيء يؤذى المسلمين أو يُخشى من أذيته فإنه يتجنبه الإنسان؛ لأن أذية المسلمين ليست بالهينة... قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥١٥) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٥٨) كتاب الصيد والذبائح.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٠٣٦).

(٣) الحلال والحرام (ص ٢٥٦-٢٥٧) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

فتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق وتستحيل إلى دماء.

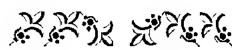
هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث، وقالوا: لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون.

❁ وقديماً قال شاعرٌ كبير:

«إن الحب يُحول المرَّ حُلُوًّا والترابَ تِبْرًا، والكدرَ صفاءً، والألمَ شفَاءً،
والسجنَ روضةً، والسقمَ نعمةً، والقهرَ رحمةً، وهو الذى يُلين الحديد، ويُذيب
الحجر».

«إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء
ويصل من الأرض إلى السماء ومن الثرى إلى الثريا»^(١).

فما أجمل أن يكون المؤمنون بالود الذى بينهم والرحمة التى تجمعهم
والتعاطف الذى يزينهم كأنهم جسدٌ واحد ... إذا مرض أحدهم يشعر أخوه
بالوجع وكأنه فى جسده .. فهل هناك أحدٌ يستطيع أن يُعبر عن هذا الوصف
الرقيق مهما أُوتى من الفصاحة وقوة البلاغة . فأخوك لا بُدَّ أن يشعر أنه نفسك
التي بين جنبيك؛ لأن ذلك يجمع قلوب المسلمين على الحب فى الله ويجمع
صفوف الأمة متماسكة وينشر رحيق الحب بين أفرادها.



(٢٣٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعِنْدَهُ
الْأَقْرَعُ ابْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الْأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا .. فَنَظَرَ
إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يَرْحَمْ»^(٢).

(١) الإيمان والحياة (ص ١٦٧ - ١٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل.

(٢٣١) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صَبْيَانَكُمْ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالُوا: لَكُنَّا وَاللَّهِ مَا نُقْبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ» ^(١).

❁ ففي الحديث الأول يذكر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان جالساً مع الأقرع بن حابس في بيت النبي ﷺ .. وفجأة دخل الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ففرح النبي ﷺ لرؤيته كثيراً فأخذه وقبّله ... فتعجب الأقرع بن حابس وكان من زعماء بني تميم وهم من أهل البادية .. والغالب على أهل البادية أنهم يكون فيهم جفاء.

فلما رأى النبي ﷺ يُقْبَلُ الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تعجّب وقال للنبي ﷺ إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً .. فتعجب النبي ﷺ من قسوة قلب هذا الرجل فنظر إليه وقال له: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ».

أى: مَنْ لَا يَرْحَمُ عِبَادَهُ بَلْ وَجَمِيعَ الْكَائِنَاتِ لَا يَرْحَمُهُ رَبُّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ (جَلَّ وَعَلَا).

وفي الرواية الثانية تحكى أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صَبْيَانَكُمْ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالُوا: لَكُنَّا وَاللَّهِ مَا نُقْبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ».

❁ ولا بد أن نعلم هنا أن الرحمة صفة من صفات الله تبارك وتعالى، ومن عظيم رحمته سبحانه وتعالى أنه أرسل محمداً ﷺ رحمةً للبشرية كلها؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ... وهو ما أخبر به تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولقد شملت رحمته ﷺ الكبار والصغار، والرجال والنساء، والقريب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٨) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٧) كتاب الفضائل.

والبعيد، بل الصديق والعدو، كما أنها كذلك ليست محدودة بمكانٍ أو زمانٍ، وإنما هي لكل العالمين منذ بعثته ﷺ إلى يوم الدين ... لذلك نجده ﷺ يُعَلِّمُ أُمَّتَهُ خُلُقَ الرَّحْمَةِ قَائِلًا: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ»^(١).

فالرحمة التي ظهرت في كل أقوال وأعمال رسول الله ﷺ لم تكن رحمة مُتَكَلِّفَةً، تَحْدُثُ في بعض المواقف من قبيل التَّجَمُّلِ أو الاصطناع، إنما كانت رحمة طَبِيعِيَّةٌ تَلَقَائِيَّةٌ مُشَاهِدَةٌ في كل الأحوال، برغم اختلاف الظروف وتعدد المناسبات ... حتى إن هذه الرحمة غلبت على كل أخلاقه فصارت أبرزها، وليس هذا عَجِيبًا؛ فَإِنَّ الْمَتَدَبِّرَ في القرآن الكريم يجد أن أبرز الصفات الأخلاقية التي وردت فيه كان خُلُقُ الرَّحْمَةِ.

فلننظر إلى رحمته بكبار السن والأطفال ... فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَيْسَ مِنْ مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوقِرْ كَبِيرَنَا»^(٢). فما أعظم هذا المجتمع الذي رَبَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَتَرَأَّحَ الْجَمِيعُ فِيمَا بَيْنَهُمْ امْتِثَالًا لِأَقْوَالِهِ ﷺ!

- ولقد رأينا كيف كانت رحمته ﷺ بالحسن بن علي ﷺ والحسن ابن علي بن أبي طالب هو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ... فجده من أمه رسول الله ﷺ، وأبوه علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ ... وكان النبي ﷺ يحب الحسن والحسين لأنهما سَبَطَاهُ، وكان يُفَضِّلُ الْحَسْنَ عَلَى الْحُسَيْنِ.

فالحسن قال فيه النبي ﷺ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(٣) فكان الأمر كما قال النبي ﷺ، لما حصلت الفتنة في زمن معاوية، وآلت الخلافة إلى الحسن بعد أبيه علي بن أبي طالب ﷺ تنازل عنها ﷺ لمعاوية بن أبي سفيان حقنًا لدماء المسلمين؛ لأنه يعلم أن في الناس أشرار،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٤٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٧٠٤) كتاب الصلح.

وأنهم ربما يأتون إليه ويغرونه كما فعلوا بأخيه الحسين بن علي عليه السلام ... غره أهل العراق وحصل ما حصل من المقتلة العظيمة في كربلاء وقتل الحسين عليه السلام.
أما الحسن عليه السلام فإنه تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، لحقن دماء المسلمين فصار ذلك مصداقاً لقول النبي ﷺ: «ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين».

❁ فالشاهد أن النبي ﷺ كان رحيماً بكل الأطفال وليس بالحسن فقط وكان النبي ﷺ يوماً من الأيام ساجداً، فجاءه الحسن أو الحسين فركب عليه... أى جعله راحلة، فأطال النبي ﷺ السجود.. فلما سلم قال: «إن ابني ارتحلني وإنى كرهت أن أقوم حتى يقضى نهمة»^(١).

وكان ﷺ يخطب الناس يوماً على المنبر، فأقبل الحسن والحسين وعليهما ثوبان جديدان يعثران بهما، فنزل النبي ﷺ وحملهما بين يديه، وقال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]». نظرت إلى هذين الصبيين يعثران فلم أصبر^(٢)» يعنى فما طابت نفسه حتى نزل وحملهما^(٣).

❁ وروى البخارى عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيُقعدنى على فخذه ويُقعد الحسن بن على على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإنى أرحمهما»^(٤).

❁ وفي الصحيحين عن أبى قتادة رضي الله عنه قال: (خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبى العاص على عاتقه فصلى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها)^(٥).

(١) صحيح: رواه أحمد (١٦٠٧٦)، وصححه الألبانى فى صفة الصلاة (ص ١٤٨)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٠١٦).

(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨٤-٥٨٥) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠٣) كتاب الأدب.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٦) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٤٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

✽ وروى البخارى عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ وضع صبيًا في حجره يُحنكه، فبال عليه، فدعا بماءٍ فأتبعه^(١).

✽ وروى البخارى عن أنس رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، وكان لى أخ يُقال له أبو عمير قال: أحسبه كان فطيماً^(٢) قال: فكان إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»^(٣) نُغر كان يلعب به... فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا، فيأمر بالبساط الذى تحته فيُكنس ويُنضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلى بنا^(٤).

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ^(٥).

✽ وروى البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف القين^(٦) وكان ظئراً^(٧) لإبراهيم عليه السلام. فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك - وإبراهيم يجود بنفسه - فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٨).

✽ وروى البخارى عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه:

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠٢) كتاب الأدب.

(٢) فطيم: بمعنى مفلوم، أى انتهى إرضاعه.

(٣) النغير: طائر يشبه العصفور.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٢٠٣) كتاب الأدب.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٣١٦) كتاب الفضائل.

(٦) القين: الحداد. ويُطلق على كل صانع.

(٧) ظئراً لإبراهيم: الظئر: زوج المرضعة، وإبراهيم هو ابن النبي ﷺ.

(٨) صحيح: رواه البخارى (١٣٠٣) كتاب الجنائز.

إِنْ ابْنًا لِي قُبِضَ، فَأَتْنَا. فَأَرْسَلَ يُقْرَأُ السَّلَامُ وَيَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى. فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ». فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ تُقَسِّمُ عَلَيْهِ لِأَتَيْنَهَا. فَمَقَامٌ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأَبَى بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ^(١) قَالَ حَسْبَتْهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهُا شَنْ^(٢) فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةُ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحْمَاءُ»^(٣).

❁ فَفِي تِلْكَ الْأَحَادِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ رَحِيمًا مَعَ كُلِّ النَّاسِ وَبِخَاصَّةِ الْأَطْفَالِ وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ أَبْنَاءُهُ وَبَنَاتُهُ وَأَبْنَاءُ بَنَاتِهِ وَأَبْنَاءُ أَبْنَائِهِ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ لِيَفُوزَ بِرَحْمَةِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ (جَلَّ وَعَلَا) «وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادَهُ الرَّحْمَاءُ».

وَتَدْبِرُ أَخَى الْقَارِئِ إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ اعْتَبَرَ عَدَمَ تَقْبِيلِ الْأَوْلَادِ مِنْ عَدَمِ الرَّحْمَةِ، الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الْعُقُوبَةَ... وَالتَّقْبِيلُ شَيْءٌ يَسِيرٌ جَدًّا، مَقَارَنَةٌ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، فَمَاذَا سَتَكُونُ عُقُوبَةٌ مَنْ وَقَعَ فِي أُمُورٍ أُخْرَى كَالْإِهْمَالِ فِي التَّرْبِيَةِ وَعَدَمِ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَتَرْكِ الْأَوْلَادِ لِقِرْنَاءِ السُّوءِ فِي الشُّوَارِعِ، وَإِدْخَالِ الْقُنُوتِ الْفَضَائِيَّةِ فِي الْبُيُوتِ بِدُونِ رِقَابَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَثِيرٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٢) وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ»^(٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً

(١) تتعقق: صوت الشيء اليابس إذا حرك.

(٢) شن: القرية القديمة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٧٦) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٣١٩) كتاب الفضائل.

وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعَطَّفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١).

فالله ﷻ أنزل الرحمة في قلب عباده .. وإذا أنزل الله الرحمة في قلب عبده فلا بُدَّ أن يرحم غيره .. وإذا رحم غيره رحمه الله ﷻ .. وإذا لم يرحم فلن يرحمه الله ﷻ.

قال ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ».

✽ ونحن نعلم أن أسوتنا وقدوتنا هو النبي محمد ﷺ .. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد كان النبي ﷺ أرحم الناس أجمعين .. وشهد له بذلك الكافر قبل المسلم ... فإنه لما أراد الله تعالى أن يمتنَّ على العالم برجل يمسح آلامه ويخفف أحزانه، ويجدد آماله، ويرثي لخطاياهم، ويستमित في هدايته، أرسل محمداً ﷺ وسكب في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من السهولة والرقّة، وفي يده من السخاوة والندى، ما جعله أزكى عباد الله، وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدرًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وها هي صور يسيرة من رحمته ﷺ .. وإن كان الحديث عن رحمة النبي ﷺ لا ينتهي أبدًا ... بل لا أكون مبالغًا لو قلت: إن الأعمار قد تفتنى ونحن لا نستطيع أن نصف مدى رحمة النبي ﷺ بمن حوله فلقد سُكبت الرأفة والرحمة في قلبه منذ نعومة أظفاره ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٧٥٢) كتاب التوبة.

❁ فها هي صورة مشرقة من رحمته ﷺ بأمته:

لقد كان النبي ﷺ يتمنى إيصال الخير لأُمته لفرط محبته لتلك الأمة المباركة.

- فها هو ﷺ يفرح بتلك الآية التي تفتح باب الأمل للمذنبين.

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿قُلْ يَعْبادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]»^(١).

❁ وها هو ﷺ يخشى المشقة على أمته فيقول ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لفرضت عليهم السواك مع الوضوء ولأخرت العشاء الآخرة إلى نصف الليل»^(٢).

❁ بل وفى رحلة الإسراء والمعراج عندما فرض الله على الأمة خمسين صلاة ظل النبي ﷺ يسأل ربه جل وعلا التخفيف حتى أصبحت خمس صلوات بأجر خمسين صلاة... رحمة بتلك الأمة.

❁ بل ها هو ﷺ يختبئ دعوته شفاعاً لأُمته.

- ففى الحديث الذى رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «لكل نبى دعوة مُستجابة، فتعجل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعاً لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً»^(٣).

- وفى الحديث الذى رواه مسلم أن النبي ﷺ تلا قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ

(١) ضعيف: رواه أحمد، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٩٨٠).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣١٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٩) كتاب الإيمان.

فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي»، وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله: ما يُبكيك. فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال - وهو أعلم - فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: «إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك»^(١).

✽ وأما عن رحمته ﷺ بالأطفال فلقد تكلمنا عنها باستفاضة في شرح الحديث السابق .. فلقد كان ﷺ أرحم الناس بالأطفال وكان يُداعبهم ويُلَاعِبُهُمْ ويحنو عليهم ويُقبلهم ويحب مَنْ يرحمهم.

✽ وأما عن رحمته ﷺ بالمذنبين فلقد كان النبي ﷺ في قمة الرحمة بالمذنبين والمخطئين.

فكان يرفع عنهم الحرج ويفتح لهم باب الأمل ولا يُقنط أحداً من رحمة الله.

ومن أمثلة ذلك ما يرويه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: بينما نحن جلوسٌ عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكتُ. قال: «مالك؟» قال: وقعتُ على امرأتى وأنا صائمٌ. فقال رسول الله ﷺ: «هل تجدُ ربةً تُعتقُها؟» قال: لا.. قال: «فهل تستطيعُ أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا... فقال: «فهل تجدُ إطعام ستين مسكيناً؟» قال: لا. قال: فمكث النبي ﷺ فبينما نحن على ذلك أتى النبي ﷺ بعرق^(٢) فيها تمر، قال: «أين السائل؟» فقال: أنا. قال: «خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهَا». فقال الرجل: أعلَى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها^(٣) - يريد الحرتين

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

(٢) العرق: المكتل والجراب والوعاء المنسوج من الخوص، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة عرق (٢٤٠/١٠).

(٣) لابتيها: مثني لابة، وهى الأرض التى بها حجارة سود، والرجل يقصد المدينة المنورة.

انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة لوب (٧٤٥/١).

- أهل بيت أفقر من أهل بيتي. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابُهُ، ثم قال: «أطعمهُ أهلك»^(١).

❁ بل تلك رحمته ﷺ بالمشرّكين ... فلقد وصلت رحمة النبي ﷺ مبلغًا لا يخطر على قلب بشر.. فلقد كان ﷺ حزينًا كل الحزن لإعراض المشرّكين عن نور الهداية حتى قال له جل وعلا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَيَّ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: يسلى الله تعالى نبيه ﷺ في حزنه على المشرّكين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَيَّ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفًا وحزنًا... أى لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها ولا تذهب نفسك عليهم حسرات^(٢).

حتى إنهم كانوا يؤذونه ﷺ وهو يقول: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» ودبروا المؤامرات لقتله وطرده من مكة واتهموه فى عرضه وحاربوا دعوته فلما تمكّن منهم يوم فتح مكة قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

❁ بل لقد وصلت رحمته ﷺ بالحيوان.

ومن أهم الحقوق التى أصّلها الرسول ﷺ للحيوان عدم إيذاؤه.

فقد روى جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ مرّ على حمار قد وُسم فى وجهه، فقال: «لعن الله الذى وسمه»^(٣). وفى رواية له قال: «نهى رسول الله ﷺ عن الضرب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٣٦) كتاب الصوم، ومسلم (١١١١) كتاب الصيام.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٦١/٣).

(٣) وَسَمَهُ: إذا أثر أو علّم فيه بكى، والوسم والسمّة العلامة المميزة للشيء، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة وسم (١٢/٦٣٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١١٧) كتاب اللباس والزينة.

في الوجه وعن الوسم في الوجه»^(١). وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لعن النبي ﷺ مَنْ مَثَلَ بالحيوان»^(٢). وهذا يعني أن إيذاء الحيوان وتعذيبه وعدم الرفق به يُعتبر جريمة في نظر الشريعة الإسلامية.

وكذلك شرع الرسول ﷺ في تأصيله لحقوق الحيوان: تحريم حبسه وتجويعه... وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «عذبت امرأة في هرة؛ لم تطعمها، ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض»^(٣). وروى سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه^(٤)، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة... فاركبوها صالحةً، وكُلّوها صالحةً»^(٥).

كما أمر الرسول ﷺ أن يُستخدم الحيوان فيما خلق له، وحدد الغرض الرئيسي من استخدام الدواب، فقال: «إياكم أن تتخذوا ظُهُور دوابكم منابر»^(٦)؛ فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشئٍ الأنفس»^(٧). ونهى الرسول ﷺ عن اتخاذه غرضاً... فهذا هو ذا ابن عمر رضي الله عنهما يمرُّ بفتيانٍ من قریش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، فقال لهم: لعن الله مَنْ فعل هذا.. إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً^(٨).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١١٦) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٥١٥) كتاب الذبائح والصيد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٦٥) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٢٤٢) كتاب السلام.

(٤) لحق ظهره ببطنه: أي ظهر عليه الهزال من الجوع - انظر: العظيم آبادي: عون المعبود في شرح سنن أبي داود (٤٤٨/٥).

(٥) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٤).

(٦) تتخذوا ظهور دوابكم منابر: كناية عن القيام عليها؛ لأنهم إذا خطبوا على المنابر قاموا، والمعنى: لا تجلسوا على ظهورها فتوقفونها وتحدثون بالبيع والشراء وغير ذلك، بل انزلوا واقضوا حاجاتكم، ثم اركبوا: انظر: العظيم آبادي: عون المعبود (١٦٩/٧).

(٧) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقي، وقال الألباني: صحيح: انظر السلسلة الصحيحة (٢٢).

(٨) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥١٥) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٥٨) كتاب الصيد والذبائح.



ومن أهم ما أصَّله النبي ﷺ من حقوق الحيوان كذلك ما كان من وجوب الرحمة والرفق به، وقد تجسَّد ذلك في قول رسول الله ﷺ: «بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهث^(١)، يأكل الثرى^(٢) من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر، فملأ خُفَّهُ ماءً، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له^(٣)». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً^(٤)؟ فقال: «في كل ذات كبدٍ رطبة أجر»^(٥).

ومن مظاهر شفقتة ورحمته ﷺ كذلك ما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قائلاً: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمرة^(٦) معها فرخان، فأخذنا فرخيهما، فجاءت الحُمرة فجعلت تُعرش^(٧)، فجاء النبي ﷺ فقال: «مَنْ فجع هذه بولدها؟ رُدُّوها ولدها إليها»^(٨).

✽ هكذا كان النبي ﷺ يُعلِّم أُمَّته الرحمة بكل شيء ثم أخبر أن «مَنْ لا

(١) يلهث: يرتفع نَفْسُهُ بين أضلاعه، أو يخرج لسانه من شدة العطش والحر - انظر: ابن حجر العسقلاني:

فتح الباري (٤١/٥)، وابن منظور: لسان العرب، مادة لهث (٢/١٨٤).

(٢) الثرى: التراب الندي، وقيل: أى بعضٌ أو يكدم الأرض الندية - انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري (٤١/٥)، وابن منظور: لسان العرب مادة ثرا (١٤/١١٠).

(٣) شكر الله له فغفر له: أى تقبله الله منه وأثابه عليه بتجاوزه عن ذنوبه - وشكر الله هو الثواب على الطاعة، ولا يشكر الله سعيًا ولا عملاً إلا أثاب عليه - انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري (١/٢٧٨).

(٤) يعنون: أَيْكون لنا في سقى البهائم والإحسان لها أجر؟!

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٦٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٢٤٤) كتاب السلام.

(٦) الحُمرة: طائرٌ صغير كالعصفور - انظر: العظيم آبادى: عون المعبود (٧/٢٤٠)، وابن منظور: لسان العرب مادة حمر (٤/٢٠٨).

(٧) تُعرش أى: ترفرف، والتعريش أن ترتفع وتظلل بجناحيها على من تحتها - انظر: العظيم آبادى: عون المعبود (٧/٢٤٠)، وابن منظور: لسان العرب، مادة عرش (٦/٣١٣).

(٨) صحيح: رواه البخارى في الأدب المفرد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى في الصحيحة (٢٥).

يرحم الناس لا يرحمه الله».

فانظر في قلبك الآن هل تجد فيه رحمة لكل من حولك .. فإن وجدت فاحمد الله وإن لم تجد فأدرك نفسك وارحم كل من حولك حتى تفوز برحمة الله (جلّ وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِلنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالسَّقِيمَ وَالْكَبِيرَ. وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ»^(١).

وفي رواية: «وَذَا الْحَاجَّةِ».

✽ وإذا كنا نتحدث عن الرحمة .. فمن أبواب الرحمة أن الإنسان إذا كان إمامًا في أحد المساجد فإنه لا ينبغي له أن يطيل على الناس في الصلاة؛ لأن منهم الضعيف والسقيم والكبير وذا الحاجة.

✽ قال الإمام النووي رحمته الله:

مَعْنَى أَحَادِيثِ الْبَابِ ظَاهِرٌ وَهُوَ الْأَمْرُ لِلْإِمَامِ بِتَخْفِيفِ الصَّلَاةِ بِحَيْثُ لَا يُخِلُّ بِسُتْتِهَا وَمَقَاصِدِهَا وَأَنَّهُ إِذَا صَلَّى لِنَفْسِهِ طَوَّلَ مَا شَاءَ فِي الْأَرْكَانِ الَّتِي تَحْتَمِلُ التَّطْوِيلَ وَهِيَ الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَالتَّشَهُدُ دُونَ الْإِعْتِدَالِ وَالْجُلُوسِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

والمراد بالتخفيف ما وافق سنة النبي ﷺ... هذا هو التخفيف وليس المراد بالتخفيف ما وافق أهواء الناس، حتى صار الإمام يركض في صلاته ولا يطمئن... قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٣) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٧) كتاب الصلاة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٤/٢٤٤).

النبي ﷺ، ومع ذلك فكان يقرأ في فجر الجمعة «ألم تنزيل السجدة» كاملة في الركعة الأولى. و﴿هَذَا قَوْلٌ عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ كاملة في الركعة الثانية.

ثم اعلم أنه قد يكون التخفيف عارضاً طارئاً، مثل ما كان النبي ﷺ يفعل... كان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يطيل فيها فيسمع بكاء الصبي فيوجز مخافة أن تفتن أمه... فإذا حصل طارئٌ يُوجب أن يخفف الإنسان صلاته فليخفف، لكن على وجهٍ لا يُخلِّ بالواجب.

فالتخفيف نوعان: تخفيفٌ دائم: وهو ما وافق سنة النبي ﷺ.

وتخفيفٌ طارئٌ يكون أخف: وهو ما دعت إليه الحاجة، وهو أيضاً من السنة... فإن النبي ﷺ كان إذا سمع بكاء الصبي خفف الصلاة حتى لا تفتن أمه... والمهم أنه ينبغي للإنسان مراعاة أحوال الناس ورحمتهم^(١).

✽ ولنا مع هذا الحديث ثلاث وقفات:

(١) من مظاهر الرحمة والشفقة، أن النبي ﷺ قد أمر بتخفيف الصلاة لوجود (ذا الحاجة)، وهو الذي يكون عنده شغل سواء كان ذلك قضاء مصلحة لنفسه أم لأهله، أم يريد الضرب في الأرض للتكسب... وهذا يدل على أن هذا الدين قد جمع بين المصالح الشرعية والمصالح الدنيوية، وأنه لا يصطدم مع الواقع، ولا يلغى احتياجات الناس، بل العكس.

يطلب من الإمام التخفيف في أعظم ركنٍ من أركان الإسلام، ليستطيع كل أحد أن يقضى مصالحه المباحة أيّاً كانت، وهذا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَبُوا مَا نَسَرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، فخفف الله عن الأمة بهذه الآية ما افترضه عليهم أول الأمر من قيام الليل.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨٦-٥٨٧) بتصرف.

وتخيل أخى القارئ لو أن مأمومًا، ذهب إلى أحد الأئمة، الذين ليس لهم باعٌ طويل في علم السُّنة، وسأله التخفيف في الصلاة؛ لأن عنده شغلًا، لقام الإمام يخطب الناس، أنهم قد باعوا دينهم بعرضٍ من الحياة الدنيا، وأن أمر الدين هو آخر ما يشغلهم وغير ذلك من أساليب التوبيخ والتأنيب.

(٢) حسن تقسيم النبى ﷺ لأصناف الناس أصحاب الأعذار:

فالأول: صاحب العذر المؤقت الطارئ والذي قد يظهر على صاحبه، وهو الضعيف.

والثانى: صاحب العذر الذى يكون عارضًا وقد يكون مستمرًا.. وهو السقيم - أى: المريض.

والثالث: صاحب العذر الملازم له والذي يظهر دائمًا على صاحبه، وهو الكبير.

والرابع: صاحب العذر غير الملازم له والذي لا يظهر على صاحبه، وهو ذو الحاجة.

قال ﷺ: «فأيكم صلى بالناس فليتجاوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة»، وهذا من جوامع كلمه ﷺ حيث جَمَعَ أمثال كل أصناف الناس بذكر هؤلاء الثلاثة.

ولما كان الغالب، ألا يخلو جماعة المصلين من وجود أحد أصحاب الأعذار، صدر أمر النبى ﷺ بالتخفيف دائمًا... ولذلك أقول: إن الشرع دائمًا يحكم على الأمور بالغالب الأعم وليس بالنادر، ولا يعتد بما يشذ، وهى من الحِكم العظيمة لهذا الدين.

وأود أن أنبه هنا، ألا يكون هذا الحديث حُجة لبعض أئمة المساجد، للإخلال بركن الطمأنينة بالصلاة، والذي تُبطل الصلاة بالإخلال به، فعليهم التمييز بين

وجوب الطمأنينة في كل أركان الصلاة، وبين التخفيف الذي أمر به النبي ﷺ.

(٣) على ولي الأمر أن يقتدي في كل شئونه، بالأضعف من الناس وأصحاب الحاجات الخاصة، وأن يراعي حالهم ومصلحتهم أولاً، ولو كانوا قلة في الأقوياء من الناس... لأن النبي ﷺ لما شرع التخفيف في الصلاة، راعى مصلحة الضعفاء دون مصلحة الأقوياء، والذين قد يتلذذون بتطويل الصلاة، ولا يجدون في ذلك أي مشقة، ولكن لما استحال الجمع بين مصلحة الفريقين، قدّم ﷺ مصلحة الضعفاء^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٤) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدْعُ الْعَمَلَ، وَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، خَشْيَةً أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث تُخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يترك العمل أحياناً وهو يحب أن يفعله خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم فيشوق عليهم. والمقصود هنا أنه ﷺ كان يترك بعض النوافل أحياناً وليس المقصود أنه كان يترك الفرائض أو السنن الرواتب.

❁ ويوضح هذا بداية هذا الحديث عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ، وَإِنِّي لَأُسَبِّحُهَا، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدْعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يَحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، خَشْيَةً أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ»^(٣). وفي رواية أخرى: عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعًا، وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ».

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٤٣٩-٤٤٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٢٨) كتاب الجمعة، ومسلم (٧١٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧١٨) (٧٧) كتاب صلاة المسافرين.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ حَدِيثَيْ عَائِشَةَ فِي نَفْيِ صَلَاتِهِ ﷺ الضُّحَى وَإِبْطَالِهَا فَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّيُهَا بَعْضَ الْأَوْقَاتِ لِفَضْلِهَا وَيَتْرُكُهَا فِي بَعْضِهَا خَشْيَةً أَنْ تُفَرِّضَ كَمَا ذَكَرَتْهُ عَائِشَةُ ... وَيَتَأَوَّلُ قَوْلُهَا مَا كَانَ يُصَلِّيُهَا إِلَّا أَنْ يَجِيءَ مِنْ مَغِيبِهِ عَلَى أَنْ مَعْنَاهُ مَا رَأَيْتُهُ كَمَا قَالَتْ فِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى ... وَسَبَّيْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَا كَانَ يَكُونُ عِنْدَ عَائِشَةَ فِي وَقْتِ الضُّحَى إِلَّا فِي نَادِرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُسَافِرًا وَقَدْ يَكُونُ حَاضِرًا وَلَكِنَّهُ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَإِذَا كَانَ عِنْدَ نِسَائِهِ فَإِنَّمَا كَانَ لَهَا يَوْمٌ مِنْ تِسْعَةٍ فَيَصُحُّ قَوْلُهَا مَا رَأَيْتُهُ يُصَلِّيُهَا وَتَكُونُ قَدْ عَلِمَتْ بِخَبْرِهِ أَوْ خَبِرَ غَيْرُهُ أَنَّهُ صَلَّاهَا أَوْ يُقَالُ قَوْلُهَا مَا كَانَ يُصَلِّيُهَا أَيْ مَا يُدَاوِمُ عَلَيْهَا فَيَكُونُ نَفْيًا لِلْمُدَاوِمَةِ لَا لِإِصْلَاحِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

❁ وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك في عبادات أخرى من رحمته ورأفته بهم وحتى لا تُفرض على أمته فيشق ذلك عليهم.

فمن ذلك ما فعله في رمضان (عليه الصلاة والسلام) صلى في رمضان ذات ليلة، فعلم به أناس من الصحابة، فاجتمعوا إليه وصلوا معه... وفي الليلة الثانية صلوا أكثر، وفي الثالثة أكثر وأكثر، ثم ترك الصلاة في المسجد، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما بعد، فإنه لم يخفَ على مكانكم» يعني ما جرى منهم من الاجتماع «ولكنني كرهتُ أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها»^(٢) فترك هذا القيام جماعة خوفاً من أن تُفرض على الأمة، وهذا من شفقته.

ومن ذلك أنه كان يخشى أن يأمرهم ببعض الأشياء خشية أن يشق عليهم.
قال ﷺ: «لَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخَّرُوا الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ

(١) مسلم بشرح النووي (٣٢٢/٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٢٤) كتاب الجمعة، ومسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين.

نصفه»^(١).

وقال ﷺ: «لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، وَلَا خُرْتُ صَلَاةَ الْعِشَاءِ إِلَّا ثَلَاثَ اللَّيْلِ»^(٢).

وقال ﷺ: «لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ»^(٣).

وقال ﷺ: «لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ بِوُضُوءٍ، وَمَعَ كُلِّ وُضُوءٍ بِسَوَاكِ»^(٤).

وهكذا كان النبي ﷺ يدع العمل أحياناً ويدع الأمر بالعمل خوفاً من أن يفرض على أمته فيشق عليهم.

بَابُ فِي إِحْيَاءِ رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ

(٢٣٥) وَعَنْهَا رَوَاهُ قَالَ: نَهَاَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَوَاصِلُ؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»^(٥).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَوَاهُ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ» فَقَالَ لَهُ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَوَاصِلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَتَّهَوْا عَنِ الْوِصَالِ وَاصَلَ بِهِمْ يَوْمًا، ثُمَّ يَوْمًا، ثُمَّ رَأَوْا الْهَلَالَ، فَقَالَ: «لَوْ تَأَخَّرَ لِرِذْنِكُمْ» كَالْمُنْكَلِ بِهِمْ حِينَ أَبَوْا^(٦).

ومناسبة هذا القول أن الرسول ﷺ كان يواصل صيام عدة أيام من شهر رمضان بدون إفطار فلما أراد الصحابة أن يفعلوا مثله ذكر لهم هذه المقولة.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٦).

(٣) صحيح: رواه مالك والشافعي، والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٧).

(٤) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣١٨).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٥) كتاب الصيام.

معناه: يُجْعَلُ فِي قُوَّةٍ مَنْ أَكَلَ وَشَرِبَ.

(٦) صحيح: رواه البخاري (٦٨٥١) كتاب الحدود.

فمن شفقة النبي ﷺ ورحمته بأصحابه وأمته أنه ﷺ نهاهم عن الوصال رحمة بهم ... والوصال هو أن يصل الإنسان الصيام لمدة يومين أو أكثر دون أن يفطر أو يتسحر .. يعني يصوم الليل والنهار لمدة يومين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك ... فلما أراد الصحابة أن يفعلوا مثل النبي ﷺ وأن يواصلوا نهاهم النبي ﷺ عن ذلك وقال لهم: «أَيْكُمْ مِثْلِي إِنْ أَبَيْتُ يُطْعِمَنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» ولكنهم ظنوا أن النبي ﷺ نهاهم رحمة بهم لا كراهة للعمل .. فلما أصروا على الوصال واصل النبي ﷺ بهم يوماً ثم يوماً حتى رأوا هلال شوال .. فقال لهم ﷺ: «لَوْ تَأَخَّرَ - أَي الْهَلَالُ - لَزِدْتَكُمْ» .. قال ذلك تنكيلاً لهم حتى يشعروا بألم الجوع فيكفوا عن الوصال بعد ذلك.

❁ وها هي بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: اجتهاده ﷺ في العبادة، حيث إنه كان يواصل عدة أيام في شهر رمضان بدون إفطار ... دليله: (فقال له رجال من المسلمين: فإنك يا رسول الله تواصل). .

الفائدة الثانية: شفقته ﷺ ورحمته بالأمة، حيث نهى الأمة عن وصال الصيام، مع أنه كان يواصل.

الفائدة الثالثة: اختصاصه ﷺ دون البشر - بأمور تبين فضله وتزيد شرفه ... ودليله قوله ﷺ: «أَيْكُمْ مِثْلِي»، فنفى أن يكون أحد من الصحابة مثله، ووضح ﷺ وجه عدم المثلية، وهو أنه ﷺ يبيت يطعمه ربه ويسقيه.

وذكر الإمام النووي في شرح الحديث رأيين لأهل العلم:

(أ) أن الله يجعل فيه قوة الطاعم والشارب ... ورجح الإمام النووي هذا الرأي، وحجته في ذلك أنه إذا أكل حقيقة لم يكن مؤاصلاً.

(ب) أنه ﷺ يطعم من طعام الجنة كرامة له.

ولقد ذهب بعض أهل العلم إلى ترجيح الرأي الأول ... وقالوا: معنى ذلك

أنه عليه الصلاة والسلام يتهجّد بالليل، ويخلو بالله ﷻ، بذكره، وقراءة كلامه، وغير ذلك مما يُغنيه عن الأكل والشرب ... لأن الإنسان إذا اشتغل بالشيء نسي الأكل والشرب، خصوصاً إذا كان الشيء مما يحبه ويرضاه.

وهو أمرٌ واقعٌ واضح، حتى إن الإنسان قد يكون في الأشغال يشتغل بها، فيلهو عن الأكل والشرب ... مثل طالب العلم الذي يكون منهوماً بالعلم شغوفاً به، رُبما يبقى في مكتبته يُطالع من الصباح إلى المساء فينسى الأكل والشرب ... ينسى الغداء والعشاء، وربما ينسى النوم ... وكذلك طالب الدنيا منهوم لا يشبع ... ربما يبقى في دفاتره وحساباته فيشتغل عن الأكل والشرب.

ويُذكر أن رجلاً غنياً كان يشتغل بحساباته وبكتاباتهِ وماله وله زوجة، وكان له جارٌ فقير متزوج، وكانوا يشعرون بأن هذا الجار الفقير يعاشر زوجته بالمعروف ... فغارت زوجة الغني؛ لأن الغني غافلٌ عنها، فقالت له: ألا تنظر إلى جارنا يعاشر زوجته بالمعروف، ويستأنس مع أهله.

ففتن الرجل الغني لهذا، فدعا الرجل الفقير وقال له: إنك رجل فقير تحتاج إلى المال، وأنا سأعطيك مالاً تتجر به، فأعطاه المال يتجر به، فانشغل به الفقير عن أهله، وصار لا يُعاشرهم ولا يؤانسهم، فصار مثل التاجر.

فالحاصل: أن الإنسان إذا انشغل بالشيء المحبوب إليه أنساه كل شيء ... ولهذا قال النبي (عليه الصلاة والسلام): «إني أبيت عند ربي يُطعمني ويسقيني فلست كهَيْئَتكم» ... وما زعمه بعض أهل العلم من أن المراد بالإطعام والإسقاء، الإطعام من الجنة والإسقاء من الجنة فليس بصحيح؛ لأنه لو طعم طعاماً حسيّاً وشرب شرباً حسيّاً، لم يكن واصلاً، وإنما المراد بالطعام والسقي ما يشتغل به ﷺ من ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه^(١).

✽ وذهب بعض أهل العلم إلى أن الرأي الآخر غير مُستبعد وقالوا: لأنه

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٨٨-٥٨٩) بتصرف.

لا يلزم من أكله من طعام أهل الجنة منافاة الصيام، لعدم علمنا بطبيعة هذا الأكل وكيفيته... ولا داعي أن نعدل عن ظاهر الحديث.

وأى من الرايين كان صحيحاً، فإننا نعتقد أن الرسول ﷺ يطعمه ربه ويسقيه... وهي معجزة عظيمة له ﷺ.

وأود أن أوضح هنا أن عدم مثلية الرسول ﷺ لأصحابه لا تقتصر على هذه المسألة، ولكن ثبتت عدم المثلية في أمور كثيرة.

الفائدة الرابعة: حرص الصحابة (رضي الله عنهم) على متابعة النبي ﷺ في كل أمر من أموره، حتى الأمور التي فيها مشقة ظاهرة، حيث إنهم أبوا أن ينتهوا عن الوصال، مع أن النبي ﷺ بين لهم سبب قدرته على الوصال... ففي الحديث: (فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً).

الفائدة الخامسة: حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضى الله عنهم، لأنهم لما أبوا الانتهاء عن وصال الصيام، واصل بهم يومين.. ولولا رؤية هلال شوال لواصل بهم اليوم الثالث تعزيراً لهم، وليعلموا أنه لا طاقة لهم بالوصال مثله ﷺ... ويؤخذ منه اتباع النبي ﷺ للتربية العملية إذا لم تُجدِ التربية القولية، بل قد يصل الأمر إلى حدّ التعزيز بغرض التعليم، إذ ورد في الحديث «كالمُنْكَلِّ بهم»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣٦) وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْحَارِثِ بْنِ رَبِيعٍ (رضي الله عنه) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَاسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَاتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»^(٢).

✽ فهذا الحديث يُلقي الضوء على صورة من صور رحمة النبي ﷺ بأمته..

(١) شمائل الرسول ﷺ (٢/ ١٢١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٠٧) كتاب الأذان.

وكيف لا يكون كذلك وقد قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فالنبي ﷺ كان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يطيل فيها إطالة توافق السنة وليس الإطالة الزائدة التي تتعب المصلين... فإذا سمع صوت بكاء الصبي أوجز في صلاته وخفف مخافة أن يشق على أمه.. لأنها إذا سمعت بكاء ابنها فإن ذلك يشق عليها.. بل وربما يشغلها عن صلاتها.

وقد ذكرنا قبل ذلك أن التخفيف نوعان: تخفيف دائم وهو ما وافق سنة النبي ﷺ.. وتخفيف طارئ يكون أخف من ذلك: وهو ما دعت إليه الحاجة.. مثل أن يخفف النبي ﷺ الصلاة إذا سمع بكاء الصبي.

❁ ففي هذا الحديث فوائد منها:

أولاً: رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليها.

ثانياً: جواز حضور النساء إلى المساجد ليُصلين مع الجماعة... وهذا ما لم تخرج المرأة على وجه لا يجوز، مثل أن تخرج متعطرة أو متبرجة، فإن ذلك لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بِخَوْرٍ فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ»^(١).

ثالثاً: جواز إدخال الصبيان للمسجد، لكن بشرط ألا يحصل منهم أذية لا على المسجد ولا على المصلين، فإن كان يُخشى منهم أذية على المسجد كتلويثه بالبول والنجاسة، فإنهم يُمنعون... وكذلك إذا كان يُخشى منهم التشويش على الناس بالصراخ والركض واللجة، فإنهم يُمنعون أيضاً، وأما إذا لم يكن منهم بأس فإنه لا بأس أن يُؤتى بهم إلى المساجد.

وأما حديث: «جَنَّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ»^(٢) فهو ضعيف.

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٤) كتاب الصلاة.

(٢) ضعيف: رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٣٦).

رابعاً: أنه يجوز للمُصلي أن يسمع ما حوله ولا يلزمه أن يُسَدَّ أذنيه ، كما لو أراد الإنسان أن يُصلي في المسجد وحوله حلقة ذكر، أو حلقة قرآن، ويخشى أن يُشوشوا عليه إذا دنا منهم، فليبعد، وأما إذا لم يُشوشوا فلا بأس أن يسمع، بخلاف الاستماع فإن المصلي لا يستمع إلا إلى قراءة الإمام. وعلى هذا إذا كنت تُصلي وجاء القارئ يقرأ حديثاً أو موعظة، فلا تشد سمعك إليه... لا تستمع إليه، ولا تجعل تركيزك معه، أما إذا سمعته ولكنك ماضٍ في صلاتك لم تهتم به ولم تلتفت إليه فلا بأس.

خامساً: ومن فوائد هذا الحديث أنه يجوز للمصلي أن يغير نيته من تطويل إلى تقصير أو بالعكس، إذا وجد سبباً لذلك؛ لأن النبي ﷺ كان يدخل في الصلاة ناوياً أن يطيلها فيؤجز لما ذكره من السبب^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٧) وَعَنْ جُنْدِبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ فَلَا يَطْلُبُنْكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبُهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكْبُهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٢).

✽ من المعلوم أن من أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه الفرائض.. كما قال تعالى في الحديث القدسي: «وَمَا تَقْرَبُ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»^(٣). ومن أفضل الفرائض وأهمها الصلاة.. لأنها الركن الثاني للإسلام بعد الشهادتين؛ ولأنها صلة بين العبد وربّه؛ ولأن الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر.

وأما أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة.

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٩٠-٥٩١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ» ^(١).

وأفضل ما في الصلوات الخمس: صلاة الصبح وصلاة العصر. فقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ^(٢) والبردان هما: صلاة الصبح والعصر.. لأن الفجر براد الليل والعصر براد النهار.

وصلاة الفجر تأتي وكثير من الناس نيام، ولهذا يتكاسل عنها المنافقون. كما قال النبي ﷺ: «أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» ^(٣).

❀ وقوله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصَّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ» أي في عهده وضمانه وأمانه (سبحانه وتعالى) ... فكأنه فاز بعهد الله وضمانه ألا يُصِيبَهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ.

❀ فالله ﷻ يجعل الصلاة سبباً لحفظ العبد. وحفظ الصلاة للمصلي على أوجه، منها: حفظه عن المعاصي.. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فمن حفظ الصلاة حفظته الصلاة عن الفحشاء.

ومنها: حفظه من البلايا والمحن... قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].. ومنها: حفظه من عذاب القبر، وعذاب النار يوم القيامة ^(٤).

قال بعض الصالحين: «والله ما عدا عليك العدو إلا بعد أن تخلى عنك المولى، فلا تَظُنَّنْ أَنَّ الْعَدُوَّ غَلَبَ، وَلَكِنَّ الْحَافِظَ أَعْرَضَ».

(١) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٧) كتاب الأذان، ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(٤) التفسير الكبير / الرازي (٢/ ٢٧٤).

✽ وحفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دُنياه، كحفظه في بدنه... وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذريته... كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]: «أنهما حفظا بصلاح أبيهما».

قال سعيد بن المسيب لابنه: «لأزیدن في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.

✽ ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى، كما جرى لسفينة مولى رسول الله ﷺ «حيث كُسِر به المركب، وخرج إلى جزيرة، فرأى الأسد، فجعل يمشى معه حتى دلّه على الطريق، فلما أوقفه عليها، جعل يهمهم كأنه يودعه، ثم رجع عنه»^(١).

النوع الثاني من الحفظ - وهو أشرف النوعين -: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه... فيحفظه في حياته من الشُّبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان.

✽ وأما قوله ﷺ: «فلا يطلبكم الله من ذمته بشيء» يعني: لا يترك عهده على من صلى الفجر؛ لأنه في ذمة الله وفي عهده، فإياكم أن يطلبكم الله تعالى من ذمته بشيء، «فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يُدركه، ثم يَكُبه على وجهه في النار»^(٢).

ففي هذا دليل: على أنه يجب احترام المسلمين الذين صدّقوا إسلامهم بصلاة الفجر... لأن صلاة الفجر لا يُصلّيها إلا مؤمن، فالمنافقون لا يشهدون الجماعة، ولا يُصلّون الفجر أبداً؛ لأنهم إنما يصلّون مُراءاةً للناس، فإذا لم يكن الناس ينتبهون لهم، فإنهم لا يُصلّون.

(١) رواه الطبراني والحاكم بإسناد حسن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وقد كان المنافقون في عهد النبي ﷺ لا يُصلون الصبح والعشاء في جماعة؛ لأن الليل كان حالكًا وليس عندهم إضاءة في الشوارع مثلنا حتى أنه لا يكاد أن يرى أحدٌ... فليس عندهم إلا ضوء مصباح ضعيف في المسجد.. فلا يكاد أحدٌ يعرف من الذي جاء ومن الذي غاب.. فكانت فرصة كبيرة للمنافقين حتى لا يصلوا الصبح والعشاء.

❁ فالشاهد من هذا الحديث أننا يجب أن نحافظ على الصلوات الخمس في المسجد وبخاصة صلاة الصبح والعصر... أما النساء فلا يجب عليهن الصلاة في المسجد فإذا صلّت في بيتها كل صلاة في وقتها فازت بأجر صلاتها في المسجد. كما أنه ينبغي أن نحترم المسلمين الذين برهنوا على إسلامهم وإخلاصهم بصلاة الصبح في جماعة.. ولا يجوز لأحد أن يتعرض لهم أو يعتدي عليهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٨) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلَمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن «المسلم أخو المسلم» يعني في الدين.. كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وأخوة الدين أعظم من أخوة النسب.. فقد ينقلب عليك أخوك في النسب ويصبح عدوًّا لك.. أما أخوة الدين فيجمعها الحب في الله والله.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب - ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

فهي راسخة باقية نافعة في الدنيا والآخرة .. كما قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وإن فضائل الأخوة في الله كثيرة جدًا .. فمنها:

(١) أنها سبب لتذوق حلاوة الإيمان:

قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: - وذكر منها - وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»^(١).

(٢) أن رؤيتك لأهل الاستقامة تجعلك تجتهد في طاعة الله (جلّ وعلا).

قال ﷺ: «أولياء الله تعالى الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى»^(٢) فإن كان هذا الخير يحصل لمن رأيهم فكيف بمن يُجالسهم.

(٣) أنهم يأخذون بيدك إلى فعل الخيرات وترك المنكرات والتزود من النوافل والسعي إلى مرضاة الله (جلّ وعلا).

(٤) أنهم يحفظون غيبتك فلا يفشوا لك سرًا، ولا ينتهكوا لك حرمة بل يُدافعون عنك في كل زمانٍ ومكان.

(٥) أنهم مرآة لك تتعرف من خلالها على أخطائك وعيوبك وتسعى لإصلاحها.

(٦) أن مجالسة أهل الصلاح اغتنام للأوقات في العلم والتعلم والذكر وغيره.

(٧) أنك تأنس بهم في الرخاء، وكذلك فهم عُدّة في البلاء.

(٨) أن مجالسهم هي مجالس المغفرة والرحمة كما قال ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ فِيهِ، فَيَقُومُونَ حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ قُومُوا، قَدْ غُفِرَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٦)، (٢١) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان.

(٢) حسن: رواه الحكيم، والطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥٧).



الله لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَبَدَّلْتَ سَيِّئَاتِكُمْ حَسَنَاتٍ»^(١).

(٩) أن مَنْ يجالس الصالحين تشمله بركة مجالسهم وَيَعُثُّهُ الخير الحاصل لهم، وإن لم يكن عمله بالغاً مبلغهم.

كما دَلَّ على ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة وفي آخره: «هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»، وفي لفظ: «فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»^(٢).

(١٠) ومنها أن المرء مجبول على الاقتداء بجليسه والتأثر بعلمه وعمله وسلوكه ومنهجه ... فمُجالس أهل الخير يتأثر بهم.

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى فرعون معه هامان انظروا إلى الحجاج معه يزيد بن أبي أسلم شرٌّ منه انظروا إلى سليمان بن عبد الملك صحبه رجاء بن حيوة فقومه وسدده^(٣).

(١١) أن جليسك الصالح يَكُفُّكَ عن المعاصي لحياثك منه ... وبذلك تعتاد ترك المعاصي لكثرة مجالسة أهل الصلاح.

(١٢) أنك تنتفع بدعائهم لك في الحياة الدنيا - بظهر الغيب - وبعد مماتك.

(١٣) أن الله أوجب محبته للمتحابين فيه ... قال تعالى: «حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ»^(٤).

(١٤) أن الحب في الله والبغض في الله دليل على كمال إيمان العبد.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ وَأَبْغَضَ اللَّهَ، وَأَعْطَى اللَّهَ وَمَنَعَ اللَّهَ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(٥).

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) كتاب العزلة (ص ١٤١).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٥).

(١٥) ومن فوائد المحبة في الله أن الله يكرم من أحب عبداً لله.

قال رسول الله ﷺ: «ما أحب عبداً لله إلا أكرمه الله»^(١).

(١٦) أن المرء يُحشر مع من أحب:

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، فَقَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٢).

(١٧) المتحابون في الله يُظلمهم الله في ظل عرشه يوم القيامة:

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، - وذكر منهم - ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه»^(٣).

(١٨) أن المتحابين في الله لهم منابر من نور، يجلسون عليها يوم القيامة:

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «قال الله - سبحانه وتعالى -: المتحابون في جلالى لهم منابر من نور، يغطهم»^(٤) النبيون والشهداء»^(٥).

(١٩) أنك تنتفع بشفاعتهم لك يوم القيامة:

إن صُحبة أهل الإيمان تُثمر لك الخير كله في الدنيا والآخرة.

فأما في الدنيا: فإنه يُذكرك بالله ويُعينك على طاعته وينصرك إذا كنت في حاجة إلى النصرة ويبدل لك كل ما يستطيع من أجل أن يُدخل عليك السرور والسعادة.

وفي الآخرة يشفع لك عند الله ﷻ.

(١) حسن: رواه أحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٥١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٦٨) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٤١) كتاب البر والصلة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٤) الغبطة - بكسر الغين: تمنى مثل ما للمغبوط من نعمة دون تمنى زوالها عنه، وليست بحسد، والفعل

غبط من باب ضرب

(٥) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١٢).

(٢٠) أنك بمحبتك للصالحين وزيارتك لهم تقترب من الجنة شيئاً فشيئاً ...

قال ﷺ: «ألا أخبركم برجالكم في الجنة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «النبي في الجنة، والصديق في الجنة، والرجل يزور أخاه في ناحية المصر لا يزوره إلا لله في الجنة»^(١).

❁ وهكذا .. فالمسلم أخو المسلم .. «لا يظلمه ولا يُسلمه». لا يظلمه في نفسه ولا في عرضه ولا في ماله ولا في بدنه ولا في أهله .. فهو لا يظلمه بأي نوع من أنواع الظلم .. بل يؤازره ويدافع عنه ويُسأله.

قال ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ يُنْتَقَضُ فِيهِ مِنْ عَرْضِهِ وَيُتْهَكُّ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نَصْرَتَهُ»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِالْغَيْبِ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٤).

❁ وهكذا فهو لا يظلمه ولا يُسلمه بل يُدافع عنه فهو جامع بين ثلاثة أمور: (١) أنه لا يظلمه.

(٢) أنه لا يُسلمه لمن يظلمه.

(٣) أنه يُدافع عنه ... فيدافع عنه في عرضه وماله وبدنه فلا يسمح لأحد أن يُسبه أو يغتابه بل يُدافع عنه ويدفع غيبته ويذكره بكل خير.

❁ ثم قال ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ».

فإن كنت تسعى في حاجة أخيك لتقضيها له وتُساعده عليها فإن الله عز وجل يُعينك على قضاء حوائجك ويُساعدك عليها .. بل وتكون من أحب الناس إلى

(١) حسن: رواه الدارقطني في الأفراد، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٠٤).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في التعليق الرغيب (٣/٣٠٣)، والمشكاة (٤٩٨٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٢).

(٤) حسن: رواه البيهقي في الشعب، والضياء في المختارة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٤).

ربِّكَ (جلَّ وعلا).

قال ﷺ: « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ عِبَادَتُهُ سُرُورٌ تَدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا وَلَأنَّ أَمْشَى مَعَ أَخِي الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ شَهْرًا وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمَضِّيهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رِضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى يُبْتِغَاهَا لَهُ أَثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى قَدَمَهُ يَوْمَ تَرُلُّ الْأَقْدَامُ وَإِنَّ سُوءَ الْخُلُقِ لَيُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْحُلُّ الْعَسَلَ »^(١).

ثم قال ﷺ: « وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ».

فالكرب هو الذي يجعل الإنسان في همٍّ وغَمٍّ .. قد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبَتْ فإذا فرجت عن أخيك هذه الكربة فرج الله عنك كربة من كُرب يوم القيامة.

ويكون تفريج الكربات بإعطائه المال الذي يُزيل كربته أو بمواساته إن كان قد مات له حبيب ... أو بالشفاعة له إن كان في حاجة إلى عملٍ أو كان قد فَقَدَ عمله ويحتاج أن يرجع إليه ... أو بالإصلاح بينه وبين مَنْ يخاصمه أو بالتأليف بينه وبين زوجته وأولاده .. أو غير ذلك من صور تفريج الكربات ... وينبغي عليك وأنت تسعى في تفريج كربته أن تذكره بالله وأن تحثه على الرضا بالقضاء والقدر وأن توضح له أن دوام الحال من المُحال وأن المصائب إن لم تنفرج وتزول عنَّا فسوف نزول نحن عنها بالرحيل عن هذه الدنيا لتُسعد بقاء الله في جنته التي فيها ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(١) حسن: رواه ابنُ أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع

❁ ثم قال ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

سترت فلانًا أي: غطيت عيبه ولم تُبينه لأحد.

فإن فعلت ذلك سترك الله في الدنيا والآخرة.

وهذا الستر ليس على إطلاقه ... فالستر قد يكون محمودًا وقد يكون مذمومًا ...

فإذا رأينا شخصًا من ذوي الهيئات معروفًا بالصلاح والتقوى ولكن حدث منه هفوة فينبغي علينا أن نستره ولا نهتك ستره أمام الناس .. ثم ننصحه فيما بيننا وبينه عسى أن يتوب ويرجع عما يفعله .. أما إذا كان هناك شخصٌ معروف بالأذى والفساد وكثرة المعاصي حتى أنه يجهر بها ونحن نعلم أن الستر لن يزيده إلا طغيانًا فإننا لا ينبغي أن نستره بل نرفع أمره إلى ولي الأمر حتى يرتدع ويرتدع كل من أراد أن يفعل مثله .. وبذلك تنحصر دائرة الفساد.

أما أهل الخير والصلاح إن حصلت منهم هفوة فإننا نسترحمهم فإن فعلنا ذلك سترنا الله في الدنيا والآخرة.

وإن وجدنا أحدًا من أهل الصلاح عنده عيبٌ خَلَقِيٌّ كالبرص أو البهاق أو أي جروح مؤثرة فإننا نستر عليه .. وكذلك إن كان عنده أي شيء يستحي منه ولا يقدح في دينه فإننا نستر عليه .. وهكذا.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَمَّا السِّرُّ الْمُنْدُوبُ إِلَيْهِ هُنَا فَالْمُرَادُ بِهِ السِّرُّ عَلَى ذَوِي الْهَيْئَاتِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ مَعْرُوفًا بِالْأَذَى وَالْفَسَادِ ... فَأَمَّا الْمَعْرُوفُ بِذَلِكَ فَيُسْتَحَبُّ أَنْ لَا يُسْتَرَ عَلَيْهِ بَلْ تُرْفَعَ قَضِيَّتُهُ إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ إِنْ لَمْ يَخَفْ مِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَةً لِأَنَّ السِّرَّ عَلَى هَذَا يُطْمَعُ فِي الْإِيذَاءِ وَالْفَسَادِ وَانْتِهَاكِ الْحُرْمَاتِ وَجَسَارَةِ غَيْرِهِ عَلَى مِثْلِ فِعْلِهِ ... هَذَا كُلُّهُ فِي سِتْرِ مَعْصِيَةٍ وَقَعَتْ وَانْقَضَتْ أَمَّا مَعْصِيَةٌ رَأَتْ عَلَيْهَا وَهُوَ بَعْدَ مُتَلَبِّسٍ بِهَا

فَتَجِبُ الْمُبَادَرَةُ بِإِنْكَارِهَا عَلَيْهِ وَمَنْعُهُ مِنْهَا عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَحِلُّ تَأْخِيرُهَا ... فَإِنْ عَجَزَ لَزِمَهُ رَفْعُهَا إِلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ إِذَا لَمْ تَتَرْتَّبْ عَلَى ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ ... وَأَمَّا جَرْحُ الرُّوَاةِ وَالشُّهُودِ وَالْأَمْثَالِ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَالْأَوْقَافِ وَالْأَيْتَامِ وَنَحْوِهِمْ فَيَجِبُ جَرْحُهُمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَلَا يَحِلُّ السُّتْرُ عَلَيْهِمْ إِذَا رَأَى مِنْهُمْ مَا يَقْدَحُ فِي أَهْلِيَّتِهِمْ وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْغِيْبَةِ الْمُحَرَّمَةِ بَلْ مِنَ النَّصِيحَةِ الْوَاجِبَةِ وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عَرَضُهُ وَمَالُهُ وَدُمُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ» ^(٢).

✽ «المسلم أخو المسلم» تكلمنا عن معنى الأخوة في الحديث السابق وذكرنا أن أخوة الإيمان أعظم بكثير من أخوة النسب .. وأن أخاك المسلم ينفعك في الدنيا والآخرة.

✽ «لا يخونه» أي: لا يغدر به في محل الائتمان ... فإذا ائتمنه على مالٍ أو على سرٍّ أو على أي شيء فإنه لا يخونه .. بل يحفظ أمانته ولا يخونه أبدًا في ماله ولا في عرضه. ولا يجوز لأحد أن يخون أخاه المسلم حتى وإن خانته فقد قال النبي ﷺ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُئْتِمَنَّكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» ^(٣) .. فإذا افترضنا أنك أقرضت شخصًا مالا فخانك ولم يرد إليك مالك بل خانك وأنكر أنك أقرضته فإنه لا يحل لك أن تقترض منه بعد ذلك وتخونه بل أدِّ إليه أمانته واسأل الله الحق الذي لك «وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ».

(١) مسلم بشرح النووي (٢٠٣/١٦-٢٠٤).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٦).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والبخاري في التاريخ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٠).

✽ قوله ﷺ: «ولا يكذب» أي: لا يكذب عليه ولا يحدثه بالكذب ..
فالكذب حرام وكلما كانت آثاره أسوأ كان إثمه أشد .. وليس هناك كذب أبيض
أو كذب حلال كما يقول بعض الناس .. فالكذب كله أسود .. لكنه يتضاعف
إثمه بحسب ما يترتب عليه .. فإن كان يترتب عليه إيذاء لمسلم أو أخذ حقوقه
صار إثمه أشد .. وإن كان لا يترتب عليه أي ضرر لأحد صار إثمه أخف ولكنه
أيضاً حرام.

لكن النبي ﷺ رخص في الكذب في ثلاثة أحوال فقط:

(١) الكذب على الزوجة في الأمور العاطفية حتى تستقيم الحياة وتدوم
العشرة .. كأن يكون لا يحبها فيكذب عليها ويخبرها بأنه يحبها .. فهذا جائز
لتدوم الحياة بينهما.

(٢) الكذب من أجل الإصلاح بين المتخاصمين .. كأن يذهب إلى هذا
ويخبره بأن فلاناً يحبه ويرجع إلى الآخر ويقول له نفس الكلام من أجل
الإصلاح بينهما وتأليف القلوب.

(٣) الكذب على الأعداء في الحرب حتى لا يتسبب في إيذاء بلده وأهل بلده
.. فيكذب على الأعداء إذا سألوه عن أي شيء من أسرار بلده وتجهيزاته
العسكرية ومواقعه الاستراتيجية خوفاً على بلده التي يحبها.

واستدل العلماء بجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها، أنها
سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا،
أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»^(١).

زاد مسلم في رواية: قَالَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ
النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، تَعْنِي: الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٢) كتاب الصلح، ومسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.

امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

❁ قوله ﷺ: «ولا يخذله» أي: لا يترك نُصْرَتَهُ على عدوه ولا يترك إعانتَه عند أزمته.

قال النووي: مَعْنَاهُ إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِي دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحْوِهِ لِرِمِّهِ إِعَانَتُهُ إِذَا أَمَكَّنَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُذْرٌ شَرْعِيٌّ.

❁ قوله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ».

هذا مما كان النبي ﷺ يخطب به في المَجَامِعِ الْعَظِيمَةِ، فإنه خطب به في حجة الوداع يوم النحر، ويوم عرفة، واليوم الثاني من أيام التشريق، وقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(١).

وقد دلَّت النصوص كلها على أن المسلم لا يحل له إيصال الأذى إلى أخيه المسلم بوجهٍ من الوجوه من قولٍ أو فعلٍ بغير حق... وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وإنما جعل الله المؤمنين إخوة ليتعاطفوا ويتراحموا... عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»^(٢).

قال رجل لعمر بن عبد العزيز: «اجعل كبير المسلمين عندك أباً، وصغيرهم ابناً، وأوسطهم أخاً فأبي أولئك تحب أن تُسيء إليه».

ومن كلام يحيى بن معاذ الرازي: «ليكن حظ المؤمن منك ثلاثة: إن لم تنفعه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧) كتاب العلم، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) كتاب البر والصلة والآداب.

فلا تضربه، وإن لم تُفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه».

فلا يجوز لمسلم أن يعتدي على عرض أخيه المسلم بأن ينتهك عرضه ويتكلم عنه بين الناس ويقدح في عرضه سواء كان صادقاً أو كاذباً؛ لأن النبي ﷺ لما سُئل عن الغيبة فقال: «ذكرك أخاك بما يكره» قالوا: يا رسول الله: أرأيت إن كان في أخي ما أقول، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

ولا يجوز لمسلم أن يعتدي على مال أخيه المسلم غصباً ولا سرقةً ولا خيانةً ولا بأي شيء يستحل به مال أخيه بغير حقٍّ... أو أن يجحد الدين الذي عليه.

كذلك لا يجوز لمسلم أن يعتدي على أخيه المسلم بالقتل أو الجرح أو غير ذلك مما يسبب له أذىً شديداً.

❁ ثم قال ﷺ: «التقوى هاهنا» يشير إلى صدره ثلاث مرات. يعني: أن التقوى في القلب.. فإذا أصبح القلب تقياً أصبحت الجوارح كلها تبعاً له.. وهذا كقول النبي ﷺ: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

فإذا امتلأ القلب بالتقوى والخوف والخشية من الله استقامت الجوارح واستقامت أعماله الظاهرة؛ لأن الأعمال الظاهرة تتبع القلب.

❁ وأحياناً يحدث جدال بين الناس بسبب كلمة «التقوى هاهنا»..

فإذا أمرت أحداً بالصلاة وهو لا يريد أن يصلي قال لك: التقوى هاهنا.. وإذا أمرت امرأة بالحجاب وهي لا تريد أن ترتدي الحجاب قالت: التقوى هاهنا.. ونقول لهؤلاء: لو كان في القلب تقوى لظهر ذلك على الجوارح؛ لأن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢) كتاب الإيمان - ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

القلب إذا اتقى اتقت الجوارح وإذا انهمك في المعاصي انهمكت الجوارح... وتلك الكلمة «التقوى هاهنا» فيها إشارة إلى أن كرم الخلق عند الله بالتقوى. فَرَبٌّ مَنْ يَحْقِرُهُ النَّاسُ لضعفه وقلة حظه من الدنيا، هو أعظم قدرًا عند الله تعالى ممن له قدر في الدنيا... فإن الناس إنما يتفاوتون بحسب التقوى كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣]

وسئل النبي ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «أَتْقَاهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ»^(١).

وفي قوله: «التقوى هاهنا» وإشارته إلى صدره دليل على أن العقل في القلب الذي في الصدر، وهذا هو المطابق للقرآن تمامًا... قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فقال: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. وليس القلب هو المخ كما يظنه بعض الناس.. فالعقل في القلب، ولكن المخ لا شك أن له أثرًا في أعمال العبد، في حركاته، وفي سكناته، لكنهم قالوا: إن المخ مثل الخادم، يهيئ الأشياء ويطبخها، ثم يبعث بها إلى القلب، ثم يُصدر القلب الأوامر إلى المخ من أجل أن المخ يدبر الأعصاب وبقية الجسم فيكون هذا المخ خادماً للقلب عند تصدير الأشياء إليه واستصدارها منه... فالأشياء تمر من القلب ذاهبة وآتية إلى المخ.. والمخ هو الذي يحرك البدن، ولذلك إذا اختلَّ المخ اختلَّ كل شيء^(٢).

واعلم أن زيغ القلب لا يكون إلا بسبب الإنسان، فإذا كان الإنسان يريد الشر ولا يريد الخير، فإنه يزيغ قلبه والعياذ بالله... ودليل هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) كتاب الفضائل.

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٩٧).



الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ [الأنفال: ٧٠].

فإذا علم الله من العبد نية صالحة وإرادة للخير يسر الله له ذلك وأعاناه عليه.. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧] قوله ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». يعني: يكفيه من الشر احتقار أخيه المسلم فإنه إنما يحتقر أخاه المسلم لتكبره عليه... والكبر من أعظم خصال الشر... قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(١). وفي هذا التحريم أعظم زاجر من احتقار أخيك المسلم وأن الواجب عليك أن تحترمه وتُعظمه بما فيه من الإسلام والإيمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٤٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»^(٢).

هذا الحديث أصل في حق المسلم على المسلم، وفيما ينبغي أن يكون بين المسلمين من أنواع التعامل.

فقوله ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا» يعني: لا يحسد بعضكم بعضًا.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

«النَّجَشُ» أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ سَلْعَةٍ يُنَادَى عَلَيْهَا فِي السُّوقِ وَنَحْوِهِ، وَلَا رَغْبَةَ لَهُ فِي شِرَائِهَا بَلْ يَقْصِدُ أَنْ يَغُرَّ غَيْرَهُ، وَهَذَا حَرَامٌ - «وَالْتَدَابُرُ»: أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَيُهْجُرُهُ وَيَجْعَلُهُ كَالشَّيْءِ الَّذِي وَرَاءَ الظَّهْرِ وَالدُّبُرِ.

والحسد مركوز في طبع البشر وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحدٌ من جنسه في شيء من الفضائل.

ثم ينقسم الناس بعد هذا إلى أقسام: فمنهم مَنْ يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل ثم منهم مَنْ يسعى في نقل ذلك إلى نفسه، ومنهم مَنْ يسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقلٍ إلى نفسه، وهو شرهما، وأخبثهما.. وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه ... وكان ذلك ذنب إبليس حين حسد آدم ﷺ لما رآه قد فاق على الملائكة بأنه خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء. وأسكنه في جواره فما زال يسعى في إخراجهم من الجنة حتى أخرج منها.

وقسم آخر من الناس إذا حسد غيره لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يَبْغِ على المحسود بقول ولا فعل.

وقسم آخر إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود بل يسعى في اكتساب مثل فضائله ويتمنى أن يكون مثله ... فإذا كانت الفضائل دنيوية فلا خير في ذلك كما قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴿يَلْتَمِثْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُتْرُونَ﴾ [القصر: ٧٩].

وإذا كانت دينية فهو حسن ... وقد تمنى النبي ﷺ الشهادة في سبيل الله.

قال ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ»^(١).

وقسم آخر إذا وجد في نفسه الحسد سعى في إزالته وفي الإحسان إليه والدعاء له ونشر فضائله وفي إزالة ما وجد في نفسه من الحسد حتى يبدله عُجبة أن يكون أخوه المسلم خيراً منه وأفضل: وهذا من أعلى درجات الإيمان. وصاحبه هو المؤمن الكامل الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.

مفاسد الحسد

❁ لا بد أن نعلم أن الحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود والعياذ بالله كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: على ما أعطاهم من فضله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وحذر النبي ﷺ من الحسد وبين أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

ثم إن الحسد فيه اعتراض على قضاء الله وقدره؛ لأن الحاسد لم يرض بقضاء الله وقدره... يعني لم يرض أن الله أعطى هذا الرجل مالا أو أعطاه أهلا أو أعطاه علما... ففيه اعتراض على قضاء الله وقدره. ثم إن الحسد جمرة في القلب والعياذ بالله كلما أنعم الله على عبده نعمة احترق هذا القلب والعياذ بالله حيث أنعم الله تعالى على عباده... فتجده دائما في نكدٍ ودائما في قلق.

والحسد ربما يحصل منه بغى وعدوان على من آتاه الله من فضله، وربما يشوه سمعته عند الناس ويقول فيه كذا وكذا وهو كاذب أو صادق لكن يريد أن يحسد هذا الرجل على النعمة... فربما يحصل منه هذا العدوان على أخيه المسلم... ثم إن الحسد لا يرد نعمة الله على عبده مهما حسدت ومهما بغيت فإنك لن تمنع قدر الله على عباده،... قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^(١) وإلا فلن يضروك... فالواجب على الإنسان إذا رأى من نفسه حسدا لأحد أن يتقى الله وأن يوبخ نفسه ويقول لها: كيف تحسدين الناس على ما آتاهم الله من فضله؟! كيف تكرهين نعمة الله على عباده؟! يقول: أرأيت يا نفس

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٥٧).

لو كانت هذه النعمة عندك أتحيين أن أحداً يحسدك عليها.

❁ قيل للحسن البصري: «أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟». فقال: «مَا أَنْسَاكَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! لَا أَبَا لَكَ، وَلَكِنْ عَمَّهُ فِي صَدْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، مَا لَمْ تَعِدْ بِهِ يَدًا وَلِسَانًا»^(١).

والحسد خُلُقٌ ذَمِيمٌ، نَاهِيكَ بِهِ شَرًّا... فَهُوَ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ... فَفِي السَّمَاءِ حَسَدُ عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسُ أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْأَرْضِ حَسَدُ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ حَتَّى قَتَلَهُ! ❁ قوله ﷺ: «وَلَا تَنَاجَشُوا».

فَسَّرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِالنَّجَشِ فِي الْبَيْعِ، وَهُوَ أَنْ يَزِيدَ فِي السَّلْعَةِ مَنْ لَا يَرِيدُ شَرَاءَهَا إِمَّا لِنَفْعِ الْبَائِعِ بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ لَهُ أَوْ بِإِضْرَارِ الْمُشْتَرِي بِتَكْثِيرِ الثَّمَنِ عَلَيْهِ. وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ ابْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّجَشِ»^(٢). وَقَالَ ابْنُ أَبِي أَوْفَى: (النَّاجَشُ أَكَلَ رَبَا خَائِنًا).

وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: (أَجْمَعُوا أَنْ فَاعِلُهُ عَاصٍ لِلَّهِ عَزَّ وَكَلَّ إِذَا كَانَ بِالنَّهْيِ عَالِمًا). مِثَالُ ذَلِكَ: عُرِضَتْ سَلْعَةٌ فِي السُّوقِ فَصَارَ النَّاسُ يَتَزَايِدُونَ عَلَيْهَا، فَقَامَ رَجُلٌ فَجَعَلَ يَزِيدُ فِيهَا وَهُوَ لَا يَرِيدُ الشَّرَاءَ... تَقْدَرُ بِمِائَةِ فَقَالَ: بِمِائَةِ وَعِشْرَةٍ وَهُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيَ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَزِيدَ الثَّمَنَ عَلَى الْمُشْتَرِي، أَوْ يَرِيدُ أَنْ يَنْفَعِ الْبَائِعَ فَيَزِيدَ الثَّمَنَ لَهُ أَوْ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا... فَهَذَا حَرَامٌ وَلَا يَجُوزُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْعَدْوَانِ... أَمَّا إِذَا زَادَ الْإِنْسَانُ فِي الثَّمَنِ عَنْ رَغْبَةٍ فِي السَّلْعَةِ؛ وَلَكِنْ لَمَّا ارْتَفَعَتْ قِيمَتُهَا تَرَكَهَا فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، فَإِنْ كَثُرًا مِنَ النَّاسِ يَزِيدُ فِي السَّلْعَةِ لِأَنَّهُ يَرَى أَنَّهَا رَخِيصَةٌ، فَإِذَا زَادَتْ قِيمَتُهَا تَرَكَهَا... فَهَذَا لَيْسَ عَلَيْهِ بَأْسٌ. كَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَزِيدُ فِي

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيمية، تحقيق وإعداد عبد الله بدران، ومحمد عمر الحاجي (ص ٢٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٤٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٥١٦) كتاب البيوع.

السلعة يريدوها ويزيد في ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيراً.

❁ وقوله ﷺ: «ولا تباغضوا» أي: لا يبغض بعضكم بعضاً، وهذه بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض ... فلا يجوز للإنسان أن يبغض أخاه أي: يكرهه في قلبه؛ لأنه أخوه، ولكن لو كان هذا الأخ من العصاة الفسقة، فإنه يجوز لك أن تبغضه من أجل فسقه... لا تبغضه بغضاً مطلقاً... لكن أبغضه على ما فيه من المعصية، وأحبه على ما فيه من الإيمان.

ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلاً مسلماً يشرب الخمر ويشرب الدخان ويجر ثوبه خيلاء، فإننا لا نبغضه كما نبغض الكافر.. فمن أبغضه كما يبغض الكافر فقد انقلب على وجهه... كيف تسوي بين مؤمنٍ عاصٍ فاسقٍ، وبين الكافر؟ هذا خطأ عظيم... ربما بعض الناس يكره المؤمن الذي عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر، وهذا والعياذ بالله من انقلاب الفطرة.

فالمؤمن مهما كان فهو خيرٌ من الكافر.

فأنت تبغضه على ما فيه من المعصية وتُحبه على ما معه من الإيمان، فإن قلت: كيف يجتمع حُبٌّ وكراهية في شيءٍ واحد؟ فالجواب: أنه يمكن أن يجتمع حُبٌّ وكراهية في شيءٍ واحد... رأيت لو أن الطبيب وصف لك دواءً مُراً مُتّين الرائحة، ولكنه قال: اشربه وسوف تشفى بإذن الله، فإنك لا تحب هذا الدواء على سبيل الإطلاق؛ لأنه مُرٌّ وخبيث الرائحة، ولكنك تحبه من جهة أنه سببٌ للشفاء، وتكرهه لما فيه من الرائحة الخبيثة والطعم المر.

هكذا المؤمن العاصي، لا تكرهه بالمرّة... بل تحبه على ما معه من الإيمان وتكرهه على ما معه من المعاصي.

ثم إن كراهتك إياه لا تُوجب أن تُعرض عن نصيحته.. بل اتصل به وانصحه، لعل الله أن ينفعه على يدك.. ولا تيأس فكم من إنسانٍ استبعد الناس

هدايته.. فهداه الله عز وجل^(١).

❁ قوله ﷺ: «ولا تدابروا» أقام الإسلام العلاقة بين أبناء مجتمعه على دعامتين أصليتين: أولاهما: رعاية الأخوة التي هي الرباط الوثيق بين بعضهم مع بعض.

والثانية: صيانة الحقوق والحُرُمات التي حماها الإسلام لكل فردٍ منهم من دمٍ وعرضٍ ومالٍ.

وكل قول أو عمل أو سلوك فيه عدوان على هاتين الدعامتين أو خدش لهما، يُحرِّمه الإسلام تحريمًا يختلف في الدرجة على حسب ما يَنجُم عنه من ضررٍ مادي أو أدبي.

ومن هنا حرَّم الإسلام على المسلم أن يجفو أخاه المسلم، ويُقاطعه، ويُعرض عنه... ولم يُرخص للمتشاحنين إلا في ثلاثة أيام حتى تهدأ نائرتهما، ثم عليهما أن يسعيا للصلح والصفاء والاستعلاء على نوازع الكبر والغضب والخصومة... فمن الصفات الممدوحة في القرآن ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ﷺ: « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ »^(٢).

وقال ﷺ: « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يُلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ »^(٣).

وتؤكد حُرمة القطيعة إذا كانت لذي رحم أوجب الإسلام صلته وأكد وجوبها ورعاية حرمتها... قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وصوّر الرسول ﷺ هذه الصلة ومبلغ قيمتها عند الله

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٦٠٠-٦٠١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٥٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٣٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

فقال: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ»^(١).
وقال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(٢).

وليست صلة الرحم الواجبة أن يكافئ القريب قريبه صلةً بصلةٍ، وإحساناً بإحسانٍ... فهذا أمرٌ طبيعي مفروض... إنما الواجب أن يصل ذوي رحمه وإن هجره... قال ﷺ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا»^(٣).

وهذا ما لم يكن ذلك الهجران، وتلك المقاطعة لله وفي الله وغضباً للحق، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

وقد هجر النبي ﷺ وأصحابه، الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك خمسين يوماً حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضائق عليهم أنفسهم، ولم يكن أحدٌ يُجالسهم أو يكلمهم أو يُحييهم، حتى أنزل الله في كتابه توبته عليهم^(٤).
وهجر النبي ﷺ نساءه شهراً كاملاً.

وهجر عبد الله بن عمر ابناً له إلى أن مات؛ لأنه لم يَنقَدْ لحديث ذكره له أبوه عن رسول الله ﷺ نهى فيه الرجال أن يمنعوا النساء من الذهاب إلى المساجد^(٥).

أما إذا كان الهجران والتشاحن لدنيا، فإن الدنيا لأهون على الله وعلى المسلم من أن يؤدي إلى التدابر وتقطيع الأواصر بين المسلم وأخيه.

كيف وعاقبة التماذي في الشحناء حرمان من مغفرة الله ورحمته.

قال ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٥) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٩٩١) كتاب الأدب.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

(٥) رواه أحمد (٦٠٦٦)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، «^(١)».

وَمَنْ كَانَ صَاحِبَ حَقٍّ فَيَكْفِي أَنْ يَجِئَهُ أَخُوهُ مُعْتَذِرًا، وَعَلَيْهِ أَنْ يَقْبَلَ اعْتِذَارَهُ وَيَنْهَى الْخَصُومَةَ ... وَيَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُ وَيَرْفُضَ اعْتِذَارَهُ، وَيُنْذِرُ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ الْحَوْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٢).

وُخْلاصة القول في الهجر: أنه لا يجوز لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ من أجل الدنيا ولا بد أن يصطلحا وإلا فسوف يأتيا.. وخيرهما الذي يبدأ بالسلام. أما إذا كان عاصيًا أو مُبتدعًا فيجوز لك أن تهجره من أجل أن تزجره عن البدعة أو المعصية إن كنت تعلم أن هجرك إياه سيرده إلى الحق والصواب.. وقد هجر النبي ﷺ وأصحابه الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك خمسين ليلة. أما إن كنت تعلم أن هجرك للعاصي أو المبتدع سيزيده عنادًا أو إصرارًا على البدعة أو المعصية فلا يجوز أن تهجره وعليك أن تُقدم له النصيحة بكل رفقٍ ورحمة.

❁ قوله ﷺ: «ولا يبيع بعضكم على بيع بعض»؛ لأن هذا يؤدي إلى الكراهية والعداوة والبغضاء. ومثال بيع الإنسان على بيع أخيه: أن يذهب لمن اشترى سلعة من شخصٍ بمائة فيقول: أنا أعطيك مثلها بثمانين، أو أعطيك أحسن منها بمائة فيرجع المشتري ويفسخ العقد الأول ويعقد مع الثاني... ففي هذا عدوان ظاهر على حق البائع الأول، وهذا العدوان يوجب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

ومثل ذلك الشراء على شرائه، مثل: أن يذهب إلى شخص باع سلعة بمائة

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة.

(٢) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوي (ص ٢٦٨-٢٧١) بتصرف كبير.

فيقول له: أنا أشتريها منك بمائة وعشرين، فيذهب البائع ويفسخ العقد ويبيع للثاني، فهذا أيضًا حرام؛ لأنه بمعنى البيع على البيع^(١).

❁ وقوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخوانًا» هذا ذكره النبي ﷺ كالتعليل لما تقدم وفيه إشارة إلى أنهم إذا تركوا التحاسد، والتناجش، والتباغض، والتدابر، وبيع بعضهم على بيع بعض كانوا إخوانًا.

وفيه أمرٌ باكتساب ما يصير به المسلمون إخوانًا على الإطلاق. وذلك يدخل فيه أداء حقوق المسلم من رد السلام وتشميت العاطس، وعيادة المريض، وتشيع الجنازة، وإجابة الدعوة، والابتداء بالسلام عند اللقاء، والنصح بالغيب.

❁ وقوله ﷺ: «المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ».

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

[الحجرات: ١٠].

فإذا كان المؤمنون إخوة أمرُوا فيما بينهم بما يُوجب تألف القلوب واجتماعها .. ونُهِوا عما يوجب تنافر القلوب واختلافها ... وهذا من ذلك.

وأيضًا فإن الأخ من شأنه أن يُوصل إلى أخيه النفع، ويكف عنه الضرر، الذي يجب كفه عن الأخ المسلم.. فلا يظلمه ولا يخذله أبدًا.

لأن المؤمن مأمورٌ أن ينصر أخاه كما قال ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصَرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ أَنْصَرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(٢).. ولا يحل له أن يكذب على أخيه المسلم

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٦٠٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) كتاب المظالم والغصب، و(٦٩٥٢) كتاب الإكراه.

بل لا يحدثه إلا صدقًا ، ولا يجوز احتقار المسلم لأخيه... فهو ناشئ عن الكبر كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١).

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال ، وإلى غيره بعين النقص فيحتقرهم ، ويزدريهم ، ولا يراهم أهلًا لأن يقوم بحقوقهم ولا أن يقبل من أحد منهم الحق إذا أورده عليه.

قوله ﷺ: «التَّقْوَىٰ هَا هُنَا» وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِّنَ الشَّرِّ أَن يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ. كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».

تم شرحه كاملاً في الحديث السابق فأرجو الرجوع إليه فأنا لا أريد أن أكرر شرح الحديث حتى لا أتعب أحبائي بكثرة التكرار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٤١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).

ورواه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: «لا يبلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير».

فهذا الحديث يدل على أن الإنسان لا يكمل إيمانه، حتى يتصف بهذا الوصف، وإن نفي الإيمان هنا المراد به نفي كماله، وبلوغ حقيقته ونهايته، فإن الإيمان قد يتتقي لانتفاء بعض أركانه وواجباته.. لأن الأعمال الصالحة من الإيمان وحصول الإخلاص بها يحصل به نقص الإيمان، كما أن وجود المعاصي

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٥) كتاب الإيمان.

يُنْقِصُهُ وَيُضْعِفُهُ .. كما قال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»^(١)... وكقوله ﷺ: «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(٢).

والحاصل أن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فإذا زال عنه هذا الوصف فقد نقص إيمانه بذلك... ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: «أَحَبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا»^(٣).

وفي هذا المعنى قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلَتَاتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِيَ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»^(٤).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»^(٥).
فهذا يدل على شدة نُصْحِهِ ﷺ وشفقته على أصحابه وأمته، ومحَبَّتِهِ الخير لهم... فهو ﷺ مُتَّصِفٌ بهذا، ويحب لكل مؤمن أن يتصف به، ولعله ﷺ عَلِمَ من أبي ذر رضي الله عنه عدم القدرة على القيام بأعباء الولاية، فنبَّهه على ذلك، وأرشده إلى عدم تولِّي أمور الناس، سلامة له من تَبَعَةِ الأمر، ومخافة أن يَضْعُفَ ﷺ عن القيام به، فيَقْصُرَ فيما أُنيط به، فيلحقه بسبب ذلك الإثم ... ولذلك لم يَقُلْ ﷺ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٧٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٥٧) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٦) كتاب الأدب، ومسلم (٤٦) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البيهقي في الشعب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٨٠).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤) كتاب الإمارة.

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٦) كتاب الإمارة.

ذلك في حق غيره من أصحابه الذين لهم قدرة وقوة على القيام بأعباء الإمارة، بل كان يوليهم ذلك ... والنبي ﷺ متصف بهذا فهو القائم بأمر المسلمين، وهو الذي يدبرهم في أمورهم الدينية والدنيوية؛ لأن الله قواه على ذلك، وأمره بدعوة الخلق إلى دين الإسلام، وولاه سياستهم الدينية والدنيوية.

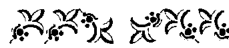
فمدار هذا الحديث، وهو قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» يدل على أن المؤمن يسوؤه ما يسوء أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريد لنفسه من الخير، وهذا إنما يحصل من سلامة الصدر من الغش والغل والحقد ... فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يُساويه فيه؛ لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله، وينفرد بها عنهم ... والإيمان الكامل يقتضي خلاف ذلك، وهو أن يحب أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير، من غير أن ينقص عليه منه شيء ... وقد مدح الله سبحانه في كتابه العزيز مَنْ لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد، فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

فينبغي للمؤمن أن لا يرى نفسه بعين الكمال، ويرى غيره بعين النقص، سواء فيما يتعلق بأمور دينه، أو غيرها، من خلق، أو خلق، أو علم، أو غير ذلك، فإذا رأى مَنْ هو فوقه في العبادة والطاعة تمنى أن يكون مثله ولا يحسده على ذلك ... وكذلك إذا رأى أهل المعاصي ينبغي له أن يخشى على نفسه أن يكون مثلهم، ولذا لا يتكبر عليهم، ولا يظن أن له منزلة عند الله أفضل منهم ... لأن الأعمال بالخواتيم، ولا يدري ماذا يُختم له به .. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، فيسأل الله الثبات على الحق، وينصح مَنْ رآه على معصية بنية تغيير المنكر، عملاً بقوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

فينصح لأخيه المسلم، بدون سبِّ، أو تعنيف، أو تنقُصٍ له.
فالمؤمن يأمره إيمانه، ويحمله على أن يكون في مساعدة أخيه المؤمن،
مساعدة بكل ما يقدر عليه... مساعدة بالمال والجاه.. مساعدة بالدعاء..
مساعدة بالنُصرة له إن كان مظلومًا.. مساعدة بمنعه من الظلم إن كان ظالمًا،
كما بيّن النبي ﷺ أن من نُصرة الظالم ردّه عن ظلمه.
وكما قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وشبكَ بين
أصابعه^(١).

فعلى المؤمنين مراعاة هذا الأصل، وأن يكونوا إخوانًا متراحمين، متحابين،
متعاطفين، يُحبُّ كُلُّ منهم للآخر ما يحب لنفسه، ويسعى في ذلك بكل جهده،
وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا... فإن مجموع البنيان من أساسات
وحيطان محيططة بجميع البنيان، وهناك حيطان تحيط بمنازل مخصوصة، وما
تضمنته من سقوف وأبواب ونوافذ ومنافع، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده،
لكن بانضمام بعضها لبعض يحصل المقصود من وقاية الحر، والقر، وصدّ
الرياح، والأتربة، وحصول الأمن، والاستقرار فيها، والخلوة، والستر عن أعين
الناس... فكذلك المؤمنون يحصل لهم كل ذلك إذا اتصفوا بهذا الوصف.
وبالجملة لا يكمل إيمانه إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ لأن المؤمنين
كما شبههم الرسول ﷺ كالبنيان يشد بعضه بعضًا.. وهم كالجسد الواحد، إذا
اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى^(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة.

(٢) من هدي المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (١٦٧-١٧٣) بتصرف كبير.

(٢٤٢) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْصُرْ أَهْلَكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصِرْهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ»^(١).

✽ إِنْ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَنْصُرَ الْمَظْلُومَ قَدْرَ اسْتَطَاعَتِهِ وَأَنْ يَحْرَصَ كُلُّ الْحَرَصِ عَلَى نَصْحِ الظَّالِمِ وَالْأَخْذِ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى يَكْفَى عَنِ الظُّلْمِ. فَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»^(٢) مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا نَصْرُ الْمَظْلُومِ فَمِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ... وَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ الْأَمْرُ بِهِ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَخَفْ ضَرَرًا»^(٣).

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ»^(٤).

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ الْعُلَمَاءُ الْخَذْلُ تَرْكُ الْإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ. وَمَعْنَاهُ: إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِي دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحْوِهِ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ إِذَا أَمْكَنَهُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عُدْرٌ شَرَعِي... (وَلَا يَحْقِرُهُ)... أَيْ لَا يَحْتَقِرُهُ فَلَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَصْغِرُهُ»^(٥).
فَفِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» بِسْنَدٍ صَحِيحٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) كتاب المظالم والغصب، و(٦٩٥٢) كتاب الإكراه.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٣٢/١٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٥) «شرح النووي على مسلم» (١٨٢/١٦).

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ وَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»^(١).

وأما متى يكون نصر المظلوم، فيكون قبل وقوع الظلم، وبعد وقوعه.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وَيَقَعُ النَّصْرُ مَعَ وَقُوعِ الظُّلْمِ وَهُوَ حِينَئِذٍ حَقِيقَةٌ... وَقَدْ يَقَعُ قَبْلَ وَقُوعِهِ كَمَنْ أَنْقَذَ إِنْسَانًا مِنْ يَدِ إِنْسَانٍ طَالَبَهُ بِمَالٍ ظُلْمًا وَهَدَّاهُ إِنْ لَمْ يَبْذُلْهُ وَقَدْ يَقَعُ بَعْدُ وَهُوَ كَثِيرٌ»^(٢).

✽ فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: «تَحْجِزْهُ أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنْ ذَلِكَ نَصْرُهُ» فهذا الرجل لم يقل: لن أنصره ولكن قال: أنا سأنصره ولكن أنصره وهو ظالم؟! فأخبره النبي ﷺ أنه إذا أراد أن ينصر ظالمًا فإنه ينصره على نفسه وذلك بأن تحجزه وتمنعه من الظلم؛ لأنك إن تركته فسوف يتعرض لعقاب الدنيا والآخرة.. وذلك بأن ينتقم منه أهل المظلوم.. هذا غير ما ينتظره من العذاب يوم القيامة... فقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فسوف يقتص الله منه للمظلوم ويُعطيه من حسناته بقدر مظلُمته.. وليس المراد بالظلم: القتل فقط فأنواع الظلم كثيرة جدًا.. فإن منعت الظالم من ظلمه فقد نصرته وأنقذته من عذاب الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

(٢) «فتح الباري» (٩٩/٥).

(٢٤٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ»^(١).

وفي رواية لمسلم: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدِ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ. وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

✽ وقبل أن أبدأ الحديث عن حقوق الأخوة في الله أريد أن أذكر نفسي وإخواني بأن الواحد منا إذا قام بتلك الحقوق كلها ولم تكن صحبته لأخيه خالصة لوجه الله، فقد خاب سعيه وفسد عمله؛ ولذلك لابد أن نستحضر النية الصالحة أولاً بأننا نحب إخواننا ونصحبهم ونقوم بحقوقهم ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا) لنفوز في الدنيا والآخرة.

فإن الأخوة في الله لا تكون مقبولة عند الله حتى تكون مجردة من أي نفع، ومن أي مآربٍ خاص، وإنما لله، وفي الله، وعلى طاعة الله.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرَصَدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تَرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ نِعْمَةٌ تَرْبُّهَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا.. غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْبَبَكَ، كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»^(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَجِدَ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ، فَلْيَحِبِ الْمَرْءَ لَا يَحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) حسن: رواه أحمد، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أوثق عُرى الإيمان: الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»^(١).

فاجعل أخى في الله حُبكَ لأخيك خالصاً لله غير منتظر أي مصلحة من وراء هذا الحب فذلك من كمال التوحيد.

ففي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أول الحقوق: أن تبدأ أخاك بالسلام إذا لقيته.. وإذا بدأك هو بالسلام فلا بُدَّ أن ترد عليه السلام.

فقد قال ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ» يعني: إذا سلم عليك أن ترد عليه السلام.. وفي الحديث الثاني: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ: إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ» أي: ابدأ أنت بالسلام عليه.

فهذان أمران: ابتداء السلام المأخوذ من قوله: «إذا لقيته فسلم عليه»، و رَدُّ السلام المأخوذ من قوله: «رَدُّ السلام»، فابتداء السلام سنة مؤكدة. و رَدُّه فرض... فرض عينٍ على مَنْ قُصِدَ به... وفرض كفاية إذا قُصِدَ به جماعة، فإنه يجزئ رَدُّ أحدهم.

❖ السلام.. هو الأمان والاطمئنان.. وهو أقصى ما يتمناه الإنسان.. وغاية ما ترجوه البشرية.. في حين أن الإسلام الحنيف، منذ أربعة عشر قرناً قد مجَّد السلام وكرَّمه.. ثم حققه ونشره.. وغرسه في قلوب أتباعه وأنصاره.. حتى ظهر على أقوالهم.. وفي كل أعمالهم.

السلام.. قدَّمه رب العالمين (جل وعلا)، فجعله اسماً من أسمائه الحسنى... فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣] وسمَّى الجنة التي هي عاقبة المتقين «دار السلام» فقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وفي الحديث: «السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ

(١) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٣٩).

أَسْمَاءِ اللَّهِ، وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشَوْهُ بَيْنَكُمْ»^(١).

وجعله رب العالمين تحية لآدم أبى البشر... وزفّتها إليه ملائكته الأطهار، وصارت تحية ذريته من بعده. قال ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ هَازِلًا أَدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفَرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيِيُونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: فَذْهَبَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، قَالَ فَرَاذُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ، قَالَ: فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ أَدَمَ وَطُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ»^(٢).

بل وجعله سبحانه وتعالى تحية أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠] والملائكة يحيونهم في الجنة بالسلام، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾^(٣) سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿الرعد: ٢٣﴾ [٢٤] ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وحين جاءت الملائكة بالبشرى لخليل الرحمن ﷺ، حيوه بالسلام، ﴿هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾^(٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴿[الذاريات: ٢٤، ٢٥] ووصف سبحانه أعظم ليلة وأفضلها وأكرمها (ليلة القدر) بأنها ليلة السلام... فقال سبحانه: ﴿سَلِّمْ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤].

وكرر سبحانه السلام على أنبيائه ورسله تكريماً لذكرهم، وتخليداً لأعمالهم وتعريفاً بفضلهم، فقال سبحانه: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، وسَلِّمْ عَلَى يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ﷺ فقال: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

(١) صحيح: رواه البزار، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة.

❁ فيا أيها المسلمون الأفاضل:

إن ربكم السلام.. ورسولكم هو نبي السلام.. وقرآنكم هو كتاب السلام..
وتحيتكم هي السلام.. وإن مسعاكم إلى الجنة دار السلام.. وإن رسالتكم هي
رسالة السلام.. فأشعروا أنفسكم روح السلام.. ليعمكم ربكم بنعمة السلام....
ورسولنا وحبينا محمد ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة، ووصل إلى هناك،
وضع دستورَه هناك.. لكن ماذا كان هذا الدستور؟

لقد كان دستورًا عظيمًا موجزًا.. لكنه يعطى الأمان والحب والإخلاص..
خطب يومها خطبة.. لم تكن ساعة ولا ساعتين.. وإنما كانت دقائق معدودة...
وهذا هو الصحابي الجليل عبد الله بن سلام ﷺ يحكي ماذا قال النبي ﷺ..
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَكُنْتُ فِي مَن
انْجَفَلَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ.. فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ
يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ،
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١).

والسلام يعمق جذور الحب بين المسلمين، ويدخل الطمأنينة على الخائف
منهم... قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا
أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(٢).

فإذا أردت أن تفعل أعظم وأفضل ما جاء به هذا الدين العظيم فعليك
بإطعام الطعام، وإفشاء السلام... قال النبي عليه الصلاة والسلام عندما جاءه
رجل، فقال له: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام» قال الرجل: ثم ماذا؟
فقال ﷺ: «أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

وإذا أردت أخي الحبيب أن تدخل دار السلام، فعليك بكثرة إفشاء السلام...
وإذا أردت أن تملأ صحيفتك بالحسنات، وأن تُرفع لك الدرجات، فأفشِ
السلام. وذلك لأنه أعظم للأجر والثواب... وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:
السلام عليكم، فقال النبي ﷺ: «عشر». وجاء آخر فقال: السلام عليك ورحمة
الله، فقال النبي ﷺ: «عشرون» وجاء ثالث فقال السلام عليكم ورحمة الله
وبركاته، فقال النبي ﷺ: «ثلاثون»^(١). يقصد بذلك الحسنات، فكلما كان السلام
أكمل كلما كان الأجر أعظم.

✽ قال ابن حبان البستي: «والبادئ بالسلام بين حستين، إحداهما.
تفضيل الله ﷻ إياه على المسلم عليه بفضل درجة، لتذكيره إياهم بالسلام،
وبين ردّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرد.

ثم قال: الواجب على المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يُسلم عليه مبتسماً
إليه، فإن من فعل ذلك تتساقط عنهما خطاياهما كما يتساقط ورق الشجر في
الشتاء إذا ييس، وقد استحق المحبة من أعطاهم بشر وجهه»^(٢).

ولذلك فإننا إذا أفشيننا السلام تحاببنا، واجتمعت كلمتنا، وقهرنا عدونا، وعلونا
عليهم، وكانت لنا الرفعة عند الله تعالى... فإن أعداءنا يحسدوننا على هذه التحية،
وهذا الأدب الرفيع، الذي علمه لنا رسولنا ﷺ... فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله
ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين»^(٣).

لذا حرص السلف الصالح (رضوان الله عليهم) على إفشاء السلام...
فقد روى مالك في الموطأ بإسناد صحيح عن الطفيل بن أبي بن كعب أنه
كان يأتي عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٧١٠).

(٢) روضة العقلاء لابن حبان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٣).

قال: فإن غدونا إلى السوق، لم يمر عبد الله على صاحب بيعة، ولا مسكين، ولا أحدٍ إلا سلّم عليه. قال الطفيل: فجئت عبد الله ابن عمر يومًا، فاستبعتني إلى السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق، وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟ فقال له: يا أبا بطن - وكان الطفيل ذا بطنٍ - إنما نغدو من أجل السلام، فنسلم على من لقيناه^(١).

✽ أما إذا كان المسلم في حالة خصام مع أخيه وقد هجره فله ألا يُسلم عليه .. فقد أجاز النبي ﷺ للمسلم أن يهجر أخاه ثلاثة أيام فأقل ... لأن الإنسان بشرٌ.. فقد يكون في النفوس شيء، ولا يتحمل المرء أن يُسلم عليه، أو أن يرد السلام، فرخص له ثلاثة أيام فأقل ... ثم يتصالحا بعد ذلك.

هذا إذا كان الهجر من أجل أمرٍ من أمور الدنيا .. أما الهجر الشرعي لأهل البدع والمعاصي فيجوز أن تهجرهم من أجل زجرهم عن البدع والمعاصي إن كنت تعلم أن الهجر سيكون سببًا في تركهم للبدع والمعاصي أما إذا تيقنت أن الهجر سيزيدهم عنادًا وفسادًا فلا يجوز هجرهم حينئذٍ.

✽ ولا بد أن نعلم أن السلام حسنة من الحسنات إذا قام به الإنسان فله عشر أمثاله؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، يعنى إذا سلمت على أخيك وقلت: السلام عليك، فلك عشر حسنات أجرًا باقياً تجده أحوج ما تكون إليه.

ونحن نعلم أنه لو قيل لشخص كلما لقيت أحدًا فسلمت عليه فلك بكل تسليمة درهم واحد، لو جدت الإنسان يطلب الناس ليسلم عليهم ابتغاء هذا الدرهم الواحد.. مع أن الدرهم الواحد يفني ويزول، والأجر والثواب يبقى.

هذا كله بالنسبة للمسلمين .. أما غير المسلمين فلا تبدأهم بالسلام لأن النبي ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا وجدتموهم في طريق فاضطروهم

(١) رواه مالك في الموطأ (٢/ ٣٥٩) رقم (٦).

إلى أضيقه»^(١) فاليهودي والنصراني والمشرِك والملحد والمُرتد، والمبتدع بدعة يكفُرُ بها... كل هؤلاء لا يحل ابتداء السلام عليهم، ولو كانوا أقرب الناس إليك، لكن إذا سلموا فَرُدَّ عليهم بمثل ما سلموا به، إذا قالوا: أهلاً ومرحباً، فقل: أهلاً ومرحباً، وإذا قالوا: السلام عليكم، قل: وعليكم السلام، وإذا شككت: هل هو يقول: السلام عليكم، أويقول: السام عليكم، فقل: وعليكم... وذلك لأن اليهود كانوا يمرون بالنبى ﷺ وأصحابه فيسلمون عليه لكن يقولون: السام عليكم يدغمونها.. والسام يعني: الموت، فقال النبى ﷺ: «إن اليهود إذا لقوكم قالوا: السام عليكم، فقولوا: وعليكم»^(٢) أي: إن كانوا يدعون لنا بالسلام فعليهم السلام، وإن كانوا يدعون علينا بالموت فعليهم الموت، وهذا من العدل^(٣).

✽ وأما الحق الثاني فهو عيادة المريض:

تالله إن الأجساد لا تشعر بآلامها عندما ترى إخواناً في الله يحيطون بها.. بل إن الأحزان والأشجان تذهب برؤيتهم.

وعيادة المريض لها فضل عظيم عند الله (جل وعلا).. قال ﷺ: «ما من مسلم يعود مسلماً غُدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي وإن عاده (أى زاره) عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وكان له خريف في الجنة»^(٤).

وفى رواية: «مَنْ عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه مُنادٍ: أَنْ طِبْتَ وطاب ممِّشاك وتبَّأت من الجنة منزلاً»^(٥).. فإِلاَّه من أَجر لا يَنْبَغى أَنْ يفرط فيه كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر.. وإِلاَّه من حياة طيبة حينما يجد المريض إخوانه المسلمين

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٤) كتاب السلام.

(٣) شرح رياض الصالحين (١/٦٠٧-٦٠٨) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٧).

(٥) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٨٧).

حوله يدعون له وينشغلون بحياته وصحته ويذكرونه بأن المرض نعمة من عند الله .. فبذلك يثبت أمام فتنه المرض التي لا يثبت أمامها إلا أهل الإيمان.

وفي الحديث التالي يتبين لك ما لعيادة المريض من أجر عظيم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»^(١).

ونظرًا لخطورة عيادة المريض وعظم ثوابها، فإن من أهل العلم مَنْ يُوجبها، ودليلهم: حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض»^(٢)، وفكّوا العاني»^(٣)»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) استدل أهل العلم بذلك على مشروعية العيادة في كل مريض، رجلاً كان أو امرأة، كبيراً أو صغيراً، مسلماً أو كافراً، أيّاً كان مرضه. انظر «فتح الباري» (١٠/ ١١٧).

قلت: وتجوز عيادة المرأة للرجل الأجنبي إذا أمنت الفتنة، ولم تكن هناك خلوة، ولا يتوقع من تلك الزيارة شرٌّ أو فساد... وقد زارت أم المؤمنين عائشة بلالاً رضي الله عنه كما في البخاري (٦٣٤٩)، ومسلم (٢٦٨١)، وأما زيارة الكافر فقد زار رسول الله ﷺ اليهودي كما في البخاري (٥٦٥٧)، وزار عمه أبا طالب وهو مشرك كما في زاد المعاد (١/ ٤٩٤)، وأما عيادة الفاسق أو المبتدع، ومن على شاكلتهما فقد قال العسقلاني: «الصحيح الجواز؛ لأنه مسلم، والعيادة من حقوق المسلمين، وهذا غير حكم المخالطة» انظر «فضل الله الصمد» (١/ ٦٢٦).

(٣) العاني: الأسير.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٦٤٩) كتاب المرضى.

وقد ترجم الإمام البخارى للباب بقوله: (باب وجوب عيادة المريض):

قال الإمام ابن حجر: «جزم بالوجوب على ظاهر الأمر بالعيادة... قال ابن بطال: يُحتمل أن يكون الأمر على الوجوب بمعنى الكفاية: كإطعام الجائع، وفك الأسير، ويُحتمل أن يكون للندب، للحث على التواصل والألفة.

❁ وأما عن الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسلم عند عيادة المريض فهي:

(١) إخلاص النية لله (جل وعلا): وذلك بأن يبتغى وجه الله بتلك الزيارة ليفوز بهذا الأجر العظيم المترتب على عيادته للمريض.

(٢) اختيار الوقت المناسب لعيادته:

بمعنى أن لا يزوره في وقت يسبب له أى إرهاق أو مشقة.

(٣) أن يُصبره ويُذكره بالله (جل وعلا):

وذلك بأن يُذكره بالأجر والثواب المذكور في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ للصابرين على المرض والراضين بقضاء الله (جل وعلا).

- وأنه إذا صبر فإنه قد يفوز بمعية الله ومحبه فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- وأنه إذا صبر فإنه يفوز بالأجر الذى لا يخطر على قلب بشر فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(٤) ويسأله عن حاله تأنيساً له... فعن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على

شباب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك؟»^(١)

(٥) والمستحب لمن عاد المريض: أن يسأل عن حاله كيف أنت .. وعن

عبادته: كيف تتوضأ، كيف تصلى وعن معاملاته: هل لك حقوق على الناس، أو هل للناس حقوق عليك.

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى في الصحيحة (١٠٥١).

(٦) يفتح له باب الأمل: فمثلاً إذا جئت مريضاً وقلت له: أنت اليوم أحسن من أمس، حتى وإن لم يكن أحسن من جهة المرض لكن تقول: أحسن من أمس؛ لأنك زدت خيراً، ما بين أمس واليوم صليت خمس صلوات، استغفرت، هَلَلْتَ، كذلك زاد أجرك بالمرض... وذلك حتى يُدخل عليه السرور^(١).

(٧) يشنى على المريض بمحاسن أعماله:

وذلك بما يُذهب عنه خوفه، ويُحسن ظنه بربه ﷻ.

(٨) يَقْص عليه بعض القصص الجميل:

وذلك؛ لأنه مدعاة لإدخال السرور عليه.

(٩) يُذكره بقصص مَنْ ابْتُلِيَ قبله من الأمم السابقة ومن سلفنا الصالح.

(١٠) يُذكره بأن الفرج قريبٌ جداً وقد يأتي من حيث لا يحتسب.

(١١) عيادة المريض في وقتٍ لا يشق عليه:

فلا يذهب للعيادة في وقتٍ مبكر جداً، أو متأخر جداً، فإن المريض قد يكون نائماً، أو نحو ذلك.. فالأفضل الذهاب في الأوقات التي اعتاد الناس عيادة المريض فيها، ويكون فيها المريض متهيئاً لاستقبال زواره.

(١٢) سؤال أهل المريض عنه وعن صحته:

فإن ذلك مما يجبر خاطرهم، ويُسكن قلوبهم.

(١٣) القعود عند رأس المريض:

وهذا من السنة... فإن النبي لما عاد الغلام اليهودي الذي كان يخدمه قعد عند رأسه^(٢) وهذا فيه إراحة للمريض وإيناس له، كما أنه يجعل العائد في وضع يسمح له بوضع يده على رأس المريض لرقيته، أو ليمسك بيده، أو نحو ذلك.

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤، ٣٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٣٥٦) كتاب الجنائز.

(١٤) تبشير المريض بثواب المريض:

فإن ذلك مما يُهَوِّنُ عليه المرض، ويُطِيبُ خاطره، ويُعينه على الرضا بقضاء الله، ويرفع روحه المعنوية، ويُذكره بثواب الصبر على المرض.

(١٥) نهى المريض عن التسخط وسب المرض:

فإن المريض قد يتسخط على القضاء، وحينئذٍ يُنهي عن ذلك كما سبق، ويُذَكَّرُ بالصبر.

(١٦) النصح للمريض بعدم الشكوى مُتَسَخِّطًا:

فإن مَنْ اشتكى مُتَسَخِّطًا فإنه يشكو الله إلى الخلق... والله أرحم به من نفسه، وهل يُغْنِي عنه الخلق شيئًا؟

(١٧) نهى المريض عن تَمَنَّى الموت:

إذ إن كثيرًا من الناس يتمنى في مرضه - إذا كان شديدًا - أن يموت، ولا يدرى أن المرض كفارة لذنوبه، وأن الموت فيه انقطاع عمله، وأنه إن يُؤَخَّرَ فلعله يُسْتَعْتَبُ ويتوب.

(١٨) تذكير المريض بإحسان الظن بالله تعالى:

لأنه قد يموت في مرضه ذلك، فينبغي أن يُحَسِّنَ الظن بالله عَزَّوَجَلَّ وَيُغْلِبَ الرجاء على الخوف.

(١٩) تذكيره بالوصية:

حتى لا يموت على غير وصية، فإنه ينبغي للمسلم أن تكون وصيته جاهزة على الدوام.

(٢٠) وصية أهله بالصبر على خدمته والإحسان إليه:

وقد ذكر ذلك الإمام النووي رحمته الله وغيره، وهو من الأدب الواجب الاهتمام به... فإن أهله قد يستثقلونه، وخصوصًا إذا طال مرضه، أو اشتد وشقَّ عليهم خدمته، أو كان مرض موت.

(٢١) تكرار الزيارة مرارًا :

وخصوصًا إذا طال مرضه، واشتد، فإنه يحتاج إلى أن يشعر بدوام سؤال الناس عنه، وعدم نسيانهم له، فإن هذا يُطيب نفسه جدًّا، ولعله يشفى - إن شاء الله - إذا تحسنت حالته النفسية.

(٢٢) استحباب طلب الدعاء من المريض... قال النبي ﷺ: «إذا دخلت على مريض فمُرّه أن يدعو لك فإن دعاءه كدعاء الملائكة»^(١).

(٢٣) عدم إكراه المريض على الطعام بل بالرفق واللين.

قال رسول الله ﷺ: «لا تُكروهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يُطعمهم ويسقيهم»^(٢).

(٢٤) حَثُّ المريض على التداوى إن كان لا يهتم بصحته.

عن أسامة بن شريك قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: «نعم يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً إلا داءً واحدًا» قالوا: يا رسول الله، وما هو؟ قال: «الهَرَم»^(٣).

(٢٥) يدعو للمريض ويرقيه بالأدعية والرُقَى الواردة عن النبي ﷺ.

(٢٦) ولا تُطِيلَ الجلوس عنده؛ لأنه ربما يَمَلُّ... لأن حال المريض غير حال الصحيح، فربما يمل، ويحب أن تقوم عنه، ليأتى إليه أهله وما أشبه ذلك... ولكن إذا رأيت أن المريض مستأنس بك، ويفرح أن تبقى، وأن تُطِيلَ الجلوس عنده، فهذا خير ولا بأس به وهذا ربما يكون سببًا في شفائه؛ لأن من أسباب الشفاء إدخال السرور على المريض^(٤).

(١) ضعيف جدًا: رواه ابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٨٧) وقال: ضعيف جدًا.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٣٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٠).

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤).

(٢٧) تذكير المريض بالتوبة والوصية والخروج من المظالم: على أن يكون ذلك على وجه لا يزعج المريض رفقا به، وأن يُذكره بحسن الظن بالله ﷻ، ويؤمله بالدعاء، وبإتمام أعماله الصالحة ... ففي حديث سعد دعا له النبي ﷺ وقال: «اللهم اشفِ سعدًا، وأتم له هجرته»^(١).

(٢٨) وإذا أردت أن تقوم واستأذنت تقول: أتأذن لي. فإن هذا أيضًا مما يسره؛ لأنه ربما يود أن تبقى فلا يأذن لك ... ثم احرص على أن توجهه إلى فعل الخير في هذا المرض. وقول الخير في هذا المرض، فتقول: قد يقدر الله المرض على الإنسان فيكون خيرًا له، فيتفرغ للذكر ولقراءة القرآن وما أشبه ذلك لعله يتبه ويكون لك مثل أجره^(٢).

❁ أما الحق الثالث: فهو اتباع الجنائز:

إن الله كتب الموت على جميع الخلائق ... ولذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وإن المؤمن يذكر الموت دائمًا لأنه موعد لقاء الحبيب وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه (جل وعلا)، ولذا تراه يشاق إلى الموت ليخرج من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين.. ولذا قال معاذ بن جبل رضي الله عنه عند موته: حبيبٌ جاء على فاقة.

فذكر الموت يجعل العبد دائمًا في طاعة الله، ومن ثم يقوده إلى حُسن الخاتمة.

❁ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا ذكرَ هاذمِ اللذات:

الموت»^(٣)

❁ فإن مات مسلمٌ فله حَقٌّ على إخوانه المسلمين وذلك بأن يشهد جنازته من استطاع منهم... ومن أجل أن يحرص كل مسلم على شهود الجنازة فقد

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٥٩) كتاب المرضى، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٥).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢١٠).



أَجْزَلَ اللَّهُ لَنَا الثَّوَابَ عَلَى ذَلِكَ.

فَقَدْ قَالَ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانٌ». قِيلَ: وَمَا الْقِيرَاطَانُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ» وَفِي رَوَايَةٍ: «أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ»^(١) وَهَذَا فَضْلٌ عَظِيمٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.

وَلَمَّا بَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ: لَقَدْ فَرَطْنَا فِي قَرَارِيطٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَرَى جَنَازَةً إِلَّا تَبِعَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَأَنَّ هَذِهِ غَنِيمَةٌ.

غَنِيمَةٌ أَنْ يُحْصَلَ الْإِنْسَانُ مِثْلَ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ فِي عَمَلٍ يَسِيرٍ، وَهَذَا الْأَجْرُ مَتَى يَلْقَاهُ؟ يَلْقَاهُ فِي يَوْمٍ هُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ ... فِي يَوْمٍ لَيْسَ عِنْدَهُ دَرَاهِمٌ، وَلَا دِينَارٌ وَلَا مَتَاعٌ، وَلَا قَرَابَةٌ وَلَا زَوْجَةٌ تَنْفَعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا الْعَمَلُ الصَّالِحُ، فَهُوَ إِذَا تَبَعَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا، ثُمَّ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانٌ مِثْلَ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ أَصْغَرُهُمَا مِثْلُ أُحُدٍ.

وَشُهُودُ الدَّفْنِ لَهُ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ .. فَإِنَّهُ كَلَّمَا كَثُرَ الْمَشِيعُونَ كَثُرَتِ الدَّعَوَاتُ الصَّالِحَاتُ لِلْمَيِّتِ .. وَلِذَا كَانَ الْحَبِيبُ ﷺ إِذَا حَضَرَ جَنَازَةً كَانَ يُوَصِّي أَصْحَابَهُ بِكَثْرَةِ الدَّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ لِأَخِيهِمُ الَّذِي تُوفَى فِيَقُولُ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُّوا لَهُ التَّثْنِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(٢) .. وَلَكَ أَنْ تَتَخِيلَ هَذَا الْمَشْهَدَ الْإِنْسَانِي عِنْدَمَا يَجِدُ أَهْلَ الْمَيِّتِ أُنَاسًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ يَأْتُونَ إِلَيْهِمْ وَيَحْضُرُونَ صَلَاةَ الْجَنَازَةِ وَالدَّفْنَ وَيَدْعُونَ لِقَرِيبِهِمُ الَّذِي مَاتَ .. هُنَا يُسْأَلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مَا الَّذِي جَاءَ بِهِمْ؟! وَسَيَأْتِيهِ الْجَوَابُ فِي التَّوَالُفِ وَاللَّحْظَةِ .. إِنَّهَا الْأُخُوَّةُ وَالْمَحَبَّةُ فِي اللَّهِ الَّتِي جَمَعَتْ الْقُلُوبَ عَلَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

❁ وَيَنْبَغِي لِمَنْ اتَّبَعَ الْجَنَازَةَ أَنْ يَكُونَ خَاشِعًا بَاكِيًا مُتَّفَكِّرًا فِي مَالِهِ وَمَصِيرِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنْ يُسْأَلَ نَفْسَهُ: مَاذَا سَيَكُونُ مَصِيرُكَ بَعْدَ الْمَوْتِ.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٢٥) كِتَابُ الْجَنَائِزِ، وَمُسْلِمٌ (٩٤٥) كِتَابُ الْجَنَائِزِ.

(٢) صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٤٧٦٠).

وعليه أن يتذكر أنه إذا مات فسوف يُحمل على الأعناق كما حدث لمن كان قبله وكما سيحدث لمن سيأتي بعده .. وأن أقرب الناس إليه وأحب الناس إليه سوف يضعه في قبره بنفسه ويتركه وحده ليلقى مصيره ويجني ثمرة ما قدمه في هذه الحياة الدنيا .. إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا رأى أحدًا يحمل جنازة يقول لها: امضي إلى ربك فَإِنَّا عَلَىٰ إِثْرِكَ مَا صُون.

وكان مكحول الدمشقي يقول إذا رأى جنازة: اغدوا فَإِنَّا رَائِحُونَ، موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول والآخر لا يعتبر.

وكان ثابت يقول: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا مُتْلَفَعًا بَاكِيًا. وذلك لأنهم كانوا يتذكرون جنازة أنفسهم، فلا يكون على الميت، ولكن على أنفسهم.

فجديرٌ بمن الموت مصرعه، والقبر مضجعه، والدود أنيسه، ومُنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة مواعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في ذلك، ولا استعداد إلا له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

قال بعض السلف: إنما تقول الملائكة ذلك لمن طال خوفه من الله عز وجل وحزنه مما فرط منه، أما مَنْ لم يخف الله عز وجل ولم يحزن على ما فاتته من الخير فلا يُقال له شيء من ذلك ^(١).

ولهذا قال العلماء: يُكره للإنسان المتبع للجنازة أن يتحدث في شيء من أمور الدنيا أو أن يتبسم ويضحك.

(١) مستفاد من رسالة (من أخلاق السلف) للدكتور/ أحمد فريد (حفظه الله).

فإذا وصلت إلى القبر لدفن الميت فاحرص على أن تتخيل نفسك أنك أنت الذي سيُدفن الآن وأنت ستُسأل في قبرك: مَنْ ربك؟ ما دينك؟ مَنْ نبيك؟ وأنه لن يُثبتك في الإجابة على تلك الأسئلة إلا الله (جلّ وعلا) الذي قال في كتابه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فتذكر نفسك وأنت في تلك الحفرة المظلمة وحدك لا أنيس لك ولا جليس إلا عملك الصالح أو عملك الطالح. وأنت لا بد أن تستعد لتلك اللحظة الحاسمة التي تنزل فيها إلى قبرك بإخلاص التوحيد لله وكثرة العمل الصالح وحُسن الظن بالله والتحلُّل من المظالم لتنجو في تلك اللحظة الحاسمة. ويا ليتك تُحدث الناس من حولك عند القبر وتخبرهم بما قاله النبي ﷺ لأصحابه حينما خرج في جنازة رجل من الأنصار، فانتهى إلى القبر ولَمَّا يُلحَد، فجلس عليه الصلاة والسلام وحوله أصحابه، وفي يده مخرصة... أي: عود ينكت به الأرض، يعتبر (عليه الصلاة والسلام) ويتفكر ويحدث أصحابه بما يكون عند الاحتضار، وعند الدفن، حتى يكون جامعاً بين الموعظة وبين تشييع الجنازة. فمن المشروع أن يقوم أحد المشيعين بإلقاء موعظة أثناء الدفن بقصد تذكير الحاضرين بالموت وما بعده.

على أن لا يكون ذلك سنة وعادة وكأنه من مُتممات الدفن... وذلك لأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك أحياناً لكنه لم يداوم على ذلك.

✽ أما الدليل على إلقاء الموعظة عند القبر أثناء الدفن فإن ذلك يتضح من خلال حديث البراء بن عازب رضي الله عنه حيث قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهنا إلى القبر ولَمَّا يُلحَد، فجلس رسول الله ﷺ مُستقبل القبلة وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثاً،

فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين، أو ثلاثاً - ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر» ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط^(١) من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت^(٢)»^(٣)... إلى آخر الحديث.

فإذا شرعوا في الدفن فينبغي للإنسان أن يشارك في الدفن، بأن يحثو بيديه ثلاث حثيات ثم ينصرف، وإن شاء شارك إلى انتهاء الدفن.

فإذا فرغوا من دفنه وقف عليه... وإذا كان مُطاعاً كالعالم، قال للناس: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل، فإن النبي ﷺ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل».

فإن الميت إذا أُغلق عليه قبره وسُوي عليه التراب يبدأ الملكان في سؤاله.. فأما المؤمن فيثبته الله فيجيب وأما الكافر فلا يستطيع أن يجيب.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ، إِذَا وَضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ» قَالَ: «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟» قَالَ: «فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» قَالَ: «فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ».

قال نبي الله ﷺ: «فَبَرَأَهُمَا جَمِيعًا»^(٤).

(١) ما يُخلط من الطيب - العطر - لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة.

(٢) قلت: هذا هو اسمه في الكتاب والسنة (ملك الموت) وأما تسميته (بغزرائيل) فمما لا أصل له خلافاً

لما هو المشهور عند الناس ولعله من الإسرائيليات!

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٣٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٨٧٠) كتاب الجنة.

«وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنُومَةَ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يَوْقُظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِمْ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»^(٢).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين في شرح الواسطية: ورد في بعض الآثار أن اسمهما منكرٌ ونكيرٌ... وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين، وقالوا: كيف يُسمَّى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف الثناء بهذين الاسمين المنكرين... وضعفوا الحديث الوارد في ذلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة، وأن هذه التسمية ليس لأنهما مُنكران من حيث ذواتهما، ولكنهما من حيث إن الميت لا يعرفهما وليس له بهما علمٌ سابق... وقد قال إبراهيم عليه السلام: «لَأُضَيِّفَهُ الْمَلَائِكَةَ: قَوْمٌ مُنْكَرُونَ» ✽ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ✽ [الذاريات: ٢٥]؛ لأنه لا يعرفهم.

فهذان منكرٌ ونكيرٌ؛ لأنهما غير معروفين للميت.. ثم هذان الملكان، هل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٧٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٨٧٠) كتاب الجنة.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤).

هما ملكان جديدان موكلان بأصحاب القبور، أم هما الملكان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟!

منهم مَنْ قال: إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء، فإنَّ لكلِّ إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هذه الأسئلة الثلاثة، ومنهم مَنْ قال: بل هما ملكان آخران... والله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] والملائكة خلقٌ كثيرٌ... قال: فالمهم أنه لا غرابة أن ينشئ الله تعالى لكل مدفون ملكين يرسلهما إليه، والله على كل شيء قدير^(١).

❁ أما الحق الرابع: فإجابة الدعوة:

ولك أن تتخيل أن أخاك في الله على الرغم من كثرة مشاغله فإنه يأتي إليك إذا دعوته فتعلم أن لك قدرًا ومنزلة عنده... وذلك يجعل المحبة تزداد يومًا بعد يوم.. فهو يُشاركك في أفراحك وأحزانك فيجعلك تشعر بأخوة الإسلام.

❁ روى مسلم في «صحيحه» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دُعِيَ أحدكم إلى طعام فليُجب، فإن شاء طعم وإن شاء ترك».

❁ وفي رواية له أيضًا: «إذا دعا أحدكم أخاه فليُجبه عُرْسًا كان أو نحوه»^(٢).

فمن حق المسلم على أخيه إذا دعاه أن يجيبه... والإجابة إلى الدعوة مشروعة بلا خلاف بين العلماء فيما نعلم، إذا كان الداعي مسلمًا، ولم يكن مُجاهرًا بالمعصية، ولم تكن الدعوة مشتملة على معصية لا يستطيع إزالتها، ولكنها لا تجب عند جمهور العلماء إلا في دعوة العُرس.

ولكن هذا الوجوب مشروط بشروط:

(١) أن تكون «وليمة مسلم»: لقوله ﷺ: «إذا دعا أحدكم أخاه».

فإن كان الداعي غير مسلم فلا تجب الإجابة، بل ولا تُشرع الإجابة، إلا إذا

(١) شرح الواسطية (٣٤٠-٣٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٣٠) كتاب النكاح.

كان في ذلك مصلحة، فإذا كان في ذلك مصلحة كرجاء إسلامه، والتأليف فلا بأس بإجابة غير المسلم؛ لأن النبي ﷺ أجاب دعوة المرأة اليهودية التي دعتة إلى الطعام بعد خير.

وقال بعض أهل العلم: إن إجابة دعوة الكافر جائزة إلا فيما يقصد به الشعائر الدينية فإنها تحرم الإجابة إليه مثلما في أعيادهم ..^(١).

قلت : وعلى هذا فلا يجوز أن يجيب دعوتهم إذا كانت في كنائسهم. وأما إذا كان الداعي مسلماً مجاهرًا بالمعاصي فإن إجابته ليست واجبة .. ولكن إن كان هناك مصلحة في إجابة دعوته : كأن تكون سبب توبته وعودته إلى الله فيجوز إجابة دعوته بل يُستحب ذلك .. وأما إن كانت إجابته ستكون سبباً في عدم إحساسه بالذنب وأنه سوف يستمر في جهره بالمعاصي فالأولى تركه ... وإن كان عدم إجابته وهجره ستكون سبباً في عودته إلى الله - وبخاصة إذا رأى أن أهل الخير والصالح لا يجيبوا دعوته - فالأفضل عدم إجابته ليعود إلى الله ويتوب من كل ذلك.

(٢) «أن يدعوه»، فيكون حضوره إجابة لدعوته، وقد تقدم في الحديث: «إذا دعا...» وأما إذا لم يدعُ فلا يجب عليه الحضور.

(٣) تعيينه بالدعوة لقوله: «إذا دعا أحدكم أخاه» فهذا يشعر بتعيينه، وأما إذا دعا دعوة عامة فإنه لا يدخل في الوجوب، بل وجه الكلام إلى الجميع، وعلى ذلك فيجوز له عدم الحضور، فهي لا تجب على كل أحد؛ لأن الدعوة عامة فهي تُشبه فرض الكفاية.

(٤) ألا يكون هناك منكرات، إلا أن يقصد إزالتها:

قال الأوزاعي: «لا تدخل وليمة فيها طبل ولا معازف»^(٢).

(١) الشرح الممتع (٥/٣٣٧).

(٢) عزاه الشيخ الألباني في «آداب الزفاف» ص ٨١ إلى «الفوائد المنتقاة».

وأما إن قدر على تغيير المنكر، أو أن وجوده سيكون سبباً لتغييره وجب عليه الحضور، وإلا حُرْم عليه.

ولكن إذا لم يحضر فهل يُبين لهم سبب عدم حضوره؟ الجواب: نعم، لبيان عذره، وليكون ردعاً لهم، أو ربما كانوا يجهلون حُرْمته.

(٥) ألا يكون هناك عذر يمنعه من الحضور كمرضٍ أو سفرٍ، أو سبق بالدعوة إلى وليمة أخرى أو نحو ذلك^(١).

❖ وقد يسأل سائل: وهل هناك أعذار تبيح للإنسان أن يترك إجابة الدعوة؟

الجواب: بلى ... ومن هذه الأعذار:

(١) أن يُدعى الشخص إلى موضع فيه منكر من خمر أو معازف ونحوها، فحينئذ لا يجوز الحضور إلا بقصد إنكارها ومحاولة إزالتها، فإن أُزيلت وإلا وجب الرجوع ... ومما يدل على هذا:

حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: صنعت طعاماً فدعوت رسول الله ﷺ فجاء فرأى في البيت تصاوير فرجع فقلت: يا رسول الله، ما أرجعك بأبي أنت وأمي؟ قال: «إن في البيت سترًا فيه تصاوير، وإن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه تصاوير»^(٢).

❖ دعا ابن عمر أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه فرأى في البيت سترًا على الجدار، فقال ابن عمر: غلبنا عليه النساء فقال أبو أيوب: مَنْ كنت أخشى عليه فلم أكن أخشى عليك، والله لا أطعم لكم طعامًا، فرجع^(٣).

(٢) أن يكون الداعي ممن يَخُصُّ بدعوته الأغنياء لا الفقراء.

(٣) أن يكون الداعي ممن لا يتورع عن أكل الحرام ويتخوض في الشبهات،

(١) تمام المنة للعزازي (٣/ ٩٩-١٠٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه النسائي (٥٣٥١)، وابن ماجه (٣٣٥٩)، وأبو يعلى (٤٣٦)، وصححه العلامة الألباني

رحمه الله في آداب الزفاف ص (٨٩).

(٣) رواه البخاري معلقًا في كتاب النكاح باب (هل يرجع إذا رأى منكراً في الدعوة).

إلى غير ذلك من الأعدار الشرعية التي يُترك الواجب من أجلها.
وكذلك يُعذر المدعو إذا وُجد عنده عذر شرعي كالذي يبيح التخلف عن
الجمعة: من كثرة مطر أو وحلٍ أو خوف عدو أو خوف على مال أو نحو
ذلك^(١).

✽ أما الحق الخامس فالنصيحة:

إن المسلم مرآة لأخيه المسلم.. فإذا رآه قد أخطأ فلا بُدَّ أن يقدم له النصيحة
بكل رحمة وحنان.. وإذا طلب منه النصيحة في أى أمرٍ من أمور الدنيا والآخرة
فلا بُدَّ أن يقدم له النصيحة الخالصة.

✽ ومن أجل ذلك جعل النبي ﷺ من حق المسلم على أخيه أن يقدم له
النصيحة الصادقة فقال ﷺ: «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلم عليه،
وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له...»^(٢).

✽ وكان النبي ﷺ يبائع أصحابه على أن يقدموا النصيحة الخالصة لكل
مسلم.

فعن جرير رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة،
والنصح لكل مسلم»^(٣).

✽ فلا عجب بعد ذلك أن نعلم أن النبي ﷺ قد جعل النصيحة هي الدين
كله.

✽ وذلك لما قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «الله،
ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(٤).

(١) صحيح فقه السنة (٣/ ١٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٦) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٥) كتاب الإيمان.

❦ ولكن تلك النصيحة لا بد أن يكون لها بعض الآداب وهي:

(١) إخلاص النصيحة:

أن نقدم النصيحة لمن حولنا بكل صدق وإخلاص.. ونرجو بذلك الأجر والمثوبة من الله (جل وعلا) ولا نرجو بذلك التعالي على الناس أو الشهرة بين الناس.

(٢) أن تكون النصيحة في السر:

وذلك لأن أكثر الناس لا يقبلون النصيحة إذا كانت في العلانية لأن ذلك يسبب لهم إحراجاً شديداً بين الناس.

فمن أراد أن ينصح أخاه فعليه أن ينصحه في السر فيما بينهما حتى لا يسبب له حرجاً وحتى يكون ذلك سبباً في قبول النصيحة.

❦ وَرَجِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ حَيْثُ يَقُولُ:

تَعَمَّدَنِي بِنُصْحِكَ فِي أَنْفِرَادِي وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النَّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ مِنْ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي فَلَا تَغْضَبْ إِذَا لَمْ تَلْقَ طَاعَتَهُ

وقال: «مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ وَعَظَهُ وَزَانَةً، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ فَضَحَهُ وَشَانَهُ».

(٣) أن تشمل النصيحة أمور الدنيا والآخرة:

ألا تقتصر النصيحة على أمر الدنيا فقط بل تشمل أمور الدين والدنيا والآخرة حتى ينتفع المسلمون بتلك النصيحة في دُنياهم وآخرتهم.

فإن وجدت أخاك محتاجاً لنصيحتك في أمرٍ من أمور الدنيا فانصحه وإن وجدته واقفاً في معصية فانصحه بترك المعصية بكل رحمة وحنان.

(٤) أن تكون النصيحة بكل رحمة وحنان :

فينبغي أن تختار الأسلوب المناسب للنصيحة وذلك بأن تبسّم في وجه مَنْ تريد أن تنصحه.. بل وتثنى عليه خيرًا وتقول له:
أنا أعلم أنك أخ فاضل وستقبل نصيحتي لأنك تعلم أنى أحبك... وهكذا... فإن هذا الأسلوب يجعله يقبل النصيحة.

(٥) تقديم النصيحة ولو لم يطلبها أحد :

فإن وجدت أخاك سيحدث له أى ضرر أو أنه سيقع في معصية أو أن هناك مَنْ يتربص به فانصحه وكن رقيقًا في تقديم النصيحة... ولا تنتظر أن يطلب منك النصيحة فإنك لو وجدت إنسانًا يغرق في الماء فإنك تنقذه ولو لم يطلب منك.
فمن باب أولى: أنك إذا وجدت مَنْ يغرق في المعاصي والمخالفات أو مَنْ سيقع في شيء يعود عليه بالضرر أن تنصحه ولو لم يطلب منك النصيحة.
(٦) ألا تُفشي له سرًا :

فإذا نصحت أخاك فاستجاب أو لم يستجب فلا يحلّ لك أن تُفشي سره أبدًا لأن الله حرّم هذا... ولأنك إن أفشيت سره فلن يقبل منك أى نصيحة أخرى بعد ذلك.

✽ وأما الحق السادس فتشميت العاطس :

فمن حق المسلم على أخيه المسلم أن يُشمّته إذا عطس.. فإذا عطس الرجل وحمد الله وسمّعه فشّمّته، يعني قل له: يرحمك الله، فإذا قلت: يرحمك الله، وجب عليه أن يقول: يهديكم الله ويصلح بالكم.
والعطاس يحبه الله تبارك وتعالى.. كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب العطاس ويكره التثاؤب..»^(١) لأن العطاس يدل

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٤) كتاب الزهد والرقائق.

على خفة بدن صاحبه ونشاطه.. فيكون قويًا في العبادة.. لكن الشاؤب يكون غالبًا علامة لثقل البدن وامتلائه واسترخائه.. فلذلك أضافه إلى الشيطان.. لأنه يُرضيه.. أو أنه سبب لدعوته إلى الشهوات.

لكن هل تشميت العاطس إذا حمد فرض عين أو فرض كفاية؟ يعني: هل يكفي واحد من الجماعة إذا شمّته عن الجماعة، أم لا بُدَّ على كل مَنْ سمعه أن يُشمّته؟ والجواب: أنه ذهب بعض أهل العلم إلى أن التشميت فرض كفاية... فإذا كنا جماعة وعطس رجل وقال: الحمد لله، فقال أحدنا له: يرحمك الله... كفى.

وقال بعض أهل العلم: بل تشمّيته فرض عين، على كل مَنْ سمعه.
لأن النبي ﷺ قال: «كان حقًا على كل مَنْ سمعه أن يقول: يرحمك الله».
وظاهر هذا أنه فرض عين... فعلى كل مَنْ سمعه أن يقول له: يرحمك الله، ويقول هو: يهديكم الله ويصلح بالكم... ويكفي منه ردُّ واحد على الجميع، إذا نواه للجميع كفى.

❁ والعطاس له آدابٌ لا بد أن تتعلمها.. فمنها:

(١) وضع اليد على الفم لخفض الصوت:

وذلك من أجل خفض الصوت حتى لا تُزعج الآخرين.. وكذلك حتى لا يتطاير الرذاذ من فم العاطس فيؤذي مَنْ حوله أو يتسبب في نقل عدوى (إذا قدر الله ذلك).

ولذا كان من هدى النبي ﷺ أنه «كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته»^(١).

(٢) أن يحمّد الله بعد العطاس:

أن يقول العاطس: الحمد لله.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٥).

أن يقول مَنْ سمعه: يرحمكم الله.

أن يرد العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم.

عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله وليقل أخوه أو صاحبه يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم»^(١).

(٣) عدم تشميت العاطس إذا لم يحمد الله:

فقد قال النبي ﷺ: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه، وإذا لم يحمد الله فلا تشمّتوه»^(٢)، وقد كان هذا هو فعل النبي ﷺ، فقد عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمّت أحدهما، ولم يُشمّت الآخر، فقال الرجل: يا رسول الله! شمّت هذا ولم تشمّتنى! قال: «إن هذا حمّد الله، وإنك لم تحمد الله»^(٣).

(٤) عدم التشميت بعد الثلاث مرات فقط:

فإذا تكرر العطاس من شخصٍ بشكل متتابع، فمن المستحب تشميته حتى يبلغ الثلاث مرات... فعن سلمة بن الأكوع روى عنه قال: عطس رجل عند رسول الله ﷺ، وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله» ثم عطس الثانية أو الثالثة فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله، هذا رجل مزكوم»^(٤) أى مصاب بالزكام.. فلا يُشمّت بعد ثلاث.. لكن استحب بعضهم أن يدعوه مَنْ حضر معه بالعافية والسلامة... ولا يكون هذا من باب التشميت^(٥).

(٥) تشميت غير المسلم بقول: يهديكم الله:

فقد ذكر أن اليهود كانوا يتعاطسون عند النبي عليه الصلاة والسلام

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٤) كتاب الأدب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩١) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٥) منهاج الصالحين / أ. محمد عبد العاطى بحيرى (ص: ٤٧٧).

- يتعاطسون يعني يتكلفون العطاس - من أجل أن يقول لهم: يرحمكم الله.
فكان ﷺ يقول لهم: «يهدىكم الله ويُصلح بالكم»^(١).

وقد كانوا يفعلون هذا لأنهم يعلمون أنه نبي وأن دعاءه بالرحمة قد ينفعهم، ولكنه لا ينفعهم؛ لأن الكفار لو دعوت لهم بالرحمة لا ينفعهم ذلك، ولا يحل لك أن تدعو لهم بالرحمة إذا ماتوا ولا بالمغفرة، لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

فإن قيل: أليس إبراهيم استغفر لأبيه وإبراهيم على الحنيفية وعلى التوحيد، والجواب يتضح في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

(٦) تذكير العاطس بالحمد إذا نسي:

فإذا وجدنا إنساناً قد عطس، ولم يتلفظ بحمد الله تعالى، فينبغي تذكيره، فهذا من التواصي بالحق، ومن الأمر بالمعروف.

وقد رأى عبد الله بن المبارك إنساناً يعطس، ولم يحمد الله تعالى. فقال له: ماذا يقول المرء إذا عطس؟ قال: يقول: الحمد لله. فقال ابن المبارك: يرحمك الله.

وينبغي أن يكون التذكير بأسلوب حسن، وبُلطْف. وإذا كان الناسي من أهل العلم والفضل فيمكن تذكيره بشكل غير مباشر، فهذا أمثل^(٢).

(٧) إذا عطس صبي صغير يُقال له: بُورك فيك:

فمن آداب العطاس أنه إذا عطس صبي صغير أن يُقال له: بُورك فيك:

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٧٧).

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية (ص: ٦٢٠).

أو يقال له: جبرك الله.. هذا إن كان قد تعلّم أن يقول إذا عطس: الحمد لله.. فإن لم يكن يعلم.. فليحمد عنه وليه.. ثم ليُعلمه كيف يحمد الله.
فعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل الإمام أحمد عن الصبي الصغير يعطس؟ قال: يُقال له: بورك فيك ^(١).

(٨) يجوز أن يقول المصلي إذا عطس: الحمد لله:

فهذا مباح وجائز للمصلي ولا تبطل به الصلاة.

عن رفاعه بن رافع ابن عفراء قال: صليتُ خلف رسول الله ﷺ فعطستُ فقلتُ: الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يُحبُّ ربنا ويرضى... فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فقال: «مَنْ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟» فلم يتكلم أحد.. ثم قالها الثانية: «مَنْ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟» فلم يتكلم أحد ثم قالها الثالثة: «مَنْ الْمُتَكَلِّمُ فِي الصَّلَاةِ؟» فقال رفاعه بن رافع ابن عفراء: أنا يا رسول الله قال: «كيف قلت؟» قال قلتُ: الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يُحبُّ ربنا ويرضى، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد ابتدرها بضعة وثلاثون ملكاً أيهم يصعدُ بها» ^(٢).

ولكن عليه أن يحمد الله في سرِّه ولا يجهر بذلك حتى لا يتسبب في أن يُشمته مَنْ بجواره فيقع بذلك في مهي النبي ﷺ عن تشميت العاطس في الصلاة.

(٢٤٤) وَعَنْ أَبِي عُمَارَةَ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ: أَمَرْنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمِ أَوْ

(١) منهاج الصالحين (ص: ٤٧٨).

(٢) حسن: رواه الترمذی (٤٠٤) كتاب الصلاة، وحسنه الألبانی رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المشكاة (٩٩٢)، والحديث عند البخاري (٧٩٩) كتاب الأذان، بغير هذا اللفظ.

تَخْتُمُ بِالذَّهَبِ، وَعَنْ شُرْبِ بِالْفِضَّةِ، وَعَنْ المِائِرِ الحُمْرِ، وَعَنْ القَسْيِ، وَعَنْ لُبْسِ
الْحَرِيرِ وَالِاسْتَبْرَقِ وَالذِّبَاجِ^(١).

وفي رواية: وَإِنْشَادِ الضَّالَةِ فِي السَّبْعِ الْأَوَّلِ.

❁ ففي هذا الحديث ذكر المصنف حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ
«أمرنا بسبع ونهانا عن سبع».. وقد تقدّم الكلام عن ستة من الأمور التي
أمرنا بها النبي ﷺ في الحديث السابق والذي قبله فلا حاجة إلى إعادة الشرح..
ولم يتبق في هذا الحديث من الأوامر سوى «إبرار القسم أو المُقسم».

يعني إذا أقسم عليك أحد إخوانك أو أقاربك بشيء فبرّه وافعل ما أقسم به
عليك.. إلا إذا كان ذلك القَسَم على شيء فيه معصية..

كأن يقول لك: أقسمت عليك أن تعطيني مالاً لأشتري علبة سجائر... فهنا
لا يجوز لك أن تبرّ قَسَمه لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق سبحانه
وتعالى.

ومثل ذلك: كأن يقول لك والدك - بعد أن طلق أمك -: أقسمت عليك ألا
تزور أمك.. فلا يجوز أن تبرّ قَسَمه لأنه يجب عليك زيارة أمك والاطمئنان
عليها وقضاء احتياجاتها ومساعدتها في جميع شئون حياتها إلا ما كان في معصية
الله ﻋَزَّوَجَلَّ.

وكذلك إذا قال والدك: أقسمت عليك ألا تزور أحداً من إخوانك أو
أعمامك أو أقاربك فلا تطعه ولا تبرّ قَسَمه لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية
الخالق ﻋَزَّوَجَلَّ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٣٩) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس.

«المِائِر»، وهى جمع مِئْرَة، وهى شَيْءٌ يُتَّخَذُ مِنْ حَرِيرٍ وَيُخْشَى قُطْنًا أَوْ غَيْرَهُ وَيُجْعَلُ فِي السُّرْجِ وَكُورِ
البعير يجلس عليه الرَّاكِبُ - «والقَسْيُ»: وهى ثِيَابٌ تُنْسَجُ مِنْ حَرِيرٍ وَكِتَانٍ مُخْتَلِطَيْنِ. «وإنشادُ
الضَّالَّةِ»: تَعْرِيفُهَا.

❖ وهنا وقفة هامة: فقد تكون عند أحد إخوانك في بيته مدعواً على طعام الغداء .. فأقسم هو وأقسمت أنت لكنك أنت بدأت بالقسم وقلت له: أقسمت عليك بالله ألا تذبح لي أي شيء وتكلف نفسك .. فقال لك: وأنا أقسمت عليك بالله أن أذبح لك شاة الآن ... فهنا من الذي يُبرّر قسمه؟ الأول أم الثاني؟

الجواب: يبرّر الأول؛ لأن حقه ثابت، ونقول للثاني صاحب البيت الذي حلف أن يذبح، نقول: لا تذبح وكفّر عن يمينك؛ لأن الأول أحق بالبر وأسبق. ثم إني أشير عليكم بأمر هام، أنك إذا حلفت على يمين فقل: إن شاء الله، ولو لم يسمعها صاحبك، لأنك إذا قلت: إن شاء الله يسّر الله لك الأمر حتى تبرّ بيمينك، وإذا قدر أنه ما حصل الذي تريد فلا كفارة عليك، وهذه فائدة عظيمة. فلو قلت لواحد مثلاً: والله ما تذبح لي، ثم قلت: إن شاء الله - بينك وبين نفسك - ثم ذبح فلا شيء عليك، ولا عليك كفارة يمين.

وكذلك أيضاً بالعكس، لو قلت: والله سوف أذبح، ثم قلت - بينك وبين نفسك -: إن شاء الله، وما سمع صاحبك، فإنه إذا لم تذبح ليس عليك كفارة، لقول النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَاسْتَشْنَى فَإِنْ شَاءَ مَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ غَيْرَ حَنِثٍ»^(١) وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائماً، اجعل الاستثناء بـ «إن شاء الله» على لسانك دائماً، حتى يكون فيه فائدتان: الفائدة الأولى: أن تيسّر لك الأمور. والفائدة الثانية: أنك إذا حنثت لا يلزمك الكفارة^(٢).

❖ وورد في رواية أخرى أن من السبع التي أمرهم النبي ﷺ بها: إنشاد الضالة: أي أن الإنسان إذا وجد ضالة وجب عليه إنشادها .. أي البحث عن صاحبها وطلب من هي له ... والضالة هي ما ضاع من البهائم.

(١) صحيح: رواه النسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/٦١٨).

❦ وقد قَسَمَ العلماء (رحمهم الله) الضالة إلى قسمين:

الأول: قَسَمٌ يستطيع أن يحمي نفسه من صغار السباع (كالذئاب وشبهها). وليس عليه خطر فهذا لا يجوز التقاطه ولا إيواؤه .. وذلك مثل الإبل التي تستطيع أن تحمي نفسها فهذه لا يجوز للإنسان أن يلتقطها، ولا يجوز له أن يؤويها بل يطردها من إبله... فإن النبي ﷺ سُئِلَ عن ضالة الإبل فقال: «مالك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها»^(١) «^(٢) معها سقاؤها: يعني بطنها تملؤه ماءً، وحذاؤها: يعني خُفُّها تمشي عليه... تَرِدُ الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها.

فلا يجوز لك أن تؤوي هذه الضالة ولا أن تلتقطها، ولو كنت تريد الخير، اللهم إلا إذا كنت في أرض فيها قُطَاع طريق تخشى أن يأخذوها ويُضيّعوها على صاحبها، فلا بأس أن تأخذها حينئذ، أو إذا كنت تعرف صاحبها فتأخذها لتردها عليه، فهذا لا بأس به.

ومن ذلك القسم الذي يستطيع أن يحمي نفسه من الذئاب ونحوها: الصقور والحمام .. فهي تستطيع أن تطير سريعاً إذا لمحت ذئباً أو أي شيء فيه خطر على حياتها ... وكذلك الطباء؛ لأنها سريعة جداً فلا يستطيع الذئب أو ما شابهه أن يدركها ... فهذه الأنواع كلها لا يجوز التقاطها ولا إيواؤها.

الثاني: ما لا يستطيع أن يحمي نفسه من الذئاب ونحوها مثل الغنم أو الماعز أو الشياه أو ما أشبه ذلك ... فهذه إذا وجدتْها فإنك تأخذها وتبحث عن صاحبها فإذا تَمَّت السنة ولم تجد لها صاحباً فهي لمن وجدها .. وذلك لأنه لو تركها في الطريق سيأخذها اللص أو يأكلها الذئب ويحرم صاحبها منها .. أما إذا

(١) ربها: أي صاحبها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩١) كتاب العلم، ومسلم (١٧٢٢) كتاب اللقطة.

أخذتها أنت وبحثت عن صاحبها فلعلك تجده وتردها إليه .. ولذلك قال النبي ﷺ : «هي لك، أو لأخيك، أو للذئب» ولكن يجب عليك أن تبحث عن صاحبها. وقوله: «هي لك» يعني إن لم تجد صاحبها، «أو لأخيك» يعني صاحبها إذا عرفته، «أو للذئب» إذا لم يجدها أحد أكلها الذئب.

❁ ولا بد أن نعلم أن إنشاد الضالة له معنيان:

المعنى الأول: ما ذكرناه .. إذا وجدت ضالة الغنم أو الماعز أو الشاة فإنك تُعلن عنها وتبحث عن صاحبها لمدة سنة كاملة فإن لم تجده فهي لك وإنشاد الضالة هنا واجب للوصول إلى صاحبها.

المعنى الثاني: منهي عنه .. وذلك مثل ما يقع في بعض المساجد وهو أن بعض الناس إذا ضاع منه شيء فإنه يذهب إلى المسجد ويطلب من القائمين عليه أن يعلنوا في «الميكروفون» عن ضالته... وهذا خطأ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك. قال ﷺ : «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل: لا ردّها الله عليك فإن المساجد لم تُبنَ لهذا»^(١).

بل دعا النبي ﷺ نفسه على رجل نادى على جملٍ أحمر ضاع منه، فأخذ ينادي عليه في المسجد فقال النبي ﷺ : «لا وجدت... إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له»^(٢). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: في هذا الحديث فوائد منها:

النهي عن نشد الضالة في المسجد ويلحق به ما في معناه من البيع والشراء والإجارة ونحوها من العقود وكراهة رفع الصوت في المسجد.

❁ أما السبع التي نهى عنها النبي ﷺ فسوف أشرحها بدون ترتيب .. وذلك لاقتران الذهب والحديد في أكثر الأحاديث وشروحها .. وما هي السبع التي نهى عنها النبي ﷺ :

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩) كتاب المساجد.

الأول والثاني والثالث والرابع: التَّخْتُمُ بِالذَّهَبِ وَلِبْسُ الْحَرِيرِ وَالِاسْتَبْرَقِ
وَالِدِيْبَاجِ^(١)؛

لقد أباح الإسلام للمسلم - بل طلب إليه - أن يكون حسن الهيئة، كريم المظهر، جميل الھندام متمتعاً بما خلق الله من زينة وثياب ورياش.

والغرض من الملبس في نظر الإسلام أمران: ستر العورة، والزينة، ولهذا امتنَّ الله على بني الإنسان عامة بما هيا لهم بتدبيره من لباسٍ ورياش فقال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَكْمُ وَرِيْشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

فمن قرط في أحد هذين الأمرين: الستر أو التزين، فقد انحرف عن صراط الإسلام، إلى سُبُل الشيطان، وهذا سر النداءين اللذين وجههما الله إلى بني آدم - بعد النداء السابق - يحذرهم فيهما من العُرى، وترك الزينة، اتباعاً لخطوات الشيطان... قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنْ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

وإذا كان الإسلام قد أباح الزينة بل طلبها، واستنكر تحريمها. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فإنه حَرَّمَ على الرجال نوعين من الزينة - على حين أحلَّهما للإناث.

أولهما: التحلِّي بالذهب الخالص.

ثانيهما: لبس الحرير الخالص.

فعن علي رضي الله عنه قال: أخذ النبي ﷺ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله، ثم قال: «إن هذين حرامٌ على ذكور أمتي، حِلٌّ لِنِائِهِمْ»^(٢).

(١) الاستبرق والديباج: هما من أنواع الحرير.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٤).

وعن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(١).

وقال ﷺ في حلة من الحرير: «إنما هذه لباس من لا خلاق له»^(٢).

ورأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: «يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ» فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: خُذْ خَاتَمَكَ تَتَفَعَّلُ بِهِ، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا أَخْذُهُ وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٣).

ومثل الخاتم ما نراه عند المترفين من قلم الذهب، وساعة الذهب، وقداحة [ولاعة] الذهب، وعلبة الذهب للسجائر، والفم الذهب .. إلخ.

أما التختُّم بالفضة فقد أباحه (عليه الصلاة والسلام) للرجال.

روى البخاري عن ابن عمر، قال: «اتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ [فضة] فَكَانَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ كَانَ بَعْدُ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ كَانَ بَعْدُ فِي يَدِ عُمَرَ، ثُمَّ كَانَ بَعْدُ فِي يَدِ عُثْمَانَ حَتَّى وَقَعَ مِنْهُ فِي بَيْتِ أَرِيَسَ»^(٤).

أما المعادن الأخرى كالحديد وغيره، فلم يرد نص صحيح يحرمها.

بل ورد في صحيح البخاري أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) قال للرجل الذي أراد أن يتزوج المرأة الواهبة نفسها: «التمس ولو خاتماً من حديد»^(٥).
وبه استدلل البخاري على حل خاتم الحديد.

ورُخِّصَ في لبس الحرير إذا كان لحاجة صحيحة... فقد أذن النبي عليه الصلاة والسلام بلبسه لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام رضي الله عنهما، لحكمة كانت بهما.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٢٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٤٨) كتاب العيدين، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٩٠) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٨٦٦) كتاب اللباس.

(٥) صحيح: رواه البخاري (٥١٣٥) كتاب النكاح.

وأما تختّم المرأة بالذهب فلا بأس به، ولا حرج فيه، فيجوز لهن التختّم بالذهب والتسور به، وأن يلبسن ما شئن منه، إلا إذا بلغ حد الإسراف، فإن الإسراف لا يحل... لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وقد حكى بعض العلماء إجماع أهل العلم على جواز لباس المرأة للخاتم والسوار ونحوهما... وأما الأحاديث الواردة في النهي عن الذهب المُحلّق للنساء فهي أحاديث إما ضعيفة، وإما شاذة ترك العمل بها، وتواترت الأحاديث الكثيرة التي فيها إقرار النبي ﷺ النساء على لبس المُحلّق من الأسورة، وكذلك من الخواتم.

ولكن يجب على المرأة إذا كان عندها ما يبلغ النصاب من الحُلّي من الذهب أداء زكاته، بأن تقومه كل سنة بما يساويه وتُخرج منه ربع العُشر؛ لأن النبي ﷺ رأى امرأة وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من الذهب، يعني سوارين غليظتين، فقال: «أتؤدين زكاة هذا؟» قالت: لا، قال: «أيسرك أن يُسورك الله بهما سوارين من نار يوم القيامة»^(١) فخلعتهما وأعطتهما النبي ﷺ وقالت: هما لله ورسوله^(٢).

❁ وقد يسأل سائل ويقول: ولماذا حُرّم الذهب والحُرير على الرجال؟! والجواب: لقد قصد الإسلام بتحريم هذين الأمرين على الرجال هدفاً تربوياً وأخلاقياً نبيلاً... فإن الإسلام - وهو دين الجهاد والقوة - يحب أن يصون رجولة الرجل من مظاهر الضعف والتكسّر والانحلال... والرجل الذي ميزه الله بتركيب عضوي غير تركيب المرأة، لا يليق به أن ينافس النساء في جرّ الذيول، والمباهاة بالحُلّي والحُلل.

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٩٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (٦٠٩/١).

ثم هناك هدف اجتماعي وراء هذا التحريم.

فتحريم الذهب والحرير جزء من برنامج الإسلام في حربه للترف عامة، فالترف في نظر القرآن قرين للانحلال الذي يُنذر بهلاك الأمم، وهو مظهر للظلم الاجتماعي، حيث تُتخَم القلة المترفة على حساب أكثرية بائسة، وهو بعد ذلك عدو لكل رسالة حق وخير وإصلاح.. والقرآن يقول: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وتطبيقاً لروح القرآن حَرَّمَ النبي عليه الصلاة والسلام كل مظاهر الترف في حياة المسلم، فكما حَرَّمَ الذهب والحرير على الرجال، حرم على الرجال والنساء جميعاً استعمال أواني الذهب والفضة.

وبعد هذا وذاك، هناك اعتبار اقتصادي له وزنه كذلك، فإن الذهب هو الرصيد العالمي للنقد، فلا ينبغي استعماله في مثل الأواني أو حُلِيِّ الرجال^(١).

خامساً وسادساً: نهى النبي ﷺ عن المياثر الحمر وعن القسّي:

أما المياثر الحمر فهي مثل المخدة، يجعل في حشوها قطن ويجعل على هذا القطن خرقة من الحرير، وتُرَبَّط في سرج الفرس أو في كور البعير من أجل أن يجلس عليها الراكب فيستريح.

وكذلك القسّي وغيرها، فإنها كلها من أنواع الحرير... وهي حرام على الرجال؛ لأنه لا يجوز للرجل أن يلبس الحرير، ولا أن يجلس عليه، ولا أن يقرشه، ولا أن يلتحفه.

وأما المرأة فيجوز لها لبس الحرير؛ لأنها محتاجة إلى الزينة والتجمل كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَن يُنَشِّئُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

(١) الحلال الحرام / د. يوسف القرضاوي (ص ٧٣-٧٧) بتصرف كبير.

يعني: أَوْ مَنْ يُرَفِّقُهُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ وَهُمْ الرِّجَالُ.. فالرجال لا يُرَفِّقُهُونَ فِي الْحَلِيَّةِ وَلَا يُنَشَّئُونَ فِيهَا لِأَنَّهُمْ مُسْتَغْنَوْنَ بِطَوْلَتِهِمْ وَرَجَوْلَتِهِمْ عَنِ التَّزْيِينِ وَالتَّجَمُّلِ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

وأما افتراش المرأة للحريير والتحافها به وجلو سها عليه، فقد اختلف فيه العلماء... منهم مَنْ مَنَعَ وَحَرَّمَ وَاسْتَدَلَّ بِعُمُومِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَأَنَّ الرِّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنِ الْمِيَاثِرِ الْحَمَرِ وَشَبَّهَهَا، وَقَالَ: إِنْ الْمَرْأَةَ يُبَاحُ لَهَا أَنْ تَلْبَسَ الْحَرِيرَ لِأَحْتِيَاجِهَا إِلَيْهِ، أَمَّا أَنْ تَفْتَرِشَهُ فَلَا حَاجَةَ لَهَا إِلَى أَنْ تَفْتَرِشَ الْحَرِيرَ... وَهَذَا الْقَوْلُ أَقْرَبُ مِنَ الْقَوْلِ بِالْحِلِّ مُطْلَقًا أَيَّ: بِحِلِّ الْحَرِيرِ لِلنِّسَاءِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ يَدُورُ مَعَ عِلَّتِهِ وَجُودًا وَعَدَمًا^(١).

سابعاً: نهى النبي ﷺ عن الشرب في آنية الفضة:

لَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى نِظَافَةِ الْبُيُوتِ لِتَكُونَ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الْإِسْلَامِ دِينَ النِّظَافَةِ.. وَعِنَاوَانًا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمُسْلِمُ عَنْ غَيْرِهِ.. فَقَدْ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٢).

وَلَا حَرَجَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُجَمِّلَ بَيْتَهُ بِالْوَانِ الزَّهَوْرِ، وَأَنْوَاعِ النِّقْشِ وَالزَّيْنَةِ الْحَلَالِ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

نعم لا حرج على المسلم في أن يعشق الجمال في بيته، وفي ثوبه ونعله، وكل ما يتصل به... وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنْ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (١/٦١٩-٦٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

لكن الإسلام يكره الغلو في كل شيء... والنبي ﷺ لم يرض للمسلم أن يشتمل بيته على مظاهر الترف والسرف التي نهى عنها الإسلام.

من أجل ذلك حرم الإسلام أواني الذهب والفضة ومفارش الحرير الخالص في البيت المسلم... وتهذّب النبي ﷺ من ينحرف عن هذا الطريق بالوعيد الشديد... ففي الصحيحين عن أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»^(١).

وروى البخاري عن حذيفة قال: «نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَشْرَبَ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا، وَعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ وَالذِّبَاجِ، وَأَنْ نَجْلِسَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «هُوَ لَهُمْ [أي الكفار] فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الْآخِرَةِ» وما حُرِّمَ استعماله حُرِّمَ اتخاذه تحفة وزينة»^(٢).

وهذا التحريم للأواني والمفارش ونحوها تحريم على الرجال والنساء جميعاً... فإن حكمة التشريع هنا هو تطهير البيت نفسه من مواد الترف الممقوت... وما أروع ما قاله ابن قدامة: «يستوي في ذلك الرجال والنساء لعموم الحديث. ولأنّ علّة تحريمها السرف والخيلاء وكسر قلوب الفقراء وهذا معنى يشمل الفريقين. وإنما أُبِيح للنساء التحلّي للحاجة إلى التزيّن للأزواج، فتختص الإباحة به دون غيره، فإن قيل: لو كانت العلة ما ذكرتم لحُرمت آية الياقوت ونحوه مما هو أرفع من أثمان [الذهب والفضة]. قلنا: تلك لا يعرفها الفقراء، فلا تنكسر قلوبهم باتخاذ الأغنياء لها بعد معرفتهم بها ولأنّ قلتها في نفسها تمنع اتخاذها فيستغني بذلك عن تحريمها بخلاف الأثمان»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٤) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٦٥) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣١) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس.

(٣) المغني (٨/٣٢٣).

ولا يظن ظان أن في هذا التحريم تضييقاً على المسلم في بيته، فإن في الحلال الطيب مندوحة وسعة، وما أجمل الأواني من القيشاني والزجاج والخزف والنحاس وسائر المعادن الكثيرة! وما أجمل المفارش والوسائد من القطن والكتان وغيرهما من المواد! ^(١)

❁ فهذه بعض الأوامر التي أمر بها النبي ﷺ وكلها خير.... وتلك بعض النواهي التي نهى عنها النبي ﷺ وكلها شر.. فالنبي ﷺ ما ترك خيراً إلا وقد دللنا عليه وما ترك شراً إلا وقد حذرنا منه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الحلال الحرام (ص ٨٨-٩٠) بتصرف.

(٢٨) باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

❁ لا شك أنه ليس هناك أحدٌ معصوم إلا النبي ﷺ .

وأنه كما قال النبي ﷺ : « كلُّ بني آدم خطاءٌ ، وخير الخطائين التوابون »^(١) .

❁ فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن نعلم أن أى إنسان قد يقع في ذنبٍ في لحظة ضعفٍ من نفسه ... فإذا وقع العبد في ذنبٍ فإنه يحب من يستر عليه ذنوبه ... ويُبغض من يهتك ستره أمام الناس .

❁ ولو تأملنا في قول الحق (جلَّ وعلا) : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

لعلمنا أن الإنسان موصوف بهذين الوصفين : الظلم والجهل ؛ فإما أن يرتكب الخطأ عن عمدٍ ؛ فيكون ظالمًا ، وإما أن يرتكب الخطأ عن جهل فيكون جهولاً هذه حال الإنسان إلا من عصم الله ﷻ ووقفه للعلم والعدل ، فإنه يمشى بالحق ويهتدى إلى الحق .

وإذا كان الإنسان من طبيعته التقصير والنقص والعيب ؛ فإن الواجب على المسلم نحو أخيه أن يستر عورته ولا يشيعها إلا من ضرورة .
فإذا دعت الضرورة إلى ذلك فلا بد منه ، لكن بدون ضرورة فالأولى والأفضل أن يستر عورة أخيه ... لأن الإنسان بشرٌ ربما يخطئ عن شهوة - يعنى عن إرادة سيئة - أو عن شبهة ، حيث يشتبه عليه الحق فيقول بالباطل أو يعمل به ، والمؤمن مأمور بأن يستر عورة أخيه .

(١) حسن : رواه أحمد ، والترمذى ، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٤٥١٥) .

هَبْ أَنْكَ رَأَيْتَ رَجُلًا يَكْذِبُ وَيَغْشَى فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ؛ فَلَا تُفْشِ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ؛ بَلْ انْصَحْهُ وَاسْتَرْ عَلَيْهِ، فَإِنْ اسْتَجَابَ وَاهْتَدَى وَتَرَكَ مَا هُوَ عَلَيْهِ؛ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمَرَادُ، وَإِلَّا وَجِبَ عَلَيْكَ أَنْ تُبَيِّنَ أَمْرَهُ لِلنَّاسِ؛ لئَلَّا يَغْتَرُوا بِهِ.

وَهَبْ أَنْكَ وَجَدْتَ إِنْسَانًا مُبْتَلًى بِالنَّظَرِ إِلَى النِّسَاءِ، وَلَا يَغْضُ بِصَرِّهِ، فَاسْتَرْ عَلَيْهِ، وَانْصَحْهُ وَبَيِّنْ لَهُ أَنَّ هَذَا سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ إِبْلِيسَ.

فَمَا دَامَ السِّرُّ مُمْكِنًا، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْكَشْفِ عَنْ عَوْرَةِ أَخِيكَ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ أَوْ ضَرُورَةٌ مُلْحَظَةٌ، فَاسْتَرْ عَلَيْهِ وَلَا تَفْضَحْهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

✽ وَلِمَحَبَةِ شَيْوَعِ الْفَاحِشَةِ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعْنِيَانِ:

الْمَعْنَى الْأَوَّلُ: أَنَّ يَحِبُّ شَيْوَعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَمَنْ ذَلِكَ مَنْ يَتَّبِعُونَ الْأَفْلَامَ الْخَلِيعَةَ، وَالصَّحُفَ وَالْمَجَلَّاتِ الْخَبِيثَةَ الدَّاعِرَةَ، فَإِنْ هُوَ لَا شَكَّ - يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يَفْتَتِنَ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ بِسَبَبِ مَا يُشَاعُ مِنْ هَذِهِ الْمَجَلَّاتِ، وَالْأَفْلَامِ الْخَلِيعَةِ الْفَاسِدَةِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

الْمَعْنَى الثَّانِي: أَنَّ يَحِبُّ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، وَلَيْسَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ، فَهَذَا أَيْضًا لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

✽ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وَتَدُورُ تِلْكَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَوْلَ قِصَّةِ الْإِفْكِ الَّتِي ابْتَلَيْتُ بِهَا أَمْنًا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَهُنَا لَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لَا تَبْدُلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ.. وَلَكِنْ الْإِبْتِلَاءُ الَّتِي تَعَرَّضْتُ لَهُ أَمْنًا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ إِبْتِلَاءً يُفْتَتِنُ الصَّخُورَ وَالْجِبَالَ وَيَعْصِفُ

بالقلوب فلقد اتهمت في أعز شيء تملكه المرأة - اتهمت في عرضها - !!! .
 إن هذا لهو البلاء العظيم ... عائشة رضي الله عنها تُتهم في عرضها وهى الزهرة التقية
 النقية التى نبتت فى حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي ... ورسول الله صلى الله عليه وسلم يُتهم
 فى عرضه وهو القائم على صيانة حُرُمات الأمة وأعراض المسلمين ...
 والصدِّيق رضي الله عنه يُتهم فى عرض ابنته الغالية !!! .

كانت حادثة الإفك شديدة وأليمة على قلب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ...
 ومرت عليها وعلى البيت النبوى الطاهر والبيت البكرى الصادق أوقات قاسية
 حرجة، امتدت إلى شهرٍ من الزمن، حتى نزل القرآن الكريم بالبراءة للضعيفة
 الصديقة بنت الصدِّيق ... وتحمل هذه البراءة شهادة مباركة للمؤمن صفوان بن
 المُعطل الذى رُمى بالحديث الآثم، كما وسمت المنافقين بميسم الزور
 والبهتان الذى ظل يلاحقهم إلى النهاية.

لم تسترح نفوس المنافقين الذين رأوا انتصارات الإسلام تتوسع يوماً بعد
 يوم، ووجدوا أن مكانتهم بدأت تنحسر وتلاشى إلى أن مقتهم مجتمعهم،
 فأرادوا - بزعمهم - أن يوجهوا ضربة قاصمة إلى النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، فرموا أمنا
 الطاهرة الصديقة بنت الصدِّيق بالبهتان العظيم.

وكان عبد الله بن أبى ابن سلول قد تولد النفاق والحسد فى قلبه من أول يوم
 سمع فيه بالإسلام، وطفق يكيد للنبي صلى الله عليه وسلم وللإسلام المكيدة تلو الأخرى ...
 ولكن حكمة الله سبحانه كانت له وللمنافقين بالمرصاد، فكانت تلجمهم
 وتكبتهم ^(١) .

❁ وكانت قصة الإفك فى غزوة بنى المصطلق وذلك بعدما انتصر
 المسلمون على بنى المصطلق وأسروا رجالهم، وسبوا نساءهم، وغنموا من

(١) نساء مبشرات بالجنة (ص: ١٨٠) بتصرف.

ماشيتهم وإبلهم الشيء الكثير.

وبينما هم يستريحون ويستجمعون قبل الرحيل ، تراحم على الماء رجلٌ من المهاجرين ورجل من الخزرج ، وتصايح الرجلان كُلُّ ينادى قومه :
هذا يقول : يا معشر الأنصار .

وذاك يقول : يا معشر المهاجرين !!..

وسمع تصايح الرجلين عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، وهو من الخزرج ، وهو الذى كان يحقد على المهاجرين من المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وكان يحسد النبى ﷺ على مكانته التى نالها بين الأنصار ، بعدما كان عبد الله بن أبيّ هذا يُعدُّ نفسه ليكون ملكًا عليهم .

وتفوّه عبد الله بالفاظٍ كان فيها تحريض منه للأنصار ضد المهاجرين ، وكادت أن تحدث فتنة بسبب ذلك ، لولا أن تدارك النبى محمد ﷺ الأمر بحكمته ، بأن أمر المسلمين بالرحيل ، واستعجلهم فى ذلك استعجالاً شديداً حتى لا يترك مجالاً للخلاف الذى بين المهاجرين والأنصار أن يزداد ويشتدّ .

أسرع المسلمون فجأة إلى رحالهم وشدّوها ، وساقوا إبلهم نحو المدينة ، يصحبون معهم أسراهم وغنائمهم ، ويواصلون سيرهم ليلاً ونهاراً بأمر رسول الله ﷺ ، حتى قاربوا المدينة والليل قد أشرف ، فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يحطّوا ليأخذوا قسطاً من الراحة حتى يبرز فجر .

وما إن استراح الناس وحطّوا رحالهم حتى راحوا فى نوم عميق من شدة ما لاقوا من التعب بسبب مواصلة السير وسرعته .

وقضت عائشة ليلتها بخيمة الرسول ﷺ ، حتى إذا ما قارب الفجر على الانبثاق خرجت فغادرت المعسكر فى قضاء حاجة لها ، وأمعنت بعيداً لئلا تقع عليها عين أحد ، وقضت عائشة ما خرجت لأجله ، وفيما هى عائدة إلى حيث

ينزل الرسول وأصحابه تحسّست عنقها فلم تجد من حوله عقدها الذي كانت تزين به، وكان عقدًا غاليًا عندها، عزيزًا عليها؛ لأنه من جزع ظفار ... وظفار بلدة باليمن مشهورة بصنع العقود الثمينة.

حزنت عائشة وعزّ عليها ضياع العقد، ورَجَّحتْ أَنَّهُ انْسَلَّ منها حيث كانت تقضى حاجتها، فعادت لتبحث عنه حيث تظن أنها فقدته.

وأذن مؤذن الرسول ﷺ في جيش المسلمين بالرحيل، وهبَّ القوم من رقادهم يقوضون خيامهم، ويشدون رحالهم ... فلما تهيأ أمرهم للسير حملوا هودج عائشة الذي كانوا يضعونه عادة أمام باب خيمتها.

ولم يشعروا أنها ليست فيه لأنها كانت صغيرة خفيفة اللحم، فقد تزوجها النبي ﷺ ولها ست سنين، ودخل عليها ولها تسع سنين، ومات عنها ولها ثمانى عشر سنة، فحملوا الهودج وظنوا أنها فيه ثم ساروا ... ثم قالت عائشة رضي الله عنها :

فوجدت عقدي بعدما استمرَّ الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مُجيب، فأقمت بمنزلى الذى كنت به، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ. فبينما أنا جالسة فى منزل غلبتنى عينى فنمت، وكان صفوان بن المعطل السُّلمى من وراء الجيش، فأدلىج فأصبح عند منزلى.

لم يطل الوقت بعائشة فى انتظار النجدة، فقد ساق الله لها النجدة فى شخص صفوان بن المعطل السُّلمى.

وكان صفوان قد تأخر عن الرّكب فى حاجة له، فلما جاز ببيعيره المكان الذى يخيم به جيش المسلمين قبل أن يرتحل، لمح سوادًا على الأرض فاتّجه يتبينه، وهو يحسبه متاعًا خلفه المسلمون من ورائهم فيحمله لهم، ولكن ما كان أشد دهشته وأكثر عجبه عندما رأى هذا السّواد عائشة زوجة رسول الله مُلتفة بشياها ترقُد على الأرض..!

وعرف صفوان عائشة زوجة رسول الله ﷺ فقد كان يراها قبل أن يفرض على النساء الحجاب - فقال: إِنَّا لله وإنا إليه راجعون!! زوجة رسول الله...!! ما خَلَفَكَ يَرْحَمُكَ الله؟!

فلم ترد عائشة على صفوان جواباً، فَقَدَّمَ صفوان بَعِيرَهُ إلى عائشة قائلاً: اركبى.

ثم استأخر صفوان ﷺ بعيداً عنها حتى ركبته، فَأَخَذَ بِمِقْوَدِ البعير يقوده نحو المدينة يبغى اللحاق بجيش المسلمين.

وبينما الرسول ﷺ في حيرة من غياب عائشة، ويتخذ أهبطه للبحث عنها، كان خبر غياب عائشة ﷺ يسرى ويتشرب بين أهل المدينة ثم لم يمض وقت طويل حتى دخلت عائشة على بعير صفوان بن المعطل، في وَضَحِ النهار، وعلى مرأى من الناس.

فرح المنافقون أعظم فرح أن يجدوا مدخلاً للطعن في رسول الله ﷺ فاتهموا صفوان بن المُعَطَّل بأنه فعل الفاحشة مع أمة عائشة الطاهرة المطهرة التي نبتت في حقل الإسلام وسُقيت بماء الوحي وتربّت بين يدي الحبيب المصطفى ﷺ الذي ربّاه الله ﷻ وصنعه على عينه ليربى به الكون كله.

وكان الرسول ﷺ عائداً لتوّه من غزوة انتصر فيها، وبالطبع فهو منتصر ولديه غنائم أفاء الله بها عليه، ولذلك فقد شغل ﷺ بتقسيم ما أفاء الله به على المسلمين من غزوة بنى المصطلق، وبالقضاء بالحكمة على ما تخلف في النفوس من آثار فتنة عبد الله بن أبي التى كاد أن يثيرها بين الأنصار والمهاجرين.

كما شغل أيضاً بزواجه من جويرية بنت الحارث بنت عم زعيم بنى المصطلق، ثم ابتدأ يصل إلى سمعهِ شىء غريب مريب، يثير العجب... كان

يتهامس به بعض أهل المدينة.

وذلك أن أعداء الرسول من المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي - الموتر - ما كانوا ليُفَوِّتُوا هذه الفرصة التي تهيأت لهم بعودة عائشة مع صفوان بن المعطل الشاب القوى الجميل، دون أن ينالوا من رسول الله ﷺ في أحب زوجاته إلى قلبه، باتهامها إفكاً^(١) بما هي بريئة منه كُلِّ البراءة، بعيدة عنه كل البعد.

وكان ممن أفصح بهذا الاتهام ضد عائشة، وممن صرَّح به نقلاً عما كان يتسرَّب من مجالس ابن أبي من أقوال (حمنة بنت جحش) ابنة عمَّة النبي محمد ﷺ .. أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ ... ومسطح بن أثانة قريب أبي بكر، والذي كان أبو بكر يتولَّى أمره والإنفاق عليه ... وحسان ابن ثابت شاعر الرسول المعروف.

هؤلاء الثلاثة راحوا يذيعون ويشيعون حديث الإفك (الكذب) عن عائشة رضي الله عنها حتى تسامع به زوجها ﷺ، ووصل خبره إلى والديها أبي بكر وأم رومان ... وعائشة إذ ذاك مريضة بدار زوجها، لا تدري ما يُقال عنها، ويثار من حولها ... وكل الذي شعرت بغرابته من حولها، وأحسَّته عجيباً بالنسبة لها ما لاحظته من نفور النبي ﷺ نحوها، وعدم بشاشته لها، وتبسُّطه معها، كما كان يفعل من قبل، فما كان يزيد عند دخوله عليها لعيادتها وأمها عندها تمرُّضها عن أن يقول: «كيف تيكُم؟» وهو الذي لا يترك ما بوسعه للاهتمام بها وبكل ما يتعلق بأمرها ولا يكفُّ عن العناية بشأنها إذا ما ألمَّ بها مرض.

وتتحدث عائشة الطاهرة رضوان الله عليها في حديثها الطويل عن الإفك فتقول: ... فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي

(١) جاء في الكليات للكفوي أن الإفك: هو الكذب .. انظر فصل الألف والفاء مادة «الإفك» (ص ١٥٣).

قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيئُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَسْلَمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيئُنِي وَلَا أَشْعُرُ.

لم ترَ عائشة بُدًّا وهذا حال زوجها ﷺ معها من الفتور ... لم ترَ إلا أن تستأذن زوجها في الذهاب إلى دار أبيها لتمرضها هناك أمها أم رومان رضي الله عنها. فلما دخل عليها النبي ﷺ كعادته يقول لها: «كيف تيكُم؟». قالت له: لو أذنت لي، فأنقل إلى أُمِّي، فتمرضني.

فكان جوابه لها: «لا عليك»، فسمح لها أن تنتقل إلى دار أبيها. وانتقلت عائشة إلى دار أبيها، والدموع ملء عينيها، وقلوبها يتفطر أسى، ونفسها تذوب حُزنًا من هذا الفتور الذي ما اعتادته من الحبيب ﷺ وهي لا تدري لذلك سببًا.

ونقعت عائشة وتعافت من مرضها بعد بضع وعشرين ليلة. وبينما هي ذات ليلة قد خرجت في قضاء حاجة لها، تصحبها أُمُّ مِسْطَحٍ قريبة أبيها أبي بكر... تعثرت أُمُّ مِسْطَحٍ في ذيل ثوبها، فقامت تشتم ولدها مِسْطَحًا، وكان من ضمن أولئك الذين خاضوا في حديث الإفك عن عائشة - قائلة: تَعَسَ مِسْطَح.

كان لابد لعائشة رضي الله عنها أن تسأل عن هذا الذي يُقال من أُمِّ تُحِبٍّ ولدها.. ولندع عائشة تكمل الحديث ... تقول عائشة رضي الله عنها: فأقبلت أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أُمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطَها فقالت: تَعَسَ مِسْطَح!!

فقلت لها: بِئْسَ مَا قُلْتَ، أَتَسْبِيَنَّ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟!

فَقَالَتْ: أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟؟! ^(١)

تقول أم مسطح لعائشة: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر.

سألت عائشة: وما الخبر؟!

فأخبرتها أم مسطح ما كان من حديث أهل الإفك والكذب، وشعرت عائشة كأن الدنيا تميدُ بها مِيدًا، ولم تقوَ قدماها على حملها، فعادت إلى دارها وقد تبينت مبلغ الهوة السحيقة التي حُفرت من حولها، ففصلت بينها وبين حب زوجها وعطفه عليها، ونالت من منزلتها ومكانتها بين الناس.

عادت لتقول لأُمها مُعَاتِبَةً: يغفر الله لك يا أُمي .. تَحَدَّثَ الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا.

فهَوَّنت عليها أُمها أم رومان قائلة: أَيْ بُنَيَّةُ، خَفَّفِي عَلَيْكَ الشَّانَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثُرْنَ وَكَثَرَ النَّاسُ عَلَيْهَا. ولكن عائشة رضي الله عنها، قضت ليلتها تبكي حتى أحسَّت كأن كبدها يتمزَّق، وأصبحت وهي لا يرقأ لها دَمْعٌ، ولا تكتحل عيناها بنوم.

تألم الرسول ﷺ ألمًا نفسيًّا شديدًا من أجل عائشة الحبيبة، التقية، الطاهرة، ولكن .. ما بال الناس يتحدثون ويخوضون!! ولم يجد أمامه إلا ربه الذي يتولاه، ولم يستطع صلوات الله وسلامه عليه أن يسكت على رجف المرجفين أكثر مما سكت، ولا أن يحتمل ما بنفسه من ريبة وشكٍّ أكثر مما احتمل، فدعا بابن عمه علي بن أبي طالب، وبأسامة بن زيد بن حارثة رضوان الله عليهما يستشيرهما في أمر عائشة.

أما أسامة فقد أثنى على عائشة وقال: يا رسول الله؛ أَهْلُكَ، وما نعلم منهم إلا خيرًا.

(١) الحديث رواه البخاري (٢٦٦١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب التوبة.

أَمَّا عَلَى بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ النِّسَاءَ لَكَثِيرَ، وَإِنَّكَ لِقَادِرٌ عَلَى أَنْ تَسْتَخْلِفَ ... وَسَلَّ الْجَارِيَةَ فَإِنَّهَا تُجِيبُكَ.

وَدُعِيتْ بِرَبْرَةَ جَارِيَةٍ عَائِشَةَ، فَسَأَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ.

فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ: وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كُنْتُ أَعْيِبُ عَلَى عَائِشَةَ شَيْئًا إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَعْجَنُ عَجِينِي، فَأَطْلُبُ مِنْهَا أَنْ تَحْفَظَهُ، فَتَنَامَ عَنْهُ لِحْدَاثَةُ سِنَّهَا، فَتَأْتِي الشَّاةُ فَتَأْكُلُهُ.

وَرَأَى الرَّسُولُ ﷺ يَسْأَلُ زَوْجَتَهُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ عَائِشَةَ - وَكَانَتْ أَخْتَهَا حَمْنَةً مِمَّنْ أَفْصَحَ بِالْإِفْكِ عَنْهَا - فَقَالَ لَهَا: «مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟».

فَأَجَابَتْ زَيْنَبُ الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْفُورِ: أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا^(١).

قَالَتْ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ، دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ. قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ «لَبِثْتُ» شَهْرًا لَا يُوْحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي ... قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذًا وَكَذًا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيِّرُنَاكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ ... قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: مَا أَذْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السَّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَيْنُ،

(١) بتصرف من كتاب أزواج النبي ﷺ / أ. عبد المنعم الهاشمي.

قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَكِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقَنِي، وَاللَّهُ مَا أَحْجَدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ، قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِرَّاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهُ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحَيًّا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحَقَرَّ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرِ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا.

قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ ﷻ فَقَدْ بَرَّأَكَ» فَقَالَتْ أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ﷻ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ﴾ الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا.

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أَنَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهُ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهُ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهُ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: «يَا زَيْنَبُ مَاذَا عَلِمْتَ أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي، مَا

عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ^(١).

❀ وهكذا نزلت براءة أمنا عائشة رضي الله عنها في آيات قرآنية تتلى إلى يوم القيامة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ^(١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ^(١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّكِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ^(١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ^(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ^(١٧) وَيَسِّرَ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ^(١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿[النور: ١١-٢٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي جاءوا بأسوء الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة... قال الإمام الفخر: الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم^(٢) ﴿عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم «ابن سلول» رأس النفاق ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ أي لا تظنوا هذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٧٠) كتاب التوبة.

(٢) التفسير الكبير (١٧٢/٢٣).

القذف والافتهام شرًّا لكم يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل ...

قال المفسرون: والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين^(١) ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أى لكل فردٍ من العُصبة الكاذبة جزاء ما اجتراح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أى والذي تولى مُعظمه وأشاع هذا البهتان وهو «ابن سلول» رأس النفاق ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى له في الآخرة عذابٌ شديد في نار جهنم ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أى هلاً حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أى هلاً ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمنٌ على أخيه قولة عائب ولا طاعن ... قال ابن كثير: هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السُّوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأُمُّ المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى ... روى أن امرأة «أبى أيوب الأنصاري» قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة! قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلةً ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ... قال فعائشة والله خيرٌ منك^(٢)، ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أى قالوا في ذلك الحين هذا كذبٌ ظاهرٌ مُبين ﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أى هلاً جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ﴾ أى فإن عجزوا ولم يأتوا على

(١) التسهيل في علوم التنزيل (٣/ ٦١).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩١).

دعواهم بالشهود ﴿ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ أى فأولئك هم المفسدون الكاذبون فى حكم الله وشرعه... وفيه توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون فى شأن عائشة - ورحمته بكم فى الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿ لَسْتُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ أى لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى عذاب شديد هائل يُستحقَرُ دونه الجلد والتعنيف... قال القرطبي: هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا فى الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم فى الدنيا، ويرحم فى الآخرة مَنْ أتاه تائباً^(١) ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أى وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه... قال مجاهد: أى يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا^(٢) ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى تقولون ما ليس له حقيقة فى الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا ﴾ أى وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أى والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع فى أعراض المسلمين... قال فى التسهيل: عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء: الأول: تلقّيه بالألسنة أى السؤال عنه والثانى: التكلم به والثالث: استصغاره حيث حسبه هيناً وهو عند الله عظيم... وفائدة قوله بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم^(٣) ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ عتاب لجميع المؤمنين أى: كان ينبغى عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغى لنا أن نتفوه بهذا

(١) القرطبي (١٢/٢٠٣).

(٢) المختصر (٢/٥٩١).

(٣) التسهيل فى علوم التنزيل (٣/٦٢).

الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ أى سبحان الله أن يُقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح، عظيم الجرم ... قال الزمخشري: هو بمعنى العجب من عظيم الأمر والاستبعاد له ... والأصل فى ذلك أن يُسَبِّحَ الله عند رؤية العجائب ^(١) ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ أى يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكى لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم حقاً مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان... وفيه حثٌ لهم على الاتعاظ ﴿وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أى ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عالمٌ بما يُصلح العباد، حكيم فى تدييره وتشريعه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أى يريدون أن يتشعر الفعل القبيح المفرط فى القبح كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أى فى المؤمنين الأطهار ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى لهم عذاب موجه مؤلم فى الدنيا بإقامة الحد، وفى الآخرة بعذاب جهنم ...

قال الحسن: عَنِ هذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إيذاة الرسول ﷺ ... وذلك كُفْرٌ وملعونٌ صاحبه ^(٢) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى هو تعالى عالمٌ بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك ... قال الإمام الفخر: وهذه الجملة فيها حُسْنُ الموقع بهذا الموضع، لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات... أما الله سبحانه فهو لا يَخْفَى عليه شىء، فصار هذا الذكر نهايةً فى الزجر لأن مَنْ أحبَّ إشاعة الفاحشة وإن بالغَ فى إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه ^(٣) ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ

(١) الكشف (٣/ ٢٢٥).

(٢) البحر المحيط (٦/ ٤٣٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٣/ ١٨٣).

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ. وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ جواب ﴿لَوْ لَا﴾ محذوف لتحويل الأمر... أى لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان^(١).

ساعات المحنة

عندما يقف الإنسان يتدبر معانى الآيات الكريمة التى برأت عائشة رضي الله عنها، تجول فى خاطره تلك الساعات التى مرَّ بها البيت النبوى، والبيت البكرى... وكيف تلقى النبى ﷺ هذا الخبر، وكيف صبر رسول الله ﷺ وآل أبى بكر تحت وطأة بلاء حديث الإفك؟؟!!

نعم.. لقد آذى رسول الله ﷺ ما بلغه عن عائشة أطهر الصادقات وأصدق الطاهرات... مَنْ أحبها مع أبيها حبًّا يَفُوقُ تصوُّر المتصورين، فهو لا يعلم عن زوجه عائشة إلا خيراً، ولكن ما بال الناس يقولون عليها هذا الكلام؟

لقد لبث رسول الله ﷺ تحت وطأة بلاء هذه المحنة القاسية صابراً صبراً لم يُعرَف فى تاريخ النوازل والبلايا والخطوب لأحدٍ من قبله، ولا لأحدٍ من بعده، حتى نزلت آيات براءة عائشة بعد سبعٍ وثلاثين ليلة من بداية المحنة، فقد بلغه ﷺ حديث الإفك عند وصوله إلى المدينة، بعد ظفره ببنى المصطلق... تحدّث به أهل النفاق ومرضى القلوب. ولا كته ألسنتهم وهم يعلمون أنهم كاذبون مُفترّون، يحسبونه هيئاً وهو عند الله عظيم.

وما بالك بحال آل أبى بكر؟!

لم يكن حالهم أقل حُزناً من حُزن رسول الله ﷺ، فإنهم منذ بلغهم الإفك، وما تحدّث به المنافقون وأتباعهم، وهم يرزحون تحت فجيعة هذا البلاء

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

العاصف، لا يدرون ما يقولون، ولا ما يفعلون، تلاحقهم النظرات المتنوعة من كل مكان، وفي كل مكان.

ولك أن تتخيل تلك اللحظات الحرجة، بل الساعات والأيام التي قضوها، وهم يعيشون مرارة المحنة، ولكنهم استسلموا لقضاء العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، منتظرين حكمه بكشف الغمة التي أحاطت أثقالها بأكتافهم، وكان أمر النبي ﷺ أهم لديهم من أمر أنفسهم.

وصفت أم المؤمنين عائشة حالها، وحال أبويها في أخرج لحظات البلاء التي أذابت فيهم عناصر الحركة النفسية والفكرية.. تقول عائشة: والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٤٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يستر عبداً عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»^(٢).

✽ ذكرنا قبل ذلك أن الستر ليس محموداً على كل حالٍ وليس مذموماً على كل حال...

فأما الستر المحمود فيكون في حق إنسانٍ مستقيم من ذوى الهيئات غير معروفٍ بالشرِّ والفساد.. ولم يُعهد منه فاحشة وهو غير معروفٍ بظلم الناس والاعتداء عليهم.. فمثل هذا ينبغي أن نستر عليه وأن نُبين خطأه ونُقدم له النصيحة الخالصة لوجه الله ﻫُوَ ﻫَﻲْ ﻫَﻲْ.... وأما الإنسان الذي لا ينبغي أن نستر عليه فهو الإنسان المُشتهر بالفساد والإفساد والذي يجهر بالمعاصي ويعتدى على عباد الله.. فمثل هذا لا ينبغي أن نستر عليه بل المشروع أن نوضح أمره لولاية

(١) نساء أهل البيت (ص: ١٣٧-١٣٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٠) كتاب البر والصلة والآداب.



الأمر حتى يردعوه عما هو عليه وحتى يكون عبرة لغيره...

فالستر يتبع المصالح، فإذا كانت المصلحة في الستر فهو أولى وإن كانت المصلحة في الكشف فهو أولى... وإن تردد الإنسان بين هذا وهذا فالستر أولى.

✽ فمن ستر إنساناً مستقيماً وقع في كبوة .. ستره الله يوم القيامة .

قَالَ الْقَاضِي فِي مَعْنَى سْتَرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يُحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَسْتُرَ مَعَاصِيَهُ وَغُيُوبَهُ عَنْ إِذَاعَتِهَا فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ. وَالثَّانِي: تَرَكَ مُحَاسَبَتَهُ عَلَيْهَا وَتَرَكَ ذِكْرَهَا .. قَالَ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ لِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «يُقَرَّرُهُ بِذُنُوبِهِ.. يَقُولُ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^{(١)(٢)}.

✽ وإن كان هذا الستر المحمود فيما لو ظهر لك من أخيك ما ينبغي أن تستره عليه .. فمن باب أولى ألا تتبع عورات أخيك المسلم.

✽ فمن المروءة ألا تتبع عورات أخيك المسلم.. وإن وجدت به عيباً فما عليك إلا أن تستره وتنصحه فيما بينك وبينه ولا تفضحه بين الناس... فَإِنَّ مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

✽ ولذلك جاء الترهيب من تتبّع عورات المسلمين ومحاولة فضحهم والتشهير بهم.

✽ وإن من كرامة المسلم على الله: أنه سبحانه يتولّى الدفاع عنه بنفسه، والانتقام له من المسيء إليه... وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِيسَانِيهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤١) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢١٦/١٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٤).

✽ وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: «لو أخذت سارقاً لأحببت أن يستره الله، ولو أخذت شارباً لأحببت أن يستره الله عز وجل»^(١).

فاستر إخوانك، فإنه لا طاقة لك بحرب الله، القادر على كشف عيوبك، وفضح ذنوبك، التي لا يعلمها الناس عنك. وألجم لسانك عن الخوض في الأعراس، وتتبع العورات، وإفساد صيت إخوانك، وإساءة سمعتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٤٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ»^(٢).

✽ إن المسلم إذا ستر على نفسه فإنه يسلم بذلك من السنة الناس ومن سخط الله (جلّ وعلا).. فإن الله يستر على من ستر على نفسه ولا يحب من يجهر بمعصيته.

وإن المجتمع الذي يغلب عليه الطُّهر، لا يظهر فيه من الأخبار إلا ما كان طاهرًا وعفيفًا، ويبقى المُسرُّ بالمعصية مستورًا بستر الله عليه، إلى أن يتوب... ويستره المؤمنون؛ لئلا يتجاسر على الجهر بها، أو الإصرار عليها، وليكونوا عونًا له على الشيطان، طالما أسر واستتر.

✽ قوله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ» يعني بكل الأمة: أمة الإجابة الذين استجابوا للرسول صلى الله عليه وسلم... «مُعَافَى» يعني قد عافاهم الله عز وجل، «إلا المجاهرين» والمجاهرون هم الذين يجاهرون بمعصية الله عز وجل.

(١) مكارم الأخلاق (ص ٤٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرفائق.

والمجاهرون الذين يجهرون بالمعاصي ينقسمون إلى قسمين:

الأول: أن يعمل المعصية وهو مُجَاهِرٌ بها، فيعملها أمام الناس، وهم ينظرون إليه... هذا لا شك أنه غير مُعَافٍ وهو من المجاهرين، لأنه جَرَّ على نفسه الويل، وجَرَّه على غيره أيضًا.

الثاني: أن يعمل المعصية في البيت في الخفاء بحيث لا يراه أحد.. فإذا أصبح ذكر ما فعله للناس وفضح نفسه بعد أن ستره الله ﷻ.

فكل واحدٍ منهما غير مُعَافٍ.. وذلك لأنه وقع في معصية الله (جلّ وعلا) وظلم نفسه.. وكان ينبغي أن يعلم أن نفسه أمانة عنده ينبغي أن يراها حق رعايتها.. وكما أنه لو كان عنده ماشية فإنه يتخير لها المراعى الطيبة ويُبَعدها عن المراعى الخبيثة الضارة.. فكَذلك يجب عليه أن يتحرَّى المراعى الطيبة لنفسه: وهى الأعمال الصالحة وأن يُبَعدها عن المراعى الخبيثة وهى الأعمال السيئة.

والمُجَاهِر لم يكتفِ بأن ظَلَم نفسه وعصى الله ﷻ.. بل ظلم الناس من حوله.. وذلك لأن الناس إذا رأوه يجهر بالمعاصي هانت في نفوسهم ففعلوا مثله وظلموا أنفسهم بالوقوع في معصية الله ﷻ عندما فعلوا مثله وصاروا العياذ بالله من الأئمة الذين يدعون إلى النار... كما قال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وقال النبي (عليه الصلاة والسلام): «.... وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزَرُهَا وَوزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١). فهذا نوعٌ من المُجَاهرة، ولم يذكره النبي ﷺ لأنه واضح، لكنه ذَكَرَ أمرًا آخر قد يخفى على بعض الناس فقال: ومن المجاهرة أن يعمل الإنسان العمل السيئ في الليل فيستره الله عليه... يعمل العمل في بيته فيستره الله عليه.. ولا يُطلع عليه أحدًا... ولو تاب فيما بينه وبين

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٧) كتاب الزكاة.

ربه لكان خيراً له، ولكنه إذا قام في الصباح واختلط بالناس قال: عملت البارحة كذا، وعملت كذا، وعملت كذا... فهذا ليس مُعافى.

هذا والعياذ بالله قد ستر الله عليه فأصبح يفضح نفسه.

❁ وهذا الذى يفعله بعض الناس أيضاً يكون له أسباب:

السبب الأول: أن يكون الإنسان غافلاً سليماً لا يهتم بشيء، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدث بها عن طيب قلب لا عن خُبث قصد.

والسبب الثانى: أن يتحدث بها تَبَجُّحاً بالمعاصى واستهتاراً بعظمة الخالق، فيُصَبِّحون يتحدثون بالمعاصى مُتَبَجِّحِينَ بها كأنما نالوا غنيمة، فهؤلاء - والعياذ بالله - شَرُّ الأقسام.

والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يستتر بستر الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يحمده الله على العافية، وأن يتوب فيما بينه وبين ربه من المعاصى التى قام بها. وإذا تاب إلى الله وأتاب إلى الله ستره الله فى الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٤٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا زَنَتِ الْأُمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّلَاثَةَ فَلْيَبْعِهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرِ^(١)».

❁ إنسان عنده أمة... والآن لا يوجد إماء، ولكن هذا حكم من الأحكام التى ينبغى أن نوضحها.. والتى ينبغى فيها الستر الجميل... فالأمة إذا وقعت فى الزنا فلسيدها أن يُقيم عليها الحد... والحدُّ هنا ليس رَجْماً، ولكن الحدُّ هو الجلد، لأن فى رجمها إهداراً لمال سيدها... فيجلدها خمسين جلدة، وبعدما

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٣٤) كتاب البيوع - ومسلم (١٧٠٣) كتاب الحدود. «التَّزْيِيبُ»: التَّوْبِيخُ.

يقيم عليها الحد قال: «ولا يُثْرَب»، أى: لا يُعيرها ويقول لها: يا زانية! يا مَنْ أتيَتْ الفاحشة! لماذا؟ لأن الإنسان لو اعتاد هذه الكلمة على لسانه فإنه سوف يفضحها بذلك، وحينئذ سوف تُفْضَل أن تقع في الفاحشة طالما أنها قد افتضحت ... ومعلوم أن الإنسان الذى يقع في الفاحشة أو المعصية يستر على نفسه؛ لأنه يخاف أن يعرف الناس ذلك، فإذا عرف الناس هذا الشيء فحينئذ سوف يُكْشَف بُرْقَع الحياء، ولن يستحي من الناس بعد ذلك، بل وسوف يعملها ويجاهر بها... لذلك قال النبى ﷺ لسيد الأمة: «فليجلدها الحَدَّ ولا يُثْرَب»، فأقم عليها الحد، واجلدها خمسين جلدة، ولكن لا تفضحها، ولا تُشهر بها، ولا تُعيرها بهذا الشيء، وإلا كشفت عنها ثوب الحياء، وسوف تقوم هى بعد ذلك فتقع في الفاحشة مرة وراء المرة، ولا يهتمها شيء.

قال ﷺ: «فإن زنت الثانية فليجلدها الحَدَّ ولا يُثْرَب عليها، ثم إن زنت الثالثة فليبيعها ولو بحبل من شعر»، ففي المرة الثالثة أمره أن يبيعها، لأنه لا يستطيع أن يعفها... وسيد الأمة إما أن يأتيها هو، وإما أن يُزوجها حتى تستعف... ولكن هذا لا يأتيها ولا يُزوجها، إنما تركها تزنى، فعليه إذاً أن يبيعها طالما أنه لم يقدر على أن يكفيها عن الحرام^(١).

والأمة: هى المملوكة التى تُباع وتُشتري، فإذا زنت فيجلدها الحدّ، وحدّ الأمة نصف حدّ الحرة... كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].
والحرة إذا كانت بكرًا و زنت تُجلد مائة جلدة وتُغْرَب سنة.

والأمة نصف ذلك يعنى خمسين جلدة... وأما تغريبها ففي ذلك قولان للعلماء: منهم من قال: تُغْرَب نصف سنة. ومنهم من قال: إنها لا تُغْرَب، لأنه قد

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

تعلق بها حق السيد.

«ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب، ثم إن زنت» يعنى فى الثالثة أو الرابعة «فليبيعها ولو بحبل من شعر»، يعنى ولا يُبقيها لأنه لا خير فيها. ففى هذا: دليل على أن السيد يُقيم الحد على مملوكه، وأما غير السيد فلا يقيم الحد^(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى وَجوب حد الزنى عَلَى الْإِمَاءِ وَالْعَبِيدِ.
وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَبْدَ وَالْأَمَةَ لَا يُرْجَمَانِ سِوَاءَ كَانَا مُزَوَّجَيْنِ أَمْ لَا لِقَوْلِهِ
«فَلْيُجْلِدْهَا الْحَدَّ» وَلَمْ يُفَرَّقْ بَيْنَ مُزَوَّجَةٍ وَغَيْرِهَا وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يُؤَبَّخُ الزَّانِي بَلْ
يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فَقَطْ .. قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ زَنْتَ فَلْيُجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يَثْرَبْ عَلَيْهَا ثُمَّ إِنْ
زَنْتِ الثَّلَاثَةَ فَتَبَيَّنَ زَنَاهَا فَلْيَبْعِهَا وَلَوْ بِحَبْلِ مِنْ شَعْرٍ» فِيهِ أَنَّ الزَّانِي إِذَا حُدَّ ثُمَّ زَنَى
ثَانِيًا يَلْزَمُهُ حَدٌّ آخَرُ فَإِنْ زَنَى ثَالِثَةً لَزِمَهُ حَدٌّ آخَرُ ... فَإِنْ حُدَّ ثُمَّ زَنَا لَزِمَهُ حَدٌّ آخَرُ
وَهَكَذَا أَبَدًا ... فَأَمَّا إِذَا زَنَى مَرَّاتٍ وَلَمْ يُحَدَّ لِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَيَكْفِيهِ حَدٌّ وَاحِدٌ
لِلْجَمِيعِ ... وَفِيهِ تَرْكُ مُخَالَطَةِ الْفُسَّاقِ وَأَهْلِ الْمَعَاصِي وَفِرَاقِهِمْ، وَهَذَا الْبَيْعُ
الْمَأْمُورُ بِهِ مُسْتَحَبٌّ .. وَفِيهِ جَوَازُ بَيْعِ الشَّيْءِ النَّفِيسِ بِثَمَنِ حَقِيرٍ وَهَذَا مُجْمَعٌ
عَلَيْهِ إِذَا كَانَ الْبَائِعُ عَالِمًا بِهِ فَإِنْ كَانَ جَاهِلًا فَكَذَلِكَ عِنْدَنَا وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَهَذَا
الْبَيْعُ الْمَأْمُورُ بِهِ يَلْزَمُ صَاحِبَهُ أَنْ يُبَيِّنَ حَالَهَا لِلْمُشْتَرِي لِأَنَّهُ عَيْبٌ وَالْإِخْبَارُ بِالْعَيْبِ
وَاجِبٌ ... فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَكْرَهُ شَيْئًا وَيَرْتَضِيهِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ؟ .. فَالْجَوَابُ لَعَلَّهَا
تَسْتَعِفُّ عِنْدَ الْمُشْتَرِي بِأَنْ يُعَفِّهَا بِنَفْسِهِ أَوْ يَصُونَهَا بِهَيْبَتِهِ أَوْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا
وَالْتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا أَوْ يُزَوِّجَهَا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٩-١٠) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووى (١١/ ٣٠٠-٣٠١) بتصرف.

(٢٤٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أُنْتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا قَالَ: «اضْرِبُوهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ»^(١).

❁ والخمر: هي كل ما خامر العقل من أى شراب كان؛ سواء كان مما اعتيد شربه أم لا؛ وسواء كان من عصير العنب أو التمر أو الشعير أو البر أو غير ذلك من أنواع العصائر التى تُسكر... فالمدار كله على الإسكار، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

وفي الحقيقة أن الخمر هي أم الكبائر وهي آفة كبيرة لكل من ابتلى بها.. وإن الإنسان لم يُصَبْ بضربة أشد من ضربة الخمر.. ولو عُمِلَ إحصاء عام عَمَّنَ في مستشفيات العالم من المُصابين بالجنون والأمراض العضال بسبب الخمر، وعَمَّنَ انتحر أو قتل غيره بسبب الخمر، وعَمَّنَ يشكون في العالم من آلام عصبية ومعدية ومعوية بسبب الخمر، وعَمَّنَ أورد نفسه موارد الإفلاس بسبب الخمر، وعَمَّنَ تجرّد من أملاكه بيعًا أو غشًا بسبب الخمر... لو عُمِلَ إحصاء بذلك أو ببعضه لبلغ حدًا هائلًا نجد كل نُصح بإزائه صغيرًا.

وقد كان العرب في جاهليتهم مُولعين بشربها والمُنادمة عليها. ظهر ذلك في لغتهم، فجعلوا لها نحوًا من مائة اسم في شعرهم فوصفوها، وأقداحها ومجالسها وأنواعها.

فلما جاء الإسلام أخذهم بمنهج تربيوى حكيم، فتدرج معهم في تحريمها، فبيّن لهم أولاً أن إثمها أكبر من نفعها، ثم منعهم من الصلاة وهم سُكّارى، ثم أنزل سبحانه الآية الجامعة القاطعة في تحريمها في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٨١) كتاب الحدود.

٩٠

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩٠﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وفي هاتين الآيتين أكد الله تحريم الخمر والميسر (القمار) تأكيداً بليغاً، إذ قرنهما بالأنصاب والأزلام، وجعلهما رجساً - وهى كلمة لا تُطلق في القرآن إلا على ما اشتد فُحْشه وقُبْحُه، وجعلهما من عمل الشيطان، وإنما عَمَلُه الفحشاء والمنكر، وطلب اجتنابهما، وجعل هذا الاجتناب سبيلاً إلى الفلاح، وذكر من أضرارهما الاجتماعية، تقطيع الصلات، وإيقاع العداوة والبغضاء ...

ومن أضرارهما الروحية الصد عن الواجبات الدينية من ذكر الله والصلاة، ثم طلب الانتهاء عنهما بأبلغ عبارة: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾؟ وكان جواب المؤمنين على هذا البيان الحاسم: قد انتهينا يا رب، قد انتهينا يا رب.

وصنع المؤمنون العجب بعد نزول هذه الآية ... فكان الرجل في يده الكأس قد شرب منها بعضاً وبقي بعض، فحين تبلغه الآية ينزع الكأس من فيه - أى من فمه - ويفرغها على التراب.

وقد تيقن كثير من الحكومات بأضرار الخمر على الأفراد والأسر والأوطان ... ومنهم من حاولوا أن يمنعوها بقوة القانون والسلطان - كأمریکا - ففشلوا، على حين نجح الإسلام وحده في محاربتها والقضاء عليها^(١).

وفي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أنه قد أتى برجل قد شرب خمرًا وقد تأكد الجميع من خلال تصرفاته ورائحة فمه أنه بالفعل قد شرب خمرًا. فقال صلى الله عليه وسلم: «اضرَبوه».

فقال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، ومنا الضارب بسوطه، ومنا الضارب

(١) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (ص ٦٥-٦٦).

بنعله... ولم يُحدد لهم النبي ﷺ عددًا معينًا، فلما انصرف بعضهم قال له رجل: أخزأك الله، فقال النبي ﷺ: «لا تُعينوا عليه الشيطان» لأن الخزي معناه العار والدل... فأنت إذا قلت لرجل: أخزأك الله، فإنك قد دعوت الله عليه بما يذله ويفضحه، فتعين عليه الشيطان.

✽ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

وَوَجْهٌ عَوْنُهُمُ الشَّيْطَانُ بِذَلِكَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُرِيدُ بِتَرْيِينِهِ لَهُ الْمَعْصِيَةَ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ الْخِزْيُ فَإِذَا دَعَوْا عَلَيْهِ بِالْخِزْيِ فَكَأَنَّهُمْ قَدْ حَصَلُوا مَقْصُودَ الشَّيْطَانِ^(١).

✽ وقد أجمع الصحابة ومن بعدهم على جلد شارب الخمر.. ثم اختلفوا في مقداره على قولين:

الأول: مقداره أربعون جلدة: وهو مذهب الشافعي -ورواية عن أحمد- وداود وابن حزم وبه قال جمع من الصحابة رضي الله عنهم... وحجة هذا المذهب:

١ - حديث أنس رضي الله عنه قال: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَضْرِبُ فِي الْخَمْرِ بِالنَّعَالِ وَالْجَرِيدِ أَرْبَعِينَ^(٢).

٢ - أن عثمان رضي الله عنه أمر عليًا رضي الله عنه بجلد الوليد بن عقبة في الخمر، فقال لعبد الله بن جعفر: «اجلده، فجلده، فلما بلغ الأربعين قال: أَمْسِكْ.. جَلَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ عُمَرُ رضي الله عنه ثَمَانِينَ وَكُلُّ سُنَّةٍ وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ»^(٣).

قالوا: ففيهما الجزم بأن النبي ﷺ جلد أربعين، واعتمده أبو بكر في خلافته، وعمر رضي الله عنه صدرًا من خلافته حتى تتابع الناس فيها فزادها أربعين «تعزيرًا».

(١) فتح الباري (١٢/٦٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٠٦) كتاب الحدود.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٠٧) كتاب الحدود.

الثاني: مقدار الحدّ ثمانون جلدة: وهو مذهب جمهور العلماء منهم الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك وأحمد، وهو القول الآخر عند الشافعية، واستدلوا بما يلي:

١- ما يروى «أن النبي ﷺ جلد في الخمر ثمانين»^(١) وهو ضعيف لا تقوم به حجة.

٢- حديث أنس: «أن النبي ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر، فجَلَدَهُ بِجَرِيدَتَيْنِ نَحْوِ أَرْبَعِينَ، قَالَ: وَفَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمَّا كَانَ عُمَرُ اسْتَشَارَ النَّاسَ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَخَفَّ الْحُدُودِ ثَمَانِينَ، فَأَمَرَ بِهِ عُمَرُ»^(٢).

والذي يترجح لدى هو القول الأول: أن الحدّ أربعون؛ لأنه الذي فعله النبي ﷺ وأبو بكر وعمر صدرًا من خلافته... وأما ما زاده عمر رضي الله عنه واستشار فيه الصحابة، فإنه قدر زاده على الحدّ من باب التعزير لما رأى من اجتراء الناس وتتابُعهم على شربها.

ففي هذا: دليل على أن الإنسان إذا فعل ذنبًا وعُوقب عليه في الدنيا، فإنه لا ينبغي لنا أن ندعو عليه بالخزي والعار، بل نسأل الله له الهداية، ونسأل الله له المغفرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ضعيف: رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٧٩/٧) مرسلاً، وانظر «التلخيص» (٧٢/٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٠٦) كتاب الحدود.

(٢٩) باب قضاء حوائج المسلمين

❁ ما أجمل أن يسعى المسلم في قضاء حوائج إخوانه المسلمين.
 فالمسلم أخو المسلم.. والمسلم للمسلم كالبنیان يشدّ بعضه بعضاً.
 ولا بُدَّ أن نعلم أن الأيام دول.. فقد يقع أخوك في ضائقة فتكون في عونته..
 وقد ينقلب الحال فتقع أنت في ضائقة فيكون هو في عونك.
 قال تعالى: ﴿وَأَنْفَعُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ❁ [الحج: ٧٧].
 وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ❁ [البقرة: ٢١٥].
 ففعل الخير من أعظم أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.. وذلك لأن الله
 عَزَّوَجَلَّ يحب مَنْ فَعَلَ الخير مع عباده... وَمَنْ أحبه الله (جلَّ وعلا) فإنه سيكون
 من السعداء المفلحين في الدنيا والآخرة.

(٢٤٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن المسلم الحقيقي هو الذي لا يظلم
 أخاه المسلم ولا يحقره؛ لأنه لا يدرى فقد يكون هذا المسلم الذي يحقره له
 مكانة عظيمة عند الله.. فمن حق المسلم عليك أن تحترمه وتوقره مهما كان
 غنياً أو فقيراً.. والمسلم لا يتخلى عن أخيه المسلم في وقت الشدة بل يقف
 بجواره ويؤازره ولا يُسلمه لأحد أبداً.. والمسلم يكون دائماً في حاجة أخيه قدر
 استطاعته...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

والحوائح: ما يحتاجه الإنسان ليكمل به أموره ... وأما الضروريات؛ فهي ما يضطر إليه الإنسان ليدفع به ضرره ... ودفع الضرورات واجب؛ فإنه يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة أن يدفع ضرورته؛ فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة، أو إلى التبردة؛ وَجَبَ عليه أن يقضى حاجته، وَجَبَ عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها.

أما إذا كان الأمر حاجياً وليس ضرورياً، فإن الأفضل أن تُعين أخاك على حاجته، وأن تيسرها له ما لم تكن الحاجة في مضرته، فإن كانت الحاجة في مضرته فلا تُعنه ... لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْعُدُونِ﴾ [المائدة: ٢].

فلو فرض أن شخصاً احتاج إلى شرب دخان، وطلب منك أن تُعينه بدفع القيمة له أو شرائه له أو ما أشبه ذلك؛ فإنه لا يَحِلُّ لك أن تُعينه ولو كان محتاجاً ... حتى لو رأيتَه مُكْتَبِّباً يريد أن يشرب الدخان فلا تُعنه ... لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْرِ وَالْعُدُونِ﴾ ^(١).

وقد سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٣٨) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ

وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعِ بِهِ نَسَبُهُ»^(١).

✽ فكم من مسلم وقع في كربٍ واحتاج إلى مَنْ يُمَدُّ يده إليه لِيُنْقِذَهُ من ذلك الكرب... فبينما هو كذلك وإذا بأخٍ حبيبٍ من إخوانه يُمَدُّ إليه يده لِيُنْفُسَ عنه ولو شيئًا يسيرًا من ذلك الكرب.... فهذا من الخير الذي لا يُنسى أبدًا.

ولا بد أن نعلم أنه كلما ازداد الإيمان في قلب العبد فإنه يكون أكثر مواساة لكل مَنْ حوله.

ولذلك كان النبي ﷺ أعظم الناس مواساة لأصحابه.

وكان الصحابة أعظم الناس مواساة فيما بينهم.

✽ ونحن نعلم أن كل إنسان لا بد أن يتعرض لأي ابتلاء في هذه الحياة الدنيا... فمنهم مَنْ يمرض.. أو يفتقر.. أو يموت له قريب.. أو يعاني من الهم والغم... وكل هؤلاء يحتاجون إلى مَنْ يواسيهم وَيَجْبِرُ خَاطِرَهُمْ وَيَسَاهِمُ فِي حل مشاكلهم وتفريج همومهم.

وَمَنْ نَفْسٍ عَنْ مَوْءِنٍ كُرْبَةٍ مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفْسُ اللَّهِ عَنْهُ كُرْبَةٌ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

✽ فهذا حديثٌ عظيم.. وهو أصلٌ من أصول الإسلام.. مطلعُه يدل دلالة عظيمة صريحة على أن الجزاء دائمًا يكون من جنس العمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.. فقد جعل الله ﷻ جزاء تنفيس هذا العبد لكرب إخوانه أن يُنْفُسَ عنه كُرْبَةٌ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وهذا الحديث لا يشعر بمعناه إلا مَنْ وقع في كربٍ عظيم لا مَخْرَجَ له إلا أن يُقِيضَ اللَّهُ تَعَالَى له رجلًا يُنْفُسُ هذه الكربة على يديه فحينئذٍ يستشعر فضل الله ﷻ ورحمة وعظمة الإسلام ولذلك كان غير واحدٍ من السلف يقول: لأن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

أَمْشَى مَعَ أَخِي فِي حَاجَتِهِ حَتَّى أَقْضِيَهَا لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ رَكْعَةٍ (أَي: مِنْ النَوَافِلِ).

وَهَذَا الْحَدِيثُ يَبِينُ لَنَا أَبَوَاتًا مِنَ الْخَيْرِ يَبِينُهَا لَنَا مُعَلِّمُ الْخَيْرِ ﷺ ... فَأَوَّلُ هَذِهِ الْأَبْوَابِ: قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وَالْجِزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ ... كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءُ»^(١).

وَالْكُرْبَةُ: هِيَ الشَّدَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي تُوقِعُ صَاحِبَهَا فِي الْكَرْبِ .. وَتَنْفِيسُهَا تَخْفِيفُهَا، وَالتَّفْرِيجُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ.

وَجِزَاءُ التَّنْفِيسِ التَّنْفِيسَ، وَجِزَاءُ التَّفْرِيجِ التَّفْرِيجَ ... قَوْلُهُ ﷺ: «كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وَلَمْ يَقُلْ مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا قِيلَ فِي التَّيْسِيرِ وَالسُّتْرِ. وَقَدْ قِيلَ فِي مَنَاسِبَةٍ ذَلِكَ: إِنَّ الْكَرْبَ هِيَ الشَّدَائِدُ الْعَظِيمَةُ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِخِلَافِ الْإِعْسَارِ، وَالْعَوْرَاتِ الْمَحْتَاجَةِ إِلَى السُّتْرِ فَإِنْ أَحَدًا لَا يَكَادُ يَخْلُو مِنْ ذَلِكَ، وَقِيلَ: لِأَنَّ كَرْبَ الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَرْبِ الْآخِرَةِ كَلَا شَيْءٍ.

فَادَّخَرَ اللَّهُ جِزَاءَ تَنْفِيسِ الْكَرْبِ عِنْدَهُ، لِیَنْفَسَ بِهِ كَرْبَ الْآخِرَةِ.

❦ وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرِ يَسِيرٍ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَسِّرُ هَذَا الْيَوْمَ عَلَى مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ... وَالتَّيْسِيرُ عَلَى الْمُعْسِرِ فِي الدُّنْيَا مِنْ جِهَةِ الْمَالِ يَكُونُ بِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْظَارُهُ إِلَى الْمَيْسَرَةِ، وَذَلِكَ وَاجِبٌ ... كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. وَتَارَةً بِالْوَضْعِ عَنْهُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

إِنْ كَانَ غَرِيماً وَإِلَّا فَبِإِعْطَائِهِ مَا يَزُولُ بِهِ إِعْسَارُهُ وَكِلَاهُمَا لَهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِراً قَالَ لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١)، وَعَنْ أَبِي الْيَسْرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظْلَمَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(٢).

❦ قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وَشَاهَدَ ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي بَرْدَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٣).

❦ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْ كَانَ مُسْتَوْرًا لَا يُعْرِفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي، فَإِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ هَفْوَةٌ أَوْ زَلَةٌ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ هَتَكُهَا، وَلَا كَشْفُهَا، وَلَا التَّحَدُّثُ بِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْبَةٌ مُحْرَمَةٌ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ النُّصُوصُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩].

قَالَ بَعْضُ الْوُزَرَاءِ الصَّالِحِينَ لِبَعْضِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ: اجْتَهِدْ أَنْ تَسْتَرِ الْعُصَاةَ، فَإِنْ ظَهَرُوا مَعَاصِيهِمْ عَيْبٌ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مَنْ كَانَ مُشْتَهَرًا بِالْمَعَاصِي مُعْلَنًا بِهَا وَلَا يُبَالِي بِمَا ارْتَكَبَ مِنْهَا، وَلَا بِمَا قِيلَ لَهُ: فَهَذَا هُوَ الْفَاجِرُ الْمَعْلَنُ وَلَيْسَ لَهُ غَيْبَةٌ.. كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ.. وَمِثْلُ هَذَا لَا بَأْسَ بِالْبَحْثِ عَنْ أَمْرِهِ لِتُقَامَ عَلَيْهِ الْحُدُودُ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٧٨) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٦٢) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٠٧).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

❦ ثم قال ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

بعث الحسن البصري جماعة من أصحابه في قضاء حاجة لرجل، وقال لهم: مروا بثابت البناني فخذوه معكم .. فأتوا ثابتًا فقال: أنا معتكف فرجعوا إلى الحسن فأخبروه فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أن مشيك في حاجة أخيك خير لك من حجة بعد حجة .. فرجعوا إلى ثابت فترك اعتكافه وخرج معهم.

وكان عمر رضي الله عنه يتعاهد الأرامل يستقى لهن الماء بالليل... ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة فدخل إليها طلحة نهارًا فإذا هي عجوز عمياء مُقَعَّدة، فسألها ما يصنع هذا الرجل عندك؟ قالت: هذا منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عني الأذى.

فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعورات عمر تتبع.

وكان أبو وائل يطوف على نساء الحى، وعجائزهن كل يوم، فيشتري لهن ما يُصلحهن، وحوائجهن.

وقال مجاهد: صحبت ابن عمر في سفر، لأخدمه فكان يخدمني.

❦ وقوله ﷺ: «ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهَّل الله له طريقًا إلى

الجنة».

وسلوك الطريق لالتماس العلم يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي، وهو المشى بالأقدام إلى مجالس العلماء.. ويدخل فيه سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم مثل حفظه، ومُدارسته، ومُذاكرته، ومطالعتة، وكتابته، والتفهُّم له، ونحو ذلك.

وقوله ﷺ: «سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة»، قد يُراد بذلك أن الله تعالى يُسهل له العلم الذى طلبه، وسلك طريقه، ويُيسره عليه... فإن العلم طريق يُوصل إلى الجنة.

قال بعض السلف: هل من طالب علم فيُعان عليه... وقد يُراد أيضًا أن الله عز وجل ييسر لطالب العلم إذا قصد بطلبه وجه الله تعالى، والانتفاع به، والعمل بمقتضاه فيكون سببًا لهديته، ولدخول الجنة بذلك... وقد يدخل في ذلك أيضًا تسهيل طريق الجنة يوم القيامة، وهو الصراط، وما قبله، وما بعده... والعلم يدل على الله عز وجل من أقرب طريق بل لا طريق إلى معرفة الله عز وجل وإلى الوصول إلى رضوانه، والفوز بمجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه.

❁ قوله ﷺ: «وما جلس قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

أما نزول السكينة وهي الطمأنينة والوقار... فعن البراء بن عازب قال: كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَظَيْنٍ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلُ لِلْقُرْآنِ»^(١).

أما غشيان الرحمة فقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وخرج الحاكم من حديث سلمان: أنه كان في عصابة يذكرُونَ الله فَمَرَّ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُمْ قَاصِدًا حَتَّى دَنَا مِنْهُمْ فَكَفُّوا عَنِ الْحَدِيثِ إِعْظَامًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ الرَّحْمَةَ تَنْزِلُ عَلَيْكُمْ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُشَارِكَكُمْ فِيهَا»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠١١) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٧٩٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) رواه الحاكم (٢١٠/١)، رقم (٤١٩) وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

أما حفوف الملائكة : ففي الصحيحين عن أبي سعيد أن أَسِيدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ، إِذْ جَالَتْ فَرْسُهُ، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى، فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيضًا، قَالَ أَسِيدُ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى -ابنه- فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أُمثالُ السُّرُجِ، عَرَجْتُ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي، إِذْ جَالَتْ فَرْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأْ ابْنُ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأْ ابْنُ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيضًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأْ ابْنُ حُضَيْرٍ» قَالَ: فَانصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظِّلَّةِ فِيهَا أُمثالُ السُّرُجِ، عَرَجْتُ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْمَعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ»^(١).

وكذلك حديث الملائكة السيارة، وفيه: «فَيَحْفُونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا»^(٢).

وأما ذكر الله تعالى لأهل المجلس ... ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: قال الله ﷻ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(٣).
وَذِكْرُ اللَّهِ ﷻ لِلْعَبْدِ: هُوَ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، وَثُبَاهَاتِهِ بِهِ، وَتَنْوِيهِهِ بِذِكْرِهِ.

ثم ختم النبي ﷺ هذه الوصية الغالية بقوله ﷺ: «وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ

(١) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٥٠١٨) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٧٩٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

يُسْرِعُ بِهِ نَسَبُهُ»... ومعناه أن العمل هو الذي يبلغ بالعبد درجات الآخرة.
كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ تَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]. فمن أبطأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ فيبلغه تلك الدرجات، فإن الله تعالى رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته، ورحمته بالأعمال.
كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّاءِ وَالضَّرَاءِ وَالْكَظِيمِ الْعَبْطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] (١).

وقيل: من أبطأ به عمله في المرور على الصراط لم يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.
قال ابن مسعود رضي الله عنه: ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ بِالصِّرَاطِ فَيُضْرَبُ عَلَى جَهَنَّمَ، فَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ زُرْمًا زُرْمًا.. فيمر أَوَائِلُهُمْ كَلَمَحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرُ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرُ الطَّيْرِ، ثُمَّ كَمَرُ الْبَهَائِمِ، حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ سَعِيًّا، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ مَشِيًّا، حَتَّى يَجِيءَ آخِرُهُمْ يَتَلَبَّطُ عَلَى بَطْنِهِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، لِمَ بَطَأْتُ بِي؟ فَيَقُولُ: إِنَّي لَمْ أَبْطِئُ بِكَ، إِنَّمَا أَبْطَأَ بِكَ عَمَلُكَ.

❖ قال الإمام النووي رحمته الله:

قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» معناه مَنْ كَانَ عَمَلُهُ نَاقِصًا لَمْ يُلْحِقْهُ بِمَرْتَبَةِ أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَكَلَّ عَلَى شَرَفِ النَّسَبِ وَفَضِيلَةِ الْأَبَاءِ وَيُقَصِّرَ فِي الْعَمَلِ.

وفي هذا الحديث: فَضْلُ قَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُسْلِمِينَ وَنَفْعِهِمْ بِمَا تَيْسَّرَ مِنْ عِلْمٍ

أَوْ مَالٍ أَوْ مُعَاوَنَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ بِمَصْلَحَةٍ أَوْ نَصِيحَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَفَضْلُ السِّرِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَفَضْلُ إِنْظَارِ الْمُعْسِرِ وَفَضْلُ الْمَشْيِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ الْإِشْتَغَالُ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ بِشَرْطٍ أَنْ يُقْصَدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ كَانَ هَذَا شَرْطًا فِي كُلِّ عِبَادَةٍ^(١).

❁ فَيَا مَنْ نَفَّسْتَ عَنْ أَخِيكَ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا أَبْشِرْ بِتَفْرِيجِ اللَّهِ عَنْكَ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ... وَيَا مَنْ يَسَّرْتَ عَلَى مُعْسِرٍ أَبْشِرْ.. فَسَوْفَ يُيسِّرُ اللَّهُ ﷻ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. وَيَا مَنْ سَتَرْتَ مُسْلِمًا أَبْشِرْ فَسَوْفَ يَسْتُرُكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... وَحَسْبُكَ أَنْ اللَّهُ ﷻ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَيَكُونُ فِي عَوْنِكَ إِذَا كُنْتَ فِي عَوْنِ إِخْوَانِكَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٣٤-٣٥) بتصرف.

(٣٠) بَابُ الشَّفَاعَةِ

❁ إن الشفاعة الحسنة من أسهل الطرق لتأليف القلوب وترسيخ المحبة بين قلب الشافع والمشفوع له.

والشفاعة الحسنة هي التي ليس فيها إضرار بأحد، ولا سلب لحقوق أحد، ولا تعدد على حد من حدود الله، ولا تعطيل لحد... فالحدود متى وصلت إلى الحاكم، فلا شفاعة فيها؛... لقول النبي ﷺ لأسماء لما شفع في شأن المخزومية التي سرقت: «أتشفع في حد من حدود الله؟».

قال الله ﷻ: ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥].
بَابُ الشَّفَاعَةِ

(٢٥١) وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ، أَقْبَلَ عَلَى جُلُوسَائِهِ، فَقَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتَوْجَرُوا، وَلِيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبُّ»^(١). وفي رواية: «ما شاء»

❁ هذا الحديث فيه الحثُّ على فعل الخير، واستحباب قضاء حاجة المسلم، والسعي وراء تحقيقها، وأن من سعى في حاجة أخيه المسلم، وشفع له بجاهه، ومكانته في مجتمعه، أنه يَحْصُلُ له الأجر الكبير، سواء حصل ما سعى فيه، أو لم يَحْصُلْ، وسواء تم المراد على الوجه المطلوب، أو تم بعضه، أو لم يتم... كما قيل:

على المرء أن يسعى إلى الخير جُهدَه وليس عليه أن تسم المقاصدُ

فإذا علم المؤمن أن الأجر في السعي لحاجة أخيه المسلم حاصل فُضِيت، أو لم تُقْضَ، فلا ينبغي أن يُفوت على نفسه هذه الفضيلة، وهذا الأجر الذي رتبّه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٣٢) كتاب الزكاة، ومسلم (٢٦٢٧) كتاب البر والصلة.

النبي على الشفاعة^(١).

✽ والشفاعة: هي التوسط للغير؛ لجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال الأول: أن تتوسط لشخصٍ عند آخر في أن يساعده في أمرٍ من الأمور.

ومثال الثاني: أن تشفع لشخصٍ عند آخر في أن يسامحه ويعفو عن مظلّمته،

حتى يندفع عنه الضرر.

ومثال ذلك في أيام الآخرة؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف ليُقضى

بينهم، حين يصيبهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فهذه شفاعة في دفع مضرة.

ومثالها في جلب منفعة؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة.

✽ والمراد بالشفاعة في كلام المؤلف: الشفاعة في الدنيا؛ وهي أن يشفع

الإنسان لشخصٍ عند آخر... يتوسط له لجلب المنفعة له أو دفع المضرة عنه.

✽ والشفاعة أقسام:

القسم الأول: شفاعة مُحَرَمَة لا تجوز، وهي أن يشفع لشخصٍ وَجَبَ عليه

الحدّ بعد أن يصل إلى الإمام، فإن هذه الشفاعة محرمة لا تجوز.

مثال ذلك: رجل وجب عليه حدٌّ في قطع يده في السرقة، فلما وصلت إلى الإمام

أو نائب الإمام؛ أراد إنسان أن يشفع لهذا السارق ألا تُقَطَّع يده، فهذا حرام.

القسم الثاني: أن يشفع في شيءٍ مُحَرَّم... مثل أن يشفع لإنسانٍ مُعتدٍ على

أخيه... كأن يعرف مثلاً أن هذا الرجل يريد أن يخطب امرأة مخطوبة من قبل،

والمرأة المخطوبة لا يَحِلُّ لأحدٍ خطبتها، فذهب رجلٌ ثانٍ إلى شخص وقال: يا

فلان أحب أن تشفع لي عند والد هذه المرأة يُزوجنيها، وهو يعلم أنها مخطوبة،

فهنا لا يحل له أن يشفع؛ لأن هذه شفاعة في محرم.

والشفاعة في المحرم تعاون على الإثم والعدوان... وقد قال الله تعالى:

(١) من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٣٠١).

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

القسم الثالث: الشفاعة في شيء مباح فهذه لا بأس بها، ويكون للإنسان فيها أجر^(١).

مثل أن تشفع لإنسان لا يجد عملاً يحصل من خلاله على الرزق الحلال.. فتشفع له عند أحد أصدقائك الذين يعملون بالتجارة وعندهم شركات. ومثل أن تشفع لشاب صالح يريد أن يتزوج فتاة صالحة ولكن والدها قد اشترط عليه شروطاً قاسية في الزواج.. وكان والد الفتاة صديقك.. فتشفع لهذا الشاب الصالح عند والد الفتاة ليُيسر أمر الزواج لهذا الشاب الصالح.. وهكذا. كما أنه ينبغي لمن شفع عنده أحد أن لا يتبرم من شفاعته، ولا يضيق صدره بذلك، ويوطن نفسه على الحرص على قضائها، إذا أمكنه ذلك، ولم يكن عليه به ضرر، ولا على غيره... فإذا لم يتمكن، فينبغي أن يرُدَّ ردًّا حسناً لطيفاً، فيه جبرٌ لخاطر الشافع والمشفوع له... فإنه يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْرِضَنَّهُمْ عَنْهُمْ أِبَتَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

❁ ومن فوائد هذا الحديث استحباب السعي في سبيل الخير، وفعل كل ما يُزيل اليأس عن النفوس، فإن وجود اليأس في النفس سبب لكثرة الهم، والغم، والانقباض، وضيق الصدر، وإذا حصل شيء من هذه الأمور تشّتت الذهن، وتبدّل الفهم، وضعف التفكير، واستولى على النفس الكسل، والخمول. وأما إذا واصل السعي في طلب الحاجات، وبذل جهده، واستعان بمن يظن أنه يحصل بسببه المقصود، واتكل على الله في نجاح أموره، فإن هذا عنوان على وجود الرجاء، والأمل في حصول المراد، وهذا مأمور به شرعاً حيث يقول ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤-١٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

❁ وفي قوله ﷺ: «اشفعوا تُؤَجَّرُوا»، ويقضى الله على لسان رسوله ما يشاء»

أن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها، إلا أن يشفع في إيصال شيء من الحقوق الواجبة، فإن الحق الواجب يلزم أدائه، وإيصاله إلى مُستحقه، ولو لم تحصل فيه شفاعته، فإذا وجدت الشفاعة تأكد أدائه أيضًا ...

ويدل الحديث على شدة شفقتة ﷺ، ورحمته، ورأفته بأمتة، حيث وجَّههم ﷺ إلى الشفاعة في الخير وفي حاجات الناس وتحقيقها، وهذا من كريم خلقه ﷺ، كما وصفه الله بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٥٢) وعن ابن عباس رضيهما الله في قصة بَريرة وزوجها . قال: قال لها النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ رَاجَعْتِهِ؟» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَشْفَعُ» قَالَتْ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ (٢).

❁ قصة مُغيث وبريرة ينبغي أن تدخل في زمرة قصص المُحبين، ومع طرافتها وصحة سندها فإن أحداً من الكاتبيين في هذا الباب لم يتناولها بالدراسة والشرح والتحليل.

كان مغيث وبريرة عبيدين، وكان مغيث متزوجاً من بريرة، فسعت في حريتها ففالتها، وإذا عُنِقَتِ الأَمَةُ تحت العبد كان لها الخيار في البقاء معه أو مفارقتة، فاختارت فراقه، فأشجاه فراقها، وكان يسير وراءها في سكك المدينة، ودموعه تنحدر على لحيته، علماً ترحمه، وترجع إليه.

(١) من هدى المصطفى ﷺ / (ص ٢٠٢-٢٠٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٢٨٣) كتاب الطلاق.

✽ وتعالوا لنعرف قصتها من أولها:

كانت بريرة أمة مملوكة، وكانت تتوق إلى الحرية، فطلبت من أهلها أن يكتبوها ففعلوا، استجابة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣] والمكاتبة أن يشتري العبد نفسه على قدر معلوم من المال يدفعه لسيده، ويبقى عبداً إلى أن يُوفى سيده المال الذي اتفق معه عليه، وعند ذلك يُعتق.

وقد اتفقت بريرة مع سيدها على أن تدفع له تسع أواق على تسع سنوات، في كل سنة أوقية.

وطلبت بريرة من أم المؤمنين عائشة إعانتها على سداد ما ألزمت به نفسها، فجاءها الفرج بأسرع مما كانت تظن ... لقد دفعت عائشة رضي الله عنها لسيدها بريرة كامل المستحق عليها دفعة واحدة، وأعتقتها، فنالت حريتها بأسرع مما كانت تظنه وإذا كانت بريرة قد سعدت بالحرية، بعد أن زال عنها رق العبودية، فإن زوجها وكان عبداً أسوداً يُدعى مُغيثاً شقى بنيلها حريتها ... فقد كان مُغيث يحب بريرة حباً مَلَكَ عليه نفسه، وكان هائئاً مع زوجته، وكان بمقدار ما كان يحبها كانت تُبغضه ... والإسلام يُعطى الأمة التي كانت تحت نير الرق أن تفارق زوجها إذا كان عبداً في حال نيلها الحرية ... ودعا الرسول ﷺ بريرة، وأعلمها بالحكم الشرعي، وأنها تملك مفارقة الزوج ما لم يُعاشرها بعد تحريرها، فإن عاشرها مَلَكَ عليها أمرها ... فاختارت فراقه.

علم مُغيث بالأمر فوق عليه وقوع الصاعقة، فرجاها أن ترجع عن قرارها، فأبت، فاستشفع برسول الله ﷺ فدعاها، وقال لها: «يَا بَرِيرَةُ اتَّقِي اللَّهَ، فَإِنَّهُ زَوْجُكَ وَأَبُو وَلَدِكَ»، قَالَتْ لَهُ: تَأْمُرُنِي بِذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ أَمْرًا، فَلَيْسَ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ بُدٌّ ... فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ ﷺ: «لَا، إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ»، فالرسول ﷺ لا يستطيع إلزامها



بما جعل الله لها فيه فسحة، وإنما هو شافع.

لم تقبل شفاعة الرسول ﷺ ... فمن باب أولى أن لا تقبل شفاعة غيره، فكان مغيث لتعلقه بها يطوف وراءها في حارات المدينة وشوارعها ودموعه تسيل على خديه، وتقطر من لحيته ... يقول ابن عباس راوى الحديث: «كأنى أنظر إليه يطوف خلفها ودموعه تسيل على لحيته».

ولفت نظر الرسول ﷺ طرافة هذه الحالة المتناقضة بين حُبِّ وُبُغْضٍ ... فمغيث يلاحقها راجياً إياها أن تعود إليه، مما يدل على الحب العظيم الذى يُكَنِّه لها، وهى مُعرضة أشد الإعراض، لا تقبل رجاءه، ولا تُشفق على حاله، ولا ترضى بشفاعة الشافعين، ولو كانت شفاعة رسول ربِّ العالمين.

وقد عَجَّبَ الرسول ﷺ عَمَّه العباس من طرافة حالهما، فقال له: «يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعَجَّبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةٍ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةٍ مُغِيثًا»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر (ص ٣٥٨-٣٥٩).

(٣١) باب في الإصلاح بين الناس

✽ الإصلاح بين الناس هو أن يكون بين شخصين معاداة وبغضاء، فيأتي رجلٌ مُوَفَّقٌ فيُصلح بينهما، ويزيل ما بينهما من العداوة والبغضاء، وكلما كان الرجلان أقرب صلة بعضهما من بعض، فإن الصلح بينهما أوكد... يعني أن الصلح بين الأب وابنه أفضل من الصلح بين الرجل وصاحبه، والصلح بين الأخ وأخيه أفضل من الصلح بين العم وابن أخيه، وهكذا كلما كانت القطيعة أعظم كان الصلح بين المتباغضين وبين المتقاطعين أكمل وأفضل وأوكد.

ولا يجوز للمجتمع المسلم أن يرى بعض أبنائه يتخاصمون أو يتقاتلون، وهو يقف موقف المتفرج تاركًا النار تزداد اندلاعاً، والخرق يزداد اتساعاً.

بل على ذوى الرأى والمقدرة أن يتدخلوا لإصلاح ذات البين متجردين للحق، مبتعدين عن الهوى ... كما قال تعالى: ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد بيّن النبي ﷺ في حديثه فضل هذا الإصلاح، وخطر الخصومة والشحناء، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ»، قالوا: بلى، قال: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ»^(١).

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ١١٤].

أى: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون. وإذا لم يكن فيه خير،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٥٩٥).

فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شرٌّ ومضرة مَحْضَة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مالٍ، أو علم، أو أى نفع كان... بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتمسيح، والتحميد، ونحوه، كما قال النبي ﷺ: «إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة وفي بُضع أحدكم صدقة»^(١) الحديث.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه.. وإذا أطلق الأمر بالمعروف، من غير أن يُقرن بالنهى عن المنكر، دخل فيه النهى عن المنكر. وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف.

وأيضاً لا يتم فعل الخير، إلا بترك الشر. وأما عند الاقتران، فيُفسَّر المعروف، بفعل المأمور، والمنكر، بترك المنهى.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين... والنزاع، والخصام، والتغاضب، يُوجب من الشر والفرقة، ما لا يمكن حصره. فلذلك حَثَّ الشارع على الإصلاح بين الناس، في الدماء والأموال والأعراض. بل وفي الأديان... كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

والساعى في الإصلاح بين الناس، أفضل من القانت بالصلاة، والصيام، والصدقة... والمصلح لا بُدَّ أن يصلح الله سعيه وعمله.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.

كما أن الساعي في الإفساد، لا يُصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده.
كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾. فهذه الأشياء، حيثما
فُعلت، فهي خير، كما دَلَّ على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه، بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. فلهذا ينبغي للعبد، أن
يقصد وجه الله تعالى، ويُخلص العمل لله، في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء
الخير، ليحصل له بذلك، الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من
المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا... لأن النية حصلت،
واقترن بها، ما يمكن من العمل^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا
أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾﴾ [النساء: ١٢٨].

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أى: وإذا علمت امرأة أو
شعرت من زوجها الترفع عليها أو الإعراض عنها بوجهه بسبب الكره لها
لدمايتها أو لكبر سنها وطموح عينه إلى من هي أشبُّ وأجملُ منها ﴿فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أى فلا حرج ولا إثم على كل واحدٍ من الزوجين
من المصالحة والتوفيق بينهما بإسقاط المرأة بعض حقوقها من نفقة أو كسوة أو
مبيتٍ لتستعطفه بذلك وتستديم مودته وصحبته... روى ابن جرير عن عائشة
أنها قالت: هذا الرجل يكون له امرأتان أحدهما قد عجزت أو هي دميمة وهو لا
يحبها فتقول: لا تطلقني وأنت في حلٍّ من شأني ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أى والصالح

(١) تفسير السعدى (ص ٢٠٧-٢٠٨).

خيرٌ من الفراق ﴿ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ أى جُبِلَتِ الْأَنْفُسُ عَلَى الشُّحِّ وَهُوَ شِدَّةُ الْبُخْلِ... فالمرأة لا تكاد تسمح بحقها من النفقة والاستمتاع، والرجل لا تكاد نفسه تسمح بأن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها ﴿ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا ﴾ أى وَإِنْ تَحْسِنُوا فِي مَعَامِلَةِ النِّسَاءِ وَتَتَّقُوا اللَّهَ بِتَرْكِ الْجَوْرِ عَلَيْهِنَ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ. ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بامثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أى: أَصْلِحُوا مَا بَيْنَكُمْ مِنَ التَّشَاحُنِ، وَالتَّقَاطُعِ، وَالتَّدَابُرِ، بِالتَّوَادُّدِ، وَالتَّحَابِ، وَالتَّوَاصُلِ. فَبِذَلِكَ تَجْتَمِعُ كَلِمَتُكُمْ، وَيَزُولُ مَا يَحْصُلُ - بِسَبَبِ التَّقَاطُعِ - مِنَ التَّخَاصُّمِ، وَالتَّشَاجُّرِ وَالتَّنَازُعِ... وَيَدْخُلُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، تَحْسِينُ الْخُلُقِ لَهُمْ، وَالْعَفْوُ عَنِ الْمُسِيئِينَ مِنْهُمْ.. فَإِنَّهُ - بِذَلِكَ - يَزُولُ كَثِيرٌ مِمَّا يَكُونُ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْبَغْضَاءِ، وَالتَّدَابُرِ. وَالْأَمْرُ الْجَامِعُ لَذَلِكَ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ ﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿ ١٠ ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هَذَا عَقْدٌ، عَقَدَهُ اللَّهُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ مِنْ أَى شَخْصٍ كَانَ، فِي مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا، الْإِيمَانَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّهُ أَخٌ لِلْمُؤْمِنِينَ... أَخْوَةٌ تُوجِبُ أَنْ يُحِبَّ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ، مَا يُحِبُّونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَيَكْرَهُونَ لَهُ، مَا يَكْرَهُونَ لَأَنْفُسِهِمْ.. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٨٣).

(٢) تفسير السعدى (ص ٣٤٦).

آمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا ولا يبيع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»^(١).

وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وَشَبَّكَ ﷺ بَيْنَ أَصَابِعِهِ^(٢).

ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوَادد، والتواصل بينهم... كل هذا، تأييد لحقوق بعضهم على بعض... فمن ذلك أنه إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفريق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليُصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شأنهم.

ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتَّب على القيام بالتقوى وحقوق المؤمنين، الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة.. ودلَّ ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٥٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ: تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٦) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٥) كتاب البر والصلة.

(٣) تفسير السعدي (ص ٩٥٢) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٨٩) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

ومعنى «تَعْدِلُ بَيْنَهُمَا»: تُصْلِحُ بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ.

✽ والسُّلَامَى هِيَ الْعِظَامُ وَالْمَفَاصِلُ ... يَعْنِي: كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ الشَّمْسُ فَعَلَى كُلِّ مَفْصَلٍ مِنْ مَفَاصِلِكَ صَدَقَةٌ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ: وَعَدَدُ السُّلَامَى فِي كُلِّ إِنْسَانٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُونَ عَضْوًا أَوْ مَفْصَلًا .. فَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَصَدَّقَ كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعَ فِيهِ الشَّمْسُ بِثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتِينَ صَدَقَةً، وَلَكِنْ الصَّدَقَةُ لَا تَخْتَصُّ بِالْمَالِ، بَلْ كُلُّ مَا يُقْرَبُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ صَدَقَةٌ بِالْمَعْنَى الْعَامِ .. لِأَنَّ فَعْلَهُ يَدُلُّ عَلَى صَدَقِ صَاحِبِهِ فِي طَلَبِ رِضْوَانِ اللَّهِ ﷻ.

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ وَالْمَفَاصِلَ الَّتِي أَمْتَنَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكَ، وَرَكَّبَهَا أَحْسَنَ تَرْكِيبٍ، مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ، فَيَحْتَاجُ كُلُّ عَظْمٍ مِنْهَا إِلَى صَدَقَةٍ، يَتَصَدَّقُ ابْنُ آدَمَ بِهَا، شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ ... كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿[البلد: ٨-٩].

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ نِعَمٌ مِنَ اللَّهِ مُتَظَاهِرَةٌ يُقَرَّرُكُ بِهَا؛ كَيْمَا تَشْكُرَ.

وَقَرَأَ الْفُضَيْلُ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ لَيْلَةَ فَبَكِيَ ... فَسُئِلَ عَنْ سَبَبِ بَكَائِهِ فَقَالَ: هَلْ بَتَّ لَيْلَةً شَاكِرًا لِلَّهِ، أَنْ جَعَلَ لَكَ عَيْنَيْنِ تُبْصِرُ بِهِمَا ... هَلْ بَتَّ لَيْلَةً شَاكِرًا لِلَّهِ أَنْ جَعَلَ لَكَ لِسَانًا تَنْطِقُ بِهِ ... وَجَعَلَ يُعَدِّدُ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ.

فَسَبَّحَانَ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْحَكِيمَ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿[السجدة: ٧-٩]

فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ أَنْ تَذْكُرَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَأَنْ تُجَدِّدَ شُكْرَ اللَّهِ كُلَّمَا تَذَكَّرْتَهَا ... وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا مَا يَتَذَكَّرُونَ نِعَمَ اللَّهِ، وَيُذَكِّرُونَ بِهَا عِبَادَ اللَّهِ مِنْ شَفَقَتِهِمْ، وَنُصَحِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ.

رَوَى عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّ رَجُلًا شَكَى إِلَيْهِ ضَيْقَ حَالِهِ، فَقَالَ لَهُ يُونُسُ: أَيْسُرُكَ أَنْ لَكَ يَبْصَرُكَ هَذَا الَّذِي تُبْصِرُ بِهِ مِائَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ؟ قَالَ الرَّجُلُ: لَا، قَالَ: فَيَيْدِيكَ مِائَةُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ؟ قَالَ الرَّجُلُ: لَا، قَالَ: فَيَبْرِجْلِيكَ؟ قَالَ الرَّجُلُ: لَا... قَالَ: فَذَكَرَهُ نَعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ... فَقَالَ يُونُسُ: أَرَى عِنْدَكَ مَا بَيْنَ مِائَتِ آلَافٍ وَأَنْتَ تَشْكُو الْحَاجَةَ.

وروى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه كان يقول: الصحة غناء الجسد.

وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(١).

فجميع هذه النعم التى امتنَّ الله بها على عبده، لا بُدَّ أن يسأله عنها يوم القيامة، وعن القيام بشكرها، وماذا عمل فيها.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ... وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [النكاثر: ٨].

وفي الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُنْصَحْ لَكَ جِسْمَكَ، وَتُرْوَيْكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(٢).

فاعلم أيها المسلم أنك لو تدبرت نِعَمَ الله عليك، وعرفت حق معرفتها، وتأملت حاجتك إليها، لو فُقدت منك، لأحدثت لذلك شُكْرًا بلسانك، وشُكْرًا بجنانك - قلبك - وشُكْرًا بجوارحك ... ولعلمت أنك لا تُحصي شكرها، ولكن على حسب الاستطاعة.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنْ نَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨] فهو سبحانه إذا علم من عبده القيام بشكر النعم بقدر ما يستطيع غفر له ما قد

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٢).

يسهو عنه، أو ما يعجز عنه... ولذلك قال عز وجل: ﴿لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ففي ختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين الشريفين من أسمائه الحسنی دلالة على أن العبد مهما عمل، ومهما قام بشكر شيء منها، لا يستطيع القيام بجميع شكرها، ولكن الله يغفر، ويرحم عباده.

ثم بين عليه السلام هذه الصدقة فقال: «تعدل بين اثنين صدقة» يعنى رجلان يتخاصمان إليك فتعدل بينهما.. أى: تحكم بينهما بالعدل... وكل ما وافق الشرع فهو عدل، وكل ما خالف الشرع فهو ظلم وجور.

ومن العدل بين اثنين: العدل بينهما بالصلح؛ لأن الحاكم بين الاثنين سواء كان متطوعاً أو من قبل ولى الأمر، قد لا يتبين له وجه الصواب مع أحد الطرفين... فإذا لم يتبين له فلا سبيل له إلا بالإصلاح... فيُصلح بينهما بقدر ما يستطيع.

أيها المسلم: إن العدل والإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال، كما قال عز وجل: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وقال عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]... وقال عليه السلام: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ»^(١).

فالإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين، ومتخاصمين. والنزاع والخصام والتغاضب يُوجب الشر، والفرقة، والفساد الدائم في الدين والدنيا، وفوات المصالح ما لا يمكن حصره... فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء، والأموال، والأعراض، كما قال عز وجل: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وإذا لم يحصل الاعتصام بحبل الله حصل التفرق والتنافر ولا بُد... ولذلك كان الساعى في الإصلاح بين الناس أفضل من القائم

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى الصَّحِيحَة (٢٦٣٩)، وقد تراجع الألبانى عن تضعيفه فى ضعيف الجامع حديث رقم: (١٠١٢).



بالصلاة والصيام والصدقة؛ لأن نفعه أعظم، وفائدته أكبر.

❁ ثم قال (عليه الصلاة والسلام): «وتُعِين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة».

أى: إن إعانتك لأخيك المسلم ومساعدته في بعض شؤونه يُعتبر من الصدقات التي يُكفر الله بها الخطايا والذنوب، ويرفع بها الدرجات، وتكون شكرًا لله على نعمته، التي امتنَّ بها عليك في ما أعطاك من القوة والقدرة على القيام بأعمالك ... فَمِنْ شُكْرها مساعدة أخيك المسلم المحتاج إليك، فإذا فعلت هذا فقد قمت ببعض ما يجب عليك من شكر الله على هذه النعمة.

وهذا عملٌ يسيرٌ لا يُكلفك أى شىء سوى أن تُعين الرجل على ركوب دابته إن كان لا يستطيع أن يركبها بسبب مرضه أو كِبَر سِنِّه ... أو ترفع له متاعه على الدابة إن كان لا يستطيع أن يرفعه.

❁ وقوله ﷺ: «والكلمة الطيبة صدقة»: يدخل في ذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وابتداء السلام وردّه، وتشميت العاطس، ومساعدة أخيك إذا احتاج إليك في التعبير عنه، والإخبار بمراده لمن لا يفهم ما يريد، ويدخل في ذلك أيضًا ردُّك عن عرض أخيك إذا سمعت مَنْ يتكلم فيه بما يعيبه ويشينه، ومما يدخل أيضًا دخولًا أوليًا بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، والتحميد، والصلاة، والتسليم على الرسول الكريم ﷺ.

والكلمة الطيبة تنقسم إلى قسمين: طيبة بذاتها، طيبة بغاياتها.

أما الطيبة بذاتها: كالذكر: لا إله إلا الله، الله أكبر، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله ... وأفضل الذكر قراءة القرآن.

وأما الكلمة الطيبة في غايتها: فهي الكلمة المباحة كالتحدث مع الناس، إذا قصدت بهذا إيناسهم وإدخال السرور عليهم، فإن هذا الكلام وإن لم يكن طيبًا بذاته لكنه طيبٌ في غاياته، في إدخال السرور على إخوانك، وإدخال السرور

على إخوانك مما يُقربك إلى الله ﷻ... فالكلمة الطيبة صدقة وهذا من أعمّ ما يكون.

✽ وأما قوله ﷺ: «وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة».

فهذا يدل على فضيلة المحافظة على الصلاة في المساجد مع جماعة المسلمين، وأنه من جملة الصدقات التي يُثاب فاعلها، ويُكفر عنه بها خطاياها وذنوبها، وترفع له فيها درجاته، كما جاء في الحديث الآخر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَفِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ: إِذَا تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً، إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، وَلَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا انْتَهَرَ الصَّلَاةَ»^(١).

وفي رواية لمسلم: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجراً.

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًى، فَأَبْعَدُهُمْ»^(٢).

✽ وقوله ﷺ: «وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ».

هذا مما يُثاب عليه الإنسان كما أخبر به ﷺ، وهو شعبة من شعب الإيمان، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ بقوله: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥١) كتاب الأذان، ومسلم (٦٦٢) كتاب المساجد.

شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(١).

فإزالة كل ما يؤذى المسلمين في طريقهم فهو مما يحصل به الأجر لفاعله، ويُعتبر صدقة من الصدقات، وذلك كتحنية الحجر، أو تسوية الحُفَر، أو إزالة الشوك، ونحو ذلك، مما يتأذى به المارة... فإذا نَحَّاه المسلم على وجه البر والإحسان دَلَّ ذلك على إيمانه، وأُثِيب على ذلك.

واعلم أن كل ما يحصل فيه إزالة الضرر عن المسلمين، أو يحصل فيه إيصال النفع لهم، أو إدخال السرور عليهم فهو مما يُثاب عليه، ويُعتبر صدقة من الصدقات... ففي صحيح البخاري رَوَاهُ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهُنَّ مَنِيحَةُ الْعَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا، وَتَصَدِيقَ مَوْعُودِهَا، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهَا الْجَنَّةَ»^(٢).

وفي صحيح مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «حَقُّ الْإِبِلِ حَلْبُهَا عَلَى الْمَاءِ، وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا، وَإِعَارَةُ فَحْلِهَا، وَمَنِيحَتُهَا وَحَمْلُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي جري الجهني قال: سألت النبي ﷺ عن المعروف فقال: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تُنْزِعَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنْاءِ الْمُسْتَسْقَى، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الْأَرْضِ»^(٤).

وفي الصحيحين عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٦٣١) كتاب الهبة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٨٨) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والنسائي في الكبرى، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٢).

قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٥٤) وَعَنْ أُمِّ كُلْثُومَ بِنْتِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَنْمَى خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»^(٢).
وفي رواية مسلم زيادة، قالت: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، تَعْنِي: الْحَرْبَ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

❁ «ليس الكذاب الذي يصلاح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً».

فالإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس وقال للشخص: إن فلاناً يئسني عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات، فإن ذلك لا بأس به.
وقد اختلف العلماء في المسألة، هل المراد أن يكذب الإنسان كذباً صريحاً، أو أن المراد أن يُورَى، بمعنى أن يُظهر للمُخاطَب غير الواقع، لكنه له وجهٌ صحيح... كأن يعنى بقوله مثلاً: فلان يئسني عليك أى على أمثالك من المسلمين، فإن كل إنسان يئسني على المسلمين من غير تخصيص.

أو يُريد بقوله: إنه يدعو لك... أنه من عباد الله، والإنسان يدعو لكل عبد صالح في كل صلاة... كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنكم إذا قلتم ذلك - يعنى قلتم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - فقد سلّمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥١٨) كتاب العتق، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٢) كتاب الصلح، ومسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان.

وقال بعضهم: إن التورية تُعدُّ كذبًا؛ لأنها خلاف الواقع، وإن كان المُتكلم قد نوى بها معنى صحيحًا، واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ قد أخبر أن: إبراهيم عليه الصلاة والسلام يعتذر عن الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات في ذات الله^(١)، وهو لم يكذب عليه الصلاة والسلام، ولكنه ورى.

وعلى كل حال فالإنسان المُصلح ينبغي له أن يتحرز من الكذب، وإذا كان ولا بُدَّ فليتأول، ليكون بذلك مُورّيًا... والإنسان إذا كان مُورّيًا فلا إثم عليه فيما بينه وبين الله، والتورية جائزة عند المصلحة.

أما اللفظ الثاني ففيه زيادة عن الإصلاح بين الناس، وهو الكذب في الحرب.

والكذب في الحرب هو أيضًا نوع من التورية مثل أن يقول للعدو: إن ورائي جنودًا عظيمة وما أشبه ذلك من الأشياء التي يهرب بها الأعداء. ❀ وتنقسم التورية في الحرب إلى قسمين:

قسم في اللفظ، وقسم في الفعل، مثل ما فعل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه في إحدى الغزوات، فإنه أراد أن يُرهب العدو فصار يأتى بالجيش في الصباح ثم يُغادر المكان ثم يأتى به في صباح يوم آخر وكأنه مددٌ جديد جاء لِيُساعد المُحاربين المُجاهدين، فيتوهم العدو أن هذا مددٌ جديد جاء لِيُساعد المُحاربين المُجاهدين، فيتوهم العدو فيرهب ويخاف، وهذا جائز للمصلحة.

أما المسألة الثالثة فهي أن يُحدث الرجل زوجته وتُحدث المرأة زوجها، وهذا أيضًا من باب التورية... مثل أن يقول لها: إنك من أحب الناس إليّ، وإنى أرغب في مثلك، وما أشبه ذلك من الكلمات التي تُوجب الألفة والمحبة بينهما^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧١) كتاب الفضائل.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٠-٢١) بتصرف.

(٢٥٥) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ خُصُومٍ بِالْبَابِ عَالِيَةِ أَصَوَاتِهِمَا، وَإِذَا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الْآخَرَ وَيَسْتَرْفِقُهُ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَهُ أَيْ ذَلِكَ أَحَبُّ ^(١).

❁ ففي هذا الحديث تحكى أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ جَالِسًا عِنْدَهَا فِي يَوْمِهَا.. وَفَجْأَةً سَمِعَ صَوْتَ رَجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ عَالِيَةَ أَصَوَاتِهِمَا... فَقَدْ كَانَ أَحَدُهُمَا مَدِينًا لِلْآخَرِ وَقَدْ حَانَ وَقْتُ سَدَادِ الدِّينِ فَكَانَ هَذَا الرَّجُلُ الْمَدِينُ يُسْأَلُ صَاحِبَ الدِّينِ أَنْ يُسْقِطَ عَنْهُ بَعْضَ الدِّينِ وَأَنْ يَضَعَهُ عَنْهُ.. فَمَثَلًا: بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ عَشْرَةَ آلَافٍ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُسْقِطَ عَنْهُ أَلْفَيْنِ وَيَبْقَى الدِّينُ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ.. وَلَكِنْ صَاحِبُ الدِّينِ رَفُضَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ.

فَلَمَّا اشْتَدَّ النَّزَاعُ بَيْنَهُمَا خَرَجَ عَلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «أَيْنَ الْمُتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟» أَيْ: أَيْنَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَحْلِفُ عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ.

❁ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:
الْمُتَأَلَّى: الْحَالِفُ، وَالْأَلْيَةُ: الْيَمِينُ. وَفِي هَذَا كَرَاهَةُ الْحَلِفِ عَلَى تَرْكِ الْخَيْرِ وَإِنْكَارُ ذَلِكَ وَأَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَلَفَ لَا يَفْعَلُ خَيْرًا أَنْ يَحْنَثَ فَيُكْفِّرَ عَنْ يَمِينِهِ... وَفِيهِ الشَّفَاعَةُ إِلَى أَصْحَابِ الْحُقُوقِ وَقَبُولُ الشَّفَاعَةِ فِي الْخَيْرِ ^(٢).

❁ وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَبْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
قَوْلُهُ: «فَلَهُ أَيْ ذَلِكَ أَحَبُّ» أَيْ مِنَ الْوَضْعِ أَوْ الرَّفْقِ.. وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حَبَّانَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٠٥) كتاب الصلح، ومسلم (١٥٥٧) كتاب المساقاة.

معنى «يَسْتَوْضِعُهُ»: يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعْضَ دِينِهِ - «وَيَسْتَرْفِقُهُ»: يَسْأَلُهُ الرَّفْقَ - «وَالْمُتَأَلَّى»: الْحَالِفُ.

(٢) مسلم بشرح النووي (٣١٥/١٠).

فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ وَضَعْتُ مَا نَقَضُوا وَإِنْ شِئْتَ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ فَوَضَعَ مَا نَقَضُوا وَهُوَ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَضْعِ الْحَطُّ مِنْ رَأْسِ الْمَالِ وَبِالرَّفْقِ الْإِقْتِصَارُ عَلَيْهِ وَتَرَكُ الزِّيَادَةَ لَا كَمَا زَعَمَ بَعْضُ الشُّرَاحِ أَنَّهُ يُرِيدُ بِالرَّفْقِ الْإِمْهَالَ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحِصْنَ عَلَى الرَّفْقِ بِالْغَرِيمِ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ بِالْوَضْعِ عَنْهُ وَالزَّجْرَ عَنِ الْحَلْفِ عَلَى تَرْكِ فِعْلِ الْخَيْرِ ... قَالَ الدَّأودِيُّ: إِنَّمَا كُرِهَ ذَلِكَ لِكَوْنِهِ حَلْفَ عَلَى تَرْكِ أَمْرٍ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ قَدَّرَ اللَّهُ وَقُوعَهُ^(١).

❁ وفي رواية أخرى في قصة مُشَابِهَةِ أَنْ ابْنِ أَبِي حَدَرْدٍ قَدْ اقْتَرَضَ مِنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ.. فَلَمَّا جَاءَ مَوْعِدَ سَدَادِ الدِّينِ طَلَبَ كَعْبٌ مَالَهُ مِنْ ابْنِ أَبِي حَدَرْدٍ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا حَتَّى سَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى كَشَفَ سِجْفَ حُجْرَتِهِ، وَنَادَى كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، فَقَالَ: «يَا كَعْبُ»، فَقَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، «فَأَشَارَ إِلَيْهِ يَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ»، قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُمْ فَأَقْضِهِ»^(٢).

فالشاهد أن النبي ﷺ لما سمع صوتهما خرج ليُصلح بينهما.. فإذا رأى أحدكم رجلين يتنازعان في شيء فأصلح بينهما فله في ذلك أسوة برسول الله ﷺ.

وفيه: دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يتدخل في النزاع بين اثنين، إذا لم يكن ذلك سرًّا بينهما؛ لأن هذين الرجلين قد أعلنّا ذلك، وكانا يتكلمان بصوتٍ مرتفع... أما لو كان الأمر بين اثنين على وجه السر والإخفاء، فلا يجوز للإنسان أن يتدخل بينهما؛ لأن في ذلك إحراجًا لهما، فإن إخفاءهما للشيء يدل على أنهما لا يجبان أن يطلع عليه أحدٌ من الناس، فإذا أقحمت نفسك في الدخول بينهما أخرجتهما وضيق عليهما، وربما تأخذهما العزة بالإثم فلا يصطلحان.

(١) فتح الباري (٥/٣٦٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٥٨) كتاب المساقاة.

والمهم أنه ينبغي للإنسان أن يكون أداة خير، وأن يحرص على الإصلاح بين الناس وإزالة العداوة والضغائن حتى ينال خيراً كثيراً.

❖ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: قد يقع بين الصحابة رضي الله عنهم الخطأ، مثل ما حدث في هذا الحديث، من التخاصم على أداء الدين، ورفع الصوت في مسجد رسول الله ﷺ... وعلى المنصف أن يزن بين أعمالهم الصالحة التي كالجبال وبين زلاتهم التي تُعدُّ على أصابع اليد الواحدة.

الفائدة الثانية: طاعة الصحابة المطلقة لرسول الله ﷺ وتتمثل هنا في:

١ - ردّ كعب بن مالك رضي الله عنه للرسول ﷺ بقوله: (لييك) مما يوحى أنه قد أطاع الأمر قبل سماعه، أو حتى صدوره... وهل يُعقل أن يجيب الرجل الأمر، بلييك، ثم يعترض على الأمر؟!

٢ - الأمر من النبي ﷺ لكعب رضي الله عنه، ما كان ليحتاج إلى كلام لإقناعه أن يضع شطر ماله، بعد هذه الخصومة في المسجد، ولكن كل ما فعله النبي ﷺ أن أشار بيده لكعب، أن يضع شطر ماله، مع أن كعباً، كان يسمع نداء النبي ﷺ بدليل أنه أجاب ندائه، وقال: (قد فعلت)، ولكن يبدو أن النبي ﷺ يعلم من أصحابه عظيم أدبهم معه، وسرعة امتثالهم لأمره، فلم يحتاج إلا إلى إشارة لفُضّ النزاع بينهم.

٣ - هذا الأمر الموجه لكعب، بوضع شطر دينه، ليس من الأوامر الشرعية في نظرنا، ولكن الصحابة رضي الله عنهم، خاصة الأكابر منهم، ككعب بن مالك ما كانوا يفرقون بين أوامر النبي ﷺ المُلزم منها وغير المُلزم، حتى ولو كانت تتعلق بالمال، الذي عظم الله شأنه في القرآن.

٤ - من علامات الطاعة المطلقة للصحابة، مع شدة أدبهم عند تحقيق هذه الطاعة، يتبين من الرد الجميل لكعب على أمر الرسول ﷺ إذ قال له: (قد

فعلت) بصيغة الماضي، ولم يَقُلْ له: (سأفعل)، مبالغة في سرعة امتثال الأمر وثبوته والإشعار بعدم وجود أدنى تردد منه... ومن أدبه - أيضًا - أنه لم يجادل في الأمر، ولم يطلب منه أن يأمر المدين بحسن القضاء وسرعته، وهذا غاية الأدب ومنتهى الطاعة، كما أن المدين امثال أيضًا لأمر الرسول ﷺ حيث إنه لم يُعَقَّب على الأمر، كأن يطلب منه التأجيل.

الفائدة الثالثة: جواز التقاضى في المسجد، والنداء بصوت مسموع، والمصالحة بين المتخاصمين... ونُوه هنا إلى أن قولهم: (الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) ^(١) ليس بحديث ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٥٦) وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَلَغَهُ أَنَّ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانَ بَيْنَهُمْ شَرٌّ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ فِي أَنَاسٍ مَعَهُ، فَحُبِسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَجَاءَ بِلَالٌ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ حُبِسَ، وَحَانَتِ الصَّلَاةُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تُؤَمَّ النَّاسَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ بِلَالٌ الصَّلَاةَ، وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ، وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَأَخَذَ النَّاسُ فِي التَّصْفِيقِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَلْتَفِتُ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصْفِيقَ التَفَّتْ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ... فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَرَفَعَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدَهُ فَحَمَدَ اللَّهَ، وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى وَرَاءَهُ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «إِنَّهَا النَّاسُ مَا لَكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ أَخَذْتُمْ فِي التَّصْفِيقِ؟، إِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ. مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَقُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ؟ فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ حِينَ يَقُولُ: سُبْحَانَ

(١) انظر «كشف الخفاء» للعجلوني، (١/ ٤٢٣).

(٢) شمائل الرسول ﷺ / أحمد عبد الفتاح الزواوي (٢/ ٢٦٥).

الله، إِلَّا التَّقَتَ. يَا أَبَا بَكْرٍ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ حِينَ أَشْرْتُ إِلَيْكَ؟» فقال أَبُو بَكْرٍ: مَا كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(١).

✽ ففي هذا الحديث يتضح لنا أيضًا كيف كان حرص النبي ﷺ على الإصلاح بين الناس فعلى الرغم من كثرة انشغالاته ﷺ وهو المسؤول عن دعوة الإنس والجن ... وهو المسؤول عن تربية أصحابه وأمته ومُراعاة أزواجه التسع وبذل جهده في عبادة الخالق (جل وعلا) .. إلا أنه ذهب بنفسه إلى بنى عمرو بن عوف ليُصلح بينهم حتى لا تتأجج الخصومة ويدخل الشيطان بينهم ويشعل نار الفتنة بينهم.

وفي هذا درسٌ عظيم لكل مَنْ كان من أتباع النبي ﷺ ... وذلك بأن تسعى للإصلاح بين الناس حتى ولو ذهبت إليهم في مكانهم أو بلدهم .. ولك في رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة .. ولك عند الله الأجر العظيم والثواب الجليل. قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مَنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ»^(٢).

وتالله إنه لعملٌ جليل أن يسعى المسلم للإصلاح بين إخوانه المسلمين ... وكلما كانت النية صادقة كان التوفيق مُلازمًا لك في الإصلاح بين الناس .. قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] .. وعلى الرغم من أن الآية تتحدث عن الإصلاح بين الزوجين إلا أن المعنى أشمل من ذلك .. فكل مَنْ أخلص النية لله في الإصلاح بين الناس فإن الله ﷻ سيسوق الخير على يديه ويوفقه للإصلاح بين الناس.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣٤) كتاب الجمعة، ومسلم (٤٢١) كتاب الصلاة.
معنى «حُسٍ»: أَمْسَكُوهُ لِيُضَيِّقُوهُ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٥٩٥).

(٣٢) بَابُ فَضْلِ ضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ

وَالْفُقَرَاءُ وَالْخَامِلِينَ

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أى احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أى لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الغنى والشرف.. قال المفسرون: كان ﷺ حريصاً على إيمان الرؤساء لئلا يؤمن أتباعهم ولم يكن مُريدًا لزينة الدنيا قط، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى تبتغى بمُجالستهم الشرف والفخر... قال ابن عباس: لا تُجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدَلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى لا تُطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا.

قال المفسرون: نزلت في عُيينة بن حصن وأصحابه... أتى النبى ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسى وعليه شَمْلَةٌ صوف قد عرق فيها فقال عُيينة للنبى ﷺ: أما يُؤذيك ريح هؤلاء؟ ونحن سادة مُضَرٌ وأشرافها إن أسلمنا يُسلم الناس، وما يمتنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحُهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس... فهم رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما

نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتبس هؤلاء الفقراء فلما رأهم جلس معهم وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مَنْ أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

أى: ولا تُمَدَّ عينيك مُعْجَبًا، ولا تُكرِّر النظر مُسْتَحْسِنًا إلى أحوال الدنيا والمُتَمَتِّعِينَ بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المُجَمَّلَة. فإن ذلك كله، زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المُغْتَرِبِينَ، وتأخذ إعجابًا، بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة - القوم الظالمون. ثم تذهب سريعًا، وتمضى جميعًا، وتقتل مُحببيها وعُشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قَدِمُوا يوم القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارًا، ليعلم مَنْ يقف عندها، ويغتر بها، ومَنْ هو أحسن عملًا... كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۖ.

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿حَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا، في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونه لا ينقطع.. أَكُلُّهَا دَائِمٌ وظلها.. كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه، طموحًا إلى زينة الدنيا، وإقبالًا عليها، أن يُذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا^(٢).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٧٥).

(٢) تفسير السعدي (ص ٥٩٨-٥٩٩).

✽ والمراد هنا تسلية هذا الصنف من الناس الذين قَدَّرَ الله على أحدهم أن يكون فقيرًا أو ضعيفًا في بدنه أو ليس عنده منصب ولا جاه .. فإن الله قد يجعل هذا الإنسان الضعيف له قدرٌ ومكانة عظيمة بقوة إيمانه ودمائه أخلاقه ويُنزلُه المنازل العالية في الجنة ... فقَدَّرُ الإنسان ومنزلته تُقاس بقدره ومكانته عند ربه (جلَّ وعلا).

وكان النبي ﷺ إذا رأى شيئًا يعجبه من الدنيا قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة»^(١) ... كلمتان عظيمتان، فالإنسان إذا نظر إلى الدنيا ربما تعجبه فيلهو عن طاعة الله... فينبغي أن يذكر نعيم الآخرة عند ذلك، ويُقارن بينه وبين هذا النعيم الدنيوي الزائل، ثم يُوطن نفسه ويُرغبها في هذا النعيم الأخرى الذي لا ينقطع، ويقول: «اللهم إن العيش عيش الآخرة».

✽ وصدق الحبيب المصطفى ﷺ ... فالدنيا مهما تزينت فهي مليئة بالآلام والأحزان .. لذاتها ناقصة ومُكْدرة وإن لم تكن كذلك فهي لا تدوم. أما الجنة ففيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.. ليس فيها حزن ولا جوع ولا مرض ولا شقاء ولا بلاء لذاتها صافية وكاملة ودائمة وتزداد كل لحظة روعة وجمالاً ونعيمًا.

أما الدنيا فمهما طالت بنا ومهما تزينت لنا فمآلها أحد أمرين: إما الهرم حتى يعود الإنسان إلى أرذل العمر من ضعف البدن وضعف العقل وكثرة الأمراض والأسقام.

وإما الموت ... فكيف يطيب لعاقِلٍ أن ينشغل بهذه الدنيا وينسى آخرته؟! ✽ وعلى كل حالٍ .. فالله ﷻ أمر نبيه ﷺ أن يُصبر نفسه مع هؤلاء الذين يدعون الله ﷻ بالغداة والعشي يريدون وجهه.. والآية ليست قاصرة على

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٣٤) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٨٠٥) كتاب الجهاد والسير.

الضعفاء .. بل على كل الذين يدعون الله ويعبدونه سواء كانوا ضعفاء أم أقوياء ..
فقراء أم أغنياء .. فكن معهم دائماً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٥٧) عن حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يستعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب التشويقي الرائع وذلك من خلال أن يطرح المعلومة بسؤال يثير اهتمام الحاضرين فيقول لهم: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فكانهم قالوا: بلى يا رسول الله فقال ﷺ: «كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ».

يعنى أن هذه من علامات أهل الجنة .. وذلك بأن يكون الإنسان ضعيفاً متضعفاً لا يشغل نفسه بمنصب ولا بمال ولا بجاه ولا يحرص على العلو في الدنيا فهو يميل إلى الخمول وعدم الظهور ولا يشغل نفسه إلا بطاعة ربه والحرص على محبته ورضوانه حتى لو لم يكن له أى مكانة بين الناس.

ولذلك تجد أهل الآخرة لا يهتمون بما يفوتهم من حُطام الدنيا الزائل .. فهم يجعلون الدنيا مزرعة للآخرة وقنطرة يمشون عليها ليصلوا إلى الجنة .. فهم يعلمون أن الحياة الحقيقية في جنة الرحمن (جلّ وعلا) .. ولذلك لم يحزنوا لما فاتهم ولم يفرحوا بما جاءهم من الدنيا؛ لأن عيون قلوبهم تنظر إلى السماء وتسعى للفوز بالجنة ورضوان رب الجنة (سبحانه وتعالى).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩١٨) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة وصفة

نعيمها وأهلها.

«الْعُتْلُ» الغليظ الجافى - «والجَوَاطُ» وهو الجموع المتنوع، وقيل: الضخم المختال فى مشيّه، وقيل: القصير البطين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن في الدنيا جنة مَنْ لم يدخلها، فلن يدخل جنة الآخرة.. قالوا: ما هي؟ قال: إنها جنة الإيمان.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في قوله: «مُتَضَعَّف»: ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه وَيَتَجَبَّرُونَ عَلَيْهِ لِضَعْفِ حَالِهِ فِي الدُّنْيَا ... يُقَالُ تَضَعَّفَهُ وَاسْتَضَعَّفَهُ وَأَمَّا رِوَايَةُ الْكُسْرِ فَمَعْنَاهَا مُتَوَاضِعٌ مُتَذَلِّلٌ خَامِلٌ وَاضِعٌ مِنْ نَفْسِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: وَقَدْ يَكُونُ الضَّعْفُ هُنَا رِقَّةَ الْقُلُوبِ وَلِينَهَا وَإِخْبَاتُهَا لِلْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ أَنَّ أَغْلَبَ أَهْلِ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ كَمَا أَنَّ مُعْظَمَ أَهْلِ النَّارِ الْقِسْمُ الْآخِرُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْإِسْتِيعَابَ فِي الطَّرَفَيْنِ^(١).

❁ وقوله: «لو أقسم على الله لأبره» أي: أنه لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله تعالى بإبراره لأبره ولو دعاه لأجابه وحقَّق له ما حلف عليه.. وهذا قد يحدث كثيرًا في حياتنا.. أن يدعو أحدنا ويحلف على شيء ثقة في الله ورجاء فيما عنده فيبرِّ الله قَسَمَهُ.. أما إذا أقسم على الله تعالى واستكبارًا وإحساسًا بأنه يستحق أن يبر الله قَسَمَهُ فإن هذا يُخْذِل والعياذ بالله.

❁ وها هنا مثالان:

المثال الأول: أن الرُّبِيعَ بنت النضر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وهي من الأنصار، كَسَرَتْ ثِيَةَ جَارِيَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَرَفَعُوا الْأَمْرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُكَسَّرَ ثِيَةُ الرُّبِيعِ... لقوله تعالى: ﴿وَكَبِّنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ فقال أخوها أنس بن النضر: والله يا رسول الله لا تكسر ثية الربيع، فقال ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص» فقال: والله لا تكسر ثية الربيع.

أقسم بهذا ليس ردًا لحكم الله ورسوله، ولكنه يحاول بقدر ما يستطيع أن

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٧٢).

يتكلم مع أهلها حتى يعفوا ويأخذوا الدية، أو يعفوا مجاناً دون دية، كأنه واثق من موافقتهم، لا ردّاً لحكم الله ورسوله، ولكن ثقة في فضل الله ورحمته... فيسّر الله سبحانه وتعالى فعفى أهل الجارية عن القصاص، فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره».

وهنا لاشك أن الحامل لأنس بن النضر هو قوة رجائه بالله عز وجل، وأن الله سيُسّر من الأسباب ما يمنع كسر ثنية أخته الربيع.

❁ وأما المثل الثاني: فهو للبراء بن مالك رضي الله عنه... فقد قال النبي ﷺ في حقه: «كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»^(١).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «كم من ضعيف مُتضعف ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك»^(٢).

فلم ينس أصحاب النبي ﷺ تلك المنقبة للبراء... وكان البراء يتمنى الشهادة في سبيل الله.

وظل بطلنا في شوقٍ وحنين لتلك الأمنية الغالية - ألا وهى الشهادة في سبيل الله - إلى أن جاء يوم فتح «تُستر» من بلاد «فارس» فقد تحصن الفُرس في إحدى القلاع الممردة، فحاصرهم المسلمون وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، فلما طال الحصار واشتد البلاء على «الفرس»، جعلوا يدلون من فوق أسوار القلعة سلاسل من حديد، علقت بها كلاليب من فُولاذ حُميت بالنار حتى غدت أشد توهجاً من الجمر، فكانت تنشبُ في أجساد المسلمين وتعلق بها فيرفعونهم إليهم إما موتى وإما على وشك الموت.

(١) رواه الترمذى والضياء عن أنس، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٥٧٣)

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٩٢) وصححه ووافقه الذهبي

ثم بدأ القتال بعد ذلك.

ولما اشتد القتال وجالد الأعداء، وبلغت القلوب الحناجر، قال بعض المسلمين للبراء: يا براء إن رسول الله ﷺ أخبر أنك لو أقسمت على الله لأبرك، فأقسم على الله، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحنا أكتافهم.

ثم التقوا على قنطرة السوس، فأوجعوا في المسلمين، فقالوا: أقسم يا براء على ربك، فقال: «أقسمت عليك يا رب لما منحنا أكتافهم وألحقتني بنبيي ﷺ» فمُنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا^{(١)(٢)}.

فهذان مثالان لمن أقسم على الله ﷻ وثقة في الله ورجاء فيما عنده جل وعلا.

وفي المقابل فهناك صنف قد أقسم على الله ﷻ تعالى وتحجراً لرحمته سبحانه وتعالى... ومثال ذلك الرجل الذي كان مُطيعاً لله ﷻ عابداً.. وكان يمر على رجلٍ عاصٍ... فكان كلما مرَّ عليه وجده على المعصية، فقال: والله لا يغفر الله لك... حملة على ذلك الإعجاب بنفسه، والتحجُّر بفضل الله ورحمته، واستبعاد رحمة الله ﷻ من عباده.

فقال الله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ - أَيْ يَحْلِفُ عَلَيَّ - أَلَا أَغْفِرُ لِفُلَانٍ، قد غفرت له، وأحببت عملك»، فانظر الفرق بين هذا وهذا.

عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حَدَّثَ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ! فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ»^(٣).

(١) أخرجه الحاكم (٢٩٢/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أصحاب الرسول ﷺ / الشيخ محمود المصري (١٥١-١٥٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

وقال رسول الله ﷺ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا مُذْنِبًا وَالْآخَرُ مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ، وَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلَنِي وَرَبِّي، أَبْعَثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ - أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ - فَقَبِضَ رُوحَهُمَا، فَاجْتَمَعَ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ: كُنْتَ عَلَيَّ مَا فِي يَدَيَّ قَادِرًا؟! وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»^(١).

❁ ثم قال ﷺ: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ، كُلُّ عَتَلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ».

هذه علامات أهل النار، «عَتَلٌ»: يعنى أنه غليظ جاف، قلبه حجر والعياذ بالله، كالحجارة أو أشد قسوة «جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ» الجواظ فيه تفاسير متعددة، قيل: إنه الجَمُوع المَنوع، يعنى الذى يجمع المال ويمنع ما يجب فيه.

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذى لا يصبر، فجواظ يعنى أنه جزوع لا يصبر على شىء، ويرى أنه فى قمة أعلى من أن يمسسه شىء.

دائمًا فى أنين وحزن وهم وغم، مُعْتَرِضًا على القضاء والقدر، لا يخضع له، ولا يرضى بالله ربًّا.

ومن ذلك قصة الرجل الذى كان مع الرسول ﷺ فى غزوة، وكان شجاعًا لا يدع شاذة ولا فاذة للعدو إلا قضى عليها.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، التَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ، فَاقْتَتَلُوا، فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، - وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ، لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً^(٢) إِلَّا اتَّبَعَهَا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥).

(٢) لا يدع لهم شاذة ولا فاذة: شجاع لا يستطيع أحد أن يلقاه.

يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ - فَقِيلَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ، قَالَ: فَجَرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟».

قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جَرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ وَذُبَابُهُ^(١) بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ^(٢) فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).^(٤)

❖ وأما المستكبر فهو الذي جمع بين وصفين: غمط الناس، وبطر الحق؛ لأن النبي ﷺ قال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٥) وبطر الحق: يعنى رده... وغمط الناس: يعنى احتقارهم... فهو في نفسه عالٍ على الحق، وعالٍ على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله... فهذه علامات أهل النار، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من النار، وأن يدخلنا وإياكم الجنة إنه جواد كريم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ذبابه: رأسه.

(٢) تحامل عليه: اتكأ عليه.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٢) كتاب المغازى، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.

(٤) وقد جاء عند ابن هشام في سيرته التصريح بأن هذا الرجل هو قزمان، وأنه قتل نفسه يوم أحد.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢٥٨) وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللَّهِ حَرَىٰ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرَىٰ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»^(١).

❁ فيها نحن نرى في هذا الحديث رجلين: أحدهما من أشرف القوم له مكانة وكلمة في قومه فإذا تحدّث أنصت له الجميع وإذا خطب يُجاب ولا يُردّ طلبه، وإذا شفع لأحدٍ عند أحدٍ لا تُردّ شفاعته.

وأما الرجل الآخر فهو من الفقراء المغمورين الذين ليس لهم قدرٌ ولا مكانة بين قومه .. فهو إذا تكلم لا يُنصت إليه أحد وإن خطب لا يُجاب، وإن شفع لأحدٍ عند أحدٍ لا تُقبل شفاعته. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «هذا - أي الفقير - خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا» .. أي خيرٌ عند الله من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له جاه ومكانة بين قومه .. وذلك لأن الله ﻋَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى الجاه والحسب والنسب والمال والجمال والقوة والبيت والملبس والدابة وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان لله أتقى فهو لله أقرب .. فمن صلح قلبه واستقام على طاعة الله وصارت حياته كلها طاعة لله (جَلَّ وعلا) فهو يصبح ويُسمى عابداً مُصلياً ذاكراً لله تالياً لكتاب الله فهذا هو الكريم عند الله.

ومن هنا نعلم أن الرجل قد يكون ذا حظوة ومنزلة ومكانة عالية في الدنيا وليس له قدر عند الله ... وقد يكون ليس له مكانة ولا قيمة عند الناس وهو عند

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٤٧) كتاب الرقاق - ولم أفد على هذه الرواية عند مسلم.

قوله: «حرى» أي حقيق وقوله: «شفع» بفتح الفاء.

الله في أعلى المنازل وله قدر ومكانة عظيمة عند ربه (جلّ وعلا).

وليس معنى الحديث ذم الأغنياء والثناء على الفقراء؟.. كلا.. فالمدار على كل هذا هو إيمان العبد.. فالعبد سواء كان غنيًا أو فقيرًا فلا بُدَّ أن يكون عبدًا لله.. سواء كان وزيرًا أو غفيرًا فلا بد أن يكون عبدًا لله.

❁ لكن الغالب أن المملأ والأشراف يكونون أقل استجابة للحق من الفقراء والمستضعفين.. ولهذا تجد أن أكثر أتباع الرسل كانوا من الفقراء والمستضعفين.. وأكثر الذين كذبوا الرسل وحاربوهم هم المملأ والأشراف والكبراء..

قال تعالى حاكياً عن المملأ من قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَتَسْتَرْسِلُونَ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ٧٥].

وقال تعالى حاكياً عن المملأ من قوم فرعون: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ فَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

❁ ومع ذلك فإنه إذا وُجد الغنى للشارك العابد فهو خيرٌ من الفقير الصابر.. وذلك لأن الله تعالى اختبره بالمال وفتنة المال فلم يستعمل المال في معصية الله بل كان شاكراً لله فاستعمل ذلك المال في كل ما يقربه من الله جلّ وعلا... أما الفقير الصابر فإنه لم يُختبر بعد.. فقد يُعطيه الله المال فيزداد شكراً لله.. وقد يُعطيه المال فيستعمله فيما يُغضب الله.. فمدار التفضيل بين هذا وذاك هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾.

(٢٥٩) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اِحْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ: فِي الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِي ضُعَفَاءِ النَّاسِ وَمَسَاكِينِهِمْ فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّكُمْ مَا عَلَى مِلْؤُهَا»^(١).

✽ في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه «احتجت الجنة والنار» يعني تحاجاً فيما بينهما، كل واحدة تدلى بحُجتها، وهذا من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وحار الإنسان فيها، وقال: كيف تتحاج الجنة والنار وهما جمادان!

فلقد أخبرنا الله ﷻ أنه قال للسموات والأرض ﴿أَتَيْنَا طُغْيَانًا﴾ [فصلت: ١١] وهما جمادان .. وأخبرنا ﷻ أنه أمر القمر فانشق نصفين لما طلب النبي ﷺ منه ذلك لتكون معجزة يراها المشركون فيؤمنوا ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] بل وأخبر النبي ﷺ أن عرش الرحمن (جلّ وعلا) قد اهتز لموت سعد بن معاذ رضي الله عنه .. أى: فرحاً بقدم روحه إلى السماء. وأخبرنا الحق (جلّ وعلا) أن الأيدي والألسن والجلود ستشهد على الإنسان يوم القيامة مع أنها جماد ... بل وأخبر الحق (جلّ وعلا) أن الكون كله يسبح بحمد الله ويسجد لله ﷻ.

قال تعالى: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب التفسير، ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

فالجنة احتجت على النار، والنار احتجت على الجنة،.... النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين.

الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة، والمتكبرون أصحاب الترفع والعلو، الذين يغمطون الناس ويردون الحق... كما قال النبي ﷺ في الكبر أنه: «بَطَرُ الحق وَغَمَطُ الناس»^(١).

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار والعياذ بالله.

وربما يكون صاحب النار حسن الأخلاق لين الجانب مع أهله وأصحابه؛ لكنه مستكبرٌ جبارٌ عنيدٌ بالنسبة للحق.. فلا يقبل الحق ويفرض الدين جملة وتفصيلاً.. ولذلك فلا ينفعه لين جانبه وحُسن أخلاقه لاستكباره على الحق ورفضه له.

أما الجنة فقالت: إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس، فهم في الغالب الذين يلبنون للحق وينقادون له... وأما أهل الكبرياء والجبروت، ففي الغالب أنهم لا ينقادون.

فقضى الله ﷻ بينهما قال: «إِنَّكَ الْجَنَّةَ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ» وقال للنار: «إِنَّكَ النَّارَ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ» إِنَّكَ الْجَنَّةَ رَحِمْتِي: يعنى أنها الدار التى نشأت من رحمة الله، وليست رحمته التى هى صفته؛ لأن رحمته التى هى صفته وصف قائم به... لكن الرحمة هنا مخلوق.

أنت رحمتى يعنى: خلقتك برحمتى، أرحم بك مَنْ أَشَاءَ.

وقال للنار: أنت عذابي أُعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ... كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]. فأهل الجنة هم أهل رحمة الله - نسأل الله أن يجعلني وإياك منهم - وأهل النار هم أهل عذاب الله.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

ثم قال عز وجل: «ولكلكما على ملؤها» تكفل عز وجل وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملاً النار ... وفضل الله سبحانه وتعالى ورحمته أوسع من غضبه، فإنه إذا كان يوم القيامة ألقى من يلقى في النار، وهى تقول: هل من مزيد، يعنى أعطونى، أعطونى^(١).

زيدونى ... ولكن الله عز وجل لا يدخل جهنم إلا من كفر بالله وقامت عليه الحجة .. فيضع الله قدمه - وفي رواية: رجله - فينزوى بعضها إلى بعض وينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب عز وجل قدمه عليها وتقول: قط قط .. أى: حسبى وكفىنى هذا .. فهذا ملؤها.... أما الجنة فإن الجنة واسعة، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضل زائد على أهلها، فينشئ الله تعالى لها أقواماً فيدخلهم الجنة بفضلهم ورحمته؛ لأن الله تكفل لها بملئها.

فمن كمال رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحد منهم بنعيم لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى في الجنة فضل فيخلق الله خلقاً جديداً ويسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط بعزتك وكرمك .. ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة»^(٢).

وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة: «وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقى فيها فتقول هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٤٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) يوم فى الجنة / الشيخ محمود المصرى (ص ٤٢٨).

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْشِئُ لَهَا خَلْقًا» هَذَا دَلِيلٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الثَّوَابَ لَيْسَ مُتَوَقِّفًا عَلَى الْأَعْمَالِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُخْلَقُونَ حَيْثُ يُدْرِكُونَ فِي الْجَنَّةِ مَا يُعْطَوْنَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ... وَمِثْلُهُ أَمْرُ الْأَطْفَالِ وَالْمَجَانِينَ الَّذِينَ لَمْ يَعْمَلُوا طَاعَةً قَطُّ فَكُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ سَعَةِ الْجَنَّةِ فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ لِلْوَاحِدِ فِيهَا مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا ثُمَّ يَبْقَى فِيهَا شَيْءٌ لِيَخْلُقَ يُنْشِئُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

بِقَوْلِهِمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ

(٢٦٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»^(٢).

❖ وقد جاء هذا الحديث في باب (ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين) وذلك لأن الغالب أن السمنة تأتي من كثرة الأكل المترتب على كثرة المال والغنى .. والغالب على أصحاب المال - إلا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ - الكِبَرُ والأَشْرُ والبَطَرُ حتى إن أحدهم يأتى يوم القيامة كثير اللحم والشحم عظيم الجسد ولكنه إذا لم يكن رجلاً صالحاً فإنه يوضع في الميزان يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة.

فالوزن يوم القيامة وزن عدل ليس فيه ظلم، يُجَازَى فِيهِ الْإِنْسَانُ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ... قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُعَذَّبَ فِي النَّارِ... وَمَنْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَعْرَافِ، الَّذِينَ يَكُونُونَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لِمُدَّةٍ، عَلَى حَسَبِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى، وَفِي النِّهَايَةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٢٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٢٩) كتاب التفسير - ومسلم (٢٧٨٥) كتاب صفات المنافقين.

ما الذي يوضع في الميزان

✽ والقول في الموزون على أربعة أوجه:

(١) أن الأعمال هي التي تُوْزن:

وأن أفعال العباد تُجسَّم فتوضع في الميزان.. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة: ٧، ٨].
.... وقال النبي ﷺ: «كِلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» (١).

(٢) أن صحائف الأعمال هي التي تُوْزن:

يدل على ذلك حديث البطاقة عن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَارَبَّ فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عَذْر؟ قَالَ: لَا يَارَبَّ فَيَقُولُ: بَلَى. إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ... فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احْضِرْ وَزَنِّكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيَقُولُ: فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ... فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقَلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يُثْقَلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» (٢).

(٣) أن الموزون ثواب العمل:

كما جاء في حديث أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَ وَابْنِ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا نَاتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانَهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَانَهُمَا غَيَاتَانِ، أَوْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

كَانَهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا... اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»^(١).

قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة.

قال الترمذي رحمه الله: معنى هذا الحديث عند أهل العلم أنه يجيء ثواب قراءته.

(٤) أن الموزون هو العامل نفسه :

والدليل على ذلك ما جاء عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كنت أجتني لرسول الله ﷺ من الأراك (ليأتيه بالسواك) قال: فضحك القوم من دقة ساقى فقال النبي ﷺ مِمَّ تَضَحُّكُونَ؟ قالوا: من دِقَّةِ سَاقِيهِ. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهِيَ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ»^(٢). أي من جبل أحد.

فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون

✽ أخى الحبيب: هل وقفت يوماً لتشتري طعاماً أو فاكهة ورأيت كفة الميزان وهي تميل وترجع على الأخرى.. فتذكرت ميزان الآخرة وقد رجحت كفة السيئات على كفة الحسنات فكان ذلك حادياً لك لأن تبادر إلى التوبة ولتجتهد في طاعة الله ﷻ لتملأ كفة الحسنات بكل أنواع الطاعات والقربات ليرضى عنك رب الأرض والسموات.

قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

[الأعراف: ٨-٩].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن سعد، والبخاري، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠).

فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

[المؤمنون: ١٠١-١٠٤].

وقال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات. هل تدبرت أخى الكريم في كلمات أنس رضي الله عنه.

إنه يقول تلك الكلمات لخير جيل عرفته البشرية كلها... وكأنه يقصد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم إذا وقع أحدهم في صغيرة ينظر بقلبه إلى ميزان يوم القيامة وقد تساوت كفة الحسنات مع كفة السيئات فتأتى تلك الصغيرة فترجع كفة السيئات فتكون سبباً في دخوله النار فتكون بذلك من الموبقات... فهل تخيلت نفسك عند الوقوع في معصية - صغيرة كانت أو كبيرة - أن تلك المعصية ربما ترجح كفة سيئاتك فيكون ذلك حادياً لك لأن تتوب وتعود إلى الله وتجتهد في طاعته لتكون من المفلحين في الدنيا والآخرة.

ما الأعمال التي تثقل في الميزان

إن كل أعمال البر والطاعة تثقل في الميزان، وتجعل كفة الحسنات راجحة على كفة السيئات، ولكن هناك أشياء تجعل كفة الحسنات ثقيلة جداً، منها:

(أ) **حُسن الخلق:**

قال صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»^(١).

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن حبان، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٥٧٢٦).

(ب) تسبيح الله وتحميده:

قال رسول الله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» ^(١).

(ج) الحمد لله:

قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأْنَ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعُ نَفْسِهِ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا» ^(٢).

ففى قوله: «وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأْنَ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: سبب عظيم فضلها ما اشتملت عليه من التنزيه لله تعالى والافتقار إليه ^(٣).

(د) احتباس الخيل فى سبيل الله:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّةَ وَرَوْنَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًا، فَفَقَدَهَا، أَوْ فَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عَنْهَا أَوْ عَنْهُ، فَقَالُوا: مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَتُمُونِي» فَكَانَتْهُمْ صَغُرُوا أَمْرَهَا، أَوْ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهِ» فَدَلُّوه فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ» ^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

(٣) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص ٦١ - ٦٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٨) كتاب الصلاة، ومسلم (٩٥٦) كتاب الجنائز.

❦ كانت هناك امرأة سوداء مؤمنة، طيبة القلب، تحب الخير لكل المسلمين. وكانت هذه المرأة تبحث لنفسها عن أى دور تستطيع من خلاله أن تخدم الإسلام والمسلمين.

وبعد تفكير عميق رأت أن العمل الذى تستطيع أن تقوم به وتخدم من خلاله المسلمين هو أن تَقُمَّ المسجد النبوى - أى: تكنسه وتنظفه. وظلت هذه المرأة تكنس المسجد وتنظفه كل يوم حتى آخر لحظة في عمرها. وفي يوم من الأيام مرضت هذه المرأة الطيبة وماتت ولم يعرف النبي ﷺ أنها ماتت^(١).

وذلك لأنها ماتت بالليل وكان النبي ﷺ في بيته .. فصغَّر الصحابة رضي الله عنهم من شأنها وقالوا: لا حاجة لنا إلى أن نُخبر النبي ﷺ بشأنها في هذا الليل .. فدفنوها... فلما فقدها النبي ﷺ ولم يرها في المسجد سأل عنها فقالوا: إنها ماتت يا رسول الله.

فقال: «أفلا كنتم آذنتُمونى» يعنى أعلمتُمونى حين ماتت، ثم قال: «دُلُونى على قبرها» فدلوه، فصلى عليها، ثم قال ﷺ: «إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن الله ينورها لهم بصلاتى عليهم».

❦ ففى هذا الحديث عدة فوائد منها: أن النبي ﷺ إنما يُعظم الناس بحسب أعمالهم، وما قاموا به من طاعة الله وعبادته.

ومن القوائد: جواز تولَّى المرأة لتنظيف المسجد، وأنه لا يحجر ذلك على الرجال فقط، بل كل مَنْ احتسب ونظف المسجد فله أجره؛ سواء باشرته المرأة، أو استأجرت مَنْ يَقُمَّ المسجد على حسابها.

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية تنظيف المساجد، وإزالة القمامة عنها.

= قوله: «تَقُمُّ» أى تَكُنُسُ - «وَالْقَمَامَةُ»: الْكُنَاسَةُ - «وَأَذَنْتُمُونِى»: أَيْ: أَعْلَمْتُمُونِى.

(١) قصص الرسول ﷺ للأطفال / الشيخ محمود المصرى (ص ٣٤٢) بتصرف.

فالمساجد بيوت الله ينبغي العناية بها وتنظيفها، ولكن لا ينبغي زخرفتها وتنقيشها بما يوجب أن يلهو المصلون بما فيها من الزخرفة.

ومن فوائد هذا الحديث: أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولهذا قال: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا»، فإذا كان لا يعلم الشيء المحسوس فالغائب من باب أولى.

فهو ﷺ لا يعلم الغيب... وقد قال الله له: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَعَيُّنُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ومن فوائد هذا الحديث: مشروعية الصلاة على الميت عند القبر لمن لم يُصَلَّ عليه قبل الدفن؛ لأن النبي ﷺ خرج فصلى على القبر حيث لم يُصَلَّ عليها قبل الدفن، ولكن هذا مشروع لمن مات في عهدك وفي عصرك، أما مَنْ مات سابقاً فلا يُشرع أن تُصلى عليه... ولهذا لا يُشرع لنا أن نُصلى على النبي ﷺ على قبره، أو على قبر أبي بكر، أو عمر، أو عثمان، أو غيرهم من الصحابة، أو غيرهم من العلماء والأئمة.

ومن فوائد هذا الحديث: حُسن رعاية النبي ﷺ لأُمَّته، وأنه كان يتفقدهم ويسأل عنهم، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير... كل ما يهم المسلمين فإنه يسأل عنه ﷺ.

ومن فوائد هذا الحديث: جواز سؤال المرء ما لا تكون به منّة في الغالب... لأن الرسول ﷺ قال: «دُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا» وهذا سؤال، لكن مثل هذا السؤال ليس فيه منّة، بخلاف سؤال المال فإن سؤال المال محرم، يعني لا يجوز أن تسأل شخصاً مالاً وتقول: أعطني عشرة ريالات أو مائة ريال إلا عند الضرورة.

وربما يُؤخذ من هذا الحديث: جواز إعادة الصلاة على الجنازة، لمن صلى عليها من قبل إذا وجد جماعة؛ لأن الظاهر أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ صلوا معه.



فإذا قال قائل: إذا صليتُ على القبر فأين أقف؟ فالجواب أنك تقف وراءه تجعله بينك وبين القبلة، كما هو الشأن فيما إذا صليت عليه قبل الدفن^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦٣) وَعَنْ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةٌ مَن دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مُحْبُوسُونَ غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ. وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةٌ مَن دَخَلَهَا النِّسَاءُ»^(٣).

✽ قوله ﷺ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةٌ مَن دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ»، أى أكثر من دخل الجنة الفقراء والمساكين؛ لأنهم في الغالب أقرب إلى الاستجابة للحق وأقرب إلى العبادة والخشية لله من الأغنياء... وإن كان هناك من الأغنياء من هو أكثر عبادة لله من الفقراء إلا أن الغالب من حال الأغنياء ليس كذلك.

«وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مُحْبُوسُونَ»: ولكن ما المراد بأصحاب الجد؟.. هل هم أصحاب المال فقط أم هم أصحاب الولايات والإمارات أيضاً... فإن كانوا هم أصحاب المال فهم محبوسون - أى: موقوفون - بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ للسؤال عن

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمته الله (٢/ ٣٢-٣٣) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٣٦) كتاب الذكر والدعاء.

«وَالْجَدُّ»: الحظُّ والغنى - وقوله «مُحْبُوسُونَ» أى: لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بَعْدَ فِى دُخُولِ الْجَنَّةِ.

أموالهم من أين اكتسبوها وفيهم أنفقوها ... وأما إن كانوا من أصحاب الولايات والسلطات فهم محبوسون من أجل السؤال عن رعاياهم ماذا عملوا فيهم؟ هل قاموا بواجب النصيحة والإرشاد والتعليم وحملهم على طاعة الله ﷻ وتأديبهم وإقامة الحدود فيهم أم أنهم ضيعوا رعايتهم وتركوهم يفسدون في الأرض ولم يُذكروهم بالله ﷻ.

فأصحاب الجدة إما أن يكونوا من أصحاب الأموال أو الولايات .. وقد ورد الخبر أنهم محبوسون وموقوفون للسؤال عن ما كان منهم .

❁ وفي هذا الحديث قسّم الرسول ﷺ الناس إلى ثلاثة أقسام:

أهل النار: دخلوا النار - أعاذنا الله وإياكم منها - والفقراء: دخلوا الجنة، والأغنياء: من المؤمنين موقوفون محبوسون، إلى أن يشاء الله.

أما أهل النار فأخبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق أن عامة من دخلها النساء.

وقد يسأل سائل ويقول: هل الرجال أكثر في الجنة أم النساء؟

والجواب: أن مثل هذا السؤال قد طُرح في عهد الصحابة فتخاصم الرجال والنساء في هذه المسألة.

ففى صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر في الجنة؟ وفي رواية: إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتجّ أبو هريرة على أن النساء في الجنة أكثر بقول الرسول ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخٌ سَوْقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَغْزَبُ؟»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

والحديث واضح الدلالة على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال، وقد احتج بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «رأيتكن أكثر أهل النار». والجواب أنه لا يلزم من كونهن أكثر أهل النار أن يكنَّ أقل ساكني الجنة كما يقول ابن حجر العسقلاني^(١)، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة، وبذلك يكنَّ أكثر من الرجال وجودًا في الخلق ... ويمكن أن يُقال: إن حديث أبي هريرة يدلُّ على أن نوع النساء في الجنة أكثر سواء كن من نساء الدنيا أو من الحور العين.

والسؤال هو: أيهما أكثر في الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها؟ وقد وفق القرطبي بين النصَّين بأن النساء يكنَّ أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج عصاة الموحدين من النار، فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كُنَّ أكثر أهل الجنة^(٢).

كيف نجمع بين ما ذكر هنا أن النساء هنَّ أكثر أهل الجنة، وبين حديث: «يا معشر النساء تصدَّقن وأكثرن من الاستغفار فإنِّي رأيتكن أكثر أهل النار»؟

الجواب: أن عدد النساء في الدنيا أصلاً أكثر من عدد الرجال، بمعنى أن عدد خلق الله من النساء أكثر من عددهم من الرجال ... وقد جاء في الحديث أنه في آخر الزمان في الدنيا يكون لكل خمسين امرأة قيِّمٌ واحد .. أي: رجل واحد.

وفي عصرنا اليوم بدأت نِسَب الولادات من البنات تزداد بشكل ملحوظ، حتى صارت نسبة الذكور في بعض البلدان تصل إلى خمس نساء مقابل رجل واحد، وبذلك تكون النساء أكثر من الرجال وجودًا في البشر، فإذا دخل نصف رجال الدنيا إلى الجنة، ونصف نساء الدنيا أيضًا، فإن عدد النساء سيكون أكثر؛ لأن النساء في الدنيا أكثر، وكذلك الحال في النار... فلو دخل النار عُشر رجال الدنيا،

(١) فتح الباري: (٦/ ٣٢٥).

(٢) راجع التذكرة للقرطبي: (ص ٤٧٥).

وعُشر نساء الدنيا، فستكون النساء في النار عددهن أكثر؛ لأنهن أكثر في الدنيا.
وعلى ذلك لا يفهم من حديث إن النساء أكثر أهل النار دَمَ جنس النساء، أو
التنقُصُ منهن^(١).

❀ وفي هذا الحديث دليل على أنه ينبغي على الإنسان أن يحذر من ثلاثة
أشياء: الغنى والصحة والفراغ .. فقد قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ
النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»^(٢).

فتلك الأشياء الثلاثة قد تكون سبباً للفتنة وقد تؤدي بصاحبها إلى الأشر
والبطر وردّ الحق وغمط الناس .. ومن المعلوم أن الفراغ يأتي في الغالب من
الغنى .. لأن الغنى قد يجد مَنْ يقوم بأعماله ويبقى هو متفرغاً.

❀ فينبغي على مَنْ رزقه الله مالاً أن يستعمل المال في طاعة الله وأن يشكر
الله على نِعَمه .. وإذا كان عنده مَنْ يقوم بأعماله فعليه أن يستعمل هذا الفراغ
فيما يقربه من الله ليصبح كما قال النبي ﷺ: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحَ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ».
❀ وعلى المرأة أن تحرص على كل عمل يقربها من الله ﷻ ومن جنته
التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) العالم الأخير (ص ٥١٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٢) كتاب الرقاق.

الفهرس



فهرس الموضوعات

- تابع (١٤) باب في الاقتصاد في الطاعة ٥
- (١٥) باب في المحافظة على الأعمال ٢٦
- (١٦) باب في الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها ٣٥
- (١٧) باب في وجوب الانقياد لحكم الله عز وجل ١٠٦
- (١٨) باب في النهي عن البدع ومحدثات الأمور ١١٤
- (١٩) باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة ١٢٦
- (٢٠) باب في الدلالة على الخير والدعاء إلى هدى أو ضلالة ١٣٥
- (٢١) باب في التعاون على البر والتقوى ١٤٥
- (٢٢) باب في النصيحة ١٥٨
- (٢٣) باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٦٩
- (٢٤) باب تغليظ من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله ٢٣٠
- (٢٥) باب الأمر بأداء الأمانة ٢٣٦
- (٢٦) باب تحريم الظلم.. والأمر برّد المظالم ٢٦٤
- (٢٧) باب تعظيم حُرّمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم ٣٣٤
- (٢٨) باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة ٤٣٩
- (٢٩) باب قضاء حوائج المسلمين ٤٦٦
- (٣٠) باب الشفاعة ٤٧٦

- (٣١) باب في الإصلاح بين الناس ٤٨٢
- (٣٢) باب فضل ضعفه المسلمين والفقراء والخاملين ٥٠٠
- ❁ فهرس الموضوعات ٥٢٥

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

هذه وصيتي

كانت هذه وصيتي اليها نصيب وحدث القرائ الكريم ويجوز ان تكتب رباب الصالحين
لا انا العبد وكنت احب القراءة في هذا الكتاب لكي كنت لا اهتم الكثير من الاحاديث
وتسبب ان اجد كتابا سهلا فيه شرح لتلك الاحاديث التي تبلغ ١٦٠٠ حديثا
يقول الامام وشرح الله صدرى الشرح هذا الكتاب لقروا حتى تنالوا هذا الكتاب
المعنى ان استطاع الامام القوي من خلاله ان يجمع الكثير من الادب والاخلاق الاسلامية
والعقائد بكتب العبادات والعبادات فيوجد في كتابا سهلا لكل من قاسمته بانه
انما جاء شرحا لغيره بعد العبادات والعبادات وطبقة الفقه وحقق كل الاحاديث الواردة فيه
بفضل الله رحمت اجمل انما يعرف في شرح هذا الكتاب المعنى الذي لا يستطيع احد
بغيره انما في القليل الكثير والكثير ولعلكم قد تعلمون سبق بشارتي عند ما تستمعون
بقراءات الكتب المشيخ

كيسفي لكل اخواني واخواتي اني ارجو ان تكون هذا على القلوب القليلة
تسبب في جميع على النعمان الصالحين كتاب الله وسنة رسوله الله في جميع بيوتكم
تسبب الاسلام والسلمون في كل مكان

اسأل الله بزر ان ينشئ في ساكن هذا الكتاب وان يجعله في ميزان حسنات ابي راسي
ارحمه الله عليه ما اريد ان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب ويحفظه به
وارجو الا تشكروا على بنعمة صادقة يظهر القريب بان يرزقني الله بزر الاخلاق في القبول
والعمل وان يرزقني حسن الاخلاق وان يجعلني بكم في الشهود من الاخلاق مع الجيب النسطي

شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد بن المصطفى
أبو عمّار

للإمام أبي زكريّا
يحيى بن شرف النووي

الجزء الثالث

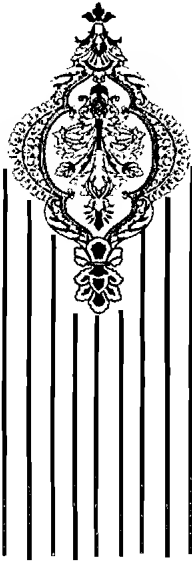


رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شَيْخ
رَبِيعُ الصَّالِحِينَ
مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

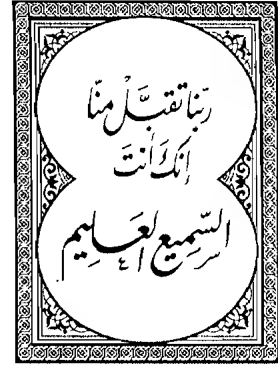
رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَرْءُ رَافِقًا فَإِنْ كَانَ

١٢٢ مَبْدَأُ الْأَرْضِ وَالْمَرْءُ الْأَوَّلُ وَالْقَاهُوتُ ٢٥١٤٧٣٢٠
أَدْرَبُ الْأَرْكَانِ خَلْفَ الْجَمَاعِ الْأَوَّلِ ١٠١٤٣١١١٤ ٢٥١٤٧٩٧٤

مَكْتَبَةُ الصَّفَا
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ



شَحْاح رَبَائِضُ الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

لِلإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

شَحْاحُ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَصْرِفِ

أَبُو عَمَّار
الْجُزْءُ الثَّالِثُ

مَكْتَبَةُ الصَّفَا لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِينِ

تأليف: ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس: ٢٥١٤٧٩٧٤



(٢٦٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَارَبَّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ فَانصرفتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمَتِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمَوْمِسَاتِ. فَتَدَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتِمَّنُّ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَا فِتْنَتَهُ، فَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا. فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. قَالَ: أَيُّنَ الصَّبِيِّ؟ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّي فَصَلَّى، فَلَمَّا انصرفتْ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي، فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَهُ حَسَنَةً فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ» فَكَانَتْ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأَصْبُعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فِيهِ، فَجَعَلَ يَمْصُهَا، قَالَ: «وَمَرُّوا بِبَجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَفَتٍ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهَذَا لَكَ تَرَاجَعُ الْحَدِيثِ فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَفَتٍ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟، قَالَ: إِنْ

ذَلِكَ الرَّجُلُ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ، وَلَمْ تَزْنِي، وَسَرَقْتِ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا»^(١).

❦ قوله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة».

أولاً: عيسى ابن مريم ﷺ ... وعيسى ابن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل، بل آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ، فإنه لم يكن بينه وبين النبي ﷺ نبي.

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. فليس بين محمد ﷺ وبين عيسى ابن مريم نبي.

وأما ما يذكر عند المؤرخين من وجود أنبياء في العرب كخالد بن سنان، فهذا كذب ولا صحة له.

وعيسى ابن مريم كان آية من آيات الله ﷻ ... كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]. كان آية في منشئه، وآية في وضعه.

أما في منشئه فإن أمه مريم ﷺ حملت به من غير أب، حيث أرسل الله ﷻ جبريل إليها فتمثل لها بشراً سوياً، ونفخ في فرجها فحملت بعيسى ﷺ.

والله على كل شيء قدير ... فالقادر على أن يخلق الولد من المني قادر على أن يخلقه من هذه النفخة ... كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. لا يستعصى على قدرة الله شيء، إذا أراد شيئاً قال له: كُنْ فكان ... فحملت وولدت، وقيل: إنه لم يبق في

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٥٥٠) كتاب البر والصلة.

«والمؤمنات»: وهن الزواني. والمؤمسة: الزانية - وقوله: «دَابَّةٌ فَارِهَةٌ»: أى حاذقة نفيسة.

«الشَّارَّةُ»: وهى الجمال الظاهر فى الهيئة والملبس - ومعنى «تراجعا الحديث» أى: حدثت الصبي وحدثتها، والله أعلم.

بطنها كما تبقى الأجنة، ولكنها حملته وشبَّ سريعاً، ثم وضعته.

وكان آية في وضعه، حيث جاء مريم المخاض إلى جذع النخلة، فقالت: ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]. هي لم تتمنَّ الموت لكنها تمنَّت أنه لم يأتها هذا الشيء حتى الموت ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. أى عين تمشى تحت النخلة.

ثم قال: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]. تهز الجذع وهي امرأة قد أتاها المخاض، فتساقط من هزها الرُّطْبُ..... رُطْبًا جَنِيًّا لا يفسد إذا وقع على الأرض، وهذا خلاف العادة؛ فالعادة أن المرأة عند النفاس تكون ضعيفة، والعادة عند هز النخلة ألا تهز من أسفل، بل تهز من فوق، لأن الجذع لا يهتز لو هزّه الإنسان... والعادة أيضًا أن الرُّطْبُ إذا سقط فإنه يسقط على الأرض ويتمزق، لكن الله قال: ﴿تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٥) فكلُّ وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴿، الله أكبر! إنها آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ... فالله على كل شيء قدير.

ولما وضعت الولد أتت به قومها تحمله... تحمل طفلاً وهي لم تتزوج، فقالوا لها - يُعرضونها بالبغاء - قالوا: يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ، وما كانت أمك بغياً، يعنى كأنهم يقولون: من أين جاءك الزنى - نسأل الله العافية - وأبوك ليس امرأ سوءٍ وأمك ليست بغية... وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا زنى فقد يُبتلى نسله بالزنى والعياذ بالله... كما جاء في الأثر: «مَنْ زَنِى زَنِى أَهْلَهُ».

فهؤلاء قالوا: ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً... فألهمها الله عَزَّوَجَلَّ فأشارت إلى الطفل، أشارت إليه فكأنهم سخرُوا بها، قالوا: كيف نُكلم مَنْ كان في المهد صبيّاً؟ هذا غير معقول!.

ولكنه التفت إليهم، وقال هذا الكلام البليغ العجيب: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

سبع جُمَل من طفل في المهد!!!

ولكن لا تتعجب فإن قدرة الله فوق كل شيء... أليست جلودنا وأيدينا وأرجلنا وألسنتنا يوم القيامة تشهد علينا بما فعلنا؟ بلى: تشهد، أليست الأرض تُحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها؟ الأرض تشهد بما عملت عليها من قولٍ أو فعل: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۚ﴾ [الزلزلة: ٤، ٥].

إذا.. هذا كلام عيسى ابن مريم، تكلم بهذه الكلمات العظيمة؛ سبع جُمَل وهو في المهد.

❁ أما الثاني: فهو صاحب جُريج... وجريج رجلٌ عابد، انعزل عن الناس، والعزلة خيرٌ إذا كان في الخلطة شر، أما إذا لم يكن في الخلطة شر فالاختلاط بالناس أفضل... قال النبي ﷺ: «المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»^(١).

لكن إذا كانت الخلطة ضرراً عليك في دينك، فانجُ بدينك... كما قال النبي ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الرَّجُلِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ»^(٢) يعني يفر بدينه من الفتن^(٣).

وكان هذا الرجل في بداية أمره تاجراً أميناً يحبه كل الناس ويثقون في صدقه وأمانته.. ثم زهد بعد ذلك في التجارة وأحب العبادة حباً جَمّاً فاتخذ صومعة

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٣٠٠) كتاب بدء الخلق، و(٧٠٨٨) كتاب الفتن.

(٣) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧-٣٨).

يعبد الله فيها.

واعتزل جريج الناس وجلس في صومعته يعبد الله ﷻ فكان يصوم النهار ويقوم الليل.. وظل على تلك الحالة زمناً طويلاً.

وكان لجريج أمٌ صالحة تأتي إليه في بعض الأيام لزيارته ومُحادثته والجلوس معه.

وفي يوم من الأيام جاءت إليه وقد اشتاقت لرؤيته فأخذت تنادى عليه.. وكان جريج يصلى في هذا الوقت.. وبدلاً من أن يرد على أمه استمر في صلاته ولم يُجب نداء أمه.

لقد كان الواجب على جريج أن ينصرف من صلاته، ويجيب نداء أمه، فإجابة الأم أولى من صلاة النافلة، وكان يمكنه أن يخفف صلاته، ويبادر بإجابة أمه، ولكنه قدّم صلاته على إجابة أمه... ويبدو أنه كان يجد للصلاة حلاوة في قلبه، تُغريه بعدم ترك الصلاة لأى أمرٍ من الأمور.

❁ وذهبت الأم وهى غاضبة لأن ابنها لم يرد عليها.

وعادت في اليوم التالى وهى فى أشد الشوق لرؤيته فنادت عليه فلم يرد عليها؛ لأنه كان مشغولاً بالصلاة فعادت الأم أيضاً وهى غاضبة، ثم عادت إليه فى اليوم الثالث ونادت عليه فوجدته يصلى فلم يرد عليها.

فما كان منها إلا أنها دعت عليه أن لا يُميته الله حتى يرى وجوه البغايا (النساء السيئات).

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ أن أم جريج لو دعت عليه أن يُفتن لُفتن.

ونحن نعلم أن الله (ﷻ) إذا أراد شيئاً فإنه يُهيئ له أسبابه.

فقد أخذ بنو إسرائيل يتذاكرون جريجاً وعبادته فأرادوا أن يفتنوه وأن يجعلوه يقع في معصية الله (جل وعلا).



فأخذوا يبحثون عن امرأة تغويه، فوجدوا امرأة في غاية الحُسن والجمال ...
فقد كان الناس يضربون بها المثل في الحُسن والجمال .. وكانت مغرورة وواثقة
في نفسها وجمالها.

فلما ذهبوا إليها وانفقوا معها على أن تفتن جريج العابد، قالت لهم بكل
ثقة: إن شئتم فسوف أفتنه لكم.

وذهبت إليه هذه المرأة وتعرضت له في خلوته وأظهرت مفاتنها له، ولكنه
لم يلتفت إليها فأحسَّت بأنه قد أهانها في جمالها وأنوثنها، فشَقَّ عليها هذا الذي
حدث فلم تستطع أن تعود إلى القوم لتعلن عن فشلها في فتنة جُريج.

فما كان منها إلا أنها ذهبت إلى رجلٍ راعٍ كان يأوى إلى صومعة جريج،
وتعرضت له وفتنته وأمكنته من نفسها فوقع عليها، وفعل معها الفاحشة،
وحملت هذه المرأة من الرجل الراعي في تلك الليلة، فلما ولدت غلامًا صغيرًا
ادَّعت أن هذا الولد من جُريج العابد، وأنه هو الذي فعل معها الفاحشة ... ورغم
أن بنى إسرائيل كانوا يتمنون فتنة جُريج العابد إلا أنهم لم يكن يخطر على بالهم
أن هذا العابد يصدر منه هذا الفعل الذي أخبرتهم به هذه المرأة زورًا وكذبًا.

❁ لم يعلم أهل القرية أن هذه المرأة كاذبة .. وظنوا فعلاً أن هذا العابد قد
فعل معها الفاحشة؛ فجاءوا إليه وهم في قمة الغضب وأمروه أن ينزل من
صومعته، وأخذوا يشتمونه شتمًا قبيحًا فلم يرد عليهم لأنه كان منشغلًا
بصلاته ... وإذا بهم يضربون الصومعة ويهدمونها بالفؤوس فلما رأى منهم ذلك
نزل من صومعته وهو لا يعلم ما الذي حدث ولماذا يفعلون كل هذا؟

أخذ الناس يضربونه ضربًا شديدًا وهو يسألهم: لماذا تفعلون كل هذا؟
فأخبروه أن هذه المرأة أخبرتهم أنه قد فعل معها الفاحشة، وأنها قد أنجبت منه
ولدًا من الحرام.

فتبسم جريج لأنه واثق من أنه صادق في عبادته واستقامته وأن هذه المرأة كاذبة.. فطلب من الناس أن يعطوه الفرصة لكي يتوضأ ويصلى فتركوه ليتوضأ ويصلى.

فلما صلى وانتهى من صلاته قال لهم: أين الصبى الذى تدَّعون أنه ابنى من الزنا؟.. فجاءوا بالصبى الذى لم تمضِ على ولادته أيام، فطعنه فى بطنه بإصبعه بكل رقة وحنان وقال له: يا غلام من أبوك؟ فأنطق الله الصبى المولود، وقال: أبى فلان الراعى.

فأدرك الناس عظم الجريمة التى ارتكبوها فى حق هذا العبد الصالح، وعلموا أن جريجاً لم يكن من الصنف الذى ظنوه،... لم يكن مُرائياً ولا مخادعاً، بل كان صادقاً فى تعبُّده وصلاحه، وأن هذه المرأة البغى كانت كاذبة فيما رمت به، وعلموا أنهم تسرعوا فى تصديق التهمة، كما تسرعوا فى إيذاء الرجل، وهدم صومعته، وحاول هؤلاء المتعجلون أن يُكفِّروا عما وقع منهم فى حق جريج، فعرضوا عليه أن يعيدوا له بناء صومعته من الذهب أو الفضة، ولكنه أبى، وأصر على إعادتها من الطين كما كانت، وكذلك فعلوا... فلما أتموا بناءها، علاها جريج عائداً إلى عبادة ربه.

لقد استجاب الله فى جريج دعاء أمه، فحقق ما طلبته، ولكن الله نجاه بصلاحه وتُقاه، وكان فى استجابة الله دعاء أمه ثم نجاته بعد ذلك درسان عظيمان^(١).

✽ وفى هذا الجزء من الحديث - فى قصة جريج العابد - مجموعة من الفوائد والدروس المستفادة ... منها:

(١) بيان أثر عقوق الوالدين وترك برهما والاستجابة لأمرهما، وأن ذلك قد يكون سبباً لمصائب تحل بالإنسان، كما وقع لهذا العابد الصالح.

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٢٧٧).

(٢) أن الوالدين إذا نادياك وأنت تصلى، فإن الواجب إجابتهما، لكن بشرط ألا تكون الصلاة فريضة، فإن كانت فريضة فلا يجوز أن تجيبهما، لكن إذا كانت نافلة فأجبهما.

فمثلاً إذا جاءك أبوك وأنت تصلى سنة الفجر، قال: يا فلان، وأنت تصلى... فإن كان أبوك رجلاً مرتناً يعذرك فتتحنح له، أو قل: سبحان الله، أو ارفع صوتك بالقراءة أو بالدعاء أو بالذكر الذى أنت فيه، حتى يعذرك. وإن كان من الآخرين الذين لا يعذرون، ويريدون أن يكون قولهم هو الأعلى، فاقطع صلاتك وكلمه... وكذلك يُقال في الأم.

أما الفريضة فلا تقطعها لأحدٍ إلا عند الضرورة، كما لو رأيت شخصاً تخشى أن يقع في هلكة... كأن يقع في بئر، أو في بحر، أو في نار، فهنا اقطع صلاتك للضرورة، وأما لغير ذلك فلا يجوز قطع الفريضة.

(٣) أن دعاء الوالد إذا كان بحق فإنه حرى بالإجابة، فدعاء الوالد ولو كان على ولده إذا كان بحق فهو حرى أن يجيبه الله، ولهذا ينبغى لك أن تحترس غاية الاحتراس من دعاء الوالدين، حتى لا تعرض نفسك لقبول الله دعاءهما. فتخسر^(١).

(٤) محاولة أهل الفجور تشويه صفحة الصالحين الأخيار، كما فعلت هذه المرأة البغى بجريج.

(٥) لا يجوز المسارعة بتصديق التهمة من غير دليل ولا برهان، كما فعل أهل القرية عندما صدقوا ما قالتها المرأة الفاجرة في جريج، وكان الواجب عليهم أن يتحققوا من مقولتها، قبل مهاجمة جريج وسبه وضربه.

(٦) قد يوجد عند العبد الصالح من الثبات واليقين وحسن الظن بالله ما

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٨-٣٩) بتصرف كبير.

يجعله يواجه الأمور العظام بشجاعة ورباطة جأش، كما فعل جُريج.

(٧) شأن الصالحين أن يفزعوا إلى الصلاة عند نزول الكرب والبلاء.

(٨) إنجاء الله للعبد بصلاحه وتقواه، كما أنجى جُريجاً وبرّاه من التهمة التي

رُمى بها.

(٩) قدرة الله على إنطاق مَنْ لم يُعهد النطق من أمثالهم، كما أنطق هذا

الغلام الصغير، فبراً جُريجاً.

(١٠) في الحديث إثبات كرامات الأولياء^(١).

(١١) وفي هذا الحديث: دليل على صبر هذا الرجل - جريج - حيث إنه لم

يُنتقم لنفسه، ولم يكلفهم شططاً فينبون له صومعته من ذهب، وإنما رضى بما

كان رضى به أولاً من القناعة وأن تُبنى من الطين.

(١٢) عاقبة الابتلاء إلى خير إذا صبر العبد واتقى ربه، فجريج بعد بلائه كان

أفضل عند الناس وعند رب الناس منه قبل الابتلاء.

❁ وأما الثالث الذى تكلم فى المهد فهو ذلك الصبى الصغير الذى كان مع

أمه يرضع.

وتتلخص قصة هذا الطفل فى أنه كانت أمه تجلس به على قارعة الطريق

ترضعه فمرَّ أمامها رجل غنىُّ ييدو عليه أثر الغنى والثراء، فهو يلبس ملابس

أنيقة ويركب دابة فارهة .. وفوق ذلك فهو جميل الشكل والمنظر قوى الجسد

والبنية .. فأعجبت الأم بمنظر هذا الرجل فقالت: اللهم اجعل ابنى مثله.

وإذا بالمفاجأة التى لا تخطر على قلب بشر .. لقد ترك الطفل الرضيع ثدى

أمه ونظر إلى هذا الرجل وقال: اللهم لا تجعلنى مثله.

ثم عاد مرة أخرى يرضع من ثدى أمه .. فتعجبت الأم من فعل هذا الطفل

الرضيع.

(١) صحيح القصص النبوى (ص ٢٧٧-٢٧٨) بدون ترتيب.

وبعد وقتٍ قصيرٍ مرَّ على هذه المرأة وطفلها جماعة من الناس يَجْرُونَ جارية ويضربونها ضربًا قاسيًا وهم يقولون لها: زنيّت .. سرقت .. وهى تقول: حسبى الله ونعم الوكيل.

فقالت الأم: اللهم لا تجعل ابنى مثلها .. وإذا بالطفل الرضيع يترك ثدى أمه مرة ثانية وينظر إلى تلك الجارية ويقول: اللهم اجعلنى مثلها.

فتعجبت الأم من فعل هذا الطفل الرضيع، ثم دار بينها وبين طفلها الرضيع حوار، فسألت أمه عن السبب الذى جعله يدعور به (جل وعلا) دعاءً يخالف دعاءها.

فأخبرها هذا الطفل الرضيع الذى ألهمه الله بهذا الجواب، فقال لها: إن هذا الرجل الغنى كان جبارًا كافرًا فقلت: اللهم لا تجعلنى مثله، وإن هذه الجارية فتاة صالحة قد اتهموها بالزنى وهى بريئة من الزنا واتهموها بالسرقه وهى لم تسرق، فقلت: اللهم اجعلنى مثلها فى طهارتها وإيمانها وصبرها على البلاء.

❀ وفى هذا الجزء من الحديث - فى قصة ذلك الطفل الرضيع - مجموعة من الفوائد والدروس المستفادة .. منها:

(١) قد يطلب البشر ما فيه مضرتهم، وينفرون مما فيه صلاحهم، فقد طلبت تلك المرأة أن يكون ابنها مثل ذلك الجبار الكافر، وهى لا تعلم أن فى ذلك هلاكه ... ودعت أن لا يكون ابنها مثل تلك الفتاة الصالحة، وكان الخير أن يكون ابنها مثلها فى صلاحها وتقواها، وإن اتهمت بما اتهمت به زورًا وبُهتانًا.

(٢) ينبغى على الدعاة أن يستعملوا الوسائل التعليمية لإيضاح العلم وبيان الخير وإقراره فى النفوس، كما فعل الرسول ﷺ حين وضع إصبعه فى فمه حاكياً رضاعة ذلك الصغير ... ويوجد لهذا نظائر فى الأحاديث الشريفة، فقد شرح الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿[الأنعام: ١٥٣]﴾، بأن رسم خطأ في الرمل، وقال: هذا صراط الله مستقيماً، ورسم عن يمينه وشماله خطوطاً، وقال: هذه السُّبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه.

(٣) يُوجد الله في كل عصر آيات تدل عليه، وتُعرف به، وتُظهر القيم التي يحبها الله، والقيم التي يُبغضها... ومن ذلك كلام هذا الغلام، وعدم رضاه بحال ذلك الجبار، ورضاه بأن يكون مثل الجارية^(١).

والحاصل أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، فقد يحصل من الأمور المخالفة للعادة ما يكون آية من آياته، إما تأييداً لرسوله أو تأييداً لأحد من أوليائه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح القصص النبوي (ص ٢٧٧).

(٣٣) باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة

والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم

❖ قال تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَنْهَرْ ① وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠]. وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ② فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ③ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ [الماعون: ١، ٣].

❖ قال المؤلف رحمه الله: (باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين) ونحوهم ممن هم محل الشفقة والرحمة ... وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة، والعطف والإحسان، وقد حثَّ الله ﷻ على الإحسان في عدة آيات من كتابه، وبَيَّنَّ سبحانه وتعالى أنه يحب المحسنين، والذين هم في حاجة إلى الإحسان يكون الإحسان إليهم أفضل وأكمل، فمنهم اليتامى.

واليتيم: هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكراً أو أنثى، ولا عبرة بوفاة الأم ... يعني أن اليتيم هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه وإن كان له أم، وأما مَنْ ماتت أمه وأبوه موجود فليس بيتيم، خلافاً لما يفهمه عوام الناس حيث يظنون أن اليتيم هو الذي ماتت أمه وليس كذلك، بل اليتيم هو الذي مات أبوه.

ويُسمى يتيماً لَيْتَمُهُ ... واليُتَمُّ هو الانفراد؛ لأن هذا الصغير انفرد عن كاسب، وهو صغير لا يستطيع الكسب ... وقد أوصى الله سبحانه وتعالى في عدة آيات باليتامى، وجعل لهم حقاً خاصاً؛ لأن اليتيم قد انكسر قلبه بموت أبيه، فهو محل للعطف والرحمة، قال الله ﷻ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ

دُرِّيَّةٌ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿النساء: ٩﴾^(١).

نعم.. لقد اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بهؤلاء الضعفاء من اليتامى والأرامل والمساكين.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]

وقال تعالى في حق المخلصين: ﴿وَيُطْعَمُونَ الْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَآسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. أى: ويطعمون الطعام ابتغاء وجه الله مع شهوتهم له وحاجتهم إليه... ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ ❶ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿[الإنسان: ٩-١٠]. فكان الجزاء لمن أطعم اليتيم ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ ❷ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿[الإنسان: ١١-١٢].... فيا له من أجر عظيم.

❸ بل لقد أخبر الحق (جل وعلا) بأن نبين كريمين قد أقاما جدارًا لغلामين يتيمين.

ففى تلك الرحلة المباركة التى صَحِبَ فيها نبي الله موسى (الخضر) ﷺ^(٢).

فكان من بين الأحداث التى ذكرت أنهما قاما ببناء جدار لغلामين يتيمين فى تلك المدينة... فلما سأله موسى ﷺ عن سبب ذلك قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

❹ ولذا جاء الأمر من الله (جل وعلا): ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤١).

(٢) مع الاعتراف بأن العلماء قد اختلفوا فى ذلك: هل كان الخضر نبيًا أو كان عبدًا صالحًا والراجح - والله أعلم - أنه كان نبيًا - بدليل قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

وحرصاً من النبي ﷺ على مصلحة اليتيم فقد حَضَّ الأمة على الإحسان إلى الأرملة.. وذلك لأنها ليس عندها عائل يعولها وقد يكون عندها أطفال يتامى فقال ﷺ «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يَصُومُ النهار ويقوم الليل»^(١).

❁ بل لقد أخبر ﷺ أن الإحسان إلى اليتامى يُزيل قسوة القلب. روى أن رجلاً شكّا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له ﷺ: «أتحب أن يلين قلبك وتُدرِك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يَلِنْ قلبك وتُدرِك حاجتك»^(٢).

وفي رواية قال: «أَدِنِ اليتيم منك وألفه وامسح رأسه وأطعمه من طعامك فإن ذلك يلين قلبك ويدرك حاجتك»^(٣).

❁ بل أخبرنا النبي ﷺ أن المسح على رأس اليتيم يجعلنا نفوز بآلاف الحسنات.

❁ عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «من مسح رأس يتيماً لم يمسه إلا الله كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيماً عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين» وفرّق بين أصبعيه السبابة والوسطى^(٤).

❁ بل أخبر النبي ﷺ أن كافل اليتيم سيفوز بصحبته ﷺ في الجنة. قال ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٥٣) كتاب النفقات، ومسلم (٢٩٨٢) كتاب الزهد.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠).

(٣) حسن: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وابن عساكر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٠).

(٤) رواه أحمد وقال الهيثمي في المجمع (٨ / ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٥) صحيح: رواه البخاري (٥٣٠٤) كتاب الطلاق.

وفي رواية: «أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»^(١).

✽ قال ابن بطال: حقُّ على مَنْ سَمِعَ هذا الحديث - يعنى قول الرسول ﷺ -: «أنا وكافل اليتيم في الجنة» - أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك^(٢).

✽ وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول مَنْ يفتح باب الجنة إلا أنه تأتى امرأة تبادرنى، فأقول لها: ما لك، وما أنتِ؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي»^(٣).

✽ ومن أجل كل هذا الخير حَضَّنَا النبي ﷺ على أن نضم اليتامى إلينا ونُكرمهم فقال ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيمًا بَيْنَ أَبْوِينَ مُسْلِمِينَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنَى عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ»^(٤).

كما قال ﷺ مُرَغَّبًا فِي إِنْفَاقِ الْمَالِ عَلَى الْمَسْكِينِ وَالْيَتِيمِ، فقال ﷺ: «... وَإِنْ هَذَا الْمَالُ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أُعْطِيَ مِنْهُ الْمَسْكِينُ، وَالْيَتِيمُ، وَابْنُ السَّبِيلِ....»^(٥).

✽ وفي المقابل فلقد حذرنا النبي ﷺ من ظلم اليتيم وأكل ماله. قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات - وذكر منها - وأكل مال اليتيم»^(٦). ومن قبل ذلك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٧٦).

(٢) فتح الباري (١٠ / ٤٥١).

(٣) رواه أبو يعلى وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٤٣٦ / ١٠) بإسناد لا بأس به.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٨٢).

(٥) صحيح: رواه البخاري (١٤٦٥) كتاب الزكاة.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

يَا كُفُونِ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿[النساء: ١٠]﴾.

❁ هكذا كان النبي ﷺ حريصًا على اليتامى والأرامل والمساكين... ولا عجب في ذلك فلقد كان النبي ﷺ يتيمًا وذاق مرارة اليتيم ولذلك كان يشعر بآلام اليتامى وأحزانهم.

❁ قصة تملأ القلب نورًا:

قال أحد السلف: كنت في بداية أمري مُكبًّا على المعاصي وشرب الخمر فظفرت يومًا بصبيٍّ يتيم فقير فأخذته وأحسنّت إليه وأطعمته وكسوته، وأدخلته الحمام وأزلت شعته وأكرمته كما يكرم الرجل ولده بل أكثر... فبتُّ ليلة بعد ذلك فرأيت في النوم أن القيامة قد قامت ودُعيت إلى الحساب وأُمر بي إلى النار لسوء ما كنت عليه من المعاصي فسحبتني الزبانية ليمضوا بي إلى النار وأنا بين أيديهم حقيرٌ ذليل يجرونني سحبًا إلى النار وإذا بذلك اليتيم قد اعترضني بالطريق وقال: خَلُّوا عنه يا ملائكة ربّي حتى أشفع له إلى ربّي فإنه قد أحسن إليّ وأكرمني...

فقالَت الملائكة: إنا لم نُؤمَر بذلك... وإذا النداء من قبل الله تعالى يقول: خَلُّوا عنه فقد وهبت له ما كان منه بشفاعَةِ اليتيم وإحسانه إليه.

قال: فاستيقظت من النوم وتُبت إلى الله ﷻ وبذلت جهدي في إيصال الرحمة إلى الأيتام... فإيا إخواني هيا بنا نبذل جهدنا لإيصال الرحمة إلى الأيتام فلعل الله أن ينفعنا بدعواتهم وشفاعتهم لنا يوم القيامة... فلنُسرع الخطأ إلى هذا الخير ولسان حال كل واحد منا: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

❁ ومن الذين حَضَّنَا الحق (جَلَّ وعلا) وحَضَّنَا النبي ﷺ على الإحسان إليهم: البنات.

فقد كان العرب في الجاهلية يكرهون البنات كراهية شديدة.. حتى وصل الأمر إلى أن يَبْدَ الرجل ابنته بعد ولادتها بدقائق بلا ذنبٍ ولا جريرة ارتكبتها.

قال تعالى عن هؤلاء المشركين وأشباههم:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ أى ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أى تنزه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أى ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراحتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى﴾ أى إذا أخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا﴾ أى صار وجهه متغيراً من الغم والحزن.

قال القرطبي: وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد.. والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه^(١) ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى مملوء غيظاً وغماً ﴿يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أى يختفى من قومه خوفاً من العار الذى يلحقه بسبب البنت، كأنها بليّة وليست هبة إلهية، ثم يفكر فيما يصنع ﴿أَيَمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أى أيمسك هذه الأنثى على ذلّ وهوان أم يدفنها فى التراب حية؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أى ساء صنيعهم وساء حكمهم، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهى عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إليهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٢).

﴿فلما جاء الإسلام حرم وأد البنات وحضنا الشارع على الإحسان إلى البنات.. وأخبر أن تربية البنات والإحسان إليهن من أعظم أسباب النجاة من النار ودخول الجنة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتنى مسكينةٌ تحمل ابنتين لها، فأطعمتهما ثلاث تمراتٍ، فأعطت كل واحدةٍ منهما تمرّةً، ورفعت إلى فيها تمرّةً لتأكلها،

(١) القرطبي (١٠/١١٦).

(٢) صفوة التفاسير (٢/١٢١-١٢٢).

فاستطعمتها ابتهاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»^(١).

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يمين أو يمئن؛ إلا كن له حجاباً من النار». فقالت له امرأة: أو بنتان؟ قال: «أو بنتان»^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كن له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن؛ وجبت له الجنة ألبتة». قيل: يا رسول الله! فإن كانتا اثنتين؟ قال: «وإن كانتا اثنتين». قال: فرأى بعض القوم أن لو قال: واحدة، لقال: واحدة»^(٣).

❁ وفي هذا الباب جاءت الوصية باليتامى والبنات .. بل وسائر الضعفة والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم.

كذلك أيضاً المنكسرين، يعنى الذين أصابهم شيء فانكسروا من أجله، وليس هو كسر العظم، بل كسر القلب ... يعنى كالذى أصابته جائحة اجتاحت ماله، أو مات أهله أو مات صديق له فانكسر قلبه.

والمهم أن المنكسر ينبغي ملاطفته ... ولهذا شرعت تعزية من مات له ميت إذا أصيب بموته ... يعزى ويلاطف ويبين له أن هذا أمر الله، وأن الله سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وما أشبه ذلك.

وكذلك ينبغي خفض الجناح لهم، ولين الجانب.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٠) كتاب البر والصلة.

(٢) حسن: رواه الطبراني وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٩٧٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والبزار والطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٩٧٥).

قال الله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

أى: أَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ وَحَسِّنْ لَهُمْ خُلُقَكَ مَحَبَّةً وَإِكْرَامًا وَتَوَدُّدًا.

(٢٦٥) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هَذِيلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أَسْمِيَهُمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] ^(١).

✽ وقبل أن أشرح هذا الحديث أحب أن أذكر الرواية الأخرى.

✽ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِ، قَالَ: جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ، فَوَجَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ صُهَيْبٍ، وَبِلَالٍ، وَعَمَّارٍ، وَخَبَّابٍ، قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ حَقَرُوهُمْ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا، تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا، فَإِنْ وَفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبِدِ، فَإِذَا نَحْنُ جِئْنَاكَ، فَأَقِمَّهُمْ عِنْدَكَ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَعْنَا، فَأَقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالُوا: فَارْتَبْنَا لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا، قَالَ: فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ، وَنَحْنُ فُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ، فَنَزَلَ جِبْرَائِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ✽ ثُمَّ ذَكَرَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ ✽، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ

عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿١﴾، قَالَ: فَدَنَوْنَا مِنْهُ حَتَّى وَضَعْنَا رُكْبَنَا عَلَى رُكْبَتِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، يَجْلِسُ مَعَنَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، قَامَ وَتَرَكْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تُجَالِسِ الْأَشْرَافَ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ يَعْنِي عَيْنُهُ، وَالْأَقْرَعُ: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] قَالَ: هَلَاكُنَا، قَالَ: أَمْرُ عَيْنُهُ، وَالْأَقْرَعُ... ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الرَّجُلَيْنِ وَمَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... قَالَ خَبَّابٌ: «فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ أَتَى يَقُومُ فِيهَا، فَمُنَّا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّى يَقُومَ»^(١).

✽ من المعلوم أن النبي ﷺ كان يجلس مع أصحابه دائماً ليعلمهم ويربيهم.. وكان إذا غاب أحدهم يسأل عنه ويقول: أين فلان.. فإذا كان مريضاً أو أصيب بشيء كان يذهب إليه النبي ﷺ ويعوده ويواسيه.

وفي هذا الحديث يحكى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة أنهم كانوا جالسين مع النبي ﷺ وكانوا ستة نفر وهم: سعد بن أبي وقاص، وابن مسعود الذي كان فقيراً يرعى الغنم.. وبلال بن أبي رباح الذي كان عبداً مملوكاً ورجلٌ من قبيلة هذيل ورجلان آخران لم يذكر اسمهما (رضي الله عنهم أجمعين).

فكانوا جالسين مع النبي ﷺ يستمعون إليه ويتفعلون بعلمه وأخلاقه العذبة.. وكان بعض صناديد قريش وسادتهم يجلسون مع النبي ﷺ.. وكان النبي ﷺ عنده رغبة في إسلامهم ليكون ذلك سبباً في إسلام أهل مكة الذين كانوا يخشون من سادتهم وكبرائهم.. فإذا أسلم سادة قريش كان إسلام أهل مكة سهلاً ميسوراً.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مسنده» (١/٣١٨، ٣١٩ رقم ٤٧٧)، و«مصنفه» (١٢/٢٠٧، ٢٠٨، رقم ١٢٥٦٤) - ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤/٧٥، ٧٧ رقم ٣٦٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٤٦، ١٤٧). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

فقال هؤلاء المشركون للنبي ﷺ: اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا.

أى: اطردهم من مجلسك هذا؛ لأنهم فقراء لا يصلح أن يجلسوا معنا فيتجروا علينا بعد ذلك.

(فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع) أى من طرد أولئك عنه لما علم من كمال أنفسهم ومخالطة الإيمان لبشاشة قلوبهم.

(فحدث نفسه) أى بذلك ... قال القرطبي في «المفهم»: وفي بعض كتب التفسير أنهم لما عرضوا ذلك على النبي أبى. فقالوا له: اجعل لنا يوماً ولهم يوماً وطلبوا أن يكتب لهم بذلك فهم النبي ﷺ بذلك ودعا علياً ليكتب فقام الفقراء وجلسوا ناحية فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ فيها الله عز وجل أن يطرد هؤلاء وإن كانوا فقراء، وإن لم يكن لهم قيمة في المجتمع، لكن لهم قيمة عند الله، لأنهم يدعون الله بالغداة والعشي، يعنى صباحاً ومساءً، يدعونه دعاء مسألة فيسألونه رضوانه والجنة، ويستعيذون به من النار.

ويدعونه دعاء عبادة فيعبدون الله ... وأمره بأن يُصبر نفسه معهم بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ فكان رسول الله ﷺ إذا رآهم بعد ذلك يقول: مرحباً بالذين عاتبني الله فيهم وإذا جالسهم لم يقم عنهم حتى يكونوا هم الذين يبدأون بالقيام.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ بطلب التوفيق والتيسير، وبالعشى بطلب العفو عن التقصير... وقيل معناه: يذكرون الله من بعد صلاة الفجر وصلاة العصر، وقيل يصلون الصبح والعصر. وقال ابن عباس: يصلون الصلوات الخمس.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى يخلصون في عبادتهم وعملهم لله تعالى ويتوجهون إليه بذلك لا لغيره^(١).

(١) دليل الفالحين (٢/٦٦-٦٧) بتصرف كبير.

فالإخلاص له أثر كبير في قبول الأعمال ورفعة العَمَل عند الله ﷻ، فكلما كان الإنسان في عمله أخلص، كان أرضى الله وأكثر لثوابه.

وكم من إنسان يصلى وإلى جانبه آخر يصلى معه الصلاة، ويكون بينهما من الرفعة عند الله والثواب والجزاء كما بين السماء والأرض، وذلك لإخلاص النية عند أحدهما دون الآخر.

فالواجب على الإنسان أن يحرص غاية الحرص على إخلاص نيته لله في عبادته، وألا يقصد بعبادته شيئاً من أمور الدنيا... لا يقصد إلا رضا الله وثوابه حتى ينال بذلك الرفعة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: كُلُّ له حسابه، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فَطَرْدَهُمْ فَيَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه ﷺ^(١).

ويُستفاد من هذا الحديث: أن الإنسان ينبغي له أن يكون جلساؤه من أهل الخير الذين يدعون الله صباحاً ومساءً، يريدون وجهه، وألا يهتم بالجلوس مع الأكابر، والأشراف، والأمراء والوزراء، والحكام، بل لا ينبغي أن يجلس إلى هؤلاء إلا أن يكون في ذلك مصلحة... فإذا كان في ذلك مصلحة مثل أن يريد أن يأمرهم بمعروف، أو ينهاهم عن منكر، أو يبين لهم ما خفى عليهم من حال الأمة، فهذا طيب وفيه خير.

أما مجرد الأنس بمجالستهم، ونيل الجاه بأنه جلس مع الأكابر، أو مع الوزراء، أو مع الأمراء، أو مع ولاة الأمور، فهذا غرض لا يُحمد عليه العبد...

(١) تفسير السعدى (ص ٢٧٥) بتصرف.

إنما يُحَمَّد على الجلوس مع مَنْ كان أتقى لله، من غنى وفقير، وحقير وشريف... المدار كله على رضا الله ﷻ، وعلى محبة مَنْ أحب الله ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦٦) وَعَنْ أَبِي هُبَيْرَةَ عَائِدِ بْنِ عَمْرِو الْمَزْنِيِّ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ فِي نَفَرٍ فَقَالُوا: مَا أَخَذْتَ سَيْفُ اللَّهِ مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ مَا أَخَذَهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخٍ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ؟ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ؟ لَيْتَنِي كُنْتُ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ؟» فَأَتَاهُمْ فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهُ أَغْضَبْتُكُمْ؟ قَالُوا: لَا، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أُخَيَّ ^(٢).

✽ ذكر المصنف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الحديث ضمن الأحاديث التي تحض على ملاطفة الضعفاء والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم والإحسان إليهم.

ويذكر هنا عائذ بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدَّمَرَّ أَمَامَ سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهؤلاء الثلاثة كانوا من الموالى: صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي.. وكان أبو سفيان في ذلك الوقت مشركاً.. وكان مروره أمامهم في وقت الهدنة التي كانت بعد صلح الحديبية.

فلما مرَّ أبو سفيان أمامهم قالوا جميعاً: ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها.. أي: كأنهم يقولون: كنا نتمنى أن تصل سيوف المسلمين إلى هذا العدو فنتقله ونستريح منه.. ولكنهم لم يعلموا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ الَّذِي كَانَ عَدُوًّا لِلْإِسْلَامِ فِي

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٤٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٠٤) كتاب فضائل الصحابة.

قوله «مَأْخُذَهَا» أي: لَمْ تَسْتَوْفِ حَقَّهَا مِنْهُ - وقوله: «يَا أُخَيَّ» رُوِيَ بفتح الهمزة وكسر الخاء وتخفيف الياء، وروى بضم الهمزة وفتح الخاء وتشديد الياء.

تلك اللحظة سيُسلم بعد ذلك وسيكون جُندًا من جنود الله (جلَّ وعلا).

فلما قالوا تلك الكلمة سمعها أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث كان يمر أمامهم في تلك اللحظة ... فخشى أن يسمع أبو سفيان قولهم لأنه لا يريد تنفيره عن الدين، وكذلك يخشى أن يغضب لنفسه فتشتعل الحرب مرة أخرى.. لأن أبا سفيان كان قائد المشركين في ذلك الوقت وكان زعيمهم.

ولم يكن أبو بكر يخاف من قتال المشركين؛ ولكنه رأى أمام عينيه أن عدد الذين أسلموا في فترة الهدنة بعد صلح الحديبية كانوا أضعاف أضعاف الذين أسلموا منذ البعثة وحتى صلح الحديبية .. وذلك لأن أكثر الناس يخشون من الدخول في الإسلام في وقت الحروب خشية أن ينالهم الأذى .. فإذا كان وقت هدنة وشعروا بالأمان أقبلوا على الإسلام بقلوبهم وجوارحهم ؛ لأنهم يشعرون بالأمان ...

بل حتى في زماننا هذا .. كان كثيرٌ من الشباب المسلم يخشون من الالتزام في وقت المشاكل الأمنية خوفًا على أنفسهم من السجون والمعتقلات .. فإذا هدأت الحالة الأمنية أقبلوا على الالتزام وأقبلت البنات على الحجاب لشعورهم بالأمن والأمان.

فهذا الذي كان يُزعج أبا بكر رضي الله عنه أنه كان يخشى من انتهاء الهدنة وعودة الحرب مرة أخرى بسبب تلك المقالة التي قالها سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم .. فذهب في التو واللحظة إليهم وقال لهم: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟

ثم ذهب مباشرة إلى النبي ﷺ وأخبره بما حدث .. وظن أن النبي ﷺ سيقول له: أحسنت يا أبا بكر .. ولكنه فُوجئ أن النبي ﷺ قال له: «لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» يعني: لئن كنت أغضبت هؤلاء النفر - مع أنهم من الموالى، وليسوا بشيء في عداد الناس وأشرافهم - لئن كنت أغضبتهم فلقد

أغضبت ربك... فذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى هؤلاء النفر وسألهم: يا إخواناه، أَغَضَبْتُكُمْ؟ قالوا: لا، يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ.

فدلَّ هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يرفع على الفقراء والمساكين ومن ليس لهم قيمة في المجتمع؛ لأن القيمة الحقيقية هي قيمة الإنسان عند الله.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. والذي ينبغي للإنسان أن يخفض جناحه للمؤمنين ولو كانوا غير ذي جاه؛ لأن هذا هو الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم حيث قال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وفي هذا: دليل على ورع أبي بكر رضي الله عنه، وعلى حرصه على إبراء ذمته، وأن الإنسان ينبغي له، بل يجب عليه إذا اعتدى على أحدٍ بقولٍ أو فعلٍ أو بأخذ مالٍ أو سبٍّ أو شتم أن يستحله في الدنيا، قبل أن يأخذ ذلك منه في الآخرة.

لأن الإنسان إذا لم يأخذ حقه في الدنيا فإنه يأخذه يوم القيامة، ويأخذه من أشرف شيء وأعز شيء على الإنسان.. يأخذه من الحسنات، ومن الأعمال الصالحة التي هو في حاجة إليها في ذلك المكان^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦٧) وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَجَ بَيْنَهُمَا^(٢).

✽ اليتيم هو الصغير الفاقد الأب من الإنسان.. ومن الحيوان من فقد أمه.. فإذا كبر وبلغ فقد زال وصف اليتيم عنه، وأصبح رجلاً يلي أمور نفسه ما دام رشيداً. وقد يُسمَّى بعد البلوغ يتيماً باعتبار ما كان - لغرض من الأغراض البلاغية قال تعالى: ﴿وَأَتُوا آلَ يَتِيمَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيْثَ بِالطَّبِيبِ﴾ [النساء: ٢]، ومن المعلوم

(١) شرح رياض الصالحين (٤٩/٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٣٠٤) كتاب الطلاق.

و«كَافِلُ الْيَتِيمِ»: الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ.

أنهم لا يُؤْتُونَ أموالهم إلا بعد البلوغ، وحيثُ يزول عنهم وصف اليتيم. والغرض هنا: هو الحث على دفع ماله إليه عند بلوغه، والتحذير من أكل شيء منه ... ونظرًا لأهمية أمر اليتيم فقد ورد لفظ «اليتيم» بمشتقاته في القرآن الكريم في ثلاثٍ وعشرين مرة ... سبع عشرة منهم في الآيات المدنية .. وست مرات في الآيات المكية.

❁ فإن قال قائل: لماذا لم يعتبر الشارع مَنْ فَقَدَ أمه يتيماً كالذى فقد أباه؟
كان الجواب:

لأن الأب هو الذى يعول الصغير، ويرعى شئونه، ويقوم بتأديبه وتعليمه .. وتعاليم الإسلام تحث على معاملة اليتيم معاملة حسنة، وذلك مراعاة لنفسيته، لأنه لما فقد أباه شعر بالحاجة الشديدة إلى مَنْ يقوم بحمايته، ويُقوى عزيمته، وَيَشُدُّ أزره .. لما فقد أباه شعر بالوحشة والذلة والانكسار فكان لا بد من تعويضه .. لئلا ينحرف .. فجاء الإسلام ليعالج هذا كله .. ويكفى اليتامى تسلياً عن مُصائبهم أن الرسول الأعظم، والنبى الأكرم ﷺ، سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، وحبيب رب العالمين كان يتيماً ... قال له ربه مُخاطباً: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَكَأْوَى﴾ [الضحى: ٦].

❁ ولقد اهتمَّ النبى ﷺ بشأن اليتامى أعظم اهتمام حتى أوحى إليه ربنا ﷻ أن يُخبر أمته أن كافل اليتيم سيكون معه فى الجنة فقال ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا. يعنى: بالأصبع السبابة والوسطى ... والأصبع السبابة هى التى بين الوسطى والإبهام، وتُسمى السَّبَابَةُ؛ لأن الإنسان يشير بها عند السَّبِّ ... فإذا سَبَّ شخصاً قال هذا وأشار بها.

وتُسمى السَّبَابَةُ؛ لأن الإنسان يشير بها أيضاً عند التسبيح، ولهذا يشير الإنسان بها فى صلاته إذا جلس بين السجدين ودعا: رب اغفر لى وارحمنى ...

كلما دعا رفعها، يشير إلى الله عز وجل؛ لأن الله في السماء (جل وعلا)، وكذلك أيضًا يشير بها في التشهد إذا دعا: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»^(١) في كل جملة دعائية يشير بها إشارة إلى علو الله تعالى وتوحيده.

وفرّج بينهما (عليه الصلاة والسلام)، يعنى: قارن بينهما وفرّج... يعنى: أن كافل اليتيم مع النبي (عليه الصلاة والسلام) في الجنة قريبٌ منه... وفي هذا حثٌّ على كفالة اليتيم... وكفالة اليتيم هي القيام بما يصلحه في دينه ودنياه.

يقوم بما يصلحه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم وما أشبه ذلك، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والمسكن^(٢).

✽ قال بعض العلماء: لعل الحكمة في كون كافل اليتيم تُشبه منزلته في الجنة منزلة الرسول ﷺ؛ لأن النبي ﷺ شأنه أنه بُعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلاً لهم، ومُعلِّماً ومُرشداً، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة مَنْ لا يعقل أمر دينه، فيُرشده، ويعلمه ويحسن تربيته، فظهرت مناسبة ذلك.

قال ابن بطال: حَقٌّ على مَنْ سمع هذا أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ولا منزلة أفضل من ذلك في الآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ. أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ الرَّأْوِي وَهُوَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَى^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٦٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٠-٥١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٣) كتاب الزهد والرقائق.

وقوله ﷺ: «الْيَتِيمُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ» معناه: قَرِيبُهُ، أَوْ الْأَجْنَبِيُّ مِنْهُ... فَالْقَرِيبُ مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَهُ أُمُّهُ أَوْ جَدُّهُ أَوْ أَخُوهُ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» كَافِلُ الْيَتِيمِ الْقَائِمُ بِأُمُورِهِ مِنْ نَفَقَةٍ وَكِسْوَةٍ وَتَأْدِيبٍ وَتَرْبِيَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَهَذِهِ الْفَضِيلَةُ تَحْصُلُ لِمَنْ كَفَلَهُ مِنْ مَالٍ نَفْسِهِ أَوْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ بِوَلَايَةٍ شَرْعِيَّةٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ» فَالَّذِي لَهُ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا لَهُ كَجَدِّهِ وَأُمِّهِ وَجَدَّتِهِ وَأَخِيهِ وَأُخْتِهِ وَعَمِّهِ وَخَالِهِ وَعَمَّتِهِ وَخَالَتِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقَارِبِهِ وَالَّذِي لِغَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ أَجْنَبِيًّا^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْتَحُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ تَأْتِي امْرَأَةٌ تُبَادِرُنِي فَأَقُولُ لَهَا: مَا لَكَ؟ وَمَا أَنْتِ؟ فَتَقُولُ: أَنَا امْرَأَةٌ قَعَدْتُ عَلَى أَيَّامٍ لِي»^(٢).

ماذا كانت مؤهلات تلك المرأة لكي تنال هذه الدرجة الرفيعة؟ لا شيء سوى أنها قامت بتربية اليتامى! لا شيء سوى أنها عكفت على تربية اليتامى والإحسان إليهم!

تأمل أى منزلة هذه؟! إنها أفضل وأشرف منزلة ... فيا سعادة مَنْ نال جواره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ... ويا سعد مَنْ كان رفيقه فى الجنة .. ويا شقاء مَنْ أبعد عن رفيقه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنْ الْكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

❁ أخى الحبيب:

إن كان لديك شوق أن تكون مع النبى ﷺ فى الجنة، فأحسن معاملة اليتيم .. إن كان لديك شوق أن تكون مع سيد الأولين والآخرين، وقائد الغر المحجلين، فأدخل السرور على قلب يтим .. امسح رأسه .. اكسُ بدنه .. أضحك من اليتامى

(١) مسلم بشرح النووي (١٨/١٥١).

(٢) رواه أبو يعلى وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (١٠/٤٣٦) بإسناد لا بأس فيه.

وجوها شَقَّ الحزنُ في خدودها أخاديد! « أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ »^(١) فامسح رؤوس اليتامى يُعطيك الله الأجر العظيم، والخير العميم ... وإن أردت أن يلين قلبك، وتذكر حاجتك، فامسح على رأس اليتيم، واعطف عليه، واجبر كسره^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ»^(٣).

وفي رواية في «الصحيحين»: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ».

أى أن المسكين ليس هو ذلك الرجل الذى يشحذ ويسأل الناس فترده اللقمة واللقتان.. يعنى: إذا أعطيته لقمة أو لقتين ردته.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَعْنَاهُ: الْمِسْكِينُ الْكَامِلُ الْمَسْكَنَةُ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ وَأَحْوَجُ إِلَيْهَا لَيْسَ هُوَ هَذَا الطَّوَّافُ بَلْ هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ لَهُ وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ نَفَى أَصْلِ الْمَسْكَنَةِ عَنِ الطَّوَّافِ بَلْ مَعْنَاهُ نَفَى كَمَالِ الْمَسْكَنَةِ ... كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ❁ ❁ لَيْسَ الْإِنْسَانُ بِذَكِيًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ❁ ❁ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(٤).

❁ فليس هذا هو المسكين الكامل المسكنة.. بل إن المسكين حقيقة هو

(١) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٢).

(٢) منهاج الصالحين (ص ٦٠٦-٦٠٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٣٩) كتاب التفسير، ومسلم (١٠٣٩) كتاب الزكاة.

(٤) مسلم بشرح النووي (١٨٢/٧).

الذى يتعفف ... كما قال الله ﷻ: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

يعنى أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم فى سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة فى الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحفوا فى السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

ومع ذلك، فالإنفاق فى طرق الإحسان وعلى المحاويع حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله... ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فإن الله يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيّلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكريهات^(١).

وفى هذا: إشارة إلى أنه ينبغي للمسكين أن يصبر وأن ينتظر الفرج من الله، وألا يتكفف الناس أعطوه أو منعه... لأن الإنسان إذا علّق قلبه بالخلق وكل إليهم... كما جاء فى الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِلَيْهِ» وإذا وكلت إلى الخلق نسيت الخالق... بل اجعل أمرك إلى الله ﷻ، وعلق رجاءك وخوفك وتوكلك واعتمادك على الله سبحانه وتعالى، فإنه يكفيك ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ﴿[الطلاق: ٣]﴾. كل ما أمر الله ﷻ به فهو بالغك، لا يمنعه شىء، ولا يردّه شىء.

(١) تفسير السعدى (ص ١١٨).

فالمسكين يجب عليه الصبر، ويجب عليه أن يمتنع عن سؤال الناس، لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى ... إذا حلت له الميتة حلّ له السؤال، أما قبل ذلك ما دام يمكنه أن يتعفف ولو أن يأكل كسرة من خبز أو شق تمر فلا يسأل ... ولا يزال الإنسان يسأل الناس، ثم يسأل الناس، ثم يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة، وما في وجهه مُزعة لحم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٧٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وَأَحْسَبُهُ قَالَ: «وَكَالْقَائِمِ الَّذِي لَا يُفْطِرُ، وَكَالْصَّائِمِ الَّذِي لَا يُفْطِرُ»^(٢).

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

قَوْلُهُ ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الْمُرَادُ بِالسَّاعِي: الْكَاسِبُ لَهُمَا الْعَامِلَ لِمُؤْنَتَهُمَا ... وَالْأَرْمَلَةُ: مَنْ لَا زَوْجَ لَهَا سِوَاءَ كَانَتْ تَزَوَّجَتْ أَمْ لَا ... وَقِيلَ: هِيَ الَّتِي فَارَقَتْ زَوْجَهَا. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: سُمِّيَتْ أَرْمَلَةً لِمَا يَحْصُلُ لَهَا مِنَ الْإِرْمَالِ وَهُوَ الْفَقْرُ وَذَهَابُ الزَّادِ بِفَقْدِ الزَّوْجِ ... يُقَالُ: أَرْمَلَ الرَّجُلُ إِذَا فَنِيَ زَادُهُ^(٣).

وقد اشتهر بين الناس أن الأرملة هي التي توفي زوجها فقط .. بل إن الأرامل هم الذين لا عائل لهم سواء كانوا ذكوراً أو إناثاً .. والمساكين هم الفقراء. فمن قام بمصالح الأرامل الذين لا يجدون من يُنفق عليهم وكفاهم من كل ما يحتاجون إليه فله أجر المجاهد في سبيل الله، والقائم الذي يُصلّي الليل ولا يَفْطِرُ والصائم الذي لَا يُفْطِرُ.

(١) شرح رياض الصالحين (٥١/٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٠٧) كتاب الأدب - ومسلم (٢٩٨٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/١٥٠-١٥١).

❁ ومن هذا فإن قيام الإنسان على عائلته الذين لا يستطيع أحدهم العمل أو الكسب هو قيامٌ على أرملة ومساكين ويكون له أجر المجاهد والقائم والصائم .. ولكن غلب استعمال كلمة الأرملة على المرأة التي مات زوجها وترك لها أيتامًا لأنها أضعف الأصناف جميعًا وأكثرهم احتياجًا لمن يرعاها هي وأولادها ويقوم بمصالحهم ومئونتهم وما يلزمهم.

فعلينا أن نجدد النية من الآن بقيامنا بمصالح عائلاتنا الذين لا يستطيعون الكسب ليفوز كل واحدٍ منا بأجر المجاهد في سبيل الله والقائم الليل الذي لا يفتر والصائم النهار الذي لا يفطر.

❁ وفي هذا دليلٌ أيضًا على أن الإنسان مسؤولٌ في المقام الأول عن القيام بمصالح أسرته وتعليمهم وتربيتهم قبل الآخرين .. وذلك من باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ... ومن باب قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

لأن هناك من يشغل بنشر دعوته في أقطار العالم ويسافر هنا وهناك ويغترب بالأشهر والسنوات ويترك أسرته وأولاده بلا توجيه ولا تربية حتى يضيعوا .. ونسى قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] .. فبدأ بعشيرته الأقربين قبل أى أحد. أما الذى يذهب إلى الدعوة إلى الله لمدة يومٍ أو يومين فهذا لا بأس به .. وإنما أتكلم عن الذين يتركون أولادهم شهورًا طويلة.

❁ إذا .. فالساعى على الأرملة والمسكين له أجرٌ لا يخطر على قلب بشر .. فهو كالمجاهد في سبيل الله الذى لا يعود من أرض الجهاد أبدًا .. وكالقائم الليل الذى لا يقعد أبدًا .. وكالصائم النهار الذى لا يفطر أبدًا .. ما دام أنه مستمرٌ في القيام بمصالحهم ومئونتهم وما يلزمهم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٠٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٢٧١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُحِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١).

وفى رواية فى الصحيحين عن أبى هريرة من قوله: «بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ».

✽ قال الإمام النووى رحمته الله:

وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: الْإِخْبَارُ بِمَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ﷺ مِنْ مُرَاعَاةِ الْأَغْنِيَاءِ فِي الْوَلَائِمِ وَنَحْوِهَا وَتَخْصِيصِهِمْ بِالدَّعْوَةِ وَإِثَارِهِمْ بِطَيِّبِ الطَّعَامِ وَرَفْعِ مَجَالِسِهِمْ وَتَقْدِيمِهِمْ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ الْغَالِبُ فِي الْوَلَائِمِ .. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ^(٢).

✽ قوله ﷺ: «شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ» يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ هُنَا وَلِيمَةُ الْعُرْسِ .. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ فَيَشْمَلُ وَلِيمَةَ الْعُرْسِ وَغَيْرَهَا .. فَيُقْصَدُ بِالْوَلِيمَةِ كُلُّ مَا دُعِيَ إِلَى الْاجْتِمَاعِ إِلَيْهِ مِنْ عُرْسٍ أَوْ غَيْرِهِ.

ثم وَضَّحَ النَّبِيُّ ﷺ تِلْكَ الْوَلِيمَةَ الَّتِي طَعَامُهَا شَرُّ الطَّعَامِ بِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي يُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا وَهُمْ الْأَغْنِيَاءُ؛ لِأَنَّهُمْ عِنْدَهُمْ مَا يَكْفِيهِمْ وَيَزِيدُ فليس عندهم حرص على الحضور .. وَيُمنَعُ مِنْ تِلْكَ الْوَلِيمَةِ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ هُمْ أَحْوَجُ النَّاسِ إِلَيْهَا وَإِذَا دُعُوا أَجَابُوا .. فَتِلْكَ الْوَلِيمَةُ لَيْسَتْ وَلِيمَةً مُقَرَّبَةً إِلَى اللَّهِ لِأَنَّهُ يُدْعَى إِلَيْهَا الْأَغْنِيَاءُ وَلَا يُدْعَى إِلَيْهَا الْفُقَرَاءُ وَهُمْ أَحَقُّ بِهَا لاحتياجهم.

✽ أما الْوَلِيمَةُ وبخاصة وَلِيمَةُ الْعُرْسِ فَإِنَّهَا سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ بِهَا، كَمَا تَقْدُمُ.

ولحديث بريدة بن الحصيب قال: لَمَّا خَطَبَ عَلِيٌّ فَاطِمَةَ قَالَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٧٧) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٣٢) كتاب النكاح.

(٢) مسلم بشرح النووى (٣٣٦/٩).

«إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعُرْسِ مِنْ وَلِيمَةٍ»^(١).

وقوله عليه الصلاة والسلام: «وَمَنْ لَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» يدل على أن إجابة دعوة الوليمة واجبة؛ لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب، ولكن لا بد فيها من شروط:

الشرط الأول: أن يكون الداعي مسلماً، فإن لم يكن مسلماً لم تجب الإجابة، ولكن تجوز الإجابة لا سيما إذا كان في هذا مصلحة.

يعنى: لو دعاك كافر إلى وليمة عرسه فلا بأس أن تجيب، لا سيما إن كان في ذلك مصلحة كتأليفه إلى الإسلام... وقد ثبت عن النبي ﷺ أن يهودياً دعاه في المدينة، فأجابه، وجعل له خبزاً من الشعير وإهالة سنخة، يعنى ودكاً قديماً متغيراً.

وأما اشتراط العدالة: يعنى اشتراط أن يكون الداعي عدلاً فليس بشرط، فتجوز إجابة دعوة الفاسق إذا دعاك، مثل أن يدعوك إنسان قليل الصلاة مع الجماعة، أو شارب دخان، فأجبه كما تجيب من كان سالماً من ذلك.

لكن إن كان عدم الإجابة يُفضى إلى مصلحة بحيث يخجل هذا الداعي ويترك المعصية التي كان يعتادها حيث الناس لا يجيبون دعوته، فلا تُجب دعوته من أجل مصلحته... أما إذا كان لا يستفيد سواء أجبته أو لم تُجبه، فأجب الدعوة؛ لأنه مسلم.

الشرط الثانى: أن يكون ماله حلالاً، فإن كان ماله حراماً كالذى يكتسب ماله بالربا، فإنه لا تجب إجابته؛ لأن ماله حرام، والذى ماله حرام ينبغى للإنسان أن يتورع عن أكل ماله، ولكنه ليس بحرام... يعنى: لا يحرم عليك أن تأكل من مال مَنْ كَسَبَهُ حرام؛ لأن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود وهم يأكلون الربا، يأخذونه ويتعاملون به، لكن الورع ألا تأكل ممن ماله حرام.

أما إذا كان في ماله حرام، يعنى ماله مختلط، يتجر تجارة حلالاً ويكتسب

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤١٩).

كسباً محرماً فلا بأس من إجابته، ولا تتورع عن ماله؛ لأنه لا يسلم كثير من الناس اليوم من أن يكون في ماله حرام... فمن الناس من يغش فيكتسب من حرام، ومنهم من يرأبى في بعض الأشياء، ومنهم الموظفون، وكثير من الموظفين لا يقومون بواجب وظيفتهم، فتجده يتأخر عن الدوام أو يتقدم فيخرج قبل وقت انتهاء الدوام، وهذا ليس كل راتبه حلالاً، بل إنه يأكل من الحرام بقدر ما نقص من عمل الوظيفة؛ لأنه ملتزم بالعقد مع الحكومة... مثلاً أنه يقوم بوظيفته من كذا إلى كذا، فلو فتشت أحوال الناس اليوم لوجدت كثيراً منهم يكون في ماله دخن من الحرام.

الشرط الثالث: ألا يكون في الدعوة منكر، فإن كان في الدعوة منكر فإنه لا تجب الإجابة... مثل لو علمت أنهم سيأتون بمُغنين، أو عندهم «شيش» يشربها الحاضرون، أو عندهم شراب دخان فلا تجب إلا إذا كنت قادراً على تغيير هذا المنكر، فإنه يجب عليك الحضور لسببين:

السبب الأول: إزالة المنكر... والسبب الثاني: إجابة الدعوة.

أما إذا كنت ستحضر ولكن لا تستطيع تغيير المنكر فإن حضورك حرام.

الشرط الرابع: أن يُعيّن المدعو، ومعنى يعينه أن يقول: يا فلان، أدعوك إلى حضور وليمة العرس، فإن لم يُعيّنه بأن دعا دعوة عامة في مجلس فقال: يا جماعة، عندنا حفل زواج، ووليمة عرس فاحضروا، فإنه لا يجب عليك أن تحضر؛ لأنه دعا دعوة عامة، وما نصّ عليك.

فلا بد أن يُعيّنه فإن لم يُعيّنه فإنها لا تجب... ثم إنه ينبغي للإنسان أن يجيب كل دعوة؛ لأن من حق المسلم على أخيه أن يجيب دعوته، إلا إذا كان في امتناعه مصلحة راجحة فليتبع المصلحة^(١).

(٢٧٢) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ^(١).

❁ ففي هذا الحديث فضل عول الإنسان للبنات .. وذلك لأن البنت بطبيعتها ضعيفة لا حول لها ولا قوة .. وقد لا تجد الاهتمام الكبير ممن حولها؛ لأن أكثر الناس يهتمون بالذكور أكثر من الإناث .. وَحُجَّتْهُمْ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْوَلَدَ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُ اسْمَ أَبِيهِ .. فَلِذَلِكَ جَاءَ اهْتِمَامُ النَّبِيِّ ﷺ بِتِلْكَ الْقَضِيَّةِ فَقَالَ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ» أَيْ: مَنْ عَالَ اثْنَيْنِ مِنْ بَنَاتٍ أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ غَيْرَهُمَا .. وَالْعَوْلُ يَكُونُ بِالْقِيَامِ بِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْكِسْوَةِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالسَّكَنِ وَبِمَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّرْبِيَةِ وَدَعْوَتِهَا إِلَى اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا) ...

فمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَعَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا .. أَيْ حَتَّى تَصِلَا سِنَ الْبُلُوغِ كَانَ رَفِيقَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ .. وَيَا لَهُ مِنْ ثَوَابٍ عَظِيمٍ لَا تَوَازِيهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا. ❁ أَمَّا سِنُ الْبُلُوغِ عِنْدَ الْمَرْأَةِ فَهُوَ خَمْسُ عَشْرَةَ سَنَةً .. أَوْ أَنْ يَظْهَرَ عِنْدَهَا أَىْ عِلَامَةٌ مِنْ عِلَامَاتِ الْبُلُوغِ.

وعِلَامَاتُ الْبُلُوغِ فِي الْمَرْأَةِ أَرْبَعٌ، هِيَ:

الأولى: تَمَامُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً.

الثانية: نَبَاتُ الْعَانَةِ.

الثالثة: الْإِحْتِلَامُ.

الرابعة: الْحَيْضُ ... فَإِذَا حَاضَتْ وَلَوْ كَانَ لَهَا أَقَلُّ مِنْ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَهِيَ بِالْبَالِغِ.

❁ وَلِمَاذَا كَانَ هَذَا الْإِهْتِمَامُ الشَّدِيدُ بِتَرْبِيَةِ الْبَنَاتِ دُونَ الذَّكَوْر؟

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣١) كتاب البر والصلة والآداب.

«جَارِيَتَيْنِ» أَيْ: بَنَتَيْنِ.

والجواب: أنه كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات، ويضيّقون به، حتى قال أحد الآباء - وقد بُشِّرَ بأن زوجته ولدت أنثى - : «والله ما هي بنعم الولد، نصرها بكاء، وبرها سرقة»!

يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباه وأهلها إلا بالصراخ والبكاء لا بالقتال والسلاح، ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تُبيح للأب أن يئد ابنته - يدفنها حية - خشية من فقرٍ قد يقع، أو من عارٍ قد تجلبه على قومها حين تكبر.

وفي ذلك يقول القرآن مُنكَرًا عليهم ومُقرِّعًا لهم: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ^(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ^(٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطي الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء، وبعضها الآخر - كشرعية حمورابي - تجيز له أن يُسلمها إلى رجلٍ آخر ليقتلها أو يملكها إذا قتل الأب ابنة الرجل الآخر.

وجاء الإسلام فاعتبر البنت - كالابن - هبة من الله ونعمة - يهبها لمن يشاء من عباده: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ^(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

وبين القرآن في قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثرًا وأخلد ذكرًا من كثير من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذكراً يخدم الهيكل، ويكون من الصالحين: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ

لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴿٣٧﴾

[آل عمران: ٣٥-٣٧].

وحمل القرآن - حملة شعواء - على أولئك القساة الذين يقتلون أولادهم إناثا كانوا أو ذكورا - فقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وجعل رسول الإسلام الجنة جزاء كل أبٍ يُحسن صُحبة بناته، ويصبر على تربيتهن وحُسن تأديبهن، ورعاية حق الله فيهن، حتى يبلغن أو يموت عنهن.. وجعل منزلته بجواره ﷺ في دار النعيم المقيم.

روى مسلم عن أنس عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ...» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ، ورواه الترمذى بلفظ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ»، وأشار بأصبعه السبابة والتي تليها.

وروى ابن عباس عنه ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ ابْنَتَانِ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا مَا صَحِبَتَاهُ - أَوْ صَحِبَهُمَا - إِلَّا أَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةُ»^(١).

ونصت بعض الأحاديث على أن هذا الجزاء - دخول الجنة - للأخ الذي يعول أخواته أو أختيه أيضًا.

كما نص بعض أهل العلم على أن هذه المكافآت الإلهية، لمن أحسن إلى جنس البنات ولو كانت واحدة.

ففي حديث أبي هريرة: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧١٣).

وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وبهذه النصوص الصحيحة الصريحة، والبيانات المكررة المؤكدة، لم تعد ولادة البنت عبثاً يخاف منه، ولا طالع نحس يُطير به، بل نعمة تُشكر، ورحمة تُرجى وتُطلب، لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٧٣) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَةٍ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَقَسَمْتُهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ»^(٣).

(٢٧٤) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعْتُ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لَتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ»^(٤).

❁ ففي هذين الحديثين قصتان .. كل واحدة منهما أعجب من الأخرى .. وكلها تحث على الرفق بالضعفاء والبنات واليتامى وما أشبه ذلك.

ففي قصة الحديث الأول أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أعطت المرأة تمرة واحدة فقسمتها بين ابنتيها ... وفي قصة الحديث الثاني أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أعطت المرأة ثلاث تمرات .. فأعطت المرأة إحدى ابنتيها تمرة والأخرى تمرة ثم رفعت

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٨٨).

(٢) ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده / د. يوسف القرضاوى (٣٣٢-٣٣٤) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٤١٨) كتاب الزكاة، ومسلم (٢٦٢٩) البر والصلة والآداب.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٠) البر والصلة والآداب.

الثالثة إلى فيها لتأكلها فاستطعمتها - يعنى أن البنيتين نظرتا إلى التمرة التي رفعتها الأم - فلم تأكلها الأم، بل شققتها بينهما نصفين، فأكلت كل بنت ثمرة ونصفاً، والأم لم تأكل شيئاً... فذكرت أمنا عائشة رضي الله عنها ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم وأخبرته بما صنعت المرأة.

فقال لها صلى الله عليه وسلم في الرواية الأولى: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ».

وفي الرواية الثانية: «إِنْ اللَّهُ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ».

فهل هناك أروع من ذلك؟!

عملٌ قليل وأجرٌ كبير.. تنجو من النار وتدخل الجنة بتمرّة.. هنا تتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

✽ وتأمل معي قول النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال لعائشة رضي الله عنها: «مَنْ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ» فليس المراد هنا بلوى الشر ولكن المراد: مَنْ قُدِّرَ لَهُ.. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْأَشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

يعنى مَنْ قُدِّرَ لَهُ ابْتِثَانٌ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ يوم القيامة، يعنى أن الله تعالى يحجبه عن النار بإحسانه إلى البنات... لأن البنت ضعيفة لا تستطيع التكسب، والذي يكتسب هو الرجل.

قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وهذا يوضح لنا أن الذي يُنْفَقُ عَلَى الْعَائِلَةِ وَعَلَى الْبَنَاتِ هُوَ الرَّجُلُ.. أما المرأة فشأنها البيت لتُقيمهُ وتُصلحهُ وتُؤدب أولادها وبناتها.

فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

✽ فإذا أحسن الإنسان لهؤلاء البنات كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ وكتب الله له الجنة.

وفي هذا الحديث مجموعة من الدروس والعبر:

(١) أن بيت النبي ﷺ وهو أشرف بيت في الكون كله لا يوجد فيه سوى ثمرة واحدة أو ثلاث تمرات .. ونحن عندنا الكثير والكثير من أصناف الطعام وقد فتحت علينا الدنيا .. فهل نحن أفضل من النبي ﷺ وأصحابه؟ .. كلا والله بل هم أفضل منا وأحب إلى الله ولكننا ابتلينا بكثرة النعم وقلة الشكر... كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].. بل منا من يستعمل النعمة في معصية الله عز وجل.. فيا ليتنا نشكر الله على نعمه بالقلب واللسان والجوارح.. وذلك بأن نستعملها في طاعة الله وأن نجعلها عوناً لنا على طاعته (سبحانه وتعالى).

(٢) أن الصحابة كان فيهم الفقير والغنى.. ونحن كذلك فينا الفقير والغنى حتى لا يستغنى أحدٌ عن أحد.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ هَيِّئْتُم مَّا رَزَقْنَاهُمْ قَسَمًا يَتَنَبَّأُونَ أَنَّ يَوْمًا يَكُونُ لَهُمْ أَجْرٌ كَمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. ولولا هذا التفاوت ما اتخذ بعضنا بعضاً سخرية... ولو كنا على حد سواء، واحتاج الإنسان منا مثلاً لعمل ما فلن يجد من يعمل له هذا العمل.. فلو ذهب إلى نجار ليصنع له باباً لقال له النجار: أنا غنيٌّ مثلك ولا أحتاج أن أصنع لك الباب فاصنعه أنت لنفسك.. فهذا التفاوت جعل الناس يخدم بعضهم بعضاً.. حتى الغنى يخدم الفقير.. فلو كان الغنى تاجراً فهو يُحضر الغذاء والشراب الذي يشتريه الفقير ويتفجع به.. فهو يخدم الفقير من حيث لا يدري... وهكذا فكلنا نحتاج إلى بعض من أجل إعمار الأرض وتوفير احتياجات وضرورات الحياة.

(٣) أن الذي يُكَلَّف بالنفقة هم الرجال وليس النساء.. أما النساء فللبیوت ولمصالح البيوت.. وكذلك للمصالح التي لا يقوم بها إلا النساء كمدرسة البنات وطبابة النساء وغيرها... فعمل المرأة حلال ولكن بشروط وضوابط أهمها: عدم الاختلاط بالرجال.

وقد قال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها»^(١)، وذلك لأن أولها قريب من الرجال فصار شرًّا، وآخرها بعيد عن الرجال فصار خيرًا... فانظر كيف نُدب للمرأة أن تتأخر وتبتعد عن الإمام.. لكن إن كان هناك في المسجد مكانٌ خاص بالنساء بعيدًا عن الرجال فخير صفوف النساء أولها وشرُّها آخرها.. لأن العلة قد انتفت وأصبح هناك مكان خاص بالنساء بعيدًا عن الرجال فيصبح الصف الأول أفضل من الصفوف المتأخرة... كل ذلك من أجل البُعد عن الرجال.. نسأل الله أن يحمينا وإخواننا المسلمين من أسباب سخطه وعقابه.

(٤) في هذين الحديثين دليل على فضل الإحسان إلى البنات ومراعاة أنفسهن؛ لأنهن ضعيفات.. وأن ثواب ذلك النجاة من النار ودخول الجنة.

(٥) ما كان عليه النبي ﷺ وأزواجه وأصحابه من الإيثار.... فإن عائشة ليس عندها إلا ثمرة، ومع ذلك أثرت بها هذه المسكينة، ونحن الآن عندنا أموال كثيرة ويأتي السائل ونرده... إلا مَنْ رحم الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٧٥) وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ خُوَيْلِدِ بْنِ عَمْرِو الْخَزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفِينَ الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ»^(٢).

❁ لقد كان النبي ﷺ يوصي دائمًا بالضعفاء واليتامى والمساكين والنساء والأطفال؛ لأنهم ضعفاء لا حول لهم ولا قوة.. فهم يحتاجون إلى الرحمة والرفق والعناية والرعاية.. لكن النبي ﷺ خَصَّ في هذا الحديث حق الضعيفين:

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٥). ومعنى «أُحَرِّجُ»: أُلْحِقُ الْحَرَجَ وَهُوَ الْإِثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا، وَأَحَذَّرُ مِنْ ذَلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغًا، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أَكِيدًا.

اليتيم والمرأة؛ لأنهما من أشدهم ضعفاً فاحتاجا إلى مزيد من وصية النبي ﷺ بهما حتى لا يجور أحدهما عليهما وحتى لا يضيع حقهما.
ومعنى «أخرج»: ألحق الحرج، وهو الإثم بمن ضيع حقهما، وأحذر من ذلك تحذيراً بليغاً، وأزجر عنه زجراً أكيداً.

فمن كان عنده امرأة فليتيق الله فيها وليتذكر دائماً أن النبي ﷺ قد أوصى بها في هذا الحديث وفي غيره كقوله ﷺ: «الله الله في النساء».

ومن كان عنده يتيم فليتيق الله فيه وليتذكر دائماً أن النبي ﷺ قد أوصى به خيراً في هذا الحديث وفي غيره كقوله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما^(١).

بالحديثين

(٢٧٦) وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: «هل تنصرون وتُرزقون إلا بضعائكم»^(٢).
رواه البخاري هكذا مُرسلاً، فإن مصعب بن سعد تابعي... ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه مُتصلاً عن أبيه رضي الله عنه.

(٢٧٧) وعن أبي الدرداء عويمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ابغوني في الضعفاء، فإنما تنصرون، وتُرزقون بضعائكم»^(٣).

❦ ففي هذين الحديثين: ما يدل على أن الضعفاء سبب للنصر وسبب للرزق... فإذا حنا عليهم الإنسان وعطف عليهم وآتاهم مما آتاه الله عز وجل كان ذلك سبباً للنصر على الأعداء، وكان سبباً للرزق؛ لأن الله تعالى أخبر أنه إذا

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٣٠٤) كتاب الطلاق.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١)، والسلسلة الصحيحة (٧٧٩)، صحيح أبي داود (٢٣٣٥)، التعليق الرغيب (١ / ٢٤).

أنفق الإنسان لربه نفقة فإن الله تعالى يخلفها عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩]. ﴿يُخْلِفُهُ﴾ أى: يأتى بخلفه وبذله.

قال ابن بطال: تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصاً فى الدعاء وأكثر خشوعاً فى العبادة لخلأ قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا.

وقال المهلب: أراد ﷺ بذلك حصّ سعد على التواضع ونفى الزهو على غيره وترك احتقار المسلم فى كل حالة^(١).

فلنحرص كل الحرص على الإحسان إلى الضعفاء والفقراء واليتامى والنساء ولا نؤسى إليهم ولا نجرح مشاعرهم عسى أن يجعل الله ذلك سبيلاً للرزق والنصر كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى

ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ ٣٤ ﴾ باب الوصية بالنساء

❁ وفي هذا الباب «باب الوصية بالنساء» تستطيع أن تقرأ الباب من عنوانه وهو الوصية بالنساء بالرفق بهن وحسن معاملتهن والقيام بحقوقهن على أكمل وجه لأنهن ضعيفات يحتجن إلى مَنْ يَجبرهن ويكملهن.

❁ قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية؛ فعلى الزوج أن يُعَاشِر زوجته بالمعروف، من الصحبة الجميلة، وكَفِّ الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة ... ويدخل في ذلك النفقة، والكسوة ونحوهما... فيجب على الزوج لزوجته، المعروف، من مثله لمثلها، في ذلك الزمان والمكان. وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. أى: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تُمْسِكُوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك، خيراً كثيراً ... من ذلك، امثال أمر الله، وقبول وصيته التى فيها سعادة الدنيا والآخرة. ومنها: أن إجباره نفسه مع عدم محبته لها فيه مجاهدة النفس والتخلُّق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة تزول وتُخلفها المحبة كما هو الواقع في ذلك... وربما رُزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة^(١).

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقَ بَعْضِهِنَّ عَلَى بَعْضٍ﴾

❁ وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

فهذا الخطاب لمن كان عنده زوجتان أو أكثر..

(١) تفسير السعدى (ص ١٧٢-١٧٣).

فأخبر الله ﷻ أن الإنسان لن يستطيع أن يعدل العدل التام بين نسائه ولو كان حريصاً غاية الحرص .. وذلك لأن هناك أشياء يستطيع أن يعدل فيها بينهم كالنفقة والكسوة والسكن والمبيت .. ولكن هناك أشياء لا يستطيع أن يعدل فيها لأنها تكون بغير اختياره كالموددة والمحبة والميل القلبي وما أشبه ذلك مما يكون في القلب.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي لا تميلوا عن المرغوب عنها ميلاً كاملاً فتجعلوها كالمعلقة التي ليست بذات زوج ولا مطلقة ... شُبِّهَتْ بالشئ المعلق بين السماء والأرض، فلا هي مستقرة على الأرض ولا هي في السماء، وهذا من أبلغ التشبيه.

﴿وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي وإن تصلحوا ما مضى من الجور وتتقوا الله بالتمسك بالعدل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي يغفر ما فرط منكم ويرحمكم^(١).

وهاتان الآيتان وغيرهما من نصوص الكتاب والسنة كلها تدل على الرفق بالمرأة وملاحظتها ومعاشرتها بالتي هي أحسن، وأن الإنسان لا يطلب منها حقه كاملاً؛ لأنه لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال فليعف وليصفح.

(٢٧٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيْمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ، لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»^(٢).

وفي رواية في الصحيحين: «المرأة كالضلع إن أقمتهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٨٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٣١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٤٦٨) كتاب الرضاع.

قوله: «عَوَجٌ» هو بفتح العين والواو.

بِهَا، اسْتَمْتَعَتْ فِيهَا عَوْجٌ .

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا، اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوْجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرَتْهَا.. وَكَسَرُهَا طَلَاُهَا» .

❁ قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً» فكأن النبي ﷺ يقول: إنني أوصيكم بالنساء خيراً فاقبلوا هذه الوصية التي أوصيكم بها ... وذلك بأن تحسنوا إلى النساء؛ لأنهن ضعيفات قاصرات في جميع شئونهن فلقد خلقت من ضلعٍ .
وذلك أن آدم عليه الصلاة والسلام خلقه الله من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب، ثم قال له: كُنْ فَيَكُونُ ... ولما أراد الله تعالى أن يبيث منه هذه الخليقة، خلق منه حواء... فخلقها من ضلعه الأعوج، فخلقت من الضلع الأعوج ... والضلوع الأعوج إن استمتعت به استمتعت به وفيه العوج، وإن ذهبت تُقيمه انكسر .

هي الضلع العوجاء لست تقيمها ألا إن تقويم الضلوع انكسارها
تجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى أليس عجيباً ضعفها واقتدارها؟! (١)
والمعنى أن المرأة خلقها الله من عضوٍ مُعوج فهي - بطبيعتها وفطرتها - مستعدة لأن تقع في الخطأ أكثر من استعداد الزوج لذلك كمبدأٍ عام.... فإذا أراد الرجل أن يحيا مع زوجته حياة طيبة سعيدة فليدرك أن خطأ زوجته أمرٌ طبيعي، فلا يُكثر من اللوم والتأنيب والمؤاخذه، ولا يُحول الحياة إلى جحيم ... بل عليه أن يتساهل ويتسامح حتى يعيش في متعة وراحة واستقرار مع زوجته... أما إن أراد محاسبتها على كل صغيرة وكبيرة مُحاولاً أن يجدها يوماً بلا أخطاء فإنه لن يجدها كذلك أبداً ... وتكون نتيجة تصلُّبه وتشدُّده كسراً للحياة الزوجية يترتب

(١) انظر: «فيض القدير» (١/٥٠٣).

عليه الطلاق ... فإذا أدرك الرجل ذلك وفّر على نفسه كثيرًا من المتاعب.

❁ والأخطاء - التى من طبع المرأة أن تقع فيها - لا يُقصد منها الأخطاء الاجتماعية المعلومة للناس جميعًا، ولا الخروج على الآداب واللياقة حسب عُرف الناس، فإننا نجد المرأة فى الغالب أكثر حرصًا على هذه الآداب من كثير من الرجال ... إنما المراد من الحديث - والله أعلم - أن المرأة جنس غير جنس الرجل، وأن طبعها وخلقها وفكرها وعقلها يدور فى مجالات غير مجالاتها عند الرجال ... ونظرة المرأة للرجل ليست مثل نظرة الرجل للمرأة، إنما هى نمط آخر، فمن أراد أن تكون امرأته على شاكلته كُلية ويشترط ذلك لتستمر الحياة الزوجية - فإنه مُخطئ غاية الخطأ.

وما يدريك أن هذا الاعوجاج الذى فى المرأة هو سرُّ جاذبيتها وسرُّ جمالها، وسرُّ التصاقها بالرجل وحرصها عليه؟

إن المرأة بلا أخطاء تريد رجلًا بلا أخطاء أو تتعالى على الرجل وتحتقره ... وذلك شأنه قطع صلة الزوجية قطعًا سريعًا. وأخطاؤها من النوع الذى فسرتة لك تُثبت أنوثتها وتزيد من غرور الزوج بنفسه، وشعوره بأنه السيد ... ولذلك لعن الله ورسوله ﷺ النساء المسترجلات، والرجال المتشبهين بالنساء.

وقد كان ﷺ خير الناس مُعاشرة لأزواجه وأحسن الناس رفقًا بهن، وتسامحًا معهن ... وقد كانت تبدر من بعضهن ما يبدر من أية امرأة أخرى أحيانًا ... فما يغضب ولا يؤاخذ، ولكن يعفو ويصفح.

❁ روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه راجعته امرأته فى الكلام فقال لها: أتراجعيني يا لكعاء^(١)؟ فقالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير منك. ❁ وعلى الرجل إذا كان مع زوجته أن يطرح التكلف والتزمّت والتجمّد؛ فإن

(١) أى: يا لثيمة.

ذلك يُنفرها منه وكأنه لم يفهم من معنى الزوجية إلا الجماع والأولاد.

كما أن عليه - مهما تبسّط - أن يحتفظ بأصول الرجولة والمروءة والحياء... ولذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - مع خشونته - : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلاً.

وقد كان رضي الله عنه يحض أصحابه على هذا النمط من المعاشرة الزوجية، فقال لجابر رضي الله عنه : «هَلَّا بَكَرًا تُلَاعِبُهَا وَتُلَاعِبُكَ» ^{(١) (٢)}.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾

(٢٧٩) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِذْ أَنْبَعَثَ أَشَقْنَهَا» أَنْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمْ مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ، فَوَعِظَ فِيهِنَّ، فَقَالَ : «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلُدُ امْرَأَتَهُ جُلْدَ الْعَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ» ثُمَّ وَعَظَهُمْ فِي ضَحْكَهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ وَقَالَ : «لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟» ^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يذكر عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يخطب .. وكانت خطب النبي ﷺ على نوعين : نوع راتب ونوع عارض . فالخطب الراتب : كخطب يوم الجمعة وخطب العيدين والاستسقاء والكسوف وما أشبه ذلك .

والخطب العارض : هي التي يكون لها سبب ... فيقوم النبي ﷺ فيخطب الناس ويعظهم ويبين لهم، وأحياناً يخطب على المنبر، وأحياناً يخطب قائماً على الأرض، وأحياناً يخطب على ناقته، وأحياناً يخطب معتمداً على بعض

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٢٠٩٧) كتاب البيوع، ومسلم (٧١٥) (٧٤) كتاب الرضاع.

(٢) السلوك الاجتماعي في الإسلام (ص : ١٨٥-١٨٧) بتصرف.

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٤٩٤٢) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٥٥) كتاب الجنة.

«وَالْعَارِمْ» : هُوَ الشَّرِيرُ الْمُفْسِدُ - وقوله : «أَنْبَعَثَ» ، أَي : قَامَ بِسُرْعَةٍ.

أصحابه، حسب ما تقتضيه الحال في وقتها؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام من هديه أنه لا يتكلف، فلا يطلب المعدوم، ولا يرد الموجود إذا لم يكن في ذلك تقصير في الشرع، أو تجاوز فيه.

فخطب النبي ﷺ وذكر الناقة التي كانت معجزة نبي الله صالح عليه السلام.. وذكر الشقي الذي قتلها وهو (قدار بن سالف).

ثم ذكر النبي ﷺ النساء فوعظ فيهن وذكر ما يقع من أزواجهن فقال: «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد» يعني: يضرب امرأته ضرباً عنيفاً ويجلدها كأنه يجلد عبداً عنده لا علاقة له به .. وكأنها أسيرة عنده لا تربطه علاقة بها كزوجة له وكأم لأولاده .. فإن هذا لا يليق لأن علاقة الرجل مع زوجته علاقة خاصة ينبغي أن تكون مبنية على الحب والبعد عن الفحش من القول والفعل.

أما أن يجلدها كما يجلد العبد ثم يُجامعها في آخر اليوم .. فكيف يكون هذا بعد تلك الإهانات الجسيمة .. وكيف يستمتع بها أو تستمتع به بعدما حدث .

وصدق رسول الله ﷺ؛ إذ كيف يُعقل أن يضرب الرجل امرأته، ثم يُعانقها، ويُقبلها؟! ففي ذلك تناقض عظيم، لما يقع من النفور والقضاء على المحبة التي هي روح العشرة الحسنة .

❁ وإذا كان القرآن قد أباح للرجل أن يضرب امرأته ضرباً غير مُبرح إذا ظهرت عليها علامات النشوز بل وجعل الضرب هو آخر العقوبات بعد الوعظ والهجر في المضجع فإن لم ترجع عن النشوز فأباح الله للزوج أن يضرب امرأته ضرباً غير مُبرح لا يكسر عظماً ولا يُشوه لحماً وألا يزيد في ضربه على عشر ضربات وألا يضرب الوجه وأن يغلب على ظنه أن ضربه لها سيزجرها؛ لأن الضرب وسيلة إصلاح فإن تيقن أن الضرب لن يزجرها فلا يضربها.

فإن كان الشارع أباح للرجل أن يضرب زوجته عند النشوز فقد اتفق العلماء على أن ترك الضرب، والاكتفاء بالتهديد أفضل، وذلك:

- لما رواه إياس بن عبد الله بن أبي ذباب^(١)، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فأتاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: «يا رسول الله، ذُئِرَ^(٢) النساءُ على أزواجهن.. فأذِنَ في ضربهن، فأطاف بآل محمدٍ نساءٌ كثيرٌ، كُلُّهنَّ يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ: «لقد طاف بآل محمدٍ نساءٌ كثيرٌ، كُلُّهنَّ تشكو زوجها من الضرب. وإيم الله لا تجدون أولئك خياركم»^(٣).

- وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط، ولا خادماً، ولا ضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله»^(٤).
ولما خطب معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم رضي الله عنهما فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، ذَكَرَتْ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فَصُعلوكٌ لا مال له، انكحى أسامة بن زيد»^(٥) الحديث.
ومعنى قوله ﷺ: «لا يضع عصاه عن عاتقه» قيل: إنه كثير الأسفار، وقيل - وهو أصح - إنه كثير الضرب للنساء... بدليل الرواية الأخرى عند مسلم بلفظ: «وأما أبو جهم فرجلٌ ضَرَّابٌ للنساء»، وعليه يُحمل وصفه رضي الله عنه إياه في رواية النسائي: «إنه صاحب شر لا خير فيه»، ورواية الترمذي: «فرجل شديد على النساء». فتأمل كيف ذمَّ رسول الله ﷺ لهذه الصفة.

❁ وقال ابن الجوزي رحمته الله:

(وليعلم الإنسان أن مَنْ لا ينفع فيه الوعيد والتهديد لا يردعه السوط، وربما كان اللُّطف أنجح من الضرب، فإن الضرب يزيد قلب المُعرض إعراضاً...

(١) جزم أحمد بن حنبل، والبخاري وابن حبان بأن لا صحبة له، وخالفهم أبو حاتم وأبو زرعة، ورجح قولهما الحافظ ابن حجر كما في «تهذيب التهذيب» (٣٨٩/١).

(٢) أى: اجترأ ونشزن، والذائر: التفور، المغتاز على خصمه، والمستعد للشر.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٧).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الفضائل.

(٥) صحيح: رواه مسلم (١٤٨٠) كتاب الطلاق.

وفي الحديث: «ألا يستحي أحدكم أن يجلد امرأته جلد العبد، ثم يضاجعها»^(١)، فاللطف أولى إذا نفع^(٢) اهـ.

ثم تحدث أيضًا عن شيء آخر وهو الضحك من الضرطة، يعني إذا ضرط الإنسان وخرجت الريح من دُبْره ولها صوت ضحكوا، فقال ﷺ واعظًا لهم في ذلك: «لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ؟».

ألسنت أنت تضرط كما يضرط هذا الرجل؟ بلى، إذا كان كذلك فلماذا تضحك؟ فالإنسان إنما يضحك ويتعجب من شيء لا يقع منه، أما ما يقع منه، فإنه لا ينبغي أن يضحك منه، ولهذا عاتب النبي ﷺ مَنْ يضحكون من الضرطة؛ لأن هذا شيء يخرج منهم، وهو عادة عند كثير من الناس.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه على مسألة شائعة عند العامة، فإن من المعلوم أن لحم الإبل إذا أكل منه الإنسان وهو متوضئ انتقض وضوؤه، ووجب عليه أن يتوضأ إذا أراد الصلاة، سواء أكله نيئًا أو مطبوخًا، وسواء كان لحمًا، أو كبدًا، أو مُصرانًا، أو كرشًا، أو قلبًا، أو رئة... كل ما حملت البعير فإن أكله ناقض للوضوء؛ لأن النبي ﷺ لم يستثن شيئًا، وإنما قال: «توضئوا من لحوم الإبل» وسُئِل: أنتوضأ من لحوم الإبل؟ فقال: «نعم» فقال السائل: أنتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «إن شئت فتوضأ وإن شئت فلا توضأ»^(٣).. فلحم الغنم لا ينتقض الوضوء، ولحم البقر لا ينتقض الوضوء، ولحم الخيل لا ينتقض الوضوء، لكن لحم الإبل ينتقض الوضوء، إذا أكلته نيئًا أو مطبوخًا، وجب عليك أن تتوضأ.

(١) وذلك لأن المجامعة إنما تستحسن مع ميل النفس، والرغبة في العشرة... والضرب عادة يورث النفرة والحديث يشير إلى ذمّه، فإن كان ولا بد فاعلاً لنشوزها، فليعاملها معاملة الحرائر، وليكن بالضرب اليسير غير المبرح - أفاد معناه الحافظ في «الفتح» (٩/ ٣٠٣).

(٢) «أحكام النساء» ص (٨٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٦٠) كتاب الحيض.



فأما شرب لبنها، فإن الصحيح أنه ليس بناقض للوضوء؛ لأن النبي ﷺ لما أمر
العُرَين أن يخرجوا إلى إبل الصدقة، ويشربوا من أبوالها وألبانها لم يأمرهم
بالوضوء.. ولو كان واجباً لأمرهم به... فإن توضأت فهو أحسن، أما الوجوب فلا.
وكذلك المرق -الشوربة- لا يجب الوضوء منه، وإن توضأت فهو
أحسن... أما اللحم فلا بد، وكذلك الشحم فلا بد من الوضوء منه.

يقول بعض الناس: إن السبب أن الرسول ﷺ كان في وليمة وكان لحمها
لحم إبل، وأنه خرجت ريح من بعض الحاضرين ولا يُدرى مَنْ.
فقال الرسول ﷺ حتى لا يُخرجه: «مَنْ أَكَلَ لَحْمَ إِبِلٍ فَلْيَتَوَضَّأْ» فقام
جميعهم يتوضئون.

وجعلوا هذا السبب في أن الإنسان يتوضأ من لحم الإبل.
وهذا حديث باطل، لا أصل له، وإنما أمر الرسول ﷺ بالوضوء من لحم
الإبل لحكمة يعلمها الله، قد نعلمها نحن، وقد لا نعلمها... المهم نحن علينا أن
نقول: سمعنا وأطعنا... أمرنا الرسول ﷺ أن نتوضأ من لحوم الإبل إذا أكلنا
منها فسمعاً وطاعة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً
إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» أَوْ قَالَ: «غَيْرُهُ»^(٢).

❁ الفرق: يعنى البغضاء والعداوة.. أى: لا يُعَادَى ولا يَبْغُضُ الْمُؤْمِنُ
الْمُؤْمِنَةَ... كزوجته مثلاً.. لأنه إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا لَا يَحِبُّهُ رَضِيَ مِنْهُ آخَرُ... وهذا

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٦٢-٦٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٩) كتاب الرضاع.

وقوله: «يَفْرَكُ»، معناه: يُبْغِضُ، يُقَالُ: فَرَكْتُ الْمَرْأَةَ زَوْجَهَا، وَفَرَكَهَا زَوْجُهَا، بِكَسْرِ الرَّاءِ، يَفْرَكُهَا
بِفَتْحِهَا: أَيْ: أَبْغَضَهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

هو مقتضى العدل .. ألا ينظر الزوج إلى السيئات فحسب .. بل عليه أن يُوازن بين الحسنات والسيئات .. فإن غلبت حسناتها سيئاتها فإنه ينبغي عليه أن يتغاضى عن سيئاتها ... إن عجز عن إصلاحها باللين تارة وبالشدة تارة أخرى .

فإن أساءت الزوجة مرة فقد أحسنت مرات ... وإن احترق منها الطعام مرة فلقد قدمت لك الطعام الطيب آلاف المرات قبل ذلك ... فأنت إذا أساءت إليك زوجتك فلا تنظر إلى تلك الإساءة في وقتها الحاضر ، ولكن انظر إلى الماضى والمستقبل واحكم بالعدل ووازن بين مميزاتا وعيوبها . فمن النادر أن تجتمع كل خصال الخير فى امرأة واحدة .

وقد قال النبى ﷺ : «إنما الناس كإبلٍ مائة لا تكاد تجد فيها راحلة»^(١) .

فلا تكاد تجد رجلاً شجاعاً مغوراً مقداماً كريماً سخيّاً عالمًا مُحسنًا متصدقًا كاظمًا للغيب صبورًا يقوم الليل ويصوم النهار واصلاً للأرحام بارًا بوالديه .. نادرًا ما تجد خصال الخير تجتمع فى رجل ... كالإبل فى المائة واحد تجده صبورًا على الجوع والعطش مُريحًا فى المشى هادئ الطبع لبنه كثير ... نادرًا ما تجد فى الإبل كهذا فإذا كان هذا هو الشأن ... الشأن فى الناس أنهم كإبلٍ مائة لا تكاد تجد فيها راحلة، فالنساء اللواتى خُلِقن من ضلع من باب أولى ألا تجتمع فيهن خصال الخير، فقد تكون المرأة جميلة حسناء ولكنها بذئنة اللسان، وقد تكون جميلة حسناء لسانها طيب وقولها حلو جميل لكنها مبذرة فى الإنفاق ومتوسعة فيه وغير مقتصدة فى معيشتها .

وقد تكون مقتصدة فى معيشتها لكن لا تجيد الطهى والخبز^(٢) .

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٩٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٥٤٧) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) وأسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين العاقلة الرشيدة تقول عن نفسها : ولم أكن أحسن أخبز . انظر البخارى (٥٢٢٤) ومسلم، (٢١٨٢) وزينب بنت جحش أم المؤمنين كانت عابدة متصدقة جميلة لكن تعثر بها حدة أحيانًا . وأما عائشة ؓ كانت غيورًا مع فضلها وعلمها ؓ .

وقد تكون جميلة حسنة الخلق حسنة التبُّعْل مُتَقِنَة لعمل البيت لكنها شديدة الغيرة وقد يكون فيها ما ذُكر من جمال وبهاء وحسن تبُّعْل وإتقان للعمل إلا أنها ضعيفة في العبادة.. إلى غير ذلك.

الشاهد أن المرأة بها عوج كما قال النبي ﷺ كالضلع وكالعود، عودٌ في آخره عوج تريد أن تُقَوِّمه وتعُدله فإذا ذهبت تُقَوِّمه كُسر منك، وإن تركته بقي أعوج... فكَذلك المرأة إن ذهبت تُقِيمها كسرتها... وكَسَرُها طلاقها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج.

فلا بد أن يكون في المرأة عيب وعوج، وكما قال النبي ﷺ: «فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا»^(١).

لا نقول لك اتركها بعيوبها ولكن قَوِّمها برفقٍ ولينٍ قدر الاستطاعة وسدِّد وقارب ولن تستطيع أن تصل إلى التمام لقول النبي ﷺ «وإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج»^(٢).

وهذا الذي ذكره النبي ﷺ في المرأة يكون في غيرها أيضًا ممن يكون بينك وبينه معاملة أو صداقة أو ما أشبه ذلك، إذا أساء إليك يومًا من الدهر فلا تنسَ إحسانه إليك مرة أخرى وقارن بين هذا وهذا، وإذا غلب الإحسان على الإساءة فالحكم للإحسان، وإن غلبت الإساءة على الإحسان فانظر، إن كان أهلاً للعفو فاعفُ عنه، ومن عفا وأصلح فأجره على الله.. وإن لم يكن أهلاً للعفو فخُذ بحقك وأنت غير مَلُوم إذا أخذت بحقك، لكن انظر للمصلحة.

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يعامل مَنْ بينه وبينه صلة من زوجية أو صداقة أو معاملة في بيع أو شراء أو غيره.. أن يعامله بالعدل إذا كره منه خُلُقًا أو

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٩٤٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٣١) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٤٦٨) كتاب الرضاع.

أساء إليه في معاملة أن ينظر للجوانب الأخرى الحسنة حتى يقارن بين هذا وهذا، فإن هذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله .. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨١) وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ الْجُشَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوُدَّاعِ يَقُولُ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَذَكَرَ وَوَعِظَ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مِنْ تَكْرِهُونَّ، وَلَا يَأْذَنَ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرِهُونَّ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ» ^(٢).

❁ ففي هذا الحديث ذكر عمرو بن الأحوص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع يخطب في يوم عرفة بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه - وهذا من كمال أدبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تمام عبوديته لله عَزَّ وَجَلَّ - ثم ذكّر الناس بالله ووعظهم ثم قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ» العوانى جمع عانية، وهى الأسيرة... يعنى أن الزوجة عند زوجها بمنزلة الأسير عند مَنْ أَسَرَهُ؛ لأنه

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٦٤).

(٢) حسن: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٨٠).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَوَانٍ أَى: أَسِيرَاتٍ، جَمْعُ عَانِيَةٍ، بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، وَهِيَ الْأَسِيرَةُ، وَالْعَانِيَةُ: الْأَسِيرُ. شَبَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرْأَةَ فِي دُخُولِهَا تَحْتَ حُكْمِ الزَّوْجِ بِالْأَسِيرِ.

«وَالضَّرْبُ الْمُبْرِحُ»: هُوَ الشَّاقُّ الشَّدِيدُ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا» أَى: لَا تَطْلُبُوا طَرِيقًا تَحْتَجُونَ بِهِ عَلَيْهِنَّ وَتُؤْذِنَهُنَّ بِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

يملكها، وإذا كان يملكها فهي كالأسير عنده... ثم بين ﷺ أنه لا حق لنا أن نضربهن إلا إذا أتت بفاحشة مبينة... والفاحشة هنا عصيان الزوج، بدليل قوله: «فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً». يعنى: إن أهملت الزوجة في حق زوجها عليها فإنه يعظها أولاً، ثم يهجرها في المضجع فلا ينام معها، ثم يضربها ضرباً غير مبرح إن هي استمرت على العصيان.

هذه مراتب تأديب المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة، وهى عصيان الزوج فيما يجب له.

(١) الوعظ والإرشاد:

قد تهمل المرأة حق زوجها، أو تقصّر بواجبها نحو بيتها وأولادها، ففي هذه الحالة أمر الإسلام الزوج بوعظها، وتذكيرها بواجبها، وتحذيرها من مغبة سوء معاملتها.. كما يذكرها بالموت والدار الآخرة، ويوم الحساب.. لعل هذا الوعظ يردعها عما هي فيه، وتغير ما درجت عليه، فتلطف من معاملتها، وتحسن من أخلاقها، وتنهض بمسؤوليتها، وتؤدي حق زوجها وبيتها وأولادها..

(٢) الهجر في المضجع:

فإذا لم يؤثر الوعظ والإرشاد، ولم ينفع التذكير بالله والدار الآخرة.. لجأ إلى هجرها في فراش الزوجية، وهى عقوبة نفسية لعلها تفيد في إعادة المرأة إلى صوابها، وقيامها بالحق المفروض عليها.

(٣) الضرب غير المبرح:

فإذا لم يجْدِ الهجر شيئاً، يُباح للزوج أن يلجأ إلى الضرب غير المبرح - وهو الذى لا يترك أثراً في جسم المرأة - ويُشترط في حق الزوج أن لا يضرب الوجه، وأن لا يضرب أى مكان في الجسم يُسبب إتلافاً أو أذى.. كالضرب على البطن والصدر.. لما روى أبو داود وابن حبان عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه

قال: قلت: يا رسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح - أن يقول لها: قبحك الله - ولا تهجر إلا في البيت»^(١).

وهذا الضرب كما ترى إلى التهديد والزجر أقرب منه إلى الإيلاء والإيذاء.. والأفضل في حق الزوج: أن لا يلجأ إلى الضرب اقتداءً بالرسول الله ﷺ، فقد روى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط، ولا خادماً، ولا ضرب شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله»^(٢).

ولقد قرر الفقهاء أن الزوج إذا انتهج هذه المراحل، فلا يجوز للزوج أن يلجأ إلى الأشد إذا كان ينفع الأخف..

❁ ثم قال النبي ﷺ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ يعني: لا تضربوهن ولا تقصروا في حقهن؛ لأنهن قمن بالواجب.

ثم بين ﷺ الحق الذي لهن والذي عليهن، فقال: «إلا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً» فكل واحد له حقوق وعليه واجبات... لكن أحب أن أقول: إن الحياة الزوجية عبارة عن شركة قائمة على المودة والرحمة... وإذا كان الأمر كذلك فإن كلاً من الزوجين سيسعى ويجتهد لإرضاء الطرف الآخر ولإدخال السعادة والسرور عليه حتى ولو كان ذلك على حساب سعادته.

- وهنا لن يسأل الزوج أو الزوجة: ما هي حقوقى وما هي واجباتى؟ بل سيسعى كل واحد منهما ليُسعد الآخر قدر استطاعته...

ولن يكون ذلك إلا بإخلاص النية لله (جل وعلا)^(٣).

❁ «فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون» يعني: لا يجعلن أحداً

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (١٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الفضائل.

(٣) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد / الشيخ محمود المصرى (ص ٤٣١).

يدخل عليهن على فراش النوم أو غيره وأنت تكره أن يجلس على فراش بيتك... وكان هذا - والعلم عند الله - ضرب مثل ... والمعنى ألا يُكرمن أحداً تكرهونه... فإن هذا من المضادة لكم أن يُكرمن مَنْ تكرهونه بإجلاله على الفرش أو تقديم الطعام له، أو ما أشبه ذلك.

❁ «وَأَلَا يَأْذَنُ فِي بَيْوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ» يعنى: لا يُدخلن أحداً البيت وأنت تكره أن يدخل حتى ولو كانت أقرب الناس إليها... فقد تكون هناك زوجة لها أخت أو قريبة كلما دخلت البيت أشعلت النار بين الزوجة وزوجها وبذلت كل ما في وسعها من أجل خراب هذا البيت.. فمن حق الزوج في ذلك الوقت أن يطلب من زوجته أن تمنع هذه المرأة من دخول البيت خوفاً على البيت من الخراب وتشريد الأسرة كلها.

❁ ثم قال النبي ﷺ: «أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ».

فمن حقوق الزوجة المادية وجوب نفقتها على زوجها، وهى تشمل الطعام، والشراب، والملبس، والمسكن^(١)، وسائر ما تحتاج إليه الزوجة^(٢) لإقامة مهجتها، وقوام بدنها.

وقد أخبر ﷺ أن الرجال هم المنفقون على النساء، ولذلك كانت لهم

(١) وهى التى أشار إليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]، وقد خص الله آدم بذكر الشقاء فقال: ﴿فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ ولم يقل: «فتشقيان» يُعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١١ / ٢٥٣).

(٢) وقال الفقهاء: «إنه يلزم للزوجة نفقة الخادم إذا كان الزوج موسراً، وكانت المرأة ممن تُخدم في بيت أبيها مثلاً ولا تخدم نفسها لكونها من ذوى الأقدار، أو مريضة؛ لأنه من المعاشرة بالمعروف والخادم هو من يحل له النظر إلى المرأة، بأن يكون امرأة أو ذارحم محرم؛ لأن الخادم يلزم المخدوم في أغلب أحواله، فلا يسلم من النظر» انظر: «بدائع الصنائع» (٥ / ٢٢١٥)، «فتح القدير» (٣ / ٣٢٧-٣٢٩)، «بداية المجتهد» (٢ / ٥٤)، «شرح منح الجليل» (٢ / ٤٣٤)، «تكملة المجموع» (١٧ / ١٤٠)، «كشاف القناع» (٥ / ٣٧٨)، «المحلى» (١٠ / ١١١).

القوامه والفضل عليهن بسبب الإنفاق عليهن بالمهر والنفقة ... فقال تبارك وتعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقد دَلَّ على وجوب هذه النفقة: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والمعقول.

❖ أما أدلة الكتاب الكريم:

- فمنها قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

- ومنها قوله (جل وعلا): ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أى: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أى: بما جرت به عادة أمثالهن، من غير إسرافٍ ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسُّطه وإقتاره». اهـ.

❖ وأما أدلة السُّنة الشريفة:

فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «إِبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلَا أَهْلَكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا» يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ»^(١)...

وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ»^(٢).

وقد رَوَى عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٩٧) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٢) كتاب الإمارة.

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨١).

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قلت: «يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟»، قال: «أن تُطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تُقبَّح الوجه^(١)، ولا تضرب^(٢)»^(٣)... وفي رواية للإمام أحمد بزيادة: «ولا تهجر إلا في البيت^(٤)، كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض^(٥)، إلا بما حل عليهن^(٦)».

❁ وأما دليل العقل^(٧):

فهو أن المرأة محبوسة على الزوج بمقتضى عقد الزواج، ممنوعة من التصرف والاكتساب لتفرغها لحقه، فكان نفع حبسها عائداً عليه، فكان عليه أن ينفق عليها، وعليه كفايتها وإلا هلك.

من أجل هذا تجب نفقة الزوجة على الزوج حتى ولو كانت الزوجة موسرة^(٨)، لأن نفقتها لم تجب للحاجة، وإنما بسبب احتباسها لحق الزوج^(٩).

والرجل الكريم هو الذي تسخو يده على أهله فلا يتركهم ينظرون إلى ما عند الناس من جيران وأقارب، ما دام يستطيع - بدون مشقة - أن يكفيهم مطالبهم

(١) أى: لا يُسمعها المكروه، ولا يشتمها بأن يقول: «قَبَّحَ الله وجهك» وما أشبهه من الكلام.

(٢) أى: لا تضرب الوجه، أو لا تضرب إلا بما حل عليهن من الضرب والهجر بسبب نشوزهن.

(٣) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧).

(٤) أى: لا يهجرها إلا في المضجع، ولا يتحول عنها، أو يُحوّلها إلى دارٍ أخرى.

(٥) يعنى: الجماع.

(٦) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٢٩).

(٧) انظر: «المغنى» (٧ / ٥٦٤)، «المبسوط» (٥ / ١٨١)، «شرح النووي» (٨ / ١٨٤).

(٨) بل لا تُكَلَّف المرأة بشيء من الإنفاق عموماً: أمّا كانت أو أختاً، بنتاً كانت أو زوجة، قادرة على العمل أو عاجزة عنه، غنية كانت الزوجة أو فقيرة، كان زوجها قادراً على العمل أو عاجزاً عنه، غنياً كان أو فقيراً، فالرجل هو المسئول عن النفقة البيتية وليس من حقه أن يُلزمها بها إلا إذا تبرعت مساهمة في تحمل بعض العبء.

والمرأة قبل البلوغ تحت وصاية أوليائها، وهى ولاية رعاية وتأديب وعناية بشأنها، وتنمية لأموالها، وليست ولاية تملك واستبداد، ثم هى بعد البلوغ كاملة الأهلية للالتزامات المالية سواء بسواء.

(٩) عودة الحجاب (٢ / ٣١٩، ٣٢٠).

في غير إسراف أو تبذير.

❖ ولقد ثبت في فضل النفقة على الأهل والأولاد أحاديث كثيرة:

❖ منها: ما رواه سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك مهما أنفقت على أهلِكَ من نفقة فإنك تُؤَجِّرُ، حتى اللقمة ترفعها إلى فيِّ امرأتِكَ»^(١).

❖ ومنها: ما رواه أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة»^(٢).

❖ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة»^(٣)، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلِكَ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلِكَ»^(٤).

بِإِذْنِ رَبِّهِ

(٢٨٢) وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدَنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعَمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ وَلَا تَضْرِبَ الْوُجْهَ، وَلَا تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ»^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) قوله ﷺ: «وهو يحتسبها» يفيد منطوقه أن الأجر في الإنفاق إنما يحصل بقصد قصد القربة، سواء كانت واجبة أو مباحة... أفاده القرطبي، كما نقله عنه في «فتح الباري» (١ / ١٣٦).

والحديث أخرجه البخاري (٥٣٥١) كتاب النفقات، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة.

❖ فائدة: قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: (النفقة على الأهل واجبة بالإجماع، وإنما سماها الشارع صدقة خشية أن يظنوا أن قيامهم بالواجب لا أجر لهم فيه، وقد عرفوا ما في الصدقة من الأجر، فعرفهم أنها لهم صدقة حتى لا يُخرجوها إلى غير الأهل إلا بعد أن يكفوهم، ترغيباً لهم في تقديم الصدقة الواجبة قبل صدقة التطوع) اهـ. من «الفتح» (٩ / ٤٩٨).

(٣) أى: في إعتاقها.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩٩٥) كتاب الزكاة.

(٥) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٧). وقال: معنى «لا تُقَبِّحَ» أى: لا تقلِّ قَبْحَكَ الله.

❁ ففي هذا الحديث أن معاوية بن حيدة رضي الله عنه سأل النبي ﷺ سؤالاً .. وكان هذا دأب الصحابة رضي الله عنهم أن يسألوا النبي ﷺ عن كل شيء ليتعلموا وليعملوا بما تعلموه .. وليس كحال كثير من الناس في هذه الأيام تراهم يُكثرون من السؤال من أجل أن تكون عندهم ثقافة دينية ثم لا تراهم يعملون بذلك العلم ولا يظهر ذلك على أخلاقهم ومعاملاتهم وسلوكياتهم ... فالواجب على المسلم أن يعمل بما يتعلمه من شرع الله ومن سنة رسول الله ﷺ لأن هذا العلم سيكون حُجة عليه بين يدي الله يوم القيامة.

❁ المهم أن معاوية سأل النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟

فقال له ﷺ: «أن تُطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت» أي: لا تَخْص نفسك بالطعام والكسوة دونها فهي شريكة حياتك فيجب عليك أن تُتفق عليها كما تُتفق على نفسك وتأمل معنى قول النبي ﷺ حينما قال: «أن تُطعمها إذا طعمت» فمعنى هذا الكلام أنك إذا لم تجد طعاماً لنفسك فهي شريكة معك أيضاً في الجوع .. وفي العبارة الأخرى «وتكسوها إذا اكتسيت» فإن لم يكن عندك مَالٌ لتشتري كسوة جديدة لنفسك فهي شريكة معك في نفس الحال .. فهي شريكك - كما يقول العوام - على الحلوة والمرّة - وما أقبح أن يتعاطى الرجل أطايب الطعام، ويلتذ بأشهى الشراب في المطاعم والنوادي والرحلات، ثم ييخل بشيء منه على زوجته وأولاده، كما يصدرُ ممن لا مروءة له.

حدّث القالي قال: كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يحضر طعامه، فكتب إلى امرأته يُعلمها بذلك، فكتبت إليه:

أُبْهَدِي إِلَى الْقِرطاس والخبز حاجتي وأنت على باب الأمير بطينُ
إذا غبتَ لم تذكر صديقاً ولم تَقُمْ فأنت على ما في يديك ضنينُ

فأنت ككلب السوء ضيَّع أهله فيُهزل أهل البيت وهو سمينٌ

فإن لم تنفق على زوجتك فقد قال كثيرٌ من أهل العلم: إذا لم يُنفق الرجل على زوجته، وطالبت بالفسخ عند القاضي فللقاضى أن يفسخ النكاح؛ لأنه قَصَّر بحقها الواجب لها.

❁ قوله ﷺ: «ولا تضرب الوجه ولا تُقبِّح».

أى: لا تضربها إلا لسببٍ .. والأفضل ألا تضربها؛ لأن النبي ﷺ لم يضرب امرأة أبدًا طيلة حياته ﷺ .. وهو أسوتنا وقدوتنا ..

لكن على العموم إذا حدث شىء وأردت أن تضربها فاضربها ضربًا غير مُبرح لا يُهشم عظمًا ولا يُشوِّه جسدًا ولا تضربها على وجهها؛ لأن الوجه موضع تكريم الإنسان وهو أشرف موضع في جسد الإنسان ... فإذا ضُرب الإنسان على وجهه كان ذلك إذلالًا له ... ولذلك لا يجوز أن تضرب أى إنسانٍ على وجهه سواء كان زوجةً أو ابنًا أو أخًا صغيرًا أو غير ذلك .. فهناك نهىٌ عام عن ضرب أى وجه .. حتى وجه الحيوان - أعزكم الله - فيكون الضرب على الكتف أو الذراع أو الظهر ويكون ضربًا غير مُبرح .. وأكرر أن الأفضل عدم الضرب ؛ لأن هذا هو هدى النبي ﷺ وفعله.

❁ قوله ﷺ: «ولا تُقبِّح» أى: لا تقل لها: يا قبيحة .. أو: أنت قبيحة أو قَبِّح

الله وجهك .. ويشمل التقبيح النهى عن التقبيح الحسى والمعنوى .. فلا تقل لها: أنت من عائلة سيئة أو وضيفة أو غير ذلك.

❁ قوله: «ولا تهجر إلا فى البيت» يعنى إذا وُجدَ أى سببٍ للهجر فلا تهجرها

علنا أمام أهلِكَ أو أهلها وتُظهر للناس أنك هجرتها ؛ لأن هذا يوسِّع حدة الخلاف والمشاكل .. بل اهجرها فى البيت وفى نفس الفراش بأن تُعطىها ظهرَكَ أو تنام فى غرفة مجاورة إن أحببت لكن لا تُخبر أحدًا فعسى أن ينتهى الخلاف خلال يومٍ أو يومين فتعود الحياة والعشرة الجميلة بينكما كما كانت.

(٢٨٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»^(١).

✽ من المعلوم أن درجات الإيمان تتفاوت وتتفاضل بين إنسان وآخر.. فمن الناس مَنْ يؤمن بكل ما في الدار الآخرة وكأنه يرى أرض المحشر والميزان والصحف والصراط والجنة والنار أمام عينيه..

✽ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ✽ أى: ومن الناس مَنْ هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفًا، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ✽ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ✽ أى: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكروه شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه.

فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يُقيض له من الفتن، ما ينصرف به عن دينه، ✽ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ✽ من حصول مكروه، أو زوال محبوب^(٢) ✽ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ✽ [الحج: ١١].

إن أصابته فتنة في بدنه، أو ماله، أو أهله انقلب على وجهه واعترض على القضاء والقدر، وتسخط وهلك والعياذ بالله ✽ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ✽. فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا.. وفي هذا حثٌ على أن يتخلق المسلم بالأخلاق الحسنة مع الخالق (جلّ وعلا) ومع الخلق.

فأما حُسن الخلق مع الخالق (سبحانه وتعالى) فبأن يرضى العبد بشريعته (جلّ وعلا) وينقاد إليها ويمثل الأوامر والنواهي راضياً مطمئناً مُسَلِّماً... وأن يرضى بقضاء الله وقدره ولا يعترض ولا يتسخط على أقدار الله.. بل يكون شعاره دائماً: كل ما جاء من عند الحبيب فهو حبيب.

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن حبان، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (١٢٣٢).

(٢) تفسير السعدی (ص ٦٢١).

فيقول: يا رب كل شيء من عندك، فأنا راضي بك ربًّا، إن أعطيتني ما يسرني شكرت، وإن أصابني ما يسوءني صبرت... فيرضى بالله، قضاءً وقدرًا وأمرًا وشرعًا... هذا حسن الخلق مع الله. أما حسن الخلق مع الناس، فكفُّ الأذى وبذل الندي، والصبر عليهم وعلى أذاهم، هذا من حُسن الخلق مع الناس. ومن أحق الناس بحُسن خُلقك بعد الوالدين: زوجتك التي يجب عليك أن تُعاشرها بالمعروف كما أمرك الله وكما أمرك رسول الله ﷺ.

ولذا قال النبي ﷺ: «وخياركم خياركم لنسائهم».. وذلك لأن الأقربين أولى بالمعروف... ومع ذلك فهناك مَنْ يخالف وصية النبي ﷺ فيتعامل مع زملائه وأصحابه وجيرانه أفضل معاملة ويتسم في وجوههم ويقضى معهم أجمل الأوقات... فإذا عاد إلى بيته تحوّل إلى وحشٍ كاسر فيدخل البيت عابس الوجه لا يتكلم إلا بالكلمات البذيئة.. تتسول منه امرأته الكلمة الطيبة والبسمة الحانية فلا تجدها.

أيها الأخ الحبيب والزوج الكريم: أما استوقفك قول النبي ﷺ: «خياركم خياركم لنسائهم».. فمعنى ذلك أن الزوج إذا كان سيئ الخلق مع امرأته فسوف ينقلب لفظ الحديث إلى: «وشراركم شراركم لنسائهم».. فهل ترضى أن يصفك النبي ﷺ بهذا الوصف ثم تلقاه على الحوض يوم القيامة على هذا الحال؟ حبيبي في الله: ما الذي يمنعك أن تبسم في وجه زوجتك وقد قال النبي ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة»^(١).. وزوجتك هي أختك قبل أن تكون زوجتك.. بل قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»^(٢). وأظن أن أولى الناس بطلاقة الوجه هي زوجتك.. هي شريكة حياتك هي رفيقة دربك.. هي قرة عينك.

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب.

❁ وما الذى يمنعك أن تسلم على زوجتك إذا دخلت البيت فتكون قد امتثلت أمر ربك ﷻ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١].

وتكون قد امتثلت وصية النبي ﷺ حينما قال لأنس بن مالك رضي الله عنه: «يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(١).

❁ وما الذى يمنعك أن تدخل على زوجتك بهدية بسيطة كل أسبوع .. حتى لو كانت وردة جميلة لتدخل السعادة على قلبها.

❁ وما الذى يمنعك أن تأخذ زوجتك كل أسبوع في نزهة سريعة لمدة ساعتين في أى مكان طيب ليس فيه معصية لله (جلّ وعلا) لتجدد نشاطها الإيجابى فتقبل على الطاعة .. وتجدد نشاطها الجسدى فتقوم بأعباء البيت على الوجه الأمثل.

❁ احرص على أن تكون ممن قال النبي ﷺ عنهم: «وخياركم خياركم لنسائهم».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨٤) وَعَنْ إِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي ذُبَابٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» فَجَاءَ عُمَرُ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: ذُرْنِ النَّسَاءَ عَلَى أَرْوَاجِهِنَّ، فَرَخَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَرْوَاجَهُنَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونَ أَرْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِخِيَارِكُمْ»^(٢).

❁ قوله ﷺ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» أى: لا تضربوا النساء .. لأن المرأة يُقال لها: أمة الله كما يُقال للرجل: عبد الله .. ويُقال للنساء: إماء الله كما يُقال للرجال:

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الكلم الطيب (٦٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٧). وقوله: «ذُرْنِ»، أى: اجترأْن - قوله: «أطاف» أى: أحاط.

عباد الله.

فالشاهد أن النبي ﷺ نهى أصحابه وأمه من بعدهم عن ضرب النساء فكفوا جميعاً عن ضرب النساء فلم يُعلم أن أحداً من الصحابة قد ضرب امرأة قط .. وذلك لأن الصحابة كانوا خير القرون وكانوا من الطراز الأول الذين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ﷺ قالوا: سمعنا وأطعنا.

فلما كَفَّ الصحابة عن ضرب النساء اجترأ على أزواجهن .. كما قال عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه): يا رسول الله، إن النساء ذئرن على أزواجهن، يعنى اجترأ وتعالين على الرجال .. فلما سمع النبي ﷺ ما قال عمر أجاز ضربهن، فأفرط الرجال في ذلك وجعلوا يضربونهن ضرباً شديداً بعد ما حدث من جرأة النساء عليهم .. فنحن نعلم أن الرجل العربي في ذلك الوقت لم يكن يحتمل أن ترفع المرأة صوتها عليه أو أن تنظر إليه نظرة لا تُعجبه ..

فلما أكثر الرجال من ضرب النساء طافت النساء بآل النبي ﷺ .. أى بيوته ﷺ وجعلن يتجمعن حول بيوت النبي ﷺ يشكون أزواجهن.

فقام النبي ﷺ يخطب في أصحابه بعد أن اجتمعوا ويقول لهم: «لَقَدْ أَطَافَ بَالِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ نِسَاءٌ كَثِيرٌ يَشْكُونُ أَزْوَاجَهُنَّ لَيْسَ أُولَئِكَ بِخِيَارِكُمْ» أى: أن مَنْ يضرب زوجته بلا سبب .. أو حتى يضربها لسببٍ ضرباً مبرحاً مؤلماً فهذا ليس من خيار الرجال. وذلك لأن النبي ﷺ وصف خيار الرجال بهذا الوصف: «خياركم خياركم لنسائهم» .. فخير الرجال هو الذى يُكرم زوجته ويؤدبها بالوعظ والهجر ويجعل الضرب آخر العلاج (مثل الكى) ويكون بالضوابط الشرعية التى ذكرناها قبل ذلك .. فذلّ هذا على أن الإنسان لا يُفْرِط ولا يُفْرِط في ضرب أهله، إن وجد سبباً يقتضى الضرب فلا بأس.

وقد بين الله ﷻ مراتب ذلك في كتابه فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَخَافُونَ ذُنُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ بَـٰرِعًا وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ﴾ [النساء: ٣٤].

المرتبة الثالثة: الضرب، وإذا ضربوهن فليضربوهن ضرباً غير مُبرح. ومع أن القرآن أباح للزوج ضرب الزوجة ضرباً غير مُبرح عند الضرورة إلا أن ترك الضرب والاكتفاء بالتهديد أفضل، وذلك لأن النبي ﷺ لم يضرب امرأة قط في حياته أبداً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(١).

قوله ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ» أى: أن الدنيا شيء يتمتع به الإنسان كما يتمتع المسافر بزاده ثم ينتهى .. كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] .. فالدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة التى يُزينها دينها وعقلها وأخلاقها ... فهذه المرأة هى خير متاع الدنيا؛ لأنها تحفظ زوجها فى بيته وولده وماله وعرضه وسره وتُدبر له حياته .. تُسرّه إذا نظر إليها وتُطيعه إذا أمرها . ولذا قال رسول الله ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢).

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَى النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الَّتِي تُسَرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تَخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَلَا مَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ»^(٣).

وعن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ مِنَ السَّعَادَةِ، وَثَلَاثَةٌ مِنَ الشَّقَاءِ، فَمِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ؛ تَرَاهَا فَتُعْجِبُكَ، وَتَغِيبُ عَنْهَا فَتَأْتُمُّهَا عَلَى نَفْسِهَا وَمَالِك...»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٧) كتاب الرضاع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والنسائى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٩٨).

(٤) حسن: رواه الحاكم فى المستدرک، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٥٦).

❖ ومن العجب أنك تجد مَنْ يبحث عن الجمال أو المال أو الحسب والنسب ولا يبحث عن ذات الدين التي يجعلها الله بركة عليه وعلى بيته وأولاده..

وأقول أنه لا مانع من أن تبحث عن زوجة متدينة وجميلة.. أو متدينة وذات حسب ونسب.. لكن الأصل الذي تختار من أجله هو الدين.. عملاً بوصية النبي ﷺ «فاظفر بذات الدين تربت يداك».

❖ وهذا مثالٌ حيٌّ لشابٍ وقع أسيراً للعنصر الجمال.

- يحكى لنا الشاعر قصته فيقول:

برسالة يُيكى ويُضحك ما بها	بعث امرؤً لأبى عزيزة مرة
حسناء معروفٌ لديكم أصلها	فيها يقول أريد منك صبية
ورشيده ورزينة في عقلها	وعفيفة وحليمة وأديبة
وعلى النساء تُرى تفوق بفضلها	قد أحرزت في العلم غير شهادة
تعطيه من بعد الزواج لبعلها	وتكون ذات مالٍ وافرٍ

❖ فردَّ عليه أبو عزيزة قائلاً:

وعرفت هاتيك المطالب كلها	وافى كتابك سيدى فقرأته
طلقتُ أم عزيزة وأخذتها	لو كنت أقدر أن أرى مَنْ تشتهى

(٣٥) باب حق الزوج على المرأة

❖ قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَلِحْ حَتَّىٰ قَنِتَتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

(٢٨٦) وأما الأحاديث فمنها حديث عمرو بن الأحوص السابق في الباب قبله.

❖ لما ذكر المصنف رحمه الله حقوق الزوجة على زوجها ذكر بعدها حقوق الزوج على زوجته .. وهذا من باب العدل والإنصاف .

ثم استدل بقول الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي قائمون عليهن بالأمر والنهي، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصَّهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والإنفاق والتأديب ... قال أبو السعود: «والتفضيل للرجل لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأي ومزيد القوة، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك»^(١) ﴿فَأَلْصَلِحْ حَتَّىٰ قَنِتَتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ هذا تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل، وقد ذكر تعالى أنهن قسمان: قسمٌ صالحات مطيعات، وقسمٌ عاصيات متمردات... فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، قائمات بما عليهن من حقوق، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن حافظات لما يجرى بينهن وبين أزواجهن مما يجب كتبه ويَجْمَلُ ستره ...

وفي الحديث: «إِنْ مِنْ شَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضَىٰ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ وَتُفْضَىٰ إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ أَحَدُهُمَا سِرَّ صَاحِبِهِ» ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ سُوءَ بَيِّنَةٍ﴾ هذا

(١) إرشاد العقل السليم (١/٣٣٩).

القسم الثانى وهنَّ النساءُ العاصيات المتمردات .. أى واللاتى يتكبرون ويتعاليين عن طاعة الأزواج فعليكم أيها الرجال أن تسلكوا معهن سُبُلَ الإصلاح **﴿فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾** أى فخوفوهنَّ الله بطريق النصح والإرشاد، فإن لم ينجح الوعظ والتذكير فاهجروهنَّ فى الفراش فلا تكلموهن ولا تقربوهن ... قال ابن عباس: الهجر ألا يجامعها وأن يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره^(١)، فإن لم يرتدعن فاضربوهن ضرباً غير مُبْرَح **﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾** أى فإن أطعن أمركم فلا تلتمسوا طريقاً لإيذائهن **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾** أى فإن الله تعالى أعلى منكم وأكبر وهو وليهن ينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن ..

انظر كيف يعلمنا سبحانه أن نؤدب نساءنا وانظر إلى ترتيب العقوبات ودقتها حيث أمرنا بالوعظ ثم بالهجران ثم بالضرب ضرباً غير مُبْرَح ثم ختم الآية بصفة العلو والكبر ليُنبه العبد على أن قدرة الله فوق قدرة الزوج عليها وأنه تعالى عون الضعفاء وملاذ المظلومين!^(٢)

﴿وَمَا يَكْفُرُ لَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾

(٢٨٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٣).

وفى رواية لهما: «إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ»... وفى رواية قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْتِيهِ عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ سَاخِطاً عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا».

❁ ومن أعظم الحقوق التى يجب على الزوجة أن تطيع فيها الزوج فى أى

(١) مختصر تفسير ابن كثير (١/٣٨٦).

(٢) صفوة التفاسير (١/٢٥١-٢٥٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٣) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٣٦) كتاب النكاح.

وقتٍ يشاء ويريد، حق الزوج في الفراش، فإن الزوجة إن امتنعت عن زوجها إن دعاها لفراشه بغير سبب فقد ارتكبت كبيرة من الكبائر.

فإن امتنعت المرأة عن الزوج للدلال أو للضغط عليه، أو من أجل أن يأتي الزوج لها بما تشتهي، وبما تريد بغير سبب شرعى فقد ارتكبت الزوجة كبيرة من الكبائر.

فقد قال ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».

ولعن الملائكة يعنى أنها تدعو على هذه المرأة باللعنة... واللعنة هى الطرد والإبعاد عن رحمة الله... فإذا دعاها إلى فراشه ليستمتع بها بما أذن الله له فيه فأبت أن تجيء، فإنها تلعنها الملائكة والعياذ بالله، أى تدعو عليها باللعنة إلى أن تُصبح.

قال الإمام النووي: «هذا دليل على تحريم امتناعها من فراشه لغير عُذر شرعى، وليس الحيض بعذر في الامتناع؛ لأن له حقاً في الاستمتاع بها فوق الإزار.

ومعنى الحديث: أن اللعنة تستمر عليها حتى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها أو بتوبتها ورجوعها إلى الفراش^(١) اهـ.

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا تؤدّى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها، ولو سألها نفسها وهى على قَتَب^(٢)، لم تمنعه نفسها»^(٣).

وفي الرواية الأخرى أن النبى ﷺ قال: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا».

(١) انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (٩/١٠).

(٢) قَتَب: رَحْل صغير.

(٣) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، وحسنه الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (٥٢٩٥).

وهذا أشد من الأول؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا سخط فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان ... نسأل الله العافية.

ودليل ذلك أن الله تعالى ذكر في آية اللعان أنه إذا لاعن الرجل يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [النور: ٧]. وهى إذا لاعنت تقول: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩]. وهذا يدل على أن الغضب أشد.

وفى هذا: دليل على عِظَم حق الزوج على زوجته، ولكن هذا فى حق الزوج القائم بحق الزوجة، أما إذا نشر ولم يَقُمْ بحقها، فلها الحق أن تقتص منه وألا تعطيه حقه كاملاً ... لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

لكن إذا كان الزوج مستقيماً قائماً بحقها فنشرت هى وضيعت حقه فهذا جزاؤها إذا دعاها إلى فراشه فأبت أن تأتى.

والحاصل أن هذه الألفاظ التى وردت فى هذا الحديث هى مُطْلَقَةٌ، لكنها مقيدة بكونه قائماً بحقها، أما إذا لم يَقُمْ بحقها فلها أن تقتص منه وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها^(١).

❁ ولقد سئل فضيلة الشيخ / محمد بن صالح العثيمين رحمته الله:

هل يقع على المرأة إثم إن امتنعت عن زوجها حين يطلبها بسبب حالة نفسية عابرة تمر بها، أو لمرضٍ أَلَمَّ بها؟.

الجواب: «يجب على المرأة أن تجيب زوجها إذا دعاها إلى فراشه، ولكن إذا كانت مريضة بمرضٍ عضوى لا تتمكن من مقابلة الزوج معه أو مريضة بمرض نفسى فإن الزوج فى هذه الحال لا يحل له أن يطلب ذلك لقول النبى

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا ضرر ولا ضرار»^(١) وعليه أن يتوقف أو يستمتع بها على وجه لا يؤدي إلى ضرر»^(٢) اهـ.

✽ فالخلاصة: أنه يجب على الزوجة أن تستجيب لأمر الزوج إذا دعاها للفراش إلا إذا كانت حائضاً فله أن يستمتع بها دون الفرج .. وكذلك إذا كانت مريضة فعليه أن يعذرهما ولا يشق عليها وأن يراعى أحوال زوجته وظروفها فهذا كله من المودة والرحمة التي جعلها الله بين الزوجين.

وفي هذا الحديث: دليل صريح لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة من أن الله ﷻ في السماء ... هو نفسه (جلّ وعلا)، فوق عرشه، فوق سبع سموات، وليس المراد بقوله: «في السماء» أي ملكه في السماء، بل هذا تحريف للكلم عن مواضعه.

وتحريف الكلم عن مواضعه من صفات اليهود والعياذ بالله الذين حرفوا التوراة عن مواضعها وعما أراد الله بها... فإن ملك الله سبحانه وتعالى في السماء وفي الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩]. وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال أيضاً: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»^(٣).

✽ فهذا من حقوق الزوج على زوجته، أنه لا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه ما دام حاضراً في البلد، أما إذا كان غائباً فلها أن تصوم ما شاءت، لكن إذا كان في

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥١٧).

(٢) «فتاوى المرأة» لفضيلته (٦٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٩٥) كتاب النكاح، ومسلم (١٠٢٦) كتاب الزكاة.

البلد فلا تصوم.

ولذا فإنه لما جاءت امرأة صفوان بن المعطل تشكو إلى رسول الله ﷺ أمورًا ذكرت منها أنه: يُفطرها إذا صامت» فسأله ﷺ عما قالت، فقال فيما قال: (....) وأما قولها يُفطرني إذا صمت، فإنها تنطلق فتصوم، وأنا رجلٌ شاب، فلا أصبر)، فقال رسول الله ﷺ يومئذ: «لا تصومنَّ امرأة إلا بإذن زوجها»^(١) الحديث. قال الحافظ: «وفي الحديث أن حق الزوج أكد على المرأة من التطوع بالخير، لأن حقه واجب، والقيام بالواجب مُقدّم على القيام بالتطوع»^(٢).

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: عن رجل له زوجة تصوم النهار، وتقوم الليل، وكلما دعاها الرجل إلى فراشه تأبى عليه، وتُقدم صلاة الليل، وصيام النهار على طاعة الزوج، فهل يجوز ذلك؟ فأجاب رَحِمَهُ اللهُ:

«لا يحل لها ذلك باتفاق المسلمين، بل يجب عليها أن تطيعه إذا طلبها إلى الفراش، وذلك فرض واجب عليها، وأما قيام الليل، وصيام النهار، فتطوع، فكيف تُقدم مؤمنة النافلة على الفريضة؟»^(٣) اهـ.

❖ والحقيقة أن الأمر فيه تفصيل:

فالزوجة إذا أرادت أن تصوم رمضان فإنها لا تحتاج إلى إذن الزوج في صيام الفريضة، ولا يجوز له أن يمنعها ... فإن أراد منعها فعليها أن تصوم؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

❖ أما إذا أرادت أن تصوم صيام نافلة أو تطوع فلا بد أن تستأذن زوجها قبل أن تبدأ في الصيام إن كان زوجها حاضراً.. وإن كان زوجها مسافراً فلها أن

(١) صحيح: أخرجه أحمد، وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٥٩).

(٢) فتح الباري (٢٩٦/٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧٤/٣٢).

تصوم كما شاءت.

❁ وأما إذا كانت قد فاتها بعض الأيام من صيام رمضان لعذرٍ فإن كان قد بقي من السنة مدة أكثر مما يجب عليها، فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذن زوجها إذا كان شاهداً، يعنى مثلاً عليها عشرة أيام من رمضان، وهى الآن فى رجب، وقالت: أريد أن أصوم القضاء، نقول: لا تصومى القضاء إلا بإذن الزوج؛ لأن معك سعة من الوقت، أما إذا كان بقى فى شعبان عشرة أيام فلها أن تصوم وإن لم يأذن، لأنه لا يحل للإنسان الذى عليه قضاء من رمضان أن يؤخره إلى رمضان الثانى، وحينئذ تكون فاعلة لشيء واجب فرض فى الدين، وهذا لا يُشترط فيه إذن الزوج ولا غيره.

❁ وقد يسأل سائل ويقول: هل تستأذن المرأة أيضاً فى الصلاة؟

والجواب: أنها لا تستأذن فى صلاة الفريضة ولا فى صلاة النافلة؛ لأن وقت الصلاة قصير على العكس من وقت الصيام فوقته طويل .. فإذا احتاج الزوج زوجته فله أن يطلب منها ما يُريده بعد الفريضة التى لا تستغرق سوى دقائق .. وله أن يطلب منها تأجيل النافلة حتى يقضى حاجته فى دقائق معدودات ثم تغتسل فى دقائق وتبدأ فى صلاة النوافل كما تشاء .. فالأمر بالنسبة للصلاة أيسر بكثير من الصيام.

❁ قوله ﷺ: «ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه» فإنه لا يجوز لها أن تدخل أحدًا بيته إلا بإذنه ... لكن الإذن فى إدخال البيت نوعان:

الإذن الأول: إذن العُرف ... يعنى جرى به العُرف مثل دخول امرأة الجيران والقريبات والصاحبات والزميلات وما أشبه ذلك، هذا جرى العُرف به، وأن الزوج يأذن به، فلها أن تدخل هؤلاء إلا إذا منع وقال: لا تدخل عليك فلانة، فهنا يجب المنع، ويجب ألا تدخل.

والإذن الثانى: إذن لفظى، بأن يقول لها: أدخلى من شئت ولا حرج عليك إلا من كان منه مضرة فلا تدخله... فيتقيد الأمر بإذنه.

(٢٨٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ.. فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

✽ الخطاب للأمة جميعاً يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راعٍ ومسئول عن رعيته.. والراعى هو الذى يقوم على الشئ ويرعى مصالحه فيهيئها له، ويرعى مفسده فيُجنبه إياها... كراعى الغنم ينظر ويبحث عن المكان الخصب حتى يذهب بالغنم إليه، وينظر فى المكان المُجذب فلا يتركها فى هذا المكان. هكذا بنو آدم... كل إنسان راعٍ، وكلُّ مسئول عن رعيته.. فالأمر راعٍ ومسئول عن رعيته، والأمراء يختلفون فى نفوذهم وفى مناطق أعمالهم.

قد يكون هذا الأمير أميراً على قرية صغيرة، فتكون مسئوليته صغيرة، وقد يكون أميراً على مدينة كبيرة فتكون مسئوليته كبيرة، وقد يكون مسئولاً عن أمة، كالرؤساء فى البلاد الأخرى، وكأمرء المؤمنين فى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم... وكالخلفاء فى زمن بنى أمية وبنى العباس وغيرهم^(٢).

والصورة التى نقف عليها فى هذا الحديث الرائع الجميل تتمثل فى راعٍ يرعى غنماً.. وتنتظره محاسبة صارمة دقيقة يُحاسب فيها حساباً عسيراً... يُحاسب عن صحة الغنم وشبعها وريئها وسلامتها ونمائها، فإذا عرف هذا الراعى أنه يترتب على المحاسبة مسؤولية تقتضى بعقابه العقاب الأليم إن أساء، ومكافئته

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٠٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٧٧/٢).

إن أحسن .. إنه - دون شك - سيرعى غنمه عندئذ أفضل رعاية، وسيقوم بشؤونها على أتم الوجوه.

إن الحاكم والعالم لا شك في أن لهما دورًا كبيرًا، ولكن ينبغي أن نقوم نحن بواجبنا الذي أوجبه الله علينا، ولا سيما في بيوتنا وفي تربية أولادنا.

إن علينا أن نكون عونًا للعلماء العاملين وللحكام العادلين، وألا نلقى كل شيء عليهما، ولا يستطيع العالم والحاكم أن يقوموا بكل شيء.. ولذلك جاء الحديث بلفظ العموم: «كلكم راع» وفي الحديث لون من تنمية الشخصية وإشعار الإنسان بقيمته... فكل امرئ له رعية مهما كان شأنه حتى ولو كان خادمًا. ولو شعر الناس بالمسؤولية بهذا المقياس لانحلت كثير من المشكلات^(١).

❁ قوله ﷺ: «وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وفي الحقيقة أن مسؤولية الرجل عن البيت والأسرة والأولاد تبدأ من قبل الزواج وذلك بأن يُحسن اختيار الزوجة الصالحة التي ستكون أمًّا لأولاده بعد ذلك وسيرضعون من أخلاقها كل الخصال والأخلاقيات الطيبة.

❁ ويستمر دور الأب في تلك المسؤولية الكبيرة بأن يُحصن أولاده قبل مجيئهم إلى هذه الدنيا، ويكون ذلك عند الزواج وقبل الدخول بالزوجة يُسنُّ للزوج أن يأخذ بناصيتها ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرِّها وشرِّ ما جبلتها عليه»^(٢).

وعند الدخول بالزوجة يُسنُّ للزوج أن يقول: «بسم الله اللهم جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا» وهذا سنة عند كل جماع.

(١) من هدى النبوة / د. محمد لطفي الصباغ (ص ٣٨٨-٣٩٠) بتصرف كبير.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٣٤١).

ففى «الصحيحين» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَمَّا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِى أَهْلَهُ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنِى الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قَدَّرَ بَيْنَهُمَا فِى ذَلِكَ، أَوْ قُضِيَ وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»^(١).

ثم يختار لهم الأسماء الحسنة الطيبة:

ففى «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^(٢).

ثم يأمرهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين.

قال رسول الله ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِى الْمَضَاجِعِ»^(٣).

ومن حسن التربية تفقد أحوال الأولاد والنظر فى أصدقائهم: وحثهم على اختيار الأصدقاء الصالحين وتحذيرهم من أصدقاء السوء.

ففى «الصحيحين» من حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(٤).

❦ ويحرص الأب على أن يربى أولاده على العقيدة الصحيحة ويحذرهم من الوقوع فى الشرك الأكبر والأصغر.

ويحرص كل الحرص على أن يُحفظهم القرآن وأن يُعلمهم العلم الشرعى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٧١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٤٣٤) كتاب النكاح.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٢) كتاب الآداب.

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٦٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة.

وأن يقرأ عليهم سيرة الرسول ﷺ وأصحاب الرسول ليتعلموا سيرة أسوتهم وقدوتهم محمد ﷺ وسيرة أصحابه ﷺ فينشأوا نشأة طيبة صالحة فيحبوا الصالحين ويحبوا أصحابهم... بل ويحرص على أن يعلمهم أخلاق الرسول ﷺ لتكون لهم نبراساً في حياتهم.

❁ وكذلك المرأة يجب عليها أن تكون راعية في بيت زوجها فتحفظه في ماله وعرضها وتحفظه في أولاده فتهتم بشئونهم وتربيهم على الأخلاق الحميدة وتهتم بطعام زوجها وأولادها ونظافة ونظام البيت الذي يعيشون فيه وتهتم بدروس أولادها وتحرص على تفوقهم في الدراسة ..

وهكذا تكون المرأة ميزان البيت الذي يحفظ البيت من كل ما يهدمه... فهي راعية وأمانة على زوجها وأولادها ويكون عليها النصيب الأكبر في تربية الأولاد الذين هم ثمرة المستقبل.

❁ هكذا يكون الأب راعياً في أهله .. وهكذا تكون الأم راعية في بيتها... لأن الله ﷻ أمرنا أن نقى أنفسنا وأهلينا نار جهنم.. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله ﷺ وأسلمتم وجوهكم لله، احفظوا أنفسكم، وصونوا أزواجكم وأولادكم، من نارٍ حامية مستعرة، وذلك بترك المعاصي وفعل الطاعات، وبتأديبهم وتعليمهم... قال مجاهد: أي اتقوا الله، وأوصوا أهلكم بتقوى الله وقال الخازن: أي مروهم بالخير، وانهوهم عن الشر، وعلموهم وأدبوهم حتى تقوهم بذلك من النار^(١)، والمراد بالأهل النساء والأولاد وما ألحق بهما ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي حطبها الذي تُسعر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة... قال المفسرون: أراد بالحجارة حجارة الكبريت، لأنها أشد الأشياء حرًا، وأسرع اتقادًا... وعنى بذلك

(١) تفسير الخازن (٤/ ١٢١).

أنها مُفَرِّطَةُ الحرارة، تتقد بما ذُكر، ليست كنار الدنيا تتقد بالحطب ونحوه ... قال ابن مسعود: حطبها الذي يُلقَى فيها بنو آدم، وحجارةٌ من كبريت، أنتن من الجيفة^(١) ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلاظٌ شِدَادٌ﴾ أى على هذه النار زبانيةٌ غلاظ القلوب، لا يرحمون أحداً، مُكَلَّفُونَ بتعذيب الكفار ... قال القرطبي: المراد بالملائكة الزبانية، وهم غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا، لأنهم خُلقوا من الغضب، وَحُبِّ إِلَيْهِمْ عَذَابُ الْخَلْقِ كَمَا حُبِّ ابْنِ آدَمَ أَكَلَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ^(٢) ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ أى لا يعصون أمر الله بحالٍ من الأحوال ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أى وينفذون الأوامر بدون إمهال ولا تأخير^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩٠) وَعَنْ أَبِي عَلِيٍّ طَلْقَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلَتَاتِهِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى النَّوْرِ»^(٤).

﴿قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ» أَيْ الْمُخْتَصَّةُ بِهِ كِنَايَةً عَنِ الْجَمَاعِ «فَلَتَاتِهِ» أَيْ لَتَجِبَ دَعْوَتُهُ «وَإِنْ كَانَتْ عَلَى النَّوْرِ» أَيْ وَإِنْ كَانَتْ تَخْبِزُ عَلَى النَّوْرِ مَعَ أَنَّهُ شُغْلٌ شَاغِلٌ لَا يُتَفَرَّغُ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا بَعْدَ انْقِضَائِهِ. قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ: هَذَا بِشَرَطٍ أَنْ يَكُونَ الْخُبْزُ لِلزَّوْجِ لِأَنَّهُ دَعَاهَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ فَقَدْ رَضِيَ بِاتِّلَافِ مَالِ نَفْسِهِ... وَتَلَفُ الْمَالِ أَسْهَلُ مِنْ وَقُوعِ الزَّوْجِ فِي الزَّانِي»^(٥).

وقد تحدثنا عن شرح ذلك بالتفصيل عند شرح الحديث رقم (٢٨٧).

فأرجو مراجعة شرحه ... بارك الله فيكم.

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٥٢٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٨/١٩٦).

(٣) صفوة التفاسير (٣/٣٨٦).

(٤) صحيح: رواه الترمذی، والنسائي، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٤).

(٥) تحفة الأحمدي (٤/٢٤).



(٢٩١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»^(١).

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» أَيْ لِكَثْرَةِ حُقُوقِهِ عَلَيْهَا وَعَجْزِهَا عَنِ الْقِيَامِ بِشُكْرِهَا. وَفِي هَذَا غَايَةُ الْمُبَالَغَةِ لَوْجُوبِ إِطَاعَةِ الْمَرْأَةِ فِي حَقِّ زَوْجِهَا فَإِنَّ السَّجْدَةَ لَا تَحِلُّ لِغَيْرِ اللَّهِ^(٢).

❁ وَأَذْكَرُ بِمُنَاسَبَةِ هَذَا الْحَدِيثِ قِصَّةٌ عَجَبِيَّةٌ .

الجمال يسجد للحبيب ﷺ

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ هُنَاكَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَهُمْ جَمَلٌ يَسْقُونَ عَلَيْهِ أَرْضَهُمْ فَأَصْبَحَ الْجَمَلُ مَفْتَرِسًا لَا يَنْقَادُ لَهُمْ فَذَهَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُونَ إِلَيْهِ حَالَهُمْ وَأَنَّهُمْ قَدْ أَجْدَبَتْ أَرْضَهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْجَمَلِ .

فَذَهَبَ مَعَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ... وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَخَافُونَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْجَمَلِ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَنْ يَصِيْبَهُ بِسُوءٍ .. وَاقْتَرَبَ مِنَ الْجَمَلِ فَجَاءَ الْجَمَلُ إِلَيْهِ مُسْرِعًا حَتَّى سَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخَذَ بِنَاصِيئِهِ حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ مَرَّةً أُخْرَى ..

❁ وَهِيَ الْقِصَّةُ كَامِلَةٌ نَذَكْرُهَا مِنْ خِلَالِ هَذَا الْحَدِيثِ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ (أَيْ: يَسْقُونَ عَلَيْهِ) وَأَنَّهُ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِمْ فَمَنْعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَأَنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنِي عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ اسْتَصْعَبَ عَلَيْنَا وَمَنْعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطَشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ:

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٩٤).

(٢) تحفة الأحوذى (٤/٥٣).

«قوموا» فقاموا، فدخل الحائط - البستان -.. والجمل في ناحيته، فمشى النبي ﷺ نحوه فقالت الأنصار: يا رسول الله إنه قد صار مثل الكلب الكلب^(١) وإنّا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس عليّ منه بأس»، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خَرَّ ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قَط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه، يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عَظَمَ حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تتفجر بالقيح والصدید ثم استقبلته فلحسته ما أدّت حقه»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩٢) وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ»^(٣).

✽ هذا الحديث ضعيف ولكن معناه صحيح.. وقد وعدتكم ألا أشرح حديثاً ضعيفاً.. نفعني الله وإياكم بالسُّنَّةُ الصحيحة الثابتة عن حبيبنا محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩٣) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا»^(٤).

✽ قوله ﷺ: «لَا تُؤْذِي امْرَأَةً زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا» أي: بأي نوع من أنواع الإيذاء

(١) أي: الكلب المفترس.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٢٥).

(٣) ضعيف: رواه الترمذی، وابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٢٢٧).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذی، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٩٢).

.. فكل زوجة تعلم جيداً ما الذى يؤذى زوجها..

«إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ» أى أن زوجته من الحور العين التى هى من نساء أهل الجنة تغار على زوجها الصالح من أهل الدنيا وتقول لزوجته إذا أذته: «لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ» أى: قتلك أو لعنك أو عاداك.

(فَإِنَّمَا هُوَ) أَيْ الزَّوْجُ (عِنْدَكَ دَخِيلٌ) أَيْ ضَيْفٌ وَنَزِيلٌ .. يَعْنِي هُوَ كَالضَّيْفِ عَلَيْكَ وَأَنْتِ لَسْتِ بِأَهْلٍ لَهُ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا نَحْنُ أَهْلُهُ فَيَفَارِقُكَ وَيَلْحَقُ بِنَا (يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَ إِلَيْنَا) أَيْ وَاصِلًا إِلَيْنَا^(١).

فلتحذر المسلمة المؤمنة أن تكون من أولئك النساء المولعات بمخالفة أزواجهن... فلا تؤمر الواحدة منهن بشيء إلا سارعت إلى مخالفته حتى ولو كان فيه مصلحتها... إن هؤلاء يقعن فى سخط الله، ويُعرضن حياتهن للدمار، وتدعو عليهن الحور العين.

فاحرصى يا أختاه على إدخال السعادة والسرور على زوجك فإن الغريب يأنس إلى غريب مثله ونحن فى غربة لا يعلمها إلا الله... فعلينا أن نتراحم فيما بيننا لتكون المودة والرحمة بين الزوج وزوجه كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].



(٢٩٤) وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢).

✽ لقد أشار القرآن الكريم إلى خطر الفتنة بالمرأة، فقال سبحانه وتعالى:

(١) تحفة الأحوذى (٣٧/٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

فقدّم سبحانه النساء لعراقتهن في هذا الباب، ولأن أكثر الرجال إنما دخل عليهم الخلل من قبل هذه الشهوة... ولعله لأجل ذلك أيضًا قدّم سبحانه وتعالى المرأة على الرجل في قوله جل وعلا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وقال سبحانه وتعالى حاكياً عن عزيز مصر: ﴿قَالَ إِنَّهُمِ كَكَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وبين النبي ﷺ خطر فتنة النساء قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. فقال ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مُستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١). وقال ﷺ: «ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(٢). وقال ﷺ: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»^(٣).

قال الطيبي: «والمعنى المتبادر أنها ما دامت في خدرها لم يطمع الشيطان فيها، وفي إغواء الناس... فإذا خرجت طمع؛ وأطمع لأنها حباثته، وأعظم فحوخه». قال المنذرى: «أى ينتصب ويرفع بصره إليها، ويهم بها، لأنها قد تعاطت سبباً من أسباب تسلطه عليها، وهو خروجها من بيتها».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنما النساء عورة، وإن المرأة لتخرج من بيتها ما بها بأس، فيستشرفها الشيطان، فيقول: إنك لا تمرين بأحدٍ إلا أعجبته... وإن المرأة لتلبس ثيابها، فيقال: أين تريد؟ فتقول: أعود مريضاً، أو أشهد جنازة،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٦٩٠).

أو أصلى في مسجد.. وما عبت امرأة ربها مثل أن تعبد في بيتها».

فالواجب علينا أن نُسَدَّ كل طريق يُوجب الفتنة بالمرأة.. فكل طريق يُوجب الفتنة بالمرأة فإن الواجب على المسلمين سَدُّه.. ولذلك وجب على المرأة أن تحتجب عن الرجال الأجانب، فتلبس حجابها ويجب عليها كذلك أن تبتعد عن الاختلاط بالرجال؛ لأن الاختلاط بالرجال فتنة وسببٌ للشهر من الجانبين، من جانب الرجال ومن جانب النساء.

ولهذا قال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» وما ذلك إلا من أجل بُعد المرأة عن الرجال.. فكلما بعدت فهو خيرٌ وأفضل.

وقد كان النبي ﷺ يأمر النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد، ولكنهن لا يختلطن مع الرجال، بل يكون لهن موضع خاص، وكان هذا.. والعصر عصر قوة في الدين وبُعد عن الفواحش، فكيف بعصرنا هذا؟.

فإن الواجب تَوْقِي فتنة النساء بكل ما يُستطاع، ولا ينبغي أن يغرن ما يدعو إليه أهل الشر والفساد من المقلدين للكفار، من الدعوة إلى اختلاط المرأة بالرجال، فإن ذلك من وحى الشيطان والعياذ بالله.. هو الذي يُزين ذلك في قلوبهم، وإلا فلا شك أن الأمم التي كانت تُقدم النساء وتجعلن مع الرجال مختلطات، لاشك أنها اليوم في ويلاتٍ عظيمة من هذا الأمر، يتمنون الخلاص منه فلا يستطيعون^(١).

ومن بين تلك الولايات التي يُعاني منها المجتمع الغربي بسبب الاختلاط والإباحية والوقوع في فتنة النساء:

(١) انحلال الأخلاق:

فانحلال الأخلاق وطغيان الشهوات، وانتصار الحيوانية على الإنسانية،

(١) شرح رياض الصالحين (٧٩ / ٢) بتصرف.



وضياع الحياء والعفاف بين النساء والرجال، واضطراب المجتمع كله نتيجة ذلك. ولقد قال الرئيس الراحل «كينيدى» في تصريح مشهور له، تناقلته الصحف ووكالات الأنباء عام ١٩٦٢: «إن الشباب الأمريكى مائع مُتَرَف مُنحل، غارق فى الشهوات، وإن من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، بسبب انهماكهم فى الشهوات» .. وأُذِر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا.

(٢) فى انتشار الأبناء غير الشرعيين:

وهى ظاهرة لازمة لانطلاق الغرائز، وذوبان الحواجز بين الفتيان والفتيات... وقد قامت بعض المؤسسات فى أمريكا، بعمل إحصاء للحبالى من طالبات المدارس الثانوية، فكانت النسبة مخيفة جداً.

(٣) كثرة العوانس بين الفتيات والعُزَّاب من الشباب:

فإنَّ وجود السُّبُل الميسرة لقضاء الشهوة، بغير تحمُّل تبعه الزواج وبناء الأسرة، جعل كثيراً من الشباب يختارون الطريق الأسهل، ويقضون أيام شبابهم بين هذه وتلك، متمتعين بلذة التنويع، دون التقيد بالحياة المُتشابهة المتكررة كما يزعمون! ودون التزام بتكاليف الزوجية والمسئولية، والأبوة الراحية.

وكان من نتيجة ذلك وجود كثرة هائلة من الفتيات، تقضى شبابها محرومة من زوج تسكن إليه ويسكن إليها، إلا العابثين الذين يتخذونها أداة للمتعة الحرام... ويقابل هؤلاء الفتيات كثرة من الشباب العُزَّاب المحرومين من الحياة الزوجية.

(٤) كثرة الطلاق وتدمير البيوت لأنفاه الأسباب:

فإذا كان دون الزواج هناك عقبات وعقبات، فإن هذا الزواج، بعد تحقيقه غير مضمون البقاء، فسرعان ما تتحطم الأسرة، وتنقسم الروابط لأدنى الأسباب.

ففى أمريكا تزداد نسبة الطلاق عاماً بعد عام إلى حَدٍّ مُفزع.

والذى يُقال عن أمريكا، يُقال عن معظم البلاد الغربية.

(٥) انتشار الأمراض الفتاكة:

انتشار الأمراض السرية، والعصبية، والعقلية، والنفسية، وكثرة العُقد والاضطرابات التي يُعَد ضحاياها بمئات الألوف.

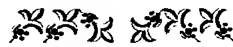
ومن أشد الأمراض خطرًا: ما اكتُشف أخيرًا وعُرف باسم «الإيدز» الذي يفقد المناعة من الجسم ويُعرضه للتهلكة... وغدا يهدد الملايين في أوروبا وأمريكا بأخطر العواقب، كما دلّت على ذلك التقارير الطبية والإحصاءات الرسمية التي نشرتها مجلات وصحف في العالم كله.. وصدق بهذا ما حذر منه رسول الله ﷺ حيث قال في حديثه: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»^(١).

هذا غير الأمراض العصبية والنفسية التي انتشرت عندهم انتشار النار في الهشيم، وامتلأت بمرضاها المستشفيات والمصحات.

فهل يريد دُعاة الاختلاط أن ينقلوا هذه العلل والأمراض إلى مجتمعاتنا وقد كفانا الله شرها وأعاذنا منها؟! أم أن هذه الأرقام والإحصاءات غائبة عن أذهانهم؟!!

لقد زعم «فرويد» ومن تبعه من علماء النفس أن رفع القيود التقليدية عن الغريزة الجنسية يريح الأعصاب، ويحل عقد النفوس، ويمنحها الهدوء والاطمئنان.

ها هي القيود قد رُفعت، وها هي الغرائز قد أُطلقت، فلم تزد النفوس إلا تعقيدًا، ولم تزد الأعصاب إلا توترًا، وأصبح القلق النفسى هو مرض العصر هناك، ولم تُغنِ آلاف العيادات النفسية عنهم شيئًا^(٢).



(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) ملامح المجتمع المسلم الذى نشده / د. يوسف القرضاوى (ص ٣٧٧-٣٨١) بتصرف كبير.

(٣٦) باب النفقة على العيال

✽ العيال: هم الذين يعولهم الإنسان من زوجة أو قريب أو مملوك.

وقد سبق الكلام على حقوق الزوجة.. أما الأقارب فلهم حق..

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي

الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]

فالقريب له حق في أن يُنفق عليه، يعنى أن تبذل له من الطعام والشراب والكسوة والسكنى ما يقوم بكفايته.

✽ قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا شامل لما إذا

كانت في حباله أو مُطلقة، فإن على الأب رزقها أي: نفقتها وكسوتها، وهى الأجرة للرضاع.

ودلّ هذا على أنها إذا كانت في حباله، لا يجب لها أجرة غير النفقة والكسوة.. وكُلٌّ بحسب حاله، فلهذا قال: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يُكَلِّفُ الفقير أن ينفق نفقة الغنى، ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد^(١).

✽ وقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا سَيِّجَعُلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ففى هذه الآية قدر الله تعالى النفقة بحسب حال الزوج فقال تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾؛ أي: لينفق الغنى من غناه فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾؛ أي: ضيق عليه ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ﴾ من الرزق. ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً ءَاتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلاً بحسبه،

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٥).

وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها في باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وهذه بشارة للمعسرين أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً^(١).
 ثم قال تعالى مبشراً ذلك المنفق بأنه سبحانه وتعالى سيُخلف عليه بالحلال الطيب: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾

[سبأ: ٣٩].

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفقة واجبة، أو مُستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، أو غير ذلك. ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما يُنقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها^(٢).
 ومن المعلوم أن أجر الإنفاق على الزوجة والأولاد عظيم جداً.
 وقد أورد المصنف رحمه الله مجموعة من الأحاديث التي تدل على فضل الإنفاق على الزوجة والأولاد.

بَابُ الْإِنْفَاقِ عَلَى الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ

(٢٩٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»^(٣).

وهذا الحديث أورده الإمام مسلم في باب: فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم.
 وأورد رواية أخرى توضح هذا المعنى أكثر... وهي الرواية القادمة.

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٣٤).

(٢) تفسير السعدي (ص ٨٠١).

(٣) صحيح. رواه مسلم (٩٩٥) كتاب الزكاة.

(٢٩٦) عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ الرَّجُلُ عَلَى ذَاتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفَقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَآيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا، مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ، يُعْفُهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَيُعِينُهُمْ^(١).

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَقْصُودُ الْبَابِ الْحَثُّ عَلَى النِّفْقَةِ عَلَى الْعِيَالِ، وَبَيَانُ عِظَمِ الثَّوَابِ فِيهِ؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ بِالْقَرَابَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ مَنُذُوبَةً، وَتَكُونُ صَدَقَةً وَصِلَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ تَكُونُ وَاجِبَةً بِمِلْكِ النِّكَاحِ أَوْ مِلْكِ الْيَمِينِ، وَهَذَا كُلُّهُ فَاضِلٌ مَحْثُوثٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ» مَعَ أَنَّهُ ذَكَرَ قَبْلَهُ النِّفْقَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي الْعِتَقِ وَالصَّدَقَةِ وَرَجَّحَ النِّفْقَةَ عَلَى الْعِيَالِ عَلَى هَذَا كُلِّهِ^(٢).

فالنفقة على الزوجة والأولاد أفضل بكثير من الإنفاق في سبيل الله وأفضل من عتق الرقاب وأفضل من الإنفاق على الفقراء والمساكين؛ لأن الله أوجب عليك أن تنفق على زوجتك وأولادك ... والإنفاق هنا فرض عين عليك .. والإنفاق على من سواهم ممن يستحقون الإنفاق عليهم فرض كفاية .. وفرض العين أفضل من فرض الكفاية.

ففرض العين إن لم تقم به تكون آثمًا .. أما فرض الكفاية فإذا قام به البعض وأنفق على المساكين سقط الإثم عن الآخرين.

وقد يكون الإنفاق على من سواهم على وجه التطوع .. والفرض أفضل من التطوع؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٩٤) (٣٨) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١١٣/٧).

إلى مما افترضته عليه»^(١).

لكن الشيطان يُرغِب الإنسان في التطوع ويُزهده في الواجب، فتجده مثلاً يحرص على الصدقة ويدع الواجب.. يتصدق على مسكين أو ما أشبه ذلك ويدع الواجب لأهله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩٧) وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِي أَجْرٌ فِي بَنِي أَبِي سَلَمَةَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ، وَلَسْتُ بِتَارِكْتَهُمْ هَكَذَا وَهَكَذَا، إِنَّمَا هُمْ بَنِيَّ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ لَكَ أَجْرٌ مَا أَنْفَقْتَ عَلَيْهِمْ»^(٢).

❁ فعلى الرغم من أنها تنفق على أبنائها بعد موت أبيهم إلا أن النبي ﷺ أخبرها وبشّرها أن لها أجراً إذا أنفقت عليهم.. وقد جرت العادة بين الناس أن الإنسان إذا أنفق على أبنائه فهذا أمرٌ لا يحتاج إلى احتساب الأجر؛ لأنه لا بد أن ينفق عليهم.. لكن النبي ﷺ يُلفت أنظارنا إلى أن نُجدد النية ونحن نفق على أولادنا لنفوز بالأجر والثواب على نفس العمل الذي كنا نعمله على سبيل العادة.. فحُثْنَا على أن نجدد النية لتتحول العادة إلى عبادة... ويتضح معنى هذا الحديث أكثر من خلال الحديثين الآتين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩٨) وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ فِي بَابِ النِّيَّةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَجَرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فِئِ امْرَأَتِكَ»^(٣).

(٢٩٩) وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٦٩) كتاب النفقات، ومسلم (١٠٠١) كتاب الزكاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

على أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(١).

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا أَجِزْتَ بِهَا حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلَهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» فِيهِ اسْتِحْبَابُ الْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَفِيهِ أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُثَابُ عَلَى عَمَلِهِ بِنِيَّتِهِ .. وَفِيهِ أَنَّ الْإِنْفَاقَ عَلَى الْعِيَالِ يُثَابُ عَلَيْهِ إِذَا قُصِدَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى ... وَفِيهِ أَنَّ الْمُبَاحَ إِذَا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى صَارَ طَاعَةً وَيُثَابُ عَلَيْهِ وَقَدْ نَبَّهَ ﷺ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ ﷺ: «حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلَهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ»^(٢).

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ» فِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّدَقَةِ وَالتَّفَقَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي بَاقِي الْأَحَادِيثِ إِذَا احْتَسَبَهَا ... وَمَعْنَاهُ أَرَادَ بِهَا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ أَنْفَقَهَا ذَاهِلًا وَلَكِنْ يَدْخُلُ الْمُحْتَسِبُ وَطَرِيقُهُ فِي الْإِحْتِسَابِ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ الْإِنْفَاقُ عَلَى الزَّوْجَةِ وَأَطْفَالِ أَوْلَادِهِ وَالْمَمْلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ عَلَى حَسَبِ أَحْوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِيهِمْ وَأَنَّ غَيْرَهُمْ مِمَّنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِ مَنْدُوبٌ إِلَى الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَيُنْفِقُ بِنِيَّةِ أَدَاءِ مَا أُمِرَ بِهِ وَقَدْ أُمِرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ»^(٣).

❁ وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ بَخَلَ عَلَى أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَلَمْ يَنْفِقْ عَلَيْهِمْ .. بَلْ وَيَشْمَلُ التَّهْدِيدُ كُلَّ مَنْ بَخَلَ عَنِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ يُلْزَمُهُ الْإِنْفَاقُ عَلَيْهِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ وَغَيْرِ الْآدَمِيِّينَ كَالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ وَالْمَوَاشِي وَغَيْرِ ذَلِكَ .. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ الْإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ أُلْزِمَ اللَّهُ بِالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥) كتاب الإيمان، ومسلم (١٠٠٢) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١١٢/١١).

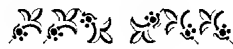
(٣) مسلم بشرح النووى (١٢٣/٧).

(٣٠٠) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»^(١).

(٣٠٠ أ) ورواه مسلم في صحيحه بمعناه قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ»^(٢).

❁ وإذا كان للأب الأجر والمثوبة في التوسعة على الأهل، والإنفاق على العيال.. فإن عليه بالتالي الوزر والإثم إذا أمسك عن الإنفاق، وقتر على الأهل والأولاد وهو مستطيع.. اسمعوا إلى ما يقوله عليه الصلاة والسلام في حق المضيعين لعيالهم، والممسكين عن نفقة أهلهم وأولادهم: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ».

ومن النفقة على العيال تهية الأب لأهله وعياله الغذاء الصالح، والمسكن الصالح، والكساء الصالح.. حتى لا تتعرض أجسامهم للأسقام، وتنهك أبدانهم الأوبئة والأمراض^(٣).



ثم نختم بهذه البشرى العظيمة لمن يخشى من الإنفاق.. وذلك بأن يعلم أنه إذا أنفق فإن الله ﻏَﻮَّ يُقَيِّدُ لَهُ مَلَكًا يَدْعُوهُ كُلَّ يَوْمٍ أَنْ يُخَلِّفَ اللَّهَ ﻏَﻮَّ عَلَيْهِ بِالْحَلَالِ.

(٣٠١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلْفًا»^(٤).

❁ لقد وعدنا الله ﻏَﻮَّ في كتابه أنه يُخَلِّفُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِيمَا أَنْفَقَهُ أَضْعَافًا

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٩٦) كتاب الزكاة.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام / د. عبد الله ناصح علوان (١/ ١٦١).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

كثيرة.. فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾

[سبأ: ٣٩].

أما مَنْ أَمْسَكَ وَلَمْ يَنْفِقْ فِيمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَهَذَا الَّذِي تَدْعُو عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ بِأَنَّ اللَّهَ يُتْلِفُهُ وَيُتْلِفُ مَالَهُ.

❁ والتلف نوعان: تلف حِسِّي، وتلف معنوي.

(١) التلف الحسّي: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تُحْرِقُهُ أو يُسْرِقُ أو ما أشبه ذلك.

(٢) والتلف المعنوي: أن تُنْزَعَ بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه في حياته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠١ أ) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَإِنْدَا بَمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ، يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ»^(١).

❁ إن المسلم لا بُدَّ أن يعمل وأن يجتهد من أجل أن يُعِفَّ نفسه وأسرته عن سؤال الناس.. وليس ذلك فحسب بل لا بد أن يحرص على أن تكون يده هي العليا دائماً. فيعطى هذا ويساعد هذا.. وذلك لأن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

فاليد العليا هي اليد المنفقة التي تُعطى وتبذل رغبة فيما عند الله ﷻ.. والمراد بالعلو هنا علو الفضل والمجد ونيل الثواب... واليد السفلى هي الآخذة... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الطَّاعَاتِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَذْهَبِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ... وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمُنْفِقَةُ، وَقَالَ غَيْرُهُ: الْعُلْيَا الْآخِذَةُ وَالسُّفْلَى الْمَانِعَةُ... وَالْمُرَادُ بِالْعُلُوِّ: عُلُوُّ الْفَضْلِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧، ١٤٢٨) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٤) كتاب الزكاة.

وَالْمَجْدِ وَنَيْلِ الثَّوَابِ^(١).

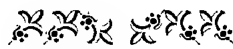
❁ «وابدأ بمن تعول» فالإنسان يبدأ بمن يعول... يعنى بمن يلزمه نفقته، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء، لأن الإنفاق على الأهل صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أولى.. والإنفاق على نفسك أولى من الإنفاق على غيرك، كما جاء في الحديث: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك».

وفيه الابتداء بالأهم فالأهم في الأمور الشرعية.

«وَحَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى» مَعْنَاهُ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا بَقِيَ صَاحِبُهَا بَعْدَهَا مُسْتَغْنِيًا بِمَا بَقِيَ مَعَهُ... وَتَقْدِيرُهُ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ بَعْدَهَا غِنَى يَعْتَمِدُهُ صَاحِبُهَا وَيَسْتَظْهَرُ بِهِ عَلَى مَصَالِحِهِ وَحَوَائِجِهِ... وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ تَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ لِأَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِالْجَمِيعِ يَنْدُمُ غَالِبًا أَوْ قَدْ يَنْدُمُ إِذَا احْتَاجَ وَيَوَدُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ بِخِلَافِ مَنْ بَقِيَ بَعْدَهَا مُسْتَغْنِيًا فَإِنَّهُ لَا يَنْدُمُ عَلَيْهَا بَلْ يُسَرُّ بِهَا^(٢).

❁ «ومن يستعفف يعفه الله» أى: ومن يستعفف عن مسألة الناس يعفه الله.. أى: يرزقه العفة عن ذلك.

«ومن يستغن» أى: يُظْهِرُ الْغِنَى «يُغْنِهِ اللَّهُ» أى: يُصِيرُهُ غَنِيًّا.



(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٥).

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٦).

(٣٧) بَابُ الْإِنْفَاقِ مِمَّا يَحِبُّ وَمَنْ الْجَيِّدِ

❁ لما ذكر المؤلف رحمه الله وجوب الإنفاق على الزوجة وعلى الأقارب ذكر أنه ينبغي للإنسان أن يكون ذا همة عالية، وأن يُنفق من أطيب ماله ومما يحب من ماله.. وهناك فرق بين الأطيب وبين الذي يحب، فالغالب أن الإنسان لا يحب إلا أطيب ماله، لكن أحياناً يتعلق قلبه بشيء من ماله وليس أطيب ماله.. فإذا أنفق من الطيب الذي هو محبوبٌ لعامة الناس ومما يحبه هو بنفسه وإن لم يكن من الطيب، كان ذلك دليلاً على أنه صادقٌ فيما عامل الله به.

ولهذا سُميت الصدقة صدقة لدلالته على صدق باذله.

فالإنسان ينبغي له أن يُنفق من أطيب ماله، وينبغي له أن يُنفق مما يُحب، حتى يَصْدُقَ في تقديم ما يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ على ما تهواه نفسه.

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآيتين من كتاب الله، فقال: قال الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ ^(١).

يعنى: لن تنالوا وتدرخوا البر، الذى هو اسمٌ جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها. فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التى جُبِلَت النفوس على قوة التعلُّق بها.. فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك مَنْ أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ورزقه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحُصَلُ بدون هذه الحالة.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٨٣).

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأحرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ .

وسيجزى كل منفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلَّا أَنْ تَقِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧-٢٦٨].

﴿يَحُثُّ الْبَارِئُ ﴿وَقَدْ ءَاتَىٰكُمْ مِنْهُ الْفَقْرَ﴾ عَلَى الْإِنْفَاقِ مِمَّا كَسَبُوا فِي التَّجَارَاتِ، وَمِمَّا أَخْرَجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مِنَ الْحُبُوبِ وَالثَّمَارِ .. وهذا يشمل زكاة النقدين، والعروض كلها، الْمُعَدَّةَ لِلْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَالْخَارِجَ مِنَ الْأَرْضِ، مِنَ الْحُبُوبِ وَالثَّمَارِ، وَيَدْخُلُ فِي عَمُومِهَا الْفَرَضُ وَالنَّفْلُ.

وَأَمَرَ تَعَالَى أَنْ يَقْصِدُوا الطَّيِّبَ مِنْهَا، وَلَا يَقْصِدُوا الْخَبِيثَ، وَهُوَ الرَّدَىءُ الدُّونَ، يَجْعَلُونَهُ لِلَّهِ، وَلَوْ بِذَلِكَ لَهُمْ مَنْ لَهُمْ حَقُّ عَلَيْهِ، لَمْ يَرْضَوْهُ وَلَمْ يَقْبَلُوهُ إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمُغَاضَاةِ وَالْإِغْمَاضِ^(٢).

﴿وَالْخَبِيثُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ ... فَالْخَبِيثُ مِنَ الْمَالِ يُطْلَقُ عَلَى الرَّدَىءِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْكَسْبِ الرَّدَىءِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْحَرَامِ.

(١) تفسير السعدى (ص ١٣٧، ١٣٨).

(٢) تفسير السعدى (ص ١١٦).

فَمِنْ إِطْلَاقِهِ عَلَى الرَّدَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ﴾.

فَالْخَبِيثُ بِمَعْنَى الرَّدَى .. وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا تَسْمِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْبَصَلِ وَالْكِرَاثِ: الشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ؛ لِأَنَّهَا رَدِيئَةٌ مُتَنَتَّةٌ كَرِيهَةٌ، حَتَّى إِنْ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكَلَ مِنْهَا وَبَقِيَتْ رَائِحَتُهَا فِي فَمِهِ فَإِنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، لَا لِلصَّلَاةِ وَلَا لغير الصَّلَاةِ .. لِأَنَّ الْمَسْجِدَ مَعْمُورٌ بِالْمَلَائِكَةِ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ آذَى الْمَلَائِكَةَ، وَالْمَلَائِكَةُ طَيِّبُونَ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ، تَكْرَهُ الْخَبَائِثَ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَعْيَانِ .. إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ وَأَنْتَ ذُو رَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ آذَيْتَ الْمَلَائِكَةَ.

وَكَانَ الرَّجُلُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَقَدْ أَكَلَ كُرْأًا أَوْ بَصَلًا طَرَدُوهُ طَرْدًا إِلَى الْبَقِيعِ ... (وَالْبَقِيعُ) تَعْرِفُونَ الْمَسَافَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ وَأَنَّهَا بَعِيدَةٌ، يُطْرَدُ إِلَى الْبَقِيعِ وَلَا يَقْرُبُ الْمَسْجِدَ.

وَلِلْأَسَفِ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ - نَسَأَلَ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمُ الْهَدَايَةَ وَالْعِصْمَةَ - يَشْرَبُ الدِّخَانَ أَوْ الشَّيْثَةَ وَيَأْتِي إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَائِحَةُ الدِّخَانِ وَالشَّيْثَةِ فِي فَمِهِ أَوْ عَلَى ثِيَابِهِ .. مَعَ أَنَّ هَذِهِ رَائِحَةُ كَرِيهَةٍ وَالْكُلُّ يَكْرَهُهَا، حَتَّى إِنْ بَعْضُ النَّاسِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُصَلِّيَ بِجَوَارِ هَؤُلَاءِ .. وَهَؤُلَاءِ يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ وَالرَّوَائِحَ الْكَرِيهَةَ بِأَفْوَاهِهِمْ.

وَمِنْ إِطْلَاقِ الْخَبِيثِ عَلَى الْكَسْبِ الرَّدَى قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «كَسْبُ الْحَجَّامِ خَبِيثٌ»^(١) .. الْحَجَّامُ الَّذِي يُخْرِجُ الدَّمَ بِالْحِجَامَةِ، هَذَا كَسَبَهُ خَبِيثٌ، يَعْنِي رَدَىءٌ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ حَرَامٌ .. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَوْ كَانَ كَسْبُ الْحَجَّامِ حَرَامًا مَا أَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ أَجْرَتَهُ، فَقَدْ احْتَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَعْطِيَ الْحَجَّامُ أَجْرَهُ»^(٢)، وَلَوْ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٨) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٧٩) كتاب الإجارة، ومسلم (١٢٠٢) كتاب المساقاة.

كانت حراماً ما أعطاه؛ لأن الرسول ﷺ لا يُقر على الحرام ولا يُعين على الحرام، لكن هذا من باب أنه كَسَبُ ردىٍّ ينبغي للإنسان أن يتنزه عنه، وأن يُحجم الناس إذا احتاجوا إلى حجامته تبرُّعاً وتطوعاً.

ومن إطلاق الخبيث على المحرم قوله تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. يعنى يُحرم عليهم الخبائث وهى ضد الطيبات، مثل الميتة، ولحم الخنزير، والمنخنقة، والخمر، وما أشبه ذلك.. ومعنى الآية أنه لا يُحرم إلا الخبائث، وليس معناها أن كل خبيث يُحرمه... لأننا عرفنا الآن أن الخبيث يُطلق على أوصافٍ متعددة، لكن المعنى أنه ﷺ لا يُحرم إلا الخبائث... فالحاصل أن الله ﷻ نهى أن يقصد الإنسان الردىء من ماله فيتصدق به، وحثَّ على أن ينفق مما يحب ومما هو خير^(١).

﴿ثُمَّ قَالَ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾﴾ فهو غنىٌّ عن جميع المخلوقين، وهو الغنى عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثَّهم عليها، لنفعهم ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشرعه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.. وحميدٌ في أفعاله، التى لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة.. وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كُنْهها، ولا يدركون وصفها.

فلما حثَّهم على الإنفاق النافع، نهاهم عن الإمساك الضار، وبين لهم أنهم بين داعين: داعى الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا... وداعى الشيطان، الذى يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا... فمن كان مُجيباً لداعى

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٢/ ٨٤-٨٥) بتصرف.

الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليُيسر بمغفرة الذنوب، وحُصول كل مطلوب، ومن كان مُجيباً لداعى الشيطان، فإنه إنما يدعو حربه ليكونوا من أصحاب السعير... فليختَر العبد أى الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَسِعَ عَلَيْهِمُ﴾ أى: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٢) عن أنس رضي الله عنه قال: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَا لَا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَ حَاءٍ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٌ.. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَيَّ بَيْرَ حَاءٍ، وَإِنَّهَا صَدَقَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَرْجُو بَرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ.. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ، وَبَنَى عَمَّهُ^(٢).

❖ ففى هذا الحديث أن أبا طلحة الأنصارى زوج أم سليم رضي الله عنها - أم أنس ابن مالك رضي الله عنه - والتي تزوجها أبو طلحة وكان مهرها الإسلام.. أى كان مهرها أن يُسلم أبو طلحة فأسلم فكان مهرها الإسلام فكانت أعظم النساء

(١) تفسير السعدى (ص ١١٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦١) كتاب الزكاة، ومسلم (٩٩٨) كتاب الزكاة.

وقوله ﷺ: «مَالٌ رَابِعٌ» روى فى الصحيحين «رَابِعٌ» و«رَابِعٌ» بالباء الموحدة وبالياء المشناة، أى رَابِعٌ عَلَيْكَ نَفْعُهُ - و«بَيْرَ حَاءٍ» حَدِيثُ نَخْلٍ، وروى بكسر الباء وفتحها.

مهراً.. كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من النخل والبساتين .. وكان له بستان في غاية الحُسن والجمال فيه ماءً طيبٌ عذب .. وكان أمام مسجد النبي ﷺ .. فكان المسجد في قبلة هذا البستان .. وكان النبي ﷺ يدخل هذا البستان كثيراً ويشرب من مائه.

فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].
بادر ﷺ وسابق وسارع وجاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الله تعالى أنزل قوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالى إلىَّ بيرحاء - وهذا اسم ذلك البستان - وإنى أضعها: يعنى بين يديك صدقة، إلى الله ورسوله ﷺ.
يعنى: ضعها في المكان الذى تراه مناسباً يا رسول الله فإننى أرجو برّها وذُخرها عند الله ... فقال النبي ﷺ مُتَعَجِّباً: «بخ بخ» وهى كلمة تعجب .. يعنى ما أعظم هذه الهمة وما أعلاها «ذلك مالٌ رابح ذلك مالٌ رابح» ثم قال له النبي ﷺ: «أرى أن تجعلها في الأقربين».

فاستجاب أبو طلحة في التو واللحظة وذهب وقسّمها في أقاربه وبنى عمّه.
هكذا كانت مبادرة الصحابة وسرعة استجابتهم لأمر الله ولأمر رسول الله ﷺ ومسارعتهم إلى فعل الخيرات.

والحقيقة أن مالك الحقيقى هو ما تقدمه ... وقد ذبح آل النبي ﷺ شاة وتصدقوا بها إلا كتفها، فقَدِمَ النبي ﷺ وقال: «ما بقى منها؟» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما بقى منها إلا كتفها، يعنى أنها تصدّقت بها كلها إلا كتفها.

فقال النبي ﷺ: «بقى كلّها غير كتفها»^(١)، والمعنى أن الذى أكلتم هو الذى ذهب، وأما ما تصدّقتم به فهو الذى بقى لكم.

فالحاصل أن الصحابة وذوى الهمم العالية هم الذين يعرفون قدر الدنيا

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى في الصحيحة (٢٥٤٤).

وقدر المال، وأن ما قدموه هو الباقي.

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِي هَذَا الْحَدِيثِ اسْتِحْبَابُ الْإِنْفَاقِ مِمَّا يُحِبُّ وَمُشَاوَرَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ فِي كَيْفِيَّةِ الصَّدَقَاتِ وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ وَغَيْرِهَا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ غَيْرُ مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْأَقَارِبِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَجَانِبِ إِذَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ وَفِيهِ أَنَّ الْقَرَابَةَ يُرْعَى حَقُّهَا فِي صَلَةِ الْأَرْحَامِ وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعُوا إِلَّا فِي أَبِي بَعِيدٍ ... لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَبَا طَلْحَةَ أَنْ يَجْعَلَ صَدَقَتَهُ فِي الْأَقْرَبِينَ فَجَعَلَهَا فِي أَبِي بَنِي كَعْبٍ وَحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَإِنَّمَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهُ فِي الْجَدِّ السَّابِعِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (٧/١١٨-١١٩).

(٣٨) باب وجوب أمره أهله وأولاده المميزين وسائر

مَن في رعيته بطاعة الله تعالى ونهيهم عن

المخالفة وتأديبهم ومنعهم عن ارتكاب منهي عنه

❁ قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

❁ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أي: وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة وحُثُّهم على أداء فرضها ونقلها وعلمهم ما تصلح به الصلاة وتكمل به.

❁ ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، وبحدودها، وأركانها، وآدابها وخشوعها، فإن ذلك، مشقٌّ على النفس .. ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائماً .. فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه، أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها، كان لما سواها أضيع .. ثم ضَمِنَ تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه فقال:

﴿نَحْنُ رَزُقُكَ﴾ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق، كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل بذكرنا؟ ورزق الله عام للمتقى وغيره. فينبغي الاهتمام، بما يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿لِلنَّاقِي﴾ التي هي فعل المأمور وترك المنهي. فمن قام بها، كان له العاقبة... كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

❁ لما ذكر ما يجب للأهل من غذاء الجسم، ذكر لهم ما يجب من غذاء الروح على أبيهم ومَن له ولاية عليهم، وأولى ما يؤمر به وأوجب وأفضل هي الصلاة... كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾

لَا تَسْتَلِكْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾. فأمره أن يأمر أهله بالصلاة. والأهل كل مَنْ في البيت؛ من زوجة، وابن، و بنت، وعمّة، وخالة، وأم، كل مَنْ في البيت أهل ... أمره أن يأمرهم بالصلاة، وأمره أن يصطبر عليهم يعنى يحض نفسه على الصبر.

وذكر الله عن إسماعيل أبى محمد عليه السلام -إذ أنه أحد أجداده - أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضياً ... فالإنسان مسئول عن أهله، ومسئول عن تربيتهم، حتى ولو كانوا صغاراً إذا كانوا مميزين، أما غير المميز فإنه يؤمر بما يتحمّله عقله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنه تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُخْ كُخْ، ازِمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»^(١).
وفي رواية: «أَنَا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ».

❁ ففى هذا الحديث أن الحسن بن على رضي الله عنه سيد شباب أهل الجنة أخذ تمرّة من تمر الصدقة فجعلها في فمه .. فلما رآه النبي ﷺ قال له: «كُخْ كُخْ» أى اتركها وارمها فإنها لا تصلح لك .. ثم أمره أن يخرجها من فمه وقال له: «أما علمت أننا لا نأكل الصدقة؟» أى: كيف يخفى عليك هذا مع أن كل الناس يعلمون تحريم الزكاة والصدقات على النبي ﷺ وآله.

فالصدقة لا تحل لآل محمد ﷺ؛ وذلك لأنهم أشرف الناس.. والصدقات والزكوات أوساخ الناس ولا يتناسب لأشراف الناس أن يأخذوا أوساخ الناس..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩١) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٦٩) كتاب الزكاة.

وقوله: «كُخْ كُخْ» يُقَالُ بِإِسْكَانِ الْهَاءِ، وَيُقَالُ بِكَسْرِهَا مَعَ التَّنْوِينِ وَهِيَ كَلِمَةٌ زَجَرٌ لِلصَّبِيِّ عَنِ الْمُسْتَقْدَرَاتِ ... وَكَانَ الْحَسَنُ رضي الله عنه صَبِيًّا

كما قال النبي ﷺ لعمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: «إِنَّا آكُلُ مُحَمَّدٍ لَا تَحُلْ لَنَا الصَّدَقَةُ؛ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ»^(١).

❁ ولقد كان النبي ﷺ يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ: «أَهْدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟»، فَإِنْ قِيلَ صَدَقَةٌ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا»، وَلَمْ يَأْكُلْ، وَإِنْ قِيلَ هَدِيَّةٌ، ضَرَبَ بِيَدِهِ رضي الله عنه، فَأَكَلَ مَعَهُمْ^(٢).

وقد يسأل سائل ويقول: وما الفرق بين الهدية والصدقة أو الزكاة؟

والجواب: أن الصدقة تختلف عن الهدية في الأمور التالية:

١ - تُخرج الزكاة لتطهير مال الغنى... قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أما الهدية فتخرج لكسب وُدِّ الناس وحبهم.

٢ - مَنْ يستحق الزكاة من المسلمين هم الفقراء والمصارف الأخرى التي ذكرها القرآن، أما الهدية فتخرج للفقراء والأغنياء على حدٍّ سواء.

٣ - الزكاة فريضة على كل مسلم غنى... قد يدفعها المسلم بغير طيب نفس ولكن بغرض أداء الواجب أو خوف السلطان.. أما الهدية فهي ليست واجبة على العبد، فالأصل أنه يُخرجها عن طيب نفس.

٤ - قد يشعر الغنى بمنة على الفقير عند إعطائه الزكاة، أما الهدية فلا.

٥ - أمر النبي ﷺ أن يقاتل الناس إذ هم منعوا زكاة أموالهم.

روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة،

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٧٦) كتاب الهبة - ومسلم (١٠٧٧) كتاب الزكاة.

ويؤتوا الزكاة: فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(١). وهذا غير موجود في الهدية.

لهذه الأسباب أو لبعضها حرّم الله على الأنبياء - عليهم جميعاً الصلاة والسلام - الأكل من الصدقات والزكوات.

ويتفرع عليه: إرادة الله تعالى حفظ أعراض أنبيائه وصون ماء وجوههم، وأن تكون أيديهم هى العليا^(٢).

ففى هذا: دليل على أن الإنسان يجب عليه أن يؤدب أولاده عن فعل المحرم، كما يجب عليه أن يؤدبهم على فعل الواجب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٤) وَعَنْ أَبِي حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ: رِيبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدَى تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فَمَا زِلْتُ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ^(٣).

❦ ففى هذا الحديث يحكى عمر بن أبى سلمة رضى الله عنه أنه كان يأكل مع النبى ﷺ .. وكان عمر ريب النبى ﷺ يعنى ابن زوجته أم سلمة .. وكان غلاماً صغيراً فى ذلك الوقت ... فلما جىء بالطعام للنبى ﷺ جلس يأكل معه فجعلت يده تطيش فى الصفحة ... فيأكل من أمامه مرة ومن وسط الصفحة مرة ومن آخرها مرة .. وكان النبى ﷺ لا يترك أحداً بحاجة إلى التعليم إلا علّمه ... حتى الصغار كان النبى ﷺ يهتم بهم ويُعلمهم. فقال له النبى ﷺ: «يَا غُلَامُ سَمَّ اللَّهُ، وَكُلْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

(٢) شمائل الرسول ﷺ / أحمد عبد الفتاح (٧١ / ١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٢٢) كتاب الأشربة.

«وَتَطِيشُ»: تَدَوَّرُ فى نَوَاحِي الصَّحْفَةِ.

بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » .. فتلك ثلاثة آداب من آداب الطعام .. ومن المعلوم أن التعليم في الصَّغَر كالنقش على الحجر، ولذلك لم ينسَ عمر بن أبي سلمة تلك الآداب بدليل أنه هو الذي يروى الحديث.

وكان النبي ﷺ يهتم بالصغار؛ لأن مَنْ شَبَّ على شيء شاب عليه. فإذا شَبَّ على أنه يأكل بيده الشمال، أو على أن يده تطيش في الصفحة، أو على أنه لا يحترم الذي أمامه في الأكل، أو على أنه يمد يده إلى الذي أمام غيره فيأخذه ويأكله، فإنه يصير هذا دأبه وطبعه بعد ذلك... فلذلك كان النبي ﷺ يُعوِّد أصحابه من صغره على أن يتأدبوا بالآداب الشرعية.

❁ وهنا علَّمه النبي ﷺ ثلاثة آداب:

أولاً: «سَمَّ الله» يعنى قُل: بسم الله .. ولا حرج لو قال: بسم الله الرحمن الرحيم .. لكن إن قال: بسم الله يكفيه .. والتسمية على الطعام واجبة إذا تركها الإنسان فإنه يأثم .. وفوق ذلك يُشاركه الشيطان في طعامه ...

فإذا نسيت أن تُسمى في أوَّل الطعام وتذكرت أثناء الطعام فقل: «بسم الله أوله وآخره» كما أرشد النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث الثاني.

ثانياً: «وَكُلْ بِيَمِينِكَ»: فالأكل باليمين واجب .. وإذا كان مُتعوِّداً على الأكل بالشمال فليُجاهد نفسه حتى يأكل بيمينه .. لأن مَنْ أكل بشماله فهو آثمٌ عاصٍ لله ورسوله ﷺ - إلا إذا كانت يده اليمنى شللاً أو مكسورة - .. وهو في نفس الوقت يتشبه بالشيطان في طعامه .. فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيُكْمِلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيُشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»^(١).

ثالثاً: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ»: يعنى: إذا كنت تأكل مع أحدٍ فكل مما يليك - أى: من أمامك - ولا تأكل من جهته ومِمَّا يليه ؛ لأن هذا من سوء الأدب ... وقد تُتهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

بالشراهة دون أن تدري.

قال العلماء: إلا أن يكون الطعام أنواعاً، مثل أن يكون فيه قرع وباذنجان ولحم وغيره، فلا بأس أن تتخطى يدك إلى هذا النوع أو ذاك، كما كان الرسول ﷺ يتتبع الدُّبَاءَ من الصحفة ويأكلها. والدُّبَاءُ يعنى القرع.

وكذلك لو كنت تأكل وحدك فلا حرج أن تأكل من الطرف الآخر، لأنك لا تؤذى أحداً في ذلك ... لكن لا تأكل من أعلى الصحفة لأن البركة تنزل في أعلاها ووسطها، ولكن كُلْ من الجوانب ... حتى إذا انتهى الطعام من الجوانب تستطيع أن تأكل الطعام الذي في وسط الصحفة ولا حرج عليك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٥) وَعَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٩) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٦) وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(٢).

(٣٠٧) وَعَنْ أَبِي ثُرَيَّةَ سَبْرَةَ بْنِ مَعْبِدٍ الْجَهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٠٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٨٦٨).

«عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ لِسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سِنِينَ»^(١).

ولَفْظُ أَبِي دَاوُدَ: «مُرُوا الصَّبِيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ».

✽ ففي هذين الحديثين يَحُثُّ النَّبِيُّ ﷺ الآباء والأمهات على أن يأمروا ويُعلِّموا أولادهم الصلاة وهم أبناء سبع سنين ... وليس معنى ذلك ألا نُعلمهم الصلاة قبل ذلك .. بل نُعلمهم قبل ذلك ولكن يكون الاهتمام بذلك أكثر إذا بلغ الطفل سبع سنين ويبلغ الاهتمام غايته إذا بلغ الطفل عشر سنين.

✽ فَالصَّلَاةُ هِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ عَمُودُهُ، بَلْ هِيَ أَلْصَقُ شَعِيرَةٍ دِينِيَّةٍ تَلَازِمُ الْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا مُكَلَّفًا، وَهِيَ تَرْبِطُهُ بِخَالِقِهِ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا.

✽ وَلَأَهْمِيَّتُهَا أَوْصَى اللَّهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ يُحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَجَاءَتِ الْوَصِيَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ لِلْجَمَاعَةِ ... فَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

✽ وَلَأَهْمِيَّتُهَا أَيْضًا حَذَّرَ اللَّهُ ﷻ مَنْ التَّهَافَا فِي أَدَائِهَا فَقَالَ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿ [الماعون: ٤، ٥].

✽ وَفِي السُّنَّةِ تَحْذِيرٌ أَيْضًا لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَوْ تَكَاسَلَ فِي أَدَائِهَا، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»^(٢).

✽ وَمِنْ خِلَالِ الصَّلَاةِ نُعَلِّمُ الطِّفْلَ فَوَائِدَهَا الْعَظِيمَةَ فِي مَجَالِ الْأَخْلَاقِ، وَتَهْذِيبِ النَّفْسِ، وَصِفْلِ الطَّبَاعِ .. فَهِيَ صَلَّةٌ مُبَاشِرَةٌ وَمُنَاجَاةٌ مَعَ اللَّهِ ﷻ، وَهَذِهِ الصَّلَاةُ تُوقِعُ الْخَشْيَةَ وَالرَّهْبَةَ فِي نَفْسِ الطِّفْلِ، وَتُشْعِرُهُ بِتَمَامِ الْمُرَاقَبَةِ لِلَّهِ ﷻ.

✽ وَيُشْرَحُ الْمُرَبِّيُّ أَوِ الْأَبُ مَا يَجْنِيهِ الْمُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ ثِمَارِ الصَّلَاةِ، وَمَا تُورِثُهُ مِنْ أَخْلَاقٍ وَآدَابٍ وَتَرْبِيَةٍ لِلنَّفْسِ ... وَيَقْرَأُ الْمُرَبِّيُّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى بِصَوْتٍ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٢٥).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (١/ ٣٠٠) ورجال الحديث رجال الصحيح ... وإحباط العمل لا يكون في العادة إلا لاقتراف أمر عظيم شنيع.

خاشع: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولا بأس أن يشرح معنى هذه الآية، أو أن يقرأ له تفسيرها من أحد المصادر المعتمدة، ويُدلّل له المعانى حتى تستقرّ في نفسه.

❁ ويتابع المُرَبَّى جنَى رحيق وثمار الصلاة من خلال حديثه للطفل عن فوائدها، ويذكره بأن الصلاة سبب لتكفير المعاصي والذنوب التي يتركبها الإنسان، ويشرح له قول رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، كفارات لما بينهن، ما لم تغش الكبائر»^(١).

❁ وبأسلوب شائق تربوي يحدث المربي الطفل عن جمالية الانضباط وجمال النظام، وكمال السكينة، وأن الصلاة تُدرّبه على كلّ هذا، وتعودّه على احترام الوقت، والاستفادة الكاملة منه، بالإضافة إلى آدابها المفيدة في جميع المجالات.

❁ ويأخذ المربي بيد الطفل إلى تعليمه الصلاة، ويبدأ بتعليمه الوضوء والطهارة، ويرشده إلى الجانب المعنوي فيه، كأن يُسمعه قول رسول الله ﷺ في محاسن الوضوء: «إِذَا تَوَضَّأَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ خَرَجَتْ ذُنُوبُهُ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَإِنْ قَعَدَ قَعَدَ مَغْفُورًا لَهُ»^(٢).

❁ وكما يُعلّم المربي الطفل الوضوء والطهارة نظرياً وعملياً، فكذلك يُعلّمه الصلاة، ويُدربه على أدائها كاملة حسنة، ويلجأ في ذلك إلى عدّة أساليب منها ما هو عن طريق المشاهدة والتقليد، ويكون هذا الأسلوب في سنّ الطفولة المبكرة، حيث يشاهد الأطفال والديهم والكبار في أسرهم يُصلّون فيقلّدونهم، ثم إنهم يتعودون رؤية المصلّي، ويتعرّفون كذلك أعمال الصلاة من تكبير وركوع، وقيام وسجود.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) حسن: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨).

✽ وكثيراً ما نلاحظ أن الطفل الصغير يندفع برغبة بريئة كيما يقلّد أباه أو أمّه أو أخاه الكبير، فيقف في جواره يقلّده في قيامه وركوعه وسائر أعمال الصلّة، دون إدراك منه أو وعى لما يقوم به.. وغالباً ما يؤدّي الطفل هذه الشّعائر وهذا التقليد وهو في غاية السُرور والزّهو، لأنّه استطاع أن يُحاكي الكبار في حركاتهم وفي سكناتهم، ولا شكّ في أن تكرار هذا المشهد يومياً أمام الطفل يجعل الصلاة عنده أمراً سهلاً، ثم يؤدّيها فيما بعد برغبة وحبّ وخشوع.

✽ وتبدأ الأوامر الفعلية للصلّة وأداء الفروض الخمسة حينما يكمل الطفل ربيع السّابع من عمره، ويبدأ الأب أو المربّي بترغيب الطفل فيها، والصّبر عليه في أدائها، وهو يمثّل أمر الله ﷻ في قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فالصلّة تحتاج من المربّي والأب إلى نفسٍ طويل، وهمّة عالية، واصطبار، حتى يستطيع الطفل أن يؤدّيها دون أمرٍ ودون متابعة.

✽ وهكذا فتعليم الطفل الصلّة من واجبات الأب وولي الأمر، وليس من المستحبات.

✽ ويستلزم على الأب وهو في رحلة تعليم الطفل أمور الصلّة، أن يُعلّمه الطهارة، وستر العورة، والخشوع بين يدي الله ﷻ، وأن يتابعه ولا يغفل عنه، ويكرّر عليه الأمر مراراً ومرات، ويذكره بها دائماً ويرغبه بشتّى وسائل التّغيب من هدايا وتشجيع وما شابه ذلك، حتى لا يتهاون الطفل في أمرها بعد أن يشتدّ عوده، وتصلّب قناته، ويبلغ سنّ البلوغ والتّمييز، وعندها يصعب التّقويم والإصلاح والتّهذيب.

✽ وقد يحدث تقصير من الطّفل في أداء الصلّوات المفروضة نتيجة كسل، أو لهو، أو لعب، وهنا يجب على الأب أن يعظه وعظاً جميلاً، وأن يُذكره بها، وأن يُحدّثه عن الجانب الأخلاقي، ويذكره بالوفاء في أداء الفرض، حتى يعود الطّفل إلى رشده، ويتابع الصلّة في فروضها وسُننها. فإن لم يستجب الطّفل إلى

ذلك فعَل معه بعض العقوبات التي تردُّه، وتردُّه إلى جادة الصواب... ويُسْتَرَطُّ في هذه العقوبات ألا تكون مُنْفَرَّةً مِنَ الصَّلَاةِ وأن تكبح جماح الطفل، وذلك بأن لا يضربه الأبُّ ضربًا مبرحًا.

❁ ومن مُرَغِّباتِ متابعة الصَّلَاةِ تعويدُ الطِّفْلِ على أدائها جماعةً في المسجد، لأنَّ الصَّلَاةَ مع الجماعة تربطُ الطفلَ بمن حوله من المصلين، كما يمكن للأب أن يشرحَ للطِّفْلِ محاسنَ صلاة الجماعة وثوابها الذي يفضِّلُ على صلاة الرجل وحده بسبع وعشرين درجة^(١).

❁ وها هي بعض أساليب الترغيب:

(١) أن يذكر الأب لأبنائه أن الصلاة هي جزء بسيط من شكر الله على نعمه الكثيرة علينا.

(٢) أن يذكر الأب لأبنائه فوائد الصلاة في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا للصلاة فوائد كثيرة.. فهي رياضة وهي وقاية من أمراض العمود الفقري والمفاصل وهي راحة وطمأنينة وهي تُعلم السمع والطاعة والنظام وترتيب الأوقات.. إلخ.... وفي الآخرة فهي سبب لدخول الجنة وما فيها من نعيم مقيم.

(٣) أن يجعل الأب مسابقة لأبنائه في المحافظة على الصلاة ويجعل جائزة قيمة للفائز منهم.

(٤) يمدح مَنْ يصلى من الأبناء أمام أقاربه وأمام جيرانه ويكون الممدح لأنه حافظ على الصلوات.

❁ أساليب الترهيب:

(١) يذكر الأب لأولاده حكم تارك الصلاة وعقوبته في الدنيا والآخرة.

(٢) يتدرج مع أولاده بأن يبدأ أولاً بالمعاقبة وإبداء الضيق والغضب لمن

(١) الطفل في ضوء القرآن والسنة / د. أحمد خليل جمعة (ص ١٢٨-١٣٢) بتصرف.

لم يُصلِّ ثم إذا لم يفلح ذلك يحرمهم من بعض الأمور التي يحبونها كالمصروف مثلاً، وكالحرمان من الخروج من البيت مع الأصحاب، وكحرمانه من الهدايا التي يعطيها للمتفوقين.. إلخ.

(٣) إذا لم ينفع معه ذلك فإن آخر الدواء الكى كما يُقال، فلا بد من استعمال الشدة كالضرب بالعصا^(١)... بشرط أن يكون ضرباً غير مُبرح.

وذلك لأن الهدف هو تعليم الطفل الصلاة وترغيبه فيها.. فإذا كان الضرب مُهيناً أو عنيفاً فإن ذلك سيُنفره من الصلاة وسائر الطاعات.

✽ وأما قوله ﷺ: «وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ».

ويتم التفريق في المَضَاجِعِ لأنَّ نبينا ﷺ أمرنا بذلك ثُمَّ لأنَّ في اتحاد المضجع تَكشُفٌ للعورات واحتكاك بين الأجسام بما يُهيج على الشر والفساد خاصة بين المُراهقين والمُراهقات، وبين المُراهقين أنفسهم، وبين المراهقات أنفسهن.

وفضلاً عن هذا وذاك فالأنفاس والروائح والأمراض تنتقل من هذا إلى ذاك... وحديث الرسول ﷺ عام، ولم يُبين العلة منه حيث قال: «وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» ولم يذكر لذلك سبباً فتندرج تحته كل الأسباب المذكورة، بل وغيرها كذلك.

✽ وها هي بعض أقوال العلماء في ذلك:

قال المناوى في فتح القدير شرح الجامع الصغير^(٢): أى فرَّقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا عشرًا حذرًا من غوائل الشهوة، وإن كُنَّ أخوات^(٣).

(١) تربية الأولاد في الإسلام / أ. جاسر بركات (١/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٢) (١/ ٣٣٤) تحقيق عزت الدعاس.

(٣) فقه تربية الأبناء / الشيخ مصطفى العدوى (ص ١٤٧-١٤٨).

(٣٩) باب حق الجار والوصية به

❁ قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

إن الإحسان إلى الجار من الإيمان بالله واليوم الآخر .. ولا بد أن نعلم أن «الجيران ثلاثة: جارٌّ له حقٌّ واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.... وأما الذي له حقان فالجار المسلم. له حق الجوار وحق الإسلام .. وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك.

❁ وللجار منزلة عظيمة، ومكانة عليّة، يدلُّ على ذلك كثرة النصوص الواردة في الحث على الإحسان إليه، والترغيب في ذلك، ولنقتطف من تلك النصوص ما يلي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٨) وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ» ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام ظلَّ يُوصيه بالإحسان إلى الجار .. مع أن النبي ﷺ كان أكثر الناس إحسانًا لكل جيرانه سواء كانوا مسلمين أو مشركين .. ومع ذلك ظلَّ يُوصيه جبريل عليه السلام بالجار كثيرًا كثيرًا حتى ظنَّ النبي ﷺ أن الوحي سينزل بعد ذلك ليأمره بتوريث الجار

(١) منتر عليه: رواه البخارى (٦٠١٤، ٦٠١٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٢٤) كتاب البر والصلة.

.. وليس المعنى أن جبريل هو الذى سيُشرع تورثه .. كلا .. فجبريل عليه السلام ليس له الحق فى أن يُشرع ذلك من تلقاء نفسه .. وإنما ظن النبى ﷺ أن الوحي سينزل ليأمره بتوريث الجار من كثرة إيحاء جبريل للنبى ﷺ بالجار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٩) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(١).

وفى رواية له عن أبى ذر قال: إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ».

(٣١٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»^(٢).

وفى رواية لمسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ».

(٣١١) وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةَ لَجَارَتِهَا وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةً»^(٣).

(٣١٢) وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرَزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَالِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَاللَّهِ لَأُرْمِينَ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٥) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٦) كتاب الأدب - ومسلم (٤٦) كتاب الإيمان - وهذا لفظ البخارى. «الْبَوَائِقُ» الْغَوَائِلُ وَالشُّرُورُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٧) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.

قال الجوهري: الْفَرَسَنُ مِنَ الْبُعِيرِ: كَالْحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قَالَ: وَرُبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي الشَّاةِ.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٦٣) كتاب المظالم والغصب - ومسلم (١٦٠٩) كتاب المساقاة.

رُوى «خَشَبَةٌ» بِالْإِضَافَةِ وَالْجَمْعِ، وَرُوى «خَشَبَةٌ» بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْإِفْرَادِ.

وقوله: مَالِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ: يَعْنِي عَنْ هَذِهِ السُّنَّةِ.

(٣١٣) وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُنْتُ»^(١).

(٣١٤) وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لَيْسَ كُنْتُ»^(٢).

(٣١٥) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا»^(٣).

(٣١٦) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لَصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لَجَارِهِ»^(٤).

✽ وتعالوا بنا لتتناول شرح تلك الأحاديث جملة واحدة من خلال عرض الآداب التي ينبغي أن نتحلى بها مع الجيران.

✽ أما عن الآداب التي ينبغي أن نتحلى بها مع الجيران فهي:

(١) اختيار الجار الصالح:

فينبغي للإنسان قبل أن يسكن في مكانٍ ما أن يختار المكان الذي يكون فيه جيران صالحون.. فإن الجار قد يطلع على أسرار البيت. وقد يحتاج الإنسان إلى جاره، فإذا كان صالحاً نفعه وخفف عنه، وإن كان غير ذلك سبب لجاره العنت، وقد يكون سبباً في شقائه... فقد قال ﷺ: «أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء... وأربعٌ من الشقاء: المرأة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٩) كتاب الأدب - ومسلم (٤٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٠٢٠) كتاب الأدب.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٧٠).

السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»^(١) وقد قيل في الأمثال: الجار قبل الدار^(٢).

(٢) الإحسان إليه :

فقد أمر الله سبحانه وتعالى بذلك في كتابه فقال سبحانه: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»^(٣).

وقد أمر النبي بإكرام الجار وجعل ذلك من لوازم الإيمان، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره».

﴿بل إن من أوليات دعوة النبي ﷺ الأمر بحسن الجوار... كما جاء في قصة أبي سفيان مع هرقل أن هرقل قال لأبي سفيان: بما يأمركم، فقال أبو سفيان: (يأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء).

﴿وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَأْخُذْ عَنَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَيَعْمَلْ بِهِنَ أَوْ يُعْلَمَ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَ» فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدّ خمسًا فقال: «اتقِ المحارم تكن عبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب»^(٤).

(١) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم في الحلية، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٨٧).

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية / أ. عبد العزيز ندا (١/ ٢٩٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤٨) كتاب الإيمان.

(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٠).

(٣) أَنْ يُحِبَّ لْجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ:

إِنْ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْجِيرَانِ سَلَامَةُ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ، وَحُبُّ الْخَيْرِ لَهُمْ، فَفِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُحِبَّ لْجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(١).

وَفِي هَذَا تَأْكِيدُ حَقِّ الْجَارِ، وَأَنَّ الَّذِي لَا يُحِبُّ لْجَارِهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ فَإِنَّهُ نَاقِصُ الْإِيمَانِ... وَفِي هَذَا غَايَةُ التَّحْذِيرِ وَمُنْتَهَى التَّنْفِيرِ عَنْ إِضْمَارِ السُّوءِ لِلْجَارِ قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا.

(٤) أَنْ يُؤْدِيَ إِلَيْهِ كُلَّ حَقِّكَ الْمُسْلِمَ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ:

فَإِنَّ الْجَارَ أَوْلَى وَأَحَقُّ بِهَا... فَيُحَسِّنُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ: يَعُودُهُ إِذَا مَرَضَ، وَيُشْمِتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَنْصَحُهُ بِمَا يَرَاهُ خَيْرًا لَهُ، وَيُلَبِّي دَعْوَتَهُ، وَيَتَفَقَّدُ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ فِي حَالِ غِيَابِهِ أَوْ سَفَرِهِ، وَبَعْدَ مَمَاتِهِ، وَيَتَّبِعُ جَنَازَتَهُ إِذَا مَاتَ، وَيَدْعُو لَهُ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَى الْخَيْرِ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ.

(٥) كَفُّ الْأَذَى عَنْهُ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ».

قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ»^(٢).

أَيُّ: لَا يَأْمَنُ شَرَّهُ وَخَطَرَهُ، وَفِي رَوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ»^(٣).

وَهَذَا فِيهِ تَعْظِيمُ حَقِّ الْجَارِ وَوَجُوبُ كَفِّ الْأَذَى عَنْهُ، وَأَنَّ إِضْرَارَهُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ وَعِظَائِمِ الْمَعَاصِي... وَقَدْ عَظَّمَ اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) إِلْحَاقَ الْأَذَى بِالْجَارِ،

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٣) كِتَابُ الْإِيمَانِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٥) كِتَابُ الْإِيمَانِ.

(٢) صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠١٦) كِتَابُ الْأَدَبِ.

(٣) صَحِيحٌ: رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٦) كِتَابُ الْإِيمَانِ.

وغلظ فيه العقوبة... ففي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 أى الذنب أعظم؟ فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أى؟ قال: «أن
 تقتل ولدك خشية أن يأكل معك»، قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١).
 وقد جاءت الأدلة مشددة في كف الأذى عن الجار ومُحذرة كل التحذير....
 وقد رُبط عدم الإيذاء للجار بقضية الإيمان بالله واليوم الآخر، ففي الحديث عن
 أبي هريرة قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره»^(٢).
 ونَبّه على عِظم خطر إيذاء الجار على الأعمال الصالحة.

ففي الحديث عن أبي هريرة أنه قيل للنبي: يا رسول الله! إن فلانة تقوم الليل
 وتصوم النهار وتفعل وتصدق وتؤذى جيرانها بلسانها، فقال رسول الله: «لا خير
 فيها، هي من أهل النار»، قالوا: وفلانة تصلى المكتوبة وتصدق بأثوار أقط ولا
 تؤذى أحداً - يعنى: عملها قليل غير أنها لا تؤذى أحداً - فقال رسول الله: «هي من
 أهل الجنة»^(٣).

فليحذر الذين يؤذون جيرانهم، وليتوبوا إلى الله ويستغفروه من هذا الذنب
 العظيم، وليتحلّلوا جيرانهم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار.
 إن الذنب الذى يُرتكب بحق الجار يُضاعَف إلى عشرة أضعاف، اسمعوا إلى
 قول نبيكم صلى الله عليه وسلم... ففي الحديث عن المقداد بن الأسود أن النبي سأل أصحابه عن
 الزنا، فقالوا: حرام حرّمه الله ورسوله، فقال: «لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر
 عليه من أن يزنى بامرأة جاره»، وسألهم عن السرقة قالوا: حرامٌ حرّمها الله ورسوله،
 فقال: «لأن يسرق من عشرة أهل أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والبخارى في الأدب المفرد، وصححه الألبانى رحمه الله في الصحيحة (١٩٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبخارى في الأدب المفرد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله في صحيح

الجامع (٥٠٤٣)، والصحيحة (٦٥).

فأذى الجار مهما كان نوعه جريمة عظيمة.

❦ ولقد ضرب رسول الله أروع الأمثلة في كف الأذى عن الجار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره فقال له: «اذهب فاصبر» فأتاه مرتين أو ثلاثاً.

فقال: «اذهب فاطرح متاعك في الطريق».

ففعل فجعل الناس يمرون ويسألونه فيخبرهم خبر جاره فجعلوا يلعنونه...
فعل الله به، وفعل، وبعضهم يدعو عليه فجاء إليه جاره.
فقال: ارجع فإنك لن ترى مني شيئاً تكرهه^(١).

(٦) احتمال الأذى :

قال رسول الله: «إن الله ﻳُحِبُّ ثَلَاثَةً وَيَبْغُضُ ثَلَاثَةً»، وذكر في الثلاثة الذين يحبهم: «رجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو موت»^(٢).

(٧) تعظيم حرمة الجار وصيانة عرضه وعدم خيانتة :

لا بإفشاء سره، ولا بهتك عرضه، ولا بالفجور بأهله، فإنه من أقبح الكبائر... وقد قال ﷺ لما سئل: أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قيل: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قيل: ثم أى؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٣)، بل ينبغى أن يحفظه في نفسه وعرضه وماله، حتى يأمنه جاره، فقد قال ﷺ: «والله لا يؤمن - ثلاثاً - الذى لا يأمن جاره بوائقه»^(٤) أى: غدره وخيانتة وشروره.

(١) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله في صحيح الترغيب (٢٥٥٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى واللفظ له، وصححه الألبانى رحمه الله في صحيح الترغيب (٢٥٦٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨٦) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٠١٦) كتاب الأدب.

(٨) مواساته بالمال إذا احتاج أو افتقر:

فينبغي له أن يتفقد حال جاره إذا كان محتاجاً، فيعطيه من المال حتى من غير أن يطلب.. فذلك من حق المسلم على أخيه، وحق الجار أعظم. ﴿ وحسب المؤمن الذي يتعاون مع جاره الفقير، أن يكون أهلاً لما يشير إليه هذا الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يُسلمه، مَنْ كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَنْ فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كُرب يوم القيامة، ومَنْ ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» ^(١).

والقرض الحسن من سمات أهل المروءة، ومن صفات أهل التقوى. فبه يفرجون الكربات. ويحفظون الحرمات.. فقد يحتاج صديقك أو جارك إلى كسوة عياله في الشتاء أو في الأعياد، أو يكون عليه دينٌ حلٌّ وقت سداده وليس في يده السداد أو تحل به كارثة يعجز عن حملها أو تهدده بالإفلاس فيلجأ إليك لتُقرضه ما يُفرج به كربته وأنت قادر على ذلك.. فإن أجبتَه وحققت رجاءه فيك وأملَه، أعطاك الله ثواباً يزيد ما لو تصدقت بالمال الذي أقرضته إياه...

وقد كان الناس إلى زمن قريب، يواسى بعضهم بعضاً.. فإذا شعر الجار بحاجة جاره إلى معونة، بذل ماله من غير سؤال، وإذا علم صديق أن صديقه نزلت به فاقة بادر بعلاج فاقته وبذل في ذلك ماله ونفسه.

(٩) مواساته بالطعام ولا سيما إذا كان فقيراً:

فليس من حسن الجوار أن يشبع الإنسان وجاره جائع. والنبي ﷺ يقول: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه» ^(٢). وكثير من الناس لا يعبأ بجيرانه، فيأتي إلى بيته بالأطياب، ولا يفكر في جيرانه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع

الفقراء. وهذا لا ينبغي. بل إذا صنع الإنسان طعاماً فينبغي له أن يعطى جاره منه، وذلك تَوَدُّدًا إليه، وتطبيباً لنفسه، وتدعيمًا للمودة... وقد قال ﷺ: «إذا طبخ أحدكم قدرًا فليكثر مرقها، ثم ليناول جاره منها»^(١) ولا يحتقر أن يرسل لجاره شيئًا بسيطًا، أو يستقله، أو يستحي منه؛ لأنه شيء متواضع... فقد قال ﷺ: «يا نساء المسلمات! لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(٢). فينبغي لكل مسلم أن يتنبه إلى هذا الأدب الرفيع، وألا يهمله، فإن له أثرًا عظيمًا على الجار، وهو دليل على اتصاف المجتمع المسلم بالتراحم، والتعاطف، والتكافل بين أفراده.

أما أن يشتري الطعام، ويترك أولاده يخرجون بالحلوى والفاكهة أمام أبناء جاره الفقير، يغيظونهم بذلك، ولا يعطيه، فهذا إساءة إلى الجار وكسر لخاطره، ومخالفة لأمره ﷺ.

(١٠) مشاركته في أفراحه وأحزانه:

فإذا كان عند جاره مناسبة سارة فينبغي له أن يذهب إليه، وأن يشاركه ويقاسمه فرحه، ما لم يكن فيه معصية. وإذا ألمّت به نازلة فينبغي له أن يحضره، وأن يشاركه ويقاسمه حزنه، ويواسيه بالكلمة الصالحة، ويشد من أزره. وكل هذا من حق المسلم أصلاً على أخيه المسلم... والجار أولى بهذه الحقوق من غيره.

(١١) النصيح له، وأمره بالمعروف ونهيهِ عن المنكر:

فقد يرى الجار من جاره منكرًا، أو يراه تاركًا لعمل من أعمال البر، أو نحو ذلك، فيجب عليه أن ينصحه، وأن يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، فإن حقه من ذلك أوكد من حق غيره.. وكثير من الناس يرى جاره على معصية ومنكر فلا ينهاه، ولا يأمره بالمعروف. وهذا خيانة للجار، وتفريط في حقه^(٣).

(١) صحيح: رواه الطبراني في الصغير، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٧٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٧) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية (٣٠٠).

(١٢) أن يعرض عليه البيت قبل غيره إذا أراد التحول عنه :

فإذا أراد أن ينتقل من داره فليعرضها على جاره قبل غيره، فقد يرغب في شرائها، وكذلك أى أرض أو عقار... وقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَأَرَادَ بَيْعَهَا فَلْيَعْرِضْهَا عَلَى جَارِهِ»^(١)، وهذا أطيب لخاطره ولقلبه.

وإذا فرط الناس في هذا الأمر فإنهم يفتحون بابًا للمشاحنات والمنازعات والعداوات... فالله المستعان.

(١٣) ألا يمنع جاره من غرس خشبة في جداره :

إذا احتاج الجار إلى ذلك، فينبغى أن يسمح له بغرس هذه الخشبة، ولا يمنعه من الانتفاع بها... فقد قال ﷺ: «لَا يَمْنَعُ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِسَ خَشْبَةً فِي جِدَارِهِ»^(٢) ثم قال أبو هريرة: «مَا لِي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ؟ وَاللَّهِ لَأُرْمِينَ بِهَا بَيْنَ أَكْتَافِكُمْ» أى: لأصرحنَّ ولأحدثن بها بينكم مهما ساءكم ذلك وأوجعكم^(٣).

(١٤) عدم استطالة البنيان بحيث يحجب الشمس والهواء عن جاره :

فمن الضرورة أن يلاحظ الجار أن جاره الملاصق لمسكنه لا بد وأن يكون بعيدًا عن إيذائه بمثل هذه الصورة والتي مضمونها كما هو واضح: أنه إذا أراد الجار أن يبني جدارًا يفصل بينه وبين جاره، لا بد وأن يلاحظ عدم استطالة هذا الجدار حتى لا يحجب الريح - أى: الهواء - عن جاره.

وإذا رأى ضرورة ذلك فلا بد وأن يستأذن جاره. ويستمع إلى رأيه في هذا الموضوع بالذات الذى يتعلق به هو، والذى لا بد وأن يصلح فيه إلى حل حتى لا يكون هناك «ضرر أو ضرار» وحتى لا يكون هناك تعدُّ على مصلحة هذا الجار الملاصق.

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٤٩٣)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٦٣) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٦٠٩) كتاب البيوع.

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

❁ فهذه أيها المسلم جملة من أحاديث المصطفى تُبين هُديَه ﷺ في حقوق الجيران، والإحسان إليهم، والنهي عن أذيتهم، والإساءة إليهم، فينبغي لنا الإحسان إلى الجيران، وتفقد أحوالهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، فإن ذلك من الشفقة عليهم، والنصح لهم، ويكون ذلك برفقٍ ولين؛ ليكون أدعى إلى القبول وحصول المقصود، والسلامة من عدم قبول النصيحة.



(٤٠) باب بر الوالدين وصلة الأرحام

❁ حق الآباء والأمهات على الأبناء لا يستطيع إنسان أن يُحصيه أو يقدره... ولو استطاع الأبناء أن يُحصوا ما لاقاه الآباء والأمهات في سبيلهم، لاستطاعوا إحصاء ما يستحقونه من البر والتكريم، ولكنه أمر فوق الوصف، خصوصًا ما تحملته الأم من حمل، وولادة، وإرضاع، وسهر بالليل، ونصبٍ بالنهار في سبيل الرعاية المطلوبة.

تذبل الأم لذبول وليدها، وتغيب بسمتها إن غابت ضحكته، وتذرف دموعها، إن اشتد توغُّعه، وتحرم نفسها الطعام والشراب إن صام عن لبنها، وتُلقي نفسها في النار لتُنقذ وليدها، وتحمل من الذل والشقاء أمثال الجبال كي يحيا ويسعد، وتموت راضية إذا اشتد عوده ولو كان على حساب صحتها وقوتها وسعادتها.

يرقص قلبها إذا ضحك الوليد، ولا تسعها الدنيا نشوة إذا حبَّ أو مشى، وتسمع نغم الدنيا في كلمته، وترى الحياة كلها نورًا وجمالًا وهي تراه مع الصبيان يلعب، أو إلى المدرسة يذهب... وهكذا تعيش له ومعه، وهي تنتظر الأيام الحاسمة في حياتها وحياته، حين ينجح، ويكسب، ويتزوج.

هل يكون لها في ولدها نصيب أم كل جهودها وتضحياتها وآمالها تذهب أدراج الرياح!!!!

هذه هي الأم... لذلك جعل الله الجنة تحت قدميها، وجعل حقها على الأبناء ثلاثة أضعاف حق أبيهم عليهم^(١).

❁ وقبل أن أبدأ في شرح هذا الباب أهدى لحضراتكم باقة عطرة من أحوال سلفنا الصالح مع بر الوالدين:

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام / للشيخ حسن أيوب (ص: ٢٢١) بتصرف.

✽ ذكر صاحب عيون الأخبار هذا الخبر: قيل لعمر بن زيد: كيف بر ابنك بك؟ قال: ما مشيت نهاراً قط إلا وهو خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى سطحاً وأنا تحته.

✽ وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي أمّاً بلغ منها الكبر وأنا لا تقضى حاجتها إلا وظهري لها مطية فهل أدبت حقها؟ قال: لا.. لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقاءك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها.

✽ وكان الفضل بن يحيى من أبرّ الناس بأبيه... بلغ من برّه إياه أنهما كانا في السجن، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء ساخن، فمنعهما السجّان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فلما نام يحيى، قام الفضل إلى قمقمة وملاًها ماءً، ثم أدناه من المصباح، ولم يزل قائماً - وهو في يده - حتى أصبح^(١).

✽ نادت أم عبد الله بن عون (عبد الله) فأجابها، فعلا صوته على صوتها فأعتق رقبتين.

✽ وعن أبي عبد الرحمن الحنفى قال: رأى كهمس بن الحسن عقرباً في البيت، فأراد أن يقتلها، أو يأخذها، فسبّقه إلى جحرها، فأدخل يده في الجحر ليأخذها، وجعلت تضربه، فقليل له: ما أردت من هذا؟ لِمَ أدخلت يدك في جحرها تُخرجها؟ قال: إني خفت أن تخرج من الجحر فتجىء إلى أمي فتلدغها^(٢).

✽ ولما مات ذر - وكان من الأولياء - قال أبوه عمر بن ذر: اللهم إني قد غفرت له ما قصّر فيه من واجب حقى، فاغفر له ما قصّر فيه من واجب حقك... فقليل له: كيف كان عشرته معك؟ قال: ما مشى معي قط في ليل إلا كان أمامي، ولا مشى معي في نهار إلا كان ورائي، ولا ارتقى قط سقفاً كنت تحته^(٣).

(١) بر الوالدين / للطرطوشى (ص: ٧٨).

(٢) حلية الأولياء (٦/ ٢١١).

(٣) بر الوالدين / للطرطوشى (ص: ٧٦).

❁ وكان زين العابدين بن الحسين عليه السلام كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة؟ فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها ^(١).

❁ وَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ، قَالَ: خَرَجْتُ بِأَبِي أَقُوْدُهُ فِي بَعْضِ سِكَكِ الْبَصْرَةِ، فَمَرَرْتُ بِجَدُولٍ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الشَّيْخُ أَنْ يَتَخَطَّاهُ، فَاضْطَجَعْتُ لَهُ فَمَرَّ عَلَى ظَهْرِي ^(٢).

❁ وَعَنِ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: «اسْتَسْقَتْ أُمُّ مِسْعَرٍ مَاءً مِنْهُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ، فَذَهَبَ فَجَاءَ بِقِرْبَةِ مَاءٍ فَوَجَدَهَا قَدْ غَلَبَهَا النَّوْمُ، فَثَبَّتَ الشَّرْبَةَ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى أَصْبَحَ» ^(٣).
❁ وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ: «بِتُّ أَغْمِزُ رَجُلًا أُمِّي، وَبَاتَ أَخِي عُمَرُ يُصَلِّي، وَمَا يَسُرُّنِي أَنْ لَيْلَتِي بِلَيْلَتِهِ».

❁ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ يَضَعُ خَدَّهُ عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ يَقُولُ لِأُمِّهِ: قُومِي ثُمَّ ضَعِي قَدَمَكَ عَلَى خَدِّي ^(٤).

❁ وجاء رجل إلى ابن عمر عليهما السلام فقال: حملت أُمِّي على رقبتى من خُراسان حتى قضيت بها مناسك الحج، أترانى جزئتها؟

فَقَالَ: لَا، وَلَا بِطَلْقَةٍ وَاحِدَةٍ... ولكنك أحسنت.. والله يُثَبِّتُكَ عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا.

❁ قال لقمان لابنه: اتنى بشيء من الجنة.

فأسرع وأتاه بحفنة من التراب، وقال له: هذا ترابٌ من تراب الجنة.

فقال لقمان: من أين جئت به؟!

قال: من تحت قدم أُمِّي.

(١) عيون الأخبار (٣/ ٩٧).

(٢) حلية الأولياء (٤/ ٨٢).

(٣) الحلية (٧/ ٢١٧).

(٤) الحلية (٣/ ١٥٠).

❖ وَيُحْكِي أَنَّ أَحَدَ الْعُلَمَاءِ تَأَخَّرَ مَرَّةً عَنْ مَجْلِسِ أَصْحَابِهِ فَسَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: كُنْتُ أَتَمَرَّغُ فِي رِیَاضِ الْجَنَّةِ (یعنی تحت قدمی أمه) ^(١).

بَارِعًا فِيهَا

قال الله تعالى: ❖ ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ❖ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ❖ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال تعالى: ❖ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ❖ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [٣٢] ❖ ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٢، ٤٢].
وقال تعالى: ❖ ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وكل هذه الآيات تدل على عِظَمِ حق الوالدين .. ولكني أريد أن أقف مع تلك الآيات والتي تبدأ من قوله ﷺ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ ❖ قضاء دينيًّا وأمرًا شرعيًّا ❖ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ ❖ أحدًا من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات ❖ ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ❖ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من كل صفة أعظمها، على وجه لا يُشَبِّهه أحدٌ من خلقه، وهو المُنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النِّقَم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

(١) بتصرف من كتاب (موسوعة أخلاق السلف) / الشيخ محمود المصري.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهما، بجميع وجوه الإحسان، القولى والفعلى، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد، والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضى تأكد الحق، ووجوب البر. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذى تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان، ما هو معروف. ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبّه به على ما سواه...

والمعنى لا تؤذهما أدنى أذية. ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أي: تزجرهما، وتتكلم كلاما خشناً ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يُحِبُّانَهُ، وتأدب، وتلطف معهما، بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد، والأزمان. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما، ذلًا لهما، ورحمة، واحتسابًا للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لهما، ونحو ذلك من المقاصد، التى لا يُؤَجَّرُ عليها العبد. ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي: ادعُ لهما بالرحمة أحياء، وأمواتًا. جزاء على تربيتهما إياك، صغيرًا.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية، ازداد الحق... وكذلك من تولى تربية الإنسان فى دينه ودينه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية^(١).



(٣١٧) عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

(١) تفسير السعدى (ص ٥٢٣-٥٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.

❁ ففى هذا الحديث أن ابن مسعود سأل النبى ﷺ أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» يعنى: على الوقت المطلوب شرعاً إن كان مما يُطلب تقديمه فتقديمه أفضل، وإن كان مما يُطلب تأخيرُه فتأخيرُه أفضل... والصلوات الخمس كلها الأفضل فيها التقديم إلا العشاء فالأفضل فيها التأخير ما لم يشق على الناس، وإلا فالظهر فى شدة الحر فالأفضل فيها التأخير تيسيراً على الناس وتخفيفاً عليهم... أما الفجر والعصر والمغرب فالأفضل فيها التعجيل على كل حال. لكن قال العلماء - رحمهم الله - من قام حين يسمع النداء يتوضأ ويتأهب للصلاة فهذا تقديم - يعنى ليس المعنى أنه من حين يؤذن نصلّى، المهم أن تستعد للصلاة من أول وقتها.

❁ قال ابن مسعود: ثم أى؟ قال ﷺ: «بر الوالدين» يعنى: الإحسان إليهما بالقول والمال والخدمة وغير ذلك. قال: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». وفى الحديث دليل على إثبات المحبة لله ﷻ وأنه يحب الأعمال كما يحب العاملين، وأن حبه يتفاوت - سبحانه وتعالى - وفيه أن برّ الوالدين مُقدّم على الجهاد فى سبيل الله... واجبه على واجبه، وتطوّعه على تطوّعه.

فمثلاً إذا كان الوالدان ليس عندهما من يعولهما ولا من يخدمهما وهما فى ضرورة للولد؛ فإنه يجب عليه أن يبقى ولا يجاهد، وإذا كان عندهما من يقوم بخدمتهما وأمرهما فهذا بقاءه عندهما مستحب... ثم الجهاد إذا احتاج إليه كان أفضل وإن لم يحتج إليه فبرّ الوالدين أفضل. والله أعلم.

❁ وهنا ملحوظة بالنسبة لصلاة الفجر... المعروف أن التوقيت الذى يعرفه الناس الآن ليس بصحيح؟

فالتوقيت مُقدّم على الوقت بربع ساعة على أقل تقدير... وبعض الشباب خرجوا إلى الصحراء؛ فوجدوا أن الفرق بين التوقيت الذى بأيدي الناس، وبين طلوع الفجر نحو ثلث ساعة، فالمسألة خطيرة جداً.

ولهذا لا ينبغي للإنسان في صلاة الفجر أن يبادر في إقامة الصلاة، وليتأخر
ثلث ساعة، أو (٢٥) دقيقة، حتى يتيقن أن الفجر قد حضر وقته^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣١٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيَهُ، فَيَعْتِقَهُ»^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أن الإنسان مهما فعل فلن يستطيع أن يُوفَّى والديه حقهما .. لدرجة أنه لو أراد أن يكون مكافئاً لأحدهما في معروفه إليه فلن يجد إلا شيئاً واحداً يُوازى فضلهما عليه .. ألا وهو أن يجد أحدهما عبداً مملوكاً لأحد الناس فيذهب إليه ويشتريه ليُصبح حُرّاً بعد أن كان عبداً مملوكاً .. فهذا هو العمل الوحيد الذي يُكافئ به الولد فضل والديه .. فإذا حرّر أحدهما من رِقِّ العبودية فقد رَدَّ إليه جميله وإحسانه .. لأنه بمجرد شراء الولد لوالده فقد أعتق الوالد دون أن يحتاج الولد أن يقول له: لقد أعتقتك .. وذلك لأن الولد من كَسْبِ أبيه .. وقد قال النبي ﷺ: «أنت ومالك لأبيك» .. والنبي ﷺ يعلم أنه سيأتي يومٌ على الناس ولن يصبح على وجه الأرض عبداً رقيق عند أحد .. فكأنه يقول لكل إنسان: لن تستطيع أن تُوفَّى حق والديك مهما فعلت فابذل قصارى جهدك من أجل برهما وإدخال السعادة عليهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣١٩) وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ أَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ صَيفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُقِلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٣/١٦٦-١٦٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥١٠) كتاب العتق.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٣٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

✽ هذا الحديث الشريف اشتمل على جملة من الآداب الشرعية التى تدل على حسن إيمان مَنْ اتصف بها، وأن الاتصاف بها من كمال الإيمان، وذلك أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بالطاعة وكثرة العبادات، وينقص بالمعصية وكثرة السيئات... وقد ورد فى بيان زيادة الإيمان بالأعمال الصالحة عدة آيات وجملة من الأحاديث الشريفة.

✽ قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

فاعلم أن إكرام الضيف مما أمر به الشارع، وحثَّ عليه ﷺ، وجعله من علامات الإيمان... والمراد بإكرامه الإحسان إليه بضيافته.

فقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ» قِيلَ: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ»^(١).

وقد ورد عن النبى ﷺ عدة أحاديث تدل على وجوب قِرى الضيف وأن مَنْ نزل بفنائك واستضافك وجب عليك ضيافته.. وتأنى بتركه، وعدم القيام به، وتُثاب عليه إذا قمت به... قال ﷺ: «لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَصْبَحَ الضَّيْفِ بِفَنَائِهِ فَهُوَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ، إِنْ شَاءَ اقْتَضَى وَإِنْ شَاءَ تَرَكَ»^(٢).

فهذه النصوص تدل على وجوب الضيافة يومًا وليلة، كما قال بذلك من الأئمة رحمهم الإمام أحمد بن حنبل، والليث بن سعد، إمام أهل مصر فى زمانه، وقال الإمام أحمد: له المطالبة بذلك إذا منعه؛ لأنه حقُّ له واجب.

وقد وردت أحاديث تدل على فضيلة إطعام الطعام، سواء كان لضيف أو غيره... فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعَمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤٨) (١٤) كتاب اللقطة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٧٠).

الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١).

وقد كان العرب يعتبرون بذل الطعام من السؤدد... وقد قال أبو حاتم: كل من ساد في الجاهلية والإسلام حتى عُرف بالسؤدد، وانقاد له قومه، ورحل إليه القريب والقاصي، لم يكن كمال سُؤدده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف... والعرب لم تكن تعد الجود إلا قِرَى الضيف، وإطعام الطعام، ولا تعد السخى مَنْ لم يكن فيه ذلك حتى إن أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين... وقد قيل في ذلك:

إِذَا مَا أَتَاكَ الضَّيْفُ فَأَبْدَأْ بِحَقِّهِ قَبْلَ الْعِيَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَصَوْبٌ
وَعَظْمُ حَقِّكَ الضَّيْفِ وَأَعْلَمُ بِأَنَّهُ عَلَيْكَ بِمَا تُؤْلِيهِ مُثْنٍ وَذَاهِبٌ
كَمَا يَنْبَغِي مُلَاطَفَةَ الضَّيْفِ، وَإِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَيْهِ؛ لِيَشْعُرَ مِنْكَ بِالْفَرَحِ بِهِ،
وَالِاسْتِبْشَارِ بِقُدُومِهِ^(٢).

❁ وقوله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُصِلْ رَحِمَهُ» لا بد أن نعلم أن صلة الأرحام والإحسان إلى الأقارب من أعظم القربات والطاعات التي تُقربنا من رب الأرض والسموات.

فالله ﷻ يصل مَنْ وصل رحمه في الدنيا والآخرة ويمدّه بالرحمة ويسر له الأمور ويفرج عنه الكربات.

فصلة الرحم من الحقوق التي دعت إليها الفطرة السليمة وقررتها الشريعة السمحة.. فللقريب الذي يتصل بك في القرابة حق هذه القرابة.

❁ قال الإمام النووي: صلة الرحم: هي الإحسان إلى الأقارب، على حسب حال الواصل والموصول.. فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة وتارة بالزيارة

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٢) من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد عبد الله السبيل (ص ٢١١-٢١٣) بتصرف كبير.

والسلام وغير ذلك^(١).

قال القاضي عياض: لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة والأحاديث تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة... فمنها: واجب، ومنها: مستحب. ولو وصل بعض الصلة، ولم يصل غايتها لا يُسمى قاطعاً.. ولو قصر عمّا يقدر عليه وينبغي له لا يُسمى واصلاً^(٢).

فهذا الجزء من الحديث في بيان فضل صلة الرحم، والرحم سبق لنا أنهم هم الأقارب، وصلتهم بما جرى به العرف واتبعه الناس؛ لأنه لم يُبين في الكتاب ولا السنة نوعها ولا جنسها ولا مقدارها؛ لأن النبي ﷺ لم يقيده بشيء مُعَيَّن؛ فلم يقيده بأن يأكلوا معك، أو يشربوا معك، أو يكتسوا معك، أو يسكنوا معك، بل أطلق... ولذلك يُرجع فيها للعرف، فما جرى به العرف أنه صلة فهو الصلة، وما تعارف عليه الناس أنه قطيعة فهو قطيعة، هذا هو الأصل.

نعم، لو فرض أن الأعراف فسدت وصار الناس لا يُبالون بالقطيعة، وصارت القطيعة عندهم صلة فلا عبرة بهذا العرف... لأن هذا العرف ليس عرفاً إسلامياً.

❁ **صلة الرحم لها فضائل وثمرات كثيرة ... منها:**

(١) صلة الرحم شعار الإيمان بالله واليوم الآخر:

فقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه»^(٣).

(٢) أن الله عز وجل يصل الواصل في الدنيا والآخرة، فيمده بالرحمة، ويسر له

الأمور ويفرج عنه الكربات:

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١١٣).

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/١١٢، ١١٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٣٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

تعالى: أنا الرحمن، وهى الرحم، شققت لها اسمًا من اسمى، مَنْ وصلها وصلته، وَمَنْ قطعها قطعته، وَمَنْ بَتَّهَا بَتَّهٗ ^(١) ^(٢).

(٢) أنها تجلب للعبد رضا الله ومحبته :

وذلك لأن الله عز وجل يحب العبد الوفى الذى لا ينسى أبدًا حق أقاربه وأرحامه.

قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: حُقَّتْ ^(٣) محبتى للمتواصلين فى» ^(٤).

(٤) أنها أعجل الطاعة ثوابًا :

عن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «... وإن أعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة، فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم، إذا تواصلوا» ^(٥).

(٥) صلة الرحم يكفر الله بها سيئات العبد :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: أتى النبى ﷺ رجل فقال: يا رسول الله! إنى أصبت ذنبًا عظيمًا فهل من توبة؟ قال: «هل لك من أم؟» قال: لا. قال: «هل لك من خالة؟» قال: نعم. قال: «فبرها» ^(٦).

وقال ﷺ: «الخالة بمنزلة الأم» ^(٧).

(١) بَتَّه: قطعته.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والبخارى فى الأدب المفرد، والترمذى، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٣١٤).

(٣) حُقَّتْ: وجبت.

(٤) صحيح: رواه أحمد والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٥) صحيح: أخرجه الطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٦) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٠٤).

(٧) صحيح: رواه البخارى (٢٦٩٩) كتاب الصلح.

(٦) صلاة الرحم تجعلك في أعلى المنازل :

قال ﷺ: «... إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه، ويعلم الله فيه حقاً. فهذا بأفضل المنازل...»^(١).

(٧) أنها من أسباب البركة في الرزق والعمر :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ^(٢)، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ^(٣)، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٤).

(٨) صلاة الرحم تُعمر الديار :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرحم، وحُسن الخلق، وحُسن الجوار يُعمرن الديار، وَيَزِدْنَ فِي الْأَعْمَارِ»^(٥).

(٩) أنها من أعظم أسباب دخول الجنة :

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: ذلني على عمل أعمله يُدنيني من الجنة، ويباعدني من النار. قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك» فلما أدبر^(٦)، قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٧).

❁ والخلاصة: أن صلاة الرحم أن تحسن إلى الأقارب أو ذوى الأرحام... ومن الإحسان الوصل ومن الوصل، أن تمنع عنهم الشر.

وفي صلاة الرحم مرضاة للرب، وتقوية لأواصر العلاقات الاجتماعية بين

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) يُسَيِّطُ لَهُ فِي رِزْقِهِ: يُوسِّعُ لَهُ فِيهِ.

(٣) يُنْسَأُ لَهُ فِي أَثَرِهِ: يُؤَخَّرُ لَهُ فِي أَجَلِهِ وَعَمْرِهِ.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

(٥) صحيح: رواه أحمد، والبيهقي، وصححه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٣٧٦٧).

(٦) أدبر: وَلَّى وَذَهَبَ.

(٧) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٩٧) كتاب الزكاة، ومسلم (١٤) كتاب الإيمان.

الناس... تجلب سعة الرزق والبركة فيه، وتؤدي إلى طول العمر، وهي من كمال الإيمان إذ أن مَنْ وَصَلَ وَصَلَ بفضل الله، ومن قَطَعَ قَطَعَ بعدل الله^(١).

قوله ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» فهذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب حفظ اللسان، وعدم إطلاقه في كثرة الكلام، فإن الرجل قد يتكلم بالكلام السيئ، وهو لا يحسب له حسابًا، وتتكاثر عليه السيئات والذنوب، وهو لا يشعر، ولا يظن أنه عمل بهذا معصية... فعلى المسلم الناصح لنفسه أن يكون على حذر من كل ما يتكلم به، فإن علم أنه خير تكلم، وإن علم أنه ليس فيه خير أمسك، وإذا شكَّ فيه فتركه أولى... لقوله عليه الصلاة والسلام: «فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ». فإذا لم يعلم أنه خير فليصمت امتثالاً لأمره ﷺ.

وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إياكم وفضول الكلام... حسب امرئ ما بلغ حاجته».

وعن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي». وكان أبو بكر رضي الله عنه من شدة خوفه من لسانه، ومراقبته لربه، يأخذ بلسانه، ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «والله الذي لا إله إلا هو ما على الأرض أحق بطول سجنٍ من اللسان».

وقد أكثر العلماء والحكماء والأدباء في الحث على قلة الكلام، والأمر بحفظ اللسان.

(١) يتصرف من كتاب (موسوعة أخلاق السلف) / الشيخ محمود المصري.

قال الشاعر:

أقلل كلامك واستعد من شره إن السبلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من غيّه حتى يكون كأنه مسجون
وكل فؤادك باللسان وقُلْ له إن الكلام عليكما موزون^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مُقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ أَمَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكَ لِكَ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ﴾ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ» [عبد: ٢٢، ٢٣]»^(٢).

وفي رواية للبخاري: «فقال الله تعالى: مَنْ وَصَلَكَ، وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ».

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم - أي من خلقهم - قامت الرحم .. لكن كيف قامت؟ وهل تمثلت في صورة بعينها أم ماذا حدث؟ أقول: الله أعلم ... وما دام أن النبي ﷺ لم يخبرنا بكيفية ذلك فلا حاجة لنا لأن نتكلف معرفة ذلك ... ولو كان هناك خير في معرفة ذلك لأخبرنا النبي ﷺ الذي قال: «ما تركت من خيرٍ إلا وقد دللتكم عليه، وما تركت من شرٍّ إلا وقد حذرتكم منه».

المهم أن الرحم قامت وقالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة .. فما كان من الحق (جلّ وعلا) إلا أن قال لها: نعم .. أما ترضين أن أصل مَنْ وَصَلَكَ

(١) من هدى المصطفى ﷺ (ص ٢٠٨-٢٠٩) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٣٠) كتاب التفسير، ومسلم (٢٥٥٤) كتاب البر والصلة.

وأقطع مَنْ قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذلك لك.

فمن وصل رحمه وصله الله بلطفه ورحمته وعطفه وإحسانه وجوده وكرمه وحفظه.. ومن قطع رحمه حُرِمَ من كل ذلك.

ولذا قال النبي ﷺ في آخر الحديث: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامُكُمْ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

أى فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام!!

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟ قال أبو حيان: يريد ما جرى من الفترة بعد زمان الرسول ﷺ^(١) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ أى فأصمهم عن استماع الحق، وأعمى قلوبهم عن طريق الهدى فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد.

قال القرطبي: أخبر تعالى أن مَنْ فعل ذلك حَقَّتْ عليه اللعنة، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره، حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل^(٢).

✽ قال القاضي عياض رحمه الله: الرَّحِمُ الَّتِي تُوصَلُ وَتُقْطَعُ وَتَبُرُّ إِنَّمَا هِيَ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي لَيْسَتْ بِجِسْمٍ وَإِنَّمَا هِيَ قَرَابَةٌ وَنَسَبٌ تَجْمَعُهُ رَحِمٌ وَالِدَةٌ وَيَتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ... فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ رَحِمًا وَالْمَعْنَى لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ الْقِيَامُ وَلَا الْكَلَامُ فَيَكُونُ ذِكْرُ قِيَامِهَا هُنَا وَتَعَلُّقُهَا ضَرْبُ مَثَلٍ وَحُسْنُ اسْتِعَارَةٍ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ... وَالْمُرَادُ تَعْظِيمُ شَأْنِهَا وَفَضِيلَةُ وَاصِلِيهَا وَعَظِيمُ إِثْمِ

(١) البحر المحيط (٨/ ٨٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٤٦).

قَاتِطِعِيهَا بِعُقُوقِهِمْ لِهَذَا سُمِّيَ الْعُقُوقُ قَطْعًا ... وَالْعُقُ السَّقُّ كَأَنَّهُ قَطَعَ ذَلِكَ السَّبَبَ الْمُتَّصِلَ قَالَ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ قَامَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَتَعَلَّقَ بِالْعَرْشِ وَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهَا بِهَذَا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبُوكَ» ^(٢).

وفي رواية: يا رسول الله مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: «أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

❁ وهنا يوضح النبي ﷺ أَنْ أَحَقَّ النَّاسِ بِالصُّحْبَةِ الْأُمُّ. فلما سُئِلَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ قَالَ: «أُمُّكَ».. فلما سُئِلَ فِي الْمَرَّةِ الرَّابِعَةِ قَالَ: «أَبُوكَ».. فالأُمُّ لَهَا ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الْبَرِّ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَحْمِلُ أَلَامَ الْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ وَالرِّضَاعَةِ... وَالتَّرِيبَةِ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَتْ مَشْرُوكَةً بَيْنَ الْأُمِّ وَالْأَبِ بَلْ كَانَ الْحَمْلُ الْأَكْبَرُ عَلَى عَاتِقِ الْأُمِّ فِي الْخِدْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَالتَّمْرِیْضِ وَتَحْمِلِ الْمَشَاقِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ثم إنها أيضًا أنثى ضعيفة لا تأخذ بحقها، فلهذا أوصى بها النبي ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَوْصَى بِالْأَبِ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَفِي هَذَا الْحَثِّ عَلَى أَنْ يُحَسِّنَ الْإِنْسَانُ صُحْبَةَ أُمِّهِ وَصُحْبَةَ أَبِيهِ أَيْضًا بِقَدْرِ الْمُسْتَطَاعِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٦٩/١٦-١٧٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٧١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة.

«وَالصَّحَابَةُ» بِمَعْنَى: الصُّحْبَةِ. وَقَوْلُهُ: «ثُمَّ أَبَاكَ» هَكَذَا هُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُحذُوفٍ، أَيْ ثُمَّ بَرَّ أَبَاكَ. وَفِي رِوَايَةٍ: «ثُمَّ أَبُوكَ» وَهَذَا وَاضِحٌ.

(٣٢٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا، فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يدعو النبى ﷺ على مَنْ أَدْرَكَ والديه عند الكبر والعجز والضعف فلم يبرهما حتى يدخل الجنة .. بل عقهما وأساء إليهما فحرم من دخول الجنة .. فدعا عليه النبى ﷺ بالذل والخزى ... وأصل كلمة (رَغِمَ أنفه) أى: لصق أنفه بالرغام وهو ترابٌ مختلطٌ برمل.

❁ وفى هذا الحديث الْحَثُّ عَلَى بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَعِظْمُ ثَوَابِهِ ... وَمَعْنَاهُ أَنَّ بَرَّهُمَا عِنْدَ كِبَرِهِمَا وَضَعْفِهِمَا بِالْخِدْمَةِ أَوْ النَّفَقَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ سَبَبٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ فَمَنْ قَصَرَ فِي ذَلِكَ فَاتَهُ دُخُولُ الْجَنَّةِ وَأَرْغَمَ اللَّهُ أَنْفَهُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لى قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونى، وَأَحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيَسِيئُونَ إِلِىَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلىَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتُ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسْفَهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٣).

❁ لقد كان النبى ﷺ جالسًا فى مسجده، فجاءه رجلٌ حزينٌ جدًا.

فسأله النبى ﷺ عن سبب حزنه.

فأخبره الرجل بأنه له أقارب يريد أن يصلهم حتى لا يغضب الله عليه وحتى يفوز بأجر صلة الأرحام ولكنهم يتعاملون معه معاملة سيئة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥١) كتاب البر والصلة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦٤/١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة.

«وَتُسْفَهُهُمْ» بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء - «وَالْمَلَّ» وهو الرَّمَادُ الحَارُّ: أى كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الحَارَّ وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَا يُلْحَقُهُمْ مِنَ الْإِثْمِ بِمَا يُلْحَقُ أَكِلَ الرَّمَادِ مِنَ الْأَلَمِ، وَلَا شَيْءَ عَلَى هَذَا الْمُحْسِنِ إِلَيْهِمْ، لَكِنْ يَنَالُهُمْ إِثْمٌ عَظِيمٌ بِتَقْصِيرِهِمْ فِي حَقِّهِ، وَإِدْخَالِهِمُ الْأَذَى عَلَيْهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فهو يصلهم ويزورهم ويحرص كل الحرص على أن يطمئن على أحوالهم .. ومع ذلك فهم يقطعون كل علاقة تصلهم به ولا يسألون عليه .
 وهو أيضًا يحسن إليهم غاية الإحسان بالمعاملة والكلمة الطيبة والسعى في مصالحهم وبذل المال من أجلهم .. ومع ذلك فهم يسيئون إليه غاية الإساءة .
 وهو أيضًا يتعامل معهم بكل رحمة وإذا أساءوا إليه، فإنه يكون حليمًا معهم .. ومع ذلك فهم يجهلون عليه ويبالغون في إيذائه والإساءة إليه .
 فتعجب النبي ﷺ من حال هذا الرجل مع أقاربه .. ولكنه خشى أن يكون هذا الرجل مبالغًا في وصف تلك العلاقة بأقاربه .
 فأخبره النبي ﷺ أنه إن كان صادقًا في كلامه فكأنما يطعمهم الرماد الحار وأن الله سيؤيده وينصره ويعينه عليهم مادام على تلك الحالة من الإحسان إلى أقاربه .

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَعْنَاهُ: كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الْحَارَّ ... وَهُوَ تَشْبِيهُ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْأَلَمِ بِمَا يَلْحَقُ أَكِلَ الرَّمَادِ الْحَارِّ مِنَ الْأَلَمِ وَلَا شَيْءَ عَلَى هَذَا الْمُحْسِنِ بَلْ يَنَالُهُمُ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ فِي قَطِيعَتِهِ وَإِدْخَالِهِمُ الْأَذَى عَلَيْهِ ... وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ تُخْزِيهِمْ وَتُحَقِّرُهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ لِكَثْرَةِ إِحْسَانِكَ وَقِيحِ فِعْلِهِمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْحَقَارَةِ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كَمَنْ يُسِفُّ الْمَلَّ ... وَقِيلَ ذَلِكَ الَّذِي يَأْكُلُونَهُ مِنْ إِحْسَانِكَ كَالْمَلِّ يُحَرِّقُ أَحْشَاءَهُمْ .. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢٤) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٢).

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٧٣-١٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٦٧) كتاب البيوع، (٥٩٨٦) كتاب الأدب - ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

ومعنى «ينسأ له في أثره»: أى: يُؤَخَّر له في أجله وعُمُرِه.

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن من أحب أن يوسع الله له رزقه وأن يطيل فى عمره فعليه بصلة الرحم.

وفى رواية أخرى للحديث: «فليبر والديه وليصل رحمه» فصلة الرحم وبر الوالدين سبب لسعة الرزق وطول العمر.

لكن السؤال هنا: كيف يُيسط فى الرزق وكيف يطول العمر؟

ويتولى الإجابة على هذا السؤال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ فيقول: وبسط الرزق توسيعه وكثرته وقيل البركة فيه وأما التأخير فى الأجل ففيه سؤال مشهور وهو أن الأجل والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وَأَجَابَ الْعُلَمَاءُ بِأَجْوِبَةٍ الصَّحِيحِ مِنْهَا أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ بِالْبَرَكَةِ فِي عُمْرِهِ وَالتَّوْفِيقِ لِلطَّاعَاتِ وَعِمَارَةِ أَوْقَاتِهِ بِمَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ وَصِيَانَتِهَا عَنِ الضَّيَاعِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ... وَالثَّانِي أَنَّهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَظْهَرُ لِلْمَلَائِكَةِ وَفِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَنَحْوِ ذَلِكَ... فَيَظْهَرُ لَهُمْ فِي اللَّوْحِ أَنَّ عُمْرَهُ سِتُّونَ سَنَةً إِلَّا أَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ فَإِنْ وَصَلَهَا زِيدَ لَهُ أَرْبَعُونَ... وَقَدْ عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا سَيَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾.... فِيهِ النِّسْبَةُ إِلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَمَا سَبَقَ بِهِ قَدْرُهُ وَلَا زِيَادَةَ بَلْ هِيَ مُسْتَحِيلَةٌ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا ظَهَرَ لِلْمَخْلُوقِينَ تُتَصَوَّرُ الزِّيَادَةُ وَهُوَ مُرَادُ الْحَدِيثِ... وَالثَّالِثُ أَنَّ الْمُرَادَ بَقَاءَ ذِكْرِهِ الْجَمِيلِ بَعْدَهُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ حَكَاهُ الْقَاضِي وَهُوَ ضَعِيفٌ أَوْ بَاطِلٌ وَاللهُ أَعْلَمُ^(١).

أي أنه ما كان فى علم الله ﷻ فى أم الكتاب فلا يتغير.. وأما ما كان فى علم المَلَك فهو قابل للتغيير.. بمعنى أن الله ﷻ يخبر الملك أن عبيد فلان إذا برَّ والديه ووصل رحمه فعمره سبعون سنة.. وإن عَقَّ والديه وقطع رحمه فعمره ستون سنة.. والله يعلم مُسَبِّقًا إذا كان هذا العبد سيصل رحمه ويبر والديه أم لا..

فما كان في علم الله عز وجل لا زيادة فيه ولا نقصان .. وإنما الزيادة والنقصان فيما يكون في علم الملك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢٥) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَا لَمْ مِنْ نَحْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ بَيْرَ حَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٢٩]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ مَالِي إِلَى بَيْرِ حَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَنَحْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ^(١).

وسبق بيان ألفاظه في باب الإنفاق مما يحب.

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً عند شرح الحديث رقم (٣٠٢) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢٦) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَبَايُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٍ حَيٌّ؟» قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا قَالَ: «فَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦١) كتاب الزكاة، ومسلم (٩٩٨) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٥٤٩) كتاب البر والصلة.

وفي رواية لهما: جاء رجلٌ فاستأذنه في الجهاد فقال: «أحى والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد».

❦ ففي هذا الحديث يحكى ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وهو في قمة الشوق إلى الهجرة والجهاد لا يريد بذلك إلا وجه الله ﻻ ﻳﺮﻳﺪ ﺑﺬﻟﻚ ﺇﻻ ﻭﺟﻪ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ فقال للنبي ﷺ: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله وكان النبي ﷺ قبل أن يقرر أى شيء كان ينتظر الوحي من السماء حتى يكون كلامه موافقاً لمراد الله ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ .. وكان أيضاً يتحرى عن أحوال الناس حتى لا يكلفهم بشيء يشق عليهم .. فما كان منه ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﻮﺍﻓﻖ ﻟﻤﺮﺍﺩ ﺍﻟﻠﻪ إلا أن سأل هذا الصحابي: «فهل لك من والديك أحدٌ حى؟». فقال له الرجل: نعم.. بل كلاهما .. أى: كلاهما حى. فكان النبي ﷺ قد أحسَّ بشدة احتياج الوالدين لهذا الابن البار.. فقال له: «فتبتغى الأجر من الله تعالى؟».

فقال الرجل: نعم... فلقد قالها للنبي ﷺ في أول كلامه. فإذا بالنبي ﷺ يقول له: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما» .. وفي رواية: «ففيهما فجاهد».

فكان الإحسان إلى الوالدين يعدل الهجرة والجهاد في سبيل الله .. وكان بر الوالدين هو نوع من الجهاد فقد قال له النبي ﷺ: «ففيهما فجاهد».

❦ قال الإمام النووي رحمته الله: هَذَا كُلُّهُ دَلِيلٌ لِعِظَمِ فَضِيلَةِ بَرِّهِمَا وَأَنَّهُ أَكَدُ مِنَ الْجِهَادِ، وَفِيهِ حُجَّةٌ لِمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْجِهَادُ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ أَوْ بِإِذْنِ الْمُسْلِمِ مِنْهُمَا، فَلَوْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ لَمْ يُشْتَرَطْ إِذْنُهُمَا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ وَشَرَطَهُ الثَّوْرِيُّ... هَذَا كُلُّهُ إِذَا لَمْ يَحْضُرَ الصَّفَّ وَيَتَعَيَّنِ الْقِتَالُ، وَإِلَّا فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ بغيرِ إِذْنٍ وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى الْأَمْرِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَأَنَّ عَقُوقَهُمَا حَرَامٌ مِنَ الْكَبَائِرِ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٥٧).

(٣٢٧) وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلَكِنَّ الْوَاصِلَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحْمَتُهُ وَصَلَّهَا»^(١).

❁ فهذا الحديث في بيان فضيلة صلة الرحم، وأن الإنسان الواصل ليس المكافئ الذي إذا وصله أقاربه وصلهم، ولكن الواصل هو الذي إذا قُطعت رحمته وصلها... فتكون صلته لله لا مكافأة لعباد الله، ولا من أجل أن ينال بذلك مدحاً عند الناس... قال النبي ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ» يعنى بالذى إذا وصله أقاربه وصلهم مكافأة لهم، وإنما الواصل الذى إذا قُطعت رحمته وصلها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٢٨) وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّحِمُ مَعْلَقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ»^(٢).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَحَقِيقَةُ الصَّلَةِ الْعَطْفُ وَالرَّحْمَةُ... فَصِلَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَارَةً عَنْ لُطْفِهِ بِهِمْ وَرَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ وَعَطْفِهِ بِإِحْسَانِهِ وَنَعَمِهِ أَوْ صِلَتِهِمْ بِأَهْلِ مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى وَشَرَحَ صُدُورِهِمْ لِمَعْرِفَتِهِ وَطَاعَتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: وَلَا خِلَافَ أَنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ وَاجِبَةٌ فِي الْجُمْلَةِ وَقَطِيعَتُهَا مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ. قَالَ: وَالْأَحَادِيثُ فِي الْبَابِ تَشْهَدُ لِهَذَا وَلَكِنَّ الصَّلَةَ دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا أَرْفَعُ مِنْ بَعْضٍ وَأَدْنَاهَا تَرُكُ الْمُهَاجَرَةِ وَصِلَتُهَا بِالْكَلَامِ وَلَوْ بِالسَّلَامِ... وَيَخْتَلِفُ ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْقُدْرَةِ وَالْحَاجَةِ فَمِنْهَا وَاجِبٌ وَمِنْهَا مُسْتَحَبٌّ... لَوْ وَصَلَ بَعْضُ الصَّلَةِ وَلَمْ يَصِلْ غَايَتَهَا لَا يُسَمَّى قَاطِعًا وَلَوْ قَصَرَ عَمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَنْبَغِي لَهُ لَا يُسَمَّى وَاصِلًا^(٣).

وقد تناولنا الرواية الأخرى لهذا الحديث بالشرح وذلك عند شرح الحديث

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٩٩١) كتاب الأدب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٨٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٥) كتاب البر والصلة.

(٣) - سلم بشرح النووى (١٦/ ١٧٠).

رقم (٣٢٠) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

(٣٢٩) وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً وَلَمْ تَسْتَأْذِنِ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتِي؟ قَالَ: «أَوْ فَعَلْتِ؟» قَالَتْ: نَعَمْ قَالَ: «أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَعْطَيْتَهَا أَخْوَالَكَ كَانَ أَعْظَمَ لَأَجْرِكَ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التى تزوجها النبى ﷺ بعد عمرة القضاء.. كانت قد أعتقت وليدة فى زمان النبى ﷺ.. وفى يوم من الأيام كان النبى ﷺ عندها فى ليلتها فذكرت له ما فعلته. فقال لها ﷺ: «لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك».

هذا يدل على أن الصدقة على الأقارب أفضل من عتق الرقاب. وهو قول مالك. وتخصيص الأحوال: إما لأنهم من جهة الأم، ولإم ثلاثة أرباع البر. وإما لأنهم كانوا أحوج. وهكذا صححت الرواية فى كتاب مسلم: «أخوالك»، ووقع فى البخارى من رواية الأصيلي: «أخواتك» بالتاء بدل: أخوالك. ولعله الأصح، بدليل رواية مالك فى الموطأ: «أعطها لأختك، وصليها بما ترعى عليها، فهو خير لك»^(٢).

(٣٣٠) وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٩٢) كتاب الهبة، ومسلم (٩٩٩) كتاب الزكاة.

(٢) تحفة الأحوذى (٣/ ٣٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٢٠) كتاب الهبة، ومسلم (١٠٠٣) كتاب الزكاة.

وَقَوْلُهَا: «رَاغِبَةٌ» أَيْ: طَامِعَةٌ عِنْدِي تَسْأَلُنِي شَيْئًا - قِيلَ: كَانَتْ أُمُّهَا مِنَ النَّسَبِ، وَقِيلَ: مِنَ الرِّضَاعَةِ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ.

ففى هذا الحديث تُخبر أسماء رضي الله عنها أن أمها قَدِمَتْ عليها .. وكانت أمها مشركة.

فاستفتت النبى ﷺ هل تصلها أم لا؟ وقالت: يا رسول الله، إن أُمى قَدِمَتْ وهى راغبة أفأصلها؟ فأمرها أن تصلها.

وقولها: وهى راغبة ... قال بعض العلماء معناه: وهى راغبة فى الإسلام؛ فيكون الأمر بصلتها من أجل تأليفها على الإسلام... وقيل: بل معنى قولها: وهى راغبة أى راغبة فى أن أصلها، ومتطلعة إلى ذلك، فأمرها النبى ﷺ أن تصلها، وهذا هو الأقرب أنها جاءت تشوق وتتطلع إلى أن تعطيها ابنتها ما شاء الله.

ففى هذا دليل على أن الإنسان يصل أقاربه ولو كانوا على غير الإسلام؛ لأن لهم حق القرابة... ويدل لهذا قوله تعالى فى سورة لقمان: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].... يعنى إن أمرك والداك والحا في الطلب على أن تشرك بالله فلا تطعهما؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ولكن صاحبهما فى الدنيا معروفًا... أى أعطهم من الدنيا ما يجب لهم من الصلة، ولو كانا كافرين أو فاسقين؛ لأن لهما حق القرابة. وهذا الحديث يدل على ما دلت عليه الآية، وهو أن النبى ﷺ أمر أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها أن تصل أمها مع أنها كافرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣١) وَعَنْ زَيْنَبِ الثَّقَفِيَّةِ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُمْ» قَالَتْ: فَرَجَعْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَاتِ الْيَدِ وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّدَقَةِ، فَأَتُهُ فَأَسْأَلُهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يُجْزِئُ عَنِّي وَإِلَّا صَرَفْتُهَا إِلَى غَيْرِكُمْ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَلِ اتَّبِعِيهِ أَنْتِ، فَاَنْطَلَقْتُ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِيَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَاجَتْنِي حَاجَتُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَلْقَيْتُ عَلَيْهِ الْمَهَابَةَ. فَخَرَجَ عَلَيْنَا بِلَالٌ، فَقُلْنَا لَهُ:

أَنْتِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبِرُهُ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ بِالْبَابِ تَسْأَلَانِكَ: أَتَجْزِي الصَّدَقَةَ عَنْهُمَا عَلَى أَزْوَاجِهِمَا وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا؟ وَلَا تُخْبِرُهُ مَنْ نَحْنُ، فَدَخَلَ بِلَالٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ هُمَا؟» قَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَزَيْنَبُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ؟» قَالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»^(١).

✽ إن صلة الأقارب بالصدقة يحصل بها أجران، أجر الصدقة وأجر الصلة، ودليل ذلك حديث زينب بنت مسعود الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر النساء بالصدقة، فرجعت إلى بيتها وكان زوجها عبد الله بن مسعود خفيف ذات اليد، يعنى أنه ليس عنده مال، فأخبرته، فطلب منها أن تتصدق عليه، وعلى أيتام كانوا في حاجتها، ولكنه أشكل عليه الأمر فذهبت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه، فلما وصلت إلى بيته وجدت عنده امرأة من الأنصار، حاجتها كحاجة زينب، تريد أن تسأل النبي ﷺ أن تتصدق على زوجها ومن في بيتها. فخرج بلال وكان النبي ﷺ قد أعطاه الله المهابة العظيمة، كل من رآه هابه، لكنه من خالطه معاشرته أحبه وزالت عنه الهيبة، لكن أول ما يراه الإنسان يهابه هيبة عظيمة، فإذا خالطه وعاشره أحبه وألفه رضي الله عنه... فخرج بلال فسألتهما عن حاجتهما فأخبرته أنهما يسألان النبي ﷺ: هل تجوز الصدقة على أزواجهما ومن في بيتهما؟ ولكنهما قالتا له: لا تُخبر الرسول ﷺ من هما.. أحببت كل واحدة منهما ألا يعرفها أحد حتى لا يعرف زوجها الذي تريد أن تتصدق عليه فتُسبب له حرجًا.

فدخل بلال على النبي ﷺ وأخبره وقال: إن بالبواب امرأتين حاجتهما كذا وكذا، فقال: «مَنْ هُمَا؟» وحينئذ وقع بلال بين أمرين بين أمانة ائتمنته عليها المرأتان؛ حيث قالتا: لا تخبره من نحن، ولكن الرسول قال: مَنْ هما؟ قال: امرأة من الأنصار وزينب.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٦٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٠٠) كتاب الزكاة.

فقال: «أى الزيانب؟» حيث اسم زينب كثير، فقال: امرأة عبد الله. وكان عبد الله بن مسعود خادمًا للرسول ﷺ يدخل بيته حتى بلا استئذان، وقد عرف النبي ﷺ أهله وعرف حاله. وهو إنما أخبره مع قولهما له لا تخبره؛ لأن طاعة النبي ﷺ واجبة مُقدَّمة على طاعة كل أحد.

فقال: إن صدقتهما على هؤلاء صدقة وصلة، يعنى فيها أجران: أجر الصدقة وأجر الصلة... فدل ذلك على أنه يجوز للإنسان أن يتصدق على أولاده عند الحاجة، ويتصدق على زوجته، وكذلك الزوجة تتصدق على زوجها، وأن ذلك عليهم صدقة وصلة.

أما الزكاة فإن كان مما يجب على الإنسان أن يدفعه فإنه لا يصح أن يدفع إليهم الزكاة لو كانت الزكاة لدفع حاجتهما من نفقة، وهو ممن تجب عليه النفقة، وماله يحتمل، فإنه لا يجوز له أن يعطيتهما من الزكاة، أما إذا كان ممن لا يجب عليه، كمن قضى دينًا عن أبيه أو عن ابنه أو زوجته، أو قضت دينًا على زوجها فإن ذلك لا بأس به إذا كان المدين حيًّا... أما إذا كان المدين ميتًا فلا يُقضى عنه إلا تبرعًا، أو من التركة، ولا يُقضى عنه من الزكاة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣٢) وَعَنْ أَبِي سَفْيَانَ صَخْرَ بْنِ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَّةِ هِرْقَلِ أَنَّ هِرْقَلَ قَالَ لِأَبِي سَفْيَانَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟ يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَقُولُ: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصَّلَاةِ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١٠١/٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧) كتاب بدء الوحي، (٥٩٨٠) كتاب الأدب - ومسلم (١٧٧٣) كتاب الجهاد والسير.

❁ هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كُلُّهَا تدل على أهمية صلة الرحم، أى صلة القرابة... وصَدَّرَها بِحديث أبي سفيان صخر بن حرب حين وَفَدَ ومعه قومٌ من قريش على هرقل ... وكان قد وفد على هرقل قبل أن يُسلم ﷺ؛ لأنه أسلم عام الفتح.

وأما قُدومه إلى هرقل فكان بعد صلح الحديبية، ولما سمع بهم هرقل وكان رجلاً عاقلاً، عنده علمٌ من الكتاب، وعنده علمٌ بمبعث النبي ﷺ وبما يدعو إليه؛ لأن صفة النبي ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّتِي الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ، مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. مكتوبًا بصفته ومعروفًا، حتى إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لا يشكون فيهم.

فلما قَدِمَ هؤلاء الجماعة من العرب من مبعث النبي ﷺ، من الحجاز دعاهم يسألهم عن حال النبي ﷺ، وعمَّا يأمر به، وعمَّا ينهى عنه، وعن كيفية أصحابه، ومعاملتهم له، إلى غير ذلك مما سألهم عنه... وقد ذكره البخارى مُطَوَّلًا في «صحيحه» وكان من جملة ما سألَه عنه: ماذا يأمر به؟ قال أبو سفيان: كان يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

الصلة يعنى: صلة الرحم، والصدق: الخبر الصحيح المطابق للواقع، والعفاف عن الزنى، وعمَّا في أيدي الناس من الأموال وكذلك الأعراض. ثم إنه لما ذكر له ما ذكر قال له: إن كان ما تقوله حقًا فَسَيَمْلِك ما تحت قدمي هاتين... يقول ذلك وهو أحد الرئيسين في الدولتين الكبيرتين الروم والفرس. يقول ذلك وهو ملك له مملكة كبيرة عظيمة، لكنه يعلم أن ما جاء به النبي ﷺ حق، وأنه هو الصواب المطابق للفترة ولمصالح الخلق.

كان يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، أى صلة الأرحام^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٠٣) بتصرف.

(٣٣٣) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ»^(١).

وفي رواية: «سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا».

وفي رواية: «إِذَا افْتَتَحْتُمُوهَا، فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا» أو قال: «ذِمَّةً وَصِهْرًا».

❁ ففي هذا الحديث أوصى النبي ﷺ أصحابه بأهل مصر خيرًا؛ لأن لهم ذمة ورحمًا.

ومصر الحبيبة ذكرها الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه العزيز في أكثر من ثلاثين موضعًا... منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما دلَّت عليه القرائن والتفاسير. فأما صريح اللفظ:

فمنه قوله تعالى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ [يوسف: ٢١].

وقوله تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] ... وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]. وأما ما دلَّت عليه القرائن فكثير جدًا.. ومنه:

قوله تعالى مُخْبِرًا عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٤٣) كتاب فضائل الصحابة.

قال العلماء: الرَّحِمُ التي لَهُمْ كَوْنُ هَاجِرٍ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُمْ - «والصَّهْرُ»: كَوْنُ مَارِيَةِ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ.

لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴿[الأعراف: ١٢٧]، يعنى أرض مصر.

وقوله تعالى مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥]. يعنى خزائن أرض مصر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ﴾ [يوسف: ٥٦]. أى: مكَّنَّا له فى أرض مصر.

❖ وهما هى بعض خصائص مصر:

(١) مصر بلاد مباركة:

قال تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال القرطبي رحمه الله: «الظاهر أنهم ورثوا أرض القبط... والأرض هى أرض الشام ومصر».

وهى مباركة - أيضًا - بدخول الأنبياء إليها، ومرور أقدامهم عليها: دخلها من الأنبياء: إدريس، وإبراهيم الخليل، وإسماعيل، ولوط، ويعقوب، وأولاده: يوسف وإخوته، وموسى وهارون، ويوشع بن نون، وعيسى، ودانيال، وإرميا^(١).

(٢) وفيها أرض مقدسة:

قال تعالى: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

قال ابن كثير: «عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هى الطور وما حوله^(٢).

(١) انظر: «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» لابن تغرى بردى (١/ ٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٠).

(٣) وهي منازل صدق ومبوءاً صدق:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءاً صِدْقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

قال الطبري: مبوءاً صدق: منازل صدق... قيل: عنى بذلك: الشام وبيت المقدس، وقيل: عنى به الشام ومصر^(١).

(٤) وهي الربوة ذات القرار والمعين التي جاءت في القرآن الكريم:

قال تعالى عن عيسى وأمه مُمْتَنَّا عليهما: ﴿وَأَوْسَتْهُمَا إِلَىٰ رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

(٥) أقسم الله في قرآنه بطورها الذي نَجَّى موسى من عليه رَبَّهُ وكَلَّمَهُ:

قال تعالى في كتابه العظيم... والعظيم لا يُقَسَّمُ إلا بعظيم وكريم عليه: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝ (١) وَطُورِ سِينِينَ ۝ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، «فأما طور سينين؛ فهو جبل الطور.. وهو الجبل الذي كلم الله موسى عليه.

(٦) بمصر أثر من آثار الجنة، ونهر من أنهارها، وهو نهر النيل:

يا لنعيم أهل مصر وحظهم الوافر حين يكون بمصرهم نهر من أنهار الجنة يجري.

قال رسول الله ﷺ: «أربعة أنهار من أنهار الجنة: سَيحَانٌ وَجَيحَانٌ، والنيل والفرات»^(٢).

(٧) أم إسماعيل بن إبراهيم ﷺ هاجر مصرية جعل الله خطواتها رُكْنًا من أركان

الحج.

(٨) تقلد يوسف ﷺ الوزارة في مصر.. ولقياه لأبيه يعقوب وإخوته ﷺ.

(٩) على أرضها المباركة نصر الله كليمه موسى بن عمران على فرعون وهامان.

(١) تفسير الطبري (١٦/٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والشيрази في الألقاب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٧٦).

(١٠) وعلى أرضها وتحت سمائها عاشت آسية زوج فرعون لتُسَطر أعظم ثبات على العقيدة.

(١١) وعلى أرض مصر سَطَر السحرة أروع الأمثلة في إعلان حرية القلب المؤمن من كل قيود الأرض.. وانتصار العقيدة على الحياة.

(١٢) وفي مصر كانت الوفادة الكريمة لعيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام.

(١٣) ومن نساؤها كانت «مارية القبطية» أم ولد النبي ﷺ إبراهيم رضي الله عنه.

(١٤) وفتحت مصر، ودخلت على يد رجل من أهل الجنة... هو الصحابي عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(١٥) وكان للزبير بن العوام رضي الله عنه حوارى الرسول ﷺ أعظم الأثر في فتحها.

(١٦) وفتحت الإسكندرية على يد الصحابي النقيب العقبي البصري «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه.

(١٧) وشرفت مصر بقدوم الصحابة الكرام، والفتاحين العظام.

ومن هؤلاء الصحابة العظام: عبد الله بن حذافة السهمي صاحب رسول الله ﷺ والسابق إلى الإسلام.. فاتح عين شمس.

ومنهم الصحابي الشهيد خارقة بن حذافة العدوي القرشي فاتح الفيوم وأخميم والصعيد، وهو يعدل ألف فارس.

وعمير بن وهب الجمحي رضي الله عنه فاتح تنيس، ودمياط، وتونة، ودميرة، وشطأ، ودقهلة، وبنا، وبوصير من شمال مصر.

ومنهم عقبة بن عامر الجهني فاتح أسفل أرض مصر «جنوبي مصر»^(١).

(١٨) عاش فيها أكابر العلماء والفقهاء منذ بداية الإسلام وإلى يومنا هذا.

❁ وهكذا فالنبي ﷺ أوصى أصحابه بأهل مصر خيراً فقال: «ستفتحون مصر وهي أرض يُسمَّى فيها القيراط».

(١) بتصرف من كتاب «اتقوا الله في مصر» د. سيد حسين العفاني.

قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما.
وكان أهل مصر يُكثرون من استعماله والتكلم به.

﴿فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِن لَّهُمْ ذِمَّةٌ وَرَحْمًا﴾ وَأَمَّا (الذِّمَّةُ) فَهِيَ الْحُرْمَةُ وَالْحَقُّ وَهِيَ هُنَا بِمَعْنَى: الدِّمَامُ. وَأَمَّا (الرَّحِمُ) فَلِكَوْنِ هَاجِرٍ أَوْ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ. وَأَمَّا (الصَّهْرُ) فَلِكَوْنِ مَارِيَّةَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ مِنْهُمْ ... وَفِيهِ مُعْجَزَاتٌ ظَاهِرَةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا إِنْخَابُهُ بِأَنَّ الْأُمَّةَ تَكُونُ لَهُمْ قُوَّةً وَشَوْكَةً بَعْدَهُ بِحَيْثُ يَقْهَرُونَ الْعَجَمَ وَالْجَبَابِرَةَ وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يَفْتَحُونَ مِصْرَ ... وَمِنْهَا تَنَارُغُ الرَّجُلَيْنِ فِي مَوْضِعِ اللَّبَنَةِ وَوَقَعَ كُلُّ ذَلِكَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ، وَخَصَّ وَقَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَى، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي الْمُطَلِّبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَابِلَهَا بِلَالُهَا»^(٢).

﴿فَبَعْدَ ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ مِنَ الدَّعْوَةِ السَّرِيَّةِ جَاءَ الْأَمْرُ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأَنْ يَصْدَعَ النَّبِيُّ ﷺ بِدَعْوَتِهِ .. فَكَانَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بِهَذَا الصَّدَدِ﴾ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] ... وَالسُّورَةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا الْآيَةُ - وَهِيَ سُورَةُ الشَّعْرَاءِ - ذُكِرَتْ فِيهَا أَوَّلًا قِصَّةُ مُوسَى ﷺ مِنْ بَدَايَةِ نُبُوَّتِهِ إِلَى هَجْرَتِهِ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَنَجَاتِهِمْ

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٤٥-١٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٥٣) كتاب الوصايا - ومسلم (٢٠٤) كتاب الإيمان.

قوله ﷺ: «بِلَالُهَا» هُوَ بَفَتْحِ الْبَاءِ الثَّانِيَةِ وَكَسْرِهَا «وَالْبِلَالُ» الْمَاءُ - وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: سَأَصِلُهَا، شَبَّهَ قَطِيعَتَهَا بِالْحَرَارَةِ تُطْفَأُ بِالْمَاءِ وَهَذِهِ تُبْرَدُ بِالصَّلَاةِ.

من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه.

وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مرَّ بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله.

أرى أن هذا التفصيل إنما جيء به حين أمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم.

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسول، من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة - علاوة على ما ذكرت من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم، وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب؛ وليعرف المؤمنون أن حُسن العاقبة لهم لا للمكذبين^(١).

﴿ فلما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا النبي ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعمَّ وخصَّ وظل يقول: يا بني فلان يا بني فلان أنقذوا أنفسكم من النار... إلى أن وصل إلى ابنته فاطمة رضي الله عنها فقال لها: «يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فيأني لا أملك لكم من الله شيئاً» وهذا من الصلة.

وبين أن لهم رحماً سيبلها ببلالها... أي سيبلها بالماء؛ وذلك لأن قطعة الرحم نار والماء يطفى النار... وقطعة الرحم موت والماء به الحياة.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فشبه الرسول ﷺ صلة الرحم بالماء الذي يُبَلُّ به الشيء.

وفي هذا الحديث يتضح لنا أن المسلمين عامة وأصحاب الدعوة خاصة... كل واحدٍ منهم تتعلق به بعض المسؤوليات التي تتدرج بحسب ترتيب

(١) الرحيق المختوم (ص: ٧٦).

الأولويات.

فأدنى درجة في المسؤولية فهي مسؤولية المسلم عن نفسه بأن يتعهدا بأسباب الهداية ويغذيها بالطاعات.

وأما الدرجة التي تليها فهي مسؤولية المسلم عن أهله وذويه وأرحامه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وأما الدرجة الثالثة: فهي مسؤولية العالم عن حيّه وبلدته بدعوتهم إلى الله والحرص على هدايتهم والأخذ بأيديهم إلى جنة الرحمن (جلّ وعلا).
ومن أجل ذلك بدأ النبي ﷺ بعشيرته الأقربين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣٥) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: «إِنَّ آلَ بَنِي فُلَانٍ لَيَسُوءُوا بِأَوْلِيَائِي إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبْلُغُهَا بِلَالِهَا»^(١).

﴿قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» مَعْنَاهُ: إِنَّمَا وَلِيِّيَ مَنْ كَانَ صَالِحًا وَإِنْ بَعُدَ نَسَبُهُ مِنِّي وَلَيْسَ وَلِيِّيَ مَنْ كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ وَإِنْ كَانَ نَسَبُهُ قَرِيبًا. ففِي هَذَا الْحَدِيثِ يُعَلِّمُنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ نَوَالِي الْمُؤْمِنِينَ وَلَوْ كَانُوا غُرَبَاءَ وَتَبَرَأَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَلَوْ كَانُوا إِخْوَانًا وَأَشْقَاءَ ... فَلَقَدْ تَبَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ وَفِي الْمَقَابِلِ قَالَ ﷺ: «سَلَمَانُ مِنَّا آلُ الْبَيْتِ».

والولاء هو: محبة المؤمنين لأجل إيمانهم، وتُصِرَتهم، والنُّصْح لهم، وإِعَانَتهم، ورحمتهم، وما يلحق بذلك من حقوق المؤمنين.

(١) متفق عليه رواه البخاري (٥٩٩٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٥) كتاب الإيمان.

وهذا الولاء يكون في حق المسلم الذي لم يُبصر على شيء من كبائر الذنوب.

أما إذا كان المسلم مُصراً على شيء من كبائر الذنوب، كالربا، أو الغيبة، أو غير ذلك فإنه يُحَبُّ بقدر ما عنده من الطاعات، ويُغَضُّ بقدر ما عنده من المعاصي.

والمحبة للمسلم العاصي تقتضي أن يُهَجَرَ إذا كان هذا الهجر يؤدي إلى إقلاعه عن هذه المعصية وإلى عدم فعل ما يشبهها من قبله أو من قبل غيره... كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأمر الصحابة أن يهجروهم، فلم يكلموهم خمسين يوماً^(١). أما إن كان الهجر سيزيده إصراراً على المعاصي فلا نهجه بل ندعوه بالرفق والرحمة...

كما أن المحبة للمسلم العاصي تقتضي مُناصحته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ليفعل الخير ويجتنب المعصية، فينجو من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة... كما تقتضي المحبة للعاصي إقامة الحدود والتعزيرات عليه ليتوب ويرجع إلى الله تعالى، ولتكون تطهيراً له من ذنوبه.

❁ والبراء هو: بُغْضُ أعداء الله من المنافقين وعموم الكفار، وعداوتهم، والبعد عنهم.

وحكم الولاء والبراء أنهما واجبان، وهما أصل عظيم من أصول الإيمان. فقد وردت أدلة كثيرة جداً تدل على وجوب موالات المؤمنين ووجوب البراء من جميع الكافرين.

ومن أوضح الأدلة على وجوب الولاء للمؤمنين قول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

حَكِيمٌ ﴿[التوبة: ٧١]... ومن أوضح الأدلة على وجوب البراء من الكافرين وتحريم موالاتهم قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿[المتحنة: ٤]، وقد أجمع أهل العلم على وجوب الولاء للمؤمنين وعلى تحريم الولاء للكافرين.

(٣٣٦) وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَعْبُدُ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»^(١).

﴿هذا الحديث له رواية أخرى أوضح من هذه الرواية.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، قَالَ: «تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ»، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»^(٢).

﴿والشاهد هنا حيث قال: «تصل الرحم»، فجعل النبي ﷺ صلة الرحم من الأسباب التي تدخل الإنسان الجنة وتباعده عن النار.

ولا شك أن كل إنسان يسعى إلى هذا الكسب العظيم؛ أن ينجو من النار ويدخل الجنة، فإن مَنْ رُحِزَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز.. وكل مُسْلِمٌ يسعى إلى ذلك، وهذا يحصل بهذه الأمور الأربعة:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٣) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤) كتاب الإيمان.

الأول: تعبد الله لا تشرك به شيئاً... لا شركاً أصغر ولا شركاً أكبر.
والثاني: تقيم الصلاة، وتأتى بها كاملة فى أوقاتها مع الجماعة إن كنت رجلاً،
ودون الجماعة إن كانت امرأة.
والثالث: تؤتى الزكاة... بأن تؤدى ما أوجب الله عليك من الزكاة فى مالك
إلى مُستحقه.

والرابع: تصل الرحم؛ بأن تؤتيهم حقهم بالصلة حسب ما يتعارف الناس...
فما أعدّه الناس صلة فهو صلة، وما لم يعدوه صلة فليس بصلة.
إلا إذا كان الإنسان فى مجتمع لا يُبالون بالقربات، ولا يهتمون بها، فالعبرة
بالصلة نفسها المعتبرة شرعاً^(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» فَالظَّاهِرُ مِنْهُ أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ عَلِمَ أَنَّهُ يُوفَى بِمَا التَزَمَ وَأَنَّهُ يَدُومُ عَلَى ذَلِكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣٧) وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ
فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ، فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا، فَالْمَاءُ، فَإِنَّهُ طَهُورٌ»^(٣)
وقال: «الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ
وَصِلَةٌ»^(٤).

❁ وللأمانة العلمية فالجزء الأول من الحديث ضعيف.. والجزء الثانى
صحيح، ولكن سبق شرحه فى الأحاديث السابقة والله الحمد.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٠٥).

(٢) مسلم بشرح النووى (١/ ٢٤٤).

(٣) ضعيف: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٨٩).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٥٨).

(٣٣٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: كَانَتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكُنْتُ أُحِبُّهَا، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا، فَقَالَ لِي: طَلَّقْهَا فَأَبَيْتُ، فَآتَى عُمَرُ رضي الله عنه النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «طَلَّقْهَا»^(١).

(٣٣٩) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ لِي امْرَأَةً وَإِنِّي أُمَيُّ تَأْمُرُنِي بِطَلَاقِهَا؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ، أَوْ احْفَظْهُ»^(٢).

❁ في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان له امرأة يحبها فأمره أبوه أن يطلقها، لكنه أبى ذلك؛ لأنه يحبها، فذكر عمر ذلك للنبي ﷺ، فأمر ابن عمر بطلاقها. وكذلك الحديث الآخر في امرأة كانت تأمر ابنها بطلاق زوجته فأخبره أبو الدرداء أنه سمع النبي ﷺ يقول: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ» فبين النبي ﷺ أن بر الوالدين سببٌ لدخول الجنة، وهو إشارة إلى أنه إذا برَّ والدته بطلاق زوجته كان ذلك سببًا لدخول الجنة.

ولكن ليس كل والد يأمر ابنه بطلاق زوجته تجب طاعته... فإن رجلاً سأل الإمام أحمد بن حنبل رحمته الله، فقال له: إن أبي يقول: طلق امرأتك، وأنا أحبها... قال: لا تُطْلِقْهَا، قال: أليس النبي ﷺ قد أمر ابن عمر أن يطلق زوجته لما أمره عمر، فقال له الإمام أحمد: وهل أبوك عمر؟...

وذلك لأن عمر لن يأمر عبد الله بطلاق زوجته إلا لسبب شرعي، وقد يكون ابن عمر لم يعلمه؛ لأنه من المستحيل أن عمر يأمر ابنه بطلاق زوجته ليفرق بينه وبين زوجته بدون سبب شرعي.. فهذا بعيد.

وعلى هذا فإذا أمرك أبوك أو أمك بأن تطلق امرأتك، وأنت تحبها ولم تجد عليها مأخذًا شرعيًا، فلا تُطْلِقْهَا؛ لأن هذه من الحاجات الخاصة التي لا يتدخل

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٢٨٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٥).

أحدٌ فيها بين الإنسان وبين زوجته^(١).

ولكن إن أردت أن تحل المشكلة حلاً جذرياً فابحث عن سبب كراهية والدك أو والدتك لزوجتك .. فإن استطعت أن تزيل السبب فالحمد لله .. وإن كانت الكراهية بلا سبب فاستعن بالله عز وجل واجتهد قدر استطاعتك أن تؤلف بين قلوبهم .. وذلك من خلال أشياء بسيطة مثل أن تُحضر هدية وتقدمها لأمك وتخبرها أن زوجتك قد أحضرتها لها وأنها كانت تريد أن تقدمها لها ولكنها خافت ألا تقبلي هديتها... فإذا استعنت بالله وأكثرت من الدعاء في جوف الليل وأخذت بهذه الأسباب فسوف ترى الكراهية قد تبدلت إلى المحبة بإذن الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٤٠) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ»^(٢)

❁ وهذا الحديث له روايتان إحداهما قصيرة والأخرى طويلة.

فأما الرواية الطويلة فهي عن البراء بن عازب قال: صَلَّحَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ عَلَى أَنَّ مَنْ أَتَاهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ رَدَّهُ إِلَيْهِمْ وَمَنْ أَتَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَرُدُّوهُ وَعَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلَمَّا دَخَلَهَا وَمَضَى الْأَجَلُ خَرَجَ فَتَبِعَتْهُ ابْنَةُ حَمْزَةَ تُنَادِي يَا عَمُّ يَا عَمُّ فَتَنَاولَهَا عَلَى فَاخَذَ بِيَدِهَا فَاخْتَصَمَ فِيهَا عَلِيٌّ وَزَيْدٌ وَجَعْفَرٌ ... قَالَ عَلِيٌّ: أَنَا أَخَذْتُهَا وَهِيَ بِنْتُ عَمِّي وَقَالَ جَعْفَرٌ: بِنْتُ عَمِّي وَخَالَتُهَا تَحْتِي وَقَالَ: زَيْدٌ بِنْتُ أَخِي فَقَضَى بِهَا النَّبِيُّ ﷺ لِخَالَتِهَا وَقَالَ: «الْحَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ» وَقَالَ لِعَلِيٍّ: «أَنْتَ مِنِّي وَأَنَا مِنْكَ» وَقَالَ لَجَعْفَرٍ: أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي ... وَقَالَ لَزَيْدٍ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٠٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٦٩٩) كتاب الصلح.

(٣) تحفة الأحوذى (٥/٣٢٣).

وأما الرواية القصيرة فهي عَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَبَرِّهَا».

❁ قَوْلُهُ: (الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ) فِي الْحَضَانَةِ عِنْدَ فَقْدِ الْأُمِّ وَأُمَاتِهَا لِأَنَّهَا تَقْرُبُ مِنْهَا فِي الْحُنُوِّ وَالْإِهْتِدَاءِ إِلَى مَا يُصْلِحُ الْوَلَدَ.

❁ قَوْلُهُ: (إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا) يَجُوزُ أَنَّهُ أَرَادَ عَظِيمًا عِنْدِي لِأَنَّ عِصْيَانَ اللَّهِ تَعَالَى عَظِيمٌ وَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ صَغِيرًا ... وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَنْبُهُ كَانَ عَظِيمًا مِنَ الْكِبَائِرِ وَإِنَّ هَذَا النَّوعَ مِنَ الْبِرِّ يَكُونُ مُكْفِّرًا لَهُ وَكَانَ مَخْصُوصًا بِذَلِكَ الرَّجُلِ عَلِمَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ ... قَالَهُ الطَّبِيُّ.

والمعنى أن صلة الرحم من جملة الحسنات التي يُذهبن السيئات ^(١).

❁ وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة، منها حديث أصحاب الغار، وحديث جُرَيْجٍ وَقَدْ سَبَقَا ... وَأَحَادِيثُ مشهورة في الصحيح حَدَّثَتْهَا اخْتِصَارًا، وَمِنْ أَهَمِّهَا حَدِيثُ عُمَرُو بْنِ عَبْسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطَّوِيلُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى جُمَلٍ كَثِيرَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ وَأَدَابِهِ وَسَادُّ كُرْهُهُ بِتَمَامِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَابِ الرَّجَاءِ، قَالَ فِيهِ:

دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ، يَعْنِي فِي أَوَّلِ النُّبُوَّةِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «نَبِيٌّ» فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى»، فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ» وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) تحفة الأحوذى (٥/٣٢٢-٣٢٣) بتصرف.

(٢) رياض الصالحين / للإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص ١٢٧).



(٤١) باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم

وبعد ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ الآيات والأحاديث التي تُحَضُّ على بر الوالدين وصلة الأرحام.. ها هو يذكر في هذا الباب الآيات والأحاديث التي تُحَذِّر من عقوق الوالدين وقطيعة الرحم.

والمراد بالعقوق هو صُدور كل ما يتأذى به الوالد من ولده من قولٍ أو فعلٍ.

والعقوق: مأخوذ من العق وهو القطع، ومنه سُمِّيت العقيقة التي تُذبح عن المولود في اليوم السابع؛ لأنها تُعَقُّ: یعنی: تُقَطَّع رقبته عند الذبح. والعقوق وقطيعة الرحم من كبائر الذنوب لثبوت الوعيد عليه من الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

فبين سبحانه وتعالى أن الذين يُفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون والعياذ بالله، أي: مطرودون ومُبعدون عن رحمة الله، وقد أصمَّهم الله؛ أي جعلهم لا يسمعون الحق ولو سَمِعُوا ما انتفعوا به.. وأعمى أبصارهم؛ فلا يرون الحق، ولو رأوه لم ينتفعوا به.

المراد بالأبصار هنا: البصيرة وليس بصر العين... والمراد أن الله تعالى يعمى بصيرة الإنسان - والعياذ بالله - حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلاً. وهذه عقوبة أخروية ودنيوية:

أما الأخروية: فقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

وأما الدنيوية: فقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، یعنی أصم آذانهم عن سماع الحق والانتفاع به، ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾، عن رؤية الحق والانتفاع به.

فسدَّ عنهم طُرُقُ الخير؛ لأن السمع والبصر يُوصل المعلومات إلى القلب، فإذا انسَدَّ الطريق لم يصل إلى القلب خير والعياذ بالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

لما ذكر الله تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم البعد من رحمته، والطرْدُ من جنته ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: لهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم... على عكس المتقين^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والخلاصة: أن قطيعة الرحم ذنبٌ عظيمٌ، وجُرمٌ جسيمٌ، يفصم الروابط، ويقطع الشائج، ويشيع العداوة والشنآن، ويحل القطيعة والهجران. وهي أيضًا مُزيلة للألفة والمودة، مُؤذنةٌ باللعنة وتعجيل العقوبة، مانعة من نزول الرحمة، ودخول الجنة، مُوجبةٌ للتفرّد والذلة، مجلبة لمزيد الهم والغم^(٢).

مغبة قطيعة الرحم

(١) تقطع الصلة بين العبد وبين الرب (جلَّ وعلا):

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَتِ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ

(١) صفوة التفسير (٢/٧٦).

(٢) نزهة المشتاق (٢٢٦/٢٢٧).

قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَاقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]»^(١).

وفي رواية للبخاري: «فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتُهُ».

(٢) تجلب للعبد سخط الرب ويغض الناس من حوله:

فمن المعلوم أن الله (جَلَّ وَعَلَا) يحب مَنْ أطاعه ويغض مَنْ عصاه ومن المعلوم أيضًا أن الناس يحبون مَنْ يحبهم ويصلهم ويحسن إليهم ويُبغضون مَنْ يقطعهم ولا يصلهم ولا يُحسن إليهم.

(٣) تقطع الأواصر الاجتماعية في المجتمع الواحد:

فإن قطيعة الرحم تجعل المجتمع متفككًا مقطوع الأواصر والعلاقات الاجتماعية... ومن ثَمَّ يَضْعُفُ المجتمع وتَضْعُفُ الأمة ويكون هذا الضعف عقبة أمام تقدُّم هذا المجتمع.. وعقبة عند مواجهة الأعداء.

(٤) تجعل صاحبها بأخبث المنازل:

فقد قال ﷺ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ - وذكر منهم - :..... وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْطِئُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.....»^(٢).

(٥) يُعَجِّلُ الله لصاحبها العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له من العقوبة يوم

القيامة:

قال ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُهُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ قُطِيعةِ الرَّحِمِ، وَالْخِيَانَةِ، وَالْكَذِبِ، وَإِنْ أَعَجَلَ الطَّاعَةَ ثَوَابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ حَتَّى أَنْ أَهْلَ الْبَيْتِ لِيَكُونُوا فَجْرَةً فَتَنْمُو أَمْوَالُهُمْ وَيَكْثُرُ عَدَدُهُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٣٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٥٤) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٧٥٧٠)، والترمذي (٢٣٢٥) كتاب الزهد، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٢٤).



إِذَا تَوَاصَلُوا»^(١).

وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَطْيَعُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صَلَةِ الرَّحِمِ وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبُغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ ... وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تَدْعُ الدِّيَارَ بِلَاغٍ»^(٢).

(٦) قاطع الرحم يُعرض نفسه لعدم قبول عمله :

فقد قال ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَ بَنَى آدَمَ تُعْرَضُ كُلُّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ»^(٣).

(٧) الذي يبخل على أرحامه يُعرض نفسه للعذاب :

فقد قال ﷺ: «مَا مِنْ ذِي رَحِمٍ يَأْتِي رَحِمَهُ، فَيَسْأَلُهُ فَضْلًا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ فَيَبْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا أُخْرِجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ جَهَنَّمَ حَبَّةٌ يُقَالُ لَهَا: شُجَاعُ يَتَلَمَّظُ فَيَطُوقُ بِهَا»^(٤).

(٨) قطيعة الرحم تخرب الديار :

فكما أن صلة الرحم تُعمر الديار وتوسع الأرزاق وتجلب البركة في الأعمار فإن قطيعة الرحم تخرب الديار وتضيّق الأرزاق وتنزع البركة من العمر.

(٩) قاطع الرحم يُعرض نفسه لدخول النار :

فقاطع الرحم يُعرض نفسه لدخول النار إن لم يتب ويصل رحمه.
فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣٥ / ١٠)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٣٩١).

(٣) حسن: رواه أحمد (٩٩٠٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب (٢٥٣٨).

(٤) حسن: رواه الطبراني في الكبير (٣٢٢ / ٢)، وفي الأوسط (٣٧٢ / ٥)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٥٤٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢١) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[البقرة: ٢٦، ٢٧].

(١٠) قاطع الرحم لا يدخل الجنة مع أول الداخلين:

قال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(١).. يعني: قاطع رحم.

فهو إن كان موحدًا فقد يُحرّم من دخول الجنة مع أول الداخلين.

بِمَا يَكُونُ عَلَيْهِ

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٢) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٣) [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فإن الله عز وجل أمرنا ببر الوالدين والإحسان إليهما.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي حَكَمَ تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلها غيره ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا.

قال المفسرون: قرَنَ تعالى بعبادته برَّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنهما السبب الظاهر لوجوده وعيشه، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما... وإنما خَصَّ حالة الكبر لأنهما حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما... ومعنى ﴿عِنْدَكَ﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ﴾ أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تُظهر الضجر ككلمة أفٍّ ولا تُسمعهما قولًا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٨٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٦) كتاب البر والصلة.

سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى لا تزجرهما بإغلاظ فيما لا يعجبك منهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدبٍ ووقار وتعظيم ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى ألين جانبك وتواضع لهما بتدلل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أى ادعُ لهما بالرحمة وقل فى دعائك: يا رب ارحم والديَّ برحمتك الواسعة كما أحسننا إلىَّ فى تربيتهما حالة الصغر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٤١) وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ نُفِيعِ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» - ثَلَاثًا - قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(٢).

❁ فالإشراك بالله كبيرة فى حق الله... وعقوق الوالدين كبيرة فى حق مَنْ هم أحق الناس بالولاية والرعاية، وهما الوالدان.

وكان ﷺ متكئاً فجلس ... أى كان معتمداً على يده، فجلس واستقام فى جلسته وقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور».

هذا أيضاً من أكبر الكبائر وإنما جلس النبى ﷺ عند هذا لأن هذا ضرره عظيم، وعاقبته وخيمة.

❁ قوله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر». (ألا) أداة عرض استفتح بها النبى ﷺ كلامه لتنبيه المُخاطَب إلى أمرٍ ذى شأن، ولهذا قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الشرك بالله» وهذا أعظم الظلم وأكبر

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥٤) كتاب الشهادات - ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.



الكبائر وأشد الذنوب عقوبة، لأن مَنْ يشرك بالله فإن الله قد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار.

والثاني عقوق الوالدين يعنى قطع برهما .. والوالدان هما الأب والأم، والواجب على الإنسان أن يبرهما، وأن يخدمهما بقدر ما يستطيع وأن يطيعهما إلا ما فيه ضرر أو معصية لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه لا يطيعهما.

قال: وكان متكئاً فجلس تعظيماً لما سيقول ... قال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» وإنما عظم النبي ﷺ أمرها لكثرة الوقوع فيها وعدم اهتمام الناس بها^(١).

❖ ولقد وصف الله عباد الرحمن بصفاتٍ جليةٍ كان من بينها:

❖ **وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ** ❖ [الفرقان: ٧٢].

أى: لا يشهدون الشهادة الباطلة (شهادة الزور) التى تُضَيِّعُ حقوق الناس.

❖ ومع ذلك فقد ظهرت وانتشرت شهادة الزور فى زماننا هذا حتى إنك تستطيع أن تستأجر أناساً يقفون أمام المحاكم ليس لهم أى عمل سوى أنهم يشهدون الزور مقابل مبلغٍ من المال.

بل وهناك مَنْ يشهد الزور لأحد أقاربه مقابل أن يشهد هو أيضاً فى قضيته وذلك على غرار (اشهد لى وأشهد لك).

ولذلك أخبر النبي ﷺ أن شهادة الزور من علامات الساعة فقال ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَى السَّاعَةِ ... شَهَادَةُ الزُّورِ»^(٢).

وما أكثر شهادة الزور وكتمان شهادة الحق فى هذا الزمن!

ولعظم خطرها قرنها النبي ﷺ بالشرك وعقوق الوالدين؛ فإنَّ شهادة الزور سبب للظلم والجور وضياع حقوق الناس فى الأموال والأعراض، وظهورها

(١) شرح رياض الصالحين (٤ / ٩١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٦٤٧).

دليلٌ على ضعف الإيمان، وعدم الخوف من الرحمن^(١).

وشهادة الزور ليست خاصة بالشهادة عند القاضي أو الحاكم، بل هي عامة في كل شهادة، كشهادة الناس بين بعضهم بعضاً... كالموظفين في الشركات والمؤسسات عند مسئوليتهم، وشهادة الطلاب في المدارس والجامعات، وشهادة الأولاد عند والديهم.

وقد حذر النبي ﷺ من شهادة الزور أو أكل حقوق الناس بالحلف كذباً أو بهتاناً، فقال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صَبْرٍ، يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ» ثُمَّ قرأ ﷺ، مِصْدَاقُهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٧]^(٢).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ افْتَقَطَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ»^(٣).

وعن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «عَدَلْتُ شَهَادَةَ الزُّورِ الشُّرْكَ بِاللَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]^(٤).

❁ قال الإمام الذهبي في الكبائر:

شاهد الزور قد ارتكب عظام:

❁ أحدها: الكذب والافتراء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

(١) أشرط الساعة (ص ١٩٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٤) حسن موقوف: رواه الطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٣٠١).



❁ وثانيها: أنه ظلم الذي شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله أو عرضه أو روحه.

❁ وثالثها: أنه ظلم الذي شهد له؛ بأن ساق إليه المال الحرام فأخذه بشهادته فوجبت له النار.

وقال ﷺ: «فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١).

بِمَا يَكُونُ بَيْنَهُمَا

(٣٤٢) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكِبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»^(٢).

❁ الْكِبَائِرُ: مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ عَنْهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَثَرِ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ... وَقَدْ ضَمَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ لِمَنْ اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ وَالْمَحْرَمَاتِ أَنْ يَكْفَرَ عَنْهُ الصَّغَائِرُ مِنَ السَّيِّئَاتِ... قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾

[النساء: ٣١].

فَقَدْ تَكْفَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا النَّصِّ لِمَنْ اجْتَنَبَ الْكِبَائِرَ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِنُونَ كَثِيرًا إِلَّا ثِمْرَ الْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

[الشورى: ٣٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْتَبِنُونَ كَثِيرًا إِلَّا ثِمْرَ الْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾

[النجم: ٣٢].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٥٨) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأفضية.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٦٧٥) كتاب الأيمان والنذور.

«الْيَمِينُ الْغَمُوسُ» الَّتِي يَحْلِفُهَا كَاذِبًا عَمِيدًا.. سُمِّيَتْ غَمُوسًا، لِأَنَّهَا تَغْمِسُ الْحَالِفَ فِي الْإِثْمِ.

رَمَضَانَ، مَكْفَرَاتٍ لَمَّا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»^(١).

فَتَعِين عَلَيْنَا الْفَحْصَ عَنِ الْكَبَائِرِ مَا هِيَ لَكِي يَجْتَنِبَهَا الْمُسْلِمُونَ.
فَوَجَدْنَا الْعُلَمَاءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ اخْتَلَفُوا فِيهَا فَقِيلَ هِيَ سَبْعٌ، وَاحْتَجُّوا
بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ».

فَذَكَرَ مِنْهَا: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالسَّحَرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ
مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ»^(٢).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبَ مِنْهَا إِلَى السَّبْعِ.
وَصَدَقَ وَاللَّهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَمَا فِيهِ حَصَرُ الْكَبَائِرِ ... وَالَّذِي يَتَّجِهَ وَيَقُومُ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ أَنْ
مَنْ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْعِظَائِمِ مِمَّا فِيهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا كَالْقَتْلِ وَالزَّوْنِ وَالسَّرِقَةِ أَوْ
جَاءَ فِيهِ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ تَهْدِيدٍ أَوْ لَعْنٍ فَاعْلَمْ عَلَى لِسَانِ
نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ كَبِيرَةٌ.

وَلَا بُدَّ مِنَ التَّسْلِيمِ أَنَّ بَعْضَ الْكَبَائِرِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ^(٣).

❁ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَجْمُوعَةً مِنَ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ وَلَيْسَ
الْمَقْصُودُ مِنْهَا حَصَرُ الْكَبَائِرِ كُلِّهَا فِيهَا .. وَلَكِنْ الْمَقْصُودُ التَّنْبِيهُ عَلَى خَطُورِهَا.
فَالشُّرْكُ هُوَ أَظْلَمُ الظُّلْمِ فِي حَقِّ الْخَالِقِ (جَلَّ وَعَلَا) ... وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ
وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ هِيَ مِنْ أَظْلَمِ الظُّلْمِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ.

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ عَنِ الشُّرْكِ وَعَقُوقِ الْوَالِدَيْنِ وَبَقِيَ لَنَا أَنْ
نَتَكَلَّمَ هُنَا عَنِ الْقَتْلِ وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

(٣) الكبائر/ للإمام الذهبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (ص ١٥-١٦).

﴿ فَمَا عَنِ الْقَتْلِ وَمَغْبَتِهِ فَحَسْبُنَا أَنْ نَتَأَمَّلَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢].

ولا يشك عاقل من أن القتل قد انتشر في هذا الزمان بصورة لا تخطر على قلب بشر ... فلا تكاد تمر ساعة إلا وتطالعنا النشرات الإخبارية والصحف المحلية والعالمية بأخبار العشرات والمئات من المقتولين ... ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنه لم يصبح هناك أي حرمة للدماء (وبخاصة الدماء المسلمة).

﴿ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ» قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ الْقَتْلُ»^(١).

﴿ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ، يَزُولُ فِيهَا الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ» قَالَ أَبُو مُوسَى: وَالْهَرْجُ.. الْقَتْلُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ^(٢).

﴿ وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنْ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ الْهَرْجُ». فَقَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «الْقَتْلُ... إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا». قَالُوا: وَمَعَنَا عَقُولُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُخْلَفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ يَحْسَبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٨٨) (١٨) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٠٦٦) كتاب الفتن.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٤٧).

﴿وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيْمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيْمَ قُتِلَ» فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «الْهَرْجُ.. الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»^(١).

وما أخبر به ﷺ في هذه الأحاديث قد وقع بعض منه، فحدث القتال بين المسلمين في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد مقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم صارت الحروب تكثر في بعض الأماكن دون بعض، وفي بعض الأزمان دون بعض، ودون أن تعرف أسباب أكثر تلك الحروب.

وإنَّ ما حصل في القرون الأخيرة من الحروب المدمِّرة بين الأمم والتي ذهب ضحيَّتها الألوف، وانتشرت الفتن بين الناس بسبب ذلك، حتى صار الواحد يقتل الآخر، ولا يعرف الباعث له على ذلك.

وكذلك؛ فإن انتشار الأسلحة الفتَّاكة التي تُدمِّر الشعوب والأمم له دورٌ كبيرٌ في كثرة القتل، حتى صار الإنسان لا قيمة له؛ يُذْبَحُ كما تُذْبَحُ الشاة، وذلك بسبب الانحلال، وطيش العقول... فعند وقوع الفتن يُقتل الرجل، ولا يدرى لماذا قُتِلَ وفيْمَ قُتِلَ... بل إننا نرى بعض الناس يقتل غيره لأسبابٍ تافهة، وذلك عند اضطراب الناس... ويصدق على ذلك قوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيُنْزَعُ عَقُولُ أَكْثَرِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ»، نسأل الله العافية، ونعوذ به من الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن.

﴿وَأَمَّا عَنِ الْيَمِينِ الْغَمُوسِ فَهِيَ الْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ الَّتِي يَقْتَطِعُ بِهَا الْمُسْلِمُ حَقَّ أَخِيهِ يَمِينٍ كَاذِبَةً تَغْمِسُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُرْكَكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٨) كتاب الفتن.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» ^(١).
وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرْأْسِكَ» ^(٢).

(٣٤٣) وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنَ الْكِبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ» ^(٣).
وفي رواية: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ».
❀ وفي ذلك تحذير من أن يكون الإنسان سبياً في شتم والديه بأن يأتي إلى شخص فيشتتم والدي الشخص، فيقابله الشخص الآخر بالمثل ويشتم والديه... ولا يعنى ذلك أنه يجوز للشانى أن يشتم والدي الرجل؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولكنه في العادة والطبيعة أن الإنسان يجازى غيره بمثل ما فعل به، فإذا سَبَّه سَبَّه.

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بَغِيًّا عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، لذلك لما كان سبياً في سبب والديه؛ كان عليه إثم ذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤١٧) كتاب الخصومات - ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٧٣) كتاب الأدب، ومسلم (٩٠) كتاب الإيمان.

وفي الباب أحاديثٌ سبقَتْ في البابِ قبله كَحَدِيثِ: «وَأَقْطَعْ مَنْ قَطَعَكَ» وحديث «مَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ».

❁ الشاهد من هذا الحديث قوله: «عقوق الأمهات»: وهو قطع ما يجب لهن من البر ... أما «وَأَدِ الْبَنَاتِ»: فهو دفنهن أحياء، وذلك لأنهم في الجاهلية كانوا يكرهون البنات، ويعييون بقاء البنت عند الرجل، ويقولون: إن بقاء البنت عند الرجل مَسَبَّةٌ له .

فكانوا - والعياذ بالله - يأتون بالبنت فيحفرون لها حفرة ويدفنونها وهي حية ... قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ۖ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. فحرم الله ذلك، وهو لا شك من أكبر الكبائر، وإذا كان قتل الأجنبية المؤمن سبباً لدخول النار ... كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. فالقراءة أشد وأشد.

«ومنعاً وهات»: يعني أن يكون الإنسان جَموعاً مَنوعاً، يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ويطلب ما ليس له... فهات: يعني أعطوني المال، «ومنعاً»: أي يمنع ما يجب عليه... فإن هذا أيضاً مما حرمه الله ﷻ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يمنع ما يجب عليه بذله من المال، ولا يجوز أن يسأل ما لا يستحق، فكلاهما حرام... ولهذا قال: «إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات».

«وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»، كره وحرّم ليس بينهما فرق... لأن الكراهة في لسان الشارع معناها التحريم، ولكن هذا والله أعلم من باب اختلاف التعبير فقط.

== غَيْرِ الْوُجُوهِ الْمَأْدُونِ فِيهَا مِنْ مَقَاصِدِ الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا، وَتَرْكُ حِفْظِهِ مَعَ إِمْكَانِ الْحِفْظِ - «كَثْرَةُ السُّؤَالِ» الْإِلْحَاحُ فِيمَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ.

«كره لكم قيل وقال» يعنى نقل الكلام، وكثرة ما يتكلم الإنسان ويثرثر به، وأن يكون ليس له هَمٌّ إلا الكلام في الناس... قالوا: كذا وقيل كذا، ولا سيما إذا كان هذا في أعراض أهل العلم وأعراض ولاية الأمور، فإنه سيكون أشد وأشد كراهة عند الله عَزَّوَجَلَّ.

والإنسان المؤمن هو الذى لا يقول إلا خيراً... كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ يَوْمُنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فليَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ». وكثرة السؤال يحتمل أن يكون المراد السؤال عن العلم... ويحتمل أن يكون المراد السؤال عن المال.

أما الأول: وهو كثرة السؤال عن العلم فهذا إنما يُكره إذا كان الإنسان لا يُريد إلا إعانات المسئول، والإشفاق عليه، وإدخال السَّامة والملل عليه، أما إذا كان يُريد العلم فإنه لا يُنهى عن ذلك، ولا يُكره ذلك... وقد كان عبد الله ابن عباس رضي الله عنه كثير السؤال، فقد قيل له: بِمَ أدركت العلم؟ قال: أدركت العلم بلسانٍ سَتُولٍ، وقلبٍ عَقُولٍ، وبدنٍ غير مَلُولٍ.

لكن إذا كان قصد السائل الإشفاق على المسئول والإعانات عليه، وإلحاق السَّامة به، أو التماس زلاته لعله يَزِلَّ فيكون في ذلك قدحٌ فيه، فإن هذا هو المكروه.

وأما الثانى: وهو سؤال المال فإن كثرة السؤال قد تلحق الإنسان بأصحاب الشُّح والطمع، ولهذا لا يجوز للإنسان سؤال المال إلا عند الحاجة، أو إذا كان يرى أن المسئول يحب أن يسأله... كما لو كان صديقاً لك قوى الصداقة، قريباً جداً، فسألته حاجة وأنت تعرف أنه يكون بذلك ممنوناً، فهذا لا بأس به... أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا يجوز أن تسأل إلا عند الضرورة.

وأما إضاعة المال فهو بذل الإنسان له في غير فائدة لا دينية ولا دنيوية؛ لأن



الله تعالى قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥].

فالمال قيامٌ للناس؛ تقوم به مصالح دينهم ودنياهم، فإذا بذله الإنسان في غير ذلك فهذا إضاعة له، وأقبح من ذلك أن يبذله في مُحرم، فيرتكب في هذا محظورين:

المحظور الأول: إضاعة المال.

والمحظور الثاني: ارتكاب المحرم.

فالأموال يجب أن يحافظ عليها الإنسان، وألا يضعها وألا يبذلها إلا فيما فيه مصلحة له.. دينية أو دنيوية^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١١٠-١١١) بتصرف.

(٤٢) باب فضل برّ أصدقاء الأب والأم

والأقارب والزوجة وسائر من يندب إكرامه

(٣٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وَدَّ

أَبِيهِ».

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ.. قَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ إِنَّهُمْ الْأَعْرَابُ وَهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وَدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ».

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ ابْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمَارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيْهِ إِذَا مَلَ رُكُوبَ الرَّاحِلَةِ، وَعِمَامَةٌ تَشُدُّ بِهَا رَأْسَهُ، فَبَيْنَا هُوَ يَوْمًا عَلَى ذَلِكَ الْحِمَارِ إِذْ مَرَّ بِهِ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: أَلَسْتَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ؟ قَالَ: بَلَى. فَأَعْطَاهُ الْحِمَارَ، فَقَالَ: ارْكَبْ هَذَا، وَأَعْطَاهُ الْعِمَامَةَ وَقَالَ: اشْدُدْ بِهَا رَأْسَكَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، أَعْطَيْتَ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيْهِ، وَعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بِهَا رَأْسَكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ أَبْرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُؤَلَّى»^(١) وَإِنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ رضي الله عنه... رَوَى هَذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلُّهَا مُسْلِمٌ.

❁ فمن الوفاء أن نصل أصدقاء الأب بعد موته وصديقات الأم بعد موتها... فكل خير كان يفعله الآباء والأمهات إذا فعله الأبناء بعد موتهما يكون في ميزان حسناتهما.

(١) صحيح، رواه مسلم (٢٥٥٢) كتاب البر والصلة.

✽ وهنا ذكر المؤلف رحمه الله فضل برِّ أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة بعدما ذكر فضل بر الوالدين وصلة الأرحام.. وهذا من باب قول القائل:

حَيْبُ حَبِيْبِي .. حَبِيْبِي وَعَدُو حَبِيْبِي ... عَدُوِي

فإكرام هؤلاء هو في الحقيقة إكرامٌ للوالدين وللأرحام.

✽ وهنا ذكر الإمام حديث ابن عمر رضي الله عنهما وهو حديثٌ يتضمن قصة عجيبة .

فقد كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا خرج إلى مكة حاجًّا يكون معه حمار يتروح عليه إذا شعر بشيءٍ من الملل من ركوب الراحلة - أي: ركوب البعير - فكان يستريح على ذلك الحمار لفترة ثم يعود فيركب الراحلة لتقطع به الطريق أسرع من الحمار.

وفي يومٍ من الأيام كان ابن عمر يستروح على ذلك الحمار فلقيه أعرابيٌّ فقير.... فلما رآه ابن عمر أقبل عليه وسأله: أأنت فلان ابن فلان؟ فقال له الأعرابي: بلى أنا فلان ابن فلان. ففرح ابن عمر ونزل في التوّ واللحظة عن الحمار وقال للأعرابي: خُذ هذا الحمار واركب عليه .. فركب الأعرابي على الحمار وهو لا يصدق نفسه فقد كان يسير في تلك الصحراء على رجليه..

وبينما هو في لحظة الذهول السعيدة إذ بابن عمر يُفاجئه المفاجأة الثانية ويخلع عمامته التي كانت على رأسه ويقول له: اشدُّد بها رأسك.

وكانه دار حوارٌ قصير بين ابن عمر وهذا الرجل ثم انصرف وقد أخذ الحمار والعمامة..

فقال بعض أصحاب ابن عمر له: أصلحك الله أو غفر الله لك!.. إنهم الأعراب وإن الأعراب يرضون باليسير..

أي أنهم يفرحون بما هو أقل من ذلك بكثير... فكيف تعطيه حمارك الذي كنت تتروح عليه وقد كان أنفع له ولك أن تُعطيه درهماً أو درهمين؟!

فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أبرَّ البر صلة الرجل أهل وُدِّ أبيه».

يعنى إن أبرَّ البر أنه إذا مات أبو الرجل أو أمه أو أحد من أقاربه أن تبرَّ أهل وُدِّه... يعنى ليس صديقه فقط بل حتى أقارب صديقه.

وإن أبا هذا كان صديقاً لأبى (عمر بن الخطاب رضي الله عنه) فلما كان صديقاً لأبى أكرمه برّاً بأبى (عمر بن الخطاب).

وفي هذا الحديث: دليل على امتثال الصحابة، ورغبتهم في الخير ومسارعتهم إليه... لأن ابن عمر استفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة، فإنه فعل هذا الإكرام بهذا الأعرابي من أجل أن أباه كان صديقاً لعمر.. فما ظنك لو رأى الرجل الذي كان صديقاً لعمر؟ لأكرمه أكثر وأكثر.

فيستفاد من هذا الحديث: أنه إذا كان لأبيك أو أمك أحدٌ بينهم وبينه وُدٌّ فأكرمه... كذلك إذا كان هناك نسوة صديقات لأمك فأكرم هؤلاء النسوة، وإذا كان رجال أصدقاء لأبيك فأكرم هؤلاء الرجال، فإن هذا من البر.

وفي هذا الحديث أيضاً: سعة رحمة الله عز وجل، حيث إن البر باب واسع لا يختص بالوالد والأم فقط، بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم، إذا أحسنت إليهم فإنما بررت والديك... فتُثاب ثواب البار بوالديه. وهذه من نعمة الله عز وجل، أن وسَّع على عباده أبواب الخير^(١).

✽ قال الإمام النووي رحمته الله:

وَفِي هَذَا فَضْلُ صَلَةِ أَصْدِقَاءِ الْأَبِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِإِبْرِ الْأَبِ وَإِكْرَامِهِ لِكَوْنِهِ بِسَبَبِهِ... وَتَلْتَحِقُ بِهِ أَصْدِقَاءُ الْأُمِّ وَالْأَجْدَادِ وَالْمَشَائِخِ وَالزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١١٢).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٦٥).

(٣٤٧) وَعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٍ أَبرَّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا»^(١).

✽ على الرغم من أن هذا الحديث ضعيف إلا أنني سأشرحه شرحاً مبسطاً وذلك لاشتهاره على ألسنة الناس ولأن هناك مَنْ يُخطئ في فهم بعض ألفاظه.

ففي هذا الحديث يُخبر مالك بن ربيعة أنه بينما هم جُلُوسٌ عند النبي ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ عَلَيَّ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٍ أَبرَّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟

فمعنى ذلك أن هذا الرجل كان باراً بوالديه غاية البر.. فلما ماتا أراد أن يسأل: هل من الممكن أن أكمل مسيرة البر بعد موتهما...

فهذا رجل يُريد أن يبرهما حتى بعد موتهما.. وهناك مَنْ يعقهما حتى في حياتهما!!!

المهم أنه لما سأل النبي ﷺ هذا السؤال قال له النبي ﷺ: «نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا».

✽ فهذه خمسة أشياء تفعلها مع الوالدين بعد موتهما.

(١) الصلاة عليهما: بمعنى الدعاء لهما... فالصلاة هنا بمعنى الدعاء وهي كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]... وكان النبي ﷺ إِذَا أَتَتْهُ الصَّدَقَةُ قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ».

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألباني في المشكاة (٤٩٣٦)، وضعيف سنن ابن ماجه (٨٠٠).

(٢) الاستغفار لهما: وهو أن يستغفر الإنسان لوالديه ويقول: اللهم اغفر لهما... كما كان إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

(٣) إنفاذ عهدهما: يعنى إنفاذ وصيتهما ما لم يكن فيها معصية.

(٤) صلة الرحم التى لا توصل إلا بهما: بأن تصل أرحامك التى كانوا يزورونها.

(٥) إكرام صديقهما: كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما بهذا الرجل الأعرابى الذى جاءت قصته فى الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٤٨) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا غَرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَمَا رَأَيْتُهَا قَطُّ، وَلَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يَقْطَعُهَا أَغْصَاءَ، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا إِلَّا خَدِيجَةُ، فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»^(١).

وفى رواية: وَإِنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ، فَيُهْدَى فِي خَلَائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسْعُهُنَّ.

وفى رواية: كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ يَقُولُ: «أَرْسَلُوا بِهَا إِلَى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ».

وفى رواية قالت: اسْتَأْذَنْتُ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَأَحَ لَذَلِكَ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَالَةَ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

قولها: «فَارْتَأَحَ» هو بِالْحَاءِ، وفى الجمع بين الصحيحين للحميدى: «فَارْتَأَعَ» بالعين ومعناه: اهتمَّ به.

❁ من المعلوم أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت حبيبة رسول الله ﷺ ... وأيضاً كانت خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حبيبة رسول الله ﷺ وأم أولاده جميعاً ما عدا إبراهيم فهو ابن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨١٦) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

مارية القبطية ... فلقد وقفت خديجة بجوار الرسول ﷺ وساعدته وأزرتة وضحت من أجله ومن أجل دعوته بالكثير والغالى والنفيس فكان النبى ﷺ لا ينساها أبداً.

فكان فى المدينة إذا ذبح شاة أخذ من لحمها وأهداه إلى صديقات خديجة ﷺ ... ولم تصبر عائشة رضى الله عنها على ذلك، قالت: يا رسول الله، كأن لم يكن فى الدنيا إلا خديجة.

قال: « إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ »، يعنى كانت تفعل كذا، وتفعل كذا، وذكر من خصالها رضى الله عنها « وَكَانَ لى مِنْهَا وَلَدٌ » حيث كل أولاده؛ أربع بنات وثلاثة أولاد كلهم منها إلا ولداً واحداً هو إبراهيم رضى الله عنه، فإنه كان من مارية القبطية التى أهداها إليه ملك القبط.

❁ بل كان النبى ﷺ يشاق لكل مَنْ يُذكره بخديجة .. ولذلك لما استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة رضى الله عنها - فرح النبى ﷺ فرحاً شديداً وقال: «اللهم هالة» ... لأنها كانت تذكره بخديجة رضى الله عنها.

❁ بل كان النبى ﷺ يعتبر حبه لخديجة رضى الله عنها رزقاً ساقه الله إليه.

عن عائشة قالت: ما غرت على نساء النبى ﷺ إلا على خديجة وإنى لم أدركها قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة» قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة! فقال رسول الله ﷺ: «إنى قد رُزقت حبها»^(١).

قال الإمام الذهبى: قلت: وهذا من أعجب شىء^(٢). أن تغار رضى الله عنها من امرأة عجوز توفيت قبل تزوج النبى ﷺ بعائشة، ثم يحميها الله من الغيرة من عدة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٢٩) كتاب النكاح، مختصراً - ومسلم (٢٤٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) علق الشوكانى رحمه الله على هذا الموطن فقال: سبب الغيرة ما كانت تسمعه من ثناء رسول الله ﷺ على خديجة، وتفخيمه لشأنها كما سبق فى ترجمتها رضى الله عنها، فلا عجب إذن.

نسوة يشاركنها في النبي ﷺ ، فهذا من ألطاف الله بها وبالنبي ﷺ ، لئلا يتكدر عيشهما. ولعله إنما خفف أمر الغيرة عليها حب النبي ﷺ لها وميله إليها... فرضى الله عنها وأرضاها.

❁ وعن عائشة قالت: دخلت امرأة سوداء على النبي ﷺ، فأقبل عليها. قالت: فقلت: يا رسول الله، أقبلت على هذه السوداء هذا الإقبال! فقال: «إنها كانت تدخل على خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان»^(١).

❁ فما أجمل أن نكون أوفياء لآبائنا وأمهاتنا وأرحامنا وأصدقاء آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا وزوجاتنا وكل من حولنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٤٩) وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُنِي فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا آلَيْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يُخبر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ أنه خرج مع جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سفرٍ فجعل جرير يخدم أنسًا وكل من معه من الأنصار... فلما سأله أنس عن سبب ذلك قال له جرير: إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا فآليت على نفسي - يعني حلفت - أن لا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته.

وهذا من فرط حبه للرسول ﷺ وكل من يحب الرسول ﷺ وكل من كان يخدم الرسول ﷺ ويضحى من أجله.

وهذا من كمال حب جرير واحترامه وتوقيره للنبي ﷺ.

(١) حسن: رواه الحاكم (٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٥٦)، الصحيح (٢١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٨٨) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٥١٣) كتاب فضائل الصحابة.

❁ وهذا ما فعله ابن عباس رضي الله عنه مع أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي استضاف النبي ﷺ في بيته سبعة أشهر عندما هاجر من مكة إلى المدينة. فأراد ابن عباس بعد سنواتٍ طويلة أن يُكرمه لإكرامه لرسول الله ﷺ. ففى سيرة ابن عباس أنه كان أميراً على البصرة (لعلّي)، وأن أبا أيوب الأنصاري وفد عليه، فبالغ في إكرامه، وقال: لأجزينك على إنزالك النبي ﷺ عندك... فوصله بكل ما فى المنزل، فبلغ ذلك أربعين ألفاً. وفى رواية: أن أبا أيوب قدم على ابن عباس البصرة، ففرغ له بيته، وقال: لأصنعنَّ بك كما صنعت برسول الله ﷺ... كم عليك؟ قال: عشرون ألفاً فأعطاه أربعين ألفاً، وعشرين مملوكاً، ومتاع البيت ^(١). ❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

وفى حديث جرير بن عبد الله وخدمته لانسٍ إكراماً للأنصارٍ دليلٌ لإكرام المُحسينِ والمُتَسَبِّبِ إليه وإن كان أصغرَ سنّاً... وفيه تواضعُ جريرٍ وفضيلته وإكرامه للنبي ﷺ وإحسانه إلى من انتسب إلى من أحسن إليه ﷺ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أخرجه الطبراني، والحاكم (٣/ ٤٦١، ٤٦٢) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٠٥).

(٤٣) بَابُ إِكْرَامِ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيَانِ فَضْلِهِمْ

❖ لا بد أن نعلم أولاً أن أهل بيت رسول الله ﷺ ينقسمون إلى قسمين:

(١) قسمٌ مؤمنون: .. وهم الذين آمنوا من أهل بيت رسول الله ﷺ وقرابته .. ومنهم زوجات الرسول ﷺ .. فإن زوجاته ﷺ من أهل بيته كما قال تعالى عنهن: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلَ صَلَاحًا تُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُ أَكْأَدُ مِنْ أَنْ يَسَاءَ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣٣].

(٢) قسمٌ كفار: فهؤلاء ليسوا من أهل بيت النبي ﷺ حتى وإن كانوا أقارب له في النسب لكنهم ليسوا من أهل بيته ﷺ .. لأن الله عز وجل قال لنوح عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنبِئُ مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، فقال الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

الإحسان إلى آل بيت النبي ﷺ

❖ عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(١).
❖ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة.

تضلوا بعدى؛ أحدهما أعظم من الآخر: كتابُ الله حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(١).

وموقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت موقف الاعتدال والإنصاف، يتولون أهل الدين والاستقامة منهم، ويتبرؤون ممن خالف السُّنة وانحرف عن الدين ولو كان من أهل البيت... فإن كونه من أهل ومن قرابة الرسول ﷺ لا ينفعه ذلك حتى يستقيم على دين الله... فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئاً...»^(٢)، وفي حديث آخر عند مسلم: «مَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»^(٣).

وأهل السنة يتبرؤون من طريقة مَنْ غلا في بعض أهل البيت وادّعى لهم العصمة، ومن طريقة مَنْ ناصب آل البيت العداوة وطعنوا فيهم، ومن طريقة المبتدعة والخرافيين الذين يتوسلون بأهل البيت ويصرفون لهم شيئاً من خالص حق الله ﷻ.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]: «ولا ننكر الوصاية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم، وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيتٍ وُجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنّة النبوية الصحيحة

(١) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٥٨).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٥٣) كتاب الوصايا.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين».

ومع كل هذه المكانة التى أكرم الله بها آل بيت نبيه، إلا أن ذلك كله مشروط بالصلاح والتقوى، وهم فيما عدا ما لهم من خصائص كغيرهم من المسلمين... لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، فليس قُربهم من النبى بمُجيزٍ لهم تجاوز أحكام الله وشرعه، أو أن ينالوا النجاة فى الآخرة دون تقوى وعملٍ صالح... فكل عباد الله فى ميزان الله سواء.

وهذا ما أوضحته الأدلة الشرعية إيضاحًا تامًا بعيدًا عن اللَّبس فى أحاديث كثيرة... منها ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشًا أهمَّهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت، فقالوا: ومَن يكلم فيها رسول الله ﷺ، فقالوا: ومَن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع فى حدٍّ من حدود الله»، ثم قام فاخطب فقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

فهذا الحديث يبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الكل أمام شرع الله سواء... سواء أكان من آل البيت أم من غيرهم، وسواء أكان من أشرف الناس أم من ضعفائهم... هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة.

فقد قال النبى ﷺ القول الفصل فى ذلك عندما أعلنها صريحة أن: «مَنْ بَطَأَ به عمله لم يُسرَّع به نَسَبُهُ»... فمدار النجاة على الإيمان والعمل الصالح، لا على الأنساب والأحساب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

(٣٥٠) وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ، وَعُمَرُو بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدَّثَنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي وَاللَّهِ لَقَدْ كَبُرَتْ سِنِّي، وَقَدُمَ عَهْدِي، وَنَسِيتُ بَعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعْيُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا حَدَّثْتُكُمْ، فَاقْبَلُوا، وَمَا لَا فَلَا تُكَلِّفُونِيهِ ... ثُمَّ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى حُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ، وَذَكَرَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوْشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالتَّوْرُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ. ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي» فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نَسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةُ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ ^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ، مَنْ تَبِعَهُ كَانَ عَلَى الْهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَى ضَلَالَةٍ».

(٣٥١) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رضي الله عنه مُوقِفًا عَلَيْهِ أَنَّهُ قَالَ: ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ^(٢).

❖ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ حُصَيْنَ بْنَ سَبْرَةَ قَالَ لَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ، وَغَزَوْتَ مَعَهُ، وَصَلَّيْتَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٧١٣، ٣٧٥١) كتاب فضائل الصحابة.

معنى «ارْقُبُوا» رَاعَوْهُ وَاحْتَرَمُوهُ وَأَكْرَمُوهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

خلفه.

ولا شك أن أعظم نعمة في هذا الكون بعد الإسلام هي شرف صحبة النبي ﷺ.. لكن إن كنا حُرمنّا صحبته ﷺ في الدنيا فالفرصة ما زالت قائمة لنكون في صحبته ﷺ في الجنة... فالمرء مع من أحب...

فعلينا أن نُحبه ﷺ ونتبعه ونطيع أمره وننتهي عن نهيه ﷺ وننشر دعوته ونُدافع عنه ﷺ ونُصلي عليه ﷺ ونتحلّى بأخلاقه ونُوقره ونتأدب معه لنكون في صحبته ﷺ.

❁ وفي هذا الحديث أخبر زيد بن أرقم رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب في أصحابه عند غدير خم... وهو غدير بين مكة والمدينة فأوصاهم بكتاب الله الذي هو منهج حياة يكفل لمن قرأه وتدبره وعمل بما فيه وتحاكم إليه سعادة الدنيا والآخرة. ثم أوصاهم بأهل بيته خيراً وقال: «أذكركم الله في أهل بيتي».. وقد تكلمنا عن وجوب محبة المؤمنين من آل بيت النبي ﷺ.

فلأهل بيت رسول الله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم حقوق يجب القيام بها. فعلى أن نحب آل بيت رسول الله ﷺ ونتولاهم ونُذَبّ عنهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. وقوله ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي»^(١).

وقد أمرنا الرسول ﷺ بالصلاة عليهم مع الصلاة عليه، فقال لنا قولوا: «اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آل محمد...»... فمن بين حقوق آل بيت النبي ﷺ: (١) مودة آل البيت:

اتفق العلماء على وجوب مودة آل البيت؛ لأن في مودتهم مودة للنبي ﷺ... وقد قال ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي»، قالها ثلاثاً.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٨) كتاب فضائل الصحابة.

ولا شك أن المراد بالمودة هنا قدرًا زائدًا عن مودة غيرهم من المؤمنين، ولو كانوا من الأقربين ... حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: «لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي»^(١).

وإذا كان من الوفاء والبر «أن يصل الرجل وُدَّ أبيه»^(٢) - كما في الحديث الصحيح - فمن باب أولى أن نصل أهل بيت النبي ﷺ بمحبتنا إياهم واحترام مكانتهم وتوقيرهم والترضى عنهم والاستغفار لهم.

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببشرٍ حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، قال: فغضب النبي ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله»^(٣).

(٢) الصلاة عليهم:

وقد بين ﷺ كيفية الصلاة عليه، وأن الصلاة على آله تبعٌ للصلاة عليه، فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمدٍ وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٤).

وفي رواية: «اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد، اللهم بارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧١٢) كتاب فضائل الصحابة، ومسلم (١٧٥٩) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) رواه أحمد (٣٧٥٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في المشكاة (٦١٤٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٤٠٧) كتاب الصلاة.

آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ».

(٣) متابعة الصالحين^(١) من أهل البيت:

فقد قال ﷺ: «إني تاركٌ فيكم خليفتين: كتاب الله حبلٌ ممدودٌ ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»^(٢).

(٤) الدفاع عنهم والدُّود عن أعراضهم:

فإن كان النبي ﷺ قال: «انصر أخاك»^(٣) فكيف بنصرة آل بيت رسول الله ﷺ... إن نصرتنا لهم ودافعنا عنهم شرفٌ لنا وفخرٌ لنا.

(٥) تحريم أكل الصدقة عليهم:

قال ﷺ: «إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمدٍ، ولا لآل محمد»^(٤).

ومعنى أوساخ الناس أنها تطهير أموالهم ونفوسهم.

قال الإمام ابن قدامة: «ولا نعلم خلافاً في أن بني هاشم لا تحل لهم الصدقة المفروضة»، أما صدقة التطوع فتحلُّ لهم لأنها ليست من أوساخ الناس.

(٦) إعطاؤهم خمس الخمس من الغنيمة والفيء:

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]

(١) والتقيد في العنوان الذي عنواننا به - بالصالحين - تقيد لا بد منه إذ لم يأمرنا الله ﷻ بأن يتابع سبيل المفسدين من كانوا وأينما كانوا... قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١٢) وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾^(١٣) وقال النبي ﷺ: «مَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» وقد كان أبو لهب - لعنه الله - هاشمياً فنزلت فيه سورة من القرآن تُبَكِّتُهُ وتذمه هو وزوجته.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٤٥٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٤٤٣) كتاب المظالم والغصب.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.



(٤٤) باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل

وتقدريمهم على غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مرتبتهم

✽ العلماء ورثة الأنبياء... والأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم.... لم يورثوا عَرَضًا زائلًا، ولا مالًا فانيًا... وإنما ورثوا حياة الأرواح وزكاة النفوس ومكارم الأخلاق.

ورثوا عن نوح صبره على دعوته.. وتحمله الإيذاء في سبيل الله... من غير ضجر... ولا ملل... ولا قنوط ولا يأس.

ورثوا عن خليل الرحمن إبراهيم ﷺ شجاعته وصموده أمام عدوان الباطل... ورثوا عنه التضحية بالروح والجسد... في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا.. وكلمة الذين كفروا السفلى.

ورثوا عن كلیم الله موسى ﷺ أمانته وعفته... ورثوا عنه جهاده في سبيل أن يُخرج الناس من ظلم الحكام... إلى عدل الرحمن... ومن عبادة الطواغيت إلى عبادة رب الأرض والسموات.

ورثوا عن عيسى ﷺ زهده ورحمته.. ورثوا عنه سُمُو النفس ورفعة الروح... وحُبه لجميع الخلق.

ورثوا عن سيد الأولين والآخرين ﷺ صبره وحلمه... ورثوا عنه جهاده ونضاله... ورثوا عنه الفضائل الحميدة... والأخلاق الكريمة. فصاروا بذلك أئمة الهدى ومصابيح الدُّجى.

✽ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الْأَلْبَابِ ﴿[الزمر: ٩].

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعى، ودينه الجزائى، وما له فى ذلك من الأسرار، والحكم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوى هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوى الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذُكِّروا ﴿أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾؛ أى: أهل العقول الزكية الذكية. فهم الذين يُؤثِّرون الأعلى على الأدنى، فيؤثِّرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن لهم عقولاً، ترشدهم للنظر فى العواقب. بخلاف مَنْ لا لُبَّ له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه^(١).

﴿وَإِذَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ لَهُمْ حَقُّ التَّبَجِيلِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ، فَلَمَنْ وَرَثَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، أَنْ يُجَلَّ وَيُعْظَمَ وَيُكْرَمَ.

وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تُهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذُكِّروا وسقطوا أمام أعين الناس؛ ذلَّت الشريعة التى يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدرىهم فتضيع الشريعة.

فإذا استهان الناس بالعلماء لقال كل واحد: أنا العالم، أنا الفهامة، أنا العلامة، أنا البحر الذى لا ساحل له... ولما بقى عالم، ولصار كُلُّ يتكلم بما شاء، ويُفتى بما شاء، ولتمزقت الشريعة بسبب هذا الذى يحصل من بعض السفهاء.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فالعالم يعبد الله على بصيرة... يعرف كيف يتوضأ، وكيف يصلى، وكيف يُزَكَّى، وكيف يصوم، وكيف يحج، وكيف يبر والديه، وكيف يصل رحمه.

العالم يهدى الناس إلى طريق الخير والهدى ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]

(١) تفسير السعدى (ص ٨٥٠).

لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا ... فالعالم نور يُهتدى به ويرفع الله به ... والجاهل عالمة على غيره، لا ينفع نفسه ولا غيره، بل إن أفتى بجهلٍ؛ أضرَّ نفسه وأضرَّ غيره، فلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

﴿يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ﴾

(٣٥٢) وعن أبي مسعود عتبة بن عمرو البدرى الأنصارى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمَهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمَهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمَهُمْ سِنًا وَلَا يَوْمَنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»^(١).

وفي رواية له: «فَأَقْدَمَهُمْ سِلْمًا» بدل «سِنًا»: أى إسلامًا.

وفي رواية: «يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَقْدَمَهُمْ قِرَاءَةً، فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً فَيَوْمُهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَلْيَوْمُهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًا».

❁ وهذا يدل على أن صاحب العلم مُقَدَّم على غيره ... يُقَدَّم العالم بكتاب الله، ثم العالم بسنة رسول الله ﷺ ولا يُقَدَّم من القوم في الأمور الدينية إلا خيرهم وأفضلهم.

وهذا يدل على تقديم الأفضل فالأفضل في الإمامة... وهذا في غير الإمام الراتب... أما الإمام الراتب فهو الإمام وإن كان في الناس من هو أقرأ منه ... لقول النبي ﷺ في الحديث: «وَلَا يَوْمَنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ» وإمام المسجد الراتب سلطان في مسجده.

﴿يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ﴾

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٧٣) كتاب المساجد.

و المراد «بسلطانه» محل ولايته، أو الموضع الذى يختص به - «وتكريمته»: وهى ما ينفرد به من فرائض وسرير ونحوهما.

(٣٥٣) وعن أبي مسعود رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسُحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ وَيَقُولُ: «اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلْنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١).

(٣٥٤) وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِيَلْنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - ثَلَاثًا - وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ الْأَسْوَاقِ»^(٢).

❦ وأولو الأحلام: يعنى الذين بلغوا الحلم وهم البالغون، والنهى جمع نهيته وهى العقل.. يعنى العقلاء فالذى يجب أن يتقدم فى الصلاة العاقلون البالغون؛ لأن ذلك أقرب إلى فهم ما يقوله النبى ﷺ أو ما يفعله، فلهذا حث النبى ﷺ أن يتقدم هؤلاء حتى يلوا الإمام.

وليس معنى الحديث لا يلنى إلا أولو الأحلام والنهى، بحيث نطرد الصبيان عن الصف الأول، فإن هذا لا يجوز. فلا يجوز طرد الصبيان عن الصف الأول إلا أن يحدث منهم أذية، فإن لم يحدث منهم أذية؛ فإن من سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد أحق به.

وهناك فرق بين أن تكون العبارة النبوية: «لا يلنى إلا أولو الأحلام»، وبين قوله: «ليلى أولو الأحلام»، فالثانية تحث الكبار العقلاء على التقدم، والأولى لو قدر أنها هى نص الحديث لكان ينهى أن يلى الإمام من ليس بالغاً، أو ليس عاقلاً. ولهذا نقول: إن أولئك الذين يطردون الصبيان عن الصف الأول أخطئوا من

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٢) كتاب الصلاة.

وقوله ﷺ: «ليلى» هو بتخفيف النون وليس قبلها ياء وروى بتشديد النون مع ياء قبلها. والنهى: العقول - وأولو الأحلام هم البالغون، وقيل: أهل الحلم والفضل.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٣٢) كتاب الصلاة.

هيشات الأسواق: ما يكون فيها من الجلبة وارتفاع الأصوات، وما يحدث فيها من الفتن، وأصله من الهوش وهو الاختلاط... قال المناوى: والمعنى لا تكونوا مختلطين اختلاط أهل الأسواق. فلا يتميز الذكور عن الإناث، ولا الصبيان عن البالغين.

جهة أنهم منعوا ذوى الحقوق حقوقهم... ومن جهة أخرى أنهم يُكرهون الصبيان المساجد، وهذا يؤدى إلى أن ينفر الصبى عن المسجد إذا كان يُطرد عنه.

ثم إننا لو طردناهم من أوائل الصفوف؛ حصل منهم لعب... لو كانوا كلهم فى صفٍّ واحدٍ، لحصل منهم من اللعب ما يوجب اضطراب المسجد، واضطراب أهل المسجد، ولكن إذا كانوا مع الناس فى الصف الأول ومتفرقين؛ فإن ذلك أسلم من الفوضى التى تحصل بكونهم يجتمعون فى صفٍّ واحد.

وقوله ﷺ: «يلينى منكم أولو الأحلام والنهى» يُستفاد منه: أن الدنو من الإمام له شأن مطلوب، ولهذا قال: «يلينى» أى يكون هو الذى يلينى.

وعلى هذا نقول: إذا كان يمين الصف بعيداً، وأيسر الصف أقرب منه بشكل واضح، فإن الصف الأيسر أفضل من الأيمن، من أجل دنوه من الإمام، ولأنه لما كان الناس فى أول الأمر إذا كان إمامهم واثنان معه، فإنهما يكونان عن يمينه واحد، وعن شماله واحد، ولا يكون كلاهما عن اليمين، فدلّ هذا على مراعاة الدنو من الإمام، وتوسط الإمام من المأمومين.

ولكن هذا الأمر أى كون الإمام واثنان معه يكونان فى صفٍّ واحد، هذا نسخ، وصار الإمام إذا كان معه اثنان يصفّان خلفه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٥٥) وَعَنْ أَبِي يَحْيَى وَقِيلَ: أَبِي مُحَمَّدٍ سَهْلٍ بْنُ أَبِي حَنْثَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إِلَى خَيْبَرَ وَهِيَ يَوْمَئِذٍ صُلْحٌ، فَتَفَرَّقَا. فَأَتَى مُحَيِّصَةُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ وَهُوَ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ قَتِيلًا، فَدَفَنَهُ، ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ وَحُويِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ فَقَالَ: «كَبَّرَ كَبَّرَ» وَهُوَ أَحَدُ الْقَوْمِ، فَسَكَتَ، فَتَكَلَّمَا فَقَالَ: «أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ؟»^(١) وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٧٣) كتاب الجزية، ومسلم (١٦٦٩) كتاب القسامة.

❁ ففى هذا الحديث دليلٌ على توقير الكبار .. وذلك لأن النبى ﷺ لما أراد الرجل الصغير أن يتكلم قال له النبى ﷺ: «كَبِّرْ كَبِّرْ» أى: اترك مَنْ هو أكبر منك سنًا يتكلم. وهذا نوعٌ من الآداب التى تعلمناها من النبى ﷺ.

أنه إذا كان هناك مجموعة من الناس فى مكانٍ ما فلا بد أن تُقدم الأكبر ليتكلم .. إلا إذا كان الأكبر قد تنازل عن الكلام لأحد الحاضرين لكثرة علمه وحُسن أدائه ولباقة فى الكلام فهذا لا بأس به.

بَابُ تَوْقِيرِ الْكِبَارِ

(٣٥٦) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أَحَدٍ... يَعْنِي فِي الْقَبْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟» فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ^(١).

❁ وفى هذا الحديث يذكر جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما أراد أن يدفن شهداء أحد وهو فى قمة حزنه عليهم لم ينسَ فضل أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ... فكان النبى ﷺ يسأل: «أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ» أى: أكثر حفظًا للقرآن .. فإذا أُشير له إلى أحدهما قَدَّمَهُ فى اللحد.

وهذا يدل على توقير أهل القرآن الذين يعملون به ويظهر أثر ذلك على أخلاقهم ومعاملاتهم وعباداتهم .. وليس أهل القرآن الذين يتاجرون به ويتخذونه حرفة ووسيلة للثراء ولا يظهر أثر القرآن على أخلاقهم ولا عباداتهم ولا معاملاتهم ... فاللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين يحفظونه ويتدبرونه ويعملون به ويتحاكمون إليه.

بَابُ تَوْقِيرِ الْكِبَارِ

= وقوله ﷺ: «كَبِّرْ كَبِّرْ» معناه: يَتَكَلَّمُ الْأكْبَرُ.

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٤٣) كتاب الجنائز.

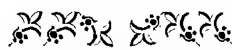
(٣٥٧) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرَانِي فِي الْمَنَامِ أَتَسَوَّكَ بِسِوَاكِ، فَجَاءَنِي رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، فَنَاولْتُ السَّوَاكَ الْأَصْغَرَ مِنْهُمَا، فَقِيلَ لِي: كَبِّرْ، فَدَفَعْتُهُ إِلَى الْأَكْبَرِ»^(١).

❁ وفي حديث الرؤيا التي رآها الرسول ﷺ أنه كان ﷺ يتسوك بسواك فجاءه رجلان فأراد أن يعطيه الأصغر، فقيل له: كَبِّرْ كَبِّرْ.... فيه دليل أيضاً على اعتبار الكبير، وأنه يُقدَّم الأكبر في إعطاء الشيء.

ومن ذلك إذا قدمت الطعام مثلاً أو القهوة أو الشاي فلا تبدأ باليمين، بل ابدأ بالأكبر الذي أمامك؛ لأن النبي ﷺ لما أراد أن يعطيه الأصغر قيل له كَبِّرْ... ومعلوم أنه لو كان الأصغر هو الأيسر ما ذهب الرسول ﷺ يعطيه إياه... فالظاهر أنه أعطى الأيمن من أجل التيامن، لكن قيل له كَبِّرْ: يعنى أعطه الأكبر... فهذا إذا كان الناس أمامك تبدأ بالكبير، لا تبدأ باليمين، أما إذا كانوا جالسين عن اليمين وعن الشمال فابدأ باليمين.

وبهذا يُجمَع بين الأدلة الدالة على اعتبار التكبير أى مراعاة الكبير^(٢).

❁ قال ابن بطال: فيه تقديم ذى السنن في السواك، ويلتحق به الطعام والشراب والمشى والكلام... قال المهلب: هذا ما لم يترتب القوم، فإن ترتبوا فالسنة تقديم الأيمن وهو صحيح... ويؤيده تقديم الأعرابي على الصديق في دفع الشراب إليه. وفيه أن استعمال سواك الغير بإذنه غير مكروه إلا أن المستحب غسله ثم استعماله^(٣).



(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧١) كتاب الرؤيا، ورواه البخارى تعليقا (٢٤٦) كتاب الوضوء.

(٢) شرح رياض الصالحين (١٢٥/٢).

(٣) دليل الفالحين (١٨٦/٢).

(٣٥٨) وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»^(١).

❁ (إن من إجلال الله) أى من تعظيمه وتبجيله (إكرام ذى) أى صاحب (الشيبة المسلم) الذى شاب شعره: أى ابىض ونفذ عمره فى الإسلام والإيمان.. فتعظيمه وتقديمه فى الصلاة بشرطه على غيره وفى المجامع والمجالس وفى القبر وغيره والرفق به والشفقة عليه من كمال تعظيم الله لحرمة عند مولاه سبحانه... (وحامل القرآن) أى قارئه.. سُمى حاملاً لما تحمّل فى حفظه من الدرس والمشقة فى تفهمه والعمل بأحكامه وتدبره فهو كحامل المشاق الكثيرة التى تزيد على الأحمال الثقيلة.

«غير الغالى فيه» المتجاوز الحد فى التشدد والعمل به وتتبع ما خفى منه واشتبه عليه من معانيه، والكشف عن دقيق علله التى لا يصل إليها عقله إلا بما يبتدعه فى الدين ليُضِلَّ ويُضَلَّ غيره ويجاوز حدود قراءته ومخارج حروفه ومدّه (والجافى عنه) أى التارك له البعيد عن تلاوته والعمل بما فيه فإن هذا من الجفاء وهو البعد عن الشيء.

قلت: لا سيما مَنْ أعرض عنه بكثرة النوم والبطالة والإقبال على الدنيا والشهوات... وما أقبح بحامل القرآن أن يتلفظ بأحكامه ولا يعمل بها،... فهو إن فعل ذلك أصبح كمثل الحمار يحمل أسفاراً.... (وإكرام ذى) أى صاحب (السلطان) أى الملك (المقسط) أى العادل فى حكمه بين رعيته^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٩٩).

(٢) دليل الفالحين (١٨٧/٢) بتصرف.

(٣٥٩) وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا»^(١).

وفي رواية أبي داود: «حَقَّ كَبِيرِنَا».

✽ «ليس منا» أى ليس من أهل سُنتنا وهدينا وطريقتنا (مَنْ لَا يَرْحَمْ صَغِيرَنَا) أى الصغير من المسلمين بَأَن يُشْفِقَ عَلَيْهِ وَيَرْحَمَهُ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِ وَيُلَاحِظَهُ (وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا) أى بما يستحقه من التعظيم والإجلال والتبجيل... وتوضحه رواية أحمد «ليس من أمتى مَنْ لَمْ يُجَلِّ كَبِيرِنَا»^(٢).

ولابد أن نعلم أن الجزء من جنس العمل .. فكما ترحم الصغير ستجد من يرحم صغارك وأطفالك فى حياتك وبعد موتك.. وكما تحترم وتوقر الكبير فسوف تجد مَنْ يحترمك ويوقرك عندما تصبح شيخاً كبيراً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٠) وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرَّ بِهَا سَائِلٌ، فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ، فَأَقْعَدَتْهُ، فَأَكَلَ فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»^(٣) رواه أبو داود. وَلَكِنْ قَالَ: مَيْمُونٌ لَمْ يُدْرِكْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَقَدْ ذَكَرَهُ مُسْلِمٌ فِي أَوَّلِ صَحِيحِهِ تَعْلِيْقًا فَقَالَ: وَذَكَرَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَذَكَرَهُ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «مَعْرِفَةُ عُلُومِ الْحَدِيثِ» وَقَالَ: هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

✽ للأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف لم يثبت عن النبي ﷺ.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٤٤).

(٢) دليل الفالحين (٢/ ١٨٧-١٨٨) بتصرف.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٣٤٤).

(٣٦١) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ، كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا.. فَقَالَ عُيَيْنَةُ لَابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ، فَاسْتَأْذِنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا دَخَلَ: قَالَ: هِيَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ: فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ، وَلَا تَحْكُمُ فِينَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوَقِّعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ * وَإِنْ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. وَاللَّهُ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ^(١).

* فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَحْكِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ.. وَكَانَ قَدْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ قَبْلَهُ، وَشَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ، وَكَانَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمُ وَالْأَعْرَابِ الْجُفَاءَ... ثُمَّ ارْتَدَّ وَقَاتَلَ مَعَ طَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ فَأَسْرَهُ الصَّحَابَةُ وَحَمَلُوهُ إِلَى الصَّدِيقِ فَأَسْلَمَ فَأُطْلِقَهُ،... وَالْمُرَادُ أَنَّهُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ (فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ) وَالْحُرُّ صَحَابِي، أَحَدُ الْوَفْدِ الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَرْجِعُهُ مِنْ تَبُوكَ ^(٢).

وَكَانَ الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... أَيْ: يُقَرِّبُهُمْ مِنْهُ لِعِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ... وَكَانَ الْقُرَاءُ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ هُمُ أَصْحَابُ مَجْلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُھُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا...

وَهَكَذَا.. فَالْحَاكِمُ الْمُسْلِمُ لَا يُقْرَبُ إِلَيْهِ إِلَّا أَهْلُ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ لِيَكُونُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ بِالرَّعِيَةِ.

قَالَ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صَدِيقٍ، إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٦٤٢) كتاب التفسير.

(٢) دليل الفالحين (١٩٠ / ٢).

لَمْ يُعْنَهُ^(١).

(فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى: لك وجه) أى تقدم (عند هذا الأمير) يعنى عمر (فاستأذن لى عليه) أى اسأل لى منه الإذن فى الدخول عليه (فاستأذن له فأذن له عمر رضي الله عنه).

فلما دخل قال: هى يا ابن الخطّاب ... هكذا دون أن يقول له: يا أمير المؤمنين أو يُلقبه بأى لقب يدل على احترامه وتوقيره.

قال له: «هى يا ابن الخطّاب: فوالله ما تُعطينا الجزل» أى: لا تجزّل لنا العطاء، «ولا تحكّم فينا بالعدل» فاتهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذى يُضرب به المثل فى العدل.. اتهمه بالظلم!!! هنا غَضِبَ عمر رضي الله عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ الْعُقُوبَةَ، وذلك لجفائه وسوء أدبه.

فقال لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغى فى معاملتهم. فالذى ينبغى أَنْ يُعَامَلَ بِهِ النَّاسُ، أَنْ يَأْخُذَ الْعَفْوَ أَى: مَا سَمَحَتْ بِهِ أَنْفُسُهُمْ، وَمَا سَهَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، فَلَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا تَسْمَحُ بِهِ طَبْعَانَهُمْ، بَلْ يَشْكُرُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، مَا قَابَلَهُ بِهِ، مِنْ قَوْلٍ وَفَعَلٍ جَمِيلٍ، أَوْ مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَيَتَجَاوَزُ عِنْدَ تَقْصِيرِهِمْ وَيَغْضُ طَرَفَهُ عَنْ نَقْصِهِمْ، وَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَى الصَّغِيرِ لَصْغَرِهِ، وَلَا نَاقِصَ الْعَقْلِ لِنَقْصِهِ، وَلَا الْفَقِيرَ لِفَقْرِهِ، بَلْ يِعَامِلُ الْجَمِيعَ بِاللُّطْفِ وَالْمُقَابَلَةِ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ، وَتَنْشُرُ لَهُ صَدُورَهُمْ.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أى: بِكُلِّ قَوْلٍ حَسَنٍ، وَفَعَلٍ جَمِيلٍ، وَخُلُقٍ كَامِلٍ لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ. فَاجْعَلْ مَا يَأْتِي إِلَى النَّاسِ مِنْكَ، إِمَّا تَعْلِيمَ عِلْمٍ، أَوْ حُثًّا عَلَى خَيْرٍ، مِنْ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢).

صلة رحم، أو برّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأى مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية، أو دنيوية... ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يُقابَل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابله بجهله. فَمَنْ آذَاكَ بِقَوْلِهِ أَوْ فَعَلَهُ لَا تُؤْذِهِ، وَمَنْ حَرَمَكَ لَا تَحْرِمِهِ، وَمَنْ قَطَعَكَ، فَصِلْهُ، وَمَنْ ظَلَمَكَ فَاعْدِلْ فِيهِ^(١).

✽ فلما سمع ﷺ تلك الآية من الحُر بن قيس ما جاوزها... وكان وقفاً عند كتاب الله تعالى... فلم يُعاقب عُيَنة بن حصن بل عفا عنه.

✽ الشاهد من الحديث أنه يجب احترام وتوقير ولاية الأمور وبخاصة أهل التوحيد والإيمان الذين يُطبقون شرع الله ويتقون الله في رعيّتهم فيتعاملون معهم بالعدل والرحمة ويحرصون كل الحرص على مصالح الرعية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٢) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ كُنْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُلَامًا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا أَنْ هَهُنَا رِجَالًا هُمْ أَسَنُّ مِنِّي^(٢).

✽ سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تُوُفِيَ أبوه وهو صغير فَقَدِمَتْ به أمه المدينة فتزوَّجها أنصاري وكان في حجره حتى كبر... ففيل أجازه النبي في المقاتلة يوم أحد، وغزا مع النبي غزوات ثم سكن البصرة... وكان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة وعلى الكوفة إذا سار إلى البصرة.. وكان الحسن وابن سيرين وفضلاء البصرة يُثْنون عليه. رُوِيَ له عن النبي مائة حديث^(٣).

(١) تفسير السعدي (ص ٣٤٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٤) (٨٨) كتاب الجنائز.

(٣) دليل الفالحين (٢/ ١٩٢).

يقول سمرة بن جندب رضي الله عنه: لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا - أى في زمان حياة النبي ﷺ - ..

فكنت أحفظ عنه .. أى: يحفظ كلام النبي ﷺ.

يقول سمرة: فما يمنعني من القول .. أى: من التحديث .. إلا أن ههنا رجالًا هم أسنُّ مني .. أى: كان هناك من هم أكبر مني فكنت لا أتكلم ولا أحدث احترامًا وتوقيرًا لمن هم أكبر مني وهذا كله من بركة تربية النبي ﷺ لهم ومن بركة الأدب الذي تعلموه على يد النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٣) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ» ^(١).

✽ للأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف لم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٥٠١٢).

(٤٥) باب زيارة أهل الخير ومجالستهم

وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم

والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

❁ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٠ - ٦٦] ... وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨].

❁ لا بد أن نعلم أن المسلم لا يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون إخوانه وأحبابه... فلا بد من المحبة والمؤاخاة.

ومن حق إخوانك وأقاربك أن يكون هناك تزاور بينكم وذلك من أجل تقوية روح المحبة والأخوة بينكم.

❁ وزيارة أهل الخير قُربى نتقرب بها إلى الله ﷻ... لأنهم هم أهل العلم والخير والصلاح... ومحبتهم واجبة وذلك لأن النبي ﷺ قد أخبر أن من أوثق عُرى الإيمان الحب في الله والبُغْض في الله.

وأهل الخير إذا جالسهم فأنت على خير؛ لأن النبي ﷺ مثل الجليس الصالح بحامل المسك؛ إما أن يُحذيك يعنى: يُعطيك، وإما أن يبيعك، يعنى يبيع لك، وإما أن تجد منه رائحة طيبة.

وكذلك ينبغي أن تطلب منهم أن يزوروك ويأتوا إليك لما في مجيئهم إليك من الخير.

❁ ولقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في بداية هذا الباب تلك الآيات التي تحكى زيارة موسى إلى الخضر رَحِمَهُ اللهُ لأن الله أخبره بأن له عبداً من عباده قد آتاه الله

رحمة منه وعلمه من لدنه علماً فذهب إليه موسى عليه السلام ليزوره وليتعلم على يديه بعض العلوم التي ليست عنده .. مع أن موسى عليه السلام أعلى منه رتبة ومنزلة لكنه ذهب إليه بكل أدب وتواضع ... والقصة مبسطة كاملة في سورة الكهف لمن أراد أن يرجع إليها ... وقد شرحتها كاملة في كتاب (قصص الأنبياء) لمن أراد الرجوع إليها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٤) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعِمْرَانَ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ رضي الله عنها نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا، بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: إِنِّي لَا أَبْكِي أَنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا ^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن أبا بكر طلب من عمر رضي الله عنه أن يذهب معه لزيارة أم أيمن حاضنة النبي ﷺ التي كانت ترعى النبي ﷺ في صغره .. حتى أنه ﷺ لما ماتت أمه كانت معه أم أيمن فقال لها: «يا أم أيمن أنتِ أُمِّي بعد أُمِّي» فكان أبو بكر يعرف قدرها ومكانتها فأراد أن يزورها إكراماً ومحبة للنبي ﷺ لأنه كان يزورها كثيراً.

فلما ذهبا إليها ورأتهما بكت .. فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: إِنِّي لَا أَبْكِي أَنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥٤) كتاب فضائل الصحابة.

لقد كانت تبكى لانقطاع الوحي بعد وفاة النبي ﷺ .. فلقد كان الوحي ينزل على النبي ﷺ طوال (٢٣ سنة) فلما مات انقطع الوحي .. ولهذا أكمل الله شريعته قبل أن يتوفى .. فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فجعلنا بيكيان؛ لأنها ذكرتَهما بما كانا قد نسياه.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ زِيَارَةُ الصَّالِحِينَ وَفَضْلُهَا وَزِيَارَةُ الصَّالِحِ لِمَنْ هُوَ دُونُهُ وَزِيَارَةُ الْإِنْسَانِ لِمَنْ كَانَ صَدِيقُهُ يَزُورُهُ وَلَا أَهْلَ وَدُّ صَدِيقِهِ .. وَزِيَارَةُ جَمَاعَةٍ مِنَ الرِّجَالِ لِلْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ وَسَمَاعِ كَلَامِهَا وَاسْتِصْحَابِ الْعَالِمِ وَالْكَبِيرِ صَاحِبًا لَهُ فِي الزِّيَارَةِ وَالْعِيَادَةِ وَنَحْوِهِمَا وَالْبُكَاءُ حُزْنًا عَلَى فِرَاقِ الصَّالِحِينَ وَالْأَصْحَابِ وَإِنْ كَانُوا قَدْ انْتَقَلُوا إِلَى أَفْضَلٍ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَاللهُ أَعْلَمُ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرَصَدَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيُّنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ» ^(٢).

✽ لقد كان هذا الرجل طيب القلب يحب الناس من حوله ويتمنى لهم الخير... فإذا سمع أن أحد إخوانه قد مرض فإنه يزوره... وإذا علم أنه يحتاج إلى المال أعانه وساعده.

وفي يوم من الأيام تذكّر أحد إخوانه في إحدى البلاد البعيدة.

(١) مسلم بشرح النووي (١٤/١٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة والآداب.

يقال: «أَرَصَدَهُ» لِكَذَا: إِذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ - وَ «الْمَدْرَجَةُ» بفتح الميم والراء: الطَّرِيقُ. ومعنى «تَرَبُّبَهَا»: تَقَرُّبُهَا، وَتَسَعَّى فِي صِلَاحِهَا.

فقد انقطعت عنه أخباره منذ فترة طويلة.

فقرر أن يسافر إليه ليطمئن عليه على الرغم من طول المسافة ومشقة السفر. خرج هذا الرجل في هذه الرحلة الطويلة الشاقة لزيارة أحد إخوانه الذين يحبهم في الله.. وعندما اقترب من القرية قابله مَلَكٌ في صورة رجل فقال له المَلَك: إلى أين أنت ذاهب أيها الرجل؟

فقال له: ذاهب لزيارة أحد إخواني الذين أحبهم في الله.

قال له المَلَك: هل لك مصلحة تريد أن يقضيها لك..

قال له: لا.. ليس لي مصلحة..

قال له الملك: هل لك دين تريد أن تأخذه منه..

قال له: لا.. ليس لي دين عنده..

قال له الملك: إذا لماذا تريد أن تذهب إليه؟

قال له: إنه صديقي.. وأنا أحبه حبًّا شديدًا.. فقد جئت من قريتي لأطمئن

عليه..

قال له الملك: إذا أبشر أيها الرجل الطيب.. فإن الله يحبك كما تحب أنت

صاحبك..

فأنا رسول الله من الملائكة وقد أمرني ربي أن أخبرك بهذا.

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَحَبَّةُ اللَّهِ عَبْدَهُ هِيَ رَحْمَتُهُ لَهُ وَرِضَاهُ عَنْهُ وَإِرَادَتُهُ لَهُ الْخَيْرَ وَأَنْ يَفْعَلَ بِهِ فِعْلَ الْمُحِبِّ مِنَ الْخَيْرِ... وَأَصْلُ الْمَحَبَّةِ فِي حَقِّ الْعِبَادِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ فَضْلُ الْمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى الْعَبْدَ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ زِيَارَةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَصْحَابِ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَدَمِيِّينَ قَدْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٨٧).

(٣٦٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ: بِأَنْ طُبْتُ، وَطَابَ مَمْسَاكَ، وَتَبَوَّاتُ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»^(١).

❁ قَوْلُهُ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا) أَيْ مُحْتَسِبًا (أَوْ زَارَ أَخَاهُ) أَيْ فِي الدِّينِ (فِي اللَّهِ) أَيْ لَوَجْهِهِ اللَّهُ لَا لِلدُّنْيَا (نَادَاهُ مُنَادٍ) أَيْ مَلَكٌ (أَنْ طُبْتُ) دُعَاءٌ لَهُ بِطِبِّ عَيْشِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (وَطَابَ مَمْسَاكَ) قَالَ الطَّبِيُّ: كِنَايَةٌ عَنْ سَيْرِهِ وَسُلُوكِهِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ بِالتَّحَلَّى عَنْ رَدَائِلِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّحَلَّى بِمَكَارِمِهَا (وَتَبَوَّاتُ) أَيْ تَهَيَّأَتْ (مِنَ الْجَنَّةِ) أَيْ: مِنْ مَنَازِلِهَا الْعَالِيَةِ (مَنْزِلًا) أَيْ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً وَمَرْتَبَةً جَسِيمَةً بِمَا فَعَلَتْ. فَهَذَا دُعَاءٌ لَهُ بِطِبِّ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢).

❁ وَكُلُّ هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَأَلَّفَ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ وَتَجْتَمَعَ عَلَى الْحُبِّ فِي اللَّهِ ﷻ... فزِيارَةُ وَاحِدَةٍ إِلَى مَرِيضٍ أَوْ إِلَى أَخٍ لَكَ فِي اللَّهِ يَدْعُو لَكَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ ❁ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ❁ (٦) .. فَيَدْعُو لَكَ الْمَلَكُ بِطِبِّ الْعَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَنْ تَتَبَوَّأَ مَنْزِلًا فِي جَنَّةِ الرَّحْمَنِ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٧) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ. كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ، إِنَّمَا أَنْ يُحْذِيكَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَبَاعَ مِنْهُ وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً. وَنَافِخُ الْكِيرِ إِنَّمَا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُتِنَةً»^(٣).

(١) حسن: رواه الترمذی، وابن ماجه، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٦٣٨٧).

(٢) تحفة الأحوذی (٤١٧/٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاری (٥٥٣٤) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة والآداب.

«يُحْذِيكَ»: يُعْطِيكَ.

✽ هذا إرشادٌ منه ﷺ على اختيار الجليس الصالح، والقرب منه، وترك جليس السوء، والبُعد عنه ... ولما كان غالب الناس محتاج إلى جليس، ومؤانس له، يأنس بقربه، ويألف بالاجتماع به، ويُسلية، ويُواسيه، كما قيل:

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يُواسيك أو يُسلِّيك أو يتوجعُ

فإن من اللازم لكل عاقل أن يُحسن اختيار جليسه ورفيقه ... وقد أخبر النبي الكريم ﷺ أن الجليس على نوعين:

أحدهما: أن يكون رجلاً صالحاً يدعو إلى الخير، ويحبّه، ويُحسّنه لصديقه، ويُرغبه فيه، ويحثّه عليه، ويفعله هو بنفسه، فيقتدى به صاحبه، ويتأثر به.

الثاني: أن يكون بعكس ذلك، وهو مَنْ كانت نفسه خبيثة، تحب السوء، وتميل إليه، ويعجبها ... لا يحب فعل المعروف، ولا يأمر به، ولا يُحسّنه لغيره، بل يُنفّر عنه، ويكون له بطانة سوء، يأمره بالشر، ويُحسّنه له، ويحذره من الخير، ويُقبحه له.

فالنبي الكريم والناصح الأمين ﷺ حذرنا غاية التحذير عن هذا وأمثاله، وضرب لنا الأمثال، وشبّه لنا الجليس الصالح، وجليس السوء بتشبيهٍ بليغ في معناه، وفي مبناه، يفهمه العالم، والجاهل، والصغير، والكبير ... شبّه بشيء محسوس، يعرفه كل أحد، وقسّم الجلّساء إلى قسمين: صالحين، يُستفاد من مجالستهم كل خير، وجلّساء سوء يُكسبون جليستهم كل مكروهٍ وشرٍّ ... فمثل النبي ﷺ بهذين المثالين: حامل المسك، ونافع الكير.

مُبَيَّنًا أن الجليس الصالح خيرٌ في كل أحواله، يُتّفع برائحة المسك الذي عنده، ولو لم يمنحك منه شيء، ولو لم تشتّر منه شيئاً، فإن الرائحة الزكية نفعٌ، وخير تجنيه منه، فتكون منشرح الصدر، مطمئن النفس.

فكذلك الجليس الصالح يدلك على الخير، وينهاك عن الشر، وينصحك

بالمعروف، ويُذكرك به، ويحثُّك على فعله، والمبادرة إليه ... فيحثك على أداء الصلاة مع جماعة المسلمين، وأداء الزكاة، وحج بيت الله، والبر بالوالدين، وصلة الأرحام، وردِّ الحقوق لأصحابها، وغير ذلك من الطاعات.

والإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه والتأثر به، والتخلُّق بأخلاقه؛ لكثرة المجالسة والمخالطة ... والأرواح جُنودٌ مُجنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكَّر منها اختلف.

وفوائد صحبة الرجل الصالح وأهل الخير كثيرة... ولو لم يكن فيها إلا أنك تُعرَف به، وتكون على منواله في سلوكه، لكان ذلك كافياً في العناية والاهتمام باختياره... كما ورد في الحديث: «المرء على دين خليله، فلينظر أحداً من يُخالل»، وقد قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

فهذه بعض فوائد مجالسة المجلس الصالح.

أما جليس السوء فقد حذَّر منه رسول الله ﷺ، وذكر أنه شبيهٌ بنافخ الكير، الذي لا تعدم منه مضرة، إما بناره تحرقك، وإما بكثرة دُخانها، ورائحته الممتنة ... فما يحصل على المرء من اقتراف السيئات، وتعاطى المنكرات، والوقوع في الفواحش، بسبب قرين السوء، ومُصاحبة أهل الشر والفساد، أعظم بكثير من إحراق النار، التي تُؤلم في تلك اللحظة، ويزول أثرها بعد ذلك... فإن شؤم الذنوب والمعاصي على صاحبها مستمرة معه، في دُنياه، وفي أُخراه، إلا إذا أيقظه الله، ووقفه للتوبة النصوح.

وشبَّه الرسول ﷺ بما يصيب المُجالس لصاحب الكير، ما يصيب المجلس من جليسه، وذلك أن جليس السوء يُشبه صاحبه، ويُدنس عرضه، فلا يحب الناس مجالسته، ولا يرغبون به، ولا بالاجتماع به..... فمضرة جليس السوء

تتعدى إلى غيره، وتَحْصُلُ منه العدوى، كما حصلت له من جلسه عليه ... وكم هلك بسبب جليس السوء أقوامٌ كانوا قبل ذلك مستقيمين ... وكم قادهم جلساؤهم إلى المهالك، من حيث يشعرون، ومن حيث لا يشعرون.

وليعلم المرء أن كثرة المجالسة لأهل السوء تُورث محبتهم والرضا بصنيعهم، ثم يُفضى به الأمر إلى التشبه بهم، وفعل مثل فعلهم، فيأنس بهم، ويحبهم، ويبغض أهل الخير ويجتنبهم ... وقد قال ﷺ: «المرء مع من أحب».

فعلى المسلم أن يحذر من مخالطة أهل السوء، وأن يجتنب مُجالستهم ... ومَن ابتلى بشيء من ذلك، فليعزم على نفسه، ويقطع الصلة بهم، ويُبادر إلى التوبة، واللاحاق بالصالحين، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم^(١).

بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ

(٣٦٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَظَفَرُ بَذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»^(٢).

✽ هذا الحديث خرج مخرج الخبر .. وكأن النبي ﷺ يُخبرنا أن الناس عادة إذا أراد أحدهم أن يتزوج فإنه لا يخرج اختياره عن تلك الخصال الأربع: مالها وحسبها وجمالها ودينها ... وكثيرٌ منهم يجعل الدين آخر شيء يفكر فيه عند اختيار الزوجة.

وبعد أن أخبر النبي ﷺ عن تلك الخصال التي يتم على أساسها اختيار الزوجة ... كأنه يقول لك: وإن أردت اختياري لك: «فاظفر بذات الدين تربت يداك».

(١) من هدى المصطفى ﷺ (ص ٣٢٧-٣٣٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٩٠) كتاب النكاح، ومسلم (١٤٦٦) كتاب الرضاع. ومعناه: أن الناس يقصدون في العادة من المرأة هذه الخصال الأربع، فأحرص أنت على ذات الدين. وَاظْفَرِ بِهَا، واحرص على صحتها.

وهنا قدّم الدّين على المال والحسب والجمال، لأنها أمور دُنْويّة زائلة ولا يبقى لك عند الله إلا دين هذه المرأة.

ولذا قال ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»^(١).

وقال ﷺ: «ليتخذ أحدكم قلبًا شاكراً، ولسانًا ذاكراً، وزوجة مؤمنة تُعينه على أمر الآخرة»^(٢).

إن جمال المرأة مهما كان كَثُرَ سيئًا إذا كانت سيئة الخلق سليطة اللسان. وإن المرأة مهما كان جمالها مُتَدَنِيًا تُرى حسنة لطيب لسانها وصالح دينها وحُسن عَشْرَتِها.

فلهذا نبّه رسول الله ﷺ على صفات المرأة الصالحة.

فنقول: ليعي هؤلاء الشباب الذين يشترطون لأُمُور الجمال شروطًا مُعَقَّدة لا تكون موجودة إلا على غلاف بعض المجلات... نقول لهم:

ليس من العيب أن تشترطوا الجمال، ولا هو من المذموم أن تبحثوا عن المرأة الجميلة، لكن إذا تعارض الجمال والدّين فماذا تقدم؟
هذه هي المسألة المهمة.

ثم إن الناس لما تركوا غُض البصر، ونظروا في صفحات المجلات، وفي الأفلام والمسلسلات، وفي الأسواق صار لا يعجبهم شيء؛ لأن من سيئات إطالة النظر وعدم غُض البصر: عدم القناعة بما هو موجود.

فالرجل عندما ينظر إلى المرأة في الخطبة أو إذا تزوجها فإن هذه السلسلة من الصور المتراكمة في ذهنه مِن جَرَاء النظر إلى فتيات الغلاف في المجلات والنساء اللاتي يظهرن في الأفلام والمسلسلات تُسبب عدم القناعة.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٦٧) كتاب الرضاع.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٥٥).

فما أحكم الشارع حينما أمر بغضّ البصر^(١).

فالجَمال يزول والمال يفنى والأحساب تتبدل وتتغير ولا يبقى إلا الدين ..
فالزوجة ذات الدين هي التي تحفظك في نفسها وفي مالك وهي التي تُربّي لك
أولادك على الأخلاق الفاضلة وهي التي تأخذ بيدك إلى مرضاة الله عزّ وجلّ ..
ومن أجل ذلك: «فاظفر بذات الدين تربت يداك».

ولا بد أن تعلم أنه لا مانع من أن تختار زوجة جميلة وحسبية وغنية .. لكن
لا بد أن يكون الأساس الذي تختار من أجله تلك الزوجة هو الدين.
﴿مَنْ يَتَصَدَّقْ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّعْيَةِ أَرْتَبْ رِزْقًا كَثِيرًا﴾

(٣٦٩) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ
تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»، فَتَزَلَّتْ: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا
وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم: ٦٤]^(٢).

❁ وهنا يوضح لنا النبي ﷺ كيف يكون حرص المؤمن على زيارة
الصالحين له في بيته ... فهذا هو ﷺ يطلب من جبريل (عليه السلام) أن يُكثر من زيارته
له ﷺ فأخبره جبريل أنه لا ينزل إلا بأمر ربه عزّ وجلّ .. وكأنه يريد أن يقول: لو كان
الأمري بيدي ما فارقتك أبداً يا رسول الله.

وهنا يُعلمنا النبي ﷺ أن نطلب من الصالحين أن يزورونا في بيوتنا لتحلّ
البركة في بيوتنا بإذن الله ... فزيارة الصالحين كلها خير .. فالأخ الصالح يُذكرك
بالله ويُعينك على طاعة الله ويأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر ويُشجعك
على طلب العلم وحفظ القرآن وغير ذلك .. فلن تعدم خيراً من زيارته.
﴿مَنْ يَتَصَدَّقْ بِمِثْلِ هَذِهِ السَّعْيَةِ أَرْتَبْ رِزْقًا كَثِيرًا﴾

(١) موسوعة الزواج الإسلامي السعيد/ د. محمود المصري (ص ١٧٧-١٧٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٧٣١) كتاب تفسير القرآن.

(٣٧٠) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا »^(١).

❖ ففي هذا الحديث ينهى النبي ﷺ المؤمن أن يُصاحب إلا مؤمناً خالصاً.. وهذا يتضمن النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين وذلك لأن الإنسان يتطبع بأخلاق مَنْ يُصاحبهم وذلك لطول الصحبة.

ومن المعلوم أن صحبة المؤمنين كلها خير .. فهم يكونون عوناً لك على أمور دُنياك وآخرتك .. يُشاركونك أفراحك وأحزانك ويعودوك إذا مرضت ويعطونك إذا افتقرت ويواسونك إذا أُصبت بمصائبٍ ويأخذون بيدك إلى جنة الله ورضوانه (جلّ وعلا).

ومن أجل ذلك جاءت وصية النبي ﷺ لكل مؤمنٍ: « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقياً » وذلك لأن التقي إذا أكل عندك فلن يُفشي أسرار بيتك ولن يسخر من طعامك إذا خرج من عندك... وفوق ذلك فسوف يستعين بذلك الطعام على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: هَذَا إِنَّمَا جَاءَ فِي طَعَامِ الدَّعْوَةِ دُونَ طَعَامِ الْحَاجَةِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَسْرَاهُمْ كَانُوا كُفَّارًا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّمَا حَدَّرَ مِنْ صُحْبَةٍ مَنْ لَيْسَ بِتَقِيٍّ وَزَجَرَ عَنْ مُخَالَطَتِهِ وَمُؤَاكَلَتِهِ لِأَنَّ الْمَطَاعِمَ تُوقِعُ الْأُلْفَةَ وَالْمَوَدَّةَ فِي الْقُلُوبِ^(٢).

❖ وأخيراً لا بد أن نعلم أن النهي في المصاحبة يشمل النهي عن مصاحبة أهل الكبائر والفجور؛ لأنهم ارتكبوا ما حرم الله، ومصاحبتهم تضر بالدين... ويشمل النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين، وكل مَنْ حادَّ الله ورسوله.

(١) حسر: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٤١).

(٢) تحفة الأحوذى (٦/٢٦٧).

❖ وقد ذكر أهل العلم فيمن تُؤثر صحبته خمس خصال^(١):

أن يكون عاقلاً حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا...
أما العقل: فهو رأس المال وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق فالإلى الوحشة
والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت ... قال على رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا الجهل	وإياك وإياه
فكم من جاهلٍ أُردي	حليماً حين آخاه
يُقاس المرءُ بالمرءِ	إذا ما المرءُ ماشاه
وللشيء من الشيء	مقاييسُ وأشباهُ
وللقلب على القلب	دليلٌ حين يلقاه

بِمَا يَمُورُ بِهِ النَّاسُ مِنْ عَمَلٍ وَفِعْلٍ

(٣٧١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»^(٢).

❖ قَوْلُهُ: (الرَّجُلُ) يَعْنِي الْإِنْسَانَ (عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ) أَيْ عَلَى عَادَةِ صَاحِبِهِ وَطَرِيقَتِهِ وَسِيرَتِهِ (فَلْيَنْظُرْ) أَيْ فَلْيَتَأَمَّلْ وَلْيَتَدَبَّرْ (مَنْ يُخَالِلُ) مِنَ الْمُخَالَاتِ وَهِيَ الْمُصَادَقَةُ وَالْإِخَاءُ... فَمَنْ رَضِيَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ اتَّخَذَهُ صَاحِبًا وَخَلِيلًا .. وَمَنْ لَمْ يَرْضَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَلَا ... فَإِنَّ الطَّبَّاعَ سَرَّاقَةً وَالصُّحْبَةَ مُؤَثِّرَةً فِي إِصْلَاحِ الْحَالِ وَإِفْسَادِهِ.... قَالَ الْغَزَالِيُّ: مُجَالَسَةُ الْحَرِيصِ وَمُخَالَطَتُهُ تُحَرِّكُ الْحِرْصَ وَمُجَالَسَةُ الزَّاهِدِ وَمُخَالَاتَتُهُ تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ الطَّبَّاعَ مَجْبُولَةٌ عَلَى التَّشْبِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي^(٣).

(١) نعمة الأخوة / فيصل الحاشدي (١٩، ٢٠).

(٢) حسن: رواه أبو داود، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٣) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٤٦) بتصرف.

❁ ولذلك قالوا قديماً: قُلْ لِي مَنْ صَاحِبُكَ أَقُولُ لَكَ مَنْ أَنْتَ .. وكم من مسلمٍ كان تقيًّا فلما صحب أهل الفساد فسد معهم .. وكم من فاسدٍ لما رغب في صُحبة أهل الصلاح أصبح صالحاً مثلهم .. فاحرص على صُحبة أهل الصلاح فصُحبتهم خيرٌ لك في دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٧٢) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ... وفي رواية قال: قيل للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ؟ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(١).

(٣٧٣) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَعَدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَّتَ»^(٢).
وفي رواية لهما: مَا أَعَدَدْتَ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَوْمٍ، وَلَا صَلَاةٍ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أَحْبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

(٣٧٤) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»^(٣).

❁ وفي الحقيقة أن الأحاديث الثلاثة تدور حول هذا المعنى الجميل «المرء مع مَنْ أَحَبَّ».

❁ ولنا هنا وقفة هامة مع حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ذكر أن أعرابياً سأل النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله متى الساعة؟ .. فصرفه النبي ﷺ من المهم إلى الأهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٧٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٤١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٨٨) كتاب فضائل الصحابة، (٦١٦٧) كتاب الأدب - ومسلم (٢٦٣٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٤٠) كتاب البر والصلة والآداب.

فقال له: «ما أعددت لها؟».

ففى هذا الحديث: دليل على أنه ليس الشأن كل الشأن أن يسأل الإنسان متى يموت، أو بأى أرض يموت، ولكن على أى حال يموت، هل يموت على خاتمة حسنة، أو على خاتمة سيئة؟

ولهذا قال: «ماذا أعددت لها؟» يعنى لا تسأل عنها فإنها ستأتى.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

لكن الشأن ماذا أعددت لها، هل عملت؟ هل أنبت إلى ربك؟ هل ثبت من ذنبك؟ هذا هو المهم.

فقال له الأعرابى: «ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة».. فكأنه يريد أن يقول: ما أعددت لها كثير نافلة من صلاة ولا صيام ولا صدقة أما الفرائض فقد أديتها... لكنى وإن لم أكن قد اجتهدت فى النوافل إلا أنى أحب الله ورسوله... فكانت المفاجأة الكبرى التى أذهلت هذا الرجل وأذهلت أنس ابن مالك - راوى الحديث - وأذهلتنا جميعاً... فقد قال له النبى ﷺ: «أنت مع من أحببت» ولذا قال أنس رضى الله عنه: فَمَا فَرِحْنَا، بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ^(١).

ونحن - والله - نحب رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وسائر الصحابة والتابعين وكل الصالحين فى كل زمان ومكان ونرجو أن نُحشر معهم وإن لم نعمل بمثل أعمالهم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٩) (١٦٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣٧٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «النَّاسُ مَعَادُنْ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَّهُوا. وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَازَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ» ^(١).

(٣٧٦) وروى البخارى قوله: «الأرواح» إلخ، من رواية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ^(٢).

(٣٧٧) وَعَنْ أُسَيْرِ بْنِ عَمْرٍو وَيُقَالُ: ابْنُ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ سَأَلَهُمْ: أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ، فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ، فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فافْعَلْ» فَاسْتَغْفِرَ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ.

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنَ أَشْرَافِهِمْ، فَوَافَقَ عُمَرَ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ، فَقَالَ: تَرَكْتُهُ رَثَ الْبَيْتِ قَلِيلَ الْمَتَاعِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فافْعَلْ»، فَأَتَى أُوَيْسًا، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لِي قَالَ: أَنْتَ أَحَدْتُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٣٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء.

عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ، فَاسْتَغْفِرُ لِي، قَالَ لِي: لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ، فَاَنْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ^(١).

وفي رواية لمسلم أيضًا عن أُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا عَلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ، فَقَالَ عُمَرُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرْنَيْنِ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ لَا يَدْعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمَّ لَهُ قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدَعَا اللَّهَ تَعَالَى، فَأَذْهَبَهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ».

وفي رواية له عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ».
 ❁ يا ترى مَنْ هُوَ أُوَيْسُ الْقَرْنَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

تعالوا بنا لنعرف نبذة يسيرة عنه من خلال هذه السطور.

في يوم من الأيام كان النبي ﷺ جالسًا بين أصحابه يُعلمهم ويربيهم وإذا به فجأة يقول لأصحابه: «إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ وَلَهُ وَالِدَةٌ وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ».

وفي رواية: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أُمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبِرَأْ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دَرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ».

- ثم استغفر الرسول ﷺ له وأكمل حديثه مع أصحابه.

- وكان أُوَيْسُ الْقَرْنَى فِي هَذَا الْوَقْتِ يَعِيشُ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ مَعَ أُمِّهِ يَخْدُمُهَا وَيُرْعَاهَا وَيَحْنُو عَلَيْهَا وَكَانَ يَتَمَنَّى أَنْ يَذْهَبَ لِيَرَى النَّبِيَّ ﷺ وَيَصْحَبَهُ لَكِنَ الَّذِي

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٤٢) كتاب فضائل الصحابة.

قوله: «غِبْرَاءُ النَّاسِ». وهم فقراؤهم وصعاليكهم وَمَنْ لَا يُعْرِفُ عَنْهُ مِنْ أَخْلَاطِهِمْ.

«وَالْأُمْدَادُ» جَمْعُ مَدَدٍ وَهُمْ الْأَعْوَانُ وَالنَّاصِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُبَدُّونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجِهَادِ.

منعه من ذلك برّه بأمه؛ لأنها لم يكن عندها أحدٌ يخدمها غيره... فلما بلغ به البر لهذه الدرجة أكرمه الله بأن أرسل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ ليخبره بفضل أويس القرني ومن ثمّ يخبر النبي ﷺ أصحابه وأمته بفضل هذا الرجل الزاهد العابد. ولقد كان أويس القرني عابداً زاهداً سخيّاً كريماً رغم فقره الشديد.

- عن أصبغ بن زيد قال: كان أويس إذا أمسى يقول: هذه ليلة الركوع، فيركع حتى يُصبح، وكان إذا أمسى يقول: هذه ليلة السجود فيسجد حتى يصبح وكان إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب. ثم قال: اللهم مَن مات جوعاً فلا تؤاخذني به، ومَن مات عُرياناً فلا تؤاخذني به ^(١).

- وعن مغيرة قال: إن كان أويس القرني ليتصدق بثيابه، حتى يجلس عُرياناً لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة ^(٢).

لم ينسَ أصحاب النبي ﷺ ما قاله النبي ﷺ في حق أويس فكانوا يسألون عنه كل مَن أتى من أهل اليمن.

وبعد سنوات طويلة.... وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان عمر يسأل كل مَن يأتي من اليمن عن أويس القرني... إلى أن عثر عليه... كيف حدث ذلك؟

فتعالوا بنا لنرى ما الذي حدث بين عمر بن الخطاب وأويس القرني. عن أسير بن جابر، قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟

قال عمر: فقدم علينا رجل فقلت له: من أين أنت؟ قال: من اليمن قلت: ما اسمك؟ قال: أويس، قلت: فمَن تركت باليمن؟ قال: أمّا لي. قلت: أكان بك بياض، فدعوت الله فأذهبه عنك؟ قال: نعم. قلت: فاستغفر لي. قال: أو يستغفر

(١) الحلية (٢) / ٨٧.

(٢) الحلية (٢) / ٨٤.

مثلى لمثلك يا أمير المؤمنين؟! قال: فاستغفر لى وقلت له: أنت أخى لا تفارقنى. قال: فانملس منى^(١).

وحين انفلت من عمر بن الخطاب قاصداً الكوفة قال عمر بن الخطاب: مكانك يرحمك الله حتى أدخل مكة فأتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيابى... ثم أكد عمر قائلاً: انتظر هنا يا أويس، هذا المكان ميعاد بينى وبينك. فقال أويس: يا أمير المؤمنين لا ميعاد بينى وبينك لا أراك بعد اليوم تعرفنى، ما أصنع يا أمير المؤمنين بالنفقة؟ وما أصنع بالكسوة، أما ترى على إزاراً من صوف، ورداء من صوف متى ترانى أمزقهما، أما ترى أن نعلى مخصوفتان؟ متى ترانى أبليهما؟ أما ترانى قد أخذت من أجر رعايتى الغنم أربعة دراهم متى ترانى أنفقها؟.

يا أمير المؤمنين إن بين يدى ويديك عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا ضامراً مخفّ مهزول!! فأخفّ يرحمك الله. وفى الكوفة كان مجلسه مجلس الزهاد، فهو سيد الزهاد وشيخهم. زاهد الدنيا لعزة نفسه واعتزازه بالآخرة فى نفسه وفى يقينه أنها دار القرار، وأنها دار الحق^(٢).

❦ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: (فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ) وَفِي الرواية الأخرى قَالَ لِعُمَرَ: «فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ» هَذِهِ مَنْقِبَةٌ ظَاهِرَةٌ لِأَوْيسٍ رَحِمَهُ اللهُ وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ طَلَبِ الدُّعَاءِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ وَإِنْ كَانَ الطَّالِبُ أَفْضَلَ مِنْهُمْ... قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ (إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أَوْيسٌ إِلَى آخِرِهِ) هَذَا صَرِيحٌ فِي

(١) انملس: أفلت.

(٢) بتصرف من كتاب (قصص التابعين)/ د. محمود المصري.

أَنَّهُ خَيْرُ التَّابِعِينَ وَقَدْ يُقَالُ: قَدْ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ: أَفْضَلُ التَّابِعِينَ سَعِيدُ ابْنِ الْمُسَيَّبِ... وَالْجَوَابُ أَنَّ مُرَادَهُمْ أَنَّ سَعِيدًا أَفْضَلَ فِي الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ كَالْتَفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَنَحْوَهَا لَا فِي الْخَيْرِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ^(١).

(٣٧٨) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الْعُمْرَةِ، فَأَذِنَ لِي، وَقَالَ: «لَا تَسْنَأْ يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ» فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا ^(٢).
وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ: «أَشْرِكْنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ».

✽ لِلْأَمَانَةِ الْعِلْمِيَّةِ .. فَهَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

(٣٧٩) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكَعَتَيْنِ ^(٣).
وَفِي رَوَايَةٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ.

✽ أَمَّا مَسْجِدُ قُبَاءَ فَهُوَ الْمَسْجِدُ الْمَعْرُوفُ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ مِنْ عَوَالِيهَا .. وَهُوَ أَوَّلُ مَسْجِدٍ بَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا هَاجَرَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ.
وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الصَّلَاةَ فِيهِ تَعْدِلُ أَجْرَ عُمْرَةٍ.

عَنْ سَهْلِ بْنِ حَنِيفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً؛ كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ» ^(٤).

وَعَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ وَعَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ أَنَّهُمَا سَمِعَا أَبَاهُمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: «لَأَنَّ

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٤٢).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١١٩٣، ١١٩٤) كتاب الجمعة، ومسلم (١٣٩٩) كتاب الحج.

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٤).

أصلى في مسجد قُباء أحب إليَّ من أن أصلى في مسجد بيت المقدس»^(١).
 ﴿٥﴾ وهنا في هذا الحديث يذكر ابن عمر أن النبي ﷺ كان يزور قُباء راكبًا
 وماشياً فيصلى فيه ركعتين.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَفَضْلِ مَسْجِدِهِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ وَفَضِيلَةِ زِيَارَتِهِ
 وَأَنَّهُ تَجُوزُ زِيَارَتُهُ رَاكِبًا وَمَاشِيًا... وَهَكَذَا جَمِيعُ الْمَوَاضِعِ الْفَاضِلَةِ تَجُوزُ زِيَارَتُهَا
 رَاكِبًا وَمَاشِيًا وَفِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ تَكُونَ صَلَاةُ النَّفْلِ بِالنَّهَارِ رَكْعَتَيْنِ كَصَلَاةِ اللَّيْلِ
 وَهُوَ مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) رواه الحاكم، وقال: إسناده صحيح على شرطهما، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

(١١٨٣): صحيح موقوف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩/٢٤٣).



(٤٦) باب فضل الحب في الله

والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه
أنه يحبه وماذا يقول له إذا أعلمه

❁ الحب في الله هو روح الوجود، وإكسير القلوب، وصمام الأمن لبنى الإنسان.

إذا كان قانون الجاذبية يُمْسِكُ الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق وتستحيل إلى دماء.

هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث، وقالوا: لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون.

❁ وقديماً قال شاعر كبير:

«إن الحب يُحوِّلُ المُرَّ حُلُوًّا والتراب تَبَرًّا، والكدر صفاءً، والألم شفاءً،
والسجن روضةً، والسقم نعمةً، والقهر رحمةً، وهو الذى يُلِينُ الحديد، ويُذِيبُ
الحجر».

«إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادى الثقيل فى الأجواء
ويصل من الأرض إلى السماء ومن الثرى إلى الثريا»^(١).

إن الله ﷻ جعل الحب فى الله والبغض فى الله أوثق عرى الإيمان.
قال ﷻ: «أَوْثَقُ عَرَى الْإِيمَانِ: الْمَوَالَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي
اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ ﷻ»^(٢).

(١) الإيمان والحياة (ص ١٦٧ - ١٦٨).

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٣٩).

إن الإيمان لا يكمل إلا بصدق هذه العاطفة، وإخلاص هذه الرابطة: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»^(١).

وقد جعل رسول الله ﷺ المفاضلة بين الأخوين المُتَحَابِّين، بمدى حب كل منهما لأخيه... فقال ﷺ: «مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي اللَّهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُمَا أَشَدَّهُمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ»^(٢).

ولكى يكون مجتمع المسلمين متعاونًا على البر، وغارًا لمعاني الخير، فقد وردت أحاديث كثيرة تحثُّ على إعلام الأخ الذى له فى نفسك منزلة خاصة، ومحبة متميزة - فوق الأخوة العامة لجميع المؤمنين - بأنك تحبه، ومن ذلك قوله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ، فَلْيَأْتِهِ فِي مَنْزِلِهِ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ»^(٣). وزاد فى رواية: «فَإِنَّهُ أَبْقَى فِي الْأُلْفَةِ وَأَثْبَتَ فِي الْمَوَدَّةِ»^(٤).

ومن الصور المُفَجِّرَة لمعاني الحب تبادل العلاقات الأخوية، والإكثار من الصلوات الودية، من نوع ما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «تَصَافَحُوا يَذْهَبِ الْغُلُّ. وَتَهَادُّوا تَحَابُّوا، وَتَذْهَبِ الشَّحْنَاءُ»^(٥)، وكم تُذيب الهدية من رواسب الحقد! وكم يمحو البدء بالسلام من وَحَر الصدور! حيث لا تكون المصافحة مجرد تلامُس للأكف، ولا إلقاء السلام مجرد ألفاظ تتحرك بها الشفاه، وإنَّما حيث يكون السلام بمعناه الأوسع والأعم، الذى يؤهلنا لدخول الجنة، ويحقق المحبة بيننا، وذلك ما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا

(١) صحيح: رواه أبو داود، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٦٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٩٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والضياء، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨١).

(٤) حسن: رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخوان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٠).

(٥) رواه مالك فى الموطأ، وقال ابن عبد البر: هذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها.



فَعَلَّمْتُمُوهُ تَحَابِبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(١).

ومما يُعبّر عن صدق الأخوة وحقيقة الألفة: ما تُقدمه لأخيك من دعواتٍ صالحات، حيث لا يسمعك ولا يراك، وحيث لا شبهة للرياء أو المُداهنة، كما في قوله ﷺ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ»^(٢).

يقول الإمام النووي: «وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تُستجاب ويحصل له مثلها»^{(٣)(٤)}.

وليس هذا فحسب، بل إن المحبة من أجل الله تُوجب محبة الله للعبد.

قال تعالى: «حُقَّتْ محبتي للمتحابين فيَّ، وحُقَّتْ محبتي للمتواصلين فيَّ»^(٥).

❁ بل يصبح من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله.

فقد قال ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: - وذكر منهم - ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»^(٦).

ويستمر عقد الأخوة هذا إلى الآخرة؛ حيث لا يرى بعض أهل الجنة إخوانهم الذين كانوا معهم في الدنيا، فيسألون ربهم ﷻ عنهم.

وقد صورَ النبي ﷺ ذلك الموقف بقوله: «فَمَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَشَدِّ مِنْ مُجَادَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ، قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا، إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا،

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) شرح أحاديث حق المسلم برواية البخاري ومسلم وأبي داود، والترمذي، والنسائي، (جامع الأصول ٥٢٧/٦ برقم (٤٧٣٣)).

(٤) هذه أخلاقنا / الشيخ محمود الخزندار (١٦٢-١٦٨) بتصرف شديد.

(٥) صحيح: رواه أحمد والطبراني والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٢١).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

وَيَحْبُجُونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتُهُمُ النَّارَ، قَالَ: فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ مِنْهُمْ...^(١)، فيخرجونهم، ثم يأذن لهم فيخرجون مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إن أخوة لها هذا المقام عند الله، وإن محبة لها ذلك الفضل في الدنيا والآخرة، لحرية بالحرص عليها، والوفاء بحقوقها، والاستزادة منها: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قال تعالى: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَتَعَفَّوْنَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد أثنى الله تعالى على أصحاب رسول الله بالثناء العاطر، وشهد لرسوله بصدق الرسالة فقال: ﴿ثُمَّ حَمَّذُ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى هذا الرسول الكريم المُسَمَّى محمداً هو رسول الله حقاً لا كما يقول المشركون: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ أى وأصحابه الأبرار الأخيار غلاظاً على الكفار متراحمون فيما بينهم كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] قال أبو السعود: أى يُظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة^(٢)... قال المفسرون: وذلك لأن الله أمرهم بالغلظة عليهم: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، ومسلم (١٨٣) كتاب الإيمان.

(٢) أبو السعود (٨٦/٥).

من ثيابهم أن تمسّ أبدانهم، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه في الدين صافحه وعانقه ﴿تَرَبُّهُمْ رُكْعًا سَجَدًا﴾ أى تراهم أيها السامع راكعين ساجدين من كثرة صلاتهم وعبادتهم.. رهبان بالليل أسود بالنهار ﴿يَتَغَوَّنَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أى يطلبون بعبادتهم رحمة الله ورضوانه... قال ابن كثير: وصفهم بكثرة الصلاة وهى خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص لله ﷻ والاحتساب عنده بجزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ورضاه^(١).

﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أى علامتهم وسمتهم كائنة فى جباههم من كثرة السجود والصلاة... قال القرطبي: لاحت فى وجوههم علامات التهجد بالليل وأمارات السهر.... قال ابن جريج: هو الوقار والبهاء... وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع... قال منصور سألت مجاهدًا عن قوله تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيني الرجل مثل ركة العنز وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نورٌ فى وجوههم من الخشوع^(٢) ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أى ذلك وصفهم فى التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾ أى ومثلهم فى الإنجيل كزراع أخرج فراخه وفروعه ﴿فَتَأْزِرُهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾ أى فقواه حتى صار غليظًا ﴿فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ أى فقام الرزاع واستقام على أصوله ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أى يعجب هذا الزرع الزُّراع، بقوته وكثافته وحسن منظره، ليغتاظ بهم الكفار.

وقال القرطبي: وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعنى أنهم يكونون قليلًا ثم يزدادون ويكثرُونَ، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعوة ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره، كالزراع يبدو بعد البذر ضعيفًا فيقوى

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٥٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٢٩٥).

حالا بعد حال حتى يغلظ نباته، وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى وعدهم تعالى فى الآخرة بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم فى جنات النعيم... اللهم ارزقنا محبتهم يا رب العالمين^(١).

﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ يَرْزُقْهُمْ﴾

❁ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

لقد مدح الله تعالى الأنصار وبين فضلهم وشرفهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وآمنوا قبل كثير من المهاجرين وهم الأنصار.... قال القرطبى: أى تبوءوا الدار من قبل المهاجرين، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، والتبوء: التمكن والاستقرار، وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبى ﷺ إليهم^(٢) ﴿يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أى يحبون إخوانهم المهاجرين ويواسونهم بأموالهم... قال الخازن: وذلك أنهم أنزلوا المهاجرين فى منازلهم، وأشركوهم فى أموالهم^(٣) ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أى ولا يجد الأنصار حزازةً وغيطاً وحسداً مما أعطى المهاجرون من الغنيمة دونهم...

قال المفسرون: إن رسول الله ﷺ قسم أموال بنى النضير بين المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة منهم، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أى يفضلون غيرهم بالمال على

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٢١١-٢١٢).

(٢) تفسير القرطبى (١٨/ ٢٠).

(٣) تفسير الخازن (٤/ ٦٢).

أنفسهم ولو كانوا في غاية الحاجة والفاقة إليه، فيأثارهم ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وفقر، وذلك غاية الإيثار ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى ومن حماه الله وسلم من البخل فقد أفلح ونجح... والشُّحُّ هو البخل الشديد مع الجشع والطمع، وهو غريزة في النفس ولذلك أضيف إليها... قال ابن عمر: ليس الشُّحُّ أن يمنع الرجل ماله، إنما الشُّحُّ أن تطمع عينه فيما ليس له^(١).

وفي الحديث: «واتقوا الشُّحَّ فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»^{(٢)(٣)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٨٠) وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(٤).

﴿ثلاث من كن فيهن﴾ يعنى من اتصف بهن «وجد بهن حلاوة الإيمان» أى: وجد بسببهن حلاوة الإيمان.. وإذا كانت حلاوة الطعام يجدها المؤمن في فمه وعلى لسانه فإن حلاوة الإيمان يجدها المؤمن في قلبه.. وهى حلاوة لا توازيها الدنيا بما فيها وما عليها.. ولا يعرف قدرها إلا من ذاق حلاوتها في قلبه.

﴿أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما﴾ وهنا قال: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ولم يقل: ثم رسوله؛ لأن محبة الرسول عليه الصلاة والسلام هنا تابعة لمحبة الله سبحانه وتعالى.

(١) حاشية الصاوى (٤/ ١٩٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة.

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٣٣٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٦)، (٢١) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٣) كتاب الإيمان.

فالإنسان يُحب الرسول بقدر ما يحب الله... كلما كان لله أحب، كان للرسول ﷺ أحب.

لكن مع الأسف أن بعض الناس يحبّ الرسول ﷺ مع الله ولا يحب الرسول لله.

فالشاهد أنك إذا أردت أن تجد حلاوة الإيمان في قلبك فلا بد أن تكون محبة الله ورسوله ﷺ في قلبك لا توازيها أى محبة مهما كانت... ولا بد أن تغلب هذه المحبة كل محبة بحيث تكون أصلاً لكل المحاب وتكون كل محبة غيرها فرعاً عنها.. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

❁ ولهذه المحبة ثمرات ونتائج عديدة، منها:

(١) أن لا يحب المؤمن إلا الصالحين من الناس: لأنهم أهل محبة الله تعالى.

(٢) أن يحب المؤمن الأعمال الصالحة: من أعمال الخير والبر والطاعات؛ لأنها محبوبة لله، ولأنها هي التي تُعينه على تحصيل محبة الله تعالى.

(٣) أن يُبغض المؤمن كل ما يبغضه الله تعالى: من الكفار والمنافقين، والعصاة، والأعمال الخبيثة وغير ذلك؛ لأن الله تعالى يبغض كل ذلك، ويكرهه، ويكره أهله، ولأن من أحب شيئاً كان هواه دائراً مع رضا محبوبه.

(٤) المسارعة إلى أداء الفرائض؛ لأنها مأمورٌ بها من الله تعالى: وعدم التقاعس عنها، ثم الاستزادة من النوافل، والاستكثار منها؛ لأن كل ذلك مُعين على محبة الله تعالى... كما في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا....» (١).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٥) اجتناب المعاصي، وكل ما يغضب الله تعالى: لأن كل ذلك مكروه عند الله عز وجل.... والمحبة حقيقة لا يمكنه أن يعصى محبوبه.

(٦) الحرص على اتباع النبي ﷺ: ولزوم سنته، وعدم هجرها؛ لأن ذلك برهان على صدق محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ، ومُعِين على تحصيلها... كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٧) كثرة ذكر الله تعالى: وذلك لأن مَنْ أحب شيئاً وازدادت محبته له أكثر من ذكره، ولم يَغِبْ محبوبه عن باله لحظة.

✽ وأما محبة النبي ﷺ.. فلا بد أن نعلم أن محبة الحبيب المصطفى ﷺ أصلٌ عظيم من أصول الإيمان.. وإذا استقرت شجرة المحبة الصادقة في القلب آتت أكلها كل حين وأثمرت كل أنواع الاتباع والاقتفاء للمحجوب ﷺ.

وحقيقة المحبة «أن يميل قلب المسلم إلى رسول الله ﷺ ميلاً يتجلى فيه إثاره ﷺ على كل محبوب من نفسٍ ووالدٍ وولدٍ والناس أجمعين». وذلك لما خَصَّه الله تعالى من كريم الخصال وعظيم الشمائل، وما أجراه الله على يديه من صنوف الخير والبركات لأُمَّته وما امتنَّ الله على العباد ببعثته ورسالته إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لمحَبته عقلاً وشرعاً^(١).

قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٢).

✽ «وأن يحب المرء لا يُحِبُّه إلا لله» تحب أخاك المسلم.. لا من أجل قرابة ولا مال ولا دنيا ولا جاه وإنما تحبه لله (جلَّ وعلا).. أما محبة القرابة

(١) محبة الرسول بين الاتباع والابتداع / عبد الرؤوف محمد عثمان (ص: ٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٤) كتاب الإيمان.

والأرحام فهذه محبة طبيعية.

لكن إذا كان قريبك من عباد الله الصالحين فأحبيته فوق المحبة الطبيعية فأنت أحبيته لله.

❁ «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار».

وهذه ظاهرة جدًا فيمن كان كافرًا ثم أنعم الله عليه بنعمة الإسلام وذاق حلاوة الإيمان .. فلو خيرته بين أن يكفر مرة أخرى أو يُقتل لاختار أن يُقتل بلا تردد...

ولعل قصة سحرة فرعون خير دليل على ذلك.. فإنهم كانوا قبل أن يؤمنوا يُقسمون بعزة فرعون ويكفرون بالله ﷻ.. فلما قذف الله نعمة الإيمان والتوحيد في قلوبهم وسجدوا لله ﷻ هددهم فرعون وقال لهم: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ [طه: ٧١]، أى: فوالله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى أو بالعكس ﴿وَلَأَصْلِبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أى: لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شر قتلة ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ أى: ولتعلمن أيها السحرة من هو أشد منا عذابًا وأدوم، هل أنا أم رب موسى ﷺ الذى صدقتم به وآمنتُم ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ بَلِيَّتٍ﴾ أى قال السحرة: لن نختارك ونفضلك على الهدى والإيمان الذى جاءنا من الله على يد موسى ﷺ ولو كان فى ذلك هلاكنا ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾ قسّم بالله أى: مقسمين بالله الذى خلقنا ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أى: فاصنع ما أنت صانع ﴿إِنَّمَا نَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ينفذ أمرك فى هذه الحياة الدنيا وهى فانية زائلة ورغبتنا فى النعيم الخالد.

لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة فلذلك قالوا ما قالوا:

﴿ إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا ﴾ أى: آمنا بالله ليغفر الذنوب التى اقترفناها وما صدر منا من الكفر والمعاصى ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ أى: ويغفر لنا السحر الذى عملناه لإطفاء نور الله ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (١).

أرأيتم كيف أنهم آثروا أن يُعَذَّبوا ويُقْتَلوا عن أن يتركوا دينهم ويعودوا إلى الكفر مرة أخرى.

وهكذا يجب أن يكون المؤمن ثابتاً على عقيدته وإيمانه وتوحيده.. لا تُزعزه الفتن ولا تُؤثر فيه المحن والابتلاءات لأنه يعلم أن الدنيا كلها إلى زوال وأنه راحلٌ إلى الله... وسيقف بين يديه ليُحاسبه على كل صغيرة وكبيرة.. فما أجمل أن يلقي المؤمن ربه عَزَّوَجَلَّ وهو ثابتٌ على إيمانه وتوحيده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٨١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابُّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهَا مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (٢).

(٣٨٢) وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيُّنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي» (٣).

✽ عندما يكون الناس في الموقف العظيم تحت وهج الشمس القاسى، يذوقون من البلاء شيئاً تنوء بحمله الجبال الشُّمِّ الراسيات... يكون فريق من

(١) صفوة التفسير (٢/٢٣٨-٢٤٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٦) كتاب البر والصلة والآداب.

الأخيار هائنين في ظل عرش الرحمن، لا يعانون الكربات التي يقاسى منها الآخرون.

وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية، والعزائم الصادقة، الذين تمثلت فيهم عقيدة الإسلام، وقيمه الفاضلة، أو قاموا بأعمالٍ جليلة، لها في مقياس الإسلام وزنٌ كبير.

فمن هؤلاء: الإمام العادل، الذي يملك القوة والسلطان، ولكنه لم يَطْعْ، وأقام العدل بين العباد وفق سلطان الشرع الإلهي.

ومنهم الشاب الذي نشأ في عبادة ربه، وألجم نفسه بلجام التقوى، وردع النفس والهوى، فعاش عمره طاهرًا نقيًا.

ومنهم الذين يعمرّون مساجد الله، يجدون في رحابها الأنس بالله ومناجاته، فلا يكادون يفارقونها حتى يحنُّوا إلى رحابها.

ومن هؤلاء: المتحابون في الله ﷻ، تجمعهم رابطة الأخوة فيه، ويجتمعون على البر والتقوى والصلاح، ويتفرقون على عملٍ صالح.

ومنهم الذين تعرض لهم فتنة النساء، فيحول خوف الله بينهم وبين الوقوع في الفاحشة.

ومنهم المُنْفَق الذي يُخلص في دينه لله، فيُخفي الصدقة حتى عن نفسه. ومنهم الذي تملأ مخافة الله قلبه، فتفيض عيناه من أجل ذلك وهو وحيدٌ ليس معه أحد^(١).

والإِظلال في ظل عرش الرحمن ليس مقصورًا على السبعة المذكورين في الحديث بل لقد أخبر النبي ﷺ عن غيرهم أنهم يكونون في ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

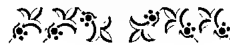
(١) القيامة الكبرى . د/ عمر الأشقر (ص ١٤٩، ١٥٠).



قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ لِحَبْلِي؟ أَلْيَوْمِ أَظْلَهُمْ فِي ظِلِّي. يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»^(١).

وقال ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَعَ لَهُ، أَظْلَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(٢).

وقال ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ - أَوْ مَحَا عَنْهُ - كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).



(٣٨٣) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٤).

❁ ففي هذا دليل على أن المحبة من كمال الإيمان، وأنه لا يكمل إيمان العبد حتى يحب أخاه، وأن من أسباب المحبة أن يُفشى الإنسان السلام بين إخوانه، أي يُظهره ويُعلنه، ويُسلم على مَنْ لقيه من المؤمنين، سواء عرفه أو لم يعرفه، فإن هذا من أسباب المحبة، ولذلك إذا مرَّ بك رجل وسلم عليك أحببته، وإذا أعرض؛ كرهته ولو كان أقرب الناس إليك.

فالذي يجب على الإنسان؛ أن يسعى لكل سبب يُوجد المودة والمحبة بين المسلمين؛ لأنه ليس من المعقول ولا من العادة أن يتعاون الإنسان مع شخص لا يحبه، ولا يمكن التعاون على الخير والتعاون على البر والتقوى إلا بالمحبة، ولهذا كانت المحبة في الله من كمال الإيمان^(٥).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٦) كتاب البر والصلة.

(٢) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٠٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٥) شرح رياض الصالحين (١٣٩/٢).

(٣٨٤) وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخَاهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا» وذكر الحديث إلى قوله: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحَبَّتُهُ فِيهِ»^(١).
 ﴿سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٦٥) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٨٥) وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآنْصَارِ: «لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(٢).

وفي رواية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُبْغِضُ الْآنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»^(٣).

﴿قال الإمام النووي رحمه الله: وَمَعْنَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَرْتَبَةَ الْآنْصَارِ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي نُصْرَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَالسَّعْيِ فِي إِظْهَارِهِ وَإِيوَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَقِيَامِهِمْ فِي مُهِمَّاتِ دِينِ الْإِسْلَامِ حَقَّ الْقِيَامِ وَحُبِّهِمُ النَّبِيَّ ﷺ وَحُبِّهِ إِيَّاهُمْ وَبَذْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقِتَالِهِمْ وَمُعَادَاتِهِمْ سَائِرَ النَّاسِ إِشَارًا لِلْإِسْلَامِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ صِحَّةِ إِيْمَانِهِ وَصِدْقِهِ فِي إِسْلَامِهِ لِسُرُورِهِ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ بِمَا يُرْضَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ وَاسْتِدِلَّ بِهِ عَلَى نِفَاقِهِ وَفَسَادِ سِرِيرَتِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ»^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٧) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٣) كتاب المناقب، ومسلم (٧٥) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٦) (١٣٠) كتاب الإيمان.

(٤) مسلم بشرح النووي (٢/ ٨٥-٨٦) بتصرف.

(٣٨٦) وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي، لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ»^(١).

✽ «الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي» أَيْ: لِأَجْلِ إِجْلَالِي وَتَعْظِيمِي .. لَهُمْ مَكَانَةٌ عَالِيَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «لَهُمْ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ».

وَعَلَى قَدَرِ صَدَقَتِهِمْ فِي مُحَبَّتِهِمْ لِبَعْضِهِمُ الْبَعْضِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ تَكُونُ دَرَجَةُ الْأَنْوَارِ فِي تِلْكَ الْمَنَابِرِ الَّتِي هِيَ مِنَ النُّورِ .. لَكِنْ كَمَا تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُ الْإِيمَانِ وَدَرَجَاتُ الْإِحْلَاصِ وَصَدَقَ الْمَحَبَّةُ تَخْتَلِفُ الْأَنْوَارُ .. فَكُلَّمَا كُنْتَ صَادِقًا فِي مُحَبَّتِكَ لِأَخِيكَ كُلَّمَا كَانَتْ أَنْوَارُكَ عَلَى الصِّرَاطِ أَعْظَمَ وَأَنْوَارُكَ فِي تِلْكَ الْمَنَابِرِ أَكْبَرَ.

✽ قَوْلُهُ: «يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ» .. الْغِبْطَةُ هِيَ تَمَنِّيٌ مِثْلًا عِنْدَ الْغَيْرِ مِنَ الْخَيْرِ دُونَ تَمَنِّيِ زَوَالِ مَا عِنْدَ الْغَيْرِ.

فَمَعْنَى الْحَدِيثِ: يَسْتَحْسِنُ أَحْوَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ. وَقَالَ الْقَاضِي: كُلُّ مَا يَتَحَلَّى بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَعَاطَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنَزَلَةً لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ صَاحِبُهُ مِمَّنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ مَا هُوَ أَزْفَعُ قَدْرًا وَأَعَزُّ دُخْرًا فَيَغْبِطُهُ بِأَنْ يَتَمَنَّى وَيُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ مَفْهُومًا إِلَى مَا لَهُ مِنَ الْمَرَاتِبِ الرَّفِيعَةِ أَوْ الْمَنَازِلِ الشَّرِيفَةِ وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ... فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ اسْتَعْرِقُوا فِيمَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ مِنْ دَعْوَةِ الْخَلْقِ وَإِظْهَارِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ الدِّينِ وَإِرْشَادِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَلِّيَّاتٍ أَشْغَلَتْهُمْ عَنِ الْعُكُوفِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا... وَالشُّهَدَاءُ وَإِنْ نَالُوا رُتَبَةَ الشَّهَادَةِ وَفَارَزُوا بِالْقُوْرِ الْأَكْبَرِ فَلَعَلَّهُمْ لَنْ يُعَامِلُوا مَعَ اللَّهِ مُعَامَلَةً هَؤُلَاءِ فَإِذَا رَأَوْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَنَازِلِهِمْ وَشَاهَدُوا قُرْبَهُمْ وَكَرَامَتَهُمْ عِنْدَ

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن حبان والحاكم وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٤٣١٢).

اللَّهُ وَدُّوا لَوْ كَانُوا ضَامِّينَ خِصَالَهُمْ فَيَكُونُونَ جَامِعِينَ بَيْنَ الْحَسَنَتَيْنِ وَفَائِزِينَ بِالْمَرْتَبَتَيْنِ... وَقِيلَ إِنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ فِي ذَلِكَ إِلَى إِثْبَاتِ الْغِبْطَةِ لَهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ بَلْ بَيَانَ فَضْلِهِمْ وَعُلُوِّ شَأْنِهِمْ وَارْتِفَاعِ مَكَانِهِمْ وَتَقْرِيرِهَا عَلَى أَكْدٍ وَجْهِ وَأَبْلَغِهِ. وَالْمَعْنَى أَنَّ حَالَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَثَابَةِ لَوْ غَبَطَ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَئِذٍ مَعَ جَلَالَةِ قَدَرِهِمْ وَنَبَاهَةِ أَمْرِهِمْ حَالٍ غَيْرِهِمْ لَغَبَطُوهُمْ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٨٧) وَعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَإِذَا فَتًى بَرَّاقُ الثَّنَائِيَا وَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ، فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ، هَجَرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهَجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قَبْلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ اللَّهُ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ، فَقَالَ: اللَّهُ؟ فَقُلْتُ: اللَّهُ، فَأَخَذَنِي بِحَبْوَةٍ رِدَائِي، فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَبْشُرْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَرَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»^(٢).

(٣٨٨) عَنْ أَبِي كَرِيمَةَ الْمُقَدَّادِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرُبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ»^(٣).

(٣٨٩) وَعَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ، إِنِّي لِأُحِبُّكَ، ثُمَّ أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ

(١) تحفة الأحمدي (٦/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير ومالك وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣١).
قوله: «هَجَرْتُ» أي بَكَرْتُ، وهو بتشديد الجيم قوله: «اللَّهُ فَقُلْتُ: اللَّهُ» الأول بهمزة ممدودة للاستفهام، والثاني بلا مد.

(٣) رواه أحمد والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٩).

وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

(٣٩٠) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قَالَ: لَا.. قَالَ: «أَعْلِمْتَهُ» فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ^(٢).

❁ ونلاحظ هنا أن مدار تلك الأحاديث كلها على إخبار من تحبه بأنك تحبه في الله.

فمن السنة أنك إذا أحببت أخاك في الله أن تذهب إليه وتخبره بأنك تحبه ... وما أجمل تلك اللحظات الجميلة حينما يأتي إليك أحد إخوانك وقد ارتسمت البسمة الحانية على وجهه الوضئ وهو يقول لك: والله إنني أحبك في الله ما أجملها من كلمة تملأ القلوب بهجة وسعادة وسرورًا... وبخاصة حين تعلم أن المحبة التي ملأت قلبك تجاه أخيك ستكون سببًا في فوزك بمحبة فاطر السماوات والأرض الذي قال في الحديث القدسي: «وَجَبْتُ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ» ... الله أكبر... هل هناك منحة في الدنيا كلها أعظم من أن تفوز بمحبة الخالق (جل وعلا).. الذي إذا أحبك جعل محبتك في قلوب أهل السماوات والأرض وفوق ذلك يقول (جل وعلا) عن ثمرة محبته لعبده ووليه الصالح: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيدَنَّهُ».

❁ وهنا أغتنم تلك المناسبة الجميلة عند شرح تلك الأحاديث التي تحث المسلم على أن يُخبر أخاه أنه يحبه.. فأقول لكم جميعًا صدقًا من قلبي: والله إنني أحبك في الله.. وأسأل الله أن يجمعني بكم بهذا الحب في ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٢) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في الصحيحة (٣٢٥٣) وصحيح سنن أبي داود (٤٢٧٤).

(٤٧) باب علامات حب الله تعالى للعبد

والحث على التخلق بها والسعي في تحصيلها

❁ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها.
فقال ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ﴾ أى: ادَّعَيْتُمْ هذه المرتبة العالية، والرتبة التى ليس فوقها رتبة فلا يكفى فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها.. وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ فى جميع أحواله: فى أقواله وأفعاله، فى أصول الدين وفروعه، فى الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دَلَّ ذلك على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، وَرَحِمَهُ وَسَدَّدَهُ فى جميع حركاته وسكناته، وَمَنْ لم يتبع الرسول فليس مُحِبًّا لله تعالى، لأن محبته لله تُوجِبُ له اتباع رسوله، فما لم يُوجد ذلك دَلَّ على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها... وهذه الآية يُوزَنُ جميع الخلق... فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحُبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين، وأنه مَنْ يَرْتَدَّ عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن لله عبادًا مخلصين، ورجالًا صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقواهم

نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً... أجل صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه.

وإذا أحب الله عبداً يَسِّرَ له الأسباب، وهوّن عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

كما أن من لوازم محبة الله للعبد، أن يُكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره... فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها.

ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم.... وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على مُعاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم

المخلوقين.

ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم من الصفات الجليلة والمناقب العالية،

المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه
لئلا يُعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذى مَنَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله،
وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٤) أى: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد
عمّت رحمته كل شىء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم،
ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٩١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ
عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا
افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ، كُنْتُ
سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرَجْلَهُ الَّتِي
يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» (٢).

﴿سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم
(٩٦) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٩٢) وعنه عن النبي ﷺ، قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
فُلَانًا، فَأَحْبِبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ» (٣).

(١) تفسير السعدى (ص ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

معنى «آذَنْتُهُ»: أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ - وقوله: «اسْتَعَاذَنِي» روى بالباء وروى بالنون.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، (٧٤٨٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٣٧)
كتاب البر والصلة.

وفي رواية لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا، فَأَجِبُوهُ فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا، فَأَبْغِضْهُ، فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا، فَأَبْغِضُوهُ، فَيَبْغِضُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ».

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: مَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِعَبْدِهِ هِيَ إِرَادَتُهُ الْخَيْرَ لَهُ وَهِدَايَتُهُ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِ وَرَحْمَتُهُ وَبُغْضُهُ إِرَادَةَ عِقَابِهِ أَوْ شَقَاوَتِهِ وَنَحْوِهِ وَحُبُّ جَبْرِيلَ وَالْمَلَائِكَةِ يُحْتَمَلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا اسْتِغْفَارُهُمْ لَهُ وَثَنًاؤُهُمْ عَلَيْهِ وَدُعَاؤُهُمْ وَالثَّانِي أَنَّ مَحَبَّتَهُمْ عَلَى ظَاهِرِهَا الْمَعْرُوفِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَهُوَ مِثْلُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ وَاشْتِيَاقُهُ إِلَى لِقَائِهِ... وَسَبَبُ حُبِّهِمْ إِيَّاهُ كَوْنُهُ مُطِيعًا لِلَّهِ تَعَالَى مَحْبُوبًا لَهُ... وَمَعْنَى يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ أَيِ الْحُبِّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَرِضَاهُمْ عَنْهُ فَتَمِيلُ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ وَتَرْضَى عَنْهُ... وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ فُتُوضَعُ لَهُ الْمَحَبَّةُ^(١).

ويا لها من كرامة حينما تعلم أن الله إذا أحبك فإنه يأمر جبريل بأمرٍ عظيم ثم يقوم جبريل بمهمة جليلة... أما الأمر: فإنه ﷺ يأمر جبريل ﷺ أن يحبك! الله أكبر.. هل تخيلت هذا مرة واحدة في حياتك؟ الله فاطر السماوات يحبك - وحسبك بهذا الحب - ومع ذلك فالله يأمر جبريل أن يحبك.. فيحبك جبريل ثم ينادي في ملائكة السماوات السبع قائلاً: إن الله يحب فلاناً فأحبوه.. ويصدق باسمك في السماوات السبع فتسمع كل الملائكة اسمك ويعرفوك بل ويحبوك.. فهل تريد شيئاً فوق ذلك؟ .. الله يحبك.... وجبريل يحبك وملائكة

(١) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٢٨٢ - ٢٨٣).

أقول: بل نُثَبِّتُ لِلَّهِ ﷻ صِفَةَ الْمَحَبَّةِ بَدُونِ تَأْوِيلٍ وَأَنَّهَا صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لَا تُثَمَّالُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.. فَهُوَ تَعَالَى يُحِبُّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ وَيُبْغِضُ مَنْ يَشَاءُ.

السموات السبع يحبوك .. ومع كل هذا يوضع لك القبول في الأرض حتى تجتمع لك محبة أهل السماء ومحبة أهل الأرض .. لكن بشرط أن يحبك الله عز وجل ولن يحبك الله إلا إذا كانت حياتك كلها في طاعته والتحاكم إلى شرعه واتباع رسوله ﷺ.

بَابُ مَنْ يَحِبُّهُ رَبُّهُ

(٣٩٣) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيُحْتِمُ بِهِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا، ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَإِنَّا أَحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ»^(١).

❖ لقد وردت أحاديث كثيرة في فضل سور الإخلاص وحسبك أن اسمها سورة الإخلاص.

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَيَعِجْزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»^(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قَالَ: «إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(٣).

قَالَ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»^(٤).

❖ وفي هذا الحديث الذي نشرحه يحكى الراوى أن النبى ﷺ أرسل رجلاً

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٧٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٨١٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨١١) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٤٨٤) وأصله فى الصحيحين.

(٤) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٢).

على رأس سرية يعنى: كان أميراً عليهم، فكان يصلى بهم فيقرأ بآيات ثم يختتم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فأنكروا عليه وقالوا: إما أن تقرأ بها وحدها وإما أن تقرأ بغيرها، لماذا تعمل هذا الشيء؟! فشكوه إلى النبي ﷺ... والنبي ﷺ لم يكن يفعل ذلك، ولكن الرجل من شدة حبه لهذه السورة كان يفعل ذلك! فلما سألته النبي ﷺ قال: (لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: أخبروه أن الله تعالى يحبه).

فهذا الصحابى طغى حبه لهذه السورة على غيرها... وغيره يحب القرآن كله، ويتنفع بكل ما فى القرآن، ولكن هذا أحب صفة الله المذكورة فى هذه السورة...؟ فالله عز وجل أحبه لحبه لسورة واحدة، فكيف بمن أحب القرآن كله؟ لا شك أنه أعظم وأعظم من هذا.

هذا تأمل فى سورة واحدة فيها صفات للرحمن سبحانه تبارك وتعالى... وربنا سبحانه وتعالى أمرنا بأن نتدبر القرآن فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فإذا كان الإنسان الآن يعمل مثل هذا الصحابى فنقول: اعمل مثل النبي ﷺ. واتبعه فهو أولى من اتباعك لهذا الصحابى.. فالنبي ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا.. احرص على أن تتدبر القرآن كله..

تدبر سورة الفاتحة.. وكيف أنك حين تقرأها تخاطب الله عز وجل كما جاء فى الحديث: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدْنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدْنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا

قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ② .

فالفاتحة فيها صفات الله سبحانه وتعالى: الله.. الرحمن.. الرحيم.. مالك يوم الدين.. وإذا تأملت ستجد مثل ذلك في القرآن كله.

فالمؤمن عليه أن يتبع النبي ﷺ ويحب كتاب الله، ويحب سنة النبي ﷺ، ويرجو حب الله.

وحب الله غاية عظيمة يدركها الإنسان بفضل الله سبحانه.

فإن كنت تريد أن تفوز بمحبة الله فاعمل لذلك وأخلص النية لله وأحسن الظن بالله وسوف تفوز بها (بإذن الله) فإذا فُزت بمحبة الله ﷻ فقد فُزت بخيرى الدنيا والآخرة.. فسوف ينادى الله ﷻ جبريل ﷺ ويخبره بأنه يحبك ثم يأمره بأن يحبك.. فيحبك جبريل ﷺ ثم ينادى في ملائكة السماوات السبع ليحبوك.. فيحبوك ثم يوضع لك القبول في الأرض.. وفوق ذلك يقول تعالى في الحديث القدسي: «... فَإِذَا أَحَبَّيْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلْنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ».

فلذلك يتقرب المؤمن إلى الله ﷻ ويرجو حب الله ويرجو أن يكون الله سبحانه تبارك وتعالى معه في قيامه وفي قعوده وفي نومه وفي سجوده.. في كل وقت يرجو أن يكون الله ﷻ معه، فلذلك يعمل لذلك.

ومستحيل أن يتقرب العبد إلى الله ويرجو وجه الله فيُعده الله سبحانه وتعالى،.. فالله الكريم يعطى على إحسان العبد إحساناً وزيادة على ذلك

الحسنی: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فاعمل لله سبحانه وارجُ فضل الله سبحانه الذي لا ييخل به على أحد أبداً... وفضل الله عظيم.

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَزَأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَجَعَلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ»^(١).

قَالَ الْمَازِرِيُّ: قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ: قِصَصٍ وَأَحْكَامٍ وَصِفَاتٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) مَتَمَحُضَةٌ لِلصِّفَاتِ فَهِيَ ثُلُثٌ وَجُزْءٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءٍ... وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّ ثَوَابَ قِرَائَتِهَا يُضَاعَفُ بِقَدْرِ ثَوَابِ قِرَاءَةِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ تَضْعِيفٍ^(٢).

وفي هذا الحديث الذي نشرحه تخبر أمانة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً أميراً على سرية فكان هو الإمام الذي يصلى بأصحابه.. فكان يفعل شيئاً جعل أصحابه يتعجبون.. لقد كان يقرأ في الصلاة الجهرية ثم يختم قراءته في كل ركعة بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.. فلما رجعوا ذهبوا إلى النبي ﷺ وذكروا له ذلك فقال النبي ﷺ: «سَلُوهُ لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟».. فلما ذهبوا إليه وسألوه. قال: لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها.. فقال له ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ» من أين أتى النبي ﷺ بهذا الكلام؟

جاءه في التو واللحظة بالوحي من السماء... فقد نزل جبريل عليه السلام ليخبر النبي ﷺ بهذا الخبر في تلك اللحظة... فيا لها من منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها وما عليها.

قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ بِغَيْرِهَا ثُمَّ يَقْرَأُهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ... وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَخْتِمُ بِهَا آخِرَ قِرَائَتِهِ فَيَخْتَصُّ

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١١) (٢٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/١٣٧-١٣٨).

بِالرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ... وَعَلَى الْأَوَّلِ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَازُ الْجَمْعِ بَيْنَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ.
قَوْلُهُ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: إِنَّمَا قَالَ إِنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ لِأَنَّ فِيهَا
أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَاؤُهُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ صِفَاتِهِ... وَقَالَ غَيْرُهُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ
الصَّحَابِيُّ الْمَذْكُورُ قَالَ ذَلِكَ مُسْتَنَدًا لِمَا سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِمَّا بِطَرِيقِ
النُّصُوصِ وَإِمَّا بِطَرِيقِ الْإِسْتِنْبَاطِ وَقَدْ أَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ الْأَسْمَاءِ
وَالصِّفَاتِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْيَهُودَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: صِفْ لَنَا
رَبَّكَ الَّذِي تَعْبُدُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١ إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ هَذِهِ
صِفَةُ رَبِّي ﷻ... وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: انْشُبْ لَنَا
رَبَّكَ فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْإِنْخِلَاصِ.

قَوْلُهُ: «أَخْبَرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ» قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ مَحَبَّةِ
اللَّهِ لَهُ مَحَبَّتُهُ لِهَذِهِ السُّورَةِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُهُ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُ لِيَذْكُرَ
صِفَاتِ الرَّبِّ دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ اعْتِقَادِهِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٨) باب التحذير من إيذاء الصالحين

والضعفة والمساكين

❖ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ① وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠].
وأما الأحاديث، فكثيرة منها.

حديث أبى هريرة رضي الله عنه في الباب قبل هذا: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ».

ومنها حديث سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه السابق في باب ملاطفة اليتيم وقوله عليه السلام: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَئِنْ كُنْتَ أَغَضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغَضَبْتَ رَبَّكَ».

❖ ولتقف هنا وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أى يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جناية واستحقاق للأذى ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ②.

أى فقد حملوا أنفسهم البهتان والكذب، والزور، والذنب الواضح الجلى.
قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحق ومنه ما لا يكون بحق^(١).

❖ وتعالوا بنا لنقف الوقفة الثانية مع قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ①﴾
أى: لا تسع معاملته اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه

ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يُصنع بولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أى: لا يصدر منك إلى السائل كلام يقتضى رَدَّه عن مطلوبه، بَنَهْرٍ وشراسة خُلِقَ، بل أعطه ما تيسر عندك أو رُدَّه بمعروفٍ وإحسان . وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنُّن عليه، فإن فى ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى فى نفع العباد والبلاد.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية ﴿فَحَدِّثْ﴾ (١١) أى: أثنِ على الله بها، وخُصَّصها بالذكر إن كان هناك مصلحة. وإلا فحدِّث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدُّث بنعمة الله، داعٍ لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى مَنْ أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن (١).

ثم أشار المؤلف إلى أحاديث تدل على التحذير من أذية المؤمنين، ومنها ما سبق من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن الله قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ» فالذى يُعادى أحدًا من أولياء الله فإن الله تعالى يُعلن عليه الحرب، وَمَنْ كَانَ حَرْبًا لِلَّهِ تَعَالَى فَهُوَ خَاسِرٌ بَلَا شَكَّ.

قال أهل العلم: وأنواع الأذى كثيرة، منها أن يؤذى جاره، ومنها أن يؤذى صاحبه، ومنها أن يؤذى مَنْ كان معه فى عمل من الأعمال - وإن لم يكن بينهم صداقة - بالمضايقة وما أشبه ذلك، وكل هذا حرام.. والواجب على المسلم الحذر منه.

﴿وقال الربيع بن خثيم رحمته الله: (الناس رجلان: مؤمن فلا تُؤذيه، وجاهلٌ فلا تجاهله)﴾ (٢).

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٩٥).

(٢) آداب العشرة (١٥).

❖ وَمِنْ كَلَامِ يَحْيَى بْنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ: لِيَكُنْ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثَةً: إِنْ لَمْ تَنْفَعَهُ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُفْرِحْهُ فَلَا تَغْمَهُ، وَإِنْ لَمْ تَمُدَّحْهُ فَلَا تَذُمَّهُ.

❖ قَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: اجْعَلْ كَبِيرَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَكَ أَبًا، وَصَغِيرَهُمْ ابْنًا، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا، فَأَيُّ أَوْلَيْكَ تُحِبُّ أَنْ تُسَىءَ إِلَيْهِ؟^(١)

❖ وَأَضْرَارُ الْأَذَى كَثِيرَةٌ.. فَمِنْهَا:

(١) الإيذاء سبب في سخط الله ﷻ على العبد.

(٢) المؤذى يمقته الله، ويمقته الناس.

(٣) يعيش في المجتمع منبوذًا فريدًا، يخاف الناس أذاه، فيكرهون مخالطته ومصاحبته.

(٤) إذا كثر المؤذون في المجتمع وسكت الناس عنهم فسدت أحواله وآل إلى الزوال.

(٥) يسبب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

(٦) دليل سوء الأخلاق وانحطاط النفس وخُبثها^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٩٤) وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ، فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبُنْكَمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ يُدْرِكْهُ، ثُمَّ يَكْبَهُ عَلَى وَجْهِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٣).

❖ وهذا حديث آخر عظيم يبين فضل الله ﷻ على عباده المؤمنين المحافظين على الصلوات... وأن الذي يصلى له من الله ﷻ المعونة والخير والبركة.

(١) جامع العلوم والحكم (٢٩٤).

(٢) نضرة النعيم (٣٨٢٧/٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٦٥٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

❁ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ».. ومن المعلوم أن (مَنْ) من ألفاظ العموم.. أى مَنْ صلى الصبح سواء كان رجلاً أو امرأة في المسجد إلا إذا كان معذوراً فيصليها في البيت في وقتها.. مع العلم أن المرأة لا يلزمها صلاة الجماعة بل الأفضل لها أن تصلّيها في بيتها.. لكن لو أَحَبَّتْ أن تذهب مع مَحْرَمٍ لها إلى صلاة الصبح «فلا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

❁ إِذَا.. «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ» أى: في عهد الله وأمانه وضمّانه.. أى له الضمان والعهد عند الله أن يدافع عنه وأن ينتصر له وينتقم له ممن ظلمه... فاحذر أن تظلم أحداً يحافظ على صلاة الفجر، وإذا ظلمته فإن الله كيده متين يُملئ للظالم... ولا تغتر بأنك تصلّي الفجر؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينتصر للمظلوم من ظالمه وإن كان الظالم يصلّي الفجر.

يقول ﷺ في رواية أخرى في صحيح مسلم: «فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء؛ فإنه مَنْ يطلبه الله من ذمته بشيء يُدرّكه، ثم يَكْبُه على وجهه في النار».

إن الظالم - وخاصة الذى يظلم مَنْ يصلّي الفجر - يُملئ الله له إلى أن يأخذه، فإذا أخذه لم يُفلته، بل يجعله عبرة للخلق... هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيكبّه الله في النار، أى: يُدخله نار جهنم.

❁ فعلى الإنسان المسلم أن يكون من المصلين الذين تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر وتدفعهم إلى فعل الخيرات والتحلى بأجمل الأخلاقيات.. أما أن يصلّي ثم يذهب فيظلم الخلق ويأكل حقوقهم ويخوض في أعراضهم ويأكل الحرام ويأخذ الرشوة فهذا ليس المصلّي الذى ذكره النبي ﷺ أنه في ذمة الله..

وصلاته ليست التى ذكرها الله في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأنه لا بد أن يظهر أثر هذه الصلاة على فعل العبد... وذلك بأن يُتقن عمله ويُحسن إلى الخلق، ويفعل الخير، ويمتنع من الشر، ويجتنب الفواحش والمعاصي.

(٤٩) باب إجراء أحكام الناس على الظاهر

وسرائرهم إلى الله تعالى

❖ قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾

[التوبة: ٥].

❖ جعل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عنوان هذا الباب: باب إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى...

فالمسلم لم يُؤمر بأن يُنقب عما في صدور الآخرين.. وإنما ينبغي عليه أن يعاملهم بما يظهر له منهم ويكِل سرائرهم إلى الله تعالى.

ولذلك كان النبي ﷺ -وهو المؤيد بالوحي من السماء- لا يتعامل إلا مع ما يظهر له من الناس.. وكان ﷺ يعلم أسماء المنافقين الذين حوله بعدما أعلمه جبريل ﷺ بأسمائهم ومع ذلك لم يقتل واحداً منهم.. بل حتى لما ظهر له عداوة رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول واستأذن أحد الصحابة من النبي ﷺ في أن يقتل هذا المنافق رفض النبي ﷺ وقال: لا.. حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

❖ فالشاهد أن العبرة في الدنيا بما في الظواهر.. كاللسان والجوارح.. والعبرة في الآخرة بما في السرائر بالقلب.

❖ فنحن في الدنيا نحكم على الناس بما يظهر لنا من جوارحهم وبما تتكلم به ألسنتهم.. أما في الآخرة ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ❶ فالله ﷻ هو الذي يعلم السر وأخفى ويعلم ما تكنه الصدور وسوف يحاسب عباده على كل ما في قلوبهم ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ❷ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ❸.

❖ فينبغي علينا أن نتعامل مع الناس بما يظهر لنا منهم ولا نفتش عما في

قلوبهم.. وفي نفس الوقت علينا أن نُصلح نوايانا ونحرص على طهارة قلوبنا لأن القلب في الدنيا محل النية وفي الآخرة محل الحساب... والله لا ينظر إلى أجسادنا ولا إلى أموالنا ولا إلى صورنا وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

فاحرص يا أخى على طهارة قلبك قبل طهارة جوارحك... فكّم من إنسان يُصلى، ويصوم، ويتصدق، ويحج، لكن قلبه فاسد.

وهاهم الخوارج حدث عنهم النبي عليه الصلاة والسلام، أنهم يصلون، ويصومون، ويتصدقون، ويقرءون القرآن، ويقومون الليل، ويكفون، ويتعبدون، ويحقر الصحابي صلاته عند صلاتهم، لكن قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يُجاوز إيمانهم حناجرهم» لا يدخل الإيمان قلوبهم.

مع أنهم صالحو الظواهر، لكن ما نفعهم، فلا تغتر بصلاح جوارحك، وانظر قبل كل شيء إلى قلبك... أسأل الله أن يُصلح قلبى وقلوبكم، فإن أهم شيء هو القلب.

رُفع رجل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قد شرب الخمر، فجلده، ثم رُفع إليه مرة أخرى فجلده، فسبّه رجلٌ من الصحابة، وقال: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتى به إلى الرسول (عليه الصلاة والسلام).

فقال له الرسول ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يُحب الله ورسوله» فالأصل فيه أنه مسلم، وفي قلبه محبة الله ورسوله، ولكن غلبته نفسه على المعصية.... فالأصل هو القلب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

أما في الدنيا بالنسبة لنا مع غيرنا، فالواجب إجراء الناس على ظواهرهم؛ لأننا لا نعلم الغيب، ولا نعلم ما في القلوب، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إنما أقضى بنحو ما أسمع»^(١).

ولسنا مكلفين بأن نبحث عما في قلوب الناس، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].
يعنى المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة؛ فخلوا سبيلهم ... وأمرهم إلى الله، إن الله غفور رحيم^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٩٥) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٣).

(٣٩٦) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ طَارِقِ بْنِ أَشِيمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، حَرَّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى»^(٤).

وبذلك يكون العمل بالظواهر... فإذا شهد إنسان أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، عَصَمَ دمه وماله، وحسابه على الله؛ فليس لنا إلا الظاهر.

قال الشيخ صالح آل الشيخ:

هذا الحديث - حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن رسول الله ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٦٧) كتاب الحيل، (٧١٦٩) كتاب الأحكام.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٤٥) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣) كتاب الإيمان.

ويؤتوا الزكاة».... قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا» يعني: حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وما يلزم عنها من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة... هذه لا بد من مطالبة الناس بها جميعاً، المؤمن والكافر.

وللناس جميعاً أُرْسِلَ إليهم المصطفى - عليه الصلاة والسلام -، وأُمِرَ أن يقاتلهم بقول الله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وبقوله: ﴿فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فأمر الله ﷻ بالقتال حتى تلتزم الشريعة... وهذا لا يعني أنه يُبْتَدَأُ بالقتال؛ بل هذا يكون بعد البيان، وبعد الإنذار، فقد كان - عليه الصلاة والسلام - لا يغزو قوماً حتى يؤذنه، يعني: حتى يأتيهم البلاغ بالدين.

فقد أرسل (عليه الصلاة والسلام) الرسائل المعروفة إلى عظماء أهل البلاد فيما حوله، يبلغهم دين الله ﷻ، ويأمرهم بالإسلام، أو فالقتال، وهذا ذائع مشهور.... إذاً فقوله - عليه الصلاة والسلام -: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا» يعني: بعد البيان والإعذار، فهو يقاتلهم حتى يلتزموا بالدين، وهل هذا يعني أنه هو الخيار الوحيد؟ الجواب: هذا في حق المشركين؛ ولهذا حمل طائفة من أهل العلم أن الناس هنا هم المشركون الذين لا تُقْبَلُ منهم الجزية، ولا يُقَرُّون على الشرك... أما أهل الكتاب، فإنهم مُخَيَّرُونَ بين ثلاثة أشياء: إما أن يُسَلِّمُوا، فتُعَصِّمَ دماءهم وأموالهم، وإما أن يُقَاتِلُوا حتى يظهر دين الله، وإما أن يرضوا بدفع الجزية، وهى ضريبة على كل رأس، فيبقوا رعايا في دولة الإسلام، ويُسمون أهل الذمة.

❁ قال الإمام النووي:

قوله ﷺ: «إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ» فإن قيل: فالصوم

من أركان الإسلام، وكذلك الحج، ولم يذكرهما، فجوابه: أن الصوم لا يُقاتل الإنسان عليه، بل يُحبَس ويُمْنَع من الطعام والشراب... والحج على التراخي فلا يُقاتل عليه، وإنما ذكر رسول الله ﷺ هذه الثلاثة؛ لأنه يُقاتل على تركها ولهذا لم يذكر الصوم والحج لمعاذ حين بعثه إلى اليمن، بل ذكر هذه الثلاثة خاصة.

وقوله ﷺ: «إلا بحق الإسلام» فمن حق الإسلام فعل الواجبات، فمن ترك الواجبات جاز قتاله كالْبُغَاة، وقُطَاع الطريق، والصائِل^(١) ومانع الزكاة. قوله ﷺ: «وحسابهم على الله» يعنى: مَنْ أتى بالشهادتين وأقام الصلاة وآتى الزكاة عصم دمه وماله، ثم إن كان فعل ذلك بنية خالصة صالحة فهو مؤمن، وإن كان فعله تقية وخوفاً من السيف - كالمُنافق - فحسابه على الله وهو المتولى السرائر.

وكذلك مَنْ صلى بغير وضوء أو غسل جنابة أو أكل في بيته وادّعى أنه صائم يقبل منه، وحسابه على الله ﷻ - والله أعلم^(٢).

❦ وهناك وقفة أخرى مع حديث: «أمرت أن أقاتل الناس»:

يَدْعَى منكرو السُّنة النبوية أن حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»^(٣) يدَّعون أن هذا الحديث يتعارض مع الآيات القرآنية التي تفيد حرية الإنسان الدينية، والتي منها:

(١) الصائِل: المعتدى.

(٢) شرح الأربعين النووية (١٠٨-١١١) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾

[الكهف: ٢٩].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وغير

ذلك من الآيات التى فى هذا الموضوع.

وهم - منكرو السنة - إذ يدَّعون أن هذا الحديث يتعارض مع هذه الآيات فإنهم يُرتبون على ذلك أنه حديث موضوع!! على الرغم من أنه فى البخارى ومسلم. ويزيدون بأن القول به إنما هو تطرّف وإرهاب.

وأقول لهم: إن هذا الحديث لا يتعارض مطلقاً مع أى آية من القرآن الكريم، وإنما يتفق مع الآيات القرآنية فى أن القتال إنما شرع لتوفير الحرية الدينية للناس، ولإزاحة العقبات التى تعرقل وصول الحق إلى كل الناس، ولإشاعة الحق بين أفراد البشرية،... إن الحق له أعداء جاء هذا الحديث ليردعهم، وليوفر مناخ الحرية الدينية لكل الناس.

وأجيب تفصيلاً:

❖ فأقدم مقدمتين، أولاً:

١ - قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل» هذا من القتال لا من القتل.

والفرق كبير.... فالقتال بذل الطاقة فى صرف العدو عن إيذائى، أما القتل

فهو القضاء على العدو، والأول هو الذى هنا.

٢ - قوله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس» ليس المراد كل الناس، وهذا أمر

بديهى، فهو ﷺ والمسلمون معه من الناس، وعليه فهذا اللفظ ليس على إطلاقه، وقد جاء فى رواية لهذا الحديث: «أُمرت أن أقاتل المشركين حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله... الحديث»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

✽ ثم أفصل ثانيًا فأقول:

إن رسول الله ﷺ يقول: (ما معناه) أمرنى ربى أن أقاتل المشركين الذين يحرّمون الناس حريتهم الدينية.. أمرنى ربى أن أقاتلهم حتى يصبح الدين الإسلامى شائعًا ذائعًا، لا يمنع أحدًا أحدًا عنه، وبعد ذلك فليعتنق الإنسان ما شاء من الدين.

إنه حديث يتفق مع آيات القتال كلها كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، أى قاتلوهم حتى لا يُكره أحدٌ على دين لا يرتضيه، وحتى يكون دين الله هو الظاهر العالى المعلوم.

والآيات والأحاديث التى فى هذا الموضوع كلها تبين أن القتال فى الإسلام إنما هو لنصرة الحق، كما فى حديث الذى سأل رسول الله ﷺ قائلاً: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر^(١)، والرجل يقاتل ليرى مكانه^(٢)، فمن فى سبيل الله؟ فقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

ومعنى: «كلمة الله» دعوة الله إلى الإسلام^(٤)... ومعنى «فى سبيل الله» فى طاعة الله تعالى.. فمن قاتل لإظهار الإسلام، فهذا الذى قتاله طاعة لله سبحانه.

إن غير المسلمين يؤذون المسلمين فى دينهم، وهذا ثابت فى كل الأعصار، فجاءت آيات القتال وأحاديثه لتحرض المؤمنين على الوقوف فى وجه الظلم،

(١) أى ليذكر بين الناس بالشجاعة.

(٢) أى رياء.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٨١٠) كتاب الجهاد والسير.

(٤) فتح البارى شرح حديث رقم (٢٨٠) (٦ / ٢٨).

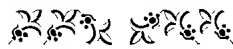
كى تنكسر شوكة الطغاة، ويتقلص ظلم القُساء، ويشيع الإسلام بين الناس كما أوحاه الله، وبعد ذلك فليعتنق الإنسان ما شاء من الدين.

إن مُنكرو السنة يصورون الحديث، وكأن رسول الله ﷺ يقول: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يُسْلِمَ الْجَمِيعُ، يَسْلَمُونَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا.

وهذا التصوير خطأ وضلال، فالإسلام ليس قائمًا على الإكراه، وإنما القتال غايته أن يعلم الناس حقيقة الإسلام من الشهادتين، وأن يعلموا أصوله من صلاة وصيام، ثم لهم الحرية الكاملة، فمن شاء أسلم لا يستطيع أحد أن يمنعه، ومن شاء لم يسلم ليس لأحد أن يرغمه.

وهكذا يوفر هذا الحديث وما في موضوعه كامل الحرية الدينية لكل إنسان، إنه يزيح الموانع عن الحق، والواقفين في وجهه الصدق.

يدعوهم للانصاف فإن استجابوا فلا عليهم، وإن لم يستجيبوا قاتلهم، ليوفر الحرية لأتباعهم من المقهورين^(١).



(٣٩٧) وَعَنْ أَبِي مَعْبُدٍ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسَلَمْتُ لَكَ، أَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: «لَا تَقْتُلُهُ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَمَا قَطَعَهَا؟ فَقَالَ: «لَا تَقْتُلُهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ. وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ»^(٢).

(١) رحمة للعالمين / د. محمود المصري (ص ٧٠٠-٧٠٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠١٩) كتاب المغازي، (٦٨٦٥) كتاب الديات، ومسلم (٩٥) كتاب الإيمان.

ومعنى «إِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ» أَيْ: مَعْصُومُ الدِّمِّ مَحْكُومٌ بِإِسْلَامِهِ.
ومعنى «إِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ» أَيْ: مُبَاحُ الدِّمِّ بِالْقِصَاصِ لَوَرَّثِهِ، لَا أَنَّهُ بِمَنْزِلَتِهِ فِي الْكُفْرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❦ ففى هذا الحديث قال المقداد بن الأسود رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ، فَاقْتَلَنَّا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَهَا ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسَلَمْتُ لِلَّهِ، أَقْتُلْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟... يَا تَرَى مَاذَا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ هَلْ قَالَ لَهُ: نَعَمْ اقْتُلْهُ فَهُوَ كَافِرٌ وَقَدْ قَطَعَ يَدَكَ ثُمَّ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ تَقِيَةً حَتَّى لَا تَقْتُلْهُ... لَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ يَخْدَعَكَ مِثْلُ هَذَا؟!....

كلا.. بل قال له النبي ﷺ بكل وضوح: «لَا تَقْتُلْهُ» مع أنه كافر وقد قطع يد رجل من أصحاب الرسول ﷺ.

فقال المقداد: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَمَا قَطَعَهَا؟ فَقَالَ: «لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ» يعنى يكون مسلمًا ويكون قد مات على الإسلام لأنه نطق بالشهادتين حتى وإن كان قالها خوفًا منك فهذا أمرٌ لا نعرفه نحن وإنما يعلمه الله وسيحاسبه عليه يوم القيامة.

ثم قال ﷺ: «إِنْ قَتَلْتَهُ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلْهُ. وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ» يعنى إن قتلته فأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال..

مع العلم بأنى أنا وأنتم، نظن أن هذا الرجل قال: أشهد أن لا إله إلا الله خوفًا من القتل، ومع ذلك يقول: لا تقتله، فقد عُصِمَ دمه وماله.

وفى هذا الحديث أيضًا: دليل على أن ما أتلّفه الكفار من أموال المسلمين وما جنّوه على المسلمين غير مضمون إذا أسلموا.. يعنى الكافر لو أتلّف شيئًا للمسلمين، أو قتل نفسًا لا يضمن إذا أسلم، فالإسلام يمحو ما قبله.

(٣٩٨) وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنَتْهُ بِرُمْحَى حَتَّى قَتَلَتْهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّدًا، فَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ^(١).

وفى رواية: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

(٣٩٩) وَعَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَنْتَهُمُ التَّقَوَّاءُ، فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ، وَأَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ، وَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتَغْفِرُ لِي. قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ، إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» فَجَعَلَ لَا يَزِيدُ عَلَيَّ أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧٢) كتاب الديات، ومسلم (٩٦) كتاب الإيمان.

«الحرقة» بضم الحاء المهملة وفتح الراء: بطن من جهينة القبيلة المعروفة، وقوله مُتَعَوِّدًا: أى مُتَعَصِّمًا بها من القتل لا مُتَعَقِّدًا لها.

تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

✽ قد يكون قتل أحد الأعداء أمراً حتمياً نتيجة جرائمه السابقة في حق المسلمين ، ولكن الأخلاق النبوية الرفيعة كانت تتجه إلى إعطاء هذا العدو فرصة أخيرة إذا أعلن إسلامه، مع أن هذا الإعلان غالباً ما يكون لتجنب القتل، ولكن رسول الله ﷺ كان يقبل إسلام الشخص مهما كان تاريخه العدائي، وليس في هذا إكراه في الدين؛ لأن الأصل في الأمور بالنسبة لهؤلاء أن الحكم بقتلهم قد صدر بالفعل... وقبول إسلامهم والعفو عنهم بعد صدور هذا الحكم هو منة من رسول الله ﷺ عليهم.

ومن أفضل الأمثلة على هذا الأمر ما رأيناه منه ﷺ عندما أنكر على أسامة بن زيد رضي الله عنه قتله لمشرك محارب بعد أن أعلن إسلامه... مع أن كل الظروف كانت تشير إلى أن المشرك لم يعلن إسلامه إلا تقيّة!

✽ والقصة باختصار أن النبي ﷺ بعث أسامة بن زيد رضي الله عنه في سرية إلى الحُرقة من جهينة.. فلما وصل إلى القوم وبدأ القتال كان هناك رجل من المشركين يقتل في المسلمين قتلاً شديداً فاتجه إليه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ليقضوا عليه قبل أن يقتل أكثر من ذلك في المسلمين.. فلما هجم عليه أسامة والرجل الآخر فرأى المشرك أن السيف فوق رأسه قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.. فكفّ الرجل الأنصاري عنه ولم يقتله.. وأما أسامة فقد طعنه برمح فقتله.

فالرجل الذي في القصة كان قد أوجع في المسلمين، وقتل بالفعل عدداً من الصحابة، وحارب أسامة بن زيد رضي الله عنه، ولمّا سقط السيف من يده، وشعر أن أسامة سيقتله قال: لا إله إلا الله!... إن أي إنسان في مكان أسامة لعله سيأخذ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧) كتاب الإيمان.

نفس القرار الذي أخذه أسامة... فكل الظروف تُوحى أنه من العجيب أن يدخل الإيمان فجأة في قلب المقاتل المشرك عند رؤية السيف، لكن منهج رسول الله ﷺ في حقن الدماء كان يرفض ما فعله أسامة ﷺ.

ولذلك لما عادوا إلى المدينة وعلم النبي ﷺ بما حدث قال لأسامة: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قال أسامة: يا رسول الله إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا... يعني: إنما قال ذلك يتعوذ من القتل، يستجير بها من القتل.

قال: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قال: نعم، قالها يتعوذ من القتل... كرر ذلك عليه، حتى قال له في رواية لمسلم: «ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة».

يقول أسامة ﷺ: حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمت قبل هذا اليوم. لأنه لو كان كافرًا ثم أسلم عفا الله عنه... لكنه الآن فعل هذا الفعل وهو مسلم، فهذا مُشْكَلٌ جدًّا على أسامة.

والرسول ﷺ يكرر: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». «ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة؟». مع العلم بأن الذي يغلب على الظن ما فهمه أسامة؛ أنه قالها متعوذًا من القتل، يستجير بها من القتل^(١).

لكن النبي ﷺ يُعَلِّمُهُ وَيُعَلِّمُ الْأُمَّةَ كُلَّهَا أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا نَطَقَ الشَّهَادَتَيْنِ فَقَدْ انْتَهَى الْأَمْرَ وَيَجِبُ الْكَفُّ عَنْهُ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ قَدْ عَصَمَ دَمَهُ وَمَالَهُ حَتَّى وَإِنْ قَالَهَا مُتَعَوِّذًا فَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ.

فهذا: دليل على أننا نحمل الناس في الدنيا على ظواهرهم، أما ما في القلوب فموعده يوم القيامة،.. حين تنكشف السرائر، وَيُحَصِّلُ مَا فِي الضَّمَائِرِ، ولهذا علينا أيها الأخوة أن نظهر قلوبنا قبل كل شيء ثم جوارحنا.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٤٦).

أما بالنسبة لمعاملتنا لغيرنا، فعلينا أن نعامل غيرنا بالظاهر ونكِل سرائرهم إلى الله عز وجل يحاسبهم عليها.

وفي موقفٍ مُشابه أنكر الرسول ﷺ على خالد بن الوليد مثل هذا الأمر؛ فقد روى ابن عمر أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة^(١)، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبانًا صبانًا، فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجلٍ منّا أسيرَهُ، حتى إذا كان يومَ أمر خالد أن يقتل كل رجلٍ منّا أسيرَهُ.. فقلت: والله لا أقتل أسيرى، ولا يقتل رجلٌ من أصحابي أسيرَهُ، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يده فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد» مرتين^(٢).

لقد كان هذا تعليمًا للأمة كلها، وتحذيرًا شديدًا من القتل في غير محله، بل هو في الوقت نفسه حرصٌ شديد من النبي ﷺ على تفادي القتل عند أول فرصة تسنح بذلك، مما يؤكد لنا أن القتال في الإسلام إنما هو أمر لا يكون إلا عند الحاجة الماسة إليه، ومتى وجدت أية فرصة للخروج من القتال وحفظ الدماء؛ كان الأخذ بها هو منهج الإسلام ومنهج الرسول ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠٠) وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرًا، أمنّا، وقربناه وليس لنا من سريرته شيء، الله يحاسبه في سريره، ومن أظهر لنا سوءًا، لم نأمنه، ولم نصدقْه وإن قال إن سريره حسنة»^(٣).

(١) بنو جذيمة هم: بنو عامر بن عبد مناة بن كنانة، وكانوا جنوب مكة على مسافة ليلة، بناحية يلملم.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٣٣٩) كتاب المغازي.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٦٤١) كتاب الشهادات.

❦ ففي هذا الحديث يخبر عبد الله بن عتبة بن مسعود - وهو ابن أخي الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن ناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع يعني: كنا نعلم المنافقين الذين كانوا يظهرُونَ الخير ويُطِنُونَ الشر على عهد النبي ﷺ.. وذلك لأن الوحي كان ينزل على النبي ﷺ ليخبره بأخبارهم وكان القرآن يفضحهم بأوصافهم التي تُحدد أعيانهم ولا يفضحهم بأسمائهم.

والحكمة من ذكرهم بالأوصاف دون الأعيان؛ أن ذلك يكون للعموم، يعني لكل مَنْ اتصف بهذه الصفات، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥) فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿التوبة: ٧٥-٧٧﴾.

ومثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

ومثل قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].
❦ ثم قال عمر رضي الله عنه: وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمْ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا، أَمَّنَّا، وَقَرَّبَنَا وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا، لَمْ نَأْمَنْهُ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ.

يقول رضي الله عنه: مَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَخَذْنَاهُ بِمَا أَظْهَرَ لَنَا، وَإِنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً - يعني سيئة - ... وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًّا، فَإِنَّا نَأْخُذُهُ بِشَرِّهِ وَلَوْ أَضْمَرَ ضَمِيرَةً طَيِّبَةً؛ لِأَنَّا



نحن لا نُكَلِّفُ إلا بالظاهر... وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى علينا؛ ألا نحكم إلا بالظاهر؛ لأن الحكم على الباطن من الأمور الشاقة.

والله عَزَّوَجَلَّ لا يُكَلِّفُ نفسًا إلا وسعها. فمن أبدى خيرًا عاملناه بخيره الذي أبداه لنا، ومن أبدى شرًا عاملناه بِشَرِّه الذي أبداه لنا، وليس لنا من نيته مسئولية، فالنية موكولة إلى ربِّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، الذي يعلم ما توسوس به نفس الإنسان^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (١٤٨/٢) بتصرف.

(٥٠) باب الخوف

❁ إن نعمة الخوف من الله ﷻ نعمة عظيمة تجعل بين العبد وبين معصية الله سداً منيعاً.

والعبد لا بد أن يعيش بين الخوف والرجاء فيكون خائفاً راجياً.

ينظر إلى ذنوبه وآثامه فيخاف من الله أن يُعاجله بعقوبته.. فيتوب في التوبة واللحظة... وينظر حتى إلى أعماله الصالحة وأنه قد يشوبها شيء من الرياء أو العُجب فيخاف ألا يتقبلها الله منه.. ثم ينظر إلى عفو الله ورحمته ومغفرته وكرمه وحلمه فيرجو الله (جل وعلا)... فيعيش دوماً وأبداً بين الخوف والرجاء.

❁ ولقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بعض الآيات التي تملأ القلب رهبة وخوفاً من فاطر السماوات والأرض ومن عقابه ﷻ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدِيغٌ﴾ [البقرة: ٤٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٢] ﴿[البروج: ١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّلنَّاسِ أَخْذُهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٢] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لِّلنَّاسِ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٣﴾ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقْتُ وَسَعِيدٌ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَسَهيقٌ ﴿١٦﴾ [هود: ١٠٢ - ١٠٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَجْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورُوا رَبَّكُمْ إِن زَلَزَلَتْ السَّاعَةُ شَقًّا عَظِيمًا ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ - ٢]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا وَوَقَّتْنَا عَذَابَ السَّمُورِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿[الطور: ٢٥ - ٢٨].
والآيات في الباب كثيرة جدًا معلومات، والغرض الإشارة إلى بعضها وقد حصل:

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا فنذكر منها طرفًا وبالله التوفيق^(١).

✽ اعلم: أن مقامات الخائفين تختلف... فمنهم مَنْ يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم مَنْ يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم مَنْ يغلب عليه خوف سوء الخاتمة... وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع مَنْ يشاء من غير وسيلة، ويضع مَنْ يشاء من غير وسيلة، لا يُسأل عما يفعل.
ومن أقسام الخائفين، مَنْ يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم مَنْ يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين^(٢).

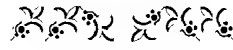
ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي

(١) رياض الصالحين / للإمام النووي (ص ١٤٨).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٥).

المحبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتبهه إذ علم أن فيه سُماً... فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذه النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في مخالف سبع ضارٍ لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه.

ولا شغل له إلا ما وقع فيه... ففوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال^(١).



(٤٠١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكِتَابِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا»^(٢).

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص: ٣٧٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، (٧٤٥٤) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٤٣)

❁ وهذا الحديث أصلٌ في باب القدر والعناية بذلك، والخوف من السوابق والخوف من الخواتيم... وكما قيل: قلوب الأبرار مُعلّقة بالخواتيم.

يقولون: ماذا يُختم لنا، وقلوب السابقين أو المقربين مُعلقة بالسوابق يقولون: ماذا سبق لنا؟ وهذا هو الإيمان بالقدر والخوف من الكتاب السابق والخوف من الخاتمة.. هذا من آثار الإيمان بالقدر خيره وشره.

فإن هذا الحديث دَلٌّ على أن هناك تقديرًا عمريًا لكل إنسان، وهذا التقدير العمرى يكتبه المَلَكُ بأمر الله ﷻ كما جاء في هذا الحديث.

إذا... هذا الحديث مَسْئُوقٌ لبيان التقدير العمرى لكل إنسان؛ وليخاف المرء السوابق والخواتيم؛ وليؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه... والسوابق في عمل العبد والخواتيم متصلة... كما قيل: الخواتيم ميراث السوابق.

فالخاتمة ترثها لأجل السوابق، فما من خاتمة إلا وسببها بلطف الله ﷻ ورحمته أو بعدله وحكمته. سوابق المرء في عمله وهى جميعًا متعلقة بسوابق القدر^(١).

❁ قال ابن مسعود رضي الله عنه: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وهو الصادق المصدوق... يعنى الصادق فيما يقول، والمصدوق فيما يُوحى إليه من الوحي، وفيما يُقال له من الوحي... فهو صادق لا يُخبر إلا بالصدق، مصدوق لا يُنبأ إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه.

وإنما قدم هذه المقدمة؛ لأنه سيُخبر عن أمرٍ غيبى باطن يحدث في ظلمات ثلاث.

❁ وقول ابن مسعود هنا: وهو الصادق المصدوق... هذه تهيئة،... وهذه

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٧٣).

فيها أدب للمعلم أن يهيئ العلم لمن يعلمه ومن يخبره بالعلم؛ لأن هذا الحديث فيه شيء غيبى لا يُدرَك بالحس ولا بالتجربة، وإنما يُدرَك بالتسليم والعلم بالخبر لصدق المُخبر به (عليه الصلاة والسلام).

ومعلوم أن الصحابة في ذلك الوقت لم يكونوا يعلمون تطور هذه المراحل بعلم تجريبي أو برؤية أو بنحو ذلك، وإنما هو الخبر الذي يصدقونه... فكانوا علماء لا بالتجريب وإنما بخبر الوحي الذي ينزل على النبي صلوات الله عليه وسلامه^(١).

✽ قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً» أى أنه إذا أتى الرجل امرأته في الحلال وألقى الماء في رحمها بقى أربعين يومًا وهو نطفة على ما هو عليه ماء... لكنه يتغير شيئًا فشيئًا... يميل إلى الحمرة، حتى يتم عليه أربعون يومًا.

فإذا تم عليه أربعون يومًا... إذا هو قد استكمل الحمرة وصار قطعة دم علقه، فيمضى عليه أربعون يومًا أخرى وهو علقه... يعنى قطعة دم، لكنها جامدة، ولكنه يثخن ويغلظ شيئًا فشيئًا، حتى يتم له ثمانون يومًا.

فإذا تم له ثمانون يومًا فإذا هو مضغة (قطعة لحم)، هذه المضغة قال الله تعالى فيها: ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرَ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. فتبقى أربعين يومًا، تُخَلَّقُ من واحدٍ وثمانين يومًا إلى مائة وعشرين يومًا، ولا يتبين فيها الخلق تبيينًا ظاهرًا إلا إذا تم لها تسعون يومًا في الغالب.

فإذا مضى عليها أربعون يومًا وهى مضغة، أرسل الله إليها الملك الموكل بالأرحام؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدرثر: ٣١].

فالملائكة جنود الله عز وجل.. وكُلُّ منهم مُوَكَّلٌ بشيءٍ؛... منهم المُوَكَّل

(١) شرح الأربعين النووية (ص ٧٤) بتصرف.

بالأرحام، ومنهم المُوكل بالنفوس يقبضها، ومنهم المُوكل بالأعمال يكتبها، ومنهم المُوكل بالأبدان يحفظها.. وظائف عظيمة للملائكة أمرهم الله ﷻ بها. فيأتى ملك الأرحام إلى كل رحم، فينفخ فيه الروح بإذن الله ﷻ.

وهذه الروح أمرٌ لا يعلمه إلا رب العالمين... قال الله تعالى: ﴿وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ينفخها في هذا البدن، الذى هو قطعة لحم في الرحم، ليس فيها حراك ولا إحساس ولا شيء.... فإذا نفخ هذه الروح دخلت في هذا البدن، فتسير فيه كما تسير الجمرة في الفحمة بإذن الله، أو الطين في المدر اليابس، فتدبُّ في هذا الجسد حتى تدخل في الجسد كله، فيكون إنساناً، ويتحرك، وتحس الأم بتحركه بعد مائة وعشرين يوماً، حينئذ يكون إنساناً، أما قبل هذا فهو ليس بشيء.

ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يوماً، فليس له حكمٌ من جهة الصلاة عليه، بل يؤخذ ويدفن في أى حفرة من الأرض، ولا يُصلَّى عليه.

أما إذا تم مائة وعشرين يوماً، يعنى أربعة أشهر، حينئذ صار إنساناً، فإذا سقط بعد ذلك، فإنه يُغسَّل، ويُكفَّن، ويُصلَّى عليه... ولو كان قدر اليد، فإنه يُصلَّى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين إن كان مسلماً.

ويُسمَّى، ويُعقُّ عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة؛ لأنه يُبعث يوم القيامة.

قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ويؤمر» يعنى المَلَك «بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد».

فيكتب رزقه: وكتب الرزق يعنى: هل هو قليل، أم كثير؟ ومتى يأتيه؟ وهل يتنقص أم لا يتنقص؟ المهم أنه يُكتب كاملاً^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٥٠-١٥١) بتصرف.

ويكتب أجله أيضًا: في أى يوم؟ وفي أى مكان؟ وفي أى ساعة؟ وفي أى لحظة؟ وعن بُعد أم عن قرب؟ وبأى سبب من الأسباب موته؟ والمهم أنه يُكتب كاملاً.

ويُكتب عمله: هل هو صالح، أم سيئ، أم نافع، أم قاصر على الشخص نفسه؟ والمهم أنه يُكتب كل أعماله.

ويُكتب ماله: وما أدراك ما المال! فيُكتب هل هو شقى أم سعيد.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (١٠٦) خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿ ١٠٧ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿ ١٠٨ ﴾

[هود: ١٠٦-١٠٨].

كل هذا يُكتب، لكن أين يُكتب؟ وردت آثار أنه يُكتب في جبينه على جبهته. فإن قال قائل: كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها؟

قلنا: لا تسأل عن أمور الغيب، ومن أنت حتى تسأل عن أمور الغيب؟ قل: آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله ﷺ ولا تسأل: كيف.

وقد وقع الآن في وقتنا ما يشهد لمثل هذا.... كمبيوتر قدر اليد يكتب به الإنسان ملايين الكلمات، وهو من صنع البشر. فما بالك بصنع الله ﷻ!

﴿ قَالَ ﷻ: « فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا ».

وقد يقول قائل: وما ذنب هذا الرجل حتى يعمل عملاً صالحاً طوال تلك السنوات ثم يُختم له بخاتمة أهل الشقاء فيدخل النار؟

أقول: يتضح ذلك في الرواية الأخرى فقد قال النبي ﷺ: « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ » أى أنه لم يكن يعمل هذا العمل لله وإنما كان

مُرَائياً... فلذلك أخرج الله ما في قلبه قبل موته فكانت تلك الخاتمة السيئة.

❁ وهناك قصة توضح لنا خاتمة مَنْ عمل عملاً لغير وجه الله سبحانه وتعالى ... ففي الصحيحين، أن رجلاً كان مع النبي ﷺ في غزوة، وكان شجاعاً مقداماً، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليه، فتعجب الناس منه؛ ومن شجاعته، ومن إقدامه، فقال النبي ﷺ ذات يوم: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

أعوذ بالله ... هذا الشجاع الذي يفتك بالعدو من أهل النار؟
فكبر ذلك على المسلمين، وعظم عليهم، وخافوا، كيف يصير هذا من أهل النار؟

فقال رجل: والله لألزمته... سوف أتابعه وأراقبه؛ لأرى نهايته كيف تكون؟ فمشى معه، وفي أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع، فأخذ بسيفه فسأله، فوضعه في صدره، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره ... قتل نفسه جزعاً... فجاء الرجل إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله... قال: وبِم؟

قال: الرجل الذي قلت: إنه من أهل النار. حصل له كذا وكذا.
فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَمَّا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

وفي هذا درسٌ عظيمٌ أن نتعلم جميعاً ألا نعمل العمل إلا لله ﷻ وأن ندعو دائماً بدعاء النبي ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».
❁ ثم قال النبي ﷺ: «وَإِنْ أَحَدُكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا».
هذا عكس الأول.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢٠٢) كتاب المغازي، ومسلم (١١٢) كتاب الإيمان.



وهذا له أيضًا شاهد في الواقع ... رجلٌ يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها... وقع هذا على عهد الرسول ﷺ ... كان هناك رجل يُقال له الأصيرم من بنى عبد الأشهل، كافر مُنابذٌ للدعوة الإلهية... كان ضد المسلمين، فلما كان في غزوة أحد، وخرج الناس من المدينة يغزون، ألقى الله في قلبه الإسلام، فأسلم وخرج يجاهد.

فلما حصل ما حصل للمسلمين وقتل منهم مَنْ قُتِلَ وذهب الناس ينظرون في قتلهم، فوجدوا الأصيرم في الرمق الأخير فقال له قومه: ما الذى جاء بك؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة... أَحَدَبْتُ على قومك، يعنى عصبية، أم رغبة في الإسلام؟ قال: بل رغبة في الإسلام، وأقروا الرسول ﷺ منى السلام، وأخبروه أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم مات... فأخبروا بذلك النبى ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة»^(١) ... فهذا الرجل أمضى عمره كله في الكفر، ضد الإسلام وضد المسلمين، وكان خاتمته هذه الخاتمة.

عمل بعمل أهل النار، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع، فسبق عليه الكتاب، فعمل بعمل أهل الجنة، فكان من أهل الجنة^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وهنا يذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بعض الأحاديث التى تتحدث عن أهوال يوم القيامة ونار جهنم -أعاذنا الله وإياكم منها-.
وفى الحقيقة أنه يجب علينا أن نخشى على أنفسنا من أهوال يوم القيامة ومن عذاب النار .

(١) حسن: رواه أحمد في مسنده (٤٢٨/٥) من حديث ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، وقال الشيخ

شعيب الأرنؤوط في أحمد (٢٣٦٨٤): إسناده حسن.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١٥١/٢-١٥٣) بتصرف.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

❁ تالله لو عرف المؤمن ما في النار من عذابٍ ونكالٍ لم يهنأ بعيشٍ ولم يغفل عن طاعة الله لحظة واحدة ولم يتجرأ على معصيته حتى يلقاه.

❁ قال يوسف بن عطية عن المعلی بن زياد: كان هرم بن حيان يخرج في بعض الليالي وينادى بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها، وعجبت من النار كيف نام هاربها، ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

❁ وقال أبو الجوزاء: لو وُلِّيت من أمر الناس شيئاً اتخذت مناراً على الطريق وأقمت عليها رجالاً ينادون في الناس: النار النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبْرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

[المائدة: ٣٥-٣٧].

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ قال: «والله ما أنذر العباد بشيء قط أدهى منها».

❁ وقال إبراهيم التيمي: ينبغي لمن لم يحزن أن يخاف أن يكون من أهل النار. لأن أهل الجنة قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

وينبغي لمن لم يشفق أن يخاف أن لا يكون من أهل الجنة لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

❁ كان من دعاء النبي ﷺ:

«اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَرَبَّ إِسْرَافِيلَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ حَرِّ النَّارِ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»^(١).

(١) حسن: رواه النسائي عن عائشة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠٥).

وكان ﷺ يقول: «إِذَا فَرَعَ أَحَدُكُمْ مِنَ الشَّهَدِ الْأَخِيرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١).

فهذه خمس مرات يومياً على الأقل يذكر فيها المسلم جهنم ويتعوذ منها^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠٢) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤْنَهَا»^(٣).

❀ وياله من مشهد عجيب .. حينما يقف الناس في أرض المحشر حفاة عراة غرلاً غير مختونين... بلا طعام ولا شراب ولا ظل.. وفجأة يسمعون صوتاً يكاد يمزق القلوب.. ما هذا الصوت؟ لقد جرىء بجهنم من بعيد وهي تزفر زفرة تلقى الرعب في قلوب أهل المحشر.

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: قبل وصولهم، ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ تعلق منهم الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم، يموت خوفاً منها، ودُعراً... قد غضبت عليهم، لغضب خالقها... وقد زاد لهبها، لزيادة كفرهم وشرهم^(٤).

❀ يُؤْتَى بجهنم في تلك اللحظة لها سبعون ألف زمام.. والزمام الواحد قد بلغ من ضخامته أنه يجزئه سبعون ألف ملك... ولك أن تتصور ملكاً واحداً (جبريل عليه السلام) الذي قلب قري قوم لوط واقتلعها من الأرض بجناح واحد مع

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) بتصرف من كتاب (وصف الجنة والنار) د. محمود المصري.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٢) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٤) تفسير السعدي (ص ٦٧٥).

أنه له ستمائة جناح.. ثم رفع تلك القرى إلى السماء الدنيا ثم قلبها وتركها تقع على الأرض.. فتصور مدى عظمة جهنم التي لها سبعون ألف زمام.. الزمام الواحد يجره سبعون ألف ملك.. حتى أنها تكاد أن تتفلت منهم من شدة غيظها وحنقها على كل من كفر بالله وغضباً على كل من بارز الله بالذنوب والمعاصي... فإذا رآها أهل المحشر فلا يبقى ملكٌ مُقَرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ إلا جثى على ركبتيه وقال: يا رب سلِّم سلِّم.

قال الحق ﷻ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۚ وَجِئَاءَ يَوْمٍ يُبْعَثُ فِيهِمْ يَوْمٍ يُبْعَثُ يَوْمٍ يُبْعَثُ يَوْمٍ يُبْعَثُ ۚ﴾ [الفجر: ٢١-٢٤].

تأمل معي هذه الحسرة الشديدة لكل من فرط في حق الله ﷻ أو رأى جهنم فإنه يصرخ ويقول: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾... كلمة يقولها كل من فرط في الصلاة وكل من عق والديه وكل من ظلم العباد وكل من حارب الله (جلَّ وعلا).... وتقولها كل من تركت حجابها وخرجت سافرة متبرجة ناسية قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ ادْفِئْنَ أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وناسية قول رسول الله ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سَبَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَّاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» (١).

أما آن الأوان يا أختاه أن تلبسى حجابك ليكون حجاباً لك من النار.... أما آن الأوان لتلبسى لباس الستر والعفاف وتنقادي لأمر الله وأمر رسول الله ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٢٨) كتاب اللباس والزينة.

حتى لا تكونى من أهل النار الذين أخبر عنهم النبى ﷺ فى الحديث السابق....إنها كلمة فى أذن كل فتاة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر... - يا أختاه - أنقذى نفسك من النار قبل أن تصرخى وتقولى: «يا ليتنى قدمت لحياتى».

فها هى الفرصة أمامك فتوبى إلى الله وأسرعى الخطا ولسان حالك ومقالك: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]، واسجدى بين يدى الله ﷻ واطلبى منه المغفرة والرحمة... فهو القائل ﷻ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٩] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩-٥٠].

ويا من تظلم وتتجبر لا تنس هذا المشهد المهيّب عند مجىء جهنم فُتب إلى الله وتحلل من المظالم. قبل أن تصرخ وتقول: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] فتندم حيث لا ينفع الندم ولا تدفع النقم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠٣) وَعَنْ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوَضَّعُ فِي أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلَى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»^(٢).

❁ وهنا يبين النبى ﷺ أن أهون أهل النار عذابًا، من يوضع فى قدميه جمرتان من نار يغلى منهما دماغه. وهو يرى أنه أشد الناس عذابًا، وإنه لأهونهم... لأنه لو رأى غيره؛ لهان عليه الأمر، وتسلّى به، ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابًا والعياذ بالله، فحينئذ يتضجر ويزداد بلاءً وتعبًا نفسيًا والعياذ بالله... ولذلك ذكر النبى ﷺ هذا الحديث تحذيرًا لأمته من عذاب النار.... لأنه إذا كان هذا أهونهم عذابًا فما ظنك بأشدّهم عذابًا؟!.

(١) نقلًا عن كتاب «رحلة إلى الدار الآخرة» د. محمود المصرى (ص ٥٤٨-٥٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٦١)، (٦٥٦٢) كتاب الرقاق، ومسلم (٢١٣) كتاب الإيمان.

(٤٠٤) وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى تَرْقُوتِهِ»^(١).

✽ يتفاوت أهل الكفر في كفرهم .. فمنهم الكافر المحارب ... ومنهم الذى يَصُدُّ الناس عن سبيل الله .. ومنهم الكافر المسالم الذى لا يُحارب أحداً ولا يصد عن سبيل الله.

✽ وكذلك يتفاوت عصاة الموحدين في معاصيهم.

ولذلك تتفاوت درجة العذاب على عصاة الموحدين وكذلك على الكافرين بحسب تفاوت أعمالهم.

قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأَوْلَنَّهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَحُوا فَكَاتِبَتُهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: ٦١].

✽ واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التى دخلوا بها النار... وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن من أهل النار من تصل النار إلى كعبيه .. ومنهم من هو أشد جُرماً من الأول فيزداد عليه العذاب حتى أن النار تصل إلى رُكْبَتَيْهِ .. ومنهم من هو أشد جُرماً من هذين الاثنين قبله حتى أن النار تصل إلى قُرب سُرته.... وأعظمهم جُرماً من تصل النار إلى نحره... فيا ليتنا نتوب حتى ننجو من عذاب النار.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

«الْحُجْرَةُ»: مَعْقِدُ الْإِزَارِ تَحْتَ الشَّرَةِ - وَ «التَّرْقُوتُ» هِيَ الْعِظْمُ الَّذِي عِنْدَ ثَغْرِ النَّحْرِ، وَالْإِنْسَانُ تَرْقُوتَانِ فِي جَانِبِي النَّحْرِ.

(٤٠٥) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» ^(١).

✽ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٦) أي: يوم يقفون في أرض المحشر يوم القيامة خُفَاءَ عُرَاةٍ خَاشِعِينَ لِلَّهِ خَاضِعِينَ لَهُ (سبحانه وتعالى).

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ» وَفِي رِوَايَةٍ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ».

قَالَ الْقَاضِي: وَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ عَرَقُ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ... وَيَحْتَمِلُ عَرَقُ نَفْسِهِ خَاصَّةً وَسَبَبُ كَثْرَةِ الْعَرَقِ تَرَاكُمُ الْأَهْوَالِ وَدُنُو الشَّمْسِ مِنْ رُؤُسِهِمْ وَرَحْمَةُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ^(٢).. فَهَذَا الْعَرَقُ هُوَ عَرَقُ الذُّنُوبِ.. فَعَلَى قَدَرِ الذُّنُوبِ يَرْتَفِعُ الْعَرَقُ.. حَتَّى يَغْمُرَ الْعَرَقُ الْإِنْسَانَ وَيَصِلُ إِلَى شَفْتَيْهِ الْعُلْيَا فَيُلْجِمُهُ إِلْجَامًا... فَمَنْ تَابَ مِنْ ذُنُوبِهِ وَعَادَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَنْ تَصِلَ إِلَيْهِ قَطْرَةٌ عَرَقٍ لِأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي ظِلِّ عَرْشِ الرَّحْمَنِ (جل وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠٦) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ: «لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ، وَلَهُمْ خَنِينٌ ^(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ: بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ فَخَطَبَ، فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٣٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٦٢) كتاب الجنة. و«الرَّشْحُ» العرق.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢٨٤/١٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٢١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل. «الْخَنِينُ»: هُوَ الْبُكَاءُ مَعَ غَنَّةٍ وَانْتِشَاقِ الصَّوْتِ مِنَ الْأَنْفِ.

وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فَمَا أَتَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أَشَدُّ مِنْهُ.. غَطُّوا رُءُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ.

❁ في هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ بلغه شيء عن أصحابه فخطب رضي الله عنه خطبة ما سمع الصحابة مثلها أبدا... فقال رضي الله عنه: «عُرِضَتْ عَلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ» وقد رأى النبي ﷺ الجنة والنار أكثر من مرة... ثم قال رضي الله عنه: «فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» فِيهِ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ... وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: لَمْ أَرَ خَيْرًا أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ فِي الْجَنَّةِ وَلَا شَرًّا أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ فِي النَّارِ... وَلَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ وَعِلِمْتُمْ مَا عِلِمْتُ مِمَّا رَأَيْتُهُ الْيَوْمَ وَقَبْلَ الْيَوْمِ لَأَشْفَقْتُمْ إِشْفَاقًا بَلِيغًا وَلَقَلَّ ضَحِكُكُمْ وَكَثُرَ بَكَائُكُمْ^(١).
فقد رأى النبي ﷺ ما لم يره أحدٌ قبله، وما لن يراه أحدٌ بعده.

وهي ليست رؤيا بشر كأي بشر... بل رؤيا المعصوم الذي لم تتلَطَّخْ بصيرته بمعصية قط... حاشاه، ولم تمسَّ فطرته غفلة أو خاطر غفلة... وما أجله وأسماه... لذا كانت أصدق حقيقة دون أدنى زيادة أو نقصان.

وفي رواية أن النبي ﷺ قال:

« وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ، تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ »^(٢).

وفي رواية: أن الصحابة بكوا على إثر ذلك بكاءً شديداً، ثم انصرف عنهم رسول الله ﷺ فأوحى الله ﷻ إليه: «يَا مُحَمَّدُ، لِمَ تُقْنِطُ عِبَادِي؟»، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أُبَشِّرُوا، وَسَدُّوا، وَقَارِبُوا»^(٣).

(١) مسلم بشرح النووي (١٥/١٦٣).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

(٣) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٩٤).

لقد رأى النبي ﷺ كل ما غاب عنا ... رأى النعيم الرائع وبجواره الشر المُنزع في لحظة تاريخية نادرة لن تتكرر ليخرج بعدها إلى أصحابه مُحذراً ومُنذراً حتى انفطرت قلوبهم لما رأوا عليه رسولهم من الخوف والوجل.
وكانها رسالة من النبي ﷺ لأصحابه وأمته: لا تعودوا لما بلغنى عنكم وتوبوا إلى الله عز وجل.. واتقوا النار ولو بشق تمرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠٧) وَعَنْ الْمُقَدَّادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمُقَدَّارِ مِيلٍ» قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ الرَّاوى عَنْ الْمُقَدَّادِ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِى مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ، أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ، قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا»^(١) وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

(٤٠٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرْقُهُمْ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ»^(٢).

❁ ولك أن تتخيل معى عندما يقف الناس في أرض المحشر وقد اقتربت الشمس من رؤوسهم حتى أصبحت كمقدار ميل فيفيض العرق على أجسادهم حتى يملأ الأرض ثم يتصاعد على أجسادهم بحسب ذنوبهم.. فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه ومنهم من يصل إلى ركبتيه ومنهم من يصل إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إجمًا لأنه قد وصل إلى الشفة العليا.. فلو فتح فمه ليتأوه

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٢) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٦٣) كتاب الجنة.

ومعنى «يَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ»: يَنْزِلُ وَيَغُوصُ.

لدخل العرق إلى فمه.

ولكنه يغلق فمه دائماً ويُحرم حتى من أن يتأوه من شدة العذاب الذي هو فيه.. ولذا قال ﷺ: « وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَامَاً ».

﴿٤٠٩﴾

(٤٠٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ حَتَّى انْتَهَى الْآنَ إِلَى قَعْرِهَا، فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا»^(١).

❁ في هذا الحديث يحكى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا جالسين مع رسول الله ﷺ يعلمهم وَيُريهم.. وفجأة سمعوا صوت سقطة شديدة ففزعوا وقالوا للنبي ﷺ: ما هذا؟ وإذا بالحبيب المصطفى ﷺ المؤيد بالوحي من السماء يقول لهم: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ حَتَّى انْتَهَى الْآنَ إِلَى قَعْرِهَا، فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا».

وحتى نخشى على أنفسنا من النار ومن التقلب في دركات النار حذرنا النبي ﷺ من أجل أن نتقى النار وأن نتنبه لأقوالنا وأفعالنا وأن نراقب الله في سكناتنا وحركاتنا... فقال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(٢).

❁ وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامها حديد.

﴿٤١٠﴾

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٤٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) صحيح: رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦١٨) - وأصله فى الصحيحين.

(٤١٠) وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تُلْقَاءَ وَجْهَهُ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١).

❁ إنه مشهدٌ عظيم لا يستطيع إنسان أن يعلم مدى رهبته... فإن الإنسان إذا ما وقف أمام ملك من ملوك الدنيا فإنه يرتجف فؤاده خوفاً وفزعاً أن يصدر منه ما يُغضب صاحب السلطان فما ظنكم بالوقوف بين يدي الواحد الديان ﷻ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ❁ [الشورى: ١١].

فبينما أنت في أرض المحشر إذ يأتيك النداء: أين فلان بن فلان. فيُلقي الله في روعك أنك أنت المقصود من بين الخلائق... فتقبل على عرش الواحد الديان... ويا له من موقفٍ عصيب.

فأعظم به من موقف وأعظم به من سائل سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ❁ [الحاقة: ١٨].

يُقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: «أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيءٍ أكنت مُفتدياً به؟ فيقول: نعم؟ فيقول الله: كذبت قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك»^(٢).

فهذا موقف عصيب لكل من أشرك بالله عَزَّ وَجَلَّ....، أما المؤمن فله موقف يسيرٌ أمام الله (جل وعلا)، ولكن والله لو أننا سنقف أمام الله عَزَّ وَجَلَّ لمناقشة الحساب فقط وقد علمنا أننا من أهل الجنة لكان الموقف عصبياً فكيف بنا ونحن لا نعلم مصيرنا إلى جنةٍ أم إلى نار.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٩) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٤) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٨٠٥) كتاب صفة القيامة.

قال ﷺ: «من حوسب يوم القيامة عُذْب، قالت عائشة: أو ليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (٨) قال: ليس ذلك بالحساب، إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك».

وفي رواية في الصحيحين أنه ﷺ قال: «من نوقش الحساب عُذْب» (١).

وفي رواية الطبراني: «من نوقش المحاسبة هلك» (٢).

✽ فلينظر كل واحد منّا إلى ما قدّم وليستعد للقاء الله ﷻ بكثرة العمل الصالح والبعد عن المعاصي وإخلاص التوحيد لله وإحسان الظن بالله جل وعلا وليتق النار ولو بشق تمره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١١) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَاللَّهُ لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» (٣).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أصحابه أن الله ﷻ قد أطلعه على بعض الغيبات... ولذا قال لهم: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ». ونحن نعلم أنه لا يعلم الغيب على إطلاقه إلا الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣١) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٣) كتاب العلم - ومسلم (٢٨٧٦) كتاب الجنة.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الكبير وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٧٩).

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

و«أَطَّتْ» بفتح الهمزة وتشديد الطاء، و«تَنْطَ» بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة، والأطيط: صوت الرّحل والْقَتَبِ وشبههما، ومعناه: أَنَّ كَثْرَةَ مَنْ فِي السَّمَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْعَابِدِينَ قَدْ أَثْقَلَتْهَا حَتَّى أَطَّتْ - وَالصُّعْدَاتِ: الطَّرْقَاتُ - ومعنى «تَجَارُونَ»: تَسْتَغِيثُونَ.

رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِمَّنْ خَلْفَهُ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّعَلَّامٌ أَن قَدْ أَتَلَعُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴿الجن: ٢٦-٢٨﴾.

ثم ذكر لهم النبي ﷺ بعض ما رآه وبعض ما سمعه فقال ﷺ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَيْطَّ» أى: أن السماء أنت وعانت ويحق لها ذلك فإن كثرة من في السماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطت.. ولذا قال ﷺ بعدها: «مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتُهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى» قال القارىء: أَيْ مُنْقَادًا لِيَسْمَلَ مَا قِيلَ إِنَّ بَعْضَهُمْ قِيَامٌ وَبَعْضُهُمْ رُكُوعٌ وَبَعْضُهُمْ سُجُودٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ.. أَوْ خَصَّهُ بِاعْتِبَارِ الْغَالِبِ مِنْهُمْ أَوْ هَذَا مُخْتَصَّ بِإِحْدَى السَّمَاوَاتِ^(١).

ثم قال ﷺ: «وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى».

وقد تكررت تلك الكلمات عندما عُرضت الجنة والنار على النبي ﷺ.

«وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ» فالنبي ﷺ هو أعلم الناس بالله ﷻ وبما عند الله من النعيم والعذاب..

قوله ﷺ: «لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» لو علمنا ما علمه النبي ﷺ لكان بكاءؤها أكثر من ضحكنا ولعلمنا أن الأمر خطير وأنه كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧، ٦٨] فيجب علينا أن نستعد لهذا اليوم الذي سنقف فيه بين يدي الله ﷻ ليسألنا عن كل صغيرة وكبيرة.

قوله ﷺ: «وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ» أى: لو علمتم ما هو أمامكم ما خطر على بال أحدكم أن يتلذذ بامرأته على فراشها في الحلال... فما ظنكم بمن يفعل ذلك في الحرام ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ [المطففين: ٤-٦].

«وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» أَيْ: لَخَرَجْتُمْ إِلَى الطَّرَاقَاتِ وَالْبَرَارَى وَالصَّحَارَى تَتَضَرَّعُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْإِدْعَاءِ لِيَرْفَعَ عَنْكُمْ الْبَلَاءَ وَلِيُنْجِيَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

❁ وَهَذَا يُذَكِّرُنِي بِقَوْمِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ سَيَحِلُّ بِهِمْ تَابُوا وَعَادُوا إِلَى اللَّهِ فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنْتُ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَاءَ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ﴿٩٨﴾ [يونس: ٩٨].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١٢) وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ نَضْلَةَ بْنِ عُبَيْدٍ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»^(١).

❁ فَالِنَبِيِّ ﷺ يَخْبِرُ هُنَا أَنَّ الْعَبْدَ سَيُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ.. هَلْ فِي الطَّاعَةِ أَمْ الْمَعْصِيَةِ... وَيُسْأَلُ عَنْ مَرَجَلَةِ الشَّبَابِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ لِأَنَّهَا مَرَجَلَةُ الْقُوَّةِ وَالشَّهْوَةِ... فَهَلْ اسْتَعْمَلَهَا فِي طَاعَةِ أَمْ فِي مَعْصِيَةِ عَزَّ وَجَلَّ.. وَأَنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ مَالِهِ هَلْ اكْتَسَبَهُ مِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ.. وَهَلْ أَنْفَقَهُ فِي الْحَلَالِ أَمْ الْحَرَامِ.. وَيُسْأَلُ عَنْ عِلْمِهِ هَلْ أَرَادَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ أَمْ السَّمْعَةَ وَالشَّهْرَةَ.. وَلِذَا فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُجَدِّدَ نِيَّتَهُ دَائِمًا وَأَنْ يَتَتَبَعَ بِعَمَلِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَلَا يَحْرُسُ أَبَدًا عَلَى الشَّهْرَةِ أَوْ عَلَى ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِ لِأَنَّ هَذَا قَدْ يُحْبِطُ عَمَلَهُ كُلَّهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٧٣٠٠).

(٤١٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا»^(١).

✽ للأمانة العلمية.. فالحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهُ الْعَبْدُ

(٤١٤) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدِ اتَّقَمَ الْقُرْنُ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفَخُ» فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»^(٢).

✽ هذا الكون العجيب الغريب الذي نعيش فيه، يعجُّ بالحياة والأحياء الذين نشاهدهم والذين لا نشاهدهم... وهم فيه في حركة دائبة لا تهدأ ولا تتوقف... وسيبقى حاله كذلك إلى أن يأتي اليوم الذي يهلك الله فيه جميع الأحياء إلا مَنْ يشاء، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصص: ٨٨].

وعندما يأتي ذلك اليوم يُنفخ في الصور، فتُنْهَى هذه النفخة الحياة في الأرض والسماء ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وهي نفخة هائلة مدمرة، يسمعها المرء فلا يستطيع أن يوصي بشيء، ولا يقدر على العودة إلى أهله وِجَلَانِهِ ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٥٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢).

«الْقُرْنُ»: هُوَ الصُّورُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [ق: ٢٠]، كَذَا فَسَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

يَخْصِمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ [يس: ٤٩-٥٠] (١).

أما عن الصور فلقد سُئِلَ عنه الحبيب ﷺ فقال: «الصور قرنٌ يُنفخ فيه» (٢).

❁ وأما صاحبه الذى ينفخ فيه فهو «إسرافيل» ﷺ وهو مَلَكٌ كريم من ملائكة الرحمن (جل وعلا).

والنفخ فى الصور نفخٌ حقيقى تسمعه الخلائق فيغشاها من الفزع والصَّعق أمرٌ عظيم.

وقد دلَّ القرآن والسُّنة على النفخ فى الصور:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]. ولما كان الهول والخوف والفزع عند النفخ فى الصور شديداً.. كان من كمال رحمة الله (جلَّ وعلا) أنه يأمر بقبض أرواح المؤمنين بكل رفقٍ ولينٍ قبل النفخ فى الصور حتى لا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الخلق.. فهم الذين يحضرون النَّفخ فى الصور.. وعليهم تقوم الساعة.

ولقد أخبرنا النبى ﷺ أن إسرافيل - صاحب الصور - فى حالة استعداد دائمة ينتظر الأمر من الملك (جل وعلا) بالنفخ فى الصور. ولذلك فهو ينظر إلى العرش ولا تطرف عينه لحظة واحدة خشية أن يأتیه الأمر فجأة.

قال رسول الله: «إِنَّ طَرْفَ صَاحِبِ الصُّورِ مُنْذُ وَكَّلَ بِهِ، مُسْتَعِدٌّ يَنْظُرُ نَحْوَ الْعَرْشِ، مَخَافَةً أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ كَوْكَبَانِ دُرِّيَّانِ» (٣) (٤).

(١) القيامة الكبرى / د. عمر الأشقر (ص ٢٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٦٣).

(٣) صحيح: رواه الحاكم وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٧٨).

(٤) بتصرف من كتاب (رحلة إلى الدار الآخرة) / د. محمود المصرى.

وهنا يأمر الله إسرائيل أن ينفخ في الصور نفخة طويلة تبدأ بالفرع ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَخِيرٍ﴾

[النمل: ٨٧].

وتنتهى تلك النفخة بالصعق.. ثم بعد ذلك بفترة لا يعلمها إلا الله ينفخ إسرائيل نفخة البعث ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنْظَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].
أما عن المدة التي تكون بين نفخة الصعق ونفخة البعث فلقد أخبر عنها الحبيب ﷺ.

﴿عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْتٌ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْتٌ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْتٌ»^(١).

﴿قال القرطبي: وقول أبي هريرة: أبيت: فيه تأويلان.

الأول: أبيت: أى: امتنعت من بيان ذلك، وتفسيره، وعلى هذا كان عنده علم من ذلك ... أى: سمعه من النبي ﷺ.

الثانى: أبيت أى: أبيت أن أسأل عن ذلك النبي ﷺ ... وعلى هذا لم يكن عنده علم من ذلك. والأول أظهر وإنما لم يُبينه؛ لأنه لم تظهر لذلك حاجة، لأنه ليس من البينات والهدى الذى أمر بتبليغه^(٢).

وبعد نفخة الصعق تموت الخلائق كلها.. يموت كل حى ويبقى الحى الذى لا يموت (جل وعلا) فيصبح الكون كله فى سكون رهيب موحش فيطوى الله السماوات ويمينه ويطوى الأرض بشماله ويقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨١٤) كتاب التفسير، ومسلم (٢٩٥٥) كتاب الفتن.

(٢) التذكرة (١/ ٣٢٠) بتصرف.

المتكبرون؟.

قال ﷺ: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُھُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيَّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيَّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ، ثُمَّ يَأْخُذُھُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيَّنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيَّنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(١).

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٣٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۗ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥-١٦].

فلا أحد يسأل ولا أحد يجيب إلا الله (عَزَّوَجَلَّ).

ثم يحيي الله إسرافيل مرة أخرى ويأمره بأن ينفخ في الصور نفخة البعث لتقوم الخلائق كلها من القبور إلى أرض المحشر للفصل والحساب بين يدي الكريم التواب (جل وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(٢).

و«أَدْلَجَ» معناه: سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَالْمُرَادُ: التَّشْمِيرُ فِي الطَّاعَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ﴾ أَدْلَجَ يَعْنِي مَشَى فِي الدَّلْجَةِ، وَهِيَ أَوَّلُ اللَّيْلِ «وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ»؛ لِأَنَّهُ إِذَا سَارَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى اهْتِمَامِهِ فِي الْمَسِيرِ، وَأَنَّهُ جَادٌّ فِيهِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ بَلَغَ الْمَنْزَلَ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٨) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) صحيح: رواه الترمذی وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٦٢٢٢).

﴿أَلَا وَإِنْ سِلْعَةُ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا وَإِنْ سِلْعَةُ اللَّهِ الْجَنَّةُ﴾. السلعة: يعنى التى يعرضها الإنسان للبيع، والجنة قد عرضها الله ﷻ لعباده ليشتروها.
قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فمن خاف: يعنى من كان فى قلبه خوفٌ لله، عمل العمل الصالح الذى يُنجيه مما يخاف.

قَالَ الطَّبِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِسَالِكِ الْآخِرَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى طَرِيقِهِ وَالنَّفْسَ وَأَمَانِيَهُ الْكَاذِبَةَ أَعْوَانُهُ... فَإِنَّ تَقَطُّ فِي مَسِيرِهِ وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ فِي عَمَلِهِ أَمِنْ مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ وَمِنْ قَطْعِ الطَّرِيقِ بِأَعْوَانِهِ.
ثُمَّ أَرَشَدَ إِلَى أَنَّ سُلُوكَ طَرِيقِ الْآخِرَةِ صَعْبٌ وَتَحْصِيلَ الْآخِرَةِ مُتَعَسِّرٌ لَا يَحْصُلُ بِأَدْنَى سَعْيٍ فَقَالَ (أَلَا) بِالتَّخْفِيفِ لِلتَّنْبِيهِ (إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ) أَى مِنْ مَتَاعِهِ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ (غَالِيَةٌ) أَى رَفِيعَةُ الْقَدْرِ (أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ) يَعْنِي ثَمَنُهَا الْأَعْمَالُ الْبَاقِيَةُ الْمُسَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وَبِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١٦) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً غُرَاةً غُرْلًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهْمَّهُمْ ذَلِكَ» (٢).

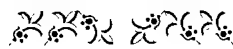
(١) تحفة الأحوذى (٦/٣٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٥٩) كتاب الجنة.
«غُرْلًا» أَى: غَيْرَ مَخْتُونِينَ.

وفي رواية: «الامرُ اَهمُّ من أن ينظرَ بعضهم إلى بعضٍ».

✽ «يُحشَرُ الناسُ» يعنى يُجمعون يوم القيامة «حُفَاةً» ليس لهم نعال «عِراةً» ليس عليهم ثياب «عُرْلًا» غير مختونين. فالناس يخرجون من قبورهم كيوم ولدتهم أمهاتهم يعنى فى كمال الخلقة... كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، الرجال والنساء، يعنى عِراة ينظر بعضهم إلى بعض؟!.. قال: «الامرُ اَهمُّ أو أشدَّ من أن يُهمهم ذلك، أو من أن ينظر بعضهم إلى بعض»، أى أن الامر عظيم جدًّا، لا ينظر أحدٌ إلى أحدٍ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

فمن يستطيع فى ذلك الموقف المهيِّب أن ينظر إلى أحدٍ وهو فى تلك اللحظة ينتظر مصيره ومثواه الأخير.. هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار.. إن الإنسان لا تحمله أقدامه إذا علم أن نتيجة الامتحان غدًّا سواء كان فى مدرسة أو كلية.. فما ظنك بمن ينتظر نتيجة أعماله فى الدنيا.. وهل هو من أهل السعادة الذين سيدخلون الجنة.. أم هو من أهل الشقاء الذين سيدخلون النار.



(٥١) باب الرجاء

❁ لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ باب الخوف أتبعه بعد ذلك بباب الرجاء.. وكأنه يقول لك: إذا رأيت الخوف قد غلب عليك فافتح باب الرجاء.

ثم ذكر بعض الآيات والأحاديث.. منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

يخبر تعالى عباده المُسرفين «أى: المُكثرين من الذنوب» بسعة كرمه ويحثُّهم على الإنابة، قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول وَمَنْ قام مقامه، من الدعاة لدين الله، مخبراً للعباد عن ربهم: ﴿يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعى في مساخط علام الغيوب.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾؛ أى: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يُزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك، مُصرين على العصيان، مُتزودين بما يُغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم، بأسمائه الدالة على كرمه وجوده.

واعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ أى: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان، ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما، سارية في الوجود، مائة للموجود، تسحُّ يده من الخيرات، آناء الليل والنهار، ويوالى النعم والفواضل على العباد في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته. ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب، إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة.

أعظمها وأجلها- بل لا سبب لها غيره- الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء، والتضرع، والتأله، والتعبد... فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها- أي: الإنابة والتوبة- فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ بجوارحكم^(١).

بِقُلُوبِكُمْ وَبِجَوَارِحِكُمْ

(٤١٧) وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ».

✽ هذا الحديث العظيم يدل على فضل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشهادة أن محمداً عبده ورسوله... فمن نطق بهذه الشهادة عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها فإن جزاءه عند الله الجنة.

قال الإمام النووي رحمته الله في شرحه على صحيح مسلم: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. اهـ.

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله: الاعتراف قولاً وعملاً واعتقاداً أنه لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له.... كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

(١) تفسير السعدي (ص ٨٥٩) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٣٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨) كتاب الإيمان.

رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْٓ اِلَيْهِ اِنَّهٗ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُوْنِ ﴿ [الأنبياء: ٢٥]. فدلَّت هذه الآية الكريمة على أن المرسلين من أولهم إلى آخرهم إنما يدعون إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا هو التوحيد.

فالتوحيد: هو إخلاص العبادة لله وحده دون مَنْ سواه، فلا يُعبد مع الله أحد، سواء كان المعبود مع الله شجرًا أو حجرًا أو شمسًا أو قمرًا أو وليًا أو ملكًا أو نبياً... ولهذا لما قال ﷺ لقريش: «قولوا لا إله إلا الله» قالوا: ﴿ اَجْعَلِ الْاِلٰهَةَ الْهٰٓا وَحِدًا اِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ ﴾ [ص: ٥]... تعجبوا من هذه الدعوة؛ لأنها على خلاف ما هم عليه، وما وجدوا آباءهم عليه.

فهذا معنى لا إله إلا الله، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الإله هو الذى تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإنابة، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذُلًّا، وخُضوعًا، وخوفًا، ورجاء، وتوكلًا.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله فى كتابه تيسير العزيز الحميد: لا إله إلا الله اشتملت على نفى وإثبات، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلًا عن غيرهم فليس بإله، ولا له من العبادة شىء... وأثبتت الإلهية لله وحده. بمعنى: أن العبد لا يأله غيره.

أى: لا يقصده بشىء من التأله، وهو تعلق القلب الذى يُوجب قصده بشىء من أنواع العبادة، كالدعاء، والنذر، والذبح، وغير ذلك.

وبالجملة فلا إله إلا الله، أى لا يُعبد إلا هو سبحانه... فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها من نفى الشرك، وإثبات الوحدانية لله، مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك، والعمل به، فهذا هو المسلم حقًا... ومَنْ عمل بها ظاهرًا من غير اعتقادٍ فهو المنافق... ومَنْ عمل بخلافها من الشرك فهو

الكافر، ولو قالها».

❁ أما عن شهادة أن محمدًا عبده ورسوله، فهي قرينة شهادة أن لا إله إلا الله... فَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَمْ يَشْهَدْ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ تَنْفَعِهِ... فإنهما متلازمان، وَمَنْ تَرَكَ شَهَادَةَ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، وَيَكُونُ أَيْضًا مُكَذِّبًا لِلَّهِ... لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فإذا شهد العبد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فقد دخل في الإسلام، وصار مسلمًا بذلك، وبقي عليه الالتزام، والقيام بفرائض الدين التي لا يتم إسلامه إلا بها، وامثل أمر الرسول ﷺ فيما يأمر به، سواء كان ذلك مما جاء في القرآن الكريم، أو مما جاءت به سُنَّتُهُ ﷺ؛ ليحقق معنى شهادة أن محمدًا رسول الله.

فإن معناها يتضمن تصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، والانتهاز عما نهى عنه وزجر، وأن لا يتعبد بشيء إلا ما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ... فلا يكون كامل الشهادة مَنْ ترك أمره، وأطاع غيره، وارتكب نهي.

❁ أما عن معنى: شهادة أن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه... وفي بعض روايات الحديث: وابن أُمته، وذلك خلافاً لما يعتقده النصارى أنه الله، أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً -.

قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢]... فهذا من الغلو المحرم المذموم... فإن النصارى غلّوا في عيسى ﷺ إلى هذا الحد، فجعلوه إلهًا مع الله.



والله ﷻ يقول عن عيسى نفسه أنه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فهو عبدٌ من عبيد الله، شرفه الله بالرسالة، فيجب على كل أحد أن يشهد أن عيسى عبد الله، أى: عابد مملوكٌ لله، لا مالك، فليس له من الربوبية شىء، ولا من الإلهية شىء.

❁ وقوله ﷺ: «وكلمته ألقاها إلى مريم» قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه ﷻ، فكان عيسى بإذن الله، وصارت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها.

وقوله: «وروحٌ منه»، قال أبى بن كعب رضى الله عنه: عيسى روح من الأرواح التى خلقها الله، واستنطقها بقوله: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى.

وقال الإمام أحمد رحمه الله فى قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: أى: من أمره كان الروح فيه.. كقوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]

❁ وقوله ﷻ: «والجنة حق، والنار حق»، أى أن من شهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وشهد أن الجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل... فمن شهد بأن الجنة التى خلقها الله، وأخبر بها سبحانه فى كتابه العزيز أنه أعدّها لمن آمن به ورسوله... وأخبر عنها رسوله ﷺ... فمن شهد بأنها حقيقة حق ثابتة، لا شك فيها، وشهد أيضاً بأن النار التى أخبر الله عنها فى كتابه، وأخبر بها رسوله ﷺ حقيقة وحقٌ ثابت، لا شك فيها، وأن الله أعدّها للعاصين الكافرين بالله ورسوله، فقد حقق الإيمان بالجنة والنار.

وكيف لا يشهد المؤمن بأن الجنة حق، والله ﷻ يقول: ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وكيف لا يشهد بوجود النار... والله ﷻ يقول: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى

وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة: ٢٤].

وفي هاتين الآيتين دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً لأهل البدع الذين يقولون: لا يُخلَقان إلا يوم القيامة.

❖ وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، أى: مَنْ شَهِدَ بِأَن هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمَذْكُورَةُ أَوَّلُ الْحَدِيثِ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ؛ لِتَصْدِيقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ، وَأَخْبَرَ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ... وَجَزَاءُ مَنْ صَدَّقَ اللَّهَ، وَمَنْ صَدَّقَ رَسُولَهُ ﷺ الْجَنَّةَ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥].

وهذا الحديث يشهد له أيضاً حديث عتب بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ النَّارَ عَلَى مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ... وَأَصْدَقُ مَا تَكُونُ هَذِهِ الشَّهَادَةُ وَأَنْفَعُهَا عِنْدَ الْإِنْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْآخِرَةِ لِمَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا... كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤١٨) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ، فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ. وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرَوْلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيْتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»^(٢).

(١) بتصرف من كتاب من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد عبد الله السبيل حفظه الله.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٧) كتاب الذكر والدعاء.

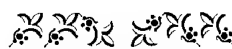
✽ معنى الحديث أن العبد إذا عمل حسنة فإن الله ﷻ يُضاعفها إلى عشر أمثالها بل يزيد على ذلك بفضلله وكرمه وجوده... وأما إن عمل سيئة فإن الله ﷻ يأمر ملك السيئات أن يرفع القلم عنه لمدة ست ساعات فإن تاب لم تكتب عليه سيئة وإن لم يتب كتبت سيئة واحدة.. ثم هو في مشيئة الله.. إن شاء غفر له وإن شاء عاقبه عليها.. ورحمته سبقت غضبه ورحمته غلبت غضبه..

✽ ثم قال الله تعالى: «وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرُولَةً، وَمَنْ لَقِيَني بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً».

فلقد ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول ﷻ... فهو أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله ﷻ، لكننا لا ندري كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرب... فهو أمر ترجع كيفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونفوض كيفيته إلى الله ﷻ^(١).

«وَمَنْ لَقِيَني بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً» قراب الأرض خطيئة: أي ما يُقارب ملأها من الخطايا... وهنا يخبر الحق (جل وعلا) أن من لقيه بذنوب تملأ الأرض كلها ولكنه على التوحيد والإيمان فإن الله ﷻ يلقاه بمثلها مغفرة لتلك الذنوب..... وليس هذا حصًا على المعصية ولكنه حصّ على الثبات على الإيمان والتوحيد والبعد عن الشرك بأنواعه كلها.



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٧٥).

(٤١٩) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْمُوجِبَتَانِ ؟ فَقَالَ : « مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ »^(١).

❁ قَالَ الْإِمَامُ النُّووي رَحِمَهُ اللَّهُ : وَأَمَّا حُكْمُهُ ﷺ عَلَى مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا بِدُخُولِ النَّارِ وَمَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ بِدُخُولِهِ الْجَنَّةَ فَقَدْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ .
فَأَمَّا دُخُولُ الْمُشْرِكِ النَّارَ فَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ فَيَدْخُلُهَا وَيَخْلُدُ فِيهَا ... وَلَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْكِتَابِيِّ الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ وَبَيْنَ عَبْدَةِ الْأَوْثَانِ وَسَائِرِ الْكُفَرَةِ ... وَلَا فَرْقَ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ بَيْنَ الْكَافِرِ عِنَادًا وَغَيْرِهِ وَلَا بَيْنَ مَنْ خَالَفَ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَبَيْنَ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهَا ثُمَّ حُكِمَ بِكُفْرِهِ بِجَحْدِهِ مَا يَكْفُرُ بِجَحْدِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .
وَأَمَّا دُخُولُ مَنْ مَاتَ غَيْرَ مُشْرِكٍ الْجَنَّةَ فَهُوَ مَقْطُوعٌ لَهُ بِهِ ... لَكِنْ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ أَوَّلًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ مَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحْتَ الْمَشِيشَةِ فَإِنْ عُفِيَ عَنْهُ دَخَلَ أَوَّلًا وَإِلَّا عَذَّبَ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنَ النَّارِ وَخُلِدَ فِي الْجَنَّةِ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢) ... فَإِنَّهُ لَا يُخْلَدُ مُوَحَّدٌ فِي النَّارِ حَتَّى وَإِنْ كَانَ مُرْتَكِبًا لِكَبِيرَةٍ لَمْ يَتَّبَ مِنْهَا مَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِلًّا لَهَا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢٠) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، وَمُعَاذُ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْلِ قَالَ : « يَا مُعَاذُ » قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : « يَا مُعَاذُ » قَالَ : لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ - ثَلَاثًا - قَالَ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ » قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أَخْبِرُ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا ؟ قَالَ : « إِذَا يَتَكَلَّمُوا »

(١) صحيح : رواه مسلم (٩٣) كتاب الإيمان .

(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٢٨ - ١٢٩) بتصرف .

فَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَائِبًا^(١).

وقوله: «تَائِبًا» أى: خَوْفًا مِنَ الْإِثْمِ فِي كَتْمِ هَذَا الْعِلْمِ.

✽ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ أَرَدَفَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ مَعَهُ عَلَى الدَّابَةِ..

وهذا هو قمة التواضع من النبي ﷺ الذي عَلمَ الكون كله التواضع...

وبينما هما في الطريق إِذْ نَادَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُعَاذٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ» فقال له

مُعَاذٌ بِكُلِّ أَدَبٍ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ... فكَرَّرَهَا النَّبِيُّ ثَلَاثًا يَنَادِي عَلَى

مُعَاذٍ.. وَمُعَاذٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ.

فَقَالَ لَهُ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» ففرح مُعَاذٌ بِهَذِهِ الْبُشْرَى الْعَظِيمَةِ فَأَرَادَ أَنْ

يُخْبِرَ الصَّحَابَةَ لِتَنْتَشِرَ تِلْكَ الْبُشْرَى بَعْدَ ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا فَيَفْرَحُوا وَيَكُونُ

ذَلِكَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِ أَنْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ نَقَلَ لَهُمْ تِلْكَ الْبُشْرَى... فَقَالَ: يَا رَسُولَ

اللَّهِ أَفَلَا أَخْبَرْتَ بِهَا النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ ﷺ: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا».

خَشِيَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَعْرِفُوا تِلْكَ الْبُشْرَى فَيَتَكَلَّمُوا عَلَيْهَا وَيُقْصِرُوا فِي الْعَمَلِ..

فَأَرَادَ أَنْ يَتْرَكَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا).. وَسَوَاءٌ عَلِمُوا أَمْ لَا

فَالْبُشْرَى مُحْفُوظَةٌ لَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولكن مُعَاذٌ ظَلَّ يَكْتُمُ هَذِهِ الْبُشْرَى فِي صَدْرِهِ حَتَّى نَامَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ

فَخَشِيَ أَنْ يَمُوتَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْأُمَّةَ بُشْرَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَ الصَّحَابَةَ بِتِلْكَ

الْبُشْرَى تَائِبًا.. أى: خَوْفًا مِنَ الْإِثْمِ فِي كَتْمِ هَذَا الْعِلْمِ.

فَمَنْ شَهِدَ الشَّهَادَتَيْنِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ وَأَتَى بِشُرُوطِهَا السَّبْعَةَ وَهِيَ: الْعِلْمُ

بِمَعْنَاهَا نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.. وَالْيَقِينُ وَهُوَ اسْتِيقَانُ الْقَلْبِ بِهَا.. وَالْقَبُولُ لَهَا فَلَا يَرُدُّ شَيْئًا

مِنْ لَوَازِمِهَا وَمُقْتَضِيَاتِهَا.. وَالانْقِيَادَ لَهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.. وَالصَّدْقَ فِيهَا مِنْ صَمِيمٍ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨) كتاب العلم، ومسلم (٣٢) كتاب الإيمان.

القلب .. والإخلاص فيها .. والمحبة لها ولأهلها والموالاتة والمعاداة لأجلها ..
فمن حقق تلك الشروط السبعة ولم يأتِ بناقضٍ من نواقض (لا إله إلا الله)
حرّمه الله على النار وأدخله الجنة خالدًا فيها أبدًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - شَكَّ الرَّاوى، وَلَا يَضُرُّ
الشَّكُّ فِي عَيْنِ الصَّحَابِي، لَأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ عُدُولٌ - قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَصَابَ
النَّاسَ مَجَاعَةٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَذْنَتَ لَنَا فَتَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا؟
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْعَلُوا» فَجَاءَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ
الظَّهْرُ، وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَرْوَادِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ
يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ الْبَرَكَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» فَدَعَا بِنُطْعٍ فَبَسَطَهُ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ
أَرْوَادِهِمْ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفٍّ ذُرَّةٍ وَيَجِيءُ الْآخَرُ بِكَفٍّ تَمْرٍ، وَيَجِيءُ الْآخَرُ
بَكِسْرَةٍ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النَّطْعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْبَرَكَةِ، ثُمَّ
قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وَعَاءً إِلَّا
مَلَأُوهُ، وَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَ فَضْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ»^(١).

✽ من المعلوم أن غزوة تبوك هي غزوة العُسرة ... فلما كان النبي ﷺ
وأصحابه في تبوك أصاب الناس مجاعة لأن الطريق كان طويلاً والحر شديداً
وقد نفذ ما معهم من الطعام.

فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَذْنَتَ لَنَا فَتَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا؟
وتأمل معي كيف كان أدب الصحابة مع النبي ﷺ .. فإنهم ما قالوا للنبي ﷺ:
افعل كذا.. بل قالوا: لَوْ أَذْنَتَ لَنَا... وهذا من حُسن آداب التعامل مع الأكابر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧) كتاب الإيمان.

والعلماء فما ظنك بسيد الأتقياء وخاتم الأنبياء ﷺ.... المهم أنهم استأذنوا النبي أن ينحروا نواضحهم.. والنواضح من الإبل هي التي يُستقى عليها الماء. فلما وجد النبي ﷺ حاجتهم إلى الطعام قال: «افعلوا».

وما هي إلا لحظات حتى جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إن فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ.. والمراد بالظهر هنا الدواب.. وُسِّمَتْ ظهرًا لكونها يُرْكَب على ظهرها أو لكونها يُستظهر بها ويُستعان بها على السفر.

ثم أشار عمر رضي الله عنه على النبي ﷺ بشيء فقال له: وَلَكِنْ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَاجِهِمْ، ثُمَّ ادْعُ اللَّهَ لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ الْبَرَكَةَ. فوافق النبي ﷺ ودعا بنطع فبسط على الأرض وطلب منهم أن يأتوا بما تبقى من طعامهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة... أي وضع يده المباركة على الطعام ودعا ربه عز وجل وقال: «اللهم بارك».. ثم طلب منهم أن يأخذوا ما يكفيهم من هذا الطعام في أوعيتهم.. فجاء كل واحد بوعائه وأخذ من الطعام ما يكفيه حتى امتلأت كل الأوعية التي في العسكر.. فأكلوا جميعًا وشبعوا وبقي طعام كثير معهم بعد أن كانوا يشكون من المجاعة التي أصابتهم.

فلما رأى النبي ﷺ ذلك قال: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرُ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ».

❁ ولم تكن تلك المعجزة الوحيدة التي حدثت للنبي ﷺ في غزوة تبوك.. بل كان هناك أكثر من معجزة سأكتفي بذكر اثنتين منها:

❁ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قِيلَ لعمر بن الخطاب: حَدِّثْنَا عَنْ شَأْنِ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ، فَقَالَ عمر: خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ، فَتَزَلْنَا مَنْزِلًا أَصَابَنَا فِيهِ

عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنتقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنتقطع، حتى أنه كان الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادعُ الله لنا، قال: «أتحب ذلك؟» قال: نعم... فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأظلت ثم سكبت، فملاؤا ما معهم ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر»^(١).

❁ وفي صحيح مسلم من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة فصلى الظهر والعصر جميعاً والمغرب والعشاء جميعاً حتى إذا كان يوماً آخر الصلاة ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعاً ثم قال: «إنكم ستأتون غداً - إن شاء الله - عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحي النهار فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى أتى» فجئناها وقد سبقنا إليها رجالان والعين مثل الشراك تبض^(٢) بشيء من ماء.

قال: فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالوا: نعم فسبهما^(٣) النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهما ما شاء الله أن يقول... قال: ثم عرفوا بأيديهم من

(١) قال الهيثمي في المجمع: (١٩٤/٦-١٩٥) رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجال البزار ثقات، والحاكم (١٥٩/١) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي وهو صحيح على شرط مسلم فقط، وقال ابن كثير في السيرة: (١٦/٤) إسناده جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه، قلت: الحديث صحيح والله أعلم.

(٢) تبض: أى تسيل - والشراك: سير النعل ومعناها أن الماء قليل جداً.

(٣) أى زجرهما... ولقد ثبت في صحيح البخارى ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه فإنما أنا بشر فأى مسلم أذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة بها إليك يوم القيامة».

العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماءٍ منهمر أو قال: غزير حتى استقى الناس... ثم قال: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جناتاً».

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين منطقة جرداء لقلة الماء، ولكن الله عز وجل أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء حتى أصبح يسيل بغزارة، ولم يكن هذا آتياً لسد حاجة الجيش، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر وستكون هناك جنات وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة،... ولقد تحقق ما أخبر به الرسول ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، وما زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجناتها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول وتشهد بأن الرسول لا يتكلم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقاً، ولا يُنبئ بشيء إلا ويتحقق^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٢٢) وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه، وهو ممن شهد بدرًا، قال: كُنْتُ أَصَلِّيَ لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ، وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَادٍ إِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قَبْلَ مَسْحِدِهِمْ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصْرِي، وَإِنَّ الْوَادِيَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي يَسِيلُ إِذَا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ، فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تَأْتِي، فَتَصَلِّيَ فِي بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَأَفْعَلُ» فَعَدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ، وَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَذْنَتْ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: «أَيُّنَ تُحِبُّ أَنْ أَصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» فَأَشْرَتْ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أَحَبُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَبَّرَ وَصَفَّقْنَا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ، فَحَبَسْتُهُ عَلَى خَزِيرَةٍ تُصْنَعُ لَهُ، فَسَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِي، فَثَابَ رِجَالٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَثُرَ الرَّجَالُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ

(١) الصراع مع الصليبيين (ص ١٤٢).

رَجُلٌ: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لَا أَرَاهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى؟» فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، أَمَّا نَحْنُ فَوَاللَّهِ مَا نَرَى وَدَّهْ، وَلَا حَدِيثَهُ إِلَّا إِلَى الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَنَغَّى بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(١).

✽ قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عتبان بن مالك رضي الله عنه ، وكان يؤم قومه بنى سالم، وكان بين بيته وبين قومه وادٍ يجرى فيه السيل. فإذا جاء السيل؛ شَقَّ عليه عبوره.

وأضف إلى ذلك أن بصره ضَعُف، فصار يَشُقُّ عليه مرتين؛ من جهة المشى، ومن جهة البصر والنظر. فجاء فأخبر النبي ﷺ بذلك، وطلب منه أن يأتي إلى بيته ليصلي في مكانٍ من البيت، يتخذه عتبان مُصَلًى يصلي فيه، وإن لم يكن مسجداً. فقال النبي ﷺ: «سأفعل» ثم خرج هو وأبو بكر رضي الله عنه حين اشتد النهار، وكان أبو بكر رفيقه حضراً وسفراً، لا يفارقه... كثيراً ما يكون معه، وكثيراً ما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: جئت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر.. ورجعت أنا وأبو بكر وعمر.

فهما صاحباها ووزيراها رضي الله عنهما، صاحباها في الدنيا، وصاحباها في البرزخ، وقريناها يوم القيامة... هؤلاء الثلاثة يقومون لله رب العالمين من مكانٍ واحدٍ، من البيت الذي دُفِنَ فيه الرسول (عليه الصلاة والسلام)، والذي أصبح الآن في قرارة المسجد النبوي.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٣٣) كتاب الإيمان. و«عتبان» بكسر العين المهملة، وإسكان التاء المُثَنَّى فَوْقُ وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ. و«الخزيرة»: هِيَ دَقِيقٌ يُطْبَخُ بِشَحْمٍ - وقوله: «ثَابَ رِجَالٌ»، أَيْ: جَاءُوا وَاجْتَمَعُوا.

انظر إلى الحكمة: اختار الله ﷻ أن يكون البيت الذي دُفن فيه الرسول ﷺ داخل المسجد؛ ليقوم هؤلاء الثلاثة يوم القيامة من وسط المسجد، مسجد النبي عليه الصلاة والسلام.

المهم أن النبي ﷺ خرج حين اشتد النهار، يعني حين ارتفعت الشمس إلى دار عتيان بن مالك، فاستأذن، فأذن له، فدخل ولم يجلس؛ بل قال: أين تريد أن أصلي... لأنه جاء لغرض، فأحب أن يبدأ بالغرض الذي جاء من أجله قبل أي شيء... وهذا من الحكمة؛ أنك إذا أردت شيئاً لا تُعرج إلى غيره حتى تنتهي منه من أجل أن تضبط الوقت ويبارك لك فيه.

فصلى النبي ﷺ بالمكان، وصلوا معه جماعة؛ لأن هذه جماعة عارضة لا دائمة.

ثم لما فرغ من صلاته، إذا هو قد أعد له طعاماً زهيداً، فسمع أهل الدار. الدار هو ما نسميه عندنا بالحي والحارة - سمع أهل الدار أن الرسول ﷺ عند عتيان بن مالك، فثاب إليه أناس، يعني اجتمعوا يريدون أن يهتدوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ويسمعوا من قوله، ويأخذوا من سُنَّته، فاجتمعوا فقال رجل: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لَا أَرَاهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى؟».

فقال الرجل: الله ورسوله أعلم... لأن من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله؛ فهو مؤمن ليس منافقاً... والمنافق يقولها رياءً وسمعةً.

لا تدخل قلبه والعياذ بالله، أما من قالها يبتغي بها وجه الله؛ فإنه مؤمن بها، مصدق، تدخل قلبه.

ثم إن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»... فكل من قالها يبتغي بها وجه الله، فإن الله يحرمه على النار، لماذا؟

لأنه إذا قالها يتغنى بها وجه الله؛ فإنه سيقوم بمقتضاها، ويعمل بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة، من أداء الواجب، وترك المحرم.

والإنسان إذا أدّى الواجب وترك المحرم؛ وأحلّ الحلال، وحرّم الحرام، وقام بالفرائض، واجتنب النواهي، فإن هذا من أهل الجنة... يدخل الجنة ويُحرّم الله عليه النار.

❁ وفي هذا الحديث فوائد:

منها: أن مَنْ كانت حاله مثل حال عتبان بن مالك، فإنه معذور بترك الجماعة وله أن يصلى في بيته، مثل أن يكون بينه وبين المسجد وادٍ لا يستطيع العبور منه، فإنه معذور... أو يكون قد ضُغِفَ بصره.

ومنها: أن الإنسان يُعذّر بترك الجماعة فيما إذا كان بينه وبين المسجد ما يشق عليه من وحل أو ماءٍ أو غيره... وقد كان من هدى النبي ﷺ أنه كان ينادي مُناديه في الليلة المطيرة؛ أن صلوا في رحالكم.. يعنى في أماكنكم، وذلك من أجل أن لا يشق على الناس... فأما إذا كان ماءً بلا مشقة وبلا دحرٍ ووحلٍ؛ فإنه لا يُعذّر الإنسان بترك الجماعة.

ومن فوائد حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه: أن المُصلّي الذي يكون في البيت لا يكون له حُكم المسجد.... فلو أن الإنسان اتخذ مُصلّى في بيته لا يصلى إلا فيه فليس بمسجد، سواء حَجَرَهُ أو لم يُحَجَرِهِ.

وعلى هذا فلا تثبّت له أحكام المسجد... فيجوز للإنسان أن يبقى فيه وهو جُنُب، وإذا جلس فيه لا يلزمه تحية المسجد... فكل أحكام المساجد لا تثبت له، وإذا أراد أن يعتكف فيه؛ لم يصح اعتكافه. حتى لو كانت امرأة ولها مسجد في بيتها، فإنها لا تعتكف فيه.

ومن فوائد حديثه رضي الله عنه: أنه يجوز أن تُقام الجماعة في النوافل؛ لكن ليس

دائماً بل أحياناً ... فإن النبي ﷺ لما أراه عتبان المكان الذي يصلى فيه، وتقدم وصلى بهم ركعتين وصلوا خلفه ... فإذا صلى الإنسان الراتبة مثلاً أو سنة الضحى، إذا صلاها جماعة؛ فلا بأس بذلك أحياناً.

وثبت عنه ﷺ أنه صلى معه ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الليل، وصلى معه ابن مسعود، وصلى معه حذيفة، لكن ليس دائماً ... فصلاة الجماعة نفلاً أحياناً لا بأس بها.

ومن فوائد هذا الحديث: أنه لا بأس أن يتخذ الإنسان مصلى يعتاد الصلاة فيه في بيته، ولا يقال إن هذا مثل اتخاذ مكان معين في المسجد لا يصلى إلا فيه، فإن هذا منتهى عنه... يعنى يُنهى الإنسان أن يتخذ في المسجد مكاناً لا يصلى إلا فيه، مثل أنه لا يصلى النافلة، لا تحية المسجد ولا غيرها إلا فيه، فإن النبي ﷺ نهى عن استيطان كاستيطان البعير... يعنى عن اتخاذ موطن كأعطان الإبل، تأوى إليه وتبيت فيه.

ومنها: أنه يجب على الإنسان أن يحبس لسانه عن الكلام في الناس، بنفاق، أو كفر أو فسق، إلا ما دعت الحاجة إليه ... فإنه لا بد أن يبينه؛ لأن النبي ﷺ لما قال رجل عن مالك: إنه منافق، قال: «لا تقل هكذا؛ أما علمت أنه قال: لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله؟».

لكن هذا متى يحصل أن يشهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) لرجل بالإخلاص ... هو ليس بحاصل بعد موت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، إنما ليس لنا إلا الظاهر، فمن ظهر لنا من حاله الصلاح؛ وجب علينا أن نحكم له بالصلاح، وألا نغتابه ولا نُسِّبه.

ومن فوائد هذا الحديث: محبة الصحابة لرسول الله ﷺ والجلوس إليه؛ لأنهم لما علموا أنه عند عتبان بن مالك ثابوا إليه، واجتمعوا عنده، ليتعلموا منه،

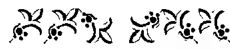
وينالهم من بركة علمه (عليه الصلاة والسلام).

ومنها: ما سبق أن أشرنا إليه أن الإنسان يبدأ بالشغل الذى يريده قبل كل شىء؛ لأن النبى ﷺ صلى فى المكان قبل أن يجلس، وقبل أن ينظر إلى ما صنع له من الطعام.

ومن فوائده أيضاً: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان على جانب كبير من التواضع؛ لأنه لما انتهى من الصلاة، يقول عتبان: حبسته على (خزيرة) نوع من الطعام ليس بذاك الجيد... حبسه: يعنى قال له انتظر حتى ينتهى الطعام، ويقدمه إلى رسول الله ﷺ... وهذا لا شك أن فيه تواضعاً من رسول الله ﷺ.

ومنها: وهى من أكبر فوائد هذا الحديث. أن مَنْ قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله، فإن الله يُحرم عليه النار «فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله» يعنى يطلب وجه الله.

ومعلوم أن الذى يقول هذا طالباً وجه الله، فسيُفعل كل شىء يُقربه إلى الله، من فروض ونوافل، فلا يكون فى هذا دليل للكسالى والمهملين؛ يقولون: نحن نقول لا إله إلا الله نبتغى بذلك وجه الله. نقول: لو كنتم صادقين ما أهملتم العبادات الواجبة عليكم^(١).



(٤٢٣) وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلَزَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ. فَقَالَ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ١٦١-١٦٤) بتصرف كبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٩٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٧٥٤) كتاب التوبة.

❁ وهنا صورة من صور حنان الأم مع ولدها لن تفوت على النبي ﷺ أن يعطى أصحابه العظة فيها... فهذه مجموعة من السبى وفيهم هذه المرأة تبحث عن صغير لها، فوجدت الطفل فأخذته بمنتهى الحنان، وضمتها إلى صدرها فأرضعته.

يا ترى وهى فى هذه الحال هل من الممكن أن تأخذ الصبى وتلقيه على الأرض مثلاً؟ هل من الممكن أن تأخذ هذا الصبى وتلقيه فى النار مثلاً؟ هذا غير ممكن... فيقول النبي ﷺ لأصحابه: «أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ. فَقَالَ ﷺ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلِدَهَا».

ورحمة رب العالمين عظيمة... فالله أرحم بعباده من هذه بولدها،... ولذا فإنه لن يدخل النار إلا من وقع فى المحرمات أو ترك أوامر الله سبحانه وتعالى وأشرك بالله سبحانه، وخالف وعاند واستكبر عن طاعة رب العالمين، فهذا الذى يستحق عذاب رب العالمين.

فالإنسان الذى يتوب إلى الله... فالله رحيم ورءوف بعباده سبحانه.

فإذا دعا العبد ربه استجاب له، وإذا استغفر ربه غفر له، وإذا طلب من ربه أعطاه تبارك وتعالى.. فربنا رحيمٌ عظيم الرحمة... وانظروا إلى قدر رحمته فى حديث أبى هريرة المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب فى كتابٍ فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى تغلب غضبى»، قد يغضب الله عز وجل على عبد من عبده إذا وقع فى معصية... وهذا العبد يبادر فيستغفر ربه تبارك وتعالى فإذا به يتوب عليه ويغفر له ويرحمه... فالرحمة تغلب الغضب وتسبقه... وربنا يرحم هذا العبد الذى تاب إليه.

❁ فإذا كانت هذه الأم ترحم طفلها ولا تلقيه فى النار.. فكل ذلك برحمة واحدة أنزلها الله عز وجل فى الأرض.. فيها يترحم الإنس والجن والوحش

والطير.. حتى إن الدابة لترفع حافرها عن وليدها خشية أن تؤذيه... فإذا كان يوم القيامة رفع الله تلك الرحمة إلى مائة رحمة ليرحم عباده يوم القيامة.. فإله أرحم بنا من رحمة الأم بطفلها الرضيع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(١).
وفي رواية: «غَلَبَتْ غَضَبِي» وفي رواية «سَبَقَتْ غَضَبِي».

✽ فالإنسان الذي يتوب إلى الله، فالله رحيم ورءوف بعباده سبحانه.

فإذا دعا العبد ربه استجاب له، وإذا استغفر ربه غفر له، وإذا طلب من ربه أعطاه تبارك وتعالى... فربنا رحيم عظيم الرحمة، وانظروا إلى قدر رحمته كما في هذا الحديث.

✽ قال العلماء في الحديث: «إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وفي رواية: «رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

قالوا المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه.

هكذا قال الإمام النووي نقلاً عن العلماء، وهذا النقل إنما هو نقل عن علماء الأشاعرة، لذا فليس هذا الكلام هو معتقد أهل السنة والجماعة، فالمعلوم أن الله تبارك وتعالى يغضب غضباً حقيقياً يليق بجلاله وكماله، والمعلوم أن الله تعالى يرحم عباده رحمة لا يعلم كنهها إلا الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.

أما نحن فقد أيقننا أن الله تعالى يغضب ويرضى ويسخط، ولا يستلزم إيماننا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٩٤) كتاب بدء الخلق، و(٧٤٢٢) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥١)

بهذا مشابهة غضب الله بغضب خلقه، ولا رحمة الله تعالى برحمة خلقه، ولا فرح الله تعالى بفرح خلقه، ولا رضا الله تعالى برضا خلقه... وقد قلنا: إن اختلاف صفات الله ﷻ عن صفات المخلوقين ما هو إلا فرع لأصل وهو اختلاف الذات، فلما اختلفت ذات الله تعالى عن ذوات المخلوقين لا بد أن تختلف الصفات... فليست ذاته كذوات المخلوقين، وبالتالي فإن صفاته ليست كصفات المخلوقين.

ثم إن صفات الله سبحانه وتعالى لا تُوهم التشبيه ولا التمثيل لصفات المخلوقين... وهذا هو معتقد أهل السنة والجماعة من جهة النقل عنهم. أما من جهة العقل فما المانع أن نُسلمَ لله ﷻ بما أثبتته لنفسه؟ فنكتفى فقط بأن الله تعالى يغضب، ولا يستلزم الغضب في حق الله تعالى انفعالات نفسية، وإنما ذلك في العبد، فتجعل المرء يتهور، أو يأتي بسفه أو بشيء من هذا، لكن الغضب في حق الله ليس كذلك... وكذلك الفرح: «لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ»، فهل فرح الله ﷻ هو نفس فرح العبد؟ لا، وكذلك رحمة الله تبارك وتعالى لعباده ليست كرحمة العباد بعضهم لبعض... فإذا اختلفت الذات فلا بد وأن تختلف الصفات.

وأما قوله: (والمراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، كما يُقال: غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثر منه).

فأولاً: هذا القياس غير صحيح؛ للاختلاف بين الخالق والمخلوق، وإذا سلمنا بأن هذا قياس صحيح فلا بأس أن نقول: إن هذا المعنى ينضم إلى المعنى الأصلي، فيكون الأصل عندنا أن الله تعالى يغضب كما يشاء، ويفرح كما يشاء، ويغفر كما يشاء، ويسخط كما يشاء، فنؤمن بهذا ولا نخوض فيه، ولا بأس أن نضم إلى هذا المعنى الأصلي -الذي هو أصل القضية عندنا فيما يتعلق

بالصفات - معنى آخر وهو: أن المراد بالسبق والغلبة هنا: كثرة الرحمة وشمولها، أى: أن رحمة الله تعالى أعظم وأكثر وأشمل من غضبه... فلا بأس بهذا المعنى خاصة وأن الأدلة أثبتت أن رحمة الله تبارك وتعالى أوسع من غضبه، وأن الله تعالى إذا وعد بالرحمة فإنه لا يُخلف وعده، وإذا تَوَعَّد بالعذاب فإن ذلك داخلٌ في مشيئته... فقد تقع أو لا تقع، أى: قد ينفذها الله عَزَّوَجَلَّ، أو يعفو ويصفح.

إذاً: رحمة الله تعالى أوسع وأشمل وأعمُّ من غضبه... لكن كيف يغضب؟ وكيف يسخط؟ وكيف يرضى؟ الكيفية لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك يحذر من تأويل النص عن ظاهره، بل يجب الإيمان به كما جاء، وإمراره كما جاء... وهذا معتقد أهل السنة والجماعة قاطبة، ولم يخالف في ذلك أحدٌ منهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَا حُمُ الْخَلَائِقِ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ».

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطِفُونَ، وَبِهَا يَتَرَا حُمُونَ، وَبِهَا تَعَطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَعَالَى تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

ورواه مسلم أيضًا من رواية سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْهَا رَحْمَةٌ يَتَرَا حُمُ بِهَا الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ وَتَسْعُ وَتَسْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الْأَرْضِ رَحْمَةً فَبِهَا تَعَطِفُ

(١) شرح صحيح مسلم / الشيخ حسن أبو الأشبال.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٠٠) كتاب الأدب، ومسلم (٢٧٥٢) كتاب التوبة.

الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أَكْمَلَهَا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ».

❖ أَى أَن اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ.. فَأَنْزَلَ مِنْهَا جُزْءًا وَاحِدًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِتُرَاحِمَ بِهَا جَمِيعَ الْخَلَائِقِ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَحَيَوَانٍ وَطَيْرٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَلَائِقِ... فَلَكَ أَن تَتَصَوَّرَ أَنَّ كُلَّ الرَّحِمَاتِ الَّتِي نَرَاهَا فِي حَيَاتِنَا بَيْنَ الْأُمِّ وَأَوْلَادِهَا وَبَيْنَ النَّاسِ وَبَعْضِهِمُ الْبَعْضِ وَبَيْنَ الدَّابَّةِ وَأَوْلَادِهَا.. كُلُّ هَذِهِ الرَّحِمَاتِ مِنْ آثَارِ رَحْمَةٍ وَاحِدَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَضَافَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ تِلْكَ الرَّحْمَةَ إِلَى تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً اخْتَبَأَهَا لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيُرَحِّمَهُمْ مِنْ أَهْوَالٍ وَكُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

فَهُوَ يَوْمٌ وَإِنْ كَانَ عَصِيْبًا إِلَّا أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ تُدْرِكُ الْمُوَحِّدِينَ بِمَا يَفُوقُ الْخَيَالَ.. حَتَّى أَنَّ إِبْلِيسَ مِنْ كَثْرَةِ الرَّحِمَاتِ الَّتِي سِيرَاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ سَيُظَنُّ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ سَتْنَعُهُ.. وَهِيَ هِيَ هِيَ هِيَ.

لَكِنْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تِلْكَ الرَّحِمَاتِ فَأَنَّا لَا أُعْطِيَ رُخْصَةً لِمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَقَعَ فِي الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي اتِّكَالًا عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.. فَرُبَّمَا لَا تُدْرِكُهُ تِلْكَ الرَّحْمَةُ.. لِأَنَّهُ لَيْسَ وَعْدًا عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَغْفِرَ لِكُلِّ عَاصٍ.. وَإِنَّمَا كُلُّ عَاصٍ إِنْ لَمْ يَتُبْ فَهُوَ دَاخِلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.. إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ... فَلَا تَتَّكِلْ عَلَى هَذَا وَاعْمَلْ بِمَا هُوَ أَحْوِطُ لَكَ.. وَهُوَ لَزُومُ الطَّاعَةِ وَالْبُعْدُ عَنِ الْمَعَاصِي.. فَإِنْ وَقَعْتَ فِي أَى مَعْصِيَةٍ فَأَدْرِكْ نَفْسَكَ بِالتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ أَنَّهُ سَيَغْفِرُ لَكَ وَسِيرَ حَمِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

❖ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذِهِ الْأَحَادِيثُ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّجَاءِ وَالْبَشَارَةِ لِلْمُسْلِمِينَ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: لِأَنَّهُ إِذَا حَصَلَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ رَحْمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْمُبْنِيَّةِ عَلَى الْأَكْثَادِ: الْإِسْلَامُ وَالْقُرْآنُ وَالصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ فِي قَلْبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِ... فَكَيْفَ الظَّنُّ بِمِائَةِ رَحْمَةٍ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ وَدَارُ الْجَزَاءِ ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ»^(٢).

وقوله تعالى: «فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ» أي: مَا دَامَ يَفْعَلُ هَكَذَا، يُذْنِبُ وَيَتُوبُ اغْفِرُ لَهُ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ تَهْدِيهِمْ مَا قَبْلَهَا.

❁ ففى هذا الحديث يحكى النبى ﷺ أن عبداً أذنب ذنباً فلم يفرح بذلك الذنب بل حزن حزناً شديداً على ذلك الذنب ولجأ إلى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ ليغفر له ذلك الذنب فقال: اللهم اغفر لى ذنبى.. فلما رأى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ صدق توبته قال تعالى: أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب... فغفر الله ﻋَزَّ وَجَلَّ لذلك العبد التائب النادم.

ثم عاد هذا العبد وأذنب مرة أخرى رغماً عنه وهو لا يريد أن يذنب ولكن غلبته نفسه وهواه وشيطانه.. فقال: أى رب اغفر لى ذنبى... فقال تعالى: أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب.. فغفر الله له.. وتكرر الذنب بعد ذلك وتاب العبد.. وتكررت التوبة من الله عليه فتاب عليه (جل وعلا)... إلى أن قال الحق (جل وعلا): قد غفرت لعبدى فليفعل ما شاء....

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/١٠٧) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٠٧) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٧٥٨) كتاب التوبة.

وفي رواية قال تعالى له: «اعمل ما شئت فقد غفرت لك».

فيا لها من رحمة عظيمة من رب العالمين سبحانه ... وهنا قوله: (فليفعل ما شاء) ليس المعنى أنه يعصى كما يريد، ويذهب يشرك بالله كما يريد، وإنما المعنى: أنك قد تقع مرة ثانية وثالثة طالما أنت على ذلك، وكلما وقعت في ذنب ندمت واستغفرت ... فالله يغفر وإن تكرر ذلك مائة مرة، طالما أنك تُجرد التوبة، وترجع إلى ربك سبحانه، وكل بنى آدم خطاء، وما من مؤمن إلا وله ذنب يعتريه الفينة بعد الفينة ... وكل مرة لعله يقع في شيء فيرجع يلوم نفسه ويتوب إلى الله عز وجل، ولعله بعد فترة يقع مرة أخرى، فإذا كان العبد يسرع في التوبة إلى الله، ويندم على الذنب، وينوى ألا يفعله .. ومن ثم تأتي الأقدار فيقع فيه مرة ثانية مع كراهته للذنب وحبه للرب سبحانه، وتوبته إلى الله ... فالله عز وجل يغفر له وإن وقع مرارًا وتكرارًا في هذا الذنب أو في غيره بهذا الشرط، أن يتوب العبد إلى ربه سبحانه، وأن ينوى ألا يعود إلى ذلك.

أما الذي يقع في الذنب ولا يهمله ذلك، واستغفر الله وهو مقيم على هذا الذنب، ويفعله وينوى أن يفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، فهذه التوبة ليست المذكورة في هذا الحديث ... لكن من تاب إلى الله وهو ينوى ألا يعود إلى ذلك فهو المقصود^(١).

قال الإمام النووي رحمه الله: وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ ظَاهِرَةٌ فِي الدَّلَالَةِ لَهَا وَأَنَّهُ لَوْ تَكَرَّرَ الذَّنْبُ مِائَةً مَرَّةً أَوْ أَلْفَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ وَتَابَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ وَسَقَطَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ تَابَ عَنِ الْجَمِيعِ تَوْبَةً وَاحِدَةً بَعْدَ جَمِيعِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ^(٢).

بَعْدَ جَمِيعِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطية.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧/١١٧).

(٤٢٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالَى، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(١).

(٤٢٨) وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ لَا أَنْتُمْ تُذْنِبُونَ، لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ»^(٢).

❁ لا بد أن نعلم أن الإنسان قد كُتِبَ عليه حظه من الذنوب.. وأن كل إنسان يقع في شيء من الذنوب والأخطاء... والله ﷻ هو الغفور الرحيم.. فمن مقتضى ذلك أنه يغفر ويرحم.. ولكن يغفر لمن إن لم يكن هناك مَنْ يُذنب ثم يتوب ويستغفر.. فعلى ذلك قَدَّرَ اللَّهُ ﷻ أن يكون هناك بعض الذنوب التي تصدر من بعض العباد.. فإذا تابوا بعد ذلك وجدوا ربًّا غفورًا رحيمًا يغفر لهم ويرحمهم.... وَالْمَعْنَى الْمُرَادُ مِنَ الْحَدِيثِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ كَمَا أَحَبَّ أَنْ يُعْطِيَ الْمُحْسِنِينَ أَحَبَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنِ الْمُسِيئِينَ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَسْمَائِهِ: الْغَفَّارُ، الْحَلِيمُ، التَّوَّابُ، الْعَفْوُ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْعَلَ الْعِبَادَ شَأْنًا وَاحِدًا، كَالْمَلَائِكَةِ مَجْبُولِينَ عَلَى التَّزَهُ مِنَ الذُّنُوبِ، بَلْ يَخْلُقُ فِيهِمْ مَنْ يَكُونُ بِطَبْعِهِ مَيَّالًا إِلَى الْهَوَى مُتَلَبِّسًا بِمَا يَقْتَضِيهِ، ثُمَّ يَكْلِفُهُ التَّوَقُّى عَنْهُ، وَيُحَذِّرُهُ عَنْ مُدَانَاتِهِ، وَيَعْرِفُهُ التَّوْبَةَ بَعْدَ الْإِثْلَاءِ، فَإِنْ وَفَّى فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَإِنْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ فَالتَّوْبَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ... فَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ بِهِ أَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ مَجْبُولِينَ عَلَى مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ لَجَاءَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يَتَأْتَى مِنْهُمْ الذَّنْبُ، فَيَتَجَلَّى عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ عَلَى مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ، فَإِنَّ الْغَفَّارَ يَسْتَدْعِي مَغْفُورًا، كَمَا أَنَّ الرَّزَّاقَ يَسْتَدْعِي مَرْزُوقًا^(٣).

❁ وهناك معنى جميل أيضًا وبُشْرَى في غاية الروعة والجمال: أنه مهما صدر منك من الذنوب والمعاصي فلا تيأس من رحمة الله بل أسرع بالتوبة

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٨) كتاب التوبة.

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٥٩٠/٣).

والعودة إلى الله وستجد ربك عَزَّوَجَلَّ غفوراً رحيمًا عفوًا كريمًا... حتى لو كنت مشركًا أو كافرًا وأعلنت التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ فسوف يغفر لك ذنوبك وآثامك ويبدلها كلها إلى حسنات... كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وهناك بشرى أخرى - ولا تنتهى البشريات الجميلة أبدًا - فالعبد إن لم يقع فى الذنوب أبدًا فقد يُصيبه العُجب والغرور والترفُّع .. فقدَّر الله للعبد ألا يكون معصومًا وأنه يقع أحيانًا فى بعض المعاصى ليعلم أنه لا يستغنى عن ربه طرفه عين.. فيرجع ويتوب إليه ليتوب الله عليه ويغفر له ذنوبه وآثامه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٢٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزَعْنَا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ - وَذَكَرَ الْحَدِيثُ بَطُولَهُ إِلَى قَوْلِهِ -: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اذهَبْ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُسْتَيِقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» ^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا قُعُودًا مع النبى ﷺ.. وكان معهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.. وفجأة قام رسول الله ﷺ من بين أظهرهم لحاجة من حوائجه وأبطأ عليهم فخافوا عليه وفزعوا من أن يكون قد حدث له مكروه ﷺ.. فقد كان كل واحدٍ منهم يتمنى أن يفدى النبى ﷺ بنفسه وأهله وماله.

فقاموا جميعًا يبحثون عنه ﷺ.. وكان أول من فزع وخرج يبحث عن النبى ﷺ هو أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣١) كتاب الإيمان.

ظل أبو هريرة يبحث عن النبي ﷺ حتى دخل حائطاً -بُستاناً- للأَنْصار.. وكأنه ظن أن النبي ﷺ قد دخل هذا البستان... فأخذ يبحث عن باب البستان فلم يجده.. ولعله من شدة فزعه واندهاشه من غياب النبي ﷺ لم يرَ باب الحائط، فوجد جدولاً صغيراً فدخل منه حتى وجد النبي ﷺ بالداخل. فلما دخل على النبي ﷺ قال النبي ﷺ: «أبو هريرة؟» فقال: نعم يا رسول الله ﷺ.

فسأله النبي ﷺ: «ما شأنك؟».. فأخبره أبو هريرة أنه ﷺ لما قام من بين أظهرهم فجأة وتأخر عليهم أنهم خافوا عليه.. وخرجوا ليجثوا عنه ﷺ. فنظر إليه النبي ﷺ وأعطاه نعليه وقال له: «اذهب فَمَنْ لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة».

وكأنه دخل إلى هذا المكان فنزل عليه الوحي بذلك.. وكان النبي ﷺ عِلِمَ أن الناس سيقولون لأبي هريرة: من أين أتيت بهذا الكلام، فنحن لم نجد النبي ﷺ... فأعطاه النعلين أمانة وعلامة على أنه ﷺ هو الذي أمره بذلك.

وبالفعل فقد خرج أبو هريرة رَضِيعاً كما أمره النبي ﷺ فكان أول مَنْ لقيه عمر رَضِيعاً، فقال له: إلى أين يا أبا هريرة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أبشر مَنْ وجدت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مُستيقناً بها قلبه بالجنة.

فإذا بعمر يخاف من اتكال الناس، فيأمر أبا هريرة بالرجوع.. فوكزه حتى أوقعه على الأرض، وقال له: ارجع يا أبا هريرة.... هنا ذهب أبو هريرة إلى النبي ﷺ ويكي، ووراء عمر رَضِيعاً، فسأله النبي ﷺ: لِمَ فعلت ذلك؟! فكان جواب عمر أنه قال: (يا رسول الله! إذا يتكلوا)، فهي نفس الكلمة التي قالها النبي ﷺ لمعاذ رَضِيعاً: «إذا يتكلوا»... لأن الناس لو علموا ذلك من غير أن يفهموا المعنى لاتكلوا على ذلك... حتى أنه ربما يقول أحدهم: ما دُمت أشهد أن لا إله إلا الله

أريد بذلك وجه الله فمن حقى أن أفعل كل ما أريده وسأدخل الجنة ما دُمت قد قلت: لا إله إلا الله مُستقيماً بها من قلبي فالأمر ليس كذلك. فلقد أخبر الله ﷻ أن النار لن يدخلها الكفار فحسب بل سيدخلها بعض عُصاة الموحدين الذين يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ... وأنهم تُوزن أعمالهم يوم القيامة، فمن رجحت سيئاته على حسناته أدخله الله ﷻ النار.

إذاً: هناك نار لِعُصاة الموحدين يدخلونها يوم القيامة، فلو سمعوا أنهم سيدخلون الجنة ولن يُعاقبوا في النار على معاصيهم لأنهم قالوا: لا إله إلا الله فإنهم سيتكلموا عليها.

ومن أجل ذلك غضب عمر رضي الله عنه وخشى أن يتكل الناس عليها ولا يعملوا فقال للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَيِّ أَنْتَ، وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَقِيماً بِهَا قَلْبُهُ بَشَرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَكَلَّمَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلَّهِمْ يَعْمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَخَلَّهِمْ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣٠) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ اللَّهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّهُنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وَقَوْلَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المائدة: ١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: «يَا جَبْرِيلُ أَذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلِّمْهُ مَا يُبْكِيهِ؟» فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ ... فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ: وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا جَبْرِيلُ أَذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَرُّضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نُسُوءُكَ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٣١) (٥٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢) كتاب الإيمان.

❦ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ جلس يتذكر يومًا ما قاله إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿ رَبِّ إِنَّمَنْ أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .. وتذكر قول عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿ إِن تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فقام يدعو ويبكى ويقول: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي» أي: ارحم أمتي ولا تخفرنني في أمتي ولا تحرمهم من دخول الجنة ولا تجعلهم من أهل النار... فكان دعاء النبي أعظم من دُعائيهما. وهنا أرسل الله ﷻ جبريل عليه السلام وقال له: «يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يُبكيه؟» وربك أعلم ما الذي يُبكيه.

فلا يحتاج إلى أن يرسل جبريل عليه السلام ولكن أرسله حتى ينطق ويتكلم النبي ﷺ من تلقاء نفسه بكل ما يتمناه... فأتاه جبريل وسأله فأخبره النبي ﷺ بما قال.. فعاد جبريل إلى ربه ﷻ ليخبره بما قاله النبي ﷺ -والله أعلم بما قال- فقال تعالى لجبريل عليه السلام: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنُرضيك في أمتك ولا نسوءك».

وقد أَرْضاه الله ﷻ في أُمته، بأن جعل لهذه الأمة أجرها مُضاعفًا، كما جاء في الحديث الصحيح: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا، يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا إِلَى اللَّيْلِ، فَعَمِلُوا إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ، فَاسْتَأْجَرَ آخَرِينَ، فَقَالَ: أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمْ وَلَكُمْ الَّذِي شَرَطْتُ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، قَالُوا: لَكَ مَا عَمَلْنَا، فَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ» ^(١) وفي رواية: «... فَقَالَ: أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ: أَيُّ رَبَّنَا، أُعْطِيَتْ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، وَأَعْطِيَتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، وَنَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا؟ قَالَ اللَّهُ ﷻ: هَلْ ظَلَمْتُمْكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيَهُ مِنْ أَشَاءٍ» ^(٢). إذا... لا لوم عليه في ذلك... ففضل الله على هذه الأمة كثير.

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٥٨) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٥٧) كتاب مواقيت الصلاة.

وقد أرضاه الله في أمته - والله الحمد - من عدة وجوه منها كثرة الأجر، وأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة، وأنها فضّلت بفضائل كثيرة، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَإِيمًا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُيْعَتْ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ» (١)(٢).

بل لقد أرضاه الله ﷻ في أمته حين جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]... بل جعل الأمة المحمدية هي الأمة الشاهدة على كل الأمم يوم القيامة .. وتجاوز لهذه الأمة عمّا توسوس به صدورهم ما لم يعملوا به أو يتكلموا به وجعلها أمة مرحومة لا يُخلّد أي واحد منهم في النار ما دام قد جاء موحدًا .. وأرضاه في أمته بأن عصمها أن تجتمع على ضلالة .. وأرضاه في أمته بأن بعث لها على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ... وأرضاه في أمته بأن جعل عيسى ابن مريم ﷺ يصلى خلف واحد من هذه الأمة - وهو المهدي ﷺ - ... وأرضاه في هذه الأمة بأن جعلهم يُدعون يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ من أثر الوضوء ... وأرضاه في أمته بأن جعل هذه الأمة آخر الأمم وأول من يُحاسب يوم القيامة .. وأرضاه في أمته بأن جعل ثلثي أهل الجنة من هذه الأمة ... وأرضاه في أمته بأن أعطاه سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .. فلما استزاده النبي ﷺ زاده مع كل ألف سبعين ألفًا وثلاث حثيات من حثيات الرحمن (جلّ وعلا).

فهذه الخصائص له ولأمته عليه الصلاة والسلام.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥) كتاب التيمم، ومسلم (٥٢١) كتاب المساجد.

(٢) شرح رياض الصالحين (١٦٧/٢).

(٤٣١) وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا»^(١).

❁ في هذا الحديث يحكى معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يركب مع النبي ﷺ على حمارٍ.. وهذا هو قمة التواضع من النبي ﷺ أن يركب دابة متواضعة مثل الحمار.. وفوق ذلك أنه يُردف خلفه معاذ بن جبل.. فما أجمل تواضع النبي ﷺ الذي علّم الدنيا كلها نعمة التواضع.

وبينما كان معاذ راكباً مع النبي ﷺ إذ قال النبي ﷺ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»

ومعاذ يتأدب مع النبي ﷺ غاية الأدب ويقول له ﷺ: الله ورسوله أعلم.. مع أن معاذ بن جبل يعلم أن الله فرض على العباد أن يعبدوه ولكنه قال ذلك لعل النبي ﷺ يقصد معنى آخر... ولذلك قال له: الله ورسوله أعلم حتى يتعلم من النبي ﷺ.

ولقد كان هذا دأب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.. ففي حجة الوداع يحكى أحد الصحابة أن النبي ﷺ سألهم وفعلوا معه مثل ذلك.. فقد قال النبي ﷺ:

«أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلَدَةُ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٥٦) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (٣٠) كتاب الإيمان.

اسمِهِ، قَالَ: «الْيَسَّ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «فَإِنْ دِمَاءُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ وَأَعْرَاضُكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»^(١). فلما قال معاذ: الله ورسوله أعلم.. قال النبي ﷺ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

✽ فحق الله على العباد أن يعبدوه.. فهي الغاية التي خلق الله الناس من أجلها.. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٥٨) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ^(٥٩) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ^(٦٠) [الذاريات: ٥٦-٥٨].. إذا: هذه الآية تعطينا الغاية والحكمة التي من أجلها خلق الله ﷻ الإنس والجن، ومن باب أولى الملائكة الذين وصفهم ربهم ﷻ في القرآن الكريم بقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

هذه الحكمة هي: أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ... خلق الجن والإنس ليعبدوه وحده لا شريك له^(٢).

وفي الحقيقة أن العبادة لها مفهوم عام، ومفهوم خاص. فالمفهوم العام: هي «التذلل لله محبة وتعظيمًا... بفعل أو امره، واجتناب نواهيهِ على الوجه الذي جاءت به شرائعُهُ».

والمفهوم الخاص: يعنى تفصيلها. قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية: هي «اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة... كالخوف، والخشية، والتوكل، والصلاة، والزكاة، والصيام، وغير ذلك من شرائع الإسلام».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٦٢) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٢) دروس ومحاضرات مفرغة من تسجيلات الشبكة الإسلامية / والفتوى للشيخ الألبانى رَحِمَهُ اللهُ.

✽ والعبادة إما أن تكون عبادة كونية، أو عبادة شرعية ... يعنى أن الإنسان قد يكون متدلاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَدَلُّلاً كونياً وتَدَلُّلاً شرعياً.

فالعبادة الكونية تشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر ...

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فكل مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فهو خاضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَوْنًا فلا يمكن أبدًا أن يُضَادَّ الله أو يُعَارِضَهُ فيما أَرَادَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإرادة الكونية.

وأما العبادة الشرعية: فهي التَدَلُّلُ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرعاً ... فهذه خاصة

بالمؤمنين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائمين بأمره ... ثم إن منها ما هو خاصٌّ أخص

كعبودية الرسل، (عليهم الصلاة والسلام)، مثل قوله - تعالى -: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي

نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾

[البقرة: ٢٣]. وقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٥٤]. وغير ذلك من

وصف الرسل (عليهم الصلاة والسلام) بالعبودية.

وحق الله على العباد أن يعبدوه لكن بشرط ألا يُشْرِكُوا به شيئاً.. فهذا قيدٌ

لهذه العبادة.

والشرك هو اتخاذ العبد من دون الله نداً يسويه برب العالمين ...

يجبه كحب الله، ويخشاه كخشية الله، ويلتجئ إليه، ويدعوه، ويخافه،

ويرجوه، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، ويطيعه في معصية الله، أو يتبعه على غير

مرضاة الله، وغير ذلك ... قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ

ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ

بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويستوى في الخروج بهذا الشرك عن الدين المجاهر به ككفار قريش

وغيرهم، والمُبطّن له كالمنافقين المُخادعين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون

الكفر... قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿ [النساء: ١٤٥-١٤٦]، وغير ذلك من الآيات (١).

❖ وللشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من الملك أو التدبير أو الخلق أو الرزق.

القسم الثاني: الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل لله تعالى مُماثلًا في شيء من الأسماء أو الصفات، أو يصفه تعالى بشيء من صفات خلقه.

ومن صور هذا الشرك:

الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب... فمن ادّعى أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

القسم الثالث: الشرك في الألوهية:

وهو: اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبد أو صَرَفُ شيء من العبادة لغيره (٢).

❖ وقد يسأل سائل ويقول: ما هي العبادات التي لا يجوز أن يُقصد بها غير الله؟

والجواب: أن العبادات التي لا يجوز أن يُقصد ويُراد بها غير الله أنواع:

الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد

(١) ٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة (ص ٤١-٤٢).

(٢) عقيدة الطفل المسلم / د. محمود المصري (ص ٦٠).

الأحد الذى له الخلق والأمر، وييده النفع والضرر.. الذى لا شريك له، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحقٍ غيره.

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التى لا يجوز أن يُقصد بها إلا الله وحده... وصرفها لغيره شركٌ: كالخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، والخشوع والخشية، والحب، والإنابة، والتوكل، والخضوع.

الثالث: قولية: كالنطق بكلمة التوحيد... إذ لا يكفى اعتقاد معناها، بل لا بد من النطق بها... وكالاستعاذة بالله، والاستعانة والاستغاثة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

الرابع: بدنية: كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

الخامس: مالية: كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة^(١).

فالمؤمن يعبد الله ولا يشرك به شركاً أكبر ولا أصغر ولا شركاً خفياً، فالعبادة لا بد أن يكون فيها إخلاصٌ وتوجهٌ لله عَزَّوَجَلَّ وحده... ولا بد أن تكون المتابعة فيها للنبي ﷺ وأن يستن بسنته، ويفعل ما جاء به، ولا يخترع، ولا يُشرع مع الله سبحانه تبارك وتعالى لنفسه ولا لغيره.

❖ وأما حق العباد على الله:

فهم إذا فعلوا العبادة فلهم حقٌ... وليس العبد هو الذى فرض الحق على ربه سبحانه.. وإنما ربنا هو الذى ألزم نفسه بذلك بفضلته وكرمه (سبحانه وتعالى).. فهو كتب على نفسه كتاباً وجعله فوق عرشه: «إن رحمتى تسبق غضبى»، لا يلزمه أحد، ومن يقدر أن يلزم الله سبحانه وتعالى.... هو ألزم نفسه أن رحمته

(١) العقيدة فى الله/ د. عمر الأشقر (ص ٢٨٤، ٢٨٥).

تسبق غضبه، وألزم نفسه سبحانه أنه يعطى هؤلاء العباد إذا عبدوه حقاً لهم على الله سبحانه أنه لا يعذبهم.

❦ قال ﷺ: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لم يشرك به شيئاً»... كلمات سيرة قليلة. ولكنها تحوى كل أنواع الرحمة من الرحمن الرحيم (جل وعلا).
فهنا الحديث وإن قلت كلماته لكن معانيه عظيمة كبيرة قد يضيق عنها أفق البعض من الناس... فلذلك لما قال معاذ للنبي ﷺ: (يا رسول الله! أفلا أبشر الناس؟) أى: بأن الذى سيموت وهو يقول: لا إله إلا الله سيدخل الجنة؟

(قال: لا تبشرهم فيتكلوا)، أى: يتكلوا على قول: لا إله إلا الله ويتركوا العمل إن أساءوا فهم ذلك... وقد قال الله ﷻ في كتابه: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

قد يقول العبد: أنا لا أصلى ولا أصوم ولا أعمل إلا بقول: لا إله إلا الله، ومن قال: لا إله إلا الله دخل الجنة! وفي حديث آخر: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) وما يدريك أنك تقدر أن تنطق بهذه الكلمة في آخر حياتك أم لا تقدر عليها؟ وكم من إنسان وهو في سياق الموت يُقال له: قل لا إله إلا الله فلا يقدر على أن يقول هذه الكلمة! ولعله يتكلم بأى شىء آخر وعند هذه الكلمة لا يقدر أن ينطق بها... فهى كلمة عزيزة وغالية، وكلمة لا يقدر عليها كل إنسان في حال وفاته.

فإن الذى يعيش على (لا إله إلا الله) هو الذى يموت على (لا إله إلا الله).
فمن مات على (لا إله إلا الله) ولم يُشرك بالله شيئاً رجونا له هذه البشارة بأن لا يُعذبه الله ﷻ وأن يُدخله الجنة.

لأن نفى الشرك يدل على الإخلاص والتوحيد... ولا إخلاص وتوحيد إلا بعبادة.



❖ فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ فقال: «لا تبشرهم فيتكلوا».

يعنى: لا تبشرهم فيتكلوا على ما يجب، ولا يقوموا بما ينبغى أن يقوموا به من النوافل... ولكن معاذاً ﷺ أخبر بها عند موته تأثماً... يعنى خوفاً من إثم كتمان العلم فأخبر بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣٢) وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، فذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] (١).

❖ إن الإنسان إذا دخل في قبره تُعاد إليه الروح ليس كهيتها في الدنيا ولكن باتصال برزخى الله عز وجل أعلم به.

(ويأتيه ملكان شديدا الانتهاز يُجلسانه وينتهرانه ويسألانه: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في هذا الرجل الذى أرسل إليكم؟ فإذا كان مؤمناً قال: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبى محمد صلوات الله وسلامه عليه).

❖ وهذا هو محض فضل الله عز وجل حيث قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧].

يخبر الله تعالى أنه ثبت عباده المؤمنين أى: الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام، الذى يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبتهم الله في الحياة الدنيا، عند ورود الشبهات، بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها.

وفي الآخرة عند الموت، بالثبات على الدين الإسلامى، والخاتمة الحسنة،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٩٩) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٧١) كتاب الجنة.

وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «مَنْ ربك؟ وما دينك؟ وَمَنْ نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي».

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة.

وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم ... وفي هذه الآية، دلالة على فتنة القبر، وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ، في الفتنة وصفتها، ونعيم القبر وعذابه^(١).

وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يُسأل: مَنْ ربك وما دينك وَمَنْ نبيك؟

✽ وأما إذا كان العبد كافراً فاجراً يأتيه ملكان ينهرانه ويُجلسانه، ويسألانه السؤال نفسه: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول مثلما كان حاله في الدنيا... يقول: هاه هاه لا أدري.

فلا يقدر أن يقول: لا إله إلا الله، ولا يقدر أن يجيب إلا بذلك... فقد كان في الدنيا يتهمهم بالمؤمنين وهو الآن في قبره لا يستطيع أن يقولها ولا يستطيع أن يجيب على أسئلة الملكين... فيقولان له: لا دريت ولا تليت.

فيضربانه ضربة بمرزبة من نار... هذه الضربة لو ضرب بها جبل لصار تراباً... ويُفرش له لوحان من النار، يوضع له لوح من النار فوقه ولوح تحته ويرى منزله من الجنة لو أطاع الله يقولان له: كنت ستذهب الجنة في هذا المقعد لو أطعت الله... وهنا يتحسر على نفسه. ويُعَذَّب في قبره إلى أن تقوم الساعة... قال ﷺ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ

(١) تفسير السعدي (ص ٤٨٤).

حَدِيدُ ضَرْبَةٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»^(١).

❁ وقد يسأل سائل ويقول: ما صفة الملكين في القبر وما اسمهما؟

ويأتيك الجواب من رسول الله ﷺ حيث يقول:

« إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَنَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يَنْفَسُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يَنْوِرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنُومَةِ الْعُرُوسِ الَّتِي لَا يَوْقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُتَأَفِّقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمِ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ »^(٢).

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شرح الواسطية: ورد في بعض الآثار أن اسمهما منكراً ونكيراً ... وأنكر بعض العلماء هذين الاسمين، وقالوا: كيف يُسَمَّى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف الثناء بهذين الاسمين المنكرين .. وضعفوا الحديث الوارد في ذلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حُجَّةٌ، وأن هذه التسمية ليس لأنهما مُنْكَرَانِ من حيث ذواتهما، ولكنهما من حيث أن الميت لا يعرفهما وليس له بهما علمٌ سابق ... وقد قال إبراهيم عليه السلام: لأضيافه الملائكة قومٌ مُنْكَرُونَ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لأنه لا يعرفهم.

فهذان منكراً ونكيراً؛ لأنهما غير معروفين للميت ... ثم هذان الملكان، هل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٧٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٧٨٠) كتاب الجنة.

(٢) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٤).

هما ملكان جديدان موكلان بأصحاب القبور، أم هما الملكان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟!

منهم من قال: إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء .. فَإِنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَلَكَيْنِ فِي الدُّنْيَا يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ، وَفِي الْقَبْرِ يَسْأَلَانِهِ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ الثَّلَاثَةُ... وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ هُمَا مَلَكَانِ آخَرَانِ... وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدرثر: ٣١] والملائكة خلق كثير... قال: فالمهم أنه لا غرابة أن ينشئ الله تعالى لكل مدفون ملكين يرسلهما إليه، والله على كل شيء قدير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣٣) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمَلَ حَسَنَةً، أُطِعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَدْخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ».

وفي رواية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ، فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»^(٢).

❁ لا بد أن نعلم أن فضل الله عظيم على جميع خلقه ولذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً» أى: لا يترك مجازاته بشيء من حسناته.. بل إن الله يعامل المؤمن بفضله لا بعدله.. فيضاعف له الحسنة إلى عشرة أمثالها وإلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك.. لأن المؤمن الذى يريد الله والدار الآخرة فإن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ يجزل له المثوبة والعطاء.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

(١) شرح الواسطية (٣٤٠-٣٤١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٨) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] فالمؤمن يعطيه الله ويجزيه على عمله الصالح في الدنيا والآخرة... كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ».

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].
فأما في الدنيا فيرزقه ويُعافيه ويوفقه ويُسدده ويوسع عليه من كل أصناف الرزق فيرزقه بالأموال والأولاد والخيرات... ثم يجزيه في الآخرة بأن يُيسر حسابه ويدخله جنته ويشمله برحمته ورضوانه.

✽ أما الكافر فإنه إذا عمل حسنة في الدنيا فإن الله ﷻ يُطعمه بها ويفتح عليه بها من خيرات الدنيا لكن ليس له أى ثوابٍ في الآخرة لأنه لا يدخل الجنة إلا أهل التوحيد والإيمان.

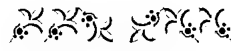
قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [١٥] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

قال الإمام النووي رحمه الله: أجمع العلماء على أَنَّ الْكَافِرَ الَّذِي مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ لَا ثَوَابَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُجَازَى فِيهَا بِشَيْءٍ مِّنْ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مُتَقَرِّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى... وَصَرَّحَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ يُطْعَمُ فِي الدُّنْيَا بِمَا عَمِلَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَيْ بِمَا فَعَلَهُ مُتَقَرِّبًا بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا لَا يَفْتَقِرُ صِحَّتُهُ إِلَى النِّيَّةِ كَصَلَةِ الرَّحِمِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَتَقِ وَالصِّيَافَةِ وَتَسْهِيلِ الْخَيْرَاتِ وَنَحْوِهَا.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتُهُ وَثَوَابُ أَعْمَالِهِ إِلَى الْآخِرَةِ وَيُجْزَى بِهَا مَعَ ذَلِكَ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا وَلَا مَانِعَ مِنْ جَزَائِهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ... وَقَدْ وَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ فَيَجِبُ اعْتِقَادُهُ.



وَأَمَّا إِذَا فَعَلَ الْكَافِرُ مِثْلَ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ ثُمَّ أَسْلَمَ فَإِنَّهُ يُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ^(١).



(٤٣٤) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمِثْلِ نَهْرِ جَارٍ غَمَرٍ عَلَى بَابٍ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ»^(٢).

✽ فهذا الحديث فيه الرجاء العظيم ... فهو يضرب لك هذا المثال: نهرٌ أمام بيتك تغتسل كل يوم في هذا النهر ثم تخرج نظيفاً وتدخل البيت، ثم تغتسل مرة ثانية وتخرج نظيفاً إلى البيت، وهكذا خمس مرات كل يوم.

قال ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم».

قوله: «نهر جار» لأنه إذا كان الماء واقفاً قد يتعفن؛ لأنه واقف، أما الجارى فيتبدل، والماء مع تغيُّره وجريانه يكون ماءً نقياً.

والغمر: الكثير ... فالماء ليس قليلاً، «غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات» هل يُبقى ذلك من درنه شيئاً؟
الجواب: أنه لا يُبقى ذلك من الدرن شيئاً.

وفي رواية: «فكذلك الصلوات الخمس»، فالمؤمن يواظب على الصلوات حيث يُنادى بهن، يرجو رحمة الله سبحانه فالصلاة فيها تكفيرٌ للسيئات، وفيها رفعٌ للدرجات، وفيها من الله عَزَّ وَجَلَّ ما فيها من ثوابٍ عظيم يوم القيامة ... تتوضأ لأجل أن تصلى فإذا بالخطايا تتساقط من أعضاء الوضوء، ومع غسل كل عضو تتساقط الخطايا.

إذا جئت إلى الصلاة جُمعت السيئات التى عملتها ووضعت فوق منكبيك،

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٢٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
«الْغَمْرُ» الْكَثِيرُ.

فإذا قمت تساقطت، وإذا ركعت تساقطت، وإذا سجدت تساقطت، وإذا أنهيت الصلاة فقرأت آية الكرسي لم يمنعك من دخول الجنة إلا أن تموت ... فإذا سبّحت الله ثلاثاً وثلاثين، وحمدت الله ثلاثاً وثلاثين، وكبرت الله ثلاثاً وثلاثين، وختمت بلا إله إلا الله غُفرت ذنوبك وإن كانت مثل زبد البحر ... ففي الصلوات الخمس تفعل ذلك.

وقبل أن تنام تُسبح الله عَزَّوَجَلَّ وتحمده وتكبره كما في الصلاة، إلا أن التكبير يكون أربعاً وثلاثين فيكون العدد مائة ... فهل تعمل من السيئات مثل هذا العدد؟ فالله عَزَّوَجَلَّ يجعل السيئة واحدة، ويجعل الحسنات مضاعفة حتى ترجو رحمته سبحانه، وتستعين به على عبادته سبحانه، وتواظب على هذه العبادة.

أما مَنْ اغْتَرَّ بِذَلِكَ وقال: أنا صليت في النهار كذا وكذا ... وسبّحت في النهار كذا وكذا ... فمن حقى أن أعمل ما أريد من الذنوب، فهذا مغرورٌ بعمله محتقر عذاب رب العالمين سبحانه ... فالإنسان بمواظبته على الذنوب كأنه يحتقر العقوبة من الله فكان حقيقاً بأن يُعَذَّبَ ويُعَاقَبَ يوم القيامة.

أما الإنسان الذي يتواضع في مشيه، والذي يعلم أن الله قادر عليه، وأنه يغفر بفضلِهِ ورحمته ... وأنه لا يستحق شيئاً إلا أن يتقبل منه الله سبحانه، فهذا يستحق من الله المغفرة والتوبة عليه ... وهذا كله محض فضل الله عَزَّوَجَلَّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣٥) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ» ^(١).

❖ هذا الحديث له رواية أخرى أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلَّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨) كتاب الجنائز.

مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً، كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ، إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ»^(١).

فهذا الحديث العظيم فيه عبرة للإنسان ليعرف مَنْ يصاحب.

فأهل الدنيا يأتون بالميت ويضعونه في المسجد ثم يقفون في الخارج ولا يصلون مع الناس ... والذي يصاحب أهل العبادة والطاعة عندما يموت يجرى الكل يتوضأ لأجل أن يصل على عليه، ويقفون على قبره يدعون له، ويسألون الله عَزَّوَجَلَّ له التثبيت، وإذا رجعوا إلى بيوتهم انشغلوا به هل عليه دينٌ أو حاجة فُسد عنه؟ والأخ ينفع أخاه ... ومن النفع العظيم أن المؤمن إذا مات فصلى عليه أربعون لا يشركون بالله شيئاً يقولون: يا رب اغفر له، فيدعون ربهم سبحانه وتعالى، فيُشفعهم الله عَزَّوَجَلَّ فيه ويغفر له.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قال القاضي:

قِيلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ خَرَجَتْ أَجْوِبَةً لِسَائِلِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ سُؤَالِهِ ... هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ بِقَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ فَأَخْبَرَ بِهِ ثُمَّ بِقَبُولِ شَفَاعَةِ أَرْبَعِينَ ثُمَّ ثَلَاثِ صُفُوفٍ وَإِنْ قَلَّ عَدْدُهُمْ فَأَخْبَرَ بِهِ ... وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ هَذَا مَفْهُومٌ عَدَدٍ وَلَا يَحْتَاجُ بِهِ جَمَاهِيرُ الْأُصُولِيِّينَ فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ قَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ مَنَعُ قَبُولِ مَا دُونَ ذَلِكَ وَكَذَا فِي الْأَرْبَعِينَ مَعَ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ وَحَيْثُ كُلُّ الْأَحَادِيثِ مَعْمُولٌ بِهَا وَيَحْصُلُ الشَّفَاعَةُ بِأَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ مِنْ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ وَأَرْبَعِينَ^(٢).

فهذه ثمرة الصُّحبة الطيبة .. فالصَّاحب المؤمن يشفع لأخيه ويدعو له عند موته.. وإن أُذن له بالشفاعة يوم القيامة فإنه يشفع لأخيه ليكون في صُحبته في الجنة.. ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٧) (٥٨) كتاب الجنائز.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/٢٤-٢٥).

(٤٣٦) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنْ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»^(١).

❖ ففى هذا الحديث يقول ابن مسعود رضي الله عنه: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قُبَّةٍ نَحْوًا مِنْ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟»

ليس معنى الحديث أن هؤلاء الأربعين هم الذين سيدخلون الجنة وغيرهم لا يدخلها... لكنه ﷺ يقصد أمة الإسلام الذين يدخلون وهم في أهل الشرك كنسبة الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود.

والمقصود: أن عدد المؤمنين بجوار عدد أهل الشرك قليل، فإذا كانوا يوم القيامة تَفَضَّلَ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَأَدْخَلَهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ الْجَنَّةَ وَجَعَلَهُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

❖ ولقد جاء في رواية أن النبي ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَلِيَأْتِينَ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَإِنَّهُ لَكَظِيطٌ مِنَ الزَّحَامِ»^(٢).

وهذا دلالة على سعة أبواب الجنة، وأنها أبوابٌ مفتوحة على الدوام لا تُغلق أَبَدًا ❖ جَنَّتٍ عَدْنٍ مُفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ❖ [ص: ٥٠]، «وَفِي تَفْتِيحِ الْأَبْوَابِ لَهُمْ إشارَةٌ إِلَى تَصَرُّفِهِمْ وَذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ وَتَبَوُّئِهِمْ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءُوا.. وَدُخُولِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ كُلِّ وَقْتٍ بِالتُّخَفِّ وَالْمَفَاجَأَتِ مِنْ رَبِّهِمْ وَدُخُولِ مَا يَسُرُّهُمْ عَلَيْهِمْ كُلِّ وَقْتٍ.. وَأَيْضًا إشارَةٌ إِلَى أَنَّهَا دَارُ أَمْنٍ لَا يَحْتَاجُونَ فِيهَا إِلَى غَلْقِ الْأَبْوَابِ كَمَا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٢٨) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٢١) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٧) كتاب الزهد والرقائق.

كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا»^(١).

وهذا الزحام على أبواب الجنة دلالة أيضاً على كثرة من يدخلون الجنة، لكن الأماكن محدودة، والأعداد غفيرة من لدن آدم ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... فكم سيكون نصيبنا -نحن أمة محمد- من مقاعد الجنة؟! هذا رسول الله ﷺ يقسم أمام الصحابة مبشراً: «والذي نفسي بيده أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبر الصحابة، فقال: «أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فكبروا. فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة»، فكبروا.

قال الإمام النووي رحمه الله: «أما تكبيرهم فليسروهم بهذه البشارة العظيمة وأما قوله ﷺ: رُبِعَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ثُمَّ ثُلُثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ثُمَّ الشَّطْرُ وَلَمْ يَقُلْ أَوْ لَا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فلفائدة حسنة وفي أن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم... فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته... وفيه فائدة أخرى هي تكريره البشارة مرة بعد أخرى وفيه أيضاً حملهم على تجديد شكر الله تعالى وتكبيره وحمده على كثرة نعمة الله وأعلم... ثم إنه وقع في هذا الحديث شطر أهل الجنة وفي الرواية الأخرى نصف أهل الجنة»^(٢).

❁ لكن هل سنكون نصف أهل الجنة كما كان يرجو رسول الله؟!

والجواب: لا الربع ولا الثلث ولا النصف.

بل أكثر!!

والدليل على ذلك قول النبي ﷺ في ما رواه عنه بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»^(٣).

(١) حادي الأرواح (ص ٤٠).

(٢) مسلم بشرح النووي (٣/ ١٢٠-١٢١).

(٣) صحيح نزواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٢٦).

فهذا دليل على أن أمتنا ستشكل ثلثي أهل الجنة ... فيكون النبي ﷺ أخبر أولاً بحديث الشطر وهو رجاؤه من ربه، ثم تفضل الرب سبحانه بالزيادة على هذا ... وهو والله تدليل لكل فرد من أفراد هذه الأمة، وهدية ثمينة مقدمة لها من الرب لم تحظ بها غيرها من الأمم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣٧) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَائُكَ مِنَ النَّارِ». وفي رواية عنه عن النبي ﷺ قال: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ يَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ»^(١).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: «دَفَعَ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ: هَذَا فِكَائُكَ مِنَ النَّارِ» معناه ما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لِكُلِّ أَحَدٍ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَالْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ خَلَفَهُ الْكَافِرُ فِي النَّارِ»، لَأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لذلك بِكُفْرِهِ... ومعنى «فِكَائُكَ»: أَنَّكَ كُنْتَ مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّارِ وَهَذَا فِكَائُكَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لِلنَّارِ عَدَدًا يَمْلَأُهَا، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكَافِرُ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، صَارُوا فِي مَعْنَى الْفِكَائِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

❁ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦٧) كتاب التوبة.

(٢) رياض الصالحين (ص ١٦٠).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٩٩).

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلّقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له... فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلّقوا له، أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عَزَّوَجَلَّ. فالعبد المؤمن إذا كان في قبره وأجاب على أسئلة الملكين يُقال له: انظر.. فينظر إلى مكانٍ في النار فيُقال له: هذا منزلك لو مت على غير ذلك... أو لو كنت كافرًا من أهل النار.. ولكن انظر فهذا منزلك.. فينظر فيرى منزله في الجنة فيفرح ويقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي... أى: حتى أدخل منزلي في الجنة.

أما الكافر فإنه لا يُجيب على أسئلة الملكين فيُقال له: انظر فهذا منزلك لو كنت مت على الإيمان.. فيرى منزلًا في الجنة.. فيُخلق هذا المشهد وتُفتح له نافذة على النار ويرى منزله في النار فيُقال له: هذا منزلك لأنك كفرت بالله (جل وعلا)... فالمؤمن يرث منزل الكافر في الجنة لأن الكافر دخل النار... والكافر يرث منزل المؤمن الذي في النار لأن المؤمن دخل الجنة وإذا دخل الكفار النار تظل النار تشتعل وتضطرم على أصحابها وتقول: «هل من مزيد» حتى يضع الجبار قدمه فيها فتقول: قط.. أى: قد اكتفيت لا أريد شيئًا بعد ذلك.. أما الجنة فإنه من رحمة الله (جل وعلا) أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ويظفر كل واحدٍ منهم بنعيم لا يخطر على قلب بشر فإنه يبقى في الجنة فضلًا فيخلق الله خلقًا جديدًا ويُسكنهم فضل الجنة.

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ: «لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة قدمه فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط بعزتك وكرمك... ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى يُنشئ الله لها خلقًا فيُسكنهم فضل الجنة»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٨٤) كتاب التوحيد-ومسلم (٢٨٤٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.



وأما اللفظ الذى وقع فى صحيح البخارى فى حديث أبى هريرة: «وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقى فيها فتقول هل من مزيد» فغلط من بعض الرواة.

فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنْ إِبْلِيسَ وَأَتْبَاعِهِ ... فَإِنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ ... قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝۸﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝۹﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿الملك: ۸-۱۰﴾ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَمَّا رَوَايَةُ: «يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ» فَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيُسْقِطُهَا عَنْهُمْ وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ... فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ ... وَلَا بَدَنٍ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وَقَوْلُهُ: «وَيَضَعُهَا» مَجَازٌ وَالْمُرَادُ: يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ.

لَكِنْ لَمَّا أَسْقَطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ سَيِّئَاتِهِمْ صَارُوا فِي مَعْنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ لِكُونِهِمْ حَمَلُوا الْإِثْمَ الْبَاقِي وَهُوَ إِنْهُمْ ... وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَثَامًا كَانَ لِلْكَفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا بِأَنْ سَنُّوْهَا فَتَسْقُطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُوضَعُ عَلَى الْكُفَّارِ مِثْلُهَا لِكُونِهِمْ سَنُّوْهَا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ سَيِّئَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا .. وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(١).

(٤٣٨) وَعَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُدْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَفَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقْرَأُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/١٣٣-١٣٤).

أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فيقول: رَبِّ أَعْرِفُ، قال: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ»^(١).

✽ نحن نعلم أنه ما من عبدٍ إلا وله ذنوبٌ تعتريه الفينة بعد الفينة.. وذلك لأنه ليس هناك أحدٌ معصوم إلا الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) .. فإذا كان يوم القيامة فإن الله ﷻ من كمال رحمته أنه يُدنى عبده المؤمن ويضع عليه كنفَهُ ويستره ثم يسأله ويُقرره بذنوبه ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ وإذا بالعبد المؤمن يقول: رب أعرف.

وفي هذه اللحظة قد يظن العبد أنه قد هلك وأنه من أهل النار.. وإذا بالعزیز الغفار يقول له: «فإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ».

وذلك لأن كل عبدٍ له صحيفة مُسَجَّلَةٌ فيها أعماله خیرها وشرّها... وهذه الصحيفة كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها... وفي المحشر يُعطى كتابه ليقراء وينظر أعماله.

وتختلف الطريقة التي يُؤْتَى بها العباد كتبهم: فأما المؤمن فإنه يُؤْتَى كتابه بيمينه من أمامه بعد مُحاسبته الحساب اليسير، وينقلب إلى أهله مسروراً...

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِإِيمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبِي ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤].

وأما أهل المعاصي والنفاق فإن أحدهم يُؤْتَى كتابه بشماله من وراء ظهره، وعند ذلك يدعو أحدهم بالويل والثبور.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤١) كتاب المظالم - ومسلم (٢٧٦٨) كتاب التوبة.
كَنَفُهُ: سَتْرُهُ وَرَحْمَتُهُ.



كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كَذِبَهُ، وَرَأَى ظَهْرَهُ، ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كَذِبَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَزَأْتُ كَذِبِيَّةً ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَذِرْ مَا حَسَابِيَّةً ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يدني الله العبد منه يوم القيامة ويضع عليه كنفه فيستره من الخلائق كلها ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر فيقول له: اقرأ يا ابن آدم كتابك ... قال: فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه، ويمر بالسيئة فيسود لها وجهه، قال: فيقول الله تعالى له: أتعرف يا عبيدي؟ قال: فيقول نعم يا رب أعرف، قال: فيقول: (فإني) أعرفُ بها منك، قد غفرتها لك ... قال: فلا تزال حسنة تُقبل فيسجد وسيئة تُغفر فيسجد فلا يرى الخلائق منه إلا ذلك حتى ينادى الخلائق بعضها بعضًا: طوبى لهذا العبد الذي لم يعص قط ... فلا يدرون ما قد لقي فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٣٩) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجل: ألي هذا يا رسول الله؟ قال: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ»^(٢).

(٤٤٠) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمُّهُ عَلَيَّ، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا قَضَى

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد (ص: ٢١٥) في زوائد الزهد بإسناد حسن.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

الصَّلَاةُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا، فَأَقِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلَاةَ؟» قَالَ: نَعَمْ قَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَكَ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث أن رجلاً سوَّلت له نفسه فأصاب من امرأة قبله فجاء إلى النبي ﷺ بوازع من إيمانه فإنه لم يُجبره أحدٌ على الذهاب إلى النبي ﷺ والاعتراف بين يديه ﷺ.. فقال للنبي ﷺ: إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمَّهُ عَلَيَّ.

فسكت النبي ﷺ.... وحضرت الصلاة فقام هذا الرجل وصلى مع النبي ﷺ فلما قُضيت الصلاة لم يفضحه النبي ﷺ ولم يُفشِ سره أمام الصحابة.. بل قال له بكل رحمة: «هل حضرت معنا الصلاة؟» قال الرجل: نعم يا رسول الله.. فقال له ﷺ: «قد غُفِرَ لَكَ».. وفى الرواية الأخرى أن الله عزَّ وجلَّ تفضَّل على هذا العبد المذنب وأمثاله بأن غفر له ذلك بصلاته لله عزَّ وجلَّ فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَهَارِ وَرُكُفًا مِّنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

(فرح الرجل بذلك فقال للنبي ﷺ: أَلَيْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! فقال: لجميع أمتي كلهم).

وقد جاء أن العبد إذا أذنب ذنباً فتوضأ وصلى لله أن الله يكفر عنه هذا الذنب بصلاته هذه.

❁ وعن أبى أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَامَ إِلَى وَضُوئِهِ يَرِيدُ الصَّلَاةَ، ثُمَّ غَسَلَ كَفَّيْهِ، نَزَلَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مِنْ كَفَّيْهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ، فَإِذَا مَضَى وَاسْتَنَشَقَّ وَاسْتَنْشَرَّ، نَزَلَتْ خَطِيئَتُهُ مِنْ لِسَانِهِ وَشَفْتَيْهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ، فَإِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ، نَزَلَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ مَعَ أَوَّلِ قَطْرَةٍ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٢٣) كتاب الحدود، ومسلم (٢٧٦٤) كتاب التوبة.

وقوله: «أَصَبْتُ حَدًّا» معناه: مَعْصِيَةٌ تُوجِبُ التَّعْزِيرَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْحَدَّ الشَّرْعِيَّ الْحَقِيقِيَّ كَحَدِّ الزَّنا وَالْخَمْرِ وَغَيْرِهِمَا، فَإِنَّ هَذِهِ الْحُدُودَ لَا تَسْقُطُ بِالصَّلَاةِ، وَلَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ تَرْكُهَا.

ورجليه إلى الكعبين، سلم من كل ذنب كهيئته يوم ولدته أمه. (قال:) فإذا قام إلى الصلاة رفع الله درجته، وإن قعد قعد سالماً^(١).

✽ وعن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تَوَضَّأَ فَيُحْسِنُ وُضْوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(٢).

وذلك لأن الإنسان إذا توضأ على الصفة الصحيحة للوضوء خرجت خطاياه ... وإذا صلى وقد فرغ قلبه لله كفر الله عنه ذنوبه وسيئاته.

فلا بد من ملاحظة هذا القيد؛ لأن من الناس مَنْ يُصَلِّي ولكنه ينصرف من صلاته ما كُتب له إلا عشرها أو أقل؛ لأن قلبه غافل وكأنه ليس في صلاة بل كأنه يبيع ويشترى أو يعمل أعمالاً أخرى حتى تنتهى الصلاة.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ فِي الَّذِي أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ✽ «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ✽ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ ... هَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ الْحَسَنَاتِ تُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْحَسَنَاتِ هُنَا فَنَقَلَ الشَّعْلِيُّ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ واختاره ابن جرير وغيره من الأئمة.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ قَوْلُ الْعَبْدِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ الْحَسَنَاتِ مُطْلَقًا^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»^(٤).

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٢٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٧/١٢٤).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء.

«الأكْلَةُ» بفتح الهمزة وهي المرّة الواحدة من الأكل كالأغدوة والعشوة، والله أعلم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» الْأَكْلَةُ وَهِيَ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْأَكْلِ كَالْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ... وفيه استحباب حمد الله تعالى عَقِبَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ... وَقَدْ جَاءَ فِي الْبُخَارِيِّ صِفَةُ التَّحْمِيدِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُودَعٍ وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا... وَجَاءَ غَيْرُ ذَلِكَ وَلَوْ اقْتَصَرَ عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ حَصَلَ أَصْلُ السُّنَّةِ^(١).

يا ترى هذه الأكلة والشربة لو فقدها الإنسان كم يدفع فيها؟ لو أنه في مكانٍ صحراوي حار لا ماء فيه وهو يريد شربة ماء كم سيدفع في هذه الشربة لمن يعطيه إياها؟ سئل ملك من ملوك بني أمية عن ذلك: لو مُنعت شربة الماء كم تدفع فيها؟ قال: نصف ملكي.

قيل: لو شربت هذه الشربة فلم تخرج منك فحُبِسَ عنك البول فكم ستدفع لإخراجها؟ قال: مُلْكِي كله!.... يدفع في شربة ماء محروم منها نصف ملكه، وفي إخراج هذه الشربة من جسده يدفع ملكه كله، فكم ثمن هذه الشربة؟ إذا: ثمنها عظيم... فهل دفعت هذا الثمن لله ﷻ؟ لم ندفع شيئاً، وقد رضى من العبد أن يقول: الحمد لله... رضى منه أن يشكره سبحانه وتعالى، «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا» يرضى عن عبده، وأيضاً يجعل الله هذا الذي قاله أحب إليه من النعمة التي أنعمها على العبد... فالله ينعم على العبد بنعمة فإذا شكر العبد ربه على هذه النعمة، كان الشكر من العبد أحب إلى الله من النعمة التي أعطاهها لهذا العبد.

انظروا إلى كرم الله سبحانه كيف يتفضل على العبد فيعطيه النعم، ويُلهمه أن يشكره، ثم يرضى منه على ما هو فضله هو... فسبحان الله العظيم وله الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

إذا عرف العبد ربه استراح، وعبدَ ربه سبحانه حتى يلقاه فيريحه بجنته:
﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٩].

فاللهم اجعلنا من عبادك الشاكرين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤٢) وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

✽ في البداية لا بد أن نعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى يدين اثنين، مبسوطتين بالعطاء والنعم. وهما من صفاته الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه اللائق به.

وقد دَلَّ على ثبوتهما الكتاب والسنة.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدِي﴾ [ص: ٧٥]
ومن أدلة السنة قوله، ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يُغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يُغْضُ مَا فِي يَدِهِ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ»^(٢).

وقد أجمع أهل السنة على أنهما يدان حقيقتان لا تُشبهان أيدي المخلوقين، ولا يصحُّ تحريف معناهما إلى القوة، أو النعمة أو نحو ذلك لوجوه منها:
أولاً: أنه صرفٌ للكلام عن حقيقته إلى مجازه بلا دليل.

ثانياً: أنه معنى تأباه اللغة في مثل السياق الذي جاءت به مُضافة إلى الله تعالى... فإن الله قال: ﴿لِمَا خَلَقْتَ بِيدِي﴾، ولا يصح أن يكون المعنى لما خلقت

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) كتاب الزكاة.

بنعمتى، أو قوتى.

ثالثاً: أنه ورد إضافة اليد إلى الله بصيغة التثنية، ولم يرد في الكتاب والسنة ولا في موضع واحد إضافة النعمة والقوة إلى الله بصيغة التثنية فكيف يُفسر هذا بهذا؟! رابعاً: أنه لو كان المراد بهما القوة لصحَّ أن يُقال: إن الله خلق إبليس بيده ونحو ذلك. وهذا ممتنع... ولو كان جائزاً لاحتجَّ به إبليس على ربه حين قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ [ص: ٥٧].

خامساً: أن اليد التى أضافها الله إلى نفسه تصرفت تصرفاً يمنع أن يكون المراد بها النعمة، أو القوة... فجاءت بلفظ اليد، والكف، وجاء إثبات الأصابع لله تعالى، والقبض، والهز... كقوله، ﷺ: «يقبض الله سماواته بيده والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن ويقول: أنا الملك».

وهذه التصرفات تمنع أن يكون المراد بها النعمة، أو القوة^(١).

❦ وفي هذا الحديث قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فالمؤمن يرجو رحمته الله ومغفرته لأنه يعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء وأن رحمته سبقت غضبه وأن رحمته غلبت غضبه.

وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ».

والمعنى: أن الله ﷻ يقبل توبة عباده ليل نهار... فالله ﷻ هو الذى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، والله على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء مهما تعاظم ذنب الإنسان، فرحمة الله

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين (٤/٥٦-٥٧).

أعظم... فمهما كثرت خطايا الإنسان فإن رحمة الله أكثر وأكبر وأعظم...
فجعل باباً للتوبة مفتوحاً لا يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها.

وهنا عبّر بهذه الكلمة الطيبة الجميلة: أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار.... وكأنه (جل وعلا) يدعو عبده للتوبة ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ لأن من عادة البشر فيما بينهم أنه إذا بسط الإنسان يده لأخيه فكأنه يقول له: تعال إليّ...

ولله المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١).

فالله يبسط يده لعبده ليتوب ويرجع إليه.. وكأنه يقول له: تعال إليّ أيها العبد المذنب لأتوب عليك وأغفر لك ذنوبك وأرحمك وأدخلك جنتي....

ونحن نعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا نزلًا يليق بجلاله وكماله وينادي على عباده ويقول لهم: هل من تائب فأتوب عليه؟! هل من مُستغفر فأغفر له؟! هل من سائل فأعطيه؟!

(هل من تائب فأتوب عليه؟! هل من مستغفر فأغفر له؟! هل من سائل فأعطيه؟!).

ويظل فيكرر تلك الأسئلة الثلاثة حتى يطلع الصبح.

فالله عَزَّوَجَلَّ كريمٌ رحيمٌ ودودٌ يقبل من عباده توبتهم ويُثيبهم الأجر.

بل وقد يُبدل سيئاتهم إلى حسنات فضلاً منه وكرماً سبحانه... فيبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار... فمن أساء بالنهار لا ينتظر النهار الآخر حتى يتوب إلى الله، ولكن ليتب حالاً إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن وقع في الذنب بالليل فليتب حالاً ولا ينتظر... فليتب إلى الله سريعاً... فالمعنى هنا: أن العبد مهما أذنب وتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه سبحانه.

فهذه التوبة مفتوحة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من

مغربها فإن ذلك من العلامات الكبرى لقيام الساعة التى إذا تحققت هذه العلامات كلها فإنه يُختم على أعمال العباد .. فمن كان كافراً لا يُقبل إيمانه فى تلك اللحظة .. ومن كان مؤمناً لا يستطيع أن يزداد خيراً.

قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا »^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالِدَّجَالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ »^(٢).

✽ ومن هنا يتضح لنا أنه لا تقبل توبة العبد فى حالتين:

(١) عند الغرغرة .. أي: عندما تبلغ الروح الحلقوم:

قال ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغْ »^(٣).

(٢) إذا طلعت الشمس من مغربها .. كما جاء في الحديث:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ يَسْطُ يَدُهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيئُ النَّهَارِ، وَيَسْطُ يَدُهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيئُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »^(٤).

وقال ﷺ: « إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ لَبَابًا مَسِيرَةٌ عَرَضُهُ سَبْعُونَ، أَوْ أَرْبَعُونَ، عَامًا،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٣٥) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٥٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٨) كتاب الإيمان.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٠٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٩) كتاب التوبة.

فَتَحَهُ اللَّهُ ﷻ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ^(١).

✽ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ مَعَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْدَثَ إِيمَانًا أَوْ تَوْبَةً بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ... وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا الدَّالَّةُ عَلَى اقْتِرَابِهَا وَدُنُوبِهَا، فَعُومِلَ ذَلِكَ الْوَقْتُ مُعَامَلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).
فجعل ﷻ غاية قبول التوبة هو طلوع الشمس من مغربها.

✽ وقد ذكر ابن حجر أحاديث وآثارًا كثيرة تدلُّ على استمرار قفل باب التوبة إلى يوم القيامة، ثم قال: «فهذه آثار يشدُّ بعضها بعضًا متَّفِقَةٌ عَلَى أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ مِنَ الْمَغْرِبِ؛ أَغْلَقَ بَابَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُفْتَحْ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِيَوْمِ الطُّلُوعِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣).

✽ قال القرطبي: «قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لِأَنَّهُ خَلَصَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفَرْعِ مَا تَخَمَّدَ مَعَهُ كُلُّ شَهْوَةٍ مِنْ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَتَفْتَرُّ كُلُّ قُوَّةٍ مِنْ قُوَى الْبَدَنِ، فَيَصِيرُ النَّاسُ كُلُّهُمْ لَا يَقَانِهِمْ بِدُنُوِّ الْقِيَامَةِ فِي حَالٍ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فِي انْقِطَاعِ الدَّوَاعِي إِلَى أَنْوَاعِ الْمَعَاصِي عَنْهُمْ، وَبُطْلَانِهَا مِنْ أَبْدَانِهِمْ... فَمَنْ تَابَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، كَمَا لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ»^(٤).

✽ فيا ليتنا نتوب إلى الله ﷻ قبل ألا نستطيع أن نتوب ... فهيا أخى الحبيب ارفع يديك إلى مَنْ يسمع ديبب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٢٩).

(٢) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/٢١٩-٢٢٢).

(٣) «فتح الباري» (١١/٣٥٤-٣٥٥).

(٤) «التذكرة» (ص ٧٠٦)، و«تفسير القرطبي» (٧/١٤٦).

الظلماء، واطلب منه أن يُعينك على التوبة وأن يغفر ذنوبك.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: «أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ وَذُلِّي إِلَّا رَحِمْتَنِي، أَسْأَلُكَ بِقُوَّتِكَ وَضَعْفِي، وَبِغْنَاكَ عَنِّي وَفَقْرِي إِلَيْكَ، هَذِهِ نَاصِيَتِي الْكَاذِبَةُ الْخَاطِئَةُ بَيْنَ يَدَيْكَ ... عِبِيدُكَ سِوَايَ كَثِيرٍ، وَلَيْسَ لِي رَبٌّ سِوَاكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجِيَّ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمَسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْخَاضِعِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دَعَاءَ الْخَائِفِ الضَّرِيرِ، سَوْأَلِ مَنْ خَضَعْتَ لَكَ رَقَبَتَهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّلَ لَكَ قَلْبَهُ».

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤْمِلُهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَازِرُهُ

لَا يَجْبُرُ النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤٣) وَعَنْ أَبِي نَجِيحٍ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجْلًا بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَاءً عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ» قُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي اللَّهُ» قُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكُسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ» قُلْتُ: فَمَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» وَمَعَهُ يَوْمِيذٌ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. قُلْتُ: إِنِّي مُتَّبِعُكَ، قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا. أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ؟ وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي» قَالَ: فَذَهَبْتُ إِلَى

أَهْلِي، وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ. وَكُنْتُ فِي أَهْلِي. فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الْأَخْبَارَ، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حَتَّى قَدِمَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِي الْمَدِينَةَ، فَقُلْتُ: مَا فَعَلَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدِمَ الْمَدِينَةَ؟ فَقَالُوا: النَّاسُ إِلَيْهِ سِرَاعٌ وَقَدْ أَرَادَ قَوْمُهُ قَتْلَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ، فَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ؟ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنِي؟ قَالَ: «نَعَمْ أَنْتَ الَّذِي لَقِيتَنِي بِمَكَّةَ» قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَرْتَفَعَ الشَّمْسُ قِيدَ رُمْحٍ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكَفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكَفَّارُ».

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَالْوُضُوءُ حَدَّثَنِي عَنْهُ؟ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فَيَتَمَضَّمُ وَيَسْتَشِيقُ فَيَنْتَثِرُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخِيَاشِمِهِ. ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لَحْيَيْهِ مَعَ الْمَاءِ.

ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أُنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أُنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى، وَأَتْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ تَعَالَى. إِلَّا أَنْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».

فَحَدَّثَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَبَا أُمَامَةَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ أَبُو أُمَامَةَ: يَا عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ، انْظُرْ مَا تَقُولُ فِي مَقَامِ وَاحِدٍ يُعْطَى هَذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَ عَمْرُو: يَا أَبَا أُمَامَةَ. فَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَاقْتَرَبَ أَجْلِي، وَمَا بِي حَاجَةٌ أَنْ

أَكْذَبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ مَرَاتٍ، مَا حَدَّثْتُ أَبَدًا بِهِ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ^(١).

❦ وفي حديث عمرو بن عبسة فوائد كثيرة منها: أن النبي ﷺ بدأ غريبًا خائفًا متخفيًا (عليه الصلاة والسلام) ... جاءه عمرو بن عبسة وقد رأى ما عليه أهل الجاهلية وأنهم ليسوا على شيء، فصار يتطلب الدين الصحيح الموافق للفطرة، حتى سمع بالنبي ﷺ في مكة، فجاء إليه، فوجده مستخفيًا في بيته، لم يتبعه إلا حرٌّ وعبدٌ - أبو بكر وبلال - لم يتبعه أحد.

وفي هذا: دليل على أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول مَنْ آمَنَ بالرسول عليه الصلاة والسلام، ثم آمَنَ بعده من الأحرار على بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ومن حكمة النبي ﷺ أنه قال لعمرو: «إنك لا تستطيع أن تعلن إسلامك في هذا اليوم، ولكن اذهب فإذا سمعت أني خرجت فأتني».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه قُلْتُ لَهُ إِنِّي مُتَّبِعُكَ عَلَى إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ هُنَا وَإِقَامَتِي مَعَكَ فَقَالَ: لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ لِضَعْفِ شَوْكَةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَخَافٍ عَلَيْكَ مِنْ أَدَى كُفَّارِ قُرَيْشٍ ... وَلَكِنْ قَدْ حَصَلَ أَجْرُكَ فَأَبْقَ عَلَى إِسْلَامِكَ وَارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ وَاسْتَمِرَّ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي مَوْضِعِكَ حَتَّى تَعْلَمَنِي ظَهَرْتُ فَأَتِنِي ... وَفِيهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٣٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

قوله: «جُرَاءٌ عَلَيْهِ قَوْمُهُ»: على وزن علماء، أي: جاسرون مُسْتَطِيلُونَ غَيْرُ هَائِينَ. هذه الرواية المشهورة، ورواه الحميدي وغيره: «جراء». وقال: معناه غَضَابُ ذُووِ غَمٍّ وَهُمْ، قد عِيلَ صَبْرُهُمْ بِهِ، حتى أَثَّرَ فِي أَجْسَامِهِمْ، من قولهم: حَرَى جِسْمُهُ يَحْرَى، إِذَا نَقَصَ مِنْ أَلَمٍ أَوْ غَمٍّ وَنَحْوِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ بِالْجِيمِ وَقَوْلُهُ ﷺ: «بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ» أي: ناحيتي رأسه. والمرادُ التَّمْثِيلُ. معناه أَنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْحَرُّ الشَّيْطَانُ وَشِيعَتُهُ. وَيَسْلُطُونَ. وقوله: «يُقَرَّبُ وَضُوءُهُ» معناه: يُحْضَرُ الْمَاءُ الَّذِي يَتَوَضَّأُ بِهِ. وقوله: «إِلَّا خَرْتُ خَطَايَاهُ»: أي سَقَطَتْ. ورواه بعضهم. «جرت» بالجيـم. والصحيح بالخاء، وهو رواية الجمهور. وقوله: «فَيَنْتَثِرُ» أي: يَسْتَخْرِجُ مَا فِي أَنْفِهِ مِنْ أَدَى، وَالنَّثْرَةُ: طَرْفُ الْأَنْفِ.

مُعْجَزَةٌ لِلنُّبُوَّةِ وَهِيَ إِعْلَامُهُ بِأَنَّهُ سَيَظْهَرُ^(١).

فذهب وأتى إليه بعد نحو ثلاث عشرة سنة في المدينة، بعد أن هاجر، وقال له: أتعرفني؟ قال: «نعم». وأخبره أنه يعرفه، لم ينسَ طوال هذه المدة.

ثم أخبره مما يجب عليه الله ﷻ من حقوق، ويُنَّ له أن الإنسان إذا توضأ وأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جميع أعضائه، وأنه إذا صلى فإن هذه الصلاة تُكفر عنه... فدلَّ ذلك على أن فضل الله ﷻ أوسع من غضبه، وأن رحمته سبقت غضبه... نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته إنه جوادٌ كريم^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤٤) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً أُمَّةً، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا قَرِطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةً أُمَّةً، عَذَّبَهَا وَنَبِيَّهَا حَيًّا، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ حَيٌّ يَنْظُرُ فَأَقْرَعَ عَيْنَهُ بِهَلَاكِهَا حِينَ كَذَبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ»^(٣).

✽ يخبر النبي ﷺ هنا أن الله ﷻ إذا أراد رحمة أمة قبض نبيها قبلها.. أى: توفاه ليكون صبرهم على المصائب به واحتسابهم ذلك زيادة في أجورهم.. فقد قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. وقال ﷺ: «إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بَيًّا، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ»^(٤).

فدلَّ مجموع الحديث والآية على أن المؤمن إذا صبر على مصيبته على فقد

(١) مسلم بشرح النووي (١٦٦/٦).

(٢) شرح رياض الصالحين (١٧٣/٢).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨٨) كتاب الفضائل.

(٤) صحيح: رواه البيهقي والطبراني في الكبير وابن عدى وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٧).

المصطفى ﷺ واحتسب ذلك عند مولاه أُجِر ... كما أن الإنسان إذا ذكر مصابه بمن تقدّم له من القرابة فاحتسب عند ذلك يُؤَجَّر.

(فجعله لها فرطاً) والفرط الذي يتقدم الوُرَادُ يُصلح لهم الحِياض والدلاء ونحوهما من أمور الاستقاء ... أى أنه المُهيئ لمصالحها في عُقبها من مزيد رحمته.

(وسلفاً) قال في «النهاية» قيل هو من سلف المال ... كأنه قد أسلفه وجعله ثمنًا للأجر والثواب الذي يُجَارَى به على الصبر عليه^(١).

❁ «وإذا أرادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ، عَذَّبَهَا وَنَبَّيْهَا حَتَّى، وَهُوَ يَنْظُرُ».

أى أن الله ﷻ إذا أرادَ هلاك أمة عَذَّبَهَا وَنَبَّيْهَا حَتَّى يَنْظُرَ ويرى عذابها وهلاكها ليُقرَّ الله عينه بهلاكها بسبب تكذيبهم لنبيهم وعصيانهم له ومخالفتهم لأمره وعداوتهم له.

❁ وعندما ذكر النبي ﷺ ذلك أمام أصحابه فلا شك أنهم كانوا يتساءلون: يا ترى هل سنكون من الصنف الأول أم الثانى ... هل سيموت النبي ﷺ ونحتسبه في الوقت الذي نتمنى فيه أن نفديه بأنفسنا وأولادنا وأزواجنا وأموالنا... أم أنه ﷺ سيرى هلاكنا وعذابنا إن عصيناه وخالفناه.

❁ فالنبي ﷺ رحمة لهذه الأمة.. ووجوده أمانٌ لهم ولذلك لما قال المشركون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ أَلْحَقٌ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) رَدَّ اللهُ عليهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ هذا جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للسبب الموجب لإمهالهم ... أى أنهم مُستحقون للعذاب ولكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً لك يا محمد... فقد جرت سُنَّةُ الله وحكمته ألا يعذب أمة ونبيها بين

ظهرانيها ... قال ابن عباس: لم تُعَذَّب أمة قط ونيبها فيها^(١)، والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) أى وما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون الله.

وهو إشارة إلى استغفار مَنْ بقى بين أظهرهم من المسلمين المستضعفين. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله ﷺ، والاستغفار، أما النبي ﷺ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة^(٢).

فإذا قبض الله النبي ﷺ فالرحمة باقية منه سبحانه، بأن يستغفر المؤمنون رب العالمين فيغفر لهم ولا يعذبهم ... أى: عذاباً عاماً يستأصل الجميع، ولكن لا يمنع أن يكون على بعض الأقوام شىء من غضب الله ﷻ فيأخذهم ببعض ذنوبهم في الدنيا... ولكن العذاب العام الذى يستأصل الأمة لا يكون؛ لأن الله وعد هذه الأمة أنه لا يهلكهم ونيبهم فيهم (عليه الصلاة والسلام) ولا يهلكهم وهم يستغفرون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) البحر (٤/٤٨٩).

(٢) الرازى (١٥/١٥٨).

(٥٢) باب فضل الرجاء

❁ لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ النصوص الدالة على الرجاء وعلى سعة فضل الله وكرمه ... ذكر فضل الرجاء، وأن الإنسان ينبغي له أن يكون طامعاً في فضل الله عَزَّوَجَلَّ راجياً ما عنده.

ثم ذكر قول العبد الصالح وهو الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتُم إيمانه، وكان ناصحاً لقومه، يُنصِّحهم ويُبين لهم بالبراهين ما هم عليه من الباطل، وما عليه موسى ﷺ من الحق

فلما نصَّحهم وحذَّره وأنذَّره ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مَغَبَّةَ عدم قبولها حين يَحِلُّ بكم العقاب وتُحرَمون جزيل الثواب. ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ أى: ألجأ إليه وأعتصم وألقى أموري كلها لديه وأتوكل عليه في مصالحى ودفع الضرر الذى يصيبنى منكم أو من غيركم ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ لَآبِلٌ يَعْلَمُ أَحْوَالَكُمْ وَمَا تَسْتَحْقُونَ وَيَعْلَمُ حَالِي وَضَعْفِي فَيَمْنَعُنِي مِنْكُمْ وَيَكْفِينِي شَرْكُمْ، وَيَعْلَمُ أَحْوَالَكُمْ، فَلَا تَتَصَرَّفُونَ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ، فَإِنْ سَلَّطَكُمْ عَلَىٰ فَبِحَكْمَةٍ مِنْهُ تَعَالَىٰ وَعَنْ إِرَادَتِهِ وَمَشِئَتِهِ صَدَرَ ذَلِكَ. ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا﴾؛ أى: وقى الله القوىُّ ذلك الرجل المؤمن المُوَفَّقَ عقوبات ما مكر فرعونُ وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى ﷺ ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتدَّ حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم.

﴿وَحَاقَ بِتَالِي فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم ... وفي البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا

عَالِ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١﴾ فهذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذبين لرسل الله المعاندين لأمره^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولُ»^(٢).

وتقدّم شرحه في الباب قبله. وروى في الصحيحين: «وأنا معه حين يذكّرني» بالنون ... وفي هذه الرواية «حَيْثُ» بالثاء وكلاهما صحيح.

✽ «أنا عند ظن عبدي بي» يعنى أن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ عند ظن عبده المؤمن به ﻋَزَّ وَجَلَّ .. إن ظن به خيرًا فله وإن ظن به غير ذلك فله أيضًا .. ولكن السؤال الذى ينبغى أن نعرف إجابته هنا هو: متى يكون العبد حسن الظن بالله ﻋَزَّ وَجَلَّ ؟ ...

يكون ذلك بأن يفعل العبد ما أوجبه الله عليه وأن يعمل الصالحات التى تُوجب فضل الله ورحمته ويُحسن الظن بالله أن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ سوف يتقبل منه تلك الأعمال الصالحة.

أما أن يُحسن الظن وهو لا يعمل عملاً صالحاً .. فهذا من باب التمنى على الله ... وَمَنْ أَتَبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي فَهُوَ عَاجِزٌ.

وكذلك لا يصلح أن يعمل العبد المعاصى ثم يُحسن الظن بالله.

لأن حُسن الظن بالله يكون عند عمل الصالحات ورجاء قبولها.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» قَالَ الْقَاضِي قِيلَ مَعْنَاهُ بِالْغُفْرَانِ لَهُ إِذَا اسْتَغْفَرَ وَالْقَبُولِ إِذَا تَابَ وَالْإِجَابَةِ إِذَا دَعَا وَالْكِفَايَةِ إِذَا طَلَبَ

(١) تفسير السعدى (ص ٨٧٣-٨٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) كتاب التوبة.

الْكِفَايَةِ... وَقِيلَ الْمُرَادُ بِهِ الرَّجَاءُ وَتَأْمِيلُ الْعَفْوِ وَهَذَا أَصَحُّ^(١).

❀ قوله: «وأنا معه حيث يذكرني» أى: أنا معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية والإعانة والنصر «حيث يذكرني» سواء ذكرني في نفسه أو ذكرني بين الملائكة. وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ فمعناه: معكم بالعلم والإحاطة. ❀ «والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة».

وهذا اختصار لما جاء في الرواية الأخرى أن النبي ﷺ قال: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَأَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

فهذا الرجل كان يركب ناقته وعليها طعامه وشرابه وملابسه وأمواله وكل أسباب حياته في تلك الصحراء.. وفجأة انفلتت منه دابته فأيس من رجوعها مرة أخرى وتيقن أنه قد تكون نهايته في تلك الصحراء.. فذهب واضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.. فبينما هو كذلك إذ جاءت الناقة ووقفت عنده فلم يصدق نفسه... وكأنه قد عادت إليه أسباب الحياة مرة أخرى فأخذ بخطام الناقة ثم قال من شدة الفرح: «اللهم أنت عبدى وأنا ربك».. يقول النبي ﷺ عن هذا الرجل: «أخطأ من شدة الفرح».

فتأمل معى كيف كانت فرحة هذا الرجل برجوع ناقته حتى أخطأ هذا الخطأ الكبير.. فالله أفرح بتوبة عبده حين يتوب.. أكثر من فرحة هذا الرجل حين عادت إليه ناقته وعليها كل أسباب حياته.

مع أن الله ﷻ غنى عنا.. لا تنفعه طاعتنا ولا تضره معصيتنا..

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٣).

قال تعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أُولَئِكَمْ وَآخِرُكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا»^(١).

ثم قال تعالى: «وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي، أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولًا»

ثم ذكر أن الله سبحانه وتعالى أكرم من عبده ... فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا، تقرب الله منه ذراعًا، وإن تقرب منه ذراعًا، تقرب منه باعًا، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول عَهِزَّوَلًا ... فهو سبحانه وتعالى أكثر كرمًا وأسرع إجابة من عبده.

وهذه الأحاديث وأمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله عَهِزَّوَلًا، لكننا لا ندرى كيف تكون هذه الهرولة، وكيف يكون هذا التقرب ... فهو أمرٌ ترجع كلفيته إلى الله، وليس لنا أن نتكلم فيه، لكن نؤمن بمعناه ونفوض كلفيته إلى الله عَهِزَّوَلًا.

والسلف «أهل السنة والجماعة» يجرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عَهِزَّوَلًا من غير تكييف ولا تمثيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح حديث النزول: «وَأَمَّا دُنُوهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعْضِ عِبَادِهِ؛ فَهَذَا يُثَبِّتُهُ مَنْ يُثَبِّتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَيْمَةِ السَّلَفِ وَأَيْمَةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلِ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرًا»^١ هـ.

فأى مانع يمنع من القول بأنه يقرب من عبده كيف يشاء مع علوه؟

وأى مانع يمنع من إتيانه كيف يشاء بدون تكييف ولا تمثيل؟

وهل هذا إلا من كماله أن يكون فعلاً لما يريد على الوجه الذى يليق به؟^(٢)

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة.

(٢) مجموع الفتاوى (٤٦٦/٥).

(٤٤٦) وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتُنْ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ» ^(١).

❁ لَا بُدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَوَّلًا أَنَّ الظَّنَّ لَا يَخْرُجُ عَنْ خَمْسَةِ أُمُورٍ:

الأول: الظن المحرم، وهو سوء الظن بالله، ويقابله وجوب حسن الظن بالله.

الثاني: حرمة سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة.. والمطلوب حسن الظن بهم.

الثالث: الظن المباح، وهو الذي يعرض في قلب المسلم في أخيه بسبب ما يوجب الريبة، وهذا الظن لَا يُحَقِّقُ.

الرابع: الظن المندوب إليه، وهو حُسن الظن بالأخ المسلم وعليه الثواب.

الخامس: الظن المأمور به، وهو الظن فيما لم يَنْصَحْ عليه دليلٌ يوصلنا إلى العلم، وقد تعبدنا الله بالاختصار على الغالب الظني فيه.. كقبول شهادة العُدُولِ وتحرّى القبلة ^(٢).

❁ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ الْقُنُوطِ وَحَثٌّ عَلَى الرَّجَاءِ عِنْدَ الْخَاتِمَةِ وَقَدْ سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي» قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَى حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ يَرْحَمُهُ وَيَعْفُو عَنْهُ.

قَالُوا: وَفِي حَالَةِ الصَّحَّةِ يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا وَيَكُونَانِ سَوَاءً... وَقِيلَ: يَكُونُ الْخَوْفُ أَرْجَحَ فَإِذَا دَنَتْ أَمَارَاتُ الْمَوْتِ غَلَبَ الرَّجَاءُ أَوْ مَحْضُهُ لِأَنَّ مَقْصُودَ الْخَوْفِ الْإِنْكَفَافُ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْقَبَائِحِ وَالْجِرْصُ عَلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْأَعْمَالِ وَقَدْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ أَوْ مُعْظَمُهُ فِي هَذَا الْحَالِ فَاسْتُجِبَ إِحْسَانُ الظَّنِّ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٧) كتاب الجنة.

(٢) انظر منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي (٤١٢).

الْمُتَضَمِّنُ لِلإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالإِدْعَاءِ لَهُ^(١).

✽ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أُعْطِيَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الظَّنَّ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ... ظَنُّهُ ذَلِكَ بِأَنَّ الْخَيْرَ فِي يَدِهِ».

✽ عن سهل القطعي قال: رَأَيْتُ مَالِكَ بْنَ دِينَارٍ رحمته الله فِي مَنَامِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا يَحْيَى لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا قَدِمْتُ بِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «قَدِمْتُ بِذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ، مَحَاها عَنِّي حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ^(٢)».

✽ وعن سفيان الثوري رحمته الله في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] قال: «أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ».

✽ قال أحمد بن العباس النمرى: وَإِنِّي لأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنِّي

أُرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعٌ^(٣)

✽ أَنشَدَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ:

حُسْنُ ظَنِّي بِحُسْنِ عَفْوِكَ يَا	رَبِّ جَمِيلٍ وَأَنْتَ مَالِكُ أَمْرِي
صُنْتُ سِرِّي عَنِ الْقَرَابَةِ وَالْأَهْلِ	لِ جَمِيعًا وَكُنْتُ مَوْضِعَ سِرِّي
ثِقَةً بِالَّذِي لَدَيْكَ مِنَ السَّتِّ	رِ فَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ نَشْرِي
يَوْمَ هَتَكَ السَّتُورَ عَنْ حُجُبِ الْغَيْبِ	بِ فَلَا تَهْتَكَنَّ لِلنَّاسِ سِتْرِي
لَقِنِّي حُجَّتِي وَإِنْ لَمْ تَكُنْ يَا	رَبِّ لِي حُجَّةٌ وَلَا وَجْهٌ عُذْرِي ^(٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٣٠٤).

(٢) حسن الظن بالله / لابن أبي الدنيا (٩٦).

(٣) حسن الظن بالله / لابن أبي الدنيا (١٠٠).

(٤) حسن الظن بالله / لابن أبي الدنيا (١١٦).

(٤٤٧) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(١).

❁ هذا الحديث القدسي الشريف يبين ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة ... والاستغفار: هو طلب المغفرة من الله ﷻ.

والمغفرة: هي وقاية شر الذنوب مع سترها، أي أن الله ﷻ يستر على العبد فلا يفضحه في الدنيا، ويستر عليه في الآخرة فلا يفضحه في عَرَصَاتِهَا، ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضلِهِ ورحمته.

وقد كَثُرَ ذكر الاستغفار في القرآن ... فتارة يُؤمَرُ به .. كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

وتارة يُمدَحُ أهله ... كقوله تعالى في وصف المحسنين: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وتارة يذكر الله ﷻ أنه يغفر لمن استغفره .. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وكثيراً ما يُقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طلب المغفرة باللسان، والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح... وحكم الاستغفار كحكم الدعاء إن شاء الله أجابه وغفر لصاحبه لا سيما إذا خرج من قلبٍ منكسر بالذنوب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات ... وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالشاء على ربه، ثم يُثنى بالاعتراف بذنبه

(١) حسن: رواه الترمذی، والضياء، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٤٣٣٨).

«عَنَانَ السَّمَاءِ» بفتح العين، قيل: هو مَا عَنْ لَكَ مِنْهَا، أَيْ: ظَهَرَ إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ، وقيل: هو السَّحَابُ. و«قُرَابُ الْأَرْضِ» بضم القاف، وقيل بكسرِها، والضم أصح وأشهر، وهو: ما يقاربُ مِلْأَهَا، والله أعلم.

ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة. كما في حديث سيد الاستغفار أن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»^(١).
وقوله: «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ» أى أعترف لك، و«أَبُوءُ بِذُنُوبِي» أى أعترف، وأقر بذنبي.

وعن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمنى دعاءً أدعوه به فى صلاتى قال: «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَبِيرًا - أَوْ كَثِيرًا - وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِى إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(٢).
ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد: «أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم، وأتوب إليه».

وقد ورد عن النبي ﷺ أن مَنْ قاله: «غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَرَّرَ مِنَ الزَّحْفِ»^(٣).
❖ قوله ﷺ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتنى، ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى».

فأول سبب من أعظم أسباب المغفرة الدعاء مع الرجاء.
فإن الدعاء مأمورٌ به موعودٌ عليه بالإجابة.. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].
فالدعاء سببٌ مقتضى الإجابة مع استكمال شرائطه، وانتفاء موانعه... ومن أعظم شرائطه حضور القلب، ورجاء الإجابة من الله ﷻ.
فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنباً لم يرجُ مغفرته من غير

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى التعليق الرغيب (٢ / ٢٦٩)، وصحيح أبى داود (١٥١٧).



ربه، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب، ويأخذ بها غيره... فقوله: «إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي...» يعني على كثرة ذنوبك، وخطاياك، لا يتعاضمني ذلك، ولا أستكثره.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يَقُل: اللهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه...»^(١). فذنوب العباد وإن عظمت فعفو الله ومغفرته أعظم منها... كما قال الإمام الشافعي عند موته.

ولما قسى قلبى وضائق مذاهبي جعلتُ الرَّجاءَ منى لعفوك سُلماً
تعاظمني ذنبي فلم أقرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظماً
فمن أعظم أسباب المغفرة: الدعاء مع الرجاء. قال النبي ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»^(٢).
قوله ﷺ: «يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك...».

وهذا يبين فضل الاستغفار... فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء - وهو السحاب، وقيل ما انتهى إليه البصر فيها - غفرها الله له، وهذا يبين فضل كثرة الاستغفار.

عن ابن عمر رضِيَ الله عنهما قال: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ...»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) حسن: رواه الترمذی، والحاكم، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٢٤٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانی فی الصَّحِيحَة: (٥٥٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «والله إنى لأستغفر الله، وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

وعن النبي ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة...»^(٢).

وقوله: «ليغان» أى: ليُعطى ويغشى.

وروى عن لقمان أنه قال لابنه: «يا بُنى عَوِّد لسانك: اللهم اغفر لى، فإن الله ساعات لا يرد فيها سائلاً».

وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم، وفي طُرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة. وقال ﷺ: «طُوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا...»^(٣).

وقال على رضي الله عنه: ما ألهم الله عبدًا الاستغفار وهو يريد أن يُعذبه.

وقال قتادة رضي الله عنه: إن هذا القرآن يدلكم على داءكم، ودوائكم، فأما داءكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار.

وقال رباح القيسي: لى يَيْفُ وأربعون ذنبًا قد استغفرت الله لكل ذنب مائة ألف مرة.

❖ قوله ﷺ: «يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة...».

فالتوحيد هو أعظم أسباب المغفرة، ومن فقد التوحيد فقد حُرم من المغفرة بالكُلية... قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

[النساء: ٤٨].

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد في الزهد، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: يُعْفَى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبه بالشرك ما لا يُعْفَى لمن ليس كذلك، فلو لقي الموحد الذى لم يُشرك بالله ألبته ربه بقرباب الأرض خطايا أتاه بقربابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده... فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله، وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده ما يُوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض... فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوى.

ومعنى: «قرباب الأرض» ملؤها أو ما يقارب ذلك، ولكن هذا مع مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن شاء غفر بفضله ورحمته، وإن شاء عَذَّب بعدله، وحكمته، وهو المحمود على كل حال.

قال بعضهم: الموحد لا يُلقَى في النار كما يُلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار.

فإن كَمُلَ توحيد العبد وإخلاصه لله فيه، وقام بشروطه كلها بقلبه، ولسانه، وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية.

والتوحيد هو الإكسير الأعظم... فلو وُضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات. ودَلَّ على ذلك أيضاً حديث البطاقة.

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رِءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ: بَلَى إِنْ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ لَا ظِلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٍ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احْضِرْ وَزَنِّكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيُقَالُ: فَإِنَّكَ لَا تَظْلَمُ.. فَتُوضَعُ

السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يتقل مع اسم الله تعالى شيء^(١).

✽ قال العلماء: بأن هذا الرجل وقع في ذنوب كثيرة دون الشرك بالله عز وجل ولكنه أخلص توحيده لله عز وجل، ولم يقع في شيء من الشرك فنجا ببركة التوحيد، ولكن أكثر المسلمين يخلط توحيده بالشرك ... كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فهو يصلي لله عز وجل، ويصوم لله عز وجل، ويحج بيت الله، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ومع ذلك قد ينذر لغير الله أو يذبح لغير الله أو يحلف بغير الله عز وجل، فهو يخلط توحيده بالشرك بالله عز وجل.

✽ ولقد شرع الله عز وجل لنا أن نختم أعمالنا وأعمارنا بالاستغفار. كما قال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر].

وفي ختم الصلاة يقول المسلم: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله. وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وفي الأسحار وبعد قيام الليل شرع الاستغفار ... كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وفي كفارة المجلس يقول العبد: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك»^(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٧٦).

(٢) رياض الجنة (ص ٩٤-٩٨) بتصرف.



(٥٣) باب الجمع بين الخوف والرجاء

﴿اعْلَمْ أَنَّ الْمُخْتَارَ لِلْعَبْدِ فِي حَالِ صِحَّتِهِ أَنْ يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَيَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَوَاءً... وَفِي حَالِ الْمَرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجَاءَ... وَقَوَاعِدُ الشَّرْعِ، مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مُتَظَاهِرَةٌ عَلَى ذَلِكَ.﴾

قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار: ١٣، ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧)

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]... والآيات في هذا المعنى كثيرة. فَيَجْتَمِعُ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ فِي آيَتَيْنِ مُقْتَرِنَتَيْنِ أَوْ آيَاتٍ أَوْ آيَةٍ^(١).

﴿هذا الباب قد اختلف فيه العلماء، هل الإنسان يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ أَوْ جَانِبَ الْخَوْفِ.﴾

فمنهم مَنْ قَالَ: يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ مُطْلَقًا... ومنهم مَنْ قَالَ: يُغْلِبُ جَانِبَ الْخَوْفِ مُطْلَقًا.

ومنهم مَنْ قَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ سَوَاءً، لَا يُغْلِبُ هَذَا عَلَى هَذَا، وَلَا هَذَا عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ إِنْ غَلَبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ، وَإِنْ غَلَبَ جَانِبَ الْخَوْفِ يَتَسَّسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وقال بعضهم: فِي حَالِ الصَّحَّةِ يَجْعَلُ رَجَاءَهُ وَخَوْفَهُ وَاحِدًا.. كَمَا اخْتَارَهُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ يُغْلِبُ الرَّجَاءَ أَوْ يَمَحُضُهُ.

(١) رياض الصالحين (ص ١٦٤-١٦٥).

وقال بعض العلماء أيضاً: إذا كان في طاعة فليُغلب الرجاء وأن الله يقبل منه، وإذا كان عند فعل المعصية فليُغلب الخوف؛ لئلا يقدم على المعصية.

والإنسان يجب عليه أن يكون طيب نفسه ... إذا رأى من نفسه أنه آمن من مكر الله، وأنه مُقيم على معصية الله، ومُتمنٍّ على الله الأمانى، فليعدل عن هذه الطريق، وليسلك طريق الخوف.

وإذا رأى أن فيه وسوسة، وأنه يخاف بلا مُوجب، فليعدل عن هذا الطريق، وليُغلب جانب الرجاء حتى يعتدل خوفه ورجاؤه.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ آيات جمع الله فيها ذكر ما يُوجب الخوف وذكر ما يُوجب الرجاء ... ذكر فيها أهل الجنة وأهل النار، وذكر فيها صفته عَزَّوَجَلَّ وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ ﴿[المائدة: ٩٨، ٩٩]. حيث إنه في مقام التهديد والوعيد قدّم ذكر شدة العقاب ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وفي حال تحدّثه عن نفسه وبيان كمال صفاته قال: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢١) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠].

فقدّم ذكر المغفرة على ذكر العذاب؛ لأنه يتحدث عن نفسه عَزَّوَجَلَّ، وعن صفاته الكاملة ورحمته التي سبقت غضبه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٤٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ. مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١٧٦-١٧٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٥٥) كتاب التوبة.

أى: لو يعلم المؤمن الذى وجبت له الجنة ما عند الله من العقوبة ومن العذاب وما أعد لأهل النار فيها، ما طمع فى جنة الله عَزَّوَجَلَّ ... بل لتمنى أن ينجو من النار ومن العذاب، حتى وإن لم يدخل الجنة.

قال: «ولو يعلم الكافر ما عند الله عَزَّوَجَلَّ من الرحمة ما قنط من جنته أحد».

وهذا فى حق الكافر، وهو على عكس ما هو فى حق المؤمن.

وقد ذُكر عن الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فى ترجمته عندما كان قاضى القضاة فى مصر: أنه مرَّ فى سوق التجار، فخرج إليه رجل يهودى كان يعمل فى بيع السمن والزيت ... ومعلوم أن مثل هذه الأعمال تنسخ ملابس وأبدان أصحابها، فخرج إليه ذلك اليهودى وقال له: يا قاضى القضاة! أنتم تزعمون أن نبيكم قال: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)، ألا ترى ما أنا فيه، وما أنت فيه؟! وكأنه أراد أن يقول له: هذه الحال الذى أنا وأنت فيه إنما يخالف خبر نبيكم رَحِمَهُ اللهُ ... فقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: إن النعيم الذى أنا فيه الآن يُعتبر سجنًا بالنسبة لما أعدَّ الله لى فى الجنة لو مُتُّ على الإيمان والتوحيد .. وإن الشقاء الذى أنت فيه الآن يُعتبر جنة بالنسبة لما أعدَّ الله لك فى نار جهنم لو مُتَّ على الكفر .. فقال اليهودى: هل كان نبيكم يقصد ذلك؟.. فقال له الحافظ ابن حجر: بلى .. فقال اليهودى: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

❦ ففي هذا الحديث: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة»، فقد يُعاقب المرء وإن قال: لا إله إلا الله بعقوباتٍ شديدة فى نار جهنم ... فبعض عُصاة الموحدين قالوا: لا إله إلا الله ووجدوا الله، فدخلوا نار جهنم بمعصيتهم: بآفات ألسنتهم وأعضائهم وجوارحهم ... فبالآفات التى وقعوا فيها استحقوا العقوبة.

قال: «ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»، فالكافر لو عرف ما عند الله من رحمة ما قنط من جنته ... ولكن الكافر لا جنة له إلا أن

يتوب ويدخل في دين الله تبارك وتعالى.

وقد قال سبحانه في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فالكافر لو اطلع على الرحمة لظن أن الله سيرحمه ويدخله الجنة مع كفره وشركه بالله سبحانه... وحاشا لله (عز وجل) أن يخلف وعده... فقد وعد المؤمنين بالجنة، وأوعد العصاة والكفار بالنار.. فالمشركون الذين يموتون على الشرك بالله لا يستحقون دخول جنة رب العالمين سبحانه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ غَافِلُونَ﴾

(٤٤٩) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا النَّاسُ أَوْ الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ لَصَعِقَ»^(١).

❁ قوله ﷺ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ».. وفي رواية: «إِذَا وُضِعَ الْمَيِّتُ عَلَى السَّرِيرِ» فدل ذلك على أن المراد بالجنزة الميت.

« وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ » وفيه أنه لا يُشْرَعُ للنساء حمل الجنزة سواء كان الميت ذكراً أو أنثى، ولا خلاف في هذا؛ لأن النساء يَضْعُفْنَ عن الحمل، وربما انكشف منهن شيء لو حملن، ويضاف إلى هذا ما يتوقع منهن من الصراخ عند حمله ووضع، ولأن الجنزة لا بد أن يُشيعها الرجال، فلو حملها النساء لكان ذلك ذريعة إلى اختلاطهن بالرجال فيُقْضَى إلى الفتنة^(٢).

❁ «إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي» فصلاح العبد يجعله يتمنى لقاء الله (جل وعلا)... وإذا ثبت على إيمانه وصلاحه حتى الموت فإنه وهو

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣١٦) كتاب الجنائز.

(٢) المجموع (٥/٢٧٠)، والفتح (٣/٢١٧)، وجامع أحكام النساء (١/٥٣٥).

محمولٌ على اكتاف الرجال بعد موته يقول: قَدَّمُونِي قَدَّمُونِي لما يرى من الخير الذى ينتظره... ويسمع صوته كل شىء فى الكون إلا الإنسان..... وهذا كفرحة العبد فى قبره حينما يُفرش له قبره من الجنة ويلبس من الجنة ويُفتح له باب إلى الجنة فإنه يقول من شدة فرحه: «رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى»^(١).

❁ «وإن كانت غير صالحة، قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمع صوته كل شىء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق» وهنا تتضح عاقبة البعد عن الله والانغماس فى الكفر أو المعاصى. وإصرار العبد على ذلك حتى الموت.. فإذا مات وحملوا جنازته ليدفنوه فإنه يصرخ ويصرخ ويقول: يا ويلها أين تذهبون بها.. فيسمع صوته كل شىء فى هذا الكون إلا الإنسان.. ولو سمعنا صوته وصراخه بعد ما رأى ما ينتظره من العذاب لصعقنا جميعاً... لكن من رحمة الله عز وجل أنه لم يُطلعنا على ذلك.. لأننا لو سمعنا صراخ هؤلاء ما حملنا جنازة أبداً. وهذا كقوله ﷺ: «إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا»^(٢)، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٠) وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك»^(٤).

❁ قال ابن بطال: فيه أن الطاعة موصلة إلى الجنة وأن المعصية مقربة إلى النار وأن الطاعة والمعصية قد تكون فى أيسر الأشياء... وتقدم فى هذا المعنى قريباً حديث «إن الرجل ليتكلم بالكلمة الحديث... فيتبغى للمرء أن لا يزهد

(١) رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) أن لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٤٨٨) كتاب الرقاق.

فِي قَلِيلٍ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ يَأْتِيَهُ وَلَا فِي قَلِيلٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَجْتَنِيَهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْحَسَنَةَ الَّتِي يَرْحَمُهُ اللَّهُ بِهَا وَلَا السَّيِّئَةَ الَّتِي يَسْخَطُ عَلَيْهَا.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنْ تَحْصِيلُ الْجَنَّةِ سَهْلٌ بِتَصْحِيحِ الْقَصْدِ وَفِعْلِ الطَّاعَةِ .. وَالنَّارُ كَذَلِكَ بِمُوَافَقَةِ الْهَوَى وَفِعْلِ الْمَعْصِيَةِ ^(١).

وهنا يخبر النبي ﷺ أن الجنة قريبة جدًا ... فقد تكون في ركعتين في جوف الليل .. وقد تكون في مسحة على رأس یتیم .. وقد تكون في تقبيل يد أمك أو أبيك .. وقد تكون في صدقة يسيرة على مسكين .. وقد تكون في تذكير إنسان غافل عن طاعة الله ... وقد تكون في دمعة من خشية الله (جل وعلا).

وكذلك أخبر النبي ﷺ أن النار قريبة جدًا ... فقد تكون في كلمة تجلب لك سخط الله .. وقد تكون في إيذاء لوالديك .. أو لقمة من الحرام .. أو غيبة في حق مسلم .. أو نميمة تسعى بها للإفساد بين اثنين .. أو غير ذلك ... فالواجب على المسلم أن يحرص على كل ما يقربه من الجنة ومن رضوان الله ﷻ حتى ولو كان عملاً يسيراً .. وأن يتجنب كل ما يقربه من النار ولو كانت معصية يسيرة .. فقد قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٤) باب فضل البكاء

من خشية الله تعالى وشوقاً إليه

❁ لو يعلم المؤمن أن تلك الدمعة التي تسقط من خشية الله هي أعلى من الدنيا وما فيها... فهذه الدمعة تنجي العبد من عذاب الله يوم القيامة.
أخي الحبيب: إن البكاء دليلٌ على خشيتك لله ومراقبتك له.
وهو دليل على حياة قلبك واستقامة جوارحك... وهو دليل على رقة قلبك وسرعة استجابته لأمر الله... وهو طريق يوصلك إلى محبة الله ورضوانه...
والبكاء يورث الخوف من الله، وهو علامة على صحة الإيمان، وهو سبب من أعظم أسباب النجاة يوم القيامة.

❁ كان الحسن يقول: ما اغرورقت عينٌ بمائها من خشية الله إلا حرم الله جسدها على النار... فإن فاضت على خدها لم يرهق ذلك الوجه قطراً ولا ذلة...
وليس من عمل إلا له وزن وثواب إلا الدمعة من خشية الله فإنها تُطفئ ما شاء الله من حرّ النار... ولو أن رجلاً بكى من خشية الله في أمة لرجوت أن يرحم الله ببكائه تلك الأمة بأسرها»^(١).

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنًا لَغَيْرِكَ دُمْعَهَا مَدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُمُوعِ تُعَارُ

❁ والبكاء من خشية الله إما أن يكون خوفاً من الله وإما إن يكون شوقاً إليه تبارك وتعالى... فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان، فهذا البكاء سببه الخوف من الله ﷻ، وإذا كان بعد طاعة فعلها، كان هذا البكاء شوقاً إلى الله سبحانه وتعالى.

(١) الزهد/ للحسن البصري (ص ١٣٨-١٣٩).

﴿ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ موضعين في القرآن.

الموضع الأول فيه ثناء على الذين يكون من خشية الله (جل وعلا).
والموضع الثاني فيه ذم لمن يستمع إلى القرآن فيضحك ويعجب بدلاً من أن يبكى من خشية الله ﷻ.

﴿قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: أوتوا العلم من قبل القرآن وهم أهل الكتاب ﴿إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ يُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ (١٠٧) ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، يعني: إن وعد ربنا واقع لا محالة ﴿وَيُخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: على وجوههم ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ﴾: القرآن ﴿خُشُوعًا﴾: وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمني أهل الكتاب ... كعبد الله بن سلام، وغيره ممن أسلم في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

﴿وأما الموضع الثاني فهو في قوله تعالى: ﴿أَفَنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حَدَّثَ صَدَقَ، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيتَه خاشعاً مُتَّصِداً من خشية الله .. الذي يزيد ذوى الأحلام رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً، وإيماناً و يقيناً والذي ينبغي العَجَبُ من عقل مَنْ تَعَجَّبَ منه، وسفهة وضلاله.

﴿وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة (١).

(٤٥١) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَقْرَأْ عَلَى الْقُرْآنِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَقْرَأْ عَلَيْكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ قَالَ : « إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ ، حَتَّى جِئْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٤] ، قَالَ : « حَسْبُكَ الْآنَ » فَالْتَفَتْتُ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ ^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن.. وكان ابن مسعود من المقربين إلى النبي ﷺ حتى كان النبي ﷺ يجعله يدخل عليه فى أى وقت ... حتى ظن أبو موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى بداية الأمر أن ابن مسعود من آل بيت النبي ﷺ.

المهم أن النبي ﷺ قال لابن مسعود: «اقرأ على القرآن» فتعجب ابن مسعود وقال: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ يعنى: كيف أقرأ عليك يا رسول الله وأنت الذى أنزل عليك القرآن وسمعتة مباشرة من جبريل عَلَيْهِ السَّلَام ... ثم إن ابن مسعود كان يستحى من النبي ﷺ.. لكن النبي بتواضعه الذى ليس له مثيل قال لابن مسعود: «إنى أحب أن أسمع من غيرى».

وفيه دليل على أن الإنسان قد يكون إنصاته لقراءة غيره أحشع لقلبه مما لو قرأ هو، وهو كذلك أحياناً.... فأحياناً إذا سمعت القرآن من غيرك خشعت وبكيت، لكن لو قرأته أنت ما حصلت لك هذه الحال.

فقرأ عليه سورة النساء، فلما بلغ هذه الآية العظيمة: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ أى كيف يكون حال الكفار والفجار حين نأتى من كل أمة بنبيها يشهد عليها، ونأتى بك يا محمد على العصاة والمكذبين من أمتك تشهد عليهم بالجحود والعصيان؟ كيف يكون

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٥٠) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

موقفهم؟ وكيف يكون حالهم؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتمنى الفجار الذين جحدوا وحادانية الله وعصوا رسوله ﴿لَوْ تَسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي لو يُدَفَنُوا في الأرض ثم تُسَوَّى بهم كما تُسَوَّى بالموتى ... أو لو تنشق الأرض فتبتلعهم ويكونون تراباً كقوله: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠] وذلك لما يرون من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا يَكْنُتُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي لا يستطيعون أن يكتموا الله حديثاً لأن جوارحهم تشهد عليهم بما فعلوه..^{(١)(٢)}

فلما وصل ابن مسعود رضي الله عنه إلى ذلك الموضع من السورة قال له النبي ﷺ: «حسبك الآن».. فنظر ابن مسعود إلى النبي ﷺ فإذا عيناه تذرفان الدموع ... يبكي ﷺ خوفاً من هذه الحال الرهيبة العظيمة.

وهكذا كان حال النبي ﷺ دائماً مع القرآن وفي الصلاة.. كان كثير الخشوع والبكاء من خشية الله (جلّ وعلا).

فقد كان يبكي (صلوات الله وسلامه عليه) حين يستحضر الآخرة ويوم القيامة، وحال وجوده يوم القيامة، وهي حال تشريف له ﷺ، وحال علوّ وارتفاع له. يقول له ربه: فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك أنت شاهداً على الكل ... فإذا كان هذا النبي الكريم الشاهد (عليه الصلاة والسلام) يبكي خوفاً من هذا اليوم، فكيف بالمشهود عليهم؟ وكيف يكون حالهم؟ وهذا النبي ﷺ يملأ الخوف من الله قلبه، وهو سيد الخلق (عليه الصلاة والسلام)، وهو صاحب لواء الحمد يوم القيامة، وصاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود، وصاحب الشفاعات

(١) هذا التفسير على أن الجملة مستأنفة وهو الظاهر ... وقيل: إن الجملة معطوفة على السابق أي يودون أن يُدَفَنُوا تحت الأرض وأنهم لم يكتموا ولم يكذبوا في قولهم ﴿وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لأنهم إذا كتموا افتضحوا فلشدة الأمر يتمنون أن تُسَوَّى بهم الأرض - انظر الكشف (١/٣٩٦).

(٢) صفوة التفاسير (١/٢٥٣).

يوم القيامة، ومع ذلك يبكي ﷺ من ذلك! فالمؤمن أولى أن يحدث في قلبه الخوف والرعب والرغبة من هذا اليوم، ويسأل الله ﷻ العفو والعافية.

❁ وفي هذا الحديث أن الشهداء طائفتان من الناس: الطائفة الأولى الأنبياء والرسول (عليهم الصلاة والسلام) ... كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١].

والثانية: أهل العلم الذين ورثوا الأنبياء فإنهم شهداء بعد أن يموت الأنبياء... فالشهداء على الخلق هم العلماء بعد الرسول، يشهدون بأن الرسول بلغوا ويشهدون على الأمة بأن الرسالة قد بلغتهم ... ويا لها من ميزة عظيمة لأهل العلم أن يكونوا هم شهداء الله في أرضه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٢) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَقَالَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» قَالَ: فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَجُوهُهُمْ. وَلَهُمْ حَنِينٌ^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرح الحديث رقم (٤٠٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ وَلَا يَجْتَمِعُ عُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»^(٢).

❁ «لَا يَلِجُ النَّارَ» من الولوج.. أى: لا يدخل النار: «رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ» والبكاء من خشية الله لا يكون إلا طاعة لله.. فلا يصح أن نقول: أن الذي

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٢١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٧٨).

يبكى على فقد حبيبته أنه يبكى من خشية الله.. أو نقول: أن الذى يبكى لأن فريقه هُزم فى مباراة الكأس أنه يبكى من خشية الله... فالغالب أن الذى يبكى من خشية الله إما أن يبكى وهو يصلى أو أثناء قراءته للقرآن أو أثناء طوافه حول الكعبة.. أو أنه جلس يتذكر نعم الله عليه فبكى حياءً من الله أو تذكر ذنوبه فبكى خوفاً من الله.. أو تذكر أحداث وأحوال يوم القيامة فبكى خوفاً من عذاب الله.

فمن بكى من خشية الله خالصاً لوجه الله سيكون فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة كما جاء فى حديث السبعة الذين يُظلمهم الله فى ظله - ومنهم - «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».. ومَن بكى من خشية الله لن يدخل النار إلا فى حالة واحدة ذكرها النبى ﷺ هنا فقال: «حتى يعود اللبن فى الضرع» فكما أنه مستحيل أن تحلب اللبن من ضرع الشاة أو البقرة أو غيرها ثم ترده إلى داخل الضرع مرة أخرى.. فكذلك يستحيل أن يبكى مسلم من خشية الله ثم يدخل النار.. ولا بد أن نعلم أنه لا يُوفَّق للبكاء من خشية الله إلا صفوة خلق الله من عباده الصالحين.. أما غير الصالحين فبكاؤه على فوات الدنيا وحطامها.

وقد ورد مثل هذا المثل فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْنَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١] فيخبر الله ﷻ هنا أن المكذبين بآيات الله من الكفار والمنافقين لن يدخلوا الجنة إلا فى حالة واحدة مستحيلة الحدوث.. ألا وهى: إذا دخل الجمل من ثقب الإبرة.. فإذا استطعت أن تدخل الجمل الضخم من ثقب الإبرة فسوف يدخل الكافر الجنة.. وهذا أمرٌ مستحيل.. وكذلك دخول الكافر الجنة مستحيل.

❁ قوله ﷺ: «ولا يجتمع غبارٌ فى سبيل الله ودخان جهنم» فهذه بُشرى للمجاهدين فى سبيل الله الذين خرجوا للجهاد لتكون كلمة الله هى العليا

واغبرت أقدامهم بذلك الغبار في سبيل الله فإن الله لا يصرف عنهم نار جهنم فحسب بل يصرف عنهم حتى دخان جهنم لأنهم بذلوا أنفسهم لله سواء نالوا الشهادة أم لا.. وذلك لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(١).. فما ظنك بمن ينال الشهادة في ميدان الشرف والجهاد؟!

أما الذين يقاتلون رياءً وسُمة أو من أجل المغنم فلا يدخلون تحت تلك البشري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ. وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ. وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بحول الله وقوته عند شرح الحديث رقم (٣٨١) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيْزٌ كَأَزِيْزِ الْمَرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ^(٣)..

✽ وهنا يذكر عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه أتى النبي ﷺ فوجده يصلي ويبكى من خشية الله كعادته ﷺ في أكثر صلواته... فوجده ولجوفه ﷺ أَزِيْزٌ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩)، كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٤٤).

كأزيز المِرْجل من البكاء.

أى أنه وجد أزيز صدر النبى ﷺ من البكاء كأزيز القِدر الذى يغلى على النار وقد استجمع غليان الماء بداخله.... ولا شك أن بكاء النبى ﷺ كان من خشية الله (جل وعلا).

وأما عن صفة بكاء النبى ﷺ فلقد كان من جنس ضحكه فلم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهملأ، ويُسمع لصدره أزيزٌ. وكان بكاءه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحبٌ للخوف والخشية... ولما مات ابنه إبراهيم، دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرْضَى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض... وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة (النساء) وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]^(٢) وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكى فى صلاته، وجعل ينفخ، ويقول: «ربِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَلَّا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ»^(٣). وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته. وكان يبكى أحياناً فى صلاة الليل^(٤).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٥٠) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (١٠٧٩).

(٤) زاد المعاد (١/ ١٨٣-١٨٤).

(٤٥٦) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ، عَزَّ وَجَلَّ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]». قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى أُبَيٌّ^(١). وَفِي رَوَايَةٍ: فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي.

❁ هذا الحديث يخبر عن منقبة عظيمة للصحابي الجليل أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. لكن قبل أن أذكر تلك المنقبة لا بد أن نعرف مَنْ هو أبي بن كعب. إنه واحد من الأربعة الذين كان النبي ﷺ يأمر الصحابة أن يأخذوا عنهم القرآن.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اسْتَقْرَئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ، وَأُبَيٍّ، وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ»^(٢). قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: جَمَعَ الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَةٌ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ أَحَدُ عَمُومَتِي^(٣).

وعن ابن سيرين أن عثمان جمع اثني عشر رجلاً من قریش والأنصار فيهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت في جمع القرآن^(٤). وقال الذهبي في «معرفة القراء الكبار»: أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَقْرَأَ مِنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَمِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❁ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]»... فَلَمْ يُصَدِّقْ أُبَيُّ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحَةِ وَلِذَلِكَ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لَهُ: «وَسَمَّانِي؟».. أَى:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨٠٩) كتاب المناقب، ومسلم (٧٩٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى (٣٨٠٦) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٦٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخارى (٥٠٠٣) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٢٤٦٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) أخرجه الفسوى (٢/ ٤٨٧) في المعرفة والتاريخ.

هل أمرك الله ﷻ أن تقرأ تلك السورة على أى واحد من أصحابك فاخترتنى أنا أم أن الله ﷻ أمرك أن تقرأها علىّ وذكر لك اسمى عن طريق الوحي بواسطة جبريل ﷺ.

فأخبره النبى ﷺ أن الله ذكر اسمه ﷻ.. فبكى أبى فرحاً وشوقاً إلى الله ﷻ ﷻ ﷻ فى آنٍ واحدٍ.

ويا لها من منقبة يعجز اللسان عن وصفها ويعجز القلم عن التعليق عليها ولو بكلمة واحدة.

لك أن تتخيل معى أيها الأخ الحبيب أن الله قد ذكر اسمك من فوق سبع سماوات وليس ذلك فحسب، بل إن الله يأمر نبيه ﷺ أن يقرع عليك بابك ويقول لك: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن!!!!

تالله لو كنت مكان أبى بن كعب ﷻ لتميت أن ألقى الله فى تلك اللحظة لتكون تلك المنقبة هى خاتمة السعادة.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: فإنها منقبة عظيمة له لم يُشاركه فيها أحدٌ من الناس. وقيل: إنما بكى خوفاً من تقصيره فى شكر هذه النعمة ^(١).

وقال فى موضع آخر: وفى الحديث فوائدٌ كثيرةٌ منها استحبابُ قراءة القرآن على الحُذَّاقِ فيه وأهل العلم به والفضل وإن كان القارئ أفضل من المقرؤ عليه... ومنها المنقبة الشريفة لأبى بقراءة النبى ﷺ عليه ولا يعلم أحدٌ من الناس شراكه فى هذا... ومنها منقبة أخرى له بذكر الله تعالى له ونصه عليه فى هذه المترلة الرفيعة... ومنها البكاء للسرور والفرح مما يُشعر الإنسان به ويُعطاه من معالى الأمور... وأما قوله الله سَمَانِيْ لَكَ فِيهِ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ يقرأ على رجلٍ من أُمَّتِهِ وَلَمْ يُنصَّ عَلَى أَبِي فَأَرَادَ أَبِي أَنْ يَتَحَقَّقَ هَلْ نَصَّ عَلَيْهِ أَوْ قَالَ

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/٣٠).

عَلَى رَجُلٍ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ الْإِسْتِثْبَاتُ فِي الْمُحْتَمَلَاتِ ... وَاخْتَلَفُوا فِي الْحِكْمَةِ فِي قِرَائَتِهِ ﷺ عَلَى أَبِيٍّ وَالْمُخْتَارُ أَنَّ سَبَبَهَا أَنْ تَسْتَنَّ الْأُمَّةُ بِذَلِكَ فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى أَهْلِ الْإِتْقَانِ وَالْفَضْلِ وَيَتَعَلَّمُوا آدَابَ الْقِرَاءَةِ وَلَا يَأْتَفَ أَحَدٌ مِنْ ذَلِكَ ... وَقِيلَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى جَلَالَةِ أَبِيٍّ وَأَهْلِيَّتِهِ لِأَخْذِ الْقُرْآنِ عَنْهُ وَكَانَ بَعْدَهُ ﷺ رَأْسًا وَإِمَامًا فِي إِقْرَاءِ الْقُرْآنِ وَمَنْ أَجَلُّ نَاشِرَتِهِ ... وَيَتَضَمَّنُ مُعْجَزَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ... وَأَمَّا تَخْصِيصُ هَذِهِ السُّورَةِ فَلِأَنَّهَا وَجِيزَةٌ جَامِعَةٌ لِقَوَاعِدَ كَثِيرَةٍ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ وَمُهَمَّاتِهِ وَالْإِخْلَاصِ وَتَطْهِيرِ الْقُلُوبِ ... وَكَانَ الْوَقْتُ يَقْتَضِي الْإِخْتِصَارَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٧) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَيْهَا بَكَتْ. فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: إِنِّي لَا أَبْكِي، أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنِّي أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا^(٢).
وقد سبق في باب زيارة أهل الخير.

✽ سبق شرح الحديث كاملاً بحول الله وقوته عند شرحنا للحديث رقم (٣٦٤) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٥٨) وَعَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ قِيلَ لَهُ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ غَلَبَهُ الْبُكَاءُ فَقَالَ: «مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ».

وفي رواية عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يُسْمِعْ

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ١٢٣-١٢٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥٤) كتاب فضائل الصحابة.

النَّاسِ مِنَ الْبُكَاءِ^(١).

❖ وهذا الحديث يحكى نبذة يسيرة عن اللحظات الأخيرة في حياة النبي ﷺ قبل موته بأيام.. فإنه ﷺ لما اشتد به المرض والوجع أمر أن يصلى أبو بكر رضي الله عنه بالناس لأنه ﷺ كان لا يستطيع أن يخرج ليصلى بهم....

فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ^(٢)، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُومُ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ؟ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، قَالَتْ فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُمْ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَتْ لَهُ حَفْصَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ، وَإِنَّهُ مَتَى يَقُومُ مَقَامَكَ لَا يُسْمِعُ النَّاسَ، فَلَوْ أَمَرْتَ عُمَرَ، فَقَالَ: «إِنِّكُنَّ لَأَنْتَنَّ صَوَاحِبُ يَوْسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، قَالَتْ: فَأَمَرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ.

❖ وفي رواية: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا -: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ^(٣).

قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ وَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَةً فَقَامَ يُهَادِي بَيْنَ رَجُلَيْنِ، وَرَجُلَاهُ تَخْطَّانِ فِي الْأَرْضِ، قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ سَمِعَ أَبُو بَكْرٍ حِسَّهُ، ذَهَبَ يَتَأَخَّرُ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَكَانَكَ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَسَارِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِالنَّاسِ جَالِسًا وَأَبُو بَكْرٍ قَائِمًا يَقْتَدِي أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقْتَدِي النَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ^(٤).

❖ ولكن يا ترى ما السبب في مراجعة عائشة للنبي ﷺ؟

نقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٩) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٢) أسيف: حزين، وقيل: سريع الحزن والبكاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

كَثْرَةَ مُرَاجَعَتِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي: أَنْ يُحِبَّ النَّاسَ بَعْدَهُ رَجُلًا، قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَلَا كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَبِي بَكْرٍ^(١).

فكان أبو بكر يصلي بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الاثنين، وهم صفوف في صلاة الفجر، كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوف أمام ربهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمة تحافظ على الصلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيها وغيبته، وقد قرّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذي لم يُقدّر لنبيٍّ أو داعٍ قبله، واطمأن أن صلة هذه الأمة بهذا الدين وعبادة الله تعالى، صلة دائمة، لا تقطعها وفاة نبيها ... فملئ من السرور ما الله به عليم واستنار وجهه وهو مُنير^(٢).

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ فَوَائِدُ: مِنْهَا فَضِيلَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتَرْجِيحُهُ عَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَتَفْضِيلُهُ وَتَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّهُ أَحَقُّ بِخِلَافَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَيْرِهِ .. وَمِنْهَا أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا عَرَضَ لَهُ عُذْرٌ عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ اسْتَخْلَفَ مَنْ يُصَلِّي بِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَخْلِفُ إِلَّا أَفْضَلَهُمْ ... وَمِنْهَا فَضِيلَةُ عُمَرَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَعْدِلْ إِلَى غَيْرِهِ ... وَمِنْهَا أَنَّ الْمَفْضُولَ إِذَا عَرَضَ عَلَيْهِ الْفَاضِلُ مَرْتَبَةً لَا يَقْبَلُهَا بَلْ يَدْعُهَا لِلْفَاضِلِ إِذَا لَمْ يَمْنَعْ مَانِعٌ ... وَمِنْهَا جَوَازُ الشَّائِءِ فِي الْوَجْهِ لِمَنْ أَمِنَ عَلَيْهِ الْإِعْجَابُ وَالْفِتْنَةُ لِقَوْلِهِ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ ... وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَلِّ بِالنَّاسِ فَقَالَهُ لِلْعُذْرِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ أَنَّهُ رَجُلٌ رَفِيقُ الْقَلْبِ كَثِيرُ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ لَا يَمْلِكُ عَيْنِيهِ وَقَدْ تَأَوَّلَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّهُ قَالَهُ تَوَاضَعًا^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٤٥) كتاب المغازي، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص: ٤٠١).

(٣) مسلم بشرح النووي (٤/ ١٨١).

(٤٥٩) وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَى بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا، فَقَالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، فَلَمْ يُوَجِدْ لَهُ مَا يَكْفِي فِيهِ إِلَّا بُرْدَةً إِنْ غُطِّيَ بِهَا رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ بِهَا رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ، ثُمَّ بَسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بَسِطَ - أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا - وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا. ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ ^(١).

❁ وهنا ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جىء إليه بالطعام وهو صائم ... والصائم يشتهي الطعام عادة، ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تذكر ما كان عليه الصحابة الأولون، وهو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الصحابة الأولين من المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... لكنه قال احتقارًا لنفسه وتواضعًا: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي.

وكان مصعبٌ رجلًا شابًا ... كان عند والديه بمكة وكان والداه أغنياء، وكانا يلبسانه من خير لباس الشباب والفتيان، وقد دلّاه دلالاً عظيماً فلما أسلم هجره وأبعده ... وهاجر مع النبي ﷺ، فكان مع المهاجرين، وكان عليه ثوبٌ مُرَقَّعٌ بعدما كان في مكة عند أبويه يلبس أحسن الثياب، لكنه ترك ذلك كله مهاجرًا إلى الله ورسوله ﷺ.

وأعطاه النبي ﷺ الراية يوم أحد، فاستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان معه بُردة - أى ثوب - إذا غطوا به رأسه بدت رِجلاه - وذلك لِقَصْرِ الثوب - وإن غطوا رِجليه بدارأسه ... فأمر النبي ﷺ أَنْ يُسْتَرَّ بِهِ رَأْسُهُ وَأَنْ تُسْتَرَّ رِجْلَاهُ بِالْإِذْخَرِ - نباتٌ معروف -.

فكان عبد الرحمن بن عوف يذكر حال مصعب بن عُمَيْرٍ، ثم يقول: إنهم قد مضوا وسَلِمُوا مما فتح الله به من الدنيا على مَنْ بعدهم من المغانم الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٩].

ثم قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قد خشينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ

لنا... لأن الكافر يُجزى على حسناته في الدنيا وله في الآخرة عذاب النار، والمؤمن قد يُجزى في الدنيا وفي الآخرة، لكن جزاء الآخرة هو الأهم. فخشى ﷺ أن تكون حسناتهم قد عجلت لهم في هذه الدنيا، فبكى خوفاً وفرقاً، ثم ترك الطعام ﷺ.

ففي هذا: دليل على البكاء من خشية الله ومخافة عقابه^(١).

وفي هذا أيضاً دليل على تواضع عبد الرحمن بن عوف ﷺ وعدم تزكيته لنفسه مع أنه من أفاضل الصحابة ومن السابقين ومن العشرة المبشرين بالجنة ومع ذلك يقول: قُتل مصعب بن عمير وهو خيرٌ مني... وهكذا كان أصحاب الرسول ﷺ قمة في التواضع وهضم النفس وعدم تزكيتها ولذا رفع الله قدرهم في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦٠) وعن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهليّ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَطْرَتَيْنِ. وَأَثَرَيْنِ: قَطْرَةٌ دُمُوعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَقَطْرَةٌ دَمٍ تُهْرَأُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى»^(٢).

❁ لقد كان أصحاب الرسول ﷺ يسألون دائماً عن أحب الأشياء إلى الله ﷻ. وذلك لحرصهم الشديد على أن يفعلوا كل ما يحبه الله.. ولكن هذه المرة أخبرهم النبي ﷺ بأحب الأشياء إلى الله دون أن يسألوا.. وذلك للحرص الشديد من النبي ﷺ على إيصال الخير لأصحابه وأُمَّته ﷺ. وها هو يقول ﷺ: «ليس شيء أحب إلى الله» أي: ليس شيء أكثر محبوبية

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٨٣-١٨٤).

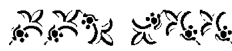
(٢) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی في صحيح الترغيب (١٣٢٦).

إلى الله تعالى وأكثر ثوابًا وأعظم مكانة عند الله «من قطرتين وأثرين» «قطرة دموع من خشية الله» أى: قطرة بُكاءٍ تسقط من خشية الله .. وهذا كقوله ﷺ في السبعة الذين يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - وذكر منهم - «ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

«وقطرة دم تُهراق في سبيل الله تعالى» أى: قطرة دم تُهراق في الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.. وقد يشمل الجهاد وغيره من سبيل الخير.

ولعل وجه إفراد الدم وجمع الدموع: أن الدمع غالبًا يتقاطر ويتكاثر بخلاف الدم... وقال الطيبي: المراد بقطرة الدموع قطراتها، فلما أُضيفت إلى الجمع أفردت ثقة بذهن السامع... وفي إفراد الدم وجمع الدموع إيذان بتفضيل إهراق الدم في سبيل الله، على تقاطر الدمع بُكاءً^(١).

❦ قوله ﷺ: «وَأَمَّا الْأَثَرَانِ فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» كَخُطْوَةٍ أَوْ غُبَارٍ أَوْ جِرَاحَةٍ فِي الْجِهَادِ أَوْ سَوَادٍ حَبِيرٍ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ... «وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ» كِإِشْقَاقِ الْيَدِ وَالرَّجْلِ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ فِي الْبَرْدِ وَبَقَاءِ بَلَلِ الْوُضُوءِ وَاحْتِرَاقِ الْجَبْهَةِ مِنْ حَرِّ الرَّمْضَاءِ الَّتِي يَسْجُدُ عَلَيْهَا وَخُلُوفِ فَمِهِ فِي الصَّوْمِ وَاغْبِرَارِ قَدَمِهِ فِي الْحَجِّ^(٢).



(١) تحفة الأحوذى (٥/ ٥٤).

(٢) تحفة الأحوذى (٥/ ٥٤).

(٥٥) باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر

✽ لا يعرف قدر الآخرة إلا مَنْ عرف حجم الدنيا بالنسبة للآخرة.

فإذا أردت أن تعرف حجم الدنيا بالنسبة للآخرة فتأمل قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] وتأمل قول النبي ﷺ: «الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(١).

✽ وقوله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فليُنظر بِمَ يرجع!»^(٢).

✽ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها^(٣) وَقِلَّتْهَا وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يُعَين به حقيقة الدنيا والآخرة. ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الزهد تَرَكُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع: تَرَكُ ما تخاف ضرره في الآخرة. وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد، والورع» وأجمعها.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٥) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة.

(٣) إنما ذلك للحياة الدنية الخسيسة، التي يتعلق بها الغافلون عن كرامتهم، وينصرفون بها إلى البهيمية، ويخلدون إلى أرضها.. أما الذاكرون لكرامتهم ودرجاتهم العالية. فإنهم يتخذون من حياتهم الأولى وما فيها مما أنعم الله عليهم به وسخره لهم أسباباً يرتفعون بها على مراق البر والإحسان. فهي حياة كريمة مباركة.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله. وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله وتبين درجاته، وهو من أجمع الكلام. وهو يدل على أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذا العلم بالمحل الأعلى ... وقد شهد الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ بإمامته في ثمانية أشياء «أحدها الزهد».

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد: سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة^(١).

❁ ولقد قرأت سيرة سعيد بن المسيب، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، والخليل بن أحمد وأمثالهم من علماء الملة، فوجدت العجب العجيب، من قناعتهم من الدنيا بالقليل ... فهم على الخبز اليابس أحياناً مع الماء، وأحياناً مع الزيت، وربما جاعوا الأيام ولم يجدوا طعاماً، وربما لا يجدوا إلا خبز الشعير، مع أن الدنيا تطاردهم، وعطايا السلطان تطلبهم، وهم يرفضون ويفرون. وهذا هو العلم النافع الذي أثر في حياتهم وأخلاقهم، فبقى ذكركم مرفوعاً دائماً وأبداً، وعمّ نفعهم، واستفيد من علمهم، وانتشر فضلهم والثناء عليهم ... رحمهم الله رحمة واسعة وإيانا معهم^(٢).

والدنيا: هي حياتنا هذه التي نعيش فيها ... وسُميت دنيا لسببين:

السبب الأول: أنها أدنى من الآخرة لأنها قبلها كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ ❁ [الضحى: ٤].

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٠-١٣) بتصرف.

(٢) حقائق ذات بهجة (ص: ١٦٦).

والثاني: أنها دنيئة ليست بشيء بالنسبة للآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَرَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْهَى أَتْمُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً.

فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَمِمَّا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ كأنواع العشب، والكلاء المختلف الأصناف.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وَضَرَبَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا﴾ أي: حصل معهم طمع، بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أُنْهَى أَتْمُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأنها ما كانت ... فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يُزيلُ عنه الشكَّ البَيَانُ^(١).

وهذه هي الحياة الدنيا... واعتبر ذلك أنت في واقعك، فكم من أناس عاشوا في هذه الدنيا عيشة راضية، وفي رفاهية وأنسٍ وأولاد وزوجات وقصور وسيارات، ثم انتقلوا عنها كأن لم يكونوا بالأمس... انتقلوا هم عنها أو انتقلت هي عنهم بشيء أتلّف دُنياهم... فكم من إنسانٍ غنىّ عنده أموال عظيمة أصبح فقيراً يسأل الناس.

فهذه هي الدنيا، وإنما ضرب الله هذا المثل لئلا تغتر بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ۝٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ وَالْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَلَأَ ﴿٤٦﴾

[الكهف: ٤٥-٤٦].

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ هذا مثل آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنيتين في الفناء والزوال... والمعنى: اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافيًا غزيرًا وخالط بعضه بعضًا من كثرتة وتكاثره ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أي صار النبات متكسرًا من اليبس متفتتًا تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ أي قادرًا على الإفناء والإحياء لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ۖ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ۖ ثُمَّ يَكُونُ

حُطْمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ
الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ أى اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هى إلا لعبٌ يُتعب الناس فيها أنفسهم كإتعب الصبيان أنفسهم باللعب ﴿وَلَهُوَ﴾ أى وشغلٌ للإنسان يشغله عن الآخرة وطاعة الله ﴿وَزِينَةٌ﴾ أى وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ أى ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد ... كما قال القائل:

أرى أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاةً وفخراً على الفقراء حتى فى القبور

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أى مباهاة بكثرة الأموال والأولاد.

قال ابن عباس: يجمع المال من سخط الله، ويتباهى به على أولياء الله، ويصرفه فى مساخط الله، فهو ظلماتٌ بعضها فوق بعض ^(١) ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أى كمثلى مطرٍ غزير أصاب أرضاً، فأعجب الزُّرَّاع نباته الناشئ عنه ﴿ثُمَّ يَبْجُ فَنَرْنَاهُ مُصْفَرًّا﴾ أى ثم يبس بعد خضرته ونُضْرته فتراه مُصْفَرًّا اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطْمًا﴾ أى ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيمًا تذروه الرياح ... كذلك حال الدنيا.

قال القرطبي: والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاع لأنهم يُغطون البذر... ومعنى الآية أن الحياة الدنيا كالزراع يُعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيمًا كأن لم يكن، وإذا أعجب الزُّرَّاع فهو فى غاية الحُسْن ^(٢).

(١) التفسير الكبير للرازي (٢٩/ ٢٣٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ٢٥٥).

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أى والجزاء فى الآخرة إما عذابٌ شديد للفُجَّار، وإما مغفرة من الله ورضوانٌ للأبرار.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أى وليست الحياة الدنيا فى حقارتها وسرعة انقضائها إلا متاعٌ زائل، ينخدع بها الغافل، ويغتر بها الجاهل.

قال سعيد بن جبیر: الدنيا متاع الغرور إن ألْهَتْكَ عن طلب الآخرة، فأما إذا دعوتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فنعم المتاع ونعم الوسيلة^(١).

ولما حَقَّرَ الدنيا وصَغَّرَ أمرها، وعظَّم الآخرة وفخَّم شأنها، حَثَّ على المسارعة إلى نيل مرضاة الله، التى هى سبب للسعادة الأبدية فى دار الخلود والجزاء فقال ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى تسابقوا أيها الناس وسارعوا بالأعمال الصالحة التى تُوجب المغفرة لكم من ربكم قال أبو حيان: وجاء التعبير بلفظ ﴿سَابِقُوا﴾ كأنهم فى ميدان سباق يجرون إلى غاية مُسَابِقِينَ إليها، والمعنى سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان، وعملُ الطاعات^(٢) ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى وسارعوا إلى جنةٍ واسعةٍ فسيحة، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة ... قال السدى: إن الله تعالى شَبَّهَ عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ... فذكر العرض تنبيهاً على أن طولها أضعاف ذلك^(٣) وقال البيضاوى: إذا كان العرض كذلك فما ظنك بالطول^(٤)، ﴿أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى هيأها الله وأعدّها للمؤمنين المصدقين بالله ورسوله . قال المفسرون: وفى الآية دلالة على أن الجنة مخلوقة وموجودة لأن ما لم يُخلق

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٢٢٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٩/ ٢٣٤).

(٤) تفسير البيضاوى (٣/ ٤٥٤).

بعد لا يُوصف بأنه أَعَدَّ وَهِيءٌ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أى ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع، يتفضل به على مَنْ يشاء من عبادة من غير إيجاب.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أى ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ^(١).

❖ وهناك آيات أخرى ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في فضل الزهد في الدنيا ... ومنها: قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤] ... وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿الْهَنَاقُ التَّكَاثُرُ﴾ ❶ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ❷ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ❸ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ❹ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿[التكاثر: ١-٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والآيات في الباب كثيرة مشهورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦١) عن عمرو بن عوفٍ الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنَ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِحِزْبَيْهَا فَقَدِمَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، فَسَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ ، فَوَافُوا صَلَاةَ الْفَجْرِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، أَنْصَرَفَ ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ» فَقَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : «أَبَشِّرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا . فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ» ^(٢).

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٥٨) كتاب العزبة، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرقائق.

(٤٦٢) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله. فقال: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتِهَا»^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين ليأتى بجزيتها..

وأبو عبيدة هو أمين هذه الأمة كما أطلق عليه النبى ﷺ هذا اللقب.
عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ لِكُلِّ أُمَةٍ أَمِينًا، وَإِنْ أَمِينُنَا أَيْتُهَا الْأُمَةُ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٢).

قال العلماء: والأمانة مشتركة بينه وبين غيره من الصحابة، لكن النبى ﷺ خَصَّ بعضهم بصفاتٍ غلبت عليهم، وكانوا بها أخص^(٣).

وقال الحافظ ابن حجر رحمته الله: والأمين هو الثقة الرضى ... وهذه الصفة وإن كانت مشتركة بينه وبين غيره لكن السياق يُشعر بأن له مزيدًا في ذلك ... لكن خص النبى ﷺ كل واحد من الكبار بفضيلة ووصفه بها، فأشعر بقدر زائد فيها على غيره، كالحياة لعثمان، والقضاء لعلى ونحو ذلك^(٤).

فذهب إليهم أبو عبيدة رضي الله عنه ثم عاد بتلك الأموال إلى النبى ﷺ ... فلما سمع الأنصار بعودة أبى عبيدة من البحرين جاءوا إلى النبى ﷺ فوافوه في صلاة الفجر وصلوا معه ﷺ ... فلما انصرف النبى ﷺ من صلاته تعرضوا له ووقفوا في طريقه ﷺ ... فما كان من النبى ﷺ -الذى قال عنه الحق ﷻ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾- إلا أن تبسّم في وجوههم لأنه علم أنهم جاءوا متشوقين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٦٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٥٢) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخارى (٣٧٤٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤١٩) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٢٧٣/١٥).

(٤) فتح البارى (١١٧/٧).

للمال لا احتياجهم له.

فقال لهم: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قَدِمَ بشيءٍ من البحرين؟» قالوا: أجل يا رسول الله، يعنى سمعنا بذلك وجئنا لننال نصيبنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم» فالفقر لا يخشاه علينا النبي ﷺ.

والفقر قد يكون خيرًا للإنسان، كما جاء في الحديث القدسي الذي يُروى عن النبي ﷺ أن الله عز وجل قال: «إن من عبادي مَنْ لو أغنيته لأفسده الغنى» يعنى أطغاه وأضلَّه وصدَّه عن الآخرة والعياذ بالله ففسد «وإن من عبادي مَنْ لو أفقرته لأفسده الفقر»^(١).

فقال النبي ﷺ: «ما الفقر أخشى عليكم» يعنى لا أخشى عليكم من الفقر، لأن الفقير في الغالب أقرب إلى الحق من الغنى.

وانظروا إلى الرسل (عليهم الصلاة والسلام) مَنْ الذي كان يكذبهم؟ كان يكذبهم المملأ الأغنياء، وأكثر مَنْ يتبعهم الفقراء، حتى النبي عليه الصلاة والسلام أكثر مَنْ اتبعه الفقراء.

فالفقر لا يُخشى منه، بل الذي يُخشى منه أن تُبسط الدنيا علينا.

كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

وهذا هو الواقع... وانظر إلى حالنا نحن، لما كان الناس إلى الفقر أقرب، كانوا لله أتقى، وأخشع، ولما كثر المال، كثر الإعراض عن سبيل الله، وحصل الطغيان، وصار الإنسان الآن يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها: سيارة، بيت، فرش، لباس... يُباهي الناس بهذا كله، ويُعرض عما ينفعه في الآخرة.

(١) ضعيف: رواه الخطيب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٧٥).

وصارت الجرائد والصحف وما أشبهها لا تتكلم إلا عن الرفاهية وما يتعلق بالدنيا، وأعرضوا عن الآخرة، وفسد كثيرٌ من الناس إلا مَنْ شاء الله.

فالحاصل أن الدنيا إذا فُتحت - نسأل الله أن يقينا وإياكم شرها - أنها تجلب الشر وتطغى الناس ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ﴾ (٦) ﴿أَن رَّءَاهُ أَسْتَغْفَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦٣) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ» (٢).

«إن الدنيا حلوة خضرة» حلوة المذاق، خضرة المنظر، تجذب وتفتن، فالشيء إذا كان حلواً ومنظره طيباً فإنه يفتن الإنسان... فالدنيا هكذا حلوة خضرة.

ولكن «إن الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» يعنى جعلكم خلائف فيها؛ يَخْلُفُ بعضكم بعضاً، ويرث بعضكم بعضاً، «فينظر كيف تعملون» هل تُقَدِّمُونَ الدنيا أو الآخرة؟ ولهذا قال: «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء». ولكن إذا أغنى الله الإنسان، وصار غناه عوناً له على طاعة الله، ينفق ماله في الحق، وفي سبيل الله، صارت الدنيا خيراً.

ولهذا كان الرجل في الدنيا الذي ينفق ماله في سبيل الله، وفي مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، في منزلة العالم الذي آتاه الله الحكمة والعلم وصار يُعلم الناس. فهناك فرق بين الذي ينهمك في الدنيا ويُعرض عن الآخرة، وبين الذي يُغنيه الله، ويكون غناه سبباً لسعادته والإنفاق في سبيل الله ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٨٧-١٨٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٤٦٤) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(١).

❁ أى أنه لا عيش باقٍ ولا عيش مطلوب إلا عيش الآخرة

❁ أيها الأخ الحبيب: هل تريد أن تحيا فلا تموت أبداً؟.. وهل تريد أن تعيش سليماً مُعافاً لا تمرض أبداً؟.. وهل تريد أن تظل شاباً ولا تهرم أبداً؟.. وهل تريد أن تعيش مُنعمًا فلا تبأس أبداً؟...

- إن كنت تريد ذلك فإنه لن يكون في الدنيا بل هناك في الجنة... فالدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان وهي سجن المؤمن وجنة الكافر.

- أما النعيم الكامل الذى لا ينتهى أبداً ولا ينقص بل يزيد سيكون هناك في الجنة التى أعدها الله لعباده الصالحين... تلكم الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

❁ وإذا أردت أن تستوثق من كلامى هذا فتأمل معى تلك النداءات التى يسمعها أهل الجنة عند دخول الجنة وبعد دخولها.

❁ عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَّمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»^(٢)... فذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

❁ وعن صهيب أن النبى ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنَحِّزَ كُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يَنْقُلْ مَوَازِينَنَا، وَيَبْيِضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤١٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١٨٠٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

❁ وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَيْسَكَ رَبَّنَا وَسَعْدُكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦٥) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَتَّبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ: أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ: فَيَرْجِعُ اثْنَانِ. وَيَبْقَى وَاحِدٌ: يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٠٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦٦) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»^(٣).

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الخير كل الخير فى طاعة الله ولو كان صاحبها فقيراً معدماً.. وأن الشر كل الشر فى معصية الله ولو كان صاحبها غنياً منعماً.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٤٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥١٤) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٠٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

فيوم القيامة يُؤْتَى بأنعم أهل الدنيا... ولا شك أن هذا الرجل أنعم من قارون وذلك لأن قارون لما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ [٧٨] [القصص: ٧٨].

فقد كان هناك مَنْ هو أغنى وأكثر جمعًا من قارون الذي لم يصف الله ﷻ خزائنه بل وصف مفاتيح خزائنه فقال تعالى: ﴿وَأَيْنَنَّهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِن مَفَاتِحُهُ لَنُؤْتِي بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

لكنه لما كفر بالله ﷻ كانت النتيجة ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فالشاهد أنه يُؤْتَى يوم القيامة بأنعم إنسان.. ولا يُشترط أن يكون أنعم إنسان هو أغنى إنسان.. بل قد يكون هناك إنسان غنى ولكنه بخيل.. وقد يكون هناك إنسان أقل منه مالاً وثروة ولكنه يحرص كل الحرص على أن يتمتع بذلك المال..

المهم أنه يُؤْتَى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار.. لكنه بكل أسف لم يشكر الله على تلك النعم ولم يعبد الله بل كان بعيداً عن طاعة الله لأنه استعمل هذا المال في كل ما يُغضب الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة في نار جهنم ثم يسأله الله ﷻ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟

ولكن تلك الغمسة جعلته ينسى كل نعيم... وهو مَنْ هو؟ هو أنعم أهل الدنيا.. فيقول: لا والله يا رب ما رأيت نعيماً قط.. سبحان الله!! أين المال وأين الدنيا وأين المُتَع؟!! ذهب كل ذلك ولم يبقَ إلا أثر تلك الغمسة.

وفي المقابل فإنه يُؤْتَى بأشد الناس بُؤْساً في الدنيا من أهل الجنة.. فهو رجل حُرْم من كل متاع الدنيا الزائل وعانى من كل بلاء ومع ذلك كان راضياً

عن الله عابداً لله صابراً على قضاء الله.. فيأمر الله الملائكة فتغمسه غمسة سريعة في الجنة.. ثم يسأله الله ﷻ ويقول له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤساً قط؟ هل مرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مرَّ بي بُؤس قط ولا رأيت شدة قط..

الله أكبر.. لقد نسي كل شقاء وبلاءٍ مع أول غمسة في الجنة.. فما ظنك به وقد عاش في الجنة خالداً مُخلداً فيها أبداً.

ألا فليهنأ الفقراء والمحرومون وأهل البلاء الذين صبروا على قضاء الله وعاشوا على طاعة الله.

❁ أيها المهموم بسبب الفقر وقلة ذات اليد.. لا تحزن..

وانظر ماذا فاتك من الدنيا..

ألست تأكل كما يأكل الأغنياء؟

وتشرب كما يشرب الأغنياء؟

أما يستحيل طعامك وطعامهم وشرابك وشرابهم إلى ما قد علمت؟

فأى مزية - إذن - لطعامهم على طعامك، أو لشرابهم على شرابك.. فلماذا

تحزن؟

ألست تنام كما ينامون، وتستيقظ كما يستيقظون... فأى فرق بين أن تنام على حصير وبنام الأغنياء على فُرش وثيرة؟ وقد تكون الحصر أنفع وأصح من الفراش الناعم الوثير. فلماذا تحزن؟

إذا مرضت أخذت قرصاً بفلسي فشفاك الله بسبب فقرك وحاجتك وانكسارك بين يديه..

ويدفع الأغنياء الآلاف ومئات الآلاف ويستمر بهم المرض، ولا تنقطع عنهم العلل..

فلماذا تحزن؟

تأكل ما شئت من الطعام، وتشرب ما شئت من الشراب، ويتحمل جسمك أقسى الأطعمة والأشربة، بينما كثير من الأغنياء لا يأكل إلا ما تعافه نفسك أن تأكله؛ لأن أجسامهم لا تقوى إلا على ذلك، فلماذا تحزن..!!؟^(١).

✽ ويوم القيامة تبدل الأحوال.. سينسى المؤمن الفقير كل ما كان يُعانيه من البؤس والشدة والجوع والحرمان والابتلاءات مع أول غمسة في جنة الرحمن (جلّ وعلا).

✽ وفي المقابل سينسى الغنى - إن لم يكن طائعاً لله - كل ما كان فيه من الثراء والغنى والقصور والسيارات والخدم والشهوات مع أول غمسة في نار جهنم.... فلماذا تحزن؟!... أما إن كان الغنى طائعاً لله عَزَّوَجَلَّ.. فَنِعَمَ المال الصالح للرجل الصالح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦٧) وَعَنْ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ . فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟»^(٢).

✽ فالنبي ﷺ هنا يوضح لنا أننا إذا أردنا أن نعقد مقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فما علينا إلا أن يذهب أحدنا إلى البحر أو المحيط ثم يضع أصبعه في البحر ويرفعه ثم ينظر إلى الماء الذي على أصبعه ليرى كم يساوى بالنسبة إلى الماء الذي في البحر.. بالطبع لا يساوى أى شىء.. ولا أى نسبة ولا تناسب بينهما.. وهكذا الدنيا بالنسبة للآخرة.. فالدنيا تساوى القطرة التي تعلقت بأصبعك... والآخرة تساوى ذلك البحر بل أكثر وأعظم من ذلك بكثير. وطبعاً هذا من باب تقريب الأفهام وإلا فالدنيا أصلاً لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولو كانت تساوى جناح بعوضه ما سقى كافراً منها شربة ماء.

(١) لا تحزن وكن مطمئناً (ص: ١٩، ٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قَصَر مُدَّتِهَا وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقى البحر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ ولكى تعرف قدر الدنيا فتأمل معى إلى ما فعله النبى ﷺ مع أصحابه.

(٤٦٨) عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتِيهِ، فَمَرَّ بِجَدِي أَسْكَ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَهُ بِدَرَاهِمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ ثُمَّ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيًّا، إِنَّهُ أَسْكَ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ! فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»^(٢).

❖ فهذا جدى ميت لا يساوى شيئاً، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من هذا الجدى الأسك الميت، فهى ليست بشيء ومع ذلك فإن من عمل فيها عملاً صالحاً؛ صارت مزرعة له فى الآخرة، ونال فيها السعادتين: سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

أما من غفل وتغافل وتهاون ومضت الأيام عليه وهو لم يعمل؛ فإنه يخسر الدنيا والآخرة... قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: ١-٣].

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ٢٨٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٧) كتاب الزهد والرقائق.
قوله: «كَنَفَتِيهِ» أى: عن جانبيه - و «الْأَسْكُ»: الصغير الأذن.

وكل بنى آدم خاسر إلا هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف الأربعة: آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر. جعلنا الله والمسلمين منهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦٩) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي حَرَّةٍ بِالْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَنَا أَحَدٌ فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ». قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «مَا يَسُرُّنِي أَنْ عِنْدِي مِثْلُ أَحَدٍ هَذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْءٌ أَرْضُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا» عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمَنْ خَلْفَهُ... ثُمَّ سَارَ فَقَالَ: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا» عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَمَنْ خَلْفَهُ «وَقَلِيلٌ مَا هُمْ». ثُمَّ قَالَ لِي: «مَكَانَكَ لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ». ثُمَّ انْطَلَقَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى، فَسَمِعْتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ: «لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ» فَلَمْ أَتْرَحْ حَتَّى آتَانِي، فَقُلْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتًا تَخَوَّفْتُ مِنْهُ، فَذَكَرْتُ لَهُ. فَقَالَ: «وَهَلْ سَمِعْتَهُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «ذَاكَ جَبْرِيلُ آتَانِي فَقَالَ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ»^(٢).

(٤٧٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَى ثَلَاثِ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْءٌ أَرْضُدُهُ لِدَيْنٍ»^(٣).

❁ ففى هذا الحديث يخبر أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يمشى مع النبى ﷺ فى المدينة حتى وصلا بالقرب من جبل أحد فنظر النبى ﷺ إلى جبل أحد ثم قال لأبى ذر: «يا أبا ذرٍّ». قلت: لبيك يا رسول الله. فقال: «ما يسرني أن عندي مثل

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٦٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٩٤) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

أُحِدَ هَذَا ذَهَبًا تَمْضَى عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْءٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمَنْ خَلْفَهُ... وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان أزهد الناس في حُطام الدنيا الزائل.. فهو لا يريد أن يجمع المال ولا يحرص عليه إلا شيئاً يرصده لدين...
❁ وتأمل معي كيف كانت حياة سيد ولد آدم ﷺ.

ففي الحديث الذي رواه مسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل^(١) ما يملأ به بطنه.
وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد رضي الله عنهم من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض^(٢).

وفي الصحيحين عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ ناراً. قلت: يا خالة فما كان يُعْيَشُكُمْ؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يُرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت على امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف، فدخل على رسول الله ﷺ، فقال: «ما هذا؟» فقلت: فلانة الأنصارية دخلت على، فرأت فراشك، فبعثت إلي بهذا. فقال: «رُدِّيهِ» فلم أرده، وأعجبنى أن

(١) الدقل: ردىء التمر.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤١٦) كتاب الأطعمة، و(٦٤٥٥) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٩٧٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٩٧٢) كتاب الزهد والرقائق.

يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات فقال: «يا عائشة، رُدِّيهِ، والله لو شئت، لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٢).

بل كان النبي ﷺ يُكثر من هذا الدعاء - كما في الصحيحين - أنه ﷺ كان يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(٣).. أي: ما يسد الرمق.

ولو كانت الدنيا محبوبة إلى الخالق (جل وعلا) ما حرم منها نبيه وحبيبه ﷺ.. فالدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.

✽ ثم سار النبي ﷺ وقال لأبي ذر: «إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ هَكَذَا وَهَكَذَا» عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه «وَقَلِيلٌ مَا هُمْ».

يقصد النبي ﷺ أن المُكثرين من الدنيا وحُطامها هم المُقلون من الأعمال الصالحة يوم القيامة.. وذلك لأن الغالب على صاحب المال الكثير والمشروعات الكبيرة أنه ينشغل بها غاية الانشغال من أجل تنمية تلك الأموال والمشروعات حتى تُلهيه الدنيا ويُعرض عن طاعة الله ولا يجد وقتاً حتى للصلاة.. فيكون مُكثرًا من المال في الدنيا مُقلًا في الآخرة من الأعمال الصالحة.

✽ ثم قال أبو ذر رضي الله عنه: ثم قال لي النبي ﷺ: «مَكَانَكَ لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ». ثم انطلق في سَوَادِ اللَّيْلِ حَتَّى تَوَارَى، فسمعتُ صَوْتًا قَدِ ارْتَفَعَ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ عَرَضَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أَنْ آتِيَهُ فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ: «لَا تَبْرَحَ حَتَّى آتِيكَ» فلم أَبْرَحَ حَتَّى

(١) رواه أحمد بسند صحيح.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي (٢٣٧٧) كتاب الزهد، وابن ماجه (٤١٠٩) كتاب الزهد، وصححه

الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٥٦٦٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزهد والرقائق.

أتاني، فقلت: لقد سمعت صوتاً تخوّفتُ منه، فذكرتُ له. فقال: «وهل سمعته؟» قلت: نعم، قال: «ذاك جبريل أتاني فقال: مَنْ ماتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قلتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قال: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ... فأخبر النبي ﷺ هنا أن مَنْ مات لا يشرك بالله شيئاً سيدخل الجنة وإن زنى وإن سرق..»

وهذا لا يعنى أن الزنى والسرقه حلال أو أنهما من الذنوب اليسيرة.. بل هما من الكبائر.. ولذا استعظم أبو ذر ذلك فقال: وإن زنى وإن سرق!.. فقال النبي ﷺ: «وإن زنى وإن سرق» وذلك لأن مَنْ مات على الإيمان والتوحيد فلم يُشْرِكْ بِاللّهِ شَيْئًا وكان قد وقع في بعض الكبائر ولم يُتَّب منها فهو في مشيئة الله.. إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه.. لكنه حتى وإن عاقبه الله ﷻ فَمَالَهُ في النهاية إلى الجنة.. وذلك لأنه لَا يُخْلَدُ مَوْحِدًا في النار أبدًا.

وعلى العموم.. فإن أصحاب الكبائر - ما سوى الشرك - في مشيئة الله ﷻ.. إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم.. ورحمته سبقت غضبه.. ورحمته غلبت غضبه ﷻ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٧١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»^(١). وفي رواية البخاري: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ».

❁ وذلك لأن الإنسان إذا نظر إلى مَنْ هو أغنى منه وأعلى منه منصباً فقد يعترض على قضاء الله ﷻ.. وقد يحسد هذا الإنسان على ما أنعم الله به عليه.. وقد يتحول الأمر إلى منافسة على حُطام الدنيا فينشغل ليل نهار بالجري وراء

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩٠) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٣) كتاب الزهد والرفائق.

حُطَام الدنيا ليكون مثل فلان وفلان من أصحاب المال والثراء.

أما إذا نظر إلى مَنْ هو دونه في حظوظ الدنيا فهذا سيجعله يحمده الله على ما أنعم عليه من النعم.. ولن يحسد أخاه بل ربما يشفق عليه ويساعده لينال الأجر والثواب ولن ينشغل باللهث وراء الدنيا بل سيرضى بما قدره الله له ويجتهد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن جرير وغيره: هَذَا حَدِيثٌ جَامِعٌ لِأَنْوَاعٍ مِنَ الْخَيْرِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا طَلَبَتْ نَفْسُهُ مِثْلَ ذَلِكَ وَاسْتَصْغَرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَصَ عَلَى الْإِزْدِيَادِ لِيَلْحَقَ بِذَلِكَ أَوْ يُقَارِبَهُ فَهَذَا هُوَ الْمَوْجُودُ فِي غَالِبِ النَّاسِ ... وَأَمَّا إِذَا نَظَرَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونُهُ فِيهَا ظَهَرَتْ لَهُ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ فَشَكَرَهَا وَتَوَاضَعَ وَفَعَلَ فِيهِ الْخَيْرَ^(١).

بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَوْضُّعِهِ

(٤٧٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدَّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ»^(٢).

❁ تلك الأحاديث كلها تدل على الزهد في الدنيا، وأن الإنسان لا ينبغي أن تتعلق نفسه بها، وأن تكون الدنيا بيده لا بقلبه، حتى يقبل بقلبه على الله عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا هو كمال الزهد، وليس المعنى أنك لا تأخذ شيئاً من الدنيا، بل خُذْ من الدنيا ما يَحِلُّ لك، ولا تنس نصيبك منها، ولكن اجعلها في يديك ولا تجعلها في قلبك، وهذا هو المهم.

لأن الله عَزَّوَجَلَّ أمرنا بعبادته وبإعمار الأرض وكفل لنا أرزاقنا حتى آخر لحظة في حياتنا.

(١) مسلم بشرح النووي (١٨/١٢٩-١٣٠).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٣٥) كتاب الرقاق، (٢٨٨٧) كتاب الجهاد والسير.

والنبي ﷺ في هذا الحديث يدعو على مَنْ ترك آخرته وعكف على حُطام الدنيا الزائل حتى وصل الأمر به أنه أصبح عبدًا للدرهم والدينار.

قال ﷺ: «تَعَسَّ عبد الدينار والدرهم» أى: سقط.. والمراد هنا: هلك.. وقيل: التعس هو الشر.. وقيل: التعس أى البُعد.. أى بُعدًا له.. وقيل: التعس أن يَخِرَّ على وجهه... والنكس أن يَخِرَّ على رأسه.

«عبد الدينار» أى الذى يطلبه ويجرى وراءه ويحرص عليه فإذا حصل عليه قام على حفظه وسهر عليه كالخادم والعبد.

قال الطيبي: قيل خص العبد بالذكر لِيُؤْذَنَ بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها كالأسير الذى لا يجد خلاصًا، ولم يَقُلْ مالك الدينار ولا جامع الدينار لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة^(١).

«والقطيفة والخميصة»: والقטיפه: كساءٌ غليظ... والخميصة: ثوب مُخطط من حرير أو صوف.

❁ قوله ﷺ: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ».

قال الطيبي: يُؤْذَنُ بِشِدَّةِ الْحِرْصِ عَلَى ذَلِكَ... وَقَالَ غَيْرُهُ جَعَلَهُ عَبْدًا لَهُمَا لِشَغْفِهِ وَحِرْصِهِ فَمَنْ كَانَ عَبْدًا لِهَوَاهُ لَمْ يَصْدُقْ فِي حَقِّهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ﴿فَلَا يَكُونُ مِنْ أَتَصَفَ بِذَلِكَ صِدِّيقًا﴾.

❁ وفي الرواية الأخرى قال ﷺ: «تَعَسَّ عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة: إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ».

قال الطيبي: فِي قَوْلِهِ «تَعَسَّ وَانْتَكَسَ» فِيهِ التَّرَقُّى فِي الدُّعَاءِ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ إِذَا تَعَسَّ انْكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا انْتَكَسَ انْقَلَبَ عَلَى رَأْسِهِ وَقِيلَ التَّعَسُّ الْخَرُّ عَلَى الْوَجْهِ.. وَالنَّكْسُ: الْخَرُّ عَلَى الرَّأْسِ.

وَقَوْلُهُ فِي الرَّوَايَةِ الْمَذْكُورَةِ «وَإِذَا شَيْكَ» أَيْ إِذَا دَخَلَتْ فِيهِ شَوْكَةٌ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُخْرِجُهَا بِالْمِنْقَاشِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ «فَلَا انْتَقَشَ» وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ لَمْ يَقْدِرِ الطَّبِيبُ أَنْ يُخْرِجَهَا ... وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الدُّعَاءِ عَلَيْهِ بِمَا يُثَبِّطُهُ عَنِ السَّعْيِ وَالْحَرَكَةِ وَسَوْغَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِ كَوْنُهُ قَصَرَ عَمَلُهُ عَلَى جَمْعِ الدُّنْيَا وَاشْتَغَلَ بِهَا عَنْ الَّذِي أُمِرَ بِهِ مِنَ التَّشَاغُلِ بِالْوَاجِبَاتِ وَالْمُنْدُوبَاتِ ... قَالَ الطَّبِيبِيُّ: وَإِنَّمَا خُصَّ انْتِقَاشُ الشَّوْكَةِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَسْهَلُ مَا يُتَصَوَّرُ مِنَ الْمُعَاوَنَةِ فَإِذَا انْتَفَى ذَلِكَ الْأَسْهَلُ انْتَفَى مَا فَوْقَهُ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى^(١).

❁ فالنبي ﷺ الذي كان يرفض أن يدعو على أحدٍ إلا في حالاتٍ نادرة يدعو هنا على الذي يُصبح عبداً للدرهم والدينار وينسى آخرته ولا يعمل لذلك اليوم الذي سيقف فيه بين يدي الله عز وجل ليسأله عن كل صغيرة وكبيرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٧٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِداءٌ، إِذَا رَأَى، وَإِذَا كَسَاءً، قَدْ رِبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ. وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ. فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تَرَى عَوْرَتَهُ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يصف أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حال أهل الصُّفَّةِ ومدى ما كانوا عليه من الشدة والفقر.. ومع ذلك كانوا راضين بقضاء الله مُقبلين على طاعته (سبحانه وتعالى).

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلِ وَلَا مَالٍ وَلَا عَلَى أَحَدٍ»^(٣).

إن المهاجرين الأوائل الذين هاجروا قبل النبي ﷺ أو معه أو بعده حتى

(١) فتح الباري (١١/٢٥٩).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٢) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٤٥٢) كتاب الرقاق.

نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر ... استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم وأن يشاركوهم النفقة ولكن فيما بعد كُبر حجم المهاجرين مما لم يُعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم^(١).

فقد صار المهاجرون يكثرُونَ بعد ذلك شيئاً بعد شيء.

فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه.. ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والأهلين والعزّاب ... فكان مَنْ لم يتيسر له مكان يأوى إليه، يأوى إلى تلك الصُفة في المسجد^(٢).

والذى يظهر للباحث أن المهاجر الذى يقدم إلى المدينة كان يلتقى بالرسول ﷺ، ثم يُوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله فإن لم يجد فإنه يستقر في الصُفة مؤقتاً ريثما يجد السبيل^(٣).... فقد جاء في المُسند عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «كان رسول الله ﷺ يُشْغَلُ، فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يَعْلَمُهُ الْقُرْآنَ، فَدَفَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا فَكَانَ مَعِيَ فِي الْبَيْتِ، أَعْشِيهِ عَشَاءَ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَكُنْتُ أَقْرَأُهُ الْقُرْآنَ»^(٤) وقد كان أول مَنْ نزل الصُفة المهاجرون^(٥) لذلك نُسبت إليهم فقيل: صُفة المهاجرين^(٦) وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التى كانت تَقْدُمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُعلنَةً إسلامها وطاعتها^(٧) وكان الرجل إذا قدم على النَّبِيِّ ﷺ وكان له عريف نزل عليه وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُفة وكان أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُفَّةَ مِنَ الْقَاطِنِينَ، ومن نزلها من الطارقين... فكان النَّبِيُّ ﷺ إذا أَرَادَ دَعْوَتَهُمْ عَهْدَ إِلَى

(١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة / للشامى، (ص ١٧٥).

(٢) الفتاوى (١١/ ٤٠، ٤١).

(٣) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، (ص ١٧٥).

(٤) حسن: رواه أحمد (٣٢٤/٥) وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٥) انظر: وفاء الوفا للمسمودى، (١/ ٣٢٣).

(٦) رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٤٠٠٣).

(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٥٨).

أبى هريرة فدعاهم لمعرفة بهم، وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة. ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة حُبًّا لحياة الزهد والمجاهدة والفقر، رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دارٍ لهم في المدينة... ككعب بن مالك الأنصارى، وحنظلة بن أبى عامر الأنصارى (غسيل الملائكة) وحارثة بن النعمان الأنصارى وغيرهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٧٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٢).

❖ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» مَعْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مَسْجُونٌ مَمْنُوعٌ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَةِ مُكَلَّفٌ بِفِعْلِ الطَّاعَاتِ الشَّاقَّةِ فَإِذَا مَاتَ اسْتَرَّاحَ مِنْ هَذَا وَانْقَلَبَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ النَّعِيمِ الدَّائِمِ وَالرَّاحَةِ الْخَالِصَةِ مِنَ النُّقْصَانِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا حَصَلَ فِي الدُّنْيَا مَعَ قَلْبِهِ وَتَكْدِيرِهِ بِالْمُنْغَصَّاتِ فَإِذَا مَاتَ صَارَ إِلَى الْعَذَابِ الدَّائِمِ وَشَقَاءٍ أَبَدٍ^(٣).

❖ وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الدنيا سجن المؤمن» فيه تفسيران صحيحان:

أحدهما: أن المؤمن قيده إيمانه عن المحظورات، والكافر مُطْلَقُ التَّصَرُّفِ. الثاني: أن ذلك باعتبار العواقب... فالؤمن لو كان أنعم الناس فذلك بالإضافة إلى ماله في الجنة كالسجن... والكافر عكسه، فإنه لو كان أشد الناس بُؤْسًا فذلك بالنسبة إلى النار جنته^(٤).

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/١٢٤-١٢٥).

(٤) بدائع الفوائد (٣/١٧٧).

وهنا قصة عجيبة لابن حجر العسقلاني رحمته الله: وهى أنه خرج يوماً بأهله - وكان رئيس القضاة بمصر - فإذا برجل يهودى، فى حالة رثة، فقال اليهودى: قف. فوقف ابن حجر. فقال له: كيف تُفسر قول رسولكم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» وما أنت ترانى فى حالة رثة وأنا كافر، وأنت فى نعيم وأهبة مع أنك مؤمن؟! فقال ابن حجر: أنت مع تعاستك وبؤسك تُعدُّ فى جنة بالنسبة لما ينتظرك فى الآخرة من عذاب أليم - إن مت كافراً - .

وأنا مع هذه الأهبة - إن أدخلنى الله الجنة - فهذا النعيم الدنيوى يُعد سجنًا بالمقارنة مع النعيم الذى ينتظرنى فى الجنات.

فقال: أكذاك؟ قال: نعم. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٧٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبيّ، فقال: «كُنْ فى الدنيا كأنك غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ».

وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أُمْسِيَتْ، فلا تَنْتَظِرِ الصَّباحَ وإذا أَصْبَحْتَ، فلا تَنْتَظِرِ المَساءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ ^(٢).

❁ قالوا فى شرح هذا الحديث: معناه: لا تَرَكَنَّ إلى الدُّنيا ولا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا، ولا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ البَقَاءِ فِيهَا، ولا بِالاعتِناءِ بِهَا، ولا تَتَعَلَّقْ مِنْهَا إِلَّا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الغَرِيبُ فى غَيْرِ وَطَنِه، ولا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لا يَشْتَغِلُ بِهِ الغَرِيبُ الَّذِى يُرِيدُ الذَّهابَ إلى أَهْلِهِ، وبالله التَّوْفِيقُ ^(٣).

(١) إنها الجنة يا أختاه/ د. محمود المصرى (ص: ٦٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق.

(٣) رياض الصالحين (ص ١٧٢).

❦ ففى هذا الحديث قال ابن عمر (رضي الله عنهما):

أخذ النبي ﷺ بمنكبي أخذ بمنكبه من أجل أن يستعد لما يُلقيه عليه فينتبه فقال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» يحتمل أن هذا من باب الشك، أى أن الراوى شك، هل قال رسول الله ﷺ الأول أو الثانى.

ويحتمل أنه من باب التنويع يعنى كن كالغريب الذى يداخل الناس ولا يهتم بهم، ولا يُعرَف بينهم، أو كأنك عابر سبيل تريد أن تأخذ ما تحتاجه فى سفرك وأنت ماشٍ.

وهذا التمثيل الذى ذكره النبي ﷺ هو الواقع؛ لأن الإنسان فى هذه الدنيا مسافر، فالدنيا ليست دار مقر، بل هى دار ممر.

وهذا الحديث أصلٌ فى قِصَر الأمل فى الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغى له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا فيطمئن فيها، ولكن ينبغى أن يكون فيها كأنه على جناح سفرٍ يهيمُ جهازه للرحيل.

وقِصَر الأمل هو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة، التى تمر مرَّ السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال.

قال الله ﷻ: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].... أى: دعهم يعيشون كالأنعام، ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات.

وقوله ﷻ: ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أى: يشغلهم طول الأمل والعمر، وبلوغ الوطر، واستقامة الحال، عن الإيمان والأخذ بطاعة الله تعالى.

قال الحافظ فى الفتح: هذا تنبيه على أن إثارة التلذذ والتنعم، وما يؤدى إلى طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين.

عن أنس (رضي الله عنه) قال: خَطَّ النبي ﷺ خُطوطًا فقال: «هذا الأمل، وهذا أجله

فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب»^(١).

قال النبي ﷺ: «ما لى وللدنيا، إنما مثلى ومثل الدنيا، كمثل ركبٍ قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها»^(٢).

وروى عن المسيح عليه السلام أنه قال لأصحابه: اعبروها، ولا تعمروها.
وروى عنه أنه قال: مَنْ ذا الذى يبنى على موج البحر دارًا، تلکم الدنيا فلا تتخذوها قراةً.

ودخل رجل على أبى ذر رضي الله عنه فجعل يُقلب بصرة في بيته فقال: يا أبا ذر! أين متاعكم؟ قال: إن لنا بيتًا نُوجهه إليه، قال: إنه لا بد لك من متاع، ما دُمت ها هنا، قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

وكان على بن أبى طالب رضي الله عنه يقول: إن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ولكلٌّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنًا، فينبغى للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين: إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة، همُّه التزود للرجوع إلى وطنه، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة... فلهذا وصّى النبي ﷺ ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد هاتين الحالين.

✽ فأحدهما: أن يُنزل المؤمن نفسه كأنه غريب في الدنيا يتخيل الإقامة، لكن في بلد غربة، فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة، بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٨) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٥٦٦٨).

قال الفضيل بن عياض: المؤمن في الدنيا مهموم حزين، همه مَرَمَةٌ جهازه. ومَن كان في الدنيا كذلك، فلا هَمَّ له إلا في التزود بما ينفعه عند عودته إلى وطنه.

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا يُنافس في عزها... له شأن، وللناس شأن.

لما خلق الله آدم أسكنه هو وزوجته الجنة، ثم أهبطا منها، ووعدا بالرجوع إليها وصالح ذريتهما... فالمؤمن أبدًا يحن إلى وطنه الأول.

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحَبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ لِلْمَرْءِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ
وَالْمَنْزِلُ الْأَوَّلُ لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْجَنَّةُ:

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

فحى على جنات عدنٍ فإنها منازلك الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبى العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلمُ

❁ الحال الثاني: أن يُنزل المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافر غير مقيم ألبتة، وإنما هو سائر في قطع منازل السفر، حتى ينتهي به السفر إلى آخره وهو الموت.

قال الحسن: يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومك ذهب بعضك.

وقال بعض الحكماء: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره.

❁ قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة.

قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ. فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال الفضيل: أتعرف تفسيرها تقول: إنا لله وإنا إليه

راجعون.. فمن علم أنه لله عبدٌ، وأنه إليه راجع، فليعلم أنه موقوف، ومن عَلِمَ أنه موقوف فليعلم أنه مسؤول، ومن عَلِمَ أنه مسؤول فليُعد للسؤال جوابًا.

فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسيرة. قال: ما هي؟ قال: تُحسن فيما بقى، يغفر لك ما مضى... فإنك إن أسأت فيما بقى أخذت بما مضى وبما بقى.

قال بعض الحكماء: مَنْ كانت الليالي والأيام مطاياها، سارت به وإن لم يسر. قال بكر بن عبد الله المزني: إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل: لعلّي لا أصلى غيرها... وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ: «صَلِّ صَلَاةَ مُودَعٍ».

❁ ومن أجل ذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء.

أقام معروف الكرخي الصلاة، ثم قال لرجل: تقدّم فصلّ بنا. فقال الرجل: إني إن صليت بكم هذه الصلاة، لم أصلّ بكم غيرها... فقال معروف: وأنت تُحدث نفسك أنك تصلى صلاة غيرها، نعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع من خير العمل.

❁ وقول ابن عمر رضي الله عنهما: «وخذ من صحتك لسقمك، ومن حياتك لموتك» يعنى اغتنم الأعمال الصالحة في الصحة قبل أن يحول بينك وبينها السقم... وفي الحياة قبل أن يحول بينك وبينها الموت.

وفي رواية: فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدًا.. يعنى: لعلك غدًا من الأموات دون الأحياء، فبدلاً من أن يقول الناس جاء فلان، أو خرج فلان، يقولون: غسلتم الميت، دفنتم الميت فإنك لا تدري ما اسمك غدًا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٧٦) وَعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ: «ارْزُقْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَارْزُقْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فسأله عن عمل يجعله يفوز بمحبة الله ﷻ ومحبة الناس في آنٍ واحد.. فأخبره النبي ﷺ وأخبر الأمة من بعده أن مَنْ أراد أن يفوز بمحبة الله ﷻ فعليهِ أن يزهد في الدنيا.. وليس معنى الزهد في الدنيا أن نترك الدنيا ولا نعمل فيها ولا نُعمرها وأن نجلس في بيوتنا عالة على الناس.

بل إن الزهد كل الزهد أن تعمل وتجتهد وتُعمّر الأرض فإن أصبحت غنياً يكون المال في يدك وليس في قلبك.. وليس معنى الزهد أن تكون فقيراً.. فقد تكون فقيراً ومع ذلك فقلبك مُتعلق بالدنيا.. وقد تكون غنياً وقلبك متعلق بالآخرة.. والمال في يدك وليس في قلبك... المهم أن النبي ﷺ أخبر هذا الرجل أن مَنْ أراد أن يفوز بمحبة الله فعليهِ أن يزهد في الدنيا.. ومَنْ أراد أن يفوز بمحبة الناس فعليهِ أن يزهد فيما عند الناس ولا يطلب منهم شيئاً... بل أخبر النبي ﷺ أن مَنْ لم يسأل الناس شيئاً فثوابه الجنة..

قال ﷺ: «مَنْ يَتَكَفَّلْ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئاً، أَتَكْفُلْ لَهُ بِالْجَنَّةِ»^(٢).

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول: النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخسستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغُصص

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبرانى، والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٩٢٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٠٤).

والنَّغص والآنكداد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع مع ما يَعْقُب من الحسرة والأسف،... فطالبها لا ينفك من هَمٍّ قبل حصولها وهَمٍّ في حال الظفر بها، وَغَمٍّ وحُزْنٍ بعد فواتها فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة، وإقبالها ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات، والمسرات، والتفاوت الذى بينه وبين ما هاهنا... فهى كما قال سبحانه ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]؛ فهى خيراتٌ كاملة دائمة، وهذه خيالاتٌ ناقصة مُنْقَطعة مُضْمَحَلَة... فإذا تَمَّ له هذان النظران؛ أثر ما يقتضى العقل إثارة، وزَهْدٌ فيما يقتضى الزهد فيه.

ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه وصرفوا عنها قلوبهم وأطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وَعَدُّوها سَجَنًا لا جنة^(١)، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها؛ لنالوا منها كل محبوب، ولو صلوا منها إلى كل مرغوب... فقد عُرِضَتْ عليه مفاتيح كنوزها فردَّها وفاضت على أصحابه فأثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها مَعْبَرٌ وممر لا دار مقام ومستقر وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آذن بالرحيل.

قال النبى ﷺ: «ما لى وللدنيا؟ إنما أنا كراكبٍ قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها»^(٢).

وقال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يُدْخَل أحدكم إصبعة فى اليم؛ فلينظر يَمَ ترجع؟»^{(٣)(٤)}.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٦) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٨) كتاب الجنة.

(٤) الفوائد (ص ٩٦ - ٩٧).

(٤٧٧) وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَظُلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنُهُ ^(١).

❦ ففى هذا الحديث يخبر النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى كان مُلازماً للنبي ﷺ هو وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى أكثر أحواله.. حتى كان الناس يقولون: جاء النبي ﷺ وأبو بكر وعمر.. وخرج النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر.. فعمر هو الوزير الثانى للنبي ﷺ بعد أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهنا يخبر النعمان أن عمر بن الخطاب ذكر ما أصاب الناس من الدنيا بعدما فُتحت عليهم زهرة الدنيا ومتاعها الزائل.. فقال: لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدَّقْلِ ما يملأ به بطنه.

لقد رأى النبي ﷺ يظل اليوم كله يلتوى من شدة الجوع فلا يجد بعض التمرات الرديئة ليأكلها.. وهو مَنْ هو؟! .. هو سيد ولد آدم ﷺ... هو الذى عُرِضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهباً فقال: «بل أجوع يوماً فأصبر وأشبع يوماً فأشكر».. هو الذى لو أراد لاجتمعت أمامه كنوز الدنيا وأشهى المطعومات والمأكولات وكل ما يريد... بل لو أراد أن تنزل عليه كل يوم مائدة من السماء لأنزلها الله عليه... فقد أنزلها الله ﷻ على عيسى ﷺ فكيف يمنعها عن حبيبه ﷺ... لكن النبي ﷺ ما أراد الدنيا طرفة عين.. بل جعل همَّه كله رضوان الله والجنة.. وكان شعاره دائماً: «ما لى وللدنيا وما للدنيا وما لى! والذى نفسى بيده، ما مثلى ومثل الدنيا، إلا كراكب سار فى يومٍ صائفٍ، فاستظلَّ تحت شجرة ساعة من النهار، ثم راح وتركها» ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٧٨) كتاب الزهد والرقائق.

«الدَّقْلُ»: زِدَى الثَّمَرِ.

(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦٩).

(٤٧٨) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكَلَّتُهُ فَفَنَيْتُ^(١).

❁ ففى هذا الحديث تُخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ لما توفى لم يترك أى شىء من متاع الدنيا ولا طعامها إلا شيئاً يسيراً من الشعير.. فلم تأخذه أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لتضعه على الميزان وتعلم حجم الشعير الذى عندها.. بل ظلت تأكل منه فترة طويلة وهى تتعجب وتقول لنفسها: كيفى بقى هذا القدر اليسير من الشعير تلك الفترة الطويلة... وفى يومٍ من الأيام قررت أن تكيل الشعير لتعرف وزنه ففنى وانتهى خلال أيامٍ يسيرة... وكأنها تقول: لو تركته هكذا دون أن أكله لما فنى أبداً.

قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْبَرَكََةَ أَكْثَرُ مَا تَكُونُ فِي الْمَجْهُولَاتِ وَالْمُبْهَمَاتِ ... وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ «كَيْلُوا طَعَامَكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ» فَقَالُوا الْمُرَادُ أَنْ يَكِيلَهُ مِنْهُ لِأَجْلِ إِخْرَاجِ النِّفَقَةِ مِنْهُ بِشَرْطِ أَنْ يَبْقَى الْبَاقِي مَجْهُولًا وَيَكِيلُ مَا يُخْرِجُهُ لِئَلَّا يُخْرِجَ أَكْثَرَ مِنَ الْحَاجَةِ أَوْ أَقَلَّ^(٢).

❁

(٤٧٩) وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ أَخِي جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَ: «مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، عِنْدَ مَوْتِهِ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا أَمَةً، وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغَلْتُهُ الْبَيْضَاءَ الَّتِي كَانَ يَرْكَبُهَا، وَسِلَاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ صَدَقَةً»^(٣).

❁ لقد فارق رسول الله ﷺ الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب ويرهبه ملوك

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥١) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٧٣) كتاب الزهد والرفائق.

«شَطْرُ شَعِيرٍ» أى شىء من شعير. كذا فسرهُ الترمذى.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤٢/١٨-١٤٣).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٤٦١) كتاب المغازى.

الدنيا ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم.. وما ترك عند موته درهما ولا دينارا.

وهنا يحكى عمرو بن الحارث وهو أخ لأم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنه.. يحكى عمرو أن النبي ﷺ عند موته لم يترك دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا... سيد ولد آدم ﷺ لم يكن في بيته عند موته سوى سبعة دراهم... فكان يقول لعائشة رضي الله عنها تصدقي بالسبع دراهم يا عائشة... فإذا غشي عليه وأفاق كان يقول لها: تصدقتِ بالدراهم يا عائشة؟ فتقول له: شغلني مرضك يا رسول الله ﷺ.. فيقول لها: تصدقي بهن يا عائشة.. كيف ألقى ربي وفي بيتي سبعة دراهم.

سيد ولد آدم لم يترك ثروة ولم يترك قصورا ولا أى شيء حتى لا يظن أحد أنه كان يدعو من أجل أن يجمع حطام الدنيا الفانى وإنما كان يدعو ابتغاء مرضاة الله (جلّ وعلا).. حتى أنه ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه فهو صدقة» ومع ذلك لم يترك النبي ﷺ شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه الذى كان يجاهد به وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة.

فيا ليت (بعض) الدعاة الذين يتاجرون بدين الله ﷻ من أجل أن يجمعوا الدولارات والدينارات من الأمراء ورجال الأعمال.. حتى جعلوا الكثير من الناس يُسيئون الظن بالدعاة المحترمين ظنا منهم أنهم يفعلون مثلهم... يا ليت هؤلاء يراجعون سيرة الرسول ﷺ مرة أخرى وأن يتخذوه أسوة وقدوة لهم فى كل شيء وأن يتوبوا إلى الله ﷻ.. فالعلماء ورثة الأنبياء.. ولا يعنى هذا أنه لا يجوز أن يكون العالم غنيا.. فنعيم المال الصالح للرجل الصالح.. ولكن يا ليته يكون غنيا من كده وتعبه وتجارته وأعماله وليس من المتاجرة بدين الله على موائد الأمراء والأثرياء.... فاللهم احفظنا من أن نكون من الذين يتاجرون بدينك يا أرحم الراحمين: «اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك».

(٤٨٠) وَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَلْتَمِسُ وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلَى اللَّهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا. مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ نَمْرَةً، فَكُنَّا إِذَا غَطَيْنَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غَطَيْنَا بِهَا رِجْلَيْهِ، بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُغْطِيَ رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخِرِ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ. فَهُوَ يَهْدِيهَا^(١).

✽ وهنا يحكى خباب بن الارت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما حدث لمصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته .. وكان مصعب من المهاجرين الذين هاجروا لله عَزَّ وَجَلَّ ابتغاء وجهه، وكان شاباً مُدْلِلاً من قِبَل والديه في مكة، ولما أسلم طرده أبواه لأنهما كانا كافرين، فهاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقُتِلَ في أحد في السنة الثالثة من الهجرة، فلم يَمْضِ على هجرته إلا ثلاثة أعوام أو أقل، فَقُتِلَ شهيداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وكان صاحب الراية، ولم يكن معه شيء إلا بُرْدَةٌ - ثوبٌ واحد - إن غطوا به رأسه بدت رجلاه، وإن غطوا به رجليه بدا رأسه، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُغْطِيَ رَأْسَهُ، وَيُجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِذْخِرِ، وهو نبات معروف تأكله البهائم... فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُجْعَلَ عَلَى رِجْلَيْهِ لِأَجْلِ أَنْ يَغْطِيَهُمَا.

قال خَبَّابُ: «ومنا»: يعنى المهاجرين «مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ» أَيْنَعَتْ: يعنى استوت وأثمرت «فهو يهديها» أى: يجنيها ويقطفها ويتمتع بها.... يقول ذلك شوقاً إلى العهد الأول، وإلى ما كانوا عليه من زهدٍ قبل أن تُفْتَحَ عليهم الدنيا فيشتغل بها البعض^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٧٦) كتاب الجنائز، (٣٨٩٧) كتاب المناقب، ومسلم (٩٤٠) كتاب الجنائز.

«النَّمْرَةُ»: كسَاءٌ مُلَوَّنٌ مِنْ صُوفٍ. وقوله: «أَيْنَعَتْ» أى: نَضَجَتْ وَأَدْرَكَتْ. وقوله: «يَهْدِيهَا». أى: يَقْطِفُهَا وَيَجْتَنِيهَا.... وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِمَا فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِم مِنَ الدُّنْيَا وَتَمَكَّنُوا فِيهَا.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩٤-١٩٥).

(٤٨١) وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» ^(١).
 ❀ «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ» أَيْ: تَسَاوَى «عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ» هُوَ مَثَلٌ لِلْقِلَّةِ وَالْحَقَارَةِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَا أَدْنَى قَدْرٌ «مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا» أَيْ مِنْ مِيَاهِ الدُّنْيَا «شَرْبَةَ مَاءٍ» أَيْ مَا كَانَ يُمْتَعُ الْكَافِرُ مِنْهَا أَدْنَى تَمَتُّعٍ ... فَإِنَّ الْكَافِرَ عَدُوُّ اللَّهِ. وَالْعَدُوُّ لَا يُعْطَى شَيْئًا مِمَّا لَهُ قَدْرٌ عِنْدَ الْمُعْطَى ... فَمِنْ حَقَارَتِهَا عِنْدَهُ لَا يُعْطِيهَا لِأَوْلِيَائِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ حَدِيثٌ «إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ عَنِ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ الْمَرِيضَ عَنِ الْمَاءِ» ^(٢).
 ❀ وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَلِيهِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٨٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا وَالَاهُ وَعَالَمًا وَمُتَعَلِّمًا» ^(٣).
 ❀ «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ» أَيْ مَبْغُوضَةٌ مِنَ اللَّهِ لِكُونِهَا مُبْعَدَةً عَنِ اللَّهِ «مَلْعُونٌ مَا فِيهَا» أَيْ مِمَّا يُشْغِلُ عَنِ اللَّهِ «إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ وَمَا وَالَاهُ» أَيْ مَا أَحَبَّهُ اللَّهُ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَأَفْعَالِ الْقُرْبِ ... الْمُرَادُ هُنَا يَعْنِي مَلْعُونٌ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ وَمَا أَحَبَّهُ اللَّهُ مِمَّا يَجْرِي فِي الدُّنْيَا وَمَا سِوَاهُ مَلْعُونٌ.
 وَقَالَ الْأَشْرَفُ: هُوَ مِنَ الْمَوَالَاةِ وَهِيَ الْمُتَابَعَةُ ... وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِمَا يُوَالِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى طَاعَتَهُ وَاتِّبَاعَ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ ^(٤).

(١) صحيح: رواه الترمذی، والضیاء، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٥٢٩٢).

(٢) تحفة الأحوذی (١٩٣/٦).

(٣) حسن: رواه الترمذی، وابن ماجه، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (١٦٠٩).

(٤) تحفة الأحوذی (١٩٤/٦).

«وعالمًا ومُتعلِّمًا» أى: الدنيا مذمومة لا يُحمد فيها إلا ذكر الله وما أحبه الله من أعمال البر والطاعة وعالمٌ ومتعلمٌ لأنه هو الذى يدل الناس على أعمال البر والطاعة

قَالَ الْمُنَاوِي: قَوْلُهُ «مَلْعُونَةٌ» أَيْ مَتْرُوكَةٌ مُبْعَدَةٌ مَتْرُوكٌ مَا فِيهَا أَوْ مَتْرُوكَةٌ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ ... كَمَا فِي خَبَرِ «لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ».

وَقَالَ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ» لِأَنَّهَا غَرَّتِ النَّفُوسَ بِزَهْرَتِهَا وَلَذَّتْهَا فَأَمَّا لَتَهَا عَنِ الْعِبُودِيَّةِ إِلَى الْهَوَى ... وَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِهِ «وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا» أَيْ هِيَ وَمَا فِيهَا مُبْعَدٌ عَنِ اللَّهِ إِلَّا الْعِلْمُ النَّافِعُ الدَّلَالُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهَا.

فَاللَّعْنُ وَقَعَ عَلَى مَا غَرَّ مِنَ الدُّنْيَا لَا عَلَى نَعِيمِهَا وَلَذَّتْهَا فَإِنَّ ذَلِكَ تَنَاوَلَهُ الرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ^(١).

✽ فالدنيا لا تُذَمُّ لذاتها وإنما يُذَمُّ ما يفعلُه فيها الإنسان من الذنوب والمعاصي وظلم العباد.

ومن المهم أن يعلم المسلم: (أن الدنيا) وإن اعتُبرت متاعًا قليلًا وزائلًا، ومتاع الغرور، فإنها دار لها أهمية عظمى باعتبارها (مزرعة الآخرة)، فهي الفرصة الوحيدة للإنسان، ليصنع فيها مصيره، ويُحقق فيها أمله الكبير في الخلود والسعادة الأبدية. لهذا كان عُمُر الإنسان في الدنيا في غاية النفاسة والغلاء، لأنه ليس له إلا عُمُرٌ واحد، هو هذه الأيام التى يقضيها من المهد إلى اللحد.

قال يحيى بن معاذ الرازى: كيف لا أحب دنيا قُدِّر لى فيها قُوت، أكتسب بها حياة ... أدرك بها طاعة، أنال بها الآخرة.

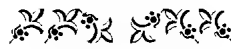
وسُئِلَ أبو صفوان الرعينى، وكان من العارفين: ما هى الدنيا التى ذمَّها الله فى القرآن، التى ينبغى للعاقل أن يجتنبها؟ فقال: كل ما أصبت فى الدنيا تريد به

(١) تحفة الأحوذى (٦/١٩٥).

الدنيا، فهو مذموم، وكل ما أصبت فيها تريد به الآخرة، فليس منها^(١).
وقال الحسن: نعمت الدار كانت الدنيا للمؤمن، وذلك أنه عمل فيها قليلاً،
وأخذ زاده منها إلى الجنة... وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه
ضيّع ليالیه، وكان زاده منها إلى النار^(٢).

وها هو على بن أبي طالب عليه السلام سمع رجلاً يسب الدنيا، فقال: إنها لدار
صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها..
مسجد أحباء الله، ومهبط وحيه، ومُصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها
الرحمة وربحوا فيها الجنة.

فبيّن أمير المؤمنين عليه السلام: أن الدنيا لا تُدَمُّ مُطْلَقًا، وأنها تُحَمَدُ بالنسبة إلى مَنْ
تزود منها الأعمال الصالحة، وأن فيها مساجد الأنبياء، ومهبط الوحي، وهى دار
التجارة للمؤمنين، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا بها الجنة، فهى نعم الدار لمن
كانت هذه صفته^(٣).



(٤٨٣) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا
الضَّيْعَةَ فِتْرَةً غَبُوا فِي الدُّنْيَا»^(٤).

❁ «الضَّيْعَةُ» هِيَ الْبُسْتَانُ وَالْقَرْيَةُ وَالْمَزْرَعَةُ.

وَضَيْعَةُ الرَّجُلِ مَا يَكُونُ مِنْهُ مَعَاشُهُ كَالصَّنْعَةِ وَالتَّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَالَ فِي الْقَامُوسِ: الضَّيْعَةُ الْعَقَارُ وَالْأَرْضُ الْمَغْلَّةُ.

«فِتْرَةً غَبُوا فِي الدُّنْيَا» أَيْ فْتَمِيلُوا إِلَيْهَا عَنِ الْآخِرَى... وَالْمُرَادُ النَّهْيُ عَنِ

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/١٠)، والبيهقي في الزهد الكبير (ص ١٨٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في الزهد (ص ٢٨٤).

(٣) الورع والزهد / د. يوسف القرضاوى (ص ٨٢-٨٣) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢١٤).

الِاشْتِغَالِ بِهَا وَبِأَمْثَالِهَا مِمَّا يَكُونُ مَانِعًا عَنِ الْقِيَامِ بِعِبَادَةِ الْمَوْلَى وَعَنِ التَّوَجُّهِ كَمَا يَنْبَغِي إِلَى أُمُورِ الْعُقْبَى... وَقَالَ الطَّبِئِيُّ: الْمَعْنَى لَا تَتَوَغَّلُوا فِي اتِّخَاذِ الضَّيْعَةِ فَتَلْهَوْا بِهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ قَالَ تَعَالَى ﴿رَبَّالَّذِينَ لَا تُلْهِمُهُمْ تَحَرُّوْا وَلَا يَبِيعْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١).

✽ وليس المقصود من وراء تلك الأحاديث أنه يحرم على الإنسان أن يعمل وأن ينجح وأن يمتلك وأن يصبح ذا ثروة في الدنيا.. كلا بل من المهم أن يحرص الإنسان على إعمار الأرض وعلى أن يكون ناجحًا ليكون قدوة لمن أراد أن يجمع بين الدنيا والآخرة.. كما فعل أبو بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع وغيرهم رضي الله عنهم... ولكن المذموم هنا أن ينشغل العبد بحطام الدنيا عن الآخرة والجنة... فيتعب في الدنيا من أجل الدنيا.. وإنما ينبغى على الإنسان أن يغرس في الدنيا كل الخير الذي سيجنى ثمرته في الآخرة.. ومع ذلك ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

فله أن يستمتع بالمباح دون الوقوع في المعصية بشرط ألا ينسى آخرته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٨٤) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاص رضي الله عنه، قَالَ: مَرَّ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نُعَالِجُ خُصًّا لَنَا فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» فَقُلْنَا: قَدْ وَهَى، فَنَحْنُ نُصَلِّحُهُ، فَقَالَ: «مَا أَرَى الْأَمْرَ إِلَّا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ»^(٢).

✽ وهنا يحكى عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ عليهم وهم يُصَلِّحُونَ خُصًّا لَهُمْ: أَى بَيْتًا لَهُمْ مِنَ الْقَصَبِ أَوْ مِنَ الْخَشَبِ.

فسألهم النبي ﷺ: «ما هذا؟» أَى: ماذا تفعلون؟ فأخبروا النبي ﷺ بأن البيت قد وهى... أَى: ضَعُفَ وَانْشَقَّ وَاسْتَرْخَى رِبَاطُهُ وَأَنَّهُمْ يَحَاوِلُونَ إِصْلَاحَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصْلَحَ لَعِيشِهِمْ فِيهِ.

(١) تحفة الأحوذى (٢٠١/٦).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٥٢٦).

فقال لهم ﷺ: «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك».

أى أن الأجل أقرب من تخرب هذا البيت ... أى أنك تصلح بيتك خشية أن ينهدم قبل أن تموت ورُبما تموت قبل أن ينهدم ... فإصلاح عملك أولى من إصلاح بيتك ... قال الطيبي رحمه الله: أى كوننا فى الدنيا كعابر سبيل أو راكب مُستظِل تحت شجرة أسرع مما أنت فيه من اشتغالك بالبناء^(١).

وليس معنى هذا أن النبى ﷺ يحرم عليهم إصلاح بيتهم ولكنه ﷺ يلفت أنظارهم إلى أن هناك ما هو أهم من إصلاح البيت ألا وهو إصلاح النيات والأعمال التى سنقف بها بين يدي الله عز وجل يوم القيامة.

أى: كما تهتمون بإصلاح بيوتكم وكل شئون حياتكم فاحرصوا على أن تكونوا أكثر اهتماماً بأمور دينكم وآخرتكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٨٥) وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢).

❁ وفتنة المال ليست فى جمعه وكسبه من وجوهه المشروعة، إنما هى فى حبه حباً جماً يُلْهِيه عن طاعة الله، والحرص عليه حرصاً يجعله لا يبالي أن يكسبه من غير حِلِّه، وينفقه فى غير محلِّه، ويبخل به عن حقِّه ... والشر كله من هذا نبع ... وهذا ما حذَّر منه النبى ﷺ حيث قال: «ما ذُبان جائعان أُرسلَا فى غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»^(٣).

يعنى بالشرف: الجاه والمنزلة.

(١) تحفة الأحوذى (٦/٢٠٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٤٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٢٠).

من أجل ذلك يُعَلِّمُ الإسلام أبناءه: أن المال ليس هو كل شيء في الحياة، بحيث يحصر الإنسان كل همه فيه، وكل سعيه له، وكل حماسه ونشاطه في طلبه وجمعه، بحيث لا يدع في عقله وقلبه مكاناً للرغائب الكبيرة، والمُثُل العُلَيَا، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار، وتشرئب نحوها الأعناق.

إن المُثُل الأخلاقية العُلَيَا، والقيَم الروحية الرفيعة، من الإيمان والعمل الصالح والخُلُق الكريم، هي الثروة التي لا تنفد، والكنوز التي لا تَفْنَى، والباقيات الصالحات على مرِّ الأعوام والأعصار... ولهذا يُوجه القرآن إليهما هم المؤمنين وآمالهم، بمثل قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وقوله في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩]، وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، فرزق ربّه هنا ليس هو الموعود به في الجنة فحسب، بل ما أنعم الله به عليه في الدنيا من معاني الإيمان، ومنازل التقوى، ومكارم الأخلاق... وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم، في دار الخلود... قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ (١٤) ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنِ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥] (١).

(١) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي / د. يوسف القرضاوى (ص ١٠٥-١٠٧).

(٤٨٦) وَعَنْ أَبِي عمرو، ويقال: أبو عبد الله، ويقال: أبو لَيْلَى عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سِوَى هَذِهِ الْخِصَالِ: يَبْتَ يَسْكُنُهُ، وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَجِلْفُ الْخُبْزِ، وَالْمَاءِ»^(١).

❖ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بَابُ مَا يَنْبَغِي لِلْعَالَمِ

(٤٨٧) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»^(٢).

❖ وفي هذا الحديث يقول عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.. وهو هو نفس الصحابي الذي قال قبل ذلك: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البكاء.

وأخبر هنا أنه أتى النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم أيها الناسُ التفاضل بالأموال والأولاد والرجال عن طاعة الله، وعن الاستعداد للآخرة ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أدرككم الموت، ودُفِنتم في المقابر... والجملة خبرٌ يُراد به الوعظ والتوبيخ... قال القرطبي: المعنى شغلكم المباحاة بكثرة المال والأولاد عن طاعة الله، حتى مُتُّم ودُفِنتم في المقابر^(٣).

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجرٌ وتهديدٌ أي: ارتدعوا أيها الناس وانزعجوا

(١) ضعيف: رواه الترمذی، والحاكم، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٤٩١٤).

قال الترمذی: سمعتُ أبا داودَ سَلِيمَانَ بْنَ سَالِمِ الْبَلْخِيِّ يقول: سَمِعْتُ النَّضْرَ بْنَ شُمَيْلٍ يقول: الجِلْفُ: الْخُبْزُ لَيْسَ مَعَهُ إِدَامٌ. وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ غَلِيظُ الْخُبْزِ. وَقَالَ الْهَرَوِيُّ: الْمُرَادُ بِهِ هُنَا وَعَاءُ الْخُبْزِ، كَالْجَوَالِقِ وَالْخُرْجِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٥٨) كتاب الزهد والرفائق.

(٣) القرطبي (٢٠/١٦٨) وقال ابن كثير: المعنى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها، عن طلب الآخرة وابتغائها، وتَمَادَى بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَكُمْ الْمَوْتُ، وَزُرْتُمُ الْمَقَابِرَ وَصِرْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا.

عن الاشتغال بما لا ينفع ولا يفيد، فسوف تعلمون عاقبة جهلكم وتفريطكم في جنب الله، وانشغالكم بالفانى عن الباقي ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١) وعيدٌ إثر وعيد، زيادة في الزجر والتهديد... أى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت وعاينتم أهواله وشدائده.

قال ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ما ينزل بكم من العذاب في القبر ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣) أى في الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب (١) ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ (٤) أى ارتدعوا وانزجروا فلو علمتم العلم الحقيقي الذى لا شك فيه ولا امتراء... وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ لقصد التهويل أى لو عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله، ولما خُذعتم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها... كما قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٢) ... وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو تعلمون لازدجرتم واستعددتهم للآخرة، وإنما حُذف لقصد التهويل ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أى أقسم وأؤكد بأنكم ستشاهدون الجحيم عياناً وبقيناً... أى والله لترون الجحيم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أى ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أى ثم لتُسألنَّ في الآخرة عن نعيم الدنيا من الأيمن والصحة، وسائر ما يُتَلذَّذ به من مطعم، ومشرب، ومركب، ومفرش (٣).

ثم قال رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم مالى مالى» يفتخر به «وهل لك يا ابن آدم، من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت»، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام وهو كذلك... فالإنسان ما له من ماله إلا هذه الأشياء، إما أن يأكل طعاماً وشراباً، وإما أن يلبس من أنواع اللباس، وإما أن

(١) القرطبي (١٧٢/٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٢١) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) كتاب الفضائل.

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٥٧١-٥٧٢) بتصرف.

يتصدق، والباقي له هو ما يتصدق به ... أما ما يأكله وما يلبسه؛ فإن كان يستعين به على طاعة الله كان خيرًا له، وإن كان يستعين به على معصية الله وعلى الأشر والبطر كان محنة عليه والعياذ بالله.

فالشاهد أن الطعام يفنى واللباس يبلى والصدقة تمضي إلى الآخرة ليكون المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته ولتكون يوم القيامة سببًا في تفريج همه كما كان هو في الدنيا سببًا في تفريج هموم الآخرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٨٨) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، فَقَالَ: «انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ؟» قَالَ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: «إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدِّ لِلْفَقْرِ تَجْفَافًا، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُتْتَهَاهُ»^(١).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف لم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٨٩) وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ذُبَّانَ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»^(٢).

✽ فهذا مثلٌ عظيم جدًّا، ضربه رسول الله ﷺ لبيان فساد دين المرء، مع حرصه على المال والشرف أى الرفعة في الدنيا... وأن فساد الدين بذلك، ليس بأقل من فساد الغنم التي غاب عنها رعاؤها، وأرسل فيها ذبَّان جائعان ... ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم في هذه الحالة إلا القليل.

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٢٩٧).

«التَّجْفَافُ» بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكرونة، وَهُوَ شَيْءٌ يُلْبَسُهُ الْفَرَسُ، لِيَتَقَيَّ بِهِ الْأَذَى، وَقَدْ يَلْبَسُهُ الْإِنْسَانُ.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٢٠).

أما الحرص على المال فهو نوعان: النوع الأول هو شدة محبة المال، والمبالغة في طلبه من وجوهه المباحة، ولو لم يكن في ذلك إلا تضييع العمر الشريف الذي يمكن أن يشتري به صاحبه الدرجات العُلى والنعيم المقيم، في طلب رزقٍ مقسوم مضمون، لا يأتيه منه إلا ما قُسم له ثم يتركه لغيره. قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالًا كثيرًا. قال: فهل جمع أيامًا ينفقه فيها؟ قيل: لا. قال: ما جمع شيئًا.

والنوع الثاني من الحرص: الحرص على المال أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول، حتى يطلب المال من الوجوه المحرمة، ويمنع الحقوق الواجبة... وهذا هو الشُّح الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أهلِك مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»^(١). فالشُّح هو شدة محبة المال، وجمعه من الوجوه المباحة وغير المباحة، ومنع الحقوق الواجبة.

أما الحرص على الشرف أى الرفعة في الدنيا فهو أشد إهلاكًا من الحرص على المال... فإن المال يُبذل في طلب الرياسة والشرف، وهو على نوعين أيضًا: النوع الأول: هو طلب الشرف بآلة الدنيا من جمع المال، وطلب الولاية والسلطان، وهو في الغالب يمنع شرف الآخرة، ورفعة الآخرة. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وَقَلَّ مَنْ يَحْرُسُ عَلَى رِيَاةِ الدُّنْيَا بِطَلَبِ الْوَلَايَاتِ فَيُوفِّقُ... بل يُوَكِّلُ إِلَى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة - وأحمد (٣/ ٣٢٣).

نفسه... كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرة: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»^(١). وقال بعض السلف: ما حرص أحدٌ على ولاية فعدل فيها.

وقال ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المُرُضعة، وبئست الفاطمة»^(٢).

أما النوع الثاني: من طلب الشرف وهو طلب الشرف بآلة الآخرة، كتعلم العلم النافع، وإظهار الزهد والورع، وطلب الشهرة، والتجروء على الفتيا. وهذا أفحش من الأول وأقبح، وأشد إفسادًا وخطرًا... فإن العلم والعمل والزهد إنما يُطلب به ما عند الله، من الدرجات العلى والنعيم المقيم. قال الثوري: إنما فضل العلم لأنه يُتقى به الله، وإلا كان كسائر الأشياء.

قال ﷺ: «مَنْ تعلم علمًا مما يُتغنى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة»^(٣). يعنى ربحها...

وسبب هذا - والله أعلم - أن في الدنيا جنة مُعَجَّلة، وهى معرفة الله ﷻ ومحبه، والأنس به والشوق إليه وخشيته وطاعته... والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دَلَّه علمه على دخول هذه الجنة، المُعَجَّلة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومَنْ لم يشم رائحتها، لم يَشْم رائحة الجنة في الآخرة... ولهذا كان أشد الناس حسرة يوم القيامة، عالم لم ينفعه الله بعلمه، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها... فهو كمن كان معه جوهرة نفيسة لها قيمة كبيرة فباعها ببعرة أو شئٍ مُستقَدَّر لا يتنفع به... فهذا حال مَنْ طلب الدنيا بعلمه.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٤٦) كتاب الأحكام، ومسلم (١٦٥٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧١٤٨) كتاب الأحكام.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٥٩).

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وذكر منهم - وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمُهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتَهُ وَقَرَأْتَ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

قال سفيان الثوري: إن هذا الحديث عزٌّ، فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها.

ومن طلب الشرف بالدين: محبة الشهرة والسعي إليها... ولقد كان السلف رضي الله عنهم يكرهون الشهرة أشد الكراهة... وكان محمد بن واسع يقول: لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يُجالسني.

وكان إبراهيم النخعي إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطّاه. وكان أويس وغيره من الزُّهّاد، إذا عُرفوا في مكان ارتحلوا عنه.

واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ولكن العاقل يُنافس في العلو الدائم الباقي، الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل، الذي يعقبه غضب الله وسخطه، وانحطاط العبد وسفوله... قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٢٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

قال الحسن: مَنْ نَافَسَكَ فِي دِينِكَ فَنَافَسَهُ.. وَمَنْ نَافَسَكَ فِي دُنْيَاكَ فَأَلْقَاهَا فِي نَحْرِهِ.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل.

ففي درجات الآخرة الباقية يُشرع التنافس وطلب العلو في منازلها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وأما العلو الفاني المنقطع، فهو الذي يشرع الزهد فيه، والإعراض عنه^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمامة.

(٢) رياض الجنة (ص ٦١-٦٤) بتصرف.

(٤٩٠) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١).

❁ لقد كان النبي ﷺ قمة في الزهد... حتى وصل به الحال ﷺ أنه كان لا يحتفظ لنفسه بشيء من المال بل كان ينفقه على مَنْ حوله ثم يمر عليه وعلى أزواجه الهلال تلو الهلال ولا يُوقد في بيوته التسع نار... وكان أكثر دعائه: «اللهم اجعل رزق آل محمد قُوتًا»^(٢). وكان ينام على الحَصِيرِ حتى يُؤثر الحَصِيرُ في جنبه الشريف.. فقال الصحابة له: يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطَاءً.. أَى: فراشاً ليناً ليريح جسدك وتنام عليه فترتاح.. فقال لهم ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

وفي رواية: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَمَا لِي! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا، إِلَّا كَرَائِبٍ سَارٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(٣).

فالرسول ﷺ ليس له تَطَلُّعٌ إِلَى الدُّنْيَا، بَلْ كَانَ يَنْفِقُ مَالَهُ كُلَّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَعِيشُ عِيشَةَ الْفُقَرَاءِ.

﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

(٤٩١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدْخُلُ الْفُقَرَاءُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ»^(٤).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزكاة.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٩).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٦).

الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام.. فالיום في الآخرة يوازي ألف سنة من زمان الدنيا.. قال تعالى: ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]
 وذلك لأن الفقير ليس عنده من المال ما يُحاسب عليه.. فقد قال ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ من عند ربه يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع - من بينها - وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق».

والفقير ليس عنده ما يُحاسب عليه.. فيدخل الجنة ويبقى الغنى يُحاسب على كل أمواله من أين اكتسبها وفيم أنفقها.. وفوق ذلك فالله عز وجلَّ يجبر كسر المؤمن الفقير الذي عاش في الدنيا محروماً مقهوراً لا يستطيع أن يتلذذ بأى شىء من متاع الدنيا الزائل.. فإن كان مؤمناً راضياً عن قضاء الله فإن الله عز وجلَّ يدخله الجنة قبل الغنى بخمسمائة عام ليستمتع فيها وينسى كل شقاء وبلاءٍ رآه في الدنيا.
 وفي رواية أخرى: قال ﷺ: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً»^(١).

✽ قال الإمام ابن القيم رحمه الله معلقاً على هذين الحديثين:

فإما أن يكون هو المحفوظ، وإما أن يكون كلاهما محفوظاً وتختلف مدة السبق بحسب أحوال الفقراء والأغنياء.... فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمائة، كما يتأخر مُكث العُصاة من الموحدين في النار بحسب أحوالهم والله أعلم... ولكن ههنا أمر يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يلزم من سبقهم لهم - أى: سبقهم للأغنياء - في الدخول ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخر أعلى منزلة، وإن سبقه غيره في الدخول... والدليل على هذا أن من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب وهم السبعون ألفاً وقد يكون بعض من يُحاسب أفضل من أكثرهم... والغنى إذا حوسب على غناه فوجد قد شكر الله تعالى فيه وتقرب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف كان أعلى درجة من

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٧٩) كتاب الزهد والرقائق، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

الفقير الذى سبقه فى الدخول ولم يكن له تلك الأعمال ولا سيما إذا شاركه الغنى فى أعماله وزاد عليه فيها والله لا يُضيع أجر مَنْ أحسن عملاً.... فالمزية مزيّتان مزيّة سَبَقٍ ومزيّة رِفْعَةٍ، وقد يجتمعان وينفردان فيحصل لواحد السبق والرفعة، ويعدمهما آخر، ويحصل لآخر السبق دون الرفعة، ولآخر الرفعة دون السبق^(١). وهذا بحسب المقتضى للأمرين أو لأحدهما وعدمه، وبالله التوفيق^(٢).

❁ فلا تحزن أيها الفقير فإن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

لا تحزن فلو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

لا تحزن فإن الدنيا قنطرة وممر وليست بدار إقامة ومقر.

لا تحزن فإن الدنيا ظلٌّ زائل وعارية مُستردة.

لا تحزن فإن الدنيا متاع الغرور وليست دار إكرام وحبور... وسوف تجد السعادة كلها فى دار السرور والحبور عند الملك الكريم الودود الغفور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٩٢) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَعِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ. وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»^(٣).

(٤٩٣) ورواه البخارى أيضاً من رواية عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ^(٤).

❁ وهنا يخبر النبى ﷺ أنه اطلع فى الجنة فرأى أن أكثر أهلها هم الفقراء..

(١) أى: بالتبديل والتوافق.

(٢) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ١٢٥، ١٢٦).

(٣) متفق عليه رواه البخارى (٣٢٤١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٧٣٧) (٩٣) كتاب الذكر والدعاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤٩) كتاب الرقاق عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ورواه مسلم (٢٧٣٨) (٩٤) بلفظٍ مُقارب.



وذلك لأن الفقراء ليس عندهم ما يُطغيهم ولأن أكثر أتباع الأنبياء هم الفقراء وأكثر الذين كذبوا الرسل وحاربوهم هم المملأ الأشراف والأغنياء -إلا من رحم الله-.
فلهذا كان الفقراء أكثر أهل الجنة.. وكانوا أسبق لدخول الجنة من الأغنياء يوم القيامة.

❖ ثم قال النبي ﷺ: «وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

وهذه مسألة مهمة في غاية الخطورة... ولا بد أن نستطرد فيها حتى يتضح لنا معنى هذا الحديث.

❖ وفي الحقيقة أننى لما بحثت في أحاديث النبي ﷺ وجدت أن النساء أكثر أهل الجنة وفي نفس الوقت هن أكثر أهل النار.. فكيف ذلك؟!
❖ سأذكر لكم الآن الدليل على ما ذهبت إليه.

ففى صحيح مسلم عن ابن سيرين قال: اختصم الرجال والنساء: أيهم أكثر في الجنة؟ وفي رواية: إما تفاخروا، وإما تذاكروا: الرجال في الجنة أكثر أم النساء؟ فسألوا أبا هريرة، فاحتج أبو هريرة على أن النساء في الجنة أكثر بقول الرسول ﷺ: «إِنْ أَوَّلَ زَمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالتَّى تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخَّ سَوْقَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ»^(١).

والحديث واضح الدلالة على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال.
وقد احتج بعضهم على أن الرجال أكثر بحديث: «رَأَيْتُكَ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ».
والجواب أنه لا يلزم من كونهن أكثر أهل النار أن يكن أقل ساكني الجنة كما قال ابن حجر العسقلاني^(٢)، فيكون الجمع بين الحديثين أن النساء أكثر أهل النار وأكثر أهل الجنة... وبذلك يكن أكثر من الرجال وجوداً في الخلق...

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) فتح الباري: (٦/٣٢٥).

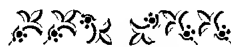
ويمكن أن يُقال: إن حديث أبي هريرة يدل على أن نوع النساء في الجنة أكثر سواءً كن من نساء الدنيا أو من الحور العين.

والسؤال هو: أيهما أكثر في الجنة: رجال أهل الدنيا أم نساؤها؟ وقد وفق القرطبي بين النصين بأن النساء يَكُنَّ أكثر أهل النار قبل الشفاعة وخروج عصاة الموحدين من النار... فإذا خرجوا منها بشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين كُنَّ أكثر أهل الجنة^(١).

لكن كيف نجمع بين ما ذكرهنا أن النساء هنَّ أكثر أهل الجنة، وبين حديث: «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار»؟

الجواب: أن عدد النساء في الدنيا أصلاً أكثر من عدد الرجال... بمعنى أن عدد خلق الله من النساء أكثر من عددهم من الرجال... وقد جاء في الحديث أنه في آخر الزمان في الدنيا يكون لكل خمسين امرأة قيّم واحد.. أى: رجل واحد. وفي عصرنا اليوم بدأت نِسب الولادات من البنات تزداد بشكل ملحوظ، حتى صارت نسبة الذكور في بعض البلدان تصل إلى خمس نساء مقابل رجل واحد، وبذلك تكون النساء أكثر من الرجال وجوداً في البشر... فإذا دخل نصف رجال الدنيا إلى الجنة، ونصف نساء الدنيا أيضاً، فإن عدد النساء سيكون أكثر؛ لأن النساء في الدنيا أكثر... وكذلك الحال في النار، فلو دخل النار عُشر رجال الدنيا، وعُشر نساء الدنيا، فستكون النساء في النار عددهن أكثر؛ لأنهن أكثر في الدنيا.

وعلى ذلك لا يفهم من حديث إن النساء أكثر أهل النار دَمَّ جنس النساء، أو التنقُّصُ منهن^(٢).



(١) راجع التذكرة للقرطبي: (ص ٤٧٥).

(٢) العالم الأخير (ص ٥١٧).

(٤٩٤) وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةٌ مَنِ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ. وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مُحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ»^(١).

وقد سبق بيان هذا الحديث في باب فضل الضَّعْفَةِ.

❁ وهنا في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه قام على باب الجنة فوجد أن عامة مَنْ دخلها وأكثر مَنْ دخلها المساكين والفقراء .. وهذا هو الذي أخبر عنه النبي ﷺ في الأحاديث السابقة... وقلنا: إن السبب أن أكثر أتباع الأنبياء كانوا هم الفقراء..

❁ ثم قال النبي ﷺ: «وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مُحْبُوسُونَ» أي: أصحاب البَخْت والحظ في الدنيا .. أصحاب الغنى والثراء والوجاهة وأصحاب الولايات .. محبوسون للحساب على أموالهم وسلطانهم وما فعلوه في رعيّتهم ويسبقهم الفقراء بخمسائة عام.

❁ قوله ﷺ: «غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ» قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه: مَنْ استحق من أهل الغنى النار بكفره، أو معاصيه. وفي هذا الحديث تفضيل الفقر على الغنى. وفيه فضيلة الفقراء والضعفاء^(٢).

قُلْتُ: وبعض أهل العلم قالوا: إن الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر ... لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد اختبر الغنى الشاكر فكان وفيًّا .. أما الفقير الصابر فلم يُختبر بعد والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٩٦) كتاب النكاح، (٦٥٤٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٧٣٦) كتاب الذكر والدعاء.

و «الْجَدُّ»: الْحَظُّ وَالْغَنَى.

(٢) مسلم بشرح النووي (٨٤ / ١٧).

(٤٩٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: (أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ)»^(١).

❁ أى: أن كل شيء سوى الله فهو باطل ضائع لا ينفع ... وأما ما كان لله فإنه ينفع صاحبه ويبقى له.

ومن ذلك: الدنيا فإنها باطل ... كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

إلا ما كان فيها من ذكر الله وطاعته، فإنه حقٌ وخيرٌ.

وفي هذا الحديث: إشارة إلى أن الحق يُقبل حتى لو كان من الكفار.

فالحق مقبولٌ من كل أحدٍ جاء به، حتى لو كان كافراً وقال بالحق فإنه يُقبل منه، ولو كان كافراً أو شاعراً أو فاسقاً وقال بالحق فإنه يُقبل منه.

وأما مَنْ قال بالباطل فقوله مردود ولو كان مسلماً.

يعنى العبرة بالمقالات لا بالقائلين ... ولهذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى الإنسان من خلال فعله لا من خلال شخصه^(٢).

والشاعر لبید هو لبید بن ربیعة الشاعر المعروف .. وكان من أصحاب المُعلقات .. وهم شعراء معدودون كانت أشعارهم تُعلّق على الكعبة ..

وقال ذلك البيت من الشعر قبل أن يُسلم .. فلما أسلم في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال للبيد بن ربیعة: أنشدني شيئاً من شعرك يا لبید ... فأخذ يقرأ شيئاً من سورة البقرة .. فتعجب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: أقول لك أنشدني شيئاً من شعرك يا لبید فتقرأ آيات من سورة البقرة! فقال لبید: يا أمير المؤمنين ما كنت لأنشد شعراً بعد أن تعلمت سورتي البقرة وآل عمران.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٤١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٢٥٦) كتاب الشعر.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩٨).

(٥٦) باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار

على القليل من المأكول والمشروب والملبوس
وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

❀ قال الله تعالى: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]
وقال تعالى: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٨ ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝ ﴾ [التكاثر: ٨] ... وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ ﴾ [الإسراء: ١٨] ... والآيات في الباب كثيرة معلومة .

❀ هذا الباب ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بعد باب الزهد في الدنيا، يبين فيه أن على الإنسان ألا يُكثر من الشهوات في أمور الدنيا، وأن يقتصر على قدر الحاجة فقط ... كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك ... وذكر آيات فيها بيان عاقبة الذين يتبعون الشهوات ويُضيعون الصلوات ... فذكر قول الله تعالى: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠ ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠] .

لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المُخلصون المُتبعون لمراضى ربهم، المُنيبون إليه، ذَكَرَ مَنْ أَتَى بَعْدَهُمْ، وَبَدَّلُوا مَا أُمُّرُوا بِهِ، وَأَنَّهُ خَلَفَ ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ ، رَجَعُوا إِلَى الْخَلْفِ وَالْوَرَاءِ، فَأَضَاعُوا الصَّلَاةَ الَّتِي أُمُّرُوا بِالمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَإِقَامَتِهَا، فَتَهَاوَنُوا بِهَا وَضَيَّعُوهَا ... وَإِذَا ضَيَّعُوا الصَّلَاةَ الَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ،

وميزانُ الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التى هى آكدُ الأعمال، وأفضلُ الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيعَ، وله أرفض... والسببُ الداعى لذلك، أنهم اتبعوا شهواتِ أنفسهم وإراداتها فصارت هِمُّهم منصرفةً إليها، مُقدِّمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهواتِ أنفسهم، مهما لاحت لهم، حصَّلوها، وعلى أى وجهٍ اتفقت تناولوها.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أى: عذابًا مُضاعفًا شديدًا... ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصى، فأقْلَع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها، ﴿وَأَمَّنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذى شرعه الله على السنة رُسْله، إذا قصد به وجهه، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذى جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، مُوفِّرة أجورها، مُضاعفة عددها^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✽ وقد جعل المؤلف هذا الباب تحت عنوان: باب فضل الجوع وخشونة العيش.. ولقد وجدت بعد البحث أن للجوع عشر فوائد.. وليس المراد بالجوع أن يعيش الإنسان بلا طعام ولكن المقصود أن يتخفف من الطعام بحيث لا يملأ بطنه فيتكاسل عن العبادة.

✽ أما فوائد الجوع العشرة فهى:

الفائدة الأولى: صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصيرة... فإن الشبع يُورث البلادة ويُعمى القلب.

(١) تفسير السعدى (ص ٥٧٣) بتصرف.

الفائدة الثانية: رِقَّة القلب وصفاءه الذى به يتهيأ لإدراك لذة المشاهدة والتأثر بالذكر ... فكم من ذِكْرٍ يجرى على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب.

قال أبو سليمان الداراني: أحلى ما تكون إلىَّ العبادة إذا التصق ظهري ببطنى.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذلُّ وزوال البَطَر والفرح والأشْر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله - تعالى -، فلا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع، فعنده تسكن لربها وتخضع له وتقف على عجزها وذُلِّها.

الفائدة الرابعة: أن لا تنسى أهلَّ البلاء ... فإن الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع، والعبد الفطن لا يشاهد بلاءً من غيره إلا يتذكر بلاء الآخرة، فيذكر من عطشه عطش الخلق في عَرَصات القيامة، ومن جوعه جُوعَ أهل النار.

الفائدة الخامسة: وهى من أكبر الفوائد: كسر شهوات المعاصى كلها والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء ... فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ... ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة .. فتقليلها يُضعف كل شهوة وقوة، وإنما السعادة كلها فى أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة فى أن تملكه نفسه ... وكما أنك لا تملك الدابة الجَمُوح إلا بضعف الجوع.

فإذا شَبِعْتُ قَوِيْتُ وَشَرَدْتُ وَجَمَحْتُ ... فكذلك النفس. إن القوم لما شَبِعَتْ بطونهم جمحت بهم نفوسهم إلى هذه الدنيا.

الفائدة السادسة: دفع النوم ودوام السهر، فإن مَنْ شَبِعَ شرب كثيراً وَمَنْ كَثُرَ شُرْبُهُ كَثُرَ نومه ... وفى كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة ... فإن الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وربما يحتاج إلى زمان فى

شراء الطعام وطبخه، ثم يحتاج إلى غسل اليد والخلال، ثم يكثر ترداده إلى بيت الماء لكثرة شربه. الأوقات المصروفة إلى هذا لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثُر ربحه.

قال السري: رأيت مع علي الجرجاني سويقاً يستف منه ... فقلت: ما حَمَلَكَ على هذا؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسييحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن ودفع الأمراض، فإن سببها كثرة الأكل ... ثم المرض يمنع من العبادات ويُشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر.

حكى أن هارون الرشيد جمع أربعة أطباء: هندي، ورومي، وعراقي، وسوادي، وقال: ليصف كل واحدٍ منكم الدواء الذي لا داء فيه... فقال الهندي: الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الإهليلج الأسود، وقال العراقي: هو حَبُّ الرشاد الأبيض، وقال الرومي: هو عندي الماء الحار، وقال السوادي - وكان أعلمهم -: الإهليلج يعفص المعدة وهذا داء، وحَبُّ الرشاد يزلق المعدة وهذا داء، والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء ... قالوا: فما عندك؟ فقال: الدواء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه، وأن ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه ... فقالوا: صدقت.

الفائدة التاسعة: خفة المثانة، فإن مَنْ تعود قلة الأكل كفاه من المال قدرٌ يسير، والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً مُلازماً له آخِذٌ بمخنقه في كل يوم... فيقول: ماذا تأكل اليوم؟ فيحتاج إلى أن يدخل المداخل، فيكتسب من الحرام فيعصى.. أو مَنْ الحلال فيُذِل، وربما يحتاج إلى أن يُمَدَّ أعين الطمع إلى الناس. وكان إبراهيم بن أدهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقولون إنها غالية، فيقول: أرخصوها بالترك -أي: اتركوها يرخس سعرها-.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على
اليتامى والمساكين .. فيكون يوم القيامة في ظل صدقته.

عن الحسن قال: والله لقد أدركت أقواماً كان الرجل منهم يُمسي وعنده من
الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول: والله لا أجعل هذا كله لبطني حتى أجعل
بعضه لله.

فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا
تتناهى فوائدنا ... فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة.

ولأجل هذا قال بعض السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد ... والشعب
مفتاح الدنيا وباب الرغبة^(١).

كان الحسن يقول: رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً، فأكل كسرة،
ولبس خلقاً، ولزق بالأرض، واجتهد في العبادة، وبكى على الخطيئة، وهرب
من العقوبة، ابتغاء الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك^(٢).

وقال زيد بن أرقم رضي الله عنه: كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشرابٍ فأتى
بماءٍ وعسل فلما أدناه من فيه بكى وبكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما
سكت ... ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لن يقدرُوا على مسأَلته قال: ثم مسح
عينيه فقالوا: يا خليفة رسول الله ما أبكاك؟ فقال: كنت مع رسول الله فرأيتُه يدفع
عن نفسه شيئاً ولم أرَ معه أحداً فقلت: يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك؟
قال: «هذه الدنيا مُثلت لي فقلت لها: إليك عني ثم رجعتُ فقالت: إنك إن أفلتتُ
مني فلن يفلت مني من بعدك»^(٣).

وقال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: يا أبا عبد الرحمن رقت مُضغتك، وكبر سنك،

(١) الإحياء (٣/ ٩١) باختصار.

(٢) الزهد للبيهقي (٢/ ٦٥).

(٣) عدة الصابرين (ص ٢٥٧).

وَجُلَسَاؤُكَ لَا يَعْرِفُونَ لَكَ حَقَّكَ وَلَا شَرْفَكَ، فَلَوْ أَمَرْتُ أَهْلَكَ أَنْ يَجْعَلُوا لَكَ شَيْئًا يُلَطِّفُونَكَ إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِمْ، قَالَ: وَيْحَكَ، وَاللَّهِ مَا شَبِعْتُ مُنْذُ إِحْدَى عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَلَا اثْنَتَى عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَلَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً، فَكَيْفَ بِي وَإِنَّمَا بَقِيَ مِنِّي مَا بَقِيَ^(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه لحمًا مُعلقًا في يدى فقال: ما هذا يا جابر؟ قلت: اشتريت لحمًا فاشتريته، فقال عمر: أفكلما اشتريت يا جابر؟ أفكلما اشتريت يا جابر؟ أما تخاف هذه الآية يا جابر ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال صفوان بن محرز: إذا أكلت رغيفًا أشد به صلبى، وشربت كوز ماء فعلى الدنيا وأهلها العفاء^(٢).

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكل، ويقول: مَنْ قنع بهذا لم يحتج إلى أحد.

قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ: أَمْسَيْنَا مَعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ لَيْلَةً، لَيْسَ لَنَا مَا نَفْطَرُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ بَشَّارٍ! مَاذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ النَّعِيمِ وَالرَّاحَةِ، لَا يَسْأَلُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ زَكَاةٍ، وَلَا حَجٍّ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَا صَلَاةٍ رَحِمَ! لَا تَغْتَمَّ، فَرَزَقَ اللَّهُ سَيِّئَتِكَ... نَحْنُ - وَاللَّهُ - الْمُلُوكُ الْأَغْنِيَاءُ، تَعَجَّلْنَا الرَّاحَةَ، لَا نُبَالِي عَلَى أَىِّ حَالٍ كُنَّا إِذَا أَطْعَمَنَا اللَّهُ. ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلَاتِهِ، وَقُمْتُ إِلَى صَلَاتِي، فَإِذَا بِرَجُلٍ قَدْ جَاءَ بِثَمَانِيَةِ أَرْغِفَةٍ، وَتَمَرٍ كَثِيرٍ، فَوَضَعَهُ، فَقَالَ: كُلْ يَا مَغْمُوم... فَدَخَلَ سَائِلٌ، فَأَعْطَاهُ ثَلَاثَةَ أَرْغِفَةٍ مَعَ تَمَرٍ، وَأَعْطَانِي ثَلَاثَةً، وَأَكَلْتُ رَغِيفَيْنِ^{(٣)(٤)}.

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٥١٥).

(٢) تاريخ الخلفاء (ص ١٢٠).

(٣) السير (٧/ ٣٩٤).

(٤) بتصرف من كتاب (أين نحن من هؤلاء) الجزء الخامس / د. عبد الملك القاسم.

❖ ولقد أورد الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ مجموعة من الأحاديث التي توضح فضل الجوع وخشونة العيش والاعتصار على القليل.. والتي توضح كيف كان حال النبي ﷺ مع الجوع وخشونة العيش وهو الذي عُرضت عليه جبال مكة أن تصير له ذهبًا فقال: «بل أجوع يومًا فأصبر وأشبع يومًا فأشكر».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٩٦) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ ^(١).

وفي رواية: مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ الْبَرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ نَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ.

❖ ومن المعلوم أن خبز الشعير على عهد النبي ﷺ كان من أردأ أنواع الخبز ومع ذلك لم يشبع النبي ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى مات ﷺ.. إن شبع يومًا جاع أيامًا.. وإن أكل يومًا خبزًا لينًا أكل أيامًا خبزًا خشنًا... فكيف يحزن بعد اليوم فقير على حاله بعدما رأى حال النبي ﷺ سيد ولد آدم ﷺ.

❖ بل وصل الحال بالنبي ﷺ وأزواجه التسع (رضى الله عنهن) أنه كان لا يُوقَد نار في بيوته التسع لمدة شهرين متتابعين... وعدم إيقاد النار دليل على أنهم لم يُنضجوا لحمًا ولا طعامًا طوال هذه الفترة وإنما كان طعامهم التمر والماء واللبن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٩٧) وَعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: وَاللَّهِ يَا ابْنَ أَخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهَلَالِ ثُمَّ الْهَلَالِ ثُمَّ الْهَلَالِ ثَلَاثَةَ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ. وَمَا أَوْقَدَ فِي أَيْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ.. قُلْتُ: يَا خَالَهُ فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤١٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٩٧٠) كتاب الزهد والرقائق.

وَالْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ. وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ وَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا فَيَسْقِينَا^(١).

❦ ففي هذا الحديث تخبر أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ابن أختها عروة أن بيوت النبي ﷺ كلها كان يمر عليهم شهران كاملان لا يوقد في بيتٍ منهم نار .. أى: لا يُطبخ فيه ولا يجهز فيه طعامٌ واحد .. وهى أعظم بيوت عرفها الكون كله على مدى العصور والأزمان.

حتى أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى كان مُلاصقاً للنبي ﷺ لمدة أربع سنوات ولم يفارقه وكان يرى زهده وخشونة عيشه ﷺ واقتصاره على القليل من المأكول والمشروب والملبوس .. مرَّ أبو هريرة بعد وفاة النبي ﷺ على قوم بين أيديهم شاة مشوية فلما رأوه دعوه ليأكل معهم .. فقد كان كل الناس يحبونه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. فرفض أن يأكل وقال لهم: خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٩٨) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ. فَدَعَوْهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ^(٢).

❦ وقد وردت أحاديث كثيرة تخبر أن النبي ﷺ كان يعيش على الكفاف ومع ذلك فقد كان أسعد رجلٍ في العالم ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥٩) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٧٢) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٤١٤) كتاب الأطعمة.

«مَصْلِيَّةٌ» بفتح الميم: أى: مَشْوِيَّةٌ.

(٤٩٩) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: لَمْ يَأْكُلِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خِوَانٍ حَتَّى مَاتَ، وَمَا أَكَلَ خُبْزًا مُرَقَّقًا حَتَّى مَاتَ ^(١).

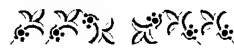
وفي رواية له: وَلَا رَأَى شَاةً سَمِيطًا بِعَيْنِهِ قَطُّ.

❁ ففي هذا الحديث يخبر أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم النبي ﷺ الذي خدم النبي ﷺ عشر سنين .. يخبر أنس أن النبي ﷺ لم يأكل على خِوَانٍ حتى مات ﷺ .. والخِوَانُ هي المائدة ما لم يكن عليها طعام .. وأما السفرة فاشتهرت لما يوضع عليها الطعام وأصلها الطعام نفسه.

فقد كان النبي ﷺ يحب أن يجلس على الأرض ليأكل تواضعاً لله (جل وعلا) .. وليس معنى ذلك أن الذي يأكل على السفرة أو المائدة يكون متكبراً... كلاً.. ولكن النبي ﷺ كان يختار لنفسه الحياة البسيطة التي يرتاح لها قلبه.. والتي تكون سهلة يسيرة على مَنْ أراد أن يفعل مثله ﷺ .. فتخيل لو كان النبي ﷺ يعيش حياة الترف فلن يستطيع فقيراً أن يفعل مثله.. فكان ﷺ يعيش الحالة التي يستطيع الفقير والغنى أن يقلده فيها ﷺ.

فلم يأكل النبي ﷺ على مائدة ولم يأكل خُبْزًا مُرَقَّقًا حتى مات.. والخبز المُرَقَّقُ أي اللين المُحَسَّن كخبز الحوارى وشبهه.

قال ابن الجوزي: هو الخبز الخفيف ... كأنه مأخوذ من الرقاق وهي الخشبة التي يُرَقَّقُ بها.



(٥٠٠) وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَحْدُ مِنْ الدَّقْلِ مَا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنُهُ ^(٢).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٥٠) كتاب الرقاق-والرواية الأخرى رواها البخارى (٥٤٢١) كتاب الأطعمة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٩٧٧) كتاب الزهد والرقائق.

الدَّقْلُ: ثَمَرُ رَدَىءٍ.

✽ وهنا تأتي شهادة الصحابي الجليل النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه يخبر أنه رأى النبي ﷺ وهو لا يجد من التمر الرديء ما يملأ به بطنه..

فلقد كانت حياته ﷺ صفحة مفتوحة لكل من حوله.. فلم يُخبر أحدهم بحاله والباقي لا يعلم بحاله ﷺ.. بل الكل يرى زُهد ﷺ وخشونة عيشه.. ومن أجل ذلك كانوا جميعاً في قمة الزهد والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة... لأن أستاذهم وأستاذ البشرية كلها ﷺ كان يعلمهم الزهد عملياً من خلال حياته لا من خلال كلامه.. فقد كان النبي ﷺ قدوة في كل شيء.. وكان لا يأمرهم بشيء إلا كان هو أول من يعمل ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠١) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: ما رأى رسول الله ﷺ النقي من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: هل كان لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رسول الله ﷺ من خل من حين ابتعثه الله تعالى حتى قبضه الله تعالى، فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه، فيطير ما طار، وما بقي ثريناه^(١).

✽ وهنا يخبر سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ ما رأى الخبز الحواري المنخول الناعم منذ بعثته وحتى توفي ﷺ... بل كان يأكل خبز الشعير الخشن... ولم يكن أهله يستعملون المناخل التي تنقى الدقيق وتطرد الخشن وتبقى الناعم منه ليخبزوه.. بل كانوا يطحنون الشعير وينفخون فيه فيطير الخشن منه وما بقي يُبلل بالماء ويُعجن...

فيا من تشكو من خشونة العيش.. هذا هو الحبيب محمد ﷺ.. وتلك هي حياته ﷺ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٤١٣) كتاب الأطعمة.

قوله: «النقي»: وهو الخبز الحواري، وهو: الدرمك - قوله: «ثريناه»، أي: بللناه وعجنناه.

(٥٠٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ ، فَإِذَا هُوَ بِأَبَى بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فَقَالَ : « مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ » قَالَا : الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « وَأَنَا ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لِأَخْرِجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا ، قَوْمًا » فَقَامَا مَعَهُ ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ : مَرَحَبًا وَأَهْلًا . فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَيْنَ فُلَانٌ » قَالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا الْمَاءَ ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ ، فَقَالَ : كُلُوا ، وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ » فَذَبَحَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ وَشَرِبُوا . فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُّوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبَى بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَخْرَجَكُمُ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ » ^(١) .

✽ رسول الله ﷺ أفضل هذه الأمة وخيرته من خلقه ، وأفضل أنبيائه ورُسله صلوات الله وسلامه عليه وصاحباه ووزيراه أفضل هذه الأمة بعد نبيها ، يُخرجهم الجوع من منازلهم ، فلا يجدون فيها ما يَسُدُّ رمقهم ، ولو شاؤوا لادَّخروا فيها ما يجعل بطونهم ويطون ذويهم ملأى ، ولكنهم كانوا يبذلون ما عندهم في حاجة المسلمين ، وقد خيَّر الله رسوله ﷺ بين أن يكون ملكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا ، فاختر أن يكون عبدًا رسولًا يشبع يومًا ، ويجوع يومًا ، واستمر على ذلك صلوات الله عليه إلى أن توفاه الله تعالى .

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٠٣٨) كتاب الأشربة .

قَوْلُهَا : « يَسْتَعِذُّ » أَيْ : يَطْلُبُ الْمَاءَ الْعَذْبَ ، وَهُوَ الطَّيِّبُ - وَ« الْعِدْقُ » : وَهُوَ الْكِبَاسَةُ ، وَهِيَ الْغُصْنُ . وَ« الْمُدِيَّةُ » : هِيَ السَّكِينُ . وَ« الْحُلُوبُ » ذَاتُ اللَّبَنِ . وَالسُّؤَالُ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ سُؤَالُ تَعْدِيدِ النَّعْمِ لَا سُؤَالُ تَوْيِخٍ وَتَعْذِيبٍ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ ... وَهَذَا الْأَنْصَارِيُّ الَّذِي أَتَوْهُ هُوَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، كَذَا جَاءَ مُبَيَّنًا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ .

ويُحدِّث أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الحديث: أن رسول الله ﷺ خرج يوماً من منزله... وجاء في رواية الترمذي: أن خروجه كان في ساعة لم يكن من عادته الخروج فيها... وفي رواية الموطأ: أن خروجه كان إلى المسجد، فإذا هو يُفاجأ بقدوم أبي بكر وعمر عليه في موضعه ذاك وساعته تلك.

وعندما استعلم منهما عن سبب خروجهما، وجد أن الذي أخرجهما هو الذي أخرجه: الجوع.

فانطلق بهما إلى منزل أحد أصحابه من الأنصار... وقد حددت رواية الترمذي ورواية الموطأ اسم هذا الصحابي، وهو أبو الهيثم بن التيهان، وكان رجلاً كثير النخل والشاء، فلم يجدوه في منزله وبستانه... فرحبت بهم زوجته أجمل ترحيب، وأخبرتهم أن زوجها ذهب يستعذب لهم الماء.

أى: يأتي بماءٍ عذب من عينٍ أو بئرٍ يتصف ماؤه بالعدوبة.

وقد صرح الترمذي في روايته: أن أبا الهيثم لم يكن له خادم يخدمه، ولذلك كان يقوم بحاجاته من استعذاب الماء والحرث وجنى الثمر بنفسه، ولم يَطل غياب أبى الهيثم، فقد وصل يحمل قربة الماء العذب على ظهره، فوضعها سريعاً، وأقبل على رسول الله ﷺ وصاحبيه تبرق أسارير وجهه فرحاً، وأخذ يلتزم رسول الله ﷺ -أى: يحتضنه- ويفديه بأبيه وأمه، أى يقول له: فداك أبى وأمى، ويقول: الحمد لله، ما من أحدٍ اليوم أكرم أضيافاً منى، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة من نخله فجاءهم بقطفٍ من قطفها، ويسمى القطف في مثل هذا (القنو) وعندما قال له رسول الله ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رُطبه؟» قال: يا رسول الله، إنى أردت أن تختاروا، أو قال: تخيروا من رُطبه وبُسره، ثم أخذ أبو الهيثم المُدية وهى السكين، فعرف الرسول ﷺ أنه يريد أن يذبح لهم، فقال له: «إياك والحلوب».

والحلوب: الشاة ذات اللبن ... نهاه عن ذبحها، لأنه ينتفع بلبنها، وقد يكون ولدها حيًّا فيتضرر بذبح أمه لفقده حليبها، فذبح لهم شاة. وأمر لهم بشعير فعمل منه خبزًا، فلما نضج الطعام قدّم لهم خبز الشعير ولحم الشاة فأكلوا وشبعوا، وسقاهم من ذلك الماء العذب بعد أن برد ... فقال الرسول ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسى بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».

وفي رواية الترمذى أن الرسول ﷺ قال لصاحبه: «هذا والذي نفسى بيده من النعيم الذى تُسألون عنه يوم القيامة: ظلُّ بارد، ورطبٌ طيّبٌ، وماء بارد» وكانت مقالته تلك بعد أكلهم الرطب وشربهم الماء، وقبل أن يأكلوا لحم الشاة.

وجاء في رواية الترمذى أن الرسول ﷺ سأل أبا الهيثم: هل له من خادم؟ فقال: لا، قال: «إذا أنا سبى فأتنا» فأتى النبى ﷺ برأسين ليس معهما ثالث، فأتاه أبو الهيثم، فقال النبى ﷺ: «اختر منهما»، فقال: يا نبى الله، اختر لى، فقال النبى ﷺ: «إن المستشار مُؤتمن، خذ هذا، فقد رأيتَه يصلى، واستوص به معروفًا».

وعندما أخذ أبو الهيثم عبده الذى أعطاه الرسول ﷺ إياه، وعرف زوجته بما وصّاه الرسول ﷺ به، وكانت امرأة دينّة عاقلة، نصحته بعقده، فإن قمة تحقيق وصية الرسول به لا يتم إلا بالعتق ... وقد استجاب الرجل الصالح لنصيحة زوجته، وعاد ليعتمد على نفسه فى العمل فى بستانه، وعندما بلغ الرسول ﷺ خبر ما أشارت به زوجة أبى الهيثم قال: «إن الله لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف، وتناه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالًا، ومن يُوقَ بطانة السوء، فقد وُقِيَ».

وقول الرسول ﷺ يشير إلى سنة من سنن الله فى خلقه من بنى آدم، فلكل واحدٍ منّا بطانتان من أهله وأقاربه ومعارفه، بطانة تأمره بالخير، وبطانة تأمره

بالشر، والسعيد هو الذى يُوقى بطانة الشر ... وقد كان أبو الهيثم من هؤلاء الذين يَسِّر الله لهم زوجة صالحة تأمره بالخير، وتنهاه عن الشر^(١).

❁ وهذا الحديث مشتمل على مجموعة كبيرة من الفوائد... منها:

مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَكِبَارُ أَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنَ التَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا ابْتُلُوا بِهِ مِنَ الْجُوعِ وَضِيقِ الْعَيْشِ فِي أَوْقَاتٍ ... وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ فَتْحِ الْفُتُوحِ وَالْقُرَى عَلَيْهِمْ وَهَذَا زَعَمُ بَاطِلٌ فَإِنَّ رَاوِيَ الْحَدِيثِ أَبُو هُرَيْرَةَ ... وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ أَسْلَمَ بَعْدَ فَتْحِ خَيْبَرَ ... فَإِنْ قِيلَ: لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ رَوَاهُ أَنْ يَكُونَ أَدْرَكَ الْقَضِيَّةَ فَلَعَلَّهُ سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ غَيْرِهِ ... فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا خِلَافُ الظَّاهِرِ وَلَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ بَلِ الصَّوَابُ خِلَافُهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَزَلْ يَتَقَلَّبُ فِي الْيَسَارِ وَالْقِلَّةِ حَتَّى تُوَفِّيَ ﷺ فَتَارَةً يُوسِرُ وَتَارَةً يَنْقُدُ مَا عِنْدَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعِ مِنْ حُبْزِ الشَّعِيرِ» ... وَعَنْ عَائِشَةَ: «مَا شَبَعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ ثَلَاثِ لَيَالٍ تَبَاعًا حَتَّى قُبِضَ وَتُوَفِّيَ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عَلَى شَعِيرٍ اسْتَدَانَهُ لِأَهْلِهِ» ... وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ ... فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَقْتِ يُوسِرُ ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَنْقُدُ مَا عِنْدَهُ لِإِخْرَاجِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِنْ وُجُوهِ الْبِرِّ وَإِثَارِ الْمُحْتَاجِينَ وَضِيَاةِ الطَّارِقِينَ وَتَجْهِيزِ السَّرَايَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَهَكَذَا كَانَ خُلُقُ صَاحِبِهِ ﷺ بَلْ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ ... وَكَانَ أَهْلُ الْيَسَارِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ بَرِّهِمْ لَهُ ﷺ وَإِكْرَامِهِمْ إِيَّاهُ وَإِتْحَافِهِ بِالطَّرْفِ وَغَيْرِهَا رَبَّمَا لَمْ يَعْرِفُوا حَاجَتَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ لَكُونِهِمْ لَا يَعْرِفُونَ فَرَاغَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْقُوَّةِ بِإِثَارِهِ بِهِ ... وَمَنْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُمْ رَبَّمَا كَانَ ضَيِّقُ الْحَالِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَمَا جَرَى لَصَاحِبِهِ وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ عَلِمَ حَاجَةَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ إِزَالَتِهَا إِلَّا بَادَرَ إِلَى إِزَالَتِهَا

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر (ص ٥١-٥٤) بتصرف.

لَكِنْ كَانَ ﷺ يَكْتُمُهَا عَنْهُمْ إِثَارًا لِتَحْمِلِ الْمَشَاقَّ وَحَمْلًا عَنْهُمْ ... وَقَدْ بَادَرَ أَبُو طَلْحَةَ حِينَ قَالَ: سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ إِلَى إِزَالَةِ تِلْكَ الْحَاجَةِ وَكَذَا حَدِيثُ جَابِرٍ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ^(١).

✽ لم يكن جميع الصحابة على هذه الحالة التي وصفت من التقلُّل في الدنيا ... فقد كان فيهم الأغنياء ... منهم أصحاب النخل والشاء كحال هذا الصحابي الذي استضاف الرسول ﷺ وصاحبيه، كما جاء في رواية الترمذي. ومنهم أصحاب التجارة، كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وأبي بكر. ومنهم الصُّنَّاع الذين مهروا في الصناعات، كصهيب الرومي، وقد ترك ما لا كثيرًا لأهل مكة، حتى أذنوا له بالهجرة إلى المدينة. وليس من هدى الإسلام أن يأمر المسلمين بأن يتخلوا عن جميع أموالهم، ليكونوا فقراء، بل كان في بعض الأحوال يأمر أصحابه أن يُمسكوا بعض أموالهم، ويأمر بالاعتدال في الإنفاق.

✽ لا حرج على مَنْ أظهر ما أصابه من ضيق أو جوع على غير وجه التشكِّي ... كما فعل الرسول ﷺ وصاحبه عندما تحدث كل واحد بحاله، وبالسبب الذي أخرجه من داره، وهو الجوع.

✽ لا حرج على مَنْ أظهر المشاعر النبيلة التي يُحس بها تجاه الآخرين ... فقد فرحت أم الهيثم وزوجها أبو الهيثم بحلول رسول الله ﷺ وصاحبيه ضيوفاً عليهم، وعبروا عن فرحهم هذا الذي ملأ نفوسهم بألوانٍ كثيرة ... فأَمَّ الهيثم تقول للرسول ﷺ وصاحبيه عندما قدموا الدار: «مرحباً وأهلاً» وعندما نظر أبو الهيثم إليهم حمد الله، وقال: «ما أحدٌ اليوم أكرمَ أضيافاً مني» وفي رواية الترمذي: أن أبا الهيثم عندما عاد ورأى الرسول ﷺ أقبل عليه يفديه بأمه وأبيه، أي يقول له: فداك أبي وأمي، وأخذ يلتزمه.

وإذا أنت تأملت في الحديث ورأيت فعل أبي الهيثم من اختيار أحسن

الأمكنة في بستانه، وما قدمه من الرطب، وذبح الشاة، ونحو ذلك رأيتَه كله ينطق بالمشاعر الإنسانية النبيلة التي يعبر بها صاحبها عن فرحته وسروره وسعادته... والمسلم الحق يمثل الإنسان الحق في أكرم صورته، وأرقى مشاعره.

❁ شكر المؤمن ربه على ما أحدث له من نعم... فقد حمّد أبو الهيثم ربه عندما وجد خير الناس في منزله ضيوفاً عليه، وهى نعمة من أعظم النعم التي يُنعم الله بها على عباده.

❁ لا حرج على من تكلف لإكرام ضيفه كما فعل أبو الهيثم بضيوفه، فقد جاءهم بقنوٍ كامل من الرطب، وذبح لهم شاة... وقد جاء أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ ضيوفه من قبل بعجل حنيد... وما ذكره أهل العلم من النهي عن التكلف في إكرام الضيف محمول على ما يشقّ على صاحب المنزل مشقة تُرهقه.

❁ مشروعية الثناء على الآخرين، وخاصة في مقام الترحيب بالضيوف، فقد قال أبو الهيثم مُرحباً بضيوفه مُثنياً عليهم: ما أحدٌ أكرمَ أضيافاً مني. وهذا مقيد بأن لا يخاف على المثنى عليه الفتنة، وأن لا يبالغ في الثناء بحيث يخرج إلى منزلة الكذب.

❁ في الحديث بيان لمدى محبة الصحابة للرسول ﷺ وإكرامهم له، وتفاوتهم بقدمه عليهم، كما ظهر ذلك من أبي الهيثم بن التيهان وزوجه.

❁ ما تناوله الرسول ﷺ وصاحبه من طعام وماء هو من النعيم الذي يسأل الله عنه عبده يوم القيامة في قوله: ﴿لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] كما أخبر الرسول ﷺ صاحبيه بذلك، والسؤال إنما هو عن مدى شكر العبد ربّه عند حصوله على هذا النعيم... فالله يرضى عن العبد، يأكل الأكلة فيشكره عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها.

❁ على المستشار أن يخلص النصّح لمن يستشيرُه... فقد طلب أبو الهيثم من الرسول ﷺ أن يختار له خير الرجلين اللذين عرضهما عليه، فاختار له

الرسول ﷺ أفضلهما، وعلل ذلك بقوله: «المستشار مؤتمن» فذهبت مثلاً، وأصبحت قاعدة من قواعد الأخلاق في الإسلام. وعلى ذلك فإن من الخيانة أن تدل مستشيرك على ما يعود عليه بالضرر والسوء.

❁ فضل الرسول ﷺ الرجل الذي اختاره لأبى الهيثم لكونه رآه يصلى، فدل ذلك على أن المقياس المرتضى هو التزام المرء بالإسلام^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠٣) وعن خالد بن عُمير العدوى قال: خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، وَكَانَ أَمِيرًا عَلَى الْبَصْرَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنْتْ بِضُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَدَاءً، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَتَصَابُهَا صَاحِبُهَا، وَإِنْكُمْ مُتَّقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لَا زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرٍ مَا بَحَضَرَتْكُمْ فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوَى فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَاللَّهِ لَتُمْلَأَنَّ.. أَفَعَجِبْتُمْ؟ وَلَقَدْ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مِصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ عَامًا، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَطِيطٍ مِنَ الزَّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ. وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا. وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يخبر خالد بن عُمير العدوى أن عُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما كان أميرًا على البصرة قام فخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه.. وهكذا

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص ٥٥-٥٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٧) كتاب الزهد والرقائق.

قوله: «آذَنْتْ»، أى: أعلمت - وقوله: «بِضُرْمٍ» أى: بانقطاعها وفنائها - وقوله «وَوَلَّتْ حَدَاءً» أى: سريعة. و«الصُّبَابَةُ»: وهى البقية اليسيرة - وقوله: «يَتَصَابُهَا» أى: يجمعها - والكَطِيطُ: الكثير المُمْتَلَى - وقوله: «قَرِحَتْ» أى: صارت فيها قروح.

ينبغي على المسلم أنه إذا خطب أو قام ليدعو أن يحمده الله ويثنى عليه ويصلى على رسول الله ﷺ...

فلما قام عتبة يخطب قال لهم - ما معناه - أن الدنيا قد أعلمت بفنائها وانقطاعها وولت مُسرعة وأنه لم يبقَ منها إلا بقية يسيرة... وإنكم منتقلون من هذه الدنيا إلى دارٍ لا انقطاع ولا زوال لها.. فاحرصوا على أن تعملوا أعمالاً صالحة لتنتقلوا بها إلى الدار الآخرة فتجنوا ثمرة تلك الأعمال في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم... فإن الإنسان لا بُدَّ أن يحرص على أن ينجو من النار ويدخل الجنة.. فقد ذكر النبي ﷺ أن الحجر يُلقى من سفير جهنم إلى قعرها فلا يدرك قعرها بعد سبعين عاماً.. وسوف تمتلئ جهنم يوم القيامة بالكفار والمنافقين والعصاة.. ثم قال لهم: أفعجبتكم؟ أى: هل تتعجبون لهذا الكلام.. اعلموا أن الآخرة فيها أيضاً نعيمٌ عظيم فلقد ذكر لنا النبي ﷺ أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً وسيأتى عليه يومٌ وهو مُمتلئ من شدة الزحام.

ثم ذكر لهم عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كان عليه حالهم وحال النبي ﷺ من الجوع وخشونة العيش فقال لهم: وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرَحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَّقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنَصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنَصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ. وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا. وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا.

فلقد كانوا مع النبي ﷺ لا يجدون طعاماً إلا ورق الشجر الخشن الذى يصيب الحلق والأشداق.. وكانوا يتقاسمون الثياب لقلة ما كان عندهم... وأنه قد أصبح بعد ذلك كل واحدٍ منهم أميراً وأنه يخشى أن يكون فى نفسه عظيماً وأن يكون عند الله صغيراً.. بل كان يسعى كل واحدٍ منهم أن يكون عند الله عظيماً وأن يكون فى نفسه صغيراً.

هكذا كان حالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع النبي ﷺ.

(٥٠٤) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخْرَجْتُ لَنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كِسَاءً وَإِزَارًا غَلِيظًا قَالَتْ: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ عائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخرجت لهم كِسَاءً وَإِزَارًا غَلِيظًا لا يتحملة جسد الإنسان إلا بصعوبة شديدة وقالت لهم: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَيْنِ.. أى كان يلبسهما ﷺ عند موته... فهذا حال رسول الله ﷺ الذى لو أراد أن يلبس أجمل وأفخم الثياب فى هذا الوقت لفعل لكنه اختار تلك الحياة ليستطيع الفقير والغنى أن يقتدى به... فالفقير سيتأسى بالنبي ﷺ ويتصبر به ﷺ ويقول لنفسه: لا بد أن أتحمل وأحمد الله فهل أنا أفضل من النبي ﷺ.. والغنى أباح له النبي ﷺ أن يلبس كل الثياب الطيبة ما دام ليس فيها ما يخالف الشرع.. فإن أراد أن يلبس الثياب البسيطة فقد سبق إليها النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠٥) وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنِّى لَأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْحُبْلَةِ. وَهَذَا السَّمُرُ. حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضْعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خَلْطٌ ^(٢).

❁ وفي هذا الحديث يخبر سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.. وهو من أوائل الصحابة الذين أسلموا وبذلوا حياتهم لنصرة هذا الدين العظيم.. فيخبر هنا أنه أول من رمى بسهم في سبيل الله ﷻ.. وذكر أنهم كانوا يغزون مع رسول الله ﷺ.. وبدلاً من أن يأكلوا الحوم الإبل أو الشياه ليستعينوا بذلك على مشقة الجهاد فى سبيل الله.. كانوا يأكلون ورق الحبلة..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨١٨) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٠) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥٣) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٦٦) كتاب الزهد والرقائق.

«الْحُبْلَةُ» وهى والسَّمُرُ، نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ مِنْ شَجَرِ الْبَادِيَةِ.

وهو من شجر البادية وكان يجرح خلوقهم وأشدقهم ومع ذلك كانوا يتحملون ذلك ابتغاء مرضاة الله عَزَّ وَجَلَّ لأنهم يعلمون أن عاقبة ذلك هو الفوز برضوان الله وجنته ... وهناك سوف يُجهَّز لهم الطير المشوى في الجنة وسيرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»^(١).

❁ هكذا كان دعاء النبي ﷺ .. فلم يكن يدعو بأن يفتح الله له أبواب الرفاهية والتنعُّم .. بل كان يطلب ما يَسُدُّ الرِّمَقَ فقط ولا يزيد لأنه يعلم أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولو كانت تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

قال أهل اللغة العربية: القوت ما يَسُدُّ الرِّمَقَ ... وفيه فضيلة التَّقَلُّلِ من الدنيا والاقتصار على القوت منها والدعاء بذلك^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَبَرَ عَلَى بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ. وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَى طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ النَّبِيُّ ﷺ، فَتَبَسَّمَ حِينَ رَأَى، وَعَرَفَ مَا فِي وَجْهِهِ وَمَا فِي نَفْسِي، ثُمَّ قَالَ: «أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ» وَمَضَى، فَاتَّبَعْتُهُ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ فَقَالَ: «مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟» قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ ... قَالَ: «أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٦٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٥) كتاب الزهد والرفائق.

قال أهل اللغة والغريب: معنى «قوتًا» أى مَا يَسُدُّ الرِّمَقَ.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢٠٥/٧).

لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْحَقُّ إِلَى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ لِي».

قال: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَصْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ عَلَى أَهْلِ، وَلَا مَالٍ، وَلَا عَلَى أَحَدٍ، وَكَانَ إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ. وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا، وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ وَأَصَابَ مِنْهَا وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، فَسَاءَنِي ذَلِكَ فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنِ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ؟ كُنْتُ أَحَقُّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هَذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّى بِهَا، فَإِذَا جَاءُوا أَمَرَنِي، فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَنِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بَدْ.

فَاتَّيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا وَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ وَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ قَالَ: «يَا أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «خُذْ فَأَعْطِهِمْ» قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَحِ، فَأَعْطِيهِ الْآخَرَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرَوْى، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَى الْقَدَحِ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ رَوَى الْقَوْمُ كُلُّهُمْ، فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَنَظَرَ إِلَيَّ فَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: «أَبَا هِرٍّ» قُلْتُ: لَبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «بَقِيْتُ أَنَا وَأَنْتَ» قُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفْعُدْ فَاشْرَبْ» فَقَعَدْتُ فَشَرَبْتُ: فَقَالَ: «اشْرَبْ» فَشَرَبْتُ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: «اشْرَبْ» حَتَّى قُلْتُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا، قَالَ: «فَارِنِي» فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى، وَسَمَّى وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ^(١).

(٥٠٨) وَعَنْ مُحَمَّدَ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لِأَخِرُ فِيمَا بَيْنَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَغْشِيًّا عَلَى، فَيَجِيءُ الْبَجَائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنْقِي، وَيَرَى أَنِّي مَجْنُونٌ وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، وَمَا بِي إِلَّا الْجُوعُ^(٢).

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٥٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٣٢٤) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

❁ يُحدثنا أبو هريرة رضي الله عنه عن الحال التي كان يبلغها من الجوع في العهد النبوي ... فقد كان يصل به الجوع الشديد إلى أن يلصق بطنه بالأرض من شدة الجوع إذا كان نائمًا، فإذا قام أخذ حجرًا رقيقًا فوضعه على بطنه، ثم عَصَبَهُ بعصاة حتى تعتدل قامته.

وكان يبلغ به الحال أعظم من ذلك، فقد كان في بعض الأحيان يَخِرُّ على وجهه من الجهد والجوع.

وكانت تأبى عليه نفسه أن يستجدي غيره، ويسأله مذقة اللبن، أو كسرة الخبز ... وكذلك حال المتعفين، يظنهم مَنْ يراهم أغنياء، وواقع الحال أن بهم من البلاء ما الله به عليم ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وكان في بعض الأحيان يتعرض لصحابة الرسول ﷺ الذين عندهم شيء من المال.. وقد قعد يومًا في الطريق الذي اعتاد بعض الصحابة من ذوى الثراء المرور منه، لعلهم يفطنون لما به من البلاء، فيدعونه، فيذهبون ما به من شدة الجوع ... فمرَّ به أبو بكر فسأله عن مسألة علمية، فأجابه، ولم يدَّعه، ثم مرَّ به عمر، فكان منه ما كان من أبى بكر، ولعلهما لم يفطنا لحاله، أو فطنا له، ولكن لا يوجد عندهما في ذلك اليوم ما يواسيانه به ... فقد كان الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر يُخرجهم من بيوتهم الجوع في بعض الأحيان.

ثم مرَّ به رسول الله ﷺ، فما إن رآه حتى عرف حاله ومُصابه، فتبسَّم في وجهه، وناداه أمرًا إياه باتباعه إلى منزله، واستأذن على أهله، وأدخله داره. فوجد في الدار لبنًا في قدح، فاستعلم الرسول ﷺ من أهله عن مصدر هذا اللبن، فإذا به هدية من بعض أصحابه، فأمر الرسول ﷺ أبا هريرة أن ينطلق فيدعوه أهل الصفة، هكذا... كل مَنْ وجده من أهل الصفة.

ولك أن تتصور حال أبى هريرة والرسول ﷺ يأمره أن يدعو أهل الصفة، وهم جَمْعٌ غفير... والطعام الذى يدعوهم إليه قدح لا يكاد يكفى الواحد أو الاثنين... لقد كان أبو هريرة يرجو أن يدفع إليه الرسول ﷺ، وقد بلغ به الجوع مداه، هذا اللبن يَسُدُّ به جوعته، ويقيم به أوده، ويتقوى به على ضعفه.

لقد كان أبو هريرة يُحدث نفسه بهذا الحديث، وهو منطلق إلى أهل الصفة يدعوهم، وتصور فى نفسه ما يمكن أن يحدث بعد دعوته إياهم... لقد قام فى نفسه أن الرسول ﷺ سيأمره بعد دخول أهل الصفة عليه أن يسقيهم ذلك اللبن، وخشى أن يأتوا عليه، ولا يبقى له منه شىء.

وكان الأمر على النحو الذى توقعه أبو هريرة ﷺ، فبعد أن استأذنوا ودخلوا على رسول الله ﷺ، وأخذوا أماكنهم، ناوله الرسول ﷺ القدح أمراً إياه أن يباشر إسقاءهم منه... فكان يناول الرجل القدح، فيشرب، ثم يُعيده إلى أبى هريرة، فيناوله إلى الآخر، وهكذا، حتى شربوا جميعاً، وانتهى بالقدح إلى رسول الله ﷺ، فأخذ صلوات الله وسلامه عليه القدح، ووضعها على يده، وكأنه علم ما دار فى خلد أبى هريرة، من خشيته أن ينتهى اللبن من غير أن ينال منه شيئاً، فبتسم ﷺ، وناداه قائلاً: «أبا هريرة»، فقال أبو هريرة: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت»، فقال: صدقت يا رسول الله. فقال: «اقعد فاشرب» فشرب أبو هريرة، ثم أمره أن يشرب أخرى، وما زال يأمره بأن يشرب، حتى لم يُطق أبو هريرة أن يتناول المزيد، لقد شرب وتَصَلَّعَ، وامتلاً بطنه، وأقسم للرسول ﷺ أنه لا يجد له مسلماً.

عند ذلك أخذ الرسول ﷺ الفضلة التى فى الإناء، فحمد الله وسمى، وشرب ما بقى فيه، فانتهى اللبن الذى فى القدح بشرب الرسول ﷺ منه^(١).

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص ١٩-٢١) بتصرف.

❁ وفي هذين الحديثين بيان الحال الصعبة التي كان عليها الرسول ﷺ وكثير من أصحابه، فما أصاب أبا هريرة من الجوع الشديد لم يكن قصراً عليه... فأهل الصفة كانوا جميعاً على مثل حاله، بل كان الجوع الشديد يصيب الرسول ﷺ وكبار صحابته.

حتى كان الحال يصل بأبي هريرة أنه كان يُغشى عليه (يُغمى عليه) في المسجد ما بين منبر النبي ﷺ إلى حجرة أمنا عائشة رضي الله عنها ويظن بعض الصحابة أنه مسحور أو به جنون ولم يعلموا أن ذلك كله من شدة الجوع.. لكنه كان عفيفاً رضي الله عنه لا يسأل أحداً أبداً.. فإن لم يُعطه النبي ﷺ أو أحد الصحابة لم يكن أبو هريرة يسأل أحداً شيئاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠٩) وَعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ^(١).

❁ وهنا تذكر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان قد رهن درعه عند رجل يهودي من بني ظفر (اسمه أبو الشحم اليهودي) على ثلاثين صاعاً من شعير.. وظلت درعه رضي الله عنه مرهونة عند هذا الرجل حتى توفى النبي ﷺ.

قال العلماء: الحكمة في عدوله عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهود، إما لبيان الجواز، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعامٌ فاضل عن حاجة مَنْ عندهم، أو خشى أنهم لا يأخذون ثمناً أو عوضاً فلم يُرد التضيق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك مَنْ يقدر منهم على ذلك أو أكثر منه... فلعله لم يُطلعهم على ذلك وإنما اطلع عليه مَنْ لم يكن مؤسراً به ممن نقل ذلك. اهـ^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩١٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٦٠٣) كتاب المساقاة.

(٢) دليل الفالحين (٢/ ٤١٠).

(٥١٠) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَهَنَ النَّبِيُّ ﷺ دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ، وَمَشِيَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةٍ سِنْخَةٍ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَا أَصْبَحَ لَالٍ مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلَا أُمْسَى» وَإِنَّهُمْ لَتَسْعَةُ آيَاتٍ ^(١).

❦ وهنا يذكر أنس ما ذكرته أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أن النبي ﷺ رهن درعه بشعير ليُقدمه طعاماً لأهله ﷺ.

وليس معنى ذلك أن النبي ﷺ قد رهن درعه الوحيد الذي يقاتل به وإنما رهن درعاً من أدراعه كما جاء في رواية البخارى...

قال أنس: ومشيَتْ إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإِهَالَةٍ سِنْخَةٍ.. أى أنه ذهب إلى النبي ﷺ بخبز الشعير ومعه شحمٌ ذائب متغير.. فقد كان النبي ﷺ لا يأكل إلا ما يَسُدُّ الرَّمَقَ ولا يحرص على أكل الأطعمة الشهية ﷺ.

ثم قال أنس: ولقد سمعته -أى النبي ﷺ- يقول: «ما أَصْبَحَ لَالٌ مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلَا أُمْسَى»..

يقول أنس: وإِنَّهُمْ لَتَسْعَةُ آيَاتٍ.

❦ وفي رواية أحمد والترمذى والنسائى أنه ﷺ قال: «ما أُمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ وَلَا صَاعٌ مِنْ حَبٍّ».

❦ قوله: «وإِنَّهُمْ لَتَسْعَةُ آيَاتٍ» وفي رواية: «وإن عنده يومئذٍ تسع نسوة». وَمُنَاسَبَةٌ ذَكَرَ أَنَسٍ لِهَذَا الْقَدْرِ مَعَ مَا قَبْلَهُ الْإِشَارَةُ إِلَى سَبَبِ قَوْلِهِ ﷺ هَذَا وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ مُتَضَجِّراً وَلَا شَاكِيّاً مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ وَإِنَّمَا قَالَهُ مُعْتَذِراً عَنْ إِجَابَتِهِ دَعْوَةَ الْيَهُودِيِّ وَلِرَهْنِهِ عِنْدَهُ دِرْعَهُ... وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْحَامِلُ الَّذِي زَعَمَ بِأَن قَائِلَ ذَلِكَ هُوَ أَنَسٌ فِرَاراً مِنْ أَن يُظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَلِكَ بِمَعْنَى التَّضَجُّرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ...

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٥٠٨) كتاب الرهن.

«الْإِهَالَةُ» الشَّحْمُ الذَّائِبُ - وَ«السِنْخَةُ» وَهِيَ: الْمُتَغَيِّرَةُ.

وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ مُعَامَلَةِ الْكُفَّارِ فِيمَا لَمْ يَتَحَقَّقْ تَحْرِيمُ عَيْنِ الْمُتَعَامَلِ فِيهِ
وَعَدَمُ الْإِعْتِبَارِ بِفَسَادِ مُعْتَقَدِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَاسْتَنْبَاطُ مِنْهُ جَوَازُ مُعَامَلَةِ
مَنْ أَكْثَرَ مَالِهِ حَرَامٌ ... وَفِيهِ جَوَازُ بَيْعِ السَّلَاحِ وَرَهْنِهِ وَإِجَارَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ
الْكَافِرِ مَا لَمْ يَكُنْ حَرِيًّا ... وَفِيهِ ثُبُوتُ أَمْلَاكِ أَهْلِ الذِّمَّةِ فِي أَيْدِيهِمْ وَجَوَازُ
الشَّرَاءِ بِالثَّمَنِ الْمُؤَجَّلِ وَاتِّخَاذِ الدُّرُوعِ وَالْعُدَدِ وَغَيْرِهَا مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ وَأَنَّهُ
غَيْرُ قَادِحٍ فِي التَّوَكُّلِ وَالْكَرَمِ الَّذِي أَفْضَى بِهِ إِلَى عَدَمِ الْإِدْخَارِ حَتَّى احتَاجَ إِلَى
رَهْنِ دِرْعِهِ وَالصَّبْرِ عَلَى ضَيْقِ الْعَيْشِ وَالْقَنَاعَةِ بِالْيَسِيرِ وَفَضِيلَةُ لِأَزْوَاجِهِ
لِصَّبْرِهِنَّ مَعَهُ عَلَى ذَلِكَ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥١١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ
رَجُلٌ عَلَيْهِ رَدَاءٌ، إِلَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رُبُّوا فِي أَعْنَاقِهِمْ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ
السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الْكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كَرَاهِيَةً أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ ^(٢).

✽ سبق شرحه كاملاً بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٤٧٣)
فأرجو الرجوع إليه.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥١٢) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهُ
لَيْفٌ ^(٣).

✽ وَهَا هِيَ أَمْنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَصِفُ كَيْفَ كَانَ فِرَاشُ النَّبِيِّ ﷺ ... فَهَلْ كَانَ
مِنَ الدِّيَاجِ وَالْحَرِيرِ؟ .. أَمْ كَانَ مِنَ الْإِسْتَبْرَقِ؟ .. أَمْ كَانَ مِنَ الْقَطِيفَةِ؟ .. كَلَّا..
بَلْ كَانَ فِرَاشُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ قِطْعَةٍ جَلْدٍ حَشَوْهَا لَيْفٌ!!

(١) فتح الباري (٥/١٦٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٤٢) كتاب الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٥٦) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٠٨٢) كتاب اللباس والزينة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فيه جواز اتخاذ الفرش والوسائد والنوم عليها والارتفاق بها وجواز المحشو، وجواز اتخاذ ذلك من الجلود وهى الأدم والله أعلم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥١٣) وَعَنْ ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَدْبَرَ الْأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَخَا الْأَنْصَارِ، كَيْفَ أَخِي سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ؟» فَقَالَ: صَالِحٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟» فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ، وَنَحْنُ بَضْعَةُ عَشْرٍ مَا عَلَيْنَا نِعَالَ وَلَا خِفَافٌ، وَلَا فَلَانِسٌ، وَلَا قُمُصٌ نَمْشِي فِي تِلْكَ السَّبَاحِ، حَتَّى جِئْنَاهُ، فَاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوْلِهِ حَتَّى دَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ^(٢).

❁ وهنا يحكى ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنهم كانوا جالسين مع رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ من الأنصار فسَلَّمَ على النبي ﷺ ثم انصرف فنَادى عليه النبي ﷺ وسأله: كيف أخى سعد بن عبادة؟ ... وما أجمل وفاء النبي ﷺ حين يفتقد أحد الصحابة فيسأل عنه.. وما أجمل تواضعه حين يقول: «كيف أخى سعد..» ولم يُقَل: كيف حال تلميذى.. أو: كيف حال سعد.. وإنما قال: أخى لقربه الشديد منهم وقربهم الشديد منه ﷺ.

❁ فلما قال لهذا الأنصارى: كيف أخى سعد بن عبادة؟

قال له الرجل: صالح.. أى بخير.

وقد كان النبي ﷺ يسأل عنه لأنه علم أنه مريض..

فنظر إلى أصحابه وقال لهم: «مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُمْ؟».

(١) مسلم بشرح النووي (١٤ / ٨٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٢٥) كتاب الجنائز.

يقول ابن عمر: فقام ﷺ وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف، ولا قلائس، ولا قمص نمشي في تلك السباح، حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين معه.

✽ قال الإمام النووي رحمه الله:

فيه ما كانت الصحابة رضي الله عنهم فيه من الزهد في الدنيا والتقلل منها وإطراح فضولها وعدم الاهتمام بفاخر اللباس ونحوه. وفيه جواز المشي حافياً، وعيادة الإمام والعالم المريض مع أصحابه^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

(٥١٤) وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فما أدرى قال النبي ﷺ مرتين أو ثلاثاً «ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويندرون ولا يؤفون، ويظهر فيهم السمن»^(٢).

✽ قوله ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ قَرْنُهُ ﷺ وَالْمُرَادُ أَصْحَابُهُ وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الصَّحِيحَ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمُهُورُ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَلَوْ سَاعَةً فَهُوَ مِنْ أَصْحَابِهِ... وَرِوَايَةُ «خَيْرِ النَّاسِ» عَلَى عُمُومِهَا وَالْمُرَادُ مِنْهُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ وَلَا يُلْزَمُ مِنْهُ تَفْضِيلُ الصَّحَابِيِّ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَلَا أَفْرَادُ النِّسَاءِ عَلَى مَرِيَمَ وَآسِيَةَ وَغَيْرِهِمَا... بَلِ الْمُرَادُ جُمْلَةُ الْقَرْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كُلِّ قَرْنٍ بِجُمْلَتِهِ... قَالَ الْقَاضِي: وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْقَرْنِ هُنَا فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: قَرْنُهُ أَصْحَابُهُ وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ أَبْنَاؤُهُمْ وَالثَّالِثُ أَبْنَاؤُ أَبْنَائِهِمْ... وَالصَّحِيحُ أَنَّ قَرْنَهُ ﷺ

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ٣٢١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥١) كتاب الشهادات، ومسلم (٢٥٣٥) كتاب فضائل الصحابة.

الصَّحَابَةُ وَالثَّانِي التَّابِعُونَ وَالثَّالِثُ تَابِعُوهُمْ^(١).

✽ هذا الحديث فيه دلالة واضحة على تفاضل هذه الأمة، وأن بعضهم أفضل من بعض ... وفيه إخباره ﷺ بفضيلة هذه القرون الثلاثة، وأنها تتفاوت بالفضل ... فالقرن الأول هو أفضلها؛ لأنه امتاز عن غيره بصحبته ﷺ ونزول الوحي عليه وهو فضل لا يمكن من فاته تداركه أو ما يماثله، كما امتازوا على غيرهم بفضيلة السابقة في العلم، والإيمان، والأعمال الصالحة، التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها المتفاضلون، فغلب فيهم الخير، وكثر أهلُه، وقلَّ فيهم الشر وأهلُه، واعتزَّ فيهم الإسلام، والإيمان، وصفت سرائرهم، وطهرت قلوبهم، وجاهدوا في الله حق جهاده، وأخذوا العلم مُشافهة عنه ﷺ، وفهموا مقاصده، وعلموا أسرارَه، وبذلوا أموالهم، ونفوسهم في سبيل الله، وقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى ... رُحماء بالمؤمنين، رُهبان بالليل، وأسودَّ بالنهار، إن انتهكت محارم الله انتقموا انتقام الأسد، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصدِّهم عن دينهم قطع الرقاب، والجماجم.

ومع هذا كله فهم في تواضع، وذِلَّةٍ لبعضهم من المؤمنين ... يحاسب أحدهم نفسه على الكلمة، ويخوفها عن النظرة.

يقضى ليله في ركوع، وسجود، وقيام، وقعود، وتلاوة، وخشوع، وخوف، وخضوع ... ويختم السَّحَر بالتوبة والاستغفار، والتذلل والانكسار بين يدي إلهه وبارئه، ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف.

أثنى عليهم القرآن بآيات تُتلى، وفصائل تُجلى ... فخذ وصفهم من عند خالقهم ... يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُورُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨-٩﴾ [الحشر: ٨-٩]، ويخبر سبحانه عن رضاه عنهم بقوله (جل وعلا): ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿١٨﴾ [الفتح: ١٨]. فهذه حالة أصحاب رسول الله، أو هذا وصف لبعض حالتهم رضي الله عنهم، فلذلك أخبر ﷺ أنهم خير قرون هذه الأمة، وناهيك بهذه الفضيلة، وهذه الشهادة منه ﷺ.

وقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث وغيره فضلهم على من سواهم، وفضل منهم الخلفاء الراشدين، وأوصى أمته بالتمسك بسنته، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ... وبين ﷺ فضل أهل بدر، وبشر عشرة من الصحابة بالجنة، وبشر أحاداً منهم كذلك، وأفضل الصحابة على الإطلاق: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وعن سائر صحابة رسول الله أجمعين.

ثم حصلت الفضيلة لمن بعدهم، وفازوا بقصب السبق على كل أحد، سوى من تقدمهم من الصحابة، فازداد في وقتهم ظهور الإسلام، وكثر الداعي إليه، والراغب فيه، والقائم به، ولم تكثر في زمنهم البدع التي انتشرت بعدهم؛ لأنه متى ظهر شيء منها استنكروه، واستعظموه، وسارعوا إلى إزالته، وإحباطه ... ثم يلي هؤلاء في فضيلة القرن الثالث، وهم الذين أثنى عليهم ﷺ، ووصفهم بالخيرية على من بعدهم ... ظهر بينهم شيء من البدع والمنكرات، لكن العلماء فيهم متوافرون، والإسلام فيهم ظاهر، وعزيز، والجهد فيهم قائم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مُعزز.

﴿ثم لما انقضت القرون المفضلة وقع ما وقع، وحدث ما حدث، مما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ، فكثر الجفاء في الدين، وتشعبت الآراء،

وتكاثرت الأهواء، وتنوعت البدع، وكثرت المعاصي، واستُخف بالأمانة، ووقعت شهادة الزور، وما زال الوازع الديني يضعف، والشهوات تتغلب، وحب الدنيا يتقوى، والهوى يستولى ... كما قال الله ﷻ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وفي كل عام يزيد أهل هذا الوصف، ويكثرون، كما جاء في الحديث: «لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شرُّ منه حتى تلقوا ربكم»^(١).

فظهرت الخلافات الدينية، والسياسية، وتكاثرت الأهواء، وتعددت المذاهب، والأحزاب، والطرق، وتباينت النزعات، والمشارب... قد رغب أكثرهم عن الآخرة، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها، وزهدوا فيما عند الله.

فَشَتْ وَكَثُرَتْ شهادة الزور، فلذلك يقول ﷺ في هذا الحديث: «ثم يأتي قوم يشهدون، ولا يُستشهدون، ويخونون، ولا يُؤتمنون، وينذرون، ولا يوفون»، يشهد شهادة بأدنى عرض من الدنيا، بل ربما تبرع بشهادة الزور؛ لقلّة دينه، إما نُصرة لصاحبه، أو إغاية لعدوه، أو رجاء نفع لنفسه، أو كفّ شر عنها.. يرمى نفسه في الزور والبُهتان، كما يرمى الفَرَّاش نفسه على النار، غير مُكترث بتهديد القرآن، وزجره الشديد، حيث يقول سبحانه: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وقول النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، ثم جلس وكان متكئاً، فقال: «ألا وقول الزور»، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت»^(٢).

وأخبر ﷺ بكثرة الخيانة في آخر الزمان، والخيانة تكون في المال، وهو الأكثر، وتكون في غيره وتكون في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتكون في الوقوع بالكذب والبُهتان وتكون في إساءة الظن بأخيه المسلم... بأن

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٠٦٨) كتاب الفتن.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥٤) كتاب الشهادات، ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.

يحقق ظنه السيئ بدون دليل أو برهان.

وذكر ﷺ الذين يندرون ولا يوفون، وقد عابهم ﷺ بذلك؛ لأن الوفاء بالنذر واجب وإن كان ابتداء النذر منهياً عنه... وقد مدح الله الموفين بالنذر في قوله سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

ولكن الذين لا يوفون بالنذر هم الذين ضعفت عزائمهم، واتصفوا بالبخل. ثم أخبر ﷺ أنه يظهر فيهم السمن، أى فى آخر الزمان، وهو يدل على الإغراق فى السرف، والاشتغال بتنمية الأجسام عن تنمية العقول والإيمان، واشتغلوا بتتبع الشهوات، فهتمهم الطعام والشراب، والتفنن والتلذذ بأصناف المأكولات، واطمأنت نفوسهم بهذا^(١).

✽ قال الإمام النووى رحمه الله:

الْمُرَادُ بِالسَّمَنِ هُنَا كَثْرَةُ اللَّحْمِ ... ومعناه أنه يكثر ذلك فيهم وليس معناه أن يَتَمَحَّضُوا سِمَانًا ... قَالُوا وَالْمَذْمُومُ مِنْهُ مَنْ يَسْتَكْسِبُهُ وَأَمَّا مَنْ هُوَ فِيهِ خِلْقَةٌ فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا ... وَالْمُتَكَسِّبُ لَهُ هُوَ الْمُتَوَسِّعُ فِي الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ زَائِدًا عَلَى الْمُعْتَادِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسَّمَنِ هُنَا أَنَّهُمْ يَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ وَيَدْعُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَفِ وَغَيْرِهِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ جَمْعُهُمُ الْأَمْوَالُ^(٢).

ومن المعلوم أن أهل العلم من العلماء والدعاة وطلبة العلم يليق أن يكون أحدهم قليل اللحم؛ لكثرة الصيام، والقيام، وكثرة الهم، والخوف من الله؛ لما عندهم من العلم الذي يحملهم على هذا ... فالمسلم إذا اهتم لآخرته، وتذكر ما أمامه، وعرف أنه لا يدري ما الله صانع فيه، أوجب له الهم والغم، فأوجب ذلك نحافة الجسم ... وفي هذه الأحاديث دلائل للنبوة ومعجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فإن كل الأمور التي أخبر بها وقعت كما أخبر.

(١) من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ٢١٤-٢١٩) بتصرف كبير.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١٣٠).

(٥١٥) وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ: إِنَّكَ إِنْ تَبَذَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»^(١).

﴿مَعْنَاهُ: إِنْ بَذَلْتَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ لِبَقَاءِ ثَوَابِهِ وَإِنْ أُمْسَكْتَهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ .. لِأَنَّهُ إِنْ أُمْسَكَ عَنِ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ وَإِنْ أُمْسَكَ عَنِ الْمَنْدُوبِ فَقَدْ نَقَصَ ثَوَابَهُ وَفَوَّتَ مَصْلَحَةَ نَفْسِهِ فِي آخِرَتِهِ.. وَهَذَا كُلُّهُ شَرٌّ وَمَعْنَى (لَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ) أَنَّ قَدَرَ الْحَاجَةِ لَا لَوْمَ عَلَى صَاحِبِهِ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَتَوَجَّهْ فِي الْكَفَافِ حَقُّ شَرْعِيٍّ كَمَنْ كَانَ لَهُ نِصَابٌ زَكَوِيٌّ وَوَجَبَتِ الزَّكَاةُ بِشُرُوطِهَا وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى ذَلِكَ النِّصَابِ لِكِفَافِهِ وَجَبَ عَلَيْهِ إِخْرَاجُ الزَّكَاةِ وَيَحْصُلُ كِفَايَتُهُ مِنْ جِهَةٍ مُبَاحَةٍ.

وَمَعْنَى: «ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»: أَنَّ الْعِيَالَ وَالْقَرَابَةَ أَحَقُّ مِنَ الْأَجَانِبِ»^(٢).

بَابُ مَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَفْعَلَ

(٥١٦) وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحِصَنِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَطْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا»^(٣).

﴿قَوْلُهُ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ» أَيُّ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «آمِنًا» أَيُّ غَيْرَ خَائِفٍ مِنْ عَدُوٍّ «فِي سِرِّهِ» الْمَشْهُورُ كَسَرُ السَّيْنِ أَيُّ فِي نَفْسِهِ وَقِيلَ السَّرْبُ الْجَمَاعَةُ فَالْمَعْنَى فِي أَهْلِهِ وَعِيَالِهِ وَقِيلَ بَفَتْحِ السَّيْنِ أَيُّ فِي مَسْلُكِهِ وَطَرِيقِهِ، «مُعَافَى» أَيُّ صَاحِبِهَا سَالِمًا مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْقَامِ «فِي جَسَدِهِ» أَيُّ فِي بَدَنِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا «عِنْدَهُ قُوْتُ يَوْمِهِ» أَيُّ كِفَايَةُ قُوَّتِهِ مِنْ وَجْهِ الْحَالِلِ «فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ» أَيُّ جُمِعَتْ لَهُ «الدُّنْيَا»

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٦) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧٨/٧).

(٣) حسن: رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٤٢).

«سِرِّهِ» أَيُّ: نَفْسِهِ، وَقِيلَ: قَوْمِهِ.

بِحَذَافِيرِهَا ... وَالْمَعْنَى فَكَأَنَّمَا أُعْطِيَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا ^(١).

❁ فمن أصبح آمناً في بيته وخارج بيته ليس عنده أسقامٌ ولا أمراض وعنده قوت يومه من الحلال فكأنما جُمعت له الدنيا بحذافيرها..

وكثيرٌ من الناس عنده من النعم ما يزيد على هذا الوصف بكثير ولكن كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾.

❁ إن مما يُسَخِّطُ الناس على أنفسهم وعلى حياتهم، ويحرمهم لذة الرضا، أنهم قليلو الإحساس بما يتمتعون به من نِعَمٍ غامرة، ربما فقدت قيمتها بإلفها، أو بسهولة الحصول عليها، وهم يقولون دائماً: ينقصنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا، ولا يقولون: عندنا كذا وكذا.

ولكن المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضلٍ عظيم، وإحسانٍ عظيم، ونِعَمٍ تُحِيطُ به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبيّاً.

بل منذ كان في بطن أمه جنيناً، كان صبيّاً وليداً لا سنَّ له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين في صدر أمه يجريان لبناً خالصاً، كامل الغذاء، دافئاً في الشتاء، باردًا في الصيف، وألقى الله محبته في قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش؛ حتى يكفياه ما أهّمّه ويدفعا عنه كُلَّ سوء.

وكان في بطن أمه جنيناً، فجعل له قراراً مكيناً، هياً له فيه أسباب الغذاء والدفع والتنفس، وجعل له متكئاً عن يمينه، ومتكئاً عن شماله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۚ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾

[المرسلات: ٢٠-٢٣]

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢١٧).

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيء حوله، ويرى في كل ذرة في الأرض أو في السماء منحة من الله له، تُيسر له معيشته، وتُعينه على القيام برسالاته في الحياة. إنه يرى نعمة الله في هبة الريح، وسير السحاب، وتفجر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥١٧) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافاً، وفنعه الله بما آتاه»^(٢).

(٥١٨) وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ فَصَّالَةَ بْنِ عُبَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «طوبى لمن هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به»^(٣).

✽ يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن من أسلم واصطفاه الله ﷻ ليكون من أهل الإسلام والتوحيد والإيمان.. وكان رزقه كفافاً بقدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان.. ورزقه الله نعمة القناعة فكان قانعاً راضياً بما قسمه الله تعالى له فقد تحقق فلاحه وفاز بخير الدنيا والآخرة.

قال القرطبي: معنى الحديث أن من حصل له ذلك فقد حصل على مطلوبه وظفر بمرغوبه في الدارين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥١٩) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يحذون عشاءً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير^(٤).

✽ ففي هذا الحديث يخبر ابن عباس رضي الله عنه خبر الأمة وترجمان القرآن

(١) الإيمان والحياة (ص: ١٣٠، ١٣١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣١).

(٤) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٩٥).

الذى دعا له النبى ﷺ وقال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» .. يخبر ابن عباس أن النبى ﷺ كان يبيت الليالى المتتابعة جائعاً هو وأهل بيته لا يجدون طعاماً للعشاء... ولم يحدث هذا فى ليلة أو ليلتين.. بل كان يحدث فى ليالى كثيرة متتابعة.. وكان أكثر خُبزهم خُبز الشعير فكانوا يأكلونه من غير نخيل.. ومع ذلك فقد كان النبى ﷺ راضياً عن الله وعن قضائه سبحانه وتعالى... لم يزد ذلك إلا حُباً لله وطاعة له ونُصرة لدينه.. هكذا كان حال النبى ﷺ... فىا ليتنا نشكر الله فى السراء ونصبر فى الضراء لتتأسى بسيد الأتقياء ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٠) وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ يَخْرِجُ رِجَالًا مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الْخِصَاصَةِ وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ حَتَّى يَقُولَ الْأَعْرَابُ: هَؤُلَاءِ مَجَانِينُ، فَإِذَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «لَوْ تَعَلَّمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً»^(١).

✽ فى هذا الحديث يُخبر فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ كان إذا صلى بالناس الصلوات الخمس.. يسقط رجالاً على الأرض من شدة الجوع والضعف.. فلم تستطع أرجلهم أن تحملهم من شدة الضعف الذى حلَّ بجسدهم بسبب الفقر والجوع.. وهم أصحاب الصُّفَّة الذين هم أضياف الإسلام.. وكانوا سبعين رجلاً.. يقلون أحياناً ويكثرون أحياناً وكانوا يسكنون صُفَّة المسجد لأنهم لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد.

وكان الصحابة يتصدقون عليهم ويرسلون إليهم الطعام والشراب والملابس وما يحتاجون إليه.

(١) صحيح: رواه الترمذى، وأحمد، وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٢٦٥).
«الْخِصَاصَةُ»: الْفَاقَةُ وَالْجُوعُ الشَّدِيدُ.

فكانوا إذا سقطوا في الصلاة من شدة الفقر والجوع يقول الأعراب: هؤلاء مجانين .. وذلك لأنهم توهّموا أن ذلك السقوط على الأرض صادرٌ عن اختيارهم لا عن سببٍ يقتضيه.

(فإذا صلى رسول الله ﷺ) أى الصلاة بإتمامها بسلامه منها وانصرف عنها (انصرف إليهم) أى متوجهاً إليهم (فقال) عقب وصوله إليهم «لو تعلمون ما لكم عند الله» أى ما أعدّه لكم مما لم تسمعه أذن ولم يره بصر. وفيه شهادة لهم بمكانتهم عند المولى سبحانه لصدق إيمانهم، وحسن مجاهدتهم وكمال وجهتهم^(١).

«لأحببتم أن تزادوا فاقة وحاجة» أى: لو تعلمون ما خبّأه الله لكم في الجنة لأحببتم أن تزادوا فقراً واحتياجاً.

فالفقير سينسى كل شقاء وبلاءٍ مع أول غمسة في الجنة.. وسيدخل الجنة قبل الأغنياء بخمسائة عام وسيجبر الله كسره في الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢١) وَعَنْ أَبِي كَرِيمَةَ الْمُقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقْمَنَ صَلْبُهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثَلْثُ لَطْعَامِهِ، وَثَلْثُ لَشْرَابِهِ، وَثَلْثُ لِنَفْسِهِ»^(٢).

❁ قوله ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ» الأوعية كثيرة، وهى جمع وعاء، وهو الإناء يُحفظ فيه الماء، أو الطعام... والإنسان يملأ الأوعية طوال حياته لحاجته إليها، ولكنه ما ملأ وعاءً شراً من بطنه... إذا ملأه بالطعام أو

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٢١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٧٤). «أَكْلَاتُ» أى: نُقْمٌ.

الشراب لما يعود عليه ذلك من الضرر القاتل: قال هذا رسول الله ﷺ مُحذِّراً من الشَّبَعِ المؤدِّي إلى التَّخمة المهلكة.

«بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ» أى يكفيه فى درء غائلة الموت من الجوع.

«لُقيَمَات» جمع لقمة، وهى ما يتناوله العبد من طعام ويضعه فى فمه... والتصغير فى لُقيَمَات للتقليل.... وقوله: «يُقَمِّنَ صُلْبَهُ» أى يَشُدُّدَن ظَهْرَهُ حتى يقدر على القيام والقعود، أى يحفظن حياته.

«فإن كان لا محالة» أى: إن غلبته نفسه على أن يأكل أكثر مما يُقيم به صُلْبُهُ فليجعل ثُلث بطنه للطعام، وثُلثه الثانى للشراب أى الماء أو اللبن، ويترك الثلث الباقى للنَفْس، وبذلك يحفظ حياته حتى يعبد ربَّه إذ أعطى الحياة وأسبابها من أجل العبادة... قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال الطيبى رَحِمَهُ اللهُ: أى: الحق الواجب أن لا يتجاوز عما يُقام به صُلْبُهُ ليتقوَّى به على طاعة الله... فإن أراد ألبتة التجاوز فلا يتجاوز عن القسم المذكور^(١).

فالأكل فى مقام العدل يصح البدن وينفى المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع يده وهو يشتهيه، والدوام على التقلُّل من الطعام يُضعف القوى... وقد قلَّل أقوام مطاعمهم حتى قصَّروا عن الفرائض، وظنوا بجهلهم أن ذلك فضيلة، وليس كذلك... ومَن مدح الجوع، فإنما أشار إلى الحالة المتوسطة التى ذكرناها.

وطريق الرياضة فى كسر شهوة البطن أن مَن تعود استدامة الشبع، فينبغى له أن يقلل من مطعمه يسيراً مع الزمان، إلى أن يقف على حد التوسط الذى أشرنا إليه... وخير الأمور أوسطها، فالأولى تناول ما لا يمنع من العبادات، ويكون سبباً لبقاء القوة، فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحيثُذ يصح البدن،

(١) تحفة الأحوذى (٦/٢٤٨).

وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر... ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الدهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر، وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أخر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٢) وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ إِيَّاسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الْأَنْصَارِيِّ الْحَارِثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : ذَكَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ الْبِدَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ، إِنَّ الْبِدَاذَةَ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢) يَعْنِي: التَّقَحُّلُ.

✽ هنا يحكى أبو أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا جالسين مع النبي ﷺ كعادتهم ليُعلمهم ويربيهم فذكروا الدنيا وزينتها الفانية أمام النبي ﷺ.. فأراد النبي ﷺ أن يُخرج حُب الدنيا من قلوبهم لكي تتعلق قلوبهم بالله والدار الآخرة ليعملوا ويستعدوا للقاء الله وليفوزوا بجنة الرحمن (جل وعلا).. فقال لهم ﷺ: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ؟».

بدأ النبي ﷺ كلامه بـ «ألا» وهى أداة عرض للتحريض على الاستماع لما بعدها والإصغاء إليه.

ثم كرر كلمة «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ أَلَا تَسْمَعُونَ؟» للتأكيد والتصريح بالإصغاء والاستماع سماع فهم وانتفاع مع أنه ﷺ عالم بأنهم يستمعون لما يقوله ويبادرون إلى أمثاله، لكن يكون أبلغ في الموعظة والإتيان بلفظ (إن) للتأكيد وهى عوض إعادة الكلام مرتين.

«البداذة من» كمال «الإيمان» الراسخ في القلب ... قال زيد بن وهب: رأيت

(١) مختصر منهاج القاصدين / ابن قدامة المقدسى (ص ٢٠٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٧٩).
«الْبِدَاذَةُ»: وَهِيَ رِثَاةُ الْهَيْئَةِ، وَتَرَكُ فَآخِرُ اللَّبَاسِ، وَأَمَّا «التَّقَحُّلُ» قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْمُتَقَحِّلُ: هُوَ الرَّجُلُ الْيَابِسُ الْجِلْدُ مِنْ خُسْثَوَةِ الْعَيْشِ، وَتَرَكُ التَّرَفُّهُ.

عمر بن الخطاب خرج إلى السوق ويده الدرّة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم: أى جلد ... وعُوتب على ﷺ في إزارٍ مرقوع فقال: يقتدى به المؤمن ويخشع له القلب ... قال عيسى عليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب.

وإنما كانت البذاذة من الإيمان لما تؤدي إليه من كسر النفس والتواضع، ولكن ليس ذلك عند كل أحد بل يورث عند بعض الناس من الكبرياء ما يورثه لبس نفيس الثياب عند آخرين، وبالجملّة فالمحجوب التوسّط في الثياب^(١). فلا يلبس الإنسان الثياب الباهظة التي تجلب له الكبر ولا يلبس الثياب المرقعة التي تجعل الناس يسخرون منه ويأنفون منه ... فخير الأمور الوسط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٣) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ ﷺ، نَتَلَقَى عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمَرٍ لَمْ يَحْدِ لَنَا غَيْرُهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، فَقِيلَ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ، فَتَكْفِينَا يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعَصِينَا الْخَبَطَ، ثُمَّ نَبْلُهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ.

قال: وَاَنْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرَفَعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكُثْبِ الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى الْعَنْبَرُ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ، ثُمَّ قَالَ: لَا، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَدْ اضْطُرَّرْتُمْ فَكُلُوا، فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا، وَنَحْنُ ثَلَاثُمِائَةٍ، حَتَّى سَمِنَّا، وَلَقَدْ رَأَيْنَا نَعْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ عَيْنِهِ بِالْقِلَالِ الدُّهْنِ وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ كَالثَّوْرِ أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ.

فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا وَتَزَوَدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقٍ،

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٢٣).

فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «هُوَ رِزْقُ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٍ فَتُطْعِمُونَا؟» فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ^(١).

✽ أخبرنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أرسل جماعة من أصحابه بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح، يلتقون عيراً لقريش، وكان عدد الجيش الذي خرج لملاقاة العير ثلاثمائة راكب^(٢).

وزوّد الرسول ﷺ ذلك الجيش بجرابٍ من تمر... وماذا يفعل الجراب مع ذلك العدد الكبير، ولكن هذا هو الطعام الذي كان موجوداً عند الرسول ﷺ، ليس عنده غيره.

لقد فنى التمر الذي زوّدهم به الرسول ﷺ قبل أن يصل الجيش إلى مقصده الذي يريده.. هنا تصرّف أمير الجيش بما تقتضيه المصلحة، فقد أمر جنوده أن يجمعوا ما بأيديهم من خاص تمرهم، فجمعوه فكان يقوتهم من ذلك التمر قليلاً قليلاً حتى فنى، فلما قلّ الزاد أخذ الأمير يعطى كل واحدٍ من جنده ثمرة واحدة في اليوم^(٣) وعندما عجب راوى الحديث عن جابر وقال له: «ما تُغنى عنكم ثمرة؟» قال له جابر: «لقد وجدنا فقدها حين فنى»^(٤).

وهذا يفيدنا أنهم مع تقثيرهم الشديد على أنفسهم بالاعتصار على ثمرة فإن تمرهم قد فنى، ولم يبقَ منه شيء، فأسفوا على تلك الثمرة التي كانت تُقّيتهم في الأيام السابقة... وكان الواحد منهم - حتى يحصل من الثمرة على أوفر غداء -

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٣) كتاب الشركة - ومسلم (١٩٣٥) كتاب الصيد والذبائح.
«الْجَرَابُ»: وعاء من جلد معروف - «وَالْخَبْطُ» وَرَقٌ شَجَرٌ مَعْرُوفٌ تَأْكُلُهُ الْإِبِلُ. «وَالْكَيْبُ» التَّلُّ مِنَ الرَّمْلِ، «وَالْوَقْبُ»: وَهُوَ نَقْرَةُ الْعَيْنِ. «وَالْقِلَالُ»: الْجَرَارُ. «وَالْفِدْرُ» الْقُطْعُ. «رَحَلَ الْبَعِيرِ» أَيْ جَعَلَ عَلَيْهِ الرَّحْلَ. وَ «الْوَشَاقُ» اللَّحْمُ الَّذِي اقْتُطِعَ لِيُقَدَّدَ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) دليل الفالحين (٢/٤٢٣).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٤٨٣) كتاب الشركة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٤٣٦٠) كتاب المغازى.

لا يأكلها أكلاً، ولا يعضها مضغاً، بل يضعها في فمه، ثم يمصها كما يمص الصبي، ثم يشرب عليها من الماء... قال جابر: «فتكفينا يومنا إلى الليل». وبلغ بهم الجوع أن يخبطوا بعصيتهم أوراق شجر السَّلم، ثم يجمعونه، ويبلونه بالماء، ثم يأكلونه، ولا يكادون يسيغون أكله، فلم يُجعل هذا الورق طُعمة للآدمي .. ولكنه الجوع.

وقد كان في الجيش قيس بن سعد الأنصاري .. وكان والده ميسور الحال، فلما رأى ما حلَّ بالجيش من المخمصة، بادر فذبح لهم وأطعمهم، ففي رواية سفيان قال: سمع عمرو جابراً يقول: إن رجلاً نحر ثلاث جزائر -ثلاثاً من الإبل- ثم ثلاثاً، ثم ثلاثاً، ثم نهاه أبو عبيدة^(١).

فقيس بن سعد بادر ثلاث مرات بالذبح للجيش، وفي كل مرة يذبح ثلاث جزائر -ثلاثاً من الإبل- وكان يستطيع أن يخص نفسه بالطعام الفاخر الوافر، ولكنه ساوى نفسه بإخوانه، فجاع كما جاعوا، وأصابه ما أصابهم، فلما رأى مقدار الجوع الذي أصابهم بادر وأطعم الجيش كله ... يفعل ذلك مراراً، ثم نهاه أمير الجيش خشية أن يشق على أبيه في ماله.

وصل الجيش إلى الموقع الذي يقصده على ساحل البحر في مكانٍ يُقال له أرض جهينة، وقد هزلت أجسادهم وأثر الجوع على قواهم وأبصارهم وأسماعهم، ثم جاءهم الفرج من عند ربِّ العباد كثيراً وافراً.

لقد ألقى البحر لهم حوتاً عظيماً كأنه لعِظْم الكثيب من الرمل، فأكلوا من لحمه، وادَّهَنوا من شحمه، حتى استردُّوا عافيتهم، وظهر فيهم السَّمَن، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

وقد وصف لنا الصحابة عِظَم الحوت الذي وجدوه بطريقة لا يزال كل مَن

(١) البخارى (٤٣٦١) ومسلم (١٩٣٥) - الجزائر: جمع جزور وهو الجمل.... أو الإبل.



يقرأ القصة يدرك مدى عظمه ... فمن ذلك.

(١) أنهم أكلوا منه جميعاً أكل سبع، وكان تعدادهم ثلاثمائة مقاتل، طيلة مقامهم في الموقع الذي نزلوا فيه ... وأقل ما ورد أنهم أقاموا هناك نصف شهر^(١)، وأكثر ما ورد فيه أنه شهر^(٢).

وفي البخارى أنهم مكثوا مقيمين عليه ثمانى عشرة ليلة^(٣).

وحملوا من لحمه ما كفاهم في سفر العودة، وفضل منه ما وصل معهم المدينة، وأكل منه رسول الله ﷺ.

(٢) كانوا يغترفون من جحر عينه الدهن بالقلال، ويقتطعون القطعة من لحمه بمقدار الثور.

(٣) أجلس أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً في جحرٍ واحدٍ من جحور عينيه، فوسعهم.

(٤) نصب الصحابة بأمر من أمير الجيش ضلعين متعامدين من أضلاع ذلك الحوت، ثم جىء بأعظم ناقة في الركب، فوضع عليها رحلها، ثم ركبها أطول رجل في الجيش، فمر تحت الضلعين منتصباً، من غير أن يمس شيئاً من الضلعين^(٤).

لقد وصلوا إلى المكان الذي كانوا يقصدونه جوعى مخمسين، وغادروه وهم شُبعى، وصنعوا من لحمه وشائق، كانت لهم في عودتهم زاداً، وفضل منه معهم ما أهدوه إلى أهاليهم، وأتوا الرسول ﷺ فذكروا له ذلك، فقال مُقرّاً إياهم على ما فعلوه «هو رزقٌ أخرجهُ الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٣٦١) كتاب المغازى.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٣٥) كتاب الصيد والذبائح.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٣٦٠) كتاب المغازى.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩٣٥) كتاب الصيد والذبائح.

✽ عِبْرُ الْحَدِيثِ وَفَوَائِدِهِ وَأَحْكَامِهِ :

(١) لا بد لكل جيش من أمير يقوده... كما فعل الرسول ﷺ بتأمر أبي عبيدة على جيش الخبط... وكان هذا هديّه في كل الجيوش التي يبعثها، فإذا خرج بنفسه فهو الأمير والقائد.

(٢) العلم بالمعاناة الشديدة التي كانوا يتحملونها، وهم يقومون بالمهمات العظام في نصرة هذا الدين.

(٣) كان الصحابة يفعلون أحسن ما يستطيعون في المهمات التي يقومون بها من تجهيز الطعام، وإعداد السلاح، ونحو ذلك، ويتوكلون على ربهم فيما لا يستطيعونه.

(٤) كان الصحابة مثلاً يُحتذى في الانضباط والجنديّة... لم يعترضوا على الرسول ﷺ عندما أمرهم بالخروج لتلقّي العير، مع أنهم لا يجدون القوات لسفرهم، ولم يعترضوا على أميرهم عندما أمرهم بجمع ما بحوزة كلّ منهم من التمر، وقسمته عليهم بعد ذلك بالسوية.

(٥) صبر الصحابة على شظف العيش... فاكتفى الواحد منهم بالتمرة في اليوم بطوله، وأكلوا من أوراق الشجر ما لا يُستساغ أكله، وتفاقم الأمر عندما نفذ التمر كله، فلم يبقَ منه شيء.

(٦) إكرام الله صحابة رسوله ﷺ بأن أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذي كفاهم في مقامهم، وتزوّدوا منه في العودة إلى ديارهم، وأهدوا منه لأهاليهم وإخوانهم بعد عودتهم.

(٧) جواز اشتراك الرفقة فيما معهم من الطعام، كما فعل أبو عبيدة حين جمع من الصحابة أقواتهم، ثم وزّعها عليهم بالسوية... وقد حدّثنا كتب السّنة أن هذا كان هدى الأشعرين، قوم أبي موسى الأشعري وهم من أهل اليمن. ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «إن الأشعرين إذا أرمّلوا في الغزو أو قلّ

طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوبٍ واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناءٍ واحدٍ بالسوية ... فهم منى وأنا منهم»^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٤) وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ كُمٌ قَمِيصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الرُّسْغِ^(٣).

❁ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٥) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّا كُنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ، فَعَرَضْتُ كُدِيَّةً شَدِيدَةً فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدِيَّةٌ عَرَضْتُ فِي الْخَنْدَقِ. فَقَالَ: «أَنَا نَازِلٌ» ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ، فَضْرَبَ فَعَادَ كَثِيرًا أَهْيَلًا، أَوْ أَهْيَمَ.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ، فَقُلْتُ لَأَمْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا فِي ذَلِكَ صَبْرٌ فَعِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبَحْتُ الْعَنَاقَ، وَطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الْأَثَافِي قَدْ كَادَتْ تَنْضُجُ.

فَقُلْتُ: طَعِيمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ، قُلْ لَهَا لَا تَنْزِعِ الْبُرْمَةَ، وَلَا الْخُبْزَ مِنَ التَّنُورِ حَتَّى آتَى» فَقَالَ: «قُومُوا» فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا فَقُلْتُ: وَيْحَكَ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُهَاجِرُونَ، وَالْأَنْصَارُ وَمَنْ مَعَهُمْ، قَالَتْ: هَلْ سَأَلْتُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ:

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٤٨٦) كتاب الشراكة.

(٢) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر (٣٨١-٣٨٥) بتصرف.

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٧٩).

«الرُّسْغُ» بالصاد والرُّسْغُ بالسین أيضًا: هُوَ الْمِفْصَلُ بَيْنَ الْكَفِّ وَالسَّاعِدِ.

«ادخلوا وَلَا تَصَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ، وَيَحْمَرُّ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ، وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ وَيَعْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِيَ مِنْهُ، فَقَالَ: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»^(١).

وفي رواية: قال جابر: لَمَّا حَفَرَ الْخَنْدَقَ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا، فَاَنْكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ، فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا.

فَأَخْرَجْتُ إِلَى جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ، دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ فَفَرَّغْتُ إِلَى فَرَاغِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: لَا تَفْضَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُه فَسَارَرْتُه فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا، وَطَحَنْتُ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَقَرْ مَعَكَ، فَصَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ: إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا فَحَيِّهَا بِكُمْ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُنْزِلَنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلَا تَخْبِزَنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ».

فَجِئْتُ، وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ. فَأَخْرَجْتُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعِي خَازِنَةَ فَلْتَخْبِزْ مَعَكَ، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوها» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أَكُلُوا حَتَّى تَرْكُوهُ وَانْحَرِفُوا، وَإِنْ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنْ عَجِينَنَا لَيُخْبِزَ كَمَا هُوَ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤١٠٢) كتاب المغازي، ومسلم (٢٠٣٩) كتاب الأشربة.

قَوْلُهُ: «عَرَضَتْ كُدَيْةٌ»: وَهِيَ قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ صُلْبَةٌ مِنَ الْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهَا الْفَأْسُ. «وَالْكَيْبُ» أَصْلُهُ تَلُّ الرَّمْلِ، وَالْمُرَادُ هُنَا: صَارَتْ ثَرَابًا نَاعِمًا، وَهُوَ مَعْنَى «أَهْيَلٌ». وَ«الْأَنَاقُ»: الْأَحْجَارُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْقِدْرُ. وَ«تَصَاغَطُوا»: تَزَاخَمُوا. وَ«الْمَجَاعَةُ»: الْجُوعُ. وَ«الْخَمَصُ»: الْجُوعُ. وَ«اَنْكَفَأْتُ»: اِنْقَلَبْتُ وَرَجَعْتُ. وَ«الْبُهَيْمَةُ» تَصْغِيرُ بُهْمَةٍ، وَهِيَ الْعَنَاقُ وَ«الدَّاجِنُ»: هِيَ الَّتِي أَلْفَتِ الْبَيْتَ. وَ«السُّورُ»: الطَّعَامُ الَّذِي يُدْعَى النَّاسُ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالْفَارِسِيَّةِ، وَ«حَيِّهَا» أَيْ: تَعَالَوْا. وَقَوْلُهَا «بِكَ وَبِكَ» أَيْ: خَاصَمْتُهُ وَسَبَّيْتُهَا، لِأَنَّهَا اعْتَقَدَتْ أَنَّ الَّذِي عِنْدَهَا لَا يَكْفِيهِمْ، فَاسْتَحْيَتْ وَخَفَى عَلَيْهَا مَا أَكْرَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ مِنْ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْآيَةِ الْبَاهِرَةِ. «بَسَقٌ» أَيْ: بَصَقَ، وَيُقَالُ أَيْضًا: بَزَقَ ثَلَاثَ لُغَاتٍ. وَ«عَمَدَ»: قَصَدَ. وَ«اَقْدَحِي» أَيْ: اغْرِقِي، وَالْمَقْدَحَةُ: الْمِغْرَفَةُ: وَ«تَغِطُّ» أَيْ: لِيُغْلِيَا بِهَا صَوْتُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

✽ يحدثنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن بعض الوقائع التي جرت أيام حفر الخندق، فقد كان المسلمون يعملون في حفر الخندق، وكان رسول الله ﷺ يشاركهم عملهم، فعرضت لبعض أصحابه صخرة شديدة الصلابة، تكسرت فيها معاولهم، ولم يستطيعوا إزاحتها عن طريقهم.

فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوه من تلك الصخرة، فقام صلوات الله وسلامه عليه - مع ما به من شدة الجوع - إلى تلك الصخرة، وأخذ المعول، وضربها ثلاث ضربات، فعادت كثيباً مهياً.

وهذه هي الصخرة التي ورد في بعض الأحاديث أنه كان يكسر مع كل ضربة منها ثلثها، وكانت تبرق مع كل ضربة برقة، ورأى في ضوء البرقة الأولى قصور الشام، ورأى في ضوء البرقة الثانية قصور كسرى في المدائن، ورأى في الثالثة أبواب مدينة صنعاء وقصورها... وكان الرسول ﷺ يكبر مع كل برقة... وأخبر أصحابه أن جبريل أخبره أن ملك أمته سيبلغ ما رآه في ضوء تلك البرقات الثلاث.

قال ابن حجر: وقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب، قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة، لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكيها ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول. فقال: «باسم الله»، فضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إنني لأبصر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنني لأبصر قصر المدائن أبيض»، ثم ضرب الثالثة وقال: «باسم الله»؛ فقطع بقية الحجر فقال: «الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة».

وقد استأذن جابر الرسول ﷺ في الرجوع إلى منزله، فأذن له، فقد آلمه ما رآه برسول الله ﷺ من الجوع الشديد، فأخبر زوجته بما رآه بالرسول ﷺ من

الجوع، وسألها عما عندها مما يصلح طعاماً لرسول الله ﷺ، فوجد عندها صاعاً من شعير، وشاة صغيرة، فأمر زوجته أن تطحن ذلك الشعير، وقام إلى الشاة فذبحها وقطعها، ووضعها في قدر وأوقد النار تحته، وأمر زوجته أن تعجن ذلك الطحين الذي استفادته من الشعير الذي طحنته.

وقبل أن ينطلق إلى رسول الله ﷺ: أوصته زوجته أن لا يدعو صحبة رسول الله ﷺ إلا عددًا قليلاً خشية افتضاها وزوجها بسبب قلة الطعام، ومما قالته له: لا تفضحنى برسول ﷺ ومن معه.

جاء جابر إلى رسول الله ﷺ وحوله أصحابه، فدعاه سراً، وأخبره بالحال، وأن عنده طعاماً يكفيه ويكفى رجلاً واحداً أو رجلين من أصحابه، وأخبره بمقدار ذلك الطعام وقلته عندما سأله عن مقداره، واستعان جابر على تقرير قلة الطعام بتصغيره بقوله: طعيم لنا فالتصغير هنا للتقليل.

ولكن الطعام القليل في نظر جابر عند الرسول ﷺ كثير، فقال لما أخبره جابر بقلته «كثير طيب» وطلب من جابر أن يأمر زوجته بأن لا تُفرغ القدر من اللحم، ولا تخبز الخبز حتى يأتي.

وصاح الرسول ﷺ بأهل الخندق، وعددهم في ذلك اليوم لا يقل عن ألف رجل بل يزيدون، مُخبراً إياهم بأن جابراً صنع لهم وليمة، ودعاهم إلى التوجه إلى منزل جابر... فقام الرجال من المهاجرين والأنصار، وانطلق جابر إلى زوجته يخبرها الخبر، لقد جاء الرسول ﷺ ومعه أهل الخندق كلهم، وكانوا جوعى لم يتناولوا طعاماً من ثلاثة أيام.

لقد ظن جابر وزوجه أنهم وقعوا في ورطة، فالطعام الذي عندهم قليل لا يكاد يكفي الثلاثة أو الأربعة... يقول جابر مبيّناً ما حدث به نفسه وهو عائد إلى منزله بين يدي ضيوفه: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقلت: جاء الخلق على صاعٍ من شعير وعناق!! -شاة صغيرة-.

وعندما أخبر زوجته بمجيء رسول الله ﷺ مع أصحابه من أهل الخندق ثارت عليه، ولأمته لو ما شديداً على ما كان منه ... ذلك أنها أوصته فلم يرع وصيتها كما ظنت.

فلما أخبرها بما كان منه، وأنه أسرَّ إلى رسول الله ﷺ بالدعوة وأعلمه بقلّة الطعام، وأخبرها بما قاله الرسول ﷺ من أن الطعام «كثير طيب»، وأنه يأمرها بعدم إفراغ اللحم وخبز الخبز حتى وصوله ... اطمأن قلبها، وعلمت أنه سيكون لطعامها شأن، فقالت لزوجها كما صحَّ في بعض الروايات: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا ... قال: فكشفت عني غمّاً شديداً.

وجاء الرسول ﷺ يقدّم أصحابه، فأخرجت له زوجة جابر العجين، فبصق فيه، ودعا فيه بالبركة، ثم عمد إلى القدر الذي فيه اللحم، ففعل به مثل ما فعل بالعجين، ثم أمرها أن تدعو امرأة تُعينها، فتخبز معها، فكانتا تخبزان من ذلك العجين، والرسول ﷺ يكسر من ذلك الخبز، ويصُب عليه اللحم والمرق.... وأمر أصحابه أن يدخلوا من غير ازدحام، فكان يُقرب لكل فوج منهم الطعام فيأكلون حتى يشبعوا، حتى أكلوا جميعاً، ولا يزال العجين على حاله، واللحم على حاله، فأمر الرسول ﷺ جابراً وزوجته وأولاده أن يأكلوا ما فضل من الطعام، ويهدوا إلى جيرانهم، فالناس قد أصابتهم مجاعة.

✽ عبر الحديث وفوائده وأحكامه :

(١) دلَّ الحديث على القوة الجسدية التي كان يتمتع بها الرسول ﷺ، فقد ضرب الصخرة التي أعيت أصحابه، ومع الجوع الشديد فإن ضرباته الثلاث كانت كافية لتفتيتها وإزالتها.

(٢) هدى الرسول ﷺ في مشاركة أصحابه ما ينوبهم من أعمالٍ ومهماتٍ ... وهكذا هي القيادات التي تملك النفوس والقلوب، وتحمل الأعباء، وتكون في المقدمة دائماً.

(٣) لم يكن الرسول ﷺ وصحبه وافرى المال فقد بقى الرسول ﷺ وصحبه ثلاثة أيام يعملون في الخندق عملاً شاقاً مُضنياً، لا يذوقون فيها طعاماً، ومع ذلك كله بذلوا ما عندهم وما في قدرتهم، فمكّن الله لهم في الأرض، وأقاموا دولة راسخة البنيان، لا يزال أثرها باقياً على مرّ الزمان.

(٤) على المسلمين في كل عصر أن يعملوا لإقامة دين الله في الأرض، بما لديهم من إمكانيات، والقليل إلى القليل يبارك الله فيه، ويجعل فيه خيراً كثيراً والله هو الغنى المالك للسموات والأرض.

(٥) النظام سمة المسلمين في أعمالهم، وخاصة الجامع منها ... فقد قسّم الرسول ﷺ العمل على أصحابه في الخندق، لكل عشرة مسافة معينة، وكان الواحد إذا أراد أن يترك العمل لسبب ما فإنه يستأذن الرسول ﷺ، كما فعل جابر عندما أراد العودة إلى منزله ... وأمر الرسول ﷺ أصحابه أن يدخلوا إلى الطعام مُنظّمين عشرة عشرة، ونهاهم عن التراحم وأن يضغط بعضهم بعضاً.

(٦) محبة الصحابة للرسول ﷺ، واهتمامهم بأمره ... فمع قلة ما في يد جابر وزوجه، فإنهما بذلا كل ما عندهما في منزلهما لإعداد طعام للرسول ﷺ وبعض أصحابه.

(٧) يجوز للرجل أن يُناجى غيره سراً إذا كان في مَجْمع من الناس، كما ناجى جابر الرسول ﷺ سراً حين دعاه إلى وليمته ... والمنهى عنه أن يتناجى اثنان دون الثالث، إذا كانوا ثلاثة من أجل أن ذلك يُحزنه.

(٨) كان من هدى الصحابة أن يعمل الرجال والنساء في منازلهم.

فجابر ذبح العناق، وسلخها وقطّعها وغسلها، ووضعها في القدر، وأشعل النار تحتها، وزوجته طحنت الشعير، وعجنته، وخبزته، وهذا يدل على خطأ مَنْ زعم من أهل العلم أن الزوجة لا يجب عليها أن تعمل في منزل زوجها، والزوج وحده المكلف بأعمال المنزل.

(٩) قد يقع لوم وتقريع من الزوجة لزوجها فزوجة جابر ثارت عليه وقرعته، عندما جاء ووراءه الرسول ﷺ والصحابة وهم يزيدون على الألف، ولكنها هدأت ورضيت عندما أعلمها أنه عمِل بوصيتها، فقد أخبر الرسول ﷺ بمقدار الطعام وقيلته.

(١٠) كان في وليمة جابر آية من الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ ونبوته ... فقد كثر الله تبارك وتعالى ببركة بصاق الرسول ﷺ ودعوته الطعام الذي لا يكاد يكفي الثلاثة أو الأربعة، فكفى العاملين في الخندق، وعددهم يزيد على ألف ... فكلهم أكل من ذلك الصاع من الشعير، ومن لحم تلك الشاة الصغيرة، حتى شبعوا.

(١١) كان الرسول ﷺ يعلم بأن طعام جابر سيكفي ذلك العدد الكبير، ولذلك دعا أهل الخندق كلهم إلى ذلك الطعام، وأمر جابرًا وزوجته أن لا يُنزِلوا البرمة عن النار، ولا يخبزوا حتى يأتهم، لأنه يعلم أنه سيكون لبصاقه ودعوته أثر في تكثير الطعام.

(١٢) تواضع الرسول ﷺ، فقد كان يعمل مع أصحابه في الخندق، وفي الوليمة كان يكسر الخبز، ويصب اللحم فوقه، ويُقرب الطعام لأصحابه، وبقي يفعل ذلك حتى أكلوا كلهم، وأكل هو في آخرهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٦) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لَأُمِّ سُلَيْمٍ: قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجْتُ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخَذْتُ خِمَارًا لَهَا فَلَقَقْتُ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسْتُهُ تَحْتَ ثَوْبِي وَرَدَدْتَنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلْتَنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه (ص ٧٧-٨٢) بتصرف.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ، وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ؟» فقلت: نَعَمْ، فقال: «أَلَطْعَامُ» فقلت: نَعَمْ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا» فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخْبَرْتُهُ، فقال أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ: قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالنَّاسِ وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نَطْعِمُهُمْ؟ فقالت: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلُمِّي مَا عِنْدَكَ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ» فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَفَتَّ، وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أُمَّ سُلَيْمٍ عُكَّةً فَأَدَمَّتْهُ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنَ لِعَشْرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنَ لِعَشْرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: «ائْذَنَ لِعَشْرَةٍ» فَأَذِنَ لَهُمْ حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ^(١).

وفي رواية: فما زال يَدْخُلُ عَشْرَةً وَيَخْرُجُ عَشْرَةً، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ، فَأَكَلَ حَتَّى شَبِعَ، ثُمَّ هَيَّأَهَا فَإِذَا هِيَ مِثْلُهَا حِينَ أَكَلُوا مِنْهَا.

وفي رواية: فَأَكَلُوا عَشْرَةَ عَشْرَةً، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ بِثَمَانِينَ رَجُلًا ثُمَّ أَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَهْلُ الْبَيْتِ، وَتَرَكُوا سُورًا.

وفي رواية: ثُمَّ أَفْضَلُوا مَا بَلَّغُوا جِيرَانَهُمْ.

وفي روايةٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ، وَقَدْ عَصَبَ بَطْنُهُ بِعَصَابَةٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطْنُهُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ.

فَذَهَبْتُ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ، وَهُوَ زَوْجُ أُمَّ سُلَيْمٍ بِنْتِ مِلْحَانَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَصَبَ بَطْنَهُ بِعَصَابَةٍ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: مِنْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٧٨) كتاب المناقب، (٦٦٨٨) كتاب الإيمان والندور، ومسلم (٢٠٤٠) كتاب الأشربة.

الْجُوعُ. فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى أُمِّي فَقَالَ: هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ عِنْدِي كِسْرٌ مِنْ خُبْزٍ وَتَمْرَاتٍ، فَإِنْ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحْدَهُ أَشْبَعْنَاهُ، وَإِنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قَلَّ عَنْهُمْ.... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

✽ كَانَ أَبُو طَلْحَةَ فَارِسَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثِيقُ الصَّلَةِ بِهِ، يَتَفَقَدُ أَحْوَالَهُ، وَيَنْظُرُ فِيمَا يَنْوِبُهُ، وَيُكْثِرُ مِنْ مُجَالَسَتِهِ... فَمَرَّ يَوْمًا بِالْمَسْجِدِ، فَرَأَى الرَّسُولَ ﷺ جَائِعًا جَوْعًا شَدِيدًا، فَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لَزَوْجِهِ أُمِّ سَلِيمٍ: لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ضَعِيفًا أَعْرَفَ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ: رَأَى أَبُو طَلْحَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي الْمَسْجِدِ، يَتَقَلَّبُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، فَأَتَى أُمَّ سَلِيمٍ، فَقَالَ إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي الْمَسْجِدِ، يَتَقَلَّبُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَأُظْنَهُ جَائِعًا^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ جَاءَ الرَّسُولَ ﷺ يَوْمًا، فَوَجَدَهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يَحْدِثُهُمْ، وَقَدْ عَصَبَ بَطْنُهُ بِعَصَابَةٍ، عَلَى حَجَرٍ، فَقَالَ أَنَسٌ: فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: لِمَ عَصَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَطْنُهُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ، فَذَهَبَ إِلَى أَبِي طَلْحَةَ - وَهُوَ زَوْجُ أُمِّهِ، أُمِّ سَلِيمٍ بِنْتِ مِلْحَانَ - فَقَالَ: يَا أَبَتَاهُ، قَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَصَّبَ بَطْنُهُ بِعَصَابَةٍ، فَسَأَلْتُ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ، فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ عَلَى أُمِّي، فَقَالَ: هَلْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، عِنْدِي كِسْرٌ مِنْ خُبْزٍ وَتَمْرَاتٍ، فَإِنْ جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَحْدَهُ أَشْبَعْنَاهُ، وَإِنْ جَاءَ آخَرُ مَعَهُ قَلَّ عَنْهُمْ^(٢).

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَخْتَلِفُ فِي سِيَاقِهَا عَنِ الْقِصَّةِ الْأُولَى، وَإِنْ اشْتَرَكْنَا فِي أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جَاءَ مَنْزِلَ أَبِي طَلْحَةَ بِجَمْعٍ مِنَ النَّاسِ عَلَى طَعَامٍ قَلِيلٍ، فَبَارَكَ اللَّهُ حَتَّى أَشْبَعَ الْجَمْعَ الْكَثِيرَ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٠) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٠) كتاب الأشربة.

ففى القصة الأولى أن الذى رأى رسول الله ﷺ جائعاً يتقلب ظهرًا لبطن، وسمع صوته ضعيفاً من الجوع هو أبو طلحة، وفيه أن أم سليم أخرجت أقراصاً من الشعير، وأرسلتها مع أنس إلى رسول الله ﷺ، وقد لقت أم سليم بخمارٍ لها الخبز ببعضه، وجعلت ببقية خمارها رداءً لأنس، ودست الخبز تحت ثوبه، فوجد أنس الرسول ﷺ وحوله أصحابه، فلم يدر كيف يتصرف، فقد علم أنس بنبأهته، أنه لا يحسن به أن يدفع ذلك الطعام القليل إلى الرسول ﷺ بمحضر أصحابه، وإن كان الأمر الصادر إليه بدفعها إليه.

وقد تنبه الرسول ﷺ إلى أنس ووقوفه على الحلقة وحيرته، فبادره بسؤال سهل عليه مهمته وأنقذه من حيرته، وكان سؤاله آية تدل على أن الله أعلمه بواقع الحال، أو أنه تفرس فراسة لم تُخطئ.

وعندما صرح له أنس بما أرسل به ... لم يأخذ الأقراص منه، بل دعا من حوله إلى الانطلاق إلى منزل أبى طلحة.

ففى هذه القصة أرسلت أم سليم بأقراص من شعير مع أنس إلى الرسول ﷺ فأحبَّ الرسول ﷺ أن يُكرم أباً طلحة وأم سليم بدعوة أصحابه على هذه الأقراص، فكفتهم ... وفى قصة أنس السابقة أرسل أبو طلحة أنساً إلى الرسول ﷺ يدعوه وحده، ولم ترسل معه أم سليم أقراص شعير، وكان الموجود عندها كسرات من خبز، ولم يقف أنس فيها حائراً حتى فطنَ إليه الرسول ﷺ، بل خاطبه قائلاً: أجب أباً طلحة.

وفى كلتا القصتين جاء الرسول ﷺ منزل أبى طلحة بجمع كبير من أصحابه ... وفى كلتا القصتين طار أنس وهو الشاب الصغير ذى الجسم الخفيف والحركة السريعة، وسبق موكب الرسول ﷺ، ليخبر الخبر لأبى طلحة وأمه ... ويدلك على انفعال أنس أنه عندما أخبر أباً طلحة بإجابة الرسول ﷺ الدعوة، قال: إنه

يقول: «وَمَنْ مَعِيَ» وكما أدهش مجيء هذا العدد الكبير أنسًا، وكان عددهم ثمانين في إحدى القصتين وأربعين في الأخرى، أدهش أيضًا أبا طلحة، فقد قال لوجه أم سليم: يا أم سليم جاء رسول الله بالناس وليس عندنا ما نطعمهم.

وقد أبدى أبو طلحة عُذره للرسول ﷺ... ففي رواية مسلم أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله إنما كان شيئًا يسيرًا... فطمأن الرسول ﷺ قلب أبي طلحة قائلًا: «هَلُمَّه، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ فِيهِ الْبَرَكَةَ».

وفي كلتا القصتين كانت أم سليم تأتي بذلك الطعام اليسير.

ففي إحداهما كان الطعام أقرصًا من شعير فتّتها، ووضعت عليها بقايا من سمن كان في وعاء السمن... وفي الثانية كان الطعام كسرات من الخبز، وتمرات، فكان الرسول ﷺ يدعو في ذلك الطعام، ويقول فيه ما يشاء الله أن يقول، ثم يأمر أن يدخل عشرة من الصحابة فيأكلون حتى يشبعوا، ثم يخرجون، ويدخل غيرهم، حتى شبعوا جميعًا.

وفي رواية مسلم أن الرسول ﷺ بعد أن شبع أصحابه وخرجوا أكل هو وأبو طلحة وأم سليم وأنس، وفضلت بعد ذلك فضلة، فأهدوها لجيرانهم... إن الطعام الذي قالت فيه أم سليم: عندي كِسْرٌ من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء معه آخر قَلَّ عنهم، بارك الله فيه بدعوة رسوله ﷺ، فكفى ثمانين من أصحابه، وأكل منه هو وأهل دار أبي طلحة، وفضل منه فضلة أهدوها إلى جيرانهم.

✽ عبر الحديث وفوائده وأحكامه :

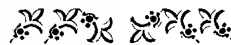
(١) كان الرسول ﷺ بشرًا، يأكل كما يأكلون، ويجوع كما يجوعون، بل كان يصيبه الجوع الشديد، حتى يتقلب ظهرًا لبطن.

(٢) خَيْرُ الرُّسُولِ ﷺ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا رَسُولًا، أَوْ عَبْدًا رَسُولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، يجوع يومًا، ويشبع يومًا.

(٣) كان الصحابة كبارًا وصغارًا، ورجالًا ونساءً يلحظون أحوال الرسول ﷺ، ويعينهم ما يصيبه، ويجهدون أنفسهم في رفع معاناته قدر ما يستطيعون، كما وقع في هذه القصة من أبي طلحة وأم سليم وأنس بن مالك رضي الله عنهم.
 (٤) الجوع يؤثر في حواس الناس ... فقد أثار شدة الجوع في صوت الرسول ﷺ، فأضعفه.

(٥) كان الطعام الذي يأكله الصحابة في العهد النبوي خشنًا قاسيًا، فقد كانوا يطحنون الشعير، ويخبزونه، ويأكلونه، كما وقع في هذه القصة.
 (٦) كان في بيوت الصحابة آلة الطحن ... فعند حاجتهم كانوا يطحنون الحَبَّ قمحًا أو شعيرًا في الحال.

(٧) كانت الزوجات الصحابيات هنَّ اللواتي يطحنن، ويخبزن، ويصنعن الطعام، ويقيمْنَ بأعمال المنزل، كما فعلت أم سليم في هذه القصة.
 (٨) كان الرسول ﷺ على ثقة من أن ربّه سيكرمه، ويستجيب دعاءه، ففى كلتا القصتين دعا الصحابة الذين معه إلى الطعام القليل عند أبي طلحة، فبارك الله في ذلك الطعام، حتى كفاهم وفاض عنهم^(١).



(٥٧) باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة

❦ قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ [الذريات: ٥٦، ٥٧].

وأما الأحاديث، فتقدم معظمها في البابين السابقين، ومما لم يتقدم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١).

ومعنى الحديث: الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة لأن من كان طالبا للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى^(٢).

❦ وفي الحقيقة أن المؤمن راض بما قسم الله له من رزق، وما قدر له من مواهب، وما وهب له من حظ؛ لأنه مؤمن بعدل الله فيما قسم من أرزاق، وبحكمته فيما وزع من مواهب، وبفضله ورحمته فيما وهب لعباده من حظوظ،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٤٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة.

«العرض» بفتح العين والراء: هو المال.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٩٨/٧).

وهذا هو معنى «القناعة» الذى حثَّ عليه الدين، وأشاد به الحكماء والصالحون. ولقد ظلم الناس - فيما ظلموا - كلمة «القناعة» فحسبوا الرضا بالدُّون، والحياة الهون، وضعف الهمة عن طلب معالى الأمور، وإماتة رغبة الطموح إلى الرُّقى المادى والمعنوى، وتمجيد الجوع والفقر والحرمان. وهذا كله خطأ واضح، وضلالٌ بعيد ... فالحق أن القناعة لا تعنى شيئاً من أوهام الكثيرين عنها. وإنما تعنى أول ما تعنى أمرين:

أولهما: أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا لا يكاد يشبع منها أو يرتوى ... وقد صوّر ذلك الحديث النبوى: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب، لابتغى ثالثاً، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب»^(١).

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال فى السعى للغنى، والإجمال فى طلب الرزق، وبذلك يضمن التوازن فى نفسه وفى حياته، ويمنحه السكينة التى هى سرُّ السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو الذى يرهق النفس والبدن معاً... ومن ثم قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فى رَوْعِى، أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجْلَهَا، وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمَلُوا فى الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»^(٢).

ولو ترك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه، لأصبح خطراً على نفسه وجماعته، فكان لابد من توجيه طموحه إلى قِيم أرفع، ومعانٍ أخلد، ورزق أبقى، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٣٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٤٩) كتاب الزكاة، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أبو نعيم فى الحلية (٢٧/١٠)، من حديث أبى أمامة، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٠٨٥).

الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴿١٥﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وظيفة الإيمان هنا أن يَحْدَّ من ثورة الحرص والطمع، وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية فلا تستبد بها وتجعلها تحيا في قلقٍ دائم، لا تكتفى بقليل، ولا تشبع من كثير، لا يُطفئ غلة ظمئها ما عندها فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولا يُشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام... مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح... إنها كجهنم - أعاذنا الله منها - تلتهم الملايين في جوفها، ثم يُقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأَتْ؟﴾! ﴿وَقَوْلُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ؟﴾! [ق: ٣٠].

وظيفة الإيمان أن يُوجِّه النفوس إلى القِيمِ المعنوية الخالدة، وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى الله الحي الذي لا يموت، ويعلم المؤمن أن الغنى - إن كان ينشد الغنى - ليس في وفرة المال وكثرة المتاع الأدنى، وإنما هو في داخل النفس أولاً... وبذلك ورد في الحديث: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»^(١).

وثاني ما تعنيه القناعة. أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، وفي حدود ما قُدِّرَ له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش مُتَمَنِّيًا ما لا يتيسر له، مُتَطَلِّعًا إلى ما وُهِبَ لغيره ولم يُوهَبْ له، وذلك كتمنى الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتطلُّع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد. ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهُّف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرضٍ قفراء بطبيعتها إلى رفاة الحياة وأسباب النعيم...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٤٦) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥١) كتاب الزكاة، من حديث أبي

وكما حدث في عهد الرسول حين تمنى النساء أن يكنَّ لهن ما للرجال،
فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اَكْتَسَبْنَ ۚ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ [النساء: ٢٣] ^(١).

✽ فالشاهد أنه ينبغي عليك أن ترضى بما قسم الله لك من المال والجمال
والذكاء والصحة والزوجة والأولاد والمسكن... حتى تعيش سعيداً راضياً عن
الله (جلّ وعلا).

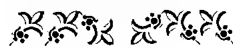
✽ ولعلنا نعلم جميعاً أن الأنبياء والمرسلين - صلوات ربي وسلامه
عليهم - كلٌّ منهم رعى الغنم... بل كان زكرياً نجاراً وإدريس خياطاً، وداود
حدّاداً.. وما نقص ذلك من قدرهم ومكانتهم عند الله (جلّ وعلا).

✽ وهناك قائمة رائعة من العظماء الذين بُخسوا حظوظهم الدنيوية:
عطاء بن رباح عالم الدنيا في عهده، مولى أسود، أفتس، أشل، مففل
الشعر.

الأحنف بن قيس، حلیم العرب قاطبة، نحيف الجسم، أحدب الظهر، أحنى
الساقين، ضعيف البنية.

الأعمش محدّث الدنيا، من الموالى، ضعيف البصر، فقير ذات اليد، مُمزّق
الثياب، رثّ الهيئة والمنزل.

✽ فقيمة المرء ما يُحسن... قيمتك في عملك الصالح وما تقدمه لخدمة
دينك وبلدك وأسرتك.. وليست قيمتك في المال والجاه والقوة والجمال..
فارض بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس.



(٥٢٨) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»^(١).

✽ سبق شرحه كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥١٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✽ وتأمل معي هذا الدرس العظيم من الحبيب ﷺ لهذا الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٥٢٩) عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» قَالَ حَكِيمٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرِزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أَفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا لِيُعْطِيَهُ الْعَطَاءَ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا. ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهُ. فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَشْهَدُكُمْ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرَضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ. فَلَمْ يَرِزَأُ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى تُوُفِيَ^(٢).

✽ لقد كان من هدى النبي ﷺ أنه لا يرد سائلاً أبداً.. فما سئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ﷺ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٤) كتاب الزكاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٥) كتاب الزكاة.

«يرزأ» أي لم يأخذ من أحد شيئاً، وأصل الرزء: النقصان، أي لم ينقص أحداً شيئاً بالأخذ منه. و«إشراف النفس» تطلّعها وطمعها بالشئ.. و«سَخَاوَةُ النَّفْسِ»: هي عدم الإشراف إلى الشئ، والطمع فيه، والمبالاة به والشرة.

فجاءه حكيم بن حزام رضي الله عنه فسأل النبي ﷺ فأعطاه ثم سأله فأعطاه ... فلما وجد النبي ﷺ أنه قد استمر في السؤال قَدَّم له تلك النصيحة الغالية التي نفعته حتى آخر يومٍ في حياته.

فقال له ﷺ: «يا حَكِيم، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ» شَبَّهه في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة الخضراء الحلوة المُستلذة.

فإن الأخضر مرغوبٌ فيه على انفراده، والحلو كذلك على انفراده، فاجتماعهما أشد. وفيه إشارة إلى عدم بقاءه؛ لأن الخضروات لا تبقى ولا تُراد للبقاء. «فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ».
 ﴿قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِشْرَافُ النَّفْسِ تَطَلُّعُهَا إِلَيْهِ وَتَعَرُّضُهَا لَهُ وَطَمَعُهَا فِيهِ، وَأَمَّا طِيبُ النَّفْسِ فَذَكَرَ الْقَاضِي فِيهِ اِحْتِمَالَيْنِ: أَظْهَرُهُمَا: أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى الْإِخْذِ وَمَعْنَاهُ: مَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ سُؤَالٍ وَلَا إِشْرَافٍ وَتَطَلَّعَ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الدَّافِعِ، وَمَعْنَاهُ: مَنْ أَخَذَهُ مِمَّنْ يَدْفَعُ مُنْشِرِحًا يَدْفَعُهُ إِلَيْهِ طِيبَ النَّفْسِ لَا بِسُؤَالٍ اضْطَرَّهٖ إِلَيْهِ أَوْ نَحْوِهِ مِمَّا لَا تَطِيبُ مَعَهُ نَفْسُ الدَّافِعِ^(١)».

ولهذا قال النبي (عليه الصلاة والسلام) لعمر بن الخطاب: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مُشْرِفٍ ولا سائل فُخْذه، وما لا فلا تُتْبِعْه نفسك» يعنى: ما جاءك بدون استشراف نفسٍ ولا تَطَلُّعٍ وتشوُّفٍ فُخْذه.... وما جاءك بسؤالٍ واستشراف نفسٍ فلا تأخذه ولا تُتْبِعْه نفسك.

﴿قوله ﷺ: «وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ»: أَيْ أَنْ مَنْ أَخَذَ الْمَالَ بِاسْتِشْرَافِ نَفْسِهِ كَانَ كَالَّذِي بِهِ مَرَضٌ فَيَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ أَبَدًا فَيُظَلُّ يَسْأَلُ النَّاسَ وَلَا يَتَعَفَّفُ أَبَدًا.

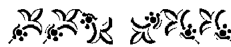
ثم قال النبي (عليه الصلاة والسلام) لحكيم بن حزام: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ

السُّفلى « اليد العليا هي يد المُعطى، واليد السفلى هي يد الآخذ... فالمُعطى يده خيرٌ من يد الآخذ، لأن المُعطى فوق الآخذ... فيده هي العليا كما قال النبي ﷺ .
فأقسم حكيم بن حزام رضي الله عنه بالذي بعث النبي ﷺ بالحق ألا يسأل أحداً شيئاً، فقال: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا».

فتوفى الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وتولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه، فكان يُعطيه العطاء فلا يقبله... ثم توفى أبو بكر، فتولى عمر فدعاه ليعطيه، فأبى، فقال: اشهدوا أني أعطيه من بيت مال المسلمين فلا يقبله... قال ذلك رضي الله عنه لئلا يكون له حُجة على عمر يوم القيامة بين يدي الله، وليتبرأ من عهده أمام الناس، ولكن مع ذلك أصرَّ حكيمٌ رضي الله عنه ألا يأخذ منه شيئاً حتى تُوفى ^(١).

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ وَمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ الْحَثُّ عَلَى التَّعَفُّفِ وَالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا بِمَا تيسَّرَ فِي عَفَافٍ وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً وَالْإِجْمَالِ فِي الْكَسْبِ وَأَنَّهُ لَا يَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ مَا يَحْصُلُ لَهُ بِإِشْرَافٍ وَنَحْوِهِ فَإِنَّهُ لَا يُبَارَكُ لَهُ فِيهِ وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ﴾ ^(٢).



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢١١).

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٧-١٧٨).



فهرس الموضوعات

- تابع (٣٢) باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين ٥
- (٣٣) باب ملاطفة اليتيم والبنات وسائر الضعفة والمساكين والتواضع معهم وخفض الجناح لهم ١٦
- (٣٤) باب الوصية بالنساء ٤٩
- (٣٥) باب حق الزوج على المرأة ٧٥
- (٣٦) باب النفقة على العيال ٩٤
- (٣٧) باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد ١٠٢
- (٣٨) باب وجوب أمره أهله وأولاده المميزين وسائر مَنْ في رعيته بطاعة الله تعالى ونهيهم عن المخالفة وتأديبهم ومنعهم من ارتكاب منهي عنه ١٠٩
- (٣٩) باب حق الجار والوصية به ١٢٠
- (٤٠) باب بر الوالدين وصلة الأرحام ١٣١
- (٤١) باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم ١٧١
- (٤٢) باب فضل برِّ أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة وسائر مَنْ يندب إكرامه ١٨٨
- (٤٣) باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم ١٩٦
- (٤٤) باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم ورفع مجالسهم وإظهار مرتبتهم ٢٠٣
- (٤٥) باب زيارة أهل الخير ومُجالستهم وصُحبَتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة ٢١٦
- (٤٦) باب فضل الحب في الله والحث عليه وإعلام الرجل مَنْ يحبه أنه يحبه وماذا يقول له إذا أعلمه ٢٣٦



- (٤٧) باب علامات حب الله تعالى للعبد والحث على التخلُّق بها والسعي في
تحصيلها ٢٥٣
- (٤٨) باب التحذير من إيذاء الصالحين والضعفة والمساكين ٢٦٢
- (٤٩) باب إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم إلى الله تعالى ٢٦٦
- (٥٠) باب الخوف ٢٨١
- (٥١) باب الرجاء ٣٠٩
- (٥٢) باب فضل الرجاء ٣٧٥
- (٥٣) باب الجمع بين الخوف والرجاء ٣٨٧
- (٥٤) باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقاً إليه ٣٩٣
- (٥٥) باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلُّل منها وفضل الفقر ... ٤٠٩
- (٥٦) باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول
والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات ٤٦٤
- (٥٧) باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذر السؤل من
غير ضرورة ٥٢٠
- فهرس الموضوعات ٥٢٧

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

هذه وصيتي

كانت قد علمت في العلم نعمة وحدت القرآن الكريم وبحلوله كتاب رياض الصالحين
للإمام النووي وكنت احب القراءة في هذا الكتاب لكي كنت لا أقيم الكتاب من الاحاديث
وتعلمت ان احب كتابا سبلا فيه شرح تلك الاحاديث التي تبلغ ١٦٥٠ حديثا
وقهر الأياد وشرح الله تصدي شرح هذا الكتاب ففرحت حيناتي شرح هذا الكتاب
المعنى الذي استطاع الامام النووي من خلاله ان يجمع الكثير من الادب والاخلاق الإسلامية
والفقه والحديث والعبادات والصلوات والوجدات كتابا شاملا بكل شيء فاستعنت به الله
في شرحه شرح يصدر بهذه العبارة قبل العلماء وطلبة العلم وحقق كل الاحاديث الواردة فيه
مطهر الله .. بحثت اجمل ابناء عمري في شرح هذا الكتاب المعنى الذي لا يستطيع مثله
يحيى مسلم أيضا .. كتيب الخير الكثير والفقير والعلف فسلموا بسوق مثالي فسلموا فسلموا
بقرابة هذا الكتاب القيم

أرجو اني اكون في راحة راحتي ان تكرموا حتى التفتوا هذه الكتاب القيم
لنأخذ من حيثنا على التفتير المسكين كتاب الله وسنة رسول الله .. كتيب خير يربنا برحمة
على الاسلام والمسلمين في كل مكان

أسأل الله عز وجل ان يثني على راحتي بهذا الكتاب وان يجعله في ميزان حسناتي ابي راحتي
ارحمه الله عليه ما اريد ان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب ويثني به.
وارجو الا تخطروا على بدعة صادقة يظهر الغيب بان يرضى الله عز وجل الاخلاص في العمل
والعمل وان يرضى حسن الخاتمة وان يجمعني بكم في الشهود من الاعلى مع العليم المسمى

الفقر الى عفو الرحيم العفار

محمد الرحمن عماد

شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد المصطفى
أبو عمار

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

الجزء الرابع



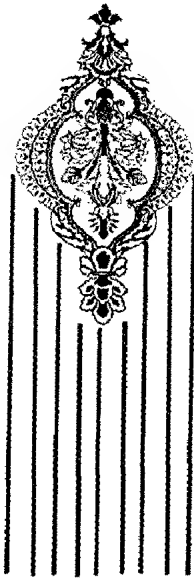
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

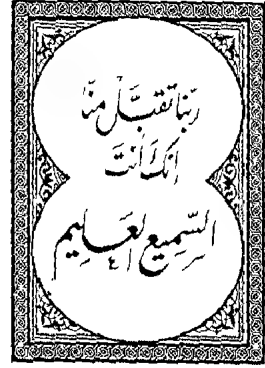
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

التسجيل الدولي: 978-977-763-025-2

أولاد الحاج عويش بن أبي زيد

١٢٧ ميدان الأزهري أمام جامع الأزهري القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
البريد الإلكتروني: ٠١٠١٤٣١١١٤ - البريد الإلكتروني: ٢٥١٤٧٩٧٤



مكتبة الصفا

للنشر والتوزيع

شَيْخ رِايَضُ الرِّضَا الْحَمِيدِي

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

لِلْإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

شَرْحُ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَصْرِيِّ

أَبُو عَمَّارٍ
الْجُزْءُ الرَّابِعُ

مَكْتَبَةُ الصَّفَا لِلتَّبَاعَاتِ وَالنَّوْائِغِ

تلفون: ٢٥١٤٧٣٢٠ - فاكس: ٢٥١٤٧٩٧٤



(٥٣٠) وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَتَقَبَّتْ أَقْدَامُنَا، وَنَقَبَتْ قَدَمِي، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، فَكُنَّا نَلْفُ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرْقَ، فَسُمِيتْ غَزْوَةُ ذَاتِ الرَّقَاعِ لِمَا كُنَّا نَعَصِبُ عَلَى أَرْجُلِنَا مِنَ الْخِرْقِ.. قَالَ أَبُو بُرْدَةَ: فَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الْحَدِيثِ، ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ، قَالَ: كَأَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ^(١).

✽ كان هذا الموقف الذي يحكيه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في غزوة ذات الرقاع.

وأما سبب الغزوة ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين... ذلك الغدر الذي تجلّى في مقتل أولئك الدعاة السبعين الذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج ﷺ قاصداً قبائل محارب وبنى ثعلبة^(٢). وقد ذكر الدكتور محمد أبو فارس أن قادمًا قدم المدينة فأخبر المسلمين أن بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم في عقر دارهم على رأس أربع مائة مقاتل وقيل سبع مائة مقاتل، ولما وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم خافوا وهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين نساءهم وأطفالهم وأموالهم، وحضرت الصلاة فخاف المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، وعاد رسول الله إلى المدينة^(٣).

وقد حققت هذه الحملة العسكرية أغراضها، وتمكنت من تشتيت الحشد الذي قامت به غطفان لغزو المدينة فأرهب تلك القبائل وألقى عليها درسًا بأن المسلمين ليسوا قادرين فقط على سحق مَنْ تُحدثه نفسه بالاقتراب من المدينة، بل قادرين على نقل المعركة إلى أرض العدو نفسه وضربه في عقر داره^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤١٢٨) كتاب المغازي، ومسلم (١٨١٦) كتاب الجهاد.

(٢) فقه السيرة النبوية، (ص ١٩٤، ١٩٥).

(٣) انظر: غزوة الأحزاب لأبي فارس، (ص ١٤).

(٤) انظر: غزوة الأحزاب، محمد أحمد باشميل، (ص ٧٧، ٧٨).

ولعلك تسأل وتقول: ولماذا سُميت هذه الغزوة بغزوة ذات الرقاع؟

والجواب: أنها سُميت بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرْق والرقاع اتقاء الحر ... وقيل: لأنهم رقعوا راياتهم ... وقيل: لشجرة كان اسمها ذات الرقاع^(١)، وقيل: لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسُميت لذلك^(٢) ... والصحيح: أنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق ... وقد أخبر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنهم كانوا ستة نفرٍ مع النبي ﷺ ومعهم بعيْرٌ واحد يعتقبونه.. فيركبه كل واحدٍ منهم نوبة لمسافة مُعينة ثم يركبه الثاني ثم يركبه الذي بعده ... فمعنى ذلك أن كل واحد سيركب سُدس المسافة وخمس أسداس المسافة يمشيها على رجلية وهكذا حتى تقطعت أحذيتهم ونقبت أقدامهم أي: قرحت من الحفاء وسقطت أظافرهم فكانوا يلفون على أرجلهم الخِرْق حتى لا تزداد جروحهم ... وهكذا كان النبي ﷺ وأصحابه يبذلون حياتهم كلها من أجل نشر دين الله والتمكين له في الأرض.. وحتى يصل إلينا هذا الدين العظيم... فيا ليتنا نعرف قدر هذا الدين ونعيش من أجله ومن أجل نُصرتِه ونُصرة أهله ونشره بين العالمين.

❁ المهم أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه لما حدّث بهذا الحديث كره ذلك وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره.. وكأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه. وهذا من شدة إخلاصهم لله ﻋَزَّوَجَلَّ.

قال الإمام النووي رحمته الله: فِيهِ اسْتِحْبَابُ إِخْفَاءِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَمَا يُكَابِدُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْمَسَاقِقِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يُظْهَرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ مِثْلَ بَيَانِ حُكْمِ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ فِيهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ... وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا وَجَدَ لِلْسَلَفِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِذَلِكَ^(٣).

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/٣٠٩).

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٧٠).

(٣) مسلم بشرح النووي (١٢/٢٧٢).

(٥٣١) وَعَنْ عمرو بن تَغْلِبٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِمَالٍ أَوْ سَبَى فَقَسَّمَهُ، فَأَعْطَى رَجَالًا، وَتَرَكَ رَجَالًا، فَبَلَغَهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمَدَ اللَّهُ، ثُمَّ أَكْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدْعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدْعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنِّي إِنَّمَا أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ» قَالَ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ: فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ^(١).

❁ لقد حدث ذلك عندما غنم النبي ﷺ وأصحابه غنائم كثيرة في غزوة حنين... فلما جاء موعد تقسيم الغنائم رأى النبي ﷺ أن يتألف الطلقاء والأعراب بالغنائم تأليفًا لقلوبهم لحدائث عهدهم بالإسلام... فأعطى لزعماء قريش وغطفان وتميم عطاءً عظيمًا، إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس، ومعاوية ويزيد ابنا أبي سفيان، وقيس بن عدي^(٢). وكان الهدف من هذا العطاء المجزى هو تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام، أو كما قال أنس بن مالك: إن كان الرجل يُسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها^(٣). وعبر عن هذا صفوان بن أمية بقوله: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(٤).

وقد تأثر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشرية، وترددت

(١) صحيح: رواه البخاري (٩٢٣) كتاب الجمعة.

«الهلَعُ»: هُوَ أَشَدُّ الْجَزَعِ، وَقِيلَ: الضَّجْرُ.

(٢) انظر: معين السيرة (ص ٤٢١).

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله شيئاً قط (١٨٠٦/٤) رقم (٢٣١٢).

(٤) المصدر نفسه (١٨٠٦/٤) رقم (٢٣١٣).

بينهم مقالة، فراعى ﷺ هذا الاعتراض وعمل على إزالة التوتر، وبين لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانياً عقلياً عاطفياً وجدانياً، ما يملك القارئ المسلم على مرّ الدهور وكرّر العصور وتوالى الزمان إلا البكاء عندما يمر بهذا الحدث العظيم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم المقالة^(١) حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه... فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت... قسّمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»^(٢).

قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يا معشر الأنصار: ما قاله بلغتنى عنكم وجدة^(٣) وجدتموها على في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهذاكم الله، وعالة^(٤) فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم!» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل. ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نُجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَنُّ

(١) المقالة: الكلام الردى.

(٢) الحظيرة: شبه الزريبة التي تُصنع للإبل والماشية لمنعها، وتكف عنها العوادي.

(٣) الموجدة: العتاب.

(٤) عالة: جمع عائل: الفقير.

والفضل. قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدقتم: أتينا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً^(١) فنصرناك، وطريداً فأويناك. وعائلاً فأسيناك^(٢).. فقال: وجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة^(٣) من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكُم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً: لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»^(٤).

إن النبي ﷺ ضرب للأنصار صورة مؤثرة: قوم يُبشرون بالإيمان يقابلهم قوم يُبشرون بالجمال (الإبل)، وقوم يصحبهم رسول الله ﷺ يقابلهم قوم يصحبهم الشاة والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصور، وأدركوا أنهم وقعوا في خطأ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه... فانطلقت حناجرهم بالبكاء ومآقيهم بالدموع، وألستهم بالرضا، وبذلك طابت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بفضل سياسة النبي ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار^(٥).

ويرى الإمام ابن القيم -استدلالاً بهذه الحادثة-: أنه قد يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرهم عن المسلمين فيقول: الإمام نَائِبٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ يَتَصَرَّفُ لِمَصَالِحِهِمْ، وَقِيَامِ الدِّينِ. فَإِنْ تَعَيَّنَ ذَلِكَ -أى: التَّأْلِيفُ- لِلدَّفْعِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَالذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَاسْتِجْلَابِ رُءُوسِ أَعْدَائِهِ

(١) مخذولاً: متروكاً.

(٢) آسيناك: أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا.

(٣) لعاعة: بقلة خضراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٧٦، ٧٧، ٨١)، وابن جرير (٢/٣٦٠، ٣٦١)، وعبد الرزاق في المصنف

(١١/٦٤)، وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد (١٠/٣٠) وأسانيدهم صحيحة، ابن كثير في سيرته

(٣/٦٧٨)، ابن هشام في السيرة (٢/٤٩٨، ٤٩٩) وسنده صحيح.

(٥) انظر: المجتمع المدني في عهد النبوة (ص ٢١٩).

إِلَيْهِ، لِيَأْمَنَ الْمُسْلِمُونَ شَرَّهُمْ، سَاغَ لَهُ ذَلِكَ، بَلْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ ... وَهَلْ تُجَوِّزُ الشَّرِيعَةُ غَيْرَ هَذَا، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي الْحِرْمَانِ مَفْسَدَةٌ، فَالْمَفْسَدَةُ الْمُتَوَقَّعَةُ مِنْ فَوَاتِ تَأْلِيفِ هَذَا الْعَدُوِّ أَعْظَمُ ... وَمَبْنَى الشَّرِيعَةِ عَلَى دَفْعِ أَعْلَى الْمَفْسَدَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَدْنَاهُمَا، وَتَحْصِيلِ أَكْمَلِ الْمَصْلَحَتَيْنِ بِتَقْوِيَةِ أَدْنَاهُمَا، بَلْ بِنَاءِ مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ عَلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٢) وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفُ لَهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ»^(٢).

الجميل هنا أن الذي يروى هذا الحديث هو حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال له النبي ﷺ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرٌ حُلُوٌّ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» فهو يروى هنا أن النبي ﷺ قال: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» واليد العليا هي المنفقة.. واليد السفلى هي الآخذة. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الطَّاعَاتِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ لِمَذْهَبِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ...

وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمُتَعَقِّفَةُ وَقَالَ غَيْرُهُ: الْعُلْيَا الْآخِذَةُ وَالسُّفْلَى الْمَانِعَةُ... وَالْمُرَادُ بِالْعُلُوِّ: عُلُوُّ الْفَضْلِ وَالْمَجْدِ وَنَيْلُ الثَّوَابِ^(٣).

«وابدأ بمن تعول» فالإنسان يبدأ بمن يعول... يعني بمن يلزمه نفقته، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء، لأن الإنفاق على الأهل

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٤) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٧٥).

صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أولى، والإنفاق على نفسك أولى من الإنفاق على غيرك ... كما جاء في الحديث: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك».

وفيه الابتداء بالأهم فالأهم في الأمور الشرعية.

﴿وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى﴾ أى أن أفضل الصدقة ما تركت المتصدق غنياً مُستغنياً بما بقى معه.

لأن الإنسان قد يتصدق وبعد أن يتصدق بالمال كله يمكن أن يتبليه الله فلا يجد مالا يسد حوائجه فيندم ويقول: يا ليتنى ما تصدقت بالمال كله، فيكون بهذا قد أضاع أجره عند الله، وأضاع ماله في الدنيا.

فالأفضل للإنسان إذا تصدق أن يترك لنفسه ما يُغنيه؛ لأنه عندما يعطى ولا يزال غنياً يكون ذلك مدعاة له أن يعطى ويتصدق مرة أخرى، ولا يتضجر من الصدقة ... أما الذى يُعطى ماله كله ثم يجد نفسه فقيراً، فقد لا يتصدق مرة أخرى، ولذلك كان خير الصدقة ما أبقّت لصاحبها غنى.

﴿وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ﴾ .. أى: ومن يستغف عن مسألة الناس يُعفّه الله .. أى: يرزقه العفة عن ذلك.

ويستغف: من العفاف ... والعفيف هو الإنسان الذى لا ينظر إلى ما فى أيدي الناس ... فالناظر إلى ما فى أيدي الناس إما أن يتمنى ما فى أيدي الناس، أو يتحسر على أنه ليس عنده مثلهم.

وإذا تمنى فلعله يُعطى ولعله لا يُعطى ... فإذا كان لا يُعطى فقد أتعب نفسه بالنظر إلى ما فى أيدي الناس، وإذا أعطاه الله ﷻ فلعله يُفتن فيه فلا يعطى الحقوق لأصحابها ... إذًا: الأفضل أن لا ينظر إلى ما فى أيدي الناس، وإنما ينظر إلى مَنْ هو دونه وأقل منه ولا ينظر إلى مَنْ هو أعلى منه.



إذا نظر إلى مَنْ هو دونه حَمِدَ الله سبحانه على ما أعطاه من النعم.
وإذا نظر إلى مَنْ هو أعلى منه ربما جعل ذلك في قلبه حسرة، ولعله يقول:
إن الله لم يُعْطِنِي شَيْئاً، فينكر نعم الله ﷻ عليه فيستحق العقوبة من الله.
❖ ثم قال ﷺ: «وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ» أى: مَنْ يُظْهِرِ الْغِنَى يُغْنِهِ اللهُ.
أى: يُصِيرُهُ غَنِيًّا.. وقيل: أى مَنْ يَسْتَغْنِي بالله يُغْنِيهِ اللهُ ﷻ.
أما النظر إلى الناس فليس من ورائه إلا أن يحسدَهم على ما آتاهم الله من
فضله، أو يتحسّر على حاله الذى هو فيه، وفي كُلِّ شر.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٣) وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ صَخْرَ بْنِ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُلْجِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَاللَّهِ لَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً، فَتُخْرِجُ لَهُ مَسْأَلَتَهُ مِنِّي شَيْئاً وَأَنَا لَهُ كَارِهِ، فَيَبَارِكُ لَهُ فِيمَا أُعْطِيَتْهُ»^(١).

❖ عن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب القرشي الأموي، أسلم هو
وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند يوم فتح مكة فلذا قال المصنف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وكان هو أبوه من المؤلفَة قلوبهم ثم حَسُنَ إسلامهما... كان أحد الكُتّاب
لرسول الله ﷺ، رَوَى لَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِائَةً وَثَلَاثَةً وَسِتُونَ حَدِيثًا...
رَوَى عَنْ عِدَدٍ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَمَنَاقِبِهِ كَثِيرَةٌ وَفَضَائِلُهُ شَهِيرَةٌ قَدْ أَفْرَدَتْ
بِالتَّأْلِيفِ، تَوَفَّى بِالشَّامِ.

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يُكْفَنَ في قميص كان رسول الله ﷺ كساه إياه،
وأن يُجْعَلَ مما يلي جسده، وكان عنده قلامَة أظفار رسول الله، فأوصى أن
تُسْحَقَ وتُجْعَلَ في عينيه وفمه وقال: افعلوا ذلك واخلّوا بيني وبين أرحم
الراحمين.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٨) كتاب الزكاة.

(قال: قال رسول الله: لا تُلحفوا) من الإلحاف والإلحاح: أى لا تُلحفوا (في المسألة) (١).

«فوالله لا يسألنى أحدٌ منكم شيئاً، فتُخرج له مسألتُهُ مِنى شيئاً وأنا له كارُهُ، فيُبارك له فيما أعطيتُهُ» وهنا يُقسم النبى ﷺ أن مَنْ سألَه شيئاً وظل يُلح في المسألة مرة بعد مرة حتى أعطاه النبى ﷺ شيئاً بسيف الحياء وهو كارُهُ لذلك فإن الله عز وجل لن يُبارك له في ذلك الشئ الذى أخذه بسيف الحياء.

❁ وفى الحقيقة أن هذا الأمر يحدث كثيراً فى حياتنا... أن يُقابلك شخص أو يدخل بيتك فيتطلع إلى ما عندك ثم يطلب أن تُعطيه شيئاً وأنت لا تُريد أن تُعطيه.. فيظل يُلح فى طلبه إلى أن يُصيبك الحياء منه فتُعطيه.. فيقسم النبى ﷺ أن هذا الرجل لن يبارك الله له فيما أخذه.. أما لو أعطاه صاحب ذلك الشئ بل ومثله ألف مرة عن طيب نفسٍ فإن الله عز وجل سيبارك له فيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٤) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ الْأَشْجَعِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟» وَكُنَّا حَدِيثِي عَهْدٍ بَبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» فَبَسَطْنَا أَيْدِينَا وَقُلْنَا قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَعَلَامَ نَبَايَعُكَ؟ قَالَ: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَالصَّلَاةَ الْخَمْسَ وَتُطِيعُوا» وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَةً: «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً» فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيَائِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ (٢).

❁ ففى هذا الحديث يحكى عوف بن مالك (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أنهم كانوا عند رسول الله ﷺ يجلسون معه.. وفجأة قال لهم النبى ﷺ: «ألا تبايعون رسول الله؟».. وكان

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٤٣) كتاب الزكاة.

من الممكن أن يقول لهم النبي ﷺ: بايعوني. لكنه قال لهم: «ألا تبايعون رسول الله؟» ليُلفت انتباههم إلى أهمية تلك البيعة حتى يستعدوا لها.. فقالوا له ﷺ: قد بايعناك يا رسول الله.

فأراد النبي ﷺ أن يؤكد لهم أهمية تلك البيعة فكرر السؤال مرة أخرى.. وكان يكفيه أن يقولها مرة واحدة.

فما كان منهم إلا أن بسطوا أيديهم وقالوا: قد بايعناك يا رسول الله فعَلَامَ نَبَايَعُكَ؟

وكأنه ﷺ كان ينتظر منهم هذا السؤال ليعلم أنهم قد أحسُّوا بقدر هذه البيعة فقال لهم ﷺ: «على أن تَعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَتُطِيعُوا» وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً: «وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا».

أى: بايعوني على عبادة الله وعدم الشرك، وعلى الصلوات الخمس، وعلى الطاعة لله وللرسول ﷺ ولأولى الأمر منكم، وتبايعوني أيضًا على (أن لا تسألوا الناس شيئًا).

هذه من ضمن البيعات التي أخذها النبي ﷺ على أصحابه أو على بعضهم، وهؤلاء بايعوا.

فكان يسقط سوط أحدهم أو عصاه وهو راكب على الجمل فيُنِخِجَ جَمَلُهُ وينزل فيأخذ عصاه، فهذا أحب إليه من أن يطلب من أحد أن يناوله ذلك... قال: (فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه).

أى: لا يطلب من أحد شيئًا... وهذه تربية عظيمة ربَّاهم عليها النبي ﷺ، فإذا كان هذا الذي تسقط عصاه لا يطلب من أحد أن يناوله إياه، فمن باب أولى ألا يسأل أحدًا مالا أو غيره... فعلمهم النبي ﷺ عزة النفس والتعفف عن

أن يسطوا ويمدوا أيديهم للناس يطلبون شيئاً، وبإيعهم على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

إنها بيعة ووصية غالية من رسول الله ﷺ..

✽ - فارفع هذا الشعار ولا يتعلق قلبك بما عند البشر.

لَا تَسْأَلَنَّ بَنَى آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُغْلَقُ

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهِ وَبَنَى آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

✽ والله... إن النوم على الحصر وأكل الخبز اليابس مع حفظ ماء الوجه وصون النفس عن سؤال الناس، أعز وأشرف من سُكنى القصور الفاخرة وركوب السيارات الفارهة مع التكدير والغم والحزن.

✽ لَا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا حَتَّى لَا تَحْزَنَ ... فلربما منعك بخيل أو اكفهر في وجهك إنسانٌ عبوس، أو تطاول عليك سفيه.. ولكن إن أردت أى شىء من متاع الدنيا، أو نعيم الآخرة الباقي فلا تسأل إلا الله (جل وعلا) الذى بيده مقاليد السماوات والأرض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٥) وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةٌ لَحْمٌ»^(١).

✽ ومُزْعَةُ اللحم: القطعة من اللحم..... فالإنسان لعله يستحيى من إنسان كبير إذا فعل أمامه شيئاً يُستحيا من فعله فيتصبب عرقه حياءً... والله سبحانه وتعالى له المثل الأعلى، فهؤلاء الذين يسألون الناس إلحافاً عندما يأتون ربهم يوم القيامة سيستحيون من الله ﷻ، حتى يتساقط من وجوههم اللحم بسبب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٤) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٤٠) كتاب الزكاة.
«الْمُزْعَةُ»: الْقِطْعَةُ.

أنهم لم يستحيوا في الدنيا من الله.

❁ قَالَ الْقَاضِي: قِيلَ: مَعْنَاهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَلِيلًا سَاقِطًا لَا وَجْهَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ فَيُحْشَرُ وَوَجْهُهُ عَظِيمٌ لَا لَحْمَ عَلَيْهِ عُقُوبَةٌ لَهُ وَعَلَامَةٌ لَهُ بِذَنْبِهِ حِينَ طَلَبَ وَسَأَلَ بِوَجْهِهِ، كَمَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الْأُخْرُ بِالْعُقُوبَاتِ فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْمَعَاصِي... وَهَذَا فِيمَنْ سَأَلَ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ سُؤَالَ مَنْهِيًّا عَنْهُ وَأَكْثَرَ مِنْهُ كَمَا فِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى: «مَنْ سَأَلَ تَكْثُرًا» وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

وهذا وعيدٌ شديدٌ يدل على تحريم كثرة السؤال من الناس.

ولهذا قال العلماء: لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْأَلَ شَيْئًا إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ... فَإِذَا اضْطَرَّ الْإِنْسَانُ فَلَا بَأْسَ أَنْ يَسْأَلَ.. أَمَا أَنْ يَسْأَلَ لِلْأُمُورِ الْكِمَالِيَّاتِ لِأَجْلِ أَنْ يَسَاقِبَ النَّاسَ فِيمَا يَجْعَلُهُ فِي بَيْتِهِ، فَإِنْ هَذَا لَا شَكَّ فِي تَحْرِيمِهِ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا حَتَّى الزَّكَاةَ وَلَوْ أُعْطِيَهَا فَلَا يَأْخُذُهَا لِإِنْفَاقِهَا فِي الْأُمُورِ الْكِمَالِيَّةِ الَّتِي لَا يَرِيدُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ يَسَاقِبَ النَّاسَ وَيَمَارِيهِمْ، أَمَا الشَّيْءُ الضَّرُورِيُّ فَلَا بَأْسَ بِهِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٦) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ: «الْيَدِ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدِ الْعُلْيَا هِيَ الْمُتَّقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٨٣-١٨٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٣) كتاب الزكاة.

(٥٣٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لْيَسْتَكْثِرْ»^(١).

✽ يعنى مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ لِيُكْثِرَ بِهَا مَالَهُ، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لْيَسْتَكْثِرْ ... إِنْ اسْتَكْثَرَ زَادَ الْجَمْرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ اسْتَقَلَّ قَلَّ الْجَمْرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ تَرَكَ سَلِمَ مِنَ الْجَمْرِ ... أَى: فَهُوَ مُخِيرٌ إِذَا عَرَفَ مَالَ ذَلِكَ بَيْنَ الْاسْتِكْثَارِ وَالْاسْتِقْلَالِ فَيَكْثُرُ بِهِ عَذَابُهُ أَوْ يَقِلُّ.

وفى هذا دليل على أن سؤال الناس بلا حاجة من كبائر الذنوب.
قال القاضي: مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُعَاقَبُ بِالنَّارِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ الَّذِي يَأْخُذُهُ يَصِيرُ جَمْرًا يُكْوَى بِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي مَانِعِ الزَّكَاةِ^(٢).
قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٨) وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ، إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ سُلْطَانًا أَوْ فِي أَمْرٍ لَا بُدَّ مِنْهُ»^(٣).

✽ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن سؤال الناس لغير حاجة ولا ضرورة كَدٌّ يَكُدُّ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ ... والكد: المكدة وهى الحديد التى يحفر بها الإنسان

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٤١) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٨٤/٧).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٩٤٧).
«الكَدُّ»: الْخَدَشُ وَنَحْوُهُ.

في خشب ونحوه، فكأنه يوم القيامة يسقط لحم وجهه من سؤاله في الدنيا، فتأتى المسألة عليه يوم القيامة كخدوش وشقوق في وجهه بسبب عدم حياته من الله عز وجل في الدنيا وسؤاله الناس إلحافاً.

لكن يُستثنى (أن يسأل الرجل سلطاناً) يعنى يسأل الحاكم حقه... كأن يريد الحق الذى له في بيت المال ونحو ذلك إن كان محتاجاً.

(أو في أمر لا بد منه)، كمن نزلت به كارثة أو مصيبة فيسأل الناس بسبب المصيبة التى نزلت به، فهذا معذور.. لكن يسأل بقدر الحاجة فإن زالت فليُمسك ولا يسأل بعد ذلك... ولكن الذى يسأل أموال الناس يستكثر منها فهو داخل في هذا الحديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٣٩) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ، فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»^(١).

❖ أى: مَنْ نزلت به حاجة شديدة أو فقرٌ شديد وضيق في المعيشة.. فأَنْزَلَهَا بالناس: أى: عرضها عليهم وأظهرها بطريق الشكاية لهم وطلب منهم إزالة فاقته واعتمد وتوكل عليهم وطمع فيما عندهم «لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ» أى: لم تُقَصَّ حاجته ولم تُزل فاقته.. وكلما سُدَّت حاجته أصابته حاجة أخرى أشد منها لأن مَنْ تعلق بشيءٍ وُكِّل إليه... ولذا فسوف يستمر دائماً يسأل ولا يشبع.

«وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِاللَّهِ» فتوكل على الله واعتمد عليه وأخذ بالأسباب «فَيُوشِكُ اللَّهُ لَهُ بِرِزْقٍ عاجِلٍ أَوْ آجِلٍ» أى: أن الله عز وجل سيرزقه عاجلاً أو آجلاً ويُفرج كربته

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٦٠٤١).
«يُوشِكُ» بكسر الشين: أى يُسرِعُ.

ويسد فاقتة إن توكل عليه ولم يتوكل على الناس.

وفي رواية أبي داود: «أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل أو غنى عاجل». قال القارى في شرح قوله: «إما بموت عاجل» قيل: بموت قريب له غنى فيرثه. وقيل في قوله: «بموت عاجل» أى: فإما أن يرزقه ما يكفيه أو يأخذه سبحانه وتعالى فيعطيه جنته، ويكون من أهل المصائب الذين يكرمهم الله ﷻ عنده.

بَابُ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ

(٥٤٠) وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا، وَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟» فَقُلْتُ: أَنَا، فَكَانَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا^(١).

✽ إن النبي ﷺ يعلم أنه مهما كافأ أى إنسانٍ بأمرٍ من أمور الدنيا فإن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. ثم أنها ستزول عما قريب أو أننا سنتركها عما قريب.

ولذلك كان النبي ﷺ لا يعرض على أصحابه أى أمرٍ من حُطام الدنيا الفانية بل كان دائماً يُكلفهم ويعرض عليهم الجنة.. ففى بيعة العقبة الثانية قال لهم فى نهايتها: ولكم الجنة.. أى إن بايعتم والتزمتم ببندود البيعة فلكم الجنة.. وكان يقول ﷺ: «مَنْ يَحْفَرُ بئر رومة وله الجنة» «مَنْ يُجْهَزُ جيش العُسرة وله الجنة» «مَنْ يَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ وَهُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ» «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا».

فالجنة مقابل عدم سؤال الناس... وفى هذا تعليم النبي ﷺ للمسلمين التعفف وألا يطلبوا من الناس شيئاً... فكل ما يقدر الإنسان أن يفعله بنفسه فليفعله؛ حتى لا يتعود الخدمة من الناس.

بَابُ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٠٤).

(٥٤١) وَعَنْ أَبِي بَشِيرٍ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فِيهَا، فَقَالَ: «أَقِمَّ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا» ثُمَّ قَالَ: «يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدٍ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ تَحْمَلُ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا، ثُمَّ يُمْسِكُ. وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاخَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ، حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةً مِنْ ذَوَى الْحِجْبَى مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ، أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ. فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتُ، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»^(١).

❦ وفي هذا الحديث يحكى قبيصة أنه كان يُصلح بين الناس.. وكان من ضمن الإصلاح أنه تحمّل أموالاً وأراد أن يؤديها من أجل أن يُصلح بين الناس.. فذهب إلى أهل الفضل ليساعدوه فيما تحمله.. فذهب إلى النبي ﷺ وأخبره بما حدث..

قال الإمام النووي رحمته الله: قَوْلُهُ (تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً) هِيَ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَهِيَ الْمَالُ الَّذِي يَتَحَمَّلُهُ الْإِنْسَانُ أَى يَسْتَدِينُهُ وَيَدْفَعُهُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ كَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ... وَإِنَّمَا تَحِلُّ لَهُ الْمَسْأَلَةُ وَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ بِشَرْطِ أَنْ يَسْتَدِينَ لِغَيْرِ مَعْصِيَةٍ^(٢).

فلما سمع النبي ﷺ كلامه قال له: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل لأحدٍ إلا لثلاثة»، فعلمه النبي ﷺ أن الحالة الذى هو فيها من الحالات التى تحل فيها

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٤٤) كتاب الزكاة.

«الحمالة» بفتح الحاء: أَنْ يَقَعَ قِتَالٌ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ، فَيُصْلَحُ إِنْسَانٌ بَيْنَهُمْ عَلَى مَالٍ يَتَحَمَّلُهُ وَيَلْتَزِمُهُ عَلَى نَفْسِهِ. و«الجائحة» الآفة تُصِيبُ مَالَ الْإِنْسَانِ. و«القوام» هُوَ مَا يَقُومُ بِهِ أَمْرُ الْإِنْسَانِ مِنْ مَالٍ وَنَحْوِهِ و«السداد» مَا يَسُدُّ حَاجَةَ الْمُعْزِرِ وَيَكْفِيهِ، و«الفاقة»: الْفَقْرُ. و«الحجى»: الْعَقْلُ.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٨٧/٧).

المسألة. فمن هذه الحالات: «رجل تحمل حَمالة فحَلَّتْ له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك».

«رجلٌ تَحْمِلُ حَمالة»، يعنى التزم فى ذمته لإصلاح ذات البين، فهذا يُعطى وله أن يسأل حتى يصيبها، ثم يُمسك ولا يجوز له أن يسأل بعد ذلك.

والثانى: ورجل آخر أصابته جائحة اجتاحت ماله... كنارٍ وغرق وعدوٌ وغير ذلك، فيسأل حتى يصيب قوامًا من عيش ثم لا يجوز له أن يسأل بعد ذلك.

والثالث: رجلٌ كان غنيًّا فافتقر بدون سبب ظاهر، وبدون جائحة معلومة، فهذا له أن يسأل، لكن لا يُعطى حتى يشهد ثلاثة من أهل العقول من قومه بأنه أصابته فاقة، فيعطى بقدر ما أصابه من الفقر.

فهؤلاء الثلاثة هم الذين تجلُّ لهم المسألة وما سوى ذلك يقول الرسول ﷺ: «وَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، يَا قَبِيضَةُ، سُحْتُ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا».

والسُّحْت هو الحرام.. وسُمِّي سُحْتًا؛ لأنه يسحت بركة المال، وربما يسحت المال كله، فيكون عليه آفات وغرامات تسحت ماله من أصله والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٤٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمُسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرْدُهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يَقْطُنُ لَهُ، فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»^(٢).

* قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَعْنَاهُ: الْمُسْكِينُ الْكَامِلُ الْمَسْكَنَةُ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالصَّدَقَةِ وَأَحْوَجُ إِلَيْهَا لَيْسَ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢١١-٢١٣) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٩) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٩) كتاب الزكاة.

هُوَ هَذَا الطَّوَّافُ، بَلْ هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ... وَلَيْسَ مَعْنَاهُ نَفَى أَصْلِ الْمَسْكَنَةِ عَنِ الطَّوَّافِ، بَلْ مَعْنَاهُ نَفَى كَمَالِ الْمَسْكَنَةِ... كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ^(١).

فهذا الذي لا يقدر أن يعمل ويستحي أن يسأل الناس ولا يعرف أحد أنه فقير محتاج بسبب تعفُّفه.. هو أحق من تذهب إليه بركة مالك وصدقتك.. فاحرص على أن تبحث عن مثل هذا وأن تعطيه زكاة مالك لأن هذا هو الذي يستحق.. وليس الذي يطوف على الناس ليلاً ونهاراً لا يستحي من أحد أبداً حتى أنها أصبحت مهنة لآلاف المتسولين.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٨٢).

(٥٨) باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطلع إليه

(٥٤٣) عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْطِينِي الْعَطَاءَ، فَأَقُولُ: أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي، فَقَالَ: «خُذْهُ، إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ، فَخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ فَإِنْ شِئْتَ كُلَّهُ، وَإِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ، وَمَا لَا، فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ» قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا، وَلَا يَرُدُّ شَيْئًا أُعْطِيَهِ ^(١).

✽ يعنى أن الإنسان لا ينبغى له أن يعلق نفسه بالمال فيتطلع إليه أو يسأل، لأن ذلك يؤدي إلى ألا يكون له هم إلا الدنيا... والإنسان إنما خلق في الدنيا من أجل الآخرة... قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

فلا ينبغى للإنسان أن يعلق نفسه بالمال أو يهتم به... إن جاءه من غير تعب ولا سؤال ولا استشراف نفس فيقبله، وإلا فلا.

فكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يسأل أحداً شيئاً، وإذا جاءه شيء من غير سؤال قبله، وهذا غاية ما يكون من الأدب، ألا تُذل نفسك بالسؤال، ولا تستشرف للمال وتعلق قلبك به.

وإذا أعطاك أحد شيئاً فاقبله؛ لأن ردَّ العطية والهدية قد يحمل من أعطاك على كراهيتك فيقول: هذا الرجل مستكبر... هذا الرجل متعطرس، وما أشبه ذلك.

فالذى ينبغى أن من أعطاك بغير مسألة تقبل منه، إلا إذا كان الإنسان يخشى ممن أعطاه أن يمتنَّ به عليه في المستقبل فيقول: أنا أعطيتك، أنا فعلت معك كذا وكذا وما أشبه ذلك... فهنا يردّه؛ لأنه إذا خشى أن يقطع المعطى رقبته بالمنة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٣) كتاب الزكاة، (٧١٦٣) كتاب الأحكام - ومسلم (١٠٤٥) كتاب الزكاة.

«مُشْرِفٌ» بالشين المعجمة: أى: مُتَطَلِّعٌ إِلَيْهِ.

عليه؛ فليحِم نفسه من هذا^(١).

❁ وفي هذا الحديث يقول عمر: (كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه مَنْ هو أفقر إليه مني)، يعطيه من الأموال التي تأتي النبي ﷺ من مغانم الفىء ونحو ذلك، فكان يقسمها على ما أمر الله ﷻ به في الغنائم...

قال الله سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية.

فذكر أن الخمس يُصَرَف في هذه المصارف... والأربعة الأُخماس تكون للغانمين المجاهدين في سبيل الله ﷻ، وإذا كان المال فيئاً فقال الله سبحانه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧].

فكان النبي ﷺ يقسم هذا المال بحسب ما أمر الله سبحانه ﷻ به، فكان يقسم على المؤمنين بحسب ما أعطاه الله سبحانه... قد يعطى الجميع، وقد يعطى الأكثر، وقد يعطى البعض بحسب المال.

قال عمر رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء)، كأنه تكرر هذا الشيء من النبي ﷺ أن يعطيه، (فأقول: أعطه مَنْ هو أفقر إليه مني) يعني يوجد مَنْ هو أفقر مني، وأحوج مني لهذا المال.

فلما تكرر هذا من عمر رضي الله عنه علَّمه النبي ﷺ فقال: «خُذْهُ، إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ».

المُشْرِف: الذي يتطلع إليه يريده، والسائل: الطالب... فالمشرف: أن يكون في نفسه يريد أن يأخذ هذا المال ولكن لا يسأل، وقد يريد الإنسان ويطلب ويسأل.. وعمر لا يفعل هذا ولا هذا، لا سأل النبي ﷺ ولا استشرت نفسي هذا المال.

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢١٤-٢١٥) بتصرف.



فقال له النبي ﷺ: «إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مُشرف ولا سائل فخذْه فتموله»، العطاء هو الذي يُعطاه الإنسان، وقد كان النبي ﷺ يعطي، ومن بعده الخلفاء الراشدون كانوا يعطون الأموال من المغنم والفيء وغير ذلك أُعطيات. وكان عمر رضي الله عنه في عهده يعطي الناس على حسب تقدُّمهم في الإسلام وتقدُّمهم في الهجرة وقربهم من النبي ﷺ وغير ذلك... فجعل كل سنة راتبًا لكل إنسان منهم حتى عم الخير بفضل الله سبحانه وتعالى على الجميع. فتعلم عمر من النبي ﷺ أنه إذا جاءك من هذا المال شيء فاقبله طالما أنك لم تسأله ولم تستشرف له، فخذ ما آتاك الله سبحانه وتعالى من بيت المال... وقد أعطى النبي ﷺ لعمر من مال الغنائم ومن مال الفيء ونحو ذلك. قال: «فخذْه فتموله» أي: اتخذه مالًا وانتفع به.

«فإن شئت كله وإن شئت تصدق به» فخذْه وتموله إن احتجت إليه، وإن لم تحتج إليه فاقبله وأعطه للفقراء، فيجري الله ﷻ على يدك الخير، ولا تمتنع من هذا المال طالما أنك لم تسأله، ولكن إما أن تنتفع به إذا كنت محتاجًا أو تعطيه لغيرك.

وهذا أدبٌ عظيم علمه النبي ﷺ لعمر ولغيره... المال الذي من بيت المال حق المسلمين.. ما أتى من أجل أن يُدَّخر في بيت المال، ويمكث عند النبي ﷺ أو عند الخلفاء من بعده، بل يُوزَّع هذا المال بحسب ما يريد الله ﷻ. ولو أنه أعطى هذا المال لعمر وقال عمر: لا أريد، فغيره من الناس أيضًا سيقولون: لا نريد... وعمر ما هو مُستشرف ولا متطلع ولا سائل، ولكن غيره قد يكون مُستشرفًا لهذا المال.

وعمر أخلص في رفضه لله سبحانه، ولعل غيره لا يُخلص في رفضه لهذا الشيء، وسيفتح على الناس باب شر، فيقول أحدهم: لا أريد؛ حياءً من الناس،

وهو يريد به ومحتاج إليه، فيأتي من الباب الخلفي، وإذا لم يكن عنده دين فسوف يسرق من أموال الناس... فأغلق النبي ﷺ هذا الباب ووضع مبدأً عامًا... فإذا رأيت أنك محتاج فأعطيتك فخذ، فإن كنت غير محتاج فأعطه لمن ترى أنت، ولكن اقبل المال بحيث أن غيرك لا يستحي أن يأخذ حقه من بيت المال.

فتعلم عمر رضي الله عنه هذا، فأخذ هذا المال، وكان يعطى من هذا المال بعد ذلك لأصحاب النبي ﷺ لما تولى الخلافة، وقسم الناس حسب مراتبهم في الإسلام ومرتبتهم في الهجرة ومرتبتهم من النبي ﷺ.

وكان حكيم بن حزام يرفض أن يأخذ المال منه، فكان يشهد عليه الناس ويذكر ما حدث بينه وبين النبي ﷺ في هذا الأثر، ويقول: اشهدوا أن حكيمًا لا يريد أن يأخذ المال الذي هو حقه من بيت مال المسلمين.

وفي رواية لهذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «فإن شئت كُلُّهُ وإن شئت تصدق به، وما لا فلا تُتبعه نفسك»، أي: إذا لم تأخذ لحاجة فلا تطمع في شيء، فإذا آتاك الله عز وجل المال فخذ ما آتاك الله سبحانه.

قال سالم بن عبد الله: فكان عبد الله لا يسأل أحدًا شيئًا.

انتفع عبد الله بن عمر بما سمع من أبيه رضى الله عن الجميع، قال: (فكان لا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يرد شيئًا أعطيه) يعنى: ما كان يطلب من الخلفاء شيئًا ولو طلب لأعطوه، فقد كان عبد الله بن عمر محبوبًا رضي الله عنه.

ولكنه ما كان يطلب من أحدٍ شيئًا، فإذا أعطاه الخلفاء أو أعطاه أحد على وجه الهدية قبل ذلك، لكنه كان لا يطلب... والسبب ما سمعه من حديث النبي ﷺ ذلك، فهو يأخذ المال فينتفع به إما لنفسه وإما أن يتصدق به أو يعطى الناس على وجه الهدية ونحوها^(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

(٥٩) باب الحث على الأكل من عمل يده والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

✽ ذكر المؤلف باب الحث على الأكل من عمل يده، والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء.

فالمسلم يعمل ويتكسب ويعلم أن أشرف المكاسب ما تعب فيه وكَدَّ وكدح، وجاءه المكسب ولو كان قليلاً، ولكنه يفرح بهذا الشيء، فله أجره عند الله؛ لأنه يتعفف ولا يسأل أحداً من الناس، ولأنه يقوت أهله وعياله، ولو ترك ذلك لكان آثماً... وكفى بالمرء إثماً أن يضيع مَنْ يعول... فإذا كان الإنسان يكتسب حتى لا يقع في هذا الإثم فهو مأجور عند الله سبحانه وتعالى.

✽ وفي هذا الباب ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذه الآية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

[الجمعة: ٩-١٠].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين يُنادى لها والسعى إليها... والمراد بالسعى هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العَدْو الذي قد نُهي عنه عند المُضَى إلى الصلاة... وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أى: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها. فإن ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة، التى هى من آكد الفروض. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن مَنْ أثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح...

وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات.. ولما كان الاشتغال بالتجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره لينجبر بهذا، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أى فى حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح^(١).

فيوم الجمعة يوم عيد... فإذا صليت الجمعة وأديت ما عليك، فاذهب وابْتَغِ من فضل الله بالعمل، أو بالصناعة أو بالتجارة... ما طلب منك ربنا أنك تقعد يوم الجمعة فى البيت، وأن تستريح فى الجمعة أو فى غيرها، ولكن الله هَيَّجَكَ أَمَرَكَ أَنْ تَكْتَسِبَ، فابتغ من فضل الله سبحانه وإذا أديت الفرض فأنت حُرٌّ فى أن تستريح أو تعمل، ولكن لا تمد يدك للناس وأنت قادر على أن تعمل وتكتسب.

بِمَا يَكُونُ مِنْكُمْ

(٥٤٤) وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبَلَهُ ثُمَّ يَأْتِيَ الْجَبَلَ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»^(٢).

(٥٤٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»^(٣).

❁ إن الإسلام دين يدعو إلى العمل... بل ويعتبر العمل من نوافل العبادات التى يتقرب بها العبد إلى الله بشرط ألا يشغله العمل عن عبادة الله (جل وعلا).

فما أجمل أن يعمل العبد عملاً حلالاً ويكسب رزقاً حلالاً فينفق على أهله

(١) تفسير السعدى (ص ١٠٢٤-١٠٢٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٤٧١) كتاب الزكاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٧٤) كتاب البيوع، ومسلم (١٠٤٢) كتاب الزكاة.

وأولاده ويتصدق على الفقراء والمساكين.

وما أقبح أن يعيش المسلم عائلة على الناس فيسأل هذا ويأخذ من هذا...
فاليد العليا خير من اليد السفلى.

ولذلك كان النبي ﷺ يحضنا على الأكل من عمل اليد والتعفف عن سؤال الناس...

❁ وفي هذا الحديث يحث النبي ﷺ أصحابه وأمته على العمل والكسب من عمل اليد حتى ولو كان ذلك من خلال مهنة يأنف أن يعمل بها كثير من الناس لأن فيها مشقة كبيرة وهي مهنة جمع الحطب.

والصحابه ما كانوا حطّابين... ومهنة جمع الحطب من أقل المهن، ولكن مهما كانت فهي أفضل من أن يسأل الإنسان غيره... فالصحابه منهم التجار ومنهم الزّراع، وأهل المدينة كانوا متعودين على الزراعة، والمهاجرون كانوا متعودين على التجارة، ولكن لا ينبغي أن يقعد الإنسان من غير عمل.

فالنبي ﷺ يعلم المسلم ألا يسأل أحدًا شيئًا، فيقول: خذ حبلًا على كتفك واذهب إلى الجبل فاحتطب من هناك، ثم بع هذا الحطب للناس، فتتفع بهذا الشيء فتكسب وتؤجر على ذلك.

قال ﷺ: «فبيعهما فيكف بها وجهه»، سيبع ويكسب ويكف الله ﷻ وجهه بذلك ويكتفى ولا يسأل أحدًا شيئًا، فهذا خير له وأفضل له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه.

فسؤال الناس فيه ذلٌّ، حتى لو أعطوك فتوجد منة من الذي أعطاك، فالأفضل أن لا تسأل أحدًا.

ولذا قال هنا: (خير له)، السؤال لا خير فيه إلا للمحتاج أو المضطر، أما غير ذلك فسؤال الناس لا خير فيه.

فالخير للإنسان أن يكتسب بنفسه ويتعب نفسه... فعلينا أن نكسب المال الحلال من وجهه، ما ننتظر المال الحرام، وما ننتظر أن يُنزل الله علينا رزقاً من السماء، ولكن نبحث عن ذلك ونمشي في الأرض وننتشر فيها ونأكل من رزق الله ونبحث عن فضل الله سبحانه.

والإنسان لا يستكبر عن أى عمل مهما كان هذا العمل... وكثير من الشباب يبحثون عن أعمال وإذا وجد أحدهم عملاً قال: هذا العمل لا يناسبني!
جلوسك في البيت أذل لك من عمل لا يناسبك... ابحث عن العمل الحلال ولو كان من أقل الأعمال، طالما أنك تكف به نفسك عن سؤال الناس، فهذا خير لك وأفضل لك، حتى ولو كانت الأجرة فيه قليلة... ولو علم الله عز وجل في قلبك الخير لأعطاك الكثير بعد ذلك لصبرك وتعففك عن سؤال الناس... فيجب على الإنسان المسلم أن يبحث عن الرزق الحلال من وجهه، ولا يقعد في البيت ينتظر من ينفق عليه، ولا يقعد في البيت وينتظر إنساناً يعطيه مالاً يُقرضه، وليس عنده ما يُسدد به هذا القرض!

جاء شابان إلى النبي ﷺ يسألانه فنظر إليهما، فوجدهما شابين جليدين، فقال: «إن شئتما أعطيتكما، واعلما أنه لا حظ في هذا المال لغنى ولا لذي مرة سوى».

يعنى: سأعطيكما من هذا المال إذا كنتما محتاجين أو مضطرين، لكن: «لا حظ في هذا المال لغنى».

وقد يقولان: نحن فقراء ما عندنا فقال: «ولا لذي مرة سوى»، فالشاب القوى الذي فيه جلد وفيه قوة لا حظ له في مال الصدقة ولا حظ له في مال الزكاة.

فلا تأخذ مالاً لا تستحقه، واسع في طلب الرزق واعمل، وبفضل الله

يرزقك سبحانه: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا آخَذَ مِنْكُمْ وَبَغِضَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه هنا قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره»، لن يأخذ معه حمارًا أو حصانًا يحمله عليه، بل سيحمله على ظهره «خير له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه».

فالأفضل للإنسان أن يتعب في طلب الرزق، وهذا أفضل من أن تمد يدك لإنسان فيقول لك: ما عندي.. فاذهب واعمل فأنت قوى تقدر على أن تعمل، ولا تمد يدك إلى أحد من الخلق.. ومُدَّ يدك إلى الله الذي يرزق كل المخلوقات سبحانه وتعالى.

✽ كان هناك رجل فقير يعيش في كوخ صغير... وكان هذا الرجل لا يعمل... وعنده زوجة وأولاد لا يجدون لقمة واحدة فما كان من هذا الرجل إلا أنه ذهب إلى النبي ﷺ ليطلب منه ما لا يشتري به طعامًا له ولأولاده.

فسأله النبي ﷺ: «هل تعمل؟» فقال الرجل: لا.

فسأله النبي ﷺ: «هل عندك شيء في بيتك؟».

قال له الرجل: عندي كساء نلبس بعضه ونضع بعضه على الأرض لنجلس عليه وعندي أيضًا إناء نشرب فيه.

فأمره النبي ﷺ أن يعود إلى بيته وأن يُحضر الإناء والكساء.

فذهب الرجل إلى بيته وأخذ الإناء والكساء وذهب بهما إلى رسول الله ﷺ.

فأخذهما النبي ﷺ وقال لمن حوله من أصحابه: «مَن يشتري هذا الكساء

ومَن يشتري هذا الإناء؟».

قال واحد من أصحابه: أنا أشتريها يا رسول الله بدرهم.

فقال النبي ﷺ: «مَن يزيد على درهم؟».

قال رجل آخر: أنا أشتريهما بدرهمين.

فوافق النبي ﷺ وأخذ الدرهمين وأعطاهما للرجل الفقير.

فقال له الرجل الفقير: ماذا أصنع بهذين الدرهمين يا رسول الله؟

فأمره النبي ﷺ: أن يشتري بالدرهم الأول طعامًا لزوجته وأولاده.

وأن يشتري بالدرهم الثاني قدومًا (شاكوًا).

فتعجب الرجل وقال: وماذا أصنع بهذا القدوم يا رسول الله؟

فقال له رسول الله ﷺ: «تذهب وتجمع الحطب ثم تبعه في السوق... وتفعل

ذلك كل يوم... وأريد أن أراك بعد خمسة عشر يومًا».

سمع الرجل كلام النبي ﷺ فذهب وجمع الحطب وباعه.

وبعد مرور خمسة عشر يومًا جاء الرجل إلى رسول الله ﷺ.

فقال له رسول الله ﷺ: «ماذا صنعت في الأيام الماضية؟».

قال له الرجل: ذهبت يا رسول الله وجمعت الحطب ثم بعته... وكسبت

عشرة دراهم.

فقال له النبي ﷺ: «هذا خير لك من أن تطلب مالا من الناس».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٤٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَأْكُلُ إِلَّا

مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(١).

(٥٤٧) وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَجَارًا»^(٢).

(٥٤٨) وَعَنْ الْمُقَدِّمِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرَبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا

قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»^(٣).

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٠٧٣) كتاب البيوع.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٧٩) كتاب الفضائل.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٠٧٢) كتاب البيوع.

❁ ففي تلك الأحاديث يخبر النبي ﷺ أن الأنبياء (صلوات ربي وسلامه عليهم) كانوا يعملون.. فمنهم مَن كان يرعى الغنم ومنهم مَن كان يعمل نجارًا ومنهم مَن كان يصنع الدروع.. وهكذا.

وهنا يقول النبي ﷺ: (كان داود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده).

داود عليه السلام كان ملكًا، ومع هذا كان يأكل من عمل يده! وغيره من الأنبياء كانوا يعملون.. ولكن ذكر النبي ﷺ لنا هنا داود عليه السلام لأن العادة أن الملوك لا يشتغلون بالكسب، وعندما يذكرون عنه أنه كان يصنع الدروع قد يُظن أن المقصود أن الأتباع هم الذين كانوا يصنعون السوابغ، يعنى الزرود والدروع.

فلأنه ملك فقد كان الذين حوله هم الذين يصنعون، لكن النبي ﷺ يذكر الشيء على حقيقته، فأخبر أن داود كان لا يأكل إلا من عمل يده، فيعمل عليه الصلاة والسلام وهو ملك من الملوك.. ملكه الله عز وجل على بنى إسرائيل ومع ذلك كان يصنع الزرود، أى: يصنع القمصان من الحديد ليلبسها المجاهدون ويبيعها ويأكل من هذه الصنعة.

بل أخبر النبي ﷺ أن زكريا عليه السلام كان يعمل نجارًا.

وعندما نزل آدم عليه السلام من الجنة وأهبط إلى الأرض كان يعمل حرًا فيزرع ويأكل من حصاد ذلك الزرع.

(وكان نوح نجارًا) فعلم النجارة وكان لا يعلم شيئًا عن صناعة السفن، فأوحى إليه ربه سبحانه أن يصنع السفينة.

قال: (وكان إدريس عليه الصلاة والسلام خياطًا، وكان موسى راعيًا) وكون موسى راعيًا فهذا مذكور في القرآن، حيث استؤجر ثمان سنوات أو عشر سنوات ليعمل بالرعى مقابل أن يتزوج عليه الصلاة والسلام ابنة الرجل الصالح من أهل مَدْيَن.

والغرض أن الأنبياء كانوا يعملون، ونبينا ﷺ عَمِلَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ... كان يعمل في رعي الغنم ﷺ، وما من نبي إلا ورعى الغنم، وكذلك تاجر مع السيدة خديجة (رضي الله عنها) ... فتاجر وكسب وربح ما لا كثيراً (صلوات الله وسلامه عليه).

وبعد ما أوحى إليه (صلوات الله وسلامه عليه) وهاجر وفرض الجهاد جعل الله للنبي ﷺ أعظم المكسب، فقال: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»، يعني الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى... فرزقه كان من المغانم، وما كان يأخذها ويستأثر بها على المسلمين وإنما كان له الخُمس من المغانم.... فالمغنم يُقَسَّمُ أَخْمَاسًا كما في قوله تعالى^(١): ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ أى: وباقية لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خُمسها. فدلَّ على أن الباقي لهم، يُقَسَّمُ على ما قسمه رسول الله ﷺ: للراجل سهم، ولل فارس سهمان: سهمٌ لفارسه، وسهم له.

وأما هذا الخُمس، فيُقسَّمُ خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يُصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله... والله ورسوله غنيان عنه، فعُلم أنه لعباد الله. فإذا لم يُعين الله له مصرفاً، دلَّ على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخُمس الثاني: لذى القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بنى هاشم وبنى المطلب. وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوى فيه غنيهم وفقيرهم، ذكَّرههم وأنثاهم.

والخُمس الثالث لليتامى، وهم الذين فُقدت آبائهم وهم صغار، جعل الله لهم خُمس الخُمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

فَقَدْ مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ.

والخمس الرابع للمساكين، أى: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به فى غير بلده^(١).

❦ وأما قوله ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطْ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».

فخير الطعام وأفضل الطعام الذى تأكله مما كسبته بعرق جبينك فأطيب المال وأطيب الطعام هو الذى تعبت أنت فاكسبته بتعبك وعرق جبينك. فقد يأكل الإنسان من هدية.. وقد يأكل الإنسان من صدقة.. وقد يأكل الإنسان من طعام فلان، ولكن طعامك الذى اكتسبته بمالك وتعبت فيه واجتهدت فيه هذا هو أطيب الطعام لك وأفضل الطعام لك.

وقد سبق أن ذكرنا أن أسوتنا وقدوتنا رسول الله ﷺ كان يرفع الغنى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطٍ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(٢).

ﷺ

(١) تفسير السعدى (ص ٣٥٤-٣٥٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

(٦٠) باب الكرم والجود والإنفاق

في وجوه الخير ثقة بالله تعالى

✽ ذكر المصنف باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى.

والثقة بالله عظيمة.. فالمؤمن واثق في الله، ووعد الله حق، لا يخلف الله الميعاد.. فإذا قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] فيقينا أنه يخلفه سبحانه وتعالى... والمسلم يعتقد ذلك يقيناً ويقسم على ذلك، فإن الله عز وجل هو الذى وعد بذلك، والله لا يخلف الموعد أبداً.

فهنا في هذه الآية قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] فأنفق ولا تحف... فربنا سيخلف غيره، على شرط ألا يكون في الإنفاق سرف أو يكون الإنفاق في غير محلّه، فما كان واجباً عليك فأخرجه، ولا تنظر للنافلة وتترك الفرض الذى عليك! لا يجوز للإنسان الذى عليه زكاة مال أن يقول: أخرج صدقة بدل زكاة المال.. فزكاة المال فرض عليك، فأخرج أولاً زكاة المال، ثم بعد ذلك أنت حر فتصدق أو لا تتصدق، ولكن الزكاة فرض عليك، والإنسان يجب عليه أن ينفق على عياله ولا يترك عياله جائعين وليس عندهم كسوة، ويصرف على إنسان غريب وعياله يحتاجون إلى ذلك، فأهل البيت أولى.

النبي ﷺ قال: «ابدأ بنفسك، وابدأ بمن تعول»، فتبدأ بنفسك وتبدأ بأقاربك الذين تعولهم ثم بعد ذلك أعط الغريب... ولذلك النفقة على القريب فيها أجران، صلة وصدقة، والنفقة على الغريب صدقة فقط، فالنفقة على القريب أعظم أجراً منها على الغريب.

✽ قال سبحانه: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾ يعنى: مهما أنفقتم من النفقات فى خير: ﴿فَلَا تُفْسِدُكُمْ﴾
يعنى: نفعها لأنفسكم.

فقد قال الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾

[الحج: ٣٧].

✽ فالمسلم الذى ينحر الذبائح سواء كان ذلك فى الهدى أو الأضحية وغيرها.. هل هو يفعل ذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ سيستفيد منها؟ كلا.. فقد قال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا﴾ [الحج: ٣٧] لن ينال الله سبحانه وتعالى هذه اللحوم، ولن ينتفع بذلك حاشا لله سبحانه، ولكن ما هو الذى يصل إلى الله؟ الذى يصل إلى الله التقوى... ويُرفع إليه العمل الصالح، والتقوى تُرفع إليه لتؤجروا أنتم على هذه التقوى من فضل الله سبحانه.

وهنا قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

يعنى الأصل أنك لا تنفق نفقة إلا وأنت مُستحضر أن هذه لله ليست رياءً ولا سُمة.. ليس لأن يقول الناس: فلان أنفق أو يُلقبوه بالجواد والمنفق، ولكن ينفق ليبتغى وجه الله سبحانه: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].
سيعطيك الله على الشئ الذى أنفقته عشرة أضعافه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة... بل لو لم تنفق أخذت مثله... فأنت إذا نويت النفقة ثم بدا لك أنك محتاج لهذا المال، أو بعدما جئت لتتصدق تذكرت أن عليك دينًا... وقضاء الدين أفضل، فلم تنفقه وأرجعت المال إلى جيبك، فالله عَزَّوَجَلَّ يأجرك وكأنك أنفقت هذا المال!... انظر إلى كرم ربك سبحانه وتعالى، أنت لم تفعل وأعطاك الأجر كأنك فعلت، فالله يوفى لك المكيال... فلا يُعطيك مثل الذى أنت عملته فقط، بل أوفى وأوفى وأفضل.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ يعنى: والحال أنكم لا تظلمون من الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]
 فإذا علم ذلك فهو يُخلف عليك ويأجرك عليه ^(١).

بِمَا يَنْفِقُ وَيَأْجُرُ

(٥٤٩) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ:
 رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي
 بِهَا وَيُعَلِّمُهَا» ^(٢).

✽ الحسد يُطلق ويُراد به الحسد المحرم الذي هو من كبائر الذنوب وهو
 أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره... هذا هو الحسد أن تكره ما أنعم الله
 به على غيرك... تجد إنساناً عنده مال فتكره ذلك وتقول: ليت الله ما رزقه...
 تجد إنساناً عنده علم تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه العلم... عنده أولاد
 صالحون تكره ذلك وتتمنى أن الله لم يرزقه... وهَلُمَّ جَرًّا... هذا هو الحسد
 وهذا النوع من كبائر الذنوب.

وهو من خصال اليهود كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا
 آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وقال عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
 الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ
 مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أما النوع الثاني من الحسد فهو حسد الغبطة يعنى الذى تغبط به غيرك أن
 أنعم الله عليه بمال أو علم أو ولد أو جاه أو غير ذلك.

فالغبطة هى تمنى مثل ما عند الغير دون تمنى زوال ما عند الغير.. فإذا

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ أحمد حطية.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.

معناه: يَتَّبَعْنِي أَنْ لَا يُغْبِطَ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى إِحْدَى هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ.

وجدت جارك قد أنعم الله عليه بسيارة جميلة تقول: اللهم بارك له فيها واجعلها عوناً له على طاعتك وارزقني مثله.

فالناس يغبط بعضهم بعضاً على ما آتاهم الله من النعم... يقول: ما شاء الله فلان أعطاه الله كذا فلان أعطاه الله كذا... لكن لا غبطة إلا في شيئين: الغبطة الحقيقية التي يُغبط عليها الإنسان شيئان: الأول العلم، العلم النافع وهو المراد بقوله: «رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلمها».

فالحكمة تُطلق على معانٍ منها أن يضع الشيء في موضعه.

فالحكيم يفكر بالعقل وعنده قلب وفيه لب...

وتُطلق بمعنى العلم... وتُطلق الحكمة بمعنى سنة النبي ﷺ... والحكمة بمعنى الإصابة في الدين.

فهذا رجل أعطاه الله عز وجل علماً في الكتاب وعلماً في سنة النبي ﷺ، وأعطاه الحكم الصواب في الأشياء فهذا حكيم، فهو يقضى بها ويُعلمها.

قال: «رجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها» يعنى أفعاله مبنية على الحكمة، لا يخالف قوله عمله، ولا يخالف عمله علمه، ولكن يعمل بما علم... آتاه الله حكمة فهو يقضى بها في أفعاله وفي قضائه ويُعلمها للناس.

هذا الذي يستحق أن يقول الإنسان: يا ليتني مثله.

فهذا الذي يُغبط لأن العلم هو أنفع شيء... أنفع من المال وأنفع للإنسان من الأعمال الصالحة لأنه إذا مات وانتفع الناس بعلمه جرى ذلك عليه إلى يوم القيامة... كلما انتفع به أي إنسان من الناس فله أجر العلم... كلما أنفقت منه وعلمته ازداد... ولهذا من أقوى ما يثبت العلم ويبقى حفظه أن يُعلمه الإنسان غيره لأن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه... فإذا علمت غيرك علمك الله وإذا علمت غيرك ثبت الله العلم في نفسك... لكن لا تتقدم للتعليم

إلا وأنت أهلّ له حتى ينفع الله بك وحتى لا تفشل أمام الناس لأن الذي يتقدم للتعليم وليس أهلاً له بين أمرين: إما أن يقول بالباطل وهو لا يشعر وإما أن يفشل وإذا سُئل عجز عن الإجابة مثلاً... فهذا العلم كل ما أنفقت منه ازداد... أيضاً العلم لا يحتاج إلى تعبٍ إلا في تعلّمه.. لا يحتاج مثلاً إلى خزائن كالمال.. فالمال يحتاج إلى خزائن وإلى محاسبين وإلى حسابات وإلى تعب لكن العلم لا يحتاج إلى هذا.. خزينته قلبك وهي معك أينما كنت فلا تخش عليه أن يُسرق ولا أن يُحرق لأنه في قلبك... فالمهم أن العلم هو أفضل نعمة أنعم الله بها على الإنسان بعد الإسلام والإيمان ولهذا قال: «رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويُعلمها»^(١).

✽ والناس في الحكمة ينقسمون إلى أقسام:

قسم آتاه الله الحكمة فبخل بها حتى على نفسه، لم ينتفع بها في نفسه، ولم يعمل بطاعة الله، ولم يتنّه عن معصية الله، فهذا خاسر والعياذ بالله، وهذا يشبه اليهود الذين علموا الحق واستكبروا عنه.

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة فعمل بها في نفسه، لكن لم ينتفع بها عباد الله، وهذا خيرٌ من الذي قبله، لكنه ناقص.

وقسم آخر أعطاه الله الحكمة فقضى بها وعمل بها في نفسه وعلمها للناس، فهذا خير الأقسام.

وهناك قسم رابع لم يُؤت الحكمة إطلاقاً فهو جاهل، وهذا حُرْم خيرًا كثيرًا، لكنه أحسن حالًا ممن أُوتى الحكمة ولم يعمل بها... لأن هذا يُرجى إذا علم أن يتعلم ويعمل، بخلاف الذي أعطاه الله العلم، وكان علمه وبالأعلى عليه والعياذ بالله^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٢٦-٣٢٧) بتصرف.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢١٨-٢١٩).

❁ أما الثاني: فهو «رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق» يعني صار يبذل ماله فيما يرضى الله ﷻ لا يبذله في حرام ولا يبذله في لغو وإنما يبذله فيما يرضى الله... سلطه الله على هلكته يعني على إنفاقه في الحق.

كان غنياً فسلط ماله بالتصرف في الحق... يُخرجه للفقراء وللمساكين، ولا يضع حق نفسه وحق بيته.. فينفق بالقدر الذي يرضى به ربه سبحانه وتعالى، فالله ﷻ آتاك المال لتُخرجه وليس من أجل أن تُكثره وتكنزه حتى تموت وتتركه لغيرك! بل جعل الله المال لتنفق منه في سبيل الله ﷻ وفي وجوه الخير.

فهذا الإنسان ينفق بالعدل، ينفق بالإحسان، يعطى ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والفقراء وغيرهم... فهذا لك أن تقول: يا ليتنى مثل فلان، يا ليت ربنا أعطانى حتى أكون مثله... وهذا الإنسان لا يحرمه ربه أبداً من فضله ومن كرمه... هذا الغنى الذى يعرف حق الله ويعطى من غير رياء ولا سمعة، فهذا لا يضيعه الله ﷻ، بل يزيد له من فضله ومن كرمه سبحانه.

فهذا أيضاً ممن يُغبط.... فنحن لا نغبط من عنده مال عظيم لكنه بخيل لا ينفق المال.. لا نغبطه بل هذا نتأوه له ونقول هذا المسكين كيف يستطيع الجواب على حساب يوم القيامة على هذا المال من أين اكتسبه وفيما أنفقه وكيف تصرف فيه... لكن إذا رأينا رجلاً آتاه الله مالا وصار ينفقه فيما يرضى الله نقول ما شاء الله هذا يُغبط... لا نغبط إنساناً آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في القصور والديكورات والسيارات الفخمة نحن لا نغبطه على هذا بل نقول هذا مُسرف إذا كان قد تجاوز الحد فيما ينفق... والله لا يحب المسرفين.

هذا لا نغبطه لأنه لم يُسلط ماله في الحق إنما الذى يُغبط من سلط ماله في الحق... أيضاً لا نحسد إنساناً آتاه الله مالا فصار كل ما عن له أن يتزوج تزوج وجمع عنده من النساء الحسان ما لا يجمعه غيره.... هذا لا نغبطه أيضاً إلا إذا

كان قد سلَّطه على هلكته في الحق وأراد بذلك تحصين فرجه وتحصيل السُّنة وكثرة النسل... هذا مقصود شرعى يُغَبِّط عليه الإنسان.

ولكن مَنْ آتاه الله الحكمة يعنى العلم فقضى بها وعلمها فهذا خير الرجلين.. يعنى خيرٌ من صاحب المال الذى سلَّطه على هلكته في الحق نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥٠) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ. مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ»^(٢).

✽ الصحابة أهل صدقٍ وأهل عدل، وجوابهم جواب صدق، وربما لو سُئل غيرهم: هل مالك أحب إليك أو مال الورثة؟ سيقول: مال الورثة، أترك لهم مالا حتى لا يضيعوا... لكن الصحابة عرفوا أن المال اختبار وامتحان من الله ﷻ.

المال في يدك وأنت تتصرف في هذا المال: فالإنسان إما أن ينفقه في الحق ويبقى له الأجر والثواب عند الله ﷻ، وإما أن ينفقه في الباطل فعليه الإثم.. وإما أن يدخره وهذا المُدَّخِرُ إما أن يؤدي زكاة ماله أو لا يؤديها، فإذا أدى زكاة ماله انتفع بقدر هذه الزكاة الواجبة عليه، والباقي لم ينتفع به شيئا، وإذا أخرج من هذا الباقي فأعطى في الحقوق فالله يُنمى هذا بإعطائه.

فالإنفاق خيرٌ للإنسان من أن يترك المال للوارث.

فلما سألهم النبي ﷺ «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» يعنى: أيكم يحب

(١) شرح رياض الصالحين (٣/٣٢٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤٤٢) كتاب الرقاق.

أن الله يرزقه مالا فيجمعه لورثته ويحرم نفسه منه حتى يموت ولم ينتفع بهذا المال ويتركه للوارث!... فقالوا: مالنا أحب إلينا من مال الوارث، فنحن نتحكم فيه ونحكم به ونعطى ونمنع... فقالوا هذا لأنهم أهل صدق وأهل إنفاق رضوان الله عليهم، والمآثر التي تكون عند الله ﷻ لن تكون إلا بالبذل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

فقال ﷺ: «فإن ماله ما قَدَّم»، حقيقة مالك ما قدمته لله سبحانه فادخرته عنده بالإنفاق في وجوه الخير.

قال: «ومال وارثه ما أُخَّر»، الذي ادخرته في الدنيا لن تنتفع به يوم القيامة، وهذا يكون للوارث وليس لك أنت.

ثم أنت أدري بما تصنع في مالك.. أما إذا تركته للوارث فقد ينفقه في مرضاة الله وقد ينفقه في معصية الله ويكون ذلك في ميزان سيئاته وسيئاتك.. وليس معنى ذلك ألا تترك مالا لورثتك لكن المعنى أن تتصدق وأنت حيٌّ وتقدم الخير لنفسك بين يدي الله.. ثم تترك مالا لورثتك حتى لا يحتاجوا من بعدك ولكن توصيهم بتقوى الله.. فإذا فعلوا معصية بهذا المال تكون أنت قد برئت ذمتك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥١) وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»^(١).

✽ يعني لا تستقل الصدقة، وإذا عودت نفسك على الإنفاق ولو بأقل الأشياء يكون لك عند الله ﷻ أجرٌ عظيم يوم القيامة... فإذا أعطيت هذا الإنسان تمرة، وأعطيت الآخر شق تمرة، وأعطيت للثالث مثلها، وأنت لم تحتقر هذا الشيء ولكن جُدت بالموجود، فهذا خيرٌ من المنع.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٧) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم منهم مَنْ ينفق الكثير، ومنهم مَنْ ينفق القليل بحسب ما أعطاه الله سبحانه ﷺ^(١)، فهنا قال النبي ﷺ «اتقوا النار» يعنى اجعلوا بينكم وبين النار وقاية وسترًا وحاجزًا ولو بأقل الأشياء.. ألا وهى شق تمره... أى نصف تمره.

ﷺ

(٥٥٢) وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قطَّ فقال: لا^(٢).

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن النبي ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا.. فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فينبغي علينا أن نتشبهه بالنبي ﷺ في عباداته وأخلاقه ومعاملاته بل في كل شىء.

❁ ولقد كان النبي ﷺ أجود الناس وأكرم الناس حتى وصفه الحق (جل وعلا) بالكرم والجود فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]. وكانت حياته كلها تطبيقاً عملياً لكل ما جاء في القرآن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيُدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»^(٣).

❁ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ لا يدخر شيئاً لغد»^(٤).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما يسُرُّنى أن عندى مثل أحدٍ ذهباً، تمضى على ثلاثٍ وعندى منه دينارٌ إلا شيئاً أرضدُّه لدينٍ، إلا أن أقول به في عباد الله: هكذا،

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٣٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١١) كتاب الفضائل.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦) كتاب بدء الوحي، ومسلم (٢٣٠٨) كتاب الفضائل.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٤٦).

وهكذا، وهكذا. عن يمينه وعن شماله ومن خلفه...»^(١).

ويُروى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببرد، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه. فأخذها النبي ﷺ مُحْتَاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسُنيها فقال: «نعم». فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها مُحْتَاجًا إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئًا فيمنعه. فقال: رجوتُ بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلِّي أكفّن فيها... وفي رواية قال سهل: فكانت كفنه^(٢).

ومن خلال هذا الموقف ندرك معنى حديث جابر رضي الله عنه: «ما سئل النبي ﷺ عن شيء قطُّ فقال: لا»^(٣).

فعلينا ألا نبخل... فكثيرٌ منا يقول: أهلى أولى بمالى، وأنا محتاج لهذا الشيء، وليس مطلوبًا منك مالك كله، ولكن تشبه بالنبي ﷺ بأن تعطى الله سبحانه ﷻ الواجب، وتعطى أيضًا من المستحب حتى يكون لك عند الله ﻋِزَّ وَجَلَّ الأجر، ولا تكن بخيلًا فالإنسان إذا أعطى فهذا خيرٌ له في الدنيا والآخرة. وإذا لم يُعطِ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، فترد السائل بالكلمة الطيبة، تقول مثلاً: إن شاء الله ربنا يعطيك، وإذا ربنا أعطانى فسوف أعطيك... ربنا يرزقنا ويرزقك.. كلمة طيبة أفضل من أن تطرده مُنتَهَرًا له، أو تقول: ما معى. ففرق بين إنسان يقول قولًا كريمًا ميسورًا وبين من لا يعطى وينهر السائل.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٦٨) كتاب الاستئذان - ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٣٦) كتاب الأدب.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٣٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١١) كتاب الفضائل.

(٥٥٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه في كل صباح يوم ينزل ملكان من السماء.. ليس لهم أى عمل سوى هذا الدعاء.. ومن المعلوم أن دعاء الملائكة مُستجاب لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون. فيقول أحدهما: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا» أى: اللهم أخلف على كل من أنفق على عبادك بالمال الحلال الكثير مكان الذى أنفق.. والله عَزَّ وَجَلَّ يعطى عطاءً لا يخطر على قلب بشر.

ويقول الملك الآخر: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا».

أى: اللهم أتلِف مال ذلك البخيل الذى يبخل على عبادك ولا يبذل المال الذى استخلفته فيه.

والتلف نوعان: تَلَفٌ جِسِّى، وَتَلَفٌ مَعْنَوِى:

١ - التلف الجِسِّى: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتية آفة تحرقه أو يُسرق أو ما أشبه ذلك.

٢ - والتلف المعنوى: أن تُنزع بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه فى حياته. ❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: هَذَا فِي الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَعَلَى الْعِيَالِ وَالضُّيْفَانِ وَالصَّدَقَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يُذَمُّ وَلَا يُسَمَّى سَرَفًا... وَالْإِمْسَاكُ الْمَذْمُومُ هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنْ هَذَا^(٢).

بِمَا يَحْتَاجُ بِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣٣/٧).

(٥٥٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْفَقَ يَا ابْنَ آدَمَ يُنْفِقُ عَلَيْكَ»^(١).

﴿قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ فَيَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى الْإِنْفَاقِ مَعْنَى فِي وَجْهِهِ الْخَيْرِ وَالتَّبَشِيرِ بِالْخَلْفِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

وهل هناك بشرى أعظم من تلك البشرية.. فالله يأمرك بأن تنفق ويعِدك بأنه هو الذي سينفق عليك ويعوضك بالحلال الطيب الذي تغمره البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).

ولكى تستشعر هذا المعنى فتأمل معى قوله ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةُ سَحَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَدِهِ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْمِيزَانُ يَخْفُضُ وَيَرْفَعُ»^(٣).

وقوله تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ»^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيْ الْإِسْلَامُ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٥٢) كتاب النفقات، ومسلم (٩٩٣) (٣٦) كتاب الزكاة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١١٠/٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٩٩٣) (٣٧) كتاب الزكاة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

❦ لا بد أن نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم إذا سألوا الرسول مثل هذه الأسئلة فإنهم لا يريدون مجرد العلم، وإنما يريدون العمل... فإذا قال الإسلام كذا وكذا فعلوه وتسبقوا إليه... وهكذا ينبغي للسائل الذي يسأل العالم ويستفتيه أن ينوى بقلبه أنه إذا دلّله على الخير فعَله - كما كان دأب الصحابة - لا يريد أن ينظر ماذا عند العالم فقط.

وهنا يحكى ابن عمرو رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خير؟ فقال النبى ﷺ: «تُطعم الطعام» يعنى مَنْ احتاج إليه... وأول مَنْ يلزمك إطعامه هم عائلتك.. وإطعامهم صدقة وصلة وأفضل من إطعام الأبعد لأن إطعام أهلِكَ قيامٌ بواجب.. وإطعام الأبعد قيامٌ بمُسْتَحَب.. والواجب أحب إلى الله من المستحب كما فى الحديث القدسى «ما تقرب إلىَّ عبدي بشيء أحب إلىَّ مما افترضت عليه»^(١) وبعض الناس ينفق على أهله ما ينفق ولكنه لا يشعر بأنه يتقرب إلى الله بهذا الإنفاق... ولو جاءه مسكين وأعطاه ريالاً واحداً يشعر بأنه مُتقرب إلى الله بهذه الصدقة.. ولكن الصدقة الواجبة على الأهل أفضل وأكثر أجراً.. فإذا أطعمت الطعام لأهلك فهذا من خير الإسلام.

«وتقرأ السلام» وهذا هو الشاهد.. وتقرأ السلام: يعنى تقول السلام عليك ويُسمّى: قراءة السلام وإلقاء السلام «على مَنْ عرفت ومَنْ لم تعرف» لا يكن سلامك سلام معرفة بل ليكن سلامك سلام مثوبة وألفة... لأن المسلم يُثاب على سلامه ويحصل بسلامه التأليف كما قال النبى (عليه الصلاة والسلام): «والذي نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا أَوْلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»^(٢) أما مَنْ لا يُسلم إلا سلام

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

معرفة فسوف يفوته خيرٌ كثير لأنه ربما مرَّ به العشرات لا يعرف منهم إلا واحداً أما مَنْ يُسلم سلام مَثوبة وأُلفة فهو يُسلم على مَنْ عرف ومَنْ لم يعرف.

إلا إذا كان الذي مررت به كافراً فلا تبدءوه بالسلام لأن النبي ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام»^(١) وغيرهم أخبث منهم مثل السيخ والمشركين والشيوعيين ومَنْ شابههم فلا تقرأ عليهم السلام ولا تُسلم عليهم... وكذلك الفاسق المعلن بفسقه -إذا كان في تركِ السلام عليه مصلحة- وهو أنك إذا لم تُسلم عليه تاب من فسقه ورجع إلى الله..... أما إذا لم يكن هناك مصلحة وأن الأمر بالنسبة له بيان سلَّمت أو لم تُسلم وكان عدم سلامك عليه يجعل في قلبه عداوة عليك ويستمر في باطله ولا يقبل منك النصيحة فسلم عليه.

❁ مما سبق نجد أن الناس صاروا ثلاثة أقسام:

١ - القسم الأول: الفاسق المعلن بفسقه... فهذا سلَّم عليه إلا إذا كان في هجره مصلحة.

٢ - القسم الثاني: الكافر... لا تُسلم عليه لكن إن سلَّم عليك رُدَّ عليه.

٣ - القسم الثالث: إنسان مسلم لا تعلم عليه فسقاً فسلم عليه واحرص على أن تكون أنت البادئ بالسلام لأن النبي ﷺ كان يبدأ مَنْ لقيه بالسلام -وهو أشرف الخلق- وقال ﷺ: «لا يحِلُّ لمسلم أن يهْجُر أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ: يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(٢) وهكذا الحديث الذي معنا: «خير الإسلام أن تقرأ السلام على مَنْ عرفت ومَنْ لم تعرف»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/٦-٧) بتصرف.

(٥٥٦) وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلَاهَا مَنِيحَةُ الْعَنْزِ مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا الْجَنَّةَ»^(١). وقد سبق بيان هذا الحديث في باب بَيَان كَثْرَةِ طُرُق الْحَيْرِ.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥٧) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ صُدِّيِّ بْنِ عَجْلَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبَذَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكُهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تَلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَأَبْدَأُ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى»^(٢).

✽ قال الإمام النووي رحمته الله: مَعْنَاهُ إِنْ بَذَلْتَ الْفَاضِلَ عَنْ حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ عِيَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ لِبَقَاءِ ثَوَابِهِ وَإِنْ أَمْسَكْتَهُ فَهُوَ شَرٌّ لَكَ .. لِأَنَّهُ إِنْ أَمْسَكَ عَنْ الْوَاجِبِ اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنِ الْمُنْدُوبِ فَقَدْ نَقَصَ ثَوَابَهُ وَفَوَّتَ مَصْلَحَةَ نَفْسِهِ فِي آخِرَتِهِ ... وَهَذَا كُلُّهُ شَرٌّ^(٣).

فإذا كان عندك فضلٌ من طعام فَعُدْ به على مَنْ لا طعام عنده، ولا تُلقِيه في القمامة... ولم يأمركَ النبي ﷺ أَنْ تَنْفَقَ قُوتَكَ وَقُوتَ عِيَالِكَ، وإنما تبذل الفضل.

وجاء في القرآن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩] أى: الزائد عن حاجتك... فإذا أنفقت من هذا الزائد، فلك الأجر عند الله، ولك الوعد من الله أنه يزيد هذا المال، ويعطيك خيراً من هذا المال في الدنيا والآخرة... فيُنمى لك المال ببركة إنفاقك، ويُثيبك الجنة في الآخرة.

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٦٣١) كتاب الهبة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٣٦) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٧٨/٧).

وقوله ﷺ: «ولا تُلَام على كفاف» أى: إذا كان دخلك على قدر الواجبات من نفقتك، فلن يلومك الله عز وجل على أنك لم تتصدق، فهو لم يُعْطِكَ ما تتصدق به. وقوله ﷺ: «وابدأ بمن تعول» هنا يُعلمنا أدب الإنفاق وهو أن المسلم لا يترك الواجب عليه ويتنقل إلى النافلة، ولكن يبدأ بالفرض الذى عليه، وهو أن يطعم نفسه وأولاده وزوجته وأباه وأمه، ثم يُخرج الفضل بعد ذلك لمن أمره الله عز وجل أن يُخرج إليهم.

وقوله ﷺ: «واليد العليا» وهى يد المعطى كما جاء فى الحديث الآخر، فهى خير من اليد السفلى... وهذا تشجيع للمسلمين على الإنفاق، سواء كان عندهم مالٌ كثير أو قليل، فالجميع ينفقون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥٨) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وَلَقَدْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيُسْلِمَ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يَلْبَثُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا^(١).
❁ لقد كان النبی ﷺ أكرم الناس، وكان يبذل أمواله فيما يُقرب إلى الله عز وجل.

وهنا يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ وذلك من أجل أن يتألف قلوب الناس على الإسلام... فقد يكون هناك رجل لا يريد أن يُسلم إلا إذا تألفت قلبه بالمال أو بأى شئ يريد... فيُباح لك أن تفعل ذلك من أجل أن تتألف قلبه ويُسلم... ومن المعلوم أن هداية إنسانٍ على يديك أفضل من كنوز الدنيا كلها.. فقد قال ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير

لك مما طلعت عليه الشمس».

فهذا الإنسان الذي سيُسلم بسبب أنك تألفت قلبه بالمال لن يبقى على هذا الحال.. وذلك لأنه بمجرد أن يُسلم ويتذوق حلاوة الإيمان والطاعة فسوف ينشرح صدره بالإيمان ويزهد في الدنيا وخطامها الزائل ويصبح إسلامه بعد ذلك حُبًّا لله ورسوله ﷺ ولدين الله ﷻ.

وهذا الذي حصل مع كل الذين أسلموا وتألفهم النبي ﷺ في البداية.

فالشاهد أن النبي ﷺ ما سُئل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه

ومن ذلك أنه ﷺ ما سألته شخص على الإسلام - يعني: على التأليف على الإسلام والرغبة فيه - إلا أعطاه، مهما كان هذا الشيء، حتى إنه سألته أعرابي فأعطاه غنماً بين جبلين ... معناه: أنها غنم كثيرة؛ لكن الرسول ﷺ أعطاه لما يرجو من الخير لهذا الرجل ولمن وراءه.

ولذلك ذهب هذا الرجل إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة»، عليه الصلاة والسلام ... يعني: يعطى عطاءً جزيلاً، عطاء من لا يخشى الفقر ... فانظر إلى هذا العطاء كيف أثمر في هذا الرجل هذا التأثير العظيم، حتى أصبح داعية إلى الإسلام.

وهو إنما سأل كغيره من الأعراب... فالأعراب أهل طمع، يحبون المال ويسألونه، ولكنه لما أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا العطاء الجزيل صار داعية إلى الإسلام، فقال: «يا قوم أسلموا» ولم يقل أسلموا تدخلوا الجنة وتنجوا من النار، بل قال: «أسلموا؛ فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة» يعني سيعطيكم ويكثر.

ولكنهم إذا أسلموا من أجل المال، فإنهم لا يلبثون يسيراً إلا ويصير الإسلام أحب شيء إليهم ... أحب من الدنيا وما فيها، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة



والسلام يعطى الرجل تأليفاً له على الإسلام ... يُعطيه حتى يُسلم من أجل المال؛ لكنه لا يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها ... ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُعطى الرجل تأليفاً له على الإسلام حتى يُسلم، وإن كانت نيته للمال، إلا أنه إذا دخل في الإسلام وتعلّم محاسن الإسلام وقرّر الإيمان في قلبه.

❁ ويؤخذ من هذا الحديث وأمثاله: أنه لا ينبغي لنا أن نبتعد عن أهل الكفر وعن أهل الفسوق، وأن ندعهم للشياطين تلعب بهم؛ بل نُؤلفهم، ونَجذبهم إلينا بالمال واللين وحُسن الخلق حتى يألفوا الإسلام ... فهذا هو الرسول ﷺ يعطى الكفار ... يعطيهم حتى من الفىء.

بل إن الله جعل لهم حظاً من الزكاة فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ﴾ ... نُعطِيهم لنؤلفهم على الإسلام، حتى يدخلوا في دين الله ... والإنسان قد يُسلم للدنيا، ولكن إذا ذاق طعم الإسلام رغب فيه، فصار أحب شيء إليه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٥٩) وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَسَمًا، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَعَيَّرَ هَؤُلَاءِ كَانُوا أَحَقَّ بِهِ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «إِنَّهُمْ خَيْرٌ وَنَى أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي، فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث يخبر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَسَمَ قَسَمًا وَأَعْطَى أَنَاثًا مِنْ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَأَلَّفَ قُلُوبَهُمْ .. فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَهُ نَظَرَةٌ أُخْرَى فَقَدْ رَأَى أَنَّ الَّذِينَ أَعْطَاهُم النَّبِيُّ ﷺ لَا يَسْتَحِقُّونَ وَأَنَّ هُنَاكَ مَنْ هُمْ أَوْلَى مِنْهُمْ .. فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ أَلْحُوا فِي الْمَسْأَلَةِ لَضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٢١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٥٦) كتاب الزكاة.

حتى أن النبي ﷺ أصبح بين حالين، إما أن يُعطيهم وإما أن يتهموه بالبخل... ولو قالوا ذلك فقد فسقوا بذلك بل وقد يكفرون لأنه يُشنعون على النبي ﷺ.. فمن رحمة النبي ﷺ بهم أعطاهم حتى لا يقعوا فيما يقدح في دينهم.. فهو ﷺ أرحم بهم من أنفسهم فقد وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾.

✽ قال الإمام النووي تعليقاً على الحديث: معناه أنهم ألحوا في المسألة لضعف إيمانهم وألجأوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش أو نسبتي إلى البخل ولست بباخل ولا ينبغي احتمال واحد من الأمرين... ففيه مداراة أهل الجهالة والقسوة وتألفهم إذا كان فيهم مصلحة وجواز دفع المال إليهم لهذه المصلحة^(١).

✽ وهذا يذكرني بما فعله النبي ﷺ عندما كان معتكفاً وجاءته زوجته صفية رضي الله عنها فوقف يتحدث معها فرآه اثنان من الصحابة فنادى عليهما وقال لهما: «إنها صفية».

فقالا: يا رسول الله أفيك نَشْك؟!!

فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من العروق وإنني خشيت أن يقذف في قلبكما شراً».

وذلك لأنهما إن ظنا السوء بالنبي ﷺ فقد كفرا فخشى النبي ﷺ عليهما وعلى الإيمان الذي في قلوبهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦٠) وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، فَعَلِقَهُ الْأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمْرَةٍ فَخَطَفَتْ رِداءَهُ، فَوَقَفَ

النَّبِيُّ ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العِصَاهِ نَعْمًا، لَقَسَمْتُه بَيْنَكُمْ، ثم لا تَجِدُونِي بَخِيلًا وَلَا كَذَّابًا وَلَا جَبَانًا»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يخبر جُبَيْر بن مطعم رضي الله عنه أنه كان يسير مع النبي ﷺ عند رجوعه من غزوة حُنين سنة ثمانٍ من هجرة النبي ﷺ بعد فتح مكة، وقد غَنِمَ جيش المسلمين مغانم كثيرة، ولكن مع ذلك كان يود النبي ﷺ إسلام القوم فيرد عليهم المغانم، لكنهم لم يُسلموا إلا بعد تقسيم الغنائم، ومع ذلك رَدَّ نصيبه من القسمة. قال: فعلقه الأعراب يسألونه، أي: أن الصحابة كانوا يستحيون منه، وإن كانوا يريدون من هذه الغنائم، أما الأعراب فإن فيهم جرأة، فتعلقوا بالنبي ﷺ يريدون منه عطاءً؛ (حتى اضطروه إلى سَمْرَةٍ) والسَّمْرُ: شجر له شوك ويكون في الصحراء، (فخطفت رداءه) فتعلق بأشواك هذه الشجرة، فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العِصَاهِ نَعْمًا لقسمته بينكم». أي: لو كنت أملك مثل أشواك هذه الشجرة من بهيمة الأنعام كنت قسمته بينكم.

قال: «ثم لا تجدوني بخيلًا ولا كذابًا ولا جبانًا» وحاشاه صلوات الله وسلامه عليه وهو أكرم الخلق وأصدقهم وأشجعهم أن يكون بخيلًا أو كذابًا أو جبانًا. فالنبي ﷺ كان يعطي، ولا يمسك لنفسه شيئًا... فإذا أخذ المغانم التي تخصه أنفق منها على أهل بيته، وعلى أضيافه، وعلى المسلمين أيضًا. وهو القائل عليه الصلاة والسلام: «ليس لي فيها إلا الخمس، والخمس مردودٌ عليكم»، يعني: لن آخذه وأدخره، بل سأرده عليكم... وهذا كرمٌ منه صلوات الله وسلامه عليه^(٢).

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٢١) كتاب الجهاد والسير.

«مَقْفَلَةٌ» أي حال رُجوعِهِ. وَ «السَّمْرَةُ»: شَجَرَةٌ. وَ «العِصَاهُ»: شَجَرٌ لَهُ شَوْكٌ.

(٢) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطية.

وفي الحديث ذم الخصال المنفية - البخل والكذب والجبن - وأن إمام المسلمين لا ينبغي أن يكون فيه خصلة منها... وفيه ما كان عليه ﷺ من الحلم وحسن الخلق وسعة الجود والصبر على جفأة الأعراب... وفيه جواز وصف المرء نفسه بالخصال الحميدة عند الحاجة لخوف ظن أهل الجهل به خلاف ذلك ولا يكون ذلك من الفخر المذموم. اهـ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصْتُ صَدَقَةً مِنْ مَالٍ، وَمَا رَأَى اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عَزَّاهُ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

❁ وفي هذا الحديث يذكر النبي ﷺ أنه «ما نقصت صدقة من مالٍ» أى أن الإنسان إذا تصدق فالنبي ﷺ يؤكد لنا أن هذا الرجل لن ينقص ماله بحالٍ من الأحوال... وقد يأتى الشيطان للإنسان ويثبت به عن الإنفاق ويوسوس له بأن المال سينقص وأن الأولاد أولى بهذا المال.. ولكن النبي ﷺ يؤكد لك أنك إذا تصدقت فزت بالأجر ولن ينقص مالك.. بل سيزيد المال كمًّا وكيفًا...

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ ❁ [سبا: ٣٩]. أى يجعل لكم خلفاً عنه عاجلاً، وأجراً وثواباً آجلاً.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ ❁ [البقرة: ٢٦١].

❁ والزيادة تحصل بأربعة أشياء:

(١) أن الله ﷻ يفتح لك باباً من الرزق من حيث لا تحتسب فيعوضك عمّا تصدقت به.

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٨٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) أن الله ﷻ يُنزل البركة فيما تبقى معك من المال فتستطيع أن تقضى به حوائجاً لا تقضى إلا بعشرة أمثال ما معك أو أكثر.

(٣) أن الله ﷻ يبارك فيك أنت ويدفع عنك من المضرات ما كان سيكلفك أضعاف أضعاف ما أنفقت.. وهذه صورة من البركة الخفية.

(٤) أن الله ﷻ يكتب لك من الثواب المترتب على الصدقة ما يوازي سبعمائة ضعف الصدقة التي تصدقت بها.

ولذا فقد كان النبي ﷺ أجود الناس وأكرم الناس ... وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن.. فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

❁ ثم قال ﷺ: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً».

فقد يجنى عليك إنسان ويظلمك في نفسك أو أهلك أو مالك أو في أى حق من حقوقك.. والنفس شحيحة بالعفو وتريد الانتقام وأن تأخذ بحقوقك.

وهذا لك... قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدْهُ وَأَعْلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]

ولا يلام الإنسان على ذلك، لكن إذا همَّ بالعفو وحدث نفسه بالعفو، قالت له نفسه الأمانة بالسوء: إن هذا ذلٌ وضعف... كيف تعفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك!

وهنا يأتيك قول الرسول ﷺ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» فإن ظننت أنك ستكون ذليلاً إذا عفوت فهذا من خداع النفس الأمانة بالسوء.. لأن الله يزيدك بعفوك هذا عزاً ورفعة في الدنيا والآخرة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» فِيهِ أَيْضًا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ مَنْ عَرِفَ بِالْعَفْوِ وَالصَّفْحِ

سَادَ وَعَظُمَ فِي الْقُلُوبِ وَزَادَ عِزُّهُ وَإِكْرَامُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ أَجْرُهُ فِي الْآخِرَةِ وَعِزُّهُ هُنَاكَ^(١).

وفي هذا حَثٌّ عَلَى الْعَفْوِ ... ولكن العفو مُقَيَّدٌ بِمَا إِذَا كَانَ إِصْلَاحًا.

لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

أَمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ إِصْلَاحًا بَلْ كَانَ إِفْسَادًا؛ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمَرُ بِهِ.

مثال ذلك: اعتدى شخصٌ شَرِيرٌ معروف بالعدوان على آخر، فهل نقول للآخر الذى اعتدى عليه: اعفُ عن هذا الشرير؟ لا نقول: اعفُ عنه؛ لأنه شرير، إذا عفوت عنه تعدى على غيرك من الغد، أو عليك أنت أيضًا، فمثل هذا نقول: الحزم، والأفضل أن تأخذه بجريرته، يعنى أن تأخذ حَقَّك منه، وألا تعفو عنه؛ لأن العفو عن أهل الشر والفساد ليس بإصلاح؛ بل لا يزيدهم إلا فسادًا وشرًّا. فأما إذا كان فى العفو خير وإحسان، وربما يخجل الذى عفوت عنه ولا يتعدى عليك ولا على غيرك فهذا خير^(٢).

﴿ثُمَّ قَالَ ﷺ: «وَمَا تَوَاضَعُ أَحَدُ اللَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»﴾ فبعض الناس تراه متكبراً لأنه يظن أنه إذا تواضع للناس فقد سقطت منزلته ونزلت مكانته فى قلوب الناس.. وهذا خطأ كبير لأننا لا نتعامل مع الناس إلا لله ولا يهمنا أن نرداد مكانة عندهم أم لا.. بل نريد أن تكون لنا مكانة ومنزلة عند الله.. وحينها سوف يُلقى الله لنا القبول فى قلوب الناس فنرى منهم كل الحب والتواضع والأخلاق الطيبة.

فمن تواضع لله فإن الله يُرَفِّعُ رَجُلًا يرفع شأنه ويُعلى قدره.

﴿وقوله: «تواضع لله» لها معنيان:

المعنى الأول: أن تتواضع لله بالعبادة وتخضع وتنقاد لأمر الله.

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/٢١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٢٨٢).

المعنى الثانى: أن تتواضع لعباد الله من أجل الله، وكلاهما سبب للرفعة، سواء تواضعت لله بامتنال أمره واجتناب نهيهِ وذلت له وعبدته أو تواضعت لعباد الله من أجل الله لا خوفاً منهم، ولا مُدارة لهم، ولا طلباً لمالٍ أو غيره، إنما تتواضع من أجل الله عز وجل، فإن الله تعالى يرفعك فى الدنيا وفى الآخرة.

قال الإمام النووى رحمته الله: قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ» فِيهِ أَيْضًا وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: يَرْفَعُهُ فِي الدُّنْيَا وَيُنْبِئُ لَهُ بِتَوَاضُعِهِ فِي الْقُلُوبِ مَنَزَلَةً وَيَرْفَعُهُ اللَّهُ عِنْدَ النَّاسِ وَيُجِلُّ مَكَانَهُ... وَالثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ وَرَفَعُهُ فِيهَا بِتَوَاضُعِهِ فِي الدُّنْيَا... قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَهَذِهِ الْأَوْجُهُ فِي الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثَةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْعَادَةِ مَعْرُوفَةٌ وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ الْوَجْهَيْنِ مَعًا فِي جَمِيعِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦٢) وَعَنْ أَبِي كَبْشَةَ عَمْرٍو بْنِ سَعْدٍ الْأَنْمَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ثَلَاثَةٌ أُفْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظَلَمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ، - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - . وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ. قَالَ: إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ:

عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجَرُهُمَا سَوَاءٌ.

وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبُطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

(١) مسلم بشرح النووى (١٦/٢١٣).

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ
فُلَانٍ، فَهُوَ بَيْنَتِهِ، فَوَزَّرَهُمَا سَوَاءً»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يحكى أبو كبشة الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقسم ويقول: «ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ».. وَقَلَّ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُقْسِمُ لِأَنَّهُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ الَّذِي يَعْلَمُ الْكُونَ كُلَّهُ - حَتَّى الْكَفَّارَ - أَنَّهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ. لكنه ﷺ أقسم ليُلفت انتباهنا إلى أهمية تلك الأشياء وأنه ينبغي ألا نعتقد خلاف ما سيخبرنا عنه النبي ﷺ.

❖ قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ» أَى أَحْلَفُ عَلَيْهِنَّ. «وَأَحَدْتُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ» أَى: انْتَبِهُوا جَيِّدًا لِمَا سَأَقُولُ وَاحْفَظُوا هَذَا الْكَلَامَ جَيِّدًا وَلَا تَنْسَوْهُ أَبَدًا.

«مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ» فالنبي ﷺ يقسم بالله أن العبد إذا تصدق فلن ينقص ماله أبدًا.. وقد فصلنا الحديث عن ذلك في الحديث السابق. «وَلَا ظُلْمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةٌ صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا» فقد يظلمك أحدٌ وأنت قادر على أن تدفع هذا الظلم وأن تفعل معه مثلما فعل معك ولكنك تصبر ليزيدك الله عِزًّا كما أخبرك بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

ولذا قال ﷺ: «مَنْ كَتَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ يُزَوِّجُهُ مِنْهَا مَا شَاءَ»^(٢).

وقد ذكرنا في الحديث السابق أن لك أن تأخذ حَقَّك وأن تنتصر لنفسك دون أن تتجاوز حَقَّك لكن العفو أفضل لأن الله ﷻ سيزيدك عِزًّا ورفعة ومكانة في الدنيا والآخرة.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢٤).

(٢) حسن: رواه أصحاب السنن، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٨).

﴿وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ﴾.

فإذا أخذ العبد يسأل الناس ويسأل ليكون غنيًا فإن الله ﷻ يعامله بنقيض قصده ويفتح عليه باب فقر فيظل فقيرًا بأن يفتح عليه أبوابًا من الإنفاق تأكل الأخضر واليابس أو يُسلط عليه ما هو أشد من ذلك بأن يبتليه بفقر النفس.. وذلك لأن أعظم الفقر الذي يُبتلى به الإنسان وأشنعه فقر النفس، حيث يشعر أنه فقير وأنه لا يجد شيئًا، وقد يكون عنده نقودٌ كثيرة جدًا، ومع ذلك يستشعر أنه محتاج لكل الناس، وإن كان المال الذي عنده مثل مال قارون، فيشعر أنه فقير وأن ماله سيضيع يومًا من الأيام، فيريد مالًا فوقه، وكلما حصل مالًا فتح الله ﷻ عليه أبواب الفقر.

﴿ثم قال النبي ﷺ: «وَأَحَدْتُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ» وكأنه ﷺ يقول لهم: لا تنسوا ما سأقوله لكم الآن فإنه سينفعكم أبدًا ما حييتم.

ثم بدأ النبي ﷺ يُقسِّم الناس جميعًا إلى أربعة أصناف فقال ﷺ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ» أى: إنما حال أهلها حال أربعة.. وهذا الكلام يشمل الرجال والنساء. ثم بدأ النبي ﷺ يذكر أول رجل من هؤلاء الأربعة: فهو رجلٌ عالم يعرف الحلال من الحرام ويعرف الصواب من الخطأ... سَلَكَ طريق العلم حتى أصبح عالمًا جليلاً... ولم يرزقه الله العلم فحسب بل رزقه العلم الغزير والمال الوفير، فلم يستعمل هذا المال في معصية الله بل سَخَّرَ ماله كله في كل ما يُقربه إلى الله (جل وعلا).. فكان يُخرج زكاة ماله ويتصدق ويصل أرحامه ويتقى ربه في هذا المال.

وكان أيضًا يعلم حق الله في هذا العلم فكان يؤدي حقه بتعليم الناس والإقراء والإفتاء والتدريس ابتغاء مرضاة الله ﷻ... ولذا فقد أخبر النبي ﷺ أن هذا الرجل بأفضل المنازل.

﴿ثم ذكر النبي ﷺ الرجل الثاني.. وهو رجلٌ فاضل أيضًا.. فهو عالم جليل سَلَكَ طريق العلم حتى أصبح عالمًا جليلاً... وكان يتمنى أن يتصدق

وأن يفعل الكثير من الخيرات لكنه كان فقيراً لا يمتلك مالاً فأخلص النية لله (جل وعلا) أنه إذا رزقه المال الكثير فإنه سيفعل مثلما فعل الرجل الأول.
وإذا بالنبي ﷺ يخبر بأنهما في الأجر والثواب مثل بعضهم البعض... هذا بعمله وهذا بنيته.

✽ ثم أخبرنا النبي ﷺ عن الرجل الثالث بأنه رجل ليس عنده علم ولا دين ولا خلق ولكنه يمتلك المال الكثير...

ولما كان هذا الرجل ليس عنده وازع ديني يردعه عن فعل المعاصي والمخالفات فإنه أخذ ينفق هذا المال في المعاصي والمنكرات... وكان ييخل على أهله وأقاربه.. فأخبر النبي ﷺ أن هذا الرجل بأخبث المنازل.

✽ ثم أخبرنا النبي ﷺ عن الرجل الرابع بأنه رجل ليس عنده علم ولا دين ولا خلق وفوق ذلك فهو فقير لا يمتلك درهماً ولا ديناراً.

ومع كل هذا فقد أخذ يتمنى ويستحضر النية بأنه إذا رزقه الله المال الوفير فإنه سيفعل مثلما فعل الرجل الثالث من الوقوع في المعاصي والمنكرات... فأخبر النبي ﷺ بأنهما في الوزر سواء: هذا بعمله وهذا بنيته.

✽ إن قصة هؤلاء الأربعة تحكي قصة الخير والشر في آن واحد.

فأول اثنين تحكى قصتهما جانب الخير في الإنسان.

وآخر اثنين تحكى قصتهما جانب الشر في الإنسان.

وعلى المسلم أن يقرر من الآن مع أي الفريقين يريد أن يكون.

✽ وفي هذا الحديث مجموعة من الدروس المستفادة:

(١) أن العلم أفضل من المال.. فالعلم هو الذي يجعل العبد يُحسن

التصرف في المال فيستعمله في طاعة الله (جل وعلا).

(٢) أن العلماء هم أكثر الناس خشية لله (جل وعلا).



(٣) أن الواجب على المسلم إذا رزقه الله المال الوفير ألا ينسى المسلمين الفقراء من حوله ولكن عليه أن يبدأ بأرحامه الفقراء.

(٤) أن العبد إذا أخلص النية لله (جل وعلا) فقد يفوز بحسنات كالجبال على أعمال لم يعملها ... وإنما أخلص النية في أنه إذا تيسر له أن يعملها فإنه سيعملها.

(٥) أن الجهل بالله وبدين الله يجعل العبد يسيء التصرف في ماله فينفقه في معصية الله (جل وعلا).

(٦) أن الجهل والفقير إذا اجتمعا في عبد فإنه سيحرص على تقليد القدوات السيئة؛ لأنه لا يعلم الخير من الشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦٣) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»
قالت: ما بقي منها إِلَّا كَتَفُهَا، قال: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتَفِهَا»^(١).

✽ (عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنهم) أى ذوى عائشة أو أهل بيت النبى ﷺ (ذبحوا شاة) أى فتصدقوا بها ما عدا كتفها (فقال النبى ﷺ) بعد أن عاد لمنزله لداع دعا للسؤال عما بقي من لحمها وقد علم أنهم تصدقوا ببعضها «ما بقي منها» أى عندك (قالت: ما بقي منها) أى عندنا (إلا كتفها) أى أنفقنا الجميع وتصدقنا به ما عدا ذلك (قال ﷺ: بقي كلها) أى ثواب كلها لأنه تصدق به تقرُّباً إلى الله تعالى فهو يُخلفه وَيَجْزى عليه «غير كتفها» أى فإنه يفنى بأكله .. ومثله لا ثواب فيه إن لم يقارنه قصدٌ صحيح ... وهذا تحريض على الصدقة والاهتمام بها، وأن لا يستكثر المرء ما أنفقه فيها ... فإنه وإن فنى صورة فهو باقٍ حقيقة لصاحبه عند الله يرى ثوابه مُضاعفاً عند حاجته ومزيد فاقته ... ففيه أعظم تحريض عليها من كل ما يأكله الإنسان .. لأن مَنْ استحضر أن ما يأكله لا ثواب له فيه حيث لا غرض

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٥٤٤).
ومعناه: تَصَدَّقُوا بِهَا إِلَّا كَتَفَهَا فَقَالَ: بَقِيَتْ لَنَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَتَفَهَا.

صحيح معه، وأن ما يتصدق به بقى له عند مولاه حمله ذلك على التصدق منه ولو ببقمة^(١) أما إن استحضر الإنسان أنه يتصدق على زوجته وأولاده بإطعامهم فإنه يؤجر على ذلك .. وكذلك إذا أكل بنية أن يتقوى على عبادة الله فهي صدقة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦٤) وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُوكِي فَيُوكِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ».

وفي رواية «أَنْفَقِي أَوْ أَنْفَحِي أَوْ أَنْضَحِي، وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٢).

❁ وأسماء زوجة الزبير رضي الله عنه، وقد كان يعطيها مالا كثيرا، فهي تقول: ليس من مالٍ إلا أعطاني إياه الزبير، وكانت تدخر بعضه من أجل البيت، فعلمها النبي ﷺ أن تنفق مما أعطاه الله سبحانه وتعالى.

وبيّن لها أن الذي ينفق فإن الله ﷻ ينفق عليه، والذي لا ينفق فيدخر أو يكثر فإنه يعامل بمثل ما يصنع مع الفقراء ... فجزاؤه من جنس عمله.

والإيكاء: هو ربط فم السقاء أو القربة ... وهنا تشبيهه للبخل، فالله تعالى سوف يعامله بهذا الشيء، فلا يعطيه، أو مثلما هو يخرج الشيء القليل فالقليل، فالله يعامله بهذه الصورة أيضا.

❁ وقوله ﷺ: «أَنْفَقِي أَوْ أَنْفَحِي، أَوْ أَنْضَحِي، وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ». والإحصاء: هو التقصّي في العدّ والحساب ... والإنسان الذي يخرج المال للمحتاجين ولا ينظر كم أعطى، فالمعاملة من الرب سبحانه وتعالى معه كذلك ... فالله أحق بالجدود ... فمن كان كريما مع الناس كان الله أحق بذلك منه.

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٨٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٣٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٢٩) كتاب الزكاة.

و«أَنْفَحِي»: هو بمعنى «أَنْفَقِي» وكذلك: «أَنْضَحِي».

لذلك رأينا الإنسان التاجر الذى ذكره النبى ﷺ وقد جاء يوم القيامة وحاسبه الله سبحانه، فلما سأله: هل عملت خيراً قط؟ اندهش وتحير فلم يعد يدرى ما يقول! فهو لا يذكر شيئاً من الخير، قال: ما عملت خيراً قط! ثم ذكره الله بشيء يسير بسيط عمله، قال: بلى، أنا تذكرت شيئاً، ما هو هذا الشيء؟ قال: كنت أعامل الناس فى التجارة، أى: فى البيع والشراء، فكنت أنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر.

يعنى: عندما يأتى شخص غنى يشتري، وآخر الثمن يومين أو ثلاثة، كنت أصبر عليه.

وكنت أتجاوز عن المعسر، أى: الفقير الذى اشترى ولم يقدر أن يدفع، هنا الجزء من جنس العمل.

فكان جواب رب العالمين أن قال: نحن أحق بهذا منك.

أى: أنت تجاوزت، فالله ﷻ أحق بالتجاوز منك فتجاوز عنه وعفا عنه سبحانه وتعالى ... فهنا جزاؤك حين تنفق لله، أن ينفق الله عليك تُعطى أكثر، فالله يعطيك أكثر.

يقول ﷺ هنا فى الحديث: «ولا تُوعى فيوعى الله عليك» من الوعاء.

أى: تأخذ الوعاء وتُغطيه، حتى لا يأخذ أحدٌ منه، فسيُغلق عليك بابٌ من أبواب الرزق، ولو أنك فتحت فتحت لك هذا الباب من أبواب الرزق.

قال الإمام النووى رحمه الله: وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَيُوعَى عَلَيْكَ» هُوَ مِنْ بَابِ مُقَابَلَةِ اللَّفْظِ بِاللَّفْظِ لِلتَّجْنِيسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرُوءٌ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وَمَعْنَاهُ: يَمْنَعُكَ كَمَا مَنَعَتْ وَيُقْتَرُ عَلَيْكَ كَمَا قُتِرَتْ وَيُمْسِكُ فَضْلَهُ عَنْكَ كَمَا أَمْسَكَتِهِ... وَقِيلَ: مَعْنَى لَا تُحْصِي أَيْ لَا تَعُدُّهُ فَتُسَكِّثِرِيهِ فَيَكُونُ سَبَبًا لِنَقْطَاعِ انْفِاقِكَ^(١).

(١) مسلم بشرح النووى (١٦٧/٧).

(٥٦٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُتَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ، فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ - أَوْ وَفَرَتْ - عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُو أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ، فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوسِّعُهَا فَلَا تَسْعُ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ» وبالمثل تتضح للإنسان الصورة ويستحضرها ويعرف حُسْنَهَا أو قُبْحَهَا.

فقال: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُتَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ».

فهذا إنسان يريد أن يقاتل الأعداء، واشترى قميصًا حلقاته من حديد، من أجل أن يتقى به سيف الخصم، ثم وضع هذا القميص من رقبته إلى أصابع قدميه .. فالإنسان المنفق يده مبسوطة، فهو ينفق في وجوه الخير ويده سهلة الحركة في الإنفاق.

والآخر خائف ضامٌ يديه على صدره وعلى رقبته لا يريد أن يخرج شيئًا، كمثل القميص يحتبس في هذا المكان ولا ينزل.

فعندما يقاتل هذا عدوه وهذا عدوه، أيهما ينجو؟ قال ﷺ: «فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت» أي: يمد يده كالقميص ينزل ويغطي سائر جسده.

قال: «أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه» حتى يلقي ثواب الله سبحانه وتعالى، ووقايته لهذا العبد من النار .. تسبغ فوق هذا الإنسان فيقيه الله ﷻ النار ... معناه: أنه كلما أنفق استرخت المفاصل، ويسرت يده، وإذا بالقميص يوارى هذا الإنسان ... فقال ﷺ: «حتى تخفي بنانه وتعفو أثره»، انظروا هنا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٤٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٢١) كتاب الزكاة.

و«الْحَنَّةُ» الدُّرْعُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْمُنْفِقَ كُلَّمَا أَنْفَقَ سَبَغَتْ، وَطَالَتْ حَتَّى تَجُرَّ وَرَاءَهُ، وَتُخْفِيَ رِجْلَيْهِ وَأَثَرَهُ مَشْيِهِ وَخُطْوَاتِهِ.

القميص الذى لبسه، غطاه كله وغطى أصابعه وآثار مشيه.

وقوله: «تعفو أثره» المعنى: أنه يريد أن يتوارى من عدوه بلبسه هذا القميص، فحين يهرب من عدوه يطمس قميصه آثار الأقدام فيتوارى عن عدوه، كذلك هذا الإنسان الذى أنفق كأنه ستر نفسه من النار، فلا تلفحه ولا تطوله هذه النار.

قال: «وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً، إلا لزقت كل حلقة مكانها» فالبخيل تُحدثه نفسه هل ينفق أو لا؟ فيكون أكثر تشبهاً بالمال، كمثل القميص الذى لبسه يقف فى مكانه ولا ينزل، وكل حلقة لزقت مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع، ويريد أن ينجو من غضب الله ومن عذابه يوم القيامة وهو لا ينفق.

إذا... هنا الإنسان المؤمن ينفق لله ﷻ فينفق الله ﷻ عليه فى الدنيا، ويعطيه الأجر العظيم فى الآخرة، ويقيه النار، يوم القيامة^(١).

❁ وفى هذا وعدٌ للمتصدق بالبركة وستر العورة والصيانة من البلاء، فإن جبة الحديد لا تُعدُّ للستر فقط بل له وللصون من الآفات.

وهذا كما ورد «إن الصدقة تدفع البلاء» وفى البخيل على الضد فهى مُعَدَّة لهتك عورته وكونه هدفاً لسهام البلاء والعياذ بالله تعالى.

قال الخطابى وغيره: هذا مثل ضربه النبى ﷺ للبخیل والمتصدق، فشبههما برجلين أراد كل واحد منهما لبس درع يستتر به من سلاح عدوه فصبها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يقع على الرأس إلى الشدين إلى أن يُدخل الإنسان يديه فى كُميها... فجعل المنفق كمن لبس درعاً سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه... وجعل البخيل كممثل رجل غُلَّت يده إلى عنقه فكلما أراد لبسها اجتمعت فى عنقه فلزمت ترقوته... وهو معنى قلصت: أى تضامَّت واجتمعت.

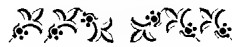
(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

والمراد أن الجواد إذا هَمَّ بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه وتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدَّثها بها شَحَّتْ بها فضايق صدره وانقبضت يدها.

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وقال المهلب: المراد أن الله يستر المنفق في الدارين، بخلاف البخيل فإنه يفضحه... ومعنى يعفو أثره يمحو خطاياها... وتعقبه عياض بأن الخبر جاء على التمثيل لا على الإخبار عن كائن. وقيل: هو تمثيل لنماء المال بالصدقة، والبخيل بضده... اهـ^(١).

﴿وَالْحَدِيثُ جَاءَ عَلَى التَّمَثِيلِ لَا عَلَى الْخَبَرِ عَنْ كَائِنٍ وَقِيلَ ضُرِبَ الْمَثَلُ بِهِمَا لِأَنَّ الْمُنفِقَ يَسْتُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفَقَتِهِ وَيَسْتُرُ عَوْرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَسْتُرِ هَذِهِ الْجَنَّةِ لِابْسَاسِهَا... وَالْبَخِيلُ كَمَنْ لَبَسَ جُبَّةً إِلَى ثَدْيَيْهِ فَيَبْقَى مَكْشُوفًا بَادِيَ الْعَوْرَةِ مُفْتَضِّحًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾^(٢).



(٥٦٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرِيهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرِي أَحَدُكُمْ فَلَوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»^(٣).

﴿وفي هذا الحديث يخبر الصادق المصدق ﷺ أن مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ.. أى: بقدر تمرة ولكن بشرط في غاية الأهمية وهو أن تكون: «مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ».. وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ طيب ولا يقبل إلا الطيب...

ولذلك فمن المستحيل أن يقبل الله عَزَّ وَجَلَّ صدقة من الحرام.

(١) دليل الفالحين (٢/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ١٥٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٠) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٤) كتاب الزكاة. «الفلو» وهو المهر.

في يومٍ من الأيام رأى الإمام أبو حنيفة رجلاً يسرق برتقالة من تاجر الفاكهة دون أن يدرى ثم ذهب في نفس اللحظة فتصدق بها على رجل فقير.. فتعجب الإمام وقال له: ماذا تفعل؟! تسرق برتقالة وتصدق بها.. فلماذا سرقتها؟!

فقال له اللص: سرقتها فكُتبت سيئة وتصدقت بها فكُتبت عشر حسنات.. فابتسم الإمام وقال له: وما يُدريك؟.. بل سرقتها فكُتبت سيئة وتصدقت بها فلم يُكتب لك شيء لأن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً.

❁ المهم أن النبي ﷺ أخبر أن مَنْ تصدق بعدل ثمرة ولكن بشرط أن تكون من كسبٍ طيب فإن الله ﷻ يَقْبَلُهَا بيمينه... فأى كرمٍ أعظم من هذا؟... فالصدقة التي تعطيها للفقير تقع في يد الله ﷻ قبل أن تقع في يد الفقير. ولذلك كان بعض الصحابة إذا أراد أحدهم أن يتصدق يُعطر الصدقة ويقول: لأنها ستقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير.

فإذا تصدق العبد بعدل ثمرة من كسبٍ طيب فإن الله يَقْبَلُهَا بيمينه، ثُمَّ يُرَبِّيْهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ. أى أن الله ﷻ يُنَمِّي لك صدقتك كما يُربِّي أحداً فَلَوْهُ.. والفَلَو هو المهر الصغير... وسمى بذلك لأنه فلى عن أمه أى: فصل وعزل عنها وبدأ يأكل ويعتمد على نفسه.

قال الحافظ: وَقِيلَ هُوَ كُلُّ فَطِيمٍ مِنْ ذَاتِ حَافِرٍ... وَضَرَبَ بِهِ الْمَثَلَ لِأَنَّهُ يَزِيدُ زِيَادَةً بَيِّنَةً وَلِأَنَّ الصَّدَقَةَ نِتَاجُ الْعَمَلِ وَأَحْوَجُ مَا يَكُونُ النَّتَاجُ إِلَى التَّرْبِيَةِ إِذَا كَانَ فَطِيمًا... فَإِذَا أَحْسَنَ الْعِنَايَةَ بِهِ انْتَهَى إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ... وَكَذَلِكَ عَمَلُ ابْنِ آدَمَ لَا سِيمَا الصَّدَقَةُ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ لَا يَزَالُ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهَا يُكْسِبُهَا الْكَمَالَ حَتَّى تَنْتَهِيَ بِالتَّضْعِيفِ إِلَى نِصَابٍ تَقَعُ الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا قَدَّمَ نِسْبَةً مَا بَيْنَ الثَّمَرَةِ إِلَى الْجَبَلِ^(١).

(٥٦٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشُّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمَسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ... لِلْإِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ فَقَالَ: أَمَا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَاتَّصَدَّقُ بِثُلْثِهِ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلْثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلْثَهُ»^(١).

✽ إن هذا الكون ملكٌ لله... فالله ربه وخالقه والمتصرف فيه.

وإذا استقام العبد على أمر الله، أمر الله الكون برعايته، والتصرف بما فيه خيره وصلاحه.... وهذا الحديث فيه خبر مُزارع صالح أمر الله السحاب بسقي مزرعته، لاستقامته على أمر الله فيها، وهذا ليس خاصًا به... فكل من كان كذلك بارك الله له فيما أعطاه.

✽ وهنا يحدثنا الرسول ﷺ عن رجلٍ سمع عجبًا، فقد كان يسير في أرضٍ خالية، فمرّت سحابة من فوقه، فسمع فيها صوتًا يأمر آخر بأن يسقي حديقة رجلٍ سمّاه.

ونحن نعلم أن الله أقام على السحاب ملائكةً تُوجهه، وهى مأمورة أن تنزله في المواقع المحددة له... وهذا الصوت الذي سمعه ذلك الرجل صوت ملكٍ بلا شك... وسُنة الله أننا لا نسمع خطاب الملائكة إلا لحكمة... والحكمة في سماع ذلك الرجل أن الله يريد تعريفنا بالخير والبركة التي يجلبها استقامة صاحب الزرع لزرعه.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٤) كتاب الزهد والرفائق.

وقد استثار ذلك الصوت الرجل الذى سمعه، فأحب أن يعرف هذا الرجل الذى ذكر اسمه فى السحاب، فنظر حيث أفرغت السحابة ماءها، فإذا هى قد أمطرته فى حَرَّةٍ من الحِرَارِ، وهى أرضٌ كثيرة الحجارة، حجارته سوداء، ونظر الرجل إلى الأمطار التى نزلت على الأرض، فوجدها تُشكِلُ قنوات ومسائل تتجه اتجاهاً مُحدداً، فتتبع مسائل الماء، وسار معها حتى رآها تصل إلى حديقة، ورأى رجلاً قائماً فى الحديقة يُحول الماء بمسحاته فى قنوات حديقته، هنا وهناك... وتوقف ذلك الرجل عند صاحب الحديقة، وسأله عن اسمه، فوجده الاسم الذى سمعه فى السحاب.

واستغرب صاحب الحديقة سؤال السائل، فأعلمه عن خبره، وعن سماعه اسمه من السحاب، وأن أمراً صدر للموكلين بتلك الغمامة بسقى حديقته... وهنا سأله عن السبب الذى استحق به أن يُؤمر السحاب بسقى حديقته، إذ لا شك فى أنه يعمل عملاً أرضى به ربه.

✽ فقال له: «أما إذ قُلْتَ هَذَا»، والمعنى: أنى لم أكن لأخبرك لولا أنك بشرتنى بهذه البشارة.

فأخبره أنه ينظر إلى نتاج مزرعته، فيقسمه إلى ثلاثة أقسام: قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجة.. وقسم يجعله لمعاشه ومعاش عياله.. والقسم الثالث يردّه فى حديقته.

فالرجل لم يتصدق بالنصف ولم يتصدق بثلاثة أرباع، ولكن بأقل، إذاً: هنا تصدق بالثلث والثلث كثير... كما قال النبى ﷺ: «الثلث، والثلث كثير».

فأنفق الرجل لله ﷻ الثلث، قال: «فأتصدق بثلثه، وأكل أنا وعيالى ثلثه، وأرد فيها ثلثه»، أى: الثلث الثالث أردّه فيها وأزرعها مرة أخرى.. فكان هذا الذى أنفق الثلث، أعطاه الله ﷻ سحابة خاصة تسقى زرعه.

هذا كرمٌ عظيم من رب العالمين سبحانه، نتعلم منه أن ننفق لله، وأن نُخلص النية، وألا نستكثر شيئاً أخرجناه لله سبحانه، فإن الله يُخلف خيراً، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه: ٧٣).

ونحن نعلم أن الصدقة تحفظ المال وتزكيه وتباركه... ونفقة المرء على عياله واجب أوجبه الله عليه، ورعاية البستان بالحرث والتسميد والسقى من أسباب الحفظ، وبذلك يظهر لك أن هذا الرجل كان يمثل المزارع المسلم، الذي يعرف حق ربه عليه، كما يعرف حق نفسه وأهله، وهو في الوقت ذاته خير بالطريقة العلمية لإصلاح الأرض واستثمارها.

❁ فوائد القصة وعبرها:

(١) رعاية الله وحفظه للصالحين من عباده الذين يستقيمون على أمره، فقد أمر الله السحاب بسقى حديقة ذلك الرجل الصالح المتصدق بثلاث الخارج من حديقته.

(٢) يحب الله العبد المتزن في أموره وتصرفاته... الذي يعطى كل ذي حق حقه... ومن ذلك ما فعله هذا الرجل من قسمته نتاج بستانه إلى ثلاثة أقسام، فلم يطغَ قسمٌ من هذه الأقسام على القسمين الآخرين.

(٣) قيمة العمل... فقد خلّد الله ذكر هذا الرجل بعمله وتصدقته، وليس الرجل الصالح هو ذلك المنقطع للعبادة، التارك للعمل، المبتعد عن الزواج، المهمل للذرية، كما يظنه بعض من لا علم عنده.

(٤) إذا رضى الله عن العبد سخر له ما شاء من الأرض والسماء.

فقد أمر الله السحاب أن يسقى حديقة ذلك الرجل الصالح^(١).



(١) صحح القصص النبوي/ د. عمر الأشقر (ص ٢١٦-٢١٨) بتصرف.

(٦١) بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْبُخْلِ وَالشُّحِّ

﴿إِنْ مِنْ أَسْوَأِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَدَّ عَنْهَا: الْبُخْلُ وَالشُّحُّ... فَالْإِنْسَانُ الشَّحِيحُ يَرْتَكِبُ جَرِيمَةَ كُبْرَى وَهُوَ لَا يَدْرِي... حَيْثُ أَنَّهُ يُسِيءُ الظَّنَّ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَنْ يُعْوَضَهُ عَمَّا أَنْفَقَهُ وَبَذَلَهُ... مَعَ أَنَّ اللَّهَ (جَلَّ وَعَلَا) قَالَ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَخْلُ وَاسْتَغْنَى﴾ (٨) ﴿وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى﴾ (٩) ﴿فَسَيَسِيرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (١٠) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ٨-١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

والبُخل: هو منع ما يجب وما ينبغي بذله.

والشُّح: هو الطمع فيما ليس عنده، وهو أشد من البخل... لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده، والبخل يمتنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات، ومما ينبغي بذله فيما تقتضيه المروءة.

وكلاهما - أعنى البخل والشُّح - خُلِقَانِ ذَمِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَمُّ مَنْ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَقَالَ ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

﴿وَلَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ كَثْرَةَ الشُّحِّ مِنْ عِلَامَاتِ السَّاعَةِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَظْهَرَ الشُّحُّ» (١).

وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ» (٢).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/٢٢٨، رقم ٧٤٨). قال الهيثمي (٧/٣٢٧): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان وهو ثقة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٦١) كتاب الفتن، ومسلم (١٥٧) (١١) كتاب العلم.

✽ وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» ^(١).

وفي هذا دليل على أن الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنه لا وعيد إلا على كبيرة من كبائر الذنوب... فظلم العباد؛ كله من كبائر الذنوب.

✽ ثم قال ﷺ: «وَاتَّقُوا الشُّحَّ» يعنى الطمع فى حقوق الغير.
اتقوه: أى احذروا منه، واجتنبوه «فإنه أهلك من كان قبلكم» يعنى من الأمم «حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» فكان هلاكهم بذلك والعياذ بالله.

الحسرات التي يجنيها البخيل في الدنيا والآخرة

✽ فأما حسرته فى الدنيا فإن الله ينزع البركة من ماله ويُسَلِّطُ عليه حب الدنيا التى هى رأس كل خطيئة.

✽ بل إن من بخل فإنه يُيسَّرُ للعسرى وهى الحياة السيئة فى الدنيا والآخرة، وهى طريق الشر.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۖ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَيُسْرُهُۥٓ ۖ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ٨-١٢].

✽ بل إن ملكاً يدعو عليه كل يوم بإتلاف ماله .
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْسِكًا تَلَفًا» ^(٢).

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٤٢) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٠) كتاب الزكاة.

❁ بل إن من أسباب الاستبدال في الدنيا: البخل وترك الجهاد.

قال تعالى: ﴿هَآأَنُتُمْ هَآؤِلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلُ ۚ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۝﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَاَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ءَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝﴾ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

❁ وأما حسراته في الآخرة فهي كثيرة:

أما الحسرة الأولى فإنه يُحَرِّم من الخير الذي أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال: «لَا يَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيَرَبِّيَهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهٗ»^(١)، أَوْ قُلُوصَهُ»^(٢)، حَتَّىٰ تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أُعْظِمَ»^(٣).

❁ أما الحسرة الثانية فتراها واضحة جلية في ذلك المشهد الذي أخبر عنه الحق (جَلَّ وَعَلَا) حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ (٣١) يَوْمَ يُخَيَّعُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُورٌ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ۝﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

ويا له من مشهدٍ عظيم ... والسؤال هنا لماذا اختار الله الجبهة والجنب والظهر دون سائر الجسد؟!

والجواب عن ذلك: أن الفقير كان في الدنيا إذا ذهب إلى الغنى ليسأله أن

(١) الفلوه: هو المهر الصغير.

(٢) القلوص: الناقة الشابة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٠) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠١٤) كتاب الزكاة.

يُعْطِيهِ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْغَنَىَّ يَعْبَسُ بِجَبْهَتِهِ فِي وَجْهِ الْفَقِيرِ .. فَإِذَا تَكَرَّرَ السُّؤَالُ مِنَ الْفَقِيرِ فَإِنَّ الْغَنَىَّ يَعْطِيهِ جَانِبَهُ ... فَإِذَا زَادَ إِلْحَاحُ الْفَقِيرِ فَإِنَّ الْغَنَىَّ يَعْطِيهِ ظَهْرَهُ!! فَاخْتَارَ اللَّهُ ﷻ تِلْكَ الْمَوَاطِنَ الثَّلَاثَ الَّتِي أَعْرَضَ بِهَا الْغَنَىُّ عَنِ الْفَقِيرِ لَتَتْعَذَّبَ بِنَفْسِ أَمْوَالِهِ بَعْدَ أَنْ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ...

وهذا ما أخبر عنه النبي ﷺ أيضًا حيث قال: « مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ »^(١).

❖ أما الحسرة الثالثة فهي التي أخبر عنها النبي ﷺ في هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة حيث قال: « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثَلَّ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ رَبِيبَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي: بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالِكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠] الْآيَةُ »^{(٢) (٣)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦٨) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ »^(٤).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٠٨) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٤٠٣) كتاب الزكاة

(٣) وأنذرهم يوم الحسرة / د. محمود المصرى (ص ١٦٣-١٦٤).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٨) كتاب البر والصلة والآداب.



(٦٢) باب الإيثار والمواساة

✽ ما أجمل أن يتخلق المسلم بخُلق الجود والإيثار ... فإن من تخَلَّق بهذا الخُلق فإنه يفوز بمحبة الله ورضوانه ... ويفوز بمحبة الناس من حوله.

✽ **أخي الحبيب:** هل حدث يوماً أن كنت بحاجة إلى المال الذي معك فوجدت زميلك بحاجة إلى المال فأعطيته المال الذي معك وأثرته على نفسك؟

✽ هل ذهبت إلى العمل يوماً وكان معك طعامك الذي صنعتك لك أمك الغالية أو زوجتك الوفية فوجدت زميلك في العمل ليس معه طعام فأعطيته الطعام الذي معك وأثرته على نفسك؟

✽ إذا كنت قد فعلت هذا فأنت ممن أكرمهم الله بخُلق الإيثار فقال عنهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار: أن يقدم الإنسان غيره على نفسه.

والمواساة: أن يواسى غيره بنفسه... والإيثار أفضل ولكن لا بُدَّ أن نعلم أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: ممنوع، والثاني: مكروه أو مباح، والثالث: مباح.

أما الممنوع فهو أن تُؤثر غيرك بما يجب عليك شرعاً فإنه لا يجوز أن تُقدم غيرك فيما يجب عليك شرعاً.

ومثاله إذا كان معك ماء يكفي لوضوء رجل واحد، وأنت لست على وضوء، وهناك صاحب لك ليس على وضوء فالماء لك، لكن إما أن يتوضأ به صاحبك وتتيّم أنت، أو تتوضأ أنت وتتيّم صاحبك ... ففي هذه الحال لا يجوز أن تعطيه الماء وتتيّم أنت؛ لأنك واجدٌ للماء، والماء في ملكك، ولا

يجوز العدول عن الماء إلى التيمم إلا لعدم.
فالإيثار في الواجبات الشرعية حرام، ولا يحل؛ لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك.

وأما القسم الثاني: وهو المكروه أو المباح: فهو الإيثار بالأموال المستحبة، وقد كرهه بعض أهل العلم وأباحه بعضهم... لكن تركه أولى بلا شك إلا لمصلحة.
ومثاله: أن تؤثر غيرك في الصف الأول الذي أنت فيه... مثل أن تكون أنت في الصف الأول في الصلاة، فيدخل إنسان فتقوم عن مكانك وتؤثره به... فقد كره أهل العلم هذا، وقالوا: إن هذا دليل على أن الإنسان يرغب عن الخير... والرغبة عن الخير مكروهة، إذ كيف تقدم غيرك على مكانٍ فاضل أنت أحق به منه؟!
وقال بعض العلماء: تركه أولى إلا إذا كان فيه مصلحة، كما لو كان أبوك وتخشى أن يقع في قلبه شيء عليك فتؤثره بمكانك الفاضل، فهذا لا بأس به.

القسم الثالث: وهو المباح: وهذا المباح قد يكون مستحباً، وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبدي... أي تؤثر غيرك وتقدمه على نفسك في أمر غير تعبدي.
مثل: أن يكون معك طعام وأنت جائع، وصاحب لك جائع مثلك ففي هذه الحال إذا أثرته فإنك محمود على هذا الإيثار؛ لقول الله ﷻ في وصف الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ووجه إشارتهم على أنفسهم أن المهاجرين لما قدموا المدينة تلقَّاهم الأنصار بالإكرام والاحترام والإيثار بالمال، حتى أن بعضهم كان يقول لأخيه المهاجري: إن شئت أن أتنازل عن إحدى زوجتي لك فعلت... يعني يطلقها فيتزوجها المهاجري بعد مضي عدتها. وهذا من شدة إشارتهم ﷺ لإخوانهم المهاجرين.

❦ قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُدُودِهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

يعنى يطعمون الطعام وهم يحبونه: مسكينًا ويَتِيمًا وأَسِيرًا، ويتركون أنفسهم، هذا أيضًا من باب الإيثار^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٦٩) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلْ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، ثُمَّ أَرْسَلْ إِلَى أُخْرَى. فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ، فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

❦ وفي رواية قَالَ لَامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: لَا، إِلَّا قُوتَ صَبِيَانِي قَالَ: عَلَّيْهِمْ بَشْيءٌ وَإِذَا أَرَادُوا الْعِشَاءَ، فَتَوَمَّيْهِمْ، وَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا، فَأَطْفِئِ السَّرَاحَ، وَأَرِيهِ أَنَا نَأْكُلُ... فَفَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ وَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»^(٢).

❦ يتجلى أثر الضمير الذى صنعه الإيمان بالله واليوم الآخر فى مجال المواساة والإيثال بالمال والنفس. فكان الرجل يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويبذل له من ذات يده، ومن جهده ووقته ما يبذله لأعز بنيه عليه، وأحب أهليه إليه... وقد يرتقى الإيمان بأحدهم، فيؤثر أخاه على نفسه. فيجود له بالشىء، وهو أحوج ما يكون إليه... كل ذلك ولا قانون يلزمه، ولا حكومة تطالبه، ولا أجهزة تراقبه، ولا عقوبة تُسلط عليه، وإنما هو دافع الإيمان بين جنبيه، يُحفزه

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٧٩٨) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٥٤) كتاب الأشربة.

على عمل الخير، والتطوع بالبر، ابتغاء ما عند الله وما عنده خير وأبقى^(١).

✽ لقد كان رسول الله ﷺ يجلس دائماً مع أصحابه ليعلمهم ويربيهم وليطمئن على أحوالهم... وفي يوم من الأيام كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه فجاء إليه رجل غريب يشكو من شدة الجهد والجوع والتعب والمشقة وأنه في حالة سيئة من العيش ومن الجوع.

فأرسل النبي ﷺ في التو واللحظة إلى كل نسائه وطلب منهن طعاماً لهذا الرجل الجائع.. فكان الجواب من كل واحدة من نسائه: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء.

وهي لا تحتاج أن تقسم فهي صادقة (رضوان الله عليها)، ولكن لتؤكد للنبي ﷺ أنه لا يوجد أي شيء، ولو كان عندها ثمرة لأخرجتها، ولكن ما عندها إلا الماء، فقال النبي ﷺ: «من يُضيف هذا الليلة؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله! فانطلق به إلى رحله.

وقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ.

وكأنه يقول لها: لو كان ضيفي لكان الأمر يسيراً... أما هذا فهو ضيف رسول الله ﷺ فأخرجني أطيب ما عندك.

لكنه لا يعلم أنها ليس عندها إلا قوت الصبية الصغار فقال: علّيتهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوّمهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئ السراج وأريه أننا نأكل... وكان هذا قبل نزول آيات الحجاب.

✽ وبالفعل فقد نفذت الزوجة ما قاله زوجها.

فنام الأطفال وما أن دخل الضيف وتم وضع الطعام حتى أسرع الزوجة وأطفأت المصباح.

(١) الإيمان والحياة/ د. يوسف القرضاوى (ص ٢٣٧).

فأكل الضيف حتى شبع وهو يعتقد أن الرجل يأكل معه.
وعندما انتهى الضيف من تناول الطعام شكر الرجل الأنصارى؛ لأنه
أطعمه.. ثم انصرف بعد ذلك.

بينما نام الرجل وزوجته وأبناؤه وهم جائعون.

وفي الصباح ذهب الرجل الأنصارى للمسجد.. وشاهده رسول الله ﷺ
ونادى عليه وأخبره بأن الله عَجِبَ من فعله هو وزوجته مع ضيف رسول الله
ﷺ... وأن الله ﷻ أنزل فيهما قرآنا وهو قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].
وهكذا شاركت المرأة زوجها هذا الأجر والثواب العظيم عندما شاركته
بهذا الإيثار العجيب.

❁ ففى هذا الحديث من الفوائد ما يلى:

أولاً: بيان حال رسول الله ﷺ وما هو عليه من شظف العيش وقلة ذات اليد،
مع أنه عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على الله... ولو كانت الدنيا تساوى
عند الله شيئاً؛ لكان أحق الناس بها رسول الله ﷺ... ولكنها لا تساوى شيئاً.
ثانياً: حُسن أدب الصحابة مع النبى ﷺ... فإن هذا الأنصارى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال
لزوجته: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ ولم يَقُلْ أكرمى ضيفنا مع أن الذى أضافه
فى الحقيقة هو هذا الرجل، لكنه أضافه نيابة عن الرسول (عليه الصلاة
والسلام)، فجعله ضيفاً لرسول الله ﷺ.

ثالثاً: أنه يجوز عرض الضيافة على الناس، ولا يُعَدُّ هذا من المسالة
المذمومة... أولاً لأنه لم يُعَيَّن، فلم يَقُلْ: يا فلان ضَيِّف هذا الرجل حتى نقول:
إنه أخرج، وإنما هو على سبيل العموم... فيجوز للإنسان مثلاً إذا نزل به ضيف
وكان مشغولاً، أو ليس عنده ما يُضيفه به، أن يقول لمن حوله: مَنْ يُضَيِّف هذا
الرجل؟ ولا حرج فى ذلك.

رابعًا: الإيثار العظيم من هذا الرجل الأنصارى، حيث بات هو وزوجته وصيته من غير عشاء إكرامًا لهذا الضيف الذى نزل ضيفًا على رسول الله ﷺ.

خامسًا: أنه ينبغي للإنسان ألا يرى ضيفه أنه يَمُنُّ عليه، أو أن الضيف مُضَيِّقٌ عليه، ومُحَرِّجٌ له ... لأن الرجل أمر بإطفاء المصباح حتى لا يظن الضيف أنه ضَيِّقٌ عليهم وحرَمهم العشاء.... وهذا مأخوذ من أدب الخليل إبراهيم عليه السلام حين نزلت به الملائكة ضيوفاً ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، مشوى، لكنه راغ إلى أهله، أى ذهب بسرعة وخفية لئلا يخجل الضيف.

سادسًا: أنه يجوز للإنسان أن يؤثر الضيف ونحوه على عائلته ... وهذا فى الأحوال النادرة العارضة، وإلا فقد قال النبى ﷺ: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ»^(١).

ولكن إذا عرضت مثل هذه الأحوال؛ فلا حرج على الإنسان أن يقدم الضيف أو نحوه ممن يجب عليه إكرامه^(٢).

✽ ولقد كانت هناك أمثلة عجيبة للإيثار فى تاريخنا الإسلامى المشرق.. وها هى بعضها:

✽ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ مِسْكِينًا سَأَلَهَا، وَهِيَ صَائِمَةٌ، وَلَيْسَ فِي بَيْتِهَا إِلَّا رَغِيفٌ، فَقَالَتْ لِمَوْلَاةٍ لَهَا: «أَعْطِيهِ إِيَّاهُ»، فَقَالَتْ: لَيْسَ لَكَ مَا تُفْطِرِينَ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: «أَعْطِيهِ إِيَّاهُ»، قَالَتْ: فَفَعَلْتُ ... قَالَتْ: فَلَمَّا أَمْسَيْنَا أَهْدَى لَنَا أَهْلُ بَيْتٍ أَوْ إِنْسَانٌ مَا كَانَ يُهْدَى لَنَا شَاءً وَكَفَنَهَا، فَدَعَتْنِي عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَتْ: «كُلِي مِنْ هَذَا، هَذَا خَيْرٌ مِنْ قُرْصِكَ»^(٣).

(١) هذا اللفظ مركب من حديثين، الأول: «ابْدَأْ بِنَفْسِكَ»، وهو عند مسلم (٩٩٧) كتاب الزكاة، والثانى:

«وابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ» وهو عند البخارى (١٤٢٨) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣٤) كتاب الزكاة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٢٢٨، ٢٢٩).

(٣) القرطبى (١٩/١٨) وكفن الشاة: عجيب برّ تغطى به ثم تعلق فى التنور فلا يخرج من الرودك شىء -

والرودك: الدسم.

❖ وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ثُمَّ سَلِّهَا، أَنْ أَدْفِنَ مَعَ صَاحِبِي... قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي فَلَاؤُرِثَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ، قَالَ لَهُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذِنْتُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: «مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَضْجَعِ، فَإِذَا قُبِضْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمُوا، ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنْتَ لِي، فَادْفُنُونِي، وَإِلَّا فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ...»^(١).

❖ وَعَنْ مَالِكِ الدَّارَانِيِّ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَ أَرْبَعِمِائَةَ دِينَارٍ فَجَعَلَهَا فِي صُرَّةٍ فَقَالَ لِلْغُلَامِ: اذْهَبْ بِهَا إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، ثُمَّ تَلَبَّثْ سَاعَةً فِي الْبَيْتِ حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ، فَذَهَبَ بِهَا الْغُلَامُ فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: وَصَلَهُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَى يَا جَارِيَّةُ، اذْهَبِي بِهِذِهِ السَّبْعَةَ إِلَى فُلَانٍ، وَبِهِذِهِ الْخَمْسَةَ إِلَى فُلَانٍ، وَبِهِذِهِ الْخَمْسَةَ إِلَى فُلَانٍ، حَتَّى أَنْفِذَهَا. فَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَخْبَرَهُ فَوَجَدَهُ قَدْ أَعَدَّ مِثْلَهَا لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، فَقَالَ: اذْهَبْ بِهَا إِلَى مُعَاذٍ وَتَلَكَّأْ فِي الْبَيْتِ سَاعَةً حَتَّى تَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ... فَذَهَبَ بِهَا إِلَيْهِ فَقَالَ: يَقُولُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ: اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ، فَقَالَ: رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَصَلَهُ، تَعَالَى يَا جَارِيَّةُ، اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلَانٍ بِكَذَا، اذْهَبِي إِلَى بَيْتِ فُلَانٍ بِكَذَا... فَاطَّلَعَتْ امْرَأَةٌ مُعَاذٍ فَقَالَتْ: وَنَحْنُ وَاللَّهِ مَسَاكِينُ فَأَعْطِنَا.

وَلَمْ يَبْقَ فِي الْخِرْقَةِ إِلَّا دِينَارَانِ فَدَحَا بِهِمَا إِلَيْهَا، وَرَجَعَ الْغُلَامُ إِلَى عُمَرَ فَأَخْبَرَهُ فَسَرَّ بِذَلِكَ وَقَالَ: «إِنَّهُمْ إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ»^(٢).

❖ وعن نافع أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنبًا، فأشرى له عنقود بدرهم،

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٩٢) كتاب الجنائز.

(٢) القرطبي (١٨/١٩).

فجاء مسكين فسأل، فقال: أعطوه إياه، فخالف إنساناً فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكين فسأل، فقال: أعطوه إياه، ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه، فأراد السائل أن يرجع فمُنع. ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه. لأن ما خرج لله لا يعود فيه^(١).

❁ وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: «إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منّا» قال: فبعث بها إليه فلم يزل يبعث بها واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة آيات حتى رجعت إلى الأول فنزلت ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]^(٢).

❁ وعن حذيفة العدوي، قال: «انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعى شيء من ماء وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه، فإذا أنا به، فقلت: أسقيك؟ فأشار إلي أن نعم. فإذا رجل يقول آه. فأشار ابن عمي إلي أن انطلق به إليه فجئته فإذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه. فأشار هشام: انطلق به إليه فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات. رحمة الله عليهم أجمعين»^(٣).

❁ وحكى عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلاً بقرية من قرى الرّي، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان، وأطفئوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رُفِع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئاً، إيثاراً لصاحبه على نفسه^(٤).

(١) القرطبي (١٩/١٨).

(٢) الدر المنثور (١٠٧/٨).

(٣) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٥٨).

(٤) القرطبي (١٩/١٨).

✽ وعن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه - وكان من الأجواد المعروفين - : حَتَّى إِنَّهُ مَرَضَ مَرَّةً، فَاسْتَبْطَأَ إِخْوَانَهُ فِي الْعِيَادَةِ ^(١). فَسَأَلَ عَنْهُمْ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحْيُونَ مِمَّا لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدِّينِ. فَقَالَ: أَخْزَى اللَّهُ مَا لَا يَمْنَعُ الْإِخْوَانَ مِنَ الزِّيَارَةِ. ثُمَّ أَمَرَ مُنَادِيًا يُنَادِي: مَنْ كَانَ لِقَيْسٍ عَلَيْهِ مَالٌ فَهُوَ مِنْهُ فِي حِلٍّ. فَمَا أُمْسَى حَتَّى كُسِرَتْ عَتَبَةُ بَابِهِ، لِكَثْرَةِ مَنْ عَادَهُ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٠) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَعَامُ الْاِثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ» ^(٣).

وفي رواية عن جَابِرٍ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ، يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ» ^(٤).

✽ والمعنى: إذا نزل بالناس الجوع، ونزل بالناس شدة، فالإنسان إذا أكل طعاماً كاملاً سيعيش وتمر عليه الليلة، وإذا أكل في نصف بطنه فقط فأيضاً ستمر عليه الليلة وينتهي الأمر الذي هو فيه ... فيعلمهم النبي ﷺ أن طعام الواحد يكفى الاثنین، وطعام الاثنین يكفى الثلاثة ويكفى الأربعة، وطعام الأربعة يكفى الخمسة ويكفى الثمانية.

فإذا وجد الإنسان مَنْ يَحْتَاجُ فَلْيُطْعِمْهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَلْيُعْطِهِ وَيَنْتَظِرِ الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ ﷻ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَنْتَظِرِ الْحَمْدَ مِنَ النَّاسِ، وَلَوْ أَنْتَظَرَ الْحَمْدَ مِنَ النَّاسِ تَعَبٌ، وَقَدْ يُطْعَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ... فَالْمُعَامَلَةُ لَيْسَتْ مَعَ النَّاسِ، وَإِنَّمَا الْمُعَامَلَةُ مَعَ اللَّهِ، وَالَّذِي يَتَعَامَلُ مَعَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ يَسْتَرِيحُ أَعْظَمَ الرَّاحَةِ، فَلَا

(١) العيادة: زيارة المريض.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٠٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٩٢) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٥٨) كتاب الأشربة.

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٥٩) كتاب الأشربة.

ينتظر من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ينظر إلى ما أخذه هذا الإنسان منه، فهو في شأن حاله يقول كما قال السلف الصالح رضوان الله عليهم: ﴿إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) [الإنسان: ٩].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧١) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ» قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يحكى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا في سفرٍ مع النبي ﷺ.

وسُمي السفر سفرًا من الإسفار كأنه يسفر عن الشيء ويكشف عنه، ولأن الإنسان يستكشف به أرضًا جديدة لم يكن يعرفها، ويستكشف أخلاقًا في الرفقة التي معه لم يكن يعرفها، فيرى أخلاقًا عظيمة عالية ما كان يعلمها قبل ذلك، وقد يكون خلاف ذلك.

فهنا النبي ﷺ وأصحابه كانوا في سفر، وجاء رجل على راحلة، فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فهو محتاج، ولم يدرِ مَنْ يسأل، وهو راكب على جمل وقد يحتاج لطعام، ولا نقول له: انحر الجمل وكُلْهُ في السفر، فكيف سيكمل سفره... فرآه النبي ﷺ مُتَحَاجًّا، فقال النبي ﷺ هذا الكلام العظيم الجميل: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ»، يعنى: لو أن إنسانًا معه راحلتان فليُعِطِ راحلةً لمن يحتاج إلى راحلة، فكيف يمشي ومعه ما يجعله يركب عليه.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٢٨) كتاب اللقطة.

«فَلْيَعُدَّ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ»، وهم في سفر ... والمسافر قد يكون غنياً في بلده ... عنده رواحل وعنده جمال في بلده، لكن الآن ليس عنده راحلة. ويقول النبي ﷺ: «وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ»، من طعام وشراب ونحوه «فَلْيَعُدَّ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»، وذكر أصنافاً من المال.

قال الراوى وهو أبو سعيد الخدرى: حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضلة، يعنى لا حق لأحد منا في زيادة ... فالذى معه زيادة وأخوه محتاج في السفر فليعط هذا المحتاج، ولا يبخل عليه، فإن الله يعطى الأجر العظيم... وكلما ضاق الشيء فأعطيت صديقاً كان الأجر أوسع وأعظم من الله سبحانه وتعالى^(١).

فكان الواحد منهم بعد ذلك ينظر إلى رفيقه ويُرْكَبُهُ معه ويُشْرِكُهُ في زاده.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالْجُودِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الرُّفْقَةِ وَالْأَصْحَابِ وَالْإِعْتِنَاءِ بِمَصَالِحِ الْأَصْحَابِ وَأَمْرُ كَبِيرِ الْقَوْمِ أَصْحَابَهُ بِمُوَاسَاةِ الْمُحْتَاجِ وَأَنَّهُ يُكْتَفَى فِي حَاجَةِ الْمُحْتَاجِ بِتَعَرُّضِهِ لِلْعَطَاءِ وَتَعَرُّضِهِ مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ... أَيْ مُتَعَرِّضًا لَشَيْءٍ يَدْفَعُ بِهِ حَاجَتَهُ ... وفيه مواساة ابن السبيل وَالصَّدَقَةُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا وَإِنْ كَانَ لَهُ رَاحِلَةٌ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ أَوْ كَانَ مُوسِرًا فِي وَطَنِهِ ... وَلِهَذَا يُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٢) وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِبُرْدَةٍ مَسْجُوجَةٍ، فَقَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدَيَّ لَأَكْسُو كَهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا لِأَزَارُهُ، فَقَالَ فُلَانٌ: اكْسُيْنِيهَا مَا أَحْسَنَهَا، فَقَالَ: «نَعَمْ» فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ فِي

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطية.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٢/٤٩-٥٠).

المجلس، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ: فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لِبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي ... قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ^(١).

❦ ففي هذا الحديث أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة قد نسجتها بيديها لتكسى بها رسول الله ﷺ.. وكان النبي ﷺ في ذلك الوقت يلبس إزارًا قديمًا فأخذ البردة وهو محتاجٌ إليها ﷺ.. وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها.. وهذا من كرمه وحسن أخلاقه ﷺ.

فلما أخذ النبي ﷺ البردة الجديدة دخل البيت فخلع الملابس القديمة ولبس تلك البردة الجديدة.. فرآها عليه أحد أصحابه فطلبها منه ﷺ وقال له: اكسنيها ما أحسنها.

فما كان من النبي ﷺ إلا أن قام في التو واللحظة دون أي تردد وخلع البردة الجديدة ولبس الإزار القديم مرة أخرى ثم خرج من بيته وأعطى البردة لذلك الصحابي.

فلما دخل النبي ﷺ بعد انتهاء جلسته مع أصحابه قالوا لهذا الرجل: ما أَحْسَنْتَ ... لِبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي. قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

❦ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

(١) تقشفه ﷺ مع ما فتح الله عليه من بلاد، ومع ما كان يأتيه من غنائم وأموال كثيرة، حتى إنه يحتاج إلى بردة، تهديها له امرأة، تكون له إزارًا، يقول

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٠٩٣) كتاب البيوع، و (٥٨١٠) كتاب اللباس.

الراوى واصفاً حال النبى ﷺ: (فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا)، ومما يوضح شدة احتياجه إليها، قول الراوى: (فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا لِأَرَارُهُ)، أى أنه لبسها فى نفس المجلس.

(٢) تواضعه ﷺ .. ويتجلى ذلك فى قبول الهدية من امرأة، وإظهاره الاحتياج إليها، وارتدائها فى نفس المجلس.

(٣) إثارة أصحابه على نفسه، وأن تلك كانت عادته... لقول الراوى: (ثُمَّ سَأَلْتُهُ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ)، أى أن عدم رد السائل كان مسلكه دائماً ﷺ... وتدبر كيف أن النبى ﷺ قد خلعها للسائل بعد أن لبسها.

(٤) رحمته وشفقته ﷺ بالسائل فيعطيه ولو كان ﷺ فى حاجة لما يعطيه.

(٥) زهده ﷺ فى الدنيا وعدم خشيته الفقر، ورجاء ما عند الله، وحسن الظن به - سبحانه وتعالى - ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه: (إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ»^(١).

كما يتفرع عليه، أن من السنة، أن يعطى المسلم ويبدل ما عنده، ولو كان فقيراً... لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وعجبت أن النبى ﷺ كان يعطى وهو فقير... والرجل الآن لا يعطى وهو غنى، حتى إن الرجل الآن، يبخل أن يرد السائل بالكلمة الطيبة، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

الفائدة الثانية: حب الصحابة للرسول ﷺ.

الفائدة الثالثة: تعظيم الصحابة لكل ما لامس جسد الرسول ﷺ حيث إن السائل رغم حُسن البردة وجمالها، ما طلبها ليلبسها، بل طلبها ليكفن فيها...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧٠) كتاب الرقاق، ومسلم (١٠٥٣) كتاب الزكاة.

ولولا علم الصحابة بجواز ذلك، وأنها يمكن أن تنفعه في قبره لأنكروا عليه، ولو أنهم كانوا يجهلون المسألة أصلاً، لسألوا عنها النبي ﷺ، قال السائل: (رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلى أكفن فيها)، وعند البخارى: (قال سهل: فكانت كفنه).

وتأمل أخى القارئ، قصر المدة التى لبس النبي ﷺ فيها هذه البردة، حتى يرجو السائل بركتها، لكنه علم أن هذه البركة تحدث بأدنى ملامسة من النبي ﷺ للبردة... أعلمت أخى القارئ مكانة النبي ﷺ عند ربه ﷻ، أن يجعل فى كل ما يلامسه أعظم البركة، وأيضاً مكانته ﷺ عند أصحابه، ويقينهم بذلك.

ويتفرع على ذلك: تقديم الصحابة ﷺ أمر الآخرة على أمر الدنيا حيث إن السائل ادّخر البردة للقبر والكفن، وفصل ذلك على ارتدائها فى الدنيا، مع ملاحظة أن ارتدائها فى الدنيا، فيه بركة أيضاً، ولكن حاجته إليها فى القبر أشد وأظهر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٣) وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث يُثنى النبي ﷺ على الأشعريين ويمدحهم.. وهم قوم أبى موسى الأشعرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل اليمن... بل وفوق ذلك جعلهم النبي ﷺ منه فقال ﷺ: «فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ» لكن ياترى ما الذى جعل النبي ﷺ يمدحهم وينسبهم إليه ﷺ.

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/٣٥٧-٣٥٨) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٦) كتاب الشركة، ومسلم (٢٥٠٠) كتاب فضائل الصحابة.

«أَرْمَلُوا»: قَرَعَ زَادُهُمْ، أَوْ قَارَبَ الْفَرَاغَ.

والجواب أن الذي جعله ﷺ يقول ذلك هو تلك الخصلة الجميلة التي كانوا يتميزون بها سواء كان ذلك في المدينة أو حتى عند خروجهم للغزو في سبيل الله (جل وعلا).

تلك الخصلة والصفة الجميلة أنهم كانوا إذا أرملوا أى: احتاجوا وقلّ طعامهم أو كاد ينفد زادهم، يجمعون طعام الجميع في إناء واحد، ثم يقسمونه بين الجميع بالسوية، ولعل بعضهم عنده الكثير، وبعضهم عنده اليسير، فيقولون: كلنا محتاجون، ولا أحد أولى من الآخر بالمال! فالنبي ﷺ يمدحهم على صفتهم هذه، فقال: «هُم مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ».

يعنى: هم من أهل الإيثار ومن أهل الكرم، وقد جُبل النبي ﷺ على ذلك ..، فهم من النبي ﷺ وهو منهم.

وهذا الطعام كله بركة لأن البركة مع الجماعة... لكن بشرط أن تكون النفوس صافية .. أما إذا لم تكن النفوس صافية فلا بركة في هذا الطعام لأن صاحبك قد لا يكون راضياً أن تأكل من طعامه ... أما أصحاب الرسول ﷺ فقد كانت نفوسهم نقية صافية ليس فيها شئٌ من الشُّح بل كانت قلوبهم مملوءة بالإيثار وحب الخير للغير... سواء كان ذلك في الحضر أو في السفر.

✽ قال الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله رحمة واسعة): وهذا الحديث أصلٌ في الجمعيات التعاونية التي يفعلها بعض الناس اليوم .. تجتمع القبيلة على أن يضعوا صندوقاً يجمعون فيه ما تيسر من المال؛ إما بالنسبة وإما بالاجتهاد والترشيح ... فيتفقون مثلاً على أن كل واحدٍ منهم يدفع اثنين في المائة من راتبه أو من كسبه أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا الصندوق مُعدّاً للحوائج والنكبات التي تحصل على أى واحدٍ منهم.

فهذا أصله حديث أبي موسى رضي الله عنه الذي سبق ... فإذا جمع الناس صندوقاً

على هذا النحو ليتساعدوا فيه على نكبات الزمان من الحوادث وغيرها، فإن لذلك أصلاً في السنة، وهو من الأمور المشروعة.

ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا الصندوق قد يكون لمن يقع عليه الحادث، وقد يكون لمن يقع منه الحادث.

أما الأول: فأن يوضع الصندوق للناس لمساعدة الناس الذين يحصل عليهم جوائح؛ مثل جوائح تُتلف زروعهم ومواشيهم، أو أمطار تهدم بيوتهم، أو حوادث تحدث على سياراتهم من غيرهم، فيحتاجون إلى المساعدة؛ فهذا طيب ولا إشكال فيه.

أما الثاني: فهو للحوادث التي تقع من الشخص، فإذا فعل شخص حادثاً فصدّم أحداً أو ما أشبه ذلك فينبغي أن يُنظر في هذا الأمر؛ لأننا إذا وضعنا صندوقاً لهذا فإن السفهاء قد يتهورون، ولا يهمهم أن تقع الحوادث منهم. فإذا قدر أننا وضعنا صندوقاً لهذا الشيء فليكن ذلك بعد دراسة ما حدث من الشخص دراسة عميقة، وأنه لم يحدث منه تهوّر ولم يحدث منه تفريط، وإلا فلا ينبغي أن توضع الصناديق لمساعدة هؤلاء السفهاء الذين يومًا يصدّمون شخصاً، ويومًا يصدّمون سيارة وما أشبه ذلك، وربما يقع ذلك عن حالٍ غير مرضية كسُكر، أو عن حال يُفرط فيها الإنسان كالنوم وما أشبه ذلك.

❁ والحاصل أن هذه الصناديق تكون على وجهين:

الوجه الأول: مساعدة من يحصل عليه حادث، فهذا طيب ولا إشكال فيه. والوجه الثاني: أن يكون ممن يحصل منه حادث، فهذا إن وضع - ولا أحبذ أن يوضع، لكن إن وضع - فإنه يجب التحرّز والتثبت من كون هذا الرجل الذي حصل منه الحادث لم يحصل منه تفريط ولا تعدّ.

ثم إن هذا المال الذي يوضع في الصندوق ليس فيه زكاة مهما بلغ من القدر، وذلك لأنه ليس له مالك... ومن شروط وجوب الزكاة أن يكون المال له مالك،

وهذا الصندوق ليس له مالك بل مَنْ حصل عليه حادث فإنه يُسَاعِدُ منه... وأما أصحاب النقود الذين وضعوا هذه النقود فيه فإنهم لا يملكون نقدها... لأنهم قد أخرجوها من أموالهم للمساعدة، وعلى هذا فلا يكون فيها زكاة.

ثم هاهنا مسألة يسأل عنها الكثير من الناس، وهى أنه يجتمع أناسٌ من الموظفين مثلاً، ويقولون: سنخصم من كل راتب من رواتب هؤلاء النفر ألف ريال على كل واحد، أو عشرة في المائة من راتبه، يعنى إما بالنسبة أو بالتعيين، ونعطيها واحداً منا، وفي الشهر الثانى نعطيها الثانى، وفي الشهر الثالث نعطيها الثالث، وفي الشهر الرابع نعطيها الرابع، حتى تدور عليهم ثم ترجع للأول للمرة الثانية، فبعض الناس يسأل عنها.

والجواب على هذا أن نقول: إن هذا صحيحٌ ولا بأس به، وليس فيه حرج، ومَنْ تَوَهَّم أنه من باب القرض الذى جَرَّ نفعاً فقد وَهَمَ؛ لأننى إذا سَلَفْتُ هؤلاء الإخوان الذين معى شيئاً فأنا لا آخذ أكثر مما أعطيت... وكونهم يقولون سوف يرجع إليه مال كثيرٌ نقول: نعم، ولكن لم يرجع عليه أكثر مما أعطى، فغاية ما فيه أنه سلف بشرط أن يوفى وليس فى هذا شىء.

فهذا وهم من بعض طلبة العلم الذين يظنون أن هذا من باب الربا؛ لأنه ليس فيه ربا إطلاقاً، بل هو من باب التساعد والتعاون، وكثيراً ما يحتاج بعض الناس إلى أموالٍ حاضرة تفك مشاكله، ويسلم من أن يذهب إلى أحدٍ يتدين منه ويربى عليه، أو يذهب إلى بنك يأخذ منه بالربا أو ما أشبه ذلك، فهذه مصلحة وليس فيها مفسدة بأى وجهٍ من الوجوه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢٣٢-٢٣٣) بتصرف.

(٦٣) باب التنافس في أمور الآخرة

والاستكثار مما يتبرك به

✽ قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

ما أجمل أن يتنافس المسلمون في الطاعات التي تُقربهم من رب الأرض والسموات.. وما أجمل أن يتنافسوا في الفوز بالحسنات والفوز بالمغفرة والرحمات والارتقاء في درجات الجنات.

✽ فنحن في سباقٍ حقيقى... وينبغى أن يسعى كل واحدٍ منا لأن يسبق كل من حوله فيما يقربه إلى الله (جلّ وعلا).

✽ وتعالوا بنا لتأمل سويًا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]... فكل واحدٍ منا يقرأ تلك الآيات ويقرأ في آخرها: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.. نعم إنه سباق حقيقى.. وكل واحد يتمنى أن يكون أول المسلمين في فعل الطاعات... وأول المسلمين في الفوز بالمغفرة والرحمات... وأول المسلمين في دخول الجنات.

✽ ومن هنا جاءت الآيات الكثيرة التي تحض على المسارعة إلى الخيرات والطاعات.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وهكذا... فالآيات التي تحض على المسارعة إلى الخيرات كثيرة جداً.
 * ومن أجل ذلك لا بد أن تملوهمة كل واحد منا من أجل أن يبذل أقصى ما في وسعه للفوز برضوان الله ورحمته ومغفرته وجنته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٤) وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: «أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟» فَقَالَ الْغُلَامُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أُؤْثِرُ بِنَصِيبي مِنْكَ أَحَدًا، فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ ^(١).

* فهذا هو ابن عباس رضي الله عنه وهو غلامٌ صغير يحرص كل الحرص على نصيبه من أن يشرب خلف النبي ﷺ... لأن هذا شرفٌ عظيم لا يزهد فيه أحدٌ وبركة عظيمة لا مكان فيها للإيثار... فالإيثار قد يكون في أمور الدنيا أما في الطاعات وأمر الآخرة فليس فيها إيثار.

* فقد كان ابن عباس رضي الله عنه في مجلس النبي ﷺ ومعه مجموعة من الأشياخ الكبار في السن والمقام كأبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم.. فجاء للنبي ﷺ شرابٌ وكان ابن عباس عن يمين النبي ﷺ والأشياخ عن يساره ﷺ.

فلما شرب كانت عادته أن يشرب ويعطى اليمين، ولكن الكبار كانوا عن شماله ﷺ... والسُّنة أن يستأذن الصغير ليعطى الشراب للكبير، فاستأذن النبي ﷺ من ابن عباس لكي يعطى الأشياخ عن يساره ﷺ.. فرفض ابن عباس وكان فقيهاً على الرغم من صغر سنّه فهو يريد أن يشرب خلف النبي ﷺ ومما شرب منه النبي ﷺ ولن يُؤثر بذلك أحدًا أبداً مهما كان قدره ومكانته.. فقال للنبي

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٥١) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٠٣٠) كتاب الأشربة.

«تَلَّهُ» أي: وَضَعَهُ، وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه.

ﷺ: «لا والله يا رسول الله لا أؤثر بنصيبى منك أحداً.. فتلّه رسول الله ﷺ في يده» أى: وضعه في يده فشرب ابن عباس رضي الله عنه.. ولا عجب في ذلك.

فهذا ابن عباس الذى دعا له النبى ﷺ أن يعلمه الله سبحانه ﷺ التأويل، وأن يفقهه في الدين، فاستجاب الله ﷻ دعوة النبى (صلوات الله وسلامه عليه) له.

❦ قال الإمام النووى (رحمته الله): تَضَمَّنَ ذَلِكَ بَيَانَ هَذِهِ السُّنَّةِ وَهِيَ أَنَّ الْأَيْمَنَ أَحَقُّ وَلَا يَدْفَعُ إِلَى غَيْرِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَأَنَّهُ لَا بَأْسَ بِاسْتِئْذَانِهِ وَأَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ الْإِذْنُ وَيَنْبَغِي لَهُ أَيْضًا أَنْ لَا يَأْذَنَ إِنْ كَانَ فِيهِ تَقْوِيَةٌ فَضِيلَةٌ أُخْرَوِيَّةٌ وَمَصْلَحَةٌ دِينِيَّةٌ كَهَذِهِ الصُّورَةِ... وَقَدْ نَصَّ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُؤْثَرُ فِي الْقُرْبِ وَإِنَّمَا الْإِثَارُ الْمَحْمُودُ مَا كَانَ فِي حُظُوظِ النَّفْسِ دُونَ الطَّاعَاتِ... قَالُوا: فَيَكْرَهُ أَنْ يُؤْثَرَ غَيْرُهُ بِمَوْضِعِهِ مِنَ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَكَذَلِكَ نَظَائِرُهُ.

وفى هذه الأحاديث أنواع من العلم منها أن البداءة باليمين فى الشراب ونحوه سنة وهذا مما لا خلاف فيه.

فَالْعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّيَامُنِ فِي الشَّرَابِ وَأَشْبَاهِهِ. وَفِيهِ جَوَازُ شُرْبِ اللَّبَنِ الْمَشُوبِ وَفِيهِ أَنَّ مَنْ سَبَقَ إِلَى مَوْضِعٍ مُبَاحٍ أَوْ مَجْلِسِ الْعَالَمِ وَالْكَبِيرِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِمَّنْ يَجِئُ بَعْدَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا أَيُّوبُ عليه السلام يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْثَى فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتَكَ عَمَّا تَرَى؟، قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ، وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»^(٢).

(١) مسلم بشرح النووى (٢٩٢/١٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩) كتاب الغسل.



وفي رواية: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادًا من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده، ويجعل في ثوبه، فقيل له: يا أيوب: أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك...».

✽ كان أيوب عليه السلام رجلاً كثير المال، آتاه الله جملة عظيمة من الثروة. فقد أنعم الله عليه من سائر صنوف أنواع النعم، وفي مقدمتها الأراضى المتسعة الخصبة، وكانت له من الخيل ما يدهش الأبصار، كما كانت له أعداد وفيرة من الإبل والبقر والغنم وسائر الماشية... وقد كان لأيوب ألف شاة برعاتها، ناهيك بالعبيد الذين يقومون برعاية الأرض وخدمة الأنعام.

✽ وكان أيوب عليه السلام بَرًّا تَقِيًّا رَحِيمًا، يُحَسِّنُ إِلَى الْمَسَاكِينِ، وَيَكْفُلُ الْيَتَامَ وَالْأَرَامِلَ، وَيَكْرُمُ الضَّعِيفَ، وَيَبْلُغُ ابْنَ السَّبِيلِ... وكان شاكراً لأنعم الله عليه، مؤدياً لحق الله ﷻ.

✽ وكان لأيوب عليه السلام أولاد وأهلون كثير، وكانت زوجته (ليا) تَرَفُّلٌ فِي هَذَا النِّعَمِ، شَاكِرَةٌ عَابِدَةٌ عَارِفَةٌ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ فِي الشُّكْرِ، فَقَدْ كَانَتْ تُكْثِرُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ وَالثَّنَاءَ عَلَى اللَّهِ ﷻ، إِذْ رَزَقَهَا مِنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ مَا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنُ، وَأَوْسَعَ عَلَيْهَا وَعَلَى زَوْجِهَا مِنَ الرِّزْقِ شَيْئًا مَبَارَكًا، وَفَضَّلَهُمَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ.

✽ كانت (ليا) تدرك أن سر بقاء النعمة هو شكر المُنعم.. فكانت دائماً الذكر والحمد، تؤدي إلى كل ذي حَقِّ حَقَّهُ، فتواسى عباد الله وتبر بهم، وتُحَسِّنُ إِلَيْهِمْ، وَتَسْتَنِيرُ بِذَلِكَ فِي ضَوْءِ إِرْشَادِ زَوْجِهَا نَبِيِّ اللَّهِ أَيُوبَ عليه السلام ^(١).

✽ وفي يوم من الأيام جاءه أحد عبيده ليخبره أن ولدًا من أولاده قد مات فصبر واحتسب... ثم مات ولدٌ آخر بعد ذلك بأيام فصبر واحتسب وظل أولاده

(١) نساء الأنبياء (ص: ١٤٣، ١٤٤).



يموتون الواحد وراء الآخر حتى مات كل أولاده.

❁ بل وفي نفس الوقت كانت المواشى والأغنام والخيول تموت أمامه حتى فنيتم جميعاً وهو صابر محتسب.

❁ وابتلى في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله عز وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره، وصُبحه ومساءه.

وطال مرضه وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتُصلح من شأنه وتُعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقَلَّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، (رضى الله عنها وأرضاها) وهى صابرة معه على ما حلَّ بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة.

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً.

حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب أيضاً بما حصل له من أنواع البلاء^(١).

❁ وبعد ما قضى في البلاء سنواتٍ طوال توجه إلى ربه بالدعاء، طالباً منه كشف البلاء ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿إِنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].

واستجاب الله دعاءه، وكشف عنه بلاءه... فالله على كل شيء قدير، وإذا أراد شيئاً فإنه لا يَعْجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

(١) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ٢٥٧-٢٥٨).

✽ جاء الفرج الإلهي .. وجاءت الوصفة الطبية الربانية لأيوب.

أما صفة هذه الوصفة الربانية فموجودة في القرآن الكريم والذكر الحكيم في قوله ﷺ: ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢) [ص: ٤٢].

هكذا عادت إليه صحته وعافيته مرة أخرى.

✽ وكما رَدَّ الله عليه عافيته وصحته، رَدَّ عليه ضِعْفِي المال الذي فقده، ورَزَقَهُ ضِعْفِي ما كان عنده من الأولاد ... فقد أرسل الله سبحانه، لا تحملان مطراً، بل ذهباً وفضة، وكان لأيوب بيدران أحدهما للقمح، والآخر للشعير، فأفرغت إحدى السحابتين الذهب في بيدر القمح، وأفرغت الأخرى الفضة في بيدر الشعير^(١).

وبينما كان يغتسل عرياناً، ليس عنده أحد، أمطر الله عليه جراداً من ذهب. وكان هذا الجراد من الذهب كثيراً ... سَمَّاهُ رسول الله ﷺ في رواية أخرى عند البخاري: رَجُلٌ جَرَاد. فقال عليه الصلاة والسلام: «بينما أيوب يغتسل عرياناً، خرَّ عليه رَجُلٌ جَرَادٍ من ذهب ...»^(٢).

وشاء الله الحكيم أن يرزقه الذهب على صورة جراد، وَصَبَّ عليه الجراد من الذهب صبّاً أثناء اغتساله، وأمطره عليه، فكأن هذا الذهب كان مطراً غزيراً نازلاً عليه، وكان هذا معجزة من الله سبحانه.

فلما رأى أيوب هذا الذهب مصبوباً عليه تناول ثوبه الذي وضعه بجانبه أثناء الاغتسال، وصار يجمع الذهب بكلتي يديه، ويحثوه، ويضعه في ثوبه!! فعجب الله من صنيعه، وناداه: يا أيوب: ألم أكن أغنيك عما ترى؟
أى أن الله أغناه بما وهبه من رزق، فلم يجمع الذهب بثوبه؟

(١) صحيح القصص النبوي (ص: ١٦١).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٧٤٩٣) كتاب التوحيد.

فقال أيوب عليه السلام: بلى. لقد أغنيتنى، ولكن لا غنى لى عن بركتك؟
 أى أن هذا الذهب بركة منك يا رب، وبركة الله لا غنى عنها، فهى تُبارك مال
 من كانت عنده ... فأيوب عليه السلام ليس بحاجة إلى الذهب، وهو زاهد فى متاع
 الدنيا، لأن الأنبياء هم أئمة الزاهدين، وجمعه للذهب بثوبه طلباً للبركة، وليس
 سداً للحاجة.

وفى الرواية الثانية أن الله لما عجب من فعله قال له: يا أيوب: أما تشبع؟
 فقال أيوب عليه السلام: يا رب ومن يشبع من رحمتك؟
 لقد اعتبر هذا الذهب من مظاهر رحمة الله ... ورحمة الله لا يشبع منها
 مؤمن ... فجمعه للذهب بثوبه ليس بسبب نهمه، بل للتقلب برحمة الله.
 وهذا التصرف من أيوب عليه السلام دليل على أنه يجوز للمؤمن أن يجمع المال،
 وأن يستكثر منه، وأن يحتفظ به، بشرط أن يأتيه من مصدرٍ حلال، وأن لا
 تستشرفه نفسه، ولا يملأ عليه تفكيره، وأن يُخرج حق الله فيه.
 ويُعتبر هذا المال بركة من الله، ولا يستغنى أحدٌ عن بركة الله، ورحمة من
 الله، ولا يشبع أحدٌ من رحمة الله. ويقتدى فى ذلك بأيوب عليه السلام ^(١).



(١) القصص القرآنى / د. صلاح الخالدى (٤/ ٢٦-٢٧).



(٦٤) باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال

من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها

✽ قال المؤلف رحمه الله: (باب فضل الغنى الشاكر)، وهو الذى يأخذ المال بحقه ويصرفه فى حقه.

فالغنى هو الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى ما يستغنى به عن غيره من مالٍ أو علم أو جاه أو غير ذلك، وإن كان الأكثر استعمالا أن الغنى هو الذى أعطاه الله المال الذى يستغنى به عن غيره.

والله سبحانه وتعالى يتلى عباده بالمال يعنى بالغنى وبالفقر. فمن الناس من لو أغناه الله لأفسده الغنى، ومن الناس من لو أفقره الله لأفسده الفقر... والله عز وجل يعطى كل أحد بحسب ما تقتضيه الحكمة ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

✽ وإذا أعطى الله الإنسان المال فإنه ينقسم إلى قسمين: القسم الأول: من يعطيه الله المال يكتسبه من طريق حرام: كالمُرأى والكذاب والغشاش فى البيع والشراء ومن أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك، فهذا غناه لا ينفعه لأنه غنى فى الدنيا، ولكنه فقير -والعياذ بالله- فى الدنيا والآخرة.

إذ إن هذا الشئ الذى دخل عليه من هذا الوجه سوف يُعاقب عليه يوم القيامة... وأعظمه الربا، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

القسم الثانى: من الأغنياء من أغناه الله بمالٍ لكن عن طريق الحلال، يبيع بالبيان والنصح والصدق، ويأخذ كذلك، ولا يكتسب إلا المال الحلال، فهذا هو الذى ينفعه غناه، لأن من كان كذلك فالغالب أن الله يوفقه لصرفه فيما ينفع. فهذا هو الغنى الشاكر الذى يأخذ المال بحقه، ويصرفه فى حقه على الوجه الذى شرعه الله له ^(١).

❦ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ٥-١٢].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أى فأمّا من أعطى ماله وأنفق ابتغاء وجه الله، واتقى ربه فكفّ عن محارم الله ... قال ابن كثير: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله فى أموره ^(٢) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى وصدق بالجنة التى أعدّها الله للأبرار ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أى فسُنْهيه لعمل الخير، ونُسْهلّ عليه الخصلة المؤدية لليسر، وهى فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ أى وأمّا من بخل بإنفاق المال، واستغنى عن عبادة ذى الجلال ... قال ابن عباس: بخل بماله، واستغنى عن ربه ^{هَزْلًا} ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أى وكذب بالجنة ونعيمها ﴿فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ أى فسُنْهيه للخصلة المؤدية للعسر، وهى الحياة السيئة فى الدنيا والآخرة وهى طريق الشر. قال المفسرون: سمى طريقة الخير يسرى لأن عاقبتها اليسر وهى دخول الجنة دار النعيم، وسمى طريقة الشر عسرى لأن عاقبتها العسر وهو دخول الجحيم

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢٣٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤٦).

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ استفهام إنكارى أى شىء ينفعه ماله إذا هلك وهو فى نار جهنم؟ هل ينفعه المال، ويدفع عنه الوبال؟ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أى إن علينا أن نبين للناس طريق الهدى من طريق الضلالة، ونوضح سبيل الرشd من سبيل الغى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧-٢١].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أى وسيعبد عن النار التقي النقى، المبالغ فى اجتناب الشرك والمعاصى. ثم فسره تعالى بقوله ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أى الذى ينفق ماله فى وجوه الخير ليزكى نفسه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ أى وليس لأحد عنده نعمة حتى يكافئه عليها، وإنما ينفق لوجه الله.

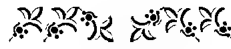
قال المفسرون: نزلت الآيات فى حق «أبى بكر الصديق (رضي الله عنه)» حين اشترى بلالاً وأعتقه فى سبيل الله... فقال المشركون: إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده فنزلت ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ أى ليس له غاية إلا مرضاة الله ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ أى وسوف يعطيه الله فى الآخرة ما يرضيه وهو وعد كريم من رب رحيم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا لَلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴿١﴾ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

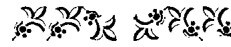
﴿إِنْ تَبَدُّوا لَلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أى إن تظهروا صدقاتكم فنعيم هذا الشىء الذى تفعلونه ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى وإن تخفوها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأن ذلك أبعد عن الرياء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى يزيل بجميل أعمالكم سيئ آثامكم ﴿وَاللَّهُ يَمَّا

تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١﴾ أى هو سبحانه مُطلع على أعمالكم يعلم خفاياكم ... والآية
ترغيب في الإسرار ^(١).



﴿١٢﴾ وقال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أى لن تكونوا من الأبرار ولن
تدركوا الجنة حتى تنفقوا من أفضل أموالكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾
أى وما تبذلوا من شىء فى سبيل الله فهو محفوظ لكم تُجزون عنه خير الجزاء ^(٢).



وقد اختلف العلماء فيهما: أيهما أفضل للمرء: أن يكون غنياً شاكراً أم فقيراً
صابراً؟

﴿والذى تدل عليه الأحاديث: أن الغنى الشاكر هو الأفضل.

وقال ﷺ لسعد رضي الله عنه: «لأن تترك ورثتك أغنياء، خيرٌ من أن تتركهم عالة
يتكففون الناس» ^(٣).

وقال ﷺ: «ما نفعتى مالٌ أحدٍ قط ما نفعتى مال أبى بكر» ^(٤).

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إلى رسول الله ﷺ فقال: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ
وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ اثْنَى» فأتيته فقال: «إني أريد أن أبعثك على جيش فيُسلمك الله
ويُغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» فقلت يا رسول الله: ما أسلمت من
أجل المال، ولكنى أسلمت رغبة في الإسلام!! فقال: «يا عمرو نِعَمَ الْمَالِ

(١) صفوة التفاسير (١/١٥٦).

(٢) صفوة التفاسير (١/١٩٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٤٢) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٨) (٨) كتاب الوصية.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٦١).

الصالح للرجل الصالح»^(١).

وعن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ دعا له بكل خير، وكان في آخر دعائه أنه قال: «اللهم أكثِرْ ماله وولده وبارك له»^(٢).

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، أن عبيد الله بن كعب بن مالك قال: سمعت كعب بن مالك يحدث بحديث توبته قال: فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»^(٣).

فأما كسبُ المال، فإن مَنْ اقتصر على كسب البُلْغَةِ من حِلِّهَا، فذلك أمر لا بد منه، وأما مَنْ قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإن قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإن قصد إعفاف نفسه وعائلته، وأدّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح، أُثِيب على قصده، وكان جَمَعَهُ بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات.

وقد كانت نياتُ خلقٍ كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، في جمع المال سليمة، لحُسْنِ مقاصدهم لجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته. وكان سعد بن عباد يدعو، فيقول: اللهم وسّعْ عليَّ^(٤).

قال ابن الجوزي: وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه الصلاة والسلام، لما قال له بنوه: ﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، مَالَ إِلَى هَذَا وَأَرْسَلَ ابْنَهُ بَنِيَامِينَ مَعَهُمْ... وَأَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ مِنْ أَهْلِ مَدِينٍ طَمَعَ فِي زِيَادَةِ مَا يَنَالُهُ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، و«أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا عُوْفِيَ نُثِرَ عَلَيْهِ رَجُلٌ جَرَادٍ مِنْ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو يعلى، والحاكم، وصححه الألباني في غاية المرام (٤٥٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٧٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٤٨٠) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٥٧) كتاب الوصايا، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/٢٦٤).

ذهب، فأخذ يحثو في ثوبه يستكثر منه، ف قيل له: أما شبعْتَ؟ قال: يا رب، مَنْ يشبع من فضلك! ^(١)، وهذا أمرٌ مركوز في الطباع، فإذا قصد به الخير كان خيراً محضاً. وأما الأنبياء فقد كان لإبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، زرعٌ ومال، ولشعيب عليه السلام ولغيره.

وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال، يقضى به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه، فإن مات تركه ميراثاً لمن بعده ^(٢).

بَابُ مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ وَيُحِبُّهُ

(٥٧٦) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا» ^(٣).

(٥٧٧) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً. فَهُوَ يُنْفِقُهُ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ» ^(٤).

سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٤٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَابُ مَنْ يَتَّقِي اللَّهَ وَيُحِبُّهُ

(٥٧٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرَجَاتِ الْعُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، فَقَالَ: «وَمَا ذَاكَ؟» فَقَالُوا:

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩) كتاب الغسل.

(٢) الورع والزهد/ د. يوسف القرضاوى (ص ١٩٧-٢٠٠) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٢٥) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨١٥) كتاب صلاة المسافرين.

«الآتَاء»: السَّاعَات.

يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيُصُومُونَ كَمَا نَصُومُ. وَيَتَصَدَّقُونَ وَلَا نَتَصَدَّقُ، وَيَعْتِقُونَ وَلَا نَعْتَقُ.. فقال رسول الله ﷺ: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُم شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قالوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً» فَرَجَعَ فَقَرَأَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الْأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»^(١).

✽ جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور» جمع أجر «بالدرجات العلى والنعيم المقيم».

قال: «وما ذاك؟» قالوا: «يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق» يعنى فهم أفضل منا، لأن الله منّ عليهم بالمال فبدلوه فى طاعة الله، وفيما يرضى الله.

فقال عليه الصلاة والسلام: «أَفَلَا أَعَلَّمَكُم شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قالوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ، ذُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً».

يعنى تقولون: سبحان الله ثلاثاً وثلاثين، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين ... فصاروا يفعلون ذلك، ولكن الأغنياء سمعوا بهذا فصاروا يقولونه ... يسبحون ويكبرون ويحمدون ثلاثاً وثلاثين ذُبُرَ كل صلاة.

فرجع الفقراء مرة ثانية إلى النبى عليه الصلاة والسلام وقالوا: «يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله»، فقال عليه الصلاة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٣) كتاب الأذان، ومسلم (٥٩٥) كتاب المساجد.

«الدُّثُورُ»: الأموال الكثيرة، والله أعلم.

والسلام: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» يعنى أن الله سبحانه وتعالى أغناهم وأعطاهم المال فبذلوه في طاعة الله، وهذا فضل الله^(١).

✽ في الحديث فوائد منها:

الفائدة الأولى: تطبيق شرع الله ﷻ في أمة من الأمم، لا يمنع أن يكون فيها فقراء ... فالعهد النبوى رغم أنه خير القرون، فما زال فيه فقراء وأغنياء، ولم يؤمر الأغنياء أن يوزعوا جميع أموالهم بينهم وبين الفقراء، حتى يستوون في المعيشة، وهذه سنة الله في الكون أن يتلى عبداً بالفقر، ليرى هل يصبر أم يجزع؟ هل يرضى بقضاء الله وقدره؟

فمن صبر على البلاء، وسلم بالقضاء، فله الأجر الكامل ... والله إنه لأجرٌ لا يوازي مصيبتَه، بل يفوقها كثيراً ... ألم تسمع لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولا يحسب الأغنياء أنهم قد سَلِمُوا من الامتحان والاختبار، كيف ذلك؟ والله يقول: ﴿وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ألم يعلم الغنى ماذا فعل الله بقرارون، الذى أوتى من المال، ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصْبَة أُولَى القوة، أين هو الآن؟ خُسِفَتْ به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، لم يكن مطلوباً منه إلا أن يشكر مُسَدِّى النعمة ويُخرج زكاتها ... هل تراه الآن يصبر على ما هو فيه من العذاب، مُسَلِّياً ومُصْبِراً نفسه بتنعمه في الدنيا؟ كلا والله، نسى ما كان من نعمة، مع أول غمسة في العذاب.

الفائدة الثانية: وهى منقبة عظيمة لفقراء الصحابة ... فللفقراء في كل بلد مطالب وهموم بل ولهم آمال ... ومن آمالهم زيادة قدر الصدقات الممنوحة لهم، لتُخَفَّف عنهم عوز الحاجة، وتضمن لهم المعيشة الهنية والعيشة السوية، وقد يذهبون إلى

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٢٣٦).

الحاكم، يشتكون إليه ما فيه الأغنياء من ترفٍ ورغد، بل قد يثور الفقراء على الأغنياء، كما حدث قبل في الثورة البلشفية في روسيا ... فهل حدث هذا من فقراء العصر النبوي؟ لا.. إنهم لم ينظروا إلى الأغنياء، يريدون ما عندهم، ما فكروا إلا في أمرٍ واحد، وهو أن الأغنياء لهم فضائل أموال يتصدقون بها، ويحجون بها، ويجهزون بها المجاهدين، وليس عندهم - أى الفقراء - ما ينفقونه في سبيل الله، فتكون للأغنياء أجور عظيمة، والفقراء محرومون منها، فكيف المخرج وما السبيل؟ يريدون فضل الله في الآخرة ... وانظر إلى قولهم في آخر الحديث:

(سمع إخواننا أهل الأموال) وهم صادقون في قولهم: إن الأغنياء إخوانٌ لهم.

الفائدة الثالثة: في الحديث مناقب عظيمة لأهل الأموال من الصحابة رضي الله عنهم منها:

(١) بيان مدى حرصهم على فضائل الأعمال، كالصدقة والعتق، وكذا الحج والعمرة والجهاد ... كما ثبت في رواية عند مسلم، مع هماتهم العالية في بقية العبادات، كالصوم والصلاة.

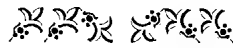
(٢) أنهم لم يستكثروا ما هم فيه من الخير الحاصل لهم، من الصدقة والحج والجهاد، بل سارعوا إلى مشاركة الفقراء في ذكر ختم الصلاة.

فلم يقولوا: هذه عبادة الفقراء حتى يدركوا ما نحن فيه من فضل ... ولم يقولوا: كفى ما نحن فيه من خير؟ بل سارعوا إلى الزيادة، وحرصوا على الريادة ... فانظر كيف ربي النبي الأغنياء والفقراء، على حدٍّ سواء، فلا حسد ولا غل عند الفقراء، ولا تكبر ولا ترفع عند الأغنياء.

الفائدة الرابعة: التوفيق للطاعات والقربات، محض فضل من الله عز وجل، حيث قال النبي: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، فعلى المسلم ألا يرى لنفسه

فضلاً في أداء الطاعات، ويجب عليه أن يُقرّ ويعترف أنها من توفيق الله - سبحانه وتعالى -، يتفرع على ذلك وجوب شكرها، ولزوم سؤال الله أن يحفظها ويديمها.

الفائدة الخامسة: وقد يُؤخذ من الحديث، أن الغنى الشاكر، المؤدى حق الله في المال، أفضل من الفقير الصابر المحتسب، إذا استووا في بقية الطاعات^(١). وذلك لأن الغنى الشاكر قد اختبر بالمال وزهرة الحياة الدنيا فكان وفيّاً شاكراً لله.. استعمل المال فيما يرضى الله ولم يستعمله في معصيته بل وأخرج زكاة ماله طيبة بها نفسه.. أما الفقير الصابر فلم يُختبر بعد.. فقد يُختبر فيكون وفيّاً شاكراً وقد يكون غير ذلك.. فاللهم اجعلنا من الشاكرين لك على نعمك التي لا تُعد ولا تُحصى.



(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٨٠-٣٨٢) بتصرف كبير.

(٦٥) باب ذكر الموت وقصر الأمل

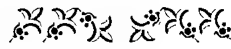
❁ لا بد أن يكون الموت على بالناس.. فالموت لم ينبج منه أحد ولن ينجو منه أحد.. سواء كان نبياً مُرسلاً أو ملكاً مقرباً أو ولياً من الأولياء.. قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ وقال تعالى لسيد ولد آدم ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (٣٠) وقال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَلَا يَنْتَ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣١). ❁ فالموت حتم لازم، لا تمنع منه حصانة القلاع ولا يحول دونه الحجاب ولا تردّه الأبواب... قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

إنه لا بد من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقة أن الحياة في هذه الأرض موقوتة، محدودة بأجل؛ ثم تأتي نهايتها حتماً.. يموت الصالحون ويموت الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون. يموت المُستعلون بالعقيدة ويموت المُستذلون للعبيد.. يموت الشجعان الذين يأبون الضيم، ويموت الجُبناء الحريصون على الحياة بأى ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية، ويموت التافهون الذين يعيشون فقط للمتاع الرخيص.

الكل يموت.. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾.. كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة.. لا فارق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة من هذه الكأس الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر. الفارق في قيمة أخرى. الفارق في المصير الأخير:

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾.

هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراق. وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان^(١).



❖ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

فكل نفسٍ منفوسة من بنى آدم وغير بنى آدم ذائقة الموت... لابد أن تذوق الموت... وعبر بقوله: ﴿ذَائِقَةُ﴾؛ لأن الموت يكون له مذاقٌ مُرٌّ يكرهه كل إنسان.

لكن المؤمن إذا حضره أجله وبُشِّرَ بما عند الله ﷻ أحب لقاء الله ولا يكره الموت حينئذ... قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أى تعطونها وافية كاملة يوم القيامة.

وإن أُوتِيَ الإنسان أجره في الدنيا فإنه ليس هذا هو الأجر فقط، بل الأجر الوافى الكامل الذى به يستوفى الإنسان كل أجره يكون يوم القيامة، وإلا فإن المؤمن قد يُثاب على أعماله الصالحة في الدنيا، لكن ليس هو الأجر الكامل الذى فيه التوفية الكاملة، لأن هذه إنما تكون يوم القيامة ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ زُحْزِحَ يعنى: أبعد عن النار ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ لأنه نجى من المكروه وحصل له المطلوب... نجى من المكروه وهو دخول النار، وحصل له المطلوب وهو دخول الجنة، وهذا هو الفوز العظيم الذى لا فوز مثله.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾... صدق الله ﷻ؛ فالدنيا متاع الغرور يعنى متاع ليس دائماً، بل كما يكون للمسافر متاع يصل به إلى منتهى سفره، ومع

(١) رحلة إلى الدار الآخرة / د. محمود المصرى (ص ٩٩-١٠٠) بتصرف.

ذلك فهي متاع غرور... تغر الإنسان، تزدان له وتزدهر وتكتحل وتحسن وتكون كأحسن شيء، ولكنها تغره.

كلما كثرت الدنيا وتشبث الإنسان بها بعد من الآخرة... ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «والله ما الفقر أخشى عليكم، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

ولهذا نجد أن الإنسان أحياناً يكون في حال الضيق أو الوسط خيراً منه في حال الغنى، لأنه يغره الغنى ويطغيه والعياذ بالله... ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَآ مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾ يعني فلا تغتروا بها، وعليكم بالآخرة التي إذا رُحِز فيها الإنسان عن النار وأدخل الجنة، فإنه بذلك يفوز فوزاً لا فوز مثله^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤)

[لقمان: ٣٤].

فهذه إحدى مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

❁ قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ومفاتيح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

❁ قال ﷻ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ» ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ

السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢٤﴾»^(١).

فهذه الخمس لا يعلمها إلا الله ﷻ... فعلم الساعة لا يعلمه أحد، حتى إن جبريل وهو أشرف الملائكة سأل رسول الله ﷺ وهو أعلم البشر فقال: «أخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل»^(٢). فلا يعلمها إلا الله ﷻ. ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والمُنَزَّل للغيث يعلم متى ينزل... فهو سبحانه وتعالى هو الذى يعلم متى ينزل الغيث وهو الذى يُنْزِلُه... والغيث هو المطر الذى يحصل به نبات الأرض وزوال الشدة.

وليس كل مطر يُسَمَّى غيثاً، فإن المطر أحياناً لا يجعل الله فيه بركة فلا تنبت به الأرض... كما قال النبى عليه الصلاة والسلام: «ليست السنة ألا تُمَطَّرُوا» يعنى ليس الجذب ألا تُمَطَّرُوا «بل السنة أن تُمَطَّرُوا وتُمَطَّرُوا ولا تُنبت الأرض شيئاً»^(٣). وهذا يقع أحياناً... فأحياناً تكثر الأمطار ولا يجعل الله تعالى فيها بركة، فلا تُنبت الأرض ولا تحيا.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فهو الذى أنشأ ما فيها، وعلم ما هو... هل هو ذكر أم أنثى؟ ولهذا يسأل المَلَكُ المُوَكَّل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيقضى الله ما يشاء.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها ودنياها ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى، هو المختص بعلم ذلك جميعه.

ولما خَصَّصَ الله هذه الأشياء، عَمَّم علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) رواه البخارى (٤٦٩٧) كتاب تفسير القرآن.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠) كتاب الإيمان، و(٤٧٧٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٨، ٩، ١٠) كتاب الإيمان، من حديث أبى هريرة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠٤) كتاب الفتن.

عَلَيْهِ خَيْرٌ ﴿ مُحِيطٌ بِالظَّوَاهِرِ وَالْبَوَاطِنِ، وَالْخَفَايَا وَالْخَبَايَا، وَالسَّرَائِرِ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ التَّامَةِ، أَنْ أَخْفَى عِلْمَ هَذِهِ الْخَمْسَةِ عَنِ الْعِبَادِ، لِأَنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ ^(١).

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَقْصِرِ الْأَمَلَ وَلَا تَقُلْ: أَنَا مَا زِلْتُ فِي رِيعَانِ الشَّبَابِ.. فَالْمَوْتُ لَا يَعْرِفُ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا.. وَكَمْ مِنْ شَابٍّ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْأَمَالِ وَالْأَحْلَامِ الْكَثِيرِ وَالْكَثِيرِ فَمَاتَ وَهُوَ فِي رِيعَانِ شَبَابِهِ.. وَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ بِلَا مَرَضٍ وَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١١) ﴾

[النحل: ٦١].

فَكُلُّ إِنْسَانٍ لَهُ أَجَلٌ مُحَدَّدٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ... فَأَجَالَ الْعِبَادِ وَأَرْزَاقَهُمْ قَدْ قَدَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ... وَجَرَى بِذَلِكَ الْقَلَمُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ.

قَالَ ﷺ: « كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ » ^(٢).

﴿ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « وَكَّلَ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ نُطْفَةٍ، أَيُّ رَبِّ عَلَقَةٍ، أَيُّ رَبِّ مُضْغَةٍ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ، فَمَا الْأَجَلُ، فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ » ^(٣).

(١) تفسير السعدي (٧٦٧).

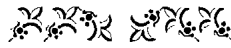
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٣) كتاب القدر.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢١٨) كتاب الحيض، ومسلم (٢٦٤٦) كتاب القدر.

✽ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكِتَابِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ...»^(١).

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ، وَاللَّهِ: «اللَّهُمَّ أَمْتَعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ، وَبِأَبِي: أَبِي سَفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ».

قال: فقال النبي ﷺ: «قَدْ سَأَلَتِ اللَّهُ لِأَجَالِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامِ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجَّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخَّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتَ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يُعِيدَكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ»^(٢).



✽ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ١١﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ١٢ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣﴾ [المنافقون: ٩-١١].

لا تشغلکم أيہا المؤمنون الأموال والأولاد عن طاعة الله وعبادته، وعن أداء ما افترضه علیکم من الصلاة، والزكاة، والحج، كما شغلت المنافقين... قال أبو حیان: أى لا تشغلکم أموالکم بالسعى فى نمائها، والتلذذ بجمعها، ولا أولادکم بسرورکم بهم، وبالنظر فى مصالحهم، عن ذكر الله... وهو عام فى الصلاة والتسبیح، والتحمید، وسائر الطاعات^(٣) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٠٨) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٣) كتاب القدر.

(٣) البحر المحيط (٢٧٤٨).

الْخَيْرُونَ ﴿١٠٨﴾ أَي وَمَنْ تشغله الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فأولئك هم الكاملون في الخُسران، حيث آثروا الحقيقير الفانى على العظيم الباقي، وفَضَّلُوا العاجل على الآجل ﴿١٠٩﴾ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴿١١٠﴾ أَي وَأَنْفَقُوا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ، مِنْ بَعْضِ مَا أَعْطَيْنَاكُمْ وَتَفَضَّلْنَا بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ الْأَمْوَالِ ﴿١١١﴾ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ ﴿١١٢﴾ أَي قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الْمَوْتُ بِالْإِنْسَانِ، وَيَصْبِحَ فِي حَالَةِ الْإِحْتِضَارِ ﴿١١٣﴾ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴿١١٤﴾ أَي يَقُولُ عِنْدَ تَيَقُّنِهِ الْمَوْتَ، يَا رَبِّ هَلَّا أَهْمَلْتَنِي وَأَخَّرْتَ مَوْتِي إِلَى زَمَنٍ قَلِيلٍ!! ﴿١١٥﴾ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ أَي فَأَتَصَدَّقَ وَأُحْسِنَ عَمَلِي، وَأَصْبَحَ تَقِيًّا صَالِحًا.

قال ابن كثير: كُلُّ مَفْرُطٍ يَنْدَمُ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ، وَيَسْأَلُ طُولَ الْمَدَّةِ لِيَسْتَدْرِكَ مَا فَاتَ، وَلَكِنْ هِيَ بَاتٌ ^(١) ﴿١١٧﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴿١١٨﴾ أَي وَلَنْ يَمْهَلَ اللَّهُ أَحَدًا أَبَدًا إِذَا كَانَ إِذَا انْتَهَى أَجَلُهُ، وَلَنْ يَزِيدَ فِي عَمَرِهِ... وَفِيهِ تَحْرِيطٌ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِأَعْمَالِ الطَّاعَاتِ، حَذَرًا أَنْ يَجِيءَ الْأَجَلُ وَقَدْ فَرَّطَ وَلَمْ يَسْتَعِدَّ لِلْقَاءِ رَبِّهِ ﴿١١٩﴾ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ أَي مُطَّلِعٌ وَعَالِمٌ بِأَعْمَالِكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَمُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١٢١﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿١٢٢﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٢٣﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢٤﴾ فَلِذَا تُفْخِ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٢٥﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢٧﴾ تَلَفِعُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٢٨﴾ أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٢٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٣٠﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٦).

(٢) صفوة التفاسير (٣/ ٣٦٥-٣٦٦).

فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَدَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون: ٩٩-١١٥].

يُخبر تعالى عن حال مَنْ حضره الموت، من المُفْطرين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قُبْح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع ببلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما من أجل أن يعمل صالحًا.. ولذا فإنه يقول: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كَلَّا﴾ أى: لا رجعة له ولا إمهال، فقد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا﴾ أى: مقالته التى تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةً هُوَ قَائِلُهَا﴾ أى: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نُهي عنه.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أى: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين ... فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة.

وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويُعَذَّب العاصون، من موتهم إلى يوم يُبعثون، أى: فليُعدوا له عُدَّتُه، وليأخذوا له أهْبَتُه.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمُقلقات، وأنه إذا نُفِخَ في الصور نفخة البعث، فحُشِر الناس أجمعون، لميقات يومٍ معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما يُنسيهم أنسابهم، التى هى أقوى الأسباب.

فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحدٌ أحداً عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ ... قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ۖ (٣٢) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ (٣٥) وَصَحْبَيْهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ أُمَرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾^(١).

❁ والنفخ في الصور مرتان:

النفخة الأولى: يكون فيها الفزع والصعق يعنى الموت، فينفخ إسرافيل في الصور نفخة يكون لها صوتٌ عظيمٌ مُزعجٌ جداً، فيفزع الناس ثم يموتون كلهم إلا ما شاء الله.

والنفخة الثانية: ينفخ في الصور فتخرج الأرواح من الصور وتعود إلى أجسادها، وهذه التى يكون بها الحياة الأبدية التى لا موت بعدها.

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها ... كالميزان الذى يُمَيِّز به أعمال العبد، ويُنظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذرِّ، من الخير والشر، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يُجبرُ مُصابها، ولا يُستدرك فائتها... خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التى يتمكن بها من السعادة الأبدية ... ففوتها هذا النعيم المقيم، فى جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين... وهذا الوعيد، إنما هو - كما ذكرنا - لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً.

(١) تفسير السعدى (ص ٦٥١) بتصرف.

فعلى هذا، لا يُحَاسَبُ مُحَاسِبَةٌ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ، فَإِنَّهُمْ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا، وَيُقَرَّرُونَ بِهَا، وَيُخْزَوْنَ بِهَا. وَأَمَّا مَنْ مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ عَظُمَتْ سَيِّئَاتُهُ، فَرَجَحَتْ عَلَى حَسَنَاتِهِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ دَخَلَ النَّارَ، لَا يَخْلُدُ فِيهَا، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ نصوص الكتاب والسُّنة^(١).

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ أى تحرقها بشدة حرّها... وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ أى وهم فى جهنم عابسون مُشوَّهو المنظر.

قال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المُشَيِّط بالنار، ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَقُولُ عَلَى نَفْسِكَ﴾ أى يُقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً: ألم تكن آيات القرآن الساطع تُقرأ عليكم فى الدنيا؟ ﴿فَكَنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى فكنتم لا تُصدِّقون بها مع وضوحها ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أى غلبت علينا شقاوتنا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى وكنا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذات والأهواء^(٢).

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ وهم كاذبون فى وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يُبقِ الله لهم حُجة، بل قطع أَعذارهم، وعمرَّهم فى الدنيا، ما يتذكر فيه مَنْ تذكَّر، ويرتدع فيه المجرم... فقال الله جواباً لسؤالهم: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ﴾^(٣).

أى ذُلُّوا فى النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلمونى فى رفع العذاب.. قال فى التسهيل: اخسؤا: كلمة تُستعمل فى زجر الكلاب ففيتها إهانة وإبعاد^(٤).

ثم ذكر الحال التى أوصلتهم إلى العذاب وقطعت عنهم الرحمة، فقال:

(١) تفسير السعدى (ص ٦٥١).

(٢) صفوة التفاسير (٢/ ٢٩٣).

(٣) تفسير السعدى (ص ٦٥٢).

(٤) التسهيل (٣/ ٥٧).

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قال مجاهد: هم بلال، وخبَّاب، وصُهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين... كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم ^(١) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا﴾ أى فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿حَتَّىٰ أَسْوَكَتُمْ ذِكْرِي﴾ أى حتى نسيتم بشاغلكم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أى وكنتم تضحكون عليهم فى الدنيا. ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلى ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ الآيات ^(٢).

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ ^(٣) أى قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ: كم مكثتم فى الدنيا وعمَّرتُم فيها من السنين؟ ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أى مكثنا يومًا أو أقل من يوم ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ أى الحاسبين المتمكنين من العدِّ.... قال ابن عباس: أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المُدَّة التى لبثوها ﴿قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى ما أقمتُم حقًا فى الدنيا إلا قليلًا... قال الرازى: كأنه قيل لهم: صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلًا فقد انقضت ومضت... والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا فى مقابلة أيام الآخرة ^(٤) ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى لو كان لكم علم وفهم لعرفتُم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى أظننتم - أيها الناس - أنما خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أى وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء؟ لا.. ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ أى فتنزَّه وتقدَّس الله الكبير الجليل

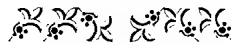
(١) القرطبي (١٢/١٥٤).

(٢) تفسير السعدى (ص ٦٥٢).

(٣) التفسير الكبير (٢٣/١٢٧).

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى صاحب السلطان، المتصرف فى ملكه بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإفناء .. تنزهه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى لا ربّ سواه ولا خالق غيره ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أى خالق العرش العظيم ... وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أى لا حجة له به ولا دليل ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورسوله.

افتتح السورة بقوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وختمها بقوله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين ... فشتان ما بين البدء والختام. ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليمًا للأمة طريق الشناء والدعاء^(١).



❁ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦)

[الحديد: ١٦].

لما قدِمَ المؤمنون المدينة، أصابوا من لين العيش ورفاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعُوتبوا ونزلت هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»^(٢).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ٢٩٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٠٢٧) كتاب التفسير.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى أما حان للمؤمنين أن تَرَقَّ قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى ولما نزل من آيات القرآن المبين؟ ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى ولا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى فطال عليهم الزمن الذى بينهم وبين أنبيائهم، حتى صلبت قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ... قال ابن عباس: ﴿ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ القرآن.

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى وكثير من أهل الكتاب خارجون عن طاعة الله، رافضون لتعاليم دينهم، من فرط قسوة القلب ... قال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمِّلُوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لما تناول عليهم الزمن بدّلوا كتاب الله الذى بأيديهم، ونبذوه وراء ظهورهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعيد ولا وعيد^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَكَذَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ (الموت) حَتَّى لَا يَتَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِحُطَامِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ. ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٧٩) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكَبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ، فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ، فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق.

✽ «أخذ النبي ﷺ بمنكبى» يعنى أمسك به... والمنكب هو أعلى الكتف، أخذ به من أجل أن يتبه ابن عمر لما سيلقى إليه الرسول (عليه الصلاة والسلام) من القول. وهذا من حسن تعليم الرسول (عليه الصلاة والسلام)، فإنه عليه الصلاة والسلام كان إذا تكلم اتخذ الأسباب التى توجب انتباه المُخاطَب، إما بالفعل كما هنا، وإما بالقول كما فى قوله: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالوا: بلى يا رسول الله.

ثم قال النبي ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». فهذه نصيحة النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما وللأمة من بعده... يوصيه ويقول له: «كن فى الدنيا كأنك غريب».

الغريب لا يفكر فى المكان الذى هو فيه غريب.. وأنه دار إقامة؛ لأنه مسافر من بلدٍ إلى آخر، ويريد أن يؤدى الذى عليه ويرجع لداره.

فدارك الجنة، فكن فى الدنيا كأنك غريب سترجع إلى دارك، فجهز الهدايا لهذه الدار التى ستبقى فيها بلا نهاية، فأنت مثل الغريب الذى يقيم فى بلدٍ أخرى غير بلده لا على وجه الاستيطان والإقامة، وإنما يمكث فترة ويرجع... فتراه يحاول أن يدخر المال من أجل أبنائه وزوجته، فأنت تدّخر عملك الصالح فى دار الدنيا لهذه الدار الآخرة.

يقول ﷺ: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» أى: عابر طريق يمر بالطريق ولا يبنى فى الطريق بيتًا.

فالإنسان لا يؤمل فى الدنيا كأنه سيُخلد فيها، وإنما يكتفى برزق الله الحلال الذى آتاه، ويحمد الله عز وجل عليه، ولا يكون شرهًا فى الدنيا طماعًا فيها؛ فإن الطماع والشره يموت بما يأكله.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح».. المعنى لا تؤمل أنك إذا أصبحت أمسيت، وإذا أمسيت

أصبحت، فكم من إنسانٍ أصبح ولم يُمسِر! وكم من إنسانٍ أمسى ولم يُصبح! وكم من إنسانٍ لبس ثوبه ولم يخلعه إلا الغاسل! وكم من إنسانٍ خرج من أهله وقد هيئوا له غداءه أو عشاءه ولم يأكله! وكم من إنسانٍ نام ولم يقم من فراشه! المهم أن الإنسان لا ينبغي له أن يطيل الأمل بل يكون حذرًا حاذقًا حازمًا كيّسًا... هذا معنى قوله: «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح».

يقول ابن عمر: (وخذ من صحتك لمرضك) يعني: استغل الوضع الذي أنت فيه ... فأنت الآن شابٌ قوى وتقدر على أن تحفظ كتاب الله، فاحفظ القرآن، وإذا كنت تقدر أن تتعلم العلم الشرعي فافعل قبل أن تأتي عليك المشاغل فلا تقدر، وقبل أن يأتي عليك الكبر والشيخوخة فتنسى، لكن وأنت صغير تدرك ما لا تدركه وأنت كبير ... فخذ من وقت صحتك لوقت مرضك، فالله كريم سبحانه وتعالى، يعامل العبد معاملة الكرم، فانظر حين تواظب على صلاة الجماعة إذا مرضت تسأل عنك الملائكة: أين فلان الذى كان يصلى هنا؟ وتذهب تعودك في بيتك، ويأمر الله ﷻ الملائكة أن تكتب للعبد ما كان يصنعه وهو صحيح ... كذلك إذا سافر يُكتب له ما كان يفعله مقيمًا، فإذا كان مواظبًا على الصيام في الحضر ثم سافر فلم يصُم يُكتب له كأنه صائم ... هذا كله من فضله ومن رحمته سبحانه.

وهكذا يكون في سائر الأعمال.

ثم قال: (وخذ من حياتك لموتك) أى: خذ من حياتك ما تدخره بعد موتك.

يعنى: أن المؤمن ينبغي أن يعلم أنه في كل لحظة قد يأتيه الموت، فليكن في هذه اللحظة في خير عمل يلقي به الله سبحانه وتعالى.

ولذلك جاء عن النبي ﷺ في الحديث: «إن الله إذا أراد بعبد خيرًا استعمله» قالوا: وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعملٍ صالحٍ ثم يقبضه عليه».

وفي المقابل فإنه إذا أراد الله ﷻ بعبده شرًّا خلَّى بينه وبين نفسه الأمارة بالسوء فيعصى الله ويسرق ويرتشى ويفعل كل ما يُغضب الله ﷻ ثم يموت على ذلك -والعياذ بالله-.

أما المؤمن فالله ﷻ يوفقه لعملٍ صالحٍ ثم يقبضه عليه، بأن يصلى فيموت وهو يصلى، أو يكون صائماً فيموت وهو على صيامه، أو يتصدق بصدقة ويموت بعدها... فيوفقه الله أن يكون آخر عمله الذى عمله من الأعمال الصالحة فيقبله الله (سبحانه وتعالى).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٨٠) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصَى فِيهِ. يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ»^(١).

وفي رواية لمسلم: «يَبِيتُ ثَلَاثَ لَيَالٍ» قال ابن عمر: مَا مَرَّتْ عَلَى لَيْلَةٍ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي.

✽ ذكر المؤلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» يعنى ما حقه أن يبيت ليلتين إلا وقد كتب وصيته التى يريد أن يوصى بها.

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا منذ سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ لا يبيت ليلة إلا وقد كتب وصيته.

والوصية: معناها العهد، وهى أن يعهد الإنسان بعد موته لشخصٍ في تصريف شيء من ماله، أو يعهد لشخصٍ بالنظر على أولاده الصغار. أو يعهد لشخصٍ في أى شيء من الأعمال التى يملكها بعد موته فيوصى به... هذه هى الوصية.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٣٨) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٧) كتاب الوصية.

مثل أن يكتب الرجل: وصيتي إلى فلان ابن فلان بالنظر على أولادي الصغار.

وصيتي إلى فلان بن فلان بتفريق ثلث مالي أو رُبْعِه أو خُمسِه في سبيل الله... وصيتي إلى فلان في أن ينتفع بما خلّفت من عقار أو غيره أو ما أشبه ذلك. المهم أن الوصية هي العهد... عهد الإنسان بعد موته إلى شخصٍ بشيء يملكه.

❁ والوصية أنواع: واجبة، ومحرمّة، وجائزة.

أولاً: الوصية الواجبة: وهي أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة، لئلا يجحدّها الورثة... لاسيما إذا لم يكن عليها بينة.

مثل أن يكون على الإنسان دينٌ أو حقٌ لغيره، فيجب أن يوصي به لاسيما إذا لم يكن فيه بينة، لأنه إذا لم يُوصَ به فإن الورثة قد ينكرونها، والورثة لا يُلْزَمون أن يصدّقوا كل مَنْ جاء من الناس وقال: إن لي على ميتكم كذا وكذا، لا يلزمهم أن يصدّقوا... فإذا لم يُوصَ الميت فإنه ربما يكون ضائعاً، فمن كان عليه دين - يعني حق في ذمته لأحد - فإنه يجب عليه أن يوصي به.

كذلك يجب أيضاً أن يوصي لأقاربه غير الوارثين بما تيسّر.

لقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ يعني: مالاً كثيراً ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. فخرج من الوالدين والأقربين مَنْ كانوا ورثة... فإن الورثة لا يُوصَى لهم، وبقيت الآية مُحْكَمَةً فيما عدا الوارثين.

هكذا دلالة الآية، وبها فسرّها ابن عباس رضي الله عنهما، وذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم، أن الإنسان يجب أن يوصي إذا كان عنده مالٌ كثير بما تيسّر لأقاربه غير الوارثين... أما الوارث فلا يجوز أن يُوصَى له، لأنّ حقه من الإرث



يكفيه... فهذان أمران تجب فيهما الوصية.

(١) إذا كان عليه دينٌ يعنى حقاً للناس.

(٢) إذا ترك مالا كثيراً، فإنه يلزمه أن يوصى لأقاربه من غير الوارثين.

ثانياً: الوصية المحرمة: وهى محرمة إذا أوصى لأحدٍ من الورثة.. مثل أن يوصى لولده الكبير بشيء من بين سائر الورثة، أو يوصى لزوجته بشيء من بين سائر الورثة... فإن هذا حرام عليه، حتى ولو قُدر أن الزوجة كانت تخدمه فى حياته وتطيعه وتحترمه، وأراد أن يكافئها فإنه لا يحل له أن يوصى لها بشيء... وكذلك إذا كان أحد أولاده يبره ويخدمه ويسعى فى ماله، فأراد أن يوصى له بشيء، فإن ذلك حرام عليه.

وكذلك ما يفعله بعض الناس إذا كان له أولاد عدة وزوج الكبير أوصى للصغار بمثل المال الذى زوج به الكبير... فإن هذا حرام أيضاً، لأن التزويج دفع حاجة كالأكل والشرب، فمن احتاج إليه من الأولاد وعند أبيهم قدرة وجب عليه أن يزوجه، ومن لم يحتج إليه فإنه لا يحل له أن يعطيه شيئاً مثل ما أعطى أخاه الذى احتاج للزواج.

وهذه مسألة تخفى على كثير من الناس حتى على طلبة العلم، يظنون أنك إذا زوجت ولدك، فإنك يجب أن توصى للأولاد الصغار بمثل ما زوجته به، وهذا ليس بصحيح، فالوصية للوارث لا تجوز مطلقاً.

فإن قدر أن أحداً جاهلاً وأوصى لأحد الورثة بشيء، فإنه يرجع إلى الورثة بعد موته، إن شاءوا نفذوا الوصية، وإن شاءوا ردوها.

ثالثاً: الوصية المباحة: فهى أن يوصى الإنسان بشيء من ماله لا يتجاوز الثلث، لأن تجاوز الثلث ممنوع، لكن ما دون الثلث أنت حر فيه، ولك أن توصى فيه لمن شئت إلا الورثة.

ولكن هل الأفضل الثلث أو الربع أو ما دون ذلك؟ نقول: أكثر شيء الثلث لا تزد عليه، وما دون الثلث فهو أفضل منه ... ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو أن الناس غَضُّوا من الثلث إلى الربع، فإن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص: «الثلث والثلث كثير»، وكان أبو بكر رضي الله عنه أوصى بخُمس ماله، وقال: أَرْضَى بِمَا رَضَى اللَّهُ لِنَفْسِهِ، فَأَوْصَى بِخُمُسٍ مَالِهِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا يَكُونُ.

وليت أن طلبة العلم والذين يكتبون الوصايا ينبهون الموصين على أن الأفضل الوصية بالخُمس لا بالثلث ... وقد شاع عند الناس الثلث دائماً، وهذا الحد الأعلى الذي حَدَّهُ الرسول (عليه الصلاة والسلام) وما دونه أفضل منه، فالربع أفضل من الثلث، والخمس أفضل من الربع.

وإذا كان الورثة محتاجين فترك الوصية أولى لأنهم أحق من غيرهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ» ^(١) فإذا كان الورثة الذين يرثونك تعرف أن حالهم، وسط والمال شحيح عندهم، وأنهم إلى الفقر أقرب، فالأفضل ألا تُوصى.

ففي هذا الحديث: الإشارة إلى أن الإنسان يوصى، ولكن الوصية تنقسم إلى أقسام كما أشرنا؛ منها واجبة ومنها محرمة، ومنها مباحة.

فالواجبة: أن يوصى الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة لئلا يجحدها الورثة، فيضيع حق مَنْ هِيَ لَهُ، لاسيما إذا لم يكن عليها بينة... وكذلك وصية مَنْ تَرَكَ مَالاً كَثِيراً لِأَقَارِبِهِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَ بِدُونِ تَقْدِيرٍ، عَلَى أَلَّا تَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ. والمحرمة: نوعان أيضاً: أن تكون لأحدٍ من الورثة، وأن تكون زائدة على الثلث.

والمباحة: ما سوى ذلك، ولكن الأفضل أن تكون من الخمس فأقل، وإن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٤٢) كتاب الوصايا، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

زاد إلى الربع فلا بأس، وإلى الثلث فلا بأس، ولا يزيد على الثلث.

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما العمل بالكتابة، لقوله ﷺ: «إلا ووصيته مكتوبة عنده» فدلّ هذا على وجوب العمل بالكتابة.

وفي قوله: «مكتوبة» اسم مفعول: إشارة إلى أنه لا فرق بين أن يكون هو كاتبها، أو غيره ممن ثبت الوصية بكتابتهم... فلا بد أن تكون الكتابة معلومة، إما بخط الموصى نفسه، أو بخط شخص معتمد، وأما إذا كانت بخط مجهول فلا عبرة بها ولا عمل عليها.

وفي قوله: «عنده»: إشارة إلى أنه ينبغي أن يحتفظ الإنسان بالوثائق وألا يُسلط عليها أحداً، بل تكون عنده في شيء محفوظ مُحَرَّر كالصندوق وغيره؛ لأنه إذا أهملها ربما تضيع منه، أو يُسلط عليها أحد يأخذها ويُتلفها أو ما أشبه ذلك.

المهم في هذا: الاعتناء بالوصية، وأن يحتفظ بها الإنسان حتى لا تضيع. وفيه أيضاً: سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ... ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما بعد ما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ: «ما مرّت على ليلة منذ سمعت النبي ﷺ يقول هذا إلا ووصيتي مكتوبة عندي».

فالذي ينبغي للإنسان أن يهتم بهذا الأمر حتى لا يفجأه الموت، وهو قد أضاع نفسه، وأضاع حق غيره^(١).

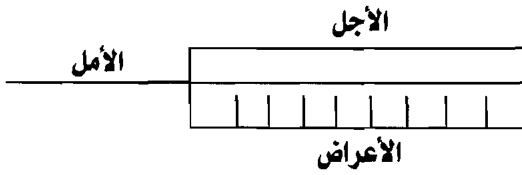
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٨١) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا أَجَلُهُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الْخَطُّ الْأَقْرَبُ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (٢/٢٤٩-٢٥١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٨) كتاب الرقاق.

(٥٨٢) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خَطًّا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ، فَقَالَ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطًا بِهِ أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ... وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا، نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»^(١). وَهَذِهِ صُورَتُهُ:



✽ جميل أن نحمل في قلوبنا أملاً، لكي نُعمّر الكون بكل أنواع الخير، فالإنسان مفطور على حُب الحياة.. لكن لا بد أن نَحْذَر من أن يَحُول طول الأمل بيننا وبين طاعة الله ﷻ.

فإن صاحب الأمل الطويل في الدنيا يركن غالباً إلى الشهوات والملذات، ولذلك نجد قلبه لا يتحرك لآيات الله وكلام رسول الله ﷺ. ومن أجل ذلك حذّر النبي ﷺ من طول الأمل.

ولقد قال تعالى عن هذا الصنف: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

قال الإمام القرطبي: وطول الأمل داءٌ عُضَالٌ ومرَضٌ مُزْمَنٌ.. ومتى تمكّن من القلب فسد مزاجه واشتد علاجه ولم يفارقه داء ولا نجح فيه دواء، بل أعيأ الأطباء ويئس من بُرئه الحكماء والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.. ولذا قال رسول الله ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤١٧) كتاب الرقاق.



واليقين، وبهلك آخرها بالبخل والأمل»^(١).

❁ وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ رسم مستطيلاً ثم رسم خطاً طويلاً في وسط هذا المستطيل خارجاً منه.. فالمستطيل يُمثل أجل الإنسان.. وداخل المستطيل خطوط صغيرة تحيط بالإنسان من كل مكان وهى الأعراض التى تعتريه من الشبهات والشهوات والأمراض والابتلاءات.. وأما الخط الطويل الذى رسمه النبي ﷺ داخل المستطيل وجعله يخرج من المستطيل بعيداً عن حدوده فهذا هو الأمل.

فأمل الإنسان أطول من أجله.. فقد يعيش الإنسان ستين عاماً وعنده آمال لا تتحقق إلا فى ألف عام.. ويظل الإنسان يتمنى أن يحقق كل تلك الآمال وأن يحقق كل ما يتمناه وأن يمتلك كل ما يريد.. وفجأة ينقطع الأجل فيموت الإنسان قبل أن يحقق كل ما يتمناه.

❁ وفي الحقيقة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدون أمل.. بل أقول أن الإنسان إذا عاش بلا أمل فهو كالميت.. وإذا مات الأمل فى قلبه فكأنه قد مات. فالمؤمن لا بد أن تكون آماله فى حدود ما يقدر عليه لأنه قد يأتية أجله قبل أن يُحقق ما يتمناه.. والمؤمن لا بد أن تكون آماله فى كل ما يُرضى الله ﻋَـزَّ وَجَلَّ سواء كانت آمالاً دنيوية أو دينية.. والأهم من كل هذا أن يكون أمله فى الله رب العالمين فى أن يفوز برحمته ومغفرته ورضوانه وجنته ليضمن السعادة الأبدية فى جنات النعيم التى فيها ما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فالكافر أدخل نفسه فى دوامة الآمال فيظل حائرًا بين حُطام الدنيا الفانية حتى يُفضى به أمله إلى الهلاك لأنه نسى ربه الذى خلقه ورزقه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

(١) حسن: رواه أحمد، والطبرانى فى الأوسط، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٤٥).

أما المؤمن فقد حدد هدفه وعرف ما الذى يريده فى هذه الحياة القصيرة.. وهو أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ ويعيش فى طاعته وفى نفس الوقت يجتهد فى إعمار الأرض وفى أن يكون له بصمة فى خدمة الكون كله على قدر استطاعته.. فهذا هو الأمل الذى نريد أن ينشغل به كل مسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٨٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْعِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةِ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ؟»^(١).

✽ للأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبى محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٨٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ»^(٢) يَعْنِي الْمَوْتَ.

✽ وفى هذا الحديث يوصينا النبى ﷺ أن نكثر من ذكر هازم اللذات (الموت).. وهازم اللذات بمعنى: قاطع اللذات.

فالموت يهدم لذات الإنسان أى يقطعها ويهدمها.

فشبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم فجأة بصدمات هائلة... ثم أمر المنهمك فى تلك الشهوات بذكر الهادم لئلا يستمر فى الركون إليها ويشتغل عما يجب عليه من الفرار إلى دار القرار.

فالعاقل هو الذى يشتغل بآخرته ولا ينسى دُنياه.. والغافل هو الذى يشتغل بالدنيا وينسى آخرته..

(١) ضعيف: رواه الترمذى، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٣١٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١٠).

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ سُئِلَ: أى المؤمنين أكيس قال: «أكثرهم للموت ذكرًا وأشدّهم استعدادًا له أولئك هم الأكياس»^(١).

وقال الحسن البصرى: فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذى لبّ فيها فرحًا.. وما ألزم عبدٌ قلبه الموت إلا صغرت الدنيا عليه، وهان عليه جميع ما فيها. وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، وكان يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذكرون الموت والقيامة ثم يكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره، ... وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكر الموتى، فعُدّ نفسك كأحدهم.

إن لتذكر الموت أثرًا كبيرًا فى إصلاح النفوس وتهذيبها.. ذلك أن النفوس تُؤثر الدنيا وملذاتها، وتطمع فى البقاء المديد فى هذه الحياة، وقد تهفو إلى الذنوب والمعاصى، وقد تُقصر فى الطاعات، فإذا كان الموت دائمًا على بال العبد، فإنه يصغر الدنيا فى عينه، ويجعله يسعى فى إصلاح نفسه وتقويم المعوج من أمره... قال رسول الله ﷺ: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ: الْمَوْتِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ أَحَدٌ فِى ضَيْقٍ مِنَ الْعَيْشِ إِلَّا وَسَّعَ عَلَيْهِ وَلَا ذِكْرُهُ فِى سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهَا عَلَيْهِ»^(٢). ويذكر ابن المبارك أن صالحًا المرى كان يقول: «إن ذكر الموت إذا فارقتنى ساعة فسد علىّ قلبى»^(٣).

وقال القرطبى: قال العلماء: تذكّر الموت يردع عن المعاصى، ويُلين القلب القاسى، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب^(٤).

(١) حسن: رواه البخارى فى التاريخ والبيهقى فى الزهد الكبير، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٣٨٤) بمجموع طرقه.

(٢) حسن: رواه البيهقى وابن حبان عن أبى هريرة، والبخارى عن أنس، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢١١).

(٣) الزهد والرقائق / لابن المبارك (ص: ٨٨).

(٤) التذكرة (ص: ١٢).

✽ وقال القرطبي أيضًا: قال العلماء - رحمهم الله - : ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور: أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك مما يُلين القلوب. الثاني: ذكر الموت، فيكثر من ذكر هاذم اللذات، ومُفرق الجماعات، ومُيتم البنين والبنات.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، مما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرده عن القلوب مسراتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب^(١).

قال الدِّقَّاق: مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ أَكْرَمَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَعْجِيلُ التَّوْبَةِ، وَقَنَاعَةُ الْقَلْبِ، وَنَشَاطُ الْعِبَادَةِ... وَمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ عُوقِبَ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: تَسْوِيفُ التَّوْبَةِ، وَتَرْكُ الرِّضَى بِالْكَفَافِ وَالتَّكَاسُلُ فِي الْعِبَادَةِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٨٥) وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ، قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ» قُلْتُ: الرَّبُّعُ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فَالنِّصْفَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: فَالثَّلَاثِينَ؟ قَالَ: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: «إِذَا تَكْفَى هَمَّكَ، وَيُعْفِرَ لَكَ ذَنْبَكَ»^(٢).

(١) التذكرة (ص: ١٢).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٣).

❖ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ كان يقوم إذا ذهب ثلث الليل ويقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» أَرَادَ بِهِ النَّائِمِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ الْغَافِلِينَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ يُنَبِّهُهُمْ عَنِ النَّوْمِ لِيَسْتَغْلُوا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّهَجُّدِ «جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ» قَالَ فِي النَّهْيَةِ: الرَّاجِفَةُ النَّفْخَةُ الْأُولَى الَّتِي يَمُوتُ لَهَا الْخَلَائِقُ وَالرَّادِفَةُ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَحْيَوْنَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... وَأَصْلُ الرَّجْفِ الْحَرَكَةُ وَالْإِضْطِرَابُ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وَعَبَّرَ بِصِغَةِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهَا فَكَأَنَّهَا جَاءَتْ ... وَالْمُرَادُ أَنَّهُ قَارَبَ وَقُوعَهَا فَاسْتَعِدُّوا لِتَهْوِيلِ أَمْرِهَا «جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ» أَيْ مَا فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ الْكَائِنَةِ فِي حَالَةِ التَّرَعِّ وَالْقَبْرِ وَمَا بَعْدَهُ^(١).

❖ قَالَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أَكْثَرُ الصَّلَاةِ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟).

يعني: كم أجعل لك من دعائي، وليس معناه: أنني سأصلي ركعتين وأجعلها للنبي ﷺ ... بل المعنى: أنا أكثر من الدعاء فكم مرة أقول: اللهم صل على محمد عليه الصلاة والسلام؟ قال: فقال ﷺ: «ما شئت».

قلت: الربع؟، يعني: ربع دعائي أجعله صلاة عليك؟

قال ﷺ: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالنصف؟

أى: أجعل نصف دعائي لك والنصف الآخر دعاءً لنفسى؟

قال ﷺ: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك»، قلت: فالثلاثين؟ قال: «ما شئت

فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ يعني: أجعل دعائي كله صلاة عليك؟ قال: «إِذَا تَكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفِرُ لَكَ ذَنْبَكَ».

يعني: لو كان دعاؤك كله صلاة على النبي فإنك في ذكرك لله سبحانه بأن تطلب من الله ﷻ الشاء والصلاة عليه ... فإذا كان الأمر كذلك فإن الله سيكفيك همك وسيغفر لك ذنبك ما دمت تصلي على النبي ﷺ.

(٦٦) باب استحباب زيارة القبور للرجال

وما يقوله الزائر

(٥٨٦) عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا»^(١).

وفي رواية: «فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَزُورَ الْقُبُورَ فَلْيُزِرْ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُنَا بِالْآخِرَةِ».

(٥٨٧) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، كُلَّمَا كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَيَقُولُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَنَا كُمْ مَا تُوْعَدُونَ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرَقِدِ»^(٢).

(٥٨٨) وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»^(٣).

(٥٨٩) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقُبُورٍ بِالْمَدِينَةِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا وَنَحْنُ بِالْآثِرِ»^(٤).

✽ ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ باب استحباب زيارة القبور للرجال..

وزيارة القبور: هي الخروج إليها امتثالاً واتباعاً لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ من أجل أن

نتذكر الآخرة ولا تتعلق قلوبنا بالدنيا.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٧) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٧٥) كتاب الجنائز.

(٤) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٣٣٧٢).

✽ والقبور هي دور الأموات.. فالإنسان له أربعة دور:

الدار الأولى: في بطن أمه.

الدار الثانية: الدنيا.

الدار الثالثة: القبور.

الدار الرابعة: الآخرة وهي المثوى الأخير إما في الجنة أو في النار.

✽ وكان النبي ﷺ في بداية بعثته قد نهى أصحابه عن زيارة القبور سداً لذريعة الشرك.. وذلك لأنهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية وعبادة الأوثان وكانوا يفتخرون بقبورهم.. فنهاهم النبي ﷺ في البداية عن زيارتها.. ولكن عندما استقر الإيمان والتوحيد في قلوبهم أذن لهم بزيارتها.

ولم يأذن النبي ﷺ بزيارة القبور فحسب بل رغب في زيارتها وقال: «فإنها تذكرنا بالآخرة».

وكل شيء يُذكرنا بالآخرة ينبغي أن نحرص عليه... لأن المسلم لا ينبغي أن يتعلق قلبه بحطام الدنيا الفانية.

فزيارة القبور تُزهد الإنسان في الدنيا وتُنشط قلبه وجوارحه على الطاعة وتُخمد نيران المعاصي في قلبه لأنه يعلم أنه سيزور الموتى اليوم وغداً سيُزار لأنه سيكون واحداً منهم.

وليس هناك شيء في الدنيا أبلغ موعظة من رؤية القبور.. حتى أن أحد السلف وهو الربيع بن خثيم رَحِمَهُ اللهُ كان قد حفر قبراً في فناء بيته.. وكان إذا أحس أن قلبه قد تعلق بشيء يسير من الدنيا كان يدخل القبر ويُغلق على نفسه حتى يكاد أن يختنق ثم يقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿﴾ [المؤمنون:

٩٩-١٠٠] ثم يفتح القبر ويقول لنفسه: ها أنتِ يا نفس قد رجعتِ إلى الدنيا مرة أخرى فافعلي صالحاً لعلك تُرحمين.

وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فقليل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه» ^(١).

قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفظع منه» ^(٢).

✽ الشاهد: أن النبي ﷺ كان قد نهى عن زيارة القبور ثم أذن في زيارتها لأنها تذكّرنا بالآخرة.. وذلك لأن الإنسان إذا اشتغل بالدنيا أضاع الدنيا والآخرة.. وإذا اشتغل بالآخرة ربح الدنيا والآخرة.. كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ» ^(٣).

✽ وتحكى أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان عندما يكون في ليلتها التي تكون كل تسع ليالٍ مرة.. كان النبي ﷺ يخرج ليزور أهل بقيع الغرقد في آخر الليل ويقول لهم: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأناكم ما تؤعدون»، يعنى: الموت الذى وعدتم به قد جاءكم.

«غداً مؤجلون»، يعنى: القيامة ستكون في الغد، والكل سيُبعث للحساب يوم القيامة.

«وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»، يعنى: أنتم سبقتم ونحزن وراءكم.

ثم يدعو ويقول: «اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

بقيع الغرقد: هو مقبرة أهل المدينة، وهذه الدعوة يُرجى أن تشمل مَنْ كان من أهل بقيع الغرقد إلى يوم القيامة... ويحتمل أن يُراد بهم أهل بقيع الغرقد الذين كانوا أهلهم في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فقط، فلا يشمل مَنْ

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٨٤).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٢٣).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).

يأتى بعدهم.

ولكن مَنْ كان من أهل الرحمة فهو من أهل الرحمة، سواء حصلت له هذه الدعوة أم لم تحصل ... وَمَنْ كان من أهل الشَّقَاء فإنه لا تشمله هذه الدعوة ولا يتنفع بها.

ولذا فإنه ينبغي أن نزور القبور كلما سنحت لنا فرصة في الليل أو النهار في أى يومٍ ولا نُحدد يوماً بعينه.. فالزيارة ليس لها وقتٌ مُحدد كما يفعل بعض الناس من زيارتهم للقبور في أول رجب ونصف شعبان وأول أيام العيد.. فهذا كله من البدع التى نهى عنها الشارع.

فاحرص على زيارة القبور ... فإذا وصلت إلى هناك فسلم عليهم «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» والظاهر -والله أعلم- أنهم يردون السلام، لأنه يسلم عليهم بصيغة الخطاب «السلام عليكم» ويحتمل أن يُراد بذلك السلام مجرد الدُّعاء فقط، سواء سمعوا أم لم يسمعوا، أجابوا أم لم يُجيبوا.

فعلى كل حال: على الإنسان أن يدعو لهم ويقول مُقررًا المصير الحتمى: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» إن شاء الله هذه تعود إلى وقت اللحوق وليس إلى اللحوق، لأن اللحوق مُتيقَّن ... والمُتيقَّن لا يُقيَّد بالمشيئة .. لكن تعود إلى وقت اللحوق، لأن كل واحدٍ منَّا لا يدري متى يلحق، فيكون معنى قوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» أى وإنا متى شاء الله بكم لاحقون ... كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ (٢٢) ﴿كَلاَّ لَمَّا يَفِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ [عبس: ٢٢، ٢٣]

ثم يدعو لهم بالدعاء الذى جاءت به السُّنَّة، فإن لم يعرف شيئاً منه، دعا بما تيسَّر: اللَّهُمَّ اغفر لهم، اللَّهُمَّ ارحمهم، اللَّهُمَّ لا تحرمنّا أجرهم، ولا تفتنّا بعدهم، واغفر لنا ولهم، ثم ينصرف ... هكذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يزور المقبرة^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٢٥٦).

❁ وفي حديث بريدة رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَى الْمَقَابِرِ أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُمْ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْحَقُونِ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ».

فيُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ قَائِلًا: (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ)، أَيْ: الَّذِينَ سَكَنْتُمْ هَذِهِ الدِّيَارَ، (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْحَقُونِ).

فَالْإِنْسَانُ يَتَذَكَّرُ وَهُوَ فِي الْمَقَابِرِ أَنَّهُ أَتَى لِهَذَا الْمَكَانِ الْيَوْمَ زَائِرًا وَغَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ سَيَذْهَبُ إِلَيْهِ مَحْمُولًا وَيُوضَعُ فِي قَبْرِهِ، فَيَسْأَلُ اللَّهُ ﷻ الْعَافِيَةَ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ... فَالْحَيُّ يَحْتَاجُ إِلَى الْعَافِيَةِ، وَالْمَيِّتُ أَحْوَجُ إِلَيْهَا.

وَالْعَافِيَةُ بِمَعْنَى: الْمُعَافَاةُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْمُعَافَاةُ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَالْمُعَافَاةُ مِنَ الْحِسَابِ ... فَيَسْأَلُ اللَّهُ ﷻ لَهُ وَلِلْأَمْوَاتِ أَنْ يَعَافِيَهُ اللَّهُ ﷻ مِنْ عِقَابِهِ.

❁ أَمَّا مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ الْبَقَاءِ هُنَاكَ عِنْدَ الْقُبُورِ وَالتَّمَرُّغِ عَلَى التُّرَابِ وَالطُّوُافِ بِالْقَبْرِ وَسُؤَالِ الْمَيِّتِ قِضَاءَ الْحَاجَاتِ وَتَفْرِيجَ الْكَرْبَاتِ فَهَذَا مِنَ الشُّرْكِ الْأَكْبَرِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَلَبَّسَ الْمُسْلِمُ بِهِ.. وَيَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالِدُّعَاةِ أَنْ يُعَلِّمُوا هَؤُلَاءِ النَّاسَ وَيَحْذَرُوهُمْ مِنْ مَغْبَةِ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ هَذَا. فَالْأَمْوَاتُ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ يَنْفَعُوا نَفْعًا وَلَا ضَرًّا فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لغيرهم.. فَمَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَمْوَاتُ يَنْفَعُونَ أَوْ يَضُرُّونَ كَانَ مُشْرِكًا وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ خَارِجًا عَنِ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَمْوَاتُ لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ ... لَا يَسْتَطِيعُونَ الدُّعَاءَ لَكَ، وَلَا يَشْفَعُونَ لَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَأَمَّا وَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ فَلَيْسَ هَذَا وَقْتُ الشَّفَاعَةِ ... وَقْتُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَنْفَعُكَ شَيْءٌ مِنْهُمْ إِذَا دَعَوْتَهُمْ أَوْ سَأَلْتَهُمُ الشَّفَاعَةَ أَوْ قِضَاءَ الْحَاجَاتِ وَتَفْرِيجَ الْكَرْبَاتِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَنْصَحُوا هَؤُلَاءِ النَّاسَ وَأَنْ يُبَيِّنُوا لَهُمْ أَنَّ الْأَمْوَاتَ

لا ينفعونهم، حتى الرسول (عليه الصلاة والسلام) ما ينفع الناس وهو ميت ... وكان الصحابة رضي الله عنهم إذا أصابهم الجذب في عهد الرسول ﷺ وفي حياته جاءوا إليه وقالوا: استسقى الله لنا، فيستسقى الله لهم.

لكن لما مات ما جاء الصحابة إلى قبره يقولون: ادعُ الله أن يسقينا.. مع أن قبره إلى جانب المسجد ليس بعيداً، لكن لما أجذبت الأرض في عهد عمر رضي الله عنه، وحصل القحط قال: اللهم إنا كنا نستسقى إليك نبينا فتسقينا- أى: أنهم كانوا يسألون الرسول أن يدعو لهم بالسقيا فيُسقون- وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ... ثم يقوم العباس فيدعو الله.

ولم يقل: يا رسول الله، ادعُ الله أن يسقينا، ادعُ الله أن يرفع عنا القحط، لأنه ﷺ يعلم أن ذلك غير ممكن ... والإنسان إذا مات انقطع عمله، ولا يمكن أن يعمل أى عمل .. كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث»^(١)، فلا يستطيع الميت أن يستغفر لك ولا أن يدعو لك؛ لأنه انقطع عن العمل.

❖ وقد يسأل سائل ويقول: هل تُشرع زيارة النساء للقبور؟

اختلف أهل العلم في هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

أحدها: التحريم.

الثاني: الكراهة.

الثالث: الإباحة من غير كراهة... وهذا هو الراجح لكن بشرط عدم الوقوع في المحرمات وأن تكون الزيارة للتعاظ وتذكُر الآخرة.

والدليل على ذلك:

١- عموم إذنه ﷺ لزيارة القبور في قوله: «ألا فزوروها» فهذا إذن عام

يشمل الرجال والنساء.

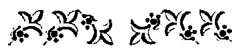
٢- دخول النساء تحت قوله ﷺ: «فإنها تُذكر كرم الآخرة» ومن المعلوم أن المرأة تحتاج كثيرًا للموعظة وتذكر الآخرة.

٣- ولزيارة عائشة قبر أخيها... فعن ابن أبي مليكة «أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى ثم أمر بزيارتها»^(١).

٤- إقرار النبي ﷺ لعائشة وقد سألته: كيف أقول لهم يا رسول الله -تعني: أهل القبور- قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»^(٢).

٥- إقرار النبي ﷺ لهذه المرأة التي رآها عند القبر.

فعن أنس قال: «مَرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، قالت إليك عني، فإنك لم تُصَبِّ بمصيبتى... ولم تعرفه فقبل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٣).



س: هناك من يستدل على منع النساء من زيارة القبور بقول النبي ﷺ: «لعن

الله زائرات القبور» فماذا نقول له؟

ج: نقول له: لا إشكال في هذا النص؛ لأن اللعن هنا ليس لمجرد زيارة

المرأة للقبور مع التزام الآداب الشرعية وإنما هو للمرأة التي تُكثِر وتبالغ في زيارة القبور... ويدل على ذلك صيغة المبالغة في قوله: «زائرات».

(١) صحيح: الحاكم (١/ ٣٧٦)، والبيهقي (٤/ ٧٨)، وأصله عند ابن ماجه (١٥٦٩) مختصرًا.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.

قال القرطبي: (هذا اللعن إنما هو للمُكثرات من الزيارة لما تقضيه الصيغة من المبالغة) ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

س: هل هناك حالات لا يجوز فيها للنساء زيارة القبور؟

ج: نعم هناك حالات لا يجوز فيها للنساء زيارة القبور منها:

١- إذا عُلِمَ من حال النساء أنهن إذا ذهبن إلى القبور يَصْحَنَ ويندبن وَيُنْحَنَ ويُعَدِّدْنَ على الأموات، ويفعلن البدع والمحرمات، فتحرم حينئذ زيارتهن للقبور.

٢- إذا عُلِمَ من أحوالهن أنهن يذهبن إلى قبور مَنْ يطلقون عليهم الصالحين أو الأولياء، يلتمسن عندهم تفريج الكربات وقضاء الحاجات وكشف الغُمَّات، فهذا شركٌ وتَحْرُمُ حينئذ الزيارة بلا شك.

٣- إذا خصص النساء يوماً لزيارة القبور فيه، كما يحدث في أيام الجُمُع والأعياد ونحو ذلك فهذا من البدع.

٤- لا يجوز خروج النساء إلى المقابر وغيرها متبرجات متزينات متعطرات كما لا يخفى ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

س: ما هي الأذكار الثابتة عند زيارة القبور؟

ج: هناك أذكار ثابتة عند زيارة القبور ... منها:

(١) «السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلْآحِقُونَ» ^(٣).

(١) نقلًا عن فتح الباري (٣/ ١٤٩).

(٢) يتصرف من جامع أحكام النساء (١/ ٥٨١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٢) «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هل يجوز للمسلم أن يزور قبر قريبه المشرك؟

ل:

ج:

تجوز زيارة المسلم لقبر قريبه المشرك ولكن دون الدُّعاء والاستغفار له ما دام أنَّه مات على الشرك.

أما في حياته فكان يجوز للمسلم أن يدعو لقريبه المشرك بالهداية طمعاً في أن يهتدى ويكون من أهل التوحيد والإيمان.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ، فَبَكَى وَأَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ، فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأُذِنَ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»^(٢).

قال شيخ الإسلام رحمته الله: وتجوز زيارة قبر الكافر لأجل الاعتبار، دون الاستغفار^(٣).

وجمهور أهل العلم على جواز زيارة قبر المشرك:

قال النووي: وأما زيارة قبره فالصواب جوازها، وبه قطع الأكثرون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٥) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٦) كتاب الجنائز.

(٣) مجموع الفتاوى (١٦٥ / ٢٧).

(٦٧) بَابُ كَرَاهِيَةِ تَمَنِّي الْمَوْتِ بِسَبَبِ ضَرِّ

نَزَلَ بِهِ وَلَا بَأْسَ بِهِ لَخَوْفِ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ

(٥٩٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ إِلَّا مَا مُحْسِنًا، فَلَعَلَّهُ يَزِدُّهُ، وَإِلَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ» ^(١).

وفي رواية لمسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ، وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا» ^(٢).

(٥٩١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ أَصَابِهِ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيُقِلْ: اللَّهُمَّ أَحِينِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي» ^(٣).

❁ ففي هذين الحديثين ينهى النبي ﷺ عن أن يتمنى أحدنا الموت لضرّ نزل به من مرضٍ أو بلاءٍ أو فقرٍ أو دينٍ كبيرٍ أو نحو ذلك.. فإن الحياة لا تخلو أبدًا من الابتلاءات... ويجب على المسلم أن يصبر على قضاء الله وقدره ويوقن أنه إن صبر فسوف يفوز بثلاثة أشياء.

(١) رضوان الله ﷻ عَلَيْكَ.

(٢) تكفير الخطايا، فإن الإنسان لا يصيبه همٌّ ولا غمٌّ ولا أذى ولا شيء إلا كفر الله به عنه حتى الشوكة يُشاكها؛ فإنه يُكفر بها عنه.

(٣) إذا وُفِّقَ لاحتساب الأجر من الله وصبر يبتغى بذلك وجه الله، فإنه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣) كتاب المرضى، (٧٢٣٥) كتاب التمني - ومسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧١) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

يُثَاب.. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «فيه التصريح بكرهه تمنى الموت لضرّ نزل به من مرضٍ أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا... فأما إذا خاف ضرراً في دينه، أو فتنه فيه، فلا كراهة فيه؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره.

وقد فعل هذا الثاني خلّاق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم.

وفيه: أنه إن خالف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل:

اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً الى... وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً الى... والأفضل الصبر والسكون للقضاء»^(١).

✽ قال الحافظ ابن حجر: لا يتمنين... أنه إذا حلّ به - أى الموت - لا يمنع من تمنّيه رضا.

✽ فالإنسان لا يتمنى الموت إذا نزل به البلاء لأنه إما أن يكون مُحَسَّنًا طائعاً لله عَزَّوَجَلَّ.. فكل يوم يمر عليه فإنه يزداد إحساناً وطاعة ويفوز بالحسنات التي لم يكن يستطيع أن يفوز بها لو كان ميتاً إلا إذا كان ممن سَنَّ في الإسلام سُنَّةَ حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة... أو كان قد ترك علماً نافعاً أو ولدًا صالحاً أو صدقة جارية.... فكلما ازداد عمر المؤمن ازداد خيراً بالأعمال الصالحة... يكفي أنه يصلى، ويقرأ القرآن، ويواظب على حضور الجمعة والجماعات، ويصوم رمضان، فيُكتب له بذلك حسنات عظيمة، فلا معنى لأن يتمنى لنفسه الموت.

ومن المعلوم أن التسيحة الواحدة في صحيفة الإنسان خيرٌ من الدنيا وما فيها... لأن الدنيا وما فيها تذهب وتزول، والتسيح والعمل الصالح يبقى... قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/ ١٢-١٣) بتصرف.

ثَوَابًا وَخَيْرًا مَلًّا ﴿ [الكهف: ٤٦]. فأنت إذا بقيت ولو على أذى ولو على ضرر؛ فإنك ربما تزدد حسنات.

❁ وهكذا .. فالإنسان إما أن يكون محسنًا فحياته خير له ... وإما أن يكون مسيئًا قد عمل سيئًا، فلعله يستعذب أى يطلب من الله العُتْبَى أى الرضا والعدر، فيموت وقد تاب من سيئاته ... فلا تتمنَّ الموت لأن الأمر كله مقضى، وربما يكون فى بقائك خير لك أو خير لك ولغيرك ... فلا تتمنَّ الموت، بل اصبر واحتسب، فإن الله سيجعل بعد العسر يُسرًا.

❁ وأما كونه يتمنى الموت بسبب الابتلاءات فقد وقع فى محذورين:
الأول: أنه قد ارتكب ما نهى عنه النبى ﷺ حينما قال: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَّ أَصَابُهُ».

الثانى: أن هذا يدل على أنه غير راضٍ بقضاء الله ﷻ.

فيجب عليه أن يقابل تلك المصائب بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج وإحسان الظن بالله.. وأن يعلم أن دوام الحال من المُحال وأن الله ﷻ قد يُقدر له الفرج من كل هذا فى أقرب وقت.. لأن الله إذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كُنْ فيكون.

أما ما يتعلق بفتنة الدين، إذا افتتن الناس فى دينهم وأصابتهم فتنة؛ إما فى زخارف الدُّنيا أو غيرها من الفتن، أو أفكار فاسدة، أو ديانات منحرفة أو غير ذلك، فهذا أيضًا لا يتمنى بسببه الإنسان الموت، ولكن يقول: اللّهُم اقْبِضْنِي إِلَيْكَ غير مفتون، فيسأل الله أن يُثَبِّتَهُ وأن يقبضه إليه غير مفتون. وإلا فليصبر لأنه ربما يكون بقاءه مع هذه الفتن خيرًا للمسلمين.

يدافع عنهم ويناضل، ويساعد المسلمين ويُقوى ظهورهم، لكن يقول: اللّهُم إن أردت بعبادك فتنة؛ فاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غير مفتون.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنْ كَانَ لَا بَدَ فاعْلًا، فليقل: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»؛ فَأَنْتَ لَا تَدْرِي وَجْهَ الْخَيْرِ فِي ذَلِكَ ... فَاجْعَلِ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي» يَعْنِي إِذَا كَانَتْ. «وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

فَإِذَا دَعَوْتَ اللَّهَ بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْتَجِيبُ دُعَاكَ^(١).

وَالْتَحَقِيقُ فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ: أَنْ تَمْنَى الْمَوْتَ يَقَعُ عَلَى وَجْهِهِ:

❖ مِنْهَا: تَمْنِيهِ لُضْرٍ دُنْيَوِي يَنْزِلُ بِالْعَبْدِ فَيُنْهَى حِينَئِذٍ عَنْ تَمْنَى الْمَوْتَ.

وَوَجْهُ كِرَاهِيَتِهِ فِي هَذَا الْحَالِ أَنْ الْمُتَمْنِي لِلْمَوْتَ لُضْرٌ نَزَلَ بِهِ إِنَّمَا يَتَمَنَاهُ تَعْجِيلًا لِلِاسْتِرَاحَةِ مِنْ ضُرِّهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي إِلَى مَا يَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتَ.

فَلَعَلَّهُ يَصِيرُ إِلَى ضُرٍّ أَعْظَمَ مِنْ ضُرِّهِ فَيَكُونُ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ.

وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا يَسْتَرْيَحُ مَنْ غُفِرَ لَهُ»^(٢)، فَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي

لَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِالْمَوْتَ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

❖ وَمِنْهَا: تَمْنِيهِ خَوْفِ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ فَيَجُوزُ حِينَئِذٍ. وَقَدْ تَمَنَّاهُ وَدَعَا بِهِ

خَشْيَةُ فِتْنَةِ الدِّينِ خَلَقَتْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأُتَمَّةِ الْإِسْلَامِ ... وَفِي حَدِيثِ الْمَنَامِ: «وَإِذَا

أَرَدْتَ بِقَوْمٍ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»^(٣).

❖ تَمْنَى الْمَوْتَ عِنْدَ حُضُورِ أَسْبَابِ الشَّهَادَةِ: فَيَجُوزُ ذَلِكَ أَيْضًا.

وَسُؤَالُ الصَّحَابَةِ الشَّهَادَةِ وَتَعَرُّضُهُمْ لَهَا عِنْدَ حُضُورِ الْجِهَادِ كَثِيرٌ مَشْهُورٌ.

وَكَذَلِكَ سُؤَالُ مُعَاذٍ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الطَّاعُونَ لَمَّا وَقَعَ بِالشَّامِ.

❖ وَمِنْهَا: تَمْنَى الْمَوْتَ لِمَنْ وَثِقَ بِعَمَلِهِ شَوْقًا إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ ﷻ. فَهَذَا يَجُوزُ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٢٥٩).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو نعيم، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧١٠) لكثرة طرقه.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩).

أيضاً وقد فعله كثير من السلف.
قال أبو الدرداء: أحب الموت اشتياقاً إلى ربي ... وقال عنبسة الخولاني:
كان مَنْ قبلكم لقاء الله أحب إليه من الشهد. وقال بعضهم: طال شوقي إليك
فعجّل قدومي عليك. وقال بعضهم: لا تطيب نفسي بالموت إلا إذا ذكرت لقاء
الله عَزَّوَجَلَّ فإنني حينئذ أشتاق إلى الموت كشوق الظمآن الشديد ظمؤه في اليوم
الحار الشديد حرّه إلى الماء البارد الشديد برّده.
وفي هذا يقول بعضهم:

أشتاق إليك يا قريباً نائي شوق ظمأ إلى زلال الماء
وقد دلّ على جواز ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ
عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٤٩].
وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، فدلّ ذلك على أن أولياء الله لا يكرهون
الموت بل يتمنونه ... ثم أخبر أنهم ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فدلّ على
أنه إنما يكره الموت مَنْ له ذنوب يخاف القدوم عليه بها ... كما قال بعض
السلف: ما يكره الموت إلا مُريب.

وفي حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ،
وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَاءٍ مُّضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُّضِلَّةٍ»^(١)، فالشوق إلى الله تعالى
إنما يكون بمحبة الموت.

قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيته له عند الموت: إن حفظت وصيتي
لم يكن غائباً أحب إليك من الموت ولا بد منه، وإن ضيعتها لم يكن غائباً
أكره إليك من الموت ولن تُعجزه.

(١) صحيح: رواه النسائي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٠١).

قال أبو حازم: كل عمل تكره الموت من أجله فاتركه ثم لا يضرك متى متَّ.
 ❀ سئل أبو حازم: كيف القدوم على الله؟ قال: أما المطيع فكقدوم الغائب
 على أهله المشتاقين إليه، وأما العاصي فكقدوم العبد الآبق (الهارب) على
 سيده الغضبان^(١).

❀ رُئي أحد الصالحين في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: خيرًا لم يُرَ
 مثل الكريم إذا حلَّ به مطيع.. الدنيا كلها شهر الصيام للمتقين وعيد فطرهم يوم
 لقاء ربهم... وصدق من قال:

وقد ضُمت عن لذات دهرى كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامي

❀ قال الحافظ ابن حجر: لا يتمنين... أنه إذا حلَّ به - أى الموت - لا يمنع
 من تمنيه رضا بقاء الله ولا من طلبه من الله لذلك وهو كذلك.

ولهذه النكتة عقب البخارى حديث أبى هريرة بحديث عائشة: «اللهم اغفر
 لى، وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى» إشارة إلى أن النهى مختص بالحالة
 التى قبل نزول الموت^(٢).

❀ قال على بن أبى طالب عليه السلام في يوم الجمل: ليتنى متُّ قبل هذا اليوم
 بعشرين سنة^(٣).

❀ وتمنى عطاء السلمى الموت، وقال: إنما يريد الحياة من يزداد خيرًا فأما
 من يزداد شرًا فما يصنع بالحياة^(٤).

❀ وعن أبى هريرة عليه السلام أن النبىَّ ﷺ قال: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا

(١) لطائف المعارف (ص: ٥٨٢: ٥٨٥) بتصرف.

(٢) فتح البارى (١٠/ ١٣٣-١٣٤).

(٣) كتاب المتمنين / لابن أبى الدنيا (ص: ٦٢).

(٤) كتاب المتمنين / لابن أبى الدنيا (ص: ٦٩).

حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الْقَبْرِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينُ إِلَّا الْبَلَاءُ» (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٩٢) وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى خُبَّابِ بْنِ الْأَرْتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَعُودُهُ وَقَدْ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَاتٍ فَقَالَ: إِنَّ أَصْحَابَنَا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوْا، وَلَمْ تَنْقُصْهُمْ الدُّنْيَا، وَإِنَّا أَصَبْنَا مَا لَا نَجِدُ لَهُ مَوْضِعًا إِلَّا التُّرَابَ وَلَوْ لَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَاَنَا أَنْ نَدْعُو بِالْمَوْتِ لَدَعَوْتُ بِهِ ... ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَبْنِي حَائِطًا لَهُ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُوجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ (٢).

❦ لَقَدْ كَانَ خُبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ ﷺ الَّذِينَ ابْتَلَوْا ابْتِلَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا أَسْلَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَهُ الْمُشْرِكُونَ وَعَذَّبُوهُ عَذَابًا شَدِيدًا ... وَمَرَّةً فِي خِلَافَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ النَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَهَذَا كَشَفَ خُبَّابُ عَنْ ظَهْرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ أَبْشَعَ مِنْ ذَلِكَ، حَيْثُ رَأَى لَحْمَ ظَهْرِهِ قَدْ ذَابَ وَكُشِفَ عَنْ عِظَامِ ظَهْرِهِ ... فَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يوقِدُونَ النَّارَ حَتَّى تَصِيرَ جَمْرًا ثُمَّ يَطْرَحُونَهُ عَلَيْهَا حَتَّى تَنْطَفِئَ بِشَحْمِ ظَهْرِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَهَذَا الصَّحَابِيُّ الْفَاضِلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَصَابَهُ بَلَاءٌ وَمَرَضٌ فِي آخِرِ عَمْرِهِ وَبَسَبَبَ هَذَا الْمَرَضُ اكْتَوَى سَبْعَ كَيَاتٍ.

وَالْكَيُّ أَحَدُ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ .. وَهُوَ أَحَدُ أَسْبَابِ الشِّفَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيِّ نَارٍ، وَأَنْتَهَى أَمْتِي عَنِ الْكَيِّ» (٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١١٥) كتاب الفتن، ومسلم (١٥٧) (٥٤) كتاب الفتن وأشراف الساعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٢) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨١) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٦٨٠) كتاب الطب،

❦ وَثَبَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ إِلَى أَبِي بَنٍ كَعْبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ لَهُ عِرْقًا وَكَوَاهُ عَلَيْهِ^(١).

هذه الثلاثة من أنفع ما يكون بإذن الله ﷻ... وهناك بعض العلل ما ينفع فيها إلا الكى... فمثلاً ذات الجنب، وهو داء يصيب الرئة فتتجلط وتلتصق بالصدر ويموت الإنسان منها إلا أن يشفيه الله ﷻ بأسباب.

هذا النوع من الأمراض لا ينفع فيه إلا الكى... كم من مريض يُصاب بذات الجنب يذهب إلى الأطباء ويعطونه الإبر والأدوية وغيرها ولا ينفع، فإذا كوى برئ بإذن الله.

كذلك هناك أشياء تصيب الأمعاء تُسمى عند أطباء العرب الطير؛ لأنها تتفرق في الجسد... هذه أيضًا لا ينفع فيها إلا الكى... ومهما أعطيت المريض من الأدوية لا ينفع فيها إلا الكى.

هناك أيضًا شيءٌ ثالث يُسمى عند الناس الحبة... وهو ورم يظهر في الفم أو في الحلق، وإذا انفجر هلك الإنسان... هذا أيضًا لا ينفع فيه إلا الكى.

وأشياء كثيرة ما ينفع فيها إلا الكى.

فخباب بن الأرت رضي الله عنه كوى سبع كيات، ثم جاءه أصحابه يعودونه.

فقال لهم: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإننا أصبنا ما لا نجد له موضعًا إلا التراب.

يعنى: بعد الفتوحات أصبنا من الغنائم وجاء لنا من الرزق، وهو لم يذكر أنه كان مجاهدًا، وكأنه يُقلل من شأن نفسه رضي الله عنه.

فالمسلمون كانوا في العهد الأول فقراء، ولكن الله أغناهم بالغنائم الكثيرة التي غنموها من الكفار بإذن الله... كما قال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٧) كتاب السلام.

كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴿ [الفتح: ٢٠]. وقال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ١٩].

فلما فتح الله على المسلمين كثرت الأموال عندهم، فزادت ونمت، فحصل لبعضهم ترف، وصار بعضهم إذا قُدِّم له الغداء أو العشاء يبكى على ما كانوا عليه من ضحالة العيش وقلة ذات اليد.

فأخبرهم خباب رضي الله عنه أنه من كثرة المال لم يجد إلا أن يحفر مكاناً في الأرض ويجعل فيه هذا المال.

وذكروا عنه في رواية عند الترمذي أنه قال: (لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ وما أملك درهمًا وإن في جانب بيتي الآن أربعين ألف درهم).

ولا بد أن يكون مال خباب رضي الله عنه هذا حلالاً، ولكن مع ذلك خاف أن يموت وقد ترك أربعين ألف درهم فيسأله الله سبحانه وتعالى عنها.

ثم قال خباب رضي الله عنه: ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ... فهو لا يريد أن يقع فيما نهى عنه النبي ﷺ.

✽ يقول قيس بن حازم: ثُمَّ أَتَيْنَاهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَبْنِي حَائِطًا لَهُ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفَقُهُ إِلَّا فِي شَيْءٍ يَجْعَلُهُ فِي هَذَا التُّرَابِ.

فمن تواضعه رضي الله عنه يذكر الشيء الذي يُحقر به نفسه ... فالإنسان عادة إذا صار غنياً فإنه يحب أن يظهر أمام الناس بما رزقه الله من المال ويقول: أنا سأبني وأنا سأعمل وأنا عندي ... لكن هذا يقول: إن الإنسان يُؤْجَرُ في كل شيء ينفقه إلا ما يجعله الإنسان في التراب.

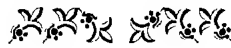
يعنى: كل عمل حسن يعملهُ يُؤْجَرُ عليه إلا في شيء يجعله في هذا التراب ... وهذا محمول على الكثرة ... يعنى: أن يكون عنده ما يستغنى به ثم يبني بيتاً ثانياً وثالثاً فهذا لا يُؤْجَرُ عليه عند الله .. إنما يكون الأجر على عمل ينفعه ... فلعله بنى لابنه أو لابنته، أو أراد بذلك أن يُعين إنساناً فيؤْجَرُ على هذا كله ... أما أن

يُكثر لنفسه هذه الأشياء فقال خباب: إن النبي ﷺ ذكر أنه لا يُؤجر على ذلك، لكن لا نقول إنه يأثم... وإنما المعنى: أن الذي يُكثر من البنيان كأنه يُؤمل في الدنيا، وهذا لا يحرم عليه، ولكن غير ذلك أولى، وهو أن يعتبر الإنسان من هؤلاء الأفاضل الذين كان الواحد منهم يبنى البيت ومع ذلك لا يمدح نفسه بذلك، وإنما يقول: إن النبي ﷺ قال: إن المرء لا يُؤجر على هذا الشيء، ولكن لاحتياجه يصنع ذلك، والله أعلم.

فالمقصود: أن الإنسان المؤمن يذكر الموت فيستعين بذلك على العمل، ويخاف من الموت الخوف الذي يُعينه على طاعة الله سبحانه وتعالى... فالمؤمن خوفه من الموت يحمله على أن يتذكر الحساب ومن ثمَّ يُطيع الله سبحانه بأن يتعدى عن الحرام ويرد المظالم إلى أصحابها.

فالخوف المندوب هو الخوف الذي يدفع للعمل.. وليس الخوف الذي يجعل الإنسان يجلس في بيته ولا يصنع شيئاً.

نسأل الله ﷻ أن يُعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرحمنا في الدنيا وفي قبورنا وفي الآخرة^(١).



(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله والشيخ أحمد حطية.

(٦٨) باب الورع وترك الشبهات

✽ للورع - عند علماء السلوك - مراتب ودرجات بعضها أعلى من بعض، كمعظم مقامات الدين، ومنازل السالكين إلى الله ... فهناك أعلى، وهناك أدنى، وهناك وسط ... ولكل مجتهد نصيب، ومن سار على الدرب وصل.

والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

✽ وقد قسم الراغب الأصفهاني الورع إلى ثلاث مراتب:

(١) واجب: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للناس كافة.

(٢) مندوب: وهو الوقوف عن الشبهات، وذلك للأواسط.

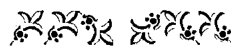
(٣) فضيلة: وهو الكف عن كثير من المباحات، والاعتصار على أقل الضرورات ... وذلك للنبين والصدّيقين والشهداء والصالحين^(١).

✽ فما أجمل أن يتورع المسلم عن كل ما هو حرام وعن كل ما يُغضب الله

عَزَّ وَجَلَّ.

فالورع نعمة جليلة لا يتصف بها إلا أهل المروءة والتقوى.

والورع والزهد يشته معنهما عند بعض الناس ... لكن الفرق بينهما كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ الرُّوح: الورع ترك ما يضرُّ في الآخرة، والزهد ترك ما لا ينفع ... فمقام الزهد أعلى من مقام الورع؛ لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضر، والزهد أن يترك ما لا ينفع ... لأن الأشياء ثلاثة أقسام: ضارٌّ، ونافعٌ، وما ليس بضارٌّ ولا نافعٌ.



(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٢٣).

(٥٩٣) وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَائِلَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ: أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

❖ الأشياء ثلاثة أقسام:

حلالٌ بَيِّنٌ واضح لا يخفى أنه حلال ... كالخبز، والفواكه، والزيت، والعسل، والسمن وغير ذلك من المطعومات، وكذلك الكلام المباح، والنظر المباح، والمشى المباح، وغير ذلك من التصرفات. وأما الحرام البَيِّن فكالخمر، والخنزير، وكذلك الزنا، والكذب، والغيبة والنميمة، والنظر إلى الأجنبية وأشباه ذلك.

وأما المشتبهات فهي أمور ليست بواضحة الحِلِّ ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حكمها، فتلك من الأولى تركها، ومن تركها حصلت له البراءة لدينه من الذم الشرعي، وصان عرضه عن كلام الناس فيه. إذا علم ذلك فإنه يجب على الإنسان ألا يعرض نفسه للوقوع في المشتبهات؛ لأنها تقود إلى الوقوع في الحرام، ... وضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً: أن الملوكة يكون لكل ملك منهم حِمى حول قصره يحميه عن الناس

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب المساقاة.

(بَيِّن): أى واضح لا يخفى أنه حلال.

(مشتبهات): أى أمور ملتبسة غير مبينة.

(استبرأ): أى طلب البراءة.

(وعرضه): العرض موضع المدح والذم من الإنسان.

ويمنعهم من دخوله ... فمن دخله أوقع به العقوبة، ومن احتاط لنفسه لا يقارب ذلك الحمى خوفاً من الوقوع فيه.

وكذلك لله سبحانه وتعالى حمى وهى محارمه ... أى المعاصى التى حرمها الله، كالقتل، والزنى، والسرقة، والقذف، والخمر، والكذب، والغيبة والنميمة، وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حمى الله سبحانه وتعالى من دخله بارتكابه شيئاً من المعاصى استحق العقوبة.

لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، ومن قارب الحمى يوشك أن يقع فيه ... فيجب على الإنسان أن يحتاط لنفسه ولا يقاربه بفعل المكروهات والمشتبهات ولا يتعلق بشيء يقربه من المعصية، فلا يدخل فى شيء من الشبهات ... قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال»^(١).

وفى النهاية بين ﷺ أنه بصلاح القلب يصلح باقى الجسد، وبفساده يفسد باقيه ... فمهما قلنا: ابتعد عن الحرام واحترز من الشبهات فلن يستجيب العبد إلا إذا صلح قلبه.

❁ قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ».

ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ».

فالإنسان مدار صلاحه وفساده على القلب ... ولهذا ينبغى لك أيها المسلم أن تعتنى بصلاح قلبك ... فصلاح الظواهر وأعمال الجوارح طيب، ولكن الشأن كل الشأن فى صلاح القلب ... يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ

(١) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، وابن حبان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٢).

تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴿[المنافقون: ٤]﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴿[من الهیئة الحسنة، وحسن عمل الجوارح ... وإذا قالوا، قالوا قولاً تسمع له من حسنه وزخرفته، لكن قلوبهم خربة والعياذ بالله ﴿كَانَتْهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] ليس فيها خير.

فاعتني يا عبد الله بصلاح القلب ... انظر قلبك هل فيه شيء من الشر؟ هل فيه شيء من كراهة ما أنزل الله؟ هل فيه شيء من كراهة عباد الله الصالحين؟ هل فيه شيء من الميل إلى الكفار؟ هل فيه شيء من موالة الكفار؟ هل فيه شيء من الحسد؟ هل فيه شيء من الغل؟ هل فيه شيء من الحقد؟ وما أشبه ذلك من الأمراض العظيمة الكثيرة في القلوب.

فطهر قلبك من هذا وأصلحه، فإن المدار عليه. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، هذا يوم القيامة ... العمل يكون على الباطن في الآخرة أما في الدنيا فالعمل على الظاهر، ما لنا إلا ظواهر الناس، لكن في الآخرة العمل على الباطن ... أصلح الله قلوبنا وقلوبكم.

﴿قال تعالى: ﴿يَوْمَ بَلِّىَ السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]﴾ ﴿بَلِّىَ﴾ يعنى تُخْبِر السرائر فمن كان من المؤمنين؛ ظهر إيمانه، ومن كان من أهل النفاق؛ ظهر نفاقه والعياذ بالله. لذلك أصلح قلبك يا أخى، لا تكره شريعة الله، ولا تكره عباد الله الصالحين، لا تكره أى شيء مما أنزل الله^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٩٤) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ تَمْرَةً فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ: «لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٢٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٥٥) كتاب البيوع، ومسلم (١٠٧١) كتاب الزكاة.

✽ هذا الحديث برواياته أوردها الإمام مسلم رَحِمَهُ اللهُ تحت باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب دون غيرهم. وأورد رواية أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُنْخُ كُنْخُ، اأْرِمِ بِهَا، أَمَّا عَلِمْتُ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»^(١).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي - أَوْ فِي بَيْتِي - فَأَرْفَعُهَا لِأَكْلِهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً - أَوْ مِنَ الصَّدَقَةِ - فَأَلْقِيهَا»^(٢).

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فِيهِ تَحْرِيمُ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ صَدَقَةِ الْفَرَضِ وَالتَّطَوُّعِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «الصَّدَقَةُ» بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ وَهِيَ تَعُمُّ النُّوعَيْنِ وَلَمْ يَقُلْ الزَّكَاةُ ... وَفِيهِ اسْتِعْمَالُ الْوَرَعِ لِأَنَّ هَذِهِ التَّمْرَةَ لَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْإِحْتِمَالِ لَكِنَّ الْوَرَعَ تَرَكُّهَا^(٣).

✽ فالشاهد أن النبي ﷺ وجد ثمرة في الطريق.. فما قيمة تلك الثمرة؟ لا شيء.. فلو وجدها أي إنسانٍ جاز له أن يأخذها ويأكلها.. لكن النبي ﷺ وهو أروع الخلق أجمعين لم يأكل تلك الثمرة التي وجدها خوفاً من أن تكون من تمر الصدقة.. وقد حَرَّمَ اللهُ ﷻ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَآلِ بَيْتِهِ أَنْ يَأْكُلُوا مِنَ الزَّكَاةِ أَوْ الصَّدَقَةِ لِأَنَّهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَبْغَى لَأَلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ»^(٤) فلما وجد النبي ﷺ هذه الثمرة خشي أن تكون من الصدقة فلم يأكلها ﷺ، وقال: «لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦٩) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٠) كتاب الزكاة.

(٣) مسلم بشرح النووي (٢٤٧/٧) بتصرف.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٧٢) كتاب الزكاة.

لأكلتها»، يبين لهم أن هذا يجوز لكم ولا يجوز لى ... فهذا ورعه ﷺ في ثمرة...
فما ظنك بما فوق ذلك؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٩٥) وَعَنْ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(١).

(٥٩٦) وَعَنْ وَابِصَةَ بِنِ مَعْبِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ: مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ»^(٢).

❁ فقوله ﷺ: «البر حُسن الخلق» يعنى أن حُسن الخلق من البر الداخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّهْيِ﴾ [المائدة: ٢] وحُسن الخلق يكون في عبادة الله، ويكون في معاملة عباد الله.

فحُسن الخلق في عبادة الله: أن يتلقى الإنسان أوامر الله بصدرٍ مُنشرح، ونفسٍ مطمئنة، ويفعل ذلك بانقياد تام، بدون تَرَدُّد، وبدون شك، وبدون تسخُّط... يؤدي الصلاة مع الجماعة مُنقادًا لذلك.. يتوضأ في أيام البرد مُنقادًا لذلك... يتصدق بالزكاة من ماله مُنقادًا لذلك... يصوم رمضان مُنقادًا لذلك، يحج مُنقادًا لذلك.

وأما في معاملة الناس بأن يقوم ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والنُّصح بالمعاملة وغير هذا، وهو مُنشرح الصدر، واسع البال، لا يضيق بذلك ذرعًا، ولا يتضجر منه... فإذا علمت من نفسك أنك في هذه الحال، فإنك من أهل البر.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة والآداب.

«حاك» أى تَرَدَّدَ فيه.

(٢) حسن: رواه البخارى في التاريخ، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٩٤٨).

وأما الإثم فقال هو: «ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس» يعنى بما حاك في النفس: ما لم تطمئن إليه نفسك، بل ترددت فيه، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

ولكن هذا خطاب للمؤمن ... أما الفاسق فإن الإثم لا يحيك في صدره، ولا يهمله أن يطلع عليه الناس، بل يُجَاهِر به ولا يبالي .. لكن المؤمن لكون الله سبحانه وتعالى قد أعطاه نوراً في قلبه، إذا همَّ بالإثم حاك في صدره، وتردد فيه، وكره أن يطلع عليه الناس، فهذا الميزان إنما هو في حق المؤمنين.

أما الفاسقون فإنهم لا يهتمهم أن يطلع الناس على آثامهم، ولا تحيك الآثام في صدورهم؛ بل يفعلونها - والعياذ بالله - بانطلاق وانسراح، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨] فقد يُزَيِّن للإنسان سوء العمل فيشرح له صدره، مثل ما نرى من أهل الفسق الذين يشربون الخمر، وتنشرح صدورهم له، والذين يتعاملون بالربا وتنشرح صدورهم لذلك، والذين يتعودون الزنا وتنشرح صدورهم لذلك، ولا يباليون بهذا، بل ربما إذا فعلوا ذلك سراً ذهبوا يشيعونه، ويعلمونه^(١).

لكن صاحب الخير الذى وفق للبر هو الذى يتردد الشئ في نفسه، ولا تطمئن إليه، ويحيك في صدره، فيعلم بذلك أنه إثم.

وموقف الإنسان من هذا أن يدعه، وأن يتركه إلى شئ تطمئن إليه نفسه، ولا يكون في صدره حرج منه ... وهذا هو الورع، ولهذا قال النبى ﷺ: «وإن أفتاك الناس وأفتوك» حتى لو أفتاك مُفْتٍ بأن هذا جائز، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح إليه فدعه، فإن هذا من الخير والبر.

إلا إذا علمت أن في نفسك مرضاً من الوسواس والشك والتردد فيما أحلَّ

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٠٣) بتصرف.

الله، فلا تلتفت لهذا... والنبى (عليه الصلاة والسلام) إنما يخاطب الناس، أو يتكلم على الوجه الذى ليس فيه أمراض، أى ليس فى قلب صاحبه مرض... فإن البر هو ما اطمأنت إليه نفس صاحب هذا القلب الصحيح، والإثم ما حاك فى صدره وكره أن يطالع عليه الناس^(١).

❁ وهذا الحديث له شاهد آخر من حديث أبى ثعلبة بالمعنى نفسه، فالمعنى صحيح، ويدل عليه حديث النواس الذى ذكرناه قبله، وهذا الحديث فيه حكاية ذكرها الإمام أحمد فى مسنده، فيها: أن الرجل ذهب إلى النبى ﷺ والناس مزدحمون حوله، فأراد الإقبال على النبى ﷺ، فنهاه الناس أن يفعل هذا أمام النبى ﷺ... فالرجل علل بأنه يحب النبى ﷺ حباً شديداً يدفعه لذلك، فقال النبى ﷺ لهم: (أفسحوا لوابصة).

فجاء وابصة يريد أن يسأل النبى ﷺ، وقبل أن يسأل قال له النبى ﷺ: (تسأل أم أخبرك؟) قال: بل أخبرنى يا رسول الله! فقال له النبى ﷺ: (جئت تسأل عن البر؟ قال: نعم، فقال ﷺ: استفت قلبك)، يعنى: الأمر الذى يشكل عليك لعلك تسأل عالماً من العلماء وبحسب صيغة السؤال يعطى الجواب... فالمرء قد يسأل بطريقة معينة ويفتى العالم بأن ذلك حلال ليس فيه شىء، فإذا بالعالم الآخر يعطى تفاصيل أكثر وينقلب الجواب؛ لأنه حرام وليس حلالاً... فعلى هذا المرء أن يستفتى قلبه ويأخذ بأحد الأمرين... فالنبى ﷺ قال: (استفت قلبك... البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب).

وإذا اطمأن قلبك لشىء فافعل هذا الشىء، وإذا شككت فيه وحاك فى قلبك وفى صدرك فاترك هذا الشىء، والإنسان أدرى بما فى قلبه وبما يريد؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك». يعنى: الفتوى وحكم الحاكم لا تغير من حقيقة الأمر شيئاً.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٢٦٨).

فالحرام حرام وإن أجاب المفتون على سؤالك بأنه حلال... كأن يجد الإنسان قطعة من الأرض في مكان، وصاحبها غائب منذ زمن، فيأخذ الأرض ويضع يده عليها، ويأتي إلى المحكمة بأوراق مزورة، والقاضي يحكم له، فتصبح قطعة الأرض له.

فهى ليست أرضه وليست ملكه، حتى وإن حكم القاضي أنها له؛ لأنه يعرف بنفسه أنها ليست له، فلا يخدع نفسه بذلك... فإن النبي ﷺ يقول: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه يوم القيامة من سبع أرضين»، يعنى: يُجعل الطوق في عنقه من سبع أراضٍ يوم القيامة ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فلا يخدع نفسه، ولا يخدع غيره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٩٧) وَعَنْ أَبِي سِرْوَةَ عُبَّةَ بْنِ الْحَارِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَاتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُبَّةَ وَالتى قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا، فَقَالَ لَهَا عُبَّةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكَ أَرْضَعْتَنِي وَلَا أَخْبَرْتَنِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ، وَقَدْ قِيلَ؟» فَفَارَقَهَا عُبَّةُ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن عقبه تزوج امرأة ابن أبى إهاب، فلما تزوجها جاءت امرأة فقالت: إني أرضعته هو والمرأة التى تزوجها... يعنى فيكون أخا لها من الرضاع... وأخوها من الرضاع يحرم عليها كما يحرم عليها أخوها من النسب... لقول النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» ولكن لا بد لهذا من شروط:

الشرط الأول: أن يكون اللبن من آدمية، فلو اشترك طفلان فى الرضاع من شاة أو من بقرة أو من بغير، فإنهما لا يصيران أخوين، لأنه لا بد أن يكون

(١) صحيح: رواه البخارى (٨٨) كتاب العلم، (٢٦٤٠) كتاب الشهادات.

«إِهَابٌ» بكسر الهمزة، و «عَزِيزٌ» بفتح العين وبزاي مكررة.

الرضاع من آدمية لقوله تعالى: ﴿وَأَمْهَتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]

الشرط الثاني: لا بد أن يكون الرضاع خمس رضعات فأكثر، فإن كان مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات، فإنه ليس بشيء، ولا يؤثر، فلو أن امرأة أرضعت طفلاً أربع مرات في أربعة أيام كل مرة يشبع، فإنه لا يكون ابناً لها... لا بد من خمس، ولو أرضعته خمس مرات ولو لم يشبع فإنها تكون أمّاً له ويكون الرضاع مُحَرَّمًا.

الشرط الثالث: لا بد أن يكون في زمن الإرضاع، وهو ما قبل الفطام في الحولين، فإن لم يكن في هذا الزمن بأن أرضعته وهو كبير، فإن ذلك لا يؤثر... فلو أن طفلاً له خمس سنوات رضع من امرأة خمس مرات أو عشر مرات، فإنه لا يكون ابناً لها من الرضاع، لأنه ليس في زمن الإرضاع.

فهذه شروط ثلاثة، وإذا ثبت التحريم فإنه ينتشر إلى المرتضع وذريته فقط، ولا ينتشر إلى إخوانه وآبائه وأمهاته، وعلى هذا فيجوز لأخي الطفل الراضع أن يتزوج أخت أخيه من الرضاع، وأن يتزوج أم أخيه من الرضاع، لأنه لا تأثير في الرضاع إلا على المرتضع وذريته يعني فروعه.

فأما أصوله وحواشيه: أصوله من آباء وأمهات، وحواشيه من إخوة، وأعمام، وأبنائهم، وبناتهم، فإنه لا تأثير لهم في الرضاع، سواء كان أكبر منه أو أصغر منه، وما اشتهر عند العامة من أن إخوته الذين هم أصغر منه... يلحقهم حكم الرضاع، فإنه لا صحة له.

بعض العوام يقول: إذا رضع طفل من امرأة صار ابناً لها وصار إخوته الذين من بعده أبناءً لها وهذا غير صحيح، بل جميع إخوته ليس لهم فيها تعلق بوجه من الوجوه^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٢٦٩).

(٥٩٨) وَعَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعِ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ»^(١).

✽ والمعنى هنا: أنك إذا كان عندك شكٌّ أو ريبة في مالٍ أتاكَ أو في شيء ستفعله أو في عمل ستعمل فيه فاتركه؛ لأن الأصل هو أن يتورَّع الإنسان عن كل ما يُغضب الله ﷻ وذلك بأن تترك كل ما تشك فيه وتأخذ ما لا تشك فيه.

✽ فهذا حديثٌ عظيم.. وهو قريبٌ في المعنى من قوله ﷺ: «فَمَنْ تَرَكَ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام».

فهذا الحديث قال فيه الحسن: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعِ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ».

«دع ما يريبك» يعنى: ما تشك فيه، ولا تطمئن له، وتخاف منه.

لأن الرِّيب هو الشك وعدم الطمأنينة... يعنى: إذا أتاكَ أمر فيه عدم طمأنينة لك، أو أنت إذا أقبلت عليه، أو إذا أردت عمله، استربت منه، وصرت في خوفٍ أن يكون حرامًا، فدعه إلى شيء لا يريبك؛ لأن الاستبراء مأمورٌ به... فترك المشتبهات إلى اليقين هذا أصلٌ عام، وهذا الحديث دَلٌّ على هذه القاعدة العظيمة: أن المرء يبحث عن اليقين؛ لأن فيه الطمأنينة، وإذا حصل له اليقين سيدع ما شك فيه.

وهذا يدل على أن كل ما فيه خير تطمئن له نفس المؤمن... فأنت تأتى إلى ما تتلفظ به من أقوال، فتزنها بهذا الميزان، وما تأتیه من أعمال فتزنها بهذا الميزان... والعجب ممن يتكلم بشيء وهو بداخله غير مرتاح له، ومع ذلك يغشاه، فهذا مخالف لهذا الأمر العظيم. كذلك أعمال لا يرتاح لها، أو صحبة لا يرتاح لها، ومع ذلك يأتيها وهو غير مطمئن لذلك.

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٣٧٨). ومعناه: اترك ما تشك فيه، وخذ ما لا تشك فيه.

وهذا - لا شك - أنه مخالفة لهذه الوصية العظيمة: «دع ما يريك إلى ما لا يريك» وهذا توجيه نبوى عظيم الفائدة عظيم العائدة... وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يستعملون هذا... وهذا الحديث أصل في الورع، أصل في ترك المشتبهات، أصل في التَّخَوُّف من أى نوع من الحرام... والورع سهل، فقد قال بعض السلف: «إذا أتانى أمر وفيه ريبة تركته، وما أسهلها على النفس».

وهذا - ولا شك - عند نفس المؤمن الذى أخبت لربه، فإنه إذا أتاه ما يريبه يتركه، ويكون فى ذلك راحة النفس وطمأنينة القلب، وهذا أمر واضح فى الشريعة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٩٩) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غُلَامٌ يُخْرِجُ لَهُ الْخَرَجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَىْءٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: تَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكْهَنْتُ لِلنَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا أَحْسَنَ الْكَهَانَةَ إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُه، فَلَقِينِي، فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ هَذَا الَّذِي أَكَلْتُ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ^(٢).

❁ فهذا مثال على ورع أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث كان يتحرى الحلال فى مطعمه ومشربه، ويتجنب الشُّبُهَات... وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجاتٍ عليا فى التقوى.. ولا يخفى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس فى الدين، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء^(٣)، كما فى حديث الرجل الأشعث الأغبر وفيه: «يمد يديه إلى السماء: يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»^(٤).

❁ ففى هذا الحديث تُخبر أمانة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه كان لأبى بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) شرح الأربعين النووية (ص ١٣٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨٤٢) كتاب المناقب.

«الْخَرَجُ»: شَيْءٌ يَجْعَلُهُ السَّيِّدُ عَلَى عَبْدِهِ يُؤَدِّيهِ إِلَى السَّيِّدِ كُلِّ يَوْمٍ، وَبَاقِي كَسْبِهِ يَكُونُ لِلْعَبْدِ.

(٣) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٩/١٣).

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

غلام يُخرج له الخَراج.. وهو شىء يجعله السيد على عبد يؤديه إلى سيده كل يوم.. وباقى الكسب يكون للعبد.

وهذه المُخارَجة جائزة بالنسبة للعبيد... إذا كان الإنسان عنده عبيد وقال لهم: اذهبوا اشتغلوا واثبوني كل يوم بكذا وكذا من الدراهم وما زاد فهو لكم، فإن هذا جائز، لأن العبيد ملكٌ للسيد، فما حَصَّلوه فهو له سواء خَارجهم على ذلك أم لم يُخارجهم.

لكن فائدة المُخارَجة أن العبد إذا حَصَّل ما اتفق عليه مع سيده فإن له أن يبقى من غير عمل... يذهب فى طلب العلم، أو يبقى مستريحاً فى بيته أو أن يشتغل ويأخذ ما زاد.

أما بالنسبة للعمال الذى يجلبهم الإنسان إلى البلاد ويقول: اذهبوا وعليكم كل شهر كذا وكذا من الدراهم، فإن هذا حرام وظلم ومخالف لنظام الدولة... والعقد على هذا الوجه باطل، فليس لصاحب العمل شىء مما فرضه على هؤلاء العمال، لأن العامل ربما يكدح ويتعب ولا يُحصل ما فرضه عليه كفيله، وربما لا يُحصل شيئاً أبداً، فكان فى هذا ظلم.

أما العبيد فهم عبيد الإنسان، ما لهم وما فى أيديهم فهو له.

❁ فكان هذا الغلام يذهب ويعمل ويُحضر الطعام كل يوم لأبى بكر رضي الله عنه.. ونظراً لشدة حرص أبى بكرٍ وورعه فقد كان يسأله دائماً عن مصدر الطعام قبل أن يأكل.. فإن كان حلالاً أكل منه وإن كان حراماً امتنع عن الأكل منه... ولكن هذا الغلام كان لا يأتیه إلا بالحلال لأن أبا بكرٍ كان يوصيه دائماً بتحريّ الحلال.

وفى يوم من الأيام ذهب هذا الغلام إلى العمل ثم عاد بالطعام.. فنسى أبو بكرٍ أن يسأله كعادته عن مصدر الطعام.. فأكل منه شيئاً يسيراً.. وإذا بالغلام يُفاجئه ويقول له: تدرى ما هذا؟

قال: وما هو؟ قال: هذا عوض عن أجرة كهانة تكهنت بها في الجاهلية وأنا لا أحسن الكهانة، لكنني خدعت الرجل فلقيني فأعطاني إياها.

وعوض الكهانة حرام، وسواء كان الكاهن يُحسن صنعة الكهانة أو لا يُحسن؛ لأن النبي (عليه الصلاة والسلام) نهى عن حُلوان الكاهن.

فلما قال لأبي بكر هذه المقالة، أدخل أبو بكر يده في فمه فقاء كل ما أكل، وأخرجه من بطنه، لئلا يتغذى بطنه بحرام، وهذا مال حرام لأنه عوض عن حرام، وقد قال النبي ﷺ: «إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه».

وفي هذا الحديث: دليل على شدة ورع أبي بكر (رضي الله عنه)، فهو جدير بهذا لأنه الخليفة الأول على هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ولهذا كان قول أهل السنة والجماعة أن أبا بكر (رضي الله عنه) أفضل هذه الأمة، لأنه الخليفة الأول.

وفيه: ردٌّ ظاهر على الروافض الذين يُفضلون علياً على أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) بل بعضهم يُفضل علياً على رسول الله ﷺ، ويقول: عليٌّ أفضل من محمد ﷺ وأحق بالرسالة، ولكن جبريل خان الأمانة وانصرف بالرسالة عن عليٍّ إلى محمد... ولا شك أنهم على ضلالٍ بينٍ والعياذ بالله، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

والحاصل أن أبا بكر (رضي الله عنه) كان من أهل الورع والزهد والبُعد عن المشتبهات؛ ولذلك فقد قاء كل ما في بطنه بعد أن أكله؛ حتى لا يتغذى بطنه على شيء جاء من حرام أو من طريق شبهة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠٠) وَعَنْ نَافِعٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه)، كَانَ فَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَفَرَضَ لِابْنِهِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَمِائَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَلِمَ نَقَصْتَهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ .. يَقُولُ: لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٧١).

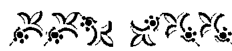
(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٩١٢) كتاب مناقب الأنصار.

✽ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَتْ وَلَايَتُهُ رَحْمَةً لِلنَّاسِ، وَرَحْمَةً بِالْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ قَمَةً فِي الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ إِذْ كَانَ يَحْكُمُ فَيَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا يَخَافُ مِنْ أَحَدٍ، إِنَّمَا يَخَافُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَلَمَّا جَاءَتِ الْمَغَانِمُ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفَتْوحَاتِ إِذَا بِهِ يَقْسِمُ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْغَنَائِمَ.

فَكَانَ يَقْسِمُ لِلنَّاسِ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ، فَفَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ... يَأْخُذُ الْمُهَاجِرُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ مِنَ الدَّوْلَةِ كُلِّ عَامٍ، وَذَلِكَ مِنَ الْمَغَانِمِ وَمِنَ الْفَيْءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ... وَفَرَضَ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَمِائَةٍ وَهُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ.. وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فِي غَزْوَةِ أَحَدٍ عَمَرَهُ حَوْلَى أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَلَمْ يُجْزِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَ عَمَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةِ سَنَةً أَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ.

فَعَبَدَ اللَّهُ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَاجِرًا مَعَ أَبِيهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعُمَرُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً مَثَلًا... فَأَبَوْهُ يَرَاعِي أَنَّهُ لَمَّا هَاجَرَ كَانَ صَغِيرًا، وَأَنَّ الَّذِي هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ، فَأَعْطَاهُ أَقْلَ مِمَّا أُعْطِيَ لِلْمُهَاجِرِينَ.

وَهَذَا يَدُلُّ دَلَالَةً عَظِيمَةً عَلَى شِدَّةِ وَرَعِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى مَنْ تَوَلَّى شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يُحَابِيَ قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ، وَلَا غَنِيًّا لْغِنَاهُ، وَلَا فَقِيرًا لْفَقْرِهِ، بَلْ يُنْزِلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْزَلَتَهُ.. فَهَذَا مِنَ الْوَرَعِ وَالْعَدْلِ... وَلَمْ يَقُلْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: يَا أَبَتِ أَنَا مُهَاجِرٌ وَلَوْ شِئْتُ لَبَقِيتُ فِي مَكَّةَ، بَلْ وَافَقَ عَلَى مَا فَرَضَهُ لَهُ أَبُوهُ.



(٦٠١) وَعَنْ عَطِيَّةَ بْنِ عُرْوَةَ السَّعْدِيِّ الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا مِمَّا بِهِ بَأْسٌ»^(١).
✽ وَلِلْأَمَانَةِ الْعِلْمِيَةِ فَهَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذی، وابن ماجه، والحاكم، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٦٣٢٠).



(٦٩) باب استحباب العزلة عند فساد الزمان

أو الخوف من فتنة في الدين

أو وقوع في حرام وشبهات ونحوها

✽ إن الاختلاط بالناس والصبر عليهم، ودعوتهم إلى الله تعالى من أحسن الأعمال والطاعات، ومن أجل القربات... فقد قال النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»^(١).

لكن إذا كان الاختلاط بهم قد يضر المرء في دينه.. كأن يكونوا عصاة ولم يستجيبوا لدعوته، فرأى أنهم سيؤثرون عليه سلباً فهنا يعتزلهم ويجالس أهل الصلاح، فإن السلامة لا يعادلها شيء.

✽ وفي هذا الباب يذكر فيه الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ استحباب العزلة عند فساد الزمان، والعزلة أن يعتزل الإنسان الناس عند كثرة الشرور، فإذا كان الإنسان لو اختلط بالناس سيصل به ذلك إلى أن يهوى معهم، وإلى أن يضيع ويفتن في دينه، ويفتن عن هذا الأمر العظيم الذي في قلبه وهو الإيمان، فعليه أن يتعد عما يكون سبباً في ذلك.

فالمؤمن يختلط بالناس اختلاطاً ينتفع بهم ويتنفعون به، وأما اختلاط يُضيع على الإنسان دينه، فالمسلم يَضُنُّ بدينه أن يضيع، فلذلك إذا لم تكن هناك وسيلة إلا أنه يعتزل الناس فهذا آخر ما يلجأ إليه المؤمن.

فليس الأصل هو الاعتزال، وإنما الأصل هو الاختلاط بالناس... ولذلك

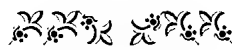
(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).

جاء فيها أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ ... بل هو فعله ﷺ وفعل أصحابه والتابعين من بعدهم أنهم يختلطون بالناس، ويدعون الناس إلى الله عز وجل، ويجاهدون في سبيل الله، ولكن حين يضيق الأمر بالمؤمن ولا يجد مكاناً يذهب إليه إلا وفيه الفتن، فإنه يعتزل إما اعتزالاً مخصوصاً لأناسٍ مُعينين ويختلط بغيرهم، أو أنه يعتزل الجميع إذا كان يخشى أن يضيع باختلاطه بالناس.

إذا ... فتستحب العزلة عند فساد الزمان، حين تفسد أحوال الناس، ويصير الحرام هو الذي يشيع بين الناس في كل شيء: في أخلاق الناس، وفي معاملاتهم؛ في أخذهم وعطائهم، فيعتزل هؤلاء الذين يخاف منهم على دينه.

إذا ... فعند فساد الزمان أو الخوف من فتنة الدين، أو يخاف على نفسه الردة، ويخاف على نفسه أن يصير فاسقاً بعدما كان مؤمناً، ويخاف أن يقل إيمانه فله ذلك.

وأما إذا كان يختلط بالناس فيزداد إيماناً فليختلط^(١).



❁ قال الله تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمَتُهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

لما أمر الله عز وجل العباد بالنظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه .. أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً .. فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وزال عنه المرهوب، وحصل له، غاية المراد والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع إلى غيره، أنواع المخاوف

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطية.

والمكارة.. وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره، إلى قضائه وقدره.. وكل مَنْ خَفَتَ مِنْهُ فَرَرَتْ مِنْهُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِنَّهُ بِحَسَبِ الْخَوْفِ مِنْهُ، يَكُونُ الْفِرَارُ إِلَيْهِ.

﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أَي: مُنْذِرٌ لَّكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَمُخَوِّفٌ بَيْنَ النِّذَارَةِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠٢) وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(٢).

✽ في الحقيقة أن هذا الحديث له قصة عجيبة حدثت مع سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

فقد كان سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يطمع في أي شيء من حطام الدنيا فهو يعلم أن كل نعيم دون الجنة فهو سراب، وأن كل عذاب دون النار فهو عافية.. فكان لا تطمح نفسه إلا في جنة الرحمن (جل وعلا).

عن عامر بن سعد أن أباه سعدًا، كان في غَنَمٍ لَهُ، فَجَاءَ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رآه قَالَ سَعْدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّكَّابِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ، قَالَ: يَا أَبَتِ أَرْضَيْتَ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي غَنَمِكَ، وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِي الْمُلْكِ بِالْمَدِينَةِ؟!... فَضْرَبَ صَدْرَ عُمَرُ، وَقَالَ: اسْكُتْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ يَحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(٣).

✽ «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ».. فالفوز بمحبة الله ﻋَزَّ وَجَلَّ غاية كل مؤمن على وجه الأرض.. فمن وجد الله فماذا فَقَدَ وَمَنْ فَقَدَ اللَّهَ فماذا وجد؟..

(١) تفسير السعدي (ص ٩٦٥-٩٦٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٥) كتاب الزهد والرقائق.

والمُرَاد بـ «الْغَنِيِّ»: غَنَى النَّفْسِ. كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

(٣) سير أعلام النبلاء / للذهبي (١/ ١٢٢).

والمسلم يعلم أنه إذا فاز بمحبة الله ﷻ فقد فاز بخيرى الدنيا والآخرة..
فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّى أَحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبْهُ،
قَالَ: فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِى فِى السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَجِبُوهُ، فَيَجِبُهُ
أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِى الْأَرْضِ»^(١).

وقال تعالى فى الحديث القدسى: «فَإِذَا أَحَبَّهُ: كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ،
وَبَصَرُهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِى
لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِى لَأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِى عَنْ نَفْسِ
الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(٢)... كل هذا غير ما ينتظره فى الآخرة.

فمن أراد أن يفوز بكل هذا فليعلم أن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى.

✽ «التقى»: هو الذى يتقى الله فيقوم بكل أوامره ويجتنب كل نواهيه
وفعل كل هذا خالصاً لوجه الله ﷻ ليجعل بينه وبين عذاب الله وقاية تقيه من
سخطه وعذابه.

✽ «الغنى»: الذى امتلأ قلبه إيماناً وتقوى ومحبة لله ولرسوله ﷺ فاستغنى
بالله ﷻ عَمَّنْ سِوَاهُ.. فلا تراه يسأل الناس شيئاً بل هو مُسْتَغْنٍ بِرَبِّهِ يستحى أن
يسأل غيره.. فمهما أُوتى الناس من كنوز الدنيا فكنزه فى قلبه بإيمانه وتقواه..
فقد علم أنه مهما أُوتى من حُطام الدنيا فسوف يتركه لا محالة فى يومٍ من الأيام..
فغناه فى قلبه لا يحتاج لأحدٍ من أهل الدنيا لأنه لا يسأل إلا رب البشر (سبحانه
وتعالى).

✽ «الخفى»: الذى يداوم على العمل ويُخفيه عن أعين الناس يريد بذلك
وجه الله والدار الآخرة.. فأكثر عمله فى الخفاء لأنه لا يريد أن يُظهر نفسه بين

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

الناس أو أن يُشار إليه بالبنان.. لكن إن احتاج أن يظهر من أجل نشر دعوته بين الناس وتعليمهم فلا بأس بهذا... ولكن عليه أن يجدد النية دائماً ليكون عمله خالصاً لوجه الله (جل وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠٣) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشَّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ».

وفي رواية: «يَتَّقَى اللَّهَ، وَيَدَعِ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»^(١).

(٦٠٤) وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ عَنْهُمْ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ. وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»^(٢).

❦ ففي الحديث الأول يحكى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فسأله وقال: أي الناس أفضل يا رسول الله؟

وهكذا كانت همة الصحابة رضي الله عنهم لا يسألون إلا عن أحب الأعمال إلى الله وأفضل الأعمال وأفضل الناس حتى يكونوا مثلهم ويعملوا بمثل أعمالهم.. فهممهم الوحيد هو طاعة الله والعمل من أجل الفوز بجنته ورضوانه.

❦ فلما سأل النبي ﷺ عن أفضل الناس قال له النبي ﷺ: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»...

فالْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٨) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٩) كتاب الإيمان.

و«شَعَفَ الْجِبَالِ»: أعلاها.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٥١).

فهذا الرجل الذى هو من أفضل الناس مُختلطٌ بالناس ليجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله... ويجاهد المنافقين بيده ولسانه وقلبه.. ويختلط بالناس فى أمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُعلمهم الخير.. فهذا أفضل ما يكون لأن نفعه يكون متعدياً لكل من حوله.

فالاختلاط بالناس ونفعهم أفضل من العزلة.. إلا إذا كان يخشى على نفسه الفتنة فى دينه بسبب اختلاطه بالناس فله أن يعتزل وأن ينجو بدينه.

❁ ولذلك بعدما سأل هذا الرجل رسول الله ﷺ: أى الناس أفضل وأجابه النبى ﷺ بأن أفضل الناس «مُؤْمِنٌ مَّجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فى سَبِيلِ اللَّهِ» سألَه الرجل وقال: ثم مَنْ؟ فقال لَهُ ﷺ: «ثُمَّ رَجُلٌ مُّعْتَزِلٌ فى شِعْبٍ مِنَ الشُّعَبِ يَعْبُدُ رَبَّهُ».

فليس كل واحدٍ يستطيع أن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله.. فكأن الرجل يسأل النبى ﷺ: وَمَنْ لم يقدر على ذلك فماذا يفعل.. فكان الجواب: يعتزل فى شِعْبٍ مِنَ الشُّعَبِ يَعْبُدُ رَبَّهُ ﷻ.

والشَّعب هو الطريق بين الجبلين.. وكأن الدنيا قد ضاقت على هذا الإنسان من كثرة الفتن.. فكلما ذهب إلى مكانٍ وجد الفتن تموج فيه موجاً فذهب إلى ذلك الشَّعب ليعبد ربه. فقد أخبر النبى ﷺ أنه «لَا يَأْتِي زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ: فِيهِ دَلِيلٌ لِمَنْ قَالَ بِتَفْضِيلِ الْعُزْلَةِ عَلَى الْإِخْتِلَاطِ وَفِي ذَلِكَ خِلَافٌ مَشْهُورٌ... فَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِخْتِلَاطَ أَفْضَلُ بِشَرَطِ رَجَاءِ السَّلَامَةِ مِنَ الْفِتَنِ... وَمَذْهَبُ طَوَائِفَ أَنَّ الْإِعْتَزَالَ أَفْضَلُ... وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْإِعْتَزَالِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ أَوْ هُوَ فِيمَنْ لَا يَسْلَمُ النَّاسُ مِنْهُ وَلَا يَصْبِرُ عَلَيْهِمْ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْخُصُوصِ... وَقَدْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَجَمَاهِيرُ الصَّحَابَةِ

والتَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءَ وَالزُّهَادَ مُخْتَطِطِينَ فَيَحْصِلُونَ مَنَافِعَ الْإِخْتِلَاطِ كَشُهُودِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْجَنَائِزِ وَعِيَادَةِ الْمَرْضَى وَحَلَقِ الذِّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... وَأَمَّا الشَّعْبُ فَهُوَ مَا انْفَرَجَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْسَ الشَّعْبِ خُصُوصًا بَلِ الْمُرَادُ الْإِنْفِرَادُ وَالْإِعْتَزَالُ ... وَذَكَرَ الشَّعْبَ مِثَالًا لِأَنَّهُ خَالٍ عَنِ النَّاسِ غَالِبًا ... وَهَذَا الْحَدِيثُ نَحْوَ الْحَدِيثِ الْآخَرِ حِينَ سُئِلَ ﷺ عَنِ النَّجَاةِ فَقَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ وَابْنُكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ ^(١).

❁ فهذا الرجل الذي اعتزل الناس في شعبٍ من الشُّعَابِ يعبد ربه خوفاً على نفسه من الفتنة في دينه كيف سيعيش؟ يخبر النبي ﷺ في الحديث الثاني ويقول: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ. وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ» يكون معه غنم في ذلك الشعب؛ من أجل ألا يحتاج إلى أحدٍ من الناس، فهو يلبس من صوفها، ويأكل مما يستخرجه منها، ويشرب من ألبانها ... فزهد هذا في الدنيا لأنه يخاف على نفسه من الفتنة، فإذا به يعتزلها إلى أن يصل به الحال إلى هذه الصفة.

وليس ذلك مطلوباً من الناس كلهم، ولكن إذا ضاقت على المؤمن الدنيا فوجد الملجأ في البُعد عن الناس فله ذلك، وكل إنسان يتعد بحسب ما يقدر عليه. فهذا هو التقسيم.. تكون العزلة هي الخير إن كان في الاختلاط شرٌّ وفتنة في الدين، وإلا فالأصل أن الاختلاط هو الخير... يختلط الإنسان مع الناس فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعوهم إلى الحق، ويُبَيِّنُ السُّنَّةَ للناس، فهذا هو عين الخير.

لكن إذا عجز عن الصبر وكثرت الفتنة، فالعزلة خير ولو أن يعبد الله على رأس جبل أو في قعر وادٍ.

(٦٠٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(١).

✽ وكان المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أورد الحديث السابق «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ. وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُبُ بَيْدِيهِ مِنَ الْفِتَنِ» كأن هناك مَنْ يَأْنِفُ مِنْ ذَلِكَ ويقول: وهل من الممكن أن تكثر الفتن حتى أضطر إلى أن أرعى الغنم؟!

فأورد المصنف الحديث الذي بعده ليخبره بأن سيد ولد آدم ﷺ كان يرعى الغنم.. وليس هو وحده فقط بل كل الأنبياء عملوا برعى الغنم.. وكان النبي ﷺ يرعاها لأهل مكة على قراريط.. والقراريط كانت عُملَة ضئيلة القيمة يتداولها أهل مكة في ذلك الزمان.

ورعى موسى ﷺ الغنم عشر سنين وكان ذلك مهراً لابنة الرجل الصالح من أهل مَدْيَنَ ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

✽ وفي رعى الغنم ما فيه من تهيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِنَبِيِّهِ لتلقى الرسالة والقيام بأمر الدعوة... ويورد الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث خلاصة أقوال العلماء في ذلك فيقول: «الحكمة في إلهام الأنبياء من رعى الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما يكفلونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يُحَصِّلُ لهم الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمّعها بعد تفرُّقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره، كالسارق... وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرُّقها، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، أَلْفَوْا مِنْ

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها ... فيكون تحمّلهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريب على ذلك برعى الغنم ... وخُصّت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرّقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرّقها فهي أسرع انقيادًا من غيرها»^{(١) (٢)}.

❁ رعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية .. منها

(١) **الصبر:** على الرعى من طلوع الشمس إلى غروبها، نظرًا لبُطء الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمّل ... وكذا تربية البشر. إن الراعي لا يعيش في قصرٍ منيف ولا في ترفٍ وسرف، وإنما يعيش في جوٍّ حار شديد الحرارة، وبخاصة في الجزيرة العربية، ويحتاج إلى الماء الغزير ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمّل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها.

(٢) **التواضع:** إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها أو شيء من روثها فلم يتضجر من هذا... ومع المداومة والاستمرار يُبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التواضع ... وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»^(٣).

(١) فتح الباري (٤/٥١٦).

(٢) نضرة النعيم (١/١٩٦، ١٩٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٣) **الشجاعة**: فطبيعة عمل الراعى الاصطدام بالوحوش المفترسة... فلا بُد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس أغنامه^(١).

(٤) **الرحمة والعطف**: إن الراعى يقوم بمقتضى عمله فى مساعدة الغنم إن هى مرضت أو كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها وعلاجها والتخفيف من آلامها... فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولاً أرسله الله ﷻ لتعليم الإنسان، وإرشاده وإنقاذه من النار وإسعاده فى الدارين^(٢).

(٥) **حُبُّ الكسب من عرق الجبين**: إن الله قادر على أن يُغنى محمداً ﷺ عن رعى الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد وعرق الجبين، ورعى الغنم نوع من أنواع الكسب باليد.

إن صاحب الدَّعوة يجب أن يستغنى عما فى أيدي النَّاس، ولا يعتمد عليهم، فبذلك تبقى قيمته، وترتفع منزلته، ويتعد عن الشُّبه والتشكيك.

ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ ﷺ

(٦٠٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانََ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ، أَوِ الْمَوْتَ مِظَانَهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»^(٣).

(١) انظر السيرة النبوية لأبى فارس (ص ١١٤، ١١٥).

(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص ١٢٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٩) كتاب الإمارة.

«يَطِيرُ» أى يُسْرِع. «وَمَتْنُهُ»: ظَهْرُهُ. «وَالْهَيْعَةُ»: الصوتُ للحَرْبِ. «وَالْفَرْعَةُ»: نحوه. «وَمِظَانُ الشَّيْءِ»: المواضع التى يُظَنُّ وجوده فيها - «وَالْغَنِيمَةُ» تصغير الغنم - «الشَّعْفَةُ»: هى أعلى الجبل.

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ دون أن يسأله أحد عن خير معاش الناس .. وذلك لأنه ﷺ يحب الخير لأمته ولذا فإنه ما ترك خيراً إلا وقد دلنا عليه وما ترك شراً إلا وقد حذرنا منه.

فيخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أنه من خير معاش الناس .. أى: من خير أحوال عيشتهم «رَجُلٌ مُمَسِّكٌ عَنَّا نَ فَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَرْعَةً، طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ، أَوِ الْمَوْتَ مِظَانَهُ».

فهذا الرجل خير الناس حياة وهو من خير المسلمين وأفضلهم وأحبهم إلى الله ﷻ ... فهو من أنفع الناس للناس ومن أنفع المسلمين للمسلمين ... إنه رجلٌ مرابطٌ على أهبة الاستعداد في أى لحظة .. فإذا سمع صوت الحرب ونداء الجهاد في أى لحظة فإنه يركب على ظهر فرسه ويطير على متنه إلى ذلك المكان ليكف شر هذا العدو عن الناس .. فهو يضحى بنفسه من أجل أن يحيا المسلمون في أمان حتى لو قُتل .. فهو يبحث عن الشهادة في مواطنها التي تُرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة.

❁ ثم ذكر النبي ﷺ الرجل الذي بعده فقال ﷺ: «أَوْ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ فِي رَأْسِ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ» فهذا الرجل قد اعتزل الناس خوفاً على نفسه من الفتن وعاش في أعلى الجبل أو في بطن وادٍ من الوديان ومعه غنيمة وهي تصغير الغنم ... فمعه غنم قليل جداً .. ولو كان يريد الدنيا والتجارة لكان معه قطعٌ من الأغنام .. فهذا الرجل زاهد في الدنيا لا يريد منها أى شئ سوى أن يعيش تلك الحياة البسيطة فيشرب من ألبان الغنم ويلبس من أصوافها ويأكل من لحومها ويعبد الله في ذلك المكان فيقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إن كان ما عنده قد بلغ النصاب ... ويظل يعبد ربه حتى يأتيه اليقين - وهو

الموت - فهذا الرجل ليس من الناس إلا في خير

والنبي ﷺ لما فتح الله ﷻ عليه الفتوح وأصبح يملك مائة غنمة قال: (لا أحب أن تزيد) أى: لا أريد أكثر من ذلك.

وقد كان نصيبه ﷺ في المغانم خمس الخمس، وكان له من الفىء الخمس، ومع ذلك ما كان عنده أكثر من مائة غنمة، فكان إذا ولدت واحدة منها ذبح واحدة مكان هذه المولودة حتى لا تزيد.

وكأنه يعلم المؤمنين ألا يطمعوا، بل يأخذون من الدنيا على قدر حاجتهم، فإذا كان عندك مائة غنمة فلا تتمن أن تكون ألفاً وإنما تطلب الحاجة التي تحتاجها فقط.

فهذا الرجل قد اكتفى بتلك الغنيمات وعاش في أعلى الجبل أو بطن الوادى يعبد ربه ويقيم الصلاة.. لا يصلّيها فحسب بل يُقيمها ويحسن صلاته ويواظب عليها.. ويؤتي الزكاة.. وقد يسأل سائل ويقول: إذا كان هذا الرجل مُعتزلاً فلمن سيعطى الزكاة؟

والجواب: أنه لا يعتزل كل الناس بل سيعتزل أهل الشر والفساد وسيكون وسط أناس مُحتاجين فيعطى زكاته لهؤلاء الناس.

❦ ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ قدّم الرجل المجاهد الذى ينفع المسلمين على الرجل الذى اعتزل الناس.. لأن الأصل كما قلنا أن المؤمن الذى يخالط الناس وينفعهم ويُعلمهم ويدعوهم ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم بل يعتزلهم.. لأن الله ﷻ قد يهدى على يدك رجلاً «ولأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النعم».. لكن إن خشيت على نفسك أن تُفتن في دينك فالعزلة أفضل.

(٧٠) باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم

وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم

وعيادة مريضهم، وحضور جنازتهم، ومواساة

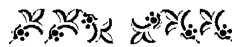
محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم

لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى

❦ اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته هو المختار الذي كان عليه رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخبارهم، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم، وبه قال الشافعي وأحمد، وأكثر الفقهاء رحمهم الله أجمعين .

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] ، والآيات في معنى ما ذكرته كثيرة معلومة^(١).



(١) رياض الصالحين / للإمام النووي رحمه الله (ص ٢١٢).

(٧١) باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

❁ إن نعمة التواضع من أجل وأعظم النعم التي يمتن الله بها على عباده... ولقد كان نصيب النبي ﷺ من هذا الخلق هو النصيب الأعظم... فلقد كان الحبيب ﷺ سيد المتواضعين حتى إنه لما أراد أن يخبر الأمة عن قدره ومكانته عند الله ﷻ قال بعدها: «ولا فخر» وهذا من فرط تواضعه ﷺ حتى لا يظن أحد أن النبي ﷺ يقول ذلك تفاخراً... قال ﷺ: «أنا سيّد ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخر، وبِيدِي لواءُ الحمدِ ولا فخر، وما مِن نبيٍّ يومئذٍ آدمُ فَمَن سِواه إلا تحتَ لوائِي، وأنا أوّلُ شافعٍ وأوّلُ مُشفَعٍ ولا فخر»^(١).

❁ التواضع: ضدّ التعالى يعني ألا يرتفع الإنسان ولا يترفع على غيره، بعلم ولا نسب ولا مال ولا جاه ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك؛ بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة عند الله؛ رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين، حتى إن الصبيّة لُتمسك بيده لتأخذه إلى أي مكان تريد فيقضى حاجتها (عليه الصلاة والسلام).

والتواضع: صفة من صفات عباد الرحمن، كما قال الله ﷻ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

❁ قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله:

«ذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونُعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق. فهذا وصفٌ لهم بالوقار والسكينة، والتواضع لله ولعباده»^(٢).

(١) رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨) وأصله في الصحيحين.

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٥٨٦).

ووصف الله عباده الذين هداهم للإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ لَوْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن الحاج رحمه الله: «مَنْ أَرَادَ الرِّفْعَةَ فَلْيَتَوَاضِعْ لِلَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لَا تَقَعُ إِلَّا بِقَدْرِ النُّزُولِ... أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَمَّا نَزَلَ إِلَى أَصْلِ الشَّجَرَةِ، صَعَدَ إِلَى أَعْلَاهَا،... فَكَأَنَّ سَائِلًا سَأَلَهُ: مَا صَعَدَ بِكَ هُنَا أَعْنَى فِي رَأْسِ الشَّجَرَةِ، وَأَنْتَ تَحْتَ أَصْلِهَا؟!، فَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ. مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥].

أى: تواضع .. وذلك أن المتعالى والمترفع يرى نفسه أنه كالطير يسبح في جو السماء فأمر أن يخفض جناحه ويُنزله للمؤمنين الذين اتبعوا النبي ﷺ. ﴿وَكَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بليّن جانبك، ولطف خطابك لهم، وتودّدك، وتحبّبك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم.

وقد فعل ﷺ، ذلك كما قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهِمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعُفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]... فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مُشاهد ... فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، يدعى اتّباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظّ القول^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) «المدخل» لابن الحاج (٢/ ١٢٢).

(٢) تفسير السعدي (ص ٧٠١).

❦ وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

يخبر تعالى أنه الغنى عن العالمين، وأن مَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ، فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن لله عبداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقواهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً.. أَجَلُ صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. فإن محبة الله للعبد، هي أَجَلُ نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه. وإذا أحب الله عبداً، يَسِّرْ له الأسباب، وَهَوِّنْ عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه، بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه: أنه لابد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله... كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

كما أن من لوازم محبة العبد لله ﷻ أَنْ يُكْثِرَ العبد من التقرب إلى الله، بالفرائض والنوافل ليفوز بمحبة الله ﷻ... كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١).

ومن لوازم محبة الله: معرفته تعالى والإكثار من ذكره؛ فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها.

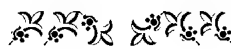
(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

وَمَنْ أَحَبَّ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَكَرِهِ. وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا، قَبِلَ مِنْهُ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ، وَغَفَرَ لَهُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ.

وَمِنْ صِفَاتِهِمْ أَنَّهُمْ ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. فَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَذَلَّةٌ، مِنْ مَحَبَّتِهِمْ لَهُمْ، وَنُصَحِّهِمْ لَهُمْ، وَلِينِهِمْ، وَرَفَقَتِهِمْ، وَرَأْفَتِهِمْ، وَرَحْمَتِهِمْ بِهِمْ وَسَهُولَةِ جَانِبِهِمْ، وَقَرَبِ الشَّيْءِ الَّذِي يُطْلَبُ مِنْهُمْ.

وَعَلَى الْكَافِرِينَ بِاللَّهِ، الْمَعَانِدِينَ لِآيَاتِهِ، الْمَكْذِبِينَ لِرِسْلِهِ - أَعِزَّةٌ قَدْ اجْتَمَعَتْ هَمَمُهُمْ وَعِزَائِهِمْ، عَلَى مُعَادَاتِهِمْ، وَبَذَلُوا جَهْدَهُمْ فِي كُلِّ سَبَبٍ يَحْصِلُ بِهِ الْإِنْتِصَارُ عَلَيْهِمْ ... قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فَالْغُلْظَةُ الشَّدِيدَةُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ، مِمَّا يُقَرَّبُ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ، وَيُوَافِقُ الْعَبْدَ رَبَّهُ فِي سَخَطِهِ عَلَيْهِمْ. وَلَا تَمْنَعُ الْغُلْظَةَ عَلَيْهِمْ وَالشَّدَّةُ مِنْ دَعْوَتِهِمْ، إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ. فَتَجْتَمِعُ الْغُلْظَةُ عَلَيْهِمْ، وَاللِّينُ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ وَنَفْعِهِ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ ^(١).



﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

يَخَاطَبُ اللَّهُ ﷻ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُبَيِّنًا أَنَّهُ خَلَقَهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، أَيْ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ أَوْ مِنْ هَذَا الشَّخْصِ.

يَعْنَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى آدَمَ وَحَوَاءَ.

أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ الْجِنْسَ أَيْ أَنَّ بَنَى آدَمَ خُلِقُوا كُلَّهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى.

(١) تفسير السعدي (ص ٢٤٨) بتصرف.

وهذا هو الغالب، وهو الأكثر.

وإلا فإن الله خلق آدم من غير أم ولا أب ... خلقه من تراب، من طين، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فيه من روحه .. خلق له روحًا فنفخها فيه فصار بشرًا سويًا.

وخلق الله حواء من أب بلا أم.

وخلق الله عيسى من أم بلا أب.

وخلق الله سائر البشر من أم وأب.

والإنسان أيضًا كما أنه أربعة أنواع من جهة مادة خلقه، كذلك هو أربعة أنواع من جهة جنس الخلق ... يقول الله عز وجل: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۝٤٩ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

❖ هذه أيضًا أربعة أقسام:

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ بلا ذكور... يعنى يوجد بعض الناس يُولد له الإناث ولا يولد له ذكور أبدًا.. كل نسله إناث.

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ فيكون كل نسله ذكورًا بلا إناث.

﴿أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا﴾ يزوجهم أى يصنفهم.. لأن الزوج يعنى الصنف.. كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلَةٍ أُنثًى﴾ [ص: ٥٨]. أى أصناف، وقال: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢] أى: أصنافهم وأشكالهم، يزوجهم أى يصنفهم ذكرًا وإناثًا، هذه ثلاثة أقسام.

القسم الرابع: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠]. لا يولد له لا ذكر ولا أنثى، لأن الله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء، لا مُعَقَّب لِحُكْمِهِ وهو السميع العليم.



❁ يقول (جل وعلا): ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ ، الشعوب: الطوائف الكبيرة كالعرب والعجم وما أشبه ذلك ... والقبايل: ما دون ذلك، جمع قبيلة، فالناس بنو آدم شعوب وقبايل.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾: هذه هي الحكمة من أن الله جعلنا شعوبًا وقبايل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا... هذا عربى، وهذا عجمى، هذا من بنى تميم، هذا من قريش، هذا من خزاعة، وهكذا.

فالله جعل هذه القبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا، لا من أجل أن يفخر بعضنا على بعض... فيقول: أنا عربى وأنت عجمى، أنا قبيلى وأنت خضيرى، أنا غنى وأنت فقير... هذا من دعوى الجاهلية والعياذ بالله، لم يجعل الله هؤلاء الأصناف إلا من أجل التعارف فقط، لا من أجل التفاخر، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاطَمَهَا بِأَبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ»^(١).

فالفضل فى الإسلام بالتقوى... أكرمنا عند الله هو الأتقى لله عز وجل، فمن كان أتقى لله فهو عند الله أكرم.

ولكن يجب أن نعلم أن بعض القبائل أو بعض الشعوب أفضل من بعض... فالشعب الذى بُعث فيه الرسول (عليه الصلاة والسلام) هو أفضل الشعوب... شعب العرب أفضل الشعوب لأن الله قال فى كتابه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال النبى ﷺ: «الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

(١) حسن: رواه الترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) كتاب الفضائل.

ولا يعنى هذا إهدار الجنس البشرى بالكلية. لا. لكن التفاخر هو الممنوع، أما التفاضل فإن الله يُفضل بعض الأجناس على بعض، فالعرب أفضل من غيرهم... جنس العرب أفضل من جنس العجم، لكن إذا كان العربى غير متقى والعجمى متقى، فالعجمى عند الله أكرم من العربى ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

أى: لا تصفوها بالزكاة افتخاراً... وأما التحدث بنعمة الله على العبد مثل أن يقول القائل أنه كان مسرفاً على نفسه، وكان منحرفاً فهداه الله ووفقه ولزم الاستقامة، تحدثاً بنعمة الله لا تزكية لنفسه؛ فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه أن يذكر الإنسان نعمة الله عليه فى الهداية والتوفيق، كما أنه لا حرج أن يذكر نعمة الله عليه بالغنى بعد الفقر.

وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ هو أى الرب عز وجل: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، وكم من شخصين يقومان بعمل أو يدعان عملاً وبينهما فى التقى مثل ما بين السماء والأرض، ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، تجد الشخصين يصليان كل واحدٍ بجوار الآخر، لكن بين ما فى قلوبهما من التقوى مثل ما بين السماء والأرض... شخصان يتجنبان الفاحشة لكن بينهما من التقوى مثل ما بين السماء والأرض، ولهذا قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❦ وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: ٤٨-٤٩].

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين (٢/ ٢٧٨-٢٨٠) بتصرف.

أصحاب الأعراف: قومٌ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا يدخلون الجنة ولا يدخلون النار... يُحشر أهل النار إلى النار، ويُساق المتقون إلى الرحمن وفدًا، إلى الجنة زُمَرًا... فيدخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، وأصحاب الأعراف في مكانٍ مرتفع.

فالأعراف: جمع عرف وهو المكان المرتفع، لكن ليسوا في الجنة وليسوا في النار، وهم يطلعون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء، وفي النهاية يدخلون الجنة، لأنه ليس هناك إلا جنة أو نار، هما الباقيتان أبدًا، وأما ما سواهما فيزول.

فيقول الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَتِهِمْ﴾ أي يعرفونهم بعلامتهم معرفة تامة، ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني ما أغنى عنكم جمعكم المال والأولاد والأهل، ما أغنى عنكم هؤلاء، وما أغنى عنكم جمعكم من الناس الذين هم جنودكم، تجمعونهم إليكم وتستنصرون بهم، ما أغنوا عنكم شيئًا، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يعني وما أغنى عنكم استكباركم على الحق.

﴿أَهْوَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يعني الضعفاء... وكان الملائكة المكذبون للرسول يسخرون من المؤمنين ويقولون: ﴿أَهْوَؤَلَاءِ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنُ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]. يقولون: هؤلاء أصحاب الرحمة؟ هؤلاء أهل الجنة؟ يسخرون منهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وإذا مروا بهم ينعمازون (٣٠) وإذا أنقلبوا إلى أهلهم أنقلبوا فكهين ﴿[المطففين: ٢٩-٣١].

فيقولون لهم: ﴿أَهْوَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾. يعني قد قيل لهم: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

إذا... تواضعهم للحق واتباعهم الرسل هو الذي بلغهم هذه المنازل العالية... أما هؤلاء المستكبرون الذين فخروا بما أغناهم الله به من الجمع

والمال؛ فإن ذلك لم يُغنِ عنهم شيئاً؛ فدلَّ ذلك على فضل التواضع للحق^(١).

﴿لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ﴾

(٦٠٧) وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا﴾ قد يسأل سائل ويقول: لماذا قال النبي ﷺ في هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ» مع أن كل أقوال وأفعال النبي ﷺ لا تصدر إلا عن وحي من الله ﷻ... فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٤) [النجم: ٣، ٤].

والجواب: وكان النبي ﷺ يوجه عناية الأمة بأن الوحي قد نزل عليه في هذه المرة يوصيه مرة بعد مرة ويؤكد عليه أن يكرر وصيته للأمة بأن يتواضع بعضهم لبعض ولا يظلم أحدهم أخاه حتى تتآلف القلوب وتصبح الأمة قوية متماسكة.

﴿نزل الوحي على النبي ﷺ يوصيه بأن يأمرنا بالتواضع فيما بيننا فلا يترفع أحدٌ على أحدٍ بل يجعله مثله أو أكثر.. لأن الإنسان الذي يتواضع يرفعه الله ﷻ ويُعزِّزُه في الدنيا والآخرة.

فلا بد أن يتواضع المسلم لإخوانه المسلمين فلا يفخر عليهم ويتباهى بمكارمه ومناقبه وحسبه ونسبه.. بل ينبغي ألا يرى لنفسه فضلاً على أحد.

وكان من عادة السلف - رحمهم الله - أن الإنسان منهم يجعل مَنْ هو أصغر منه مثل ابنه، وَمَنْ هو أكبر منه مثل أبيه، وَمَنْ هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى مَنْ هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى مَنْ هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى مَنْ هو مثله نظرة مساواة... فلا ينبغي أحدٌ على أحدٍ، وهذا من الأمور التي يجب

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٠-٢٨١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

على الإنسان أن يتصف بها... أى بالتواضع لله عز وجل ولإخوانه من المسلمين.
فمن تواضع لإخوانه مُحال أن يفخر عليهم بشيء من حُطام الدنيا الفانية..
و مُحال أن يبغى على أحدهم أو يظلمه أو يتعدى عليه.. وأما من تكبر فسوف
يفخر على إخوانه ويبغى عليهم.. جعلنى الله وإياكم من المتواضعين.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من
مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفَعَهُ الله»^(١).
سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم
(٥٦١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٠٩) وعن أنس رضي الله عنه: أنه مرَّ على صبيانٍ، فسَلَّم عليهم، وقال: كَانَ النَّبِيُّ
ﷺ يفعلُه^(٢).

سبق شرح هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبي ﷺ أنه مرَّ على
صبيانٍ صغار فسَلَّم عليهم وقال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يفعلُه .. أى: كان النبي ﷺ إذا
مرَّ على صبيانٍ صغار يُسَلِّم عليهم... وهذا يوضح أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك
مرة واحدة وإلا لقال أنس رضي الله عنه: فعله النبي ﷺ ذات مرة.. وإنما قال: كان النبي
ﷺ يفعلُه .. أى: يفعلُه دائماً... وهذا من شدة تواضع النبي ﷺ.

و حياة النبي ﷺ حافلة مع الأطفال بألوان العطف عليهم... فكان لهم
من وقته نصيب، فكان يمازحهم، ويلاعبهم، ويُقبلهم، ويُعلم الناس أن يسلكوا
هذا الطريق اللطيف في معاملة الأطفال.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٨) كتاب السلام.

✽ روى البخارى فى «الأدب المفرد» عن أمنا عائشة ابنة الصديق -رضون الله عليهما- أنها قالت: جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال: أتقبلون صبيانكم؟ فما نقبلهم! فقال النبى ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»^(١).

✽ وهذا أسلوب لطيف فيه توجية إلى رحمة الأطفال والعطف عليهم، ورعايتهم وحسن معاملتهم، وملاطفتهم، وإكرامهم ولو بالسلام عليهم. فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعثنى النبى ﷺ فى حاجة فرأيت صبيانا فقعدت معهم، فجاء النبى ﷺ فسلم على الصبيان^(٢).

✽ وكان الحبيب الأعظم محمد ﷺ يعامل الأطفال بالرفق واللين. ✽ وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يتمثلون بأخلاق النبى ﷺ فى هذا الميدان الرحب الجميل، وربما وقع من أحدهم شدة على الأطفال، أو على الغلمان الذين يملكونهم، فيعتقه لوجه الله طلباً لمرضاة الله ومرضاة رسوله ﷺ. ✽ تروى أسماء بنت عميس رضي الله عنها طرفاً من رعاية النبى ﷺ لأبناء الشهداء، وذلك عقب استشهاد زوجها جعفر رضي الله عنه فقالت: دخل على رسول الله ﷺ، فدعا بنى جعفر، فرأيتهم شمّمهم، وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شىء؟ قال: «نعم قُتل اليوم».

فقمنا نبكى، ورجع فقال: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً فإنه قد أتاهم ما يشغلهم»^(٣).

✽ ولم تتوقف الرعاية النبوية عند هذا الحد بل أخبر أسماء بنت عميس عندما بكت وذكرت يُتم أطفالها فقال: «العيلة تخافين عليهم وأنا وليهم فى الدنيا

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد (٩٠)، وصححه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٦٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٣٨٢/١).

(٣) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠١٥).

والآخرة»^(١)!؟.

✽ كما أن الحبيب المصطفى ﷺ كان يُعَلِّمُ الناس ألوان التربية للطفل، وغرس الألفة والمودة في قلبه... فقد كان ﷺ يزور الأنصار، فيُسلِّم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم ويدعو لهم^(٢).

✽ وتبلغ التربية النبوية الذروة في عيادة الأطفال، والسؤال عن أحوالهم، فإن ذلك يغرس في نفوسهم كريم العادات، ولطيف المودات، ناهيك بأن ذلك يُشعره بمكانته واهتمام مَنْ حوله به، فينسى آلامه، وتكبر آماله، وتثمر الزيارة وتؤتى أكلها فوراً... وهذا ما ربَّى النبي ﷺ عليه أصحابه، وكان قدوة لهم بذلك.

✽ روى أنس بن مالك رضي الله عنه قصة ذلك فقال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعبده، فقعده عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمَ»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»^{(٣) (٤)}.

✽ هكذا كان النبي ﷺ يُسلِّم على الصبيان ويُعاملهم أفضل معاملة ليتألف قلوبهم وليكونوا بذرة طيبة تحمل الراية عندما تكبر وتصبح ثمرة طيبة. وإذا كان هذا يقع من النبي ﷺ مع الصبيان، فإننا نأسف لقوم يمرون بالكبار البالغين ولا يُسلمون عليهم - والعياذ بالله -... قد لا يكون ذلك هجرًا أو كراهة، لكن عدم مبالاة، وعدم اتباع للسنة، وجهل، وغفلة... وهم وإن كانوا غير آثمين لأنهم لم يتخذوا ذلك هجرًا، لكنهم قد فاتهم خيرٌ كثير.

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١١١).

(٢) صحيح: رواه النسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٧).

(٣) صحيح: رواه البخاري (١٣٥٦) كتاب الجنائز.

(٤) (بتصرف من كتاب (الطفل في ضوء القرآن والسنة) / د. أحمد خليل جمعة.

فالسُّنة أن تُسلم على كل مَنْ لقيت، وأن تبدأه بالسلام، ولو كان أصغر منك، لأن النبي ﷺ كان يبدأ مَنْ لقيه بالسلام، وهو (عليه الصلاة والسلام) أكبر الناس قدرًا، ومع ذلك كان يبدأ مَنْ لقيه بالسلام.

وأنت إذا بدأت مَنْ لقيته بالسلام حصلت على خيرٍ كثير... منه اتباع الرسول ﷺ ومنه أنك تكون سببًا لنشر هذه السُّنة التي ماتت عند كثيرٍ من الناس... ومعلوم أن إحياء السنن يُؤجّر الإنسان عليه مرتين: مرة على فعل السُّنة، ومرة على إحياء السُّنة... ومنه أنك تكون السبب في إجابة هذا الرجل وإجابته فرض كفاية، فتكون سببًا في إيجاد فرض الكفاية من هذا الرجل.

ولهذا كان ابتداء السلام أفضل من الردّ، وإن كان الرد فرضًا وهذا سُنة، لكن لما كان الفرض ينبنى على هذه السُّنة، كانت السُّنة أفضل من هذا الفرض، لأنه مبنىٌ عليها.

وهذه من المسائل التي ألغز بها بعض العلماء وقال: عندنا سُنة أفضل من الفريضة!!... لأنه من المتفق عليه أن الفرض أفضل.... مثلًا: صلاة الفجر ركعتان أفضل من راتبتها ركعتين، لأنها فرض والراتبة سُنة، لكن ابتداء السلام سُنة، ومع ذلك صار أفضل من ردّه، لأن ردّه مبنىٌ عليه. فالمهم أنه ينبغي لنا إحياء هذه السُّنة..

أعنى إفشاء السلام، وهو من أسباب المحبة، ومن كمال الإيمان، ومن أسباب دخول الجنة.

قال النبي ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^{(١)(٢)}.

﴿مَنْ لَقِيَ أَخَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَأَمْسَكَهُ بِتِلْكَ ذِرْوَةِ شِمْرِهِ فَنَادَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخِي فَلَمَّ بِرَأْسِهِ فَمُضًىٰ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ أَلَيْسَ لِمَنِ اتَّبَعْتُمُ الْعَذَابُ مُّذُنًا ۚ﴾

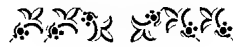
(١) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٤).



(٦١٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: إِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ مِنْ إِمَاءِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذَ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَتَنْطَلِقَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ ^(١).

✽ في الحقيقة أننى عندما أقرأ هذا الحديث أتعجب غاية التعجب ... رسول الله ﷺ وقائد الأمة كلها تأتى إليه أمة من إماء المدينة - أى: جارية وليست امرأة حرة ذات مكانة - فتأخذ بيد النبي ﷺ ولا يعاتبها أو يسألها: ماذا تصنعين؟ وإلى أين تذهبين؟ ألا تعلمين من أنا؟ .. بل يذهب معها بكل تواضع لا يخطر على قلب بشر.. ولا يعلم هل المكان بعيد أم قريب.. المهم أنه لا يتركها حتى يقضى حاجتها بنفسه مع أنها من الممكن أن تُقضى عن طريق أحد أصحابه .. لكن النبي ﷺ يذهب معها ويقضى حاجتها بنفسه وهو المسئول ﷺ عن دعوة الإنس والجن وعنده تسع زوجات وعنده مسئوليات تنوء بحملها الجبال.. ومع كل هذا يذهب معها ليقضى حاجتها.. صلوات ربى وسلامه عليك يا سيد ولد آدم ﷺ.



(٦١١) وَعَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سُلِّتَ عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ - يَعْنِي: خِدْمَةِ أَهْلِهِ - فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ ^(٢).

✽ إن الرجولة ليس معناها أن يتعالى الزوج على زوجته ويغلظ عليها في القول من أجل أن تشعر بقوته وجبروته فترتعد فرائصها عندما تراه لترضى غروره ولكن الرجولة الحقيقة أن يستطيع الزوج أن يغمر زوجته بحنانه ومحبه ورحمته، وفي الوقت ذاته يجعل قلبها متعلقاً بالله (جل وعلا).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٧٢) كتاب الأدب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٧٦) كتاب الأذان.

ولقد كان أعظم الرجال محمد ﷺ لا يستنكف أبداً - وهو الذى يحمل أعباء الأمة المسلمة بأسرها - أن يساعد زوجته فى عمل البيت - بأبى هو وأمى ﷺ - ^(١).
 ومن المعاشرة بالمعروف: أن يشاركها فى خدمة البيت إن وجد فراغاً:
 ففى هذا الحديث تخبر أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن النبى: كان ﷺ يكون فى مهنة أهله - يعنى خدمة أهله - فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة.
 وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان بشراً من البشر: يَفْلِي ثوبه، وَيَحْلُبُ شاته، ويخدم نفسه ^(٢).

وبالجملة فكل أمر يُتصور فى الدين والعرف أنه حَسَن فهو من المعاشرة بالمعروف التى أمر الله بها... قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى» ^(٣).

فإن كان بعض الأزواج يظن أن مساعدة الزوجة تُنقص من قدره .. أقول له: هل أنت أفضل من رسول الله ﷺ الذى رزقه الله البركة فى العمر والوقت والصحة ..؟! سيد ولد آدم ﷺ كان عوناً لأهله فى عمل البيت ليكون بذلك مثلاً وقدوة عظيمة لكل زوج يأتى فى هذه الحياة الدنيا لينظر إلى الأسوة والقُدوة فيتأسى بأقواله وأفعاله ﷺ.

فيا أخى الكريم: ما الذى يضرّك إذا وجدت زوجتك مريضة أو مُتعبّة من أعباء المنزل ... أن تقوم أنت وتُعِد الطعام أو تساعدّها فى أى عمل من أعمال البيت ... ولا تظن أننى أطلب منك المُداومة على ذلك، فهذا شىء لا يستطيعه أحد، وذلك لضيق الوقت ... وكذلك حتى لا تظن الزوجة أنك مسئول عن العمل داخل المنزل وخارجه.

(١) «كيف تسعد زوجتك» / د. محمود المصرى (ص: ٦٠).

(٢) صحيح: رواه البخارى فى «الأدب»، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٩٦).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣١٤).

ولكن تأكد أن مساعدتك لها من حينٍ لآخر ستدخل السعادة والبهجة والسرور على قلبها وستشعر بحبك لها وخوفك عليها، وبذلك تجد أنها تبذل أضعاف أضعاف ما تتمنى لتدخل عليك السعادة أيضًا... وبذلك تتكامل أركان السعادة، فالكل يسعى لإسعاد من حوله.. وتلك هي المودة والرحمة التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١٢) وَعَنْ أَبِي رِفَاعَةَ تَمِيمِ بْنِ أُسَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأَتَى بِكُرْسِيِّ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا (٢).

✽ فمن تواضع النبي ﷺ أنه لما جاءه هذا الرجل.. وكان النبي ﷺ يخطب.. ومن المعلوم أن الخطيب إذا كان يخطب فإن يكون مُنْشَغَلًا بما سيقوله للناس ولا وقت عنده لأحدٍ حتى يقطع خطبته.. لكن النبي ﷺ سيد المتواضعين كان على استعدادٍ دائمٍ لبذل الكلمة لهداية الناس وتعليمهم... ولا عجب في ذلك فقد نزل النبي ﷺ من على المنبر قبل ذلك عندما حَنَّ الجذع لأن النبي ﷺ كان يخطب عليه فتركه وأصبح يخطب على المنبر فحَنَّ الجذع أثناء خطبة النبي ﷺ وسمع له صوت كصوت الناقة العُشراء فنزل النبي ﷺ من على المنبر في خطبة الجمعة والتزمه -أي: احتضنه- وأسرَّ له بكلمة فسكن الجذع.. وعاد النبي ﷺ إلى خطبته.. فإذا كان النبي ﷺ قد قطع خطبته من أجل جذعٍ من الخشب.. ألا يقطع خطبته من أجل تعليم مسلم.

(١) «موسوعة الزواج الإسلامي السعيد»/ د. محمود المصري (ص: ٦١٩-٦٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٧٦) كتاب الجمعة.

لقد كان هذا الرجل حديث عهدٍ بإسلامٍ فجاء إلى النبي ﷺ أثناء الخطبة وقال له: يا رسول الله.. رجلٌ غريب جاء يسأل عن دينه لا يدرى ما دينه.. فما كان من النبي ﷺ إلا أن ترك خطبته وأقبل عليه وأتى بكرسى فقعد عليه النبي ﷺ وجعل يُعلمه مما علّمه الله حتى تعلّم الرجل كل ما يريد وانتهى من كل أسئلته ثم عاد النبي ﷺ وصعد المنبر مرة أخرى وأتم خطبته.

فإن قال قائل: أليست المصلحة العامة أولى بالمُراعاة من المصلحة الخاصة؟ وحاجة هذا الرجل خاصة، وهو ﷺ يخطب في الجماعة؟

قلنا: نعم لو كانت مصلحة العامة تفوت لكان مراعاة المصلحة العامة أولى، لكن مصلحة العامة لا تفوت، بل إنهم سيستفيدون مما يُعلمه الرسول ﷺ لهذا الرجل الغريب، والمصلحة العامة لا تفوت.

وهذا الغريب الذي جاء يسأل عن دينه إذا أقبل إليه الرسول عليه الصلاة والسلام وعلمه كان في هذا تأليفٌ لقلبه على الإسلام، ومحبة للإسلام، ومحبة للرسول ﷺ... وهذا من حكمة رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه).

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ اسْتِحْبَابُ تَلَطُّفِ السَّائِلِ فِي عِبَارَتِهِ وَسُؤَالِهِ الْعَالِمَ.
وَفِيهِ تَوَاضُعُ النَّبِيِّ ﷺ وَرِفْقُهُ بِالْمُسْلِمِينَ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِمْ وَخَفْضُ جَنَاحِهِ لَهُمْ... وَفِيهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى جَوَابِ الْمُسْتَفْتَى وَتَقْدِيمُ أَهَمِّ الْأُمُورِ فَأَهَمِّهَا وَلَعَلَّهُ كَانَ سَأَلَ عَنِ الْإِيمَانِ وَقَوَاعِدِ الْمُهَمَّةِ... وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ جَاءَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِيمَانِ وَكَيْفِيَّةِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَجَبَ إِجَابَتُهُ وَتَعْلِيمُهُ عَلَى الْفَوْرِ....
وَقَعُودُهُ ﷺ عَلَى الْكُرْسِيِّ لِيَسْمَعَ الْبَاقُونَ كَلَامَهُ وَيَرَوْا شَخْصَهُ الْكَرِيمَ وَيُحْتَمِلُ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا خُطْبَةً أَمْرٍ غَيْرِ الْجُمُعَةِ وَلِهَذَا قَطَعَهَا بِهَذَا الْفَصْلِ الطَّوِيلِ.. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهَا كَانَتْ الْجُمُعَةَ وَاسْتَأْنَفَهَا.. وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ

فَصَلِّ طَوِيلٌ.. وَيَحْتَمِلُ أَنَّ كَلَامَهُ لِهَذَا الْغَرِيبِ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِالْخُطْبَةِ فَيَكُونُ مِنْهَا وَلَا يَضُرُّ الْمَشَى فِي أَثْنَائِهَا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١٣) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعَقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ قَالَ: وَقَالَ ﷺ: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ، فَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعَها لِلشَّيْطَانِ» وَأَمَرَ أَنْ تُسَلَّتِ الْقَصْعَةُ قَالَ: «فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمْ الْبَرَكَةُ»^(٢).

✽ هذا من التأديب والتربية للمؤمنين... فمن السهل أن يتكلم الإنسان عن التواضع؛ لكن التنفيذ والتطبيق صعب، فكان يعلمهم النبي ﷺ بفعله ليفعلوا كما كان يفعل ﷺ.

ففي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنَ الْأَكْلِ لَعَقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ... لَعَقَهَا: أَيَّ لَحْسَهَا حَتَّى يَكُونَ مَا بَقِيَ مِنَ الطَّعَامِ فِيهَا دَاخِلًا فِي طَعَامِهِ الَّذِي أَكَلَهُ مِنْ قَبْلُ... وَفِيهِ فَائِدَةٌ ذَكَرَهَا بَعْضُ الْأَطْبَاءِ؛ أَنَّ الْأَنَامِلَ تَفَرِّزُ عِنْدَ الْأَكْلِ شَيْئًا يُعِينُ عَلَى هَضْمِ الطَّعَامِ.

فَيَكُونُ فِي لَعَقِ الْأَصَابِعِ بَعْدَ الطَّعَامِ فَائِدَتَانِ:

فَائِدَةٌ شَرْعِيَّةٌ: وَهِيَ الْاِقْتِدَاءُ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

وفائدة صحية طبية: وهي هذا الإفراز الذي يكون بعد الطعام الذي يُعِينُ عَلَى الهَضْمِ.

والمؤمن لا يجعل هَمَّهُ فيما يتعلق بالصحة البدنية... أهم شيء عند المؤمن هو اتباع الرسول ﷺ، والاقْتِدَاءُ بِهِ؛ لِأَنَّ فِيهِ صِحَّةَ الْقَلْبِ.

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٤) كتاب الأشربة.



وكلما كان الإنسان للرسول ﷺ أتبع كان إيمانه أقوى.

وكذلك قال ﷺ: «إذا سقطت لقمة أحدكم» يعني على الأرض أو على السفرة «فليُمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يدعها للشيطان» فإذا سقطت اللقمة، أو التمرة، أو ما أشبه ذلك على السفرة، فخذها وأزل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذى من تراب، أو عيدان وكُلها؛ تواضعاً لله ﷻ، وامثالاً لأمر النبي ﷺ، وحرماناً للشيطان من الأكل معك، لأنك إذا تركتها أكلها الشيطان. والشيطان ربما يشارك الإنسان في أكله في مثل هذه المسألة، وفيما إذا أكل ولم يُسمِّ، فإن الشيطان يشاركه في أكله.

والثالث: أمره بإسالات الصحن أو القصعة، وهو الإناء الذي فيه الطعام^(١).
يعنى: إذا أكلت وبقي قليل من الطعام في القصعة فلا تتركه وترميه في القمامة، وإنما تلعه بأصابعك وتسلمته، ولا تترك شيئاً للشيطان.. وإذا تركت شيئاً فحافظ عليه، فإما أن تتصدق به وإما أن تحفظه لتأكله مرة ثانية إن كان مثله يبقى معك ولا يفسد، ولكن لا تتعود أنك تطبخ أكثر من اللازم، والباقي ترميه في القمامة؛ لأن هذا مؤذن بأن يمنعك ويحرمك الله سبحانه وتعالى.

✽ فإذا بقي منك طعام في القصعة أو الإناء الذي تأكل منه فعليك أن تُسَلِّت القصعة عند انتهائك من الطعام فهذا من السنة التي غفل عنها كثير من الناس مع الأسف حتى من طلبة العلم أيضاً، إذا فرغوا من الأكل وجدت الجهة التي تليهم ما زال الأكل باقياً فيها، لا يلحقون الصفحة.

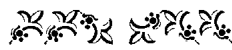
وهذا خلاف ما أمر به النبي ﷺ.... ثم بين الرسول (عليه الصلاة والسلام) الحكمة من ذلك فقال: «فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» قد تكون البركة من هذا الطعام في هذا الذي سلته من القصعة.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٥-٢٨٦) بنصرف.

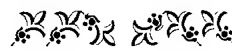
وفي هذا الحديث: حُسن تعليم الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وأنه إذا ذكر الحُكم ذكر الحِكْمة منه، لأن ذكر الحِكْمة مقرونًا بالحُكم يفيد فائدتين عظيمتين.

الفائدة الأولى: بيان سمو الشريعة، وأنها شريعة مبنية على المصالح، فما من شيء أمر الله به ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في وجوده... وما من شيء نهى عنه الله ورسوله ﷺ، إلا والمصلحة في عدمه.

الفائدة الثانية: زيادة اطمئنان النفس، لأن الإنسان بشر قد يكون عنده إيمان وتسليم بما حكم الله به ورسوله، لكن إذا ذكرت الحِكْمة ازداد إيمانًا وازداد يقينًا، ونشاطًا على فعل المأمور، أو ترك المحظور.



(٦١٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ» قَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ»^(١).
 ﴿سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٦٠٥) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.



(٦١٥) وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ. وَلَوْ أَهْدَى إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ»^(٢).
 ﴿من الناس من إذا دُعِيَ إلى الطعام عند أحد الأثرياء فإنه يذهب بلا تردّد لأنه يعلم كيف تكون موائد الأغنياء وأن موائدهم لا تخلو أبداً من أصناف الطعام الذي لا يراه أكثر الناس إلا نادراً وقد لا يروونه أبداً...﴾

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٦٢) كتاب الإجارة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٥٦٨) كتاب الهبة.

وإذا دُعِيَ إلى الطعام عند أحد الفقراء فإنه قد يتردد لأنه يعلم أن مائدة الفقير قد لا يكون عليها أى صنف مما يشتهيهِ..

لكن النبى ﷺ سيد ولد آدم وأفضل الخلق أجمعين الذى علّم الكون كله نعمة التواضع كان يقول: «لو دُعيت إلى كُراعٍ أو ذراعٍ لأجبت...».

أى: لو دعانى أحدٌ على الطعام ولم يكن على المائدة سوى كُراعٍ لأجبت... والكراع هو من الدابة ما بين الركبتين إلى الساق وهو ما نُسَميه نحن (الكارع) وهو فى الغالب ليس فيه لحم.

هكذا يقول النبى ﷺ: «لو دُعيت إلى كُراعٍ أو ذراعٍ لأجبت» وهنا جمع بين الشئ البسيط والخطير.. فالذراع كانت أحب الطعام إلى النبى ﷺ والكراع لا قيمة لها وهى طعام الفقراء فى الغالب.. وكأنه ﷺ يقول: لو دُعيت عند رجلٍ فقير على كُراعٍ أو عند رجلٍ غنى على ذراعٍ لأجبت لأنى لا فرق عندى بين الفقير والغنى فالكل عندى سواء... وهذا ليحض الأمة على جبر خاطر الفقير إذا دعا أحداً إلى طعامه فعليه أن يُلبى دعوته اقتداءً بالنبى محمد ﷺ.

❁ ثم قال ﷺ: «ولو أهدى إلى ذراعٍ أو كُراعٍ لقبلت» ففى الدعوة قدّم الكُراع على الذراع ليحض الناس على قبول دعوة الفقير لأن أكثر الناس فى الغالب لا يردون دعوة الغنى.. فهم لا يحتاجون لمن يوصيهم بذلك ولذا قدّم النبى ﷺ الوصية بقبول دعوة الفقير...

ولما تكلم عن الهدية قدّم الذراع على الكُراع لأن أكثر الهدايا تأتى من الأغنياء.. أما الفقراء فقد لا يجدون قوت اليوم.. ومع ذلك فالنبى ﷺ يخبر أنه لو أهدى إليه ذراعٍ أو حتى كُراعٍ فلن يرفض بل سيقبل الهدية ويثيب عليها ﷺ... وفى هذا حضٌّ على قبول الهدية مهما كانت قليلة من أجل تألف القلوب.. وذلك لأن ردَّ الهدية يُوغر الصدور ويجلب العداوات... وفى تلبية الدعوة وقبول الهدية تحريضٌ على التواضع مع الخلق ابتغاء مرضاة الله ﷻ.

(٦١٦) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعَضْبَاءُ لَا تُسَبِّقُ، أَوْ لَا تَكَادُ تُسَبِّقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ، فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث يحكى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خادم رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ كان عنده ناقة اسمها العضباء وكانت لا تسبق أبداً.. والعضباء غير ناقته القصواء التى حَجَّ عليها النبى ﷺ.. وقد كان من هدى النبى ﷺ أنه كان يُسمَّى دوابه وسلاحه وما أشبه ذلك.

فأصحاب الرسول ﷺ كانوا يرون أن العضباء لا تسبق أو لا تكاد تسبق.. فجاء أعرابىٌّ على قَعُودٍ^(٢) له فسبقها.

فكان ذلك شقًّا على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقال النبى ﷺ لما عرف ما فى نفوسهم: «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ».

فكل ارتفاع يكون فى الدنيا فإنه لا بد أن يؤول إلى انخفاض، فإن صَحِبَ هذا الارتفاع ارتفاع فى النفوس وعُلو فى النفوس، فإن الوضع إليه أسرع، لأن الوضع يكون عقوبة، أما إذا لم يصحبه شىء، فإنه لا بد أن يرجع ويوضع... لأن الدنيا كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة.. وهى إلى زوال ولا يبقى من الدنيا إلا ما عمله الإنسان فيها وابتغى بها وجه الله والدار الآخرة.

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «من الدنيا» دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله... فقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فهو لاء لا يضعهم الله ﷻ ما داموا على وصف

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٨٧٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) القَعُود: هو ما استحق الركوب من الإبل... قال الجوهرى: هو البكر حتى يُركب، وأقل ذلك أن يكون ابن سنتين إلى أن يدخل فى السادسة فيسمى جملاً... وقال الأزهرى: لا يُقال إلا للذكر، ولا يُقال للأنثى قعود إنما يقال لها قلوص.

العلم والإيمان، فإنه لا يمكن أن يضعهم الله، بل يرفع لهم الذكر، ويرفع درجاتهم في الآخرة.

❁ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى:

تعظيم الصحابة رضي الله عنهم ليس لشخص النبي ﷺ فحسب، بل امتد هذا التعظيم وانسحب إلى ما يخصه ﷺ.... ومثاله القدح الذي كان يشرب فيه ﷺ وفي الحديث الذي بين أيدينا مثال على تعظيمهم لناقة النبي ﷺ فقد حزنوا ليس لموت الناقة أو مرضها، بل لما هو أقل من ذلك بكثير، وهو أنها قد سُبقت... (فشق ذلك على المسلمين)، ويبدو أن تلك المشقة التي لحقتهم كانت كبيرة لأنها ظهرت على ملامحهم، والنبي ﷺ قد لاحظ ذلك على وجوههم... فقد ورد في الحديث: (فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه).

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: (فيه حُسن خلق النبي ﷺ وتواضعه وعظمته في صدور أصحابه) ^(١).

الفائدة الثانية:

ملاحظته ﷺ أحوال الصحابة حيث عرف ما حدث لهم لما سُبقت العضباء... مع رحمته وشفقته بهم ﷺ حيث خفف عنهم ما يجدونه بقوله: «حَقُّ على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

الفائدة الثالثة:

أسس النبي ﷺ قاعدة كونية عظيمة، تُخفف ألم كل مكلم وتواسى كل محزون، وتُعرف الناس بطبيعة الدنيا فلا يغترون بها ولا يُعولون عليها. فأى شيء مهما علا وارتفع تكفل الله بخفضه ووضعه... ومصدق ذلك في

(١) فتح الباري (٦/ ٧٤).

الحديث قوله ﷺ: «حَقُّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ» .

وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْكَلَامَ فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ دَابَّتِهِ الْعُضْبَاءِ، إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى تَوَاضُعِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى تَعْلِيمِ أُمَّتِهِ ﷺ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَفِيهِ التَّزْهِيدُ فِي الدُّنْيَا لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا لَا يَرْتَفِعُ إِلَّا اتَّضَعَ وَفِيهِ حَثٌّ عَلَى التَّوَاضُّعِ وَفِيهِ حَسَنُ خَلْقِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوَاضُّعُهُ»^(١).

قَالَ ابْنُ بَطَالٍ: فِيهِ هَوَانُ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ وَالتَّنْبِيهُ عَلَى تَرْكِ الْمَبَاهَاةِ وَالْمَفَاخِرَةِ، وَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى التَّوَاضُّعِ وَطَرَحُ رَدَاءِ التَّكْبَرِ وَالْإِعْلَامُ بِأَنَّ أُمُورَ الدُّنْيَا نَاقِصَةٌ غَيْرُ كَامِلَةٌ، وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ لِحَسَنِ خَلْقِهِ مِنْ إِذْهَابِ مَا يَشُقُّ عَلَى أَصْحَابِهِ عَنْهُمْ... وَمَا كَانَ قُصْدَ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَلَيْسَ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ فِيهَا فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الْخَبَرِ، بَلْ لَا يَزَالُ مَرْفُوعًا دُنْيَا وَآخَرَى، وَفِيهِ تَوَاضُّعُهُ إِذْ سَابَقَ أَعْرَابِيًّا^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شمائل الرسول (٢/ ٢٨٤).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٥٧).

(٧٢) باب تحريم الكبر والإعجاب

❁ إن الكبر آفة خطيرة لم يسلم منها إلا ثلة قليلة ميمونة مباركة قد لامس الإيمان شغاف قلوبهم.

❁ وإن الكبر طريقٌ موصل إلى غضب الله وسخطه، وهو دليل على سُفول النفس وبعدها عن الله ويصرف عن فهم آياته ولا يوفق أبدًا إلى طاعته... وهو طريق يجعل صاحبه يُحرَم من دخول الجنة ويوصله إلى النار أعاذنا الله وإياكم من عذاب النار.

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

والكبر: هو التَّرفُّع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير، وأنه فوق الناس، وأن له فضلًا عليهم.

والإعجاب: أن يرى الإنسان عمل نفسه فيُعجب به، ويستعظمه ويستكثره. فالإعجاب يكون في العمل، والكبر يكون في النفس، وكلاهما خُلُقٌ مذموم... الكبر والإعجاب.

والكبر نوعان: كبرٌ على الحق، وكبرٌ على الخلق... وقد بيَّنها النبي ﷺ في قوله: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(١) فبطر الحق: يعنى: رَدَّه والإعراض عنه، وعدم قبوله... وغمط الناس يعنى احتقارهم وازدراءهم وألا يرى الناس شيئًا، ويرى أنه فوقهم^(٢).

❁ ولا بد أن نعلم أن أول ذنب عُصِيَ الله به هو الكبر.

فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فال أمره إلى ما آل إليه... فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إبليس إلى النار.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٢٨٨).

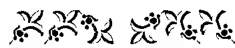
قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: التَّكَبُّرُ شَرٌّ مِنَ الشُّرْكِ فَإِنَّ الْمُتَكَبِّرَ يَتَكَبَّرُ عَنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ اللهَ وَغَيْرَهُ. قُلْتُ: وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ النَّارَ دَارَ الْمُتَكَبِّرِينَ... كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿الْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِبَرِ وَالتَّجَبُّرِ هُمُ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

فالكبر صفة من الصفات التي لا تكون إلا لله وحده لا شريك له، فهو المتكبر سبحانه وتعالى، وهو الكبير سبحانه المتعالي .. ويأبى أن تكون هذه الصفة لأحدٍ من خلقه؛ لأنها صفة لا تليق إلا بعظمته سبحانه، فهي له صفة كمال وجلال، ولذلك يقول: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما أدخلته النار».

مَنْ نازع الله في عظمته وكبريائه سبحانه فقد أتى ما لا يجوز له، إذ ليس لأحدٍ أن ينازعه في ذلك ... فإذا أبى الإنسان إلا أن يستكبر وأن يعطى لنفسه صفة لا تكون إلا للخالق سبحانه، فيأبى الله أن يترك هذا على ما هو فيه حتى يُذله ويُذيقه الذل في الدنيا والآخرة.. وحقُّ على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه.

فاحذر من الكبر، وكيفيك أن تعلم أنه صفة لا تليق إلا بالله، فلا يجوز لك أن تتحل هذه الصفة، فتستكبر على خلق الله سبحانه وتعالى وأنت مثلهم.



﴿قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ

خَذَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ [لقمان: ١٨].^(١)

❀ وقد ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تلك الآيات التي تحكى قصة قارون لما تكبر وأعجب بنفسه فكانت نهايته أن يُخسف به وبداره وأمواله الأرض ليكون عبرة لمن اعتبر.

﴿١٨﴾

❀ قال تعالى: ﴿إِنَّ قُلُوبَنَا كَمَا تَكُنُ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنٍ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ. لَنَسُوهُ بِالْعَصْبَةِ أَوْ لِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤْبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُلُوبُكُمْ إِنَّهُمْ لَدُوٌّ حَظِيظٌ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ بِسُطِّ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاذِبُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٦-٨٣].

❀ الدار الآخرة: هى آخر دور بنى آدم؛ لأن ابن آدم له أربعة دور كلها تنتهى بالآخرة.

الدار الأولى: فى بطن أمه.

الدار الثانية: إذا خرج من بطن أمه إلى دار الدنيا.

والدار الثالثة: البرزخ؛ ما بين موته وقيام الساعة.

(١) ومعنى تُصْعَر خدك للناس: أى تُمِيلُهُ وتُعرض به عن الناس تَكْبِيرًا عليهم - والمرح: التَّبَخُّرُ.

والدار الرابعة: الدار الآخرة. وهى النهاية، وهى القرار... هذه الدار قال الله تعالى عنها: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصاص: ٨٣]، لا يريدون التعالى على الحق، ولا التعالى على الخلق، وإنما هم متواضعون، وإذا نفى الله عنهم إرادة العلو والفساد، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون فى الأرض، ولا يفسدون، ولا يريدون ذلك ... لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

- (١) قسمٌ علا وفسد وأفسد ... فهذا اجتمع فى حقه الإرادة والفعل.
- (٢) وقسمٌ لم يُرد الفساد ولا العلو فقد انتفى عنه الأمران.
- (٣) وقسمٌ ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه. وهذا الثالث بين الأول والثانى، لكن عليه الوزر؛ لأنه أراد السوء... فالدار الآخرة إنما تكون ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ أى تعالياً على الحق أو على الخلق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

فإن قال قائل: ما هو الفساد فى الأرض؟ فالجواب أن الفساد فى الأرض ليس هدم المنازل ولا إحراق الزروع، بل الفساد فى الأرض بالمعاصى، كما قال أهل العلم رحمهم الله فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، أى لا تعصوا الله؛ لأن المعاصى سبب الفساد^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١٧) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

بَطَرُ الْحَقِّ: دَفْعُهُ وَرُدُّهُ عَلَى قَائِلِهِ - وَغَمَطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ.

﴿قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» يدل على أن مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ هَذَا الْقَدْرُ الْيَسِيرُ الَّذِي قَدْ لَا يُرَى مِنَ الْكِبَرِ فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ... فهذا لا يستحق أن يدخل الجنة؛ لأنه متطاول على الناس، يرى أنه أعظم منهم، لا يكلمهم إلا بترُفَع وتطاول، فحال مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فكيف بمن كَانَ فِي قَلْبِهِ الْكِبَرُ كُلُّهُ؟!

﴿ففى هذا الحديث يتوعد النبى ﷺ المتكبرين بالحرمان من دخول الجنة... لكن المسألة فيها تفصيل... فالذى يتكبر على الخالق (جل جلاله) ويتكبر عن عبادته ويتكبر على الحق الذى جاء من عند الله ﷻ فهو كافرٌ مُخَلَّدٌ فى النار... لقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].
وَلَا يُحْبَطُ الْعَمَلُ إِلَّا بِالْكَفْرِ ... لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وأما إذا كان كبراً على الخلق وتعاظماً على الخلق، لكنه لم يستكبر عن عبادة الله، فهذا لا يدخل الجنة مع أول الداخلين وإنما يُعاقَب على ما حصل منه من الكِبَرِ ثم يدخل الجنة بعد ذلك .. لأنه لا يُخَلَّدُ فى النار مَوْحِداً أَبَداً.

﴿قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «لا يدخل الجنة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَأْوِيلِهِ ... فَذَكَرَ الْخَطَّابِيُّ فِيهِ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّ الْمُرَادَ التَّكَبُّرَ عَنِ الْإِيمَانِ... فَصَاحِبُهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَصْلًا إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ وَالثَّانِي أَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ كِبَرٌ حَالِ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] وَهَذَانِ التَّأْوِيلَانِ فِيهِمَا بُعْدٌ فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَرَدَ فِي سِيَاقِ النَّهْيِ عَنِ الْكِبَرِ الْمَعْرُوفِ وَهُوَ الْإِرْتِفَاعُ عَلَى النَّاسِ وَاحْتِقَارُهُمْ وَدَفْعُ الْحَقِّ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَيْنِ التَّأْوِيلَيْنِ الْمُخْرِجَيْنِ لَهُ عَنِ

الْمَطْلُوب... بَلِ الظَّاهِرُ مَا اخْتَارَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دُونَ مُجَازَاةٍ إِنْ جَازَاهُ وَقِيلَ هَذَا جَزَاؤُهُ لَوْ جَازَاهُ وَقَدْ يَتَكَرَّمُ بِأَنَّهُ لَا يُجَازِيهِ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْخُلَ كُلُّ الْمُؤَحِّدِينَ الْجَنَّةَ إِمَّا أَوَّلًا وَإِمَّا ثَانِيًا بَعْدَ تَعْذِيبٍ بَعْضُ أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ الَّذِينَ مَاتُوا مُصْرِينَ عَلَيْهَا وَقِيلَ لَا يَدْخُلُهَا مَعَ الْمُتَّقِينَ أَوَّلَ وَهَلَةَ^(١).

❁ ولما حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ بهذا الحديث قال رجل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. يعنى: فهل هذا من الكبر؟

فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» جميل في ذاته، جميل في أفعاله، جميل في صفاته... كل ما يَصْدُرُ عن الله ﷻ فَإِنَّهُ جَمِيلٌ وَلَيْسَ بِقَبِيحٍ؛ بَلْ حَسَنٌ، تَسْتَحْسِنُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ، وَتَسْتَسِيغُهُ النُّفُوسُ.

وقوله: «يُحِبُّ الْجَمَالَ» أى يحب التَّجَمُّلُ... بِمَعْنَى أَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَتَجَمَّلَ الْإِنْسَانُ فِي ثِيَابِهِ، وَفِي نَعْلِهِ، وَفِي بَدَنِهِ، وَفِي جَمِيعِ شُؤُونِهِ؛ لِأَنَّ التَّجَمُّلَ يَجْذِبُ الْقُلُوبَ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَيُحِبُّهُ إِلَى النَّاسِ، بِخِلَافِ عَدَمِ الْإِعْتِنَاءِ بِالنَّفْسِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْإِنْسَانُ قَبِيحًا فِي شَعْرِهِ أَوْ فِي ثَوْبِهِ أَوْ فِي لِبَاسِهِ... فَلِهَذَا قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ» أى يحب أن يتجمل الإنسان.

أما جمال الخَلْقَةِ الَّذِي هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ، فَهَذَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ حِيلَةٌ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ كَسْبٌ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ مَا لِلْإِنْسَانِ فِيهِ كَسْبٌ وَهُوَ التَّجَمُّلُ.

❁ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» غَمَطَهُمْ وَغَمَصَهُمْ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، أَيْ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى أَنَّ النَّاسَ تَحْتَهُ مَغْمُوصِينَ، كُلُّ النَّاسِ لَيْسَ لَهُمْ قِيَمَةٌ عِنْدَهُ وَلَا وَزَنٌ.

بطر الحق، يعنى: عدم قبول الحق، إذا عرف أن الحق في هذا الشيء لا

يفعله، ولا يقبله.

«وغمط الناس»: أى احتقارهم.. وكأنه يرى نفسه فوق الناس وأن الناس

تحتة.



(٦١٨) وَعَنْ سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أَنَّ رجلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ» مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ. قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(٦١٩) وَعَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَّازٍ مُسْتَكْبِرٍ»^(٢) وَتَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي بَابِ ضَعْفَةِ الْمُسْلِمِينَ.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(٦٢٠) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اِحْتَجَبَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكَلِيكُمَا عَلَىٰ مَلُوءِهَا»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١) كتاب الأشربة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩١٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٥٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا»^(١).

✽ في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَنْظُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر قد يتهاون فيه كثيرٌ من الناس إلا أن الأمر في غاية الخطورة... فالرجل منهىٌّ عن أن يُسبل ثوبه أو سرواله أو إزاره عن الكعبيين.. فإن أسبل ثيابه تحت الكعبيين فإنه يكون بذلك قد ارتكب كبيرة من الكبائر -والعياذ بالله-.

فإن فعل ذلك كبراً وخيلاء فإن الله ﷻ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُ وَلَا يَزَكِيهِ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

كما قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطَى شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ» وفي لفظٍ آخر: «الْكَاذِبُ»^(٢).

وإن فعل ذلك بغير كبر ولا خيلاء فإنه يُعَذَّبُ في النار.. ويكون العذاب لذلك الجزء الذي حدث فيه الإسبال... كما قال النبي ﷺ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٨٨) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٧) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

❖ وإسبال الثياب كما قلنا إن كان للخيلاء فهو حراماً، وإن كان بغير قصد فهو مكروه (هذا إن كان في غير صلاة، فإن كان في الصلاة فهو أشد كراهة). قال ﷺ: «مَنْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فِي صَلَاتِهِ خِيَلَاءَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي حِلٍّ وَلَا حَرَامٍ»^(١). ❖ ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ يخشون من فعل ذلك بعد الوعيد الذي سمعوه من النبي ﷺ في حق المُسْبِل.

ولذا فإنه لما قال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ إِزَارِي يَسْتَرِّحِي، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خِيَلَاءً»^(٢).

وقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي إِزَارِي اسْتِرْحَاءٌ، فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَرَفَعَ إِزَارَكَ»، فَرَفَعْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «زِدْ»، فَزِدْتُ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْدُ^(٣).

فإذا قال قائل: ما هي السُّنَّة؟ قلنا: السُّنَّة من الكعب إلى منتصف الساق. هذه هي السُّنَّة... نصف الساق سُنَّة، وما دونه سُنَّة، وما كان إلى الكعبين فهو سُنَّة، لأن هذا هو لبس النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلاً، وما بين ذلك كله سُنَّة. قال ﷺ: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِهِ وَلَا جَنَاحَ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ وَمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ»^(٤).

❖ وهنا مسألة في غاية الأهمية ألا وهي أنه إذا كان الله ﷻ لا ينظر إلى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا إِلَّا أَنَّهُ يَرَاهُ وَيُبْصِرُ كُلَّ شَيْءٍ لَكِنَّهُ يَعَامِلُهُ مَعَامِلَةَ الْمُنْسِينَ ﴿وَمَا كَانَ

(١) صحيح: رواه أبو داود (٦٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠١٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٧٨٤) كتاب اللباس.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٦) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه أحمد ومالك وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢١).

رُبُّكَ نَسِيًّا ﴿.. فهو هَزْءٌ لا ينظر إليه نظر رحمة لكنه سبحانه وتعالى يراه ويعلم كل شىء عنه.

وهذا كما يفعل مع أهل النار أنه لا يُكلمهم ولكنه يرد عليهم ويقول: ﴿اَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

فهو سبحانه وتعالى لا يجيبهم جواباً ينتفعون به.

❖ فالشاهد أن الذى يجزر إزاره كبراً وبطراً وخيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يكلمه ولا يزكيه وله عذابٌ أليم.. وإن كان لغير خيلاء فإنه يُعَذَّبُ فى النار ويكون العذاب لذلك الجزء الذى حدث فيه إسبال «مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ» إلا أن يتوب إلى الله ويرجع إليه وينتهى عن فعل ذلك.. فالله غفورٌ رحيم شكورٌ ودود.

❖ ولا بد أن نعلم أن حكم الإسبال خاصٌّ بالرجال.. أما المرأة فلها أن تستر قدمها لأن المرأة موضع فتنة وواجبٌ عليها أن تستر جسدها.



(٦٢٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»^(١).

❖ «ثلاثة»: أى: ثلاثة أصناف من الرجال وليس المقصود ثلاثة رجال.. وقد يكونون آلافاً من الناس أو أكثر.

❖ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليم» .

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧) كتاب الإيمان.
«العائِلُ»: الفقير.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: مَعْنَى لَا يُكَلِّمُهُمْ أَيْ لَا يَكَلِّمُهُمْ تَكْلِيمَ أَهْلِ الْخَيْرَاتِ وَبِإِظْهَارِ الرِّضَى بَلْ بِكَلَامِ أَهْلِ السُّخْطِ وَالْغَضَبِ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ ... وَقَالَ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ: لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامًا يَنْفَعُهُمْ وَيَسْرُّهُمْ وَقِيلَ لَا يُرْسَلُ إِلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ بِالتَّحِيَّةِ ... وَمَعْنَى لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: أَيْ يُعْرِضُ عَنْهُمْ وَنَظَرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ رَحْمَتُهُ وَلُطْفُهُ بِهِمْ ... وَمَعْنَى لَا يُزَكِّيهِمْ لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ^(١).

ولهم عذابٌ أليم: أى لهم عذابٌ وصفه الله ﷻ بأنه مؤلم.

فيا ترى مَنْ هم هؤلاء الثلاثة؟

❁ الأول: «شيخ زان»!!!!!!

فهذا الشيخ الذى قد بلغ من الكِبَرِ عِتْيًا حتى أنه لا يكاد يرى أمامه وقد انقطعت عنده الشهوة فلا يستطيع أن يأتى امرأة فى الحلال وليس عنده شهوة تُجبره على أن يفعل هذا بعد أن بردت شهوته وزالت أو نقصت كثيرًا بخلاف الشاب الذى قد يكون عنده شهوة ويعجز عن أن يملك نفسه... ومع ذلك يتكلف هذا الشيخ ويتناول المنشطات أو غير ذلك ليذهب ويفعل الفاحشة فى الحرام!!!!... فهذا الرجل لا يكلمه الله يوم القيامة ولا يزكّيه ولا ينظر إليه وله عذابٌ عظيم... لأنه فعل الفاحشة دون أن يكون عنده سببٌ قوى يدفعه إليها.

والزنى كله فاحشة سواء من الشاب أو من الشيخ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم والعياذ بالله... إلا أن هذا الحديث مُقيد بما ثبت فى الصحيحين أن مَنْ أتى شيئًا من هذه القاذورات، وأُقيم عليه الحد فى الدنيا فإن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين بل يزول عنه ذلك، ويكون الحدُّ تطهيرًا له.

❁ الثانى: «ملكٌ كذاب» أى: كثير الكذب.. وهل الملك يحتاج لأن

يكذب؟!؟

إن الكذب حرامٌ سواء كان ذلك من الملك أو من الرعية ولكنه من الملك يكون أسوأ لأن الذى يكذب هو الذى يحتاج أن يداهن أحداً لأنه يخاف منه أو يريد منه منفعة.. فهل هذا الملك الكذاب يخشى أحداً من رعيته أو يرجو منفعة من أحد رعاياه؟!.. ولذا كان عذابه أليماً يوم القيامة لأنه يكذب ويكذب دون أن يكون عنده سببٌ قوى يدفعه لذلك.. فهو صاحب الكلمة فى مملكته.. إن أراد شيئاً فعله وإن لم يُرده رفضه ولا أحد يستطيع أن يُعارضه فلماذا يكذب؟!؟

✽ الثالث: «عائلٌ مستكبر».. وهذا هو الشاهد من الحديث... فهذا رجلٌ فقير يحتاج أن يكون متواضعاً ليعطف الناس عليه ومع ذلك فهو يستكبر على الناس من حوله ويتكبر على الحق... فالإنسان الغنى ربما يُغرّه غناه فيتكبر على الحق ويتكبر على الناس.. لكن الفقير الذى لا يملك قُوت يومه لماذا يستكبر؟! والكبر حرام من الغنى ومن الفقير، لكنه من الفقير أشد، ولهذا تجد الناس إذا رأوا غنياً متواضعاً استغربوا ذلك منه، واستعظموا ذلك منه، ورأوا أن هذا الغنى فى غاية الخلق النبيل... لكن إذا وجدوا فقيراً متواضعاً لكان أمراً عادياً، لأن الفقر يوجب للإنسان أن يتواضع، لأنه لأى شىء يستكبر!.

فإذا جاء إنسان والعياذ بالله عائل فقير يستكبر على الخلق، أو يستكبر عن الحق، فليس هناك ما يوجب الكبرياء فى حقه، فيكون والعياذ بالله داخلًا فى هذا الحديث.

✽ وقد يخطر على بال أحدكم سؤال ويقول: ولماذا جمع النبى ﷺ هؤلاء

الثلاثة فى حديث واحد؟ وما الذى يجمع بينهم؟

ويأتيك الجواب من القاضى عياض رَحِمَهُ اللهُ فيقول: سَبَبُهُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ اِتَّزَمَ الْمَعْصِيَةَ الْمَذْكُورَةَ مَعَ بُعْدِهَا مِنْهُ وَعَدَمِ ضَرُورَتِهِ إِلَيْهَا وَضَعْفِ دَوَائِعِهَا

عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ لَا يُعْذِرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ إِلَى هَذِهِ الْمَعَاصِي ضَرُورَةٌ مُزْعِجَةً وَلَا دَوَاعِيَ مَعْتَادَةٍ أَشْبَهَ إِقْدَامَهُمْ عَلَيْهَا الْمُعَانَدَةَ وَالِاسْتِخْفَافَ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَقَصْدَ مَعْصِيَتِهِ لَا لِحَاجَةٍ غَيْرَهَا.

فَإِنَّ الشَّيْخَ لِكَمَالٍ عَقْلِهِ وَتَمَامٍ مَعْرِفَتِهِ بِطُولِ مَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنَ الزَّمَانِ وَضَعْفِ أَسْبَابِ الْجَمَاعِ وَالشَّهْوَةِ لِلنِّسَاءِ وَاخْتِلَالِ دَوَاعِيهِ لِذَلِكَ عِنْدَهُ مَا يُرِيحُهُ مِنْ دَوَاعِيَ الْحَلَالِ فِي هَذَا وَيُخَلِّي سِرَّهُ مِنْهُ فَكَيْفَ بِالزُّنَى الْحَرَامِ وَإِنَّمَا دَوَاعِيَ ذَلِكَ الشَّبَابُ وَالْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ وَقَلَّةُ الْمَعْرِفَةِ وَغَلَبَةُ الشَّهْوَةِ لِيُضْعِفَ الْعَقْلَ وَصِغَرَ السِّنَّ... وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ لَا يَخْشَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مُدَاهَنَتِهِ وَمُصَانَعَتِهِ... فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُدَاهِنُ وَيُصَانِعُ بِالْكَذِبِ وَشِبْهِهِ مَنْ يَحْذَرُهُ وَيَخْشَى أَذَاهُ وَمُعَاتَبَتَهُ أَوْ يَطْلُبُ عِنْدَهُ بِذَلِكَ مَنَزَلَةً أَوْ مَنَفَعَةً وَهُوَ غَنِيٌّ عَنِ الْكَذِبِ مُطْلَقًا... وَكَذَلِكَ الْعَائِلُ الْفَقِيرُ قَدْ عَدِمَ الْمَالَ وَإِنَّمَا سَبَبُ الْفَخْرِ وَالْخِيَلِ وَالتَّكْبَرِ وَالْإِرْتِفَاعِ عَلَى الْقُرْنَاءِ الثَّرْوَةِ فِي الدُّنْيَا لِكَوْنِهِ ظَاهِرًا فِيهَا وَحَاجَاتُ أَهْلِهَا إِلَيْهِ... فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ أَسْبَابُهَا فَلِمَاذَا يَسْتَكْبِرُ وَيَحْتَقِرُ غَيْرَهُ فَلَمْ يَبْقَ فِعْلُهُ وَفِعْلُ الشَّيْخِ الزَّانِي وَالْإِمَامُ الْكَاذِبُ إِلَّا لِيُضْرَبَ مِنَ الْإِسْتِخْفَافِ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ يَنَازِعْنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَقَدْ عَذَّبْتُهُ»^(٢).

❁ قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تَمَرُّ كَمَا جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يُتَعَرَّضُ لِمَعْنَاهَا بِتَحْرِيفٍ أَوْ تَكْيِيفٍ، وَإِنَّمَا يُقَالُ هَكَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا رَوَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ... فَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ فِي عِزِّهِ وَأَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ سُلْطَانًا

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٠) كتاب البر والصلة والآداب.

كسلطان الله، أو نازع الله في كبريائه وتكبر على عباد الله، فإن الله يُعذبه... يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرْجَلٌ رَأْسُهُ، يَخْتَالُ فِي مَشْيِهِ، إِذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢٥) وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ»^(٢).

✽ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

الحسرات التي يجنيها المتكبر في الدنيا والآخرة

✽ فأما حسرته في الدنيا فإنه يُحرم من محبة الناس ومحبة الملائكة، وفوق ذلك يُحرم من محبة رب العالمين ﷻ **﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾** [النحل: ٢٣].

✽ وقد قال ﷺ مُخْبِرًا عَنْ رَبِّهِ ﷻ أَنَّهُ: «إِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغَضُهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٨٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٨) كتاب اللباس والزينة.

«مُرْجَلٌ رَأْسُهُ» أَي: مُمَشَّطُهُ. «يَتَجَلَجَلُ» بِالْجِيمِ: أَي: يَغْوُصُ وَيَنْزِلُ.

(٢) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٩١٤)، وضعيف الجامع (٦٣٤٤).

«يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ» أَي: يَرْتَفِعُ وَيَتَكَبَّرُ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة والآداب.

ثم إن المستكبر يُحرّم الخير العظيم الذى لم يجعله الله إلا لأحابه حيث يقول: « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَإِنْ سَأَلْنِي لأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ »^(١).
وكذلك فإن الله (جَلَّ وَعَلَا) يصرفه عن آياته ... قال تعالى: ﴿ سَاصِرُفٌ عَنْ عَآيَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

أى: سأمنع المتكبرين عن فهم آياتى فلا يتفكرون ولا يتدبرون بما فيها وأطمس على قلوبهم عقوبة لهم على تكبرهم.
﴿ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « اِحْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكَ الْجَنَّةُ رَحِمَتِي، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ وَإِنَّكَ النَّارُ عَذَابِي، أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ، وَلِكُلِّيْكُمْ عَلَى مِلْؤُهَا »^(٢).

﴿ وأما عن عذاب أهل الكبر فى الآخرة فتأمل معى ما قاله الحبيب ﷺ حيث يقول: « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسْأَلُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ.. طِينَةُ الْخَبَالِ »^(٣). فيا له من عذابٍ شديدٍ^(٤).

﴿ والمتكبر قد يُحرّم من دخول الجنة مع أول الداخلين .. ويدخل النار.
﴿ عن حارثة بن وهب الخزاعى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٥٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٨٤٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).

(٤) وأنذرهم يوم الحسرة / د. محمود المصرى (١٨٨، ١٨٩).

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ^(١) جَوَّازٍ^(٢) مُسْتَكْبِرٍ^(٣)».

✽ وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»^(٤).

عجباً لهذا المتكبر المخلوق الضعيف كيف يتجرأ على خالقه مالك المملك، (جلّ وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) العتل: الغليظ الفظ الجافي.

(٢) الجواز: الجموع للمال، المنوع له. وقيل: الضخم المختال في مشيته.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٧١) كتاب الأدب، ومسلم (٢٨٥٣) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

(٧٣) بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ

❁ ما أجمل أن يتخلق المسلم بأخلاق الرسول ﷺ الذي رباه الحق (جل وعلا) وصنعه على عينه ليُربى به الأمم والأجيال عبر العصور والأزمان .. بل وأثنى عليه الحق (جل وعلا) بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

❁ فإذا تخلق المسلم بأخلاق الرسول ﷺ كان حَسَنَ الْخُلُقِ مع الله (جل وعلا) ومع الناس في آنٍ واحدٍ.

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

أما حسن الخلق مع الله: فهو الرضا بحكمه شرعاً وقدرًا، وتلقَى ذلك بالانسراح وعدم التضجُّر، وعدم الأسى والحزن... فإذا قدر الله على المسلم شيئاً يكرهه رضى بذلك واستسلم وصبر، وقال بلسانه وقلبه: رضيت بالله ربًّا... وإذا حكم الله عليه بحكم شرعى؛ رضى واستسلم، وانقاد لشرعية الله ﷻ بصدرٍ مُنشرح ونفسٍ مُطمئنة... فهذا حُسْنُ الْخُلُقِ مع الله ﷻ.

أما مع الْخَلْق: فيُحسن الْخُلُقَ معهم بما قاله بعض العلماء: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقه الوجه.

كَفُّ الْأَذَى: ألا يؤذى الناس لا بلسانه ولا بجوارحه... وبذل الندى يعنى العطاء، فيبذل العطاء من مالٍ وعلمٍ وجاهٍ وغير ذلك... وطلاقة الوجه بأن يلقى الناس بوجهٍ منطلق، ليس بعبوس، ولا مُصعِّرٍ خده، وهذا هو حسن الخلق.

ولا شك أن الذى يفعل هذا؛ فيكف الأذى ويبذل الندى ويجعل وجهه منطلقًا؛ لا شك أنه سيصبر على أذى الناس أيضًا، فإن الصبر على أذى الناس لا شك أنه من حُسْنِ الْخُلُقِ... فإن من الناس مَنْ يؤذى أخاه، وربما يعتدى عليه بما يضرّه.. بأكل ماله، أو جحد حقِّ له، أو ما أشبه ذلك، فيصبر ويحتسب الأجر

من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعاقبة للمتقين، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس^(١).

﴿وتأملوا معي قول الله (جل وعلا) في سورة البقرة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- فعرف الله ﷻ البر بأنه الإتيان بكل هذه الاعتقادات والعبادات.

- فإذا جمعت بين هذه الآية وبين قول النبي ﷺ: «البر حسن الخلق» علمت أن حسن الخلق له مفهوم أوسع وأشمل مما نظن ونعتقد.

- وستجد أن حسن الخلق يشتمل على: حسن الخلق مع الله... حسن الخلق مع رسول الله ﷺ... حسن الخلق مع كتاب الله (جل وعلا)... حسن الخلق مع الملائكة... حسن الخلق مع الناس.

- فحسن الخلق كلمة جامعة لكل ذلك.

﴿فأما حسن الخلق مع الله فذلك بأن نُحقق العبودية لله ولا نشرك به شيئاً وأن نمثل للأمر والنهي... وذلك بأنه إذا جاء الأمر من عند الله فليكن شعارنا: سمعنا وأطعنا... وإذا جاء النهي من عند الله فليكن شعارنا: سمعنا وانتهينا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

﴿وأما حسن الخلق مع رسول الله ﷺ فذلك بأن نحبه ونتبعه ونمثل أمره ﷺ ولا نُقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ ولا نرفع أصواتنا فوق صوت النبي ﷺ.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٩٨).

✽ وأما حُسن الخلق مع كتاب الله (جل وعلا) فذلك بأن نقرأه ونتدبره ونعمل بما فيه ونتحاكم إليه في كل صغيرة وكبيرة.

✽ وأما حُسن الخلق مع الملائكة فذلك بأن يعلم كل واحد منا بأن معه ملائكة لا تفارقه وتكتب عليه كل أقواله وأعماله فيتولد عنده الحياء من أن يفعل معصية يكتبها عليه الملك الموكل بذلك.. بل يحرص على فعل الحسنات التي تقربه من الله (جل وعلا).

✽ وأما حُسن الخلق مع الناس فذلك بأن تكون طليق الوجه رحيماً متسامحاً ليناً في دعوتك مع البر والفاجر ولكن من غير مداهنة... فقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حينما أمرهما بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]... فأنت لست أفضل من موسى وهارون عليهما السلام... ومن تدعوه ليس بأخبث من فرعون.

✽ فالشاهد من كل هذا أن مفهوم حُسن الخلق أوسع وأشمل مما نتخيل.



✽ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

أكتفى هنا بذكر ما قاله الشيخ السعدى رحمته الله في تفسير تلك الآية الكريمة التي زكّت خُلُقَ النبي صلى الله عليه وسلم تزكية عظيمة، ليس قبلها ولا بعدها تزكية، إذ قال رحمته الله ما نصّه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أى: عاليًا به، مُستعليًا بخُلُقك الذى منّ الله عليك به... وحاصل خُلُقه العظيم، ما فسرت به أم المؤمنين، عائشة رضي الله عنها لمن سألها عنه، فقالت: «كان خُلُقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ﴿فِمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ لَفُتَّ فَمَا نَتَرْتُمُوهَ رَبُّنَا وَنَحْنُ عَنْهُ مُدْبِرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿[التوبة: ١٢٨] وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على الخلق العظيم فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً لينا، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب من سألته... لا يحرمه، ولا يرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من مُحسنهم، ويعفو عن مُسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوى عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة، بل يُحسن إلى عشرته غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢٦) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقاً^(٢).

✽ لقد اجتمعت في رسول الله ﷺ خصال الخير من حياءٍ وكرمٍ وشجاعةٍ ووفاءٍ ونجدةٍ وشهامةٍ وحُسن استقبالٍ وحلمٍ وإكرامٍ يتيماً وحُسن سريرةٍ وصدق حديثٍ وعفةٍ وطهارةٍ وزكاءٍ نفسٍ وسائر خصال الخير.

✽ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحُسن الخلق، لأن تقوى الله تُصلح ما بين العبد وبين ربه وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه... فتقوى الله تُوجب له محبة الله وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته^(٣).

✽ وقد سُئِلَت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»^(٤).

(١) تفسير السعدى (ص ٨٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٠٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٥٠) كتاب الآداب.

(٣) الفوائد (ص: ٧٥).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين.

وصفٌ موجزٌ وبلغُ تصفٍ به أم المؤمنين الفقيهة العالمة رسول الله ﷺ!
وصفٌ شاملٌ وجامعٌ، «كان خلقه القرآن» صلوات ربي وسلامه عليه.
خلقُه هذا القرآن الذي ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، و﴿يَهْدِي إِلَى
الرُّشْدِ﴾ [الجن: ٢].

✽ خلقه القرآن، ذلكم الكتاب الذي: ﴿لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].
✽ لقد كانت أخلاقه ﷺ عظيمة مع أصحابه وأعدائه وفي بيته وخارج بيته
ومع القريب والبعيد. فكان لا يعامل الناس بأخلاقهم بل كان يتحمل سوء
أخلاقهم ويعاملهم بأخلاقه هو ﷺ... حتى شهد له أعداؤه قبل أحبابه.
فها هو أبو سفيان رضي الله عنه الذي كان زعيمًا للمشركين ومع ذلك فقد شهد
للنبي ﷺ بحسن الخلق قبل أن يُسلم أبو سفيان.. بل قال له عند إسلامه: «والله
إنك لكريم، ولقد حاربتك فنعم مُحاربي كنت، ثم سالمتك فنعم المُسالِم أنت،
فجزاك الله خيرًا»^(١).

✽ بل لا أكون مبالغًا إذا قلت أن أعداءه قد انبهروا بأخلاقه فكان ذلك سببًا
في اعتناقهم لهذا الدين العظيم.

فها هو ملك عُمان المعاصر لرسول الله ﷺ وهو الجُلندي^(٢)؛ الذي انبهر
بأخلاقه ﷺ، فقال: «والله لقد بلغني عن هذا النبي الأُمي أنه لا يأمر بخير إلا
كان أول آخذٍ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تاركٍ له، وأنه يغلب فلا ييطر،
ويُغلب فلا يضجر، وفي بالعهد وينجز الموعد، وأشهد أنه نبي»^(٣).

✽ وهذا هو السر في أن النبي ﷺ قد اشتهر بين قومه بأنه الصادق الأمين..

(١) أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة (٣/ ١٥٠٩).

(٢) الجلندي: ملك عمان بعث إليه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص يدعوهُ إلى الإسلام.

انظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة (١/ ٥٣٨) ترجمة رقم (١٢٩٨).

(٣) الشفا/ للقاضي عياض (١/ ٢٤٨).

وحينما أراد المشركون أن يفتروا على النبي ﷺ وأن يصفوه بما ليس فيه قالوا عنه كلامًا كثيرًا كله ظلم وبُهتان لكن لم يستطع واحدٌ منهم بأن يصفه بأنه كذاب أو خائن.

- وليس هناك أدل على ذلك من أن الواحد منهم كان إذا أراد أن يحفظ شيئًا ثمينًا من ممتلكاته فإنه كان لا يجد إلا النبي ﷺ فيضعها عنده.. لأنه يعلم أن النبي ﷺ لا يكذب ولا يخون.

ولذلك فإن النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة طلب من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام مكانه ليرد تلك الأمانات لأصحابها.

✽ ولم يكن الأمر قاصرًا على قريش فحسب.. بل كان العرب جميعًا يشهدون للنبي ﷺ بحسن الخلق وبدعوته إلى حسن الخلق.

✽ ولم تكن أخلاق النبي ﷺ مع قومٍ دون قومٍ بل كان حسن الخلق مع الغنى والفقير ومع السادة والعبيد.. فكان يحب المساكين ويُجالس الفقراء ويزور أصحابه ويُلَبِّي الدعوة ويعود المرضى ويشهد الجنائز وتسير به الأمة في شوارع المدينة أينما شاءت.

وبالجملة فقد كان رحيماً بكل من حوله دائم الابتسامة مُتهلِّل الوجه كثير العفو عمن أساء إليه وظلمه.

✽ وكان النبي ﷺ يستمد أخلاقه من القرآن فقد كان النبي ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض... لذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سألها سعد بن هشام بن عامر رضي الله عنه عن خُلُق رسول الله ﷺ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بلى. قالت: فَإِنْ خُلِقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ^(١).

✽ ومع كل هذا فقد كانت أخلاقه متكافئة بحيث لا يطغى خُلُقٌ على خُلُقٍ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

آخر ... فكان حياؤه مثل ورعه وكان صدقه مثل حلمه وكان صبره مثل شجاعته وكان توكله مثل إحسانه وكانت أمانته مثل كرمه وكان وفاؤه مثل رحمته.. وهكذا.

❖ ولو أردت أن أتكلم عن أخلاق النبي ﷺ حتى آخر لحظة من عمري ما استطعت أن أوفيه حقه ﷺ.

وحسبه أن الله (جل وعلا) وصفه بأعظم وصف فقال: ❖ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿[القلم: ٤]﴾^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٢٧) وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: مَا مَسَسْتُ دِيْبَا جًا وَلَا حَرِيرًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا شَمَمْتُ رَائِحَةً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي قَطُّ: أُفٍّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتُهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَ كَذَا؟^(٢).

❖ كان أنس بن مالك رضي الله عنه قد خدم النبي ﷺ عشر سنين؛ جاءت به أمه حين قَدِمَ النبي ﷺ المدينة، فقالت: يا رسول الله، هذا أنس بن مالك يخدمك... فقبل ﷺ أن يخدمه، ودعا له أن يبارك الله له في ماله وولده، فبارك الله له في ماله وولده، حتى قيل إنه كان له بستان يُثمر في السنة مرتين، من بركة المال الذي دعا له رسول الله ﷺ به... أما أولاده فبلغوا مائة وعشرين ولداً... كل هذا ببركة دعوة النبي ﷺ.

يقول: إنه ما مسَّ ديباجًا ولا حريرًا أَلَيْنَ من يد رسول الله ﷺ فكانت يده ﷺ لينة إذا مسَّها الإنسان فإذا هي لينة.

(١) نقلًا من كتاب (محمد رسول الله ﷺ) / للشيخ محمود المصري.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٦١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٣٠) كتاب الفضائل.

وكما ألان الله يده فقد ألان الله سبحانه وتعالى قلبه.

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَهْتُمْ﴾ يعني صرت لينا لهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] (١).

✽ أما قول أنس رضي الله عنه: ما مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ: (والديباج نوع من أنواع الحرير)، قال ابن حجر في الفتح: لا تعارض بين هذا الحديث وما رواه أنس أنه كان ضخم اليدين والقدمين وأنه كان شثن الكفين والقدمين أى غليظهما في خشونة... والجمع بينهما، أن المراد اللين في الجلد والغلظ في العظام فيجتمع له نعومة البدن وقوته.

وأعتقد أن من ضمن ما حبا الله به كف نبيه ﷺ بما يلائم ليونته، ويزيد الكف جمالا على جماله، أن جعل الله سبحانه وتعالى هذا الكف أبرد من الثلج... فقد روى البخارى: «عن أنس رضي الله عنه قال: ولا مسست خزة ولا حريرة ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب رائحة من رائحة رسول الله ﷺ» فاليد أطيب من المسك والجلد ألين من الحرير والملمس أبرد من الثلج، فهلبقى بعد ذلك شىء.

وهذا أيضًا من أنواع الكمال والجمال البشرى الذى حبا الله به نبيه ﷺ، فلو اقتصر الأمر على ليونة ونعومة اليد لكان نقصًا فى الكمال، ولو اقتصر على الغلظ فى العظام لكان نقصًا فى الجمال، وفيه أيضا إظهار لكمال قدرة الله فى الخلق... إذ خلق الأشياء فى أحسن صورة وأجملها مع مناسبتها تمامًا لما خلقت من أجله، وهذا يتحقق فى خلقه الناس على تفاوت.

وتأمل كيف كان النبى ﷺ فى عيون الصحابة رضي الله عنهم: ما كانوا يرون أحداً

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٠٠).

أجمل منه وجهًا، ولا ألين منه كفًا، ولا أطيب منه رائحة. ورؤيتهم له على هذا الوجه، يدل على حبهم الشديد له وصفاء قلوبهم؛ لأن القلب الصافي من الشبهات هو الذى يرى الأشياء على حقيقتها... انظر إلى كفار مكة لظلمة قلوبهم لم يروا النبى ﷺ، كما رآه الصحابة، ألم تسمع إلى قول الصحابى الجليل عمرو بن العاص، رضى الله عنه: (وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملاً عيني منه) (١) (٢).

❁ وأما قول أنس رضى الله عنه: «ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ».

فلقد كان النبى ﷺ أطيب الناس رائحة حتى كان عرقه ﷺ أطيب من رائحة المسك.. وكان الصحابة يتبركون بعرقه ﷺ.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: (كان النبى ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه. قال: فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتيت. فقيل لها: هذا النبى ﷺ نام فى بيتك على فراشك. قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدها (٣)، فجعلت تُشَف ذلك العرق، فتعصره فى قواريرها، ففزع النبى ﷺ فقال: «ما تصنعين يا أم سليم؟» فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا. قال: «أصبِت» (٤).

الشاهد فى الحديث: قول أم سليم: (يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا).

❁ بعض فوائد الحديث:

(١) عظيم بركة عرقه وشعره ﷺ حيث ردَّ النبى ﷺ على أم سليم رضى الله عنها لما

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

(٢) نقلاً عن (شمائل الرسول ﷺ).

(٣) العتيدة: وعاء يوضع فيه ما يشرف ويعظم من المتاع.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣١) كتاب الفضائل.

قالت (يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا) . بقوله: «أصببت» .

أى أن النبي ﷺ قد أقرَّ أم سليم، على كل ما فعلت، من عصر العرق الذى تَصَبَّب منه على قطعة الأديم التى كان النبي ﷺ ينام عليها، ووضع ذلك العرق فى قوارير لحفظه.

(٢) طيب عرقه ﷺ حيث كانت أم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأخذ هذا العرق فتخلط به طيبها - عطرها - ... ورد عند البخارى: (فإذا نام النبي ﷺ أخذت من عرقه وشعره فجمعتهم فى قارورة ثم جمعتهم فى سَك) . والسُّك هو طيبٌ مُرَكَّب .
وعند مسلم: (هذا عرقك نجعله فى طيبنا وهو من أطيب الطيب) ، أى أن عرقه ﷺ كانوا يطيبون به الطيب - العطر - .

(٣) لم يكن هذا التعظيم لآثار النبي ﷺ من قِبَل أم سليم وحدها، بل كان من قِبَل أنس بن مالك، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إذ أوصى عند موته أن يُجعل فى حنوطه، وهو العطر الذى يُطيب به الميت، من الطيب الذى كان يخلط به عرق رسول الله، ﷺ ... فعند البخارى من حديث ثمامة: (فلما حضر أنس بن مالك الوفاة أوصى إلى أن يُجعل فى حنوطه من ذلك السُّك، قال: فجُعل فى حنوطه) ، ولولا أن الأمر كان يشغله ويهتم به فى أوقات صحته، ما تذكره يوم وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وتدبر أخى القارئ كم مكث هذا الطيب عقوداً طويلة عند أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى مات^(١) .

وتأمل أخى القارئ كم يصرف أصحاب المناصب والوجاهة من أموال لتكون لهم رائحة زكية عطرة تُعجب الناس فلا يتقززون منهم، وكم تمكث هذه الرائحة الزكية، ثم ما تلبث أن تذهب وتخرج الرائحة الكريهة إذا لم يتدارك الإنسان نفسه، فضلاً عن اضطراره إلى الاغتسال صباحاً ومساءً ليحافظ على رائحته الجميلة، ولكن الله، سبحانه وتعالى، قد كفى نبيه ﷺ مؤونة ذلك، فما

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (٢/ ٣٣٠-٣٣٢) بتصرف كبير.

كان يزيده العرق إلا جمالاً في الوجه وطيباً في الرائحة، إذن ما احتاج النبي ﷺ أبداً أن يغتسل ليذهب أثر العرق، كما يفعل بقية الخلق، ولا نعلم أحداً يُشابهه في ذلك إلا أهل الجنة الذين سَلِمُوا من كل سوء ومكروه... حيث ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة عن بعض صفات أهل الجنة: «ورشحهم المسك»^(١). فسبحان الله العظيم، الذي جمع لنبيه ﷺ، حسن الخلق والخلقة، وجمال الباطن والظاهر^(٢).

❁ ثم قال أنس رضي الله عنه: (ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أُمَّ) عشر سنوات وهو يخدم النبي ﷺ، وهو صبي صغير لا بد أن يُخطئ، ولا بد أن يفعل أشياء تضايق النبي ﷺ... فقد كان أحياناً يرسله ليأتيه بشيء، فيذهب ويلعب وينسى الشيء الذي أمره به النبي ﷺ.. ويأتي إليه النبي ﷺ ويقول: يا غلام! فيستحي أنس من النبي ﷺ، فيقول له النبي ﷺ: اذهب لما أمرتك، ولا يقول له أكثر من ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

(ولا قال لشيء فعلته لِمَ فعلته) أي: لم يقل له: ما الذي جعلك تفعل كذا، (ولا لشيء لم أفعله) أي: تلكأ فيه، ولم يفعله، (ألا فعلت كذا!) فكان ﷺ لا يزجره وإن أخطأ ﷺ... هذا فعله مع خادم عنده ﷺ، فكيف بفعله مع باقي الناس!

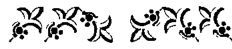
فكان عليه الصلاة والسلام يُعامله بما أرشده الله سبحانه وتعالى إليه في قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أتدرون ما العفو؟ العفو ما عفا من أخلاق الناس وما تيسر... يعني: خُذ من الناس ما تيسر، ولا تريد أن يكون الناس لك على ما تريد في كل شيء.

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٢٤٦) كتاب بدء الخلق.

(٢) شمائل الرسول ﷺ (١/ ١٩٤).

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ لَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ فَاتِهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ خُذْ مَا تَيْسِرُ... عَامِلِ النَّاسَ بِمَا إِنْ جَاءَكَ قَبْلَتْ، وَإِنْ فَاتَكَ لَمْ تَغْضَبْ، وَلِهَذَا قَالَ: «مَا قَالَ لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: لِمَ لَمْ تَفْعَلْ كَذَا، وَكَذَا؟» وَهَذَا مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.



(٦٢٨) وَعَنْ الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَهْدَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَحَشِيًّا، فَرَدَّهُ عَلَيَّ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا لَأَنَّا حُرْمٌ»^(١). فَمِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ لَا يُدَاهِنُ النَّاسَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَلَا يَفُوتُهُ أَنْ يُطِيبَ قُلُوبَهُمْ... فَالصَّعْبُ بْنُ جَثَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَالنَّبِيُّ ﷺ مُحْرِمٌ، وَكَانَ الصَّعْبُ بْنُ جَثَامَةَ عَدَاءً رَامِيًّا... عَدَاءً: يَعْنِي سَبُوقًا، رَامِيًّا: يَعْنِي يَجِيدُ الرَّمْيَ. فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ ضَيْفًا رَأَى أَنَّهُ لَا أَحَدٌ أَكْرَمَ ضَيْفًا مِنْهُ، فَذَهَبَ يَصِيدُ لِلرَّسُولِ ﷺ صَيْدًا، فَصَادَ لَهُ حِمَارًا وَحَشِيًّا وَجَاءَ بِهِ إِلَيْهِ فَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ فَصَعَّبَ ذَلِكَ عَلَى الصَّعْبِ؛ كَيْفَ يَرُدُّ النَّبِيُّ ﷺ هَدِيَّتَهُ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي وَجْهِهِ طَيَّبَ قَلْبَهُ وَقَالَ: «إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا لَأَنَّا حُرْمٌ» يَعْنِي مُحْرِمُونَ... وَالْمُحْرَمُ لَا يَأْكُلُ مِنَ الصَّيْدِ الَّذِي صِيدَ مِنْ أَجْلِهِ.

فَلَوْ أَنَّ مُحْرَمًا مَرَّ بِكَ وَأَنْتَ فِي بَلَدِكَ وَهُوَ مُحْرِمٌ وَصِدَّتْ لَهُ صَيْدًا أَوْ ذَبَحَتْ لَهُ صَيْدًا عِنْدَكَ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنْ أَكْلِ مَا صِيدَ مِنْ أَجْلِهِ، أَمَا إِذَا لَمْ تَصِدْهُ مِنْ أَجْلِهِ، فَالصَّحِيحُ أَنَّهُ حَلَالٌ لَهُ إِذَا لَمْ تَصِدْهُ لِأَجْلِهِ. وَلِهَذَا أَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الصَّيْدِ الَّذِي صَادَهُ أَبُو قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ أَبَا قَتَادَةَ لَمْ يَصِدْهُ مِنْ أَجْلِ الرَّسُولِ ﷺ... وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، إِنَّهُ إِذَا صِيدَ الصَّيْدُ مِنْ أَجْلِ الْمُحْرَمِ كَانَ حَرَامًا عَلَيْهِ، وَإِنْ صَادَهُ الْإِنْسَانُ لِنَفْسِهِ وَأَطْعَمَ مِنْهُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٢٥) كتاب الحج، ومسلم (١١٩٣) كتاب الحج.

المُحَرَّم فلا بأس^(١).

وهذا القول فيه التلطف في الاعتذار، وعدم إيقاع الغير في الاعتذار بالكذب، لعله يقول له ﷺ: أنا خائف أنك تكون اصطدته من أجلى، فيقول: لا، لم أصطده من أجلك، ويكون قد صاده فعلاً من أجله، ولكن الحياء منعه أن يقول ذلك... لذلك قال الكلمة اللطيفة منه ﷺ: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرَّم».

ففيه أن الإنسان إذا أُهدى له هدية، ولم يكن عليه شيء في قبولها، فليقبل الهدية، فإذا تأذى منها أو ظن من ورائها شيئاً، تلطّف في الاعتذار.

﴿٢٢٩﴾

(٦٢٩) وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»^(٢).

﴿٥٩٥﴾ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٩٥) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

﴿٦٣٠﴾

(٦٣٠) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا. وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»^(٣).
﴿يُقَالُ: فَلَانٌ فَاحِشٌ، أَيْ: بَطْبَعَهُ، فَطْبَعَهُ فِيهِ الْفَحْشُ. (وَلَا مُتَفَحِّشًا) أَيْ: مُتَكَلِّفًا لَذَلِكَ.

أما رسول الله ﷺ فقد كان أبر الخلق، لا هو فاحش بطبيعته، ولا يتكلف

(١) شرح رياض الصالحين (٣٠١/٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٥٩) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٢١) كتاب الفضائل.

ذلك (عليه الصلاة والسلام)، فهو أنقى الناس لسانًا وقلبًا.

وفي الحديث بقية وهو قوله ﷺ: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا» أي: إن من خيار الناس في الناس أحاسنهم أخلاقًا.

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الرسول ﷺ وأنه «لم يكن فاحشًا ولا مُتفحشًا»، يعنى: أنه ﷺ بعيد عن الفُحش طبعًا وكسبًا، فلم يكن فاحشًا في نفسه ولا في غريزته بل هو لينٌ سهل، ولم يكن مُتفحشًا أي: متطبع بالفحشاء، بل كان ﷺ أبعد الناس عن الفُحش في مقاله وفي فعّاله ﷺ.

وكان ﷺ يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا» وهذا فيه الحثُّ على حسن الخلق، وأنه من أثقل ما يكون في الميزان يوم القيامة... وهذا من باب الترغيب فيه... فعليك يا أخى المسلم أن تحسن خلقك مع الله ﷻ، في تلقى أحكامه الكونية والشرعية، بصدرٍ مُنشرحٍ منقادٍ راضٍ مُستسلمٍ، وكذلك مع عباد الله فإن الله تعالى يحب المحسنين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣١) وَعَنْ أَبِي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ. وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ»^(١).

✽ من المعلوم أنه بعد أن ينتهى الحساب يوم القيامة بين يدي الله ﷻ تنصب الموازين يوم القيامة.. وذلك لأن الوزن يكون للجزاء.. والمحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

والميزان أمرٌ غيبي نؤمن به.... فتُوزن أعمال العباد يوم القيامة وتُوزن صحائف الأعمال ويُوزن ثواب العمل ويُوزن العامل نفسه.

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٢٦).

«الْبَذِيَّ»: هُوَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْفُحْشِ وَرَدَى الْكَلَامِ.

ولا شك أن أعظم ما يُثقل ميزان العبد يوم القيامة هو: (لا إله إلا الله) ... وقد أخبر النبي ﷺ أن هناك ما يُثقل الميزان يوم القيامة مثل تسبيح الله وحمده فقال ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).. وكذلك كلمة الحمد لله.. كما قال ﷺ: «... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ»^(٢).

لكن النبي ﷺ في هذا الحديث يخبر أن أكثر ما يُثقل ميزان العبد يوم القيامة هو حُسن الخلق بمفهومه الشامل: ألا وهو حُسن الخلق من الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والرضا بقضائه وقدره والإكثار من ذكره.. وحُسن الخلق مع رسول الله ﷺ بتصديقه واتباعه ومحبته.. وحُسن الخلق مع الناس ببذل الندي وكفِّ الأذى والصبر عليهم وبسط الوجه وغير ذلك.

❁ فحُسن الخلق هو أكثر ما يُثقل ميزان العبد يوم القيامة بعد (لا إله إلا الله) ... ولذا قال النبي ﷺ بعد ذلك: «وَأِنَّ اللَّهَ يُغْضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ».

فالإنسان إذا كان لسانه بذِيئًا فاحشًا ييغضه الله سبحانه وتعالى، وإن أحبه البعض ممن هم على شاكلته، فإن الطيور على أشكالها تقع، فالإنسان البذِيء محبوب إلى أهل البذاءة والسفاهة، ولكنه يغيض إلى أهل الإيمان.

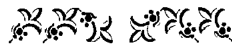
لذلك فإن الإنسان المؤمن، عفيف اللسان، إذا تكلم فصوته منخفض، لا يتكلم بالفحش من القول، ولا يشتم أحدًا، ولا يسب أحدًا، ولا يلعن شيئًا... فالمؤمن حسن الخلق لأن أسوته وقدوته النبي محمد ﷺ الذي قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

❁ وهنا وقفة لطيفة جدًا في هذا الحديث وهي قوله ﷺ: «ما من شيء أثقل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٤) الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ» فَجَاءَ التَّقْيِيدُ هُنَا بِالْمُؤْمِنِ دُونَ الْكَافِرِ لِأَنَّ الْكَافِرَ لَا يُوزَنُ عَمَلُهُ لِأَنَّهُ لَا طَاعَةَ لَهُ لِتُوزَنَ فِي مِقْيَاسِ كُفْرِهِ.. وَلَوْ كَانَ هُنَاكَ خَيْرٌ أَوْ مَعْرُوفٌ أَوْ حَتَّى طَاعَةُ فَإِنَّ الشَّرْكَ وَالْكَفْرَ يَحْبِطَانِ أَيْ طَاعَةَ.. وَهُنَاكَ رَأْيٌ آخَرٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْكَافِرَ تُوزَنُ طَاعَاتُهُ أَوْ الْمَعْرُوفُ الَّذِي فَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا كِبَرُ الْوَالِدَيْنِ وَصَلَةُ الرَّحِمِ وَالْإِنْفَاقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَغَيْرِهَا وَيُخَفَّفُ عَنْهُ بِهَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَجَعَلَهَا خَالِصَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.



(٦٣٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: «الْفَمُّ وَالْفَرْجُ»^(١).

❁ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى حِرْصِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى الْفُوزِ بِالْجَنَّةِ وَبِرِضْوَانِ رَبِّ الْجَنَّةِ عَزَّ وَجَلَّ... فَتَجَدُّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنْ أَفْضَلِ الْوَسَائِلِ لِلْحَصُولِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَاءِ أَوْ لِلْوَصُولِ إِلَى أَعْلَى الْمَنَاصِبِ وَإِنَّمَا يَسْأَلُونَ عَنْ أَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ وَيَسْأَلُونَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ.. فَهُنَاكَ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ جَدًّا تُدْخِلُ الْجَنَّةَ لَكِنِّهِمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعَمَرَ قَصِيرٌ فَيَسْأَلُونَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ.. فَكَانَ الْجَوَابُ الْمَخْتَصِرُ الْمَفِيدُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الْمُؤَيَّدُ بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ فَقَالَ لَهُمْ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ: جَمَعَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ تُصْلِحُ مَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ يَصْلِحُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.

وَالْتَقْوَى: هِيَ الْخَوْفُ مِنَ الْجَلِيلِ وَالْعَمَلُ بِالتَّزْوِيلِ وَالرِّضَا بِالْقَلِيلِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِيَوْمِ الرَّحِيلِ.. وَهِيَ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَذَابِ اللَّهِ وَقَايَةً.. وَحُسْنُ

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧).

الخلق يتضمن حُسن الخلق مع الله ومع رسوله ﷺ ومع الناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم.. وذلك لقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ولقول النبي ﷺ: «وخالق الناس بخُلُقٍ حسنٍ» ولم يقل المسلمين فقط.

✽ فأكثر ما يُدخل الناس الجنة: تقوى الله وحُسن الخلق.. وفي المقابل فأكثر ما يُدخل الناس النار: الفم والفرج.

وذلك لأن الفم يحتوى على اللسان الذى يأتى منه الخير الكثير كالذكر وقراءة القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والكلمة الطيبة.. وفي نفس الوقت يصدر منه الكذب والغيبة والنميمة وقذف المحصنات والسب واللعن والشتم وغير ذلك مما أشار إليه الشارع بقوله «هل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم» وبقوله: «وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يُلْقَى لها بالاً تهوى به فى النار سبعين خريفاً».

وكذلك قد يأكل الإنسان حراماً عن طريق فمه فيكون سبباً فى دخوله النار.

✽ وأما الفرج فيصدر منه الزنا واللواط - عياداً بالله -.

ولهذا سدَّ النبي ﷺ كل باب يكون سبباً لهذه الفاحشة، فمنع من خلوة الرجل بالمرأة، ومنع المرأة من كشف وجهها أمام الرجال الأجانب، ونهى المرأة أن تخضع بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض، إلى غير ذلك من السياج المنيع الذى جعله النبي ﷺ حائلاً دون فعل هذه الفاحشة.

لأن هذه الفاحشة تدعو إليها النفس، فهذا أكثر ما يُدخل الناس النار: أعمال اللسان، وأعمال الفرج.

ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

فما بين لحييه هو الفم واللسان.. وذلك بأن تصون لسانك عن كل الآفات والمهلكات وتصون الفم عن أكل الحرام..
وأما ما بين رجليه فهو الفرج.. وذلك بأن تصونه عن فعل الفواحش ولا تستعمله إلا في النكاح الحلال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»^(١).
✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣٤) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدرِكُ بِحَسَنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»^(٢).
✽ إذا كان يوم القيامة وقف أهل الإيمان والطاعة على أبواب الجنة ينتظرون أن يؤذن لهم بدخول الجنة خلف النبي محمد ﷺ.. فمن كان من أهل الصلاة دخل من باب الصلاة.. ومن كان من أهل الصيام دخل من باب الريان ومن كان من أهل الزكاة دخل من باب الزكاة.

فيأتي المؤمن الذي أدى الفرائض والرواتب لكنه قد لا يكون مُكثراً من النوافل.. سواء كانت نوافل الصلاة كقيام الليل أو نوافل الصيام كصيام النوافل ولكنه حسن الخلق.. فيأتي هذا الرجل المؤمن حسن الخلق فيدخل الجنة مع هؤلاء الذين أكثروا من نوافل الصلاة والصيام ويكون معهم في درجاتهم العليا في الجنة..

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن حبان، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (١٢٣٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (١٩٣٢).

فما ظنك لو كان المؤمن حسن الخلق وفي نفس الوقت كان مجتهداً في قيام الليل وصيام النوافل؟!.. نسأل الله من فضله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣٥) وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رَبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي الصادق المصدوق ﷺ أنه زعيمٌ أى: ضامن وكفيل ببيتٍ في ربض الجنة لمن ترك المِرَاءَ وإن كان مُحِقًّا.. والربض: هو الحوش الذي يكون خارج البيت.. والجنة لا يوجد أحد يكون خارجها، بل كلهم داخل الجنة، وكأنه يقصد هنا أسفل الجنة.

والجنة درجات بعضها فوق بعض، والنار دركات بعضها تحت بعض. فربض الجنة هنا أدنى منزلة في الجنة، ويعلوها أوسط الجنة، وأعلاها أعلى الجنة... فالنبي ﷺ وعد أنه زعيم، وأنه ضمين وكفيل ببيتٍ في أدنى الجنة. (لمن ترك المراء) أى: الجدل.. حتى وإن كان هو على الحق وخصمه على الباطل. فالنبي ﷺ ينهى عن الجدل لأنه لا يأتي بخير... فالإنسان الذي يجادل بحق أو بباطل، ينهاه النبي ﷺ عن ذلك؛ لأن المراء لا يأتي بخير، والإنسان حين يجادل في مسألة علمية إما أن يجادل أهل العلم، أو يجادل الناس ليظهر أنه أفضل منهم، فمن كان يجادل الناس، ويمارى السفهاء بالعلم، مصيره النار والعياذ بالله... والإنسان الذي يمارى العلماء ليظهر قدر نفسه، وليرى الناس أنه أعلى منهم، وأفضل منهم، مصيره النار والعياذ بالله.

(١) حسن: رواه أبو داود، والضياء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٤).

«الزَّعِيمُ»: الضَّامِنُ.

وأما الذى يجادل ليُحقِّق الحق، ويجادل أهل الباطل ليعلمهم الحق، ويرد عليهم ما يقولون، فهذا يستحق الثواب.

ولذا قال النبى ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ»^(١).

فالجِدال لا يأتى بخير بل يُوغر الصدور ويشعل نار العداوة بين الناس.. ولذلك أوصى النبى ﷺ بترك الجِدال الذى يجلب العداوة ولا يُظهر حقاً.. أما المناظرة العلمية التى يهدف الطرفان من ورائها إظهار الحق والالتزام به فلا بأس بها...

أما إن وصل الأمر إلى جدالٍ عقيم لا يُراد من ورائه إظهار الحق ولا يقبل الطرف المُخطئ أن يُذعن للحق.. فعلى الطرف الذى معه الحق أن يترك الجِدال فقد ضمن له النبى ﷺ بيتاً فى ربض الجنة إن ترك الجِدال الذى لا فائدة من ورائه رغم أنه على الحق.

❖ «وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً» أى: لا يكذب ولو مازحاً... فهذا الذى يمزح فيقول كلاماً كذباً، يقول له النبى ﷺ: أنا كفى لك إن تركت الكذب جاداً أو مازحاً بيتاً فى وسط الجنة... لا تكذب إلا فيما يجوز: فى الإصلاح بين الناس، وفى كلام الرجل مع امرأته، وفى الكذب فى الحرب.. فالحرب خدعة، لكن غير ذلك لا يجوز الكذب فيه، فيترك الكذب مازحاً أو جاداً.

❖ قال: «وبيت فى أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُهُ».

فبحُسن الخلق ينال أعلى الدرجات.

فالإنسان الذى حسن خلقه حين يمر على الصراط فإن حسن خلقه يدفعه سريعاً حتى يتجاوزَه، ويدخل الجنة، ويأتى على أبواب الجنة، ويسابق أهل

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٥٨).

الصيام، وأهل الصلاة وأهل الطاعات بحسن خلقه.

هذا الإنسان الذي حُسِّنَ خلقه، إذا دخل الجنة، صعد إلى أعلى الجنة بفضل الله أولاً ثم بحسن خلقه، وإذا كان في أعلى الجنة كان قريباً من النبي ﷺ بحُسن خلقه، وأقرب الناس من النبي ﷺ أحاسنهم أخلاقاً، فانظر إلى حسن الخلق كيف جمع الخير كله في الدنيا والآخرة... نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُحَسِّنَ أخلاقنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٣٦) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا. وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ» قالوا: يا رسول الله قد عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ»^(١).

❁ «إِنْ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا». وهل هناك بعد لذة النظر إلى وجه الله تعالى أعظم من صحبة النبي ﷺ في الجنة.

❁ إنها اللذة التي حملت ربيعة بن مالك على أن يقول للنبي ﷺ حينما سأله قائلاً: «سلني شيئاً يا ربيعة».

قال ربيعة بلا تردد: أسألك مرافقتك في الجنة.

(١) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٢٢٠١).

«الثَّرَاوُ»: هُوَ كَثِيرُ الْكَلَامِ تَكَلُّفًا. وَ «الْمُتَشَدِّقُ»: الْمُتَطَاوِلُ عَلَى النَّاسِ بِكَلَامِهِ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَلْءِ فِيهِ تَفَاضُحًا وَتَعْظِيمًا لِكَلَامِهِ، وَ «الْمُتَفَيِّهُ»: أَصْلُهُ مِنَ الْفَهْقِ وَهُوَ الْامْتِلَاءُ، وَهُوَ الَّذِي يَمْلَأُ فَمَهُ بِالْكَلَامِ وَيَتَوَسَّعُ فِيهِ، وَيُغْرِبُ بِهِ تَكَبُّرًا وَارْتِفَاعًا، وَإِظْهَارًا لِلْفُضِيلَةِ عَلَى غَيْرِهِ. وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِ حُسْنِ الْخُلُقِ، قَالَ: «هُوَ طَلَاقُ الْوَجْهِ، وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ، وَكَفُّ الْأَذَى».

❖ وما هو رجل آخر قد اشتاق لصحبة النبي ﷺ في الجنة.

فقد جاء في الحديث أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحب إليّ من نفسي وإنك لأحب إليّ من أهلي. وإنك لأحب إليّ من ولدي وإنني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين وإنني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك... فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ (٦٦) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٩-٧٠] (١).

فمن أراد أن يحبه النبي ﷺ وأن يفوز بنعمة القرب من الحبيب المصطفى ﷺ في الجنة فعليه أن يتحلى بحُسن الخلق... وكلما كان أحسن خلقاً كان أقرب إلى الله عز وجل ورسول ﷺ من غيره.

❖ ثم أخبر النبي ﷺ بأبغض الناس إليه وأبعدهم منه يوم القيامة وهم «الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون».

الثرثارون: الذين يُكثرون الكلام ويأخذون المجالس عن الناس. فإذا جلس في المجلس أخذ الكلام عن غيره، وصار كأن لم يكن في المجلس إلا هو، ولا يدع غيره يتكلم، وهذا لا شك أنه نوعٌ من الكبرياء. لكن لو فرضنا أن أهل المجلس فوضوه وقالوا: أعطنا نصيحة، أعطنا موعظة فتكلم فلا حرج، إنما في الكلام العادي كونك تملك المجلس ولا تدع أحداً يتكلم، حتى إن بعض الناس يحب أن يتكلم لكن لا يستطيع أن يتكلم، يخشى من مقاطعة هذا الرجل الذي مَلَكَ المجلس بكلامه.

(١) حسن: رواه الطبراني في الأوسط، والصغير، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٩٣٣).

كذلك أيضًا المتشددون.... والمتشدد: هو الذى يتكلم بملء شديقه، تجده يتكلم وكأنه أفصح العرب تكبرًا وتبخترًا... ومن ذلك من يتكلم باللغة العربية أمام العامة، فإن العامة لا يعرفون اللغة العربية... لو تكلمت بينهم باللغة العربية لعدوا ذلك من باب التشدد في الكلام والتنطع... أما إذا كنت تُدرس لطلبة فينبغي أن تتكلم باللغة العربية، لأجل أن تُمرنهم على اللغة العربية وعلى النطق بها، أمّا العامة الذين لا يعرفون فلا ينبغي أن تتكلم بينهم باللغة العربية، بل تكلم معهم بلغتهم التى يعرفون ولا تُعرب في الكلمات - يعنى لا تأتى بكلمات غريبة تشكل عليهم - فإن ذلك من التشدد في الكلام.

أما المتفهيقون: فقد وصفهم النبى ﷺ بالمتكبرين... المتكبر الذى يتكبر على الناس ويتفهيق، وإذا قام يمشى كأنه يمشى على ورق من تكبره وغطرسته، فإن هذا لاشك خلقٌ ذميم، ويجب على الإنسان أن يحذر منه، لأن الإنسان بشر فينبغى أن يعرف قدر نفسه، حتى لو أنعم الله عليه بمالٍ، أو أنعم عليه بعلم، أو أنعم عليه بجاه، فينبغى أن يتواضع... وتواضع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بالمال والعلم والجاه أفضل من تواضع غيرهم. ممن لا يكون كذلك.

ولهذا جاء في الحديث أن من الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم: «عائلٌ مستكبر»، لأن العائل لا داعى لاستكباره، والعائل هو الفقير، فهؤلاء من الله عليهم بالعلم والمال والجاه كلما تواضعوا صاروا أفضل ممن تواضع من غيرهم الذين لم يَمُنَّ الله عليهم بذلك.

فينبغى لكل من أعطاه الله نعمة أن يزداد شكرًا لله، وتواضعًا للحق وتواضعًا للخلق... وفقنى الله والمسلمين لأحسن الأخلاق والأعمال وجنبنا والمسلمين سيئات الأخلاق والأعمال إنه جوادٌ كريم^(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٣٠٦-٣٠٧) بتصرف.

(٧٤) باب الحلم والأناة والرفق

❖ لا بد أن نعلم أن الحلم والرفق من الأخلاق السامية التي يفتح الله بها القلوب ويُلين بها الأفئدة... ولذا كان ينبغي على كلِّ مسلم أن يتحلى بهاتين الصفتين ليفتح الله بهما القلوب... فإن قلوب العباد تميل إلى صاحب القلب الرحيم الذي يرفق بكلِّ مَنْ حوله... وتناهى وتبتعد عن صاحب القلب الغليظ الذي لا يرحم مَنْ حوله ولا يرفق بهم ولا يحلم عليهم.

بل إن الرفق يجعلك تفوز بكلِّ خير في الدنيا والآخرة.

فكن رفيقاً مع الوالدين والأقارب ومع إخوانك وجيرانك وأصحابك وكلِّ مَنْ حولك لتعيش في سعادة غامرة فتكون من الفائزين في الدنيا والآخرة^(١).

❖ قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ: (باب الحلم والأناة والرفق).

هذه ثلاثة أمور متقاربة: الحلم والأناة والرفق.

أما الحلم: فهو أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب... إذا حصل غضب وهو قادر فإنه يحلِّم، ولا يعاقب، ولا يعجل بالعقوبة.

وأما الأناة: فهو التأني في الأمور، وعدم العجلة، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظواهرها فيتعجل، ويحكم على الشيء قبل أن يتأني فيه وينظر.

وأما الرفق: فهو معاملة الناس بالرفق والهون، حتى وإن استحقوا ما يستحقون من العقوبة والنكال فإنه يرفق بهم.

ولكن هذا فيما إذا كان الإنسان الذي يرفق به محلاً للرفق، أما إذا لم يكن محلاً للرفق فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنْ

(١) أخلاق الرسول للأطفال (ص ٣٨٧) / د. محمود المصري.

الْمُؤْمِنِينَ ﴿[النور: ٢].

ثم ساق المؤلف بعض الآيات... الآية الأولى: قول الله تعالى:
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

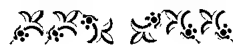
[آل عمران: ١٣٤].

هذه من جملة الأوصاف التي يتصف بها المتقون الذين أعدت لهم الجنة: أنهم إذا غضبوا كظموا الغيظ.

وفي قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، دليل على أنهم يشق عليهم ذلك، لكنهم يغلبون أنفسهم فيكظمون غيظهم.. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالصرعة» الصرعة: يعنى الذى يصرع الناس إذا صارعوه: «وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب».

وأما قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فقد سبق الكلام عليه، وبيان التفصيل فيمن يستحق العفو ومن لا يستحق... فالإنسان الشرير الذى لا يزداد بالعفو عنه إلا سوءاً وشراسة ومعاندة هذا لا يُعفى عنه.

والإنسان الذى هو أهل للعفو ينبغى للإنسان أن يعفو عنه، لأن الله يقول:
﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].



وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

قال: خُذِ الْعَفْوَ ولم يَقُلْ اعْفُ ولا افعل العفو، بل قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ والمراد بالعفو هنا ما عفا وسَهِّل من الناس؛ لأن الناس يعامل بعضهم بعضاً، فمن أراد من الناس أن يعاملوه على الوجه الذى يحب وعلى الوجه الأكمل؛ فهذا شئ يصعب عليه ويشق عليه ويتعب وراء الناس.

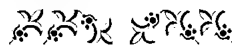
وأما مَنْ استرشد بهذه الآية، وأخذ ما عفا من الناس وما سهل، فما جاء



منهم قبله، وما أضاعوه من حقه تركه، إلا إذا انتهكت محارم الله.
 فإن هذا هو الذى أرشد الله إليه؛ أن نأخذ العفو... فخذ ما تيسر من أخلاق
 الناس ومعاملتهم لك، والباقي أنت صاحب الفضل فيه إذا تركته.
 ﴿وَأَمْرٌ بِالْعُرْفِ﴾ يعنى: مُر بما يتعارفه الناس ويعرفه الشرع من أمور الخير،
 ولا تسكت عن الأمر بالخير إذا كان الناس أخلوا به فيما بينك وبينهم ... فحقك
 افعل به ما تشاء، لكن الشئ المعروف ينبغى أن تأمر به.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ المراد بالجاهل هنا ليس هو الذى لا يعلم
 الحكم؛ بل الجاهل هو السفه في التصرف... كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾
 عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 [النساء: ١٧].

فالجاهلون هنا هم السفهاء الذين يجهلون حقوق الغير، ويفرطون فيها،
 فأعرض عنهم ولا تبالي بهم، وأنت إذا أعرضت عنهم ولم تبالي بهم فإنهم سوف
 يملئون ويتعبون، ثم بعد ذلك يرجعون إلى صوابهم، ولكنك إذا عاندهم أو
 خاصمتهم أو أردت منهم أن يعطوك حقا كاملاً، فإنهم ربما بسفهم يعاندون
 ولا يأتون بالذى تريد.

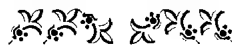


❁ وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿صَبَرَ﴾: يعنى على الأذى، ﴿وَغَفَرَ﴾: يعنى تجاوز عنه إذا وقع به،
 ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾: أى لمن معزومات الأمور، أى من الأمور التى تدل
 على عزم الرجل، وعلى حزمه وعلى أنه قادر على نفسه مسيطر عليها، وذلك
 لأن الناس ينقسمون إلى أقسام بالنسبة لسيطرتهم على أنفسهم.
 فمن الناس من لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً، ومن الناس من يستطيع

لكن بمشقة شديدة، ومن الناس من يستطيع لكن بسهولة.. يكون قد جَبَلَهُ الله
عَزَّوَجَلَّ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَيَسْهَلُ عَلَيْهِ الصَّبْرُ وَالْغَفْرَانِ.

فالذي يصبر على أذى الناس ويتحمل ويحتسب الأجر من الله ويغفر لهم،
هذا هو الذي صنع هذا المعزوم من الأمور أى من الشئون... وهذا حَثٌّ واضح
على أنه ينبغي للإنسان أن يصبر ويغفر، وقد سبق لنا التفصيل في مسألة العفو
عن الجُنَاة والمعتدين، وأنه لا يُمدَح مطلقاً ولا يُذَم مطلقاً، بل يُنظر إلى
الإصلاح^(١).



(٦٣٧) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَأَشَجَّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ
فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ»^(٢).

❁ أما الأشج فاسمه المنذر بن عائد.

وسبب قول النبي ﷺ له ذلك أنه لما جاء وفد عبد القيس من ضمن الوفود
الذين قدموا على النبي ﷺ يتعلمون الإسلام، فقدموا عليه وكان أحدهم أشج،
يعنى: كان به جرح مفتوح في يوم من الأيام ثم التأم بعد ذلك... وكان قد شُجَّ في
مشاجرة مع قريب له، فضربه بشيء شَجَّ رأسه، فكان مشهوراً بهذا الوصف،
أشج عبد القيس، يعنى: المشجوج من بنى عبد القيس.

فلما قدموا ابتدروا إلى النبي ﷺ، وكُلُّ يَرِيدُ أَنْ يُسَلَّمَ عَلَيْهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ
وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ لِيَنَالَ مِنْ بَرَكَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فتأخر هذا الرجل قليلاً؛ فقد كانوا أتوا
من سفر، وقد اتسخت ثيابهم، فأراد أن يتنظف، فنظف نفسه ولبس ثوبين طيبين،
ودخل إلى النبي ﷺ في هيئة جميلة، ففرح به النبي ﷺ أكثر من فرحه بالآخرين،

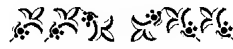
(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٠٦-٣٠٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧) كتاب الإيمان.

وقال لهذا الرجل مُعظَّمًا فِعله: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْأَنَانَةَ»،
أَنْتَ حَلِيمٌ، أَيْ: تَحْلُمُ وَتَعْفُو عَمَّنِ يُسِيءُ إِلَيْكَ.
«وَالْأَنَانَةَ»، أَيْ: أَنْتَ غَيْرُ مُتَعَجِّلٍ.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي جَاءَ مِنْ سَفَرٍ قَدْ يَكُونُ مَمْتَلئًا عِرْقًا، وَمَمْتَلئًا بِغَبَارِ السَّفَرِ،
فَإِذَا جَاءَ لِيُقَابِلَ أَحَدًا وَيَسْلَمَ عَلَيْهِ فَرُبَّمَا يَغْضَبُ، فَقَدْ يَلُوثُ لَهُ ثِيَابُهُ، فَهَذَا الرَّجُلُ
انْتَظَرَ حَتَّى تَنْظِفَ وَلَبَسَ ثَوْبَيْنِ وَتَطْيِبَ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ طَيِّبًا، فَفَرَحَ بِهِ
النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْأَنَانَةَ»، فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ:
هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ اكْتَسَبْتَهُمَا أَنَا أَمْ هُمَا هَبَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ؟ فَطَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمَا؟ فَقَالَ
ﷺ: «مَنْ اللَّهُ»، يَعْنِي: اللَّهُ هُوَ الَّذِي فَطَرَكَ عَلَيْهِمَا.
فَحَمْدُ الرَّجُلِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ فَطَرَهُ عَلَى ذَلِكَ.

فَالْإِنْسَانُ الْحَلِيمُ مُحَبُّوبٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَمُحَبُّوبٌ مِنَ الْخَلْقِ، فَهُوَ إِنْسَانٌ
مُتَأَنٍّ غَيْرُ مُسْتَعَجِلٍ، فَلَا يَرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ كُلَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، وَلَكِنَّهُ يَفْكُرُ قَبْلَ أَنْ
يَعْمَلَ الشَّيْءَ ^(١).



(٦٣٨) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ
فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» ^(٢).

(٦٣٩) وَعَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ
مَا لَا يُعْطَى عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطَى عَلَى مَا سِوَاهُ» ^(٣).

(٦٤٠) وَعَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩٢٧) كتاب استتابة المرتدين، ومسلم (٢١٦٥) كتاب السلام.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٣) كتاب البر والصلة والآداب.

مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(١).

❦ ففي تلك الأحاديث الثلاثة الحث على أن يكون الإنسان رفيقاً في جميع شؤون، رفيقاً في معاملة أهله، وفي معاملة إخوانه، وفي معاملة أصدقائه، وفي معاملة عامة الناس ... يرفق بهم، فإن الله ﷻ رفيق يحب الرفق.

ولهذا فإن الإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانسراحاً، وإذا عاملهم بالشدة والعنف ندم، ثم قال: ليتني لم أفعل، لكن بعد أن يفوت الأوان، أما إذا عاملهم بالرفق واللين والأناة انشرح صدره، ولم يندم على شيء فعله.

❦ وهنا لا بد أن نعلم أن الله ﷻ له صفات الكمال والجلال.. والله ﷻ صفات يأبى أن يشاركه فيها أحد من خلقه.... وله صفات أمر عباده أن يتخلقوا بنحوها.

فمن صفاته سبحانه التي أبى لعباده أن يتخلقوا بمثلها: صفة الكبر. ومن نازع الله ﷻ في ذلك أدخله النار سبحانه تبارك وتعالى. ومن صفاته الكريمة سبحانه: صفة الكرم، وقد أمر عباده أن يكونوا كرماء. وصفة الحلم.. وقد أمر عباده أن يكونوا حلماء.. وصفة الرفق.. وقد أمر عباده أن يكونوا رُفقاء بغيرهم.

فالله طيب يحب الطيبين، وهو جميل يحب الجمال، ورفيق يحب الرفق، وهو الرحيم وقد جعل المؤمنين فيما بينهم رحماء. إذًا: فمن صفاته الكاملة سبحانه: صفة الرفق، وصفة الحلم، وقد أمر عباده بأن يحلموا.

فالعبد عندما يقول: إن فلاناً أغاظني، نقول له: هذا العبد كم أغضب ربه سبحانه؟ وكم حلم عليه سبحانه وتعالى؟ فعندها يرفق العبد، ويعامل الناس

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

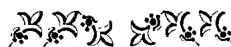
بالشئ الذى يحب أن يعاملوه به؛ ابتغاء وجه الله سبحانه.

❁ فالله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله.. فلا تكن رفيقاً فى جانب وعنيفاً فى جانبٍ آخر.. ولا تكن رفيقاً مع إنسانٍ وعنيفاً مع إنسانٍ آخر إلا إذا كان الموقف يحتاج إلى الشدة لكن لا يكن تعاملك يتسم بالشدة دائماً.. فالحكمة هى وضع الشئ فى موضعه.. فالنبي ﷺ الذى وصفه الله ﷻ بأنه رحمة للعالمين وبأنه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم قال الله ﷻ له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩].

❁ إذا.. فالأصل فى المؤمن هو الحلم والرفق... ولذا فإن الرفق لا يكون فى قلب أى إنسان إلا كان زينة لهذا الإنسان.. وما كان الرفق فى عمل من الأعمال أو دعوة من الدعوات إلا كان هذا العمل وتلك الدعوة جميلة لأنها تزينت بالرفق.. فإذا نزع الرفق من أى شئ كان شيناً على صاحبه وعلى العمل الذى يعمل.

❁ وفوق ذلك. فالله ﷻ يعطى على الرفق من الثواب ما لا يعطى على العنف.. فمثلاً لو كان هناك إنسان يفعل منكراً فجاءه رجل ودعاه بالرفق واللين فانتهى وترك ذلك المنكر.. ولو تصورنا أنه جاءه رجلٌ آخر ودعاه بالعنف وهددته فترك ذلك المنكر خوفاً من ذلك التهديد.. فكلٌ منهما نهى عن المنكر لكن الأول أكثر ثواباً ممن تعامل بالعنف مع أن النتيجة واحدة.. لأن الذى نهى بالرفق سيكون سبباً فى تثبيت قلب هذا الشاب الذى ترك المنكر.. أما الذى نهى عن المنكر بالعنف قد يكون سبباً فى فتنة ذلك الشاب وعودته بعد ذلك لهذا المنكر أو لمنكرٍ أشد منه.

فاللهم ارزقنا نعمة الحلم والرفق يا أرحم الراحمين.



(٦٤١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقْعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسَّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ» ^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن أعرابياً بال في المسجد... أعرابي: يعني بدوي، والبدوي في الغالب لا يعرف أحكام الشرع، لأنه يعيش في البادية في إبله أو في غنمه، وليس له علم بشريعة الله، كما قال الله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩٧]. يعني أقرب ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله لأنهم في باديتهم بعيدون عن الناس وعن العلم والشرع.

فهذا الأعرابي دخل المسجد واحتاج إلى أن يبول، فبال في طائفة المسجد - أي تنحى وبال في المسجد - فهم الناس أن يقعوا فيه وزجروه، ولكن النبي ﷺ، قال: لهم: «دعوه» أي يقضى بوله، «وأريقوا على بوله سَجَلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنْبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسَّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسَّرِينَ» فتركه الناس.

فلما قضى بوله صَبُّوا عليه ذَنْبًا مِنْ الْمَاءِ - يعني: دلوًا من الماء -، فطهر المحل، وزال المحذور... ثم دعا بالأعرابي وقال له: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر، وإنما هي للصلاة، وقراءة القرآن والتكبير».

❁ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في الشمائل النبوية:

(١) حُسن تعليمه ﷺ: ويتبين ذلك من:

أ- أنه ﷺ لم ينهر الأعرابي، ولم يوجه له أدنى عتاب لعدم علم الأعرابي

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٢٠) كتاب الوضوء.
«السَّجْلُ» وَهِيَ الدَّلْوُ الْمُتَمَلِّئَةُ مَاءً، كَذَلِكَ الذَّنُوبُ.

بآداب المساجد، وإنما نصحه ﷺ بمنتهى الرفق واللين.

قال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

ب- ومن حُسن تعليمه الجميل، أنه ﷺ لم يأمر الأعرابي أن ينظف مكان النجاسة في المسجد، مع أنه أَوَّلَى الناس بهذا الأمر، لأن الأعرابي قد يظن أن النبي ﷺ أراد أن يعاقبه على ذلك... قال أنس: (فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشَنَّهُ عليه)، وهذا والله غاية الرفق واللين.

ج- لم يتعجل النبي ﷺ توجيه النَّصْح للأعرابي وهو يقضى حاجته، بل انتظر حتى ينتهى، ليكون الأعرابي أوعى لقول النبي ﷺ... قال الراوى: (ثم إن رسول الله ﷺ دعاه).

د- فَصَّلَ النبي ﷺ في نُصَحِهِ تفصيلاً بليغاً حيث ذكر أولاً وجوب تنزيه المساجد عن النجاسات والقاذورات، ثم ذكر الحكمة من بناء المساجد وكيفية إعمارها، وقد ذكر تنزيه المساجد أولاً من النجاسات لأسباب، منها: حاجة الأعرابي الماسة لمعرفة هذا الحكم، وذكره أولاً ليكون أدعى لحفظه... كما أن الحكمة العُظمى من بناء المساجد، وهى إقامة الصلاة، من أهم شروط صحتها: طهارة المكان... فطهارة المكان عمل يأتى قبل إقامة الصلاة، ومن حسن التعليم أيضاً أن تأتى النصيحة خالية من التطويل المُمل والاختصار المُخل، وقد كانت كذلك، والله الحمد.

وتخيل أختي القارئ، لو أن هذه الواقعة حدثت في وقتنا الحاضر من رجل حديث عهد بالإسلام، ماذا سيفعل به أهل المسجد؟ قد يفتكون به ويتهمونه بالكفر والزندقة، مع أنهم ليسوا بأحرص من النبي ﷺ على طهارة المسجد ونظافته.

(٢) حكمته ﷺ حيث قال لأصحابه: «لا تزرموه دعوه»، أى لا تقطعوا عليه بوله؛ لأن قطع البول سيضر جسمانيًا بالأعرابي، وقد يزيد من رقعة المكان الذى أصابته النجاسة، خاصة إذا قطعها وهو مضطرب.

(٣) موافقة أقواله ﷺ مع أفعاله، وهو الركن الأساسى فى القدوة الحسنة، فقد أمر النبى ﷺ أصحابه ﷺ بالرفق فى الأمر ورغبهم فى ذلك.

فتطابق قوله ﷺ مع فعله، كما فعل مع الأعرابي فى حديث الباب.
الفائدة الثانية:

وجوب أن يحرص المسلمون على نظافة وطهارة المساجد، كُلُّ قدر استطاعته.. وليعلم كل مسلم أن تنظيف المساجد من أنواع القربات، فلا ينبغى أن يحرم المسلم نفسه من هذه القربة، ولا يُشترط أن يكون خادمًا للمسجد حتى يقوم بها، بل يكفى كلما دخل أو خرج من المسجد أن يتفقد حال المسجد ويلتقط ما استطاع من قاذورات وغيرها.

الفائدة الثالثة:

على المسلم أن يحرص على أداء الصلوات فى جماعة المسجد، وأن يُكثر من ذكر الله وقراءة القرآن فى المسجد؛ لأن هذه الأعمال هى المقصودة من بناء المساجد... قال ﷺ: «إنما هى لذكر الله - عَزَّوَجَلَّ - والصلاة وقراءة القرآن».

الفائدة الرابعة:

لم يقتصر حُسن تعليم الرسول ﷺ لأصحابه على طريقة النصيح والإرشاد، ولكن تعدَّى حُسن التعليم ليشمل اختيار الوقت المناسب للموعظة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٧٠-٣٧٢) بتصرف.

(٦٤٢) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا. وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا»^(١).

✽ هذه وصية عظيمة، جامعة لخيري الدنيا والآخرة... لقد جمعت هذه الجُمْل كل خير من أسباب النجاح والفلاح في أمر الدين والدنيا، فإن تيسير الأعمال وتهوينها، والرفق بأصحابها، واللين والتسامح معهم، ودعوتهم بما يناسب أحوالهم هو أدعى لحصول الإجابة والانقياد... وهذا من الحكمة التي أرشد إليها القرآن، كما في قوله ﷻ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

سيما إذا انضمَّ إلى ذلك التبشير بفائدة العمل، وثمراته المنتظرة في العاجل والآجل، ونفعه الحاضر والمنتظر.

وأما سلوك طريق التعسير والتنفير، فإنه من أعظم أسباب الردِّ، والصدِّ عن الخير وأهله.

✽ وإنك لو تأملت شرائع الدين التي أوجبها رب العالمين الذي حقه هو أعظم الحقوق، وطاعته أوجب الطاعات؛ لوجدتها مبنية على التيسير ورفع الحرج... كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال جل شأنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وكان من قواعد الشريعة أن المشقة تجلب التيسير^(٢).

✽ فالنبي ﷺ قَالَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩) كتاب العلم، ومسلم (١٧٣٤) كتاب الجهاد والسير.

(٢) من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ١١٩-١٢٠) بتصرف.

هذه أربع جُمَل: الأولى قوله: «يَسْرُوا» يعنى اسلكوا ما فيه اليسر والسهولة سواء كان فيما يتعلق بأعمالكم أو معاملتكم مع غيركم. ولهذا كان النبى ﷺ من هديه أنه ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه.

فاختار الأيسر لك فى كل أحوالك... فى العبادات، فى المعاملات مع الناس، فى كل شىء؛ لأن اليسر هو الذى يريده الله ﷻ، ويريده بنا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فمثلاً إذا كان لك طريقان إلى المسجد؛ أحدهما صعبٌ فيه حصى وأحجار وأشواك والثانى سهل، فالأفضل أن تسلك الأسهل، وإذا كان هناك ماءً وأنّ فى الشتاء، وكان أحدهما بارداً يؤلمك وكان الثانى ساخناً ترتاح له، فالأفضل أن تستعمل الساخن، لأنه أيسر وأسهل، وإذا كان يمكن أن تحج على سيارة أو تحج على بعير.. والسيارة أسهل، فالحج على السيارة أفضل.

فالمهم أنه كل ما كان أيسر فهو أفضل ما لم يكن إثماً.

أما إذا كان فعل العبادة لا يتأتى إلا بمشقة، وهذه المشقة لا تُسقطها عنك ففعلتها على مشقة، فهذا أجرٌ يزداد لك... فإن إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا، لكن كون الإنسان يذهب إلى الأصعب مع إمكان الأسهل هذا خلاف الأفضل، فالأفضل اتباع الأسهل فى كل شىء.

﴿وَلَا تُعْسِرُوا﴾ يعنى لا تسلكوا طرق العسر... لا فى عبادتكم، ولا فى معاملتكم، ولا فى غير ذلك، فإن هذا منهيٌّ عنه فلا تعسر.

ولهذا لما رأى النبى ﷺ رجلاً واقفاً فى الشمس، سأل عنه، قالوا: يا رسول الله، هو صائم؛ نذر أن يصوم ويقف فى الشمس، فنهاه النبى ﷺ عن ذلك لأن هذا فيه عُسرٌ على الإنسان ومشقة.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مُرُهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيَتِمَّ صَوْمُهُ»^(١).

❁ «وَبَشِّرُوا» يعنى اجعلوا طريقكم دائماً طريق البشارة... بَشِّرُوا أَنْفُسَكُمْ وَبَشِّرُوا غَيْرَكُمْ... يعنى إذا عملت عملاً فاستبشر وبَشِّرْ نفسك، فإذا عملت عملاً صالحاً فَبَشِّرْ نفسك بأنه سيقبل منك إذا اتقيت الله فيه، لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وإذا دعوت الله فَبَشِّرْ نفسك أن الله يستجيب لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

❁ «وَلَا تُتَفَرَّوْا» يعنى لا تنفروا الناس عن الأعمال الصالحة، ولا تنفروهم عن الطرق السليمة؛ بل شجعوهم عليها، حتى في العبادات لا تنفروهم. ومن ذلك أن يطيل الإمام بالجماعة أكثر من السنة.

فالتنفير لا ينبغي؛ فلا تُتَفَرَّ الناس بل كُنْ لِيَنَّا معهم، حتى في الدعوة إلى الله ﷻ لا تدعهم إلى الله بغلظة وشدة... لا تُقَلْ إذا رأيت إنساناً على خطأ: يا فلان أنت خالفت، أنت عصيت، أنت فيك... إلى آخره... فهذا ينفرهم، ويزيدهم في التمادي في المعصية، ولكن ادعهم بكل لين ورحمة^(٢).

❁ ولقد كان النبي ﷺ في دعوته للمشركين والكفار داعياً إلى الله بالتى هى أحسن برفق ولين.

وفي نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ما يدل على ذلك، ويأمر به، انظر إلى قوله تعالى مخاطباً موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّنَا إِلَهُةٌ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣١٤-٣١٦) بتصرف كبير.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، قال بعض العلماء: إن هذه الآية باقية، مُحْكَمَةٌ لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن؛ ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].



(٦٤٣) وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُحْرِمَ الرَّفْقَ يُحْرِمَ الْخَيْرَ كُلَّهُ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا حُرِمَ من الرفق فإنه يُحْرَمُ الخير كله.. لأن من أعظم الخصال التي تكون في قلب المؤمن أن يكون رفيقاً حليماً.. فإذا حُرِمَ من الرفق كان عنيفاً شديداً مُندفعاً مؤذياً.. وبالتالي فقد يؤذي نفسه ويؤذي غيره فيُحْرَمُ من الخير كله.

أما إذا كان يتعامل مع الناس بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر فإنه يحصل على الخير الكثير.. ولهذا ينبغي للإنسان أن يكون دائماً رفيقاً حتى ينال الخير.



(٦٤٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي قَالَ: «لَا تَغْضَبَ» فَرَدَّدَ مَرَّارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبَ»^(٢).

❦ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦١١٦) كتاب الأدب.

(٦٤٥) وَعَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلِيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلِيُرِحَ ذَبِيحَتَهُ»^(١).
❖ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ».

كتبه على كل شيء: يعني كتب الإحسان في كل شيء.. أى أن الله عَزَّ وَجَلَّ شرع الإحسان في كل شيء، حتى في القتل، وحتى في الذبح، وفي غير ذلك من الأمور. عليك أن تكون مُحسنًا لما تقوم به.

«إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ». وذلك لأن إزهاق النفوس يكون بالقتل أحيانًا، وبالذبح أحيانًا.

فالذبح والنحر يكونان فيما يحل أى فيما يُؤكل، ويكون النحر للإبل والذبح فيما سواها... والنحر يكون في أسفل الرقبة مما يلي الصدر، والذبح يكون في أعلى الرقبة مما يلي الرأس... ولا بد في الذبح والنحر من قطع الودجين، وهما العرقان الغليظان اللذان يجرى منهما الدم إلى بقية البدن، لأن النبي ﷺ قال: «مَا أَنْهَرِ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوا»^(٢).

ولا ينهر الدم إلا قطع الودجين... فالشرط في حِلِّ المذَكِّي أو المنحور أن يُقطع الودجان، أما الحلقوم الذى هو مجرى النَّفْس، والمرى الذى هو مجرى الطعام، فقطعهما أكمل في الذبح والنحر، ولكن ليس ذلك بشرط. أما القتل فيكون فيما لا يحل أكله، فيما أمر بقتله، وفيما أبيح قتله. ومما أمر بقتله الفأر وكذلك العقرب، وكذلك الحية، وكذلك الكلب العقور... فتقتل هذه الأشياء، وكذلك كل مؤذٍ فإنه يُقتل.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٨٨) كتاب الشركة، ومسلم (١٩٦٨) كتاب الأضاحى.

وعند العلماء قاعدة تقول: ما أذى طبعاً قُتل شرعاً... يعنى ما كان طبيعته الأذى فإنه يُقتل شرعاً، وما لم يؤذِ طبعاً ولكنه صار منه أذية فلك قتله، لكن هذا الأخير مقيد، فلو آذاك النمل فى البيت، فصار يحفر البيت ويفسده فلك قتله... وإن كان منهياً عنه فى الأصل، لكن إذا آذاك فلك قتله، وكذلك غيره مما لا يؤذى طبعاً ولكن تعرض منه الأذية فاقتله إذا لم يندفع إلا بالقتل.

فمثلاً إذا أردت أن تقتل فأرة - وقتلها مُستحب - فأحسِن القتلة، اقتلها بما يزهق روحها حالاً، ولا تؤذها... ومن أذيتها ما يفعله بعض الناس حيث يضع لها شيئاً لاصقاً تلتصق به، ثم يدعها تموت جوعاً وعطشاً، وهذا لا يجوز فإذا وضعت هذا اللاصق فلا بد أن تكرر مراجعته ومراقبته، حتى إذا وجدت فيه شيئاً لاصقاً قتله.

أما أن تترك هذا اللاصق يومين أو ثلاثة وتقع فيه الفأرة وتموت عطشاً أو جوعاً، فإنه يُخشى عليك أن تدخل النار بذلك... لأن النبى ﷺ قال: «دخلت امرأة النار فى هرة حبستها، حتى ماتت لا هى أطعمتها ولا هى أرسلتها تأكل من خشاش الأرض»^(١).

ومن ذلك مَنْ يُقتل قصاصاً، لكن الذى يُقتل قصاصاً فإنه يُفعلُ به ما فعل بالمقتول... ودليل ذلك أن النبى ﷺ رُفِعَ إليه قضية امرأة أتاها يهودى، وكان معها حُلَى، فقتلها وأخذ الحُلَى، لكن كيف قتلها؟ وضع رأسها على حجر وقتلها بحجر ثانٍ، فرضَّ رأسها بين حجرين. فأتى إليها وفيها رُمق من حياة، فقل لها مَنْ قتلكِ؟... حتى ذكروا اليهودى فأشارت برأسها أن نعم، فأخذوا اليهودى فاعترف، فأمر النبى ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين، فوضع رأسه على حجر ثم ضُرب بالحجر الثانى حتى مات.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٥) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٢٤٢) كتاب السلام.

لأن هذا قصاص... والله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

لكن لو وجب قتله بالجراية... يعنى أنه صار يقطع الطريق على الناس؛ ويأخذ الأموال، ويقتل الناس، فهذا يُقتل، لكن يُقتل بالسيف، إلا إذا كان قد مثَّل بمن قتله فيُمثَّل به حسبما فعل، فيُفعل به كما فعل.

فإن قال قائل: ما تقولون في الرجل إذا زنى وهو مُحصَن فإنه يُرجم بالحصى، أى بالحجر الصغير حتى يموت، وهذا يؤلمه ويؤذيه قبل أن يموت، فهل يُعارض ذلك هذا الحديث؟

فالجواب: لا. لا يُعارضه، لأنه يُحمل على أحد أمرين:

الأول: إما أن يُراد بإحسان القتلة ما وافق الشرع، وحينئذ يكون الرجم من إحسان القتلة لأنه موافق للشرع.

والثانى: إما أن يُقال: هذا مُستثنى دَلَّت عليه السُّنة، بل دَلَّ عليه القرآن الذى نُسخ لفظه وبقي حُكمه، ودَلَّ عليه صريح السُّنة.

فالزانى المُحصَن الذى تزوج وجامع زوجته، إذا زنى - والعياذ بالله - فإنه يُؤْتَى به، وتُؤخذ حجارة صغيرة أقل من البيضة ومثل التمرة تقريباً أو أكبر قليلاً ويُرجم حتى يموت، ويُبْقَى المقاتل يعنى لا يُضرب فى موضع يموت به سريعاً، بل يُضرب على ظهره وبطنه وما أشبه ذلك حتى يموت، لأن هذا هو الواجب.

والحكمة من هذا أن البدن الذى تلذذ بالشهوة المحرمة.. عَمَّت الشهوة جميع بدنه، فمن الحكمة أن تُعَمَّ العقوبة جميع بدنه... وهذا من حكمة الله عز وجل.

ثم قال النبى ﷺ: «ولِيُحْدَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ»، اللام هنا للأمر... ويحد: يعنى يجعلها حديدة سريعة القطع... والشفرة: السكين.

يعنى إذا أردت أن تذبح فاذبح بسكين مشحودة، أى: مسنونة بحيث يكون



ذلك أقرب إلى القطع بدون ألم.

«وليرح ذبيحته» هذا أمر زائد على شحذ الشفرة، وذلك بأن يقطع بقوة فيضع السكين على الرقبة ثم يجرها بقوة، حتى يكون ذلك أسرع من كونه يجرها مرتين أو ثلاث.. وبعض الناس يوفقه الله ومن مرة واحدة يقطع الودجين والحلقوم والمرى، لأنه يأخذ السكين بقوة، وتكون السكين جيدة مشحودة، فيسهل على الذبيحة أو المنحورة الموت.

ومن إراحة الذبيحة أن تضع رجلك على رقبتها، وتمسك الرأس باليد اليسرى وتذبح باليمنى، وحينئذ تكون مضطجعة على الجنب الأيسر. ودع القوائم -اليدين والرجلين- واخلها تتحرك بسهولة، لأنك إذا أمسكت بها فإن هذا ضغطٌ عليها، وإذا تركتها تحرك يديها ورجليها كان هذا أيسر لها، وهناك أيضًا فائدة من ذلك وهي تفريغ الدم بهذه الحركة، لأنه مع الحركة والاضطراب يتفرغ الدم أكثر، وكلما تفرغ فهو أحسن.

وأما ما يفعله بعض العامة من أنه يأخذ بيدها اليسرى ويلويها على عنقها، ثم يبرك على قوائمها الثلاث رجل، ويمسك بها حتى لا تتحرك أبدًا؛ فهذا خلاف السنة... السنة أن تضع الرجل على الرقبة ثم تدع القوائم تتحرك؛ لأن ذلك أيسر لها وأشد تفريغًا للدم.

فالشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» فإن هذا من الرفق.

ولنتنبه إلى أن الإنسان إذا قُتل بحدٍّ، يعنى قُتل وهو زانٍ أو قُتل قصاصًا، فإنه يُصلَّى عليه، ويُدعى له بالرحمة والعفو مثل سائر المسلمين، لعل الله أن يعفو عنه ويرحمه.

أما مَنْ قُتل كافرًا مرتدًا فإنه لا يُدعى له بالرحمة، ولا يُغسل^(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣١٨-٣٢١) بتصرف.

(٦٤٦) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا خَيْرٌ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ. وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ تَعَالَى ^(١).

❦ وفي هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .. وهى حبيبة رسول الله ﷺ وأقرب الناس إليه أن النبي ﷺ ما خیر بين أمرين إلا اختار أيسرهما. فقد وصف الله نبيه ﷺ بأنه **﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾** (١٢٨). ولقد كان النبي ﷺ يخشى على أمته من العنت والمشقة ويسلك بهم طريق اليسر والسماحة.

ولقد ثبت عن النبي ﷺ جملة أحاديث تدل على شفقته التامة على أمته، وخشيته أن يكون قد جلب عليها ما يُعنتها أو يشق عليها وتجنبه كل طريق يؤدي إلى ذلك... وإليك بعض تلك الأحاديث:

(١) صلى رسول الله ﷺ التراويح ليلة فصلى بصلاته ناسٌ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: «قد رأيت الذى صنعتُم فلم يمنعنى من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تُقرض عليكم، - وفي الرواية الأخرى - فتعجزوا عنها» ^(٢).

(٢) قال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة» ^(٣).

بل أنه عليه الصلاة والسلام كان يخفف الصلاة ويتجوز فيها - وهى قرأه عينه وفيها الراحة التى ينشدها - رفقا بحال المؤمنين ومراعاة لضعفهم وانشغال بالهم ودفعاً لكل ما يُدخل المشقة عليهم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٦٠) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٢٧) كتاب الفضائل.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٨٨٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٢٥٢) كتاب الطهارة.

(٣) قال ﷺ: «إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه»^{(١)(٢)}.

وكان ﷺ في حجة الوداع كلما ذكر له أحد أصحابه أنه فعل شيئاً قبل الآخر يقول له: افعل ولا حرج.

وهكذا كان النبي ﷺ لا يُخَيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما رفقا بأمته لأنهم يقتدون به ﷺ... فكان يختار الأيسر ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه... لأنه كان أتقى الناس وأخشى الناس لله عز وجل.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حراماً أو مكروهاً... قَالَ الْقَاضِي: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَخْيِيرُهُ ﷺ هُنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَيُخَيِّرُهُ فِيمَا فِيهِ عُقُوبَتَانِ أَوْ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ مِنَ الْقِتَالِ وَأَخَذِ الْجَزِيَّةِ.. أَوْ فِي حَقِّ أُمَّتِهِ فِي الْمُجَاهَدَةِ فِي الْعِبَادَةِ أَوْ الْإِقْتِصَارِ وَكَانَ يَخْتَارُ الْأَيْسَرَ فِي كُلِّ هَذَا^(٣).

❁ وأما قولها ﷺ: وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل.

فقد كان النبي ﷺ يعفو دائماً ما دام الأمر يتعلق بشخصه ﷺ.. فقد عفا عن أهل مكة بعد كل ما فعلوه معه وقال لهم يوم فتح مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء.. وعفا عن أهل الطائف الذين ضربوه وآذوه.. وعفا عن وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ... وعفا عن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ورفض أن يقتله.. وعفا عن ثمامة بن أثال وأطلق سراحه.. وعفا عن حاطب بن أبي

(١) رواه البخاري (٧٠٧) كتاب الأذان.

(٢) الوسطية في القرآن الكريم/ د. على الصلابي (ص ١٣٥-١٣٦).

(٣) مسلم بشرح النووي (١٥/١٢١).



بلتعة لما أراد أن يُفشى سر فتح مكة.. وعفا عن عكرمة بن أبى جهل الذى ظل يحاربه أكثر من عشرين سنة.. وعفا عن اليهودى الذى سحره.. وعفا عن اليهودية التى وضعت له السم فى ذراع الشاة.. وعفا عن الأعرابى الذى جذبته بشدة من ملابسه.. وعفا عن الكثيرين ممن آذوه عليه السلام.

لكنه كان إذا انتهكت حُرُمات الله لا يعفو بل يغضب الله عز وجل.

❦ قال الإمام النووى رحمته الله: قَوْلُهَا (إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ) اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مَعْنَاهُ: لَكِنْ إِذَا انْتَهَكَتْ حُرْمَةُ اللَّهِ انْتَصَرَ لِلَّهِ تَعَالَى وَانْتَقَمَ مِمَّنْ ارْتَكَبَ ذَلِكَ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الْعَفْوِ وَالْحِلْمِ وَاحْتِمَالِ الْأَذَى وَالِانْتِصَارِ لِلدِّينِ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا أَوْ نَحْوَهُ.. وَفِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْأُيُومَةِ وَالْقَضَاةِ وَسَائِرِ وُلاَةِ الْأُمُورِ التَّخَلُّقُ بِهَذَا الْخُلُقِ الْكَرِيمِ فَلَا يَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ وَلَا يُهْمِلُ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى... قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْقَاضِيَ لَا يَقْضِي لِنَفْسِهِ وَلَا لِمَنْ لَا يَجُوزُ شَهَادَتُهُ لَهُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٤٧) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؟ تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنَ لِيْنٍ سَهْلٍ»^(٢).
❦ ففى هذا الحديث يستعمل النبى ﷺ مع أصحابه الأسلوب التشويقي الذى يهيم العقول لاستقبال المعلومة من خلال إلقاء السؤال لاستحضار انتباههم ثم إلقاء المعلومة.

فها هو ﷺ يقول: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار؟»

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/١٢٢-١٢٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٩٣٨) وصحيح الجامع (٢٦٠٩).

والجواب معلومٌ مُسبقاً.. فمن المؤكد أنهم يريدون معرفة ذلك.. ولذلك لم ينتظر النبي ﷺ منهم جواباً فأجابهم مباشرة: «على كل قريب هَيِّنٍ سهلٍ».

فالمؤمن قريب من الناس ومن قلوب الناس.. فالمؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف...

والمؤمن هَيِّنٌ لَيِّنٌ سهل كما قال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالنار تحرّم على كل مؤمن قريب هَيِّنٍ سهل... فالمؤمن قريب من الناس.. وكل من يراه يشعر وكأنه يعرفه منذ زمنٍ بعيد وأن بينه وبينه مودة ومحبة.. وهذا بعكس المنافق الشرير الذي ينفر الناس منه ومن سوء أخلاقه وبذاءة لسانه.. فشرُّ الناس مَنْ اتقاه الناس مخافة شره وفُحْشه... جعلنى الله وإياكم من أهل الإيمان وحرّم أجسادنا جميعاً على النيران.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿٧٥﴾ باب العفو والإعراض عن الجاهلين

❁ قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟﴾ [النور: ٢٢].

❁ ما أجمل أن نعفو عن الناس ونسامح ونصفح عمن أساء إلينا.. فهذا من أعظم الأبواب لجلب المودة والمحبة بين العباد.

❁ قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿[فصلت: ٣٤، ٣٥].

فإذا قذفك شخص بمسبة فاقذفه بالعفو عنه واقذفه بالكلام الطيب.

إذا أساء شخص إليك فأحسن إليه، فلن يزال معك من الله ظهيرٌ عليه ما دمت على عفوك وإحسانك.

❁ إذا ظلمك شخص فتجاوز عنه: فإن الله يدافع عنك... فالله سبحانه وتعالى يدافع عن المظلوم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

❁ إن الله سبحانه وتعالى قد قال في كتابه الكريم: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّقَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، هذا في حق من عاقب بمثل ما عوقب به، لينصرنه الله!! فكيف بالذي ترك حقه كله لله؟!

❁ فالزم جانب العفو فإن العفو من شيم المحسنين:

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلِإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[التغابن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾

[الشورى: ٤٠].

✽ وقال النبي ﷺ: « مَا نَقَصْتُ صَدَقَةً مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ »^(١).

✽ وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم... »^(٢).

✽ وصَحَّ عنه (عليه الصلاة والسلام) أنه قال: « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غِيْظٍ يَكْظِمُهَا ابْتِغَاءً وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى »^{(٣)(٤)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٤٨) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت للنبي ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أَحَدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقِيَّةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ ابْنِ عَبْدِ كُلال، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَتْنِي، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَناداني فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ... فَناداني مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، والبيهقى فى الشعب، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٧).

(٣) صحيح: رواه الإمام أحمد، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٤) فقه الأخلاق / الشيخ مصطفى العدوى (ص ٨١، ٨٢).

إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلِكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ: إِنْ شِئْتَ: أَطَبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ» فقال النبي ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»^(١).

❁ كانت أُمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جالسة مع النبي ﷺ فسألته: هل مرَّ عليك يومٌ كان أشدَّ من يومٍ أحد؟ ... ولماذا يومٍ أحد؟! لأنها تعلم أنه كان يومًا عصيبًا على النبي ﷺ وأصحابه .. فقد قُتل في هذا اليوم سبعون من خيرة أصحاب النبي ﷺ وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب - عم النبي ﷺ -.

فأجابها النبي ﷺ بأنه مرَّ عليه أيامٌ شداد .. وكان من أشد تلك الأيام - يوم الطائف - .. وذكر لها ما حدث يوم الطائف عندما ذهب إليهم النبي ﷺ ليعرض عليهم دعوته ويدعوهم إلى الله فكانوا أسفه من أهل مكة الذين حاربوه .. فقد اجتمعوا هم وسُفهاؤهم ووقفوا صفين متقابلين في طريق النبي ﷺ وأخذوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه ﷺ .. فذهب وهو مهموم حتى بلغ مكانًا يُسمَّى قرن الثعالب فرأى سحابة قد أظلمت .. فرفع رأسه فإذا فيها جبريل عليه السلام فسلم عليه ثم قال له: هذا مَلِكُ الْجِبَالِ يُقرئك السلام .. فسلم عليه النبي ﷺ فقال له ملك الجبال: إِنْ رَبِّي أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِمَا شِئْتَ... فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَطَبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ - الجبلين - فعلت... فما كان من نهر الرحمة وينبوع الحنان إلا أن عفا عنهم وقال له: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

وبالفعل ... فقد خرج من أصلاب هؤلاء الكفار رجال آمنوا بالله واتبعوا رسول الله وأزروه ونصروه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد. الأخشابان: الجبلان المحيطان بمكة، والأخشب: هو الجبل الغليظ.

❁ وكم من المواقف التي تعرّض فيها النبي ﷺ للأذى ومع ذلك فقد كان يعفو ويصفح لأن الله أرسله رحمة للعالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٤٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُتْهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ تَعَالَى: فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ تَعَالَى ^(١).

❁ وهذا من كرم أخلاق النبي ﷺ.. أنه ما ضرب أحداً ولا امرأة ولا خادماً... وإنما كان يضرب إذا جاهد في سبيل الله... ولم ينتقم لنفسه أبداً بل كان يعفو دائماً ويرفع شعار: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»... ولكنه كان إذا انتهكت محارم الله فإنه ﷺ كان يغضب لله ولا يرضى بذلك أبداً.... فكان يتسامح في حق نفسه ولكنه كان يغضب لله (جَلَّ وَعَلَا).

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم وبخاصة الذين أكرمهم الله عز وجل بشرف الدعوة إلى الله ألا يغضبوا لأنفسهم.. فطريق الدعوة ليس مفروشا بالورود فينبغي ألا يلتفتوا لمن يُسيئ إليهم ولينشغلوا بالعبادة وشرف الدعوة إلى الله.. لكن إذا انتهك شيء من محارم الله عز وجل فيجب أن يغضبوا لله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥٠) وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً، فَظَنَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٢٨) كتاب الفضائل.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٤٩) كتاب فرض الخمس، ومسلم (١٠٥٧) كتاب الزكاة.



❁ فانظر إلى هذا الخلق الرفيع... لم يُؤبَّخه النبي ﷺ ولم يضربه، ولم يكفهر في وجهه، ولم يعبس؛ بل ضحك ﷺ ومع هذا أمر له بعتاء. ونحن لو أن أحداً فعل بنا هذا الفعل ما أقررناه عليه؛ بل لضربناه. وأما الرسول ﷺ الذي قال الله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] فإنه التفت إليه وضحك إليه، وأعطاه العطاء.

وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون حليماً، وإذا اشتد الناس أن يلين هو. وسئل معاوية رضي الله عنه بِمَ سُئِنَتِ النَّاسُ؟ ؛ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة والحكمة، فقال: أجعل بيني وبين الناس شعرة؛ إن جذبوها تبعتهم، وإن جذبتها تبعوني لكي لا تنقطع.

ومعنى كلامه أنه سهل الانقياد؛ لأن الشعرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبها أدنى جذب انقطعت، لكن من حُسن سياسته رضي الله عنه أنه كان يسوس الناس بهذه السياسية؛ إذا رآهم مقبلين استقبلهم، وإذا رآهم مُدبرين تبعهم حتى يتمكن من استمالة قلوبهم.

فهكذا ينبغي للإنسان أن يكون دائماً في سياسته رفيقاً حليماً، كما كان النبي

ﷺ (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ قَادِمُوهُ، وَهُوَ يَمَسْحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٢٤-٣٢٥) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٧٩٢) كتاب الجهاد.



(٣٧) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٦) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١١٤) كتاب الأدب - مسلم (٢٦٠٩) كتاب البر والصلة.

(٧٦) باب احتمال الأذى

✽ قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وفي الباب الأحاديث السابقة في الباب قبله.

✽ قال المؤلف رحمه الله: (باب الصبر على الأذى)، الأذى: هو ما يتأذى به الإنسان من قول أو عمل أو غير ذلك، والأذى إما أن يكون في أمر ديني أو دنيوي، فإذا كان في أمر ديني، بمعنى أن الرجل يؤذى من أجل دينه، كان في هذا الصبر على الأذى أسوة بالرسول الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَنْتَهُمْ فَصَرُّوا﴾ [الأنعام: ٣٤]. أُوذُوا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

والإنسان إذا كان معه دين، وكان معه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلا بد أن يؤذى ولكن عليه بالصبر، وإذا صبر فالعاقبة للمتقين.

وَيُتْلَى المرء على قدر دينه، فيُسلط الله عليه مَنْ يؤذيه امتحانًا واختبارًا... كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كُذَابٍ لِلَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]. يعني إذا أُوذِيَ في الله من جهة دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته للخير، جعل هذه الفتنة كالعذاب، فنكص على عقبيه والعياذ بالله.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

يعنى أن بعض الناس يعبد الله على حرف، وليس عنده عبادة متمكنة، فإن أصابه خير ولم تأت فتنه ولا أذية استمر واطمأن.. وإن أصابته فتنه من شبهة أو

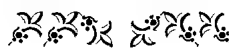
أذية أو ما أشبه ذلك، انقلب على وجهه - والعياذ بالله - خسر الدنيا والآخرة.
فالواجب الصبر على الأذى في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما الأذى فيما يتعلق بأمور الدنيا ومعاملة الناس، فأنت بالخيار إن شئت فاصبر وإن شئت فخذ بحقك... والصبر أفضل، إلا إذا كان في الصبر عدوان واستمرار في العدوان، فالأخذ بحقك أولى.

فلنفرض أن لك جارًا يؤذيك، بأصوات مزعجة، أو دق الجدار، أو إيقاف السيارة أمام بيتك، أو ما أشبه ذلك، فالحق إذن لك، وهو لم يؤذك في ذات الله، فإن شئت فاصبر وتحمل وانتظر الفرج، والله سبحانه وتعالى يجعل لك نصيرًا عليه، وإن شئت فخذ بحقك.. لقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]. ولكن الصبر أفضل ما لم يحصل بذلك زيادة عدوان من المعتدى، فحينئذ الأفضل أن يأخذ بحقه ليردعه عن ظلمه.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ آيتين سبق الكلام عليهما.

قوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].
وقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. وسبق الكلام عليهما^(١).



(٦٥٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تَسْفُهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(٢) وقد سبق شرحه في «باب صلة الأرحام».

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٢٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة.



❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٣٢٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٧) باب الغضب إذا انتهكت حُرُمات الشرع

والانتصار لدين الله تعالى

✽ يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: [باب الغضب إذا انتهكت حُرُمات الشرع والانتصار لدين الله تعالى].

يعنى: الذى ينبغى للمؤمن ألا يغضب، إلا إذا كان الأمر يتعلق بدينه فيغضب انتصاراً لدينه.. يغضب لله سبحانه وتعالى، أما إذا كان الغضب للنفس فإنه يعفو ويحلم ويصفح... وكان من عادة النبي ﷺ الصّبح والحلم والتجاوز صلوات الله وسلامه عليه، أما إذا كان الأمر يتعلق بشرع الله وبحدود الله فإنه كان يغضب ﷺ... وغضبه الله سبحانه.

✽ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].
لأن تعظيم حُرُمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التى مَن عَظَّمَهَا وَأَجَلَّهَا، أثابه الله ثواباً جزيلاً وكانت خيراً له فى دينه، ودُنياه وأُخراه عند ربه عز وجل.
وحُرُمات الله: كل ماله حُرمة، وأمر باحترامه، من عبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، والحرَم والإحرام، والهدايا، والعبادات التى أمر الله العباد بالقيام بها^(١).

✽ ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

فتعظيم شعائر الله وتعظيم حُرُمات الله أن يجدها الإنسان عظيمة، وأن يجد امتهانها عظيماً فيغضب ويثار لذلك، حتى يفعل ما أمر به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك.

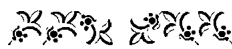
(١) تفسير السعدى (ص ٦٢٤).

❁ وقال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) [محمد: ٧].

هذا أمرٌ منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله وثبت أقدامهم.. أى: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم... فهذا وعدٌ من كريم صادق الوعد، أن الذى ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاؤه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم فى تعس، أى: انتكاس من أمرهم وخذلان.

❁ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ أى: أبطل أعمالهم التى يكيّدون بها الحق، فرجع كيدهم فى نحورهم، وبطلت أعمالهم التى يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله. ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذى أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فَأَخْطَأَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٩) (١).



(٦٥٤) وَعَنْ أَبِي مسعود عقبة بن عمرو البدرى رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّى لَا تَأْخُرُ عَن صَلَاةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فَلَانٍ مِّمَّا يُطِيلُ بِنَا.. فَمَا رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ فِي مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ مِنْكُمْ مُتَفَرِّينَ. فَإِنَّكُمْ أُمَّ النَّاسِ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ ورائِهِ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ» (٢).

❁ ففى هذا الحديث يخبر أبو مسعود عقبة بن عمرو البدرى رضي الله عنه أنه جاء

(١) تفسير السعدى (ص ٩٣٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٦) كتاب الصلاة.

رجُلٌ إلى النبي ﷺ وأخبره أنه يتأخر عن صلاة الصبح لأن الإمام الذي يصلى بهم يُطيل في الصلاة إطالة أتعبه حتى أنه كان يتعمد أن يذهب إلى الصلاة متأخراً حتى تفوت الركعة الأولى التي تكون في الغالب أطول من الثانية ثم يدرك الثانية بسبب إطالة الإمام.... وكان من المتوقع أن يقول له النبي ﷺ: وما يُضيرك في الإطالة.. ألا تحب أن تستمع إلى القرآن وتستمتع بآياته... لكن الذي حدث خلاف ذلك فقد قال أبو مسعود: فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظةٍ قَطُّ أشدَّ مما غضب يومئذٍ.

نعم.. لقد غضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ» منفرين يعنى ينفرون الناس عن دين الله... وهذا الرجل لم يَقُل للناس: لا تُصلوا صلاة الفجر، لكنه نَفَّرَهم بفعله، بالتطويل الذي هو خارجٌ عن السُّنة، فنفّر الناس، وفي هذا إشارة إلى أن كل شيء ينفّر الناس عن دينهم - ولو لم يتكلم الإنسان بالتنفير - فإنه يدخل في التنفير عن دين الله.

ولهذا كان الرسول ﷺ يدارى في الأمور الشرعية، فيترك ما هو حسن لدرء ما هو أشد من تركه فتنة وضرراً... فإنه ﷺ هَمَّ بأن يبنى الكعبة على قواعد إبراهيم ﷺ، ولكن خاف من الفتنة فترك ذلك، وكان يصوم في السفر فإذا رأى أصحابه صائمين - وقد شَقَّ عليهم الصوم - أفطر ليسهل عليهم.

❁ ثم أمرهم النبي ﷺ بالتخفيف في الصلاة فقال ﷺ: «فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ» نعم.. ينبغي للإمام أن يراعى أنه يصلى وراءه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع أن يقف كثيراً لكِبَرِ سِنِّه ولمرضه... وكذلك الطفل الصغير الذي لا يتحمل.. ونحن نريد أن نُرغبه في الصلاة لا أن نُنفره منها.. «وذَا الْحَاجَةِ» المشغول الذي يريد أن يصلى الفريضة ويذهب لقضاء مصالحه.

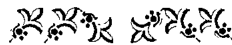
ثم إن الهدف من صلاة الجماعة - بعد الفوز بثوابها وإعمار بيوت الله - أن يجتمع أهل الحي في المسجد ويتعارفون وتحدث بينهم المحبة والمودة ويواظبون على جميع الصلوات الخمس مع بعض، ويحضرون الجناز، ويعود بعضهم بعضاً إذا مرض.

إذا: في صلاة الجماعة ألفة تجمع الناس، فإذا كان الإمام يطول بالناس فإنه يُنفرهم فلا أحد يصلي معه... فبدلاً من أن يكون المسجد فيه عددٌ كبير يصبح فيه قلة من المصلين، فتزول الحكمة من صلاة الجماعة، وهى أن يجتمع الجميع فيصلون صلاة الجماعة سوياً.

❦ ولهذا فإنه ينبغي على الإمام أن يراعى حال المأمومين فلا يشق عليهم إلا إذا علم رضاهم وأنهم جميعاً يرغبون في التطويل وذلك لشدة حُبهم لسماع كلام الله (جل وعلا) فلا بأس عليه حينئذ أن يطول بهم طالما أنهم لا يشعرون بأى مشقة.

ولما صلى الرجل خلف معاذ بالبصرة أو النساء شكاه إلى النبي فقال ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَنَأْنُ أَنْتَ - ثَلَاثَ مِرَارٍ - فَلَوْلَا صَلَّيْتَ بِسَبِّحِ اسْمِ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»^(١).

فالضابط في التطويل والتقصير حال المأمومين ورضاهم، وإتمام الصلاة وعدم النقص من أركانها... فعن أنس قال: «كان النبي ﷺ يُوجز الصلاة ويكملها»^(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٥) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٥) كتاب الصلاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٦) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٩) كتاب الصلاة.

(٦٥٥) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلٌ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَهُ وَتَلَوْنَ وَجْهَهُ وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ»^(١).

وفي رواية: فَلَمَّا قَدِمَ فَرَأَى النَّمَطَ عَرَفْتُ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ فَجَذَبَهُ حَتَّى هَتَكَهُ أَوْ قَطَعَهُ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُوَ الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ. قَالَتْ: فَقَطَعْنَا مِنْهُ وَسَادَتَيْنِ وَحَشَوْنَهُمَا لَيْقًا فَلَمْ يَعِْبْ ذَلِكَ عَلَيَّ^(٢).

❦ لقد أورد المصنف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الحديث في باب الغضب إذا انتهكت حُرُمَاتُ الشَّرْعِ.

وفي هذا الحديث أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان في بيتها سهوة.. وهي قد تكون شِبَاكًا في الحائط أو تكون شيئًا بداخل الجدار تضع بداخله حاجاتها. أو كالصُّفَّةِ التي تكون بين يدي البيت... فأرادت أن تستر تلك السهوة فوضعت ستارًا رقيقًا عليه رسوم وتصاوير.

فلما عاد النبي ﷺ من السفر ودخل البيت ورأى تلك الستارة التي عليها تلك الصور هتكها وقطعها وتَلَوْنَ وَجْهَهُ وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ: أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ». يعنى المصورين، فهم أشد الناس عذابًا، لأنهم أرادوا أن يُضَادُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خَلْقِهِ، وفي تصويره.

وكانوا فيما سبق يُصَوِّرُونَ بِالْيَدِ، لأنه ليس عندهم آلات وأجهزة تلتقط الصورة بدون عمل يدوي، فكانوا يخططون بأيديهم، فيأتى الحاذق منهم ويصور صورة بيده ويُتَقَنَّهَا لِتُشَابِهَ مَا صَوَّرَهُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ..، ليُقال: ما أشد مهارة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٥٤) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٠٧) (٩٢) كتاب اللباس.

«السَّهْوَةُ»: كالصُّفَّةِ تَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ الْبَيْتِ... و«الْقِرَامُ» بكسر القاف: سِتْرٌ رَقِيقٌ.

و«هَتَكَهُ»: أَفْسَدَ الصُّورَةَ الَّتِي فِيهِ.

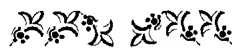
(٢) رواه مسلم (٢١٠٧) كتاب اللباس.

هذا الرجل، وما أعرفه، كيف استطاع أن يقلد خلق الله ﷻ؟ فهم يريدون بذلك أن يشاركوا الله سبحانه وتعالى في تصويره... وهو سبحانه وتعالى لا شريك له: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤].. فلما رآه النبي ﷺ هتكه: يعنى مزقه عليه الصلاة والسلام.

وفي هذا: دليل على مشروعية تمزيق الصور التي تصوّر باليد لأنه يضاهي بها خلق الله ﷻ، وإقرار المنكر كفعل المنكر. وفيه: الغضب إذا انتهكت حُرّمات الله ﷻ، لأن النبي ﷺ غضب وهتكه^(١).

وفي رواية أخرى: (أن عائشة رضي الله عنها مزقتها، وقطعتها وجعلت منها وسادتين يتكى عليهما النبي ﷺ)، فإذا جعلت هذه الصور في فراش على سرير، أو في فراش على الأرض يوطأ بالقدم فلا مانع... أما إذا كانت مُعلقة على وجه فيه شيء من الاحترام لها فهذا ممنوع؛ لأن النبي ﷺ غضب من ذلك.

قال الإمام النووي رحمته الله: وَقَدْ صَرَّحَتْ فِي الرِّوَايَاتِ الْمَذْكُورَاتِ بَعْدَ هَذِهِ بِأَنَّ هَذَا النَّمَطَ كَانَ فِيهِ صُورُ الْخَيْلِ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ وَأَنَّهُ كَانَ فِيهِ صُورَةٌ فَيُسْتَدَلُّ بِهِ لِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالْيَدِ وَهَتِكِ الصُّورِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْغَضَبِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْمُنْكَرِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ اتِّخَاذُ الْوَسَائِدِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ... وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ حِينَ جَذَبَ النَّمَطَ وَأَزَالَهُ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْنَا أَنْ نَكْسُوا الْحِجَارَةَ وَالطِّينَ» فَاسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّهُ يُنْمَعُ مِنْ سِتْرِ الْحَيْطَانِ وَتَنْجِيدِ الْبُيُوتِ بِالثِّيَابِ وَهُوَ مَنَعُ كَرَاهَةِ تَنْزِيهِهِ لَا تَحْرِيمِ^(٢).



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٣١) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٢١-١٢٢).

(٦٥٦) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قَرِيشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: مَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى؟» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١).

✽ لقد كانت هذه المرأة من قبيلة من أشرف قبائل العرب وهى قبيلة بنى مخزوم.. وكانت هذه المرأة تستعير المتاع وتجحده ولا ترده لأصحابه.. يعنى تستعير إناءًا أو قِدرًا أو ذهبًا أو غير ذلك فإذا طلبها أصحابها قالت: ما أخذت منكم شيئًا.. فرفعوا أمرها إلى النبى ﷺ فأمر بقطع يدها لأن هذا نوع من السرقة.. فأهم قريشًا شأنها وقالوا: كيف تُقطع يد مخزومية، ثم طلبوا شفيعًا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: أسامة بن زيد حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. يعنى أنه يحبه حبًا شديدًا.

وأسامه هو ابن زيد بن حارثة... وزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عبدًا وهبته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنبى ﷺ فأعتقه... وأسامة ابنه، وكان النبى ﷺ يحبهما، فقالوا: ليس إلا أسامة بن زيد، فتقدم أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبى ﷺ ليشفع. فغضب النبى ﷺ غضبًا شديدًا وقال له: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى؟».. ثم قام وخطب فى الناس لأن الأمر فى غاية الخطورة ولا بد أن يسمع الجميع..

فقال ﷺ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ - يعنى أقسم بالله - لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

✽ الحدود هي العقوبات التي قدرها الله ورسوله ﷺ على فاعل المعصية فمنها حد الزنا ومنها حد القذف وحد السرقة وحد الحراة ... وأما القتل بالردة فليس من الحدود لأن المرتد إذا تاب ولو بعد أن رُفِع إلى السلطان فإنه يسقط عنه القتل لكن هذه الحدود لا بد منها ولا تسقط إلا إذا تاب الإنسان قبل أن يُقدَّر عليه لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٣٣] إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقَدَّرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

واعلم أن العقوبات على الذنوب تنقسم إلى قسمين: عقوبات أخروية فهذه أمرها إلى الله ... قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨] فكل ذنب سوى الشرك فإنه قابل أن يغفره الله ﷻ بفضله ورحمته.

وأما العقوبة الدنيوية فهي أقسام كثيرة: منها: أقسام معينة مُحدَّدة في الشريعة فهذه لا يجوز تعديها ... فمثلاً السارق تُقطع يده ولا يجوز أن تُقطع رجله مع يده ولا أن تُقلع عينه ولا أن تُفجر أذنه ... لا يجوز أن يُتعدى فيما حدَّه الله ورسوله وهو قطع اليد.

كذلك أيضاً الزنا ... إذا كان الزانى لم يتزوج من قبل فحدُّه مائة جلدة وتغريب عام ... أى طرده من البلد إلى بلدٍ آخر لمدة سنة ... هذا أيضاً لا تجوز الزيادة فيه ولا النقص منه لأنه حدٌّ من الحدود.

ومثل المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض فساداً هؤلاء جزاؤهم أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلفٍ أو يُنْفَوْا من الأرض.

هناك عقوبات أخرى غير مُقدرة هذه يرجع فيها إلى رأى الحاكم يعنى القاضى الشرعى أو مَنْ له تنظيم وتقنين العقوبات ... فهذه أمرها واسع تارة تكون العقوبة بالمال ... يغرم الإنسان مالا وتارة تكون العقوبة بالعزل عن منصبه وتارة تكون بالحبس وتارة تكون بالتشهير بأن يُعلن اسمه ومخالفته بين الناس .. وتارة تكون بالتقويم من المجلس حسب ما تقتضيه المصلحة والتأديب وتارة تكون بالجلد.

فأما العقوبات المُحددة فإنه إذا بلغت السلطان فلا يجوز لأحد أن يشفع فيها كما قال النبى ﷺ « إِذَا بَلَغَتِ الْحُدُودُ السُّلْطَانُ، فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ وَالْمُشَفَّعَ لَهُ »^(١) ... اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وقال ﷺ: « مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ »^(٢) والعياذ بالله.

وإن لم تصل إلى الحاكم فهنا قد يجوز الشفاعة والتوسط ... مثل لو أن أحدا رأى شخصا يزنى وشاهده وعنده أربع شهود على ذلك ورأى أن من المصلحة أن يُستتاب هذا الرجل فإذا تاب ستر عليه فلا بأس ... أما بعد أن تبلغ السلطان فلا يجوز.

✽ وذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة من بنى مخزوم سرقَت وقد بينت السرقة بأنها تستعير المتاع وتجحده ... يعنى تأتى إلى الناس وتقول أعرنى القدر أعرنى الدلو فيُعيرونها إحساناً منهم إليها ثم تجحد العارية وتقول ما أعرتموني.

(١) رواه الطبرانى فى الصغير، والدارقطنى، وقال الأرنؤوط فى تحقيق ابن حبان (٢٥٠/١٠): وفى سنده أبو غزيرة ضعفه أبو حاتم وغيره، ووثقه الحاكم.. وأخرجه مالك فى «الموطأ» (٨٣٥/٢) عن ربيعة، عن الزبير موقوفا، وبسند آخر حسن عن على نحوه كذلك.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والطبرانى فى الكبير، والحاكم، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٩٦).

فجعل النبي ﷺ جحد العارية في منزلة السرقة لأن السارق يدخل البيوت في خفية ويأخذ ... وهذه سرقت أموال الناس في خفية أخذتها منهم على أنها عارية وأنها إحسان من أهلها أى من أهل الأموال ثم تجحد.

أمر النبي ﷺ أن تُقطع يدها .. وكانت من بنى مخزوم من أشرف قبائل قريش فأهمهم ذلك ... أى لحقهم الهم في هذا كيف تُقطع يد المخزومية فطلبوا مَنْ يشفع إلى رسول الله ﷺ فقالوا: مَنْ يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد .. ولم يذكروا أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا مَنْ هو أعلى قدرًا من أسامة بن زيد ... فإما أن يكونوا قد حاولوا ذلك ولم يُفلحوا وإما أن يكونوا من الأصل علموا أنهم لن يشفعوا في حَدٍّ من حدود الله.

المهم أنهم طلبوا من أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ... وأسامة هو أسامة بن زيد بن حارثة وزيد بن حارثة كان عبدًا مملوكًا وهبته خديجة إلى النبي ﷺ فأعتقه وكان يُحبه ويحب ابنه أسامة ... تكلم أسامة مع النبي في شأن المرأة لعله يرفع عنها القطع فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال له مُنكرًا عليه: «أتشفع في حَدٍّ من حدود الله» يعنى ما كان ينبغي أن تشفع في حد من حدود الله.

ثم قام فاخطب ... أى خطب حُطبة بليغة ثم قال: «إنما أهلك مَنْ كان قبلكم -يعنى من الأمم- أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

فصارت إقامتهم لحدود الله على حسب أهوائهم.

وفي هذا دليل على أن مَنْ سبقنا كانوا يسرقون وأن السرقة كانت كبيرة فيهم بين الغنى والفقير والشريف والضعيف.

ثم أقسم (عليه الصلاة والسلام) فقال: «وايم الله - أى: أحلف بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». هكذا العدالة، وهكذا تنفيذ حكم الله،

لا اتباع الهوى... أقسم بأن فاطمة بنت محمد، وهى أشرف من المخزومية حسَبًا ونسبًا؛ لأنها رضي الله عنها سيدة نساء أهل الجنة. أقسم أنها لو سرقت لقطع يدها. ثم أمر النبي ﷺ أن تقطع يد المرأة المخزومية فقطعت وهى امرأة من أشرف قريش ومع ذلك لم يسقط عنها الحد... وهكذا يجب على ولاية الأمر أن يكون الناس عندهم سواء فى إقامة الحدود وألا يحابوا أحداً لقربه أو لغناه أو لشرفه فى قبيلته أو غير ذلك... فالحمد لله ﻫﻮَ ﻫَﻮَ تجب إقامته لله ﻫﻮَ ﻫَﻮَ.
انظر إلى قوله تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ومن الرأفة الشفاعة لهم... لا تشفع لأحدٍ فى حدٍّ.

ولما كانت الأمة الإسلامية على هذه العدالة وعدم المبالاة وأنها لا تأخذها فى الله لومة لائم كان لها العزة والقوة والنصر المبين... ولما تخلت الأمة الإسلامية عن إقامة حدود الله وصارت المحسوبيات والوساطات تعمل عملها فى إسقاط حدود الله ﻫﻮَ ﻫَﻮَ تدهورت الأمة الإسلامية إلى الحد الذى ترونه الآن... فنسأل الله تعالى أن يُعيد للأمة الإسلامية مجدها وتمسكها بدينها.. إنه على كل شيء قدير^(١).

بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: فى الشمائل النبوية:

(١) شدته ﷺ فى الحق يتبين من رده ﷺ شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه حبه وابن حبه... وقال ﷺ مقولته المشهورة: «أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟»، وقد ورد عند مسلم: (فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ)، فمع أن الشافع هو رجل من أحب الناس للنبي ﷺ اختاره الصحابة بعناية لهذه المهمة، ولكن الأمر لم يختلف عنده ﷺ كما ظن الصحابة.

فلم ينظر النبي ﷺ إلى من هو الشافع، ولكن نظر إلى المشفوع فيه، وهو

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٤/٢٥٩-٢٦٢) بتصرف.



حَدَّثَ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ... وفي هذا دليل على تعظيم النبي ﷺ لحدود الله.

وهكذا يجب أن يكون جميع الناس حُكَمَاءَ وَمَحْكُومِينَ.

(٢) مساواته ﷺ في إقامة الحدود بين الناس، شريفهم ووضعهم حيث رَدَّ ﷺ شفاعَةَ أُسامَةَ بن زيد في امرأة شريفة (قرشية مخزومية) وزاد على ذلك، فقال ﷺ: «وايم الله لو أنَّ فاطمة بنت محمد سُرقت لقطعت يدها».

(٣) حرصه ﷺ على تعليم الأمة حيث قام ﷺ خطيباً في الناس، عشية يوم أن كلمه أُسامَةُ بن زيد، وقال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، فحوَّلَ ﷺ المسألة من مسألة خاصة إلى مسألة عامة، وعَلَّمَ الصحابة الحكمة في رَدِّه لشفاعة أُسامَةَ ابن زيد، ويَبِّنُ بذلك مغبة التفرقة في إقامة الحدود على أساس الشرف والنسب.

الفائدة الثانية:

يتفاوت حب النبي ﷺ لأصحابه، وقد علم الصحابة ذلك، لذا اختاروا أُسامَةَ بن زيد ﷺ ليشفع في المرأة المخزومية وقالوا: (وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسامَةُ بن زيد حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)، وهي منقبة عظيمة لأُسامَةَ ﷺ.

الفائدة الثالثة:

حرص الصحابة على الخير والاستغفار على الفور مما قد يقعون فيه من زَلَّاتٍ، وعلمهم أن استغفار الرسول ﷺ لهم ليس كاستغفارهم لأنفسهم.. لما ورد أن أُسامَةَ قال: (استغفر لي يا رسول الله)، وكان هذا منهم امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] (١).

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٤٠٢-٤٠٣) بتصرف.

الفائدة الرابعة:

أن النبي ﷺ غضب هنا لله عز وجل ... ولم يغضب لنفسه لأنه ﷺ كان لا يغضب إلا إذا انتهكت حُرُمات الله.

لأن الغضب والانتقام للنفس مذموم.. ولذا لما طلب أحد الصحابة من النبي ﷺ أن يوصيه قال له: «لا تغضب».

فالغضب لله ولشرائع الله محمود، وهو من هدى الرسول ﷺ، ودليل على غيره الإنسان وعلى محبته لإقامة شريعة الله... أما الغضب للنفس فينبغي للإنسان أن يكتمه وأن يحلُم، وإذا أصابه الغضب فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فليضطجع. كل هذا مما يخفف عنه الغضب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥٧) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى نخامةً في القبلة. فشَقَّ ذلك عليه حتى رُؤِيَ في وجهه، فقامَ فحَكَّهُ بيده فقال: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يُسَاجِي رَبَّهُ، وإن رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ، فلا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ الْقِبْلَةِ، ولكن عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَقَالَ: «أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا»^(١).

❁ والأمرُ بالبُصَاقِ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ هُوَ فِيمَا إِذَا كَانَ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ، فَأَمَّا فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَبْصُقُ إِلَّا فِي ثَوْبِهِ.

❁ وهذا الحديث أورده المصنف رحمه الله في باب الغضب إذا انتهكت حُرُمات الشرع.

وفي هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل المسجد في يوم من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠٥)، (٤١٧) كتاب الصلاة - ومسلم (٥٥١) كتاب المساجد.

الأيام فرأى نُخامة في القبلة - أى في قبلة المسجد - فغضب النبي ﷺ وشق ذلك عليه لتعظيمه لحرَمات الله ولبيت الله ﷻ .. وكأنه يقول ﷺ: كيف يحدث هذا في بيت الله؟!

ثم قام النبي ﷺ - سيد المتواضعين - وحكَّ تلك النُخامة بيده الشريفة وقال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، وَإِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ». يعنى إذا قام أحدكم يصلى فإنه يناجى ربه أى: يخاطبه والله ﷻ يرد عليه... كما قال تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤)، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥)، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» (١).

فأنت تُناجى الله ﷻ بكلامه، وتدعوه سبحانه وتعالى، وتُسبحه، وتُمجده، وتُعظمه... فهو سبحانه وتعالى أمامك بينك وبين القبلة، وإن كان الله سبحانه وتعالى في السماء فوق عرشه، فإنه أمامك، لأنه محيط بكل شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

❦ ففي عهد النبي ﷺ كان المسجد نفسه مفروشًا بالتراب وبالحصى، ولم يكن في المسجد سجاد ولا حصير؛ ولذلك كان النبي ﷺ إذا احتاج شيئًا يقول لعائشة: «ناوليني الحُمْرة»، وهى حصيرة على قدر ما يصلى فيفرشها ويصلى عليها.

أما المسجد في ذلك الزمان فلم يكن مفروشاً.

ولذا كان الواحد منهم إذا غلبه البصاق وأراد أن يبصق كان يخرج خارج المسجد أو أن يبصق في أرض المسجد ويدفنها بالتراب.. لكن الأصل ألا يفعل ذلك وذلك لأن النبي ﷺ قال: «البُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا».. لكن إن اضطر لذلك فعليه دفنها.

إما في التراب إن كان أرض المسجد تُرابية أو أن يُخرجها خارج المسجد. وهذا إذا كانت أرض المسجد من الحصى والتراب.

أما في مساجدنا اليوم فلا يجوز ذلك لأن أرض المسجد مفروشة بالموكيت ولا يجوز أن يبصق أحدٌ عليها.. بل يكون معه منديل يبصق فيه ويضعه في جيبه لحين خروجه من المسجد ثم يلقيه في صندوق القمامة.

ثم قال ﷺ: «فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قَبْلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: «أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فِيهِ نَهْيُ الْمُصَلِّي عَنِ الْبُصَاقِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَمِينِهِ... وَهَذَا عَامٌّ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَلْيَبْزُقْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ وَعَنْ يَسَارِهِ» هَذَا فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ أَمَّا الْمُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَبْزُقُ إِلَّا فِي ثَوْبِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «الْبُزَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ» فَكَيْفَ يَأْذُنُ فِيهِ ﷺ وَإِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبُصَاقِ عَنِ الْيَمِينِ تَشْرِيفًا لَهَا... وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فَلَا يَبْصُقُ أَمَامَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنْ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا... قَالَ الْقَاضِي وَالنَّهْيُ عَنِ الْبُزَاقِ عَنْ يَمِينِهِ هُوَ مَعَ إِمْكَانِ غَيْرِ الْيَمِينِ فَإِنْ تَعَذَّرَ غَيْرُ الْيَمِينِ بِأَنْ يَكُونَ عَنْ يَسَارِهِ مُصَلٌّ فَلَهُ الْبُصَاقُ عَنْ يَمِينِهِ لَكِنْ الْأُولَى تَنْزِيهُ الْيَمِينِ عَنْ ذَلِكَ مَا أَمَكُنْ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (٥/٥٥-٥٦).

وفي هذا الحديث: دليل على أن النخامة ليست نجسة، لأن النبي ﷺ أمر أن يبصق المصلي تحت قدمه أو في ثوبه، ولو كانت نجسة ما أذن له أن يبصق في ثوبه... وفيه التعليم بالفعل لقول النبي ﷺ: «أو يقول هكذا، وبصق في ثوبه وحك بعضه في بعض».

وفيه أيضًا: إطلاق القول على الفعل في قوله: «أن يقول هكذا» وهو يريد الفعل.

وفيه أيضًا: أن الإنسان لا حرج عليه أن يبصق أمام الناس، ولا سيما إذا كان للتعليم.

وفيه أن من المروءة ألا يرى في ثوبك شيء يستقذره الناس - لأنه حك بعضها ببعض - لئلا تبقى صورتها في ثوبك، وإذا رآها الناس تأذوا منك وكرهوك. فالإنسان ينبغي أن يكون نظيفاً في مظهره وفي ثيابه وفي غير ثيابه، حتى لا يتقزز الناس مما يشاهدونه منه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٨) باب أمر ولاية الأمور بالرفق برعاياهم

ونصيحتهم والشفقة عليهم والنهي عن غشهم،

والتشديد عليهم، وإهمال مصالحهم،

والغفلة عنهم وعن حوائجهم

✽ هذا الباب عقده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في كتابه هو بابٌ عظيمٌ مُهمٌ يُخاطب به ولاية الأمور ويخاطب به الرعية، ولكلٌّ منهم على الآخر حقٌّ يجب مراعاته.

أما ولاية الأمور فيجب عليهم الرفق بالرعية، والإحسان إليهم، واتباع مصالحهم وتولية مَنْ هو أَهْلٌ للولاية، ودفع الشر عنهم وغير ذلك من مصالحهم، لأنهم مسئولون عنهم أمام الله ﷻ.

وأما الرعية فالواجب عليهم السمع والطاعة في غير المعصية، والنصح للولاية، وعدم التشويش عليهم، وعدم إثارة الناس عليهم، وطى مساوئهم، وبيان محاسنهم، لأن المساوئ يمكن أن يُنصح فيها الولاية سرًّا بدون أن تُنشر على الناس، لأن نشر مساوئ ولاية الأمور أمام الناس لا يُستفاد منه، بل لا يزيد الأمر إلا شدة؛ فتحمل صدور الناس الكراهية والبغضاء لولاية الأمور.

وإذا كره الناس ولاية الأمور وأبغضوهم وتمردوا عليهم، ورأوا أمرهم بالخير أمرًا بالشر، ولم يسكتوا عن مساوئهم، وحصل بذلك إيغار للصدور وشرٌّ وفساد.

والأمة إذا تفرقت وتمزقت حصلت الفتنة بينها ووقعت... مثل ما حصل في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حين بدأ الناس يتكلمون فيه، فأوغروا الصدور عليه، وحشدوا الناس ضده، وحصل ما حصل من الفتن والشرور إلى يومنا هذا.

فولاة الأمور لهم حق وعليهم حق.

ثم استدلل المؤلف رحمه الله بآيات من كتاب الله فقال: وقول الله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا تتعالى عليهم، ولا ترتفع في الجو، بل اخفض الجناح، حتى وإن كنت تستطيع أن تطير في الجو فاخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

وأما من خالفك وعصاك فأقم عليه العقوبة اللائقة به، لأن الله تعالى لم يقل اخفض جناحك لكل أحد، بل قال: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأما المتمردون والعصاة فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿[المائدة: ٣٣، ٣٤]﴾. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ^(١).

فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده.

فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفورة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه، وحق عباده. ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كلِّ والٍ ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو: ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه... ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢ / ٣٣٤-٣٣٥).

المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تخذعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مُستحبة، وذلك كنفع الناس، بالمال والبدن، والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول، وغيره.

وَحَصَّ اللهُ إِيْتَاءَ ذَوِي الْقُرْبَى - وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي الْعُموم - لِتَأْكُدَ حَقَّهُمْ، وَتَعَيَّنَ صَلَتُهُمْ وَبِرَّهُمْ، وَالْحِرصُ عَلَى ذَلِكَ.

ويدخل في ذلك، جميع الأقارب، قرييهم، وبعيدهم، لكن كل مَنْ كَانَ أَقْرَبَ، كَانَ أَحَقَّ بِالْبِرِّ.

وقوله: ﴿وَيَتَّهِنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وهو: كل ذنب عظيم، استفحشته الشرائع والفِطَر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعُجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر، كل ذنب ومعصية تتعلق بحق الله تعالى.

وبالْبَغْيِ، كل عدوان على الخلق، في الدماء، والأموال، والأعراض.

فصارت هذه الآيات، جامعة لجميع المأمورات والمنهيات.. لم يبقَ شَيْءٌ، إِلَّا دَخَلَ فِيهَا... فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل، أو إحسان، أو إيتاء ذى القربى، فهي مما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر، أو بغى، فهي مما نهى الله عنه. وبها يُعْلَمُ حُسْنُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَقُبْحُ مَا نَهَى عَنْهُ. وبها يُعْتَبَرُ مَا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الْأَقْوَالِ، وَتَرَدُّ إِلَيْهَا سَائِرُ الْأَحْوَالِ، فَتَبَارَكَ مَنْ جَعَلَ مِنْ كَلَامِهِ، الْهُدَى، وَالشِّفَاءَ، وَالنُّورَ، وَالْفَرْقَانَ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.

ولهذا قال: ﴿يُعِظُكُمْ﴾ أى: بما يَنْبَغُ لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، بِأَمْرِكُمْ بِمَا فِيهِ غَايَةُ صَلَاحِكُمْ وَنَهْيِكُمْ عَمَّا فِيهِ مُضَرَّتْكُمْ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به،

فتفهمونه وتعقلونه. فإنكم إذا تذكروتموه وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥٨) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(٢).

❖ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥٩) وَعَنْ أَبِي يَعْلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»^(٣).

وفي رواية: «فَلَمْ يَحْطُهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَحِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ». وفي رواية لمسلم: «مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ، وَيَنْصَحُ لَهُمْ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ».

❖ وفي هذا الحديث يخبر معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً» أي: يعطيه رعية يتولاها ويقوم على أمرهم سواء كان حاكماً أو أميراً أو رجلاً في بيته مع زوجته وأولاده. «يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

(١) تفسير السعدي (ص ٥١٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٨) كتاب العتق - ومسلم (١٨٢٩) كتاب الإمارة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٥٠) كتاب الأحكام، ومسلم (١٤٢) كتاب الإيمان.

وفي رواية: «فَلَمْ يَحْطُهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ».

فالواجب على ولي الأمر أن يحافظ على رعيته بتقديم النصيحة النافعة لهم في أمور دينهم ودنياهم وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوتهم إلى الخير ونشر العدل فيهم والحفاظ على دينهم والدفاع عنه ومنع الأفكار السيئة والأخلاق الفاسدة من أن تصل إلى المجتمع أو تنتشر فيه وتوفير سبل الحياة الكريمة لهم وحمايتهم من أي عدوانٍ خارجي ومنع كل ما يضرهم في دينهم ودنياهم.. وغير ذلك مما يجب عليه.

فإن فعل ذلك فقد أدى الأمانة وحفظ الرعية وإن لم يفعل ذلك كان غاشياً لرعيته... فما هو جزاء مَنْ غَشَّ رعيته؟ ... جزاؤه الحرمان من دخول الجنة.... قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فَقَوْلُهُ رَعِيَّتُهُ: «حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

فِيهِ التَّأْوِيلَانِ الْمُتَقَدِّمَانِ فِي نَظَائِرِهِ .. أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ وَالثَّانِي حَرَّمَ عَلَيْهِ دُخُولَهَا مَعَ الْفَائِزِينَ السَّابِقِينَ... وَمَعْنَى التَّحْرِيمِ هُنَا الْمَنْعُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦٠) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمِّي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمِّي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»^(٢).

❖ وفي هذا الحديث تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله ﷺ يدعو ويقول: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمِّي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمِّي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ».

فهذه دعوة مُستجابة من النبي ﷺ على كل مَنْ تَوَلَّى أُمْرًا من أمور المسلمين

(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٢٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٨) كتاب الإمارة.

الخاصة والعامّة... سواء كان حاكمًا أو مديرًا في مدرسة أو موظفًا أو أبًا أو إمام مسجد أو غير ذلك فشقّ على رعيته.. دعا عليه النبي ﷺ أن يشق الله عزّ وجلّ عليه في الدنيا والآخرة.. فأما في الدنيا فبأن يشق عليه في رزقه وفي صحته وبدنه فيُصاب بالأسقام وفي قلبه فيجعله حزينًا لا يشعر بطعم السعادة بعيدًا عن الانتفاع بأسباب الهداية.. وفي أهله بأن يُسلطهم عليه وفي عمله بأن يرزقه بمن يؤذيه.. وغير ذلك.

وأما في الآخرة فذلك بأن يرى المشقة عند موته وفي قبره ويوم القيامة لأنه كان ظالمًا غشومًا جائرًا قاسيًا على رعيته.

❦ ثم دعا النبي ﷺ دعوة أخرى مستجابة لكل من رفق برعيته فقال ﷺ: «وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمْتِي شَيْئًا فَارْفُقْ بِهِ»... فهذه دعوة من النبي ﷺ للإنسان الذي يتولى أمور الناس سواء كان موظفًا صغيرًا أو كبيرًا أو حاكمًا... هذا الإنسان إذا كان رقيقًا بالرعية يحوطهم بنصحه ويعاملهم معاملة الأب لأولاده، فقد دعا له النبي ﷺ أن يرفُق الله به... يرفُق به في الدنيا وفي قبره، ويوم القيامة؛ لأنه كان رقيقًا برعيته.

فالحاكم يجب عليه أن يرفُق برعيته فلا يظلمهم ولا يحرمهم حقوقهم ولا يجلب لهم أسباب الفتنة في الدين فتشق عليهم الطاعة.. بل يجب عليه أن يمهد لهم الأرض لكل ما يعود عليهم بالنفع في أمور دينهم ودنياهم.. وهكذا كل من ولي من أمر أمة النبي ﷺ شيئًا يجب عليه أن يرفُق بمن ولاه الله عليهم.

وقد يظن بعض الناس أن معنى الرفق أن تأتي للناس على ما يشتهون ويريدون... وليس الأمر كذلك، بل الرفق أن تسير بالناس حسب أمر الله ورسوله، ولكن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالناس، ولا تشق عليهم في شيء ليس عليه أمر الله ورسوله ﷺ.

(٦٦١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، ثُمَّ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيٌ خلفه نبيٌّ.. أى كان الأنبياء يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية.. والسياسة القيام على الشئ بما يصلحه.. لكن الأنبياء ما كانوا يقومون بشئون السياسة والدولة فحسب.. بل كانوا يقومون بكل ما يصلح الأمة في دينهم ودنياهم ويتولون أمورهم من منظور شرعى يتوافق مع شرع الله ﷻ.

وفي قول النبي ﷺ: «تسوسهم الأنبياء»: دليلٌ على أن دين الله - وهو دين الإسلام في كل مكان وفي كل زمان - هو السياسة النافعة، وليست السياسة التي يفرضها أعداء الإسلام من الكفار.

السياسة حقيقةً ما جاء في شرع الله... ولهذا نقول: إن الإسلام شريعة وسياسة، ومن فرّق بين السياسة والشريعة فقد ضلّ... ففي الإسلام سياسة الخلق مع الله وبيان العبادات، وسياسة الإنسان مع أهله، ومع جيرانه، ومع أقاربه، ومع أصحابه، ومع تلاميذه، ومع معلميه، ومع كل أحدٍ. كُلُّ له سياسة تخصّه... سياسة مع الأعداء الكفار، ما بين حربيين ومعاهدين ومستأمنين وذميين.

وكل طائفة قد بين الإسلام حقوقهم، وأمر أن نسلّك بهم كما يجب.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٥٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٨٤٢) كتاب الإمارة.

فمثلاً الحربيون نحاربهم، ودمائهم حلالٌ لنا، وأموالهم حلالٌ لنا، وأراضيهم حلالٌ لنا.

والمستأمنون يجب أن نُؤمّنهم.. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

والمعاهدون يجب أن نُوفّي لهم بعهودهم، ثم نحن معهم بين ثلاث حالات: إما أن نطمئن إليهم، أو نخاف منهم، أو ينقضوا العهد.

ثلاث حالات كلها مُبيّنة في القرآن... فإن اطمأننا إليهم وجب أن نفى لهم بعهدهم، وإن خفناهم فقد قال الله تعالى: ﴿وَأِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. أى: قل لهم: ليس بيننا عهدٌ إذا خفت منهم، ولا تنقض العهد بدون أن تخبرهم.

والثالث: إن هم الذين نقضوا العهد ﴿فَقَاتِلُوا أَيُّمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢]. إذا نقضوا العهد فلا أيمان لهم ولا عهد لهم... فالمهم أن الدين دين الله وأن الدين فيه سياسة: سياسة شرعية، سياسة اجتماعية، سياسة مع الأجانب، ومع المسالمين، ومع كل أحد. ومن فصل الدين عن السياسة فقد ضلّ؛ فهو بين أمرين:

إما جاهل بالدين ولا يعرف، يظن أن الدين عبادات بين العبد وربّه، وحقوق شخصية وما أشبه ذلك؛ يظن أن هذا هو الدين فقط. أو أنه قد بهره الكفرة وما هم عليه من القوة المادية، فظن أنهم هم المُصيبون.

وأما من عرف الإسلام حق المعرفة عرف أنه شريعة وسياسة^(١).

﴿فالشاهد أن النبي ﷺ أخبر أن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء.. كلما هلك نبي خلفه نبي﴾.

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٣٨-٣٣٩) بتصرف.

وبنو إسرائيل كانوا أهل معصية وأهل نفور ولا يجتمعون أبداً على أحدٍ إلا إذا كان هناك نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

فإذا كان النبي موجوداً يطيعونه فإذا ابتعد عنهم يعصونه... ولذا فإن موسى ﷺ لما كان معهم وأنجاهم الله من فرعون كانوا على الإسلام... ولما خرجوا من البحر ومَرُّوا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] أى: نحن نريد أن نعبد إلهاً: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فلما ذهب موسى للقاء ربه سبحانه وتعالى وصنع لهم السامرى عجلاً فعبدوه من دون الله سبحانه وتعالى... فلما جاء النبي ﷺ أخبر أنه لا نبي بعده فضلاً عن أن يكون هناك رسول بعده (صلوات الله وسلامه عليه).

✽ قال: «وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون» أى: سيكون خليفة وراء خليفة وخلفاء خلفاء.

فالنبي عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء، ولكن جعل الله له خلفاء: خلفاء في العلم، وخلفاء في السلطة... والمراد بالخلفاء في هذا الحديث: خلفاء السلطة.

ولهذا قال: «وسيكون بعدى خُلفاء فيكثرون» قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ -يعنى: مَنْ نَفَى ببيعته؟ - قال: «الأول فالأول»، فإذا بايعوا الخليفة وجب عليهم أن يبقوا على بيعتهم، وأن ينبذوا كلَّ مَنْ أراد الخلافة وهو حَيٌّ، وأن يُعينوا الخليفة الأول على مَنْ أراد الخلافة في حياته... لأن كلَّ مَنْ نازع السلطان في سلطانه فإنه يجب أن يُقاتل؛ حتى تكون الأمة واحدة... فإن الناس لو تركوا، وصار كلَّ مَنْ لا يريد هذا السلطان يذهب ويتخذ له حزباً ويقاتل به السلطان فسدت الأمور.

وفي آخر الحديث حمّل النبي ﷺ هؤلاء الخلفاء ما عليهم، وأمرنا نحن أن نُوفي لهم بحقوقهم، وأن نسأل الله الذي لنا... لا نقول: هؤلاء ظلموا، هؤلاء جاروا، هؤلاء لم يقوموا بالعدل، ثم نناذبهم ولا نطيعهم فيما أمرنا الله به. فهذا لا يجوز... بل يجب أن نُوفي لهم بالحق، وأن نسأل الله الحق الذي لنا، كالإنسان الذي له قريب إذا قطعك فصله، واسأل الله الذي لك. أما أن تقول لا أصل إلا من وصلني، أو لا أطيع من السلطان إلا من لا يظلم ولا يستأثر بالمال ولا غيره، فهذا خطأ... قم أنت بما يجب عليك، واسأل الله الذي لك.

قال: «فإن الله سائلهم عما استرعاهم» أي: اتركوهم... فلهم يومٌ عند الله ﷻ يجمعهم فيه ويسألهم عما استرعاهم عليه يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦٢) وَعَنْ عَائِدِ بْنِ عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُبيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّ بَنِي، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١).

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٩٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦٣) وَعَنْ أَبِي مَرْيَمَ الْأَزْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتْهُمْ وَفَقَّرَهُمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتْهُ وَفَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢) فَبَجَلْ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٠) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٩٥).

على حوائج الناس.

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن كل من ولّاه الله عز وجل شيئاً من أمور المسلمين سواء كان صغيراً أو كبيراً فإنه يجب عليه أن يستمع لاحتياجات الناس سواء كان ذلك بنفسه أو بمن ينوب عنه حتى يستطيع أن يقضى لهم كل ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم.. وأنه لا يجوز له أن يتخذ حاجباً يحجبه عن الناس أو يحجب الناس عنه.

فمن احتجب دون حاجة الناس وخلّتهم وفقرهم ماذا يكون جزاؤه؟
يخبر النبي ﷺ بجزاء من فعل ذلك بأن الله عز وجل يحتجب دون حاجته وخلّته وفقره يوم القيامة.

أَيُّ أَبْعَدَهُ وَمَنَعَهُ عَمَّا يَتَّبِعُهُ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ أَوِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَلَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ ... قَالَ الْقَاضِي: الْمُرَادُ بِاِحْتِجَابِ الْوَالِي أَنْ يَمْنَعَ أَرْبَابَ الْحَوَائِجِ وَالْمُهَمَّاتِ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِ فَيَعْرِضُوهَا لَهُ وَيُعَسِّرُ عَلَيْهِمْ إِنِهَاؤَهَا... وَاحْتِجَابُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ لَا يُجِيبَ دَعْوَتَهُ وَيُخَيِّبَ آمَالَهُ فِي الدُّنْيَا^(١).

أما في الآخرة فإن الله عز وجل يحتجب دون حاجته إلى تفريج أي كربة من كُرب يوم القيامة.. والمعنى: أن من فعل ذلك بالناس في الدنيا فمصيره يوم القيامة إلى النار.. لأنه إن لم يُفرج الله كُربته يوم القيامة فأين يكون المصير؟
لكن من المعلوم أنه لا يُخلد موحداً في النار أبداً.

❁ المهم أن أبا مريم الأزدي لما قال لمعاوية هذا الحديث الذي سمعه من النبي ﷺ قام معاوية رضي الله عنه بإصدار قرارٍ فوري بتعيين رجل يستمع لاحتياجات الناس كل يوم ويرفعها له حتى يقضى للناس حاجاتهم خوفاً من أن يكون من هذا الصنف الذي وصفه النبي ﷺ.. وخوفاً من أن يحتجب الله عز وجل دون

حاجته يوم القيامة.

❁ فالواجب على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين أن يكون عوناً لهم على قضاء حوائجهم ولا يحتجب عنهم ويرفض مقابلتهم.. وإن لم يستطع مقابلتهم بنفسه فليجعل عنده من يقابل الناس ويرفع إليه الحاجات ليقضيها لهم «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٩) باب الوالى العادل

❖ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي يُخْرِجُ الْمَظْطَرِّينَ﴾ [الحجرات: ٩].

قال الإمام النووي رحمه الله: (باب الوالى العادل). والوالى هو الذى يتولى أمراً من أمور المسلمين الخاصة أو العامة، حتى الرجل فى أهل بيته يُعتبر والياً عليهم... لقول النبى ﷺ: «الرجل راعٍ فى أهله ومسئول عن رعيته».

والعدل واجب حتى فى معاملة الإنسان نفسه لقول النبى ﷺ: «إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولزورك - أى الزائر لك - عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقّه».

فالعدل واجب فى كل شىء، لكنه فى حق ولاية الأمور أوكد وأولى وأعظم.

ثم ساق المؤلف رحمته الله آيات وأحاديث منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ العدل واجب والإحسان فضل وزيادة فهو سنة. وحسبته سيذكر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: ٥٨].

فأمر الله بالعدل.. فكل إنسان يوليه الله ﷻ شيئاً من أمر المسلمين صغراً أو كبراً فلا بد أن يعدل فى ولايته.

والعدل من الوالى ألا يفرق بين الناس ولا يجور على أحد ولا يحابى أحداً لمكانته ولا قريباً لقربته ولا غنياً لغناه ولكن يحكم بالعدل.. لأنه يؤتى به يوم القيامة مغلوله يده إلى عنقه.. فإما أن يفكّه عدله أو يوبقه جوراً وظلمه.

قال ﷺ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ عَشْرَةَ إِلَّا وَهُوَ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا حَتَّىٰ يَفْكَهُ

الْعَدْلُ أَوْ يُوبِقَهُ الْجَوْرُ»^(١).

وقال ﷺ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ عَشْرَةَ إِلَّا يُوتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ»^(٢).

فيلزمه أن يكون عادلاً في حكمه وولايته سواء كان حاكماً أو قاضياً أو مُديراً أو أباً في بيته مع زوجته وأولاده..

فيتعامل مع رعيته بالعدل والإحسان.. وبدأ الله ﷻ بِالْعَدْلِ قَبْلَ الْإِحْسَانِ لأن الإنسان قد لا يقدر على الإحسان فبدأ بما يقدر عليه وهو العدل.. لكن إن استطاع الإنسان أن يحقق العدل ثم يرتقى لدرجة الإحسان إلى رعيته فسوف يفوز بمحبة كل الناس من حوله لأن الإحسان يستجلب المحبة بين الناس.. ورضا الله ﷻ فوق ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٣).

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٣٨١) فأرجو الرجوع إليه.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البيهقي في السنن وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٥).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في السنن وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٠) كتاب الأذان، (١٤٢٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٦٦٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسَطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ: الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا»^(١).
 ﴿ في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن مشاهد من مشاهد يوم القيامة ألا وهو أن المقسطين: أى أن العادلين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُّوا سيكونون يوم القيامة على منابر من النور.

قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونُوا عَلَى مَنَابِرٍ حَقِيقَةٍ عَلَى ظَاهِرِ الْحَدِيثِ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كِنَايَةً عَنِ الْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ.. قَالَ الْإِمَامُ النُّووي: قُلْتُ الظَّاهِرُ الْأَوَّلُ وَيَكُونُ مُتَضَمِّناً لِلْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ فَهَمَّ عَلَى مَنَابِرٍ حَقِيقَةٍ وَمَنَازِلُهُمْ رَفِيعَةٌ^(٢).

﴿ فالمقسطون هم أهل العدالة الذين يعدلون بين الناس.. فالمسلم يعدل مع مَنْ يحب ومَنْ لا يحب.. يعدل مع صديقه ومع عدوه لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، أى: لا يدفعنكم بغضكم لهؤلاء الكفار إلى عدم العدل، فاعدل مع كل الناس، كن عدلاً مع أقربائك ومع الغرباء عنك، مع أصدقائك ومع أعدائك، اعدل كما أمر الله سبحانه ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]...
 لَمْ يَقُلْ: كونوا قائمين، بل قال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ ﴿ أشد القيام وأعظم القيام أن تقوم في دين الله سبحانه، وتقوم لأمر الله، وتكون قائماً بالقسط تعدل بين الناس.

﴿ فالشاهد أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُقْسَطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ» فيجعل الله لكل إنسانٍ عادلاً منبراً من النور يجلس عليه يوم القيامة في الجنة...

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٧) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٢/ ٢٩٢).

لكن ما هي صفات هؤلاء المقسطين؟ .. « الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ » كالولاية والأمراء والحكام.. لكن ماذا يصنع مَنْ لم يكن حاكماً هل يُحَرِّم من هذا الخير؟ كلا.. بل كل مَنْ وَلَّاه الله رعية فعدل بينهم سيكون على منبر من النور ولذا قال النبي ﷺ: « الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا ».. فالقاضي يعدل بين المتخاصمين.. والمدير يعدل بين المدرسين.. والمدرس يعدل بين التلاميذ.. والأب يعدل بين أولاده فلا يعطى هذا وينسى هذا ولا يميز هذا على ذاك.. وإذا كان متزوجاً من أكثر من امرأة فلا بد أن يعدل بينهم في المبيت والعطاء... فكل هؤلاء يكونون على منابر من نور يوم القيامة... فاللهم ارزقنا نعمة العدل والإحسان لتكون يوم القيامة على منابر من نور في الجنة تتلذذ بنعمة النظر إلى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦٦) وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ» قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ؟ قَالَ: «لَا... مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»^(١).

❁ الأئمة: يعنى ولاية الأمور، سواء أكان الإمام الكبير في البلد وهو السلطان أو الحاكم أم مَنْ كان دونه.

هؤلاء الأئمة الذين هم ولاية أمورنا، ينقسمون إلى قسمين: قسم نُحِبُّهم ويحبُّوننا، فتجدنا ناصحين لهم وهم ناصحون لنا، ولذلك نُحِبُّهم، لأنهم يقومون بما أوجب الله عليهم من النصيحة لمن وَلَّاهم الله عليه... ومعلوم أن مَنْ قام بواجب النصيحة فإن الله تعالى يحبه، ثم يحبه أهل الأرض.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٥٥) كتاب الإمارة.

قوله: «تُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ»: تدعون لَهُمْ.

فهؤلاء الأئمة الذين قاموا بما يجب عليهم محبوبون لدى رعيّتهم.
وقوله ﷺ: «ويُصلون عليكم وتُصلون عليهم». الصلاة هنا بمعنى الدعاء،
يعنى تدعون لهم ويدعون لكم، تدعون لهم بأن يهديهم الله ويصلح بطانتهم،
ويوفقهم للعدل إلى غير ذلك من الدعاء الذى يُدعى به للسلطان، وهم يدعون
لكم: اللهم أصلح رعيّتنا، اللهم اجعلهم قائمين بأمرك، وما أشبه ذلك.

أما شرار الأئمة: فهم «الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم» تَكْرَهُونَهُمْ لأنهم لم
يقوموا بما أوجب الله عليهم من النصيحة للرعية، وإعطاء الحقوق إلى أهلها...
وإذا فعلوا ذلك فإن الناس يبغضونهم، فتحصل البغضاء من هؤلاء وهؤلاء...
تحصل البغضاء من الرعية للرعاة، لأنهم لم يقوموا بواجبهم، ثم تحصل
البغضاء من الرعاة للرعية، لأن الرعية إذا أبغضت الوالى تمردت عليه وكرهته،
ولم تُطع أوامره ولم تتجنب ما نهى عنه... وحينئذ «تلعنونهم ويلعنونكم» والعياذ
بالله... يعنى يسبونكم وتسبونهم، أو يدعون عليكم باللعنة وتدعون عليهم باللعنة.

إذا... الأئمة ينقسمون إلى قسمين: قسم وفّقوا وقاموا بما يجب عليهم
فأحبهم الناس وأحبوا الناس، وصار كل واحد منهم يدعو للآخر.
وقسم آخر بالعكس.. شرار الأئمة، يبغضون الناس والناس يبغضونهم،
ويسبون الناس والناس يسبونهم^(١).

✽ فسألوا رسول الله ﷺ: وقالوا: أفلا تُنابذُهُمْ؟ وفى رواية: «ألا تُقاتلهم؟»
قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة» فدلّ هذا على أنهم -أى الأمراء- إذا رأينا منهم
ما نُنكر، فإننا نكره ذلك وننكر عليهم، فإن اهدوا فلنا ولهم، وإن لم يهدوا فلنا
وعليهم.

وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر، لأن مُقاتلتهم فيها

شَرُّ كثير، ويفوت بها خير كثير؛ لأنهم إذا قُوتلوا أو نُوبذوا لم يزدتهم ذلك إلا شَرًّا... فإنهم أمراء يرون أنفسهم فوق الناس، فإذا نابذهم الناس أو قاتلوهم ازداد شرهم، إلا أن النبي ﷺ شرط لقتالهم شرطاً فقال: «ما أقاموا فيكم الصلاة». فدلَّ هذا على أنهم إذا لم يقيموا الصلاة، فإننا نقاتلهم. ولكن بشرط أن يكون لدينا القدرة على ذلك.. لأنه إذا لم يكن لدينا القدرة على ذلك فسوف يقضى هذا الوالى الظالم على كل الصالحين فى تلك البلدة التى يحكمها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٦٧) وَعَنْ عِيَّاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُّقْسِطٌ مُّوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ، وَعَفِيفٌ مُّتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»^(١).

✽ ليس معنى الحديث أن هؤلاء الثلاثة فقط هم أهل الجنة... ولكن المقصود أن هؤلاء الثلاثة أصناف من أهل الجنة... أو أن هؤلاء من السابقين الذين يستحقون الجنة.

فكان أولهم: «ذُو سُلْطَانٍ مُّقْسِطٌ مُّوَفَّقٌ» ذو سلطان يعنى صاحب السلطان.. والسلطان يشمل السلطة العليا وما دونها..

«مُقْسِطٌ» أى أنه حاكم عادل يحكم بين الناس بالعدل.. وهذا من توفيق الله له.. فالله هو الذى يُلهمه الصواب ويوفقه للحكم بالعدل بين الناس... لأنه إذا أردت أن تعرف عند الله مقامك فانظر فيم أقامك.. فلو أقامك فى العدل فهذا قدرك عند الله.. وإن أقامك فى الظلم فهذا قدرك عند الله.. فالفضل لله أولاً وآخرًا.. فإن أخلص الحاكم نيته لله ﷻ فإن الله يُلهمه السداد والتوفيق والعدل والحكمة.... وقد سبق أن علمنا أن الإمام العادل هو أول السبعة الذين يكونون يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن (جل وعلا).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

✽ أما الرجل الثاني من أهل الجنة فهو «رَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ».

فقد يكون الإنسان رحيماً ورقيق القلب على أبيه وأمه، وزوجته وأولاده ويكون قاسياً على سائر الناس.. لكن هذا الرجل المذكور في الحديث قلبه رحيم بالناس جميعاً.. فهو يرحم الفقراء ويرحم الصغار ويرحم العجزة ويرحم كل مَنْ يستحق الرحمة.. أما الكفار فهو غليظٌ عليهم... فالله عَزَّوَجَلَّ ذكر من صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهو رجلٌ رحيم رقيق القلب.. يتأثر قلبه بسرعة إذا رأى إنساناً ضعيفاً محتاجاً.. فيتأثر ويُسرع في تقديم ما يحتاج إليه.. وهو رقيق القلب لكل ذي قُرْبَى ومسلم.. فبدأ بالأقربين لأن الأقربين أولى بالمعروف... وهذا الرجل لا يكتفى بمجرد الرحمة وِرْقَةِ القلب.. بل يسعى بكل ما أُوتى من قوة لخدمة أقاربه وجيرانه والمسلمين حوله قدر استطاعته حتى لا تكون علاقته بمن حوله مجرد رقة في القلب وإنما يُحول تلك الرقة والعاطفة إلى لمسات إنسانية تعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم.

✽ وأما الرجل الثالث من أهل الجنة فهو: «عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ» إنسان عفيف لا يأخذ أموال الناس، ولا يمد يده إلى الناس، متعفف، ويستشعر في نفسه الغنى وإن كان فقيراً، وإن كانت حاجته كبيرة ولكن في قلبه الغنى... ربَّى نفسه على العفة، وعدم التطلع إلى الغير، فهو ليس محتاجاً إلى أحدٍ، فإن الغنى غنى القلب... أغنى الله قلبه فهو متعفف، أى: مُظهرٌ لهذا الوصف من نفسه.

«ذو عيال» أى أنه مع فقره عنده عائلة، فتجده صابراً محتسباً يَكِدُّ على نفسه، فربما يأخذ الحبل ويحتطب ويأكل منه... المهم أنه عفيف متعفف ذو عيال، ولكنه صابر على البلاء، صابر على عياله... فهذا من أهل الجنة. نسأل الله أن يجعلنا من أحد هؤلاء الأصناف.



(٨٠) باب وجوب طاعة ولاية الأمر في غير معصية

وتحريم طاعتهم في المعصية

❦ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

[النساء: ٥٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أى أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة... وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله... إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حسناً ومعيناً، لحماً ودماً، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أى فإن اختلفتم في أمر من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى إن كنتم مؤمنين حقاً وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق.

أى فرُدُّوه إلى الله والرسول... والغرض منه الحث على التمسك بالكتاب والسنة كما يقول القائل: إن كنت ابنى فلا تخالفنى.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلاً..^(١)

❦ وقد ذكر أهل العلم أن ولاية الأمور قسمان: العلماء والأمراء.

أما العلماء: فهم ولاية أمور المسلمين في بيان الشرع، وتعليم الشرع، وهداية الخلق إلى الحق، فهم ولاية أمور في هذا الجانب، وأما الأمراء فهم ولاية الأمور في ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها، فصار لهؤلاء جهة ولهؤلاء جهة.

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٦١).

والأصل: العلماء... لأن العلماء هم الذين يُبينون الشرع ويقولون للأمراء هذا شرع الله فاعملوا به، ويُلزم الأمراء بذلك، لكن الأمراء لا طريق لهم إلى علم الشرع إلا عن طريق العلماء، وهم إذا علموا الشرع نفذوه على الخلق. والعلماء يؤثرون على مَنْ في قلبه إيمانٌ ودين، لأن الذي في قلبه إيمان ودين ينصاع للعلماء ويأخذ بتوجيهاتهم وأمرهم.

والأمراء ينصاع لهم مَنْ خاف من سطوتهم وكان عنده ضعف إيمان، فيخاف من الأمير أكثر مما يخاف من العالم... وبعضهم يخاف أكثر مما يخاف من الله والعياذ بالله.

فلذلك كان لا بد للأمة الإسلامية من علماء وأمراء، وكان واجباً على الأمة الإسلامية أن يطيعوا العلماء وأن يطيعوا الأمراء، ولكن طاعة هؤلاء وهؤلاء تابعة لطاعة الله... لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. ولم يقل أطيعوا أولى الأمر منكم، لأن طاعة ولاية الأمر تابعة لا مستقلة... أما طاعة الله ورسوله فهي مستقلة، وعلى هذا فإذا أمر ولاية الأمور بمعصية الله فإنه لا سمع لهم ولا طاعة^(١).

لأن النبي ﷺ قال: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

بِمَا يَمُرُّ بِهِ مِنْ أَمْرِ

(٦٦٨) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٤٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٥٢٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٤٤) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٩) كتاب الإمارة.

(٦٦٩) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا إِذَا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا: «فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ»^(١).

✽ فيجب على المسلم أن يسمع ويُطيع لولى الأمر المسلم في كل شىء إلا في معصية الخالق (جل وعلا).. فيسمع ويطيع فيما يحب وفيما يكره. حتى لو أمره ولى الأمر بشىء يكرهه فإنه يجب عليه السمع والطاعة ما دام ليس في ذلك الأمر معصية لله عَزَّ وَجَلَّ.. لأن طاعة الله فوق كل طاعة. فطاعة الله ورسوله ﷺ طاعة مُطلقة.. وأما طاعة أى مخلوق آخر غير الرسول ﷺ فهى مُقيدة بقيدين: المعروف والاستطاعة.

فإن أمرك ولى الأمر بشىء فيه معصية فلا تُطعه.. وإن أمرك بشىء ليس فيه معصية ولكنه ليس في استطاعتك فلا تُطعه أيضاً... فشرط طاعته أن يأمر بك بأمر في استطاعتك وليس فيه معصية.

ولذا قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعتم).

انظر إلى رحمة النبى ﷺ بالمؤمنين، فهم يبايعونه وهو يأمرهم بطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ... يقولون: بايعناك على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وعلى أثره علينا، وألا ننازع الأمر أهله... فيقول لهم: قولوا: فيما استطعنا.

يعنى: بقيد الاستطاعة، فقد يقدر الإنسان على أشياء فتلزمه، وقد تستحيل عليه، فلا يُكلف الله نفساً إلا وسعها، فكان ﷺ يُعلمهم أن يقولوا: فيما استطعنا. ✽ وهناك مسألة هامة: وهى أن من الناس من يظن أن طاعة ولى الأمر لا تكون إلا في الأمور الدينية فقط وهذا خطأ كبير... فطاعة ولى الأمر واجبة في الأمور الدينية والدنيوية بشرط ألا يأمرنا بمعصية أو بشىء ليس في استطاعتنا.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٢٠٢) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٦٧) كتاب الإمارة.

فإذا أمرنا ولى الأمر باتباع أنظمة المرور فطاعته واجبة.. ومَن خالف تلك الأنظمة يكون عاصياً وآثماً.

وهكذا.. فكل ما يأمرنا به ولى الأمر ويكون فيه مصلحة لديننا أو لدنيانا فواجبٌ علينا أن نُطيعه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧٠) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لَقَى اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(١).

وفي رواية له: «وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ فَإِنَّهُ يَمُوتُ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

❦ قوله: (مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ) هذا في ديار الإسلام، إذا كان الحكام مسلمين يحكمون المسلمين بشرع رب العالمين سبحانه... وسواء كان هؤلاء الحكام مطيعين أو عُصاة وتولوا الأمر على المسلمين، فإذا حكموهم بكتاب الله ﻫِزْزَلَنَ وبسنة النبي ﷺ فالواجب على المسلم السمع والطاعة، فإذا خلع اليد من الطاعة، وخرج على الحاكم الذى يحكم الناس بالمعروف... لقي الله ﻫِزْزَلَنَ يوم القيامة ولا حُجَّةَ له... أى لا حجة له يومئذ فيما فعله من نبذ الطاعة ولا عذر له فيه «وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ» أى للإمام بالسمع والدخول فى طاعته «مات ميتة جاهلية» أى مات على الضلالة كما يموت أهل الجاهلية عليها من جهة أنهم كانوا لا يدخلون تحت طاعة أمير ويرون ذلك عيباً بل كان ضعيفهم نهياً لقويهم.

(وفي رواية لمسلم) عن ابن عمر مرفوعاً «وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ» وهو شامل لعدم المبايعة والدخول فى الطاعة ابتداءً وللخروج عنها بعد الدخول

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٥١) كتاب الإمارة.

«الْمِيتَةُ» بكسر الميم.

فيها ... والمراد بالجماعة الإمام وجيش الإسلام.

ويجوز أن يُراد به مفارقة الجماعة في الصلوات كالروافض فإنه لبدعتهم لا يرون الدخول تحت طاعة أئمة الحق والانقياد لهم إلا اضطرارًا وتقية.

«فإنه يموت ميتة جاهلية» أى مات على هيئة موت أهل الجاهلية فإنهم كانوا أفرادًا لا إمام يردعهم ولا جماعة تجمعهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ»^(٢).

✽ «اسمعوا وأطيعوا»: يعنى الزموا السمع والطاعة لولاة الأمور، حتى لو استُعمل عليكم عبدٌ حبشى.

والنبي ﷺ هنا يخاطب العرب فيقول: ولو استُعمل عليكم عبدٌ حبشى غير عربى... عبدٌ أصلاً وفرعاً وخلقاً، كأن رأسه زبيبة، لأن شعر الحبشة غير شعر العرب؛ فالحبشة يكون في رؤوسهم حلق كأنها الزبيب... وهذا من باب المبالغة في كون هذا العامل عبداً حبشياً أصلاً وفرعاً، وهذا يشمل قوله: «وإن استُعمل» فيشمل الأمير الذى هو أمير السلطان، وكذلك السلطان.

فلو فرض أن السلطان غلب الناس واستولى وسيطر وليس من العرب، بل كان عبداً حبشياً ولكنه حكم بشرع الله وسُنة رسول الله ﷺ فعلينا أن نسمع ونطيع، لأن العلة واحدة، وهى أنه إن لم نسمع ونُطع حصلت الفوضى، وزال النظام، وزال الأمن، وحلَّ الخوف... فالمهم أن علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمروا بمعصية.

(١) دليل القالحين (٣/ ١١٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٩٣، ٦٩٦) كتاب الأذان، و(٧١٤٢) كتاب الأحكام.

(٦٧٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»^(١).

✽ «عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ» أى: لولاية الأمور الذين يتولون أموركم ويحكمونكم بشرع الله وبسنة رسول الله ﷺ.

«فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ» أى: في فقرك وغناك.. فَإِنْ طُلِبَ مِنْكَ أَنْ تُسَهِّمَ فِي أَى مَصْلَحَةٍ لِبَلَدِكَ أَوْ لَجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ لغير ذلك فابذل ما تستطيع.. فَإِنْ كُنْتَ غَنِيًّا فابذل الكثير ليكون ذلك في ميزان حسناتك.. وَإِنْ كُنْتَ فَقِيرًا فابذل قدر استطاعتك..

ونحن نعلم أن النبي ﷺ لما ندب الصحابة للصدقة.. فمنهم مَنْ دَفَعَ مَالَهُ كُلَّهُ كَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. ومنهم مَنْ دَفَعَ نِصْفَ مَالِهِ كَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. ومنهم مَنْ أَنْفَقَ الْكَثِيرَ وَالكَثِيرَ كَعَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. ومنهم مَنْ تَصَدَّقَ بِعَنْقُودِ عَنَبٍ. فَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ».

✽ قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ» يَعْنِي عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَوَلَاةِ الْأَمْرِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ..

«فِي الْمَنْشَطِ»: يَعْنِي الْأَمْرَ الَّذِي إِذَا أَمْرُوكَ بِهِ نَشِطْتَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يُوَافِقُ هَوَاكَ، وَ«فِي الْمَكْرَهِ» فِي الْأَمْرِ الَّذِي إِذَا أَمْرُوكَ بِهِ لَمْ تَكُنْ نَشِيطًا فِيهِ لِأَنَّكَ تَكْرَهُهُ... اسْمَعْ فِي هَذَا وَهَذَا.

✽ قَوْلُهُ ﷺ: «وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ» يَعْنِي إِذَا اسْتَأْثَرَ وَلَاةِ الْأُمُورِ عَلَى النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ وَالْقُصُورِ الْفَخْمَةِ وَرَكَبُوا السَّيَّارَاتِ الْفَارَهَةَ وَلَبَسُوا أَجْمَلَ الثِّيَابِ.. وَكَانَ النَّاسُ فِي فَقْرٍ وَبُؤْسٍ شَدِيدٍ فَعَلِيهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ مَا دَامَ لَيْسَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.



فتحنا علينا السمع والطاعة، وعلى الولاية النصح لنا، وأن يسيروا بنا على هدى رسول الله ﷺ... لكن لا نقول إذا استأثروا علينا وكانت لهم القصور الفخمة والسيارات المريحة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك، لا نقول: والله لا سمع لهم ولا طاعة لأنهم سكنوا القصور ونحن في فقرٍ شديد... بل نسمع ونطيع حتى في حال الأثرة.. وحسبنا أن نكون في الجنة قبلهم بخمسائة عام إن أكرمنا الله ﷻ بدخول الجنة.

ونحن نعلم أن النبي ﷺ قال للأنصار ﷺ: «إنكم ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١)، يقول للأنصار ذلك منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة... فمنذ ذلك الوقت والولاية يستأثرون على الرعية، ومع هذا يقول: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»، فليس استئثار ولاية الأمور بما يستأثرون به مانعاً من السمع والطاعة لهم... بل الواجب السمع والطاعة في كل ما أمروا به ما لم يأمرُوا بمعصية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧٣) وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فنزلنا منزلاً، فمنا من يصلحُ خبائه، ومنا من يتنضل، ومنا من هو في جشره، إذ نادى مُنادى رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأُمورٌ تُنكرُ ونها، وتجيءُ فتنٌ يرققُ بعضها بعضاً، وتجيءُ الفتنَةُ فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشفُ، وتجيءُ الفتنَةُ فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يُزحزحَ عن النارِ، ويدخلَ الجنةَ، فلتأْتِه مَنِيَّتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ، وليأتِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧٩٢) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٥) كتاب الإمارة.



إلى الناس الذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ.

وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ، وَثَمَرَةً قَلْبِهِ. فَلْيُطْعَمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يَنَازِعُهُ، فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ^(١).

❁ ففي هذا الحديث قال ابن عمرو رضي الله عنه: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَتَزَلَّنَا مَنْزِلًا.. أَيْ: مَكَانًا مِنَ الْأَمَاكِنِ.. فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِباءَهُ (خِيَمَتَهُ).. وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُّ أَيْ: يُسَابِقُ بِالرَّمْيِ وَبِالنَّبْلِ.. وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ أَيْ: يَرعى دَوَابَّهُ. وَفَجَاءَ نَادِي مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ.

وهذا النداء يُنَادِي بِهِ لصلَاةِ الْكُسُوفِ، وَيُنَادِي بِهِ إِذَا أَرَادَ الْإِمَامُ أَوِ الْأَمِيرُ أَنْ يَجْتَمَعَ بِالنَّاسِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلُمُّوا إِلَى الْمَكَانِ الْفُلَانِي. فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَخَطَبَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ ﷻ إِلَّا دَلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ.. فَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ أَخْلَصُوا النَّصِيحَةَ لِأَقْوَامِهِمْ.. فَكَانُوا يَدُلُّونَهُمْ عَلَى الْخَيْرِ وَيُحَذِّرُونَهُمْ مِنَ الشَّرِّ.. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تَرَكْتُ مِنْ خَيْرٍ إِلَّا وَقَدْ دَلَلْتُكُمْ عَلَيْهِ وَمَا تَرَكْتُ مِنْ شَرٍّ إِلَّا وَقَدْ حَذَرْتُكُمْ مِنْهُ».

وهكذا يجب على العلماء والدعاة وطلبة العلم أَنْ يُعْرِفُوا النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَحْثُوهُمْ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبَيِّنُوا لَهُمُ الشَّرَّ وَيَحْذَرُوهُمْ مِنْهُ.. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ.. وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ.. فَيَجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ مَا يَجِبُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْبَلَاغِ وَبَيَانِ الشَّرِّ وَتَحْذِيرِ النَّاسِ مِنْهُ.

❁ ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ - يَعْنِي أُمَّةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ - جَعَلَ اللَّهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤) كتاب الإمارة.

قَوْلُهُ: «يَنْتَضِلُّ» أَيْ: يُسَابِقُ بِالرَّمْيِ بِالنَّبْلِ وَالنَّشَابِ - «وَالْجَشَرُ»: وَهِيَ الدَّوَابُّ الَّتِي تَرعى وَتَبْتَئُ مَكَانَهَا. وَقَوْلُهُ: «يُرْفَقُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ» أَيْ: يُصَيَّرُ بَعْضُهَا بَعْضًا رَقِيقًا، أَيْ: خَفِيفًا لِعَظَمِ مَا بَعْدَهُ، فَالثَّانِي يُرْفَقُ الْأَوَّلُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: يُشَوِّقُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ بِتَحْسِينِهَا وَتَسْوِيلِهَا وَقِيلَ: يُشَبِّهُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

عافيتها في أولها.. فلم يكن هناك فتنة في عهد النبي محمد ﷺ.. وكذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فلما قُتل عمر رضي الله عنه على يد أبي لؤلؤة المجوسى (لعنه الله) بدأت الفتنة ترفع رأسها وتزداد يوماً بعد يوم.. ولذا قال النبي ﷺ: «وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُ وَنَهَا».

ثم وضح النبي ﷺ كيف تتصاعد الفتن وتزداد وتنتشر فقال ﷺ: «وتجىءُ فِتْنٌ يُرْقِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا» أى أن بعضها يجعل ما قبله رقيقاً وسهلاً، لأن الثانية أعظم من الأولى، فكل واحدة أعظم من الأخرى فترقق ما قبلها، ولهذا قال: «يرقق بعضها بعضاً» فتجىء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مُهلكتى، لأن أول ما تأتى يستعظمها فيقول: من هنا نهلك.

ثم تأتى الأخرى فترقق الأولى وتكون الأولى سهلة بالنسبة إليها، فيقول المؤمن: هذه هذه... يعنى هذه التى فيها البلاء كل البلاء، ولكن المؤمن يصبر ويحتسب ويلجأ إلى الله عز وجل، ويستعيد بالله من الفتنة، وفي كل صلاة يقول: «أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»^(١).

ثم قال النبي ﷺ: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».. أى: مَنْ أراد النجاة يوم القيامة من النار والفوز بالجنة فليثبت على الإيمان بالله واليوم الآخر حتى آخر لحظة في حياته فيموت وهو يؤمن بالله واليوم الآخر.

«وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» وهذا استكمال لما سبق.. أى: وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٧٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ ... وَذَلِكَ بِأَنْ تُعَامَلَ النَّاسُ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامَلُوكَ .. فَتُحِبُّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتُكْرَهُ لِلنَّاسِ مَا تُكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَتَكُونُ صَادِقًا أَمِينًا وَفِيًّا مَعَهُمْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونُوا صَادِقِينَ أَمْنَاءَ أَوْفِيَاءَ مَعَكَ ... وَتُحَسِّنُ إِلَيْهِمْ وَتُعَامِلُهُمْ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحَسِّنُوا إِلَيْكَ وَيُعَامَلُوكَ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ.

❁ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا -أَيَ: حَاكِمًا مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ- فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ وَثَمْرَةً قَلْبِهِ فَلْيُطِيعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ»، طَالَمَا أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الطَّاعَةَ فِي الْمَعْرُوفِ فَلْيُطِيعْهُ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ حَاكِمَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْمُسْلِمَةِ يَظْلِمُ وَيَفْجُرُ وَيَقْعُ فِي الْمَعَاصِي، وَلَكِنَّهُ مُسْلِمٌ، يَحْكُمُ الْمُسْلِمِينَ بِكِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَجِبُ عَلَيْنَا طَاعَتُهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

❁ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنْ جَاءَ آخَرٌ يَنَازِعُهُ، فَاضْرِبُوا عُقُقَ الْآخِرِ». أَيْ: أَنَّهُ إِذَا جَاءَ رَجُلٌ آخَرٌ يُرِيدُ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَى هَذَا الْإِمَامِ وَيَسْلُبَهُ مُلْكَهُ فَادْفَعُوهُ فَإِنَّهُ خَارِجٌ عَلَى الْإِمَامِ .. فَإِنْ لَمْ يَنْدَفِعْ إِلَّا بِحَرْبٍ وَقِتَالٍ فَقَاتِلُوهُ .. فَإِنْ دَعَتْ الْمُقَاتِلَةُ إِلَى قَتْلِهِ جَازَ قَتْلُهُ وَلَا ضَمَانَ فِيهِ لِأَنَّهُ ظَالِمٌ مُتَعَدٍّ فِي قِتَالِهِ ... فَهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَاضْرِبُوا عُقُقَ الْآخِرِ» لِأَنَّهُ قَتَلَ وَاحِدًا أَفْضَلَ مِنْ قَتْلِ جُمُوعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَأَنَّهُ يُحَذِّرُ مَنْ تُسَوَّلُ لَهُ نَفْسُهُ بِطُلُبِ الْإِمَارَةِ وَمُنَازَعَةِ الْأَمْرِ أَهْلَهُ .. إِلَّا إِذَا رَأَى كُفْرًا يَعْلَمُ كُلُّ ذِي عَيْنِينَ أَنَّ هَذَا كُفْرٌ لَا تَأْوِيلَ فِيهِ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَنْ حَقَّ أَهْلُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ أَنْ يَبَايَعُوا إِنْسَانًا آخَرَ، وَيَلْغُوا بَيْعَةَ الْأَوَّلِ الَّذِي هَجَرَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧٤) وَعَنْ أَبِي هُنَيْدَةَ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَأَلَ سَلَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الْجُعْفِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يُسْأَلُونَا حَقَّهُمْ،

وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن سلمة بن يزيد سأل رسول الله ﷺ وقال له: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِن قَامَت عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ، وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ..

لقد سأل النبي ﷺ عن الأمراء الذين يطلبون حقهم من السمع والطاعة ومساعدتهم في شئون البلاد والوقوف بجانبهم في الجهاد... إلى غير ذلك من الحقوق التي لهم على الرعية.. ولكنهم في نفس الوقت لا يؤدّون للناس حقوقهم ويظلمونهم ويستأثرون عليهم بالأموال والقصور والحياة الناعمة... فلما سمع النبي ﷺ السؤال أعرض عنه وكأنه كره هذا السؤال وكره أن يفتح هذا الباب.. ولكن السائل أعاد السؤال مرة أخرى وكأنه مُصِرٌّ على سماع الإجابة من النبي ﷺ.

فقال له ﷺ: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ».. وفي رواية: «تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ».

فأمر النبي ﷺ أن تُؤدى لهم حقهم، وأن عليهم ما حُمِّلوا وعلينا ما حُمِّلنا، فنحن حُمِّلنا السمع والطاعة، وهم حُمِّلوا أن يحكموا فينا بالعدل، وألا يظلموا أحدًا، وأن يقيموا حدود الله على عباد الله وأن يقيموا شريعة الله في أرض الله، وأن يجاهدوا أعداء الله... هذا الذي يجب عليهم، فإن قاموا به فهذا هو المطلوب، وإن لم يقوموا به فإننا لا نقول لهم: أنتم لم تؤدوا الذي عليكم فلا تؤدى الذي لكم... هذا حرام.. بل يجب أن تؤدى الحق الذي علينا، فنسمع ونطيع، ونخرج معهم في الجهاد، ونصلي وراءهم في الجُمع والأعياد وغير ذلك، ونسأل الله الحق الذي لنا.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٦) كتاب الإمارة.

(٦٧٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ، وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَوَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ»^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِي الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي»^(٢).

❁ قوله ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ» ففى هذا الحديث يوضح النبى ﷺ أن طاعته من طاعة الله.. وذلك لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذى أمرنا بطاعة النبى ﷺ فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].. ومن المعلوم أن النبى ﷺ لا يأمر إلا بما أوحاه الله إليه ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.. فإذا أمر النبى ﷺ بشىء فقد أمر بشرع الله عَزَّ وَجَلَّ.. فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله عَزَّ وَجَلَّ.

❁ قوله ﷺ: «وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِي الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» فالإنسان إذا أطاع الأمير فقد أطاع الرسول ﷺ.. لأن النبى ﷺ أمر فى أكثر من حديث بطاعة ولى الأمر وقال: «اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»^(٣) وقال: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبداً حبشياً كأن رأسه زبيبة»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦٠٣) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٤٣) كتاب الإمامة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣٧) كتاب الأحكام، ومسلم (١٨٣٥) كتاب الإمامة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٧) كتاب الإمامة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٦٩٣، ٦٩٦) كتاب الأذان، و(٧١٤٢) كتاب الأحكام.

وقال: «على المسلم السمع والطاعة في عُسرهِ ويُسْرهِ وَمَنْشَطِهِ ومَكْرَهِهِ»^(١).

والأحاديث في هذا كثيرة... فقد أمر بطاعة ولي الأمر، وإذا أطعت ولي الأمر فقد أطعت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، وإذا أطعت الرسول فقد أطعت الله ﷻ.

وهذا الحديث وغيره يدل على وجوب طاعة ولاية الأمور إلا في معصية الله ﷻ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

❁ وهذا الحديث يذكرني بقصة عجيبة حدثت للصحابي الجليل عبد الله ابن حذافة رضي الله عنه.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، قال: فلما خرجوا قال: وجد^(٢) عليهم في شيء فقال: أليس أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى.

قال: فاجمعوا حطباً... فجمعوا.

قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهم القوم أن يدخلوها، قال: فقال لهم شابٌ منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا النبي ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها.

قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه.

فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٣٦) كتاب الإمارة.

(٢) وجد: أي حَزَنَ وَغَضِبَ.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٤٠) كتاب المغازي، ومسلم (١٨٤٠) كتاب الإمارة.

(٦٧٧) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شَبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(١).

❦ لا بد أن نعلم أنه يجب علينا طاعة ولى الأمر الذى يحكم بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ فى كل ما يأمرنا به إلا فى معصية الله ﻋَزَّ وَجَلَّ ... فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (جل وعلا).

فإذا كان ولى الأمر عاصياً أو ظالماً أو يكون قد استأثر بالأموال والقصور وغير ذلك من متاع الدنيا الزائل ولكنه يحكم بشرع الله فلا يجوز لنا أن نخرج عليه أو أن ننازله أو نُؤَلِّبَ الناس عليه.

ذكر الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فى آخر كتاب (العقيدة الواسطية) أن من هدى أهل السنة والجماعة وطريقتهم، أنهم يدينون بالولاء لولاة الأمور، وأنهم يرون إقامة الحج والجهاد والأعياد والجُمُوع مع الأمراء أبراراً كانوا أو فُجَّاراً، حتى لو كان ولى الأمر فاجراً فإن أهل السنة والجماعة يرون إقامة الجهاد معه وإقامة الحج وإقامة الجُمُوع وإقامة الأعياد.

إلا إذا رأينا كفرًا بواحا صريحاً عندنا فيه من الله برهان والعياذ بالله، فهنا يجب علينا ما استطعنا أن نُزِيلَ هذا الحاكم، وأن نستبدله بخير منه.

أما مجرد المعاصى والاستثثار وغيرها؛ فإن أهل السنة والجماعة يرون أن ولى الأمر له الولاية حتى مع هذه الأمور كلها، وأن له السمع والطاعة، وأنه لا تجوز مُنَابَذَتُهُ، ولا إغيار الصدور عليه، ولا غير ذلك مما يكون فسادُه أعظم وأعظم.

وذلك لأن الشر لا يُدْفَعُ بالشر ولكن يُدْفَعُ بالخير.. فإذا دُفِعَ الشر بشرٍّ أعظم منه فإن ذلك مفسدة عظيمة.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠٥٣) كتاب الفتن، ومسلم (١٨٤٩) كتاب الإمارة.



✽ فمن كره من أميره شيئاً فليصبر فإن مَنْ خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية... وهذا يحتمل معنيين:

الأول: يحتمل أنه يموت ميتة جاهلية بمعنى أنه يُزاغ قلبه والعياذ بالله، حتى تكون هذه المعصية سبباً لردّته.

الثاني: ويحتمل المعنى الآخر أنه يموت ميتة جاهلية، لأن أهل الجاهلية ليس لهم إمام وليس لهم أمير، بل لهم رؤساء وزعماء لكن ليس لهم ولاية كولاية الإسلام، فيكون هذا مات ميتة جاهلية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٧٨) وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللَّهُ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللَّهُ».

أى: مَنْ أَهَانَ مَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ وَأَلْبَسَهُ خَلْعَةَ السُّلْطَانَةِ أَهَانَهُ اللَّهُ...

وفي رواية: «مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، أَكْرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا، أَهَانَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).
والإضافة في (سلطان الله) إضافة تشريف.. كبيت الله وناقة الله.

✽ والمقصود هنا بإهانة السلطان أن يسخر الإنسان من أوامر السلطان أو يسخر من شخصه.. أو أن يتكلم السلطان بكلمة لا تُعجبه أو يفعل شيئاً لا يوافقه فيستهزئ به ويقول للناس: انظروا ماذا يقول.. انظروا ماذا يفعل.. وذلك لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الصورة وغيرها وهُوْنَ أمر السلطان

(١) حسن: رواه الترمذی، وأحمد، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٦١١١).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذی، وحسنه الألبانی فی السلسلة الصحيحة (٢٢٩٧).

أمام الناس استهانوا به ولم يمثلوا أمره ولم يجتنبوا نهيه.. وبخاصة لو كان يحكم بشرع الله وسنة رسول الله ﷺ.

ولهذا فإن الذى يهين السلطان بنشر معايبه بين الناس وذمه والتشنيع عليه والتشهير به يكون عُرْضة لأن يهينه الله ﷻ... لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الأمور تمرد الناس عليه فعصوه، وحينئذ يكون هذا سبب شر فيهيئه الله ﷻ.

فإن أهانه فى الدنيا فقد أدرك عقوبته، وإن لم يهينه فى الدنيا فإنه يستحق أن يهان فى الآخرة والعياذ بالله. لأن كلام الرسول ﷺ حق: «مَنْ أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللَّهُ»، وَمَنْ أَعَانَ السُّلْطَانَ أَعَانَهُ اللَّهُ، لأنه أعان على خيرٍ وعلى برٍّ... فإذا بينت للناس ما يجب عليهم للسلطان وأعنتهم على طاعته فى غير معصية فهذا خيرٌ كثير، بشرط أن يكون إعانة على البر والتقوى وعلى الخير.

❁ يُحكى أن سفيان الثورى لقي جعفر الصادق فرأى عليه جُبة خَزَّ جميلة فقال له: يا ابن رسول الله ﷺ ليس هذا من لباسك.. فابتسم جعفر الصادق وأزاح تلك الجُبة الجميلة فإذا تحتها جُبة صوفٍ بيضاء مُغبرة.. فقال له: يا ثورى لبسنا هذا لله وهذى لكم.. فما كان لله أخفيناها وما كان لكم أبديناها... هكذا تكون الأخلاق... وهكذا يكون التوجيه المذهب والنصيحة الخالصة.

(٨١) باب النهي عن سؤال الإمارة واختيار ترك الولايات إذا لم يتعين عليه أو تدع حاجة إليه

❁ قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ (٨٣) [القصص: ٨٣].

في البداية لا بد أن نعلم أن الإمارة معناها التأمر على الناس والاستيلاء عليهم. وهى كبرى وصغرى.

أما الكبرى: فهى التى تكون إمارة عامة على كل المسلمين، كإمارة أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمارة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وغيرهم من الخلفاء رضي الله عنهم... هذه إمارة عامة وسلطة عامة.

وإمارة خاصة دون ذلك: تكون إمارة على منطقة من المناطق تشتمل على قرى ومدن، أو إمارة أخص من ذلك على قرية واحدة أو مدينة واحدة، وكلها ينهى الإنسان أن يطلب فيها أن يكون أميراً.

❁ ثم صدر المؤلف رحمه الله هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وطلب الإمارة ربما يكون قصد الطالب للإمارة أن يعلو على الناس، ويملك رقابهم، ويأمر وينهى، فيكون قصده سيئاً، فلا يكون له حظ من الآخرة والعياذ بالله، ولهذا نُهى عن طلب الإمارة^(١).

❁ فالجنة فى الآخرة يجعلها الله عز وجل للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا

فسادًا.. لا يريدون علوًا بل يريدون الله والدار الآخرة.

وقد ذكرت تلك الآية في نهاية قصة قارون الذي كان من بنى إسرائيل وكان الأحرى به أن يؤمن مع موسى ﷺ لأنه يعلم أنه نبي كريم.. ولكنه لكثرة أمواله واختلاطه بفرعون أعجب بنفسه وكفر بالله واستكبر في الأرض بغير الحق وقال عن ماله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ فانشغل بماله كما انشغل فرعون بمملكته وكما انشغل هامان بوزارته.. فأرانا الله ﷻ آياته فيهم جميعًا.

فلقد خرج قارون على قومه في زينته مُفْتَخِرًا يُريهم أمواله، ويُريهم حُلله، ويُريهم قوته وشبابه وجماله، فإذا بالله يأمر الأرض فأخذته هو وما معه، فضاع الرجل وضاع ماله... قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ، وَبِذَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ، مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصاص: ٨١]، وعقَّب ذلك ربنا سبحانه بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾، أي: هذه الجنة العظيمة ﴿بِمَعْلَمِهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣].

﴿يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ﴾

(٦٧٩) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ: لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِن أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أَعْنَتَ عَلَيْهَا، وَإِن أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَأَتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكُفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ» فناداه باسمه واسم أبيه من أجل أن يلفت انتباهه إلى أهمية ما سيلقى عليه الآن.

«لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ» أي: لا تطلب أن تكون أميرًا ولا تحرص على ذلك أبدًا... «فَإِنَّكَ إِن أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ» أي: من غير سؤالك وحرصك عليها «أَعْنَتَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٢٢) كتاب كفارات الأيمان، ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.

عليها» والمُعِين هو الله ﷻ الذى سيقفك ويُسددك ويُلهمك الصواب والرشاد إن لم تسأل الإمارة.

«وإن أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكُلْتَ إِلَيْهَا» أى: إن أصبحت أميرًا بسبب سؤالك الإمارة وحرصك عليها وكلك الله إليها وتخلي عنك - عيادًا بالله - فلم يوفقك ولم يُسدد خطاك وفشلت ولم تنجح.. أما إن كان الناس هم الذين اختاروك لصدقت وأمانتك وكفاءتك فإن الله ﷻ يُعِينُكَ عليها.. يعنى: فاقبلها وخُذها. وهذا يشبه المال، فإن الرسول ﷺ قال لعمر: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَإِلَّا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»^(١).

✽ ولذلك ينبغي على الإنسان ألا يحرص على طلب المناصب فى أى مكان - وليس الإمارة فقط - لأن مَنْ سأل المناصب وكان حريصًا على ذلك يُخشى أن يكون داخلًا فى هذا الحديث.. فالورع ألا تطلب.. فإن طُلب منك فخذهُ وسوف يعينك الله على ذلك المنصب.

✽ قوله ﷺ: «وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وأتِ الذى هو خير»، يعنى إذا حلفت ألا تفعل شيئًا، ثم تبين لك أن الخير فى فعله، فكفر عن يمينك وافعله... وإذا حلفت أن تفعل شيئًا ثم بدا لك أن الخير فى تركه فاتركه وكفر عن يمينك.

وإنما قال النبى ﷺ ذلك.. لأن الإنسان إذا كان حاكمًا أو أميرًا فحلف على شىء.. فربما تُملَى عليه أنفة الجاه والسلطان ألا يفعل خلاف ما حلف عليه... ولذا يوضح النبى ﷺ أن الإنسان - وإن كان أميرًا - إذا حلف أن يفعل شيئًا ورأى الخير فى تركه أن يتركه.. أو حلف ألا يفعل شيئًا ورأى الخير فى فعله أن يفعله.. وهذا يشمل الأمير وغيره.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٣) كتاب الزكاة، ومسلم (١٠٤٥) كتاب الزكاة.

فمثلاً: إذا حلفت ألا تزور أخاك أو ابن عمك فكفر عنيمينك واذهب لأخيك وابن عمك لأن صلة الرحم واجبة.

❁ ولكن أحب أن أقول لك: احرص على ألا تتسرع في الحلف.. فقد تتسرع في الحلف أو الطلاق فتخسر كل شيء.... فإن حلفت على شيء ورأيت خيراً منه فكفر عنيمينك وافعل هذا الشيء.

❁ وكفارة اليمين تكون بأحد الأمور التالية:

(١) إطعام عشرة مساكين من أوسط طعام أهللك.

(٢) كسوة عشرة مساكين.

(٣) تحرير رقبة (إعتاق العبد المملوك).

فإذا عجزت عن هذه الأمور، فصم ثلاثة أيام، واعلم أنه لا يجوز أن تكفر بالصوم إلا بعد العجز عن الإطعام أو الكسوة أو الإعتاق.

وإن كنت مبتلى بكثرة الحلف وأردت ألا تكون ملزماً بكفارة اليمين في كل مرة فاقرن حلفك بقولك: (إن شاء الله) فإنك إن حلفت وقلت: إن شاء الله فأنت في حل حتى لو خالفت ما حلفت عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨٠) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَوَلِّينَ مَالَ يَتِيمٍ»^(١).

(٦٨١) وَعَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٦) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٥) كتاب الإمارة.

❦ ففي هذين الحديثين أن أبا ذرٍّ رضي الله عنه طلب من النبي ﷺ أن يستعمله وأن يجعله أميرًا على أى بلدٍ من البلاد.. فضرب النبي ﷺ على منكبه ليُشعره بالقرب الشديد منه وأنه سيُقدم له نصيحة أقرب ما تكون من نصيحة الوالد لولده.

فقال له: «يا أبا ذرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ»... وفي الرواية الأولى: «يا أبا ذرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا» وقد يحزن الإنسان إذا قلت له إِنَّكَ ضَعِيفٌ.. لكن النبي ﷺ لم يقلها له على سبيل السَّبِّ وإنما قالها له على سبيل النصيحة.. ولكى يستشعر أن النبي ﷺ قالها له على سبيل النصيحة قال له النبي ﷺ بعدها: «وإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي» وهذا من حُسْن خُلُقِ النبي (عليه الصلاة والسلام).. لما كانت الجملة الأولى فيها شيء من الجرح قال: «وإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي» يعنى لم أقل لك ذلك إلا لأنى أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي.

«لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ» أى: لا تكن أميرًا على اثنين وما زاد على ذلك فهو من باب أولى.

فنهاه النبي ﷺ أن يكون أميرًا لأنه ضعيف.. والإمارة تحتاج -في الغالب- إلى إنسانٍ قوي تكون له سُلْطَةٌ ومكانة في قلوب الناس.. يهابه الناس ويؤقرونه ويحترمونه كلمته.. وذلك لأن الناس إذا استضعفوا الأمير فلن يكون له حُرْمَةٌ عندهم بل سيتجرأ عليه الأراذل والأسافل من البشر.. لكن إذا كان قويًا فلن يستطيع أحدٌ أن يتجاوز حدود الله ﻫَـوَ وَبَـلَـ.

«وَلَا تَوَلَّيْنِ مَالَ يَتِيمٍ» لأن اليتيم يحتاج إلى عناية ورعاية... وأبو ذرٍّ ضعيف لا يستطيع أن يرعى هذا المال لليتيم حق رعايته.. مع أنه أمين لكنه ضعيف.

وفي هذا دليل على أنه يُشترط للإمارة أن يكون الإنسان قويًا أمينًا لأن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهَا أَمَانَةٌ».. وقال لأبى ذرٍّ.. «إِنَّكَ ضَعِيفٌ» فاشترط القوة.

فإن كان عندنا رجلان: أحدهما أمينٌ غير قوى.. والآخر قوى غير أمين.. فأيهما أفضل؟ وبخاصة إذا لم يكن أماننا غيرهما.

نختار القوى الذى عنده ضعفٌ فى الأمانة... لأنه فى باب الإمارة يُفضل القوى وإن كان فيه ضعف فى الأمانة لأنه ربما يكون بعد ذلك أمينًا.. أما الضعيف الذى فى طبيعته الضعف فإنه مُحال أن يكون قويًا فى يومٍ من الأيام.

❦ وفى آخر الحديث قال النبى ﷺ: «إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذى عليه فيها».

فقوله: «أخذها بحقها» أى: وصل إلى الإمارة بالطرق الشرعية المعروفة فى شروط الولاية... فإذا تولَّى عمل بالحق وأدى الواجبات التى عليه، فىكون له ذلك نجاة يوم القيامة.

وقد عرفنا فى حديث النبى ﷺ أن الذى يطلب القضاء لا يُعان عليه. قال: فكأنما ذُبِحَ بغير سكين، هذا الذى يطلب القضاء ويناله كأنما ذُبِحَ بغير سكين... فكيف بمن طلب الإمارة؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❦ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَلِلْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ» فَهُوَ ﷺ قَدْ نَهَاهُمْ كَثِيرًا عَنْ الْحِرْصِ عَلَى الْإِمَارَةِ.. وَمَعَ ذَلِكَ يَخْبِرُهُمْ هُنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ سَيَحْرِصُ عَلَى الْإِمَارَةِ.

وقد حدث ذلك بعد وفاته ﷺ مباشرة حينما اجتمع بعض الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة... أرادوا أن يكون منهم الأمير الذى يكون خليفة لرسول الله ﷺ...

(١) صحيح: رواه البخارى (٧١٤٨) كتاب الأحكام.

وحدث خلافٌ كبير فقام عمر رضي الله عنه وحسم الخلاف بقوله: أَلستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يُصلي بالناس فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟.. فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر.

ثم أكمل كلامه فقال: فإن كان محمدٌ ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به وإن أبا بكرٍ صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى الناس بأموالكم، فقوموا فبايعوه... فقاموا وبايعوه جميعًا وحُسم هذا الخلاف الكبير.

❁ ولقد وُصِّح لهم أبو بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر أن الخلافة في قريش ليست في غيرهم، ثم بعد ذلك صارت الخلافة على المنهاج الشرعي حتى حدث الطمع فيها والاعتتال... ففئة تتبع النبي ﷺ فيما يقول، وفئة تخالف في ذلك، فكانت على الناس أزمة، وجرت سنون إلى أن أصبح طلب الرئاسة وطلب الإمارة للإمارة وللرئاسة، وليس لإقامة شرع الله سبحانه وتعالى، فصارت مُلكًا عَصُوضًا... فحذر النبي ﷺ وقال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة».

ويتخلى عن الإنسان يوم القيامة أتباعه وأشياعه وجنوده، ويأتي وحده لِيُسأل عن كل ما كان تحت يديه... ولذلك فالإنسان يتفكر أنه سوف يُسأل عن نفسه، وعن أولاده.... أما الذي يتولى زمام الأمور والذي يكون رئيسًا على الناس فسوف يُسأل عن كل الناس الذين تحته.

فيا ترى متى سينهى الله حسابه؟ ولذلك على المسلم ألا يُطمع نفسه في ذلك، ولا يحرص عليها، فلا خير فيها.

(٨٢) بَابُ حَثِّ السُّلْطَانِ وَالْقَاضِي وَغَيْرِهِمَا

من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح

وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «رِیَاضُ الصَّالِحِينَ»: (بَابُ حَثِّ الْقَاضِي وَالسُّلْطَانِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ وِلَاةِ الْأُمُورِ عَلَى اتِّخَاذِ وَزِيرٍ صَالِحٍ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ قَرَنَاءِ السُّوءِ)، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

الأخلاء: جمع خليل، والخليل هو الذي يحبك وتُحبه حبًّا عظيمًا، حتى يتخلل حبه جميع البدن... وفي ذلك يقول الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمي الخليل خليلًا

فإذا صدق الود واشتد فإن أعلى أنواع المحبة هي الخلّة، ولهذا اتخذ الله إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا ﷺ خليلًا. ولا نعلم أنه اتخذ خليلًا من خلقه إلا هذين النبيين إبراهيم ومحمدًا (صلى الله عليهما وسلم).

ولهذا نقول: مَنْ قَالَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ اللَّهِ، وَمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ، وَمُحَمَّدًا حَبِيبَ اللَّهِ، فَقَدْ هَضَمَ مُحَمَّدًا ﷺ حَقَّهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَعَلَهُ حَبِيبَ اللَّهِ فَقَدْ أَنْزَلَ رُتْبَتَهُ... بَلْ هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْلَى مِنَ الْحَبِيبِ... فَاللَّهُ تَعَالَى يَحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحِبُّ الْمُقْسُطِينَ، وَيَحِبُّ الْمُتَّقِينَ... فَمَحَبَّتُهُ أَوْسَعُ، لَكِنِ الْخُلَّةُ لَا تَحْصُلُ لِكُلِّ أَحَدٍ.

ففرق بين الخلّة والمحبة... الخلّة أعظم من المحبة.

فالأخلاء في الدنيا والأصدقاء في الدنيا هم على صداقتهم، لكنهم في الآخرة

كلهم أعداء إلا المتقين ... قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فإن المتقين محبتهم في الله... والرجلان إذا تحاببا في الله - اجتمعا عليه وتفرقا عليه - كانا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ويدل على أن الأخلاء سيكونون أعداء إلا المتقين قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] ... قال ابن عباس رضي الله عنهما: تقطعت بهم المحبة، فكانت المحبة بينهما في الدنيا، وفي الآخرة تتلاشى وتقطع.

ثم إنه يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى يتلى العبد، فتارة ييسره لأخلاء صدق يدعونه للخير؛ ويأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويعينونه على ما يعجز عنه. وتارة يُبتلى بقوم خلاف ذلك... ولهذا جاء في الحديث: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «مثل المجلس الصالح كحامل المسك إما أن تبتاع منه» أى يبيع لك مسكاً «وإما أن يحذيك» أى يعطيك مجاًناً «وإما أن تجد منه رائحة طيبة»، أما المجلس السوء - والعياذ بالله - فإنه «كناfix الكير؛ إما أن يحرق ثيابك» بما يتطاير عليك من شرر النار، «وإما أن تجد منه رائحة كريهة»^{(٢)(٣)}.

بِمَا يَخَالُ مِنْ يَخَالُ

(١) حسن: رواه أبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٤٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٠١) كتاب البيوع، ومسلم (٢٦٢٨) كتاب البر والصلة.

(٣) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٦٢-٣٦٣).

(٦٨٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ وَالْمَعْصُومُ مِنْ عَصَمَ اللَّهُ»^(١).

(٦٨٤) وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ خَيْرًا، جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صَدَقٍ، إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يَذْكُرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعْنَهُ»^(٢).

❦ ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أنه ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان.. وبطانة الرجل صاحب سره.. وهم خواص الملك والمقربون الذين يكونون ملازمين له.. يستشيرهم فيشرون عليه ويأخذ برأيهم أحياناً.. وأحياناً يكون قراره من تلقاء نفسه.

فأما الأنبياء فيعصمهم الله ﷻ لأنهم لا يتصرفون إلا من خلال ما يؤخى إليهم.. وأما الملوك والخلفاء.. فقد تجد ملكاً أو أميراً صالحاً فى نفسه حريصاً على الخير لكن يقبض الله له وزير سوء أو قُرْناء سوء فيصدونه عن الخير ويؤزينون له السوء ويجعلونه مبعوضاً عند رعيته.

وقد تجد ملكاً أو أميراً غير صالح فى نفسه وليس عنده أى حرص على فعل الخير.. لكن يقبض الله له بطانة صالحة تدله على الخير وتعينه عليه وتدله على كل ما يؤجد الألفة والمحبة بينه وبين رعيته.. وقد يكون الأمير الصالح له بطانة صالحة.. والأمير الفاسد له بطانة فاسدة.. فقد تجد أمثلة فى التاريخ على الأصناف الأربعة.. وقد يكون الأمير له بطانتان: بطانة صالحة تحضه على فعل الخير وبطانة تؤزه على فعل الشر..

(١) صحيح: رواه البخارى (٧١٩٨) كتاب الأحكام.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٢).

فإن كان صالحاً وفقه الله للعمل بمشورة البطانة الصالحة.. وإن كان فاسداً خلى الله بينه وبين بطانة السوء.

❁ وهذا يوضحه الرواية الثانية حيث قال النبي ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ خَيْرًا، جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ».. والأصل أن يُقال أنه وزيرٌ صادق لكنه ﷺ قال: «وزيرٌ صادق» وكأنه هو عين الصدق.

«إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ» أى: إن نسى ما يحتاج إليه أو ضلَّ عن حكم شرعى أو قضية مظلوم أو مصالح لرعيته ذكَّره «وَإِنْ ذَكَرَهُ» ذلك «أَعَانَهُ» عليه بالرأى والفعل.

«وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ» الخير بأن أراد به شرًّا «جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ» والمراد وزير سوءٍ فى القول والفعل «إِنْ نَسِيَ» أى: ترك ما لا بد منه «لَمْ يُذَكِّرْهُ» به لأنه ليس عنده من النور القلبى ما يحمله على ذلك «وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ» بل يسعى فى صرفه عنه لشرارة طبعه وسوء صنعه.

❁ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وَقَدْ اسْتَشْكَلَ هَذَا التَّقْسِيمُ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ وَإِنْ جَارَ عَقْلًا أَنْ يَكُونَ فِيمَنْ يَدْخُلُهُ مَنْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ لَكِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُ أَنْ يَصْنَعِيَ إِلَيْهِ وَلَا يَعْمَلَ بِقَوْلِهِ لَوْ جُودَ الْعَصْمَةِ ... وَأُجِيبَ بِأَنَّ فِى بَقِيَّةِ الْحَدِيثِ الْإِشَارَةَ إِلَى سَلَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى» فَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ مَنْ يُشِيرُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالشَّرِّ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْبِطَانَتَيْنِ فِى حَقِّ النَّبِيِّ الْمَلِكُ وَالشَّيْطَانُ وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ»^(١).

❁ وإذا كان هذا الأمر فى الأمراء والملوك فيجب عليك أن تفتش فى نفسك عن أصحابك الذين تحبهم وتلازمهم.. فإذا كان هناك مَنْ يعينك على طاعة الله فاستمسك به.. وإذا كان هناك مَنْ يأخذك إلى معصية الله ﷻ ففر منه فراك من الأسد.

(٨٣) باب النهي عن تولية الإمارة والقضاء وغيرهما

من الولايات لمن سألها أو حرص عليها فعرض بها

(٦٨٥) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَلِّي هَذَا الْعَمَلَ أَحَدًا سَأَلَهُ، أَوْ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أن مَنْ طلب الإمارة أو الولاية لا تؤليه ولا تؤمره حتى وإن كان أهلاً لذلك.. وذلك لأنه في الغالب لا يطلب ذلك من أجل إصلاح تلك الإمارة وجلب الخير لها وإنما يطلب ذلك من أجل أن يجعل لنفسه سلطة أو يجلب لنفسه منفعة.. وقد سبق في حديث عبد الرحمن ابن سُمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أَعْنَتْ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا»^(٢).

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْحِكْمَةُ فِي أَنَّهُ لَا يُؤَلَّى مَنْ سَأَلَ الْوِلَايَةَ أَنَّهُ يُوَكَّلُ إِلَيْهَا وَلَا تَكُونُ مَعَهُ إِعَانَةٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ السَّابِقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ مَعَهُ إِعَانَةٌ لَمْ يَكُنْ كُفْتًا وَلَا يُؤَلَّى غَيْرُ الْكُفِّ وَلِأَنَّ فِيهِ تَهْمَةً لِلطَّالِبِ وَالْحَرِيسِ.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

فإن قال قائل: كيف تجيبون عن قول يوسف (عليه الصلاة والسلام) للعزيز:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٤٩) كتاب الأحكام - ومسلم (١٧٣٣) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٧٢٢) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.

(٣) مسلم بشرح النووي (٢٨٦/١٢).

فإننا نُجيب بأحد جوابين:

أولاً: إما أن يُقال: إن شرع مَنْ قبلنا إذا خالفه شرعنا فالعمدة على شرعنا، بناءً على القاعدة المعروفة عند الأصوليين «شرع مَنْ قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه»... وقد ورد شرعنا بخلافه: أننا لا نُولى الأمر أحداً طلب الولاية عليه.

ثانياً: أو يُقال: إن يوسف (عليه الصلاة والسلام) رأى أن المال ضائع وأنه يُفَرِّط فيه ويُلعَب فيه، فأراد أن يُنقذ البلاد من هذا التلاعب.

ومثل هذا يكون الغرض منه إزالة سوء التدبير وسوء العمل، ويكون هذا لا بأس به... فمثلاً إذا رأينا أميراً في ناحية لكنه قد أضاع الإمرة وأفسد الخلق، فللصالح لهذا الأمر - إذا لم يجد أحداً غيره - أن يطلب من ولى الأمر أن يُؤليه على هذه الناحية... فيقول له: ولّنى هذه البلدة لأجل دفع الشر الذى فيها. ويكون هذا لا بأس به، متفقاً مع القواعد.

ويحضرني في هذا حديث عثمان بن أبى العاص، أنه قال للنبي ﷺ: اجعلنى إمام قومى؛ يعنى فى الصلاة، فقال: «أنت إمامهم»^(١) فولى الأمر ينظر ما هو السبب فى أن هذا الرجل طلب أن يكون أميراً، أو طلب أن يكون قاضياً، أو طلب أن يكون إماماً، ثم يعمل بما يرى أن فيه المصلحة^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٤٨٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٦٥).

(١) كتاب الأدب

(٨٤) باب الحياء وفضله والحث على التخلق به

❁ ما أعظم الحياء.. إنه خلق من أعظم الأخلاق التي ينبغي أن يتحلى بها كل مسلم ومسلمة.

ومن أجل قدر الحياء وشرفه كان هذا الخلق في مقدمة الأخلاق في هذا الدين الحنيف... فقد قال النبي ﷺ: «إن لكل دين خلقاً وإن خلق الإسلام الحياء»^(١).

❁ فما أجمل أن نتعايش مع خلق الحياء.

فترى الفتاة المسلمة إذا خرجت من بيتها كانت ملتزمة بحجابها وحيائها فلا ترفع صوتها في الطريق ولا تنظر إلى الرجال ولا تقف مع رجل غريب عنها ليس من محارمها.

ونرى الفتى المسلم يغض بصره عن النساء ولا يتكلم كلاماً فاحشاً ولا يقف مع فتاة أجنبية عنه.. وإذا تكلم مع رجل أكبر منه فإنه يتعامل معه بكل حياء وأدب واحترام.

❁ وهكذا... إذا عشنا جميعاً على خلق الحياء فإن المجتمع ستشيع فيه روح المودة والمحبة والإخاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢)

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٦) كتاب الإيمان.

(٦٨٧) وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(١).

وفي رواية لمسلم: «الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ» أَوْ قَالَ: «الْحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ».
✽ أورد المصنف رحمته الله هذين الحديثين في باب الحياء.. وأورد الحياء في كتاب الأدب.

والأدب: هو مجموعة الأخلاق التي يتأدب بها الإنسان.. وله أنواع كثيرة.. منها الجود والكرم والشجاعة وطلاقة الوجه وانسراح الصدر.. وغير ذلك كثير. فالأدب هو عبارة عن أخلاق يتخلق بها الإنسان يُمدح عليها، ومنها الحياء والحياء صفة في النفس تحمل الإنسان على فعل ما يُجمل ويزين، وترك ما يُدنس ويشين... فتجده إذا فعل شيئاً يخالف المروءة استحيا من الناس، وإذا فعل شيئاً مُحَرِّماً استحيا من الله ﷻ، وإذا ترك واجباً استحيا من الله، وإذا ترك ما ينبغي فعله استحيا من الناس.

فالحياء من الإيمان، ولهذا ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مرَّ برجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء وكأنه كان ينصح أخاه بأنه قد يُضيع بعض حقوقه بسبب الحياء.. فإذا بالنبي ﷺ يوضح له أن المسلم لا بد أن يتخلق بأخلاق الإسلام حتى وإن فقد شيئاً من متاع الدنيا الزائل.. ولذا قال له ﷺ: «دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ».

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «الإيمان بضْعٌ وسبعون شُعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١١٧) كتاب الأدب، ومسلم (٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

وإذا كان عند الإنسان حياء وجدته يمشى مشياً مستقيماً، ليس بالعجلة التي يُذَمُّ عليها، وليس بالتماوت الذي يُذَمُّ عليه أيضاً... كذلك إذا تكلم تجده لا يتكلم إلا بالخير وبكلام طيب، وبأدبٍ، وبأسلوبٍ رفيع حسب ما يقدر عليه. وإذا لم يكن حياً فإنه يفعل ما شاء، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^{(١)(٢)}.

✽ وفي الحديث الأول يحكى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء.. كأنه ينهاه عن الحياء ويؤنبه.. وقد يكون هذا الرجل الحي قد فقد شيئاً من المال بسبب أنه استحميا أن يطلبه وكأن صاحبه يقول له: هكذا سيضيع حقك بسبب الحياء... كأن الأمر هكذا وإن كنا لا نعرف ما الذي حدث.

فقال له النبي ﷺ: «دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ».

فالإنسان الذي عنده حياء، قد يمنعه حياؤه من أشياء يريدوها، لكن لا يضيع هذا الحياء عند الله ﷻ، فالحياء كله خير، والحياء من خصال الإيمان التي يرتفع بها العبد المؤمن عند الله سبحانه وتعالى.

فبيّن النبي ﷺ أن الحياء من الإيمان وأننا لا ينبغي أن ننهي أحداً أن يتخلق بخُلُق الحياء إلا إذا كان الحياء في موضع تضع فيه الحقوق ويُتْهَك فيه حُرْمَة هذا الدين العظيم.

✽ وفي الحديث الثاني عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ» حتى ولو فاتك شيء من الدنيا.. ولكن الثواب الذي تفوز به أعظم من الدنيا وما فيها.

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٤٨٤) كتاب أحاديث الأنبياء، و(٦١٢٠) كتاب الأدب.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٣٦٦).

وهنا يوضح النبي ﷺ أن الحياء كله خير ولا يأتي إلا بخير... وذلك؛ لأن الحياء يحمل الإنسان على أن يتخلق بالأخلاق الحسنة. ويستحى أن يتخلق بالأخلاق الرذيلة... ومن ثم فإنه يكون خيراً على صاحبه وعلى كل من حوله.

بَابُ فِي إِحْيَاءِ الْحَيَاءِ

(٦٨٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٢٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَابُ فِي إِحْيَاءِ الْحَيَاءِ

(٦٨٩) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعُذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يصف أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحبيب المصطفى ﷺ بأنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها... ثم قال: فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه.. أي أن النبي ﷺ من شدة حيائه كان إذا رأى شيئاً يكرهه لا يتكلم به لحيائه بل يتغير وجهه فيفهمون أنه ﷺ كره ذلك.

«العذراء»: هي المرأة التي لم تتزوج وهي أشد النساء حياءً، لأنها لم تتزوج

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

«البضع»: بكسر الباء. ويجوز فتحها وهو من الثلاثة إلى العشرة «والشعبة»: القطعة والخصلة. «والإماطة»: الإزالة، «والأذى»: ما يؤذي كحجر وشوك وطين ورماذ وقدر ونحو ذلك.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٠٢) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣٢٠) كتاب الفضائل.

قال العلماء: حقيقة الحياء خلق ينبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق. وروينا عن أبي القاسم الجنيد رحمته الله قال: الحياء رؤية الآلاء (أي: النعم) ورؤية التقصير. فيولد بينهما حالة تسمى حياءً.

ولم تُعاشِر الرجال فتجدها حيية في خدرها... فرسول الله ﷺ أشد حياءً منها، ولكنه ﷺ إذا رأى ما يكره عُرف ذلك في وجهه.

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون حيياً لا يتخبط، ولا يفعل ما يُخجل، ولا يفعل ما يُنتقد عليه، ولكن إذا سمع ما يكره أو رأى ما يكره، فإنه يتأثر.

❁ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: شدة حياء النبي ﷺ وعلامات شدة هذا الحياء:

(١) أنه ﷺ زاد على حياء العذراء، وهى المرأة التى لم يسبق لها الزواج، ويبدو أن الحياء كان صفة ملازمة للعذراء، وتتأكد هذه الصفة وتزيد إذا دخل عليها أحدٌ هذا الخدر.. والخدر كما عرّفه الإمام النووي: (سِتْرٌ يُجعل للبكر جنب البيت)^(١). ولذلك قيد الراوى حياء المرأة بحال كونها فى خدرها لتعظيم هذا الحياء، والذي زاد حياء النبي ﷺ عليه.

(٢) أنه ﷺ إذا سمع شيئاً يكرهه ويخدش حياءه، تغير لون وجهه، فعرف أصحابه أنه يكره هذا الشيء.

ويتفرع عليه: علمنا بكمال خلق النبي ﷺ حيث أعطى كل ذلك الحياء الذى لا يأتى إلا بخير.

الفائدة الثانية:

كان حياء النبي ﷺ كله محموداً؛ لأن حياءه ﷺ لم يمنعه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومن بيان كل ما شرع الله - سبحانه وتعالى - أبلغ بيان.

الفائدة الثالثة:

ما يجب أن تكون عليه العذراء، من حياء وعفة، وحفظٍ للسمع والبصر، ولو

(١) مسلم بشرح النووي (٧٨/١٥).

يعلم الراوى أحدًا أشد حياءَ من العذراء لو صف به الرسول ﷺ.
الفائدة الرابعة:

خطأ مَنْ يعتقد أن الحياء خصلة للنساء فقط، وأن الرجل يُذَم إذا اتصف بها.. ودليله أن النبي ﷺ كان حيًّا بل فاق حياؤه حياء المرأة... وليس أى امرأة، ولكن أشد أصناف المرأة حياءً؛ وهى العذراء... ويتفرع عليه: خطأ مَنْ يقول: (لا حياء فى الدين) بين يدي سؤاله عن أمرٍ من أمور الدين، ولكن الصحيح أن يقول: (إن الله لا يستخى من الحق)^(١).

من فوائد الحياء

✽ إن فوائد الحياء لا تُعد ولا تُحصى... وحسبنا قول النبي ﷺ: «الحياء كله خير».

وها أنا أسوق لحضراتكم بعض فوائد الحياء.

(١) الحياء مفتاح كل خير:

فالحياء هو مفتاح كل خير.. فهو الذى يحضنا على طاعة الله واتباع رسول الله ﷺ وبر الوالدين وصلة الأرحام وإكرام الجار وأداء الأمانة والوفاء بالوعد وإكرام الضيف وغير ذلك من الطاعات التى نتقرب بها إلى رب الأرض والسماوات (جلّ وعلا).

(٢) الحياء خلق يحبّه الله (جل وعلا):

جاء فى الحديث أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى حييٌّ سِتيرٌ يحب الحياء والستر....»^(٢).

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/٣٦٦-٣٦٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٦).

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: قال لى أشج بن عصر: قال لى رسول الله ﷺ: «إن فيك لخلتين يحبهما الله ﷻ»، قال: قلت: «وما هما؟» قال: «الحلم والحياء»، قال: قلت: «قديمًا كانتا فى أم حديثًا؟»، قال: «قديمًا»، قال: الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله ﷻ^(١).

(٢) الحياء من صفات الله ﷻ:

ومن صفات المولى ﷺ (الحيى) كما فى الحديث أن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى حى كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين»^(٢).

❁ حياء الرب (جل وعلا) من عبده:

قال يحيى بن معاذ: «مَن استحيا من الله مُطيعًا، استحيا الله منه وهو مذنّب».

(٤) الحياء خلق مشترك بين الأنبياء:

❁ قال ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٣).

❁ فقوله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى» يشير إلى أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين.

(٥) الحياء يُعين العبد على هجر المعاصى كلها حياءً من الله ﷻ:

(٦) الحياء يحمى العبد من الفضيحة فى الدنيا والآخرة:

لأنه يجعل بين العبد وبين ارتكاب أسبابها ساترًا وحجابًا.

(٧) الحياء يجعل العبد مُقبلاً على طاعة الله (جل وعلا):

لأنه يرى ويشعر بنعمه التى لا تُعد ولا تُحصى فيزداد العبد طاعة لله وشكرًا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه العلامة الألبانى فى ظلال الجنة (١٩٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٥٧).

(٣) رواه البخارى (٦١٢٠) كتاب الأدب.



الله ... فهو يفعل ذلك وفاءً لله ... وذلك من باب قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

(٨) الحياء يكسو المرء الوقار:

بحيث أنه لا يفعل ما يُخلُّ بالمرءة والتوقير ولا يؤذى مَنْ يستحق الإكرام.
(٩) الحياء أبهى زينة:

فإن العبد لن يتزين بزينة أبهى وأجمل من الحياء..
عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه،
ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه»^(١).

(١٠) الحياء إيمان:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الحياء والإيمان قُرنا جميعاً، فإذا
رُفِع أحدهما، رُفِع الآخر»^(٢).

ليس من الحياء

﴿ وبعد أن عشنا سوياً في تلك الرحلة مع الحياء كان لا بد لنا من وقفة مع
بعض الأشياء التي يظن الناس أنها من الحياء وهي أبعد ما تكون عن الحياء....
وها هي بعضها:

﴿ أن تخرج المرأة سافرة متبرجة كاشفة جسدها للأجانب فإذا نظر إليها
رجل احمرَّ وجهها وحاولت أن تستر جسدها!!!! هذا ليس من الحياء في
شيء وإنما الحياء أن تلبس حجابها وتستتر جسدها ولا تخرج إلا للضرورة

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٥٥).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٠٣).

ومعها أحد محارمها.

✽ أن يصافح الرجل المرأة الأجنبية زعمًا منه أنه استحيا منها لأنها مدت يدها لتصافحه!!!

قال ﷺ: «لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيطٍ من حديدٍ خيرٌ له من أن يمسَّ امرأة لا تحل له»^(١).

✽ أن يشهد الرجل شهادة زور زعمًا منه أنه فعل ذلك حياءً من أحد أقاربه لأنه طلب منه أن يفعل ذلك.

✽ أن يُقرض رجلٌ رجلاً مالاً وهو لا يثق بأمانته، ويود أن لو أشهد عليه الجن والإنس، ومع ذلك يستحي أن يستكتبه الدين أو أن يُشهد عليه،.... أو يمكن سفيهاً من ماله استحياءً منه، فيئدده شذر مذر.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يُستجاب لهم: رجلٌ كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يُطلقها، ورجل كان له على رجل مال فلم يُشهد عليه، ورجل أتى سفيهاً ماله»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]^(٢).

✽ أن يترك الإنسان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حياءً من الناس فهذا ليس من الحياء في شيء بل هذا ضعفٌ وعجزٌ ومهانة.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تُنكره؟ فإذا لقن الله العبد حُجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس»^(٣) - أي: خفت من الناس -.

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٤٥).

(٢) صحيح: رواه الحاكم في المستدرک، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨١٨).



❁ فإذا رأينا مسلماً يفعل منكراً فلا يجوز أن نتركه يُلقى بنفسه في النار بحجة أننا نستحي أن ننكر عليه.

❁ قال رسول الله ﷺ: «لا يمتنع رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه، أو شهد، أو سمعه»^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، وصححه الألبانی فی السلسلة الصحيحة (١٦٨).
(٢) أخلاق الرسول ﷺ للأطفال / للشيخ محمود المصري (ص ٣٠٤-٣٠٨).

(٨٥) باب حفظ السر

❖ ما أجمل أن يكون المسلم أميناً على أسرار الناس من حوله فلا يفشى لهم سرّاً.. فإن ذلك من أعظم أسباب المحبة بين المسلمين.
ولا شك أننا نعيش زماناً لا نكاد نرى فيه رجلاً أميناً يحفظ أسرار الناس من حوله.

فأكثر الناس - إلا من رحم الله - لا يحفظون سرّاً بل يُذيعوه وينشروه مع أنهم يعلمون أن إفشاء الأسرار خيانة.

وكم من رجل أذاع سر صاحبه فكان سبباً في تحطيم حياته.

وكم من رجل أذاع سر صاحبه فكان سبباً في خراب بيته.

❖ ومن أجل ذلك كان لا بد أن نتربى على حفظ أسرار الناس من حولنا حتى تشيع روح المحبة بيننا وبين من حولنا...

وحتى نحافظ على حياة إخواننا فلا نعرضهم للمخاطر والمصائب بسبب نشر أسرارهم^(١).

❖ والسر: هو ما يقع خفية بينك وبين صاحبك،... ولا يحل لك أن تُفشى هذا السر أو أن تُبينه لأحدٍ، سواء قال لك: لا تُبينه لأحدٍ، أو علم بالقرينة الفعلية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد، أو علم بالقرينة الحالية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد. مثال الأول: اللفظ... أن يُحدثك بحديثٍ ثم يقول: لا تخبر أحداً، هو معك أمانة.

ومثال الثاني: القرينة الفعلية؛ أن يحدثك وهو في حال تحديثه إياك يلتفت؛ يخشى أن يكون أحد يسمع... لأن معنى التفاته أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد.

(١) أخلاق الرسول ﷺ للأطفال / للشيخ محمود المصري (ص ٤٧٣).

ومثال الثالث: القرينة الحالية؛ أن يكون هذا الذى حدثك به أو أخبرك به من الأمور التى يستحى من ذكرها أو يخشى من ذكرها أو ما أشبه ذلك، فلا يحل لك أن تبين وتفسى هذا السر.

ثم استدل المؤلف ﷺ لذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ يعنى إذا عاهدتم على شىء بلسان الحال أو بلسان المقال، فإنه يجب عليكم أن توفوا بالعهد... ومن العهود: الشروط التى تقع بين الناس فى الشراء والإجارة والاستئجار والرهن وغير ذلك، فإن هذه الشروط من العهد.

وكذلك ما يجرى بين المسلمين والكفار من العهد، فإنه يجب على المسلمين أن يوفوا به... والمعاهدون من الكفار بين الله فى سورة التوبة أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم: لا يزالون يوفون بالعهد، فهؤلاء يجب أن نؤفى بعهدهم.

وقسم ثانٍ: نقضوا العهد، فهؤلاء لا عهد بيننا وبينهم لأنهم نقضوا العهد... قال الله تعالى: ﴿أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَكَةٌ﴾ [التوبة: ١٣].

وقسم ثالث: لم ينقضوا العهد ولم يتبين لنا أنهم سيستمرون فى الوفاء به، بل نخاف منهم أن يخونوا وينقضوا العهد، فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿وَأِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]. يعنى قل لهم: لا عهد بيننا وبينكم حتى يكون الأمر صريحاً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩٠) وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَسْمَرِ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضَى إِلَى الْمَرْأَةِ وَتُفْضَى إِلَيْهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سَرَّهَا»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤٣٧) كتاب النكاح.

✽ فنحن نعلم أن الزوجة سر زوجها.. وأن الزوج سر امرأته.. والواجب على كل واحد منهما أن يحفظ أسرار الآخر ولا يفشيها.. وذلك لأن البيوت أسرار ولا يجوز لأحد أن ينتهك حرمة ذلك البيت.

✽ قال الإمام النووي رحمته الله: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَحْرِيمُ إِفْشَاءِ الرَّجُلِ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ مِنْ أُمُورِ الْإِسْتِمْتَاعِ وَوَصَفِ تَفَاصِيلِ ذَلِكَ وَمَا يَجْرِي مِنَ الْمَرْأَةِ فِيهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ وَنَحْوِهِ... فَأَمَّا مُجَرَّدُ ذِكْرِ الْجَمَاعِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ فَائِدَةٌ وَلَا إِلَيْهِ حَاجَةٌ فَمَكْرُوهٌ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْمُرُوءَةِ.. وَقَدْ قَالَ عليه السلام: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّ خَيْرًا أَوْ لِيَصُمْتُ» وَإِنْ كَانَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ أَوْ تَرْتَبَ عَلَيْهِ فَائِدَةٌ بِأَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِ إِعْرَاضُهُ عَنْهَا أَوْ تَدَّعَى عَلَيْهِ الْعَجْزَ عَنِ الْجَمَاعِ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فَلَا كَرَاهَةَ فِي ذِكْرِهِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩١) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه حِينَ تَأَيَّمَتْ بِنْتُهُ حَفْصَةُ قَالَ: لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنه، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ؟ قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي فَلَبِثْتُ لَيْلًا، ثُمَّ لَقِيتُني، فَقَالَ: قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمْتُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيْلًا، ثُمَّ خَطَبَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيتُني أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئًا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لَأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَلَوْ تَرَكَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لَقَبَلْتُهَا^(٢).

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/١٠).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٠٠٥) كتاب المغازي.

«تَأَيَّمْتُ» أَي: صَارَتْ بِلاَ زَوْجٍ، وَكَانَ زَوْجُهَا تُوفًى رضي الله عنه - «وَجَدْتُ»: غَضِبْتُ.

❁ فالسيدة حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت متزوجة من رجل اسمه خنيس بن حذافة وكان خنيس قد أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم وكان إسلامه على يدى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

واشتد إيذاء المشركين لأصحاب الحبيب ﷺ فأشار النبي ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة... فكان خنيس ممن هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة فلما رأى أن الإيذاء والتعذيب يزداد يوماً بعد يوم أخذ زوجه حفصة وهاجرا إلى يثرب (المدينة المنورة) بعدما أذن الحبيب ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة... وهناك عاش الزوجان في رحاب الأنصار وازدادت سعادتهما بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة - الذى لما دخل المدينة أضاء منها كل شىء - وما أجملها والله من حياة مع الحبيب ﷺ.

ولما كانت غزوة بدر التى كتب الله فيها النصر والعزة للمسلمين... كان خنيس رضي الله عنه من أبطال تلك الغزوة فقد كان يشتهى ويتمنى الشهادة من أعماق قلبه فلما شارك فى تلك الغزوة أصيب بجراحات كثيرة فى جسده ومع ذلك ظل يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى. ولما انتهت غزوة بدر عاد خنيس إلى المدينة متأثراً بجراحه.

ومات هذا الصحابى الجليل الذى بذل نفسه لله (جل وعلا) وفاز بأعظم منقبة... فقد صلى عليه الحبيب ﷺ ودفنه بالبقيع إلى جانب قبر الصحابى الجليل عثمان بن مظعون رضي الله عنه.

وهكذا كان الفراق المؤلم... وهكذا ترمّلت حفصة رضي الله عنها وهى فى سنٍّ مبكرة وحزنت لموته حزناً كاد أن يمزق قلبها، ولكنها كانت فى قمة سعادتها لأنه مات ميتة كريمة وسوف تشهد له جراحه التى كانت كلها فى سبيل الله (جل وعلا).

وتألم عمر لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها.
وأوجعه أن يلمح الترمُّل يغتال شبابها، ويمتص حيويتها، ويخنق صباها،
وبدأ يشعر بانقباضٍ أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته في حزنها.
فبدا له - بعد تفكير طويل - أن يختار لها زوجًا، قد تأنس إلى صحبتها^(١).
فأتى عثمان وأخبره أن حفصة تأيمت وقال له: إن شئت أنكحتك حفصة.
فهو لم يقل له: تعال تزوج حفصة، ولكن قال: إن شئت، يعنى: يخيره،
وكأنه يقول: الأمر إليك أنت، وابنتى موجودة ولن أجد أفضل منك.
فقال له: سأنظر فى أمرى، فكأنه أراد أن يستشير ثم يرد عليه.
قال عمر: فلبثت لىالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا،
فعثمان لم يكن راغبًا فى الزواج ذلك الوقت.. فلم يجد عمر فى نفسه شىء على
عثمان لهذا الأمر.

قال: فلقيت أبا بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت
عمر، قال: فصمت أبو بكر رضي الله عنه فلم يرجع إلى شىء.
فعثمان رضي الله عنه لما عرض عليه هذا الشىء أخبره أنه سيرد عليه وردَّ عليه بعد
ذلك بأنه غير راغب فى الزواج، لكن أبا بكر رضي الله عنه لم يرد عليه لا الآن ولا بعد
ذلك.

قال عمر: فكنت عليه أوجد منى على عثمان... يعنى: إن كنت وجدت فى
نفسى شىئًا على عثمان فما وجدته على أبى بكر الصديق رضي الله عنه أكثر منه.
قال: فلبثت لىالى ثم خطبها النبى ﷺ فأنكحتها إياه... وعمر لم يعرضها
على النبى ﷺ؛ لأنه لم يكن يطمع أن تتزوج ابنته من النبى ﷺ، فعرضها على
عثمان، ثم عرضها على أبى بكر، فلما خطبها النبى ﷺ خطبها من عمر رضي الله عنه.

(١) «صور من سير الصحابيات» (ص: ١١٣).



ثم لقيه أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك وقال له: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ فقلت: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي إلا أنني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها النبي ﷺ لقبلتها.

فهذا سر من النبي ﷺ حيث تكلم أنه يريد أن يتزوج حفصة.

والنبي ﷺ كان متزوجاً بعائشة بنت أبي بكر الصديق، ولم يغضب أبو بكر الصديق لذلك، ولكنه سكت؛ لأنه لا يستطيع أن يذكر أن النبي ﷺ يريد لها؛ لأنه يمكن أن يرجع في كلامه ولا يتزوجها.

وهذا فيه تأديب للمسلمين وتوجيه ليتخلقوا بهذا الخلق الفاضل.

فإذا سمعت إنساناً يتكلم عن فلانة وأنه يريد أن يخطبها، فلا تذهب لصاحب الشأن وتقول: أنا سمعت فلاناً يتكلم أنه يريد أن يخطب من عندك فجئت أبشرك... لأنه يمكن أن يرجع في كلامه فتكون كاذباً أمام هؤلاء الناس، ويمكن أن ذاك الرجل غير جاد في كلامه وبسبب كلامك يضطر ويذهب ليخطبها.

فعلى ذلك إذا سمعت سراً من إنسان فلا تُفشي هذا السر.

وقول أبي بكر الصديق لعمر رضي الله عنه: لعلك وجدت علي، يدل على أنه أحس أن عمر من حقه أن يجد في نفسه من هذا الشيء... وأبو بكر يعلم أن هذا أهون من أن يُفشي سر النبي ﷺ... بخلاف حال بعض الناس الذي يتساهل في أن يفشي سراً من الأسرار حتى لا يُغضب فلاناً من الناس!... إن السر أمانة والله ﻫُوَ وَكَانَ سيحاسبك على هذه الأمانة ويسألك: لم فرطت فيها؟ ثم إن أبا بكر قال لعمر: ولو تركها لتزوجتها، يعني: لو أن النبي ﷺ ترك ابتك ولم يتزوجها لكنت أنا تزوجتها؛ لأن ابتك ليست المرأة التي يُفَرِّط في مثلها.

(٦٩٢) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْشِي مَا تُخْطِئُ مَشِيَّتَهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ بِهَا وَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ. ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ، فَقُلْتُ لَهَا: خَصَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسَّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟

فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلْتُهَا: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ لِأُفْشِيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِرَّهُ. فَلَمَّا تَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَا لِي عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ، لَمَّا حَدَّثْتَنِي مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: أَمَّا الْآنَ فَنَعَمْ، أَمَّا حِينَ سَارَّانِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَأَنَّهُ عَارِضُهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، «وَإِنِّي لَا أُرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِ اللَّهَ وَاصْبِرْ، فَإِنَّهُ نِعَمَ السَّلَفِ أَنَا لَكَ» فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّانِي الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ» فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ ^(١).

✽ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَهُ فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَمْشِي مَا تُخْطِئُ مَشِيَّتَهَا مِنْ مِشْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا، فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ بِهَا وَقَالَ: مَرْحَبًا بِابْنَتِي) يَعْنِي: كَانَتْ شَدِيدَةَ الشُّبْهِ بِالنَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فِي مَشِيَّتِهَا.

فَالسَّيِّدَةُ عَائِشَةُ وَصَفَتْهَا بِأَنَّهَا مَا تُخْطِئُ مَشِيَّتَهَا مِنْ مِشْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَتْ: (فَلَمَّا رَأَاهَا رَحَّبَ بِهَا) فِيهِ وَصْفُ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَيْتِهِ مَعَ ابْنَتِهِ وَكَيْفَ قَابَلَهَا حِينَ جَاءَتْ تَزُورُهُ ﷺ.

قَالَتْ: (ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ)، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ عَادَتِهِ إِذَا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢٤٥٠) كتاب فضائل الصحابة.

جاءت ابنته أنه يقوم لها ويُقبلها ﷺ ويُجلسها بجواره، وإذا ذهب هو إليها قامت إليه وقبلته وأجلسته صلوات الله وسلامه عليه.

قالت: (ثم سارّها فبكت بكاءً شديداً) يعنى: بعد أن قال لها السر بكت بكاءً شديداً، قالت: (فلما رأى جزعها سارّها الثانية فضحكت ﷺ) فقلت لها: خَصَّكَ رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسّرار ثم أنتِ تبكين؟!).

يعنى: النبى ﷺ فضلك علينا كلنا وقال لك السر ثم أنت تبكين! وتعجبت من أنها ما رأت ضحكاً أسرع لبكاءٍ من هذا اليوم، فلما قام رسول الله وسألتها عائشة عما قاله لها رسول الله ﷺ قالت ﷺ: (ما كنت لأفشى على رسول الله ﷺ سراً) يعنى: كون النبى ﷺ يحدثنى بينى وبينه فمعناه أنه لا يريد أن تسمعوا، ولو كان يريد أن تسمعوا لكان حدثنى بصوتٍ مرتفع، ولما كان سراً.

قالت عائشة: (فلما توفي رسول الله ﷺ قلت لفاطمة رضى الله عنها: عزمت عليك بما لى عليك من الحق لما حدثنى ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقالت فاطمة رضى الله عنها: أما الآن فنعم) يعنى: الآن وبعد أن مات النبى ﷺ فيمكن أن أخبرك بهذا السر، أما فى حياته فلا... قالت: (أما حين سارّنى فى المرة الأولى فأخبرنى أن جبريل عليه السلام كان يُعارضه القرآن فى كل سنة مرة وأنه عارضه الآن مرتين، «وإنى لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقى الله واصبرى» يعنى: اعتاد النبى ﷺ أن جبريل يُعارضه القرآن كل سنة مرة... ومعنى المعارضة: أن يقرأ النبى ﷺ ويسمع جبريل، أو يقرأ جبريل ويسمع النبى ﷺ، فكل سنة كان يختم معه ختمة، أما هذه السنة فإنه ختم مرتين مع النبى ﷺ، فلذلك استشعر النبى ﷺ أنه قد دنى أجله، فقال لفاطمة رضى الله عنها: «وإنى لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقى الله واصبرى، فإنه نعم السلف أنا لك»، قالت: فبكيت بكائى الذى رأيت، ففى المرة الأولى أخبرها بأن الأجل قد اقترب منه ﷺ، قالت: (فبكيت بكائى الذى رأيت)، ثم

قالت فاطمة: (فلما رأى جزعى - صلوات الله وسلامه عليه - قال: «يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة»، فضحكت ضحكى الذى رأيت).

إذَا: السر الأول: أنه ﷺ سيموت، أما السر الثانى فهو: أن السيدة فاطمة ستكون سيدة نساء العالمين... وأيضاً أخبرها أنها تلحق به ﷺ ولن تعيش بعده كثيراً، ففرحت بأنها تدرك النبى ﷺ، وأن منزلتها فى الجنة أنها ستكون سيدة نساء العالمين أو سيدة نساء هذه الأمة ﷺ.

وفى هذا الحديث دلالة على أن الإنسان إذا استودعه إنسان سرّاً فلا يجوز له أن يفشيه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩٣) وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامِ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، فَبَعَثَنِي فِي حَاجَةٍ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي، فَلَمَّا جِئْتُ قَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ فَقُلْتُ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا حَاجَتُهُ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ. قَالَتْ: لَا تُخْبِرَنَّ بِسِرِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدًا. قَالَ أَنَسٌ: وَاللَّهِ لَوْ حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ بِهِ يَا ثَابِتُ^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذى كان قد شَرَفَهُ اللهُ ﷺ بأن يكون خادماً لرسول الله ﷺ لمدة عشر سنين.. يحكى أن النبى ﷺ كان يبحث عنه ليرسله لقضاء حاجة له فوجده وهو يلعب مع الغلمان.. فسلم عليهم.. أى: على الغلمان... وهنا نرى تواضع رسول الله ﷺ عندما يُسَلَّمُ على

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٨٢) كتاب فضائل الصحابة - وأيضاً روى البخارى بعضه مختصراً (٦٢٨٩) كتاب الاستئذان.

الصبيان وهم يلعبون في السوق... وهذا من السنة أن تُسلم على كل من مرَّ بك حتى ولو كان صبيًا صغيرًا.

✽ المهم أن النبي ﷺ أرسل أنس في حاجته فتأخر أنس بسبب ذلك على أمه... فمن الواضح أن النبي ﷺ قد أرسله إلى مكان بعيد بعض الشيء.. فلما عاد أنس إلى أمه أم سليم رضي الله عنها قالت له: ما حبسك؟ أي: ما الذي جعلك تتأخر على هكذا؟

فأخبرها أنس أن النبي ﷺ كان قد بعثه في حاجة له فقالت له: وما حاجته؟.. تريد أن تعرف هل يستحق ذلك المشوار كل هذا التأخير؟.. فماذا كان جواب الغلام الصغير أنس رضي الله عنه؟ قال لها: إنها سرٌّ.

يعنى: لن أكشف سرَّ رسول الله ﷺ.. مع أن النبي ﷺ لا يفعل شيئًا يخجل الإنسان أن يذكره.. ولم يطلع أنس على أي شيء من الرسول ﷺ يخجل أن يتحدث به - حاشا لله - لكنه تربى بين يدي النبي ﷺ وتعلَّم منه حرمة إفشاء الأسرار.

فقالت له أمه: لا تُخبرنَّ بسرَّ رسول الله ﷺ أحدًا.

✽ وانظر إلى هذه الأم التي تخشى الله عز وجل.. لم تُجبر ابنها لكى يخبرها بسرَّ رسول الله ﷺ... بل شجعت على ذلك من أجل أن يحفظ أسرار النبي ﷺ. فكل أم يلزمها أن تعلم ابنها كيف يحافظ على السر... فإذا جاء الأب وقال للإبن: خذ هذا المبلغ واذهب به إلى فلان ولا تقل لأحد... فلا يرجع ويقول لأمه: أبى بعثنى لأفعل كذا وكذا، وإذا فعل فالواجب على الأم أن تقول له: لا يجوز لك ذلك، فهذا سر من الأسرار فلا تُفشي سرَّ أبيك.

وعلى الأم أن تعلم الابن ألا يكون كثير الكلام، وألا يفشي أسرار البيت،



فإذا تربى الطفل على ذلك كانت هذه عادته عند الكبر، ويستحيل أن يستفيد منه الأعداء أو يحصلوا منه على أسرار بلده.

فأنس هنا لما قال لأمه ذلك قالت أمه رضي الله عنها: (لا تُخبرنَّ بسرَّ رسول الله ﷺ أحدًا، قال أنس - رضي الله عنه - : والله لو حدثت به أحدًا لحدثتك به يا ثابت).

وثابت هذا هو تلميذ أنس، وهو من التابعين وليس صحابياً.. فهو جاء بعد النبي ﷺ بزمان، ومع ذلك يقول أنس: إن سر النبي ﷺ هذا ما أخبرت به أحدًا إلى الآن، ولو كنت أحدث به أحدًا لكنت حدثتك أنت.

ومعنى هذا: أنه كتم السر حتى بعد وفاة النبي ﷺ مع أنه لا يلزمه ذلك، وهذا ظاهر في حديث السيدة فاطمة رضي الله عنها، ولكن مع ذلك حافظ على سر النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٦) باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد

✽ ما أجمل أن يكون المسلم وفياً بالعهد مع كل الناس من حوله ... لأن هذا الوفاء بالعهد هو في حقيقته دعوة إلى هذا الدين العظيم.

العهد: ما يعاهد الإنسان به غيره وهو نوعان: عهد مع الله عز وجل فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فقد أخذ الله العهد على عباده جميعاً أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً لأنه ربهم وخالقهم.... والنوع الثاني: عهد مع عباد الله ومنه العهود التي تقع بين الناس ... بين الإنسان وبين أخيه المسلم .. بين المسلمين وبين الكفار وغير ذلك من العهود المعروفة فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد فقال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].... يعني أن الوفاء بالعهد مسئول عنه الإنسان يوم القيامة ... يُسأل عن عهده هل وفى به أم لا؟

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١] يعني ولا تخلفوا العهد.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿[الصف: ٢-٣] والإنسان إذا عاهد ولم يف فقد قال ما لا يفعل ... فمثلاً لو قلت لشخص عاهدتك ألا أخبر بالسر الذي بيني وبينك أو عاهدتك ألا أخبر بما صنعت في كذا وكذا ثم نقضت وأخبرت فهذا من القول بما لا يفعل: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: كبر بغضاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون فإن الله يبغض هذا الشيء ويحب الموفين بالعهد إذا عاهدوا^(١).



❁ لقد كان النبي ﷺ سيد الأوفياء وكان يحض الأمة على الوفاء في كل شىء.

- وكان يرتقى بأرواح المؤمنين إلى جنة رب العالمين (جل وعلا).
فها هو ﷺ يقول: «اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة - وكان من بينها - وأوفوا إذا وعدتم»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩٤) عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»^(٢).
زاد في رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».
❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٢٠٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا. وَمَرَّةٌ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أَنَّ تلك الخصال الأربع لا تجتمع إلا في المنافق الخالص الذى ليس فيه خير... وأن المؤمن قد يكون فيه خصلة من تلك الخصال لكنه لا يكون منافقاً خالصاً بل يكون فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

(١) حسن: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (١٠١٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

❁ والمنافق هو الذى يُظهر الخير ويُسرُّ الشرَّ.. يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر.. هذا إذا كان منافقًا نفاقًا اعتقاديًا..

❁ وقد ظهر النفاق أول ما ظهر في المدينة المنورة حين قويت شوكة الإسلام فأظهر بعض المنافقين الإسلام ليعصموا دماءهم وأموالهم.. أما في مكة فلم يكن فيها نفاق وإنما كان فيها إسلامًا وكفرًا.. وذلك لأن شوكة الإسلام في مكة كانت ضعيفة.. فلم يكن هناك أحدٌ يحتاج أن يُظهر الإيمان خوفًا من المسلمين لأنهم كانوا ضعفاء في مكة قبل الهجرة.

❁ وفي هذا الحديث يبين المصطفى ﷺ صفات المنافقين، مُحذِرًا منها، ومن الاتصاف بها... فقد أخبر النبي ﷺ أن للنفاق خصالًا، قد تجتمع بالرجل، وقد يكون فيه بعضها دون البعض الآخر، فمن كان فيه خصلة منها، ففيه خصلة من النفاق بمقدارها... فيكون فيه خصلة من النفاق، وخصلة من الإيمان، أو خصال منه... فيكون الإنسان منافقًا خالصًا، أو مؤمنًا خالصًا، أو فيه نفاق وإيمان، وهو لما غلب فيهما.

واعلم أن النفاق على قسمين: اعتقادي، وعملي، والمراد بالعمل: هو ما ورد في هذا الحديث، وأما الاعتقادي: فهو النفاق الأكبر، الذى يُظهر صاحبه الإسلام، ويُبطن الكفر... وهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١١٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٦﴾

[النساء: ١٤٥-١٤٦]

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن أربع صفات للنفاق العملي وهي:

❁ أولًا: إذا أوْتمن خان.

عَدَّ الإمام الذهبي الخيانة من الكبائر وقال: الخيانة قبيحة في كل شيء..

وبعضها شرٌّ من بعض.. وليس من خانك في فلسٍ كمن خانك في أهلِكَ ومالك وارتكب العظائم^(١).

فالخيانة تكون في الأموال.. بأن يأخذ الإنسان مالك على سبيل القرض ولا يرده إليك.. أو يأخذ مالك ليشغله لك ثم يخونك ولا يرده إليك.. وتكون أيضًا في الأعراض.. بأن يخون أخاه في أهله. وتكون أيضًا في الأسرار.. بأن يفشى أسرار أخيه. وتكون في أشياء كثيرة...
❖ ثانيًا: إذا حدث كذب.

فالكذب عملٌ مرذول وصفة ذميمة.. فالكذب من أسباب ردِّ القول ونزع الثقة من الكاذب والنظر إليه بعين الخيانة. والكذاب يقلب الحقائق؛ فيدني البعيد، ويبعد القريب، ويقيح الحسن، ويحسن القبيح.

قال النبي ﷺ مُحذِرًا من الكذب: «وَيَاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(٢).

قال الماوردي رحمه الله: وَالْكَذِبُ جَمَاعُ كُلِّ شَرٍّ، وَأَصْلُ كُلِّ لِسُوءٍ عَوَاقِبِهِ، وَخُبْتُ نَتَائِجِهِ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ النَّمِيمَةَ، وَالنَّمِيمَةُ تُنْتِجُ الْبَغْضَاءَ، وَالْبَغْضَاءُ تَوُولُ إِلَى الْعَدَاوَةِ، وَلَيْسَ مَعَ الْعَدَاوَةِ أَمْنٌ وَلَا رَاحَةٌ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: مَنْ قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صِدْقُهُ^(٣).

(١) الكبائر (ص ١٥٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

(٣) أدب الدنيا والدين (ص ٢٦٢).

✽ «إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب» وسبق الكلام على هاتين الجملتين.

✽ والثالثة: قال: «وإذا عاهد غدر» وهو قريب من قوله فيما سبق: «إذا وعد أخلف» أى إذا عاهد أحدًا غدر به، ولم يَفِ بالعهد الذى عاهده عليه.

✽ والرابعة: «إذا خاصم فَجَر» والخصومة: هى المخاصمة عند القاضى ونحوه، فإذا خاصم فجر. والفجور فى الخصومة على نوعين:

أحدهما: أن يدعى ما ليس له.. كأن يدعى أنه أقرضك ما لا وهو كذاب.

والثانى: أن ينكر ما يجب عليه.. كأن ينكر المال الذى لك عنده.

وهناك صورة أخرى للفجور فى الخصومة وذلك بأن ينسى هذا الإنسان كل ما كان بينكما من المحبة والمودة إذا تخاصم معك.. فيذهب ويُشَهَّر بك بين الناس بالكذب ويخوض فى عِرْضك ولا يردعه وازعج دينيُّ أبدًا.. ويوقع بينك وبين الناس ويقول فيك ما ليس فيك.. ويخبر الناس بما لم تُقله.. ويحاول أن يتسبب فى إيذائك بأى صورة.. بل ويُفشى أسراركَ ويفعل بك ما لم يفعلهُ مَنْ هو على غير ملتكَ.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. فهذه هى صفات المنافقين.

وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت فى المرء كان منافقًا خالصًا، لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله، وإذا كان فيه واحدة منهم كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

وفى هذا الحديث: دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق لقوله: «كان فيه خصلة من النفاق»، هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق، وخصلة إيمان، وخصلة فسوق، وخصلة عدالة، وخصلة عداوة، وخصلة ولاية.

(٦٩٦) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» فَلَمْ يَجِئْ مَالُ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَنَادَى: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا. فَأَتَيْتُهُ وَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، فَحَتَّى لِي حَثِيَّةٌ، فَعَدَدْتُهَا، فَإِذَا هِيَ خَمْسُمِائَةٍ، فَقَالَ لِي: خُذْ مِثْلَيْهَا^(١).

❀ ففى هذا الحديث يحكى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «لَوْ قَدْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ لَأُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» مَالُ الْبَحْرَيْنِ يَعْنِي مَالُ الْإِحْسَاءِ وَمَا جَاوَرَهَا... كُلُّهَا تُسَمَّى الْبَحْرَيْنِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ.

يقول: «لَوْ قَدْ جَاءَ لَأُعْطِيتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» يَقُولُ بِيَدَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَذَا وَعْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ مَالِ الْبَحْرَيْنِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا.

فلما توفى الرسول (عليه الصلاة والسلام) قبل أن يأتى مَالُ الْبَحْرَيْنِ وَكَانَ الْخَلِيفَةُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ؛ بَايَعُوهُ كُلَّهُمْ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْخَلِيفَةُ، بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فجاء مَالُ الْبَحْرَيْنِ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ» يَعْنِي وَعْدٌ.. أَوْ دَيْنٌ: يَعْنِي عَلَى الرَّسُولِ (عليه الصلاة والسلام)... لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَكُونُ الرَّسُولُ اشْتَرَى مِنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَلَزِمَهُ دَيْنٌ، أَوْ وَعَدَ أَحَدًا شَيْئًا... وَفَعَلًا تَوَفَّى الرَّسُولُ (عليه الصلاة والسلام) وَدَرَعَهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ فِي الْمَدِينَةِ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ اشْتَرَاهَا لِأَهْلِهِ (عليه الصلاة والسلام)... فَهُوَ ﷺ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ وَلَمْ يُبْعَثْ جَابِيًا لِلْمَالِ وَلَا يُبْقَى عِنْدَهُ الْمَالُ إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا يَفْرُقُهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٩٦) كتاب الحوالات، ومسلم (٢٣١٤) كتاب الفضائل.

المهم أن أبا بكر نادى: من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا... فجاء جابر رضي الله عنه إلى أبي بكر وقال: إن النبي ﷺ قال: «لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا» فقال: خُذ فأخذ بيديه فعدّها فإذا هي خمسمائة، فقال: خُذ مثليها... لأن الرسول قال: «هكذا وهكذا وهكذا» ثلاث مرات، فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه العدة التي وعده إياها رسول الله ﷺ^(١).

✽ رأيت كيف كان كرم النبي ﷺ على كل من حوله حتى أنه لم يترك شيئاً لأزواجه من بعده ﷺ.. حتى السبع دراهم التي كانت في بيته عند موته ﷺ كان يقول لعائشة رضي الله عنها تصدقي بها يا عائشة.. كيف ألقى ربي عز وجل وفي بيتي سبعة دراهم... وقد أخبر النبي ﷺ أن الأنبياء لا يورثون شيئاً من متاع الدنيا الزائل وإنما يورثون العلم والتقوى «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ».

ولا عجب في ذلك فهو القائل ﷺ: «لَوْ كَانَ عِنْدِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا لَسَرَّيْنِي أَنْ لَا يَمُرَّ عَلَيَّ ثَلَاثٌ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا شَيْءٌ أَرْضُهُ لِذَيْنِ»^(٢).

✽ وفي المقابل انظر إلى حرص أبي بكر رضي الله عنه على أن يفي بوعد النبي ﷺ لجابر ولغيره.. وعلى أن يسدّ دين النبي ﷺ بعد موته إن كان عليه دين.. ولذا كان أول سؤال يسأله عندما جاء هذا المال: «مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِدَّةٌ أَوْ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا».. ولا عجب في ذلك فقد كان من أحب الناس إلى قلب النبي ﷺ.. وكان أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٨٩) كتاب الاستقراض، ومسلم (٩٩١) كتاب الزكاة.

(٨٧) باب الأمر بالمحافظة على ما اعتاده من الخير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢]
«والأنكاث»: جمع نكث، وهو الغزل المنقوض.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

✽ فالمسلم ينبغي عليه أن يحرص على المداومة على العمل الصالح.. لأنه كما يقولون: مَنْ ذاق عرف.. وَمَنْ عرف اغترف.

فثمرات المداومة على العمل الصالح كثيرة.. ومنها:

أولاً: نيل محبة الله التي هي غاية كل مؤمن يريد حب الله.

وذلك كما في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه». يستمر ويدوم حتى يحبه الله.. والنتيجة «فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله الذي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»^(١)، وفوق هذا ما رواه الشيخان «إذا أحب الله العبد نادى جبريل، إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل في أهل السماء، إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(٢).

ثانياً: ترويض النفس على مكابدة الهوى حتى تعتاد الخير، فالنفس من طبعها حب التفلُّت والانطلاق لكنها إذا رُوضت ذلَّت واستجابت

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٠٩) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٦٣٧) كتاب البر والصلة.

يقول أحد السلف: عالجت لساني عشرين سنة قبل أن يستقيم لى.

ثالثاً: الأمن من الحسرة عند العجز، أو المرض، أو الفتنة:

فالمداوم حين يُحال بينه وبين العمل يجرى له ما كان يعمل... يُستشعر هذا مما ثبت في صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر كُتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»^(١). فلا حسرة ولا ندم.

رابعاً: تربية النفس على أخذ معالى الأمور وعدم الرضا بالدون:

وكما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(٢).

خامساً: إملال الشيطان وإضعافه وقطع الطريق عليه:

يقول الحسن رحمه الله كما في الزهد لابن المبارك: «إذا نظر إليك الشيطان فراك مداوماً على طاعة الله فبغاك وبغاك فراك مداوماً مَلَك ورفضك، وإن كنت مرة هكذا ومرة هكذا تتقدم خطوة وتتأخر خطوتين طمع فيك».

وكان من هدى النبى ﷺ أن عمله ديمة، يعنى يداوم عليه؛ فكان إذا عمل عملاً أثبتته ولم يغيره... وذلك لأن الإنسان إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه، فإن هذا يؤدى إلى الرغبة عن الخير، لأن الرجوع بعد الإقدام شَرٌّ من عدم الإقدام... فلو أنك لم تفعل الخير ابتداءً لكان أهون مما إذا فعلته ثم تركته، وهذا شىءٌ مُشاهدٌ مُجربٌ.

وذكر المؤلف رحمه الله عدة آيات من القرآن، كلها تدل على أن الإنسان ينبغي أن يحافظ على ما اعتاده من الخير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٦٤) (٦٤٦٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٧٨٣) كتاب صلاة المسافرين.

نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ ﴿ [النحل: ٩٢]. يعنى: لا تكونوا كالمرأة الغازلة التى تغزل الصوف، ثم إذا غزلته وأتقته نقضته أنكأاً ومزقته... بل داوموا على ما أنتم عليه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. أى: أنهم كانوا يعملون العمل الصالح لكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وتركوا العمل فلا تكونوا مثلهم.

فالحاصل أنه ينبغى للمسلم إذا من الله عليه بعمل مما يُتعبد به لله من عبادات خاصة كالصلاة، أو عبادات متعددة للغير كطلب العلم ألا يتقاعس وألا يتأخر، ليستمر على ذلك؛ فإن ذلك من هدى النبى ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٩٧) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ لى رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٨٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٥٢) كتاب الجمعة، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٨٨) باب استحباب طيب الكلام

وطلاقة الوجه عند اللقاء

❦ قال الله تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

(٦٩٨) وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِي كَلِمَةٍ طَيِّبَةً»^(١) .

(٦٩٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»^(٢) .

(٧٠٠) وعن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(٣) .

❦ تستطيع أن تفوز بمحبة الله ومحبة الناس، بلسانك الحلو ... تستطيع أن تظفر بملايين الحسنات، بلسانك الذاكر لله (جلّ وعلا) ... تستطيع أن تُصلح بين الناس بلسانك وأن تكون أسعد الناس بلسانك .. وأن تكون أنجح داعية بلسانك .. وأن يشاق الناس جميعاً للقائك ومجالستك بلسانك وكلامك الحلو .

❦ بعض الناس إذا تكلم فإنما ينثر على مُحدثه الورد والياسمين فلا تسمع منه إلا جميل القول وجيد العبارة، وكأنما يعدّ كلامه عدداً فلا تخرج منه كلمة جافية، ولا عبارة نابية .

وانظر إلى سلف هذه الأمة كيف كانوا يختارون ألفاظهم وكيف كانوا ينتقون كلمتهم كما ينتقون أطياب الثمر .

❦ فهذا عمر رضي الله عنه خرج يعسُ في المدينة بالليل، فرأى ناراً موقدة في خِباءٍ،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٢٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠١٦) كتاب الزكاة .

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٨٩) كتاب الجهاد، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة .

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة .

فوقف وقال: «يا أهل الضوء» وكره أن يقول: يا أهل النار.

❁ وسئل العباس: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ فقال: هو أكبر مني، وأنا وُلدتُ قبله! (١)

❁ قال الإمام ابن القيم: «وَأَصْلُ هَذَا الْبَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] فَالشَّيْطَانُ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِذَا كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِغَيْرِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (٢).

❁ وأما البسمة وطلاقة الوجه فينبغي على المسلم أن يلقي إخوانه بالبسمة الحانية وطلاقة الوجه لأن هذا من خلق النبي ﷺ فقد كان النبي ﷺ ... دائم البشر كثير التبسم.. فالبسمة تفتح لك قلوب الناس من حولك.

وحسبنا أن نعلم أن النبي ﷺ أوصى بها وجعلها من الصدقات التي يُؤجر عليها المسلم فقال ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ» (٣). ولذا فعليك أن تكثر من التبسم.

فهذا هو هدى نبينا ﷺ ... فعن عبد الله بن الحارث بن جزء رَوَى ﷺ قال: «ما رأيت أحداً أكثر تبسُّماً من رسول الله ﷺ» (٤).

❁ واعلم أن ثمرات التبسم لا تقتصر على تكثير الحسنات وتكفير السيئات وكسب قلوب الناس ... بل إنه يبعث على السرور والانشراح ويجعلك تستمتع بمباهج الحياة (٥).

❁ وقد ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ آياتٍ منها: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ

(١) الحياة حلوة / للشيخ محمود المصري (ص ٤٣٨-٤٣٩) بتصرف.

(٢) الطرق الحكيمة (ص ٤١).

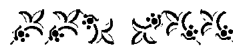
(٣) صحيح: رواه الترمذي، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني رحمه الله في مختصر الشمائل (١٩٤).

(٥) الحياة حلوة / للشيخ محمود المصري (ص ١٦٥).

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ اخْفِضْ جَنَاحَكَ: يَعْنِي لِيَنْ وَتَوَاضِعْ لِلْمُؤْمِنِينَ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ أَهْلٌ لِأَنَّ يَتَوَاضِعَ لَهُ.

أما الكفار فقد قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فالذي يُتَلَقَّى بِالْبَشْرِ وطلاقة الوجه هو المؤمن، أما الكافر فإن كان يُرَجَى إسلامه إذا عاملناه بطلاقة الوجه والبشر، فإننا نعامله بذلك رجاء إسلامه وانتفاعه بهذا اللقاء. وأما إذا كان هذا التواضع وطلاقة الوجه لا يزيده إلا تعالياً على المسلم وترفعاً عليه، فإنه لا يُقَابَلُ بذلك.



﴿ أما الأحاديث التي ذكرها المصنف.. ففي الحديث الأول يوصينا النبي ﷺ أن نقي أنفسنا من النار بأى شىء ولو كان ذلك بأن نتصدق بنصف تمرة.. ماذا يساوى نصف تمرة؟ لا شىء.. لكنه قد يكون سبباً فى نجاتك من النار.. فإن لم تجد شق تمرة.. ومن هذا الذى لا يملك شق تمرة؟ يعنى: إن لم تكن تملك من هذه الدنيا أى شىء ولا حتى شق تمرة فتستطيع أن تقى نفسك من النار بكلمة طيبة.. وهذه يملكها كل الناس لأنها لا تكلفك أى شىء... ولذلك أخبر النبي ﷺ فى الحديث الثانى أن «الكلمة الطيبة صدقة» وأخبر هنا أنها صدقة حتى لا تزهى فى بذل الكلمة الطيبة لكل من حولك.. والكلمة الطيبة قد تكون بإلقاء السلام على الناس أو السؤال على أحوالهم أو الدعاء لهم أو تبشيرهم بما يسرهم أو تعليمهم ما ينفعهم أو تذكيرهم بالله ﷻ أو غير ذلك من الكلام الطيب.

وحتى لا تتعاس عن بذل هذا الخير يقول لك الحبيب المصطفى ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».. فقد تكون بسمتك فى وجه أخيك سبباً لتفريج كربه وهمه.. فاحرص على بذل الكلمة الطيبة والبسملة الحانية لكل من حولك وستجنى الخير الكثير فى الدنيا والآخرة.

(٨٩) باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمُخاطَب

وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك

(٧٠١) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قومٍ فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً^(١).

(٧٠٢) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان كلامُ رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً يفهمه كلُّ من يسمعه^(٢).

✽ والمعنى أنه ينبغي للإنسان إذا خاطب الناس أن يتكلم معهم بكلام واضح يسمعه ويفهمه.. فلا يُسرّع في كلامه لأنه قد يفوتهم بعض ما يقول بل يتكلم كلاماً وسطاً ما بين الإسراع والإبطاء.. وذلك لأن بعض الناس يتكلم بسرعة شديدة فلا يكاد أن يفهم المُخاطَب منه كلمة واحدة وبذلك يفوت المقصود من وراء ذلك الكلام....

فلا تُسرّع في الكلام، وإذا طلبت حاجة فاطلب على مهلك واجعل الذي يسمعك يفهم منك ما تقول ... هذا في كلامك مع الناس، أما إذا كنت في الدرس أو في الخطبة فمن باب أولى ألا تقول للناس كلاماً لا يفهمونه، بل احرص على أن تكلم الناس بكلام يتناسب مع عقولهم ولا يُشترط أن تكلمهم باللغة الفُصحى في حوارك معهم إذا كانوا لا يفهمونها... وإن لم يفهموا كلامك فأعده عليهم مرة أخرى وثالثة حتى يفهموا.. فقد كان النبي ﷺ يُعيد الكلام ثلاثاً إذا لم يفهم الذي أمامه أو كان سمعه ثقیلاً.. أما إذا فهم فالنبي ﷺ لم يكن يُعيد الكلام إلا للضرورة... وليس المعنى أنه ﷺ كان كلما تكلم أعاد كلامه ثلاث مرات.

(١) صحيح: رواه البخاري (٩٥) كتاب العلم.

(٢) حسن: رواه أبو داود، وأحمد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٢٦).

وكان ﷺ إذا سلم على قوم «سلم عليهم ثلاثاً» معناه أنه كان لا يكرر أكثر من ثلاث ... يُسلم مرة فإذا لم يُجب سلم الثانية، فإذا لم يُجب سلم الثالثة، فإذا لم يجب تركه.

وذلك حتى لا يحرمهم بركة التسليم عليهم لأن النبي ﷺ حين يقول لهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فهو يدعو لهم .. فمن شفقتهم وحبه لهم كان أحياناً يكرر السلام لينالوا بركة دعائه .. وكان أحياناً يكرر السلام إذا لم يسمعه الذي أمامه ... وكذلك في الاستئذان كان ﷺ يستأذن ثلاثاً، يعنى إذا جاء للإنسان يستأذن في الدخول على بيته، يدق عليه الباب ثلاث مرّات، فإذا لم يُجب انصرف ... فهذه سُنّة عليه الصلاة والسلام أن يكرر الأمور ثلاثاً ثم ينتهى.

وتذكر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان كلامه فصلاً يعنى: مفصلاً لا يُدخل الحروف بعضها على بعض ولا الكلمات على بعضها .. ومن شدة وضوح كلامه ﷺ أنه لو شاء العاد أن يُحصى كلام النبي ﷺ لأحصاه. وأنت حين تسمع أحاديث النبي ﷺ أو تقرؤها تجدّها واضحة بيّنة، سواء كانت أحاديث طويلة أو أحاديث قصيرة، فحديثه ﷺ كله جَمَلٌ مفيدة ... فعائشة رضي الله عنها تذكر أن كلامه كان كلاماً فصلاً يفهمه كل من يسمعه، بل قالت في حديث آخر: «لو أراد العاد أن يعده لعدّه».

✽ فينبغى على كل واحدٍ منّا أن يحرص على أن يكون كلامه مع الناس من حوله واضحاً جلياً لا تختلط فيه الكلمات ببعضها .. وأن يتأكد أن من يسمعه قد فهم ما يقول وإلا فليكرر كلامه ثلاثاً حتى يفهم .. وهو مع كل هذا يستحضر أنه يفعل ذلك اتباعاً لرسول الله ﷺ.

(٩٠) باب إصغاء الجليس لحديث جليسه الذي ليس بحرام واستنصات العالم والواعظ حاضري مجلسه

(٧٠٣) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» ثُمَّ قَالَ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»^(١).

✽ إن إصغاء الجليس إلى حديث جليسه من أدب السماع.. فالإنسان له لسانٌ واحد وله أذنان؛ حتى يسمع أكثر مما يتكلم... فلا ينبغي أن يجلس المسلم في جلسة ويظل يتكلم وحده دون أن يعطى فرصة لغيره لكي يتكلم.. بل عليه أن يتكلم إن طُلب منه ذلك.. فإذا تكلم يجعل كلامه قليلاً حتى لا يمل الناس منه ويشتاقوا لكلامه.

فإذا تكلم غيره فینبغی له أن ینصت إلى كلامه وألا یتکلم أثناء كلامه حتى لا یحصل تشویش على المستمعین.. بل یصمت حتى ینتفع جمیع الحاضرين.. فهذا هو الإصغاء بالقول بألا یتکلم إذا کان جلیسه یتکلم.

أما الإصغاء بالفعل فیکون ذلك بأن تُقبل بوجهک إلى مَنْ یتکلم حتى یشعر باهتمامک بكلامه.. ولا تلتفت یمیناً أو شمالاً حتى لا یظن أنك قد مللت من كلامه أو یظن أنك متکبر.. فینبغی أن تُصغى لكلامه وأن تُقبل علیه بوجهک إلا إذا کان یتکلم بشيء مُحرم کالغیبة و غیرها أو یتکلم فی دین الله باستهزاء وسخرية فإنک لا تُصغى إلیه بل یجب أن تنهاه عن ذلك وأن تأمره بالمعروف وتنهه عن المنکر.. فإن لم یستجب لك وظل یتکلم بهذا الكلام المحرم فاترك المكان وفارقه.. وهذا هو الإنکار بالقلب..

(١) متفق علیه: رواه البخاری (١٢١) کتاب العلم، ومسلم (٦٥) کتاب الإیمان.

فقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠).

✽ وقد أورد المصنف في هذا الباب حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه يقول جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: (قال لي رسول الله ﷺ في حجة الوداع: استنصت الناس) يعني: كان هناك ناس كثير مع النبي ﷺ في حجة الوداع، وكان عددهم أكثر من مائة ألف رجل وامرأة... فأراد النبي ﷺ أن يعظهم ويخطب فيهم فقال لجرير: «استنصت الناس» يعني: مرهم بالسكوت، لكي يخطب فيهم النبي ﷺ ويعظهم، ثم قال للناس موعظة عظيمة: «لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

يعني لا ترجعوا بعدى كفارًا حال كونكم يضرب بعضكم رقاب بعض، وفي هذا دليل على أن قتال المؤمنين بعضهم بعضًا كفر... وقد أيد هذا الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» لكنه كفر لا يخرج من الملة... والدليل على أنه لا يخرج من الملة قوله تعالى: ﴿وَلَنْ طَافَيْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩١) باب الوعظ والاقتصاد فيه

✽ ما زالت الكلمة الطيبة وسيلة من الوسائل الفاعلة في تقويم سلوك الناس، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم.

ورُبَّ كلمة سمعها مُذنب أو مُقصر.. فكانت سبباً في تغيير طريقه وتحويل اتجاهه.. فكان لها ثمرات يانعة.

ولهذا المعنى كان العالم امتداداً لمعنى النبوة في الخلق.... وبهذا المعنى كان العلماء ورثة الأنبياء، فهم قادة الأمة على طريق الحق، وبسلوكهم ومواعظهم تكون المعالم على الطريق^(١).

✽ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لولا ثلاثٌ لأحببت أن أكون قد لقيت الله: لولا أن أسير في سبيل الله ﷻ، ولولا أن أضع وجهي لله، ولولا أن أجالس قومًا يتتقون أطياب الحديث، كما يتتقون أطياب الثمر».

✽ وقال على رضي الله عنه:

«أحجموا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تملّ كما تملّ الأبدان».

✽ وقال أبو الدرداء رضي الله عنه:

«ما تصدق مؤمن بصدقة أحب إلى الله ﷻ من موعظة يعظ بها قومه، فيتفرقون، قد نفعهم الله ﷻ بها»^(٢).

والوعظ: هو ذكر الأحكام الشرعية مقرونة بالترغيب أو الترهيب.

(١) من مقدمة «موعظ الإمام الحسن البصري» للشيخ صالح أحمد الشامي.

(٢) من موعظ الأنبياء والصحابة والتابعين / د. محمود المصري (ص ٨-٩).

كَأَن تَقُولُ لِلْإِنْسَانِ مِثْلًا: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا فَاتَّقِ اللَّهَ، وَقُمْ بِمَا أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَأَعْظَمُ وَأَعْظَمُ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. فَأَعْظَمُ مَا يُوعِظُ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ، لِأَنَّهُ جَامِعٌ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَالْمُتَّقِينَ وَالْفَجَّارَ، فَهُوَ أَعْظَمُ كِتَابٍ يُوعِظُ بِهِ.

فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعِظَ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ، وَبِالسُّنَّةِ، وَبِكَلَامِ الْأُئِمَّةِ، وَبِكُلِّ مَا يُلِينُ الْقُلُوبَ وَيُوجِّهُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ يَنْبَغِي الْاِقْتِصَادُ فِي الْمَوْعِظَةِ، فَلَا تُكْثَرُ عَلَى النَّاسِ فَتَمْلَهُمْ، وَتُكْرَهُ إِلَيْهِمُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَكَلَامُ أَهْلِ الْعِلْمِ، لِأَنَّ النُّفُوسَ إِذَا مَلَّتْ كَلَّتْ، وَتَعَبَتْ، وَسُئِمَتْ، وَكَرِهَتْ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ حَقًّا.

وَلِهَذَا كَانَ أَحْكَمُ الْوَاعِظِينَ مِنَ الْخَلْقِ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتَخَوَّلُ النَّاسَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَلَا يُكْثِرُ عَلَيْهِمْ لئَلَّا يَمْلُوا وَيَسْأَمُوا وَيَكْرَهُوا مَا يُقَالُ مِنَ الْحَقِّ.

ثُمَّ صَدَّرَ الْمُؤَلَّفُ هَذَا الْبَابَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي إِلَى دِينِ اللَّهِ، لِأَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ هُوَ دِينُ اللَّهِ حَيْثُ إِنَّهُ يُوَصِّلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى... فَمَنْ سَلَكَ هَذَا الدِّينَ أَوْصَلَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِأَنَّ هَذَا الدِّينَ وَضَعَهُ اللَّهُ ﷻ وَشَرَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَلِهَذَا أُضِيفَ إِلَيْهِ فَقِيلَ: سَبِيلَ اللَّهِ.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

❁ أَى بَثَلَاةِ أُمُور:

أَوَّلًا: الْحُكْمَةُ: وَذَلِكَ بِأَنْ تُنْزَلَ الْأُمُورُ مَنَازِلَهَا، فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، وَالْكَلَامِ

المناسب، والقول المناسب، لأن بعض الأماكن لا تنبغي فيها الموعظة، وبعض الأزمنة لا تنبغي فيها الموعظة وكذلك بعض الأشخاص لا ينبغي أن تعظهم في حال من الأحوال بل تنتظر حتى يكون مُهيئاً لقبول الموعظة...

ولهذا قال: ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ قال العلماء: الحكمة وضع الأشياء في مواضعها.

ثانياً: الموعظة الحسنة: يعنى اجعل دعوتك مقرونة بموعظة حسنة، موعظة تلين القلب وترققه وتوجهه إلى الله، بشرط أن تكون حسنة.

إن كان الترغيب فيها أولى فبالترغيب، وإن كان التهيب والتخويف فيها أولى فبالتهيب والتخويف.

وكذلك تكون حسنة من حيث الأسلوب والصياغة، وكذلك تكون حسنة من حيث الإقناع، بحيث تأتى بموعظة تكون فيها أدلة مُقنعة؛ أدلة شرعية وأدلة عقلية تسند الشرعية... لأن بعض الناس يقنع بالأدلة الشرعية كالمؤمنين الخُلص، فإن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن الناس من لا يكتفى بالأدلة الشرعية، بل يحتاج أن تسند الأدلة الشرعية عنده بأدلة عقلية... ثم قال: ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [التحل: ١٢٥]. يعنى: إذا وعظت موعظة حسنة وصار الإنسان يجادل ولم يقبل فجادله، ولا تنسحب، لكن جادل بالتي هي أحسن من حيث الأسلوب، ومن حيث العرض، ومن حيث الإقناع^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠٤) عن أبى وإيل شقيق بن سلمة قال: كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه يُذَكِّرُنَا فِي كُلِّ خَمِيسٍ مَرَّةً، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ، فَقَالَ:

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٣٨٦-٣٨٧) بتصرف.

أما إنه يمنعني من ذلك أنى أكره أن أملككم وإننى أتخولكم بالموعظة، كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها مخافة السامة علينا^(١).

❁ ففى هذا الحديث يقول أبو وائل واسمه شقيق بن سلمة وكان من التابعين ومن تلامذة ابن مسعود رضي الله عنه.. قال: كان ابن مسعود يذكرنا فى كل خميس، يعنى: كل خميس يخرج عليهم ويكلمهم ويعظهم، ويذكرهم بالله سبحانه... وابن مسعود كان من كبار فقهاء أصحاب النبى صلوات الله وسلامه عليه، فكان معلماً للناس، يعلمهم الفقه.

فكان رضي الله عنه يتخولهم بالموعظة، يعنى: لا يأتى كل يوم يذكرهم وإنما كان يفعل ذلك مرة واحدة كل أسبوع وذلك فى يوم الخميس.

فكان هناك رجلٌ يتأثر كثيراً بموعظة ابن مسعود ويحب أن يسمعه كل يوم فقال له: يا أبا عبد الرحمن! لوددت أنك ذكرتنا كل يوم... يعنى: ليتك تقول لنا كلامك الطيب وحديثك الجميل هذا كل يوم.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أما إنه يمنعني من ذلك أنى أكره أن أملككم... ثم أخبره أنه يفعل ذلك اقتداءً بالنبى ﷺ لأنه كان يفعل ذلك.

فالنبى ﷺ ما كان يلقى المواعظ فى كل وقت.. مع أن النبى ﷺ لو تكلم مائة عام متواصلة فلن يمل أحدٌ أبداً بل سيجلسون متبهمين وكأن على رؤوسهم الطير.. ومع ذلك كان يتخولهم بالموعظة كل أسبوع حتى تقتدى به فلا نُكثِر على الناس بعد ذلك.

ولذا فإنه ينبغى على الداعية ألا يُكثر من مواعظه وظهوره أمام الناس سواء كان ذلك فى المساجد أو على شاشة التلفاز حتى لا يمل الناس منه فلا يتفعلون بوعظه.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٠) كتاب العلم، ومسلم (٢٨٢١) كتاب صفة القيامة.

«يَتَخَوَّلُنَا» يَتَعَهَّدُنَا.

وعليه أن يُنوع في مواعظه.. فلا يستعمل أسلوب الترغيب دائماً ولا التهيب دائماً.. بل ينتقل بين هذا وذاك.. وليعلم أن هناك مَنْ يُناسبه الترغيب وهناك مَنْ يُناسبه التهيب وهناك مَنْ يُناسبه الانتقال بين هذا وذلك.. فالداعية مثل الطبيب.. يُشخص المرض ويصف الدواء.. ويألتينا نُخلص النية لله عَزَّوَجَلَّ حتى يفتح الله لنا القلوب ويفتح بنا القلوب.. فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النّعم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠٥) وَعَنْ أَبِي الْيَقْظَانِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مِثْنَةٌ مِنْ فَقْهِهِ. فَأُطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ»^(١).

❁ وفي رواية: عن واصل بن حيان قال: قال أبو وائل: خطبنا عمار، فأوجز وأبلغ. فلما نزل قلنا: يا أبا اليقظان! لقد أبلغت وأوجزت. فلو كنت تنفّست!^(٢) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنْ طَوَّلَ صَلَاةَ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتَهُ، مِثْنَةٌ مِنْ فَقْهِهِ فَأُطِيلُوا الصَّلَاةَ وَأَقْصِرُوا الْخُطْبَةَ وَإِنْ مِنَ الْبَيَانِ سَحَرًا».

وفي رواية لأحمد: خطبنا عمار بن ياسر فتجوّز في خطبته، فقال له رجل من قريش: لقد قلت قولاً شفاءً، فلو أنك أطلت؟ فقال: إن رسول الله ﷺ نهى أن نطيل الخطبة^(٣).

❁ من المعلوم أن صلاة الجمعة لها خطبتان ثم تكون الصلاة بعدهما.. وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الخطيب إذا خطب خطبة قصيرة وصلى

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٦٩) كتاب الجمعة.

«مِثْنَةٌ» أى: علامة دالة على فقْهِهِ.

(٢) تنفّست: أى أطلت قليلاً.

(٣) رواه أحمد (٣٢٠ / ٤).

صلاة موافقة لصلاة الرسول ﷺ فتلك علامة على فقهه وفهمه.

فينبغي على الخطيب ألا يطيل في الخطبة لأن الكلام إذا كثُر يُنسى بعضه بعضاً .. وفوق ذلك يمل الناس منه ... أما إذا كان الكلام قليلاً فإن الناس تستوعب الكلام وتنتفع به.

✽ ونحن نعلم أن المسجد يكون فيه الطفل الصغير والشيخ الكبير والرجل المريض والمرأة العجوز ... فعلى الإمام أن يقتدى بأضعفهم وأن يراعى أحوالهم ... فيحرص على أن تكون الخطبة قصيرة مدعمة بالكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة وقصصهم .. وأن يؤديها بأسلوب شيق وممتع حتى يجذب أسماع الحاضرين .. وأن يخلص النية لله ﷻ حتى ينتفع الناس بموعظته فتكون سبباً في إقبالهم على الله.

وأما طول الصلاة فالمراد أن تكون كصلاة النبي ﷺ ليست طويلة، لأن النبي ﷺ أنكر على معاذٍ إطالته في صلاة العشاء، وأنكر على الرجل الآخر إطالته في صلاة الفجر، وقال: «أيها الناس إن منكم منفرين»^(١).

فالمراد بطول الصلاة هنا الطول الموافق لصلاة رسول الله ﷺ ... هذا إذا كان الإنسان إماماً، أما إذا صلى لنفسه فليطوّل ما شاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠٦) وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلُ أُمِّيَاءَ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكْتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي - مَا رَأَيْتُ مُعَلِّماً قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيماً مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٤) كتاب الأذان، ومسلم (٤٦٦) كتاب الصلاة.

شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي حَدِيثَ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رَجُلًا لَا يَأْتُونَ الْكُفَّانَ؟ قَالَ: «فَلَا تَأْتِيهِمْ» قُلْتُ: وَمِنَّا رَجُلٌ يَتَطَيَّرُونَ؟ قَالَ: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدَّنَّهُمْ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يحكى معاوية بن الحَكَم السُّلَمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَصَلِي خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... وَبَيْنَمَا هُمْ فِي الصَّلَاةِ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ.. فَمَا كَانَ مِنْ مُعَاوِيَةَ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ... وَذَلِكَ لِأَنَّكَ إِذَا سَمِعْتَ الْعَاطِسَ يُحَمِّدُ اللَّهَ بَعْدَ عَطَاسِهِ، وَجِبَ عَلَيْكَ أَنْ تُشْمِتَهُ؛ فَتَقُولَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، حَتَّى وَلَوْ كُنْتَ تَقْرَأُ أَوْ تَطَالَعُ أَوْ تَرَاجِعُ.

أَمَّا فِي الصَّلَاةِ فَلَا يَجُوزُ، لِأَنَّ الصَّلَاةَ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، وَلِهَذَا أَنْكَرَ النَّاسُ بِأَعْيُنِهِمْ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَرَمَوْهُ بِأَبْصَارِهِمْ.

يَعْنِي: أَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَشِيرُونَ إِلَيْهِ لَكِي يَسْكُتَ.

قَالَ مُعَاوِيَةَ: (فَقُلْتُ: وَاثْكُلْ أُمَيَّاهُ، وَاثْكُلْ أُمَيَّاهُ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ).

الْثَّكْلُ: الْفَاجِعَةُ، وَالْمَرْأَةُ الثَّكْلَى الَّتِي فَقَدَتْ ابْنَهَا، فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تُقَالُ عِنْدَ التَّوَجُّعِ لِلنَّفْسِ، فَهُوَ هُنَا تَكْلِمُ بِكَلَامٍ لَا يَنْبَغِي فِي الصَّلَاةِ قَالَ: (وَاثْكُلْ أُمَيَّاهُ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ)، فَلَاحِظْ أَنَّهُ مَا أَحَدٌ مِنْهُمْ رَدَّ عَلَيْهِ بِالْكَلَامِ.... فَهُمْ أَوَّلًا نَظَرُوا إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْكُتَ فَلَمْ يَسْكُتَ، فَضَرَبُوا عَلَى أَفْخَاذِهِمْ.

(فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ) يَعْنِي فَعَلُوا هَذَا لِيُسْكِتُوهُ وَهَذَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد.

«الثَّكْلُ» بضم الثاءِ الْمُثَلَّثَةُ: الْمُصِيبَةُ وَالْفَجِيعَةُ - «مَا كَهَرْنِي» أَيْ مَا نَهَرْنِي.

مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُشْرَعَ التَّسْبِيحُ لِمَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْفِعْلِ الْقَلِيلِ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَّهُ لَا تَبْطُلُ بِهِ الصَّلَاةُ وَأَنَّهُ لَا كَرَاهَةٌ فِيهِ إِذَا كَانَ لِحَاجَةٍ^(١).

قال: (فلما رأيتهم يُصمتونني لكني سكت) يعني: كأنه يقول: فلما رأيتهم يصمتونني، كنت سأرد عليهم، لكنني سكت... قال: (فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني عليه الصلاة والسلام).

فهو كان ينتظر من النبي ﷺ أن يضربه أو يشتمه، قال: (ما كهرني) يعني: لم ينهرني ولم يكلمني كلامًا غليظًا، (ولا ضربني، ولا شتمني)، وكأنه يرى في نفسه أنه يستحق ذلك، ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك.

وفي هذا بيان لما كان عليه رسول الله ﷺ مِنْ عَظِيمِ الْخُلُقِ الَّذِي شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ وَرَفَقَهُ بِالْجَاهِلِ وَرَأْفَتِهِ بِأُمَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ... وَفِيهِ التَّخَلُّقُ بِخُلُقِهِ ﷺ فِي الرَّفْقِ بِالْجَاهِلِ وَحُسْنِ تَعْلِيمِهِ وَاللُّطْفِ بِهِ وَتَقَرُّبِ الصَّوَابِ إِلَى فَهْمِهِ.

فقال النبي ﷺ: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»، هذه حكمة النبي ﷺ والموعظة الحسنة التي أمر بها، (قال: إنما هي التسبيح، والتكبير وقراءة القرآن).

إذًا: لا ينبغي للإنسان أن يكلم مَنْ بجواره بأي كلام في الصلاة، ولا حتى بأن يقول له: يرحمك الله... فإذا خاطب أحدًا بطلت صلاته بذلك.

لكن معاوية هنا لم تبطل صلاته لكونه جاهلًا بالحكم، والنبي ﷺ عَلِمَ جهله، فعذره ولم يأمره بإعادة الصلاة، ولو أمره بذلك لذكره الراوى.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ

كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ فِيهِ تَحْرِيمُ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ سِوَاءٍ كَانَ لِحَاجَةٍ أَوْ غَيْرِهَا وَسِوَاءٍ كَانَ لِمَصْلَحَةٍ الصَّلَاةِ أَوْ غَيْرِهَا فَإِنْ احتَاجَ إِلَى تَنْبِيهِ أَوْ إِذْنٍ لِدَاخِلٍ وَنَحْوِهِ سَبَّحَ إِنْ كَانَ رَجُلًا وَصَفَّقَتْ إِنْ كَانَتْ امْرَأَةً.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ النَّهْيُ عَنْ تَشْمِيتِ الْعَاطِسِ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَّهُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ الَّذِي يَحْرُمُ فِي الصَّلَاةِ وَتَفْسُدُ بِهِ إِذَا أَتَى بِهِ عَالِمًا عَامِدًا، وَأَمَّا الْعَاطِسُ فِي الصَّلَاةِ فَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ تَعَالَى سِرًّا^(١).

❁ وهذا الحديث يوضح لنا أننا لا بد أن نفرّق بين مَنْ يُخطئ متعمدًا وبين مَنْ يخطئ عن جهلٍ منه.

فالجاهل يحتاج إلى تعليم، وصاحب الشبهة يحتاج إلى بيان، والغافل يحتاج إلى تذكير، والمُصر يحتاج إلى وعظ... فلا يسوغ أن يُسوَّى بين العالم بالحكم والجاهل به في المعاملة والإنكار، بل إن الشدة على الجاهل كثيرًا ما تحمله على النفور ورفض الانقياد بخلاف ما لو علّمه أولاً بالحكمة واللين؛ لأن الجاهل عند نفسه لا يرى أنه مخطئ فلسان حاله يقول لمن ينكر عليه: أفلا علمتني قبل أن تهاجمني.

وقد يجانب المخطئ الصواب وهو لا يشعر، بل قد يظن نفسه مصيبًا فيُراعى لأجل ذلك^(٢).

❁ فلما رأى معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ لم ينهره ولم يشتمه على ما فعله شجّعه ذلك أن يكلم النبي ﷺ ويسأله عن بعض الأشياء التي يحتاج أن يعرف حكمها في الشرع. فقال له: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإنّ منّا رجالًا يأتون الكُهان؟ قال: «فلا تأتُهُمْ»، فهو قريب عهد

(١) مسلم بشرح النووي (٢٩/٥-٣٠) بتصرف.

(٢) رفقًا بالمخطئين (ص ٣٨-٣٩) / د. محمود المصري.

بجاهلية، ومن قومه مَنْ لا يزال كافراً ويأتى الكُهان ويسألهم قال: «فلا تأتَهُم» أى: أنت رجل مسلم فلا يجوز لك ذلك.

قال النبى ﷺ: «فلا تأتَهُم» كلمة واحدة: لا تأت الكُهان. وهل تظن أن معاوية أو غيره من الصحابة إذا قال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: لا تفعلوا. أن يفعلوا! لا ... لا نظن ذلك، فإنهم ليسوا كحال كثير من الناس اليوم يُكرّر عليه النهى ولكنه لا ينتهى، أو يتأول ويقول: النهى للكرهية، أو النهى للأدب أو لخلاف الأولى، أو ما أشبه ذلك.

❁ من الناس مَنْ يذهب إلى الكهنة والعرافين اعتقاداً منهم أن هؤلاء يعلمون الغيب والأشياء التى تحدث فى المستقبل وأنهم يملكون النفع والضّر لهذا الإنسان... وهذا اعتقاد خاطئ.

ولقد كانت الكهانة فى الجاهلية صنعة لأقوام تتصل بهم الشياطين وتسترق السمع من السماء وتحديثهم به، ثم يأخذون الكلمة التى نُقلت إليهم من السماء بواسطة هؤلاء الشياطين ويضيفون إليها ما يضيفون من القول، ثم يحدثون بها الناس فإذا وقع الشئ مطابقاً لما قالوا اغتر بهم الناس واتخذوهم مرجعاً فى الحكم بينهم، وفى استنتاج ما يكون فى المستقبل، ولهذا نقول: الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل.

❁ والذى يأتى إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يأتى إلى الكاهن فيسأله من غير أن يُصدقه، فهذا محرم، وعقوبة فاعله أن لا تُقبل له صلاة أربعين يوماً، كما ثبت فى «صحيح مسلم» أن النبى ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسأله عن شئٍ فَصدَّقَهُ، لَمْ تُقبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣٠) كتاب السلام - العراف: هو الكاهن الذى يدعى معرفة الغيب.

القسم الثاني: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ويصدق به... فهذا كفرٌ بالله ﷻ لأنه صدقه في دعوى علمه الغيب... وتصديق البشر في دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ولهذا جاء في الحديث الصحيح «من أتى عَرَّافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»^(١).

القسم الثالث: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ليُبين حاله للناس، وأنها كهانة وتمويه وتضليل... فهذا لا بأس به، ودليل ذلك أن النبي ﷺ أتاه ابن صياد، فأضمر له النبي ﷺ شيئاً في نفسه فسأله النبي ﷺ ماذا خبأ لك؟ فقال: الدُّخُّ... يريد الدخان، فقال النبي ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»^(٢).

ثم قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قلت: ومنا رجال يتطيرون)، يعنى: من قومه، سواء من المسلمين أو من غيرهم... فقال النبي ﷺ: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم»، فالإنسان حين يكون قريب عهدٍ بجاهلية فإن نزغات الشيطان لا تزال تُراوده، فيتطير ويتشاءم بسبب جهله بدين رب العالمين.

وكثير من الناس يقعون في التشاؤم من باب التقليد، فبعضهم يسمع أن الغرب يتشاءمون عند رؤية قطعة سوداء تمشي من أمامهم، فيتشاءم هو منها كنوع من التقليد.

ومنهم من يرى البعض يتخذون التمايم فيقلدهم في ذلك، مع أن هذا الفعل حرام وهو من الشرك بالله سبحانه وتعالى... وبعض الناس يضعون في أيديهم حظاًظة - وهي ما يُلبس في اليد لجلب الحظ - وهذا من الشرك بالله سبحانه وتعالى... فمن اعتقد أن شيئاً ينفعه أو يضره مع الله فقد وقع في الشرك بالله

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٥٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٩٣٠) كتاب الفتن.

سبحانه وتعالى.

والتطير: هو التشاؤم بالأشياء... وكان العرب يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، فإذا طار يمينًا فله حال، وإن طار يسارًا فله حال، وإن اتجه أمامًا فله حال، أو رجع فله حال. حسب اصطلاحات العرب وخرافاتهم.

فكانوا يتطيرون؛ فيجعلون الطيور هي التي تُمضيهم أو تردهم.. إذا كان الطير مثلاً عن اليسار قال: هذا نذير سوء فلا أسافر.. وإذا طار يمينًا قال: هذا سفرٌ مبارك حيث اليمين من اليمين والبركة، وهكذا اصطلاحات عندهم.

فكانوا يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور، وربما تشاءموا من الأيام، وربما تشاءموا من الشهور، وربما تشاءموا فيما يصنعون من الأصوات، وربما تشاءموا حتى من الأشخاص، حتى إنه يوجد الآن أناسٌ إذا خرج أحدهم من بيته ثم لاقاه شخص قبيح المنظر قال: هذا اليوم يوم سوء وتشاءم، وإذا لقي رجلاً جميل الوجه قال: هذا اليوم خير.. فتفاءل.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «هذا شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدّنهم».

والإنسان إذا ركن إلى التطير تنغصت عليه حاله، وربما يصنع الجن ما يكره ليبقى دائماً في غمٍّ وهم... ولكن لا تتشاءم.

وكان العرب يتشاءمون من شهر شوال في النكاح، يقولون: الذي يتزوج في شهر شوال لا يُوفق في زواجه؛ هكذا كانوا يقولون، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: تزوجني النبي ﷺ في شوال... عقد عليها في شوال، ودخل بها في شوال. فتقول: أيكم أحظى إليه مني؟

فالمهم أنه يجب عليك أن تمحو من قلبك التطير والتشاؤم، وكن دائماً متفائلاً، واجعل الدنيا أمامك واسعة، واجعل الطريق أمامك دائماً مفتوحاً.

فإن الرسول (عليه الصلاة والسلام) كان يكره الطيرة ويُعجبه الفأل الحسن.
 فاجعل نفسك دائماً في تفاؤل .. والذي يريده الله سيكون، لكن كن مسروراً
 فَرِحًا .. فالدُّنيا أمامك واسعة، والطريق مفتوح .. فكن دائماً في تفاؤل، وكنْ
 دائماً واسع الصدر، فهذا هو الخير.

أما التشاؤم والانقباض، وأن يجعل الإنسان باله في كل شيء، فإن الدُّنيا
 ستضيق عليه.
 فمن محاسن الإسلام أنه ألغى الطيرة وأثبت الفأل، لأن الفأل خير والطيرة
 شرٌّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠٧) وَعَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً
 وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ. وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ... وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ^(١)، وَقَدْ سَبَقَ بِكَمَالِهِ
 فِي بَابِ الْأَمْرِ بِالمُحَافَظَةِ عَلَى السُّنَّةِ.

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم
 (١٦١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع
 (٢٥٤٩).

(٩٢) باب الوقار والسكينة

❁ الوقار: هو هيئة يتصف بها العبد فيكون وقورًا، بحيث إذا رآه مَنْ رآه يحترمه ويُعظمه ... والسكينة: هي عدم الحركة الكثيرة وعدم الطيش، بل يكون ساكنًا في قلبه، وفي جوارحه، وفي مقاله.

ولا شك أن هذين الوصفين: الوقار والسكينة من خير الخصال التي يُمُنُّ الله بها على العبد؛ لأن ضد ذلك أن يكون الإنسان لا شخصية له، ولا هيئة له وليس وقورًا ذا هيئة، بل هو مهينٌ، قد وضع نفسه وأهانها.

وكذلك السكينة ضدها أن يكون الإنسان كثير الحركات، كثير التلُّفت، لا يُرى عليه أثر السكينة في قلبه ولا قوله ولا فعله فإذا مَنْ الله على العبد بذلك، فإنه ينال بذلك خُلُقَيْنِ كريمين.

وضد ذلك أيضًا العجلة؛ أن يكون الإنسان عجولًا لا يتحرى ولا يتأنى، ليس له همٌّ إلا القيل والقال اللذان نهى عنهما رسول الله ﷺ ... فقد كان ينهى عن القيل والقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال ... فإذا كان الإنسان ليس مُتَأَنِيًا ولا مُتَثَبِّيًا في الأمور، حصل منه زَلَلٌ كثير، وأصبح الناس لا يثقون في قوله، وصار عند الناس من القوم الذين يُرد حديثهم ولا يُتَفَعَّلُ به^(١).

❁ كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ بَاكِيًا مَحْزُونًا حَكِيمًا حَلِيمًا سَكِينًا ... وَلَا يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ جَافِيًا وَلَا غَافِلًا وَلَا صَخَّابًا وَلَا صَيَّاحًا وَلَا حَدِيدًا^(٢).

❁ عن الحسن رضي الله عنه قال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٩٢-٣٩٣) بتصرف.

(٢) الفوائد (١٤٧).

ذلك في تَخَشُّيه، وَهَدْيِهِ، وَلِسَانِهِ، وَبَصَرِهِ، وَبِرِّهِ^(١).

❁ قال رجل يصف الإمام مالكا رحمه الله تعالى:

يَدْعُ الْجَوَابَ وَلَا يُرَاجِعُ هَيْئَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاسِثَ الْأَذْقَانِ

نُورُ الْوَقَارِ وَعِزُّ السُّلْطَانِ التَّقَى فَهُوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانٍ^(٢)

❁ قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: الفرق بين السكينة والوقار: أن السكينة هي

التأني في الحركات واجتناب العبث، والوقار في الهيئة كغض البصر وخفض الصوت وعدم الالتفات^(٣).

❁ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: إن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار،

بأن يوقر غيره، ويتوقر هو في نفسه^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم

وكافرهم، بَرُّهُمْ وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربيون مُدَبَّرُونَ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

وعبودية لألوهيته، وعبادته ورحمته، وهي: عبودية أنبيائه، وأوليائه، وهي

المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى

هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونُعُوتهم أفضل

النُعُوت، فوصفهم بأنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: ساكنين متواضعين لله،

(١) الشُّعْب (٨/٤٢٧).

(٢) شرح حديث «ذبيان جائعان» (ص ٧٨).

(٣) فتح الباري (٢/١٣٩).

(٤) الفتح (١٠/٥٣٨) بتصرف.

وللخلق.. فهذا وصفٌ لهم، بالوقار، والسكينة، والتواضع لله، ولعباده. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أى: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أى: خاطبوهم خطابًا يَسْلَمُونَ فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدحٌ لهم بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزاة العقل الذى أوصلهم إلى هذه الحال^(١).

وذلك لأن الجاهل أمره مُشْكَل؛ إن خاصمته أو جادلته فربما يبدر منه كلامٌ سيئٌ عليك، وربما يبدر منه كلامٌ سيئٌ على ما تدعو إليه من الخير، فيُسَبِّ الدين وما أشبه ذلك والعياذ بالله. فمن توفيق عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، يعنى قالوا قولًا يَسْلَمُونَ به ولا يحصل لهم به إثم... وكذلك من أوصافهم ما ذكره فى آخر الآيات. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]. يعنى لا يشهدون القول الكذب، ولا الفعل القبيح.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أى: الذى ليس فيه خير ولا شر ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أى سالمين منه.

وذلك أن الأشياء: إما خير، وإما شر، وإما لغو... فالشر لا يشهدونه، واللغو يَسْلَمُونَ منه، ويمرون به كرامًا، والخير يرتعون فيه.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾

(٧٠٨) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى تُرَى مِنْهُ لَهَوَاتُهُ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ^(٢).

﴿وفي هذا الحديث تحكى أَمْنَا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها ما رأت رسول الله ﷺ﴾

(١) تفسير السعدى (ص ٦٨٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٢٨) كتاب تفسير القرآن، (٦٠٩٢) كتاب الأدب - ومسلم (٨٩٩)

كتاب صلاة الاستسقاء.

«اللَّهَوَاتُ» جَمْعٌ لَهَاوَةٍ: وهى اللَّحْمَةُ التى فى أَفْصَى سَفْفِ النَّفْسِ.

مُستجمعًا قط ضاحكًا تبدو منه لهواته ... أى أنه ﷺ لا يضحك ضحكًا بصوتٍ عالٍ وقهقهة بحيث تبدو منه لهواته وإنما كان يتبسم أو يضحك حتى تبدو نواجذه أو تبدو أنيابه.. وهذا كله من وقار النبي ﷺ.

❁ اللهوات: جمع لهاة، وهى اللحمة الواقعة آخر سقف الحنك، والنازلة من آخر الحلق المُدلاة على القصبة الهوائية.

فهناك أناس طبيعتهم الضحك بصوتٍ عالٍ وقهقهة، يفتح أحدهم فمه إلى آخره! وهذا لم يكن يفعله النبي ﷺ أبدًا... بل كان دائمًا بسَّام المُحيًا كان يتبسم عليه الصلاة والسلام، وكان لا يُرى عبوسًا أمام الناس ﷺ، وإنما كان يتبسم لأصحابه وهم يضحكون، فكانوا يجلسون إلى شروق الشمس يذكرون الله عزَّ وجلَّ فيما بين طلوعها وبين أن يُصلوا الضحى، ولعل بعضهم يتكلم مع الآخر، ويتحدثون عن الجاهلية وما كانوا يفعلونه، فيحكون أنهم كانوا يصنعون التماثيل من العجوة ويعبدونها، فإذا جاع أحدهم أكلها، فيحكون أمثال ذلك ويضحكون على أنفسهم، أما هو ﷺ فكان يتبسم ولم يكن يضحك ويقهقه.

فمن الأدب أن المؤمن يتبسم عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، ولا يُكثر من العبوس ... وأيضًا: لا يُكثر من الضحك، كما قال النبي ﷺ فى الحديث: «وإياك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب»، فكثرة الضحك تُبعد خشية الله عزَّ وجلَّ من قلب الإنسان، فيموت قلبه من كثرة الضحك.

❁ فالمؤمن لا بد أن يكون وسطًا بين الإفراط والتفريط.. لا يعبس فيكون ثقيلًا على الناس.. ولا يُقهقه ليلاً ونهارًا فيصبح ضيغًا عند الناس لا قيمة له.. بل على المؤمن أن يكون مبتسمًا دائمًا وذلك من باب الدعوة وتأليف القلوب والقرب من الناس «تَبَسُّمُكَ فى وجه أخيك صدقة».. وتكون بسمته ممزوجة بالوقار لينال حب الناس واحترامهم فى آنٍ واحد... وينوى بهذا أنه يقتدى بالنبي محمد ﷺ ليفوز بالأجر والثواب.

(٩٣) باب النذب إلى إتيان الصلاة والعلم

ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار

✽ إن الصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين وهي أم العبادات وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن... فهي التي أمر الله بها وهي الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهي ملجأ المؤمن في الكربات وهي التي يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسموات وهي أمانة المُعذِّبين والأموات وهي العاصمة من الشهوات والناحية عن المنكرات وهي الحادى للنعيم المقيم في الجنات.

✽ لقد بلغت الصلاة مَبْلَغًا عَظِيمًا وَقَدْرًا عَالِيًا فِي قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى كَانَتْ أَغْلَى مِنْ نَسِيمِ الْهَوَاءِ الَّذِي يَتَنَفَسُهُ الْإِنْسَانُ.

وَحَسْبُنَا أَنْ نَتَأَمَّلَ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وَحَسْبُنَا أَنَّهَا الْعِبَادَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي مَنْحَهَا اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ بِلَا وَاسِطَةٍ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ لَعُلَّوْا قَدْرَهَا وَمَكَانَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا)... فَهِيَ الْفَرِيضَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي فُرِضَتْ فِي السَّمَاءِ.

وَالْإِنْسَانُ إِذَا أَقْبَلَ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا يُقْبَلُ إِلَى الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ. وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَى إِلَى شَخْصٍ مِنْ بَنَى آدَمَ يُعْظِمُهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي إِلَيْهِ بِأَدَبٍ وَسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، فَكَيْفَ إِذَا أَتَى لِيَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ. وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَأْتِيَ إِلَى الصَّلَاةِ فِي سَكِينَةٍ.

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).



﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٣٢) ﴾

[الحج: ٣٢]. فالصلاة شعيرة من شعائر الله ... والحج شعيرة من شعائر الله.. فالذى يُعْظِمُ شعائر الله فيرى أنها عظيمة في قلبه سيقوم بما ينبغى لها من التعظيم بجوارحه.. وهذا كله من تقوى القلوب وعلامة على صحة نيته... وكلما ازداد تعظيم شعائر الله في قلبك فإن ذلك يكون علامة على التقوى في قلبك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٠٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأَتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»^(١).

وزاد مسلم في رواية له: «فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ».

﴿ فالكلام هنا عن صفة تكون فيمن يأتي الصلاة، وفيمن يذهب لطلب العلم، وإلا فالصلاة فريضة لا بد وأن يصليها المسلم.. لكن المندوب أن يأتيها وعليه السكينة والوقار؛ لأنه مُقبل على الله سبحانه، فقد أخرجه الله من بيته وأنعم عليه بأن هداه إلى أداء الصلاة دون باقى الناس الذين يجلسون في الطرقات.. فليتفكر في هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه دون غيره، وكيف أن الله كتب له وهو ذاهب إلى المسجد بكل خطوة حسنة والأخرى تكفر سيئة، وهذه نعمة من نعم الله ﷻ.

أيضاً: إذا دخل في الصلاة تتساقط بعض الذنوب، فإذا ركع تساقطت بعض الذنوب، فإذا سجد تساقطت بعض الذنوب كذلك حتى يخرج من الصلاة ولا ذنب عليه.

أما إذا خرج من بيته ضاحكاً لاهياً فلن يتفكر في هذه النعم، وإذا دخل في

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٠٨) كتاب الجمعة، ومسلم (٦٠٢) كتاب المساجد.

الصلاة سيكون مشغولاً بالدنيا... فيدخل في الصلاة ويخرج منها من غير أن يخشع فيها.

وفرق بين مَنْ يدخل في الصلاة وهو يخاف من الله سبحانه وتعالى، وهو يُؤمل أن يخرج منها نظيفاً من الذنوب طاهراً من العيوب ليس عليه دَنَسٌ من بقايا الذنوب، فهذا إنسان له فضل عند الله سبحانه.. فالله يتفضل عليه ويعطيه.. وبين إنسانٍ آخر يأتي وعقله مشغول فإذا دخل في الصلاة سرح فيها ولم يخشع. فعلى المسلم أن يستعد للصلاة من البيت فيتوضأ فيحسن الوضوء؛ لأنه إذا أسبغ الوضوء تُمحى عنه الذنوب، فإذا غسل وجهه ويديه ورجليه تساقطت الذنوب مع الماء الذي ينزل من أعضائه.

وفي الحديث: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر»، فإذا دخل الإنسان في هذه الصلاة بهذه الصورة ثم خرج منها فلينِوْ ألا يعود إلى الذنوب... قال تعالى: ﴿لَا تَكُ الْفُكْلَةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾

[العنكبوت: ٤٥].

فهذه الصلاة بهذه الكيفية تنهاه عن التفكير في الذنوب والمعاصي، وتدفعه إلى طاعة الله، وإلى أن يحب بيت الله، فيكون من السبعة الذين يُظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

فإذا أتى الإنسان إلى الصلاة أو ذهب ليطلب العلم في المسجد فليمشِ وعليه السكينة والوقار، حياءً من الملائكة التي تحفه بأجنحتها وتتواضع وتستغفر له، وسوف تحفه إذا جلس في حلقة العلم.

قال تعالى عن الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]، يا ربنا هؤلاء جاءوا إلى بيتك فاغفر لهم.

فالذى يخرج لطلب العلم الشرعى ينبغى عليه أن يكون متواضعاً مُقبلاً على الله سبحانه وتعالى ... وليتذكر حديث النبى ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة»، فلعله فى هذا الطريق يجد فيها مَنْ يزاحمه ويتعرض له، لكنه لا يأبه لذلك؛ لأن الله سيسهل له به طريقاً إلى الجنة.

فطريق الدنيا مُمتلئ بالصعوبات والعقبات... والذى يطلب العلم لا بد أن يصبر ويستسهل طريقه فيه؛ لأنه دين رب العالمين... فالله سيُقبل عليه ويُذلّل له العقبات التى فى طريق الجنة، ففى يوم القيامة سيسهل له المرور على الصراط فيمر إلى الجنة، وكما أنه سهل له فى الدنيا طريق العلم فسوف يسهل له فى الآخرة طريق الجنة... والمحروم من حرمة الله سبحانه وتعالى.

فعلى مَنْ يخرج إلى المسجد للصلاة أو طلب العلم أن يتفكر فى هذه الأمور كلها، حتى يمشى بسكينة ووقار... فهذا الحديث يُعلمنا كيف نصلى، وكيف نأتى إلى بيت الله سبحانه، فلا تنشغل حتى تفوتك الصلاة ثم تذهب وتجرى إلى المسجد، وإنما استعد قبل ذلك، ولا تأت الصلاة جرياً.

قال ﷺ: «إذا أُقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون»، يعنى إذا سمعتم إقامة الصلاة من خارج المسجد فاحرصوا على أن تأتوا إلى الصلاة وأنتم تمشون مشياً عادياً ولا تأتوها وأنتم تسعون وتسرعون؛ لأن هذا ليس من توقير واحترام الصلاة.. وكذلك فإنه يُؤثّر فى خشوع المسلم فى صلاته.

❁ إلا أن بعض أهل العلم قالوا: إذا خشى المسلم فوات الركعة - أى: الركوع - فلا بأس أن يُسرع قليلاً دون أن يُحدث إزعاجاً لمن يصلى فإن هذا لا يجوز.

وقوله: «فما أدركتم من الصلاة مع الإمام فصلُّوا» أى: ما تدركونه مع الإمام صلُّوه... وقوله: «وما فاتكم فأتوا» أى: وما فاتكم من الصلاة فافعلوها ولكم

أجر نيتكم في المعجىء إلى بيت الله سبحانه.

وزاد مسلم في رواية: «فإن أحدكم إذا كان يعمد إلى الصلاة فهو في صلاة»، وهذا فضل عظيم من الله علينا... فمن حين يخرج الإنسان من البيت فهو في صلاة... هذا إذا اجتنب الحدث وكان على وضوء^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧١٠) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ فَسَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَرَأَاهُ زَجْرًا شَدِيدًا وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلإِبْلِ، فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ وَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالِإِضَاعِ»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث يخبر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة.. أى أن النبي ﷺ خرج يوم عرفة من عرفة متوجهاً إلى المزدلفة.. فهذا هو الدفع. فسمع النبي ﷺ وراءه زجراً شديداً وضرباً وصوتاً للإبل... فقد كان الناس يضربون الإبل ويحثونها على الإسراع والجرى من أجل أن يذهبوا إلى المزدلفة... وذلك لأنهم كانوا فى الجاهلية إذا دفعوا من عرفة أسرعوا إسراعاً عظيماً يبادرون النهار قبل أن يُقبل الليل.. فكانوا يضربون الإبل ضرباً شديداً.. فأشار إليهم النبي ﷺ بسوطه - وهى عصاه التى يُوجَّه بها الناقة - وقال لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالِإِضَاعِ».. لأنه كان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم عندما يمشون يُحدثون ضجة كبيرة لكى تجرى الإبل فمنعهم النبي ﷺ من ذلك وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ» أى: الزموا السكينة «فإن البر ليس بالإيضاع»، والبر أن تبر فى عملك.. والحج المبرور ليس بالإيضاع،

(١) شرح رياض الصالحين/ الشيخ أحمد حطية - بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٦٧١) كتاب الحج، ومسلم (١٢٨٢) كتاب الحج.

«البر»: الطاعة - «والإيضاع»، وهُو: الإسراع.

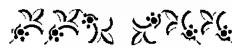
أى: الجرى... فالبر ليس بالجرى، كأن تجرى للصلاة أو تجرى متوجّهاً من عرفة إلى مزدلفة، إنما البر أن تتقى الله سبحانه وتعالى، ولا تُراحم الناس.

❁ وفي رواية عن أسامة بن زيد رضي الله عنه في حجة النبي ﷺ أنه قال: إن النبي ﷺ خرج من المزدلفة متوجّهاً إلى منى، فسأله كيف كان يسير؟ قال: كان يسير العَنَق (أى: معنقاً، يعنى: على مهله ﷺ)، (فإذا وجد فجوة نصّ) أى: فإذا لقي مكاناً خالياً نصّ أى أسرع (صلوات الله وسلامه عليه) فيه، فكان يسير العَنَق مع الزحمة، وإذا لم تكن هناك زحمة أسرع (صلوات الله وسلامه عليه).

فالغرض أن الإنسان إذا مشى في طريقه متوجّهاً إلى بيت الله للصلاة، أو متوجّهاً إلى طلب العلم، أو متوجّهاً إلى حاجة من حوائجه يسير كما يسير عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً... حتى لو أسرعوا في مشيهم بسبب حاجة من حوائجهم فإسراعهم فيه الهدوء والسكينة.

ففى هذا: دليل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يُسرّع إذا تقدم إلى أماكن العبادة، لأن الذين يدفعون من عرفة يتجهون إلى مزدلفة، إلى عبادة.

فإذا أتيت إلى مجالس العلم والخير، فكن ساكناً وقوراً مهيباً، حتى لا يُستهان بك أمام الناس... ويكون تعظيمك لهذه المجالس من تعظيم الله ﷻ.



(٩٤) باب إكرام الضيف

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿٢٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٥﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَرَادَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَأَعْلَمَ بِعِجْلِ سَمِينٍ ﴿٢٧﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٧].

[illegible]

فقد ورث يوسف الكرم عن أبيه يعقوب وعن جده إسحاق وعن جده إبراهيم... ذرية بعضها من بعض.

ولقد كان خليل الرحمن لا يأكل إلا ومعه ضيف، فإن لم يجد ظلَّ يبحث عنه حتى يجده.

وقد امتدح الله خليله إبراهيم عليه السلام، فقال سبحانه لحبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿فَرَأَى إِلَى آهِلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٥) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿[الذاريات: ٢٤-٢٧]

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٨٦).

﴿هَلْ أُنَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾؟ الاستفهام للتشويق ولتفخيم شأن تلك القصة كما يقول القائل: هل بلغك الخبر الفلانى؟ يريد تشويقه إلى استماعه... والمعنى هل وصل إلى سمعك يا محمد خبر ضيوف إبراهيم المعظمين؟ قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام^(١)، سُمُوا مُكْرَمِينَ لكرامتهم عند الله ﷻ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أى حين دخلوا على إبراهيم فقالوا: نُسَلِّمُ عليك سلامًا ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أى قال: سلامٌ عليكم أنتم قومٌ غرباء لا نعرفكم فمن أنتم؟ قال ابن كثير: وإنما أنكرهم لأنهم قَدِمُوا عليه فى صورة شبانٍ حسانٍ عليهم مهابة عظيمة ولهذا أنكرهم^(٢)... وقال أبو حيان: والذى يناسب حال إبراهيم ﷺ أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأُنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك فى نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلماؤه، بحيث لا يسمع ذلك الأضياف^(٣) ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أى فمضى إلى أهله فى سرعة وخفية عن ضيفه، لأن من أدب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يُثقل عليه فى التأخير قال ابن قتيبة: عدل إليهم فى خفية ولا يكون الرواغ إلا أن تخفى ذهابك ومجيئك^(٤) ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أى فجاءهم بعجل سمين مشوى، والعجل ولد البقرة وكان عامة ماله البقر... واختاره لهم سمينًا زيادة فى إكرامهم ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أى فأدناه منهم ووضع بين أيديهم فلم يأكلوا فقال لهم فى تَلَطُّفٍ وبشاشة: ألا تأكلون هذا الطعام... قال ابن كثير: وفى الآية تَلَطُّفٌ فى العبارة وعرضٌ حسن... وقد انتظمت الآية آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من

(١) تفسير القرطبي (١٧/٤٤).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٣/٣٨٥).

(٣) البحر المحيط (٨/١٣٩).

(٤) تفسر ابن الجوزى (٨/٣٦).

حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتنّ عليهم أولاً فقال نأتىكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال: ألا تأكلون؟ على سبيل العرض والتلطف... كما يقول القائل: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل ^(١) ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أى: فأضمر في نفسه الخوف منهم لما رأى إعراضهم عن الطعام ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ أى قالوا له: لا تخف إنا رسل ربك ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أى وبشروه بولد يولد له من زوجته سارة يكون عالماً عند بلوغه.

قال أبو حيان: وفيه تبشيرٌ بحياته حتى يكون من العلماء ^(٢)، والجمهور على أن المُبَشِّرَ به هو إسحاق... لقوله تعالى في سورة هود ﴿وَرَأَى إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] ^(٣).

ثم قام إبراهيم عليه السلام بخدمتهم بنفسه... وقد كان رسولنا محمد ﷺ يخدم الضيف بنفسه، وكذلك كان أصحابه وأتباعه عليه السلام.

ولما قَدِمَ وفد النجاشي عليه ﷺ، لم يُمَكَّنْ أحداً أن يخدمهم غيره، وقال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أريد أن أكافئهم على ذلك».

وكان السلف يعدون ليلة الضيف كأنها عيد، لما يحصل لهم من السرور.

وكذلك ينبغي للمضيف أن يتولى صَبَّ الماء لغسل يديه بعد الطعام.

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يحض على إكرام الضيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ١٣٩).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٧١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

❁ «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»، وهذا من باب الْحَثِّ والإغراء على إكرام الضيف ... يعنى أن إكرام الضيف من علامة الإيمان بالله واليوم الآخر ومن تمام الإيمان بالله واليوم الآخر.

وذلك أن الذى يكرم ضيفه يُثَبِّه الله تعالى يوم القيامة وربما أثابه فى الدنيا ويوم القيامة... كما قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] فَيُثَبِّه الله فى الدنيا بالخلف وفى الآخرة بالثواب ولهذا قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ».

وإكرام الضيف يختلف بحسب أحوال الضيف ... فمن الناس مَنْ هو من أشرف القوم ووجهاء القوم فيكرم بما يليق به ومن الناس مَنْ هو من بُسْطاء القوم فيكرم بما يليق به ومنهم مَنْ هو دون ذلك.

فالمهم أن النبى (عليه الصلاة والسلام) أطلق الإكرام فيشمل كل الإكرام فمن الناس مَنْ إذا نزل بك ضيفاً لا يُرضيه أن تأتى له بطعام عليه دجاجتان وما أشبه ذلك .. بل يحتاج إلى أن تأتى بطعام عليه ذبيحة ويكون من إكرامه أيضاً أن تدعو جيرانك وما أشبه ذلك .. ومن الناس مَنْ هو دون ذلك.

المهم أن النبى ﷺ لم يُقَيِّد الإكرام بشيء بل أطلق فيكون راجعاً إلى ما يَعُدُّه الناس إكراماً^(٢).

❁ ووضع النبى ﷺ أن جائزة الضيف هى إكرامه يوماً وليلاً وأما ضيافته

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٦٧) كتاب البيوع، ومسلم (٢٥٥٧) كتاب البر والصلة.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٠١-٤٠٢).

ثلاثة أيامٍ بلياليها ... فإن استضافته أكثر من ذلك فهي صدقة.

بِمَا يَكُونُ رِزْقًا لِّغَيْرِهِ

(٧١٢) وعن أبي شريح خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ» قَالُوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَوْمُهُ وَلَيْلَتُهُ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةً عَلَيْهِ»^(١).

وفي رواية لمسلم: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قَالَ: «يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَقْرِبُهُ بِهِ»..
فكانت الجائزة للضيف أن تتكلف له يوماً واحداً وليلة، خاصة إذا كان غريباً آتياً من مكانٍ بعيد ونزل عندك ضيفاً... وإذا كان في مكانٍ ليس فيه فنادق، وليس فيه محلات للأطعمة، فإما أن تطعمه وإما أن يبيت في الشارع.
فدليل إيمانك بالله واليوم الآخر أن تكرم هذا الضيف الذي نزل بك.
والواجب الذي عليك في هذه الحالة هو إكرامه يوماً وليلة، والمُستحب ثلاثة أيام ولياليهن، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه.

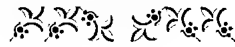
وكان ذلك إشارة للضيف ألا تثقل، فهل تريد أن تكون مثل السائل الذي يسأل فيتصدق عليك في هذه الأيام؟ فإذا نزلت على إنسان فإنه يكفيك يوم وليلة، وإذا زاد ذلك فثلاثة أيام ولياليهن، وما زاد على ذلك فمعناه أنك تستجدي منه، فتطلب منه أن يعطيك صدقة فوق الثلاثة الأيام، فلا تُخرج الذي نزلت عنده.

❁ ولكن هناك أدبٌ عظيم علّمه النبي ﷺ لأُمته: ألا وهو أنه لا يحِلُّ لمسلمٍ أن يُطيل المُقام عند أخيه إذا كان فقيراً ولا يملك شيئاً يُضيفه به.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠١٩) كتاب الأدب، ومسلم (٤٨) كتاب الإيمان.



فإذا وجد الضيف أن صاحب البيت رقيق الحال، أو لا يستطيع أن يقوم بواجب الضيافة كما ينبغي، فإنه لا يطيل المُكث عنده بحيث يجعله يشعر بالحرَج، أو الضيق، أو يدفعه إلى اغتيال الضيف، أو الشعور بالإثم، أو الاستدانة، ونحو ذلك ... كما قال ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَ أَخِيهِ حَتَّى يُؤْثِمَهُ» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يُؤْثِمُهُ؟ قَالَ: «يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلَا شَيْءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ»^(١). أي: لا شيء عنده يُضيفه به.



(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨) كتاب اللقطة.



(٩٥) باب استجاب التبشير والتهنئة بالخير

❁ ما أجمل أن نحمل البشريات الجميلة لمن حولنا من أجل أن ندخل السعادة على قلوبهم فنكون من أحب عباد الله إلى الله (جلّ وعلا).

فقد قال رسول الله ﷺ: « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ إِذَا بَشَّرَ بِشَرٍّ أَوْ بَشَّرَ بِخَيْرٍ تَدَخَّلَهُ عَلَى مُسْلِمٍ... »^(١).

والبشارة تكون في الأمور التي تسر ... وسميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بُشِّرَ بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بشرته ... وقد تكون البشارة فيما يسوء مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

والبشارة فيما يسر تكون فيما يسر في الآخرة، وفيما يسر في الدنيا. أما البشارة فيما يسر في الآخرة فكثيرة، ذكرها الله في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥] وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا نِسَاءٌ مُّحَنَّنَاتٌ لَّهُمْ فِيهَا خَالِدِينَ﴾ [البقرة: ٢٥] وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥] وقوله: ﴿وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

هذا كله فيما يتعلق بأمر الآخرة.

ومن الأمور التي تبشر بالخير في أمور الآخرة: الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له ... مثل أن يرى إنساناً رؤيا فيقال له في المنام مثلاً: بشّر فلاناً بأنه من أهل الجنة فيبشّره ... فهذه بشرى.

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

كذلك أيضًا .. فالإنسان إذا رأى من نفسه أنه ينقاد للخير والعمل الصالح ويرغب فيه ويحبه وأنه يكره الشر فهذه أيضا بشرى لأن الله تعالى قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَىٰ ۖ وَصَدَقَ بِالْحَقِّ ۖ ۝٦ فَنَسِيْرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۖ﴾ [الليل: ٥-٧]

✽ وأما البشارة فيما يتعلق بأمر الدنيا فمثل قوله تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] ، يعني إسماعيل عليه السلام ... ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَالِمٍ﴾ [الحجر: ٥٣] ، يعني إسحاق عليه السلام . وكذلك قال الله تعالى عن امرأة إبراهيم: ﴿وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] فهذه أيضًا بشارة للأئمة .
فالحاصل أن البشارة تكون في أمور الآخرة وفي أمور الدنيا .
وينبغي للإنسان أن يكون مُتفائلاً مُستبشراً بالخير، وألا يرى الدنيا أمامه كالحلة مُظلمة فيستحسر ويقنط .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

(٧١٣) عن أبي إبراهيم، ويقال: أبو محمد، ويقال: أبو معاوية عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها بَبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبٍ ^(١) .

✽ فهذه بُشْرَى عظيمة لأُمنّا خديجة رضي الله عنها حملها جبريل عليه السلام للنبي ﷺ ليخبره بأن الله ﷻ قد أعدَّ لها بيتًا في الجنة من قصب .. أي: من اللؤلؤ المجوف ليس فيه صَخَب ولا ضوضاء بل هو بيت في قمة الهدوء كما كانت توفر الهدوء للنبي ﷺ في بيته ... وذلك البيت ليس فيه نَصَب ولا تعب كما كانت تحرص دائماً على راحة النبي ﷺ ومسح التعب عنه في الدنيا .

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨١٩)، (٣٨٢٠) كتاب مناقب الأنصار، ومسلم (٢٤٣٣) كتاب فضائل الصحابة .

القصب هنا: اللؤلؤ المجوف - الصَّخَب: الصياح واللغط - والنَّصَب: التعب .



❁ فخديجة رضي الله عنها هي أول مَنْ آمَنَت بالله - من النساء - ... وأول مَنْ صَلَّت مع رسول الله ﷺ ... وأول مَنْ رُزِقَ منها الأولاد... وأول مَنْ بَشَّرَها بالجنة من أزواجه... وأول مَنْ أقرأها ربها السلام... وأول صِدِّيقَةٍ من المؤمنين وأول زوجات النبي ﷺ وفاة... وأول قبر نزل فيه النبي الكريم ﷺ بمكة... آمَنَت به حين كفر به الناس وصدقته حين كَذَّبَه الناس وواسته بمالها حين بخل الناس ورزقه الله منها الولد^(١).

❁ وأم المؤمنين خديجة هي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ ... تزوجها وهو ﷺ ابن خمس وعشرين سنة، ولها أربعون سنة من زوج سابق قبله، وولدت له بناته الأربع وأولاده الاثنان، ولم يتزوج عليها أحدًا حتى ماتت ﷺ ... وكانت امرأة عاقلة ذكية خكيمة، لها مآثر طيبة معروفة يجدها مَنْ يراجع ترجمتها في كتب التاريخ ... وكانت تُسَمَّى عائشة رضي الله عنها يعنى أنها هي وعائشة أفضل نساء الرسول (عليه الصلاة والسلام) وأحب نسائه إليه.

واختلف العلماء أيهما أفضل؛ فقيل: عائشة، وقيل: خديجة، والصحيح أن لكل واحدة منهما مزية تختص بها، لا تشاركها فيها الأخرى.

فلعائشة رضي الله عنها في آخر الرسالة، وبعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام، من نشر الرسالة والعلم والشريعة ما ليس لخديجة.

وخديجة لها في أول الرسالة ومُنَاصَرَةُ النبي ﷺ ومُعَاضَدَتُهُ ما ليس لعائشة، فلكل واحدة منهما مزية.

أما الفضيلة الكبرى فكفى لهما فخراً أنهما أحب نساء النبي ﷺ إليه، ويكفى هذا، وأما الفضائل فكل واحدة لها فضيلة^(٢).

(١) أمهات المؤمنين / د. محمود المصري (ص ١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٠٨).

❁ وقد كان النبي ﷺ يحرص دائماً على أن يحمل البشرى لأزواجه وأصحابه .. بل ولأُمته ﷺ .

❁ فيها هو الحبيب ﷺ يحمل البشرى لعشرة من الصحابة (رضي الله عنهم) ليبشرهم بالجنة.

قال ﷺ: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»^(١).

❁ وها هو يبشر أربعة من الصحابة بأن الجنة تشتاق إليهم.

قال ﷺ: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان»^(٢).

وفي رواية: «اشتأقت الجنة إلى ثلاثة: علي وعمار وبلال»^(٣).

فبمجموع الروايتين نجد أن الجنة اشتأقت إلى أربعة: علي وعمار وبلال وسلمان (رضي الله عنهم).

❁ وها هو ﷺ يبشر أم سعد بن معاذ (رضي الله عنه) بأن ابنها سعد قد اهتز عرش الرحمن لموته.

❁ عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: لما توفي سعد بن معاذ صاحت أمه فقال النبي ﷺ: «ألا يرقا دمعك ويذهب حزنك بأن ابنك أول من ضحك الله له واهتز له العرش؟»^(٤).

❁ وها هو يبشر عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضي الله عنهم) بالشهادة.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء هو وأبو بكر

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والضياء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠).

(٢) حسن: رواه الترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٥٩٨).

(٣) رواه الترمذي والحاكم (٣/ ١٣٧)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الطبراني والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ : «اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد»^(١).

❁ وها هو يبشر ابن مسعود رضي الله عنه بأن ساقيه أثقل في الميزان يوم القيامة من جبل أحد.

فعن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ : «مِمَّ تضحكون؟» قالوا: يا نبى الله من دقة ساقيه، فقال: «والذى نفسى بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»^(٢) - أى من جبل أحد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧١٤) وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أنه توضأ في بيته، ثم خرج فقال : لألزمَنَّ رسول الله ﷺ، ولأكونَنَّ معه يومى هذا، فجاء المسجد، فسأل عن النبىِّ ﷺ فقالوا: وجّه ههنا، قال: فخرجتُ على أثره أسأل عنه، حتى دخل بئر أريس فجلستُ عند الباب حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ، فقمْتُ إليه، فإذا هو قد جلس على بئر أريس، وتوسَّط قفَّها، وكشفَ عن ساقيه ودلَّاهما في البئر، فسَلَّمْتُ عليه ثم انصرفتُ، فجلستُ عند الباب فقلت: لأكونَنَّ بواب رسول الله ﷺ اليوم.

فجاء أبو بكر رضي الله عنه فدفع الباب فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثم ذهبتُ فقلت: يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «أئذَنْ له وبشره بالجنة» فأقبلتُ حتى قلت لأبى بكر: ادخل ورسول الله ﷺ يُشرك بالجنة، فدخل أبو بكر حتى جلس عن يمين النبىِّ ﷺ معه في القف، ودلَّى رجله في البئر كما صنع

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤١٧) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٢٠ - ٤٢١)، والطبرانى في الكبير (٩/ ٧٥) وهو صحيح بمجموع طرقه.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقِيهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ وَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخَى يَتَوَضَّأُ وَيُلْحِقُنِي، فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِفُلَانٍ - يُرِيدُ أَخَاهُ - خَيْرًا يَأْتِ بِهِ.

فَإِذَا إِنْسَانٌ يَحْرُكُ الْبَابَ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ يَسْتَأْذِنُ؟ فَقَالَ: «أُذِّنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» فَجِئْتُ عُمَرَ، فَقُلْتُ: أَذِنَ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْقَفِّ عَنْ يَسَارِهِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِي الْبُئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدِ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا - يَعْنِي أَخَاهُ - يَأْتِ بِهِ.

فَجَاءَ إِنْسَانٌ فَحَرَكَ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ، وَجِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «أُذِّنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُهُ» فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُكَ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقَفَّ قَدْ مِلَى، فَجَلَسَ وَجَاهَهُمْ مِنَ الشَّقِّ الْآخَرِ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَأَوَلَّتْهَا قُبُورُهُمْ^(١).

وَزَادَ فِي رِوَايَةٍ: وَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ الْبَابِ، وَفِيهَا: أَنَّ عُثْمَانَ حِينَ بَشَّرَهُ حَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

❁ فَمِنْ بَيْنِ أَحَادِيثِ الْبَشَارَةِ حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ يَطْلُبُ النَّبِيَّ ﷺ يَرِيدُ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِخِدْمَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَفِي هَذَا: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْبَغِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ أَنْ يَكُونَ مَتَوَضَّئًا لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِلصَّلَاةِ وَهُوَ خَارِجُ الْبَيْتِ، فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ الصَّلَاةِ وَهُوَ فِي مَكَانٍ لَا يَوْجَدُ فِيهِ مَاءٌ كَانَ عَلَى طَهَارَةٍ وَصَلَّى .. وَإِذَا حَضَرَتْ جَنَازَةٌ صَلَّى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٧٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤٠٣) كتاب فضائل الصحابة.

قوله: «وَجَّة» أي: توجَّه. «وَالْقَفُّ» هو المبنى حَوْلَ الْبُئْرِ. قوله: «عَلَى رِسْلِكَ» أي: ارفق.

عليها وهو خارج البيت، أو على الأقل يكون على طهر، لأن كون الإنسان على طهر أفضل من أن يكون على غير طهر، وربما أيضًا يحصل له الموت في هذا الوقت فيكون على طهر، فالإنسان يحرص ما استطاع أن يكون على طهر لاسيما إذا خرج من بيته.

فالشاهد أن أبا موسى رضي الله عنه لما خرج من بيته قال: لألزمَنَّ رسول الله ﷺ ولا أكونن معه يومى هذا... فذهب إلى المسجد وسأل عن النبى ﷺ فلم يجده.. فقد كان النبى ﷺ إما أن يكون فى المسجد أو فى بيته فى مهنة أهله يُساعدهم ويُعلمهم... وإما فى مصالح أصحابه رضي الله عنهم.. فلما لم يجد النبى ﷺ فى المسجد وأشاروا إليه أنه ﷺ قد توجه نحو بئر أريس - وهى بئر حول قباء - فذهب أبو موسى فى أثره ﷺ حتى وصل إلى البئر فوجد النبى ﷺ هناك فجلس عند الباب حتى قضى النبى ﷺ حاجته وتوضأ ثم جلس على قفّ البئر - يعنى على حافته - ودلّى رجله وكشف عن ساقه... وكأنه كان فى يومٍ حار فأراد النبى ﷺ أن يتبرد بجلوسه على حافة البئر.. فهذا البئر فيه ماء.. والماء قريب وحوله الأشجار والنخيل والظلال.. ومن المعلوم أن الإنسان إذا جلس على حافة البئر ودلّى رجله فإنه يأتيه من برودة الماء الذى فى البئر فيرتاح لذلك.

المهم أنه بعد أن جلس النبى ﷺ على حافة البئر دخل أبو موسى بعد أن استأذن فسلم عليه ثم انصرف ليترك النبى ﷺ فى خلوته ولا يزعجه.. بل وفوق ذلك فقد قرر أن يكون بواب رسول الله ﷺ وأن يقف على باب البئر حتى لا يأتى إليه أحدٌ فيقطع عليه خلوته ويزعجه.

وقد تكون تلك المهمة ضئيلة إذا كانت لأى إنسان.. لكنها عظيمة جدًا إذا كان الإنسان سيكون بوابًا لرسول الله ﷺ.

✽ ظل النبى ﷺ جالسًا مُستمعًا على حافة البئر.. فقد كانت بمثابة فترة راحة قصيرة من أعباء الدعوة وهموم الحياة.

وظل أبو موسى واقفاً على الباب.. وفجأة جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان لا يحب أن يغيب عنه النبي ﷺ.. جاء أبو بكر وطرق على الباب واستأذن.. فقال أبو موسى: مَنْ؟ .. فقال: أبو بكر.

فطلب منه أبو موسى أن ينتظر حتى يستأذن رسول الله ﷺ. فقال للنبي ﷺ: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «اُذْنُ لَهُ وَبُشْرُهُ بِالْجَنَّةِ»، فأذن له وقال له: يمشرك رسول الله ﷺ بالجنة.. فالله عَزَّ وَجَلَّ أوحى إلى النبي ﷺ بذلك. ويا لها من بشارة... يبشره بالجنة ثم يأذن له أن يدخل ليكون مع الرسول ﷺ.

فدخل ووجد النبي ﷺ متوسطاً القفِّ فجلس عن يمينه؛ لأن النبي ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَامُنُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، فجلس أبو بكر على يمينه، وصنع مثل ما صنع النبي ﷺ... دَلَّى رِجْلِيهِ فِي الْبُئْرِ، وكشف عن ساقيه كراهة أن يخالف النبي ﷺ في هذه الجلسة، وإلا فليس من المشروع أن يجلس الإنسان على بئرٍ ويُدَلِّي رِجْلِيهِ وَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِيهِ، لكنه لا يحب أن يجلس مع النبي ﷺ على غير الهيئة التي كان النبي ﷺ يجلس عليها.

✽ وكان أبو موسى قد ترك أخاه في البيت يتوضأ فقال في نفسه: إن يُرَدَّ الله بأخي خيراً يأت به لعلَّ النبي ﷺ يبشره بالجنة... وتأمل معي كيف كان الأخ يحب الخير لأخيه في ذلك الزمان.

✽ ظل أبو موسى ينتظر لعلَّ أخاه يأتي ويُبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ لكنه لم يأت... وفجأة طرق الباب للمرة الثانية فقال أبو موسى: مَنْ بِالْبَابِ؟ .. فقال عمر رضي الله عنه: عمر ابن الخطاب.

فطلب منه أبو موسى أن ينتظر حتى يستأذن رسول الله ﷺ، فلما أخبر النبي ﷺ أن عمر يستأذن فقال له ﷺ: «اُذْنُ لَهُ وَبُشْرُهُ بِالْجَنَّةِ».. فذهب إليه أبو موسى

وقال له: ادخل وبيشرك النبي ﷺ بالجنة.

فدخل عمر فوجد النبي ﷺ ومعه أبو بكر وقد جلسا على حافة البئر فجلس عن يسار الرسول ﷺ.. والبئر ضيقة لكن المكان الضيق يَسَعُ كل المتحابين.. والمكان الفسيح لا يَسَعُ المتباغضين.

فجلس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن يسار النبي ﷺ.. ودلَّى رجله في البئر.. وكان الثلاثة في جانبٍ واحد.

قال أبو موسى: ثم رجعت فجلست، فقلت: إن يُرد الله بفلانٍ خيرًا - يعنى: أخاه - يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت: مَنْ هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فطلب منه أبو موسى أن ينتظر حتى يستأذن رسول الله ﷺ. فذهب أبو موسى وأخبر النبي ﷺ أن عثمان يستأذن فقال له ﷺ: «اُذْنُ لَهُ وَبَشْرُهُ بِالْجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصِيبُهُ».

فأذن له وقال: ييشرك الرسول ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك، فاجتمع في حقه نعمة وبلوى، فدخل فوجد القف قد امتلأ، لأنه ليس واسعًا كثيرًا، فذهب إلى الناحية الأخرى تجاههم وجلس فيها، ودلَّى رجله، وكشف عن ساقه.

أولها سعيد بن المسيب - أحد كبار التابعين - على أنها قبور هؤلاء؛ لأن قبور الثلاثة كانت في مكانٍ واحد، فالنبي ﷺ وأبو بكر وعمر كلهم كانوا في حجرة واحدة.. دُفِنُوا جميعًا في مكانٍ واحد، وكانوا في الدنيا يذهبون جميعًا ويرجعون جميعًا، ودائمًا يقول النبي ﷺ: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر»، «وجئت أنا وأبو بكر وعمر»، فهما صاحباها ووزيراها، ويوم القيامة يخرجون من قبورهم جميعًا.

فجلس عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تجاههم، وبشره ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه. وهذه البلوى هي ما حصل له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اختلاف الناس عليه وخروجهم عليه، وقتلهم إياه في بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث دخلوا عليه في بيته في المدينة وقتلوه وهو

يقرأ القرآن، وكتاب الله بين يديه.

ويذكر بعض المؤرخين أن قطرة من الدم نزلت على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. والله أعلم.

لكن على كل حال .. هو ﷺ كان معروفاً بكثرة القراءة والتهجد، فدخل عليه أولئك المعتدون الظالمون فقتلوه... فقتل شهيداً.

وبذلك تحقق قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما صعد على جبل أحد - وهو جبل معروف كبير في المدينة - هو وأبو بكر وعمر وعثمان، وارتج بهم الجبل، وهذا من آيات الله... ليس هو ارتجاج نقمة وخسف، لكنه ارتجاج فرح.. فلما ارتج بهم الجبل قال له النبي ﷺ: «اثبت أحد، فإنما عليك نبأ وصدِّيق وشهيدان»... فالنبي هو عليه الصلاة والسلام، والصدِّيق أبو بكر، والشهيدان: عمر، وعثمان.

وكلاهما ﷺ قُتل شهيداً... أما عمر فقتل وهو مُتقدم لصلاة الفجر بالمسلمين... قُتل في المحراب، وأما عثمان فقتل وهو يتهجّد في بيته في صلاة الليل (فرضي الله عنهما)، وألحقنا وصالح المسلمين بهما في دار النعيم المقيم. فهذه القصة فيها بشارة لأبي بكر وعمر وعثمان، ولذلك ذكرها المصنف رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذا الباب... فرضى الله عنهم جميعاً، وجعلنا والمسلمين ممن يُحشرون في زمرة محمد ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧١٥) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَرَعْنَا فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَرَعَ.

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٤٠٩-٤١٠) بتصرف.

فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ أَبًا، فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رِبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جُوفِ حَائِطٍ مِنْ بئرِ خَارِجِهِ - وَالرَّبِيعُ: الْجَدُولُ الصَّغِيرُ - فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فقال: «أَبُو هُرَيْرَةَ؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟» قُلْتُ: كُنْتُ بَيْنَ أَظْهَرِنَا فَقُمْتُ فَأَبْطَأَتْ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزَعْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزَعَ فَأَتَيْتُ هَذَا الْحَائِطَ، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلُبُ، وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي. فقال: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، فَقَالَ: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَقِيمًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٢٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧١٦) وَعَنْ ابْنِ شِمَاسَةَ قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ فَبَكَى طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا؟ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نَعُدُّ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ قَدْ اسْتَمَكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مِتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلَأُبَايِعَكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ فَقَبَضْتُ يَدِي، فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ:

(١) صحيح: رواه مسلم (٣١) كتاب الإيمان.

«الرَّبِيعُ» النَّهْرُ الصَّغِيرُ، وَهُوَ الْجَدُولُ يَفْتَحُ الْجِيمَ كَمَا فَسَّرَهُ فِي الْحَدِيثِ. وَقَوْلُهُ: «احْتَفَزْتُ» رَوَى بِالرَّاءِ وَبِالزَّي، وَمَعْنَاهُ بِالزَّي: تَضَامَنْتُ وَتَصَاغَرْتُ حَتَّى أُمَكَّنْتِي الدُّخُولَ.

«تَشْتَرِطُ ماذا؟» قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟».

وما كان أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

ثُمَّ وَلَّيْنَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرَى مَا حَالِي فِيهَا؟ فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبَنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ، فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي، فَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدَرًا مَا تُنَحَرُ جَزُورٌ، وَيُقَسَّمُ لَحْمُهَا، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَنْظُرُ مَا أَرَا جُعُ بِهِ رُسُلُ رَبِّي ^(١).

❦ ففي هذا الحديث ذكر ابن شماسه أنهم حضروا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياقة الموت. ومن المعلوم أن عمرو بن العاص كان من الأذكياء ومن الفطناء في الجاهلية.

ولولا ذكاؤه ما أرسله الكفار إلى النجاشي ليأتي بالمسلمين المهاجرين هنالك... وقد كاد للمسلمين كيلاً حتى إن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة الذي كان معه خشى عليهم، وقال: إن بيننا وبينهم أرحاماً... فأراد عمرو بن العاص أن يوقع بين النجاشي وبين المسلمين، وكاد أن يفعل، لولا أن الله سبحانه وتعالى منع حصول ذلك بعدل النجاشي.

حين رفض أن يقرر أي شيء حتى يستمع إلى المسلمين... فلما دعاهم واستمع إلى كلام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه رفض أن يُسلم المسلمين لعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة.

ثم رجع عمرو بن العاص، وبعد سنين من الله ﷻ عليه فأسلم.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

قوله: «سُنُّوا» أي: صبُّوه قليلاً قليلاً. والله سبحانه أعلم.

وبعدما أسلم شهد له النبي ﷺ ولأخيه بالإيمان فقال: «عمرو بن العاص وأخوه مؤمنان»، وبعد موت النبي ﷺ تولى إمارات، وكان أميراً ﷺ، ثم بعد ذلك جاءته الوفاة، فلما حضرته الوفاة بكى طويلاً، وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه! أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟

فهنا يُستحب إذا كان الإنسان في سياقة الموت أن يبشره من حوله، حتى يقدم على ربه وهو يحسن الظن به سبحانه وتعالى.

فبعد الله بن عمرو بن العاص كان يُبشر أباه بقوله: أليس النبي ﷺ بشرك بكذا، وبشرك بكذا.

فما كان منه إلا أن أقبل بوجهه فقال له: إن أفضل ما نُعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

أى: أفضل شيء أعددناه لهذا اليوم كلمة التوحيد، والشهادة لله ﷻ بأنه الإله وحده.

ثم قال: إني قد كنت على أطباقٍ ثلاث ... يذكر عن نفسه أن أحواله كانت ثلاثة أحوال ...

ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝١٩﴾ [الانشقاق: ١٩].. يعنى: حالاً بعد حالٍ ... ثم بدأ يذكر هذه الأطباق الثلاث فقال ﷺ: لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى - يعنى: فى الجاهلية -، ولا شيء أحب إالىَّ من أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ... فانظر إليه فى الجاهلية! كان يتمنى أن يقتل النبي ﷺ ... قال: فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار... وهذا من لطف الله ﷻ به.. لأنه حال بينه وبين أن يفعل ذلك.

ثم ألقى الله الإسلام فى قلبه بعد ذلك فذهب إلى النبي ﷺ ليُسَلِّم فلما رأى النبي ﷺ قال له: يا رسول الله ابسط يدك فلا بايعك.. وكان النبي ﷺ أحسن



الناس خُلُقًا.. ففي لحظة واحدة نسي عداوته له أكثر من عشرين سنة..

فبسط النبي ﷺ يده لعمر بن العاص ﷺ.. ولكن عمرو قبض يده فتعجب النبي ﷺ وقال له: «مالك؟» قال: يا رسول الله، إنني أشرت - يعني على الإسلام - قال: «ماذا تشرت؟» قال: أشرت أن يغفر لي.

هذا أكبر همه ﷺ، يشترط أن الله يغفر له... ظن أن الله لن يغفر له لما كان له من سابقة في محاربة الدين. فقال له النبي ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله» ثلاثة أشياء. أما الإسلام فإنه يهدم ما كان قبله بنص الكتاب العزيز.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]... والهجرة: إذا هاجر الإنسان من بلده التي كان يعيش فيها وهي بلد كفر، هدمت ما قبلها. والحج يهدم ما قبله لقول النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

ففرح عمرو بذلك فرحاً شديداً وباع النبي ﷺ وأسلم بين يديه. وألقى الله ﷻ حُب النبي ﷺ في قلب عمرو بن العاص ﷺ حتى أنه قال: وما كان أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ولا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وما كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنِي مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ، ولو سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لأنِّي لم أكن أَمْلَأُ عَيْنِي مِنْهُ... ولو مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

فتأمل كيف كان حُب النبي ﷺ في قلبه وإجلاله له.. حتى أنه لم يكن يستطيع النظر في وجه النبي ﷺ حياءً منه... حتى أنه لا يستطيع أن يصف النبي ﷺ الذي كان في صحبته لمدة سنوات!!..

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٥٢١) كتاب الحج، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج.

فيقول عمرو رضي الله عنه: ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة.

سبحان مُقلب القلوب! بالأمس كان يُبغضه بُغْضًا شديدًا، حتى أنه كان يتمنى أن يقدر عليه فيقتله، والآن ما يستطيع أن يرفع طرفه إليه إجلالاً له، ولا يستطيع أن يصفه لأنه لا يحيط به، حيث إنه لم يدركه إدراكًا جيدًا مهابة له ﷺ.

يقول ﷺ: إنه لو مات على الطبق الأول لكان من أهل النار.

يقول: ولو مُتُّ على تلك الحال - يعنى الطبق الثانى - لرجوت أن أكون من أهل الجنة. انظر الاحتياط فقد جزم أنه لو مات على الحال الأولى لكان من أهل النار، أما الحال الثانية فإنه لشدة خوفه قال: لو مت على هذه الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ولم يقل: لكنت من أهل الجنة.

لأن الشهادة بالجنة أمرها صعب، نسأل الله أن يجعلنى وإياكم من أهلها.

ثم إنه بعد ذلك تولى أمورًا ﷺ، تولى إمارات وقيادات، وحصل ما حصل في قصة حرب معاوية وغيره... وكان عمرو بن العاص معروفًا أنه من أدهى العرب وأذكى العرب، فيقول: أخشى من هذا الذى حدث بعد الطبق الأوسط أن يكون أحاط بعمله... ثم أوصى ﷺ أنه إذا مات فلا تتبعه نائحة - والنائحة: هى المرأة التى تنوح على الميت وتبكى عليه بكاءً يشبه نوح الحمام -، وأمر ﷺ إذا دفنوه أن يبقوا عند قبره قدر ما تُنحر جُزور - ناقة - ويُقسم لحمها، حتى يرجع رسل ربه وهم الملائكة الذين يأتون إلى الميت إذا دُفن.

إذا دفن الميت فإنه يأتيه ملكان يُجلسانه في قبره ويسألانه ثلاثة أسئلة، يقولان: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ نبيك؟ أما المؤمن الذى ثبته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة - جعلنا الله منهم بمنه وكرمه - فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبى محمد ﷺ، يثبت الله في هذا المقام الضنك.

وأما المنافق - والعياذ بالله - أو المرتاب الذي عنده الشك فيقول: هاها لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. لأن الإيمان ما دخل إلى قلبه ولا وقر في قلبه.

فأمر عمرو بن العاص رضي الله عنه أهله أن يقيموا عليه قدر ما تنحر الجُزور ويُقسم لحمها ليستأنس بهم... وهذا يدل على أن الميت يحس بأهله...

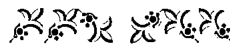
وقد ثبت عن النبي (عليه الصلاة والسلام) أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا من دفنه... قرع النعال الخفى يسمعه الميت إذا انصرفوا من دفنه.

وقد ثبت عن النبي (عليه الصلاة والسلام) أنه كان إذا دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل»^(١)، فيُستحب إذا دُفن الميت أن يقف الإنسان على قبره ويقول: اللهم ثبته، اللهم ثبته، اللهم ثبته، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له.

لأن النبي ﷺ كان إذا سلّم سلّم ثلاثاً، وإذا دعا دعا ثلاثاً.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

المهم أن ابن عمرو بن العاص قال له: بشرك النبي بالجنة، وهذا من باب البشارة بالخير والتهنئة به^(٢).



(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤١٤-٤١٥) بتصرف.

(٩٦) باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه

لسفر وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه

❁ قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَا بَكٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿[البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وأما الأحاديث: فمنها حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه الذي سبق في باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِينَا خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَوَعِظَ وَذَكَرَ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَىٰ وَالنُّورُ، فَخُذُوا بكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحُثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

بَابُ وَدَاعِ الصَّاحِبِ عِنْدَ الْفِرَاقِ

❁ إِنْ مِنَ السُّنَّةِ تَوْدِيعُ الْمَسَافِرِ، وَالدَّعَاءُ لَهُ، وَطَلَبُ الدَّعَاءِ مِنْهُ؛ لِأَنَّ السَّفَرَ مِنْ مَوَاطِنِ قَبُولِ الدَّعَاءِ، كَمَا أَنَّ الْمَسَافِرَ مُحْتَاجٌ لِلْوَصِيَّةِ وَالدَّعَاءِ مِنْ غَيْرِهِ، وَالسَّفَرُ قَدْ يَكُونُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَعَثَ جَيْشًا أَوْ سَرِيَّةً وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا قَالَ لَهُ: «أَوْصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا»^(١).

وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَسَاعِدُهُ وَيُعِينُهُ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ لَا سِيَّمَا عِنْدَ السَّفَرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّفَرَ مِزْجَانُ الْإِنْشَاغَالِ وَالتَّقْصِيرِ فِي الطَّاعَاتِ وَلِذَلِكَ يَحْتَاجُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

المسافر إلى مَنْ يُذكره ويثبتته دائماً على الطاعة.

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الواردة في ذلك فذكر قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وهذه الوصية هو قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]. ولم يتردد فأسلم لله وانقاد له.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ يعنى: وصى بهذه الوصية، وهى أن يُسلموا لله عز وجل ظاهراً وباطناً... فالإسلام الظاهر يكون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، والإسلام الباطن يكون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ يعنى أن إبراهيم ويعقوب كلا منهما وصى بها بنيه قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ أى اختاره لكم ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى اثبتوا على الإسلام حتى يدرككم الموت وأنتم متمسكون به ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أى بل أكنتم شهداء حين احتضر يعقوب وأشرف على الموت وأوصى بنيه باتباع ملة إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾؟ أى أى شىء تعبدونه بعدى؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى لا نعبد إلا إلهًا واحدًا هو الله رب العالمين إله آبائك وأجدادك السابقين ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى نحن له وحده مطيعون خاضعون... والغرض تحقيق البراءة من الشرك...

قال تعالى مُشِيرًا إِلَى تلك الذرية الطيبة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ والإشارة إلى إبراهيم وبنيه أى تلك جماعة وجيل قد سلف ومضى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أى لها ثواب ما كسبت ولكم ثواب ما كسبتم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى لا تُسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون فى الدنيا بل كل نفسٍ تتحمل

وحدها تبعة ما اكتسبت من سوء^(١).

❁ وهكذا.. فهذه الوصية ينبغي لكل مسلم أن يوصى بها نفسه وأن يوصى بها أهله وبنيه وغيرهم بأن يُديموا عبادتهم لله سبحانه وأن تأتيهم الوفاة وهم متمسكون بهذا الدين.

وإذا أردت أن تأتيك الوفاة وأنت على هذا الدين فتمسك به من الآن؛ لأنك لا تدري متى تأتيك الوفاة... فالمسلم مُستحضر أنه ربما يموت الآن أو بعد قليل، فيكون متمسكاً بالدين لا يتركه أبداً إلى الموت.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ فَيُضِلَّكُمْ وَتَكُونُوا شَاغِرًا﴾

❁ ومن الأحاديث ما رواه زيد بن أرقم قال: (قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكّر)، وكانت خطب النبي ﷺ كلها مواعظ، فقد كان يعظ المؤمنين ويذكرهم بالله سبحانه وتعالى ويعلمهم.

ثم قال: «أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب»، وهذا فيه التذكير بالموت... وقد قال له ربه سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال له سبحانه وتعالى وللمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

فأخبرهم النبي ﷺ أنه سيموت كما أن كل من على الأرض سيموت لأنه لن يبقى إلا الحي الذي لا يموت سبحانه وتعالى.

ثم أخبرهم النبي ﷺ أنه قد ترك فيهم ثقلين: كتاب الله الذي فيه الهدى والنور.. فأوصاهم بكتاب الله ﷻ... وكتاب الله ﷻ فيه الأمر بطاعة الرسول ﷺ والعمل بسنته... ثم أوصاهم بأهل بيته ﷺ أي: لا تظلموهم ولا تبخسوهم

(١) صفوة التفاسير (١/ ٨٥-٨٦).

حقوقهم ... فلعلَّ الناس يجاملونه في حياته ﷺ، فإذا توفى نسي الناس أهل بيته وأزواجه ﷺ، فيذكرهم بأن يتقوا الله فيهم.

فعرَّف الصحابة قدرهم وعرفوا قدر نساء النبي ﷺ، فكانوا يذهبون إلى نساء النبي ﷺ ويتعلمون منهن ما كان من سُنَّة النبي ﷺ في بيته وغير ذلك من أحكام هذه الشريعة.

فالنبي ﷺ وصى بالقرآن يعنى: بشرع الله الذى هو: كتاب وسُنَّة، ووصى الناس بأهل بيته^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧١٧) وعن أبى سُلَيْمَانَ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ شَبَابٌ مَتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا. فَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا، فَأَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ وَتُرَّوهُمْ، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينَ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فليُؤْذَنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»^(٢).

زاد البخارى فى رواية له: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي».

❦ ففى هذا الحديث يحكى مالك بن الحويرث أنهم كانوا مجموعة من الشباب المتقاربين فى السن فذهبوا إلى النبي ﷺ ليروه وليتعلموا بين يديه وليسعدوا بالقرب منه ﷺ... فأقاموا عنده عشرين ليلة ... وانظر إلى رحمة النبي ﷺ ورفقه .. فعلى الرغم من كثرة انشغالاته بشئون الدعوة والجهاد وتعليم أصحابه ومراعاة أزواجه ظلوا عنده عشرين ليلة يهتم بهم ويعلمهم

(١) من أراد المزيد فليرجع إلى شرح الحديث رقم (٣٥٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨) كتاب الأذان، ومسلم (٦٧٤) كتاب المساجد.

قوله: «رَحِيمًا رَفِيقًا» روى بقاء وقاف، وروى بقافين.

ويرفق بهم.. وكان النبي ﷺ رحيماً ورفيقاً بهم.. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فلما طال مقامهم عند النبي ﷺ أشفق عليهم وظنَّ أنهم يُريدون الرجوع إلى أهليهم، ولكنهم يشعرون بالحرَج منه ﷺ.. فلم يتركهم حتى يقولوا: نريد أن نرجع ولكن رحمة منه ﷺ بادرهم وسألهم عمَّن تركوا وراءهم. فأخبروه بمن تركوه.. وكأنه ﷺ يُذكرهم بالرجوع إلى أهليهم حتى لا ينسوهم في غمار فرحتهم بالقرب من النبي ﷺ.

فقال لهم: «ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم».

أى: يكفى ما تعلمتموه مني في تلك الأيام الخالية فاذهبوا راشدين إلى أهليكم وعلموهم ما تعلمتموه مني ومروهم بالمعروف ليكون ذلك في موازين حسناتكم «ولأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم».

❁ ثم قال لهم ﷺ: «وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا»، وكأنه ﷺ ظن أنهم غير مُتقنين لمواقيت الصلاة فأخذ يُذكرهم بالمواقيت مرة أخرى حتى يُحافظوا على الصلوات في مواقيتها.. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

❁ ثم قال لهم ﷺ: «فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤْذَنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ».

فإن قيل: لماذا يؤمهم أكبرهم والمعروف أنه يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله؟ لماذا لم يقل: يؤمكم أعلمكم بكتاب الله وبسنة النبي ﷺ؟

الجواب: لا يصح هذا في هذه الحالة؛ لأنهم مكثوا عشرين يوماً مع النبي ﷺ ولو حفظوا سيحفظ جميعهم مثل بعض، ولم يحاول أن يحفظ أحدهم أكثر من

الثاني، فلم يبقَ تفاضل بينهم إلا بالسن، فطالما أنهم كلهم ذهبوا إلى النبي ﷺ في وقتٍ واحدٍ وأخذوا العلم وحفظوا من القرآن خلال عشرين ليلة مثل بعض فلم يبقَ إلا «وليؤمكم أكبركم»، وهذا لا يعارض ما جاء في أحاديث أخرى عنه ﷺ أنه قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإذا كانوا فيها سواء فأقدمهم هجرة»^(١).

فيُقدّم الأحفظ لكتاب الله ثم الأعلم والأفقه بدين رب العالمين ثم الأقدم هجرة والأكبر سنًا، لكن إذا لم يوجد إلا خيارٌ واحد بأن يكونوا متساويين في القرآن والسنة والهجرة لم يبقَ إلا بالسن، قال: «وصلُّوا مثلما رأيتموني أصلي»، والغرض هنا بيان وصية النبي ﷺ.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْأَذَانِ وَالْجَمَاعَةِ وَتَقْدِيمِ الْأَكْبَرِ فِي الْإِمَامَةِ إِذَا اسْتَوَوْا فِي بَاقِي الْخِصَالِ... وَهَؤُلَاءِ كَانُوا مُسْتَوِينَ فِي بَاقِي الْخِصَالِ؛ لِأَنَّهُمْ هَاجَرُوا جَمِيعًا، وَأَسْلَمُوا جَمِيعًا، وَصَحَّبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلَا زَمُّهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً فَاسْتَوَوْا فِي الْأَخْذِ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ مَا يُقَدَّمُ بِهِ إِلَّا السَّنُ. وَاسْتَدَلَّ جَمَاعَةٌ بِهَذَا عَلَى تَفْضِيلِ الْإِمَامَةِ عَلَى الْأَذَانِ لِأَنَّهُ ﷺ قَالَ: «يُؤَدِّنُ أَحَدُكُمْ» وَخَصَّ الْإِمَامَةَ بِالْأَكْبَرِ... وَمَنْ قَالَ بِتَفْضِيلِ الْأَذَانِ وَهُوَ الصَّحِيحُ الْمُخْتَارُ قَالَ: إِنَّمَا قَالَ: «يُؤَدِّنُ أَحَدُكُمْ» وَخَصَّ الْإِمَامَةَ بِالْأَكْبَرِ لِأَنَّ الْأَذَانَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى كَبِيرٍ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَعْظَمُ مَقْصُودِهِ الْإِعْلَامُ بِالْوَقْتِ وَالْإِسْمَاعِ بِخِلَافِ الْإِمَامِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: زرواه مسلم (٦٧٣) كتاب المساجد.

(٢) مسلم بشرح النووي (٥/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٧١٨) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: استأذنت النبي ﷺ في العُمرة، فأذن، وقال: «لا تنسنا يا أخی من دُعائك» فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا^(١). وفي رواية قال: «أشركنا يا أخی في دُعائك».

❁ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.
بإسناد ضعيف

(٧١٩) وعن سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرًا: ادن مني حتى أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا فيقول: «أستودع الله دينك، وأمانتك، وخواتيم عملك»^(٢).

(٧٢٠) وعن عبد الله بن يزيد الخطمي الصحابي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يودع الجيش قال: «أستودع الله دينكم، وأمانتكم، وخواتيم أعمالكم»^(٣).

❁ ففي الحديث الأول يخبر سالم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يقول للرجل إذا أراد سفرًا: ادن مني - أي: اقترب مني - حتى أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا ... فلقد كان ابن عمر من أشد أصحاب النبي ﷺ متابعة للنبي ﷺ .. حتى أنه كان يومًا في سفر وعلم أن النبي ﷺ كان قد نزل في هذا المكان وصلى ركعتين ... فما كان منه إلا أن نزل في نفس المكان وصلى ركعتين كما فعل النبي ﷺ .. مع أن ذلك لم يكن سنة عن النبي ﷺ وإنما كان النبي ﷺ نازلًا في هذا المكان فصلى ركعتين.

فبعد الله بن عمر كان يقول للرجل الذي يريد أن يسافر: ادن مني حتى أودعك كما كان رسول الله ﷺ يودعنا.

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٧٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤)، وصحيح الجامع (٩٥٧).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥)، وصحيح الجامع (٤٦٥٧).

ثم يقول له: «أستودعُ الله دينك، وأمانتك، وخواتيمَ عملك».

وهذا الحديث العظيم معناه جميل جداً لمن يتدبره ... يقول ﷺ: «أستودع الله» يعنى: أجعل هذه الأشياء التى تخصك وديعة عند الله .. أى: أسأل الله وأدعوه أن يحافظ لك على هذه الأشياء كما يحافظ المودع الأمين على الوديعة التى عنده.. والله ﷻ المثل الأعلى.

«أستودع الله دينك» يعنى: ما أنت عليه من دين الإسلام.. والمعنى: أدعو الله أن يحفظ عليك دينك وألا يضلِكَ وأن تظل ثابتاً على هذا الدين.

«وأمانتك» سواء كانت الأمانة مع الله أو مع الخلق، فأسأل الله ﷻ أن يحافظ لك على أمانتك جميعها فتؤدى التكاليف الشرعية ولا تُضيعها، فتحافظ على الصلوات فى وقتها، وتحافظ على صومك، وتحافظ على ما تؤديه من أمانة الله.

«وخواتيم عملك»، وفى الحديث: «الأعمال بالخواتيم»، فقد يكون الإنسان على عمل صالح وفى آخر حياته كما قال النبى ﷺ: «فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، والعياذ بالله.

وقد يكون على عمل غير صالح وفى آخر حياته يسبق عليه كتاب الله فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها... فكأنه يودع هذا الإنسان ويسأل الله ﷻ أن يحافظ له على هذا العمل حتى يُختم له به.

فتدعو للإنسان المسافر وتوصيه بتقوى الله لأنه سيكون غريباً فى بلادٍ أخرى لست فيها... وليس هناك مَنْ يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر؛ لذلك توصى الإنسان حين يسافر إلى مكانٍ بقولك: اتق الله سبحانه وتعالى، واحذر الفتن، واحذر النساء، واحذر أهل الفسق وأهل الضلال، واحذر الكفار... فلعله يرجع ولعله لا يرجع فتدعو له بقولك: «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك».

❦ وفى الحديث الثانى يوضح عبد الله بن يزيد الخطمى رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يوصى نفس الوصية للجيش عندما يودعه فقال: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن

يودع الجيش قال: «أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم»، حتى الجيش الذى يسافر مجاهدًا فى سبيل الله يحتاج لهذه النصيحة ويحتاج لهذه الوصية ولهذا الدعاء... وهذا أولى من أن يذهب الإنسان إلى المسافر فيقول له: انتبه لنفسك من كذا! فأنت تجعل الله سبحانه وتعالى هو الذى يرهأ حين تدعو لهذا الإنسان المسافر، ولا مانع من أن تقول للإنسان المسافر: انتبه لنفسك، ولكن لا تنس أن تدعو له بهذا الدعاء العظيم «أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك».

❦ وهذا لا يتعارض مع أنه ﷺ كان إذا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ^(١)، أَوْ صَاهُ فِي خَاصَّتِهِ^(٢) بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا^(٣)، وَلَا تَغْدِرُوا^(٤)، وَلَا تُمَثِّلُوا^(٥)، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا^(٦)»^(٧).

فربما كان يفعل الأمرين ﷺ.. فهو أحرص الناس على أمته ﷺ.

(٧٢١) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ سَفَرًا، فَزَوِّدْنِي، فَقَالَ: «زَوِّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى». قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: «وَعَفَرَ ذَنْبَكَ» قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: «وَيَسَّرَ لَكَ الْخَيْرَ حَيْثُمَا كُنْتَ»^(٨).

(١) سرية: وهى قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه - قال إبراهيم الحربى: هى الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. قالوا: سُمِّيت سرية لأنها تسرى فى الليل ويخفى ذهابها. وهى فعيلة بمعنى فاعلة. يُقَالُ: سَرَى وَأَسْرَى، إِذَا ذَهَبَ لَيْلًا.

(٢) فى خاصته: أى فى حق نفس ذلك الأمير خصوصًا.

(٣) ولا تغلوا: من الغلول، ومعناه الخيانة فى المغمم، أى: لا تخونوا فى الغنيمة.

(٤) ولا تغدروا: أى: لا تنقضوا العهد.

(٥) ولا تمثّلوا: أى: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والأذان.

(٦) وليدًا: أى صبيًا لأنه لا يقاتل.

(٧) صحيح: رواه مسلم (١٧٣١) كتاب الجهاد والسير.

(٨) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٧٩).

❁ وفي هذا الحديث يخبر أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبي ﷺ الذي خدمه عشر سنين وفاز بأعظم منقبة في هذه الدنيا بأن يكون خادمًا مُلازمًا للنبي ﷺ لمدة عشر سنين.

فهنا يُخبر أنس أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له : يا رسول الله إنني أريد سفرًا فزودني .. يعنى : أعطني ما أستعين به في هذا السفر من نصيحة، فقال ﷺ : «زودك الله بالتقوى»، زودك يعنى : أسأل الله ﻋَزَّوَجَلَّ أن يعطيك التقوى ويجعل التقوى زادك.

وهل هناك زاد أعظم من هذا؟ .. فقد قال تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ففرح الرجل بهذا وقال للنبي ﷺ : زدنى ... فقال له ﷺ : «وغفر ذنبك» يعنى : أسأل الله ﻋَزَّوَجَلَّ أن يغفر ذنبك .. وما دام النبي ﷺ قد دعا هذا الدعاء لأحد من البشر فاعلم أنه من أهل الجنة.

ففرح الرجل مرة أخرى وقال للنبي ﷺ : زدنى .

فقال له ﷺ : «ويسر لك الخير حيثما كنت»، فهذا دعاء جامع لخير الدين والدنيا والآخرة... ماذا تريد بعد التقوى؟ وإذا كان زادك التقوى فاعمل أى عمل لله ﻋَزَّوَجَلَّ ، فإن الله يتقبله منك ... لأن الله يقول : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وإذا كنت قد زودك الله التقوى فكل الأعمال الصالحة لن يدخلها رياء، فكلها ستكون لله وكلها يقبلها الله ﻋَزَّوَجَلَّ ، وإذا زودك الله التقوى سيسر لك الخير في كل مكان؛ لأن الله ﻋَزَّوَجَلَّ يقول : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

والتقوى رأس مال المؤمن، وهى عظيمة جدًا وهى تفتح لك أبواب السعادة



في الدنيا وفي الآخرة... وإذا زودك الله التقوى تقبل منك عملك ورزقك من حيث لا تحتسب وجعل لك مخرجاً، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

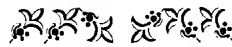
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۖ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ [الطلاق: ٥].

وتقوى الله جمعت كل خير في الدنيا وفي الآخرة.

ولذلك ينبغي على المسلم أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ الخير في سفره، وأن يدعو للمسافر: (زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لك الخير حيثما كنت).

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يزودنا التقوى في سفرنا للآخرة، وأن ييسر لنا الخير حيثما كنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا^(١).



(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطية.

(٩٧) باب الاستخارة والمشاورة

✽ نحن نعلم أن احتياجات الإنسان في حياته كثيرة وأنه قبل أن يخطو أى خطوة فلا بُدَّ أن يستخير الله (جل وعلا) ثم يستشير أهل الخبرة من حوله فيكون بذلك قد أخذ بكل الأسباب التى تكفل له النجاح في حياته... فقد توكل على ربه (جل وعلا) وفي نفس الوقت أخذ بالأسباب.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أى: يَتَشَاوَرُونَ بَيْنَهُمْ فِيهِ.

(٧٢٢) عن جابر رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْاِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رُكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي» أَوْ قَالَ: «عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي» أَوْ قَالَ: «عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ؛ فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي بِهِ» قَالَ: «وَيُسَمَّى حَاجَتَهُ»^(١).

✽ والاستخارة مع الله... والمشاورة مع أهل الرأي والصلاح.

وذلك أن الإنسان عنده قصور أو تقصير... والإنسان خلِقَ ضعيفاً فقد تشكّل عليه الأمور وقد يتردد فيها فماذا يصنع؟ ... لنفرض أنه همّ بسفرٍ وتردّد هل هو خير أم شر... أو همّ أن يشتري سيارة أو بيتاً أو أن يُصاهر رجلاً - يتزوج ابنته -

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٦٦) كتاب التهجد، و(٦٣٨٢) كتاب الدعوات.

أو ما أشبه ذلك ولكنه متردد فماذا يصنع؟

نقول له: هناك طريقان:

الطريق الأول: استخارة رب العالمين ﷻ الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

الطريق الثاني: استشارة أهل الرأي والصلاح والأمانة.

وكان النبي ﷺ وهو أسدُّ الناس رأياً وأصوبهم يستشير أصحابه في بعض الأمور التي تشكّل عليه وكذلك خلفاؤه من بعده كانوا يستشيرون أهل الرأي والصلاح.

ولا بد من هذين الشرطين فيمن تستشيريه أن يكون ذا رأى وخبرة في الأمور وتأنٍّ وتجربة وعدم تسرع وأن يكون صالحاً في دينه لأن من ليس بصالحٍ في دينه ليس بأمين حتى وإن كان ذكياً وعاقلاً ومُحنكاً في الأمور.

إذا لم يكن صالحاً في دينه فلا خير فيه وليس أهلاً لأن يكون من أهل المشورة لأنه إذا كان غير صالح في دينه فإنه ربما يخون والعياذ بالله ويشير بما فيه الضرر أو يشير بما لا خير فيه فيحصل بذلك من الشر والفساد ما الله به عليم.

أما الاستخارة فهي مع الله ﷻ... يستخير الإنسان ربه إذا همَّ بأمرٍ وهو لا يدرى عاقبته ولا يدرى مستقبله فعليه بالاستخارة.

والاستخارة معناها طلب خير الأمرين ... وقد أرشد النبي ﷺ إلى ذلك بأن يصلي الإنسان ركعتين من غير الفريضة في غير وقت النهي إلا في أمرٍ يخشى فواته قبل خروج وقت النهي فلا بأس أن يستخير ولو في وقت النهي.

أما ما كان فيه الأمر واسعاً فلا يجوز أن يستخير وقت النهي ... فلا يستخير بعد صلاة العصر وكذلك بعد الفجر حتى ترتفع الشمس مقدار رمح وكذلك

عند زوالها حتى تزول ... يصلى ركعتين من غير الفريضة ثم يُسَلِّم وإذا سَلَّمَ قال: «اللهم إني أَسْتَخِيرُكَ بعلمك».

يعنى: أطلب منك الخير الذى تعلمه بعلمك وأطلب منك أن تعلمنى وأن تدلنى على ما لا أعلم... وفى هذا اعتراف الإنسان بجهله.

«وأستقدرك»، السين للاستدعاء على صيغة استفعال.. فالمقصد أنى أطلب منك أن تُقدرنى، فأستقدرك بمعنى أطلب منك بقدرتك أن تُقدرنى على الصواب فى هذا الشئ..

«وأسألك من فضلك العظيم»، فأنا أطلب من فضلك، ولا أطلب فرضاً عليك أنك تعطينى، ولكنى أعترف بعجزى وبجهلى، وأنى عبدٌ لك وأنت المتكرم المتفضل... وهذا من التواضع بين يدى الله ﷻ، وهذا يجعل سؤالك محل جواب من الله ﷻ... فالمستكبر لا ينظر الله ﷻ إليه، ولكن المتواضع الذى يعترف بالعجز وبالتقصير والجهل، ويُقر لله ﷻ بالقدرة بالعلم والفضل، فهذا جديرٌ أن يستجيب الله ﷻ له.

قال: «وأسألك من فضلك العظيم»، أطلب من فضلك فإنك كريم وفضلك كثير عظيم.

«فإنك تقدر ولا أقدر»، أنت تقدر على كل شئ وأنا لا أقدر إلا على ما تُقدرنى عليه.

«وتعلم ولا أعلم»، وهنا يكون الاعتراف بالجهل، «تعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»، تعلم ما ظهر وما خفى.

«اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسمى الأمر»، أى: الأمر الذى سيقدم عليه فيقول مثلاً: اللهم إن كنت تعلم أن زواجى من فلانة بنت فلان خيرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى.

وبذلك يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ إن يسّر له تلك الزيجة فإنها ستكون خيراً له في دينه ودنياه وآخرته.

❦ قوله: «فاقدري لي ويسره لي»، أى: اجعلني قادراً عليه واكتب لي أن أفعله واجعلني أفعل هذا الشيء بتيسيرك لي.

ويمكن أن يقدرك على شيء هو في الأصل خير ولكن الإنسان بسفاهته يستخدمه في غير الخير.

قال: «ثم بارك لي فيه» أى: تقدرني عليه فإذا قدرتنى عليه اجعل لي من وراء ذلك: البركة في العمل، والبركة في النماء، والبركة في الأجر والثواب، فجمعت خيراً عظيماً باستخارتك ربك، ويكفى هذا الدعاء العظيم الذى دعوته.

قال: «وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري» أى: الأمر الذى أستخيرك فيه وأطلبه سيكون فيه شر... وكم من أمرٍ ينظر الإنسان إليه على أنه خير فيحرص على أخذه، وبعد ذلك يجه فيه الشر فيتركه ويزهد فيه... فبدلاً من أن تجرب اطلب من ربك سبحانه أن يرشدك إلى الصواب.

إذا كان شراً قال: «فاصرفه عني واصرفني عنه»، فأريد عملاً في المكان الفلانى وأنا أسعى لهذا الشيء، وصليت صلاة استخارة ثم أقدمت عليه ولكنه ضاع، فلذلك كان الدعاء الكامل أن تقول: اصرف هذا الشيء عني واصرفني أنا أيضاً عنه، فلا أندم عليه ولا أحزن إذا لم أحصل عليه.

قال: «واقدر لي الخير حيث كان» أى: قدر لي الخير في أى مكان يكون، واجعلنى أتوجه إليه وأحصله.

«ثم أرضني به»، قد يقدر لك الخير الذى يراه وقد لا ترضى عنه، والرضا شيء عظيم جداً.. إن ترضى فلك الرضا من الله عَزَّوَجَلَّ ولك الرضا من الخلق، مهما سخطوا عليك فهم يرضون عنك برضا الله عَزَّوَجَلَّ عنك.

وشيء عظيم أن يعيش الإنسان راضياً مستريح النفس قرير العين^(١).
 ثم بعد ذلك إن انشرح صدره بأحد الأمرين بالإقدام أو الإحجام فهذا هو المطلوب ... يأخذ بما ينشرح به صدره فإن لم ينشرح صدره لشيء وبقي مُتردداً أعاد الاستخارة مرة ثانية وثالثة ... دون أن يتقيد بعدد.

ثم بعد ذلك تأتي المشورة إذا لم يتبين له شيء بعد الاستخارة فإنه يشاور أهل الرأي والصلاح ... ثم ما أشير عليه به فهو الخير إن شاء الله، لأن الله تعالى قد لا يجعل في قلبه بالاستخارة ميلاً إلى شيء مُعين حتى يستشير فيجعل الله تعالى ميل قلبه بعد المشورة.

إلا أن الاستخارة لا تكون في فعل الواجبات أو المستحبات.
 وكذلك لا تكون في ترك المحرمات أو المكروهات وإنما تكون في المباحات فقط.

ولكى يتضح الأمر أضرب لك هذا المثال:
 فلا يجوز مثلاً أن أستخير الله في أن أصلي الفرائض الخمس أو السنن والنوافل أو أستخير الله في أن أصوم أم لا ... وكذلك لا يجوز أن أستخير الله في أن أترك شيئاً محرماً كالخمر أو الميسر أو عقوق الوالدين.
 وإنما تكون الاستخارة في سائر الأمور المباحة ك شراء السيارة أو اختيار المدرسة التي سألتحق بها أو شراء الملابس أو الزواج أو غير ذلك من الأمور المباحة^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» / للشيخ أحمد حطية.
 (٢) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٩٨) باب استحباب الذهاب إلى العيد، وعبادة

المريض، والحج والغزو والجنابة ونحوها من طريق
والرجوع من طريق آخر، لتكثير مواضع العبادة

(٧٢٣) عن جابر رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيقَ ^(١).
(٧٢٤) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ طَرِيقِ الشَّجَرَةِ
وَيَدْخُلُ مِنْ طَرِيقِ الْمُعَرَّسِ، وَإِذَا دَخَلَ مَكَّةَ دَخَلَ مِنَ الثَّنِيَّةِ الْعُلْيَا وَيَخْرُجُ مِنَ الثَّنِيَّةِ
السُّفْلَى ^(٢).

✽ من الأمور المستحبة في الشرع: إذا خرج المسلم إلى صلاة العيد أن
يذهب من طريق ويعود من آخر، اقتداءً بالنبي ﷺ وتكثيراً لمواضع العبادة،
وحتى تشهد له الملائكة في الطريقين، يلتقي بعدد كبير من المسلمين.
وحتى تشهد له الأرض يوم القيامة .. وذلك لأن الأرض تشهد على ما
عمله العبد عليها من عمل صالح أو عمل طالح .. قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ
أَخْبَارَهَا ۚ﴾ ^(٤) يَا نَبِيَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿ [الزلزلة: ٤-٥]

فتقول: عمل عليّ فلانٌ كذا ... فتشهد له أو عليه بكل ما عمل.
وكذلك أيضًا من أجل إظهار شعيرة العيد .. فإذا انتشر الناس في كلِّ
الشوارع صار في ذلك إظهار لهذه الشعيرة.

وقيل: إنما خالف النبي ﷺ الطريق من أجل المساكين .. فقد يكون في هذا
الطريق ما ليس في الطريق الآخر فأراد النبي ﷺ أن يُكرمهم جميعًا ... وقد يكون

(١) صحيح زرواه البخاري (٩٨٦) كتاب الجمعة.

قوله: «خَالَفَ الطَّرِيقَ» يعني: ذَهَبَ فِي طَرِيقٍ وَرَجَعَ فِي طَرِيقٍ آخَرَ.

(٢) متفق عليه. رواه البخاري (١٥٣٣) كتاب الحج، ومسلم (١٢٥٧) كتاب الحج.

النبي ﷺ فعل هذا من أجل تلك الأشياء كلها . والله أعلم .

فالعبد وهو يسير على هذه الأرض في عبادة الله سبحانه وتعالى ، فإنه تُكتب له خطواته ومشيه إلى الطاعة .

فمثلاً: الذهاب إلى الصلاة... فكلما كثرت خطوات العبد إلى بيت الله ﷻ كان له أجرٌ عظيم بسبب هذه الخطوات .

ولذا كان النبي ﷺ إذا خرج إلى صلاة العيد ورجع منها، يذهب من طريق ويرجع من طريق آخر .

❁ ومن الناس مَنْ توسَّع في الأمر وقالوا: تُشرع مخالفة الطريق في كل تعبُد .. كالصلوات الخمس والجمعة .. فتذهب من طريق وترجع من طريق .. وكعيادة المريض وتشيع الجنازة ... وغير ذلك . وهذا القياس غير صحيح .

لا قياس لصلاة الجمعة على العيدين، ولا بقية الصلوات على العيدين، ولا المشى في العبادة على العيدين؛ وذلك لأن العبادات ليس فيها قياس، ولأن هذه الأشياء كانت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

كان في عهده الجمعة، والصلوات الخمس، وعيادة المريض، وتشيع الجنائز، ولم يُحفظ عنه أنه كان ﷺ يخالف الطريق في هذا .

والشئ إذا وجد في عهد الرسول ﷺ ولم يسن فيه شيئاً، فالسنة ترك ذلك .

❁ وأما حديث ابن عمر: فهو في حج النبي صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان يدخل من طريق ويخرج من طريق آخر، فإذا خرج من المدينة خرج من طريق الشجرة، ويدخل من طريق المعرس، وإذا دخل مكة يدخل من الثنية العليا، أي: من الحجون، ويخرج من الثنية السفلى صلوات الله وسلامه عليه .

والغرض: أن الحج عبادة لله تعالى، فيدخل عابداً لله تعالى، ويخرج ذاكراً لله



سبحانه... فيخالف في الطريق، يعنى: في الخروج وفي الدخول.
ومنهم مَنْ قال: إن هذا حسب تيسر الطريق، فاسلك المتيسر سواء من
الأعلى أو من الأسفل.

وعلى كل حال إن تيسر لك أن تدخل من أعلاها وتخرج من أسفلها فهذا
طيب، فإن كان ذلك عبادة فقد أدركته وإن لم يكن عبادة لم يكن عليك ضرر
فيه، وإن لم يتيسر كما هو الواقع في وقتنا الحاضر، حيث إن الطرق قد وُجّهت
توجيهًا واحدًا، ولا يمكن للإنسان أن يخالف، فالأمر والحمد لله واسع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٩) بَابُ اسْتِحْبَابِ تَقْدِيمِ الْيَمِينِ

فِي كُلِّ مَا هُوَ مِنْ بَابِ التَّكْرِيمِ

❦ كالوضوء والغسل والتيمم، ولبس الثوب والنعل والخف والسراويل ودخول المسجد، والسواك، والاحتحال، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، ونشف الإبط، وحلق الرأس، والسلام من الصلاة، والأكل، والشرب، والمصافحة، واستلام الحجر الأسود، والخروج من الخلاء، والأخذ والعطاء وغير ذلك مما هو في معناه ... ويستحب تقديم اليسار في ضد ذلك، كالامتخاط والبصاق عن اليسار، ودخول الخلاء، والخروج من المسجد، وخلع الخف والنعل والسراويل والثوب، والاستنجاء وفعل المستقذرات وأشباه ذلك.

فالوضوء يبتدئ فيه الإنسان باليد اليمنى قبل اليد اليسرى وبالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى هذا إذا كانا عضوين متميزين.

أما إذا كان عضواً واحداً كالوجه مثلاً فإننا لا نقول ابداً يمين الوجه قبل يساره بل يغسل الوجه مرة واحدة كما جاءت به السنة.

نعم لو فرض أن الإنسان لا يستطيع أن يغسل وجهه إلا بيد واحدة فهنا يبدأ باليمين ... ربما يقال: يبدأ من اليمين وربما يقال: يبدأ من الأعلى وكذلك مسح الأذنين ... لا تمسح الأذن اليمنى قبل اليسرى، بل يُمسحان جميعاً إلا إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يمسح يديه جميعاً فيبدأ باليمنى قبل اليسرى.

وكذلك في الغسل إذا أراد الإنسان أن يغتسل من الجنابة فإنه يتوضأ وضوءه للصلاة ثم يفيض الماء على رأسه ثلاث مرات حتى يروى ثم يغسل سائر جسده ويبدأ بالشق الأيمن منه قبل الأيسر.

كذلك لبس الثوب والنعل والخف والسراويل .. كل هذه يبدأ فيها

باليمن... إذا أردت أن تلبس الثوب فأدخل اليد اليمنى في كُمها قبل اليد اليسرى.. وفي السراويل أدخل الرجل اليمنى في كُمها قبل أن تدخل الرجل اليسرى.. وفي النعل إذا أردت أن تلبس النعل ابدأ بالرجل اليمنى أدخلها في النعل قبل اليسرى.. وكذلك في الخُف والجوارب ابدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى... هذه هي السُّنة كما جاءت عن النبي ﷺ.

وكذلك دخول المسجد تبدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى تقصد ذلك... فإذا أقبلت على المسجد فانتبه حتى تكون رجلك اليمنى هي الداخلة الأولى.

كذلك أيضًا السواك إذا أراد الإنسان أن يتسوك فيبدأ بالجانب الأيمن قبل الأيسر... وكذلك الاكتحال إذا أراد أن يكتحل يبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى... كذلك تقليم الأظفار يبدأ بالأيمن قبل الأيسر... فيبدأ مثلاً في اليمنى بالخنصر ثم البنصر ثم الوسطى ثم السبابة ثم الإبهام وفي اليد اليسرى يبدأ بتقليم الإبهام ثم السبابة ثم الوسطى ثم البنصر ثم الخنصر ويبدأ أيضًا بالقدم اليمنى في تقليم أظفارها قبل القدم اليسرى.. وكذلك في قص الشارب ابدأ بالجانب الأيمن منه قبل الأيسر كذلك نتف الإبط وحلق الرأس.

نتف الإبط سُنّة فإذا أردت أن تتف الآباط يعني تتف الشعر فابدأ بالإبط الأيمن قبل الأيسر وكذلك في حلق الرأس ابدأ بالجانب الأيمن من الرأس قبل الأيسر.

وكذلك أيضًا السلام من الصلاة يلتفت الإنسان عن يمينه قبل أن يلتفت عن يساره.

وكذلك الأكل والشرب فيأكل بيمينه ويشرب بيمينه ولا يجوز أن يأكل باليسرى أو يشرب باليسرى لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك وقال: «إن الشيطان يأكل



بشماله ويشرب بشماله»^(١).

ويجب علينا أيضًا أن نُعلِّم أولادنا الصغار أن يأكلوا باليمين ... ويشربوا باليمين .. كذلك المصافحة يصافح باليمين ولا يصافح باليسار.

كذلك استلام الحجر الأسود باليمين وكذلك إذا لم يستطع الإنسان مسحه فإنه يشير إليه ويكون ذلك باليد اليمنى ... وكذلك استلام الركن اليماني يكون باليمين.

كذلك الأخذ والإعطاء ... يعنى إذا أردت أن تناول صاحبك شيئًا فناوله باليمين وإذا أردت أن تأخذ شيئًا تناولك إياه فخذ باليمين.

هذه أخلاق الإسلام لكن بعض الناس يناولك باليسار ويأخذ منك باليسار ظنًا منه أن هذا هو التقدم.

✽ وهناك أشياء مما يُقدَّم فيها اليسار، كالامتخاط والبُصاق فإنه يكون باليسار.

الامتخاط: يعنى إذا استنثر الإنسان ليُخرج ما فى أنفه من الأذى فإنه يكون باليد اليسرى ... وكذلك لو أراد أن يمسح المخاط فإنه يكون باليد اليسرى وكذلك عند دخول الخلاء يقدم الرجل اليسرى وأما الخروج منه فقد سبق أنه يُقدم الرجل اليمنى .. وكذلك إذا خرج من المسجد فإنه يقدم الرجل اليسرى وكذلك إذا أراد أن يخلع النعل أو أن يخلع الخُف أو أن يخلع الثوب أو أن يخلع السراويل فإنه يبدأ بإخراج الرجل اليسرى وتكون اليمنى هى الأولى عند اللبس.

كذلك الاستنجاء يكون باليد اليسرى ... وقد نهى النبى ﷺ أن يستنجى الرجل بيمينه لأن اليمين محل الإكرام ويؤكل بها ويشرب بها فينبغى إبعادها عن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

القاذورات ... وكذلك كل شيء مُستقَدَّر فإنه يكون باليد اليسرى وأما اليمنى فهي لما يكون فيه الإكرام ولغيره مما لا إكرام فيه ولا إهانة... فاليُسرى تكون للأذى واليمنى لما سواها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ثم ذكر المؤلف آيتين من كتاب الله هما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْرِكَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُومٌ أَقْرَأُ وَأُكْتَبِيهِ﴾ [الحاقة: ١٩]. وهذا يكون يوم القيامة.

فإن الناس يُؤْتَوْنَ كُتُبُهُمْ -أى كتب أعمالهم التى كُتِبَ فيها عمل الإنسان- إما باليمين وإما بالشمال، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْرِكَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ﴾ جعلنا الله منهم فإنه يأخذه فرحاً مسروراً يقول للناس: انظروا إلىَّ ﴿فَيَقُولُ هَؤُومٌ أَقْرَأُ وَأُكْتَبِيهِ﴾.

كما نشاهد الآن الطالب إذا أخذ ورقة النجاح صار يريها أصدقائه وأقاربه فرحاً بها، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْرِكَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ﴾ فإنه على العكس من ذلك، يتمنى أنه لم يُؤْتِ الكتاب فضلاً عن أن يطلع عليه غيره.

والآية الأخرى التى ذكرها المؤلف فهي قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]. فذكر الله سبحانه أن الناس يكونون يوم القيامة ثلاثة أقسام: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون... فالسابقون هم المقربون، وأصحاب الميمنة ناجون، وأصحاب المشأمة هالكون، فهم يوم القيامة ثلاثة أصناف.

وهم كذلك عند خروج الروح من البدن ثلاثة أصناف.. ذكر الله فى سورة الواقعة أحوالهم يوم القيامة، وذكر فى آخرها أحوالهم عند الاحتضار، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ۙ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ۙ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُرْهَانَ ۙ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۙ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۙ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۙ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٩].

والمقربون هم السابقون الذين يسبقون إلى الخيرات في كل نوع من أنواع الخير، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الصَّالِينَ (٩٢) فَتَزَلَّ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصَلَّيْهُ جَحِيمٍ ﴿[الواقعة: ٩٠-٩٤] وهؤلاء هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله، فهم المكذبون الضالون، أعاذنا الله من حالهم (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٢٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُعَجِّبُهُ التَّيْمَنُ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ: فِي طَهُورِهِ، وَتَرْجُلِهِ، وَتَنَعُّلِهِ (٢).

❦ ففي هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يُعَجِّبُهُ التَّيْمَنُ فِي شَأْنِهِ كُلِّهِ .. أى: كان يستحسن ويحب البداءة باليمين في كل شيء وفي جميع أحواله.

«في طهوره»: يعنى إذا تطهر يبدأ باليمين، فيبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليسرى، ويغسل الرجل اليمنى قبل اليسرى.. وأما الأذنان فإنهما عضو واحد داخلان في الرأس، فيمسح بهما جميعاً إلا إذا كان لا يستطيع أن يمسح إلا بيده واحدة، فهنا يبدأ بالأذن اليمنى للضرورة.

قالت «وترجله»: والترجل -يعنى تسريح الشعر ومشطه ودهنه-.

«وتنعله»: أى أنه ﷺ كان إذا لبس النعل فإنه يبدأ باليمين قبل اليسار.. وإذا خلع النعل يبدأ باليسار قبل اليمين.. وكذلك إذا لبس الثوب كان يبدأ بإدخال الكُم اليمين قبل اليسار... وكذلك كان إذا لبس السروال فإنه كان يبدأ بإدخال اليمنى قبل اليسرى.. وإذا خلع السروال يبدأ باليسرى قبل اليمنى...

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمته الله (٢/ ٤٢٦-٤٣٠) بتصرف كبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٦٨) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٦٨) كتاب الطهارة.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ تَقْدِيمَ الْيَمِينِ عَلَى الْيَسَارِ مِنَ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ فِي الْوُضُوءِ سُنَّةٌ لَوْ خَالَفَهَا فَاتَهُ الْفَضْلُ وَصَحَّ وَضُوءُهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِبْتِدَاءَ بِالْيَسَارِ وَإِنْ كَانَ مُجْزِيًا فَهُوَ مَكْرُوهٌ نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا بِإِسَانٍ حَمِيدَةٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا لَبِسْتُمْ أَوْ تَوَضَّأْتُمْ فَاذْكُرُوا بِأَيَّامِنِكُمْ» فَهَذَا نَصٌّ فِي الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْيَمِينِ وَمُخَالَفَتِهِ مَكْرُوهَةٌ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ مَا لَا يُسْتَحَبُّ فِيهِ التَّيَمُّنُ وَهُوَ الْأُذُنَانِ وَالْكَفَّانِ وَالْخَدَّانِ بَلْ يُطَهَّرَانِ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَإِنْ تَعَذَّرَ ذَلِكَ كَمَا فِي حَقِّ الْأَفْطَحِ وَنَحْوِهِ قَدَّمَ الْيَمِينِ ... وَاللهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٢٦) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْيُمْنَى لِيُطَهِّرَ وَطْعَامِي، وَكَانَتْ الْيُسْرَى لِخَلَائِيهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَدَى^(٢).

✽ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَوْضِيحٌ أَمَّا عَائِشَةُ الَّتِي كَانَتْ تَنْقُلُ لِلْأُمَةِ كُلِّ مَا تَعَلَّمَتْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ .. فَكَانَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ أَنَّهَا أَخْبَرَتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْتَعْمَلُ يَدَهُ الْيُسْرَى فِي كُلِّ مَا كَانَ فِيهِ أَدَى: كَالِاسْتِنْجَاءِ وَالِاسْتِجْمَارِ وَالِاسْتِنْشَاقِ وَالِاسْتِنْثَارِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ... وَكَانَ يَسْتَعْمَلُ يَدَهُ الْيُمْنَى فِيمَا سِوَى ذَلِكَ كَالْوُضُوءِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ... فَيَنْبَغِي أَنْ نَقْتَدِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ .. فَلَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) مسلم بشرح النووي (٣/ ٢٠٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في المشكاة (٣٣٣).

(٧٢٧) وعن أم عطية رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لهنَّ في غسلِ ابنته زينب رضي الله عنها: «ابدأن بميامنِها، ومواضع الوُضوءِ مِنْها»^(١).

✽ عن أم عطية رضي الله عنها ... وكانت أم عطية رضي الله عنها من نساء الأنصار وكان لها أعمالٌ جليلة؛ منها أنها كانت تُغسلُ الأموات من النساء... فلما ماتت زينب بنت النبي محمد ﷺ وحضرن ليغسلنها، فقال لهن النبي ﷺ: «ابدأن بميامنِها ومواضع الوضوء منها».

وكيفية تغسيل الميت بأن تُخلع ثيابه بعد أن يوضع على عورته ما يسترها، ثم يضع الغاسل خرقة على يده فينجيه -يعنى يغسل فرجه القبل والدُّبر حتى ينظفه-، ثم بعد ذلك يزيل هذه الخرقة ويغسل كفه كما يتوضأ الإنسان في العادة، ثم يأخذ خرقة مبلولة بالماء، فينظف أسنانه وفمه وينظف منخريه بدلاً عن المضمضة والاستنشاق، ولا يُدخل الماء في فمه ولا في أنفه لأنه إذا فعل ذلك نزل الماء إلى جوفه وربما يخرج فيؤذيهم عند التغسيل، ثم بعد هذا يغسل وجهه، ويديه إلى المرفقين، ويمسح رأسه، ويغسل رجليه، وضوءاً كاملاً.

ثم بعد ذلك يغسل رأسه برغوة السدر، بعد أن يكون قد أعدَّ ماءً فيه سدر مطحون يضربه بيده حتى يكون له رغوة، فيأخذ الرغوة ويغسل بها رأس الميت، ثم يغسل ببقية السدر بقية البدن.

على أن المرأة لا يغسلها إلا النساء، حتى أبوها لا يغسلها ولا ابنها ولا أحدٌ من محارمها، إلا النساء أو الزوج.

والرجل لا يغسله إلا الرجال، لا تغسله أمه ولا ابنته ولا أحد من النساء إلا زوجته... فالزوج يُغسل زوجته والزوجة تُغسل زوجها، وما سوى ذلك لا يُغسل الذكر الأنثى ولا الأنثى الذكر.

(١) متفق عليه. رواه البخاري (١٦٧) كتاب الوضوء، ومسلم (٩٣٩) كتاب الجنائز.

حضرت النساء لتغسيل زينب بنت رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «ابدأن بميامنها» -يعنى: بالأيمن قبل الأيسر؛ اليد اليمنى قبل اليسرى، والرجل اليمنى قبل اليسرى، والشق الأيمن قبل الشق الأيسر- «ومواضع الوضوء منها»، ففعلن ذلك، وجعلن رأسها ثلاثة قرون -يعنى ثلاث جدائل: الجانب الأيمن قرن، والأيسر قرن، ووسط الرأس قرن-، وألقينه خلفها، ثم أعطاهن النبي ﷺ حقوه -يعنى إزاره- وقال: «أشعرنها إياه»^(١).

يعنى الففنه على جسدها مباشرة، تبرُّكًا بإزار النبي ﷺ ... ففعلن ذلك.

بَابُ مَا يَجِبُ فِي الْوُضُوءِ

(٧٢٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا انْتَعَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِالْيُمْنَى، وَإِذَا نَزَعَ فَلْيَبْدَأْ بِالشَّمَالِ، لِتَكُنِ الْيُمْنَى أَوْلَهُمَا تُنْعَلُ، وَآخِرُهُمَا تُنْزَعُ»^(٢).

(٧٢٩) وَعَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَجْعَلُ يَمِينَهُ لِمَعَامِهِ وَشَرَاهِ وَثِيَابِهِ، وَيَجْعَلُ يَسَارَهُ لِمَا سِوَى ذَلِكَ^(٣).

(٧٣٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا لَبِسْتُمْ، وَإِذَا تَوَضَّأْتُمْ، فَاذْكُرُوا بِأَيَّامِنِكُمْ»^(٤).

✽ وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في الأحاديث السابقة من أن النبي ﷺ كان يعجبه التيمُّن في كل شيء وأنه كان يجعل اليمنى لظهوره وطعامه وثيابه وترجله وتنعله وكان يجعل اليسرى لخلائه وما كان من أذى.

بَابُ مَا يَجِبُ فِي الْوُضُوءِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٥٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٩) كتاب الجنائز.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٥٦) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٩٧) كتاب اللباس.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى في صحيح سنن أبي داود (٢٥).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٧٨٧).

(٧٣١) وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى، ونحر، ثم قال للحلاق: «خذ» وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس^(١).

وفي رواية: لما رمى الجمرة، ونحر نسكته وحلق، ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري رضي الله عنه فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر فقال: «احلق» فحلقه فأعطاه أبا طلحة فقال: «اقسمه بين الناس».

❦ وهنا ذكر المصنف رحمته الله: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، في قصة حلق النبي ﷺ في حجة الوداع. فإن النبي ﷺ في حجة الوداع لما بات بمزدلفة وصلى الفجر، وجلس يدعو حتى أسفر جداً ودفع قبل أن تطلع الشمس، ووصل إلى جمرة العقبة وقد ارتفع النهار، وصار للشمس حرارة، فرمى الجمرة وذلك يوم العيد.

وذهب ﷺ إلى منزله فدعا بالحلاق فحلق رأسه، وأشار ﷺ إلى الشق الأيمن فبدأ الحلاق بالشق الأيمن، وكان النبي ﷺ يعفى شعر الرأس، فكان شعر رأسه كثيراً، فبدأ بالشق الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة رضي الله عنه الأنصاري وأعطاه شعر الشق الأيمن كله، ثم حلق بقية الرأس ودعا أبا طلحة وأعطاه إياه، وقال: «اقسمه بين الناس» فقسمه... فمن الناس من ناله شعرة واحد، ومنهم من ناله شعرتان، ومنهم من ناله أكثر حسب ما تيسر، وذلك لأجل التبرك بهذا الشعر الكريم... شعر النبي ﷺ.

وكون أبي طلحة خصه الرسول بالجانب الأيمن كله يدل على أن من الناس من يختص بخصيصة يخصه الله بها، وإن كان في الصحابة من هو أفضل منه... فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وكثير من الصحابة أفضل من أبي طلحة، لكن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٧١) كتاب الوضوء مختصراً - ومسلم (١٣٠٥) كتاب الحج.

فضل الله ﷺ يؤتيه من يشاء، وكان الصحابة يتبركون بشعر النبي ﷺ وبشابهه وبعرقه، لكن غيره لا يتبرك بشعره ولا بشباهه ولا بعرقه.

وكان عند أم سلمة رضي الله عنها إحدى زوجات الرسول ﷺ شعرات من شعر الرسول ﷺ، وضعتها في جُلجلٍ يعنى طابوق من الفضة... وجعلته من الفضة تكريماً لشعر الرسول ﷺ، فكان الناس إذا مرض عندهم مريض جاءوا إليها فصَبَّت على الشعر ماءً وحركته به، ثم أعطته المريض فيشفى بإذن الله ببركة شعر النبي ﷺ.

لكن هذا ليس لغير النبي ﷺ، فإن الصحابة لم يتبركوا بشعر أبي بكر وهو أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ، ولا بشعر عمر، ولا غيره من الصحابة، وكذلك من دونهم لا يتبرك بشعره ولا بعرقه ولا بشباهه، إنما ذلك خاص برسول الله ﷺ. والشاهد من حديث أنس أن النبي ﷺ أشار إلى الحلاق أن يبدأ بالجانب الأيمن... فإذا حجبت وأردت أن تحلق أو تقصر فابدأ بالجانب الأيمن، وكذلك لو حلقت حلقةً عادياً فابدأ بالجانب الأيمن^(١).

✽ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: الشمائل النبوية:

(١) بركة شعره ﷺ: ودليله أنه أعطى شعر شقّه الأيمن لأبى طلحة، زوج أم سليم والدة أنس، وأمر ﷺ أبا طلحة بتقسيم شعر شقّه الأيسر على الناس... وعند مسلم: (فوزعه بين الناس الشعرة والشعرتين)، ولفظ «اقسمه» يُشعر أن النبي ﷺ أراد من أبى طلحة ﷺ العدل بين الناس في توزيع الشعر، ولولا علمه ﷺ بعظيم بركة شعره، ما أمر بتقسيمه بين الناس. بل إنه أمر بمراعاة العدل في التقسيم.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٢/ ٤٣٢-٤٣٣) بتصرف.

يتفرع على ذلك إثبات بركة النبي ﷺ في كل ما يخصه؛ إذ تم توزيع شعره بين الصحابة، ﷺ بالشعرة والشعرتين، ولولا حدوث البركة بالشعرة الواحدة، ما كان هناك حكمة من وراء توزيعها على الصحابة، ولك أخى القارئ أن تتصور الجهد الذى بذله أبو طلحة ليقسم شعر الشق الأيسر للنبي ﷺ بين الناس... ومعلوم أن شعره ﷺ كان كثيفاً وطويلاً.

(٢) عظيم اعتناء المولى - سبحانه وتعالى - بنبيه ﷺ إذ جعل في كل شىء اتصل به عظيم البركة، من الشعر واللباس والأظافر والعرق ومكان الصلاة وفضلة الماء والوضوء، وبصاقه بل ونخامته التى كان الصحابة ﷺ يتبادرونها فيمسحون بها وجوههم... وقرأ أخى المسلم، ما ورد في البخارى في حديث صلح الحديبية الطويل، ما ذكره عروة بن مسعود لأصحابه من كفار قريش: (والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إن رأيت ملكاً قط يُعظمه أصحابه ما يُعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً... والله إن تنحّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده).

ولا تتعجب أخى القارئ من سلوك الصحابة ﷺ ولا تقل في نفسك: كيف يفعلون ذلك بالنخامة، وتظن أنك لو كنت مكانهم لاستقذرت ذلك؛ لأن الذى عاين وعاش أحوال النبي ﷺ ليس كالذى سمع... وإذا كان عرقه ﷺ كان مثل حبات اللؤلؤ في جماله، وأطيب من المسك في ريحه، فلماذا نقيس نخامته ﷺ بنخامة بقية الناس.

الفائدة الثانية: بالغ حب الصحابة ﷺ للنبي ﷺ ويتبين ذلك من:

(١) حرصهم على اقتناء شعر الرسول ﷺ.... حيث ورد عند مسلم من حديث أنس رضي الله عنه: (فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل). وما كان هذا إلا لتعظيمهم كل ما يتصل بالنبي ﷺ ولا نقول شعره، بل نقول الشعرة الواحدة

منه... كانوا يرون أن من الخسارة أن تقع الشعرة على الأرض، ولا ينتفع أحدٌ منها.. وقد يكون ذلك أيضًا، من باب إجلالهم للشعرة من أن تقع على الأرض التي يمشى الناس عليها بأقدامهم، وهذا ليس ببعيد ولا مُستغَرَّب.

(٢) رؤيتهم أن اقتناء شعرة واحدة من شعر رسول الله ﷺ أحب إليهم من الدنيا وما فيها... لما رواه البخاري: (عن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قِبَل أنس أو من قِبَل أهل أنس فقال: لأن تكون عندي شعرة منه أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها). أى أن أحدهم لو خيَّر بين الدنيا بما فيها من الأولاد والمال والحلائل من النساء، وبين شعرة واحدة، من شعر النبي ﷺ والله ما تردد واختار الشعرة... فهي أرجح عنده في الميزان من الدنيا وما فيها، فأى حُبِّ كان هذا الحب... وتنبَّه أخى القارئ، أن ابن سيرين لم يكن من الصحابة، ولكن كان من التابعين، أى أن الشعر كانوا يحتفظون به، مُدَّةً طويلة، وكانوا إما يتوارثونه أو يتهادونه فيما بينهم، لقول ابن سيرين عن شعر النبي ﷺ: (أصبناه من قِبَل أنس).

الفائدة الثالثة: وهى منقبة عظيمة لأبى طلحة، حيث خَصَّه النبي ﷺ وحده بشطر شعره الأيمن، وبقية الناس بالشطر الآخر^(١).

بِشْطَرِ شَعْرِهِ الْأَيْمَنِ وَبِقِيَّةِ النَّاسِ بِالشَّطْرِ الْآخَرِ

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (٢/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) كِتَابُ آدَابِ الطَّعَامِ

(١٠٠) بَابُ التَّسْمِيَةِ فِي أَوَّلِهِ وَالْحَمْدُ فِي آخِرِهِ

❁ لا بد أن نعلم أن الطعام نعمة كبيرة من عند الله ﷻ .. لَفَتَ اللهُ ﷻ نظر الإنسان إليها في كثير من الآيات القرآنية.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفِكَهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَّعَاكُمْ وَلَا تُنْكِرُ ﴿ [عبس: ٢٤-٣٢].

والله ﷻ جعل لنا الطعام ليكون سبباً لحياتنا وعوناً لنا على طاعته ﴿ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١].

فالطعام يُعينك على العلم والعمل .. وهذا هو الفرق بين المؤمن والكافر. فالكافر يعيش ليأكل ويستمتع .. والمؤمن يأكل ليعيش ويعبد ربه ﷻ ... فهذا الطعام نعمة عظيمة.

❁ ولذا فإن المسلم لا بد أن يتعلم كيف يتعامل مع نعم الله ﷻ بالشكر والحمد وموافقة هدى النبي ﷺ ليفوز بمحبة الله (جلّ وعلا) وبالبركة في كل نعمة أنعم الله بها عليه.

ومن بين تلك النعم: نعمة الطعام ... ولا شك أن الطعام له آداب ينبغي أن نتعلمها.

❁ والطعام هو ما يطعمه الإنسان .. وقد يكون شراباً أو أكلاً .. والدليل على أن الشراب يُسمّى طعاماً قوله ﷻ حكاية عن طالوت أنه قال للجنود: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ

مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴿ [البقرة: ٢٤٩].

وقوله ﷺ عن ماء زمزم: «إنه طعام طعم وشفاء سقم».

فاللهم ارزقنا شكر نعمتك يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣٢) عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «سم الله،

وكل يمينك، وكل مما يليك»^(١).

(٧٣٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليذكر

اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله، فليقل: بسم الله أوله وآخره»^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يحكى عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه أنه كان يأكل مع النبي

ﷺ .. وكان عمر ربيب النبي ﷺ يعنى ابن زوجته أم سلمة .. وكان غلاماً صغيراً

في ذلك الوقت ... فلما جرى بالطعام للنبي ﷺ جلس يأكل معه فجعلت يده

تطيش في الصفحة ... فيأكل من أمامه مرة ومن وسط الصفحة مرة ومن آخرها

مرة .. وكان النبي ﷺ لا يترك أحداً بحاجة إلى التعليم إلا علمه ... حتى الصغار

كان النبي ﷺ يهتم بهم ويعلمهم. فقال له النبي ﷺ: «يا غلام سم الله، وكل

يمينك، وكل مما يليك» .. فتلك ثلاثة آداب من آداب الطعام .. ومن المعلوم

أن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، ولذلك لم ينس عمر بن أبي سلمة

تلك الآداب بدليل أنه هو الذي يروى الحديث.

وكان النبي ﷺ يهتم بالصغار؛ لأن من شبَّ على شيء شاب عليه.

فإذا شبَّ على أنه يأكل بيده الشمال، أو على أن يده تطيش في الصفحة، أو

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٢٢) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨٠).

على أنه لا يحترم الذى أمامه فى الأكل، أو على أنه يمد يده إلى الذى أمام غيره فى أخذه ويأكله، فإنه يصير هذا دأبه وطبعه بعد ذلك... فلذلك كان النبى ﷺ يُعوّد أصحابه من صغرهم على أن يتأدبوا بالآداب الشرعية.

❁ وهنا علّمه النبى ﷺ ثلاثة آداب:

أولاً: «سَمَّ الله» يعنى قُل: بسم الله .. ولا حرج لو قال: بسم الله الرحمن الرحيم .. لكن إن قال: بسم الله يكفيه .. والتسمية على الطعام واجبة إذا تركها الإنسان فإنه يأثم .. وفوق ذلك يُشاركه الشيطان فى طعامه ... فإذا نسيت أن تُسمى فى أوّل الطعام وتذكرت أثناء الطعام فقل: «بسم الله أوله وآخره» كما أرشد النبى ﷺ إلى ذلك فى الحديث الثانى.

ثانياً: «وَكُلْ بِيَمِينِكَ»: فالأكل باليمين واجب .. وإذا كان مُتعوداً على الأكل بالشمال فليُجاهد نفسه حتى يأكل بيمينه .. لأن مَنْ أكل بشماله فهو آثم عاصٍ لله ورسوله - إلا إذا كانت يده اليمنى شلّاء أو مكسورة - .. وهو فى نفس الوقت يتشبه بالشيطان فى طعامه .. فقد قال النبى ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»^(١).

ثالثاً: «كُلْ مِمَّا يَلِيكَ»: يعنى: إذا كنت تأكل مع أحدٍ فكل مما يليك - أى: من أمامك - ولا تأكل من جهته ومِمَّا يليه ؛ لأن هذا من سوء الأدب وقد تُتهم بالشراسة دون أن تدري.

قال العلماء: إلا أن يكون الطعام أنواعاً، مثل أن يكون فيه قرع وباذنجان ولحم وغيره، فلا بأس أن تتخطى يدك إلى هذا النوع أو ذاك، كما كان الرسول ﷺ يتبع الدُّبَاء من الصحفة ويأكلها. والدُّبَاء يعنى القرع.

وكذلك لو كنت تأكل وحدك فلا حرج أن تأكل من الطرف الآخر، لأنك لا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.



تؤذى أحدًا في ذلك ... لكن لا تأكل من أعلى الصفحة لأن البركة تنزل في أعلاها ووسطها، ولكن كُلْ من الجوانب ... حتى إذا انتهى الطعام من الجوانب تستطيع أن تأكل الطعام الذي في وسط الصفحة ولا حرج عليك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣٤) وعن جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ لِأَصْحَابِهِ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»^(١).

❁ لا بد أن نعلم أن الشيطان يتربص بالإنسان المؤمن ويقف له بالمرصاد .. فمن بين الأشياء التي يتربص فيها الشيطان بالإنسان عند دخوله بيته وعند عشاءه ... فإذا عاد المسلم من عمله أو من أي مكانٍ إلى منزله فإن الشيطان يقف عند باب منزله ومعه مجموعة من الشياطين .. فإذا ذكر المسلم ربه عند الدخول قال ذلك الشيطان لأعوانه: لا مبيت لكم اليوم .. وإذا ذكر الله عند عشاءه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء ... أما إذا دخل المسلم بيته ونسى أن يذكر الله عند دخوله يُهنئ الشيطان نفسه وأعوانه ويقول لهم: أدركتم المبيت في هذا البيت .. فإذا لم يذكر المسلم ربه عند عشاءه قام الشيطان يُهنئ أعوانه للمرة الثانية ويقول لهم: أدركتم المبيت والعشاء ... أي: أن الشيطان وأعوانه سيشاركون أهل البيت في العشاء وكذلك في المبيت ... فتخرج الملائكة وتبقى الشياطين وتُتزع البركة وتكثر الكوابيس والمشاكل.

❁ وذكر الله تعالى عند دخول البيت أن يقول المسلم:

باسم الله .. «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ، وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِاسْمِ اللَّهِ وَلِجْنَا،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٨) كتاب الأُشربة.

وباسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا»^(١).

✽ وأما الذكر عند العشاء فأن تقول: «بسم الله».

ويُستحب أن تُكثر من ذكر الله ﷻ وأن تُسلم سواء كان في البيت آدمي أم لا... لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١]، فإذا لم يكن في البيت أحد تقول:

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

✽ وإذا كان أهلك بالبيت تقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

✽ وإليك بعض ثمرات الذكر عند دخول المنزل:

(١) طرد الشيطان:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دُخُوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء؟».

وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت.

وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»^(٢).

(٢) البركة:

قال رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ إذا دخلت على أهلك فسلم؛ تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود والطبراني في الكبير، وصححه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٨٣٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٨) كتاب الأشربة.

(٣) حسن: رواه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٠٨).

(٧٣٥) وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا، لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَامًا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهَا، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهِذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا، فَجَاءَ بِهَذَا الْأَعْرَابِيُّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ يَدُهُ فِي يَدِي مَعَ يَدَيْهِمَا» ثُمَّ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى وَآكَلَ ^(١).

✽ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَعَامًا لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَضَعُ يَدَهُ ... وَذَلِكَ لِكَمَالِ احْتِرَامِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَا يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ فِي الطَّعَامِ حَتَّى يَضَعُ يَدَهُ ... فَحَضَرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ طَعَامًا قُدِّمَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا بَدَءُوا جَاءَتْ جَارِيَةٌ .. يَعْنِي طِفْلَةً صَغِيرَةً كَأَنَّمَا تُدْفَعُ دَفْعًا ... يَعْنِي كَأَنَّهَا تَرَكُضُ فَأَرَادَتْ أَنْ تَضَعَ يَدَهَا فِي الطَّعَامِ بَدُونِ أَنْ تُسَمَّى اللَّهُ فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهَا ... ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَذَلِكَ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ دَفْعًا فَجَاءَ يَدَهُ فِي الطَّعَامِ فَأَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا الْأَعْرَابِيَّ وَهَذِهِ الْجَارِيَةُ جَاءَ بِهِمَا الشَّيْطَانُ لِأَجْلِ أَنْ يَسْتَحِلَّ الطَّعَامَ بِهِمَا إِذَا أَكَلَا بَدُونِ تَسْمِيَةٍ ... وَهُمَا قَدْ يَكُونَانِ مَعْذُورَيْنِ لَجَهْلِهِمَا ... هَذِهِ لَصُغْرَاهَا وَهَذَا أَعْرَابِيٌّ لَكِنَّ الشَّيْطَانَ أَتَى بِهِمَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمَا إِذَا أَكَلَا بَدُونِ تَسْمِيَةٍ شَارَكَ فِي الطَّعَامِ ... ثُمَّ أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ يَدَ الشَّيْطَانِ مَعَ أَيْدِيهِمَا فِي يَدِ النَّبِيِّ ﷺ.

✽ وهذا الحديث يدل على فوائد:

منها: احترام الصحابة لرسول الله ﷺ وأدبهم معه.

ومنها: أنه ينبغي إذا كان هناك كبير على الطعام ألا يتقدم أحدٌ قبل أكله بل يُؤثِّرون الكبير بالأكل أولاً لأنَّ التَّقدُّمَ بين يدي الكبير غير مناسب ويُنافي الأدب....

ومنها: أن الشيطان يأمر الإنسان ويحثه ويزجره على فعل ما لا ينبغي وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

فدل هذا على أن الشيطان له إمرة على بني آدم... والمعصوم من عصمه الله. ومنها: أن الإنسان إذا أتى في أثناء الطعام فليسم ولا يقل سَمَى الأولون قبلى... ولكن إذا كانوا جميعاً وبدؤوا بالطعام جميعاً فهل يكفى تسمية الواحد؟ والجواب: إن كان الواحد سَمَى سرّاً فإن تسميته لا تكفى؛ لأن الآخرين لم يسمعوها وإن سَمَى جهراً ونوى عن الجميع فقد يقال إنها تكفى وقد يقال الأفضل أن يُسمى كل إنسان لنفسه وهذا أكمل وأحسن.

ومن فوائد هذا الحديث: أن للشيطان يداً لأن النبي ﷺ أمسك بيده. ومنها أيضاً: أن هذا الحديث آية من آيات الرسول ﷺ حيث أعلمه الله تعالى بما حصل في هذه القصة وأن الشيطان دفع الأعرابي والجارية وأنه أمسك بأيديهم... أى بأيدي الثلاثة بيده الكريمة صلوات الله وسلامه عليه. ومنها: أنه إذا جاء أحدٌ يريد أن يأكل ولم تسمعه سَمَى فأمسك بيده حتى يُسمى... لأن النبي ﷺ أمسك بأيديهم ولم يقل سَمَى بل أمسك بأيديهم حتى يكون في ذلك ذكرى لهم يذكرون هذه القصة ولا ينسون التسمية في المستقبل. ومن فوائد هذا الحديث: تأكد التسمية عند الأكل...

والصحيح أن التسمية عند الأكل واجبة وأن الإنسان إذا لم يُسم فهو عاصي لله ﷻ وراضٍ بأن يشاركه في طعامه أعدى عدو له وهو الشيطان.. فلذلك كانت التسمية واجبة فإن نسيت التسمية في أوله وذكرت في أثناءه فقل: بسم الله أوله وآخره^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٣٦-٤٣٧) بتصرف.

(٧٣٦) وعن أمية بن مخشٍ الصحابي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً، ورجُلٌ يأكل، فلم يُسم الله حتى لم يبقَ من طعامه إلا لقمة، فلما رفعها إلى فيه، قال: بسم الله أوله وآخره، فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «ما زال الشيطان يأكل معي، فلما ذكر اسم الله استقاء ما في بطني»^(١).

✽ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٧٣٧) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأكل طعاماً في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي، فأكله بلقمتين فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه لو سمي لكفأكُم»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث تحكى أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان ذات مرة جالساً مع ستة من أصحابه يأكلون طعاماً من قصعة فيها من الطعام ما يكفي هؤلاء الستة ... وقد كان النبي ﷺ لا ينسى أصحابه أبداً ... فإذا أتاه طعامٌ على سبيل الصدقة فإنه يُعطيه لأصحابه ولا يأكل معهم؛ لأن الزكاة والصدقات لا تحل للنبي ﷺ وآل بيته ... وإذا أتاه طعامٌ على سبيل الهدية فإنه كان يأكل ويُطعم أصحابه معه ﷺ.

وهنا كان النبي ﷺ يأكل مع ستة من أصحابه .. وكانوا في بداية الطعام .. وفجأة جاء أعرابي فأكل الطعام كله بلقمتين ولم يترك أى شئٍ للنبي ﷺ وأصحابه .. فتعجب النبي ﷺ من فعله ولكنه اغتنم هذه الفرصة ليُعلم أصحابه هذا الدرس المهم فقال لهم ﷺ: «أما إنه لو سمي لكفأكُم».

(١) ضعيف: رواه أبو داود، والنسائي، وضعفه الألباني في المشكاة (٤٢٠٣)، وفي تخريج الكلم الطيب (١٨٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (١٣٢٣).

أى: لو أن هذا الأعرابى قال: بسم الله قبل أن يأكل لكفاهم الطعام جميعاً ... فذكر الله يجعل البركة تحصل فى الطعام.

ولكن الإنسان الذى لا يذكر الله يُزين له الشيطان شهواته، ويقول له: كُلْ لكى تشبع، فلن تجد أكلاً مثل هذا بعده.

فيمد يده ويأكل الطعام كله، ويترك مَنْ أمامه لا يجدون شيئاً! فالتسمية تُحدث البركة فى الطعام، وبها يجعل الله عِبَادَهُ فى قلب الإنسان التقوى التى بها يحافظ على نفسه وعلى غيره، بل يُؤثّر غيره على نفسه، فحين يأكل ويرى غيره لا يأكل يقول: هو أولى منى بهذا الشيء.

فيعطى الطعام لغيره وحينئذٍ يكفى الجميع.

ولذلك جاء فى حديث النبى ﷺ: (طعام الواحد يكفى الاثنين، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة أو الأربعة)، فإذا أكل الإنسان بمعدة كاملة أكل الطعام كله، وإذا أكل وترك شيئاً لنفسه وشيئاً لشرابه أمكن أن يأكل غيره معه ... فالطعام الهنىء الطيب يكفى عدداً من الناس.

فإذا قال الإنسان: (باسم الله) حدثت التقوى فى قلبه، فأثر غيره على نفسه، وأشبعه الله عِبَادَهُ بالذى أكله وجعل فى الطعام بركة، وأبعد الشيطان عنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣٨) وعن أبى أمانة رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفعَ مائدته قال: « الْحَمْدُ لِلَّهِ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غيرَ مكْفَىٍّ وَلَا مُودَعٍ وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبَّنَا »^(١).

❁ ففى هذا الحديث العظيم يُخبرنا أبو أمانة رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا انتهى من طعامه ورُفعت مائدته كان يقول: « الْحَمْدُ لِلَّهِ حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غيرَ مكْفَىٍّ وَلَا مُودَعٍ وَلَا مُسْتَغْنَى عَنْهُ رَبَّنَا ».

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٤٥٨) كتاب الأطعمة.

✽ فالنبي ﷺ يقول بعد طعامه: (الحمد لله) يعنى: أثنى على الله سبحانه بالثناء الجميل الذى يستحقه سبحانه على أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وعلى ما أنعم به علينا من فضل ونعم.

وقوله: (حمداً كثيراً طيباً) أى: يطيب هذا الحمد على لسان المؤمن، فيكون المقصود به الحمد الكثير... الحمد الذى يقوله الإنسان مع تنزيهه ربه سبحانه عن أى نقص.

وقوله: (مباركاً فيه) يعنى حمداً يزداد كلما زادت نعم الله سبحانه وتعالى. قوله: (غير مكفى) يعنى: لا أحد يُطعمه سبحانه، ولا أحد يسقيه حاشاء سبحانه وتعالى، فلا يحتاج إلى أحد، بل هو الذى يُطعم ولا يُطعم سبحانه وتعالى.

(ولا مودع ولا مُستغنى عنه ربنا) يعنى: لا نودع ولا نستغنى عن ربنا سبحانه وتعالى، ولا نودع هذا الطعام بحيث يكون آخر طعام، فربنا سبحانه يعطى ويعطى، كما قال تعالى: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فنحن غير مستغنين عن طعام يُطعمناه ربنا سبحانه، ولا عن شراب يسقيناه ربنا سبحانه وتعالى... فقلوه: (ولا مودع) يعنى: غير متروك الطلب.

وكأن المعنى أن ربنا سبحانه وتعالى غير محتاج إلى أحد سبحانه، ولا نودعه سبحانه وتعالى، بل نحتاج إليه أبداً سبحانه وتعالى، ولا نستغنى عنه... وهذا الذكر يُقال بعد الطعام^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٣٩) وعن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ، غُفِرَ لَهُ مَا

(١) يتصرف من (شرح رياض الصالحين) / الشيخ أحمد حطية.

تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث دليل على أن الإنسان ينبغي له إذا أكل طعاماً أن يحمده الله سبحانه وتعالى وأن يقول: الحمد لله الذي أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منى ولا قوة .. ومعنى ذلك أنه لولا أن الله تعالى يَسِّرَ لك هذا الطعام ما حصل لك كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٣) ﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَمْنَى الزَّرْعُونَ﴾ (١٤) ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطاً مَا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (١٥) ﴿إِنَّا لَمَغْرُمُونَ﴾ (١٦) ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (١٧).

[الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

فلولا أن الله عَزَّوَجَلَّ يَسِّرَ لك الطعام من حين أن يكون بذرة في الأرض ما تيسَّر لك .. واعلم أن رغيغ الخبز الذى تأكله لا يصل إليك إلا بعد أن توضع البذرة فى الأرض ثم تُسقى ويعتنى بها الفلاح عناية كبيرة .. ثم إذا نبت القمح فإنه يُحصد ثم يُطحن ثم يُعجن ثم يتم تسويته فى الفرن حتى يصل إليك لتأكله هنيئاً مريئاً .. فانظر كم الله عليك من نعمة فى هذا الرغيغ فقط .. فكيف بسائر الأطعمة وصنوف النعم ثم تأمل معى كيف أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذى أعطى وأطعم وسقى ثم يقول (جلّ وعلا): ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فإذا أكل المرء وحمد الله تعالى أو شرب وحمد الله تعالى غفر له ربه سبحانه وتعالى بالشىء القليل الذى يقوله، وهو قوله: (الحمد لله).

فقول المرء: «الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منى ولا قوة» معناه أن ربنا هو الذى أطعمنى، وهو الذى رزقنى هذا من غير حولٍ منى ...، أى: من غير حيلة منى، ولكن الرزق بيد الله سبحانه، فهو الذى وجهنى، وهو الذى جعلنى أكسب هذا الشىء بفضلِهِ ورحمته.

فهو الذى يوفق العبد للكسب الهنىء الطيب، ... فاللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

(١) حسن: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٨٦).

(١٠١) باب لا يعيب الطعام .. واستحباب مدحه

❁ إن المسلم لا يعيب شيئاً من نعم الله أبداً.

فإذا تيسر أمامك أى طعام فلا يجوز أن تعيب الطعام إن لم يُعجبك، فإن كنت تشتهيه وطابت به نفسك فلتأكله.. وإن لم تكن تشتهيه فلا تأكله، ولكن لا تقدح في الطعام ولا تعيبه؛ لأنه نعمة من عند الله (جلّ وعلا).

بل لا بد أن تتذكر في تلك اللحظة هؤلاء الذين يموتون من الجوع في أقطار الأرض ولا يجدون لقمة واحدة... فتحمد الله على أن يسّر لك الطعام مهما كان حاله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه^(١).

❁ وهذا من حسن خلقه (عليه الصلاة والسلام)، فقد كانوا فقراء وكان الطعام قليلاً... وكسرة الخبز كانت شيئاً كبيراً جداً بالنسبة لهم، وما أكل النبي ﷺ حتى مات طعاماً مُرَقَّقاً من عيشٍ قط ﷺ... إنما كان يُخبز للنبي ﷺ الخبز والدقيق بنخالته، فقد كانوا يأخذونه وينفخون في الدقيق، حتى يذهب منه بعض نخالته، ويُخبز بباقيها... أما أنه يُعمل له منخل ويتخل فيه الدقيق مثلما يحصل الآن، فلم تكن مثل هذه الأشياء موجودة في عهد النبي ﷺ.

ولذا فقد كان النبي ﷺ إذا دُعِيَ إلى طعامٍ أو إذا قُدِّم له طعام.. فإن اشتهاه أكل منه.. وإن كرهه لم يعبه ولم يأكل منه واعتذر بصورة لا تجرح صاحب الضيافة... ولذلك عندما كان يُوضع الضَّبُّ على مائدة النبي ﷺ لم يكن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٠٩) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٦٤) كتاب الأشربة.

يشتهيهِ... والضَّبُّ نوعٌ من الحيوانات الصحراوية وشكله مثل التمساح ولكنه برّى... فالتمساح حيوان برمائي، وهذا يوجد في الصحارى ونحوها، وأراضى الحجاز ونجد مليئة بالضباب، وفي غيرها من المناطق الصحراوية، وهو صغير في الحجم، فكانوا يشوونه ويقدمونه لحمًا... فكان العرب يشتهون ذلك... والضَّبَاب لم تكن موجودة في مكة أو المدينة، فلذلك كان يعافه ﷺ ويقول: «إنَّهُ ليس بأرض قومي فأجدني أعافه».

فإن كنت ضيفاً عند أحدٍ وقَدَّم لك طعاماً لا تحبه فلا تقدح في الطعام ولكن ادعُ لصاحب الطعام بكل خير وأخبره أنك لا تريد الطعام الآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤١) وعن جابرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الْأُدْمَ، فَقَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ، فَدَعَا بِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ ويقول: «نِعَمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ، نِعَمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ»^(١).

❁ وفي رواية أخرى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِالطَّرِيقِ فَوَجَدَ جَابِرًا رضي الله عنه تَحْتَ ظِلِّ بَيْتٍ وَكَأَنَّهُ اسْتَشْعَرَ أَنَّ جَابِرَ جَائِعًا، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَهُ، فَتَبَعَ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ أَهْلِهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْإِدَامِ، فَقَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا خَلٌّ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِهِ لِيَأْكُلَ، وَقَالَ: «نِعَمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ، نِعَمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ» وَالْإِدَامُ: هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي تَغْمَسُ الْخُبْزَ فِيهِ... وَالْإِدَامُ شَيْءٌ يُسَاعِدُكَ عَلَى ابْتِلَاعِ الطَّعَامِ وَاسْتِسَاغَتِهِ مِنْ زَيْتٍ أَوْ دَهْنٍ أَوْ غَيْرِهِ... فَأَكَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْخَلَ وَقَالَ: «نِعَمَ الْأُدْمُ الْخَلُّ».

وأخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَحِبُّهُ مِنْذُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَأْكُلُهُ، وَقَدْ غَمَسَ الْخُبْزَ بِالْخَلِّ فَأَكَلَهُ ﷺ وَمَدَحَهُ أَيْضًا... فَيُسْتَحَبُّ مَدْحُ الطَّعَامِ فَقَدْ خَلَقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ مِنْ فَضْلِهِ وَمِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ.

والمدح للخل يبين أن هناك فائدة كبيرة في الخل، والنبي ﷺ لم يمدحه إلا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٥٢) كتاب الأشربة.

وهو يعلم فوائده.

✽ وقد بحث العلماء في بعض فوائد الخل فتوصلوا إلى نتائج مُبهرّة:

فقد ذُكر في موسوعة من موسوعات الصيدلة وهى موسوعة مارتن بل الصيدلانية... ذُكر فيها فوائد عديدة للخل، فقد قالوا: إن الخل له فوائد تدفعنا أن نأكل منه كما أكل النبي ﷺ، فهو يُستعمل كعلاج في معالجات حالات التسمم من المواد القلوية، وهو يفيد في علاج الحمى... فالإنسان الذى أُصيب بِحُمّى عالية يساعد على أن يُنزل درجة حرارته، إذا استُخدمت كمّادات من ماء الخل على رأس الإنسان أو على جسده، وقالوا: إن الإنسان يستخدم أحياناً مُضادات حيوية كثيرة فتسبب في ظهور طبقة سوداء على اللسان لا تذهب، فقالوا: إن الخل يفيد في إزالة هذه الطبقة... فإذا أُخذ الخل ووضع على ماءٍ وشُرب ومُسح به اللسان مرة أو مرتين في اليوم لمدة أسبوع يُزيل ذلك.

وقالوا: إنه مفيد في التهاب المفاصل إذا وضع على هيئة كمّادات فيُضاف الخل إلى الماء ويُسخّن ويُوضع على المفاصل فيُريحها.

وقالوا: إن لدغات النحل ولدغات السمك الهلالية في البحر إذا عولجت بوضع الخل عليه مخلوطاً بملح فإن الألم يخف ولا يبقى شىء.

وقالوا: في الخل وخاصة الخل المصنوع من التفاح شفاء العديد من الأمراض: التهابات المفاصل، والتهاب الأنف، وحساسية الأنف، والربو، واضطرابات الأمعاء، وأنواع من الرشوحات موجودة في الجسم، وهو الآن يُستخدم للتخسيس، «نعم الأُدُمُ الخَلُّ».

وذكر الدكتور سيرلس كود وموريس هانس في كتاب عن فوائد الخل يقول: يمنع الإسهال لاحتوائه على مواد قابضة، ويُنشط عملية الهضم لأى إنسان؛ لأنه حامضى فيزيد من حموضة المعدة فيُنشط الهضم والاستقلاب في الجسم

وتحويل المواد الغذائية.

قالوا أيضًا: يُستخدم كمضّمضات ليمنع التنخّر في الأسنان، كما أنه يقتل الطفيليات الموجودة في الأمعاء، ويمكن استعماله لتحسين الهضم عند مرضى عُسر الهضم^(١).

❁ بل قالوا: إن الخلّ يُذيب الدهون .. إذا أخذ منه ملعقة على ماء السلطة الخضراء مع الأكل (وذلك لأن الخل هو حمض الأسيتيك (Acetic Acid) وهذا الحمض له علاقة بالبروتين والدهون والكربوهيدرات). وإذا تناول الإنسان الخلّ بصفة منتظمة في مكونات الطعام، كالسلطة الخضراء، أو ملعقة صغيرة على كوب ماء، وبخاصة إذا كان خل التفاح، فإنه يحافظ على مستوى دهون الجسم.

❁ ويُقلّل الخل من احتمالية الإصابة بتصلّب الشرايين أو يقي منها تمامًا... لأنه يُحوّل الزائد من الدهون إلى المُركّب الأوسط وهو الأسيتوأسيتات Acetoacetate الذي يدخل في التمثيل الغذائي.

والثابت عن النبي ﷺ أنه كان يأكل الخلّ مع الزيت.

❁ وفي عام الرمادة كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأكل الزيت والخل (فقط). وما أكل اللحم إلا بعد أن أكله فقراء المسلمين.

❁ وخلّ التفاح أفضل أنواع الخلّ لأنه بجانب حمض الأسيتيك المكون له فإنه يحتوى على العديد من الأحماض العضوية اللازمة للجسم في التمثيل الغذائي إلى جانب العديد من المعادن اللازمة للجسم.

❁ قال الدكتور جارفيس في كتابه (الطب الشعبي): الخلّ مُطهر للأمعاء من الجراثيم كما أنه مُطهرٌ لالتهابات حوض الكلى والمثانة، ويُذكر أن الخل يقضى

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ أحمد حطية.

على الصديق الموجود بالبول^(١).

هذا ما وصل إليه العلماء من الأبحاث ... ومن الممكن أن تأتي أبحاث جديدة تُثبت أشياء أكثر من هذا الذي ذكر.

ولكن على كُلِّ نرجع لحديث النبي ﷺ أنه مدح الطعام وإن كان شيئاً يسيراً قليلاً بحسب الموجود ... فيمدح الإنسان الموجود من الطعام، ويحمد ربه (سبحانه وتعالى) عليه وعلى نعمه ... قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالمؤمن إذا أكل وحمد الله سبحانه وشكر الله سبحانه فإن الله سيعطيه المزيد من فضله سبحانه.

✽ فاحرص - أخى الحبيب - على أن تعود نفسك على أن تأكل من الطعام الموجود ... فلو عودت نفسك على الغالى وعلى الفاخر فلعلّه يعزُّ في زمنٍ من الأزمان فلا تجد هذا الطعام ... فعود نفسك على الشيء القليل حتى لا تظل متعلقاً بالشيء الغالى وقد لا تجده فيحدث في نفسك شيء، ... فاللهم ارزقنا نعمة الرضا والقناعة .. وارزقنا شكر نعمك التى لا تُعد ولا تُحصى.

﴿وَلَا تُحْصَى﴾

(١) التداوى بالنبات والطب النبوى (بتصرف يسير).

(١٠٢) باب ما يقوله من حضر الطعام

وهو صائم إذا لم يفطر

✽ إن من أسباب المحبة بين المسلمين إطعام الطعام.

بل إن إطعام الطعام من أسباب دخول الجنة .. فقد قال النبي ﷺ: «أَفْشِ السَّلَامَ، وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ، وَصِلِ الْأَرْحَامَ، وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامَ، وَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١).

✽ فإذا دعاك أحد أصحابك أو أقاربك إلى الطعام فلا بُد أن تأكل من طعامه .. ولا يكفي مجرد الحضور .. وذلك لأن صاحبك دعاك من أجل أن تأكل وقد تكلف لك وصنع طعامًا ودعاك إليه.

فإن كان قد دعاك أنت وغيرك إلى الطعام، ولم يأكل أحدٌ من طعامه لصار ذلك مفسدة لماله ومضيعة له ولصار في قلبه على الحاضرين شيء لأنهم لم يأكلوا طعامه ... بل قد يلقى الشيطان في قلبه أنهم لم يأكلوا لأنهم يظنون أن طعامه جاء من مالٍ حرام.

✽ ومن أجل ذلك نقول: إذا دعاك أحد إخوانك أو أقاربك إلى الطعام فمن السنة أن تجيبه ... وإذا دعاك إلى وليمة عرسه فالواجب أن تجيب دعوته ولا يحل لك أن تمتنع إلا لعذر ... وذلك لقول النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢).

يعنى في دعوة الوليمة .. أما غيرها من الدعوات فانت بالخيار.

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٨٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني في الإرواء (١٩٤٧) - وأصله في الصحيحين.

وذلك مثل أن يدعوك إنسان إلى الطعام؛ لأنه دعا أصحابه ويُحب أن تكون معهم... أو لأنه عاد من السفر، أو لأن ولده قد نجح هذا العام أو لغير ذلك... فأنت بالخيار.. إما أن تُجيب أو لا تُجيب.. لكن الأفضل أن تُجيب.. وهذا الذي عليه جمهور العلماء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ، وَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ»^(١).

✽ قال بعض العلماء: يجب أن تُجيب في دعوة الطعام في العرس وغيره إلا لسبب شرعى.

فإذا حضرت فإن كنت مُفْطِرًا فَكُلْ، وإن كنت صائمًا فادعُ لصاحب الطعام، وأخبره بأنك صائم، حتى لا يكون في قلبه شيء... وإن رأيت أنك إذا أفطرت وأكلت صار أطيب لقلبه فأفطر، إلا أن يكون الصوم صوم فريضة، فلا تُفطر.

✽ فتبين الآن أن المسألة ثلاثة أحوال:

أولاً: إذا دعاك وأنت مُفْطِر فَكُلْ.

ثانياً: إذا دعاك وأنت صائم صوم فريضة فلا تأكل ولا تفطر.

ثالثاً: إذا دعاك وأنت صائم صوم نفل فأنت بالخيار إن شئت فأفطر وكُلْ وإن شئت فلا تأكل وأخبره بأنك صائم... وأتبع في ذلك ما هو الأصلح إذا رأيت أن من الخير أن تُفطر فأفطر وكُلْ وإلا فلزوم الصيام أولى^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٣١) كتاب النكاح.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَى «فَلْيُصَلِّ»: فَلْيَدْعُ - وَمَعْنَى «فَلْيَطْعَمْ»: فَلْيَأْكُلْ.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٤٤١).

(١٠٣) باب ما يقول من دُعي

إلى طعامٍ فتبعه غيره؟

❖ قد يدعوك أحد أصحابك أو أقاربك إلى الطعام.. فلما أجبت الدعوة وذهبت إليه ووصلت إلى باب بيته رآك أحد أصحابك فجأة وأراد أن يدخل معك دون أن يدعوه صاحب البيت فماذا تصنع؟

يأتيك الجواب مباشرة من الحبيب المصطفى ﷺ.

(٧٤٣) عن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه قَالَ: دَعَا رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ لِبَطْعَامٍ صَنَعَهُ لَهُ خَامِسَ خُمْسَةٍ، فَتَبِعَهُمْ رَجُلٌ... فَلَمَّا بَلَغَ الْبَابَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا تَبِعَنَا، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذُنَ لَهُ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعَ» قَالَ: بَلْ أَذْنُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ^(١).

❖ قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله: ففي هذا دليل على عدة فوائد:

أولاً: أنه يجوز للإنسان إذا دعا قوماً أن يُحدد العدد ولا حرج في ذلك وبعض الناس يقول: إنه إذا حدّد العدد فإنه يكون بخيلاً... ولكن يُقال: قد يكون الإنسان قليل ذات اليد يحتاج أن يُحدّد لأجل أن يصنع الطعام الذي لا يزيد عن كفايتهم ولا سيما في مكانٍ يكون فيه عامة الناس فقراء... أما الأغنياء فالحمد لله لا يُحددون.

وفيه أيضاً: دليل على جواز اتباع الرجل للمدعوين لعله يحصل على طعام... لأن النبي ﷺ لم يمنع هذا الرجل من اتباعهم بل استأذن له.

ولأنه ورد أيضاً في حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين تبع النبي ﷺ من أجل أن يُشبع بطنه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٨١) كتاب البيوع - ومسلم (٢٠٣٦) كتاب الأشربة.

وفيه أيضًا: دليل على أنه إذا جاء مع الإنسان مَنْ لم يُدعَ فإنه يُستأذن له خصوصًا إذا كنت تظن أن صاحب البيت دعاك لغرضٍ خاص لا يحب أن يطلع عليه أحدٌ فحينئذ لا بد أن تستأذن.

وفيه أيضًا: دليل على أنه لا حرج على صاحب البيت إذا لم يأذن للذي تبع المدعو لأنه لو كان في ذلك حرج ما استأذنه النبي ﷺ... فلما استأذنه دَلَّ على أنه بالخيار إن شاء أذن وإن شاء قال ارجع... وذلك أن الإنسان إذا استأذن لشخصٍ فصاحب البيت بالخيار إن شاء أذن له وإن شاء قال ارجع.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

❖ فلا يَكُنْ في صدرك حرج ولا في نفسك ضيق إذا استأذنت على شخصٍ وقال ارجع أنا الآن مشغول... خلافًا لبعض الناس إذا استأذن أحدهم على إنسانٍ وقال له: ارجع أنا مشغول صار في قلبه شيء... وهذا غلط لأن الناس لهم حاجاتٌ خاصة في بيوتهم وقد يكون لهم تعلُّقات بأناسٍ آخرين أهم... فإذا استأذنت على شخص في البيت وقال لك: الآن عندي شُغل فارجع... فارجع بكل راحة وبكل طمأنينة لأن هذا هو الشرع^(١).

❖ وقد يسأل سائل ويقول: ألم يقل النبي ﷺ: «طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ»^(٢).

فلماذا لم يقل النبي ﷺ للرجل الذي دعاه إلى الطعام: إن هذا الرجل تبعنا يُريد أن يأكل معنا... وأنت تعلم أن طعام الخمسة يكفي الستة.. فلا بأس أن يُصبح الخمسة ستة؟

الجواب: لأن النبي ﷺ يُربى كل واحدٍ من أصحابه تربية عملية على أن

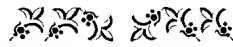
(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٩٢) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٥٩) كتاب الأشربة.



بيوت الناس لها حُرُمات .. وأن صاحب الدعوة قد لا يحب أن يُدخل هذا الرجل بيته .. أو أنه قد يكون بحاجة إلى أن يتكلم بكلام لا يسمعه أحدٌ غريب ..

❁ ولكن إن حدث لك موقفٌ مُشابهٌ لما حدث مع النبي ﷺ فلك فيه الأسوة والقدوة ... فعليك أن تفعل مثلما فعل النبي ﷺ وتقول لصاحب البيت (إن هذا تَبِعْنَا) أى: نحن لم ندعه بل هو الذى أتى بنفسه، (إن شئت أذنت له، وإن شئت رجع) أى: لن نتوسط له ولن نشفع له ولكن حسب ما تريد... حتى لا نُسبب له حرجًا.





(١٠٤) باب الأكل مما يليه ووعظه وتأديب من يُسيئ أكله

(٧٤٤) عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كُنْتُ غَلامًا في حِجْرِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ فَقَالَ لِي رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا غُلامُ، سَمَّ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٠٤) والحديث رقم (٧٣٢) فأرجو الرجوع إليهما .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤٥) وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أُسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا أُسْتَطِيعْتَ» مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ، فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٦٣) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٧٦) كتاب الأطعمة، ومسلم (٢٠٢٢) كتاب الأشربة.

قوله: «تَطِيشُ» معناه: تتحرك وتمتد إلى نواحي الصَّحْفَةِ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢١) كتاب الأشربة.

(١٠٥) باب النهي عن القران بين تمرتين

ونحوهما إذا أكل في جماعة إلا بإذن رفقته

(٧٤٦) عن جبلة بن سحيم قال : أصابنا عام سنة مع ابن الزبير ، فرزقنا تمرًا ، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يمر بنا ونحن نأكل ، فيقول : لا تقارنوا ، فإن النبي ﷺ نهى عن الإقران ، ثم يقول : «إلا أن يستأذن الرجل أخاه»^(١).

✽ في هذا الحديث تعليم الصغار والكبار آداب الطعام ... فإذا كان الطعام فيه تمر أو نحوه مما يؤكل واحدة واحدة ، وكان معك أحد يأكل .. فالأدب أن تأكل واحدة واحدة ، كما يأكل هو ، إلا أن يكون الأمر الجارى هو الاتفاق على أن تأكلا اثنتين اثنتين أو ثلاثا ثلاثا ، أو استأذن أحدهما صاحبه . لكن لا تعود نفسك على هذا الشيء .

✽ فهنا يقول جبلة بن سحيم : (أصابنا عام سنة مع ابن الزبير) . (عام سنة) يعنى : عام جدد وقحط وشدة ... قال : (فرزقنا تمرًا) يعنى : قسم علينا تمرًا ... قال : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يمر بنا ونحن نأكل . وذلك فى عام مجاعة لم يصيبوا فيه إلا التمر فكانوا يأكلون التمر . فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (لا تقارنوا ؛ فإن النبي ﷺ نهى عن الإقران) يعنى : لا تأكلوا اثنتين اثنتين ، ولا يمد أحدهم يده ليأخذ تمرتين تمرتين ، بل ليأخذ كل منكم واحدة واحدة من الطعام الذى أمامكم . وذلك ليعلم المرء أنه كما أن له حقًا فى الطعام فللذى يأكل معه - أيضًا - حق فى الطعام ... فإذا كان سيأكل أكثر من واحدة فإنه سيقول : اسمحوا لى بأن أكل اثنتين اثنتين .

(١) متفق عليه : رواه البخارى (٥٤٤٦) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٤٥) كتاب الأشربة .

وهذا صعب على نفس الإنسان، وحينئذ سيستأذن مرة وسيستحي بعد ذلك فلن يستأذن، وحينئذ سيأكل واحدة واحدة.

فهذا أدب يؤدبنا به النبي ﷺ، بالأنا نأكل طعام غيرنا، وإلا فإن الجميع سيقومون وفي نفوس بعضهم شيء على الآخرين، فتسمع بعضهم يقول: فلان هذا لا أحب أن آكل معه؛ لأنه يقعد ليأكل معنا فيمده يده ليأكل الطعام كله... كما جاء الأعرابي وأكل الطعام الذي أمام النبي ﷺ وكان يكفي ستة أفراد، فأكله هو كله، ولم ير أن غيره محتاج إلى أن يأكل، بل نظر إلى نفسه فقط!.. فهذا الذي يكون بهذا الخلق يكون بغضاً عند الناس... فالناس لا تحبه ولا تحب أن تأكل معه.

❁ أما إذا كان الإنسان يأكل وحده فلا بأس أن يقرن بين التمرتين أو الحبتين مما يؤكل أفراداً؛ لأنه بذلك لا يضر أحداً.

❁ وبالجملة: لو أن كل إنسان اتقى الله (سبحانه وتعالى) وراعى غيره في طعامه وعرف آداب الطعام؛ فإن الناس سيحبون أن يأكلوا معه؛ لأنه طيب؛ ولأن مجلسه فيه إثارة للناس.

وأما الإنسان الطماع فإنه لا أحد يحب أن يأكل معه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦) باب ما يقوله ويفعله من يأكل ولا يشبع

✽ قد نجد أحياناً إنساناً يشكو من أنه يأكل ولا يشبع ... ومهما كان الطعام أمامه فإنه يأكل ولا يشبع.

وقد نجد أسرة يشكو جميع أفرادها أنهم يأكلون ولا يشبعون.
فما هو الحل في هذه المشكلة الكبيرة؟

الحل موجود في سنة الحبيب المصطفى ﷺ.

(٧٤٧) عن وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ؟ قَالَ: «فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، يُبَارِكْ لَكُمْ فِيهِ»^(١).

✽ فالأسباب الحقيقية فيمن يأكل ولا يشبع تتلخص في الآتي:

(١) أنه حينما يأكل لا يُسَمِّي الله على طعامه .. ولذلك فإن الشيطان يشاركه في ذلك الطعام ويأكل معه وتُنزَع البركة من ذلك الطعام.

(٢) أنه قد يأكل من وسط الصحن وأعلى ولا يأكل من جوانب الصحن .. وهذا أيضاً مما ينزع البركة من الطعام ... وذلك لأن النبي ﷺ نهى عن أن يأكل الإنسان من أعلى الصحن لأن البركة تنزل في وسط الصحن.

(٣) ومن الأسباب أيضاً: التفرُّق على الطعام ... فمن السنة أن تجتمع الأسرة على مائدة واحدة وأن يأكلوا سوياً لتنزل البركة في ذلك الطعام ... أما إذا تفرقوا وأكل كل واحد منهم في إناءٍ خاص فإن الطعام سيتفرق وسوف تُنزع البركة من ذلك الطعام .. وذلك لأن الاجتماع من أسباب نزول البركة ... والتفرُّق من أسباب نزع البركة.

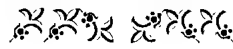
(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٢).

❁ فالعلاج أن يأكل المسلم بعد أن يُسمَّى الله عَزَّوَجَلَّ ... ولا يأكل من أعلى ووسط الصحن بل يأكل من جوانبه ... وإذا كانوا أسرة فعليهم أن يجتمعوا على الطعام لتتزل البركة ... فإذا فعلوا ذلك فمُحَالُّ ألا يشبعوا .. وبخاصة إذا كان أصل الطعام يكفي عددهم وكان من مالٍ حلال.

❁ وهكذا .. لما اشتكى أصحاب الرسول ﷺ أنهم يأكلون ولا يشبعون أمرهم النبي ﷺ أن يجتمعوا على طعامهم ويذكروا اسم الله لتحلَّ البركة. والبركة شيء لا يراه الإنسان، بل شيء يستشعره بقلبه ويستشعره بما يكفيه من هذا الطعام الذي دخل في فيه.

فالطعام هو هو، وقد كان كل واحد يأخذ نصيبه لوحده ويأكل ولا يكفيه الطعام ... ولما وضعوا الطعام كله وجلسوا جميعاً، جاءت البركة من عند ربنا سبحانه، فأكلوا وشبعوا، فما هو الذي حصل هنا؟ لقد زاد الطعام وإن لم يزد أمامهم في النظر، ولكن جاءت البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).

فعلم النبي ﷺ الصحابة وعلم من بعدهم الاجتماع على الطعام؛ حتى تأتي البركة من عند الله (سبحانه وتعالى).



(١٠٧) باب الأمر بالأكل من جانب القصعة

والنهي عن الأكل من وسطها

فيه قوله ﷺ: «وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». متفق عليه كما سبق.

(٧٤٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسْطِهِ»^(١).

(٧٤٩) وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: كان للنبي ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا: الْغَرَاءُ، يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ، فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى، أَتَى بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ؛ يَعْنِي وَقَدْ دُفِنَتْ فِيهَا، فَالتَفُّوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا» ثم قال رسول الله ﷺ: «كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا، وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارِكُ فِيهَا»^(٢).

ففي الحديث الأول يُخبر النبي ﷺ أن البركة تنزل في وسط الطعام .. ولذا أمرنا أن نأكل من حافة الطعام ولا نأكل من وسطه. وقد جرت عادة الناس بأن الأكل من وسط الطعام يُقذره في أنفسهم ويجعل شكله غير لائق.

وهذا صحيح، إلا أن هناك أمراً أهم، وهو أن ربنا سبحانه وتعالى يُنزل بركة من السماء في وسط القصعة، فإذا بالطعام يزيده الله سبحانه وتعالى ويبارك فيه. فإذا كنت تأكل وحدك فلا تأكل من وسط القصعة واحرص على أن تأكل من جوانبها .. فإذا انتهيت من جوانبها فكل ما تبقى في القصعة ولا تتركه

(١) صحيح: رواه أحمد، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٠٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٠٤).

«ذِرْوَتَهَا»: أعلاها بكسر الذال وضمها.

للسيطان.. فليس المقصود من هذا الحديث أن نأكل من جوانب القصعة ونترك ما في وسطها ولا نأكله.. كلا.. بل المقصود أن نأكل من جوانب القصعة ثم نأكل باقى الطعام الذى فيها... أما إذا كنت تأكل مع جماعة فليأكل كل واحد مما يليه ولا يأكل مما يلي غيره.

قال أهل العلم: إلا إذا كان الطعام أنواعاً، وكان نوعٌ منه في الوسط وأراد أن يأخذ منه شيئاً فلا بأس... مثل أن يوضع اللحم في وسط الصحيفة فإنه لا بأس أن تأكل من اللحم ولو كان في وسطها، لأنه ليس له نظير في جوانبها، فلا حرج... كما أن النبى ﷺ كان يتبع الدُّبَاء يلتقطها من الصحيفة كلها، والدُّبَاء هو القرع.

❁ أما الحديث الثانى فيخبر فيه عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن النبى ﷺ كانت له قصعة اسمها الغراء... وقد كان النبى ﷺ يُسمى ما يملكه.. فيسمى الفرس ويُسَمَّى الناقة التى يركبها ويُسمى القصعة التى يأكل فيها.. فتلك القصعة كان اسمها الغراء... وكأنها كانت بيضاء، أو لِمَا يوضع فيها من لحوم وغيرها... قال: (يحملها أربعة رجال) فهذه القصعة كان لا يقدر على حملها إلا أربعة رجال، وهذا من كرمه ﷺ، فكان يملأ هذه القصعة ويضعها لأصحابه ليأكلوا.

(فلما أضحوا وسجدوا الضحى أتى بتلك القصعة) أى: كان من عادة النبى ﷺ أن يصلى الفجر ويجلس في مُصلاه يذكر الله سبحانه إلى وقت الضحى، فلما صلوا الضحى أتى النبى ﷺ بتلك القصعة، قال: (وقد تُرد فيها) يعنى أنه موضوع فيها خبز عليه اللحم... قال: (فالتفوا حولها، فلما كثروا جثا رسول الله ﷺ).

فالقصة كان يحملها أربعة رجال، فحجمها قد يكون مثل الطست، فإذا جلسوا حولها وهم مجموعة لن يسعهم المكان، فكان لا بد أن كل إنسان يأخذ ويتعد عنها قليلاً لتسع الدائرة ويكفى المكان للجميع.

وكان النبي ﷺ يتابع أحوالهم حتى يطمئن أنهم جميعاً سيأكلون ..
 فقد كان ﷺ حريصاً عليهم ... كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
 مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
 رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فلما وجدهم قد كثروا جثا ﷺ .. أى: اعتمد على رُكبتيه وكأنه قاعد على
 هيئة التشهد فى الصلاة ...

وكان معهم رجلٌ أعرابى يجلس معهم على الطعام .. فلما رأى النبي ﷺ
 جثا على رُكبتيه قال: يا رسول الله ما هذه الجلسة؟

فقال له سيد المتواضعين ﷺ: «إن الله جعلنى عبداً كريماً ولم يجعلنى جباراً
 عنيداً» .. فهو عبدٌ لله سبحانه وتعالى أكرمه الله ﷻ بنعمة النبوة والرسالة ... بل
 أكرم الكون كله ببعثته ونبوته ورسالته ﷺ.

فقد كان النبي ﷺ يجلس مع أصحابه ليأكل معهم من قصعة واحدة ..
 أما الجبابرة والملوك وأشباههم فإن أحدهم يجلس ليأكل وحده وحوله
 الحُرَّاس قائمين يحرسونه.

أما النبي ﷺ فقد كان يقول: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وأكل كما
 يأكل العبد».

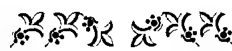
ثم قال رسول الله ﷺ لمن كان يأكل: «كُلُوا مِنْ حَوَالِهَا وَدَعُوا ذُرُوتَهَا يُبَارَكْ
 فِيهَا»، فالقصعة كانت كبيرة يحملها أربعة رجال، ولكن مع ذلك كان عددهم
 كبيراً، ويمكن أن تنفذ بسرعة، فأمرهم بأن يتأدبوا بأدب الطعام، فكل واحد يأكل
 مما يليه ولا أحد يمد يده إلى وسط الصحفة حتى تنزل البركة فيها من عند الله
 (جلَّ وعلا).

❁ وفى هذا الحديث استحباب ركعتى الضحى .. وهى سنة ينبغى للإنسان

أن يُحافظ عليها لأنها تُغني عن الصدقات التي تصبح على كل عضوٍ من أعضاء البدن وكل مفصل من مفاصله ... فقد قال ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرَكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(١).

❁ وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان عند الأكل لا يأكل مُتَكَنًّا وإنما يأكل مستوفزًا يعنى جاثٍ على رُكْبتيه حتى لا يُكثِر من الأكل ... لقول النبي ﷺ في الإكثار من الأكل: «ما ملأ ابن آدم وعاءَ شراً من بطنه فإن كان لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه» هذا هو الأكل النافع الطبيعي ... وإذا جُعت فكل ... فالأمر ليس مقصوراً على ساعات معينة.

ولو قال قائل: إن الإنسان لو اقتصر على ثلث وثلث وثلث، قد يجوع قبل أن يأتي وقت العشاء. نقول: إذا جُعت فكل، لكن كونك تأكل هذا الخفيف يكون أسهل للهضم وأسهل للمعدة وإذا اشتهيت فكل وهذا من الطب النبوي. لكن لا بأس بالشبع أحياناً لأن النبي ﷺ أقرَّ أبا هريرة رضي الله عنه حينما سقاه اللبن وقال: «اشرب اشرب اشرب» حتى قال: والله لا أجد له مساعاً - يعنى لا أجد له مكاناً - فأقره النبي ﷺ على ذلك ... وإنما الذي ينبغي أن يكون الأكثر في أكلك كما أرشد إليه النبي ﷺ ثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس^(٢).



(١) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) شرح رياض الصالحين (٤٤٨/٢) بتصرف.

(١٠٨) باب كراهية الأكل مُتَكِنًا

(٧٥٠) عن أبي جُحَيْفَةَ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أَكُلُ مُتَكِنًا»^(١).

قال الخطَّابِيُّ: الْمُتَكِنُ هُنَا: هُوَ الْجَالِسُ مُعْتَمِدًا عَلَى وَطْءٍ تَحْتَهُ.

قال: وأراد أَنَّهُ لَا يَقْعُدُ عَلَى الْوِطْءِ وَالْوَسَائِدِ كِفْعَلٍ مَنْ يُرِيدُ الْإِكْثَارَ مِنَ الطَّعَامِ بَلْ يَقْعُدُ مُسْتَوْفِزًا لَا مُسْتَوْطِنًا، وَيَأْكُلُ بُلْغَةً - طَعَامًا قَلِيلًا - هَذَا كَلَامُ الْخَطَّابِيِّ، وَأَشَارَ غَيْرُهُ إِلَى أَنَّ الْمُتَكِنَ هُوَ الْمَائِلُ عَلَى جَنْبِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٧٥١) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا مُقْعِيًا يَأْكُلُ تَمْرًا^(٢).

❖ لَا بَدَأَ أَنْ نَعْلَمَ أَوْ لَا أَنْ الْجُلُوسَ عِنْدَ الطَّعَامِ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ: قَسْمٌ مِنْهُيٌّ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ أَنْ يَأْكُلَ الْإِنْسَانُ مُتَكِنًا .. إِمَّا عَلَى الْيَمَنِ أَوْ عَلَى الْيُسْرِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَهُوَ مُتَكِنٌ فَإِنْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْكِبَرِ وَالْغَطْرَسَةِ الَّتِي فِي قَلْبِهِ .. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ» .. وَأَيْضًا فَالَّذِي يَأْكُلُ وَهُوَ مُتَكِنٌ قَدْ يَتَضَرَّرُ؛ لِأَنَّ مَجْرَى الطَّعَامِ يَكُونُ مَتَمَايِلًا وَلَيْسَ مُسْتَقِيمًا فَلَا يَكُونُ عَلَى طَبِيعَتِهِ .. فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ أَىْ أَضْرَارٍ فِي مَجْرَى الطَّعَامِ.

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا أَكُلُ مُتَكِنًا» لِأَنَّهُ ﷺ سَيِّدُ الْمُتَوَاضِعِينَ .. وَلِأَنَّ هَذَا يَسَبِّبُ ضَرَرًا لِلْإِنْسَانِ.

❖ وَأَمَّا فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي فَقَدْ ذَكَرَ أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُقْعِيًا

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٣٩٨) كتاب الأطعمة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٤) كتاب الأشربة.

«المُقْعِي» هُوَ الَّذِي يُلْصِقُ أَلْيَتَيْهِ بِالْأَرْضِ، وَيَنْصَبُ سَاقِيَهُ.

يأكل تمرًا .. والإقعاء هو أن ينصب ساقيه ويجلس على عقبه .. وإنما أكل النبي ﷺ وهو على تلك الحالة حتى لا يستقر في الجلسة فيأكل كثيرًا .. لأن من المعلوم أن الذي يتكئ أو يجلس مُربعًا فإنه يأكل كثيرًا .. أما الذي يجلس مقعياً لا يكون مطمئنًا في الجلوس ... ولذا فإنه لا يأكل كثيرًا ...

فالحاصل .. أن عندنا جلستين: الجلسة الأولى الاتكاء .. وهذه ليست من هدى النبي محمد ﷺ فإنه لم يأكل متكئًا أبدًا ... وأما باقى أنواع الجلوس الباقية فهي جائزة .. ولكن أفضل ما يكون ألا تجلس جلسة الإنسان المستقر لئلا تأكل كثيرًا فيتضرر جسدك وتتعب معدتك وتتكاسل عن الطاعة .. فالأفضل أن يجعل الإنسان ثلثًا لطعامه وثلثًا لشرابه وثلثًا لنفسه .. فهذا أفضل ما يكون في الطعام .. لكن لا بأس أن يشبع الإنسان أحيانًا فهذا ليس بحرام .. ولكن الأفضل التخفيف من الطعام لكي تنشط في طاعة الله عز وجل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩) باب استحباب الأكل بثلاث أصابع واستحباب

لعق الأصابع وكراهة مسحها قبل لعقها واستحباب

لعق القصعة وأخذ اللقمة التي تسقط منه وأكلها

وجواز مسحها بعد اللعق بالساعد والقدم وغيرهما

(٧٥٢) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعامًا، فلا يمسح أصابعه حتى يلعقها أو يلعقها»^(١).

(٧٥٣) وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل بثلاث أصابع فإذا فرغ لعقها^(٢).

❦ لا بد أن نعلم أولاً أن الدين الإسلامي دينٌ عظيمٌ، ودينٌ كله يُسرُّ، والإنسان الناظر إلى هذا الدين يجد فيه الذوقيات والأخلاق العظيمة الراقية، ومراعاة الجميع الغنى والفقير، ومراعاة الأحوال... فقد تكون اليوم غنيًا، وغدًا فقيرًا... فاحفظ النعمة التي منحك الله إياها، وحافظ عليها، وتأدب بآداب تنفعك في وقت غناك وفي وقت فقرك.

فهنا يعلمنا النبي ﷺ المحافظة على نعمة الله سبحانه... فالمحافظ على النعمة جدير أن يحفظه الله ﷻ وأن يحفظ له النعمة التي في يده.

❦ ونحن نعلم أن حياة النبي ﷺ كانت فيها ضيق وشدة، فكان يجد أحيانًا وكثيرًا لا يجد (عليه الصلاة والسلام)، وليس هو وحده بل وأصحابه كذلك قد يجدون أيامًا وقد لا يجدون.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٥٦) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٣١) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٢) كتاب الأشربة.

ويخرج النبي ﷺ في يوم من شدة الجوع وقد عصب الحجر على بطنه (عليه الصلاة والسلام)، فيمشى في الطريق حتى لا يشعر بالجوع...
بل كان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة، وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع»^(١).

والإنسان الجائع لا يستطيع أن ينام من شدة الجوع، وحين يأتى علينا شهر رمضان ونجوع في النهار فإننا نهرب من الجوع بالنوم.
فهو عليه الصلاة والسلام يُعلم المؤمنين أن يتذكروا أنهم في يوم من الأيام قد جاعوا فلا يبطروا بالطعام بأن يأكلوا ويتركوا أكلاً قليلاً في آخر الطعام... فإن البركة تنزل في الطعام، ولا يدرون في أى طعامهم البركة.
وقد تكون هذه البركة في آخر جزءٍ من طعامك الذى رميته.

فحين تغرف لنفسك الطعام اغرف على قدر ما أنت آكله بحيث تأكل جميع ما في الصحن ولا تترك شيئاً بعد ذلك لئلا تضيع منك بركة هذا الطعام.
وقد تكون البركة في كمية قليلة جداً في الشيء الذى بقى على يدك، فالعق أصابع يدك بعد الطعام ولا تمسحها بالمنديل... وبعد لعقها امسح بالمنديل أو اغسل يديك.

❁ وفي هذين الحديثين يُبين لنا النبي ﷺ أن من السنة أن يأكل أحدنا بثلاثة أصابع: الوسطى والسبابة والإبهام؛ لأن هذا الأدب وتلك السنة تدل على التواضع وعدم الشره عند تناول الطعام... ولكن إن احتاج الإنسان أن يأكل طعاماً مُعيناً بأكثر من ثلاثة أصابع فلا بأس بذلك..
لكن النبي ﷺ يدلنا على الأفضل.

❁ وحاول أن تستحضر وكأنك ترى الآن رجلين يأكلان الطعام: أحدهما

(١) حسن: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٣).

يأكل بأصابعه الخمس والثاني يأكل بثلاثة أصابع.. ستشعر بمدى الأدب والرقي والتواضع وعدم الشره عند الذى يأكل بثلاثة أصابع.. على العكس من الذى يأكل بكل أصابعه.

✽ أنه ينبغي للإنسان أن يلحق أصابعه إذا انتهى من الطعام قبل أن يمسحها بالمنديل... فقد أمر النبي ﷺ بذلك فقال: «فلا يمسح أصابعه حتى يلحقها أو يلحقها».

- وقد يتعجب أحدنا ويقول: من المعقول أن يلحق الإنسان أصابعه لكن كيف يلحقها لغيره وقد تشمئز النفوس من ذلك؟

أقول: النبي ﷺ دلنا على أن نلحق أصابعنا بعد الطعام.. ولكنه لم يُوجب علينا أن نلحق أصابعنا لغيرنا... وإنما ذكر ذلك حتى لا تفوتنا بركة الطعام.

ومع ذلك فنحن نعلم أنه قد يحدث بين الزوجة وزوجها - من شدة الحب والترابط بينهما - أنه قد يلحق أصابعها وتلحق أصابعه على سبيل الدعابة والمودة بينهما... بل قد تلحق الأم أصابع طفلها أيضاً بعد الطعام... ومع ذلك لم يلزمنا النبي ﷺ بذلك حتى لا يظن أحداً أنه واجب علينا.

وإنما حضنا النبي ﷺ على أن نلحق أصابع أنفسنا حتى لا تفوتنا بركة الطعام، وقال: «إنكم لا تدرون فى أى طعامكم البركة».

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «لا تدرون فى أى طعامكم البركة» معناه - والله أعلم - أن الطعام الذى يحضره الإنسان فيه بركة، ولا يدري أن تلك البركة فيما أكله أو فيما بقى على أصابعه، أو فيما بقى فى أسفل القصعة، أو فى اللقمة الساقطة. فينبغى أن يحافظ على هذا كله لتحصل البركة.. وأصل البركة الزيادة وثبوت الخير والإمتاع به... والمراد هنا والله أعلم ما يحصل به التغذية وتسلم عاقبته من أذى ويقوى على طاعة الله تعالى وغير ذلك.

✽ يقول بعض الأطباء: إن الأنامل تُفرز إفرازات عند الطعام تُعين على هضم الطعام في المعدة ... وقد تكون هذه هي الحكمة من لعق الأصابع لكننا نفعلها لأنها سنة عن النبي ﷺ ... فالمهم عندنا هو امتثال أمر النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥٤) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِلَعْقِ الْأَصَابِعِ وَالصَّحْفَةِ وَقَالَ: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ»^(١).

✽ ففي الحديثين السابقين أمرنا النبي ﷺ أن نلحق أصابعنا إذا فرغنا من الطعام .. وهنا أمر النبي ﷺ بلعق الأصابع والصحفة التي نأكل فيها .. وذلك لأن النبي ﷺ حريص كل الحرص على ألا يفوتنا أي خير في الدنيا والآخرة .. فنحن نقول: اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار .. فإذا نزلت البركة من عند الله ﷻ في طعامنا نتركها!!! ... فالنبي ﷺ يأمرنا بلعق أصابعنا والصحفة التي نأكل فيها حتى لا تفوتنا تلك البركة من عند الله ﷻ.

✽ ومن هنا فإنه ينبغي عليك أن تلحق أصابعك والصحفة التي تأكل فيها كما أمر بهذا النبي (عليه الصلاة والسلام) فإنك لا تدري في أي طعامك البركة. ومع الأسف أن الناس يتفرقون عن الطعام بدون تنفيذ هذه السنة.

فتجد حافات الآنية عليها الطعام كما هي والسبب في هذا الجهل بالسنة ... ولو أن طلبة العلم إذا أكلوا مع العامة وجَّهوهم إلى هذه السنة وغيرها من سنن الأكل والشرب لانتشرت هذه السنن ... لكن نسأل الله أن يعاملنا بعفوه فنحن نتجاوز كثيرًا ونتهاون في الأمر وهذا خلاف الدعوة إلى الحق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥٥) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ، فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعِهَا لِلشَّيْطَانِ، وَلَا يَمْسَحَ يَدَهُ بِالْمُنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ»^(١).

✽ إن اللقمة التي تقع من الإنسان إما أن تقع في مكانٍ نظيفٍ أو في مكانٍ فيه ترابٍ أو شيءٍ آخر، فإذا وقعت في مكانٍ نظيفٍ فخذها وكلها مرة ثانية، وإن وقعت في مكانٍ فيه أذى فامطه وإذا لم يمكن إمطة الأذى منها فاتركها. قال ﷺ: «ولا يدعها للشيطان»، فالذي يترك الطعام الواقع منه فكانما يترك تلك اللقمة للشيطان، وكأنه يدعو الشيطان ليأكل معه، فتضيع البركة لأنه ترك الشيطان يأكل معه.

قال ﷺ: «ولا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة».

فيأكل الطعام الذي أمامه ولا يترك منه شيئاً للشيطان إذا وقع منه. فإذا كان لم يُصبه أذى أخذه فأكله، وإذا أصابه أذى أَمَاطَ عنه الأذى وأكل الباقي ولا يترك منه شيئاً للشيطان فإنه لا يدري في أي طعامه البركة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥٦) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةٌ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى، ثُمَّ لْيَأْكُلْهَا وَلَا يَدَعِهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ»^(٢).

(٧٥٧) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا، لَعَقَ أَصَابِعَهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) (١٣٤) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٣) (١٣٥) كتاب الأشربة.

الثَّلاث، وقال: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، وَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى، وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ» وأمرنا أن نَسَلَّتِ القِصْعَةَ وقال: «إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَىِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ»^(١).

✽ فعندما تتأمل هذين الحديثين تشعر كأن حرباً بينك وبين الشيطان مباشرة في بيتك، وفي مسجدك، وفي صلاتك، وعند وضع طعامك، وعند أخذ شرابك، وعند نومك... فالشيطان يحاربك لكي يمنعك من طاعة الله سبحانه وتعالى، وأنت لا ترى ذلك... والذي يرى ذلك هو الله سبحانه وتعالى، ويُعلمك على لسان النبي ﷺ أن تحذر من الشيطان فإنه واقفٌ لك بالمرصاد فلا تُفَرِّط في بركة الطعام، فإن الشيطان ينتظر اللقمة التي ستقع لكي يأخذها. فلا تُلَقِّ ما تبقى من الطعام فإن هذا فعل المتكبرين وفعل الأغنياء المترفين. فأنت لا تدري كيف يأتي عليك الزمان... فأنت الآن واجدٌ للطعام. لكن قد يأتي عليك زمان لا تجد فيه مثل هذا الطعام ولا أقل من ذلك - أسأل الله أن يحفظ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة.

✽ ولذا فإنه ينبغي على الإنسان إذا سقطت منه اللقمة ألا يتركها بل يأخذها.. وإذا كانت قد وقعت في مكانٍ نظيف فليأكلها.. وإذا وقعت على الأرض فأصاها شيء من التراب فليمسحها ثم يأكلها... لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ» لأن الشيطان يحضر ابن آدم في كل شئونه... إن أراد أن يأكل حَضَرَهُ وإن أراد أن يشرب حَضَرَهُ وإن أراد أن يأتي أهله حَضَرَهُ حتى يشاركه كما في الآية الكريمة: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهو يشارك أهل الغفلة الذين لا يذكرون الله في كل شئونهم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٣٤) (١٣٦) كتاب الأشربة.

نسلت القِصْعَةَ: أى نمسحها.

فإذا قلت وأنت تأكل: بسم الله منعه من الأكل، فما يقدر على الأكل معك وقد سميت على الطعام أبداً وإذا لم تقل بسم الله أكل معك فإذا قلت: بسم الله فإن الشيطان يترقب اللقمة إذا سقطت بالأرض فإن رفعتها أنت فهي لك وإن تركتها أكلها هو فصار إذا لم يشاركك في الطعام شاركك فيما يسقط من الطعام ولهذا فضيقت عليه في ذلك أيضاً... فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك في الأرض فخذها وإذا كان علق بها أذى من تراب أو عيدان أو ما أشبه ذلك فأزل ذلك الأذى ثم كُلها ولا تدعها للشيطان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٥٨) وعن سعيد بن الحارث أنه سأل جابراً رضي الله عنه عن الوضوء مما مسّت النار، فقال: لا، قد كُنَّا زمنَ النَّبِيِّ ﷺ لا نجدُ مثلَ ذلك الطعام إلا قليلاً، فإذا نحنُ وجدناه، لم يكنْ لنا مناديلُ إلا أكفُّنا وسَوَّاعِدنا وأقْدَامنا، ثُمَّ نُصَلِّي ولا نَتَوَضَّأُ^(١).

❦ لقد كان الحكم الشرعي في البداية أن ما مسّته النار يجب فيه الوضوء ونُسِخ هذا الحكم، وكان الأمر في آخر حياة النبي ﷺ عدم الوضوء مما مسّته النار.

وفي هذا الحديث سأل سعيد بن الحارث (جابر بن عبد الله رضي الله عنه) عن الوضوء مما مسّت النار... فقال: قد كنا زمنَ النَّبِيِّ ﷺ لا نجدُ مثلَ ذلك الطعام إلا قليلاً،... أي: الطبخ الذي تضعوه على النار.. وكذلك الخبز.. فإذا وجدناه لم يكنْ لنا مناديلُ إلا أكفُّنا وسَوَّاعِدنا وأقْدَامنا، يعنى: ما كان معهم مناديل إلا القليل منهم، ولم يكنْ عندهم الماء الكثير، وكانوا يستعذبون للنبي ﷺ ماءً من بعض الآبار البعيدة عن المدينة والتي فيها مياه عذبة طيبة، وكان ﷺ يدخل إلى بستان لأبى طلحة رضي الله عنه به ماء عذب يشرب منه النبي صلوات الله وسلامه عليه.

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٤٥٧) كتاب الأطعمة.

فالمياه التي يغسلوا فيها أيديهم كانت قليلة.. فلا يوجد ماء يغسلوا فيه أيديهم... فمن انتهى من الأكل لعق يده ثم مسح اليدين بعضها مع بعض أو مسح يده في المنديل، ثم يصلى ولا يتوضأ.

❦ فالشاهد أنه لا يجب الوضوء مما مسته النار.. بل هو سُنَّة.. يعنى: الأفضل أن تتوضأ حتى ولو كنت على وضوء إذا أكلت شيئاً مطبوخاً على النار فالأفضل أن تتوضأ لكنه ليس بواجب لأن آخر الأمرين من النبى ﷺ ترك الوضوء مما مسّت النار يعنى عدم الالتزام به.

ويدل لهذا أيضاً أن النبى ﷺ سئل: نتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: نعم قال: نتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: إن شئت... لأن لحم الإبل إذا أكله الإنسان انتقض وضوءه لو كان على وضوء فلا بد أن يتوضأ.

لأنه كله ناقض للوضوء أما غيره فإذا أكلته مطبوخاً فالأفضل أن تتوضأ ولا يجب عليك ذلك^(١).



(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٢/٤٥٣).

(١١٠) بَابُ تَكْثِيرِ الْأَيْدِي عَلَى الطَّعَامِ

(٧٥٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَعَامُ الْاِثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الْأَرْبَعَةِ»^(١).

(٧٦٠) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «طَعَامُ الْوَاحِدِ يَكْفِي الْاِثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الْاِثْنَيْنِ يَكْفِي الْأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الْأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ»^(٢).

❦ سَبَقَ شَرْحُ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْمَ (٥٧٠) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ .. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٣٩٢) كتاب الأطعمة - ومسلم (٢٠٥٨) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٥٩) كتاب الأشربة.

(١١١) باب أدب الشرب

واستحباب التنفس ثلاثاً خارج الإناء،

وكراهية التنفس في الإناء واستحباب إدارة الإناء

على الأيمن فالأيمن بعد المبتدئ

✽ في البداية أقول لكم: إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا طعام ولا شراب.. بل إن حاجته إلى الشراب أشد من حاجته إلى الطعام.
ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].
فالأكل والشرب من نِعَمِ الله سبحانه وتعالى.
ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا مَنْ حُرِمَهَا... نسأل الله ألا يحرمنا إياها.
فمَنْ حُرِمَهَا وذاق الجوع وذاق العطش عرف قدر نعمة الله تعالى بالأكل والشرب.. وهذه إحدى الحِكَمِ من الصيام أن الإنسان يُمسك عن الأكل والشرب ليصل لدرجة التقوى وفي نفس الوقت ليشعر بالآلام الفقراء.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقبل أن نبدأ في شرح تلك الأحاديث فلا بد أن نعلم أولاً أن هناك بعض الآداب التي ينبغي أن نراعيها عند الطَّعام أو الشراب منها: النية الصالحة.
وذلك بأن ينوى الإنسان بهذا الشراب أن يتقوى على عبادة الله (جل وعلا) وأن يكون هذا الشراب سبباً في الحفاظ على صحته وحياته.
وكذلك لا بد أن يحرص على أن يذكر الله على طعامه وشرابه.
وذلك بأن يقول قبل أن يشرب (بسم الله) كما يفعل عند الطعام فإن ذلك يكون سبباً في حصول البركة في الشراب ويكون سبباً في طرد الشيطان وحرمانه من هذا الشراب.

❁ وهناك مجموعة من الآداب الأخرى سنتعلمها من خلال شرحنا لتلك الأحاديث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٦١) عن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتنفس في الشرب ثلاثاً^(١).
يعنى: يتنفس خارج الإناء .

(٧٦٢) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا واحداً كشر البعير، ولكن اشربوا مثنى وثلاث، وسموا إذا أنتم شربتم، واحمدوا إذا أنتم رفعتكم»^(٢).

❁ أى أنه ﷺ كان يتنفس خارج الإناء ثلاثاً...

وذلك بأن يشرب ما يكفيه على ثلاث مرات ولا يشرب ما يكفيه مرة واحدة.

وقد كان هذا هو فعل النبي ﷺ، فإنه ﷺ: «كان يشرب ثلاثة أنفاس: يُسمى الله في أوله، ويحمد الله في آخره»^(٣).

فهذه هي السنة، أن يُسمى الإنسان ثم يشرب شيئاً، ثم يحمد الله تعالى، ويُبعد الإناء عن فيه (فمه) ثم يسمى الله ثانية، ثم يشرب، ثم يحمد الله، ويبعد الإناء عن فيه للتنفس، ثم يسمى الله تعالى، ثم يشرب الثالثة، ثم يبعد الإناء عن فيه، ويحمد الله تعالى،...

وذلك لأنه لو أخذ الإناء ووضع على فمه وشرب منه دفعة واحدة وأخذ يتنفس في الإناء فقد يتقذر منه الذي يشرب من بعده فيمتنع عن الشرب .. وقد يكون الماء قليلاً فيُحرم الذي بعده من الشرب بسبب ما فعله.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣١) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٢٨) كتاب الأشربة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٢٣٣).

(٣) صحيح: رواه ابن السني، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٩٥٦).

ومما يدل على أن الشارب يُسمَّى في كل شربة، ويحمد في آخرها، أنه ﷺ: «كان يشرب في ثلاثة أنفاس، إذا أدنى الإناء إلى فيه سمَّى الله تعالى، وإذا أخره حمد الله تعالى، يفعل ذلك ثلاث مرات»^(١).

وهذه السُّنة لها فوائد طبية كثيرة، وقد ذكر بعض الأطباء أن جوف الإنسان تكون حرارته في العادة أعلى من درجة حرارة الماء المشروب، لذا يشرب الإنسان شيئاً يسيراً، ثم يزيد، ثم يشبع من الماء، حتى تتدرج حرارة الجوف بما يناسب حرارة الماء الداخل. وتكون الشربة الأولى أقل من الثانية، ثم يشرب في الثالثة ما شاء... والنبى ﷺ ما فعل ذلك إلا لتعليم الناس ما فيه منفعتهم^(٢).

بَابُ شَرْبِ الْمَاءِ

(٧٦٣) وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ^(٣).

❁ سيأتى شرحه كاملاً في (باب كراهة النفخ في الشراب) عند شرحنا للحديث رقم (٧٦٩)، (٧٧٠) بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

بَابُ شَرْبِ الْمَاءِ

(٧٦٤) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بَلْبَنٍ قَدْ شِيبَ بَمَاءٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ أَعْرَابِي، وَعَنْ يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَشَرِبَ، ثُمَّ أَعْطَى الْأَعْرَابِيَّ وَقَالَ: «الْأَيْمَنَ فَاْلأَيْمَنَ»^(٤).

(١) صحيح: رواه الخرائطى في «فضيلة الشكر»، والطبرانى في «المعجم الأوسط»، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله في الصحيحة (١٢٧٧).

(٢) موسوعة الآداب الإسلامية / أ. عبد العزيز ندا (١/ ٤٦٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٣٠) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٦٧) كتاب الأشربة. يعنى: يُتَنَفَّسُ فِي نَفْسِ الْإِنَاءِ.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥٢) كتاب الشرب والمساقاة، ومسلم (٢٠٢٩) كتاب الأشربة. قوله: «شِيبَ» أى: خُلِطَ.

(٧٦٥) وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَشْيَاخٌ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: «أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟» فَقَالَ الْغُلَامُ: لَا وَاللَّهِ، لَا أُؤْثِرُ بِنَصِيْبِي مِنْكَ أَحَدًا، فَتَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ ^(١).

✽ فاللبن كان قليلاً فزید علیه ماء، إما لقلّة اللبن أو لتبريده ... وخلطُ اللبن بالماء جائز للشرب والتهادى وليس للبيع ... فإن كان للبيع فهو حرام لأنه نوع من الغش.

وكان عن يمين النبي ﷺ أعرابي وعن شماله أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا شك أن أبا بكر الصديق أفضل من الأعرابي ومن كل الخلق إلا النبي ﷺ ... ومع ذلك لم يُعْطِ النبي ﷺ هذا اللبن لأبى بكر لأنه عن شماله. فإذا كان هناك جماعة من الناس سيشربون فالسنة أن نبدأ بالأيمن فالأيسر.

✽ وقد يكون هناك مجموعة من الناس.. فيريد الذى بيده الإناء أن يبدأ بشخصٍ بعينه وذلك لمكانته أو لعلمه ... فعليه هنا أن يستأذن الذى يجلس فى اليمين حتى ولو كان صغيراً فى القدر أو السن فإن النبي ﷺ: «أُتِيَ بِشَرَابٍ فَشَرِبَ مِنْهُ - وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ الْأَشْيَاخُ - فَقَالَ لِلْغُلَامِ: «أَتَأْذُنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟» فَقَالَ الْغُلَامُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أُؤْثِرُ بِنَصِيْبِي مِنْكَ أَحَدًا. فَتَلَّه - أَى وَضَعَهُ وَطَرَحَهُ - رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَدِهِ».

- وهذا الغلام هو ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

✽ وقد سبق شرح حديث ابن عباس كاملاً بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٥٧٤) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥١) كتاب المساقاة، ومسلم (٢٠٣٠) كتاب الأشربة.

«تَلَّه»، أَى: وَضَعَهُ، وَهَذَا الْغُلَامُ هُوَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



(١١٢) باب كراهة الشرب من فم القربة ونحوها

وبيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم

(٧٦٦) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن اختناث الأسقية. يعني: أن تكسر أفواهها، ويشرب منها^(١).

(٧٦٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يشرب من في السقاء أو القربة^(٢).

❦ ففي الحديث الأول ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن اختناث الأسقية.

والأسقية: جمع سقاء، وهي القرب والأوعية التي يوضع فيها الماء، وتكون متخذة من الجلد غالباً.

ومعنى: (اختناث الأسقية) أي: أن تكسر أفواهها ويشرب منها.

وهذا الحكم يجرى كذلك في كل إناء كبير يوضع فيه الماء.

واكتشف حديثاً في الأبحاث الطبية أن على فم الإنسان آلاف بل ملايين من أنواع الجراثيم، فلو أن إنساناً فيه مرض معين في فمه، أو معدته، أو أمعائه، ثم صعد ميكروب إلى فمه، فلعله إن شرب من في السقاء ينزل الميكروب في هذا فيؤذي غيره، ولعله يكون حاملاً للمرض فقط، وما يكون هذا الإنسان مريضاً به، فعندما يشرب من فم القربة ينتقل هذا المرض لغيره، مما يؤدي إلى إيذاء أناس كثيرين بهذا الشيء؛ فلذلك نهى النبي ﷺ عن ذلك.

ولكن قد يحتاج الإنسان إلى الشرب من فم السقاء، أو قد يكون الماء في

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٢٥) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٢٣) كتاب الأشربة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٢٨) كتاب الأشربة، ومسلم (١٦٠٩) كتاب المساقاة.

القربة قليلاً فيشربه كاملاً من فم القربة، فعند ذلك لا بأس بهذا الأمر، ولذلك فعلها النبي ﷺ مرة.

❦ وأما حديث أبي هريرة فقد أخبر ﷺ أن النبي ﷺ نهى أن يشرب من فيء السقاء أو القربة.

والقربة سقاء يكون من جلد، يملؤه صاحبه بماء كثير، وقد تكفى القربة أياماً يشرب منها.

فلو أن الناس تعودوا على الشرب من فم القربة وهى ستمكث معهم أياماً فإن رائحة النفس ستكون بداخلها مما يؤذى بعضهم بعضاً بذلك.

فنهانا النبي ﷺ من هذا الأمر، وأرشد إلى إفراغ الماء المطلوب من القربة على شئ آخر ثم الشرب من هذا الشئ الآخر.

ويمكن أن تكون هناك حكمة أخرى وهى أن الشارب من فيء السقاء يمكن أن يؤذى نفسه بأن يرفع السقاء وهو كبير إلى فيه فينزل الماء متدفقاً على وجهه وفيه وأنفه مما يؤدى به إلى أن يخصص نفسه بالماء.. وقد يشرق فيموت^(١).

❦ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

والحكمة من هذا أن المياه فيما سبق ليست بتلك المياه النظيفة، فإذا صارت في القربة، أو في السقاء، فإنه يكون فيها أشياء مؤذية: عيدان أو حشرات أو غير ذلك مما هو معروف لمن كانوا يستعملون هذا من قبل، فلهذا نهى النبي ﷺ «عن اختناث الأسقية» يعنى أن الإنسان يكسر أفواهاها هكذا ثم يشرب.

وذكر أن رجلاً شرب مرة هكذا فخرجت حية من القربة... وهذا لاشك أنه على خطر، إما أن تلدغه أو تؤذيه... لهذا يُنهى عن الشرب من فم القربة، وليس من ذلك الشرب من الصنبور، أو من الجرار التى يخزن فيها الماء، لأن هذه

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطية.

معلومة ونظيفة، فهو كالشرب من الأواني، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس أن يشرب الإنسان من فم القربة، مثل أن يكون محتاجاً إلى الماء وليس عنده إناء، فإنه يشرب من فم القربة، وعلى هذا فيكون النهي عن ذلك للكرهية وليس للتحريم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٦٨) وعن أمّ ثابتٍ كبْشَةَ بنتِ ثابتٍ أُخْتِ حَسَّانِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه قالت: دخل على رسول الله ﷺ فشرب من في قربةٍ مُعلّقةٍ قائماً. فقُمْتُ إلى فيها فقطعته^(٢).
 * وإنما قطعناها لِتَحْفَظَ مَوْضِعَ فَمِ رسولِ الله ﷺ، وتَبَرَّكَ بِهِ، وَتَصُونَهُ عَنْ الْإِبْتِذَالِ... وهذا الحديثُ مَحْمُولٌ عَلَى بَيَانِ الْجَوَازِ، وَالْحَدِيثَانِ السَّابِقَانِ لِبَيَانِ الْأَفْضَلِ وَالْأَكْمَلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* ففي هذا الحديث أن أم ثابت واسمها كبشة بنت ثابت وهي أخت شاعر النبي ﷺ الذي كان يُدافع ويُنافح عنه: حسان بن ثابت رضي الله عنه.. أخبرت أن النبي ﷺ دخل عليها فشرب من فم قربةٍ مُعلّقةٍ.. وكأن القربة كانت عالية؛ لأنها مُعلّقة ولم يكن هناك إناء يُصَب فيه الماء فشرب النبي ﷺ من فم تلك القربة المُعلّقة.. أو قد يكون الماء الذي في تلك القربة قليلاً فشرب منه ﷺ.. أو قد يكون النبي ﷺ فعل ذلك ليبين أن النهي عن الشرب من فم القربة مع عدم الحاجة إليه.. وأما مع الحاجة إليه فإنما هو للتنزيه لا للتحريم ولذلك من فقه الإمام النووي رحمته الله أنه قال: بيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم.

وهنا أيضاً شرب النبي ﷺ من فم القربة وهو قائم ﷺ... فدلّ ذلك على أن الأحاديث التي وردت في النهي عن الشرب قائماً إنما هي للكرهية فقط وليست

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٤٥٦-٤٥٧).

(٢) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، وصححه الألبانی فی صحيح سنن الترمذی (١٥٤٢).



للتحریم.

❁ أما قولها ﷺ: فقامت إلى فيها فقطعته... أي: قامت إلى فم القربة التي شرب منها النبي ﷺ فقطعته.. وذلك لأن أثر فم النبي ﷺ كان على تلك القربة.. فقطعت فم القربة ليبقى أثر النبي ﷺ معها فتشرب منه كلما أرادت أن تشرب لتفوز ببركة النبي ﷺ.

فدل هذا الحديث على جواز التبرك بآثار النبي ﷺ وهو كذلك.
وقد كان الصحابة يتبركون بعرق النبي ﷺ، ويتبركون بريقه، ويتبركون بشيابه، ويتبركون بشعره... أما غيره ﷺ فإنه لا يُتبرك بشيء من هذا منه.
فلا يُتبرك بشياب الإنسان ولا بشعره ولا بأظفاره ولا بشيء من متعلقاته، إلا النبي ﷺ.

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

[إنما قطعتها لتحفظ موضع فم رسول الله ﷺ، وتتبرك بها، وتصونه عن الابتذال] يعني: أن تصون هذا الموضع من احتمال وقوعه على الأرض ووطئه بالأقدام، وهذا نوع من أنواع إكرامها للنبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٣) باب كراهة النفخ في الشراب

(٧٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب، فقال رجلٌ: القذاة أراها في الإناء؟ فقال: «أهرقها» قال: إني لا أروى من نفسٍ واحدٍ؟ قال: «فأبْنِ القَدَحَ إِذَا عَنَ فِيكَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث نهى النبي ﷺ عن النفخ في الشراب سواء كان الإنسان وحده أو مع جماعة .. وذلك حتى لا يعتاد الإنسان على النفخ في الشراب ... فإن كان الشراب ساخناً فإنه إما أن ينتظره حتى يبرد أو يصُبه في إناءٍ آخر ثم يُعيده مرة ثانية حتى يبرد.

❁ وهنا يحكى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن النفخ في الشراب فقال رجلٌ: القذاة أراها في الإناء .. أى: أنه يسأل عن حكم النفخ عند وجود شيء في الإناء كعُشْبَةٍ أو أى شيء آخر .. فأرشده النبي ﷺ إلى عدم النفخ في الإناء حتى لو أدى الأمر إلى صبِّ الشراب كله.

والقصد من ذلك الخوف على الإنسان من أن يعتاد على النفخ في الإناء، فينفخ فيه وهو بحضرة جماعة فيؤدى إلى تأذيتهم من هذا العمل واستقذارهم له، فيتركون الأكل والشرب لذلك، فيكون بهذا قد أدى إلى الإضرار بالناس ... ولهذا نُهى عن هذا العمل.

❁ ثم عاد نفس الرجل وسأل النبي ﷺ للمرة الثانية وقال له: إني لا أروى من نفسٍ واحدٍ .. وكأنه يريد أن يتعلل بذلك من أجل أن يُرخص له النبي ﷺ في التنفُّس في الإناء .. وكأنه يقول للنبي ﷺ: إني إذا شربت من الإناء لا أستطيع أن

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٨٥)، وصححه مختصراً فى صحيح الجامع (٦٩١٢).

أشرب كل ما أريده بنفسي واحد .. بل أحتاج إلى أن أتنفس في الإناء فماذا أفعل ..

فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال له: «فأين القدح إذا عن فيك».

أى: إذا أردت أن تتنفس فعليك أن تبعد القدح أو الإناء عن فمك وتتنفس خارج الإناء ثم تعود فتشرب ..

وهذا محمول على الشرب الكثير، وإلا فمن الممكن أن يشرب الإنسان ماءً قليلاً ولا يحتاج معه إلى التنفس.

وهذا الحديث يوافق الأحاديث السابقة في النهي عن التنفس في الإناء أو النفخ فيه في كل حالة من الأحوال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٧٠) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُتَنَفَّسَ فِي الْإِنَاءِ، أَوْ يُنْفَخَ فِيهِ^(١).

نحن نعلم أن النبي ﷺ إذا نهى عن شيء فمن المؤكد أن فيه ضرراً على المسلمين .. ومن تأمل في هذا الحديث يجد أن النهي جاء عن التنفس في الإناء .. ولم يذكر الطعام فقط أو الشراب فقط .. وهذا وجه إعجازي جديد في الحديث ..

فلو نهى النبي ﷺ عن التنفس في الطعام وسكت، ما شمل نهيه حينها .. التنفس في الشراب، والعكس صحيح، فلو كان النهي عن التنفس في الشراب وسكت، لما شمل النهي التنفس في الطعام.

فلما جاء النهي عن التنفس في الإناء شمل ذلك النهي عن التنفس في الطعام والشراب، وهذا إعجاز بلاغي واضح.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٢٠).

❁ وقد يتساءل أناسٌ عن حكمة النهى، وعن سببه؟!

❁ وخلاصة القول:

أن النهى عن التنفس فى الطعام والشراب سببٌ فى الوقاية من كثيرٍ من الأمراض.. وهى الأمراض التى تنتقل عن طريق النفس والرداذ. ومن أخطرها وأشهرها مرض السُّل (الدرن) وهو وباءٌ وطاعونٌ قاتل. T.B.

والسؤال: هل نهى النبى ﷺ كل الناس عن التنفس فى الإناء.. أم اقتصر النهى على المرضى دون الأصحاء؟!

❁ مَنْ تأمل نهى النبى ﷺ فى الحديث النبوى.. لوجد أن النهى صريحٌ وعامٌ يشمل الناس كلهم صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، ومريضهم وصحيحهم... وهنا وجهٌ إعجازى آخر.. وهو أن النهى لما كان عامًّا شاملًا.. شمل الصحيح والسقيم، أما السقيم فمعروفٌ علّةُ النهى فى حقه، وأما الصحيح.. فقد أثار أمره عجبًا ودهشة.. لِمَ النهى فى حقه؟! فهو أمام الناس صحيحٌ غير مريض!! سليمٌ غير سقيم!!

والجواب: أن الصحيح نوعان:

(١) صحيحٌ مطلقًا: أى من جميع الأسقام والأمراض...

(٢) صحيحٌ نسبيًّا ظاهريًّا: وهذا فى ظاهره أنه صحيحٌ مُعافًا لكنه يحمل المرض.. وما تأثر هو نفسه به لقوة مناعته مثلًا.. لكنه يحمل فى جسمه الأجسام المضادة للمرض الذى أُصيب به سابقًا.

والأجسام المضادة إن انتقلت إلى إنسانٍ آخر صحيح (من هذا المرض) عبر نقل الدم مثلًا أو بالمعاشرة بين الرجل والمرأة. انتقل الجسم المضاد إلى الصحيح.. فأصبح سقيمًا، وربما لا تقوى مناعته حقًّا على مقاومة المرض، وهنا يمرض..

✽ هذا بالنسبة للصحيح نسبياً ظاهرياً .. الحامل للمرض .. وأمره قد فهم .. فكيف بالصحيح المطلق غير الحامل للمرض؟! ..

✽ أما هذا الصحيح المطلق .. فيقل وجوده أولاً، وإن وُجد فهو أيضاً داخل في النهي ... لِمَ؟! ..

لأن في الهواء الخارج من الزفير يوجد ثاني أكسيد الكربون ، وكفى به بلاءً ووباءً إن دخل في طعام وشراب (عن طريق النفس) ثم إنه تنتقل بعض الميكروبات والكائنات الدقيقة عن طريق الزفير .. إلى الطعام أو الشراب الذى فى الإناء المُتَنَفَس فيه، وهذه بليةٌ أخرى .. ومن ثمَّ كان النهى لجميع الفئات، وللناس أجمعين، وما استثنى منه أحدٌ .. وكانت النجاة من كثيرٍ من الأمراض بسبب اتباع أمرٍ واحدٍ واجتناب نهْيٍ واحدٍ للنبي ﷺ .

فكيف بمن اتبع أوامره كلها واثمر بها، وكيف بمن انتهى عن نواهيه كلها؟ . لا شك ولا ريب أنه من السعداء الفالحين الناجحين فى الدنيا والآخرة بإذن الله^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الموسوعة الذهبية فى إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية / د. أحمد مصطفى متولى (ص ٩٥٩ - ٩٦١) بتصرف.



فهرس الموضوعات

- تابع (٥٧) باب القناعة والعفاف والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة ٥
- (٥٨) باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطُّع إليه ٢٣
- (٥٩) باب الحث على الأكل من عمل يده والتعفف به عن السؤال والتعريض للإعطاء ٢٧
- (٦٠) باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى ٣٦
- (٦١) باب النهي عن البخل والشح ٧٣
- (٦٢) باب الإيثار والمواساة ٧٧
- (٦٣) باب التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يتبرك به ٩٤
- (٦٤) باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها ١٠١
- (٦٥) باب ذكر الموت وقصر الأمل ١١١
- (٦٦) باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر ١٣٧
- (٦٧) باب كراهية تمنّي الموت بسبب ضرر نزل به ولا بأس به لخوف الفتنة في الدين ١٤٦
- (٦٨) باب الورع وترك الشبهات ١٥٦
- (٦٩) باب استحباب العزلة عند فساد الزمان أو الخوف من فتنة في الدين أو وقوع في حرام وشبهات ونحوها ١٧١
- (٧٠) باب فضل الاختلاط بالناس وحضور جمعهم وجماعاتهم ١٨٣
- (٧١) باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين ١٨٤
- (٧٢) باب تحريم الكبر والإعجاب ٢٠٨

- (٧٣) باب حُسْنُ الْخُلُقِ ٢٢٤
- (٧٤) باب الْحِلْمِ وَالْأَنَاةِ وَالرَّفْقِ ٢٤٧
- (٧٥) باب الْعَفْوِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِينَ ٢٦٩
- (٧٦) باب احْتِمَالِ الْأَذَى ٢٧٥
- (٧٧) باب الْغَضَبِ إِذَا انْتَهَكَتْ حُرْمَاتُ الشَّرْعِ وَالْإِنْتِصَارُ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى ٢٧٨
- (٧٨) باب أَمْرِ وَلَاةِ الْأُمُورِ بِالرَّفْقِ بِرِعَايَاهُمْ وَنَصِيحَتِهِمْ ... إلخ ٢٩٤
- (٧٩) باب الْوَالِي الْعَادِلِ ٣٠٦
- (٨٠) باب وَجُوبِ طَاعَةِ وَلَاةِ الْأَمْرِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَتَحْرِيمِ طَاعَتِهِمْ فِي الْمَعْصِيَةِ ٣١٣
- (٨١) باب النَّهْيِ عَنْ سُؤَالِ الْإِمَارَةِ وَاخْتِيَارِ تَرْكِ الْوَلَايَاتِ إِذَا لَمْ يَتَّعِنَ عَلَيْهِ أَوْ تَدْعُ حَاجَةً إِلَيْهِ ٣٢٩
- (٨٢) بابُ حَثِّ السُّلْطَانِ وَالْقَاضِي وَغَيْرِهِمَا مِنْ وَلَاةِ الْأُمُورِ عَلَى اتِّخَاذِ وَزِيرٍ صَالِحٍ ٣٣٦
- (٨٣) باب النَّهْيِ عَنْ تَوَلِيَةِ الْإِمَارَةِ وَالْقَضَاءِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الْوَلَايَاتِ لِمَنْ سَأَلَهَا أَوْ حَرَّصَ عَلَيْهَا ٣٤٠

(١) كِتَابُ الْأَدَبِ

- (٨٤) باب الْحَيَاءِ وَفَضْلِهِ وَالْحَثُّ عَلَى التَّخَلُّقِ بِهِ ٣٤٢
- (٨٥) باب حِفْظِ السِّرِّ ٣٥٢
- (٨٦) باب الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَإِنْجَازِ الْوَعْدِ ٣٦٣
- (٨٧) باب الْأَمْرِ بِالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اعْتَادَهُ مِنَ الْخَيْرِ ٣٧٠
- (٨٨) باب اسْتِحْبَابِ طَيْبِ الْكَلَامِ وَطَلَاةِ الْوَجْهِ عِنْدَ الْلِقَاءِ ٣٧٣
- (٨٩) باب اسْتِحْبَابِ بَيَانِ الْكَلَامِ وَإِيضَاحِهِ لِلْمُخَاطَبِ ٣٧٦

- (٩٠) باب إصغاء المجلس لحديث جليسه ٣٧٨
- (٩١) باب الوعظ والاقتصاد فيه ٣٨٠
- (٩٢) باب الوقار والسكينة ٣٩٣
- (٩٣) باب النذب إلى إتيان الصلاة والعلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار ٣٩٧
- (٩٤) باب إكرام الضيف ٤٠٣
- (٩٥) باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير ٤٠٩
- (٩٦) باب وداع صاحب ووصيته عند فراقه ... إلخ ٤٢٥
- (٩٧) باب الاستخارة والمشاورة ٤٣٦
- (٩٨) باب استحباب الذهاب إلى العيد، وعيادة المريض ٤٤١
- (٩٩) باب استحباب تقديم اليمين في كل ما هو من باب التكريم ٤٤٤

(٢) كتاب آداب الطعام

- (١٠٠) باب التسمية في أوله والحمد في آخره ٤٥٦
- (١٠١) باب لا يعيب الطعام .. واستحباب مدحه ٤٦٧
- (١٠٢) باب ما يقوله مَنْ حضر الطعام وهو صائم إذا لم يُفطر ٤٧٢
- (١٠٣) باب ما يقول مَنْ دُعِيَ إلى طعام فتبعه غيره؟ ٤٧٤
- (١٠٤) باب الأكل مما يليه ووعظه وتأديب مَنْ يُسَيِّئُ أكله ٤٧٧
- (١٠٥) باب النهي عن القران بين تمرتين ونحوهما إلا بإذن رفقته ٤٧٨
- (١٠٦) باب ما يقوله ويفعله مَنْ يأكل ولا يشبع ٤٨٠
- (١٠٧) باب الأمر بالأكل من جانب القصعة ٤٨٢
- (١٠٨) باب كراهية الأكل مُتَكَنًّا ٤٨٦
- (١٠٩) باب استحباب الأكل بثلاث أصابع ٤٨٨



- (١١٠) باب تكثير الأيدي على الطعام ٤٩٦
- (١١١) باب أدب الشرب واستحباب التنفس ثلاثاً خارج الإناء ٤٩٧
- (١١٢) باب كراهة الشرب من فم القربة ونحوها ٥٠١
- (١١٣) باب كراهة النفخ في الشراب ٥٠٥
- فهرس الموضوعات ٥٠٩

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

أَسْأَلُ اللَّهَ بِزُورٍ أَوْ يَهْدِي إِلَيْكَ بِهَذَا الْكِتَابِ وَأَنْ يَجْعَلَ لِي مِثْرَانِ حَسَنَاتِ أَبِي رَأْسِي
(وَحَسَنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا أَوْ مِثْرَانِ حَسَنَاتِي وَحَسَنَاتِ كُلِّ مَنْ يَشْرَأُ هَذَا الْكِتَابَ وَيَسْتَعِي بِهِ.
وَأَرْجُو أَنْ أَتَقَدَّرَ عَلَى بِحَبْرَةٍ سَاعَةً بِكُلِّ غَيْبٍ بَانَ بِزُورٍ أَوْ يَهْدِي إِلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ
وَالْعَمَلِ وَأَنْ يَزِيدَ لِي حَسَنَ الْخَاتِمَةِ وَأَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ فِي الشَّرِّ لَوْ أَنَّ الْأَمْلَى مَعَ الْغَيْبِ الْمُسْتَعْنَى

شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد المصطفى
أبو عمار

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

الجزء الخامس



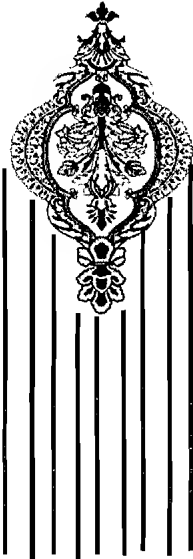
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفْعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شرح

رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

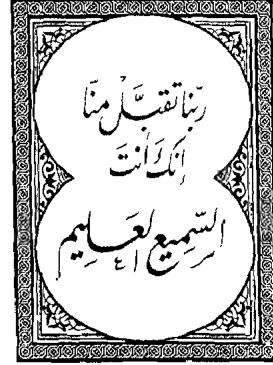
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

أولاد الحاج عيسى أفندي

١٢٧ ميدان الأزهر، أتمام النجاء، الأزهر، القاهرة ٢٥١٤٧٣٢٠
أدريس الأثر، ضلع النجاء، الأزهر، ١٠١٤٣١١٤، تليفون ٢٥١٤٧٩٧٤



مكتبة الصف

للنشر والتوزيع

شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

شرح
فضيلة الشيخ الدكتور
محمود المصري

أبو عماد
الجزء الخامس

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

تليفون: ٢٥١٤٧٣٢ - تليفاكس: ٢٥١٤٧٩٧٤



(١١٤) باب بيان جواز الشرب قائماً وبيان أن الأكمل والأفضل الشرب قاعداً

❁ فيه حديث كبشة السابق^(١).

(٧٧١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سَقَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ مِنْ زَمْزَمَ، فَشَرِبَ وَهُوَ

قَائِمٌ^(٢).

(٧٧٢) وعن النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ رضي الله عنه قال: أَتَى عَلِيَّ رضي الله عنه بَابَ الرَّحْبَةِ فَشَرِبَ

قَائِمًا، وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ^(٣).

(٧٧٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا نَأْكُلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ

نَمْشِي، وَنَشْرَبُ وَنَحْنُ قِيَامٌ^(٤).

(٧٧٤) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ

ﷺ يَشْرَبُ قَائِمًا وَقَاعِدًا^(٥).

(٧٧٥) وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يَشْرَبَ الرَّجُلُ قَائِمًا.

قَالَ قَتَادَةُ: فَقُلْنَا لِأَنْسَ: فَلَا أَكُلُ؟ قَالَ: ذَلِكَ أَشْرُّ أَوْ أَحَبُّ^(٦).

وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ زَجَرَ عَنِ الشُّرْبِ قَائِمًا.

❁ فهذه الأحاديث تدل على أن الأفضل في الأكل والشرب أن يكون الإنسان

قاعداً، لأن هذا هو هدى النبي ﷺ... لا يأكل وهو قائم ولا يشرب وهو قائم.

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح سنن الترمذی (١٥٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاری (٥٦١٧) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٢٧) كتاب الأشربة.

(٣) صحيح: رواه البخاری (٥٦١٥) كتاب الأشربة.

(٤) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی رحمته الله فی صحيح سنن الترمذی (١٥٣٣).

(٥) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی رحمته الله فی صحيح سنن الترمذی (١٥٣٥).

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٤) كتاب الأشربة.

أما الشرب وهو قائم فإنه صحَّ عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذلك.
وسئل أنس بن مالك عن الأكل، قال: ذاك أشر وأخبث... يعنى معناه أنه إذا
نهى عن الشرب قائماً فالنهي عن الأكل قائماً من باب أولى.

✽ قال الدكتور عبد الرازق الكيلاني: إن الشرب وتناول الطعام جالساً أصحُّ
وأسلم وأهنأ وأمرأ حيث يجرى ما يتناول الأكل والشارب على جدران المعدة
بتؤدة ولطف.

أما الشرب واقفاً فيؤدى إلى تساقط السائل بعنفٍ إلى قعر المعدة ويصدمها
صدماً. وإن تكرار هذه العملية يؤدى مع طول الزمن إلى استرخاء المعدة
وهبوطها وما يلي ذلك من عُسر هضم.

✽ كما أن الأكل ماشياً ليس من الصحة فى شىء وما عُرف عند العرب
والمسلمين.

✽ وقال الدكتور إبراهيم الراوى: إن الإنسان فى حالة الوقوف يكون متوتراً،
ويكون جهاز التوازن فى مراكزه العصبية فى حالة فعالة شديدة حتى لا يتمكن من
السيطرة على جميع عضلات الجسم لتقوم بعملية التوازن والوقوف منتصباً،
وهى عملية دقيقة يشترك فيها الجهاز العصبى والعضلى فى آنٍ واحدٍ، مما يجعل
الإنسان غير قادرٍ على الحصول على الطمأنينة العضوية التى تُعتبر من أهم
الشروط الواجبة عند الطعام والشراب.

وهذه الطمأنينة يحصل عليها الإنسان فى حالة الجلوس حيث تكون الجملة
العصبية والعضلية فى حالة من الهدوء والاسترخاء، وحيث تنشط الأحاسيس
وتزداد قابلية الجهاز الهضمى لتقبل الطعام والشراب وتمثيله بشكلٍ صحيحٍ.

✽ كما أن الاستمرار على عادة الأكل والشرب واقفاً تُعتبر خطيرةً على
سلامة جدران المعدة وإمكانية حدوث تقرحات بها، حيث يُلاحظ الأطباء أن

قرحات المعدة تكثر في المناطق التي تكون عرضة لصدمات اللقم الطعامية، وجرعات الأشربة بنسبة تبلغ ٩٥٪ من حالات الإصابة بالقرحة.

✽ كما أن حالة عدم التوازن أثناء الوقوف ترافقها تشنجات عضلية في المريء تعوق مرور الطعام بسهولة إلى المعدة، وتحدث في بعض الأحيان آلاماً شديدة تضطرب معها وظيفة الجهاز الهضمي، وتُفقد صاحبها البهجة عند تناول الطعام والشراب^(١).

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ الشَّرْبُ قَائِمًا مَكْرُوهًا وَقَدْ فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ فِعْلَهُ ﷺ إِذَا كَانَ بَيِّنًا لِلْجَوَازِ لَا يَكُونُ مَكْرُوهًا بَلِ الْبَيِّنُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ ﷺ فَكَيْفَ يَكُونُ مَكْرُوهًا... وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ ﷺ تَوَضَّأَ مَرَّةً مَرَّةً وَطَافَ عَلَى بَعِيرٍ، مَعَ أَنَّ الْجَمَاعَ عَلَى أَنَّ الْوُضُوءَ ثَلَاثًا وَالطَّوْفَ مَاشِيًا أَكْمَلَ... وَنَظَائِرُ هَذَا غَيْرُ مُنْحَصِرَةٍ، فَكَانَ ﷺ يُنَبِّهُ عَلَى جَوَازِ الشَّيْءِ مَرَّةً أَوْ مَرَّاتٍ وَيُؤَظِّبُ عَلَى الْأَفْضَلِ مِنْهُ وَهَكَذَا كَانَ أَكْثَرُ وَضُوءِهِ ﷺ ثَلَاثًا ثَلَاثًا وَأَكْثَرُ طَوَافِهِ مَاشِيًا وَأَكْثَرُ شَرْبِهِ جَالِسًا وَهَذَا وَاضِحٌ لَا يَتَشَكَّكُ فِيهِ مَنْ لَهُ أَدْنَى نِسْبَةٍ إِلَى عِلْمٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

فهذا يدل على أن النهي ليس للتحريم ولكنه لترك الأولى... بمعنى أن الأحسن والأكمل أن يشرب الإنسان وهو قاعد وأن يأكل وهو قاعد، ولكن لا بأس أن يشرب وهو قائم وأن يأكل وهو قائم.

فالحاصل أن الأكمل والأفضل أن يشرب الإنسان وهو قاعد ويجوز الشرب قائماً... وقد شرب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قائماً، وقال: إن النبي ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت، فدل ذلك على أن الشرب قائماً لا بأس به، لكن الأفضل أن يشرب قاعداً.

(١) «روائع الطب الإسلامي» (بتصرف واختصار) د/ إبراهيم الراوى، العدد ١٩٦٧ م.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٢٨٤).

بقى أن يُقال: إذا كانت البرادة - الكولدير - في المسجد ودخل الإنسان المسجد، فهل يجلس ويشرب أو يشرب قائماً؟ لأنه إن جلس خالف قول النبي ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين»، وإن شرب قائماً ترك الأفضل. فنقول: الأفضل أن يشرب قائماً، لأن الجلوس قبل صلاة الركعتين حرام عند بعض العلماء، بخلاف الشرب قائماً فهو أهون، وعلى هذا فيشرب قائماً ثم يذهب ويصلي تحية المسجد.

❦

(٧٧٦) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَشْرَبَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ قائماً، فَمَنْ نَسِيَ فَلْيَسْتَقْ»^(١).

❦ وهذا الحديث فيه النهي عن الشرب قائماً... وفيه أيضاً شيء من التعزير وهو أنك إذا نسيت وفعلت هذا الشيء فاستق... وليس محمولاً على الوجوب، ولكنه كنوع من التأديب حتى يُعود الإنسان نفسه على أدب الشرب قاعداً.... وكذلك علماء الطب يقولون: إن الشرب قاعداً أفضل من الشرب قائماً... لأن الإنسان إذا شرب قاعداً نزل الشراب من فمه نزولاً خفيفاً هيناً، أما إذا كان قائماً فإنه ينزل متدفقاً ومندفقاً نحو المعدة.

❦ قال الإمام النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اعْلَمْ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الْإِسْتِقَاءُ لِمَنْ شَرِبَ قَائِماً نَاسِياً أَوْ مُتَعَمِّداً.... وَذَكَرُ النَّاسِي فِي الْحَدِيثِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْقَاصِدَ يُخَالِفُهُ بَلْ لِلتَّنْبِيهِ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى لِأَنَّهُ إِذَا أَمَرَ بِهِ النَّاسِي وَهُوَ غَيْرُ مُخَاطَبٍ فَالْعَامِدُ الْمُخَاطَبُ الْمُكَلَّفُ أَوْلَى وَهَذَا وَاضِحٌ لَا شَكَّ فِيهِ^(٢).

(١) صحيح: زواه مسلم (٢٠٢٦) كتاب الأشربة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢٨٤/١٣).

(١١٥) باب استحباب كون ساقى القوم آخرهم شرباً

(٧٧٧) عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ساقى القوم آخرهم شرباً»^(١).
 * يعنى الذى يسقى القوم ماءً أو لبناً أو قهوة أو شايًا، ينبغى أن يكون هو آخرهم شرباً، من أجل أن يكون مؤثراً على نفسه ... ومن أجل أن يكون النقص - إن كان - على نفس الساقى ... وهذا لاشك أنه أحسن امتثالاً لأمر النبي ﷺ، وأخذاً بأدب النبي ﷺ ...

لكنه إذا كان لا يشتهى أن يشرب فليس يلزم أن يشرب بعدهم، إن شاء شرب، وإن شاء لا يشرب.

المهم أن يكون هو الأخير إذا أراد أن يشرب، لما فى ذلك من الإيثار وامتثال أمر النبي ﷺ ... وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى للإنسان أن يخدم إخوانه بسقيهم، وإذا كان صاحب البيت فليقدم إليهم الشراب أو الأكل، كما فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فَرَأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾^(٢) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿[الذاريات: ٢٦، ٢٧].

فصاحب البيت يُقرب الأكل ويناول الشراب، ويكون هو آخر القوم.
 ثم هل الأفضل أن يشاركهم فى الطعام سواء كان غداءً أو عشاءً أو فطوراً، أو الأفضل أن ينصرف ولا يشاركهم؟ هذا يرجع إلى عادة الناس، فإذا كانت مشاركته أطيب لقلوب الضيوف وأكثر إيناساً فليأكل معهم، وإذا كان الأمر بالعكس وجرت العادة أنه لا يأكل الإنسان مع ضيوفه فلا يأكل.

فهذا أمر يرجع إلى العرف؛ إن كان العرف أن من إكرام الضيف ألا تأكل معه وأن تجعله حرّاً يأكل ما شاء فلا تأكل، وإن كان الأمر بالعكس فكل.

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٨١) كتاب المساجد.

ولقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(١)،
ولم يُبين نوع الإكرام فيرجع في ذلك إلى ما جرى به عُرْف الناس^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٨) كتاب الأدب، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٦٢-٤٦٣).



(١١٦) باب جواز الشرب من جميع الأواني

الطاهرة غير الذهب والفضة وجواز الكرع وهو

الشرب بالقم من النهر وغيره بغير إناء ولا يد

وتحريم استعمال إناء الذهب والفضة في الشرب

والأكل والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

❁ في البداية لا بد أن نعلم أن الأصل في كل ما خلق الله ﷻ في الأرض أنه حلال وأن الأصل في حكمه الحلال إلا ما قام الدليل على تحريمه.. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَاءَ الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَاءَ الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]، ولذا فإن كل ما في الأرض من شجرٍ وحجرٍ وحيوانٍ فهو حلال إلا ما قام الدليل على تحريمه.

وبناءً على هذه القاعدة الأصلية التي وضّحها الله ﷻ في كتابه فإن كل من ادّعى أن هذا حرام فلا بد أن يأتي بالدليل.. فلو قال قائل مثلاً: هذا الشجر حرام.. أو ذلك الحيوان حرام... فلا بد أن يُقدم لنا الدليل على تحريمه.. وإلا فالأصل أنه حلال - ولهذا قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ: باب جواز الشرب من جميع الأواني الطاهرة غير الذهب والفضة.. واستدل على تحريم الشرب في أواني الذهب والفضة بحديث حذيفة وحديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وبيّن النبي ﷺ الحكمة من ذلك فقال: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ».

فأهل الجنة يشربون ويأكلون في أواني الذهب والفضة.. ولذلك نهى النبي ﷺ عن الأكل والشرب فيهما - في الدنيا - لأنهما آية الجنة.

وكذلك نُهي عن لبس الحرير للرجال .. وذلك لأن الحرير لباس المؤمنين في الجنة .. ولا يليق بالرجال أن يلبسوا الحرير في الدنيا ... أما النساء فقد رخص الشارع لهن في لبس الحرير من أجل مصلحة المرأة وزوجها في آن واحد .. وذلك حتى تستطيع المرأة أن تتزين لزوجها .. ولولا هذا لكان الحرير حراماً على النساء والرجال؛ لأنه لباس أهل الجنة .. ولكن من أجل مراعاة المصلحة كان حلالاً للنساء حراماً على الرجال.

❦ فالشاهد أن جميع الأواني من خشبٍ وخزفٍ وزجاجٍ وأحجارٍ وغير ذلك .. الأصل فيها أنها حلال حتى لو كانت من أغلى أنواع المعادن .. فإنها كلها حلال إلا الذهب والفضة .. وليست العلة كما يقول البعض : أنها تجلب الخيلاء وتكسر قلوب الفقراء وما أشبه ذلك .. لأنه لو كان الأمر هكذا لكان كل إناء يكسر قلوب الفقراء يحرم فيه الأكل والشرب .. ولكن العلة وضّحها النبي ﷺ فقال: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ» وهذا خاصٌّ بآنية الذهب والفضة.

فلو أن إنساناً شرب في آنية من الأحجار الكريمة كالياقوت والجواهر التي هي أغلى من الذهب والفضة لم يكن حراماً إذا لم يصل إلى حدّ السرف .. ولكنه لو أكل أو شرب في آنية من الذهب أو الفضة لكان حراماً ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٧٨) عن أنسٍ رضي الله عنه قال: حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَامَ مَنْ كَانَ قَرِيبَ الدَّارِ إِلَى أَهْلِهِ، وَبَقِيَ قَوْمٌ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمُخَضَّبٍ مِنْ حِجَارَةٍ، فِيهِ مَاءٌ فَصَغَرُ الْمُخَضَّبِ أَنْ يَبْسُطَ فِيهِ كَفَّهُ، فَتَوَضَّأَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ. قالوا: كَمْ كُتِّمَ؟ قال: ثَمَانِينَ وَزِيَادَةً^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٥) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٢٧٩) كتاب الفضائل.

وفى رواية له ولمسلم: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ، فَأَتَى بِقَدَحٍ رَحْرَاحٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ. قَالَ أَنَسٌ: فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ يَنْبُعُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، فَحَزَرْتُ مَنْ تَوَضَّأَ مَا بَيْنَ السَّبْعَيْنِ إِلَى الثَّمَانِينَ.

❦ ففى هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أنهم كانوا جالسين مع النبي ﷺ ليعلمهم ويُرِيهم .. وفجأة حان وقت الصلاة فقام مَنْ كان قريب الدار ليتوضأ فى بيته فإنهم لم يكن عندهم فى ذلك الوقت دورات مياه فى بيوتهم .. بل كان الصحابة يجلسون مع النبي ﷺ فإذا حان وقت الصلاة قاموا من عنده ليتوضأوا ثم يرجعون إلى الصلاة مرة أخرى ... فلما ذهب بعضهم ليتوضأ بقى البعض الآخر مع النبي ﷺ .. والظاهر أن بيوتهم كانت بعيدة .. فلو ذهبوا فلن يدركوا الصلاة ... فأتى رسول الله ﷺ بمخضب من حجارة.

والمخضب يُطلق على الإناء المصنوع من الحجر، فأوانيهم كانت تُصنع إما من الحجر أو النحاس ونحو ذلك.

قال: (فصغر المخضب أن ييسط فيه كفه) عليه الصلاة والسلام، والمعنى: أنهم أتوا له بإناء من حجرٍ صغير الحجم، عجزت كف النبي ﷺ أن تدخل فيه. فوضع النبي ﷺ يده الشريفة على ذلك المخضب ففار الماء من بين أصابعه فتوضأ القوم جميعاً وكانوا ما بين السبعين إلى الثمانين .. وهذه بركة من بركات النبي ﷺ .. وهى فى نفس الوقت معجزة من معجزاته ﷺ.

❦ قال الإمام النووى رحمته الله:

وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّ الْمَاءَ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ نَفْسِ أَصَابِعِهِ ﷺ وَيَنْبُعُ مِنْ ذَاتِهَا... قَالُوا: وَهُوَ أَعْظَمُ فِي الْمُعْجَزَةِ مِنْ نَبْعِهِ مِنْ حَجَرٍ... وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّهُ جَاءَ فِي رِوَايَةٍ: (فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ أَصَابِعِهِ)، وَالثَّانِي: يَحْتَمِلُ أَنَّ اللَّهَ كَثَّرَ الْمَاءَ فِي ذَاتِهِ فَصَارَ يَفُورُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ لَا مِنْ نَفْسِهَا وَكِلَاهُمَا مُعْجَزَةٌ ظَاهِرَةٌ وَآيَةٌ بَاهِرَةٌ^(١).

(١) مسلم بشرح النووى (١٥/٥٦-٥٧).

(٧٧٩) وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: أَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ، فَأَخْرَجَنَا لَهُ مَاءً فِي تَوْرِ مِنْ صُفْرِ فَتَوَضَّأَ^(١).

❁ أى: أخرجوا له إناءً من صُفْرِ أى: من نحاس، فتوضأ منه ﷺ. وهذا يدل على جواز الوضوء من الأواني الطاهرة، والأكل والشرب فيها، إلا أواني الذهب والفضة.

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَوَضَّعَ بِهِ

(٧٨٠) وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ كَانَ عِنْدَكَ مَاءٌ بَاتَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فِي شَنَّةٍ وَإِلَّا كَرَعْنَا»^(٢).

❁ والشنة: هي القربة... والمعنى: أن النبي ﷺ يحب أن يكون الماء بايئاً في القربة.... ومعلوم أنك إن ملأت قربة من الماء وتركتها إلى أن تبيت، فإن كان الماء مُتَعَكِّراً بالتراب فسيصفى وَيُنَقَّى، حيث ينزل التراب إلى أسفل القربة... أما إذا ملئت القربة قريباً ولم يَبَيْتِ الماء فيها فسيبقى فيها أثر التعكُّر بالتراب.... وهذا هو مقصد النبي ﷺ.

وقوله: (وإلا كرعنا)، وهذه وإن كانت ليست عادة النبي ﷺ إلا أن ذلك كأنه مُرَاعَاةٌ لِلْحَالِ، حيث لم يجد عند الرجل شيئاً أمامه، وكأنه وجد ماءً في إناء كبير ومرتفع، ولم يجد كيزاناً ليشرب، ولعل يده كانت متسخة أو فيها قذى مُعِين، فيلجأ إلى الكرع: وهو أَخْذُ الْمَاءِ بَفَمِهِ مِنْ ذَلِكَ الْإِنَاءِ.

ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَالَ ذَلِكَ تَوَاضُّعاً مِنْهُ ﷺ... وكأنه يقول لصاحب الدار:

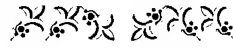
(١) صحيح: رواه البخارى (١٩٧)، (١٩٩) كتاب الوضوء.

«الْصُّفْرُ» وهو النحاس، «والتَّوْر» كالقدح، وهو بالتاء المثناة من فوق.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٦١٣) كتاب الأشربة.

«الشَّنَّةُ»: القربة.

إِنَّا لَنْ نُثْقَلَ عَلَيْكَ، وَلَنْ نُكَلِّفَكَ بِأَنْ تَشْتَرِيَ لَنَا كِيزَانًا، أَوْ تَأْتِيَ بِهَا مِنْ جِيرَانِكَ، بَلْ إِذَا لَزِمَ الْأَمْرَ سَنَكْرَعُ مِنْ هَذَا الْإِنَاءِ كَرْعًا، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَدَبِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوَاضَعِهِ الْجَمِّ.



(٧٨١) وَعَنْ حَذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الْحَرِيرِ وَالذَّبِيحِ وَالشُّرْبِ فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقَالَ: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ»^(١).
والحرير: هو ما كان ثوبًا خالصًا من حرير، فَإِنْ كَانَ الْحَرِيرُ رَقِيقًا سُمِيَ بِالسَّنَدَسِ، وَإِنْ كَانَ غَلِيظًا سُمِيَ بِالِاسْتَبْرِقِ، وَقَدْ يَكُونُ مَخْلُوطًا بغيره فَيُسَمَّى بِالذَّبِيحِ، وَذَلِكَ كَأَنْ يَكُونَ الثَّوْبُ الْحَرِيرُ فِيهِ بَعْضُ الصَّوْفِ، إِلَّا أَنْ الْغَالِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَرِيرٌ.

فَالنَّبِيُّ ﷺ نَهَى الرَّجُلَ أَنْ يَلْبَسَ ثَوْبًا خَالِصًا مِنْ حَرِيرٍ، أَوْ ثَوْبًا أَكْثَرَهُ حَرِيرٌ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بَعْضُ الْخِيُوطِ فِي الثَّوْبِ الَّذِي تَلْبَسُهُ حَرِيرًا، لَكِنْ بِمَقْدَارِ أَصْبَعٍ أَوْ أَصْبَعَيْنِ، أَوْ ثَلَاثٍ أَوْ أَرْبَعٍ كَأَقْصَى حَدٍّ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ^(٢).
لِحَدِيثِ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ، وَنَحْنُ بِأَذْرَبِجَانَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «نَهَى عَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ إِلَّا هَكَذَا، وَصَفَّ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ إَصْبَعِيَه»^(٣).
وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «نَهَى نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ عَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ إِلَّا مَوْضِعَ إَصْبَعَيْنِ، أَوْ ثَلَاثٍ، أَوْ أَرْبَعٍ»^(٤).

فَإِنْ زَادَ عِلْمَ الْحَرِيرِ فِي الثَّوْبِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصَابِعٍ حَرْمٌ. وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ - خِلَافًا لِلْمَالِكِيَّةِ وَرَوَايَةٍ عَنْ أَحْمَدَ - إِلَى جَوَازِ لِبْسِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٢) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزينة.

(٢) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ / أحمد حطية.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٢٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٩) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٠٦٩) (١٥) كتاب اللباس والزينة.

الحرير عند الضرورة كحالة المرض أو الحكة ونحو ذلك... لحديث أنس، قال: «رَخَّصَ النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ، لِحِكَّةٍ بِهِمَا»^(١).

ثم أخبر حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهاهم عن الشرب في آنية الذهب والفضة وقال: «هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ».. وقد شرحنا ذلك في أول هذا الباب.. والله الحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٨٢) وعن أم سلمة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»^(٢).

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آنِيَةِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ». وفي رواية له: «مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ إِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارًا مِنْ جَهَنَّمَ».

قال الإمام النووي رحمه الله:

قَالَ الْقَاضِي: وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُرَادِ بِالْحَدِيثِ فَقِيلَ: هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْكُفَّارِ مِنْ مُلُوكِ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ عَادَتْهُمْ فِعْلُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ... أَيْ هُمْ الْمُسْتَعْمِلُونَ لَهَا فِي الدُّنْيَا.. وَكَمَا قَالَ ﷺ فِي ثَوْبِ الْحَرِيرِ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ» أَيْ: لَا نَصِيبَ لَهُ... قَالَ: وَقِيلَ: الْمُرَادُ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ ذَلِكَ وَأَنْ مَنِ ارْتَكَبَ هَذَا النَّهْيَ اسْتَوْجَبَ هَذَا الْوَعِيدَ، وَقَدْ يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ. هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي. وَالصَّوَابُ: أَنَّ النَّهْيَ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ مَنْ يَسْتَعْمِلُ إِنَاءَ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ لِأَنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ الْكَفَّارَ مُخَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرْعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٣٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٦) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٤) كتاب الأشربة، ومسلم (٢٠٦٥) كتاب اللباس والزينة.

وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَحْرِيمِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ فِي إِنْاءِ الذَّهَبِ وَإِنْاءِ الْفِضَّةِ عَلَى الرَّجُلِ وَعَلَى الْمَرْأَةِ.

ثم قال: إِنَّ الْأَجْمَاعَ مُتَّعِدٌ عَلَى تَحْرِيمِ اسْتِعْمَالِ إِنْاءِ الذَّهَبِ وَإِنْاءِ الْفِضَّةِ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالطَّهَّارَةِ وَالْأَكْلِ بِمَلْعَقَةٍ مِنْ أَحَدِهِمَا وَالتَّجْمُرُ بِمَجْمَرَةٍ مِنْهُمَا، وَجَمِيعِ وُجُوهِ الاسْتِعْمَالِ وَمِنْهَا الْمُكْحَلَةُ وَالْمِيلُ وَظَرْفُ الْغَالِيَةِ وَغَيْرُ ذَلِكَ سِوَاءِ الْإِنْاءِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ. وَيَسْتَوِي فِي التَّحْرِيمِ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ بِلا خِلَافٍ. وَإِنَّمَا فُرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ فِي التَّحَلِّيِّ لِمَا يُقْصَدُ مِنْهَا مِنَ التَّزِينِ لِلزَّوْجِ وَالسَّيِّدِ، وَيَحْرُمُ اسْتِعْمَالُ مَاءِ الْوَرْدِ وَالْأَدَّاهَانِ مِنْ قَارُورَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ.

قَالُوا: فَإِنْ ابْتُلِيَ بِطَعَامٍ فِي إِنْاءِ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَلْيُخْرِجِ الطَّعَامَ إِلَى إِنْاءٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِهِمَا وَيَأْكُلْ مِنْهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِنْاءٌ آخَرُ فَلْيَجْعَلْهُ عَلَى رَغِيفٍ إِنْ أَمَكَّنَ وَإِنْ ابْتُلِيَ بِالذَّهْنِ فِي قَارُورَةٍ فَفِضَّةٍ فَلْيَصُبَّهُ فِي يَدِهِ الْيُسْرَى ثُمَّ يَصُبَّهُ مِنَ الْيُسْرَى فِي الْيَمْنَى وَيَسْتَعْمَلُهُ^(١).

وفي حديث أم سلمة: دليل على أن الأكل في آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ: «فَإِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارُ جَهَنَّمَ» الجرجرة: صوت الطعام والشراب وهو ينحدر في البلعوم، فإذا أكل أو شرب في إناء الذهب والفضة، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم... وهذا يدل على أنه من كبائر الذنوب لأن فيه الوعيد، وكل ذنب فيه وعيد، فإنه من كبائر الذنوب. والمطلّى بالذهب والفضة قال العلماء: إنه كالخالص، لا يجوز أن يؤكل فيه ولا أن يشرب فيه.

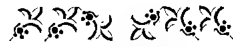
ومن هذا الحديث نعرف لِمَ قَذَفَ حذيفة دَهْقَانَ الْفَرَسِ بِإِنْاءِ الذَّهَبِ أَوْ الْفِضَّةِ... وذلك لأن حذيفة رضي الله عنه عطش ذات مرة وكان أميراً في المدائن رضي الله عنه،

(١) مسلم بشرح النووي (١٤/ ٤٠-٤٢) بتصرف كبير.



فطلب ماءً فإذا بالدهقان يأتي له بإناءٍ من ذهب أو فضة فيه ماء.

فأخذه وقذفه به... وذلك لأن هذا الرجل عرف نهي النبي ﷺ، ولكنه كان يستهين بهذا النهي، ولذلك التفت لمن معه وقال: أما إنني لو لم أنه مرة ولا مرتين ولا ثلاثة... يعني: أنا نهيته أكثر من مرة، إلا أنه كان متعمداً لمخالفة ما قاله النبي ﷺ، فاستحق أن يقذفه بهذا الإناء ليؤدبه، والله أعلم.



(٣) كتاب اللباس

(١١٧) باب استحباب الثوب الأبيض وجواز الأحمر

والأخضر والأصفر والأسود وجوازه من قطن

وكتان وشعر وصوف وغيرها إلا الحرير

وبعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ آداب الطعام ثم آداب الشرب ذكر هنا آداب اللباس.

وهذا من أحسن الترتيب فإن الأكل والشرب لباس الباطن .. والثياب لباس الظاهر قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩] فقال: ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ لأن الجوع عرى الباطن فخلو البطن من الطعام عرى لها.

﴿ وَلَا تَعْرَى ﴾ من لباس الظاهر ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ﴾ هذا حرارة الباطن ﴿ وَلَا تَصْحَى ﴾ هذا حرارة الظاهر ... ولهذا أشكل على بعض الناس قال: لماذا لم يقل إن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ وأنت لا تعرى فيها ولا تصحى؟ ولكن مَنْ تَفَطَّنَ للمعنى الذى أشرنا إليه تبين له بلاغة القرآن.

﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا ﴾ هذا انتفاء العرى فى الباطن ﴿ وَلَا تَعْرَى ﴾ انتفاؤه فى الظاهر ﴿ لَا تَظْمَأُ ﴾ هذا انتفاء الحرارة فى الباطن ﴿ وَلَا تَصْحَى ﴾ يعنى لا تتعرض للشمس الحارة فيه انتفاء للحرارة فى الظاهر.

وقال تعالى: ﴿ يَبْقَىٰ عَادَمٌ قَدْ أَزَلْنَا عَنْكَ لِثَامَ يَوْمِكِ لِيَأْسَ بِتُؤَرَىٰ سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْتَقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فذكر الله تعالى نوعين من اللباس: نوعاً ظاهراً ونوعاً باطنياً أو نوعاً حسيّاً ونوعاً معنوياً ... وذكر أن الحسّى قسمان: قسم

ضروريٌّ تُوارى به العورة، وقسم كمالى وهو الريش لباس الزينة.

والله سبحانه وتعالى من حكمته أن جعل بنى آدم محتاجين للباس لموارد السوء ... يعنى لتغطية السوء حتى يتستر الإنسان ... وكما أنه محتاج للباس يوارى سوءته الحسية فهو محتاج للباس يوارى سوءته المعنوية وهى المعاصى ... وهذا من حكمة الله تعالى.

ولهذا نجد غالب المخلوقات سوى الآدمى لها ما يستر جلدها من شعرٍ أو صوفٍ أو وبرٍ أو ريش لأنها ليست بحاجة إلى أن تذكر العرى المعنوى بخلاف بنى آدم فإنهم محتاجون إلى أن يتذكروا العورة المعنوية وهى عورة الذنوب ... حمانا الله منها.

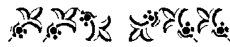
﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أُنْزِلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ تِكُمْ﴾ أى عوراتكم ﴿وَرِيْشًا﴾ أى ثياب زينة وجمال زائد عن اللباس الضرورى ﴿وَلِبَاسًا التَّقْوَى﴾ هذا هو اللباس المعنوى ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى خير من اللباس الظاهر سواء كان مما هو ضرورى كالذى يوارى السوء أم من الكمالى ... وإذا كان لباس التقوى خيراً من لباس الظاهر فيجب على الإنسان أن يفكر فى أن يلبس لباس التقوى حيث تجدنا نحرص على نظافة اللباس الظاهر ... فالإنسان إذا أصاب ثوبه بقعة أو وسخ ذهب يغسلها بالماء والصابون وبما يقدر عليه من المنظفات لكن لباس التقوى كثير من الناس لا يهتم به ... يكون نظيفاً أو يتسخ لا يهتم به.

مع أن هذا كما قال الله ﷻ هو الخير وهو إشارة إلى أنه يحب الاعتناء بلباس التقوى أكثر مما يجب الاعتناء بلباس البدن الظاهر الحسى لأن لباس التقوى أهم ... وهنا قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ولم يقل: ولباس التقوى هو خير لأن ذلك اسم إشارة وجىء بها للبعد إشارة إلى علو مرتبة هذا اللباس كما قال تعالى: ﴿الْعَمَلُ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢].

ولم يقل هذا الكتاب إشارة إلى علو مرتبة القرآن.

كذلك قوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى علو مرتبة لباس التقوى .

فينبغي للإنسان أن يعتنى بهذا اللباس ... وذلك بأن يتقى الله عز وجل وأن يفكر دائماً في سيئاته ومعاصيه ... وتنظيف السيئات والمعاصي أسهل من تنظيف الثياب الظاهرة، فالثياب الظاهرة تحتاج إلى عمل وتعب وأجرة وتحضير ماء ومنظف لكن هذا الأمر سهل جداً ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] بالاستغفار والتوبة يُمحى كل ما سلف ... نسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وكرمه ^(١).



(٧٨٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْبَسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ الْبَيَاضَ، فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ، وَكَفَّنُوا فِيهَا مَوْتَكُمْ» ^(٢).

(٧٨٤) وعن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَسُوا الْبَيَاضَ، فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ، وَكَفَّنُوا فِيهَا مَوْتَكُمْ» ^(٣).

(٧٨٥) وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرْبُوعًا وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ ^(٤).

❁ ما ترك النبي (عليه الصلاة والسلام) شيئاً ينفعنا إلا وعلمنا إياه، ولا شيئاً يضرنا إلا حذرنا منه، حتى في أمور اللباس .. فقد رغب في لبس الثوب الأبيض، وبين جواز لبس جميع أنواع الثياب من القطن والكتان والصوف، وحرم لبس الحرير للرجال دون النساء.

(١) شرح رياض الصالحين (٢/٤٦٦-٤٦٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٥).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٥١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٣٣٧) كتاب الفضائل.

❁ وفي حديث ابن عباس وسمرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حَثَّ عَلَى لِبَسِ الثِّيَابِ الْبَيِضِ، وَقَالَ: «فَإِنَّهَا مِنْ خَيْرِ ثِيَابِكُمْ» وَقَالَ: «فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ» .. وَصَدَقَ الْحَبِيبُ الْمَصْطَفَى ﷺ فَإِنَّ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ يَزِيدُ صَاحِبَهُ جَمَالًا فَوْقَ جَمَالِهِ وَنُورَ الْإِيمَانِ الَّذِي يُضِيءُ وَجْهَهُ .. فَالثَّوْبُ الْأَبْيَضُ فِيهِ جَمَالٌ وَفِيهِ طَهَارَةٌ حَيْثُ إِنْ الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ إِذَا كَانَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ تَرَابٍ أَوْ مِنْ وَسَخٍ أَوْ مِنْ نَجَاسَةٍ تَظْهَرُ فِيهِ ... وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا تَدْعُو تَقُولُ: (اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقِّي الثَّوْبَ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ) يَعْنِي: لَا تَتْرِكْ عَلَيَّ خَطِيئَةً لَا ظَاهِرَةً وَلَا بَاطِنَةً، حَتَّى لَا يَكُونَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالثَّوْبُ الْأَسْوَدُ قَدْ يَغْسِلُهُ الْإِنْسَانُ وَعَلَيْهِ بَعْضُ الْكَدَرَاتِ فَلَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ، فَيُغْسَلُ أَدْنَى غَسْلٍ وَيَتَنَظَّفُ الثَّوْبُ ... أَمَّا الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَغْسِلَهُ جَيِّدًا حَتَّى لَا يَبْقَى عَلَيْهِ أَىْ أَثَرٍ مِنَ الدَّرَنِ أَوْ الْوَسَخِ.

فَالثِّيَابُ الْأُخْرَى قَدْ تَتْرَاكُمُ عَلَيْهَا الْأَوْسَاخُ، وَالْإِنْسَانُ لَا يَدْرِي وَلَا يَغْسِلُهَا .. أَمَّا الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ فَأَدْنَى شَيْءٍ يَظْهَرُ فِيهِ فَيُسَارِعُ الْإِنْسَانُ إِلَى غَسْلِهِ لِيُظَلَّ دَائِمًا مَظْهَرُهُ جَمِيلًا فَيَكُونُ صُورَةً طَيِّبَةً أَمَامَ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ .. وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِنَّهَا أَطْهَرُ وَأَطْيَبُ».

وَلِبَسِ الثِّيَابِ الْبَيِضِ يَشْمَلُ الْقُمُصَ وَالْأَزْرَ وَالسَّرَاوِيلَ .. فَكُلُّهَا يُسْتَحَبُّ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَيَاضِ .. وَلَكِنْ لَا بَأْسَ أَنْ يَلْبَسَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَىْ لَوْنٍ آخَرَ بِشَرَطٍ أَلَّا يَكُونَ لِبَاسُهُ شَبِيهًا بِمَلَابِسِ النِّسَاءِ أَوْ مِمَّا يَخْتَصُّ لِبَسَهُ بِالنِّسَاءِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ» ..

وكَذَلِكَ يُشْتَرَطُ أَلَّا تَكُونَ ثِيَابُهُ حُمْرَاءَ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ نَهَى عَنْ لِبَسِ الثِّيَابِ الْحُمْرَاءِ ... وَالْمَقْصُودُ هُنَا هُوَ الْأَحْمَرُ الْخَالِصُ .. أَمَّا إِذَا كَانَ

مختلطاً بلونٍ آخر فلا بأس .. ولذا فقد جاء في حديث البراء أنه رأى النبي ﷺ في حُلَّة حمراء ... فتلك الحُلَّة الحمراء لم تكن حمراء خالصة لكن الغالب عليها هو اللون الأحمر .. كالشماع الذي يكون فيه اللون الأبيض والأحمر لكن الغالب عليه هو اللون الأحمر.

❁ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

وَعَلِطَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ حَمْرَاءَ بَحْتًا لَا يُخَالِطُهَا غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا الْحُلَّةُ الْحَمْرَاءُ: بُرْدَانِ يَمَانِيَّانِ مَنْسُوجَانِ بِخُطُوطٍ حُمْرٍ مَعَ الْأَسْوَدِ، كَسَائِرِ الْبُرُودِ الْيَمِينِيَّةِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ بِهَذَا الْإِسْمِ بِاعْتِبَارِ مَا فِيهَا مِنَ الْخُطُوطِ الْحُمْرِ، وَإِلَّا فَالْأَحْمَرُ الْبَحْتُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ أَشَدُّ النَّهْيِ^(١).

❁

(٧٨٦) وعن أبي جُحَيْفَةَ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ وَهُوَ بِالْأَبْطَحِ فِي قُبَّةٍ لَهُ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَمَ فَخَرَجَ بِلَالٌ بِوَضُوءِهِ، فَمِنْ نَاضِحٍ وَنَائِلٍ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ سَاقِيهِ، فَتَوَضَّأَ وَأَذَنَ بِلَالٌ، فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ فَأَهْ هَهُنَا وَهَهُنَا، يَقُولُ يَمِينًا وَشِمَالًا: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ. ثُمَّ رُكِزَتْ لَهُ عَنَزَةٌ، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَلْبُ وَالْحِمَارُ لَا يُمْنَعُ^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يُخْبِرُ أَبُو جُحَيْفَةَ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ وَهُوَ بِالْأَبْطَحِ فِي قُبَّةٍ لَهُ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَمَ -أى: من الجلد-.

والأبطح مكان في مكة مأخوذ من البطحاء، والبطحاء الحصباء وهي الحجارة الصغيرة... فالنبي ﷺ لما انتهى من مناسك حَجَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ انتقل إلى البطحاء.

فإن النبي ﷺ لما قَدِمَ مكة في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة،

(١) زاد المعاد (١/١٣٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣) كتاب الأذان (٣٥٦٦) كتاب المناقب -ومسلم (٥٠٣) كتاب الصلاة.

«العَنَزَةُ» بفتح النون: نحو العُكَازَةِ.

قَدِمَهَا ضُحَى يَوْمِ الْأَحَدِ، الرَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَنَزَلَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَطَافَ وَسَعَى ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْأَبْطَحِ، فَنَزَلَ فِيهِ إِلَى الْيَوْمِ الثَّامِنِ، وَكَانَ فِي هَذِهِ الْقُبَّةِ الَّتِي ضُرِبَتْ لَهُ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ).

وَالْقُبَّةُ هِيَ الْخِيْمَةُ الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا .. وَكَانَتْ مِنَ الْجِلْدِ وَلَوْنُهَا أَحْمَرٌ. فَخَرَجَ بِلَالٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَوْضُوءَ النَّبِيِّ ﷺ .. يَعْنِي بِمَا تَبَقَّى مِنَ الْمَاءِ الَّذِي تَوَضَّأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ .. فَجَعَلَ النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ لِيَتَبَرَكُوا بِأَثَرِ النَّبِيِّ ﷺ.

(فَمِنْ نَائِلٍ وَنَاضِحٍ) مَعْنَاهُ فَمِنْهُمْ مَنْ يَنَالُ مِنْهُ شَيْئًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْضَحُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ شَيْئًا مِمَّا نَالَ وَيَرشُّ عَلَيْهِ بَلَلًا مِمَّا حَصَلَ لَهُ وَهُوَ مَعْنَى مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ فَمَنْ لَمْ يُصَبَّ أَخَذَ مِنْ يَدِ صَاحِبٍ^(١).

فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءُ .. وَالْحُلَّةُ ثَوْبَانِ لَا يَكُونُ وَاحِدًا .. وَهُمَا إِزَارٌ وَرَدَاءٌ وَنَحْوُهُمَا ... فَكَانَتْ تِلْكَ الْحُلَّةُ حُمْرَاءَ .. أَيْ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهَا اللَّوْنُ الْأَحْمَرُ وَيَخَالِطُهَا لَوْنٌ آخَرٌ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ لِبْسِ الْأَحْمَرِ الْخَالِصِ فَمُحَالٌّ أَنْ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ وَيَفْعَلَهُ ﷺ.

❖ قَوْلُهُ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَيَاضِ سَاقِيهِ» أَيْ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَلْبَسُ ثِيَابًا تَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ فِيهَا إِسْبَالٌ - حَاشَا لِلَّهِ - بَلْ كَانَتْ فَوْقَ الْكَعْبَيْنِ بِدَلِيلِ أَنَّهُ رَأَى بَيَاضَ سَاقِيهِ ﷺ ... فَقَدْ كَانَتْ حُلَّتُهُ ﷺ مَرْفُوعَةً عَنِ الْكَعْبَيْنِ قَلِيلًا بِحَيْثُ يَبْدُو السَّاقَ.

❖ فَتَوَضَّأَ وَأَذَّنَ بِلَالٌ .. قَالَ: فَجَعَلْتُ أَتَّبِعُ فَاهُ هَهُنَا وَهَهُنَا يَقُولُ يَمِينًا وَشِمَالًا حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ ... فِيهِ أَنَّهُ يُسَنُّ لِلْمُؤَذِّنِ الْإِلْتِفَاتُ فِي الْحَيْعَلَتَيْنِ يَمِينًا وَشِمَالًا بِرَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ... وَلَا يُحَوِّلُ قَدَمَيْهِ وَصَدْرَهُ عَنِ الْقِبْلَةِ، وَإِنَّمَا يَلْوِي رَأْسَهُ وَعُنُقَهُ وَاخْتَلَفُوا فِي كَيْفِيَّةِ الْإِفَاتَةِ عَلَى مَذَاهِبٍ. وَهِيَ ثَلَاثَةٌ

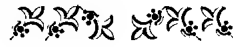
(١) مسلم بشرح النووي (٤/٢٩٢).

أَوْجِهَ أَصْحَها: وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَقُولُ حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ مَرَّتَيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ عَنْ يَسَارِهِ مَرَّتَيْنِ حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ^(١).

ثم ركزت العنزة لرسول الله ﷺ... والعنزة: رُمح في طرفه زج، يعنى رُمح في طرفه حديدة مُحددة... كان النبي ﷺ يصحبها معه في السفر.

ركزت العنزة من أجل أن يصلى إليها، لأن الإنسان إذا كان في السفر فإنه ينبغي أن يصلى إلى شىء قائم؛ كعصا يركزها في الأرض أو ما أشبه ذلك. فتقدم النبي ﷺ فصلَّى الظهر ركعتين والعصر ركعتين - كما ورد في الرواية الأخرى - وهذا يدل على جواز الجمع للمسافر وإن كان نازلاً... لكن الأفضل ألا يجمع إلا من حاجة.

قال: (يمر بين يديه الكلب والحمار ولا يمنعه) يعنى: من وراء السترة، فإذا صليت وأمامك سترة ثم مرَّ شىء من أمام السترة فلا شىء في ذلك. ولماذا قال: (يمر بين يديه الكلب والحمار)؟ لأن النبي ﷺ أخبر أن مما يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة الحائض - أى البالغة -... ومعنى يقطع أى: يُنقص من صلاة المصلى.. فكان يمر بين يدي النبي ﷺ ذلك من وراء العنزة... فطالما السترة موجودة فلا يضر ما مرَّ من ورائها.



(٧٨٧) وعن أبى رُمثة رفاعَةَ التَّمِيمِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ^(٢).

(٧٨٨) وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ^(٣).

(١) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٩٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح سنن أبى داود (٣٤٣٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٥٨) كتاب الحج.

(٧٨٩) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَمْرٍو بْنِ حُرَيْثٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرَخَى طَرْفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ ^(١).

وَفِي رَوَايَةٍ لَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ، وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ.

(٧٩٠) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُفِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثَوَابٍ بَيْضٍ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ ^(٢).

❦ فَفِي تِلْكَ الْأَحَادِيثِ بَيَانٌ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَلْبَسَ الْإِنْسَانُ الثِّيَابَ الْبَيْضَاءَ إِلَّا أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَلْبَسَ الثِّيَابَ الْخَضْرَاءَ وَالصُّفْرَاءَ وَالسُّودَاءَ وَالْحُمْرَاءَ الَّتِي لَا تَكُونُ حُمْرَاءَ خَالِصَةً بَلْ يَشُوْبُهَا لَوْنٌ آخَرُ.

فَفِي حَدِيثِ رِفَاعَةَ التَّمِيمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَخْضَرَانِ.. وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءَ.. وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ لِبْسِ الْعِمَامَةِ وَأَنَّ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ لَهَا ذَوَابَةَ، وَأَنْ يُرَخِّي طَرْفَهَا مِنْ خَلْفٍ، كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ. وَالْعِمَامَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا ذَوَابَةُ تُسَمَّى الْعِمَامَةُ الصَّمَاءُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا طَرَفٌ مَرخِي، وَكِلَاهُمَا جَائِزٌ، وَكِلَاهُمَا أَيْضًا يَجُوزُ الْمَسْحُ عَلَيْهِ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ.

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُفِّنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثَوَابٍ بَيْضٍ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ.

(ثَلَاثَةُ أَثَوَابٍ بَيْضٍ سَحُولِيَّةٍ) مَأْخُودَةٌ مِنْ سَحُولٍ وَهِيَ قَرْيَةٌ فِي الْيَمَنِ اسْمُهَا سَحُولٌ تُنْسَبُ إِلَيْهَا هَذِهِ الثِّيَابُ، كَانُوا يَصْنَعُونَ فِيهَا الثِّيَابَ مِنَ الْقُطْنِ... وَالنَّبِيُّ ﷺ كُفِّنَ فِي ثَلَاثَةِ أَثَوَابٍ بَيْضَاءَ.

فَفِيهِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يُكْفَنَ الْأَمْوَاتُ فِي الثِّيَابِ الْبَيْضِ، وَهَذَا إِنْ تَيَسَّرَ... لَكِنْ لَوْ فُرِضَ أَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرَ فَيُكْفَنُ الْمَيِّتُ فِي مِثْلِ مَا يَلْبَسُهُ الْحَيُّ، مِنْ أَى

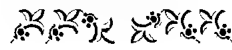
(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٥٩) كتاب الحج.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٦٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤١) كتاب الجنائز.

«السَّحُولِيَّةُ»: ثِيَابٌ تُنْسَبُ إِلَى سَحُولٍ: قَرْيَةٍ بِالْيَمَنِ «وَالْكُرْسُفُ»: الْقُطْنُ.

لون كان إلا الأحمر الخالص.

وفي حديث عائشة: دليل على أن الميت لا يُجعل عليه قميص ولا عمامة، وإنما توضع القطع واحدة فوق الأخرى، ثم يوضع عليها الميت، ثم تلف القطع العليا عليه، ثم الوسطى، ثم السفلى، ثم تُثنى من عند رأسه ومن عند الرجلين، وتُرَبِّط وتُحزَم حتى يدخل الميت القبر، فإذا أُدخل القبر فإن الحزائم تُفك ... قال العلماء: تُفك الحزائم لأن الميت إذا مات انتفخ، فإذا انتفخ وقد رُبط فربما يتفجر ... فتُفك الحزائم من أجل ألا يتفجر.



(٧٩١) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ غَدَاةٍ وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مَرَحَلٌ مِنْ شَعْرِ أَسْوَد^(١).

❁ يعنى: خرج في الصباح (وعليه مِرْطٌ) المرط هو الكساء.

(مُرَحَّل) مأخوذ من الرَّحَلَ ... والرَّحَلَ هو الذى يُوضع على ظهر البعير مثل الكرسي، ويجلس عليه الجالس ... فكان هذا الثوب فيه أعلام، يعنى على الثوب رسوم، وهذه الرسوم على هيئة الرَّحَلَ الذى يُوضع فوق ظهر الجمل ... وليس هو الذى صنعها، فإما أنه اشترى الثوب، أو أُهدى له ﷺ فلبسه ... وفيه دليل على جواز لبس مثل هذه الثياب.

قولها: (من شعرٍ أسود) يعنى: هذا الثوب مغزول من شعرٍ أسود. وهكذا تنوعت الأحاديث والروايات لتبين لنا أنه يجوز لنا أن نلبس أى لونٍ ما دام ليس فيه تشبُّه بلبس النساء .. وأما اللون الأحمر فلا بد أن يكون ممزوجاً بلونٍ آخر ولا يكون أحمر صافياً؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

(١) صحيح زرواه مسلم (٢٠٨١) كتاب اللباس والزينة، و(٢٤٢٤) كتاب فضائل الصحابة. «المِرْط» بكسر الميم، وهو كساءٌ - «والمُرَحَّل» بالحاء المهملة: هو الذى فيه صورةُ رِحال الإبل، وهى الأَكْوَارُ.

(٧٩٢) وَعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَسِيرٍ، فَقَالَ لِي: «أَمْعَكَ مَاءٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، فَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَمَشَى حَتَّى تَوَارَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ ثُمَّ جَاء فَأَفْرَغْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْرِجَ ذِرَاعِيهِ مِنْهَا حَتَّى أَخْرَجَهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْجُبَّةِ، فَغَسَلَ ذِرَاعِيهِ، وَمَسَحَ بِرَأْسِهِ ثُمَّ أَهْوَيْتُ لَأَنْزِعَ خُفَيْهِ فَقَالَ: «دَعُهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ» وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا^(١).

وَفِي رَوَايَةٍ: وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ شَامِيَّةٌ ضَيِّقَةٌ الْكُمَيْنِ.

وَفِي رَوَايَةٍ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ كَانَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ.

❦ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَخْبِرُ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ .. وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي كَانَ الْمُغِيرَةُ يَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمْعَكَ مَاءٌ؟» فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ وَيَتَوَضَّأَ .. فَلَمَّا سَأَلَ الْمُغِيرَةَ: «أَمْعَكَ مَاءٌ؟» قَالَ لَهُ الْمُغِيرَةُ: نَعَمْ.

فَاحْضِرِ الْمُغِيرَةُ الْمَاءَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَأَخَذَ الْمَاءَ وَمَشَى بَعِيدًا حَتَّى تَوَارَى فِي سَوَادِ اللَّيْلِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعِذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا .. فَلَا يَحِبُّ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى قِضَاءِ حَاجَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَرُ عَوْرَتَهُ.

وَهَذَا مِنْ كَمَالِ أَدَبِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي رَبَّاهُ الْحَقُّ (جَلَّ وَعَلَا) وَصَنَعَهُ عَلَى

عَيْنِهِ ...

فَمِنْ كَمَالِ الْأَدَبِ أَنْكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقْضِيَ حَاجَتَكَ فَابْعَدْ عَنِ النَّاسِ حَتَّى تَتَوَارَى عَنْهُمْ لَا مِنْ أَجْلِ الْأَيُّوَرِ عَوْرَتِكَ، لِأَنَّ سِتْرَ الْعَوْرَةِ وَاجِبٌ وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَتَكَشَّفَ أَمَامَ النَّاسِ ... لَكِنْ هَذَا فَوْقَ ذَلِكَ، يَعْنِي الْأَفْضَلَ أَلَّا يُرَى الْإِنْسَانُ وَهُوَ عَلَى حَاجَتِهِ ... وَهَذَا مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ.

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٧٩٩) كِتَابُ الْبَلَّاسِ، وَمُسْلِمٌ (٢٧٤) كِتَابُ الطَّهَارَةِ.

فلما قضى النبي ﷺ حاجته أراد أن يتوضأ .. لأنه ﷺ كان يحب أن يكون على وضوءٍ دائماً حتى وإن لم يُصَلِّ.

فأخذ المغيرة يصب الماء على النبي ﷺ من الإداوة ليتوضأ .. - والإداوة هى الإناء الذى يوضع فيه الماء-.

فغسل النبي ﷺ وجهه وكان عليه جُبة من الصوف فلم يستطع أن يُخرج ذراعيه منها حتى أخرجهما من أسفل الجُبَّة .. فقد لبس النبي ﷺ تلك الجُبَّة؛ لأن الوقت كان بارداً .. فتبوك قريبة من الشام .. وبلاد الشام باردة .. فلما لم يستطع أن يُخرج ذراعيه من الكُم ؛ لأنه كان ضيقاً أخرجهما من أسفل وغسلهما ﷺ.

«فغسل ذراعيه ومسح برأسه»، فهذا دليل على وجوب غسل اليدين إلى المرفقين حتى ولو كان الثوب ضيقاً... فلا يكسل الإنسان ويقول: أنا لن أرفعه، ولكن يخلع الثوب حتى يستطيع أن يتوضأ أو يرفع الكم حتى يُخرج يده فيغسل يديه إلى المرفقين.

✽ يقول المغيرة: ثم أهويت لأنزع خُفيه .. أى أنه انحنى بسرعة من أجل ألا يمنعه النبي ﷺ من ذلك .. وهذا من أدب هذا الصحابى الجليل مع النبي ﷺ .. فالمغيرة ظن أنه يجب أن ينزع الخُفَّ من أجل أن يغسل رجله ﷺ... ولكنه كان مسافراً... والمسافر له أن يمسح على الخُفين طالما أدخل رجله وهما طاهرتان فى الخُفين إلى ثلاثة أيام ولياليهن.

فقال: «دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين» ومسح عليهما... وفيه أنه يجوز لك أن تمسح على الخُفين بشرط أن تكون قد لبستهما على طهارة كاملة، يعنى: توضأت ولبست الخُفين.

وفرق بين الخُف والنعل .. فالخف رقبته عالية تغطى الكعبين وهما

العظمان اللذان في جانب الساق.

وكذلك الجورب له نفس حكم الخف، فإذا لبس الجوربين وأحب أن يتوضأ فطالما لبسهما على وضوء فله أن يمسح على الجوربين كما يمسح على الخفين.

❦ وهذا الحديث فيه جملة من الفوائد .. منها:

(١) أن النبي ﷺ يناله ما ينال البشر من البرد والحرّ والصحة والمرض وغير ذلك.

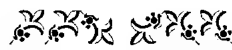
(٢) أنه لا حرج على الإنسان أن يتوقّى من كل ما يؤذيه من حرّ أو بردٍ أو غير ذلك.

(٣) أنه لا يجوز أن يمسح على حائل سوى الخفين أو العمامة.

(٤) أن حكم المانيكير الذي تضعه المرأة ليس كحكم الخفين .. فإذا أرادت أن تتوضأ فيجب عليها إزالة المانيكير وإلا فالوضوء غير صحيح ومن ثمّ فالصلاة غير صحيحة.

(٥) جواز إعانة المتوضئ على وضوئه.

(٦) أنه لا يجوز المسح على الخفين أو الجوربين إلا إذا كان لبسهما على طهارة.



(١١٨) باب استحباب القميص

(٧٩٣) عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص ^(١).
 * وهو الثوب الطويل الذي يُسميه الناس (جلابية).. وكان أحب الثياب إلى النبي ﷺ لأنه أستر للعورة وتكون تكلفته قليلة ويكون لطيفاً على البدن.
 ولذا جاء في الحديث أنه «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص».
 * ولكن إذا كنت في بلد تلبس الملابس العادية المعروفة الآن مثل القميص والبنطال - إذا لم يكن ضيقاً ويُجسّم العورة - فلا حرج أن تلبس مثلهم.
 * قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

كان النبي ﷺ يحب القميص لأنه أستر ولأنه قطعة واحدة يلبسها الإنسان مرة واحدة فهي أسهل من أن يلبس الإزار أولاً ثم الرداء ثانياً.
 ولكن مع ذلك لو كنت في بلد يعتادون لباس الأزر والأردية ولبست مثلهم فلا حرج... والمهم ألا تخالف لباس أهل بلدك فتقع في الشهرة وقد نهى النبي ﷺ عن لباس الشهرة ^(٢).

وكان عادة العرب أنهم يلبسون الحُلة وهي ثوبان: إزار ورداء... والإزار هو الذي يستر ما بين السرة إلى الكعبين، كذلك يلبس الرداء، والرداء فوق المنكبين يستتر بها.

فلبس النبي ﷺ الإزار والرداء، وكذلك كان يلبس القميص، وكان أحب اللباس إليه؛ لأنه أستر فكان يحبه ﷺ.

ومن لبس القميص لا يحجره على الأرض.. فكثير من الناس يفعل ذلك... فهذا غير جائز، وقد نهى عنه النبي ﷺ، فلا بد أن يكون القميص فوق الكعبين ولا يكون دون ذلك.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٢٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٤٧٥).

(١١٩) بَابُ صِفَةِ طُولِ الْقَمِيصِ وَالْكَمِّ وَالْإِزَارِ

وطرف العمامة وتحريم إسبال شيء من ذلك

على سبيل الخيلاء وكراهته من غير خيلاء

(٧٩٤) عن أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها قالت: كان كُمٌ قميص رسول الله ﷺ إلى الرُّسْغِ ^(١).

❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بَابُ صِفَةِ طُولِ الْقَمِيصِ وَالْكَمِّ وَالْإِزَارِ

(٧٩٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فقال أبو بكر: يا رسول الله إن إزارى يَسْتَرُخِي إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَهُ، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُهُ خِيَلَاءَ» ^(٢).

(٧٩٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا» ^(٣).

(٧٩٧) وعنه عن النبي ﷺ قَالَ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ» ^(٤).
 (٧٩٨) وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَارٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَانُ،

(١) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٧٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٥) كتاب المناقب، (٥٧٨٤) كتاب اللباس - ومسلم (٢٠٨٥) كتاب اللباس والزينة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٨٨) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٨٧) كتاب اللباس والزينة.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتْهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(١).

وفي رواية له: «الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ».

(٧٩٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الْإِسْبَالُ فِي الْإِزَارِ، وَالْقَمِيصِ، وَالْعِمَامَةِ... مَنْ جَرَّ شَيْئًا خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

✽ لقد تهاون كثير من الناس في قضية قد تكون هينة عندهم لكنها عند الله عظيمة: وهى قضية الإسبال في الإزار، فإن النبي ﷺ شدد في النهي عن ذلك... وقد عدّه بعض أهل العلم من الكبائر؛ لأنه تضمن الوعيد الشديد لفاعله، فيجب على المسلم ألا يتساهل في هذه القضية، فإنها جد خطيرة.

✽ وإسبال الثياب يقع على وجهين:

الوجه الأول: أن يجر الثوب خيلاء.

الوجه الثانى: أن ينزل الثوب أسفل من الكعبين من غير خيلاء.

أما الأول: وهو الذى يجر ثوبه خيلاء، فإن النبي ﷺ ذكر له أربع عقوبات والعياذ بالله: لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه - يعنى نظر رحمة - ولا يزكّيه، وله عذاب أليم... أربع عقوبات يُعاقب بها المرء إذا جَرَّ ثوبه خيلاء.

✽ وفي هذه الأحاديث يُخبر النبي ﷺ أن الله عَزَّ وَجَلَّ لا ينظر يوم القيامة إلى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا.

وعلى الرَّغم من أن هذا الأمر قد يتهاون فيه كثير من الناس إلا أن الأمر في غاية الخطورة... فالرجل منهى عن أن يُسبل ثوبه أو سرواله أو إزاره عن الكعب.. فإن أسبل ثيابه تحت الكعب فإنه يكون بذلك قد ارتكب كبيرة من الكبائر - والعياذ بالله -.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٧٧٠).

فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ كِبَرًا وَخِيَلًا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُ وَلَا يُزَكِّيهِ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

كما قال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ - وفي لفظ آخر: بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(١).

وإن فعل ذلك بغير كبر ولا خيلاء فإنه يُعَذَّبُ في النار ويكون العذاب لذلك الجزء الذي حدث فيه الإسبال كما قال النبي ﷺ: «مَا أَسْفَلَ الْكَعْبَيْنِ مِنَ الْإِزَارِ فَفِي النَّارِ»^(٢).

❁ وإسبال الثياب كما قلنا إن كان للخيلاء فهو حرامٌ، وإن كان بغير قصد فهو مكروه (هذا إن كان في غير صلاة، فإن كان في الصلاة فهو أشد كراهة).

قال ﷺ: «مَنْ أَسْبَلَ إِزَارَهُ فِي صَلَاتِهِ خِيَلًا فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي حِلٍّ وَلَا حَرَامٍ»^(٣).
❁ ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ يخشون من فعل ذلك بعد الوعيد الذي سمعوه من النبي ﷺ في حق المُسْبِلِ.

ولذا فإنه لما قال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَحَدَ شَقَيِّ إِزَارِي يَسْتَرَحِي، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ بِمَنْ يَفْعَلُهُ خِيَلًا»^(٤).

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي إِزَارِي اسْتِرْحَاءٌ، فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، ارْفَعْ إِزَارَكَ»، فَرَفَعْتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «زِدْ»، فَرِدْتُ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْدُ»^(٥).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٧٨٧) كتاب اللباس.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠١٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٥) كتاب المناقب، ومسلم (٢٠٨٥) كتاب اللباس والزينة.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٦) كتاب اللباس والزينة.

✽ فإذا قال قائل: ما هي السُّنة؟ قلنا: السُّنة من الكعب إلى منتصف الساق هذه هي السُّنة... نصف الساق سُنّة، وما دونه سُنّة، وما كان إلى الكعبين فهو سنة؛ لأن هذا هو لبس النبي ﷺ وأصحابه، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلاً، وما بين ذلك كله سُنّة. قال النبي ﷺ: «إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقه، ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، وما كان أسفل من الكعبين ففي النار، ومن جرّ إزاره بطراً لم ينظر الله إليه»^(١).

✽ وهنا مسألة في غاية الأهمية ألا وهي أنه إذا كان الله ﷻ لا ينظر إلى مَنْ جرّ إزاره بطراً إلا أنه يراه ويُبصر كل شيء لكنه يعامله معاملة المنسيين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ .. فهو ﷻ لا ينظر إليه نظر رحمة لكنه (سبحانه وتعالى) يراه ويعلم كل شيء عنه.

وهذا كما يفعل مع أهل النار أنه لا يُكلمهم ولكنه يرد عليهم، ويقول: ﴿اٰخَسَوْاْ فِيْهَا وَلَا تَكَلِّمُوْا﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فهو سبحانه وتعالى لا يجيبهم جواباً ينتفعون به.

✽ فالشاهد أن الذي يجزّ إزاره كبراً وبطراً وخيلاً لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يُكلمه ولا يُزكّيه وله عذابٌ أليم.. وإن كان لغير خيلاء فإنه يُعَذَّب في النار ويكون العذاب لذلك الجزء الذي حدث فيه إسبال «ما أسفل الكعبين من الإزار ففي النار» إلا أن يتوب إلى الله ويرجع إليه وينتهي عن فعل ذلك.. فالله غفورٌ رحيم شكورٌ ودود.

ولا تستغرب أن يكون العذاب على بعض البدن الذي حصلت فيه المخالفة، فإنه ثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ رأى أصحابه توضؤوا ولم

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢١).

يُسبغوا الوضوء، فنادى بأعلى صوته «ويلٌ للأعقاب من النار»^(١) فهذا جعل العقوبة على الأعقاب، يعنى العراقيب التى لم يسبغوا وضوءها. فالعقاب بالنار يكون عامًا؛ كأن يحرق الإنسان كله بالنار - والعياذ بالله - ويكون فى بعض البدن الذى حصلت فيه المخالفة، ولا غرابة فى ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصْطُودُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]

❁ ولا بد أن نعلم أن حكم الإسبال خاص بالرجال .. أما المرأة فلها أن تستر قدمها لأن المرأة موضع فتنة .. وواجب عليها أن تستر جسدها. فالمرأة استثنائها الشرع من حكم تحريم الإسبال .. وذلك حتى لا تنكشف أقدامها فتكون سببًا للفتنة ... فقد قال ﷺ: «ذيل المرأة شبر». فقالت أم سلمة: إذا تخرج قدمها! قال: «فذراع. لا يزدن عليه»^(٢).

وختم المؤلف بحديث أبى ذر أن النبى ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم» قرأها ثلاث مرات، وإنما فعل النبى (عليه الصلاة والسلام) هذا من أجل أن ينتبه الإنسان، لأن اللفظ إذا جاء مُجملاً - ولا سيما مع التكرار - ينتبه له الإنسان، حتى إذا جاءه التفصيل والبيان ورد على نفسٍ متشوفة تطلب البيان.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠) كتاب العلم، ومسلم (٢٤١) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه الدارمى (٢٧٩/٢)، والبيهقى (٢٣٣/٢)، وأحمد (٦/٢٩٥، ٣٠٩)، وأبو يعلى

(ق ٣١٩/١)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (١٨٦٤).

فقال أبو ذر: يا رسول الله، خابوا وخسروا من هؤلاء؟ قال: «المُسبِل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

الأول المُسبِل: يعنى الذى يجر ثوبه خيلاء.

والثانى المنان: الذى يَمُن بما أعطى، إذا أحسن إلى أحدٍ بشيء جعل يَمُن عليه: فعلت بك كذا وفعلت بك كذا.

والمَنُّ من كبائر الذنوب، لأن عليه هذا الوعيد، وهو مُبطل للأجر.. لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوْا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

والثالث المنفق سلعته بالحلف الكاذب: يعنى الذى يحلف وهو كاذب ليزيد ثمن السلعة.. فيقول: والله لقد اشتريتها بعشرة، وهو لم يشتريها إلا بثمانية، أو يقول: أعطيت فيها عشرة، وهو لم يعط فيها إلا ثمانية، فيحلف على هذا، فهذا ممن يستحق هذه العقوبات الأربع؛ لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزيكه، وله عذاب أليم. نسأل الله العافية^(١).



(٨٠٠) وعن أبى جُرَيْجٍ جَابِر بن سُلَيْمٍ رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ رَجُلًا يَصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ لَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا صَدَرُوا عَنْهُ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: عَلَيْكَ السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَرَّتَيْنِ. قَالَ: «لَا تَقُلْ عَلَيْكَ السَّلَامُ، عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَوْتَى. قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ» قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضَرٌّْ فَدَعَوْتُهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِذَا أَصَابَكَ عَامٌ سَنَةٌ فَدَعَوْتُهُ أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ أَوْ فَلَاقٍ، فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ، فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ» قَالَ: قُلْتُ: اعهْدْ إِلَيَّ. قَالَ: «لَا تُسَبِّنْ أَحَدًا» قَالَ: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا بَعِيرًا، وَلَا شَاةً. «وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَأَنْ تُكَلِّمَ أَحَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، إِنْ

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٧٦).

ذلك من المعروف. وارفَع إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمَخِيلَةَ، وَإِنْ أَمُرُؤُ شَتَمَكَ وَعَيَّرَكَ بِمَا يَعْلَمُ فِيكَ فَلَا تُعَيِّرْهُ بِمَا تَعْلَمُ فِيهِ، فَإِنَّمَا وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث أن جابر بن سليم رضي الله عنه قَدِمَ المدينة فرأى رجلاً يَصْدُرُ الناس عن رأيه .. فهو لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه وأخذوا بما يقول .. فسأل مَنْ هذا؟ .. وكأن ذلك كان في أوَّل إسلامه فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يعرفه ... فلما سأل مَنْ هذا؟ قالوا له: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففرح بذلك فرحاً شديداً وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: عليك السلام يا رسول الله ... فلما قال ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقل: «عليك السلام، عليك السلام تحية الموتى» وكانت عادة أهل الجاهلية حينما يذكرون فلاناً الذى مات يقولون: عليك السلام يا فلان.

يعنى أنهم كانوا فى الجاهلية يُسلمون على الأموات هكذا.
كما قال الشاعر:

عليك سلام الله قيس بن عامر ورحمته ما شاء أن يترحم

لكن الإسلام نسخ هذا وصار السلام يُقال لمن ابتدئ به، السلام عليك... حتى الموتى كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج إليهم إلى المقبرة يُسلم عليهم فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»، ولا يقول: عليكم السلام.

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «قل السلام عليك» دليل على أن الإنسان إذا سلم على الواحد يقول: السلام عليك، وهكذا جاء أيضاً فى حديث الرجل الذى يُسمَّى المُسَيَّء فى صلاته، أنه جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليك؛ بالافراد، وهذا هو الأفضل.

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٣٠٩).

﴿ فَعَظُمَ قَدْرُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَلْبِ هَذَا الرَّجُلِ فَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؟ .. وَهُوَ فِي قِمَّةِ الْإِعْجَابِ وَالْإِنْبِهَارِ بِشَخْصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِتَوْقِيرِ أَصْحَابِهِ وَمَحَبَّتِهِمْ لَهُ ﷺ.

فَقَالَ لَهُ ﷺ: «أَنَا رَسُولُ اللَّهِ الَّذِي إِذَا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتُهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَصَابَكَ عَامٌ سَنَةٍ فَدَعَوْتُهُ، أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفَرَاءَ - أَوْ فَلَاءَ - فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ فَدَعَوْتُهُ، رَدَّهَا عَلَيْكَ».

لَمْ يَقُلْ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.. صَفَتِي كَذَا وَكَذَا ... مَا دَامَ الرَّجُلُ كَانَ مُنْهَرًا بِهِ ﷺ.

بَلْ دَلَّهَ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَوَضَحَ لَهُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَكْشِفُ الضُّرَّ وَيُفْرِجُ الْكَرْبَ .. وَالَّذِي إِذَا أَصَابَ أَرْضُكَ جَدْبٌ فَلَمْ تُنَبِّتْ فَدَعَوْتُهُ كَشَفَ عَنْكَ هَذَا الْبَلَاءَ وَأَنْبَتَ لَكَ الْأَرْضَ .. وَإِذَا كُنْتَ فِي صَحْرَاءٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ وَضَاعَتْ مِنْكَ فَدَعَوْتُهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ.

فَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ - أَيْ الرَّبِّ ﷻ - يَجْلِبُ لِعِبَادِهِ الْخَيْرَ، وَأَنَّهُ إِذَا دَعَاهُ عَبْدُهُ لَمْ يَخْبَ ... وَهَكَذَا كُلُّ دَعَاءٍ تَدْعُو بِهِ رَبَّكَ فَإِنَّكَ لَا تَخِيبُ، لَوْ لَمْ يَأْتِكَ مِنْ هَذَا إِلَّا أَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ تُؤَجَّرُ عَلَيْهِ؛ الْحَسَنَةُ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ لَكْفَى.

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَوَانِعُ تَمْنَعُ إِجَابَةَ الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِمَّا أَنْ يُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَ وَتَرَاهُ رَأَى الْعَيْنِ ... تَدْعُو اللَّهَ بِالشَّيْءِ فَيَحْصِلُ، وَإِمَّا أَنْ يَكْشِفَ عَنْكَ مِنَ الضُّرِّ مَا هُوَ أَعْظَمُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَ ذَلِكَ لَكَ عِنْدَهُ، وَإِلَّا فَلَنْ يَخِيبَ مَنْ دَعَا اللَّهَ ﷻ أَبَدًا.

وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبْطِيعَ الْإِجَابَةَ فَتَقُولَ: دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجِبْ لِي. ﴿ وَتَأْمَلُوا مَعِيَ وَانْظُرُوا إِلَى جَمَالِ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ .. فَالرَّجُلُ كَانَ مُنْهَرًا



بالنبي ﷺ وقال له: أنت رسول الله؟

فإذا به ﷺ يتواضع ويبين لهذا الرجل أن الذي يفعل الخيرات كلها ويدفع الابتلاءات ويكشف الكربات هو الله القادر العظيم.

✽ فبدأ الرجل يسأل عن دينه فقال للنبي ﷺ: اعهد إليّ.

فقال له ﷺ: «لا تُسَبِّحْ أَحَدًا» أى: إياك أن تُسَبِّحَ أو تُشْتَمَ أَحَدًا.

فإذا بالرجل يطيع ﷺ، ويقول: (فما سببت بعده حُرًّا ولا عبدًا ولا بعيّرًا ولا شاة)... مع أن النبي ﷺ لمن يذكر البعير ولا الشياه.. لكن الرجل من شدة طاعته لأمر النبي ﷺ ذكر أنه لم يَسُبْ إنسانًا ولا حيوانًا.

ثم قال ﷺ: «ولا تحقرن من المعروف شيئًا» واحتقار المعروف يمنع الإنسان من فعله.

فكل معروف تفعله ستجد ثوابه وبركته في الدنيا والآخرة.. فلو تصدقت على مسكين فهذا من المعروف.. ولو دلت رجلاً على طريقه فهذا من المعروف.. ولو حملت رجلاً على دابته أو ناولته حاجته فهذا من المعروف... وهكذا.

واعلم أن هناك قاعدة إذا ذكرها الإنسان سهّل عليه الإحسان، وهى ما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام من قوله: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»^(١)، وما ظنك إذا كان الله في حاجتك؟ هل تتعثر الأمور؟ الجواب: لا، إذا كان الله في حاجتك يساعذك على حاجتك ويُعِينك عليها، فلا شك أنها سوف تسهل.... فأنت كلما كنت في حاجة أخيك كان الله في حاجتك، فأكثر من المعروف، وأكثر من الإحسان، ولا تحقرن شيئًا ولو كان قليلاً... قال النبي ﷺ:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

« لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة »^(١)، أى لا تحقر ولو هذا الشيء القليل .
 ثم قال له ﷺ: «وَأَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهَكَ .. إِنْ ذَلِكَ مِنَ الْمَعْرُوفِ» .

فإنه لما قال له ﷺ: « لا تحقرن من المعروف شيئاً » بين له أن من المعروف أن تبسم في وجه أخيك وألا تعبس في وجهه .. ولذا قال النبي ﷺ في حديث آخر: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ...»^(٢)، وقال ﷺ: « لا تحقرن من المعروف شيئاً، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ »^(٣).

وهذا لاشك أنه خير، إلا أنه في بعض الأحيان قد يكون المرء الذى يخاطبك من المصلحة ألا تلقاه بوجه منبسط؛ كأن يكون قد فعل شيئاً لا يُحمد عليه، فلا تلقه بوجه منبسط تعزيراً له، لأجل أن يرتدع ويتأدب، ولكل مقام مقال.

ثم قال له ﷺ: « وَارْفَعْ إِزَارَكَ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمَخِيلَةَ » .

فقد أمره النبي ﷺ هنا أن يرفع إزاره إلى نصف الساق .. فإن أبى فإلى الكعبين .. وذلك لأنه قد يريد أن يكون إزاره طويلاً .. فوضح له النبي ﷺ أن آخر حده عند الكعبين .. وهما العظمتان البارزتان في آخر الساقين ... فالأمر في هذا واسع ... فله أن يجعل إزاره نازلاً إلى أى موضع ما بين نصف الساق إلى الكعب.

قال: (وإياك وإسبال الإزار) أى: أُنْذِرُكَ أَنْ تُطَوِّلَ الْإِزَارَ عَنِ الْكَعْبَيْنِ؛ ثُمَّ قَالَ: (فإنها من المخيلة) إِذَا فَكُونَ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَطْلُبُهُ فَهَذَا هُوَ الْخِيَلَاءُ الَّذِي مَنَعَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٦٦) كتاب الهبة، ومسلم (١٠٣٠) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٠٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة.

قال: (فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة).

ثم نصحه ﷺ أيضًا فقال: (وإن امرؤ شتمك وعيّرَكَ بما يعلم فيك فلا تُعيره بما تعلم فيه) وهذا أدب عظيم من آداب الإسلام، فإنك مأمور بالستر على عيوب الخلق وعيوبك.

قال: (لو أن إنسانًا عيّرَكَ) قال هنا: (بما يعلم فيك)، وقال في حديث آخر: (بما لا يعلم فيك) يعنى: قد يعيركَ بشيء موجود فيك أو بشيء ليس عندك لكنه يفترى عليك، فأنت إذا كنت تعرف فيه عيوبًا فلا ترد عليه؛ ليكون وباله عليه.

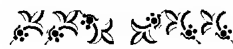
قال ﷺ: (فلا تُعيره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه).

إذا فاتركه يأخذ جزاءه يوم القيامة، ولا تعود لسانك على سب الناس أو فضحهم، بل عليك أن تكون كاتمًا لأسرار الناس ساترًا على عيوبهم، حتى وإن أرادوا فضيحتك، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَلْفُتْ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، فالله يدافع عنك ويجعل الناس يحتقرون هذا الذى يتكلم عنك ويريد أن يفضحك بشيء فيك أو ليس فيك ويتكفل بالستر عليك، فلا تأبه لهذا الإنسان ولا تجاوبه بمثل ما قال.

والمقصد من الحديث هو: قول النبى ﷺ: (إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة) فهو يُعلم المسلمين التواضع وعدم تقليد أحد من الخلق.

فإذا أردت أن تقتدى بإمامك وقدوتك والأسوة الحسنة لك هو النبى ﷺ.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وليكن حياؤك من الله عز وجل أعظم فى قلبك من حيائك من الناس^(١).



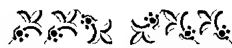
(١) شرح رياض الصالحين. الشيخ / أحمد حطية.

(٨٠١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ يُصَلِّي مُسْبِلٌ إزاره، قال له رسول الله ﷺ: «اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ» فَذَهَبَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: «اذْهَبْ فَتَوَضَّأْ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. مَا لَكَ أَمْرَتَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ سَكَتَ عَنْهُ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ مُسْبِلٌ إزاره، إِنْ اللَّهُ لَا يَقْبَلُ صَلَاةَ رَجُلٍ مُسْبِلٍ»^(١).

❁ وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف لم يُثَبِّت عن النبي محمد ﷺ .. لكن أحب أن أوضح أمراً قد اشتهر بين بعض طلبة العلم ألا وهو: أن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ لا يقبل صلاة مُسْبِلٍ ... والحقيقة أن هذا الأمر قد اختلف فيه بعض أهل العلم. والصحيح من أقوال العلماء أن صلاة المُسْبِلِ صحيحة، ولكنه أثم.

ومثل ذلك أيضاً مَنْ لبس ثوباً مُحَرَّمًا عليه؛ كثوبٍ سرقه الإنسان فصلى به، أو ثوب فيه تصاوير... فيه صليب مثلاً، أو فيه صور حيوان، فكل هذا يَحْرُمُ لبسه في الصلاة وفي خارج الصلاة، فإذا صلى الإنسان في مثل هذا فالصلاة صحيحة، لكنه أثم بلبسه.

وهذا الحديث لو صَحَّ لكان فاصلاً للنزاع، لكنه ضعيف... فَمَنْ ضَعَّفَهُ قَالَ: صلاة المسبل صحيحة وَمَنْ صَحَّحَهُ قَالَ: صلاة المسبل غير صحيحة... وعلى كل حال فإن الإنسان يجب عليه أن يتقَى الله ﻋَزَّ وَجَلَّ وألا يتخذ من نعمته وسيلة لغضبه - والعياذ بالله - فإن مَنْ بارز الله بالعصيان وقيل له: إن الثوب النازل عن الكعب حرام ومن كبائر الذنوب ولكنه لم يُبَالِ بهذا، فهذا استعان بنعمة الله على معصية الله.



(٨٠٢) وعن قيس بن بشرٍ التَّغْلِبِيُّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي - وَكَانَ جَلِيسًا لِأَبِي الدَّرْدَاءِ - قَالَ: كَانَ بِدِمَشْقَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ، وَكَانَ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٦٧٨).

رَجُلًا مُتَوَحِّدًا قَلَّمَا يُجَالِسَ النَّاسَ، إِنَّمَا هُوَ صَلَاةٌ، فَإِذَا فَرَغَ فَإِنَّمَا هُوَ تَسْبِيحٌ وَتَكْبِيرٌ حَتَّى يَأْتِيَ أَهْلُهُ، فَمَرَّ بِنَا وَنَحْنُ عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ. قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً فَقَدِمَتْ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَلَسَ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي يَجْلِسُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِهِ: لَوْ رَأَيْتَنَا حِينَ التَّقِينَا نَحْنُ وَالْعَدُو، فَحَمَلَ فَلَانُ فَطَعَنَ، فَقَالَ: خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا الْغُلَامُ الْغِفَارِيُّ، كَيْفَ تَرَى فِي قَوْلِهِ؟ قَالَ: مَا أَرَاهُ إِلَّا قَدْ بَطَلَ أَجْرُهُ. فَسَمِعَ بِذَلِكَ آخَرُ فَقَالَ: مَا أَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا، فَتَنَازَعَا حَتَّى سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ؟ لَا بَأْسَ أَنْ يُؤْجَرَ وَيُحْمَدَ» فَرَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ سَرَّ بِذَلِكَ، وَجَعَلَ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: أَنْتَ سَمِعْتَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فيقول: نَعَمْ. فَمَا زَالَ يَعِيدُ عَلَيْهِ حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ لِيَرُكَّنَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ.

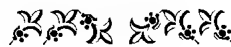
قَالَ: فَمَرَّ بِنَا يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُنْفِقُ عَلَى الْخَيْلِ كَالْبَاسِطِ يَدِهِ بِالصَّدَقَةِ لَا يَقْبِضُهَا».

ثُمَّ مَرَّ بِنَا يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نِعَمَ الرَّجُلُ خَرِيمٌ الْأَسَدِيُّ، لَوْ لَا طُولُ جُمْتِهِ وَإِسْبَالُ إِزَارِهِ» فَبَلَغَ ذَلِكَ خُرَيْمًا، فَعَجَلَ فَأَخَذَ شَفْرَةً فَقَطَعَ بِهَا جُمْتَهُ إِلَى أُذُنَيْهِ، وَرَفَعَ إِزَارَهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ.

ثُمَّ مَرَّ بِنَا يَوْمًا آخَرَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: كَلِمَةٌ تَنْفَعُنَا وَلَا تَضُرُّكَ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ. فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ»^(١).

❁ وللأمانة العلمية فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

ﷺ



(١) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٢٣١).

(٨٠٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِزْرَةُ الْمُسْلِمِ إِلَى نَصْفِ السَّاقِ، وَلَا حَرَجَ أَوْ لَا جُنَاحَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَعْبَيْنِ، فَمَا كَانَ أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطْرًا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث قَسَمُ النَّبِيِّ ﷺ طَوْلَ الْقَمِيصِ إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:
القسم الأول: السُّنَّة: إلى نصف الساق.

والقسم الثاني: الرخصة: وهو ما نزل من نصف الساق إلى الكعب.

والقسم الثالث: كبيرة من كبائر الذنوب: وهو ما نزل عن الكعبين ولكنه لم يكن بطراً.

القسم الرابع: مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا أَوْ بَطْرًا، وهو أشد من الذي قبله.

فصارت الأقسام أربعة: قَسَمٌ هُوَ السُّنَّة، وقَسَمٌ جَائِز، وقَسَمٌ مُحَرَّمٌ بَلْ مِنْ كِبَائِرِ الذَّنُوبِ، لكنه دون الذي بعده، والقسم الرابع مَنْ جَرَّه خِيَلًا، فإن الله تعالى لا ينظر إليه.

وفي هذا: دليل على أن مَنْ أَنْزَلَ ثَوْبَهُ إِزَارًا أَوْ قَمِيصًا أَوْ سُرْوَالًا إِلَى أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ فَإِنَّهُ قَدْ أَتَى كَبِيرَةً مِنْ كِبَائِرِ الذَّنُوبِ، سواء فعل ذلك خِيَلًا أَوْ لَغَيْرِ الْخِيَلِ، لأن النَّبِيَّ ﷺ فَرَّقَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ مَا كَانَ خِيَلًا وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ... فَالَّذِي جَعَلَهُ خِيَلًا لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وإذا ضمنا هذا الحديث إلى حديث أبي ذر السابق قلنا: لا ينظر الله إليه، ولا يكلمه، ولا يزكّيه، وله عذاب أليم.

أما ما دون الكعبين، فإنه يُعَاقَبُ عَلَيْهِ بِالنَّارِ فَقَطْ، وَلَكِنْ لَا تَحْصُلُ لَهُ الْعُقُوبَاتُ الْأَرْبَعُ^(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢١).

(٢) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمته الله (٢/ ٤٨٨-٤٨٩) بتصرف.

(٨٠٤) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَرَرْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي إِزَارِي اسْتِرْخَاءً، فَقَالَ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، ارفَعْ إِزَارَكَ» فرفعتُهُ، ثُمَّ قَالَ: «زِدْ»، فزِدْتُ، فَمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْدُ. فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: إِلَى أَيْنَ؟ فَقَالَ: «إِلَى أَنْصَافِ السَّاقَيْنِ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان إزاره يسترخى منه دون قصيدٍ أو تعمُد .. ولكن الإزار كان يسترخى منه وهو يمشى فنصحه النبي ﷺ وأمره أن يرفع إزاره .. فلما رفعه قال له ﷺ: «زِدْ» أى: ارفعه أكثر من هذا.. فرفعه إلى أنصاف الساقين.

❦ والنبي ﷺ عندما ينصح ابن عمر فإنما ينصح رجلاً قد اشتهر بكثرة العبادة .. ولذا فهو يأمره بالمستحب وليس بالواجب فقط؛ لأنه يعلم أنه صاحب همة عالية فى كل العبادات .. فالواجب أن يكون القميص أو الإزار فوق الكعبين بقليل .. والمستحب إلى نصف الساقين .. والكعب هو العظمة البارزة فى أسفل الساق .. فكان ابن عمر بعد ذلك يجعل إزاره إلى نصف الساق.

وهكذا تكون همة المؤمن .. إذا أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أو النبي ﷺ بفعل الواجب فإنه لا يكتفى بذلك بل يفعل الواجب والمستحب طاعة لله (جلَّ وعلا).

❦

(٨٠٥) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَكَيْفَ تَصْنَعُ النِّسَاءُ بِذُيُولِهِنَّ؟ قَالَ: «يُزِيدْنَ»^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ جَرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة .. ففزعت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما سمعت هذا الوعيد فقالت للنبي

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٨٦) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (١٨٠١)، وصحيح الجامع (٦١٨٨)، وأصله فى الصحيحين.

ﷺ: فكيف تصنع النساء بذيولهن؟

- والذيل هنا هو أسفل الثياب - فقال لها النبي ﷺ: «يُرخين شبرًا» أي: يُرخين شبرًا من موضع الاستحباب للرجال وهو نصف الساق.. وبالتالي فسوف تصل الثياب إلى الكعبين وقد تنكشف الأقدام.. فقالت أم سلمة رضي الله عنها: «إِذَا تَنَكَّشَ أَقْدَامُهُنَّ.. فَخَشِيتُ مِنْ شِدَّةِ حَيَاتِهَا أَنْ تَنَكَّشَ الْأَقْدَامُ.. فَقَالَ لَهَا ﷺ: «فَيُرْخِيهِ ذِرَاعًا لَا يَزِدُّ» أي: يُرخين ذراعًا من نصف الساق لأسفل.

والمقصود منه: جعل الثوب يغطي القدمين، وخصوصًا إذا كانت القدم حافية أو كانت تلبس شيئًا يكشف القدمين، أما إذا كانت تلبس حذاءً أو خُفًّا أو نعلًا يستر قدميها فلا يلزمها حينئذ أن تُدنى إزارها بقدر الذراع، ولكن بالشئ الذي تمشي به بحيث لا تنكشف قدمها ولا ينكشف ساقها.

وإذا كانت المرأة تمشي وعليها ثوبٌ طويل يستر قدميها، فأصاب هذا الثوب أي شيء من النجاسات فكيف يتم تطهيره؟

الجواب: أن النبي ﷺ أخبر أن الأرض كفيلة بتطهيره فإذا أصاب ثوبها شيء من النجاسة في مكانٍ ثم تابعت مشيها فإن الأرض تُطهر ما تَنَجَّسَ في المرة الأولى، ولا يجب عليها أن تغسله بل تصلى فيه، والله أعلم.

قَالَ الْحَافِظُ: إِنَّ لِلرِّجَالِ حَالَيْنِ: حَالُ اسْتِحْبَابٍ وَهُوَ أَنْ يَقْتَصِرَ بِالْإِزَارِ عَلَى نِصْفِ السَّاقِ وَحَالُ جَوَازٍ وَهُوَ إِلَى الْكَعْبَيْنِ... وَكَذَلِكَ لِلنِّسَاءِ حَالَانِ حَالُ اسْتِحْبَابٍ وَهُوَ مَا يَزِيدُ عَلَى مَا هُوَ جَائِزٌ لِلرِّجَالِ بِقَدْرِ الشُّبْرِ وَحَالُ جَوَازٍ بِقَدْرِ ذِرَاعٍ.

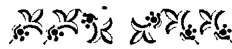
وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْصِيلَ فِي حَقِّ النِّسَاءِ مَا أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَبَّرَ لِفَاطِمَةَ مِنْ عَقِبِهَا شَبْرًا وَقَالَ: «هَذَا ذَيْلُ الْمَرْأَةِ» وَأَخْرَجَهُ

أَبُو يَعْلَى بَلَفَظَ شَبْرًا مِنْ ذَيْلِهَا شَبْرًا أَوْ شَبْرَيْنِ وَقَالَ: «لَا تَزِدَنَّ عَلَى هَذَا»^(١).
 ❀ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

وفى هذا: دليل على وجوب تغطية الوجه، لأنه إذا كانت القدم يجب سترها مع أن الفتنة فيها أقل من الفتنة في الوجه، فستر الوجه من باب أولى، ولا يمكن للشرعية التي نزلت من لدن حكيم خبير أن تأمر النساء أن يغطين أقدامهن ولا يغطين وجوههن، لأن هذا تناقض، بل هذا إعطاء للحكم في شيء وحجب الحكم عن شيء أولى منه... وهذا لا يتصور في الشريعة العادلة التي هي الميزان، ولهذا جَانَبَ الصواب مَنْ قال من العلماء: إنه يجب أن تُستر القدمان، ولا يجب أن يُستر الوجه والعينان.

هذا لا يمكن أبدًا، والصواب الذي لا شك عندنا فيه، أنه لا يحل للمرأة أن تكشف وجهها إلا لزوجها أو محارمها^(٢).

❀ أقول: قد اختلف أهل العلم في مسألة النقاب ... فمنهم مَنْ قال أن النقاب واجب .. ومنهم مَنْ قال أنه مُستحب ... وأما مَنْ قال أن النقاب ليس له أصل في الإسلام فكلامه يُناقض الأدلة الواردة في الكتاب والسنة.



(١) تحفة الأحمدي (١٢٩/٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤٨٩/٢).

(١٢٠) باب استحباب ترك الترفع في اللباس تواضعا

قَدْ سَبَقَ فِي بَابِ فَضْلِ الْجُوعِ وَخُشُوعَةِ الْعَيْشِ جُمْلُ تَعَلُّقٍ بِهَذَا الْبَابِ .
(٨٠٦) وَعَنْ مَعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضِعًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَىِّ حُلَلٍ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»^(١).

✽ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ مُتَوَاضِعًا لِلَّهِ ﷻ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَوَاضِعًا مَعَ الْمَخْلُوقِينَ كَذَلِكَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يُخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ - يَعْنِي اللَّبَاسَ الْجَمِيلَ الْبَاهِظَ الثَّمَنَ - تَوَاضِعًا لِلَّهِ ﷻ .. وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيَ ذَلِكَ الثِّيَابَ ... دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَىِّ حُلَلٍ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا ... وَيَالَهُ مِنْ أَجْرٍ وَثَوَابٍ عَظِيمٍ.

✽ فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ غَنِيًّا وَيَعِيشُ بَيْنَ أَُنَاسٍ فَقَرَاءٍ أَوْ مُتَوَسِّطِي الْحَالِ لَا يَسْتَطِيعُونَ شِرَاءَ الْمَلَابِسِ الْغَالِيَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَشْتَرِيهَا وَمَعَ ذَلِكَ تَوَاضِعَ وَلَبَسَ مِثْلَهُمْ مِنَ الْمَلَابِسِ الْجَمِيلَةِ وَلَكِنِهَا مُتَوَسِّطَةٌ وَلَيْسَتْ بِبَاهِظَةِ الثَّمَنِ لئَلَّا تَنْكَسِرَ قُلُوبُهُمْ إِذَا رَأَوْهُ يَلْبَسُ تِلْكَ الْمَلَابِسَ دَائِمًا .. وَلئَلَّا يَفْتَخِرَ عَلَيْهِمْ ... فَإِنَّهُ يَفُوزُ بِهَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ.

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ غَنِيًّا .. وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَلْبَسَ أَوْلَادَهُ الْمَلَابِسَ الْمُتَوَسِّطَةَ عِنْدَ ذَهَابِهِمْ إِلَى الْمَدْرَسَةِ أَوْ إِلَى الْجَامِعَةِ لئَلَّا تَنْكَسِرَ قُلُوبُ زَمَلَائِهِمْ .. فَإِنَّهُ يَفُوزُ بِهَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ .. فَيُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ

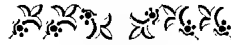
(١) حسن: رواه الترمذی، والحاكم، وحسنه الألبانی فی صحیح الجامع (٦١٤٥).



الخلائق حتى يُخيره الله ﷻ من أى حُلل الإيمان شاء يلبسها.

✽ أما إذا كان غنياً ويعيش بين أناسٍ أغنياء رفيعى الحال يلبسون تلك الثياب الباهظة الجميلة فلا بد أن يلبس مثلهم حتى لا يحتقره أحد ولا يتهمونه بالبخل؛ لأنهم يعلمون أنه غنىٌّ ومع ذلك لا يلبس مثلهم ...

أضف إلى ذلك أنه لو لبس فى تلك الحالة ملابس دونهم فإن هذا يُعدُّ ثياب شهرة .. فالإنسان ينظر ما تقتضيه الحال، فإذا كان ترك رفيع الثياب تواضعاً لله ومواساة لمن كان حوله من الناس، فإن له هذا الأجر العظيم ... أما إذا كان بين أناسٍ قد أغناهم الله ويلبسون الثياب الرفيعة، فإنه يلبس مثلهم.



(١٢١) باب استحباب التوسط في اللباس

ولا يقتصر على ما يزرى به

لغير حاجة ولا مقصود شرعى

(٨٠٧) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبُّ أن يرى أثرَ نعمته على عبده»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ يقول: «إن الله يحبُّ أن يرى أثرَ نعمته على عبده».

وفي رواية: «إن الله يحبُّ أن يرى أثرَ نعمته على عبده».

وسببه: (أن رجلاً أتى النبي ﷺ وكان لابساً ثياباً رثة، تدل على أنه فقير محتاج، فسأله النبي ﷺ: ماذا أنعم الله ﷻ عليك من أنواع المال؟ فقال: من كل أنواع المال قد أنعم الله عليّ) يعنى: أن الله أعطانى من كل شىء، من الإبل والبقر والغنم.

قال: «إن الله إذا أنعم على عبدٍ أحبَّ أن يرى أثرَ نعمته عليه».

❁ فخير الأمور الوسط .. فإذا أنعم الله عليك بالمال فلا ينبغي أن تظهر أمام الناس بمظهر الفقراء حتى لا يحسدوك .. بل احرص على أن تظهر نعمة الله عليك بأن تلبس الملابس الجميلة التى لا تكون سبباً فى أن تفتخر على الناس وتتكبر عليهم .. ولا تكون سبباً فى أن يتهمك الناس بالبخل.

فالله ﷻ يحب أن يرى أثرَ نعمته عليك .. فكلما أنعم الله عليك بنعمة فاحرص على أن تظهر نعمة الله عليك دون كبرٍ أو خيلاء.

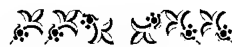
(١) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٨٧).



فإن كانت مالا فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر هذا المال عليك بالإنفاق والصدقات والمشاركة في أعمال الخير .. وفي ثيابك الجميلة وبيتك وسيارتك وأولادك ... ولا تترفع على الناس .. بل احرص على أن تكون متواضعا شاكرًا نعمة الله عز وجل. حتى يستشعر الفقير إذا رآك أنك لست بعيدا عنه وأنه ليس بينك وبينه حواجز فيستطيع أن يقترب منك ويكلمك ويشعر أنك متواضع ... لأنك إذا لبست بدلة غالية الثمن خاف الفقير أن يقرب منك معتقدا أنك ذو منصب عال فلا يكلمك ... وأنعم بذلك أن يستشعر الفقير أنك مثله، ولو بتواضعك وحسن خلقك، فلعلك تحشر مع المساكين يوم القيامة، الذين تمنى النبي ﷺ أن يُحشر معهم فقال: «اللهم أحيى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين»^(١).

❁ وإذا أنعم الله عليك بالعلم فإنه عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته عليك بالعمل بهذا العلم وحسن معاملة الناس ونشر هذا العلم وتعليم الناس من حولك.

❁ أما إذا أنعم الله عليك بالمال فلبست ثياب الفقراء وأظهرت للناس أنك فقير .. فإنك بذلك تكون قد جحدت نعمة الله عليك .. وإذا أنعم الله عليك بالعلم فلم يظهر عليك أثر هذا العلم في أخلاقك وعبادتك ومعاملاتك ولم تنشر هذا العلم فإنك بذلك تكون قد جحدت نعمة الله عليك .. فاحرص على أن يرى الله أثر نعمته عليك في كل شيء .. وكلما أنعم الله عليك بنعمة فاحرص على أن تظهر نعمة الله عليك.



(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦١).



(١٢٢) بَابُ تَحْرِيمِ لِبَاسِ الْحَرِيرِ عَلَى الرِّجَالِ

وَتَحْرِيمِ جُلُوسِهِمْ عَلَيْهِ وَاسْتِنَادِهِمْ إِلَيْهِ

وَجَوَازِ لِبَسِهِ لِلنِّسَاءِ

(٨٠٨) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ، فَإِنَّ مَنْ لَبَسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(١).

(٨٠٩) وَعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ».

(٨١٠) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٣).

(٨١١) وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ حَرِيرًا، فَجَعَلَهُ فِي يَمِينِهِ، وَذَهَبًا فَجَعَلَهُ فِي شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي»^(٤).

(٨١٢) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حُرْمَ لِبَاسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، وَأُحِلَّ لِلنِّسَاءِ»^(٥).

(٨١٣) وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَانَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَشْرَبَ فِي آيَةِ الذَّهَبِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٤) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٩) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٥) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس.

قوله: «مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ» أى: لَا نَصِيبَ لَهُ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٣) كتاب اللباس.

(٤) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٢٧٤).

(٥) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣١٣٧).

وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا، وَعَنْ بُسِّ الْحَرِيرِ وَالذَّبَّاجِ، وَأَنْ نَجْلِسَ عَلَيْهِ^(١).

✽ خلق الله (سبحانه وتعالى) ما يُباح للخلق كلهم، وخلق الله ﷻ ما يشرع للبعض من عباده وما لا يجوز للبعض الآخر... فالذي يملك أن يُشرع ويأمر وينهى هو الله سبحانه، وله الحكمة العظيمة في كل شيء... الله عليم حكيم، فالله خلق للناس اللباس، وأنزل للناس ريشاً يستمتعون به، وكسوة يستدفئون بها، ويلبسونها ويتزينون بها، وقد أباح لهم على العموم أن يلبسوا، وقال لهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

إذا: ما أباحه الله ﷻ واستمتع به المؤمن في الدنيا من نَعَمٍ فهي خالصة له، وهي حلالٌ له، ويوم القيامة لا يُحاسب عليها، ولن يُقال له: لِمَ لبست كذا وقد أباحها الله ﷻ؟ ولكنه ﷻ حرم أشياء على العباد إما لكونها لا تليق بهم أن يلبسوها، أو لخبثها ونجاستها فهي لا تُلبس.

لكن هناك أشياء حرمها الله ﷻ وهي ليست نجسة ولا مُستقذرة... كالحرير الذي حرمه الله ﷻ على الرجال وكذلك الذهب حرمه الله على الرجال لحكمة منه سبحانه وتعالى.. وجعل عقوبة مَنْ لبس الحرير أو الذهب من الرجال في الدنيا أن يُحرم من لبسها في الجنة..

فأهل الجنة ثيابهم من حرير...

وقد جعل الله ﷻ المرأة مَحَلًّا للزينة، ولذا فقد أباح لها لبس الذهب والحرير لتزين لزوجها في الحلال فتكون الفائدة عائدة على الطرفين... وأما الرجل فزيته في أخلاقه وتدينه ورجولته.. والله جعل للرجال لباساً، وللنساء لباساً... جعل للرجال زينة وللنساء زينة، وحرم خلط الأمرين معاً.

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٨٣٧) كتاب اللباس.

فلعن المرأة تلبس لبسة الرجل، ولعن الرجل يلبس لبسة المرأة.. ولعن المرأة المترجلة التي تلبس مثل الرجل، وتمشى مشية الرجل، ولعن الرجل المُخنث الذي يلبس لبسة المرأة، ويمشى مشية المرأة.

❁ وقد ذكر المصنف رحمه الله هنا (باب تحريم الحرير على الرجال وافتراشه والاستناد إليه)، هذه ثلاثة أمور: لباس الحرير وافتراشه والاستناد إليه...

وقد جزم المؤلف بأن هذا حرام على الرجال، وذلك للأحاديث التي أوردها عن عمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وكلها تدل على تحريم لباس الذهب، وعلى تحريم لباس الحرير للرجال.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مَنْ لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة... يعني إذا لبس الرجل حريراً في الدنيا، فإنه لا يلبسه في الآخرة.

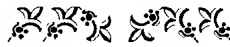
وهذا وعيد يدل على أن لباس الحرير للرجال من كبائر الذنوب؛ لأن فيه الوعيد في الآخرة... وكل ذنب فيه وعيد الآخرة فهو كبيرة من كبائر الذنوب عند أهل العلم، ولا فرق بين أن يكون قميصاً أو سراويل أو غترة أو طاقية أو غير ذلك مما يلبس كل هذا حرام على الرجال إذا كان من الحرير ولا يجوز للرجال أن يلبسوا شيئاً من الحرير لا قليلاً ولا كثيراً.

وفي حديث علي بن النبي ﷺ أخذ ذهباً وحريراً بيديه وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي جلّ لإنائهم»... والحكمة في ذلك أن المرأة محتاجة إلى التجميل لزوجها فأبيح لها الذهب والحرير... وأما الرجل فليس في حاجة إلى ذلك فلهذا حُرّم عليه لبس الذهب والحرير.

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنما يلبسه مَنْ لا خلاق له في الآخرة. يعني من لا نصيب له في الآخرة.

❦ وقال أيضًا: «مَن لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة» وهذا يعنى أنه إذا دخل الجنة، لا يتمتع بلباس الحرير مع أن أهل الجنة لباسهم فيها حرير وإنما يلبس شيئًا آخر ... وهذا ما لم يُتَّب فإن تاب من ذنوبه فإن التائب من الذنب يَغْفِرُ الله له ذنبه ... كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وهذا في الحرير الطبيعي الذي يخرج من دود القز وأما الحرير الصناعي فليس حرامًا... يعنى لو لبس طاقية من الحرير الصناعي أو سروالاً لا يرى فهذا لا بأس به وأما القميص فلا ينبغى وإن كان حلالاً لا ينبغى أن يلبسه الرجل لما فيه من الميوعة والتدننى ... ولأن الجاهل إذا رآه يظنه حريراً طبعياً فيظن أن ذلك سائغٌ للرجل وربما يقتدى به ... والسلامة أسلم للإنسان. وكذلك الذهب فإنه مُحَرَّمٌ على الرجال حلالٌ للنساء لأنهن يحتجن إلى التجميل لأزواجهن.



(١٢٣) بَابُ جَوَازِ لِبْسِ الْحَرِيرِ لِمَنْ بِهِ حَكَّةٌ

يجوز لبس الحرير لمن به حكة.. يعنى حساسية فى الجلد أو جرب.

(٨١٤) عن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ: رَخَّصَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنهما فِي لُبْسِ الْحَرِيرِ لِحَكَّةٍ كَانَتْ بِهِمَا^(١).

سبق أن النبى ﷺ نهى الرجال عن لبس الحرير وقال: «إنما يلبسه من لا خلاق له»^(٢) وقال: «من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»^(٣).

لكن إذا دعت الحاجة إلى ذلك فإنه لا بأس به مثل أن يكون فى الإنسان حكة.. يعنى جرب أو حساسية واحتاج إلى لبس الحرير فإنه يلبسه ويكون مما يلى الجسد؛ لأن الحرير لينٌ وناعم وبارد يناسب الحكة فيطفئها ولهذا رَخَّصَ النبى ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير أن يلبسا الحرير من حكة كانت بهما. كذلك أيضًا إذا كان الحرير أربعة أصابع فأقل... يعنى عرضه أربعة أصابع فأقل فإنه لا بأس به لأن النبى ﷺ رَخَّصَ فى ذلك... يعنى: مثلاً لو كان إنسان عنده جُبة وفى فتحتها خيوط من الحرير أو تطريز من الحرير لا يتجاوز أربعة أصابع فإن ذلك لا بأس به.

وكذلك إذا كان الثوب مختلطاً بين الحرير والقطن أو بين الحرير والصوف وكان الأكثر الصوف أو القطن يعنى أكثر من الحرير فإنه لا بأس به... فهذه ثلاثة أمور.

الأمر الرابع: إذا كان فى الحرب يعنى التقى الصفان بين المسلمين والكفار فلا بأس أن يلبس الإنسان ثياب الحرير؛ لأن ذلك يغيظ الكفار وكل شىء يغيظ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٦) كتاب اللباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٥) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٦٨) كتاب اللباس.

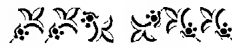
(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٧٣) كتاب اللباس.

الكفار فإنه مطلوب.

هذا ما جاء في باب الرخصة، ولا يؤخذ به في عموم الأحوال، ولكن يؤخذ به في وقت الاحتياج فقط.

كذلك الذهب يُرخص فيه لاستبدال عضو من الأعضاء كعظم من العظام كالمفاصل ونحوها... ولذلك جاء في حديث عرفة أنه قُطعت أنفه في يوم كلاب -حرب من الحروب الجاهلية- فاتخذ أنفًا من فضة فأنتنت عليه، يعني: كأن عظام أنفه اقتطعت أو أنفه كلها قُطعت، فوضعوا له فضة بدلًا عنها فأنتنت عليه وما نفعته، فاستبدلها بذهب وأقره النبي ﷺ على ذلك.

ففيه أنه قد يُستخدم الذهب في عظم الإنسان يُستبدل به إذا كان يصلح في ذلك كمفصل ونحوه، أو كالأسنان... وكان الصحابة يشدون أسنانهم بالذهب ﷺ، ويرون أن هذا من باب التطبُّب، وأنهم يحتاجون إلى ذلك طِبًّا، فهذا جائز ولا شيء فيه، أما مَنْ يلبسه على وجه الزينة فهو غير جائز.



(١٢٤) باب النهي عن افتراش

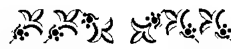
جلود النمر والركوب عليها

(٨١٥) عن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَرْكَبُوا الْخَزَّ وَلَا النَّمَارَ»^(١).

(٨١٦) وعن أبي المليح عن أبيه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ نهى عن جُلُود السَّبَاعِ^(٢).

وفي رواية الترمذي: نهى عن جُلُودِ السَّبَاعِ أَنْ تُفْتَرَشَ.

والنمار جمع نمر وهو حيوان معروف فلا يجوز للإنسان أن يلبس فرواً من جلود النمار وكذلك لا يجوز للإنسان أن يلبس فرواً من جلود السباع كما يدل عليه الحديث الآخر؛ لأن جلود السباع نجسة ... كل السباع نجسة وأخبثها الكلب؛ لأن نجاسة الكلب مُغلظة لا يكفي فيها إلا الغسل سبع مرات إحداها بالتراب ... أما ما سواه من السباع فهو نجس، لكن ليس بهذه الغلظة وعلى كل حال فجلود الذئاب وجلود النمر وأي جلود أخرى للسباع حرام كجلد الأسد ... مثلاً يحرم لبسها وكذلك يحرم افتراشها لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ... يعني لو جعلتها مقاعد تجلس عليها فإن ذلك حرام أما جلود الضأن وجلود ما تحله الذكاة، فلا بأس أن يفترشها الإنسان ولا بأس أن يلبسها أيضاً؛ لأنها طاهرة والطاهر لا بأس باستعماله^(٣).



(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٨٣).

(٢) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٩٥٣).

(٣) شرح رياض الصالحين (٢/ ٤٩٣-٤٩٥) بتصرف.

(١٢٥) باب ما يقول

إذا لبس ثوباً جديداً أو نعلًا أو نحوه

(٨١٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوباً سمّاه باسمه: عِمَامَةً، أو قَمِيصًا، أو رِدَاءً، يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ خَيْرَهُ وَخَيْرَ مَا صُنِعَ لَهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ»^(١).

❖ لا شك أن الإنسان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ﷻ .. ولا شك أن نعم الله كثيرة ❖ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [النحل: ١٨] صحة في بدن.. أمن في وطن.. غذاء وكساء وهواء وماء ❖ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهِرَهُ وَبَاطِنَهُ [القمان: ٢٠] .. فهناك نعمٌ تشعر بها ونراها .. وهناك نعم أكثر منها لا نشعر بها ولا نراها لكنها موجودة .. ولذا فإن الإنسان لا بد أن يكون حريصًا على أن يحمد الله على كل نعمة ظاهرة وباطنة.

ولا شك أنه لو لا أن الله ﷻ يسّر لنا تلك النعم ما تيسرت لنا أبدًا... لو شاء الله تعالى لفقد المال من بين أيدينا فلم نستطع أن نحصل شيئًا، ولو شاء الله لوجد المال بيننا لكن لا نجد شيئًا نطعمه أو نلبسه أو نشربه ❖ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ [الملك: ٣٠].

فكل ما بنا من نعمة الله وحده ... ومن ذلك اللباس، فإذا منَّ الله عليك بلباسٍ جديد. فلا بد أن تشكر الله على هذا اللباس الذي يكون سببًا في سترك عن أعين الناس ويكون سببًا في حماية جسدك من الشمس والحر والبرد والهواء والغبار وإيذاء الهوام والحشرات.

فإذا رزقك الله بشيأٍ جديدة فاحمد الله واشكره على تلك النعمة.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٦٤).



فلقد كان أسوتك وقُدوتك النبي محمد ﷺ إذا استجدَّ ثوبًا سمَّاه باسمه ويقول: « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ».. اللهم لك الحمد أنت كسوتنى هذا القميص .. أنت كسوتنى هذا السروال .. أنت كسوتنى هذه الطاقية ... فإذا لبست أى شىء جديد فقل:

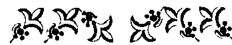
« اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك من خيره، وخير ما صنَّع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صنَّع له »^(١).

«أسألك خيره» يعنى: خير هذا الثوب... الثوب فيه خير وفيه شر.

خير الثوب: أن تلبسه ويكون واسعًا عليك فضفاضًا يكسوك ويستر عورتك ويقيك الحر ويقيك البرد.
هذا من خير الثوب.

وشر الثوب: أن يكون على الإنسان ضيقًا، يدعو الإنسان للخيلاء فيستكبر على الخلق ويرى أنه أفضل منهم، وأنه أحسن منهم بهذا الثوب، أو بهذا النعل الذى لبسه.

فقد يحملك هذا الثوب على الكبر والخيلاء .. أو يكون سببًا للفتنة وهى من أعظم الشر والفساد .. ولذلك فأنت إذا سألت الله خير هذا الثوب وخير ما صنَّع له فسوف يرزقك خيره وخير ما صنَّع له .. وإذا استعذت بالله من شر هذا الثوب وشر ما صنَّع له أعاذك الله من شره وشر ما صنَّع له.



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٦٤).

(١٢٦) باب استحباب الابتداء باليمين في اللباس

هذا الباب قد تقدم مقصوده، وذكرنا الأحاديث الصحيحة فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم



(٤) كتاب آداب النوم والاضطجاع والقعود

والمجلس والجلس والرؤيا

(١٢٧) باب ما يقوله عند النوم

❁ في البداية أحب أن أورد ما ذكره الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في هدى النبي ﷺ في نومه وانتباهه .. قال الإمام رَحِمَهُ اللهُ:

كَانَ يَنَامُ عَلَى الْفِرَاشِ تَارَةً، وَعَلَى النَّطْعِ تَارَةً، وَعَلَى الْحَصِيرِ تَارَةً، وَعَلَى الْأَرْضِ تَارَةً، وَعَلَى السَّرِيرِ تَارَةً بَيْنَ رِمَالِهِ وَتَارَةً عَلَى كِسَاءٍ أَسْوَدَ.

قَالَ عَبَادُ بْنُ تَمِيمٍ، عَنْ عَمِّهِ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمَسْجِدِ وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى»^(١).

وَكَانَ فِرَاشُهُ أَدَمًا حَشْوُهُ لَيْفٌ. وَكَانَ لَهُ مِسْحٌ يَنَامُ عَلَيْهِ يُثْنِي بِشَيْئَيْنِ، وَثْنَى لَهُ يَوْمًا أَرْبَعُ ثَنِيَّاتٍ فَتَهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «رُدُّوهُ إِلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ مَتَعْنِي صَلَاتِي اللَّيْلَةَ»^(٢).

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ ﷺ نَامَ عَلَى الْفِرَاشِ وَتَغَطَّى بِاللِّحَافِ وَقَالَ لِنِسَائِهِ: «مَا أَتَانِي جَبْرِيلُ وَأَنَا فِي لِحَافٍ امْرَأَةٌ مِنْكَنَّ غَيْرَ عَائِشَةَ»^(٣).

وَكَانَتْ وَسَادَتُهُ أَدَمًا حَشْوُهَا لَيْفٌ.

«وَكَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ لِلنَّوْمِ قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَأَمُوتُ»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٢١٠٠) كتاب اللباس والزينة.

(٢) ضعيف جدًا: رواه الترمذى فى الشمائل، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٢٢٣).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٧٧٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) صحيح: رواه البخارى (٧٣٩٤) كتاب التوحيد.

(«وَكَانَ يَجْمَعُ كَفَّيْهِ ثُمَّ يَنْفُثُ فِيهِمَا ») وَكَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] وَ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١] وَ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس: ١] ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ، وَوَجْهِهِ، وَمَا أَمَامَهُ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١).

«وَكَانَ يَنَامُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ وَيَضَعُ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ خَدِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ» ^(٢). وَكَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَكَفَانَا وَأَوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِي» ^(٣) ذَكَرَهُ مسلم. وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ («اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ») ^(٤). وَكَانَ إِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ فِي اللَّيْلِ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لِذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَا تُرْغِ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» ^(٥).

وَكَانَ إِذَا انْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» ^(٦). ثُمَّ يَتَسَوَّكُ، وَرُبَّمَا قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ (آلِ عِمْرَانَ) مِنْ قَوْلِهِ:

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠١٧) كتاب فضائل القرآن.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٠٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٥) ضعيف: رواه أبو داود، والنسائي في الكبرى، وضعفه الألباني في ضعيف الكلم الطيب (٤٥)،

والمشكاة (١٢١٤).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣١٢) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١١) كتاب الذكر والدعاء.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِلَى آخِرِهَا [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠-٢٠٠] (١).

وَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ» (٢).

وَكَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ آخِرَهُ، وَرُبَّمَا سَهَرَ أَوَّلَ اللَّيْلِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ. وَكَانَ إِذَا نَامَ لَمْ يُوقِظْهُ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَسْتَيْقِظُ. «وَكَانَ إِذَا عَرَسَ بِلَيْلٍ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، وَإِذَا عَرَسَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ». وَكَانَ نَوْمُهُ أَعَدَلَ النَّوْمِ، وَهُوَ أَنْفَعُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّوْمِ، وَالْأَطْيَاءُ يَقُولُونَ: هُوَ ثُلُثُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثَمَانُ سَاعَاتٍ (٣).



(٨١٨) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» (٤).

(٨١٩) وعنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَصُوءْكَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٣) كتاب الوضوء، ومسلم (٧٦٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٢٠) كتاب التهجد، ومسلم (٧٦٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) زاد المعاد / للإمام ابن القيم (١/ ١٥٥-١٥٩) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٥) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء.

لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّكَ الْيَمَنِ، وَقُلْ ..» وذكر نحوه ، وفيه: «وَجْعَلُهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ»^(١)

✽ من المعلوم أن النوم آية من آيات الله ﷻ تدل على كمال قدرة الله ورحمته وحكمته .. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]. وهو نعمة من الله تعالى على العبد، لأنه يستريح فيه من تعب سابق، وينشط فيه لعمل لاحق... فهو ينفع الإنسان فيما مضى وفيما يُستقبل.

والنوم يُسمى المَوْتَةُ الصَّغْرَى .. فالإنسان عندما ينام فإنه لا يسمع ولا يرى ولا يشم مع أن روحه لم تخرج من بدنه الخروج الكامل.

فهذا النوم من آيات الله ﷻ... تأتي القوم مثلاً في حجرة أو في سطح، وهم نيامٌ كأنهم جُثث موتى لا يشعرون بشيء، ثم هؤلاء القوم يبعثهم الله ﷻ. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ثم إن الإنسان يعتبر بالنوم اعتباراً آخر وهو إحياء الأموات بعد الموت، فإن القادر على ردِّ الروح حتى يصحو الإنسان ويستيقظ ويعمل عمله في الدنيا، قادر على أن يبعث الأموات من قبورهم، وهو على كل شيء قدير.

✽ وهنا في هذا الحديث يُعلم النبي ﷺ البراء ويُعلم الأمة من بعده أنه إذا أتيت مضجعك وأردت النوم فتوضأ وضوءك للصلاة.

أى: الوضوء الكامل بآركانه وشرائطه.

وفى هذا الحديث ثلاث سننٍ مُهمّةٍ مُستَحَبّةٍ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ:

إحداها: الوضوء عند إرادة النوم؛ فإن كان متوضئاً كفاه ذلك الوضوء،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٧) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء.

والحكمة فيه أن يكون على طهارة، مخافة أن يموت من ليلته، وأن يكون أصدق لرؤياه، وأبعد من تلاعب الشيطان به في منامه وترويعه إياه.
الثانية: النوم على الشق الأيمن؛ لأن النبي ﷺ كان يحب التيامن؛ ولأنه أسرع إلى الانتباه.

الثالثة: ذكر الله تعالى ليكون خاتمة عمله^(١).

❁ ثم اضطجع على شق الأيمن.

وفيه: أن النبي ﷺ أمره أن يضطجع على الجنب الأيمن؛ لأن ذلك هو الأفضل... وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصح من النوم على الجنب الأيسر.

وذكر أيضًا بعض أرباب السلوك والاستقامة أنه أقرب في استيقاظ الإنسان؛ لأنَّ بالنوم على الجنب الأيسر ينأى القلب، ولا يستيقظ بسرعة، بخلاف النوم على الجنب الأيمن فإنه يبقى القلب متعلقًا، ويكون أقل عمقًا في منامه فيستيقظ بسرعة.

(فقل: اللهم إني أسلمت نفسي) أى ذاتى (إليك) أى أسلمت وجعلت نفسى مُتقادة لك طائعة لحكمك راضية بقضائك قانعة بقدرك (ووجهت وجهى إليك) أى: أقبلت بذاتى إليك مُستسلمًا راضيًا قانعًا (وفوضت أمري إليك) أى: توكلت فى جميع شئونى الدنيوية والأخروية عليك وجعلتها راجعة إليك.

❁ «وألجأت ظهري إليك».

قال النووى رحمه الله: «أى توكلت عليك، واعتمدت فى أمرى كله، كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يسند إليه».

قوله: «رغبة ورهبة إليك» الرغبة: الحرص والطمع مع الحب.

(١) مسلم بشرح النووى (١٧/٥١-٥٢).

والرهبة: المخافة مع تحرُّز واضطراب... ومعنى «إليك»: صرفت رغبتى فيما أريده إليك، وحاصل المعنى: طمعاً فى ثوابك، وخوفاً من عذابك.

❁ «لا ملجأ» أى: لا حصن.

❁ «ولا منجأ» أى: لا خلاص.

❁ «منك إلا إليك» أى: لا حصن أعتصم به، ولا خلاص من عذابك، وأخذك إلا إليك.

❁ «آمنت بكتابك الذى أنزلت» أى: صدقت بكتابك الذى أنزلته على نبيك.

❁ «ونبيك الذى أرسلت»، وفى بعض طرق الحديث، عن البراء رضي الله عنه أنه قال: قلت: وبرسولك الذى أرسلت؟ فراجعه النبي ﷺ وقال: «قل: ونبيك الذى أرسلت ولا تقل: ورسولك الذى أرسلت».

قال أهل العلم: وذلك لأنَّ الرُّسول يكون من البشر ويكون من الملائكة... كما قال الله عن جبريل: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]. وأما النَّبي فلا يكون إلا من البشر.

فإذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإنَّ اللفظ صالح لأنَّ يكون المراد به جبريل، لكن إذا قال: «ونبيك الذى أرسلت» اختص بمحمد ﷺ هذا من وجه. ومن وجه آخر: أنَّه إذا قال: ورسولك الذى أرسلت، فإنَّ دلالة هذا اللفظ على النبوة من باب دلالة اللزوم، وأما إذا قال: نبيك فإنه يدلُّ على النبوة دلالة مطابقة.. ومعلوم أنَّ دلالة المطابقة أقوى من دلالة اللزوم.

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

اختلف العلماء فى سبب إنكاره ﷺ وردَّه اللفظ فقيلاً: إنَّما ردَّه لأنَّ قوله: «آمنت برسولك» يحتمل غير النَّبي ﷺ من حيث اللفظ، واختار المازرى وغيره:

أَنَّ سَبَبَ الْإِنْكَارِ أَنَّ هَذَا ذِكْرٌ وَدُعَاءٌ فَيَنْبَغِي فِيهِ الْاِقْتِصَارُ عَلَى اللَّفْظِ الْوَارِدِ بِحُرُوفِهِ، وَقَدْ يَتَعَلَّقُ الْجَزَاءُ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ، وَلَعَلَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ فَيَتَعَيَّنُ أَدَاؤُهَا بِحُرُوفِهَا وَهَذَا الْقَوْلُ حَسَنٌ^(١).

وجاء في نهاية الحديث قوله ﷺ: «فَإِنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، واجعلهن آخر ما تقول».

❦ قَوْلُهُ ﷺ: «مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ» أَيْ الْإِسْلَامَ... وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصْبَحْتَ خَيْرًا أَيْ حَصَلَ لَكَ ثَوَابُ هَذِهِ السَّنَنِ وَاهْتِمَامُكَ بِالْخَيْرِ وَمُتَابَعَتُكَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

وفي هذا الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَجْعَلَهُنَّ آخِرَ مَا يَقُولُ مَعَ أَنْ هُنَاكَ ذِكْرًا بَلْ أَذْكَارًا عِنْدَ النَّوْمِ تُقَالُ غَيْرُ هَذَا.

مثلاً التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّكْبِيرُ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا نَامَ عَلَى فِرَاشِهِ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ.

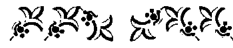
هذا من الذكر، لكن حديث البراء يدلُّ على أَنَّ مَا أَوْصَاهُ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ أَنْ يَجْعَلَهُنَّ آخِرَ مَا يَقُولُ.

فالمسلم حين يضع جانبه على فراشه يتخيل أَنَّ تكون هذه آخر نومة ينامها، فيمكن أَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ ﷻ خِلَالَ هَذَا النَّوْمِ، فَيُخْتَمَ حَيَاتُهُ وَيُخْتَمَ يَوْمُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَكُونُ هَذَا آخِرَ شَيْءٍ كَانَ عَلَيْهِ، فَإِذَا تُوفِيَ عَلَى ذَلِكَ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ عَظِيمٍ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ خَتَمَ بِقِرَاءَةِ ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا الْكَافِرُونَ﴾، فَيَمُوتُ عَلَى بَرَاءَةٍ مِنَ الْكُفْرِ، فَتَبْرَأُ مِنَ الْكُفْرِ، وَتَبْرَأُ مِنَ الشَّرْكِ وَأَهْلِهِ، فَيَمُوتُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ إِذَا كَانَ يُخْتَمُ لَهُ بِذَلِكَ.

ومن حكمة اللَّهِ ﷻ وَرَحْمَتِهِ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِعْلًا لِلْإِنْسَانِ إِلَّا وَجَدْتَهُ

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٥٢).

مقرونا بذكر... اللباس له ذكر، الأكل له ذكر، الشرب له ذكر، النوم له ذكر، حتى جماع الرجل لامرأته له ذكر، كل شيء له ذكر. وذلك من أجل ألا يغفل الإنسان عن ذكر الله... يكون ذكر الله على قلبه دائماً، وعلى لسانه دائماً، وهذه من نعمة الله التي نسأل الله تعالى أن يرزقنا شكرها، وأن يعيننا عليها.



(٨٢٠) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَجِيءَ الْمُؤَذِّنُ فَيُؤَذِّنُهُ^(١).

لقد كان من هدى النبي ﷺ قيام الليل دائماً.

فمن أول ما أنزل الله ﷻ عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ ① قُورِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢] فقام ﷺ قياماً طويلاً لله سبحانه؛ لأنه قال: ﴿قُورِائِلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فكان يقوم أكثر الليل... بل قد يقوم كل الليل، وكان المؤمنون على هذه الحالة أيضاً إلى أن نزل التيسير على النبي ﷺ، فعلم الله بضعف هؤلاء، وعلم أنهم سيحرمهم طول القيام بالليل من الجهاد في سبيل الله، وطلب الرزق، فإذا بالله سبحانه وتعالى يخفف ذلك ويقول: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يَتَّقُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

فبدلاً من قيام الليل كله كما أمرهم الله بقوله: ﴿يُضَفِّهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ②﴾ أو رَدَّ عَلَيْهِ وَرَقْلَ الْقُرْآنِ تَرْتِيلاً [المزمل: ٣-٤] خفف الله سبحانه وتعالى على نبيه وعلى المؤمنين، ولكن مع ذلك كان النبي ﷺ يقوم ليلاً طويلاً، فيصلّي من الليل إحدى عشرة ركعة، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين، ولم تكن هذه الإحدى عشرة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣١٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٣٦) كتاب صلاة المسافرين.



ركعة يصليها متتابعة، بل كان يصلى ثم يستريح حتى يقوم لمثلها (عليه الصلاة والسلام)، فيصلى أربعاً تقول السيدة عائشة عنهن: (فلا تسأل عن حسنهن وطولهن).

فإنما ﷺ ثم يقوم يصلى أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم ينام ويقوم فيوتر بثلاث (صلوات الله وسلامه عليه).

تقول: (إذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين)، فهنا ليلٌ طويلٌ يصليه ﷺ، ولكن إذا طلع الفجر وأذن المؤذن لصلاة الفجر صلى سنة الفجر ركعتين خفيفتين، وما كان يطول في سنة الفجر، بل كان يقرأ ﴿قُلْ يَتَايَأُ الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بعد الفاتحة... بل إنه مع سرعته في الركعتين تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لا أدري أقرأ فيهن بفاتحة الكتاب أم لا) يعنى: سنة النبي ﷺ الإطالة في قيام الليل والتقصير في سنة الفجر.

ولا يُستحب أن يُزاد على ركعتين، ولو استُحب ذلك لفعله النبي ﷺ، ولكن كان يصلى سنة الفجر في بيته (عليه الصلاة والسلام)، ثم يضطجع ويستريح من عناء الليل والقيام الطويل لكن بدون نوم، فكان إذا وجد امرأته مستيقظة في هذا الوقت كلمها ﷺ، فإذا كانت نائمة اضطجع ﷺ، ثم يقوم ليصلى (صلوات الله وسلامه عليه)، بل كان ينهى عن صلاة فوق الركعتين بعد الأذان، فيقول: «لا صلاة بعد الفجر إلا ركعتين».

فإذا كنت في المسجد وأذن المؤذن للفجر الصادق، فصلّ ركعتين فقط، وليس من السنة أن تصلى ركعتين في ركعتين، بل ذهب بعض أهل العلم كالحنابلة إلى أنه يحرم الزيادة على الركعتين.

لكن لعلَّ إنساناً دخل المسجد فصلى تحية المسجد ولم ينو سنة الفجر فله أن يقوم ويصلى سنة الفجر بعد ذلك، ولك إذا دخلت أن تنوى الاثنتين صلاة تحية المسجد وسنة الفجر، وتُسرع فيها وتجلس تنتظر إقامة الصلاة.

قالت: (ثم اضطجع على شِقِّهِ الأيمن)، وهذا الشاهد من الحديث وهو أنه نام على شقه الأيمن وإن كان لم ينم حقيقة... وقولها: (حتى يجيء المؤذن فيؤذنه)؛ لأنه كان في غرفته ﷺ، ولم يكن في المسجد سرج ولا أشياء يضيئون بها المسجد، فكان بلال ينتظر حتى يكتمل عدد المصلين مع النبي ﷺ على وقته المعتاد فيذهب عند بيت النبي ﷺ فيؤذنه بأنه سيقيم الصلاة... ومعنى يؤذنه أى: يعلم النبي ﷺ أنه سيقيم الصلاة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٢١) وعن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «بِسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا» وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»^(٢).

✽ سبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ أمر البراء بن عازب أن يضطجع على جنبه الأيمن، وأن يقول: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك...» إلى آخر الحديث... وبيننا أن السنة والأفضل أن ينام الإنسان على جنبه الأيمن.

وفي هذا الحديث يُخبر حذيفة أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه وضع يده تحت خده ثم يقول: «بِسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا».

يعنى أننى أموت وأحيا بإرادة الله ﷻ... والمراد بالموت هنا -والله أعلم- موت النوم، لأن النوم يُسمى وفاة.... أو أنه الموت الأكبر الذى هو مفارقة الروح للبدن... ويكون كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

(١) شرح رياض الصالحين / الشيخ أحمد حطية.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٣١٤) كتاب الدعوات.

وإذا قام قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

وهذا يؤيد أن المراد بالموت في قوله: «باسمك اللهم أموت وأحيا» يعنى موت النوم، وهو الموت الأصغر.

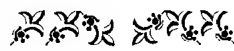
وخلاصة السنن أن تتوضأ لتنام وأنت على وضوء، وتضع يدك تحت خدك الأيمن، وتنام على شِقِّك الأيمن... وهذا في أول نومك، ثم تقول: «باسمك اللهم أموت وأحيا»... وتقول أذكار النوم كاملة... ثم تختتم بالذكر الذى ورد في حديث البراء؛ لأن النبي ﷺ قال: «واجعلن آخر ما تقول».

❦ ولا مانع هنا من أن تقول بعدها مباشرة «لا إله إلا الله» وتنام على ذلك .. فإن مت في تلك الليلة تفوز بتلك البُشرى العظيمة حيث قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

وإذا استيقظت تقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

وفي هذا دليل على الحكمة العظيمة في هذا النوم الذي جعله الله راحة للبدن عما سبق وتنشيطاً للبدن فيما يُستقبل، وأنه يُذكر أيضاً بالحياة الأخرى.. فتذكر بذلك إذا قمت من قبرك بعد موتك حياً إلى الله ﷻ.

وهذا يزيدك إيماناً بالبعث... والإيمان بالبعث أمرٌ مهم... لولا أن الإنسان يؤمن بأنه سوف يُبعث ويُجازى على عمله ما عمل، ولهذا نجد كثيراً أن الله يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به ﷻ. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وآيات كثيرة في هذا. فالمهم أنه ينبغي لك إذا أويت إلى فراشك أن تقول: «باسمك اللهم أموت وأحيا» وإذا استيقظت تقول: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٨٢٢) وعن يعيش بن طخفة الغفاري رضي الله عنه قال: قال أبي: بينما أنا مضطجع في المسجد على بطني إذا رجلٌ يُحرّكني برجله فقال: «إن هذه ضجعةٌ يُبغضها الله» قال: فنظرتُ، فإذا رسول الله ﷺ ^(١).

❁ ففى هذا الحديث دليلٌ على أنه لا ينبغي للإنسان أن ينام على بطنه إلا لحاجة أو ضرورة.. وبخاصة في الأماكن التي يجتمع فيها الناس كالمساجد ونحوها.. وذلك لأن الناس إذا رأوا إنساناً نائماً على بطنه أساءوا الظن به.. لكن إذا كان الإنسان وحده في بيته أو حتى مع زوجته وأولاده وأخبرهم أنه نائم على بطنه بسبب وجع أو ألمٍ عنده وأن هذا الألم لا يزول إلا بالنوم على البطن فهذا لا بأس به.. إلا إذا كان هناك علاج للوجع يُزيله دون حاجة إلى النوم على البطن فيكون هذا أفضل من الوقوع فيما نهى عنه النبي ﷺ.. فإن لم ينصرف الوجع إلا بأن ينام على بطنه فلا بأس بذلك لأن هذه حاجة.. ولكن الأولى أن نتجنب هذه النومة؛ لأن النبي ﷺ قال عنها: «إن هذه ضجعة يُبغضها الله».

﴿مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ﴾

(٨٢٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تِرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مُضْطَجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ» ^(٢).

❁ من المعلوم أنه ليس هناك لذة في الدنيا أعظم من الانشغال بطاعة الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.. وعلى رأسها ذكر الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.. فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].. فمن أحب أحداً أكثر من ذكره.. ولا أحد أحب إلى المؤمن من ربه ﻋَزَّ وَجَلَّ..

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٧).

«الترة» هي: النقص، وقيل: التبعة... أو الحسرة

ولذا فالمؤمن لا بد أن يُكثر من ذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً... مُمثلاً قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿آل عمران: ١٩١﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿الأحزاب: ٤١، ٤٢﴾.

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن «من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة»، والترة: الحسرة، وأصلها الوتر، والوتر: الانفراد، فكأن الإنسان يصير موتوراً أى: حزيناً مفرداً، وهذا يُطلق فيمن قُتل قريبه كأبيه أو ابنه أو أخيه.. فوتر أى: صار موتوراً بمعنى وحيداً بعد أن كان معه هذا الآخر.

فكذلك حزن الإنسان الذى يجلس فى مجلس لا يذكر الله ﷻ فيه، يُصاب يوم القيامة بحزنٍ كحزن الذى قُتل له قتيل... ويقول: «وَمَنْ اضْطَجَعَ مضجعاً لا يذكر الله تعالى فيه كانت عليه من الله ترة».

أى: كان عليه حسرة، وكان عليه نقص، وكان عليه تبعه يوم القيامة بذلك. ﴿فاحرص أخى الحبيب.. واحرصى أختى الفاضلة على أن تُرطبوا ألسنتكم بذكر الله ﷻ فى كلِّ وقتٍ وحين لتفوزوا بأعظم منقبة فى هذا الكون كله.. ألا وهى: أن يذكركم الله ﷻ من فوق سبع سماوات..

فقد قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. و«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا يَذْكُرْنِي عَبْدٌ فِي نَفْسِهِ إِلَّا ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ مِنْ مَلَائِكَتِي، وَلَا يَذْكُرْنِي فِي مَلَأٍ إِلَّا ذَكَرْتُهُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(١).

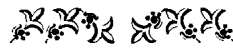
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٥).

(١٢٨) باب جواز الاستلقاء على القفا

ووضع إحدى الرجلين على الأخرى إذا لم يخف
انكشاف العورة ، وجواز القعود مُتربعاً ومُحتبياً

✽ إن الإسلام جاء ليؤدب المسلمين ويُهذب أفعالهم، ويرتقي بهم في سُلَّم المثالية، حتى يكونوا مثلاً يُحتذى به ... ومما جاء به الإسلام من الآداب ما يتعلق بالجلوس والاضطجاع خاصة في المسجد، فبيّن ضوابط الاضطجاع وحذّر من انكشاف العورة أثناء ذلك، كما بيّن ضوابط الجلوس، وبيّن الجلسات المنهى عنها.



(٨٢٤) عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ مُستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى^(١).

✽ نحن نعلم أن الأفضل للمسلم أن ينام على جنبه الأيمن كما كان يفعل النبي ﷺ في أغلب أحواله .. لكن النبي ﷺ قعد ونام في هيئات مختلفة ليبين لأمته جواز ذلك ما لم يكن هناك محذور من المحاذير كانكشاف العورة مثلاً. فالأفضل هو النوم على الجانب الأيمن ولا بأس بالنوم على الجانب الأيسر .. وأما النوم على البطن فقد نهى عنه النبي ﷺ إلا للضرورة كمرضٍ ونحوه ... وبقي النوم على الظهر وهو لا بأس به بشرط أن يأمن كشف العورة إذا وضع إحدى رجليه على الأخرى ولم يكن قد ارتدى سراويل تحت ملابسه.

✽ وفي هذا الحديث يخبر عبد الله بن زيد رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٢١٠٠) كتاب اللباس والزينة.

مُستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

فكانه ﷺ تعب فنام على ظهره في المسجد ووضع إحدى رجليه على الأخرى .. ولم تكن هذه عادة النبي ﷺ في نومه .. فقد كان ﷺ ينام على جنبه الأيمن .. لكن فعله هذا يدل على جواز النوم على الظهر حتى وإن وضع النائم إحدى رجليه على الأخرى .. لكن بشرط أن يكون قد ارتدى سرواً لا تحت ملابسه حتى لا تنكشف عورته .. أما إن لم يكن قد ارتدى سرواً فلا يجوز له أن ينام على ظهره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى حتى لا تنكشف عورته.

❦

(٨٢٥) وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر ترَبَّعَ في مَجْلِسِهِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنَاءَ^(١).

وفي رواية: جَلَسَ في مُصَلَّاهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشمس.

❦ وفي هذا الحديث يخبر جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا صلى الفجر وانتهى من صلاته ترَبَّعَ في مجلسه حتى تطلع الشمس حسناء.

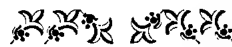
لقد كانت هذه عادة النبي ﷺ في كل أيامه أو في أكثرها إن كان عنده ما يشغله .. كالخروج إلى الجهاد وغيره .. وذلك لأن النبي ﷺ كان يحب أن يخرج للغزو في البكور؛ لأنه رضي الله عنه قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

فكان النبي ﷺ يترَبَّع في مجلسه .. وجلسة التربع معروفة لدى الناس فكان رضي الله عنه يجلس على تلك الهيئة حتى تطلع الشمس حسناء .. وهذه الهيئة فيها أدبٌ عظيم .. فإنه مَنْ يجلس متربّعاً غير الذي يجلس وقد مدد رجليه تجاه القبلة .. وغير النائم على ظهره واضعاً إحدى رجليه على الأخرى .. أما النبي ﷺ فكان يجلس

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٤٧)، وأصله عند مسلم.

يذكر الله وهو مُتَرَبِّع .. وتلك الجلسة تُقدَّر بحوالى ساعة وربع أو ساعة ونصف .. فقد كان النبي ﷺ لا يكتفى بمجرد طلوع الشمس بل كان ينتظر بعدها بما يوازي ثلث ساعة .. لأنه ﷺ نهى عن الصلاة بعد طلوع الشمس ؛ لأن هذا وقت يحرم فيه الصلاة .. لكن بعد أن يبدو قرص الشمس ثم ترتفع قليلاً فوق الأرض .. وهذا يكون بعد حوالى ثلث ساعة من طلوع قرصها كاملاً .. فعند ذلك يجوز أن تصلى صلاة الضحى .. فكان النبي ﷺ يفعل ذلك ويحضر الأمة على فعل ذلك .. فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَّةً، تَامَّةً، تَامَّةً»^(١).

فيمكن للإنسان أن يُحصِّل كل يوم أجر حجة وعمرة، وإن كان هذا لا يُغنى عن حجة الإسلام، ولا عن عُمره الإسلام، ولكن الأجر يساوى أجر حجة، وأجر عمره .. وكم نُفِرط في مثل ذلك من غير سبب! وعلى المؤمن أن يحاول أن يكسب الثواب قدر المستطاع... وكما ذكرنا قبل ذلك فإن الإنسان لا ينظر في العبادة إلى مَنْ هو دونه، ولكن الأسوة الحسنة والقُدوة العظيمة هو النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، فافعل ما فعله ﷺ إذا رأيت غيرك يفرط في مثل هذا الأجر فالتمس له العذر، فلعل لديه ما يشغله أو أنه لم ينم بالليل ويحتاج لأن ينام الآن، فأنت عليك بنفسك، فإذا كان عندك الوقت لتفعل هذا الشيء فلا تفرط في هذا الثواب.



(٨٢٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ بفناء الكعبة مُحْتَبِياً بِيَدَيْهِ هَكَذَا، وَوَصَفَ بِيَدَيْهِ الْاِحْتِيَاءَ، وَهُوَ الْقُرْفُصَاءُ^(٢).

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٤٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٧٢) كتاب الاستئذان.

❁ وفي هذا الحديث يخبر ابن عمر رضي الله عنهما أنه رأى النبي ﷺ بفناء الكعبة مُحْتَبِئًا .. أى: يجلس جلسة القُرفْصاء .. وذلك بأن يُمسك إحدى يديه بالأخرى ويحيط بهما رُكْبَتَيْهِ ﷺ ... وقد كان بعضهم يلف ثوبًا من وراء ظهره ويحيط به رُكْبَتَيْهِ ... وقد كان النبي ﷺ يجلس تلك الجلسة أحيانًا وذلك لأنها تُريح الجالس لفترة طويلة حتى لا يشعر بالتعب .. وهكذا كان النبي ﷺ يُنَوِّع في نومه وقعوده حتى يوضح لأمته أنها مباحة .. وحتى لا يظنوا أنهم مُلْزَمُونَ بالنوم على هيئة واحدة أو بالجلوس على هيئة واحدة ... وهكذا كان النبي ﷺ يرفع الحرج دائمًا عن أمته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٢٧) وَعَنْ قَيْلَةَ بِنْتِ مَخْرَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ قَاعِدٌ الْقُرْفُصَاءَ فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمُتَخَشَّعَ فِي الْجَلْسَةِ أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرْقِ ^(١).

❁ ففي هذا الحديث تُخبر قَيْلَةُ بِنْتُ مَخْرَمَةَ أنها رأت النبي ﷺ وهو قاعد القُرفْصاء ... يعنى: جلسة الاحتباء، فهذه المرأة لما نظرت للنبي ﷺ أخذها المنظر، وكأنها تقول: هذا رسول الله الذى نسمع عنه.

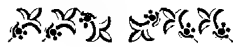
الرسول العظيم يجلس هذه الجلسة على الأرض بينما كسرى وقيصر والنجاشى وغيرهم من الملوك يجلسون على العروش فقالت هنا: (فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع في الجلسة أُرْعِدْتُ مِنَ الْفَرْقِ) أُرْعِدْتُ لهيئة النبي ﷺ، أى: من الخوف من الله سبحانه، ومن إجلال النبي ﷺ وهو على هذه الهيئة (عليه الصلاة والسلام).

وجاءت رواية لهذا الحديث عند الطبرانى بإسنادٍ لا بأس به وذكرها الحافظ ابن حجر فى الفتح قالت: (فجاء رجل فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال ﷺ: وعليك السلام ورحمة الله)، وعليه أسما ملتين ... يعنى: هذه كانت هيئة

(١) حسن: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الأدب المفرد (٩٠٥)، وفى صحيح سنن أبى داود (٤٠٥٧).

النبي ﷺ ... والأسمال جمع سمل: وهو الثوب البالى، فكأن النبي ﷺ كان يلبس إزارًا ورداء باليين.

قالت المرأة: (وبيده عسيب نخلة مقشرة قاعدًا القرفصاء، فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق، فقال له جليسه: يا رسول الله! أرعدت المسكينة) يعنى: المرأة صارت ترتعش لما رأت النبي ﷺ على هذه الهيئة وهو لم ينظر إليها (صلوات الله وسلامه عليه)، فالرجل الذى معها يقول: المرأة أرعدت من هيئتك يا رسول الله، عليه الصلاة والسلام ... قالت: فقال ﷺ ولم ينظر إلى: (يا مسكينة عليك السكينة) فدعا لها النبي ﷺ وقال: (يا مسكينة عليك السكينة قالت: فذهب عني ما أجد من الرعب)، وإنما كان رعب المرأة حين رأت النبي ﷺ يجلس جلسة إنسان متواضع لله سبحانه في غاية الخشوع وغاية السكينة عليه الصلاة والسلام... فهيئته ﷺ جعلت المرأة تخشع لله سبحانه، وتخاف وتهاب النبي ﷺ وتُجله^(١).



(٨٢٨) وعن الشريد بن سويد رضي الله عنه قال: مرّ بى رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا، وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على ألية يدي. فقال: «أَتَقْعُدُ قَعْدَةَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ»^(٢).

❁ لا بد أن نعلم أن جميع أنواع القعود لا بأس بها.. فلا بأس أن يقعد الإنسان مُتْرِبًا، ولا بأس أن يجلس وهو مُحْتَبَى القرفصاء -يعنى يقيم فخذه وساقه، ويجعل يديه مضمومتين على الساقين- هذا أيضًا لا بأس به، لأن النبي ﷺ قعد هذه القعدة.

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين). الشيخ / أحمد حطية.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في حجاب المرأة (٢/ ١٠٠)، وصحيح سنن أبي داود (٤٠٥٨).

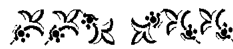
ولا يُكره من الجلوس إلا ما وصفه النبي ﷺ بأنه قعدة المغضوب عليهم، بأن يجعل يده اليسرى من خلف ظهره ويجعل بطن الكف على الأرض ويتكى عليها... فإن هذه القعدة وصفها النبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم.

أما لو وضع اليدين كليهما من وراء ظهره واتكأ عليهما فلا بأس، ولو وضع اليد اليمنى فلا بأس، إنما التي وصفها النبي عليه الصلاة والسلام بأنها قعدة المغضوب عليهم، أن يجعل اليد اليسرى من خلف ظهره ويجعل باطنها - أي أليتها - على الأرض، ويتكى عليها، فهذه هي التي وصفها النبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم^(١).

❁ وفي هذا الحديث أن الشريد بن سويد أخبر أن النبي ﷺ مرَّ به وهو جالسٌ وقد وضع يده اليسرى خلف ظهره واتكأ على ألية يده.. أي اتكأ على باطن الكف... فقال له النبي ﷺ: «أتقعد قعدة المغضوب عليهم..» أي: نهاه النبي ﷺ عن هذه القعدة.. وعُلِّل ذلك بأنها جلسة من غضب الله عليه.

والمغضوب عليهم هم اليهود.. وكانت تلك قعدتهم المشهورة عنهم.. وقد نُهينا أن نتشبه بالكافرين.. ولذا أنكر النبي ﷺ عليه لأنه إن قعد هذه القعدة فقد تشبه باليهود..

وهكذا كان حرص النبي ﷺ على أصحابه وأمته من بعده ﷺ.



(١٢٩) باب في آداب المجلس والجلوس

✽ الإنسان اجتماعي بطبعه.. فهو يحتاج إلى أن يجلس مع الآخرين، ويتعامل معهم.. وقد تضطره الحاجة إلى الجلوس في مجلس من المجالس لأمر من الأمور الدنيوية، أو الدينية.

✽ وأفضل المجالس.. مجالس الذكر.. فهي تُوجب رقة القلوب.. والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

وفي مجالس الذكر، تنزل الرحمة، وتغشى السكينة.. وتُحَفُّ الملائكة.. ويذكر الله أهلها فيمن عنده.. وهم القوم لا يَشْقَى بهم جليسهم.. فربما رُحِمَ معهم مَنْ جلس إليهم، وإن كان مذنبًا.

بِمَا يَكُونُ فِيهِ رِجَالٌ مُّطَهَّرُونَ

(٨٢٩) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ رَجُلًا مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ وَلَكِنْ تَوَسَّعُوا وَتَفَسَّحُوا» وكان ابنُ عمر إذا قام له رجلٌ من مجلسه لم يجلس فيه^(١).

✽ لقد ذكر المصنف رحمته الله هذا الباب (باب آداب المجلس والجلوس) ليبين بعض الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم في مجالسه ومع جلسيه.

✽ وفي هذا الحديث نتعلم أدبًا من آداب المجلس.. وهو أنك إذا دخلت مكانًا فوجدت المكان مُمتلئًا فليس لك أن تُقيم أحدًا من مكانه أو أن تقول له: يا فلان قم ثم تجلس مكانه.. فهذا لا يجوز.. بل لا يجوز أن تجلس بين اثنين إلا بإذنهما.

ولكن إذا كنت تريد أن تجلس فقل: تَفَسَّحُوا تَوَسَّعُوا.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٧٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٧٧) كتاب السلام.

فإذا تفسحوا وتوسعوا فإن الله تعالى يوسع لهم ﴿يَكُنْهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

✽ قال الشيخ السعدي رحمه الله:

هذا أدب من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسيح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضاراً للفاسح شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه... والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه، وسع الله عليه^(١).

أما أن تقيم الرجل وتجلس مكانه فإن هذا لا يجوز، حتى في مجالس الصلاة... لو رأيت إنساناً في الصف الأول فإنه لا يحل لك أن تقول له: قم، ثم تجلس في مكانه، حتى لو كان صبيّاً لكنه يصلي، فإنه لا يحل لك أن تقيمه من مكانه وتصلي فيه، لأن الحديث عام، والصبي لا بد أن يصلي مع الناس، ويكون في مكانه الذي يكون فيه.

وأما قول النبي ﷺ: «يلنّي منكم أولو الأحلام والنهي» فهو أمر للبالغين العقلاء أن يتقدموا حتى يلوا الرسول عليه الصلاة والسلام، وليس نهياً أن يكون الصغار قريبين منه.. ولو كان أراد ذلك لقال ﷺ: لا يلنّي إلا أولو الأحلام والنهي، أما إذا أمر أن يليه أولو الأحلام والنهي، فالمعنى أنه يحثهم على التقدم حتى يكونوا وراء النبي ﷺ، يلونه ويفهمون عنه شريعته وينقلونها إلى الناس^(٢). فإذا كان الإمام في الصلاة وجاء إنسان وراءه فلا بد أن يكون حافظاً للقرآن

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٠٦-١٠٠٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٠٥).

فلعلَّ الإمام يُحدث في الصلاة فيكون وراءه مَنْ يتقدم فيصلّى بالناس مكان الإمام، ولعلَّ الإمام يُخطئ في الصلاة فيكون من هؤلاء مَنْ يردُّ الإمام عن ذلك الخطأ الذى وقع فيه.

❁ وفى المقابل .. فمن كان يجلس في المسجد أو مجلسٍ علمٍ أو غير ذلك وكان بإمكانه أن يفسح لأخيه ليجلس بجواره فليفسح له .. وبخاصة إذا كان المكان مزدحمًا والناس تجد مُعانة في الجلوس.

فأحيانًا تكون المجالس واسعة، وفيها مَنْ يجلس ماديًا رجليه بحيث لا يُبقى مكانًا لأحد، فإذا جاءه مَنْ يقول: تفسحوا وتوسعوا ويستأذن للجلوس فيقول له: هذا المكان لى ابحث لك عن مكانٍ آخر... كثير من الناس يفعلون هذا الشيء! وللأسف نرى مثل هذا حتى في الحرم، فإذا جاء مَنْ يطلب منه أن يفسح له قال: أنا أعتكف هنا، اذهب وابحث عن مكانٍ آخر!

فيفعل هذا في بيت الله الذى يُفترض أن يكون الإنسان فيه أخشع ما يكون، لعظم هذا المكان.

فالإنسان المؤمن يتعلم الأدب الشرعى من النبى ﷺ في كيفية جلوسه وفي أمره لنا بالتفُسُّح.

فإذا كنت جالسًا في مجلس وكان بجانبك مكان يسع إنسانًا فأجلس هذا الإنسان، وتصور أنك في مكانه وجئت تقول للناس: تفسحوا، فهل ترضى أن يمنعك أحد من الجلوس؟ فما لا ترضاه لنفسك لا ترضه لغيرك.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا النَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ فَمَنْ سَبَقَ إِلَى مَوْضِعٍ مَبَاحٍ فِي الْمَسْجِدِ وَغَيْرِهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ غَيْرِهِ لِصَلَاةٍ أَوْ غَيْرِهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ وَيَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ إِقَامَتُهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ.

وأما قوله: وكان ابن عمر إذا قام له رجل عن مجلسه لم يجلس فيه فهذا ورع منه وليس قعوده فيه حراماً إذا قام برضاه لكنه تورع عنه لوجهين: أحدهما: أنه ربما استحى منه إنسان فقام له من مجلسه من غير طيب قلبه فسدد ابن عمر الباب ليسلم من هذا.. والثاني: أن الإيثار بالقرب مكروه أو خلاف الأولى فكان ابن عمر يمتنع من ذلك لئلا يرتكب أحد بسببه مكروهاً أو خلاف الأولى بأن يتأخر عن موضعه من الصف الأول ويؤثره به وشبه ذلك... قال أصحابنا: وإنما يُحمد الإيثار بحفظ النفوس وأموال الدنيا دون القرب والله أعلم^(١).

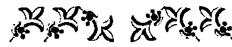
فالإنسان المؤمن إذا قام له الناس فلا يفرح بذلك، ولكن إذا قاموا له من مجلس فالأفضل ألا يجلس فيه كما فعل ابن عمر رضي الله عنه، ولو فرضنا أنه جلس فهل عليه إثم؟ لا، ليس عليه إثم، فصاحب المجلس أذن له فيه فلا مانع من أن يجلس... وكان النبي ﷺ إذا دخل على السيدة فاطمة في بيتها قامت له وقبلته ﷺ وأجلسته مكانها، وكان هو يفعل ذلك مع ابنته صلوات الله وسلامه عليه، فهذا من باب المحبة لكن إذا كان من باب الترفع على الناس وأنه أولى من غيره بأن يكون خلف الإمام أو حتى مكان الإمام فهذا الذي جاء فيه الوعيد.

❁ قال بعض أهل العلم: ويندرج تحت هذا الذي فعله ابن عمر رضي الله عنه أنه إذا كنت تمر أمام بيت أحد أقاربك أو جيرانك أو أصحابك وقال لك: تفضل.. وأنت تعلم أنه قال ذلك حياءً وخجلاً منك لما رآك أمامه فلا تدخل.. لأن هذا يكون كالمكره.. لكن إذا علمت أنه بالفعل يريد أن تدخل؛ لأنه يحب أن يستأنس بوجودك عنده فلا مانع حينئذٍ.

وكذلك إذا أعطاك أحد أحبابك هدية خجلاً منك وحياءً فلا تقبلها؛ لأن هذا أيضاً كالمكره.

(١) مسلم بشرح النووي (٢٢٩/١٤).

✽ فالحمد لله على نعمة الإسلام .. والحمد لله على بعثة الحبيب المصطفى ﷺ الذي علّم الكون كله تلك الأخلاقيات والذوقيات.



(٨٣٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنْ مَجْلِسٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه إذا قام إنسان من مجلسه لقضاء الحاجة أو غير ذلك ثم عاد إليه فهو أحق به... سواء كان ذلك المكان في المسجد أو في مجلسٍ من مجالس العلم...

لكن إذا قام منصرفاً إلى بيته أو إلى أى مكانٍ آخر فقد انتهى حقه في ذلك المجلس؛ لأنه قد انصرف عن المجلس فيجلس فيه غيره.

✽ قال الإمام النووي رحمته الله:

قَالَ أَصْحَابُنَا: هَذَا الْحَدِيثُ فِيمَنْ جَلَسَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ الْمَسْجِدِ أَوْ غَيْرِهِ لِصَلَاةٍ مِثْلًا ثُمَّ فَارَقَهُ لِيَعُودَ، بِأَنْ فَارَقَهُ لِيَتَوَضَّأَ أَوْ يَقْضِيَ شُغْلًا يَسِيرًا ثُمَّ يَعُودَ، لَمْ يَبْطُلْ اخْتِصَاصُهُ بَلْ إِذَا رَجَعَ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ، فَإِنْ كَانَ قَدْ قَعَدَ فِيهِ غَيْرُهُ فَلَهُ أَنْ يُقِيمَهُ وَعَلَى الْقَاعِدِ أَنْ يُفَارِقَهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ. هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى مَنْ قَعَدَ فِيهِ مَفَارِقَتُهُ إِذَا رَجَعَ الْأَوَّلُ. قَالَ أَصْحَابُنَا: وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَقُومَ مِنْهُ وَيَتْرَكَ فِيهِ سَجَادَةً وَنَحْوَهَا أَمْ لَا، فَهَذَا أَحَقُّ بِهِ فِي الْحَالَيْنِ...

قَالَ أَصْحَابُنَا: وَإِنَّمَا يَكُونُ أَحَقُّ بِهِ فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ وَحَدَهَا دُونَ غَيْرِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٧٩) كتاب السلام.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤/٢٣٢).

✽ لكن هناك مسألة لا يفتن إليها بعض الناس ألا وهى:

بعض المسلمين ممن يحافظون على الصلاة فى المسجد يتخذ مكاناً مخصوصاً لا يصلى إلا فيه... إما بجوار المنبر أو عن يمين الإمام، أو بجوار سارية من سوارى المسجد ونحو ذلك، وإذا وجد أحداً سبقه إليه يحاول أن يقيمه منه أو يرجع مُغَضَّباً، وهذا كله لا يجوز لأمر:

أولاً: نهى النبى ﷺ عن ذلك... فلقد روى أبو داود عن عبد الرحمن بن شبل قال: «نهى رسول الله عن نقرة الغراب، وافتراش السبع، وأن يُوطَّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطَّن البعير»^(١).

ثانياً: يفوت عليه تكثير البُقْع التى تشهد له بالسجود عليها يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنَادِيُ تَحَدَّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]... تتحدث الأرض بما فعل على ظهرها من الطاعة والمعصية.

ثالثاً: إن إلف المكان والتعود عليه قد يُذهب لذة العبادة وخشوع الطاعة.
رابعاً: قد يَجُرُّ ذلك إلى الرياء والسُّمعة وأنه من كذا وكذا سنة يصلى بجوار المنبر مثلاً^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٣١) وعن جابر بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهَى^(٣).

✽ ففى هذا الحديث يخبر جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا إذا ذهبوا إلى النبى ﷺ فى المسجد جلس كل واحدٍ منهم حيث ينتهى به المجلس.. وهذا

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وحسنه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٩٨٢).

(٢) راجع إصلاح المساجد (١٨٥)، المناهى الشرعية للهلالى (٣٦٨/١)، نقلاً عن الكلمات النافعة (ص: ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٣٠).



أدبٌ عظيم تعلموه من النبي ﷺ وعلموه للأمة.

✽ فمن آداب المجالس أن الإنسان إذا دخل خطبة جمعة أو درس علم أن يجلس حيث ينتهي به المجلس .. فهذا هو فعل النبي ﷺ وأصحابه .. فكان لا يتقدم أحدهم إلى صدر المجلس إلا إذا أثره أحدٌ بمكانه عن طيب نفسٍ وليس خجلًا أو حياءً ... أو كان قد ترك له مكان في صدر المجلس فلا بأس بذلك.

أما أن يخترق الصفوف ويتخطى الرقاب ويضايق الناس لأجل أن يأتي أمام الناس ويجلس فهذا ليس من آداب المجالس .. وإنما يجلس حيث ينتهي به المجلس .. وإذا وجد فرجة في مكانٍ جلس فيها من غير أن يؤذى أحدًا.

✽ وقد كان النبي ﷺ ذات مرة يخطب الجمعة .. والصحابة يجلسون أمامه وكأن على رؤوسهم الطير من الإنصات لكلام النبي ﷺ .. وفجأة دخل رجلٌ وبدأ يخترق الصفوف ويتخطى الرقاب .. فما كان من النبي ﷺ إلا أن قطع خطبته وقال لهذا الرجل: «اجلس فقد آذيت وآيت».

(اجلس) أى: اقعد مكانك (فقد آذيت)، آذيت الناس بتخطيك الرقاب، (وآيت) أى: تأخرت.

فهذا تأديب من النبي ﷺ لهذا الإنسان أمام الناس ... يؤدبه حتى لا يفعل غيره مثل فعله ... فاستحق هذا أن يؤدَّب ويُقال له: اجلس مكانك ولا تتخطَ رءوس الناس ولا تؤذيهم.

✽ أما إن كان الرجل صاحب خير وتذكير وعلم فإن مكانه الذى هو فيه سيكون هو صدر المجلس، فسوف يتجه الناس إليه إن تكلم، أو يسألونه إذا أرادوا سؤاله، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا دخل المجلس جلس حيث ينتهي به، ثم يكون المكان الذى هو فيه الرسول ﷺ هو صدر المجلس.

✽ فإذا دخلت المجلس فاجلس في أقرب مكان تجده ولا تتخطَ الرقاب

حتى لا تؤذى إخوانك وتشغلهم عن طلب العلم.

✽ أما إذا كان الشيخ يريدك أن تجلس قريباً منه لأنك من أنجب تلاميذه فلا بأس هنا أن تجلس في المكان الذي يريده الشيخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٣٢) وعن أبي عبد الله سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ وَيَدَّهْنُ مِنْ دُهْنِهِ أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ثُمَّ يَنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى»^(١).

(٨٣٣) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا»^(٢).

وفي رواية لأبي داود: «لَا يَجْلِسُ بَيْنَ رَجُلَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا».

✽ صلاة الجمعة هي عيد المسلمين في كل أسبوع... فهذا يومٌ عظيم جداً، يستجيب الله ﷻ فيه الدعوات، وفيه ساعة إجابة يستجيب الله ﷻ فيها لعبده... والمؤمن يهيئ نفسه ليستجيب الله ﷻ له... وكان النبي ﷺ يحرص أن يصلي الفجر في هذا اليوم فيقرأ بسورة السجدة وسورة الإنسان؛ لما فيهما من ذكر بدء الخلق، ومن ذكر القيامة، ومن ذكر الجنة والنار.

ويوم الجمعة هو اليوم الذي خُلق فيه آدم، وأنزل فيه آدم من الجنة، وهو اليوم الذي تقوم فيه الساعة... وما من مخلوق إلا وهو يُشفق من يوم الجمعة إلا الإنس والجن.

✽ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن أشياء إذا فعلها الإنسان فإنه يُغفر له

(١) صحيح: رواه البخاري (٨٨٣) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٦٥٦).

ما بين الجمعة والجمعة: منها الاغتسال... أن يغتسل كما يغتسل للجنازة... وهذا الاغتسال القول الراجح فيه وجوبه وأنه يجب على الإنسان أن يغتسل ليوم الجمعة إذا كان يصلي الجمعة.

ويأثم مَنْ لم يغتسل إلا لضرورة... لأن النبي ﷺ قال: «غُسل الجمعة واجب على كل محتلم»، يعنى على كل بالغ... فكل بالغ يأتى إلى الجمعة فإنه يجب عليه أن يغتسل إلا أن يخاف ضرراً أو لا يجد ماءً، كما لو مرَّ مثلاً بقرية وهو مسافر، وأراد أن يصلى الجمعة معهم ولم يجد مكاناً يغتسل فيه، فهذا يسقط عنه... لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أما النساء فلا يجب عليهن الغُسل.... ولكن هذا الوجوب ليس عن حَدَث، فلو تركه الإنسان وصلى الجمعة أثم وصَحَّت الجمعة؛ لأنه ليس عن حَدَث، ومنها أن يدهن بالطيب، يعنى: يتطيب بعودٍ أو وردٍ أو ريحان أو غير ذلك، المهم أن يتطيب ويختار أطيب ما يجد. ومنها ألا يُفرق بين اثنين؛ لأنه إذا فرق بين اثنين آذاهما، وهذا يدل على أن المراد إذا وجد الصف مشتبكاً فلا يفرقه، أما لو وجد فُرجة فله أن يدخل فيها؛ لأن الاثنين هما اللذان افترقا.

يعنى إذا جئت ووجدت شخصين جلس أحدهما إلى جنب الآخر فلا تُفرق بينهما إلا إذا أذنا لك فى هذا إما إذنًا باللسان يعنى إذا قال أحدهما تعال اجلس هنا أو بالفعل بأن يتفرق بعضهما عن بعض إشارة إلى أنك تجلس بينهما وإلا فلا تُفرق بينهما لأن هذا من سوء الأدب إن قلت تفسح ومن الأذية إن جلست وضيقت عليهما.

ومنها أن يصلى ما كُتب له، ولم يحدد النبي ﷺ صلاة، فدلَّ هذا على أن الجمعة ليست لها راتبة قبلها بل يصلى الإنسان ما شاء، قليلاً كان أو كثيراً إلى أن يحضر الإمام... ومنها أن يُنصت، يعنى يُنصت للخطبة فلا يتكلم إلى أن

يفرغ الخطيب من الخطبة، فإذا فعل هذه الأشياء الخمسة فإنه يُغفر له ما بين الجمعتين، وهذا فضلٌ عظيم من الله ﷻ.

❁ وها هي بعض الآداب التي ينبغي أن نتأدب بها في يوم الجمعة:

(١) إخلاص النية لله ﷻ .. وذلك بأن ينوى بذلك وجه الله والفوز بالأجر والثواب وتكثير أعداد المسلمين.

(٢) الاغتسال للصلاة الجمعة؛ حتى يذهب إلى صلاة الجمعة ورائحته طيبة .. فلا يؤذى الناس من حوله ولا يؤذى الملائكة.

(٣) أن يتزين بلبس أفضل الثياب والتطيب بالعطر؛

وذلك لأن يوم الجمعة يوم عيد وفيه يجتمع المسلمون .. فينبغي أن يكون المسلم في أبهى زينته ليكون قدوة لمن حوله.

وليعلم غير المسلمين أن ديننا هو دين النظافة والجمال.

وأما المرأة فلا يجوز لها أن تخرج متعطرة سواء كان ذلك للصلاة أو لغيرها.

(٤) كثرة الصلاة على النبي ﷺ:

فالصلاة على النبي ﷺ من أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله (جل وعلا) وتزداد فضيلة الصلاة على النبي ﷺ في يوم الجمعة.

فعن أوس قال: قال النبي ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة: فيه خلق آدم وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على».

فقال رجل: يا رسول الله، كيف تُعرض صلاتنا عليك وقد أُرمت؟ (أي: بليت) قال: «إن الله ﷻ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢).



(٥) قراءة سورة الكهف:

فإن قراءة سورة الكهف مُستحب في ليلة الجمعة أو في يوم الجمعة.
 ﴿١﴾ قال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين».

﴿٢﴾ وقال ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له النور ما بينه وبين البيت العتيق».

(٦) استعمال السواك وترك كل ما يتأذى برائحته المسلمون:

﴿١﴾ بأن يستعمل السواك وذلك لتطيب رائحة الفم حتى لا يتأذى مَنْ حوله من المصلين... وأن يتجنب أكل الثوم والبصل والكراث إلا أن يكون مطبوخًا.. وكذلك يتجنب الدخان حتى لا يتأذى الناس وتتأذى الملائكة.

(٧) التبكير إلى المسجد في صلاة الجمعة:

فمن السُّنة التبكير إلى الصلاة ساعيًا إليها بالسَّكينة والوقار..
 وكلما بكر الإنسان بالذهاب إلى صلاة الجمعة كلما كان الأجر عظيمًا.
 ﴿١﴾ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ اغْتَسَلَ يوم الجمعة غُسل الجَنَابَةِ ثم راح فكأنما قَرَّبَ بدنة، وَمَنْ راح في الساعة الثانية فكأنما قَرَّبَ بقرة، وَمَنْ راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن، وَمَنْ راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، وَمَنْ راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» (٣).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل بابٍ من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فإذا جلس الإمام طووا

(١) صحيح: أخرجه الحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨١) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) (١٠) كتاب الجمعة.

الصحف، وجاءوا يستمعون الذكر»^(١).

(٨) ترك البيع والشراء:

لأن البيع والشراء أثناء صلاة الجمعة أمرٌ مُحَرَّمٌ.. فقد قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

(٩) عدم تخطي الرقاب:

فينبغي على المسلم أن يجلس حيث ينتهي به المجلس ولا يتخطى الرقاب. فعن عبد الله بن بسر: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، والنبي ﷺ يخطب فقال: «اجلس، فقد آذيت وآتيت»^(٢) أى: تأخرت.

(١٠) صلاة ركعتين تحية المسجد قبل الجلوس:

فينبغي أن يصلى المسلم ركعتين تحية المسجد حتى ولو كان الإمام يخطب على المنبر... لكن عليه أن يوجز فيهما - أى: يصليهما بسرعة دون إخلال بأركان الصلاة وواجباتها.

(١١) ألا يفرق بين اثنين:

وذلك بأن يدخل بين اثنين جالسين فيأعد بين الاثنين ليجلس بينهما فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك.

(١٢) ألا يُقيم أحداً من مجلسه ليجلس فيه:

فلقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال: «لا يُقيمَنَّ أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعده فيه، ولكن يقول: افسحوا»^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٩٢٩) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) (٢٤) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١٧٨) كتاب السلام.

(١٣) الانشغال بذكر الله (جل وعلا):

فينبغي على المسلم إذا دخل المسجد قبل صلاة الجمعة بوقتٍ طويل أن ينشغل بالصلاة وقراءة القرآن والذكر والاستغفار ولا ينشغل بالكلام مع الناس من حوله.

(١٤) الدنو والاقتراب من الإمام:

يُستحب الدنو من الإمام يوم الجمعة... وقد وردت الأحاديث التي تدل على ذلك منها:

عن أوس بن أوس عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ ثُمَّ بَكَرَ وَابْتَكَرَ وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ وَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ عَمَلٌ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»^(١).

(١٥) الإنصات للإمام وعدم اللغو:

وذلك حتى لا يضيع أجره بسبب الكلام أثناء الخطبة.. وحتى تُتاح له فرصة الاستماع إلى خطبة الجمعة.

(١٦) صلاة ركعتين في البيت:

فهذا هو هدى النبي ﷺ فإنه كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في البيت.. فإنه ﷺ: «كان لا يصلي الركعتين بعد الجمعة، ولا الركعتين بعد المغرب إلا في أهله»^(٢).

لكن لو صلى في المسجد صلى أربعاً... فإن ابن عمر فعل ذلك وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك»^(٣)، وقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَ مُصَلِّيًا بَعْدَ الْجُمُعَةِ، فَلْيُصَلِّ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٠٥).

(٢) صحيح: رواه الطيالسي، والطحاوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٥٧).

(٣) قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ فِي تمامِ الْمَنَةِ (١/ ٣٤٢): «قال ابن القيم: قال شيخنا ابن تيمية: إن صلى في المسجد صلى أربعاً وإن صلى في بيته صلى ركعتين». قلت: هذا التفصيل لا أعرف له أصلاً في السُّنَّةِ إلا ما سيذكره من حديث ابن عمر ويأتي قريباً بيان ما فيه وقوله في الحديث الصحيح المتقدم: «مَنْ كَانَ

أربعًا»^(١).

(١٧) تحرى ساعة الإجابة :

فينبغي للمؤمن أن يتحرى هذه الساعة بالعبادة والذكر والاستغفار والدعاء فإن الدعاء في ذلك الوقت مستجاب.

فقد قال ﷺ عن يوم الجمعة: «فيه ساعة لا يوافقها مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه»^(٢).

وساعة الإجابة آخر ساعة بعد العصر يوم الجمعة على الراجح:
عن أنس أن النبي ﷺ قال: «التمسوا الساعة التي تَرْجَى في يوم الجمعة بعد العصر إلى غيوبة الشمس»^{(٣)(٤)}.

بُحْرَانُ

(٨٣٤) وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لَعَنَ مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الْحَلَقَةِ^(٥).

وروى الترمذى عن أبي مجلز أن رجلاً قَعَدَ وَسَطَ حَلَقَةٍ فَقَالَ حُذِيفَةُ: مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ لَعَنَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ جَلَسَ وَسَطَ الْحَلَقَةِ. وللأمانة العلمية فهذا الحديث ضعيف لا يثبت عن النبي ﷺ.

بُحْرَانُ

= منكم مُصَلِّيًا بعد الجمعة فليُصَلِّ أربعًا». رواه مسلم وغيره وهو في «الإرواء» (٦٢٥) لا دليل فيه على أن الأربع في المسجد والحديث الصحيح المعروف: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» فإذا صلى بعد الجمعة ركعتين أو أربعًا في المسجد جاز أو في البيت فهو أفضل لهذا الحديث الصحيح.

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٨١) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٩٣٥) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

(٣) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (١٢٣٧).

(٤) الآداب الإسلامية للطفل المسلم / د. محمود المصرى (ص ١٦٧-١٧١) بتصرف.

(٥) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وضعفه الألبانى في ضعيف الجامع (٤٦٩٤).

(٨٣٥) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خَيْرُ الْمَجَالِسِ أَوْسَعُهَا»^(١).

❁ ومما ينبغى فى المجالس أيضًا أن تكون واسعة، فإن سعة المجالس من خير المجالس ... كما قال ﷺ: «خير المجالس أوسعها»؛ لأنها إذا كانت واسعة حملت أناسًا كثيرين، وصار فيها انشراح وسعة صدر، وهذا على حسب الحال... فقد يكون بعض الناس حُجِرَ بيته ضيقة، لكن إذا أمكنت السعة فهو أحسن؛ لأنه يحمل أناسًا كثيرين ولأنه أشرح للصدر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٣٦) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»^(٢).

(٨٣٧) وعن أبى بَرَزَةَ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أرادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» فقال رجلٌ: يا رسول الله إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى؟ قال: «ذلِكَ كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ»^(٣).

❁ ففى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ» يعنى: كان فيه لغوٌ كثير وكلامٌ كثير... وليس معناه: أنهم قعدوا يشتمون الناس أو يعصون الله... قال: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٨٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٩٢).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٥١٧).

أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ».

فالله ﷻ يغفر له ما كان في مجلسه ذلك من اللغو... أى: من كثرة الكلام فيما يعنى وفيما لا يعنى... والإنسان ينبغي عليه أن يحاسب نفسه على ما يتكلم به، فإذا جلس في مجلس مع الناس فالأصل أن المؤمن يعلم أنه ما خلق إلا لعبادة الله سبحانه، والأصل أن يذكر الله سبحانه، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. فإذا جلس في المجلس فضحك كثيرًا وكثر كلامه ناسيًا، ثم تذكر في آخر مجلسه فليقل: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

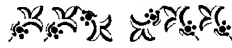
❦ وأما في حديث أبي برزة رضى الله عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يقول بآخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس)، (يقول بآخرة) أى: في النهاية، وكأنه في الأول بعدما هاجر إلى المدينة ﷺ مكث فترة فيها لم يكن يقول ذلك، وفي النهاية قرب آخر حياته ﷺ كان يقول هذا الذكر.. فهذا معنى (بآخرة) يعنى: في آخر عمره ﷺ فكان يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وهل يُعقل أن النبي ﷺ سيجلس في مكان يكون فيه ذنوب؟! مستحيل أن يجلس في مجلس كهذا، ولكنه كان يجلس مع أصحابه ﷺ، وكان يحب أن يذكرهم بذلك، فهو إذا جلس في مجلس إما أن يذكر الله سبحانه وتعالى في سرّه أو يذكر الله ﷻ أمام أصحابه، ويُعوّدهم أن يقولوا ذلك في ختام المجلس.

فقالوا: (يا رسول الله! إنك لتقول قولاً ما كنت تقول في ما مضى؟).

ما هذا الذي حصل؟ فقال ﷺ: «ذلك كفارة لما يكون في المجلس».

قد تكون أنت في المجلس ولم تسع، ولكن أحد الجالسين أساء فيلزمك أن تنهى عن المنكر، فإذا تجاوزت وسكت يكون ذلك الذكر كفارة لسكوتك،

وكفارة لهذا المجلس الذي شهدته^(١).



(٨٣٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا»^(٢).

❀ «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك».

اقسم بمعنى قَدَّر ... والخشية هي الخوف المقرون بالعلم لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله: «ما تحول به بيننا وبين معصيتك» لأن الإنسان كلما خشى الله ﷻ منعته خشيته من الله أن ينتهك محارم الله ... ولهذا قال: ما تحول به بيننا وبين معصيتك.

ثم قال: «ومن طاعتك» يعنى واقسم لنا من طاعتك «ما تبليغنا به جنتك» فإن الجنة طريقها طاعة الله ﷻ فإذا وَفَّقَ العبد لخشية الله واجتناب محارمه والقيام بطاعته نجا من النار بخوفه ودخل الجنة بطاعته.

«ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا» واليقين هو أعلى درجات الإيمان لأنه إيمان لا شك معه ولا تردّد ... تتيقن ما غاب عنك كما تشاهد ما حضر بين يديك.

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / الشيخ أحمد حطية.

(٢) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦٨).

فإذا كان عند الإنسان يقينٌ تام بما أخبر الله تعالى به من أمور الغيب فيما يتعلق بالله ﷻ أو بأسمائه أو صفاته أو اليوم الآخر أو غير ذلك وصار ما أخبر الله به من الغيب عنده بمنزلة المُشاهد فهذا هو كمال اليقين.

وقوله: «ما تُهون به علينا مصائب الدنيا» لأن الدنيا فيها مصائب كثيرة لكن هذه المصائب إذا كان عند الإنسان يقين أنه يكفر بها من سيئاته ويرفع بها من درجاته إذا صبر واحتسب الأجر من الله هانت عليه المصائب وسهّلت عليه المحن مهما عظُمت سواء كانت في بدنه أو في أهله أو في ماله ما دام عنده اليقين التام فإنها تهون عليه المصائب.

«ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا» تسأل الله تعالى أن يمتعك بهذه الحواس: السمع والبصر والقوة ما دُمْتَ حيًّا لأن الإنسان إذا مُتِع بهذه الحواس حصل على خيرٍ كثير .. وإذا افتقد هذه الحواس فاته خيرٌ كثير لكن لا يُلام عليه إذا كان لا يقدر عليه.

«واجعله الوارث منا» يعنى اجعل تَمَتُّعنا بهذه الأمور: السمع والبصر والقوة الوارث منا ... يعنى اجعله يمتد إلى آخر حياتنا حتى يبقى بعدنا ويكون كالوارث لنا ... وهو كناية عن استمرار هذه القوة إلى الموت.

«واجعل ثأرنا على مَنْ ظلمنا» يعنى اجعلنا نستأثر ويكون لنا الأثرة على مَنْ ظلمنا بحيث تقتص لنا منه إما بأشياء تصيبه في الدنيا أو في الآخرة ولا حرج على الإنسان أن يدعو على ظالمه بقدر ظلمه ... وإذا دعا على ظالم بقدر ما ظلمه فهذا إنصاف والله سبحانه وتعالى يستجيب دعوة المظلوم.

قال النبي ﷺ لمعاذ وقد بعثه إلى اليمن وبين له ما يدعوهم إليه فقال: «فإن أجابوك لذلك» أى للصدقة من أموالهم «فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة

المَظْلُومُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَبْتَغِيهَا وَيَبْتَغِي اللَّهَ حِجَابٌ»^(١).

لأن الله تعالى حَكَمَ عدل ينتقم من الظالم إذا رفع المظلوم الشكوى إليه... فإذا رفع المظلوم الشكوى إلى الله انتقم الله من الظالم... لكن لا يتجاوز المظلوم في دعائه فيدعو بأكثر من مظلّمته لأنه إذا دعا بأكثر من مظلّمته صار هو الظالم. وانصرنا على من عادانا... وأكبر عدو لنا من عادانا في دين الله.

«ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» المصائب في الحقيقة تكون في مال الإنسان بأن يحترق ماله أو يُسرق أو يتلف فهذه مصيبة.

وتكون أيضًا في أهل الإنسان فيمرض أهله أو يموتون. وتكون في العقل بأن يُصاب هو أو أهله بالجنون... نسأل الله العافية. وتكون في كل ما من شأنه أن يُصاب به الإنسان. لكن أعظم مصيبة هي مصيبة الدين... نسأل الله أن يثبتنا على دينه الحق فإذا أُصيب الإنسان بدينه والعياذ بالله فهذه أعظم مصيبة. والمصائب في الدين مثل المصائب في البدن... هناك مصائب خفيفة في البدن كالزكام والصداع واليسير وما أشبه ذلك وهناك مصائب في الدين خفيفة كشئ من المعاصي وهناك مصائب في الدين مُهلكة مثل الكفر والشرك والشك وما أشبه ذلك... هذه مُهلكة مثل الموت للبدن. فأنت تسأل الله ألا يجعل مصيبتك في دينك.

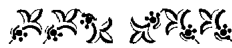
أما المصائب التي دون الدين فإنها سهلة فإن المُصاب من حُرّم الثواب نسأل الله العافية.

«ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا» فلا تجعل الدنيا أكبر همنا بل اجعل الآخرة أكبر همنا ولا ننسى نصيبنا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٩٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

من الدنيا فلا بد للإنسان من الدنيا لكن لا تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه بل يسأل الله أن يجعل مبلغ علمه علم الآخرة أما علم الدنيا وما يتعلق بها فهذه مهما كانت فإنها ستزول.

«ولا تُسلط علينا مَنْ لا يرحمنا» لا تُسلط علينا أحدًا من خلقك لا يرحمنا^(١).. والعبد إنما يتسلط عليه الظالم بسبب ذنوبه وآثامه... فهيا بنا نتوب ونرجع إلى الله ﷻ حتى لا يتسلط علينا مَنْ لا يرحمنا.. وحتى نفوز بمغفرة الله ورحمته وجنته ورضوانه.



(٨٣٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةٌ»^(٢).
(٨٤٠) وعنه عن النبي ﷺ قال: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ وَلَمْ يَصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تَرَةٌ، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»^(٣).
(٨٤١) وعنه عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تَرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مُضْطَجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ تَرَةٌ»^(٤).
وقد سبق قريبًا، وشرحنَا «الترة» فيه.

✽ ذكرنا قبل ذلك أنه ليس هناك لذة أعظم من لذة الانشغال بطاعة الله ﷻ.. والانشغال بذكر الله... فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فمن أحب أحدًا أكثر من ذكره. والله المثل الأعلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٢/ ٥١٠-٥١٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٥٠).

(٣) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٠٧).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٧).

فنحن نعلم أن الذى يحب لاعباً يُكثر من ذكره وسيرته وأهدافه وبطولاته بين أصحابه .. وينشرح صدره لو وجد مَنْ يُحب هذا اللاعب مثله ويشجع نفس الفريق ... بل من الممكن أن يعقد ولاءه للمسلم الذى يشجع نفس الفريق ويتبرأ من المسلم الذى يشجع الفريق المنافس .. وهذا بلا شك خلل فى العقيدة.

❁ والله المثل الأعلى ... فإن كان هذا حال مَنْ أحب لاعباً أو فناناً .. فما ظنك بمن أحب الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فينبغى علينا أن تلهج ألسنتنا بذكر الله ليلاً ونهاراً ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿[الأحزاب: ٤١-٤٢]، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] ... هكذا يكون حال المسلم .. يذكر الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه والتحاكم لشريعته ومحبة أوليائه وكراهية أعدائه والدفاع عن شرعه ودينه وألا يفتر عن ذكره لحظة واحدة .. فمثل هذا يكون جزاؤه أن يذكره الله من فوق سبع سماوات: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] .. وكما قال تعالى: «لَا يَذْكُرْنِي عَبْدٌ فِي نَفْسِهِ إِلَّا ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ مِنْ مَلَائِكَتِي، وَلَا يَذْكُرْنِي فِي مَلَأٍ إِلَّا ذَكَرْتُهُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(١).

❁ وفى تلك الأحاديث يوضح الحبيب المصطفى مغبة الغفلة عن ذكر الله وعن الصلاة على رسول الله ﷺ.

ففى الحديث الأول يخبر النبى ﷺ أنه «مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلَسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ»، فمن المعلوم أن الإنسان إذا دُعِيَ إلى وليمة فلا بد أن يكون فيها أشهى أنواع الأطعمة .. لكن الذين غفلوا عن ذكره قاموا من مجلسهم وكأنهم كانوا مدعوين ليأكلوا حماراً مُتَنَتاً .. فإذا كان هذا حالهم فى الدنيا .. فماذا يكون حالهم يوم القيامة؟ .. يكون

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٥).

عليهم حسرة يوم القيامة.

ولذلك كان من أسماء يوم القيامة «يوم التغابن» فكل من غفل عن طاعة الله وذكره يرى نفسه يوم القيامة مغبوناً منقوصاً من حقه.

❁ وفي الحديث الثاني يُخبر النبي ﷺ أنهم إن جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على رسول الله ﷺ كان ذلك المجلس حسرة عليهم يوم القيامة .. وهم في ذلك الوقت في مشيئة الله .. إن شاء عذبهم بسبب غفلتهم عن ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ .. وإن شاء غفر لهم ... ولماذا يُعذبهم؟ لأنهم كان في حياتهم أشياء أهم وأعلى عندهم من الله ورسوله ﷺ .. فانشغلوا بالكلام عن النعم ونسوا صاحب النعم فلم يذكروه .. ونسوا الذي عرفهم بالمنعم وهو رسول الله ﷺ .. فكان الجزاء من جنس العمل.

❁ وفي الحديث الثالث يخبر النبي ﷺ بنفس الكلام إلا أنه زاد هذه الجملة «وَمَنْ اضْطَجَعَ مُضْطَجِعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تِرَةً» أي: حسرة. وهل الإنسان يذكر الله وهو مضطجع؟ .. بلى .. أما سمعت قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١] .

أما علمت أن المسلم قبل أن ينام وهو مضطجع يقرأ أذكار النوم وينام على ذكر الله .. وإذا استيقظ فإنه يذكر الله ﷻ.

❁ لكن لا بد أن نعلم أنه ليس المقصود من تلك الأحاديث أن يجتمع الناس على ذكر جماعي في مجلس .. فهذا يُخالف هدى النبي ﷺ .. بل المقصود أننا إذا جلسنا مجلساً فيقوم أحدنا ويذكرنا بنعم الله علينا .. فنكون بذلك ذاكرين لله ﷻ.

أو يقوم أحدنا بتفسير آية من القرآن أو شرح حديث من السنة أو بتدريس حكم فقهي أو ذكر موقف من سيرة الرسول ﷺ أو ترجمة لصحابي من



أصحاب الرسول أو نتعلم ترتيل بعض الآيات القرآنية وأن نذكر أنفسنا بفضل الصلاة على رسول الله ﷺ ... فنكون بذلك قد ذكرنا الله وصلينا على رسول الله ﷺ .. فإن فعلنا ذلك كان أماناً لنا من الحسرة في الدنيا والآخرة وكان نوراً لنا في الدنيا وثواباً ونوراً يوم القيامة.

❦ ولا مانع أن نتكلم أحياناً في بعض مصالحن الدنيوية .. فليس هناك أى مانع من ذلك .. فإذا انتهى المجلس وأردنا أن نقوم فعلينا أن يقول كل واحد منا كفارة المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

وفي هذه الأحاديث الثلاثة دليل على أنه ينبغي للإنسان ألا يترك مجلساً ولا مضجعاً إلا يذكر الله تعالى فيه ... حتى يكون ممن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].



(١٣٠) باب الرؤيا وما يتعلق بها

✽ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣].

(٨٤٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النَّبُوءَةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ» قالوا: وما المُبَشِّرَاتُ؟ قال: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ»^(١).

(٨٤٣) وعنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ تَكْذُوبٌ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»^(٢).
وفي رواية: «أَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا».

✽ الرؤى والأحلام في المنام لها معانٍ وأحكام، منها ما هو صادق كفلق الصبح، ومنها ما هو كاذب، ومنها أضغاث أحلام وأحاديث نفس.
وقد أخبر النبي ﷺ أخبارًا عن الرؤى تتعلق بأشراط الساعة وعلاماتها.
والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَا يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النَّبُوءَةِ شَيْءٌ، إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الرَّجُلُ، أَوْ تَرَى لَهُ»^(٣).

وَصِدْقُ الرُّؤْيَا وَكُونُهَا بَشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِ هِيَ عَلَامَةٌ عَلَى قَرَبِ السَّاعَةِ وَنَهَايَةِ الْعَالَمِ حَيْثُ تَكُونُ الرُّؤْيَا أَكْثَرَ صِدْقًا وَمُطَابَقَةً لِلْوَاقِعِ وَالْمُؤْمِنُ أَكْثَرَ صِلَاحًا وَغُرْبَةً بَيْنَ النَّاسِ وَكَأَنَّ الرُّؤْيَا أَنْيَسُ لَهُ لَمَّا أَصْبَحَ غَرِيبًا بَيْنَ النَّاسِ فَقَلَّمَا تَكْذِبَ رُؤْيَاهُ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٩٠) كتاب التعبير.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠١٧) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦٣) كتاب الرؤيا.

(٣) صحيح: رواه أحمد (١٢٩/٦)، وقال الهيثمي (١٧٢/٧): رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في الإرواء تحت حديث (٢٤٧٣): وهذا إسناد جيد على شرط مسلم.

قال ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ، لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبٌ، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا، وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ، وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللَّهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ وَلْيَتَفَلَّ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ، وَأُحِبُّ الْقَيْدَ وَأَكْرَهُ الْغُلَّ وَالْقَيْدَ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ»^{(١)(٢)}.

هذا لفظ مسلم.

ولفظ البخاري: «لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبٌ، ... وَمَا كَانَ مِنَ النَّبُوءَةِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ».

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: «مَعْنَى كَوْنِ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لَا تَكَادُ تَكْذِبُ: أَنَّهَا تَقَعُ غَالِبًا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْبِيرٍ، فَلَا يَدْخُلُهَا الْكُذْبُ؛ بِخِلَافِ مَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهَا قَدْ يَخْفَى تَأْوِيلُهَا فَيُعْبَرْهَا الْعَابِرُ، فَلَا تَقَعُ كَمَا قَالَ، فَيَصْدُقُ دُخُولُ الْكُذْبِ فِيهَا بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ».

قَالَ: «وَالْحِكْمَةُ فِي اخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِآخِرِ الزَّمَانِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَكُونُ غَرِيبًا؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا»^(٣)، فَيَقِلُّ أُنَيْسُ الْمُؤْمِنِ وَمُعِينُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَيَكْرَهُ بِالرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ»^(٤).

❖ وقد يخطر على بال أحدنا أن يقول: ما معنى «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ»؟

والجواب: أنه وجه كونها جزءًا من ستة وأربعين جزءًا من النبوة: أنه ﷺ بقى حسبما أشارت عائشة رضي الله عنها ستة أشهر يرى الوحي منامًا، ثم جاءه الملك يقظة...

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠١٧) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦٣) كتاب الرؤيا.

(٢) نهاية العالم (ص ١١٥-١١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٤٦) كتاب الإيمان.

(٤) «فتح الباري» (٤٠٦/١٢).

وستة أشهر بالنسبة إلى ثلاثٍ وعشرين سنة تُعتبر جزءاً من ستة وأربعين جزءاً، ولا تنسَ أن كون الرؤيا الصادقة جزءاً مما ذكر إنما هو اعتبار صدقها لا غير، وإلا لساغ لصاحبها أن يُسمّى نبياً وليس كذلك.

هكذا أفادنا الحافظ العسقلاني رَحِمَهُ اللهُ... وعليه، فلا تكون الرؤيا مبدأً للنبوة ولكن تُعدُّ من مقدماتها، فالظاهر لنا أن رؤى الأنبياء المنامية قبل نبوتهم هي من قبيل الإرهاصات التي تكون قبل النبوة، أي: قبل الزمن الذي يتأهل فيه النبي لقبول الوحي في اليقظة، وأما رؤياهم في المنام بعد النبوة بالفعل، فهي وحيٌ صريح، كما نتعلمه من حادثة رؤيا إبراهيم المنامية في شأن ولده الذبيح.

والخلاصة: أن رؤيا الأنبياء حال نبوتهم نوع من أنواع الوحي، ورؤياهم قبل نبوتهم هي كسائر رؤى أهل الصلاح والخير، تُعدُّ من أنواع المبشرات لا من قبيل الوحي.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وقد ورد في الحديث^(١): أن البشـرى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تـرى له.

❁ وقد اختلف العلماء في تحديد الزمن الذي يقع فيه صدق رؤيا المؤمن على أقوال^(٢):

الأول: أن ذلك يقع إذا اقتربت الساعة، وقُبِضَ أَكْثَرُ الْعِلْمِ، وَدَرَسَتْ مَعَالِمُ الشريعة؛ بسبب الفتن وكثرة القتل، وأصبح الناس على مثل الفترة، فهم محتاجون إلى مُجَدِّدٍ وَمُذَكِّرٍ لِمَا دَرَسَ مِنَ الدِّينِ؛ كَمَا كَانَتْ الْأُمَمُ تُذَكَّرُ

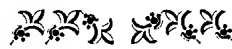
(١) حسن: رواه أحمد، والطحاوي في مشكل الآثار، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٧٨٦).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٢/٤٠٦-٤٠٧).

بِالْأَنْبِيَاءِ... لَكِنْ لَمَّا كَانَ نَبِيْنَا ﷺ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ، وَتَعَدَّرَتِ النَّبُوءَةُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَلِإِنَّهُمْ يُعَوِّضُونَ بِالْمَرَاتِي الصَّادِقَةِ، الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنَ النَّبُوءَةِ الْآتِيَةِ بِالتَّبَشِيرِ وَالْإِنْذَارِ... وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ وَيُقَبِّضُ الْعِلْمُ»^(١).... وَرَجَحَ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا الْقَوْلَ.

الثاني: أن ذلك يقع عند قلة عدد المؤمنين، وغلبة الكفر والجهل والفسق على الموجودين، فيؤنس المؤمن، ويُعان بالرؤيا الصادقة؛ إكرامًا له وتسلية. وهذا القول قريبٌ من قول ابن أبي جمرة السابق... وعلى هذين القولين لا يختصُّ صدق رؤيا المؤمن بزمانٍ مُعَيَّن، بل كلما قرب فراغ الدنيا، وأخذ أمر الدين في الاضمحلال؛ تكون رؤيا المؤمن الصادق صادقة.

الثالث: أن ذلك خاصٌّ بزمان عيسى ابن مريم ﷺ؛ لأن أهل زمانه أحسن هذه الأمة حالًا بعد الصدر الأول، وأصدقهم أقوالًا، فكانت رؤياهم لا تُكذَّب. والله أعلم^(٢).



(٨٤٤) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَسِيرَانِي فِي الْيَقَظَةِ أَوْ كَأَنَّمَا رَأَى فِي الْيَقَظَةِ لَا يَتِمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي»^(٣).

✽ فهذا الحديث يدل على أن مَنْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ فِي الْمَنَامِ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قَدْرِ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ... فَالْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ يَرَى النَّبِيَّ ﷺ بِصِفَاتِهِ (صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ) الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، سَوَاءً رَأَاهُ صَغِيرًا فِي السِّنِّ أَوْ كَبِيرًا فِي السِّنِّ، شَابًّا أَوْ شَيْخًا، فَهِيَ مَرَا حِلَّ مَرَّبَّهَا النَّبِيُّ (صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ)، وَلَهَا تَأْوِيلَاتٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الرُّوْيِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٧) (١١) كتاب العلم.

(٢) أشرط الساعة (١٨٨-١٩٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٩٩٣) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦٦) كتاب الرؤيا.

فالغرض: أن الذي يرى النبي ﷺ في المنام، يبشره النبي ﷺ أنه سيراه يوم القيامة... يعنى: لن يكون بعيداً عن النبي ﷺ، بل سيكون قريباً منه ﷺ يوم القيامة.

والأمر الثانى: أنها رؤيا حق... رأى النبي ﷺ صدقاً في هذا المنام.

قال: «فسيرانى فى اليقظة»، وليس معناه: فى الدنيا؛ لأن النبي ﷺ توفى، وانتهى أمر الدنيا بالنسبة للنبي ﷺ وهو الآن فى البرزخ فى حياة برزخية، ليست لها صلة بالدنيا فى شىء، لكن الذى رآه فى المنام فسيراه، يعنى: يوم القيامة يكون مع النبي ﷺ، ويكون إمامه النبي (صلوات الله وسلامه عليه).

«مَنْ رَأَى فى المنام كأنما رَأَى فى اليقظة، لا يتمثل الشيطان بى» فجعل الله عز وجل لنبيه ﷺ خصيصة ومزية من المزايا أن الشيطان لا يتمثل به... فالشيطان لا يتشكل بشكل النبي ﷺ، ومعلوم أن الشيطان يقدر على التشكل بصور بنى آدم... يتشكل فى صورة امرأة، ويتشكل فى صورة رجل، ويتشكل فى صورة فلان أو فلان، ويتشكل فى صورة ثعبان... فالشيطان أعطاه الله عز وجل القدرة على ذلك ليفتن العباد، وخاصة فى المنام... يفعل ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يتشكل فى هيئة النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، ولا يقول للإنسان فى منامه: أنا محمد ﷺ... فعلى ذلك فالذى يرى النبي ﷺ فى المنام فقد رأى الحق، وأنه سيرى النبي ﷺ أيضاً يوم القيامة^(١).

✽ فإذا رأى الإنسان شخصاً ووقع فى نفسه أنه النبي ﷺ فليبحث عن أوصاف هذا الذى رآه.. هل تطابق أوصاف النبي (عليه الصلاة والسلام)؟
فإن لم تطابق أوصاف النبي ﷺ فليس النبي ﷺ وإنما هذه أوهام من الشيطان أوقع فى نفس النائم أن هذا هو الرسول ﷺ وليس هو الرسول.

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطية.

ثم إن من المهم ألا نعتمد على ما يُوجد في بعض الكتب ككتاب الأحلام لابن سيرين وما أشبهها فإن ذلك خطأ وذلك لأن الرؤيا تختلف بحسب الرائي وبحسب الزمان وبحسب المكان وبحسب الأحوال.

يعنى ربما يرى الشخص رؤيا فنفسرها له بتفسير ويرى آخر رؤيا هى نفس الرؤيا فنفسرها له بتفسير آخر غير الأول وذلك لأن هذا رأى ما يليق به وهذا رأى ما يليق به أو لأن الحال تقتضى أن نفس هذه الرؤيا بهذا التفسير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٤٥) وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هى من الله تعالى فليحمد الله عليها وليحدث بها».

وفى رواية: «فلا يحدث بها إلا من يحب»، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هى من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره»^(١).

(٨٤٦) وعن أبى قتادة رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «الرؤيا الصالحة - وفى رواية: الرؤيا الحسنه - من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً، وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره»^(٢).

(٨٤٧) وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحوّل عن جنبه الذى كان عليه»^(٣).

✽ الرؤيا يعنى رؤيا المنام... فالإنسان إذا نام فإن الله تعالى يتوفى روحه لكنها وفاة صغرى كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٩٨٥) كتاب التعبير، ولم يروه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٩٥) كتاب التعبير، ومسلم (٢٢٦١) كتاب الرؤيا.

«النَّفْثُ»: نفث لطيْف لا ريق معه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦٢) كتاب الرؤيا.

جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿٦٠﴾ [الأنعام: ٦٠] وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وهذه الوفاة الصغرى تذهب فيها الروح إلى حيث يشاء الله.

ولهذا كان من أذكار المنام أن نقول: «اللهم بك وضعت جنبى وبك أرفعه فإن أمسكت روحى فاغفر لها وارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

ثم إن الروح فى هذه الحال ترى منامات ومرائى تنقسم إلى ثلاثة أقسام: رؤيا محبوبة ورؤيا مكروهة ورؤيا عبارة عن أشياء ليس لها معنى وليس لها هدف قد تكون من تلاعب الشيطان وقد تكون من حديث النفس وقد تكون من أسباب أخرى.

القسم الأول: الرؤيا الصالحة الحسنة: وهى إذا رأى الإنسان ما يحب فهذه من الله عَزَّوَجَلَّ وهى نعمة الله على الإنسان أن يُرى ما يحب لأنه إذا رأى ما يحب نَشِطَ وَفَرِحَ وصار هذا من البشرى ... فمن عاجل بشرى المؤمن الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له ولهذا قال النبى ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو ترى له... هذه بشرى وخير وهى من الله عَزَّوَجَلَّ.

القسم الثانى: الحُلُم أو الرؤيا المكروهة وهى من الشيطان والغالب أنه يكون فيما يكره الإنسان... أى أن الشيطان يرى الإنسان بعض الأشياء التى تزعجه حتى يفزعه ويتكدر ويحزن وربما يمرض... لأن الشيطان عدو للإنسان يحب ما يسوء الإنسان وما يحزنه... قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّجَوَّىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[المجادلة: ١٠] .

فالحُلُم هو هذا الذى يراه الإنسان فى منامه يكرهه ويزعجه ... ولكن من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أن جعل لكل داء دواء.

ودواء الحُلم فيما يلي:

أولاً: أن يَصُتق الإنسان على يساره ثلاث مرات ويستعِذ بالله من شر الشيطان ثلاث مرات ومن شر ما رأى ويقول: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت ثلاث مرات ويتحول إلى الجانب الثاني فإذا كان على جنبه الأيسر يتحول إلى الأيمن وإذا كان على الأيمن يتحول إلى الأيسر.

ثانياً: وإذا لم ينفع هذا يعنى لو أنه تحول عن جنبه الأول إلى الثاني ثم عادت هذه الرؤيا التى يكرها فليقم ويتوضأ ويصلى.

ولا يخبر بها أحداً... فلا يقول رأيت ورأيت ولا يذهب إلى الناس يُعبرونها له.. ولا يذهب إلى أحدٍ يفسرها فإنها لا تضره أبداً.

أما القسم الثالث: وهو الذى ليس له هدف مُعين فهذا أحياناً يكون من حديث النفس حين يكون الإنسان مُتعلقاً قلبه بشيءٍ من الأشياء يفكر فيه وينشغل به ثم يراه فى المنام... أو أحياناً يلعب به الشيطان فى منامه فيُريه أشياء ليس لها معنى كما ذكر رجل للنبي ﷺ قال: يا رسول الله رأيت فى المنام أن رأسى قد قُطع وذهب رأسى يركض وأنا أسعى وراءه... فقال النبي ﷺ: «لا تُحدث الناس بتلُعب الشيطان بك فى منامك» فهذا ليس له معنى... رأسى يُقطع ويركض الرأس وهذا يركض بجسده وراءه هذا ليس له معنى^(١).

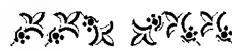
❁ وقد يسأل سائل ويقول: هل الرؤيا تُحرم حلالاً أو تُحل حراماً أو يترتب عليها حكم شرعى؟

والجواب: أن الرؤيا المنامية ولو كانت صحيحة وحقاً، فهى لا تُحرم حلالاً، ولا تُحل حراماً، ولا يترتب عليها حكم شرعى... وقد حُكى أن رجلاً صالحاً فقيراً رأى رؤيا: أن النبي ﷺ جاءه فى نومه وقال له: إن فى موضع كذا

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

رَكَازًا^(١)، احضر وخذه، ولا تُؤدَّ خُمسه، فقام من نومه صباحًا، وأخذ ما يقتضى لحفر الأرض، فاطَّلَعَ على الرَّكَاز، فذهب إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام يستفتيه في عدم إعطاء خُمسه لبيت المال، حسب ما قال له النبي ﷺ منامًا... فقال له الشيخ عز الدين: يجب عليك أن تؤدى خُمسه لبيت المال، كما أفتانا النبي ﷺ يقظة، وفتواه في اليقظة مُقدمة على فتواه في المنام... نعم إن رؤيا النبي حق، ولكن يحتمل عدم ضبط الألفاظ تمامًا، فلعله قال لك: وأدَّ خُمسه لبيت المال. وأنت سمعته يقول: ولا تؤدَّ خُمسه.

وهكذا قال الفقهاء: لو اختلف المسلمون في آخر يوم من شعبان: هل غَدًا من رمضان أم لا؟ ثم رأى رجلٌ النبي ﷺ في نومه، وسمعه يقول له: «إن غَدًا أول يوم من رمضان، فصُمه، وأمر الناس بصيامه، لا يجب عليه صيامه؛ لأن الرؤيا التي في المنام، لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية، ولو كانت حقًا وصحيحة... هذا إذا كانت لغير الأنبياء أنفسهم، وأما رؤيا الأنبياء أنفسهم.. أى إذا رأى النبي ﷺ الرؤيا بنفسه فهي وحى كما في اليقظة، تترتب عليها الأحكام الشرعية بلا خلاف»^(٢).



(٨٤٨) وعن أبى الأسقع واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يَدَّعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرَى عَيْنُهُ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ»^(٣).

❁ ففى هذا الحديث يحذر النبي ﷺ أشد التحذير ممن يفعل واحدة من تلك الأشياء الثلاثة... فقال رضي الله عنه: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يَدَّعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ

(١) الرَكَاز: الكنوز المدفونة تحت الأرض.

(٢) مؤتمر تفسير سورة يوسف (١/١٧٦-١٨١) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٥٠٩) كتاب المناقب.

أبيه» والفري: جمع فرية وهى الكذبة الكبيرة العظيمة .. فمن أكبر أنواع الكذب .. أن يدعى الرجل إلى غير أبيه ... يعنى: يقول الإنسان: أنا فلان بن فلان، ويتسمى باسم رجل غير أبيه، مثل كثير من الممثلين وغيرهم، تجد أحدهم له اسمان: اسم فى البطاقة، واسم أمام الناس! فمن أعظم الكذب أن الإنسان يتسمى لغير أبيه.

وإنما صار أعظم لأنه افتراء على الله تعالى لأن المُدعى إلى غير أبيه كأنه يقول: خلقتنى الله من ماء فلان وإنما خلقه من ماء غيره.

وقد وردت أحاديث كثيرة توضح لنا عاقبة مَنْ يفعل ذلك:

عن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ ادَّعى إِلَى غيرِ أبيه وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غيرُ أبيه، فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»^(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا تَرْغَبُوا عن آبائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كَافِرٌ»^(٢).

وفيه أيضًا: «مَنْ ادَّعى إِلَى غيرِ أبيه أَوْ انتَمى إِلَى غيرِ مَوَالِيهِ، فَعليه لعنةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٣).

وعن أبى ذر رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النبى ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعى لغيرِ أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادَّعى مَا لَيْسَ لَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا وَليتَّبُوا مقعده من النار، وَمَنْ دعا رجلاً بالكفر، أَوْ قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه»^(٤) [أى رجع عليه].

❦ «أَوْ يُرى عينه ما لم تَر» .. فهذا أيضًا من أعظم أنواع الكذب.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٢٧) كتاب المغازى، ومسلم (٦٣) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٦٨) كتاب الفرائض، ومسلم (٦٢) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٣٧٠) كتاب الحج.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٦١) كتاب الإيمان.

وجاء في حديث آخر أن هذا الإنسان يُعَذَّب في النار... الذى يكذب فيؤلف أنه رأى بالبارحة وهو لم ير شيئاً.. يُكَلَّف أن يعقد بين شعيرتين في النار من أجل أن يخرج منها... والمعنى: أنه لن يخرج من النار والعياذ بالله؛ لأنه يكذب على الله سبحانه.

والرؤيا وحى من الله... والذى يختلق شيئاً في منامه فإنه يكذب على مقام النبوة، وعلى مقام الوحي من الله سبحانه وتعالى... فلذلك أخبر أنه مَنْ أرى عينيه ما لم تراه يُكَلَّف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وما هو بعاقده، يعنى: يُقال له: أنت داخل النار، وإذا أردت أن تخرج منها فاربط بين شعيرتين، وَمَنْ يربط شعيرة في شعيرة أخرى؟! يستحيل هذا الشيء، فهو يُعَذَّب بسبب كذبه... فاحذر أن تكذب في الرؤيا، أو أن ابنك يكذب عليك ويقول: أنا رأيت في البارحة كذا وكذا، فعليك أن تحذره من أن يكذب في المنام.

فالمنام من الله سبحانه وتعالى، وله مَلَكٌ مخصوص يجعل هذا الإنسان يرى أشياء.. والنوم هو الموتة الصغرى، والموت هو أن روح الإنسان تتجول في أنحاء الكون بحسب ما يشاء الله سبحانه وتعالى في وقت نوم الإنسان. لذلك مَنْ يُحَدِّث فيكذب فيها فإنه يستحق العذاب يوم القيامة على كذبه، لأنه كذب على المَلَك.

لأن ما يراه النائم إنما يراه بإراءة المَلَك... والكذب عليه كذب على الله. وفي البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ تحلَّم بحلم لم يره كُلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل». قال الطبرانى: إنما أسند الوعيد على الكذب في المنام مع أن الكذب في اليقظة أشد مفسدة منه، إذ قد يكون شهادة في قتل أحد أو أخذ مال، قال: لأن الكذب في المنام كذب على الله أنه أراه ما لم يره، والكذب على الله أشد من الكذب على المخلوقين، وإنما كان الكذب في المنام

كذباً على الله لحديث «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» فهو من قبل الله.. اهـ^(١).

✽ وحتى تكون الرؤيا رؤيا صالحة وصادقة وبشارة للإنسان المؤمن فإن شرطه أن يكون صادقاً... أتريد أن تكون لك رؤيا صالحة تراها ومبشرات؟ كن صادقاً في حديثك ولا تكذب على أحدٍ من الناس، فإذا كنت كذلك أراك الله سبحانه وتعالى الرؤيا الصالحة... ومن أعظم ما ترى أن ترى النبي (صلوات الله وسلامه عليه) في المنام.

وقد كان النبي ﷺ قبل أن يُوحى إليه أول ما بدأ به الرؤيا الصادقة. وكان ذلك قبل أن تنزل عليه الرسالة، كان يرى الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان الكفار يلقبونه الصادق الأمين (عليه الصلاة والسلام)، فكان يرى هذه الرؤيا الصالحة فإذا أصبح تحقق الذي رآه... ففي الحديث المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان أول ما بدأ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، ثم بعد ذلك نزل عليه الوحي من السماء).

✽ «أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل» وهذا كحال من ينسب للنبي ﷺ حديثاً لم يقله.. أو ينفي عنه حديثاً ثابتاً عنه ﷺ.. وقد ورد في وعيد مَنْ يفعل ذلك أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

✽ فالكاذب يُكتب عند الله كذاباً ويتحلَّى بصفة من صفات النفاق العملى: «وإذا حدث كذب» ويُعَذَّب في قبره - والعياذ بالله - ويوم القيامة يكون من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزيكهم ولا ينظر إليهم ولهم عذابٌ أليم.... بل إنه

(١) دليل الفالحين (٣/ ٢٨٥).

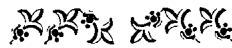
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٠) كتاب العلم، ومسلم (٣) كتاب المقدمة.

يُفْضَحُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَوَجْهِهِ الْأَسْوَدُ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

بل ويفضحهم الأشهاد بين الناس في أرض المحشر ويقولون: ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

﴿ وفي النهاية فمثواه في النار - إن لم يتب ويرجع إلى الله - ﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا آلِيقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿ [المدثر: ٣٨-٤٨].

﴿ فاللهم ارزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال ونجنا من الكذب برحمتك يا أرحم الراحمين. ﴾





(٥) كتاب السلام

(١٣١) باب فضل السلام والأمر بإفشائه

❁ ما أجمل أن يكون السلام هو لغة القلوب بين الناس في كل أقطار الأرض.. وما أجمل أن يسود السلام وتنتشر المحبة وتصفو القلوب وتتصافح. لقد جعل الحق (جل وعلا) السلام اسماً من أسمائه الحسنی.. فقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وَسَمَّى الْجَنَّةَ الَّتِي هِيَ عَاقِبَةُ الْمُتَّقِينَ «دار السلام» فقال سبحانه: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وفي الحديث: «السلام اسم من أسماء الله فأفشوه بينكم»^(١).

وجعله رب العالمين تحية لآدم أبى البشر، وزفَّتْهَا إِلَيْهِ ملائكته الأطهار، وصارت تحية ذريته من بعده... قال ﷺ: «لما خلق الله آدم ﷺ قال: اذهب فسلم على أولئك - أى الملائكة - فاستمع ما يُحيونك، فإنها تحيتك، وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوا - ورحمة الله»^(٢).

بل وجعله سبحانه وتعالى تحية أهل الجنة... قال تعالى: ﴿وَمَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، والملائكة يحيونهم في الجنة بالسلام... كما قال السلام ﷺ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٢) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿[الرعد: ٢٣، ٢٤]، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وحين جاءت الملائكة بالبشرى لخليل الرحمن ﷺ حيوه بالسلام.. ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴿[الذاريات: ٢٤، ٢٥].

(١) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

ووصف سبحانه أعظم ليلة وأفضلها وأكرمها (ليلة القدر) بأنها ليلة السلام... فقال سبحانه: ﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

وكرر سبحانه وتعالى السلام على أنبيائه ورسله تكريماً لذكرهم، وتخليداً لأعمالهم وتعريفاً بفضلهم، فقال سبحانه: ﴿سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصفات: ٧٩]، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصفات: ١٠٩]، ﴿سَلَّمَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصفات: ١٢٠]، ﴿سَلَّمَ عَلَى إِيْلَ يَاسِينَ﴾ [الصفات: ١٣٠]، وسلم على يحيى بن زكريا فقال: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

والسلام بمعنى: الدعاء بالسلامة من كل آفة، فإذا قلت لشخص: (السلام عليك) فهذا يعنى أنك تدعو له بأن الله يُسلمه من كل آفة: يُسلمه من المرض، ومن الجنون، ويُسلمه من شر الناس، ويسلمه من المعاصي وأمراض القلوب، ويسلمه من النار.... فهو لفظ عام، معناه: الدعاء للمُسلم عليه بالسلامة من كل آفة.

وكان الصحابة رضي الله عنهم من محبتهم لله عز وجل كانوا يقولون في صلاتهم: السلام على الله من عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان وفلان، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقولوا: السلام على الله، السلام على عباده، وقال: «إن الله هو السلام» يعنى: السالم من كل عيبٍ ونقصٍ عز وجل فلا حاجة أن تُثنوا عليه بالدعاء بأن يُسلم نفسه. ثم قال لهم: قولوا: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم ذلك سَلَّمْتُمْ على كل عبدٍ صالحٍ في السماء والأرض»^(١).

ولا أدري هل نحن نستحضر هذا إذا قلنا في الصلاة: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؟!» لا أدري هل نحن نستحضر أننا نُسلم على أنفسنا، وعلى كل عبدٍ صالحٍ في السماء والأرض... يعنى نُسلم على الأنبياء، ونُسلم على الصحابة، ونُسلم على التابعين لهم بإحسان، ونُسلم على أصحاب الأنبياء،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٠٢) كتاب العمل في الصلاة، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

كالحواريين أصحاب عيسى عليه السلام والذين اختارهم موسى عليه السلام ... سبعين رجلاً، وغير ذلك؟! هل نحن نستحضر أننا نُسلم على جبريل وعلى ميكائيل وعلى إسرافيل وعلى مالك خازن النار وعلى خازن الجنة وعلى جميع الملائكة؟! لا أدري هل نحن نستحضر هذا أم لا؟ إن كنا لا نستحضر فيجب أن نستحضر ذلك؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إنكم إذا قلتم ذلك سلّمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض»^(١).

✽ فيا أيها المسلمون الأفاضل:

إن ربكم السلام.. ورسولكم هو نبي السلام.. وقرآنكم هو كتاب السلام.. وتحيتكم هي السلام.. وإن مسعاكم إلى الجنة دار السلام.. وإن رسالتكم هي رسالة السلام.. فأشعروا أنفسكم روح السلام.. ليعمكم ربكم بنعمة السلام.... ورسولنا وحيينا محمد ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة، ووصل إلى هناك، وضع دستوره هناك.. لكن ماذا كان هذا الدستور؟

لقد كان دستوراً عظيماً موجزاً.. لكنه يعطى الأمان والحب والإخلاص.. خطب يومها خطبة.. لم تكن ساعة ولا ساعتين.. وإنما كانت دقائق معدودة،... وهذا هو الصحابي الجليل عبد الله بن سلام رضي الله عنه يقول:

لما قدم رسول الله المدينة استشرفه الناس، فخطب فيهم قائلاً: «أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»^(٢).

والسلام يعمق جذور الحب بين المسلمين، ويدخل الطمأنينة على الخائف منهم... قال ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»^(١).

فإذا أردت أن تفعل أعظم وأفضل ما جاء به هذا الدين العظيم فعليك بإطعام الطعام، وإفشاء السلام،... قال النبي (عليه الصلاة والسلام) عندما جاءه رجل، فقال له: أي الإسلام خير؟ قال: «تُطعم الطعام» قال الرجل: ثم ماذا؟ فقال ﷺ: «أن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٢).

وإذا أردت أخى الحبيب أن تدخل دار السلام، فعليك بكثرة إفشاء السلام... قال النبي ﷺ: «إن في الجنة عُرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها» قيل: لمن؟ قال: «لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، ووصل الأرحام، وصلى بالليل والناس نيام»^{(٣)(٤)}.

✽ وقد أورد المصنف عدة آيات في هذا الباب.. منها قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

يُرشد الباري (سبحانه وتعالى) عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان. فإن في ذلك عدة مفاسد:

منها: ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(٥). فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات، التى داخل البيوت... فإن البيت للإنسان، فى ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب فى ستر عورة جسده. ومنها: أن ذلك، يُوجب الرّيبة من الداخل، ويتهم بالشر، سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر. ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

(٣) حسن: رواه أحمد، وابن حبان، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٤) موسوعة الآداب الإسلامية (ص ٤٢٧، ٤٢٨).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤١) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٦) كتاب الآداب.

﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أى: تستأذنونوا... سُمي الاستئذان استئناسًا، لأن به يحصل الاستئناس، وبعده تحصل الوحشة. ﴿وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾. وصفة ذلك، ما جاء فى الحديث «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»^(١)

﴿ذَلِكَكُمْ﴾ أى: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة... فإن أذن، دخل المستأذن^(٢).

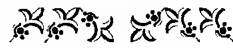
ولذلك جاءت عن المفسرين بذلك أقاويل مضمونها: أن تُطمئن أهل البيت بنحنية عند الدخول، أو بذكر الله ﷻ بصوتٍ مرتفع، حتى يستشعر مَنْ بالداخل أن هناك إنسانًا بالخارج يريد أن يستأذن ويدخل، ثم تقول: «السلام عليكم، أَدْخِلْ؟» فتطمئن أهل البيت أنك ما جئت إلا لخير بهذا الإيناس، ثم تطمئن أهل البيت ثانية بأن تقول: السلام عليكم، فتستأنس وتسلم على أهل البيت. وقد كان العرب فى الجاهلية يتركون التحية إذا قويت العلاقات فيما بينهم، فلعلَّ الرجل يأتى إلى أقربائه فيفتح الباب ويدخل ويجلس، ثم بعد ذلك يقول: قد دخلت! وقد أرادوا أن يفعلوها مع النبى ﷺ، فأمر الرجل أن يخرج وأن يُسلم ويستأذن من عند الباب ثم قال لمن معه: «هلا علمتم هذا السلام؟» فخرج الرجل وسلم على النبى ﷺ واستأذن قبل أن يدخل.

إذاً: لا يوجد شيء اسمه: أنا متعود عليك وأنت متعود على... بل لا بد من الاستئذان مهما كانت العلاقة بينى وبينك... يقول الله تعالى: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، ومع هذه العلاقة القوية أمروا أن يستأذِنوا قبل دخولهم على النبى (صلوات الله وسلامه عليه)، وهو أيضًا (صلوات الله وسلامه عليه) الذى هو أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، كان إذا ذهب إلى بيت سعد بن عبادَة وقف خارج البيت وقال: «السلام عليكم أَدْخِلْ؟» فيرد أهل

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى «الصحيحة» (٨١٨).

(٢) تفسير السعدى (ص ٦٥٨-٦٥٩).

البيت على النبي ﷺ سرًّا؛ لأنهم يريدون أن يستكثروا من سلامه ودعائه وتحيته (صلوات الله وسلامه عليه)، فيُسَلِّمُ المرة الثانية وهم يردون عليه في سرهم، ثم سلَّم عليهم المرة الثالثة ﷺ ولم يدخل البيت، فخرج أهل البيت ونادوا على النبي ﷺ وقالوا: إنما أردنا الاستكثار من سلامك والبركة من وراء ذلك، فأخبرهم بأن الاستئذان ثلاث مرات فقط، وأن الإنسان ينصرف بعد ذلك.



❁ وقال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

[النور: ٦١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان، وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا ... فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: فليُسَلِّم بعضكم على بعض ... لأن المسلمين، كأنهم شخص واحد، من توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم. فالسلام مشروع، لدخول سائر البيوت، من غير فرق، بين بيت وبيت ... والاستئذان تقدَّم أن فيه تفصيلاً في أحكامه.

ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أى: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أى: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿مُبَارَكَةٌ﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة، والبركة، والنماء، والزيادة، ﴿طَيِّبَةٌ﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمُحيِّا، ومحبة، وجلب مودة^(١).

(١) تفسير السعدي (ص ٦٧١).

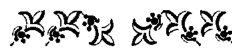
❦ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]....

فالله يُعلمك أنه إذا حياك إنسان بتحية أن تحييه بأحسن منها أو أن ترد هذه التحية، فإذا قال: السلام عليكم، فَرَدَّ عليه بأفضل منها: وعليك السلام ورحمة الله، أو مثلها: وعليك السلام، فإما أن تزيد وإما أن تردّها كما هي بلا زيادة. والسلام على المؤمن سنة، وهو شيء مُستحبٌ عظيم، أما رَدُّ السلام ففرض عليك طالما لا يوجد غيرك يرد السلام، فإذا كنتم مجموعة وحياكم شخص مُعين فإن رَدَّ السلام حينئذ يكون فرضاً كفائياً، أى: أنه إذا رَدَّ البعض سقط الإثم عن الجميع، ويؤجر هذا الذي رَدَّ... وإذا رَدَّ الجميع كلهم أخذوا الأجر على رَدِّهم.



وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ﴾ [الذاريات: ٢٤]

فقد وصف الله أضياف إبراهيم بأنهم مُكْرَمُونَ كَرَّمَهُمُ اللهُ... وكانوا ثلاثة من الملائكة...: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ [الذاريات: ٢٥]، فسلموا على إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥] فكأنه رَدَّ عليهم السلام ثم قال في نفسه: هؤلاء قوم مُنْكَرُونَ، لا أعرفهم، وكانوا حسان الوجوه، فعجب من أمرهم وأنهم ليسوا من أهل هذه البلدة، فقال في نفسه ذلك. فدلَّ هذا على أن السلام من سُنن الرسل والملائكة أيضًا.



(٨٤٩) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، أى الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»^(١).
❦ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٥٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢) كتاب الإيمان، ومسلم (٣٩) كتاب الإيمان.

(٨٥٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ ﷺ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَيْكَ - نَفَرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ - فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ فَإِنَّهَا تَحْيَتُكَ وَتَحْيَةُ ذُرِّيَّتِكَ. فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فزادوه: وَرَحْمَةُ اللهِ»^(١)..

❁ ففي هذا الحديث أن الله ﷻ لما خلق آدم ﷺ واستوى وأصبح إنساناً كامل الخلقة والصورة قال له ﷻ: «اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَيْكَ». نفر من الملائكة جُلُوسٌ -... فأمره أن يبدأ هو بالسلام لتتعلم ذريته من بعده أن يبدأ كل واحد منهم أخاه بالسلام ولا ينتظر أن يُسلم عليه هو.. ثم قال له ﷻ: «فَاسْتَمِعْ مَا يُحْيُونَكَ فَإِنَّهَا تَحْيَتُكَ وَتَحْيَةُ ذُرِّيَّتِكَ». فذهب آدم ﷺ امتثالاً لأمر الله ﷻ فسَلِّمْ على الملائكة وقال لهم: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فزادوه: وَرَحْمَةُ اللهِ».

❁ ففي هذا الحديث دليل على:

(١) أن هذه الخليقة البشرية كانت من العدم وأنها لم تكن شيئاً مذكوراً من قبل... كما قال الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فهذه البشرية لم تكن شيئاً مذكوراً من قبل فخلقها الله وأوجدها لحكمة عظيمة.

(٢) أن الملائكة أجسام وليست أرواحاً بلا أجسام... لأنهم جلوس والجالس يعني أنه جسم وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾ [فاطر: ١] فالملائكة أجسام ولكن الله ﷻ حجبهم عنا وجعلهم عالمًا غيبياً كما أن الجن أجسام ولكن الله ﷻ حجبهم عنا فجعلهم عالمًا غيبياً... وقد تظهر الملائكة في صورة إنسان كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة دحية

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٤١) كتاب الجنة.

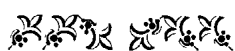
الكلبي ومرة بصورة رجل غريب لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة.

❁ ومن فوائد هذا الحديث:

(٣) أن السنة في السلام (السلام عليك) إذا كان المسلم عليه واحداً وإذا كانوا جماعة تقول (السلام عليكم) لأن الواحد يُخاطَب بخطاب الواحد والجماعة تُخاطَب بخطاب الجماعة.

(٤) أن السلام مُتَلَقَّن من الملائكة بأمر الله حيث قال سبحانه وتعالى إنها تحيتك وتحية ذريتك.

(٥) أن الأفضل في ردِّ السلام أن يزيد الإنسان ورحمة الله لأن الملائكة زادوا (ورحمة الله)... والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فبدأ بالأحسن ﴿أَوْ رُدُّوْهَا﴾ إذا لم تردوا الأحسن^(١).



(٨٥١) وعن أبي عُمارة البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَبْعٍ: «بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَنَصْرِ الضَّعِيفِ، وَعَوْنِ الْمَظْلُومِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ»^(٢).

(٨٥٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمْوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٣).

(٨٥٣) وعن أبي يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا

(١) شرح رياض الصالحين (٨/٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٥) كتاب المظالم والغصب، (٥٦٣٥) كتاب الأشربة - ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٤) كتاب الإيمان.

بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»^(١).

(٨٥٤) وعن الطُّفَيْلِ بْنِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه فَيَغْدُو مَعَهُ إِلَى السُّوقِ، قَالَ: فَإِذَا غَدَوْنَا إِلَى السُّوقِ لَمْ يَمُرَّ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى سَقَاطٍ وَلَا صَاحِبِ بَيْعَةٍ وَلَا مِسْكِينٍ وَلَا أَحَدٍ إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ، قَالَ الطُّفَيْلُ: فَجِئْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ يَوْمًا فَاسْتَبَعْنِي إِلَى السُّوقِ فَقُلْتُ لَهُ: مَا تَصْنَعُ بِالسُّوقِ وَأَنْتَ لَا تَقِفُ عَلَى الْبَيْعِ وَلَا تَسْأَلُ عَنِ السَّلْعِ وَلَا تَسُومُ بِهَا وَلَا تَجْلِسُ فِي مَجَالِسِ السُّوقِ؟ وَأَقُولُ: أَجْلِسُ بِنَا هَهُنَا نَتَحَدَّثُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَطْنٍ - وَكَانَ الطُّفَيْلُ ذَا بَطْنٍ - إِنَّمَا نَغْدُو مِنْ أَجْلِ السَّلَامِ نُسَلِّمُ عَلَى مَنْ لَقِينَاهُ^(٢).

✽ فهذه الأحاديث كلها تدل على فضل السلام.. وقد سبق الكلام على تلك الأحاديث الثلاثة الأولى قبل ذلك وأن السلام يجلب المحبة بين المسلمين ويؤلف بين قلوبهم ويجعل القلوب تتصافح قبل الأيدي.. وأنه سبب من أسباب دخول جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

✽ قال ابن حبان البستي: «والبادئ بالسلام بين حستين، إحداهما. تفضيل الله ﷻ إياه على المسلم عليهم بفضل درجة، لتذكيره إياهم بالسلام، ويين ردّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرد.

ثم يقول: الواجب على المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يسلم عليه مبتسماً إليه، فإن من فعل ذلك تتساقط عنهما خطاياهما كما يتساقط ورق الشجر في الشتاء إذا ييس... وقد استحق المحبة من أعطاهم بشر وجهه»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

(٢) صحيح: رواه مالك في الموطأ، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٧٧٠).

(٣) روضة العقلاء لابن حبان.

ولذلك فإننا إذا أفشيننا السلام تحابيننا، واجتمعت كلمتنا، وقهرنا عدونا، وعلوننا عليهم، وكانت لنا الرفعة عند الله تعالى، فإن أعداءنا يحسدوننا على هذه التحية، وهذا الأدب الرفيع، الذي علّمه لنا رسولنا ﷺ... فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين»^(١).

✽ أما حديث الطفيل بن أبي كعب فإن له قصة مع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.. وكان الطفيل تلميذه.. فيخبر الطفيل هنا أنه كان يذهب إلى ابن عمر رضي الله عنهما فيغدو معه إلى السوق.. ومن الواضح أن هذا الأمر لم يحصل مرة واحدة بل كان يتكرر كثيراً.. فكان ابن عمر إذا دخل السوق لا يمر على سقّاط ولا صاحب بيعة ولا مسكين ولا أحدٍ إلا سلّم عليه... وهذا هو قمة التواضع.. فهو لا يختار الأغنياء والأثرياء ليُسلم عليهم... بل كان لا يمر على سقّاط - وهو: بائع السقّط الذي هو الرديء من المتاع - إلا سلّم عليه، فهو لا ينظر إليه على أنه يبيع أشياء حقيرة، بل يُسلم على أي أحد.

قال: (ولا صاحب بيعة) أي: يبيع أشياء غالية وعظيمة.

قال: (ولا مسكين، ولا أحدٍ إلا سلّم عليه)، فهو يُسلم على الجميع، على المساكين والفقراء والبائعين.

قال الطفيل: (فجئت عبد الله بن عمر يوماً فاستتبعتني إلى السوق) -يعنى: طلب مني أن أتبعه وأخذني معه - فقلت له: ما تصنع بالسوق -أي: ولا حاجة لك فيه من بيع أو شراء أو مساومة ونحوها - قال: (ما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟)، ثم قال: (وأقول: اجلس ها هنا نتحدث، فقال عبد الله بن عمر له: يا أبا بطن! - وكان الطفيل ذا بطن - .. ولم يكن ابن عمر يسخر منه بل كان يُداعبه.

فقال له ابن عمر: يا أبا بطنٍ إنما نغدو من أجل السلام فنُسلم على من

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦١٣).

لقيناه)، هذا فعل ابن عمر رضي الله عنهما، فهو يريد أن يُفشى السلام.

لأن الإنسان إذا سلم وأفشى السلام وأظهره كان هذا سبباً لدخول الجنة كما في حديث أبي هريرة: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»؛ ولأن الإنسان إذا سلم على أخيه فقال: السلام عليكم، أو السلام عليك إذا كان واحداً، فإنه يُكتب له بذلك عشر حسنات، فإذا سلم على عشرة أشخاص كُتِبَ له بذلك مائة حسنة، وهذا خير من البيع والشراء؛ فتخيل لو سلَّمت على ألف رجل جملة واحدة.. ستفوز بعشرة آلاف حسنة في أقل من ربع دقيقة..

فابن عمر رضي الله عنهما كان حريصاً على أن يجمع أكبر قدرٍ من الحسنات.. فوجد أن أفضل طريقة لكسب الحسنات وتأليف القلوب ودخول الجنة: هي إفشاء السلام... والأمر لن يُكلفه شيئاً.

ولذلك احرص على إفشاء السلام ولا تَمَلَّ من كثرة السلام.. وسلِّم على مَنْ عرفت ومَنْ لم تعرف.

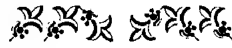
✽ وهذا الحديث يدل على حرص سلفنا الصالح على كسب الحسنات.. وابن عمر كان من أحرص الناس على فعل الخيرات وجمع الحسنات.. ولذلك لما حدَّثه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن مَنْ تبع الجنازة حتى يصلّي عليها كُتِبَ له قيراط، ومَنْ شهدا حتى تُدفن كُتِبَ له قيراطان، قيل: وما القيراطان يا رسول الله؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين: أصغرهما مثل أحد»^(١). قال: والله لقد فرطنا في قرارات كثيرة، ثم صار لا تحصل جنازة إلا تبعها ﷺ... وهكذا السلف الصالح إذا علموا ما في الأعمال من الخير والثواب بادروا إليها وحرصوا عليها.

فالذي ينبغي للمؤمن أن يكون حريصاً على فعل الخير كلما بان له خصلةٌ خير فليبادر إليها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٢٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.

(١٣٢) باب كيفية السلام

❁ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ الْمُبْتَدِئُ بِالسَّلَامِ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»
 . فَيَأْتِي بِضَمِيرِ الْجَمْعِ، وَإِنْ كَانَ الْمُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَاحِدًا، وَيَقُولُ الْمُجِيبُ: «وَعَلَيْكُمْ
 السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» فَيَأْتِي بِوَائِ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ: «وعليكم».



(٨٥٥) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَشْرٌ» ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «عِشْرُونَ»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ»^(١).

❁ ذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ: «رياض الصالحين» بَابَ كَيْفِيَةِ السَّلَامِ:
 يَعْنِي كَيْفَ يُسَلِّمُ وَمَاذَا يَقُولُ إِذَا سَلَّمَ، وَمَاذَا يَقُولُ إِذَا رَدَّ.

وَذَكَرَ الْمُؤَلَّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، وَإِنْ
 كَانَ الْمُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَاحِدًا، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِحَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ.
 وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ اخْتَلَفَ فِيهَا الْعُلَمَاءُ: هَلْ إِذَا سَلَّمَ عَلَى وَاحِدٍ يَقُولُ: السَّلَامُ
 عَلَيْكَ أَمْ عَلَيْكُمْ؟.

وَالصَّحِيحُ أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ. هَكَذَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثِ
 الْمُسَيِّءِ فِي صَلَاتِهِ أَنَّهُ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ.

وَأَمَّا مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْمُؤَلَّفُ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ فَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ
 دَخَلَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ فَسَلَّمَ عَلَى الْجَمِيعِ... فَإِذَا كَانُوا جَمَاعَةً فَقُلْ:

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب

السلام عليكم، وإذا كان واحداً فقل: السلام عليك، وإن زدت: ورحمة الله. فهو خير، وإن زدت: وبركاته. فهو خير؛ لأن كل كلمة فيها عشر حسنات، وإن اقتصرت على: السلام عليك، فهو كافٍ.

ويقول الراد: وعليكم السلام، ثم إن كان المسلم لم يزد على قول: السلام عليك. كفى، وإن كان المسلم قد قال: السلام عليك ورحمة الله. فعلى الراد أن يقول: عليك السلام ورحمة الله، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحِيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا﴾ يعنى: رُدُّوا مثلها. وقال: يُستحب أن يقول: (وعليكم) بزيادة الواو، وهذا حسن؛ لأنه إذا قال: (وعليكم) صار واضحاً أنه معطوف على الجملة التى سلّم بها المسلم، وإن حذفها فلا بأس... لأن إبراهيم عليه السلام لم يأت بالواو فى ردّه السلام على الملائكة ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾، ولم يأت بالواو، فإن أتى بالواو فحسن، وإن تركها فلا بأس^(١).

❁ وفى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن كل كلمة من كلمات السلام لها أجر لأن الله عز وجل لا يحرم عبده من الأجر ما دام العبد يجتهد فى الفوز بالأجر والثواب من عند الله عز وجل.

فالرجل الأول لما قال: السلام عليكم كُتبت له عشر حسنات.. والرجل الثانى لما قال: السلام عليكم ورحمة الله كُتبت له عشرون حسنة.. والرجل الثالث لما قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كُتبت له ثلاثون حسنة.. فكل كلمة كانت بعشر حسنات.. فلماذا تقتصر على كلمة واحدة ونُحرَم من تلك الحسنات...

فيا ليتنا نقول عند السلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته لنفوز بثلاثين حسنة.

(١) شرح رياض الصالحين (١١/٣) بتصرف.

(٨٥٦) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «هذا جبريل يقرأ عليك السلام» قالت: قلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته^(١).

✽ لقد كان النبي ﷺ يرى جبريل عليه السلام ويكلمه.. وكان جبريل يأتيه دائماً بالوحي من السماء.. وكان النبي ﷺ يقول: «ما نزل الوحي عليّ وأنا في لحاف امرأة من نسائي إلا عائشة» وفي يوم من الأيام طلب جبريل عليه السلام من النبي ﷺ أن يقرأ السلام على أمنا عائشة رضي الله عنها.. ويألفها من منقبة أن يرسل السلام إليها أمين الوحي وأمير الملائكة جبريل عليه السلام.. ويجعل الوسطة الذي يبلغها السلام هو سيد ولد آدم ﷺ.

فلما بلغها النبي ﷺ بذلك فرحت، وقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.. فردت السلام كاملاً؛ لتفوز بالأجر الكبير، كما تعلمت من رسول الله ﷺ.

✽ قال الإمام النووي رحمته الله: فيه فضيلة ظاهرة لعائشة رضي الله عنها وفيه استحباب بعث السلام... ويجب على الرسول تبليغه... وفيه بعث الأجنبي السلام إلى الأجنبيّة الصالحة إذا لم يخف ترتب مفسدة وأن الذي يبلغه السلام يرُدُّ عليه... قال أصحابنا: وهذا الرّد واجب على الفور وكذا لو بلغه سلام في ورقة من غائب لزمه أن يرُدَّ السلام عليه باللفظ على الفور إذا قرأه وفيه أنه يستحب في الرّد أن يقول وعليك أو وعليكم السلام^(٢).

✽ وفي هذا الحديث أنه من السنة إذا نُقل السلام من شخص إلى شخص أن يقول: عليه السلام. وإن قال: عليك وعليه السلام، أو عليه وعليك السلام، فحسن؛ لأن هذا الذي نُقل السلام مُحسنٌ، فتكافئه بالدعاء له...

فإذا قال شخص لآخر: سلّم لي على فلان، ثم نقل الوصية وقال: فلان يسلم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢١٧) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٤٤٧) كتاب فضائل الصحابة.

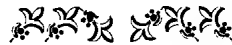
وهكذا وقع في بعض روايات الصحيحين: «وبركاته»، وفي بعضها بحذفها. وزيادة الثقة مقبولة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٣٠٣/١٥).

عليك، فإنه يقول: عليه وعليك السلام، أو يقول: عليه السلام، ويقتصر؛ لأن النبي ﷺ بلغ عائشة أن جبريل يقرأ عليها السلام، فقالت: عليه السلام.. فدل ذلك على أنه إذا نقل السلام إليك أحدٌ من شخص تقول: عليه السلام، ولكن هل يجب عليك أن تنقل الوصية إذا قال سلم لى على فلان، أم لا يجب؟.

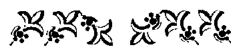
فَصَلَ العلماء فقالوا: إن التزمت له بذلك وجب عليك؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وأنت الآن تحملت هذا.

أما إذا قال: «سلم لى على فلان» وسكت أو قلت له مثلاً: إذا تذكرت أو ما أشبه ذلك، فهذا لا يلزم إلا إذا ذكرت، وقد التزمت له أن تسلم عليه إذا ذكرت، لكن الأحسن ألا يكلف الإنسان أحداً بهذا؛ لأنه ربما يشق عليه، ولكن يقول: سلم لى على من سأل عني... هذا طيب، أما أن يُحمّله فإن هذا لا ينفع؛ لأنه قد يستحي منك فيقول: نعم أنقل سلامك، ثم ينسى أو تطول المدة أو ما أشبه ذلك^(١).



(٨٥٧) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تَفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٧٠١) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.



(٨٥٨) وعن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ قَالَ: كُنَّا نَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيحَةً مِنَ اللَّبَنِ فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ

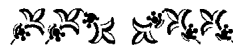
(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١-١٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٩٥) كتاب العلم. وهذا محمولٌ على ما إذا كان الجمعُ كثيراً.

فَسَلَّمَ كما كان يُسَلِّمُ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر المقداد رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا جاء من الليل فإنه يُسَلِّمُ سلامًا خفيفًا بحيث يسمعه اليقظان ولا يوقظ النائم.. وهذه لمسة ذوقية من لمسات النبي ﷺ التي ينبغي أن نتعلمها...

فإذا دخلت على أهلك أو أقاربك أو أصحابك أو أى أحدٍ وكانوا جماعة فمنهم النائم ومنهم المستيقظ... فاحرص على أن تعطى المستيقظ حقه من السلام ولكن بصوتٍ خفيف حتى لا تُزعج النائم فيستيقظ.. وربما لا يستطيع أن ينام مرة أخرى فتفوته الدراسة أو العمل إن كان يعمل في إحدى المؤسسات.. وهذا فيه من الأذى ما فيه... هكذا علّمنا النبي ﷺ أن نُسلم سلامًا خفيفًا حتى نعطي المستيقظ حقه ولا نُزعج أحدًا.



(٨٥٩) وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ مرَّ في المسجد يومًا وعُصبةٌ من النساء قُعودٌ فالوى بيده بالتسليم^(٢).

وهذا محمول على أنه ﷺ جمَعَ بين اللَّفْظ والإشارة، ويؤيِّدهُ أن في رواية أبي داود: «فَسَلَّمَ عَلَيْنَا».

❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

ومع ذلك فأحب أن أنبّه هنا على عدة مسائل:

(١) أنه لا يجوز للرجل الأجنبي أن يُسلم على امرأة غريبة عنه وليست من محارمه وبخاصة الشاب مع الشابة.. أما إذا كان الرجل معروفًا بالصلاح والتقوى ومرَّ على مجموعة من النساء فلا بأس أن يُلقى عليهن السلام.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٥٥) كتاب الأشربة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى في حجاب المرأة المسلمة (ص ٩٩-١٠٠)، وضعيف سنن الترمذى (٥٠٨).

(٢) أن النبي ﷺ نهى عن التسليم بالإشارة باليد من بعيد.. لكن لمن جمع بين السلام والإشارة فلا بأس بذلك.. وبخاصة إذا كان الإنسان بعيداً أو كان أصم لا يسمع... أو غير ذلك.

(٣) أن السلام من خلال بوق السيارة لا يُسمَّى سلاماً.. إلا إذا كان يقصد بالبوق أن يُلفت نظره ثم يُسلم عليه.. أما البوق وحده فلا يُعدّ سلاماً.



(٨٦٠) وعن أبي أمانة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ»^(١).

❁ (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ) أى أحقهم بالقرب منه بالطاعة.

(مَنْ بَدَأَ بِالسَّلَامِ) وذلك لما صنع من المبادرة إلى الطاعة والمصارعة إليها مع ما فيه من حمل المجيب على الرد بالتسبب فيها.

❁ وفي رواية أخرى (عن أبي أمانة) أيضاً (قيل) أى سُئِلَ رسول الله وقيل (يا رسول الله الرجلان يلتقيان) أى سواء كان بقصدٍ منهما اللقاء أو من أحدهما أو لا قصد لأحدهما (أيهما يبدأ بالسلام قال: أُولَاهُمَا بِاللَّهِ).

قال ابن رسلان: ومعنى الروایتين أقرب الناس من الله بالطاعة مَنْ بَدَأَ أَخَاهُ بِالسَّلَامِ عند مُلَاقَاتِهِ لَأَنَّهُ السَّابِقُ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَمُذْكَرِهِ...

ورواه البيهقي في «الشَّعَبِ» عن ابن مسعود يرفعه «إِذَا مَرَّ الرَّجُلُ بِالْقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلٌ لَأَنَّهُ ذَكَرَهُمُ السَّلَامَ، وَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَلَأُ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطِيبُ» قال القرطبي: الأَوْلَى بمبادرة السلام ذوو المراتب الدنيوية كأهل العلم، والفضل احتراماً لهم وتوقيراً، بخلاف أهل المراتب الدنيوية^(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠١١).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٢٩٧-٢٩٨).

وقيل معناه: أن أقرب المتلاقين إلى رحمة الله ﷻ مَنْ بدأ بالسلام.
 فخير الناس مَنْ يبدأ الناس بالسلام... وقد كان النبي ﷺ وهو أشرف الخلق
 يبدأ مَنْ لقيه بالسلام... فاحرص على أن تكون أنت الذي تُسلم قبل صاحبك
 ولو كان أصغر منك لأن خير الناس مَنْ يبدأهم بالسلام وأولى الناس بالله مَنْ
 يبدأهم بالسلام... فهل تحب أن تكون أولى الناس عند الله؟.. كلنا يحب
 ذلك... إذا فابدأ الناس بالسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٦١) وعن أبي جريّ الهُجَيمِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: عَلَيْكَ
 السَّلَامُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «لَا تَقُلْ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، فَإِنْ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحْيَةٌ
 الموتى»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث
 رقم (٨٠٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠٢).

﴿ ١٣٣ ﴾ بَابُ آدَابِ السَّلَامِ

(٨٦٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسَلِّمُ الرَّكَّابُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ».

✽ فَإِذَا تَقَابَلَ رَجُلٌ مَعَ أَكْثَرِ مِنْ رَجُلٍ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ. أَوْ مَجْمُوعَةً مَعَ مَجْمُوعَةٍ أَكْبَرَ مِنْهُمْ، فَعَلَى الْمَجْمُوعَةِ الْأَقْلَى أَنْ يَبْدُوَ بِالسَّلَامِ.

وَإِذَا تَقَابَلَ صَغِيرٌ مَعَ كَبِيرٍ يَبْدَأُ الصَّغِيرُ بِالسَّلَامِ. وَإِذَا تَقَابَلَ رَاكِبٌ مَعَ مَاشٍ يَبْدَأُ الرَّاكِبُ بِالسَّلَامِ، وَيَبْدَأُ الْمَاشِي بِالسَّلَامِ عَلَى الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ يُسَلِّمُ عَلَى الْقَاعِدِ وَرَاكِبِ السَّيَارَةِ أَوْ الدَّرَاجَةِ يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ عَلَى الْمَاشِي أَوْ الْقَاعِدِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ قَدْ أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، حَيْثُ قَالَ: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الرَّاجِلِ، وَيُسَلِّمُ الرَّاجِلُ عَلَى الْقَاعِدِ، وَيُسَلِّمُ الْأَقْلَى عَلَى الْأَكْثَرِ، فَمَنْ أَجَابَ السَّلَامَ فَهُوَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ فَلَا شَيْءَ لَهُ»^(٢)، وَقَالَ ﷺ: «يُسَلِّمُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُّ عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»^(٣)، وَقَالَ: «يُسَلِّمُ الْفَارَسُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَائِمِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ»^(٤).

وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّاكِبَ يَكُونُ مُتَعَلِّيًا فَيُسَلِّمُ عَلَى الْمَاشِي ... وَالْمَاشِي مُتَعَلِّيًا عَلَى الْقَاعِدِ فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ ... وَالْقَلِيلُ يُسَلِّمُ عَلَى الْكَثِيرِ لِأَنَّ الْكَثِيرَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى الْقَلِيلِ ... وَالصَّغِيرُ يُسَلِّمُ عَلَى الْكَبِيرِ لِأَنَّ الْكَبِيرَ لَهُ حَقٌّ عَلَى الصَّغِيرِ وَلَكِنْ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْقَلِيلِينَ فِي غَفْلَةٍ وَلَمْ يُسَلِّمُوا فَلْيُسَلِّمِ الْكَثِيرُونَ .. وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الصَّغِيرَ فِي

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٣٢) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٠) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥٠).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٢٣١) كتاب الاستئذان.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٠) كتاب السلام.

غفلة فليُسلم الكبير ولا تُترك السُّنة ... وهذا الذى ذكره النبى ﷺ ليس معناه أنه لو سلم الكبير على الصغير كان حراماً ولكن المعنى أن الأولَى أن يُسلم الصغير على الكبير فإنه إن لم يُسلم فليُسلم الكبير.



(٨٦٣) وعن أبى أُمَامَةَ صَدَىِّ بن عَجْلان الباهلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمُ السَّلَامُ»^(١).

ورواه الترمذى عن أبى أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلَانِ يَلْتَقِيَانِ أَيُّهُمَا يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ، قَالَ: «أَوَّلَاهُمَا بِاللَّهِ تَعَالَى».

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٨٦٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١١).

(١٣٤) باب استحباب إعادة السلام

على مَنْ تكرر لقاءه على قرب بأن دخل ثم خرج
ثم دخل في الحال أو حال بينهما شجرة ونحوها

(٨٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث المِيسِيءِ صَلَاتُهُ أَنَّهُ جَاءَ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَرَجَعَ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١)..

(٨٦٥) وعنه عن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ» ^(٢).

❁ فلو كنت تمشي مع أخيك وحال بينكما سيارة أو شجرة أو جدار فينبغي أن تلقى عليه السلام مرة أخرى ... فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا اصْطَحَبَ رَجُلَانِ مُسْلِمَانِ، فَحَالَ بَيْنَهُمَا شَجَرٌ، أَوْ حَجَرٌ، أَوْ مَدْرٌ، فَلْيُسَلِّمِ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، وَيَتَبَادَلُوا السَّلَامَ» ^(٣).

مثلاً ... إنسان عنده ضيوف في البيت فدخل إلى البيت يأتي لهم بماء أو طعام أو نحو ذلك فإنه إذا رجع يُسلم ... وهذه من نعمة الله أنه يُسنُّ السلام وتكراره كلما غاب الإنسان عن أخيه سواء غيبة طويلة أو قصيرة فإن الله شرع لنا أن يُسلمَ بعضنا على بعضٍ لأن السلام عبادة وأجر كلما ازددنا منه ازددنا عبادة لله وازداد أجرنا وثوابنا عند الله.



(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٧) كتاب الأذان، ومسلم (٣٩٧) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن ماجه، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩).

(٣) حسن: رواه البيهقي في الشعب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٥).

(١٣٥) باب استحباب السلام إذا دخل بيته

❖ قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [النور: ٦١].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أى إذا دخلتم بيوتاً مسكونة فسلموا على من فيها من الناس ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أى حيوهم بتحية الإسلام «السلام عليكم» وهى التحية المباركة الطيبة التى شرعها الله لعباده المؤمنين... قال القرطبي: وَصَفَهَا بِالْبَرَكَةِ لِأَنَّ فِيهَا الدُّعَاءَ وَاسْتِجْلَابَ الْمَوَدَّةِ. وَوَصَفَهَا بِالطَّيِّبِ لِأَنَّ سَامِعَهَا يَسْتَطِيعُهَا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٦٦) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»^(٢).

❖ فمن السنة .. بل ومن المعاشرة بالمعروف أنك إذا دخلت على أهلِكَ أن تبدأ بالسواك لتصبح رائحة الفم طيبة ثم تسلم على أهلِكَ فإن ذلك يجلب البركة من عند الله ﷻ ويملاً البيت بالبركة فتتألف القلوب وتنتشر المحبة بين أفراد الأسرة ويُطرد الشيطان.. وبخاصة إذا ذكرت الله ﷻ عند الدخول وعند العشاء.. فإنك إن فعلت ذلك قال الشيطان لأعوانه: لا مبيت لكم ولا عشاء..

ولقد كان النبي ﷺ يستعمل السواك قبل أن يدخل بيته ثم يدخل فيسلم على أهله.. وكذلك كان يفعل أصحابه رضي الله عنهم.

(١) تفسير القرطبي (١٢/٣١٩).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (١٦٠٨)، وكان الشيخ رحمه الله قد ضعفه فى ضعيف الجامع (٦٣٨٩) ثم تراجع عن هذا التضعيف، وحسنه.



(١٣٦) بَابُ السَّلَامِ عَلَى الصَّبِيَّانِ

(٨٦٧) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعَلُهُ ^(١)..

❁ ففى هذا الحديث أن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبر أنه مرَّ على صبية صغار فسَلَّمَ عليهم وقال لمن معه.. أو قال لمن معه وللصبيان في آنٍ واحدٍ ليتعلموا: كان رسول الله ﷺ يفعلُه.

ولقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حريصين على أن يفعلوا كل شىء فعله رسول الله ﷺ... وقد كان رسول الله ﷺ يُسَلِّم على الصبيان ويُرحب بهم ويتسم في وجوههم بل ويمزح معهم.

وقد جرت عادة الكثير من الناس ألا يُسَلِّم على الصبيان استخفافاً بهم، ولكن هذا خلاف هدى النبى ﷺ حيث كان يُسَلِّم على الصغير والكبير، فهذا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرَّ على صبيان فسَلَّمَ عليهم وقال: إن النبى ﷺ كان يفعلُه. أى كان يسلم على الصبيان.

❁ وللسلام على الصبيان أكثر من فائدة:

(١) اتباع السُّنة: سُنَّة النبى ﷺ... وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

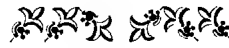
(٢) التواضع: حتى لا يذمَّ الإنسان بنفسه، ويشمخَ بأنفه، ويعلوَ برأسه، يتواضعُ ويُسَلِّم على الصبيان... وقد قال النبى ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله».

(٣) تعويد الصبيان لمحاسن الأخلاق: لأن الصبيان إذا رأوا الرجل يمر بهم

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٨) كتاب السلام.



وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ تَعَوَّدُوا ذَلِكَ، واعتادوا هذه السُّنة المباركة الطيبة.
 (٤) أن هذا يجلب المودة للصبي، يعنى أن الصبي يحب الذى يُسَلِّمُ عليه
 ويفرح لذلك، وربما لا ينساها أبداً؛ لأن الصبي لا ينسى ما مرَّ به.
 فهذه من فوائد السلام على الصبيان.
 فينبغى لنا إذا مررنا على صبيان يلعبون فى السوق أو جالسين يبيعون شيئاً أو
 ما أشبه ذلك أن نُسَلِّمَ عليهم لهذه الفوائد التى ذكرناها^(١).



(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٧-١٨).

(١٣٧) باب سلام الرجل على زوجته والمرأة

من محارمه وعلى أجنبية وأجنبيات

لا يخاف الفتنة بهن وسلامهن بهذا الشرط

(٨٦٨) عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كَانَتْ فِينَا امْرَأَةٌ - وَفِي رَوَايَةٍ: كَانَتْ لَنَا عَجُوزٌ - تَأْخُذُ مِنْ أَصُولِ السَّلَقِ فَتَطْرَحُهُ فِي الْقِدْرِ وَتُكْرِكِرُ حَبَاتٍ مِنْ شَعِيرٍ، فَإِذَا صَلَّيْنَا الْجُمُعَةَ وَانْصَرَفْنَا نُسَلِّمُ عَلَيْهَا فَتُقَدِّمُهُ إِلَيْنَا^(١).

(٨٦٩) وَعَنْ أُمِّ هَانِئٍ فَاحِشَةَ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَتْ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الْفَتْحِ وَهُوَ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ تُسْتَرُّهُ بِثَوْبٍ فَسَلَّمْتُ^(٢). وَذَكَرْتُ الْحَدِيثَ.

❦ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ يُخْبِرُ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ كَبِيرَةٌ فِي السِّنِّ.. وَكَانَتْ رَغِمَ أَنَّهَا فَقِيرَةٌ إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَحِبُّ أَنْ تَفْعَلَ أَىْ خَيْرٍ.. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ تَحِبُّ إِطْعَامَ الطَّعَامِ.. فَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» لَكِنِّهَا كَانَتْ لَا تَمْتَلِكُ مَا لَا كَثِيرًا لَتُطْعِمَهُمُ اللَّحْمَ أَوْ الدَّجَاجَ فَكَانَتْ تَأْخُذُ مِنْ أَصُولِ السَّلَقِ - وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْبَقْلِ الْمَعْرُوفِ أَصُولُهُ طَيِّبَةٌ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِدَامًا - فَتَضَعُهُ فِي الْقِدْرِ الَّذِي تَطْبَخُ فِيهِ وَتَغْلِيهِ عَلَى النَّارِ ثُمَّ تَطْحَنُ حَبَاتٍ مِنَ الشَّعِيرِ.. فَإِذَا انْتَهَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ وَانْصَرَفُوا كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهَا فَتُقَدِّمُ لَهُمْ هَذَا الطَّعَامَ الْبَسِيطَ.. وَذَلِكَ مِنْ بَابِ قَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا».. وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَفْرَحُونَ بِهِ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٢٤٨) كتاب الاستئذان، (٥٤٠٣) كتاب الأطعمة.

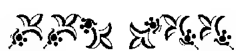
قوله: «تُكْرِكِرُ»: أَىْ تَطْحَنُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٣٣٦) كتاب الحيض.

لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا أغنياء إلا بعد أن فتح الله عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وقال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ فكثرت الأموال بعد الفتوح، أما قبل ذلك فإن غالبية الصحابة كانوا فقراء.

❁ وفي الحديث الثاني تخبر أم هانئ رضي الله عنها - أخت على بن أبي طالب رضي الله عنه - أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة.. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يغتسل وكانت ابنته فاطمة رضي الله عنها تستره بثوبها.. فسلمت أم هانئ على النبي صلى الله عليه وسلم - وهي لا تراه-. فقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ هَذِهِ؟» فقالت له: أنا أم هانئ بنت أبي طالب. فقال صلى الله عليه وسلم: «مرحباً بأم هانئ».

❁ ومن هذين الحديثين نتعلم أن السلام على النساء له ضوابط... فالسلام على المحارم من النساء والزوجات سنة.. والمحارم يعنى التى لا يحل لك أن تتزوج بها.. فهذه تُسلم عليها لا حرج عليك في ذلك.. فتُسلم على أختك وابنة أختك وابنة أخيك وعمتك وخالتك.. أما النساء الأجانب فلا يحل لك أن تُسلم عليهم إلا العجائز الكبيرات في السن - في بعض الآراء -.. أما إذا رجعت إلى بيتك ووجدت فيه نساء من معارفك وألقيت عليهن السلام فلا حرج بشرط أمن الفتنة... وكذلك إذا كان هناك رجلٌ معزوف بالصلاح والتقوى وألقى السلام على مجموعة من النساء فلا حرج... لكن لا يُسلم على امرأة بمفردها.. وبخاصة إذا كانا في مرحلة الشباب.. والله أعلم.



(٨٧٠) وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: مرَّ علينا النبي صلى الله عليه وسلم في نسوةٍ فسَلَّم عَلَيْنَا^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى في حجاب المرأة المسلمة (ص ٩٩ - ١٠٠)، وصحيح سنن أبي داود (٤٣٣٦).

ولفظ الترمذى: أن رسول الله ﷺ مرَّ في المسجدِ يوماً وعُصْبَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قُعُودٌ فَأَلَوَى بِيَدِهِ بِالتَّسْلِيمِ^(١).

✽ أما الرواية الأولى فهي صحيحة .. وقد سبق أن ذكرنا أنه يجوز للرجل أن يُسلم على مجموعة من النساء بالكلام فقط دون المصافحة .. وذلك إذا أُمِنَتِ الفتنة ... أما الرواية الثانية فهي رواية ضعيفة لم تثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى في ضعيف سنن الترمذى (٥٠٨).

(١٣٨) باب تحريم ابتدائنا الكافر بالسلام

وكيفية الرد عليهم واستحباب السلام

على أهل مجلس فيهم مسلمون وكفار

(٨٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضِيقِهِ»^(١).

✽ ذهب طائفة من أهل العلم إلى عدم جواز ابتداء أهل الكتاب بالسلام واستدلوا بهذا الحديث .. وذهبت طائفة أخرى إلى جواز إلقاء السلام عليهم .. واستدلوا على ذلك بأدلة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ [المتحة: ٨]. ومن برهم: إلقاء السلام عليهم.

(٢) وقوله على لسان إبراهيم عليه السلام لأبيه، وقد كان مشركاً: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧].

(٣) وقوله تعالى آمراً نبيه في شأن المشركين: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ﴾ [الزخرف: ٨٩]^(٢).

وذكر القرطبي أن عدداً من السلف فعل ذلك، ومنهم ابن مسعود، والحسن، والنخعي، وعمر بن عبد العزيز.

وقالوا: أما حديث مسلم: «لا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضِيقِهِ». فهو مُقَيَّدُ بِأَيَّامِ الْحَرْبِ، ويدل على ذلك ما رواه البخاري في الأدب المفرد والنسائي، عن أبي بصرة أن رسول الله قال:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٦٧) كتاب السلام.

(٢) القرطبي (١١/١١١-١١٢).

«إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى يَهُودَ فَمَنْ انْطَلَقَ مِنْكُمْ مَعِيَ فَلَا تَبَدُّوهُمْ بِالسَّلَامِ فَإِنْ سَلَّمُوا عَلَيْكُمْ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ»^(١). فبيّن هذا الحديث سبب ورود هذا النهي، حيث قيده بحالة الحرب، ولقاء العدو في المعركة، وهو مقام لا يُبدأ فيه عادة بالسلام.

ويمكن القول بتأكيد الجواز إن كان هناك سبب يستدعي السلام كقراية أو ضُحبة أو جوار، أو سفر، أو حاجة.. وقد ذكر القرطبي ذلك عن النخعي فقال: مُؤُولًا حديث أبي هريرة: «لا تَبَدُّوهُمْ بِالسَّلَامِ». إذا كان بغير سبب يدعوكم إلى أن تَبَدُّوهُمْ بالسلام من قضاء ذِمّام أو حاجة تعرض لكم قبلهم، أو حق أو جوار، أو سفر^(٢).

❖ ولكن لا بُدَّ أن نعلم أنه لا اجتهاد مع وجود النص .. فقد نهى النبي ﷺ عن أن نبداهم بالسَّلَام .. وذلك لما فيه من إظهار الحب والود لهم ... ولكن إذا بدأنا أحدهم بالسلام فيجوز أن نرد عليه السلام .. فإذا قال: السلام عليك فقل له: وعليك السلام .. أما إذا خشيت أن يكون قد قال لك: السَّامُ عليك ... فقل له: وعليك ... لكن إذا قالها واضحة: السلام عليك .. فقل له: وعليك السلام .. لكن لا تقل له: وعليك السلام ورحمة الله .. لأن الرحمة لا تجوز للكافر ... وأما الرد عليه بقولك: (وعليك السلام) فقد قال الإمام ابن القيم: فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يُقال له: وعليك السَّلَام فإن هذا من باب العدل والله يَأمر بالإحسان... وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فندب إلى الفضل وأوجب العدل^(٣)...

وليس معنى أننا لا نبداهم بالسلام أن نُؤذيهم أو نظلمهم .. كلا .. بل نُعاملهم بكلّ رحمة ونُعطيهم حقوقهم كاملة ولا نظلمهم .. وإن كانوا من أهل الذمة نُدافع عنهم ونحميهم وندعوهم إلى الله بكلّ رفيق ولين... لأن مقام

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٦٤).

(٢) انظر القرطبي (١١/١١٢).

(٣) أحكام أهل الذمة (١/١٩٩).

الدعوة غير مقام الحرب والجهاد .. وقد قال تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ .. بل ونُحسن جوار مَنْ جاورنا منهم ولا نُسيء إليه. فالشاهد أنه لا يجوز أن نبذاهم بالسلام.

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

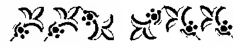
أما إذا كانت التحية بغير السلام فلا مانع منها، كأن يقول له: صباح الخير، مساء الخير، مرحبًا، نهارك سعيد، ونحو ذلك.

✽ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في زاد المعاد: وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا حُكْمٌ عَامٌّ. وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ: لَا يُبْدِءُونَ بِالسَّلَامِ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى جَوَازِ ابْتِدَائِهِمْ كَمَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ... رَوَى ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي أَمَامَةَ، وَابْنِ مُحِيرِيزٍ، وَهُوَ وَجْهٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ لَكِنْ صَاحِبُ هَذَا الْوَجْهِ قَالَ: يُقَالُ لَهُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَطْ بِدُونِ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ، وَبِلَفْظِ الْإِفْرَادِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ لِمَصْلَحَةِ رَاجِحَةٍ مِنْ حَاجَةٍ تَكُونُ لَهُ إِلَيْهِ، أَوْ خَوْفٍ مِنْ أَدَاةٍ، أَوْ لِقْرَابَةٍ بَيْنَهُمَا، أَوْ لِسَبَبٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ، يُرَوَى ذَلِكَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَعَلْقَمَةَ. وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: إِنْ سَلَّمْتَ فَقَدْ سَلَّمَ الصَّالِحُونَ، وَإِنْ تَرَكْتَ فَقَدْ تَرَكَ الصَّالِحُونَ^(١).

✽ أما قوله رَحِمَهُ اللهُ: « فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ » فليس المقصود أن تضربه أو تزيعه بيدك لتضرب به الحائط .. كلا .. لكن المعنى: لا تتوسعوا لهم إذا قابلوكم، حتى يكون لهم السعة، ويكون الضيق عليكم، بل استمروا في اتجاهكم وسيركم، واجعلوا الضيق إن كان هناك ضيق على هؤلاء.

ومن المعلوم أنه ليس من هدى النبي ﷺ أنه إذا رأى كافرًا يزحمه إلى الجدار حتى يلتصق به .. كلا .. ولم يكن النبي ﷺ يفعل هذا باليهود في المدينة ولا أصحابه يفعلونه بعد فتوح الأمصار.

فالمعنى أنكم كما لا تبدءونهم بالسلام، لا تفسحوا لهم، فإذا لقوكم فلا تتفرقوا حتى يعبروا، بل استمروا على ما أنتم عليه، واجعلوا الضيق عليهم إن كان في الطريق ضيق... وليس في الحديث تنفير عن الإسلام، بل فيه إظهار لعزة المسلم، وأنه لا يذل لأحد إلا لربه ﷻ



(٨٧٢) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»^(١).

❖ وأما ردُّ السلام على غير المسلم، فقد اتفق العلماء على أنه يُردُّ على أهل الكتاب بـ «وَعَلَيْكُمْ»^(٢). ويشهد لذلك قول النبي ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ».

وقد جعل البخاري هذا الحديث تحت (باب كيف الردُّ على أهل الذمة) وعلّق على ذلك ابن حجر بقوله: (في هذه الترجمة إشارة إلى أنه لا مانع من ردِّ السلام على أهل الذمة، فلذلك ترجم بالكيفية)^(٣). ويكون الرد بهذه الصيغة «وَعَلَيْكُمْ». إذا تحقّق أنه قال: (السلام عليكم) أو شك فيما قال^(٤).

أما إذا تحقّق من قول (السلام عليكم) قال ابن القيم: (فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة: أن يُقال له: وعليك السلام، فإن هذا من باب العدل، والله يأمر بالإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل)^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (٦٢٥٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٦٣) كتاب السلام.

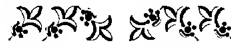
(٢) انظر: موسوعة الإجماع (١/١٥٤).

(٣) انظر: فتح الباري (١٤/٦٥).

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/١٩٩).

(٥) انظر: المرجع السابق (١/١٩٩).

وقال الحافظ في الفتح: (قال ابن بطال: رَدُّ السلام على أهل الذمة فرضٌ لعموم الآية ... وثبت عن ابن عباس أنه قال: مَنْ سَلَّمَ عليك فَرُدَّ عليه ولو كان مجوسياً^(١)) ... ولكن يُقال له: السلام عليك فقط دون ذكر الرحمة.



(٨٧٣) وعن أسامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ على مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمين والمُشركين - عبدة الأوثان واليهود - فسَلَّمَ عليهم النبي ﷺ^(٢).

✽ كان ذلك عندما توجَّه النبي ﷺ لعيادة سعد بن عُبادة رضي الله عنه وهو مريض.. فمرَّ النبي ﷺ على مجلس كان فيه أخلاط من المسلمين والمُشركين فسَلَّمَ النبي ﷺ عليهم.

✽ قال أهل العلم: أما إلقاء السلام على مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين وغير المسلمين. فلا خلاف في جواز إلقاء السلام عليهم.

وقد روى البخارى في صحيحه: أن رسول الله ﷺ ركب حمارًا حتى مرَّ على مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمُشركين وعبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أبي ابن سلول وفي المجلس ابن رواحة، فسَلَّمَ عليهم النبي ﷺ، ثم وقف فتزل...^(٣).

وقد بَوَّب البخارى لهذا الحديث بعنوان: (باب التسليم في مجلسٍ فيه أخلاط من المسلمين والمُشركين).

وقال النووى: (السُّنة إذا مرَّ بمجلسٍ فيه مسلم وكافر أن يُسَلِّم بلفظ التعميم ويقصد به المسلم)^(٤).

(١) فتح البارى (٦٥/١٤) - نقلًا عن (فقه الجهاد) للدكتور يوسف القرضاوى (١٠٥٧/٢ - ١٠٥٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى في (٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، ومسلم (١٧٩٨) كتاب الجهاد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٥٤) كتاب الاستئذان، ومسلم (١٧٩٨) كتاب الجهاد والسير.

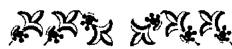
(٤) فتح البارى (٦٠/١٤).

(١٣٩) باب استحباب السلام إذا قام من المجلس وفارق جلساءه أو جلسه

(٨٧٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ. فَلَيْسَتْ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ»^(١).
❦ فإذا دخلت أى مجلس فعليك أن تلقى السلام.. فإذا خرجت فعليك أيضًا أن تلقى السلام... وإذا رجعت مرة أخرى فسلم فإن هذا مما يزيد المحبة والمودة بين المسلمين.

❦ كما أنك إذا دخلت تسلم كذلك إذا فارقت فسلم... ولهذا إذا دخل الإنسان المسجد سلم على النبي ﷺ وإذا خرج سلم عليه أيضًا وإذا دخل مكة لعمره أو حج بدأ بالطواف وإذا فارق مكة وخرج ختم بالطواف لأن الطواف تحية مكة لمن دخل بحج أو عمره وكذلك وداع مكة لمن أتى بحج أو عمره ثم سافر وهذا من كمال الشريعة أنها جعلت المبتدئ والمُنْتَهَى على حد سواء في مثل هذه الأمور.

قَالَ الطَّبِيُّ: أَيْ كَمَا أَنَّ التَّسْلِيمَةَ الْأُولَى إِخْبَارٌ عَنْ سَلَامَتِهِمْ مِنْ شَرِّهِ عِنْدَ الْحُضُورِ فَكَذَلِكَ الثَّانِيَةُ إِخْبَارٌ عَنْ سَلَامَتِهِمْ مِنْ شَرِّهِ عِنْدَ الْغَيْبَةِ وَلَيْسَتْ السَّلَامَةُ عِنْدَ الْحُضُورِ أَوْلَى مِنَ السَّلَامَةِ عِنْدَ الْغَيْبَةِ بَلِ الثَّانِيَةُ أَوْلَى...
وَقَالَ النَّوَوِيُّ: ظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُجِبُّ عَلَى الْجَمَاعَةِ رَدُّ السَّلَامِ عَلَى الَّذِي يُسَلِّمُ عَلَى الْجَمَاعَةِ عِنْدَ الْمُفَارَقَةِ^(٢).



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٠).

(٢) تحفة الأحوذى (١٢٣/٧).

(١٤٠) باب الاستئذان وآدابه

❖ إن الاستئذان من الآداب الرفيعة التي تحمى حُرمة البيوت وتحافظ عليها... وهو دليل على حياء المسلم وحُسن أخلاقه.

والاستئذان أدبٌ مشروع بالكتاب والسنة... قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿[النور: ٢٧-٢٨].

والاستئذان يعنى طلب الإذن... أن تطلب من صاحب البيت أن يأذن لك فى الدخول فإن أذن لك فادخل وإن لم يأذن لك فلا تدخل حتى لو قال لك بصراحة ارجع فارجع... كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

أما الآية الثانية فهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

فإذا بلغ الطفل الحلم فإنه لا يدخل البيت إلا باستئذان أما قبل ذلك فأمره هين لكن هناك ثلاث عورات لا بد من الاستئذان فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَتَيْنِ لَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمُ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ﴾ [النور: ٥٨]

(١) الأولى: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾.

(٢) والثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾.

(٣) والثالثة: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ هذه الأوقات لا بد أن نستأذن فيها حتى الصغار لا بد وأن يستأذنوا... لأن الإنسان فى هذه الأوقات الثلاثة قد يكون مُتهيئاً للنوم وعليه ثياب لا يحب أن يطلع عليه أحد فلذلك لا بد من

الاستئذان في هذه الساعات الثلاث^(١).

❁ والإنسان في بيته يدخل أى غرفة من الغرف ويطوف عليها... وطالما أن الغرفة مفتوحة فيُستحب له أن يستأذن، لكن إذا كانت مُغلقة لا بد أن يستأذن في الدخول، حتى لا يطلع على عورة أحد... والمسلم يُعلم أولاده في بيته هذا الأدب... قال تعالى: ﴿لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٥٨] أى: الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم، وإن كان مرفوعاً عنهم القلم والتكليف، فهم لا يأثمون، ولكن مع ذلك يُعوّدون ذلك... فتعوّد ابنك أنه لا يفتح غرفة في البيت ويدخل مباشرة، ولكن يدق الباب ويستأذن قبل أن يدخل، فإن أذن له فتح ودخل، وإن لم يؤذن له رجع ولم يدخل... فإذا كان صغيراً اعتاد على ذلك، وإذا بلغ الحُلُم صارت له عادة أنه لا يدخل أبداً غرفة مُغلقة حتى يستأذن من فيها.... فما هو رجلٌ يسأل النبي ﷺ أن أمه معه في البيت هل يستأذن حتى يدخل على أمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أُتِيبُ أَنْ تَرَاهَا عَرِيَانَةً؟»... قال: لا، قال ﷺ: «فاستأذن»... فليس هناك أحد يحب أن يرى أمه أو أخته عريانة... ليس هناك من يحب هذا الشيء... ولعلها قد خلعت ثيابها، لعلها تُغير ثيابها، لعلها في حاجة من حوائجها داخل غرفتها، وأنت لا تحب أن تطلع على ذلك، ولا يحل لك ذلك... فلا تحب ذلك؛ لأنك ممنوع منه شرعاً وممنوع منه عادة أيضاً.

فهنا النبي ﷺ علمهم هذا الأدب، أنه لا بد أن تستأذن قبل أن تدخل على الغرفة، ولا تقل: هذه الغرفة فيها ابنتي، هذه فيها أُمي، هذه فيها أختي، بل لا بد أن تستأذن؛ لأنك إن رأيتها على غير الحالة التي اعتدت أن تراها عليها حدث في نفسك شيء ووقعت في الإثم بسبب ذلك.



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٣-٢٤) بتصرف.

(٨٧٥) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع»^(١).

❦ وهذا الحديث له قصة عجيبة أحب أن أذكرها لكم^(٢).

فقد ذهب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ... وكان أرسل إليه عمر فاستأذن ثلاث مرات وعمر مُنْشَغِل في أمرٍ من الأمور وكأنه عرف أن أبا موسى موجود، ولكن انشغل في شيء فلم يرد، مرة واثنتين وثلاثة، فرجع أبو موسى، فلما رجع إذا بعمر يسأل: ألم يكن هنا أبو موسى؟ فقالوا: انصرف، قال: اتنوني به، فجاءوا له بأبي موسى رضي الله عنه، فسأله: ما الذي جعلك تنصرف وأنا أريدك في حاجة؟ فقال له: سمعت النبي ﷺ يقول: «الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع».

فقال عمر بن الخطاب: لتأتيني على ذلك بيّنة وإلا أوجعتك؟ ويكفي أن أبا موسى يُحدث بهذا الحديث عن النبي ﷺ، ولا حاجة لمُحَدِّثٍ آخر ... وهل لعمر ألا يقبل الحديث إلا من أكثر من واحد؟ لا، بل عمر يقبل الحديث من أبي موسى ومن غيره، ولكن خشي أن يكون في الناس من يُحدث فيكذب على النبي ﷺ، فشدد على أبي موسى تخويفاً لغيره ألا يُحدث عن النبي ﷺ إلا بثباتٍ ويقينٍ. وأبو موسى له مقام وله منزلة عند الناس.

فكانَّ عمر رضي الله عنه خشي أن يتساهل الناس بالتحديث عن النبي ﷺ، فخوَّف أبا موسى ليخاف غيره في تحديثهم عن النبي ﷺ.

وذهب أبو موسى إلى الأنصار فوجد أبا سعيد الخدري ومجموعة من الأنصار فاستغاث بهم، وطلب أن يذهب معه واحدٌ منهم إلى عمر حتى يُحدِّث

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٤٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٣) كتاب الآداب.

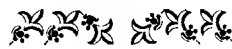
(٢) الحديث أورده الإمام مسلم برقم (٢١٥٣) كتاب الآداب - ولكني أحكيه لكم على صورة قصة ولم ألزم بالفاظ الحديث.

عمر به... فقال له أبي بن كعب رضي الله عنه: لا نبعث معك إلا أصغرنا.
 فقام أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وحدث عمر بذلك، وجاء أبي بن كعب بعد ذلك
 ينتهر عمر رضي الله عنه فقال: هذا أصغر من علم ذلك، وأنت لم تعرفه يا عمر! فلا تكن
 حرباً على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم... يعني: لا تشدد عليهم حتى لا يستهين الناس
 بأصحاب النبي (صلوات الله وسلامه عليه)، وكلهم ثقات وكلهم عُدُول، فقد كان
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتناصحون فيما بينهم، وكان يُشدد بعضهم على بعض في
 النصيحة في إطار المحبة في الله سبحانه وتعالى ^(١).



(٨٧٦) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا جُعِلَ
 الاستئذانُ من أجلِ البَصَرِ» ^(٢).

وها هي روايته كاملة: عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه،
 أَخْبَرَهُ أَنَّ رَجُلًا أَطْلَعَ فِي جُحْرِ فِي بَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِدْرَى
 يَحْكُ بِرَأْسِهِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَوْ أَعْلَمْتُ أَنَّكَ تَنْتَظِرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي
 عَيْنِكَ» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ».



(٨٧٧) وعن رُبَيْعِ بْنِ جِرَاشٍ قَالَ: حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى
 النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي بَيْتٍ فَقَالَ: أَلْجِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَخَادِمِهِ: «أَخْرِجْ إِلَى هَذَا
 فَعَلَّمَهُ الْاسْتِئْذَانَ فَقُلْ لَهُ: قُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟» فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ: السَّلَامُ
 عَلَيْكُمْ، أَدْخُلْ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، فَدَخَلَ ^(٣).

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ أحمد حطية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٤١) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٦) كتاب الآداب.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٧)، والسلسلة الصحيحة (٨١٨)، (٨١٩).

(٨٧٨) عن كِلْدَةَ بْنِ الْحَنْبَلِ رضي الله عنه قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ أُسَلِّمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلْ؟»^(١).

✽ ولشرح تلك الأحاديث وما بعدها في باب الاستئذان وآدابه فسوف أذكر لكم ذلك عن طريق عرض آداب الاستئذان كلها.

✽ فتعالوا بنا لنعرف ما هي الآداب التي ينبغي أن يتأدب بها المسلم عند الاستئذان:

(١) الاستئذان قبل الدخول:

فلا ينبغي أن يدخل المسلم بيتاً قبل أن يستأذن أهل البيت في الدخول فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

(٢) التسليم قبل الدخول:

وذلك بأن يُسَلِّم المسلم قبل دخول أى بيت.

(٣) أن يذكر اسمه ويُعرف الناس بنفسه:

وذلك بأن يذكر اسمه إذا سأله صاحب البيت: مَنْ أنت؟ فلا يقول: أنا... بل يقول: أنا فلان... أو يقول: فلان.. ويذكر اسمه.

فإن النبي ﷺ أتاه جابر فدقَّ عليه الباب فقال: «مَنْ ذَا؟» فقال جابر: أنا. فقال النبي ﷺ: «أنا. أنا! كأنه كرهها»^(٢).

(٤) عدم استقبال الباب:

أن لا يقف المستأذن أمام الباب بوجهه، وإنما يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره... لأنه لو وقف تلقاء الباب ربما يقع بصره على أهل الدار، وقد حُرِّم ذلك، وشرع الاستئذان من أجل البصر.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٣١١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٥٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٥) كتاب الآداب.

عن عبد الله بن بسر قال كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من رُكنه الأيمن أو الأيسر ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم»^(١).

(٥) أن يقرع الباب ثلاثاً:

وذلك بأن يقرع الباب أو يدق الجرس ثلاث مرات فقط فإن لم يرد عليه أحد فإنه ينصرف ولا يُزعج أهل البيت.

فإن أهل البيت عند سماعهم قرع الباب في الأولى يستمعون، وفي الثانية يتأهبون، وفي الثالثة يأذنون... فإن لم يؤذن له رجع. وقد قال النبي ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»^(٢).

(٦) أن يقرع الباب برفق:

❦ فلا يقرعه قرعاً عنيفاً يُفزع أهل البيت، وكذلك لا يضغط زر الجرس بشكل متواصل حتى ولو كان هو صاحب البيت، فقد يظن أهل البيت أن هناك هولاً قد حدث... وقد جاءت امرأة إلى الإمام أحمد فدقّت عليه الباب دقاً عنيفاً تريد أن تسأله في أمر، فخرج وهو يقول: هذا دق الشرط (أى: الشرطة).

(٧) الفصل بين مرات قرع الباب:

يعنى يجعل مُهلة بين كل دقتين حتى يعطى أهل البيت فرصة للاستعداد، أو لفتح الباب. ولا يكون قرع الباب متواصلاً^(٣).

(٨) انتظار الإذن:

وذلك بأن ينتظر المسلم بعد قرع الباب إذن صاحب البيت فإن أذن له دخل وإلا فإنه ينصرف حتى لا يُسبب حرجاً لأهل البيت.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود (٥١٨٦) كتاب الأدب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٤٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٤) كتاب الآداب.

(٣) موسوعة الآداب الإسلامية / أ. عبد العزيز ندا (٨٤/١).

(٩) الرجوع عند عدم الإذن :

فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلَاثًا فَلَمْ يُؤْذَنَ لَهُ فَلْيَرْجِعْ»^(١).
وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]

(١٠) قبول اعتذار صاحب البيت :

فإذا اعتذر صاحب البيت عن عدم قدرته على استقبال الضيف في ذلك الوقت فعلى الزائر أن يقبل عُذره فربما يكون مريضاً أو مشغولاً أو عنده ارتباطات هامة أو عنده مريض أو غير ذلك... فينبغي أن يعذر المسلم أخاه المسلم.

(١١) غض البصر :

فإذا استأذن المسلم على أخيه فيجب أن يغض بصره ولا ينظر من ثقب الباب أو من فتحة الباب إذا كان مفتوحاً... فإذا دخل فإنه يجب عليه ألا يرمى ببصره هنا وهناك بل يغض بصره عن أهل البيت حتى لا يطلع على عورات أهل البيت.

فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) [النور: ٣٠].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّمَا جُعِلَ الاستئذان من أجل البصر»^(٢).

(١٢) اختيار الأوقات المناسبة :

وذلك لأن هناك أوقاتاً لا تصلح للزيارة.. كأن يكون الوقت متأخراً بالليل أو في الصباح الباكر أو عند وقت الظهيرة..

فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَوةِ

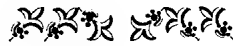
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤٥) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٤) كتاب الآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٤١) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٥٦) كتاب الآداب.

الْعِشَاءُ ثَلَاثُ عَوْرَتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفُوتٌ عَلَيْكُمْ
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ [النور: ٥٨].

(١٣) الاستئذان على الوالدين:

وذلك بأن يستأذن المسلم قبل أن يدخل على والديه أو على أخته وذلك
لاحتمال أن يدخل على أمه أو على أخته وهي في هيئة لا تحب أن يراها عليها.
عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ سألَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَأْذِنُ
عَلَى أُمِّي؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
«اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا» فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا،
أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُريَانَةً؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا»^(١).



(١٤١) باب بيان أن السنة إذا قيل للمستأذن :

مَنْ أَنْتَ؟ أَنْ يَقُولَ : فَلَانٌ فَيَسْمِي نَفْسَهُ بِمَا يُعْرِفُ
بِهِ مِنْ اسْمٍ أَوْ كُنْيَةٍ وَكَرَاهَةِ قَوْلِهِ «أَنَا» وَنَحْوَهَا

(٨٧٩) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الْمَشْهُورِ فِي الْإِسْرَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
«ثُمَّ صَعَدَ بِي جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ :
وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ . ثُمَّ صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ :
جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ » وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَسَائِرُهَا وَيُقَالُ فِي بَابِ
كُلِّ سَمَاءٍ : مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ : جِبْرِيلُ ^(١) .

(٨٨٠) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
يَمْشِي وَحَدَهُ ، فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ ، فَالْتَفَتَ فَرَأَنِي ، فَقَالَ : «مَنْ هَذَا؟»
فَقُلْتُ : أَبُو ذَرٍّ ^(٢) .

(٨٨١) وَعَنْ أُمِّ هَانِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ تَسْتُرُهُ
فَقَالَ : «مَنْ هَذِهِ؟» فَقُلْتُ : أَنَا أُمُّ هَانِيٍّ ^(٣) .

(٨٨٢) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَدَقَقْتُ الْبَابَ ، فَقَالَ : «مَنْ هَذَا؟»
فَقُلْتُ : أَنَا ، فَقَالَ : «أَنَا أَنَا؟» كَأَنَّهُ كَرِهَهَا ^(٤) .

❁ وقد ذكرنا شرح ذلك في الباب السابق عند ذكر آداب الاستئذان ..
وذكرنا أن صاحب البيت إذا سألَكَ مَنْ أَنْتَ؟ فلا بد أن تذكر اسمَكَ ولا تقل :

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٢٠٧) كتاب بدء الخلق ، ومسلم (١٦٢) كتاب الإيمان .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري (٦٦٤٣) كتاب الرقاق ، ومسلم (٩٤) (٣٣) كتاب الزكاة .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري (٣٥٧) كتاب الصلاة ، ومسلم (٣٣٦) كتاب الحيض .

(٤) متفق عليه : رواه البخاري (٦٢٥٠) كتاب الاستئذان ، ومسلم (٢١٥٥) كتاب الآداب .

أنا.. وذلك لأنها تدل على الكبر في ذلك الموضع.. لأن مَنْ قال: أنا في ذلك الموضع كأنه يقول: وهل هناك أحدٌ لا يعرفني.. إنه أنا.

❁ وقد يظن بعض الناس أن كلمة (أنا) لا تجوز في كل الأحوال.. فتجده حينما يتحدث يقول: أنا.. وأعوذ بالله من كلمة أنا.

هذا خطأ... لأن النبي ﷺ قال كما في الصحيحين: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر...»^(١).

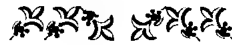
وقال كما عند البخاري: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا...»^(٢).

وروى مسلم أن النبي ﷺ سأل أصحابه يوماً فقال: «مَنْ أصبح منكم اليوم صائماً؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «مَنْ تَبِعَ منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا. قال: «مَنْ أطعم منكم اليوم مسكيناً؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا. قال: «مَنْ عاد منكم اليوم مريضاً؟» قال أبو بكر ﷺ: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة»^(٣).

❁ فكلمة أنا لا تُكره في كل الأحوال وإنما تُكره في حالتين اثنتين ألا وهما:

١- إذا كان ذلك على سبيل الكبر والإعجاب بالنفس.

٢- إذا كان في حال الاستئذان... لأن المسلم عند الاستئذان لا بد أن يذكر اسمه لصاحب البيت.



(١) الحديث عند مسلم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل، بدون لفظ: «ولا فخر»، وهو عند الترمذي (٢١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) بتمامه.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٠٠٥) كتاب الأدب.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠٢٨) كتاب الزكاة.

(١٤٢) باب استحباب تسميت العاطس إذا حمد الله تعالى

وكراهية تسميته إذا لم يحمد الله تعالى

وبيان آداب التسميت والعطاس والتثاؤب

(٨٨٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يحبُّ العطاسَ ويكرهُ التثاؤبَ، فإذا عطَسَ أحدُكم وحمدَ الله تعالى كان حقًّا على كل مسلم سَمْعُهُ أن يقول له: يَرَحْمُكَ اللهُ، وأما التثاؤبُ فإنَّما هو من الشيطان، فإذا ثَءَبَ أحدُكم فَلْيَرُدَّهُ ما استطاع، فإن أحدَكم إذا ثَءَبَ ضَحِكَ منه الشيطان»^(١)

(٨٨٤) وعنه عن النبي ﷺ قال: «إذا عطَسَ أحدُكم فَلْيَقُلْ: الحمدُ لله، وليقلْ له أخوه أو صاحبه: يَرَحْمُكَ اللهُ، فإذا قال له: يرحمك الله، فَلْيَقُلْ: يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بِالْكُم»^(٢)

(٨٨٥) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا عطَسَ أحدُكم فَحَمِدَ اللهُ فَشَمَّتْهُ، فإن لم يَحْمَدِ اللهُ فلا تُشَمَّتْهُ»^(٣).

(٨٨٦) وعن أنس رضي الله عنه قال: عطس رجلان عند النبي ﷺ فشَمَّتَ أحدهما ولم يُشَمَّتِ الآخرَ، فقال الذي لم يُشَمَّتْهُ: عطَسَ فلانُ فشَمَّتُهُ وعَطَسْتُ فلم تُشَمَّتْني؟ فقال: «هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله»^(٤)

(٨٨٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَوْ ثَوْبَهُ عَلَى فِيهِ وَخَفَضَ - أَوْ غَضَّ - بِهَا صَوْتَهُ^(٥). شك الراوى.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٦) كتاب الأدب.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٢٤) كتاب الأدب.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٢٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩١) كتاب الزهد والرقائق.

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٥٥).

(٨٨٨) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان اليهودُ يتعاطسونَ عندَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله يَرْجُونَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: «يَرْحَمُكُمُ اللهُ»، فيقول: «يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بِالْكُم»^(١).
(٨٨٩) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله: «إِذَا تَنَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلَى فِيهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ»^(٢).

❁ قال المؤلف الإمام النووي رحمته الله في كتاب رياض الصالحين: باب استحباب تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى وبيان آداب العاطس، والتثاؤب. العطاس من الله عَزَّ وَجَلَّ، يحبه الله كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلَّى الله عليه وآله قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَطَاسَ» والسبب في ذلك أن العطاس يدل على النشاط، والخفة، ولهذا تجد الإنسان إذا عطس نشط... والله سبحانه وتعالى يحب الإنسان النشط الجاد... وفي الصحيح عن النبي صلَّى الله عليه وآله أنه قال: «المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلِّ خَيْرٍ»^(٣)، والعطاس يدل على الخفة والنشاط، فلهذا كان محبوباً إلى الله، وكان مشروعاً للإنسان إذا عطس أن يقول: الحمد لله؛ لأنها نعمة أُعطيها فليحمد الله عليها، فيقول: (الحمد لله) إذا عطس سواء أكان في الصلاة أو خارج الصلاة في أي مكان كان... إلا أن العلماء -رحمهم الله- يقولون: إذا عطس -وهو في الخلاء- فلا يقول بلسانه: (الحمد لله) ولكن يحمد الله بقلبه؛ لأنهم يقولون -رحمهم الله-: إن الإنسان لا يذكر الله في الخلاء... فإذا عطس الإنسان وحمد الله كان حقاً على كل مَنْ سمعه أن يقول له: (يرحمك الله) وهذا هو التشميت فيدعو له بالرحمة جزاءً له على حمده الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه لما حمد الله كان من جزائه أن إخوانه يدعون له بالرحمة.

(١) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٧٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٥) كتاب الزهد والرفائق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٦٤) كتاب القدر.

وقوله: «كان حقاً على كل من سمعه» ظاهره أنه يجب على كل السامعين بأعيانهم... ويؤيده قوله في الحديث الآخر: «إذا عطس فحمد الله فشمّته».

وذهب بعض العلماء إلى أن تشميت العاطس فرض كفاية.. يعنى إذا قال واحد من الجماعة: يرحمك الله، كفى؛ لكن الاحتياط أن يُشمّته - أى يدعو له بالرحمة - كل من سمعه كما جاء في الحديث.

وأما التثاؤب: فإنه من الشيطان؛ ولهذا كان الله يكرهه لماذا؟

لأن التثاؤب يدل على الكسل؛ ولهذا يكثر التثاؤب فيمن كان فيه نوم؛ ولأجل أنه يدل على الكسل كان الله يكرهه، ولكن إذا تشاءب فالأولى أن يرده - أى يرد التثاؤب - يكظمه ويتصبر... قال العلماء: وإذا أردت أن تكظمه فعض على شفتك السفلى، وليس عضاً شديداً فتقطع، ولكن لأجل أن تضمها حتى لا يفتح الفم، فالمهم أن تكظم سواء بهذه الطريقة أو غيرها.

فإن عجزت عن الكظم فضع يدك على فمك...

وما ذكره بعض العلماء - رحمهم الله - أنك تضع ظهرها على الفم فلا أصل له، وإنما تضع بطنها، تُسد الفم... والسبب في ذلك أن الإنسان إذا تشاءب ضحك الشيطان منه؛ لأنه - أى الشيطان - يعرف أن هذا يدل على كسله وعلى فتوره.

والشيطان يحب من بنى آدم أن يكون كسولاً فتوراً - أعاذنا الله وإياكم منه - ويكره الإنسان النشط الجاد الذى يكون دائماً في حزم وقوة ونشاط، فإذا جاءك التثاؤب فإن استطعت أن تكظمه وتمنعه فهذا هو السنة وهذا هو الأفضل، وإن لم تقدر فضع يدك على فمك.

ولكن هل تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟ لا... لأن ذلك لم يرد عن النبي (عليه الصلاة والسلام) فالنبي ﷺ علمنا ماذا نفعل عند التثاؤب، ولم يقل

قولوا كذا، وإنما قال: «اكظموا، أو رُدُّوا باليد». ولم يقل: قولوا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... أما ما اشتهر عند بعض الناس أن الإنسان إذا تشاءب يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فهذا لا أصل له.

والعبادات مبنية على الشرع لا على الهوى... لكن قد يقول بعض الناس أليس الله يقول: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقد أخبر النبي ﷺ أن الثاؤب من الشيطان، فهذا نزغ؟ نقول: لا، فقد فهمت الآية خطأ، فالمراد من الآية ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. يعنى: الأمر بالمعاصى أو بترك الواجبات، فهذا نزغ الشيطان... كما أخبر الله ﷻ أنه ينزغ بين الناس، فهذا نزغه: أمرٌ بالمعاصى والتضليل عن الواجبات... فإن أحسست بذلك، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

أما الثاؤب فليس فيه إلا سُنَّةٌ، فعليه فقط، وهى الكظم ما استطعت، فإن لم تقدر فضع يدك على فمك^(١).

✽ وقد كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ.. أى: يطلبون العطسة من أنفسهم ويتكلفونها.. يرجون ويتمنون بهذه العطسة أن يقول لهم النبى ﷺ: يرحمكم الله.. فكان النبى ﷺ يقول لهم: «يهدىكم الله ويصلح بالكم» ولا يقول لهم: يرحمكم الله.. وذلك لأن الرحمة مُختصة بالمؤمنين.. فكان يدعو لهم بما يصلح بالهم من الهداية والتوفيق والإيمان.



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٦-٢٧).

❦ وهما هي بعض الآداب التي ينبغي أن نتأدب بها عند العطاس:

(١) وضع اليد أو الثوب على الفم لخفض الصوت:

وذلك من أجل خفض الصوت حتى لا نُزعج الآخرين.. وكذلك حتى لا يتطاير الرذاذ من فم العاطس فيؤذي مَنْ حوله أو يتسبب في نقل عدوى (إذا قَدَّر الله ذلك).

ولذا كان من هدى النبي ﷺ أنه «كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه وخفض بها صوته»^(١).

قال أهل العلم: وفي ذلك حكمتان:

الحكمة الأولى: أنه قد يخرج مع هذا العطاس أمراض تنتشر على مَنْ حوله.
الحكمة الثانية: أنه قد يخرج من أنفه شيء مُستقَدَّر تتقزز النفوس منه، فإذا غطى وجهه صار ذلك خيراً... ولكن لا تفعل ما يفعله بعض الناس بأن تضع يدك على أنفك، فهذا خطأ؛ لأن هذا يَحُدُّ من خروج الريح التي تخرج من الفم عند العطاس، وربما يكون في ذلك ضررٌ عليك.

(٢) أن يحمده الله بعد العطاس:

أن يقول العاطس: الحمد لله.

أن يقول مَنْ سمعه: يرحمكم الله.

أن يرد العاطس: يهديكم الله ويصلح بالكم.

❦ عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدكم فليقل الحمد لله وليقل أخوه أو صاحبه يرحمك الله ويقول هو يهديكم الله ويصلح بالكم»^(٢).

❦ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وَلَمَّا كَانَ الْعَاطِسُ قَدْ حَصَلَتْ لَهُ بِالْعُطَاسِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٢٢٤) كتاب الأدب.

نِعْمَةٌ وَمَنْفَعَةٌ بِخُرُوجِ الْأَبْخَرَةِ الْمُحْتَقِنَةِ فِي دِمَاغِهِ الَّتِي لَوْ بَقِيَتْ فِيهِ أَحَدَتْ لَهُ أَدَوَاءَ عَسِرَةٍ، شُرِعَ لَهُ حَمْدُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ مَعَ بَقَاءِ أَعْضَائِهِ عَلَى التِّثَامِهَا وَهَيْئَتِهَا بَعْدَ هَذِهِ الزَّلْزَلَةِ الَّتِي هِيَ لِلْبَدَنِ كَرَلْزَلَةِ الْأَرْضِ لَهَا، وَلِهَذَا يُقَالُ: سَمَّتَهُ وَشَمَّتَهُ بِالسَّيْنِ وَالشَّيْنِ فَقِيلَ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ وَكُلُّ دَاعٍ بِخَيْرٍ، فَهُوَ مُشَمَّتٌ وَمُسَمَّتٌ. وَقِيلَ: بِالْمُهِمَلَةِ دُعَاءٌ لَهُ بِحُسْنِ السَّمْتِ، وَبِعَوْدِهِ إِلَى حَالَتِهِ مِنَ السُّكُونِ وَالِدَّعَةِ، فَإِنَّ الْعُطَّاسَ يُحْدِثُ فِي الْأَعْضَاءِ حَرَكَةً وَانْزِعَاجًا. وَبِالْمُعْجَمَةِ: دُعَاءٌ لَهُ بِأَنْ يَصْرِفَ اللَّهُ عَنْهُ مَا يُشَمَّتُ بِهِ أَعْدَاءُهُ، فَشَمَّتَهُ: إِذَا أَزَالَ عَنْهُ السَّمَاتَةَ وَقِيلَ: هُوَ دُعَاءٌ لَهُ بِثَبَاتِهِ عَلَى قَوَائِمِهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ... مَاخُودٌ مِنَ السَّوَامِتِ وَهِيَ الْقَوَائِمُ.

وَقِيلَ: هُوَ تَشْمِيتٌ لَهُ بِالشَّيْطَانِ، لِإِغَاظَتِهِ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الْعُطَّاسِ، وَمَا حَصَلَ لَهُ بِهِ مِنْ مَحَابِّ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ ... فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ اللَّهَ وَحَمِدَهُ، سَاءَ ذَلِكَ الشَّيْطَانُ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: نَفْسُ الْعُطَّاسِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَحَمْدُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَدُعَاءُ الْمُسْلِمِينَ لَهُ بِالرَّحْمَةِ، وَدُعَاؤُهُ لَهُمْ بِالْهُدَايَةِ، وَإِصْلَاحِ الْبَالِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ غَائِظٌ لِلشَّيْطَانِ، مُحْزِنٌ لَهُ ... فَتَشْمِيتُ الْمُؤْمِنِ بِغَيْظِ عَدُوِّهِ وَحُزْنِهِ وَكَأَبَتِهِ، فَسُمِّيَ الدُّعَاءُ لَهُ بِالرَّحْمَةِ تَشْمِيتًا لَهُ، لِمَا فِي ضَمْنِهِ مِنْ سَمَاتَتِهِ بِعَدُوِّهِ، وَهَذَا مَعْنَى لَطِيفٌ إِذَا تَنَبَّهَ لَهُ الْعَاطِسُ وَالْمُسَمَّتُ انْتَفَعَا بِهِ وَعَظُمَتْ عِنْدَهُمَا مَنْفَعَةُ نِعْمَةِ الْعُطَّاسِ فِي الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ، وَتَبَيَّنَ السَّرُّ فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ لَهُ ... فَلِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِي هُوَ أَهْلُهُ كَمَا يَنْبَغِي لِكَرِيمٍ وَجْهِهِ وَعِزِّ جَلَالِهِ^(١).

(٣) عدم تشميت العاطس إذا لم يحمد الله :

فقد قال النبي ﷺ: «إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه، وإذا لم يحمد الله

فلا تُشمتوه»^(١)، وقد كان هذا هو فعل النبي ﷺ... فقد عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمت أحدهما، ولم يُشمت الآخر، فقال الرجل: يا رسول الله! شمت هذا ولم تُشمتني! قال: «إن هذا حمّد الله، ولم تحمد الله»^(٢).

(٤) عدم التشميت بعد الثلاث مرات فقط:

فإذا تكرر العطاس من شخص بشكل مُتتابع، فمن المُستحب تشميته حتى يبلغ الثلاث مرات... فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: عطس رجل عند رسول الله ﷺ، وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله» ثم عطس الثانية أو الثالثة فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله، هذا رجل مزكوم»^(٣).

أى مُصاب بالزكام.. فلا يُشمت بعد ثلاث.. لكن استحب بعضهم أن يدعو له مَنْ حضر معه بالعافية والسلامة ولا يكون هذا من باب التشميت.

(٥) تشميت غير المسلم بقول: يهديكم الله:

فإن اليهود كانوا يتعمدون العطاس عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم: «يرحمكم الله» فكان يقول لهم: «يهديكم الله ويصلح بالكم»^(٤).

(٦) إذا عطس صبي صغير يُقال له: بُورك فيك:

فمن آداب العطاس أنه إذا عطس صبي صغير أن يُقال له: بُورك فيك: أو يُقال له: جَبَرَكَ اللهُ.. هذا إن كان قد تعلّم أن يقول إذا عطس: الحمد لله.. فإن لم يكن يعلم.. فليحمد عنه وليه.. ثم ليُعلمه كيف يحمد الله. فعن الحسن رضي الله عنه قال: سئل الإمام أحمد عن الصبي الصغير يعطس؟ قال: يُقال له: بُورك فيك.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٢) كتاب الزهد والرقائق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٢٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩١) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٣) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في الأدب، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٧٧).

❖ وبقيت هنا مسألة واحدة.. ألا وهى:

إذا عطس المسلم ولم يحمد الله فهل نذكره بذلك أم لا؟

❖ قال الإمام ابن القيم (رحمته الله):

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَسْأَلَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الْعَاطِسَ إِذَا حَمِدَ اللَّهَ فَسَمِعَهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ دُونَ بَعْضٍ، هَلْ يُسَنُّ لِمَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ تَشْمِيئُهُ؟
فِيهِ قَوْلَانِ، وَالْأَوَّلُ: أَنَّهُ يُشَمِّتُهُ إِذَا تَحَقَّقَ أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ سَمَاعُ الْمُشَمِّتِ لِلْحَمْدِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ نَفْسُ حَمْدِهِ .. فَمَتَى تَحَقَّقَ تَرْتَّبَ عَلَيْهِ التَّشْمِيئُ، كَمَا لَوْ كَانَ الْمُشَمِّتُ آخِرَ مَنْ رَأَى حَرَكَةَ شَفْتَيْهِ بِالْحَمْدِ.
وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «فَإِنْ حَمِدَ اللَّهُ فَشَمِّتُوهُ». هَذَا هُوَ الصَّوَابُ.

الثَّانِيَةُ: إِذَا تَرَكَ الْحَمْدَ فَهَلْ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ حَضَرَهُ أَنْ يُذَكِّرَهُ الْحَمْدَ؟

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: لَا يُذَكِّرُهُ ... وَقَالَ النُّووى: أَخْطَأَ مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ، بَلْ يُذَكِّرُهُ، وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ. قَالَ: وَهُوَ مِنْ بَابِ النَّصِيحَةِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

وَظَاهِرُ السُّنَّةِ يُقْوَى قَوْلُ ابْنِ الْعَرَبِيِّ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُشَمِّتِ الَّذِي عَطَسَ، وَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُ وَهَذَا تَعْزِيرٌ لَهُ وَحِرْمَانٌ لِبَرَكَةِ الدُّعَاءِ لَمَّا حَرَّمَ نَفْسَهُ بَرَكَةَ الْحَمْدِ، فَنَسِيَ اللَّهَ، فَصَرَفَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْتَتَهْمِينَ عَنْ تَشْمِيئِهِ وَالدُّعَاءِ لَهُ ... وَلَوْ كَانَ تَذْكِيرُهُ سُنَّةً، لَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَى بِفِعْلِهَا وَتَعْلِيمِهَا، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهَا^(١).



(١٤٣) باب استحباب المصافحة عند اللقاء وبشاشة

الوجه وتقبيل يد الرجل الصالح وتقبيل ولده

شفقة ومعانقة القادم من سفر وكراهية الانحناء

(٨٩٠) عن أبي الخطاب قتادة قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم^(١).

❁ أى: أن من عادة العرب عدم المصافحة والتسليم باليد، وإنما كان الواحد منهم يُسلم فيقول: أنعم صباحاً أنعم مساءً، فيأتى على القوم فيسلم بعضهم على بعض من غير مصافحة باليد.

وكان العرب يظنون أن مدّ اليد والمصافحة من أخلاق العجم، ولذلك جاء عن البراء (أنه سلم عليه النبي ﷺ فمدّ يده مُصافحاً) فالبراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كنت أظنها من أخلاق العجم.. يعنى: أنا كنت أظن هذا من أدب العجم؛ لأنه لم يكن عند العرب هذا الشيء أو لم يكن مشهوراً عند العرب أنه كلما قابل الرجل أخاه مدّ يده وصافحه... فالنبي ﷺ كان يصافح أصحابه ويُسلم عليهم (صلوات الله وسلامه عليه)... فهنا يقول أنس وقد سُئل: (أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٩١) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ قال رسول الله ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ جَاءَ بِالْمُصَافَحَةِ»^(٢).

❁ هذه الكلمة «وهم أول من جاء بالمصافحة» ذكرها الإمام أبو داود في

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٢٦٣) كتاب الاستئذان.

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب، وأحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٢٧)

الحديث كأنها مرفوعة للنبي ﷺ، ولكن في مسند الإمام أحمد بين أن أنسا هو الذى قال ذلك فهذا يوضح ويبين أن الحديث المرفوع للنبي ﷺ قوله: «جاءكم أهل اليمن». كأن هذا كان قبل مقدمهم وقبل مجيء أهل اليمن، كأنه قال لهم: غداً سيزوركم أهل اليمن أو وفدٌ من أهل اليمن ... وذكر أنس رضي الله عنه هذا الحديث وقال: «وهم أول من جاء بالمصافحة» يعنى: أنهم عندما جاءوا جعلوا يُسلمون ويصافحون، فكانوا أول من فعل ذلك.

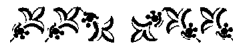
والأمر ليس كذلك، بل كان هذا موجوداً عند العرب، وقد فعله النبي ﷺ مع أصحابه، ولكن كان قليلاً ولم يكن كثيراً، فهؤلاء جاءوا وفعلوا ذلك، فسلموا على من لقيهم، فكانت هذه سنة من سنتهم التى هى انتشار تلك المصافحة. ففى مسند الإمام أحمد عن أنس أيضاً: قال: لما أقبل أهل اليمن قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم أهل اليمن، وهم أرق قلوباً منكم» يعنى: يذكر لهم أن الوفد الذين جاءوا من أهل اليمن هم أرق قلوباً منكم.

وفى حديث آخر: قال: «الإيمان يمان والحكمة يمانية» فمدح النبي ﷺ أهل اليمن الذين قَدِمُوا، وكانوا وفد الأشعرين، ومنهم: أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه ... فهؤلاء الذين مدحهم النبي (صلوات الله وسلامه عليه) وقومهم الذين من ورائهم هم أرق قلوباً وأرق أفئدة رضي الله عنهم، وأكثر قبولاً لهذا الدين من غيرهم.

وفى مسند الإمام أحمد أيضاً عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «سَيَقْدُمُ قَوْمٌ هُم أَرَقُّ قُلُوبًا لِلْإِسْلَامِ مِنْكُمْ» كأنه يقول لهم: أنتم لما دعوتكم فى مكة إلى الإسلام بقيت فيكم ثلاث عشرة سنة، ومع ذلك لم يُسلم إلا عددٌ قليل جداً، لكن أهل اليمن بمجرد ما سمعوا بهذا الدين دخلوا فى دين الله، وجاءوا بشوق للنبي (صلوات الله وسلامه عليه)، قال أنس: (فَقَدِمَ الأشعريون ... منهم أبو موسى الأشعرى) فلما قَدِمَ وفد الأشعرين على النبي ﷺ وكان فيهم أبو موسى

الأشعري رحمته الله وقربوا من المدينة، فهم مع تلهفهم وشوقهم للقاء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون الرجز، وهو نوع من الشعر، فكانوا يرتجزون ويقولون: غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه... من شدة شوقهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللقائه ولقاء أصحابه.

فلما قَدِموا على النبي صلى الله عليه وسلم أحدثوا المصافحة، فهم عندما جاءوا يُسَلِّمون على النبي صلى الله عليه وسلم ويُسَلِّمون على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصافحون، فكانهم نشروا هذا الشيء الذي كان قبل ذلك قليلاً... كان موجوداً ولكنه قليل، فهم نشروا المصافحة، فيقول أنس رضي الله عنه: (وكانوا هم أول من جاء بالمصافحة) ^(١).



(٨٩٢) وعن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لهما قبل أن يفترقا» ^(٢).

❦ ففي هذا الحديث أن المسلم إذا قابل أخاه المسلم فصافحه بقلبه قبل أن يصافحه بيده وابتسم في وجهه وأقبل عليه بكل حُبٍّ وحنانٍ فإن الله يغفر لهما ذنوبهما قبل أن يفترقا.

فهذه المصافحة من أعظم أسباب تكفير الخطايا ومغفرة الذنوب.
ولذا فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن إذا لقي المؤمن، فسَلَّمَ عليه، وأخذ بيده فصافحه، تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر» ^(٣).

فكونك تمد يدك لأخيك فهذا دليل التواضع ودليل المحبة... فبالمصافحة تنتشر المحبة بين المؤمنين... بالتسليم وبالمصافحة.

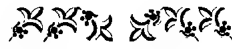
يعنى: عندما يضع المرء يده في يد أخيه ويُسلم عليه ويقول: السلام عليكم

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطية.

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٧٧٧).

(٣) حسن: رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٢٦).

ورحمة الله ... فهو يدعو له، فالله عز وجل يستجيب لدعاء أحدهما لصاحبه ويغفر للاثنين قبل أن يفرقا.



(٨٩٣) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقي أخاه أو صديقه أينحنى له؟ قال: «لا»، قال: أفيلتزمه ويقبله؟ قال: «لا» قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: «نعم»^(١).

✽ لقد كان العجم إذا لقي أحدهم صاحبه يُسلم عليه وينحنى له.. كانت تلك عاداتهم عند اللقاء.. فسأل هذا الرجل رسول الله ﷺ عن ذلك.. وكأنه يقول:

هل نفعل كما يفعلون حين نُسلم ويصافح بعضنا بعضاً؟ فقال النبي ﷺ له: لا... أى: يُكره هذا الشيء، فقال له الرجل: (أفيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قال: فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم).

يعنى: أن من السنة أنك إذا لقيت أخاك أن تُسلم عليه، إما أن تقول: السلام عليكم وأنت مارٌّ، وإما أن تقف وتُسلم عليه: السلام عليكم وتصافحه بيدك وأنت مبتسم فهذا أفضل.

ففى الحديث أن النبي ﷺ كره أن ينحنى الرجل لصاحبه، إذا قابله. ✽ وكذلك الالتزام والتقبيل ليسا من السنة إلا إذا كان صاحبك أو قريبك قادماً من سفرٍ أو نحوه..

فالالتزام: هو أن تأخذ أخاك فى حضنك.

فالالتزام والمعانقة هذا يكون إذا كان الإنسان مسافراً وقَدِمَ من سفره، فهذا تلزمه وتقبله، لكن الذى تقابله بين فترة وأخرى كلما قابله قبَّلته وعانقته، ليس

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والبيهقى، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٦٠).

ذلك من سنة النبي ﷺ ... ولا نقول: يحرم ذلك ولكن يُكره؛ لأن النبي ﷺ لما سئل عن ذلك أمره ألا يفعل ذلك.

فإن قال قائل: كيف يكون قول الرسول ﷺ «لا ينحني له» مع قول الله تعالى في إخوة يوسف لما دخلوا عليه ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ ١١ وَرَفَعَ أَبْوِيَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴿ فالجواب عن هذا: أنه في شريعة سابقة، وشريعتنا الإسلامية قد نسخته، ومنعت منه، فلا يجوز لأحد أن يسجد لأحد، وإن لم يُرد بذلك العبادة ... أو ينحني، فإن الانحناء منع منه الرسول ﷺ. إذا قابلك أحدٌ يجهل هذا الأمر وانحني لك، فانصحه وأرشده، قل له: هذا ممنوع لا تنحني، ولا تخضع إلا لله وحده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٩٤) وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه قال: قال يهوديٌ لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي .. فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آياتٍ بيناتٍ - فذكر الحديث إلى قوله: - فقبلاً يده ورجله وقال: نشهد أنك نبي^(١) ..

(٨٩٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قصة قال فيها: فدنونا من النبي ﷺ فقبلنا يده^(٢) ..
(٨٩٦) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قديم زيد بن حارثة المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي فأتاه ففرغ الباب. فقام إليه النبي ﷺ يجر ثوبه فاعتنقه وقبله^(٣).

وللأمانة العلمية .. فتلك الأحاديث الثلاثة ضعيفة ولم تثبت عن النبي محمد ﷺ.

(١) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف سنن الترمذي (٦١٣).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (٤٥٥)، وضعيف سنن الترمذي (٥١٦).

(٣) ضعيف: رواه الترمذي، وضعفه العلامة الألباني رحمه الله في تحقيق الرياض (٨٩٦)، وضعيف سنن الترمذي (٨٠٧).

(٨٩٧) وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلقٍ» ^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٩٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما، فقال الأقرعُ بن حابس: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قبَلْتُ منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمَ لَا يُرْحَمَ» ^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٦) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٩٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل.



(٦) كتاب عيادة المريض وتشيع الميت

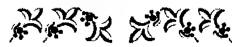
والصلاة عليه وحضور دفنه والمكث عند قبره بعد دفنه

(١٤٤) باب الأمر بالعيادة وتشيع الميت

❁ إن للمسلم على أخيه المسلم حقوقاً وضعها الشرع الحنيف؛ لتتم الألفة والرابطة الوشيعة بين المؤمنين، فينتج من ذلك مجتمعٌ قوىٌ مُحْتَابٌ متماسكٌ... ومن هذه الحقوق: اتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ورَدُّ السلام، ونصر المظلوم، وإجابة الداعى، وفك العانى، وعيادة المريض، وإبرار المُقسم، وغيرها.

فما أجمل أن يعيش المسلمون مُتَحَابِّين مُتَأَلِّفِينَ... فإذا غاب أحدهم سألوا عنه وإذا مرض أحدهم عادوه -أى: زاروه- وإذا احتاج أعانوه.. من أجل أن ينتشر الحب والود بين أفراد المجتمع المسلم فيصبح مجتمعاً قوياً متماسكاً.

وفي هذا الكتاب وتلك الأبواب يعرض المصنف رَحِمَهُ اللهُ مجموعة من الأحاديث التى تُمَثِّلُ الجانب الإنسانى بين المسلمين.. والذى يتمثل فى عيادة المريض واتباع الجنائز وغيرها من الحقوق التى تنشر عبير الحب بين أفراد المجتمع المسلم وتجعله كالبنيان المرصوص.



(٨٩٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْمُقْسَمِ، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِى، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٣٩) كتاب الجنائز، (٢٤٤٥) كتاب المظالم والغصب - ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس والزينة.

(٩٠٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ»^(١).

✽ يقال: عيادة، وزيارة، وتشيع.

الزيارة للصحيح إذا زُرت أخاك في الله في بيته أو في مكانه فهذه زيارة.

والعيادة للمريض؛ لأن الإنسان يُعيدها ويكررها ما دام أخوه مريضاً.

وتشيع الجنائز اتباعها... ثم ذكر المؤلف حديث البراء بن عازب وقد سبق الكلام على أكثره، والشاهد منه قوله: «وعيادة المريض». فهي أمرٌ أمر به النبي ﷺ وهي فرض كفاية - إذا قام بها البعض سقط عن الباقين، وإذا لم يُقَمْ بها أحدٌ وجبَ على مَنْ عَلِمَ أن يعود - ثم إن المراد بالمريض الذي يُعاد هو الذي انقطع في بيته، ولا يخرج، وأما المريض مرضاً خفيفاً لا يعوقه عن الخروج ومصاحبة الناس فإنه لا يُعاد؛ لكن يُسأل عن حاله إذا علم به الإنسان.

✽ وقد يسأل سائل ويقول: ماذا يفعل مَنْ عاد مريضاً؟

والجواب: ينبغي لمن أراد أن يعود مريضاً أن يراعى تلك الآداب:

(١) إخلاص النية لله (جل وعلا)؛ وذلك بأن يتنقى وجه الله بتلك الزيارة ليفوز

بهذا الأجر العظيم المترتب على عيادته للمريض.

(٢) اختيار الوقت المناسب لعيادته:

بمعنى أن لا يزوره في وقتٍ يُسبب له أى إرهاق أو مشقة.

(٣) أن يُصْبِرَهُ وَيُذَكِّرَهُ بِاللَّهِ (جل وعلا)؛

وذلك بأن يُذَكِّرَهُ بِالْأَجْرِ والثواب المذكور في كتاب الله وفي سنة

رسول الله ﷺ للصَّابِرِينَ عَلَى الْمَرَضِ وَالرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللَّهِ (جل وعلا).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٤٠) كتاب الجنائز، ومسلم (٢١٦٢) كتاب السلام.

- وأنه إذا صبر فإنه قد يفوز بمعية الله ومحبه ... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وأنه إذا صبر فإنه يفوز بالأجر الذى لا يخطر على قلب بشر ... فقد قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

(٤) ويسأله عن حاله تانيا له :

فعن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ على شاب وهو فى الموت فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبى .. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان - يعنى الخوف والرجاء- فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن -يعنى الاحتضار- إلا أعطاه الله ما يرجوه، وأمنه مما يخاف»^(١).

(٥) والمستحب لمن عاد المريض :

أن يسأله عن حاله: كيف أنت؛ وعن عبادته: كيف تتوضأ، كيف تصلى... وعن معاملاته: هل لك حقوق على الناس، أو هل للناس حقوق عليك.

(٦) يفتح له باب الأمل :

فمثلاً إذا جئت مريضاً وقلت له: أنت اليوم أحسن من أمس.. حتى وإن لم يكن أحسن من جهة المرض لكن تقول: أحسن من أمس؛ لأنك زدت خيراً، ما بين أمس واليوم صليت خمس صلوات، واستغفرت، وهَلَلْتَ، كذلك زاد أجرك بالمرض، وذلك حتى يُدخل عليه السرور^(٢).

(٧) يُثنى على المريض بمحاسن أعماله :

وذلك بما يُذهب عنه خوفه، ويُحسن ظنه بربه ﷻ.

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى رحمته الله فى المشكاة (١٦١٢)، والصحيحة (١٠٥١).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤، ٣٥).

ففى «صحيح البخارى» أن ابن عباس رضي الله عنه قال لعمر حين طعن: «قد صحبت رسول الله ﷺ فأحسنت صحبتته، ثم فارقك وهو عنك راضٍ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبتته ثم فارقك وهو عنك راضٍ، ثم صحبت المسلمين فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم؛ لتفارقنهم وهم عنك راضون...» الحديث ^(١).

وفى «صحيح مسلم» عن أبى شُماسة قال: حضر عمرو بن العاص وهو فى سِياقة الموت يبكى طويلاً، وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا، أما بشرك رسول الله بكذا...» ^(٢) الحديث.

وفى «صحيح البخارى»: عن القاسم بن أبى بكر أن عائشة رضي الله عنها اشتكت فجاء ابن عباس رضي الله عنه فقال: «يا أم المؤمنين تقدمين على فرطِ صدقٍ؛ رسول الله ﷺ وأبى بكر رضي الله عنه» ^(٣). والمقصود على من سبقها.

(٨) يقص عليه بعض القصص الجميل:

وذلك؛ لأنه مدعاة لإدخال السرور عليه.

(٩) يذكره بقصص من ابتلى قبله من الأمم السابقة ومن سلفنا الصالح.

(١٠) يذكره بأن الفرج قريب جداً وقد يأتى من حيث لا يحتسب.

(١١) يدعو للمريض ويرقيه.

وسنذكر بعد قليل كيف كان هدى النبى ﷺ فى الدعاء للمريض.

(١٢) ولا تطل الجلوس عنده؛ لأنه ربما يمل... لأن حال المريض غير حال

الصحيح، فربما يمل، ويحب أن تقوم عنه، ليأتى إليه أهله وما أشبه ذلك، ولكن إذا رأيت أن المريض مُستأنس بك، ويفرح أن تبقى، وأن تطيل الجلوس عنده، فهذا خير ولا بأس به وهذا ربما يكون سبباً فى شفائه؛ لأن من أسباب الشفاء

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٩٢) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٧٧١) كتاب فضائل الصحابة.

إدخال السرور على المريض^(١).

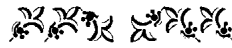
(١٣) تذكير المريض بالتوبة والوصية والخروج من المظالم:

على أن يكون ذلك على وجه لا يُزعج المريض رفقا به ... وأن يُذكره بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، ويؤمله بالدعاء، وبإتمام أعماله الصالحة. ففي حديث سعد: «اللهم اشفِ سعدًا، وأتمم له هجرته»^(٢).

(١٤) وإذا أردت أن تقوم واستأذنت تقول: أتأذن لي.

فإن هذا أيضًا مما يسره؛ لأنه ربما يود أن تبقى فلا يأذن لك، ثم احرص على أن توجهه إلى فعل الخير في هذا المرض. وقول الخير في هذا المرض، فتقول: قد يقدر الله المرض على الإنسان فيكون خيرًا له، فيتفرغ للذكر ولقراءة القرآن وما أشبه ذلك لعله ينتبه ويكون لك أجر السبب.

❁ وأما اتباع الجنائز فسوف نتناولها بالتفصيل في الأبواب الآتية.



(٩٠١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أُطْعِمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟»^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٥٩) كتاب المرضى، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة والآداب.

❦ هذا الحديث ليس فيه إشكال في قوله تعالى: «مرضت فلم تعدني»؛ لأن الله تعالى يستحيل عليه المرض، لأن المرض صفة نقص .. والله سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن كل نقص ... قال الله تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ❦ لكن المراد بالمرض مَرَضٌ عَبْدٌ من عباده الصالحين، وأولياء الله سبحانه وتعالى هم خاصته ... ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي أيضًا «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»^(١). يعني مَنْ يعادى أولياء الله مُحَارِبٌ لله ﷻ مع أنه - وإن كان لم يعادِ الله على زعمه - لكنه عَادَى أولياءه وحاربهم ... كذلك إذا مرض عَبْدٌ من عباد الله الصالحين فإن الله سبحانه وتعالى يكون عنده؛ ولهذا قال: «أما إنك لو عُدتني لوجدتني عنده» ولم يقل: لوجدت ذلك عندي كما قال في الطعام والشراب بل قال: «لوجدتني عنده» وهذا يدل على قرب المريض من الله ﷻ.

ولهذا قال العلماء: إن المريض حَرِيٌّ بإجابة الدعاء إذا دعا لشخصٍ أو دعا على شخصٍ، وفي هذا دليل على استحباب عيادة المريض، وأن الله سبحانه وتعالى عند المريض وعند مَنْ عاداه؛ لقوله: «لوجدتني عنده» وقد سبق لنا كيف تكون عيادة المريض وما ينبغي أن يقوله له العائد.

«يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمني» يعني طلبتُ منك طعامًا فلم تُطعمني ... ومعلوم أن الله تعالى لا يطلب الطعام لنفسه .. لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ﴾ ❦ فهو غنيٌّ عن كل شيء لا يحتاج لطعام ولا شراب ... لكن جاع عَبْدٌ من عباد الله فعلم به شخص فلم يُطعمه ... قال الله تعالى «أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي» يعني لوجدت ثوابه عندي مُدْخَرًا لك، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة ... وفي هذا دليل على استحباب إطعام الجائع، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند الله ﷻ.

«يا ابن آدم استسقيتك - أى طلبت منك أن تسقيني - فلم تسقني» قال: كيف أسقيك وأنت رب العالمين! يعنى لستَ في حاجة إلى طعام ولا شراب قال: «أما علمت أن عبدى فلانًا استسقاك فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي» فيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء مَنْ طلب منك السُّقيا، وأنت تجد ذلك عند الله مُدَّخرًا، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

والشاهد من هذا الحديث الجملة الأولى منه وهى قوله: «مرضت فلم تعُدني» فيه دليل على استحباب عيادة المريض ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٠٢) وعن أبى موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عودوا المريض، وأطعموا الجائع، وفكّوا العاني» ^(٢).

❁ فقله ﷺ: (عودوا المريض) أى: اذهبوا للمريض فعودوه طالما أنه يحتاج إليكم، وطالما أن العيادة ترفع من روحه المعنوية... وعيادة المريض تذكيرة بالآخرة، فأنت تتذكر أن هذا كان سليمًا مثلك ثم صار الآن مريضًا، وهذا الأمر -أمر المرض- ليس لإنسانٍ واحد ولكن يدور على الناس.

فهو مريضٌ اليوم وأنت مريضٌ غدًا، ولا تدري لعلَّ مرضه أخف مما سيأتيك أنت بعد ذلك - أسأل الله أن يُعافيك -... فاعمل للمستقبل، واعمل لما يكون أمامك، وإذا ذهبت إليه فإنك تُنفس له في الأمل وفي الحياة وتقول له: شفاك الله وعُدت أفضل مما كنت... كما قال النبي ﷺ للمريض: «لا بأس طهور إن شاء الله»، فتُنفس له في العمر وفي الأمل، ولعلك تعرف من حال هذا المريض

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٣٧٣) كتاب الأطعمة، (٥٦٤٩) كتاب المرضى.

«العاني»: الأسير.



أنه سيموت قريباً... فالأطباء قد عجزوا فلا تُقل له: أنت لن تعيش؛ فالأطباء قالوا: إنك في آخر حياتك... بل احرص على أن تُنفس له في الأجل حتى تبعث الأمل في قلبه... فإن ذلك من أسباب الشفاء.

ولا مانع من أن تدعوه إلى التوبة والتحلل من المظالم بأسلوب رقيق لا يحمله على التضجر... واحرص على أن تُحدثه بأحاديث الرجاء فلعله يكون في مرض الموت فيلقى الله ﷻ وهو يُحسن الظن بالله.

ثانياً: «أطعموا الجائع» فإذا وجدنا إنساناً جائعاً وجب علينا جميعاً أن نُطعمه... وإطعمته فرض كفاية إذا قام به مَنْ يكفى سقط عن الباقيين، فإن لم يُقَمْ به أحدٌ تعيّن على مَنْ علم بحاله أن يُطعمه... وكذلك أيضاً كسوة العارى وهو فرض كفاية.

وقد أخبر النبي ﷺ أن من بين الذين أعدَّ الله لهم الغرف في الجنة: الذين يُطعمون الطعام.. فقال ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يَرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَنْفَسَى السَّلَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١).

ثالثاً: قوله: «فُكُّوا العاني» يعنى الأسير... فكوا الأسير الذى عند الكفار -من الأسر-.. فإذا اختطف الكفار رجلاً مسلماً وجب علينا أن نفك أسره. وكذلك لو أسروه في حربٍ بينهم وبين المسلمين فإنه يجب علينا أن نفك أسره... وفكُّ أسره فرض كفاية أيضاً.

ولا يجوز للمسلمين أن يتركوا أسراهم بأيدي الكفار فضلاً عن أن يُعينوا الكفار على أن يأخذوا المسلمين من عندهم فيأسروهم.

فالواجب على المسلمين أن يُحرروا الأسارى من المؤمنين الذين أسرههم الكفار، قال النبي ﷺ: «وفكوا العاني» أى: ادفعوا أموالكم حتى تُخرجوه وتُحرروه.

(١) حسن: رواه أحمد والترمذى وابن حبان وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٢١٢٣).

(٩٠٣) وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: «جَنَّاها»^(١).

❁ ففي حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال: «إِذَا عَادَ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ - يَعْنِي فِي مَرَضِهِ - فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ «فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ» قِيلَ: وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟! قَالَ: «جَنَّاها»... وَالْجَنَى: هُوَ الثَّمَارُ النَّاضِجَةُ.

فالثمرة إذا نضجت فهي الخرفة... وهذا الإنسان في مخرفة، يعني: في بستان فيه ثمار... فأنت إذا عُدت المريض فأنت في بستانٍ مُثمر من بساتين الجنة... يعني أنك تجنى من ثمار الجنة مدة بقائك جالساً عند هذا المريض.

قال التوربشتي: المعنى أنه بسعيه إلى عيادة المريض يستوجب الجنة ومخارفها... والعيادة لما كانت مُفضية إلى مخارف الجنة سُميت بها. فمن أراد أن يغترف من ثمار الجنة فلا بد أن يعلم أن من أسباب الفوز بها عيادة المرضى.. فمن أراد المزيد من ثمار الجنة فعليه بالمزيد من عيادة المرضى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٠٤) وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدُوَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسَى، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يَصْبَحَ، وَكَانَ لَهُ خُرْفٌ فِي الْجَنَّةِ»^(٢)

❁ وهذا الحديث له قصة جميلة.. وهي أن الحسن بن علي رضي الله عنهما كان مريضاً.. فقام أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأخذ رجلاً اسمه (أبو فاخنة) وقال له:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٨) كتاب البر والصلة والآداب.

جناها: أى ما اجتنى من الثمر.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٦٧).

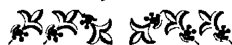
«الخريف»: الثَّمَرُ الْمَخْرُوفُ، أى: الْمُجْتَنَى.

انطلق بنا إلى الحسن نعوذه، فوجدا عنده أبا موسى، فقال عليّ عليه السلام: أعائدا جئت يا أبا موسى أم زائرا؟ فقال: لا بل عائدا، فقال عليّ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يعودُ مسلماً غدوةً إلا صلى عليه سبعون ألف ملكٍ حتى يمسي، وإن عاده عشيةً إلا صلى عليه سبعون ألف ملكٍ حتى يصبح، وكان له خريفٌ في الجنة».

❦ قوله ﷺ: «ما من مسلم يعودُ مسلماً غدوةً» أي: ما من مسلمٍ يعود أخاه المسلم المريض غدوة: أي ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس «إلا صلى عليه سبعون ألف ملكٍ» أي استغفروا له ودعوا له بأنواع الرحمة مستمرين كذلك (حتى) أي إلى أن (يمسي) أي يدخل في المساء.. وهو من زوال الشمس إلى نصف الليل (وإن عادة عشية) وهي آخر النهار، وقيل ما بين الزوال إلى الغروب ^(١).

«إلا صلى عليه سبعون ألف ملكٍ حتى يصبح» أي: حتى يدخل في الصباح «وكان له» أي: للعائد «خريف» أي: بستان وهو في الأصل الثمر المُجتنى أو مخروف من ثمر الجنة.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ: تَكَرَّرَ الْعِيَادَةُ سُنَّةٌ لِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ بِسَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ حِينَ ضَرَبَ لَهُ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُوذَهُ مِنْ قَرِيبٍ ... قَالَ: وَيُعَادُ الْمَرِيضُ مِنْ كُلِّ أَلَمٍ دَقٌّ أَوْ جَلٌّ وَيُعَادُ مِنَ الرَّمَدِ ... وَقَدْ رَوَى أَنَّ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ عَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَمَدٍ أَصَابَهُ ... وَمَا رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: لَا يُعَادُ مِنْ وَجَعِ الْعَيْنِ وَلَا مِنْ وَجَعِ الضَّرْسِ وَلَا مِنَ الدَّمَلِ فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ^(٢).



(٩٠٥) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ فَاتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُوذُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: «أُسْلِمَ» فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدُهُ؟

(١) دليل الفالحين (٣/ ٣٢٧).

(٢) تحفة الأحوذى (٣/ ٤٠٥).

فقال : أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ، وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»^(١).

❁ لقد بعث الله رسوله محمداً ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.... وكان النبي ﷺ يسلك في سبيل ذلك مسلكاً كله رحمة ووسطية... فلقد كان يتمنى الهداية لهم من أعماق قلبه.

بل لقد كاد قلبه أن يتمزق حزناً عليهم بسبب إعراضهم عن طريق الحق والهداية... ولذا قال له (جل وعلا): ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وفي هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أنه كان هناك غلامٌ يهودي يخدم النبي ﷺ.. وفي يومٍ من الأيام مرض ذلك الغلام فما كان من نهر الرحمة وينبوع الحنان ﷺ إلا أن ذهب لعيادته في بيته.. فقعده عند رأسه وقال له: «أسلم».. فما كان من ذلك الغلام إلا أن نظر إلى أبيه وكأنه خائفٌ منه أو أنه يستشيرُه ماذا يصنع.. فنظر إليه أبوه وقال له بلا تردد: أطع أبا القاسم.. فأسلم الغلام وخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار».

❁ وفي هذا الحديث عدة فوائد.. منها:

الفائدة الأولى:

بيان ما كان عليه النبي ﷺ من تواضع لا يُساميه فيه أحد... فهو مع عظيم منزلته وعُلو شأنه وكثرة انشغالاته، لا يستنكف أن يعود غلاماً يهودياً غير مسلم، يعمل عنده خادماً؟

الفائدة الثانية:

على المسلمين ألا يستقلوا أي عمل من أعمال الخير، وإن قلَّ في نظرهم،

خاصة في مجال الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - لأن النبي ﷺ حَرَصَ على زيارة هذا الغلام الخادم اليهودي، ودعاه إلى الإسلام ولم يَقُلْ في نفسه كما يقول أمثالنا: وما عسى أن ينفع الله الإسلام بهذا الغلام إن أسلم، أو يقول: هناك أمورٌ كثيرة أعظم من زيارة هذا الغلام ودعوته إلى الإيمان... بل كانت زيارة مباركة طيبة، كان من عظيم بركتها، أن أنقذ الله بها نفساً من النار.

الفائدة الثالثة:

على الداعي إلى الله ﷻ أن يستثمر الظروف والأحوال الملائمة للناس لدعوتهم إلى الله ﷻ... كالمرض مثلاً، والذي يشعر فيه الإنسان بالضعف والحاجة إلى الله - سبحانه وتعالى - ولكن دون أن يُظهر الداعي للمدعو أنه يستغل هذا الوقت بالذات لدعوته لأنه ضعيف، فقد يُحرج هذا الشعور المريض، ويجعله لا يتقبل الحق... انظر ماذا قال النبي ﷺ للغلام، قال له: «أسلم»... وانظر إلى يوسف ﷺ كيف استثمر حاجة صاحبيه في السجن لتأويل رؤيتهما، فدعاهما إلى الإيمان ونفّرهما غاية التنفير من الشرك بالله، دون أن يُشعرهما أنهما في حاجة إليه، وأنهما مضطران إلى سماع قوله إلى النهاية، حتى يسمعا تأويله لرؤيتهما... وهذا من فقه الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى -.

الفائدة الرابعة:

جواز استخدام اليهودي مع مراعاة الضوابط الشرعية التي تحكم هذا الاستخدام، والتي من أعظمها، عدم اطلاعه على أعراض المسلمين، وعدم إفشاء الأسرار إليه، وعدم حُبّه، وضرورة دعوته إلى الإسلام، وإنكار ما هو عليه من الكفر... وأزيد واحدة، أن نعدل فيه ونُقسط إليه، حتى لا نكون سبباً في تنفيره من الإسلام.

الفائدة الخامسة:

صحة إسلام الصبي المميّز، ولولا صحة إسلامه، ما دعاه النبي ﷺ إلى

الإسلام وقال: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»، وهذا القول من النبي ﷺ دليل على صحة إسلام الصبي، ولكن ليس بدليل قطعي، أن الصبي لو مات على الكفر دخل النار، ويمكن أن يُحمَل قول النبي ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» إذا ما استمر على كفره.

الفائدة السادسة:

ما كان عليه اليهود، من تعظيم أمر النبي ﷺ واعتقادهم صحة دينه ولو خالفوه... لأن أبا الغلام أمر ابنه بإجابة أمر النبي ﷺ وبدا خوفه على غلامه وهو مريض من أن يخالف أمر النبي... وتَدَبَّر ماذا قال الأب لابنه: أطع أبا القاسم، ولم يَقُلْ له: (أسلم)، مما يُشعر أن مراد الأب هو طاعة الرسول ﷺ وعدم مخالفته، كما أنه ذكر الرسول بكنيته، ولم يذكره باسمه، وهذا أيضًا من التوقير.

الفائدة السابعة:

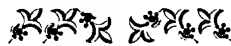
قد يكون من ملاطفة المريض عند زيارته، القعود عند رأسه، لإشعاره بالقرب منه، وهذا أدعى لإسماعه والسماع منه.

الفائدة الثامنة:

الثناء على الله ﷻ بما هو أهله، خاصة عند زوال النعم ورفع النقم، لقوله ﷺ «الحمد لله الذي أنقذه من النار»^(١).

الفائدة التاسعة:

الأب قد يُؤثر ابنه في الخير وهو لا يفعل... فهذا اليهودي أشار على ابنه أن يطيع أبا القاسم ويُسلم، ولكنه هو لم يُسلم... فالأب قد يحب لابنه الخير وهو محروم منه، والعياذ بالله.



(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٧٣-٣٧٤) للشيخ أحمد عبد الفتاح.

(١٤٥) باب ما يدعى به للمريض

✽ يتلى الله سبحانه وتعالى عباده بالأمراض والأدواء... وفي ذلك تطهيرٌ لذنوبهم وتكفير لسيئاتهم، وقد شرع الإسلام لمن زار المريض أن يدعو له بجملة من الأدعية النبوية رُقية وطلبًا للشفاء... كما شرع للمريض نفسه أن يدعو بأدعية يطمع بها في رحمة الله تعالى... وشرع له أن يذكر ربه ببعض الأذكار النافعة التي يُحرّم بها على النار إن مات في مرضه، وذلك دليل الخير للمسلمين.

(٩٠٦) عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ، أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جُرْحٌ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، بِأَصْبُعِهِ هَكَذَا - وَوَضَعَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ الرَّأْيَ سَبَّابَتُهُ بِالْأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا - وَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا» ^(١).

✽ وإذا أردنا أن نعلم أفضل ما ندعو به للمريض فلا بُدَّ أن نعلم أن خير الهدى هدى محمد ﷺ... وها هي بعض الأحاديث التي تعلمنا كيف كان يدعو النبي ﷺ للمريض وماذا كان يصنع معه.

✽ ففي هذا الحديث تذكر أمنا عائشة رضي الله عنها أنه إذا كان في الإنسان المريض جرح أو قرحة أو نحو ذلك، كان النبي ﷺ يبل إصبعه ثم يمسح بها الأرض فيأخذ من التراب بهذا البلل ثم يمسح به الجرح ويقول: «بِسْمِ اللَّهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةٍ بَعْضِنَا، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا». وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يداوى الجرح بمثل ذلك.

ووجه ذلك: أن التراب طهور كما قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهْرًا» ^(٢) وريق المؤمن طاهر أيضًا، فيجتمع الطهوران مع قوة التوكل على الله

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤٥) كتاب الطب، ومسلم (٢١٩٤) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٢٢) كتاب المساجد.

عَزَّوَجَلَّ والثقة به فيشفى بها المريض، ولكن لا بد من أمرين:

١ - قوة اليقين في هذا الداعي بأن الله سبحانه وتعالى سوف يشفى هذا المريض بهذه الرقية.

٢ - قبول المريض لهذا وإيمانه بأنه سينفع.

أما إذا كانت المسألة على وجه التجربة فإن ذلك لا ينفعه؛ لأنه لا بد من اليقين أن ما فعله النبي ﷺ حق، ولا بد أن يكون المَحِلُّ قابلاً - وهو المريض - لا بد أن يكون مؤمناً بفائدة ذلك، وإلا فلا فائدة... لأن الذين في قلوبهم مرض لا تزيدهم الآيات إلا رجساً إلى رجسهم والعياذ بالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٠٧) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعُودُ بَعْضَ أَهْلِهِ يَمَسُّحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهَبِ الْبَأْسَ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»^(١).

(٩٠٨) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا أُرْقِيكَ بِرُقِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الْبَأْسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا^(٢).

❖ وفي هذا الحديث أيضاً تذكر أننا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَاحِبَ الْقَلْبِ الرَّحِيمِ كَانَ يَعُودُ بَعْضَ أَهْلِهِ.. أَوْ يَعُودُ مَرْضَاهُمْ.. فَإِذَا ذَهَبَ إِلَيْهِمْ كَانَ يَمَسُّحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى عَلَيْهِمْ وَيَقُولُ هَذَا الدُّعَاءَ الْعَظِيمَ:

«اللهم رب الناس» فيتوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بربوبيته العامة.. فهو الرب سبحانه وتعالى الخالق المالك المدبر لجميع الأمور... فأنت - أيها المريض - تقول:

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤٣) كتاب الطب، ومسلم (٢١٩١) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٧٤٢) كتاب الطب.

خلقني الله عَزَّوَجَلَّ ولا بأس بي، ثم قَدَّرَ عليَّ المرض... والذي قَدَّرَ عليَّ المرض بعد الصحة قادر على أن يشفيني.

«أذهب البأس» يعني: المرض الذي حَلَّ بهذا المريض.

«اشفِ أنت الشافي» والشفاء: إزالة المرض وبرء المريض.. و«الشافي» هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه الذي يشفي المرض، وما يُصنع من الأدوية أو يُقرأ من الرُّقى فما هو إلا سبب قد ينفع وقد لا ينفع... فالله هو المُسبب عَزَّوَجَلَّ ولهذا رُبما يمرض رجلان بمرض واحد، ويُدَاوِيَانِ بدواءٍ واحد، وعلى وصفة واحدة فيموت هذا، وَيَسْلَمُ ذاك؛ لأن الأمر كله بيد الله عَزَّوَجَلَّ فهو الشافي^(١).

وَيُخْطِئُ مَنْ يتوهم أن الشفاء بيد الطبيب، وأنه إذا ذهب إلى الطبيب شفاه الطبيب... فالذي يشفي هو الله... والطبيب سببٌ من الأسباب، وقد أُمِرنا بالتداوي، حيث قال النبي ﷺ: «أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ! تَدَاوُوا؛ فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ دَاءً إِلَّا وَأَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ» فالشفاء بيد الله سبحانه، فهو الذي يُنْزِلُ الداء، وهو الذي يُنْزِلُ الشفاء (سبحانه وتعالى)... والطبيب سببٌ من الأسباب، والعلاج سببٌ من الأسباب، والرُّقية بكتاب الله وبأحاديث النبي ﷺ سببٌ من الأسباب.

ثم إذا شاء الله عَزَّوَجَلَّ شفى المريض بسبب ما أخذ من أسباب، وقد يُعْلَقُ الشفاء على دعوة، أو على تداوٍ، أو على غير ذلك... فالله يفعل ما يشاء تبارك وتعالى.

«لا شفاء إلا شفاؤك»، فالشفاء بيد الله سبحانه وتعالى، ولا شفاء بيد أحد من خلقه سبحانه... وإذا شفى إنساناً شفاه شفاء لا يغادر سقماً، ولا يترك أثراً... وهذا شفاؤه سبحانه وتعالى في خلقه.

✽ وقد ذكر أنس رضي الله عنه لتلميذه ثابت نفس الدعاء الذي ذكرته أمنا عائشة

رضي الله عنها.

(٩٠٩) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: عادني رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا»^(١).

✽ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السابقين الأولين الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأحد الستة أهل الشورى، وخال رسول الله ﷺ وبطل القادسية، وفاتح «المدائن» ومُطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد.

ففي يوم من الأيام مرض سعد رضي الله عنه مرضًا شديدًا حتى ظن أنه سيموت من هذا المرض فذهب إليه النبي ﷺ يعوده.. وكان يحبه حبًّا شديدًا.. فدعا له النبي ﷺ وقال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا». ففي هذا الحديث أنه يُستحب أن تدعو بهذا الدعاء للمريض «اللهم اشفِ فلانًا» وتسميه باسمه ثلاث مرات.

فإن هذا مما يكون سببًا في شفاء المريض ... وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان يكرر الدعاء... لقد كان الرسول ﷺ إذا دعا يدعو ثلاثًا، وإذا سلم ولم يُفهم عنه سلم ثلاثًا... وتكرار الدعاء ثلاثًا من الأمور المشروعة كما كان ﷺ في الصلاة يقول: «رب اغفر لي، رب اغفر لي، رب اغفر لي» يكرر. هكذا أيضًا الدعاء للمريض.



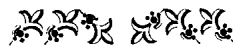
(٩١٠) وعن أبي عبد الله عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَع يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ وَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية - ورواه أيضًا البخاري بلفظ آخر (٥٦٥٩) كتاب المرضى.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٠٢) كتاب السلام.

❁ ففي هذا الحديث يخبر عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه ذهب إلى النبي ﷺ وشكا إليه أنه يجد وجعاً شديداً في جسده.. ولا شك أن وجع الجسد قد يُعطله عن عبادة يؤديها أو عن أمرٍ من أمور دُنياه.. فأمره النبي ﷺ أن يضع يده على المكان الذي يتألم في جسده ويقول هذا الدعاء: «بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا»، وأن يقول: «سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَازِرُ»

فهذا من أسباب الشفاء أيضاً، فينبغي للإنسان إذا أحسَّ بألمٍ أن يضع يده على هذا الألم ويقول: «بِسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَازِرُ» يقولها سبع مرات ... إذا قاله مُوقناً بذلك مؤمناً به وأنه سوف يستفيد من هذا فإنه يسكن الألم بإذن الله ﷻ، وهذا أبلغ من الدواء الحِسِّي كالأقراص، والشراب والحَقْن؛ لأنك تستعيز بمن بيده ملكوت السموات والأرض.. فالذي أنزل هذا المرض، هو الذي يُجيرك منه.



(٩١١) وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْهُ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ ... إِلَّا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ عاد مريضاً لم يحضره أجله - أي ليس مرض الموت - فدعا له سبع مرات وقال: «أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ» ... إلا شفاه الله من هذا المرض ... هذا إن لم يكن هذا المرض هو مرض الموت ولذلك قيد النبي ﷺ ذلك بقوله: «لَمْ يَحْضُرْهُ أَجَلُهُ» أما إذا حضر الموت فلا ينفع الدواء ولا الدعاء ولا الرقية ... لأن الله ﷻ قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ...

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٨).

لكن ليس معنى ذلك أن نقول: لن ندعو للمريض لأنه في مرض الموت .. بل ندعو لأن الدعاء عبادة ولنا الأجر والمثوبة على ذلك الدعاء ... فإن شفاه الله فالحمد لله .. وإن توفى فقد أخذنا بالأسباب وفزنا بالأجر والثواب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩١٢) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَنْ يَعُودُهُ قَالَ: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ ذهب لعيادة رجلٍ أعرابيٍّ مريضٍ ... وما أجمل تواضع النبي ﷺ فإنه لم يكن يزور الأغنياء فقط ويهرب من الفقراء .. بل كان يحرص على زيارة الفقراء والجلوس معهم وعيادة مرضاهم أكثر من الأغنياء .. وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مُسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مُسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي رُمَّةِ الْمَسَاكِينِ»^(٢).

وهنا دخل النبي ﷺ على ذلك الأعرابي المريض ليعوده .. وكان ﷺ إذا دخل على مَنْ يعوده قال:

«لا بَأْسَ» يعني: لا شدة عليك ولا أذى. «طهور» يعني: هذا طهور «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، وإنما قال النبي ﷺ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» لأن هذه جملة خبرية وليست جملة دعائية؛ لأن الدعاء ينبغى للإنسان أن يجزم به، ولا يَقُلْ إِنْ شِئْتُ ... ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل: «اللهم اغفر لي إِنْ شِئْتُ، اللهم ارحمني إِنْ شِئْتُ»^(٣) لا تَقُلْ هذا؛ لأن الله لا مُكْرَهَ له، إِنْ شَاءَ غُفِرَ لَكَ، وإِنْ شَاءَ لم يغفر ولم يرحم .. فلا يُقال إِنْ شِئْتُ إِلَّا لِمَنْ له مُكْرَه، أو لِمَنْ يستعظم العطاء، فإذا سألت الله فلا تَقُلْ: إِنْ شِئْتُ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٦٥٦) كتاب المرضى.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٣٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

أما قول إن شاء الله في قول النبي ﷺ: «لا بأس، طهور إن شاء الله» فهذا لأنه خبر وتفاوت .. فيقول: لا بأس، كأنه ينفي أن يكون به بأس، ثم يقول: «إن شاء الله» لأن الأمر كله بمشيئة الله عز وجل.

فيؤخذ من هذا الحديث أنه ينبغي لمن عاد المريض إذا دخل عليه أن يقول: «لا بأس، طهور إن شاء الله».



(٩١٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ قال: نَعَمْ، قال: بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»^(١).

✽ هذا دعاء من جبريل عليه السلام أشرف الرسل، للنبي ﷺ أشرف الرسل.. لكن جبريل أشرف الرسل الملكيين، وأما محمد ﷺ فأشرف الرسل البشريين، يقول له: «اشتكت؟» قال: «نعم» وفي هذا دليل على أنه لا بأس أن يقول المريض للناس: إني مريض إذا سألوه، وأن هذا ليس من باب الشكوى... الشكوى أن تشتكى الخالق للمخلوق، تقول: أنا أمرضني الله بكذا وكذا، تشكو الرب للخلق، فهذا لا يجوز.... ولهذا قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لكن إذا أخبر المريض بمرضه على سبيل الإخبار لا الشكوى فلا بأس... ويا حبذا لو قال قبلها: الحمد لله.

وفيه أيضًا دليل: على أنه ينبغي أن نقرأ على المريض بهذه الرقية: «بسم الله أرقيك» يعني: أقرأ عليك «من كل شيء يؤذيك»: من مرض، حزن، هم، أو غم... إلخ.

«من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك».

«من شر كل نفس» من النفوس البشرية أو نفوس الجن أو غير ذلك «أو عين حاسد» أى: ما يسمونه الناس بالعين، وذلك أن الحاسد - والعياذ بالله - الذى يكره أن يُنعم الله على عباده بنعمه نفسه خبيثة شريرة، وهذه النفس الخبيثة الشريرة قد ينطلق منها ما يصيب المحسود، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ويكون المحسود مهمومًا بسبب هذه العين... ولهذا قال: «أو عين حاسد الله يشفيك» أى: يبرئه ويزيل سقمه «بسم الله أريقك» فبدأ بالبسملة فى أول الدعاء وفى آخره... فإذا دعا الإنسان بما جاء فى السنة فهذا خير؛ لأن كل ما جاء فى السنة، فإن مراعاته أفضل، وإذا لم تعرف هذا الدعاء فادعُ بالمناسب: شفاك الله، عافاك الله، أسأل الله لك الشفاء، أسأل الله لك العافية، وما أشبه ذلك.

وفى هذا الحديث دليل: على أن النبى ﷺ كغيره من البشر، يصيبه المرض... وفيه أيضا أن القراءة على المريض لا تنافى كمال التوكل، بخلاف الذى يطلب من الناس أن يقرءوا عليه ففيه شىء من نقص التوكل، لأنه سأل الخلق، واعتمد على سؤالهم... لكن إذا جاء إنسان يقرأ عليه ولم يمنعه فإن ذلك لا شىء فيه ولا يُعدُّ نقصًا فى التوكل... ولهذا قرأ النبى ﷺ على غيره وقرئ عليه أيضًا فذلك لا يُنافى كمال التوكل إذا كان بغير سؤال. والله الموفق^(١).



(٩١٤) وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ أَكْبَرُ، صَدَقَهُ رَبُّهُ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ. وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي لَا شَرِيكَ لِي. وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِي الْمُلْكُ وَلِي الْحَمْدُ. وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا

حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي» وكان يقول: «مَنْ قالها فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمُهُ النَّارُ»^(١).
 ﴿فَتِلْكَ أَرْبَعُ جُمَلٍ إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ أَجَابَهُ الْحَقُّ (جَلَّ وَعَلَا) مُصَدِّقًا لَهُ.
 «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»...

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» كلمة التوحيد، فإذا مُتَّ مُتَّ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ... وَفِي حَدِيثِ
 النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» فإذا وَفَّقَ اللَّهُ الْعَبْدَ وَهُوَ
 يَمُوتُ لَأَنْ يَقُولَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» اسْتَحَقَّ الْجَنَّةَ... ثُمَّ تَقُولُ: «لَا إِلَهَ
 إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»، فَتُفَرِّدُهُ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَلَا تُشْرِكُ
 مَعَهُ أَحَدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... ثُمَّ تَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ»،
 فَتُثَبِّتَ لِلَّهِ الْغِنَى سُبْحَانَهُ، وَتُثَبِّتَ لِلَّهِ مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَتُثَبِّتَ لِلَّهِ أَنَّهُ
 وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ وَيَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ بِأَفْعَالِهِ الْجَمِيلَةِ، وَصِفَاتِهِ
 الْجَلِيلَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... ثُمَّ تَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»،
 فَتُتَبَرَّأَ مِنَ الْحَوْلِ وَمِنَ الْقُوَّةِ، وَتُثَبِّتَ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْقُوَّةِ لِلَّهِ ﷻ، قَائِلًا: الْمُلْكُ لِلَّهِ
 سُبْحَانَهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَمْلِكُ شَيْئًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا حِيلَةَ وَلَا قُوَّةَ لِي
 عَلَى شَيْءٍ، إِلَّا أَنْ يُعِينَنِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... فَأُثَبِّتَ لِلَّهِ الْوَحْدَانِيَّةَ، وَأُثَبِّتَ لَهُ
 الْعِبَادَةَ، وَأُثَبِّتَ لَهُ الرُّبُوبِيَّةَ بِمَقْتَضِيَّاتِهَا، وَأُثْنِيَ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأُتَبَرَّأَ مِنَ
 الْحَوْلِ وَمِنَ الْقُوَّةِ، وَبِذَلِكَ تَسْتَحِقُّ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَكْرِمَكَ، وَلَا تَطْعَمَكَ النَّارَ، وَلَا
 تَدْخُلَ النَّارَ.

﴿فَمَنْ قَالَ تِلْكَ الْكَلِمَاتَ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ مَوْقِنًا بِهَا قَلْبَهُ فَإِنَّهُ لَا تَطْعَمُهُ
 النَّارَ، أَيْ: يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ تَحْرِيمِ الْإِنْسَانِ عَلَى النَّارِ.
 فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ هَذَا الذِّكْرَ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنْهُ فِي حَالِ مَرَضِهِ حَتَّى
 يُخْتَمَ لَهُ بِالْخَيْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

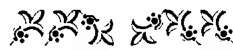
(١) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، والنسائی، وصححه الألبانی فی صحيح الترغیب (٣٤٨١).

(١٤٦) بَابُ اسْتِحْبَابِ سُؤَالِ أَهْلِ الْمَرِيضِ عَنْ حَالِهِ

(٩١٥) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ، فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ، كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِتًا^(١).

❁ وهنا في حديث ابن عباس الذي رواه البخاري: (أَنْ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ - فِي مَرَضٍ وَفَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا الْحَسَنِ - يَسْأَلُونَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِتًا) يعني: نرجو له أن يبرأ وأن يشفيه الله سبحانه وتعالى... وقال ذلك بحسب ظنه أنه أصبح في النهار وصحته جيدة فنرجو له أن يبرئه الله ﷻ من هذا المرض... ولكن لم يحدث، وكان هذا المرض الذي فيه وفاة النبي ﷺ.

❁ وفي هذا الحديث دليل على أنه إذا لم نستطع الوصول إلى المريض لنطمئن عليه فإننا نسأل مَنْ يرافقه من أقاربه أو غيرهم لنطمئن عليه.. وقد يسرَّ الله ﷻ لنا في هذا الزمان أن نتصل بالهاتف لنطمئن على أحوال المرضى وندعو لهم ونُصبرهم ونُذكرهم بالله ﷻ.



(١٤٧) باب ما يقوله من أيس من حياته

(٩١٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُسْتَنِدٌّ إِلَى يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى» ^(١).

(٩١٧) وعنها قالت: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ بِالْمَوْتِ، عِنْدَهُ قَدْحٌ فِيهِ مَاءٌ، وَهُوَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْقَدْحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ - أَوْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ» ^(٢).

✽ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا مَرَضَ يَعْدِلُ بَيْنَ نِسَائِهِ التَّسْعِ إِلَّا سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ، فَإِنَّمَا وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ ... فَلَمَّا اشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ صَارَ يَقُولُ: «أَيْنَ أَنَا غَدًا، أَيْنَ أَنَا غَدًا؟» يَرِيدُ يَوْمَ عَائِشَةَ فَأَذِنَ لَهُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ) أَنْ يُمَرِّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، وَظَلَّ عِنْدَهَا ﷺ حَتَّى تُوُفِيَ ﷺ.

قال المؤلف رحمته الله في كتابه «رياض الصالحين» باب ما يقوله من أيس من حياته.

✽ فَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ الْيَأْسَ مِنَ الْحَيَاةِ لَا يُعْلَمُ إِلَّا إِذَا حَضَرَ الْمَوْتَ.. أَمَا قَبْلَ ذَلِكَ فَمَهْمَا اشْتَدَّ الْمَرَضُ بِالْإِنْسَانِ يَكُونُ عِنْدَهُ أَمَلٌ فِي الْحَيَاةِ وَذَلِكَ لَمَّا يَرَاهُ مِنْ حَوْلِهِ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ.

فَقَدْ يَكُونُ لَهُ قَرِيبٌ أَوْ صَدِيقٌ أَوْ جَارٌ قَدْ مَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا أَوْ حَصَلَ لَهُ حَادِثٌ كَبِيرٌ وَظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سَيَمُوتُ.. وَإِذَا بِهِ يَشْفِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُرْدِيهِ إِلَى الصَّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

✽ وَهَذَا يُذَكِّرُنَا بِالرَّجُلِ الَّذِي خَرَجَ مُسَافِرًا فِي الصَّحَرَاءِ وَمَعَهُ نَاقَتُهُ وَعَلَيْهَا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤٤٠) كتاب المغازي، ومسلم (٢٤٤٤) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٧٦).

طعامه وشرابه وكل أسباب حياته فانفلتت منه فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت.. وبينما هو على تلك الحالة وإذا به يجد الناقة واقفة بجواره فأخذ بخطامها وقال من شدة الفرح: «اللهم أنت عبدى وأنا ربك» وهو يريد أن يقول: «اللهم أنت ربى وأنا عبدك» لكنه أخطأ من شدة الفرح.

فهذا الرجل أيس من حياته باعتبار الحال الذى حصل له من انفلات الدابة وعليها طعامه وشرابه... ولكن اليأس الحقيقى يكون إذا حضر الموت وصار الإنسان فى النزاع وبداية السكرات.

✽ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ أَىٰ فَهَلَا إِذَا بَلَغَتِ الرُّوحَ الْحُلُقُومَ عِنْدَ مُعَالَجَةِ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿٨٤﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٥﴾ أَىٰ وَأَنْتُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ تَنْظُرُونَ إِلَى الْمَحْتَضِرِ وَمَا يَكَابِدُهُ مِنْ شِدَائِدٍ وَأَهْوَالٍ ﴿٨٦﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٧﴾ أَىٰ وَنَحْنُ بَعْلَمُنَا وَاطْلَاعُنَا أَقْرَبُ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ، وَلَا تَبْصُرُونَ مَلَائِكَتَنَا الَّذِينَ حَضَرُوهُ لِقَبْضِ رُوحِهِ.

قال ابن كثير: ومعنى الآية ملائكتنا أقرب إليه منكم ولكن لا ترونهم كما قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾﴾ (الأنعام: ٦١)^(١) ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ أَىٰ فَهَلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مُجْزِيَيْنَ بِأَعْمَالِكُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ ﴿٨٧﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ أَىٰ تَرُدُّونَ نَفْسَ هَذَا الْمَيِّتِ إِلَى جَسَدِهِ بَعْدَمَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ.

ومعنى الآية: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ وَلَا إِلَهَ يَجْزَىٰ فَهَلَا تَرُدُّونَ نَفْسَ مَنْ يَعِزُّ عَلَيْكُمْ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَإِذَا لَمْ يُمْكِنْكُمْ ذَلِكَ فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمْرَ إِلَىٰ غَيْرِكُمْ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَآمَنُوا بِهِ ^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٠).

(٢) تفسير الخازن (٤/ ٢٧).

✽ فإذا وصل الإنسان إلى اليأس من الحياة واليقين في الموت عند بداية السكرات فماذا يقول؟

تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمعت النبي ﷺ يقول وهو مُسْتَنْدٌ إِلَى: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَالْحَقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى».

✽ قال النبي ﷺ ذلك عند الموت وهو الذي غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فمن باب أولى أن نقولها نحن.

✽ أما قوله « وَالْحَقْنِي بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ».. فَمَنْ هم الرفيق الأعلى؟ .. هم الذى ذكرهم الله فى قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

✽ هكذا قال النبي ﷺ عند موته وهو فى شدة السكرات ... فقد كان النبي ﷺ يُوعَكُ وَيَمْرُضُ مَرَضَ رَجُلَيْنِ.. ولذلك شُدَّ عليه فى المرض وشُدَّ عليه فى النزاع والسكرات من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر والصابرين.

فكان ﷺ يضع يده فى الإناء الذى فيه الماء، ويمسح بذلك وجهه ويقول: «اللهم أعننى على غمرات الموت»، أو قال «على سكرات الموت» أى: أعننى عليها حتى أتحمّل وأصبر وأتروى، ولا يزيغ عقلى، وحتى يُختم لى بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله... لأن المقام مقامٌ عظيم، مقام هول وشدة إذا لم يُعِينِكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيُصَبِّرَكَ فَأَنْتَ عَلَى خَطَرٍ، ولهذا كان يقول: «اللهم أعننى على غمرات الموت» وفى رواية أخرى يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» وصدق النبي ﷺ.

✽ أسأل الله أن يُعِينَنَا جَمِيعًا عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَأَنْ يَرْزُقَنِي وَإِيَّاكُمْ حُسْنَ الْخَاتَمَةِ.



(١٤٨) باب استحباب وصية أهل المريض

ومن يخدمه بالإحسان إليه واحتماله

والصبر على ما يشق من أمره وكذا بالوصية

بمن قرب سبب موته بحد أو قصاص ونحوهما

(٩١٨) عن عمران بن الحصين رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت النبي ﷺ وهي حُبلى من الزنا، فقالت: يا رسول الله، أصبتُ حدًا فأقمه عليَّ، فدعا رسول الله ﷺ وليَّها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعتْ فأيتني بها» ففعل فأمر بها النبي ﷺ فشُدَّتْ عليها ثيابُها، ثم أمر بها فرُجِمَتْ، ثم صَلَّى عليها^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٢٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

لكني أحببت أن أذكر بعض النقاط في هذا الباب:

✽ ففي هذا الباب يوضح الإمام أنه ينبغي للإنسان أن يُحسن إلى المريض وأن يبالغ في الإحسان إليه فوق ما كان يفعله معه عندما كان في وقت الصحة والعافية. وأن يتحمل كل ما يصدر منه من كلمات أو تصرفات قد تضايقه أحياناً.. ويحتسب بذلك الأجر والثواب من الله.. وذلك لأن نفس المريض ضيقة بسبب الآلام التي يشعر بها من شدة المرض.

✽ والإنسان يُثاب على تحمُّله المشقة والأذى من هذا المريض ولا سيما إذا كان هذا الذي يتولاه الإنسان قد وجد سبب موته أو سبب قتله كما ذكر في حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ وهي حُبلى من الزنا - حامل - فقالت: يا رسول الله إنى أصبت حدًا فأقمه عليَّ. تريد من

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٩٦) كتاب الحدود.

الرسول ﷺ أن يُقيم عليها الحد وهو الرجم؛ لأنها مُحَصَّنَةٌ، فدعا النبي ﷺ وليها وقال له: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعْتَ فَائِنِّي بِهَا» فجىء بها إلى رسول الله ﷺ بعد أن وضعت الحمل، ثم أمرها أن تنتظر حتى تفتطم الصبي، فلما فطمته جاءت فأقام عليها الحد وأمر أن تُشَدَّ عليها ثيابها أى: تُحْزَمَ وتُرْبَطَ؛ لئلا تضطرب عند رجمها فتبدو سوءتها - أى عورتها - ثم أمر بها فُرْجَمَتْ وصَلَّى عليها.

❖ أما قوله ﷺ لَوَلِيٍّ الْغَامِذِيَّةِ: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعْتَ فَائِنِّي بِهَا». هَذَا الْإِحْسَانُ لَهُ سَبَابَانِ: أَحَدُهُمَا: الْخَوْفُ عَلَيْهَا مِنْ أَقَارِبِهَا أَنْ تَحْمِلَهُمُ الْغَيْرَةُ وَلُحُوقُ الْعَارِ بِهِمْ أَنْ يُؤْذَوْهَا فَأَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهَا تَحْذِيرًا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. وَالثَّانِي: أَمْرٌ بِهِ رَحْمَةٌ لَهَا إِذْ قَدْ تَابَتْ وَحَرَصَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهَا لِمَا فِي نَفُوسِ النَّاسِ مِنَ النَّفَرَةِ مِنْ مِثْلِهَا وَإِسْمَاعِهَا الْكَلَامَ الْمُؤْذِي وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهَيَّ عَنْ هَذَا كُلَّهُ^(١).

❖ وفي هذا الحديث دليل على أنه لا يُشْتَرَطُ في الإقرار بالزنا أن يتكرر أربع مرات وأن الزاني إذا أقر ولو مرة واحدة وهو عاقل لا اشتباه في حاله، فإنه يُؤْخَذُ بإقراره ويُقَامُ عليه الحد... وفيه أيضًا دليل على أنه يُشْتَرَطُ في إقامة الحد ألا يتعدى الضرر إلى غير المحدود؛ لأنها لو رُجِمَتْ لمات الذي في بطنها، وهو ليس منه جناية؛ ولهذا أمر النبي ﷺ أن تنتظر حتى تضع مولودها وتفتطمه... وفي هذا دليل على أن المرأة لا يُحْفَرُ لها في الرجم ولكن تُرْبَطُ عليها ثيابها ثم تُلْقَى عليها الحجارة... حجارة لا صغيرة ولا كبيرة، حتى تموت... وإنما كان الحد هكذا، لأن الشهوة المحرمة شملت جميع البدن، فناسب أن يذوق جميع البدن ألم العقوبة، وهذا من حكمة الله ﷻ.

وفي هذا دليل: على أن الحدود إذا أُقيمت فإن صاحبها يبرأ منها ويخلص منها ويَطْهَرُ منها... ولهذا أمر النبي ﷺ بها فصلى عليها وصلى الناس أيضًا^(٢).

(١) مسلم بشرح النووي (١١/٢٩٢).

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/٤٨-٤٩) بتصرف.

(١٤٩) باب جواز قول المريض: أنا وجع

أو شديد الوجع أو موعوك أو واراأساه ونحو ذلك،

وبيان أنه لا كراهة في ذلك إذا لم يكن ذلك

على سبيل التسخُّط وإظهار الجزع

❁ هذا باب آخر من كتاب رياض الصالحين للإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ، وفيه جواز قول المريض: أنا وجع، أو شديد الوجع.

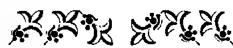
يعنى: أن الإنسان في مرضه يتألم ويتوجع.

وكان بعض الصالحين من السلف لا يحب أن يُظهر التوجع ولا يرفع صوته لإظهاره، وكان البعض يرى ذلك مباحًا جائزًا.

فهنا الإمام النووي يقول: هذا لا كراهة فيه... فلا بأس بقول الإنسان: آه، أو أنا وجع، أو أنا أتألم لكن بشرط ألا يكون ذلك من باب التسخُّط على الله (سبحانه وتعالى).

فالإنسان الذى يتسخط على قضاء الله وقدره يُضيع أجره في ذلك، ولا يملك لنفسه شيئًا إذ قد نزل المرض، ووقع البلاء، ولا يرفعه إلا الله سبحانه وتعالى.

فمن صبر ورضى فله الرضا والأجر، ومن تسخط على ذلك فاته الأجر على ذلك... وإنما الصبر عند الصدمة الأولى.



(٩١٩) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَمَسَسْتُهُ، فَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعَكًا شَدِيدًا، فَقَالَ: «أَجَلْ، إِنِّي أُوْعَكُ كَمَا يُوعَكُ

رَجُلَانِ مِنْكُمْ»^(١).

(٩٢٠) وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه قال: جاءني رسول الله ﷺ يعوذني من وجع اشتدّ بي، فقلتُ: بلغ بي ما ترى، وأنا ذو مالٍ، ولا يرثني إلا ابنتي. وذكر الحديث^(٢).

(٩٢١) وعن القاسم بن محمد قال: قالت عائشة رضي الله عنها: وارأساهُ، فقال النبي ﷺ: «بل أنا وارأساهُ»^(٣) وذكر الحديث.

❁ وهنا استدل المصنف رحمته الله بحديث ابن مسعود وحديث سعد بن أبي وقاص وحديث عائشة رضي الله عنهم.. وكلها تدل على أنه لا بأس أن يخبر الإنسان المريض بأنه مريض أو أنه يتوجع ويتألم بشرط أن يكون ذلك على وجه الإخبار عن حاله وليس من باب الشكوى والتسخط على أقدار الله ﷻ.

❁ ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه يخبر أنه دخل على النبي ﷺ في مرض موته وهو يُوعَك وَعَكًا شَدِيدًا.. وقد ارتفعت حرارته ﷺ وكانت الحمى شديدة عليه ﷺ..

يقول ابن مسعود: فمستته.. أي أنه مسَّ جلد النبي ﷺ ليطمئن عليه فوجد حرارته عالية جدًا فقال له: إنك لتُوعَك وَعَكًا شَدِيدًا يا رسول الله... أي: أن الحمى قد بلغت بك أمرًا شديدًا.

فقال له النبي ﷺ: «أجل».. يعني: نعم.

ثم قال له ﷺ: «إني أُوَعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ» أي: يُشَدَّدُ عليه ﷺ في المرض، وذلك من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٦٧) كتاب المرضى، ومسلم (٢٥٧١) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٥) كتاب الجنائز، ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٥٦٦٦) كتاب المرضى.

فإن أنواع الصبر ثابتة في حقه ﷺ على الوجه الأعلى ... فقد صبر على أمر الله وصبر عن معاصي الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة ﷺ ... صبر على أمر الله حين بلغ رسالة ربه مع شدة الإيذاء له حتى كان يؤذى في وسط البيت الحرام وهو صابرٌ محتسب - حتى إنه خرج إلى أهل الطائف ودعاهم إلى الله ﷻ ولكنهم استهزءوا به وسخروا منه، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه فلم يَفِقْ إلا وهو في مكانٍ يُسمَّى قرن الثعالب ثم جاءه ملك الجبال يستأذنه أن يُطبق عليهم الأخشبين فقال: «لا؛ إني لأرجو الله أن يُخرج من أصلابهم مَنْ يعبد الله ولا يشرك به شيئاً»^(١) فهذا صبرٌ على أمر الله وصبرٌ ﷺ عن معصية الله فكان أخشى الناس لله وأتقاهم له ... وصبرٌ على أقدار الله؛ فكم أُوذِيَ في الجهاد في سبيل الله وفي غير ذلك، وكم حصل له من أمراضٍ وهو صابر محتسب؛ لينال بذلك درجة الصابرين ... فلنا فيه أسوة ... فالإنسان يجب عليه أن يصبر على أقدار الله المؤلمة، كما صبر الرسول ﷺ ... يصبر ويحتسب ويعلم أنه ما من شيء يصيبه إلا كفر الله به عنه خطيئة، حتى الشوكة يُشَاكُهَا، ثم إذا احتسب الأجر عند الله ونوى بذلك أن يكون هذا الصبر لنيل رفعة درجات له حصل له هذا.

فينال بالمصائب مرتبتين عظيمتين:

(١) مرتبة الصابرين على قضاء الله وقدره.

(٢) ينال من رفعة الدرجات مع الاحتساب ما يناله من الثواب^(٢).

❁ وأما حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .. فهو أنه كان قد مرض في مكة -وهو من المهاجرين- وكانوا يكرهون أن يموت الإنسان في بلده الذي هاجر

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣١) كتاب بدء الخلق، ومسلم (١٧٩٥) كتاب الجهاد والسير.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/٤٩-٥٠) بتصرف.



منه.. وذلك لأنه ترك بلده ابتغاء مرضاة الله فيكره أن يعود إليها ويموت فيها..
 وكان النبي ﷺ يعود أصحابه إذا مرضوا ولا ينسى واحداً منهم أبداً.. فعاده
 النبي ﷺ وقد اشتد به الوجع فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله بلغني ما ترى من
 الوجع وأنا ذو مالٍ كثيرٍ ولا يرثنى إلا ابنة لى.. أى: لا يرثه من الذرية إلا بنت
 وإلا فله عصبه (١).. ثم قال للنبي ﷺ أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال ﷺ: «لا».

قَالَ: قُلْتُ: أَفَاتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: «لا.. الثُلُثُ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ
 وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا
 وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللَّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِيِّ أَمْرَاتِكَ» (١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ حَثٌّ عَلَى صَلَةِ الْأَرْحَامِ
 وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقَارِبِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْوَرَثَةِ وَأَنَّ صَلَةَ الْقَرِيبِ الْأَقْرَبِ
 وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَبْعَدِ (٢).

والغالب من الناس اليوم - وقبل اليوم - أنهم يوصون بالثلث مع أن النبي
 ﷺ قال: «الثلث كثير»، وهذا يدل على أنه لا يجب أن يوصى الإنسان بالثلث
 ولكن أخذ الناس ذلك عادة وأصبحوا يوصون بالثلث، ولهذا قال ابن عباس
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: حَبَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الَّذِي دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُفْقَهُهُ اللَّهُ فِي الدِّينِ وَيَعْلَمَهُ التَّوْبِيلُ:
 «لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرَّبْعِ» (٣). يعنى لكان أحسن؛ لأن النبي ﷺ
 قال: «الثلث، والثلث كثير» ولو أن الناس إذا أرادوا أن يوصوا أو صوابا هو نفع
 عام: كبناء المساجد والمدارس، وشراء الكتب النافعة وما أشبه ذلك مما يُنفذ
 في حينه ويجرى أجره ويسلم الورثة أو الموصى لهم من التنازع؛ لكان خيرا.

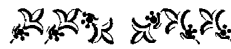
(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز - ومسلم (١٦٢٨) كتاب الوصية.

(٢) مسلم بشرح النووي (١١١/١١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٦٢٩) كتاب الوصية.

❁ وأما حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ وهى تشكو من رأسها: وارأساه، فقال لها النبي ﷺ: «بل أنا وارأساه».. فقد اجتمع في هذا الحديث سُنتان: إقرارية وقولية.. أما السُّنة الإقرارية فإنها تتمثل في إقرار النبي ﷺ عائشة عندما قالت: وارأساه... وأما السُّنة القولية فهي تتمثل في قوله ﷺ: «بل أنا وارأساه».

❁ ومن هنا نعلم أن الإنسان إذا كان به وجع في رأسه أو بطنه أو أى جزء من جسده فقال: «وارأساه.. واطنائه.. وارجلاه» وما أشبه ذلك فإنه لا حرج في ذلك إذا كان على سبيل الإخبار بحاله ولم يقصد بذلك أن يشكو الخالق للمخلوق.. وبخاصة إذا كان يذكر هذا عند الطبيب الذى جاء ليُعالجه.



(١٥٠) باب تلقين المحتضر : لا إله إلا الله

(٩٢٢) عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

(٩٢٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

❁ وهذا بابٌ في تلقين المحتضر: لا إله إلا الله.

والمحتضر: هو الذي تحضره الملائكة، أو هو الذي يحضره أجله. والمقصد منه: أنه في سكرات الموت.

فإن الله سبحانه وتعالى قد وكل بالإنسان ملائكة يحفظونه في حال حياته وبعد مماته... قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وقال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ والإنسان إذا حضر أجله نزل إليه ملائكة يقبضون روحه من يد ملك الموت، فإن ملك الموت يتولى قبضها من البدن، والملائكة معهم كفن وحنوط من الجنة - عطر - إذا كان من المؤمنين - جعلنا الله وإياكم منهم - وأما إذا كان من الكافرين فملائكة العذاب معهم كفن من النار وحنوط من النار - نعوذ بالله من ذلك - فإذا احتضر الإنسان وعلمنا أنه في النزع وأنه ميت؛ فإننا نلقنه «لا إله إلا الله»، كما قال النبي ﷺ: «لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

❁ وهنا يخبر النبي ﷺ أن «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»... وهذه الكلمة كلمة سهلة جداً على المؤمنين، وهي أصعب ما تكون على المنافقين والفجار في وقت الوفاة... قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١٦) كتاب الجنائز.

الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧] أَيْ: يُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ فَيَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْرَحُوا وَتَنْشُرَ صُدُورُهُمْ بِهَا... وَيُثَبِّتُهُمُ وَهُمْ فِي الْقَبْرِ حِينَ يَأْتِيهِمُ الْمَلَكَانِ فَيَسْأَلَانِ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيُثَبِّتُهُ اللَّهُ ﷻ وَيَجِيبُ الْمَلَائِكَةُ بِأَنَّ رَبَّهُ اللَّهُ، وَأَنَّ دِينَهُ الْإِسْلَامَ، وَأَنَّ نَبِيَّهُ مُحَمَّدٌ (صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ).

وهذه الكلمة كلمة عظيمة جداً، ولذلك يقول النبي ﷺ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وكان أعظم الذكر في أعظم المواقف وهو يوم عرفة قول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ... بل اعتبرها النبي ﷺ دعاءً؛ ولذلك يقول النبي ﷺ: «لَقِنَا مَوْتَائِمَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وأخبر أن: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» وذكر في حديث آخر: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِنْ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ».

فمفتاح الجنة هو: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، بشرط أن تأتي بهذه الكلمة العظيمة وبشروط هذه الكلمة... فما من مفتاح إلا وله أسنان، فباب الجنة يُفْتَحُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، وأسنان ذلك المفتاح هي شروطها، بأن تقولها وأنت مُوقِنٌ بذلك، وأن تعلم معناها... إذ لا يكفي أن يقولها الإنسان ولا يدري ما معناها ولا يأبه لها، أو يقولها ويُشْرِكُ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو يقولها نفاقاً ورياءً.

بل لا بد من العلم، واليقين، والقبول، والانقياد، والصدق، والإخلاص، والمحبة، والولاء والبراء، فإذا أتى الإنسان بلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وشروطها تامة استحق أن يكون من أهل الجنة.

وأما إذا قَصَّرَ فِي شَيْءٍ فَأُخِّرَ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ فَهُوَ بِسَبَبِ تَقْصِيرِهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) للشيخ أحمد حطية.



قال القرطبي: قال علماؤنا: تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل بها المسلمون، وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم لهم بالسعادة، وليدخلوا في عموم قوله ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

ومعنى التلقين هو التذكير بالشهادة... وينبغي أن يكون التلقين بكل رحمة وفي لطفٍ ومُداراة، فإذا نطق الشهادة فلا يُكرَّر عليه لئلا يضجر ويتكلم بكلام آخر لا ينبغي فيختم له به... وإذا قالها مرة لا يكرر عليه إلا أن يتكلم بعدها بشيء آخر، فيعاد تلقينه لتكون لا إله إلا الله آخر كلامه^(٢).

ولكن إذا كان الإنسان - والعياذ بالله - كافراً مرتدّاً؛ فهذا ربما نقول له بالأمر: قل لا إله إلا الله، فإن مَنْ الله عليه وقالها فيها ونعمت، وإن لم يقل فهو كافر؛ لأنه مات على غير ملة الإسلام التي لا يقبل الله عز وجل غيرها... لذلك لما حضرت أبا طالب الوفاة وهو عم النبي ﷺ.

وأعمام النبي ﷺ الذين أدركوا الرسالة أربعة: اثنان أسلما: حمزة، والعباس رضي الله عنهما، وأحدهما أفضل من الآخر... حمزة أفضل من العباس... واثنان ماتا على الكفر، أحدهما أقبح كفراً من الآخر: أبو طالب - والد عليّ الذي كان يحب النبي ﷺ ويُدافع عنه... وأبو لهب - والعياذ بالله - من أشد الناس إيذاءً للرسول ﷺ ولهذا أنزل الله في ذمّه سورة كاملة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ولكن أبا طالب - رغم كفره - كان به حُبٌّ للرسول ﷺ وحنان وشفقة ومدافعة وثناء عليه؛ إلا أنه - والعياذ بالله - حيل بينه وبين الإسلام... فعندما حضرته الوفاة - وكان النبي ﷺ عنده -

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) شرح مسلم (٢/ ٥٨٠) والمجموع (٥/ ١١٠) والمغنى (٢/ ٤٥٠).

وعنده رجلان من قريش، فقال له الرسول ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله»^(١) ولكن كان هذان الرجلان جليسي سوء فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟! وكأنهما - والله أعلم - رأياه همَّ أن يقول: لا إله إلا الله، فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلما قال ذلك أخذته العزة بالإثم فقال: هو على ملة عبد المطلب، وكان آخر كلمة منه كلمة الشرك - والعياذ بالله - ثم مات ... يقول الرسول ﷺ إنه شفع له عند الله فخفف عنه العذاب، فكان في ضحضاح من النار قد غاص به، وعليه نعلان من نار يغلى منهما دماغه، والعياذ بالله^(٢).

وأما التلقين بعد الدفن فإنه بدعة لعدم ثبوت الحديث عن النبي ﷺ في ذلك ... ولكن الذي ينبغي أن يُفعل ما رواه أبو داود حيث كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»^(٣)، وأما القراءة عند القبر وتلقينه في القبر فهذا بدعة لا أصل له^(٤).

❖ وقد يسأل سائل ويقول:

لماذا يكون التلقين بـ «لا إله إلا الله» ولم يقل: «محمد رسول الله»؟

والجواب: «تلقينه لا إله إلا الله» ولم يقل: محمداً رسول الله؛ لأن هذا هو الذي ورد فيه الحديث: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»^(٥)، وقال النبي ﷺ: «مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٦). فكلمة التوحيد مفتاح الإسلام، وما يأتي بعدها فهو من مُكملاتها وفروعها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٨٨٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٤) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٥٢/٣).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٤٥).

(٤) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٧٤-٧٥/١٧).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩١٦) كتاب الجنائز.

(٦) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود والحاكم، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٤٧٩).



ولو جمع بين الشهادتين؛ فقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا يمنع هذا من أن يكون آخر كلامه من الدنيا «لا إله إلا الله»؛ لأن الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة تابع لما قبلها ومُتممٌ له، ولهذا جعلها النبي ﷺ مع الشهادة لله بالألوهية ركناً واحداً، فلا يُعاد تلقينه... وظاهر الأدلة أنه لا يكفي قول المحتضر: أشهد أن محمداً رسول الله، بل لا بد أن يقول: لا إله إلا الله^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الشرح الممتع (٥/٢٤٧-٢٤٨) بتصرف.

(١٥١) بَابُ مَا يَقُولُهُ بَعْدَ تَغْمِيزِ الْمَيِّتِ

(٩٢٤) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ، فَأَغْمَضَهُ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ» فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ فَقَالَ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ» ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمُهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقْبِهِ فِي الْغَابِرِينَ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَنُورْ لَهُ فِيهِ» ^(١).

❁ فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَيِّتَ - فِي أَغْلَبِ الْأَحْوَالِ - يَشْخَصُ بِبَصَرِهِ وَيَفْتَحُهُ بِاتِّسَاعٍ وَيَشَاهِدُ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ جَسَدِهِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْجَسَدِ يَكُونُ لَهَا جِسْمٌ يَرَاهُ الْمَيِّتُ وَتَرَاهُ الْمَلَائِكَةُ .. لَكِنْ لَا يَرَاهُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ.

❁ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ مَا زَالَ مَرِيضًا .. وَقَدْ كَانَ مِنْ عَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَزُورَ الْمَرَضَى ... فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَجَدَهُ قَدْ شَقَّ بَصَرَهُ وَانْفَتَحَ وَاتَّسَعَ فَعَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مَاتَ فَقَالَ: «إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ» فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ حُزْنًا عَلَيْهِ لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ ... فَمَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُمْ: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ».

وَكَانَ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ لَهُمْ قَرِيبٌ أَوْ حَصَلَتْ لَهُمْ مَصِيبَةٌ كَانُوا يَدْعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ فَنَهَاَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَذَكَرَ لَهُمُ السَّبَبَ فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ».

❁ وَأَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَحَادِيثٍ أُخْرَى أَنَّنَا نَقُولُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ: «إِنَّا لِلَّهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٢٠) كتاب الجنائز.

وإنَّا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لى خيراً منها»

✽ المهم أن النبى ﷺ أغمض عيني أبى سلمة ﷺ ثم دعا له فقال: «اللهم اغفر لأبى سلمة، وارفع درجته فى المهديين، ونور له فى قبره، وافسح له فيه، واخلفه فى عقبه» خمس كلمات تساوى الدنيا كلها:

«اللهم اغفر لأبى سلمة» يعنى اغفر له ذنوبه فلا تعاقبه عليها وسامحه واعفُ

عنه.

«ارفع درجته فى المهديين» فى الجنة؛ لأن أصحاب الجنة مهديون كلهم.

«افسح له فى قبره» يعنى وسّع له فيه؛ فإن القبر بالنسبة لمنازل الدنيا ضيقٌ جداً...

لكنه يُفسّح للمؤمن حتى يكون كمدّ البصر، ويكون روضة من رياض الجنة.

«نور له فيه» والقبر مُظلم بحسب الحسّ... ليس فيه نور النهار ولا نور

السراج وغيره.

«واخلفه فى عقبه فى الغابرين» أى: كُنْ يا الله خليفة له فى ذريته فاحفظهم

بحفظك فى دينهم ودنياهم ولا تُحوجهم إلى أحدٍ أبداً.

وإنك مهما تختار من رجل ليخلفك على أولادك فلن يكون رجلاً كاملاً...

إذ كل إنسان فيه نقص، أو لعله يقوم بالأمر الذى تريده ولعله لا يقوم... وأما أن

يكون الله هو مَنْ يَخْلُفُكَ على أولادك فإنه يكفيك سبحانه، وكفى بربك سبحانه

حافظاً ووكيلاً وخليفة على أهلك (سبحانه وتعالى).

وقوله: «فى الغابرين» من غبر بمعنى: مَنْ بقى فى عقبه، أى: فكن أنت يا ربنا

الوكيل والمتكفل بأمرهم، والمدير لشئونهم، والحافظ والراعى لهم.

«واغفر لنا وله يا رب العالمين» فالإنسان لا ينسى نفسه من الدعاء أن يغفر

الله له فى وقت الموت؛ لأن الملائكة تُؤمّن على الدعاء... فادعُ لنفسك بالخير.

«وافسح له فى قبره ونور له فيه» أى: وسّع له فى ذلك القبر الضيق...

فالقبر الذي نراه ضيقاً يُفْسَحُ للمؤمن حتى يكون لبعض المؤمنين سبعين ذراعاً في سبعين ذراعاً.. ويكون لبعضهم مئسراً كمد البصر.. بل ويُفَرَّش من الجنة ويلبس الميت من ثياب الجنة.. كما جاء في الحديث: «صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ طَيِّبِهَا، وَرَوْحِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»^(١).

✽ ولذا فإنه ينبغي إذا حضرنا موت أحد أحبائنا أن ندعو له بتلك الدعوات المباركة التي دعاها النبي ﷺ لأبي سلمة رضي الله عنه.. وألا ندعوا على أنفسنا إلا بخير لأن الملائكة حاضرة في ذلك الوقت تُؤمِّن على ما نقول.. أى أنهم يقولون: آمين...

وأن نُغْمِض عين الميت بمجرد موته ما دام حاراً.. لأنه إذا برد جسده ستظل عيناه شاخصتان.. وينبغي أن نحرص على غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه وفق ما جاء في سنة الحبيب المصطفى ﷺ.



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

(١٥٢) باب ما يقال عند الميت

وما يقوله من مات له ميت

(٩٢٥) عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَضَرْتُمْ الْمَرِيضَ، أَوِ الْمَيِّتَ، فَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ» قالت: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ، قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ، وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عَقْبِي حَسَنَةً» فَقُلْتُ: فَأَعْقِبْنِي اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْهُ: مُحَمَّدًا ﷺ ^(١).

رواه مسلم هكذا: «إِذَا حَضَرْتُمْ الْمَرِيضَ» أَوْ «الْمَيِّتَ» عَلَى الشَّكِّ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ: «الْمَيِّتَ» بِلَا شَكٍّ.

(٩٢٦) وَعَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرُنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» قالت: فَلَمَّا تَوَفَّى أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ^(٢).

❖ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ تُخْبِرُ أَمَّا سَلَمَةُ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَيِّتَ أَوِ الْمَرِيضَ فَقُولُوا خَيْرًا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُؤْمِنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ» وَمَعْنَى يُؤْمِنُونَ: يَقُولُونَ آمِينَ، وَآمِينَ مَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ، (فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أَبَا سَلَمَةَ قَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قُولِي: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلَهُ، وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عَقْبِي حَسَنَةً». أَيْ: أَخْلَفْ عَلَيَّ مِنْ وَرَائِهِ الْخَلْفَ الْحَسَنَ أَوِ الْعُقْبَى الْحَسَنَةَ... وَهُوَ بِمَعْنَى: عَوَّضْنِي عَنْهُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١٩) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩١٨) كتاب الجنائز.

عوضًا حسنًا.

قالت: فأعقبني الله مَنْ هو خيرٌ لى منه، وقد كانت متعجبة: مَنْ خيرٌ من أبى سلمة؟ وما كان يخطر ببالها أن يتزوجها النبى صلوات الله وسلامه عليه... ولذلك لما نظرت فى الصحابة رأت أن زوجها فى عينيها أفضل شخصٍ فيهم، ولم يخطر ببالها النبى ﷺ... فلما قالت ذلك كان الزوج الذى بعد أبى سلمة هو سيدنا رسول الله (صلوات الله وسلامه عليه).

قالت: «فأعقبني الله مَنْ هو خيرٌ لى منه: محمدًا ﷺ».

❦ وفى الرواية الأخرى أنها ﷺ قالت: أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ تُصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى - أى: أعطنى الأجر فى هذه المصيبة - وأخلف لى خيرًا منها، إلا أجره الله - أى: أعطاه الأجر فى مصيبتة - وأخلف له خيرًا منها».

قالت: فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيرًا منه: رسول الله ﷺ «هذا الحديث فيه زيادة قول: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، وهى كلمة تُطمئن العبد وتجعل نفسه هادئة غير مثارة.

وهى تعنى: أننا لله سبحانه، فهو يملكننا سبحانه، وهو الذى أخذ هذا وسيأخذنى كما أخذه، فكلنا راجعون إليه سبحانه.

فإذا تذكر الإنسان هذا اطمأنت نفسه بالرجوع إلى الله ﷻ.. وبذكر الله كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الزمر: ٢٨).

❦ ولقد كان أبو سلمة ﷺ واحدًا من أفذاذ الرجال الفضلاء الذين يُدركون معنى الحياة الكريمة... فقد أوصى زوجته أم سلمة وصية كريمة جعلتها من سادات النساء، بل أم المؤمنين.

ذكرت المصادر الوثيقة أن أم سلمة قالت لأبى سلمة ﷺ: بلغنى أنه ليس

امرأة يموت زوجها، وهو من أهل الجنة، ثم لم تزوج إلا جمع الله بينهما في الجنة، فتعال أعاهدك ألا تزوج بعدى، ولا أتزوج بعدك.

قال أبو سلمة: أتطيعيني؟

قالت أم سلمة: نعم.

فقال: إذا متُّ تزوجى.

ثم رفع يديه داعياً لله ﷻ: اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى لا يحزنها ولا يؤذيها.

وقضى أبو سلمة ﷺ نحبها، فلما مات قالت أم سلمة ﷺ: من خير من أبى سلمة؟

ولم تلبث أم سلمة ﷺ حتى جاء من هو خير من أبى سلمة... جاء رسول الله ﷺ.

فغن أم سلمة ﷺ قالت: لما توفى أبو سلمة، أتيت النبى ﷺ فقلت: كيف أقول؟

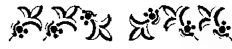
قال: «قولى: اللهم اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة فقلتُها»، فأعقبني الله من هو خير لى منه: محمداً ﷺ.

لما انقضت عدة أم سلمة ﷺ، تقدم إليها أبو بكر الصديق وخطبها، فلم تتزوجه، وردته فى رفق... ثم تقدم إليها عمر الفاروق يخطبها فردته بحجة أنها مُسنة، وأن معها أولاداً صغاراً.

وبعث إليها رسول الله ﷺ يخطبها، فإذا بالنشوة تملؤها من الرأس إلى القدم، فهو شرفٌ عظيم كريم أن تصبح زوج رسول الله ﷺ وتغدو أم المؤمنين... ولكن، مرت بخيالها عائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر، وهما شابتان عند رسول الله ﷺ، فتحرّكت إذ ذاك غيرتها، وبعثت إلى رسول الله ﷺ بقولها: إنى



امراً غَيْرِي^(١)، ومُسْتَنَةً^(٢)، وإنِّي مُصِيبَةٌ^(٣)، وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً^(٤).
 وبعث إليها رسول الله ﷺ بأنه سيدعو الله ﷻ أَنْ يُذْهِبَ غَيْرَتَهَا^(٥)؛ وأنَّ سِنَّهَ
 أكبر من سِنِّها، وأنَّ الله ﷻ سَيَكْفِيهَا صَبِيانَهَا، وهم على الله ورسوله، وأما
 أولياؤها؛ فليس أحد منهم إلا سيرضى رسول الله ﷺ.
 وعند ذلك قالت لابنها: قُمْ فزوّج رسول الله ﷺ فزوّجها وكان هذا
 الزواج الميمون المبارك في شهر شَوَّال من السنة الرابعة من الهجرة النبوية
 الشريفة^(٦).^(٧)



(٩٢٧) وعن أبي موسى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ
 اللَّهُ تَعَالَى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقول: قَبِضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟
 فيقولون: نَعَمْ. فيقول: فَمَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فيقولون: حَمَدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فيقول الله
 تَعَالَى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(٨).

❁ فلله سبحانه أن يبتلى مَنْ يشاء من عباده بما يشاء سبحانه، لا مُعَقَّبَ
 لحُكْمِهِ، ولا رَادَّ لقضائه، ولا غَالِبَ لأمره تبارك وتعالى... والأصل أن الإنسان
 لا يتمنى المصيبة، كما قال النبي ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو ولكن إذا لقيتموه

(١) غَيْرِي: كثيرة الغيرة.

(٢) مُسْتَنَةً: كبيرة السن.

(٣) مُصِيبَةٌ: ذات صبيان وأولاد صغار.

(٤) أى ليس أحدٌ من محارمى شاهداً.

(٥) من الجدير بالذكر أنه: كان أزواج النبي ﷺ يتحاكمن إلى أم سلمة لعلمهن ببراءتها من الغيرة.

(شذرات الذهب ١/ ٢٨٠).

(٦) للحديث أصل عند الإمام أحمد في المسند (٦/ ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٧) وعند النسائي (٦/ ٨١).

(٧) نساء أهل البيت / د. أحمد خليل جمعة (ص ٢٤٢-٢٤٣) بتصرف.

(٨) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٧٩٥).

فأثبتوا»، لكن إذا نزلت المصيبة فعلى الإنسان أن يتصبر ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَآبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ففى هذا الحديث: أن العبد إذا ابتلاه الله فمات له ولد - ابنه أو ابنته - فالله ﷻ يسأل الملائكة وهو أعلم (سبحانه وتعالى)، ويريد أن يُباهى بعبدته هذا أمام الملائكة، وأن هذا العبد يستحق الرحمة، ويستحق المدح. فأنتم قلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكن انظروا ماذا فعل؟ فالله يسأل الملائكة - وهو أعلم سبحانه - يقول: «قبضتم ولد عبدى؟ فيقولون: نعم.

فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟»، فأعلى شىء عند الإنسان هو ثمرة قلبه وفؤاده... أقبضتموه؟ فتقول الملائكة: نعم.

فيقول الله: «فماذا قال عبدى؟» وهو أعلم سبحانه، ولكن أراد سبحانه أن يُباهى بعبدته هؤلاء الملائكة... فتقول الملائكة لله تبارك وتعالى: «حَمْدُكَ واسترجع» يعنى: قال: الحمد لله، إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون... فيقول الله (سبحانه وتعالى): «ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وَسَمُّوهُ بيت الحمد»، وهذا علامة على حمد هذا العبد وعلى صبره... فيجعل الله ﷻ له بيتاً يليق بصبره على هذه المصيبة العصيبة... وليس أى بيت ولكنه بيتٌ فى الجنة ومن قصور الجنة العظيمة... ثم إنهم ميَّزوا هذا البيت بهذه التسمية: بيت الحمد، فمن يحمد الله (سبحانه وتعالى) فالله يعطيه الأجر العظيم.

فإذا أنعم الله ﷻ على عبدٍ بنعمة فحمده العبد كان هذا الحمد من العبد أحب إلى الله من النعمة التى أعطاها لعبده، وهذا كله من فضل الله (سبحانه وتعالى)، وهذه نعمة وهذه نعمة، وكله من الله... فالله هو الذى رزق العبد المال والطعام والشراب والولد وقبل ذلك كله رزقه الإيمان، وهو الذى وفق العبد لهذه الكلمة، ودلَّه عليها، وهدها إليها... إذاً فهما نعمتان من الله: نعمة الرزق، ونعمة الحمد.

فإذا مات للإنسان ولد أو حبيب وقال: الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون؛ فإن الله عز وجل يجعل لهذا الذي توفي ابنه بيتاً في الجنة ويُسميه بيت الحمد، ويباهي الملائكة بهذا العبد الذي حمده الله واسترجع^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٢٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٢٩) وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إليه تدعوه وتُخبره أن صبيّاً لها أو ابناً في الموت فقال للرسول: «ارجع إليها، فأخبرها أن الله تعالى ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجلٍ مسمى، فمرها، فلتصبر ولتحتسب»^(٣) وذكر تمام الحديث.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ أحمد حطية.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(١٥٣) باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة

❁ أَمَّا النِّياحَةُ فَحَرَامٌ ... وسيأتى فيها باب فى كتاب النَّهْيِ، إِنْ شاءَ اللهُ تعالى .
وَأَمَّا البُّكَاءُ فَجاءَتْ أَحاديثُ كَثيرةٌ بالنَّهْيِ عَنْهُ، وَأَنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ،
وهى مُتَأَوَّلَةٌ وَمَحْمُولَةٌ عَلَى مَنْ أَوْصَى بِهِ، وَالنَّهْيُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ البُّكَاءِ الَّذِى فِيهِ نَدْبٌ
أَوْ نِياحَةٌ ... والدَّلِيلُ عَلَى جِوازِ البُّكَاءِ بغيرِ نَدْبٍ وَلَا نِياحَةٍ أَحاديثُ كَثيرةٌ، منها:
(٩٣٠) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، وَمَعَهُ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،
فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذَّبُ
بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذَّبُ بِهِذَا أَوْ يَرَحِمُ» وأشار إلى لسانه^(١).

❁ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ فِراقَ الإنسانِ لأَحِبَّاهِ صَعْبٌ وَشَدِيدٌ عَلَى النَفْسِ ..
وهنا يجد الإنسان نفسه باكيًا وحزينًا على مَنْ مات من أَحِبَّاهِ .. وهذا دليلٌ على
الرَّحْمَةِ الَّتِى فى قَلْبِ هَذا الإنسانِ وَرِقَّةِ قَلْبِهِ .. وهذا لا بأس به ما لم يكن
مصحوبًا بنَدْبٍ أَوْ نِياحَةٍ.

فالندب هو أن يقوم بتعداد محاسن الميت إذا بكى ... يبكى ويقول: هذا
فلان الذى يأتى لنا بكذا وكذا، ويدافع عنا.... وما أشبه ذلك، أو يقول:
وأبته... وأما النياحة فهى البكاء برنة كنوح الحمام، فهذا هو المحرم.
وقد لعن النبى ﷺ النائحة.

❁ وفى هَذا الحديث يحكى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ بِمَرَضِ سَعْدِ ابْنِ
عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَذَهَبَ إِلَيْهِ يَعودُهُ وَمَعَهُ بَعْضُ الصَّحابةِ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فى غَشِيَةٍ
(أُغْمِيَ عَلَيْهِ) كَمَا فى الرِوايةِ الأُخرى الَّتِى رَوَاهَا مُسْلِمٌ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ
فى غَشِيَةٍ، فَقَالَ: «أَقْدَقَضَى؟» قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ ... فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٠٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٤) كتاب الجنائز.



رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهِذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ».

يعنى أن الله لا يعذب بالبكاء أو بالحزن لكن يُعَذِّبُ بالقول والصوت أو يَرْحَمُ... فمثلاً إذا أُصِيبَ الإنسان بمصيبة، وقال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون مؤمناً بها قلبه... مؤمناً بأن الله مُلْكًا وتقديرًا وتدبيرًا وأنا راجعون إليه في أمورنا كلها وسنلاقه يوم القيامة... إذا آمَنَ بهذا، وقال ما في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا اللهم أجرنى في مصيبتى واخلف لى خيراً منها... فهذه يُوجَرُ عليها الإنسان... أما إذا جعل يقول: واجبلاه، واويلاه، واثبوراه، وما أشبه ذلك، فإن هذا يُعَذِّبُ به والعياذ بالله.

❁ فالنياحة مُحَرَّمَةٌ وَلَا تَجُوزُ ولهذا نهى النبى ﷺ المرأة عن النياحة فقال: «لَيْسَ مَنَّا مَن لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

وفى الصحيحين أن النبى ﷺ برئ من الصالقة^(٢) والحالقة^(٣) والشاقة^(٤). وقال: «النائحة إذا لم تُتَّبَ قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قَطْرَانٍ ودرعٌ من جَرَبٍ»^(٥). وفى رواية: «... وإن النائحة إذا لم تُتَّبَ قبل أن تموت فإنها تُبعث يوم القيامة عليها سرايل من قَطْرَانٍ ثم يُغلى عليها بدروعٍ من لهب النار»^(٦). وقال ﷺ: «لعن الله الخامسة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور»^(٧).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٤) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

(٢) الصالقة: هى التى ترفع صوتها عند المصيبة.

(٣) الحالقة: هى التى تحلق شعرها عند المصيبة.

(٤) الشاقة: هى التى تشق ثوبها عند المصيبة.

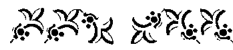
(٥) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز.

(٦) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه العلامة الألبانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى صحيح الجامع (٦٨٠٩).

(٧) حسن: رواه ابن ماجه، وابن حبان، وحسنه العلامة الألبانى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى صحيح الجامع (٥٠٩٢).

(٩٣١) وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن أخته وهو في الموت، ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١).

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(٩٣٢) وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه وهو يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذر فان. فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإننا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(٢).

والأحاديث في الباب كثيرة في الصحيح مشهورة، والله أعلم.

قال الإمام النووي رحمته الله: فيه جواز البكاء على المريض والحزن وأن ذلك لا يخالف الرضا بالقدر بل هي رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما المذموم الندب والنياحة والويل والثبور ونحو ذلك من القول الباطل ولهذا قال ﷺ: «ولا نقول إلا ما يرضى ربنا»^(٣).

وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ علم أن ابنه إبراهيم رضي الله عنه في النزع الأخير.. وكان طفلاً صغيراً قد بلغ من العمر ستة عشر شهراً... ولم يكن إبراهيم من خديجة زوجة النبي ﷺ بل كان من مارية القبطية التي أهداها له المقوقس ملك القبط فسراها النبي ﷺ - أي وطئها بملك اليمين - فأتت له بهذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) كتاب الفضائل.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٥/١٠٩).

الولد فكان النبي ﷺ يحبه حباً شديداً.. لكن عاش ستة عشر شهراً ومات.. فلما دخل عليه النبي ﷺ ورآه وهو في النزع الأخير بكى الحبيب المصطفى ﷺ وذرفت عيناه الدموع حزناً على ابنه الصغير ورحمة به وشفقة عليه... فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟

فقال عليه السلام: «يا ابنَ عوفٍ إنها رحمةٌ» ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضَى رَبَّنَا، وَإِنَّا لِفَرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» ثم توفي إبراهيم رضي الله عنه وله ستة عشر شهراً... وأخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل جعل لإبراهيم مريضاً تكمل رضاعه في الجنة.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، قَالَ: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لَهُ مَرَضِعًا فِي الْجَنَّةِ»^(١).

ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ أصابه مثل ما يصيب الناس، من أقدار الله المؤلمة، كالمرض والجوع وفراق الأحباب... وما أصابه في هذا الحديث هو موت الولد المُحَبَّب إلى الوالد، خاصة إذا لم يكن عنده غيره، فصبر صبراً جميلاً، وهو الصبر الذي لا نياحة فيه، ولا شكوى ولا جزع ولا اعتراض على قضاء الله وقدره.

فدَلَّ ذلك على أن الإنسان لا حرج عليه إذا بكى رحمة بالميت وحزناً على فراقه... فإن الرسول قال هنا إنه محزونٌ على فراق ابنه.

وفيه أيضاً دليل: على جواز إخبار الإنسان عن نفسه بأنه محزون من هذه المصيبة؛ لأنه ﷺ قال: «القلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا، وَإِنَّا لَفَرَاقُكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ» وفيه دليل على أن النبي ﷺ يموت له الولد ويتألم لذلك وأنه يلحقه ما يلحق البشر، فكان له من الأولاد سبعة: ثلاثة ذكور، وأربع إناث،

(١) صحيح: رواه البخاري (٦١٩٥) كتاب الأدب.

وأشهر الذكور هو إبراهيم عليه السلام أما الإناث فأفضلهن فاطمة، وهى مع على ابن أبى طالب عليه السلام وزينب امرأة أبى العاص بن الربيع، وأم كلثوم ورقية كانتا مع عثمان بن عفان ... لما ماتت إحداهما زوجه النبى صلى الله عليه وسلم الثانية، ولم يُزوج الرسول صلى الله عليه وسلم أحدًا من صحابته ابنتين إلا عثمان ... فتميز عثمان رضي الله عنه بأن الرسول زوجه ابنتيه، لكن بعد أن ماتت رقية زوج بأم كلثوم.

أما أولاده فهم: القاسم، وعبد الله وإبراهيم، لكن الذى اشتهر وبقي مدة هو إبراهيم، وكل هؤلاء من خديجة رضي الله عنها إلا إبراهيم، فإنه من مارية القبطية ... ولم يبقَ أحدٌ من أولاده لا ذكورهم ولا إناثهم بعد موته إلا فاطمة، فقد ماتوا جميعًا فى حياته ... وهذا من حكمة الله عز وجل فإنه لا أحد يستطيع أن يدفع الموت، ولو كان أعظم الناس جاهًا عند الله ... حتى النبى صلى الله عليه وسلم ^(١).

❖ وهنا تبقى مسألة فى غاية الأهمية .. ألا وهى:

هل يصح حديث: «إن الميت ليُعَذَّبُ ببكاء الحى»؟ وما المراد بالبكاء فى هذا الحديث؟ وما هى أقوال أهل العلم فيه من ناحية الفقه؟

والجواب: نعم يصح هذا الحديث وهو بهذا اللفظ فى الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم.

أما المراد بالبكاء فى هذا الحديث، فقد نقل النووى رحمته الله الإجماع على أن المراد بالبكاء فى الحديث هو البكاء بصوتٍ ونياحة .. فقال رحمته الله: وأجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم على أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوتٍ ونياحة لا مجرد دمع العين.

❖ أما أقوال أهل العلم فيه فما هى بعض أقوالهم:

قالت عائشة رضي الله عنها لما بلغها هذا الحديث: إنما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣ / ٩٥).

يبكى عليها أهلها فقال: «إنهم ليكون عليها، وإنها لتُعَذَّب في قبرها».

ثبت ذلك عن عائشة رضي الله عنها في الصحيحين واستدلت بأن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه»، وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧] ^(١).

وأيدها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قولها مُستدلاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: ٤٣].

(١) ذهب جمهور أهل العلم إلى أن الذي يُعَذَّب ببكاء أهله عليه هو مَنْ أوصى أن يبكى عليه ويُنَاح عليه بعد موته فنفذت وصيته، فهذا يُعَذَّب ببكاء أهله ونوحهم عليه؛ لأنه بسببه ومنسوب إليه.

قالوا: فأما مَنْ بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه، فلا يُعَذَّب لقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧] ... قالوا: وكان من عادة العرب الوصية بذلك، ومنه قول طرفة بن العبد:

إذا مُتُّ فانعيني بما أنا أهله وشُقِّي على الجيب يا ابنة معبد

(٢) ما ذهب إليه البخاري حيث بَوَّب باباً بعنوان: قول النبي ﷺ: «يُعَذَّب الميت ببعض بكاء أهله عليه»، إذا كان النوح من سُنَّته ... لقول الله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، وقال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» فإذا لم يكن من سُنَّته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧].

(٣) يُعَذَّب بنظير ما يبكيه أهله به، وذلك أن الأفعال التي يعددون بها عليه غالباً تكون من الأمور المنهية ... فهم يمدحونه، وهو يُعَذَّب بصنيعه ذلك وهو عين ما يمدحون به.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٩) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٢) كتاب الجنائز.

- (٤) أن المراد بالتعذيب هو تألم الميت مما يحدثه أهله.
- (٥) أنه يُعَذَّب لتقصيره في تعليم أهله مما أدى بهم إلى إحداث ذلك فهو مسؤول عن رعيته^(١).
- ❁ قلت: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه إذا أوصاهم بذلك أو علم أنهم سيفعلون ذلك ولم يوصهم بترك النياحة عليه ... أما إذا أوصاهم بترك النياحة عليه فلا يعذب ببكائهم عليه - والله أعلم -.



(١) جامع أحكام النساء (٥/ ١١٩، ١٢٠) بتصرف.

(١٥٤) بَابُ الْكَفِّ عَمَّا يَرَى مِنَ الْمَيِّتِ مِنْ مَكْرُوهِ

(٩٣٣) عَنْ أَبِي رَافِعٍ أَسْلَمَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَسَلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً»^(١).

وها هو الحديث كاملاً:

قَالَ ﷺ: «مَنْ غَسَلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيْهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّةً، وَمَنْ كَفَّنَ مَيِّتًا كَسَاهُ اللَّهُ مِنَ السُّنْدُسِ وَإِسْتَبْرَقِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ حَفَرَ لَمَيِّتٍ قَبْرًا فَأَجَنَّهُ فِيهِ أُجْرِي لَهُ مِنَ الْأَجْرِ كَأَجْرِ مَسْكِنٍ أَسْكَنَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

❖ لا بد أن نعلم أولاً أن الذي يتولى غُسل الميت قد يرى من الميت شيئاً يتعلق بحاله أو شيئاً يتعلق بجسده.

فأما الذي يتعلق بحاله: كأن يرى أن الميت قد تغير وجهه واسودَّ لونه وأصبح قبيحاً... وهذا دليل على سوء الخاتمة - عافانا الله وإياكم - فينبغي هنا أن يستر عليه ولا يحل له أن يفضحه بين الناس ويقول لهم: إني قد رأيت كذا وكذا... فإن الرجل قد قَدِمَ على ربه وسوف يُجازيه بما يستحق من عدلٍ أو فضل.. فإن كان قد عمل خيراً فإن الله يجزيه على الحسنه بعشر أمثالها وإن كان قد عمل سيئة فقد قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾.

وأما إن رأى الغاسل خيراً على الميت كأن يراه مبتسماً مستنيراً الوجه فعليه أن يُخبر الناس بذلك ليسرهم ولتكثر الدعوات من الناس لهذا الميت وليكون ذلك حافزاً للناس على فعل الطاعات طمعاً منهم في الفوز بمثل ذلك عند الموت.

❖ وأما بالنسبة لجسد الميت.. فإذا رأى الغاسل عيباً في جسد الميت كأن

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٤٩٢).

يكون به برص أو غير ذلك فيجب عليه أن يستره ولا يحدث الناس بذلك.

✽ أما إذا كان هذا الميت من الأشرار الذين اشتهروا بالمجاهرة بالذنوب والمعاصي ومحاربة الإسلام والمسلمين والقذح في ثواب الدين وغير ذلك.. فمثل هذا يستحق أن يفضح إذا رأى الناس منه شيئاً حتى يكون عبرة للخلق.. فيرتدع كل من تسول له نفسه بأن يفعل مثله -والعياذ بالله-.

✽ قال ابن قدامة في المغنى:

وَيَنْبَغِي لِلْغَاسِلِ، وَلِمَنْ حَضَرَ، إِذَا رَأَى مِنْ الْمَيِّتِ شَيْئاً مِمَّا يُحِبُّ الْمَيِّتُ سِتْرَهُ، أَنْ يَسْتُرَهُ، وَلَا يُحَدِّثَ بِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). وَإِنْ رَأَى حَسَنًا مِثْلَ أَمَارَاتِ الْخَيْرِ، مِنْ وَضَاءَةِ الْوَجْهِ، وَالتَّبَسُّمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، أَسْتَحَبَّ إِظْهَارُهُ، لِيَكْثَرَ التَّرَحُّمُ عَلَيْهِ، وَيَحْصُلَ الْحَثُّ عَلَى مِثْلِ طَرِيقَتِهِ، وَالتَّشَبُّهُ بِجَمِيلِ سِيرَتِهِ^(٢).

✽ قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي الدِّينِ وَالسُّنَّةِ، مَشْهُورًا بِبِدْعَتِهِ، فَلَا بَأْسَ بِإِظْهَارِ الشَّرِّ عَلَيْهِ، لِتُحَذَّرَ طَرِيقَتُهُ. وَعَلَى هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَمَ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنْ أَمَارَاتِ الْخَيْرِ؛ لِئَلَّا يَغْتَرَّ مُغْتَرٌّ بِذَلِكَ، فَيَقْتَدِيَ بِهِ فِي بِدْعَتِهِ^(٣).

✽ إِذَا: فَالتَّحَدَّثُ بِمَا يَحْدُثُ لِلظُّلْمَةِ مِنْ انتِقَامِ اللَّهِ ﷻ وَكَسْرِه إِياهم جَائِزٌ... وَلَمْ يَنْكَرِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّحَابَةِ ذَلِكَ.

ولكن عندما يرد الأمر بذكر محاسن الموتى، فهذا يُراد به الإنسان المؤمن، أو الإنسان الذي ستر نفسه ولم يفضحها... أما الفاسق صاحب المعاصي الذي يموت على ذلك، فيُحذَّر الناس من عمله... كأن نجد رجلاً يرقص ويشرب

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٢) كتاب المظالم، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة.

(٢) والمستند لذلك هو قول علي ﷺ: «لَمَّا غُسِّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ...وَكَانَ طَيِّبًا حَيًّا وَمَيِّتًا...».

(٣) المغنى (٢/٤٥٦).

الخمر والحشيش بالليل ثم يصبح ميتاً، فهذا يُخبر الناس عنه؛ حتى يتعظوا من هذه النهاية الأليمة التي حصلت لهذا الإنسان فلا يفعلون فعله.

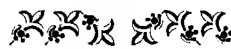
إذاً: هنا فرق بين أن تستر على ميت بأشياء عادية تحدث منه ومن غيره ولكنها قد تكون شيئاً من الأذى، بحيث أنه يتأذى بها الحي أن يُذكر عن ميتة مثل هذا، فهذا شيء ... وأن يكون الميت إنساناً مجرماً ظالماً فاسقاً كافراً يعصى الله ﷻ، ويحارب دين الله سبحانه، فيجعله الله عبرة حتى يتحدث الناس بآية من آيات الله ﷻ نزلت به فهذا شيء آخر وهو جائز.

وليس الأجر العظيم مقصوراً على تغسيل الميت فقط، ولكن الحديث طويل.

قال ﷺ: «وَمَنْ كَفَّنَهُ كَسَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ الْجَنَّةِ». أي: مَنْ كَفَّنَ ميتاً كساه الله سبحانه وتعالى من سُندُسٍ وإِسْتَبْرَقٍ الجنة، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى.

وانظر عندما يكون الناس يوم القيامة عرايا حيث يقومون من قبورهم حُفاة عُرَاة غُرُلًا، فإذا بالله يكسو هذا الإنسان في يومٍ يتعري فيه الخلق؛ لكونه كَفَّنَ إنساناً مؤمناً توفي.

وفيه: «مَنْ غَسَّلَ مسلماً فكَتَمَ عليه غفر الله له أربعين مرة، وَمَنْ حَفَرَ لَهُ فَأَجَنَّهُ» أَجَنَّهُ أي: أخفاه وواراه بمعنى: دفنه... قال: «جَرَى عليه كأجر مسكينٍ أَسْكَنَهُ إِيَّاهُ إلى يوم القيامة»، فالمقبرة التي تجعلها للناس كلما دُفِنَ فيها إنسان كان لك أجر ذلك، وكأنك استأجرت له منزلاً إلى يوم القيامة. والأجر عند الله ﷻ يوم القيامة^(١).



(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطية.

(١٥٥) باب الصلاة على الميت وتشيعه

وحضور دفنه وكراهة اتباع النساء الجنائز

(٩٣٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ» قيل: وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ»^(١).

(٩٣٥) وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلِّيَ عَلَيْهَا وَيُفْرَغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الْأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ»^(٢).

(٩٣٦) وَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «نُهِينَا عَنِ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمْ عَلَيْنَا»^(٣).

✽ ينقضى أجل الإنسان في الحياة الدنيا بالموت، وتنطوي بذلك صفحة عمله، وبذلك ينتقل إلى الدار الآخرة، فيعرض على الله تعالى بعمله حسنًا كان أو سيئًا، ويجد من الأهوال ما الله تعالى به عليم... وعندها يكون المرء بحاجة شديدة إلى ما يرحمه الله تعالى به... وقد شرع لنا أن نصلي على الميت صلاة مقصودها الدعاء له والاستغفار بجملة من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، وبالكيفية المعلومه في صلاة الجنابة، لعل الله تعالى أن يرحم الميت ويقبل فيه شفاعة المصلين عليه.

✽ قال المؤلف رحمته الله في كتابه «رياض الصالحين»: باب الصلاة على الميت وتشيعه وحضور دفنه... يعنى: استحباب ذلك للرجال وكراهته للنساء.

الجنابة - بالفتح - اسمٌ للميت... والجنابة - بالكسر - اسمٌ للنعش الذى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٢٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٥) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٧) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٧٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٨) كتاب الجنائز. ومعناه: ولم يُشَدَّدْ فى النهى كما يُشَدَّدُ فى المحرمات.

يُحْمَلُ عَلَيْهِ الْمَيِّتُ.

❁ وفي الحقيقة أن الصلاة على الميت وتشيعه وشهود الدفن له حكمة عظيمة .. فإنه كلما كَثُرَ الْمُشَيِّعُونَ كَثُرَتِ الدَّعَوَاتُ الصَّالِحَةُ لِلْمَيِّتِ .. ولذا كان الحبيب ﷺ إذا حضر جنازة كان يوصي أصحابه بكثرة الدعاء والاستغفار لأخيهم الذي تُوفى فيقول: «استغفروا لأخيكم وَسَلُّوا لَهُ التَّثْيِثَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»^(١).. ولك أن تتخيل هذا المشهد الإنساني عندما يجد أهل الميت أناسًا لا يعرفونهم يأتون إليهم ويحضرون صلاة الجنازة والدفن ويدعون لقريبهم الذي مات .. هنا يسأل الإنسان نفسه ما الذي جاء بهم؟! وسيأتيه الجواب في التو واللحظة .. إنها الأخوة والمحبة في الله التي جمعت القلوب على «لا إله إلا الله».

❁ وكذلك لا بد لكل مسلم أن يتفكر في حاله ومآله وأنه مهما طال به العمر فلا بد أن يأتي عليه يوم يُحْمَلُ فِيهِ عَلَى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ لِيَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ .. ومن هنا فإنه عندما يصلى على الجنازة فلا بد أن يستحضر في ذهنه ذلك اليوم الذي يُصَلَّى عَلَيْهِ فِيهِ .. وإذا دفن مسلمًا في قبره فلا بد أن يستحضر ذلك اليوم الذي سيُدفن فيه .. فإن ذلك سيكون عونًا له على أن يستقيم على طاعة الله وأن يبتعد عن معصية الله .. وإن وقع في معصية فإنه يُسارع إلى التوبة والعودة إلى الله خوفًا من أن يدخل قبره قبل أن يتوب من تلك المعصية.

❁ وفي هذين الحديثين يخبر النبي ﷺ أن مَنْ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَلَهُ قِيرَاطٌ وَإِنْ اسْتَمَرَ مَعَ تِلْكَ الْجَنَازَةِ حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ مِثْلَ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ .. لكن النبي ﷺ اشترط هنا أن يفعل المسلم ذلك إيمانًا واحتسابًا .. يعنى إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده واحتسابًا لثوابه وليس مجرد مجاملة لأهل الميت دون الإيمان والاحتساب.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٤٥).

❁ أما النساء فقد قالت أم عطية رضي الله عنها: «نُهِينَا عَنْ اتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَلَمْ يُعْزَمَ عَلَيْنَا»^(١).

وقد حمل جمهور العلماء هذا النهى على الكراهة لا على التحريم^(٢) لقولها: «ولم يُعْزَمَ عَلَيْنَا».

لكن قال شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٢٤ / ٣٥٥): «قد يكون مرادها: لم يؤكد النهى، وهذا لا ينفى التحريم، وقد تكون هى ظنت أنه ليس بنهى تحريم... والحجة فى قول النبى ﷺ لا فى ظن غيره» اهـ.

❁ لكن الراجح هو قول الجمهور فى أن النهى على الكراهة لا على التحريم - والله أعلم.

❁ وقد نهى النبى ﷺ النساء عن اتباع الجنائز عند الدفن لأن المرأة ضعيفة القلب وربما تصيح وتُولول وتضرب الخد وتَشُقُّ الجيب وتنتف الشعر وتُمزق الثوب.. بل إنه قد يحصل اختلاط بين الرجال والنساء أثناء تشييع الجنازة فيحصل بذلك فتنة وتزول الحكمة من اتعاظ الناس وتأثروهم عند اتباع الجنائز... فقد ينشغل بعض الأراذل من الرجال بالنظر إلى النساء وملاحقتهن ومن أجل ذلك نهى النبى ﷺ النساء عن اتباع الجنائز.

❁ أما عن زيارة النساء للمقابر فقد اختلف أهل العلم فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

أحدها: التحريم.

الثانى: الكراهة.

الثالث: الإباحة من غير كراهة... وهذا هو الراجح لكن بشرط عدم الوقوع فى المحرمات وأن تكون الزيارة للاتعاظ وتذكُّر الآخرة.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٧٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٨) كتاب الجنائز.

(٢) المجموع (٥ / ٢٧٧)، وفتح البارى (٢ / ٥٩٩)، وابن عابدين (١ / ٢٠٨).

والدليل على ذلك:

(١) عموم إذنه ﷺ لزيارة القبور في قوله: «ألا فزوروها» فهذا إذن عام يشمل الرجال والنساء.

(٢) دخول النساء تحت قوله ﷺ: «فإنها تذكركم الآخرة» ومن المعلوم أن المرأة تحتاج كثيرًا للموعظة وتذكر الآخرة.

(٣) ولزيارة عائشة قبر أخيها ... فعن ابن أبي مليكة «أن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت لها: يا أم المؤمنين، من أين أقبلت؟ قالت: من قبر أخي عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت لها: أليس كان رسول الله ﷺ نهى عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، كان نهى ثم أمر بزيارتها»^(١).

(٤) إقرار النبي ﷺ لعائشة وقد سألته: كيف أقول لهم يا رسول الله -تعني: أهل القبور- قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرجم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإننا إن شاء الله بكم للاحقون»^(٢).

(٥) إقرار النبي ﷺ لهذه المرأة التي رآها عند القبر.

فعن أنس قال: «مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله واصبري»، قالت إليك عني، فإنك لم تُصَبِّ بمصيبتي ... ولم تعرفه ف قيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه الحاكم، وعنه البيهقي، وصححه الألباني في الإرواء (٧٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٧٤) كتاب الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٣) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٦) كتاب الجنائز.



(١٥٦) باب استحباب تكثير المصلين على الجنازة

وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر

(٩٣٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلَّى عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ» ^(١).

(٩٣٨) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ» ^(٢).

❁ قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ الْقَاضِي: قِيلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ خَرَجَتْ أَجْوَبَةً لِسَائِلِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ سُؤَالِهِ ... هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرَ بِقَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ فَأَخْبَرَ بِهِ ثُمَّ بِقَبُولِ شَفَاعَةِ أَرْبَعِينَ ثُمَّ ثَلَاثِ صُفُوفٍ وَإِنْ قَلَّ عَدَدُهُمْ فَأَخْبَرَ بِهِ. وَيَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يُقَالَ هَذَا مَفْهُومٌ عَدَدٍ وَلَا يَحْتَاجُ بِهِ جَمَاهِيرُ الْأُصُولِيِّينَ فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنْ قَبُولِ شَفَاعَةِ مِائَةٍ مَنَعُ قَبُولِ مَا دُونَ ذَلِكَ وَكَذَا فِي الْأَرْبَعِينَ مَعَ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ ... وَحِينَئِذٍ كُلُّ الْأَحَادِيثِ مَعْمُولٌ بِهَا وَيَحْصُلُ الشَّفَاعَةُ بِأَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ مِنْ ثَلَاثَةِ صُفُوفٍ وَأَرْبَعِينَ ^(٣).

❁ وفي تلك الأحاديث يخبر النبي ﷺ أنه كلما كثر عدد المصلين الذي يصلون على ذلك الميت كان هذا أفضل وأرجى للشفاعة.

❁ والشفاعة مصدر (شفع) ومعنى (شفع): أنه جاء مع غيره، كما يقال: صليت شفعاً، أى: أن تضم ركعة إلى ركعة، فتصير ركعتين شفعاً، وعكس

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٧) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨) كتاب الجنائز.

(٣) مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٤-٢٥).

الشفع الوتر.

فكأن الميت يجيء وحده إلى ربه سبحانه وتعالى... فأنت تأتي شفيعاً مع هذا الميت فتدعو لهذا الميت... فأنت تشفع في هذا الإنسان وترجو من الله عز وجل أن يغفر له.

ولذلك فإن الصلاة على الميت تحتاج إلى الإخلاص... فمن يصلى على الميت عليه أن يخلص في دعائه، فيدعو الله سبحانه وتعالى للميت ويتخيل نفسه في مثل هذا الموقف... فحين تدعو للميت تخيل نفسك أنك أنت هذا الميت، وحينئذ ادع للميت بالشىء الذى تريد أن يدعى لك به، ولا تقل: هذا قريب، أو: هذا غريب، أو: هذا صغير، أو: هذا كبير، بل هذا ميت، وغداً ستكون أنت مكان هذا الإنسان.

والمقام ليس مقام رياء... ليس مقام من يتقدم ليصلى على الميت لمجرد التقدم والإمامة، بل هو مقام إخلاص، فنخلص في الدعاء للميت جميعنا... سواء أكنا أئمة أم مأمومين... فنحن نصلى على الميت وندعو له، وهذا المسكين في هذه الحالة محتاج للدعاء، ومحتاج للتثبيت، ومحتاج لأن تدعو ربك بأن ينور له قبره... فالقبور مظلمة على أصحابها، والله ينورها سبحانه عليهم بالصلاة على نبيه ﷺ... وكذلك ينورها بأعمالهم، وبشفاعة من يقبل شفاعتهم في هذا الميت.

يقول النبي ﷺ: «ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة»، فالمقصود هنا أمة من المؤمنين، لا أن يأتي غير المسلمين فيصلوا عليه.

فقوله: «أمة من المسلمين» كأن المقصود به الإسلام الحق الخالص، أن تسلم وجهك وقلبك لله سبحانه وتعالى، وأن تسلم نفسك لله سبحانه. ولذلك جاء في بعض الروايات: «لا يشركون بالله شيئاً».

فالمقصود: إنسان مسلم على الحق يلتزم بدين الله سبحانه وتعالى، ويرضى

بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً... ويصبر على قضائه وقدره.

فهذا المسلم الذي يُسلم نفسه لله ويُسلم أمره له ويفوض أمره إليه سبحانه... يصلى على هذا الإنسان المُتوفَّى وكله يقين بأن الله رحمن رحيم، وأن الذى شرع هذه الصلاة ما شرعها إلا ليُخفف عن هذا الميت وليقبل شفاعته الشافعين فى هذا الإنسان.

والأصل فى الإنسان المؤمن أن يُخلص لله تعالى فى الصلاة على الميت، وأن يتصور نفسه مكان الآخرين... فحين تجد مظلوماً ضَع نفسك مكانه، فالمظلوم محتاج إلى مَنْ يدافع عنه... فأنا سأدافع عن هذا الإنسان المظلوم ما دام فى قدرتى أن أفعل ذلك... وإذا وجدت إنساناً ميتاً والناس منتظرون ليصلوا عليه فلا تقل: هؤلاء أناسٌ كثيرون سيصلون عليه، فأنا سأذهب، ولكن قل: لو كنت أنا الميت فسأتمنى أن الكثيرين يصلون علىّ.

إذ يمكن أن يكون أحدهم مُستجاب الدعوة، فيستجيب الله ﷻ دعوته لى. ففى وقت الصلاة على الميت نحتاج إلى الإخلاص لله تبارك وتعالى، ولا يهم مَنْ يتقدم ليصلى على الميت^(١).

❁ ومن المعلوم أنه كلما كثر الجمع من المصلين على الميت كان ذلك أفضل وأرجى للشفاعة.. فمن المعلوم أن الذين يُصلون على الجنائز يشفعون إلى الله ﷻ لهذا الميت ويسألون الله المغفرة والرحمة لهذا الميت.

والدعاء للميت فى الجنائز من أوجب ما يكون فى الصلاة، بل هو ركن من أركان الصلاة لا تصح صلاة الجنائز إلا به.

ومن أجل ذلك نجد أن الناس يحرصون على صلاة الجنائز على ميتهم فى تلك المساجد الكبرى التى يجتمع فيها أكبر قدرٍ من المصلين ليكون هناك أكبر

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطية.



عددٍ من الناس الذين يدعون له ويشفعون له فعسى أن يكون واحدٌ منهم مُستجاب الدعاء فيشفع لهذا الميت فيكون سبب سعادته في قبره ويوم القيامة.

❁ ولذلك ينبغي على الإمام إذا رأى جنازة في المسجد بعد أن انتهى من صلاة الفريضة.. ينبغي عليه أن ينتظر الذين جاءوا متأخرين حتى ينتهوا من صلاتهم من أجل أن يشاركوا الحاضرين في الصلاة على الميت فيكثر الناس وتكثر الدعوات والشفاعات لهذا الميت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٣٩) وعن مرثد بن عبد الله الزنبي قال: كان مالك بن هُبَيْرَةَ رضي الله عنه إذا صَلَّى على الجنازة، فَتَقَالَ النَّاسُ عَلَيْهَا، جَزَأَهُمْ عَلَيْهَا ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ صُفُوفٍ، فَقَدْ أُوجِبَ»^(١).

❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد

صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٥٦٦٨).

(١٥٧) باب ما يقرأ في صلاة الجنازة

﴿يُكَبَّرُ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ، يَتَعَوَّذُ بَعْدَ الْأُولَى، ثُمَّ يَقْرَأُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، ثُمَّ يُكَبِّرُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فيقول: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، وَالْأَفْضَلُ أَنْ يُتِمَّمَهُ بِقَوْلِهِ: كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ... إِلَى قَوْلِهِ: إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. وَلَا يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ مِنْ قِرَاءَتِهِمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فإنه لَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ إِذَا اقْتَصَرَ عَلَيْهِ.

ثم يُكَبَّرُ الثَّالِثَةَ، وَيَدْعُو لِلْمَيِّتِ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِمَا سَنَذْكُرُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ يُكَبَّرُ الرَّابِعَةَ وَيَدْعُو... وَمِنْ أَحْسَنِهِ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنا أَجْرَهُ، وَلَا تَقْتِنَا بَعْدَهُ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ. وَالْمَخْتَارُ أَنَّهُ يُطَوَّلُ الدُّعَاءُ فِي الرَّابِعَةِ خِلَافَ مَا يَعْتَادُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، لِحَدِيثِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى الَّذِي سَنَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَأَمَّا الْأَدْعِيَةُ الْمَأْثُورَةُ بَعْدَ التَّكْبِيرِ الثَّالِثَةِ، فَمِنْهَا^(١):

(٩٤٠) عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ، وَعَافِهِ، وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا، كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِزَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ» حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ^(٢).

(٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي قَتَادَةَ وَأَبِي إِبْرَاهِيمَ الْأَسْهَلِيِّ عَنْ أَبِيهِ - وَأَبُوهُ صَحَابِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ صَلَّى عَلَى جَنَازَةٍ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا، وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا، وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا، وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا. اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ

(١) رياض الصالحين / للإمام النووي رحمه الله (ص ٢٩٧-٢٩٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٣) كتاب الجنائز.

مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ، وَلَا تَقْتِنَا بَعْدَهُ»^(١).

(٩٤٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِذَا صَلَّيْتُمْ عَلَى الْمَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعَاءَ»^(٢).

(٩٤٥) وعنه عن النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجَنَازَةِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّهَا، وَأَنْتَ خَلَقْتَهَا، وَأَنْتَ هَدَيْتَهَا لِلْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ قَبَضْتَ رُوحَهَا، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلَانِيَتِهَا، وَقَدْ جِئْنَاكَ شُفَعَاءَ لَهُ فَاغْفِرْ لَهُ»^(٣).

(٩٤٦) وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ فُلَانِ ابْنَ فُلَانٍ فِي ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جِوَارِكَ، فَقِهِ فِتْنَةَ الْقَبْرِ، وَعَذَابَ النَّارِ، وَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ وَالْحَمْدِ، اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(٤).

(٩٤٧) وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أَنَّهُ كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةِ ابْنَةٍ لَهُ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ، فَقَامَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ التَّكْبِيرَيْنِ يَسْتَغْفِرُ لَهَا وَيَدْعُو، ثُمَّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ هَكَذَا.

وفي رواية: كَبَّرَ أَرْبَعًا فَمَكَثَ سَاعَةً حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكَبِّرُ خَمْسًا، ثُمَّ سَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَزِيدُكُمْ عَلَى مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ، أَوْ: هَكَذَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٥).

(١) صحيح: حديث أبي هريرة رواه أبو داود، وابن ماجه، وحديث أبي قتادة رواه أحمد، وحديث أبي إبراهيم الأشعلى عن أبيه رواه الترمذى، والنسائى فى الكبرى، والحديث صحيحه الألبانى فى أحكام الجنائز (١٢٤)، وصحيح سنن أبى داود (٢٧٤١).

(٢) حسن: رواه أبو داود، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٦٩).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف سنن أبى داود (٧٠٣).

(٤) صحيح: رواه أبو داود، وصحيحه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٧٤٢).

(٥) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقى، وصحيحه الألبانى فى أحكام الجنائز (١٦٠).

❁ صلاة الجنازة تشتمل على قراءة الفاتحة ، ثم الصلاة على النبي ﷺ ، ثم الدعاء، فيبدأ أولاً بالفاتحة؛ لأنها ثناء على الله عز وجل ثم الصلاة على النبي ﷺ وهو أحق الناس أن يُقدَّم حتى على النفس ... ثم بعد ذلك الدعاء العام «اللهم اغفر لحينا وميتنا» ثم الدعاء الخاص للميت «اللهم اغفر له وارحمه» وهذا الترتيب كالترتيب في التشهد حيث نبدأ أولاً بالتحيات لله وهو الثناء على الله ثم السلام على النبي ﷺ ثم السلام على الإنسان وعلى عباد الله الصالحين ...

وهذا أيضًا - الدعاء للميت - كذلك مُرتَّب، لكن نبدأ بالعام قبل الخاص بخلاف التشهد فإنه يبدأ بالخاص قبل العام؛ لأن التشهد تدعو لنفسك «السلام علينا» والنفس مُقدَّمة على الغير إلا على النبي ﷺ.

المهم: أن صلاة الجنازة يكبر الإنسان التكبيرة الأولى ثم يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة كاملة، ثم يكبر التكبيرة الثانية فيصلّي على النبي ﷺ ... وأحسن ما يُصلّي به عليه ما علّمه أمته: «اللهم صلّ على محمدٍ وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ ... اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيدٌ»^(١)، ثم يكبر الثالثة فيدعو لعامة المسلمين «اللهم اغفر لحينا وميتنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، وشاهدنا وغائبنا. اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفّيته منا فتوفّه على الإيمان، اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتننا بعده».

وهذه الجُمَل تُغنى عنها جملة واحدة، لو قال اللهم اغفر لحينا وميتنا شمل الجميع، لكن مقام الدعاء ينبغى فيه البسط والتفصيل؛ لأن الدعاء كل جملة منه عبادة لله عز وجل وإذا كررته ازددت بذلك ثوابًا.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٤٠٦) كتاب الصلاة.

فقوله: «حيناً وميتناً» يشمل الحى الحاضر، والميت القديم، والميت فى عصره «وصغيرنا وكبيرنا» كذلك أيضاً يشمل الصغير والكبير الحى والميت... وذكر الصغير مع أن الصغير لا ذنب له من باب التبعية، وإلا فإن الصغير ليس له ذنب حتى تسأل له المغفرة.

«وذكرنا وأنثانا» مثلها عامة «وشاهدنا وغائبنا» الحاضر والمسافر مثلاً «اللهم مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَمَنْ تَوَفَيْتَهُ فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِيمَانِ» الحياة ذكر معها الإسلام وهو الاستسلام الظاهر، وأما الموت قال: توفنا على الإيمان؛ لأن الإيمان أفضل ومحله القلب، والمدار على ما فى القلب عند الموت وفى يوم القيامة. «اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده» لا تحرمنا أجره يعنى: بالصلاة عليه، لأن الإنسان يُؤَجَّرُ بالصلاة على الميت - كما سبق - أن مَنْ شهد بها حتى يُصَلَّى عليها فله قيراط، وَمَنْ شهد بها حتى تُدْفَنَ فله قيراطان... كذلك أيضاً أجر آخر للمصاب بهذا الميت الذى حزن لفراقه يُؤَجَّرُ أيضاً على صبره على المصيبة «ولا تفتنا بعده»: يعنى لا تُضِلُّنا عن ديننا بعده، لأن الحى لا تُؤْمَنُ عليه الفتنة، ما دام الإنسان لم تخرج روحه فإنه عُرضة لأن يُفْتَنَ فى دينه - والعياذ بالله - ولهذا قال: «لا تفتنا بعده» فينبغى للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء اقتداءً برسول الله ﷺ.

ثم يدعو للميت الدعاء الخاص... ومنه ما فى حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبى ﷺ صلى على جنازة فحفظ من دعائه: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعفُ عنه، وأكرم نُزُلَهُ» يعنى ضيافته يعنى أكرمه فى ضيافته.

لأن الميت فى ضيافة الله ﷻ إِذَا انتقل من هذه الدنيا إلى قبره فهو إما أن يكون فى قبره مُعَذَّباً أو مُنْعَماً... ويقول: «وأوسع مُدْخَلَهُ» يعنى: أوسع قبره - لأنه يدخل فيه.

«واغسله بالماء والثلج والبرد» واغسله يعنى: طَهَّرْهُ مِنَ الذُّنُوبِ بالماء والثلج والبرد... ذكر الثلج والبرد، لأنه بارد، وذكر الماء؛ لأن به النظافة...

والذنوب - أجارنا الله وإياكم منها - عقوبتها حارة؛ فناسب أن يقرن مع الماء الثلج والبرد، فيحصل بالماء التنظيف، ويحصل بالثلج والبرد التبريد.

«ونقّه من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدّس» يعنى: نظّفه تنظيفاً كاملاً من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الوسخ... وذكر الثوب الأبيض؛ لأنه هو الذى تظهر فيه أدنى دنسة، فإذا كان الثوب الأبيض نقياً فمعناه أنه ليس به دنس إطلاقاً بخلاف الثوب الأسود والأحمر والأخضر وما أشبه ذلك، فإنه ليس كالأبيض تبين به الدنسة بياناً واضحاً.

«اللهم أبدله داراً خيراً من داره» لأنه انتقل من دار الدنيا إلى دار البرزخ، ودار الدنيا - كما نعلم - دار محن وأذى وكدر فيقول: «أبدله داراً خيراً من داره». ليكون مُنعمًا في قبره.

«وأهلاً خيراً من أهله» أهله: ذُووه، كأمه وخالته وبناته، وأبيه، وابنه وما أشبه ذلك. «وزوجاً خيراً من زوجه» يعنى زوجة خيراً من زوجته وذلك بالحوار العين، وكذلك بزوجه فى الدنيا، لأن الإنسان إذا تزوج امرأة فى الدنيا وماتت على الإيمان فإنها تكون زوجته فى الآخرة.

فإن قال قائل: كيف تكون خيراً من زوجتى وهى واحدة فى الدنيا؟! نقول: خيراً منها فى الصفات والجمال وغير ذلك «وأدخله الجنة وأعدّه من عذاب القبر وعذاب النار» كل هذا دعاء يدعو به الإنسان للميت، وينبغى أن يُخلص الإنسان للميت فى هذا الدعاء... فإن كانت امرأة فإنه يقول: «اللهم اغفر لها وارحمها، وعافها واعفُ عنها...» - يعنى بضمير المؤنث، فإن كان لا يدري هل هى ذكر أم أنثى فإنه مُخير، إن شاء قال: اللهم اغفر له - يعنى لهذا الشخص - والمرأة تُسمّى شخصاً... أو إن شاء قال: «اغفر لها» أى: لهذه الجنازة، والجنازة تُطلق على الرجل وعلى المرأة.

أما حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا دعوتكم للميت فأخلصوا له الدعاء» فالمعنى أنك تدعو بحضور قلب وإلحاح على الله لأخيك الميت؛ لأنه محتاج لك. والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٣-٦٥) للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

(١٥٨) باب الإسراع بالجنائزة

(٩٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ، فَإِنْ تَكَ صَالِحَةٌ فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ تَكَ سَوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ» ^(١).
وفي رواية لمسلم: «فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا عَلَيْهِ».

(٩٤٩) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرَّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ لِأَهْلِهَا: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَ الْإِنْسَانُ، لَصَعِقَ» ^(٢).

✽ الإسراع بالجنائزة سنة ... والإسراع أنواع: إسراع من لحظة ما يُتَوَقَّى المِيت، فهو إسراع في التجهيز، وإسراع في استخراج تصريح بدفنه، وإسراع في حفر القبر، وإسراع في إحضار المَغْسَل، وإسراع في إحضار الكفن، فلا يطول هذا الشيء وإنما بقدر ما يجتمع الناس الذين يصلون عليه... فإذا لم يكن الناس قد اجتمعوا فلا بد أن نتظر حتى يجتمع الناس الذين سيصلون عليه ويشفعون له عند الله بدعائهم له في الصلاة... أما بعد الصلاة فيُستحب الإسراع من أجل دفنه دون أن يتسبب ذلك في حرمان الذين صلوا عليه من حضور الدفن ليفوزوا بثواب جبلين من الحسنات.. والمقصود بالإسراع بالجنائزة هو الزيادة على المشي المعتاد لكن بشرط ألا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالميت بأن يسقط أو الإضرار بمن يحمله...

لكن لماذا هذا الإسراع؟!.

✽ وذلك لأن الميت إذا مات فإنه إما أن يكون صالحاً أو يكون غير ذلك... فإن كان صالحاً فإنَّ حَبْسَهُ عن الدفن جناية عليه وحيلولة بينه وبين ما

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٥) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٤) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٣١٦)، (١٣٨٠) كتاب الجنائز.

أعدّه الله له من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر .. فقد بشره ملك الموت عند نزول روحه بقوله: «اخرجني إلى مغفرة من الله ورضوان».

فهو ينتقل من دنيا الآلام والأحزان والابتلاءات إلى نعيم القبر الذي أعدّه الله له.

ومن أجل هذا قال النبي ﷺ: «أسرعوا بالجنّازة» أي: لا تؤخروها. «فإن تك صالحاً فخيرٌ تُقدمونها إليه» فإنها قادمة إلى رحمة الله ورضوانه ونعيم القبر ونوره وسروره.

«وإن تك سوى ذلك فشرُّ تضعونه عن رقابكم».

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: (فَشَرُّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ) مَعْنَاهُ أَنَّهَا بَعِيدَةٌ مِنَ الرَّحْمَةِ فَلَا مَصْلَحَةَ لَكُمْ فِي مُصَاحَبَتِهَا ... وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَرْكُ صُحْبَةِ أَهْلِ الْبَطَالَةِ غَيْرِ الصَّالِحِينَ^(١).

✽ إِذَا .. يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ يُسَنُّ الْإِسْرَاعُ بِالْجَنَازَةِ وَلَا تُؤَخَّرُ.

وما يفعله بعض الناس اليوم أنه إذا مات الميت قالوا: انتظروا حتى يقدم أهله من كل فجٍّ ... وبعضهم ربما كان في أوروبا أو في أمريكا، وربما طال ذلك يوماً أو يومين، فهذا جناية على الميت وعصيان لأمر الرسول ﷺ، «أسرعوا بالجنّازة» ... فأهله إذا جاءوا وقد دُفِنَ يصلون على قبره، والأمر واسع والحمد لله ... وهو إذا تأخر دفنه حتى يأتوا ماذا ينفعه من ذلك؟! إنه لا ينفعه إلا الدعاء له بالصلاة عليه، وهذا حاصل إذا صلوا عليه عند قبره، ولا وجه لهذا الحبس إطلاقاً ... فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ مات يوم الاثنين ولم يُدْفَنَ إلا ليلة الأربعاء؟! قلنا: بلى، لكن الصحابة رَضِوا أن لا يدفنوا الرسول ﷺ حتى يُقيموا خليفة على عباد الله بعده؛ لئلا تخلو الأرض عن خليفة لله فيها... ولهذا لما تَمَّتْ مبايعة أَبِي بَكْرٍ رَضِوا أن يدفنوا النبي ﷺ ... وهذه علة ظاهرة واضحة.

وقوله ﷺ: «إن تك صالحة فخيرٌ تُقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك...» يُستفاد منه أنه ينبغي أن يُعبر عن الألفاظ السيئة بما يدل عليها بدون سوء؛ لأن قسيم الصالحة: الفاسدة ولكن النبي ﷺ عدل عن كلمة «فاسدة» إلى قوله: «وإن تك سوى ذلك» وهذا من باب التأدب في اللفظ.. وإلا فالمعنى واحد، والتأدب في اللفظ له شأن عجيب.

انظر إلى قوله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿لَمَّا أَرَادُوا الْخَيْرَ أَضَافُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وفي الشر قالوا: ﴿أَشَرُّ أَرِيدَ﴾ وما قالوا: شَرُّ أَرَادَهُ اللَّهُ، مع أن الله مُريدٌ للخير والشر.. لكن الشر الذي يريده الله ليس شرًّا في فعله بل في مفعولاته.. أما فعله ﷻ فلا شك أنه خير، لكن يُقدر الشر للخير لحكمة يريد بها ﷻ.

المهم أنه ينبغي للإنسان أن يتأدب في صياغة الألفاظ من غير إخلال بالمعنى... ويُذكر أن ملكًا من الملوك رأى رؤيا، وهى أن أسنانه قد سقطت، واهتم لذلك، فجمع الذين يُعبرون الرؤيا - أى يفسرونها - فقال له واحد: إن حاشيتك تموت وأهلك معهم. ففزع الملك، ولم يعجبه هذا التفسير، فأمر بالرجل فجُلد... ثم دعا آخر وقال له ما رأى. قال: إن الملك يكون أطول أهله عُمرًا.. والمعنى واحد، فأكرمه، وأجازه. فالألفاظ لها تأثير، ولهذا قال الرسول ﷺ: «وإن تك سوى ذلك فشرُّ تضعونه عن رقابكم»^(١).

﴿وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةٌ قَالَتْ: قَدِّمُونِي» فَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا تَقُولُ ذَلِكَ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ.. وَهَذَا مِنْ كَمَالِ رَحْمَةِ اللَّهِ بِنَا لِأَنَّا لَوْ سَمِعْنَا مَا يَقُولُهُ الْأَمْوَاتُ عَلَى نَعْوَشِهِمْ لَامْتَلَأَتْ قُلُوبُنَا فِرْعَا وَرُعْبًا.

فالشاهد أن الجنابة إن كانت صالحة تقول: قَدِّمُونِي: أى لرحمة الله

ورضوانه والنعيم والنور والسرور الذى ينتظرها فى قبرها.

«وإن كانت غير صالحة قالت لأهلها: يا ويلها أين يذهبون بها» فتدعو على نفسها بالويل لأنها قادمة إلى عذاب القبر الذى لا يَخْطُرُ على قلب بشر... فسوف يُغلق عليه القبر وحده ويُعَذَّب وحده - نسأل الله العفو والعافية - ونحن لا نشعر بذلك ولا نسمعه.. ومن رحمة الله علينا أن أخفى علينا ذلك حتى نستطيع أن ندفن موتانا.. وإلا فقد قال النبى ﷺ: «إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها فلو لا أن لا تدافنوا^(١)، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه»^(٢). ويدل على سماع الرسول ﷺ للمُعذِّبين فى قبورهم: الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى «صحيحهما» عن ابن عباس وفيه أن الرسول ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» الحديث.

وفى الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ فَقَالَتْ: إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، قَالَتْ: وَكَذَّبْتُهَا وَلَمْ أُنْعِمَ أَنْ أَصَدِّقَهَا... قَالَتْ: فَخَرَجْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَجُوزًا مِنْ عَجَائِزِ يَهُودٍ دَخَلْتُ عَلَى فَرَعَمَتْ أَنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ فَقَالَ: «صَدَقْتُ، إِنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا» قَالَتْ: فَمَا رَأَيْتُهُ فِي صَلَاةٍ إِلَّا يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(٣).

ولذلك قال أهل العلم: يُسَنُّ الإسراع فى تجهيز الميت، إلا إذا مات بغتة فإنه يُنتظر حتى يُتيقن أنه مات... لأنه يحتمل أن يكون غشية وأنه حى؛ فيُنتظر حتى يُتيقن أنه مات ثم يبادر به.



(١) لولا أن لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٦٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٥٨٦) كتاب المساجد.

(١٥٩) باب تعجيل قضاء الدين عن الميت

والمبادرة إلى تجهيزه

إلا أن يموت فجأة فيترك حتى يتيقن موته

(٩٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نفس المؤمن مُعلَّقةٌ بِدينه حتى يُقضى عنه»^(١).

(٩٥١) وعن حصين بن وحوح رضي الله عنه أن طلحة بن البراء بن عازب رضي الله عنه مَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَالَ: «إِنِّي لَا أُرَى طَلْحَةَ إِلَّا قَدْ حَدَثَ فِيهِ الْمَوْتُ فَادْنُونِي بِهِ وَعَجِّلُوا بِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِحَيْفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِهِ»^(٢).
 ✽ فالميت قد يُحْبَسَ في قبره بسبب الدين ولذلك يجب على كل مسلم أن يرد إلى الناس حقوقهم قبل أن يترك الدنيا بكل ما فيها ويدوق العذاب الأليم بسبب تلك المظالم.

✽ عن جابر بن عبد الله قال: تُوَفِّي رَجُلٌ فَعَسَلْنَاهُ وَحَنَطْنَاهُ وَكَفَّنَاهُ ثُمَّ أَتَيْنَا بِهِ النَّبِيَّ ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَحَطَّ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: «هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ» فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَيْنُهُ عَلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هُمَا عَلَيْكَ، حَقُّ الْغَرِيمِ وَبُرءُ الْمَيِّتِ؟» قَالَ: نَعَمْ... فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ لَقِيَهُ فِي الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا مَاتَ أَمْسَ.
 ثُمَّ لَقِيَهُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ: «مَا فَعَلَ الدِّينَارَانِ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ قَضَيْتُهُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآن بَرَدَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٧٩).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٩٩).

(٣) حسن: رواه أحمد، والدارقطني، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٥٣).

✽ وعن سعد بن الأطول رضي الله عنه: «أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم، وترك عيالاً، قال: فأردت أن أنفقها على عياله، قال: فقال لي نبي الله ﷺ: «إِنَّ أَخَاكَ مَحْبُوسٌ بِدَيْنِهِ، فَادْهَبْ، فَاقْضِ عَنْهُ»، قَالَ: فَذَهَبْتُ، فَقَضَيْتُ عَنْهُ، ثُمَّ جِئْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ قَضَيْتُ عَنْهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا امْرَأَةٌ تَدْعِي دِينَارَيْنِ، وَلَيْسَتْ لَهَا بَيْتَةٌ. قَالَ: «أَعْطَهَا، فَإِنَّهَا مُحِقَّةٌ» وفي رواية: «صَادِقَةٌ»^(١).

فقد أخبر الرسول ﷺ أن ذلك الصحابي محبوس بسبب دينه، ويمكن أن يُفسر هذا الحبس الحديث الآخر حيث قال الرسول ﷺ: «إنه مأسورٌ بدينه عن الجنة».

✽ وهذا يدل على أن المسلم إذا مات فإنه يجب على أهله أن يبادروا بقضاء دينه إذا كان عليه دينٌ لأحدٍ.. ولا يجوز لهم أن يؤخروا ذلك حتى يُقسَم الميراث وذلك لأن ذلك المال الذي ورثوه من الميت ليس لهم أى حق فيه إلا بعد الانتهاء من سداد دينه... ولهذا قال الله تعالى في آيات المواريث: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضْكَرٍ﴾ ليس للورثة حق أن يأخذوا شيئاً من التركة حتى يقضوا دين الميت... ويجب عليهم المبادرة في قضاء الدين؛ إلا إذا كان مُوجَّلاً فإنه يُطلَب من أهل الدين أن ينتظروا، فإن أبوا فإنه يُعَجَّل لهم، وإلا إذا وثَّق الورثة برهن، أو كفيل.

ودين الميت يُقضى من ماله إن كان له مال أو يتولى الورثة قضاء دينه من ماله الخاص.. وهذا من باب الإحسان إلى الميت حتى لا يُعَذَّب بدينه... فقد وصلت خطورة الدين أنه «يُعَفَّرُ للشَّهيد كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدِّينَ»^(٢).

✽ ولكن بكل أسف فقد تهاون كثيرٌ من الناس في قضاء الدين عن الأموات.. فما إن يموت الرجل حتى يتصارع الورثة على ميراثه ويتلاعبون

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٠).

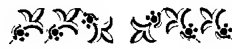
(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٦) كتاب الإمارة.

بالتركة ويؤخرون قضاء الدين ... وهذا حرامٌ عليهم ولا يجوز أبدًا.. فالواجب عليهم أن يبادروا إلى قضاء دينه لينجو من العذاب ثم يتقاسمون الميراث حسب ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ..

ولذا قال النبي ﷺ: «نفس المؤمن مُعلّقة بدينه حتى يُقضى عنه» يعنى أن نفسه وهو في قبره مُعلّقة بالدين... كأنها والله أعلم تتألم من تأخير الدين، ولا تفرح بنعيم ولا تنبسط؛ لأن عليه دينًا ... وَمَنْ تَمَّ قَلْنَا: إنه يجب على الورثة أن يبادروا بقضاء الدين.

✽ أما الحديث الثانى .. فلأمانة العلمية فالحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ .. ومع ذلك فقد تقدّم الكلام عن أنه يُسنُّ الإسراع بالجنّازة... ولهذا قال النبي ﷺ :

«لا ينبغي لجيفة مسلم أن تُحبس بين ظهرانى أهلها» لكن لو حبست لساعة أو ساعتين لانتظار كثرة الجمع، كما لو مات في أول النهار مثلاً يوم الجمعة وقالوا: ننتظر للصلاة لكثرة الجمع، فهذا لا بأس به - إن شاء الله - وهو تأخير لا يضر. والله الموفق.



(١٦٠) باب الموعظة عند القبر

(٩٥٢) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرَقَدِ فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَعَدَ، وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَسَ وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَتَكَلَّمُ عَلَيَّ كِتَابِنَا؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١) وذكر تمام الحديث.

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن الموعظة مطلوبة في كل زمانٍ ومكان لكنها تكون أشد تأثيراً إذا كانت في تلك الأماكن التي تُسكَب فيها العبرات وتلين فيها القلوب بروية الأموات.. وذلك عند دفنهم في قبورهم.

❁ والموعظة هي تذكير الناس بما يُلين قلوبهم.. وذلك يكون إما بالترغيب في الخير أو الترهيب من الوقوع في الشر.

ولا بد أن نعلم أن أعظم واعظٍ في قلب المؤمن هو القرآن الكريم.
قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولكن بكل أسف فهناك قلوب تتأثر عند سماع القرآن وهناك قلوب لا تتحرك ولو قُرئ عليها القرآن كله... ولقد وصفهم الحق بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [١٤].

❁ قال ابن مسعود رضي الله عنه: اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يَمُنَّ عليك بقلبٍ فإنه لا قلب لك^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٤٥)، (٤٩٤٩) كتاب تفسير القرآن؛ ومسلم (٢٦٤٧) كتاب القدر.

(٢) الفوائد للإمام ابن القيم (ص ١٥٣).

✽ وتعالوا بنا لنرجع للحديث الذى ورد فى ذلك الباب عن على رضي الله عنه

قال:

«كنا فى جنازة بقيق الغرقد» [المعروف الآن بالمدينة] والغرقد نوع من الشجر معروف ... وسُمي بقيق الغرقد لكثرة وجود هذا النوع من الشجر به وكان مدفن أهل المدينة، وقد قال النبى ﷺ: «اللهم اغفر لأهل بقيق الغرقد» قالها ثلاثاً... فكانوا فى جنازة فجاء النبى ﷺ ففعد وقعد الناس حوله؛ لأن كل الناس يحبون أن يكونوا جُلساء للنبى ﷺ ... جلسوا حوله وفى يده مخرصة، يعنى عود، فنكس رأسه وجعل ينكت بالعود كالمهموم ﷺ ثم قال: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» كل إنسان من بنى آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة، ومقعده من النار إن كان من أهل النار، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السعداء - لما قال هذا الكلام قالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟! يعنى ما دام الأمر مكتوباً فما الحاجة للعمل؟! فقال: لا تدعوا العمل، فالجنة لا تأتى إلا بعمل، والنار لا تأتى إلا بعمل، فلا يدخل النار إلا مَنْ عمل بعمل أهل النار، ولا يدخل الجنة إلا مَنْ عمل بعمل أهل الجنة... قال: «اعملوا؛ فكلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ له» أما أهل السعادة فيُيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسرون لعمل أهل الشقاوة... ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ يَحِلْ وَأَسْتَفَى ۝٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ۝٩﴾ فَسَيَّرَهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾.

فأنت يا أخى إذا رأيت الله قد يَسِّرَ لك عمل أهل السعادة فأبشر أنك من أهل السعادة... وإذا رأيت نفسك أنك تنقاد للصلاة، وللزكاة، ولفعل الخير، وعندك تقوى من الله ﷻ فاعلم واستبشر أنك من أهل السعادة؛ لأن الله قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ

أَعْطَى وَانْتَصَى ۝٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنَى ۝٦﴾ فَسَيَّرَهُ لِلْيُسْرَى ۝٧﴾.

وإن رأيت العكس بأن رأيت نفسك تنشرح بفعل السيئات - والعياذ بالله - وتضييق ذرعاً بفعل الطاعات فاحذر، وأنقذ نفسك، وتب إلى الله عز وجل حتى ييسر الله لك، واعلم أنك إذا أقبلت على الله أقبل الله عليك حتى وإن كنت قد أذنبت، مهما أذنبت فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ وعلى هذا فإذا جاء الإنسان إلى المقبرة وجلس الناس حوله فهنا يحسن أن يعظهم بما يناسب، بمثل هذا الحديث^(١).

✽ وانظر وتأمل هنا.. كيف كانت موعظة النبي ﷺ موعظة يسيرة قليلة لا يوجد فيها كلام كثير... لأن المجال ليس مجال خطبة طويلة ليقف الواحد ويظهر للناس أنه يعرف الكلام عند المقابر، لا.. بل المقام مقام تذكرة يكفى فيها الكلام القليل... وفي حديث البراء بن عازب أطل ﷺ في ذكر شيء من أمر الآخرة، ومع ذلك كل الحديث لا يأخذ خمس أو سبع دقائق عند روايته عنه ﷺ... وفي هذا درس لبعض إخواننا الذين يطيلون الموعظة عند القبر حتى يضجر الناس وينفروا من موعظته.

إذاً: فالموقف عند القبر موقف موعظة وتذكر فقط وليس موقفاً لكثرة الكلام الذي قد يكون مُملاً أحياناً... ولذلك ورد عنه ﷺ أنه قال في مثل هذا الموقف: «ادعوا لأخيكم وسلّوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل».

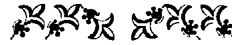
✽ فالنبي ﷺ قعد على الأرض وقعد الصحابة حوله ومعه مِخْصرة فنكس وجعل ينكت بمِخْصْرته ثم وعظهم موعظة قصيرة جداً لأن النبي ﷺ قد أُوتِيَ جوامع الكلم.

هذه هي الموعظة عند القبر... أما أن يقوم القائم عند القبر يتكلم كأنه يخطب فهذا لم يكن من هدى الرسول ﷺ.... ليس من هدى الرسول ﷺ أن

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٧٠-٧١) بتصرف.

الإنسان يقف بين الناس يتكلم كأنه يخطب، هذا ليس من السُّنة... بل السُّنة أن تفعل كما فعل الرسول ﷺ فقط... فإذا كان الناس جُلوسًا ولم يُدفن الميت فاجلس في انتظار دفنه وتحدث حديث المجالس ... حديثًا عاديًا.

فالمواعظ هادئة يكون الإنسان فيها جالسًا ويبدو عليه أثر الحزن والتفكير وما أشبه ذلك ... وليست الموعظة صراخًا وكأنه ينذر الجيش يقول صَبَّحْكُمْ وَمَسَّكُمْ ... لكن فضل الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ... فبعض الناس يفهم شيئًا من النصوص فهمًا غير مرادٍ بها... والله يهدي مَنْ يَشَاءُ إلى صراط مستقيم.



(١٦١) باب الدعاء للميت بعد دفنه

والقعود عند قبره ساعة للدعاء له

والاستغفار والقراءة

(٩٥٣) عن أبي عمرو - وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو ليلى - عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُّوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»^(١).

(٩٥٤) وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: إِذَا دَفَنْتُمُونِي، فَأَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِى قَدْرَ مَا تُنَحِّرُ جَزُورًا، وَيُقَسَّمُ لَحْمُهَا حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ، وَأَعْلَمَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّى^(٢)... وقد سبق بطوله.

❖ فمن المعلوم أن الميت إذا دُفِنَ ووُضِعَ فِي قَبْرِهِ فَإِنَّهُ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَأَنَّهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِيبَ عَلَى تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ الْيَسِيرَةِ وَلَوْ كَانَ حَاصِلًا عَلَى أَعْلَى رَسَائِلِ الدُّكْتُورَاتِ إِلَّا إِذَا جَاءَهُ التَّثْبِيتُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧].

فكان النبي ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ.. يَعْنِي عِنْدَهُ وَقَالَ: «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُّوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ» فَيُسْأَلُ لِلْإِنْسَانِ - إِذَا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ - أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ وَيَقُولَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ» ثَلَاثًا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ غَالِبَ أَحْيَانِهِ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، ثُمَّ يَنْصَرِفُ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٤٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

ولا يجلس بعد ذلك لا للذكر ولا للقراءة ولا للاستغفار.

هكذا جاءت به السُّنة... أما ما ذكره رَحِمَهُ اللهُ عَنْ عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يَقِيمُوا عِنْدَهُ إِذَا دَفَنُوهُ قَدْرَ مَا تُنَحَّرُ جَزُور - نَاقَة - قَالَ: لَعَلِّي أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ وَأَنْظُرَ مَاذَا أَرَا جَعَلَ بِهِ رَسُلَ رَبِّي: يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ. فَهَذَا اجْتِهَادٌ مِنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَكِنَّهُ اجْتِهَادٌ لَا نَوَافِقَهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ هَدَى النَّبِيَّ ﷺ أَكْمَلَ مِنْ هَدَى غَيْرِهِ.. وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَقِفُ أَوْ يَجْلِسُ عِنْدَ الْقَبْرِ بَعْدَ الدَّفْنِ قَدْرَ مَا تُنَحَّرُ الْجَزُورُ وَيُقَسَّمُ لِحْمُهَا؛ وَلَمْ يَأْمُرْ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ... غَايَةُ مَا هُنَالِكَ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ أَنْ يَقِفُوا عَلَى الْقَبْرِ وَيَسْتَغْفِرُوا لِصَاحِبِهِ وَيَسْأَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَقَطْ، هَذَا هُوَ السُّنَّةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ النَّاسُ... وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ عِنْدَ الْقَبْرِ فَلَا صَحَّحَ أَنَّهَا مَكْرُوهَةٌ، وَأَنَّهُ يُكْرَهُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْقَبْرِ ثُمَّ يَقِفُ أَوْ يَجْلِسُ عِنْدَهُ وَيَقْرَأَ؛ لِأَنَّهُ هَذَا مِنَ الْبِدْعِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» وَأَقْلَ أَحْوَالِهَا أَنْ تَكُونَ مَكْرُوهَةً.

❁ وكذلك لا يجوز أن تأتي بمجموعة من القُرَّاء لقراءة القرآن عند قبر الميت.. أو أن نستأجر سُرادقًا للعزاء ونأتى بالقُرَّاء لقراءة القرآن ونُعْطِيهِمْ آلَافَ الْجَنِيَهَاتِ الَّتِي لَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا الْمَيِّتُ.. وَهَذِهِ الْأَمْوَالُ الطَّائِلَةُ لَوْ تَصَدَّقْنَا بِهَا عَنِ الْمَيِّتِ لَكَانَ أَوْلَى... وَلَعَلَّ أَوْلَادَ هَذَا الْمَيِّتِ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ لِهَذَا الْمَالِ الَّذِي يُنْفَقُ عَلَى أَصْحَابِ الْبِدْعِ هَؤُلَاءِ... إِذَا.. فَهَذَا إِتْفَاقٌ عَلَى بَدْعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، وَلَيْسَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهَذَا تَفْرِيطٌ فِي حَقِّ أَهْلِ الْمَيِّتِ وَوَرِثَتِهِ الَّذِينَ لَعَلَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى هَذِهِ الْأَمْوَالِ.

❁ وَأَمَّا قَوْلُ الْإِمَامِ النَّوَوِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ: قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنْ خَتَمُوا الْقُرْآنَ عِنْدَهُ كَانَ حَسَنًا. فَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ مُعَلِّقًا عَلَى مَا عَزَاهُ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْقَبْرِ لِمَنْ مَاتَ: «لَا أَدْرِي أَيْنَ قَالَ ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ».

وفي ثبوته عنه شك كبير عندي، كيف لا ومذهبه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، كما نقله عنه الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى عدم ثبوت ذلك عن الإمام الشافعي بقوله في «الاعتضاء»: «لا يُحْفَظُ عَنِ الشَّافِعِيِّ نَفْسُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَلَامًا، وَذَلِكَ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَهُ بِدْعَةً. وَقَالَ مَالِكٌ: مَا عَلِمْنَا أَحَدًا فَعَلَ ذَلِكَ. فَعَلِمَ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ».

قلت: وذلك هو مذهب أحمد أيضًا: أن لا قراءة على القبر. كما أثبتته في كتاب «أحكام الجنائز» (ص ١٩٢-١٩٣). وهو ما انتهى إليه رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله كما حققته في الكتاب المذكور (ص ١٧٣-١٧٦). اهـ.

❖ ولا بُدَّ أيضًا أن نقول أنه ليس من السنة أن يقف رجل بعد الدفن ويبدأ في تلقين الميت ويقول له: إذا جاءك الملكان فسألاك: مَنْ ربك؟ فقل: ربى الله... فهذا كله ليس من السنة لأن الحديث الوارد في مسألة التلقين لا يصح. وإنما يكون التلقين عند الموت وليس بعد الدفن.

❖ أما السنة بعد الدفن أن يقف المشيعون يستغفرون للميت ويسألون له الثبیت... «كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، وسلّوا له الثبیت، فإنه الآن يُسأل»^(١).

- ومن المعلوم أن دعاء المُشيعين للميت لا يكون جماعيًا ولا بأن يقوم أحدهم فيدعو والناس يُؤمّنون خلفه وإنما يكون بصورته الصحيحة الواردة في السنة وذلك بأن يدعو كل واحدٍ للميت بمفرده بصوتٍ منخفض^(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٢١) كتاب الجنائز، والحاكم، وصححه العلامة الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٩٤٥).

(٢) موسوعة أحكام الجنائز (ص ٢٩٨-٢٩٩) / د. محمود المصري (أبو عمار).

(۲) صحيح: رواه مسلم (۱۶۳۱) كتاب الوصية.

أخوة الدين عندهم أعزُّ وأشرف من النسب^(١) ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحسدًا لأحد من المؤمنين ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي مُبالغ في الرأفة والرحمة فاستجب دعاءنا.

قال شيخ زاده: بيّن تعالى أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين بالرحمة والدعاء، فمن لم يكن كذلك بل ذكرهم بسوء فقد كان خارجًا عن جملة أقسام المؤمنين بمقتضى هذه الآيات... وقد روي عن الشعبي أنه قال: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سُئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا أصحاب موسى وسُئلت النصارى فقالوا: أصحاب عيسى، وسُئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد ﷺ أمروا بالاستغفار لهم فسبّوهم... فالسيف عليهم مسلولٌ إلى يوم القيامة^(٢).

✽ فإذا رأيت الرجل يحب أصحاب الرسول ﷺ ويثنى عليهم ويستغفر لهم ويترحم عليهم فاعلم أنه على خير وأنه سوف يُحشر معهم - إن شاء الله - فالمرء مع من أحب.

وإذا رأيت الرجل لا يحبهم ولا يترحم عليهم ولا يستغفر لهم بل يسبهم ويقدر فيهم فاعلم أنه على شرٍّ وأنهم بريئون منه وهو برئٌ منهم وليس له حظٌ في صُحبته يوم القيامة... وذلك لأن الطعن في الصحابة هو طعن في مُعلمهم الأكبر - رسول الله ﷺ - والطعن في النبي ﷺ طعنٌ في الشريعة.. وذلك لأن الصحابة هم الذين نقلوا الكتاب والسنة للأمة..

كما أن النبي ﷺ نقل للصحابة تلك الشريعة بوحيٍ من الله ﷻ عن طريق أمير الأنبياء وأمين الوحي جبريل ﷺ.

(١) تفسير أبي السعود (٥/١٥٢).

(٢) حاشية زاده على البيضاوى (٣/٤٧٧).

❁ وأما حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أُمِّي افْتُلتت نَفْسُهَا - یعنی ماتت - ولو تكلمت لتصدقّت فهل لها من أجرٍ إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»... فهذا دليلٌ صريحٌ وصحيحٌ في جواز الصدقة عن الميت وذلك بأن تُخرج صدقةً وتنوَّى بها أنك تتصدق عن أمك أو أهلك أو أختك أو أخيك أو عن أى مسلمٍ ميتٍ فإن ذلك ينفعه ويصل إليه نفعُها بفضل الله ﷻ.

❁ وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ» وذلك لأن الدنيا هي دار العمل وهي مزرعة الآخرة وما تغرسه هنا تجده هناك... فليس هناك عملٌ بعد الموت ولكن هناك الأجر والثواب للعمل الذي تركت أثره ينتفع به الناس من بعدك.

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ» وذلك بأن يشارك هو بنفسه قبل أن يموت في بناء مسجد أو وقف عقارٍ للفقراء أو بناء مستشفى أو بناء دار أيتام... وإلا فقد أسلفنا أنه يجوز أن يتصدق عنه بعد موته أى أحدٍ من أقاربه أو حتى أى أحدٍ من المسلمين.. لكن المقصود هنا في هذا الحديث ما قدّمه هو بنفسه لنفسه.

«أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ» وهذا هو أعظم ما ينتفع به الميت بعد موته... وذلك لأن الصدقة الجارية قد تتعثر بسقوط البيت الذي أوقفه أو بهدم المسجد أو غير ذلك.. وأما الولد الصالح الذي يدعو له فقد يموت بعد فترة قصيرة أو طويلة.. ولا يبقى إلا العلم الذي يُنتفع به بعد موته.. وها نحن ننتفع بالأحاديث التي نقلها أبو هريرة وابن عمر وابن عمرو وأنس بن مالك وابن عباس وغيرهم رضي الله عنهم وذلك بعد مئات السنين من موتهم فنترحم عليهم ونستغفر لهم.

وها هو الإمام البخاري ومسلم ومالك وابن تيمية وابن القيم وابن حجر وابن كثير وغيرهم (رحمهم الله) ما زلنا حتى الآن ننتفع بعلمهم وندعو لهم ونستغفر لهم.

قال على عليه السلام: العلم خيرٌ من المال.. فالعلم يحرسك وأنت تحرس المال.
ونحن نعلم أنه كان هناك أثرياء يعيشون في عهد الإمام البخارى ومسلم فهل
نعرف واحداً منهم؟ كلا.. لكننا نعرف الإمام البخارى ومسلم وسائر الأئمة..
وذلك لأن العلم يُخلد ذكر صاحبه والمال لا يُخلد ذكر صاحبه.

وانظر مثلاً إلى هذا الكتاب الذى نشره، كتاب (رياض الصالحين) للإمام
النووى رحمته الله، فقد عاش سنة (٦٣١) هجرية عليه السلام، ومرت ثمانمائة سنة على
وفاة الإمام النووى رحمته الله، وكتابه لا يزال يُدرّس ويُقرأ ويُحفظ، وهذا يشرحه
وهذا يهذهبه وهذا يزيد عليه، وهذا يصحح أحاديث ويضعف غيرها...

فيا ترى كم أخذ مؤلفه من الحسنات (رحمة الله عليه)... وهذا واحد من
بعض كتبه رحمته الله فقد كتب فى الآداب والأخلاق والسلوك وغيرها، وله كتاب
(المجموع) رحمته الله، وهو كتاب عظيم فى الفقه الشافعى، بل يُعتبر من أمهات
الكتب فى الفقه المقارن أيضاً... فهو كتابٌ عظيم يبلغ عشرين مجلداً بعدما
أكمله الشيخ المطيعى وغيره... وهذه كتب عظيمة انتفع بها المسلمون وما زال
يُنتفع بها حتى الآن وإلى ما يشاء الله (سبحانه وتعالى).

وكذلك كتابه (روضة الطالبين) فهو كتابٌ كامل فى الفقه الشافعى، ذكر فيه
الأقوال للإمام الشافعى والوجوه للأصحاب... وكتابه (تهذيب الأسماء
واللغات) فهو كتابٌ عظيم فى اللغة... وكتابه (شرح صحيح الإمام مسلم) وغير
ذلك من كتبه العظيمة النافعة.

فهذا إمام من الأئمة... وما أكثرهم (رحمة الله عليهم)، فقد تركوا لنا
ذخيرة عظيمة لا يزال يُنتفع بها إلى ما يشاء الله، وعلى قدر إخلاص أصحابها
على قدر ما يُنتفع بها.

❁ بل هؤلاء أصحاب الرسول عليه السلام الذين لم يؤلف أحدهم كتاباً واحداً
ولكنهم ثقلوا للأمة القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام... فكم تلى القرآن الكريم..

فلمن نقله منهم أجر كل من قرأ حرفاً واحداً إلى يوم القيامة.. فكم لهم من مليارات مليارات الحسنات؟.. وكم لهم من الأجر على نقل أحاديث النبي ﷺ التي تعلمت الأمة من خلالها ومن خلال القرآن كيف تعبد الله وتوحده سبحانه وتعالى.

❖ ولاحظ هنا أن النبي ﷺ قال: «أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ» إذا... فهناك فرق بين علم يُنتفع به وعلم لا يُنتفع به.... فإذا كان هذا العلم كلاماً فارغاً أو كلاماً من أهواء الناس، أو مناقشات ومجادلات سفسطائية وتضييعاً للوقت وإشغالاً لأذهان الناس، فهذا كله لا يُنتفع به، فلا يُؤجر عليه، بل إنه ضييع عمره هدرًا... وفي الآخرة لا شيء له... فالنبي ﷺ قيّد العلم هنا بأن يكون علمًا يُنتفع به.

❖ قوله ﷺ: «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، يعنى: عندما يكون لك ولد صالح ويعيش بعدك فإنه سيدعو لك... فقيّد الولد بالصلاح؛ لأن الولد غير الصالح لا يدعو لك، وإن دعا فلن تنتفع بدعائه، ولكن انتفاعك يكون بالولد الصالح، الذى تربيته على كتاب الله وعلى سنة النبي ﷺ، فهو الذى يدعو لك بعد وفاتك. والمقصود بالولد هنا هو الأبناء والأحفاد.. وأنت لا تنتفع بدعائهم لك فحسب.. بل تنتفع بطاعتهم وعبادتهم لله ﷻ... فكلما صلى أحدهم أو صام أو حجّ أو قرأ القرآن أو فعل أى طاعة فسوف تُؤجر عليها وأنت فى قبرك وسيظل كتابك مفتوحاً ما دُمّت أنت الذى ربّاهم على الطاعة.. وبذلك تكون أنت المُتسبب فى طاعتهم لله.. والفائز فى نفس الوقت بطاعتهم لله ﷻ..

وهذا يجعلنا نحرص كل الحرص على تربية أولادنا تربية صالحة لأن صلاحهم يعود بالنفع علينا فى دُنيانا بالبر.. وبعد موتنا بالدعاء والاستغفار لنا وفعل الخيرات والصدقات ليكون ذلك فى ميزان حسناتنا.



(١٦٣) باب ثناء الناس على الميت

(٩٥٧) عن أنس رضي الله عنه قال: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ» ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى، فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «هَذَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

(٩٥٨) وعن أبي الأسود قال: قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَمَرَّتْ بِهِمْ جَنَازَةٌ، فَأَتْنِي عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا فَقَالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مَرَّ بِأُخْرَى، فَأَتْنِي عَلَى صَاحِبِهَا خَيْرًا، فَقَالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، ثُمَّ مَرَّ بِالثَّلَاثَةِ، فَأَتْنِي عَلَى صَاحِبِهَا شَرًّا، فَقَالَ عُمَرُ: وَجَبَتْ، قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: فَقُلْتُ: وَمَا وَجَبَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: قُلْتُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» فَقُلْنَا: وَثَلَاثَةٌ؟ قَالَ: «وِثْلَاثَةٌ» فَقُلْنَا: وَاثْنَانِ؟ قَالَ: «وَاثْنَانِ» ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ^(٢).

✽ إِنْ عِبَادَ اللَّهِ الصَّالِحِينَ شُهِدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، يَقْبَلُ اللَّهُ ﷻ شَهَادَتَهُمْ، فَإِذَا شَهِدُوا لِلْإِنْسَانِ بِالْخَيْرِ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ الْجَنَّةَ، وَإِذَا شَهِدُوا لَهُ بِالشَّرِّ أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ... فَأَهْلُ الْقُرْآنِ وَالْعَاكِفِينَ عَلَى تَعَلُّمِهِ الْعَامِلِينَ بِهِ مِنْ أَوَّلِ مَنْ يُثْنَى عَلَيْهِمُ النَّاسُ، وَكَذَا مَنْ عُرِفَ بِخَيْرٍ مَا بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ رَضِيَ عَنْهُ اللَّهُ أَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ. وَالْمَقْصِدُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ يَتَعَامَلُ مَعَ الْخَلْقِ جَمِيعِهِمْ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَيَطِيعُ اللَّهَ ﷻ فِيهِمْ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ كَانُوا شُهَدَاءً لَهُ عِنْدَ وَفَاتِهِ... فَإِنَّهُ لَنْ يَعْدِمَ مَنْ يَشْكُرُهُ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ، وَيَدْعُو لَهُ بِخَيْرٍ، فَيَكُونُ شَهِيدًا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَيَقْبَلُ اللَّهُ شَهَادَتَهُ لَهُ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٣٦٨) كتاب الجنائز.

ففى حديث أنس أن النبى ﷺ مرّوا بجنّازة فى مجلسه فأثنوا على صاحبها خيراً فقال: «وجبت» ثم مروا بجنّازة أخرى فأثنوا عليها شراً فقال النبى ﷺ: «وجبت» فقال عمر بن الخطاب: ما وجبت يا رسول الله؟ قال: «أثنتم على الأول خيراً فوجبت له الجنة، وأثنتم على الثانى شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض» والثانى كأنه - والله أعلم - من المنافقين.

والمنافقون فى عهد الرسول ﷺ موجودون فى المدينة بكثرة، يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر - والعياذ بالله - والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار إلا مَنْ تاب... وفى هذا دليل على أن المسلمين إذا أثنوا على الميت خيراً دلّ ذلك على أنه من أهل الجنة فوجبت له الجنة، وإذا أثنوا عليه شراً دلّ ذلك على أنه من أهل النار فوجبت له النار، ولا فرق فى هذا بين أن تكون الشهادة فى عهد النبى ﷺ أو بعده، لأن حديث أبى الأسود مع عمر بن الخطاب ؓ كان بعد النبى ﷺ، وقد تنازل النبى ﷺ إلى أن ذكر مَنْ شهد له اثنان بخير كان من أهل الجنة.

❁ وقوله: (شهد له أربعة) إذا ليس شرطاً أن يُثنى عليه بالخير كل الناس... فربما لا يعرفه إلا القليل، ولكن القليلين الذين يعرفونه يعرفون خيرية هذا الإنسان، وأنه بعيد عن المعاصى، وربما أنه كان يُخفى عمله فلا يطلع عليه كثير من الناس، فكان من كرم الله سبحانه أن جعل الشهادة التى يدخل بسببها الإنسان الجنة من أربعة أو ثلاثة أو اثنين.

ومن عقيدة أهل السُّنة والجماعة أننا لا نشهد لأحد بجنة أو نار إلا مَنْ يشهد له النبى ﷺ... فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة ونشهد بالنار لمن شهد له بالنار... فمثال مَنْ شهد له بالجنة الخلفاء الأربعة (أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلى) وكذلك بقية العشرة المبشرين بالجنة... فإن النبى ﷺ قال: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى

الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة، والزبير بن العوام في الجنة»^(١).

هؤلاء عشرة جعلهم النبي ﷺ جميعاً من أهل الجنة... وعكاشة بن محصن لما أخبر النبي ﷺ: «أنه يدخل من هذه الأمة سبعون ألفاً بلا حساب أو عذاب» قال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم» فقال آخر: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «سبقك بها عكاشة»^(٢).

وثابت بن قيس رَوَى أَنَّكَ كَانَ جَهْوَرَى الصَّوْتِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ خَافَ ﷺ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مَحْبُوسًا يَبْكِي يَخْشَى أَن يَكُونَ قَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ؛ لِأَنَّهُ جَهْوَرَى الصَّوْتِ، فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ، فَقَالَ: «بَلْ تَعِيشَ حَمِيدًا وَتُقْتَلَ شَهِيدًا وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ»^(٣).

فَكَلَّ مَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ نَشْهَدَ لَهُ، وَمَنْ شَهِدَ لَهُ بِالنَّارِ فَإِنَّا نَشْهَدُ لَهُ بِالنَّارِ... وَقَدْ شَهِدَ النَّبِيُّ ﷺ لْجَمَاعَةِ بِالنَّارِ.

وكذلك في القرآن، قال الله تعالى في أبي لهب وهو عم النبي ﷺ: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٢) وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ. ﴿

وأخبر ﷺ أَنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ فِي ضَحْضَاحٍ مِّن نَّارٍ وَعَلَيْهِ نَعْلَانٌ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيْنَ أَبِي؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ فِي النَّارِ». وَأَخْبَرَ: «أَنَّ عَمْرُو بْنَ لُحَى الْخُزَاعِيَّ يَجْرُ قَسْطُهُ فِي النَّارِ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكذلك مَنْ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ فَإِنَّا

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٠٥) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٠) كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ٢٦١)، والرويانى (١٠٠٢)، وابن أبى عاصم فى الأحاد والمثنائى

(٣٣٩٩)، والجهاد (٢٢٥)، والطبرانى فى الكبير (٧٠/ ٢).

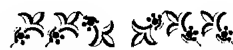
نشهد له بالجنة ... فمثلاً الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ والشافعي، وأبو حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، وغيرهم من الأئمة أجمعت الأمة على الثناء عليهم، فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة ... وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أجمع الناس بالثناء عليه إلا مَنْ شَذَّ، ومن شَذَّ شَذَّ في النار.

يشهد ويؤيد هذا الرأي حديثُ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي رواه البخاري أن الرسول ﷺ أخبر أن مَنْ شهد له أربعة أو ثلاثة أو اثنان بصلاحه فإنه يكون من أهل الجنة.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة^(١).

✽ وجاء في حديثٍ آخر بين النبي ﷺ فيه أن الملائكة تنطق على لسان هذا الإنسان ... وكأن الله يبعث ملائكة تجعلك تنطق بذلك فتقول: فلان كان رجلاً صالحاً، وكان فيه كذا.. ويُذكرك الله ﷻ بإحسان هذا الإنسان إليك وإلى الناس يوماً من الأيام، فتُثنى عليه خيراً، ويمكن أن يكون هذا المُتوفَّى قد نسيتَه وفجأة تذكر وتقول: أنه في يوم من الأيام أسلفني مالا، وفعل بي كذا. والذي ذكرك بذلك هو الله سبحانه وتعالى؛ لُتْنِي عليه، فيقبل الله ﷻ منك ثناءك عليه وشهادتك له، فيكون لهذا الإنسان الجنة.

والله ﷻ يقبل هذه الشهادة، ويستر على العبد ما وقع فيه من آثام، ويغفر له، ويقبل شهادة الناس فيه، ويجعل لهذا الإنسان الجنة.



(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٧٥-٧٦) بتصرف.

(١٦٤) بَابُ فَضْلِ مَنْ مَاتَ لَهُ أَوْلَادٌ صِغَارٌ

❁ فموت الولد مصيبة كبيرة في حياة الوالدين، وجرح لا يزال ينزف ما دامت أرواحهم في أجسادهم.. ولكن إذا صبروا واحتسبوا فإن الله عز وجل يجزل لهم الأجر والمثوبة.

❁ ففي عهد النبي ﷺ كَانَ رَجُلٌ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَمَعَهُ ابْنٌ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُحِبُّهُ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَبُّكَ اللَّهُ كَمَا أُحِبُّهُ.. فَفَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «مَا فَعَلَ ابْنُ فُلَانٍ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِيهِ: «أَمَا تُحِبُّ أَنْ لَا تَأْتِيَ أَبَاكَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، إِلَّا وَجَدْتَهُ يَتَظَرَّكَ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ ﷺ: «فَذَلِكَ لَكَ» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَهُ خَاصَّةٌ أَمْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «بَلْ لِكُلِّكُمْ»^(١).

وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُمَا ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ لَمْ يَلْغُوا الْجَنَّةَ إِلَّا أَدْخَلَهُمَا اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ الْجَنَّةَ يُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَيَقُولُونَ: حَتَّى يَدْخُلَ أَبَوَانَا فَيُقَالُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَبَوَاكُمْ»^(٢).

وعن محمد بن خلف قال: كان لإبراهيم الحربي ابنٌ كان له إحدى عشرة سنة، حفظ القرآن ولقنه من الفقه جانباً كبيراً؛ قال: فمات. فجئت أعزيه فقال: كنت أشتهى موت ابني هذا. قال: قلت له: يا أبا إسحاق أنت عالم الدنيا تقول مثل هذا في صبيٍّ قد أنجب، ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم. رأيت في منامي كأن القيامة قد قامت، وكأن صبيئاً بأيديهم قلال فيها ماء، يستقبلون الناس فيسقونهم، وكان اليوم يوماً حاراً شديداً حره قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء، قال: فنظر إليّ. وقال: ليس أنت أباي، قلت: فأى شيء أنتم؟ قال:

(١) صحيح: رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٨٠).

فقال لى: نحن الصبيان الذين مُتْنَا فى دار الدنيا وخَلَفْنَا آبَاءَنَا، فنستقبلهم فنسقيهم الماء؛ قال: فلهذا تمنيت موته.

والمقصود أن هذا المقام مقامٌ عظيم شريف لمن يطلب المصيبة ويفرح بها نظرًا إلى ثوابها.

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إذا مات ولدُ العبد؛ قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدى؟

فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟

فيقولون: نعم. فيقول: فماذا قال عبدى؟ - وهو أعلم سبحانه وتعالى -.

فيقولون: حَمِدَكَ واسترجع (أى قال: الحمد لله إِنَّا لله وَإِنَّا إليه راجعون).

فيقول الله تعالى: ابْنُوا لعبدى بيتًا فى الجنة وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ» ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وفى هذا الباب أورد المصنف رحمته الله ثلاثة أحاديث:

(٩٥٩) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ

لَمْ يَلْغُوا الْجَنَّةَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ» ^(٢).

❖ ففى هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ

يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَلْغُوا الْجَنَّةَ» أى: لم يبلغ أى واحدٍ منهم أن تُكتب عليه الذنوب والأوزار لأنهم لم يبلغوا سن التكليف «إلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ».

فالولد أحب ما يكون إلى أبيه وإلى أمه وهو صغير لم يبلغ أن يؤذيهما أو يعصيهما ويعقهما، فإذا توفى يكون الألم شديدًا فى قلب الأب وقلب الأم...

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٣٨١) كتاب الجنائز، ولم يُخرجه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه.

فالله عَزَّوَجَلَّ يُعَوِّضُهُمَا بِفَضْلِهِ (سبحانه وتعالى) الصبر، ويُنزل المعونة على قدر المثونة، ويُنزل الصبر على قدر البلاء.

والإنسان لا يدري لو نزلت عليه هذه المصيبة هل سيصبر أو لا؟
فقد يقول: سأصبر وأرضى، ولا يقدر على ذلك... ولعله يقول: لا أستطيع أن أصبر على هذا الشيء؛ فهو شاقٌّ جدًّا... فإذا به ينزل به أشد البلاء وينزل معه الصبر من الله (سبحانه وتعالى) فتراه صابرًا راضيًا عن الله عَزَّوَجَلَّ... فتعجب للإنسان المؤمن حيث يُثَبِّتُه الله عَزَّوَجَلَّ ويُقَوِّى قلبه، ويربط عليه، ويجعله ثابتًا حامدًا شاكراً، ويعوضه بالإيمان في الدنيا، ويُعَوِّضُه بِالْجَنَّةِ وَبَيْتِ الْحَمْدِ فِي الْآخِرَةِ.

فيرحم الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء ويرحم الآباء الذين صبروا على ذلك.



(٩٦٠) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَمُوتُ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَا تَمْسُهُ النَّارُ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»^(١).

❖ وَالْقَسَمُ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فهذا قضاء لا بد وأن يكون.. وكل إنسان لا بد أن يرد على النار.

والورود هو المرور فوق الجسر المضروب على جهنم - الصراط -.. فكل إنسان لا بد وأن يمر عليه... فمن الناس مَنْ يمر سريعاً، ومنهم مَنْ يُطَيَّءُ بِهِ عَمَلُهُ، ومنهم مَنْ يَهْوَى فِي النَّارِ - والعياذ بالله -.

والإنسان الذي تُوفِّي لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ يَرْحَمُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَلَا يَعَانِي وَلَا يَقَاسِي فِي الْمُرُورِ عَلَى الصَّرَاطِ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٥١) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٦٣٢) كتاب البر والصلة.
«وَتَحِلَّةُ الْقَسَمِ» قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وَالْوُرُودُ: هُوَ الْعُبُورُ عَلَى الصَّرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ مَنْصُوبٌ عَلَى ظَهْرِ جَهَنَّمَ. عَافَا اللَّهُ عَنْهَا.

وَتَحِلَّةُ الْقَسَمِ هُنَا أَنْ يَمْرَ عَلَى الصَّرَاطِ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ، بِفَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَهَذَا إِذَا صَبَرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَالصَّابِرُ لَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَالَّذِي لَا يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرَهُ لَيْسَ لَهُ حِيلَةٌ، فَلَنْ يَدْفَعَ قَضَاءَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَقَدْرَهُ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: إِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ وَإِمَّا أَنْ تَسْلُو سَلَوَ الْبَهَائِمِ.

أَيُّ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ كَرِيمَ النَّفْسِ عَفِيفُهَا، صَابِرًا لِمَقَادِيرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتَجَلِّدًا، فَسَيَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ يُسَلِّيهِ فِيهِ رَبُّهُ عَزَّوَجَلَّ وَيُذْهِبُ عَنْهُ الْغَمَ الَّذِي هُوَ فِيهِ.

وَإِمَّا أَنْ يَتَسَخَطَ فَيَرْفَعَ صَوْتَهُ، وَيَلْطُمَ خَدَّهُ، وَيَشُقْ ثِيَابَهُ، وَيَشُدَّ شَعْرَهُ، وَيَكُونَ مُعْتَرِضًا عَلَى قَضَاءِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَنْ يَحْصُلَ لَهُ بِذَلِكَ عَوْدَةٌ مِيتَةً، وَيَظِلُّ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ صَوْتُهُ، وَتَتَمَزَّقَ ثِيَابُهُ، وَيَمْرُضُ وَيَتَعَبُ وَيَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... إِذَا فَهِيَ مُصِيبَةٌ فِي الدُّنْيَا وَمُصِيبَةٌ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ.

وَكَانَ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَ الْمَثَلَ بِرَجُلٍ كَانَ يُسَمَّى حِمَارًا، فَيَقُولُونَ: أَكْفَرُ مِنْ حِمَارٍ.

فَهَذَا الرَّجُلُ مَاتَ لَهُ أَوْلَادٌ، فَتَسَخَطَ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَظْهَرَ الْإِعْتِرَاضَ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، بَلْ أَظْهَرَ أَشَدَّ مَا يَكُونُ مِنَ الْإِعْتِرَاضَاتِ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَخَذَهُ اللَّهُ بِصَاعِقَةٍ صَعَقَتْهُ فَقَتَلَهُ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى).

فَلَمْ يَصْبِرْ وَلَمْ يَكْسِبْ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا إِلَّا الْخِزْيَ وَالْعَارَ. وَهَذَا جِزَاءُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَكْفُرُ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْتَرِضُ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا حَدَثَ لِأَوْلَادِهِ^(١).

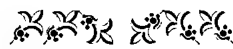
(١) بِتَصْرِيفٍ مِنْ شَرْحِ رِیَاضِ الصَّالِحِينَ لِلشَّيْخِ أَحْمَدَ حَطِيبِيَّةَ.

(٩٦١) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه نُعلِّمنا ممَّا علِّمَكَ الله. قال: «اجتمعن يومَ كذا وكذا» فاجتمعن، فأتاهنَّ النبي ﷺ فعَلَّمَهُنَّ ممَّا علَّمَهُ الله. ثم قال: «ما مِنْكُنَّ مِنْ امرأةٍ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِنَ الولَدِ إِلَّا كانوا لها حجابًا مِنَ النَّارِ» فقالت امرأةٌ: واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن النساء طلبن من النبي ﷺ أن يجعل لهن يومًا يقبسن فيه من علمه ويتعلمن بين يديه ﷺ.. فجعل النبي ﷺ لهن يومًا وقال لهن: «اجتمعن يومَ كذا وكذا» فاجتمعن، فأتاهنَّ النبي ﷺ فعَلَّمَهُنَّ ممَّا علَّمَهُ الله ﷻ. ثم قال: «ما مِنْكُنَّ مِنْ امرأةٍ تُقَدِّمُ ثلاثةً مِنَ الولَدِ إِلَّا كانوا لها حجابًا مِنَ النَّارِ». كما قال للرجل: «ما من مسلم يقدم...» فقالت امرأةٌ: واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين» وكأنهن استحيين أن يسألن عن الواحد فلم يسألن.

❁ ولكن يكفي ما يدل على أن من قدمت ولدًا واحدًا فإنه يكون لها حجابًا من النار.. ما ورد في الحديث الذي ذكرناه من قبل أن الله ﷻ أرسل ملائكته لقبض ابن عبده المؤمن.. فلما قالوا لله ﷻ عن هذا العبد أنه بعد موت ولده حميد الله واسترجع... أي قال: الحمد لله إنا لله وإنا إليه راجعون.. فقال لهم الله (جل وعلا): «ابنوا له بيتًا في الجنة وسموه بيتَ الحمد».

فاللهم ارزقنا الصبر والرضا عند البلاء.



(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠١) كتاب العلم، ومسلم (٢٦٣٣) كتاب البر والصلة.

(١٦٥) باب البكاء والخوف عند المرور

بقبور الظالمين ومصارعهم وإظهار الافتقار
إلى الله تعالى والتحذير من الغفلة عن ذلك

(٩٦٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ - يَعْنِي لَمَّا وَصَلُوا الْحِجْرَ: دِيَارَ ثَمُودَ -: «لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، لَا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» ^(١).

وفي رواية قال: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ: «لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ» ثُمَّ قَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِي.

✽ والمعنى: أن الإنسان المؤمن إذا مرَّ بقبور الظلمة والكفار وبالمشاهد التي يذكرون أنها آثاراً لهم، كآثار الفراعنة، فلا يمر ويفتخر بهؤلاء ويقول: هؤلاء هم آباؤنا وأجدادنا!... إن هذا الذي يفخر بهؤلاء ويقول: نحن الفراعنة، ونحن أصلنا كذا.

نقول له: إن هؤلاء كفار آذوا رسول الله موسى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) وأرادوا قتله، وأنكروا بعثته ورسالته، فلا يفخر بالكافر إلا مَنْ كان مثله، أو مَنْ ذهب عقله.

قَالَ ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى ﷺ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ لَا أُمَّ لَكَ؟ قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنُ الْإِسْلَامِ». قَالَ: «فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى ﷺ: أَنْ قُلْ لَهُذَيْنِ الْمُتَنَسِّبَيْنِ: أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَنَسِّبُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٩، ٤٤٢٠) كتاب المغازي، ومسلم (٢٩٨٠) كتاب الزهد والرقائق.

إِلَى تِسْعَةٍ فِي النَّارِ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا الْمُتَسَبِّبُ إِلَى اثْنَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ»^(١).

❁ فالشاهد أن هذا الرجل الذي انتسب إلى تسعة آباء كفار من أهل النار لم يكن كافرًا بل كان مؤمنًا من أتباع موسى ﷺ لكنه كان في قلبه جاهلية وعصية...

فقضى الله ﷻ أَنْ الذي يفتخر بالأشرار مثلهم وسيُحشر معهم.
والفراعنة الكفار الذين ملكوا البلاد في يوم من الأيام أين هم الآن؟ ❁ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ❁ [غافر: ٤٦]، والعياذ بالله.

فالذي يفتخر بهؤلاء فإنه يفتخر بأهل النار.. وإن لم يُتَب فسوف يُحشر معهم في النار... فلذلك لا يحل لمسلم أن يقول مفتخرًا بالفراعنة الذين بنوا الأهرام حتى يُخَلَّدوا ويعيشوا... فليس له أن يفتخر بهؤلاء... فإذا مرَّ بقبورهم نظر واتعظ، فيكون المرور للاتعاظ فقد بنوا هذه الآثار العظيمة فهل نفعتهم من الله سبحانه وتعالى شيئًا؟ وهل منعهم من الموت؟

لقد زعموا أنهم سيُخلَّدون، وزعموا أنهم الآلهة والأرباب لخلق الله، واستخفوا أقوامهم فأطاعهم أقوامهم... فإذا مرَّ الإنسان بقبورهم وآثارهم اتعظ واعتبر كما قال النبي ﷺ.

❁ وهنا في هذا الباب أورد المصنف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما بمرور النبي ﷺ بالحجر - ديار ثمود - وثمود هم قوم صالح الذين أرسل الله إليهم صالحًا (عليه الصلاة والسلام) فذكَّروهم بالله ولكنهم كفروا به فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ثم أخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في ديارهم جائمين، وكان الله

(١) صحيح: رواه النسائي وأحمد والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٩٢).

تعالى قد أعطاهم قدرة وقوة في نحت الجبال وبناء القصور في السهول، وأصبحوا أمة قوية، ولكن الله تعالى أخذهم برجفة وصيحة فماتوا عن آخرهم.

فقال ﷺ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين».

فالإنسان إذا دخل على أماكن من أصابهم العذاب تذكّر نعمة الله ﷻ، وأن الله ﷻ على كل شيء قدير، وأن هؤلاء لما كفروا بالله أهلكهم الله وأتلفهم... وهذا حالهم الآن، فيأمرهم النبي بقوله: «لا تدخلوا عليهم إلا أن تكونوا باكين»، أي: فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم... فلا تدخلوا عليهم وأنتم تضحكون وتلعبون، ولا تتخذوا أماكنهم التي أهلكهم الله فيها للهو واللعب؛ بحيث يأتي إليها الناس وهم يُغنّون ويرقصون وكأن هذا المكان مكان للهو ولعب... فإذا فعلوا ذلك فكأنهم يسخرون بانتقام الله ﷻ من هؤلاء، ويسخرون من الموت... وإذا كان الأمر كذلك استحقوا أن يُصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء، فإن الذي لا يتعظ ولا يعتبر يستحق أن يُبتلى.

قال النبي ﷺ: «لا تدخلوا عليهم؛ لا يصيبكم ما أصابهم» أي: إذا دخلتم فادخلوا وأنتم تعرفون نعمة الله عليكم، وتخافون من بطش الله سبحانه، وإذا لم يكن هذا حالكم فلا تدخلوا حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء.

وفي رواية قال ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رسول الله ﷺ رأسه، وأسرع السير عليه الصلاة والسلام حتى أجاز الوادي).

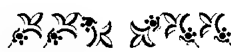
ومن الحكمة وأنت في الحج حين تخرج من المزدلفة متوجّهاً إلى منى أن تمر ببطن محسر مُسرِعاً... لأنه المكان الذي أهلك الله ﷻ فيه أصحاب الفيل... ولما وصله النبي ﷺ أوضع راحلته، أي: أسرع براجلته حتى جاوز هذا المكان... وصارت سنة النبي ﷺ المرور في هذا المكان بسرعة؛ لهذا الغرض

ولهذه العلة.. فإذا مررت تذكرت ذلك، واستحضرت أن هذا المكان مكان نزل فيه العذاب، وليس هناك ما يدعو إلى المُكوث في هذا المكان بل نُسرِع في هذا المكان، فقد كان شؤماً على أصحابه حيث نزل عليهم العذاب في هذا المكان^(١).

❁ وفي رواية أخرى عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى تَبُوكَ، نَزَلَ بِهِمُ الْحِجْرَ عِنْدَ يَبُوتِ ثَمُودَ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنَ الْآبَارِ الَّتِي كَانَ تَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ، فَعَجَنُوا مِنْهَا، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَهْرَاقُوا الْقُدُورَ، وَعَلَفُوا الْعَجِينَ الْإِبِلَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ بِهِمْ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ عَلَى الْبُئْرِ الَّتِي كَانَتْ تَشْرَبُ مِنْهَا النَّاقَةُ، وَنَهَاهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ عَذَّبُوا فَقَالَ: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»^(٢).

لقد نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن استعمال الماء الذي في ديار ثمود؛ لأنه ماء قوم مُعَذِّبين، وأمرهم بإهراق القُدُور التي طبخوا فيها بذلك الماء، وإطعام العجين الذي عجنوه بذلك الماء لدوابهم... وهذا النهى للتنزيه لا للتحريم، وهذا التصرف منه إرشادٌ لهم إلى ما هو أولى.

والرسول ﷺ يريد من المسلمين أن تبقى قلوبهم نافرة من المعاصي، وأن لا يرضوا نفسياً بالقوم المُعَذِّبين، ولذلك نهاهم عن الإقامة في ديار القوم المُعَذِّبين، وعن الدخول عليهم، حتى لا تهتزَّ نظرُهم للعصاة والمعاصي، وحتى لا يتأثروا بما كان يفعله المُعَذَّبون الهالكون^(٣).



(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين للشيخ أحمد حطية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧٠٢) كتاب التفسير - ومسلم (٢٩٨٠) الزهد والرقائق.

(٣) كتاب (قصص الطير والحيوان) / د. محمود المصري (ص ٨١-٨٢).



(٧) كتاب آداب السفر

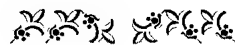
(١٦٦) باب استحباب الخروج

يوم الخميس واستحبابه أول النهار

✽ نحن نعلم أن الإنسان يحتاج أن يسافر أحياناً إما من أجل مصلحة دنيوية أو دينية .. فلا بُدَّ للمسافر أن يستحضر النية الصالحة في سفره وذلك بأن ينوى بسفره أنه يسافر لصلة الرحم أو لزيارة أخ في الله أو للسعى وراء لقمة عيش يُعف بها أهله أو غير ذلك ... وأن يحرص على التوبة وردّ المظالم لأصحابها لأنه ربما يكون سفره الأخير إلى الدار الآخرة..

فالعبد لا يعلم متى يلقي ربه (جل وعلا) ... وألا يسافر إلى معصية وأن يستخير قبل الشروع في السفر وأن يكتب وصيته وأن يترك لأهله نفقة تكفيهم وأن يتزود بالنفقة الحلال في سفره وأن يختار الرفيق الصالح وأن يودع الأهل والأقارب وألا ينسى دعاء السفر وأن يدعو في سفره لأحبابه لأن دعاء المسافر مُستجاب وأن يحرص على أداء الفرائض وأن يتعلم فقه السفر وأن يُعجّل بالعودة لأهله بمجرد انقضاء حاجته من السفر وأن يُحضر الهدايا لأهله وأحبابه إن استطاع وأن يُخبر أسرته بموعد عودته ولا يأتهم فجأة حتى لا يرى ما يؤذيه .. فقد تكون زوجته ليست متزينة لاستقباله فيراها على هيئة لا تُرضيه .

✽ وقد علّمنا النبي ﷺ أدباً جميلاً في السفر: ألا وهو أن نسافر يوم الخميس في الصباح الباكر إن استطعنا.. وإلا فلنا أن نسافر في أي وقت وبخاصة ونحن نرتبط بمواعيد الطائرات وغيرها من وسائل السفر.



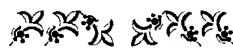
(٩٦٣) عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس^(١).

وفي رواية في الصحيحين: لقلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلا في يوم الخميس.

✽ السفر: هو مفارقة الوطن، وهو أن يخرج الإنسان من وطنه إلى وطن آخر ... وسمي سفرًا لأنه من الإسفار وهو الخروج والظهور.

كما يقال: أسفر الصبح إذا ظهر وبان... وقيل: في المعنى سمي السفر سفرًا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال .. يعنى يبين ويوضح أحوالهم، فكم من إنسان لا تعرفه ولا تعرف سيرته إلا إذا سافرت معه، وعندئذ تعرف أخلاقه وسيرته وإشاره... إلخ... حتى كان عمر رضي الله عنه إذا زكى رجل شخصًا عنده قال له: هل سافرت معه، هل عاملته؟ إن قال: نعم قبل ذلك، وإن قال: لا. قال: لا علم لك به.

ثم إن السفر ينبغي للإنسان أن يتحرى فيه الأوقات التي تكون أسهل، وأنسب، ومن ذلك أن يكون في آخر الأسبوع كما كان النبي ﷺ في أكثر أسفاره يخرج يوم الخميس، وربما خرج في غيره... فقد خرج ﷺ في آخر سفرة سافرها - وهى حجة الوداع - يوم السبت، لكن دائمًا كان إذا سافر - ولا سيما إذا كان في غزو - كان ذلك يوم الخميس، والحكمة من ذلك - والله أعلم - أنه يوم ترفع فيه الأعمال وتعرض على الله عز وجل فكان يحب ﷺ أن يعرض على الله عمله في ذلك اليوم... وكان ﷺ يحب أن يخرج من أول النهار لما في ذلك من استقبال النهار؛ لأنه ربما يطول السفر فيكون في الخروج في الصباح الباكر سعة للوصول في ضوء النهار... ولأن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

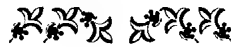


(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٥٠) كتاب الجهاد والسير - ولم أجده عند مسلم وكذلك لم يعزه المزى لمسلم في تحفة الأشراف (٧/ ٥٦٦) (١١٤٧).

(٩٦٤) وعن صخر بن وداعة الغامديّ الصحابيّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَأُمْتِي فِي بُكُورِهَا» وكان إذا بعث سرية أو جيشاً بعثهم من أول النهار وكان صخر تاجرًا، وكان يبعث تجارته أول النهار، فأثرى وكثر ماله^(١).

✽ «اللهم بارك لأمتي في بكورها» - أي: في أول النهار - فدعا النبي ﷺ أن يبارك الله في أول النهار فيه لأمة... لأنه مستقبل العمل؛ فإن النهار كما قال الله تعالى معاش: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فإذا استقبله الإنسان من أوله صار في ذلك بركة... وهذا شيءٌ مُشاهد، أن الإنسان إذا عمل في أول النهار وجد في عمله بركة... لكن وللأسف فأكثرنا اليوم ننامون في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى، فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة.

وقد قال العامة: أمير النهار أوله. يعنى أن أول النهار هو الذى يتركز عليه العمل... وكان صخر يبعث بتجارته أول النهار فأثرى وكثر ماله من أجل دعاء النبي ﷺ بالبركة لهذه الأمة في بكورها^(٢).



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٣٠٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٧٩/٣) بتصرف.

(١٦٧) باب استحباب طلب الرفقة

وتأمرهم على أنفسهم واحداً يطيعونه

(٩٦٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الْوَحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ»^(١).

✽ فينبغي للإنسان إذا أراد سفرًا أن يكون معه رفقة يسافرون معه فلا يسافر وحده.. لأنه ربما يخرج عليه لصٌّ أو قاطع طريق فيؤذيه أو يأخذ ماله.. وربما يُصاب بمرضٍ أو إغماءٍ فلا يجد مَنْ ينقذه.. أو ربما يهجم عليه وحشٌ.. ونحن نعلم أن الوحوش لا تهجم على الإنسان إلا إذا كان وحده فأما إن كان معه صحبة فلا يجترئ الوحش أن يهجم عليهم.

✽ وهذا النهي عن سفر العبد وحده إنما هو في الأسفار التي تكون في أماكن غير عامرة.. أما إذا كان المكان عامرًا بالناس في الذهاب والإياب فلا بأس أن يسافر المسلم وحده.. ولا يدخل ذلك في النهي الذي ورد في الحديث.

✽ ولقد ورد في الحديث الآخر:

(٩٦٦) وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ»^(٢).

✽ وهنا أيضًا ينهى النبي ﷺ عن سفر الإنسان وحده أو مع صاحبه فقط.. وحثٌ على أن تكون الصحبة في السفر تبدأ من ثلاثة فما فوقها... وأخبر أن المسافر وحده شيطان... وليس المقصود هنا أنه أصبح شيطاناً بل المقصود أنه إن سافر وحده في طريقٍ محفوفٍ بالمخاطر فهو شيطان: أي عاصٍ لأمر رسول

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٨) كتاب الجهاد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٤).

الله ﷻ... كقوله تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ ❀ أى: عُصَاتِهِم.

❁ قال الطبري: «هذا زجرٌ أدبٍ وإرشاد؛ لما يُخاف على الواحد من الوحشة، وليس بحرام.. فالسائر وحده بفلاة، والبائت في بيت وحده؛ لا يأمن من الاستيحاء؛ سيما إن كان ذا فكرة رديئة، أو قلبٍ ضعيف... والحق أن الناس يتفاوتون في ذلك، فوقع الزجر لحسم المادة، فيُكره الانفراد سدًّا للباب، والكرهية في الاثنين أخف منها في الواحد».

❁ قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: ولعل الحديث أراد السفر في الصحارى والفلوات التي قَلَّما يرى المسافر فيها أحداً من الناس، فلا يدخل فيها السفر اليوم في الطرق المُعَبَّدة الكثيرة المواصلات. والله أعلم^(١).



وقد حَضَّ النبي ﷺ المسلمين إذا سافروا أن يُؤمُّروا واحداً عليهم.

(٩٦٧) وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالَا: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»^(٢).

✽ يعنى: يؤمرون واحداً منهم يتولّى تدبيرهم .. يقول نذهب، ونجلس، نتوضأ، نتناول العشاء، وما أشبه ذلك؛ لأنهم إذا لم يؤمروا واحداً صار أمرهم فوضى ... ولهذا قيل: لا يُصلح الناس فوضى لا سراة لهم.

لا بد من أمير يتولّى أمرهم وظاهر الحديث أن هذا الأمير إذا رُضوه وجبت طاعته فيما يتعلق بمصالح السفر؛ لأنه أمير.. أمّا ما لا يتعلق بأمر السفر فلا تجب طاعته: كالمسائل الخاصة بالإنسان، إلا أنه لا يعنى ذلك أن هذا الأمير يستبدُّ بل يكون كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

(١) السلسلة الصحيحة (١/ ١٣٢).

(٢) صحيح: رواه أبو داود والضياء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٠).

وَسَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿١﴾ فعليه أن يشاورهم في الأمور التي يخفى فيها جانب المصلحة، ولا يستبد برأيه، أما الأمور الواضحة فلا حاجة للمشورة فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٦٨) وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمَائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَّةٍ» ^(١).
 ﴿٢﴾ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ» وذلك لأن الْمُسَافِرَ لَا يَخْلُو عَنْ رَحْلٍ يَحْتَاجُ إِلَى حِفْظِهِ وَعَنْ حَاجَةٍ يَحْتَاجُ إِلَى التَّرَدُّدِ فِيهَا... وَلَوْ كَانُوا ثَلَاثَةً لَكَانَ الْمُتَرَدِّدُ وَاحِدًا فَيُتَّقَى بِلَا رَفِيقٍ فَلَا يَخْلُو عَنْ خَطَرٍ وَضِيقِ قَلْبٍ لِفَقْدِ الْأَنْبَسِ... وَلَوْ تَرَدَّدَ اثْنَانِ كَانَ الْحَافِظُ وَاحِدَهُ.

قَالَ الْمُظْهَرُ: يَعْنِي الرُّفَقَاءَ إِذَا كَانُوا أَرْبَعَةً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونُوا ثَلَاثَةً لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً وَمَرِضَ أَحَدُهُمْ وَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ أَحَدَ رَفِيقَيْهِ وَصَى نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يَشْهَدُ بِإِمْضَائِهِ إِلَّا وَاحِدٌ فَلَا يَكْفِي وَلَوْ كَانُوا أَرْبَعَةً كَفَى شَهَادَةُ اثْنَيْنِ وَلِأَنَّ الْجَمْعَ إِذَا كَانُوا أَكْثَرَ يَكُونُ مُعَاوَنَةً بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْتُمْ... وَفَضْلُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ أَيْضًا أَكْثَرُ فَخَمْسَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَكَذَا كُلُّ جَمَاعَةٍ خَيْرٌ مِمَّنْ هُوَ أَقَلُّ مِنْهُمْ لَا مِمَّنْ فَوْقَهُمْ ^(٢).

«وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمَائَةٍ».

السَّرَايَا: جَمْعُ السَّرِيَّةِ وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَيْشِ.
 قَالَ فِي النَّهَايَةِ: السَّرِيَّةُ هِيَ طَائِفَةٌ مِنَ الْجَيْشِ يَبْلُغُ أَقْصَاهَا أَرْبَعَ مِائَةٍ تُبْعَثُ إِلَى الْعَدُوِّ... وَجَمْعُهَا السَّرَايَا سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَكُونُونَ خُلَاصَةَ الْعَسْكَرِ وَخِيَارَهُمْ مِنَ الشَّيْءِ السَّرِيِّ النَّفِيسِ ^(٣).

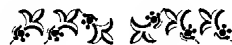
(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٨).

(٢) تحفة الأحوذى (٥٠٣/٤).

(٣) تحفة الأحوذى (٥٠٣/٤).

«وَحَيْرَ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ» خُصَّتْ الأربعة آلاف نظير الأربعة التي ذُكرت في الأحاد «حَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ».

«وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ» أى: لو بلغ الجيش اثنا عشر ألفاً فلن يُغلب بسبب قلة العدد وإنما بسببٍ آخر: من العُجب بكثرة العدد أو تزيين الشيطان لهم أمراً آخر نشأ عنه خذلهم ونحوه... كما حدث في غزوة حُنين.. فقد كانت الهزيمة في بداية الغزوة بسبب قول أحد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لن نُغلب اليوم من قِلة.. فكانت الهزيمة في البداية ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى نصرٍ بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ.. ولذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعَجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [التوبة: ٢٥].



(١٦٨) باب آداب السير والنزول والمبيت والنوم في

السفر واستحباب السرى والرفق بالدواب ومراعاة

مصلحتها، وجواز الإرداف على الدابة إذا كانت

تطبق ذلك، وأمر من قصر في حقها بالقيام بحقها

(٩٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتُم في الخصبِ فأعطوا الإبلَ حظَّها من الأرضِ، وإذا سافرتُم في الجَدبِ، فأسرِّعوا عَلَيْها السَّيْرَ وبادروا بِهَا نَفْيَها، وإذا عَرَّسْتُم فاجتَنِبُوا الطَّرِيقَ، فَإِنَّها طُرُقُ الدَّوَابِّ، ومأوى الهَوامِّ بالليل»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يحضننا النبي ﷺ على أننا إذا سافرنا في وقت الخصب وكنا نركب أى دابة فلا بد أن نتأني في السير ولا نُسرِع حتى نُعطى تلك الدابة حقها في المرعى بأن تأكل وتتزود حتى لا تفقد نشاطها وعافيتها فيكون ذلك الطعام عوناً لها على إكمال المسير والسفر.....

وأما في حال القحط وقلة المرعى فعلينا أن نُسرِع بها حتى نصل إلى غايتنا بسرعة فتجد الدابة هناك طعامها وشرابها فلا تهلك ويذهب عقلها من شدة التعب والإعياء.

كذلك أمر النبي ﷺ أننا إذا عرَّسنا -نزلنا- ليلاً لنستريح وننام فإننا لا ننام في الطريق.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٢٦) كتاب الإمارة.

❦ معنى: «أعطوا الإبل حظها من الأرض» أى: ارفقوا بها في السير لترعى في حال سيرها -

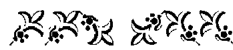
وقوله: «نقياها» وهو المخ... معناه: أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مُخُّها من ضحك السير - والتعريس: النزول في الليل.

وذلك لأن الطريق هو المكان الذي تمشى فيه الدواب.. فإذا نام فيه أحدنا ربما تصيبه دابة بحافرها وهو نائم.. وهو كذلك مأوى الهوام والحيات وغيرها.. وذلك لأنها تأوى إلى تلك الطرق لتأكل ما يقع من الناس في سفرهم.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى الرَّفْقِ بِالذَّوَابِّ وَمُرَاعَاةُ مَصْلَحَتِهَا فَإِنْ سَافَرُوا فِي الْخَصْبِ قَلَّلُوا السَّيْرَ وَتَرَكُوهَا تَرَعَى فِي بَعْضِ النَّهَارِ وَفِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ فَتَأْخُذُ حَظَهَا مِنَ الْأَرْضِ بِمَا تَرَعَاهُ مِنْهَا ... وَإِنْ سَافَرُوا فِي الْقَحْطِ عَجَّلُوا السَّيْرَ لِيَصِلُوا الْمَقْصِدَ وَفِيهَا بَقِيَّةٌ مِنْ قُوَّتِهَا وَلَا يُقَلِّلُوا السَّيْرَ فَيُلْحَقَهَا الضَّرَرُ لِأَنَّهَا لَا تَجِدُ مَا تَرَعَى فَتَضَعُفُ وَيَذْهَبُ نَفْيُهَا - أَيْ: عَقْلُهَا - وَرُبَّمَا كَلَّتْ وَوَقَفَتْ ... وَقَدْ جَاءَ فِي أَوَّلِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي رِوَايَةِ مَالِكٍ فِي الْمَوْطَأِ أَنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ ...

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «وَإِذَا عَرَّسْتُمْ فَاجْتَنِبُوا الطَّرِيقَ فَإِنَّهَا طُرُقُ الذَّوَابِّ وَمَأْوَى الْهُوَامِ بِاللَّيْلِ» قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ التَّعْرِيسُ النُّزُولُ فِي أَوَاخِرِ اللَّيْلِ لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ وَهَذَا آدَبٌ مِنْ آدَابِ السَّيْرِ وَالنُّزُولِ أُرْسِدَ إِلَيْهِ رَحِمَهُ اللهُ لِأَنَّ الْحَشَرَاتِ وَذَوَابَّ الْأَرْضِ ذَوَاتِ السُّمُومِ وَالسَّبَاعِ تَمْشِي فِي اللَّيْلِ عَلَى الطَّرِيقِ لِسُهُولَتِهَا وَلِأَنَّهَا تَذْهَبُ نَفْيُهَا مَا يَسْقُطُ مِنْ مَأْكُولٍ وَنَحْوِهِ وَمَا تَجِدُ فِيهَا مِنْ رِمَّةٍ وَنَحْوِهَا ... فَإِذَا عَرَّسَ نَسَاءُ فِي الطَّرِيقِ رُبَّمَا مَرَّ بِهِ مِنْهَا مَا يُؤْذِيهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَبَاعَدَ عَنِ الطَّرِيقِ (١).



(٩٧٠) وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ فِي سَفَرٍ، فَعَرَّسَ بَلِيلٍ اضْطَجَعَ عَلَى يَمِينِهِ، وَإِذَا عَرَّسَ قُبِيلَ الصُّبْحِ نَصَبَ ذِرَاعَهُ وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى كَفِّهِ (٢).

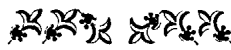
(١) مسلم بشرح النووي (١٣/١٠٢-١٠٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٨٣) كتاب المساجد.

قال العلماء: إِنَّمَا نَصَبَ ذِرَاعَهُ لِئَلَّا يَسْتَعْرِقَ فِي النَّوْمِ فَتُقَوِّتَ صَلَاةُ الصُّبْحِ عَنْ وَقْتِهَا أَوْ عَنْ أَوَّلِ وَقْتِهَا.

✽ كان من هديه ﷺ أنه إذا عرس في أول الليل اضطجع على يمينه، وإذا عرس قبيل الفجر اتكأ على يده اليسرى، لأن إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطى النفس حظها من النوم... ولهذا كان ﷺ في بيته إذا نام ينام على الجنب الأيمن بل أمر بذلك... أما إذا كان قبيل الفجر فكان ينصب ذراعه ﷺ وينام على يده لئلا يستغرق في النوم فتفوته صلاة الفجر.

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا بد أن يعطى نفسه حظها من الراحة «إن لبدنك عليك حقاً».. فإذا نام أول الليل فإنه ينام ويشبع من النوم حتى يستيقظ للقيام نشاطاً.. وإذا نام آخر الليل فإنه لا ينبغي أن ينام نومة المطمئن حتى لا تفوته صلاة الصبح... وينبغي أن يأخذ بالأسباب ليستيقظ للصلاة.. كأن يستعمل المنبه أو يطلب من أحد أن يوقظه.. وهذا من باب قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.



(٩٧١) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِاللُّجَةِ، فَإِنَّ الْأَرْضَ تُطَوَّى بِاللَّيْلِ»^(١).

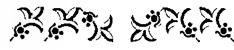
✽ ففي هذا الحديث يرشد النبي ﷺ أمته إلى أن يسيروا في الليل، وأخبر أن الأرض تُطوى للمسافر إذا سافر في الليل... يعني أنه يقطع في اللجة - الليل - ما لا يقطعه في النهار، وذلك لأن الليل وقت براد فهو أنشط للرواحل وأسرع في سيرها ولهذا عبر النبي ﷺ عن ذلك بأنه تُطوى الأرض للمسافر إذا مشى في الليل.

وقد تكون الأرض نفسها تُطوى بالليل من تحت أقدام الرواحل والمسافرين تيسيراً للمسافرين في ظلمة الليل الموحش.. فيكون ذلك نعمة من بين ملايين النعم التي أنعم الله ﷻ بها على عباده.. فلا مانع أن يكون هذا

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٦٤).

«اللجة» السير في الليل.

وذاك... وقد أخبرني أحد إخواني الأفاضل أنه جَرَّب ذلك بنفسه فسار بسيارته من محافظة إلى محافظة أخرى بنفس السيارة وب نفس السرعة فوصل في سفره بالليل في وقتٍ أقل من سفره بالنهار بنصف ساعة أو أكثر.

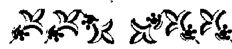


(٩٧٢) وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ» فَلَمْ يَنْزِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ^(١).

✽ ففى هذا الحديث يخبر أبو ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن الناس كان من عادتهم أنهم إذا كانوا مسافرين وأرادوا أن يستريحوا في الطريق فنزلوا منزلاً فإنهم كانوا يتفرقون في الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ.

وفى يوم من الأيام كانوا مسافرين مع النبي ﷺ.. فلما أرادوا أن يستريحوا في الطريق فنزلوا منزلاً وبدأوا يتفرقون في الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ.. فناداهم النبي ﷺ فاجتمعوا حوله فقال لهم ﷺ: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشُّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ» فَلَمْ يَنْزِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

قوله ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ» يعنى تَفَرُّقَهُمْ... فما نزلوا بعد ذلك منزلاً إلا اجتمعوا جميعاً؛ لأن ذلك أقوى لهم وأحفظ، ولو تسلَّط عليهم عدوٌّ في هداة الليل - وكانوا جميعاً - أمكنهم المدافعة، لكن إذا تفرقوا توزعوا وفشلوا.



(٩٧٣) وعن سهل بن عمرو رضي الله عنه... وقيل: سَهْلُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرِو الْأَنْصَارِيِّ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ﷺ قال: مرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٨٨).

فاركبوها صالحةً، وكُلُّوها صالحةً»^(١).

✽ لقد كان النبي ﷺ رحيمًا بكل من حوله وما حوله ... حتى وصلت رحمته ﷺ بالحيوان الأعجم الذي لا يقدر أن يتكلم ويوصل شكواه إلى أحد.. فكان النبي ﷺ يُحرم إيذاء الحيوان أو حبسه أو ضربه أو وسمه في الوجه.. ونهى النبي ﷺ عن اتخاذ الحيوان غرضًا يتعلم الإنسان الرماية في جسده.. وأمر النبي ﷺ أن نختار لتلك الدواب المرعى الخصب.. بل والأعجب من ذلك أن النبي ﷺ كان حريصًا على الإحسان إلى الحيوان واحترام مشاعره.. وإن أعظم تطبيق لهذا الخلق حين ينهى الرسول ﷺ عن تعذيبه أثناء الذبح لأكل لحمه، سواء كان التعذيب جسديًا بسوء اقتياده للذبح، أو برداء آلة الذبح، أو كان التعذيب نفسيًا بروية السكين.. ومن ثمَّ يجمع عليه أكثر من مائة! ... فقد روى شَدَّاد بن أوس رضي الله عنه قال: ثُتِنَ حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحِدَّ أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحته»^(٢)... كما روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أضجع شاة يُريد أن يذبحها - وهو يُحِدُّ شفرته - فقال النبي ﷺ: «أتريد أن تُميتها موتاتٍ، هلا حددت شفرتك قبل أن تُضجعها»^(٣).

وهكذا حَقُّ للحيوان أن ينعم بالأمن والأمان، والراحة والاطمئنان في بيئة علا فيها قول رسول الله ﷺ، وطُبقت فيها أفعاله.

✽ وفي هذا الحديث يخبر ابن الحنظلية أن النبي ﷺ مرَّ ببيعيرٍ قد لحق ظهره ببطنه من شدة الجوع.. فغضب النبي ﷺ وقال: «اتَّقُوا الله في هذه البهائم المُعْجَمَةِ فاركبوها صالحةً، وكُلُّوها صالحةً».

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩٥٥) كتاب الصيد والذبائح.

(٣) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٣).



فأمر كل مَنْ له بهيمة أن يتقى الله فيها.. فلا يركبها إلا وهى سليمة ليس فيها مرض أو جرح أو كسر فى عظامها لأن ذلك يؤذيها.. وكذلك لا يركبها إلا بعد أن يُطعمها ويسقيها.. ولا يشق عليها فى سفرٍ لا تتحملة..
«وكلُّوها صالحة» أى: حال كونها صالحة للأكل.. أى: سليمة وليس فيها مرض... وهذا كله من الرحمة التى جعلها الله فى قلب النبى ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٧٤) وعن أبى جعفر عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: أردفنى رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، وأسرَّ إلىَّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحبَّ ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفٌ أو حائشٌ نخل - يعنى: حائط نخل -^(١).
وزاد فيه البرقانى بإسناد مسلم: هذا بعد قوله: حائشٌ نخلٍ: فدخَلَ حائطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأنصارِ، فإذا فيه جَمَلٌ، فلمَّا رأى رسولَ الله ﷺ جَرَجَرَ وذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فأتاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ - أى: سِنَامَهُ - وَذَفَرَاهُ فَسَكَنَ، فقال: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟» فجاء فتى مِنَ الأنصارِ فقال: هذا لى يا رسولَ الله . فقال: «أفلا تتقَى الله فى هذه البهيمة التى مَلَكَكَ الله إياها؟ فَإِنَّهُ يَشْكُو إِلَىَّ أَنَّكَ تُحِيعُهُ وَتُدْبِيهِ» ورواه أبو داود كرواية البرقانى.

❁ ففى هذا الحديث يحكى عبد الله بن جعفر رضي الله عنه أنه ركب خلف النبى ﷺ على الدابة وأسرَّ إليه حديثاً أدخل السعادة على قلبه... حتى قال عبد الله: لا أحدث به أحداً من الناس... ثم أخبر أن النبى ﷺ ذهب لقضاء حاجته.. وكان إذا أراد أن يقضى حاجته كان يذهب بعيداً ويستتر بشيء.. وكان أحب ما استتر به هدف.. مثل العنزة التى كان يُركزها فى الأرض... أو حائش نخل.. يعنى: حائط نخلٍ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٤٢) كتاب الحيض.

قوله: «ذَفَرَاهُ» قال أهل اللُّغَةِ: الذَّفَرُ: المَوْضِعُ الذى يَعْرِقُ مِنَ البعيرِ خلف الأُذُنِ. وقوله: «تُدْبِيهِ» أى: تُتَبَّعُهُ.

وبعد فترة دخل النبي ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار وأخذ يتأمل في الزروع والثمار وهو يُسبِّح الله (جل وعلا)... وفجأة رأى النبي ﷺ جملاً فحدث أمرٌ عجيب أغرب من الخيال... يا ترى ما الذي حدث؟

لقد نظر الجمل إلى النبي ﷺ وظل يحن ويكيى وبدأت الدموع تنساب على وجنتيه.

فلما رآه النبي ﷺ، تأثر وذهب إليه وأخذ يمسح بيده على مؤخرة رأسه بكل رحمة وحنان فسكت الجمل وكفَّ عن البكاء.

فسأل النبي ﷺ: «مَنْ صاحب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟».

فجاء فتى من الأنصار لما سمع صوت رسول الله ﷺ وقال: إنه لى يا رسول الله.

فغضب النبي ﷺ وقال له: «أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التى ملكك الله إياها؟».. فتعجب الفتى من كلام النبي ﷺ الذى دخل البستان منذ لحظات وما رأى أى شىء من معاملة هذا الفتى للجمل، فمن الذى أخبر النبي ﷺ بأن هذا الفتى يُسئ معاملة الجمل.

فإذا بالنبي ﷺ يخبره بأن الجمل قد شكاً إليه أنه يُجيعه ولا يطعمه إلا القليل من الطعام الردىء.. وفوق ذلك فهو يُتعبه ويكلفه من الأعمال فوق طاقته.

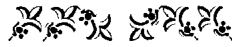
❖ القصة لم تذكر ما الذى حدث بعد ذلك.. لكننى أتوقع أن هذا الفتى قد أحسن معاملة الجمل بعد ذلك إكراماً لمجىء رسول الله ﷺ.

❖ وهذا من معجزات الرسول ﷺ أن البهائم العُجم تشكو إليه إذا رآته ﷺ... لأن ذاك من آيات الله التى يؤيد الله بها رسوله ﷺ... فإن الله تعالى ما أرسل رسولاً إلا أعطاه آيات تدل على نبوته لئلا يكذبه الناس.

لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال: أنا رسول الله لكم بدون آية ما صدقوه، لكن الله تعالى يؤتى رسله آيات تدل على أنهم صادقون... وأعظم آيات أُعطيتها

الأنبياء ما أعطيه النبي ﷺ ... وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» وغيره أيضاً أنه ما من آية لنبي من السابقين إلا كان لرسول الله ﷺ مثلها أو أعظم منها... إما له شخصياً وإما لأتباعه، وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة، لكن لم يُعط أحد من الأنبياء مثل ما أعطى النبي ﷺ من هذا الوحي - القرآن - ولهذا قال: «إنما الذي أوتيته وحى أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(١).

لأن هذا الوحي باقٍ إلى يومنا هذا، والناس كلما قرءوه ازدادوا إيماناً بالله ورسوله ﷺ .. لما فيه من الآيات العظيمة الدالة على أن رسول الله ﷺ هو رسول الله حقاً^(٢).



(٩٧٥) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا نَزَلْنَا مَنْزِلًا، لَا نُسَبِّحُ حَتَّى نَحُلَّ الرَّحَالَ^(٣).

❁ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: أَيْ لَا نُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى حَتَّى نَحُطَّ الرَّحَالَ وَكَانَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَسْتَحِبُّ أَنْ لَا يَطْعَمَ الرَّائِبُ إِذَا نَزَلَ حَتَّى يَعْلِفَ الدَّابَّةَ... وَأَنْشَدَنِي بَعْضُهُمْ فِيمَا يُشَبِّهُ هَذَا الْمَعْنَى:

حَقُّ الْمَطِيَّةِ أَنْ تَبْدَأَ بِحَاجَتِهَا لَا أَطْعِمُ الضَّيْفَ حَتَّى أَعْلِفَ الْفَرَسَ^(٤)

❁ فعلى الرغم من حرصهم الشديد على الصلاة إلا أنهم من كثرة الرحمات التي رأوها من النبي ﷺ في حق الدواب والحيوانات التي لا تستطيع أن تشكو حالها إلى أحد.. كانوا يحلوا الرحال ويريحوا الدواب قبل أن يصلوا

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري (٤٩٨١) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (١٥٢) كتاب الإيمان.

(٢) شرح رياض الصالحين (٨٤/٣) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٢٤).

وقوله: «لَا تُسَبِّحُ» أَيْ لَا تُصَلِّي النَّافِلَةَ ... ومعناه: أَنَا - مع حرصنا على الصلاة - لَا نُقَدِّمُهَا عَلَى حُطِّ الرَّحَالِ وَإِرَاحَةِ الدَّوَابِّ.

(٤) عون المعبود (١٦٠/٧).

ويأكلوا.. رحمة بها.. لأنهم تعلموا من النبي ﷺ أن الإنسان إذا رحم من حوله فسوف يرحمه الله.. فقد قال ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»^(١) وقال ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمْ، لَا يُرْحَمْ»^(٢).

بَارَكْ وَسَلَامٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٢٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٩٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٣١٨) كتاب الفضائل.

باب إعانة الرفيق (١٦٩)

❁ في الباب أحاديث كثيرة تقدمت كحديث: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» وحديث: «كل معروف صدقة» وأشباهاها.

(٩٧٦) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد، فليعد به على من لا زاد له» فذكر من أصناف المال ما ذكره، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٧١) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٩٧٧) وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه أراد أن يغزو فقال: «يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قوماً، ليس لهم مال، ولا عشيرة، فليضم أحدكم إليه الرجلين أو الثلاثة» فما لأحدنا من ظهر يحمله إلا عتبة - يعني: كعقبة أحدهم - قال: فضممت إلى اثنين أو ثلاثة ما لي إلا عتبة كعقبة أحدهم من جملي^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يخبر جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أراد الخروج للغزو والجهاد وكان هناك نقص شديد في الدواب التي سركبون عليها للجهاد.. وكان هناك بعض الصحابة ليس عندهم مال ليشتري كل واحد منهم دابة يركب عليها للجهاد .. ولكنه يرغب في أن يجاهد مع النبي ﷺ عسى الله أن يرزقه الشهادة في سبيله .. فلم يرد النبي ﷺ أن يحرمهم من هذا الشرف العظيم.

فقال ﷺ لأصحابه: «يا معشر المهاجرين والأنصار، إن من إخوانكم قوماً،

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٢٨) كتاب اللقطة.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٩).

ليس لهم مال، ولا عشيّرة، فليُضمَّ أحدكم إليه الرَّجلين أو الثلاثة».

يقول جابر رضي الله عنه: فما لأحدنا من ظهرٍ يحمله إلا عُقْبَةٌ - يعني كعُقْبَةِ أحدهم - قال: فَضُمَّتُ إِلَى اثْنَيْنِ أو ثَلَاثَةٍ ما لى إلا عُقْبَةُ كعُقْبَةِ أَحَدِهِمْ مِنْ جَمَلِي.

يعنى: لم يكن لى فضلٌ فى الركوب على الذين ضممتهم إلى ... بل كان لى عُقْبَةٌ من جملى مثل عُقْبَةِ أحدهم.. يعنى كنت أركب مرة وأمشى بعدها لكى يركب غيرى.. فلو كانوا ثلاثة يركبون بغيراً واحداً فكان جابر يركب مسافة ثم يمشى على رجله ضعفى تلك المسافة حتى يركب الاثنان الآخران...

وهكذا كان الإيثار فى حياتهم.. وهكذا كان التعاون على البر والتقوى فى حياتهم.. وهكذا كانوا يحتسبون الأجر والثواب فى أعمالهم.. عسى مَنْ يركب معه يرزقه الله الشهادة فيشفع له يوم القيامة وتكون شهادته فى ميزان حسناته.



(٩٧٨) وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتَخَلَّفُ فى المسير فيُزجى الضَّعِيفُ وَيُرْدَفُ وَيَدْعُو له ^(١).

✽ فالرسول ﷺ كان يكون فى أخريات القوم فى السفر يُزجى الضعيف - يسوقه - ويدعو له... كما ثبت ذلك عنه فى صحيح مسلم فى قصة جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ لحقه - وكان جابر على جملٍ قد أعيا - فضربه النبى ﷺ... أى: ضرب الجملى ودعا له، فصار يمشى كما تمشى الرّكاب بل كان يتقدم عليها... والحاصل أنه ينبغى للإنسان أن يكون مع رفقائه فى السفر مُحسناً إليهم قاضياً لحاجتهم مُعيناً لهم... فإن هذا من الآداب النبوية التى جاءت بها سُنَّة النبى ﷺ... والله أعلم.



(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٩٠١).

(١٧٠) باب ما يقول إذا ركب الدابة للسفر

❖ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢) لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

(٩٧٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَىٰ سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ. اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ. اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ.

وإذا رجع قالهنَّ وزاد فيهنَّ: «آيُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»^(١).

❖ فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾: يعني: سِيرَ لَكُمْ. ﴿مِنَ الْفَلَكَ﴾: يعني: السفن وهي ثلاثة أنواع: بحرية، وبرية، وجوية... أما البحرية فكانت معروفة من قديم الزمان من زمن نوح عليه السلام حين أوحى الله إليه ﴿أَنِ اصْنَعْ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّسْنَا﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ وأما السفن البرية فظهرت متأخرة وهي السيارات... وأما الجوية فهي أيضًا ظهرت بعد ذلك وهي الطائرات... وكلها داخلية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ فإنها فلك لأنها تجمع ما شاء الله من الخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ يعني الإبل والبغال والحمير والخيول وغيرها مما

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٢) كتاب الحج.

مَعْنَى «مُقْرِنِينَ»: مُطَبِّقِينَ - وَ«الْوَعَثَاءُ» وَهِيَ: الشَّدَّةُ - وَ«الْكَآبَةُ» بِالْمَدِّ، وَهِيَ: تَغْيِيرُ النَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ وَنَحْوِهِ - وَ«الْمُنْقَلَبُ»: الْمَرْجِعُ.

يُركب ... وقد اختلف العلماء في جواز ركوب الإنسان ما لم تجرِ العادة بركوبه ... كما لو ركب البقر، فمنهم مَنْ قال: إنه جائز ما لم يَشُق عليه. ومنهم مَنْ قال: إنه لا يجوز؛ لأنها لم تُخلَق لهذا ... والصحيح أنه جائز، وأنه لا بأس أن يركب الإنسان ما لم تجرِ العادة بركوبه لكن بشرط ألا يَشُق عليها فإن شق عليها فهو ممنوع.

وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾، يعني أنه جعل لنا ما نركب لنستقر على الظهور، فلم يجعله صعباً لا يستوى الإنسان على ظهره، بل هو يُستقر على ظهره ... وهذا مُشاهد في السيارات والسفن والطائرات والإبل الدُّلول وما أشبه ذلك ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بعد الاستواء تذكرون نعمة الله بما يَسِّر لكم مما خلق من الأنعام ومما علمكم من الفلك، وتقولوا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ كان الذي يتبادر أن يقول الإنسان: الحمد لله الذي سخر لنا هذا. ولكنه أُمِر أن يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ لماذا؟ لأن (سبحان) تدل على التنزيه: يعني تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الحاجة وعن النقص ... فكأن الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليها يستعين بها على حاجاته فيُسبح الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو مُستغنٍ عن كل خلقه ... فكان التسبيح في هذا المقام أنسب.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ يعني: ما كنا مُطيقين له لولا أن الله سخره أي: ذلَّله، كما قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ رأيتم لو كانت هذه البعير الكبيرة الجسم القوية النشيطة لو لم تُسخر هل نستطيع أن نركبها؟! هل نقدر عليها؟! الجواب: لا؛ لأن هناك من السباع ما هو دونها بكثير ولا نستطيع أن نقدر عليه، لكن الله سخر لنا هذا الذي نركبه، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمام الناقة ويقودها إلى حيث شاء ... هذا من تسخير الله عَزَّوَجَلَّ وتذليله ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ هذه الجملة جملة عظيمة،

كأن الإنسان لمّا ركب مسافرًا على هذه الدابة الذلول أو الفلّك كأنه يتذكر السفر الأخير من هذه الدنيا .. وهو سفر الإنسان إلى الله ﷻ إذا مات، وحمله الناس على أعناقهم فيتذكر ويقول: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ... فالمُنْقَلَب إلى الله ﷻ ... والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿يَكُونُ الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ كَادِحٌ إلى ربك.. لم يُقَلْ كَادِحٌ لربك بل قال: كَادِحٌ إليه: يعنى سيكون مالك ومال كَدَّك وكدحك إلى الله ﷻ.

﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى: عامل وراجع إلى ربك، ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ كُلُّنَا سوف يلاقى الله، ولكن على أى شىء وشأنٍ نلاقى الله ﷻ؟!

فينبغى للإنسان إذا ركب سيارته أو الطائرة أن يقول هذا الذكر الوارد عن النبى ﷺ فى حديث ابن عمر: يكبر ثلاثاً ويقول: ﴿سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ ثم يدعو بهذا الدعاء (١).

﴿اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ﴾ أى وفقنا إلى أن نفعل فى سفرنا هذا كل ما يُرضيك وأن نتصف بالبر - أى حسن الخلق مع الناس من حولنا - كما عرّف النبى ﷺ البر فقال: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ».. وأن نتصف بالتقوى: أى أن نفعل الطاعات ونبتعد عن المعاصى والسيئات... فنجعل بيننا وبين غضبك وعقابك وقاية وأن نعمل كل ما يُرضيك عنا.

﴿اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ﴾ أى: يسّر علينا هذا السفر وجنّبنا فيه التعب والمشقة والّتيه والضياع ولا تجعلنا نشعر بطول السفر ومشقته بل اجعل سفرنا سهلاً ميسوراً وعجّل لنا بسرعة الوصول سالمين غانمين.

﴿اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل﴾.

«الصاحب فى السفر» يعنى تصحبنى فى سفرى ، تُيسره علىّ، وتُسهله علىّ «وأنت الخليفة فى الأهل» أى: الخليفة فى الأهل من بعدى تحوطهم برعايتك

وعنايتك... فهو عَزَّوَجَلَّ مع الإنسان في سفره، وخليفته في أهله؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ بكل شىء مُحِيط.

❁ «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد».

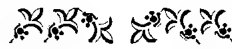
ومعنى وعثاء السفر: مشقته وشدته... وكآبة المنظر: وهى تَغْيِر النفس من الحزن ونحوه... وسوء المنقلب: شر الرجوع.

أى: أَسْتَعِذ بك من أن أَرْجع إلى أهلى ومالى وولدى فأرى فيهم ما يُحْزِنُنِي ويسوئنى من مريضٍ أو موتٍ أو مخالفة أمرى.. فهم فى حفظك ورعايتك فاحفظهم بحفظك فى سفرى وفى حضرى.

❁ وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: «آيُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ».

آيُونَ: جمع آيب، وهو الراجعُ بالخير هنا... وتائبون: جمع تائب من الذنب. وأصل التوبة الرجوع... كذلك حَدَّثَهَا بعض أئمتنا بأن قالوا: التوبة: هى الرجوع عما هو مذمومٌ شرعاً إلى ما هو محمودٌ شرعاً.

عابدون: خاضعون مُتَذَلِّلُونَ... حامدون: مُثْنُونَ عليه بصفات كماله، وجلاله، وشاكرون عوارف أفضاله^(١).



(٩٨٠) وعن عبد الله بن سرجس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْنِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ^(٢).

(١) المفهم للقرطبي (٣/٣٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٣) كتاب الحج.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَمَعْنَاهُ بِالنُّونِ وَالرَّاءِ جَمِيعًا: الرَّجُوعُ مِنَ الْاسْتِقَامَةِ أَوْ الزِّيَادَةِ إِلَى النَّقْصِ.

قَالُوا: وَرَوَايَةُ الرَّاءِ مَأْخُودَةٌ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ وَهُوَ لَفْهًا وَجَمْعُهَا. وَرَوَايَةُ النُّونِ، مِنَ الْكَوْنِ، مَصْدَرٌ (كَانَ يَكُونُ كَوْنًا): إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ.

هكذا هو في صحيح مسلم: «الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْنِ» بالنون، وكذا رواه الترمذى والنسائى، قَالَ الترمذى: وَيُرْوَى «الْكُورُ» بالراءِ، وَكِلَاهُمَا لَهُ وَجْهٌ.

✽ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ كان إذا سافر يتعوذ بالله من وعشاء السفر.. أى يستعيز بالله من مشقة السفر وشدته .. فقد كان السفر على عهد النبى ﷺ شاقاً.. فلم يكن هناك سيارات ولا طائرات ولا سفن وإنما كان على ظهور الإبل والخيول فى الصحراء الشاسعة والرمال والشمس المحرقة.. وليس معنى ذلك أننا إذا ركبنا الطائرة لا ندعو دعاء السفر ولا نستعيز بالله من وعشاء السفر.. بل لا بد أن نقتدى بالنبى ﷺ فى ذلك.. وذلك لأن الله عز وجل هو القادر على أن يجعل السفر سهلاً ميسوراً للعبد الطائع حتى وإن كان مسافراً على ظهر دابة فى الصحراء.. وقادرٌ على أن يجعل السفر شاقاً على العبد العاصى حتى وإن كان يركب طائرة.

فلذا لا بد أن نستعيز بالله من وعشاء السفر.

✽ وكان ﷺ يتعوذ أيضاً من كآبة المُنْقَلَبِ أى: الانقلاب من الطاعة إلى المعصية..

✽ «والحور بعد الكون».

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: هُوَ الرُّجُوعُ مِنَ الْإِيْمَانِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ مِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ ... وَمَعْنَاهُ الرُّجُوعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ ... وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَاهُ بِالرَّاءِ وَالنُّونِ جَمِيعًا الرُّجُوعُ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ أَوْ الزِّيَادَةِ إِلَى النِّقْصِ قَالُوا: وَرِوَايَةُ الرَّاءِ مَأْخُودَةٌ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ وَهُوَ لَفْهًا وَجَمْعُهَا .. وَرِوَايَةُ النُّونِ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكُونِ مَصْدَرٌ كَانَ يَكُونُ كَوْنًا إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ.

قَالَ الْمَازِرِيُّ فِي رِوَايَةِ الرَّاءِ: قِيلَ أَيْضًا: أَنَّ مَعْنَاهُ أَعُودُ بِكَ مِنَ الرُّجُوعِ عَنِ الْجَمَاعَةِ بَعْدَ أَنْ كُنَّا فِيهَا ... يُقَالُ كَاءَ عِمَامَتِهِ إِذَا لَفَّهَا وَحَارَهَا إِذَا نَقَضَهَا.

وَقِيلَ نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ تُفْسِدَ أُمُورُنَا بَعْدَ صَلَاحِهَا كَفَسَادِ الْعِمَامَةِ بَعْدَ اسْتِقَامَتِهَا عَلَى الرَّأْسِ ... وَعَلَى رِوَايَةِ النُّونِ قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: سُئِلَ عَاصِمٌ عَنْ مَعْنَاهُ فَقَالَ أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُمْ حَارَ بَعْدَ مَا كَانَ ... أَيْ أَنَّهُ كَانَ عَلَى حَالَةٍ جَمِيلَةٍ فَرَجَعَ عَنْهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ «وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ» أَيْ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ دُعَاءُ الْمَظْلُومِ ... وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ... فَفِيهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الظُّلْمِ وَمِنَ التَّعَرُّضِ لِلسَّبَابِ^(١).

❁ «وسوء المنقلب في الأهل والمال» أَيْ وَأَنْ أَنْظِرَ مَا يَسُوؤُنِي فِي الْأَهْلِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ مَوْتٍ أَوْ اشْتِغَالٍ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٨١) وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: شَهِدْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِدَابَّةٍ لِيرِكَبَهَا، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرَّكَابِ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ».. ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقِيلَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مِنْ أَى شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَّ كَمَا فَعَلْتُ، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ أَى شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث أن على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى بدابة ليركبها.. فلما وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله.. فلما استوى جالساً مُستريحاً على ظهرها

(١) مسلم بشرح النووي (٩/١٥٨-١٥٩) يتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٥٣)، وصحيح سنن أبى داود (٢٢٦٧).



قال: الحمد لله ثم قال دعاء ركوب الدابة الذى ورد فى سورة الزخرف: ﴿سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

ثم قال: الحمد لله ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ قال: الله أكبر ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ قال: سُبْحَانَكَ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لى إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، ثمَّ ضَحِكَ.

فلما سُئِلَ عن سبب ضحكك قال: رَأَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ فَعَلَّ كَمَا فَعَلْتُ، ثمَّ ضَحِكَ، فقلتُ: يا رسول الله، مِنْ أَىِّ شَىْءٍ ضَحِجْتَ؟ قال: «إِنَّ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: اغْفِرْ لى ذُنُوبِى، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِ».

فهذا الحديث يوضح سعة رحمة الله (جل وعلا) ومغفرته وأنه عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة عبده إذا تاب وعاد إليه..

فلقد قال النبى ﷺ: «الله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم...»^(١) وذكر الحديث... وهو أن رجلًا مسافرًا أضلَّ راحلته وفقدها فطلبها فلم يجدها وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، ونام تحت شجرة ينتظر الموت... فبينما هو كذلك إذا براحلته قد تعلَّقت بالشجرة، فأخذ بزمامها وقال: «اللهم أنت عبدى وأنا ربك» يريد أن يقول: «اللهم أنت ربى وأنا عبدك» لكنه أخطأ من شدة الفرح... فالله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبة عبده أكثر من فرحة هذا العبد حين عادت إليه راحلته... مع أن توبته لن تزيد فى مُلك الله شيئًا وذنبه لن تُنقص من مُلكه شيئًا سبحانه وتعالى.

فلو لم يكن هناك ثمرة للتوبة إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ يفرح بتوبتنا لكان واجبًا علينا أن نتوب وأن نعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٠٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٤٧) كتاب التوبة.

(١٧١) باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا

وشبهها وتسبيحه إذا هبط الأودية ونحوها،

والنهي عن المبالغة برفع الصوت بالتكبير ونحوه

(٩٨٢) عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا^(١).(٩٨٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَجِيوشُهُ إِذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا، وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا^(٢).

❁ ففي هذين الحديثين نتعلم أدباً جميلاً من آداب السفر .. ألا وهو: أنه إذا صعد الإنسان في أثناء سفره شيئاً مرتفعاً كالجبل ونحوه أو كان يركب الطائرة فصعدت فإنه يُكبر ويقول: «الله أكبر» مرة أو مرتين أو ثلاثاً...

وإذا نزل إلى مكانٍ منخفض أو كانت الطائرة تنزل فإنه يُسبِّح ويقول: «سبحان الله» مرة أو مرتين أو ثلاثاً.

ووجه ذلك أن الإنسان إذا كان يركب دابةً أيّاً كان نوعها سواء كانت ناقة أو سيارة أو طائرة فصعد إلى مكانٍ عالٍ فقد يستعظم نفسه .. فإذا قال: «الله أكبر» فيرد نفسه إلى وضعها الطبيعي ويعلم أنه عبدٌ لله عَزَّوَجَلَّ وأنه مهما علا فإن فوقه مَنْ هو أعلى من الكون كله وما فيه .. ألا وهو الله عَزَّوَجَلَّ .. فاطر السماوات والأرض.

وإذا نزل العبد وهو مسافر .. فالنزول فيه سُفول وذُلٌّ ودُنُو فيقول: «سبحان الله» .. يعني: أنزهه سبحانه وتعالى عن النزول والسُّفول عَزَّوَجَلَّ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٣) كتاب الجهاد والسير .

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٢٦٤).

لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وإن كان ثبت عن رسول الله ﷺ أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وعظمته فإنه لا يلزم منه السُّفول؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء.

فإذا ركبت أى دابة فصعدت فقل: «الله أكبر» وإذا نزلت فقل: «سبحان الله».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٨٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قَفَلَ مِنَ الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ كُلَّمَا أَوْفَى عَلَى ثِيَّيْهِ أَوْ قَدَفَدَ كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ. صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»^(١).

وفي رواية لمسلم: إذا قَفَلَ مِنَ الْجِيُوشِ أَوْ السَّرَايَا أَوْ الْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ.

❁ ففى هذا الحديث يخبر ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا عاد من الغزو والجهاد أو من الحج والعمرة كلما ارتفع وعلا على مكانٍ مرتفعٍ من الأرض كَبَّرَ ثَلَاثًا.. أى قال: «الله أكبر» ثلاث مرات..

ثم قال ﷺ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ. صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ».

آيِبُونَ: جمع آيب، وهو الراجعُ بالخير هنا... وتائبون: جمع تائب من الذنب. وأصل التوبة الرجوع... كذلك حَذَّاهَا بعض أئمتنا بأن قالوا: التوبة: هى الرجوع عما هو مذمومٌ شرعاً إلى ما هو محمودٌ شرعاً.

عابدون: خاضعون متذللون... (حامدون): مُثْنُونَ عليه بصفات كماله،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٩٧) كتاب العمرة، ومسلم (١٣٤٤) كتاب الحج.

قوله: «أَوْفَى» أى: ارتفع - وقوله «قَدَفَدَ» وهو: الغليظُ المرتفعُ مِنَ الْأَرْضِ.

وجلاله، وشاكرون عوارف أفضاله^(١).

قوله ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ» أَيْ صَدَقَ وَعْدَهُ فِي إِظْهَارِ الدِّينِ وَكَوْنِ الْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَعْدِهِ سُبْحَانَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ... وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ أَيْ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ ... وَالْمُرَادُ الْأَحْزَابُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَتَحَزَّبُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ... وَبِهَذَا يَرْتَبِطُ قَوْلُهُ ﷺ: «صَدَقَ اللَّهُ» تَكْذِيبًا لِقَوْلِ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ أَنَّ الْمُرَادَ أَحْزَابُ يَوْمِ الْخَنْدَقِ ... قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَحْزَابُ الْكُفْرِ فِي جَمِيعِ الْأَيَّامِ وَالْمَوَاطِنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٨٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ فَأَوْصِنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ» فَلَمَّا وَلَّى الرَّجُلُ قَالَ: «اللَّهُمَّ اطْوِلْ لَهُ الْبُعْدَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَرِيدُ وَصِيَّتَهُ ...

ولقد كان أصحاب الرسول ﷺ يستشيرونه في كل صغيرة وكبيرة ويطلبون منه دائماً أَنْ يوصيهم ويدلهم على الخير لأنه ﷺ مُؤَيَّدٌ مِنَ السَّمَاءِ فَلَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷻ

فلما قال للنبي: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسَافِرَ فَأَوْصِنِي.

(١) المفهم للقرطبي (٣/ ٣٥٩) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩/ ١٦١).

(٣) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی في صحيح الجامع (٤٠٤٦).

قال له ﷺ: «عليك بتقوى الله».

قوله: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ» أى: عليك بِمَخَافَتِهِ وَالْحَذَرِ مِنْ عِصْيَانِهِ.

(والتَّكْبِيرِ) أى قَوْلُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. وَمُنَاسِبَةُ التَّكْبِيرِ عِنْدَ الصُّعُودِ إِلَى الْمَكَانِ الْمُرْتَفِعِ أَنْ الْإِسْتِعْلَاءَ وَالْإِرْتِفَاعَ مَحْبُوبٌ لِلنُّفُوسِ لِمَا فِيهِ مِنْ اسْتِشْعَارِ الْكِبَرِيَاءِ فَشَرَعَ لِمَنْ تَلَبَّسَ بِهِ أَنْ يَذْكُرَ كِبَرِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَيَكْبِّرُهُ لِيَشْكُرَ لَهُ ذَلِكَ فَيَزِيدَهُ مِنْ فَضْلِهِ.

(عَلَى كُلِّ شَرَفٍ) أى مَكَانٍ عَالٍ ... (فَلَمَّا أَنْ وَلَّى الرَّجُلُ) أى أَدْبَرَ (قَالَ) أى دَعَا لَهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِجَابَةِ (اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الْبُعْدَ) أى قَرِّبْهُ لَهُ وَسَهِّلْ لَهُ ... وَالْمَعْنَى ارْفَعْ عَنْهُ مَشَقَّةَ السَّفَرِ بِتَقْرِيبِ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ لَهُ حِسًّا أَوْ مَعْنَى (وَهُوَ عَلَيْهِ السَّفَرُ) أى أُمُورُهُ وَمَتَاعُهُ^(١).

وتأمل معى كيف كان النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة حريصاً على أن يوصى أصحابه وأمته بالتقوى ... أى أن يفعل العبد ما أمره الله به وأن ينتهى عما نهاه الله ﷻ عنه وألا يتعدى حدوده ويقع فيما يغضب الله .. فيكون بذلك قد وقى نفسه من غضب الله وعذابه.

بل وتأمل معى مرة أخرى كيف كان حرص النبى ﷺ على أن يدعو لهذا الرجل بظهر الغيب بعد أن انصرف .. وذلك لأن الله ﷻ وصف النبى ﷺ بقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨).

بل تأمل مرة ثالثة إلى كل هذا الاهتمام من النبى ﷺ بهذا الرجل .. مع أنه ليس معروفاً وليس من كبار الصحابة .. وهذا يدل على تواضع النبى ﷺ وعدم تفرقه بين الشريف والوضيع والغنى والفقر .. فالكل عنده سواء ولا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَوْكُمْ﴾.

(٩٨٦) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنّا مع النّبي صلى الله عليه وآله في سفرٍ، فكنّا إذا أشرَفنا على وادٍ هلَلنا وكَبَرنا وارتَفَعَت أصواتنا ... فقال النّبي صلى الله عليه وآله: «يا أيُّها الناس اربَعُوا على أنفُسِكُم فإنَّكُم لا تَدْعونَ أصمَّ ولا غائبًا. إنَّه معكُم، إنَّه سَمِيعٌ قريبٌ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أنهم كانوا مع النّبي صلى الله عليه وآله في سفرٍ.. فكانوا إذا أشرَفوا على وادٍ هلَّلوا وكَبَرُوا.. أى قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر... فظلوا يرفعون أصواتهم ويرفعونها أكثر وأكثر... فما كان من النّبي صلى الله عليه وآله إلا أن قال لهم: «يا أيُّها الناس اربَعُوا على أنفُسِكُم فإنَّكُم لا تَدْعونَ أصمَّ ولا غائبًا. إنَّه معكُم، إنَّه سَمِيعٌ قريبٌ».

«اربَعُوا على أنفُسِكُم» أى: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم عند التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل.. فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد مَنْ يخاطبه ليسمعه.. والله لا يحتاج منكم أن تُجهدوا أنفسكم في رفع الصوت بالتسبيح وغيره لأنه سبحانه وتعالى يسمع ويُبصر.. وهو قريبٌ مِنْكُمْ مع أنه فوق السماوات لكنه محيطٌ بكل شيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما السموات السبع والأرضون السبع في كَفِّ الرحمن إلا كخردلة في كَفِّ أحدكم»... كل السموات والأرض.

وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يَشُقَّ على نفسه في العبادات... لا في أدائها ولا في المداومة عليها.

فمتى كانت العبادة سهلة ميسورة لا ينبغي للعبد أن يعدل عن السهل إلى الصعب.. فإذا كان عندك ماء ساخن في الشتاء فلا ينبغي أن تعدل إلى الصعب

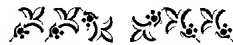
(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٩٢) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

«اربَعُوا» أى: ارفقوا بأنفسكم.

وتتوضأ بالماء البارد.. لكن إن لم يكن عندك ماء ساخن فتوضأت بالماء البارد فلا بأس ولك الأجر على ذلك... وكذلك لا تقل: سأذهب إلى الحج ماشياً ولن أركب السيارة لأن المشى أصعب من الركوب..

نقول لقد: أخطأت لأنك عدلت عن السهل إلى الصعب طلباً للأجر. بل الصواب أن تركب وتحمد الله على أن سخر لك هذا.. فالله لا يريدك أن تُعذب نفسك ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (١٤٧).

وهكذا في كل العبادات.. متى تيسرت وتسهّلت العبادة فافعل ما تيسر ولا تُقصر ولا تلجأ إلى الأصعب... أما إذا لم يكن هناك إلا الأصعب فافعله ولك الأجر عند الله عز وجل.



(١٧٢) باب استحباب الدعاء في السفر

(٩٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مُستجابات لا شكَّ فيهنَّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»^(١).

✽ فينبغي أن يحرص المسافر على الدعاء لنفسه ولأهله وأصحابه.. وذلك لأن دعاء المسافر مُستجاب.

فيدعو المسافر بكل ما يتمناه لنفسه ولأحبابه.. وعليه أن يُكثر من الدعاء لأهله ولإخوانه بظهر الغيب.. فهناك مَلَكٌ كريم يقول: آمين ولك بمثله. فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ دعا لأخيه بظهر الغيب قال المَلَكُ المُوَكَّلُ به: آمين ولك بمثله»^(٢).

وهنا ذكر النبي ﷺ أن هناك ثلاث دعوات مُستجابات لا شكَّ فيهنَّ. دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد... أما دعوة المظلوم فمعناها أنه إذا ظلمك أحدٌ فأخذ مالك أو غير ذلك... فإذا دعوت الله عليه استجاب الله دعائك... بل يستجيب الله دعاء كل مظلوم حتى ولو كان المظلوم كافراً وظلمه رجلٌ مسلم ثم دعا الله فإن الله يستجيب دعاءه.. لا حباً للكافر ولكن حباً للعدل. والمظلوم لا بد أن يُنصف له من الظالم، ولهذا لما أرسل النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن قال له: «اتقِ دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»^(٣). فالمظلوم دعوته مستجابة إذا دعا على ظالمه بمثل ما ظلمه أو أقل.

(١) حسن: رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٤٨) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

أما إذا تجاوز فإنه يكون معتدياً فلا يُستجاب له.

الثانية: دعوة المسافر ... إذا دعا الله عَزَّوَجَلَّ أن يُيسّر سفره أو يُعينه عليه أو غير ذلك من الدعوات فإن الله تعالى يستجيب له ... ولذا ينبغي أن يغتنم فرصة الدعاء في السفر ... وإذا كان السفرُ سفرَ طاعة كعمرة وحج فإنه يزداد ذلك قوة في إجابة الدعاء.

الثالثة: دعوة الوالد ... في بعض ألفاظ الحديث (على ولده) وفي بعض ألفاظه (لولده) أى سواء دعا لولده أو عليه، وهذا هو الأصح ... دعوة الوالد لولده أو عليه مُستجابة ... أما دعوته لولده فلا أنه يدعو لولده شفقة ورحمة، والراحمون يرحمهم الرحمن عَزَّوَجَلَّ ... وأما عليه فإنه لا يمكن أن يدعو على ولده إلا باستحقاق ... فإذا دعا عليه - وهو مُستحق لها - استجاب الله دعوته ... هذه ثلاث دعوات مُستجابات: دعوة المظلوم والمسافر والوالد سواء الأم أو الأب^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٣/٩٢-٩٣) بتصرف.



(١٧٣) باب ما يدعو به إذا خاف ناساً أو غيرهم

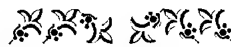
(٩٨٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللَّهُمَّ إِنَّا نجعلُكَ في نحورِهِمْ، ونعوذُ بِكَ مِنْ شرورِهِمْ» ^(١).

❁ فقد تُقابل في سفرك أو في غير سفرك أناساً أشراراً.. وقد تتعرض للأذى بسببهم... فإذا قابلت هؤلاء فاحرص على أن تقول: «اللهم إِنَّا نجعلُكَ في نحورِهِمْ» أي أمامهم تدفعهم عنا وتمنعنا منهم.

«ونعوذ بك من شرورهم» وسوف يكفيك الله شر هؤلاء لأنه ما من دابة في الكون كله من إنسانٍ أو حيوانٍ أو جانٍ إلا وناصيته بيد الخالق (جل وعلا).... قال تعالى: ﴿مَنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

فإن كان الله معك فمن يستطيع أن يكون عليك.... وإن فقدت معية الله ﷻ ولم يحفظك بحفظه فمن يستطيع أن يحميك من أعدائك..

فمن وجد الله فماذا فقد.. ومن فقد الله فماذا وجد.... فاللهم احفظنا بحفظك من شرور شياطين الإنس والجن برحمتك يا أرحم الراحمين.



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٦).

(١٧٤) بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا نَزَلَ مَنْزِلًا

(٩٨٩) عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» ^(١).

❁ قوله: «نزل منزلاً» يشمل مَنْ نزل منزلاً في السفر إذا كان مسافراً ثم نزل ليستريح لغداءٍ أو عشاءٍ أو نوم أو غير ذلك ... فإنه إذا نزل يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق». وأعوذ أى: أعتصم بكلمات الله التامات، و«كلمات الله التامات» تشمل كلماته الكونية والشرعية.

فأما الكونية فهي التى ذكرها الله فى قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فيحميك الله تعالى بكلماته الكونية، يدفع عنك ما يضرّك إذا قلت هذا الكلام ... كذلك الكلمات الشرعية (وهى الوحي) فيها وقاية من كل سوءٍ وشرٍّ، وقاية من الشر قبل نزوله وبعد نزوله، أما قبل نزوله فقد ثبت عن النبى ﷺ أن مَنْ قرأ آية الكرسي فى ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح .. وأما بعد نزول الأثر فقد ثبت عنه ﷺ أن الفاتحة إذا قرئ بها على المريض فإنه يبرأ بها... حتى إن الصحابى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قرأ الفاتحة على سيد القوم الذى لُدغَ قام كأنما نشط من عقال... يعنى: برأت حاله؛ لأن القرآن شفاء ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ... فاحرص - يا أخى المسلم - إذا نزلت منزلاً فى برٍّ أو بحرٍ، أو منزلاً اشتهيته للنوم وما أشبه ذلك فقل: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» فإنه لا يضرّك شَيْءٌ حتى

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٨) كتاب الذكر والدعاء.

ترتحل من منزلك ذلك. والله الموفق^(١).

❁ وفي الحقيقة أن هذا الكلام يريد رجالاً يعتقدون أن قوى الدنيا بأسرها لا يمكن أن تفعل شيئاً أمام قدرة الله عز وجل... إذ أن العقيدة دائماً تحتاج إلى رجل يقرأ ويخزن ما يقرأ في قلبه وليس في لسانه، أو يحفظ في عقله، فيقرأ الأثر من قلبه فيعقد عليه قلبه وعزمه... وإن وقع به مكروه فهو إما لخلل في اعتقاده، وإما ابتلاء من الله تعالى ليكفر عنه ذنباً وقع منه قبل هذا.

والنبي ﷺ كان يعرف ذلك ويقول، لكن ما حصل له هو ابتلاء من الله تعالى... ولذا إذا نزل أحدنا منزلاً، أو دخل خربة، أو مكاناً مظلماً، أو أتى إلى أحبائه وأصحابه فقال هذا الدعاء بعقيدة، فإنه لا يمكن أبداً أن يمسه أحدٌ بسوءٍ إلا بقدر... والقدر هذا إذا تم يكون من أجل شيئين: إما مغفرة للذنوب، فأراد الله تعالى أن يطهره منه، وهذا منزلة عظيمة كذلك.. أو أن الله تعالى ابتلاه حتى يرفع درجاته.

لكن الأصل أنك إذا نزلت منزلاً فقل: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق».

أي: من شر كل مخلوق.. ثم اعقد قلبك على أنه لا يستطيع أحد أن يمسك بشيءٍ إلا بشيءٍ أريد بك في السماء لرفع الدرجات أو لمغفرة الذنوب^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٩٠) وعن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «يا أرض، ربّي وربك الله، أعوذ بالله من شرّك وشرّ ما فيك، وشرّ ما خلّق فيك، وشرّ ما يدبّ عليك، وأعوذ بالله من شرّ أسدٍ وأسود، ومن الحيّة والعقرب،

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٩٣-٩٤) بتصرف.

(٢) بتصرف من (شرح صحيح مسلم) للشيخ حسن أبو الأشبال (حفظه الله).



وَمِنْ سَاكِنِ الْبَلَدِ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ»^(١).

❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِإِذْنِ رَبِّهِ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٨٣٧)، وضعيف سنن أبي داود (٥٦٠).

«والأسود» الشخص... قال الخطابي: «وساكِنُ الْبَلَدِ»: هم الجنُّ الذين هم سُكَّانُ الْأَرْضِ. قال: والبلد من الأرض ما كان مأوى الحيوان وإن لم يكن فيه بناء ومنازل، قال: ويحتمل أن المراد «بالوالِد»: إبليس، «وما ولد» الشَّيَاطِينُ.

(١٧٥) باب استحباب تعجيل المسافر

الرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته

(٩٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ، فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ»^(١).

❁ قوله ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ» يعنى بذلك عذاب النفس وعذاب الجسد.. ولا سيما في الزمن الماضي حيث كانوا يسافرون على الإبل ويجدون الكثير من المشقة والتعب النفسى حيث يتركون الأهل والأحباب لفترة طويلة.. وذلك لأن الذى تقطعه اليوم بالطائرة في ساعة كانوا يقطعونه في شهر على الإبل.. فيتركون الأهل والأحباب والأولاد ويحرمون من الجلوس معهم وتربيتهم وتأديبهم والأنس بهم وغير ذلك.. وكذلك يعانون من العذاب البدنى حيث الحر الشديد في الصيف والبرد الشديد والعواصف والرياح في الشتاء... ولهذا قال عنه النبي ﷺ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ».. ثم قال ﷺ: «يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ» أى: يمنعه كمال اللذة في الطعام والشراب والنوم لما فيه من المشقة والتعب ومقاساة الحر والبرد والخوف ومفارقة الأهل والأصحاب وخشونة العيش وانشغال البال على الأهل والأولاد والأحباب والأصحاب.

❁ ثم قال ﷺ: «إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ، فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ» أى: إذا قضى أحدكم حاجته لأن النّهمة هى الحاجة.. فإذا قضى أحدكم حاجته

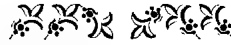
(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٠٤) كتاب العمرة، (٣٠٠١) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٢٧)

كتاب الإمارة.

«نَهْمَتُهُ»: مَقْصُودُهُ.

فليتعجل في الرجوع إلى أهله ولا يتأخر بما ليس له بهممٌ ليقوم على أهله بالتأديب والرعاية وغير ذلك.

وفي هذا دليل على أن إقامة الإنسان في أهله أفضل من سفره إلا أن يكون هناك حاجة ... ووجهه أن أهله يحتاجون إليه؛ ولهذا لما قدم مالك بن الحويرث ومعه عشرون رجلاً من قومه إلى النبي ﷺ وأقاموا عنده نحو عشرين ليلة، فرأى أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم قال: «ارجعوا إلى أهليكم وأقيموا فيهم وأدبوهم وعلموهم» فدل ذلك على أن الإنسان لا ينبغي أن يغيب عن أهله إلا بقدر الحاجة، فهذا هو الأفضل.



(١٧٦) باب استحباب القدوم على أهله نهاراً

وكراهته في الليل لغير حاجة

(٩٩٢) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرقن أهله ليلاً».... وفي رواية أن رسول الله ﷺ نهى أن يطرق الرجل أهله ليلاً^(١).
 (٩٩٣) وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يطرق أهله ليلاً، وكان يأتيهم غدوة أو عشيّة^(٢).

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه أنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً. يتخونهم أو يلتمس عثراتهم.

✽ والمقصود هنا أن الرجل إذا سافر سفرًا قصيرًا لمدة يوم أو يومين وأخبر زوجته بموعد وصوله فلا حرج عليه أن يدخل بيته ليلاً أو نهاراً... وكذلك إذا سافر سفرًا طويلاً لمدة شهرين أو أربعة.. وقبل أن يعود أخبر زوجته بموعد وصوله فلا بأس أيضًا أن يدخل البيت ليلاً أو نهاراً.. لكن النهي هنا عن أن يسافر الرجل سفرًا طويلاً ويُطيل الغيبة ثم يدخل بيته ليلاً دون أن يُخبر أهله.. لأن زوجته قد لا تكون مُتزيّنة ومستعدة لاستقباله.. وقد تقع عينه على ما يكرهه منها.. وقد يكون البيت غير نظيف... بل قد تظن هي أنه جاء فجأة لأنه يتخونها ويلتمس عثراتها فيحدث شقاق بينهما بسبب ذلك.... ولذا نهانا النبي ﷺ عن فعل ذلك من أجل المحافظة على روابط المحبة في الأسرة المسلمة.

✽ إذا.. فإذا كان الزوج عائدًا من سفرٍ طويل فعليه أن يتصل بزوجته

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٤٣، ٥٢٤٤) كتاب النكاح، ومسلم (١٥٢٨) كتاب الإمارة.

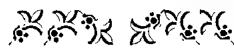
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٠٠) كتاب الحج، ومسلم (١٩٢٨) كتاب الإمارة.

«الطُّرُوقُ»: المجيء في الليل.

ليخبرها بقدومه حتى تستعد لعودته وتزين وتمشط شعرها وتُهيئ المنزل لاستقباله. فإذا كان قد أعلم أهله أنه سيقدم عليهم الليلة الفلانية فلا بأس أن يقدم عليهم ليلاً، أما إذا كان أطال الغيبة فإنه لا يطرقهم ليلاً؛ لأن النبي ﷺ علّل ذلك فقال: «لكي تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة» يعنى: لأجل أن المرأة تتجمل وتزين لزوجها؛ لئلا يقدم عليها وهى شعثة غير ماشطة، أو لم تستحد... أى: لم تحلق عانتها، فلهذا قيد المسألة إذا أطال السفر، أما إذا لم يُطل السفر، كسفر يوم أو يومين أو ما أشبه ذلك، فلا حرج عليه أن يقدم إلى أهله متى شاء.

✽ قال الحافظ: وفي الحديث الحثُّ على التواضع والتَّحَابِ خصوصاً بين الزوجين ... لأن الشارع راعى ذلك بين الزوجين مع اطلاع كُلِّ منهما على ما جرت العادة بستره... حتى إنَّ كل واحدٍ منهما لا يخفى عنه من عيوب الآخر شيء في الغالب، ومع ذلك فنهى عن الطروق لئلا يطلع على ما تنفر نفسه عنه، فيكون مراعاة ذلك في غير الزوجين بطريق الأولى.

وفيه التحريض على ترك التعرُّض لما يُوجب سوء الظن بالمسلم^(١).



(١) زاد المعاد / للإمام ابن القيم رحمه الله (٢/ ٤٥٢).

(١٧٧) باب ما يقوله إذا رجع وإذا رأى بلدته

فيه حديث ابن عمر السَّابِقُ في باب تكبير المسافر إذا صعد الثَّنايا.

(٩٩٤) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ قَالَ: «آيُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر ابن عمر رضي الله عنهما أنهم أَقْبَلُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِظَهْرِ الْمَدِينَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «آيُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» وَظَلَّ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُهَا وَيُرَدِّدُهَا حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ

وقد سبق شرح معاني تلك الكلمات بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٩٧٩) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.



(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٥) كتاب الحج.

(١٧٨) باب استحباب ابتداء القادم بالمسجد

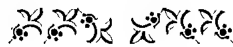
الذي في جواره وصلاته فيه ركعتين

(٩٩٥) عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قَدِمَ من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين .. فلا يذهب إلى بيته مباشرة .. بل كان ﷺ يبدأ بالمسجد فيصلي فيه ركعتين .. ثم يُرسل مَنْ يخبر أهله بقدومه.

❁ فإذا قدم الإنسان من السفر فليبدأ قبل كل شيء بالمسجد قبل أن يدخل على أهله ... يبدأ بالمسجد ويصلي فيه ركعتين؛ لأن النبي ﷺ سَنَّ ذلك لأُمَّته بقوله وفعله ... فكان ﷺ إذا قَدِمَ أول ما يبدأ به هو المسجد يصلي فيه ركعتين ... ولما جاءه جابر رضي الله عنه ليأخذ ثمن جَمَلِه الذي باعه له قال له ﷺ: «أدخلت المسجد وصليت» قال: لا، قال: «ادخل المسجد وصل ركعتين».

وهذه السُّنة قد غفل عنها كثير من الناس، إما جهلاً بذلك وإما تهاوناً، ولكن ينبغي للإنسان أن يُحيي هذه السُّنة، وإذا وصل إلى البلد فليكن أول ما يبدأ به أن يدخل إلى المسجد ويصلي ركعتين، ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله^(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٨٨) كتاب الجهاد، ومسلم (٧١٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) شرح رياض الصالحين (٩٦/٣).

(١٧٩) باب تحريم سفر المرأة وحدها

(٩٩٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها»^(١).

(٩٩٧) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا ومعهما ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم» فقال له رجلٌ: يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجةً، وإني اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا؟ قال: «انطلق فحج مع امرأتك»^(٢).

✽ ففي هذين الحديثين نهى النبي ﷺ المرأة أن تسافر بلا محرم.. أو أن يخلو رجلٌ بامرأةٍ إلا ومعهما ذو محرم.

والمحرم: هو من تحرّم عليه تحريمًا مؤبّدًا بنسبٍ أو مُصاهرة أو رضاعة... وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ﴾ هؤلاء سبعٌ من النسب... ثم قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ﴾ هذا من الرضاعة... وكذلك العمّة من الرضاعة والخالة من الرضاعة... كلها محارم لقول النبي ﷺ: «يحرّم من الرضاعة ما يحرم من النسب»^(٣).

أما المصاهرة: فأبو الزوج وجده من قبل الأب أو الأم محرم للزوجة، وابن الزوج وابن بنت الزوج وإن نزل كذلك أيضًا من محارم الزوجة.

فلو أن جدّ الزوج سافر بامرأة ابنه فإن ذلك لا بأس به؛ لأنه محرم... ولو أن ابن الزوج النابه سافر بزوجة أبيه فلا بأس؛ لأنها محرمٌ له.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٨٨) كتاب الجمعة، ومسلم (١٣٣٩) كتاب الحج.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٦) كتاب الجهاد، ومسلم (١٣٤١) كتاب الحج.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٤٥) كتاب الشهادات، ومسلم (١٤٤٧) كتاب الرضاع.

فالمحارم سبعٌ من النسب، وسبعٌ من الرضاع، وأربعٌ من المصاهرة ... أما الزوج فمعلوم أنه محرم؛ لأنه زوج. والله الموفق.

❁ وفي الحديث الأول يخبر النبي ﷺ أنه لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يومٍ وليلةٍ إلا مع ذى محرمٍ عليها. وذلك لأن المرأة ضعيفة وفي نفس الوقت فهي موضع فتنة بالنسبة للرجال ... ولذا قال النبي ﷺ: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١).

وقال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢).

وقال ﷺ: «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجْتَ اسْتَشِرْهَا الشَّيْطَانُ»^(٣).

قال الطيبي «والمعنى المتبادر أنها مادامت في خدرها لم يطمع الشيطان فيها وفي إغواء الناس، فإذا خرجت طمع وأطمع، لأنها حباثله وأعظم فخوخه».

واختلف العلماء فيما إذا كان السفر قصيراً هل تُمنع منه أم لا؟ فمنهم من قال بالمنع حتى من السفر القصير، ومنهم من قال: لا تُمنع إلا من السفر الطويل... والصحيح أنها تُمنع مما يُسميه الناس سفراً، فكل ما يُطلق عليه اسم سفر فإنه لا يجوز للمرأة أن تسافر إلا مع ذى محرم، خوفاً عليها من الفتنة والشر والبلاء.

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما فيما يدل على أنه يحرم أن تسافر المرأة بلا محرم، وظاهر الحديث أنه لا فرق بين المرأة الشابة والكبيرة، والحسنة والقييحة، ومن معها نساء ومن لا نساء معها، ومن هي آمنة وغير آمنة، فالحديث عام وإذا قُدِّرَ أن يوجد في سفر من الأسفار السلامة يقيناً فإن ذلك لا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٩٠).

يوجد في كل سفر، ولما كانت المسألة خطيرة مُنعت المرأة منعاً باتاً من السفر بلا محرم... وقد تهاون بعض الناس اليوم في السفر بلا محرم ولا سيما في سفر الطائرة وكذلك النقل الجماعي وهذا غلط وتهاون في طاعة الله ورسوله، فلا يحل للمرأة أن تسافر بلا محرم ولو بالطائرة حتى لو كان محرمها سيُشيعها إلى أن تركب الطائرة، ومَحرمها الثاني يقابلها في البلد الآخر، فإن ذلك لا يجوز؛ لأننا مهما قدرنا من السلامة فإنه من يركب إلى جنب هذه المرأة^(١) قد يكون رجلاً وقد يحاول أن يُحادثها ويضايقها إذا علم أنها ليس معها أى أحد من محارمها.

❁ وأما في الحديث الثاني أن النبي ﷺ قال: «لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا ومعهَا ذو محرم، ولا تُسافر المرأةُ إلا مع ذى محرم»

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا ومعهَا ذو محرم». هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ لِأَنَّهُ مَتَى كَانَ مَعَهَا مُحَرَّمٌ لَمْ تَبَقْ خُلُوةٌ. فَتَقْدِيرُ الْحَدِيثِ لَا يَقْعُدَنَّ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا مُحَرَّمٌ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَمَعَهَا ذُو مُحَرَّم». يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مُحَرَّمًا لَهَا وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ مُحَرَّمًا لَهَا أَوْ لَهُ وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ الثَّانِي هُوَ الْجَارِي عَلَى قَوَاعِدِ الْفُقَهَاءِ فَإِنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا مُحَرَّمٌ لَهَا كَابْنِهَا وَأَخِيهَا وَأُمُّهَا وَأُخْتُهَا أَوْ يَكُونَ مُحَرَّمًا لَهُ كَأُخْتِهِ وَبِنْتِهِ وَعَمَّتِهِ وَخَالَتِهِ فَيَجُوزُ الْقُعُودُ مَعَهَا فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ... ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ مَخْصُوصٌ أَيْضًا بِالزَّوْجِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهَا زَوْجُهَا كَانَ كَالْمُحَرَّمِ وَأُولَى بِالْجَوَازِ... وَأَمَّا إِذَا خَلَا الْأَجْنَبِيُّ بِالْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ غَيْرِ ثَالِثٍ مَعَهُمَا فَهُوَ حَرَامٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَكَذَا لَوْ كَانَ مَعَهُمَا مَنْ لَا يُسْتَحْيِ مِنْهُ لِصِغَرِهِ كَابْنِ سَتَيْنِ وَثَلَاثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّ وُجُودَهُ كَالْعَدَمِ وَكَذَا لَوْ اجْتَمَعَ رَجَالٌ بِامْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِخِلَافِ مَا لَوْ اجْتَمَعَ رَجُلٌ بِنِسْوَةِ أَجَانِبٍ فَإِنَّ الصَّحِيحَ جَوَازُهُ، قَالَ أَصْحَابُنَا وَلَا

فَرَّقَ فِي تَحْرِيمِ الْخُلُوةِ حَيْثُ حَرَّمْنَاهَا بَيْنَ الْخُلُوةِ فِي صَلَاةٍ أَوْ غَيْرِهَا ...
وَيُسْتَشَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَوَاضِعُ الضَّرُورَةِ بِأَنْ يَجِدَ امْرَأَةً أَجْنَبِيَّةً مُنْقَطِعَةً فِي الطَّرِيقِ
أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ فَيُبَاحُ لَهُ اسْتِصْحَابُهَا بَلْ يُلْزَمُهُ ذَلِكَ إِذَا خَافَ عَلَيْهَا لَوْ تَرَكَهَا ...
وَهَذَا لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَيَكْدُلُ عَلَيْهِ حَدِيثُ عَائِشَةَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

❁ وأما قوله: فقال له رجل: يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجّةً، وإنّي
اكتُتبتُ في غزوةٍ كذا وكذا؟ قال: «انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ» فيه تقديم الأهم من
الأُمُور المتعارضة؛ لأنه لما تعارض سفره في الغزو وفي الحج معها رجّح الحج
معه؛ لأن الغزو يقوم غيره في مقامه عنه بخلاف الحج معها^(٢).

بَيَانُ مَقَامِهِ فِي غَزْوَةٍ

(١) مسلم بشرح النووي (٩/١٥٥-١٥٦) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩/١٥٦).

(٨) كتاب فضائل القرآن

(١٨٠) باب فضل قراءة القرآن

✽ القرآن الكريم هو كتاب الله الذي ختم به جميع الرسالات... وهو منهج حياة متكامل يكفل للعبد السعادة في الدنيا والآخرة... فهو كلام الله المُعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فلقد كانت البشرية قبل مبعث النبي ﷺ تعيش في ظلمات الشرك والكُفران فجاء النبي ﷺ بكتاب الله ﷻ لِيُخْرِجَ الْكَوْنُ كُلَّهُ مِنَ ظِلْمَاتِ الشَّرْكِ وَالْكَفْرَانِ إِلَى أَنْوَارِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ... ولذا قال تعالى عن هذا الكتاب العظيم: ﴿الرَّكْعَتَيْنِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]، فتحوّلت الأمة بهذا الكتاب من الشرك والجاهلية إلى الهداية والتوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن أمة تعيش على هامش الحياة إلى أمة تأخذ بزمام البشرية كلها إلى سعادة الدارين.

فلقد جاء القرآن الكريم ليربّي أمة ويُنشئ مجتمعا وقيم نظاما... والتربية تحتاج إلى زمنٍ وإلى تأثير وانفعال بالكلمة وإلى حركة تُترجم التأثير والانفعال إلى واقعٍ منظوريٍّ في دنيا الناس.

✽ تأمل قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما سُئِلَتْ عن النبي ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» ^(١).

✽ فمن أراد أن يتخلق بخُلق النبي ﷺ فعليه بالقرآن وبسُنة سيد الأنام ﷺ ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) رسائل إلى الشباب / د. محمود المصري (ص ١٠١، ١٠٢).

والقرآن الذى بين أيدينا هو كلام الله ﷻ ، تكلم به سبحانه وتعالى حقيقة كلاماً سمعه جبريل، ثم تلاه جبريل على النبي ﷺ .

قال الله تعالى: ﴿وَلَنُفِثَنَّ رِبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٢٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٢٤﴾ قال: نزل به على قلبك؛ لأن القلب هو محل الوعى والإدراك والفقه لتكون من المُنذرين .

واعلم أن القرآن أول ما نزل: نزل على سبعة أحرف؛ لأن الناس عرب من قبائل متعددة ولهجاتٍ مختلفة، وأنتم تعرفون أن الواحد إذا أراد أن يتكلم بلهجة غيره يصعب عليه ويشق عليه؛ فكان من رحمة الله ﷻ أن جعل القرآن على سبعة أحرف، كُلُّ يقرأ بلهجته ... بقى على هذا فى عهد النبي ﷺ كله، وفى عهد أبى بكر، وفى عهد عمر .. وفى عهد عثمان صار الناس يقرءون على لهجاتهم فصار فى هذا اختلاف، واللغة القرشية كانت غلبت على جميع اللهجات، بعد أن تطور اللسان وصارت الدولة كل خلفائها من قريش ... غلبت اللغة القرشية، وغلب حرف قريش على جميع اللهجات، فلما خاف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه أن يختلف الناس فى كلام الله وأن تؤدى هذه الأحرف السبعة إلى شقاقٍ ونزاع، أمر رضي الله عنه أن يوحد القرآن على حرفٍ واحد، ألا وهو حرف قريش - أى لغة قريش - فجمع القرآن على حرفٍ واحد على لغة قريش وهو الذى نقرأ به الآن، ثم أمر بسائر المصاحف فأحرقت؛ لئلا تبقى فيفتتن الناس بها، فكان فى ذلك مصلحة عظيمة وفضيلة لأمر المؤمنين عثمان رضي الله عنه لا تُوصَف ... فنسأل الله تعالى أن يجزيه عن المسلمين خيراً^(١) .

❁ ولا بد أن نعلم أن الله ﷻ قد أيد النبي ﷺ بالكثير من المعجزات الباهرة .. لكن القرآن الكريم كان أعظم آية أعطاها الله ﷻ لرسوله ﷺ ...

ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ ﷻ إِلَيَّ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

إعجاز القرآن في أربعة أشياء

✽ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء:

أحدها: حسن تأليفه والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة.

ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظماً ونثراً حتى حارت فيه عقولهم ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله مع توفر دواعيهم على تحصيل ذلك وتقريعه لهم على العجز عنه.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عمّا مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعها: الإخبار بما سيأتى من الكوائن التى وقع بعضها فى العصر النبوى وبعضها بعده... فهذا القرآن فيه من الخير والهدى ما يكفى لهداية الكون كله، بل وأكثر من هذا.

✽ ففيه الهدى الذى يوصل إلى كل خير فى الدنيا والآخرة...

قال تعالى: ﴿الْمَ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

✽ أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ودلّنا على كل طريق يوصل إلى الجنة وحذّرنا من كل طريق يُورد النار.

✽ جعل الله فيه الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة والزاجرة عن كل

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٨١) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (١٥٢) كتاب الإيمان.

رذيلة.. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

✽ تعلمنا من خلال آياته نعمة التوحيد ومغبة الإشراف.

✽ جعل الله فيه الشفاء لكل الأمراض القلبية والنفسية والعقلية... ففيه الشفاء من الكفر والشرك والكبر والحسد والبخل والظلم والخوف والقلق... فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

✽ وعظنا الله بآيات القرآن فجعل القلوب رقيقة وجعلها تستقبل الحق والهدى وتبتعد عن الضلال والباطل بكل ما فيه.

✽ جعل الله فيه الروح التي تتوقف عليها حياة الإنسان... فالقرآن هو الروح اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة.

إن الناس بدون أن تسرى فيهم الروح القرآنية أموات حقاً، لا ينتفعون بوجودهم، ولا بحياتهم المادية.

قال تعالى في هذا: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[الشورى: ٥٢].

✽ وهو النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية، والمُبدد لسائر الجهالات النفسية، والمُبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية...

قال تعالى في تقرير نورانيته: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

✽ وفيه البشرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما.

قال تعالى في ذلك: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبَشِّرِ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿[النحل: ٨٩] .

❁ الحق الإلهي الثابت في نفسه، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق... فكل حق القرآن يؤيده، والقرآن يقرره... قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] .

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨] .

أى مُتَلَبِّسًا به مُشْتَمَلًا عليه، مؤيدًا له، ومقرراً.

❁ الذكر الإلهي الذي تحيا عليه القلوب، وتطيب بتلاوته الأرواح، وتزكو بالعمل به النفوس. الذكر المُكسب للشرف، والمُوصل لحضرة القدس، والرافع إلى ملائكة الأحيار. قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] .

وقال في الحديث عنه: ﴿وَأَنَّهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] .

❁ الخير العام لكل إنسان، وجان، وحيوان... فما من كائن في هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٩٨) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآنَ

فإنه يأتي يومَ القيامةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ»^(٢).

❁ ففي هذا الباب «باب فضل قراءة القرآن» كان أول حديث فيه: «اقرأوا القرآنَ» فالأمر هنا على إطلاقه.. أى: اقرأوا القرآن في كل وقتٍ وعلى كل حالٍ إلا إذا كان الإنسان في قضاء حاجته - يعنى يبول أو يتغوط - فلا يجوز أن يقرأ القرآن لأن القرآن له قُدسيته وتعظيمه واحترامه.. فهو كلام الله ﷻ.. وكذلك لا يجوز قراءته أثناء الجنابة ولا يجوز وقت الجماع فإنه لا يقرأ القرآن في ذلك

(١) عقيدة المؤمن / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص: ٢٥٣-٢٥٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الوقت ولكن يقول عند الجماع: «بسم الله .. اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا».

﴿اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه﴾ ففي هذا اليوم العصيب - يوم القيامة - يبحث الإنسان عما يشفع له لينجو من عذاب النار وليدخل جنة الرحمن (جل وعلا)، وإذا به يجد القرآن شافعاً له مدافعاً عنه أمام الله حتى يأخذ بيديه إلى جنة الرحمن التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

نعم .. يأتي ثواب القرآن قائماً بنفسه ليشفع لأصحابه عند الله عز وجل.
قال ﷺ: «القرآن شافعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَا حِلُّ مُصَدِّقٍ، مَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ، قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ، سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩٩٩) وعن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْقُرْآنِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»^(٢).

﴿وهناك روايات أخرى توضح فضل سورة البقرة وآل عمران: منها: قوله ﷺ: «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ، اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»^(٣).

(١) رواه الطبراني في الكبير وابن حبان والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الغيايتان مثنى غياية: وهى كل شئ أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة والغاشية ونحوهما. وفرقان أى: قطعتان.

قال معاوية بن سلام: بلغني أن البطلة السحرة.

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»^(١).

✽ وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفي فظننت أن فرسى انطلق ... فقال ﷺ: «اقرأ أبا عتيك» فالتفت فإذا مثل المصباح مُدَلَّى بين السماء والأرض.. ورسول الله ﷺ يقول: «اقرأ أبا عتيك» فقال: يا رسول الله فما استطعت أن أمضي.. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب»^(٢).

✽ قال الإمام النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران» قالوا سُمِّيَا الزهراوين لِتُورِهِمَا وَهَدَايَتِهِمَا وَعَظِيمِ أَجْرِهِمَا. قوله ﷺ: «فإنهما يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيأتان» قال أهل اللغة: الغمامة والغياية كل شيء أظلل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرهما ... قال العلماء: المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين^(٣).

✽ فالنبي ﷺ أخبر أن من قرأ القرآن وعمل به، فإنه يأتي يوم القيامة يتقدمه سورة البقرة وآل عمران يُحَاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة، ولكن الرسول ﷺ قيّد في هذا الحديث قراءة القرآن بالعمل به؛ لأن الذين يقرءون القرآن ينقسمون إلى قسمين: قسم لا يعمل به، فلا يؤمنون بأخباره ولا يعملون بأحكامه ... هؤلاء يكون القرآن حجة عليهم ... وقسم آخر يؤمنون بأخباره ويصدقون بها ويعملون بأحكامه. فهؤلاء يكون القرآن حجة لهم يُحَاج عنهم يوم القيامة ...

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٨٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٤) وأصله في الصحيحين.

(٣) مسلم بشرح النووي (٦/١٢٩-١٣٠) بتصرف.

لأن النبي ﷺ قال: «القرآن حُجة لك أو عليك».

وفي هذا دليل على أن أهم شيء في القرآن: العمل به. ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِّدَّبْرُواْ بِآيَاتِنَا وَلِتَذْكُرُواْ لِلْبَيْنِ﴾.

أى: يتفهمون معانيها ويعملون بها... وإنما أَّخر العمل عن التدبُّر لأنه لا يمكن العمل بلا تدبُّر، إذ إن التدبُّر يحصل به العلم، والعمل فرعٌ عن العلم... فالمهم أن هذا هو الفائدة من إنزال القرآن: أن يُتلى ويُعمل به، ويُؤمن بأخباره ويُعمل بأحكامه... يَمثل أمره، يَجتنب نهيه، فإذا كان يوم القيامة فإنه يُحاجُّ عن أصحابه^(١).

وهنا قال ﷺ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْقُرْآنِ وَأَهْلِهِ» فأهل القرآن هم أهل الله وخاصته.. فهم الذين يحفظون القرآن ويقرءونه ويتدبرون معانيه ويعملون به ويستشفون به ويتحاكمون إليه..

فأهل القرآن هم حُفَاط القرآن، ولكنه أتى هنا بشرطٍ فذكر الحافظ لكتاب الله ﷻ الذى كان يعمل به، فلم يحفظه رياءً وسمعة، ولم يحفظه نفاقاً، ولم يحفظ القرآن ليُجادل به بالباطل، ولا ليُقَالَ عنه: حافظ، ولا ليُقَالَ عنه: عالم، ولا ليُقَالَ عنه: قارئ، وإنما حفظ القرآن طاعة لله وحُباً لله سبحانه وتعالى، وحُباً في كتاب الله ﷻ، وخدمة لدين الله... فهذا الذى يُؤْتَى به يوم القيامة كما جاء في الحديث: «تَقْدُمُهُ سَوْرَةُ الْبَقَرَةِ وَأَلْ عِمْرَانَ».

فَتَقْدُمُهُ هَاتَانِ السُّورَتَانِ، وهما أعظم سور القرآن بعد الفاتحة «تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا» وهذا الذى تتقدم أمامه سورة البقرة وسورة آل عمران لتدافع عنه يحسده أهل الموقف؛ لأنه يأتى ومعه مَنْ يدافع عنه، وغيره يأتى وحده، ألا يدفع هذا المسلم إلى أن يحاول أن يحفظ سورة البقرة وسورة آل عمران؛ لأجل هذا الموقف العظيم بين يدى الله ﷻ، فيجد مَنْ يحامى ويدافع عنه وَمَنْ يُظْلَهُ يوم القيامة.

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (١٠٠/٣).

(١٠٠٠) وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(١).

❁ وإذا كان الله (جل وعلا) قد جعل لكل عبدٍ قدرًا ومنزلة فإن أهل القرآن هم خير الناس منزلة.

فخير الناس مَنْ جمع بين هذين الوصفين: مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، وَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ... تعلمه من غيره، وَعَلَّمَهُ غَيْرَهُ... والتَّعَلُّمُ والتعليم يشمل: التَّعَلُّمُ اللفظي والمعنوي... فمن حَفِظَ الْقُرْآنَ يعنى صار يُعَلِّمُ الناس التلاوة ويحفظهم إياه فهو داخل في التعليم اللفظي.

والنوع الثانى تعليم المعنى يعنى: تعليم التفسير ... أن الإنسان يجلس إلى الناس يُعَلِّمُهُمْ تفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن هنا نعرف فضيلة الحِلَقِ الموجودة الآن في كثير من البلاد والله الحمد في المساجد حيث يتعلم الصبيان فيها كلام الله عَزَّوَجَلَّ ... فمن ساهم فيها بشيء فله أجر... وَمَنْ أَدْخَلَ أَوْلَادَهُ فِيهَا فَلَهُ أَجْرٌ، وَمَنْ تَبَرَّعَ وَعَلَّمَ فِيهَا فَلَهُ أَجْرٌ ... كلهم داخلون في قوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٠١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مُاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعَتَّعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ»^(٢).

❁ فحين يفتخر أهل الدنيا بانتسابهم إلى العظماء والوجهاء والأغنياء فإن حافظ القرآن يفتخر بأنه سيكون مع السفرة الكرام البررة الذين اختارهم الله

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٠٢٧) كتاب فضائل القرآن.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٣٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٧٩٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وَشَرَّفَهُمْ بِأَنْ تَكُونَ بِأَيْدِيهِمُ الصَّحُفُ الْمُطَهَّرَةُ ﴿فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ﴾ (١٣) مَرْفُوعَةً مُطَهَّرَةً (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كَرَامٍ بَرَّةٍ [عبس: ١٣-١٦].

فالماهر بالقرآن مع الملائكة .. وأما الذي يتتبع فيه ويتهجاه وهو عليه شاق فله أجران: أجرٌ للتلاوة وأجرٌ للمشقة والتعب .. وذلك حتى لا يفتر ويهجر القرآن.

ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أجرك على قدر نصبك» أي: على قدر تعبك .. لكن لا شك أن الأول هو الأفضل لأنه يكون مع الملائكة .. مع السفارة الكرام البررة.

قال الإمام النووي: السَّفَرَةُ جَمْعُ سَافِرٍ ككَاتِبٍ وَكُتِبَ ... وَالسَّافِرُ: الرَّسُولُ ... وَالسَّفَرَةُ: الرَّسُلُ لِأَنَّهُمْ يُسَفِّرُونَ إِلَى النَّاسِ بَرِسَالَاتِ اللَّهِ ... وَقِيلَ: السَّفَرَةُ: الْكُتِبَةُ. وَالْبَرَّةُ: الْمُطِيعُونَ مِنَ الْبِرِّ وَهُوَ الطَّاعَةُ ... وَالْمَاهِرُ: الْحَادِثُ الْكَامِلُ الْحِفْظُ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْقُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ بِجَوْدَةٍ حِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ.

قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى كَوْنِهِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ أَنَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مَنَازِلَ يَكُونُ فِيهَا رَفِيقًا لِلْمَلَائِكَةِ السَّفَرَةِ لِاتِّصَافِهِ بِصِفَتِهِمْ مِنْ حَمَلِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ... قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ عَامِلٌ بِعَمَلِهِمْ وَسَالِكٌ مَسْلَكَهُمْ ...

وَأَمَّا الَّذِي يَتَتَبَعُ فِيهِ فَهُوَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ فِي تِلَاوَتِهِ لِضَعْفِ حِفْظِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ أَجْرٌ بِالْقِرَاءَةِ وَأَجْرٌ بِتَتَبُعِهِ فِي تِلَاوَتِهِ وَمَشَقَّتِهِ ... قَالَ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ: وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الَّذِي يَتَتَبَعُ عَلَيْهِ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ أَكْثَرُ مِنَ الْمَاهِرِ بِهِ بَلِ الْمَاهِرُ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا لِأَنَّهُ مَعَ السَّفَرَةِ وَلَهُ أَجُورٌ كَثِيرَةٌ وَلَمْ يَذْكُرْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ لِغَيْرِهِ ... وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْنِ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِفْظِهِ وَإِتْقَانِهِ وَكَثْرَةِ تِلَاوَتِهِ وَرَوَاتِهِ كَاعْتِنَائِهِ حَتَّى مَهَرٍ فِيهِ؟ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

(١٠٠٢) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأَثْرَجَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الثَّمَرَةِ: لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ.. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ: رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ: لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث قَسَمَ النبي ﷺ الناس بحسب حالهم مع القرآن إلى أربعة أقسام: مؤمن يقرأ القرآن ومؤمن لا يقرأ القرآن.. ومنافق يقرأ القرآن ومنافق لا يقرأ القرآن....

فالمؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأثرجة ريحها طيب وطعمها طيب.
والأثرجة ثمرة من الثمار أشبه ما تكون بالبرتقالة... فريحها طيب وطعمها طيب.. وفيها فوائد كثيرة في بذرها وفي الطعام الذي بداخلها وفي قشرتها..
فكذلك المؤمن كله فوائد.. فداخله طيب وقلبه موصول بالله.. وريحه طيب..
أى: أنه ينشر خيره ليصل لغيره كرائحة الثمرة فينتفع به كل من حوله.

وأما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن فهو كمثل الثمرة.. لا ريح لها وطعمها حلو.. فهو يحمل الإيمان في قلبه وطعم الإيمان في قلبه «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا» ولكنه لا ريح له.. وذلك لأنه عنده تقصير في قراءة القرآن أو حفظه أو تحفيظه.. وليس معنى ذلك أنه لا يقرأ القرآن أبدًا ولكنه لا يداوم على ذلك.. ولذا فليس له ريح.. أى: لا يصل نفعه إلى غيره لأنه مُقصر في حق كتاب الله ﷻ.. ولذا فأصل الإيمان في قلبه لكنه لا ينتفع به غيره.. ولا شك أن المؤمن الذي يحفظ القرآن ويقرأ القرآن أفضل منه بكثير.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٢٧) كتاب الأطعمة، ومسلم (٧٩٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وأما الرجل الثالث: فهو المنافق الذى يقرأ القرآن ... فمثله كمثل الريحانة..
ريحها طيب وطعمها مُرٌ..

لأن المنافق فى ذاته خبيث لا خير فيه ... والمنافق هو الذى يُظهر أنه مسلم،
ولكن قلبه كافر - والعياذ بالله - هو الذى قال الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ
وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ فى قلوبهم مَرَضٌ فزادهم الله مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿
يوجد منافقون يقرءون القرآن قراءة طيبة مُرتلة مُجودة لكنهم منافقون - والعياذ
بالله - كما قال النبى ﷺ فى الخوارج: «يقرءون القرآن لا يتجاوز حناجرهم»^(١).

هؤلاء - والعياذ بالله - ضرب لهم النبى ﷺ مثلاً بالريحانة: ريحها طيب؛
وذلك لما معهم من القرآن، وطعمها مُرٌ وذلك لخُبث طويتهم وفساد نيتهم.

وأما الصنف الرابع: فهو المنافق الذى لا يقرأ القرآن.. فمثله كمثل الحنظلة
ليس لها ريحٌ وطعمها مُرٌ... فهذا لا خير فيه أبداً.. فقلبه خبيث لا يحمل الإيمان
وإنما يحمل الكفر ويُظهر الإيمان لأنه منافق.. وفوق ذلك كله فإنه لا علاقة له
بكتاب الله.. فهو لا ينتفع به ولا ينفع غيره كالأرض الرملية التى إذا نزل عليها
الماء فإنها تشربه ولا تنتفع به.. ولا تحتفظ به على سطحها فيتنتفع به الناس..
فهذا المنافق مثل الحنظلة لا تنتفع بطعمها ولا ريحها... فليس لها ريح.. وإن
أردت أن تأكلها فطعمها فى غاية المرارة.

فاحرص أخى الحبيب واحرصى أختى الفاضلة على حفظ القرآن وقراءته
لتكونوا مثل الأترجة: ريحها طيب وطعمها طيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٣٥١) كتاب المغازى، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة.

(١٠٠٣) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله يرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا ويضعُ به آخرين»^(١).

وهذا الحديث له قصة جميلة...

✽ فعن نافع بن عبد الحارث أنه لقي عمر رضي الله عنه بعُسفان، وكان عمرُ يستعملُه على مَكَّةَ، فقال: مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي، فَقَالَ: ابْنُ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلَى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلَى؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»^(٢).

✽ فمعنى الحديث أن هناك مَنْ يأخذ القرآن فيتلوه ويحفظه ويعمل به فيمثل أوامره ويجتنب نواهيه ويصدق أخباره ويهتدى بهديه ويتخلق بأخلاقه.. فهذا الإنسان يرفعه الله في الدنيا ويُعلى قدره بين الناس ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.. وأما في الآخرة فيرفع درجته في الجنة كما قال النبي ﷺ: «يُقَالُ لِمَاذَا كَانَ الْقُرْآنُ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنَزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرُؤُهَا»^(٣).

وأما الذي يضعه الله عَزَّ وَجَلَّ مع أنه حافظٌ وقارئٌ لكتاب الله.. فإنه إنسان يقرأ أو يحفظ كتاب الله ولكنه لا يعمل به ولا يمثل أوامره ولا يجتنب نواهيه ولا يصدق أخباره ولا يهتدى بهديه ولا يتخلق بأخلاقه.. فهذا الإنسان يضعه الله في الدنيا بين الخلق فلا يكون له قدر ولا مكانة في قلوب الناس..

فالناس يُغضونه ولا يحبونه مع أنه قد يكون حافظًا لكتاب الله لكنه يتاجر به -والعياذ بالله- وأما حاله في الآخرة.. فبدلاً من أن يرفع الله قدره يوم القيامة فقد

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨١٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٢٢).

يجعله مع الثلاثة الذين هم أول من تُسعر بهم النار.. عافانا الله وإياكم .. قال ﷺ: «أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة - من بينهم - ورجلٌ تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئٌ... فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار»^(١).

✽ فأسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يرفعهم الله ﷻ بكتابهِ في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٠٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لا حسدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجلٌ آتاه الله مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النهار»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٧٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٠٥) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رجلٌ يقرأ سورة الكهف، وعنده فرسٌ مربوطٌ بشطنتين فتغشّته سحابةٌ فجعلت تدنو، وجعل فرسه يتنفر منها. فلما أصبح أتى النبي ﷺ. فذكر له ذلك فقال: «تلك السكينة تنزلت للقرآن»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٥) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٢٥) كتاب فضائل القرآن، ومسلم (٨١٥) كتاب صلاة المسافرين.

والآناء: الساعات.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠١١) كتاب فضائل القرآن - ومسلم (٧٩٥) كتاب صلاة المسافرين.

«الشطن» بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة: الحبل.

❁ وهذا الرجل هو أُسيد بن حُضير رضي الله عنه، وقد كان رجلاً فيه إخلاص وعبادة، وحب لله ... وقد كان هذا الرجل يذهب أحياناً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه شخص آخر، فإذا رجع من عنده والليلة مظلمة وفي يده عصا، يجعل الله سبحانه العصا أمامهما نوراً، وكأنها مصباح وكشَّاف تُضيء له الطريق، وعندما يفترقان في الطريق ويذهب هذا إلى بيته وهذا إلى بيته، يجعل الله عز وجل لكل منهما نوراً أمامه.

عن أنس أن أُسيد بن حُضير وعباد بن بشر كانا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة ظلماء قال: فلما خرجا من عنده أضاءت عصا أحدهما فكانا يمشيان في ضوئها فلما تفرقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا^(١).

وقد كان أُسيد بن حُضير رضي الله عنه يظل ليله مُصلياً لله عز وجل.

وفي إحدى المرات قام يصلي من الليل رضي الله عنه ... قال: (وعنده فرس مربوط بشطين) أي: فرس قد ربطه بحبلين فتغشته سحابة، فجعلت تدنو منه وهو يقرأ القرآن بالليل)، وفي رواية: (كان يقرأ سورة الكهف، فإذا بسحابة فيها مثل المصاييح - أي: ممتلئة بالنور - نازلة من السماء وابنه بجواره، والفرس بجواره، وهو يقرأ القرآن، فنفر الفرس، وجعل يهتز في مكانه، وخشى أُسيد بن حُضير رضي الله عنه ... فانتبه وجعل ينظر فإذا بهذه السحابة تدنو من رأسه.

فخاف على ابنه بجوار الفرس من أن يرفسه، فتوقف عن القراءة، فارتفعت السحابة ... فعاد يقرأ فنزلت عليه مرة ثانية ... فترك القراءة خوفاً على ابنه، فلما أصبح ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «تلك السكينة تنزلت للقرآن»، أي: نزلت السكينة من السماء، وهي سحابة فيها ملائكة الله عز وجل، ولو ظل يقرأ لنزلت الملائكة تُسلم عليه، ولأصبح الناس يُسلمون عليهم وتُسلم

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٦٥) كتاب الصلاة، (٣٨٠٥) كتاب مناقب الأنصار.

عليهم، ولكنه خاف على ابنه.

وقد جاء في الحديث الآخر أن النبي ﷺ قال له: «اقرأ يا ابن حضير! اقرأ يا ابن حضير!» أي: ليتك قرأت يا ابن حضير.

فقارئ القرآن يقرأ القرآن ويستمتع به، ولا يدرى بالغيب الذي حوله، أن ملائكة الله ﷻ يُنصتون له ويستمعون له، وأن السكينة تنزل على قارئ القرآن، ولذلك عندما تحضر مجالس العلم كن مستيقناً بما قاله النبي ﷺ: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وهذه غيوب نحن لا نراها، ولكن نصدق بما قاله النبي ﷺ^(١).

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَدْ قِيلَ فِي مَعْنَى السَّكِينَةِ هُنَا أَشْيَاءُ الْمُخْتَارُ مِنْهَا أَنَّهَا شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ طُمَأْنِينَةٌ وَرَحْمَةٌ وَمَعَهُ الْمَلَائِكَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ رُؤْيَا أَحَادِ الْأُمَّةِ الْمَلَائِكَةِ.

وَفِيهِ فَضِيلَةُ الْقِرَاءَةِ وَأَنَّهَا سَبَبُ نُزُولِ الرَّحْمَةِ وَحُضُورِ الْمَلَائِكَةِ وَفِيهِ فَضِيلَةُ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ^(٢).

✽ ونحن نعلم أن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة لها فضلٌ عظيم.

قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»^(٣).

وقال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ الْعَتِيقِ»^(٤).

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطية.

(٢) مسلم بشرح النووي (١١٧/٦).

(٣) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٤) صحيح: رواه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧١).

❁ وهذه القصة من كرامات الأولياء... والأولياء لهم كرامات، لكن ليس لكل وليّ كرامة، وإنما يؤتي الله بعض أوليائه كرامة تثبتاً له وتصديقاً لما كان عليه من الحق... وهى - يعنى الكرامات - أمورٌ خارقة للعادة - يعنى لا تأتى على وفق العادة - يُجريها الله ﷻ على يدي بعض أوليائه تكريماً له وتثبيتاً له وتصديقاً لما هو عليه من الحق... وهى فى نفس الوقت معجزة للرسول الذى يتبعه هذا الولي.

وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن الخوارق ثلاثة أقسام:

(١) قسم آيات للأنبياء.

(٢) وقسم كرامات للأولياء.

(٣) وقسم إهانات من الشياطين يُجريها الله على خلاف العادة على أيدي الشياطين - والعياذ بالله -.

وعلامة ذلك أن الذى تحصل له هذه الخوارق إما أن يكون نبياً، أو ولياً للرحمن، أو ولياً للشيطان.

ومن المعلوم أنه بعد وفاة النبي محمد ﷺ لا يمكن أن تكون معجزة أبداً؛ لأن النبوة انقطعت، بموت رسول الله وخاتم النبيين ﷺ.... وبقيت الكرامات والأحوال الشيطانية والشعوذات والسحر وما أشبه ذلك.

و الكرامات علامتها أن يُجريها الله ﷻ على يد عبد صالح من أولياء الله، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. ❁

فإذا أجرى شئٌ خارق للعادة على يد رجل صالح مؤمن تقى معروف بالخير، قيل: هذه كرامة.

القسم الثالث: السحر والأحوال الشيطانية... وهذه تجرى على الطواغيت وأولياء الشياطين الذين يدعون أنهم أولياء، ويلعبون بعقول السفهاء وعقول

العامة ... ومن أحسن ما أُلّف في ذلك كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ذَكَرَ فيها أشياء كثيرة من كرامات الأولياء وأشياء أخرى من إهانات الأعداء.

يذكر أن (مُسيلمَةَ الكذاب) الذي خرج في الإمامة بالرياض وادّعى أنه نبي ... أنه جاءه قوم فقالوا له: إن عندنا بئراً غار ماؤها ولم يبقَ منه إلا قليل، وطلبوا منه أن يأتي إليها؛ لأجل أن يباركها، كما كان الرسول ﷺ إذا شكوا إليه قلة الماء يَسِّرُ الله ﷻ على يديه ﷺ أن ينبع الماء من بين أصابعه ... فجاءوا إلى (مسيلمَةَ الكذاب) فذهب إلى البئر، يقولون: إنه مَجَّ فيها مَجَّة من الماء.. ولما مَجَّ فيها الماء غار الماء الموجود فيها... وكانوا يتوقعون أن الماء يَكْثُرُ وينهمر فأراهم الله ﷻ آية لتكذيب هذا الرجل ... وهذا - لا شك - أنه أمرٌ خارق للعادة؛ لأنه ليس من العادة أن الإنسان يَمُجُّ الماء في بئرٍ ليس فيها إلا ماء قليل ثم يغار ... هذا خلاف العادة لكن الله أجرى ذلك إهانة له.

فعلى كُلِّ حال إذا رأيت من شخصٍ ما يكون خارقاً للعادة فإن كان مؤمناً تقياً يُعرف بالصلاح والاستقامة فهذا من كرامات الأولياء، وإن لم يكن كذلك فهي أحوال شيطانية من الشياطين، أو سحر يسحر به أعين الناس^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٠٦) وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ حرفاً مِنْ كتاب الله فَلَهُ حَسَنَةٌ، والحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لا أقول: ﴿آلَ﴾ حرفٌ، ولكن: أَلِفٌ حرفٌ، ولا مٌ حرفٌ، ومِيمٌ حرفٌ»^(٢).

❀ ففي هذا الحديث يوضح النبي ﷺ أن الذي يقرأ القرآن يفوز بحسناتٍ لا تخطر على قلب بشر.. فكل حرفٍ بعشر حسنات.. فإذا قرأت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ

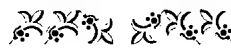
(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (١٠٦/٣-١٠٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه الترمذی، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٦٤٦٩).

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ فتلك الآية تحتوى على (١٩) حرف فإن قرأتها فُزت بـ (١٩٠) حسنة في ثوانٍ.. فما ظنك بمن يقرأ في اليوم ثلاثة أجزاء أو أكثر...

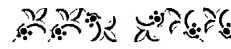
كان لى صديق عزيز يقرأ كل يوم عشرة أجزاء.. ويختم كل ثلاثة أيام.. فلما سأله: كيف تقرأ عشرة أجزاء كل يوم؟ قال: أقرأ قبل كل فريضة جزءاً وبعد كل فريضة جزءاً.. وبذلك أقرأ عشرة أجزاء دون أى مشقة...

لكن يكفيك أن تواظب على قراءة ثلاثة أجزاء أو اثنين أو حتى على جزء واحد على الأقل... وتستطيع أن تقرأ ثمانية أجزاء أحياناً في ثلاثة ساعات فتفوز بمليون حسنة «من سيربح المليون؟»... فاحرصوا على الإكثار من قراءة القرآن لتفوزوا بملايين الحسنات.. فقد يحتاج أحدكم يوم القيامة إلى حسنة واحدة ليدخل بها الجنة.



(١٠٠٧) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب»^(١).

❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.



(١٠٠٨) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لصاحب القرآن: اقرأ وارْتَقِ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدنيا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا»^(٢).

❁ وهذه مكافأة للإنسان المؤمن عند الله ﷻ.... فإن المؤمن حين يدخل الجنة يفرح فرحاً عظيماً، ثم تأتيه هذه المكافأة من الله ﷻ، فيقال له: كما كنت تقرأ في الدنيا أى: كما كنت تقرأ في الدنيا تَعَبُّداً لله فالآن اقرأ بين يدي الله ﷻ.

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وضعفه الألبانى في ضعيف الجامع (١٥٢٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٨١٢٢).



حتى ترتفع في الدرجات ... وليس كما كنت تقرؤه في الدنيا تكليفاً، ولكن اقرأه الآن تشريعاً لك، وذلك حين تقرأ القرآن وتُرتله بصوت جميل بين يدي الله سبحانه وتعالى: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقي - أي: ارتفع - ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

والقرآن ستة آلاف ومئتان وست وثلاثون آية ... وكل آية تقرؤها فإنك ترتقي بها درجة في الجنة ... فإذا كنت تحفظ القرآن كله فإنك تعلقو إلى أعلى الدرجات، وإذا كنت تحفظ بعضه فإنك تعلقو بحسب ما تحفظ منه، وهذا يدفع المؤمنين للتنافس في ذلك، فيتنافسون في حب الله ﷻ، وفي حفظ كتابه ... ولا تيأس ولا تعجز، وحاول أن تحفظ من القرآن حتى آية في كل يوم، وراجع ما حفظته قبل ذلك، ... واعلم أن الإنسان قد يجلس وهو يريد أن يحفظ فيحاول أن يحفظ رُبعاً كاملاً فلا يستطيع أن يحفظ منه شيئاً، فيقوم وقد نسيه كله.

وليس ذلك هو المطلوب؛ فالإنسان لا تأخذه الحماسة فيريد أن يحفظ كل شيء مرة واحدة؛ لأن ذلك ليس ممكناً، بل هو صعبٌ جداً، وخاصة إذا لم يكن متعوداً على الحفظ، فيحتاج إلى أن يتعود شيئاً فشيئاً، فيحفظ أولاً آية واحدة، ويُردها في نهاره وغده إلى أن يحفظها، ثم يضم إليها غيرها، ولا يزال يحفظ كذلك إلى أن يحفظ القرآن كله، أو ما استطاع حفظه منه ... وليبدأ بما يحبه، وبما يستمتع به، فقد يكون يحب أن يحفظ سورة يس، وغيره يحب أن يحفظ سورة الرحمن، وهكذا، فليبدأ بما يحب، وليس شرطاً أن يبدأ من أول البقرة، أو من أول جزء عم، ولكن السورة التي تستهويه ويحبها يبدأ بها؛ لأنها ستكون سهلة عليه، وليضم إليها غيرها وغيرها، وسيجد نفسه في النهاية قد حفظ الكثير من كتاب الله ﷻ، بل حفظه كله بفضل الله ﷻ^(١).

(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين).

(١٨١) باب الأمر بتعهد القرآن

والتحذير من تعريضه للنسيان

(١٠٠٩) عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبْلِ فِي عُقْلِهَا»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يأمرنا النبي ﷺ بأن نتعهد القرآن.. أى: أن نحفظه وندأوم على مراجعته كل يوم وأن نجعل له وقتًا ثابتًا للمراجعة وندأوم على ذلك.. وذلك لأن القرآن كما ذكر النبي ﷺ كالإبل في عُقْلِهَا إذا تعهدتها الإنسان أمسكها وإن أطلقها ذهبت وضاعت... وقد أقسم على ذلك النبي ﷺ حين قال كما في حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبْلِ فِي عُقْلِهَا».

أى: مثل الجمل حين يبقى مربوطًا في عقاله ويحاول أن يفلت منه ليمشى... وكذلك القرآن إن لم تحافظ عليه فإنه يضيع منك ولن تستطيع أن تتذكره. وإن الذى يحفظ القرآن يتفلى منه بسرعة... والنبي ﷺ قد أنسى آية وهو يصلى بالناس، وذكره بها أبى بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد الصلاة، فكيف بغيره ﷺ؟! فالقرآن يتفلى من الإنسان.

فلا بُد أن نتعهد القرآن دائمًا بالحفظ والمراجعة...

وتأسَّ بالنبي ﷺ، فقد كان جبريل ينزل عليه كل سنة في رمضان فيراجع مع النبي ﷺ ما يحفظه من القرآن، ويتدارسه معه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في التحذير من نسيانه لمن أهمله... أما مَنْ نساه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٣٣) كتاب فضائل القرآن - ومسلم (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

بمقتضى الطبيعة فإنه لا يضر، لكن مَنْ أهمله وتغافل عنه - بعد أن أنعم الله عليه بحفظه - فإنه يُخشى عليه من العقوبة.

فأنت - يا أخى - إذا مَنْ الله عليك بالقرآن فتعاهده بالقراءة بتلاوته .. أى: بتكرار التلاوة وكذلك أيضاً بالعمل به؛ لأن العمل بالشئ يؤدي إلى حفظه وبقائه ... ولهذا قال بعض العلماء: قِيد العلم بالعمل به، فإن العمل بالعلم يقتضى بقاءه؛ لأنه لا يزال على قلبك وعلى جوارحك، فإذا صار هكذا فإنه يبقى ولا يُنسى، أما إذا أُهمل فإنه يضيع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١٠) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ الْإِبِلِ الْمُعْقَلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أُمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث يضرب النبى ﷺ مثلاً بما كان فى البيئة عندهم ... فإن الرجل منهم إذا كان عنده جمالٌ فربطها وواظب على أن ينظر إلى الحبل الذى ربطها به أهو سليم أو غير سليم فقد حافظ عليها، وأما إذا غفل عنها فإنها تذهب عنه فلا يجدها.

وكذلك القرآن، فإننا إذا لم نتعاهد كتاب الله ﷻ بالمذاكرة والحفظ والمراجعة فإننا سوف ننساه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠٣١) كتاب فضائل القرآن - ومسلم (٧٨٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(١٨٢) باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن

وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع لها

✽ فقارئ القرآن ينبغي أن يُحسن صوته بالقرآن، وأن يتغنى به، تعظيمًا وتوقيرًا لكتاب الله سبحانه وتعالى ... والنبى ﷺ لم يذكر ذلك في غير القرآن، فلم يذكر شيئًا ثانيًا، لا التغنى بحديث النبى ﷺ، ولا التغنى بالشعر، ولا التغنى بالكلام، ولا التغنى في الخطبة، ولا التغنى في الدعاء، وإنما ذكر التغنى بالقرآن فقط.

✽ وقد ذكر المصنف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في آداب القراءة: باب استحباب تحسين الصوت بالقراءة، وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع إليه ... هاتان مسألتان:

المسألة الأولى: استحباب تحسين الصوت في قراءة القرآن.

وتحسين الصوت ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: تحسين الأداء بحيث يبين الحروف ويُخرجها من مخارجها حتى يبدو القرآن واضحًا بيّنًا، فلا يخفى ولا يُحذف شيءٌ من الحروف؛ لئلا ينقص شيء مما أنزله الله على رسوله ﷺ.

الثانى: تحسين النغمة بالصوت، يُحسن به صوته، وكلاهما أمرٌ مطلوب ... ولكن الأمر الأول - تحسين الأداء - لا ينبغي المبالغة فيه والغلو فيه بحيث تجد الرجل يقرأ القرآن يتكلف ويُحمر وجهه، ويتكلف في الغنة وفي الإدغام وفي مثل ذلك فإن هذا من إقامة الحروف المتكلفة.

ولكن لتكن قراءته طبيعية يُبين فيها الحروف والحركات ... هذا هو المطلوب، وأما الغلو والمبالغة فإنهما ليسا مطلوبين ... وبه نعلم أن تعلم التجويد

ليس بواجب؛ لأنه يعود إلى تحسين الصوت بدون غلو ولا مبالغة، فهو من الأمور المستحبة التي يتوصل بها الإنسان إلى شيءٍ مُستحب لا إلى شيءٍ واجب.

وأما القسم الثاني: هو تحسين الصوت فقد يقول قائل: حُسن الصوت ليس باختيار الإنسان؛ لأن الله تعالى هو الذي يَمُن على مَنْ يشاء من عباده، فيعطيه حنجرة قوية وصوتاً طيباً... فيقال: نعم، الأمر كذلك، لكن يُحسن الإنسان الصوت بالتعلم؛ لأن حسن الصوت غريزي ومكتسب... فلا يزال يقرأ بصوتٍ حسن حتى يتعلم ويؤدي بصوتٍ حسن^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيءٍ» أي: ما استمع الله لشيءٍ من الأشياء التي يسمعها عز وجل «ما أذن لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» أي: ما استمع الله عز وجل لشيءٍ من الأشياء التي يسمعها -والله يسمع كل شيء عز وجل- مثل استماعه لِنَبِيِّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يَجْهَرُ بِهِ لِيُسْمَعَ الناس حوله فيتعلموا ويستمتعوا.

والمقصود هنا هو النبي ﷺ نفسه.. فليس هناك نبيٌ غيره يقرأ القرآن على أصحابه.. ولكن من تواضع النبي ﷺ أخبر بذلك على وجه الالتفات ولم يَقُل: ما أذن الله لشيءٍ ما أذن لي أن أتغنى بالقرآن.. ولذا كان النبي ﷺ يتغنى بالقرآن ويُجمل صوته في قراءته مع أنه ليس هناك صوت أجمل من صوت النبي ﷺ.. ولكنه كان يفعل ذلك من أجل أن يتعلم أصحابه وتتعلم الأمة كلها.

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٠٩-١١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٤٤) كتاب التوحيد - ومسلم (٧٩٢) كتاب صلاة المسافرين. معنى «أذن الله»: أي استمع، وهو إشارة إلى الرضا والقبول.

(١٠١٢) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «لقد أُوتيت مزمارة من مزامير آل داود»^(١).

وفي رواية لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال له: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة».

وفي رواية أبي يعلى: أن النبي ﷺ وعائشة مرًا بأبي موسى وهو يقرأ في بيته، فقاما يستمعان لقراءته، ثم إنهما مضيا. فلما أصبح لقي أبو موسى رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا موسى، مررت بك» فذكر الحديث ... فقال «أما إنني لو علمت بمكانك لحبّرت لك تحبيرًا».

وفي رواية ابن سعد: «أن أبا موسى قام ليلة يصلي، فسمع أزواج النبي ﷺ صوته - وكان حلو الصوت - فقمّن يستمعن، فلما أصبح قيل له، فقال: لو علمت لحبّرت لهن تحبيرًا»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة» أي: لأعجبك ذلك.. لأن مجرد استماع النبي ﷺ لصوت أي إنسان يقرأ القرآن ويقف فترة ليستمع إليه فهذه منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها.. فما ظنك وقد أثنى عليه بعدها وقال له: «لقد أُوتيت مزمارة من مزامير آل داود».. والمقصود بآل داود هو داود نفسه عليه السلام.

وكان داود عليه السلام قد أنعم الله عليه بصوت في غاية الحسن والجمال ... فكان إذا قرأ بصوته الجميل في الزبور سمعته الجبال والطيور فتُسبح معه في الليل والنهار.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩)

[الأنبياء: ٧٩].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٤٨) كتاب فضائل القرآن - ومسلم (٧٩٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) فتح الباري (٧١١/٨).

﴿يَجِئُكَ أَوَّيُّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠].

فكان الله تعالى قد وهب داود (عليه الصلاة والسلام) من الصوت الجميل ما لم يُعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنَّم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يُرجِّع بترجيعه ويُردد، ويُسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجييه وتُسبِّح معه، كلما سبَّح بُكرة وعشيّاً.

قال عبد الله بن عامر: أُعطى داود من حُسن الصوت ما لم يُعطَ أحدٌ قطُّ، حتى إن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشاً وجوعاً، وحتى إن الأنهار لتقف^(١).

وقد كان الصحابة يستمعون لأبى موسى الأشعري بعد وفاة النبي ﷺ، فقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يأتي أبا موسى ويقول: ذكّرنا بالله.

فيقرأ أبو موسى والكل يستمعون إليه في ذلك المجلس.

﴿وَأما قول أبى موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أما إنى لو علمت بمكانك لحبّرتك لك تحبيراً» أى: لو علمت أنك تستمع إلى قراءتى يا رسول الله ﷺ لزيّنت صوتى وجملّته أكثر لتستمع يا رسول الله..

وحاشا لله أن يقصد أبو موسى أن يُرائى بذلك ولكنه أراد إدخال البهجة والسعادة على قلب النبي ﷺ.

وفى هذا دليل على أن الإنسان لو حَسَّنَ صوته بالقرآن لأجل أن يتلذذ السامع ويُسرُّ به فإن ذلك لا بأس به ولا يُعَدُّ من الرياء بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله ﷻ حتى يُسرُّ الناس به... ولهذا يوجد بعض الناس إذا ضاق صدره استمع إلى قراءة إنسان حسن القراءة حسن الصوت.

وهذه متيسرة الآن في أشرطة لبعض القراء الذين لا يتكلفون القراءة

وأصواتهم حسنة وأداؤهم حسن إذا استمع الإنسان إليهم لا يكاد يمل لأن كلام الله له تأثير إذا جاء من إنسان حسن الصوت وحسن الأداء لا يمل.

قال القاضي: أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها... قال أبو عبيد: والأحاديث الواردة في ذلك محمولة على التحزين والتشويق... قال: واختلفوا في القراءة بالألحان فكرها مالك والجمهور؛ لخروجها عما جاء القرآن له من الخشوع والفهم. وأباحها أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث، ولأن ذلك سبب للركة وإثارة الخشية وإقبال النفوس على استماعه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١٣) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ قرأ في العشاء بالتين والزيتون، فما سمعتُ أحدًا أحسنَ صوتًا منه^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يخبر البراء بن عازب رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقرأ في العشاء بالتين والزيتون.. ثم يُعلق على ذلك ويقول: فما سمعتُ أحدًا أحسن صوتًا منه ﷺ.

ولا عجب في ذلك.. فالله ﷻ يستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن... وقد كان إذا قرأ يُسمع في صدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَل، من خوفه من الله ﷻ، وبكائه ﷺ، ومع ذلك كان هذا لا يؤثر على جمال صوته، وحُسن تلاوته، ﷺ. نعم... لقد كان رسول الله ﷺ أجمل الناس صوتًا.. ولا عجب في هذا فقد كان ﷺ أجمل الناس خلقًا وخلقًا وصوتًا.. لقد كان أجمل الناس في كل شيء. فهو أول وأولى من يدخل في قوله: «مَا أَدْنَى اللَّهِ لِمَنْ شِئْءٍ مَا أَدْنَى لِنَبِيِّ حَسَنِ

(١) مسلم بشرح النووي (١١٥/٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٤٦) كتاب التوحيد، ومسلم (٤٦٤) كتاب الصلاة.

الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ، يَجْهَرُ بِهِ».

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنه يجوز أن نصلي العشاء بقصار السور وإن كان الأفضل أن نصلي بأوساط السور لأن النبي ﷺ أمر معاذ بن جبل أن يقرأ فيها بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضَعَهَا﴾ وما أشبه ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١٤) وعن أبي لبابة بشير بن عبد المُنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا»^(١).

❦ وهذه الكلمة لها معنيان: الأول «من لم يتغنَّ به» أى من لم يستغنٍ به عن غيره بحيث يطلب الهدى من سواه فليس منا ... فهذا لا شك أن مَنْ طلب الهدى من غير القرآن أضله الله والعياذ بالله.

والمعنى الثانى «من لم يتغنَّ» أى مَنْ لَمْ يُحَسِّنْ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا فيدل على أنه ينبغى للإنسان أن يُحَسِّنْ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ وَأَنْ يَسْتَغْنَى بِهِ عَنْ غَيْرِهِ^(٢).

فالقرآن ليس كغيره من الكلام، وإنما هو كلام رب العالمين، نزل به جبريل الروح الأمين على النبى سيد المرسلين ﷺ ... نزل عليه فعلمه كيف يتلوه، وقال له ربه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَعِزْ بِهِ﴾ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. [القيامة: ١٦ - ١٩].

فقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ❦ أى: لَا تُحَرِّكْ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ؛ بَل

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٤٤٢)، والحديث رواه البخارى بنحوه (٧٥٢٧) كتاب التوحيد من حديث أبى هريرة بلفظ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ». ❦ ومعنى «يتغنَّى» يُحَسِّنُ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ.

(٢) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١١٢/٣).

اصبر واسمع جيداً لهذا القرآن، ونحن نحفظك إياه، ونعلمك أحكامه، ونعلمك كيف تقرأه.

والنبي ﷺ يعلم المؤمنين، ويأمرهم أن يتغنوا بالقرآن، فيقول ﷺ: «مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ فَلَيْسَ مِنَّا»، أى: إن قارئ القرآن لا يقرأه كما يقرأ أى كتابٍ آخر، وكما يقرأ أى كلامٍ آخر، ولكن يقرأ القرآن مُستشعراً أنه يُؤجر على كل حرفٍ منه، فيُحسن التلاوة، ويتعلم كيف يُجود القرآن، ويتعلم أحكام القرآن، وأحكام التجويد، وأحكام القراءة، ويُتقن القراءة، ويتغنى بها، ولا يقيس على القرآن غيره، ولا يجعل شيئاً آخر كالقرآن.

وفي زماننا الآن ما أكثر ما ابتدع الناس من بدع! فقد تغنوا بالقرآن، وبدءوا يتغنون بغير القرآن... والنبي ﷺ لم يذكر سوى القرآن فقط، فقال: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»، حتى حديث النبي ﷺ لا يُتغنى به.

أما أن يقف الإمام على المنبر ويخطب ويتغنى، فما جاء ذلك عن النبي ﷺ ذلك، إلا أنه كان يقرأ القرآن ويتغنى به، ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١٥) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لى النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَى الْقُرْآنِ» فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «حَسْبُكَ الْآنَ» فالتفت إليه، فإذا عيناه تدرِفان^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٤٥١) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين/ للشيخ أحمد حطية.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٨٢) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين.

(١٨٣) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة

✽ القرآن كله عظيم، ولكن لا مانع من أن تكون آية أفضل من غيرها، وليس المعنى حين نقول: هذه أفضل من هذه، أن هذه أقل... بل القرآن كله فاضل وعظيم ولكن الله ﷻ جعل البعض منه أفضل من البعض الآخر.

(١٠١٦) عن أبي سعيد رافع بن المَعْلَى رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

✽ وفي رواية لهذا الحديث أنه قال: «كنت أصلى في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إنى كنت أصلى، فقال: ألم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟ ثم قال لى: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد».

فلما ناداه النبي ﷺ أولاً لم يرد عليه ولكنه أسرع في صلاته وذهب إلى النبي ﷺ؛ لأنه يعلم أن معنى قول الله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أنه لا يقطع صلاته حتى ينتهى منها.

فقال له النبي ﷺ: «ما منعك أن تجيبني؟ قال: كنت في صلاة»، وظن أن النبي ﷺ كغيره، ولم يعلم أن النبي ﷺ له حكم آخر في صلاة النافلة، وهو وجوب إجابة النبي ﷺ وقطع صلاة النافلة... لأن هذه الصلاة نافلة، وإجابة النبي ﷺ واجبة، فإذا تعارضا فيجب عليه إجابة النبي ﷺ، والخروج من النافلة. فقال له النبي ﷺ: «ألم يقل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]».

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٧٤) كتاب تفسير القرآن.

أى: أليس الله قال هكذا؟ ثم علمه النبي ﷺ، فقد أراد أن يعلمه ما يحيا به، وما يملأ قلبه نوراً، فقال له ﷺ: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ قال: فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله! إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، فقال النبي ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

❁ وفي حديث أبي هريرة: أَتَجِبُّ أَنْ أَعْلَمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا.

قَالَ ابْنُ التَّيْنِ: مَعْنَاهُ أَنَّ ثَوَابَهَا أَعْظَمُ مِنْ غَيْرِهَا وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى جَوَازِ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ مَنَعَ ذَلِكَ الْأَشْعَرِيُّ وَجَمَاعَةٌ لِأَنَّ الْمَفْضُولَ نَاقِصٌ عَنْ دَرَجَةِ الْأَفْضَلِ وَأَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَكَلَامُهُ لَا نَقْصَ فِيهَا ... وَأَجَابُوا عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ مَعْنَى التَّفَاضُلِ أَنَّ ثَوَابَ بَعْضِهِ أَعْظَمُ مِنْ ثَوَابِ بَعْضٍ فَالتَّفْضِيلُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ حَيْثُ الْمَعَانِي لَا مِنْ حَيْثُ الصِّفَةُ ... وَيُؤَيِّدُ التَّفْضِيلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَآتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿نَآتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾. أَيْ فِي الْمَنْفَعَةِ وَالرَّفْقِ وَالرَّفْعَةِ.

وَاخْتَلَفَ فِي تَسْمِيَّتِهَا مِثَانِي ... فَقِيلَ: لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي كُلِّ رَكْعَةٍ أَيْ تُعَادُ. وَقِيلَ لِأَنَّهَا يُثَنَّى بِهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ... وَقِيلَ: لِأَنَّهَا اسْتُثْنِيَتْ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ لَمْ تَنْزَلْ عَلَى مَنْ قَبْلَهَا^(١).

❁ وقد ورد أن هذا الأمر قد تكرر حدوثه مع الصحابي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه .. ولذا فسوف أذكره الآن وسأذكر بعده عدة أحاديث في فضل الفاتحة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج على أبي بن كعب فقال: «يا

أُبي! - وهو يصلى - فالتفت أُبى فلم يُجبه، وصلى أُبى فخفف، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وعليك السلام، ما منعك يا أُبى أن تُجيبني إذ دعوتك؟». فقال: يا رسول الله! إني كنتُ في الصلاة. قال: «فلم تجد فيما أوحى الله إليَّ أن ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» [الأنفال: ٢٤]. قال: بلى، ولا أعود إن شاء الله. قال: «أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها». قال: نعم يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «كيف تقرأ في الصلاة؟». قال: فقرأ (أم القرآن) فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبعٌ من المثاني والقرآن العظيم الذى أُعطيته»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبی فی مسیر فنزل، ونزل رجلٌ إلى جانبه، قال: فالتفت النبی ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن؟». قال: بلى. فتلا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، - وفي رواية: فنصفُها لى ونصفُها لعبدى - فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حَمَدنى عبدى. فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال: أثنى علىَّ عبدى. فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجَّدنى عبدى. وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بينى وبين عبدى، ولعبدى ما سأل.

فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٠٧٩).

(٢) صحيح: رواه الحاكم وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٤٩٩).

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَصْأَلِينَ ﴿١﴾، قال: هذا العبدى، ولعبدى ما سأل^(١).

وعن واثلة بن الأسقع؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أُعْطِيَ مكان التوراة السبع^(٢)، وأُعْطِيَ مكان الزبور المئين^(٣)، وأُعْطِيَ مكان الإنجيل المثاني^(٤)، وَفُضِّلَتْ بِ (المُفْصَّلِ)^(٥)»^(٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، وَلَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ فَقَالَ: أَبْشِرْ بِسُورَتَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُوْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَمْ تَقْرَأْ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ»^(٧).

✽ فسورة الفاتحة هي أعظم سورة في كتاب الله؛ ولهذا تُسَمَّى أم القرآن... والأم هو الذى يرجع إليه الشئ... فسورة الفاتحة ترجع إليها معانى القرآن كلها؛ ولذلك أوجب الله قراءتها في كل ركعة من الصلوات فقال النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن أو بفاتحة الكتاب»^(٨).

وهذه السورة لها خصائص منها: أن الإنسان إذا قرأها على مريض فإنه

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٩٥) كتاب الصلاة.

وقوله: «قسمت الصلاة» يعنى: القراءة، بدليل تفسيره بها... وقد تُسَمَّى القراءة صلاة لكونها جزءاً من أجزائها. والله أعلم.

(٢) يعنى السور السبع الطوال، وهى من (البقرة) إلى (براءة) - أى: سورة التوبة -.

(٣) وهى من السور ما كان فيها مائة آية فأكثر.

(٤) أى: السبع المثاني. وهى الفاتحة كما تقدم، وسُميت بذلك لأنها تُثْنَى في كل صلاة.

(٥) والمراد به السور التى كثرت فصولها، وهى من (الحجرات) إلى آخر القرآن على الصحيح، كما فى

«فتح البارى» (٧٤/٩).

(٦) صحيح: رواه الطبرانى فى الكبير، والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٠٥٩).

(٧) صحيح: رواه مسلم (٨٠٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٨) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٦) كتاب الأذان، ومسلم (٣٩٤) كتاب الصلاة.

يشفى بإذن الله، لكن بشرط: أن يقرأها بإيمانٍ و يقين - يعنى وهو مؤمن وعلى يقين - على أنها رُقِية نافعة.

والشرط الثانى: أن يقرأها على مريضٍ مؤمنٍ أيضًا مُصدق بأنها رُقِية و نافعة... ويدل على هذا أن النبى ﷺ بعث سرية، فنزلوا على قومٍ فاستضافوهم ولكن القوم لم يُضيفوهم، فسلط الله على سيدهم - أى سيد القوم - أن لدغته عقرب، وتأذى منها أذى شديداً، فقال بعضهم: اذهبوا إلى هذا الرهط لعلّ فيهم قارئاً يقرأ، فجاءوا إلى السرية، وقالوا: إن سيدهم لدغته عقرب فهل منكم أحدٌ يقرأ؟ قالوا: نعم، لكن ما نقرأ عليكم إلا إذا أعطينا مكافأة غنماً.. فقالوا: نعطيكم، فتقدم أحد القوم من الصحابة، فجعل يقرأ عليه سورة الفاتحة - وهو أشد ما يكون من الألم - فقرأ عليه، فقام الرجل المريض كأنما نشط من عقال... يعنى: كأنه بعير فك عقاله، ليس فيه داء.. فأعطوهم الغنم، ثم قال بعضهم لبعض: نخشى أن تكون الغنم حراماً... لا نأكل منها حتى نصل إلى النبى ﷺ ونسأله..

فلما وصلوا المدينة وأخبروا النبى ﷺ قال لهم: «خذوها واضربوا لى معكم بسهم» يعنى اجعلوا لى سهمًا منها... وإنما قال ذلك تطييباً لقلوبهم، وإلا فهو فى غنى عن هذا لكن تطييباً لقلوبهم وبياناً لحِلِّ هذا الشىء... ثم قال للذى قرأها: «وما يُدريك أنها رُقِية؟»... فإذا قرأ الإنسان على مريض - وهو مؤمن أنها رُقِية - والمريض مؤمن كذلك بأنها نافعة بإذن الله فإن الله تعالى ينفع بها نفعاً عجبياً.

هذا من فضائل سورة الفاتحة، وهى أعظم سورة فى كتاب الله ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠١٧) وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فى قِرَاءَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: «والذى نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١١٣-١١٤).

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أعجز أحدكم أن يقرأ بثُلث القرآن في ليلة» فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينما يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ»: ثلث القرآن»^(١).

(١٠١٨) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له.. وكان الرجل يتفألها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»^(٢).
(١٠١٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾: «إنها تعدل ثلث القرآن»^(٣).

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تسمى سورة الإخلاص لأن الله عز وجل أخلصها لنفسه فلم يذكر فيها شيئاً إلا أسمائه وصفاته عز وجل.

وهي سورة مكية وقد تحدثت عن صفات الله (جل وعلا) الواحد الأحد، الجامع لصفات الكمال، المقصود على الدوام، الغني عن كل ما سواه، المنزه عن صفات النقص، وعن المجانسة والمماثلة... وردت على النصارى القائلين بالتثليث، وعلى المشركين الذين جعلوا لله الذرية والبنين.

روى أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد صف لنا ربك، أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من زبرجد، أم من ياقوت؟! فنزلت^(٤) «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)».

أي: «﴿قُلْ﴾: قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه: «﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾»؛

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠١٥) كتاب فضائل القرآن.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٠١٣) كتاب فضائل القرآن.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨١٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صفوة التفسير (٥٩٤/٣).

أى: قد انحصرت فيه الأحدىة؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذى له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة، الذى لا نظير له ولا مثل.
 ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾؛ أى: المقصود فى جميع الحوائج.. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه فى مهماتهم؛ لأنه الكامل فى أوصافه، العليم الذى قد كمل فى علمه، الحليم الذى قد كمل فى حلمه، الرحيم الذى كمل فى رحمته، الذى وسعت رحمته كل شىء... وهكذا سائر أوصافه.

﴿ومن كماله أنه﴾^(١) ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿لم يلد: ليس له أولاد عَزَّوَجَلَّ لأنه غنى عن كل أحد، قال الله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحْبَةٌ﴾ وفى هذا ردٌّ وإبطال لما ادَّعته اليهود والنصارى والمشركون... اليهود قالوا: عزيز ابن الله.

يعنى قالوا: إلهٌ يلد وابنه عزيز... والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، فأبطل الله ذلك كله بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لأنه عَزَّوَجَلَّ هو الأول الذى ليس قبله شىء، وهو الآخر الذى ليس بعده شىء.... أما الرب (جل وعلا) فإنه أول أزلى أبدي.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يعنى: لا أحد يكافئه ويكون ندًا له، لا فى علمه ولا فى أسمائه، ولا فى صفاته، ولا فى أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

وهذه السورة أقسم النبى ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن، وقال لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة؟» فشقَّ عليهم ذلك... فقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) اللَّهُ الصَّكْمُ^(٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ^(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ

كُفُوا أَحَدٌ ﴿ تعدل ثلث القرآن. يعني: أجزأها كأجر ثلث القرآن، لكنها لا تُجزئ عن القرآن، ولهذا لو قرأها الإنسان مثلاً ثلاث مرات بدل قراءة الفاتحة في الصلاة لا تُجزئ... لأن هناك فرقاً بين المعادلة في الأجر والمعادلة في الأجزاء... قد يكون الشيء مُعادلاً لغيره في الأجر ولكنه لا يُعادل في أجزائه، رأيتم مثلاً إذا قال الإنسان: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل»^(١) يعني يعادل كفارة عتق أربعة رقاب، لكن لو كان عليه كفارة عتق رقبة وقال ذلك ما نفعه ذلك... فهناك فرق بين المعادلة في الثواب والمعادلة في الأجزاء... فهي تعدل ثلث القرآن في الثواب ولكنها لا تعدل في الأجزاء، ولهذا لو قرأها الإنسان ثلاث مرات في الصلاة لم تُجزئه عن الفاتحة^(٢).

﴿ففي الحديث الأول أن النبي ﷺ لما قال لأصحابه: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يقرأ بثُلُثِ القرآنِ في لَيْلَةٍ».. والنبي ﷺ يعلم أن أكثر الناس يعجزون عن ذلك ولا يستطيع فعل ذلك إلا مَنْ أعانه الله ﷻ.. فقد كان عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصلي بالقرآن كله في ركعة الوتر.. وفعلها بعض السلف.. وكان عروة بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقرأ ربع القرآن في النهار ويقوم به في الليل.. وما تركه إلا في الليلة التي قُطعت فيها رجله.

الشاهد: أن النبي ﷺ لما قال ذلك شَقَّ على الصحابة وقالوا: أينما يطيق ذلك يا رسول الله؟.. فإذا بالنبي ﷺ يوضح لهم أن الأمر أسهل وأيسر مما يتخيلون فقال ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾: ثُلُثُ القرآنِ».. أي: تعدل ثُلث القرآن في الأجر والثواب وليس في الأجزاء.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١٥-١١٦) بتصرف.

❁ وفي الحديث الثاني أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُردها.. فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وكأنه يتقالها.. ويظن أنها قليلة في الأجر والثواب لقلة آياتها وحروفها.. والحرف الواحد ثوابه عشر حسنات. وإذا بالنبي الكريم ﷺ يبين له أنها ليست قليلة كما ظن، وإنما هي عظيمة جداً، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، فيقسم له، وهو لا يحتاج إلى أن يقسم (عليه الصلاة والسلام)، ولكنه أراد أن يطيب نفس هذا الرجل؛ لأنه رآها شيئاً قليلاً، فقال له النبي ﷺ: «والذي نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن».

فكانك تقرأ في كل ركعة بثلث القرآن عندما تقرأ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ❁ بل ثبت أن النبي ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بنى الله له بيتاً في الجنة»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٠) وعن أنسٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إننى أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، قال: «إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(٢). ❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٩٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

❁ ولكنى أريد هنا أن أضيف إضافة يسيرة.. ألا وهى: أنك عندما تحب أن تحفظ فانظر السورة التى تحبها فاحفظها؛ لأن حُبك إياها يُدخلك الجنة، وحفظك لها يرفعك درجات عند الله سبحانه وتعالى... فابدأ بما تحبه من السور، وضمَّ بعضها إلى بعض إلى أن تحفظ القرآن كله.

(١) صحيح: رواه أحمد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٧٤) تعليقاً فى كتاب الأذان - ورواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صفة الصلاة (٨٥).

وقد جاء في رواية: أن هذا الرجل كان يصلى بأصحابه، وكان إذا قرأ في الركعة ختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقالوا له: إما أن تقرأ بالسورة، أو تقرأ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، أى: لا تجمع بين الاثنتين ... وكان الرجل يحب هذه السورة، فقال: إن أحببت أن أصلى بكم بذلك وإلا فقدّموا غيرى، وكان هو أفضلهم، فتركوه يصلى بهم.

والنبي ﷺ لم يفعل ذلك، ولم يكن يقرأ في كل ركعة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مع سورة أخرى؛ لأن النبي ﷺ يحب القرآن كله ﷺ، وليس عنده سورة أفضل من سورة، فكان يقرأ بالجميع ﷺ.

وأما هذا فحدث في قلبه حُبُّ لهذه السورة أكثر من غيرها، فكان يقرأها في كل ركعة ... وليس المعنى: أن السُّنة أن نفعل مثل هذا، وإنما السُّنة أن نفعل كما فعل النبي ﷺ، فهو لم يفعل ذلك ولا مرة واحدة ﷺ... فلم يقرأ في أى ركعة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مع السورة التى قرأها في الركعة، ولكن الغرض بيان أن هذا الرجل حدث في قلبه حب لهذه السورة، فلما قال للنبي ﷺ: إني أحبها، قال له النبي ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة»، أى: بحبك لها، وليست هى فقط، وإنما القرآن كله، فما أحببت منه وتعلقت به كان سبباً لدخولك الجنة ... أى: أن الإنسان المؤمن يحفظ ما يحبه، ويقرأ ما يحبه، فإذا كان في الصلاة فخير الهدى هدى النبي ﷺ، فيفعل كما فعل ﷺ.

فالغرض بيان أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ لها فضيلة عظيمة، ولذلك جاء عنه ﷺ في حديث آخر أنه قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بنى الله له بيتاً في الجنة»، أى: بنى له قصرًا في الجنة ... فاحرص على تكثير القصور في جنة الله سبحانه وتعالى^(١).

(١) بتصرف من «شرح رياض الصالحين» للشيخ أحمد حطية.

(١٠٢١) وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلْتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرِ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟» **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾**، و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾** ^(١).
(١٠٢٢) وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِّ، وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ، حَتَّى نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا، أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا ^(٢).
❁ وفي رواية لأبي داود قال: بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ بين (الجحفة) و (الأبواء)، إذ غشيتنا ريحٌ وظلمة شديدة، فجعل رسول الله ﷺ يتعوذ بـ**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾** ويقول: «يا عُقْبَةُ! تعوَّذ بهما، فما تعوَّذ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا». قال: وسمعتَه يؤمنا بهما في الصلاة ^(٣).

❁ ورواه ابن حبان في «صحيحه»، ولفظه: يا رسول الله! أقرئني آيَا من سورة «هود»، وآيَا من سورة «يوسف». فقال النبي ﷺ: «يا عُقْبَةُ بن عامر! إنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله، ولا أبلغ عنده من أن تقرأ **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**، فإن استطعت أن لا تفوتك في الصلاة فافعل» ^(٤).

❁ سورة الفلق مكية، وفيها تعليم للعباد أن يلجؤوا إلى حمى الرحمن، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته، ومن شر الليل إذا أظلم، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة، ولانتشار الأشرار والفجار فيه، ومن شر كل حاسدٍ وساحرٍ... وهى إحدى المعوذتين اللتين كان النبي ﷺ يُعوَّذُ بنفسه بهما.

❁ **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** أى قل يا محمد: ألتجئ وأعتصم برب الصبح الذى ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام... قال ابن عباس: **﴿الْفَلَقِ﴾** الصبح... كقوله تعالى: **﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾** [الأنعام: ٩٦].

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٩٠٢).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى في صحيح أبى داود (١٢٩٩).

(٤) صحيح: رواه ابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الترغيب (١٤٨٥).

وفي أمثال العرب: هو أيين من فلق الصبح ... قال المفسرون: سبب تخصيص الصبح بالتعوذ أن انبثاق نور الصبح بعد شدة الظلمة، كالمثل لمجىء الفرج بعد الشدة.. فكما أن الإنسان يكون منتظراً لطلوع الصباح، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاة ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أى من شر جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والدواب، والهوام، ومن شر كل مؤذ خلقه الله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أى: ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ... ولهذا قالوا فى المثل: «الليل أخفى للويل» قال الرازى: وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل، لأن فى الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من مكانها، ويهجم السارق والمكابر، ويقع الحريق، ويقل فيه الغوث^(١).

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أى: ومن شر السواحر اللواتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفنن - أى: ينفخن - فيها ليضروا عباد الله بسحرهن، ويفرقوا بين الرجل وزوجه ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال فى البحر: وسبب نزول المعوذتين قصة ليلى بن الأعصم الذى سحر رسول الله ﷺ فى مشطٍ ومشاطة وجف - قشر الطلع - طلعة ذكر، ووتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة، مغروز بالإبر، فأنزلت عليه المعوذتان، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد فى نفسه خفة ﷺ حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام فكانما نشط من عقال^(٢).

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أى ومن شر الحاسد الذى يتمنى زوال النعمة عن غيره، ولا يرضى بما قسمه الله تعالى له^(٣).

(١) التفسير الكبير للرازى (٣١/ ١٩٥).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٥٣٠).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٥٩٧، ٥٩٨).

والمهم أن الإنسان ينبغي أن يتعوذ بهاتين السورتين.

وذكر الترمذى رَحِمَهُ اللهُ أَنْ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجَانِ وَمَنْ عَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فصار يتعوذ بهما وترك ما سواهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٣) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةُ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾»^(١). وفي رواية أبي داود: «تَشْفَعُ».

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن سورة تبارك التي لا تزيد عن ثلاثين آية وليست في حجم سورة البقرة أو آل عمران أو غيرهما.. إلا أنها شفعت لرجلٍ حتى غُفر له.

وليس ذلك فحسب.. بل أخبر النبي ﷺ في أحاديث أخرى أن سورة تبارك تمنع من عذاب القبر... وأنها خاصمت عن صاحبها الذي يداوم على قراءتها حتى أدخلته الجنة - بفضل الله ﷻ -.

قال ﷺ: «سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»^(٢).

وقال ﷺ: «سورة من القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة.. وهي تبارك»^(٣).

❦ فاحرصوا على ألا تناموا كل ليلة إلا بعد أن تقرأوا سورة تبارك.. فمن مات في تلك الليلة فقد فاز بشفاعتها تلك السورة العظيمة.. فتشفع له ليغفر الله

(١) حسن: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩١).

(٢) صحيح: رواه ابن مردويه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٤٣).

(٣) حسن: رواه الطبراني في الأوسط والضياء وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٦٤٤).

ذنبه وينجيه من عذاب القبر ويدخله الجنة.. فهذا وعد الصادق المصدق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٤) وعن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ بالآيتين مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ»^(١).

❖ والآيتان هما قوله تعالى: ﴿ءَامِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

[البقرة: ٢٨٥-٢٨٦]

❖ وقد وردت أحاديث أخرى في فضل هاتين الآيتين:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ عليه السلام قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتِخَ الْيَوْمَ وَلَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ.. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبَشِّرْ بَنُورَيْنِ أُوتِيْتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ. فَاتَحَةَ الْكِتَابَ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ^(٢).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنْ اللَّهُ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفَى عَامَ أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ لَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٠٨) كتاب المغازى، ومسلم (٨٠٧) كتاب صلاة المسافرين.

قيل: كَفْتَاهُ الْمَكْرُوهُ تِلْكَ اللَّيْلَةُ، وقيل: كَفْتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٦) صلاة المسافرين - النقيض: الصوت.

ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان»^(١).

✽ فالشاهد أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه».. وأطلق كلمة «كفتاه» ولم يُقيدها لتبقى محمولة على كفاية الإنسان من كل خير في الدنيا والآخرة.. وأنها تكفيه من كل شر في الدنيا والآخرة.... قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قيل: معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات، ويحتمل من الجميع^(٢).

فياليتنا نحرص على قراءة هاتين الآيتين كل ليلة سواء كان ذلك قبل النوم أو كان ذلك في صلاة الليل لنفوز بهذا الخير العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٥) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»^(٣).

✽ «لا تجعلوا بيوتكم مقابر» قال العلماء: معنى ذلك لا تتركوا الصلاة فيها - يعني صلوا في بيوتكم - وإنما سمي البيوت في حال عدم الصلاة فيها مقابر؛ لأن المقبرة لا تصح الصلاة فيها كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الأرض كلها مسجدٌ إلا المقبرة والحمام»^(٤) وقال: «لا تُصلُّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»^(٥) فالمقبرة لا تصح فيها صلاة النافلة ولا الفريضة ولا سجدة التلاوة ولا سجدة الشكر، ولا أى شيء من الصلوات إلا صلاة واحدة وهى

(١) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٧٩٩).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٣٢/٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٨٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع

(٢٧٦٧).

(٥) صحيح: رواه مسلم (٩٧٢) كتاب الجنائز.

صلاة الجنازة، إذا صلى على الجنازة في المقبرة فلا بأس سواء كان ذلك قبل الدفن أم بعده ... لكن بعد الدفن لا يُصلى عليها في أوقات النهي ... يعنى: مثلاً لو جئت لحضور جنازة بعد صلاة العصر ووجدت أنهم قد دفنوها فلا تُصلّ عليها؛ لأنه يمكنك أن تصلى في وقتٍ آخر غير وقت النهي كالضحى مثلاً ... وأما إذا جئت وهم لم يدفنها، لكن قد وضعت في الأرض للدفن فلا بأس أن تصلى عليها ولو كان ذلك بعد العصر؛ لأنه في هذه الحال تكون صلاة لها سبب ... والصلاة التي لها سبب ليس فيها وقت نهى ... ثم أخبر ﷺ أن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة ... يعنى إذا قرأت في بيتك سورة البقرة فإن الشيطان يفر منها ولا يقرب البيت ... والسبب أن في سورة البقرة (آية الكرسي) ويدل لهذا الحديث الذي بعده^(١).

❁ ولقد وردت أحاديث أخرى في فضل سورة البقرة.. منها قوله ﷺ: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: سورة البقرة، وسورة آل عمران؛ فإنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ غَيَاتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فَرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقرأوا سورة البقرة؛ فإنَّ أخذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ»^(٢).

قال معاوية بن سلام: بلغني أن البطلة السحرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٦) وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا المُنْذِرِ أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١١٨-١١٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٠٤) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الغياتان مثنى غياية: وهى كل شئ أظل الإنسان فوق رأسه كالسحابة والغاشية ونحوهما. وفرقان أى: قطعتان.

أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فَضْرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»^(١).

❖ ففى هذا الحديث أن النبي ﷺ قال لأبى بن كعب الذى كان النبى ﷺ يوصى أصحابه أن يتعلموا القرآن على يديه.. وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يلقيه بسيد القراء.. فقال له النبى ﷺ: «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟».. فما كان من سيد القراء إلا أن قال له: الله ورسوله أعلم.. وهذا هو قمة الأدب من هذا الصحابى الجليل مع النبى ﷺ.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن أعاد السؤال وقال له: «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟» فما كان من أبى رضى الله عنه إلا أن قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]... أى: آية الكرسي.. فما كان من النبى ﷺ إلا أن ضرب فى صدره فرحاً بنبوغه وذكائه وعلمه وقال له: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ» يعنى هنأه حيث علم أن أعظم آية فى كتاب الله آية الكرسي... لأن هذه الآية مشتملة على عشر صفات من صفات الله ﷻ.

وفى هذا الحديث منقبة عظيمة لأبى، ودليل على كثرة علمه. وفيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه وتكثيتمهم، وجواز مدح الإنسان فى وجهه إذا كان فيه مصلحة ولم يخف عليه إعجاب ونحوه؛ لكمال نفسه ورسوخه فى التقوى.

❖ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّمَا تَمَيَّزَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ بِكَوْنِهَا أَعْظَمَ لِمَا جَمَعَتْ مِنْ أَصُولِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْمُلْكِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ... وَهَذِهِ السَّبْعَةُ أَصُولُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

❖ بل إن آية الكرسي سبب لحفظ الإنسان من كيد الشيطان.. فإذا قرأها لم يصبح للشيطان عليه سلطان.

(١) صحيح: رواه مسلم (٨١٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) مسلم بشرح النووي (١/ ١٣٥-١٣٦) بتصرف.

وذلك لما ورد أن الشيطان لما كان يتمثل في صورة رجل يسرق الطعام الذي أمر النبي ﷺ أبا هريرة أن يحفظه لأنه كان زكاة رمضان... وفي آخر الحديث أخبر أبو هريرة النبي ﷺ أن الشيطان قال له:

إِذَا أُوتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ... فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ».

❁ بل أخبر النبي ﷺ أن قراءة آية الكرسي سبب في دخول الجنة.

قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٧) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَا رَفْعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَى عِيَالٍ، وَبِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَقَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسِعُودٌ» فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سِعُودٌ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَصَدْتُهُ.

فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَقُلْتُ: لَا رَفْعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي، فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَى عِيَالٍ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةً وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، وَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسِعُودٌ».

فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ. فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا رَفْعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ

(١) صحيح: رواه النسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٦٤).

الله ﷻ، وهذا آخر ثلاث مرّات .. إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ، ثم تَعُودُ.

فقال: دعني فَإِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قلتُ: ما هُنَّ؟ قال: إِذَا أُوِيَّتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فقال لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟» فقلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قال: «وما هي؟» قلتُ: قال لِي: إِذَا أُوِيَّتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لِي: لَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَنْ يَقْرُبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ... تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثٍ يَا أَبَا هَرِيرَةَ؟» قلتُ: لَا، قال: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»^(١).

✽ قال أَبُو هَرِيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَكُونَ حَارِسًا عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي تَوْضَعُ فِيهِ زَكَاةُ رَمَضَانَ وَأَنْ أَحْفَظَ هَذَا الْمَكَانَ حَتَّى لَا يَقْتَرِبَ مِنْهُ أَحَدٌ. فرَأَيْتُ رَجُلًا يَسْرِقُ مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتَهُ وَقُلْتُ لَهُ: سَوْفَ أَذْهَبُ بِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَشْكُوكَ إِلَيْهِ.

فقال الرجل: سامحني يَا أَبَا هَرِيرَةَ فَأَنَا فَقِيرٌ وَمُحْتَاجٌ وَعِنْدِي عِيَالٌ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ وَأَنَا رَجُلٌ مَدْيُونٌ.

قال أَبُو هَرِيرَةَ: فَتَرَكْتُهُ وَخَلَيْتُ عَنْهُ .. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ وَجَدْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يَا أَبَا هَرِيرَةَ مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟».

فتعجب أَبُو هَرِيرَةَ .. كَيْفَ عِلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِقِصَّةِ هَذَا الرَّجُلِ؟ .. لَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يُوحَى إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ ... فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُخْبِرَهُ بِهَذَا الْخَبَرِ.

وفي تلك اللحظة تذكّر أَبُو هَرِيرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ: «مَا فَعَلَ أُسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟».

فقال أبو هريرة: يا رسول الله شكنا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله.

أراد أبو هريرة أن يُمسكه ليُسلمه للنبي ﷺ؛ لأنه يسرق من مال الزكاة، وعرف أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «تعاثوا الحدود فيما بينكم، فما بلغني من حدٍّ فقد وجب»^(١)، فمن حال بينه وبين إقامة الحد فلعن الله الشافع والمشفع.

فيجوز أن يتنازل قبل أن يصل أمره إلى النبي ﷺ، فإذا وصل اللص إلى النبي ﷺ فيلزم أن يقيم عليه الحد، ولا يجوز الشفاعة في ذلك.

فكان أبا هريرة وجد أن هذا جاء ليسرق فما تمكن من السرقة، وشكا حاجة وعيالا، فتركه أبو هريرة رَوَاهُ... لكن الوحي جاء إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك، فقال النبي ﷺ لأبي هريرة: «أما إنه قد كذبتك وسيعود»، أي: خدعك وسيرجع مرة ثانية.

قال أبو هريرة: فعلمت أنه سيعود لأن النبي ﷺ أخبرني أنه سيعود.

قال: فجلست في مكانٍ لا يراني فيه أحد.. وفجأة جاء هذا الرجل وأخذ يحثو من الطعام فأخذه وقلت له: سوف أذهب بك إلى رسول الله ﷺ لأشكوك إليه.

فقال الرجل مرة أخرى: سامحني فأنا فقير ومحتاج وعندى عيال في أشد الحاجة إلى الطعام.. ولن أعود مرة أخرى.

قال أبو هريرة: فرحمته وخليت سبيله.. فلما أصبحت وجدت النبي ﷺ يقول: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟».

قال أبو هريرة: يا رسول الله شكنا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله.

(١) حسن: رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٥٤).

فقال ﷺ: «أما إنه قد كذبك وسيعود».

قال أبو هريرة: فرصدته للمرة الثالثة فوجدته يحثو من الطعام فأخذته وقلت له: سوف أذهب بك إلى رسول الله ﷺ ولن أترك هذه المرة.

فأنت في كل مرة تكذب وتقول: لن أعود ومع ذلك تعود في كل مرة.

فقال له الرجل: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها.

قال أبو هريرة: ما هي؟

قال له الرجل: إذا آويت إلى فراشك لتنام فاقرا آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتى تختتم الآية فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح.

قال أبو هريرة: فخليت سبيله.. فلما أصبحت قال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟».

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله! زعم أنه يُعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله.

قال النبي ﷺ: «ما هي؟».

قال أبو هريرة: قال لي: إذا آويت إلى فراشك لتنام فاقرا آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية.. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح.

فقال النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب - أي: أنه ليس من عادته أن يكون صادقاً لكنه كان صادقاً معك هذه المرة -».

ثم قال له النبي ﷺ: «أتدري يا أبا هريرة من الذي يكلمك منذ ثلاث ليالٍ؟».

قلت: لا يا رسول الله.

قال النبي ﷺ: «ذاك شيطان».

- أى: أن الرجل الذى كان يسرق الطعام كان شيطاناً ولكنه كان يأتى إلى أبى هريرة فى صورة رجل.

الدروس المستفادة:

(١) أن المسلم إذا كان كلّفه أحدٌ بحفظ أى شىء فلا بد أن يكون أميناً ولا يسمح لأحدٍ بأن يسرق شيئاً منها.

(٢) أن المسلم لا بد أن يصدق أى كلمة تخرج من فم الرسول ﷺ... ولقد رأينا كيف أن أبا هريرة لما أخبره النبي ﷺ بأن الرجل سوف يعود... قال: فعلمت أنه سيعود لأن النبي ﷺ قال ذلك.

(٣) أن المؤمن قد يتعلم بعض الأشياء النافعة من غير المؤمن... فقد رأينا كيف أن أبا هريرة تعلم من الشيطان أن قراءة آية الكرسي قبل النوم تحفظ العبد من الشيطان.

(٤) أن المسلم ينبغي أن يحافظ على قراءة آية الكرسي عند النوم ليحفظه الله من كيد الشيطان فلا يقربه شيطان حتى يصبح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٨) وعن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ».

وفى رواية: «مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْكَهْفِ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين.

قال الشيخ الألبانى: الرواية الأخرى شاذة والمحفوظ الرواية الأولى كما حققته فى «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥٨٢)، ويشهد لها حديث النواس بن سميان الآتى عند المصنف برقم (١٨١٧)، فإن فيه «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف» اهـ.

ﷺ أخبر أنه مَنْ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف أو من آخرها عَصِمَ من الدجال ... والدجال رجلٌ كافرٌ يُبعثُ في آخر الزمان يدعى النبوة أولاً ثم يدعى أنه إله والعياذ بالله ... وفتنته أعظم فتنة تكون على الأرض منذ خلق آدم ﷺ إلى قيام الساعة كما أخبر بذلك النبي ﷺ وقال: «إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَأَمْرُ حَاجِبٍ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١) وقد حذر النبي ﷺ من فتنته وما من نبي من الأنبياء إلا أُنذر قومه حتى يستعد بنو آدم لهذه الفتنة العظيمة ... وإن كان من المعلوم أنه لا يأتي إلا في آخر الزمان لكن لأجل التنبيه لعظم فتنته وأنها كبيرة عظيمة لا ينجو منها إلا مَنْ أنجاه الله ﷻ.... وهذا الدجال يجعل الله على يديه آيات وخوارق فتنة للناس ... منها أنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ... فيأتى إلى القوم ليس في أرضهم رعى ومواشيهم ضِعَافٌ عِجَافٌ فيدعوهم ويؤمنيهم فيتبعونه فيأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ثم تروح عليهم مواشيهم وهى أكثر ما تكون لبناً وأوفر ما تكون لحماً.

ثم يأتى إلى آخرين فيدعوهم ولكنهم ينكرونه فيصباحون مُقفرين ليس في أرضهم نبات.... هل تجدون أعظم من هذه الفتنة لاسيما في البادية ... فيتبعه أناسٌ كثيرون ... فمن تَبِعَهُ أدخله جنته وهى في الحقيقة نار ... وَمَنْ أَنْكَرَهُ أدخله ناره وهى في الحقيقة جنةٌ وماءٌ عذب ... ولكن الناس ليس لهم إلا الظاهر إلا أن الله سبحانه وتعالى بيّن لنا آياته: أنه كاذب ... لما أخبرنا النبي ﷺ أن هذا الرجل مكتوبٌ بين عينيه كافرٌ يقرؤها كل مؤمن حتى الذى لا يستطيع القراءة ويعمى عنها كل منافق ... كما أن الإنسان في القبر إذا كان مؤمناً أجاب بالصواب، وقال: ربى الله ودينى الإسلام ونبى محمد ﷺ.. وإذا كان منافقاً ولو كان قارئاً لم يُجب

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

والعياذ بالله ... وأعطانا نبينا ﷺ آية أيضًا بيّنة وهي أنه أعور ليس له إلا عين واحدة... وربنا (جل وعلا) ليس بأعور مُنزَّة عن كل عيب ونقص ... فمن وُفِّق سَلِمَ من فتنته ونجا... ويمكن هذا الدجال الخبيث في الأرض أربعين يومًا ... أول يوم كسنة يعنى اثني عشر شهرًا واليوم الثاني كشهْر - ثلاثون يومًا - والثالث كالأسبوع سبعة أيام وبقية الأيام كأيامنا... فيمكث هذه المدة ثم ينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقتل هذا الدجال ... يسلطه الله ﷻ عليه فيقتله ... ومن أجل عِظَم فتنته أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ منه في كل صلاة فقال: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(١)؛ لأن فتنته عظيمة فينبغي لنا أن نستعيذ بالله ﷻ بقلب صادق من فتنة هذا المسيح الدجال ... ثم إنه أيضًا من أسباب الوقاية من فتنته أن مَنْ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف وقرأهن عليه عُصِمَ من فتنته^(٢).

❁ بل ينبغي أن تداوم أيضًا على قراءة سورة الكهف في كل ليلة جمعة، أو كل يوم جمعة، وإذا استطعت أن تقرأها ليلة الجمعة يوم الخميس بعد المغرب فافعل، وإذا استطعت أن تقرأها بعد فجر يوم الجمعة في أى وقتٍ لكن قبل غروب الشمس فافعل ذلك، فقد جاء عن النبي ﷺ أن الذى يقرأها يجعل الله ﷻ له نورًا عظيمًا جدًا من مكانه إلى بيت الله الحرام... إنه نورٌ عظيم جدًا يجعله الله لك ﷻ، وأقل نور ينفعك، فكيف بمثل هذا النور إذا جئت به في ظلمات يوم القيامة، وأنت أمامك نور من مكانك إلى بيت الله الحرام؟! كيف تسير يوم القيامة وأمامك هذا النور! تكون آمنًا يوم القيامة، ولا تحتاج أن تقول

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمته الله (٣/ ١٢٦-١٢٧) بتصرف.

لأحد: أعطنى نوراً، فقد أعطاك الله ﷻ بفضل هذه السورة النور العظيم... هذا فضل قراءتها فى يوم الجمعة أو ليلة الجمعة.

قال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ»^(١).

وقال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٢٩) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ ﷺ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحِ الْيَوْمَ وَلَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا، لَمْ يُوتِيَتْهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ. فَاتَحَةَ الْكِتَابَ، وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ»^(٣).

❁ وفى هذا الحديث يحكى ابن عباس رضي الله عنهما أن جبريل ﷺ كان قاعداً عند النبي ﷺ فسمع صوتاً عالياً من السماء.. فرفع رأسه وقال للنبي ﷺ الذى كان متعجباً من ذلك الصوت الآتى من السماء.. فقال له جبريل ﷺ: هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليوم ولم يُفْتَحْ قط إلا اليوم... وفجأة نزل ملكٌ من ذلك الباب فقال جبريل للنبي ﷺ: «هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لَمْ يَنْزِلْ قط إلا اليوم..» فسَلَّمَ ذلك المَلَكُ على النبي ﷺ وقال للنبي ﷺ: «أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُوتِيَتْهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتَحَةَ الْكِتَابَ وَخَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ».

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقى فى شعب الإيمان، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٧١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٠٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

«النَّقِيطُ»: الصَّوْتُ.

إذا: هذا الملك ما نزل بالقرآن... فالذى ينزل بالقرآن على النبي ﷺ هو جبريل، وقد نزلت الفاتحة، ونزلت سورة البقرة... ولكن هذا نزل بالبشارة، فقد نزل يبشر النبي ﷺ بأن معك أشياء عظيمة فاعرف فضل هذه الأشياء.

قال: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يُؤْتِهما نبيُّ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف منها إلا أُعْطِيته»، لم تقرأ بحرف منها إلا وتُعطى الفضل وتُعطى ما سأله ربك سبحانه.

ولذلك جاء حديث عن النبي ﷺ في فاتحة الكتاب أنه: إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [الفاتحة: ٧] قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

إذا: أنت تقرأ فاتحة الكتاب والله يجيبك، ويعطيك سبحانه وتعالى.

كذلك آخر سورة البقرة: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ [البقرة: ٢٨٥ - ٢٨٦].

سبع جُمَل دعائية ما يدعو بهن مؤمن موقناً مؤمناً إلا استجاب الله له وهذه ميزة وفضلٌ عظيم... نسأل الله تعالى أن يعفو عنا وعنكم وأن ينصرنا على القوم الكافرين.

(١٨٤) باب استحباب الاجتماع على القراءة

(١٠٣٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ بِهِ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَخَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(١).

❁ قيل: «الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضاء.

❁ فإذا ذكرت الله سبحانه وتعالى أكرمك بأفضالٍ ثلاث:

الأولى: جعلك ذاكرًا له بلسانك وقلبك ولولا فضله لم تكن أهلاً لأن تذكره سبحانه وتعالى.

والثانية: جعلك محبوباً ... فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله فإذا أحبه الله حبه إلى خلقه ... وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغضه إلى خلقه.

والثالثة: جعلك مذكوراً عنده ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ❁ فتمم نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً.. ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يُظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعاً ويقصد به وجه الله سبحانه وتعالى^(٢).

❁ وأعلى أنواع الذكر أن تتعاشق بقلبك ولسانك وجوارحك مع كتاب الله

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) ابن الإسلام (ص ٩٣).

عَزَّوَجَلَّ... فإذا اجتمع قومٌ على تلاوة كتاب الله كما يحدث الآن في حلقات التحفيظ والتلاوة في المساجد فإن الله يُكرمهم بأربعة أشياء:

نزلت عليهم السكينة - وهي الرحمة أو الطمأنينة - وغشيتهم الرحمة وحفَّتْهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥) باب فضل الوضوء

❁ إن للاجتماع على تلاوة كتاب الله العزيز فضلٌ عظيم، وثوابٌ جزيل... وقد رتب الله عليه من الأجر ما يجعل النفوس المؤمنة الصادقة تشاق إليه، وتبذل من أجل الحصول عليه الغالى والنفيس... كيف لا وملائكة الرحمن (جل جلاله) تُخالطهم وتُحَفُّهم بأجنحتهم.

وإن فضل الوضوء لا يقل عن فضل العبادة الأولى.. ولو كان للوضوء فضيلة أو فضيلتان لكانتا كافيتين للترغيب فيه.. كيف وقد رتب الله ورسوله ﷺ عليه من الفضائل الشيء الكثير... فهو العلامة البارزة الظاهرة التى يعرف بها رسول الله ﷺ أمته من بين الأمم يوم القيامة.

❁ قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

الوضوء: فى اللغة العربية مأخوذ من الوضاء، وهى الحُسن والنظافة.

وأما فى الشرع فهو: تطهير الأعضاء الأربعة على صفة مخصوصة.

والأعضاء الأربعة هى: الوجه واليدان والرأس والرجلان.

والوضوء من نعمة الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة؛ حيث أمرهم به

ورتب عليه الثواب الذى سيذكر فى هذا الباب إن شاء الله.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية.

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

فانتبه وارعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تُنهى عنه، وإما خبر صادق تنتفع به ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أى: إذا أردتم القيام إلى الصلاة - فريضة أو نافلة - ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾: ولم يذكر الله تعالى غسل الكفين؛ لأنه سنة وليس بواجب، والوجه من الأذن إلى الأذن عرضاً، ومن منحني الجبهة إلى أسفل اللحية طولاً، ويدخل فيه المضمضة في الفم والاستنشاق في الأنف، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، والمرفق هو المفصل الذى بين الذراع والعُصْد، وهو داخل في الغسل؛ لأن النبي ﷺ كان إذا غَسَلَ يديه شرع في العُصْد، ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الرأس يُمسح ولا يجب غسله، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده؛ لأن الرأس فيه شعر فلو فرض غسله لكان فيه مشقة على الناس، ولجرى الماء على الثياب، وللحق الناس مشقة في أيام الشتاء، ولكن من رحمة الله أن الرأس يُمسح ولا يُغسل... ومن الرأس الأذنان يُمسحان أيضاً؛ لأن النبي ﷺ كان يمسح بأذنيه، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ يعنى: واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين... والكعبان هما: العظامان الناتئان أسفل الساق، وهما داخلتان في الغسل...

هذه أربعة أعضاء، وهذه هى أعضاء الوضوء... ثم قال ﷺ: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾، وفي الآية الثانية: ﴿تَغْتَسِلُوا﴾ يعنى إذا كان الإنسان عليه جنابة وجب عليه أن يطهر جميع بدنه: من رأسه إلى أخمص قدميه... ومنه المضمضة والاستنشاق فالمضمضة والاستنشاق واجبتان في الوضوء وكذلك الغسل.

والجنب: هو الذى حصلت عليه جنابة... والجنابة: إما إنزال المني بشهوة وإما جماع - وإن لم يُنزل - فإذا جامع الإنسان زوجته وجب عليه أن يغتسل سواء أنزل أم لم يُنزل... وإذا أنزل وجب عليه غسل سواء جامع أو لم يُجامع... حتى لو فكر وأنزل وجب عليه الغسل ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ

جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴿١﴾ :
 يعنى أن الإنسان إذا وجب عليه الوضوء أو الغسل ولم يجد ماءً .. أو كان مريضاً
 يتضرر باستعمال الماء فإنه يتيمم: وذلك بأن يضرب الأرض بكفّيه ويمسح
 وجهه وكفّيه، ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ
 عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعنى: فيما فرض علينا، لم يُرد أن يُحرّجنا ويُلحق بنا
 المشقة بل هو أرحم بنا من أنفسنا وأولادنا وأمهاتنا، والدليل على أنه أرحم بنا
 من أنفسنا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ يوصيك ألا تقتل نفسك ... هو
 أرحم بك من نفسك، فهو لا يريد منا بهذا الفرض أن يشق علينا أو يلحقنا
 الحرج، ولكن يريد ليظهركم ... هذا الذى أراد الله منا بالوضوء والغسل أن
 يظهر ظواهرنا بالماء وبواطننا بالتوحيد... ولهذا يُسنُّ إذا فرغت من الوضوء أن
 تشهد وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
 ورسوله، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين. ﴿وَلْيَتَمَنَّ نِعْمَتَهُ
 عَلَيْكُمْ﴾ : وذلك بهذا الوضوء الذى يحصل به تكفير السيئات ورفعة
 الدرجات... فإن مَنْ تَوَضَّأَ وَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: «أشهد أن لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين
 واجعلنى من المتطهرين، فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(١).
 وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ : أى: لأجل أن تشكروا الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه.
 فالواجب على المرء أن يشكر الله على نعمه؛ لأن نعم الله لا تُحصى ولا
 سيما النعم الدينية؛ لأن بها سعادة الدنيا والآخرة.

والشكر هو: القيام بطاعة الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، باللسان والأركان

(١) الحديث أخرجه مسلم (٢٣٤)، من حديث عمر، بدون زيادة «اللهم اجعلنى من التوابين...»، وأخرجه
 بالزيادة الترمذى وغيره، وصحح هذه الزيادة العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦١٦٧).

والقلوب... نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر نعمته وحسن عبادته إنه على كل شيء قدير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ» فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ، فَلْيَفْعَلْ^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ»... والغُرَّة: هي البياض الذي يكون في جبهة الفرس... والتحجيل: هو بياض في قوائم الفرس. فلو كنت تمتلك خيلاً كثيراً.. فيها الأبيض والأسود والأحمر.. ومن بينها فرسٌ أسود فيه بياض في الجبهة والقوائم.. فهل يمكن أن يخفى عليك بين سائر الخيل؟ كلا.

فالنبي ﷺ لما سأله: (كيف تعرف أمتك يوم القيامة)، أي: من بين الأمم الكثيرة، فقال: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ»، أي: تظهر آثار الوضوء يوم القيامة على الجباه وعلى الأيدي والأرجل.

فأنت حين تتوضأ تغسل وجهك فيأتي فيه نور، وتغسل يديك إلى مرفقيك فيأتي فيهما نور، وتغسل الرجلين فيأتي فيهما نور، وتمسح برأسك فيأتي فيه نور يوم القيامة... فهذا الإنسان حتى لو دخل النار - والعياذ بالله - بسبب معصية، وكان مواظباً على الصلاة في الدنيا، تأكل منه النار كل شيء إلا آثار الوضوء.

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٣٠-١٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٤٦) كتاب الطهارة.

فتلك علامة تتميز بها أمة النبي محمد ﷺ على سائر الأمم في ذلك اليوم المشهود.. وهذا دليلٌ على عِظَم فضل الوضوء.. وأن أعضاء الوضوء تأتي يوم القيامة بيضاء ناصعة كالشمس من شدة النور.

«فمن استطاع منكم أن يطيل عُمرته فليفعل» هذه الجملة ليست من كلام النبي ﷺ بل هي من كلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وليست بصحيحة من جهة الحكم الشرعي... لأن ظاهرها أن الإنسان يمكنه أن يطيل عُمرته. يعنى: يطيل وجهه وهذا غير ممكن، فالوجه محدد من الأذن إلى الأذن، ومن منحى الجبهة إلى أسفل اللحية، وهذا مما يدل على أن هذه الجملة من كلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالها اجتهداً، كما أشار إلى ذلك ابن القيم في النونية قال:

وأبو هريرة قال ذا من كيسه فغدا يُميزه أولو العرفان
وإطالة العُمرات ليس بممكنٍ أيضاً وهذا واضح التبيان

لكن على كل حال ما فرضه الله علينا أن نغسل الوجوه والأيدي إلى المرافق، والأرجل إلى الكعبين... هذا هو منتهى الوضوء، وكفى فخراً أن يأتي الناس يوم القيامة وهذه المواضع تتلأأ نوراً من أجسادهم من أثر الوضوء، ففي هذا دليل على فضيلة الوضوء وعلى إثبات البعث.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَارْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَلَا حَرَجَ عَلَى الَّذِينَ امْتَنَعُوا أَنْ يَغْسِلُوا رُءُوسَهُمْ فَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا رُءُوسَكُمْ وَمَسَحُوا بِأَيْدِيكُمْ فَالْخُلَّةُ مِنَ اللَّهِ أَقْرَبَ أَفْ تَبْلُغُ الْحِلْيَةَ مِنْ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ﴾^(١).

(١٠٣٢) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ خَلِيلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت خليلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... والخليل أرفع من الحبيب.. فالخلة هي أرفع درجات المحبة.

فقال: سمعت خليلي يقول: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةَ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ».

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٠) كتاب الطهارة.

فالمرأة في الدنيا هي التي تتحلى بالذهب واللؤلؤ لتزداد جمالاً في عين زوجها ومحارمها.. أما الرجل فحرامٌ عليه الذهب والحديد أو أن يتزين بزينة تختص بالنساء.. فإذا كان يوم القيامة ودخل الجنة وكان من أهل الوضوء والصلاة.. فهناك يتحلى الرجل وتحلى المرأة... يلبس الرجال والنساء حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ ﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾... ﴿يُكَوِّنُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا﴾ فهم يُحَلَّون بهذه الأنواع الثلاثة... يلبس الرجل والمرأة في الجنة حُلًى من هذه الأنواع الثلاثة: ذهب وفضة ولؤلؤ.

وتكون الحلية هناك مُرتبة ومتداخلة ومتناسقة بصورة تزيد جمالها جمالاً وتزيد جمال صاحبها حسناً وبهاءً.. فيوم القيامة تبلغ الحلية التي يتحلى بها المؤمن حيث يبلغ الوضوء... فكل الذراع يكون عليه حلية من الذهب والفضة واللؤلؤ للرجال والنساء.. وهذا دليلٌ على فضل الوضوء حيث تكون مواضع الوضوء يوم القيامة مُزينة بتلك الحلية التي يُحلى بها المؤمن في الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣٣) وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ»^(١).
 ﴿فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ» وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِحْسَانَ مَطْلُوبٌ فِي الْوُضُوءِ.. وَلَيْسَ الْوُضُوءُ فَحَسَبَ.. بَلْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» فَمَنْ تَوَضَّأَ وَأَحْسَنَ فِي الْوُضُوءِ وَأَسْبَغَ مَوَاضِعَ الْوُضُوءِ بِالْمَاءِ نَالَ هَذَا الثَّوَابَ الْعَظِيمَ «خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ».. فَالْوُضُوءُ يَكُونُ سَبَبًا لَتَكْفِيرِ الْخَطَايَا وَخُرُوجِهَا حَتَّى مِنْ أَدْقِ مَكَانٍ وَهُوَ مَا تَحْتَ الْأَظْفَارِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥) كتاب الطهارة.

وفي الحقيقة أنه كلما سمعنا تلك الأحاديث كلما تشوق المؤمن للمحافظة على الوضوء.. ولا أحد يستغنى عن الوضوء، فإذا استطعت أن تكون دائماً على وضوء فهذا أفضل؛ لأن النبي ﷺ كان يحب أن يذكر الله وهو على طهارة، وليس هذا فرضاً واجباً إلا عند الصلوات أو عند قراءة القرآن من المصحف، ولكن مع ذلك كان النبي ﷺ يحب أن يكون على وضوء عند ذكره الله... ومرة لقيه إنسان في الطريق فسلم عليه فلم يرد عليه السلام حتى تيمم، وقال: «كرهت أن أذكر الله على غير وضوء»، ﷺ.

فاحرص على أن تكون على وضوء دائماً لتكون مستعداً لأداء العبادات.. بل إن الوضوء نفسه عبادة يكفر الله بها الذنوب والخطايا.. ولذا فإنه لا بد أن تستحضر وأنت تتوضأ أنك تتقرب إلى الله ﷻ وتستحضر أنك مثاب على ذلك وأن خطاياك ستُغفر وتخرج مع كل وضوء..

فإذا استحضرت ذلك فلا شك أنك ستُحسن الوضوء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣٤) وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأاً مثل وضوئي هذا، ثم قال: «مَنْ تَوَضَّأَ هَكَذَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً»^(١).

❁ ففي رواية أخرى لهذا الحديث أن عثمان رضي الله عنه أتى بماء فتوضأ أمام بعض الصحابة.

فغسل كفيه ثلاثاً، وتمضمض، واستنشق ثلاثاً، بثلاث غرفات، وغسل وجهه ثلاثاً، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً، ومسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، ومسح أذنيه، وغسل رجليه ثلاثاً إلى الكعبين. ثم قال: قال النبي ﷺ:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٩) كتاب الطهارة.

«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ بِهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وهذا شيءٌ يسير.. وذلك بأن يتوضأ المسلم فيُحسن الوضوء.. وإحسان الوضوء يكون بإسباغ جميع مواضع الوضوء.. وليس بالإسراف في الماء وإنما باستعمال القدر الذي يوصل الماء إلى جميع المواضع..

فإذا فعل ذلك غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه.. فالإنسان ما بين ذنوب يريد مغفرتها ومحوها.. وبين درجات يريد الوصول إليها.. فإذا توضأ فأحسن الوضوء كفرَّ الله خطاياهِ وذنوبه ورفعهُ درجاتٍ بفضلِهِ ورحمته.

وفي هذا الحديث قال: «وَكَانَتْ صَلَاتُهُ وَمَشْيُهُ إِلَى الْمَسْجِدِ نَافِلَةً» يعنى: زائد على مغفرة الذنوب، وليس معنى نافلة يعنى صلاة تطوع...

قد يكون ذاهباً لأداء صلاة الفريضة... ولكن هنا كلمة نافلة: يعنى شيئاً زائداً على مغفرة الذنوب؛ لأن ذنوبه غُفِرَتْ بوضوئه وصلاته الأولى، فيكون مشيه للمسجد وصلاته (ولو فريضة) نافلة أى زيادة على مغفرة الذنوب... لأن النفل فى اللغة معناه الزيادة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ فَتَهِجَدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾.

وأخذ العلماء من ذلك أنه يُستحب لمن أسبغ الوضوء أن يصلى ركعتين، وتُسَمَّى سنة الوضوء، سواء فى الصباح أو المساء، فى الليل أو النهار، بعد الفجر أو بعد العصر؛ لأنها سنة لها سبب... فإذا توضأ الإنسان نحو وضوء الرسول ﷺ فإنه يصلى ركعتين يُغفر له ما تقدم من ذنبه.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

وَقَدْ يُقَالُ: إِذَا كَفَّرَ الْوُضُوءُ فَمَاذَا تُكْفِّرُ الصَّلَاةُ؟ وَإِذَا كَفَّرَتِ الصَّلَاةُ فَمَاذَا تُكْفِّرُ الْجُمُعَاتُ وَرَمَضَانُ؟ وَكَذَلِكَ صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ كَفَّارَةٌ سِتِّينَ وَيَوْمُ عَاشُورَاءَ كَفَّارَةٌ سَنَةٍ.. وَإِذَا وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

وَالْجَوَابُ: مَا أَجَابَهُ الْعُلَمَاءُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ صَالِحٌ لِلتَّكْفِيرِ فَإِنْ وَجَدَ مَا يُكْفِّرُهُ مِنَ الصَّغَائِرِ كَفَّرَهُ وَإِنْ لَمْ يُصَادِفْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً كُتِبَتْ بِهِ حَسَنَاتٌ وَرُفِعَتْ بِهِ دَرَجَاتٌ .. وَإِنْ صَادَفَتْ كَبِيرَةً أَوْ كَبَائِرَ وَلَمْ يُصَادِفْ صَغِيرَةً رَجَوْنَا أَنْ يُخَفَّفَ مِنَ الْكَبَائِرِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣٥) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ .. أَوِ الْمُؤْمِنُ .. فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ .. فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ، خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ .. فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ، خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣١) فأرجو الرجوع إليه ... بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدَ» قَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهُمُ بُهُمْ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ»^(٣).

❁ لقد كان النبي ﷺ في بداية الأمر قد نهى أصحابه عن زيارة القبور .. وذلك

(١) مسلم بشرح النووي (١٤٢/٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٤) كتاب الطهارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٤٩) كتاب الطهارة.

لأن الناس كانوا حديثي عهدٍ بشركٍ فخشى أن تتعلق قلوبهم بالقبور ويفتنوا بها..
 فنهى عن الزيارة.. فلما استقر الإيمان في قلوبهم أذن لهم في زيارة القبور فقال ﷺ:
 «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الموت»^(١) وفي رواية «تذكر
 الآخرة» فأمر بزيارتها وبيّن الحكمة العظيمة من هذه الزيارة وأنها تذكّر الإنسان
 الذى على ظهر الأرض أنه اليوم على ظهرها وغداً في بطنها، ولا يدري متى
 يكون هذا؟ قد يُصبح الإنسان على ظهر الأرض ويمسى في بطنها، وقد يمسى
 على ظهر الأرض ويُصبح في بطنها، فكان في زيارة المقابر تذكير بالموت
 والآخرة... فالإنسان عندما يذهب إلى المقابر يرى أمه وأباه وعمه وأخاه
 فيتذكر أنهم كانوا معه بالأمس يأكلون معه ويتنعمون معه.. وها هم الآن في
 قبورهم مُرتَهَنون بأعمالهم التى عملوها... ويتذكر أنه عمّا قريب سيكون معهم
 فى ذلك القبر فيكون ذلك سبباً فى اجتهاده فى طاعة الله وبُعدّه عن معصية الله
 ﷻ وأن يتذكر آخرته وتلك اللحظة الحاسمة التى يقف فيها بين يدى الله ﷻ
 ليسأله عن كل صغيرة وكبيرة عملها فى الدنيا.

ولهذا كان النبى ﷺ يخرج هو بنفسه إلى البقيع يزور أهل البقيع، ويُسلم عليهم
 ﷺ ويدعو لهم: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين». يعنى: يا أهل دار قوم مؤمنين...
 والظاهر - والله أعلم - أنه يُسلم عليهم ويسمعونه، إذ لا فائدة من خطابٍ لا
 يسمعه المُخاطَب؛ لكنهم لا يستجيبون؛ لأنهم فى قبورهم... فيسلم عليهم: «السلام
 عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» وصدق النبى ﷺ ما من حى
 إلا سيلحق الميت بمشيئة الله ﷻ... ولذا يقول: «وإنا إن شاء الله بكم للاحقون».

واختلف العلماء - رحمهم الله - لماذا قال: وإنا إن شاء الله بكم للاحقون
 وهو أمرٌ معلومٌ مُتيقنٌ؟ والصحيح أنه لا إشكال فى هذا فإن معنى التعليق هنا:
 أننا إذا لحقنا بكم فإنما نلحق بمشيئة الله... متى شاء لحقنا بكم؛ لأن الأمر أمره،

وَالْمُلْكُ مُلْكُهُ، هُوَ الَّذِي يَدْبِرُ عَزَّوَجَلَّ مَا شَاءَ فِيمَنْ شَاءَ... أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ:
﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ﴾؟ مع أنهم سيدخلونه.

«وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، أى: كُلُّنا ميتون، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ للنبي ﷺ:
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، فلا أحد سيُخلد في هذه الدنيا، فالكل
سيموت... فقال النبي ﷺ وهو عند المقابر وقد سلم على الأموات: «وددت أنا
قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟!» فالصحابه المؤمنون
الأتقياء الأبرياء الأنقياء الذين هم قلوبهم مثل مصابيح الدُّجَى ﷺ يقولون
للنبي ﷺ: أولسنا إخوانك؟ فيقول النبي ﷺ: «أنتم أصحابي»، - أخص من
الإخوان - فالصاحب أخٌ وزيادة، والأخ أخٌ بلا مصاحبة... قال: «أنتم أصحابي»
- يعنى: فأنتم أخص منهم، وهم: - الصحابة - إخوانٌ للرسول ﷺ وأصحابٌ
له.. أما مَنْ جاءوا بعدهم من المؤمنين فهم إخوانه وليسوا أصحابه.

«وددت أنا لقينا إخواننا» قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟! قال: «أنتم
أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»، فكأنه يريد أن يُبين لهم مَنْ يعنى بذلك،
وإلا فإن هؤلاء الأصحاب إخوانه... والله يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾
[الحجرات: ١٠]، فهم إخوة، ولكن الذين يعينهم النبي ﷺ في هذا الحديث هم مَنْ
لم يأتوا بعد.. بل مَنْ لم يُولدوا بعد من القرون التى تاتى بعد ذلك، «قالوا: كيف
تعرف مَنْ لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟!»، أى: أنت تعرفنا لكونك رأيتنا،
لكن كيف ستعرف مَنْ يأتون بعدنا إلى يوم القيامة؟ فقال النبي ﷺ: «أرأيتم لو أن
رجلاً له خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بين ظهري خيلٌ دُهمٌ بهمٍ ألا يعرف خيله؟»، أى: لو أن
رجلاً خيوله كلها سوداء، وله خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ ضمن هذه الخيول السوداء...
والغُرُّ المُحَجَّلَةُ: هى التى فى رأسها ويديها بياض... ألا يستطيع أن يميز بين
هؤلاء وهؤلاء؟ «فقالوا: بلى يا رسول الله! قال: فإنهم يأتون غُرًّا مُحَجَّلِينَ من
الوضوء»، فالنور الذى يكون للمؤمن يوم القيامة هو بسبب الوضوء.

قال: «وأنا فرطهم على الحوض»، أى: أنا سابقهم على الحوض الذى يأتى ماؤه من نهر الكوثر... قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝۱﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ وَانْحَرَّ ۝۲﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

والكوثر: هو نهرٌ عظيم .. ماؤه أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من اللبن، وآنيته كعدد نجوم السماء، أى: لا أحد يستطيع أن يعدها ... لا علماء الفلك ولا غيرهم، فيشرب منه المؤمنون، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً... نسأل الله ﷻ أن يسقينا من حوضه ﷺ فى أول من يسقيهم النبى ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣٧) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يَمْحُو اللهُ به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إِسْبَاغُ الوُضُوءِ على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٣٨) وعن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ»^(٢).

وفى الباب حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه السابق فى آخر باب الرجاء، وهو حديث عظيم، مُشْتَمِلٌ عَلَى جُمْلَةٍ من الخيرات.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٦) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

(١٠٣٩) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ الوضوء - ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»^(١).

(١٠٣٩ أ) وزاد الترمذي: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين». ففى هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه ما من أحد من أهل الإيمان والتوحيد يتوضأ فيسبغ الوضوء ويحسن فيه ثم يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ» فتلك كلمة التوحيد بأن يشهد العبد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ. فالوضوء من الإيمان، والشهادة أعظم أركان الإسلام.. فأنت تتوضأ وتذكر الله ﷻ بهذا القول، ثم تقول: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»، كما في الرواية الأخرى.. فتسأل الله وتدعوه أن يرزقك التوبة ويجعلك من المتطهرين.

وقوله: «اللهم اجعلني من التوابين»، مناسب للوضوء، فهو يكفر الخطايا، فكأنه يقول يا رب! كما أسقطت عني الخطايا فاجعلني دائماً أتوب إليك من المعاصي إذا وقعت فيها، وتب عليّ واجعلني من عبادك المتطهرين... والذي يقول هذا الدعاء ثوابه كما قال النبي ﷺ: «فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»، أى: لم يبق بينك وبين أن تدخل الجنة إلا أن تموت.

فالوضوء عظيم، والصلاة عظيمة، والعمل لله ﷻ أعظم الأشياء قيمة في حياة الإنسان المؤمن.. فليحرص المؤمن على أن يرضى الله سبحانه بطاعته وحسن عبادته... نسأل الله ﷻ أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٤) كتاب الطهارة.

❦ قال بعض العلماء: اعلم أنك إذا توضأت، فإنك ستزور ربك **عز وجل**، فعليك أن تتوب إليه، لأنه جعل الغسل بالماء مقدمة للغسل من الذنوب.. فإذا تمضمضت فطهر لسانك من الكذب والغيبة والنميمة.. فإنما خلق لسانك لذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، والتسبيح والتحميد والتهليل.

وإذا استنشقت فطهر أنفك من أن تشم محرماً.. وإذا طهرت وجهك، فطهر نظرك من ثلاث:

- (١) من أن تنظر إلى مُحرم.
 - (٢) أو تنظر إلى مسلم بعين الاحتقار.
 - (٣) أو تنظر إلى عيب أحد... فكلك عيوب.. وقد خلقت العينان لتهتدى بهما إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ولتستعين بهما في الحاجات، وتنظر بهما إلى عجائب ملكوت الأرض والسموات فتعبر بما تراه من الآيات.
- وإذا غسلت يديك وطهرتهما بالماء، فطهرهما من أن تؤذى بهما مسلماً.. أو تتناول بهما محرماً.. أو تكتب بهما ما يؤذى مسلماً.
- فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.
- وإذا مسحت رأسك، فاعلم أن مسحه امتثال لأمر الله، والخضوع لجلاله، والتذلل بين يديه.. وإظهار الافتقار إليه.
- وإذا غسلت رجلك وطهرتها، فطهرها من المشى إلى ما حرم الله، فما من عبد يخطو خطوة إلا سُئل عنها ماذا أراد بها^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) منهاج الصالحين (ص ١٣٤، ١٣٥) أ. محمد بحيرى.

(١٨٦) باب فضل الأذان

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن الأذان هو الإعلام بالصلاة أى: بدخول وقتها. والأذان المشروع: هو الذى يؤذن للصلوات الخمس.. ولقد فُرض فى السنة الثانية من الهجرة، بعد أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة شُرع الأذان.

واختلف الصحابة حين تشاوروا كيف نعلم بدخول وقت الصلاة؟ فقال بعضهم: نوقد ناراً عظيمة ليعرف الناس أن الوقت قد دخل، وقال بعضهم: بل نضرب بالناقوس - الناقوس الذى يشبه الجرس - وهو الذى ينادى به النصرارى لصلواتهم، وقال آخرون: بل ننفع بالبوق كما يفعل اليهود... وكل هذا كرهه النبى ﷺ، فهرع رجل من الصحابة - وهو: عبد الله بن زيد - بعد أن رأى رجلاً فى المنام وفى يده ناقوس فقال له: أتبيع هذا؟ قال: وماذا تصنع به؟ قال: أعلمُ به للصلاة، قال: أفلا أدلك على خيرٍ من ذلك، قال: بلى. فقرأ عليه الأذان كاملاً، وقرأ عليه الإقامة كاملة.. فلما أصبح غدا إلى النبى ﷺ وأخبره بالخبر، فقال النبى ﷺ: «إن هذا رؤيا حق» ثم علّمه بلالاً فأذن به، هذا الأذان المعروف.

ولما كان فى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وكثر الناس جعل أذاناً أولاً للجمعة قبل الأذان الثانى الذى هو عند حضور الإمام، فكان فى يوم الجمعة أذانان، وفى رمضان أمر النبى ﷺ بلالاً أن يؤذن فى آخر الليل إذا قرب وقت السحور، وقال: «إن بلالاً يؤذن بليلٍ ليوقظ نائمكم وليُرجع قائمكم فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر»^(١) فصار عندنا الفجر لها أذان أول، ولكن ليست لها بل لأجل الإعلان أن وقت السحور قد حَلَّ... والجمعة لها أذان أول من سنة عثمان رضي الله عنه وهو أحد الخلفاء الراشدين الذين أُمرونا باتباع سنتهم.

(١) صحيح: رواه النسائى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٤١) وأصله فى الصحيحين.

قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»^(١) وبإجماع المسلمين أن عثمان رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين.

❖ وقد يقول قائل: لماذا لم يشرعه الرسول ﷺ والجمعة موجودة في عهده؟
والجواب: أن السبب هو أن الناس في عهد عثمان كثروا واتسعت المدينة واحتاجوا إلى أذان يُنبههم يكون قبل الأذان الأخير الذي يكون عند مجيء الإمام... فكان من الحكمة أن يكون هذا الأذان الأول... وعثمان رضي الله عنه بنى على أساس... فيها هو النبي ﷺ يأمر بلالاً أن يؤذن بآخر الليل.. لا لأن الصلاة حلت ولكن ليؤقظ النائم ويرجع القائم... فهو مقصد شرعي، ولا إشكال في شرعية أذان الجمعة الأول^(٢).

❖ أقول: إن عثمان رضي الله عنه إنما سنَّ هذا الأذان لظروف معينة في المدينة النبوية آنذاك... فإذا وجدت هذه الظروف في بلدة ما شرع لأهلها أن يؤذّنوا أذنين، وإلا ظل التمسك بالأذان الواحد هو الأصل كما كان عليه العمل في زمن النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

وذلك؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا.

والعلة في ذلك كثرة الناس وتباعد منازلهم وعدم وصول صوت المؤذن إليهم... فأمر عثمان رضي الله عنه مؤذنًا يؤذن على دار مرتفعة في السوق عند اجتماع الناس تُسمى «الزوراء» - وذلك قبل دخول وقت الجمعة - لتهيئاً للناس لها.

فعن السائب بن يزيد قال: «إن الأذان كان أوله حين يجلس الإمام على المنبر يوم الجمعة، في عهد النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر... فلما كان خلافة عثمان، وكثُر الناس [وفي رواية: وتباعدت المنازل] أمر عثمان يوم الجمعة بالأذان الأول على

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) بتصرف من شرح رياض الصالحين.

دارٍ في السوق يُقال لها: «الزوراء» ليعلم الناس أن الجمعة قد حضرت»^(١).

فمن هنا يتبين لنا أن العلة في الأذان الأول إعلام الناس الذين لا يصل إليهم صوت الأذان أن الجمعة قد اقتربت.

فإذا وُجِدَتْ الآن قريةٌ ليس فيها مكبرات صوت لرفع الأذان، ولا يمتلك أصحابها ساعات لتعريفهم باقتراب وقت الجمعة، وليس في بيوتهم المذياع ونحوه من وسائل الإعلام الحديثة التي بها يعرفون دخول وقت الجمعة، فإنه يُشرع أن يؤذن لهم مؤذناً على مكانٍ مرتفع قبل وقت الجمعة بزمانٍ يكفي للتهيؤ لصلاة الجمعة.

أما إذا كان الناس يمتلكون ساعات تُعرفهم الوقت، أو كان بالمسجد مكبرات الصوت التي تُسمع الناس في منازلهم وأعمالهم.. فالأذان الأول في هذه الحالة تحصيل حاصل... فالأولى حينئذٍ الاقتصار على أذانٍ واحدٍ عندما يصعد الخطيب المنبر^(٢).

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: وأحب أن يكون الأذان يوم الجمعة حين يدخل الإمام المسجد ويجلس على موضعه الذي يخطب عليه: خشب أو جريد أو منبر، أو شيء مرفوع له... فإذا فعل أخذ المؤذن في الأذان، فإذا فرغ قام فخطب لا يزيد عليها. اهـ^(٣).

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ: وأما البلدة التي بها جوامع كثيرة كمدينة دمشق مثلاً، لا يكاد المرء يمشي فيها إلا خطوات حتى يسمع الأذان للجمعة من على المنارات، وقد وضع على كثير منها الآلات المكبرة للأصوات، فحصل بذلك المقصود الذي من أجله زاد عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الأذان وهو إعلام الناس أن صلاة

(١) صحيح: رواه البخاري (٩١٢) كتاب الجمعة.

(٢) الكلمات النافعة (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) «الأم» (٣/ ٦٠) ط/ قتيبة.

الجمعة قد حضرت.. فالأخذ حيثئذ بأذان عثمان من قبيل تحصيل الحاصل، وهذا لا يجوز، ولا سيما في مثل هذا الموضع الذي فيه التزيد على سنة رسول الله ﷺ دون سبب مُسوَّغ... ولذلك كان على بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بالكوفة يقتصر على السنة ولا يأخذ بزيادة عثمان رضي الله عنه.. كما في القرطبي.. اهـ. ملخصاً^(١).

❁ وفي الحقيقة أن الأذان من أفضل الأعمال، وهو أفضل من الإمامة، يعنى أن مرتبة المؤذن في الأجر أفضل من مرتبة الإمام؛ لأن المؤذن يعلن لتعظيم الله وتوحيد الله والشهادة للرسول بالرسالة.. وكذلك أيضاً يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح في اليوم والليلة خمس مرات أو أكثر.

والإمام لا يحصل منه ذلك... والمؤذن لا يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مَدَر إلا شهد له يوم القيامة؛ ولهذا كان الأذان مرتبته في الشرع أعلى من مرتبة الإمامة.

فإن قال قائل: إذا كان كذلك لماذا لم يكن الرسول ﷺ يؤذن ولا الخلفاء الراشدون؟ أجاب العلماء عن هذا بأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين كانوا مشغولين بمصالح العباد؛ لأنهم خلفاء أئمة يدبرون أمر الأمة.. والأذان في عهد الرسول ﷺ ليس كالأذان في وقتنا.. الآن إذا أراد الإنسان أن يؤذن ليس عليه سوى أن ينظر إلى الساعة ويعرف الوقت حَلَّ أو لم يَحِلَّ، لكن في عهد الرسول ﷺ كانوا يراقبون الشمس ويتابعون الظل حتى يعرفوا أن الشمس قد زالت، وكذلك أيضاً يراقبونها حتى يعرفوا أنها غربت ثم يراقبون الشفق، ثم يراقبون الفجر... ففيه صعوبة عظيمة؟ لذلك كان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون لا يتولون الأذان... لا لأن فضله أقل من الإمامة ولكن لأنهم مشغولون بما هم فيه عن الأذان... وقد بين النبي ﷺ فضيلته في أكثر من حديث^(٢)..... ومنها:

(١) الأجوبة النافعة (٢١، ٢٢).

(٢) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٤١).

قال رسول الله ﷺ: «المؤذن يُغفرُ له مدَّ صوته، وأجرُهُ مثلُ أجر من صلى معه»^(١).
 وقال رسول الله ﷺ: «المؤذن يُغفرُ له مدى صوته، ويشهدُ له كُلُّ رطبٍ ويابسٍ، وشاهدُ الصلاة يُكتب له خمسٌ وعشرون صلاةً، ويُكفَّر عنه ما بينهما»^(٢).
 وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يعجبُ ربُّك من راعي غنم في رأس شظية^(٣) للجبل، يُؤذن بالصلاة، ويصلي، فيقول الله عزَّ وجلَّ: انظروا إلى عبدى هذا يُؤذن ويُقيم الصلاة، يخافُ منى، قد غفرتُ لعبدى، وأدخلته الجنة»^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أذن اثنتى عشرة سنة، وجبت له الجنة، وكُتِب له بتأذينه في كل يوم ستون حسنةً، وبإقامته ثلاثون حسنةً»^(٥).
 بِمَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الصَّلَاةِ

(١٠٤٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ. ثُمَّ لَمْ يَحِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهَجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»^(٦).

وفي هذا الحديث يَحْتثُ النبي ﷺ على أن نتسابق ونتنافس على الأذان والصف الأول... والتسابق هنا ليس بالمزاحمة والجرى وإيذاء الناس من حولنا ولكن بالحرص على أن تأتي مبكرًا قبل إخوانك فتؤذن وتقف في الصف الأول..

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٤٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٤٤).

(٣) الشظية: هي القطعة تنقطع من الجبل ولم تنفصل عنه.

(٤) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٠٢).

(٥) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٠٢).

(٦) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٥) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٧) كتاب الصلاة.

«الاستهام»: الاقتراع - و«التهجير»: التذكير إلى الصلاة.

فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ»^(١).. فإن لم تدرك الصف الأول فاحرص على الصف الثاني فقد جاء في رواية أبي داود «الصُّفُوفِ الْأَوَّلِ» وجاء في رواية النسائي «الصُّفُوفِ الْمُقَدَّمَةِ» لكن على العموم إياك أن تؤذى أحد المصلين من أجل أن تصلى في الصف الأول.

ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ عظم من ذكر فضل الأذان والصف الأول حينما قال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ» أى: أن الأجر والثواب والمنزلة التي تحصل للمؤذن ولمن يصلى في الصف الأول فوق ما يخطر على قلب بشر.. ولذا زادنا النبي ﷺ تشويقاً فقال: «ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَا سْتَهْمُوا عَلَيْهِ» أى: اقترعوا من أجل أن يعرفوا من الذى يستحق أن يؤذن ومن الذى يستحق أن يكون في الصف الأول.

ثم قال ﷺ: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهَجِيرِ لَأَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ» أى: لو يعلمون ما في التبكير إلى الصلاة من الأجر والثواب وشهادة الملائكة لهم ورضا الله عنهم وحبه لما يفعلونه لاستبقوا إليه وحرص كل واحد منهم على أن يكون أول من يدخل المسجد وآخر من يخرج منه.

ثم قوله ﷺ: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا».. فيه الحث العظيم على حضور جماعة هاتين الصلاتين والفضل الكثير فى ذلك لما فيهما من المشقة على النفس من تنغيص أول نوميها وآخره. ولهذا كانتا أثقل الصلاة على المنافقين.

وهذا الفضل لصلاة العشاء وصلاة الصبح، عظيم ولذا أخبر النبي ﷺ أنهم: لو يعلمون فضلها لأتوها ولو حبوا... فلو أن الإنسان لا يقدر أن يذهب ماشياً على رجليه مشى حبواً على الأرض، مع أن هذا الذى يحبو لا تجب عليه الصلاة جماعة، ولكن النبي ﷺ يخبره أن فيهما فضيلة عظيمة لو يعلمها لتناسى

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٣٩).

الإنسان مرضه معها... وإن كان ليس على المريض حرج، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ﴾ [النور: ٦١]، ولكنه الحث على أن تدرك الجماعة ولا تفوتها إلا إذا كان العذر يمنعك من ذلك.

وقوله ﷺ: «لو يعلمون ما في العتمة»، أى: صلاة العشاء... والمعنى: لو يعلمون كم يكون فيها من الثواب والفضل! ومثلها الصبح، وخاصة إذا جاء يوم القيامة وجد أن أكثر ما يُنير له ظلمات يوم القيامة صلاة الصبح والعشاء في جماعة.... قال النبي ﷺ مُخبراً عن النور الذى تمنحه صلاة الفجر وصلاة العشاء «بُشِّرِ الْمَشَائِينَ فِي الظُّلُمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، ما ذهب مرة لصلاة الفجر فحسب بل هو مَشَاءُ أى: كثير المشى والذهاب إلى بيت الله ﷻ في صلاة الفجر والعشاء... لا يمنعه حرٌّ في الصيف، ولا بردٌ في الشتاء، ولا مطر ولا شدة رياح... فلا يمنعه شىء عن أن يصلى جماعة في بيت الله ﷻ، فلهذا يقول: أبشر فلك نورٌ تام يوم القيامة... ومن الناس مَنْ يكون له نور على قدر عمله... فبعضهم له نور يخفت مرة ويزيد أخرى وينطفئ ثالثة، لكن هذا المواظب على صلاة الفجر والعشاء في الجماعة له النور التام يوم القيامة.

❁ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَسْمِيَةُ الْعِشَاءِ عَتَمَةً... وَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْهُ وَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَةَ بَيَانٌ لِلْجَوَازِ وَأَنَّ ذَلِكَ النَّهْيُ لَيْسَ لِلتَّحْرِيمِ وَالثَّانِي وَهُوَ الْأَظْهَرُ أَنَّ اسْتِعْمَالَ الْعَتَمَةِ هُنَا لِمَصْلَحَةٍ وَنَفْيِ مَفْسَدَةٍ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ لَفْظَةَ الْعِشَاءِ فِي الْمَغْرِبِ. فَلَوْ قَالَ: لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعِشَاءِ وَالصُّبْحِ لَحَمَلُوهَا عَلَى الْمَغْرِبِ فَفَسَدَ الْمَعْنَى وَقَاتَ الْمَطْلُوبُ... فَاسْتَعْمَلَ الْعَتَمَةَ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا وَلَا يَشْكُونَ فِيهَا... وَقَوَاعِدُ الشَّرْعِ مُتَّظَاهِرَةٌ عَلَى احْتِمَالِ أَخْفِ الْمَفْسَدَتَيْنِ لِدَفْعِ أَعْظَمِهِمَا^(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) مسلم بشرح النووى (٤/٢٠٧، ٢٠٨) بتصرف.

(١٠٤١) وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»^(١).

✽ أما قول النبي ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة».

فإنه يقال: فلان هذا طويل العنق بمعنى: أنه شريف... فكأنه يقول: أشرف الناس يوم القيامة... إذ أن الله ﻋَزَّوَجَلَّ يميزهم على غيرهم بطول عنق، وهيئة جميلة تكون لهم.. والإنسان في الدنيا عندما ينظر إنسانًا ذا رقبة طويلة هل يراها جميلة؟ لا... بل ذلك قُبْحٌ وليس بجمال، ولكن الله يُجمل هؤلاء بتشريفهم يوم القيامة، فيجعلها لهم علامة على الشرف والجمال الذي يكون لهم ذلك اليوم.

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فإنه إذا بُعث الناس يوم القيامة فإن المؤذنين يكون لهم ميزة ليست لغيرهم وهي أنهم أطول الناس أعناقًا فيُعرفون بذلك تنويهاً لفضلهم وإظهاراً لشرفهم؛ لأنهم يؤذنون ويعلنون بتكبير الله ﻋَزَّوَجَلَّ وتوحيده والشهادة لرسوله ﷺ بالرسالة، والدعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح، يُعلنونها من الأماكن العالية؛ ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل أن تعلق رؤوسهم وأن تعلق وجوههم وذلك بإطالة أعناقهم يوم القيامة... وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون مؤذنًا حتى لو كان في نزهة هو وأصحابه فإنه ينبغي أن يبادر لذلك^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤٢) وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَةَ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ لَهُ: «إِنِّي أُرَاكَ تُحِبُّ الْغَنَمَ وَالْبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ - أَوْ بَادِيَتِكَ - فَأَذْنَتَ لِلصَّلَاةِ، فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جَنَّ، وَلَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨٧) كتاب الصلاة.

(٢) شرح رياض الصالحين / الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (١٤٢/٣) بتصرف.

إِنْسٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

❖ ففى هذا الحديث قام أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وهو من خيرة أصحاب الرسول ﷺ.. قام بنصيحة أحد التابعين وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة رضي الله عنه فقال له: «إنى أراك تحب الغنم والبادية».. أى: إنى أرى لديك غنماً تخرج بها إلى البادية.. وأراك تحب الغنم والبادية؛ لأن هذا عملك وتلك مهنتك فاحرص على صلاة الجماعة ولا تضيعها حتى وأنت فى الصحراء والبادية.. فإذا كنت فى البادية ومعك غنمك فاحرص على أن تؤذن للصلاة وأن ترفع صوتك بالأذان فقد يأتى مَنْ يسمعك ليصلى معك صلاة الجماعة... ولا تقل مَنْ سيصلى معى فى هذا المكان فقد يبعث الله إليك مَنْ يشاء من الإنس أو الجن ليصلى خلفك وأنت لا تدري...

فقد قال رضي الله عنه: «إِذَا كَانَ الرَّجُلُ بِأَرْضٍ قِيَّ فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَلْيَتَوَضَّأْ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً فَلْيَتَيَمَّمْ، فَإِنْ أَقَامَ صَلَّى مَعَهُ مَلَكَاهُ، وَإِنْ أَذَنَ وَأَقَامَ صَلَّى خَلْفَهُ مِنْ جُنُودِ اللَّهِ مَا لَا يُرَى طَرَفَاهُ» (٢).

فمن المعلوم أن راعى الغنم فى البادية لا يستطيع أن يذهب إلى الصلاة فى جماعة فى المسجد ويترك الغنم وحدها فى تلك الصحراء وإلا فسوف تضيع أو تُسرق.

❖ ثم بشره أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وقال له: «فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جَنْ، وَلَا إِنْسٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٩) كتاب الأذان.

(٢) صحيح: رواه عبد الرزاق فى المصنف وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٩).

القى: هى الأرض القفر.

والمعنى: أنه يشهد لمن يؤذن الإنس والجن وأى شىء سمعه حتى الجماد يشهد للإنسان الذى يؤذن يوم القيامة.

❁ ثم قال له: سمعته من رسول الله ﷺ.. أى أن هذا الكلام ليس من كيس أبى سعيد بل سمعه من النبى ﷺ مباشرة... فقد قال له النبى ﷺ نفس الكلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤٣) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ النَّدَاءُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا نُوبَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، وَاذْكُرْ كَذَا - لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ قَبْلُ - حَتَّى يَظُلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ عن حيلة من حيل الشيطان التى لا تُعد ولا تُحصى.. فيخبر أن الشيطان إذا سمع المؤذن يؤذن فإنه يُدبر ويهرب فرعاً من صوت الأذان..

ولشدة فزعه يهرب وهو يضبط... ومعلوم أن الإنسان حين يرى شيئاً يفزعه قد يبول على نفسه أو يخرج منه ريح؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم فى نفسه... كذلك الشيطان يفزع حين يسمع الأذان، فيحدث منه ذلك لأمرين: الأول: من شدة فزعه ورُعبه من الأذان.

والثانى: لأنه لا يريد أن يسمع الأذان، فيضبط بهذه الصورة القبيحة لئلا يسمع ضراطه ولا يسمع الأذان... ولذلك كان الأذان شفاءً للإنسان المؤمن حين يسمعه؛ لما فيه من إذهاب للشيطان والنجاسات عن الإنسان المؤمن من الجان الذين لا يؤمنون بالله.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٨) كتاب الأذان - ومسلم (٣٨٩) كتاب الصلاة.
«التَّثْوِيبُ»: الإقامة.

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]
الذى يخنس عند ذكر الله ﷻ ويختفى ويبعد ... لأن الشيطان أكره ما عنده
عبادة الله وأبغض ما عنده من الرجال عباد الله وأحب ما يحب الشرك بالله ﷻ
والمعاصي لأنه يأمر بالفحشاء ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾
فيحب من الناس أن يأتوا ما لم يأمر الله به ويكره أن يأتوا ما أمر الله ﷻ ..
فإذا أذن المؤذن ولَّى وابتعد عن مكان الأذان حتى يخرج بعيداً عن البلاد
لئلا يسمع الأذان.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَإِنَّمَا أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْأَذَانِ لِيَلَّا
يَسْمَعَهُ فَيُضْطَرَّ إِلَى أَنْ يَشْهَدَ لَهُ بِذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَسْمَعُ
صَوْتَ الْمُؤَذِّنِ جَنٌّ وَلَا إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».
قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: وَقِيلَ إِنَّمَا يَشْهَدُ لَهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَأَمَّا
الْكَافِرُ فَلَا شَهَادَةَ لَهُ... قَالَ: وَلَا يَقْبَلُ هَذَا مِنْ قَائِلِهِ لِمَا جَاءَ فِي الْأَثَارِ مِنْ خِلَافِهِ.
قَالَ: وَقِيلَ: أَنَّ هَذَا فِيمَنْ يَصِحُّ مِنْهُ الشَّهَادَةُ مِمَّنْ يَسْمَعُ وَقِيلَ بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي
الْحَيَوَانِ وَالْجَمَادِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ لَهَا وَلِمَا لَا يَعْقِلُ مِنَ الْحَيَوَانِ إِدْرَاكَ
لِلْأَذَانِ وَعَقْلاً وَمَعْرِفَةً... وَقِيلَ: إِنَّمَا يُدْبِرُ الشَّيْطَانُ لِعِظَمِ أَمْرِ الْأَذَانِ لِمَا اشْتَمَلَ
عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ التَّوْحِيدِ وَإِظْهَارِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَإِعْلَانِهِ وَقِيلَ: لِيَأْسِهِ مِنْ
وَسْوَاسَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ الْإِعْلَانِ بِالتَّوْحِيدِ^(١).

❁ «فَإِذَا قُضِيَ النَّدَاءُ» أى: إذا انتهى الأذان أقبل الشيطان مرة أخرى
ليوسوس للناس ويغويهم.

«حَتَّى إِذَا ثُوبَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ» أى: إذا سمع إقامة الصلاة أدبر مرة أخرى
وهرب كما هرب عند سماع الأذان.. فهو يهرب إذا سمع الأذان أو الإقامة.

«حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّوْبُ أَقْبَلَ» أى: إذا فرغت الإقامة أقبل حتى يحول بين المرء وقلبه في صلاته ... يقول له: اذكر كذا اذكر كذا اذكر كذا ... حتى لا يطيق المصلى ... وهذا أمر يشهد له الواقع فإن الإنسان أحياناً ينسى أشياء فإذا دخل في الصلاة فتح الشيطان عليه باب التذكُّر حتى يذكرها.... ويُذَكِّرُ أن رجلاً جاء إلى الإمام أبى حنيفة رَحِمَهُ اللهُ وقال: إنه استودع وديعة ونسيها فقال له: اذهب فتوضأ فصلِّ ركعتين وستذكرها .. ففعل الرجل ذلك فتوضأ ودخل في الصلاة فذكره إياها الشيطان حتى لا يكمل صلاته ... وهذا أمر يشهد له الواقع. فأهم شيء عند الشيطان أن تخرج من الصلاة ليس لك منها شيء.

وفي الحديث: سئل النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم»، الالتفات في الصلاة كما لو كنت تصلى فتنظر عن شمالك أو يمينك مُتلهياً عن صلاتك، وقد تنظر شيئاً أمامك كألوان الحائط، أو صورة عليه... فالشيطان يسرق بذلك من صلاتك، ويطرد صدك كلما تلهَّيت وتعمدت ذلك، ولو كنت تفكر في شيء غير الصلاة لضاع منك بعض الثواب، والشيطان يفرح بذلك.

مع أن هذه الأشياء وإن كانت مهمة بالنسبة لك لكنها بالنسبة للشيطان لا تعنى شيئاً.. فالأهم عنده أن يُضيع عليك الصلاة.. لأنَّ الصلاة هي التي تُدخلك الجنة، وهو لا يريدك أن تدخل الجنة، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فقد توعد الشيطان آدم ﷺ وبنيه أن يدخلوا النار، وأقسم على ذلك بعزة الله وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

فالشيطان يريد أن يجعلك لا تدري كم صليت، فإذا بالإنسان يضجر من الصلاة، وكلما صلى ثلاث ركعات أو أربعاً لا يدري كم ركعة صلى، فإذا به من شدة ما ألمَّ به من الشك يخرج من الصلاة، والشيطان يريد ذلك، ولذا إذا ابتليت

بالسهو في الصلاة فاسجد للسهو؛ فإنك تؤذى الشيطان بذلك وتغيظه...

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، وَقَالَ: يَا وَيْلَهُ! (١)، أُمِرَ هَذَا بِالسُّجُودِ، فَأَطَاعَ، فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ، فَعَصَيْتُ، فَلِيَ النَّارُ» (٢).

فقد جاء يوسوس له من أجل ألا يدرى هل صلى ركعتين أو ثلاثاً، فإذا جعلهن ثلاثاً وسجد سجدين زاد على ما كان يريد ألا يفعله... فهنا تغيظ الشيطان بطاعتك لله عز وجل، وبإقبالك على الله سبحانه تبارك وتعالى.

❁ وفي هذا الحديث فائدتان عظيمتان:

بيان فضل الأذان وأنه يطرد الشياطين.. ولهذا استحب الكثير من العلماء إذا وُلد المولود أول ما يولد أن يؤذن في أذنه حتى يطرد الشيطان عنه.

وبعضهم يقول: يؤذن في أذنه حتى يكون أول ما يسمع ذكر الله عز وجل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤٤) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ النَّدَاءَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» (٣).

(١٠٤٥) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمُ النَّدَاءَ، فَقُولُوا كَمَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ» (٤).

(١) هذا دعاء على نفسه بالويل وهو الهلاك.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨١) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦١١) كتاب الأذان - ومسلم (٣٨٣) كتاب الصلاة.

❁ ففي هذا الحديث يأمرنا النبي ﷺ ويرشدنا إلى أن نقول مثلما يقول المؤذن ... وقد كان الصحابة يتمنون الأذان حتى قال قائلهم: تركتنا نتشاح في الأذان ... فأمرهم النبي ﷺ ألا يتعاركوا على الأذان، ودلهم إلى شيء آخر يصلون به إلى ما يصل إليه المؤذن من الثواب، وذلك بأن يقولوا مثلما يقول، إذ ليس من الممكن أن كل الناس يؤذنون، ولكن البعض يؤذن والباقون يُرددون فيؤجرون كما يؤجر هذا المؤذن.

أى أننا نقول مثلما يقول المؤذن ونُردّد خلفه كل جملة من الأذان إلا إذا قال: «حى على الصلاة» «حى على الفلاح» نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله... لحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ أَحَدُكُمْ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَى عَلَى الصَّلَاةِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: حَى عَلَى الْفَلَاحِ، قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

❁ وكلمة (لا حول ولا قوة إلا بالله) تعنى أننا عزمنا على الإجابة ولكننا نستعين بالله عز وجل ... ولهذا أقول: إن هذه الكلمة كلمة استعانة تُعين الإنسان على أموره وعلى صلاح أحواله ... ولهذا قال الرجل المؤمن لصاحبه في قصة صاحبي الجنتين: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ ❁ يعنى لكان خيراً لك وسَلِمْتَ جنتك من التلف ... فهذه الكلمة كلمة عظيمة حتى قال النبي ﷺ لعبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢) فإذا قال المؤذن حى

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨٥) كتاب الصلاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٠٥) كتاب المغازى - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

على الصلاة حتى على الفلاح نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ... وإذا قال في صلاة الفجر: الصلاة خيرٌ من النوم نقول: الصلاة خير من النوم

❁ وهناك معنى آخر عظيم لكلمة (حتى على الفلاح): فمعنى حتى على الفلاح أى تغالوا إلى سبب الفوز والبقاء في الجنة والخلود في النعيم والفلاح... فنقول إذا سمعناها: «لا حول ولا قوة إلا بالله» الحول: الحركة.

أى لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة الله ... وقيل: لا حول في دفع الشر ولا قوة في تحصيل الخير إلا بالله ... وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته^(١).

❁ قال: «ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ» ... أى بعد التردد خلف الأذان نصلى على النبي ﷺ.. وليس المؤذن هو الذى يصلى على النبي ﷺ فقط.. بل الكل يصلى على النبي ﷺ فى سرّه وليس فى الميكرفون لأن الكل مشغول بالذكر خلف الأذان وبالصلاة على سيد الأنام ﷺ... فمن صلى على النبي ﷺ مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات.. ويا لها من منقبة عظيمة.

❁ قال ﷺ: «ثُمَّ سَلُّوا اللَّهَ لى الوَسِيلَةَ».. والوسيلة هى أعلى درجة فى الجنة.. وقد أخبر النبي ﷺ أنها لا تنبغى إلا لعبيدٍ واحدٍ من عباد الله.

وقال ﷺ من تواضعه: «وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ» بل هو هو ﷺ ولكنه يقول ذلك تواضعاً منه.. وهل هناك أحدٌ فى الكون كله من لدن آدم ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يستحق تلك المنزلة إلا النبي محمد ﷺ.

❁ قال ﷺ: «فَمَنْ سَأَلَ لى الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» وفى رواية: «حَلَّتْ عَلَيْهِ»، أى: صارت حلالاً له... فكأنها محظورة إلا بذلك، فإذا صليت على النبي ﷺ وسألت الله له الوسيلة (عليه الصلاة والسلام) استحققت ما كان

(١) مسلم بشرح النووي (٤/١١٥).

محظورًا قبل ذلك.

✽ ومعنى سؤال الوسيلة للنبي ﷺ وضححه النبي ﷺ نفسه في الحديث التالي:

﴿مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ:

(١٠٤٦) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ قال حين يسمع النداء -أى الأذان- يعنى بعد أن يفرغ المؤذن من الأذان فإنك تصلى على النبي ﷺ ثم تقول: اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ، وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ.

✽ «اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ» فهذا النداء دعوة تامة.

وقيل: المراد: دعوة التوحيد؛ وقيل: دعوة التوحيد تامة؛ لأن الشرك نقص... أو التامة التى لا يدخلها تغيير ولا تبديل، بل هى باقية إلى يوم النشور، أو لأنها هى التى تستحق صفة التمام وما سواها فمعرض للنقص.

«وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ» أى: التى ستقام.

«آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ» أى: آتِ النبي ﷺ الوسيلة وهى أعلى درجة فى الجنة.. ولا ينبغي أن تكون إلا لعبدٍ واحدٍ فاجعلها للنبي ﷺ.

«وَالْفَضِيلَةُ» أى: المرتبة الزائدة على جميع الخلق.. وقد كان.. فقد أخبر النبي ﷺ وقال: «أنا سيّد ولدِ آدم يوم القيامة، وأوّل مَنْ ينشقُّ عنه القبرُ، وأوّل شافع، وأوّل مُشَفَّعٍ»^(٢).

(١) صحيح: رواه البخارى (٦١٤) كتاب الأذان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل.

«وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعده» وقد وعده الله ذلك في قوله: ﴿وَمِنْ أَلْبَلٍ فَتَهَجَدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ ومن هذا المقام المحمود الشفاعة العظمى.

ولم يأت في الحديث: «والدرجة الرفيعة» والأصل أن نتوقف على ما قاله ﷺ، كما لم يأت فيها زيادة: «إنك لا تخلف الميعاد»، فتوقف على ما قاله النبي ﷺ. فالذي يقول ما جاء في هذا الحديث.. قال عنه النبي ﷺ: «حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أى: استحققت ووجبت أو نزلت عليه وصارت حلالًا له أن أشفع له يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٤٧) وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»^(١).
✽ فإذا رددت الأذان إلى أن انتهى المؤذن مما قال فعليك أن تقول هذا الذكر: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا»، فإذا قلت ذلك غفر لك ما تقدم من ذنبك.

قوله: «رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا» أى: مَلِكًا وَمَالِكًا وَمُتَصَرِّفًا وَمُدَبِّرًا... وَإِلَهَا حَقًّا.
قوله: «وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» أى: رسولاً من عند الله - تعالى -؛ فَاتَّابِعْهُ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ... وَأَتَمِرْ بِأَمْرِهِ وَأَنْتَهِيَ عَمَّا نَهَى.
قوله: «وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا» أى: بِأَحْكَامِهِ وَشَرَائِعِهِ.
غفر الله ﷻ له ذنبه.

✽ فَيَا لَيْتَنَا نَحْرُصُ عَلَى ذَلِكَ لِنَفُوزَ بِالْمَغْفِرَةِ وَبِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

(١٠٤٨) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ»^(١).

✽ ولفظ الدعاء بإطلاقه شامل لكل دعاء... ولكن لا بد من تقييده بما في الأحاديث الأخرى من أنه ما لم يكن دعاءً بآثم أو قطيعة رحم أو اعتداء. والمؤمن عندما يأتي إلى بيت الله ﷻ يرجو أن يتقبله الله... فقد جاء يطلب فضل الله ﷻ ورحمته ويذكر الله تبارك وتعالى... فلم يأت كي يُضيع وقته، ولا ليسأل الناس، بل جاء يسأل الله سبحانه وتعالى، فإذا جاء إلى بيت الله فلا يضيع الوقت بالحديث مع فلان ولا ليمزح مع فلان. وقد تجد بين الأذان والإقامة كل اثنين يتحدثان سويًا... ونسى كل واحدٍ منهما أن الدعاء لا يُرد بين الأذان والإقامة... والأصل أن ننشغل بالدعاء والأذكار.

فينبغي أن تذكر ربك سبحانه وترفع يديك بالدعاء بين الأذان والإقامة؛ فإن الدعاء لا يُرد بينهما كما قال النبي ﷺ. وقد نرى أحيانًا بعض المصلين إذا أقيمت الصلاة وقف ورفع يديه يدعو... وهذا لم يأت عن النبي ﷺ، فالوارد بعد الإقامة أن يتوجه إلى القبلة ويدخل في الصلاة كما كان يفعل النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٨).

(١٨٧) باب فضل الصلوات

✽ إن الصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين وهي أم العبادات وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن ... فهي التي أمر الله بها وهي الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهي ملجأ المؤمن في الكربات وهي التي يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسموات وهي أمنية المُعذِّبين والأموات وهي العاصمة من الشهوات والناحية عن المنكرات وهي الحادى للنعيم المقيم في الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغاً عظيماً وقدرًا عاليًا في قلب النبي ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبنا أن نتأمل قول النبي ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وقد كان النبي ﷺ يفزع إلى الصلاة.... ففزع إليها ليلة الأحزاب.

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلى، وكان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى»^(٢).

وفزع إليها يوم بدر: ... عن (عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح.

✽ وكان يفزع إليها كذلك عند تجدد النعم.

فمن ذلك أن الله ﷻ لما أنعم على نبيه ﷺ بفتح مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات شكرًا لله ﷻ.

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألبانى رحمه الله في صحيح الجامع (٤٧٠٣).

وكان ﷺ يحب الصلاة حُبًّا جَمًّا لدرجة أنه كان يقول لبلال: «يَا بِلَالُ! أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْحَنًا بِهَا»^(١).

بل إنه ﷺ في مرض الموت وفي آخر لحظات حياته كان يُغشى عليه ثم يفيق ويقول: «أصَلَّى الناس؟» فيقولون له: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، ويُغشى عليه ثم يفيق ولا يسأل إلا نفس السؤال: «أصَلَّى الناس؟»^(٢).

❁ وكان أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان يحبون الصلاة، ويشتاقون إليها... فلقد استولت على قلوبهم واستغرقت نفوسهم.

إن الصلاة شأنها عظيم عند الله (جل وعلا) ولذلك فقد تميزت على ما عداها من الفرائض بخصائص لا تُعدُّ ولا تُحصى.

وحسبنا أنها العبادة الوحيدة التي منحها الله لنبيه محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج بلا واسطة من فوق سبع سماوات لعلو قدرها ومكانتها عند الله (جل وعلا) فهي الفريضة الوحيدة التي فُرِضت في السماء.

❁ ومن أجل ذلك فإنه يجب على كل مسلم أن يحافظ على الصلاة وأن يعرف قدرها وأن يعرف ما هي الآداب التي ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم في صلاته.

❁ قال الله تعالى: ﴿رَبِّ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر... إذا كنت قد هممت بذنب أو كان قلبك يميل إلى المعاصي فإنك إذا صليت انمحي ذلك كله لكن بشرط أن تكون الصلاة التي تُراد منك والتي تريدها أنت الله ﷻ صلاة على أكمل ما يكون... ولهذا يجب علينا أن نعتنى بصلاتنا ونكملها بقدر المستطاع بجميع أركانها وشروطها وواجباتها ومكملاتها فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

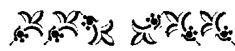
(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٧) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٨) كتاب الصلاة.

(١٠٤٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ؟» قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»^(١).

✽ فتصور لو أن أحداً كان أمام بابه مباشرة نهر قريب لا يحتاج إلى أن يذهب إليه بعيداً بل هو أمام باب بيته مباشرة... فكلما احتاج أن يغتسل فيه فإنه يفتح باب بيته وينزل فيه مباشرة.. وكان هذا العبد يغتسل في ذلك النهر كل يوم خمس مرات فهل يبقى على بدنه أى شىء من القاذورات أو الأوساخ التى تُلطخ ثوبه وبدنه... هذا مستحيل بعد أن يغتسل خمس مرات..
فكذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا..

كأن الخطايا والذنوب لا تُلوث بدن العبد، بل تُلوث قلبه، ولا تزال الذنوب نُكتاً سوداء على قلب العبد... نكتة وراء أخرى إلى أن يصبح القلب أسوداً بالكلية... فهذه الصلوات الخمس تُزيل وتمحو عنه هذه الذنوب التى سَوَدَّتْ قلبه وبدنه وعمله.



(١٠٥٠) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرِ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ»^(٢).
✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٣٤) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٨) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٦٧) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٨) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

«الْعَمْرُ»: الكثير.

(١٠٥١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره... فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل: ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كُلِّهِمْ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث عند شرحنا للحديث رقم (٤٣٩) إلا أني أريد أن أذكر هنا بعض التفاصيل التي لم أذكرها هناك.

✽ ففي هذا الحديث يخبر ابن مسعود رضي الله عنه (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة)، وهذا في عهد النبي ﷺ... والصحابة أفضل خلق الله ﷺ بعد الأنبياء، ولكنهم ليسوا معصومين من الخطأ، فقد وقع بعضهم في الذنوب، وكانت رحمة من الله بنا أن وقع هؤلاء في الذنوب حتى لا نياس من التوبة إذا وجدنا أن صحابياً أذنب ثم تاب إلى الله، ونزلت بسبب ذنبه وتوبته آية، وهذا فيه خيرٌ للمسلمين.

وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم ولفظ البخاري: (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره)، ولفظ مسلم في إحدى رواياته: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إنني عالجْتُ امرأة في أقصى المدينة، وإنني أصبت منها ما دون أن أمسّها)، أي: أنه وهو في أقصى المدينة وجد امرأة تمشي وحدها فكأنه عالجها... ومعنى المعالجة: المحاولة إما بالكلام أو أنها التفتت إليه فقبلها أو أنه أخذ بيدها... قال: أصبت منها ما دون أن أمسّها، أي: لم أطأها.

فجاء هذا الرجل من أقصى المدينة يقول للنبي ﷺ: أنه قد تاب بعدما وقع في المعصية... وهكذا فإن الشيطان يدل الإنسان على المعصية ويدفعه إليها، وبعد أن يقع يتركه... فإما أن يستحلى المعصية ويقع فيها مرة ثانية وثالثة، وإما أن يراجع نفسه ويندم على ما صنع... وتوبة هذا الرجل كانت توبة صادقة، فقد ذهب إلى النبي ﷺ باكيًا تائبًا لله ﷻ مما صنع، وقال له: هأنذا أقض فيّ ما

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢٦) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٢٧٦٣) كتاب التوبة.

شئت، أى: اعمل فى ما تريد... إما أن ترجمنى وإما أن تجلدنى... فسكت النبى ﷺ ولم يُجبه، فقال عمر رضي الله عنه لهذا الرجل: لقد سترك الله فلو سترت على نفسك، أى: لو ثبت بينك وبين الله ولم تفضح نفسك بهذا الذى فعلت... وهذا هو الأصل، فالإنسان لا ينبغي له أن يفضح نفسه إذا وقع فى معصية وستر الله عز وجل عليه، وليتُب إلى الله سبحانه وتعالى.

فانتظر الرجل جالساً أمام النبى ﷺ... والنبى ﷺ ينظر إليه وكأنه يُعاتبه على هذا الذى صنع، إلى أن قام الرجل وانصرف، فلما انصرف أنزل الله عز وجل على النبى ﷺ هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ آيِلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤] وهذه الآية إما أنها نزلت قبل ذلك وهى فى سورة مكية، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ جبريل ليعلمه بالحكم فى هذه الحادثة... وفى هذه الحالة تكون هذه الآيات قد نزلت فى مكة ثم نزلت على النبى ﷺ مرة أخرى فى المدينة، أو جاء جبريل ليُذكر النبى ﷺ أن هذا الحكم يتعلق بهذه الواقعة، فأرسل النبى ﷺ إلى هذا الرجل وقال: «رُدُّوه علىَّ»، فرجع الرجل للنبى ﷺ فقال له - وكانوا قد أكملوا الصلاة -: «هل صليت معنا؟» قال: نعم.

فتلا عليه النبى ﷺ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ﴾ [هود: ١١٤] ففرح الرجل، وقال: ألى خاصة -أى: هل هذه الآية نزلت فى أنا- فقال النبى ﷺ: «بل للناس كافة».

إذا: هذه الآية لكل من تاب إلى الله عز وجل، ورجع إلى ربه بالتوبة نادماً على ما فعل وصلى الله عز وجل فإنه يغفر له ويتوب عليه... ولكن على العبد ألا يغتر، ولا يقول: سوف أعمل المعصية ثم أستغفر الله وأتوب إليه وأصلى ركعتين ويكفينى ذلك، ثم يفعل المعصية مرة أخرى.

فالله عز وجل ذكر أنه غفورٌ رحيم وأنه شديد العقاب، فعلى العبد أن يُحسن الظن بالله عز وجل ويتوب إلى الله سبحانه، فإذا وقع فى معصية وقصّر رجع إلى الله وعاد

على نفسه باللوم... والله عز وجل قد مدح الإنسان الذي يلوم نفسه في الله عز وجل^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٥٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهن، ما لم تغش الكبائر»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٣٢) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٥٣) وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها، وخشوعها، وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله»^(٣).

✽ وهذا من الأحاديث العظيمة التي تريح المؤمن إذا وقع في المعصية، واحتاج لمن يأخذ بيده حتى يرجع عن هذه المعصية ويتوب إلى الله (سبحانه وتعالى).

فعلى الإنسان أن يتوب إلى الله فإنه حيى كريم يستر عبده ويتوب عليه، ويُلهمه ويرزقه التوبة فيتوب إلى الله عز وجل فيقبل توبته.

فالصلوات الخمس كل صلاة تكفر ما بينها وبين الصلاة الأخرى، والإنسان بين الصلوات قد تحدثه نفسه بشيء أو قد يتلبس بمعصية، وقد ينظر إلى شيء أو يمد يده إليه، وغير ذلك من صفات الذنوب التي قد يقع فيها... ولعله يتذكر ويتوب، ولعله ينسى، فإذا جاء إلى الصلاة تاب إلى الله مما يعرف ومما لا

(١) بتصرف من شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٢٨) كتاب الطهارة.

يعرف من ذنوبه، فيركع ويسجد ويدعو ربه سبحانه في السجود، وما بين السجدين يقول: اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى واجبرنى، ويدعو بالمغفرة وهو ساجد أو راکع: سبحانهك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى، فيغفر الله له.

ولذلك كانت الصلوات من الصلاة إلى الأخرى كفارة لما بينهما بشرط ألا يكون الإنسان قد وقع في الكبائر.

إذاً فالوضوء والصلاة والنوافل كفارة لذنوب العبد، وكذلك الجمعة إلى الجمعة كفارة للذنوب... فإذا قام العبد فأتقن الوضوء ولم يُسرف في الماء بل توضأ بالقدر الذى يكفيه، وأسبغ الوضوء في البرد والحر والشتاء والصيف والليل والنهار، ثم دخل في الصلاة فأحسن خشوعها وركوعها... وكأنه ﷺ يُنبه على هيئات الصلاة من الركوع والسجود وغيرها من أفعال البدن، ثم الخشوع الذى هو من أفعال القلب... فإذا أحسن العبد فقد أتى بالصلاة التى يكفر الله ﷻ بها عنه من الذنوب والخطايا.

قال ﷺ: «إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤت كبيرة».

أى: هذه كفارة لما قبلها من صغائر الذنوب... ولكن لا يتساهل الإنسان في صغائر الذنوب، فإنه لا يدري هل هذه الصلاة هى التى أراد الله ﷻ أم لا؟ فيخرج من صلاته وهو لا يعرف هل أحسن أو أساء فيها؟ فينبغى على الإنسان ألا يغتر بصلاته، ولا بسعة رحمة رب العالمين، ولكن يعمل ويرجو، ومع ذلك يخاف من الله (سبحانه وتعالى).

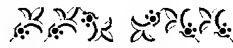
ثم قال في الحديث: «وذلك الدهر كله»، أى: في عمر ككله ما دُمت تصلى وتحسن الصلاة كما يريد الله ﷻ منك، فلك من الله أن يغفر لك^(١).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ أحمد حطية.



❦ فمن صَلَّى الصلوات الخمس وأحسن وضوءها وكان قلبه حاضراً خاشعاً وأتم ركوعها وسجودها فإنه يفوز بمغفرة الذنوب ما دام قد أقام الصلاة فالصلوات الخمس تُكفِّر الصغائر .. أما الكبائر فتحتاج إلى توبة مستقلة حتى يغفرها الحق (جل وعلا).

فنسأل الله أن يجعلنا من مقيمي الصلاة كما قال خليل الله إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]



(١٨٨) باب فضل صلاة الصبح والعصر

(١٠٥٤) عن أبي موسى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ » ^(١).

(١٠٥٥) وعن أبي زهير عِمَارَةَ بْنِ رُؤَيْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لَنْ يَلْجَأَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا» يَعْنِي الْفَجْرَ، وَالْعَصْرَ ^(٢).

✽ سبق شرح الحديث الأول عند شرحنا للحديث رقم (١٣٤) لكنى أحببت أن أعيد تفسيره مقروناً بالحديث الذي يليه لأنه سيضيف معنى جديداً.

✽ فهاتان الصلاتان تميّزتا بفضل ليس في غيرهما ... أما الفجر فقد قال الله تعالى عنه: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] يشهده الله وملائكته... وهذه فضيلة عظيمة واختصت أيضاً بأنها مفصولة عن الصلوات الخمس منفردة بوقتها ... فبينها وبين صلاة العشاء نصف الليل الأخير وبينها وبين صلاة الظهر نصف النهار الأول لأن وقت العشاء ينتهي بنصف الليل ولا يمتد إلى طلوع الفجر فإذا انتصف الليل خرج وقت صلاة العشاء وبقي هذا النصف إلى الفجر ليس وقتاً لصلاة مفروضة لكنه وقت التهجد لمن وفقه الله عز وجل.

أما من طلوع الشمس إلى زوال الشمس فليس أيضاً وقتاً لصلاة مفروضة وإنما هو وقت لصلاة مطلقة كصلاة الضحى وما أشبه ذلك فتميزت بأنها مشهودة وبأنها منفردة بوقتها لا يتصل بها ما قبلها ولا تتصل بما بعدها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

البردان: الصبح والعصر.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٣٤) كتاب المساجد.

أما صلاة العصر فتميزت بأنها الصلاة الوسطى... فإن الصلاة الوسطى بنص الحديث عن النبي ﷺ هي صلاة العصر وتميزت بأن الله تعالى نوه بفضلها وشرفها حيث خصّها بالذكر بعد أن عمّم فقال: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ هذا عام ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ يعنى صلاة العصر فخصّها بالذكر لفضيلتها.

وهناك فضائل وميزات اشتركت فيها صلاة الفجر وصلاة العصر... منها ما أشار إليه المؤلف رحمه الله في هذا الباب :

(١) أن من صلى البردين دخل الجنة.. والبردان هما صلاة الفجر وصلاة العصر لأن الفجر يأتي في براد الليل في آخره والعصر تأتي في براد النهار في آخره... ولذلك قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

(٢) وكذلك أخبر ﷺ أنه لا يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها... يعنى صلاة الفجر وصلاة العصر... ففي الأول إثبات دخول الجنة وفي الثانى انتفاء دخول النار فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿مَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ وهذا وعد من النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى: بأن من حافظ على صلاة الفجر قبل أن تطلع الشمس وصلاة العصر قبل غروبها أنه: «لن يلج النار»، أى: لن يدخلها... وهذا لا يمنع من المرور فوق الصراط، إنما يمنع من دخول النار.

فمن حافظ على تلك الصلاة وأحسن وضوءها وخشوعها وركوعها لن يلج النار.

وقوله ﷺ: «لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس»، أى: لم يؤخر الصبح إلى أن تطلع الشمس، ولا العصر إلى أن تغرب... فإذا سمع الأذان ذهب إلى الصلاة، وإن كان معذورًا صلى في بيته، ولكن لا يجعل الوقت يمر عليه إلى أن تطلع الشمس أو تغرب فيصليها كالمنافقين.

(١٠٥٦) وعن جُنْدَب بن سُفْيَانَ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَانْظُرْ يَا بَنَ آدَمَ لَا يَطْلُبَنَّكَ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ» ^(١).
 * وهذا حديث آخر عظيم يبين فضل الله ﷻ على عباده المؤمنين المحافظين على الصلوات... وأن الذي يصلى له من الله ﷻ المعونة والخير والبركة.

* ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ».. ومن المعلوم أن (مَنْ) من ألفاظ العموم.. أى مَنْ صلى الصبح سواء كان رجلاً أو امرأة في المسجد إلا إذا كان معذوراً فيصليها في البيت في وقتها.. مع العلم أن المرأة لا يلزمها صلاة الجماعة بل الأفضل لها أن تصلّيها في بيتها.. لكن لو أَحَبَّتْ أن تذهب مع مَحْرَم لها إلى صلاة الصبح «فلا تمنعوا إماء الله مساجد الله».
 * إذا.. «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ» أى: في عهد الله وأمانه وضمّانه.. أى له الضمان والعهد عند الله أن يدافع عنه وأن يتصر له وينتقم له ممن ظلمه... فاحذر أن تظلم أحداً يحافظ على صلاة الفجر، وإذا ظلمته فإن الله كيده متين يُملئ للظالم... ولا تغتر بأنك تصلّي الفجر؛ فإن الله ﷻ يتصر للمظلوم من ظالمه وإن كان الظالم يصلّي الفجر.

يقول ﷺ في رواية أخرى في صحيح مسلم: «فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء؛ فإنه مَنْ يطلبه الله من ذمته بشيءٍ يُدركه، ثم يَكْبَهُ على وجهه في النار».
 إن الظالم - وخاصة الذي يظلم مَنْ يصلّي الفجر - يُملئ الله له إلى أن يأخذه، فإذا أخذه لم يُفلته، بل يجعله عِبرة للخلق... هذا في الدنيا، أما في الآخرة فيكبه الله في النار، أى: يُدخله نار جهنم.

* فعلى الإنسان المسلم أن يكون من المصلين الذين تنهاهم صلاتهم عن

الفحشاء والمنكر وتدفعهم إلى فعل الخيرات والتحلّى بأجمل الأخلاقيات .. أما أن يصلى ثم يذهب فيظلم الخلق ويأكل حقوقهم ويخوض في أعراضهم ويأكل الحرام ويأخذ الرشوة فهذا ليس المصلى الذى ذكره النبى ﷺ أنه فى ذمة الله ..

وصلاته ليست التى ذكرها الله فى قوله: ﴿لَا تَأْكُلْ أَمْوَالَهُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ لأنه لا بد أن يظهر أثر هذه الصلاة على فعل العبد ... وذلك بأن يتقن عمله ويحسن إلى الخلق، ويفعل الخير، ويمتنع من الشر، ويجتنب الفواحش والمعاصى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٥٧) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرِجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَلَّ بِعِبَادِهِ مَلَائِكَةً مُعَقَّبَاتٍ يَتَعَاقَبُونَ فِينَا يَحْفَظُونَنَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ... فَوَكَّلَ مَلَائِكَةً يَنْزِلُونَ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَيُظَلُّونَ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَصْعَدُونَ بَعْدَ أَنْ يَنْزِلَ مَلَائِكَةُ آخَرُونَ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ وَيُظَلُّونَ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ..

فيصعد الذين باتوا فينا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.. فيسألهم - وهو أعلم بعبادِهِ ولا يحتاج إلى كلام الملائكة - يسألهم: كيف تركتم عبادي؟ وذلك لإظهار شرف عباده وفضلهم.. فالله يعلم السر وأخفى.. فتقول الملائكة: أتيناهم وهم يُصلُّون وتركناهم وهم يُصلُّون.. لأنهم يأتون فى أول الليل وأول النهار فيتعاقبون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ... هؤلاء ينزلون وهؤلاء يصعدون وقيد الله سبحانه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٥) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٢) كتاب المساجد.

وتعالى وقت صعودهم ونزولهم بهاتين الصلاتين لفضلهما ... لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى وصلاة الفجر هي الصلاة المشهودة.
 فيباهي الله ﷻ بهم الملائكة ... أهؤلاء الذي قلت: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]! فانظروا ماذا يعملون.

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَمَعْنَى يَتَعَاقِبُونَ تَأْتِي طَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ وَمِنْهُ تَعَقَّبُ الْجِيُوشِ وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى ثَغْرِ قَوْمٍ وَيَجِيءَ آخَرُونَ ... وَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمْ فِي الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ فَهُوَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكْرِمَةً لَهُمْ أَنْ جَعَلَ اجْتِمَاعَ الْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ وَمُفَارَقَتَهُمْ لَهُمْ فِي أَوْقَاتِ عِبَادَتِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ فَيَكُونُ شَهَادَتُهُمْ لَهُمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْخَيْرِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٥٨) وعن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(٢).

وفي رواية: «فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ».

✽ ففي هذا الحديث يخبر جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ.. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ يَكُونُ فِي قِمَّةِ اكْتِمَالِهِ وَوُضُوحِهِ وَبَهَائِهِ.. فَقَالَ ﷺ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْقَمَرِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ» وهذا من باب التشبيه للتقريب.. أي: تشبيه الرؤية بالرؤية وليس تشبيه المرئى بالمرئى...

(١) مسلم بشرح النووي (١٨٦/٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

فليس المعنى أن الله مثل القمر... لأن الله ليس كمثله شيء بل هو أعظم وأجلُّ هَزَوَلًا... وقد قال النبي ﷺ فيما صَحَّ عنه «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»^(١) لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية... فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيها اشتباه فإننا سنرى ربنا هَزَوَلًا كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه.

❁ قوله ﷺ: «لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» أى: لا يلحقكم ضيمٌ في رؤيته سبحانه وتعالى ولا مشقة.. والمراد هنا نفى ازدحام الناس لرؤيته.

فلو كان الناس في الدنيا يريدون أن ينظروا إلى القمر فلن يزدحموا في الشارع من أجل ذلك، بل إن كل إنسان سينظر إليه من مكانه، وهذه الرؤية التى أرادها النبي ﷺ كما في الحديث.

فكما أن الناس سينظرون إلى القمر من غير أن يضيم بعضهم بعضاً، كذلك في الجنة سيرون ربهم من منازلهم، فإذا كان يوم الجمعة حضروا بحسب ترتيبهم في صلاة الجمعة عندما كانوا في الدنيا... وبحسب مكانتهم عند ربهم هَزَوَلًا... فمن كان يأتى مبكراً قبل الباقيين سيكون حضوره في يوم المزيد في يوم الجمعة، فيرى ربه سبحانه، وينظر إلى وجه الله هَزَوَلًا.

❁ ثم قال ﷺ: «فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»... وفي هذا دليل على أن المحافظة على صلاة الفجر وصلاة العصر من أسباب النظر إلى وجه الله هَزَوَلًا.

ويا لها من نعمة عظيمة... فيا مَنْ تريد أن تستمتع بالنظر إلى وجه الله هَزَوَلًا حافظ على صلاة الفجر وصلاة العصر تنظر إلى وجه الله يوم القيامة في جنات النعيم.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٩) كتاب الإيمان.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَالرُّؤْيَا مُخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا يَرُونَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .. وَقِيلَ: يَرَاهُ مُنَافِقُوا هَذِهِ الْأُمَّةُ وَهَذَا ضَعِيفٌ.
وَالصَّحِيحُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَرَوْنَهُ كَمَا لَا يَرَاهُ بَاقِي الْكُفَّارِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ^(١).

❁ بَلْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ حَافِظٌ عَلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ ... عَنْ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعَصْرَ بِالْمُخَمَّصِ^(٢)، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَعُوهَا، فَمَنْ حَافِظٌ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»^(٣).

بَابُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ

(١٠٥٩) وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»^(٤).

❁ أَى: أَتَى وَقْتُ الصَّلَاةِ وَأُذِّنَ لِلصَّلَاةِ وَلَمْ يُصَلِّ بَلْ تَشَاغَلَ عَنْهَا إِلَى أَنْ خَرَجَ وَقْتُهَا.. فَهَذَا الْعِقَابُ لِمَنْ تَرَكَ هَذِهِ الصَّلَاةَ إِلَى أَنْ خَرَجَ وَقْتُهَا عَامِداً ذَاكِراً.
أَمَّا إِذَا كَانَ نَاسِياً أَوْ مُكْرَهاً فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أَمْتِي الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»، فَإِذَا تَرَكَهَا خَطَأً أَوْ نِسْيَاناً أَوْ إِكْرَاهاً فَهُوَ مُعْذُورٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ مُتَعَمِّداً يَنْشَغُلُ وَيَلْعَبُ إِلَى أَنْ خَرَجَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَقَدْ حَبِطَ مِنْهُ عَمَلُ يَوْمِهِ ... فَإِذَا اسْتَمَرَّ عَلَى ذَلِكَ حَبِطَ الْعَمَلُ كُلُّهُ.

❁ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: قِيلَ الْمُرَادُ مَنْ تَرَكَهَا جَاحِداً لَوْجُوبِهَا أَوْ مُعْتَرِفاً لَكِنْ مُسْتَخِفًّا مُسْتَهْزِئًا بِمَنْ أَقَامَهَا... وَقِيلَ الْمُرَادُ مَنْ تَرَكَهَا مُتَكَاْسِلاً لَكِنْ

(١) مسلم بشرح النووي (٥/١٨٧).

(٢) الْمُخَمَّصُ: اسْمُ طَرِيقٍ.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٣٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٥٥٣) كتاب مواقيت الصلاة.

خَرَجَ الْوَعِيدُ مَخْرَجَ الزَّجْرِ الشَّدِيدِ وَظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ كَقَوْلِهِ «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» كَأَنَّ الْمَعْنَى فَقَدْ أَشْبَهَ مَنْ حَبِطَ عَمَلُهُ ... وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَادَ أَنْ يَحْبِطَ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَبِطِ نَقْصَانُ الْعَمَلِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الَّذِي تَرَفَّعَ فِيهِ الْأَعْمَالُ إِلَى اللَّهِ ... فَكَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْعَمَلِ الصَّلَاةُ خَاصَّةً أَيْ لَا يَحْصُلُ عَلَى أَجْرِ مَنْ صَلَّى الْعَصْرَ وَلَا يَرْتَفِعُ لَهُ عَمَلُهَا حِينَئِذٍ ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحَبِطِ الْإِبْطَالُ أَيْ يَبْطُلُ انْتِفَاعُهُ بِعَمَلِهِ فِي وَقْتٍ مَا ثُمَّ يَنْتَفِعُ بِهِ ... وَأَقْرَبُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ خَرَجَ مَخْرَجَ الزَّجْرِ الشَّدِيدِ وَظَاهِرُهُ غَيْرُ مُرَادٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩) باب فضل المشي إلى المساجد

(١٠٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نَزْلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٥) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

✽ والمقصود بالمشي إلى المساجد: أى لأداء الصلاة فيها .. ولكن قد يكون المشي إلى المساجد لطلب العلم أو لمُدارسة القرآن أو لغير ذلك .. فمن غدا: أى ذهب إلى المسجد في الصباح .. أو راح: يعنى ذهب في العشى بعد الزوال فإن الله يكتب له نَزْلاً في الجنة .. يعنى ضيافة في الجنة خمس مرات في اليوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَضَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، لِيَقْضَى فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ، كَانَتْ خُطْوَاتُهُ، إِحْدَاهَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»^(٢).

✽ وهنا يخبر النبي ﷺ أَنَّ مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ وَأَسْبَغَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فَإِنَّهُ لَا يَخْطُو خُطْوَةً إِلَّا حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ خَطِيئَةً .. والخطوة الأخرى يرفعه الله بها درجة في الجنة ... فيكتسب في الخطوة الواحدة رفع الدرجة وَحَطَّ الخَطِيئَةَ بشرط أن يتوضأ في بيته ويُسبغ الوضوء ثم يخرج إلى المسجد لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ ... فهذا له بكل خطوة يخطوها أن يرفع الله له بها درجة وَيَحُطُّ عَنْهُ خَطِيئَةً.

✽ وكلما كان المسجد بعيداً كلما ازدادت الخطوات وزاد الأجر والدرجات.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢) كتاب الأذان - ومسلم (٦٦٩) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٦) كتاب المساجد.

(١٠٦٢) وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصارِ لا أعلم أحداً أبعدَ من المسجدِ منه، وكانت لا تُخطئُهُ صلاةٌ، فقيل له: لو اشتريتَ حماراً لتركته في الظلِّماءِ وفي الرَّمضاءِ، قال: ما يسرُّني أنْ منزلي إلى جنبِ المسجدِ، إنني أريدُ أنْ يُكتبَ لي ممشاي إلى المسجدِ ورُجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي. فقال رسولُ الله ﷺ: «قد جَمَعَ اللهُ لك ذلك كُلَّهُ»^(١).

(١٠٦٣) وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: خَلَّتِ البقاعُ حَوْلَ المسجدِ، فأرادَ بنو سَلَمَةَ أنْ يَتَنَقَّلُوا قُرْبَ المسجدِ، فبلغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ، فقال لهم: «بَلَّغْنِي أَنْكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَتَنَقَّلُوا قُرْبَ المسجدِ؟» قالوا: نعم يا رسولَ الله، قد أردنا ذلكَ، فقال: «بَنِي سَلَمَةَ ديارُكُمْ تُكْتَبُ آثارُكُمْ، ديارُكُمْ تُكْتَبُ آثارُكُمْ» فقالوا: ما يسرُّنا أنَّا كُنَّا تَحُولُنَا^(٢).

✽ سبق شرح هذين الحديثين كاملين بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديثين رقم (١٣٩، ١٤١) فأرجو الرجوع إليهما... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦٤) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ أعْظَمَ الناسِ أَجْراً في الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًى فَأَبْعَدُهُمْ. والذي يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا معَ الإمامِ أعْظَمَ أَجْراً مِنَ الذي يُصَلِّيَهَا ثُمَّ يَنَامُ»^(٣).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النَّبيُّ ﷺ ويقول: «إِنَّ أعْظَمَ الناسِ أَجْراً في الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًى فَأَبْعَدُهُمْ».

فمن المعلوم أن الإنسان إذا تطهر في بيته وخرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة فقط فإنه لا يخطو خطوة إلا حَطَّ الله عنه خطيئة ورفع له بها درجة ولا

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٦٣) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٦٥) كتاب المساجد - ورواه البخاري مختصراً (٦٥٥)، (٦٥٦) كتاب الأذان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥١) كتاب الأذان - ومسلم (٦٦٢) كتاب المساجد.

تزال الملائكة تصلى عليه ما دام جالسًا في مُصلاه وما لم يحدث..
فإذا كان بيتك بعيدًا عن المسجد ومع ذلك فأنت حريصٌ على حضور
الصلاة في جماعة فإنك تكون أعظم أجرًا من القريب المجاور للمسجد..
وذلك لأن القريب ليس له أى عذرٍ في ترك صلاة الجماعة لأن وصوله إلى
المسجد سهلٌ ميسور.

أما البعيد فقد يكون له شىء من العذر لبُعده ومع ذلك يتجشم البُعد ويأتى
إلى المسجد ويصلى مع الجماعة فكان هذا أفضل.

❁ ثم ذكر النبى ﷺ أن الذى ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أعظم
أجرًا من الذى يصليها ثم ينام.

والمقصود هنا: صلاة العشاء.. فإن المشروع في صلاة العشاء أن تُؤخَّر إلى
ثُلث الليل لأن النبى ﷺ صلى العشاء ذات يوم وقد مضى عامة الليل وقال: «إِنَّهُ
لَوْ قُتِلَ لَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي»^(١) فهذا الذى صلى وحده ونام لأنه يشق عليه أن
ينتظر صلاة الجماعة لكونهم يؤخرونها نقول له: إذا انتظرت وصليت مع
الجماعة فهو أفضل وأما إذا كان الإمام يصلى في الوقت المعتاد بعد أذان العشاء
بثلث ساعة فإنه لا يجوز للإنسان أن يصلى وحده ثم ينام لأن صلاة الجماعة
واجبة حتى إن النبى ﷺ قال: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتَقَامَ، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا
فِيصَلَّى بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرَجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ
الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ يَبُوتَهُمْ بِالنَّارِ»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٣٨) كتاب المساجد، من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤) كتاب الأذان، ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(١٠٦٥) وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَشِّرُوا الْمَشَائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❁ قوله ﷺ: «بَشِّرُوا الْمَشَائِينَ» .. وفي رواية: «بَشِّرِ الْمَشَائِينَ».

أى: احمّلوا لهم البُشرى...

والمُخَاطَبُ بذلك الصحابة فَمَنْ بعدهم .. «الْمَشَائِينَ» جمع المشاء وهو كثير المشى «فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ» جمع ظُلْمَةٌ وهى تَعُمُّ ظُلْمَةُ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ. ❁ «بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قال المناوى: أى بالنور التام الَّذِى يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ... أَى عَلَى الصَّرَاطِ ... لَمَّا قَاسَوْا مَسَقَّةَ الْمَشْيِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ جُوزُوا بِنُورٍ يُضِيءُ لَهُمْ وَيُحِيطُهُمْ ... وَقَالَ الطَّبِيبُ: فِي وَصْفِ النُّورِ بِالتَّامِّ وَتَقْيِيدِهِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ تَلْمِيحٌ إِلَى وَجْهِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا﴾ وَإِلَى وَجْهِ الْمُتَنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿انظُرُونَا نَقْنِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾^(٢).

أى بَشِّرْ كُلَّ مَاشٍ إِلَى الْمَسْجِدِ فِي الظُّلْمَةِ «بِالنُّورِ التَّامِّ» أى مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ ... فَإِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي النُّورِ عَلَى قَدَرِ الْأَعْمَالِ.

«يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أى عَلَى الصَّرَاطِ ... قَالَ ابْنُ رِسْلَانَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِالنُّورِ الْمَنَابِرُ الَّتِى مِنَ النُّورِ ... لِرَوَايَةِ الطَّبْرَانِى: «بَشِّرِ الْمُتَدَلِّجِينَ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الظُّلَمِ بِمَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَفْزَعُ النَّاسَ وَلَا يَفْزَعُونَ».

وفى الحديث: فَضْلُ الْمَشْيِ إِلَى الصَّلَاةِ سَوَاءً كَانَ الْمَشْيُ طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا، وَفَضْلُ الْمَشْيِ إِلَيْهَا لِلْجَمَاعَاتِ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ^(٣).

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٨٢٣).

(٢) تحفة الأحوذى (١/٤٨١).

(٣) دليل الفالحين (٣/٤٧٣).

فأبشريا مَنْ تحرص على الذهاب إلى المسجد في صلاة العشاء والفجر في ظلمة الليل بالنور التام يوم القيامة.. حينما يصعد الناس يوم القيامة على الصراط المنصوب على نار جهنم المظلمة فتجد أنوار الذهاب إلى المسجد في ظلام الليل أمامك وعن يمينك تُضيء لك طريقك على الصراط.. وغيرك غارق في الظلام يتخبط على الصراط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرَّبَاطُ، فَذَلِكَ الرَّبَاطُ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٣) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٦٧) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَتَعَادُ الْمَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ» قَالَ اللَّهُ ﷻ: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) كتاب الطهارة.

(٢) ضعيف: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٠٩).

(١٩٠) باب فضل انتظار الصلاة

(١٠٦٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلَاةُ تَحِسُّهُ، لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ»^(١).

✽ فالذى يذهب إلى المسجد مُبَكَّرًا وينتظر الصلاة حتى تُقام فهو في صلاة وكذلك الذى يصلى صلاةً ثم يجلس فى المسجد لينتظر الصلاة التى تليها فهو فى صلاة.. كمن يصلى المغرب وينتظر صلاة العشاء فهو فى صلاة.

✽ بل إن الملائكة تصلى على أحدكم ما دام فى مُصَلَّاه وتقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ».. لكن بشرط: «مَا لَمْ يُحْدِثْ».

بِمَا يَحْتَجُّونَ بِهِ رَبَّهُمْ عَلَيْهِمْ

(١٠٦٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ»^(٢).

✽ وقوله: «مَا لَمْ يُحْدِثْ» قيل: ما لم يُحْدِث حَدَثًا فى الإسلام.. يعنى ما لم يعصِ وقيل: ما لم يُحْدِث حَدَثًا ينقض الوضوء لأنه إذا أحدث حَدَثًا ينقض الوضوء؛ فإنه يُبطل الصلاة فيمنع أن يكون فى صلاة... وأيًا كان ففيه دليل على فضيلة انتظار الصلاة بعد الصلاة وعلى فضيلة انتظار الصلاة وإن لم يكن بعد الصلاة.

ومهما طال الوقت فى انتظار الصلاة فأنت فى صلاة.

بِمَا يَحْتَجُّونَ بِهِ رَبَّهُمْ عَلَيْهِمْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٩) كتاب الأذان، ومسلم (٦٤٩) (٢٧٥) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٩) كتاب الأذان.

(١٠٧٠) وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أَمَرَ لَيْلَةَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى شَطْرِ اللَّيْلِ ^(١)، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ بَعْدَ مَا صَلَّى، فَقَالَ: «صَلَّى النَّاسُ وَرَقَدُوا وَلَمْ تَزَالُوا فِي صَلَاةٍ مُنْذُ انْتَضَرْتُمُوهَا» ^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يُخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أَمَرَ لَيْلَةَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى شَطْرِ اللَّيْلِ.. أَيْ: إِلَى مُتَنَصِفِ اللَّيْلِ.. وَالصَّحَابَةُ يَتَنَظَّرُونَ النَّبِيَّ ﷺ.. فَلَمَّا انْتَهَى النَّبِيُّ ﷺ مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَتَأَخَّرِ أَقْبَلَ عَلَى الصَّحَابَةِ بِوَجْهِهِ الْأَنُورِ ﷺ وَقَالَ لَهُمْ: «صَلَّى النَّاسُ وَرَقَدُوا وَلَمْ تَزَالُوا فِي صَلَاةٍ مُنْذُ انْتَضَرْتُمُوهَا» أَيْ: أَنَّهُ كُتِبَ لَهُمْ مِنْذُ وَقْتِ الْعِشَاءِ إِلَى نِصْفِ اللَّيْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي صَلَاةٍ وَكَأَنَّهُمْ يُصَلُّونَ طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ الطَّوِيلِ.

فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَفْضَلَ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ أَنْ تُؤَخَّرَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَشَقَّةٌ عَلَى النَّاسِ أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ فَالْأَفْضَلُ أَنْ يُقَدِّمُوهَا لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الدِّينِ، التَّيْسِيرُ وَلَيْسَ الْمَشَقَّةُ.. وَمَا خَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا.

وَعَلَى هَذَا فَإِذَا كَانُوا جَمَاعَةً فِي سَفَرٍ أَوْ فِي غَيْرِ سَفَرٍ أَوْ فِي بَلَدٍ لَا تُقَامُ فِيهَا جَمَاعَاتٌ فَإِنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ تُؤَخَّرَ الصَّلَاةُ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ مُتَنَصِفِ اللَّيْلِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنْ هَذَا لَوْ قَتَلَهَا لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي» وَكَانَ ﷺ فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِذَا رَأَاهُمْ اجْتَمَعُوا عَجَلًا، وَإِذَا رَأَاهُمْ أَبْطَأُوا آخِرًا.

✽ وَلَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي فَضْلِ انْتِظَارِ الصَّلَاةِ.. وَإِلَيْكَ بَعْضُهَا:

✽ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] «نَزَلَتْ فِي انْتِظَارِ الصَّلَاةِ الَّتِي

(١) شَطْرُ اللَّيْلِ: نِصْفُهُ.

(٢) صَحِيح: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠٠) كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، (٦٦١) كِتَابُ الْأَذَانِ.

تُدْعَى الْعَتَمَةُ»^(١) - أى: العشاء -.

✽ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: صلينا مع رسول الله ﷺ المغرب فرجع من رجع وعقب من عقب فجاء رسول الله ﷺ مُسرِعاً قد حَفَزَهُ النَّفْسُ قد حَسَرَ عن رُكْبَتَيْهِ قال: «أَبْشُرُوا، هَذَا رَبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةُ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى»^(٢).

✽ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَإِعْمَالُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، يَغْسِلُ الْخَطَايَا غَسْلاً»^(٣).

✽ وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْقَاعِدُ عَلَى الصَّلَاةِ كَالْقَانِتِ، وَيُكْتَبُ مِنَ الْمُصَلِّينَ مَنْ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ»^(٤).

قوله ﷺ: «الْقَاعِدُ عَلَى الصَّلَاةِ كَالْقَانِتِ» أى: أجره كأجر المصلي قائماً، ما دام قاعداً ينتظر الصلاة... لأن المراد بالقنوت هنا: القيام بالصلاة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٨٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٦) والصحيحة (٦٦١).

(٣) صحيح: رواه الحاكم، وأبو يعلى، والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٦).

(٤) صحيح: رواه أحمد وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٣٧).

(١٩١) باب فضل صلاة الجماعة

❦ بعدما حدثتك عن فضل الصلوات الخمس بقى أن أسألك سؤالاً هاماً:
هل أنت تصلّى في البيت أم في المسجد؟
لا بد أن تعلم أن صلاة الجماعة أفضل من صلاتك وحدك في بيتك خمساً وعشرين مرة.

فإذا توضأت وذهبت إلى المسجد ماشياً، فلك بكل خطوة تخطوها رفع درجة، أو مغفرة ذنب حتى تدخل المسجد.
وإذا جلست في المسجد تنتظر الصلاة فكانك في الصلاة، ويكتب الله لك بانتظارك أجر الصلاة... ثم وأنت جالس تنتظر الصلاة، ومُحافظ على وضوئك تستغفر لك الملائكة، وتدعو لك بالرحمة... فيا لها من عود وهباتٍ وعطايا من الله الكريم، حذار أن تضيع منك^(١).

ما حكم صلاة الجماعة؟

صلاة الجماعة واجبة في الصلوات الخمس.. وقد دلّ على وجوبها الكتاب والسنة،... فمن الكتاب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنُفَقِّمَنَّكَ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢] والأمر للوجوب وإذا كان ذلك مع الخوف فمع الأمن أولى.

ومن السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْقُلُ الصَّلَاةَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةَ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْتَلِقَ

(١) ابن الإسلام (ص: ٦٤).

مَعَى بَرِّجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِّنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمَ بِالنَّارِ»^(١).

فَدَلَّ الْحَدِيثُ عَلَى وَجُوبِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ﷺ:

أَوَّلًا: وَصَفَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْهَا بِالنِّفَاقِ... وَالتَّخَلُّفِ عَنِ السُّنَّةِ لَا يُعَدُّ مُنَافِقًا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ تَخَلَّفُوا عَنْ وَاجِبٍ.

ثَانِيًا: أَنَّهُ هَمَّ بِعُقُوبَتِهِمْ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنْهَا... وَالْعُقُوبَةُ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ، وَإِنَّمَا مَنَعَهُ مِنْ تَنْفِيزِ الْعُقُوبَةِ أَنَّهُ لَا يِعَاقِبُ بِالنَّارِ إِلَّا اللَّهَ ﷻ... وَقِيلَ: مَنَعَهُ مِنْ ذَلِكَ مَنْ فِي الْبُيُوتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ الَّذِينَ لَا تَجِبُ عَلَيْهِمْ صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ.

❁ وَمِنْهَا: أَنَّ رَجُلًا كَفِيفَ الْبَصَرِ لَيْسَ لَهُ قَائِدٌ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَ: «أَتَسْمَعُ النِّدَاءَ». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «أَجِبْ لَا أَجِدُ لَكَ رَخْصَةً»^(٢).

❁ وَلَكِي تَحَرَّصَ أَكْثَرُ وَأَكْثَرُ عَلَى صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ فَسَوْفَ أَذْكَرُ لَكَ بَعْضَ فَضَائِلِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ فِي جَمَاعَةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٧١) عَنْ ابْنِ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَدْلِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»^(٣).

(١٠٧٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٤) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٣) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٥) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥٠) كتاب المساجد.

تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ. وَلَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظَرَ الصَّلَاةَ»^(١).

❁ القاعدة: أن مَنْ ترك واجباً في الصلاة بطلت صلاته لكن الراجح أن صلاة الجماعة واجبة يأثم الإنسان بتركها ولكن إذا صلى وحده قُبِلَت صلاته؛ لأنها ليست شرطاً لصحة الصلاة.. ووجه الدلالة أنه لو كانت صلاة المنفرد لا ثواب فيها ما صحَّت المُفاضلة... ولكن يأثم الإنسان الذي لا يصلي مع الجماعة... وأما حديث أبي هريرة فبيِّن النبي ﷺ أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المرء في بيته وفي سوقه بخمسٍ وعشرين ضعفاً... ولا مُنافاة بين الحديثين بل يُؤخَذُ بالزائد؛ لأن فضل الله واسع... ثم بيَّن ذلك فقال: وذلك أنه إذا توضأ في بيته فأَسْبَغَ الوضوءَ يعني أتمَّه ثم خرج من بيته إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة لم يَخْطُ خطوة إلا رُفِعَتْ له بها درجة وحُطَّتْ عنه بها خطيئة.

الخطوة الواحدة فيها فائدتان:

(١) أنه يُرْفَعُ له بها درجة. (٢) أنه يُحْطُ عنه بها خطيئة.

فإذا دخل المسجد وصلى لم تنزل الملائكة تصلي عليه مادام في مُصَلَّاهُ تقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يُحْدِثْ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة... وهذا أجرٌ عظيم وفضلٌ كبير لا ينبغي للرجل المؤمن العاقل أن يفرط فيه... لو أنه قيل لك إن سلعتك إذا بعته في بلدك بعته بمائة وإذا بعته في بلدٍ آخر بالسفر إليه بعته بمائة وعشرة لسافرت من أجل عشرة بالمائة ولم يشق عليك السفر... والكثير من الناس والعياذ بالله حُرِّمُوا من الخير.

تجدهم قريبين من المسجد ويتركون هذا الفضل العظيم وهذا المكسب العظيم... الصلاة الواحدة بسبعٍ وعشرين مرة.. ومع ذلك لا يأتي إلى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٤٩) كتاب المساجد.

المسجد... وربح الدنيا مع قلته يسعى إليه ويهتم به مع أنه زائل... فإن كل ما في الدنيا من نعيم فإما أن يزول عنك بالفقر، وإما أن تزول عنه بالموت... فما من نعيم في الدنيا دائم ولا إقامة دائمة... ونعيم الآخرة باقٍ ومع ذلك نجد بعض الناس يفرط فيه ولا يهتم به... وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء... نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٧٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ، فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «هَلْ تَسْمَعُ النَّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَجِبْ»^(٢).

(١٠٧٤) وعن عبد الله - وقيل: عمرو - بن قيس المعروف بابن أم مكتوم المؤذن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْمَدِينَةَ كَثِيرَةُ الْهَوَاءِ وَالسَّبَاعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فَحَيَّ هَلَا»^(٣).

❖ وهناك رواية ثالثة عند أبي داود عن ابن أم مكتوم، أنه سأل النبي ﷺ فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَجُلٌ ضَرِيرُ الْبَصَرِ شَاسِعُ الدَّارِ، وَلِي قَائِدٌ لَا يُلَايِمُنِي، فَهَلْ لِي رُخْصَةٌ أَنْ أَصَلِّيَ فِي بَيْتِي؟ قَالَ: «هَلْ تَسْمَعُ النَّدَاءَ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «لَا أَجِدُ لَكَ رُخْصَةً».

❖ ففي الرواية الأولى أن ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو رجلٌ أعمى - جاء إلى النبي ﷺ وقال له: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ.. وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ وَلَدٌ كَبِيرٌ أَوْ أَخٌ أَوْ رَبِمَا كَانَ ذَلِكَ لَانْشغالهم أو لبُعدهم عن بيته أو غير ذلك.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ١٥٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٥٣) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥١٧).

ومعنى «حَيَّ هَلَا»: تعال.

المهم أنه رجل أعمى لا يرى وسأل النبي ﷺ أن يُرخص له في أن يصلى في بيته.. وبالفعل فقد رخص له النبي ﷺ في بداية الأمر.. فلما ولى وهم بالانصراف دعاه النبي ﷺ مرة أخرى وقال له: «هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟» أى: هل تسمع الأذان؟ قال: نَعَمْ، قال: «فَأَجِبْ»

✽ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَنْ قَالَ: الْجَمَاعَةُ فَرَضُ عَيْنٍ ... وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ عَنْهُ بِأَنَّهُ سَأَلَ هَلْ لَهُ رُخْصَةٌ أَنْ يُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ وَتَحْصُلَ لَهُ فَضِيلَةُ الْجَمَاعَةِ بِسَبَبِ عُذْرِهِ فَقِيلَ لَا وَيُؤَيِّدُ هَذَا أَنَّ حُضُورَ الْجَمَاعَةِ يَسْقُطُ بِالْعُذْرِ بِاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ ... وَدَلِيلُهُ مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ عِثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ الْمَذْكُورِ بَعْدَ هَذَا^(١).

وفيه أَنَّ عِثْبَانَ بْنَ مَالِكٍ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ - أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ بَصْرِي، وَأَنَا أَصَلِّي لِقَوْمِي، وَإِذَا كَانَتِ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَلَمْ أُسْتَطِعْ أَنْ أَتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ لَهُمْ، وَدِدْتُ أَنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَأْتِي فَتُصَلِّيَ فِي مُصَلِّي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلِّي، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَافِعُلٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، قَالَ عِثْبَانُ: فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَذْنَتْ لَهُ، فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أَصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟» قَالَ: فَأَشْرْتُ إِلَى نَاحِيَةِ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَبَّرَ، فَقُمْنَا وَرَاءَهُ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ^(٢).

✽ وَأَمَّا تَرْخِيصُ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ثُمَّ رَدُّهُ مَرَّةً أُخْرَى وَقَوْلُهُ فَأَجِبْ فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ بُوْحَى نَزَلَ فِي الْحَالِ وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ تَغَيَّرَ اجْتِهَادُهُ ﷺ إِذَا قُلْنَا بِالصَّحِيحِ

(١) مسلم بشرح النووي (٥/ ٢١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٣) (٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

وَقَوْلُ الْأَكْثَرِينَ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ الْإِجْتِهَادُ ... وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ رَخَّصَ لَهُ أَوَّلًا وَأَرَادَ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْكَ الْحُضُورُ إِلَّا لِعُذْرٍ وَإِمَّا لِأَنَّ فَرَضَ الْكِفَايَةِ حَاصِلٌ بِحُضُورٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا لِلأَمْرَيْنِ ... ثُمَّ نَذَبَهُ إِلَى الْأَفْضَلِ فَقَالَ: الْأَفْضَلُ لَكَ وَالْأَعْظَمُ لِأَجْرِكَ أَنْ تُجِيبَ وَتَحْضُرَ «فَأَجِبْ»^(١).

❁ وفي الرواية الثانية قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله إِنَّ الْمَدِينَةَ كَثِيرَةُ الْهَوَامِّ وَالسَّبَاعِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسْمَعُ حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ، فَحَيَّ هَلَا». (كَثِيرَةُ الْهَوَامِّ) أَيِ الْمُؤَذِّيَّاتِ مِنَ الْعَقَارِبِ وَالْحَيَّاتِ (وَالسَّبَاعِ) كَالذَّنَابِ أَوْ الْكِلَابِ (حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ) أَيِ الْأَذَانِ وَإِنَّمَا خُصَّ اللَّفْظَانِ لِمَا فِيهِمَا مِنْ مَعْنَى الطَّلَبِ (فَحَيَّ هَلَا) قَالَ الطَّبِيبُ: كَلِمَةُ حَثٍّ وَاسْتِعْجَالٍ وَضِعَتْ مَوْضِعَ أَجِبَ.

وقال ابن الأثير في النهاية: وهى كَلِمَتَانِ جُعِلَتَا كَلِمَةً وَاحِدَةً ... فَحَيَّ بِمَعْنَى أَقْبِلْ ... وَهَلَا بِمَعْنَى أَسْرِعَ.

❁ وفي الرواية الثالثة أن ابن أم مكتوم قال للنبي ﷺ إِنِّي رَجُلٌ (ضَرِيرُ الْبَصَرِ) أَيِ أَعْمَى (شَاسِعُ الدَّارِ) أَيِ بَعِيدُ الدَّارِ (وَلِي قَائِدٌ) الْقَائِدُ هُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ يَدَ الْأَعْمَى وَيَأْخُذُهَا وَيَذْهَبُ بِهِ حَيْثُ شَاءَ وَيَجْرُهُ (لَا يُلَاوِمُنِي) ... قَالَ الْخَطَّابِيُّ: هَكَذَا يُرَوَّى فِي الْحَدِيثِ وَالصَّوَابُ لَا يُلَاوِمُنِي أَيِ لَا يُوَافِقُنِي وَلَا يُسَاعِدُنِي فَأَمَّا الْمُلَاوِمَةُ فَإِنَّهَا مُفَاعَلَةٌ مِنَ اللَّوْمِ وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُضُورَ الْجَمَاعَةِ وَاجِبٌ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ نَدْبًا لَكَانَ أَوْلَى مَنْ يَسَعُهُ التَّخَلُّفُ عَنْهَا أَهْلُ الضَّرَرِ وَالضَّعْفِ وَمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ... وَكَانَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ يَقُولُ: لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْحَضَرِ وَالْقُرْبَةِ رُحْصَةٌ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ فِي أَنْ يَدْعَ الصَّلَاةَ جَمَاعَةً ... وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ

لا طاعة للوالد في ترك الجمعة والجماعات يسمع النداء أو لم يسمع ...
وكان أبو ثور يوجب حضور الجماعة واحتج هو وغيره بأن الله عز وجل أمر
رسول الله ﷺ أن يصلي جماعة في صلاة الخوف ولم يعذر في تركها فعقل أنها
في حال الأمن أوجب ... وأكثر أصحاب الشافعي على أن الجماعة فرض على
الكفاية لا على الأعيان وتأولوا حديث ابن أم مكتوم على أنه لا رخصة لك إن
طلبت فضيلة الجماعة وأنت لا تحرز أجرها مع التخلف عنها بحال ... واحتجوا
بقوله ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة ألف سبعة وعشرين درجة» انتهى.

❁ «هل تسمع النداء» أي الإعلام والتأذين بالصلاة «لا أجد لك رخصة».
قال على القاري: معناه لا أجد لك رخصة تحصل لك فضيلة الجماعة من غير
حضورها لا الإيجاب على الأعمى فإنه ﷺ رخص لعبان بن مالك في تركها
ويؤيد ما قلنا «من سمع النداء فلم يأتيه فلا صلاة له إلا من عذر»^(١).
❁

(١٠٧٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لقد
هممت أن أمر بحطب فيحطب، ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم أمر رجلاً فيؤم
الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم»^(٢).

❁ هذا الحديث يوضح وجوب صلاة الجماعة وأن تكون في المسجد.
ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ أقسم - وهو الصادق المصدوق بدون قسم
أنه هم أن يأمر بالصلاة فتقام، ثم يأمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم ينطلق بحزم من
حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فيحرق عليهم بيوتهم بالنار.
وهذا يدل على وجوب صلاة الجماعة؛ لأن النبي ﷺ لا يهمل هذا الهم إلا
لترك أمر واجب، ولا يخبر الناس بذلك إلا ليحذرهم من تركه ومخالفته، وإلا

(١) عون المعبود (٢/ ١٨٠-١٨١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٤) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

لم يكن هناك فائدة... وكونه ﷺ هم أن يعاقبهم هذه العقوبة دليل على تأكد الجماعة وأنها واجبة.

❁ وذلك لأنه ﷺ هم بعقوبتهم على التخلف عنها... والعقوبة إنما تكون على ترك واجب... وأما الذي منعه من تنفيذ العقوبة أنه لا يعاقب بالنار إلا الله عز وجل.. وقيل: منعه من ذلك من في البيوت من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم صلاة الجماعة.

ودل ذلك أيضًا على أنها تجب في المسجد وأنه ليس المقصود الجماعة فقط بل الجماعة وأن تكون في المسجد... ودل ذلك أيضًا على أن العبرة بسماع النداء... ودل ذلك أيضًا على أنه لا يصح اقتداء من كان خارج المسجد بمن في المسجد ولو أمكنه أن يقتدى به... يعني - مثلاً - لو كان الإنسان عنده بيت بجوار المسجد وهو يسمع تكبيرات الإمام فقال لابنه - مثلاً - نصلي مع الإمام جماعة في بيتنا فإن ذلك لا يصح؛ لأنه لا بد من حضور المكان الذي تُقام فيه الجماعة... إلا أنه إذا امتلأ المسجد، وصلى الناس في الأسواق فإن الذين خارج المسجد يكونون تبعًا لمن في المسجد في اتصال الصفوف، وإلا فبدون اتصال الصفوف فإن من كان خارج المسجد لا تصح صلاته مع أهل المسجد... لا بد من الحضور حتى لو كان يسمع كل التكبيرات.

فإذا قال قائل: إذا كان الإنسان مريضًا ولا يستطيع الحضور لكن يسمع النداء بواسطة الميكروفون فهل يتابع الإمام؟.

قلنا: لا يصلي مع الإمام هو معذور في ترك الجماعة... وإذا كان من عادته أنه يصلي مع الجماعة فإنه يكتب له ما كان يعمل لَمَا كان صحيحًا.

لقول النبي ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»^(١). والله أعلم.

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٩٩٦) كتاب الجهاد والسير.

(١٠٧٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: مَنْ سَرَّه أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى غَدًا مُسْلِمًا فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ، يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ ^(١).

وفي رواية له قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُؤَذَّنُ فِيهِ.

❁ ساق المؤلف رحمته الله في باب فضل الجماعة هذا الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ... هذا الأثر الذي كأنما يخرج من مشكاة النبوة؛ كأنه من كلام الرسول ﷺ في سلاسته وحُسْنِهِ وَنَظْمِهِ... يقول ﷺ: مَنْ سَرَّه أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيَحَافِظْ عَلَى هَذِهِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ - وكلنا يسره أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى مُسْلِمًا مُؤْمِنًا بِهِ (جل وعلا) فمن أراد ذلك فليحافظ على هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ - أَى: فِي الْمَكَانِ الَّذِي نَادَى بِهِ عَلَيْهِنَّ، أَى: الْمَسَاجِدَ - وذلك لوجوب صلاة الجماعة في المسجد فلا يجوز لأَحَدٍ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَصَلِيَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا وَجِبَ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ وَجُوبِ الْجَمَاعَةِ كَالرِّجَالِ... ثم ذكر ﷺ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى شَرَعَ لِنَبِيِّهِ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى - يَعْنِي طُرُقَ الْهُدَى - فكل ما جاء به النبي ﷺ فَهُوَ هُدًى وَنُورٌ شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ... «وإنهن» - يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ - مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَصَدَقَ ﷺ بَلِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ أَعْظَمُ سُنَنِ الْهُدَى بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ... لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «لَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا صَلَّيَ هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٤) كتاب المساجد.

نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم» - يعنى: لو أن كل واحد صلى في بيته كما صلى هذا المتخلف لتركنا السنة ولتعطلت المساجد ولانقطع الناس بعضهم عن بعض، ولما تعارفوا ولا تألفوا، ولا حصل هذا المظهر العظيم في الدين الإسلامى، ولكن من رحمة الله وحكمته أن شرع للعباد أن يصلّوا جماعة؛ كل يوم خمس مرات .. تلقى أخاك تسلم عليه ويسلم عليك وتقتدى معه على إمام واحد فهى نعمة عظيمة من أعظم روابط الأخوة في المودة والمحبة.

ثم قال: «ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق» والمنافقون كثيرون لاسيما إذا اعتز الإسلام وقوى ما استطاع الإنسان أن يعلن كفره ... ولهذا لم يبرز النفاق ولم يكثر في عهده ﷺ إلا حين انتصر المسلمون في غزوة بدر.

لما انتصر المسلمون في غزوة بدر ... في السنة الثانية من الهجرة بدأ النفاق يظهر ... خاف الكفار على أنفسهم فصاروا يعلنون الإسلام؛ حتى إنهم يأتون إلى الرسول ﷺ يقولون: ﴿شَهِدْ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ﴾، فيقول الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ يعنى: ما قالوا ذلك صدقاً بل قالوا بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ... قوله: «ما يتخلف عنها إلا منافق»: لماذا يتخلف المنافق؟ لأن المنافق لا يرجو ثواباً، ولا يؤمن بالحساب، فلا يحضرها ... ولهذا قال الرسول ﷺ: «أثقل الصلوات على المنافقين: العشاء، والفجر»؛ لأن صلاة العشاء لا يرى فيها الذى يتخلف ففي عهد النبي ﷺ لم يكن يوجد كهرباء ولا أنوار فيتخلف الإنسان ولا يُدري عنه ... ثم إن صلاة العشاء والفجر تأتى في وقت الراحة والنوم فهى ثقيلة على المنافقين لا يأتون إليها، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً.

ثم ذكر ﷺ أن الرجل من المسلمين كان يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف ... فهو رجلٌ مريض لا يستطيع أن يمشى وحده، يهادونه: يمشون به رويداً رويداً حتى يُقام في الصف فيصلّى مع الجماعة ﷻ ... وهذه الأعمال

وغيرها ملكوا مشارق الأرض ومغاربها... ولمّا تخلّفت الأمة الإسلامية واختلفت قلوبها صارت إلى ما ترون الآن: أمة ذليلة مع أنهم يبلغون ملياراً من البشر ونصف المليار ومع ذلك هم في أدلّ ما يكون من الأمم؛ لأنهم متفرقون، بل بعضهم مُتعادون.. بل بعضهم يرى أن الآخر أشدُّ عليه من اليهود والنصارى - والعياذ بالله -؛ لأنهم مُتَنازعون مُتَفَرِّقون... لكن في عهد الرسول ﷺ لا يمكن أن يتخلف أحد عن الجماعة حتى ولو كان مريضاً يُؤْتَى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف... فلو أننا عُدنّا إلى ما كان الصحابة عليه لصرنا أمةً عزيزةً مرموقةً... الكلُّ يخافها، والكلُّ يُصانعها، والكلُّ يتودّد إليها - نسأل الله أن يُعيد لنا مجدنا لديننا ويعيد لنا كرامتنا... إنه على كل شيء قدير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٧٧) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدْ اسْتَحَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ. فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يُخبر أبو الدرداء رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدْ اسْتَحَوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ»... فمن المعلوم أنه قد يبدو من المستحيل أن تكون هناك قرية أو بادية لا تتكون إلا من ثلاثة أشخاص.. وكأن النبي ﷺ يقول: لا عُذر لكم في ترك الجماعة حتى ولو كنتم ثلاثة.. فإن كنتم ثلاثة فإنه يجب عليكم أن تصلوا جماعة... والمقصود هنا أنه إذا كنتم ثلاثة فأكثر بالنسبة لصلاة الجمعة.. لأن صلاة الجمعة لا تجب إلا إذا كانوا ثلاثة فأكثر في غير البرية.. فأما البادية والمسافرون فليس عليهم جمعة.. أما القرى والأمصار فتقام فيها صلاة

(١) شرح رياض الصالحين/ للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٦٠-١٦٢) بتصرف.

(٢) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٠١).

الجمعة... وأما البادية فليس عليهم جمعة.. ولهذا لم تكن البادية في عهد النبي ﷺ يقيمون الجمعة.. وهم حول المدينة.. وأما صلاة الجماعة فهناك أحاديث أخرى تدل على أن صلاة الجماعة تجب إذا كانا اثنين فأكثر وتقام في كل مكان: في القرى والأمصار والبادية..

❦ ثم قال ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ» فهذا دليل على أن المسلم لا ينبغي أن يفترق عن إخوانه المسلمين وأنه يجب على المسلمين أن يجتمعوا ويتوحدوا لأن الاجتماع قوة والتفرق ضعف... والشروء عن الجماعة سبب في الهلاك.

❦ ولذا لما أخبر النبي ﷺ حذيفة عن زمن الفتن الذي يكون فيه دُعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها.. فقال له حذيفة: فماذا تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْصَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يَدْرَكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»^(١).

فكانت وصية النبي ﷺ لحذيفة إن أدرك تلك الفتن - مع أنه لن يدركها ولن تدركه - أن يلزم جماعة المسلمين.. وليس المقصود جماعة كذا أو جماعة كذا.. بل المقصود جماعة المسلمين أهل السنة في كل زمان ومكان.. أهل الصلوات الخمس والجمعة ورمضان والأعياد والحج والعمرة.. أهل التوحيد والإيمان.

لأن الابتعاد عن جماعة المسلمين سبب للهلاك ولذا شبه النبي ﷺ من فعل ذلك بالغنم القاصية البعيدة عن أخواتها فيأكلها الذئب بسهولة لأنها وحدها.. فكذلك الشيطان يتسلط على الخارج عن الجماعة وأهل السنة... جمعني الله وإياكم على الخير والطاعة وجعلنا من أهل السنة والجماعة.

(١) رواه البخاري (٣٦٠٦) كتاب المناقب.

(١٩٢) باب الحث على حضور الجماعة

في الصبح والعشاء

(١٠٧٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ، فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ، فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ»^(١).

وفي روايةٍ للترمذي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ كَانَ لَهُ قِيَامُ نِصْفِ لَيْلَةٍ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ فِي جَمَاعَةٍ، كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيْلَةٍ».

❁ ففي هذا الحديث يخبر عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ» سواء كانت قليلة أم كثيرة فاضلة أو مفضولة «فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ» أي: كأنما قام يصلي ويتشهد نصف ليلة كاملة.. «وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ، فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ» أي: وإذا صلى في نفس الليلة الصبح في جماعة فكأنما قام يصلي الليل كله.. العشاء نصف الليل.. والفجر نصف الليل الباقي... فيا له من أجرٍ عظيم... ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ في الحديث الذي يليه: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ - الْعِشَاءَ - وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» أي: من عِظَمِ الأجر الذي فيهما.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٧٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٦) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٥) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٧) كتاب الصلاة.

(١٠٨٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا»^(١).

✽ فالعَتَمَةُ هي صلاة العشاء.. والصبح معروف.. فيخبر النبي ﷺ هنا أن الناس لو كانوا يعلمون ما فيهما من الأجر والثواب والبركة والخير لأتوهما يحبون على الأرض كما يحبو الصبي الصغير.. ومع أن النبي ﷺ أخبر في الحديث السابق أن مَنْ صلى العشاء والصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله.. لكن من الواضح أن هناك أجراً وثواباً آخر لا نعلمه وإلا لم يقل النبي ﷺ: «وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا» إذاً.. فهناك ثواب آخر سيكون مفاجأة لأهل صلاة الصبح والعشاء يسعدون به يوم القيامة بين يدي الله ﻋَزَّوَجَلَّ.

ومع كل هذا فهناك صنف لا يريد الخير ولا الثواب أبداً.. ومهما علم من الأجر والثواب في أى طاعة فإنه لا يقبل عليها.. ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: «لَيْسَ صَلَاةٌ أَثْقَلُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» وذلك لأن المنافقين يصلون رياءً وسُمعةً... فكانوا يصلون الظهر والعصر والمغرب لأن الناس يرونهم... فإذا كانت صلاة العشاء والصبح في وقت الظلام كانوا لا يصلونها لأنه لم تكن على عهد رسول الله ﷺ أنوار ولا سُرَج فلا يستطيع أحد أن يعرف الغائبين عن تلك الصلاة... ثم إن صلاة العشاء والفجر تأتي في وقت الراحة والنوم فهي ثقيلة على المنافقين لا يأتون إليها ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبَوًّا.

فينبغي للإنسان أن يحرص على صلاة العشاء والفجر.. لكن صلاة العشاء ليست أفضل من صلاة العصر، فصلاة العصر أفضل؛ ولهذا صارت صلاة الفجر قرينة للعصر وقرينة للعشاء، فهي قرينة للعصر كما سبق «من صلى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٧) كتاب الأذان - ومسلم (٦٥١) كتاب المساجد.

البردين دخل الجنة»^(١) وقال ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس - الفجر - وصلاة قبل غروبها - العصر - فافعلوا»^(٢) وهى - أى صلاة الفجر - مع العشاء أيضًا إذا اجتمعتا فكأنما قام الإنسان الليل كله ... وكذلك أيضًا لو يعلم الناس ما فى العشاء والفجر لأتوهما ولو حبوا... فاحرص - أخى المسلم - على جميع الصلوات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٥) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

(١٩٣) باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات

والنهي الأكيد والوعيد الشديد في تركهن

✽ إن الصلاة هي أعظم الأركان بعد الشهادتين وهي أم العبادات وميزان تعظيم الدين في قلب المؤمن فهي التي أمر الله بها ... وهي الوصية الأخيرة لرسول الله ﷺ وهي ملجأ المؤمن في الكربات وهي التي يرفع الله بها الدرجات ويغفر بها الخطيئات وينجو بها العبد من عذاب رب الأرض والسموات وهي أمانة المُعذِّبين والأموات وهي العاصمة من الشهوات والناحية عن المنكرات وهي الحادى للنعيم المقيم في الجنات.

لقد بلغت الصلاة مبلغاً عظيماً وقدراً عالياً في قلب النبي ﷺ حتى كانت أغلى من نسيم الهواء الذى يتنفسه الإنسان.

وحسبنا أن نتأمل قول النبي ﷺ: «حُبَّ إِلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النساء والطيب وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاة»^(١).

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

[التوبة: ٥]

✽ الصلوات خمس كتبهن الله ﷻ على عباده في كل يوم وليلة؛ لقوله ﷺ حين سأل النبي ﷺ ربه أن يُخفف عن العباد قال: هن خمس في الفعل خمسون في الميزان... وسأل رجلُ النبي ﷺ عن الإسلام - ومنه الصلوات - فذكر له خمس صلوات .. قال: هل على غيرها؟ قال: «لا، إِلَّا أَنْ تَتَطَوَّعَ»^(٢)

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦) كتاب الإيمان - ومسلم (١١) كتاب الإيمان.

وأرسل معاذًا إلى اليمن وقال: «فَاعْلَمُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»^(١)، وقد أمر الله بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] خصّها لما لها من المزية والفضل .. والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر ... فسرها بذلك النبي ﷺ أعلم الخلق بكتاب الله وبمراده ولا قول لأحد بعد قول النبي ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

[التوبة: ١١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣١٧) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨٢) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٣).

✽ ففي هذا الحديث العظيم يقول النبي ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» فشبه النبي ﷺ الإسلام بالقصر أو البناء العظيم الكبير الذي يقوم على خمسة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٥٩) كتاب الزكاة - ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٣٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان - ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

أعمدة.. ومن المعلوم أن الأعمدة هي التي تحمل البنيان.. وبدونها يقع البنيان وينهدم... فإذا كان البناء مبنياً بدون أعمدة فلا شك أنه سيكون ضعيفاً ولن يصمد طويلاً.. وإذا كانت الأعمدة ضعيفة فإنه أيضاً لن يصمد طويلاً.. لكن بناء الإسلام قوى مُحْكَم لأن الذي بناه وشرعه هو فاطر السماوات والأرض قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٢٣].

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» أي: فمن أتى بهذه الخمس فقد تمَّ إسلامه، كما أن البيت يتم بأركانه كذلك الإسلام يتم بأركانه، وهي خمس. وهذا بناء معنوي شُبِّهَ بالحِصَى... ووجه التشبيه أن البناء الحِصِّي إذا انهدم بعض أركانه لم يتم. فكَذَلِكَ البناء المعنوي... ولهذا قال ﷺ: «الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين»^(١).

❁ وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: يعني أن هذه الخمس أساس دين الإسلام وقواعده التي عليها بُنِيَ وبها يقوم وإنما خَصَّ هذه بالذكر ولم يذكر معها الجهاد مع أنه يُظْهِر الدين ويقمع عناد الكافرين؛ لأن هذه الخمس فرض دائم والجهاد من فروض الكفايات... وقد يسقط في بعض الأوقات.

والخمس المذكورة في الحديث أصول البناء، وأما التتمات والمكملات - كبقية الواجبات وسائر المستحبات - فهو زينة للبناء، وقد ورد في الحديث أنه ﷺ قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»^(٢).

❁ «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»: يعني أن تشهد معترفاً

(١) ضعيف: رواه البيهقي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٦٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٥) كتاب الإيمان.

بلسانك مؤمناً بقلبك أنه لا معبود بحق إلا الله ولا متبوع إلا النبي ﷺ.

✽ أما الثانى فهو «إقام الصلاة» يعنى الصلوات الخمس وما يتبعها من النوافل لكون الصلاة من أركان الإسلام ... والصلوات الواجبة بالإجماع هى خمس: الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ... والجمعة تكون فى محل الظهر. ومعنى: «إِقام الصَّلَاةِ» أن يأتى بها الإنسان فى أوقاتها مُتَمَمًّا شروطها وأركانها وواجباتها ومُكَمَّلًا ذلك بمُستحباتها ... هذا هو إقام الصلاة.

وأما «وإيتاء الزَّكَاةِ» فهو إعطاء الزكاة لمُستحقها ... والزكاة هى القسط من مالك الذى أوجبه الله عليك فى الذهب والفضة والنقد وعروض التجارة والخارج من الأرض وبهيمة الأنعام ... فيجب أن تعطى هذه الزكاة لمُستحقها ... وقد بين الله المستحقين لها فى قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠].

وأما «حَجُّ الْبَيْتِ» فهو قصد مكة لأداء المناسك ... وقد فرضه الله ﷻ على هذه الأمة فى السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة ... وهو فرض على كل مسلم مرة واحدة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلاً.

وأما «صَوْمُ رَمَضَانَ» فهو صوم الشهر الذى بين شعبان وشوال ... وفرض فى السنة الثانية من الهجرة ... فهذه هى أركان الإسلام من أتى بها فهو المسلم وقد بُنى على أساسٍ متين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥) كتاب الإيمان - ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٩٥) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨٤) وعن معاذ رضي الله عنه قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَأَدْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرُدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَأَتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٢١٣) فأرجو الرجوع إليه ... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٨٥) وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»^(٢).

(١٠٨٦) وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»^(٣).

(١٠٨٧) وعن شَقِيقِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّابَعِيِّ الْمُتَّفَقِ عَلَى جَلَالَتِهِ رحمته الله قال: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرَكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ^(٤).

✽ فهذه الأحاديث وردت في التحذير الشديد من ترك الصلاة وإضاعته...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٥٨)، (١٤٩٦) كتاب الزكاة - ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٢) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤١٤٣).

(٤) صحيح موقوف: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٥٦٥).

وقد اختلف أهل العلم في حكم ترك الصلاة.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لا يختلف المسلمون أنَّ تَرْكَ الصَّلَاةِ المفروضة عمداً من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأنَّ إثمهُ عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنى والسَّرقة وشرب الخمر، وأنَّه مُتَعَرِّضٌ لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة... وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يكتب إلى الآفاق، أنَّ أهمَّ أموركم عندى الصلاة، فمن حفظها، حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيع، ولا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة... والصَّلَاةُ أوَّلُ فروض الإسلام، وهى آخر ما يُفقد من الدين، فهى أوَّل الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوَّلُه وآخره فقد ذهب جميعه، وكلَّ شىء ذهب أوَّلُه وآخره فقد ذهب جميعه»^(١).

وقد عدَّ ابن حجر تعمُّد ترك الصَّلَاة من الكبائر... وذكر قول الله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢ ﴿قَالُوا لَوْ أَنَّا نَسَمِعُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المائدة: ٤٢-٤٣].

ونقل بعضهم أنَّه صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّ تارك الصَّلَاة كافر، وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن النَّبِيِّ ﷺ أنَّ تارك الصَّلَاة عمداً من غير عُذرٍ حتَّى يذهب وقتها كافر... وقال أيُّوب: ترك الصَّلَاة كفر لا يُختلف فيه^(٢).

﴿وَأَمَّا تَارِكُ الصَّلَاةِ فَإِنْ كَانَ مُنْكَرًا لِرُجُوبِهَا فَهُوَ كَافِرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ خَارِجٌ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَرِيبَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ وَلَمْ يُخَالِطِ الْمُسْلِمِينَ مُدَّةً يَبْلُغُهُ فِيهَا وَجُوبُ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ... وَإِنْ كَانَ تَرْكُهُ تَكَاسُلاً مَعَ اعْتِقَادِهِ وَجُوبَهَا كَمَا هُوَ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ... فَذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ (رَحِمَهُمَا اللهُ) وَالْجَمَاهِيرُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ إِلَى أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ بَلْ يَفْسُقُ

(١) انظر كتاب الصلاة / للإمام ابن القيم (٢١، ٢٢).

(٢) الزواجر / لابن حجر (١٧٢).

وَيُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْنَاهُ حَدًّا كَالزَّانِي الْمُحْصَنِ وَلَكِنَّهُ يُقْتَلُ بِالسَّيْفِ ...
 وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ إِلَى أَنَّهُ يَكْفُرُ وَهُوَ مَرُوءٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَبِهِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ
 وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوِيَّةٍ وَهُوَ وَجْهٌ لِبَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ (رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ)
 وَذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَالْمُزْنِيِّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُمَا
 اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ وَلَا يُقْتَلُ بَلْ يُعْزَرُ وَيُحْبَسُ حَتَّى يُصَلِّيَ ... وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ بِكُفْرِهِ
 بِظَاهِرِ الْحَدِيثِ الثَّانِي الْمَذْكُورِ وَبِالْقِيَّاسِ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ... وَاحْتَجَّ مَنْ قَالَ
 لَا يُقْتَلُ بِحَدِيثٍ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ» (وَلَيْسَ فِيهِ الصَّلَاةُ)
 وَاحْتَجَّ الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
 مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وَبِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»
 «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» وَ«لَا يُلْقَى اللَّهُ تَعَالَى عَبْدٌ بِهِمَا غَيْرَ
 شَاكٍّ فَيُحْبَبُ عَنِ الْجَنَّةِ» «حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَغَيْرَ ذَلِكَ
 وَاحْتَجُّوا عَلَى قَتْلِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
 سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ»
 وَتَأَوَّلُوا قَوْلَهُ ﷺ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ» عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ بِتَرْكِ
 الصَّلَاةِ عُقُوبَةَ الْكَافِرِ وَهِيَ الْقَتْلُ أَوْ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ أَوْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ
 يُوَوَّلُ بِهِ إِلَى الْكُفْرِ أَوْ أَنَّ فِعْلَهُ فِعْلُ الْكُفَّارِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(١).

بِإِحْدَى ثَلَاثٍ

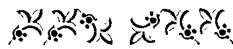
(١٠٨٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ
 بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ،

فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئًا، قَالَ الرَّبُّ، **عَزَّ وَجَلَّ**: انظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ، فَيَكْمُلُ مِنْهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ؟ ثُمَّ تَكُونُ سَائِرُ أَعْمَالِهِ عَلَى هَذَا»^(١).

❁ أى أن أول ما يُحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة... وهذا بالنسبة لحق الخالق (جل وعلا) فإن صلحت الصلاة فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر.

وهذا لا يتعارض مع قوله **ﷺ**: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(٢) لأن الأول محمول على حق الخالق والثاني محمول على حق الخلق. وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»^(٣).

❁ «إِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئًا» يُنْظَرُ فِي أَعْمَالِهِ هَلْ لَهُ نَوَافِلُ فَإِنَّمَا تُكْمَلُ بِهَا الْفَرَائِضُ... ولهذا كان من فضل الله ورحمته ونعمته وإحسانه أن شرع لنا النوافل خلف الصلوات وقبلها وفي كل وقت إلا الأوقات المنهى عنها وذلك لأن الإنسان لا بد أن يكون في صلاته خلل فيكمل الخلل بهذه النوافل. كل هذه النوافل يزاد بها أجر المصلى ويكمل بها النقص الذى حصل في الفريضة... وهذه من نعمة الله **ﷻ**.



(١) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٠).
(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.
(٣) فتح البارى (١١/٣٩٦) - والحديث رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٧٢).

(١٩٤) بَابُ فَضْلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَالْأَمْرِ بِاتِّمَامِ

الصُّفُوفِ الْأَوَّلِ وَتَسْوِيتِهَا، وَالتَّرَاضِ فِيهَا

(١٠٨٩) عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يَتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأَوَّلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ» ^(١).

❁ لَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَوْ لَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَفْتَرُونَ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَنْفِيزِ أَمْرِهِ... وَالْمَلَائِكَةُ لَهُمْ عِبَادَاتٌ كَثِيرَةٌ مَتْنُوعَةٌ وَهُمْ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) ❁ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ❁ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَرُونَ ❁ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وَتَأْمَلُ قَوْلَهُ: ❁ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ❁ وَلَمْ يَقُلْ يَسْبَحُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لِأَنَّهُمْ يَسْتَوْعِبُونَ الْوَقْتَ كُلَّهُ فِي التَّسْبِيحِ.

❁ وَمِنْ عِبَادَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَصُفُّونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.. كَمَا قَالَ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْهُمْ: ❁ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ❁ [١٦٥] وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ❁ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

❁ وَهَذَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»

وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ بَدَايَةَ الْحَدِيثِ كَمَا وَرَدَتْ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيَكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمُسٍ، اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ»، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَأَانَا حِلَقًا، فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ»، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟»، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يَتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأَوَّلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ».

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٣٠) كتاب الصلاة.

قوله ﷺ: «مَالِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيَكُمْ كَأَنَّهُا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُمُسٍ» وَهِيَ الَّتِي لَا تَسْقَرُّ بَلْ تَضْطَرُّبُ وَتَتَحَرَّكُ بِأَذْنَابِهَا وَأَرْجُلِهَا ... وَالْمُرَادُ بِالرَّفْعِ الْمَنْهَى عَنْهُ هُنَا رَفْعُهُمْ أَيْدِيَهُمْ عِنْدَ السَّلَامِ مُشِيرِينَ إِلَى السَّلَامِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ قَوْلُهُ (فَرَأْنَا حَلَقًا) جَمْعُ حَلَقَةٍ .

قَوْلُهُ ﷺ: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ» أَيْ مُتَفَرِّقِينَ جَمَاعَةً جَمَاعَةً ... الْوَاحِدَةُ عِزَّةٌ مَعْنَاهُ النَّهْيُ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْأَمْرُ بِالْاجْتِمَاعِ وَفِيهِ الْأَمْرُ بِإِتْمَامِ الصُّفُوفِ الْأَوَّلِ وَالتَّرَاصُّ فِي الصُّفُوفِ ... وَمَعْنَى إِتْمَامِ الصُّفُوفِ الْأَوَّلِ أَنْ يَتِمَّ الْأَوَّلُ وَلَا يَشْرُعَ فِي الثَّانِي حَتَّى يَتِمَّ الْأَوَّلُ وَلَا فِي الثَّلَاثِ حَتَّى يَتِمَّ الثَّانِي وَلَا فِي الرَّابِعِ حَتَّى يَتِمَّ الثَّلَاثُ وَهَكَذَا إِلَى آخِرِهَا^(١).

❁ إِذَا.. فنحن إذا صففنا بين يدي الله ﷻ في صلاتنا ينبغي أن نكون كالملائكة: فنكمل الصف الأول فالأول.. ولا نقف في الصف الثاني حتى نكمل الأول.. ونسوى الصفوف بحيث لا يتقدم أحدنا على الآخر... ونتراص فيها بحيث لا يكون هناك أي فُرْجة تَسْعُ مُصَلِّيًا حتى لا يدخل الشيطان بيننا. ❁ والتراصُّ في الصلاة يكون بأن يلصق أحدنا كعبه بكعب أخيه ومنكبه بمنكب أخيه حتى تتراص الصفوف.

وليس المقصود بالتراص أن تُزعج الذي بجوارك من شدة الملاصقة وإنما المقصود ألا تدع فُرْجة بينك وبينه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٠) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ يَحِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهْمُوا»^(٢).

(١) مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٠٠-٢٠١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٥) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٧) كتاب الصلاة.

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٤٠) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوْلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوْلُهَا»^(١).

✽ فصُفُوفُ النِّسَاءِ تكون خلف الرجال وبذلك يكون أولها قريباً من الرجال ولذلك قال النبي ﷺ: «خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها» فخيرها آخرها لأنها تكون بعيدة عن الرجال.

أما إذا كان هناك مكان مخصوص للنساء يكون بعيداً عن الرجال فيكون هنا خير صفوف النساء أولها وشرها آخرها.. لأنها تكون بذلك قريبة من الإمام وليس هناك محذورٌ بقربها من الرجال.

✽ أما الرجال فكلما تقدموا فهو أفضل كما قال النبي ﷺ مُحَذِّراً عن التأخر: «لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللَّهُ» وهذه خطيرة أن الإنسان كلما تأخر عن الصف الأول أو الثاني أو الثالث ألقى الله في قلبه محبة التأخر في كل عملٍ صالح والعياذ بالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٢) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي أَصْحَابِهِ تَأَخُّراً، فَقَالَ لَهُمْ: «تَقَدَّمُوا فَأَتَمُّوا بِي، وَلِيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللَّهُ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يخبر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٤٠) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٣٨) كتاب الصلاة.

أصحابه تأخراً.. أى: فى صفوف الصلاة..

فقال لهم ﷺ: «تَقَدَّمُوا فَأَتَمُّوا بى» أى: اقتدوا بى وافعلوا مثلما أفعل ...

❁ «وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ».

معناه: ليقف خلفى من غير تأخر كثير .. بأن لا يزيد ما بينهم وبينه على ثلاثة أذرع، وكذا ما بين كل صف، وما يليه ... فليكنه أولاً أهل الفضل والصلاح ثم خلفهم من هو دونهم فى ذلك وهكذا... ومعنى اتمام كل صف بمن قبله أنه يتبعه فى حركاته لأن من قبله أسرع علماً بانتقالات الإمام منه.

«لا يزال قوم يتأخرون» أى عن اكتساب الفضائل واجتناب الرذائل «حتى يؤخرهم الله» عن رحمته وعظيم ثوابه وفضله ورفيع منزلة أهل قُربه حتى يكون عاقبة أمرهم النار ... كما جاء فى رواية... وفيه الحثُّ على التسابق إلى معالى الأمور والأخلاق، وأبلغ زجر عن الميل إلى الدعة والرفاهية، وأبلغ تنبيه إلى أن ذلك يؤدى إلى تجرُّع غُصص البُعد والغضب، أعاذنا الله من ذلك بمنه^(١).

❁ ومن المعلوم أن الإنسان إذا اعتاد التأخر عن الصف الأول أو الثانى فسوف يعتاد التأخر عن كل عملٍ صالح وعن كل شىء يعود عليه بالنفع فى دينه ودُنياه وعن كل عمل يخدم به دينه ووطنه.... فالمبادرة إلى الصلاة من الإسراع إلى إدراك الصف الأول فيها يجعل همة العبد عالية فى أن يكون دائماً فى المقدمة فى أمر الدنيا والآخرة.. حتى ينتهى به المطاف أن يكون مع أول الداخلين إلى جنة الرحمن (جل وعلا) مع الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٣) وعن أبى مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسُحُ مَنَاكِبَنَا فى الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: «اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلَفُوا فَتَخْتَلَفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِينَى مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ

(١) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٤) بتصرف.

والنهي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يوضح ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان من رقة قلبه وحبه لأصحابه ورحمته بهم إذا أراد أن يسوي الصفوف للصلاة فإنه كان يمسح بمناكبهم في الصلاة.. أي: يسوي مناكبهم في الصلاة ويعديلهم فيها لتستوي الصفوف فلا يتقدم بعضهم على بعض ويتراصوا بحيث لا يوجد فرجة بينهم. وكان ﷺ يقول لهم أثناء ذلك: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» يعني: أن اختلاف الناس بحيث يكون البعض متقدماً والبعض متأخراً يوجب اختلاف القلوب واختلاف أهويتها وإرادتها.

❁ ثم قال ﷺ: «لِيلِينِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى».

«أُولُو الْأَحْلَامِ» أصحاب الحلم والأناة والتثبت في الأمر وذلك من شعار العقلاء... فأولو الأحلام هم العقلاء.. وقيل: البالغون. «والنهي» العقل.. وسُمي العقل نهيًا لأنه ينتهي إلى ما أمر به ولا يتجاوز.. وقيل: لأنه ينهي صاحبه عن القبائح.

«ثم الذين يلونهم» أي: الذي يقربون منهم في هذا الوصف.

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

فِي هَذَا الْحَدِيثِ تَقْدِيمُ الْأَفْضَلِ فَأَلْفَضِلَ إِلَى الْإِمَامِ لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالْإِكْرَامِ وَلِأَنَّهُ رُبَّمَا احتَاجَ الْإِمَامُ إِلَى اسْتِخْلَافٍ فَيَكُونُ هُوَ أَوْلَى وَلِأَنَّهُ يَتَفَقَّنُ لِنَبِيِّهِ الْإِمَامِ عَلَى السَّهْوِ لِمَا لَا يَتَفَقَّنُ لَهُ غَيْرُهُ وَلِيَضْبُطُوا صِفَةَ الصَّلَاةِ وَيَحْفَظُوهَا وَيَنْقُلُوهَا وَيُعَلِّمُوهَا النَّاسَ وَلِيَقْتَدِيَ بِأَفْعَالِهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ... وَلَا يَخْتَصُّ هَذَا التَّقْدِيمَ بِالصَّلَاةِ بَلِ السُّنَّةُ أَنْ يُقَدَّمَ أَهْلُ الْفَضْلِ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ إِلَى الْإِمَامِ وَكَبِيرِ الْمَجْلِسِ كَمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالْقَضَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْمُشَاوَرَةِ وَمَوَاقِفِ الْقِتَالِ وَإِمَامَةِ

الصَّلَاةَ وَالتَّدْرِيسَ وَالْإِفْتَاءَ وَإِسْمَاعَ الْحَدِيثِ وَنَحْوَهَا.
وَيَكُونُ النَّاسُ فِيهَا عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالْعَقْلِ وَالشَّرَفِ وَالسَّنِّ
وَالْكَفَاءَةِ فِي ذَلِكَ الْبَابِ ... وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ مُتَعَاضِدَةٌ عَلَى ذَلِكَ ...
وَفِيهِ تَسْوِيَةُ الصُّفُوفِ وَاعْتِنَاءُ الْإِمَامِ بِهَا وَالْحَثُّ عَلَيْهَا^(١).
بَابُ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ

(١٠٩٤) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، فَإِنَّ
تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ»^(٢).

وفي رواية البخاري: «فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ».

قوله ﷺ: «سَوُّوا صُفُوفَكُمْ» أي: بحيث لا يتقدم أحدكم على الآخر..

قال الشيخ تقي الدين القشيري: تسوية الصفوف اعتدال القائمين بها على
سمتٍ واحد، وقد تدل تسويتها أيضاً على سدِّ الفرج فيها بناءً على التسوية
المعنوية^(٣).

«فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ».. وفي رواية: «فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ
حُسْنِ الصَّلَاةِ».. وفي رواية: «فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ»

ولهذا كان الصحابة يلصق أحدهم قدمه بقدم صاحبه ومنكبه بمنكبه وفي هذا
الوصف دليل على فساد فهم هؤلاء الذين إذا وقفوا في الصف فتحوا بين أرجلهم
حتى تكون القدم لاصقة بالقدم لكن المناكب متباعدة وهذا ليس من السنة...
فالسنة أننا نترأص جميعاً بحيث يلصق الكعب بالكعب والمنكب بالمنكب.

بَابُ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ

(١) مسلم بشرح النووي (٢٠٤/٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٣) كتاب الصلاة - ومسلم (٤٣٣) كتاب الصلاة.

(٣) دليل الفالحين (٣/٤٩٥).

(١٠٩٥) وعن أنس رضي الله عنه قال: أُقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ وَتَرَاصُّوا، فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» ^(١).

وفي رواية للبخاري: وَكَانَ أَحَدُنَا يَلْزُقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ وَقَدَّمَهُ بِقَدَمِهِ. وهنا يحكى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه في يوم من الأيام أقيمت الصلاة.. فأقبل عليهم النبي ﷺ بوجهه.. وهذا فيه زيادة من الاهتمام بهم وإظهار الحب لهم ومُراعاة أحوالهم والحرص على أن تكون عبادتهم على حالٍ يُرضى الله ﷻ عنهم.

ثم قال لهم ﷺ: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ» أى داوموا على إقامتها واعتنوا بها لعظم جدواها وشرف غايتها، «وَتَرَاصُّوا» أى تلاصقوا بالمناكب حتى لا يكون بينكم فُرْجة «فإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي» أى حقيقة فأعلم ما يقع منكم... ولا يُنافي هذا الحديث حديث «لا أعلم ما وراء جداري» لأن هذا خاص بحالة الصلاة... لأنه ﷺ لما حصل له فيها قُرة العين بما أفيض عليه فيها من غايات القُرب المختص بها التى لا يوازيه فيها غيره صار بدنه الشريف كالمرآة الصافية التى لا تحجب ما وراءها.

فالنبي ﷺ كان يُسوى الصفوف فيقبل على الناس ويقول: أقيموا صفوفكم فإننى أراكم من وراء ظهري... فأمرهم ﷺ بإقامة الصفوف وأخبر أنه يراهم من وراء ظهره... وهذا من خصائص النبي ﷺ أنه في هذه الحالة المعينة يرى الناس من وراء ظهره أما فيما سوى ذلك فإنه لا يرى من وراء ظهره شيئاً.

(وفي رواية للبخاري) من حديث أنس أيضاً (وكان أحدنا يلزق منكبه) هو مجتمع رأس العضد والكتف (بمنكب صاحبه وقدمه بقدمه) مبالغة في التراص الذى أمروا به... وعند البخاري أيضاً: قال النعمان بن بشير «رأيت الرجل منا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٩) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٤) كتاب الصلاة.

يلزق كعبه بكعب صاحبه»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٦) وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَتُسَوَّنَ صُفُوفُكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوهِكُمْ»^(٢).

وفي روايةٍ لمسلم: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُسَوِّي صُفُوفَنَا، حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ، حَتَّى رَأَى أَنَا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ. ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ حَتَّى كَادَ يُكَبِّرُ، فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ، فَقَالَ: «عِبَادَ اللَّهِ، لَتُسَوَّنَ صُفُوفُكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوهِكُمْ».

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٤) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٧) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّلُ الصَّفَّ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى نَاحِيَةٍ، يَمَسُّحُ صُدُورَنَا، وَمَنَاكِبَنَا، وَيَقُولُ: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»^(٣) وَكَانَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الْأُولِ».

❁ لقد كان النبي ﷺ يمسح صدور أصحابه ومناكبهم ليسوي صفوفهم ويقول: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ» وكان ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يسوي الصف بيده الكريمة.... وكان هذا عادته ولما كثر الناس في زمن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وفي زمن عثمان رضي الله عنه صار هناك رجال مُوَكَّلون من قِبل الخليفة يسوون الصفوف... فإذا جاءوا إلى الإمام وقالوا إن الصفوف قد تَمَّت وكملت كَبَّر للصلاة... وهذا دليل على عناية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين

(١) دليل الفالحين (٤٩٦/٣) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٧) كتاب الأذان - ومسلم (٤٣٦) كتاب الصلاة.

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وضححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٥٦).

بالصفوف والترأص فيها وتسويتها وعدم ترك فُرَجَات للشيطان حتى تكون الصلاة تامة مستوية .. فإن تسوية الصف من تمام الصلاة ومن إقامة الصلاة.

❁ ولقد حذرهم النبي ﷺ من عدم تسوية الصفوف فقال لهم ﷺ: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»... وفي الرواية الأخرى: «لَتَسُونَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيَخَالِفَنَّ اللهَ بَيْنَ وَجُوهِكُمْ»...

واختلف العلماء في قوله: «بَيْنَ وَجُوهِكُمْ» ف قيل المعنى أن الله يعاقبهم بأن يجعل وجوههم نحو ظهورهم فتلوى الأعناق... وقيل: المعنى أى بين وجهات نظرهم فهو كالحديث الذى سبق: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ» وهذا المعنى أصح وأرجح... فالرسول (عليه الصلاة والسلام) نهى أن نختلف بل قال: «لَتَسُونَنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيَخَالِفَنَّ اللهَ بَيْنَ وَجُوهِكُمْ» ومعلوم أن الاختلاف الظاهر يؤدي إلى اختلاف الباطن... فإذا اختلف الناس فيما بينهم ظاهراً أدى ذلك إلى اختلاف القلوب وإذا اختلفت القلوب صار الشر والفساد والعياذ بالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَازُوا بَيْنَ الْمَنَازِبِ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَدْرُوا فُرَجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ قال:

«أَقِيمُوا الصُّفُوفَ» أى عَدِّلُوهَا وَسَوِّوْهَا «وَحَازُوا بَيْنَ الْمَنَازِبِ» أى اجْعَلُوا بَعْضَهَا حِذَاءَ بَعْضٍ بِحَيْثُ يَكُونُ مِنْكُمْ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُصَلِّينَ مُوَازِيًا لِمَنْكِبِ الْآخِرِ وَمُسَامِتًا لَهُ فَتَكُونَ الْمَنَازِبُ وَالْأَعْنَاقُ وَالْأَقْدَامُ عَلَى سَمْتٍ وَاحِدٍ «وَسُدُّوا الْخَلَلَ» أى الْفُرْجَةَ فِي الصُّفُوفِ «وَلِينُوا» أى كُونُوا لَيِّنِينَ هَيِّنِينَ مُنْقَادِينَ «بِأَيْدِي

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٨٧).

إِخْوَانَكُمْ» أَيْ إِذَا أَخَذُوا بِهَا لِيَقْدُمُوكُمْ أَوْ يُؤْخَرُواكُمْ حَتَّى يَسْتَوِيَ الصَّفُّ لَتَنَالُوا فَضْلَ الْمَعَاوَنَةِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

«وَلَا تَذَرُوا» أَيْ لَا تَتْرَكُوا «فُرُجَاتِ الشَّيْطَانِ» الْفُرُجَاتُ جَمْعُ فُرْجَةٍ «وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا» بِالْحُضُورِ فِيهِ وَسَدَّ الْخَلَلَ مِنْهُ «وَصَلَّاهُ اللَّهُ» أَيْ بِرَحْمَتِهِ «وَمَنْ قَطَعَ» أَيْ بِالْغِيْبَةِ أَوْ بَعْدَ السَّدِّ أَوْ بِوَضْعِ شَيْءٍ مَانِعٍ «قَطَعَهُ اللَّهُ» أَيْ مِنْ رَحْمَتِهِ الشَّامِلَةِ وَعِنَايَتِهِ الْكَامِلَةِ^(١).

وفيه أبلغ حثٍّ على وصل الصفوف بسدِّ فُرُوجها وتكميلها بأن لا يشرع في صفٍّ حتى يُكْمَلَ ما قبله... وأبلغ زجر عن قطعها بأن يقف في صفٍّ وبين يديه صفٍّ آخر ناقص أو فيه فُرْجة... وَمَنْ تأمل بركة دعائه ﷺ للواصل وخطر دعائه المقبول الذي لا يُرَدُّ على القاطع وكان عنده أدنى ذرة من الإيمان بادر إلى الوصل وفرَّ عن القطع ما أمكنه^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٠٩٩) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رُضُّوا صُفُوفَكُمْ، وَقَارِبُوا بَيْنَهَا، وَحَاذُوا بِالْأَعْنَاقِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ، كَأَنَّهُا الْحَذَفُ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «رُضُّوا صُفُوفَكُمْ» أَيْ: ضُمُّوا بعضها إلى بعضٍ حتى لا يبقى فيها فُرْجة ولا خلل... ومنه رَضُّ البناء.. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ ثِيَابٌ رَمِيَّةٌ﴾.

«وقاربوا بينها» بأن يكون ما بين كل صفين ثلاثة أذرع تقريباً، فإن بُعد صفٍّ

(١) عون المعبود (٢/ ٢٥٨) بتصرف.

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٤٩٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٠٥).

«الْحَذَفُ» وهى: غَنَمٌ سُودٌ صَغَارٌ تَكُونُ بِالْيَمَنِ.

عما قبله أكثر من ذلك كُره لهم وفاتهم فضيلة الجماعة حيث لا عذر من حرٍّ أو برٍّ شديد وهذا في غير النساء، أما هُنَّ فيُسن لهن التأخر عن الرجال كثيراً «وحاذوا بالأعناق» ينبغي تفسيره بالمحاذاة بالمناكب التي سبق الأمر بها قولاً وفعلاً، إذ يلزم في المحاذاة بالأعناق بأن لا يتقدم عنق أحدهم ولا يتأخر للمُحاذاة بالمناكب «فوالذى نفسى بيده إنى لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف» أى: فُرَجَتْها أو تَبَاعَدَها عن بعضها بأكثر مما مرّ.

«كأنها الحذف» والحذف: هى غنمٌ سودٌ صِغار تكون باليمن.

❁ وهنا نبّه ﷺ بهذا الإقسام العظيم على تأكيد التراصّ والتقارب لعظم فائدتها وهى منع دخول الشيطان بينهم المستلزم لتسلّطه وإغوائه ووسوسته حتى يُفسد عليهم صلاتهم وخشوعهم الذى هو روح الصلاة وعود بركة ما فيها من الأنفاس الطاهرة على البقية... ولا مذهب للشيطان وكيد أعظم من الذكر الصادر من القلب الصالح^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٠٠) وعن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَمُّوا الصَّفَّ الْمُقَدَّم، ثُمَّ الذى يليه، فَمَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ فَلْيَكُنْ فِي الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ»^(٢).

❁ وفي هذا الحديث يَحُثُّ النَبِيُّ ﷺ أصحابه وأُمَّته - كما في الأحاديث السابقة - على إتمام الصفوف الأولى والمُقَدِّمة.. فقال ﷺ: «أَتَمُّوا الصَّفَّ الْمُقَدَّم» أى الأول وذلك بسدِّ فُرْجِه حتى لا يبقى منها ما يسع واحداً.

«ثم» أى بعد تمام الأول أتموا الصف «الذى يليه» وهو الثانى وهكذا «فما كان من نقصٍ فليكن في الصف المؤخَّر» أى الأخير.

(١) دليل الفالحين (٣/٤٩٩) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٢).

ومن هذا الحديث الصريح في إتمام الصف الأول والثاني أخذ أصحابنا قولهم يُسَنُّ إتمام الصف الأول ثم الذي يليه حتى لا يبقى نقص في غير الأخير... وفيه أن مَنْ وقف في صفٍّ قبل إتمام ما قبله كان مُقْصِرًا تاركًا للسنة فيفوته فضل الجماعة^(١).

بِإِذْنِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٠١) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَّامِنِ الصُّفُوفِ»^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ

بِإِذْنِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٠٢) وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْبَبْنَا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِهِ، يُقْبَلُ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ» أو تَجْمَعُ عِبَادَكَ»^(٣).

✽ «عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِ الْإِيْمَاءُ إِلَى نَدْبٍ تَأْخُرُ الْمَأْمُومُ عَنِ الْإِمَامِ وَإِنْ كَانَتْ الْمَسَاوَاةُ لَهُ فِي الْمَوْقِفِ لَا تُبْطَلُ الصَّلَاةُ «أَحْبَبْنَا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِهِ» أَيْ وَاقِفِينَ بِجِهَةِ يَمِينِهِ... وَعَلَّلَ حُبَّهُمْ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِثْنَاءِ الْبَيَانِيِّ بِقَوْلِهِ: «يُقْبَلُ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ» وَلَا مَخَالَفَةَ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَحَدِيثِ ابْنِ مَاجَهٍ «مَنْ عَمَّرَ مَيْسِرَةَ الْمَسْجِدِ كُتِبَ لَهُ كِفْلَانِ مِنَ الْأَجْرِ» لِاخْتِلَافِ زَمَنِهِمَا كَمَا قَالَ الْمُحَدِّثُونَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا حَثَّ عَلَى التَّيَامُنِ عُمَرْتُ جِهَةَ الْيَمِينِ وَازْدَحَمُوا عَلَيْهَا فَتَعَطَّلَتِ الْمَيْسِرَةُ فَقَالَ ذَلِكَ... «فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ» خُضُوعًا لِرَبِّهِ وَتَعْظِيمًا لِأَمْتِهِ «رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ، أَوْ» شَكٌّ مِنَ الرَّاوِي «تَجْمَعُ عِبَادَكَ»

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٠٠) بتصرف.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن حبان، وضعفه الألباني في ضعيف السامع (١٦٦٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٠٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

والمراد منه يوم القيامة وطلب الوقاية من عذابه لأنه أشد العذاب وأعظمه^(١).

قال القاضي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ التَّيَاضُّ عِنْدَ التَّسْلِيمِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ لِأَنَّ عَادَتَهُ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ جَمِيعَهُمْ بِوَجْهِهِ ... قَالَ: وَإِقْبَالُهُ ﷺ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ قِيَامِهِ مِنَ الصَّلَاةِ أَوْ يَكُونُ حِينَ يَنْفَتِلُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٠٣) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَسَّطُوا الْإِمَامَ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ»^(٣).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي محمد ﷺ الشطر الأول منه.. أما الشطر الثاني وهو قوله ﷺ: «وَسُدُّوا الْخَلَلَ» فصحيح وقد سبق شرحه في الحديث رقم (١٠٩٨) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

✽ وخلاصة هذا الباب كله: أننا مأمورون بتسوية الصفوف على النحو التالي:

(١) تسوية الصف بالمحاذاة: بحيث لا يتقدم أحدٌ على أحدٍ؛ ولهذا كان الصحابة يلصق أحدهم قدمه بقدم صاحبه، ومنكبه بمنكبه... وفي هذا الوصف دليل على فساد فهم هؤلاء الذين إذا وقفوا في الصف فتحوا بين أرجلهم حتى تكون القدم لاصقة بالقدم لكن المناكب متباعدة.

وهذا بدعة، ليس من السنة... السنة أننا نتراص جميعاً بحيث يُلصَق الكعب

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٠١) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٥/ ٣١٠).

(٣) ضعيف إلا شطره الثاني: أخرجه أبو داود، وقال الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٦٣٢): ضعيف لكن الشطر الثاني منه صحيح.

✽ قلت: والشطر الثاني منه هو: «وَسُدُّوا الْخَلَلَ».

✽ قال الشيخ الألباني: في إسناده مجهولان كما بيّنته في «ضعيف أبي داود» (١٠٥)، لكن الشطر الثاني منه له شاهد من حديث ابن عمر. اهـ بتصرف يسير.

✽ وانظر ما سبق برقم (١٠٩٨) فهو حديث ابن عمر الذي أشار إليه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

بالكعب والمنكب بالمنكب.

(٢) تسوية الصف بإكمال الأول فالأول بحيث لا يصف أحد في الصف الثاني، والأول لم يتم، أو في الثالث والثاني لم يتم.... إلخ.

(٣) أن الأولى إذا اجتمع رجال ونساء أن تبتعد النساء عن الرجال، فإن خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها... إلا إذا كان هناك مكان خاص بالنساء فيكون هنا خير صفوف النساء أولها وشرها آخرها.

(٤) سدُّ الفرج: ألا ندع للشياطين فرجًا يدخلون من بينها.

لأن الشياطين تُسلط على بنى آدم ابتلاءً من الله وامتحاناً... فإذا وجدوا فرجة في الصف تخللوا المصلين حتى يُشوشوا عليهم صلواتهم.

(٥) ومن تمام الصفوف: إذا كانوا ثلاثة فإنه يتقدم أحدهم إمامًا ويكون الباقيان خلفه، وإن كانا بالغين أو صغيرين أو بالغ وصغير.. كلهم يكونون خلفه؛ لأن ذلك ثبت عن النبي ﷺ في صلاة النفل... وصلاة الفرض مثل صلاة النفل إلا إذا قام دليل على الفرق بينهما. والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٣/١٧٨).

(١٩٥) باب فضل السنن الراجعة مع الفرائض

وبيان أقلها وأكملها وما بينهما

(١١٠٤) عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّيَ لِلَّهِ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً تَطَوُّعًا غَيْرَ الْفَرِيضَةِ، إِلَّا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، أَوْ: إِلَّا بَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ». قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مِنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١).

زاد الترمذی: « أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ » ^(٢).

فالمحافظة على تلك الرواتب كأنها السياج الواقى الذى يحمى المسلم من التفريط فى الفرائض .. فإن ترك المسلم تلك السنن الرواتب فإنه يوشك أن يترك الفرائض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٠٥) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ^(٣).

(١١٠٦) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ، بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ - وَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: لِمَنْ شَاءَ» ^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٢٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذی (٤١٥)، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٦٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٩) كتاب التهجد - ومسلم (٧٢٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٧) كتاب الأذان، ومسلم (٨٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

المراد بالأذنين: الأذان والإقامة.

❁ إن أحب شيء نتقرب به إلى الله هو صلاة الفريضة... فقد قال (جل وعلا) في الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «.. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ..»^(١).

ولكن قد يُقصر الإنسان في الفريضة فكيف يجبر كسر هذا التقصير؟
يكون ذلك بصلاة التطوع من الرواتب والنوافل.

❁ فأما الرواتب فهي السنن التي تكون قبل الصلوات الخمس وبعدها.
وقد جاء توضيحها في رواية الترمذي السابقة التي ذكرناها.

فالفرائض لا تخلو من النقص.. ولولا أن الله ﷻ شرع لنا الرواتب والنوافل لكانت بدعة.. لكن من نعمة الله علينا أن شرع لنا تلك الرواتب والنوافل حتى تكمل نقص الفرائض.. كما قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، وَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَةٍ، قَالَ الرَّبُّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكْمَلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»^(٢).

❁ والنوافل أنواعٌ وأجناسٌ متعددة.. فمنها الرواتب المذكورة في حديث أم حبيبة رضي الله عنها... والتي من صلاتهن في كل يومٍ وليلة بنى الله له بيتاً في الجنة.. وبإله من أجرٍ عظيم.

❁ والأفضل أن تصلى تلك الرواتب في البيت - وذلك للإمام والمأموم -.. وذلك لأن النبي ﷺ قال: «أَفْضَلُ صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ»^(٣).

أي: إلا الصلوات الخمس فإنها واجبة على الرجل في المسجد إن لم يكن هناك عذر شرعي يمنعه من الصلاة في المسجد.. فيصليها في البيت في وقتها.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

(٢) صحيح: رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

✽ وهناك نوافل تابعة للفرائض ولكنها ليست كهذه الرواتب.. وهذا ما ورد في الحديث الثالث أن النبي ﷺ قال: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ» وكررها ثلاث مرات.. وفي الثالثة قال: «لِمَنْ شَاءَ»... والمراد بالأذنين: الأذان والإقامة... وقوله ﷺ: «لِمَنْ شَاءَ» حتى لا يتخذها الناس سنة راتبة.

✽ وعلى هذا فبين أذان وإقامة صلاة الفجر سنة لكنها راتبة... وبين أذان وإقامة صلاة الظهر سنة راتبة.

وبين أذان وإقامة صلاة العصر سنة لكنها غير راتبة.. فتدخل في هذا الحديث.. فإذا سمعت أذان العصر تستطيع أن تصلى ركعتين نافلة ليست راتبة قبل الإقامة.. وإن صليت أربعاً -ركعتين ركعتين- قبل الإقامة فسوف تفوز بدعاء النبي ﷺ لك بالرحمة.. فقد قال ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا»^(١) وبين أذان وإقامة صلاة المغرب سنة لكنها غير راتبة.. لكن يُسَنُّ لك أن تصلى ركعتين بعد الأذان... وقد ورد فيها حديث بخصوصها قال: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ» ثلاثاً... وقال في الثالثة لمن شاء.

وكذلك العشاء ليس لها سنة راتبة بين الأذان والإقامة لكن تدخل في الحديث أيضًا.. فلك أن تصلى ركعتين نافلة بين الأذان والإقامة.

✽ وإذا فاتتك الرواتب التي قبل الصلاة فإنك تستطيع أن تقضيها بعدها.. أو تجمعها كلها في آخر اليوم -عند الضرورة- ولا تجعل ذلك ديدناً لك في صلاة الرواتب.

فإذا كنت مثلاً في صلاة الظهر.. وهناك سنن قبلية وبعدية.. فإن فاتك السنة القبلية للظهر تستطيع أن تصليها بعد الانتهاء من صلاة الظهر.. وذلك بأن تصلى السنة البعدية ثم تقضى السنة القبلية.

(١) حسن: رواه أبو داود والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٣).

✽ أما سنة الجمعة.. فمن المعلوم أنه ليس للجمعة سنة قبلية، حيث لا مكان لها، ولم يثبت فعلها عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابه رضي الله عنهم، وإنما الثابت أن لها سنة بعدية تؤدي في المسجد، أو في المنزل وهو الأفضل، وهي ركعتان في البيت أو أربع ركعات في المسجد.

فهذا هو هدى النبي ﷺ فإنه كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في البيت فإنه ﷺ: «كان لا يصلي الركعتين بعد الجمعة ولا الركعتين بعد المغرب إلا في أهله»^(١).

لكن لو صلى في المسجد صلى أربعاً، فإن ابن عمر فعل ذلك وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك»^(٢)، وقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَ مُصَلِّياً بعد الجمعة، فليُصَلِّ أربعاً»^(٣).

واعلم أيها الأخ الحبيب أنه لا يحافظ على السنن والنوافل إلا مَنْ امتلأ قلبه حباً لله (جل وعلا) فإنه لا يكتفى بالفرائض بل يحرص على أداء الرواتب والنوافل لما فيها من الخير الكثير والفوز برضوان الله ومحبة وبيت في جنته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه الطيالسي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٥٧).

(٢) قال الشيخ الألباني رحمه الله في تمام المنة (٣٤٢ / ١): «قال ابن القيم: قال شيخنا ابن تيمية: إن صلى في المسجد صلى أربعاً وإن صلى في بيته صلى ركعتين». قلت: هذا التفصيل لا أعرف له أصلاً في السنة إلا ما سيذكره من حديث ابن عمر ويأتي قريباً بيان ما فيه... وقوله في الحديث الصحيح المتقدم: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُصَلِّياً بعد الجمعة فليُصَلِّ أربعاً». رواه مسلم وغيره وهو في «الإرواء» (٦٢٥) لا دليل فيه على أن الأربع في المسجد... والحديث الصحيح المعروف: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» فإذا صلى بعد الجمعة ركعتين أو أربعاً في المسجد جاز أو في البيت فهو أفضل لهذا الحديث الصحيح.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٨١) كتاب الجمعة.

(١٩٦) باب تأكيد ركعتي سنة الصبح

(١١٠٧) عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَدْعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْغَدَاةِ ^(١).

(١١٠٨) وعنها قالت: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَى رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ ^(٢).

(١١٠٩) وَعَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَكَعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ^(٣).
وفي رواية: «لَهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا».

✽ تمتاز سنة الفجر وهى ركعتان قبل الصلاة بأمور:

(١) أنه يُسَنُّ تخفيفهما ... فلو أطالهما الإنسان لكان مُخَالَفًا لِلسُّنَّةِ بل يخفف ... حتى كانت عائشة تقول أنه ﷺ يخفف فيهما حتى أقول: أَقْرَأُ بِأَمِّ الْقُرْآنِ؟ - الفاتحة - من شدة التخفيف.

(٢) أنه يُسَنُّ فيهما قراءة مُعِينة ... إما ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ في الركعة الأولى و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الثانية ... وإما ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] و﴿قُلْ يَتَاهِلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ٦٤] يعنى مرة هذا ومرة هذا.

(٣) ومنها أن النبي ﷺ لم يكن على شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ - يعنى رواتب الصلوات - أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَى رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ يَتَعَاهَدُهُمَا ﷺ.

(٤) أن النبي ﷺ أخبر أنهما خيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَأَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٨٢) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٣) كتاب الأذان - ومسلم (٧٢٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) أن النبي ﷺ لم يكن يدعهما حَضْرًا ولا سَفَرًا ... كل هذا تتميز به سُنَّةُ الفجر ... فينبغي للإنسان أن يحافظ عليها وأن يحرص عليها حَضْرًا وسَفَرًا وإذا فاتته قبل الصلاة فليُصلهما بعدها إما في نفس الوقت وإما بعد ارتفاع الشمس قيد رمح وذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعًا قبل الظهر لكنهما بتسليمتين؛ لأن الظهر راتبها ست ركعات: أربع قبلها واثنان بعدها... فينبغي لنا أن نحرص على ما كان النبي ﷺ يحرص عليه وأن نقتدى بسُنَّته ﷺ ما استطعنا ... فإن الله يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١١٠) وعن أبي عبد الله بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُؤَدِّنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُؤْذِنَهُ بِصَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَشَغَلَتْ عَائِشَةُ بِلَالَ بِأَمْرِ سَأَلَتْهُ عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحَ جِدًّا، فَقَامَ بِلَالٌ فَأَذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، وَتَابَعَ أَذَانَهُ، فَلَمَّ يَخْرُجُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا خَرَجَ صَلَّى بِالنَّاسِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ شَغَلَتْهُ بِأَمْرِ سَأَلَتْهُ عَنْهُ حَتَّى أَصْبَحَ جِدًّا، وَأَنَّهُ أَبْطَأَ عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ، فَقَالَ - يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ -: «إِنِّي كُنْتُ رَكَعْتُ رَكْعَتِي الْفَجْرِ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ أَصْبَحْتَ جِدًّا؟ فَقَالَ: «لَوْ أَصْبَحْتُ أَكْثَرَ مِمَّا أَصْبَحْتُ، لَرَكَعْتُهُمَا، وَأَحْسَنْتُهُمَا وَأَجْمَلْتُهُمَا»^(٢).

❖ ففي هذا الحديث يخبر بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُؤْذِنَهُ .. أي: ليعلمه (بصلاة الغداة) أي: الصبح... وكان بلال إذا ذهب إلى النبي ﷺ عند إقامة الصلاة ليخبره بأن حان وقت إقامة الصلاة كان يقول له: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. رحمك الله.

❖ فشغلت عائشة بِلَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَمْرِ سَأَلَتْهُ عَنْهُ ... وهذا فيه جواز حديث

(١) شرح رياض الصالحين / لفضيلة الشيخ ابن عثيمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣/ ١٨٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٣٦).

المرأة لعتيق أبيها وسؤالها إياه عما تحتاج إليه وطول الحديث معه وإن كان جاء في حاجة لزوجها ... وتعظيمه لحُرمتها في عدم إنكاره عليها وإعلامها أنها شغلته عمّا جاء بسببه وأن المصلين ينتظرون حضور رسول الله ﷺ ليصلى بهم (حتى أصبح جِدًّا) أى دخل في الصبح (فقام بلال فأذنه): أى أعلمه (بالصلاة وتابع) أى: والى وكرر (أذانه) أى إعلامه بأن أتبع بعضه بعضاً وذلك لما رأى من الإصباح (فلم يخرج رسول الله ﷺ) أى إليه (فلما خرج) أى بعد ذلك (صلى بالناس) واعتذر إليه بلال (فأخبره) أن سبب تأخره بالأذان (أن عائشة شغلته بأمرٍ سألته عنه حتى أصبح جِدًّا وإنه) أى النبى (أبطأ عليه) أى على بلال (بالخروج) حتى تابع أذانه.

❁ فقال - يعنى النبى ﷺ -: «إِنِّى كُنْتُ رَكَعْتُ رَكَعَتَى الْفَجْرِ»

(فقال يا رسول الله إنك أصبحت جِدًّا) أى وذلك مقتضى للاهتمام بأمر الفريضة وترك النافلة (قال) أى النبى ﷺ له (لو أصبحت أكثر مما أصبحت) أى ولم أكن ركعتهما (لركعتهما وأحسنتهما) بالإتيان بالسنن والهيئات (وأجملتهما) بالآداب والتطوعات ... وفيه أن من ترك فعل الصلاة أول وقتها لغير عُذر شرعى بل لنحو بيع أو شراء أن يأتى بها فيه زائدة عما كان يصليها أوله من القراءة والتسبيح والدعاء والطمأنينة والخشوع ما بقى الوقت ... ويكون فيها خَجَلًا مُستحييًا مُعترفًا بالتقصير لتأخير الصلاة عن أول وقتها وحرمانه فضيلته لذنب صدر منه ويتصدق ويعتق كما كان يفعل السلف ... قال ابن رسلان: وهذا شأن ذوى القلوب اليقظة ... والناس اليوم عملهم بخلاف ذلك فإنهم يؤخرونها اشتغالا بأمر دنياهم عن أول الوقت ثم يفعلونها آخره مقتصرين على الفرض دون السنة وينقصون عما كانوا يعتادون من القراءة إذا صلوا أوله ويتركون الأذكار والطمأنينة^(١).

(١) دليل الفالحين (٣/٥٠٦).

(١٩٧) باب تخفيف ركعتي الفجر وبيان ما يقرأ فيهما، وبيان وقتها

(١١١١) عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ بَيْنَ النَّدَاءِ وَالْإِقَامَةِ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ ^(١).

وفي روايةٍ لهما: يُصَلِّي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ، فَيُخَفِّفُهُمَا حَتَّى أَقُولَ: هَلْ قَرَأَ فِيهِمَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ؟.

وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ: كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ وَيُخَفِّفُهُمَا.
وفي روايةٍ: إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ.

(١١١٢) وَعَنْ حَفْصَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَدَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِلصُّبْحِ، وَبَدَأَ الصُّبْحُ، صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ^(٢).

وفي روايةٍ لِمُسْلِمٍ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ لَا يُصَلِّي إِلَّا رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ.

(١١١٣) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، وَيُوتِرُ بِرَكْعَةٍ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَيُصَلِّي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، وَكَأَنَّ الْأَذَانَ بِأُذُنَيْهِ ^(٣).

❦ ففي الحديث الأول تخبر أمنا عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ بَيْنَ النَّدَاءِ - الْأَذَانَ - وَالْإِقَامَةِ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ..
ووصفت ذلك التخفيف بقولها: حَتَّى أَقُولَ: هَلْ قَرَأَ فِيهِمَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ؟ -
أى: الْفَاتِحَةِ -.. وفي روايةٍ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُصَلِّي الرَّكْعَتَيْنِ.. إِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٩) كتاب الأذان - ومسلم (٧٢٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٨) كتاب الأذان - ومسلم (٧٢٣) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٩٩٥) كتاب الوتر - ومسلم (٧٤٩) كتاب صلاة المسافرين.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

فِيهِ أَنَّ سُنَّةَ الصُّبْحِ لَا يَدْخُلُ وَقْتُهَا إِلَّا بِطُلُوعِ الْفَجْرِ .. وَاسْتِحْبَابُ تَقْدِيمِهَا فِي أَوَّلِ طُلُوعِ الْفَجْرِ وَتَخْفِيفُهَا وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَالْجُمْهُورِ وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ لَا بَأْسَ بِإِطَالَتِهِمَا وَلَعَلَّهُ أَرَادَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُحَرَّمَةً وَلَمْ يُخَالَفْ فِي اسْتِحْبَابِ التَّخْفِيفِ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي التَّخْفِيفِ .. وَالْمُرَادُ الْمُبَالَغَةُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَادَتِهِ ﷺ مِنْ إِطَالَةِ صَلَاةِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهَا مِنْ نَوَافِلِهِ ^(١).

❁ وَأَمَّا فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي تَخْبِرُ أَمْنَا حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِلصُّبْحِ وَبَدَأَ الصُّبْحَ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ.

❁ قال الإمام النووي:

قَدْ يَسْتَدِلُّ بِهِ مَنْ يَقُولُ: تُكْرَهُ الصَّلَاةُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَّا سُنَّةُ الصُّبْحِ وَمَا لَهُ سَبَبٌ ... وَلِأَصْحَابِنَا فِي الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: أَحَدُهَا: هَذَا وَنَقَلَهُ الْقَاضِي عَنْ مَالِكٍ وَالْجُمْهُورِ ... وَالثَّانِي: لَا تَدْخُلُ الْكَرَاهَةُ حَتَّى يُصَلِّيَ سُنَّةَ الصُّبْحِ ... وَالثَّلَاثُ: لَا تَدْخُلُ الْكَرَاهَةُ حَتَّى يُصَلِّيَ فَرِيضَةَ الصُّبْحِ ... وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصْحَابِنَا ... وَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى الْكَرَاهَةِ إِنَّمَا فِيهِ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ كَانَ ﷺ لَا يَصَلِّيَ غَيْرَ رَكْعَتَيْ السُّنَّةِ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ غَيْرِهَا ^(٢).

❁ وَأَمَّا الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ فَفِيهِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَثْنِي مَثْنِي.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى بَيَانِ الْأَفْضَلِ وَهُوَ أَنَّ يُسَلِّمَ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ وَسِوَاءُ نَوَافِلِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ ... فَلَوْ جَمَعَ

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ٦٠٥) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/ ٤٠٥) بتصرف.

رَكَعَاتٍ بِتَسْلِيمَةٍ أَوْ تَطَوُّعَ بَرَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ جَازَ عِنْدَنَا^(١).

❁ (ويوتر بركعة) في آخر جزء (من آخر الليل) فيه أن أقل الوتر ركعة وأنها مفصولة عما قبلها بالتسليم وبه قال الأئمة الثلاثة خلافاً لأبى حنيفة (ويصلى الركعتين) أى سنة الفجر (قبل صلاة الغداة) أى الصبح... ففيه أنها سنة قبلية (وكان الأذان بأذنيه) أى لقرب صلاته من الأذان.

قال في «فتح الباري»: والمراد بها هنا الإقامة. والمعنى أنه كان يُسرع ركعتي الفجر إسراع مَنْ يسمع إقامة الصلاة خشية فوات أول الوقت^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١١٤) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية التي في البقرة، وفي الآخرة مِنْهُمَا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وفي رواية: في الآخرة التي في آل عمران: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾^(٣).

(١١١٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتُ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٤).

(١١١٦) وعن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: رَمَقْتُ النَّبِيَّ ﷺ شَهْرًا فَكَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكَعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُوتُ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥).

❁ قال الإمام النووي رحمه الله: قَوْلُهُ: قَرَأَ فِي رَكَعَتَيِ الْفَجْرِ ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا

(١) مسلم بشرح النووي (٤٤/٦).

(٢) دليل الفالحين (٥٠٨/٣) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٢٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) صحيح: رواه الترمذی، وابن ماجه، وصححه الألبانی فی صحيح سنن الترمذی (٣٤١).

الْكَفَرُوتُ ﴿١﴾ وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَفِي الرَّوَايَةِ الْأُخْرَى قَرَأَ الْآيَتَيْنِ: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وَ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ هَذَا دَلِيلٌ لِمَذْهَبِنَا وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ فِيهِمَا بَعْدَ الْفَاتِحَةِ سُورَةً وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَكُونَ هَاتَانِ السُّورَتَانِ أَوْ الْآيَتَانِ ... كِلَاهُمَا سُنَّةٌ ^(١).

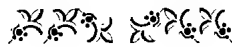
❁ وقد أخبر ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى مِنْ سُنَّةِ الصُّبْحِ ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وَذَلِكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ ... لِأَنَّهُ لَا صَلَاةَ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ^(٢). أَوْ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ^(٣).

❁ وَأَمَّا فِي حَدِيثِي أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما فَقَدْ أَخْبَرَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَصَلِّي فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ﴾ ^(٤) أَي: بَعْدَ الْفَاتِحَةِ.. وَفِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(٥) أَي: بَعْدَ الْفَاتِحَةِ.... ❁ وَبِالْجَمْعِ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ فَقَدْ يَكُونُ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بِهِذَا أَحْيَانًا وَبِذَاكَ أَحْيَانًا أُخْرَى.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❁ وَالشَّاهِدُ مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي سُنَّةِ الْفَجْرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ تَعَاهِدُهُ وَمُحَافَظَتُهُ عَلَى سُنَّةِ الْفَجْرِ أَشَدَّ مِنْ جَمِيعِ النَّوَافِلِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ

يَدْعُهَا هِيَ وَالْوِتْرُ سَفَرًا وَحَضْرًا ... وَكَانَ فِي السَّفَرِ يُوَظَّبُ عَلَى سُنَّةِ الْفَجْرِ
وَالْوِتْرِ أَشَدَّ مِنْ جَمِيعِ النَّوَافِلِ دُونَ سَائِرِ السُّنَنِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ فِي السَّفَرِ أَنَّهُ ﷺ
صَلَّى سُنَّةَ رَاتِبَةٍ غَيْرَهُمَا، وَلِذَلِكَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ لَا يَزِيدُ عَلَى رَكْعَتَيْنِ وَيَقُولُ:
«سَافَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَكَانُوا لَا يَزِيدُونَ فِي
السَّفَرِ عَلَى رَكْعَتَيْنِ».

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ: أَيُّ الصَّلَاتَيْنِ آكَدُ: سُنَّةُ الْفَجْرِ أَوِ الْوِتْرِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ:
وَلَا يُمَكِّنُ التَّرْجِيحُ بِاخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ الْوِتْرِ، فَقَدْ اخْتَلَفُوا أَيْضًا فِي
وُجُوبِ سُنَّةِ الْفَجْرِ ... وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: سُنَّةُ الْفَجْرِ
تَجْرِي مَجْرَى بَدَايَةِ الْعَمَلِ، وَالْوِتْرُ خَاتَمَتُهُ. وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي سُنَّةَ
الْفَجْرِ وَالْوِتْرِ بِسُورَتِي الْإِخْلَاصِ وَهُمَا الْجَامِعَتَانِ لِتَوْحِيدِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ،
وَتَوْحِيدِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِرَادَةِ، وَتَوْحِيدِ الْإِعْتِقَادِ وَالْقَصْدِ^(١).



(١) زاد المعاد (١/ ٣١٥-٣١٦) للإمام ابن القيم رحمه الله .

(١٩٨) باب استحباب الاضطجاع

بعد ركعتي الفجر على جنبه الأيمن

والحث عليه سواء كان تهجد بالليل أم لا

(١١١٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى رَكْعَتِي الْفَجْرِ، اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ^(١).

(١١١٨) وعنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّيُ فِيمَا بَيْنَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلَاةِ الْعِشَاءِ إِلَى الْفَجْرِ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يُسَلِّمُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ، وَيُؤْتِرُ بِوَاحِدَةٍ، فَإِذَا سَكَتَ الْمُؤَذِّنُ مِنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَتَبَيَّنَ لَهُ الْفَجْرُ، وَجَاءَهُ الْمُؤَذِّنُ، قَامَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، هَكَذَا حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ لِلْإِقَامَةِ ^(٢).

قولها: «يُسَلِّمُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ» هَكَذَا هُوَ فِي مُسْلِمٍ .. وَمَعْنَاهُ: بَعْدَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ. (١١١٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ رَكْعَتِي الْفَجْرِ فَلْيُضْطَجِعْ عَلَى يَمِينِهِ» ^(٣).

❖ سبق لنا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّيُ رَكْعَتِي الْفَجْرِ، وَسَبَقَ أَنْ هَاتَيْنِ الرُّكْعَتَيْنِ تَمَازِينِ عَنْ بَقِيَّةِ الرُّوَاتِبِ بِمِيزَاتٍ سَبَقَ ذِكْرُهَا، وَمِنْ مِمِيزَاتِهِمَا: أَنَّهُ إِذَا صَلَّى هَاتَيْنِ الرُّكْعَتَيْنِ اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ... وَثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها فِي الصَّحِيحَيْنِ: «أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى سُنَّةَ الْفَجْرِ اضْطَجَعَ بَعْدَهَا عَلَى الْجَنْبِ الْأَيْمَنِ»، وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ الثَّانِي الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «أَنَّهُ كَانَ ﷺ يُصَلِّيُ إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً يُسَلِّمُ بَيْنَ كُلِّ رَكْعَتَيْنِ»، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَهْمٍ مَنْ

(١) صحيح: رواه البخاري (١١٦٠) كتاب التهجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٣٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٢).

توهم أنه إذا صلى إحدى عشرة ركعة يصلى أربعاً أربعاً ثم ثلاثاً بناء على حديثها رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة... يصلى أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم ثلاثاً» فظن بعض الناس أنه ﷺ كان يصلى أربعاً جميعاً ثم أربعاً جميعاً ثم ثلاثاً، وهذا وهم؛ فقد أخذوا بظاهر الحديث... فيحمل هذا على أنه يصلى أربعاً على ركعتين ركعتين ثم يستريح ثم يصلى أربعاً على ركعتين ركعتين ثم يستريح ثم يصلى ثلاثاً، هكذا يجب أن يُحمل... لأن الراوى عن النبي ﷺ في ذلك واحد وهى عائشة، والفعل واحد، فيجب حمل بعضها على بعض لتتفق السنة، لا يُقال: إنه يفعل هذا مرة وهذا مرة... لأن كلمة «كان» تدل على دوام الفعل غالباً.

❖ وأما حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع على يمينه».. فعلى الرغم من تصحيح بعض أهل العلم الثقات لهذا الحديث إلا أن الإمام ابن القيم رحمته الله قال في كتابه زاد المعاد: وَسَمِعْتُ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ يَقُولُ: هَذَا بَاطِلٌ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ، وَإِنَّمَا الصَّحِيحُ عَنْهُ الْفِعْلُ لَا الْأَمْرُ بِهَا^(١).

❖ وقد يكون الجمع بين هذين الرأيين ما جاء في ترجمة هذا الباب وهو: استحباب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر على جنبه الأيمن (والحث عليه) سواء كان تهجد بالليل أم لا... والحث هنا ليس على سبيل الأمر والإيجاب.. فقد يفهم من الأمر الحث على فعل هذا الشيء المُستحب وبخاصة لمن تهجد في تلك الليلة حتى لا يظهر على وجهه أثر القيام فيكون أقرب إلى الإخلاص.. والله أعلم.

(١) زاد المعاد (١/٣١٩).

وأما حديث أبي هريرة في أمر النبي ﷺ من صلى ركعتي الفجر أن يضطجع على جنبه الأيمن فهذا - وإن كان الترمذی وأبو داود قد روياه، وقال المؤلف: إنه بأسانيد صحيحة فقد قال حبر الأمة وبحر العلوم العقلية والنقلية شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هذا حديث منكر، وإنه لم يصح الأمر به عن النبي ﷺ... وهذا هو الصحيح؛ لأن الرسول لم يأمر بأن يضطجع الرجل إذا صلى سنة الفجر على جنبه الأيمن.

وقول المؤلف رحمه الله في الترجمة: (لا فرق بين المتهجد وغيره) إشارة إلى خلاف في ذلك، وهو: أن بعض العلماء قال: يُسَنُّ الاضطجاع بعد ركعتي الفجر مُطْلَقًا، وبعضهم قال: لا يُسَنُّ مُطْلَقًا، وبعضهم قال بالتفصيل: إن كان له تَهَجَّد فإنه يُسَنُّ له أن يضطجع بعدهما من أجل الراحة بعد التعب، وإن لم يكن قد تَهَجَّد فلا يضطجع.

ومن أعجب الأقوال وأغربها أن بعض العلماء قال: إن الاضطجاع بعد سنة الفجر شرط لصحة صلاة الفجر، وأن مَنْ لم يضطجع فصلاته باطلة!! وهذه من غرائب العلم، وغرائب الأقوال؟! ما الرابط بين هذا الاضطجاع وبين صلاة الفجر؟! الجهة منفصلة عن الصلاة ولا علاقة لها بالاضطجاع؟، والصحيح هو ما قاله شيخ الإسلام: أنه إذا كان الإنسان مُتَعَبًا من تَهَجُّده فإنه يستريح بأن يضطجع على جنبه الأيمن، وهذا بشرط ألا يخشى أن يغلبه النوم فتفوته الصلاة، فإن خشى فلا ينم^(١).

❦ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وَفِي اضْطِجَاعِهِ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ سِرٌّ، وَهُوَ أَنَّ الْقَلْبَ مُعَلَّقٌ فِي الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ، فَإِذَا نَامَ الرَّجُلُ عَلَى الْجَنْبِ الْأَيْسَرِ، اسْتَقْلَّ نَوْمًا، لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي دَعَةٍ وَاسْتِرَاحَةٍ، فَيَقْلُ نَوْمُهُ، فَإِذَا نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ، فَإِنَّهُ

(١) شرح رياض الصالحين / للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ١٨٥-١٨٦) بتصرف.

يَقْلُقُ وَلَا يَسْتَعْرِقُ فِي النَّوْمِ، لِقَلَقِ الْقَلْبِ، وَطَلَبِهِ مُسْتَقَرَّهُ، وَمِيلِهِ إِلَيْهِ ... وَلِهَذَا اسْتَحَبَّ الْأَطِبَّاءُ النَّوْمَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ لِكَمَالِ الرَّاحَةِ وَطَيِّبِ الْمَنَامِ ... وَصَاحِبُ الشَّرْعِ يَسْتَحِبُّ النَّوْمَ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ، لِئَلَّا يَثْقُلَ نَوْمُهُ فَيَنَامَ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، فَالنَّوْمُ عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ أَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَعَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ أَنْفَعُ لِلْبَدَنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٩) باب سنة الظهر

(١١٢٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صليتُ مع رسولِ الله ﷺ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها^(١).

(١١٢١) وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان لا يدعُ أربعاً قبل الظهر^(٢).

(١١٢٢) وعنها قالت: كان النبي ﷺ يصلي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب، ثم يدخل بيتي فيصلي ركعتين، ويصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلي ركعتين^(٣).

❦ فتلك الأحاديث تدل على أن صلاة الظهر لها ست ركعات من السنن الرواتب: أربع قبلها يصليها ركعتين ركعتين.. وركعتان بعدها..

وإذا نسي الإنسان أو انشغل عن صلاة الأربع ركعات القبلية فإنه يستطيع أن يقضيها بعد صلاة الظهر.. وذلك لأن الرواتب تُقضى كما تُقضى الفرائض.. ولكن قد ورد في حديث رواه ابن ماجة أنه يبدأ أولاً بالسنة البعدية ثم يأتي بالسنة القبلية.

❦ وفي الحديث الثالث تُخبر أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يصلي في بيتها أربعاً قبل صلاة الظهر ثم يخرج فيصلي بالناس فريضة الظهر ثم يدخل البيت ويصلي ركعتين... وكان يصلي بالناس المغرب ثم يعود إلى البيت فيصلي ركعتين ثم يصلي بالناس صلاة العشاء ويعود إلى البيت فيصلي ركعتين.. ومن ثم فقد علمنا أن النبي ﷺ كان يصلي النوافل والرواتب في البيت ولا يصلي -في الغالب- في المسجد إلا المكتوبة.. وذلك لأنه ﷺ قال: «أفضل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٧٢٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١١٨٢) كتاب التهجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٣٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

صَلَاةِ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ»^(١).

✽ ولعلَّ هناك مَنْ يسأل ويقول: ما الحكمة في جعل النافلة في البيت أفضل؟

والجواب: قال الإمام النووي: لِكَوْنِهِ أَخْفَى وَأَبْعَدَ مِنَ الرِّيَاءِ وَأَصَوْنَ مِنَ الْمُحِيطَاتِ ... وَلِيَتَبَرَّكَ الْبَيْتُ بِذَلِكَ وَتَنْزِلَ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَالْمَلَائِكَةُ وَيَنْفِرُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ^(٢).

بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ

(١١٢٣) وَعَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَافَظَ عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»^(٣).

✽ قد علمنا أن سنة الظهر أن نصلي قبله أربع ركعات: نصلي ركعتين ونُسلم ثم ركعتين ونُسلم.. ثم نصلي بعد الظهر ركعتين ... لكن النبي ﷺ قد أضاف هنا ركعتين بعد الظهر ليصبح بعد الظهر أيضًا أربع ركعات وذلك لإضافة ثواب آخر ألا وهو أن مَنْ صلى أربع ركعات قبل الظهر وأربع ركعات بعد الظهر حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ.

✽ قوله ﷺ: «مَنْ حَافَظَ» أَي: دَاوَمَ وَوَاضَبَ.
«عَلَى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ» يَصْلِيهَا رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ.
«وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا» يَصْلِيهَا أَيْضًا رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ.

«حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» أَي حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ ... وَفِي رِوَايَةٍ: «لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ» وَفِي أُخْرَى: «حَرَّمَ اللَّهُ لَحْمَهُ عَلَى النَّارِ» وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ هَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَصْلًا أَوْ أَنَّهُ وَإِنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ دُخُولُهَا لَا تَأْكُلُهُ النَّارُ أَوْ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩٧/٦).

(٣) صحيح: رواه أصحاب السنن، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٩٥).

النَّارِ أَنْ تَبَسْتَوْعِبَ أَجْزَاءَهُ وَإِنْ مَسَّتْ بَعْضُهُ كَمَا فِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ عِنْدَ النَّسَائِيِّ بِلَفْظٍ: «فَتَمَسَّ وَجْهَهُ النَّارُ أَبَدًا» وَهُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «وَحَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مَوَاضِعَ السُّجُودِ» فَيَكُونُ قَدْ أَطْلَقَ الْكُلَّ وَأُرِيدَ الْبَعْضُ مَجَازًا... وَالْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَرِّمُ جَمِيعَهُ عَلَى النَّارِ وَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْسَعَ وَرَحَمَتُهُ أَعَمُّ، وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى تَأَكُّدِ اسْتِحْبَابِ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهْرِ وَأَرْبَعٍ بَعْدَهُ وَكَفَى بِهَذَا التَّرْغِيبِ بَاعِثًا عَلَى ذَلِكَ... وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: «مَنْ صَلَّى» أَنَّ التَّحْرِيمَ عَلَى النَّارِ يَحْصُلُ مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَّهُ قَدْ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا بِلَفْظٍ: «مَنْ حَافِظٌ» فَلَا يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ إِلَّا الْمُحَافِظُ^(١).

بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ

(١١٢٤) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي أَرْبَعًا بَعْدَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ قَبْلَ الظُّهْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَأَحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث يخبر عبد الله بن السائب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَصَلِي أَرْبَعًا بَعْدَ أَنْ تَزُولَ الشَّمْسُ قَبْلَ الظُّهْرِ... وَتِلْكَ الرُّكَعَاتُ لَيْسَتْ هِيَ سُنَّةُ الظُّهْرِ. قَالَ الْعِرَاقِيُّ: هِيَ غَيْرُ الْأَرْبَعِ الَّتِي هِيَ سُنَّةُ الظُّهْرِ قَبْلَهَا وَتُسَمَّى هَذِهِ سُنَّةَ الزَّوَالِ (وَقَالَ إِنَّهَا) أَى مَا بَعْدَ الزَّوَالِ^(٣).

فهى صلاة مستقلة كان النبى ﷺ يصلها بعد الزوال... ووضح النبى ﷺ السبب فى ذلك فقال ﷺ: «إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَأَحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ» أَى: إِلَى السَّمَاءِ.. وَفِيهِ تَلْمِيحٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ

(١) عون المعبود (٤/١٠٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب (٥٨٧):

(٣) تحفة الأحوذى (٢/٣٤٠).

الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ. ❁

❁ قال الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه (زاد المعاد): وَعَلَى هَذَا، فَتَكُونُ هَذِهِ الْأَرْبَعُ الَّتِي قَبْلَ الظُّهْرِ وَرَدًا مُسْتَقْلًا سَبَبُهُ انْتِصَافُ النَّهَارِ وَزَوَالُ الشَّمْسِ... وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يُصَلِّي بَعْدَ الزَّوَالِ ثَمَانِ رَكَعَاتٍ، وَيَقُولُ: إِنَّهُمْ يَعْدِلْنَ بِمِثْلِهِنَّ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ... وَسِرُّ هَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ انْتِصَافَ النَّهَارِ مُقَابِلُ لَانْتِصَافِ اللَّيْلِ، وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ تَفْتَحُ بَعْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ، وَيَحْصُلُ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ بَعْدَ انْتِصَافِ اللَّيْلِ، فَهُمَا وَفْتًا قُرْبٍ وَرَحْمَةٍ. هَذَا تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَهَذَا يَنْزِلُ فِيهِ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٢٥) وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا لَمْ يُصَلِّ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ صَلَّاهُنَّ بَعْدَهَا^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديثين رقم (١١٢٠، ١١٢١)... وقلنا: أَنَّ السَّنَنَ الرُّوَاتِبَ تُقْضَى كَمَا تُقْضَى الْفَرَائِضُ.. فَمَنْ فَاتَهُ أَنْ يُصَلِّيَ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ لِنَسْيَانٍ أَوْ انْشَغَالٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْضِيَهَا بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ... وَذَلِكَ بِأَنْ يُصَلِّيَ السُّنَّةَ الْبَعْدِيَّةَ ثُمَّ يَقْضِيَ بَعْدَهَا السُّنَّةَ الْقَبْلِيَّةَ.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) زاد المعاد (١/٣٠٩).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٥٩).

﴿ ٢٠٠ ﴾ باب سنة العصر

(١١٢٦) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يُصَلِّي قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ بِالتَّسْلِيمِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ ^(١).

(١١٢٧) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا» ^(٢).

❖ ففي هذا الحديث يخبر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي قبل العصر أربع ركعات... وقد قلنا قبل ذلك أن العصر ليس له سنة راتبة.. لا قبلية ولا بعدية... وإنما له سنة نافلة قبلية.. إما أن تكون ركعتين أو أربع ركعات: يصليها ركعتين ركعتين... والأفضل أن يصليها أربع ركعات - يعني يصلي ركعتين ثم ركعتين - ليفوز بدعاء النبي ﷺ الذي ورد في الحديث الثاني عندما قال ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا».

❖ وقد قال الإمام العراقي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءٌ وَأَنْ يَكُونَ خَبَرًا ^(٣) أي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا دُعَاءً مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِالرَّحْمَةِ لِكُلِّ مَنْ صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا.. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ إِخْبَارًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا فَقَدْ فَازَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ... وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً وَخَبَرًا... فَفَضَّلَ اللَّهُ وَاسِعًا.

❖ وأما قوله: «يَفْصِلُ بَيْنَهُنَّ بِالتَّسْلِيمِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ».. فالمراد هنا بالتسليم: تسليم التشهد فقد أخبر النبي ﷺ بذلك فقال ﷺ: «فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ

(١) حسن: رواه الترمذی وابن ماجه، وحسنه الألبانی فی صحیح سنن الترمذی (٣٥٣).

(٢) حسن: رواه أبو داود والترمذی، وحسنه الألبانی فی صحیح الجامع (٣٤٩٣).

(٣) تحفة الأحوذی (٢/٢٨٣).

وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ - فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ، أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٢٨) وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُصَلِّي قَبْلَ الْعَصْرِ رَكَعَتَيْنِ^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف.. وقد قال الشيخ الألباني رحمته الله: حسن لكن بلفظ (أربع ركعات) وقال: لكنه شاذ بلفظ ركعتين.. والمحفوظ بلفظ (أربع ركعات) وبيانه في «ضعيف أبي داود» رقم (٢٣٥). اهـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان - ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٥٦٨).

(٢٠١) باب سنة المغرب بعدها وقبلها

✽ تقدم في هذه الأبواب حديث ابن عمر، وحديث عائشة رضي الله عنها، وهما صحيحان أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد المغرب ركعتين.

(١١٢٩) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ» قَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: «لِمَنْ شَاءَ»^(١).

(١١٣٠) وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ كِبَارَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَتَدَرُونَ السَّوَارِيَ عِنْدَ الْمَغْرِبِ^(٢).

(١١٣١) وَعَنْهُ قَالَ: كُنَّا نَصَلِّي عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَكَعَتَيْنِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ، فَقِيلَ: أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَّاهُمَا؟ قَالَ: كَانَ يَرَانَا نُصَلِّيهِمَا فَلَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَنْهَنَا^(٣).

(١١٣٢) وَعَنْهُ قَالَ: كُنَّا بِالْمَدِينَةِ فَإِذَا أَدْنَى الْمُؤَذِّنُ لِمَصَلَاةِ الْمَغْرِبِ، ابْتَدَرُوا السَّوَارِيَ، فَرَكَعُوا رَكَعَتَيْنِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ الْغَرِيبَ لِيَدْخُلَ الْمَسْجِدَ فَيَحْسَبُ أَنَّ الصَّلَاةَ قَدْ صُلِّيَتْ مِنْ كَثَرَةِ مَنْ يُصَلِّيهِمَا^(٤).

✽ سيتم شرح هذا الباب مع الباب القادم إن شاء الله عز وجل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخارى (١١٨٣) كتاب التهجد.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٥) كتاب الأذان.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٣٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٨٣٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

﴿ ٢٠٢ ﴾ باب سنة العشاء بعدها وقبلها

❁ فيه حديث ابن عمر السابق: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وحديث عبد الله بن مَعْقِلٍ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ»^(١).

❁ هذه الأبواب في بيان سنة العصر والمغرب والعشاء ... وقد سبق بيان سنة الفجر وسنة الظهر فأما العصر فمن السنن التي قبلها أن يصلي الإنسان أربع ركعات استثناساً بهذا الحديث: «رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا».

وهذه الجملة دعائية يعنى أن النبي ﷺ دعا لمن صلى قبل العصر أربعاً.

وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند أهل العلم لكنه يُرَجَى أن ينال الإنسان الأجر إذا صلى هذه الأربع وأما المغرب فلها سنة قبلها وبعدها لكن السنة التي قبلها ليست راتبة والتي بعدها راتبة السنة التي قبلها فيها الحديث أن النبي ﷺ قال: «صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ» وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «لَمَنْ شَاءَ» لئلا تُتَّخَذَ سُنَّة راتبة.

فإذا أذن المغرب فصلَّ ركعتين سنة لكن ليست كالتى بعدها راتبة مؤكدة بل هى سنة إن تركها الإنسان فلا حرج وإن فعلها فلا حرج.

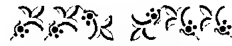
ولهذا قال أنس كان النبي ﷺ يرانا نصلّى فلم يأمرنا ولم ينهنا وأما العشاء فلها سنة قبلها وبعدها لكن السنة التي قبلها ليست راتبة بل هى داخلية فى عموم قول النبي ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ» أما بعدها فهى ركعتان سنة راتبة.

فتبين بهذا أن الصلوات الخمس: الفجر لها سنة قبلها وليس لها سنة بعدها ... الظهر لها سنة قبلها وبعدها العصر ليس لها سنة قبلها ولا بعدها يعنى راتبة ... لكن لها سنة غير راتبة قبلها وأما بعدها فهو وقت نهى المغرب لها

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٧) كتاب الأذان، ومسلم (٨٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

سنة بعدها أى راتبة، وقبلها غير راتبة... العشاء لها سنة بعدها يعنى راتبة وقبلها وليست براتبة.

هذه هى السنن التابعة للمفروضات ... ومن فوائدها أنه إذا حصل نقص بالفرائض فإنها تُكملها^(١).



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢٠٣) بَابُ سُنَّةِ الْجُمُعَةِ

❖ فِيهِ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ السَّابِقُ: أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَكَعَتَيْنِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ (متفق عليه).

(١١٣٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةَ، فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعًا»^(١).

(١١٣٤) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يُصَلِّي بَعْدَ الْجُمُعَةِ حَتَّى يَنْصَرِفَ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ فِي بَيْتِهِ^(٢).

❖ فَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ لَيْسَ لَهَا سُنَّةٌ رَاتِبَةٌ قَبْلُهَا .. لَكِنْ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ إِذَا ذَهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ مُبَكِّرًا أَنْ يُصَلِّيَ مِنَ النَّوَافِلِ مَا يَشَاءُ أَوْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ أَوْ يَذْكُرَ اللَّهَ حَتَّى يَصْعَدَ الْإِمَامُ عَلَى الْمَنْبَرِ ... أَمَا بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَلَهَا سُنَّةٌ رَاتِبَةٌ. وَسُنَّةُ الْجُمُعَةِ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ رَكَعَتَيْنِ فِي الْبَيْتِ ...

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِذَا صَلَّى فِي الْمَسْجِدِ صَلَّى أَرْبَعًا، وَإِذَا صَلَّى فِي بَيْتِهِ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ. اهـ^(٣).

❖ وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ: صَلَاةٌ مُسْتَقْلَةٌ لَيْسَتْ هِيَ الظُّهْرُ؛ وَلِهَذَا لَا يُجْمَعُ الْعَصْرُ إِلَيْهَا... يَعْنِي إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مُسَافِرًا وَمَرَّ بِبَلَدٍ وَصَلَّى مَعَهُمُ الْجُمُعَةَ، فَلَا يَجْمَعُ الْعَصْرَ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا مُسْتَقْلَةٌ... وَالسُّنَّةُ إِنَّمَا جَاءَتْ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ لَا بَيْنَ الْجُمُعَةِ وَالْعَصْرِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٨١) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٨٢) كتاب الجمعة.

(٣) نقله عنه تلميذه ابن القيم في الزاد (١/ ٤٤٠) وقال: وعلى هذا تدل الأحاديث.

(٢٠٤) باب استحباب جعل النوافل في البيت

سواء الراتبة وغيرها والأمر بالتحول للنافلة
من موضع الفريضة أو الفصل بينهما بكلام

(١١٣٥) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةَ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ» ^(١)

(١١٣٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا» ^(٢).

(١١٣٧) وعن جابر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ فِي مَسْجِدِهِ، فَلْيَجْعَلْ لَبِيتِهِ نَصِيبًا مِنْ صَلَاتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلَاتِهِ خَيْرًا» ^(٣).

✽ لما ذكر المصنف رحمته الله السُّنَنَ الرواتب التابعة للصلوات المكتوبة المفروضة وضح في هذا الباب أن الأصل أن يصلي الإنسان تلك الرواتب والنوافل في بيته.. وذكر مجموعة من الأحاديث.. منها: قول النبي ﷺ «صَلُّوا أَيُّهَا النَّاسُ فِي بُيُوتِكُمْ» فأمر النبي ﷺ بأن نصلي الرواتب والنوافل في بيوتنا ووضح السبب في ذلك فقال ﷺ: «فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةَ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ».

فدل ذلك على أن الإنسان ينبغي أن يصلي كل الرواتب والنوافل في بيته.. سواء التي تكون قبل وبعد الصلوات المكتوبة.. أو صلاة الضحى أو صلاة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ومسلم (٧٨١) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٣٢) كتاب الصلاة - ومسلم (٧٧٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٧٨) كتاب صلاة المسافرين.

التهجد أو غير ذلك من النوافل التي يجتهد الإنسان فيها في غير أوقات النهي.

❁ وفي الحديث الثاني قال ﷺ: «اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا» مَعْنَاهُ صَلُّوا فِيهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا كَالْقُبُورِ مَهْجُورَةً مِنَ الصَّلَاةِ وَالْمُرَادُ بِهِ صَلَاةُ النَّافِلَةِ أَيْ صَلُّوا النَّوَافِلَ فِي بُيُوتِكُمْ^(١).

❁ وفي الحديث الثالث أن النبي ﷺ أمرنا إذا انتهينا من صلاة الفريضة أن نجعل لبيوتنا نصيباً من صلاة الرواتب والنوافل.. ووضح السبب أيضاً فقال ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلَاتِهِ خَيْرًا».

وذلك بأن يراه أهله وأولاده فيقتدوا به ويألفوا الصلاة ويحبوها.. ولا سيما الصغار منهم.. ومنها أن الصلاة في البيت تكون أبعد عن الرياء لأن الإنسان إذا صلى النافلة في المسجد بخشوع فقد يراه أحد وربما يقع شيء في قلبه.... ومنها: الراحة التي يجدها الإنسان في صلاة النوافل في بيته بحيث إذا أراد أن يطيل فيها لا يخشى أن يراه أحد.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِنَّمَا حَثَّ عَلَى النَّافِلَةِ فِي الْبَيْتِ لِكَوْنِهِ أَخْفَى وَأَبْعَدَ مِنَ الرِّيَاءِ وَأَصَوْنَ مِنَ الْمُحِيطَاتِ وَلِيَتَبَرَّكَ الْبَيْتُ بِذَلِكَ وَتَنْزِلَ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَالْمَلَائِكَةُ وَيَنْفِرُ مِنْهُ الشَّيْطَانُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٣٨) وعن عمر بن عطاء أن نافع بن جبير أرسله إلى السائب ابن أخت نمر يسأله عن شيء رآه منه معاوية في الصلاة فقال: نعم، صَلَّيْتُ مَعَهُ الْجُمُعَةَ فِي الْمَقْصُورَةِ، فَلَمَّا سَلَّمَ الْإِمَامُ، قُمْتُ فِي مَقَامِي، فَصَلَّيْتُ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْسَلَ إِلَيَّ فَقَالَ: لَا تَعُدْ لِمَا فَعَلْتَ، إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ، فَلَا تَصِلْهَا بِصَلَاةٍ حَتَّى تَتَكَلَّمَ أَوْ تَخْرُجَ، فَإِنْ

(١) مسلم بشرح النووي (٩٦/٦).

(٢) مسلم بشرح النووي (٩٦/٦).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرْنَا بِذَلِكَ، أَنْ لَا نُوصِلَ صَلَاةً بِصَلَاةٍ حَتَّى نَتَكَلَّمَ أَوْ نَخْرُجَ^(١).

❁ ففى هذا الحديث أن السائب كان قد صلى مع معاوية رضي الله عنه في المقصورة... قال الإمام النووي رحمته الله: قَوْلُهُ صَلَّيْتُ مَعَهُ الْجُمُعَةَ فِي الْمَقْصُورَةِ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ اتِّخَاذِهَا فِي الْمَسْجِدِ إِذَا رَأَاهَا وَلِيُّ الْأَمْرِ مَصْلَحَةً... قَالُوا: وَأَوَّلُ مَنْ عَمِلَهَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ حِينَ ضَرَبَهُ الْخَارِجِيُّ. قَالَ الْقَاضِي: وَاخْتَلَفُوا فِي الْمَقْصُورَةِ فَأَجَازَهَا كَثِيرُونَ مِنَ السَّلَفِ وَصَلُّوا فِيهَا... وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ وَهُوَ فِي الْمَقْصُورَةِ خَرَجَ مِنْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ... قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ إِنَّمَا يَصِحُّ فِيهَا الْجُمُعَةُ إِذَا كَانَتْ مُبَاحَةً لِكُلِّ أَحَدٍ فَإِنْ كَانَتْ مَخْصُوصَةً بِبَعْضِ النَّاسِ مَمْنُوعَةً مِنْ غَيْرِهِمْ لَمْ تَصِحَّ فِيهَا الْجُمُعَةُ لِخُرُوجِهَا عَنْ حُكْمِ الْجَامِعِ^(٢).

❁ فلما سلم الإمام من صلاة الجمعة قام السائب في مقامه الذي صلى فيه الجمعة فصلى سنة الجمعة... فدعاه معاوية رضي الله عنه وقال له: لَا تَعُدْ لِمَا فَعَلْتَ.. إِذَا صَلَّيْتَ الْجُمُعَةَ فَلَا تَصِلْهَا بِصَلَاةٍ حَتَّى تَتَكَلَّمَ أَوْ تَخْرُجَ... وَأَخْبَرَهُ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ فَقَالَ لَهُ: فَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرْنَا بِذَلِكَ أَنْ لَا نُوصِلَ صَلَاةً بِصَلَاةٍ حَتَّى نَتَكَلَّمَ أَوْ نَخْرُجَ..

فمثلاً: إِذَا صَلَّيْتَ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ وَأَرَدْتَ أَنْ تَصَلِيَ السُّنَّةَ الْبَعْدِيَّةَ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَصَلِيَ السُّنَّةَ فِي مَكَانِكَ.. بَلْ اخْرُجْ إِلَى بَيْتِكَ لِتَصَلِّيَهَا لِأَنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةَ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ.. أَوْ تَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِكَ وَصَلَّ فِي مَكَانٍ آخَرَ فِي الْمَسْجِدِ.. أَوْ عَلَى الْأَقْلَى إِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ بِسَبَبِ الزَّحَامِ فَتَكَلَّمَ ثُمَّ صَلَّيْتَ السُّنَّةَ.. لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ تُوصَلَ صَلَاةً بِصَلَاةٍ حَتَّى يَخْرُجَ الْإِنْسَانُ أَوْ يَتَكَلَّمَ. قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رحمته الله: قَوْلُهُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرْنَا بِذَلِكَ أَنْ لَا نُوصِلَ

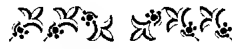
(١) صحيح: رواه مسلم (٨٨٣) كتاب الجمعة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/٢٤٢-٢٤٣) بتصرف.



صلاة حَتَّى نَتَكَلَّمَ أَوْ نَخْرُجَ فِيهِ دَلِيلٌ لِمَا قَالَهُ أَصْحَابُنَا أَنَّ النَّافِلَةَ الرَّائِبَةَ وَغَيْرَهَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَتَحَوَّلَ لَهَا عَنْ مَوْضِعِ الْفَرِيضَةِ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ وَأَفْضَلُهُ التَّحَوُّلُ إِلَى بَيْتِهِ ... وَإِلَّا فَمَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْمَسْجِدِ أَوْ غَيْرِهِ لِيُكْثِرَ مَوَاضِعَ سُجُودِهِ وَلِتَنْفَصِلَ صُورَةُ النَّافِلَةِ عَنْ صُورَةِ الْفَرِيضَةِ.

وَقَوْلُهُ: حَتَّى نَتَكَلَّمَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْفَصْلَ بَيْنَهُمَا يَحْصُلُ بِالْكَلامِ أَيْضًا وَلَكِنْ بِالْإِنْتِقَالِ أَفْضَلُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).





فهرس الموضوعات

- (١١٤) باب بيان جواز الشرب قائمًا وبيان أن الأكمل والأفضل الشرب
قاعدًا ٥
- (١١٥) باب استحباب كون ساقى القوم آخرهم شربًا ٩
- (١١٦) باب جواز الشرب من جميع الأواني الطاهرة ١١

(٣) كتاب اللباس

- (١١٧) باب استحباب الثوب الأبيض وجواز الأحمر ... إلخ ١٩
- (١١٨) باب استحباب القميص ٣١
- (١١٩) باب صفة طول القميص والكُم والإزار ٣٢
- (١٢٠) باب استحباب ترك الترفع في اللباس تواضعًا ٤٩
- (١٢١) باب استحباب التوسط في اللباس ٥١
- (١٢٢) باب تحريم لباس الحرير على الرجال ... إلخ ٥٣
- (١٢٣) باب جواز لبس الحرير لمن به حكمة ٥٧
- (١٢٤) باب النهى عن افتراش جلود النمرور والركوب عليها ٥٩
- (١٢٥) باب ما يقول إذا لبس ثوبًا جديدًا ٦٠
- (١٢٦) باب استحباب الابتداء باليمين في اللباس ٦٢

(٤) كتاب آداب النوم

- (١٢٧) باب ما يقوله عند النوم ٦٣
- (١٢٨) باب جواز الاستلقاء على القفا ٧٦
- (١٢٩) باب في آداب المجلس والجلوس ٨٢
- (١٣٠) باب الرؤيا وما يتعلق بها ١٠٥

(٥) كتاب السلام

- (١٣١) باب فضل السلام والأمر بإفشائه ١١٨
- (١٣٢) باب كيفية السلام ١٣٠
- (١٣٣) باب آداب السلام ١٣٧
- (١٣٤) باب استحباب إعادة السلام على مَنْ تكرر لقاءه ١٣٩
- (١٣٥) باب استحباب السلام إذا دخل بيته ١٤٠
- (١٣٦) باب السلام على الصبيان ١٤١
- (١٣٧) باب سلام الرجل على زوجته والمرأة من محارمه ١٤٣
- (١٣٨) باب تحريم ابتدائها الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم ١٤٦
- (١٣٩) باب استحباب السلام إذا قام من المجلس وفارق جلساءه ١٥١
- (١٤٠) باب الاستئذان وآدابه ١٥٢
- (١٤١) باب بيان أن السنة إذا قيل للمستأذن: مَنْ أنت؟ أن يقول: فلان ... ١٦٠
- (١٤٢) باب استحباب تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى ١٦٢
- (١٤٣) باب استحباب المصافحة عند اللقاء وبشاشة الوجه ١٧٠

(٦) كتاب عيادة المريض وتشجيع الميت والصلاة عليه

- (١٤٤) باب الأمر بالعيادة وتشجيع الميت ١٧٦
- (١٤٥) باب ما يُدعى به للمريض ١٨٩
- (١٤٦) باب استحباب سؤال أهل المريض عن حاله ١٩٨
- (١٤٧) باب ما يقوله مَنْ أيس من حياته ١٩٩
- (١٤٨) باب استحباب وصية أهل المريض ... إلخ ٢٠٢
- (١٤٩) باب جواز قول المريض: أنا وجع أو شديد الوجع ٢٠٤

- (١٥٠) باب تلقين المُحتَضَر : لا إله إلا الله ٢٠٩
- (١٥١) باب ما يقوله بعد تغميض الميت ٢١٤
- (١٥٢) باب ما يُقال عند الميت وما يقوله مَنْ مات له ميت ٢١٧
- (١٥٣) باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة ٢٢٣
- (١٥٤) باب الكَفِّ عما يرى من الميت من مكروه ٢٣٠
- (١٥٥) باب الصلاة على الميت وتشيعه ... إلخ ٢٣٣
- (١٥٦) باب استحباب تكثير المصلين على الجنازة ٢٣٧
- (١٥٧) باب ما يقرأ في صلاة الجنازة ٢٤١
- (١٥٨) باب الإسراع بالجنازة ٢٤٧
- (١٥٩) باب تعجيل قضاء الدين عن الميت ٢٥١
- (١٦٠) باب الموعظة عند القبر ٢٥٤
- (١٦١) باب الدعاء للميت بعد دفنه والقيود عند قبره ٢٥٨
- (١٦٢) باب الصدقة عن الميت والدعاء له ٢٦١
- (١٦٣) باب ثناء الناس على الميت ٢٦٦
- (١٦٤) باب فضل مَنْ مات له أولادٌ صغار ٢٧٠
- (١٦٥) باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين ... إلخ ٢٧٥

(٧) كتاب آداب السفر

- (١٦٦) باب استحباب الخروج يوم الخميس واستحبابه أول النهار ٢٧٩
- (١٦٧) باب استحباب طلب الرفقة وتأخيرهم على أنفسهم ... إلخ ٢٨٢
- (١٦٨) باب آداب السير والنزول والمبيت والنوم في السفر ... إلخ ٢٨٦
- (١٦٩) باب إعانة الرفيق ٢٩٥
- (١٧٠) باب ما يقول إذا ركب الدابة للسفر ٢٩٧

- (١٧١) باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا وشبهها ... إلخ ٣٠٤
- (١٧٢) باب استحباب الدعاء في السفر ٣١٠
- (١٧٣) باب ما يدعو به إذا خاف ناسًا أو غيرهم ٣١٢
- (١٧٤) باب ما يقول إذا نزل منزلاً ٣١٣
- (١٧٥) باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع إلى أهله ... إلخ ٣١٦
- (١٧٦) باب استحباب القدوم على أهله نهارًا وكراهته في الليل لغير حاجة ٣١٨
- (١٧٧) باب ما يقوله إذا رجع وإذا رأى بلدته ٣٢٠
- (١٧٨) باب استحباب ابتداء القادم بالمسجد ... إلخ ٣٢١
- (١٧٩) باب تحريم سفر المرأة وحدها ٣٢٢

(٨) كتاب فضائل القرآن

- (١٨٠) باب فضل قراءة القرآن ٣٢٦
- (١٨١) باب الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان ٣٤٦
- (١٨٢) باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع لها ٣٤٨
- (١٨٣) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة ٣٥٥
- (١٨٤) باب استحباب الاجتماع على القراءة ٣٨١
- (١٨٥) باب فضل الوضوء ٣٨٣
- (١٨٦) باب فضل الأذان ٣٩٧
- (١٨٧) باب فضل الصلوات ٤١٥
- (١٨٨) باب فضل صلاة الصبح والعصر ٤٢٣
- (١٨٩) باب فضل المشي إلى المساجد ٤٣١
- (١٩٠) باب فضل انتظار الصلاة ٤٣٦

- ٤٣٩ باب فضل صلاة الجماعة..... (١٩١)
- ٤٥١ باب الحث على حضور الجماعة في الصبح والعشاء (١٩٢)
- ٤٥٤ باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات ... إلخ (١٩٣)
- ٤٦٢ باب فضل الصف الأول ... إلخ (١٩٤)
- ٤٧٦ باب فضل السنن الراتبة مع الفرائض ... إلخ (١٩٥)
- ٤٨٠ باب تأكيد ركعتي سنة الصبح (١٩٦)
- ٤٨٣ باب تخفيف ركعتي الفجر وبيان ما يقرأ فيهما، وبيان وقتها (١٩٧)
- ٤٨٨ باب استحباب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر على جنبه الأيمن ... (١٩٨)
- ٤٩٢ باب سنة الظهر (١٩٩)
- ٤٩٦ باب سنة العصر (٢٠٠)
- ٤٩٨ باب سنة المغرب بعدها وقبلها (٢٠١)
- ٤٩٩ باب سنة العشاء بعدها وقبلها (٢٠٢)
- ٥٠١ باب سنة الجمعة (٢٠٣)
- ٥٠٢ باب استحباب جعل النوافل في البيت (٢٠٤)
- ٥٠٦ فهرس الموضوعات (٢٠٥)

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

وَأَرْحَمَ الْبَشَرِ عَلَى بَخْسِهِ صَادِقَةً يُخْبِرُ الْغَيْبَ بَلَدٌ يَرَى رُكْنِي اللَّهِ بِزُيَالِ الْإِسْلَامِ فِي الْقُرَى
وَالْعَمَلِ وَأَنْ يَرَى رُكْنِي حَسَنَ الْحَاقَةِ وَأَنْ يَجْعَلَ بِكُمْ فِي الشَّرِيعَةِ الْأَمَلِ مَعَ الْحَبِيبِ الْمَسْكُونِ

شَيْخُ رِايَظِ الصَّالِحِينَ مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

شَرْحُ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مَجْمُوعَةُ الْمَصْرِفِ
أَبُو عَمَّارٍ

لِلْإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

الْجُزْءُ السَّابِعُونَ



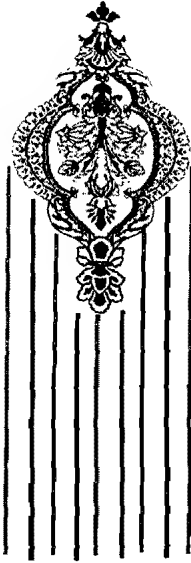
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شَيْخ

رَبِيعُ الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

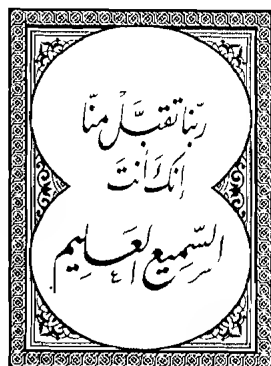
حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥٠٤٢

الترقيم الدولي: 978-977-763-025-2

أَفَلَا يَلْمِزُكَ عَتَاؤُهُمْ مِنْكُمْ وَيَكْتُمُونَ

١٢٧ ميدان الأزهر، إمام الجامع الأزهر، القاهرة ٢٥١٤٧٣٢٠
 أدب الأثر، خليف الجامع الأزهر ١٠١٤٣١١١٤، ليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



مَكْتَبَةُ الصَّفَا
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

شَيْخ رَايَضُ الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

لِلإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

سَنَخُ
فَضِيلَةَ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَصْرِفِ
أَبُو عَمَّارٍ
الْجُزْءُ السَّادِسُ

مَكْتَبَةُ الصَّفَا لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

تَلْفُون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تَلْفَاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



(٢٠٥) باب الحث على صلاة الوتر

وبيان أنه سنة مؤكدة وبيان وقته

(١١٣٩) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: الوتر ليس بحتم كصلاة المكتوبة، ولكن سنَّ رسولُ الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَتَرُّ يُحِبُّ الْوِتْرَ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يقول عليٌّ رضي الله عنه: الوتر ليس بحتم كصلاة المكتوبة.. أى أن صلاة الوتر ليست فرضاً كالصلوات الخمس المكتوبة بل هى سنة مؤكدة.... وفى الصحيح: لما سألَه الرجل عن الصلوات المفروضات فقال «خمس صلوات فى اليوم والليلة»، قال: هل على غيرها؟ قال: «لا.. إلا أن تطوع»^(٢).

ولكن سنَّ رسولُ الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَتَرُّ يُحِبُّ الْوِتْرَ» فالله ليس معه إله ثانٍ.. فهو سبحانه واحدٌ أحدٌ فى ذاته لا يقبلُ الانقسامَ.. وَوَاحِدٌ فى صفاته فلا شبهةَ لَهُ وَلَا مِثْلَ لَهُ... وَوَاحِدٌ فى أفعاله فلا شريكَ لَهُ وَلَا مُعِينَ «يُحِبُّ الْوِتْرَ» أَيْ يُسَبِّحُ عَلَيْهِ وَيَقْبَلُهُ مِنْ عَامِلِهِ^(٣).

وقد ظهرت آثار هذه المحبة فى مخلوقاته وفيما شرعه الله ﷻ لعباده من الطاعات والعبادات..... فأعظم المخلوقات العرش وهو واحد.. والسموات سبع سماوات ثم الأرضون وهى سبع.

وأما العبادات: فالصلوات الخمس عددها سبع عشرة ركعة.. وصلاة الليل إحدى عشرة ركعة وهى وتر... والطواف والسعى والرمى وتسبيحات الصلاة كلها وتر... فتجد أن الترتية وحُب الترتية ظاهرة فى مخلوقاته (سبحانه وتعالى) وفيما شرعه الله لعباده.. لأنه ﷻ وتر يحب الوتر.

(١) حسن: رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٨٣١).

(٢) دليل الفالحين (٣/ ٥٢٤).

(٣) عون المعبود (٤/ ٢٠٥).



﴿فَأَوْتَرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ﴾.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: تَخْصِيصُهُ أَهْلَ الْقُرْآنِ بِالْأَمْرِ فِيهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوِتْرَ غَيْرُ وَاجِبٍ وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَكَانَ عَامًّا ... وَأَهْلُ الْقُرْآنِ فِي عُرْفِ النَّاسِ الْقُرَّاءُ وَالْحَفَاطُ دُونَ الْعَوَامِّ ... وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ لِلْأَعْرَابِيِّ: لَيْسَ لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٤٠) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أُوتِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَمِنْ أَوْسَطِهِ، وَمِنْ آخِرِهِ، وَأَنْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحَرِ ^(٢).

(١١٤١) وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَتَرًا» ^(٣).

(١١٤٢) وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوْتَرُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا» ^(٤).

(١١٤٣) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُصَلِّي صَلَاتَهُ بِاللَّيْلِ وَهِيَ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَإِذَا بَقِيَ الْوِتْرُ أَبْقَطَهَا فَأَوْتَرَتْ ^(٥).

وفي روايةٍ له: فَإِذَا بَقِيَ الْوِتْرُ قَالَ: «قَوْمِي فَأَوْتَرِي يَا عَائِشَةُ».

(١١٤٤) وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا الصُّبْحَ بِالْوِتْرِ» ^(٦).

(١١٤٥) وعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمَعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ

(١) عون المعبود (٢٠٥/٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩٩٦) كتاب التهجد - ومسلم (٧٤٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٩٩٨) كتاب التهجد - ومسلم (٧٥١) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٧٥٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٢) كتاب الصلاة - ومسلم (٧٤٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٧٥٠) كتاب صلاة المسافرين.



الليل مشهودة، وذلك أفضل»^(١).

❦ لا بد أن نعلم أولاً أن صلاة الوتر سنة مؤكدة في كل ليلة.. وهذا ما ذهب إليه جمهور العلماء... وكان النبي ﷺ لا يدعها أبداً في السفر والحضر.. وكان في السفر يُواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل.. ولم يُنقل عنه ﷺ في السفر أنه صلى راتبة غير سنة الفجر والوتر.

وقد أخبرت أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قد أوتر في أول الليل وأوسطه وآخره.. لكنه جعل الوتر في وقت السحر بعد ذلك ﷺ.... ولعله ﷺ صلى الوتر في كل أوقات الليل ليُعلم الأمة جواز صلاة الوتر في أى وقت من الليل لكنه في النهاية اختار أحب أوقاته وهو وقت السحر.

ولذا قال ﷺ: «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا» وقال ﷺ: «أوترُوا قبل أن تُصبحُوا» ومن المعلوم أن آخر ساعة في الليل هي التي تكون قبل الصبح. وكان ﷺ من شدة حرصه على صلاة الوتر.. كان يصليها ويؤقظ أمنا عائشة رضي الله عنها ويقول لها: «قومي فأوترى يا عائشة».

واعلم أيضًا أن الوتر وتران، وتر فريضة، ووتر سنة: أما وتر الفريضة: فهو صلاة المغرب كما ثبت في الحديث الصحيح أنها وتر النهار... يعنى تُختَم بها صلاة النهار وهى وتر، وإن كانت في أول الليل. وأما وتر النافلة: فهو الوتر الذى يُختَم به صلاة الليل.

❦ أما وقت صلاة الوتر فهو كما قلنا في أى ساعة من ساعات الليل.. ولو أن إنسانًا كان على سفرٍ وجمع العشاء مع المغرب جمع تقديم في وقت المغرب فإن الوتر يدخل وقته.. فيستطيع أن يصلى العشاء ثم السنة الراتبة ثم يوتر.. وإن كان الأفضل تأخير الوتر إلى وقت السحر.. لكن مَنْ خاف ألا يستيقظ فليوتر قبل أن ينام... ولذا قال ﷺ: «مَنْ خافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٥) كتاب صلاة المسافرين.

طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرُهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مُشْهُودَةٌ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ». عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «مَتَى تُوتِرُ؟»، قَالَ: أُوْتِرُ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ، وَقَالَ لِعُمَرَ: «مَتَى تُوتِرُ؟»، قَالَ: أَنَامُ ثُمَّ أُوْتِرَ، فَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخَذْتُ بِالْحَذَرِ»، وَقَالَ لِعُمَرَ: «أَخَذْتُ بِالْقُوَّةِ»^(١).

✽ وأما قوله ﷺ: «أوتروا قبل أن تصبحوا»؛ لأن الوتر ينتهي وقته بطلوع الفجر، فإذا طلع الفجر فلا وتر حتى ولو بين أذان الفجر والإقامة لا وتر، ولكن إذا طلع الفجر والإنسان لم يُوتر فإنه يصلي في النهار شفعا... إن كان يوتر بثلاثٍ صلى أربعاً، إن كان يوتر بخمسٍ صلى ستاً، إن كان يوتر بسبعٍ صلى ثمانى.. لقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان النبي ﷺ إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة.

✽ واعلم أن الوتر له صفات:

الصفة الأولى: أن يُوتر بواحدة فقط وهذا جائز ولا يُكره الوتر بها.
الثانية: أن يُوتر بثلاثٍ وله الخيار إن شاء سلّم من الركعتين ثم أتى بالثالثة وإن شاء سردها سرّداً بتشهدٍ واحد.
الثالثة: أن يُوتر بخمسٍ فيسردها سرّداً لا يتشهد إلا في آخرها.
الرابعة: أن يُوتر بسبعٍ فيسردها سرّداً لا يتشهد إلا في آخرها.
الخامسة: أن يُوتر بتسعٍ فيسردها سرّداً لكن يتشهد بعد الثامنة ولا يسلم ثم يصلي التاسعة ويسلم.

السادسة: أن يُوتر بإحدى عشرة فيسلم من كل ركعتين ويوتر بواحدة.
هذه صفة الوتر وقد سبق أنه سنة مؤكدة وأن من العلماء مَنْ أوجبه فلا تُضع الوتر... ثم إن كنت ترجو أن تُوتر من آخر الليل فاجعل الوتر في آخر الليل وإن كنت تخاف ألا تقوم فاجعل الوتر من أول الليل... لا تنم إلا مُوتراً ولهذا أوصى

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٧١).

النبي ﷺ أبا هريرة أن يُوتر قبل أن ينام؛ لأن أبا هريرة كان يقرأ أحاديث الرسول ﷺ في أول الليل وينام في آخره فأمره النبي ﷺ أن يوتر قبل أن ينام ... واعلم أن الوتر سنة في الحضر والسفر حتى في السفر لا تتركه ومن ذلك ليلة المزدلفة فإن الإنسان إذا صلى العشاء فإنه يصلي المغرب والعشاء جمعاً ثم يُوتر وإن كان جابر رضي الله عنه لم يذكره في حديثه لكن الأصل بقاء ما كان على ما كان وأن الرسول ﷺ لا يدع الوتر حضراً ولا سفرًا والله الموفق^(١).

❖ وأما عن القراءة في الوتر فلا بُدَّ أن تعلم أنه يجوز لك أن تقرأ بعد الفاتحة بأي شيء من القرآن لكن يُستحب لك إذا أوترت بثلاث ركعات أن تقرأ بـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَتَايَأُ الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كما ثبت عن النبي ﷺ.

عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الوتر بـ ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَتَايَأُ الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعة ركعة»^(٢).
يعنى: في كل ركعة سورة منها.

❖ وأما عن القنوت في الوتر فاعلم أنه من المُستحب أن تُقنُت في صلاة الوتر طوال السنة ولا تُخصص يوماً بعينه أو شهراً بعينه بل هو مُستحب طوال العام.
عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكَتْ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ»^(٣).

وفي رواية: «ولا يعزَّ من عاديت». وهذا القنوت سنة في الوتر.

(١) شرح رياض الصالحين لفضيلة الشيخ ابن عثيمين (٣/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذی، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٤٢٣)، وصفة الصلاة (ص ١٢٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذی، والنسائي، وصححه الألباني في الإرواء (٤٢٩).

(٢٠٦) باب فضل صلاة الضحى وبيان أقلها

وأكثرها وأوسطها والحث على المحافظة عليها

(١١٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد ^(١).

والإيتار قبل النوم إنما يستحب لمن لا يثق بالاستيقاظ آخر الليل فإن وثق فأخّر الليل أفضل.

(١١٤٧) وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» ^(٢).

(١١٤٨) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله ^(٣).

(١١٤٩) وعن أم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فوجدته يغتسل، فلما فرغ من غسله، صلى ثماني ركعات، وذلك ضحى ^(٤).

✽ إن صلاة الضحى لها فضل عظيم.. فهي صلاة الأوابين وهي تجزئ عن كل مفصل من مفاصلك صدقة:

✽ وسوف أتناول شرح هذا الباب من خلال ذكر فضائل صلاة الضحى ثم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٨١) كتاب الصوم - ومسلم (٧٢١) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧١٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٧) كتاب الصلاة - ومسلم (٣٣٦) كتاب الحيض.

ذكر حكمها ووقتها وعدد ركعاتها... ولنبدأ أولاً بالسؤال عن فضل صلاة الضحى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

س: ما هو فضل صلاة الضحى؟

ج: أما عن فضل صلاة الضحى فإن فضلها عظيم وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة سأكتفى بذكر بعضها.

(١) فهي من أعظم الوسائل التي يؤدي بها العبد شكره لله على تلك النعم:

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرَكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى».... وقد سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٠) فأرجو الرجوع إليه بارك الله فيكم.

(٢) وهي صلاة الأوابين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَسْتُ بِتَارِكِهِنَّ: أَنْ لَا أُنَامَ إِلَّا عَلَى وَتَرٍ، وَأَنْ لَا أَدْعَ رَكْعَتِي الضُّحَى فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ، وَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ»^(١).

وعنه قال رسول الله ﷺ: «لَا يُحَافِظُ عَلَى صَلَاةِ الضُّحَى إِلَّا أَوَّابٌ». قَالَ: «وَهِيَ صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ»^(٢).

(٣) وهي وصية النبي ﷺ لأصحابه:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِي حَبِيبِي ﷺ بِثَلَاثٍ، لَنْ أَدْعَهُنَّ مَا عِشْتُ: بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِأَنْ لَا أُنَامَ حَتَّى أُوتِرَ»^(٣).

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٦٤) - وأصله في الصحيحين.

(٢) حسن: رواه الحاكم، وابن خزيمة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٢٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) ومن صلاها أربعاً كفاه الله يومه :

❦ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ الْغَطَفَانِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنْ رَبِّهِ ﷻ أَنَّهُ قَالَ: «يَا ابْنَ آدَمَ صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَوَّلَ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ» ^(١).

(٥) وهي أعظم ثواباً من سرية غنمت وأسرت الرجعة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ جيشاً فأعظم الغنيمة، وأسرعوا الكربة، فقال رجل: يا رسول الله، ما رأينا بعثاً قطُّ أسرع كربةً، ولا أعظم منه غنيمةً من هذا البعث، فقال ﷺ: «ألا أخبركم بأسرع كربةً منه، وأعظم غنيمةً؟ رجلٌ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ وَضُوءَهُ، ثُمَّ تَحَمَّلَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَلَّى فِيهِ الْغَدَاةَ، ثُمَّ عَقَّبَ بِصَلَاةِ الضُّحَاةِ، فَقَدْ أَسْرَعَ الْكُرَّةَ، وَأَعْظَمَ الْغَنِيمَةَ» ^(٢).

(٦) ومن صلاها بعد أن صلى الصبح في جماعة وجلس يذكر الله حتى تطلع الشمس فله أجر حجة وعمرة تامة.

❦ وذلك لما ورد في الحديث: «مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، تَامَةً تَامَةً» ^(٣).

(٧) ومن خرج لصلاتها فأجره كأجر المعتمر :

❦ عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرَمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيْنِ» ^(٤).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤٢).

(٢) حسن: رواه أبو يعلى، وابن حبان، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥٣١). ومعنى «أسرع كربة» أى: رجعة.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألباني في صحيح الجامع: (٦٣٤٦)، وصحيح الترغيب والترهيب: (٣٤٠٣).

(٤) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٢٨). ومعنى: «لا ينصبه» أى: لا يخرج به ويعانى مشقته إلا إياه.



(٨) ومن صلاها أربعاً؛ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ.

❦ قَالَ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الضُّحَى أَرْبَعًا وَقَبْلَ الْأُولَى أَرْبَعًا بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

بَابُ صَلَاةِ الضُّحَى

س: ما حكم صلاة الضحى؟

ج: اختلف أهل العلم في حكم صلاة الضحى... ولكن الصحيح الذي دلَّت عليه الأحاديث والآثار أن صلاة الضحى تُستحب مُطلقاً ويُستحب المواظبة عليها.

س: ما هو وقت صلاة الضحى؟

ج: يبدأ وقت صلاة الضحى من بعد شروق الشمس بثلاث ساعة تقريباً ويستمر إلى قبيل صلاة الظهر بثلاث ساعة تقريباً... لكن فعلها في آخر الوقت أفضل.. وذلك لقول النبي ﷺ: «صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الْفَصَالُ»^(٢). والفصال: أولاد النوق.. وترمض يعني: تشتد عليها الرمضة وهذا في آخر الوقت.

س: ما هو عدد ركعاتها؟

ج: لا شك في أن أقل عدد لركعات الضحى هو ركعتان لحديث: «...وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»^(٣).... ولحديث أبي هريرة: «أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ - منها - ... وَرَكْعَتَيِ الضُّحَى...»^(٤).

ثم اختلفوا في أكثر صلاة الضحى على أقوال:

فبعضهم يقول: أكثرها ثمان ركعات.. ومنهم من يقول: أكثرها اثنتا عشرة ركعة.. ومنهم من يقول: لا حدَّ لعدددها.

(١) حسن: رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٤٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١١٧٨) كتاب التهجد - ومسلم (٧٢١) كتاب صلاة المسافرين.



وذهب آخرون إلى أن أفضلها أربع ركعات.

لحديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ عن الله تعالى: «يَا ابْنَ آدَمَ صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَوَّلَ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ» (١).

ولحديث عائشة (رضي الله عنها): «أَنَّهُ كَانَ يَصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ» (٢).

وغيرها من الأحاديث - والله أعلم -.

فينبغي للإنسان أن يغتنم عمره بصالح الأعمال، لأنه سوف يندم إذا جاءه الموت أن أمضى ساعة من دهره لا يتقرب بها إلى الله عز وجل.

كل ساعة تمر عليك وأنت لا تتقرب إلى الله بها فهي خسارة؛ لأنها ضاعت عليك لم تنتفع بها... فانتهاز الفرصة بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والتعلق بالله عز وجل... اجعل قلبك دائماً مع الله سبحانه وتعالى... ربك في السماء وأنت في الأرض لا تغفل عن ذكر الله بقلبك ولسانك وجوارحك.. فإن الدنيا زائلة لن تبقى لأحد. انظر إلى مَنْ سبقك من الأمم السابقة والماضية البعيدة المدى، وانظر إلى مَنْ سبقك من أصحابك، بالأمس كانوا معك يتمتعون، ويأكلون كما تأكل، ويشربون كما تشرب، والآن هم في أعمالهم مُرْتَهَنُونَ، وأنت سيأتي عليك هذا اليوم... طالت الدنيا أم قصرت.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

فانتهاز الفرصة يا أخي... انتهاز الفرصة، فإنه لا ينفعك يوم القيامة مالٌ ولا بنون ولا أهل، لا ينفعك إلا أن تأتي الله بقلب سليم... أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يأتي ربه بقلب سليم وأن يتوفانا على الإيمان والتوحيد، إنه على كل شيء قدير (٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٤٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧١٩) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣) شرح رياض الصالحين (١٩٧/٣) بتصرف.



(٢٠٧) باب تجويز صلاة الضحى

من ارتفاع الشمس إلى زوالها .. والأفضل أن
تُصلى عند اشتداد الحر وارتفاع الضحى

(١١٥٠) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه رأى قوماً يُصلُّون من الضحى، فقال: أما لقد علموا أن الصلاة في غير هذه الساعة أفضل، إن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال»^(١).

✽ قال الإمام النووي رحمته الله: قوله ﷺ: «صلاة الأوابين حين ترمض الفصال»... يُقال رَمَضَ يَرْمِضُ كَعَلِمَ يَعْلَمُ... وَالرَّمْضَاءُ: الرَّمْلُ الَّذِي اشْتَدَّتْ حَرَارَتُهُ بِالشَّمْسِ أَيْ حِينَ يَحْتَرِّقُ أَخْفَافُ الْفِصَالِ وَهِيَ الصَّغَارُ مِنْ أَوْلَادِ الْإِبِلِ - جَمْعُ فَصِيلٍ - مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الرَّمْلِ... وَالْأَوَابُ: الْمُطِيعُ. وَقِيلَ: الرَّاجِعُ إِلَى الطَّاعَةِ... وَفِيهِ فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ هَذَا الْوَقْتُ... قَالَ أَصْحَابُنَا: هُوَ أَفْضَلُ وَقْتُ صَلَاةِ الضُّحَى... وَإِنْ كَانَتْ تَجُوزُ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى الزَّوَالِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

«ترمض» يعنى: شدة الحر.

«والفصال» جمع فصيل، وهو: الصغير من الإبل.

(٢) مسلم بشرح النووي (٤٣/٦ - ٤٤).



(٢٠٨) باب الحث على صلاة تحية المسجد

وكراهية الجلوس قبل أن يصلي ركعتين

في أي وقت دخل وسواء صلى ركعتين بنية التحية

أو صلاة فريضة أو سنة راتبة أو غيرها

(١١٥١) عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد، فلا يجلس حتى يصلي ركعتين»^(١).

(١١٥٢) وعن جابر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فقال: «صل ركعتين»^(٢).

❁ قال الإمام النووي رحمته الله: فيه استحباب تحية المسجد بركعتين وهي سنة بإجماع المسلمين... وفيه التصريح بكراهة الجلوس بلا صلاة وهي كراهة تنزيه... وفيه استحباب التحية في أي وقت دخل وهو مذهبنا وبه قال جماعة... وكراهها أبو حنيفة والأوزاعي والليث في وقت النهي وأجاب أصحابنا أن النهي إنما هو عما لا سبب له لأن النبي ﷺ صلى بعد العصر ركعتين قضاء سنة الظهر فخص وقت النهي وصلى به ذات السبب ولم يترك التحية في حال من الأحوال بل أمر الذي دخل المسجد يوم الجمعة وهو يخطب فجلس أن يقوم فيركع ركعتين مع أن الصلاة في حال الخطبة ممنوع منها إلا التحية^(٣).

يعنى حتى لو دخل أثناء الخطبة... لما رواه مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة، والإمام يخطب، فليركع ركعتين، وليتجوز»

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧١٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٣) كتاب الصلاة - ومسلم (٧١٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) مسلم بشرح النووي (٣١٧/٥).

فِيهِمَا»^(١).

يعنى: يُخففهما؛ لأجل أن يستمع للخطبة. وإذا كان الرسول ﷺ أمره أن يصلى حال الخطبة مع أن استماع الخطبة واجب، كان ذلك أذانا بأن تحية المسجد واجبة... ولولا أن النصوص دلت على عدم الوجوب، لقلنا إنها واجبة، لكنها سنة مؤكدة.

أما حديث: «إذا صعد الخطيب المنبر فلا صلاة ولا كلام» فهو حديث ضعيف جدًا. ضعفه الهيثمى فى المجمع^(٢) والحافظ فى الفتح^(٣) وقال الألبانى: حديث باطل^(٤).

ولقد دخل أبو ذر رضي الله عنه المسجد فقال له النبى ﷺ: «أرکت رکعتين؟».

قال: لا. قال: «قم فاركعهما»^(٥). وترجم عليه ابن حبان: أن تحية المسجد لا تفوت بالجلوس، وله أيضًا أن يصليهما فى جميع الأوقات حتى فى أوقات النهى بعد الفجر وبعد العصر؛ لأنها صلاة من ذوات الأسباب كصلاة الطواف والخسوف.

فَلَوْ كَانَتِ التَّحِيَّةُ تُتْرَكُ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ لَتَرَكْتِ الْآنَ لِأَنَّهُ قَعَدَ وَهِيَ مَشْرُوعَةٌ قَبْلَ الْقُعُودِ وَلِأَنَّهُ كَانَ يَجْهَلُ حُكْمَهَا وَلِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ خُطْبَتَهُ وَكَلَّمَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ التَّحِيَّةَ... فَلَوْ لَا شِدَّةُ الْإِهْتِمَامِ بِالتَّحِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ لَمَا اهْتَمَّ ﷺ هَذَا الْإِهْتِمَامَ... وَلَا يُشْتَرَطُ أَنْ يَنْوِيَ التَّحِيَّةَ بَلْ تَكْفِيهِ رُكْعَتَانِ مِنْ فَرَضٍ أَوْ سُنَّةٍ رَاتِبَةٍ أَوْ غَيْرِهِمَا... وَلَوْ نَوَى بِصَلَاتِهِ التَّحِيَّةَ وَالْمَكْتُوبَةَ انْعَقَدَتْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٧٥) كتاب الجمعة.

(٢) مجمع الزوائد (١٨٤/٢).

(٣) فتح البارى (٤٠٩/٢).

(٤) السلسلة الضعيفة (٨٧).

(٥) رواه ابن حبان فى صحيحه - كما فى الفتح (٥٣٨/١).

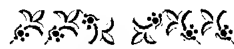
صَلَاتُهُ وَحَصَلَتْ لَهُ وَلَوْ صَلَّى عَلَى جِنَازَةٍ أَوْ سَجَدَ شُكْرًا أَوْ لِلتَّلَاوَةِ أَوْ صَلَّى رَكْعَةً بِنِيَّةِ التَّحِيَّةِ لَمْ تَحْصُلِ التَّحِيَّةُ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ مَذْهَبِنَا^(١).

✽ فإذا دخلت بعد صلاة الفجر صلّ ركعتين.. بعد صلاة العصر صلّ ركعتين... عند غروب الشمس صلّ ركعتين... عند طلوع الشمس صلّ ركعتين، لا تجلس... إذا دخلت والإمام يخطب صلّ ركعتين... إذا دخلت والناس تستمع إلى درس صلّ ركعتين... في أي حال وفي أي وقت، لا بد أن تصلي ركعتين، لكن يُستثنى من ذلك:

أولاً: إذا دخل الخطيب فإنه لا يُسن للخطيب أن يصلي ركعتين، بل يعتمد إلى المنبر ويُسلم على الناس ويخطب.

الثاني: إذا دخل المسجد الحرام للطواف، فإنه يُجزئه الطواف عن صلاة الركعتين. وأما مَنْ دخل المسجد الحرام للصلاة فإنه كغيره من المساجد يصلي تحية المسجد.

وما اشتهر بين العامة أن تحية المسجد الطواف، هذا لا أصل له. بل يُقال: مَنْ دخل المسجد الحرام ليطوف أجزأه الطواف عن تحية المسجد، ومَنْ دخل لاستماع درس أو انتظار فريضة أو ما أشبه ذلك فهو كغيره من المساجد، لا يجلس حتى يصلي ركعتين^(٢).



(١) مسلم بشرح النووي (٣١٧/٥ - ٣١٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/١٩٨، ١٩٩) بتصرف.

(٢٠٩) باب استحباب ركعتين بعد الوضوء

(١١٥٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة» قال: «ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال رضي الله عنه.. وقد كان النبي ﷺ يحب بلالاً واتخذه مؤذناً له.. فكان بلال أول مؤذن في الإسلام وأخبره النبي ﷺ أن الجنة تشاق إليه فقال ﷺ: «اشتقت الجنة إلى ثلاثة: عليّ وعمار وبلال»^(٢).

الله أكبر...!!! الجنة تشاق لبلال...!!!

كيف استطاع بلال رضي الله عنه بعد تلك البشري أن تحمله قدماء ليمشى على الأرض بين الناس؟!

فمنذ فترة يسيرة كان عبداً حبشياً والآن أصبح معروفاً في الأرض، بل وفي السماوات حتى اشتقت الجنة إليه.

❁ وهنا قال النبي ﷺ لبلال: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة».

أي: سمعت صوت تحريك نعليك أمامي في الجنة.

وكان من المتوقع أن يقول بلال: إن أرجى أعمالى هو جهادى معك في سبيل الله يا رسول الله ﷺ.. أو: هو محافظتى على الصلوات الخمس.. أو هو الأذان الذى أرفعه كل يوم خمس مرات.. لكنه قال للنبي ﷺ أمراً آخر.. قال له:

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٩) كتاب التهجيد - ومسلم (٢٤٥٨) كتاب فضائل الصحابة.

«الدَّفْ» بالفاء: صَوْتُ النُّعْلِ وَحَرَكَتُهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

(٢) أخرجه الترمذى (٣٧٩٨) المناقب - والحاكم (١٣٧/٣)، وصححه ووافقه الذهبى.

مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي مِنْ أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أَصَلِّيَ.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: مَعْنَاهُ قَدَّرَ اللهُ لِي ... وَفِيهِ فَضِيلَةُ الصَّلَاةِ عَقَبَ الْوُضُوءِ وَأَنَّهَا سُنَّةٌ وَأَنَّهَا تُبَاحٌ فِي أَوْقَاتِ النَّهْيِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَاسْتِوَائِهَا وَغُرُوبِهَا وَبَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ لِأَنَّهَا ذَاتُ سَبَبٍ وَهَذَا مَذْهَبُنَا^(١).

❁ قلت: وهذا كله ثمرة من ثمرات المداومة على العمل الصالح. والجزاء من جنس العمل.

قال ابن حجر في الفتح: لما مشى بالأذان بين يدي النبي ﷺ فاتفق مثله في الجنة. وَلَا يُلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ دُخُولُ بِلَالٍ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ لِأَنَّهُ فِي مَقَامِ التَّابِعِ وَكَأَنَّهُ أَشَارَ ﷺ إِلَى بَقَاءِ بِلَالٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي حَالِ حَيَاتِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى قُرْبِ مَنْزِلَتِهِ وَفِيهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِبِلَالٍ^(٢).

❁ فيستحب لك كلما توضأت أن تصلي ركعتين أو أكثر .. وهذا على وجه الاستحباب وليس فرضاً عليك.

فينبغي لك إذا توضأت أن تصلي ركعتين أو أكثر في أي وقت كان .. حتى لو كان ذلك بعد الفجر أو بعد العصر .. واحرص على أن تقبل بقلبك على هاتين الركعتين لتفوز بمغفرة الذنوب وجنة علاّم الغيوب.

قال ﷺ: « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يَسْهُو فِيهِمَا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(٣).

وقال ﷺ: « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ »^(٤).

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٩).

(٢) فتح الباري (٤٣/٣).

(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٦٥).

(٤) صحيح: رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٦٦).

(٢١٠) باب فضل يوم الجمعة ووجوبها والاغتسال لها

والتطيب والتبكير إليها والدعاء يوم الجمعة

والصلاة على النبي ﷺ فيه وبيان ساعة الإجابة،

واستحباب إكثار ذكر الله بعد الجمعة

✽ وقبل أن أخبرك بما ينبغي فعله يوم الجمعة فإنه ينبغي أن أخبرك ببعض فضائل يوم الجمعة.

إن يوم الجمعة هو خير يوم طلعت عليه الشمس .. فهو يومٌ عظيم مبارك... وهو أفضل أيام الأسبوع فهو عيد المسلمين الأسبوعي.

وهو اليوم الذي خُصَّت به هذه الأمة، وأضل الله عنه اليهود والنصارى، فاليهود كان لهم السبت، والنصارى كان لهم الأحد، فكانوا تبعًا لنا مع أنهم قبلنا في الزمن، وهذا من فضائل هذه الأمة والله الحمد.

بل لقد أقسم الله تعالى به في كتابه فقال سبحانه: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۖ﴾ [البروج: ٢، ٣].

قال أبو هريرة: «اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة»^(١).

✽ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠]

فخطب الله المؤمنين أن يتركوا البيع إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة،

(١) الحديث رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في الصحيحة تحت حديث (١٥٠٢)، وهداية الرواة: (١٣١١).

والمراد به النداء الثانى الذى يكون إذا حضر الإمام... أما النداء الأول فإن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما كثُر الناس فى المدينة أمر أن يُؤذَّن أذان سابق ليستعد الناس للحضور... فكان هذا من سنة الخليفة الراشد عثمان الذى أمرنا باتباع سنته كما قال النبى ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي» ^(١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾
والمراد بذكر الله: الخطبة والصلاة... أما الخطبة فيذكر الله فيها بالتشهد وذكر الأحكام والموعظة وغير ذلك... وأما ذكر الله فى الصلاة فهذا ظاهر:

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ اتركوا البيع، ولهذا إذا نُودِيَ للصلاة من يوم الجمعة حُرِّمَ البيع إلا على مَنْ لا تجب عليه كالنساء مثلاً، وأما مَنْ تجب عليه الجمعة فإنه يَحْرُمُ عليه البيع ولو باع لم يَصِح... حتى لو كان فى طريقه إلى المسجد، وسمع أذان الجمعة ومعه زميلٌ له فتبايعا فإن البيع باطل لا ينتقل به المبيع إلى المشتري ولا الثمن إلى البائع لأنه باطل... وكل شىء نهى الله عنه فهو باطل لقول النبى ﷺ: «كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ» ^(٢).

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعنى خير لكم من البيع لأن فيه إقامة شعيرة من شعائر الإسلام وقيامًا بواجبٍ فهو خير من البيع.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعنى إن كنتم من ذوى العلم فاعلموا أنه خير.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعنى انتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله فى البيع والشراء لكن لا يُلْهِيكُمْ ذلك عن ذكر الله.

ولهذا قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ يعنى: لا تظنوا أنكم إذا فرغتم من ذكر الله فى الخطبة والصلاة أنكم انتهيتهم من ذكر الله... لا... فذكر الله فى كل حال وفى كل وقت وفى كل مكان ^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٥) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٠٤) كتاب العتق.

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٠٠، ٢٠١) بتصرف كبير.

(١١٥٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها»^(١)

❁ قال القاضي عياض: الظاهر أن هذه الفضائل المعدودة ليست لذكر فضيلته لأن إخراج آدم وقيام الساعة لا يعد فضيلة وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور العظام وما سيقع ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة لنيل رحمة الله ودفع نقمته... وقال أبو بكر بن العربي في كتابه الأحوذى في شرح الترمذى: الجميع من الفضائل وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية وهذا النسل العظيم ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء ولم يخرج منها طردًا بل لقضاء أوطار ثم يعود إليها.. وأما قيام الساعة فسبب لتعجيل جزاء الأنبياء والصديقين والأولياء وغيرهم وإظهار كرامتهم وشرفهم... وفي هذا الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام^(٢).

❁ قوله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة»، والمراد بذلك خير يوم من أيام الأسبوع... وإنما قلنا هذا لئلا يتعارض مع قول النبي ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم عرفة»، فإن يوم عرفة أفضل باعتبار العام، وهذا أفضل باعتبار الأسبوع.

❁ «فيه خلق آدم».. فآدم عليه السلام هو أبو البشر.. خلقه الله بيده... خلقه من تراب ونفخ فيه من روحه ثم قال له: كن فكان.. وكان خلق آدم في يوم الجمعة.. وبعد خلق حواء من آدم عليه السلام أدخلوا الجنة أيضًا في يوم الجمعة.. وهى جنة المأوى وأباح الله لهما كل شئ من نعيم الجنة ما عدا شجرة واحدة.

فقال تعالى: ﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٩) [الأعراف: ١٩]... ولكن الشيطان ظل يوسوس لهما

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٤) كتاب الجمعة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/٢٠٢-٢٠٣).

ليأكلا من تلك الشجرة.. وأقسم لهما أنهما إذا أكلا من تلك الشجرة فسوف يحصل لهما الخلد والمُلك الذى لا يفنى ولا يبلى.. وما زال بهما حتى أكلا من تلك الشجرة ﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدَىٰ لَٰهُمَا مَا دُِرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوءِ تَٰبِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنِ الشَّيْطَانُ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

فلما أكلا من تلك الشجرة بدت لهما سوءاتهما وصار كل واحدٍ منهما ينظر إلى عورته ثم أمرهما الله ﷻ بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض بمعصية واحدة.

ولكن اعلّموا أن آدم تاب إلى الله هو وزوجه: ﴿قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فكان بعد التوبة خيراً منه قبل التوبة. وهذا درسٌ لنا.. فقد أُخرج آدم وحواء من الجنة بمعصية واحدة فكيف بنا نحن وقد امتلأت حياتنا بالذنوب والمعاصى... فواجبٌ علينا أن نُسارع إلى التوبة والعودة إلى الله (جل وعلا).

﴿فهذا فضل يوم الجمعة.. فيه خُلق آدم ﷺ.. وفيه أُدخل الجنة وفيه أُخرج منها.. ولا نظن أن خروج آدم ﷺ من الجنة هو وحواء كان شرّاً.. بل كان فيه خيرٌ كثير.. فلولا ذلك ما وُجدت تلك البشرية وما بُعث هؤلاء الرسل والأنبياء للناس.. فمن آمن عاد مع آدم ﷺ إلى الجنة مرة أخرى يوم القيامة.. ومن كفر حُرِم من دخول الجنة.

﴿قوله ﷺ في الرواية الأخرى: «لا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

ولما كانت الساعة تقع في هذا اليوم فإن المخلوقات في كل يوم جمعة تكون مشفقة خائفة إلا الإنس والجن.

قال ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تُصبح يوم الجمعة مُصيخة^(١)؛ حتى تطلع الشمس شققاً من الساعة؛ إلا ابن آدم، وفيه ساعة لا يُصادفها عبدٌ مؤمنٌ وهو في الصلاة يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مُصيخة يوم الجمعة من حين تُصبح حتى تطلع الشمس شققاً من الساعة، إلا الجن والإنس»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٥٥) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَعَا»^(٤).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) منتظرة قيام الساعة.

(٢) صحيح: رواه مالك وأحمد والترمذي عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٣٤).

(٣) حسن: رواه ابن خزيمة، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٩٧).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

(١١٥٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفَرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكِبَائِرُ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٥٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادٍ مِنْبَرِهِ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»^(٢).

✽ وهنا يأتي الترهيب من ترك صلاة الجمعة.. فقد توعد النبي ﷺ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ بِأَن يُطَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ وَأَن يَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ وَأَن يُكْتَبَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ. قال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوَنًا مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»^(٣).

✽ وقال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعَاتٍ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ كُتِبَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ»^(٤).

✽ قوله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ» وهذا فيه من التهديد والوعيد ما فيه.. فقد جمع الله ﷻ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ.. وَحَسَبْنَا أَن مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوَنًا فَإِنَّهُ «يُخْتَمَ عَلَى قَلْبِهِ..» وَفِي رَوَايَةٍ أَنَّهُ «يُطَبَعُ عَلَى قَلْبِهِ» وَيَكُونُ مِنَ الْغَافِلِينَ وَيُكْتَبُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ - عِيَاذًا بِاللَّهِ - وَلِذَا قَالَ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ» أَيْ: عَنْ تَرْكِهِمْ صَلَاةَ الْجُمُعَةِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

«أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» فَلَا يَصِيرُ فِيهَا تَأَهُلٌ لِقَبُولِ الْهَدْيِ وَلَا اسْتِعْدَاداً

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٦٥) كتاب الجمعة.

(٣) صحيح: رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٣).

(٤) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٤).

لتلقَى الأنوار... والمعنى: ليكونن أحد الأمرين: الانتهاء عن تركهم الجمعة أو الختم على قلوبهم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَفِيهِ أَنَّ الْجُمُعَةَ فَرَضٌ عَيْنٌ ... وَمَعْنَى الْخَتْمِ الطَّبْعُ والتغطية... قَالُوا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَى طَبَعَ وَمِثْلُهُ الرَّيْنُ ... فَقِيلَ الرَّيْنُ الْيَسِيرُ مِنَ الطَّبْعِ وَالطَّبْعُ الْيَسِيرُ مِنَ الْإِثْقَالِ وَالْإِثْقَالُ أَشَدُّهَا... قَالَ الْقَاضِي: اخْتَلَفَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي هَذَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَقِيلَ هُوَ إِعْدَامُ اللَّطْفِ وَأَسْبَابُ الْخَيْرِ ... وَقَالَ غَيْرُهُمْ: هُوَ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِمْ ... وَقِيلَ: هُوَ عَلَامَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ لِتَعْرِفَ بِهَا الْمَلَائِكَةُ مَنْ يُمَدِّحُ وَمَنْ يُذَمُّ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٥٨) وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ الْجُمُعَةُ، فَلْيَغْتَسِلْ»^(٢)

(١١٥٩) وعن أبى سعيد الخُدْرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»^(٣)

(١١٦٠) وعن سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهَا وَنِعِمَّتْ، وَمَنْ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ»^(٤).

✽ اختلفت آراء العلماء في حكم الغسل يوم الجمعة على قولين.

فذهب فريق منهم إلى استحباب الغسل يوم الجمعة، مُستدلين على ذلك بقوله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا

(١) مسلم بشرح النووي (٦/٢١٨-٢١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨٧٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٤) كتاب الجمعة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٨٧٩) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٦) كتاب الجمعة.

المراد بالمُحْتَلِم: البالغ - والمراد بالوجوب: وجوب اختيار، كقول الرجل لصاحبه: حقك واجب على، والله أعلم.

(٤) حسن: رواه أحمد والترمذى وأبو داود وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦١٨٠).

بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^(١) فقد رَتَّبَ الثَّوَابَ الْحَاصِلَ عَلَى مَا ذَكَرَ مَعَ الْوُضُوءِ... لَكِنْ يُجَابَ عَلَى هَذَا الدَّلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَنْفِ الْغُسْلَ بِدَلِيلٍ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي نَفْسِ الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ...».

قَالَ الْحَافِظُ: (وَقَدْ وَرَدَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ فِي الصَّحِيحَيْنِ بِلَفْظِ «اغْتَسَلَ» - أَيْ بَدَلًا مِنْ «تَوَضَّأَ» فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَكَرَ الْوُضُوءَ لِمَنْ تَقَدَّمَ غُسْلُهُ عَلَى الذَّهَابِ، فَاحْتَاجَ إِلَى إِعَادَةِ الْوُضُوءِ)^(٢). انْتَهَى.

وَمِمَّا اسْتَدَلُّوا بِهِ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِيهَا وَنَعِمَتْ، وَمَنْ اغْتَسَلَ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ»^(٣).

وَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الْغُسْلِ وَنَفْيِ وَجُوبِهِ، بَلْ هُوَ مُفَاضِلَةٌ بَيْنَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ. فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ الْوَاجِبُ، وَالْوُضُوءُ أَقْلُ مَا يُجْزَى بِهِ الصَّلَاةُ.

❁ وَأَمَّا الْفَرِيقُ الثَّانِي: فَقَدْ ذَهَبَ إِلَى وَجُوبِ غَسْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَهُوَ الرَّاجِحُ لِلْأَمْرِ بِهِ، وَلِلتَّصْرِيحِ بِوَجُوبِهِ.

فَأَمَّا الْأَمْرُ بِهِ فَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ»^(٤).

وَأَمَّا التَّصْرِيحُ بِالْوُجُوبِ: فَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «غُسْلُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ»^(٥).

(١) صحيح: رواه مسلم (٨٥٧) كتاب الجمعة.

(٢) فتح الباري (٢/٢٦٢).

(٣) حسن: رواه أحمد والترمذي وأبو داود وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦١٨٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٤) كتاب الجمعة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٩) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٦) كتاب الجمعة.

المرادُ بِالْمُحْتَلِمِ: الْبَالِغُ - وَالْمَرَادُ بِالْوُجُوبِ: وَجُوبُ اخْتِيَارٍ، كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: حَقُّكَ وَاجِبٌ عَلَيَّ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

والقول بالوجوب رجحه شيخنا الألباني ورجحه شيخنا ابن عثيمين^(١).

✽ ذهب بعض أهل العلم إلى أن الغسل إن كان واجباً فإنما يجب على مَنْ يذهب لحضور الجمعة، وأما مَنْ لا يذهب إلى الجمعة، فلا غُسل عليه مُستدلين بحديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةُ، فَلْيَغْتَسِلْ»^(٢).

قالوا: فلما كانت الجمعة لا تجب على النساء فكذلك لا يجب عليهن الغُسل لها.

وحكمة مشروعية الغسل والسواك، والطيب - العطر - والتجمل بأحسن الثياب يوم الجمعة أن يكون المصلي على أكمل حال وأطيبه فلا يتأذى به أحد؛ ولأن الملائكة تقف على أبواب المساجد يكتبون الأول فالأول فربما صافحوه أو لمسوه^(٣).

✽ الحاصل أن القول الراجح وجوب غُسل الجمعة، لكن لو لم يغتسل، فهل تبطل الجمعة؟ لا، لا تبطل؛ لأن هذا ليس غُسل حَدَث، حتى نقول إنه صلى بغير طهارة، بل هو غُسلٌ واجبٌ من غير حَدَث، ولهذا لا يُغنى عن غُسل الجنابة... لو أن الإنسان اغتسل للجمعة وهو عليه غُسل جنابة وما نوى غُسل الجنابة لم يُجزئه؛ لأن غُسل الجمعة ليس عن حَدَثٍ بخلاف غُسل الجنابة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٦١) وعن سلمان رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ، وَيَدْهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ

(١) تمام المنة للألباني رحمته الله والشرح الممتع لابن عثيمين رحمته الله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٧٧) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٤٤) كتاب الجمعة.

(٣) الدين الخالص (٤/ ١٣٢).

يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ، إِلَّا عُفِّرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْآخَرَى»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٨٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٦٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى، فَكَانَ قَرَبَ بَدَنَةٍ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَانَ قَرَبَ بَقَرَةٍ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّلَاثَةِ فَكَانَ قَرَبَ كَبْشٍ أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَانَ قَرَبَ دَجَاجَةٍ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَانَ قَرَبَ بَيْضَةٍ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ، حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»^(٢).

✽ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: لُغَةُ الْعَرَبِ الرَّوَّاحُ الدَّهَابُ سَوَاءٌ كَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ أَوْ آخِرَهُ أَوْ فِي اللَّيْلِ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَدِيثُ ... وَالْمَعْنَى لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَكْتُبُ مَنْ جَاءَ فِي السَّاعَةِ الْأُولَى وَهُوَ كَالْمُهْدَى بَدَنَةً وَمَنْ جَاءَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ثُمَّ الثَّلَاثَةِ ثُمَّ الرَّابِعَةِ ثُمَّ الْخَامِسَةِ وَفِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ السَّادِسَةِ إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طَوُّوا الصُّحُفَ وَلَمْ يَكْتُبُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدًا .. وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ إِلَى الْجُمُعَةِ مُتَّصِلًا بِالزَّوَالِ وَهُوَ بَعْدَ انْفِصَالِ السَّادِسَةِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ الْهَدْيِ وَالْفَضِيلَةِ لِمَنْ جَاءَ بَعْدَ الزَّوَالِ وَلِأَنَّ ذِكْرَ السَّاعَاتِ إِنَّمَا كَانَ لِلْحَثِّ فِي التَّبَكُّيرِ إِلَيْهَا وَالتَّرْغِيبِ فِي فَضِيلَةِ السَّبْقِ وَتَحْصِيلِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ وَانْتِظَارِهَا وَالِاشْتِغَالِ بِالتَّنْفُّلِ وَالدُّكْرِ وَنَحْوِهِ ... وَهَذَا كُلُّهُ لَا يَحْصُلُ بِالدَّهَابِ بَعْدَ الزَّوَالِ وَلَا فَضِيلَةٍ لِمَنْ أَتَى بَعْدَ الزَّوَالِ لِأَنَّ النَّدَاءَ يَكُونُ

(١) صحيح: رواه البخاري (٨٨٣) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٨٨١) كتاب الجمعة، ومسلم (٨٥٠) كتاب الجمعة.

قوله: «غُسْلُ الْجَنَابَةِ»، أي: غُسْلًا كغُسْلِ الْجَنَابَةِ فِي الصُّفَةِ.

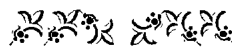
حَيْثُذِ... وَيَحْرُمُ التَّخَلُّفُ بَعْدَ النِّدَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا هَلْ تَعْيِينُ السَّاعَاتِ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَمْ مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْأَصَحُّ عِنْدَهُمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ ثُمَّ إِنَّ مَنْ جَاءَ فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ مِنْ هَذِهِ السَّاعَاتِ وَمَنْ جَاءَ فِي آخِرِهَا مُشْتَرَكَانِ فِي تَحْصِيلِ أَصْلِ الْبَدَنَةِ وَالْبَقَرَةِ وَالْكَبْشِ وَلَكِنْ بَدَنَةُ الْأَوَّلِ أَكْمَلُ مِنْ بَدَنَةِ مَنْ جَاءَ فِي آخِرِ السَّاعَةِ وَبَدَنَةُ الْمُتَوَسِّطِ مُتَوَسِّطَةٌ وَهَذَا كَمَا أَنَّ صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاةِ الْمُفْرَدِ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً... وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْجَمَاعَةَ تُطْلَقُ عَلَى اثْنَيْنِ وَعَلَى أُلُوفٍ فَمَنْ صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ هُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ لَهُ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَمَنْ صَلَّى مَعَ اثْنَيْنِ لَهُ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ لَكِنْ دَرَجَاتِ الْأَوَّلِ أَكْمَلُ... وَأَشْبَاهُ هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ^(١).

✽ فمن اغتسل يوم الجمعة غُسل الجَنَابَةِ.. أى: كغُسل الجَنَابَةِ

ثم راح يعنى فى الساعة الأولى، فكأنما قرب بدنة، يعنى: كأنما ذبح بدنة -ناقة- ووزعها على الفقراء... ومن راح فى الثانية فكأنما قرب بقرة... ومن راح فى الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن... وَخَصَّ الْكَبْشَ بِالْأَقْرَنِ؛ لِأَنَّهُ أَقْوَى وَأَكْبَرُ حَجْماً.

ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة... ومن راح فى الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا حضر الإمام طُويت الصحف ولم يُكتب للحاضر شيء من الأجر إلا أجر الصلاة العادية... فإذا دخل الإنسان بعد أن دخل الإمام فإنه لا يُكتب له أجر التقدُّم... ولكن يُكتب له أجر الخطأ من بيته إلى المسجد.

وفى هذا دليل على أنه ينبغي للمسلم أن يذهب إلى يوم الجمعة مبكراً ليفوز بهذا الأجر العظيم.



(١١٦٣) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «فِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ» وأشار بيده يقللها ^(١).

(١١٦٤) وعن أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَسَمِعْتُ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ» ^(٢).

✽ فينبغي للمؤمن أن يتحرى هذه الساعة بالعبادة والذكر والاستغفار والدعاء ... فإن الدعاء في ذلك الوقت مُستجاب.

✽ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قَالَ: «الْتَمِسُوا السَّاعَةَ الَّتِي تُرْجَى فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ» ^(٣).

✽ وعن عبد الله بن سلام قَالَ: قُلْتُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ: إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ: «فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا قَضَى لَهُ حَاجَتَهُ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَأَشَارَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ»، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ، أَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ. قُلْتُ: أَيُّ سَاعَةٍ هِيَ؟ قَالَ: «هِيَ آخِرُ سَاعَاتِ النَّهَارِ». قُلْتُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ سَاعَةً صَلَاةً، قَالَ: «بَلَى. إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا صَلَّى ثُمَّ جَلَسَ، لَا يَحِسُّهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، فَهُوَ فِي الصَّلَاةِ» ^(٤).

✽ وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قَالَ: «يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوَافِقُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ، فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٣٥) كتاب الجمعة - ومسلم (٨٥٢) كتاب الجمعة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨٥٣) كتاب الجمعة.

(٣) حسن: رواه الترمذي، والطبراني في الكبير، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٣٧).

(٤) حسن صحيح: رواه ابن ماجه، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٧٠٢): حسن صحيح.

العصر»^(١).

✽ قال الإمام ابن القيم بعد أن ذكر الاختلاف في تعيين هذه الساعة: وأرجح هذه الأقوال قولان تضمنتها الأحاديث الثابتة.

الأول: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة؛ لحديث ابن عمر في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ»^(٢) والقول الثاني أنها بعد العصر، وهذا أرجح القولين^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٦٥) وَعَنْ أَوْسٍ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَكْثَرُوا عَلَى مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»^(٤).

✽ ولا شك أن النبي ﷺ أحب إلينا من أنفسنا وآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا وله حق كبير علينا.. فمن حقه ﷺ أن نُكثِر من الصلاة عليه في كل وقت وأن نُكثِر من الصلاة عليه في يوم الجمعة بالذات لأنه هو الذي أمرنا بذلك... ولا بد أن نعلم أن النبي ﷺ ليس بحاجة إلى صلاتنا عليه بل نحن الذين نحتاج إلى أن نصلي عليه لأن مَنْ صلى على النبي ﷺ مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات وغفر ذنبه وفرّج همه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٩٠).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٨٥٣) كتاب الجمعة.

(٣) زاد المعاد (١/٣٨٩، ٣٩٠).

(٤) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢).

(٢١١) باب استحباب سجود الشكر

عند حصول نعمة ظاهرة أو اندفاع بليّة ظاهرة

(١١٦٦) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ نُرِيدُ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا كُنَّا قَرِيبًا مِنْ عَزْوَراءَ نَزَلَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَدَعَا اللَّهَ سَاعَةً، ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا، فَمَكَثَ طَوِيلًا، ثُمَّ قَامَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ سَاعَةً، ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا - فَعَلَهُ ثَلَاثًا - وَقَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي، وَشَفَعْتُ لَأُمْتِي، فَأَعْطَانِي ثُلْثَ أُمْتِي، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِلرَّبِّ شُكْرًا، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي، فَسَأَلْتُ رَبِّي لَأُمْتِي، فَأَعْطَانِي ثُلْثَ أُمْتِي، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِلرَّبِّ شُكْرًا، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي فَسَأَلْتُ رَبِّي لَأُمْتِي، فَأَعْطَانِي الثُّلْثَ الْآخَرَ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا لِلرَّبِّ»^(١).

❁ وعلى الرغم من ضعف هذا الحديث إلا أنه ورد أحاديث أخرى تدل على أن سجود الشكر له أصل في سنة رسول الله ﷺ .. ولذا أقول:

إن الله يحب من عباده أن يشكروه على نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى ... فإذا بَشَّرَكَ أَحَدٌ بِمَا يَسُرُّكَ أو أَخْبَرَكَ بِحصول نعمة أو زوال مصيبة فإنه يُستحب لك أن تسجد شكرًا لله (جل وعلا).

عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَتَاهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ، أو بُشِّرَ بِهِ خَرَّ سَاجِدًا شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى»^(٢).

وُثِّبَتْ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ سَجَدَ لَمَّا جَاءَتْهُ الْبَشْرَى بِتُوبَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٣).

وعند أحمد أن عليًا سجد حين وجد ذا الثدية في قتل الخوارج^(٤)، وهي

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٨٩).

(٢) حسن: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في الإرواء (٤٧٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي، ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

(٤) رواه أحمد (٨٥٠)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

صفة أخبر عنها النبي ﷺ عن واحدٍ منهم... فلما رأى على ﷺ تلك العلامة سجد لله شكراً.

❁ ولا بد أن تعلم أنه لا يُشترط الوضوء لسجود الشكر ولا استقبال القبلة وأنه لا يُكره سجود الشكر في أوقات النهي لأنه ليس بصلاة. وأنه ليس هناك صلاة بعينها اسمها صلاة الشكر وإنما الوارد هو سجود الشكر.

فيُستحب أن نسجد سجدة شكرٍ عند حصول نعمة ظاهرة أو اندفاع بلاءٍ ظاهر. فنعم الله لا تُعدُّ ولا تُحصَى.. وهناك نِعَمٌ مستمرة كنعمة الصحة والعقل والنفس وغيرها من النعم.

لكن هناك نِعَمٌ متجددة كالنجاح أو الزواج أو البُشرى بالولد أو غيرها.. فيُستحب لك أن تسجد شكراً لله إذا علمت بتلك النعمة... فمثلاً إذا بُشر أحدكم بالولد فإنه يسجد لله كما يسجد في الصلاة ويقول: سبحان ربى الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى... ثم يشكر الله على النعمة المعينة التى حصلت، فيقول: أشكرك يا ربى على هذه النعمة ويثنى على الله تعالى فى ذلك.

❁ كذلك يسجد لله شكراً عند اندفاع المصائب والابتلاءات.

فمثلاً.. إنسان يسير فى الشارع وكادت سيارة أن تصدمه لولا أن جذبته إنسان من يده فأنقذه فإنه يسجد شكراً لله ثم يشكر الذى أنقذه.. وهكذا.

❁ لكن هل يُشترط الطهارة والوضوء لهذه السجدة؟... كلا.. لا تُشترط لأن هذه الأشياء تحدث فجأة وقد يكون الإنسان على غير وضوء.. فلو ذهب يتوضأ لطال الفصل بين السبب ومُسببه.. فعليه أن يسجد شكراً ولو كان على غير وضوء.

(٢١٢) باب فضل قيام الليل

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وقال تعالى: ﴿ نَتَجَافَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦].
وقال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧].

لا بد أن نعلم أن المؤمن الذي امتلأ قلبه بحب الله (جل وعلا) لا يكتفى بأداء الفرائض بل يجتهد في الإكثار من النوافل لأنه يريد أن يفوز بمحبة الله (جل وعلا) فقد قال تعالى في الحديث القدسي: «... وما يزال عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ، وَلَكِنْ اسْتَغَاذَنِي لِأَعْيَذَنَّهُ...»^(١).

﴿ ومن المعلوم أن من أعظم النوافل التي يتقرب بها العبد إلى الله هي قيام الليل.. فقيام الليل شرف المؤمن وهو دأب الصالحين وقربة إلى الله تعالى وهو من أعظم أسباب زيادة الإيمان ومن أسباب نعيم القبر والفوز بشفاعة القرآن يوم القيامة ومن أسباب دخول الجنة والارتقاء في درجاتها.

﴿ وقد ذكر الله (سبحانه وتعالى) الثناء على القائمين في الليل، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ﴾ أى: صلِّ به في سائر أوقاته. ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أى: لتكون صلاة الليل، زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك، وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك، المقام

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

المحمود، وهو المقام الذى يَحْمَدُك فيه، الأولون والآخرون... مقام الشفاعة العُظمى، حين يتشفع الخلائق بآدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى. وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ﷺ، ليرحمهم الله، من هول الموقف، وكربه. فيشفع عند ربه، فيُشفَّعه، ويُقيمه مقامًا، يغبطه به، الأولون والآخرون. وتكون له المنة على جميع الخلق^(١).

وذلك حين يقف الناس فى أرض المحشر لا يجدون مَنْ يشفع لهم عند ربهم لبدء الحساب... فقد طال عليهم الوقوف فى أرض المحشر وهم حُفَاة عُراة والشمس فوق رؤوسهم وقد فاض العرق على أجسادهم حتى آذاهم. فيذهب الناس إلى آدم ثم إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى (عليهم الصلاة والسلام) فلا يشفعون لهم... فإذا ذهبوا إلى الحبيب المصطفى ﷺ شفع لهم جميعًا لبدء الحساب فتحمده كل الخلائق فى ذلك اليوم العصيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾؛ أى: ترتفع جنوبهم، وتزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألد عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة فى الليل، ومُناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أى: فى جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أى: جامعين بين الوصفين، خوفًا أن تُرد أعمالهم، وطمعًا فى قبولها... خوفًا من عذاب الله، وطمعًا فى ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلًا أو كثيرًا ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المُنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المُستحبة فى وجوه

(١) تفسير السعدى (ص ٥٣٤).

الخير، والنفقة والإحسان المالى، خيرٌ مُطلقاً، سواء وافق فقيراً أو غنياً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت، بتفاوت النفع ... فهذا عملهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ وفى الآية الثالثة وصف الله ﷻ حال أهل القيامة بقوله ﷻ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) [الذاريات: ١٧].

فمن أفضل أنواع الإحسان فى عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا﴾ أى: المحسنون ﴿قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أى: كان هجوعهم أى: نومهم بالليل، قليلاً .. وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾ التى هى قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الله تعالى... فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا فى خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه... وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالى فى وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٦٧) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٣).

(١١٦٨) وعن المغيرة بن شعبة نحوه^(٤).

❖ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم

(١) تفسير السعدى (ص ٧٧٠).

(٢) تفسير السعدى (ص ٩٦٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٣٧) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٢٠) كتاب صفة القيامة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٠) كتاب التهجد - ومسلم (٢٨١٩) كتاب صفة القيامة.

(٩٩)، (١٠٠) فأرجو الرجوع إليهما.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٦٩) وعن عليٍّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ لَيْلًا، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟»^(١).

❁ وها هي رواية الحديث كاملة... عَنْ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ أَنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ حَدَّثَهُ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ. فَقَالَ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّمَا أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ. فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا. فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ. ثُمَّ سَمِعْتَهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فِخْذَهُ وَيَقُولُ: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا».

❁ نحن نعلم جميعاً كيف كانت محبة النبي ﷺ لابنته فاطمة رضي الله عنها وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه... وَكَانَ ﷺ يَحِبُّ أَنْ يَأْخُذَ بِأَيْدِيهِمَا إِلَى مَا يُرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.. وَلَقَدْ عَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْرَ قِيَامِ اللَّيْلِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَرَادَ أَنْ يُوصِيَهُمَا بِالْقِيَامِ... حَتَّى أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَنْتَظِرْ حَتَّى الصَّبَاحِ بَلْ ذَهَبَ إِلَيْهِمَا فِي اللَّيْلِ وَقَالَ: «أَلَا تَصَلِّيَانِ».... فَقَدْ كَانَا فِي فِرَاشِهِمَا... فَكَانَ الرَّدُّ السَّرِيعُ مِنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه: إِنَّمَا أَنْفُسَنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثْنَا... فَانصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يُعَاتِبْهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ الرِّفْقَ كَانَ شِعَارَهُ دَائِمًا ﷺ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا.. وَمَعَ ذَلِكَ فَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ رضي الله عنهما اجْتَهِدَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ.

قال ابن جرير: لولا ما علم النبي من عظم فضل الصلاة في الليل ما كان يُزْعَجُ ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقهم سكناً... لكنه اختار لهما تلك الفضيلة على الدعة والسكون^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٢٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٧٥) كتاب صلاة المسافرين.

«طَرَقَهُ»: أَتَاهُ لَيْلًا.

(٢) دليل الفالحين (٣/٥٤٩).

❖ وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: الْمُخْتَارُ فِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَجَّبَ مَنْ سُرْعَةِ جَوَابِهِ وَعَدَمِ مُوَافَقَتِهِ لَهُ عَلَى الْإِعْتِذَارِ بِهَذَا .. وَلِهَذَا ضَرَبَ فَخِذَهُ .. وَقِيلَ: قَالَهُ تَسْلِيمًا لِعُذْرِهِمَا وَأَنَّهُ لَا عَتَبَ عَلَيْهِمَا ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى صَلَاةِ اللَّيْلِ وَأَمْرُ الْإِنْسَانِ صَاحِبِهِ بِهَا وَتَعَهُدُ الْإِمَامَ وَالْكَبِيرَ رَعِيَّتَهُ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَأَنَّهُ يُنْبَغِي لِلنَّاصِحِ إِذَا لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتَهُ أَوْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ بِمَا لَا يَرْضَاهُ أَنْ يَنْكَفَ وَلَا يُعْتَفَ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٧٠) وَعَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(٢).

❖ وهذا الحديث له قصة جميلة وردت في أصل روايته وهي: عَنْ سَالِمٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذَا رَأَى رُؤْيَا، قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا أَقْصُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: وَكُنْتُ غُلَامًا شَابًّا عَزَبًا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ، فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَةٌ كَطَيِّ الْبُئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ كَقَرْنِي الْبُئْرِ، وَإِذَا فِيهَا نَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، قَالَ فَلَقِيَهُمَا مَلَكٌ فَقَالَ لِي: لَمْ تُرْعَ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ، فَقَصَّتُهَا حَفْصَةُ، عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» قَالَ سَالِمٌ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ، بَعْدَ ذَلِكَ، لَا يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا^(٣).

(١) مسلم بشرح النووي (٦/٩٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٢٢) كتاب التهجد - ومسلم (٢٤٧٩) كتاب فضائل الصحابة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١١٢٢) كتاب التهجد - ومسلم (٢٤٧٩) كتاب فضائل الصحابة.

❦ فكانت تلك الكلمة التي قالها النبي ﷺ: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ» لما عرضت عليه حفصة رضي الله عنها ما رآه ابن عمر في ذلك المنام المذكور... ولما سمع ابن عمر رضي الله عنهما تلك الكلمة غيَّرت مجرى حياته كلها.. فكان ابنه سالم يقول: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً.. مع أن النبي ﷺ لم يأمره بقيام الليل ولم يُوجبه عليه بل قال: «نِعَمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ....» فأرجو أن تقارن بين حال ابن عمر الذي سمع تلك الكلمة فكان لا ينام بعد ذلك إلا قليلاً... وبين مَنْ أمره النبي ﷺ بالصلاة فتركها وبر الوالدين فعقَّهما.. وبين مَنْ أمرها النبي ﷺ بالحجاب فتبرجت!!!

قال القرطبي: إنما فسَّر الشارع من رؤيا عبد الله ما هو محمود لأنه عُرِضَ على النار ثم عُوفِيَ منها، وقيل له: لا روع عليك وذلك لصلاحه... وفيه جواز الثناء على مَنْ أُمِنَ عليه الإعجاب... وقال المهلب: إنما فسرها بقيام الليل لأنه لم يَرِ شيئاً منه يغفل عنه من الفرائض فيُذَكَّرُ بالنار.. وعلم مبيته في المسجد فعَبَّرَ ذلك بأنه مُنْبَهٌ على قيام الليل.. وفي الحديث إيماء إلى أن قيام الليل يُنْجِي مِنَ النَّارِ، وفيه تَمَنَّى الْخَيْرِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٧١) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»^(٢).

❦ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٨) فأرجو الرجوع إليه.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) دليل الفالحين (٣/٥٤٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٥٢) كتاب التهجد - ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(١١٧٢) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيْلَةً حَتَّى أَصْبَحَ، قَالَ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ - أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ»^(١).

❖ ففي هذا الحديث ذكر عند النبي ﷺ رجل نام حتى أصبح.

وقوله: (حتى أصبح) أى: حتى طلع الصبح، ولم يتهجد. ويحتمل حتى أصبح أى فاتته صلاة الفجر... فقال النبي ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه - أَوْ قَالَ: فِي أُذُنِهِ». لما بال لم يسمع النداء... لما بال في أذنيه حال بينه وبين سماع النداء فلم يَقُمْ.

❖ فدل هذا على فوائد:

أولاً: أن الشيطان يبول؛ لأن النبي ﷺ قال: «بال الشيطان في أذنه».

ثانياً: أنه يأكل ويشرب، وهذا ثبت أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يأكل أحدكم بشماله، ولا يشرب بشماله، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»^(٢) أيضاً ثبت عن النبي ﷺ أن الشيطان يتقيأ... فإن رجلاً أكل طعاماً ولم يُسَمِّ، فشاركه الشيطان فيه... وذلك لأنك إذا بدأت في الطعام ولم تُسَمِّ الله شاركَك الشيطان، فلما سَمَّي الرجل قال النبي ﷺ: «تقيأ الشيطان ما أكله» تقيأه، يعنى: أخرجته من جوفه.

فهذه أربعة أشياء: البول، الأكل، والشرب، التقيؤ... يجب علينا أن نؤمن بها كما أخبر بها النبي ﷺ، وأن نؤمن بأنها حق على حقيقتها؛ لأن:

(١) الرسول ﷺ هو أعلم الخلق في أمور الغيب.

(٢) هو أنصح الخلق للأمة.

(٣) أنه أصدق الخلق (عليه الصلاة والسلام) لا يمكن أن ينطق بكلام وهو يريد خلاف ظاهره أبداً... إذاً الشيطان يأكل ويشرب ويتقيأ ويبول، ولكن هل بوله

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٧٠) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٧٧٤) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

وقيؤه وأكله وشربه شيء محسوس يُشاهد؟ لا، لا يُشاهد... فنؤمن بذلك ونقول: هذه أمور غيبية لا نعرف شيئاً عن كيفيتها ولا نعرف عنها شيئاً من واقع الأمر المحسوس.

وفي الحديث دليل: أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على قيام الليل حتى لا يكون للشيطان عليه سبيلاً^(١).

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ» اختلفوا في معناه فقال ابن قتيبة: مَعْنَاهُ أَفْسَدَهُ... يُقَالُ: بَالَ فِي كَذَا إِذَا أَفْسَدَهُ. وَقَالَ الْمُهَلَّبُ وَالطَّحَاوِيُّ وَآخَرُونَ: هُوَ اسْتِعَارَةٌ وَإِشَارَةٌ إِلَى انْقِيَادِهِ لِلشَّيْطَانِ وَتَحَكُّمِهِ فِيهِ وَعَقْدِهِ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِهِ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ وَإِذْلَالُهُ لَهُ... وَقِيلَ: مَعْنَاهُ اسْتَحَفَّ بِهِ وَاحْتَقَرَهُ وَاسْتَعْلَى عَلَيْهِ... يُقَالُ لِمَنْ اسْتَحَفَّ بِإِنْسَانٍ وَخَدَعَهُ: بَالَ فِي أُذُنِهِ وَأَصْلُ ذَلِكَ فِي دَابَّةٍ تَفْعَلُ ذَلِكَ بِالْأَسَدِ إِذْ لَا لَهَ... وَقَالَ الْحَرَبِيُّ: مَعْنَاهُ ظَهَرَ عَلَيْهِ وَسَخِرَ مِنْهُ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضٌ: وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ قَالَ: وَخَصَّ الْأُذُنَ لِأَنَّهَا حَاسَّةُ الْإِنْتِبَاهِ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٧٣) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ عَلَى كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ تَعَالَى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةُ كُلِّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانٍ»^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) مسلم بشرح النووي (٦/ ٩١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٢) كتاب التهجد، ومسلم (٧٧٦) كتاب صلاة المسافرين «قافية الرأس»: آخره.

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الشيطان يعقد على قافية أحدنا إذا نام ثلاث عُقَد.. فيعقد تلك العُقَد ويُحكمها إحكامًا شديدًا ويضرب على كل عُقْدَة وهو يقول: عليك ليلٌ طويلٌ فارقد.. وذلك من أجل أن يُبْطِطه عن القيام وفعل الطاعات وذكر الله وتلاوة القرآن في جوف الليل وأن يحرمه من صلاة الصبح في جماعة.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْعُقَدِ فَقِيلَ: هُوَ عَقْدٌ حَقِيقَتِي بِمَعْنَى عَقْدِ السَّحْرِ لِلْإِنْسَانِ وَمَنْعَهُ مِنَ الْقِيَامِ... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ فَعَلَى هَذَا هُوَ قَوْلُ يَقُولُهُ يُؤَثِّرُ فِي تَشْيِطِ النَّائِمِ كَتَأْثِيرِ السَّحْرِ... وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا يَفْعَلُهُ كَفِعْلِ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ... وَقِيلَ: هُوَ مِنْ عَقْدِ الْقَلْبِ وَتَصْمِيمِهِ فَكَأَنَّهُ يُوسَّوْسُ فِي نَفْسِهِ وَيُحَدِّثُهُ بِأَنَّ عَلَيْكَ لَيْلًا طَوِيلًا فَتَأْخُرَ عَنِ الْقِيَامِ... وَقِيلَ: هُوَ مَجَازٌ كُنِيَ بِهِ عَنْ تَشْيِطِ الشَّيْطَانِ عَنِ قِيَامِ اللَّيْلِ^(١).

فإذا قام الإنسان فذكر الله ﷻ انحَلَّتْ عُقْدَةٌ.. وهذا من أمور الغيب التي نؤمن بها وإن لم ندرَكها بحواسنا.. إذا ذكر الإنسان ربه ﷻ انحَلَّتْ العُقْدَة الأولى.. وإذا توضأ انحَلَّتْ العُقْدَة الثانية.. فإذا صلى انحَلَّتْ العُقْدَة الثالثة... فعلى الرغم من تلك العُقَد التي عقدها الشيطان وأحكمها إحكامًا شديدًا إلا أنها لم تصمد أمام ذكر الله أو الوضوء أو الصلاة.

فما أسهل ذلك... اذكر الله، قل: لا إله إلا الله... الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، واقرأ عشر آيات في آخر سورة آل عمران.. توضأ، تنحّل عقدتان... صلّ تنحّل العُقْد الثلاث... ولهذا يُستحب أن الإنسان يفتح قيام الليل بركتين خفيفتين؛ لأن النبي ﷺ أمر بذلك؛ ولأنه هو نفسه ﷺ كان يفعل ذلك، يفتح صلاة الليل بركتين خفيفتين، لأن ذلك أسرع في حَلِّ عُقْد الشيطان.

(١) مسلم بشرح النووي (٦/٩٣-٩٤).

❦ فإذا ذكر الإنسان ربه وتوضأ وصلى أصبح نشيطاً طيب النفس وذلك لِسُرُورِهِ بِمَا وَفَّقَهُ اللَّهُ الْكَرِيمُ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ وَوَعَدَهُ بِهِ مِنْ ثَوَابِهِ مَعَ مَا يُبَارِكُ لَهُ فِي نَفْسِهِ وَتَصَرَّفِهِ فِي كُلِّ أَمْرِهِ .. مَعَ مَا زَالَ عَنْهُ مِنْ عَقْدِ الشَّيْطَانِ وَتَشْيِيطِهِ.

وَقَوْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَالَا أَصْبَحَ حَبِثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ» مَعْنَاهُ لِمَا عَلَيْهِ مِنْ عَقْدِ الشَّيْطَانِ وَأَثَارِ تَشْيِيطِهِ وَاسْتِيلَاثِهِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ ذَلِكَ عَنْهُ ... وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ الذِّكْرُ وَالْوُضُوءُ وَالصَّلَاةُ فَهُوَ دَاخِلٌ فِيمَنْ يُصْبِحُ حَبِثَ النَّفْسِ كَسَلَانَ .. وَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُخَالَفَةٌ لِقَوْلِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ حَبِثَتْ نَفْسِي» فَإِنَّ ذَلِكَ نَهْيٌ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ هَذَا اللَّفْظَ عَنْ نَفْسِهِ وَهَذَا إِنْخِبَارٌ عَنْ صِفَةٍ غَيْرِهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْبُخَارِيَّ بَوَّبَ لِهَذَا الْحَدِيثِ بِأَبْ بَابِ عَقْدِ الشَّيْطَانِ عَلَى رَأْسِ مَنْ لَمْ يُصَلِّ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ الْمَازِرِيُّ وَقَالَ: الَّذِي فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَعْقِدُ قَافِيَةَ رَأْسِهِ وَإِنْ صَلَّى بَعْدَهُ وَإِنَّمَا يَنْحَلُّ عَقْدُهُ بِالذِّكْرِ وَالْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ .. قَالَ: وَيَتَأَوَّلُ كَلَامَ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ اسْتِدَامَةَ الْعُقْدِ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَى مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ .. وَجَعَلَ مَنْ صَلَّى وَانْحَلَّتْ عَقْدُهُ كَمَنْ لَمْ يَعْقِدْ عَلَيْهِ لِزَوَالِ أَثَرِهِ ^(١).

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْقِدَ عَلَيْهِ

(١١٧٤) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» ^(٢).

❦ وهذا الحديث له قصة يحكيها خبر اليهود وعالمهم عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أسلم وكان من أفاضل أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لَأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبْنَتْ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ٩٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٥).

قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ».

❁ ففي هذا الحديث يخبر عبد الله بن سلام أنه لما قَدِمَ النبي ﷺ المدينة أسرع الناس لرؤيته.. وكان عبد الله ممن أسرع لرؤية النبي ﷺ.. فلما رأى وجه النبي ﷺ تيقن أن هذا الوجه ليس بوجه كذابٍ وإنما هو وجه الصادق الأمين ﷺ.. فكان أول كلمات قالها النبي ﷺ عند وصوله المدينة: «أَيُّهَا النَّاسُ» خطابٌ عام للناس جميعاً بكلماتٍ جامعة للمعاملة مع الخلق والحق.

«أَفْشُوا السَّلَامَ» يعنى: أظهروا وأعلنوا وأكثروا من السلام... والسلام يُخاطَب به المُسَلَّم والمُسَلَّم عليه... فإن المُسَلَّم ينبغي له أن يُسلم على كل مَنْ لاقاه ممن يستحق أن يُسَلَّمَ عليه، سواء عرفه، أو لم يعرفه.

والذى يستحق أن يُسَلَّمَ عليه هو المسلم الذى لا يحل هجره.. أمام الكافر فلا تبدأه بالسلام سواء كان كافراً لا ينتسب للإسلام، أو كان كافراً ينتسب للإسلام لكنه على بدعة مكفرة.

«وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ» أى: لمن يحتاج إليه من الفقراء واليتامى والمساكين.. ولكن يجب على المسلم أن يبدأ بالواجب ثم التطوع.. فالواجب أن يُطعم أهله وأولاده وَمَنْ يَلْزَمُهُ إِطْعَامُهُمْ.. لأن إطعام الأهل قيامٌ بالواجب.. والقيام بالواجب أفضل من القيام بالتطوع.. ولذا قال تعالى فى الحديث القدسى: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»^(١).. فإذا أطعمت أهلك وأولادك فتصدق بالباقي على الفقراء واليتامى والمساكين.

«وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» وما أجمل أن يقوم العبد فى جوف الليل بين يدي ربه يصلى ويبكى ويخشع فى صلاته ويسأل الله ﷻ من خيرى الدنيا والآخرة.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٠٢) كتاب الرقاق.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن قيام الليل من أسباب دخول الجنة.
ولذا قال ﷺ: «تدخلوا الجنة بسلام» تسلم عليك الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿[الرعد: ٢٣، ٢٤]، يهنئونهم بما صبروا وبهذا الثواب العظيم.

و«تدخلوا الجنة بسلام»: ظاهره أنه بلا عقاب ولا عذاب لأن مَنْ عُذِبَ لم يسلم... فهذه الأمور الثلاثة في هذا الحديث من أسباب دخول الجنة بسلام.. أسأل الله تعالى أن يعينني وإياكم عليها، وأن يجعلنا ممن يدخلون الجنة بسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٧٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»^(١).

✽ من المعلوم أن صيام شهر رمضان هو أحد أركان الإسلام.. وهو واجب بالإجماع.. وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن صيام شهر المحرم أفضل الصيام بعد صيام شهر رمضان.. مع أن أكثر الناس يغفلون عن صيامه ولا يصومون منه إلا يوم التاسع والعاشر.

✽ ولعل أحدا يسأل ويقول: إذا كان النبي ﷺ قد أخبر الأمة أن أفضل صيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم فلماذا لم يصُم في المحرم مثل ما كان يصوم في شعبان؟

✽ أجاب عن ذلك العلماء بأجوبة:

(أ، ب) قال النووي: لعلّه لم يعلم فضل المحرم إلا في آخر الحياة، قبل التمكن من صومه.

أو لعلّه كان يعرض فيه أعذار تمنع من إكثار الصوم فيه كسفرٍ أو مرض^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٣) كتاب الصيام.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧٩/٨).

(ج) ذهب ابن رجب إلى أن التطوع بالصوم نوعان:

الأول: التطوع المطلق فهذا أفضله المحرم... كما أن أفضل التطوع المطلق بالصلاة قيام الليل.

الثاني: ما كان صومه تبعاً لصيام رمضان قبله أو بعده، فهذا ملتحق بصيام رمضان، وصيامه أفضل من التطوع مطلقاً... كالسنن الرواتب، فإنها أفضل من السنن المطلقة، والله أعلم.

❖ «وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»

فصلاة الليل أفضل بكثير من صلاة النهار فيما عدا السنن الرواتب التابعة للصلوات الخمس.. فالسنن الرواتب أفضل من قيام الليل لأنها سنة مؤكدة تابعة للفرصة... وأما مطلق التنفل ففي الليل أفضل من النهار... ولهذا كان «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ».. وبخاصة في الثلث الأخير حين ينزل الحق (جل وعلا) نزولاً يليق بجلاله وكماله إلى السماء الدنيا كما أخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ»^(١).

❖

(١١٧٦) وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَفَتِ الصُّبْحُ فَأَوْتِرَ بِوَاحِدَةٍ»^(٢).

(١١٧٧) وَعَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى، وَيُوتِرُ بِرَكْعَةٍ^(٣). ❖ فيه دليل على أن صلاة الليل تكون مثنى مثنى... لا يمكن أن تُصَلَّى

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٣٧)، كتاب التهجد - ومسلم (٧٤٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٩٩٥)، كتاب الوتر - ومسلم (٧٤٩) كتاب صلاة المسافرين.

أربعاً، بل لا بد من اثنين ويُسلم، اثنين ويُسلم.

إلا أنه استثنى من ذلك الوتر، إذا أوتر بثلاثٍ أو خمسيٍّ أو سبعٍ أو تسعٍ، فإذا أوتر بثلاثٍ فإن شاء سلم من الركعتين الأوليين وأتى بالثالثة وحدها، وإن شاء جمع الثلاث جميعاً بسلام واحد. وإن أوتر بخمسيٍّ سردها كلها بسلام واحدٍ وتشهد واحد، وإن أوتر بسبع كذلك، كلها بسلام واحد، وإن أوتر بتسع كذلك، إلا أنه في الثامنة يجلس ويتشهد ولا يُسلم، ثم يأتي بالتاسعة ويُسلم.. وإن أوتر بإحدى عشرة، سلم من كل ركعتين، كما فعل النبي ﷺ.

وفي حديث ابن عمر الأول والثاني دليل أن الوتر لا يكون بعد طلوع الفجر، إذا طلع الفجر انتهى وقت الوتر، فإن غلبه النوم ولم يوتر قبل طلوع الفجر صلى من النهار، لكن يصلي شفعا... فإن كان من عادته أن يُوتر بثلاثٍ صلى أربعاً، وإن كان من عادته أن يُوتر بخمسيٍّ صلى ستاً... وهَلُمَّ جَرّاً^(١).

ﷺ

(١١٧٨) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لَا يَصُومَ مِنْهُ، وَيَصُومُ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لَا يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكَانَ لَا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْتَهُ، وَلَا نَائِمًا إِلَّا رَأَيْتَهُ^(٢).

❁ فقد كان النبي ﷺ يُراوح بين العبادات من صلاة وصيام وغيرهما وكان يتبع ما هو أصْلَح وأنفع لنفسه في ذلك الوقت.. فأحياناً كان يُديم الصوم وأحياناً يُديم الفطر.. وأحياناً يُديم الصلاة وأحياناً تراه نائماً.. فقد كان ﷺ يتبع ما هو أَرْضَى لهُ (جل وعلا) وما هو أَفْضَل لنفسه وبدنه ﷺ.

❁ ومعنى ذلك أنه ﷺ ما كان يُعَيِّن بعض الليل للنوم وبعضه للصلاة كأصحاب الأوراد وكذا الصوم، بل كان يخالف بين أوقاتها ليكونا مُشقين على

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٢١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤١) كتاب التهجد - ومسلم (١١٥٨) كتاب الصيام.

النفس لا عادتین لها.. فإنه إذا صام مدة صار عادة له واطمأنت له النفس، فإذا أفطر كان شاقاً عليها وكذا عكسه... قال الحافظ ابن حجر: لم يكن لتَهْجُدَهُ ﷺ وقتٌ مُعین بل بحسب ما يتيسر له القيام، ولا يعارضه قول أنس: «كان إذا سمع الصارخ قام» لأنه محمول على ما وراء صلاة الليل... وحديث الباب محمول على صلاته، ولا يعارضه قول عائشة: «كان إذا صلى صلاة داوم عليها» وقولها: «كان عمله ديمة» لأن المراد به ما اتخذه راتباً لا مطلق النفل... اهـ ملخصاً... وهذه الطريقة المُشار إليها بحديث أنس أعلى طبقات العبادة وأسانها، وهناك طرائق أُخر: فمنهم مَنْ شَدَّدَ على نفسه بالمرة فمنعها حقها وحظها، ومنهم مَنْ أعطاهما كليهما.. وخير الأمور أوسطها: إعطاؤها حقها وحظها واستعمالها معه في خدمة ربها^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٧٩) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً - تَعْنِي فِي اللَّيْلِ - يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذَلِكَ قَدَرًا مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ، وَيَرْكَعُ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَضْطَجِعُ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُنَادَى لِلصَّلَاةِ^(٢).

(١١٨٠) وعن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يَزِيدُ - فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ - عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُؤْتَرَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»^(٣).

(١١٨١) وعن عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ آخِرَهُ فَيُصَلِّي^(٤).

(١) دليل الفالحين (٣/ ٥٥٤-٥٥٥) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١١٢٣) كتاب التهجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٦) كتاب التهجد - ومسلم (٧٣٩) كتاب صلاة المسافرين.

❖ فهنا تخبر أمنا عائشة عن قيام النبي ﷺ وأنه كان لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة.. وأنه كان يطيل في قيام الليل حتى كان يسجد السجدة قدر ما يقرأ أحدنا خمسين آية.. وأنه كان يصلي سنة الفجر في البيت ثم يضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن ليخبره بوقت إقامة الصلاة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهَا اضْطَجَعَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ الْاضْطِجَاعِ وَالنَّوْمِ عَلَى الشِّقِّ الْأَيْمَنِ ... قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَحِكْمَتُهُ أَنَّهُ لَا يَسْتَعْرِقُ فِي النَّوْمِ لِأَنَّ الْقَلْبَ فِي جَنْبِهِ الْيَسَارِ فَيَعْلَقُ حَيْثُذِي فَلَا يَسْتَعْرِقُ ... وَإِذَا نَامَ عَلَى الْيَسَارِ كَانَ فِي دَعَةٍ وَاسْتِرَاحَةٍ فَيَسْتَعْرِقُ ... قَوْلُهَا: (حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمُؤَذِّنُ) دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ اتِّخَاذِ مُؤَذِّنٍ رَاتِبٍ لِلْمَسْجِدِ^(١).

❖ وفيه أيضًا أن الأفضل للإمام ألا يخرج من بيته إلا للإقامة وأن يبقى في بيته حتى يأتي وقت الإقامة.. هذا إذا كان بيته مُلاصقًا للمسجد ... أما إذا كان البيت بعيدًا عن المسجد فيصلّي السنة في المسجد وينتظر الإقامة حتى لا يشق على المصلين وحتى يكون في وجوده في المسجد تشجيع للمصلين حتى لا يتكاسلوا عن أداء الصلوات المكتوبة.

❖ وفي الحديث الثاني أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا سُئِلَتْ كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ؟ فَأَخْبَرَتْهُمْ بِأَنَّهُ ﷺ كَانَ لَا يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةِ رَكْعَةٍ.

«يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ».. وهنا قد يظن البعض أن النبي ﷺ يصلي أربع ركعات بسلام واحد.. وهذا خطأ.. بل قد جاء التفصيل في ذلك بأنه ﷺ يصلي أربع ركعات يُسَلِّمُ من كل ركعتين.. فمعنى قولها: «يصلي أربع ركعات» أي: يصلي ركعتين ثم ركعتين ثم يجلس قليلًا ليسترخي.. ثم

يصلى أربع ركعات - ركعتين ثم ركعتين - ثم يجلس قليلاً ليستريح.. ثم يصلى ثلاث ركعات.. إما أنه ﷺ يصلها متصلة بسلام وتشهيد واحد.. أو أنه كان يصلها ركعتين ويُسَلِّم ثم يصلى ركعة الوتر وحدها.

❦ قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي».

قال الإمام النووي رحمته الله: قوله ﷺ: «إن عيني تنامان ولا ينام قلبي» هذا من خصائص الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) وسبق في حديث نومه ﷺ في الوادي فلم يعلم بفوات وقت الصبح حتى طلعت الشمس وأن طلوع الفجر والشمس متعلق بالعين لا بالقلب... وأما أمر الحديث ونحوه فمتعلق بالقلب وأنه قيل: إنه في وقت ينام قلبه وفي وقت لا ينام فصادف الوادي نومه... والصواب الأول^(١).

وهذا من كمال أحواله البشرية ﷺ، أن قلبه لا ينام، وهو من خصائص الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً) يدل عليه ما رواه البخاري في حديث الإسراء من طريق شريك عن أنس: «وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»^(٢).

❦ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: كمال قلبه ﷺ حيث إن النوم صفة نقص تعترى النفس البشرية... فلما ثبت لقلبه ﷺ عدم النوم أبداً، كان ذلك صفة كمال له.

الفائدة الثانية: تعلق قلبه ﷺ الدائم بالله عز وجل، إذ لو قدر أن يغفل قلبه ﷺ في حال اليقظة لكان النوم بالنسبة إليه أولى... وأعتقد أن الاتصال الدائم بالله هو الهدف الرئيس من عدم نوم قلوب الأنبياء صلوات الله عليهم جميعاً.

الفائدة الثالثة: صحة الوحي إلى النبي ﷺ وهو نائم... نقل صاحب الفتح

(١) مسلم بشرح النووي (٦/ ٢٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٧) كتاب التهجد - ومسلم (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين.

عن الخطابي قوله: (وإنما مُنع قلبه النوم ليعى الوحي الذى يأتيه فى منامه) ^(١).

وقال ابن حجر رحمته الله: (ولو لم تكن رؤيا الأنبياء وحياً لما جاز لإبراهيم عليه السلام الإقدام على ذبح ولده) ^(٢).

قلت: ولو لم تكن وحياً لما أثنى الله على إبراهيم عليه السلام بالإقدام على ذبح ابنه ولما أثنى على الابن بالتسليم بأمر الله عز وجل... والدليل على صحة الوحي إليه عليه السلام وهو نائم، أنه كان ينزل عليه القرآن وهو نائم، والقرآن أشرف ما نزل على النبي عليه السلام من وحي... روى مسلم: عن أنس قال: بينا رسول الله عليه السلام ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مُتبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «أنزلت على أنفا سورة، فقراً: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ٢ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْآبِتُ ٣».

الفائدة الرابعة: النوم فى حقه عليه السلام غير ناقض للوضوء.. وهذا هو الصحيح، لما ثبت فى الصحيح عن ابن عباس أنه عليه السلام نام حتى نفخ ثم قام فصلى ولم يتوضأ. قال الحافظ فى التلخيص الحبير: (لا ينتقض وضوءه عليه السلام بالنوم) ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٨٢) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ عليه السلام لَيْلَةً، فَلَمْ يَزَلْ قَائِماً حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ. قِيلَ: مَا هَمَمْتُ؟ قَالَ: هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدْعُهُ ^(٤)..

(١١٨٣) وعن حذيفة رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ عليه السلام ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقْرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمَائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّيُ بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النَّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا.. يَقْرَأُ مَرَّةً إِذَا مَرَّ

(١) فتح البارى (١/٢٣٩).

(٢) فتح البارى (١/٢٣٩).

(٣) انظر التلخيص الحبير (٣/١٣٥) - نقلاً عن (شمائل الرسول عليه السلام) (٢/١٤٥-١٤٦).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١١٣٥) كتاب التهجد - ومسلم (٧٧٣) كتاب صلاة المسافرين.

بآية فيها تسبيحٌ سبَّح، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوذٍ تعوَّذ، ثمَّ ركع، فجعل يقول: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، فكان رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثمَّ قال: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، ثمَّ قامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثمَّ سَجَدَ فقال: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى، فكان سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ^(١).

❖ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٤)، (١٠٥) فأرجو الرجوع إليهما.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٨٤) وعن جابرٍ رضي الله عنه قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «طَوَّلَ الْقُنُوتَ»^(٢).

❖ ففي هذا الحديث سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ؟ فقال ﷺ: «طَوَّلَ الْقُنُوتَ» أَي: طَوَّلَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ.

قال الإمام ابن القيم رحمته الله: لِلْعَبْدِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ مَوْقِفَانِ: مَوْقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الصَّلَاةِ وَمَوْقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْمَ لِقَائِهِ... فَمَنْ قَامَ بِحَقِّ الْمَوْقِفِ الْأَوَّلِ هَوَّنَ عَلَيْهِ الْمَوْقِفُ الْآخِرُ وَمَنْ اسْتَهَانَ بِهَذَا الْمَوْقِفِ وَلَمْ يُوفِّهِ حَقَّهُ شُدَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَوْقِفُ... قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾^(٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ يَحْبُوتُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَفِيلًا^(٤). اهـ^(٥).

ولكن لو قال قائل: هل الأفضل في قراءة الليل أن أطيل القيام، أو أن أطيل السجود والركوع؟ قلنا: انظر ما هو أصلح لقلبك... قد يكون الإنسان في حال السجود أخشع وأحضر قلباً، وقد يكون في حال القيام يقرأ القرآن ويتدبر القرآن،

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٥٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

المراد بالقنوت: القيام.

(٣) الفوائد (ص ٦٠).

وَيَحْصُلُ لَهُ لَطَائِفُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ مَا لَا يَحْصُلُ لَهُ فِي حَالِ السُّجُودِ، وَلَكِنْ الْأَفْضَلُ أَنْ يَجْعَلَ صَلَاتَهُ مُتَنَاسِبَةً ... إِذَا أَطَالَ الْقِيَامَ أَطَالَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، وَإِذَا قَصَرَ الْقِيَامَ قَصَرَ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، حَتَّى تَكُونَ صَلَاتُهُ مُتَنَاسِبَةً كَصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ.

﴿مَنْ بَدَأَ صَلَاتَهُ فَيَبْسُجُدْ سَجْدَةً﴾

(١١٨٥) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»^(١).

✽ كَانَ دَاوُدَ ﷺ جَمِيلَ الْخَلْقِ وَالْخَلْقُ وَلَهُ قَلْبٌ طَاهِرٌ نَقَى ... جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ الْمُلْكِ وَالنَّبُوَّةِ.

وَكَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا مُقَدَّسًا وَهُوَ (الزَّبُور) .. وَكَانَ كَثِيرَ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ وَكَانَ وَرِعًا تَقِيًّا.

كَانَ دَاوُدَ ﷺ قَدْ جَزَأَ عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَنِسَائِهِ الصَّلَاةَ فَكَانَ لَا تَأْتِي عَلَيْهِمْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ النَّهَارِ إِلَّا وَإِنْسَانٌ مِنْ آلِ دَاوُدَ قَائِمٌ يَصَلِّي^(٢).

✽ وَهَذَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ «أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ» أَي: قِيَامُ اللَّيْلِ .. فَإِنَّهُ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ لِيَسْتَقِظَ وَهُوَ فِي قِمَّةِ نَشَاطِهِ وَقُوَّتِهِ وَيَقُومُ ثُلُثَ اللَّيْلِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷻ ثُمَّ يَنَامُ سُدُسَهُ .. فَكَانَ يُقَسِّمُ اللَّيْلَ ثَلَاثَةً أَقْسَامًا: النِّصْفَ الْأَوَّلَ لِلنَّوْمِ ثُمَّ الثُّلُثَ لِلْقِيَامِ ثُمَّ السُّدُسَ لِلنَّوْمِ ... لِأَنَّ هَذَا فِيهِ رَاحَةٌ لِلْبَدَنِ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِيَامِ الطَّوِيلِ .. فَإِذَا نَامَ سُدُسَ اللَّيْلِ بَعْدَ الْقِيَامِ فَإِنَّ التَّعَبَ الَّذِي حَصَلَ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ يَذْهَبُ بِالنَّوْمِ الَّذِي يَنَامُهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ هَذَا الْأَفْضَلَ وَالْأَحْسَنَ .. لَكِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا قَامَ فِي أَيِّ جُزْءٍ مِنَ اللَّيْلِ فَازَ بِالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ وَقْتُ أَفْضَلٍ مِنْ غَيْرِهِ .. وَلَا شَكَّ أَنَّ

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٣١) كِتَابُ التَّهَجُّدِ - وَمُسْلِمٌ (١١٥٩) كِتَابُ الصِّيَامِ.

(٢) مُخْتَصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ (٣/ ٥٢٧).

أفضل وقت للقيام هو الثلث الأخير من الليل وهو الوقت الذى ينزل فيه الحق ﷺ إلى السماء الدنيا نزلًا يليق بجلاله وكماله.. وقد كان النبي ﷺ يصلى في أول الليل ووسطه وآخره.. وإن كان أكثر قيامه في آخر الليل.. فالأمر في هذا واسع والله الحمد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٨٦) وعن جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً، لَا يُؤَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ»^(١).

❦ وهذه الساعة لم يُحدد النبي ﷺ وقتها بل تركها مُبْهِمَةً مِنْ أَجْلِ أَنْ نَحْرَى تِلْكَ السَّاعَةَ لِنُفَوزِ بِهَا.. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَمْ يُحَدِّدِ النَّبِيُّ ﷺ وَقْتُاً مُعَيَّنًا لِقِيَامِ اللَّيْلِ بَلْ تَرَكَ ذَلِكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ لِيُحَدِّدَ مَا يَنَاسِبُهُ.. وَإِنْ كَانَ الْأَفْضَلُ وَالْأَحْرَى لِلْفُوزِ بِهَذِهِ السَّاعَةِ أَنْ تَكُونَ فِي الثَّلَاثِ الْآخِرِ مِنَ اللَّيْلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال الإمام النووي رحمته الله: فِيهِ إِثْبَاتُ سَاعَةٍ الْإِجَابَةِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَتَضَمَّنُ الْحَثَّ عَلَى الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ رَجَاءً مُصَادَفَتِهَا^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٨٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَلْيَفْتَحِ الصَّلَاةَ بِرُكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ»^(٣).

(١١٨٨) وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ بِرُكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٥٧) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) مسلم بشرح النووي (٥٣/٦).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

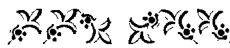
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

❁ ففي الحديث الأول يُوصى النبي ﷺ بأنه إذا وفق الله ﷻ مسلماً للقيام بين يديه في جوف الليل أن يفتح صلاته بركتين خفيفتين ليكون ذلك أنشط لما بعدها.

وفي الحديث الثاني تخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ..
أى: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بركتين خفيفتين.

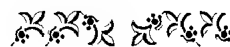
❁ ولعل السبب في أن النبي ﷺ أوصانا بذلك لأنه في حديث آخر أخبر أن عُقْدَ الشَّيْطَانِ الثَّلَاثَةَ الَّتِي يَعْقُدهَا عَلَى قَافِيَةِ أَحَدِنَا كُلِّ لَيْلَةٍ لَا تُحَلُّ إِلَّا بِالذِّكْرِ وَالْوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ.. فَكَانَ الْأَفْضَلُ أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي حُلِّ الْعُقْدَةِ الثَّلَاثَةِ فَيَسْتَمْتِعَ الْمُصَلِّي بِصَلَاتِهِ بَعْدَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ يَكُونَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ.

قَالَ ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ عَلَى مَكَانِ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارُقْدُ.. فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةُ كُلِّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسَلَانٌ» (١).



(١١٨٩) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رُكْعَةً (٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٤٢) كتاب التهجد - ومسلم (٧٧٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(١١٩٠) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حَزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ كان له حزب من قيام الليل فنام عنه أو عن شيء منه فلم يستطع أن يُصلي به بالليل فصلاؤه بعد ذلك فيما بين صلاة الفجر - أي: بعد طلوع الشمس - وصلاة الظهر فإنه يُكتب له وكأنه صلاؤه في جوف الليل كما كان يُصليه... وهذا من فضل الله ﷻ عَلَيْنَا.. فالإنسان قد ينام وقد يمرض وقد ينسى... فإذا فاتته صلاة الليل فإنه يقضيها بالنهار.. ولكن إذا كان يُوتر بواحدة فإنه يصلي مكانها ركعتين وإذا كان يوتر بثلاث فإنه يصليها أربعاً - ركعتين ركعتين - وهكذا.. فيقضى ذلك فيما بين طلوع الشمس وارتفاعها إلى زوال الشمس، كما يدل على ذلك حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيمن فاتته ورده أو حزبه في الليل، أو شيء منه، أنه يقضيه في النهار بالضحي، فيقضى ذلك في الضحي، فإن نسي ولم يتذكر إلا بعد الظهر قضاه بعد الظهر، لعموم قول النبي ﷺ «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١١٩١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ.. وَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»^(٢).

(١١٩٢) وَعَنْهُ وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَيْقَظَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّيَا - أَوْ صَلَّى - رُكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا فِي الذَّاكِرِينَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٤٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٤).

وَالذَّاكِرَاتِ»^(١).

❁ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٦).

[التحریم: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنِقَبَةُ لِلنَّقَوَى﴾ [طه: ١٣٢]، وأثنى الله على نبيٍّ من أنبيائه وهو إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) بقوله: ﴿وَأَذْكُرِي الْكِتَابَ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

❁ ومن أجمل صور الإحسان بين الزوج وزوجته أنه إذا قام الزوج يصلى بالليل فإنه لا ينسى زوجته الغالية من هذا الخير.. وقد لا تستطيع الزوجة أن تقوم مثل زوجها لفترة طويلة من كثرة ما تُعانيه من أعباء البيت وهموم الأطفال.. لكنه لا ينسى أن يوقظها لتصلى ولو ركعتين خفيفتين أو أن تُوتر قبل الصبح وتَسأل الله ﷻ من فضله....

وقد تكون الزوجة هى صاحبة الهمة العالية فى القيام.. فإذا قامت بالليل فإنها لا تنسى زوجها الحبيب.. فتوقظه ليصلى بها أو حتى من أجل أن يصلى وحده ما قدّر الله له... فإن لم يستطع الزوج أن يوقظ زوجته أو لم تستطع الزوجة أن توقظ زوجها فقد رخص النبي ﷺ لكل واحدٍ منهما أن يَنضَح وجه الآخر برذاذ الماء ليستيقظ.. وهى صورة من أبهى صور الحب والود التى لا تُنسى أبدًا..

ولكى تعلو همة الزوجين للقيام فقد دعا النبي ﷺ بالرحمة لهما إن فعلا ذلك وأعان كل واحدٍ منهما الآخر على القيام... ثم أخبرهم بجائزة أخرى إذا قاما وصليًا..

(١) صحيح: رواه أبو داود والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٣٠).



فأخبر ﷺ أنهما إن قاما وصلّيا كتبّا في تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات.

❁ ولأن النبي ﷺ هو الأسوة والقدوة فقد كان يفعل ذلك بنفسه. ففى الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي وَأَنَا رَاقِدَةٌ مُعْتَرِضَةٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُوتِرَ أَيقَظَنِي» ^(١). وفى صحيح البخارى أيضا من حديث أمّ سلمة رضي الله عنها، قالت: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، أَيقَظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحَجَرِ» ^(٢)، قَرَّبَ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةً فِي الْآخِرَةِ» ^(٣).

بَابُ مَا يَأْتِي فِيهِ مِنْ تَفْصِيلِ مَا فِي الْأَوَّلِ

(١١٩٣) وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسْبُ نَفْسُهُ» ^(٤).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَابُ مَا يَأْتِي فِيهِ مِنْ تَفْصِيلِ مَا فِي الْأَوَّلِ

(١١٩٤) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنَ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ، فَلْيَضْطَجِعْ» ^(٥).

❁ (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ) يَتَهَجَّدُ (فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنَ) وَالتَّبَسُّ (عَلَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٢) كتاب الصلاة - ومسلم (٥١٢) كتاب الصلاة.

(٢) يريد أزواجه (رضى الله عنهن) كى يُصَلِّين.

(٣) صحيح: رواه البخارى (١١٥) كتاب العلم.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخارى (٢١٢) كتاب الوضوء - ومسلم (٧٨٦) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٧٨٧) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

لسانه فلم يدر من النعاس القائم به (ما يقول) من القرآن والذكر (فليضطجع)
لأن غلبة النعاس عليه تمنعه من تدبر القرآن، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها^(١).
❖ فالإنسان إذا أراد أن يصلى قيام الليل فلا بد أن يحرص على أن يصلى
وهو مستيقظ لا يغلبه النعاس وهو يصلى.. وذلك لأنه ربما يريد أن يستغفر
لنفسه فيسب نفسه وهو لا يدرى.. يريد أن يدعو لنفسه فيدعو على نفسه وهو
أيضاً لا يدرى.. بل قد يستعجم القرآن على لسانه في تلك الحالة فيقرأ كلمات
ليست من القرآن أو يقرأ بالكلمة من القرآن على غير وجهها فيُحرف القرآن...
فإذا كان من عادتك أن تصلى بالليل وجاءك النوم فلا تُتعب نفسك ولا تُجهد
نفسك.. ثم حتى يزول عنك النعاس ثم واصل القيام مرة أخرى.

بِقَامِ قِيَامِهِ

(٢١٣) باب استحباب قيام رمضان (وهو التراويح)

(١١٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» ^(١).

(١١٩٦) وَعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرَغِّبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيهِ بِعَزِيمَةٍ، فيَقُولُ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» ^(٢).

✽ سُمِّيَتْ تَرَاوِيحٌ؛ لِأَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَقُومُونَ رَمَضَانَ وَيُطِيلُونَ الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَإِذَا صَلُّوا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ - يَعْنِي بِتَسْلِيمَتَيْنِ - اسْتَرَاخُوا، وَإِذَا صَلُّوا أَرْبَعًا اسْتَرَاخُوا، ثُمَّ يَصَلُونَ ثَلَاثًا... وَهَذَا يُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السَّابِقُ أَنَّهُ ﷺ، كَانَ يَصَلِي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ ثُمَّ يَصَلِي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطَوْلِهِنَّ، ثُمَّ يَصَلِي ثَلَاثًا.

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرَغِّبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْمُرَ فِيهِ بِعَزِيمَةٍ.
عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، خَرَجَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى رِجَالٌ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ، فَصَلُّوا بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ، فَكَثُرَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَخَرَجَ فَصَلُّوا بِصَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الرَّابِعَةُ عَجَزَ الْمَسْجِدُ عَنْ أَهْلِهِ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَطَفِقَ رِجَالٌ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: الصَّلَاةُ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى خَرَجَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا قَضَى الْفَجْرَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّدَ، فَقَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَى شَأْنِكُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٠٩) كتاب صلاة التراويح - ومسلم (٧٥٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٧) كتاب الإيمان - ومسلم (٧٥٩) كتاب صلاة المسافرين.



اللَّيْلَةَ، وَلَكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَتَعْجِزُوا عَنْهَا»^(١).

❁ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: في السمائل النبوية:

(١) شفقة النبي ﷺ بهذه الأمة حيث ترك صلاة الليل، في المكان الذي خصصه لنفسه، مخافة أن تُفرض صلاة الليل على هذه الأمة، ويعجز البعض عن القيام بها فيأثم بتركها.

(٢) حكمته ﷺ ... فقد وازن بين مصالح أداء الناس صلاة الليل في المسجد، وهي مصالح عظيمة ... منها: تعلق قلوب الناس بالمساجد، وسماع الذكر الحكيم، وزيادة الدرجات بالمشي إلى المساجد، وصلاة الملائكة على من ينتظر تلك الصلاة ... وبين مفسدة أن تُفرض صلاة الليل على الأمة فيعجز عنها الكثيرون، جزئياً أو كلياً، فيأثمون على تركها، فدفع ﷺ تلك المفسدة العظيمة بتفويت المصالح المترتبة على صلاة الليل، وهي قاعدة شرعية عظيمة في الشرع وأساسها (أن درء المفسد مُقَدَّم على جلب المصالح) ويمكن أن نستدل بهذا الحديث على صحة القاعدة الشرعية المُشار إليها.

والذي يؤكد لنا عظيم حكمته ﷺ أن صلاة التراويح في رمضان، أصبحت من زمن عمر رضي الله عنه تُقام في المساجد بلا خوف من فرضها على الأمة فتحققت المصلحة، ودُرئت المفسدة، والله الحمد من قبل ومن بعد.

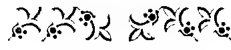
(٣) حُسن معاملته ﷺ لأصحابه حيث بيّن في أول لقاءٍ معهم - وهو صلاة الفجر - سبب عدم الخروج إليهم والحكمة من ذلك.

الفائدة الثانية: في حرص الصحابة على الخير، ويتمثل ذلك في:

(١) اجتماعهم في جوف الليل حتى يصلوا خلف النبي ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٢) كتاب صلاة التراويح - ومسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) تَحَدَّثُهم صَبَاح كل ليلة، بأنهم صلوا القيام بالمسجد، مما كان يزيد عدد المصلين كل ليلة، حتى عجز المسجد بأهله في الليلة الرابعة، وهذا من حرصهم على الخير^(١).



❁ وقد يسأل سائل ويقول: ما هو فضل صلاة التراويح وما مشروعيتها؟

والجواب: أما عن صلاة التراويح في رمضان فهي سُنة مؤكدة للرجال والنساء في شهر رمضان.

قال ﷺ: « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(٢).

وقد صلاها النبي ﷺ بأصحابه في بعض الليالي، ولم يواظب عليها، خشية أن تُكتب عليهم فيعجزوا عنها... فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ: « صلى في المسجد، فصلى بصلاته الناس، ثم صلى القابلة فكثر الناس، ثم اجتمعوا الثالثة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: « قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ، فَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلَّا أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ » وذلك في رمضان فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك »^(٣).

س: ما عدد ركعات التراويح؟

ج: ذهب بعضهم إلى أنه إحدى عشرة ركعة ... ومنهم مَنْ قال: إنه عشرون ركعة غير الوتر، ومنهم مَنْ قال: إنه تسع وثلاثون بالوتر... ومنهم مَنْ قال: إنه أربعون ركعة، ويوتر بسبع.

❁ ولكن التحقيق في تلك المسألة ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «... وهذا كله سائغ، فكيفما قام في رمضان من هذه الوجوه فقد أحسن،

(١) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (١/ ٣٩٠-٣٩٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٠٩) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (٧٥٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٢) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (٧٦١) كتاب صلاة المسافرين.

والأفضل يختلف باختلاف أحوال المصلين، فإن كان فيهم احتمال لطول القيام، فالقيام بعشر ركعات وثلاثٍ بعدها، كما كان النبي يصلي لنفسه في رمضان وغيره - وهو الأفضل - وإن كانوا لا يحتملونه فالقيام بعشرين ركعة هو الأفضل، وهو الذي يعمل به أكثر المسلمين فإنه وسط بين العشر وبين الأربعين... وإن قام بأربعين وغيرها جاز ذلك ولا يُكره شيء من ذلك وقد نصَّ على ذلك غير واحد من الأئمة كأحمد وغيره.

ومن ظن أن قيام رمضان فيه عدد موقت عن النبي ﷺ لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه فقد أخطأ....» اهـ^(١).

بِقِيَامِ عَشْرٍ رَكَعَاتٍ

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٢١٤) باب فضل قيام ليلة القدر وبيان أرجى لياليها

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ (٣) نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ (٤) سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝ (٥)﴾ [القدر: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝﴾ [الدخان: ٣].

❖ وقد انتظمت هذه السورة الكريمة جملة فضائل لهذه الليلة:

١- أن الله ﷻ أنزل القرآن في هذه الليلة... كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

٢- أن الله ﷻ عظم شأنها بذكرها بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝﴾.

٣- أن العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

٤- أن الملائكة تنزل في هذه الليلة... قيل: تنزل بالرحمات والبركات والسكينة.. وقيل: تنزل بكل أمر قضاه الله وقدره لهذه السنة... كما قال سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

٥- أن الأمن والسلام يحل في هذه الليلة على أهل الإيمان، وتسليم الملائكة يتوالى عليهم فيها.

٦- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٠١) كتاب الصوم - ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل / الشيخ مصطفى العدوي (جزء عم) (٤٤٨/٢).

(١١٩٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(١).

(١١٩٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَرَوَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْمَنَامِ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّبَهَا، فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ»^(٢).

(١١٩٩) وعن عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، وَيَقُولُ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»^(٣).

(١٢٠٠) وعنها رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِثْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»^(٤).

(١٢٠١) وعنها رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ، أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ^(٥).

(١٢٠٢) وعنها رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي رَمَضَانَ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ، وَفِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْهُ، مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ^(٦).

(١٢٠٣) وعنها رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيْ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»^(٧).

بَابُ مَا يَجْتَهِدُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٤) كتاب فضل ليلة القدر، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٥) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٦٥) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٠) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٦٩) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٠١٧) كتاب صلاة التراويح.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.

(٦) صحيح: رواه مسلم (١١٧٥) كتاب الاعتكاف.

(٧) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٣٧)، وصحيح

س: ما سبب تسميتها بليلة القدر؟

ج: قال الحافظ ابن حجر: واختُلف في المراد بالقدر الذى أُضيفت إليه الليلة: ف قيل: المراد به «التعظيم» كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، والمعنى: أنها ذات قدرٍ لنزول القرآن فيها، أو لما يقع فيها من نزول الملائكة، أو لما ينزل فيها من البركة والرحمة والمغفرة، أو أن الذى يُحييها يصير ذا قدر. وقيل: «القدر»: «التضييق» كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧]، ومعنى التضييق فيها إخفاؤها عن العلم بتعيينها، أو لأن الأرض تضيق فيها عن الملائكة.

وقيل: القدر هنا بمعنى «القَدَر» الذى هو مؤاخى القضاء... والمعنى أنه يُقدَّر فيها أحكام تلك السنة ... لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١).

س: كيف يتحرى المسلم ليلة القدر؟

ج: هذه الليلة المباركة من حُرْمها فقد حُرْم الخير كله، ولا يُحرم خيرها إلا محروم، لذلك ينبغي للمسلم الحريص على طاعة الله أن يُحييها إيمانًا وطمعًا فى أجرها العظيم، وأن يجتهد فى العشر الأواخر أسوة بالنبي ﷺ... فعن عائشة قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْآخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهَا»^(٢). وعليه أن يُكثر من القيام فى هذه الليالى وأن يعتزل النساء ويحث أهله على الطاعة فيها... فعن عائشة قالت: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ»^(٣)، وَأَحْيَا لَيْلَهُ، وَأَيَقَظَ أَهْلَهُ»^(٤).

حتى يكون حريًا بموعد رسول الله ﷺ القائل: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا

(١) فتح البارى (٤/ ٣٥٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١١٧٥) كتاب الاعتكاف.

(٣) أى اعتزل النساء لأجل العبادة وشَمَرٍ فى طلبها وجدَّ فى ذلك.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح، ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.

وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» ^(١).

❁ وَيُسْتَحَبُّ الدُّعَاءُ فِيهَا وَالْإِكْثَارُ مِنْهُ لَا سِيَّمَا بِالْدُّعَاءِ الْوَارِدِ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيْ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تَحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي» ^(٢) ^(٣).

س: متى تكون ليلة القدر؟

ج: اختلفت آراء العلماء في تحديد وقتها إلى أكثر من أربعين قولاً، ولكن أرجحها وأقواها أنها في الوتر من العشر الأواخر من رمضان وأنها متنقلة: أما كونها في الوتر من العشر الأواخر فلما ثبت من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ، مِنَ الْعَشْرِ الْوَاحِرِ مِنْ رَمَضَانَ» ^(٤).

وأما كونها متنقلة، فقد ورد في أحاديث ثبوتها ليلة إحدى وعشرين، وفي ليلة ثلاث وعشرين، وفي ليلة سبع وعشرين وفي تسع وعشرين. فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُرِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ أَنْسَيْتُهَا، فَاذْكُرُونَهَا فِي الْعَشْرِ الْوَاحِرِ، وَابْتَغُوهَا فِي كُلِّ وَتْرٍ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ»، فَاسْتَهَلَّتِ السَّمَاءُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَأَمْطَرَتْ، فَوَكَّفَ ^(٥) الْمَسْجِدُ فِي مُصَلَّى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، فَبَصُرْتُ عَيْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ أَنْصَرَفَ مِنَ الصُّبْحِ وَوَجْهُهُ مُمْتَلِئٌ طِينًا وَمَاءً» ^(٦).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠١٤) كتاب فضل ليلة القدر - ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٣٧)، وصحيح الجامع (٤٤٢٣).

(٣) صحيح فقه السنة (١٤٩ / ٢).

(٤) صحيح: رواه البخاري (٢٠١٧) كتاب صلاة التراويح.

(٥) وكف: سال من سقفه المطر.

(٦) صحيح: رواه البخاري (٢٠١٨) كتاب فضل ليلة القدر.

ففى هذا الحديث كانت ليلة القدر ليلة «إحدى وعشرين».
وثبت فى حديث آخر عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله،
مَتَى نَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ الْمُبَارَكَةَ؟ قَالَ: «الْتَمِسُوهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ»^(١).
وثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها ليلة سبع وعشرين... وثبت ذلك مرفوعاً عن
أبى بن كعب^(٢).

وعن معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْتَمِسُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ
فِي آخِرِ لَيْلَةٍ»^{(٣) (٤)} - يقصد ليلة التاسع والعشرين - .

س: ما السبب فى إخفاء ليلة القدر؟

ج: جاء توضيح ذلك فى أكثر من حديث:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلَاخَى
رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُم بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَتَلَاخَى فُلَانٌ وَفُلَانٌ،
فَرَفَعْتُ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ، وَالسَّابِعَةِ،
وَالْخَامِسَةِ»^(٥)، ومعنى فتلاخى: (تشاجر) وفى بعض الروايات: «الْتَمِسُوهَا فِي
الْعَشْرِ الْآخِرِ». فدلَّ الحديث على أن المخاصمة كانت سبباً للنسيان.
وفى «صحيح مسلم» عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أُرِيتُ لَيْلَةَ
الْقَدْرِ، ثُمَّ أَيْقَظَنِي بَعْضُ أَهْلِي، فَنَسِيتُهَا»^(٦).

قال الحافظ: «وهذا سبب آخر؛ فإما أن يُحمل على التعدد بأن تكون الرؤيا

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة (٢١٨٥)، ورواه مسلم (١١٦٨) كتاب الصيام بنحوه.

(٢) حسن: رواه ابن خزيمة (٢١٨٦)، وأحمد (٢٨٦/١٠ - الفتح الربانى).

(٣) صحيح: رواه ابن خزيمة (٢١٨٩).

(٤) تمام المنة للعزازى (٢/ ١٨٩، ١٩٠).

(٥) صحيح: البخارى (٢٠٢٣) كتاب فضل ليلة القدر.

(٦) صحيح: رواه مسلم (١١٦٦) كتاب الصيام.

في حديث أبي هريرة منامًا فيكون سبب النسيان الإيقاظ، وأن تكون الرؤيا في حديث غيره في اليقظة فيكون سبب النسيان ما ذكر من المخاصمة، أو يُحْمَل على اتحاد القصة ويكون النسيان وقع مرتين عن سببين... ويحتمل أن يكون المعنى أنه أيقظني بعض أهلى فسمعت تلاحي الرجلين فقامت لأحجز بينهما فنسيتهما للاشتغال بهما»^(١).

س: وما الحكمة في إخفاء ليلة القدر؟

ج: الحكمة في إخفاء ليلة القدر أن يجتهد العباد في طاعة الله (جل وعلا) في جميع الليالي رجاء أن تكون هذه الليلة هي ليلة القدر.
قال الحافظ: قال العلماء: الحكمة في إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عُيِّن لها ليلة لاقتصر عليها^(٢).
س: ما هي علامات ليلة القدر؟

ج: ليلة القدر لها علامات تُعرف بها، ومن هذه العلامات ما يكون في الليلة نفسها مثل:

١ - أن يكون الجو مناسبًا والريح ساكنة،... فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةٌ سَمْحَةٌ طَلِقَةٌ لَا حَارَّةٌ وَلَا بَارِدَةٌ تُصْبِحُ الشَّمْسُ صَبِيحَتَهَا ضَعِيفَةً حَمْرَاءَ»^(٣).

٢ - الطمأنينة والسكينة التي تنزل بها الملائكة، فيحس الإنسان بطمأنينة القلب، ويجد من انشراح الصدر ولذة العبادة في هذه الليلة ما لا يجده في غيرها.
٣ - قد يراها الإنسان في منامه، كما حصل لبعض الصحابة.

(١) فتح الباري (٤/ ٢٦٨).

(٢) فتح الباري (٤/ ٣١٥).

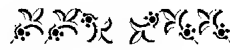
(٣) صحيح: أخرجه الطيالسي (٣٤٩)، والبيهقي، وابن خزيمة (٣/ ٢٣١)، والبزار (١٠٣٤) وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٤٧٥).

ومن العلامات ما يكون لاحقاً مثل:

٤- أن تطلع الشمس في صبيحتها صافية لا شعاع لها.

فعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: « صَبِيحَةٌ لَيْلَةُ الْقَدْرِ تَطْلُعُ الشَّمْسُ لَا شُعَاعَ لَهَا، كَأَنَّهَا طُسْتُ حَتَّى تَرْتَفِعَ »^(١).

❦ تنبيه للعامة: حول علامات ليلة القدر خرافات كثيرة، واعتقادات فاسدة، منها أن الشجر يسجد وأن المباني تنام، وأن المألحة تُعذَّب في تلك الليلة وأن الكلاب تكُف عن النباح وغير ذلك مما هو ظاهر الفساد والبطلان^(٢).



(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٦٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٢) صحيح فقه السنة (٢/١٤٩، ١٥٠).



(٢١٥) باب فضل السواك وخصال الفطرة

(١٢٠٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ» ^(١).

(١٢٠٥) وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ يَشْوِصُ فَاهُ بِالسَّوَاكِ ^(٢).

(١٢٠٦) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كُنَّا نَعِدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ فَيَبْعُثُهُ اللَّهُ مَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَتَسَوَّكُ، وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي ^(٣).

(١٢٠٧) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْثَرْتُ عَلَيْكُمْ فِي السَّوَاكِ» ^(٤).

(١٢٠٨) وَعَنْ شَرِيحِ بْنِ هَانِيٍّ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدَأُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ: بِالسَّوَاكِ ^(٥).

(١٢٠٩) وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَطَرَفُ السَّوَاكِ عَلَى لِسَانِهِ ^(٦).

(١٢١٠) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ» ^(٧).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٨٧) كتاب الجمعة، ومسلم (٢٥٢) كتاب الطهارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٥) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٥٥) كتاب الطهارة. الشَّوْصُ: الدَّلْكُ.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٤) صحيح: أخرجه البخارى (٨٨٨) كتاب الجمعة.

(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٣) كتاب الطهارة.

(٦) متفق عليه: أخرجه البخارى (٢٤٤) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٥٤) كتاب الطهارة.

(٧) صحيح: أخرجه أحمد والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٦٩٥).

✽ السواك هو: التسوك وهو ذلك الأسنان واللثة واللسان بعود الأراك.

هذا السواك المعروف هو عود الأراك، ويحصل الفضل بعود الأراك أو بغيره من كل عود يشابهه... والصحيح أنه يحصل أيضاً بالخرقة أو بالإصبع لكن العود أفضل، والسواك ذكر النبي ﷺ فيه فائدتين عظيمتين كما في حديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ قال: «السَّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ» مطهرة للفم يعنى: يطهر الفم من الأوساخ والأنتان وغير ذلك مما يضر... وقوله: للفم يشمل كل الفم، الأسنان واللثة واللسان، كما في حديث أبي موسى أنه دخل على النبي ﷺ وطرف السواك على لسانه.

الفائدة الثانية: مرضاة للرب... أى أنه من أسباب رضا الله عن العبد أن يتسوك. وللسواك مواضع يتأكد فيها، وإلا فهو مسنون كل وقت، لكن يتأكد في مواضع معينة منها: إذا قام من النوم، فإنه يُسن له أن يستاك... لحديث حذيفة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك، يعنى يتسوك، وكذلك يؤيده حديث عائشة أنهم كانوا يُعدون له سواكه ووضوءه فإذا قام تسوك وتوضأ وصلى ما شاء الله... ويُسن عند القيام من النوم بالليل أو بالنهار لأن الفم يتغير فيُسن أن يتسوك... كذلك يُسن إذا دخل الإنسان بيته أول ما يدخل يتسوك، لأن عائشة سُئلت: أى شئ يبدأ به الرسول ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: السواك.

ويتسوك عند الصلاة... فإذا ذهب ليصلى فريضة أو نافلة صلاة ذات ركوع أو سجود، أو صلاة جنازة فإنه يُسن أن يتسوك، لأن النبي ﷺ قال: «لَوْ لَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ». يُسن السواك أيضاً بتأكد عند الوضوء، ومَجَلَّه عند المضمضة أو قبل أو بعد، لكنه عند الوضوء كما جاء ذلك عن النبي ﷺ.

والحق العلماء (رحمهم الله) ما إذا تغير فمه بأكلٍ أو شرب لبن أو نحوه مما له

دسم، فإنه يُسن أن يتسوك لأنه يطهر الفم. وعلى كل حال فالسواك سُنة ويتأكد في مواضع، ولكنه من حيث السُّنة مشروع كل وقت حتى للصائم بعد الزوال فإنه كغيره يُسن له أن يتسوك... وأما من كره ذلك من أهل العلم فقوله لا دليل عليه، والصحيح أن الصائم يتسوك أول النهار... والله الموفق^(١).

✽ بل تأمل معي هذا الفضل العجيب للسواك:

قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَسَوَّكَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي قَامَ الْمَلِكُ خَلْفَهُ فَتَسْمَعُ لِقَرَاءَتِهِ، فَيَدْنُو مِنْهُ حَتَّى يَضَعَ فَاهُ عَلَى فِيهِ، فَمَا يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا صَارَ فِي جَوْفِ الْمَلِكِ، فَطَهَّرُوا أَفْوَاهَهُمْ لِلْقُرْآنِ»^(٢).

فضائل وفوائد السواك العجيبة

✽ أثبت العلم الحديث الفوائد الطبية التالية للسواك، (وهذا مما دفع الشركات للتنافس على إنتاج المعجون الذي يحتوي على هذه المادة).

١ - يحتوي على مادة (الفلوريد) التي تمنع تسوس الأسنان.

هل تعلم أن الفم يُعتبر مستودعاً لكثير من الجراثيم، والتي يسميها الأطباء بالزمرة الجرثومية الفموية، ومنها المكدرات العنقودية والعقدية والرئوية، والعصيات اللبنية والعصيات الخنّاقة الكاذبة، والملتويات الفوهية والفسنانية وغيرها.

هذه الجراثيم تكون بحالة خاملة عند الشخص السليم ومُتعايشةً معه، لكنها تنقلب إلى مُمرضة مؤذية إذا بقيت ضمن الفم وبين الأسنان فضلات الطعام، فإن هذه الجراثيم تعمل على تفسُّخها وتخمرها وتنشأ عنها روائح كريهة وهذه

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٣١-٢٣٢) بتصرف.

(٢) حسن صحيح: رواه البزار (٦٠٣)، وحسنه الألباني في الصَّحِيحَة (١٢١٣)، وقال في صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ: (٢١٥): حسن صحيح.

المواد تؤذى الأسنان كذلك مُحدثَةً فيها النخور، وتراكم الأملاح حول الأسنان يحدث فيها (القلق) والتهاب اللثة وتقيحها، ويمكن لهذه الجراثيم الانتقال بعيداً في أرجاء البدن مُحدثَةً التهابات مختلفة كالتهاب المعدة أو الجيوب الأنفية أو القصبات الهوائية.

وقد تحدث خراجات في مناطق الجسم المختلفة، وقد تؤدي إلى تسمم الدم أو تجرثمه وما ينجم عن ذلك من أمراضٍ حموية عامة.

٢- يحتوي على (زيوت عطرية) مما يكسب الفم رائحة عطرية مميزة.

٣- يحتوي على (مواد كيماوية) مُزيلَة لصفار الأسنان مما يكسبها لوناً أبيضاً ناصعاً.

٤- يقوم بتنظيف ما يعلق بين الأسنان من بقايا وفضلات الطعام بما يحتويه من (ألياف) كالعidan.

٥- يحتوي على مادة قابضة للثة ويمنع حدوث نزيف بها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢١١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قَالَ: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ - أَوْ خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ -: الْخِتانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبطِ، وَقَصُّ الشَّارِبِ»^(١).

(١٢١٢) وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسَّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ» قَالَ الرَّاوى: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمُضْمَضَةُ... قَالَ وَكَيْفَ - وَهُوَ أَحَدٌ رَوَاهُ -: انْتِقَاصُ الْمَاءِ يَعْنِي: الْاسْتِنْجَاءُ^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٨٩) كتاب اللباس، ومسلم (٢٥٧) كتاب الطهارة.

الاستحْدَادُ: حَلْقُ الْعَانَةِ، وَهُوَ حَلْقُ الشَّعْرِ الَّذِي حَوْلَ الْفَرْجِ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦١) كتاب الطهارة.

«الْبَرَاجِمُ» وَهِيَ: عُقْدُ الْأَصَابِعِ - وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ مَعْنَاهُ: لَا يَقْصُ مِنْهَا شَيْئاً.

(١٢١٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أحفوا الشَّوَارِبَ وأعفوا اللَّحْيَ»^(١).

❁ سنن الفطرة هي: الخصال التي إذا فعلت اتصف فاعلها بالفطرة التي فطر الله العباد عليها، وحشرهم عليها، واستحبها لهم، ليكونوا على أكمل الصفات، وأشرف صورة.

وهي السنة القديمة التي اختارها الأنبياء، واتفقت عليها الشرائع. والفطرة: يعنى التي فطر الخلق على استحسانها وأنها من الخير. والمراد بذلك الفطر السليمة لأن الفطر المنحرفة لا عبرة بها... لقول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

❁ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ذكر النبي ﷺ أن الفطرة خمس.. وفي لفظ: «خمس من الفطرة».. فالمعنى أن تلك الخمس من الفطرة وهناك أشياء أخرى غيرها هي أيضاً من الفطرة.. ولذا جاء في الرواية التي بعدها: «عشر من الفطرة».

❁ «الختان» وهو الذي يُسمى عند الناس بالطهارة وهو خاص بالرجال والنساء.

والمعنى الشرعى للختان هو: قطع الجلد المستديرة على الحشفة - وهي رأس الذكر - ويقال لها: القلفة بالنسبة للذكر.... وأما الأنثى فتقطع الجلد التي هي كعُرف الديك فوق فرجها.

ولقد وردت الأدلة بمشروعيتها في حق الرجال والنساء... ومنها: ما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه خمس من الفطر، وذكر فيها الختان. ومنها: ما ثبت أيضاً في الحديث قوله ﷺ: «إِذَا التَّقَى الْخِتَانَانِ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٩٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢٥٩) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٨٥) - وأصله عند مسلم (٣٤٩) كتاب الحيض.

وعن أنس رضي الله عنه أن أم عطية الأنصارية رضي الله عنها - امرأة كانت خاتنة بالمدينة - فقال لها رسول الله ﷺ: «إِذَا خَفَضْتَ فَأَشْمِي وَلَا تَنْهَكِي، فَإِنَّهُ أُسْرَى لِلْوَجْهِ وَأَحْظَى عِنْدَ الزَّوْجِ»^(١).

❖ ولقد اختلف أهل العلم في حكم الختان على النحو الآتي:-

ذهب الشافعية إلى أنه واجب في حق الرجال والنساء، وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه للرجال سنة^(٢) وهو مكروه للنساء.. وعن أحمد الختان واجب للرجال ومكرمة في حق النساء، وفي رواية عنه أنه واجب في حق الرجال والنساء. والراجح أن الختان واجب في حق الرجال.. وأما النساء فختانهن سنة، وليس بواجب.. وذلك أن الرجل إذا لم يُختن وبقيت الجلد التي فوق الحشفة فإنه يحتقن بها البول، وتكون سبباً في النجاسة لأنه إذا احتقن بها البول ثم حصل ضغط عليها، خرج البول الذي صار بينها وبين الحشفة فتلوثت الثياب وتنجست، ثم هي أيضاً عند الكبر، وعندما يصل الإنسان إلى حد الزواج يكون هناك مشقة شديدة عند الجماع، فلذلك كان من الفطرة أن تقص هذه الجلد.

❖ وأما موعد الختان ومتى يكون؟ فإنه يكون بالنسبة للذكر في اليوم السابع من مولده فما بعده.. وكلما كان في الصغر كلما كان أفضل وأيسر بالنسبة للطفل حتى لا يكون الألم شديداً عليه... وأما الجارية (البنت) فلم يُحدد لها وقت، إلا أن المعتبر فيه التأخير لكي يظهر «العُرف» وينمو، ولا يكون ذلك إلا في سن متأخرة، والمعتبر في ذلك رأى الطيبة التي تجرى عملية الختان.

❖ وللختان حكم كثيرة أذكر بعضها^(٣):-

هو مكمل للفطرة التي هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام.

(١) رواه الطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٩)، وصححه في «السلسلة الصحيحة» (٧٢٢).

(٢) قال القاضي عياض: السنة عندهم - أي المالكية - يأثم بتركها.

(٣) من كتاب «تحفة المودود» للإمام ابن القيم بتصرف.

ذهب بعض المفسرين أنه معنى قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾.

فالختان للحنفاء بمنزلة الصبغ والتعميد لعباد الصليب... فصبغة الله في القلوب: معرفته ومحبه وعبادته... وفي الأبدان: خصال الفطرة، ومنها الختان. الختان طهارة من الوسخ والنجس الذي يتجمع داخل القلفة. أنه بالنسبة للمرأة أنضر للوجه وأحظى للزوج.

❁ «الاستحداد»: يعنى: حلق العانة.

والمقصود بالعانة: الشعر الخشن الذى ينبت حول ذكر الرجل وحواليه وينبت كذلك حول فرج المرأة... وهو من علامات البلوغ. فمن سنن الفطرة أن يحلق الإنسان هذا الشعر لأنه إذا طال فإنه قد يتلوث بالنجاسة ويحصل بذلك وسخٌ وقذر.. ولأنه إذا طال فإنه يضر الإنسان.

❁ «تقليم الأظفار» سواء في ذلك أظفار اليدين والرجلين.

والمراد بالتقليم: «القطع»، وهو بمعنى القص... وهو سنة بالاتفاق، ويستوى في ذلك الرجل والمرأة.

واعلم أنه لم ترد أدلة في كيفية القص، وبأى الأصابع يبدأ.. فعلى أى صفة فعل أجزاءه. والله أعلم.

ويكره أن تُترك الأظفار، وكذلك الإبط والعانة والشارب أكثر من أربعين ليلة... لما ورد في الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: «وَقَّتْ لَنَا فِي قِصِّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمِ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفِ الْإِبْطِ، وَحَلْقِ الْعَانَةِ أَنْ لَا تُتْرَكَ أَكْثَرُ مِنْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»^(١).

وفي رواية: وَقَّتْ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

تنبيه: ليس هناك دليل على دفن قلامة الأظفار، ولا الشعر المحلوق، فيجوز

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨) كتاب الطهارة.

(٢) رواه أبو داود (٤٢٠٠) والترمذي (٢٧٥٩).



إلقاء في القمامات. ولا حرج في ذلك.

❁ «نتفُ الإبط»: إذا كان هناك شعر قد نبت في الإبط فإنه يُنتف ولا يُحلق ولا يُقص.. وذلك لأن النتف يُزيله بالكلية ويُضعف أصوله حتى لا ينبت فيما بعد.. ولكن إن كان النتف شاقاً على الإنسان فلا بأس أن يحلقه أو يستخدم أحد الكريمات المزيلة للشعر.

❁ «قَصْرُ الشارب»: وهو الشعر النابت فوق الشفة العليا، وحَدُّه: الشفة، كل ما طال على الشفة العليا فهو شارب فهذا يُحَف لأن بقاءه يكون فيه تلويث بما يخرج من الأنف من الأذى، ثم عند الشرب أيضاً يياشر الشعر المتلوث الماء فيُقدِّره، وربما يحمل ميكروبات مُضرة، وعلى كل حال فهو من السُّنة.

❁ وتلك الخمس كما ذكرنا.. فيها الختان الذي يُفعل في العمر مرة واحدة.. أما الأربع الباقية وهى: الاستحداد وتقليم الأظفار ونتف الإبط وقص الشارب فإنها لا تُترك فوق أربعين يوماً بل ينبغي أن يعتنى الإنسان بها دائماً.. ولكن النبى ﷺ وَقَّتْ لأمته أقصى مدة تُترك فيها تلك الأشياء وهى مدة الأربعين يوماً...

لا يجوز أن نتجاوزها بحالٍ من الأحوال.. وليكن عندك أجندة تكتب فيها مواعيدك وجدول أعمالك فتجعل من بينها موعداً مكتوباً تقوم فيه بفعل تلك الأشياء.

❁ وأما حديث أمنا عائشة رضي الله عنها.. ففيه أن الفطرة عشر خصال.. ذكر منها أربعة في حديث أبى هريرة رضي الله عنه وبقي ستة من خصال وسنن الفطرة في هذا الحديث.. وانفرد حديث أبى هريرة بذكر الختان.. وها هى باقى سنن الفطرة الواردة في حديث عائشة رضي الله عنها.

❁ «إعفاء اللحية» واللحية هى شعر الوجه واللحيين: يعنى العوارض وشعر الخدين.. فهذه كلها من اللحية.... وإعفاء اللحية يعنى إطلاقها

وإرخاءها وتركها على ما هي عليه.. فهذا من الفطرة التي فطر الله الناس عليها وعلى استحسانها وأنها من علامات الرجولة وجمال الرجولة.. وأما عن حكم إعفاء اللحية فإنه يجب إعفاؤها ويحرم حلقها. لورود الأمر بإطلاقها بعبارة مختلفة نحو: (اعفوا، أوفوا، أرخوا، وقرّوا، أرجوا)، والأمر يفيد الوجوب، كما هو مقرر في علم الأصول.

ثم اعلم أن حلق اللحية - فضلاً عن كونه معصية - إنكارٌ للرجولة والفحولة، وتشبهٌ بالنساء، والمردان.

وهي أيضاً تشبه بالكفار لقوله ﷺ: «قُصُّوا الشارب، واعفوا اللّحي، وخالفوا المشركين»^(١).. وفي رواية: «خالفوا المجوس أو المشركين وقرّوا اللّحي وحفّوا الشوارب».

وفي حلق اللحية تغيير لخلق الله.. قال تعالى: ﴿لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وقال تعالى حكاية عن الشيطان أنه قال: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]، وحلق اللحية فيه معنى النمص الذي هو إزالة شعر الوجه، أو الحاجبين من المرأة للحسن، وهو في حق الرجل أقبح. لذا لم يُعرف في سير الأنبياء، أو الخلفاء، أو أئمة الهدى أحد كان يحلق لحيته^(٢).

❁ «السواك»: تحدثنا عنه في الأحاديث السابقة.

❁ «استنشاق الماء»: الاستنشاق من الفطرة لأنه تنظيف وإزالة لما في الأنف، فهو طهارة... والاستنشاق يكون في الوضوء ويكون في غير الوضوء.

(١) قد يحتاج البعض بأن المشركين الآن منهم من يطلق لحيته... والجواب: أنهم إن أطلقوها فقد عادوا في أمرها إلى أصل الفطرة، فلا يصلح للمسلم أن ينكس فطرته، وأيضاً فإن الحلق عندهم هو أصل عملهم فإن خالفوه فلا يستوجب ذلك منا المخالفة.. وأيضاً فإن إطلاق اللحية هو من شعيرة المسلمين وشعيرة المرسلين، فالتعليل الوارد في الحديث بمخالفة المشركين هو أحد التعليلات وليس هو كل العلة.

(٢) تمام المنة/ للشيخ عادل العزازی (١/٥٠-٥١).

كلما احتجت إلى تنظيف الأنف فاستنشق الماء ونظف أنفك...

وهذا يختلف باختلاف الناس، فمن الناس من لا يحتاج إلى هذا إلا في الوضوء، ومن الناس من يحتاج إلى ذلك كثيراً.

✽ «غسل البراجم»: والبراجم قال العلماء: إنها مسقط الأصابع.. فإن مسقط الأصابع من الباطن يحتاج إلى تنظيف أكثر من ظاهرها؛ لأن ظاهرها ممسوخ ليس فيه شيء يحتاج إلى تنظيف أكثر.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَيُلْحَقُ بِالْبَرَاغِمِ مَا يَجْتَمِعُ مِنَ الْوَسَخِ فِي مِعَاطِفِ الْأُذُنِ وَقَعْرِ الصَّمَاخِ^(١).

✽ «وانتقاص الماء»: وقد فسر وكيع انتقاص الماء بأنه الاستنجاء؛ لأن الاستنجاء تنظيف وتطهير وإزالة أذى.

✽ «المضمضة»: فالمضمضة من شُئِنِ الفطرة لأن فيها تنظيف الفم، والفم يحتاج إلى تنظيف؛ لأنه يمر به الأكل والدهن وما أشبه ذلك، فيحتاج إلى تنظيف، فكانت المضمضة من خصال الفطرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) انظر نيل الأوطار (١/١٢٦). والمجموع (١/٢٨٨).

(٢١٦) باب تأكيد وجوب الزكاة

وبيان فضلها وما يتعلق بها

❁ قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۝﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

❁ الزكاة هي العبادة المالية الاجتماعية الهامة.

وهي الفريضة الثانية في الإسلام، قرنها القرآن بالصلاة في عشرات المواضع، وذكرها تارة بلفظ الزكاة، وتارة بلفظ الصدقة، وأحياناً بلفظ الإنفاق.

وفي مفتح سورة البقرة يصف الله المتقين الذين يتتبعون بهدى كتابه ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] وفي آيات أخر من السورة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠] ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وهي في معناها البسيط - معونة الفقير بجزء من المال - عبادة قديمة عرفت في الرسالات السماوية السابقة، وذكرها الله في وصايا رسله إلى أممهم.

فقال عن الخليل إبراهيم وابنه إسحاق وحفيده يعقوب ؑ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وامتدح إسماعيل ؑ بقوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

مَرْضِيًّا ۝﴾ [مريم: ٥٥].

وذكر الله في موثيقه لبنى إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقال على لسان المسيح عليه السلام وهو في مهده: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وقال في شأن أهل الكتاب عامة: ﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ④ ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ ⑤ [البينة: ٤، ٥].

هذه هي الزكاة في ديانات السماء... وما كان لهذه الديانات أن تنسى هذا الجانب الخُلقي من رسالتها: جانب البر بالفقراء والإحسان بالمساكين.

ومنذ فجر الإسلام في مكة والمسلمون أفرادٌ معدودة مُستخفون بدينهم، مُضطهدون في ديارهم، كان هذا الجانب الإنساني الاجتماعي موضع عناية بالغة من القرآن العزيز... فالعقبة التي على كل إنسان أن يجتازها حتى يصل إلى رضا الله تتمثل في البر بالناس من تحرير للرقيق، وإطعام للمسكين واليتيم ﴿فَلَا أَقْنَمِ الْعَقَبَةَ﴾ ⑪ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ ⑫ ﴿فَكُ رَقَبَةً﴾ ⑬ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ⑭ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ⑮ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ⑯ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ⑰ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑱ [البلد: ١١-١٨].

وفي سورة الضحى وهي من أوائل ما نزل من القرآن: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ① ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩، ١٠] وفي سورة المدثر يسجل القرآن اعتراف

المجرمين في النار ﴿قَالُوا لَئِنْ كُنْتُمْ الْمُصْلِينَ﴾ (١٣) ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ [المائدة: ٤٣، ٤٤]
 وفي سورة الذاريات في وصف المتقين ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (١٩)
 [الذاريات: ١٩] وفي سورة المعارج ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ (٢٤) لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ
 ﴿﴾ (٢٥) [المعارج: ٢٤، ٢٥] وفي سورة القلم يَقُصُّ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قصة أصحاب
 الجنة الذين اعتزموا أن يقطعوا ثمارها بليل، ليحرموا منها المساكين: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا
 طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٩) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (٢٠) [القلم: ١٩، ٢٠] وفي سورة الماعون:
 ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ (١) ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى
 طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿﴾ (٣) [الماعون: ١-٣] وفي سورة الحاقة يُعَلِّلُ جزاء من يُسجر في
 الجحيم ويُسحب في السلاسل والأغلال: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ (٣٣) وَلَا
 يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿﴾ (٣٤) [الحاقة: ٣٣، ٣٤] وفي سورة فصلت يُنذِرُ اللهُ المشركين
 بالويل ويجعل من أخص أوصافهم عدم إيتاء الزكاة: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٦) الَّذِينَ
 لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿﴾ [فصلت: ٦، ٧] وفي سورة الشورى
 يمدح الله المجتمع المؤمن: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ
 وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٨) [الشورى: ٣٨] وفي سورة الأنعام: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا
 أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] وفي سورة المزمل: ﴿وَأَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠] هذه بعض عناية القرآن
 المُلحَة بالبر ورعاية المسكين. وأداء حق السائل والمحروم.

إن الزكاة الإسلامية المعروفة شيء يزيد على البر والإنفاق العام.

والزكاة المطلقة التي شرعت في العهد المكي، بل شرعت في الديانات
 السابقة كما ذكر القرآن... فالزكاة التي شرعت في العهد المدني تشريع جديد،
 لم يسبق إليه دين سماوي، ولا تنظيم أرضي.

إنها ركن من أركان الإسلام، ودعامة من دعائم الإيمان، وإيتاؤها -مع إقامة
 الصلاة والشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ- بالرسالة- عنوان على الدخول في

الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

إنها فريضة لازمة يكفر من جحدها، ويفسق من منعها، ويُقاتل من تحدى جماعة المسلمين بتركها... وحسبنا أن الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه جهز أحد عشر لواء لمقاتلة قوم امتنعوا عن أداء الزكاة وقال كلمته الشهيرة: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

والزكاة في الإسلام ليست «تبرعاً» يتفضل به غني على فقير أو يُحسن به واجد إلى معدوم. إنها أبعد من ذلك غوراً، وأوسع أفقاً.

إنها جزء هام من نظام الإسلام الاقتصادي... ذلك النظام الفريد الذي عالج مشكلة الفقر أو مشكلة المال على وجه عام، قبل أن تعرف الدنيا نظاماً يهتم بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الإنسان.

حدّد الإسلام الأموال التي تجب فيها الزكاة والحد الأدنى لما يجب فيه الزكاة، ومتى تجب الزكاة على المال، والمقدار الذي يجب إخراجه على كل منها. فلا يذهبن الظن بأحد أن الزكاة من الغنى تفضّل وامتنان، ومن الفقير «شحاذة» وهوان... فليس بين الغنى والفقير تعامل مباشر في الزكاة كما شرعها الإسلام: وإنما الحكومة هي نائبة عن الفقير في أخذ الزكاة من الأغنياء.

ولهذا قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه والياً ومُعَلِّماً إلى اليمن: «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فتردّ إلى فقرائهم»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٩٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.



وأول ما يدل عليه هذا التعليم النبوي «أن الزكاة في نظر الإسلام ليس إلا صرف بعض أموال الأمة، مُمثلة في أغنيائها، إلى الأمة نفسها مُمثلة في فقرائها. وبعبارة أخرى: ليس إلا نقل الأمة بعض مالها من إحدى يديها، وهي اليد المشرفة التي استخلفها الله على حفظه وتنميته والتصرف فيه - وهي يد الأغنياء - إلى اليد الأخرى، وهي اليد العاملة الكادحة التي لا يفي عملها بحاجتها، أو التي عجزت عن العمل وجُعِلَ رزقها فيه ومنه، وهي يد الفقراء»^(١).

❦ وإلى أين تذهب أموال الزكاة بعد جمعها وجبايتها؟

إنها تذهب «إلى بيت المال» وهو الخزانة العامة التي تُجمع فيها موارد الدولة الإسلامية من زكاة وفيء وغنائم وخراج وغيرها، وإن كانت الزكاة تختص ببيت مالٍ مستقل، ولا تُخلط ببيوت المال الأخرى، حتى يبقى حق الفقراء مضموناً، ونصيبهم مَصُوناً، فلا تطفئ عليه حاجات المصارف الأخرى العامة ومطالبها. وهذا ما جرى عليه العمل ونَصَّ عليه جمهور الفقهاء.

هذا إلى أن الإسلام قد حدد الجهات التي تُصرف إليها وفيها الزكاة، فلم يدعها لأهواء الحاكمين ينفقون منها على مظاهر الترف لهم، أو على الأتباع والأنصار من حولهم، ولم يدعها كذلك لرغبات الطامعين فيها وهم لا يستحقونها.

وفي عهد رسول الله ﷺ تطلعت أعين جماعة من المنافقين إلى أموال الصدقات وسال لعابهم لأخذها... وفيهم قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

ثم بيّن الله تعالى مصارف الزكاة بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ

(١) من كتاب «الإسلام عقيدة وشريعة» للشيخ شلتوت.

فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿[التوبة: ٦٠].

وهكذا تولى الله بنفسه في كتابه توزيع الزكاة، فليس لبشر بعد ذلك أن يحولها عن مصارفها الثمانية إلى مصارف تخدم هواه ما أنزل الله بها من سلطان^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢١٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٢).

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٠٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢١٥) وعن طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، نَائِرُ الرَّأْسِ تَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ، وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» قَالَ: هَلْ عَلَى غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَعَ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ» قَالَ: هَلْ عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَعَ» قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الزَّكَاةَ فَقَالَ: هَلْ عَلَى غَيْرِهَا؟ قَالَ: «لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَعَ» فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»^(٣).

(١) بتصرف من كتاب (العبادات في الإسلام) / للدكتور يوسف القرضاوى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦) كتاب الإيمان، ومسلم (١١) كتاب الإيمان.

❁ ففي هذا الحديث أخبر طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن رجلاً من أهل نجد نثر الرأس منتفش الشعر غير مسترسل جاء إلى رسول الله ﷺ وله صوت مرتفع ومتكرر لا يفهم .. وذلك لأنه كان ينادى من بُعد .. فلم يفهم أحد ما يقوله حتى دنا واقترب من النبي ﷺ وأخذ يسأله عن الإسلام .. أى: عن شرائعه .. وفي رواية أنه قال للنبي ﷺ: أخبرني ماذا فرض الله على من الصلاة؟ فقال له ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة» أى: هى التى فرضها الله ﷻ عليك من الصلاة.

فقال الرجل: هل على غيرهن؟ .. فقال له النبي ﷺ: «لا، إلا أن تطوع». قال الإمام النووي رحمته الله: قوله ﷺ: «إلا أن تطوع» استثناء منقطع ومعناه لكن يستحب لك أن تطوع وجعله بعض العلماء استثناء متصلًا واستدلوا به على أن من شرع في صلاة نفل أو صوم نفل وجب عليه إتمامه ومذهبنا أنه يستحب الإتمام ولا يجب .. والله أعلم ^(١).

❁ ثم قال الرجل: صيام شهر رمضان هل على غيره؟ قال له ﷺ: «لا، إلا أن تطوع» ومعناه أيضًا: أنه يستحب لك أن تطوع .. والمراد هنا بيان الواجب منهما بأصل الشرع وإلا فإنه يجب في الصلاة زيادة على الخمس صلوات إذا كان قد نذر أن يصلى صلاة بعينها فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر .. وكذلك إذا نذر أن يصوم أيامًا بعينها فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر .. وكذلك إذا نذر أن ينفق مالًا فإنه يجب عليه الوفاء بالنذر بشرط ألا يندر فعل طاعة بصورة تخالف الكتاب أو السنة فإنه في هذه الحالة لا نذر في معصية الله ﷻ.

❁ وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال الرجل: هل على غيرها؟ قال له ﷺ: «لا، إلا أن تطوع».

قال الدماميني في المصابيح: لا يخفى أن هذا الرجل إنما وفد بالمدينة، وأقل ما قيل فيه أنه وفد سنة خمس، وقد تقرر في ذلك الزمن النهي عن أمور كالقتل، والزنى، والعقوق، والظلم، والسرقة. فثبت أن عليه وظائف أخرى غير الصلاة والزكاة والصيام.. وأجاب ابن المنير بأنه عليه السلام كان يجيب بما يقتضيه الحال، وبالأهم فالأهم، إذ لا يمكن بيان الشريعة دفعة، لا سيما لحديث عهد بالإسلام، أو أن الرواة اقتصروا على بعض ما ذكره عليه السلام ^(١).

✽ فما كان من الرجل إلا أن أدبر وانصرف وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.... وقد ورد في معناها أنه أقسم ألا يزيد على تلك الفرائض المكتوبة مع تعهده على المحافظة عليها وعدم التقصير فيها... وقال بعض أهل العلم: أحسن ما يقال فيه أن المعنى: أبلغها قومي على ما سمعتها من غير زيادة ولا نقص... لأنه كان وافداً لهم ليتعلم ويعلمهم... قاله ابن المنير.

قال الدماميني: ولا ينافيه ما في كتاب الصوم من البخاري من قوله: «وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا، وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا».

فقال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ» قال ابن العربي في كتابه القبس: إنما قال له النبي ﷺ ذلك لأنه أول ما أسلم فأراد أن يطمئن فؤاده، وبعد ذلك يفعل ما سواها بما يظهر له من ترغيب الإسلام ^(٢).

وقال الإمام النووي رحمته الله: قِيلَ هَذَا الْفَلَاحُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: لَا أَنْقُصُ خَاصَّةً وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الْمَجْمُوعِ بِمَعْنَى أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَزِدْ وَلَمْ يَنْقُصْ كَانَ مُفْلِحًا لِأَنَّهُ أَتَى بِمَا عَلَيْهِ... وَمَنْ أَتَى بِمَا عَلَيْهِ فَهُوَ مُفْلِحٌ وَلَيْسَ فِي هَذَا أَنَّهُ إِذَا أَتَى بِرَائِدٍ لَا يَكُونُ مُفْلِحًا لِأَنَّ هَذَا مِمَّا يُعْرَفُ بِالضَّرُورَةِ... فَإِنَّهُ إِذَا أَفْلَحَ بِالْوَاجِبِ فَلَا أَنْ يُفْلِحَ

(١) دليل الفالحين (٧/٤).

(٢) دليل الفالحين (٨/٤).

بِالْوَاجِبِ وَالْمَنْدُوبِ أَوْلَى... فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ: لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا... وَلَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ جَمِيعُ الْوَاجِبَاتِ وَلَا الْمَنْهِيَّاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَا السُّنَنِ الْمَنْدُوبَاتِ؟.. فَالْجَوَابُ أَنَّهُ جَاءَ فِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ فِي آخِرِ هَذَا الْحَدِيثِ زِيَادَةٌ تُوضِّحُ الْمَقْصُودَ. قَالَ: فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ شَيْئًا... فَعَلَى عُمُومِ قَوْلِهِ: (بِشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ) وَقَوْلِهِ: (مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ) يَزُولُ الْإِشْكَالُ فِي الْفَرَائِضِ... وَأَمَّا النَّوَافِلُ فَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ شَرْعِهَا وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ لَا أَزِيدُ فِي الْفَرَضِ بِتَغْيِيرِ صِفَتِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا أَصَلِّي الظُّهْرَ خَمْسًا وَهَذَا تَأْوِيلٌ ضَعِيفٌ وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي النَّافِلَةَ مَعَ أَنَّهُ لَا يَخْلُ بِشَيْءٍ مِنَ الْفَرَائِضِ وَهَذَا مُفْلِحٌ بِلَا شَكٍّ... وَإِنْ كَانَتْ مُوَاطَبَتُهُ عَلَى تَرْكِ السُّنَنِ مَذْمُومَةً وَتُرَدُّ بِهَا الشَّهَادَةُ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِعَاصٍ بَلْ هُوَ مُفْلِحٌ نَاجٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

وهذا دليل على أن الإنسان إذا اقتصر على الواجب في الشرع فإنه مفلح؛ ولكن لا يعنى هذا أنه لا يُسَنُّ أن يأتي بالتطوع... لأن التطوع تكمّل به الفرائض يوم القيامة... وكم من إنسان أدى الفريضة وفيها خلل وفيها خروق، وفيها خدوش، تحتاج إلى تكميل وإلى رتق الصدع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢١٦) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»^(٢).

❁ لقد اختار النبي ﷺ لتعليم أهل اليمن رجلين من خيار أصحابه

(١) مسلم شرح النووي (١/ ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٩٥) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

وفُضِّلَهم وهما: أبو موسى الأشعري العالم القارئ الحاذق الفطن، ومعاذ ابن جبل الشَّاب القاضى الذكى الفطن الأمير^(١).

✽ وكان بعث معاذ إلى اليمن في أواخر حياة النبي ﷺ، وذلك لِيُعَلِّم أهلها شرائع الإسلام ومقاصد الدين... ومن هنا اختار النبي ﷺ هذين العلمين العالمين لما عُرِفَا به من العلم والفقه والعمل ليكونا مرشدين لأهل اليمن، وزوَّدهما بوصية خالدة تدلُّ على يُسر الإسلام حيث قال لهما: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَنْفَرَا».

وفي رحلة الاستعداد المعاذية إلى اليمن، زوَّد النبي ﷺ تلميذه النجيب معاذ ابن جبل بزادٍ من الوصايا المباركة، وكانت هذه الوصايا تُفَصِّحُ عن أسلوب الدعوة إلى الله ﷻ، وإلى نشر الإسلام في ربوع اليمن وبين أهلها الذى عُرِفُوا بركة الأفتدة، وصدق العاطفة وُبِّلَها.

✽ ومن بين الوصايا النبوية لمعاذ نقرأ هذه الوصية الكريمة التى أضاءت الطريق بين يدي معاذ الشاب العالم الداعية، وتلميذ النبوة النجيب، حيث قال له النبي ﷺ مُبِينًا له مراحل الدعوة إلى الله ﷻ: «إِنَّكَ ستَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»^(٢).

فهذا هو أصل الأصول.. وذلك بأن يشهد العبد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.. فمن قالها فقد أصبح مؤمنًا إن لم يأتِ بناقضٍ من نواقضها.. فإن مات على ذلك فهو من أهل الجنة حتى وإن كان مُقَصِّرًا في بعض الطاعات أو واقعًا في بعض المعاصي والمخالفات.. فمصيره في النهاية إلى الجنة.. لأن من عقيدة أهل السنة والجماعة أنه لا يُخْلَدُ موحَّدٌ في النار أبدًا.

(١) عن الأسود بن يزيد بن قيس النخعي قال: «أَتَانَا معاذُ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باليمن مُعَلِّمًا وأميرًا..» (إرشاد السارى ٤٢٩/٩).

(٢) علماء الصحابة/ د. أحمد خليل جمعة (٧٩٠-٧٩١) بتصرف.

❦ ثم قال له ﷺ: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ، فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»... وهكذا يوصي النبي ﷺ مُعَاذًا أَنْ يَتَدْرَجَ مَعَهُمْ فَيَبْدَأُ بِالْأَهَمِّ وَهُوَ إِنْقَاذُهُمْ مِنَ النَّارِ بِنُطْقِ الشَّهَادَتَيْنِ ثُمَّ تَذَكِيرُهُمْ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الَّتِي هِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَالَّتِي هِيَ عِمَادُ الدِّينِ.. وَالَّتِي هِيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسِبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنْ عَمَلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.. فَإِذَا صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِذَا فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ.

❦ ثم قال له ﷺ: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَذَلِكَ فَأَعْلَمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» وهذا هو الشاهد في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ مُعَاذًا أَنْ يَخْبِرَهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً - وَهِيَ زَكَاةُ الْمَالِ - تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُدْفَعُ إِلَى فُقَرَائِهِمْ لِتَتَأَلَّفَ الْقُلُوبُ وَيَصْبِحَ الْمَجْتَمَعُ كَالْأُسْرَةِ الْوَاحِدَةِ.

فالزكاة هي حق الفقير بوصفه أخًا للغني في الدين والإنسانية.

فقد جعل الإسلام المجتمع كالأُسرة الواحدة يكفل بعضهم بعضًا... بل كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله.

فمن حق الفقير الذي لا يستطيع أن يعمل، أو يستطيع ولا يجد عملاً، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله أو يجد ولكن حَلَّ به من الأحداث ما أفقره إلى المعونة.. من حقه أن يُعَانَ وَيُشَدَّ أَرْزُهُ وَيُؤْخَذَ بِيَدِهِ... وليس من الإيمان ولا من الإنسانية أن يشبع بعض الناس حتى يشكو التُّخمة، وإلى جواره مَنْ طَالَ حَرْمَانُهُ حَتَّى أَنْ وَتَعَبَ مِنَ الْجُوعِ.

ولا يجوز للمؤمن أن يعيش في دائرة نفسه مُغْفِلًا واجبه نحو الآخرين من ضعفاء ومساكين... فهذا نقصٌ في إيمانه، موجب لسخط الله في الدنيا والآخرة.

والزكاة - مع أنها حق الفقير - حق الجماعة أيضًا... فالإنسان لم يكسب المال بجهد وحده، بل شاركت فيه جهود وأفكار وأيدٍ كثيرة، بعضها عن قصد،

وبعضها عن غير قصد... بعضها ساهم من قريب، وبعضها ساهم من بعيد، وكلها أسباب عاونة في وصول المال إلى ذى المال... فإذا نظرنا إلى التاجر مثلاً كيف جمع ماله وحقق كسبه؟ رأينا للمجتمع عليه فضلاً كبيراً. فممن يشتري؟ ولمن يبيع؟ ومع من يعمل؟ وبمن يسير إذا لم يكن المجتمع؟ وهكذا الزارع والصانع وكل ذى مال. فمن حق المجتمع ممثلاً في الدولة التي تُشرف عليه وترعى مصالحه، وتسد خلالات أفرادها أن يكون لها نصيب من مال ذى المال.

فلو لم يكن في المجتمع المسلم أفراد فقراء أو مساكين لوجب على المسلم أن يؤدي زكاته ولا بد؛ لتكون رصيماً للجماعة، تنفق منه عند المقتضيات، ولتبذل منه «في سبيل الله» وهو مصرف عام دائم ما دام في الأرض إسلام.

والزكاة بعد ذلك -وقبل ذلك- حق الله تعالى... فالله هو المالك الحقيقي لكل ما في الكون أرضه وسمائه... والمال في الحقيقة ماله، لأنه خالقه وواهبه ومُيسر سُبُلِهِ، ومانح الإنسان القدرة على اكتسابه^(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ قَبُولُ خَيْرِ الْوَاحِدِ وَوُجُوبِ الْعَمَلِ بِهِ... وَفِيهِ أَنَّ الْوُتْرَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ لِأَنَّ بَعْثَ مُعَاذٍ إِلَى الْيَمَنِ كَانَ قَبْلَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَلِيلٍ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْوُتْرِ وَالْعَمَلِ بِهِ... وَفِيهِ أَنَّ السُّنَّةَ أَنَّ الْكُفَّارَ يُدْعَوْنَ إِلَى التَّوْحِيدِ قَبْلَ الْقِتَالِ.. وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يُحَكَّمُ بِإِسْلَامِهِ إِلَّا بِالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ كَمَا قَدَّمْنَا بَيَانَهُ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الْإِيمَانِ... وَفِيهِ أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ تَجِبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ... وَفِيهِ بَيَانُ عِظَمِ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَأَنَّ الْإِمَامَ يَنْبَغِي أَنْ يَعِظَ وَلَا تَهَ وَيَأْمُرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَيُبَالِغَ فِي نَهْيِهِمْ عَنِ الظُّلْمِ وَيُعَرِّفُهُمْ قُبْحَ عَاقِبَتِهِ... وَفِيهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى السَّاعِي أَخْذَ كَرَائِمِ الْمَالِ فِي آدَاءِ الزَّكَاةِ بَلْ يَأْخُذُ الْوَسْطَ وَيَحْرُمُ عَلَى رَبِّ الْمَالِ إِخْرَاجَ شَرِّ الْمَالِ... وَفِيهِ أَنَّ الزَّكَاةَ لَا تُدْفَعُ إِلَى كَافِرٍ وَلَا تُدْفَعُ

(١) العبادات في الإسلام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢١٣-٢١٤) بتصرف.

أَيْضًا إِلَى غَنَى مَنْ نَصِيبِ الْفُقَرَاءِ ... وَاسْتَدَلَّ بِهِ الْخَطَّابِيُّ وَسَائِرُ أَصْحَابِنَا عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ لَا يَجُوزُ نَقْلُهَا عَنْ بَلَدِ الْمَالِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «فَتَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ» وَهَذَا الْإِسْتِدْلَالُ لَيْسَ بظَاهِرٍ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي فُقَرَائِهِمْ مُحْتَمِلٌ لِفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلِفُقَرَاءِ أَهْلِ تِلْكَ الْبَلَدَةِ وَالنَّاحِيَةِ وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ أَظْهَرُ^(١).

بَيَانُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ

(١٢١٧) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٣٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَيَانُ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ

(١٢١٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا تُوْفِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ. وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتَهُمْ عَلَى مَنَعِهِ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلِقَاتِلِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ^(٣).

(١) مسلم بشرح النووي (١/٢٧٣-٢٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥) كتاب الإيمان، ومسلم (٢٢) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٩٩، ١٤٠٠) كتاب الزكاة، (٧٢٨٤، ٧٢٨٥) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ومسلم (٢٠) كتاب الإيمان.

❦ قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويسيروا الصلاة ويؤتوا الزكاة»، يقاتل من امتنع عن واحدة من هذه الأربع: من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومن إقامة الصلاة، ومن إيتاء الزكاة ... يقاتلهم حتى يُذعنوا ويرضخوا لهذه الأربع. فإذا فعلوا ذلك ... يعنى؛ شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، «عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل». يعنى: إذا فعلوا ذلك فقد استسلموا ظاهرًا فيعصمون دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله... لأن من الناس من يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويسيروا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وقلبه منطوى على الكفر... ولهذا قال: «حسابهم على الله» فالمنافقون يقولون: لا إله إلا الله، لكن لا يذكرون الله إلا قليلًا. ويقولون لرسول الله ﷺ: نشهد أنك لرسول الله، ويسيرون الصلاة ولكن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ويتصدقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون. ومع ذلك قلوبهم منطوية على الكفر - نسأل الله العافية - ولهذا قال: «وحسابهم على الله عز وجل».

ثم ذكر المصنف رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه في تحاور أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخليفة الأول لرسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ في مسألة دينية، مع أن كل واحد منهما يحب الآخر حبًا عظيمًا، لكن هذه المحبة لا تمنع من المحاوراة والمراجعة الدينية؛ لأن الدين فوق كل شيء... لما كان أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ الخليفة بعد الرسول بإشارة الرسول ﷺ إليه، حيث خلفه عنه في الحج وهى إمامة كبرى بالنسبة للناس، وفي الصلاة وهى إمامة صُغرى.. لأن أمير الحج يؤم من الناس أكثر ما يؤمه أمير المسجد.

خلفه النبي ﷺ إمامًا للمسجد حين مرض وخلفه في الحج بالناس عام تسع من الهجرة، واتفق الصحابة بعد موت الرسول ﷺ على أن الخليفة من بعده

أبو بكر، وارتد من ارتد من العرب - والعياذ بالله - وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.... وقد حصل؛ فلقد ارتد من ارتد من العرب ومنعوا الزكاة وكفروا بالله، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه فحاورة عمر، قال: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله». وهذا هو الذي سمعه عمر من النبي ﷺ وإلا فإن ابنه سمع من الرسول أكثر من ذلك... سمع من الرسول ﷺ أنه قال: «حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة». لكن عمر روى ما سمع: (حتى يقولوا لا إله إلا الله). فقال أبو بكر: (والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة، الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا - يعني عقال بعير - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك). وهذا دليل على حزم أبي بكر مع أنه ألين من عمر، لكن في مواقف الشدة والضيق يكون أبو بكر أحزم من عمر.

نضرب لكم أمثلة منها هذا المثال: عمر رأى ألا يقاتل الناس لكن بعد مراجعة أبي بكر له، علم أنه الحق، لما رأى أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال وهو الخليفة من بعد الرسول عرف أنه الحق، إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يشرح صدر هذا الخليفة الراشد (أول خليفة في الأمة الإسلامية) إلا لحق^(١).

وفعلًا كان رأى أبي بكر في حرب المرتدين رأياً ملهماً، وهو الرأى الذى تمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأى موقف غيره سيكون فيه الفشل والضياع والهزيمة والرجوع إلى الجاهلية... ولولا الله ثم هذا القرار الحاسم من أبى بكر رضي الله عنه لتغير وجه التاريخ وتحولت مسيرته، ورجعت عقارب الساعة إلى الوراء، ولعادت الجاهلية تعيث في الأرض فساداً^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٢٤١-٢٤٢) بتصرف.

(٢) الشورى بين الأصالة والمعاصرة (ص ٨٦).

لقد سمع أبو بكر وجهات نظر الصحابة في حرب المرتدين، وما عزم على خوض الحرب إلا بعد أن سمع وجهات النظر بوضوح.. إلا أنه كان سريع القرار، حاسم الرأي، فلم يتردد لحظة واحدة بعد ظهور الصواب له، وعدم التردد كان سمة بارزة من سمات أبي بكر - هذا الخليفة العظيم - في حياته كلها^(١)، ولقد اقتنع المسلمون بصحة رأيه، ورجعوا إلى قوله واستصوبوه.

إن أبا بكر كان أنفذ بصيرة من جميع من حوله، لأنه فهم بإيمانه الذي فاق إيمانهم جميعاً: أن الزكاة لا تنفصل عن الشهادتين، فمن أقر الله بالوحدانية لا بد أن يقر له بما يفرض من حق في ماله الذي هو مال الله أصلاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢١٩) وعن أبي أيوب رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: «تعبُد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٣٣٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: «تعبُد الله ولا تُشرك به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتَصُومُ رمضان» قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا. فلما ولى، قال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا»^(٣).

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة (ص ٨٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٩٦) كتاب الزكاة - ومسلم (١٣) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٩٧) كتاب الزكاة - ومسلم (١٤) كتاب الإيمان.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٢١٥) ... فهو يصب في نفس المعنى وإن اختلفت الألفاظ.. إلا أنه ﷺ في الحديث الأول لما قال الرجل: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.. قال ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ».. وفي هذا الحديث لما قال الرجل: والذي نفسى بيده لا أزيد على هذا.. قال النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» فَالظَاهِرُ مِنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَلِمَ أَنَّهُ يُوفَى بِمَا التَّزَمَ وَأَنَّهُ يَدُومُ عَلَى ذَلِكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢١) وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٨٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢٢) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ، وَجَبِينُهُ، وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قيل: يا رَسُولَ اللَّهِ فالإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبِ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ

(١) مسلم بشرح النووي (١/٢٤٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧) كتاب الإيمان - ومسلم (٥٦) كتاب الإيمان.



حَقَّهَا، حَلَبُهَا يَوْمَ وَرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَطِخَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقَدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَوُّهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَعَصُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا، رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبَ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بَطِخَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ، لَا يَفْقَدُ مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ، وَلَا جَلْحَاءٌ، وَلَا عَضْبَاءٌ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا، وَتَطَوُّهُ بِأُظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا، رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْخَيْلُ؟ قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ وَزَرٌّ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وَزَرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ لَهُ وَزَرٌ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي ظُهُورِهَا، وَلَا رِقَابِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَرْجٍ، أَوْ رَوْضَةٍ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عِدَدُ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ، وَكُتِبَ لَهُ عِدَدُ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٌ، وَلَا تَقْطَعُ طَوْلَهَا فَاسْتَنْتَ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِدَدَ آثَارِهَا، وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ، وَلَا مَرَبَّهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِدَدًا مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْحُمْرُ؟ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ عَلَىَّ فِي الْحُمْرِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَازِدَةُ الْجَامِعَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٠٢) كتاب الزكاة - ومسلم (٩٨٧) كتاب الزكاة.
ومعنى القاع: المكان المستوي من الأرض الواسع - والقرقر: الأملس.

❁ إن من يتأمل في هذا الحديث يجده كالتفسير المفصل لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ❁ [التوبة: ٣٤-٣٥].
﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أى: يُمْسِكُونَهَا ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يُمْسِكَهَا عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات، أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أى: على أموالهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فَيُحْمَى كل دينار أو درهم على حذته.
﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة كلما بردت أُعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويُقال لهم توبيخًا ولومًا: ﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم، وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:
إما أن ينفقه في الباطل، الذي لا يُجدي عليه نفعًا، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تُعين على طاعة الله، وإخراجها للصدقة عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجهِ في الواجبات... والنهي عن الشيء، أمرٌ بضده^(١).

ويا له من مشهدٍ عظيم... والسؤال هنا لماذا اختار الله الجبهة والجنب والظهر دون سائر الجسد؟!

(١) تفسير السعدي (ص ٣٧٢).

والجواب عن ذلك: أن الفقير كان في الدنيا إذا ذهب إلى الغنى ليسأله أن يعطيه مما أعطاه الله فإن الغنى يعبس بجبهته في وجه الفقير فإذا تكرر السؤال من الفقير فإن الغنى يعطيه جانبه فإذا ازداد إلحاح الفقير فإن الغنى يعطيه ظهره!! فاختار الله عز وجل تلك المواطن الثلاثة التي أعرض بها الغنى عن الفقير لتُعذَّب بنفس أمواله بعد أن يُحمَى عليها في نار جهنم... وهذا ما أخبر عنه النبي ﷺ أيضًا حيث يقول: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي فيها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمى عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت عليه، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقَضَى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار».

✽ فالذهب والفضة تجب الزكاة في أعيانها في كل حال... فالزكاة واجبة في أعيان الذهب والفضة في كل حال سواء أعدها الإنسان للنفقة أو للزواج أو لشراء بيت يحتاج إلى سكناه أو شراء سيارة يحتاج إلى ركوها أو ادخرهما ليستكثر بهما المال أو غير ذلك... ففيهما الزكاة على كل حال حتى ذهب المرأة الذي تلبسه والفضة التي تلبسها تجب عليها الزكاة، تجب الزكاة فيها على كل حال... لكن لا بد من بلوغ النصاب وهو في الذهب خمسة وثمانون جرامًا، والفضة خمسمائة وخمسة وتسعون جرامًا... فإذا كان عند الإنسان من الفضة هذا المقدار ومن الذهب ذلك المقدار وجب عليه الزكاة على كل حال، فإن لم يفعل فجزأؤه ما ذكره النبي ﷺ: «إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار» لا من ذهب وفضة... بل من نار - والعياذ بالله - قطع نارية ويُحمى عليها في نار جهنم... ونار جهنم فضّلت على نار الدنيا كلها بتسعة وستين جزءًا. نسأل الله أن يُجيرنا وإياكم منها - يُحمى عليها في نار جهنم فيكوى به جنبه، يعنى الجنب الأيمن والأيسر، وجبينه: يعنى وجهه... وظهره: كلما بردت أعيدت لا تبقى حتى تبرد وتسكت عنه... كلما بردت أعيدت، في يوم كان مقداره خمسين

ألف سنة، ليس ساعة ولا ساعتين ولا شهرًا ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين... بل خمسون ألف سنة وهو يُعَذَّبُ هذا العذاب - والعياذ بالله - حتى يُقْضَى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. نسأل الله العافية^(١).

❁ قيل: يا رسول الله فالإبل؟ أى: قد عرفنا حكم النقيدين فما حكم الإبل؟ قال ﷺ: «ولا صاحب إبل لا يؤدّي منها حقّها» ثم وضح ما هو حقّها فقال ﷺ: «ومن حقّها، حلبها يوم وريدها».... «ومن» أى بعض «حقّها» المندوب.. وذكر ذلك استطرادًا وبيانًا لما ينبغى أن يعتنى به كل من كان له مروءة حتى وإن لم يكن فيه عذاب.. لأن العذاب لا يكون إلا بترك واجب أو فعل محرم.

«حلبها يوم وريدها» أى بأن تحلب يوم ورودها الماء.

وجرت العادة أنهم يحلبونها ويتصدقون بها على الحاضرين، هذا من حقّها؛ لأن الإبل روايا كبيرة، فيها ألبان، فإذا وردت الماء درّت، وإذا درت صار فيها فضل كبير من اللبن... فإذا جاء الفقراء يُوزّع عليهم.. هذا من حقّها.

«إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها» أى: طُرِحَ على وجهه.

قَالَ الْقَاضِي: قَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةِ اللَّبْحَارِيِّ يُخْبِطُ وَجْهَهُ بِأَخْفَافِهَا.. قَالَ: وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْبُطْحِ كَوْنُهُ عَلَى الْوَجْهِ وَإِنَّمَا هُوَ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْبَسْطِ وَالْمَدِّ.. فَقَدْ يَكُونُ عَلَى وَجْهِهِ وَقَدْ يَكُونُ عَلَى ظَهْرِهِ وَمِنْهُ سُمِّيَتْ بَطْحَاءَ مَكَّةَ لِانْبِسَاطِهَا^(٢).

«بُطِحَ لها بِقَاعٍ قَرَقِرٍ» أى: طُرِحَ على وجهه في صحراء واسعة مستوية بحيث لا يخفى عليها بل يكون مطروحًا على وجهه ظاهرًا لها.

«أو فر ما كانت» أى: أنها تكون أسمن ما كانت وذلك ليزداد ثقلها عليه عند وطئها له ومروورها عليه.

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٤٥-٢٤٦) بتصرف.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧/ ٩٠).

« لَا يَفْقَدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا » فكلها موجودة وجاهزة ومتأهبة لأن تطأه بأخفافها.

« تَطَوُّهُ بِأَخْفَافِهَا، وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا » فتظل تمر عليه وتطوؤه بأخفافها وتضرب بها وجهه وتزيده عذابًا بأن تظل تعضه بأفواهها.. فكلها تضربه بأرجلها وتعضه بأفواهها ولا تتركه واحدة منها أبدًا.. وهو يظل منبطحًا على وجهه يعاني من هذا العذاب « كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، رُدَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا » فيظلوا ذاهبين آيبين يضربونه ويعضونه ولا يتخلف منهم أحد أبدًا. ويظل حاله هكذا على تلك الحالة البئيسة لمدة خمسين ألف سنة حتى يقضى الله ﷻ بين العباد... وفي تلك اللحظة بعد خمسين ألف سنة يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار.

﴿ ثُمَّ ذَكَرَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ... قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ فَقَالَ ﷺ: وَلَا صَاحِبَ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ » أى: مما تجب فيه الزكاة بأن يكون نصابًا... بدليل قوله « لَا يُوَدَّى مِنْهَا حَقُّهَا » أى: الزكاة الواجبة فيها « إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ لَا يَفْقَدُ » أى: لا يعدم « مِنْهَا شَيْئًا لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ » هى ملتوية القرنين « وَلَا جُلْحَاءٌ » أى: لا قرن لها « وَلَا عَضْبَاءٌ » هى المكسورة القرن.

أى: أن قرونها فى غاية السلامة والقوة ليكون أوجع للمنطوح^(١).

« تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَوُّهُ بِأَظْلَافِهَا » الأظلاف للبقرة والغنم والظباء بمنزلة الخُفِّ للإبل... فالظلف المُنشَق من القوائم، والخُف للبعير، والقدم للآدمى، والحافر للفرس والبغل والحمار.

« كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ ».

قيل: يا رسول الله فالخيل؟... والخيل مؤنثة.. وقد سُميت خيلاً لا خيالتها

(١) دليل الفالحين (٤/١٦).

وهو إعجابها بنفسها مرحاً... ومنه يُقال اختال الرجل وبه خيلاء أى: كبر وإعجاب... والمسئول عنه وجوب الزكاة فيها «قال: الخيل ثلاثة» أى: لها أحكام غير ما مرّ... فلا زكاة فيها... هذا ما دلّ عليه السياق ويؤيده حديث «ليس على مسلم في عبده ولا فرسه زكاة»، فالتقدير على مذهب الشافعى: دَعِ السُّؤَالَ عن الوجوب، فليس فيها حَقٌّ واجب؛ ولكن سَلْ عن اقتنائها، وعما يرجع إلى صاحبها من النفع، أو المضرة... ثم قال: «هى لرجلٍ وزر» أى: إثم «وهى لرجلٍ ستر» أى: للحالة التى هو فيها من الفقر أو الضيق «وهى لرجلٍ أجر»^(١).

«فأما التى هى لَهُ وَزَرٌ فَرجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنَوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهى لَهُ وَزَرٌ».. فهذا الذى اقتنى الخيل رياءً وسُمةً وفخراً ومُعَاداةً لأهل الإسلام ليس له أجر في اقتنائها بل هى عليه وزرٌ.

«وأما التى هى لَهُ سِتْرٌ، فَرجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أى: أوقفها في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وليس للجهاد فحسب.. بل جعلها وقفاً لله يستعملها في مصالح المسلمين أو الجهاد في سبيل الله أو غير ذلك مما فيه طاعة له (جلّ وعلا).

وفي رواية أخرى: (فرجل ربطها تغنيًا وتعففًا) أى: استغناءً بتناجها وتعففًا به عن سؤال الناس عند حاجته إلى الركوب... وهذا أشبه بصنيع ذوى الهيئات وأخلاق أهل الكرم والمروءة... (ثم لم ينسَ حق الله في ظهورها) بأن يُزكّيها للطاعات وعند الحاجات ندبًا تارة ووجوبًا أخرى (ولا رقابها) بأن يتعهدا بما يُصلحها ويدفع ضررها (فهى له ستر) أى: حجاب يمنعه عن الحاجة للناس.

وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَقِّ فِي رِقَابِهَا الْإِحْسَانَ إِلَيْهَا وَالْقِيَامَ بِعَلْفِهَا وَسَائِرِ مُؤْنِهَا... وَالْمُرَادُ بِظُهُورِهَا إِطْرَاقُ فَحْلِهَا إِذَا طُلِبَتْ عَارِيَّتُهُ... وَهَذَا عَلَى النَّدْبِ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ حَقُّ اللَّهِ مِمَّا يُكْسَبُ مِنْ مَالِ الْعَدُوِّ عَلَى ظُهُورِهَا وَهُوَ

خُمْسُ الْغَنِيمَةِ^(١).

«لأهل الإسلام في مرج» أى: أرض ذات نبات ورعى «أو روضة» عطف خاص على عام.

«فَمَا أَكَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ أَوْ الرُّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كُتِبَ لَهُ عِدْدُ مَا أَكَلْتُ حَسَنَاتٌ» أى: كلما أكلت من تلك الأرض وذلك النبات كلما كثرت حسناته وزاد أجره وثوابه.

«وَكُتِبَ لَهُ عِدْدُ أَرْوَائِهَا وَأَبْوَالِهَا حَسَنَاتٌ» أى: يُكْتَبَ لَهُ مطلق «أَرْوَائِهَا وَأَبْوَالِهَا» باعتبار أن بذلك بقاء حياتها مع كون أصلها قبل الاستحالة مالا لمالكها. وفي ذكرهما غاية المبالغة؛ لأنهما إذا كُتِبَا مع استقذارهما فغيرهما أولى. «وَلَا تَقْطَعُ طَوْلَهَا» وهو حبلٌ طويلٌ يُشَدُّ طرفه في نحو وتد وطرفه الآخر في يد الفرس أو رجلها لتدور فيه وترعى من جوانبها وتذهب لوجهها. «فَاسْتَنْتَ» أى: عدت في مرجها لتوفر نشاطها «شَرْفًا أَوْ شَرْفِينَ» أى: طلقًا وطلقين.

قال التوربشتى: لأنها تعدو حتى تبلغ شرفًا من الأرض وهو ما يعلم منها فتقف عند ذلك وقفة ثم تعدو ما بدا لها... فعبر عن الطلق بالشرف، أو المراد تعدو إلى طرف المرج ثم تعود إلى محلها^(٢).

«إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِدْدَ آثَارِهَا، وَأَرْوَائِهَا حَسَنَاتٍ» فيكتب الله له عدد خطاها حسنات وعدد ما يخرج منها حسنات لأنه تشرف بربطها في سبيل الله لأهل الإسلام فله أجر كل ما تتلبس به من أكلٍ وشربٍ وروثٍ وحركة وسكونٍ ونومٍ. «وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا» يُحْتَمَلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ مَالِكُهَا، وَأَنْ يَرَادَ مَنْ صَاحَبَهَا وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ... وَإِذَا أَثِيبَ بِالمصاحبة فالمالك أولى بالثواب.

(١) مسلم بشرح النووي (٧/٩٢).

(٢) دليل الفالحين (٤/١٧-١٨) بتصرف.

«على نَهْرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ» أى: شربت من ذلك النهر.

«ولا يُريدُ أَنْ يَسْقِيَهَا إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِدَدَ مَا شَرِبَتْ حَسَنَاتٍ» وكتب له ذلك؛ لأنه نشأ عن فعله الذى هو إطعامها حتى احتاجت للشرب... وإذا أُثيب بما ذُكر من غير قصد السقى فمع قصده أولى.

أى أنه إذا أطعمها ثم أخذها لتحرك وترتاح من الموضع الذى تُربط فيه فمرَّ بها على نهرٍ فشربت.. فكل قطرة تشربها يكتبها الله له حسنات.

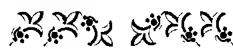
قيل: يا رسول الله فالحُمُرُ؟ قال: «ما أنزل علىَّ فى الحُمُرِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَاذَةُ الْجَامِعَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

أى: ما أنزل الله علىَّ فى تلك الحُمُرِ شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْفَاذَةُ الْمُنْفَرِدَةُ فى معناها الجامعة لأبواب البر.

وَمَعْنَى الْفَاذَةِ: الْقَلِيلَةُ النَّظِيرُ... وَالْجَامِعَةُ: أَى الْعَامَّةُ الْمُتَنَاوِلَةُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمَعْرُوفٍ... وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالْعُمُومِ... وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: لَمْ يَنْزِلْ عَلَى فِيهَا نَصٌّ بِعَيْنِهَا لَكِنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْعَامَّةُ (١).

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أى: زنة نملة صغيرة أو جزء من أجزاء الهباء ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ فإن كان مؤمناً رأى جزاءه فى الدارين، وإن كان كافراً ففى الدنيا وقد يُخفف عنه من عذاب الآخرة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ أى: باعتبار أصل الوعيد فى ترك الزكاة (٢).

فإن استعملت الحمير فى خيرٍ فهو خير، وإن استعملتها فى شرٍّ فهي شر.
والله أعلم.



(١) مسلم بشرح النووي (٧/٩٣).

(٢) دليل الفالحين (٤/١٨).

(٢١٧) باب وجوب صوم رمضان

وبيان فضل الصيام وما يتعلق به

❁ الصيام في اللغة معناه: الإمساك... ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]. أي: نذرت إمساكًا عن الكلام ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا﴾. ❁
 أما في الشرع: فهو التعبد لله تعالى بالإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

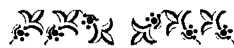
وصيام شهر رمضان فرض بنص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.
 قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. ❁ إلى قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. ❁
 وقال النبي ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ»^(١).
 وقال عليه الصلاة والسلام: «إِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا»^(٢)، وأجمع المسلمون على أن صيام رمضان فرض، وأنه أحد أركان الإسلام.

❁ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناداهم بلفظ الإيمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة ويذكى فيهم جذوة الإيمان ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي: فرض عليكم صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: كما فرض على الأمم قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١٨٢) أي: لتكونوا من المتقين لله المجتنبين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٠) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٨١) كتاب الصيام.

لمحارمه ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أى: والصيام أيامه معدودات وهى أيام قلائل، فلم يفرض عليكم الدهر كله تخفيفاً ورحمةً بكم ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أى: مَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ أَوْ كَانَ مُسَافِرًا فَأَفْطَرَ فَعَلِيهِ قِضَاءُ عِدَّةٍ مَا أَفْطَرَ مِنْ أَيَّامٍ غَيْرِهَا ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ أى: وعلى الذين يستطيعون صيامه مع المشقة لشيخوخةٍ أو ضعفٍ إذا أفطروا عليهم فدية بقدر طعام مسكين لكل يوم ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ أى: فمن زاد على القدر المذكور فى الفدية ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: والصوم خير لكم من الفطر والفدية إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي الصَّوْمِ مِنْ أَجْرٍ وَفَضِيلَةٍ... ثم بيّن تعالى وقت الصيام فقال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ أى: والأيام المعدودات التى فرضتها عليكم أيها المؤمنون هى شهر رمضان الذى ابتدأ فيه نزول القرآن حال كونه هداية للناس لما فيه من إرشاد وإعجاز وآيات واضحات تُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أى: مَنْ حَضَرَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أى: وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ مُسَافِرًا فَأَفْطَرَ فَعَلِيهِ صِيَامُ أَيَّامٍ أُخَرَ... وَكَرَّرَ لثَلَاثَتِهِمْ نَسْخَهُ بَعَمُومٍ لَفْظِ شَهْرِ الشُّهُودِ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أى: يريد الله بهذا الترخيص التيسير عليكم لا التعسير ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى: ولتكمّلوا عِدَّةَ شهر رمضان بقضاء ما أفطرتُم ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ ﴾ أى: ولتحمّدوا الله على ما أرشدكم إليه من معالم الدين ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: ولكي تشكروا الله على فضله وإحسانه^(١).



(١٢٢٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋَزَّوَجَلَّ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ. وَالصَّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرُفْثُ وَلَا يَصْحَبُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ. لِلصَّائِمِ فَرَحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»^(١).

وهذا لفظ رواية البخارى ... وفي رواية له: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ، مِنْ أَجْلِ، الصَّيَامِ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا».

وفي رواية لمسلم: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ: يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِ. لِلصَّائِمِ فَرَحَتَانِ: فَرَحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرَحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفٌ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

❖ قال ﷺ: «قال الله ﻋَزَّوَجَلَّ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ» والمعنى: أن الصيام قد اختصه الله ﻋَزَّوَجَلَّ لنفسه من بين سائر الأعمال لأنه سرٌّ بين العبد وربه.. ولأنه العبادة الوحيدة التي لا يتطرق إليها الرياء.

قال الإمام النووي رحمته الله: اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَاهُ مَعَ كَوْنِ جَمِيعِ الطَّاعَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى. فَقِيلَ: سَبَبُ إِضَافَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يُعْبَدَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ. فَلَمْ يُعْظَمِ الْكُفَّارُ فِي عَصْرِ مِنَ الْأَعْصَارِ مَعْبُودًا لَهُمْ بِالصَّيَامِ، وَإِنْ كَانُوا يُعْظَمُونَهُ بِصُورَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ وَالصَّدَقَةِ وَالذِّكْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَقِيلَ: لِأَنَّ الصَّوْمَ بَعِيدٌ مِنَ الرِّيَاءِ لِخَفَائِهِ بِخِلَافِ الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَالْغَزْوِ وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلصَّائِمِ وَنَفْسِهِ فِيهِ حَظٌّ... قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ. قَالَ: وَقِيلَ: إِنَّ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنِ الطَّعَامِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَتَقَرُّبُ الصَّائِمِ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِذِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

الصِّفَةِ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُشَبِّهُهَا شَيْءٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا الْمُنْفَرِدُ بِعِلْمِ مِقْدَارِ ثَوَابِهِ أَوْ تَضْعِيفِ حَسَنَاتِهِ ... وَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، أَظْهَرَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى مِقْدَارِ ثَوَابِهَا... وَقِيلَ: هِيَ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ نَاقَةٌ ﴾ مَعَ أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ لِلَّهِ تَعَالَى ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانٌ عَظِيمٌ فَضْلِ الصَّوْمِ وَالْحَثِّ إِلَيْهِ^(١).

✽ وقال بعض أهل العلم:

ومعناه: إذا كان الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .. وكان على الإنسان مظالم للعباد، فإنه يُؤْخَذُ للعباد من حسناته إلا الصيام، فإنه لا يُؤْخَذُ منه شيء، لأنه لله عَزَّوَجَلَّ وليس للإنسان ... وهذا معنى جيد، أن الصيام يتوفر أجره لصاحبه ولا يُؤْخَذُ منه لمظالم الخلق شيئاً.

ومنها: أن عمل ابن آدم يُزَادُ من حسنة إلى عشرة أمثالها، إلا الصوم، فإنه يُعْطَى أجره بغير حساب ... يعني: أنه يُضَاعَفُ أضْعَافًا كَثِيرَةً.

قال أهل العلم: ولأن الصوم اشتمل على أنواع الصبر الثلاثة، ففيه صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله.

أما الصبر على طاعة الله، فلأن الإنسان يحمل نفسه على الصيام مع كراهته له أحياناً... يكرهه لمشقته، لا لأن الله فَرَضَهُ.. بل لمشقته فيصبر عن الطعام والشراب والنكاح لله عَزَّوَجَلَّ... ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَتْرُكُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي».

النوع الثاني من أنواع الصبر: الصبر عن معصية الله، وهذا حاصل للصائم، فإنه يُصْبِرُ نفسه عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، فيتجنب اللغو والرفث والزور وغير ذلك من محارم الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، وذلك أن الإنسان يصيبه في أيام الصوم (ولا سيما في الأيام الحارة والطويلة) من الكسل والملل والعطش ما يتألم ويتأذى به، ولكنه صابر لأن ذلك في مرضاة الله.

فلما اشتمل على أنواع الصبر الثلاث كان أجره بغير حساب.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

قوله سبحانه وتعالى: «وأنا أجزي به» فلم يُحدد الجزاء والثواب.. وذلك لأن الصوم من الصبر.. وقد قال تعالى عن ثواب الصابرين: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١٠).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» بَيَانٌ لِعِظَمِ فَضْلِهِ وَكَثْرَةِ ثَوَابِهِ لِأَنَّ الْكَرِيمَ إِذَا أَخْبَرَ بِأَنَّهُ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ الْجَزَاءَ اقْتَضَى عِظَمَ قَدْرِ الْجَزَاءِ وَسَعَةَ الْعَطَاءِ.

وقوله ﷺ: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ»، وَمَعْنَاهُ سُرَّةٌ وَمَانِعٌ مِنَ الرَّفَثِ وَالْأَنَامِ وَمَانِعٌ أَيْضًا مِنَ النَّارِ وَمِنْهُ الْمَجَنُّ وَهُوَ التَّرْسُ وَمِنْهُ الْجِنُّ لَا سِتَارَ لَهُمْ^(٢).

«فإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب» يعنى: لا يقول قولاً يأتى به ولا يصخب فيتكلم بكلام صخب.. بل يكون وقوراً مطمئناً متأنياً، فإن سابه أحدٌ أو شاتمته فلا يرفع صوته عليه، بل يقول: إنى صائم.. يقول ذلك؛ لئلا يتعالى عليه الذى سابه.. كأنه يقول: أنا لست عاجزاً عن أن أقابلك بما سببتنى ولكنى صائم، يمنعنى صومى من الرد عليك، وعلى هذا فيقوله جهراً.

كذلك أيضاً إذا قال: (إنى صائم) يردع نفسه عن مقابلة هذا الذى سابه.

كأنه يقول لنفسه: (إنى صائم، فلا تزدى على هذا الذى سب) وهذا أيضاً معنى جليل عظيم... ولهذا كان النبى ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يُعجبه وخاف أن تتعلق

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/ ٢٥١).

(٢) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٣-٤٤) بتصرف.

نفسه بذلك، قال: «ليبك إن العيش عيش الآخرة». فالنفس مجبولة على محبة ما تميل إليه، فإذا رأى ما يعجبه من الدنيا فليقل: لبيك: يعنى إجابة لك يا رب.

«إن العيش عيش الآخرة» أما عيش الدنيا فزائل وفانٍ.

«والذى نفس محمدٍ بيده لخلوفُ فمِ الصائمِ أطيبُ عند الله من ريحِ المسكِ»

لأن تلك الرائحة إن كانت كريهة بالنسبة للبشر إلا أنها طيبة عند رب البشر لأنها خرجت من طاعة يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل... قَالَ الْقَاضِي: يُجَازِيهِ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَتَكُونُ نَكْهَتُهُ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ كَمَا أَنَّ دَمَ الشَّهِيدِ يَكُونُ رِيحُهُ رِيحَ الْمِسْكِ... وَقِيلَ يَحْصُلُ لَصَاحِبِهِ مِنَ الثَّوَابِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَحْصُلُ لِمُصَاحِبِ الْمِسْكِ... وَقِيلَ: رَائِحَتُهُ عِنْدَ مَلَائِكَةِ اللهِ تَعَالَى أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَتْ رَائِحَةُ الْخُلُوفِ عِنْدَنَا خِلَافَهُ^(١).

قال أبو حاتم: شعار المؤمنين في القيامة التحجيل بوضوئهم في الدنيا فرقاً بينهم وبين سائر الأمم... وشعارهم في القيامة بصومهم طيبُ خلوفهم أطيب من ريح المسك ليُعرفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل، نسأل الله بركة ذلك اليوم... قال مكحول: يُروَّح على أهل الجنة برائحة فيقولون: ربنا ما وجدنا ريحاً منذ دخلنا الجنة أطيب من هذا الريح.. فيقال: هذه رائحة أفواه الصائمين.

❁ «لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ» قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَمَّا فَرْحَتُهُ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ فَبِمَا يَرَاهُ مِنْ جَزَائِهِ وَتَذَكُّرِ نِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ بِتَوْفِيقِهِ لِذَلِكَ وَأَمَّا عِنْدَ فِطْرِهِ فَسَبَبُهَا تَمَامُ عِبَادَتِهِ وَسَلَامَتُهَا مِنَ الْمُفْسِدَاتِ وَمَا يَرْجُوهُ مِنْ ثَوَابِهَا^(٢).

قال العلامة ابن رجب: أما فرحة الصائم عند فطره، فإن النفوس مجبولة على الميل إلى ما يلائمها من مطعم ومشرب ومتكح... فإذا مُنعت من ذلك في وقتٍ

(١) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٣).

(٢) مسلم بشرح النووي (٨/ ٤٥).

من الأوقات ثم أُبيح لها في وقتٍ آخر فرحت بإباحة ما مُنعت منه خصوصاً عند اشتداد الحاجة إليه.

قال أبو العالية: الصائم في عبادة، وإن كان نائماً على فراشه.. فكانت حفصة تقول: يا حبذا عبادة وأنا نائمة على فراشي... فالصائم في ليله ونهاره في عبادة، ويُستجاب دعاؤه في صيامه وعند فطره، فهو في نهاره صائم وصابر وفي ليله طاعم شاكر.

وأما فرحه عند لقاء ربه: فبما يجده عند الله من ثواب الصيام مُدَّخراً فيجده أحوج ما كان إليه... كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ [المزمل: ٢٠].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ» قال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله ما على مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قال: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(١).

﴿مَنْ أَنْفَقَ زَوْجِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مَنْ أَنْفَقَ صَنَفَيْنِ.. مثل أن ينفق دراهم ودنانير.. دراهم وأمتعة.. فرساً وبعيراً.. طعاماً وشراباً.. كسوة وطعاماً.. وما أشبه ذلك.

والزوج يقع على الاثنين ويقع على الواحد.. وقيل: إنما يقع على الواحد إذا كان معه آخر، ويقع الزوج أيضاً على الصنف وفسر بقوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٩٧) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٢٧) كتاب الزكاة.

ثَلَاثَةٌ ﴿١﴾ وقيل: يحتمل أن يكون هذا الحديث في جميع أعمال البر من صلاتين أو صيام يومين... والمطلوب تشجيع صدقة بأخرى، والتنبيه على فضل الصدقة والنفقة في الطاعة والاستكثار منها.

«نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ» يعنى: أن الملائكة تدعوه من كل باب فتقول: هذا خير.. هذا خير.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قِيلَ مَعْنَاهُ لَكَ هُنَا خَيْرٌ وَثَوَابٌ وَغِبْطَةٌ... وَقِيلَ مَعْنَاهُ هَذَا الْبَابُ فِيمَا نَعْتَقِدُهُ خَيْرٌ لَكَ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَبْوَابِ لِكَثْرَةِ ثَوَابِهِ وَنَعِيمِهِ فَتَعَالَ فَادْخُلْ مِنْهُ... وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرٍ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ كُلَّ مُنَادٍ يَعْتَقِدُ ذَلِكَ الْبَابَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ.

«فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ مَنْ كَانَ الْعَالِبُ عَلَيْهِ فِي عَمَلِهِ وَطَاعَتِهِ ذَلِكَ^(١).

فليس المعنى أنه مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّيَامِ وَلَا يَصَلِّي فَإِنَّهُ سَيَدْخُلُ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ... كلا.. بل المقصود أنه يؤدى العبادات والفرائض كلها لكنه إن كان مُكَثِّرًا مِنَ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ.. وَإِنْ كَانَ مُكَثِّرًا مِنَ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ.. وَإِنْ كَانَ مُكَثِّرًا مِنَ الصَّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ.. وهكذا فهو يُدْعَى مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِالْعِبَادَةِ الَّتِي يُكَثِّرُ مِنْهَا.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ فِي صَاحِبِ الصَّوْمِ: «دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ» قَالَ الْعُلَمَاءُ: سُمِّيَ بَابُ الرِّيَّانِ تَنْبِيْهًُا عَلَى أَنَّ الْعَطْشَانَ بِالصَّوْمِ فِي الْهَوَاجِرِ سَيُرَوَّى وَعَاقِبَتُهُ إِلَيْهِ... وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّىِّ.

ولما حَدَّثَ النبي ﷺ بهذا الحديث، قال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما على مَنْ دُعِيَ من أحد هذه الأبواب من ضرورة؟ يعنى الذى يُدعى من بابٍ واحد لا يشق عليه، فهل يُدعى أحد من هذه الأبواب كلها؟! يعنى كل باب عليه ملائكة ينادون عليه، يا فلان... قال ﷺ: «نعم»، يعنى: ممكن أن يكون الإنسان كثير الصلاة كثير الصدقة، والجهاد، فيُدعى من الأبواب كلها؟ قال: نعم، وأرجو أن تكون منهم.

فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدعى من الأبواب الثمانية كلها؛ لأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَبَّاقٌ إِلَى الْخَيْرِ. وفي هذا الحديث منقبة لأبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه جواز الثناء على الإنسان في وجهه إذا لم يخف عليه فتنة بإعجابٍ وغيره. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢٥) وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرِّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ... يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فيقومون لا يدخل منه أحدٌ غيرهم، فإذا دخلوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن في الجنة باباً اسمه باب الريان.. وهو بابٌ من أبواب الجنة الثمانية... ولكنه بابٌ مخصوص للصائمين فلا يدخل منه أحدٌ غيرهم... فإنهم يأتون يوم القيامة فينادى عليهم: أين الصائمون؟ فيقومون ويدخلون الجنة من ذلك الباب فإذا دخلوا جميعاً أُغْلِقَ الباب فلم يدخل منه أحدٌ غيرهم.

فيالها من منقبة عظيمة لأهل الصيام.

❖ فتدبر يا أخى:

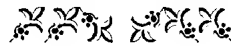
مُسمى الباب: «الريان» من الرى، والرى ضد الظمأ... مُسمى الباب يبعث على الرى، وأول الغيث قطرة... إِنَّ ذِكْرَ الْمَاءِ فِي الصَّحْرَاءِ يُقَلِّلُ مِنْ شِدَّةِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٩٦) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥٢) كتاب الصيام.

العطش، فما ظنك بالداخل؟!؟

هؤلاء الذين تشققت أشداقهم جوعاً في الدنيا، كيف يكون جزاؤهم من جنس عملهم، وقد قلصت شفاههم عن الأشرية، وضمرت بطونهم؟ قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. قال مجاهد وغيره: نزلت في الصائمين.

وعن بعض السلف قال: بلغنا أنه يُوضع للصائمين مائدة يأكلون عليها، والناس في الحساب... فيقولون: يا رب نحاسب وهم يأكلون، فيقال: إنهم طالما صاموا وأفطرتهم، وقاموا ونمتهم.



(١٢٢٦) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»^(١). ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن العبد إذا صام يوماً في سبيل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ فإن الله يُباعد بذلك اليوم نار جهنم عن وجهه سبعين سنة.. وقد اختلف العلماء في تفسير معنى ذلك الحديث.. فمنهم من قال: أن ذلك مُختص بمن يصوم وهو يجاهد في سبيل الله.. ومنهم من قال: بل هو عام في كل من صام نافلة يبتغى بذلك وجه الله.. وإن كان أفضلهم الذى يصوم ذلك اليوم وهو يجاهد في سبيل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.... لكن الواقع يشهد بأن الفطر أقوى للمجاهد على جهاده.. ولذا فالأرجح أنه عام في كل من صام نافلة يبتغى بذلك وجه الله تعالى.

قال الإمام النووى رحمته الله: فِيهِ فَضِيلَةُ الصَّيَامِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ لَا يَتَضَرَّرُ بِهِ وَلَا يُفَوِّتُ بِهِ حَقًّا وَلَا يَخْتَلُ بِهِ قِتَالُهُ وَلَا غَيْرُهُ مِنْ مُهِمَّاتِ غَزْوِهِ وَمَعْنَاهُ الْمُبَاعَدَةُ عَنِ النَّارِ وَالْمُعَافَاةُ مِنْهَا^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٤٠) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١١٥٣) كتاب الصيام.

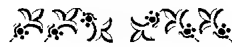
(٢) مسلم بشرح النووى (٤٧/٨).

وكنى عنها بالخريف؛ لأنه ألطف فصولها؛ لما فيه من اعتدال البرودة والحرارة؛ ولأنه يجري فيه الماء في الأغصان^(١).



(١٢٢٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث يحثنا النبي ﷺ على إخلاص النية لله ﻋَزَّوَجَلَّ وألا ننوى بصيامنا إلا وجه الله ﻋَزَّوَجَلَّ فقال ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ» أى: شهر رمضان «إِيمَانًا» أى: إيمانًا بالله وتصديقًا بما ورد فيه من الثواب «وَاحْتِسَابًا» بأن يريد بذلك وجه الله تعالى وحده ولا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص... فإن الثمرة والثواب لمن فعل ذلك «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».. والمقصود هنا مغفرة صغائر الذنوب.. وذلك لأن الكبائر تحتاج إلى التوبة... ولذا قال ﷺ فى حديث آخر يوضح ذلك: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»^(٣).



(١٢٢٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ، فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ»^(٤).
وفى رواية لمسلم: «فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ».

❁ وقال ﷺ: «إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ، وَمَرَدَةُ

(١) دليل الفالحين (٤/٢٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٧٦٠) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) كتاب الطهارة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٩٩) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٧٩) كتاب الصيام.

الجن، وُعِلَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، وَلِلَّهِ عِتْقَاءُ مِنَ النَّارِ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ^(١).

✽ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَاكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ، تُفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَتُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ، وَتُغْلَقُ فِيهِ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، لِلَّهِ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ^(٢)».

✽ فهذه الأشياء تحدث كلها في أول ليلة من شهر رمضان:

- (١) تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَلَا يُغْلَقُ مِنْهَا بَابٌ تَرْغِيًّا لِلصَّائِمِينَ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ.
- (٢) تُغْلَقُ أَبْوَابُ النَّارِ.. وَذَلِكَ لِقَلَّةِ الْمَعَاصِي فِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.
- (٣) تُصَفَّدُ الشَّيَاطِينُ.. أَيْ الْمَرَدَةُ مِنْهُمْ.. وَهُمْ أَشَدُّ الشَّيَاطِينِ عَدَوَانًا عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

- (٤) يَنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.
- (٥) لِلَّهِ عِتْقَاءُ مِنَ النَّارِ وَذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٢٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صُومُوا لِرُؤُوسِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤُوسِهِ، فَإِنْ غُبِيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ^(٣)».

وَفِي رَوَايَةٍ مُسْلَمٍ: «إِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَصُومُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا» أَيْ حَالِ بَيْنِكُمْ وَبَيْنَهُ غَيْمٌ. وَهَذَا فِيمَا إِذَا خَفِيَ وَلَمْ يَظْهَرْ هَلَالُ شَوَّالٍ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَتَى غُمَّ الْهَلَالُ لَيْلَةَ الثَّلَاثِينَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكْمَلَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا. (وَإِذَا لَمْ يَظْهَرْ الْهَلَالُ لَيْلَةَ الثَّلَاثِينَ مِنْ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ يَكْمَلُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا).

(١) حسن: رواه الترمذی وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وحسنه الألبانی فی صحیح الجامع (٧٥٩).

(٢) صحیح: رواه أحمد والنسائی، وصححه الألبانی فی صحیح الجامع (٥٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاری (١٩٠٩) کتاب الصوم - ومسلم (١٠٨١) کتاب الصیام.

(٢١٨) باب الجود وفعل المعروف

والإكثار من الخير في شهر رمضان

والزيادة من ذلك في العشر الأواخر منه

(١٢٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ، وَكَانَ جَبْرِيلُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ^(١).

✽ الجود: هو بذل المحبوب من مالٍ أو عمل... والإنسان يجود بماله فيعطى الفقير ويهدى إلى الغنى، ويواسى المحتاج. ويجود كذلك بعمله فيعين الإنسان في أموره: في سيارته، في دكانه، في بيته... فالجود هو بذل المال، أو العمل، وربما يدخل في ذلك أيضًا بذل الجاه، بأن يشفع لأحدٍ أو يتوسط له في جلب منفعة أو دفع مضرة، أو ما أشبه ذلك.

وكان النبي ﷺ أجود الناس بماله وبدنه وعلمه ودعوته ونصيحته، وكل ما ينفع الخلق، وكان أجود ما يكون في رمضان لأن رمضان شهر الجود.. يجود الله فيه على العباد... والعباد الموفقون يجودون على إخوانهم... والله -تعالى- جواد يحب الجود، وكان النبي ﷺ ينزل عليه جبريل في رمضان كل ليلة يدارسه القرآن من أجل أن يُثَبِّتَه في قلبه، وأن يُحَصِّلَ الثواب بالمُدْرَسَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَبْرِيلَ، وجبريل عليه السلام ينزل لكن على كيفية لا نعلمها؛ لأنه ملك من الملائكة، والملائكة لا يُروْنَ إلا إذا شاء الله ﻫُوَ... كان رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، أجود بالخير من الريح المُرْسَلَةِ... أي: أنه يسارع إلى الخير

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦) كتاب بدء الوحي - ومسلم (٢٣٠٨) كتاب الفضائل.

عليه الصلاة والسلام، ويجود به، حتى إنه أسرع من الريح المرسلة... يعنى: التى أرسلها الله ﷻ، فهى سريعة عاصفة، ومع ذلك فالرسول ﷺ أجود بالخير من هذه الريح فى رمضان^(١).

✽ بعض فوائد الحديث:

(١) أنه ﷺ كان أجود الناس على الإطلاق، لأن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أجود الناس)، فعلمنا أن أحدا لم يكن أجود منه.

(٢) عظيم جوده وبركته، وأنه يعمّ الناس جميعاً، مَنْ يتعرض له، ومَنْ لا يتعرض له، لأن ابن عباس رضي الله عنهما وصف الخير الذى يأتى منه، بأكثر من الخير الذى تأتى به الريح المرسلة.... والصحابة فى زمانهم ومكانهم، ما كانوا يعرفون شيئاً أشد خيراً من الريح، التى تأتى بالماء، رزق السماء، فيحيى الله به الأرض... وبدون الريح التى تأتى بالماء يموت كل شىء... وعلمنا من قول ابن عباس رضي الله عنهما: (فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة) أن جوده أشد خيراً من الريح من كل الوجوه.

(٣) تنوع عطاء وجود الرسول ﷺ لقول ابن عباس رضي الله عنهما: (أجود بالخير) ولم يحدد أنواع هذا الخير، فعلمنا أنه كان ﷺ هو الأجود فى كل أنواع الخير، فلم يقتصر جوده، على باب واحد من أبواب الخير، ولذلك فضّل جوده عن الريح المرسلة... ولا غرابة فى ذلك، فإذا كانت الريح تُحيى الأرض الميتة، وتُخرج النبات، فإن جوده ﷺ يحيى القلوب والعقول، وهذا أعظم نفعاً من إحياء الأرض.

يتفرع على ذلك: أن الخير الذى يمكن أن يبذله المسلم، لا ينحصر فى إنفاق المال، وأن الفقير لن يعجز أن يجود بالخير، لأن للخير أبواباً كثيرة، كبذل الجاه فى الشفاعة المحمودة والدعاء لعموم المسلمين وخاصتهم، وإعانة الضعيف،

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٥٥).

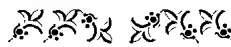
وتعليم الناس، وغير ذلك من أوجه الخير الكثيرة.

(٤) شكر الرسول ﷺ لربه، في إنزال القرآن عليه، وإرسال الروح الأمين ﷺ لمدارسته القرآن... وذلك لأن ابن عباس رضي الله عنه وضح أن سبب هذا الجود العظيم من النبي ﷺ أن جبريل كان يأتيه كل ليلة فيدارسه القرآن.. وأظن أن هذا الجود كان من باب شكر المُنعم.

ويتفرع على ذلك: ألا نلوم أهل الخير، إذا رأيناهم يجودون أكثر في رمضان، ولا نعتب عليهم أنهم لا يجودون بمثله سائر السنة، شريطة ألا يمتنع أصل جودهم طول السنة، اتباعاً لسنة النبي ﷺ الذي كان يجود طول العام.

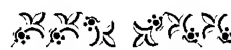
(٥) الخير الذي كان في الأرض طوال مدة بعثة النبي ﷺ انقطع بوفاة النبي ﷺ... وسبب هذا الخير هو اجتماع النبي ﷺ بجبريل عليه السلام كل ليلة من ليالي رمضان لمدارسة القرآن الكريم.

ويتفرع على ذلك أيضاً: أن أعظم ما ينبغي الاشتغال به في شهر رمضان المبارك، هو قراءة القرآن العظيم، وما يخدمه من علوم^(١).



(١٢٣١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشرُ أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشدَّ المِئزرَ^(٢).

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٠١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) شمائل الرسول ﷺ / (١/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٤) كتاب صلاة التراويح - ومسلم (١١٧٤) كتاب الاعتكاف.

(٢١٩) باب النهي عن تقدم رمضان بصومٍ بعد نصف شعبان

إلا لمن وصله بما قبله أو وافق عادة له

بأن كان عادته صوم الإثنين والخميس فوافقه

(١٢٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ، فَلْيَصُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ»^(١).

✽ لا يجوز للمسلم صوم يوم الثلاثاء من شعبان إلا أن يوافق صومه إياه صومًا كان يصومه... مثل مَنْ كان عادته صوم يوم الاثنين أو الخميس أو كان يصوم صيام داود ﷺ.. أي: يصوم يومًا ويفطر يومًا.. فوافق ذلك يوم الثلاثاء فله صومه مع أيام صامها من شعبان قبله.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا النهي: هل هو نهى تحريم أو نهى كراهة؟! والصحيح أنه نهى تحريم، لا سيما اليوم الذي يُشكُّ فيه. فإن عمار ابن ياسر رضي الله عنه قال: «مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يُشكُّ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه»^(٢).

(١٢٣٣) وعن ابن عباس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَصُومُوا قَبْلَ رَمَضَانَ، صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ، فَإِنْ حَالَتْ دُونَهُ غَيَاةٌ فَأَكْمِلُوا ثَلَاثِينَ يَوْمًا»^(٣).

✽ وعلى هذا فنقول: لا يجوز للإنسان أن يصوم قبل رمضان بيوم أو يومين إلا مَنْ له عادة، ولا يجوز أن يصوم يوم الشك، وهو يوم الثلاثاء من شعبان إذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩١٤) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٨٢) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في المشكاة (١٩١٨).

(٣) صحيح: رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٥٤).

«الغَيَاةُ» وهى: السَّحَابَةُ.

كان في الليلة غيم أو مطر يمنع من رؤية الهلال مُطلقاً ... لأن الرسول ﷺ قال: «صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٣٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَقِيَ نِصْفٌ مِنْ شَعْبَانَ فَلَا تَصُومُوا»^(١).

والنهي هنا للكرهية وليس للتحريم.. وهذا النهي لمن لم يكن له عادة بصوم النوافل طوال العام فقد نهاه النبي ﷺ عن الصيام في النصف الثاني من شعبان حتى لا يضعف عن صيام الفريضة (شهر رمضان) .. أما من كان له عادة بصوم النوافل فله أن يصوم بعد النصف من شعبان لكن عليه أن يتجنب صيام يوم الشك وهو يوم الثلاثين من شعبان.. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٣٥) وعن أبي اليقظان عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: مَنْ صَامَ الْيَوْمَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه^(٢).

وقد سبق الكلام عن هذا الحديث .. والمعنى أن من تعمد صيام يوم الشك وهو يوم الثلاثين من شعبان دون أن يكون له عادة من صيام نافلة فقد خالف أمر رسول الله ﷺ وعصاه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني في المشكاة (١٩١٨).

(٢٢٠) باب ما يقال عند رؤية الهلال

(١٢٣٦) عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ» ^(١).

✽ هكذا يوضح لنا النبي ﷺ أن يقول أحدنا عند رؤية الهلال هذا الذكر الذي ورد في الحديث .. فالذي أهله علينا هو الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.. ولولا الله ما أهلكنا هلال رمضان... فلنحمد الله على أن أطال أعمارنا حتى بلغنا هذا الشهر الكريم لنفوز برحمة الله وعفوه ومغفرته ولنفوز بالعتق من النيران ولنفور بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

وإذا كان الهلال قد أطاع ربه ﻋَزَّ وَجَلَّ وأهل علينا عندما أمره الله بذلك.. وكذلك أطاعت السماوات والأرض عندما أمرهما الله ﻋَزَّ وَجَلَّ وقال لهما ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ^(١١).. فإذا كان الكون كله أطاع ربه ﻋَزَّ وَجَلَّ فهل ستطيع ربك وتمتثل أوامره أم لا؟!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٢٦).



(٢٢١) باب فضل السحور وتأخيرهِ

ما لم يخشَ طلوع الفجر

✽ فلا بد من السحور ولو على شربة ماء فالسحور بركة.

(١٢٣٧) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَسَحَّرُوا، فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً»^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَهٌ، فَلَا تَدْعُوهُ، وَلَوْ أَنْ يَجْرَعَ أَحَدُكُمْ جَرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ»^(٢).

✽ فمن بركة السحور امثال أمر النبي ﷺ... وامثال أمر النبي ﷺ كله خير، كله أجر وثواب، ومن بركته أنه معونة على العبادة، فإنه يُعين الإنسان على الصيام، فإذا تَسَحَّرَ كفاه هذا السحور إلى غروب الشمس، مع أنه في أيام الإفطار يأكل في أول النهار، وفي وسط النهار وفي آخر النهار، ويشرب كثيراً، فيُنزل الله البركة في السحور... يكفيه من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس... ومن بركته، أنه يحصل به التفريق بين صيام المسلمين وصيام غير المسلمين.

لأن أهل الكتاب يصومون من نصف الليل فيأكلون قبل منتصف الليل، لا يأكلون في السَّحَر... أما المسلمون - والله الحمد - فيأكلون في السَّحَر، في آخر الليل. والتمييز بين المسلمين والكفار أمرٌ مطلوب في الشرع.

✽ ويُستحب تأخير السحور.

وذلك بأن يتسحر قبل الفجر بقليل ليكون عوناً على الصيام.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٢٣) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٩٥) كتاب الصيام.

(٢) حسن: رواه أحمد (١٢/٣)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٦٨٣).

قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مِنْ أَخْلَاقِ النَّبُوَّةِ: تَعْجِيلُ الْإِفْطَارِ وَتَأْخِيرُ السُّحُورِ وَوَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الشِّمَالِ فِي الصَّلَاةِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٣٨) وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ»، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسُّحُورِ؟ قَالَ: «قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً»^(٢).

(١٢٣٩) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُؤَذِّنَانِ: بِلَالٌ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ بِلَالًا يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ، فَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ» قَالَ: وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إِلَّا أَنْ يَنْزَلَ هَذَا وَيَرْقَى هَذَا»^(٣).

❦ وأما قوله في الرواية التي ساقها المؤلف: (ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويرقى هذا) فهذه مُدْرَجَةٌ فِي الْحَدِيثِ، شَاذَةٌ، لَيْسَتْ بِصَحِيحَةٍ؛ لِأَنَّ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا كَبِيرًا يَتَسَعُّ لِلْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالسُّحُورِ، فَهِيَ جُمْلَةٌ ضَعِيفَةٌ شَاذَةٌ، لَا عُمْدَةُ عَلَيْهَا.

وَقَدْ بَيَّنَّ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه حِينَما ذَكَرَ أَنَّهُ تَسَحَّرَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إِلَّا قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً... خَمْسُونَ آيَةً: مِنْ عَشْرِ دَقَائِقَ إِلَى رُبْعِ السَّاعَةِ، إِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ قِرَاءَةً مُرْتَلَةً أَوْ دُونَ ذَلِكَ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يُؤَخِّرُ السُّحُورَ تَأْخِيرًا بِالْغَا، وَعَلَى أَنَّهُ يَقْدَمُ صَلَاةَ الْفَجْرِ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٤٠) وَعَنْ عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَضْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحَرِ»^(٤).

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٣٠٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٢١) كتاب الصوم - مسلم (١٠٩٧) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٧) كتاب الأذان - مسلم (١٠٩٢) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٠٩٦) كتاب الصيام.

❖ أى إنه ينبغي للإنسان حين يتسحر أن يستحضر أنه يتسحر امتثالاً لأمر الله ورسوله، ويتسحر مخالفة لأهل الكتاب، وكُرهاً لما كانوا عليه، ويتسحر رجاء البركة في هذا السحور، ويتسحر استعانة به على طاعة الله، حتى يكون هذا السحور الذى يأكله خيراً وبركة وطاعة، والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٥٩) بتصرف.

(٢٢٢) باب فضل تعجيل الفطر وما يفطر عليه وما يقوله بعد إفطاره

(١٢٤١) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»^(١).

(١٢٤٢) وَعَنْ أَبِي عَطِيَّةٍ قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَمَسْرُوقٌ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ لَهَا مَسْرُوقٌ: رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ كِلَاهُمَا لَا يَأْلُو عَنِ الْخَيْرِ: أَحَدُهُمَا يُعَجِّلُ الْمَغْرِبَ وَالْإِفْطَارَ، وَالْآخَرُ يُؤَخِّرُ الْمَغْرِبَ وَالْإِفْطَارَ؟ فَقَالَتْ: مَنْ يُعَجِّلُ الْمَغْرِبَ وَالْإِفْطَارَ؟ قَالَ: عَبْدُ اللَّهِ - يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ - فَقَالَتْ: هَكَذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ^(٢).

✽ هنا يوضح النبي ﷺ فضل تعجيل الفطر من خلال السنة القولية والسنة الفعلية.

أما القولية فهي قوله ﷺ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ» أى أنه ما دام الناس يُبادرون إلى سنة النبي ﷺ ويتسابقون إلى الخير فهم بخير.
وأما الفعلية فتتضح في حديث أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما سألها أبو عطية ومسروق عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ أحدهما يؤخر الفطر، ويؤخر صلاة المغرب، والثاني يُعجل الفطر ويُعجل صلاة المغرب، أيهما أصوب؟! فقالت عائشة: (مَنْ هَذَا؟!) - أى الذى يُعجل - قالوا: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقالت: (هَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ). يعنى: يُعجل الفطر، ويُعجل صلاة المغرب... فهذه سنة فعلية، تدل على أن الأفضل تقديم الإفطار.

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (١٩٥٧) كتاب الصوم - ومسلم (١٠٩٨) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٩٩) كتاب الصيام - قوله: لا يألو: أى لا يُقصر فى الخير.

(١٢٤٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: أَحَبُّ عِبَادِي إِلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا»^(١).

❖ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بَابُ مَنْ أَفْطَرَ الصَّائِمَ

(١٢٤٤) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهْنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهْنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»^(٢).

❖ «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَهْنَا» أى: من جهة المشرق «وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَهْنَا» أى: من جهة المغرب.... والجمع بينهما للتأكيد وإلا فأحدهما يستلزم الثاني، «وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ» بأن غاب جميع قرصها، ولا يضر بعد تحقُّقه بقاء الشعاع، «فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» أى: صار مُفْطِرًا شرعًا، وإن لم يتناول شيئًا؛ لخروج وقت الصوم وهو النهار بذلك... وقيل: معناه دخل وقت إفطاره^(٣).

❖ قال الإمام النووي رحمته الله: قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ وَأَدْبَرَ النَّهَارُ وَغَابَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» مَعْنَاهُ: انْقَضَى صَوْمُهُ وَتَمَّ وَلَا يُوصَفُ الْآنَ بِأَنَّهُ صَائِمٌ فَإِنَّ غُرُوبَ الشَّمْسِ خَرَجَ النَّهَارُ وَدَخَلَ اللَّيْلُ، وَاللَّيْلُ لَيْسَ مَحَلًّا لِلصَّوْمِ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ يَتَضَمَّنُ الْآخَرَيْنِ وَيُلَازِمُهُمَا وَإِنَّمَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي وَادٍ وَنَحْوِهِ بَحِثٌ لَا يُشَاهِدُ غُرُوبَ الشَّمْسِ فَيَعْتَمِدُ إِقْبَالَ الظَّلَامِ وَإِدْبَارَ الضِّيَاءِ.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٤).

وفي قول الرسول ﷺ: «فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»... يعنى: وإن لم ينو الفطر... يعنى فقد انتهى صيامه، وأفطر حُكْمًا... وقال بعضهم: فقد أفطر، أى: فقد حلَّ له

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذى، وابن حبان، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٠٤١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٥٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٠٠) كتاب الصيام.

(٣) دليل الفالحين (٣٧/٤).

(٤) مسلم بشرح النووي (٢٩٥/٧) بتصرف.

الفِطْرُ. لكن لا شك أنك إذا نويت الفطر - إذا ما لم يكن عندك ما تأكله وتشربه - فهو أحسن وأفضل، حتى تكون مبادراً إلى الإفطار بالنية، لعدم القدرة على الأكل والشرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٤٥) وَعَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ صَائِمٌ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، قَالَ لِيَعْضِ الْقَوْمُ: «يَا فُلَانُ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أُمْسَيْتَ؟ قَالَ: «انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا» قَالَ: إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا، قَالَ: «انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا» قَالَ: فَتَنَزَّلَ فَجَدَحَ لَهُمْ فَشَرِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَهُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» وَأَشَارَ بِيَدِهِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ ^(١).

❦ ففي هذا الحديث يحكى عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو صائم.. فلما غربت الشمس قال النبي ﷺ لواحدٍ من القوم: «يَا فُلَانُ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا» أى: اخلط لنا السويق بالماء وحرّكه حتى يستوى... فقال الرجل: يا رسول الله لو أُمْسَيْتَ؟ أى: لو تأخرت حتى يدخل المساء.

فكرر النبي ﷺ الكلمة مرة أخرى وقال له: «انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا» فقال الرجل: إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا... أى أنه ظن أنه بقى وقت من النهار ولم يَحِنْ وقت الإفطار.

فقال النبي ﷺ للمرة الثالثة: «انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا» فنزل الرجل فجدح لهم وخلط السويق بالماء حتى استوى ثم قدّمه للنبي ﷺ فشرب رسول الله ﷺ ثم قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَهُنَا، - وَأَشَارَ بِيَدِهِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ - فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»...

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَانُوا صِيَامًا وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي رِوَايَةِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى فَلَمَّا

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٤١)، (١٩٥٥) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠١) كتاب الصيام.

قَوْلُهُ فَاجْدَحْ لَنَا: أى: اخلط السويق بالماء.

غَرَبَتِ الشَّمْسُ أَمْرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَدْحِ لِيُفْطِرُوا فَرَأَى الْمُخَاطَبُ أَثَارَ الضِّيَاءِ وَالْحُمْرَةِ الَّتِي بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَظَنَّ أَنَّ الْفِطْرَ لَا يَحِلُّ إِلَّا بَعْدَ ذَهَابِ ذَلِكَ وَاحْتِمَلْ عِنْدَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرَهَا فَأَرَادَ تَذْكِيرَهُ وَإِعْلَامَهُ بِذَلِكَ وَيُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ: إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا لِيَتَوَهَّمِ أَنَّ ذَلِكَ الضُّوءَ مِنَ النَّهَارِ الَّذِي يَجِبُ صَوْمُهُ وَهُوَ مَعْنَى لَوْ أُمْسِيَتْ أَيْ تَأَخَّرَتْ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسَاءُ ... وَتَكَرَّرُهُ الْمُرَاجَعَةُ لِعَلْبَةِ اعْتِقَادِهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ نَهَارٌ يَحْرُمُ فِيهِ الْأَكْلُ مَعَ تَجْوِيزِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الضُّوءِ نَظْرًا تَامًّا فَقَصَدَ زِيَادَةَ الْإِعْلَامِ بِبَقَاءِ الضُّوءِ ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ وَتَفْضِيلُهُ عَلَى الْفِطْرِ لِمَنْ لَا تَلَحُّقُهُ بِالصَّوْمِ مَشَقَّةٌ ظَاهِرَةٌ.

وَفِيهِ بَيَانُ انْقِضَاءِ الصَّوْمِ بِمُجَرَّدِ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَاسْتِحْبَابُ تَعْجِيلِ الْفِطْرِ وَتَذْكِيرُ الْعَالِمِ مَا يُخَافُ أَنْ يَكُونَ نَسِيَهُ وَأَنَّ الْفِطْرَ عَلَى التَّمَرِّ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ لَوْ تَرَكَهُ جَازَ وَأَنَّ الْأَفْضَلَ بَعْدَهُ الْفِطْرُ عَلَى الْمَاءِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٤٦) وَعَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ الضَّبِّيِّ الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمَرٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ، فَلْيُفْطِرْ عَلَى مَاءٍ فَإِنَّهُ طَهُورٌ»^(٢).
❀ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

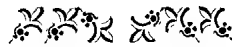
(١٢٤٧) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رُطَبَاتٍ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ فُتْمِيرَاتٌ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فُتْمِيرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ^(٣).
❀ وهنا يوضح النبي ﷺ لنا أفضل ما نفطر عليه.. فجعل أفضل شيء أن

(١) مسلم بشرح النووي (٧/ ٢٩٦-٢٩٧) بتصرف.

(٢) ضعيف: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٨٩).

(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٩٥).

تُفطر على رُطَبٍ فإن لم نجد فالتمر فإن لم نجد فالماء.
 وذلك لأنك إذا ملأت المعدة بعد يومٍ طويلٍ من الصيام فإن هذا قد يسبب
 لك ضررًا شديدًا على المعدة وعلى الصحة بشكلٍ عام.
 فينبغي إذا سمعت أذان المغرب أن تفطر على شيءٍ من الرُّطَبِ فإن لم تجد
 فتفطر على بعض التمرات فإن لم تجد فتفطر على شيءٍ من الماء.
 ❁ وإنما قدّم الرطب والتمر؛ لأنه أنفع للبدن من الماء، لأنه حلوى وغذاء،
 وقوة... وقد قال أهل الطب: (إن الحلاوة التي في التمر هي أسرع شيءٍ يتقبله
 الجسم من أنواع الحلوى، وإنما تسرى إلى العروق فورًا). وهذا من حكمة الله
 عزّ وجلّ... فهذا الذي ينبغي أن تفطر عليه: رُطَبٌ، فإن لم تجد فتمر، فإن لم تجد
 فماء.



(٢٢٣) باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه

عن المخالفات والمشاتمة ونحوها

(١٢٤٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَرُفْثُ وَلَا يَصْخَبُ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ»^(١).

❦ فالله ﷻ فرض علينا الصيام من أجل أن نصل إلى مرتبة التقوى فنجعل بيننا وبين غضبه وعذابه وقاية وحاجزاً منيعاً.. وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ❦ أى: من أجل أن تتقوا الله ﷻ وتجتنبوا محارمه.

فالصيام مدرسة ربانية يتعلم فيها العبد المسلم الطريق إلى التقوى ويتعود فيها على القيام بالواجبات وترك المحرمات من خلال تربية عملية لمدة شهر كامل يترك فيها العبد طعامه وشرابه وشهوته من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طاعة لله (جل وعلا) ليصل في نهاية الشهر إلى أن يصبح إنساناً تقياً.

ولهذا بين الله الحكمة من ذلك بأنها التقوى.. وقال النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرُفْثُ، وَلَا يَفْسُقُ» يعنى: لا يفعل فعلاً محرماً ولا يقول قولاً محرماً، «إِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ» يعنى: صار يعيبه ويشتمه. «أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ» حتى يدفع عن نفسه العجز عن المدافعة ويبين لصاحبه أنه لولا الصيام لقابلتك بمثل ما فعلت بى، فيبقى عزيزاً لا ذليلاً.

❦ قال الإمام النووي رحمته الله: فِي قَوْلِهِ ﷺ: «فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ» اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ فَقِيلَ: يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ جَهْرًا يَسْمَعُهُ الشَّامِتُ وَالْمُقَاتِلُ فَيَنْزَجِرَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

غَالِبًا، وَقِيلَ: لَا يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ بَلْ يُحَدِّثُ بِهِ نَفْسُهُ لِيُمْنَعَهَا مِنْ مُشَاتَمَتِهِ وَمُقَاتَلَتِهِ وَمُقَابَلَتِهِ وَيَحْرِصُ صَوْمَهُ عَنِ الْمَكْدَرَاتِ .. وَلَوْ جَمَعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ كَانَ حَسَنًا وَاعْلَمْ أَنَّ نَهْيَ الصَّائِمِ عَنِ الرَّفَثِ وَالْجَهْلِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِهِ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِثْلُهُ فِي أَصْلِ النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ لَكِنَّ الصَّائِمَ أَكْدُ .. وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٤٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(٢).

❁ قَالَ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ» أَيْ: مَنْ لَمْ يَتْرِكِ الْكَذِبَ وَقَوْلَ الْمُحَرَّمِ «وَالْعَمَلَ بِهِ» أَيْ وَالْعَمَلَ بِالْمَحْرَمِ... «وَالْجَهْلَ» كَمَا فِي الرَّوَايَةِ الْآخَرَى... يَعْنِي: الْعَدُوَانِ عَلَى النَّاسِ.. «فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ» وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَوْجِبَ الصِّيَامَ لَغَايَةِ عَظِيمَةٍ أَوْ هِيَ الْوَصُولُ إِلَى التَّقْوَى بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ.

قَالَ ابْنُ بَطَالٍ: لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُؤْمَرُ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ التَّحْذِيرُ مِنْ قَوْلِ الزُّورِ وَمَا مَعَهُ... وَقَوْلُهُ (حَاجَةٌ) أَيْ: إِرَادَةٌ فِي صِيَامِهِ، إِذْ اللَّهُ تَعَالَى لَا حَاجَةَ لَهُ فِي شَيْءٍ... وَقِيلَ: هُوَ كُنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الْقَبُولِ، كَمَا يَقُولُ مَنْ غَضِبَ عَلَى مَنْ أَهْدَى لَهُ شَيْئًا... لَا حَاجَةَ لِي فِي هَدِيَّتِكَ، أَيْ: هِيَ مُرَدُّودَةٌ عَلَيْكَ... وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: إِنْ مَقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثُ، أَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا ذَكَرَ لَا يُثَابَ عَلَى صَوْمِهِ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (٤١/٨).

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٩٠٣) كتاب الصوم.

(٣) دليل الفالحين (٤١/٤) بتصرف.

(٢٢٤) باب في مسائل من الصوم

(١٢٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا نَسِيَ أَحَدُكُمْ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلَيْتَمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ» ^(١).

✽ فإذا أكلت أو شربت ولو شبت ورويت، وأنت ناسٍ في الصيام، فإن صومك كامل، ليس فيه نقص .. ولهذا قال: «فلَيْتَمَّ صومه» ... وفي قوله: «فإنما أطعمه الله وسقاه» دليل على أن فعل الناسي لا يُنسب إليه، وإنما يُنسب إلى الله، وكذلك النائم لا يُنسب فعله إلى نفسه، وإنما يُنسب إلى الله.

كما قال الله - تعالى - في أصحاب الكهف ﴿وَنُقِلُّهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨] والذي يتقلب هو النائم، ولكن لما لم يكن له قصد نَسْبِ الله الفعل إليه... كذلك الناسي لم يتعمد فساد الصوم... نسي فأكل وشرب، فنقول له: صومك صحيح، وكذلك لو كان جاهلاً، مثل أن يحتجم وهو لا يدري أن الحجامَة تُفطر، فصومه صحيح... ومثل أن يأكل وهو يظن أن الفجر لم يطلع، ثم تبين أنه طالع، فصومه صحيح... ومثل أن يأكل وهو يظن أن الشمس قد غربت، فأكل ثم تبين أن الشمس لم تغرب، فصيامه صحيح.

وقد وقعت هذه المسألة في عهد النبي ﷺ حينما كان الناس صائمين في يوم غيم، فأفطروا ظناً منهم أن الشمس قد غابت، ثم طلعت الشمس، ولم يأمرهم النبي ﷺ بقضاء الصوم؛ لأنهم لا يدرون، ولم يتعمدوا... ولكن متى ذكر الإنسان وجب عليه التَّرك والإمساك، حتى لو كانت اللقمة في فمه وجب عليه لَفْظُهَا، وكذلك لو كان الماء في فمه، وجب عليه أن يُريقه، وكذلك لو كان جاهلاً ثم أُخبر فإنه يجب عليه أن يُمسك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٣٣) كتاب الصوم - ومسلم (١١٥٥) كتاب الصيام.

فالنسيان لا يؤاخذ به المرء في فعل محظور... لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقال الله تعالى: قد فعلت.

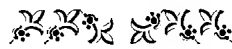
أما مَنْ رآه فإنه يجب عليه أن يذكره؛ لأن هذا من تغيير المنكر... وقد قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»^(١) ولا ريب أن أكل الصائم وشربه حال صيامه من المنكر، ولكنه يُعْفَى عنه حال النسيان لعدم المؤاخذه، أما مَنْ رآه فإنه لا عذر له في ترك الإنكار عليه.

لأن أخاك إذا عذر بالنسيان وأنت علمت به، وجب عليك أن تذكره.

ولهذا قال النبي ﷺ في الصلاة: «إِذَا نَسِيتَ فَذَكِّرْ نَفْسَكَ»^(٢) فأمر أن يُذَكَّرَ إذا نسى.

كذلك أيضًا إذا رأيت صائمًا يأكل ويشرب ناسيًا فذكره، كما لو رأيت إنسانًا يصلي مُنْحَرَفًا عن القبلة، وجب عليك أن تخبره.

فالمهم أنه إذا وقع أخوك في شيء لا يحل له، فعليك أن تذكره؛ لأن النسيان كثير والخطأ كثير.



(١٢٥١) وعن لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ؟ قَالَ: «أَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَخَلِّلْ بَيْنَ الْأَصَابِعِ، وَبَالَغْ فِي الِاسْتِنْشَاقِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا»^(٣).

✽ أسبغ الوضوء: يعني توضع وضوءًا سابغًا كاملاً... والإسباغ: بمعنى الإتمام

قال تعالى: ﴿وَأَسْبِغْ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: أكملها... والثاني «وخلل بين الأصابع» ولا سيما أصابع الرجلين... خلل بينهما بالماء، لأن أصابع الرجلين متلاصقة، وربما لا يدخل الماء من بينها، «وبالغ في الاستنشاق» يعني: استنشاق

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠١) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٧٢) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٢٧).

الماء عند الوضوء، «إلا أن تكون صائماً» فلا تبالغ في الاستنشاق لأنك إذا بالغت في الاستنشاق دخل الماء إلى جوفك من طريق الأنف.. فدل ذلك على أن وصول الأكل أو الشرب عن طريق الأنف كوصوله عن طريق الفم، يُفطر الصائم، وأما الإبر التي تكون في الوريد أو تكون في اليد، أو تكون في الظهر، أو في أى مكان فإنه لا يُفطر الصائم... إلا الإبر المغذية التي يستغنى بها عن الأكل والشرب، فهذه تُفطر الصائم، ولا يحل له إذا كان صومه فرضاً أن يستعملها إلا عند الحاجة، وعند الضرورة فإذا اضطر إلى ذلك أفطر، واستعمل الإبر، وقضى يوماً مكانه^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٥٢) وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يُدركه الفجر وهو جنبٌ من أهله، ثم يغتسل ويصوم^(٢).

(١٢٥٣) وعن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يُصبح جنباً من غير حلم، ثم يصوم^(٣).

❦ ففي هذين الحديثين تخبر عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان أحياناً يُصبح جنباً فينوي الصوم ثم يغتسل.. أى أنه ﷺ كان إذا أتى زوجته قبل الفجر فإنه كان يستحضر نية الصوم ثم يغتسل.. وهذا يدل على أنه يجوز للجنب أن ينوي الصوم وإن لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر كما كان النبي ﷺ يفعل أحياناً ولكن بشرط أن تكون الجنابة قد وقعت قبل الفجر وليس بعده.. وهذا دليل على أن أفعال النبي ﷺ حجة يُحتج بها ولا يُقال أن هذا من خصائصه ﷺ.. وذلك لأن الأصل عدم الخصوصية إلا أن يكون هناك دليل على ذلك... لأنه ﷺ هو الأسوة والقُدوة لأُمَّته.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمته الله (٣/ ٢٦٣-٢٦٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٢٥، ١٩٢٦) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٩) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٣٠، ١٩٣٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٩) كتاب الصيام.

(٢٢٥) باب بيان فضل صوم المحرم

وشعبان والأشهر الحرم

(١٢٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان: شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١١٧٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٢٥٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبان كله.

وفي رواية: كان يصوم شعبان إلا قليلاً^(٢).

✽ وفي رواية: عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وما رأيته رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا رمضان وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان»^(٣).

✽ وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان، قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٣) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٠) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٦) (١٧٦) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٩) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٦) (١٧٥) كتاب الصيام.

(٤) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٢٢).

❖ الصيام في شهر شعبان سنة والإكثار منه سنة... حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيته ﷺ أكثر صياماً منه في شعبان» فينبغي الإكثار من الصيام في شهر شعبان لهذا الحديث.

قال أهل العلم: وصوم شعبان مثل السنن الرواتب بالنسبة للصلوات المكتوبة، ويكون كأنه مقدمة لشهر رمضان... أى: كأنه راتب لشهر رمضان، ولذلك سنّ الصيام في شهر شعبان، وسنّ الصيام ستة أيام من شهر شوال كالراتبة قبل المكتوبة وبعدها... وفي الصيام في شعبان فائدة أخرى وهى توطئ النفس وتهيتها للصيام؛ لتكون مستعدة لصيام رمضان سهلاً عليها أداؤه^(١).

❖ قال الإمام النووي رحمته الله:

قَوْلُهَا: (كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ ، كَانَ يَصُومُهُ إِلَّا قَلِيلًا) الثَّانِي تَفْسِيرٌ لِلأَوَّلِ ، وَيَبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهَا «كُلَّهُ» أَيْ : غَالِبُهُ. اهـ.

فهذا الحديث يدل على جواز الصيام بعد نصف شعبان، ولكن لمن وصله بما قبل النصف.

❖ وسُئِلَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ رحمته الله عَنْ حَدِيثِ النَّهْيِ عَنِ الصَّيَامِ بَعْدَ نِصْفِ شَعْبَانَ فَقَالَ: هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ كَمَا قَالَ الْأَخُ الْعَلَامَةُ الشَّيْخُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيُّ... وَالْمُرَادُ بِهِ النَّهْيُ عَنِ ابْتِدَاءِ الصَّوْمِ بَعْدَ النِّصْفِ، أَمَّا مَنْ صَامَ أَكْثَرَ الشَّهْرِ أَوْ الشَّهْرَ كُلَّهُ فَقَدْ أَصَابَ السُّنَّةَ^(٢). اهـ.

وخلاصة الجواب: أنه يُنْهَى عَنِ الصَّيَامِ فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنْ شَعْبَانَ إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْكَرَاهَةِ أَوْ التَّحْرِيمِ، إِلَّا لِمَنْ لَهُ عَادَةٌ بِالصَّيَامِ، أَوْ وَصَلَ الصَّيَامَ بِمَا قَبْلَ النِّصْفِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين رحمته الله (٢٠/٢٢، ٢٣).

(٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز رحمته الله (١٥/٣٨٥).

والحكمة من هذا النهى أن تتابع الصيام قد يُضعف عن صيام رمضان.
فإن قيل: وإذا صام من أول الشهر فهو أشد ضعفاً!
فالجواب: أن من صام من أول شعبان يكون قد اعتاد على الصيام، فتقل
عليه مشقة الصيام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٥٦) وعن مُجِيبَةِ الْبَاهِلِيَّةِ عَنْ أَبِيهَا أَوْ عَمَّهَا، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ
انْطَلَقَ فَاتَّاهُ بَعْدَ سَنَةٍ، وَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَالُهُ وَهَيْئَتُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا تَعْرِفُنِي؟ قَالَ:
« وَمَنْ أَنْتَ؟ » قَالَ: أَنَا الْبَاهِلِيُّ الَّذِي جِئْتُكَ عَامَ الْأَوَّلِ. قَالَ: « فَمَا غَيَّرَكَ، وَقَدْ كُنْتَ
حَسَنَ الْهَيْئَةِ؟ » قَالَ: مَا أَكَلْتُ طَعَامًا مِنْذُ فَارَقْتُكَ إِلَّا بَلِيلٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
« عَذَّبْتَ نَفْسَكَ » ثُمَّ قَالَ: « صُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ، وَيَوْمًا مِنْ كُلِّ شَهْرٍ » قَالَ: زِدْنِي، فَإِنَّ بِي
قُوَّةً، قَالَ: « صُمْ يَوْمَيْنِ » قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: « صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » قَالَ: زِدْنِي، قَالَ: « صُمْ
مِنَ الْحَرَمِ وَاتْرُكْ، صُمْ مِنَ الْحَرَمِ وَاتْرُكْ، صُمْ مِنَ الْحَرَمِ وَاتْرُكْ » وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ
الثَّلَاثِ فَضَمَّهَا، ثُمَّ أَرْسَلَهَا^(١).

❦ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٩١).
و«شهرُ الصَّبْرِ»: رمضان

(٢٢٦) باب فضل الصوم وغيره

في العشر الأول من ذي الحجة

(١٢٥٧) عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ» يَعْنِي: أَيَّامَ الْعَشْرِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ، وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(١).

✽ ففى هذا دليل: على فضيلة العمل الصالح فى أيام العشر الأولى من شهر ذى الحجة، من صيام وغيره... وفيه دليل أيضاً على أن الجهاد من أفضل الأعمال، ولهذا قال الصحابة: (ولا الجهاد فى سبيل الله؟!). وفيه دليل على فضيلة هذه الحالة النادرة أن يخرج الإنسان مجاهداً فى سبيل الله بنفسه وماله... وماله يعنى: سلاحه ومركوبه، ثم يقتل، ويؤخذ سلاحه ومركوبه... يأخذه العدو، فهذا فقد نفسه وماله فى سبيل الله، فهو من أفضل المجاهدين، فهذا أفضل من العمل الصالح فى أيام العشر، وإذا وقع هذا العمل فى أيام العشر تضاعف فضله.

✽ وقد ذكر النبى ﷺ فى هذا الحديث «العمل الصالح» ولم يحدد الصيام... وفى هذا دليل على أن المسلم يستحب له فى هذه الأيام الصيام والقيام وقراءة القرآن والصدقة والذكر والاستغفار وصلة الأرحام وغيرها من العمل الصالح... ويدخل فيها الصيام من باب أولى لأنه من أحب العبادات إلى الله (جل وعلا) كما قال تعالى: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصَّيَّامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزَى بِهِ...»^(٢).

(١) صحيح: رواه البخارى (٩٦٩) كتاب الجمعة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٩٠٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥١) كتاب الصيام.

(٢٢٧) باب فضل صوم يوم عرفة

وعاشوراء وتاسوعاء

(١٢٥٨) عن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة؟ قال: «يُكَفِّرُ السَّنةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ»^(١).

✽ يُسْتَحَبُّ صَوْمُ يَوْمِ عَرَفَةَ لِغَيْرِ الْحَاجِّ.. أَمَّا الْحَاجُّ فَلَا يُسَنُّ لَهُ صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَفْطَرَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ.. وَلِأَنَّهُ أَقْوَى لِلْحَاجِّ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

وقد أخبر النبي ﷺ أَنَّ صِيَامَهُ يَكُونُ سَبَبًا فِي تَكْفِيرِ ذُنُوبِ سَنَتَيْنِ: السَّنةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنةَ الَّتِي بَعْدَهُ.

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رحمته الله: مَعْنَاهُ يُكَفِّرُ ذُنُوبَ صَائِمِهِ فِي السَّنَتَيْنِ... قَالُوا: وَالْمُرَادُ بِهَا الصَّغَائِرُ وَسَبَقَ بَيَانُ مِثْلِ هَذَا فِي تَكْفِيرِ الْخَطَايَا بِالْوُضُوءِ وَذَكَرْنَا هُنَا أَنَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ صَغَائِرٌ يُرْجَى التَّخْفِيفُ مِنَ الْكِبَائِرِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُفِعَتْ دَرَجَاتٌ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٥٩) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ^(٣).

(١٢٦٠) وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «يُكَفِّرُ السَّنةَ الْمَاضِيَةَ»^(٤).

(١٢٦١) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧٣/٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٠٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٣٠) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام.

لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ»^(١).

✽ فمن الأيام التى يُسَنُّ فيها الصيام - صيام عاشوراء ومعه يومٌ قبله - وأخبر النبى ﷺ أن صيامه يُكفِّر السنة الماضية كلها... أى يُكفِّر الصغائر.. وذلك لأن الكبائر تحتاج إلى توبة مُستقلة وحدها.

✽ فصيامه يُكفِّر السنة الماضية فهو أقل أجراً من صوم يوم عرفة، ومع ذلك ينبغي أن يصوم مع عاشوراء تاسوعاء؛ لأن النبى ﷺ قال: «لَسِنُ بَقِيَّتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ» يعنى: مع العاشر.

ولأنه أمر أن يُصام يوماً قبله أو يوماً بعده؛ مخالفة لليهود.. لأن يوم عاشوراء - العاشر من المحرم - هو اليوم الذى أنجى الله فيه موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه، فكان اليهود يصومونه شكراً لله على هذه النعمة العظيمة؛ أن الله أنجى جُنده، وهزم جند الشيطان. أنجى موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه، فهو نعمة عظيمة... ولهذا لما قَدِمَ النبى ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا يوم أنجى الله موسى وقومه، وأهلك فرعون وقومه فنصومه شكراً لله، فقال: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ»^(٢). لماذا؟ لأن النبى والذين معه أَوْلَى الناس بالأنبياء السابقين، ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فرسول الله ﷺ أحق بموسى من اليهود، لأن اليهود كفروا به، وكفروا بعبسى، وكفروا بمحمد، فصامه ﷺ وأمر الناس بصيامه، إلا أنه أمر أن يخالفوا اليهود الذين لا يصومون إلا يوم العاشر، كأن نصوم التاسع، أو الحادى عشر، مع العاشر، أو الثلاثة.

✽ ولهذا ذكر بعض أهل العلم، كابن القيم وغيره أن صيام عاشوراء ثلاثة أقسام:

(١) أن يصوم عاشوراء والتاسع، وهذا أفضل الأنواع.

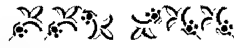
(١) صحيح: رواه مسلم (١١٣٤) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: صحيح البخارى (٣٩٤٣) كتاب مناقب الأنصار، ومسلم (١١٣٠) كتاب الصيام.



(٢) أن يصوم عاشوراء والحادي عشر، وهذا دون الأول.

(٣) أن يصوم عاشوراء وحده فكرهه بعض العلماء... لأن النبي ﷺ أمر بمخالفة اليهود... ورخص فيه بعض العلماء^(١).



(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٣/ ٢٦٧-٢٢٨) بتصرف.



(٢٢٨) باب استحباب صوم ستة أيام من شوال

(١٢٦٢) عَنْ أَبِي أَيُّوبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»^(١).

❁ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُتَّبَعَ رَمَضَانُ بِصِيَامِ سِتٍّ مِنْ شَوَّالٍ - لَا يُشْتَرَطُ تَتَابُعُهَا - لِأَنَّ هَذَا يَعْدَلُ صِيَامَ الدَّهْرِ... فَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ».

وإنما كان ذلك كصيام الدهر، لأن الحسنه بعشر أمثالها.. فرمضان بعشرة أشهر، والسته بشهرين.. كما في حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ فَشَهْرٌ بِعَشْرَةِ أَشْهُرٍ، وَصِيَامُ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ فَذَلِكَ تَمَامُ صِيَامِ السَّنَةِ»^(٢).

والظاهر من حديث أبي أيوب المتقدم أن حوز فضيلة ثواب صوم الدهر مشروطة بصيام رمضان ثم إتياعه بست من شوال... فلا يقدم صيام الست على قضاء رمضان^(٣)، قلت: إلا أن يُقال إن قوله: «ثم أتبعه ستًا» خرج مخرج الغالب فليس له مفهوم، فيجوز حينئذ صيام الست قبل قضاء رمضان لاسيما لمن ضاق عليه شوال لو قضى، والله أعلم^(٤).

فالشاهد أنه يُسْتَحَبُّ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ صِيَامِ رَمَضَانَ أَوْ لَا فَإِنْ خَشِيَ فَوَاتَ شَهْرَ شَوَّالٍ قَبْلَ أَنْ يَصُومَ السِتَّ مِنْ شَوَّالٍ فَلَهُ أَنْ يَصُومَ السِتَّ مِنْ شَوَّالٍ أَوْ لَا ثُمَّ يَقْضِيَ مَا عَلَيْهِ.. فَلَقَدْ كَانَتْ أَمْنَا عَائِشَةُ رضي الله عنها تَقْضِي مَا عَلَيْهَا مِنْ

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٤) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه النسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وصححه الألباني في الإرواء تحت حديث: (٩٥٠)، وصحيح الترغيب والترهيب: (١٠٠٧).

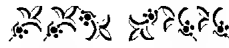
(٣) أفاده العلامة ابن عثيمين رحمته الله كما في «الممتع» (٤٤٨/٦).

(٤) صحيح فقه السنة (١٣٤/٢).

رمضان في شهر شعبان.

❁ ومن المعلوم أن تلك الأيام الست لا تُصام إلا في شَوَّال ... إلا أن الشيخ الحبيب ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ قال:

وسواء صُمتها من ثاني يوم العيد وأتبعَت بعضها بعضًا، أو صُمتها بعد يومين أو ثلاثة، أو صُمتها متتابعة، أو صُمتها متفرقة، الأمر في هذا واسع. لكن لو أنك تساهلت حتى خرج شوال وصُمت، فإنها لا تكون بهذا الأجر، اللهم إلا مَنْ كان معذورًا، مثل أن يكون مريضًا، أو امرأة نُفساء أو مسافرًا، ولم يَصُمْ في شوال وقضاها في ذى القعدة، فلا بأس^(١).



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٦٨).

(٢٢٩) باب استحباب صوم الإثنين والخميس

(١٢٦٣) عن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الإثنين، فقال: «ذلك يومٌ وُلِدْتُ فيه، ويومٌ بُعِثْتُ، أو أنزِلَ عليَّ فيه» ^(١).

(١٢٦٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يومَ الإثنينِ والخميسِ، فأُحِبُّ أن يُعْرَضَ عَمَلِي وأنا صائم» ^(٢).

(١٢٦٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الإثنين والخميس ^(٣).

❁ ففى الحديث الأول سئل النبى ﷺ عن صوم يوم الإثنين فقال ﷺ: «ذلك يومٌ وُلِدْتُ فيه» فالنبى ﷺ وُلِدَ يوم الإثنين وكان ميلاده إشراقاً لشمس التوحيد على الكون كله.. فلقد بعثه الله ﻋَزَّوَجَلَّ ليُخْرِجَ به الناس من ظلمات الشرك والكفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

❁ «ويومٌ بُعِثْتُ، أو أنزِلَ عليَّ فيه»

وكان بداية نزول القرآن عليه فيه. وبداية بعثته كانت يوم الإثنين أيضاً وكذلك هو يومٌ مات فيه النبى ﷺ.

والراوى شك، هل قال: (أنزل) أو (بُعِثْتُ)؟، وبينهما فرق؛ لأنه أنزل عليه القرآن قبل أن يُبعث... أنزلت عليه سورة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾ وبهذا صار نبياً وأنزل عليه، وأما البعث وهو الإرسال، فإنما كان بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ ﴿١﴾ قُفِّى أَنْذَرِ﴾ وهذا بعد الأول. وعلى كُلِّ صار هذا اليوم فيه مناسبات شريفة عظيمة، ولادة الرسول ﷺ وإنزال الوحي عليه، أو إرساله إلى الناس.

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٦٢) كتاب الصيام.

(٢) صحيح: رواه النسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٩٥٩)، ورواه مسلمٌ بغير ذكرِ الصَّوم.

(٣) صحيح: رواه الترمذى والنسائى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٩٧).

وقد وضع النبي ﷺ في الحديث الثاني لماذا كان يتحرى صيام الاثنين والخميس فقال ﷺ: «تُعَرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْأِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعَرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ»^(١).

فالصيام يشفع للعبد .. فإذا صعد الصيام مع الأعمال التي تُرفع إلى الله فإنه يشفع للعبد عند الله (جل وعلا).

قال ﷺ: «الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. يَقُولُ الصَّيَّامُ: أَيْ رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ .. يَقُولُ الْقُرْآنُ: رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ فَيُشَفِّعَانِ»^(٢).

«تُعَرَضُ الْأَعْمَالُ» أَيْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى «فَأُحِبُّ أَنْ يُعَرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ» أَيْ: لَطَلَبِ الزِّيَادَةِ وَرَفْعَةِ الدَّرَجَةِ... قال ابن المَلِكِ وَهَذَا لَا يُنَافِي قَوْلَهُ ﷺ يُرْفَعُ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ لِلْفَرْقِ بَيْنَ الرَّفْعِ وَالْعَرْضِ .. لِأَنَّ الْأَعْمَالَ تَجْمَعُ فِي الْأُسْبُوعِ وَتُعَرَضُ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ.

وَفِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ تُعَرَضُ أَعْمَالُ النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الْأِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ إِلَّا عَبْدًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحَاءٌ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا .. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَلَا يُنَافِي هَذَا رَفْعُهَا فِي شَعْبَانَ فَقَالَ إِنَّهُ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ وَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ لِحَوَازِ رَفْعِ أَعْمَالِ الْأُسْبُوعِ مُفَصَّلَةً وَأَعْمَالِ الْعَامِ مُجْمَلَةً^(٣).

ومن أجل ذلك أخبرتنا أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الحديث الثالث أن النبي ﷺ كان يتحرى صوم الاثنين والخميس.

(١) صحيح: رواه النسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٥٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٢).

(٣) تحفة الأحوذى (٣/ ١٧٠).

(٢٣٠) بَابُ اسْتِحْبَابِ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ

والأفضل صَوْمُهَا فِي الْأَيَّامِ الْبَيْضِ، وَهِيَ : الثَّلَاثُ عَشَرَ، وَالرَّابِعُ عَشَرَ، وَالْخَامِسَ عَشَرَ... وَقِيلَ : الثَّانِي عَشَرَ، وَالثَّلَاثُ عَشَرَ، وَالرَّابِعَ عَشَرَ... وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ .

(١٢٦٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَوْصَانِي خَلِيلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَلَاثٍ : صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكَعَتَيِ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ ^(١).

(١٢٦٧) وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَوْصَانِي حَبِيبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِثَلَاثٍ لَنْ أَدْعُهُنَّ مَا عَشْتُ : بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَبِأَنْ لَا أَنَامَ حَتَّى أُوتِرَ ^(٢).

(١٢٦٨) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ» ^(٣).

(١٢٦٩) وَعَنْ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ؟ قَالَتْ : نَعَمْ. فَقُلْتُ : مِنْ أَيِّ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ؟ قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ يُبَالِي مِنْ أَيِّ الشَّهْرِ يَصُومُ ^(٤).

(١٢٧٠) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِذَا صُمْتَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلَاثًا، فَصُمْ ثَلَاثَ عَشْرَةٍ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةٍ، وَخَمْسَ عَشْرَةٍ» ^(٥).

(١٢٧١) وَعَنْ قَتَادَةَ بْنِ مِلْحَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنَا بِصِيَامِ أَيَّامِ الْبَيْضِ : ثَلَاثَ عَشْرَةٍ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةٍ، وَخَمْسَ عَشْرَةٍ ^(٦).

(١٢٧٢) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يُفْطِرُ أَيَّامَ الْبَيْضِ فِي

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٧٨) الجمعة، ومسلم (٧٢١) صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٢٢) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٧٩) كتاب الصوم، ومسلم (١١٥٩) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١١٦٠) كتاب الصيام.

(٥) صحيح: رواه أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٣).

(٦) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢١٣٩).



حَضَرَ وَلَا سَفَرٍ^(١).

✽ أخبر النبي ﷺ أن صيام ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله ولكن الأفضل أن تكون في الأيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر. فإن لم يمكن بأن كانت المرأة حائضًا، أو حصل سفر، أو ضيق، أو ملل، أو مرض يسير، أو ما أشبه ذلك، فإنه يحصل الأجر لمن صام هذه الأيام الثلاثة، سواء كانت الأيام البيض الثالث عشر، والرابع عشر والخامس عشر، أو خلال أيام الشهر. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، لا يبالى أصامها في أول الشهر، أو وسطه، أو آخره».

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

ثم إن الأيام الثلاثة يجوز أن تصومها في العشر الأول، أو في العشر الأوسط، أو في العشر الأخير، أو كل عشرة أيام يومًا، أو كل أسبوع يومًا.. كل هذا جائز، والأمر واسع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ لا يبالى من أى الشهر صامها، من أوله أو من وسطه أو من آخره. لكن اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، أحسن وأفضل، لأنها أيام البيض... أما صوم يوم الخميس فهو أيضًا سنة، لكنه دون صوم يوم الاثنين.. فصوم يوم الاثنين أفضل، وكلاهما فاضل. وإنما كان صيامهما فاضلًا؛ لأنه يُروى عن النبي ﷺ أن الأعمال تُعرض فيهما على الله، قال: «فَأَحَبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».

وأفضل الصيام صيام داود.. وذلك أن يصوم الإنسان يومًا ويفطر يومًا.

هذا لمن قدر ولم يكن عليه مشقة، ولم يُضغ بسببه الأعمال المشروعة الأخرى، ولم يمنعه عن تعلُّم العلم... لأن هناك عبادات أخرى، إذا كان كثرة الصيام تُعجزك عنها فلا تُكثر الصيام.. والله الموفق^(٢).

(١) صحيح: رواه النسائي، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٨٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٧١).

(٢٣١) باب فضل من فطر صائماً

وفضل الصائم الذي يؤكل عنده

ودعاء الأكل للمأكول عنده

(١٢٧٣) عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ فَطَرَ صَائِماً، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ»^(١).

✽ قلت لإخواني ذات مرة قبل دخول شهر رمضان: مَنْ مِنْكُمْ يريد أن يصوم شهر رمضان القادم مائة مرة؟! فتعجب الناس وقالوا: كيف ذلك؟.

فقلت لهم: إذا أطعم أحدكم تسعاً وتسعين صائماً فكأنه صام شهر رمضان مائة مرة لأن صيامهم يصبح في ميزانهم وميزان مَنْ أطعمهم بالإضافة إلى صيامه فيصبح وكأنه صام مائة رمضان.

ومن أجل ذلك نجد في شهر رمضان تنافساً جميلاً بين الأثرياء من أجل إعداد مائدة الرحمن ليفوزوا بذلك الأجر الكبير.

ولو يعلم الناس مدى الأجر والثواب الذي يتحصل عليه الإنسان إذا فطر صائماً.. فلن يمر على أحدهم يوم إلا وهو يبحث عَمَّنْ يقدم له الطعام عند إفطاره.

فاحرص على أن تدعو أرحامك وجيرانك والفقراء واليتامى والمساكين على الإفطار قدر استطاعتك لتفوز بهذا الأجر العظيم.

فقد قال سبحانه وتعالى في وصف الفائزين بالجنة: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ وَنَحْوِهِ، مَسْكِينًا وَبَيْنَمَا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤١٥).

مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوْصًا قَطَرِيًّا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴿[الإنسان: ٨-١٢].

واختلف العلماء في معنى: «مَنْ فَطَرَ صَائِمًا» ف قيل: إن المراد مَنْ فَطَرَهُ عَلَى أَدْنَى مَا يُفَطِّرُ بِهِ الصَّائِمَ، ولو بتمرّة.

وقال بعض العلماء: المراد بتفطيره أَنْ يُشْبِعَهُ؛ لِأَنَّهُ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ الصَّائِمَ طَوِيلَ لَيْلِهِ، وَرَبِمَا يَسْتَعْنِي بِهِ عَنِ السَّحُورِ؟. ولكن ظاهر الحديث: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ فَطَرَ صَائِمًا وَلَوْ بتمرّة وَاحِدَةٍ، فَإِنْ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ.

ولهذا ينبغي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْرَصَ عَلَى إِفْطَارِ الصَّائِمِينَ.

❦

(١٢٧٤) وَعَنْ أُمِّ عَمَارَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ طَعَامًا، فَقَالَ: «كُلِّي» فَقَالَتْ: إِنِّي صَائِمَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّائِمَ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ إِذَا أَكَلَ أَكْلَ عِنْدِهِ حَتَّى يَفْرَغُوا» وَرُبَّمَا قَالَ: «حَتَّى يَشْبَعُوا»^(١). ❦ وَلِلْأَمَانَةِ الْعِلْمِيَّةِ.. فَهَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

❦

(١٢٧٥) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ، فَأَكَلَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمْ الْأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ»^(٢).

❦ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَهَبَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ أَصْحَابَهُ وَيَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُمْ وَيَسْأَلُ عَنْهُمْ إِذَا غَابُوا وَيَعُودُهُمْ إِذَا

(١) ضعيف: رواه أحمد، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٤٨٣).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١١٣٧).

مَرْضُوا وَلَا يَنْسَى وَاحِدًا مِنْهُمْ أَبَدًا.

وهنا ذهب النبي ﷺ إلى سعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سِيدِ الْخَزْرَجِ (فجاء بخبز وزيت) وهذا فيه إحضار ما سهل وأنه لا ينافي الجود ... فقد كان سعد كأبيه من أجواد العرب (فأكل) أي: النبي ﷺ (ثم قال النبي ﷺ) أي: بعد تمام الأكل (أفطر عندكم الصائمون) أي: أثابكم الله إجابة مَنْ فطَّر صائماً.. فهي خبرية لفظاً دعائية معنى كجملة (وأكل طعامكم الأبرار) جمع بَرٍّ، وهو التقى (وصلت عليكم الملائكة) أي: استغفرت لكم^(١).

❁ وهكذا يُعلمنا النبي ﷺ أدباً عظيماً عندما ينزل أحدنا ضيفاً على أحد إخوانه أو أقاربه لتناول الطعام أن يدعو له ولأهل بيته بهذا الدعاء بعد الانتهاء من تناول الطعام.

فإنه ينبغي للضيف أن يشكر صاحب الضيافة على حُسن استضافته، فإن هذا مما يدعو إليه الإسلام... قال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»^(٢).

وكذلك فإن النبي ﷺ دعا لمن أكرمه فقال لسعد بن عبادَةَ بعد أن أطعمه: «أَفْطَرَ عِنْدَكُمْ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامُكُمْ الْأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمْ الْمَلَائِكَةُ». ودعا ﷺ لعبد الله بن بُسر بعدما أطعمه فقال: «اللهم بارك لهم فيما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) دليل الفالحين (٤/ ٥٥-٥٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٤١).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٠٤٢) كتاب الأشربة.

(٩) كتاب الاعتكاف

(٢٣٢) باب الاعتكاف في رمضان

(١٢٧٦) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَّخِرَ مِنْ رَمَضَانَ ^(١).

(١٢٧٧) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَّخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ ^(٢).

(١٢٧٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضَانَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامَ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عَشْرِينَ يَوْمًا ^(٣).

✽ الاعتكاف: لزوم المسجد لطاعة الله ﷻ... وهو مشروع في العشر الأواخر من رمضان؛ لأن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأخير، ثم اعتكف العشر الأوسط، يتحرى ليلة القدر، ثم قيل له: (إنها في العشر الأواخر)، فصار يعتكف العشر الأواخر من رمضان. وبهذا عرفنا أنه لا يُشَرع الاعتكاف في غير رمضان، وأن ما ذكره بعض العلماء من أنه ينبغي للإنسان إذا قصد المسجد أن ينوي الاعتكاف مدة مكثه فيه.. فهذا قول لا دليل عليه... لأن النبي ﷺ لم يشرعه لأتمته، لا بقوله، ولا بفعله... يعني: لم يقل للناس إذا دخلتم المسجد فانووا الاعتكاف فيه في أي وقت، ولم يكن يفعل ذلك هو بنفسه، وإنما كان يعتكف العشر الأواخر تحريراً لليلة القدر، ولهذا ينبغي للمعتكف ألا يشتغل إلا بالطاعة، من صلاة وقراءة القرآن وذكر وغير ذلك، حتى تعليم العلم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٥) كتاب الاعتكاف، ومسلم (١١٧١) كتاب الاعتكاف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٢٦) كتاب الاعتكاف، ومسلم (١١٧٢) كتاب الاعتكاف.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٠٤٤) كتاب الاعتكاف.

قال العلماء: «لا ينبغي للمعتكف أن يشتغل بتعليم العلم، بل يُقبل على العبادات الخاصة؛ لأن هذا الزمن مخصوص للعبادات الخاصة».

ولا يجوز للمعتكف أن يخرج من المسجد إلا لما لا بد منه، كأن يكون ليس عنده من يأتيه بالطعام والشراب، فيخرج ليأكل ويشرب، أو يخرج لقضاء الحاجة، أو يحتاج إلى الخروج من أجل غُسل الجنابة، وما أشبه ذلك.

أو يحتاج للخروج لكونه في مسجد غير جامع فيذهب إلى الجمعة.. المهم أن المعتكف لا يخرج من المسجد، إلا لشيء لا بد له منه، شرعاً، أو طبعاً.

ثم إنه ينبغي للمعتكف إذا جاءه أحد يريد أن يشغله بالكلام اللغو الذي لا فائدة منه أن يقول له: يا أخى أنا معتكف.. إما أن تُعيننى على الطاعة، وإما أن تتركنى أعبد الله ﷻ... والله تعالى لا يستحي من الحق.. وأما الجلوس اليسير عند المعتكف والتحدث اليسير فهذا لا بأس به؛ لأن النبى ﷺ كان يستقبل نساءه، وهو معتكف فيتحدث إليهن، ويتحدثن إليه. والله الموفق^(١).



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٧٢، ٢٧٣) بتصرف.



(١٠) كتاب الحج

(٢٣٣) باب وجوب الحج وفضله

✽ الحج هو الشعيرة الرابعة في الإسلام، وهو آخر ما فرض من الشعائر والعبادات التي رسم الله حدودها ومعالمها. إذ كانت فرضيته في السنة التاسعة من الهجرة النبوية على أرجح الأقوال.

والحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات. يتنقل المسلم فيها ببدنه وقلبه «إلى البلد الأمين» الذي أقسم الله به في القرآن. للوقوف بعرفات، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الإسلام رمزاً لتوحيد الله، ووحدته المؤمنين به... ففرض على المسلم أن يستقبله كل يوم في صلواته ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]. ثم فرض عليه أن يتوجه إليه بشخصه ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة^(١).

✽ ما معنى الحج؟

الحج في اللغة: القصد.

وفي الشرع: التعبد لله بأداء المناسك في مكانٍ مخصوص في وقتٍ مخصوص، على ما جاء في سنة رسول الله ﷺ.

✽ ما حكم الحج والعمرة؟

لا بد أن نعلم أن الحج فريضة على المسلم والمسلمة عند القدرة وهو أحد أركان الإسلام.

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

(١) العبادات في الإسلام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢٣٥).

ولقوله تعالى: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

ولحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس...». وذكر منها الحج.

وقد أجمعت الأمة على وجوب الحج على المستطيع مرة واحدة في العمر.
 ﴿وَأَمَّا عَنْ الْعُمْرَةِ: فَمَنْ أَهْلُ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ أَنَّهَا سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ أَنَّ الْعُمْرَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِ وَالْمُسْلِمَةِ مَرَّةً فِي الْعُمْرِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ... وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿مَا الْحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَةِ الْحَجِّ؟﴾

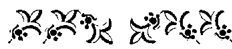
١- الشعور بالتجرد لله، والاستعداد والخروج في سبيله وترك المال والأهل.

٢- تجديد روابط الإيمان، والتعارف.

٣- فرصة للتعارف والتعاون على البر والتقوى.

٤- يشهد الناس في الحج منافع لهم ويذكرون الله في أيام عظيمة.

٥- إجابة دعوة أبيهم إبراهيم، واقتفاء سنة نبيهم محمد ﷺ.

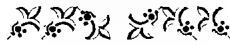


﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وهذه الآية نزلت في العام التاسع من الهجرة، وهو العام الذي يُسمى عام الوفود، وبها فُرض الحج... أما قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ ففيها فرض الإتمام لا فرض الابتداء... ففرض الابتداء كان في السنة التاسعة في آية سورة آل عمران، وأما فرض الاستمرار والإتمام، فكان في آية البقرة، في سنة ست من الهجرة.

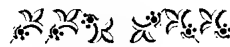
قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ على الناس
يعنى: على جميعهم.. لكن الكافر لا تأمره بالحج حتى يُسلم، وأما المسلم
فناُمره بأن يحج بهذا الشرط الذى اشترطه الله ﷻ ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾
يعنى: مَنْ استطاع أن يصل إلى مكة، فمن لم يستطع لفقره، فلا حَجَّ عليه، وَمَنْ
لم يستطع لعجزه نظرنا: فإن كان عجزه لا يُرجى زواله، وعنده مال، وجب أن
يُقيم مَنْ يَحُجُّ عنه.

وإن كان يُرجى زواله كَمَرَضٍ طارئ، طرأ عليه فى أيام الحج، فإنه ينتظر
حتى يعافيه الله، ثم يحج بنفسه^(١).



(١٢٧٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى
خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامِ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ،
وَحِجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»^(٢).

❖ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم
(١٠٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٢٨٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا» فقال رجلٌ: أَكُلَّ عامٍ يا رسولَ الله؟
فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا. فقال رسولُ الله ﷺ: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ وَلَمَّا
اسْتَطَعْتُمْ» ثم قال: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ،
وَإِخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٧٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨) كتاب الإيمان، ومسلم (١٦) كتاب الإيمان.

شئٍ فدَعُوهُ»^(١).

✽ إن من نعمة الله عز وجل أن الله عز وجل لم يفرض الحج إلا مرة واحدة في العمر.. وذلك لأن أكثر الناس قد يجد مشقة شديدة في الوصول إلى مكة. ولهذا تجد أن الصلوات الخمس تُؤدَّى في أي مسجد.. أما الجمعة فالأفضل أن تكون في المسجد الجامع من كل حي حتى يجتمع أهل الحي في ذلك المسجد.. ولما كان الاجتماع في مسجد الحي فيه مشقة لبعض الناس كان من رحمة الله أن جعل صلاة الجمعة مرة واحدة في الأسبوع.. وكذلك الصيام لا يجب إلا شهراً واحداً في السنة.. والزكاة لا تجب إلا مرة كل عام.. والحج لا يجب إلا مرة في العمر.

✽ وفي هذا الحديث قال النبي ﷺ: «يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحُجُّوا» والكلام واضح لا يحتاج إلى بيان.. ومع ذلك قام رجل ليسأل: أكل عامٍ يا رسول الله؟ فسكت النبي ﷺ.

فأعاد الرجل سؤاله ثلاث مرات.. وفي كل مرة يقول:

(أفي كل عام؟)، يعني: هل أحج كل عام؟... ولو فرض الحج في كل عام لما استطاع الناس أن يحجوا، كما قال الرسول ﷺ: إذ كيف يستطيعون أن يحجوا؟ وكيف سيسعهم المكان إذا كان واجباً عليهم جميعاً؟ فهذا فيه صعوبة شديدة، ومشقة عظيمة، ولا يُستطاع؛ فقال ﷺ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ» يعني: لا تسألوا عن أشياء أنا ساكتٌ عنها، ما دُمت ساكناً عن الشيء فاسكتوا عنه؛ لأن أعظم الناس جرماً مَنْ سأل عن مسألة حلال فحُرمت من أجل مسأله، أو عن مسألة غير واجبة، فوجبت من أجل مسأله.

لكن بعد موت النبي ﷺ لا بأس أن يسأل الناس العلماء عن أمور دينهم؛

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٣٧) كتاب الحج.

لأن الشرع انتهى، ما في تحليل ولا تحريم، ولا إيجاب، ولا إسقاط.

وفيه التحذير من السؤال إذا لم يكن الإنسان محتاجاً إليه، فإن كثرة الأسئلة التي يكون السائل فيها مُتَعَتِّتاً تضره... ولهذا قال النبي ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»، والمراد كثرة السؤال الذي يقصد منه صاحبه التعنت أو الرياء والسمعة وإظهار نفسه أو الإعانت وإتاعاب المستؤل وإيقاعه في العنت والعجز، أو السؤال عن الأسئلة التي لم تقع، فهذا منهي عنه.

أما إذا كان السؤال المقصود منه الاستفادة والاسترشاد فإنه مطلوب، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ويئن النبي ﷺ أن هلاك السابقين إنما هو بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

وفيه دليل على أن النواهي يجب أن يجتنبها الإنسان، أما الأوامر فإنه يفعل منها ما يستطيع، وما عجز عنه فإنه يُعْفَى عنه... فقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لعمران بن حصين: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، زاد النسائي: «فإن لم تستطع فمُستلقياً»، وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَأَنقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فالإنسان يفعل الأوامر ويتقى ربه بقدر الاستطاعة، أما النواهي فإنه يجتنبها.

❁ ولقد جاء في الحديث: «إن أعظم الناس جرماً من سأل عن شيء لم يُحَرِّم فحُرِّم من أجل مسأله»، يعني: الأسئلة التي يترتب عليها مضرة في زمن النبوة... لأن الزمن زمن تشريع، فقد يُوجب ما فيه مشقة، وقد يُحرِّم ما فيه مصلحة ومنفعة وفائدة... فلهذا دُمَّتْ الأسئلة التي فيها تكلف وتشديد،

فالأسئلة التى يترتب عليها تشديد على هذه الأمة مذمومة.. والرسول ﷺ حرّمها، وبين أن تلك من أسباب هلاك الأمم السابقة.

❖ وقد جاء فى الشريعة أمثلة من أسئلة الأمم السابقة والأشياء التى يسألون عنها وفيها تكلف وتعسف... منها ما قاله ﷺ فى القرآن عن أهل الكتاب: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

فهذا من الأسئلة التى فيها تعنت، وتكلف، ومن الإتيان بأمور لا يصلح أن يسأل عنها أو يتشاغل بها.

وكذلك قصة البقرة التى أمر بنو إسرائيل بذبحها، فكان يكفيهم أن يأخذوا أى بقرة فيذبحوها، ثم يضربوا بلحمها على القتل الذى قُتل، ولكنهم سألوا أسئلة متعددة، وتعنتوا وشددوا فشّد الله عليهم، وكان يكفيهم أى بقرة، فإن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، أى بقرة، لكنهم سألوا عن سنّها ولونها وصفاتها، وبعد ذلك صاروا إلى نوع مُعين بعد تلك الأسئلة المتكلفة، فشددوا فشّد الله عليهم.

فهذا من جملة ما أثر وما جاء عن الأمم السابقة من التكلف، ومن الأسئلة التى كانت من أسباب هلاكهم، وحذرت هذه الأمة أن تفعل مثلما فعلوا.

ثم إن المسائل منها ما يكون الإنسان بحاجة إليه، كمعرفة الأمور التى لا بد منها، كمعرفة كيف يتوضأ، وكيف يصلى، وكيف يزكى إذا كان عنده مال، وكيف يصوم، حيث إن هذه الأمور مطلوب أن يسأل عنها.

وأما إذا سُئل عن أسئلة فيها تكلف، أو أمور مغيبة، مثل السؤال عن متى تقوم الساعة؟ وعن عمر الدنيا: كم مقدار عمرها؟ وعن الأشياء التى هى أمور مغيبة لا يعلمها إلا الله ﷻ، أو السؤال عن كيفية أشياء ليس للإنسان أن

يسأل عنها، مثل الذى سأل مالكا عن: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فمثل هذه الأسئلة لا يجوز السؤال عنها، بل على الإنسان أن يسأل عما يحتاج إليه فى أمور دينه.. ثم عن أمور يحتاج الإنسان إليها فى أعماله اليومية وباستمرار.. أما أن يسأل عن أمور خيالية أو نادرة الوقوع، أو لا يتصور وقوعها، فإن ذلك شغل وقت فى غير طائل، ومن التكلف غير المحمود.

﴿مَنْ سَأَلَ عَمَّا فَصَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ فَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَىٰ﴾

(١٢٨١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبى ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»^(١).

✽ ففى هذا الحديث سئل النبى ﷺ: أى العمل أفضل؟ فأخبر النبى ﷺ السائل بأن أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله.. لأن هذا هو أصل الأصول الذى ينبى عليه بعد ذلك سائر الأعمال.. وذلك لأن الأعمال لا تقبل بدون إيمان.. فلا بد من الإيمان قبل أى شىء.

✽ وعندما يسأل هذا الرجل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فإنه يريد بذلك الأعمال الصالحة، وهى تشمل أعمال القلوب من الاعتقادات، والنيات، والإرادات، والأقوال: كقول الحق، والشهادة، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر.. وأعمال الجوارح: كالجهاد، والحج، والصلاة، والصيام، والصدقات، والرباط^(٢)، فأخبر رسول الله ﷺ أن أفضل هذه الأعمال ثلاثة، وهى: الإيمان بالله ورسوله.. وقدمه لأنه هو الذى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦) كتاب الإيمان، ومسلم (٨٣) كتاب الإيمان.

المبرور: هو الذى لا يرتكب صاحبه فيه معصية.

(٢) الرباط: هو أن يحبس الإنسان نفسه على الحدود والثغور الإسلامية ليحميها من تعدى الأعداء أو الهجوم منها على البلاد الإسلامية.

يُثْمِرُ غيره، ولولاه ما عَمِلَ امرؤُ عملًا صالحًا... ثم «الجهاد في سبيله» تعالى وهو يشمل جهادَ الفُسَّاقِ بأمْرهم، ونهْيهم، وجهاد الكفار بدعوتهم، وقتالهم إن قاتلوا، وجهادَ النَّفْسِ وهو حَمْلُهَا على أن تتعلمَ مَحَابَّ الله، ومكارهه، وحَمْلُهَا على أن تعملَ المحبوب، وتَتَجَنَّبَ المكروه، وحملها على أن تُعَلِّمَ غَيْرَهَا مِنَ النَّاسِ... ثُمَّ «الحجُّ المبرور»^(١).

✽ فالحج المبرور جاء في المرتبة الثالثة بعد الإيمان بالله ورسوله ﷺ وبعد الجهاد في سبيل الله تعالى..

والحج المبرور هو الذي يكون خالصًا لوجه الله ﷻ. لا يكون فيه رياء ولا سُمعة.. وأن يكون على صفة حج النبي ﷺ.. وذلك بأن يفعل الحاج مثل ما فعل النبي ﷺ.. وهذان هما الإخلاص والمتابعة.. وهما شرطاً لقبول العمل الصالح.

والحج المبرور -أيضًا- هو الذي يكون من مالٍ حلال وليس من مالٍ حرام ولهذا قال بعضهم:

إذا حججت بمالٍ أصله سُحْتٌ فما حججت، ولكن حَجَّتَ العيرُ

يعنى الإبل حَجَّت، أما أنت فما حججت، لماذا؟؛ لأن مالك حرام.

والحج المبرور هو الذي يتجنب فيه الحاج الرفث والفسوق والجدال لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ فيجتنب الرفث وهو الجماع ودواعيه، ويجتنب الفسوق، سواء كان في القول المحرم مثل الغيبة، والنميمة، والكذب... أو الفعل: كالنظر إلى النساء، وما أشبه ذلك... ولا بد أن يكون قد تجنب فيه الرفث والفسوق... والجدال: المجادلة والمنازعة بين الناس في الحج... فهذه تُنقص الحج كثيرًا.

(١) كتاب المسجد وبيت المسلم / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص ٩٣).

اللهم إلا جدالاً يُراد به إثبات الحق، وإبطال الباطل، فهذا واجب.
فمن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من حجّه كيوم ولدته أمه.. والحجة
المبرورة ليس لها جزاء عند الله إلا الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٨٢) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَجَّ
فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).
(١٢٨٣) وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا،
وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٢).

❦ ففي الحديث الأول يخبر النبي ﷺ أنه مَنْ حج فلم يرفث.. والرفث هو
مقدمات الجماع ودواعيه.. وقيل: هو اسمٌ للفحش من القول.. وقيل: هو كلمة
جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة..
فمن حج فلم يرفث (ولم يفسق) أى: بارتكاب كبيرة أو إصرارٍ على
صغيرة.

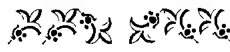
(رجع كيوم ولدته أمه).. والمراد أن الحج يكفر عنه كل الذنوب المتعلقة
بحق الله تعالى.. وأما الذنوب المتعلقة بحق الناس فلا تسقط إلا بالتحلل منها
أو المسامحة والعفو.

❦ وفي الحديث الثاني يخبر النبي ﷺ أن «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ» يعنى: العُمْرَةُ
الكاملة، التامة، المستوفاة الأركان، والواجبات، والمستحبات، الباعث عليها
طاعة الله، والرغبة فيما عنده من عظيم الأجر، وحسن المثوبة.. هذه العُمْرَةُ يكفر
الله بها ذنوب العبد التي ارتكبها في الفترة الزمانية بين العُمْرَةِ الأولى والثانية،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٢١) كتاب الحج، ومسلم (١٣٥٠) كتاب الحج.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٧٧٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٤٩) كتاب الحج.

أما صغائر الذنوب فلا شك في تكفيرها بالعمرتين... وأما كبائر الذنوب فلا بُدَّ من مصاحبة التوبة عند الاعتماد بأن يعزم على ألا يعود إلى الكبيرة وهو نادم على ما سَلَفَ، مستغفرُ ربِّه منه^(١). وقوله: «والحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنة» فيه بُشْرَى عظيمة لمن حجَّ، وبرٍّ في حجِّه^(٢) بأن أجره زيادةٌ على تطهيره من سائر ذنوبه هو الجنة، ولا شيء أسَمَى من الجنة إذ هي دار السلام والأبرار، وفيها من النعيم المقيم ما لا يأتي على مثله عدُّ ولا حصر... وأعظمُ من ذلك رضا الله، وجواره الكريم^(٣).



(١٢٨٤) وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، نرى الجهادَ أفضلَ العملِ، أفلا نجاهدُ؟ فقال: «لكنَّ أفضلَ الجهادِ: حجٌّ مبرورٌ»^(٤).

❁ ففي هذا الحديث أن أُمنا عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: نرى الجهادَ أفضلَ العملِ أفلا نجاهدُ؟.. فهي سمعت النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا وهو يتحدث عن فضل الجهاد.. بل رأت مدى حرص النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الجهاد في سبيل الله ﷻ فاشتقت إلى أن تفوز بثواب المجاهدين ولذا سألت النبي صلى الله عليه وسلم هذا السؤال.. فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن قال لها: «لكنَّ أفضلَ الجهادِ: حجٌّ مبرورٌ». أي أن المرأة ليس عليها جهاد لأن الجهاد إنما كُتب على الرجال القادرين عليه.. أما النساء فلهن جهادٌ من نوعٍ خاص: ألا وهو الحج.

(١) والدليل على تأويل الأحاديث التي فيها كفارات الذنوب بالصغائر وحملها على ذلك قول الرسول ﷺ: «الضلاة إلى الصلاة... كفارة لما بينهن» رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) والبر في الحج: الإتيان به كاملاً بأركانِهِ وشروطِهِ وواجباتِهِ كما حج رسول الله ﷺ... فالبر فيه: إتمامه وإكماله وعدم التقص في أعماله.

(٣) كتاب المسجد (ص ٩٥).

(٤) صحيح: رواه البخاري (١٥٢٠) كتاب الحج.

فالنساء جهادهن هو الحج... أما الرجال فالجهاد في سبيل الله أفضل من الحج، إلا الفريضة فإنها أفضل من الجهاد في سبيل الله؛ لأن الفريضة ركن من أركان الإسلام.

ومع كل هذا ظلت أمنا عائشة تبحث لنفسها عن دورٍ لتساعد به المجاهدين في سبيل الله لتفوز بالأجر والثواب على إعاتهم على الجهاد.. فكانت تحمل الماء للمجاهدين في غزوة أحد.

ترجم الإمام البخارى في كتاب الجهاد من صحيحه: (باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال)، وذكر فيه حديث أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم (أمه) وإنهما لمُشمِرتان، أرى خدماً سوقهما (أى الخلاخيل في سيقانهما) تنقزان القرب - وقال غيره: تنقلان القرب - على متونهما (أى ظهورهما)، ثم تُفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملاّنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم ^(١).

وقد ذكر ابن سعد في (طبقاته) في ترجمة أم عُمارة الأنصارية، عن عمر قال: لقد سمعت النبي ﷺ يقول: «ما التفتُ يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلا وأنا أراها تقاتل دوني» ^(٢).

وهذا دليلٌ جليٌّ على أن جهاد المرأة في أحد لم يكتفِ بخدمة الجيش، بل قاتلت بالفعل مع الرجال، كما صنعت أم عُمارة رضي الله عنها.

قال الحافظ في الفتح: (وقد وقع عند مسلم من وجهٍ آخر عن أنس: أن أم سليم اتّخذت خنجرًا يوم حُنين.. قالت: اتّخذته، إن دنا منى أحد من المشركين بقرتُ به بطنه) ^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٨٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨١١) كتاب الجهاد والسير.

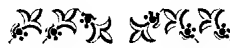
(٢) رواه ابن سعد في الطبقات (٤١٥/٨).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٨٠٩) كتاب الجهاد والسير.

كما ورد أن صفية بنت عبد المطلب - عمّة النبي ﷺ - قتلت يهوديًا في غزوة الخندق... جُبْن عنه حسان بن ثابت. فضربته بعمودٍ في رأسه، فقتلته، قالوا: وهي أول امرأة قتلت رجلًا من المشركين^(١).

وذكر البخاري كذلك: (باب مداواة النساء الجرحى في الغزو). وبعده: (باب ردّ النساء الجرحى والقتلى إلى المدينة). وذكر في الباين حديث الربيع بنت معوذ أنها قالت: كنا مع النبي ﷺ، فنسقى ونداوى الجرحى^(٢). وفي طريق آخر: كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم، ونردّ الجرحى والقتلى إلى المدينة^(٣).

وذكر ابن إسحاق في قصة سعد بن معاذ ﷺ، لما أُصيب في غزوة الخندق، فقال رسول الله ﷺ: «اجعلوه في خيمة رُفيدة، التي في المسجد، حتى أعوده من قريب». وكانت رُفيدة ﷺ امرأة تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ كانت به ضيعة من المسلمين^{(٤)(٥)}.



(١) ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمتها في (الإصابة) ونقله من عدّة مصادر، وعدّة طرق. (الإصابة: ٣٤٨/٤، ٣٤٩). وقد قيل: إنها قتلت بعد أن جُبْن عنه حسان بن ثابت، الذي عرضت عليه أن يقوم فيقتله، قبل أن يدلّ على عورات المسلمين، فقال لها: لقد عرفت ما أنا بذلك الرجل! حتى إنه جُبْن أن يأخذ سَلْبَه بعدما قُتل!... وفي البداية والنهاية لابن كثير (٥٠/٦): حكى السهيلي (الروض الأنف: ٣٢٤/٦) عن بعضهم أنه قال: كان حسان جبانًا شديد الجُبْن. قال: وأنكر آخرون ذلك، وطعنوا في الخبر، فقالوا: هو منقطع. قالوا: وقد كان يُهاجى المشركين من الشعراء، كابن الزبعرى، وضرار بن الخطاب، وغيرهما، فلم يُعبّر واحد منهم بالجُبْن. قال: وممّن أنكر ذلك الشيخ أبو عمر (ابن عبد البر) النُمري (الاستيعاب: ٣٨٤/١). قالوا: وبتقدير صحة هذا الخبر، لعله كان منقطعًا في الآطام لعله عارضة. ومال إلى هذا السهيلي. والله أعلم. وانظر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص ١٨٦).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٢) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٨٨٣) كتاب الجهاد والسير.

(٤) سيرة ابن هشام (٣/٢٥٨).

(٥) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/١٣٣-١٣٥) بتصرف كبير.

(١٢٨٥) وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ، قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة»^(١).

وها هي رواية الحديث كاملة.. أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة. وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة. فيقول: ما أراد هؤلاء؟».

✽ فلقد أخبر النبي ﷺ أن أكثر يوم يعتق الله فيه عباده من النار هو يوم عرفة.. وإنه ليدنو من عباده دنواً حقيقياً يليق بجلاله وكماله (سبحانه وتعالى) ويباهى بهم الملائكة.

ويقول: ما أراد هؤلاء؟.. وهو أعلم (جل وعلا) أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ﷻ.

وقوله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة» لا يتعارض مع حديث: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة»، ووجه الجمع بين الحديثين: أن خير أيام الأسبوع هو يوم الجمعة، وخير أيام السنة هو يوم عرفة.

والدُّنوُّ دُنُو حقيقى يليق بالله ﷻ... والإمام النووي رحمته الله كان يقع في التأويل أحياناً، وتلاميذه من فحول أهل العلم اعتذروا عن النووي بأنه لم يُتقن مسائل العقيدة، وتصدَّر للتصنيف والتأليف في الفقه والأصول وغير ذلك قبل أن يستيقن من مسائل الاعتقاد، فكلما مرت عليه المسألة في أثناء تصنيفه تكلم فيها ونقل فيها عن أهل العلم... فتارة ينقل، وتارة يسكت، وتارة يوافق المتأولة. وله تأثر بعلماء زمانه ومشايخه، وأنهم كانوا متأولة... فقد كانوا في العقيدة أشاعرة.. فقد قال النووي في شرحه لهذا الحديث: قال القاضي عياض: قال

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٤٨) كتاب الحج.

المازرى: معنى (يدنو) أى: تدنو رحمته وكرامته، لا دنو مسافة ومُماسة. وهذا تأويل أيضاً، لأن دنو الرحمن صفة فعل لله عَزَّوَجَلَّ... وصفة أفعاله لا يعلم كيفيتها إلا الله عَزَّوَجَلَّ، كما لا يعلم صفات ذاته إلا هو سبحانه. فأهل السُّنة يُثبتون جميع الصفات لله عَزَّوَجَلَّ على المعنى اللائق به، ولا نخوض فيها بكيفٍ ولا تأويل، إنما نؤمن بها كما جاءت ونُمرها كما أمرها سلفنا عليهم السلام... وهذا أسلم وأحكم وأعلم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٨٦) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ عُمْرَةً أَوْ حَجَّةً مَعِيَ»^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أَنَّ المسلم إذا اعتمر فى شهر رمضان فإنها تعدل عمرة أو حجة مع النبى ﷺ.. وذلك فى الثواب وليس فى الأجزاء... أى أنها تقوم مقامها فى الثواب لا أنها تعدلها فى كل شىء.. فإنه لو كان عليه حجة فاعتمر فى رمضان لا تُجزئه عن حج الفريضة التى عليه.

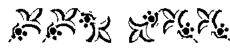
وهذا كما قال النبى ﷺ فى قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١): «والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»^(٣)... يعنى: أجرها كأجر ثلث القرآن لكنها لا تُجزئ عن القرآن.. ولهذا لو قرأها الإنسان مثلاً ثلاث مرات بدل قراءة الفاتحة فى الصلاة لا تُجزئ.. لأن هناك فرقاً بين المعادلة فى الأجر والمعادلة فى الأجزاء. أرىتم مثلاً إذا قال الإنسان: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد

(١) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال (حفظه الله).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٦٣) كتاب الحج، ومسلم (١٢٥٦) كتاب الحج.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٠١٣) كتاب فضائل القرآن.

إسماعيل^(١) يعنى يعادل عتق أربعة رقاب.. لكن لو كان عليه عتق رقبة وقال ذلك ما نفعه ذلك... فهناك فرق بين المعادلة في الثواب والمعادلة في الأجزاء، فهي تعدل ثلث القرآن في الثواب ولكنها لا تعدل في الأجزاء، ولهذا لو قرأها الإنسان ثلاث مرات في الصلاة لم تجزئه عن الفاتحة.



(١٢٨٧) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه: أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ، أَدْرَكْتُ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا، لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَاحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»^(٢).

(١٢٨٨) وعن لقيط بن عامرٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ، وَلَا الْعُمْرَةَ، وَلَا الظَّعْنَ، قَالَ: «حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ»^(٣).

(١٢٨٩) وعن السائب بن يزيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: حُجَّ بِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ، وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ^(٤).

❁ ففي الحديث الأول والثاني يدور الكلام عمن عجز عن الحج هل يحج عنه أحدًا أم لا؟

ففي حديث ابن عباسٍ رضي الله عنه أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ، أَدْرَكْتُ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا، لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أَفَاحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فدلَّ هذا على أَنَّ الإنسان إذا عجز عن الحج عجزًا لا يُرجى زواله بسبب المرض الذي لا يُرجى شفاؤه أو الشيخوخة وما أشبه ذلك فإنه يجوز أن يُحج

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٣) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٥١٣) كتاب الحج، ومسلم (١٣٣٤) كتاب الحج.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٧).

(٤) صحيح: رواه البخاري (١٨٥٨) كتاب الحج.

عنه... ولذلك أذن النبي ﷺ للرجل الذي قال للنبي ﷺ: إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ، وَلَا الْعُمْرَةَ، وَلَا الظَّعْنَ.. فما كان من النبي ﷺ إِلَّا أَنْ قَالَ لَهُ: «حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِر».

وفي هذا دليل: على أن المرأة يجوز أن تحج عن الرجل، وكذلك الرجل يجوز أن يحج عن المرأة، والرجل عن الرجل، والمرأة عن المرأة.. كل ذلك جائز.

وفي هذه الأحاديث أيضًا دليل: على جواز حج الصبيان.. فهذا هو السائب بن يزيد رضي الله عنه يقول: حُجَّ بِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حِجَةِ الْوَدَاعِ وَأَنَا ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ.

ففي هذا الحديث دليل: على جواز حج الصبيان.. والصبي يفعل ما يفعله الكبير، وإذا عجز عن شيء فإنه يفعل عنه إن كان مما تدخله النيابة، أو يُحْمَلُ إذا كان مما لا تدخله النيابة... فمثلاً إذا كان لا يستطيع أن يطوف أو يسعى يُحْمَلُ، وإذا كان لا يستطيع أن يرمى يُرمى عنه.

لأن حمله في الجمرات فيه مشقة ولا فائدة من حمله؛ لأنه ليس رمياً بيده لهذا نقول: في الطواف والسعي يُحْمَلُ، وفي الرمي يُرمى عنه.

بَابُ الْحَجِّ عَنِ الْوَدَاعِ

(١٢٩٠) وعن ابن عباس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ: «مَنْ الْقَوْمُ؟» قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ. قَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: «رَسُولُ اللَّهِ» فَرَفَعَتْ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حُجٌّ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَلَكِ أَجْرٌ»^(١).

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَابُ الْحَجِّ عَنِ الْوَدَاعِ

(١٢٩١) وعن أنسٍ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، حجَّ على رَحْلٍ، وكانت

زَامِلَتُهُ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يذكر أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حجَّ أَى: في عام حجة الوداع إذ لم يحج بعد الهجرة غيرها (على رحل) كل ما يُعَدُّ للرحيل من وعاء المتاع ومركب البعير.. أَى: حج على قتب الراحلة من غير محمل ولا محاره (وكانت) أَى: الراحلة التي ركبها وإن لم يجز لها ذكر، لكن دَلَّ عليه ذكر الرَّحْل (زاملته) والزاملة البعير الذي يُحْمَل عليه الطعام والمتاع، من الزمل وهو الحمل... والمراد: أنه لم يكن معه زاملة لحمل طعامه ومتاعه، بل كان ذلك محمولاً معه على راحلته وكانت هي الراحلة والزاملة^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٩٢) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كانت عُكَاظُ، وَمِجَنَّةٌ، وذو المجازِ أسواقاً في الجاهليَّة، فتأثَّمُوا أن يَتَجَرَّوْا في المَوَاسِمِ، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحُ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] في مَوَاسِمِ الْحَجِّ^(٣).

❁ (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ)، سوق من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل بمرحلة من عمل الطائف على طريق اليمن.

وقال أبو عبيد: هي صحراء مستوية لا جبل بها ولا علم، وهي بين نجد والطائف، وكان يُقام بها السوق في ذى القعدة نحوًا من نصف شهر، ثم يأتون موضعًا دونه إلى مكة يُقال له: سوق مِجَنَّة، فيُقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعًا قريبًا منه، يُقال له: ذو المجاز، فيُقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصعدون إلى منى.

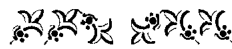
(١) صحيح: رواه البخارى (١٥١٧) كتاب الحج.

(٢) دليل الفالحين (٦٥/٤).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٥١٩) كتاب تفسير القرآن.

(أسواقاً في الجاهلية) هي ما قبل الإسلام.. سُمي بها لكثرة الجهالات الواقعة فيه (فتأثموا) أى تحرّجوا وخافوا من الحرج (أن يتّجروا في المواسم) على تقدير: أى بسبب اتجارهم فيها فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أى حرج ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ أى: فى أن تبتغوا ﴿فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى بالتجارة (في مواسم الحج) ^(١).

فإنه لما أمر الله تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب.. إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المُسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه ^(٢).
ففى ذلك أن التجارة فى الحج لا تُنافى صحته وإن كان الكمال خلو يد الحاج منها لأنها تشغل عن تمام التوجه إلى الله تعالى... والصحيح أنه يُثاب على قصده الدينى وإن قلَّ... أخذاً من عموم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وهذا جارٍ فى كل عمل شرك فيه قصد دينى وقصد دُنْيوى ^(٣).



(١) دليل الفالحين (٤/٦٦).

(٢) تفسير السعدى (ص ٩١).

(٣) دليل الفالحين (٤/٦٦).

(١١) كتاب الجهاد

(٢٣٤) باب فضل الجهاد

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

(١) جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلّم الهدى، ودين الحق الذى لا فلاح لها، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت فى الدارين.
الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرّها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيّنات، ولا ينفعه علمه، ولا يُنَجِّيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمّل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مُجمعون على أن العالم لا يستحقُّ أن يُسمّى (ربّانيّاً) حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويُعلمه، فمن علّم وعمل وعلم، فذاك يُدعى عظيماً فى ملكوت السماوات.

(٢) جهاد الشيطان مرتبتان:

وأما جهاد الشيطان، فمرتبتان:

إحدهما: جهاده على دفع ما يُلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القاذحة فى الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقى إليه من الإيرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهد الأول: يكون بُعدة اليقين، والثاني: يكون بُعدة الصبر.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين... فالصبر يدفع الشهوات والإيرادات الفاسدة... واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

(٣) جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب:

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس... وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

(٤) جهاد الظلمة والفساق ثلاث مراتب:

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب: الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه.

فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و«من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق»^(١).

❦ لا جهاد إلا بهجرة وإيمان:

ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان.

والرَّاجُونَ رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة... قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كل أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله ﷻ بالتوحيد، والإخلاص، والإنابة، والتوكل، والخوف

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة.

والرجاء، والمحبة، والتوبة... وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره.

«فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَرَوُّهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

وفُرض عليه جهاد نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد.

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد^(٢) انتهى^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ ❖ أى: قاتلوا جميع أنواع المشركين، والكافرين برب العالمين.

ولا تَخْصُوا أَحَدًا مِنْهُمْ بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ ❖ حال من الواو... فيكون معنى هذا: وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير، على جميع المؤمنين.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١) كتاب بدء الوحي، ومسلم (١٩٠٧) كتاب الإمارة.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥-١٢) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

(٣) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/ ١٥٥-١٥٧).

وقد نُسخَت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بعونه، ونصره، وتأيده... فلتحرصوا على استعمال تقوى الله، في سرکم، وعلنکم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين^(١).

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣١٦)

[البقرة: ٢١٦].

هذه الآية فيها فرض القتال في سبيل الله، بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك... فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون وقوا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف. ومع هذا، فهو خيرٌ محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرُّز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالغنائم، وغير ذلك مما هو مُربٍّ، على ما فيه من الكراهة^(٢).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فُرض عليكم القتال.. ومن الذي فرضه؟.. إنه الله عز وجل.

﴿وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ﴾.. فالقتال مكروه للنفوس.. لكنه خير.. ما هو الخير الذي فيه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرَحِينَ

(١) تفسير السعدى (ص ٣٧٣).

(٢) تفسير السعدى (ص ٩٦).

بِمَاءِ اتَّخَذَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿١٧١﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

فأنت أيها المسلم إذا قاتلت وجرحت أو استشهدت .. فهل تظن أن عدوك سالم؟! .. كلا.. فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ فعدوك يتألم من جرحه كما تتألم أنت وزيادة ... ولكن الفرق الذي بينك وبينه ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فهؤلاء كفار ليس لهم إلا النار، أما أنت فترجو من الله منازل الشهداء، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ ... ولذا لما قام أبو سفيان قبل أن يُسلم في يوم أحد يقول: يومٌ بيوم بدرٍ، والحرب سجال .. يعني أنتم غلبتمونا، ونحن غلبناكم، ماذا قال المسلمون؟! قالوا: لا سواء، قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار. ومن أجل ذلك قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أول الآية خاص، بماذا؟ بالقتال، وآخر الآية عام ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولم يقل وعسى أن تكرهوا القتال ولكن قال: شيئاً، أى شيء يكون، ربما يكره الإنسان شيئاً يقع ويكون الخير فيه وربما يحب شيئاً أن يقع ويكون الشر فيه ... وكم من شيء وقع وكرهته ثم في النهاية تجد أن الخير فيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذه الآيات عامة مُطَرَّدة في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس لما فيها من المشقة أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحبها النفوس لما تنوهم فيها من الراحة واللذة فهي شرٌّ، بلا شك.

وأما أحوال الدنيا، فليس الأمر مُطَرَّدًا، ولكن الغالب على العبد المؤمن، أنه إذا أحب أمرًا من الأمور، فقيض الله له من الأسباب ما يصرفه عنه أنه خيرٌ له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويعتقد الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه.

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فاللائق بكم أن تتمشوا مع أقداره، سواء سَرَّتكم أو ساءتكم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾﴾ [التوبة: ٤١].

يقول تعالى لعباده المؤمنين مُهَيِّجًا لهم على النفير في سبيله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ في العُسْر واليُسْر، والمنْشَط والمَكْرَه، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال. ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابذلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس... وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة، ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبَشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّتِي بِأَيْمَانِهِمْ بِهِ﴾﴾

(١) تفسير السعدي (ص ٩٧).

(٢) تفسير السعدي (ص ٣٧٥).

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

يخبر تعالى خبراً صدقاً ويعدُّ وعداً حقاً بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿أَشْتَرَى﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ فهي الثمن والسلعة المباعة.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذُّ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والحدور الحسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ التي هي أشرف الكتب، التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل، وأولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات. وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلُّها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو: النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبائع، وهو أشرف الرسل، وبأى كتاب رُقم؟ وهي كتب الله الكبار المُنزلة، على أفضل الخلق^(١).

❦ وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۖ ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ❦ أى لا يتساوى من قعد عن الجهاد من المؤمنين مع من جاهد بماله ونفسه في سبيل الله غير أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض... قال ابن عباس: هم القاعدون عن بدر والخارجون إليها، ولما نزلت الآية قام ابن أم مكتوم فقال يا رسول الله: هل لى من رخصة فوالله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ❦.

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ ❦ أى فضل الله المجاهدين على القاعدين من أهل الأعذار درجة لاستوائهم في النية... كما قال ﷺ: «إِنْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «نعم حبسهم العذر»^(١) ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ ❦ أى وكلًا من المجاهدين والقاعدين بسبب ضرر لحقهم وعدهم الله الجزاء الحسن في الآخرة ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ❦ أى: وفضل الله المجاهدين في سبيل الله على القاعدين بغير عذر بالثواب الوافر العظيم ﴿دَرَجَتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ❦ أى منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة... وفي الحديث «إِنْ فِي الْجَنَّةِ مِائَةٌ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^{(٢)(٣)}.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢٣) كتاب المغازى.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صفوة التفاسير (١/٢٧٣).

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ يَقِفْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيَدْخُلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ صدر الله تعالى هذه الآيات بهذا النداء الشريف الموجه للمؤمنين، من أجل إثارة همهم وتنشيطهم على قبول ما يسمعون من كلام الله ﷻ.

﴿ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ القائل هو ربنا ﷻ، وهذا الاستفهام للتشويق... يُشوقنا (جل وعلا) بهذه التجارة التي يدلنا عليها... ويُستفاد من قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ أنه ليس لنا طريق إلى هذه التجارة إلا الطريق الذي شرعه الله ﷻ، فهو الدالُّ على ذلك. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تَنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وهذه التجارة ليست تجارة الدنيا؛ لأن تجارة الدنيا قد تُنجي من العذاب الأليم وقد تكون سبباً للعذاب الأليم... فالرجل الذي عنده مال لا يُرَكِّي... يكون ماله عذاباً عليه والعياذ بالله، ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُخَمَّىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

تجارة الدنيا قد تُنجي من العذاب وقد تُوقع في العذاب... لكن هذه التجارة التي عرضها الله ﷻ علينا - ونسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم ممن يقبلونها -:

﴿تُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أى عذاب مؤلم؛ لأنه لا عذاب أشدّ ألماً من عذاب النار... أعاذنى الله وإياكم منها.

ما هذه التجارة؟ قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذه التجارة: الإيمان بالله ورسوله.. وهذا يتضمن جميع شرائع الإسلام كلها، لكن نصّ على الجهاد؛ لأن السورة سورة الجهاد من أولها إلى آخرها.. كلها جهاد، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بُيُوتٌ مَرْمُوضَةٌ﴾ [الصف: ٤] ثم ذكر ما يتعلق بذلك، وهنا يقول: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أى: تبذلوا جهدكم فى سبيل الله، ببذل المال وبذل النفس، ﴿ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ خير لكم من كل شىء، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعنى إن كنتم من ذوى العلم... وفى هذه الآية وأمثالها يحسن الوقوف على قوله: ﴿ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولا تصل.. لا تقل: ﴿ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأنك لو وصلت لأفهمت معنى باطلاً فى الآية، لكان المعنى: (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، وإن كنتم لا تعلمون فليس خيراً لكم) وهذا ليس مراد الله ﷻ، بل إن المعنى: ذلكم خير لكم ثم قال: إن كنتم من ذوى العلم، كأنه يقول: فاعلموا ذلك إن كنتم أهلاً للعلم.

هذا هو العمل، فما هو الثواب؟! ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

جنات: هى ما أعدّه الله ﷻ لعباده الصالحين، وبالأخص المجاهدين فى سبيل الله، «إن فى الجنة مائة درجة، أعدها الله ﷻ للمجاهدين فى سبيله»^(١).

ولهذا جمع جنات... ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أى: من تحت قصورها، وأشجارها، وهى أنهار ليست كأنهار الدنيا.. إنها أربعة أصناف: أنهار من ماءٍ غير آسن، يعنى: لا يمكن أن يتغير بخلاف ماء الدنيا فإنه إذا بقى يتغير،

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

وأَنْهَارٍ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٍ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٍ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى... أَنْهَارٍ تَجْرِي، أَنْهَارُ الْعَسَلِ فِيهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنَ النَحْلِ، وَاللَّبَنُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ ضَرْعٍ بَهِيمَةٍ، وَالْمَاءُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ نَبْعٍ أَرْضٍ، وَكَذَلِكَ الْخَمْرُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ زَبِيبٍ أَوْ تَمْرٍ أَوْ شَعِيرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ... أَنْهَارٌ خَلَقَهَا اللَّهُ ﷻ فِي الْجَنَّةِ تَجْرِي هَذِهِ الْأَنْهَارُ... وَرَدَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهَا أَنْهَارٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى شَقٍّ، وَلَا إِلَى سَدٍّ... يَعْنِي لَا تَحْتَاجُ أَنْ تَضَعَ لَهَا أَخْدُودًا يَمْنَعُهَا مِنَ التَّسَرُّبِ يَمِينًا وَشِمَالًا.

قال الإمام ابن القيم في النونية:

أَنْهَارُهَا فِي غَيْرِ أَخْدُودٍ جَرَتْ سَبْحَانَ مُمَسِّكِهَا عَنِ الْفَيْضَانِ

ثم إن هذا النهر يسير حسبما تريد.. إن أردت أن يسير يمينًا أو شمالًا أو للإمام أو للخلف فإنه يسير كما أردت؛ لأن الله ﷻ هو الذي سخر لك تلك الأنهار.

وقوله: ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ مساكن طيبة: طيبة في بنائها، طيبة في عُرفها، طيبة في منظرها، طيبة في مسكنها، طيبة من كل ناحية، والساكن فيها: حورٌ مقصورات في الخيام... خيام من لؤلؤ، مرتفعة من أحسن ما تراه بصرًا... قال النبي ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما»^(١) اللَّبَنُ: لبن البناء ليس من الطوب والتراب، بل هو من الذهب أو من الفضة، ولهذا وصفها الله بالطيب.

ثم إن من طيبها أن ساكنها لا يبغى عنها حولًا.. مساكن الدنيا مهما حسنت ستري ما هو أحسن من بيتك، فتقول: ليت هذا لي.

لكن في الجنة لا تبغى حولًا عن مسكنك، ولا انتقالًا... كل إنسان يرى أنه هو أنعم أهل الجنة، لكي لا ينكسر قلبه لو رأى مَنْ هو أفضل منه، ولكن يرى أنه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٧٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٨٠) كتاب الإيمان.

أنعم أهل الجنة... عكس ذلك أهل النار: أهل النار يرى الواحد منهم أنه أشد أهل النار عذاباً، وإن كان هو أهونهم.

فهذه المساكن الطيبة في جنات عدن... قال العلماء: العدن بمعنى الإقامة.. ومنه المَعْدِن في الأرض لطول إقامته بمعدنه ومكانه.

أى: في جنات إقامة لا يمكن أن تزول أبد الآبدين... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الفوز أن ينال الإنسان ما يريد، وينجو مما يخاف، العظيم: الذى لا أعظم منه.. ربح ليس فوقه ربح، عوض ليس فوقه عوض، لهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله.. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنى وإياكم منهم ولا يحرمنا هذا الفضل بسوء أعمالنا، وأن يعاملنا بعفوه، إنه على كل شىء قدير^(١).

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ يعنى ولكم أخرى تحبونها.. ثم بيّنها بقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ينصركم الله به على أعدائكم.. ولا شك أن الإنسان إذا انتصر على عدوه فإن ذلك له فوز عظيم، لأن الله تعالى يجعل عذاب عدوه على يده، كما قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۗ وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، فوائد عظيمة، إذا عذّب الله تعالى عدوك على يدك، ولهذا قال: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

وقد حصل هذا للمؤمنين في صدر هذه الأمة.. فتح الله عليهم فتوحات عظيمة، وغنموا غنائم كثيرة؛ لأنهم قاموا بما يجب عليهم من الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله ﷻ... ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى بشّر بهذه الأمور كلها من كان

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٢٨٩-٢٩١) بتصرف.

مؤمنًا بها، قائمًا بما يجب عليه من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٩٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟
قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم

(١٢٨١) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٩٤) وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ

إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ:
ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم

(٣١٧) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٢٩٥) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ:

«الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ»^(٣).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم

(١١٩) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦) كتاب الإيمان، ومسلم (٨٣) كتاب الإيمان.

المبرور: هو الذى لا يتركب صاجبة فيه معصية.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٧) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٨٥) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥١٨) كتاب العتق، ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

(١٢٩٦) وعن أنسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَعْدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ رَوْحَةٌ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

❖ قال الإمام النووي رحمته الله:

قَوْلُهُ ﷺ «لَعْدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» الْعَدَوَةُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ السَّيْرِ أَوَّلَ النَّهَارِ إِلَى الزَّوَالِ ... وَالرَّوْحَةُ السَّيْرُ مِنَ الزَّوَالِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ وَأَوْ هُنَا لِلتَّقْسِيمِ لَا لِلشَّكِّ ... وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الرَّوْحَةَ يَحْصُلُ بِهَا هَذَا الثَّوَابُ وَكَذَا الْعَدَوَةُ ... وَالظَّاهِرُ: أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِالْعُدُوِّ وَالرَّوَّاحِ مِنْ بَلَدَيْهِ، بَلْ يَحْصُلُ هَذَا الثَّوَابُ بِكُلِّ عَدَوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْغَزْوِ، وَكَذَا عَدَوَةٌ وَرَوْحَةٌ فِي مَوْضِعِ الْقِتَالِ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ يُسَمَّى عَدَوَةً وَرَوْحَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ فَضْلَ الْعَدَوَةِ وَالرَّوْحَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَثَوَابُهُمَا خَيْرٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا كُلِّهَا لَوْ مَلَكَهَا إِنْسَانٌ وَتَصَوَّرَ تَعَمُّهُ بِهَا كُلُّهَا ... لِأَنَّهُ زَائِلٌ وَنَعِيمُ الْآخِرَةِ بَاقٍ.

قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ فِي مَعْنَاهُ: وَمَعْنَى نَظَائِرِهِ مِنْ تَمْثِيلِ أُمُورِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهَا بِأُمُورِ الدُّنْيَا أَنَّهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَوْ مَلَكَهَا إِنْسَانٌ وَمَلَكَ جَمِيعَ مَا فِيهَا وَأَنْفَقَهُ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ^(٢).

❖

(١٢٩٧) وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْبُدُ اللَّهَ، وَيَدْعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»^(٣).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٠٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٩٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٠) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٣٩-٤٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٦) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨٨) كتاب الإمارة.

(١٢٩٨) وعن سهل بن سعيد رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرُّوحَةُ تَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ الْغَدَوَةُ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(١).

(١٢٩٩) وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ فِيهِ أُجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانُ»^(٢).

(١٣٠٠) وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَاطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمَّنُ فِتْنَةُ الْقَبْرِ»^(٣).

(١٣٠١) وَعَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ»^(٤).

❁ وهذه الأحاديث تتحدث كلها عن الرباط وفضل الرباط في سبيل الله ﷻ. قال الإمام ابن قدامة: معنى الرباط: (الإقامة بالثغر، مقويًا للمسلمين على الكفار... والثغر: كل مكان يُخيف أهله العدو ويخيفهم. وأصل الرباط من رباط الخيل؛ لأن هؤلاء يربطون خيولهم، وهؤلاء يربطون خيولهم.. كلُّ يُعد لصاحبه، فسُمِّيَ المَقَام بالثغور رباطًا وإن لم يكن فيه خيل.. وفضله عظيم، وأجره كبير.

قال أحمد: ليس يعدل الجهاد عندى والرباط شىء.. والرباط دفعٌ عن المسلمين، وعن حريمهم، وقوة لأهل الثغر ولأهل الغزو.. فالرباط عندى أصل الجهاد وفرعه، والجهاد أفضل منه للعناء والتعب والمشقة.

فالرباط هو الإقامة في الثغر لإعزاز الدين، ودفع خطر الأعداء عن

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٩٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٨١) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٣) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٥٦٢).

(٤) حسن: رواه الترمذى، والنسائى، والحاكم، وحسنه الألبانى في صحيح الترغيب (١٢٢٤).

المسلمين. والمراد بالثغر: مكان ليس وراءه إسلام.
فالمرابطون بمثابة الحُرَّاس لحدود البلاد الإسلامية من هجوم المشركين
والأعداء المعتدين.

وكلما كان الثغر أشد خوفًا، واحتمال الخطر عليه من الأعداء أكبر: كانت
المرابطة فيه أفضل وأعظم أجرًا.

واشترط الإمام مالك: أن يكون الثغر المقام فيه غير وطنه - يعنى بلده الذى
نشأ فيه - وذلك لأن إقامته ببلده جبرية لا فضل له فيها.

ولكن من العلماء مَنْ نظر فى ذلك بأنه قد يكون وطنه، وينوى بالإقامة فيه
دفع العدو، فينال بذلك أجر المرابطين. ومن ثمَّ اختار كثير من السلف سُكنى
الثغور لهذا السبب^(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يُقِيمُونَ بِالْمَدِينَةِ
دُونَ مَكَّةَ؛ لَمَعَانٍ مِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُرَابِطِينَ بِالْمَدِينَةِ.. فَإِنَّ الرِّبَاطَ هُوَ الْمَقَامُ بِمَكَانٍ
يُخِيفُهُ الْعَدُوُّ وَيُخِيفُ الْعَدُوَّ فَمَنْ أَقَامَ فِيهِ بِنِيَّةٍ دَفْعِ الْعَدُوِّ فَهُوَ مُرَابِطٌ وَالْأَعْمَالُ
بِالنِّيَّاتِ^(٢).

وهذه المرابطة فى سبيل الله أفضل من الإقامة للعبادة بمكة والمدينة وبيت
المقدس... حتى قال أبو هريرة: لأنَّ أرباط ليلة فى سبيل الله: أحبَّ إلىَّ من أن
أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود.

فقد اختار الرباط ليلة على العبادة فى أفضل الليالى عند أفضل البقاع.
وكذلك بعث الإمام عبد الله بن المبارك إلى صديقه الزاهد العابد الفضيل
ابن عياض يُرغِّبه فى اللحاق به فى الرباط، وترك الإقامة فى الحرمين الشريفين،
فقال له:

(١) الفتح (٧/٤٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٤١٨).

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب!
من كان يخضب خده بدموعه فتحورنا بدمائنا تتخضب

ذكر الإمام البخاري في كتاب الجهاد: باب فضل رباط يوم في سبيل الله.
وأورد فيه قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال الحافظ في الفتح: الرِّبَاطُ: مُلَازِمَةُ الْمَكَانِ الَّذِي يَبْنِي الْمُسْلِمِينَ وَالْكَفَّارِ لِجِرَاسَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ.

قال: واستدلال المصنف بالآية: اختيار لأشهر التفاسير.

فعن الحسن: ﴿أَصْبِرُوا﴾: على طاعة الله. ﴿وَصَابِرُوا﴾: أعداء الله في الجهاد.
﴿وَرَابِطُوا﴾: في سبيل الله^(١).

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون في دار البقاء.

فالصبر مع نفسك، والمصابرة بينك وبين عدوك، والمرابطة الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضًا لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه الشيطان، فيملكه ويخربه أو يشعته.

ثم أورد حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» أي أن رباط يوم وليلة على الثغور لحفظها من هجوم الأعداء خيرٌ من الدنيا بكل ما فيها من شهوات وملذات ومتاع زائل.

«وَمَوْضِعُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» فهذا القدر اليسير وهو موضع السوط خيرٌ من الدنيا وما فيها.. لأن الدنيا فانية والجنة باقية..

فهى دار الخلد التى أعدّها الله لعباده الصالحين.. وجعل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

«وَالرَّوْحَةُ» وهى السير من الزوال إلى آخر النهار «يُرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى» أى يخرج فى سبيل الله يبتغى بذلك وجه الله.

«أَوْ الْغَدَوَةُ» وهى السير أول النهار.. أيضًا فى سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ «خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا» أى: خيرٌ من نعيم الدنيا كلها لو ملكها وتنعم بها.. أو ملكها وأنفقها فى سبيل الله.. لأن الدنيا زائلة وثواب الآخرة باقٍ.

✽ وفى الحديث الثانى يخبر النبى ﷺ أن رباط يومٍ وليلة خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه... فمن رباط على الثغور يومًا وليلة فقط فهو أفضل من صيام شهرٍ كاملٍ وقيامه... وباله من أجرٍ عظيم.. وكيف لا يفوز المرابط بهذا الأجر وهو الذى جعله الله سببًا لأمن الناس وراحتهم وقيامهم بعبادة ربهم دون خوفٍ أو فزع.. فكان بذلك عونًا للناس على طاعتهم لله فنفعه عام ومُتَعَدِّدٌ.. فكان ثواب مرابطته لمدة يومٍ وليلة أفضل من ثواب صيام شهرٍ وقيامه.. فما ظنك بمن يُرابط لمدة سنة بأكملها؟!.

✽ «وإن مات فيه أُجِرَى عليه عمله الذى كان يعمل».

قال الإمام النووى رحمته الله: هَذِهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمُرَاطِبِ وَجَرِيَانُ عَمَلِهِ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَضِيلَةٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ.

وَقَدْ جَاءَ صَرِيحًا فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَاطِبَ فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

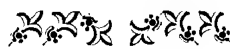
قَوْلُهُ ﷺ: «وَأُجِرَى عَلَيْهِ رِزْقُهُ» مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الشَّهَدَاءِ: ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وَالْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ أَنَّ أَرْوَاحَ الشَّهَدَاءِ تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ ^(١).

❖ قوله ﷺ: «وَأَمِنَ الْفَتَانَ».. وفي الرواية الأخرى: «وَيُؤَمِّنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ».

وقد استدل غير واحد بهذا الحديث على أن المرباط لا يسأل في قبره كالشهيد... وقال الشيخ ولي الدين العراقي: المراد به مسألة مُنكر ونكير. قال: ويحتمل أن يُراد أنهما لا يجيئان إليه ولا يختبرانه بالكلية، ويكتفى بموته مرباطاً في سبيل الله شاهداً على صحة إيمانه، ويحتمل أنهما يجيئان إليه لكنه يأنس بهما بحيث أنهما لا يضرانه ولا يروعانه، ولا يحصل له بسبب مجيئهما فتنة، اهـ^(١).

❖ وفي حديث فضالة بن عبيد. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ» فلا يزداد ثواباً ولا عقاباً «إِلَّا الْمُرْبِاطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الواقف على الثغور لحماية المسلمين في ديارهم «فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» بتنمية ثوابه والزيادة فيه.. فتظل صحيفته مفتوحة إلى يوم القيامة وتوضع فيها الحسنات كل يوم وتزداد.. وتظل هكذا إلى يوم القيامة.. وكلما ازدادت حسناته كلما ازداد نعيمه في قبره إلى يوم القيامة «وَيُؤَمِّنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ» أي: لا يسأله الملكان في القبر.

❖ وفي حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ» قال الحافظ في الفتح: نقلاً عن ابن بري، لا تنافي بينه وبين حديث «خير من صيام شهر»، لأنه يُحْمَلُ عَلَى الْإِعْلَامِ بِالزِّيَادَةِ فِي الثَّوَابِ عَلَى الْأَوَّلِ، أَوْ بِاخْتِلَافِ الْعَامِلِينَ.... وقال العلقمي: أو باختلاف العمل قلة وكثرة... وقال البيهقي في الشعب: القصد من هذا ونحوه الإخبار بتضعيف أجر المرباط على غيره، ويختلف ذلك بحسب اختلاف حال الناس نية وإخلاصاً، وباختلاف الأوقات^(٢).



(١) دليل الفالحين (٤/ ٧٣).

(٢) دليل الفالحين (٤/ ٧٤).

(١٣٠٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي فَهُوَ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ، أَوْ غَنِيمَةٍ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلِمٍ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ، وَرِيحُهُ رِيحُ مِسْكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوَدِدْتُ أَنْ أَغْزَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوْا، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزَوْا، فَأُقْتَلَ»^(١).

(١٣٠٣) وعنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَلِمُهُ يُدْمِي: اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرَّيْحُ رِيحُ مِسْكِ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يقول الحبيب المصطفى ﷺ: «تَضَمَّنَ اللَّهُ» وفي رواية: «تَكْفَلَ اللَّهُ» أي: أوجب الله ﷻ عَلَى نَفْسِهِ فَضْلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا «لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ» مجاهدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ «لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانٌ بِي وَتَصَدِيقٌ بِرُسُلِي» أي: لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ.. فلم يخرج من أجل دنيا ولا غنيمة ولا رياء ولا سُمعة ولا عصبية وإنما خرج جهادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وإيمانًا بالله وبوعده وتصدقًا برسوله وإخبارهم ورسالتهم... فالله ﷻ تكفل لمن فعل ذلك بأن يضمن له دخول الجنة والفوز بما فيها من النعيم المقيم دون سابقة عذاب إن مات شهيدًا.. أو أن يُسَلِّمَهُ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهِ فيعود إلى منزله الذي خرج منه بما نال من الأجر والثواب والغنيمة.

وَهَذَا الضَّمَانُ وَالْكَفَالَةُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة - وروى البخاري بعضه (٣٦) كتاب الإيمان.

«الْكَلِمُ»: الجرح.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٣٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٨٧٦) كتاب الإمارة.

أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿١﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ» قَالَ الْقَاضِي: يَحْتَمِلُ أَنْ يَدْخُلَ عِنْدَ مَوْتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الشُّهَدَاءِ: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ عِنْدَ دُخُولِ السَّابِقِينَ وَالْمُقَرَّرِينَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ وَلَا مُوَاخَذَةٍ بِذَنْبٍ وَتَكُونُ الشَّهَادَةُ مُكَفِّرَةً لِذُنُوبِهِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ضَمِنَ أَنَّ الْخَارِجَ لِلْجِهَادِ يَنَالُ خَيْرًا بِكُلِّ حَالٍ فَإِمَّا أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ بِأَجْرٍ وَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ بِأَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ.. قَوْلُهُ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كَلِمَ لَوْنُهُ لَوْ نُ دَمٌ وَرِيحُهُ مِسْكٌ» أَمَّا الْكَلِمُ فَهُوَ الْجُرْحُ وَيُكَلِّمُ أَيْ يُجْرِحُ... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّهِيدَ لَا يَزُولُ عَنْهُ الدَّمُ بِغَسَلٍ وَلَا غَيْرِهِ... وَالْحِكْمَةُ فِي مَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى هَيْئَتِهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَاهِدٌ فَضِيلَتِهِ وَبَذْلُهُ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى... وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْيَمِينِ وَأَنْعِقَادِهَا بِقَوْلِهِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» وَنَحْوِ هَذِهِ الصَّيْغَةِ مِنَ الْحَلْفِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الذَّاتِ وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا... قَالَ أَصْحَابُنَا: الْيَمِينُ تَكُونُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ أَوْ مَا دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ ^(١).

قَوْلُهُ ﷺ: «لَوْ لَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتَ خِلَافَ سِرِّيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجْدَ سَعَةٍ، فَأَحْمِلُهُمْ وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً فَيَتَّبِعُونِي»، فَالنَّبِيُّ ﷺ يُوَدِّعُ وَيُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ فِي كُلِّ غَزْوَةٍ وَسَرِيَّةٍ وَلَا يَتَخَلَّفُ أَبَدًا عَنِ الْجِهَادِ، وَلَكِنْ هُنَاكَ فِئَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ عَنْدهُمْ مَوْئِدَةٌ لِيَخْرُجُوا لِلْجِهَادِ، وَلَيْسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ مَوْئِدَةٌ تَكْفِيهِمْ.. فَتُضْطَرُّ هَذِهِ الْفِئَةُ أَنْ تَتَخَلَّفَ عَنِ الْخُرُوجِ، وَتُسْتَشْعَرُ بِالْحَرْجِ الشَّدِيدِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٣٠-٣١) بتصرف.



لعدم الخروج وعدم الصحبة، لذلك أشفق عليهم النبي ﷺ ورأف بحالهم وقعد خلف السرايا.

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَفِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنَ الشَّفَقَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَالرَّأْفَةِ بِهِمْ وَأَنَّهُ كَانَ يَتْرُكُ بَعْضَ مَا يَخْتَارُهُ لِلرَّفَقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَصَالِحُ بَدَأَ بِأَهْمَّهَا وَفِيهِ مُرَاعَاةُ الرَّفَقِ بِالْمُسْلِمِينَ وَالسَّعْيِ فِي زَوَالِ الْمَكْرُوهِ وَالْمَشَقَّةِ عَنْهُمْ. قَوْلُهُ ﷺ: «لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل» فِيهِ فَضِيلَةُ الْغَزْوِ وَالشَّهَادَةِ ... وَفِيهِ تَمَنَّى الشَّهَادَةِ وَالْخَيْرِ وَتَمَنَّى مَا لَا يُمْكِنُ فِي الْعَادَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ ... وَفِيهِ أَنَّ الْجِهَادَ فَرْضُ كَفَايَةٍ لَا فَرْضُ عَيْنٍ^(١).

❖ وفي الحديث فوائد جمة تظهر في الفوائد التالية:

الفائدة الأولى: حرص النبي ﷺ على أعمال الخير والتقرب إلى ربه ﷻ: «لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية»، وقوله: «لوددت أن أغزو في سبيل الله».

الفائدة الثانية: عِظَمُ أمر الجهاد في سبيل الله وجزيل ثوابه، حتى إن النبي ﷺ يقسم بربه أنه يود أن يخرج في كل سرية لولا إثارة رفع الحرج عن بعض أفراد الأمة. الفائدة الثالثة: قد يريد المسلم عمل خير يتغنى به وجه الله ﷻ ولكن يُحال بينه وبين هذا العمل، لسبب خارج عنه، مثل عدم وجود المئونة.

الفائدة الرابعة: في الحديث ما يثبت أن النبي ﷺ عبدٌ من عباد الله، يفتقر إلى الله فيما يفتقر إليه كل العباد، مثل الرزق والصحة وطلب جلب النفع ودفع الضرر، إلا أنه فَضِّلَ على الأنبياء وجميع الناس بما ورد في الكتاب والسنة.

الفائدة الخامسة: أن الله لا يُكلف نفساً إلا وسعها.. فهؤلاء لم يخرجوا لعدم

(١) مسلم بشرح النووي (٣٢/١٣).

الاستطاعة، ومع عدم خروجهم لم يتوجه إليهم اللوم أو العتاب، بل قعد الرسول ﷺ خلف السرية تطييباً لخاطرهم.

الفائدة السادسة: هل الذى يقعد خلف السرية لعذر له أجر أم لا؟ نعم له أجر، لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة فقال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم». قالوا: يا رسول الله: وهم بالمدينة؟! قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر»^(١).

الفائدة السابعة: يُشترط لضمان حصول المجاهد على أجر الجهاد، ثلاثة شروط: الأول: النية الخالصة: التى لا تشوبها شائبة، مثل الرياء، والسمعة، والحمية قال: «لا يخرج به إلا جهاداً فى سبيلى».

الثانى: الإيمان بالله: فهو الذى دفعه للخروج يحتسب الأجر والثواب من الله. الثالث: التصديق برسل الله: ويتضمن الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أوامر ونواهٍ، والتصديق بما أبلغونا عن أجر وثواب الخروج فى سبيل الله. وهذا هو الذى دفعهم للخروج.. وهذا ينطبق على جميع الأعمال التى نتقرب بها إلى الله.

الفائدة الثامنة: قوله: «حق على الله»، أوجبه هو على نفسه، أن يكافئ المجاهد فى سبيله بإحدى الثلاثة على الأقل، إما الجنة فى حال موته فى سبيل الله، وإما الأجر فى حال عدم النصر فى المعركة، وإما الغنيمة والأجر فى حال النصر، وهذا من البركة العظيمة للجهاد ألا يخرج منه المسلم صفر اليدين.

الفائدة التاسعة: فى الحديث عظيم حب الصحابة للنبي ﷺ إذ يشق عليهم أن يخرج الرسول ﷺ فى الغزو، ويتخلفوا عنه.

الفائدة العاشرة: فى الحديث أن للخروج فى سبيل الله شروطاً حتى يتكفل الله

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٤٢٣) كتاب المغازى.

بالتواب، «لا يُخرجه إلا جهادًا في سبيلي»، وقال: «ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ في سبيلِ الله إلا جاء يوم القيامة»، فاشترط أن يكون لله وإن كان جرحًا يسيرًا.

ولما كانت النيات لا يعلمها إلا الله، فلا يحق لنا أن نحكم لأحد أنه مات شهيداً، أو نحكم على أحد أنه لم يمت شهيداً.

الفائدة الحادية عشرة: يُستثنى من ذلك - أى حكمنا بالشهادة على أحد من المسلمين بعينه - مَنْ حكم له الله أو رسوله ﷺ أنه مات شهيداً أو سيموت شهيداً... كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة كثير.

الفائدة الثانية عشرة: ينبني على ذلك أن الشهداء ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة: وهو الذى قاتل لتكون كلمة الله هى العليا
بإخلاص ونية.

والثاني: شهيد الدنيا دون الآخرة: وهو الذي يموت سُمعة ورياء.

والثالث: شهيد الآخرة دون الدنيا: وقد عدّهم النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الشهداء: الغرق، والمطعمون، والمبطلون، والهدم»^(١) وغيرهم كثير.. فقد ورد ذكرهم في أحاديث كثيرة.

❁ وأحكام الشهداء على النحو التالي:

الأول: لا يُغَسَّل ولا يُكَفَّن في الدنيا ويدخل الجنة بحول الله.

والثاني: لا يُغسل ولا يُكفن في الدنيا، وأمره في الآخرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له.

والثالث: يُغَسَّلُ وَيُكْفَنُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ، وفي الآخرة يُرْجَى لَهُ الْجَنَّةُ بِشَهَادَتِهِ^(٢).



(١) صحيح: رواه البخاري (٧٢٠) كتاب الأذان.

(۲) شمائل الرسول ﷺ / الشيخ أحمد عبد الفتاح (۱/ ۳۸۵-۳۸۸) بتصرف كبير.

(١٣٠٤) وعن معاذ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوقَ نَاقَةٍ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً، فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرٍ مَا كَانَتْ: لَوْنُهَا الزَّعْفَرَانُ، وَرِيحُهَا كَالْمِسْكِ»^(١).

❁ أَيَّا كَانَ حَكْمُ الْجِهَادِ فِي الْإِسْلَامِ: فَرَضُ كِفَايَةٍ، أَمْ فَرَضُ عَيْنٍ، أَمْ تَطَوُّعًا، فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنَزَلَةَ الْجِهَادِ فِي دِينِ اللَّهِ لَا تَعْدِلُهَا مَنَزَلَةٌ.. لِأَنَّ الْجِهَادَ هُوَ الَّذِي يَحْمِي الْأُمَّةَ فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا، وَيَحْرُسُهَا مِنْ أَعْدَائِهَا الْمُتَرَبِّصِينَ بِهَا.. يَحْمِي دِينَهَا وَعَقِيدَتَهَا، وَيَحْمِي أَرْضَهَا وَحُرْمَتَهَا، وَيَحْمِي اسْتِقْلَالَهَا وَسِيَادَتَهَا، فَهُوَ حَصْنُ الْأُمَّةِ الْحَصِينِ، وَهُوَ رُكْنُهَا الرُّكْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَصْنَعُ الْأَبْطَالَ، وَيُعِدُّ الرِّجَالَ، الَّذِينَ يَبْذُلُونَ النَّفْسَ وَالنَّفِيسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَلَا غُرُو أَنْ يُعَدَّ ذِرْوَةُ سَنَامِ الْإِسْلَامِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثٍ مَعَاذُ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِرَأْسِ الْأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

وتكاثرت آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم، تحث على الجهاد في سبيل الله، وتبين فضله، ومكانة أصحابه عند الله، وأن المجاهد بمنزلة الذي يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا يفتر أبدًا.

❁ وفي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوقَ نَاقَةٍ» وهو مقدار ما بين الحلبتين.. وذلك كناية عن أنه قاتل فترة يسيرة من الزمن لا تتعدى الزمن الذي يكون بين الحلبتين... «وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» ففيه بشارة لمن جاهد في سبيل الله طلبًا لمرضاته بالموت على الإسلام ودخول الجنة.. فإن الجنة لا تكون إلا لأهل الإيمان والتوحيد.

«وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي: بسلاح الكفار «أَوْ نُكِبَ نَكْبَةً» أي أُصِيبَ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤١٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

بسبب وقوعه من على دابته أو وقوع سلاحه عليه أو أُصيب في حادث.

«فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت» أى: تجيء يوم القيامة ودمها أغزر

مما كانت في غير ذلك الوقت.

«لونها الزعفران، وريحها كالمسك» فاللون لون الزعفران.. والريح يكون

كالمسك.

✽ فالشاهد من هذا الحديث أن الله ﷻ يكافئ على العمل اليسير بالأجر

الكبير.. فمن جاهد في سبيل الله تلك الفترة اليسيرة التى لا تزيد عن الزمن الذى

يكون بين الحربتين فإن الله ﷻ يُوجب له الجنة.. وأما الذى يُجرح من عدوه أو

يقع من على دابته أو يقع عليه سلاحه فإن جرحه يأتى يوم القيامة كأغزر ما

يكون.. لونه كلون الزعفران وريحه كالمسك ليكون شاهداً له يوم القيامة على

أنه جاهد في سبيل الله... فيفوز بأجر المجاهدين في أعلى درجات الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٠٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: مرَّ رجلٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ،

بشعبٍ فيه عُيْنَةٌ من ماءٍ عَذْبَةٍ، فأعجبته، فقال: لو اعتزلتُ النَّاسَ فأقمتُ في هذا

الشَّعبِ، ولنَّ أفعلَ حتى أستاذنَ رسولَ الله ﷺ.. فذكر ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال:

«لا تفعلْ، فإنَّ مقامَ أحدِكُمْ في سبيلِ الله أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا

تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ؟ اغزُوا في سبيلِ الله، مَنْ قَاتَلَ في سبيلِ الله

فَوَاقٍ نَاقَةً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً من أصحاب الرسول

ﷺ مرَّ بشعبٍ.. أى: بطريقٍ في الجبل.. فوجد في ذلك الشعب «عُيْنَةٌ من ماءٍ

(١) حسن: رواه الترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٧٣٧٩).

والفوائد: مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ.

عذبة فأعجبته.. لقد وجد عينا صغيرة لكنها عذبة صافية تروق بها الأعين وتبتهج بها الأنفس.. فأعجبته وفرح بها فرحا شديدا..

فقال في نفسه: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب مُنفردا لأعبد الله عز وجل.. لكنه فجأة تذكر أنه ليس من حقه أن يتخذ هذا القرار إلا بعد أن يرجع إلى النبي ﷺ ويستشيريه في ذلك... وهذا يدل على ما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ من لزوم الأدب مع النبي ﷺ.. وأنه كان لا يقرر أحدهم أمرا ولو كان خاصا إلا بعد الرجوع إلى النبي ﷺ...

فذهب إلى النبي ﷺ وذكر له ذلك واستشاره فنهاه النبي ﷺ عن ذلك وقال له: «لا تفعل، فإنَّ مقامَ أحدكم» أى: قيام أحدكم «في سبيلِ الله أفضلُ من صلاتِهِ في بيتهِ سبعينَ عامًا» أى أن مقام أحدكم في الجهاد ومقاتلة الكفار والدفاع عن الإسلام وحُرَمات المسلمين أفضل من صلاته النافلة في بيته سبعين عامًا.. والمقصود هنا الكثرة وليس التحديد... فإذا هجم الكفار على بلاد المسلمين وخشى استيلاؤهم عليها فالانشغال بالجهاد حيثُ أفضل من صلاة النافلة لما فيه من إنقاذ المسلمين وحُرَماتهم.

❦ ثم قال له ﷺ: «ألا تُحبُّون أن يغفرَ اللهَ لكم ويُدخلكم الجنةَ؟» أى: هل تحبون أن يغفر الله لكم مغفرة تامة ويُدخلكم الجنة مع السابقين دون سابقة حسابٍ ولا عذاب... والجواب معلوم... ولا يحتاج إلى تعليق.. فالكل يتمنى المغفرة والرضوان ودخول الجنة... وكان النبي ﷺ يقول له ولهم: فإن أردتم ذلك: «اغزُوا في سبيلِ الله» أى: ذوموا على الغزو والجهاد في سبيل الله..

وحتى لا يظن أحد أنه لن ينال المغفرة والجنة إلا بأن يظل طوال حياته مجاهداً في سبيل الله.. قال ﷺ: «لِيُطْمِئِنَّ الجميع: «مَنْ قَاتَلَ في سبيلِ الله فُواقَ ناقة» أى: أن مَنْ قاتل وجاهد في سبيل الله فواق ناقة.. وهو الوقت اليسير الذى يكون بين الحربتين.

قَالَ فِي الْقَامُوسِ: الْفَوَاقُ هُوَ مَا بَيْنَ الْحَلَبَتَيْنِ مِنَ الْوَقْتِ أَوْ مَا بَيْنَ فَتْحِ يَدِكَ وَقَبْضِهَا عَلَى الضَّرْعِ ... وَقَالَ فِي الْمَجْمَعِ هُوَ مَا بَيْنَ الْحَلَبَتَيْنِ لِأَنَّهَا تُحَلَبُ ثُمَّ تُتْرَكُ سَرِيعَةً تُرْضِعُ الْفَصِيلَ لِتُدْرَأَ ثُمَّ تُحَلَبُ.. (١).

فمن قاتل وجاهد في سبيل الله مقدار تلك الفترة اليسيرة كان جزاؤه عند الله أنه «وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» فَرَبِحَ الْبَيْعَ لِمَنْ بَاعَ نَفْسَهُ لِلَّهِ ﷻ لِيَفُوزَ بِجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٠٦) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». ثُمَّ قَالَ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بَأْيَاتِ اللَّهِ لَا يَقْتَرُ: مِنْ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٢).

وفي رواية البخاري، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ؟ قَالَ: «لَا أَجِدُهُ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقْتَرُ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ» فقال: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟

❦ ففي هذا الحديث أنه قال جماعة للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟.. فهم يعلمون أن الجهاد ذروة سنام الإسلام.. لكنه قد لا يكون هناك جهاد في كل وقت.. فهم يريدون عملاً يعوضهم عن أجر الجهاد في سبيل الله ليس من أجل ترك الجهاد ولكن من أجل أن ينشغلوا بهذا العمل إلى أن يحين وقت الجهاد.. فلما سألوا النبي ﷺ عن الشيء أو العمل الذي يعدل الجهاد قال لهم النبي ﷺ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» أي أن هناك ما يعدل الجهاد لكن لا يقدر عليه أحد...

(١) تحفة الأحوذى (٣٩/٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٨٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٨) كتاب الإمارة، واللفظ له.

فأعادوا السؤال عليه مرتين أو ثلاثاً.. والنبي ﷺ مُشْفِقٌ عليهم فيقول لهم: «لا تستطيعونه».. فلما رأى إصرارهم على معرفة ذلك قال لهم ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله» أى: صفته العظيمة الشأن التى كادت أن تكون كالمثل «كمثل الصائم القائم القانتِ بآياتِ الله لا يَفْتُر: من صلاةٍ، ولا صيامٍ، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله» وكأن النبي ﷺ يقول لهم: إن أراد أحدكم أن يعمل عملاً يوازى أو يكون قريباً من عمل المجاهد في سبيل الله.. فعليه أن يظل صائماً قائماً مطيعاً لله تالياً لكتاب الله ﷻ وإنَّ منذ أن يخرج المجاهد من بيته للجهاد وإلى أن يرجع.. وقد يمكث المجاهد عامًا أو عامين في الجهاد أو أكثر من ذلك.

ومن في الدنيا يستطيع أن يفعل ذلك... فالمجاهد منذ أن يخرج وإلى أن يعود له مثل أجر الصائم الذى لا يُفطر والقائم الذى لا يَفْتُر... فمن أراد أن ينال مثل أجره فليفعل مثله... وهذا دليل على أنه لا شىء يوازى أجر الجهاد في سبيل الله.

❁ ولذا جاء في الرواية الأخرى أن رجلاً قال للنبي ﷺ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادُ؟ قال له النبي ﷺ: «لا أجده».. فلو علم النبي ﷺ عملاً يوازيه لأخبره بذلك.. ثم قال له: «هل تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَقُتِرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟». فقال الرجل: ومن يستطيع ذلك؟

ﷺ

(١٣٠٧) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بَعْنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَى مَتْنِهِ، يَتَغَنَّى الْقَتْلَ أَوْ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ أَوْ شَعْفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٩) كتاب الإمامة.

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن خير أحوال عيش الناس فقال ﷺ: «مَنْ خَيْرَ مَعَاشٍ النَّاسِ لَهُمْ».. المعاش هو العيش وهو الحياة.. وكأن التقدير: من خير أحوال عيشهم «رَجُلٌ مُمَسِّكٌ بَعَنَانٍ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أى: رجل ممسك بحبل فرسه وهو مستعدٌ في أى لحظة للخروج للجهاد في سبيل الله.. فليس في قلبه أى تعلق بزهرة الدنيا.. بل هو مستعدٌ للجهاد من أجل حماية المسلمين في بلادهم ومن أجل أن يكون عونًا للمسلمين على أن يعيشوا فى أمانٍ وأن يعبدوا الله فى أمانٍ.. فهو قد أوقف حياته لله عَزَّوَجَلَّ من أجل أن يجاهد أعداء الله.. ولذا فهو مُمَسِّكٌ بَعَنَانٍ فَرَسِهِ علامة على الاستعداد الدائم..

«يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَى مَتْنِهِ» فهو كلما سمع هَيْعَةً وهى الصوت عند حضور العدو.. أو فَرْعَةً وهى النهوض إلى العدو طار على ظهر فرسه.. أى: أسرع إلى الجهاد ولم يتردد حتى شبَّهه النبي ﷺ بأنه لا يُسرِع ولكنه يطير من شدة سرعته وإقباله على الجهاد.

«يَبْتَغِي الْقَتْلَ أَوْ الْمَوْتَ مِظَانَةً» أى أنه يطلب الشهادة ويبحث عن الموت فى موطنه التى يُرَجَى فيها لشدة رغبته فى الشهادة.

❦ فهذا من خير معاش الناس.. وهذه أفضل حياة.. ولكن ليس كل الناس يقدرُونَ على الجهاد.. فهل يُحَرِّمُ باقى الناس من خير المعاش والحياة؟.. كلا.. فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجل الثانى الذى وصف حياته بأنها خير المعاش أو خير الحياة... فمن هو يا ترى؟

قال النبي ﷺ: «أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ» أى: رجل يعيش حياة بسيطة ومعه عددٌ قليل جدًا من الغنم.. «أَوْ شَعْفَةً مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ» أى: يعيش فى أعلى الجبل.. «أَوْ بَطْنٍ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ» أو يعيش فى بطن وادٍ من تلك الأودية التى بين الجبال.. أى أنه يعيش حياة بسيطة ومعه مجموعة من الغنم يعيش على لبنها

ولحمها القليل ويرعاها ويكرم مَنْ حوله من جيرانه الفقراء.. ولكنه لا ينسى حق ربه عَزَّوَجَلَّ.. ولذا قال ﷺ: «يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ» فهو لا يصلي فحسب بل يقيم الصلاة ويصليها كما صلاها النبي ﷺ.. ويؤتي الزكاة مع أنه فقير لكنه يتصدق على الفقراء والمساكين من حوله ولا ينقطع أبداً عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ.. ولذا قال النبي ﷺ: «وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ» أى: يعبد ربه حتى يأتيه الموت. ثم قال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ» فهو لا يؤذى أحداً أبداً.. بل يكرم الناس ويحسن إليهم ويصبر على أذاهم. فهذا أيضاً من خير معاش الرجل.

❦ وإن كان الأصل أن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيراً من المؤمن الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم.. لكن إن خشى المسلم على نفسه من أن يُفْتَنَ فى دينه فالعُزلة خيرٌ له من الفتنة.

بِإِذْنِ اللَّهِ

(١٣٠٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

(١٣٠٩) وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» فعجب لها أبو سعيد، فقال: أَعِدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

❦ ففى الحديث الأول يخبر النبي ﷺ أن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله عَزَّوَجَلَّ للمجاهدين فى سبيل الله.. ونحن نعلم أن درجات الجنة لا يُحصى عددها إلا الله عَزَّوَجَلَّ... وأن المؤمن يرتقى فى تلك الدرجات برحمة الله أولاً ثم بفضل

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٠) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٤) كتاب الإمارة.



أعماله الصالحة التي يتقرب بها إلى الله..

فعل سبيل المثال فقد أخبر النبي ﷺ أن قارئ القرآن يرتقى في درجات الجنة بعدد الآيات التي يحفظها من كتاب الله ﷻ قال ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقُ وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَإِنْ مَنَزَلَتْكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرُؤُهَا»^(١).

وهنا في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن مائة درجة أعدها الله ﷻ للمجاهدين في سبيل الله.. وهى درجات عالية في أعالي الجنان.. ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.. فتأمل كم تبلغ المسافة بين السماء والأرض لتعلم أن هذه درجة واحدة.. وللمجاهدين مائة درجة.. كل درجة مسيرة ما بين السماء والأرض.

❁ وفي الحديث الثانى قال النبي ﷺ «مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» أى أن: مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَخَالَقًا وَرَازِقًا وَمُدَبِّرًا وَمَعْبُودًا وَمُطَاعًا.. فأطاعه في كل ما يأمر به وانتهى عن كل ما نهاه عنه وتحاكم إلى شرعه وآمن بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.. ورضى بالإسلام دينًا فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلًا ولم يرض بدين سوى دين الإسلام..

ورضى بمحمد ﷺ رسولاً فأحبه واتبعه وصدقته في كل ما أخبر عن ربه... وجبت له الجنة.. والذي أوجبها له هو الله (جل وعلا)... فعجب أبو سعيد فرحاً بهذا الكلام وقال للنبي ﷺ أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ.. فأعادها عليه النبي ﷺ ثم قال له: «وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» فتعجب أبو سعيد وقال له بكل لهفة: وما هى يا رسول

(١) صحيح نزواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨١٢٢).

الله؟ فقال له ﷺ: «الجهادُ في سبيل الله، الجهادُ في سبيل الله».

وهو ما أخبر عنه النبي ﷺ في الحديث الذي قبله أن الله عز وجل أعدَّ للمجاهدين في سبيل الله مائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١٠) وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري، قال: سمعتُ أبي (رضي الله عنه)، وهو بحضرة العدو، يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» فقام رجلٌ رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أأنت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه، فقال: «أقرأ عليكم السلام» ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتل^(١).

❁ ففي هذا الحديث يحكي أبو بكر بن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنه سمع أباه وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».

يا ترى ما الذي حمل أبا موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن يقول هذا في تلك اللحظة؟ والجواب: أنهم كانوا في تلك اللحظة قد وقفوا في ساحة الجهاد أمام العدو فأراد أبو موسى أن يحفزهم على الجهاد وأن يشجعهم على قتال العدو ليجدوا النية ويخلصوا في جهادهم عسى الله أن يرزقهم الشهادة فيفوزوا بالجنة.. فقال لهم جميعاً: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» قال العلماء: معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريقٌ إلى الجنة وسببٌ لدخولها. فقام رجلٌ رث الهيئة يلبس ثياباً قديمة ويبدو عليه الفقر والفاقة فقال لأبي موسى: يا أبا موسى أأنت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم.. ولم يستحلفه لأنه يعلم أن هذا الجيل هو جيل الصدق والأمانة والإخلاص فليس بينهم ولا حولهم كذاب.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٢) كتاب الإمامة.

فما كان من الرجل إلا أن رجع إلى أصحابه وقال لهم: أقرأ عليكم السلام.. ثم كسر جفن سيفه حتى لا يضعه في الغمد مرة أخرى وألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو وظل يقاتل بالسيف ويقتل في العدو حتى قُتل رضي الله عنه.

وهكذا كانوا يتفاعلون مع كلام النبي ﷺ.. فبمجرد أن علم أن النبي ﷺ قال هذا.. قام وقَدَّم روحه ونفسه لله عَزَّوَجَلَّ.. فيا ترى.. هل ستلبس المسلمة حجابها إذا علمت أن النبي ﷺ أمرها بالحجاب؟.. وهل سيصلي الشاب المسلم إذا علم أن النبي ﷺ أمره بالصلاة؟... يا ليتنا نتفاعل مع كلام النبي ﷺ كما تفاعل هذا الرجل الذي قَدَّم نفسه لله عَزَّوَجَلَّ لأنه سمع النبي ﷺ قال: « إِنَّ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١١) وعن أبي عَبْسٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبْرِ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ»^(١).

❁ ويا له من فضلٍ عظيم... فمن خرج مجاهدًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ولم يبدأ في الجهاد والحرب بعد.. بل إنه ما زال في طريقه إلى العدو.. فأصاب الغبار والتراب قدمه.. أو جاء الغبار على قدمه أو حذائه.. فذلك الغبار الذي لامس قدمه أو حذائه يمنع وصول النار إليه يوم القيامة.. فالمعنى أن مجرد المسّ ينتفى بوجود الغبار المذكور.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى عَظِيمِ قَدْرِ التَّصَرُّفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... فَإِذَا كَانَ مُجَرَّدُ مَسِّ الْغُبَارِ لِلْقَدَمِ يُحَرِّمُ عَلَيْهَا النَّارَ فَكَيْفَ بِمَنْ سَعَى وَبَذَلَ جَهْدَهُ وَاسْتَنْفَدَ وَسْعَهُ؟^(٢)

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨١١) كتاب الجهاد والسير.

(٢) فتح الباري (٣٦/٦).

(١٣١٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يُلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ ، وَلَا يَجْتَمِعُ عَلَى عَبْدٍ غَبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ »^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٥٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن عَيْنَيْنِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ... ولم يقل ﷺ: لَا تَحْرُقُهُمَا النَّارُ.. فالنار لَا تَمْسُهُمَا مَجْرَدُ الْمَسِّ.. فَيَا تَرَى مَنْ هُمَا؟... قَالَ ﷺ: «عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ..» أَيْ: عَيْنٌ بَكَى صَاحِبُهَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.. سَوَاءٌ كَانَ يَصَلِّي أَوْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَتَأْتُرُ بِكَلَامِ اللَّهِ ﷻ.. أَوْ تَذْكُرُ وَهُوَ قَائِمٌ يَصَلِّي يَوْمَ وَقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ فَبَكَى.. أَوْ كَانَ يَتَذَكَّرُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَقْصِيرَهُ هُوَ فِي شُكْرِ اللَّهِ ﷻ فَبَكَى.. أَوْ جَلَسَ يَتَذَكَّرُ ذُنُوبَهُ وَأَثَامَهُ فَأَشْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ فَبَكَى..

فهذا الإنسان يكون يوم القيامة في ظل عرش الرحمن (جل وعلا) كما أخبر النبي ﷺ حيث قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ. يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: - وَذَكَرَ مِنْهُمْ - وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ».... وكذلك يوم القيامة لَا تَمْسُهُ النَّارُ.

أما الرجل الثاني الذي لَا تَمْسُهُ النَّارُ.. فهو صاحب العين التي باتت تحرس في سبيل الله ﷻ.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٧٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وأبو يعلى، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١١٢)، (٤١١٣).

ومن المعلوم أن المسلمين إذا كانوا في أرض الجهاد فإنهم يحتاجون إلى مَنْ يحرسهم حتى لا يُباغتهم العدو فجأة وهو نائمون أو إذا كانوا يُصلون أو يأكلون .. فلا بد من حارسٍ يُنذره بمقدوم العدو.. ولا بد من حارسٍ ليحرس قائد المسلمين لئلا يغتاله العدو.

وهناك أحاديث كثيرة في فضل الحراسة في سبيل الله سأكتفى بذكر حديث واحد منها.. وهو قول النبي ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بَلِيلَةٍ أَفْضَلُ مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ - قالوا: بلى يا رسول الله. فقال ﷺ: - حَارِسُ حَرَسٍ فِي أَرْضِ خَوْفٍ، لَعَلَّهُ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ»^(١). فمن حرس في سبيل الله ﷻ لا تمسه النار أبداً يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١٤) وعن زيد بن خالد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ عَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ عَزَا»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١٥) وعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَاتِ ظِلُّ فُسْطَاطٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْيَحَةُ خَادِمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ طَرَوْقَةٌ فَحَلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣). ✽ من كمال رحمة الله ﷻ أنه لا يحرم أحداً من فضله وجوده وكرمه... فالذى يستطيع أن يخرج للجهاد فقد فاز بالأجر والثواب العظيم إن خرج مخلصاً لله ﷻ... والذي لا يستطيع أن يخرج فإنه يستطيع أن يجهز غَازِيًا وذلك بأن يزوده بالسلاح والعتاد والراحلة وينال مثل أجره... فإن لم يستطع

(١) صحيح: رواه الحاكم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢٣٢).

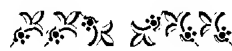
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٥) كتاب الإمارة.

(٣) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١١٠٩).

فإنه يخلفه في أهله بخير وينال مثل أجره.. فإن لم يستطع فليس هناك أقل من أن يقدم للغازي إحدى ثلاث من التي ذكرها النبي ﷺ: إما أن يعطى المجاهدين فسطاطاً: أى خيمة يستظلون بها... فالمجاهد يدخل أرض الجهاد ويقاتل في الشمس المحرقة فإذا عاد إلى معسكر المجاهدين فإنه يحتاج أن يستظل تحت ظل خيمة.. فمن تصدق بتلك الخيمة فاز بثواب كل من يستظل في ظلها...

وإما أن يمنح المجاهدين خادماً لهم يخدمهم ويعد لهم الطعام والشراب ويجهز لهم السلاح ويخدمهم.. ليكون ذلك في ميزان حسناته.. وهذا هو ما يُسمى (منيحة خادم في سبيل الله)... وإما أن يعطى المجاهد (طروقة فحل) وهى الناقة التى صلحت لطرق الفحل وأقل سنّها ثلاث سنين ودخلت فى الرابعة.. فياخذها المجاهد ليذهب بها إلى أرض الجهاد.. فيشاركه الذى أعطاه تلك الناقة فى الأجر دون أن يُنقص من أجره شيئاً..

فما أعظم هذا الدين الذى يفتح للجميع باب الأجر والثواب حتى لا يُحرم أحد من أجر الجهاد ولو بالمشاركة التى لا تكلفه إلا القليل مع استحضر النية الصالحة.



(١٣١٦) وعن أنسٍ رضي الله عنه، أن فتى من أسلم قال: يا رسول الله إننى أريد الغزو وليس معى ما أتجهز به، قال: «أنت فلاناً، فإنه قد كان تجهز فمرض» فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: أعطنى الذى تجهزت به، قال: يا فلانة، أعطيه الذى كنت تجهزت به، ولا تحبسى عنه شيئاً، فوالله لا تحبسى منه شيئاً فيبارك لك فيه^(١).

❦ ففى هذا الحديث يحكى أنس بن مالك رضي الله عنه أن فتى من قبيلة أسلم جاء

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٤) كتاب الإمارة.

إلى النبي ﷺ وكله رغبة في أن يذهب إلى الجهاد في سبيل الله لعله يفوز بالشهادة فيشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته فيدخلهم الجنة... فلما ذهب إلى النبي ﷺ قال له: يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به.. ومع أنه معذور لأنه ليس عنده السلاح الذي يجاهد به إلا أنه عنده شوقٌ عجيب للجهاد.. فدفعه ذلك الشوق لأن يذهب إلى النبي ﷺ ويقول له ذلك.

فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال له: «إئت فلاناً، فإنه قد كان تجهّزَ فمَرِضَ».. فذهب هذا الفتى الأسلمى إلى ذلك الرجل المريض وقال له: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقرِّئك السَّلامَ... فهنيئاً له أن النبي ﷺ يُقرئه السلام...

قال له: إنَّ رسولَ الله ﷺ يُقرِّئك السَّلامَ ويقولُ: أعطني الذي تجهّزَ به... فلم يُقلَّ الرجل: ولماذا أعطيه سلاحى وعتادى وفرسى.. فقد يُقتل وأفقد كل ذلك ولا أستطيع الجهاد بعد اليوم... بل كان يعلم يقيناً أنه إن أعطاه السلاح فقد فاز بأجر مَنْ جهّزَ غازياً.. وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا» فكانه غزا وهو نائم في فراشه...

بل إنه يعلم أيضاً أن هذا الشاب إن قُتل وفاز بالشهادة فإنه سيشاركه في الأجر وسينال أجر الشهادة أيضاً وهو نائم في فراشه.. ففي كل الأحوال هو فائزٌ إن شاء الله.

ولذا قال لامرأته في التو واللحظة: يا فلانة، أعطيه الذي كُنْتُ تجهّزْتُ به، ولا تحبسى عنه شيئاً، فوالله لا تحبسى منه شيئاً فيُبارك لك فيه.

وانتهى الحديث عند ذلك.. وكأنك تقرأ المشهد بأن الفتى قد أخذ السلاح والفرس وذهب وجاهد في سبيل الله.. وسواء كان قد قُتل ونال الشهادة أم عاد مرة أخرى... فقد فاز هذا الرجل المريض بأجر الجهاد في سبيل الله ﷻ.

(١٣١٧) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث إلى بنى لحيان، فقال: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا، وَالْأَجْرُ بَيْنَهُمَا»^(١).
وفي رواية له: «لِيُخْرَجَ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ رَجُلٌ» ثم قال للقاعد: «أَيُّكُمْ خَلَفَ الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج».
✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٨٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣١٨) وعن البراء رضي الله عنه، قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ مُقَنَّعٌ بالحديد، فقال: يا رسول الله أَقَاتِلْ أَوْ أُسَلِّمْ؟ فقال: « أُسَلِّمْ ، ثُمَّ قَاتِلْ » فَأُسَلِّمْ، ثُمَّ قَاتِلْ فَقُتِلَ، فقال رسول الله ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا»^(٢).
✽ ففي هذا الحديث يحكى البراء رضي الله عنه أن رجلاً مُقَنَّعًا بالحديد جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله أَقَاتِلْ أَوْ أُسَلِّمْ؟.. إنه يسأل النبي ﷺ هذا السؤال لأنه قابل النبي ﷺ في إحدى الغزوات.. ولعلها غزوة أحد.. ومن الواضح أنه كان عازمًا على الإسلام ولذا سأل النبي ﷺ: أَقَاتِلْ أَوْ أُسَلِّمْ؟ يعنى أدخل لأجاهد معك أو لا ثم أسلم بعد الغزوة.. أم أسلم أولاً ثم أدخل لأجاهد.. فقال له ﷺ: « أُسَلِّمْ ، ثُمَّ قَاتِلْ ».. وذلك لأنه إن قاتل قبل أن يُسلم فقتل فلن يكون شهيداً لأنه ما زال كافراً.. أما إن أسلم أولاً ثم قاتل.. فإما أن يسلم ولا يُقتل فقد فاز بأجر وثواب المجاهدين... وإما أن يُقتل فيفوز بأجر الشهادة في سبيل الله.. فما كان من الرجل إلا أن أسلم ثم قاتل فقتل وفاز بالشهادة.. فقال ﷺ: «عَمِلَ قَلِيلًا وَأُجِرَ كَثِيرًا».

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٦) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٠٨) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٠) كتاب الإمارة، واللفظ للبخارى.

أى أنه لم يسجد لله سجدة واحدة ولم يفعل أى شىء سوى أنه نطق الشهادة ودخل ليجاهد ففاز بالشهادة.. فكان عمره فى الإسلام ساعة.. وارتقى إلى أعلى درجات الجنة مع الشهداء فى تلك الساعة.

ولعل هذا الرجل يذكرنا بقصة عمرو بن ثابت ... فقد حدث له قصة قريبة من قصة هذا الرجل...

فقد أخرج ابن إسحاق فى المغازى قصة عمرو بن ثابت بإسناد صحيح عن أبى هريرة أنه كان يقول: أخبرونى عن رجل دخل الجنة لم يصل صلاة ثم يقول: هو عمرو بن ثابت... قال ابن إسحاق: قال الحصين بن محمد: قلت لمحمود بن ليلى: كيف كانت قصته؟ قال: كان يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد بدا له فأخذ سيفه حتى أتى القوم فدخل فى عرض الناس فقاتل حتى وقع جريحاً فوجدته قومه فى المعركة، فقالوا: ما جاء بك أشفقة على قومك؟! أم رغبة فى الإسلام؟! قال: بل رغبة فى الإسلام قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما أصابنى... فقال رسول الله ﷺ: «إنه من أهل الجنة»^(١).

❦

(١٣١٩) وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة». وفى رواية: «لما يرى من فضل الشهادة»^(٢).

❦ هذا الحديث أورده الإمام البخارى تحت باب: «تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا»...

(١) فتح البارى (٦/ ٣٠-٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٧) كتاب الإمارة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وَقَدْ وَرَدَ بِلَفْظِ التَّمَنَّى وَذَلِكَ فِيمَا أَخْرَجَهُ
النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ
أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ خَيْرَ
مَنْزِلٍ. فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّهُ. فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُكَ وَأَتَمَنَّى أَنْ تُرَدِّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي
سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا رَأَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» الْحَدِيثُ وَلِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ
ابْنِ مَسْعُودٍ رَفَعَهُ فِي الشُّهَدَاءِ قَالَ: «فَاطْلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ أَطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَسْتَهْوُونَ
شَيْئًا؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تُرَدَّ أَرْوَاحُنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى...»
وَلِابْنِ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ مُرْسَلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ وَمُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ... وَلِلترمذِيِّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ لِأَبِيكَ؟ قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ تَمَنَّ عَلَى أُعْطِكَ قَالَ: يَا رَبِّ
تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً قَالَ إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجِعُونَ»^(١).

فعن عبد الله، قال: لما قُتِلَ عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحُدٍ، قال رسول
اللَّهِ ﷺ: «يَا جَابِرُ، أَلَا أَخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ ﷻ لِأَبِيكَ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.
قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»^(٢)، فَقَالَ: يَا
عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَى أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ
سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَأُبْلَغُ مَنْ وَرَائِي. قَالَ:
فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ﴾^(٣).

❁ فمن خلال تلك الروايات يتضح لنا أنه ليس هناك أحد يدخل الجنة
يتمنى أن يرجع إلى الدنيا مرة أخرى حتى لو كان له كل ما على الأرض من

(١) فتح الباري (٦/٣٩).

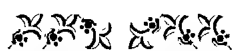
(٢) أى: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.. وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

شئ... وذلك لما في الجنة من النعيم الذي لا يخطر على قلب بشر... فلا وجه للمقارنة بحال من الأحوال... فلا أحد يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا.. لا من أجل أن يستمتع بما فيها.. كلا.. فقد رأى نعيم الجنة الذي لا يخطر على قلب بشر.. ولكنه يريد أن يرجع إلى الدنيا من أجل أن يُقتل في سبيل الله ﷻ.. وذلك لما رأى من الكرامة وفضل الشهادة في الجنة.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا مِنْ صَرَائِحِ الْأَدِلَّةِ فِي عَظِيمِ فَضْلِ الشَّهَادَةِ وَاللهُ الْمَحْمُودُ الْمَشْكُورُ... وَأَمَّا سَبَبُ تَسْمِيَّتِهِ شَهِيدًا فَقَالَ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ: لِأَنَّهُ حَيٌّ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ شَهِدَتْ وَحَضَرَتْ دَارَ الْإِسْلَامِ وَأَرْوَاحَ غَيْرِهِمْ إِنَّمَا تَشْهَدُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ... وَقَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) يَشْهَدُونَ لَهُ بِالْجَنَّةِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شَهِدَ عِنْدَ خُرُوجِ رُوحِهِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ الثَّوَابِ وَالْكَرَامَةِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَةِ يَشْهَدُونَهُ فَيَأْخُذُونَ رُوحَهُ.

وَقِيلَ: لِأَنَّهُ شَهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ وَخَاتِمَةِ الْخَيْرِ بِظَاهِرِ حَالِهِ... وَقِيلَ: لِأَنَّ عَلَيْهِ شَاهِدًا بِكَوْنِهِ شَهِيدًا وَهُوَ الدَّمُ... وَقِيلَ: لِأَنَّهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِإِبْلَاجِ الرُّسُلِ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يُشَارِكُهُمْ غَيْرُهُمْ فِي هَذَا الْوَصْفِ^(١).



(١٣٢٠) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ»^(٢).

وفي رواية له: «الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ».

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الشهادة تكفر كل شئ من الأعمال

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٣٥-٣٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٦٦) كتاب الإمارة.

إِلَّا الدِّينَ: يَعْنِي إِلَّا دِينَ الْآدَمِيِّ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ لَا تُكَفِّرُهُ، وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ دِينَ الْآدَمِيِّ لَا بُدَّ مِنْ إِيْفَائِهِ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ التَّحْذِيرُ مِنَ التَّسَاهُلِ فِي الدِّينِ وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَسَاهَلَ فِي الدِّينِ وَلَا يَتَدَايِنَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ الْقُصُوى... لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْذَنْ لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: زَوَّجْنِي، فَقَالَ: «أَصْدَقُ الْمَرْأَةِ»، أَيْ: قَدَّمَ لَهَا صَدَاقًا... قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا إِزَارِي، قَالَ: «إِزَارُكَ لَا يَنْفَعُهَا، إِنْ أَعْطَيْتَهَا إِيَّاهُ بَقِيَتْ بِلَا إِزَارٍ، وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ عَلَيْكَ بَقِيَتْ بِلَا مَهْرٍ، التَّمَسَّ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ...» فَالْتَمَسَ فَلَمْ يَجِدْ، فَقَالَ: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»، وَلَمْ يَقُلْ: اسْتَقْرَضَ مِنَ النَّاسِ، مَعَ أَنَّهُ زَوَّاجٌ، وَحَاجَةٌ مُلْحَعةٌ؛ لَكِنْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بَلْ لَمْ يُرْشِدْهُ إِلَى الاسْتِدَانَةِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ خَطِيرٌ جَدًّا.... وَقَدْ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ نَفْسَ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقةٌ بِدِينِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ»^(١) فَالْأَمْرُ مَهْمٌ فَلَا تَسْتَهْنِ بِالدِّينِ... فَالدِّينُ هُمْ فِي اللَّيْلِ وَذُلٌّ فِي النَّهَارِ، فَالْإِنْسَانُ مَهْمًا أَمَكْنَهُ يَجِبُ أَنْ يَتَحَرَّزَ مِنَ الدِّينِ، وَأَنْ لَا يَكْثُرَ فِي الْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ تَجَدَّهَ فَقِيرًا ثُمَّ يَرِيدُ أَنْ يَنْفِقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كَمَا يَنْفِقُ الْأَغْنِيَاءُ، فَيَقْتَرِضُ مِنْ هَذَا، وَيَقْتَرِضُ مِنْ هَذَا، أَوْ يَسْتَدِينُ، أَوْ يُرَابِي، وَهَذَا غَلَطٌ عَظِيمٌ... يَعْنِي لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا وَجْبةٌ وَاحِدَةٌ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَلَا تَقْتَرِضُ بَلْ اصْبِرْ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَغْنِنِي.... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨] أَمَا تَهَاوَنَ بَعْضُ النَّاسِ - نَسَأَلَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ - يَسْتَدِينُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْرَشَ كُلَّ الْبَيْتِ - هَذَا غَلَطٌ - أَوْ يَسْتَدِينُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْخُذَ سَيَّارَةً فَخْمَةً مَعَ أَنَّهُ يَكْفِيهِ سَيَّارَةٌ مَتَوَسِّطَةٌ.

هَذَا مِنْ سُوءِ التَّصَرُّفِ وَمِنْ ضَعْفِ الدِّينِ وَمِنْ قِلَّةِ الْمَبَالَاةِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ لَا تُكَفِّرُهُ حَتَّى الشَّهَادَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا تُكَفِّرُ الدِّينَ، فَكَيْفَ تَسْتَدِينُ؟^(٢)

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٧٩).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٢٩٩).

(١٣٢١) وعن أبي قتادة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ، أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٍ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرٌ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدِّينَ، فَإِنَّ جَبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِي ذَلِكَ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢٢) وعن جابر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيْنَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ قُتِلْتُ؟ قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ» فَأَلْقَى تَمْرَاتٍ كُنَّ فِي يَدِهِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٩٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢٣) وعن أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْدِمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ» فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُومُوا إِلَيَّ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ» قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٨٥) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠٤٦) كتاب المغازي، ومسلم (١٨٩٩) كتاب الإمارة.

الله ﷺ: «ما يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخ؟» قال: لا والله يا رَسُولَ الله إلا رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قال: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» فأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لئنَ أَنَا حَيِّتُ حَتَّى أَكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لِحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ^(١).

❦ ففي هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ انطلق هو وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر.. وجاء المشركون فقال النبي ﷺ لأصحابه: «لا يَقْدِمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ» أى أمامه.. متقدماً في ذلك الشئ لئلا يفوت شئ من المصالح التي لا تعلمونها.

فلما اقترب المشركون أراد النبي ﷺ أن يُحَفِّزَ أصحابه للجهاد في سبيل الله ولبذل النفس في سبيل الدفاع عن هذا الدين العظيم... فقال ﷺ لأصحابه: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ».. فقام شابٌّ من شباب الصحابة اسمه عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال ﷺ: «نعم» فقال عُمَيْرُ: بَخٍ بَخ.. وهى كلمة تُطْلَقُ لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير.

فقال له ﷺ: «ما يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخ؟»

قال: لا والله يا رَسُولَ الله إلا رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا.. أى: أنا ما قلت ذلك إلا لأننى أرجو أن أكون من أهل الجنة.. فكانت المفاجأة الكبرى.. فلقد قال له النبي ﷺ في التو واللحظة: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» فانفعل عُمَيْرُ مع تلك الكلمة وأخرج بعض التمرات وأخذ يأكل منهنَّ ثُمَّ قَالَ: لئنَ أَنَا حَيِّتُ حَتَّى أَكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لِحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

لقد اعتبر أن بقاءه لمدة دقيقتين ليأكل فيها ذلك التمر حياة طويلة لا يستطيع

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩٠١) كتاب الإمارة.

«القرن»: هو جُعبَةُ النَّشَابِ.



أن يتحملها.. فلقد بشره النبي ﷺ بالجنة فاشتاق إليها.

قال النووي: فِيهِ جَوَازُ الْإِنْعِمَارِ فِي الْكُفَّارِ وَالتَّعَرُّضِ لِلشَّهَادَةِ وَهُوَ جَائِزٌ بِلَا كَرَاهَةٍ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ^(١).

وفيه قوة يقين الصحابة، وصدقهم، وتصديقهم لرسول الله ﷺ.. ولا يمكن للمسلم أن يبذل الدنيا إلا وهو مؤمن تمام اليقين بالآخرة، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقيق... وإنما كُثِرَتْ قصص البذل والتضحية والفداء عند الصحابة الكرام لقوة يقينهم، وكمال إيمانهم وزهدهم.. ولم تتشرف البشرية بجيل بعدهم ظهرت فيه هذه الآيات البينات والبراهين الساطعات على اليقين والزهد والصدق.. فرضى الله عنهم أجمعين وجمعنا بهم في عِلِّيِّين مع النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢٤) وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النبي ﷺ أن ابْعَثْ معنا رجالاً يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ: الْقُرَّاءُ، فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ^(٢)، يقرءون القرآن، وَيَتَدَارِسُونَهُ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِئُونَ بِالماءِ، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصِّفَّةِ وللفُقراء، فبعثهم النبي ﷺ، فعرضوا لهم فقتلوه قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا... وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسَ مِنْ خَلْفِهِ، فَطَعَنَهُ بِرُمَحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: فُرِزْتُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ... فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»^(٣).

(١) مسلم بشرح النووي (٦٩/١٣).

(٢) أي: خاله حرام بن ملحان رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٠٩٠، ٤٠٩١) كتاب المغازی، ومسلم (٦٧٧) كتاب المساجد.

✽ مُلَخَّصُ هذه القصة أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بمُلاعِبِ الأُسنة) قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يُسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك؛ لرجوت أن يجيبوهم.. فقال ﷺ: «إني أخاف عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم- أي: أنا أحميمهم- فبعث معه سبعين رجلاً.

وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة المُلقَّب [بالمُعْتَقَ ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقُرَّائهم]، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصُّفَّة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة- وهى أرض بين بنى عامر وحرّة بنى سليم- فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخاً أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فُزْتُ وربّ الكعبة.. ثم قتلوا باقى السبعين.

لقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع- اللتين وقعتا خلال أيام معدودة- تألماً شديداً وتغلَّبَ عليه الحزن والقلق، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه.

قال أنس: دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو فى صلاة الفجر على رِعل وذُكَّوان ولِحيان وعُصَيَّة، ويقول: «عُصَيَّة عصت الله ورسوله»، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نُسخَ بعد: «بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله ﷺ قُتُوتَهُ^(١).

فأخبر النبى ﷺ وقال لهم: «إِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا وَإِنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَنَا أَنَا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيَتْ عَنَّا».

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى (٢٨١٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٦٧٧) كتاب المساجد.

(١٣٢٥) وعن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد... قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع... قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنائه. قال أنس: كنا نرى - أو نظن - أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مَنْ الْتَمَسَ رِجَالًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ إلى آخرها [الأحزاب: ٢٣] ^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١١١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢٦) وعن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بي الشجرة، فأدخلاني دارا هي أحسن وأفضل، لم أرق قط أحسن منها، قالوا: أمّا هذه الدار فدار الشهداء» ^(٢).

✽ ففي هذا الحديث الطويل الذي يحكى فيه النبي ﷺ أنه رأى مشاهد كثيرة من نعيم القبر وعذابه.. وكان بداية الحديث أن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٠٥) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٩٠٣) كتاب الإمارة.

قوله: «ليرين الله» روى بضم الياء وكسر الراء: أي ليظهرن الله ذلك للناس، وروى بفتحهما ومعناه ظاهر، والله أعلم.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٧٩١) كتاب الجهاد والسير.

رواه البخاري وهو جزء من حديث طويل يعرض صوراً من نعيم القبر وعذابه.. وسيأتى في باب تحريم الكذب إن شاء الله تعالى.

رجلين أتاني فأخذنا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة...

ثم ذكر بعض المشاهد التي رآها ﷺ.. وكان من بينها أنه ﷺ قال: «فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضِرَاءَ، فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِيَانٌ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ، وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَر قط أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ، وَنِسَاءٌ، وَصِيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فِيهَا شُيُوخٌ، وَشَبَابٌ، قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ، قَالَا: نَعَمْ..»

فقالا له: «الشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، وَالصَّيْبَانِ، حَوْلُهُ، فَأَوْلَادُ النَّاسِ... وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ خَازِنُ النَّارِ، وَالِدَارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جَبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَلِكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»

فكانت الدار الأولى دار عامة المؤمنين ثم التي فوقها وأعلى منها منزلة دار الشهداء... ثم كان منزل النبي ﷺ في أعلى مكان في الجنة في درجة اسمها الوسيلة... فاللهم احشرنا في زمرة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في الفردوس الأعلى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢٧) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ، أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ - وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بدرٍ - فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبْرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهِدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، فَقَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جَنَّانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكَ أَصَابَ الْفَرْدُوسَ الْأَعْلَى»^(١).

(١) صحيح: رواه البخاري (٢٨٠٩) كتاب الجهاد والسير.

تلك الغزوة فقال لابنه جابر: يا بُنى ما أرانى إلا مقتولاً فى أول مَنْ يُقتل من أصحاب النبى ﷺ، وإنى لا أترك بعدى أعزَّ علىَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن علىَّ ديناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً.

وفى اليوم التالى دخل والد جابر الغزوة وقاتل قتالاً شديداً وكان من أوائل الذين استشهدوا فى غزوة أحد وقام المشركون فمَثَلُوا به.. فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يَغطوه حتى لا يتأثر جابر برؤية والده وقد مَثَّل به... فلما أراد جابر أن يكشف وجه أبيه نهاه الصحابة عن ذلك.

فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فرفع فسمع صوت باكية أو صائحة. فقال: «مَنْ هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أخت عمرو. فقال: «ولِمَ تبكى؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع»^(١).

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «فَمَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ» قَالَ الْقَاضِي: يُحْتَمَلُ أَنَّ ذَلِكَ لِتَزَاوُجِهِمْ عَلَيْهِ لِبِشَارَتِهِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرِضَا عَنْهُ وَمَا أُعِدَّ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ عَلَيْهِ... ازْدَحَمُوا عَلَيْهِ إِكْرَامًا لَهُ وَفَرَحًا بِهِ أَوْ أَظْلَوْهُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ لئَلَّا يَتَغَيَّرَ رِيحُهُ أَوْ جِسْمُهُ... قَوْلُهُ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَبْكِيهِ أَوْ لَا تَبْكِيهِ مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ» مَعْنَاهُ سَوَاءٌ بَكَتْ عَلَيْهِ أَمْ لَا فَمَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ... أَيْ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْكَرَامَةِ هَذَا وَغَيْرُهُ فَلَا يَنْبَغِي الْبُكَاءُ عَلَى مِثْلِ هَذَا وَفِي هَذَا تَسْلِيَةٌ لَهَا^(٢).

ولم تكن تلك الكرامة الوحيدة التى حدثت له.. بل لقد أخبر النبى ﷺ جابر ابن عبد الله أن الله ﷻ كَلَّمَ أباه كِفاحاً بغير حجاب. فغن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحُد، قال رسول

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ٣٧-٣٩) بتصرف.

الله ﷻ: «يَا جَابِرُ، أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ ﷻ لَأَبِيكَ؟»، قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا»^(١)، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَى أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْسِنِي فَأَقْتُلْ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٢٩) وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصَدَقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنْزِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»^(٣).
(١٣٣٠) وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا أُعْطِيَهَا وَلَوْ لَمْ تُصِبه»^(٤).

✽ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرَصَةِ»^(٥).

✽ وحتى لا يخشى المجاهد من آلام القتل وهو يرى السيوف والرماح وهي تُقطع الأجساد إلى أشلاء.. وفي عصرنا هذا نرى الرصاص يخترق الأجساد والألغام والقنابل تُحول الأجساد إلى أشلاء فننفزع من هول تلك

(١) أي: مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول.. وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٠٥).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٩) كتاب الإمارة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٨) كتاب الإمارة.

(٥) حسن: رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٨١٣).

المشاهد البشعة.. فيطمئن النبي ﷺ قلوبنا وقلوب الباحثين عن الشهادة وقلوب المجاهدين الصابرين أن كل المشاهد البشعة التي نراها وتفزع لها قلوبنا لا يجد الشهيد منها أى آلام إلا كمسّ القرصة.. فلو أصيب برصاصة فى رأسه فإنه يشعر وكأن إنساناً قرصه قرصة خفيفة بأطراف أصابعه.. أو كأن نملة صغيرة قرصته وذلك لأن الله يسهل عليه القتل وخروج الروح. لأن الروح تبشر برضوان الله والجنة فيسهل عليها الخروج... مع أن المشهد فى غاية الفزع.. وهذا يفسر لنا لماذا يتمنى الشهيد أن يعود مرة أخرى إلى الدنيا بعد استشهاده ولقاء ربه ﷻ.. لأنه لم يجد أى ألم عند الشهادة إلا كمسّ القرصة.. ثم يرى ما أعدّه الله للشهداء فيتمنى أن يقتل عشرات المرات فى سبيل الله ليفوز بهذا الأجر العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣٢) وعن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام فى الناس فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلل السيوف» ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣٣) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثنتان لا تردان، أو قلما تردان: الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٦٥، ٢٩٦٦) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٠٧٩).

❦ فالنبي ﷺ يعلم الأمة دائماً أن تُكثر من الدعاء.. وذلك لأن العبد عند الدعاء ينخلع من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

قال النبي ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾
[غافر: ٦٠] ^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ» ^(٢).
فمن رحمة الله تعالى بعبدته - وهو الرحيم - أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فإذا لم يؤتِه إياها عوّضه خيراً منها:
فإما أن يصرف عنه بذلك مصيبة.
أو يدخرها له في الآخرة.

أو يصرف عنه من السوء مثل ما طلب من الخير.
❦ وفي هذا الحديث يوضح لنا النبي ﷺ أن الدعاء لا يُرد عند موضعين: عند النداء.. أى: عند الأذان والإقامة.. ولذا فإنه ينبغي أن نُكثر من الدعاء وأن نلتمس أوقات الاستجابة.. والتي منها: الدعاء بين الأذان والإقامة.. كما قال ﷺ: «لَا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ»، قالوا: إذا نُكثِر يا رسول الله! قال: «اللَّهُ أَكْثَرُ» ^(٣).

وأما الموطن الثاني لاستجابة الدعاء.. والذي ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث: فهو عند البأس.. أى: عند الحرب حين تلتحم الصفوف للقتال.. فالدعاء في ذلك الوقت لا يُرد... فهذا وقت كربٍ شديد.. والنبي ﷺ يعلمنا أن نلجأ إلى الله ﷻ عند الشدائد والكربات وأن نُكثر من الدعاء.. فقد قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾... ففي وقت الجهاد والتحام

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٩٢).

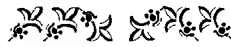
(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٨).

الصفوف الدعاء مستجاب... ويا لها من نعمة عظيمة....

فالمجاهد أحوج ما يكون إلى استجابة دعائه عند القتال بأن ينصره الله على عدوه وأن يرزقه الشهادة إن قدر له أن يقتل.. فهو فائز في الحالتين: إما أن ينصره الله أو يرزقه الشهادة.

❦ وقد علمنا النبي ﷺ أننا إذا أردنا أن يفرج الله عنا الكرب وقت الشدائد فلنكثر من الدعاء عند الرخاء.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَحِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»^(١).



(١٣٣٤) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أَقَاتِلُ»^(٢).

❦ وهنا يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ الْعَظِيمِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضْدِي» أَي: أَنْتَ الَّذِي تُقَوِّى عَضْدِي حَتَّى أُمْسِكَ السِّيفَ لِأَجَاهِدَ وَأُقَاتِلَ أَعْدَاءَكَ.. فَأَنْتَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي الْقُوَّةَ وَالتَّفَكِيرَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى مُوَاجَهَةِ أَعْدَائِكَ.. «وَنَصِيرِي» أَي: مُعِينِي وَمُغِيثِي وَنَاصِرِي «بِكَ أَحُولُ» أَي: بِكَ وَحَدِّكَ أُنْقَلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ.. وَمِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَعَوْنِكَ وَنُصْرَتِكَ.

«وَبِكَ أَصُولُ» عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ.. يُقَالُ صَالَ الْقَرْنَ عَلَى قَرْنِهِ إِذَا وَثَبَ عَلَيْهِ..

أَي: بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ وَقُدْرَتِكَ أَثْبَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَأَكْرَّ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ.

«وَبِكَ أَقَاتِلُ» أَي: بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ أَقَاتِلُ أَعْدَاءَكَ حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا مُسْلِمٌ أَوْ مُسَالِمٌ... فَهَذَا هُوَ طَرِيقُ النُّصْرِ.. وَهُوَ الْخُرُوجُ وَالْإِنْخِلَاعُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَى

(١) حسن: رواه الترمذى والحاكم وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٩٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٥٧).

حول الله وقوته بالاعتماد والتوكل على الله.. وهذا هو معنى: لا حول ولا قوة إلا بالله... وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣٥) وعن أبي موسى رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَافَ قَوْمًا قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٩٨٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣٦) وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١٣٣٧) وعن عُرْوَةَ الْبَارِقِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ، وَالْمَغْنَمُ»^(٣). وفي رواية: «الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ».

✽ والمقصود هنا خيل الجهاد.. وذلك لأنه ﷺ فسر هذا الخير بقوله: «الأجر والمغنم..» وهذا لا يكون إلا في خيل الجهاد.. فخيال الجهاد في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.. وقد يكون الحديث عامًا.. أي أن الخيل كلها في نواصيها الخير إلى يوم القيامة سواء كانت مما يُجاهد عليها أم لا.

✽ قوله ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» أي: إعداد العدة للجهاد في سبيل الله.. ومن هذه العدة: الخيل أو ما يقوم مقامها.. ففي هذا الإعداد وفي تلك الخيول المُعدة للجهاد يكون الخير إلى يوم

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٤٤) كتاب المناقب، ومسلم (١٨٧١) كتاب الإمارة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٥٢) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٧٣) كتاب الإمارة.

القيامة.. لأن في هذا عودة العزة للإسلام والمسلمين والتمكين لهذا الدين.

والمراد بالناصية هنا الشعر المسترسل على الجبهة.

قال الخطابي وغيره: قالوا: وكُنِيَ بالناصية عن جميع ذات الفرس... ويُقال: فلان مبارك الناصية ومبارك الغُرة، أى الذات.. وفي هذه الأحاديث استحباب رباط الخيل واقتنائها للغزو، وقتال أعداء الله، وأن فضلها وخيرها والجهاد باقٍ إلى يوم القيامة.

وأما الحديث الآخر «الشَّوْمُ قد يكون في الفرس» فالمراد به غير الخيل المُعدة للغزو ونحوه، أو أن الخير والشَّوْم يجتمعان فيها، فإنه فسر الخير بالأجر والمغنم ولا يمتنع مع هذا أن يكون الفرس مما يُشَاءم به^(١).

❁ ولقد عُنِيَ القرآن والسُّنة جميعًا برباط الخيل، واحتباس الخيل في سبيل الله، وتضميرها وإعدادها لمعارك الجهاد، حتى جعل الرسول في قسمة الغنائم للرجال (الماشى) سهمًا واحدًا، وللفراس (راكب الخيل) ثلاثة أسهم: سهمًا له، وسهمين لفرسه^(٢).

ذلك أنَّ الخيل كانت هى مَرَكَبَات ذلك العصر، ومن أهمِّ الوسائل المساعدة في الحرب، ولكن في عصرنا تغيَّر الحال، فلم تُعد الخيل مهمة في القتال إلا في نطاقٍ محدودٍ جدًّا، في بعض المواقع. ومن هنا كانت خيل عصرنا هى: الدبابات والمُجنزرات والمُصفَّحات وسائر المركبات التى أصبحت تُستعمل في الحروب اليوم، وغدا الذين يحسنون استخدامها هم فرسان عصرنا. فكلُّ ما قيل في رباط الخيل وفضله يُقال في خيل عصرنا ومركباته.

ومن المعلوم: أن الأهداف الأساسية ثابتة، ولكن الوسائل هى التى تتغيَّر،

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٢٤-٢٥) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٦٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٦٢) كتاب الجهاد والسير.

ومن واجب الأمة: ألا تُجمّد وسائلها وآلياتها، وقد تغيّر العالم من حولها، وتكتفى بركوب الخيل حيث يركب عدوها الدبابة في البرّ، والغواصة في البحر، والطائرة في الجوّ. وتقاتل بالسيف، حيث يقاتل خصومها بالمدفع العملاق، وأنواع الأسلحة المتطورة. وترمى بالنبل حيث يرمون بالقذائف والصواريخ والقنابل الذكية^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ احْتَبَسَ فَرْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِيمَانًا بِاللَّهِ، وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شَبْعَهُ وَرِيَّهُ وَرُوْثَهُ، وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

❦ قوله ﷺ: «مَنْ احْتَبَسَ فَرْسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» المراد: احتبسه على نفسه لسدّ ما عسى أن تحدث ثلّة في ثغرٍ من الثغور «إيمَانًا بِاللَّهِ» تصديقًا بوعده وإخلاصًا له وامتنالًا لأمره «وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ» أى الذى وعد به من الثواب على ذلك.. وفيه إشارة إلى المعاد.. كما أن لفظ الإيمان إشارة إلى المبدأ... فإن الله ﻋَزَّ وَجَلَّ وعد خيرًا على الاحتباس.. فمن احتبس فرسًا كأنه قال: صدقت يا رب فيما وعدتني «فَإِنَّ شَبْعَهُ» أى: ما يشعب به «وَرِيَّهُ» ما يروى به من الماء «وَرُوْثَهُ، وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» والمراد ثواب ذلك لا أن الأرواث والأبوال تُوزن.. وفيه أن المرء يؤجر بنيته كما يؤجر العامل.

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ هَذِهِ الْحَسَنَاتِ تُقْبَلُ مِنْ صَاحِبِهَا لِتَنْصِصِ الشَّارِعِ عَلَى أَنَّهَا فِي مِيزَانِهِ بِخِلَافِ غَيْرِهَا فَقَدْ لَا تُقْبَلُ فَلَا تَدْخُلُ الْمِيزَانَ^(٣).

(١) فقه الجهاد (١/ ٦١٢).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٥٣) كتاب الجهاد والسير.

(٣) فتح البارى (٦/ ٦٨).

وبلغة العصر.. فإن مَنْ أَعَدَّ مركبة للجهاد فله أجرها وأجر ما يضعه فيها من زيتٍ وبنزين وغير ذلك من مستلزمات.. ما دام قد أَعَدَّها ضمن منظومة الدولة وليس من قِبَل نفسه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٣٩) وعن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»^(١).

وفي هذا الحديث يحكى أبو مسعود رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ .. أى: مجعولٍ في رأسها الخطام.. وهو قريب من الزمام الذى يُوضع في مُقَدِّم الأنف والفم للدابة.

فلما جاء بتلك الناقة المخطومة قال للنبي ﷺ: هذه في سبيل الله.

فما كان من النبي ﷺ إلا أن بَشَّرَ هذا الرجل بتلك البشرى العظيمة وقال له: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ».

قال الإمام النووي رحمته الله: قِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ لَهُ أَجْرُ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ وَيَكُونُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ بِهَا سَبْعُمِائَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مَخْطُومَةٌ يَرْكَبُهُنَّ حَيْثُ شَاءَ لِلتَّنَزُّهِ كَمَا جَاءَ فِي خَيْلِ الْجَنَّةِ وَنَجِبِهَا .. وَهَذَا الْإِحْتِمَالُ أَظْهَرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

وهذا لأن الصدقة بسبعمئة ضعف كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] وهذه البشرى من النبي ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٢) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٥٧/٣).

لهذا الرجل تتضمن البشري بالجنة لأنه سيكون له سبعمئة ناقة في الجنة.. فكيف تكون له في الجنة دون أن يدخل الجنة ويأخذها.. وهذا دليل على أن الله عز وجل يثيب على القليل كثيراً فضلاً منه وتكرماً (سبحانه وتعالى).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٤٠) وعن أبي حمّاد - ويقال: أبو سعاد، ويقال: أبو أسد، ويقال: أبو عامر، ويقال: أبو عمرو، ويقال: أبو الأسود، ويقال: أبو عبيس - عُبَيْةُ بْنُ عامِرِ الْجُهَنِيِّ (رضي الله عنه)، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو على المنبر، يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ^(١).
✽ النصر هدف ينشده كل مجاهد مسلم، وكل جيش مسلم، وأمل يحلم به ويرنو إليه. ولكن تحقيق الأهداف المنشودة، والآمال المرجوة، لا يتم بالكلام، ولا بإرخاء العنان للخيال، ليحلّق في آفاق عالية، لا يملك جناحين يطير بهما إليها.

ولكن هناك واجبات أساسية، ومتطلبات ضرورية، يجب أن يراعيها كل المجاهدين، قادة ومقودين، رعاة ورعية.

إن أول مستلزمات النصر، وأول واجبات الجيش المقاتل، وهو من مقومات الأمة العزيزة: إعداد العدة للعدو، وهو ما فرضه الله تعالى على الأمة، وأمر به في كتابه العزيز، في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

قال الإمام الرازي في تفسير الآية: (اعلم أنه تعالى لما أوجب على رسوله أن يُسرّد من صدر منه نقض العهد، وأن ينبذ العهد إلى من خاف منه النقض، أمره

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧) كتاب الإمامة.

فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْإِعْدَادِ لَهُؤُلَاءِ الْكُفَّارِ... قِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا اتَّفَقَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قِصَّةِ بَدْرِ أَنْ قَصَدُوا الْكُفَّارَ بِلَا آلَةٍ وَلَا عُدَّةٍ أَمَرَهُمُ اللَّهُ أَنْ لَا يَعُودُوا لِمِثْلِهِ وَأَنْ يُعِدُّوا لِلْكَفَّارِ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ آلَةٍ وَعُدَّةٍ وَقُوَّةٍ... وَالْمُرَادُ بِالْقُوَّةِ هَاهُنَا: مَا يَكُونُ سَبَبًا لِحُصُولِ الْقُوَّةِ وَذَكَرُوا فِيهِ وَجُوهًا:

الْأَوَّلُ: الْمُرَادُ مِنَ الْقُوَّةِ أَنْوَاعُ الْأَسْلِحَةِ.

الثَّانِي: رُويَ أَنَّهُ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» قَالَهَا ثَلَاثًا^(١).

الثَّالِثُ: قَالَ بَعْضُهُمْ: الْقُوَّةُ هِيَ الْحُصُونُ.

الرَّابِعُ: قَالَ أَصْحَابُ الْمَعَانِي: الْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ: هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يُتَقَوَّى بِهِ عَلَى حَرْبِ الْعَدُوِّ، وَكُلُّ مَا هُوَ آلَةٌ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْقُوَّةِ.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» لَا يَنْفِي كَوْنَ غَيْرِ الرَّمِيِّ مُعْتَبَرًا، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْحُجَّ عَرَفَةَ»^(٢) وَ«النَّدَمُ تَوْبَةً»^(٣) لَا يَنْفِي اعْتِبَارَ غَيْرِهِ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَذْكُورَ جُزْءٌ شَرِيفٌ مِنَ الْمَقْصُودِ.

فَكَذَا هَاهُنَا... وَهَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِعْدَادَ لِلْجِهَادِ بِالنَّبْلِ وَالسَّلَاحِ وَتَعْلِيمَ الْفُرُوسِيَّةِ وَالرَّمِيَّ فَرِيضَةً، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ^(٤) انْتَهَى.

أَوْجَبَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأُمَّةِ -بِالتَّضَامَنِ- أَنْ تُعِدَّ لِأَعْدَائِهَا مَا اسْتَطَاعَتْ مِنْ قُوَّةٍ، وَهَذَا يَشْمَلُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْقُوَّةِ: الْقُوَّةَ الْمَادِيَّةَ وَالْقُوَّةَ الْمَعْنَوِيَّةَ، أَيْ مَا يَضُمُّ: الْقُوَّةَ الْعَسْكَرِيَّةَ، وَالْقُوَّةَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ، وَالْقُوَّةَ الْعِلْمِيَّةَ، إِلَى جِوَارِ الْقُوَّةِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُدْرِبَةِ عَلَى أَنْوَاعِ السَّلَاحِ، وَالْمُهَيَّأَةِ -بَدْنِيًّا وَعَقْلِيًّا وَنَفْسِيًّا- لِلْقِتَالِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٧) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٢).

(٤) تفسير الفخر الرازي (١٥/١٨٥).

وهذه هي التي ركّز عليها الحديث النبوي: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ»، لأن السلاح وحده لا يُغني بدون العنصر البشري المُدرَّب، وإليه تشير كلمة «الرمي»: أي القدرة على استخدام السلاح بجدارة، وإصابة الهدف به.

وأما ﴿رَبَاطُ الْخَيْلِ﴾: فيقصد به المركبات المطلوبة للقتال، وهي تتطور من عصرٍ إلى عصر. وقد كانت الخيل في العصور الماضية أعظم أنواع المركبات الميسرة للناس، وهي تضيف إلى صاحبها قوة لا يملكها المقاتل الراجل^(١) - أي الذي يمشي على رجليه في أرض الجهاد-.

ذلك أن الخيل كانت هي مركبات ذلك العصر، ومن أهم الوسائل المساعدة في الحرب، ولكن في عصرنا تغيّر الحال، فلم تعد الخيل مهمة في القتال إلا في نطاق محدود جداً، في بعض المواقع. ومن هنا كانت خيل عصرنا هي: الدبابات والمجنزرات والمصفحات وسائر المركبات التي أصبحت تُستعمل في الحروب اليوم.. وغدا الذين يُحسنون استخدامها هم فرسان عصرنا. وقد كانت قوة الرمي في عهد النبي ﷺ متمثلة في الرمي بالنبل (السهم) والمنجنيق.. التي تطورت في عصرنا هذا فأصبحت كالمدافع والدبابات والرمي بالطائرات وغير ذلك.. وهي أقوى من سلاح الالتحام والقتال المباشر. ولقد هُزم المسلمون في يوم أحد لأنهم فرطوا في سلاح الرمي.. عندما نزل الرماة على الجبل فكانت الهزيمة.

ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٤١) وعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرْضُونَ، وَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ، فَلَا يَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُلْهَوْ بِأَسْهُمِهِ»^(٢).

(١) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوي (١/ ٦٠٥-٦٠٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٨) كتاب الإمامة.

❖ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ بأن المسلمين ستفتح لهم البلاد وستمتد الفتوحات إلى بلاد كثيرة يفتحها الله عز وجل عليهم .. وأن الله عز وجل سيكفيهم بالمال ويكفيهم الحرب والقتال ويغنيهم من فضله ويكفيهم من كل شئ .. ثم قال لهم النبي ﷺ «فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه» أى: لا يركن أحدكم إلى ذلك النصر والكفاية وينسى أن يتدرب على الرمي وأن يستعد للعدو في كل لحظة .. لأنه ربما يباغتهم العدو في أى لحظة فيكونوا مستعدين لذلك.

❖ ولذا فإن الجيوش الإسلامية يجب عليها أن تتدرب على السلاح حتى وإن لم يكن هناك أى حروب حتى تكون على استعداد دائمًا لمواجهة أى عدو يحارب الإسلام والمسلمين.



(١٣٤٢) وعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ فَقَدَ عَصَى» (١).

❖ فالذى يتعلم الرمي ويتعلم السلاح لا ينبغي أن يتركه أو أن يترك التدريب عليه ... فمن تعلّم الرمي ثم تركه .. يخبر النبي ﷺ بأنه ليس منا وأنه قد وقع في المعصية ... وهذا تحذير شديد لمن يتعلم الرمي ويتركه .. وذلك لأن المسلم لا بد أن يكون على استعداد دائم لمواجهة الأخطار التي تحيط بالمسلمين من كل مكان .. فلو علم الأعداء بأن المسلمين قد تركوا التدريب على سلاحهم لهاجموا المسلمين في التو واللحظة واستباحوا بيضتهم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا تَشْدِيدٌ عَظِيمٌ فِي نِسْيَانِ الرَّمِيِّ بَعْدَ عِلْمِهِ وَهُوَ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةٌ شَدِيدَةٌ لِمَنْ تَرَكَهُ بِلَا عَذْرٍ (٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١٩) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٩٦/١٣).

(١٣٤٣) وعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُثْلَهُ، وَارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا. وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلَّمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَإِنِهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا» أو قال: «كَفَرَهَا»^(١).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بَابُ الرَّمْيِ

(١٣٤٤) وعن سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه، قال: مرَّ النبي ﷺ على نَفَرٍ يَتَضَلُّونَ، فقال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنْ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يخبر سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ على بعض أصحابه وهم يتضلون.. أي: يترامون بالسهام ويتسابقون في أيهما أكثر مهارة في دقة الرمي.. فأراد النبي ﷺ أن يشجعهم فقال: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنْ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا» فهو ﷺ يذكرهم بأن جدّهم إسماعيل عليه السلام كان ماهراً في الرمي.. فكأنه يقول: افعلوا كما كان يفعل جدكم إسماعيل عليه السلام فإنه كان ماهراً في الرمي.

وفي تكملة هذا الحديث أن النبي ﷺ قال: «ارموا وأنا مع بني فلان» فأمسك أحد الفريقين بأيديهم وامتنعوا عن الرمي.. فلما سألهم النبي ﷺ: «مالكم لا ترمون؟» قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ يعني: أننا بذلك سنهزم قبل أن نبدأ ما دُمت معهم.

فأراد النبي ﷺ أن يشجعهم فقال ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم».

بَابُ الرَّمْيِ

(١٣٤٥) وعن عَمْرِو بْنِ عَبْسَةَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحَرَّرَةٍ»^(٣).

(١) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧٣٢).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٨٩٩) كتاب الجهاد والسير.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، والنسائي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٨).



❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ رمى بسهمٍ في سبيل الله أثناء الجهاد فهو له عدل محررة.. أى أنه يعادل ويساوى ثواب مَنْ أعتق رقبة.. وبإله من أجرٍ عظيم.

بل لقد وقفت على رواية أخرى للحديث يقول فيها النبي ﷺ: «مَنْ رَمَى الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبَلَغَ سَهْمُهُ الْعَدُوَّ، أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، فَعَدْلُ رَقَبَةٍ»^(١).
يعنى أنه إذا رمى سهمًا فبلغ ذلك السهم إلى العدو.. سواء أصاب أو أخطأ فقد فاز صاحب السهم بثواب عتق رقبة.

﴿مَنْ رَمَى الْعَدُوَّ بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبَلَغَ سَهْمُهُ الْعَدُوَّ، أَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، فَعَدْلُ رَقَبَةٍ﴾

(١٣٤٦) وعن أبي يحيى خريم بن فاتك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَ لَهُ سَبْعُمِائَةِ ضِعْفٍ»^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الذى ينفق نفقة في سبيل الله عز وجل فإنه يُكتب له سبعمائة ضعف ما أنفقه... ومصادق هذا في كتاب الله عز وجل حيث قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

❦ قال الشيخ عبد الرحمن السعدى رحمته الله: هذا حثٌ عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصول إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلى ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.
وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعافٍ أكثر

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٢٦٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائي، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦١١٠).

من ذلك... ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٤٧) وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٢٢٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٤٨) وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من صام يوماً في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض»^(٣).

✽ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن من صام يوماً في سبيل الله... وقد اختلف أهل العلم في كلمة «في سبيل الله» ففسرها بعضهم بمن صام وهو يجاهد في سبيل الله... وفسرها البعض الآخر بالمعنى العام.. وهو من صام نافلة ابتغاء مرضاة الله ﷻ... ومن المعلوم أن الفطر أقوى للمجاهد في سبيل الله... فيبقى المعنى أن من صام يوماً نافلة ابتغاء مرضاة الله.. أو صام يوماً وهو يجاهد في سبيل الله دون أن يكون صيامه عائقاً له عن الجهاد... فإن الله ﷻ يجعل بينه وبين النار خندقاً كما بين السماء والأرض يحميه من النار ولفح النار.

قال الإمام النووي رحمته الله: فِيهِ فَضِيلَةُ الصَّيَامِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى

(١) تفسير السعدي (ص ١١٤-١١٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٤٠) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١١٥٣) كتاب الصيام.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٣٣).

مَنْ لَا يَتَضَرَّرُ بِهِ وَلَا يَقُوتُ بِهِ حَقًّا وَلَا يَخْتَلُ بِهِ قِتَالُهُ، وَلَا غَيْرُهُ مِنْ مُهِمَّاتِ غَزْوِهِ وَمَعْنَاهُ الْمُبَاعَدَةُ عَنِ النَّارِ وَالْمُعَافَاةُ مِنْهَا^(١).

بِمَا يَنْبَغِي

(١٣٤٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ» أى: لم يباشر القتال والجهاد فى سبيل الله «وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ» أى: لم يستحضر نية الغزو والجهاد ولم يخطر ذلك على باله أبداً وآثر الحياة الدنيا واطمأن إليها.. فإنه على خطرٍ عظيمٍ لأن النبى ﷺ أخبر أنه إن فعل ذلك «مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ» ولم يقل النبى ﷺ أنه يُصْبِحُ منافقاً خالصاً.. وإنما قال ﷺ: «مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ».

قال الإمام القرطبى رحمته الله: فى الحديث إن لم يتمكن من عمل الخير ينبغى له العزم على فعله إذا تمكن منه ليكون بدلاً من فعله... فأما إذا خلا عنه ظاهراً وباطناً فذلك شأن المنافق الذى لا يعمل الخير ولا ينويه، خصوصاً الجهاد الذى أعز الله به الإسلام وأظهر به الدين حتى علا على كل الأديان... اهـ^(٣). وقال الإمام النووى رحمته الله: وَالْمُرَادُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ أَشْبَهَ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي هَذَا الْوَصْفِ... فَإِنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَحَدُ شُعَبِ النِّفَاقِ وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ تَوَيَّ فَعَلَ عِبَادَةً فَمَاتَ قَبْلَ فِعْلِهَا لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الذَّمِّ مَا يَتَوَجَّهُ عَلَى مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَنْوَهَا^(٤).

(١) مسلم بشرح النووى (٤٧/٨).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٠) كتاب الإمارة.

(٣) دليل الفالحين (١١٠/٤).

(٤) مسلم بشرح النووى (٨٣-٨٤/١٣).

(١٣٥٠) وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ: «حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ».
رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ. وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ جَابِرٍ وَاللَّفْظُ لَهُ.
❁ سَبَقَ شَرْحَ هَذَا الْحَدِيثِ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْمَ (٤)
فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥١) وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذَكَّرَ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ؟
وَفِي رِوَايَةٍ: يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً. وَفِي رِوَايَةٍ: وَيُقَاتِلُ غَضَبًا، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

❁ سَبَقَ شَرْحَ هَذَا الْحَدِيثِ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْمَ (٩)
فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥٢) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ غَازِيَةٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو، فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ، إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثَلَاثِي أَجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ لَهُمْ أَجُورُهُمْ»^(٣).

❁ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الْإِخْفَاقُ أَنْ يَغْزُو فَلَا يَغْنَمُوا شَيْئًا وَكَذَلِكَ كُلُّ طَالِبٍ حَاجَةٍ إِذَا لَمْ تَحْصُلْ فَقَدْ أَخْفَقَ.. وَمِنْهُ أَخْفَقَ الصَّائِدُ إِذَا

(١) صحيح: رواه مسلم (١٩١١) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٣) كتاب العلم، ومسلم (١٩٠٤) كتاب الإمارة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٩٠٦) كتاب الإمارة.

لَمْ يَقَعْ لَهُ صَيْدٌ ... وَأَمَّا مَعْنَى الْحَدِيثِ فَالْصَّوَابُ الَّذِي لَا يَجُوزُ غَيْرُهُ أَنَّ الْغَزَاةَ إِذَا سَلِمُوا أَوْ غَنِمُوا يَكُونُ أَجْرُهُمْ أَقَلُّ مِنْ أَجْرِ مَنْ لَمْ يَسْلَمْ أَوْ سَلِمَ وَلَمْ يَغْنَمْ وَأَنَّ الْغَنِيمَةَ هِيَ فِي مُقَابَلَةِ جُزْءٍ مِنْ أَجْرِ غَزْوِهِمْ .. فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُمْ فَقَدْ تَعَجَّلُوا ثُلْثَى أَجْرِهِمْ الْمُتَرْتَّبَ عَلَى الْغَزْوِ وَتَكُونُ هَذِهِ الْغَنِيمَةُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَجْرِ.

وَهَذَا مُوَافِقٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ كَقَوْلِهِ: مِمَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا وَمِمَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِيهَا أَى: يَجْتَنِيهَا فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا هُوَ الصَّوَابُ وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ^(١).

✽ وقد حمّله بعض أهل العلم على أنه تطيب لخواطر المجاهدين إذا أخفقوا وعادوا بجراحهم .. فقد يقول لهم بعض الناس: أنتم مهزومون أو يُعيرهم بذلك .. فجبر النبي ﷺ خواطرهم وكأنه يقول: ليس الأمر كذلك .. فقد ذهبوا وجاهدوا وبذلوا أقصى ما عندهم لكنهم أخفقوا .. وقد جبر الله خاطرهم بأن جعل أجورهم تامة موفورة ... والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥٣) وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يحكى أبو أمامة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِي السِّيَاحَةِ.

أَرَادَ مَفَارِقَةَ الْوَطَنِ، وَالذَّهَابَ فِي الْأَرْضِ .. وَأَصْلُهُ مِنَ السَّيْحِ وَهُوَ الْمَاءُ الْجَارِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُبَسِّطًا ... كَأَنَّهُ اسْتَأْذَنَ فِي الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ، قَهْرًا لِنَفْسِهِ بِمَفَارِقَةِ الْمَأْلُوفِ وَهَجْرِ الْمَبَاحَاتِ وَاللِّذَاتِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ تَرْكِ

(١) مسلم بشرح النووي (٧٨/١٣)

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٩٣).

الجمعة والجماعات.. كما ردَّ على عثمان بن مظعون إرادته التبتُّل وهو الانقطاع عن النساء وترك النكاح لعبادة الله تعالى (فقال النبي ﷺ) لهذا السائل «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» قال ابن رسلان: لعله محمول على أن السؤال كان في زمن تعيَّن فيه الجهاد وكان السائل شجاعاً، قال: أما السياحة في الفلوات والانسلاخ عما في النفس من الرعونات إلى ملاحظة صفات ذوى الهمم العاليات مع تجرُّع مرارات فرقة الأوطان والأهل والقربات لمن علم من نفسه الصبر على ذلك قاطعاً من قلبه العلائق الشاغلات ملتبساً بصدق الطويات من غير تضييع مَنْ يعوله من أولادٍ وزوجات، ففيها فضيلة بل هي من المأمورات^(١).

✽ والمقصود هنا: أن المسلم لا يسافر ويسيح بلا هدف.. فإما أن يخرج للجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.. أو يخرج إلى مكان يتمكن فيه من طاعة الله وممارسة الشعائر لأنه يعاني في بلده من التضييق عليه ومحاولة فتنه في دينه.. أو أن يخرج لطلب العلم فيسيح في الأرض باحثاً عن أهل العلم الثقات الذين يتعلم على أيديهم العلم النافع.. أو يسبح في خدمة الإسلام والمسلمين.. فتلك هي سياحة المؤمن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥٤) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ»^(٢).

✽ أى أن المجاهد إذا غزا عدوه فله أجرٌ عظيم في ذلك.. فإذا انتهى من الغزو وعاد إلى أهله وبلده كان له مثل الأجر عند عودته.. فله الأجر ذاهباً وعائداً.. يُثاب في ذهابه وفي رجوعه.

(١) دليل الفالحين (٤/١١٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٣).

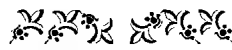
«القَفْلَةُ»: الرَّجُوعُ، والمراد: الرَّجُوعُ مِنَ الْغَزْوِ بَعْدَ فِرَاغِهِ.

ومعناه: أنه يُثَابُ فِي رُجُوعِهِ بَعْدَ فِرَاغِهِ مِنَ الْغَزْوِ.

قال في النهاية: أى أجر المجاهد في انصرافه إلى أهله بعد غزوه كأجره في إقباله إلى الجهاد؛ لأن في قفوله راحة للنفس واستعداداً بالقوة للعودة وحفظاً لأهله برجوعه إليهم ... وقيل: أراد بذلك؛ التعقيب وهو رجوعه ثانياً في الوجه الذى جاء منه سفراً وإن لم يلق عدواً ولم يشهد قتالاً ... وقد يفعل ذلك الجيش إذا انصرفوا من مغزاهم لأحد أمرين:

أحدهما: أن يأمن العدو برجوعهم عنه فيغيروا عليه فينالوا الفرصة منه.

ثانيهما: أنهم إذا انصرفوا ظاهرين لم يأمنوا أن يقفو العدو أثرهم فيوقعوا بهم وهم غارون، فربما استظهر الجيش أو بعضهم بالرجوع على أدراجهم، فإن كان من العدو طلب كانوا مستعدين للقائهم، وإلا فقد سلموا وأحرزوا ما معهم من الغنيمة ... وقيل: يُحتمل أن يكون عن قوم قفلوا لخوفهم أن يدهمهم من عدوهم مَنْ هو أكبر منهم عدداً، وقفلوا يستضيفون إليهم عدداً آخر من أصحابهم، ثم يكروا على عدوهم ... والمعنى الأول مذكور في الأصل^(١).



(١٣٥٥) وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه، قال: لما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ تَلَقَّاهُ النَّاسُ، فَتَلَقَّيْتُهُ مَعَ الصَّبِيَّانِ عَلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ. رواه أبو داود بإسناد صحيح بهذا اللفظ، ورواه البخارى قال: ذَهَبْنَا تَلَقَّيْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ الصَّبِيَّانِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يخبر السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه لما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ .. وَالتَّى تُسَمَّى بِغَزْوَةِ الْعُسرة .

وَكَانَتْ فِي زَمَنِ عُسرةٍ مِنَ النَّاسِ وَجَدِبٍ مِنَ الْبِلَادِ، وَحِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الْمَقَامَ فِي ثَمَارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ، وَيَكْرَهُونَ شُخُوصَهُمْ عَلَى تِلْكَ

(١) دليل الفالحين (٤/١١٣-١١٤).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٠٨٣) كتاب الجهاد والسير.

الْحَالِ... وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَلَمًا يَخْرُجُ فِي غَزْوَةٍ إِلَّا كَتَبَ عَنْهَا وَوَرَى بِغَيْرِهَا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ غَزْوَةٍ تَبُوكَ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ وَشِدَّةِ الزَّمَانِ^(١).

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامى.

فيخبر السائب أنه لما قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ من غزوة تبوك تلقاه الناس .. أى: المتخلفون في المدينة.. قال: فتلقته مع الصبيان على ثنية الوداع.. وهى محل بقرب المدينة.. وُسِّمِتَ بذلك لأن المسافر كان يُودَّعُ عندها ويُشِيعُ إليها... وكان الصبيان يتلقون النَّبِيَّ ﷺ من شدة حُبهم له ﷺ وحبه لهم ﷺ... فقد كان النَّبِيُّ ﷺ في قمة الرحمة بكل الناس.. وبخاصة الصبية الصغار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥٦) وعن أبى أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَغْزُ، أَوْ يُجَهَّزْ غَازِيًا، أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يخبر النَّبِيُّ ﷺ أن «مَنْ لَمْ يَغْزُ» أى: مَنْ لَمْ يَخْرُجْ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ. «أَوْ يُجَهَّزْ غَازِيًا» بأن يُهَيَّأَ لَهُ أَسْبَابُ الْجِهَادِ وَيُعْطِيَهُ الْمَالُ وَالسَّلَاحَ وَالْعَتَادَ وَغَيْرَهُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

«أَوْ يَخْلُفْ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ» وذلك بأن يقوم بمصالحهم ويوفر لهم الطعام والدواء والكساء وكل ما يحتاجون إليه حتى يذهب المجاهد إلى أرض الجهاد وهو لا يحمل همَّ أهله فيبذل جهده في مجاهدة الأعداء والذُّود عن حياض الإسلام.

مَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ «أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ» أى: داهية أو مصيبة تَقْرَعُهُ وَتُثْقِلُهُ «قَبْلَ

(١) زاد المعاد (٣/٥٢٦).

(٢) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢١٨٥).

يوم القيامة» أى: أن الله ﷻ يُعَجِّلُ له عقوبته في الدنيا. لأن مَنْ كان هذا حاله فهو إنسان مشغول بالدنيا ناسٍ لآخرته لا يهتم إلا نفسه.. لا يعيش من أجل دينه ونُصرة دينه.. فمن هنا كان مُستحقاً لتلك العقوبة.

❁ وقد يكون المقصود بالقارعة ما ورد في حديث سابق أن النبي ﷺ قال: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ».. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥٧) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث الحثُّ على جهاد المشركين بالمال والنفس واللسان... بالمال: أى يبذل الإنسان ما لا يساعد به المجاهدين أو يشتري به سلاحاً أو غير ذلك... والنفس: أن يخرج بنفسه يقاتل... واللسان: أن يهجوهم «أى المشركين» بالقصائد والأشعار؛ لأن هجو المشركين يؤثر عليهم ويكون ذكرى سيئة في حقهم إلى ما شاء الله.

مثلاً إلى الآن ونحن نسمع هجاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وغيرهم للمشركين.

❁ وقد يكون الجهاد باللسان بأن يقول المسلم كلمة الحق أو ينصر المجاهدين بلسانه إن كان عالماً من علماء المسلمين.. وذلك بأن يحشد المسلمين للجهاد أو أن يُشجع المجاهدين ويرفع من معنوياتهم ويحفزهم على الجهاد بذكر أحاديث النبي ﷺ التى تحض المسلمين على الجهاد والتى تُخبرهم بالأجر والثواب العظيم الذى ينتظرهم عند النصر وعند الشهادة... فهذا نوعٌ من الجهاد باللسان... والله أعلم.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٠٩٠).

(١٣٥٨) وعن أبي عمرو - ويُقال: أبو حكيم - النُّعْمَانُ بْنُ مُقَرَّرٍ رضي الله عنه قال: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا لَمْ يُقَاتِلْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ آخِرَ الْقِتَالِ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وَتَهْبَ الرِّيَّاحُ، وَيَنْزِلَ النَّصْرُ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النعمان بن مقرن رضي الله عنه أنه شهد رسول الله ﷺ إذا لم يقاتل من أول النهار حال برد الصبح، وهبوب نسماته (آخر القتال حتى تزول الشمس) من كبد السماء إلى جهة المغرب (وتهب الرياح وينزل النصر) وذلك ليبرد الوقت، ويسهل لبس السلاح على المقاتلة، وعلى الخيل الكر والفُرّ، ويكون مع ذلك النصر بالتأييد الإلهي... قال ابن رسلان: وحربه عند هبوب الرياح استبشار بما نصره الله من الرياح، وهذا مفهوم من قوله «نُصِرْتُ بالصبا وأُهلكت عادٌ بالدبور» ويرجو أن يُهلك الله أعدايه بالدبور، كما أهلك عادًا بها، ونُصِر بالصبا... وعند البخاري: «وتهب رياح النصر»، وفي رواية: «ويحضر الصلوات أوقاتها»، فأوقاتها أفضل الأوقات ويُستجاب فيها الدعاء^(٢).

❁ والمقصود هنا: أن النبي ﷺ كان يحب أن يبدأ القتال بعد صلاة الفجر في برد الصبح وهبوب نسماته.. فإذا فاته وقت الصباح آخر الجهاد حتى تزول الشمس وتهب الرياح ليكون ذلك أيسر على المجاهدين من القتال في الشمس المحرقة... وحيث ينزل نصر الله ﻫُوَ ﻳُؤْتَى ﻋَلَى نَبِيِّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٥٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ، فَاصْبِرُوا»^(٣).

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣١٣).

(٢) دليل الفالحين (١١٦/٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٦٥، ٢٩٦٦) كُتِبَ الْجِهَادُ وَالسِّيرُ - ومسلم (١٧٤١) كتاب الجهاد والسير.

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٣٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٦٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه وعن جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الحربُ خُدعةٌ»^(١).

❁ قال ابن العربي: الخديعة في الحرب تكون بالتورية، وبالكمين وبخلف الوعد، وذلك من المُستثنى الجائز المخصوص من المحرم.. والكذب حرام لكنه جائز في مواطن بالإجماع أصلها الحرب، أذن الله له فيه وفي أمثاله رفقا بالعباد لضعفهم.. وليس للعقل في تحليله ولا تحريمه أثر إنما هو إلى الشرع. قال المهلب: الخداع في الحرب جائز كيفما أمكن إلا بالآيمان والعهود والتصريح بالأمان فلا يحل شيء من ذلك... قال بعض أهل السير: قال النبي ﷺ هذا الكلام يوم الأحزاب لنعيم بن مسعود^(٢). اهـ.

❁ وقال الإمام النووي رحمته الله: وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ خِدَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْحَرْبِ وَكَيْفَ أَمَكَّنَ الْخِدَاعُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَقْضُ عَهْدٍ أَوْ أَمَانٍ فَلَا يَحِلُّ وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ جَوَازُ الْكَذِبِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ أَحَدُهَا فِي الْحَرْبِ... قَالَ الطَّبْرِيُّ: إِنَّمَا يَجُوزُ مِنَ الْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ الْمَعَارِيضُ دُونَ حَقِيقَةِ الْكَذِبِ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ... هَذَا كَلَامُهُ وَالظَّاهِرُ إِبَاحَةُ حَقِيقَةِ نَفْسِ الْكَذِبِ لَكِنَّ الْإِقْتِصَارَ عَلَى التَّعْرِيفِ أَفْضَلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

❁ والخداع هنا غير الغدر.. فلا يجوز للمسلم أن يغدر بأحد ولو كان كافراً.. ولكن يجوز أن يخدع الكافر المحارب في الحرب.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٢٩، ٣٠٣٠) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٧٤٠) كتاب الجهاد والسير.

(٢) دليل الفالحين (١١٧/٤).

(٣) مسلم بشرح النووي (٦٧/١٢).

(٢٣٥) باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة

يُغْسَلُونَ وَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ بِخِلَافِ الْقَتِيلِ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ

(١٣٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِيقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(١).
(١٣٦٢) وعنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ؟» قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ. قال: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَا لَقِيتُ» قالوا: فَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونَ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ»^(٢).

✽ قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين): باب بيان جماعة من الشهداء يعنى غير المقتولين في سبيل الله ... والمقتول في سبيل الله هو أعلى أنواع الشهداء، أما الشهداء الآخرون فهم كما أشار إليهم المؤلف هم شهداء في الآخرة في أحكام الآخرة، لا في أحكام الدنيا... ويتبين ذلك بأن الشهيد المقتول في سبيل الله شهيد في الدنيا والآخرة، فهو شهيد في الدنيا إذا قُتل ومات، فإنه لا يُغسَل ولا يُكفَّن ولا يُصَلَّى عليه، ويُدفن، ولا يأتيه الملكان اللذان يسألانه عن ربه وعن دينه، وعن نبيه ... فلا يُغسل من أجل أن يبقى عليه أثر الدم الذي قُتل في سبيل الله من أجله، فيأتي يوم القيامة وجرحه يسغب دمًا.. اللون لون الدم والريح ريح المسك.. لذلك قال العلماء: يَحْرُمُ أَنْ يُغسَلَ، وَيَحْرُمُ أَنْ يُغسل دمه، بل يبقى على ما هو عليه.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨٢٩) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٩١٤) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٩١٥) كتاب الإمارة.

ولا يُكفن وإنما يُكفن في ثيابه التي قُتل فيها، حتى يأتي يوم القيامة بهذه الثياب، ولا يُصلى عليه؛ لأن الصلاة شفاعاً، كما قال النبي ﷺ في الصلاة على الميت: «ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفّعهم الله فيه»^(١)، والمقتول في سبيل الله لا يحتاج لأن يشفع له أحد، لأن الشفاعه له كونه يعرض رقبتَه لأعداء الله إعلاءً لكلمة الله.

ولهذا علّل النبي ﷺ عدم فنتته في قبره، فقال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»^(٢)، أى كفى بها اختباراً... وصدق رسول الله ﷺ.

فالشهيد يُكفن في ثيابه ليأتي بها يوم القيامة ولا يُصلى عليه... ونظير هذا في بعض الوجوه: الرجل إذا مات مُحَرِّماً، فإنه يُغسّل بماءٍ وسدر، ولا يُحنط، ولا يُقَرَّب طيباً، ولا يُغطى رأسه، ولا يُكفن في ثيابٍ غير ثياب الإحرام؛ التي كانت عليه؛ لأنه يُبعث يوم القيامة مُلبياً... يُبعث وهو يقول: لبيك اللهم لبيك.

والشاهد يُبعث يوم القيامة جرحه يسغب دمًا، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك.. فهذا الشهيد في أحكام الدنيا... الشهيد في سبيل الله، يُجَنَّب هذه الأشياء، لا يُغسل، لا يُكفن بكفنٍ جديد، وإنما يُكفن في ثيابه ولا يُصلى عليه، ويُدفن، ولا يأتيه الملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه؛ لأن هذا أكبر امتحان واختبار له ودليل على صدقه... أما في الآخرة، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ^(٤) ﴿١٧٠﴾
﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]
أما بقية الشهداء المذكورين في الحديث فهم شهداء في الآخرة، لا في الدنيا، ومع ذلك فإنهم لا يساؤون الذين قُتلوا في سبيل الله، ولكنهم شهداء.

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٤٨) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٣).

ولكلّ درجات مما عملوا... فشهداء الآخرة فقط مثل المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم.

الأول: المطعون: يعنى: مَنْ مات بالطاعون.. والطاعون وباءٌ فتاكٌ مُعَدٍ - نسأل الله العافية- إذا وقع في أرض فإنه يهلك، ولهذا قال النبي ﷺ في الطاعون: «إذا سمعتم به في أرضٍ فلا تقدموا عليها، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه»^(١)؛ لأنه كيف تفر من الله ﷻ.. وانظر إلى قوم أُلوف خرجوا من ديارهم حَذَرَ الموت فقال الله لهم: موتوا، فماتوا... هربوا من الموت، لكن الله تعالى أراد أن يبين لهم أنه لا مفر من الله ﷻ، قال الله لهم: موتوا فماتوا ثم أحياهم، ليتبين أنه لا مفر من قدر الله ﷻ، لكن نفعل الأسباب التي أمرنا بها، أما التي نُهينا عنها فلا.. ولهذا قال: «إذا وقع وأنتم في أرض فلا تخرجوا منها فراراً منه» هذا المطعون إذا مات بالطاعون كان شهيداً^(٢).

وهناك أحاديث أخرى توضح لنا ما هو الطاعون.

قال ﷺ: «الطَّاعُونُ بَقِيَّةُ رَجَزٍ، أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهَيِّطُوا عَلَيْهَا»^(٣).

وقال ﷺ: «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِأُمَّتِي، وَوُخِزُ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْجَنِّ، غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْإِبْلِ تَخْرُجُ بَيْنَ الْأَبَاطِ وَالْمَرَاقِ، مَنْ مَاتَ فِيهِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ أَقَامَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرَابِطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ فَرَّ مِنْهُ كَانَ كَالْفَارِّ مِنَ الرَّحْفِ»^(٤).

الثاني: المبطون: والمبطون هو صاحب داء البطن وهو الإسهال.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

(٢) شرح رياض الصالحين / الشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٠٩-٣١٠) بتصرف.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٣) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

(٤) حسن: رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٤٦).

قَالَ الْقَاضِي: وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي بِهِ الْإِسْتِسْقَاءُ وَانْتِفَاحُ الْبَطْنِ.. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي تَشْتَكِي بَطْنُهُ. وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَمُوتُ بِدَاءِ بَطْنِهِ مُطْلَقًا^(١) أَوْ بِشَيْءٍ فِي بَطْنِهِ مِثْلَ الْكَلَى أَوْ الْكَبْدِ أَوْ الطَّحَالِ.

وهو يشمل كل داء يصيب ما في البطن.. كالفشل الكلوى والفشل الكبدي وأمراض الطحال.. وكل ما يصيب البطن من أمراضٍ تؤدي إلى الموت.. فصاحبه حكمه حكم المبطون.

الثالث: الغريق؛ والغريق قد يغرق وهو مسافر إلى الحج أو العمرة.. أو مسافر إلى أى بلدٍ أخرى فغرقت به السفينة.. أو يكون صيادًا يسعى على رزق أولاده فغرق.. أو كان يَسْبَحُ في النهر أو البحر فغرق.. المهم في كل ذلك أن يكون عند الغرق على طاعة وليس على معصية... وقد أمرنا أن نتعلم السباحة لنقى أنفسنا من الغرق.. وذلك من باب الأخذ بالأسباب.. وإلا فإن الله إذا قَدَّرَ شيئًا فإنه كائنٌ لا محالة.

الرابع: صاحب الهدم؛ يعنى رجل انهدم عليه البيت، أو الجدار، أو ما أشبه ذلك. فإنه يكون شهيدًا، لأن هؤلاء كلهم ماتوا بحوادث مُمِيتة بريئة.. وهل يُقاس عليهم مثلهم كالذى يموت في حادث أو في صدم أو ما أشبه ذلك؟ الله أعلم، قد يُقاسون على هذا، ويُقال لا فرق بين أن ينهدم الجدار، أو أن تنقلب السيارة؛ لأن كل حادث مات به الإنسان، يُحكم على مَنْ مات بهذا الحادث أنه شهيد.. لكننا لا نجزم به؛ لأن مسائل الجزاء عقوبة أو مثوبة ليس فيها قياس.

فالحاصل أن هناك شهداء غير المقتولين في سبيل الله... ومن ذلك أيضًا مَنْ مات في سبيل الله، وإن لم يُقتل فهو شهيد، لكنه شهيد في الآخرة، كرجل خرج مع المجاهدين، ومات في الطريق مَوتة طبيعية، فهذا أيضًا من الشهداء... وشهيد

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/٩٢).

الآخرة حُكِمَ في الدنيا أنه يُغَسَّلُ وَيُكْفَنُ وَيُصَلَّى عليه، ويُدفن مع الناس، كالشهداء الذين ذكرهم الرسول ﷺ وهم مَنْ مات بهدم، أو غرق، أو طاعون، أو بطن^(١).

بِمَاتٍ بِهَدْمٍ أَوْ غَرَقٍ أَوْ طَاعُونٍ أَوْ بَطْنٍ

(١٣٦٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٢).

(١٣٦٤) وعن أبي الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة رضي الله عنهم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٣).

❁ لا بد أن نعلم أن الشهداء ثلاثة أقسام: أَحَدُهَا الْمَقْتُولُ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْقِتَالِ فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الشُّهَدَاءِ فِي ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَفِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُغَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ... وَالثَّانِي شَهِيدٌ فِي الثَّوَابِ -أَيِ فِي الْآخِرَةِ- دُونَ أَحْكَامِ الدُّنْيَا وَهُوَ الْمَبْطُونُ وَالْمَطْعُونُ وَصَاحِبُ الْهَدْمِ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ بِتَسْمِيَّتِهِ شَهِيدًا... فَهَذَا يُغَسَّلُ وَيُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابُ الشُّهَدَاءِ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ ثَوَابِ الْأَوَّلِ... وَالثَّالِثُ مَنْ غُلِّ فِي الْغَنِيمَةِ وَشَبَّهَ مِمَّنْ وَرَدَتْ الْأَثَارُ بِنَفْيِ تَسْمِيَّتِهِ شَهِيدًا إِذَا قُتِلَ فِي حَرْبِ الْكُفَّارِ فَهَذَا لَهُ حُكْمُ الشُّهَدَاءِ فِي الدُّنْيَا فَلَا يُغَسَّلُ وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُ ثَوَابُهُمُ الْكَامِلُ فِي الْآخِرَةِ»^(٤).

❁ وهنا في هذين الحديثين يخبر النبي ﷺ أن مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٨٠) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٤١) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٤٥).

(٤) مسلم بشرح النووي (٢/ ٢١٧) بتصرف.



شهيد... يعنى: إذا جاء لصٌ يريد أن يسرق مالك فدافعت عن مالك.. وظللت تدافع عن مالك حتى لا يأخذه فقتلك فأنت شهيد.. وإن دافعت عن مال غيرك وقتلت فأنت أيضًا شهيد...

«وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ».. يعنى: لو أراد رجلٌ أن يقتلك فدافعت عن حياتك حتى قُتِلت فأنت شهيد... وإن دافعت عن حياة غيرك فقتلت فأنت أيضًا شهيد.

«وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» يعنى: إذا أراد إنسان أن يفتنك عن دينك أو يُخرجك عن ملتك فقاتلت دفاعًا عن دينك فقتلت فأنت شهيد.

«وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» يعنى: إذا أراد إنسان أن ينتهك عرض أحدٍ من نسائك أو بناتك أو يعتدى على أولادك فدافعت عنهم حتى قُتِلت فأنت شهيد... وكذلك إن دافعت عن حريم غيرك وعيال غيرك فقتلت فأنت شهيد.

بَابُ مَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ

(١٣٦٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجلٌ يريدُ أخذَ مالى؟ قال: «فلا تُعطِه مالك» قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «قاتِلُه» قال: أرأيت إن قتلنى؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هُوَ فى النَّارِ»^(١).

❁ وفى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبى ﷺ قال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء أحدٌ يريد أخذ مالى، قال: «فلا تُعطِه مالك» قال: أرأيت إن قاتلنى؟ قال: «قاتِلُه» قال: أرأيت إن قتلنى؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: «هُوَ فى النَّارِ».

فدل ذلك على أن الإنسان يُدافع عن ماله إذا جاء أحدٌ يريد أخذ المال،

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٠) كتاب الإيمان.

فإنك تدافع، فإذا لم يندفع إلا بالقتل فاقتله، وإن اندفع بدون ذلك فلا تقتله، يعني لو أمكن أن تكون أنت أقوى منه، وتشد يديه ورجليه، وتأسره فلا تقتله؛ لأنه لا حاجة لقتله، وإذا كان لا يمكن فقاتلك فقاتله، ولو قتلته.. وإن خفت أن يبادرك بالقتل فاقتله، ولا حاجة للمقاتلة... يعني لو جاء إليك يسعى يشد ومعه سلاح قد شهره فاقتله؛ لأنك إن لم تبادره قتلك... فإذا قتلته فإنه في النار، وإن قتلك هو فأنت شهيد.

ولهذا قال العلماء: إن دفع الصائل ولو أدى إلى قتله جائز؛ لأنه إذا صال عليك فلا حُرمة له، لكن إذا اندفع بما دون القتل فلا تقتله.

نسأل الله تعالى أن يُعيدنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.
✽ وليس معنى هذا حصر الشهداء في هؤلاء.. فقد ذكر النبي ﷺ شهداء آخرين غيرهم:

✽ قال ﷺ: «مَنْ فَصَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَاتَ، أَوْ قُتِلَ، أَوْ وَقَصَهُ قَرْصُهُ، أَوْ بَعِيرُهُ أَوْ لَدَعَتْهُ هَامَةٌ، أَوْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ، أَوْ بَأَى حَتْفٍ شَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ شَهِيدٌ وَإِنَّ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).
وقال ﷺ: «الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرَأَةُ تَمُوتُ بِجُمُعٍ^(٢) شَهِيدَةٌ»^(٣).
تموت بجُمُعٍ: أى: تموت وفي بطنها ولد أو من الولادة.

(١) حسن: رواه أبو داود والحاكم عن أبي مالك الأشعري، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٤١٣).
(٢) هو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع: «أى تموت وفي بطنها ولد.. وقيل التى تموت بكراً، والجُمُع بالضم بمعنى المجموع، كذخر بمعنى المذخور، وكسر الكسائي الجيم، والمعنى أنها ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها من حمل أو بكاراة». قلت: والمراد هنا الحمل قطعاً بدليل الحديث المتقدم بلفظ «يقتلها ولدها جمعاء».

(٣) صحيح: رواه مالك، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٩).

باب فضل العتق (٢٣٦)

✽ العتق: هو تحرير الرقاب.. يعنى أن يكون هناك إنسان مملوك فيأتى رجل فيعتقه ويحرره ابتغاء مَرَضَاةَ اللَّهِ ﷻ.. فهذا من أفضل الأعمال التى يتقرب بها العبد إلى الله.

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ۖ﴾ (١١) أى فهلا أنفق ماله فى اجتياز العقبة الكئود.. قال فى البحر: والعقبة استعارةٌ للعمل الشاق على النفس، من حيث فيه بذل المال، تشبيهاً لها بعقبة الجبل وهو ما صَعُبَ منه وقت الصعود، فإنه يلحقه مشقة فى سلوكها... ومعنى اقتحمها: دخلها بسرعة وشدة^(١)، وهو مثْلُ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، حتى ينال رضى الرحمن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۚ﴾ (١٢) ﴿فَكُرْبَةً ۚ﴾ (١٣) أى وما أعلمك ما اقتحام العقبة؟ وفيه تعظيم لشأنها وتهويل.. ثم فسرهما تعالى بقوله ﴿فَكُرْبَةً ۚ﴾ (١٣) أى هى عتق الرقبة فى سبيل الله، وتخليص صاحبها من الأسْرِ والرقِّ، فمن أعتق رقبة كانت له فداءً من النار ﴿أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۚ﴾ (١٤) أى أن يطعم الفقير فى يوم عَصِيب ذى مجاعة... قال الصاوى: وقيد الإطعام بيوم المجاعة، لأن إخراج المال فيه أشد على النفس^(٢) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۚ﴾ (١٥) أى أطعم اليتيم الذى بينه وبينه قرابة ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۚ﴾ (١٦) أو المسكين الفقير البائس الذى قد لصق بالتراب من فقره وضره... وهو كناية عن شدة الفقر والبؤس... قال ابن عباس: هو المطروح على ظهر الطريق لا يقيه من التراب شيء ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ﴾ أى عمل هذه القربات لوجه الله تعالى، وكان مع ذلك مؤمناً صادق الإيمان.

قال المفسرون: وفى الآية إشارة إلى أن هذه القُرب والطاعات لا تنفع إلا مع

(١) تفسير البحر المحيط (٨/٤٧٦).

(٢) حاشية الصاوى على الجلالين (٤/٣٢٢).

الإيمان ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أى وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة على الضعفاء والمساكين ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أى هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة، هم أصحاب الجنة الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويسعدون بدخول جنات النعيم^(١).

﴿وفك الرقبة﴾ يشمل العتق.. ويشمل أيضاً فك الأسير من العدو.. فإن هذا من فك الرقاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٦٦) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ»^(٢).

﴿فى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن من أعتق رقبة مسلمة بأن أعتقها من الرق أو الأسر فإن الله ﻋَزَّوَجَلَّ يعتق بكل عضوٍ منه عضواً منه من النار حتى فرجه بفرجه...﴾

فإن كان الله ﻋَزَّوَجَلَّ يعتق بكل عضوٍ منه عضواً منك فلا بد أن تحرص على أن تعتق إنساناً كامل الأعضاء حتى يعتق الله جسدك كله من النار.

﴿قال الإمام النووى رحمته الله:

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ فَضْلِ الْعِتْقِ وَأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَمِمَّا يَحْصُلُ بِهِ الْعِتْقُ مِنَ النَّارِ وَدُخُولُ الْجَنَّةِ... وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ عِتْقِ كَامِلِ الْأَعْضَاءِ فَلَا يَكُونُ خَصِيًّا وَلَا فَاقِدَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْضَاءِ... وَفِي الْخَصِيِّ وَغَيْرِهِ أَيْضًا الْفَضْلُ الْعَظِيمُ، لَكِنَّ الْكَامِلَ أَوْلَى وَأَفْضَلُهُ أَعْلَاهُ ثَمَنًا وَأَنْفُسُهُ... وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٥٣٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧١٥) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٥٠٩) كتاب العتق.

مُسْلِمًا كَانَ فِكَاكُهُ مِنَ النَّارِ يَجْزِي كُلُّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْهُ وَأَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأَتَيْنِ مُسْلِمَتَيْنِ كَانَتْمَا فِكَاكُهُ مِنَ النَّارِ يَجْزِي كُلَّ عَضْوٍ مِنْهُمَا عَضْوًا مِنْهُ وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً كَانَتْ فِكَاكُهَا مِنَ النَّارِ يَجْزِي كُلَّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْهَا».

وَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عِتْقَ الْعَبْدِ أَفْضَلُ مِنْ عِتْقِ الْأَمَةِ... قَالَ الْقَاضِي عِيَّاضُ: وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيُّمَا أَفْضَلُ عِتْقُ الْإِنَاثِ أَمْ عِتْقُ الذُّكُورِ فَقَالَ بَعْضُهُمُ الْإِنَاثُ أَفْضَلُ لِأَنَّهَا إِذَا عِتِقَتْ كَانَ وَلَدُهَا حُرًّا سَوَاءً تَزَوَّجَهَا حُرًّا أَوْ عَبْدًا.

وَقَالَ آخَرُونَ: عِتْقُ الذُّكُورِ أَفْضَلُ لِهَذَا الْحَدِيثِ وَلِمَا فِي الذِّكْرِ مِنَ الْمَعَانِي الْعَامَةِ الْمُنْفَعَةِ الَّتِي لَا تَوْجَدُ فِي الْإِنَاثِ مِنَ الشَّهَادَةِ وَالْقَضَاءِ وَالْجِهَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْصُ بِالرِّجَالِ إِمَّا شَرْعًا وَإِمَّا عَادَةً وَلِأَنَّ مِنَ الْإِمَاءِ مَنْ لَا تَرُغِبُ فِي الْعِتْقِ وَتَضِيعُ بِهِ بِخِلَافِ الْعَبِيدِ... وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ.. وَأَمَّا التَّفْقِيدُ فِي الرِّقَبَةِ بِكَوْنِهَا مُؤْمِنَةً فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفَضْلَ الْخَاصَّ إِنَّمَا هُوَ فِي عِتْقِ الْمُؤْمِنَةِ وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ فَفِيهِ أَيْضًا فَضْلٌ بِلَا خِلَافٍ وَلَكِنْ دُونَ فَضْلِ الْمُؤْمِنَةِ وَلِهَذَا أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ يُشْتَرَطُ فِي عِتْقِ كَفَّارَةِ الْقَتْلِ كَوْنُهَا مُؤْمِنَةً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٦٧) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا»^(٢).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٠/٢١٢-٢١٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥١٨) كتاب العتق - ومسلم (٨٤) كتاب الإيمان.

(٢٣٧) باب فضل الإحسان إلى المملوك

❖ قال الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

فجاء في هذه الآية الحض على الإحسان إلى المملوك .. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الآدميين والبهائم بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فمن قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل .. ومن لم يقم بذلك فإنه عبدٌ مُعْرِضٌ عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله معجب بنفسه فخور بقوله... ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾^(١).

بَابُ فَضْلِ الْإِحْسَانِ إِلَى الْمَمْلُوكِ

(١٣٦٨) وعن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذرٍّ رضي الله عنه، وعليه حُلَّةٌ، وعلى غلامه مثلها، فسألتُه عن ذلك، فذكر أنه سَابَّ رجلاً على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فغيره بأمره، فقال النبي ﷺ: «إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ.. هُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَخَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تَكْلَفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»^(٢).

❖ ففي هذا الحديث يحكى المعرور بن سويد أنه رأى أبا ذرٍّ رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ جميلة .. وعلى غلام أبي ذر حُلَّةٌ مثلها فتعجب المعرور .. لأنه من المعلوم

(١) تفسير السعدى ص (١٨٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٠) كتاب الإيمان - ومسلم (١٦٦١) كتاب الأيمان.

أن العبد لا يلبس أبدًا مثل سيده.. بل يكون لباس سيده أجمل وأفضل من لباسه بكثير... فسأل المعروف أبا ذرٍّ عن ذلك.. فذكر له أبو ذر أنه ساءَ رجلًا على عهد رسول الله ﷺ.. وفي رواية أنه قال: كان بيني وبين رجلٍ من إخواني كلامٌ وكانت أمه أعجمية فغيرته بأمه.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: **أَمَّا قَوْلُهُ: رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِي فَمَعْنَاهُ: رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ عَبْدًا، وَإِنَّمَا قَالَ: مِنْ إِخْوَانِي لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ»^(١).**

المهم أن أبا ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما عَيَّرَ هذا الرجل بأمه قال له النبي ﷺ: **«إِنَّكَ أَمْرُو فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ»** ولم يقل له: **«إِنَّكَ جَاهِلِيٌّ»**.. بل قال له ﷺ: **«أَمْرُو فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ»** أي: فيك خصلة أو خلق من أخلاق الجاهلية... وهذا يوضح أنه لا يجوز لمسلم أن يُعير أخاه بأمه أو أبيه.. وأن ذلك من أخلاق الجاهلية.

❁ ثم قال له ﷺ: **«هُم إِخْوَانُكُمْ، وَخَوَلُكُمْ»** أي: أن هؤلاء العبيد إخوانكم خَوَلُكم الله إياهم وجعلهم الله تحت أيديكم..

أي: احرص على أن تعامل هذا المملوك كما تعامل أخاك من أمك وأبيك.
❁ ثم قال ﷺ: **«فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعْيِنُوهُمْ»**.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: **وَالْأَمْرُ بِإِطْعَامِهِمْ مِمَّا يَأْكُلُ السَّيِّدُ وَالْبَاسُ لَهُمْ مِمَّا يَلْبَسُ مَحْمُولٌ عَلَى الْإِسْتِحْبَابِ لَا عَلَى الْإِجْبَابِ.. وَهَذَا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا فِعْلُ أَبِي ذَرٍّ فِي كِسْوَةِ غَلَامِهِ مِثْلَ كِسْوَتِهِ فَعَمَلٌ بِالْمُسْتَحَبِّ.. وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى السَّيِّدِ نَفَقَةُ الْمَمْلُوكِ وَكِسْوَتُهُ بِالْمَعْرُوفِ بِحَسَبِ الْبُلْدَانِ وَالْأَشْخَاصِ سَوَاءً كَانَ مِنْ جِنْسِ نَفَقَةِ السَّيِّدِ وَلِبَاسِهِ أَوْ ذُونَهُ أَوْ فَوْقَهُ.. حَتَّى لَوْ قَتَرَ السَّيِّدُ عَلَى نَفْسِهِ**

تَقْتِيرًا خَارِجًا عَنْ عَادَةِ أَمْثَالِهِ إِمَّا زُهْدًا وَإِمَّا شَحًّا لَا يَحِلُّ لَهُ التَّقْتِيرُ عَلَى الْمَمْلُوكِ وَالزَّامَةُ وَمُوَافَقَتُهُ إِلَّا بِرِضَاهُ... وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُكَلِّفَهُ مِنَ الْعَمَلِ مَا لَا يُطِيقُهُ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَزِمَهُ إِعَانَتُهُ بِنَفْسِهِ أَوْ بغيرِهِ.. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمَسْنُوبَ هُوَ بِلَالُ الْمُؤَدَّنِ^(١).

✽ والحاصل: أن هذا التوجيه النبوي الرفيع، قد جمع فأوعى كل العلاقة التي تربط الخادم بالمخدوم حيث حدد منزلة الخادم من المخدوم، فهو أخ له، وحدد مَنْ الذي قَدَّرَ على الخادم هذا الأمر (إنه الله عَزَّوَجَلَّ) وحدد نوع المأكل والملبس الذي يلبسه الخادم، فهو من جنس ما يأكل ويلبس المخدوم، وحدد الأعمال التي يقومون بها، وهي كل ما يطيقون ويستطيعون.. وإذا تَطَلَّبَ الأمر تكليفهم بأعمال شاقة، فقد وجب إعانتهم، إما بالنفس أو بتوفير آلة لهم تيسر عليهم العمل، أو ندب عامل يساعدهم حتى ينتهى العمل الشاق.

ودليله أن الحديث لم يحدد كيفية الإعانة فيدخل فيها كل وسيلة من شأنها رفع المشقة، فإن قال قائل: هناك أمور في العلاقة بين الخادم والمخدوم لم يحددها أو يتطرق إليها الحديث... قلت: تلك الأمور يجب معالجتها في نطاق قوله ﷺ: «إخوانكم خولكم»، فهل يوجد مَنْ هو أرحم بالأخ من أخيه.

وأقول لإخواني المسلمين: معاملة الأجير بالحسنى، ابتغاء وجه الله - سبحانه وتعالى - ومحبة اتباع سنة الحبيب ﷺ لا تظهر ولا تكون إلا إذا أساء الخادم أو الأجير، فهنا يظهر التسامح والعفو والإحسان... قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فهل يكظم الإنسان غيظه ويعفو إلا إذا حدث له ما يُغضبه.. ولن يبلغ المسلم منزلة الإحسان إلا إذا تقيّد بهذه الآية الكريمة.. كظم

(١) مسلم بشرح النووي (١١/١٩١-١٩٢) بتصرف.

للغليظ ثم عفو ثم إحسان^(١).

بِمَا يَكُونُ مِنْهُ

(١٣٦٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيَّ عِلَاجَةٍ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ يوصينا بالإحسان إلى الخدم.. ثم ذكر صورة من صور الإحسان إليهم.. وهي الإحسان إليهم ومُراعاة مشاعرهم عند الطعام وعدم حرمانهم..

فقال ﷺ: «إذا أتى أحدكم خادِمُهُ» وهو يشمل الرقيق والأجير وغيرهما من الخادم بالنفقة من غير عقد إجارة أو على سبيل التبرع... «إذا أتى أحدكم خادِمُهُ بِطَعَامِهِ» أي: إن أحضر لك خادمك أو العبد المملوك.. إن أحضر لك طعامك «فإن لم يُجْلِسْهُ مَعَهُ» أي: إن كنت تستطيع أن تُجلسه ليأكل معك فهذا بابٌ عظيم من أبواب التواضع سوف يرفعك الله به في الدنيا والآخرة.

«فليُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ» يعني: إن لم تستطع أن تُجلسه معك.. كما هو الحال في أكثر البيوت.. بأن تكون جالسًا مع زوجتك وأولادك وتريد أن تأنس بهم وأن تتحدث معهم ولن تستطيع فعل ذلك أمام الخادم.. فليس هناك أقل من أن تعطيه أي شيء من ذلك الطعام مما تطيب نفسك به... وقد وضع النبي سبب ذلك فقال ﷺ: «فإنه وليَّ عِلَاجَةٍ» أي أن هذا الخادم أو المملوك هو الذي أوقد النار وأعدَّ الطعام وصنعه فليس هناك أقل من أن يذوق شيئًا من ذلك الطعام حتى تطيب نفسه.. وحتى لا ينظر في ذلك الطعام.. وحتى

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/٣٨٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٥٧) كتاب العتق - ومسلم (١٦٦٣) كتاب الإيمان.

«الأكلة» بضم الهمزة: هي اللُقْمَةُ.

لا يحسد أهل البيت على طعامهم... إلى غير ذلك..

لكن عليك وأنت تعطيه من طعامك أن تحتسب ذلك عند الله لتفوز بالأجر والثواب.. وأن تنوى بذلك جبر خاطر هذا الخادم أو المملوك الذي ليس له أهل وليس له أحدٌ في الدنيا غيرك.. فأحسن إليه ليكرمك الله ﷻ في الدنيا والآخرة.

❁ وقد كان النبي ﷺ إذا أهدى عبداً لواحدٍ من أصحابه كان يوصيه به خيراً.. فكانوا يعاملونهم أفضل وأطيب معاملة ابتغاء مرضاة الله.. لأن النبي ﷺ لما قال لهم: «جعلهم الله تحت أيديكم» فعلموا أن الإحسان إليهم طاعة لله ﷻ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٨) باب فضل المملوك

الذى يؤدي حق الله وحق مواليه

(١٣٧٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»^(١).

(١٣٧١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ الْمُصْلِحِ أَجْرَانِ»، وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ لَوْلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْحُجُّ، وَبِرُّ أُمِّي، لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ»^(٢).

(١٣٧٢) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَمْلُوكُ الَّذِي يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَيُؤَدِّي إِلَى سَيِّدِهِ الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، وَالنَّصِيحَةِ، وَالطَّاعَةِ، لَهُ أَجْرَانِ»^(٣).

✽ فبعد أن ذكر المصنف رحمته الله الأحاديث التي تَحُثُّ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَى الْعَبْدِ أَوْ الْمَمْلُوكِ.. ذكر هنا الأحاديث التي تَحُثُّ عَلَى إِحْسَانِ الْمَمْلُوكِ إِلَى سَيِّدِهِ.

✽ ففي الحديث الأول يذكر النبي ﷺ أن العبد إذا نصح لسَيِّدِهِ وَقَامَ بِخِدْمَتِهِ قَدْرَ طَاقَتِهِ وَحَسَبَ اسْتَطَاعَتِهِ وَكَانَ أَمِينًا عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَعَلَى بَيْتِهِ «وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ» فَجَاءَ بِهَا مُسْتَوْفِيَةً لِلْأَرْكَانِ وَالشُّرُوطِ وَالْآدَابِ وَأَدَّى الْعِبَادَاتِ كُلَّهَا خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى: «فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ» الْأَجْرُ الْأَوَّلُ لِقِيَامِهِ بِحَقِّ اللَّهِ ﷻ.. وَالْأَجْرُ الثَّانِي لِقِيَامِهِ بِحَقِّ سَيِّدِهِ.

قال الإمام النووي رحمته الله: فِيهِ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ لِلْمَمْلُوكِ الْمُصْلِحِ وَهُوَ النَّاصِحُ لِسَيِّدِهِ وَالْقَائِمُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ الْمَتَوَجِّبَةُ عَلَيْهِ وَأَنَّ لَهُ أَجْرَيْنِ لِقِيَامِهِ بِالْحَقِّينِ وَلَا نَكْسَارِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٤٦) كتاب العتق، ومسلم (١٦٦٤) كتاب الأيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٤٨) كتاب العتق، ومسلم (١٦٦٥) كتاب الأيمان.

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٥٥١) كتاب العتق.

بالرق^(١).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدِي أَنَّ الْعَبْدَ لَمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أُمْرَانِ وَاجِبَانِ: طَاعَةُ رَبِّهِ فِي الْعِبَادَاتِ وَطَاعَةُ سَيِّدِهِ فِي الْمَعْرُوفِ فَقَامَ بِهِمَا جَمِيعًا كَانَ لَهُ ضِعْفُ أَجْرِ الْحُرِّ الْمُطِيعِ لِمَطَاعَتِهِ ... لِأَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَفُضِّلَ عَلَيْهِ بِطَاعَةِ مَنْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ .. قَالَ وَمِنْ هُنَا أَقُولُ إِنَّ مَنْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَرَضَانِ فَأَدَّاهُمَا أَفْضَلُ مِمَّنْ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا فَرَضٌ وَاحِدٌ فَأَدَّاهُ كَمَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ صَلَاةٌ وَزَكَاةٌ فَقَامَ بِهِمَا فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ صَلَاةٌ فَقَطْ ... وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ مَنْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ فُرُوضٌ فَلَمْ يُوَدِّ مِنْهَا شَيْئًا كَانَ عِصْيَانُهُ أَكْثَرَ مِنْ عِصْيَانِ مَنْ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْضُهَا اهـ^(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ مَزِيدَ الْفَضْلِ لِلْعَبْدِ الْمَوْصُوفِ بِالصِّفَةِ لِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ مَشَقَّةِ الرَّقِّ .. وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ التَّضْعِيفُ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ جِهَةِ الْعَمَلِ لَمْ يَخْتَصَّ الْعَبْدُ بِذَلِكَ .. وَقَالَ ابْنُ التَّيْنِ: الْمُرَادُ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ يُضَاعَفُ لَهُ .. قَالَ وَقِيلَ سَبَبُ التَّضْعِيفِ أَنَّهُ زَادَ لِسَيِّدِهِ نَصْحًا وَفِي عِبَادَةِ رَبِّهِ إِحْسَانًا فَكَانَ لَهُ أَجْرُ الْوَاجِبِينَ وَأَجْرُ الزَّيَادَةِ عَلَيْهِمَا^(٣).

❁ وفي الحديث الثاني أن النبي ﷺ قال: «للعبد المملوك المصلح أجران» وقد ذكرنا أنه يتحصل على أجرين: أحدهما لقيامه بعبادة ربه ﷻ والثاني: لقيامه بخدمة سيده والنصح له والأمانة على ماله وبيته.

فقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُعَلِّقًا عَلَى كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَما أَخْبَرَ بِمُضَاعَفَةِ أَجْرِ الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ: «وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ» أَيْ: وَاللَّهِ «لَوْ لَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْحَجُّ، وَبِرُّ أُمِّي، لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ».

(١) مسلم بشرح النووي (١١/١٩٤-١٩٥) بتصرف.

(٢) فتح الباري (٥/٢٠٩).

(٣) فتح الباري (٥/٢٠٩).

وهنا لا بد أن نعلم أن من كمال رحمة الله ﷻ أن جعل أجر العبد المملوك مُضاعفًا إن قام بعبادة ربه وخدمة سيده.. وذلك لأن العبد المملوك لو خُيّر لاختار أن يكون حُرًّا ولكنه دون إرادة منه وجد نفسه عبدًا مملوكًا فجبر الله خاطره بأن جعل أجره مُضاعفًا إن قام بعبادة ربه وخدمة سيده على الوجه المطلوب.

وهنا تمنى أبو هريرة أن يكون عبدًا مملوكًا ليفوز بمضاعفة الأجر لولا أنه يعلم أن العبد المملوك لا جهاد عليه ولا حج لأنه غير مستطيع.. فقد أوقفه سيده على خدمته ولا يستطيع أن يذهب إلى الجهاد أو الحج إلا إذا أذن له سيده بذلك.. وكذلك العبد المملوك لا يستطيع أن يقوم بخدمة أمه إن لم يأذن له سيده بذلك. فلو لا حرص أبي هريرة على الجهاد في سبيل الله.. والذهاب إلى الحج.. والتفرغ لخدمة أمه والنفقة عليها والقيام بمصالحها لتمنى أن يكون عبدًا مملوكًا حتى آخر لحظة في حياته ليفوز بمضاعفة الأجر والثواب.

❖ وأما الحديث الثالث فهو يحمل نفس معنى الحديث الأول.

بِمَا يَمْلِكُ رَبِّي

(١٣٧٣) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بِنبيِّه وآمنَ بمُحمَّدٍ، والعبدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ الله، وحقَّ مواليه، ورجُلٌ كانتْ له أمةٌ فأدَّبها فأحسنَ تأديبها، وعَلَّمها فأحسنَ تعليمها، ثُمَّ أعتَقها فترَوَّجَها، فلهُ أجرانٍ»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن هناك ثلاثة أصناف من البشر لهم أجران... وليس الأمر مقصورًا على هؤلاء الثلاثة فقط.. فللحافظ السيوطي رحمته الله: جزء سَمَاء «مطلع البدرين فيمن يُؤتَى أجره مرتين» بلغ بهم ثلاثين ويمكن الزيادة على ذلك بتتبع كتب السنة.. والله المُعين^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٧) كتاب العلم - ومسلم (١٥٤) كتاب الإيمان.

(٢) دليل الفالحين (٤/١٢٧).

فالشاهد أن النبي ﷺ أخبر أن هناك ثلاثة أصناف يُؤْتون أجرهم مرتين: «رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» يهودى أو نصرانى.. آمن بنبيه ثم آمن بالرسول ﷺ.. فهذا له أجره مرتين.. الأجر الأول لإيمانه برسوله.. والأجر الثانى لإيمانه بمحمد ﷺ.

وليُعلم أن اليهود والنصارى إذا بلغتهم رسالة محمد ﷺ فلم يؤمنوا به حبطت أعمالهم، حتى أعمالهم التى يتدينون بها فى ملتهم، حابطة غير مقبولة، لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

أما الثانى: فهو العبد المملوك الذى قام بحق سيده وحق الله ﷻ. أما الثالث: فرجل عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها، وتزوجها، فله الأجر مرتين... المرة الأولى لإحسانه إليها وهى رقيقة مملوكة، والأجر الثانى لإحسانه إليها بعد أن أعتقها لم يُضيعها، بل تزوجها وأكرمها وأحسن فرجها.

ومن المعلوم أن هذا الرجل الثالث الذى كان عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها.. إنما كان الناس يفعلون ذلك بإمائهم لبيعوها بعد ذلك للملوك والأمراء ويحصلوا من وراء ذلك على الأموال الكثيرة.. لكن هذا الرجل لم يفعل ذلك بل أعتقها لوجه الله وتزوجها وأكرمها غاية الإكرام فكان له هذا الثواب العظيم بأن يكون له أجران.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣٩) باب فضل العبادة في الهرج

وهو الاختلاط والفتن ونحوها

(١٣٧٤) عن مَعْقِل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهَجْرَةٍ إِلَى» ^(١).

❦ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُرَادُ بِالْهَرْجِ هُنَا الْفِتْنَةُ وَاخْتِلَاطُ أُمُورِ النَّاسِ وَسَبَبُ كَثْرَةِ فَضْلِ الْعِبَادَةِ فِيهِ أَنَّ النَّاسَ يَغْفُلُونَ عَنْهَا وَيَشْتَغِلُونَ عَنْهَا وَلَا يَتَفَرَّغُ لَهَا إِلَّا أَفْرَادٌ ^(٢).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُتَنَسِّكُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَالْمُنْقَطِعُ إِلَيْهَا الْمُتَعَزِّلُ عَنِ النَّاسِ أَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُهَاجِرِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ نَاسَبَهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمُهَاجِرَ فَرَّ بِدِينِهِ مِمَّنْ يَصُدُّ عَنْهُ لِلْإِعْتَصَامِ بِاللَّهِ أَوْلاً ثُمَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ.. وَكَذَا هَذَا الْمُنْقَطِعُ لِلْعِبَادَةِ فَرَّ مِنَ النَّاسِ بِدِينِهِ إِلَى الْإِعْتَصَامِ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ قَدْ هَاجَرَ إِلَى رَبِّهِ وَفَرَّ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ^(٣).

وَهَذَا الْحَدِيثُ يَنْطَبِقُ عَلَيْنَا فِي هَذَا الزَّمَانِ، فَالْإِنْسَانُ عِنْدَمَا يَتَأَمَّلُ فِي أَى مَكَانٍ حَوْلَهُ لَا يَجِدُ شَيْئاً قَدْ خَلَا مِنَ الْفِتْنَةِ... فَقَدْ تَكُونُ جَالِساً فِي بَيْتِكَ، تَعْتَزِلُ النَّاسَ، فَيَدْخُلُونَ عَلَيْكَ الْمَوْسِيقَى وَالتَّلْفِيزِیُونَ وَالفِیْدِیُو والأَغَانِی إِلَى الْبَیْتِ، فَتَجِدُ أَنَّهُ مَا خَلَا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْفِتَنِ!.. وَقَدْ جَاءَ تَفْسِيرُ الْهَرْجِ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ بِأَنَّهُ كَثْرَةُ الْقَتْلِ وَإِرَاقَةُ الدِّمَاءِ.

قَالَ الْمَنَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَهَجْرَةٍ إِلَى» يَعْنِی: مَنْ ثَبَّتَ عَلَى دِينِهِ فِي وَقْتِ الْغُرْبَةِ، وَوَقْتُ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَصْرِفُ النَّاسَ عَنْ دِينِهِمْ، وَتَعْظِيمِهِ وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

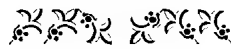
(٢) مسلم بشرح النووي (١١٧/١٨).

(٣) دليل الفالحين (١٣١/٤) بتصرف.



فمن صبر على ذلك فتوابه كأنه هاجر إلى النبي ﷺ ، ونال الثواب الكثير .
أو يُقال: الهجرة في الأول كانت قليلة لعدم تمكُّن أكثر الناس من ذلك،
فهكذا العابد في الهرج قليل... قال ابن العربي: وجه تمثيله بالهجرة أن الزمن
الأول كان الناس يفرون فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا
وقعت الفتن تَعَيَّنَ على المرء أن يفر بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجر أولئك
القوم وتلك الحالة، وهو أحد أقسام الهجرة.

يعنى: إذا لم يكن في استطاعة الإنسان أن يهاجر من دار الكفر إلى دار
الإسلام، أو لم تكن أصلاً هناك دار إسلام، أو لم يستطع أن يهاجر من دار
البدعة إلى دار السُّنة، أو من دار الظلم إلى دار العدل فعليه انتقال نفسه بأن
يهجر المعاصي، ويهجر المحرمات، فينتقل من الفتنة إلى طاعة الله سبحانه
وتعالى، ويهجر معاصي الله.. وهذا أحد أقسام الهجرة التي تجب على كل
مسلم.



(٢٤٠) باب فضل السماحة في البيع والشراء

والأخذ والعطاء وحسن القضاء والتقاضى

وإرجاح المكيال والميزان والنهي عن التطفيف

وفضل إنظار الموسر والمعسر والوضع عنه

✽ قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ① الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

✽ خلق الله الناس على حالة يحتاج فيها بعضهم إلى بعض، فليس يملك كل فرد ما يهمله ويكفيه، بل يملك هذا بعض ما يستغنى عنه، ويحتاج إلى بعض ما يستغنى عنه الآخرون، فألهمهم الله أن يتبادلوا السلع والمنافع بالبيع والشراء وسائر هذه المعاملات، حتى تستقيم الحياة، ويسير دولا بها بالخير والإنتاج.

فالبيع والشراء أمران ضروران لا تقوم حياة بنى آدم إلا بهما غالباً لأن الإنسان لا يستغنى - غالباً - عما عند غيره.. فكيف يتوصل إليه؟ إن استعاره بقى في همٍّ وقلق.. وإن طلب منه أن يهبه له أذل نفسه.. وإن أخذه غصباً كان ظالماً له.. فكان من حكمة البارئ (جل وعلا) أن شرع لنا البيع والشراء.. ولكن قد نجد من الناس من يبيع بالعدل والقسط.. وقد نجد من يبيع بالبخس والظلم.. وقد نجد من يبيع بالإحسان.. فالناس ثلاثة أقسام:

(١) قسم يبيع بالعدل، لا يظلم ولا يُظلم.

(٢) وقسم يبيع بالجور، والظلم.. كالغشاش، والكذاب، وما أشبه ذلك.

(٣) وقسم يبيع بالفضل والإحسان، فيكون سمحاً في البيع وفي الشراء، إن باع لم يطلب حقه وافيّاً، بل يُنزل من الثمن، ويُمهل في القضاء.. وإن اشترى لا يهمله أن يزيد عليه الثمن ويبادر بالوفاء فيكون محسناً.

وقد استدل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عَلَى فضل السماحة في البيع والشراء بآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

❁ ونلاحظ هنا أن كلمة «خير» نكرة في سياق الشرط فتعم جميع أنواع الخيرات.. أى: أن أى خير تفعلونه فإن الله به عليم ولا يخفى عليه شيء وسوف يجازيكم على هذا الخير بأفضل مما عملتم... لأن الله عَزَّوَجَلَّ يجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

❁ ومن بين الخير الذى يفعله الإنسان: السماحة في البيع والشراء فهذا الإنسان يحبه الله ويحبه الناس ويحبون أن يتعاملوا معه دائماً بالبيع والشراء لسماحته.. فهو رابحٌ في الدنيا والآخرة.

وقد دعا النبى ﷺ للمتسامحين في البيع والشراء، فقال: «رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا قضى، سمحاً إذا اقتضى».

فالإنسان كلما كان أسمح في بيعه وشرائه، وتأجير، واستئجاره، ورهنه، وارتثانه وغير ذلك فإنه أفضل... قال الله تعالى عن شعيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَقَوْمُ أَوْفُوا أَلْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

أوفوا المكيال: أى ما تبيعونه كيلاً... والميزان: ما تبيعونه وزناً، أوفوه ولا تنقصوا منه شيئاً.

وهذا دليل على: أن الوفاء في العقود مما قد جاء في الشرائع السماوية السابقة.. وقد نهى الحق (جل وعلا) عن التطفيف فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾

أى هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أى إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافيًا كاملاً لأنفسهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أى وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن... قال المفسرون: نزلت في رجل يُعرف بـ «أبى جهينة» كان له صاعان، يأخذ بأحدهما ويعطى بالآخر، وهو وعيدٌ لكل مَنْ طَفَّفَ الكيل والوزن، وقد أهلك الله قوم شعيب لبخسهم المكيال والميزان.. وفي الحديث «ولا تطففوا الكيل إلا مُنَعُوا النبات وأخذوا بالسنين»^(١) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾^(٢) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿أى ألا يعلم ويستيقن أولئك المطففون أنهم سيُبعثون ليوم عَصِيب، شديد الهول كثير الفزع؟! ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى يوم يقفون في المحشر خُفَاءَ عُرَاءَ، خاشعين خاضعين لرب العالمين... قال في البحر: وفي هذا الإنكار والتعجب، ووصف اليوم بالعِظَم، وقيام الناس لله خاضعين، ووصفه برب العالمين، دليلٌ على عِظَم هذا الذنب وهو التطفيف^(٣)، وفي الحديث عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٧٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَتَقَضَّاهُ فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَعُوهُ فَإِنَّ لَصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا» ثُمَّ قَالَ: «أَعْطُوهُ سِنًا مِثْلَ سِنِّهِ» قالوا: يا رسول الله لا نجدُ إلا أُمْتَلِ مِنْ سِنِّهِ، قال: «أَعْطُوهُ فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»^(٤).

❖ لقد كان من أخلاق النبى ﷺ السهولة والتيسير.. فقد كان أحسن الناس

(١) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٤٤٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٣٨) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٦٢) كتاب الجنة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٠٦) كتاب الوكالة - ومسلم (١٦٠١) كتاب المساقاة.

قضاءً ولذلك أخبر أبو هريرة في هذا الحديث: (أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه)، والنبي ﷺ كان يستدين؛ لكثرة الضيوف الذين ينزلون عليه وكثرة أهل الحاجة... ولا يوجد بيت مال عند النبي ﷺ حتى ينفق منه، ولهذا كان يستدين، ويقضى مما آتاه الله ﷻ من رزق... قال (عليه الصلاة والسلام): «جعل رزقي تحت ظل رُمحي»، فماله ﷺ من الفىء ومن المغانم.. كان يعطى منه لأهله النفقة الواجبة، وينفق على الناس (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان لا يعطى أهل بيته صدقات ولا زكوات؛ لأنهم لا يحل لهم منها شيء، وكان يوزع الغنائم للناس الذين يأتون يطلبون منه.

فجاء رجل قد استلف منه النبي ﷺ بكرة - ناقة صغيرة - فجاء ليتقاضاه ويطلب من النبي ﷺ فأغلظ على النبي ﷺ فهمً به أصحابه... أى: أن هذا الرجل جاء للنبي ﷺ يطلب ما عليه بطريقة سيئة، فحاول النبي ﷺ أن يهدئ هذا الرجل، فإذا بالرجل يتناول على النبي ﷺ ويقول: يا محمد! اقض ما عليك، فإنكم - يا بنى عبد المطلب - قومٌ مُطلٌ - أى: أناسٌ مُماطلون -... والأعراب كما نعلم عندهم جفاء.. فلما قال ذلك قام الصحابة ليضربوه، فهذا الرسول عليه الصلاة والسلام الصحابة وقال لهم: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالا....» صحيح أنه أساء الأدب ولكنه صاحب حق فاصبروا عليه.... وقد يكون لهذا الرجل الحق لو ماطل النبي ﷺ.. ولكن النبي ﷺ لم يُماطل حتى يتكلم الرجل بهذه الطريقة.. وحاشا للنبي ﷺ أن يُماطل.. فلقد أخذ النبي ﷺ تلك الناقة من هذا الرجل ليعطيها لرجل آخر كان محتاجاً إليها... ولو كانت عند النبي ﷺ لأعطاها له في التو واللحظة.

✽ هكذا صبر النبي ﷺ وأرانا حسن خلقه ﷺ، بل أعظم من ذلك أنه يعذر مثل هذا الإنسان المتهم عليه بالكلام القبيح، ويقول: لا بأس إنه صاحب حق وله مقال... وليس من حق هذا ولا غيره أن يقول للنبي ﷺ ذلك، ولكن النبي

ﷺ بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ... فصبر عليه وأمرهم أن يوافقوه وأن يؤدوا له الذى يريده فقال ﷺ: «أعطوه سنًا مثل سنِّه».

ويُطلق على الجمل أو الناقة عندما تبلغ سنة بنت مخاض، أو بنت لبون وهى التى تبلغ من العمر سنتين، أو حقة وهى التى تبلغ ثلاث سنوات، وجذعة عندما تبلغ أربع سنوات.. وهكذا، فإذا زادت فى السن تكون أعلى فى السعر.

فهذا الرجل أقرض النبى ﷺ سنًا مُعينًا فقال: «أعطوه سنًا مثل سنِّه»، فقالوا: لا نجد إلا أمثل من سنِّه، أى: الذى عندنا أحسن من الذى أعطاه لنا... وكأنهم نظروا أنه لا يستحق؛ لأنه قليل الأدب، فلا يستحق أن نعطيه أحسن مما أعطى للنبي ﷺ... فإذا بالنبي ﷺ يقول: «أعطوه؛ فإن خيركم أحسنكم قضاءً»، فأرانا حُسن خلقه ﷺ مع هذا الإنسان السيئ، وأرانا حلمه مع هذا الإنسان المتهور المتعجل، وأرانا حُسن القضاء مع هذا الذى يُعسر فى طلب الحق الذى له... فأرانا النبى ﷺ بعمله وخلقه أن الإنسان يتجاوز لعل الله ﷻ أن يتجاوز عنه.

❦ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَفِيهَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ مِنْ قَرْضٍ وَغَيْرِهِ أَنْ يَرُدَّ أَجُودَ مِنَ الَّذِي عَلَيْهِ وَهَذَا مِنَ السُّنَّةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ قَرْضٍ جَرَّ مَنْفَعَةً فَإِنَّهُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ... لِأَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ مَا كَانَ مَشْرُوطًا فِي عَقْدِ الْقَرْضِ.. وَمَذْهَبُنَا أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ الزِّيَادَةُ فِي الْأَدَاءِ عَمَّا عَلَيْهِ وَيَجُوزُ لِلْمُقْرِضِ أَخْذَهَا سَوَاءَ زَادَ فِي الصِّفَةِ أَوْ فِي الْعَدَدِ بِأَنْ أَقْرَضَهُ عَشْرَةَ فَأَعْطَاهُ أَحَدَ عَشَرَ^(١).

يعنى إذا اقترضت من أحد مائة جنيه ولم يشترط عليك أى شرط بأن ترد إليه المال زائدًا.. بل تعامل معك معاملة حسنة عندما أعطاك المال... وعندما جاء ليطلب المال.. فأردت أنت من نفسك أن تكافئه فأعطيته مائة جنيه وهدية أخرى دون أن يشترط عليك أو يطلب منك ذلك.. فهذا جائز لا بأس به.. وهذا يندرج تحت قول النبى ﷺ: «فإن خيركم أحسنكم قضاءً».

(١٣٧٦) وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «رَحِمَ الله رجُلًا سَمَحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقْتَضَى»^(١).

✽ من المعلوم أن الرجل السَمَح يُحِبُّه الناس وترتاح إليه قلوبهم ... بل ويتعاملون معه بكل حُبٍّ.

وقد دعا رسول الله ﷺ بالرحمة للرجل السَمَح، فقال: «رَحِمَ الله رجُلًا سَمَحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقْتَضَى»، وفي رواية: «وإذا قَضَى».

هذا خبر بمعنى الدعاء .. يعنى يدعو له بالرحمة إذا كان سَمَحًا في هذه المواضع الأربعة: سَمَحًا إذا باع لا يشتد على المشتري ويكون سهلًا يُواضعه ويضع عنه .. سَمَحًا إذا قضى، إذا قضى غيره كان سَمَحًا يعطيه في وقته ولا يماطل، كذلك سَمَحًا إذا اشترى بألا يُكثر من الفصال ويُتعب البائع .. وكذلك سَمَحًا إذا اقْتَضَى؛ إذا أخذ حقه، فهذه الأحوال الأربع ينبغي للإنسان أن يكون سَمَحًا فيها حتى ينال دعاء رسول الله ﷺ.

✽ بل دعا النبي ﷺ بالجنة لمن كان سَمَحًا وسهلًا في بيعه وشرائه. عن عطاء بن فَرُوح مَوْلَى الْقُرَشِيِّينَ: أَنَّ عُمَانَ رضي الله عنه اشْتَرَى مِنْ رَجُلٍ أَرْضًا، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَلَقِيَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنْ قَبْضِ مَالِكَ؟ قَالَ: إِنَّكَ غَبَسْتَنِي، فَمَا أَلْقَى مِنَ النَّاسِ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ يَلُومُنِي. قَالَ: أَوْ ذَلِكَ يَمْنَعُكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَاخْتَر بَيْنَ أَرْضِكَ وَمَالِكَ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَدْخَلَ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ رَجُلًا كَانَ سَهْلًا مُشْتَرِيًا، وَبَائِعًا وَقَاضِيًا، وَمُقْتَضِيًا»^(٢).

✽ فاحرص على أن تكون سهلًا عند شرائك .. ولا تتعب البائع في كثرة الفصال .. وكُنْ سهلًا إذا كنت تبيع وكن رقيقًا بالناس ولا تُكثر عليهم في ثمن

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٠٧٦) كتاب البيوع.

(٢) حسن: رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٢٤٣).

السلعة وتجاوز عن بعض ثمنها إكراماً لهم وتأليفاً لقلوبهم.. وإذا كان لك حق عند أحدٍ فاطلبه برفقٍ ورحمة وأدبٍ ولا تتعنت معه إن كان معذوراً وأنظره إن كان مُعسراً لتفوز بدعاء النبي ﷺ لك بالرحمة في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٧٧) وعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيهَ اللَّهُ مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلْيَنْفَسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»^(١).

✽ ما أجمل أن يتراحم المسلمون فيما بينهم حتى تسود المحبة والألفة مجتمعاتنا الإسلامية... والإسلام دائماً يحضنا على التراحم فيما بيننا... فقد قال النبي ﷺ: «إنما يرحم الله من عباده الرُّحماء»^(٢).

✽ وكان من صور التراحم بين المسلمين: إنظار المُعسر إلى ميسرة.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾

[البقرة: ٢٠٨].

✽ وقد أخبر النبي ﷺ أن الذي يقرض أخاه مالاً أنه يُكتب له كل يوم وكأنه تصدق عليه بنفس قيمة المال الذي أقرضه لأخيه... فإذا حَلَّ موعد أداء الدين فأنظره وأمهله فإنه يُكتب له كل يوم وكأنه تصدق عليه بضعف قيمة المال الذي أقرضه لأخيه.

عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الدِّينَ، فَإِذَا حَلَّ الدِّينَ فَأَنْظَرَهُ بَعْدَ حِلِّهِ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ»^(٣).

فلو أقرضت أخاك عشرة آلاف جنيه لمدة مائة يوم.. فكل يوم يمر من المائة يوم يُكتب لك كأنك تصدقت عليه بعشرة آلاف جنيه إلى أن تمر المائة يوم..

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٣) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٢٣) كتاب الجنائز.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٠٨).

فإذا جاء موعد أداء الدين وكان مُعسرًا ولم يستطع أن يدفع إليك مالك فأنظرته مائة يومٍ أخرى فإنه يُكتب لك في كل يومٍ كأنك تصدقت عليه بعشرين ألف جنيه.

❁ وفوق ذلك يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن مَنْ نَفَسَ عن مُعسرٍ.. أى: نفَسَ له في الأجل بأن أنظره إلى وقتٍ آخر ليدفع ما عليه من الدين.. وبدأ النبي ﷺ بالأيسر وهو الإنظار إلى وقتٍ آخر.. ثم قال ﷺ: «أَوْ يَضَعُ عَنْهُ» أى: يتنازل عن الدين.. ويجوز له إن وجد أخاه فقيرًا أن يتنازل له عن الدين ويعتبره من زكاة ماله أو حتى من الصدقات.. فإن فعل ذلك بأن نفَسَ عنه أو وضع عنه فإن الله ﷻ يُفرج عنه كُربات يوم القيامة.. ويا له من أجرٍ عظيم.. فإن كُربات يوم القيامة يتمنى الإنسان لو يفتدى منها بملء الأرض ذهبًا وفضة.. فيُيسر الله ﷻ لك ذلك بأيسر الأشياء.

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ:

أما إنظار المعسر فإنه واجب.. يجب على الإنسان إذا كان صاحبه مُعسرًا لا يستطيع الوفاء يجب عليه أن يُنظره ولا يحل له أن يكرهه أو يطالبه... لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ فهناك فرق بين الإبراء وهو إسقاط الدين عن المعسر وبين الإنظار... الإنظار واجب، والإبراء سُنة، ولا شك أن الإبراء أفضل؛ لأن الإبراء تبرأ به الذمة نهائيًا، والإنظار تبقى الذمة مشغولة.. لكن صاحب الحق لا يُطالب به حتى يستطيع المطلوب أن يوفى... وبعض الناس - نسأل الله العافية - تحل لهم الديون على أناسٍ فقراء فيؤذونهم ويضربونهم ويطالبونهم ويدفعون بهم إلى ولادة الأمور ويحبسونهم عن أهلهم وأولادهم وأموالهم.

وهذا لا شك أنه منكر... والواجب على القضاة إذا علموا أن هذا معسر لا يستطيع الوفاء، فالواجب عليهم أن يقولوا للدائن ليس لك حق في مطالبته؛ لأن الله تعالى هو الحاكم بين العباد وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى

مَيْسَرَةً ﴿ لكن يتعلل بعض القضاة في هذه المسألة، يقولون: إن بعض المدنيين يتلاعبون بالناس فيأخذون الأموال ويدعون الإعسار، فيعاملونهم بهذا تنكيلاً
...٣٣

نعم إذا ثبت أن هذا المدين يدعى الإعسار وليس بمعسر فإنه لا بأس أن يُجبر ويُحبس ويُضرب حتى يُوفي فإن لم يفعل فإن الحاكم يتولى بيع ما شاء من ماله ويُوفي دينه. أما الذي نعلم أنه مُعسر حقيقة فإنه لا يجوز لطالبه أن يطالبه ولا أن يقول: أعطني، بل يجب أن يُعرض عنه بالكلية ﴿فَنَظَرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٧٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا آتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»^(٢).

(١٣٧٩) وعن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوْجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسِرًا، وَكَانَ يَأْمُرُ غُلَمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ... قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّوَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ»^(٣).

(١٣٨٠) وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: أَتَى اللَّهَ تَعَالَى بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: - وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا - قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ فَكُنْتُ أَبَايُ النَّاسِ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيْسَرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي فَقَالَ عَقْبَةُ

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٢٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٨٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥٦٢) كتاب المساقاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٥٦١) كتاب المساقاة.

ابن عامر، وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه: هكذا سمعناه من في رسول الله ﷺ (١) وفي رواية عند البخاري: عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ رَجُلًا كَانَ فِيْمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَنَاهُ الْمَلِكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ، فَقِيلَ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُ، قِيلَ لَهُ: انْظُرْ، قَالَ: مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَبَايُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا وَأُجَارِيَهُمْ، فَأَنْظُرَ الْمَوْسِرَ، وَاتَّجَاوَزَ عَنِ الْمُعْسِرِ، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ» (٢).

✽ فهذه الأحاديث الثلاثة تحكى قصة مقاربة من بعضها البعض.. فهى تحكى قصة رجل لم يجد عملاً صالحاً عمله عندما جاءته ملائكة الموت تنزع روحه إلا أنه كان يتجاوز فى مبياعته عمن يبيعهم.. فإذا دأب الناس، وحلَّ الأجل، فيُنظر الموسر إلى أن يجد سداً، ويتجاوز عن المُعسر، وكان يرجو من وراء عمله أن يتجاوز الله عنه، فتجاوز الله عنه، وغفر له ذنوبه بتجاوزه فى تعامله.

✽ لقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أن العبد عندما ينزل به الموت، ويحين أجله، تنزل عليه الملائكة... أما المؤمن فإنها تبشّره، وأما الكافر فإنها تسأله وتوبّخه وتُعذّبه، وتبشّره بالنار... قال تعالى فى حق المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال فى حق الكفرة المجرمين عندما يكونون فى النزاع: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].
ويُحدثنا رسولنا ﷺ فى هذا الحديث عن رجل ممن كان قبلنا أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فسأله الملائكة عن أعماله الخيرة التى عملها فى دُنياءه، فلم يجد لنفسه عملاً من أعمال الخير... فلما أجاب بالنفى، طلبوا منه أن يُمعن

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٦٠) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٤٥١) كتاب أحاديث الأنبياء.

النظر، فلم يجد لنفسه عملاً خيراً إلا أنه كان يعمل تاجراً، فيوصي فتيانَه الذين يعملون عنده أن يُنظروا الموسر، ويتجاوزوا عن المعسر، وكان يُعلِّل لهم ما يأمرهم به قائلاً: لعل الله يتجاوز عنا، فحقَّق الله رجاءه فيه فتجاوز عنه، وغفر له. إنَّ هذا النمط من التعامل يمثل النمط الذي يُريده الإسلام، وهو يقوم على التساهل في البيع والشراء والتسامح حين التعامل، وإنظار الموسرين، والتجاوز عن المعسرين... وقد دعا الرسول ﷺ لمن يتصف بهذه الصفات فقال: «رَحِمَ الله عَبْدًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، سَمَحًا إِذَا اشْتَرَى، سَمَحًا إِذَا قَضَى، سَمَحًا إِذَا اقْتَضَى»^(١).

✽ فالرجل كان في قلبه رحمة لكل من حوله.. فكان يتيسر على الموسر - أى الغنى - وهو يعلم أنه يمتلك مالاً ويستطيع السداد.. ومع ذلك كان يتجاوز عن بعض ما عنده وكان يُؤجله أحياناً ويلتمس له الأعذار..

وكان يُنظر المعسر الفقير فيمد له في الأجل.. فإذا حان وقت السداد ولم يكن عنده مال أمهله مُدة أخرى ولم يطالبه حتى يدفع هو بنفسه ما عليه بنفس طيبة. فقال له الله ﷻ: «أنا أحقُّ بذا مِنْكَ، تجاوزوا عن عَبْدِي»... وفي رواية: «فَادْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ» فيا ليتنا نتراحم فيما بيننا حتى نفوز برحمة الله ورضوانه وجنته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ، أَظْلَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»^(٢).

✽ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا» أى: أمهله في سداد الدين ولم يُضيق عليه.. بل إنه بمجرد أن علم أنه لن يستطيع السداد أعطاه مُهلة أخرى وأمهله حتى يتمكن من سداد الدين.

(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٢٣٨-٢٣٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٠٧).

«أَوْ وَضَعَ لَهُ» أَى: تنازل عن الدين ولم يُطالبه بشيء لأنه وجد أنه فقير وليس عنده ما يسد به الدين..

✽ أخبر النبي ﷺ أن مَنْ فعل واحدة منهما: «أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ» فإنه يفوز بأعظم مكافأة يُكافأ بها العبد يوم القيامة.. وذلك بأن يُظله الله ﷻ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله..

فالناس يوم القيامة يُحشرون حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ويقفون في أرض المحشر وقد دَنَّتِ الشمس فوق الرؤوس بمقدار ميل.. وفيفيض العرق على أجسادهم.. فمنهم مَنْ يبلغ العرق إلى كعبيه ومنهم مَنْ يصل إلى رُكْبتيه.. ومنهم مَنْ يصل إلى حَقْوِيهِ.. ومنهم مَنْ يُلْجِمُهُ العرق إلْجَامًا... وفي نفس اللحظة فهناك صنفٌ كريم من الناس يجلسون في ظل عرش الرحمن.. منهم الذي يُنظر مُعْسِرًا.. والذي يضع عن المُعْسِر.. وهذا كله بالإضافة إلى السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما جاء في الحديث الآخر.

فمن أراد أن يكون يوم القيامة في ظل عرش الرحمن (جل وعلا) فليحرص على أن يُنظر مُعْسِرًا أو يضع عن مُعْسِرٍ.. أسأل الله أن يفرج هموم المسلمين وأن يوسع أرزاقهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٢) وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اشْتَرَى مِنْهُ بَعِيرًا، فَوَرَّنَ لَهُ، فَأَرْجَعَ^(١).

✽ هذا الحديث له قصة عجيبة:

ففى إحدى الغزوات خرج جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبي ﷺ ولكنه كان يعاني من مشكلة كبيرة ألا وهى: أن جَمَلَهُ تَعَبَ وأصبح بطيئًا جدًا.. فحزن جابر حُزْنًا شديدًا لذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٠٤) كتاب الهبة - ومسلم (٧١٥) كتاب صلاة المسافرين.

فأقبل عليه النبي ﷺ وقال له: «ما شأنك يا جابر؟».

قال جابر: تعب جملي وأصبح بطيئاً فتخلفت عن الناس.

فنزل النبي ﷺ وغمز جمل جابر بعصا معوجة ثم قال لجابر: «اركب».

فركب جابر جَمَلَه فوجده سريعاً حتى أنه كان يمنعه من الجرى حتى لا

يسبق جَمَلَ رسول الله ﷺ.

❖ وها هي القصة من خلال هذا الحديث:

ففي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ

في غزاة فأبطأ بي جملي وأعيا فأتى عليّ النبي ﷺ فقال: «جابر؟» فقلت: نعم.

قال: «ما شأنك؟» قلت: أبطأ عليّ جملي وأعيا^(١) فتخلفت فنزل يحجنه

بمحجنه^(٢) ثم قال: «اركب» فركبته فلقد رأيته أكفه^(٣)، عن رسول الله ﷺ^(٤).

قلت: ولا عجب في ذلك فالكون كله يعرف أنه رسول الله ﷺ إلا عُصاة

الإنس والجن.

فلما عاد النبي ﷺ وزن له الثمن وأرجح له.. كرمًا منه رضي الله عنه.. يعني أرجح

الوزن لأنهم كانوا فيما سبق يتعاملون بالنقود وزنًا لا عددًا وإن كانوا يتعاملون

أيضًا بها عددًا، لكن أكثر التعاملات كانت وزنًا كما جاء في الحديث: «ليس فيما

دون خمس أواق صدقة»^(٥). فوزن له النبي ﷺ وأرجح يعني زاده أكثر مما

يستحق، وهكذا ينبغي للإنسان عند الوفاء أن يُوفي كاملاً بدون نقص وإذا زاد

فهو أفضل.

(١) أعيا: أى تعب.

(٢) أى يغمزه بالمحصة وهى العصا المعوجة.

(٣) أكفه: أى أمنعه من أن يسبق رسول الله ﷺ، فبعد أن كان بطيئاً أصبح مسرعاً لدرجة أنى أمنعه من أن

يسبق جمل رسول الله ﷺ.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٠٩٧) كتاب البيوع، ومسلم (٧١٥) كتاب صلاة المسافرين.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٨٤) كتاب الزكاة، ومسلم (٩٧٩) كتاب الزكاة.

✽ بل لقد ورد أن النبي ﷺ بعد أن أعطاه الثمن وزاده فيه .. نادى عليه وأعطاه الجمل أيضًا هدية منه ﷺ لجابر.

فيا ليتنا نتعلم الكرم والسماحة من أسوتنا وقدوتنا وحبينا محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٣) وعن أبي صفوان سُويد بن قيس رضي الله عنه، قال: جَلَبْتُ أَنَا وَمَخْرَمَةُ الْعَبْدِيُّ بَزًّا مِنْ هَجَرَ، فَجَاءَنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَسَاوَمَنَا بِسَرَاوِيلَ، وَعِنْدِي وَزَانٌ يَزَنُ بِالْأَجْرِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْوَزَانِ: «زِنْ وَأَرْجِحْ»^(١).

✽ وفي هذا الحديث يحكى سويد بن قيس رضي الله عنه أنه كان يتاجر هو ومخرمة العبدى فى الثياب.. فكانا يشتريان البزَّ -وهى الثياب أو متاع البيت من الثياب- من هجر.. وهى موضع قريب من المدينة.. وقيل: هى بلدٌ باليمن....

قال سويد بن قيس رضي الله عنه: فجاءنا النبى ﷺ فاشترى منا سراويل .. قال سويد: وعندى وزان يزن بالأجر.. أى: كان عنده رجل يزن الدنانير والدراهم مقابل أجرٍ يسيرٍ يأخذه.. فلما أراد أن يزِنَ للنبي ﷺ ثمن السراويل وإذا بالنبي ﷺ يقول له: «زِنْ وَأَرْجِحْ» وذلك من أجل أن يعطيه النبي ﷺ ثمن السراويل بزيادة.... كرمًا منه ﷺ.

فهنا يعلمنا النبى ﷺ أن نكون كُرماء عند الشراء.. فلا نُتعب البائع بل نُعطيه فوق ما يريد ليرى منا السماحة فى البيع والشراء.. لنفوز بدعاء النبى ﷺ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٧٤).

(١٢) كتاب العلم

(٢٤١) باب فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله

❖ قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

❖ قال المؤلف الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه رياض الصالحين: باب فضل العلم تَعَلُّمًا وَتَعْلِيمًا لله عَزَّ وَجَلَّ .. والمراد بالعلم الذي وردت به النصوص في فضله والثواب عليه ورفعة أهله وكونهم ورثة الأنبياء، إنما هو علم الشريعة عقيدة وعملاً، وليس علم ما يتعلق بالدنيا كالحساب والهندسة، وما أشبه ذلك.. المراد بالعلم: العلم الشرعي؛ الذي جاءت به الشرائع ... هذا هو العلم الذي يُثني على مَنْ أدركه وعلى مَنْ عَلِمَهُ وتعلمه.

ففضل العلم عظيم لا يعلم قدره إلا الله (جل وعلا).

فعندما خلق الله آدم ﷺ وَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثم أراد بعد ذلك أن يُظهر لملائكته فضل آدم ﷺ فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَحْسَنَ مَا فِيهِ -وهو علمه- فدلَّ ذلك على أن العلم أشرف ما في الإنسان بعد إيمانه بالله (سبحانه وتعالى).

فآدم ﷺ لم يتفوق على الملائكة بكثرة الصلاة ولا بطول القيام ولا بكثرة الصيام والذكر والتسبيح... فتلك العبادات قد تفوقت فيها الملائكة على سائر المخلوقات ... وإنما تفوق عليهم بالعلم.

❖ فلما أنعم الله على آدم بالعلم جعله خليفة في الأرض وأسجد له ملائكته ورفعه فوق مصافِّ الملائكة وفضَّله عليهم.

✽ ولم يكن الاحتفال بقيمة العلم منذ خلق آدم ﷺ بل كان ذلك قبل خلقه بكثير.. فإن الله ﷻ بعدما خلق العرش خلق القلم الذى هو أداة العلم فى كل زمانٍ ومكان.

قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»^(١).

وقال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى»^(٢).

✽ فلم يكن العلم أمراً على هامش الحياة بل كان وسيظل أمراً محورياً فى هذه الحياة الإنسانية إلى قيام الساعة.

✽ بل إنه (سبحانه وتعالى) لما أراد أن يُظهر فضل يوسف ﷺ على أهل ذلك الزمان أظهر للملك ولأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير فى عصره.. فعند ذلك قدّمه الملك ومكّنه وسلّم إليه خزائن الأرض.

✽ وعند بداية ظهور الإسلام كانت الحقيقة الكبرى التى ظهرت فى الأرض عند نزول جبريل ﷺ لأول مرة على رسول الله ﷺ أن هذا الدين العظيم (الإسلام) دينٌ يقوم على العلم ويرفض الخرافات والضلالات والأوهام جُملة وتفصيلاً.

فقد كان أول ما نزل على النبى ﷺ خمس آيات تتحدث كلها عن قضية واحدة.. ألا وهى قضية العلم.

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [القلم: ١-٥].

(١) صحيح: رواه الترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٧).

(٢) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠١٨).

✽ لقد اختار الحق (جل وعلا) موضوعاً بعينه من بين آلاف المواضيع - ألا وهو العلم - مع أن الرسول ﷺ الذي يتنزل عليه القرآن أمي لا يقرأ ولا يكتب... ليكون ذلك دلالة على أن العلم هو مفتاح فهم الدين والدنيا والآخرة في آنٍ واحد.

✽ ولم يكن العرب في ذلك الزمان يهتمون بقضية العلم.. بل كانت الخرافات والأباطيل هي التي تحكم حياتهم من أولها لآخرها.. فكانوا يفتقرون إلى العلم إلا في مجال الشعر والبلاغة... فنزل القرآن يتحداهم في المجال الذي برعوا فيه ويدعوهم للعلم بالجوانب الأخرى.

✽ واختار الحق (جل وعلا) في تلك الآيات أصعب وسيلة للعلم وهي القراءة وذلك لأنها أرسخ من السماع أو النظر أو غيرهما...

✽ ولقد كان الإسلام بمثابة ثورة علمية في بيئة ما تعودت على روح العلم ولا حرصت عليه... حتى أن المرحلة التي سبقت نزول تلك الآيات كانت تُسمّى باسم «الجاهلية».

ولعلكم تعجبون حينما تعلمون أن كلمة العلم بمشتقاتها قد وردت في كتاب الله ﷻ (٧٧٩) مرة... يعنى بمعدل سبع مراتٍ تقريباً في كل سورة. أما السنة النبوية فأحصاء هذه الكلمة فيها يكاد يكون مستحيلاً.

✽ ولقد كان العلم صفة مُلازمة لكل الأنبياء والمرسلين.. وذلك لأن مهمتهم في هذه الحياة أن يُخرجوا الناس من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان - بإذن الله ﷻ -. ولن يكون ذلك إلا من خلال ذلك العلم الذي يُنير القلوب بأنوار التوحيد والإيمان.

ومن هنا فقد جاء ذكر الأنبياء دائماً مرتبطاً بالعلم.

وقال في حق لوطٍ عليه السلام: ﴿وَلُوطًا إِنَّا جَعَلْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال في حق موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وَقَالَ فِي حَقِّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف: ٦٨].

وقال في حق يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ آيَتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾


الْمُحْسِنِينَ ﴿يوسف: ٢٢﴾ .

وقال في حق دواد وسليمان عليهما السلام: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا

حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿[الأنبياء: ٧٩].

وقال في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ ﴿المائدة: ١١٠﴾ .

وقال كذلك في حق رسولنا الكريم ﷺ: ﴿إِنَّهُوَ الْوَاحِيُ الْيُوحَىٰ﴾  عَلَيْهِمْ شَدِيدُ

الْقَوَى ﴿النجم: ٤-٥﴾ .

وقال أيضا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد روى البخارى عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيْتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرَّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ» قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْعِلْمُ»^(١).

❁ ولقد مدح الله ﷻ الخضر عليه السلام وذلّ موسى عليه السلام على مكان الخضر

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٠٤) كتاب التعبير.

ليذهب إليه وليتعلم منه جانباً من العلم لا يعلمه هو.

فقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿[الكهف: ٦٥، ٦٦]

فرضى موسى ﷺ وهو رسول من أولى العزم الخمسة أن يكون تابعاً للخضر ﷺ وهو نبي من الأنبياء من أجل أن يتعلم منه.. مع أن موسى ﷺ أفضل منه وأعلى منه رتبة ومكانة.

✽ بل لقد امتنَّ الله على الإنسان بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١-٤] ومع أن الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان أولاً ثم علَّمه القرآن إلا أنه قدَّم العلم أولاً لنعلم أن الإنسان إذا ترك العلم وغرق في الجهل فكأنه لم يُخلق بعد.... ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وكأنه يخبرنا بأن العلم يحيط بحياة الإنسان من أولها إلى آخرها.

✽ ولقد نفى الله التسوية بين أهل العلم وغيرهم فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وأخبر أنه يرفع قدر أهل العلم ودرجاتهم فقال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

✽ واستشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهذا يدل على فضل العلم وأهله.

✽ وعدَّد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]

✽ وأمر النبي ﷺ أن يسأله المزيد من العلم... فقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

❖ ولقد أخبر الحق (جل وعلا) أن العلم حياة ونور.. وأن الجهل موت وظلمة... والشر كله سببه عدم الحياة والنور... والخير كله سببه النور والحياة فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها.

قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. كان قلبه ميتًا بالجهل فأحياه بالعلم وجعل له من الإيمان نورًا يمشى به في الناس.

❖ وأخبر أن الدنيا ملعونة إلا العلم وأهله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا»^(١).

❖ وجعل العلم ميدانًا من أشرف ميادين التنافس بين البشر.

قال رسول الله ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا»^(٢).

فأخبر ﷺ أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحدًا - يعني حسد غبطة بأن يتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه - إلا في واحدة من هاتين الخصلتين وهي الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله.

❖ وقد جعل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلوم... وهذا أيضًا من شرف العلم أنه لا يُباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده... فدل على شرف العلم وفضله.

قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

(١) حسن: رواه ابن ماجه والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

✽ وأخبر النبي ﷺ أن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث - كان من بينها العلم -.

قال رسول الله ﷺ: « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ »^(١).

✽ وأخيراً.. فلقد أخبر النبي ﷺ أن العلم طريقٌ إلى الجنة.

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ »^(٢).

وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك.

✽ ومن هنا كان النبي ﷺ يحرص كل الحرص على أن يطلب المزيد من العلم ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وكان يحرص على أن يُعلم أصحابه^(٣).

✽ وطلب العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: فرض عين، وفرض كفاية، وسُنَّة.

أما فرض العين: فهو علم ما تتوقف العبادة عليه. يعنى العلم الذى لا يسع المسلم جهله، مثل العلم بالوضوء، بالصلاة، بالزكاة، بالصيام، بالحج، وما أشبه ذلك. فالذى لا يسع المسلم جهله، فإن تعلّمه يكون فرض عين. ولهذا نُوجب على هذا الشخص أن يتعلم أحكام الزكاة؛ لأنه ذو مال، ولا نُوجب على الآخر أن يتعلم أحكام الزكاة؛ لأنه ليس ذا مال... كذلك الحج: نُوجب على هذا أن يتعلم أحكام الحج؛ لأنه سوف يحج، ولا نوجب على الآخر أن يتعلمها؛ لأنه ليس عنده استطاعة لأن يحج.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) من مقدمة الشيخ محمود المصرى فى كتاب «علماء التابعين» (ص ٨-١٤).

أما فرض الكفاية: فهو العلم الذي تحفظ به الشريعة.. يعنى هو العلم الذى لو ترك لضاعت الشريعة، فهذا فرض كفاية، إذا قام به من يكفى سقط عن الباقين، فإذا قدر أن واحداً في البلد قد قام بالواجب في هذا الأمر وتعلم، وصار يفتى ويُدَرِّس ويعلم الناس في هذه الحال صار طلب العلم في حق غيره سنة، وهو القسم الثالث.

إذا... طالب العلم يدور أجره بين أجر السنة، وأجر فرض الكفاية، وأجر فرض العين. والمهم أنه لا يمكن أن نحافظ على السنة وآدابها إلا بعد معرفة السنة وآدابها^(١).

والعلم جهاد في سبيل الله، وعليه يُبنى الجهاد وسائر الإسلام؛ لأن من لا يعلم لا يمكن أن يعمل على الوجه المطلوب... ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

يعنى لولا نفر بالجهاد من المؤمنين من كل فرقة منهم طائفة، وقعدت طائفة أخرى ليتفقوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.. أى رجعوا من الغزو لعلمهم يحذرون. فجعل الله تعالى الفقه في دين الله مُعادلاً للجهاد في سبيل الله، بل أولى منه... لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ولا أن يصلى المصلى ولا أن يُزكى المُزكى ولا أن يصوم الصائم ولا أن يحج الحاج ولا أن يعتمر المعتمر ولا أن يأكل الأكل ولا أن يشرب الشارب ولا أن ينام الإنسان ولا أن يستيقظ إلا بالعلم.. فالعلم هو أصل كل شيء ولذلك قال النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٤٣٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

ولا فرق بين المجاهد الذى يُسوى قَوسه، وبين طالب العلم الذى يستخرج المسائل العلمية من بطون الكتب... كُلُّ منهم يعمل للجهاد فى سبيل الله وبيان شريعة الله لعباد الله. ولهذا أعقب المؤلف رَحِمَهُ اللهُ باب الجهاد بباب العلم، ليبين أنه مثله... بل إن بعض العلماء فضَّله على الجهاد فى سبيل الله.

والصحيح أن فى ذلك تفصيلاً، فمن الناس مَنْ يكون الجهاد فى حقه أفضل، ومن الناس مَنْ يكون طلب العلم فى حقه أفضل. فإذا كان الرجل قوياً شجاعاً مقداماً؛ لكنه فى العلم بضاعته مُزجاة، قليل الحفظ قليل الفهم يصعب عليه تَلَقُّى العلم، فهنا نقول: الجهاد فى حقه أفضل، وإذا كان بالعكس رجل ليس عنده تلك القوة البدنية أو الشجاعة القلبية لكن عنده حفظاً وفهماً واجتهاداً فهذا طلب العلم فى حقه أفضل.. فإن تساوى الأمران فإن من أهل العلم مَنْ رَجَّح طلب العلم؛ لأنه أصل؛ ولأنه ينتفع به الناس كلهم القاصى والدانى، وينتفع به مَنْ كان حياً وَمَنْ يُولد بعد، وينتفع به صاحبه فى حياته وبعد مماته.. كما قال النبى ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١). وجميع الناس محتاجون للعلم: الأنبياء وغير الأنبياء كلهم محتاجون للعلم ولهذا أمر الله نبيه أن يقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾... فالرسل محتاجون إلى العلم والزيادة فيه، وإلى سؤال الله ﷻ أن يزيدهم منه.. فمَنْ دون الأنبياء من باب أولى... فجدير بالعبد أن يسأل الله دائماً أن يزيده من العلم ولكن إذا سأل الله أن يزيده من العلم فلا بد أن يسعى فى الأسباب التى يُحصل بها العلم، أما أن يطلبه ويقول: رب زدنى علماً وهو لم يفعل الأسباب فهذا ليس من الحكمة ولا من الصواب.... هذا كمن قال: اللهم ارزقنى ولداً ولا يتزوج.. فمن أين يأتى هذا الولد؟ فلا بد إذا سألت الله شيئاً أن تسعى للأسباب التى

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

يحصل بها؛ لأن الله حكيم، قرن المسببات بأسبابها.. وفي هذه الآية ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ دليل على فضل العلم.. فإنه عَزَّوَجَلَّ لم يَقُلْ لِنبيه: وقل رب زدني مالاً، بل قال له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وقال له في أمور الدنيا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أسأل الله تعالى أن يَمُنَّ علينا وعليكم بالعلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله على بصيرة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٤) وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(٢).

✽ هذا الحديث الشريف يدل على فضل العلم وطلبه.. علم شريعة المصطفى ﷺ الذى هو معرفة أصول الدين، وشرائع الإسلام، والأحكام الشرعية، وكل ما يُقرب من الله، ويباعد من سخطه.. فشمل ذلك أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان، كما جاء ذلك فى الصحيحين فى حديث جبريل المشهور، عندما سأل الرسول ﷺ عنها، فأخبره بها، ثم قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

وهذا الحديث يدل على أن من علامات إرادة الله بعبده الخير؛ أن يجعله فقيهاً فى أمور دينه... ولا شك أن الفقه فى الدين من أشرف الأعمال وأفضلها، وقد نوّه الله بفضله العلماء، وقرن شهادتهم على توحيده، وألوهيته بشهادته وشهادة ملائكته، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَلَمَّ يَكُنْهُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فبدأ سبحانه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بأهل العلم... وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً.. وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٢١-٣٢٢) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١) كتاب العلم، ومسلم (١٠٣٧) كتاب الزكاة.

روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام».

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فإذا حصل للعبد الفقه في الدين حصلت له سعادة الدنيا والآخرة... ولذلك دعا رسول الله ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، لما رأى عليه مخائل الذكاء والنجابة والمعرفة، فدعا له ﷺ فقال: «اللهم فقّه في الدين وعلمه التأويل».

فالفقه في الدين هو عنوان سعادة العبد، وأهم شيء معرفة أصول الدين وما يجوز على الله وما لا يجوز، ومعرفة أنواع التوحيد، والعلم بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق المدبر لجميع شؤون الخلق.. ومعرفة توحيد الألوهية، وأن الله (جَلَّ وَعَلَا) هو المستحق للعبادة بجميع أنواعها، فلا يُصرف منها شيء لغير الله... لا مَلِكٌ مُّقَرَّبٌ، ولا نبي مُّرْسَلٌ... ويدخل في توحيد الربوبية توحيد الأسماء والصفات، وأن يُوصَفَ الله بما وصف به نفسه، أو وصفه نبيه ﷺ أعلم الخلق به، وأن يقفوا أثر السلف بهذا، فلا يُكَيَّف، ولا يُمَثَّل، ولا يُشَبَّه، ولا يُؤوَل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وَأَمْرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ كَمَا أَتَتْ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهِ وَلَا تَأْوِيلٍ

فيثبت من الأسماء والصفات ما جاء في القرآن الكريم أو في السُّنة الصحيحة، وينفى عن الله ما نفاه الله، أو نفاه عنه رسوله ﷺ.. وما لم يرد ذكره في القرآن أو السُّنة لا نفياً ولا إثباتاً نسكت عنه، ولا نُثَبِّته ولا نَنفِيه.. ولذلك كان من عمق علم السلف رحمهم الله وقوة فقههم أن نهوا عن التعرُّض لآيات الصفات بالتأويل، ونهوا عن السؤال عن كیفيتها.. فلا يعلم كیفيتها إلا الله جل جلاله، كما أنه لا يعلم

كيفية ذاته إلا هو سبحانه، فكذلك لا يعلم كيفية صفاته إلا هو.

ولهذا لما قيل للإمام مالك رحمته الله: يا أبا عبد الله، ما معنى الاستواء؟

قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، ولا أظنك إلا مبتدعاً... فأمر بإخراجه من مجلسه.

وقد قال الإمام الشافعي رحمته الله: آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ﷺ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٥) وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رَجُلٌ آتاهُ الله مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَةٍ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا، وَيُعَلِّمُهَا» ^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٤٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٦) وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» ^(٣).

(١) من هدى المصطفى ﷺ / الشيخ محمد بن عبد الله السبيل (ص ١٠٢-١٠٤) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣) كتاب العلم، ومسلم (٨١٦) كتاب صلاة المسافرين. والمراد بالحسد: الغبطة، وهو أن يتمنى مثله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٧٩) كتاب العلم، ومسلم (٢٢٨٢) كتاب الفضائل.

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٦٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٧) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُرِ النعم»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٩٥)، (١٨٠) فأرجو الرجوع إليهما.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٨٨) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

✽ فالنبي ﷺ في هذا الحديث يقول: «بلغوا عني ولو آية» والمقصود أنه ﷺ يأمرنا أن نبلغ الناس بكل ما نتعلمه ونعرفه من هذا الدين العظيم وأن نبلغ الناس بجميع أقواله ﷺ وأفعاله وسنته... ليتنشر الخير ويكثر الصلاح والصالحون والمصلحون في هذا الكون.

وقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية» من كتاب الله.. أي: لا يقل أحدكم: لن أدعو إلى الله إلا إذا صرت عالماً كبيراً.. بل عليك أن تبلغ ولو آية بشرط أن تكون عالماً بها وبتفسيرها ومعناها... وإن كنت تعلم الناس حديثاً من أحاديث الرسول ﷺ فلا بد أن تكون واثقاً أن هذا من كلام النبي ﷺ وأن تستوثق من صحة الحديث الذي تبلغه للناس من حولك... والأمر الآن - والله الحمد - أصبح سهلاً ميسوراً.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٢١٠) كتاب المغازي - ومسلم (٢٤٠٦) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٤٦١) كتاب أحاديث الأنبياء.

ولهذا قال بعدها ﷺ: «وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» مَنْ كَذَبَ عَلَى الرَّسُولِ مُتَعَمِّدًا يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.. هنا اللام للأمر لكن المراد بالأمر هنا الخبر، يعنى فقد تبوأ مقعده من النار - والعياذ بالله - أى: فقد استحق أن يكون من ساكنى النار.. لأن الكذب على الرسول ليس كالكذب على واحد من الناس... الكذب على الرسول ككذب على الله عز وجل، ثم هو كذب على الشريعة لأن ما يخبر به الرسول ﷺ من الوحي هو من شريعة الله وكذلك يُقال: الكذب على العالم ليس كالكذب على عامة الناس.

لأن العلماء ورثة الأنبياء يبلغون شريعة الله إرثاً لرسول الله ﷺ، فإذا كذبت عليهم، وقلت: قال العالم فلان كذا وكذا وأنت تكذب فهذا إثم عظيم. فالحاصل أن مَنْ كَذَبَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ نَقَلَ عَمْدًا حَدِيثًا كَذِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ... يعنى فليتبوأ مقعده من النار.

وما أكثر مَنْ ينشر من النشرات التى بها الترغيب أو التهيب وهى مكذوبة على الرسول ﷺ... لكن بعض المجتهدين الجهال ينشرون هذه النشرات ويوزعونها بكمية كبيرة.. ويقولون: نعظ الناس بهذا... كيف تعظونهم بشيء كذب؟؟ ولهذا يجب الحذر من هذه المنشورات التى تُنشر فى المساجد أو تُعلق على أبواب المساجد أو غير ذلك، يجب الحذر منها، وربما يكون فيها أشياء مكذوبة فىكون الذى ينشرها قد تبوأ مقعده من النار إذا علم أنها كذب.

وقال فى حديث عبد الله بن عمرو: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»، بنو إسرائيل: اليهود والنصارى إذا قالوا قولاً فحدّث عنهم ولا حرج عليك؛ بشرط أن تعلم أنه لا يُخالف الشريعة.. لأن بنى إسرائيل عندهم كذب، يحرفون الكلم عن مواضعه ويكذبون، فإذا أخبروك بخبر فلا بأس أن تُحدث به بشرط أن لا يكون مخالفاً لما جاء فى شريعة الرسول ﷺ.. فإن كان مخالفاً له فإنه لا يجوز

أَنْ تُحَدِّثَ إِلَّا إِذَا حَدَّثْتَ لَتُبَيِّنَ أَنَّهُ بَاطِلٌ فَلَا حَرَجَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

✽ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ مُعَلِّقًا عَلَى قَوْلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» أَنْ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِالتَّبْلِيغِ عَنْهُ ﷺ لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ حُصُولِ الْهُدَى بِالتَّبْلِيغِ... وَلَهُ أَجْرٌ مَنْ بَلَّغَ عَنْهُ وَأَجْرٌ مَنْ قَبَلَ ذَلِكَ الْبَلَاغَ... وَكَلِمَا كَثُرَ التَّبْلِيغُ عَنْهُ تَضَاعَفَ لَهُ الثَّوَابُ... فَلَهُ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ مُبْلَغٍ وَكُلِّ مُهْتَدٍ بِذَلِكَ الْبَلَاغِ سِوَى مَا لَهُ مِنْ أَجْرِ عَمَلِهِ الْمُخْتَصِّ بِهِ... فَكُلُّ مَنْ هَدَى وَاهْتَدَى بِتَّبْلِيغِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ لِأَنَّهُ هُوَ الدَّاعِي إِلَيْهِ... وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَبْلِيغِ الْعِلْمِ عَنْهُ إِلَّا حُصُولُ مَا يُجِبُهُ لَكَفَى بِهِ فَضْلًا... وَعَلَامَةُ الْمُحِبِّ الصَّادِقِ أَنْ يَسْعَى فِي حُصُولِ مَحْبُوبٍ مَحْبُوبِهِ وَيَبْذُلُ جُودَهُ وَطَاقَتَهُ فِيهَا... وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مِنْ إِيْصَالِهِ الْهُدَى إِلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ... فَالْمُبْلَغُ عَنْهُ سَاعٍ فِي حُصُولِ مَحَابَّتهِ فَهُوَ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْهُ وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِبُهُ وَخَلِيفَتُهُ فِي أَمْتِهِ وَكَفَى بِهَذَا فَضْلًا وَشَرَفًا لِلْعِلْمِ وَأَهْلِهِ^(٢).

بَارَكُوا فِيهِ

(١٣٨٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «..... وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(٣).
✽ سَبَقَ شَرْحُ هَذَا الْحَدِيثِ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْم (٢٥٠) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بَارَكُوا فِيهِ

(١٣٩٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»^(٤).
✽ سَبَقَ شَرْحُ هَذَا الْحَدِيثِ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْم

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٠) بتصرف.

(٢) مفتاح دار السعادة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) كتاب العلم.

(١٧٩) فَأَرْجُو الرِّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٩١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٩٥٦) فَأَرْجُو الرِّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٩٢) وَعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٨٢) فَأَرْجُو الرِّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٩٣) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ»^(٣).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣٩٤) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَشْبَعَ مُؤْمِنٌ مِنْ خَيْرٍ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ»^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٢) حسن: رواه الترمذی، وابن ماجه، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (١٦٠٩).

قوله «وما والاه» أى: طاعة الله.

(٣) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعيف الجامع (٥٥٧٠).

(٤) ضعيف: رواه الترمذی، وابن حبان، وضعفه الألبانی فی ضعيف الجامع (٤٧٨٣).



❁ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بَلَدٌ بِمِثْلِهَا

(١٣٩٥) وعن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلَّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ بفضل أهل العلم الذين عاشوا من أجله وأخلصوا النية لله (جل وعلا) فقال ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ» أي: فضل العالم بالعلوم الشرعية.. بعلوم الكتاب والسنة.. فضله على العابد: أي الذي أقبل على العبادة ولم يتزود إلا بالقليل من العلم الشرعي.. «كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».

أَيُّ نِسْبَةٍ شَرَفِ الْعَالِمِ إِلَى شَرَفِ الْعَابِدِ كَنِسْبَةِ شَرَفِ الرَّسُولِ إِلَى شَرَفِ أَدْنَى الصَّحَابَةِ... قَالَ الْقَارِئُ: فِيهِ مُبَالِغَةٌ لَا تَخْفَى فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ: كَفَضْلِي عَلَى أَعْلَاكُمْ لَكَفَى فَضْلاً وَشَرْفاً^(٢).

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ» أي: أَنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتَهُ الْكَرَامَ «وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ» هذا تعميم بعد تخصيص.. لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ» ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ» الَّذِينَ هُمْ أَيْضًا مَلَائِكَةٌ.. فَكَانَ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ وَخَوَاصَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَسَائِرَ مَلَائِكَةِ السَّمَاوَاتِ السَّعِيدِ... وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْأَرْضِ «حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلَّمِي النَّاسِ الْخَيْرِ» وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ الْعَالِمِ.. فَاللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.. وَمَلَائِكَتَهُ الَّذِينَ لَا يُحْصَى

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٢) تحفة الأحوذی (٧/ ١٠٠).

عددهم إلا الله يصلون على أهل العلم ويدعون لهم ويستغفرون لهم..
وقال النبي ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ
وَحُقِّ لَهَا أَنْ تَنُطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ
تَعَالَى»^(١).

فكل هؤلاء الملائكة يدعون ويستغفرون للعالم.. وكذلك أهل الأرض
جميعاً.. «حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ» فذكر أصغر مخلوق وأكبر مخلوق..
وكأنه يقول: وما بينهما أيضاً من كل المخلوقات يدعون ويستغفرون للعالم.
❀ ولا تستغرب أن تلك المخلوقات تستغفر الله ﷻ للعالم..

لأن الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم على لسان موسى عليه الصلاة
والسلام: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فالبهائم والحشرات
تعلم ربها ﷻ وتعرفه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] كل شيء يُسبح بحمد الله حتى
إن الحصى سُمع تسبيحه بين يدي النبي وهو حصى.. لأن الله تعالى رب كل
شيء ومليكه.. حتى إن الله قال للسموات والأرض ﴿أَفَتَبَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فالكون كله يعرف ربه ويعبد ربه ﷻ.. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالْدَوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، ولهذا الكافر
لا يستجيب لله، ولا يسجد لله شرعاً وتعبداً، لكنه يسجد لله ذُلًّا قدرًا ما له مفر
عما قضى الله... كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾
[الرعد: ١٥] والسجود هنا السجود القدرى.. فكل أحد خاضع لقدر الله، ما أحد
يستطيع أن يُغالب الله ﷻ.

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

(١٣٩٦) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ.. وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا مِنْ عِلُومِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.. أو حتى مِنْ عِلُومِ الدُّنْيَا الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ جَمِيعًا فِي كُلِّ أَقْطَارِ الْأَرْضِ.. سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ.. وَكَلِمَا أَزْدَادَ الْإِنْسَانَ عِلْمًا.. كَلِمَا كَانَ الطَّرِيقُ إِلَى الْجَنَّةِ سَهْلًا ميسورًا.

❁ ثم ذكر النبي ﷺ أن ملائكة الرحمن تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع.. ويأله من فضل عظيم.. أن تضع الملائكة الكرام -الذين كرمهم الله عز وجل- أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع من حرصه على طلب العلم والسعي إليه والعمل به وتبليغه للناس.

❁ «وإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ».. وقد ذكرنا ذلك في الحديث السابق وذكرنا مدى عِظَمِ عِدَدِ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ.. وَكُلُّهَا تَدْعُو وَتَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ.. فَيَا لَهُ مِنْ فَضْلٍ عَظِيمٍ.

❁ «وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ».. وقد قال النبي ﷺ في الحديث السابق: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».. فَالِنَبِيِّ ﷺ أَجْمَلُ مِنَ الْقَمَرِ.. وَالصَّحَابَةِ أَجْمَلُ مِنَ الْكَوَاكِبِ.

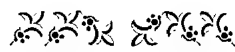
❁ ثم قال النبي ﷺ: «وإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» نعم.. الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ..

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٩٧).

ورثوا منهم العلم النافع.. وورثوا العمل الصالح كما يعمل الأنبياء.. وورثوا شرف الدعوة إلى الله.. وورثوا هداية الخلق ودلائهم على طريق الجنة.. «وإنَّ الأنبياءَ لم يُورثُوا دينارًا ولا درهماً وإنَّما ورثُوا العلمَ، فمن أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ».

لقد توفي النبي ﷺ ولم يترك لفاطمة (عليها السلام) ولا لأقاربه درهماً ولا ديناراً.. وهذا من حكمة الله عز وجل.. لأن النبي ﷺ لو ترك ثروة لابنته وأقاربه لقالوا: إنما ادعى النبوة ليجمع المال لكنه ﷺ لم يترك درهماً ولا ديناراً. وأما قول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦٥] فالمراد بذلك إرث العلم والنبوة وليس المال... فالأنبياء ما ورثوا درهماً ولا ديناراً إنما ورثوا هذا العلم - صلوات الله عليهم - هذا أعظم ميراث، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ، أى بنصيبٍ وافرٍ كثير.

أليس الإنسان يسعى من شرق الأرض إلى مغربها من أجل أن يحصل على مالٍ خلفه أبوه له وهو متاع دنیا.. فلماذا لا نسعى من مشارق الأرض ومغاربها إلى أخذ العلم الذى هو ميراث الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . جديرٌ بنا أن نسعى بكل ما نستطيع لأخذ العلم الموروث عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .



(١٣٩٧) وعن ابن مسعود (رضي الله عنه)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَرَ الله امرأً سَمِعَ مِنَّا شيئاً، فَبَلَغَهُ كما سَمِعَهُ قَرَبٌ مُبْلَغٍ أَوْ عَى مِنْ سَامِعٍ»^(١).
 ﴿ففى هذا الحديث يدعو النبى ﷺ بنضارة وحُسن وجه مَنْ يسمع أحاديث النبى ﷺ ويبلغها لمن حوله لكى ينتفعوا بها.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٧٦٤).

فقال ﷺ: «نَضَرَ اللهُ امرأً» أى: حَسَنَهُ وجعل وجهه حسناً.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ناضرة يعنى حسنة.. إلى ربها ناظرة يعنى تنظر بالعين إلى الله عز وجل، جعلنا الله وإياكم منهم.. وكذلك أيضاً قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَقَّهْمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى حُسناً وسروراً.. حُسناً فى الوجوه وسروراً فى القلوب.

﴿سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا﴾: قَالَ الطَّبِيُّ: يَعْمُ الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ الصَّادِرَةُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَدُلُّ عَلَيْهِ صِغَةُ الْجَمْعِ فِي مِنَّا.

قُلْتُ: الظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّ الْمَعْنَى مَنْ سَمِعَ مِنِّي أَوْ مِنْ أَصْحَابِي حَدِيثًا مِنْ أَحَادِيثِي... «فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ» أَيْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَنَقْصَانٍ... وَخَصَّ مُبَلِّغَ الْحَدِيثِ كَمَا سَمِعَهُ بِهَذَا الدُّعَاءِ لِأَنَّهُ سَعَى فِي نَضَارَةِ الْعِلْمِ وَتَجْدِيدِ السُّنَّةِ فَجَازَاهُ بِالدُّعَاءِ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَهُ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْحَدِيثِ وَفَضْلِهِ وَدَرَجَةِ تَلَابِهِ حَيْثُ خَصَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِدُعَاءٍ لَمْ يُشْرِكْ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ الْأُمَّةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ وَحِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ فَائِدَةٌ سِوَى أَنْ يَسْتَفِيدَ بَرَكَةٌ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ لَكَفَى ذَلِكَ فَائِدَةً وَغُنْمًا.

﴿فَرَّبَ مُبَلِّغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ﴾، لأنه ربما يكون الإنسان يسمع الحديث ويبلغه ويكون المبلغ أوعى من السامع يعنى أفقه وأفهم وأشد عملاً من الإنسان الذى سمعه وأداه... وهذا كما قال النبى ﷺ معلوم... تجد مثلاً من العلماء من هو راوية يروى الحديث يحفظه ويؤديه لكنه لا يعرف معناه فيبلغه إلى شخص آخر من العلماء يعرف المعنى ويفهمه ويستنتج من أحاديث الرسول ﷺ أحكاماً كثيرة فينفع الناس... وقد سبق أن مثل الأول كمثل الأرض التى أمسكت الماء فرُوي الناس وارتووا لكنها لا تُنبِت... وأما الأرض الرياض التى أنبتت هم الفقهاء الذين عرفوا الأحاديث وفقهوها واستنتجوا منها الأحكام الشرعية^(١).

(١٣٩٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»^(١).

✽ وهنا يُحذِرُ النبي ﷺ أهل العلم من كتمان العلم.. لأن العالم إذا كتم علمه فكيف يعرف الناس دينهم... فكتمان العلم مظنة ضياع الحق وغياب الخير وانتشار الفساد وضياع العباد والبلاد.

قال ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ أَى: مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ مِنْ علوم الشريعة التي يحتاج إليها الناس «فكتمه» ولم ينشره بين الناس أو منع عنهم كتب العلم التي ينتفعون بها.

«أَلْجَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أَى أُدْخِلَ فِي فَمِهِ لِجَامٌ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ خُرُوجِ الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ.

قَالَ الطَّبْطَبِيُّ: شَبَّهَ مَا يُوَضَّعُ فِيهِ مِنَ النَّارِ بِلِجَامٍ فِي فَمِ الدَّابَّةِ. «بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» مُكَافَأَةٌ لَهُ حَيْثُ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِالسُّكُوتِ وَشَبَّهَ بِالْحَيَوَانِ الَّذِي سُخِّرَ وَمُنِعَ مِنْ قَصْدِهِ مَا يُرِيدُهُ.

لأنه كتم ما أنزل الله بعد أن سُئِلَ عنه... وهذا إذا علمت أن السائل يسأل لاسترشاده فلا يجوز لك أن تمنعه... أما إذا علمت أنه يسأل امتحاناً وليس قصده أن يسترشد فيعلم ويعمل، فأنت بالخيار إن شئت فعلمه وإن شئت فلا تعلمه... لقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] لأن الله عَلِمَ أن هؤلاء يأتون النبي ﷺ يستحكمونه لا لأجل أن يعملوا بكلامه ولكن لينظروا ما عنده.

بَلَامٌ بِمَا نَسُوا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٤).



(١٣٩٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﻋَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعني: ربحها^(١).

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن العلوم تنقسم إلى قسمين:

قسمٌ يُراد به وجه الله.. وهو العلوم الشرعية - علم الكتاب والسنة - وما يساندها من علوم عربية.

وقسمٌ آخر: علم الدنيا.. كالطب والهندسة والميكانيكا وغير ذلك..

فأما هذا العلم - علم الدنيا - فلا بأس أن يطلب الإنسان به عَرَضُ الدنيا.. كأن يتعلم الطب ليكون طبيباً ويفتح عيادة فيكسب من وراء ذلك أموالاً كثيرة.. أو يتعلم الهندسة من أجل أن يعمل في شركة كبيرة...

لكن لو جدَّد النية بأنه يتعلم الطب من أجل أن ينفع المسلمين وأن يكون سبباً في رفع الآلام عنهم.. وفي نفس الوقت يكسب أموالاً كثيرة ليكفي أسرته وأولاده.. فهذا أفضل بكثير.

أما إذا تعلم الإنسان علوم الكتاب والسنة من أجل أن يُصبح مشهوراً أو ليصرف وجوه الناس إليه فيحترموه ويُعظموه.. أو من أجل أن يجمع الأموال من وراء ذلك فهذا الذي لا يجد يوم القيامة عَرَفَ الجنة - أي: ربحها - لأنه من المفترض أن يطلب الإنسان العلم الشرعي ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ومن أجل معرفة الحق والعمل به والدعوة إليه.

❁ قال ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا» أي: علماً شرعياً «مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ» فالعلوم الشرعية يُبتغى بها وجه الله ﻋَزَّ وَجَلَّ.

وفيه إثبات صفة الوجه لله ﻋَزَّ وَجَلَّ وإثبات لازم الصفة التي هي رضا الله ﻋَزَّ وَجَلَّ،

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٥٩).

وأما إذا فُسِّرَ برضا الله فقط فهذا لا يسوغ؛ لأن الوجه صفة، ورضا الله صفة، فإذا فُسِّرَ الوجه بأنه الرضا فمعناه: أنه لم يُثبت الوجه.. ولكن إذا أثبت الوجه وأثبت الرضا الذى هو لازم هذه الصفة فى ابتغاء وجه الله ﷻ فإن ذلك صحيح.

❁ قوله ﷺ: «لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيَصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا» يعنى: شيئاً من الدنيا وعرضاً من أعراضها الزائلة.

«لم يجد عَرَفَ الجنة» يعنى: ريحها؛ لأن العَرَف هو: الريح، وليس معنى ذلك أنه يكون حُكمه حُكم الكفار الذين لا يجدون ريح الجنة أبداً، وإنما المقصود من ذلك: أنه إذا لم يتجاوز الله تعالى عنه لا يحصل ذلك له من أول وهلة.. ولكن كل مَنْ مات مُذنباً وهو غير مشرك بالله ﷻ فإن أمره إلى الله ﷻ إن شاء عفا عنه وتجاوز عنه، وإن شاء عَذَّبَه.. وإذا عَذَّبَه لا يُخلده فى النار كتخليد الكفار، وإنما يُخرجه منها ويدخله الجنة فيكون مآله إلى الجنة.

وإن قيل: هل يدخل فى هذا الحديث الاشتراك فى المسابقات التى عليها جوائز، إذا كان طالب العلم ممن يحرص على العلم؟

الجواب: كون الإنسان يشتغل بالعلم من أجل معرفة الحق والهدى ثم بعد ذلك جُعِلَت مسابقة فيها جوائز ودخل فيها فهذا لا يُخرجه عن كونه تعلَّم العلم من أجل معرفة الحق والعمل به.. لأنه لم يتعلم فى الأصل من أجل الجوائز، ولم يكن الباعث له أن يكون عنده استعداد للمنافسة فى الجوائز.. وإنما تعلَّمه لمعرفة الحق والهدى، وهذا جاء عَرَضاً وتبعاً وشيئاً طارئاً لم يكن هو المقصود عند التعلُّم وعند الاشتغال بالعلم.

وأما هل يدخل فى هذا مَنْ يدرس ليصبح مُدرِّساً ويحصل على الراتب؟ فإذا كان غرضه الدنيا فقط فله نصيب من هذا الحديث، وإن كان قصده أنه يتعلم الحق ويعمل به وينفع الناس به فهذا من الثواب المُعَجَّل الذى يُعجله الله له فى

الدنيا قبل الآخرة.. لأن الإنسان قد يُعَلِّم ويُرشد الناس ويفيد التلاميذ ويكون سبباً في هدايتهم وفي استقامتهم مع كونه مُدرِّساً ويأخذ الراتب الذي يُعطى للمدرسين... فإذا كانه الباعث له أن يفيد الناس وأن يفيد الطلاب وأن يكون عوناً لهم على معرفة الحق والهدى فلا شك أنه على خير كما قال ﷺ: «ولكل امرئ ما نوى».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٠٠) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).

❦ لا بد أن نعلم أولاً أن حاجة الأمة إلى العالم أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والهواء.

قال الآجری في أخلاق العلماء: «إن حاجة الأمة إلى العلماء أشد من حاجة قوم في ليلة مُظلمة في أرضٍ مُسبعة، في وادٍ فيه السباع والهوام والشوك والأحجار وليس معهم نور، ولا يدرون ماذا يواجهون؟ ثم جاءهم مَنْ بيده مصباح يتقدمهم ويبصرون به الطريق، ويأمنون به مما يفاجئهم، مما يضرهم... ففضلُ هذا عليهم - أى فضل العالم في الأمة - أفضل من فضل هذا الرجل الذي جاء بالمصباح في هذه الليلة المظلمة في الصحراء المهلكة.. وذلكم لأن هؤلاء القوم الذين يمشون في الظلام خسارتهم في دنياهم، أما مَنْ عاش بدون عالم يهديه سواء السبيل، ويدله على الخير وإذا حصل له إشكال أو مشكلة في دينه، أو وقع في مخالفة يدلّه على الطريق هذا أعظم لأنه بهذا يُحفظ الدين.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٠٠) كتاب العلم - ومسلم (٢٦٧٣) كتاب العلم.

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل لا يقبض العلم بقبض العلماء. ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء.

وهذا فيه إشارة إلى أن العلم سيُقبض .. وفي آخر الزمان لن يبقى في الأرض آية من كتاب الله .. وذلك لأن القرآن سينزع من المصاحف والصدور .. كما قال رسول الله ﷺ: «يُدْرُسُ الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ. وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ...»^(١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «وَلَيَنْتَزِعَنَّ الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَيَذْهَبُ بِهِ مِنْ أَجْوَافِ الرِّجَالِ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ شَيْءٌ»^(٢).

قال الإمام ابن تيمية: «يُسْرَى بِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَالصُّدُورِ فَلَا يَبْقَى فِي الصُّدُورِ مِنْهُ كَلِمَةٌ وَلَا فِي الْمَصَاحِفِ مِنْهُ حَرْفٌ»^(٣).

وذلك لأن الناس في آخر الزمان سيهجرون القرآن هجراً تاماً.

ونظير ذلك الكعبة المشرفة .. حماها الله عز وجل لما أراد أبرهة أن يهدمها وقدم إليها بفيل عظيم وجنود كثيرة .. حماها الله عز وجل منه وأنزل الله في ذلك سورة كاملة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْفُكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

لكن في آخر الزمان إذا انتهك الناس حرمة هذا البيت وأكثروا فيه من المعاصي وغير ذلك مما يُعدُّ امتهاً لحرمته سلط الله عليهم رجلاً من الحبشة

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٧).

(٢) صحيح موقوف: رواه الطبراني، وقال ابن حجر: سنده صحيح، ولكنه موقوف (فتح الباري ١٦/١٣).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٣/ ١٩٨-١٩٩).

أفحج الرجلين قصير فينقضها حجراً حجراً.. يأتى إليها بجنود، فينقضها ويهدمها حجراً حجراً، إذا نزع الحجر أعطاه لأحد الجنود ثم التالى الذى بجانبه من مكة إلى البحر... يتمادون حجارتها حتى تُهدم عن آخرها.. فانظر كيف أنه فى الأول حماها الله ﷻ من أولئك الكفرة؛ لأنه يعلم أنه سيعث فيها رسولاً ينقل الناس من الضلال والظلم والشرك إلى الهدى والعدل والتوحيد.

لكن فى آخر الزمان عندما ينتهك الناس هذه الحُرمة تُرفع من مكانها، ويُسلط الله عليها بحكمته مَنْ يهدمها، ولا أحد يقول أى شىء، ولا أحد يعارض هذا الرجل.. والله ﷻ بحكمته يُمكنه من ذلك.. كذلك القرآن الكريم يُنتزع من الصدور ومن المصاحف ويُرفع إلى الرب ﷻ؛ لأنه كلامه منه بدأ وإليه يعود.

❁ إذا.. فالله ﷻ لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس... مع أنه قد يحدث أحياناً أن يُعاقب رجل من أهل العلم بنسيان بعض العلم بسبب ذنوبه... فقد ثبت أن بعض مَنْ ينتسب إلى العلم وعنده شىء من العلم لما عصى سُلب بعض العلم الذى كان يحفظه... وأسرع ما يُسلب من الإنسان القرآن، فقد يذنب الذنب ثم يصبح يتفلسف منه القرآن، أو يُشغل بما ينسى بسببه القرآن، ولا شك أن هذه عقوبة.

❁ «ولكن يُقبض العلم بِقبضِ العلماء» أى: يموت العلماء.. فموت العالم مصيبة لا تعدلها مصيبة.. ولقد رأينا كيف توفى مشايخنا وعلمائنا الأفاضل: الشيخ الألبانى والشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين (رحمهم الله تعالى) فى فترة وجيزة من الزمن.

قال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

وقال ابن مسعود يوم مات عمر رضي الله عنه: إني لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبَقِّ عَالَمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا﴾.

يموت العلماء الذين هم علماء في الحقيقة ولا يبقى عالم، فيتخذ الناس رؤساء، يعنى: يتخذ الناس من يترأسهم ويستفتونه؛ لكنهم جهال يفتون بغير علم فيضلون ويضلون، والعياذ بالله... وتبقى الشريعة بين هؤلاء الجهال يحكمون بها بين الناس وهم جهلة لا يعرفون فلا يبقى عالم... وحينئذ لا يوجد الإسلام الحقيقى الذى يكون مبنياً على الكتاب والسنة؛ لأن أهله قد قبضوا. وفي هذا الحديث حثٌّ على طلب العلم لأن الرسول أخبرنا بهذا لأجل أن نتحاشى ونتدارك هذا الأمر ونطلب العلم... وليس المعنى أنه أخبرنا لنستسلم فقط، لا.. بل من أجل أن نحرص على طلب العلم حتى لا نصل إلى الحال التى وصفها الرسول ﷺ... والإخبار بالواقع لا يعنى إقراره^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣) كتاب حمد الله تعالى وشكره

(٢٤٢) باب فضل الحمد والشكر

❖ قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الإسراء: ١١١] وقال تعالى: ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] فالشكر والحمد باب المزيد.. فالله عز وجل يحب أن يحمده عبده ويشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى... ولذا قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

المؤمن عميق الإحساس بما لله عليه من فضل عظيم وإحسان عظيم، ونعم تحيط به عن يمينه وعن شماله، ومن بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته. إنه يشعر بنعمة الله عليه منذ كان في المهد صبيًا، بل منذ كان في بطن أمه جنينًا،... كان صبيًا وليدًا لا سن له تقطع، ولا يد له تبطش، ولا قدم له تسعى، فأجرى الله له عرقين رقيقين في صدر أمه يُجريان لبنًا خالصًا، كامل الغذاء، دافئًا في الشتاء، باردًا في الصيف... وألقى الله محبته في قلب أبويه، فلا يطيب لهما طعام ولا شراب، ولا يهنأ لهما نوم ولا عيش، حتى يكفياها ما أهّمه ويدفعا عنه كل سوء. وكان في بطن أمه جنينًا، فجعل الله له قرارًا مكنيًا.. هيأ له فيه أسباب الغذاء والدفع والتنفس، وجعل له متكئًا عن يمينه ومتكئًا عن شماله: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۖ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۖ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۖ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [٢٣-٢٠].

[المرسلات: ٢٠-٢٣].

المؤمن يشعر بنعمة الله عليه في كل شيء حوله، ويرى في كل ذرة في الأرض أو في السماء منحة من الله له، تُيسر له معيشتة، وتُعينه على القيام برسالته في الحياة،

إنه يرى نعمة الله في هبة الريح، وسير السحاب، وتفجّر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات.

ولنقرأ في مثل هذا قول الله تعالى: ﴿الْمَرْتَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠] ^(١).

وما أجمل أن يشعر المؤمن بنعم الله عليه .. فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وأمرنا أن نشكره على تلك النعم .. فقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

ووعدنا بالجزاء العظيم على شكر النعمة .. فقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

بل وأخبر أن الشكر سبب لزيادة النعم وسعة الأرزاق .. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ لِّمَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأخبر الله (جلّ وعلا) أن الشكر سبب للنجاة من العذاب ... فقال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التي خلق لأجلها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

❖ فأما الشكر بالقلب: فيكون ذلك بأن تعترف بقلبك بأن هذه النعم من عند الله وأنها تستوجب الشكر لله (جلّ وعلا).

❖ وأما الشكر باللسان: فيكون ذلك بأن تتحدث بنعم الله عليك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ

(١) الإيمان والحياة (ص ١٣٠، ١٣١).



رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ [الضحى: ١١].

✽ وأما الشكر بالجوارح: فيكون ذلك بأن تستعمل تلك الجوارح في طاعة الله (جل وعلا)... كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] ^(١).

إن الكون كله بكل ما فيه من الإنس والجن والملائكة والجماد والنبات والدواب والطيور لو اجتمعوا على قلب رجل واحد ليشكروا الله على نعمة واحدة لعجزوا عن أداء شكرها فكيف بسائر النعم.

قال تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ نَوْمٌ وَإِنْ تُعْذُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ سَخَّرَ لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

ولذلك كان الحبيب ﷺ إذا أراد أن يُنسى على الله (جل وعلا) كان يقول: «.. لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» ^(٢).

✽ وقد حضنا النبي ﷺ أيضًا على شكر الناس على ما يفعلوه معنا من معروف.. فقال ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ» ^(٣).. فمن أسدى إليك معروفًا فكافئه واشكره واعلم أن الله ﷻ هو الذي جعل لك هذا الإنسان سببًا في قضاء حاجتك.. فهو وإن كان مجرد سبب إلا أنه ينبغي أن تشكره.

وقال ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ» ^(٤).

✽ ولكن إياك أن تشكر المخلوق وتنسى الخالق (جل وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أخلاق الرسول ﷺ للأطفال/ الشيخ محمود المصري (ص ٣٤٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة.

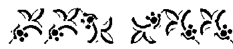
(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذي وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٦٥٤١).

(٤) صحيح: رواه الترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٦٨).

(١٤٠١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أتى ليلة أُسْرِىَ به بقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فنظرَ إليهما فأخذَ اللبنَ، فقالَ جبريلُ عليه السلام: «الحمدُ لله الذي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ .. لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج .. تلك الليلة التي كانت تكريماً لشخص النبي محمد ﷺ .. في تلك الليلة أُوتى النبي ﷺ بقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ .. قدح فيه خمر .. والآخر فيه لبن (فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا ﷺ) أى وكأنه خَيْرٌ بينهما فألهم ﷺ اختيار اللبن (فأخذ اللبن فقال جبريل: الحمد لله الذي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ) قال المصنف: فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة .. ومعناه والله أعلم: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، وجعل اللبن علامة ذلك لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة، والخمر أم الخبائث جالبة لأنواعٍ من الشر حالاً ومآلاً^(٢).

✽ وتأمل معى كيف كان حُب النبي ﷺ لشرب اللبن.
قال ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا: فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا شَرِبَ لَبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَجْرَى مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ»^(٣).



(١٤٠٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كُلْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَقْطَعُ»^(٤).

✽ وللأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٧٠٩) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (١٦٨) كتاب الإيمان.

(٢) دليل الفالحين (١٥٢/٤).

(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٨١).

(٤) ضعيف: رواه ابن ماجه والبيهقى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٢١٦).

(١٤٠٣) وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات وَلَدُ الْعَبْدِ قال الله تعالى لِمَلَائِكَتِهِ: قَبِضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قَبِضْتُمْ ثَمْرَةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولون: نعم، فيقول: فَمَاذَا قال عَبْدِي؟ فيقولون: حَمْدَكَ واسْتَرْجَع، فيقول الله تعالى: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٩٢٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٠٤) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ليرضى عن الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»^(٢).

✽ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن الله ﷻ الغنى عن عبادته.. الذى لا تنفعه طاعة عبادته ولا تضره معصيتهم.. يخبر النبى ﷺ أن الله ﷻ يرضى عن عبده إذا أكل الأكلة - الوجبة من الطعام - فيحمد الله عليها.. ويشرب الشرية فيحمد الله عليها..

فالعبد لا ينسى فضل الله أبدًا فى طعامه وشرابه وفى كل حياته... لأن كل النعم هى من عند الله ﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَةِ فَمِنْ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ..

فإذا أكل العبد الوجبة فحمد الله.. فهو بين نعمتين.. نعمة الطعام الذى يأكله فهو فى الأصل نعمة من عند الله.. وإذا حمد العبد ربه ﷻ. فتلک نعمة أخرى لأن الذى وفقه لذلك الحمد هو الله ﷻ.

✽ قال الإمام النووى رحمته الله: وفيه استحباب حمد الله تعالى عَقِبَ الْأَكْلِ

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٤) كتاب الذكر والدعاء.



وَالشُّرْبِ وَقَدْ جَاءَ فِي الْبُخَارِيِّ صِفَةُ التَّحْمِيدِ «الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفَى وَلَا مُودَع وَلَا مُسْتَعْنَى عَنْهُ رَبَّنَا» وَجَاءَ غَيْرُ ذَلِكَ وَلَوْ اقْتَصَرَ عَلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ حَصَلَ أَصْلُ السُّنَّةِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤) كتاب الصلاة على رسول الله ﷺ

(٢٤٣) باب الأمر بالصلاة عليه وفضلها وبعض صيغها

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره للآية: «والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملائكة الأعلى بأنه يُثنى عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه.. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعاً»^(١). اهـ.

❁ وهل هناك أحدٌ يستطيع أن يُحصى عدد الملائكة الذين يُصلون على النبي ﷺ.... فإن البيت المعمور وهو قبلة أهل السماء السابعة فقط يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه إلى قيام الساعة.

فكل يوم يدخل سبعون ألفاً ثم يأتي في اليوم التالي سبعون ألفاً غيرهم فمن يستطيع أن يُحصى عدد ملائكة السماء السابعة وحدها.

قال ﷺ: «إنه ليدخل البيت المعمور في كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه إلى قيام الساعة»^(٢).

بل قال ﷺ: «.. أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَزْبَعِ أَصَابِعِ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى سَاجِدًا..»^(٣).

(١) تفسير ابن كثير (٨٠٦/٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٤) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٢٠)، (٢٤٤٩).

اختلف العلماء - رحمهم الله - هل تجب الصلاة على النبي ﷺ في العمر مرة أو بأسباب أو لا تجب... والصحيح أنها تجب بأسباب، وإلا فالأصل أنها مستحبة... فما معنى الصلاة على النبي ﷺ، أى ما معنى قول القائل: اللهم صل على محمد؟

معناه أنك تسأل الله عز وجل أن يُثني عليه في الملائكة حتى تزداد محبتهم له ﷺ ويزداد ثوابهم بذلك.

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل يُصلى على غير النبي ﷺ أم لا؟
يعنى هل يجوز أن تقول: اللهم صل على فلان العالم الفلانى أو الشيخ الفلانى، أو اللهم صل على أبى أو ما أشبه ذلك؟

والصحيح أن فى ذلك تفصيلاً: فإن كان ذلك تابعاً للصلاة على النبي ﷺ فلا بأس... ولهذا قال الرسول ﷺ حين سأله كيف يصلون عليه؟ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد». وإن كان مُستقلاً، فإن كان لسبب فلا بأس، ومن ذلك إذا أتى الإنسان إليك بصدقته لتوزعها، فقل: اللهم صل عليه.

قال عبد الله بن أبى أوفى: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم قال: «اللهم صل عليهم» فأتاه أبى أبو أوفى، فقال: «اللهم صل على آل أبى أوفى»^(١)، هذا أيضاً لا بأس به... كذلك إذا صليت على إنسان دون أن تجعل ذلك شعاراً له كلما ذكرته صليت عليه فلا بأس... يعنى حتى لو قلنا: اللهم صل على أبى بكر أو على عمر أو على عثمان أو على فلان فلا بأس ولكن لا تجعل هذا شعاراً كلما ذكرت هذا صليت عليه، لأنك إذا فعلت ذلك جعلته كأنه نبي.

✽ هذا بالنسبة للصلاة على النبي ﷺ... فما معنى ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] أى ندعو الله عز وجل أن يُسلمه تسليماً تاماً.. لكن مما يُسلمه؟

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٢) كتاب الدعوات، ومسلم (١٠٧٨) كتاب الزكاة.

أن يُسلّمه في حياته من الآفات الجسدية والآفات المعنوية، وبعد موته، من الآفات المعنوية .. بمعنى أن تسلم شريعته من أن يقضى عليها قاضٍ، أو ينسخها ناسخ.. وكذلك الجسد لأنه ربما يُعتدى عليه بعد موته في قبره، كما يأتي في قصة مشهورة أن رجلين أرادا أن يستخرجا جسد النبي ﷺ فنزل المدينة رجلان غريبان وبدءا يحفران من تحت الأرض حفرة، حتى يتوصلا إلى قبر النبي ﷺ فيأخذا جسده الشريف.. فبقيا على ذلك مُدة... فرأى أحد الملوك (نور الدين زُلكي) في المنام أن رجلين يحفران ليصلا إلى جسد النبي ﷺ ويأخذاه، فاهتم بذلك اهتمامًا عظيمًا، ثم ارتحل إلى المدينة، لكن من أين يعلم هذين الرجلين؟ كيف يتوصل إلى معرفتهما؟ فقال لأمرير المدينة: ادعُ لى جميع أهل المدينة، فدعاهم، فأطعمهم، وما رأى الرجلين، قال: أين أهل المدينة؟ قالوا: الكل جاء وما بقى أحد غير رجلين غربيين في المسجد... يعنى ليس لهما قيمة.. قال: أحضرهما، فجىء بهما فإذا هما اللذان رآهما في المنام، فعرفهما، ثم أمر بأن يُحفر حفرة على جوانب الحجرة التى فيها قبر النبي ﷺ قبل أن تكون حجرة بالبناء ثم صبّها بالنحاس والرصاص والرخام حتى يحمى الله جسد هذا النبي الكريم ﷺ... فصبّ الرصاص إلى الأرض ولهذا قبر النبي ﷺ محفوظ حفظًا تامًا... فالمهم أن قول المسلم: اللهم صلّ وسلم على محمدٍ، يعنى: سلّمه من الآفات الجسدية حيًا وميتًا، وسلّم شريعته من أن يطمسها أحد أو أن يعدو عليها أحد... ثم اعلّموا أن أجساد الأنبياء لا يمكن أن تأكلها الأرض، لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

❦ والصلاة على النبي واجبة في مواضع: منها: إذا ذكر اسمه عندك فصلّ عليه، لأن جبريل أتى إلى النبي ﷺ وقال: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ»^(١). رَغِمَ أَنْفٌ.. معنى رغم يعنى سقط في الرغامة... والرغامة هى الأرض الترابية.

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٥١٠).

وتجب الصلاة على النبي أيضًا عند كثير من العلماء في الصلاة في التشهد الأخير... فعند كثير من العلماء أنها ركن لا تصح الصلاة إلا به... وعند بعضهم أنها سنة، وعند بعضهم أنها واجب. والاحتياط أن لا يدعها الإنسان في صلاته أى الصلاة على النبي ﷺ، ولو أن الإنسان جعل كل دعاء يدعو به مقرأًا بالصلاة على النبي ﷺ لكان كما جاء في الحديث يُكْفَى همه ويُغْفَر ذنبه.

ولهذا أكثر يا أخى من الصلاة والسلام على الرسول ﷺ ليزداد إيمانك ويسهل لك الأمر... ثم اعلم أن الرسول ﷺ بشر لا يملك لك النفع ولا الضر، فلا تسأله، لا تقل: يا رسول الله، افعل كذا، يا رسول الله، استغفر لى، يا رسول الله، أغثنى، يا رسول الله، سهّل أمرى... هذا حرام، وشرك أكبر لأنه لا يجوز أن تدعو مع الله أحدًا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٠٥) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَى صَلَاةٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا»^(٢).

يعنى أنك إذا صليت على النبي ﷺ مرة فإن الله عز وجل لا يكافئك بعدد من الحسنات ولو كان كثيرًا... وإنما يكافئك بأن يصلى عليك عشر مرات وذلك بأن يُثنى عليك ويرحمك عشر مرات فى الملاء الأعلى... وهذا يدل على علو مرتبة النبي ﷺ عند الله (جل وعلا)... فأنت المستفيد من صلاتك على النبي ﷺ... لأن النبي ﷺ ليس بحاجة إلى صلاتك... فالله عز وجل وملائكته يصلون عليه ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٣/٣٤٧-٣٤٩) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) كتاب الصلاة.

(١٤٠٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَى صَلَاةٍ»^(١).

✽ وللأمانة العلمية .. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بَيِّنَاتٌ عَلَى بَيِّنَاتٍ

(١٤٠٧) وعن أوس بن أوس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَكْثَرُوا عَلَى مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ تُعَرِّضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ قَالَ: -يقول: بَلَيْتَ- قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(٢).

✽ فالنبي ﷺ يأمرنا أن نُكثِرَ من الصلاة عليه في كل وقتٍ .. وعلى وجه الخصوص في يوم الجمعة وأخبرنا أن صلاتنا عليه تُعَرِّضُ عليه ﷺ ويُقال له: فلان يصلي عليك .. فيا له من شرفٍ عظيم أن يُذكر ويُعَرِّضَ اسمك على النبي ﷺ كل يوم وأنت تصلي عليه.

فقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تُعَرِّضُ عَلَيْكَ، وَقَدْ أَرَمْتَ، أَيْ: بَلَيْتَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ». فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهما بقوا في الأرض فإن الأرض لا تأكل أجسادهم .. فالأنبياء أحياء في قبورهم ... أما غير الأنبياء فإنها تأكل أجسادهم .. لكن قد يكرم الله تعالى بعض الموتى فلا تأكلهم الأرض وإن بقوا... ولكننا لا نتيقن أن أحداً لا تأكله الأرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

بَيِّنَاتٌ عَلَى بَيِّنَاتٍ

(١) ضعيف: رواه الترمذي، وابن حبان، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٢١).

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢١٢).

(١٤٠٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ» أى: لصق أنفه بالتراب كناية عن حصول الذل.. أى: أذله الله وحقره.. وهذا إخبار أو دعاء.. «ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ» والمعنى: أن مَنْ ذكر عنده النبي ﷺ فلم يُصَلِّ عليه أذله الله وحقره... فلا تغفل عن الصلاة على النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٠٩) وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيْدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»^(٢).

❖ أى: لا تجعلوا قبره ﷺ عيداً تكرمونه بالمجىء إليه كل سنة مرة أو مرتين أو ما أشبه ذلك... ولذا كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَد».

وفيه دليل على تحريم شدِّ الرَّحْلِ لزيارة قبر النبي ﷺ وأن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المدينة لا يقصد أن يسافر من أجل زيارة قبر الرسول ولكن يسافر من أجل الصلاة في مسجده؛ لأن الصلاة في مسجده خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام... قال: «وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُما كُنْتُمْ»، إذا صليت على الرسول ﷺ فإن صلاتك تبلغه حيثما كنت في برٍّ أو بحرٍ أو جوٍّ، قريباً كنت أو بعيداً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١٠).

(٢) صحيح: رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٢٢٦).

ومعناه النهى عن الاجتماع لزيارته ﷺ اجتماعهم للعيد إذ هو يومٌ رخص لهم فيه اللهو واتخاذ الزينة ويرزون فيه للتره وإظهار السرور وكان أهل الكتاب يسلكون ذلك فى زيارة قبورهم حتى ضرب الله على قلوبهم حجاب الغفلة واتبعوا سنن أهل الأوثان فى زيارة طواغيتهم فاتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

(١٤١٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ يُسلمُ علىَّ إلا ردَّ الله علىَّ رُوحِي حتَّى أُرَدَّ عليه السَّلامُ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه ما من أحدٍ يُسلم عليه إلا ردَّ الله ﷻ عليه روحه حتَّى يرد عليه السلام.

أما كيفية حياة النبي ﷺ في عالم البرزخ فلا نعلم كيفيتها.. وإن كان النبي ﷺ قد قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(٢).

وهذه الصلاة ليست من باب التكليف وإنما هي من باب زيادة النعيم في قبورهم.. كما أن أهل الجنة يُلهَمون التسبيح في الجنة.

ولكننا نصدق النبي ﷺ فيما أخبر به أن الله ﷻ يرد عليه روحه ليرد النبي ﷺ السلام على كل من يُسلم عليه... ولكن ليس في هذا الحديث دليل على أن النبي ﷺ يسمع سلام من يُسلم عليه.. وإنما فيه دليل على أن الله ﷻ يرد عليه روحه حتَّى يرد السلام.. والسلام إنما يصل إليه عن طريق الملائكة الذين يُبلغون الرسول ﷺ السلام من قريبٍ ومن بعيدٍ.. كما في الحديث: «إن لله ملائكة سياحين يُبلغونني عن أمتي السلام».. فالحديث ليس فيه نصُّ على أن هذا خاص بمن يُسلم عليه عند قبره وأنه يسمعه.. وإنما هو عام فيمن يُسلم عليه من قريب أو بعيد في أى مكانٍ في الأرض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤١١) وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيلُ مَنْ ذَكَرْتُ عندهُ، فلمْ يُصَلِّ عليَّ»^(٣).

❁ كل الناس يعلمون أن البخيل هو الذى ييخل بالمال ولكن النبي ﷺ يُعرفنا هنا أن البُخل درجات.. أو إن صَحَّ القول: فالبُخل درجات.. وأشدّها أن

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (٥٦٧٩).

(٢) صحيح: رواه أبو يعلى، والبخارى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٧٩٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٢٨٧٨).

يسمع المسلم اسم النبي ﷺ فلا يصلى عليه... هذا هو أشد أنواع البخل.
قال ﷺ: «البخل» أى: الكامل فى البخل «من ذكرت عنده» أى: ذكر اسمى عنده «فلم يصل على» أى: لم يصل على النبي ﷺ.

وكيف لا يصلى المسلم على النبي ﷺ... وهو الذى جعله الله سبباً فى خروجنا من الظلمات إلى النور.. وهو الذى جعله الله سبباً لنعرف الحق من الباطل والحلال من الحرام والخير من الشر.. وهو الذى علمنا كيف نسير فى طريق الجنة وكيف نتقى الطريق الموصل إلى النار...

فهذا البخل الذى لم يصل على النبي ﷺ وبخل عليه بالصلاة.. هو أيضاً بخل على نفسه بأن يصلى الله عليه عشر مرات إذا صلى هو على النبي ﷺ مرة واحدة.... ألا فلنكثر من الصلاة على حبيبنا محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤١٢) وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو فى صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا»، ثم دعا فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه والثناء عليه، ثم يصلى على النبي ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء»^(١).

المراد بذلك التشهد وأن هذا الرجل تشهد ولم يثن على الله ولم يمجده ولم يصل على النبي ولكنه دعا مباشرة... ومعلوم أن التشهد فيه أولاً الثناء على الله فى قوله: «التحيات لله والصلوات والطيبات»، وفيه أيضاً السلام على النبي ﷺ والصلاة عليه ثم الدعاء... فيحمل حديث فضالة بن عبيد، على أن المراد بالصلاة الدعاء فى الصلاة، وأنه يسبق بالتحيات ثم بالسلام والصلاة على النبي ﷺ ثم الدعاء.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٤٨).

❁ ثم وضح النبي كيف نصلى عليه:

(١٤١٣) وعن أبي محمد كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّيْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ»^(١).

(١٤١٤) وعن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه، قال: أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنَحْنُ فِي مَجْلِسٍ سَعِدَ بِنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ: أَمَرَنَا اللَّهُ أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَكَيْفَ نُصَلِّيْ عَلَيْكَ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى تَمَنَّيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ... وَالسَّلَامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ»^(٢).

(١٤١٥) وعن أبي حَمِيدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قال: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ نُصَلِّيْ عَلَيْكَ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ»^(٣).

❁ والمراد بآل محمد هنا كل أتباعه على دينه ... فإن آل الإنسان قد يُراد بهم أتباعه على دينه، وقد يُراد بهم قرابته، لكن في مقام الدعاء ينبغي أن يُراد بهم العموم؛ لأنه أشمل ... فالمراد بقوله: «وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»، يعني: جميع أتباعه، فإن قال قائل: هل تأتي الآل بمعنى الأتباع؟ قلنا: نعم... قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٥٧) كتاب الدعوات، ومسلم (٤٠٦) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٠٥) كتاب الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٤٠٧) كتاب الصلاة.

أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٠﴾ قال العلماء: معناه أدخلوا أتباعه أشد العذاب. وقوله: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»، الكاف هنا للتعليل، وهذا من باب التوسل بأفعال الله السابقة إلى أفعاله اللاحقة... يعنى كما مننت بالصلاة على إبراهيم وآله فامنن بالصلاة على محمد وآله ﷺ، فهى من باب التعليل وليست من باب التشبيه، وبهذا يزول الإشكال الذى أورده بعض أهل العلم رحمهم الله، حيث قالوا: كيف تلحق الصلاة على النبى ﷺ وآله بالصلاة على إبراهيم وآله مع أن محمداً أشرف من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فالجواب أن الكاف هنا ليست للتشبيه ولكنها للتعليل... «اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد»، أى: أنزل فيهم البركة... والبركة هى الخير الكثير الواسع الثابت. «كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»، هذه هى الصلاة على النبى ﷺ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وفى نهاية كتاب (الصلاة على رسول الله) أدعو نفسى وإخوانى إلى كثرة الصلوة والسلام على رسول الله ﷺ فإنه كما قال الإمام ابن الجوزى: «وَأَعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنْ فِي الصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ عَشْرُ كَرَامَاتٍ: إِحْدَاهُنَّ صَلَاةُ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، وَالثَّانِيَّةُ شَفَاعَةُ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ، وَالثَّالِثَةُ: الْإِقْتِدَاءُ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ، وَالرَّابِعَةُ: مُخَالَفَةُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَفَّارِ، وَالْخَامِسَةُ: مَحْوُ الْخَطَايَا وَالْأَوْزَارِ، وَالسَّادِسَةُ: قَضَاءُ الْحَوَائِجِ وَالْأَوْطَارِ، وَالسَّابِعَةُ: تَنْوِيرُ الظُّلُومِ وَالْأَسْرَارِ، وَالثَّامِنَةُ: النِّجَاةُ مِنْ عَذَابِ دَارِ الْبَوَارِ. وَالتَّاسِعَةُ: دُخُولُ دَارِ الرَّاحَةِ وَالْقَرَارِ، وَالْعَاشِرَةُ: سَلَامُ الْمَلِكِ الْغَفَّارِ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٥٣-٣٥٤) بتصرف كبير.

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزى (ص ٣١٩).

(١٥) كتاب الأذكار

(٢٤٤) باب فضل الذكر والبحث عليه

❁ قال الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالذَّكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]

❁ اعلم أن ذكر الله ﷻ هو ذكر القلب، وأما ذكر اللسان مجرداً عن ذكر القلب فإنه ناقص... ويدل لهذا قوله ﷻ ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: ٢٨] ولم يقل مَنْ أَمْسَكْنَا لِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِنَا... بل قال: مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا... فالذكر النافع هو ذكر القلب، وذكر القلب يكون في كل شيء.

❁ قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

من الذاكرين مَنْ يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطأ على الذكر.

ومنهم مَنْ لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوى، استتبع لسانه فتواطأ جميعاً.
فالأول: ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه.

والثاني: ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولاً حتى يحسّ بظهور الناطق فيه، فإذا أحسّ بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي

إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك؛ حتى يجد كل شيء منه ذاكراً. وأفضل الذكر وأنفعه: ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكر معانيه ومقاصده^(١). اهـ.

في رحاب الذاكرين

❖ فيها هو سيد الذاكرين رسول الله ﷺ تقول عنه أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه. ولم تستثن حالة من حالة. وكان ﷺ يدعو ويقول: «... اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا، لَكَ ذَاكِرًا، لَكَ رَاهِبًا.....»^(٢).

❖ وقال تعالى لكليمه موسى ﷺ: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِْيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

وقال تعالى على لسان نبيه موسى ﷺ: ﴿كَيْ تَسْبِّحَهُ كَثِيرًا ۖ وَتَذْكُرَهُ كَثِيرًا ۖ﴾ [طه: ٣٣-٣٥].

❖ وها هو زكريا ﷺ يسأل الله أن يرزقه الولد فتبشره الملائكة بالولد... فيطلب آية وعلامة على هذه المعجزة فكانت العلامة أنه يظل ثلاثة أيام لا يستطيع أن يتكلم إلا بذكر الله.

قال تعالى حاكياً عنه أنه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَآذْكُرُّ بِكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

❖ وهذا نبي الله يونس ﷺ التقمه الحوت... فنجاه الله برحمته ثم بكثرة ذكره وتسبيحه وقوله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

(١) الفوائد للإمام ابن القيم (ص: ٢٧٢).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيح الجامع (٣٤٨٥).

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِئْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصفات: ١٤٣، ١٤٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤١٦) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١).

فهما كلمتان خفيفتان على اللسان ليس فيهما أى مشقة عليك ... ومع ذلك فهما ثقيلتان فى الميزان يوم القيامة حين تُوزن الأعمال .. وكذلك فهما حبيبتان إلى الرحمن (جل وعلا) .. فإله يحبهما ويحب من قالهما .. فهاتان الكلمتان من أسباب الفوز بمحبة الله (جل وعلا).

ولكن ما معنى (سبحان الله وبحمده) ... المعنى: أنك تُنزه الله تعالى عن كل عيبٍ ونقصٍ وأنه الكامل من كل وجهٍ (جل وعلا)، مقرونًا هذا التسبيح بالحمد الدال على كمال إفضاله وإحسانه إلى خلقه (جل وعلا) وتمام حكمته وعلمه وغير ذلك من كمالاته.

(سبحان الله العظيم) يعنى: ذى العظمة والجلال فلا شىء أعظم من الله سلطانًا ولا أعظم قدرًا ولا أعظم حكمة ولا أعظم علمًا .. فهو عظيم بذاته وعظيم بصفاته (جل وعلا).

فاحرص - أختي الحبيب - على أن تُكثر من هاتين الكلمتين .. لأنهما ثقيلتان فى الميزان وحبيبتان إلى الرحمن .. وهما فى نفس الوقت خفيفتان على اللسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٨٢) كتاب الأيمان والندور - ومسلم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء.

(١٤١٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن تلك الكلمات اليسيرة وهذا الذكر الجميل أحب إليه من الدنيا وما فيها.. وذلك لأن هذه الكلمات من أعمال الآخرة وهن الباقيات الصالحات.. وثوابها لا يبيد وأجرها لا ينتهي ولا ينقطع.. أما الدنيا فإلى زوال.

فتلك الكلمات أحب إلى النبي ﷺ من الدنيا ومتاعها الزائل... ولعلك تعجب من أناسٍ يقطعون آلاف الكيلو مترات من أجل لقمة عيشٍ قد لا يتحصلون عليها ويغفلون عن كلماتٍ هي أغلى من الدنيا وما فيها.

❁ وأنا أسأل سؤالاً: لو أنك ملكت الدنيا بكل ما فيها ثم مُت.. ماذا تستفيد؟!.. لن تستفيد شيئاً..

لكن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هي الباقيات الصالحات.. قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فينبغي لنا أن نغتني الفرصة بهذه الأعمال الصالحة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤١٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةٍ مَرَّةً كَانَتْ لَهُ عِدَلُ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيتَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمَسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»، وَقَالَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةٍ مَرَّةً، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٩٣) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء.

❖ فمن قال تلك الكلمات فاز بتلك الثمار الخمسة:

كان كمن أعتق عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة وحُطَّت عنه مائة خطيئة، وكانت له حِرْزًا من الشيطان، ولم يأت أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا مَنْ عَمِلَ أكثر مما عمل.

وهذا أمرٌ يسير .. تستطيع أن تقولها وأنت في طريقك لصلاة الفجر أو عندما تجلس في انتظار الصلاة أو بعد الفجر .. لكن ينبغي أن تحافظ عليها وتداوم عليها لتفوز بهذا الفضل العظيم.

أما سبحان الله وبحمده: فمن قالها مائة مرة حُطَّت عنه خطاياهِ وإن كانت مثل زبد البحر .. وهذه تقولها في آخر النهار لأجل أن تحط عنك خطايا النهار. فانتهاز الفرصة يا أخى .. فالعمر يمضى ولا يرجع .. ما مضى من عمرك فلن يرجع إليك وهذه الأعمال أعمال خفيفة مفيدة ثوابها جزيل وعملها قليل.

❖ ولذا قال النبي ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ؟ إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤١٩) وَعَنْ أَبِي أَيُوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ: كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ»^(٢).

❖ يعنى كان كالذى أعتق أربع رقاب من أشرف الناس نسباً وهم بنو إسماعيل .. لأن أشرف الناس نسباً هم العرب وهم بنو إسماعيل ... وأما العجم فلهم آباء آخرون ولكن ذرية إسماعيل هم العرب فمن قال لا إله إلا الله

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣١) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٣) كتاب الذكر والدعاء.

وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس ... وهذا دليل على فضل هذا الذكر.

❦ ولكي تعلم قدر الذكر ومكانته فلقد أخبر النبي ﷺ أن سبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٢٠) وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ؟ إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أبا ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أحب الكلام إلى الله ﷻ: سبحان الله وبحمده.

وقد سبق أن قال النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(٢).

قال الإمام النووي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا مَحْمُولٌ عَلَى كَلَامِ الْأَدَمِيِّ .. وَإِلَّا فَالْقُرْآنُ أَفْضَلُ وَكَذَا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ الْمُطْلَقِ .. فَأَمَّا الْمَأْثُورُ فِي وَقْتٍ أَوْ حَالٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَالْإِشْتِغَالُ بِهِ أَفْضَلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

فينبغي على كل مسلم أن يُكثر من (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) لأنها أحب الكلام إلى الله .. وما كان أحب إلى الله فهو أحب إلينا من الدنيا وما فيها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣١) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٥) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩١) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) مسلم بشرح النووي (٧٦/١٧).

(١٤٢١) وعن أبي مالك الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٢٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٢٢) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ، فقال: عَلَّمَنِي كَلَامًا أَقُولُهُ. قال: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» قال: فهؤلاء لربِّي، فما لي؟ قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وارْحَمْنِي، واهْدِنِي، وارزُقْنِي»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يذكر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة.. أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فقال له: عَلَّمَنِي كَلَامًا أَقُولُهُ... فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال له: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» فقدَّمها على ما بعدها لأنها كلمة التوحيد التي جعلها الله عز وجل كلمة الدخول إلى الإسلام ومفتاح الجنة وهي التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض وخلق الجنة والنار وأنزل الكتب وأرسل الرسل وكلَّف الإنسان والجن بعبادته ليفترق الناس يوم القيامة بحسب ما قدموه إلى فريق في الجنة وفريق في السعير.

✽ «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا»

«وسُبْحَانَ اللَّهِ» أي: أنزه ربي عز وجل عن كل نقصٍ.. فالله عز وجل له صفات

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٦) كتاب الذكر والدعاء.

الكمال والجلال «رب العالمين» خالق العالمين ومالكهم ورازقهم سبحانه وتعالى.

«ولا حول» عن المعصية «ولا قوة» على الإتيان بالطاعة «إلا بالله العزيز» الذى لا يُغالب فى مراده «الحكيم» الذى يضع الأشياء فى مواضعها بحسب حكمته البالغة.

✽ فقال الأعرابى: «هؤلاء الكلمات لربى» أى لشأن ربى؛ أى: حقه؛ لأنها: أوصافه؛ لأنها تهليل، وتوحيد، وتحميد، وتسبيح، وثناء، وتمجيد وذلك كله حقه.

قال: «فما لى» أى: أى شىء يكون لى وأذكره لحقى.

قال ﷺ: قل: «اللهم اغفر لى وارحمنى، واهدنى، وارزقنى» أصل اللهم يا الله، والميم المُشددة فى آخره عوض من الياء.

قوله: «اغفر لى» الغفر معناه: الستر، ومنه: المغفر وهو ما يُلبس على الرأس تحت البيضة أو القلنسوة.. والمراد هنا: ستر الذنوب.

قوله: «وارحمنى» الرحمة معناها: العطف والحنو، وهى متضمنة إنعامه وإحسانه؛ لأن مآل العطف والحنو يُفضى إلى هذا.

قوله: «واهدنى» الهدى نقيض الضلال، وهو الدلالة الموصلة إلى البغية.

قوله: «وعافنى» من المعافاة؛ وقد جمع رسول الله ﷺ فى تعليمه هذا الدعاء بين ما يجلب المنافع الأخروية، وبين ما يجلب المنافع الدنيوية؛ لأن المغفرة والرحمة والهداية من المنافع الأخروية... والمعافاة والرزق من المنافع الدنيوية، وقَدَّم المنافع الأخروية لكونها هى المقصود بالأصل... وهذا التعليم من الرسول ﷺ تعليم إرشاد، ودلالة إلى طريق الخير.

(١٤٢٣) وعن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» قيل للأوزاعي - وهو أحد رواة الحديث -: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أَسْتَغْفِرُ الله، أَسْتَغْفِرُ الله ^(١).

❦ ففي هذا الحديث يذكر ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته بالتسليم استغفر ثلاثاً.. أي قال: أَسْتَغْفِرُ الله ثلاث مرات ... وإنما كان النبي ﷺ يستغفر ثلاثاً بعد التسليم من الصلاة ليُعلمنا أن نستغفر بعد تلك الطاعة رجاء أن يغفر الله لنا ما كان من خلل أو تقصير في تلك الصلاة.

وهذا فيه بيان لما كان عليه رسول الله ﷺ من الخوف والرجاء... فبعد صلاته ﷺ وهي الصلاة الخاشعة المطمئنة كان يستغفر ربه بقوله: أَسْتَغْفِرُ الله (ثلاثاً) وهو بهذا الهدى المبارك يُعَلِّمُ أتباعه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أنه ينبغي على العبد أن يستغفر ربه بعد فعل الطاعات لجبر ما كان من تقصير.

ونظير ذلك أن المجتهدين المتجهدين في الليل إذا فرغوا من تهجدهم استغفروا... كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

❦ وتقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام». أنت السلام يعني السالم من كل نقص وعيب، «ومنك السلام» يعني منك السلامة... يعني: اللهم إني أتوسل إليك بهذا الاسم الكريم من أسمائك أن تُسلم لي صلاتي حتى تكون تكفرة للسيئات ورفعة للدرجات.

«تباركت يا ذا الجلال والإكرام» وليس فيها (وتعاليت) ولكن في أحاديث أخرى فيها.... «يا ذا الجلال والإكرام»: أي عَظُمْتَ خيراتك وبركاتك ونعمك على عبادك... فينبغي للإنسان أن يستغفر بعد الصلاة -الفريضة- ثلاث مرات ويقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

❖ وقد كان النبي ﷺ يحثنا على الإكثار من قول «يا ذا الجلال والإكرام» قال ﷺ: «أَلْظُوا^(١) يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٢).

بَابُ تَعْبُدُونَ اللَّهَ

(١٤٢٤) وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطَى لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(٣).

❖ وقبل أن أشرح الحديث أحب أن أذكر موقفاً لطيفاً حول هذا الحديث.. فقد كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أميراً على الكوفة من قبل معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه.. فطلب منه معاوية أن يكتب له كتاباً يذكر فيه ما كان النبي ﷺ يقول دُبر الصلاة.. فكتب له المغيرة هذا الحديث الذي بين أيدينا فنشره معاوية بين الناس وأمرهم بالمحافظة عليه.

❖ وهنا يذكر المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أى لا معبود بحق إلا الله.. فليس هناك معبود في الكائنات كلها يستحق أن يُعبد ولا أن يُطاع من دون الله عز وجل... فإنها ليست آلهة، بل هى كما قال الله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ❖ فالمعبود حقاً هو الله عز وجل.

وقوله: «وحده لا شريك له»، هذا من باب التأكيد... تأكيد وحدانيته (جل وعلا) وأنه لا مشارك له فى ألوهيته.... له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير... له الملك المطلق العام الشامل الواسع، ملك السماوات والأرض وما

(١) أى الزموا واثبتوا عليه وأكثروا من قوله والتلفظ به فى دعائكم. «نهاية».

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٥٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد.

بينهما، مُلكَ الآدميين والحيوانات والأشجار والبحار والأنهار والملائكة والشمس والقمر... كل هذه ملكُ الله ﷻ، ما علمنا وما لم نعلم... له الملك كله يتصرف فيه كما يشاء وعلى ما تقتضيه حكمته (جل وعلا).

«وللهُ الحمدُ» فهو سبحانه وتعالى محمودٌ على كل حال: في السراء والضراء.. أما في السراء فينبغي على الإنسان أن يحمد الله وأن يشكره على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾.

وأما في الضراء فيحمد الإنسان ربه حمد تفويض.. وذلك لأن الإنسان لا يعلم ولا يدرى أين تكون مصلحته.. فقد يتمنى الإنسان ما فيه هلاكه فيحجبه الله عنه رحمة به.. وقد يكره الإنسان ما فيه مصلحته.. فالله ﷻ يعلم ما فيه مصلحة عباده.. ولذا فإنه يجب علينا أن نحمد الله ﷻ في السراء والضراء وفي كل حال.

وكان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسره قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات» وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال»^(١).

وأما ما يقوله بعض الناس: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه؛ فهذه كلمة خاطئة لم ترد.. ومعناها غير صحيح، وإنما يُقال: الحمد لله على كل حال.

﴿اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ﴾ فما أعطاك الله ﷻ وما قدره لك لا يستطيع أحد أن يمنعك أبداً ولو اجتمع الناس جميعاً فلن يستطيعوا أن يحجبوا عنك خيراً قدره الله لك.

(١) صحيح: رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠).

«ولا مُعْطَى لِمَا مَنَعَتْ» وما منعه الله عنك لا يستطيع أحد أن يعطيك إياه...
فإن أعطاك الله الثواب على تلك الصلاة. فمن يمنعه عنك.. وإن حرملك الله
ثوابها فمن يعطيك ثوابها... إن أعطاك الله من فضله ورحمته فمن يمنحك وإن
حرملك منهما فمن يعطيك..

فأنت إذا خرجت من المسجد فإنك تقول: «اللهم افتح لى أبواب فضلك»
فمن يمنحك من فضله (جل وعلا).

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾.

فيا الله.. لقد أجزلت لنا وأعطيت فلا أحد يمنع فضلك وعطاءك وجودك
ورحمتك.... وهذا هو معنى قوله ﷺ: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ
بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ
يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»^(١).

فإذا علمنا هذا فلا ينبغي أن نسأل أو نطلب إلا من الله ﷻ.

«إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» وإذا أعطاك أحد شيئاً
فاعلم أن الله ﷻ هو الذى قَدَّرَ لك هذا وما هو إلا مجرد سبب..

لكن نحن مأمورون بأن نشكر مَنْ صنع إلينا معروفاً.. كما قال النبى ﷺ:
«مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكْفَتْهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا
أَنْكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ»^(٢) لكن لا بُدَّ نعلم أن الذى يَسِّرُ لنا هذا العطاء وصَيَّرَ لنا هذا
المعطى هو الله ﷻ.

﴿وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ﴾ الجد: هو الحظ والغنى... فلا ينفع الغنى
غناه عند الله إذا لم يكن مؤمناً صالحاً ينفق ماله فى أبواب الخير... وقد تجد

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٥٧).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢١).

إنساناً غنياً صاحب ثروة وقصور.. فإذا أصيب بمرضٍ لا يقدر أن يرفع عن نفسه المرض بماله وغناه.. لا يقدر على رفعه عنه إلا الله.. ولو كان يوم القيامة من أهل النار فلن يستطيع أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهباً وفضة... ولذا فإنه يجب على مَنْ آتاه الله مالاً أن يشكر الله عز وجل وأن يطيعه وأن يستعمل هذا المال في مرضاة الله وأن يستمتع أيضاً بهذا المال فيما أحله الله له وأن يُخرج زكاة ماله.. ليصبح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ».. أما إن استعمل المال في معصية الله عز وجل فإن ماله لن ينفعه ولن يُنجيه بين يدي الله يوم القيامة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٤٢٥) وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ، حِينَ يُسَلِّمُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. قَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ^(١).

وفي هذا الحديث يذكر ابن الزبير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول دُبْرَ كل صلاة حين يُسَلِّمُ:

«لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أي لا معبود بحق إلا الله.

«وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ» تأكيد لوحْدانيته (جل وعلا) وأنه لا مُشارك له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

«لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ» له الملك المطلق الشامل الواسع لكل ما في السماوات وما في الأرض وما في الكون كله.. وله الحمد المطلق.. فهو المحمود على كل حالٍ في السراء والضراء.

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩٤) كتاب المساجد.

«وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فله القدرة المطلقة التي لا تحدّها حدود.

«لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله» هي كنز من كنوز الجنة لأن الإنسان ينخلع من حوله وقوته إلى حول الله وقوته.

فالإنسان ليس له حَوْلَ وليس له قوة.. فلا يتحول من حالٍ إلى حالٍ ولا يقوى على ذلك إلا بالله عَزَّوَجَلَّ... فهي كلمة استعانة إذا أعياك الشئ، وعجزت عنه قل: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فإن الله تعالى يعينك عليه.

«لا إله إلا الله» وكرر هذه الكلمة العظيمة لأنها الكلمة التي يدخل بها الإنسان في الإسلام.. وهي الكلمة التي إذا ختم بها حياة الإنسان كان من أهل الجنة «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

«ولا نعبدُ إلا إِيَّاهُ» فعبادتنا مقصورة عليه سبحانه وتعالى.. ليس لنا ربٌّ ولا إلهٌ سواه.. فلا نصرف أى عبادة بدنية أو مالية أو قلبية ظاهرة أو باطنة إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

«لَهُ النِّعْمَةُ» فنعمة لا تُعَدُّ ولا تُحصى سواء كانت ظاهرة أو باطنة ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾... فكل النعم منه سبحانه وتعالى.

«ولهُ الفضلُ» فى كل شئ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

«ولهُ الثَّناءُ الحَسَنُ» فهو وحده الذى يستحق الثناء الحسن الجميل... والثناء يشمل أنواع الحمد والمدح والشكر.. ولن نستطيع أن نُثنى على الله بما يستحق ولذا كان النبى ﷺ يقول: «... لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١).

«لا إله إلا الله» ويكرره للمرة الثالثة لتكون راسخة فى قلبك فلا تفارقك ولا تفارقها حتى آخر لحظة فى عمرك..

وأن تحقق شروطها كلها من العلم واليقين والقبول والانقياد والصدق

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة.

والإخلاص والمحبة.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فنجدد النية دائماً ونُخلص لله عَزَّوَجَلَّ في أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا .. لأن العمل لا يُقبل إلا بشرطين هما: الإخلاص والمتابعة... فنحن نُخلص لله عَزَّوَجَلَّ ونتبع رسول الله ﷺ ولو كره الكافرون والمنافقون.

❁ قال ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. وكان رسول الله ﷺ يَهْلِلُ بهن دُبر كل صلاة مكتوبة ... أى: يرفع صوته قليلاً لِيُسمع نفسه ويسمعه مَنْ كان قريباً منه ﷺ.

❁ وهذا الحديث فيه ما كان عليه النبي ﷺ من دوام ذكر الله عَزَّوَجَلَّ والإكثار من الثناء عليه بأنواع شَتَّى من الذكر الذى يتضمن الإقرار له بالتوحيد وأنه المالك المتصرف في شئون خلقه، لا يُنازعه أحد في ملكه، وأنه هو عَزَّوَجَلَّ المعبود بحق وما سواه باطل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٢٦) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فَقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدرجاتِ العُلَى، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ: يَحْجُونَ، وَيَعْتَمِرُونَ، وَيُجَاهِدُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ. فَقَالَ: «أَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ. وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتُحَمِّدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، خَلْفَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» قَالَ أَبُو صَالِحٍ الرَّائِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، لَمَّا سُئِلَ عَنْ كَيْفِيَةِ ذِكْرِهِنَّ، قَالَ: يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٣) كتاب الأذان - ومسلم (٥٩٥) كتاب المساجد.

«الدُّثُورُ» جمع دُثْرٍ وهو المَالُ الكثير.

وزاد مُسْلِمٌ في روايته: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

❦ ففي هذا الحديث أن فقراء المهاجرين جاءوا إلى النبي ﷺ وهم في غاية الحزن والأسى.. لماذا؟ هل كانوا يريدون مالاً أو جاهاً؟ كلا.. ولكن كانوا في غاية الحزن لأن الأغنياء سبقوهم إلى فعل بعض الطاعات التي تحتاج إلى المال: كالحج والعمرة والجهاد والصدقة.. فكانوا يريدون أن يدركوا الأغنياء وأن يسبقوهم بأعمال أخرى لا تحتاج إلى المال.. فما كان من النبي ﷺ إلا أن أخبرهم بشيء يسبقون به من سبقهم ومن بعدهم فقال ﷺ: «أَلَا أَعْلَمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ؟ وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ» قالوا: بلى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «تُسَبِّحُونَ، وَتَحْمَدُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، ذُبِرَ كُلُّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً».

يعنى تقولون: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين مرة، فهذه تسع وتسعون... ثم إنهم فعلوا ذلك، ولكن سمع الأغنياء بهذا ففعلوا مثله، فتساوا معهم في هذا الذكر، فرجع الفقراء إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلَ الْأَمْوَالِ بِمَا صَنَعْنَا فَصَنَعُوا مِثْلَهُ... وَكَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ شَيْئًا آخَرَ يَخْتَصُونَ بِهِ، فَقَالَ: «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

❦ ففي هذا الحديث دليل على حرص الصحابة رضي الله عنهم على فعل الخير، وتنافسهم، وتسابقهم في ذلك، امتثالاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ولقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۖ ﴿١١﴾ فِي جَنَّةٍ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]،

ولقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

[الحديد: ٢١].

فكانوا عليه السلام وأرضاهم يتسابقون إلى فعل الخير، والأعمال الصالحة، ويتنافسون في ذلك، ويبذلون جهدهم وطاقاتهم ابتغاء رضوان الله، وطلباً لما أعدّه سبحانه للعاملين من عباده المؤمنين.. تصديقاً لقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وفي الحديث دليل على أن الصحابة عليهم السلام كان يشق عليهم، ويحزنهم فوات بعض الأعمال الصالحة، التي تتعلق بالمال إذ لم يكن لديهم من المال ما يساعدهم على فعل هذه الطاعات، التي عمل بها غيرهم.. فكان الفقراء منهم يحزنون على فوات الصدقة بالأموال التي يقدر عليها الأغنياء، ولا يقدرون هم عليها.. كما يحزنون على التخلف عن الخروج في الجهاد في سبيل الله؛ لعدم القدرة على الزاد والراحلة. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بذلك في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] ^(١).

وفي هذا الحديث بيان منه ﷺ إلى أن كل أعمال المعروف والخير تكون صدقة لصاحبها.. إذ ليست الصدقة قاصرة على إخراج المال، بل إن ذكر الله (جل وعلا)، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإتيان الرجل أهله... كله من الصدقات التي يمتن الله بها على عبده.

ومن فوائد هذا الحديث أيضاً: أن الأغنياء من الصحابة كالفقراء حريصون على فعل الخير والتسابق فيه، ولهذا صنعوا مثل ما صنع الفقراء، فصاروا يُسبحون ويحمدون ويكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين.

(١) من هدى المصطفى ﷺ (ص ٢٦٠-٢٦١) بتصرف.

ومن فوائد هذا الحديث: أن هذا الذكر: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين مشروع خلف الصلوات... وقد ورد في حديث آخر أنه تكمل المائة بقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٢٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمَدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَلَيْسَ بِكَ تِسْعَةَ وَتِسْعُونَ وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»^(١).

(١٤٢٨) وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مُعَقَّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ - أَوْ فَاعِلُهُنَّ - دُبُرُ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَسْبِيحَةً، وَثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ تَحْمِيدَةً، وَأَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ تَكْبِيرَةً»^(٢).

❦ ففي الحديث الأول يخبر النبي ﷺ أن الذي يُسَبِّحُ الله بعد كل صلاة مكتوبة ثلاثاً وثلاثين مرة ويحمد الله ثلاثاً وثلاثين مرة ويكبر الله ثلاثاً وثلاثين مرة.. فهذه (٩٩ مرة) ثم يقول تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.. فإن هناك جائزة عظيمة في انتظاره.. فيا ترى ما هي تلك الجائزة؟ تُغْفَرُ ذُنُوبُهُ وَخَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ.

ومن المعلوم أن زبد البحر هو تلك الرغاوى البيضاء الكثيرة التي تنشأ من تتابع الأمواج وكثرتها... ومن المعلوم أنه لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يحصى عدد زبد البحر.. وكأنه ﷻ يقول: مَنْ فَعَلَ هَذَا فَإِنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ كُلَّ ذَنْبِهِ وَأَثَامِهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٩٦) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

-أى: من الصغائر المتعلقة بحق الله ﷻ - ولا يترك له ذنباً دون مغفرة... ويا له من فضل عظيم.. فبتلك الكلمة المباركة اليسيرة تُغفر كل ذنوبه وآثامه.

❁ وفي حديث كعب بن عُجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مُعَقَّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ» مَعْنَاهُ تَسْبِيحَاتٌ تُفَعَّلُ أَعْقَابُ الصَّلَاةِ. وَسُمِّيَتْ مُعَقَّبَاتٌ لِأَنَّهَا تُفَعَّلُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أَيْ: مَلَائِكَةٌ يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا^(١).

وذلك بأن تُسبح الله ثلاثاً وثلاثين وتحمد الله ثلاثاً وثلاثين وتكبر الله أربعاً وثلاثين... فمن قالها فلن يخيب سعيه ورجاؤه في الدنيا والآخرة.

❁ ففي الحديث الأول: تكبر ثلاثاً وثلاثين وتجعل تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْكُ وله الحمد، وهو على كل شيء قدير..

وفي الحديث الثانى: تكبر أربعاً وثلاثين.. فهذا جائز وهذا جائز.. فاللهم اجعلنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٢٩) وعن سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ دُبُرَ الصَّلَوَاتِ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يخبر سعد بن أبى وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ دُبُرَ الصَّلَوَاتِ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ...

فكلمة «دُبُرَ الصَّلَوَاتِ» تختلف باختلاف ما يُقال.. فإن كان المذكور أذكارةً فإنها تكون بعد التسليم من الصلاة..

وإن كان المذكور دُعَاءً فإنه يكون بعد التشهد وقبل التسليم.

(١) مسلم بشرح النووي (١٣٢/٥-١٣٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٨٢٢) كتاب الجهاد والسير، (٦٣٧٤) كتاب الدعوات.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: دُبر الشيء من الشيء.. كما يُقال: دُبر الحيوان: المؤخرة.

❦ المهم أن النبي ﷺ كان يتعوذ دُبر الصلوات بهؤلاء الكلمات: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ».

الأول: البخل وهو: الشح بالمال.

الثاني: الجبن وهو: الشح بالنفس.. فالبخل أن يمنع الإنسان ما يجب عليه بذله من ماله من زكاة أو نفقات أو إكرام ضيف أو غير ذلك... وأما الجبن فأن يَشح الإنسان بنفسه، لا يقدم على جهاد؛ لأنه يخشى أن يُقتل ولا يتكلم بكلمة الحق؛ لأنه يخشى أن يُسجن، وما أشبه ذلك.. فهذا جبن.

وأما «أعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أَرْدَلِ الْعُمْرِ»؛ أَرْدَل يعني أَرْداه وأنقصه، وذلك على وجهين:

الوجه الأول: أن يحدث للإنسان حادث فيختل به عقله فيهذى فيُرد إلى أَرْدَلِ الْعُمْرِ ويصير كالصبي... أو أن يكون ذلك عن كِبَر وهو الوجه الثاني؛ لأن الإنسان كلما كبر إذا استوى وبلغ أربعين سنة بدأ يأخذ في النقص.

فمن الناس مَنْ يُرد إلى أَرْدَلِ الْعُمْرِ في قواه الحسية وقواه العقلية، فيضعف بدنه ويحتاج إلى مَنْ يحمله ويؤضئه ويوجهه وما أشبه ذلك... أو عقلياً بحيث يهذى ولا يدرى ما يقول... فالرد إلى أَرْدَلِ الْعُمْرِ يشمل هذا وهذا، ما كان بحادث وما كان بسبب تقادم السن به. ثم إن الإنسان إذا وصل إلى هذه الحال، نسأل الله أن يعيدنا وإياكم منها، فإن أهله يَمْلُونَه... أهله الذين هم أشفق الناس به يتعبون منه ويملونَه، وربما يتركونه في مكان تتكفل به الحكومة مثلاً.

وهذا لا شك أن الإنسان لا يرضاه ولا يرضى لنفسه أن يصل إلى هذا الحد.

وتسقط أيضًا عنه الصلاة ويسقط عنه الصوم، وتسقط عنه الواجبات؛ لأنه وصل إلى حَدٍّ يرتفع عنه التكليف.

الثالث: «وأعوذ بك من فتنة الدنيا» وما أعظم فتنة الدنيا وما أكثر المفتونين في الدنيا لا سيما في عصرنا هذا.. وعصرنا هذا هو عصر الفتنة، كما قال النبي ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم وإنما أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَنْ كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها مَنْ قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم»^(١). وهذا هو الواقع في الوقت الحاضر، فُتحت علينا الدنيا من كل جانب ومن كل وجه... منازل كقصور الملوك، ومراكب كمراكب الملوك، وملابس ومطاعم ومشارب... فُتحت فصار أكثر الناس الآن ليس لهم هَمٌّ إلا البطون والفروج. فُتنوا بالدنيا، نسأل الله العافية.

فتنة الدنيا عظيمة، يجب على الإنسان أن يتنبه لها... ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

الرابع: «وأعوذ بك من فتنة القبر...» أو من عذاب القبر: وفتنة القبر أيضًا فتنة عظيمة... إذا دفن الميت وانصرف عنه أصحابه حتى أنه ليسمع قرع نعالهم منصرفين عنه، أناه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه... فإن كان مؤمنًا خالصًا أجاب بالصواب، وقال: ربى الله، ونبى محمد ﷺ، ودينى الإسلام. وإن كان مُرَائِيًا أو منافقًا أعاذنا الله وإياكم من ذلك، قال: هاها لا أدري، هاها لا أدري، فيضرب بمرزبة من حديد... المرزبة من الحديد قالوا مثل المطرقة، وقد ورد في بعض الأحاديث أنه لو اجتمع عليها أهل منى ما أقلوها، من عظمتها.. نسأل الله العافية، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين يعنى الإنس والجن، وهذه من رحمة الله أن الله تعالى لا يُسمعنا عذاب القبر؛ لأننا إذا سمعنا الناس يُعذَّبون

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠١٥) كتاب المغازى، ومسلم (٢٩٦١) كتاب الزهد والرفائق.

في قبورهم ما طاب لنا عيش ولتكدنا ، وإن كان قريباً لنا تنكدنا من وجهين:
من قرابته، ومن هذه الأصوات المزعجة.

وإن كان غير قريب أيضاً انزعجنا منه... ففتنة القبر فتنة عظيمة... نسأل الله
أن يُعيدنا وإياكم منها^(١).

❁ ولقد كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يُعلم بنيه هؤلاء الكلمات كما يُعلم
المعلم الغلمان الكتابة والقراءة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٠) وعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي
لَأُحِبُّكَ» فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي ذُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى
ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم
(٣٨٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قَالَ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ
فَلْيُسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ
الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يأمرنا النبي ﷺ إذا فرغنا من التشهد وقبل التسليم أن
نستعيز بالله من أربعة أشياء ويقول كل واحدٍ منّا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ
جَهَنَّمَ» فتستعيز بالله من عذاب النار التي هي أشد من نار الدنيا بتسعة وستين

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمه الله (٣/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

جزءًا كلها مثل حرها.. النار التي أوقد عليها ألف عام حتى احمرَّت وألف عام حتى ابيضَّت وألف عام حتى اسودَّت فهي الآن سوداء قاتمة.... النار التي أُلقي فيها حجر من على شفيرها فما وصل إلى قعرها إلا بعد سبعين سنة.. النار التي يُؤتَى بها يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها فلا يبقى ملكٌ مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرسل إلا جثى على رُكبتيه وقال: يارب سلِّم سلِّم.

والتعوذ بالله من عذابها يشمل ما عملت من سوءٍ تسأل الله أن يعفو عنك منه.. وما لم تعمل من سوءٍ تسأل الله أن يُجنبك إياه.

❁ «ومن عذابِ القبرِ» أى: وتستعِذ بالله من عذاب القبر.. لأن القبر فيه نعيمٌ وعذاب.. عذابٌ دائمٌ للكافرين والمنافقين نفاقاً اعتقادياً.. وعذابٌ قد ينقطع لعُصاة الموحدين.

وقد ثبت أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين فقال: «إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبِرُّ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ».

❁ «ومن فِتْنَةِ المحيَا والمَمَاتِ» فأما فتنة المحيا فهي ما يفتتن به الإنسان في حياته.. وتدور على شيئين: إما جهل وشبهة وعدم معرفة بالحق، فيشتبه عليه الحق بالباطل فيقع في الباطل فيهلك. وإما شهوة أى: هوى، بحيث يعلم الإنسان الحق لكنه لا يريده وإنما يريد الباطل.. وأما فتنة الممات فقليل: إنها فتنة القبر وهى سؤال الملكين للإنسان إذا دُفن عن ربه ودينه ونبيه، وقيل: فتنة الممات هى ما يكون عند موت الإنسان، وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصًا على إغواء بنى آدم عند موتهم.. فَيَأْتِي للإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه وربما يأمره بأن يكفر بالله ﷻ. فهذه الفتنة من أعظم الفتن.

ولما كانت الفتن تُعرض على القلوب كعرض الحَصِيرِ عودًا عودًا كما أخبر

بذلك النبي ﷺ، سَنَ لَنَا أَنْ نَتَعَوَّذَ بِاللَّهِ مِنْهَا فَلَا يَصْرِفُهَا عَنَّا إِلَّا اللَّهُ ... لِأَنَّ الْفِتْنَةَ أَصْلُهَا الْامْتِحَانُ وَالْإِخْتِبَارُ، وَمِنْهَا إِدْخَالُ الذَّهَبِ فِي النَّارِ لِيُعْرَفَ الْجَيِّدُ مِنْهُ مِنَ الْخَبِيثِ ... قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢، ٣].

﴿ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ ﴾ وأما فتنة المسيح الدجال، فالمسيح الدجال هو مَنْ يبعثه الله ﷻ عند قيام الساعة.. رجلٌ خبيثٌ كاذبٌ، مكتوبٌ بين عينيه: كافر يقرؤه المؤمن الكاتب وغير الكاتب... ويفتن الله تعالى الناس به؛ لأنه يُمكن له في الأرض بعض الشيء... يبقى في الأرض أربعين يوماً، اليوم الأول طوله طول السنة الكاملة، والثاني طوله شهر والثالث طوله أسبوع، وباقي الأيام كسائر الأيام.

يدعو الناس إلى أن يكفروا بالله، وأن يشركوا به، ويقول: أنا ربكم، ومعه جنة ونار، لكنها جنة فيما يرى الناس، ونار فيما يرى الناس، وإلا فحقيقة جنته أنها نار، وحقيقة ناره أنها جنة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ.. فيغتر الناس به ويفتن به ما شاء الله أن يفتن... وفتنته عظيمة فإن النبي ﷺ قال: «ما في الدنيا فتنة أعظم من خلق آدم إلى قيام الساعة مثل فتنة المسيح الدجال، وما من نبي إلا وأنذر به قومه»^(١) ولهذا خصّه من بين فتنة المحيا بأن فتنته عظيمة. نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها، وهذه الأربع يذكرها الإنسان بعد التشهد وقبل أن يُسلم^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٢) وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله إذا قام إلى الصَّلَاةِ يَكُونُ مِنْ آخِرِ مَا يَقُولُ بَيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٦٦) بتصرف.

إلا أنت»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر على بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ» أي: من الذنوب.

«وما أخرت» أي: من الطاعات.. وقيل: إن وقع مني ذنب فيما بعد فاغفره لي.

«وما أسررت وما أعلنت» أي: ما أخفيت وما أعلنت.. فالكل سواء عند الله.. فالله ﷻ يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

«وما أسرفت» أي: وما أكثرت من الذنوب والخطايا والآثام والأوزار... وقد وعد الله ﷻ بذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

«وما أنت أعلم به مني» فالله ﷻ يعلم ما تكنه الأنفس والصدور.. وهو أعلم بنا منا.. فكم من معصية نسيناها يذكرنا الله بها ويديها عندما نقف بين يديه.. وكم من معصية لم يعلم العبد أنها معصية إلا عندما يقف بين يدي الله يوم القيامة... فالله أعلم بما فعلنا من علمنا نحن بأنفسنا.. ولذا قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٨) [الزمر: ٤٧-٤٨].

«أنت المقدم»: تقدم من شئت بطاعتك وغيرها.

«وأنت المؤخر»: تؤخر من شئت عن طاعتك كما تقتضيه حكمتك.

«لا إله إلا أنت» فلا معبود بحق إلا الله ﷻ.

✽ وفي هذا الحديث بيان سعة علم الله ﷻ وأنه لا تخفى عليه خافية فإن

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

الإنسان قد ينسى ذنبًا اقترفه ولكن الله لا ينسى، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَخْصَنُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وكقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، وفيه شدة إلحاحه ﷺ على ربه بطلب المغفرة تواضعًا منه وتعليمًا لأتباعه ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٤) وعنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»^(٢).

✽ وهنا تحكى أمنا عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ:

«سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ»: وهما اسمان للمبالغة في النزاهة والطهارة عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وكبريائه وعظمته (سبحانه وتعالى)

أى: أَنْ رُكُوعِي وَسُجُودِي لِمَنْ هُوَ الْبَالِغُ فِي النَّزَاهَةِ وَالطَّهَارَةِ ﷻ.

وَالسُّبُّوحُ: سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي سَبَّحَ بِحَمْدِهِ الْمُسْبِحُونَ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨١٧) كتاب الأذان - ومسلم (٤٨٤) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٧) كتاب الصلاة.

بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأما القدوس: فهو المُنَزَّه عن العيوب والنقائص.

«رَبُّ الْمَلَائِكَةِ» الذين هم جُنُودُ من جنود الله.. وهم أعظم العوالم وأطوعهم لله تعالى وأدومهم على عبادته.

«وَالرُّوحُ» الروح هو جبريل كما قال الله ﷻ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وإنما عطفه على الملائكة من باب عطف الخاص على العام... ومنه قوله ﷻ: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ ﴾ [القدر: ٤] فيكون جبريل ذكر مرتين للاهتمام به وللتنويه بشأنه.. مرة ذكر مع غيره؛ لأنه واحد من الملائكة، ومرة ذكر بالتنصيص... وذكر في سورة القدر: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ ﴾ [القدر: ٤]، وهو أيضًا من باب عطف الخاص على العام؛ اهتمامًا بالخاص وتنويهًا بقدره.

فينبغي للإنسان أن يكثر في ركوعه وسجوده من قوله: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، تأسيًا برسول الله ﷺ وأن يقول كذلك في ركوعه وسجوده: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٥) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظْمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»^(١).

✽ هذا طرف من حديث طويل قال فيه النبي ﷺ: «وَأِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظْمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» أي: حَرَى أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ.. وذلك لأن «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»... فلا يجوز أن نقرأ القرآن في الركوع أو السجود.. لكن يجوز أن تدعو بالدعاء الذي يوافق القرآن.. مثل أن

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٧٩) كتاب الصلاة.

تقول مثلاً: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾... لكن لا تقرأ القرآن في ركوعك أو سجودك.

«فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ» أى: بذكر الثناء عليه سبحانه وتعالى والمبالغة في التنزيه والتقديس.. كأن تقول: «سبحان ربى العظيم» «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» وما أشبه ذلك..

«وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ» لأن «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ».

«فَقَمِّنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ» أى: حرى أن يُستجاب لكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

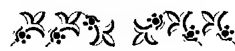
(١٤٣٦) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»^(١).

✽ لأن السجود هو حالة من العبد يبرهن بها عن مزيد ذلّه وخضوعه لله ﻋَزَّوَجَلَّ، إذ إنه يأتى بهامته التى هى أعلى شىء وأشرف شىء فى بدن الإنسان فيضعها فى الوحل والتراب والرغام لله ﻋَزَّوَجَلَّ من جهة الحب أو على جهة الحب والعبادة والقرب... فإذا كان العبد يحقق هذا الله ﻋَزَّوَجَلَّ، فياجبذا لو أنه دعا بدعاء بين يدى الله ﻋَزَّوَجَلَّ فى هذا الموطن وافتقر إلى الله تعالى على نحو قوله: (اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم).

✽ (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) وهذا فيه بيان أن حالة السجود هى أخص أحوال العبد، وأقرب ما يكون فيها صلة بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه فى غاية الخضوع والذلة لله سبحانه وتعالى، فيكون بذلك

مُخْبِتًا رَاجِيًا سَائِلًا؛ لَأنَّه في حَالَةٍ غَايَةِ التَّذَلُّلِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لَأنَّه يَضَعُ أَشْرَفَ شَيْءٍ فِيهِ وَهُوَ وَجْهُهُ - جَبْهَتُهُ وَأَنْفُهُ - عَلَى الْأَرْضِ؛ خُضُوعًا لِلَّهِ وَذُلًّا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَيَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ مَأْمُورًا بِأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الدَّعَاءِ؛ لِأَنَّ هَذَا أَقْرَبُ أَحْوَالِ الْعَبْدِ صَلَوةَ رَبِّهِ، وَأَرْجَى مَا يَكُونُ فِي الدَّعَاءِ أَنْ يَكُونَ سَاجِدًا مُخْبِتًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى... وَقَدْ صَارَ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ الَّتِي هِيَ الْخُضُوعُ وَالدُّلُّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَكُونُ فِيهَا أَغْلَبُ أَعْضَائِهِ أَوْ أَكْثَرُ جِسْمِهِ عَلَى الْأَرْضِ، بِخِلَافِ الْأَحْوَالِ الْآخَرَى فَهُوَ إِمَّا قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ جَالِسٌ، وَلَكِنْ فِي حَالَةِ السُّجُودِ أَكْثَرُهُ عَلَى الْأَرْضِ وَأَشْرَفُ شَيْءٍ فِيهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَلِهَذَا فِي السُّجُودِ الْقَدَمَانِ وَالرَّكِبَتَانِ وَالْيَدَانِ وَالْوَجْهَ كُلَّ ذَلِكَ مُوضُوعٌ عَلَى الْأَرْضِ.

فَيَأْبَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَنْ يَقْرُبَ مِنْكَ فِي هَذَا الْحَالِ وَأَنْتَ تَقْرُبُ مِنْ رَبِّكَ، فَاكْثَرُوا مِنَ الدَّعَاءِ وَأَنْتُمْ سَاجِدُونَ فِي الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ... أَكْثَرُ مِنَ الدَّعَاءِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْآخِرَةِ، حَتَّى لَوْ كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ سَاجِدٌ فَهُوَ خَيْرٌ لِأَنَّ الدَّعَاءَ نَفْسَهُ عِبَادَةٌ... لَوْ قُلْتَ: اللَّهُمَّ كَثِّرْ مَالِي، اللَّهُمَّ هَيِّئْ لِي سَكَنًا جَمِيلًا، اللَّهُمَّ هَيِّئْ لِي سَيَارَةَ مَرِيحَةٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِهِ، وَلَوْ كَانَ فِي الْفَرِيضَةِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي، لِأَنَّ الدَّعَاءَ عِبَادَةٌ، فَأَيُّ شَيْءٍ تَدْعُو بِهِ اللَّهَ فَإِنَّهُ عِبَادَةٌ حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ أَلْحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتُهُ كُلُّهَا حَتَّى يَسْأَلَهُ شَيْءٌ نَعْلُهُ إِذَا انْقَطَعَ»^(١)، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ تَسْأَلُهُ اللَّهَ فَهُوَ عِبَادَةٌ... ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا سَأَلْتَ اللَّهَ فَإِنَّكَ رَابِعٌ فِي كُلِّ حَالٍ، لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُعْطِيَكَ مَا تَسْأَلُ، أَوْ يُصْرِفُ عَنْكَ مِنَ السُّوءِ مَا هُوَ أَعْظَمُ، أَوْ يَذْخِرُ ذَلِكَ لَكَ عِنْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْرًا... فَمَنْ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَخِيبُ... فَكْثِرْ مِنَ الدَّعَاءِ.



(١) ضعيف: رواه الترمذی، وابن حبان، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٤٩٤٦).

(١٤٣٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله: دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يُخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله».

يعنى: صغيره وكبيره؛ لأن (الدق) المقصود به الصغير أو الدقيق، و(الجل) الكبير العظيم.

قوله: «وأوله وآخره» يعنى: ما كان أولاً وما كان آخرًا.

«وعلانيته وسره» والمقصود به ما كان شيئًا ظاهرًا للناس ومُشاهدًا وشيئًا خفيًا لا يطلع عليه إلا الله ﷻ... والله تعالى هو الذى يعلم الغيب والشهادة، وهو الذى يعلم السر والعلانية، ويعلم الخفى والظاهر.

وهذا فيه بيان أن الدعاء يمكن أن يطول فيه وأن يُكرر وأن يأتى فيه بالألفاظ المتقاربة؛ لأن المقام فى مثل هذا لا بأس به... وإلا فإنه يمكن أن يقول: (اللهم اغفر لي ذنبي كله) ويكون هذا مُغنيًا عن قوله: دقه وجله وعلانيته وسره وأوله وآخره... لكن ذكر التفاصيل فى الأدعية هذا من الأمور المطلوبة... لأن الدعاء هو العبادة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٨) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: افتقدت النبي ﷺ ذات ليلة، فتَحَسَّستُ، فإذا هو راکع - أو ساجد - يقول: «سُبْحَانَكَ وبحمدِكَ، لا إله إلا أنت»، وفى رواية: فَوَقَعَت يَدَى عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ، وهو فى المَسْجِدِ، وهما مَنْصُوبَتَانِ، وهو يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٨٣) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٦) كتاب الصلاة.

❦ ففى هذا الحديث تحكى أمنا عائشة رضي الله عنها .. وكانت أحب نساء النبى إليه ﷺ .. وكانت تحبه حُبًّا جمًّا .

فتحكى أنها افتقدته ﷺ فى ليلة فى الليالى فخشيت أن يكون قد حدث له شىء . فذهبت تتحسس فوجدته ﷺ فى المسجد وهو ساجد يدعو الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء ... قالت: ووقعت يدى على بطن قدميه وهو ساجد ... واستدل العلماء بذلك على أن الساجد ينبغى له أن يضم قدميه بعضهما إلى بعض ولا يفرقهما؛ لأنه لا يمكن أن تقع اليد الواحدة على قدمين متفرقتين ... وكذلك هو أيضًا فى صحيح ابن خزيمة أن النبى ﷺ كان يضم رجليه فى السجود . أما الركبتان فهما على طبيعتهما لا يفرقهما ولا يضمهما بل يتركهما على طبيعتهما .

فكان من دعائه ﷺ: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك»، والمعنى: أنه ﷺ يستعيز بالله ﷻ بالأعمال الصالحة عن الأعمال السيئة ... لأن الأعمال السيئة تُوجب الغضب والسخط، والأعمال الصالحة تُوجب الرضا ... والشىء إنما يُداوى بضده ... فالسخط ضده الرضا، فيستعيز بالرضا من السخط ...

أى: كأنه ﷺ يسأل الله ﷻ أن يُوفقه ويُعينه على الأعمال الصالحة التى تجلب له الرضا وتدفع عنه السخط ... أو أنه ﷺ يسأل الله ﷻ أن يرضى عنه ليكون ذلك وقاية له من سخطه .. ومن المعلوم أن النبى ﷺ هو أحب الخلق إلى ربه ﷻ، ... وكان النبى ﷺ يُعلمنا نحن أن نقول ذلك لنفوز برضوان الله وننجو من سخطه .

و«بمعافاتك من عقوبتك»، يعنى أستعيز بمعافاتك من الذنوب وآثارها وعقوباتها من عقوبتك على الذنوب، وهذا يتضمن سؤال المغفرة .

«وأعوذ بك منك»، وهذا أشمل وأعم، أنه يتعوذ بالله من الله ﷻ، وذلك؛ لأنه لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه ... لا أحد ينجيك من عذاب الله إلا الله ﷻ ... فتستعيز بالله من الله سبحانه وتعالى، أى: تستعيز به من عقوبته وغير

ذلك مما يُقدّره.

ودلّ هذا على أن النبي ﷺ كان يصلي أحياناً النافلة في المسجد مع أن الأفضل أن تكون في البيت كما قال رسول الله ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»^(١) لكنه عليه الصلاة والسلام أحياناً يصلي النافلة في المسجد.

وفيه أيضاً دليل على محبة عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ ولا غرابة.. فإنه (عليه الصلاة والسلام) كانت هي أحب نسائه اللاتي عنده، ولا يُساميها أحد.. اللهم إلا خديجة رضي الله عنها، فإن خديجة هي أول نسائه ﷺ ولم يتزوج عليها أحد حتى ماتت، وكان يذكرها دائماً بكل خير ويثنى عليها... لكن عائشة رضي الله عنها هي أحب نسائه الموجودات في عهد عائشة.

ومن فوائد هذا الحديث: أن الإنسان يستعيز بصفات الله عز وجل من ضدها بالرضا من السخط، وبالمعافاة من العقوبة، وأنه لا ملجأ له من الله إلا إليه، فيستعيز بالله منه تبارك وتعالى. والله الموفق^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٣٩) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ» فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيَكْتُبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحِطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ»^(٣).

❁ وفي هذا الحديث يحكي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنهم كانوا جالسين عند النبي ﷺ يعلمهم ويريبهم ويُرغبهم في الخير ويحذرهم من كل شر.. وفجأة

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٢٩٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

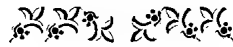
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٦٩-٣٧٠) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٦٨) كتاب الذكر والدعاء.

قال الحميدى: كذا هو في كتاب مسلم: «أَوْ يُحِطُّ» قال البرقاني: ورواه شعبه، وأبو عوادة ويحيى القطان، عن موسى الذي رواه مسلم من جهته فقالوا: «وَيُحِطُّ» بغير ألف.

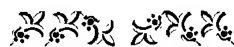
سألهم النبي ﷺ سؤالاً على سبيل التشويق فقال لهم: «أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة».. ومن المعلوم أن الألف حسنة عدد كبير سيحرص عليه كل الصحابة لأنهم كانوا حريصين على الحسنة الواحدة فكيف بالألف حسنة.. فسأله أحدهم: كيف يكسب ألف حسنة؟... وكانوا يتخيلون أن النبي ﷺ سيذكر لهم أعمالاً شاقة... كأن يقول لهم: بأن تجاهدوا شهراً كاملاً أو أن تقوموا الليل شهراً كاملاً أو غير ذلك.. فما كان من النبي ﷺ إلا أن قال لهم: «يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة».

فكانت مفاجأة كبيرة للصحابة... فمن المعلوم أن الإنسان يستطيع أن يسبح مائة مرة في دقيقة واحدة.. فإن فعل ذلك فاز بألف حسنة أو مَحِيت عنه ألف خطيئة.. يعني إذا سَبَّح لمدة ساعة واحدة فقط فإنه يفوز بستين ألف حسنة أو يَمْحَى عنه ستون ألف سيئة... فكم فاتنا من الحسنات.. فيا ليتنا نحرص على التسبيح كل يوم ولو لمدة ربع ساعة لنفوز بهذا الخير العظيم.



(١٤٤٠) وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ: فكلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ. وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الصُّحَى»^(١).

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٢٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه مسلم (٧٢٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها. «السُّلَامَى»: المِفْصَل.

(١٤٤١) وعن أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ فَقَالَ: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنْتُ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتُهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَاءِ نَفْسِهِ، وَزِنَةِ عَرْشِهِ، وَمِدَادِ كَلِمَاتِهِ»^(١).

وفى رواية له: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ».

وفى رواية الترمذى: «أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهَا؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ»^(٢).

❦ ففى هذا الحديث تخبر أم المؤمنين جويرية رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خرج من عندها فى الصباح الباكر وهى فى مُصلاها الذى تصلى فيه... فبعد أن انتهت من صلاتها جلست تذكر الله ﻋَزَّوَجَلَّ.. وبعد فترة عاد إليها النبى ﷺ بعد الضحى وهى ما زالت جالسة تذكر الله ﻋَزَّوَجَلَّ فقال لها النبى ﷺ: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ.

فإذا بالنبى ﷺ يقول لها: «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنْتُ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتُهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَاءِ نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادِ كَلِمَاتِهِ».

ويا لها من كلمات لو علم الناس معناها وما فيها من الحسنات لطاشت

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٦) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٢٤).

عقولهم من هول المفاجأة.

«سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ» فمعناها أنك تُسَبِّحُ اللَّهَ ﷻ وتحمده عدد مخلوقاته من الإنس والجن والملائكة والطير والوحش والنبات وغير ذلك من المخلوقات التي لا يُحصى عددها إلا الله.

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فالناس الذين يعيشون في هذه اللحظة فقط ستة مليارات.. وهذا غير الذين خُلِقُوا مِنْ لَدُنْ آدَمَ ﷺ إلى قيام الساعة.. والملائكة يقول عنهم النبي ﷺ: «..أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَبْطُ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى سَاجِدًا»^(١). ولما كانت الملائكة أجسامًا نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يُعْطِ أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم يرَ الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ... فإنه رأى جبريل مرتين في صورته التي خلقه الله عليها.

فأعدادهم تفوق أعداد البشر بما لا يخطر على قلب بشر..

هذا غير أعداد الجن والطير والوحش والدواب والنباتات وغيرها من المخلوقات.. وأنت إذا قلت سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفِرَتْ ذُنُوبُكَ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ... فكيف إذا كان عددها بعدد مخلوقات الله ﷻ.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ رِضَاءَ نَفْسِهِ﴾ فكم يبلغ التسبيح والحمد الذي يَرْضَى بِهِ اللَّهُ ﷻ... هذا شيءٌ يفوق خيال البشر.. ولا يعلم قدر ذلك إلا الخالق (سبحانه وتعالى).

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ زِينَةُ عَرْشِهِ﴾ فهل هناك أحدٌ من البشر أو الملائكة أو الأنبياء يعرف قدر زينة عرش الرحمن (جل وعلا).. لقد قال النبي ﷺ: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

الْكُرْسِيِّ كَفَضَلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلَقَةِ»^(١).

وقال ﷺ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، رَجُلَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَعَلَى قَرْنِهِ الْعَرْشُ، وَبَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ، يَقُولُ ذَلِكَ الْمَلِكُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتُ»^(٢).

✽ «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مِدادَ كَلِمَاتِهِ» والمِداد ما يُكْتَبُ به الشيء... وكلمات الله تعالى لا تنفذ أبدًا ولا يستطيع إنس ولا جان ولا مَلِكٌ أَنْ يُحْصِيَهَا فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدادًا﴾. فكللمات الله تعالى لا نهاية لها.

✽ فاحرصوا على حفظ هذا الذكر الذي يجمع لكم مليارات المليارات المليارات من الحسنات التي لا يُحصى عددها إلا فاطر الأرض والسموات (سبحانه وتعالى).

سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) فيكون الجميع اثنتي عشرة مرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٤٢) وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(٣).

(١) صحيح: أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب «العرش»، وابن جرير في «تفسيره». وقال الألباني

«الحديث بهذه الطرق صحيح وخيرها الطريق الأخير» انظر: السلسلة الصحيحة (١٠٩).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٥٣).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٤٠٧) كتاب الدعوات.

ورواه مسلم فقال : «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(١).

❁ المَثَلُ: الصفة... أى صفة الذى يذكر ربه، والذى لا يذكره صفة «الحى والميت» أى الذاكر حى، والتارك للذكر ميت.. وبيان ذلك أن الذكر يكون بالقلب واللسان، فمن ذكر ربه دَلَّ ذكره على حياته؛ لأن الإدراك والفهم والوعى يكون بالقلب، والنطق، والإعراب، والبيان يكون باللسان، ومَنْ لَا يذكر ربه دَلَّ عدم ذكره على موت قلبه، وتوقف حركة لسانه، وبذلك فهو مَيِّت، وسرُّ هذه الظاهرة أن الله تعالى خلق للإنسان هذه الكائنات لتقوم عليها حياته، وخلقها هو لعبادته... وعبادة الله تعالى - وإن كانت طاعته بفعل أمره، وترك نهيهِ - فإنها تدور على حقيقة الذكر، والشكر.

وقوله ﷺ: «مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكِّرُ اللَّهَ فِيهِ ... إلخ» دَالٌّ على ما دَلَّ عليه الحديث قبله، وهو أن البيت الخالى من ذكر الله تعالى صاحبه ميت، إذ لو كان حياً لَذَكَرَ الله تعالى بعبادته، كما أن البيت الذى يُذَكِّرُ الله تعالى فيه صاحبه حى، ودليل حياته ذكره لله تعالى بعبادته التى تدور على الذكر والشكر^(٢).

❁ فالغافل عن ذكر الله يصبح قلبه قاسياً.. بل ربما يموت قلبه فيصبح كمثَل الميت.. أما الذى يُكثِر من ذكر الله فإن الله يُحْيِي قلبه ويشرح صدره ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٤٣) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعُهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٧٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) كتاب المسجد / الشيخ أبو بكر الجزائري (ص ٥١).

ذَكَرْنِي فِي مَلَأٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١).

✽ قيل: «الذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين بالبكاء، وذكر الأذنين بالإصغاء، وذكر اللسان بالثناء، وذكر اليدين بالعطاء، وذكر البدن بالوفاء، وذكر القلب بالخوف والرجاء، وذكر الروح بالتسليم والرضا.

✽ فإذا ذكرت الله سبحانه وتعالى أكرمك بأفضالٍ ثلاث: الأولى: جعلك ذاكرًا له بلسانك وقلبك .. ولولا فضله لم تكن أهلاً لأن تذكره سبحانه وتعالى.

والثانية: جعلك محبوباً، فإن العبد إذا عمل بطاعة الله أحبه الله فإذا أحبه الله حبَّبه إلى خلقه وإذا عمل بمعصية الله أبغضه الله، وإذا أبغضه الله بغَّضه إلى خلقه.

والثالثة: جعلك مذكوراً عنده فتَمَّ نعمته عليك بمزيد الإكرام ومنتهى الفضل والإنعام.

والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان .. والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً .. ثم لا ينبغي أن يُترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يُظن به الرياء، بل يذكرُ بهما جميعاً ويقصدُ به وجه الله سبحانه وتعالى^(٢).

✽ فالعبد إذا ذكر الله ﷻ في نفسه ذكره الله ﷻ في نفسه .. وإذا كان العبد جالساً في ملأٍ من الناس فذكر الله ﷻ فإن الله يذكره في نفس اللحظة في ملأٍ أيضاً .. لكنهم ليسوا من البشر وإنما هم من خيار الملائكة المقربين .. فيذكرك الله ﷻ عندهم ويثنى عليك ويُعلی ذكرك ويرفع قدرك.

ولذا كان أحد السلف يقول: والله إنى لأعلم متى يذكرني الله ﷻ!!! ... فقالوا: كيف ذلك؟!

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٤٠٥) كتاب التوحيد - ومسلم (٢٦٧٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) ابن الإسلام (ص ٩٣).

فقال لهم: أما سمعتم قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ فإنني إذا ذكرته **هَكَذَا** ذكرني.

ومن المعلوم أن مَنْ أحب أحدًا فإنه يُكثر من ذكره.. فهل هناك أحدٌ أحب إلينا من الخالق سبحانه وتعالى؟

فأكثرُوا من ذكره لتفوزوا بذكره لكم سبحانه وتعالى.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

(١٤٤٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» قالوا: وما المُفْرَدُونَ يا رسول الله؟ قال: «الذَّاكِرُونَ الله كثيرًا والذَّاكِرَاتُ»^(١).

﴿ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» وجاء بهذه الكلمة التى لا يعرف أصحابه معناها من أجل أن يُشوقهم لمعرفة معناها ومن أجل أن يسألوا...

فقالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

فأجابهم موضحًا معناها وقال: «الذَّاكِرُونَ الله كثيرًا والذَّاكِرَاتُ».

﴿وكان من الممكن أن يقول لهم النبى ﷺ فى البداية: «سَبَقَ الذَّاكِرُونَ» وإنما قال لهم: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ» لتشويقهم إلى معرفة معناها.

﴿فالشاهد أن النبى ﷺ أخبر أن الذَّاكِرِينَ الله كثيرًا والذَّاكِرَاتِ هم الذين سبقوا إلى الخير وسبقوا إلى الطاعة وسبقوا إلى المنزلة العالية عند الله.. لأنهم كلما ذكروا الله ذكروا.. فإذا كانوا يذكرون الله كثيرًا فإن الله **هَكَذَا** سيذكرهم كثيرًا ويثنى عليهم بين الملائكة ويرفع قدرهم وذكُرهم فى الملائ الأعلى.. ولم يفرق النبى ﷺ هنا بين الذَّاكِرِينَ والذَّاكِرَاتِ.. فالكل سواء فى التكاليف.. والكل سواء فى الأجر والثواب والمنزلة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٦) كتاب الذكر والدعاء.

روى: «المُفْرَدُونَ» بتشديد الراء وتخفيفها، والمشهور الذى قاله الجمهور: التَّشْدِيدُ.

فيا ليتنا نُكثِر من ذكر الله ﷻ لنكون من السابقين ولنكون ممن امثل أمر الله ﷻ حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَطِلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٤٥) وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

وفي رواية: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ». أفضل الذكر لا إله إلا الله لِأَنَّهَا كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ... وَالتَّوْحِيدُ لَا يُمَانِلُهُ شَيْءٌ وَهِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَلَا نَهَا أَجْمَعُ لِلْقَلْبِ مَعَ اللَّهِ وَأَنْفَى لِلْغَيْرِ وَأَشَدُّ تَرْكِيةً لِلنَّفْسِ وَتَصْفِيَةً لِلْبَاطِنِ وَتَقْيَةً لِلْخَاطِرِ مِنْ خُبْتِ النَّفْسِ وَأَطْرَدُ لِلشَّيْطَانِ^(٢). وقد قال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ. وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ»^(٣).

فهى مفتاح الدخول إلى الإسلام.. وهى أيضًا مفتاح الجنة.

«وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» الدُّعَاءُ عِبَارَةٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ الْحَاجَةَ وَالْحَمْدُ يَشْمَلُهُمَا فَإِنَّ مَنْ حَمِدَ اللَّهَ يَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمَتِهِ وَالْحَمْدُ عَلَى النِّعْمَةِ طَلَبُ الْمَزِيدِ وَهُوَ رَأْسُ الشُّكْرِ... قَالَ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٤).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٠٤).

(٢) تحفة الأحوذى (٨/ ٣٨٥).

(٣) حسن: رواه مالك، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١١٠٢).

(٤) تحفة الأحوذى (٨/ ٣٨٥).

(١٤٤٦) وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شُرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

❦ وفي هذا الحديث يحكى عبد الله بن بسر رضي الله عنه أَنَّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيءٍ أتشبّث به... والشرائع: جمع شريعة بمعنى مشروعة: أى مشروعاته.. فهذا الرجل يؤدى الفرائض لكنه يشكو من كثرة النوافل وكأنه يقول: كثرت عليّ النوافل فأخبرني بشيءٍ يجمع لى ذلك كله ويكون يسيراً.. ولم يُرد أنه يترك شرائع الإسلام رأساً بل طلب ما يتشبّث به بعد الفرائض عن سائر ما لم يُفترض عليه. فقال له ﷺ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» فالذكر يسد ما يحصل من الخلل في النوافل... ونلاحظ هنا أن النبي ﷺ جمع له كل شيءٍ في هذه الكلمات اليسيرة..

فمن المعلوم أن الإنسان يستحيل عليه أن يعصى الله وهو يذكر الله.. فالذكر سيصرفه عن معصية الله.. وفوق ذلك فالذكر سيجعل قلبه حياً.. وما دام القلب حياً فسوف يستمتع صاحبه بالنوافل ولو على فتراتٍ متتابعة.

فالذكر يُحيى القلب وينشط الجوارح ويشغلها بطاعة الله ﷻ ويُنفّرُها عن كل ما يُغضب الله ﷻ.

فالنبي ﷺ دلّه على الشيء الذى إن تمسّك به تمسّك بكل شيء.. ألا وهو: ذكر الله تعالى.. فهو الذى يعينه على التمسك بالشرعة كلها.

قال الحسن البصرى: (التمسوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة، وفى الذكر وفى تلاوة القرآن... فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق).

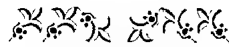
(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٧٠٠).

الذكر له لذة في القلب كما قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ... فالذكر من نعيم المؤمن في الدنيا، وهو أيضًا من نعيم الجنة ... فأهل الجنة يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كما نُلْهِمُ النَّفْسَ، ولا إله إلا الله لأهل الجنة أعظم من الماء البارد لأهل الدنيا.

﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

وأحد السبعة الذين يُظْلِمُهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رجلُ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففازت عيناه».

وقال الإمام ابن القيم في «الوابل الصَّيِّب» في فوائد الذكر ما مُلْخصه: إن الذكر قوت القلب والروح، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حِيلَ بينه وبين قوته. ومنها: أنه يطرد الشيطان، ويقمعه، ويكسره، ويُرضي الرحمن عَزَّوَجَلَّ، ويُزيل الهم، والغم عن القلب، ويجلب له الفرح، والسرور، والبسط، وينور القلب، والوجه، ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، ويورثه محبة الله عَزَّوَجَلَّ، وتقواه، والإنابة إليه وكذلك يورث العبد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالى: ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢].



(١٤٤٧) وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ».

وتخيل معي لو أن إنساناً أراد أن يشتري نخلة في الدنيا وينقلها من مكانٍ إلى

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦٤٢٩).

مكان ليزرعها.. فكم يتكلف من المال والوقت والتعب.. وهى فى النهاية نخلة من نخيل الدنيا.

وفى المقابل يخبرنا النبى ﷺ أن الذى يقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ» وهى كلمات يسيرة على اللسان يستطيع الإنسان أن يقولها خمسين مرة فى دقيقة واحدة فيُغرس له خمسون نخلة فى الجنة يمتلكها المؤمن بالأرض التى عليها.. وشتان شتآن بين نخيل الدنيا ونخيل الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وخصَّ النبى ﷺ النخلة لكثرة منفعتها وطيب ثمرتها وَلِذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلَ الْمُؤْمِنِ وَإِيمَانِهِ بِهَا وَثَمَرَتَهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهى كلمة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهِيَ النَّخْلَةُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٤٨) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَيْلَةَ أُسْرَى بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرَأُ أَمْتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ التُّرْبَةُ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٢).

❖ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه لقي أباه إبراهيم عليه السلام فى ليلة الإسراء والمعراج فى السماء السابعة مُسنِّداً ظهره إلى البيت المعمور.. فقال له إبراهيم عليه السلام: يا محمد... ولم يَقُلْ له: يا رسول الله رغم أن قدر النبى محمد ﷺ أعظم من قدر ومكانة جميع الأنبياء إلا أنه قال له ذلك لأنه ﷺ بمثابة ابنه.. ولذا كان النبى ﷺ يقول: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ...»^(٣).

(١) تحفة الأحوذى (٨/ ٤٦٥).

(٢) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٥٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وابن عساكر، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٥٤٥)، وصحيح الجامع (١٤٦٣).

المهم أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَأُ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ»
 أى: بلغهم مني السلام..

ونحن نقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا خليل الرحمن.
 * ثم قال له إبراهيم عليه السلام: «وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ تَرْتَبَةُ». وكيف لا تكون
 طيبة التربة.. وترابها من المسك والزعفران وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت
 «عَذْبَةُ الْمَاءِ» أى: ماؤها طيب ليس فيه ملوحة كماء الدنيا «وَأَنَّهَا قِيَعَانٌ» وهى
 الأرض المستوية الخالية من الشجر «وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ
 إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» يعنى: أن الإنسان إذا قالها فإنه يُغرس له فى الجنة غرسًا مع كل
 كلمة.. وكلما أكثر من كثر غراسك وأشجارك فى الجنة.

وليس معنى ذلك أن الجنة خالية من الأشجار والزروع.. فإذا قال المسلم
 تلك الأذكار غُرسَت الجنة بالأشجار.. كلا.. بل هى مزروعة ولكن المؤمن إذا
 قال تلك الأذكار زادت أشجاره وتزينت قصوره فى الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٤٩) وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ
 أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفِعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ
 الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا
 أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى، قال: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى»^(١).

* ففى هذا الحديث يسأل النبى ﷺ أصحابه من أجل أن يُشوقهم لمعرفة
 الجواب فقال ﷺ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ» أى: ألا أخبركم بخير أعمالكم
 «وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ» أى: أكثرها ثوابًا وأطهرها عند الخالق (جل وعلا)
 «وَأَرْفِعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ» أى: أزيدها فى رفع الدرجات يوم القيامة.

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٢٩).

«وَحَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ» أى: خيرٌ لكم من بذل أموالكم وممتلكاتكم وأنفسكم في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

«وَحَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ» أى: الكفار في معترك الحرب «فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ» لإعلاء كلمة الله «ويضربوا أعناقكم؟» فتناووا الشهادة في سبيل الله.

فتعجب الصحابة... وكأنهم يقولون: وأى شىء أفضل من كل ذلك؟! فكان الجواب من الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى فقال ﷺ: «ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي قَوَاعِيدِهِ: هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الثَّوَابَ لَا يَتَرْتَّبُ عَلَى قَدْرِ النَّصَبِ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ بَلْ قَدْ يَأْجُرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلِيلِ الْأَعْمَالِ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْجُرُ عَلَى كَثِيرِهَا فَإِذَا الثَّوَابُ يَتَرْتَّبُ عَلَى تَفَاوُتِ الرُّتَبِ فِي الشَّرَفِ^(١).

قال العاقولي: بعد أن ذكر ما تقدم عن ابن عبد السلام من أن الثواب ليس على قدر النَّصَب بل على قدر إرادته تعالى، وقد يعطى على العمل القليل الأجر الجزيل... ويمكن أن يكون المراد من ذكر الله تعالى المداومة عليه باطنًا وظاهرًا، فيقتضى حينئذٍ صرف العمر كله فيه، ولا شك أنه إذا كان الذاكر بهذه المثابة كان أكثر أجرًا من إنفاق مالٍ ينفد وجهادٍ يخلص منه في زمانٍ يسير، لأن الصبر على مضاضة القتل ساعة واحدة... والصبر على مداومة الحضور مع الذكر طويل.

وفي فتح الباري: الجمع بحمل حديث الباب ونحوه مما يدل على أن الذكر أفضل من سائر الأعمال على الذكر الكامل، وهو ما اجتمع فيه ذكر اللسان والقلب والتفكير في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى... فالذى يحصل له ذلك أفضل من المجاهد للكفار من غير استحضارٍ لذلك، وإن أفضلية الجهاد بالنسبة

لذكر اللسان المجرد... فمن اجتمع له كل ذلك بأن ذكر الله بقلبه ولسانه واستحضر عظمته تعالى في كل حال، وقاتل الكفار مثلاً فهو الذى بلغ الغاية القصوى... والعلم عند الله^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٠) وعن سعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ وَبَيْنَ يَدَيْهَا نَوَى - أَوْ حَصَى - تُسَبِّحُ بِهِ فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مِنْ هَذَا - أَوْ أَفْضَلُ» فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي السَّمَاءِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ فِي الْأَرْضِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا هُوَ خَالِقٌ. وَاللَّهُ أَكْبَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِثْلَ ذَلِكَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ مِثْلَ ذَلِكَ»^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥١) وعن أبي موسى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣).

✽ ففي هذا الحديث يستعمل النبي ﷺ الأسلوب التشويقي من خلال السؤال.. فقال ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» أَيْ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى ذَخِيرَةٍ مِنْ ذَخَائِرِ الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ مُحَصَّلَاتِ نَفَائِسِهَا.. ومعنى (الكنز) هنا أنه ثوابٌ مُدَّخَرٌ فِي الْجَنَّةِ لِمُصَاحِبِهَا.. وَهُوَ ثَوَابٌ نَفِيسٌ كَمَا أَنَّ الْكَنْزَ أَنْفَسُ أَمْوَالِكُمْ.

فَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

(١) دليل الفالحين (٤/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢١٥٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٠٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٠٤) كتاب الذكر والدعاء.

فقال ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله»

قال الإمام النووي رحمه الله: قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْحَوْلُ الْحَرَكَةُ وَالْحِيلَةُ أَيْ: لَا حَرَكَةَ وَلَا اسْتَطَاعَةَ وَلَا حِيلَةَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى .. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا حَوْلَ فِي دَفْعِ شَرٍّ وَلَا قُوَّةَ فِي تَحْصِيلِ خَيْرٍ إِلَّا بِاللَّهِ ... وَقِيلَ: لَا حَوْلَ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَّا بِعَصْمَتِهِ وَلَا قُوَّةَ عَلَى طَاعَتِهِ إِلَّا بِمُعَوْنَتِهِ^(١).

✽ فما أجمل أن يعتصم العبد بـ(لا حول ولا قوة إلا بالله) وأن ينخلع من حوله وقوته إلى حول الله وقوته وأن يعلم يقيناً أنه لا يدور شيء في هذا الكون إلا بحول الله وقوته.

✽ قال الإمام ابن تيمية: بـ«لا حول ولا قوة إلا بالله» تُحْمَلُ الْأَثْقَالُ، وَتُكَابَدُ الْأَهْوَالُ، وَيُنَالُ شَرِيفُ الْأَحْوَالِ.

فالزمها أيها العبد! فإنها كنز من كنوز الجنة، وهي من بنود السعادة ومن مسارات الراحة وانسراح الصدر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٤٤).

(٢٤٥) باب ذكر الله تعالى قائماً وقاعداً

ومضطجعاً ومُحدثاً وجنباً وحائضاً

إلا القرآن ^(١) فلا يحل لجنب ولا حائض

❦ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ❦

[آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إن في خلق السماوات والأرض على ما بهما من إحكام وإبداع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى وتعاقب الليل والنهار على الدوام ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى علامات واضحة على الصانع وباهر حكمته، ولا يظهر ذلك إلا لذوى العقول الذين ينظرون إلى الكون بطريق التفكر والاستدلال لا كما تنظر البهائم... ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أى يذكرون الله بألستهم وقلوبهم في جميع الأحوال: في حال القيام والقعود والاضطجاع فلا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم، لاطمئنان قلوبهم بذكره واستغراق سرائرهم في مراقبته ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى يتدبرون في ملكوت السماوات والأرض، في خلقهما بهذه الأجرام العظام وما فيهما من عجائب المصنوعات وغرائب المبتدعات قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ أى ما خلقت هذا الكون وما فيه عبثاً من غير حكمة ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أى نُنْزِهْكَ يَا اللَّهُ عَنْ

(١) قال الألبانى رحمه الله: هذا الاستثناء ليس فيه حديث يصح، ولذلك لم يذكر المصنف فيه شيئاً بل حديث عائشة الآتى وغيره يخالفه فتأمل.



العبث فأجرنا واحمنا من عذاب جهنم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٢) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل

أحيانه^(٢).

❁ ففي هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رضي الله عنها حبيبة رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ كان يذكر الله ﻋَزَّوَجَلَّ على كل أحيانه.. أى في كل وقت.. فكان ﷺ يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.. فلم يكن ﷺ يفتر لحظة عن ذكر الله ﻋَزَّوَجَلَّ... لأن من أحب أحداً أكثر من ذكره.. وهل هناك أحد يحب الله ﻋَزَّوَجَلَّ مثل رسول الله ﷺ.

فكان النبي ﷺ يذكر الله في كل زمانٍ ومكانٍ ما عدا الخلاء لأنه لا يجوز لأحد أن يذكر الله ﻋَزَّوَجَلَّ في هذا المكان.. ولذا كان النبي ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: «عُفْرَانِكَ» وكأنه يستغفر ربه على تلك الفترة اليسيرة التي لم يذكر الله تعالى فيها.

❁ ولذا فإنه كما جاء في ترجمة الباب يجوز للإنسان أن يذكر ربه في كل حال حتى المحدث والجنب والحائض... أما قراءة القرآن فلا تجوز للجنب... ويستطيع الجنب أن يغتسل في خمس دقائق ليعود إلى قراءة القرآن.. أما الحائض فإنه قد يطول الأمر عليها إلى سبعة أيام أو أكثر فأباح بعض أهل العلم أن تقرأ القرآن من حفظها.. وإن أرادت أن تلمس المصحف لتقرأ منه فيجوز ذلك ولكن عليها أن تقلب الصفحات بحائل حتى لا تلمس القرآن مباشرة.. وأما ذكر الله فيجوز لها بلا حرج لأنها معذورة.. وعُذرهما ليس بيديها.. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٧٣) كتاب الحيض.

(١٤٥٣) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَقَضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ»^(١).
 ❀ ففي هذا الحديث يوضح لنا النبي ﷺ أن المسلم لا يغفل عن ذكر الله أبداً.. حتى عند جماع أهله فإنه يذكر الله ﷻ قبل أن يأتي زوجته..

وما أروع هذا التوجيه النبوي الذي يدعو إلى البدء بذكر الله حين العملية الجنسية ، للإعلان عن هدفها السامي وطهارتها، بخلاف نظرية بعض الأديان الأخرى التي تعتبر هذه العملية قذارة ولوثة، مما يصطدم مع الفطرة السليمة!
 والجماع ليس المقصود منه فقط الحصول على اللذة والاستمتاع... فهو في الإسلام له مقصدٌ آخر إذا نوى به الزوجان طلب العفة والإحصان.. لذلك سمّاه الإسلام بالجماع، حتى جعله عبادةً يُؤجر عليها!!

«وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ»^(٢) صدقة». قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!

قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرًا»^(٣).

لذا ترى الإسلام الحنيف قد ارتقى بشأن الجماع إلى درجة العبادة إذا نوى به الزوج قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب الولد الصالح، أو إعفاف نفسه أو إعفاف الزوجة.

❀ فإذا ذكر الزوج ربه ﷻ قبل الجماع وقال: «بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا» فإن فعل ذلك وذكر الله ﷻ قبل الجماع كانت الثمرة الطيبة التي أخبر عنها النبي ﷺ أنه إذا قُضِيَ بينهما وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١) كتاب الوضوء - ومسلم (١٤٣٤) كتاب النكاح.

(٢) البضع يُطلق على الجماع ويُطلق على الفرج نفسه.

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠٠٦) كتاب الزكاة.

(٢٤٦) باب ما يقوله عند نومه واستيقاظه

(١٤٥٤) عن حذيفة، وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما قالَا: كان رسولُ الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمِكَ اللَّهُمَّ أحيَا وأموتُ» وإذا استيقظَ قال: «الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشورُ»^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٨٢١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣١٤) كتاب الدعوات.

(٢٤٧) باب فضل حلق الذكر،

والندب إلى ملازمتها، والنهي عن مفارقتها لغير عذر

❁ قال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ ﴾ أى احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى: يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أى لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوى الغنى والشرف... قال المفسرون: كان ﷺ حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مُريدًا لزينة الدنيا قط، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يُعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى تبتغى بمجالستهم الشرف والفخر... قال ابن عباس: لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أى لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله، وقد شغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا... قال المفسرون: نزلت في عيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان الفارسي ﷺ وعليه شملة صوف قد عرق فيها، فقال عيينة للنبي ﷺ: أما يؤذك ريح هؤلاء؟ ونحن سادة مُضر وأشرافها إن أسلمنا يُسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحنهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس... فهم رسول الله ﷺ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى ربى أن

أصبر نفسى معهم»^(١).

ففى هذه الآية الكريمة: فضل الاجتماع على الذكر والدعاء... وفيها فضل الإخلاص، وأن الإخلاص هو الذى عليه مدار كل شىء... وفيها أن الإنسان لا ينبغى له أن يدع أحوال الآخرة والعبادات إلى أحوال الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَلَائِكَةٌ يَطُوفُونَ فِي الطَّرِيقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَيَّ حَاجَتِكُمْ، فَيَحْفُوفُهُمْ بِأَجْنَحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ، فيقول: هَلْ رَأَوْنِي؟ فيقولون: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. فيقول: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمَجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. فيقول: فَمَاذَا يَسْأَلُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ: يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّارِ؛ قَالَ: فيقول: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْهَا. فيقول: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟! قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فيقول: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فَلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»^(٢).

(١) صفوة التفاسير (٢/ ١٧٥).

(٢) الحديث بهذا اللفظ صحيح: رواه البخارى (٦٤٠٨) كتاب الدعوات.

أما حديث مسلم: أخرجه في صحيحه (٣٦٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

سيرة: يسيحون فى الأرض - فضلًا: زائدون عن الحفظه وغيرهم لا وظيفة لهم.

❁ وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فَضُلًّا يَتَّبِعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ، قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَخَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنَحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَأُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعَدُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادِكَ فِي الْأَرْضِ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيُهَلِّلُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جِتَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جِتَّتِي؟ قَالُوا: لَا، أَيْ رَبِّ. قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا جِتَّتِي؟! قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟! قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ؟ فيقول: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجْرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ: فيقولون: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَاءٌ إِنَّمَا مَرَّ، فَجَلَسَ مَعَهُمْ. فيقول: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

❁ الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن.. وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العباد، ويقومون بتنفيذ ما يأمرهم به، ولا يعصون الله أبداً.

والإيمان بالملائكة أصل من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبدٍ ما لم يؤمن بهم... قال تعالى: ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولما كانت الملائكة أجساماً نورانية لطيفة، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتهم، خاصة أن الله لم يُعْطِ أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم يرَ الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ﷺ، فإنه رأى جبريل مرتين في صورته التي خلقه الله عليها.

❖ ولكن الأصل أن عالم الملائكة عالم غيبى ... والملائكة كلهم خير ولهذا لا يدخلون الأماكن التى فيها ما يُغضب الله ﷻ فلا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا يصحبون رفقة فيها جرس ولا رفقة معهم كلب إلا الكلب المُحلل الذى يجوز اقتناؤه... هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﷻ يسبحون فى الأرض فإذا وجدوا حلق الذكر جلسوا معهم ثم حَقُّوا هؤلاء الجالسين بأجنتهم إلى السماء... يعنى هؤلاء الملائكة من الأرض إلى السماء.. ثم إن الله تعالى يسألهم ليُظهر فضيلة هؤلاء القوم الذين جلسوا يذكرون الله ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ويدعونه وإلا فالله أعلم ﷻ لماذا جلسوا لكن ليُظهر فضلهم ونبلهم.

فيسألهم الله ماذا يقول عبادى؟ فيقولون: يُسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك فهم لا يفترون عن ذكر الله مع أنهم لم يروه.. ولذا قال تعالى: فكيف لو رأونى؟ فقالت الملائكة: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيذاً وأكثر لك تسبيحاً. ثم يسأل الله الملائكة - وهو سبحانه أعلم بكل شىء - وماذا يسألونى؟ فيقولون: أن هؤلاء الناس يسألون الله الجنة ويستعيذون به من النار مع أنهم ما رأوا الجنة ولا النار لكنهم علموا بهما من الكتاب والسنة فهم على يقين بكل ما جاء فيهما.. فإذا بالحق (جل وعلا) يقول: أشهدكم أنى قد غفرت لهم جميعاً.. وإذا غفر الله لإنسان استحق أن يدخل الجنة وأن ينجو من النار.. فيقول ملك من الملائكة: إن فيهم فلاناً ما جاء للذكر لكن جاء لحاجة فوجد هؤلاء القوم فجلس معهم. فيقول (جل وعلا) فله قد غفرت.. هم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

❖ ففى هذا الحديث دليل على فضيلة مُجالسة الصالحين وأن الجليس الصالح ربما يشمله الله سبحانه وتعالى برحمته لمجالسته هذا الجليس الذاكر الصَّالح وإن لم يكن مثله لأن الله قال قد غفرت لهذا مع أنه ما جاء من أجل الذكر والدعاء لكنه جاء لحاجة وقال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم... وعلى هذا فيُستحب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن وعلى التسبيح والتحميد

والتهليل .. وكلُّ يدعو لنفسه ... ويسأل الله لنفسه ويذكر لنفسه.

- أى ليست مجالس ذكر جماعية؛ لأن هذا لم يكن من هدى النبى ﷺ.

ومن الاجتماع أن يجتمع المسلمون على صلاة الفجر وصلاة العصر لأنها ذكر تسبيح وتكبير وتهليل وقراءة قرآن ودعاء ... وقد ثبت عن النبى ﷺ أن الملائكة الموكلين ببني آدم يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٦) وعن أبى هريرة وعن أبى سعيد رضي الله عنهما قالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»^(٢).

❖ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أنه ما جلس قومٌ يذكرون الله تعالى إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وكانوا حولهم يَحُفُّونَ بهم إكرامًا لهم ورضا بما فعلوا.. وغشيتهم الرحمة وأحاطت بهم من كل جانب ليكونوا أقرب إلى رحمة الله ﷻ... ونزلت عليهم السَّكِينَةُ وهى الوقار وطمأنينة القلب وخشوعه وإنابته إلى الله ﷻ.. وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة المقربين.. وقد مرَّ علينا أن الله ﷻ قَالَ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ».

وهذا يدل على فضل الاجتماع على ذكر الله ﷻ.. ولكن لا ينبغي أن يكون الذكر جماعياً بصوتٍ واحد كما يفعل أصحاب الطرق الصوفية فإنه لم يُعتمد عن السلف أنهم كانوا يفعلون ذلك.

❖ وقال بعض أهل العلم: أن الذكر هنا بمعنى دراسة العلم... وأهل السُّنة لهم منهج فى موضوع الذكر.. فالذكر فى القرآن والسُّنة يعنى: الاستغفار والتسبيح

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمته الله (٣/ ٣٧٩-٣٨٠) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٠) كتاب الذكر والدعاء.

والتدبر في آلاء الله عز وجل ، أو قراءة القرآن ودراسته، وقراءة السنة ودراستها وغير ذلك من علوم الشرع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٧) وعن أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد، والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فوقفا على رسول الله ﷺ. فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة، فجلس فيها وأما الآخر، فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة، أما أحدهم، فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان جالساً في المسجد فأقبل ثلاثة رجال... فأما أحدهم فولى وأعرض وذهب ولم يأت إلى الحلقة.. وأما الثاني فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها.. وأما الثالث فجلس خلف الحلقة وكأنه استحيا أن يزاحم الناس وأن يتسبب في مضايقتهم... فلما فرغ النبي ﷺ من حلقة العلم قال لأصحابه: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة» وكانهم قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: «أما أحدهم، فأوى إلى الله فأواه الله» وهو الذي جلس في تلك الفرجة.. فأواه الله لأنه كان صادق النية في الجلوس مع النبي ﷺ.. «وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه» وهو الذي جلس خلف الحلقة واستحيا أن يزاحم الناس.. «وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه» ولم يوفقه لأن يجلس مع النبي ﷺ وأصحابه الأطهار في هذا المجلس المبارك.

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

فيه استحباب جلوس العالم لأصحابه وغيرهم في موضع بارز ظاهر للناس

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦) كتاب العلم - ومسلم (٢١٧٦) كتاب السلام.

والمسجد أفضل فيذا كرههم العلم والخير... وفيه جواز حلق العلم والذكر في المسجد واستحباب دخولها ومجالسة أهلها وكرهه الانصراف عنها من غير عذر واستحباب القرب من كبر الحلقه ليسمع كلامه سماعاً بيناً ويتأدب بأدبه وأن قاصد الحلقه إن رأى فرجة دخل فيها وإلا جلس وراءهم... وفيه الثناء على من فعل جميلاً فإنه ﷺ أثنى على الاثنين في هذا الحديث... وأن الإنسان إذا فعل قبيحاً ومذموماً وباح به جاز أن ينسب إليه والله أعلم.

«أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله» قال العلماء: معنى أوى إلى الله أى لجأ إليه معناه هنا دخل مجلس ذكر الله تعالى أو دخل مجلس رسول الله ﷺ ومجمع أوليائه وانضم إليه... ومعنى آواه الله أى قبله وقربه... وقيل معناه رحمه أو آواه إلى جنته أى كتبها له.... قوله ﷺ: «وأما الآخر فاستحى فاستحى الله منه» أى ترك المزامعة والتخطفى حياء من الله تعالى ومن النبى ﷺ والحاضرين أو استحياء منهم أن يعرض ذاهباً كما فعل الثالث فاستحى الله منه أى رحمه ولم يعدبه بل عفر ذنوبه وقيل جازاه بالثواب... قالوا ولم يلحقه بدرجة صاحبه الأول فى الفضيلة الذى آواه وبسط له اللطف وقربه... وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه أى لم يرحمه وقيل سخط عليه وهذا محمول على أنه ذهب معرضاً لا لعذر وضرورة^(١).

وفى هذا الحديث: إثبات الحياء لله ﷻ، ولكنه ليس كحياء المخلوقين، بل هو حياء الكمال يليق بالله ﷻ... وقد قال النبى ﷺ: «إن الله حى كريم»^(٢) وقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾، والله سبحانه وتعالى يوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول فى القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فكلما مر عليك صفة من صفات

(١) مسلم بشرح النووي (١٤/٢٢٦-٢٢٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع

الله مشابهة لصفات المخلوقين في اللفظ فاعلم أنهما لا يستويان في المعنى لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فإذا مرَّ بك مثلاً أن الله استوى على العرش، فلا تظن أن استواءه على العرش كاستوائك أنت على ظهر البعير الذي قال فيه ﴿إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ... وإذا قال الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فلا تظن أن يدي الله (جل وعلا) مثل يديك؛ لأن الله ليس كمثل شئ.. فجميع صفاته هو منفرد بها، وكما أننا نوحده في ذاته، ونوحده في العبادة، كذلك نوحده في صفاته. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٨) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خَرَجَ معاوية رضي الله عنه على حَلَقَةٍ في المسجد، فقال: ما أَجَلَسَكُم؟ قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله. قال: الله ما أَجَلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟ قالوا: ما أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قال: أما إِنِّي لَمْ أَستَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ وما كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ على حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فقال: «ما أَجَلَسَكُم؟» قالوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله، ونَحْمَدُهُ على ما هَدَانَا للإسلام، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا. قال: «الله ما أَجَلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قال: «أما إِنِّي لَمْ أَستَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جَبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ الله يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ»^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يحكى أبو سعيد الخدري أن معاوية رضي الله عنه خرج ذات يوم على حلقة في المسجد فقال لهم: «ما أَجَلَسَكُم؟»... أى: ما الذى جعلكم تجلسون فى هذا المسجد هكذا؟ فقالوا له: جلسنا نذكر الله ﷻ.. فما كان من معاوية إلا أن استحلفهم وقال لهم: «الله ما أَجَلَسَكُم إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: ما أَجَلَسْنَا

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٨١).

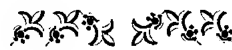
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠١) كتاب الذكر والدعاء.

إلا ذاك.. أى: والله العظيم ما جلسنا إلا لنذكر الله ﷻ.

وحتى لا يظنوا أن معاوية كان يكذبهم قال لهم: «أما إننى لم أستحلفكم تهمَةً لكم» وما كان أحدٌ بمنزلة من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى.. إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟»..... فذكر لهم معاوية مثل الذى حدث معهم وأن النبى ﷺ قال لأصحابه: «أما إننى لم أستحلفكم تهمَةً لكم، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة».

فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع على ذكر الله وأن الله ﷻ يباهى بهم الملائكة فيقول مثلاً: انظروا إلى عبادى اجتمعوا على ذكرى وما أشبه ذلك مما فيه المباهاة.. ولكن كما أسلفنا ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوت واحد ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام وعافية البدن والأمن وما أشبه ذلك فإن ذكر نعمة الله من ذكر الله ﷻ فيكون فى هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذكروا نعمة الله عليهم... ولهذا كان بعض السلف إذا مرَّ بأخيه أو أتاه أخوه قال: اجلس بنا نؤمن ساعة. أى اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا... فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع.

وقد يكون جلوسهم واجتماعهم من أجل مُدارسة القرآن أو مدارسة بعض العلوم الشرعية.. فكل ذلك يدخل تحت مظلة الجلوس لذكر الله. نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره وشكره وحسن عبادته.



(٢٤٨) باب الذكر عند الصباح والمساء

✽ إن ذكر الله حياة القلوب وغذاء الأرواح.

وأذكار الصباح والمساء لها مكانة خاصة بالنسبة للمؤمنين.. ولذلك حثنا عليها النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢] ، والأصيل: ما بين العصر وغروب الشمس.
وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].
والإبكار: أول النهار، والعشي: آخره.
وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

[سورة ق: ٣٩]

وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧] ،
والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومحل هذه الأذكار هو الصباح الباكر من بعد صلاة الصبح إلى قبل طلوع الشمس... والمساء ويُقال: العشي والأصال من بعد صلاة العصر إلى قبل الغروب... على أن الأمر في ذلك واسع إن شاء الله فيما لو نسي العبد ذلك في وقته أو عرض له عارض فلا بأس أن يأتي بأذكار الصباح بعد طلوع الشمس، وأذكار المساء بعد غروبها^(١).

✽ ولقد ذكر المصنف رحمه الله بعض الآيات في هذا الباب: منها قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

(١) فقه الأدعية والأذكار (١١/٣).

الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله ... فأمر الله عبده ورسوله محمداً ﷺ أصلاً وغيره تبعاً بذكر ربه في نفسه أى: مخلصاً خالياً.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أى: مُتَضَرِّعًا بلسانك مُكْرَّرًا لأنواع الذكر ﴿وَخِيفَةً﴾ فى قلبك بأن تكون خائفًا من الله، وَجَلَّ القلب منه، خوفًا أن يكون عملك غير مقبول.. وعلامة الخوف أن يسعى ويجهتد، فى تكميل العمل وإصلاحه، والنُّصح به. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى: كُنْ متوسطًا، لا تجهر بصلاتك، ولا تُخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلًا. ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره. وهذان الوقتان لذكر الله، فيهما مزية وفضيلة على غيرهما.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حُرِّمُوا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز، فى ذكره وعبوديته، وأقبلوا على كل الشقاوة والخيبة، فى الاشتغال به^(١).

✽ ثم ذكر مجموعة أخرى من الآيات التى تحت على كثرة الذكر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٥٩) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِي: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مائة مرة لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَفْضَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ قَالَ مِثْلَ مَا قَالَ أَوْ زَادَ»^(٢).

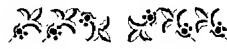
✽ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِي: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ مائة مرة.. أى: إِذَا قَالَهَا مائة مرة فى الصبح ما بين طلوع الفجر وارتفاع الشمس ضُحًى.. وَإِذَا قَالَهَا فى المساء ما بين صلاتى العصر

(١) تفسير السعدى (ص ٣٤٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٢) كتاب الذكر والدعاء.

والمغرب مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا من عمل أكثر مما عمل... كأن ذكر الله أكثر منه أو كان أشد إخلاصاً منه أو غير ذلك... وهذا الذكر «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» معناه أنك تُنزه ربك عَزَّوَجَلَّ عن كل النقائص وعن كل ما لا يليق بجلاله وكماله (سبحانه وتعالى).. وتُثني عليه وتصفه بصفات الكمال..

ولذا ينبغي أن تحافظ على «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» مائة مرة في الصباح ومائة مرة في المساء.... وأنت تعلم أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».



(١٤٦٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لقيتُ من عقربٍ لدغتنى البارحة، قال: «أما لو قلتَ حينَ أمْسيتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فاشتكى له أنه قد لدغته عقرب البارحة.. ومن الواضح أنه كان يتألم كثيراً.. وإذا بالنبي ﷺ يذكر له وللأمة من بعده أعظم وقاية من العقارب والحيات ومن كل ما يؤذينا فقال له ﷺ: «أما لو قلتَ حينَ أمْسيتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ».

فهذا لجوء إلى الله سبحانه وتعالى واعتصام به من شر ما خلق. فإذا قلته ثلاث مرات في الصباح وثلاث مرات في المساء فإنه لا يضرك شيء. أما قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات» قيل: معناه: الكلمات. أي: أعوذ بكلمات الله الكاملات التي لا يدخلها نقص ولا عيب.

وقيل: أعوذ بكلمات الله النافعة الشافية المانعة... والمراد بالكلمات هنا: القرآن الكريم.

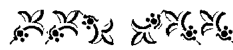
وفي هذا جواز الاستعاذة أو التعوذ أو الرقية بكلام الله عز وجل.

✽ فكان الواحد من أصحاب الرسول ﷺ يقولها بعد ذلك وهو في قمة اليقين أنه لن يقربه شيء يؤذيه.

وتصور أن واحداً من الصحابة رضي الله عنهم يقول هذا وهو معتقد أن العقارب والخفافيش وحشرات الأرض وهوامها ودوابها لا يمكن أن تقربه إلا بإذن الله... لذا فقد كان معظم الصحابة أهل بادية، والبادية معروفة بالحشرات السامة القاتلة، فالواحد منهم كان يقول تلك الكلمة ثم ينام على عقيدة أنه لا يمكن لأى شيء أن يأتيه.

✽ وقد يسأل سائل ويقول: وماذا لو قلت تلك الكلمات ثم لدغتنى عقرب!!!.

أقول: تكون قد أخذت بالأسباب.. والله عز وجل قد قدر لك هذا البلاء لمغفرة الذنوب أو لرفعة الدرجات.



(١٤٦١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أصبح: «اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور» وإذا أمسى قال: «اللهم بك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك المصير»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يذكر أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه ويقول لهم: «إذا أصبح أحدكم فليقل: اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت». يعنى: لا حول لنا ولا قوة في حياتنا ومماتنا.. كلنا لله عز وجل، وكلنا في قبضة

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥٣).

الملك تبارك وتعالى .. اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، لا يمكن لنا أن نصبح إلا بك، ولا نمسي إلا بك، ولا غنى لنا عنك طرفة عين.. فصباحنا ومساؤنا بك. وهذا توكلٌ كامل على الله ﷻ في الحياة والموت؛ ولذلك يُسنُّ لك إذا نمت أن تنام على خدك الأيمن وعلى جنبك الأيمن وتقول: «باسمك اللهم أموت وأحيا» يعنى: أنام على اسم الله ﷻ، ولا يمكن أن أقوم من نومتي إلا بإذن الله ﷻ، وعلى اسم الله ﷻ. قوله: «وإليك النشور».

أى: البعث من هذا النوم الذى هو الموتة الصغرى... فشبه أهل العلم النوم بالموت، واليقظة بالبعث ... ولذلك جاء فى الحديث الصحيح: «إنكم تموتون كما تنامون وتبعثون كما تستيقظون» فشبه هذا بذاك... عندما يستيقظ الإنسان يقول: «اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا»، وإذا أمسى قال: «اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا»، وإذا كان فى الصباح قال: «وإليك النشور»، الذى هو البعث والانتشار، وإذا كان فى المساء قال فى نهاية الدعاء: «وإليك المصير»، أى: نحن عائدون إليك، وصائرون إليك، وراجعون إليك... فيتذكر الموت عند النوم؛ لأن النوم هو الموتة الصغرى.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٤٦٢) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مُرْنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ. أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكَ» قَالَ: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال للنبي ﷺ: يا

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٠٢).

رَسُولَ اللَّهِ مُرِنِي بِكَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أُمْسَيْتُ .. فقال له النبي ﷺ: «قل: اللهم فاطر السموات والأرض» يعنى: يا الله يا فاطر السموات والأرض، وفاطرهما يعنى: أنه خلقهما عَزَّوَجَلَّ على غير مثالٍ سابق بل أبدعهما وأوجدتهما من العدم على غير مثالٍ سابق.

«عالم الغيب والشهادة» أى: العالم بكل شىء مما يشاهده الناس ومما هو غائبٌ عنهم... فالله تعالى عالمٌ به لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء سبحانه وتعالى.

«رب كل شىء ومليكه» يعنى: يا رب كل شىء ومليكه. والله تعالى هو رب كل شىء وهو ملك كل شىء... والفرق بين الرب والمالك فى هذا الحديث، أن الرب هو الموجد للأشياء الخالق لها، والمليك هو الذى يتصرف فيها كيف يشاء.... وكل هذا ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ وتمهيد للدعاء الذى يدعو به الإنسان.

قوله: «أشهد أن لا إله إلا أنت» وهذه الشهادة لله بالوحدانية والشهادة له بالألوهية، وأنه الإله الواحد الذى لا شريك له، كما أنه لا شريك له فى الخلق فلا شريك له فى العبادة، وكما أنه المتفرد بالخلق والإيجاد فهو الذى يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وكأنك تقول بلسان الحال والمقال: أشهد وأعترف بلسانى وقلبى أنه لا معبود بحق إلا أنت يا رب العالمين..

فكل ما عُبد سواك فهو باطل.. فأنت الإله الحق وما سواك فهو باطل.

«أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي» لأن النفس أَمارة بالسوء.. كما قال تعالى حاكياً على لسان امرأة العزيز أنها قالت: ﴿وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

فإذا لم يعصمك الله من شرور نفسك فإنها تضرك، وتأمرك بالسوء، ولكن

الله إذا عصمك من شرها، وفقك إلى كل خير.

«ومن شر الشيطان» أى: من شر الشيطان الذى هو عدو الإنسان.. لأنه آلى على نفسه والتزم بأن يُغوى الناس وأن يجتهد فى إغوائهم وإخراجهم من النور إلى الظلمات.

قوله: «وشركه» يعنى: ما يدعو إليه من الشرك الذى هو أظلم الظلم وأبطل الباطل، والذى صاحبه يكون خالداً مُخلداً فى النار... وأقصى ما يريده الشيطان أن يُخرج المرء من الإسلام إلى الشرك وإلى الكفر؛ حتى يكون معه فى نار جهنم وحتى يكون من الخالدين الباقين فيها إلى ما لا نهاية.. لأن الشرك هو أعظم ذنب وهو الذى لا يُغفر، وهو الذى يُخلد صاحبه فى النار ولا سبيل له إلى دخول الجنة، بخلاف الذنوب الأخرى فإنها تحت مشيئة الله ﷻ إن شاء عفا عن صاحبها، وإن شاء عذبه ثم أخرجه منها وأدخله الجنة.

وجاء فى بعض الروايات: «ومن شر الشيطان وشركه وحبائله».

«وأن أقترف على نفسى سوءاً» هذا تنمة الحديث، ولعله سقط من هذه النسخة «أن أقترف على نفسى سوءاً» أقترف يعنى أجرّ على نفسى سوءاً «أو أجره إلى مسلم» فهذا الذكر أمر النبى ﷺ أبا بكر أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه.

قوله: قال: «قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك».

يعنى: تُقال فى ثلاثة أحوال: فى الصباح، وفى المساء، وعند النوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان نبى الله ﷺ إذا أمسى قال: «أُمسينا وأُمسى المُلْكُ لله، وَالْحَمْدُ لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له» قال الراوى: أراه قال فيهنّ: «له المُلْكُ وله الحمدُ وهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ ما فى هذه الليلة، وخَيْرَ ما بَعْدَها، وأَعُوذُ بِكَ من شَرِّ ما فى هذه الليلة وشَرِّ ما بَعْدَها، رَبِّ

أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَسُوءِ الْكِبَرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ»
وإذا أصبح قال ذلك أيضًا: «أصبحنا وأصبح الملك لله»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يذكر ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله».

يعنى: دخلنا في المساء وأمسى الملك كله لله ﷻ.. وكل ما في الكون فهو لله ﷻ مالكة والمتصرف فيه، وهو دائماً وأبداً في قبضته وتحت تصرفه سبحانه وتعالى، ونحن من جملة الملوك؛ لأن الله ملك السماوات وما فيهما وما بينهما... قوله: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

وهذا تعظيم لله ﷻ وإقرار له بالألوهية، وأنه إله كل شيء ومليكه.
ولا إله إلا الله نفى وإثبات... ووحدته لا شريك له نفى وإثبات.
❦ له الملك كله، وله الحمد كله، وهو على كل شيء قدير.. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قوله: «رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها». يعنى: كل ما في هذه الليلة من خير أسألك إياه، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وما بعدها.
قوله: «أعوذ بك من الكسل» يعنى: أعوذ بك من الخمول والفتور والكسل في الطاعة الذى يحصل عنه عدم القيام بها كما ينبغى.

قوله: «وسوء الكبر» الذى هو الهرم، بحيث يُرَدُّ الإنسان إلى أرذل العمر.

قوله: «رب أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر».

يعنى: يستعيز بالله ﷻ من عذاب القبر وعذاب البرزخ ومن عذاب النار...
ومعلوم أن عذاب البرزخ هو من عذاب النار إلا أن ما يكون بعد البرزخ أشد،
كما قال الله ﷻ عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٣) كتاب الذكر والدعاء.

السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: ٤٦]، وقال ﷺ: «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه»^(١) يعني: أنهم في البرزخ مُعَذَّبُونَ بعذاب النار، وعندما يحصل البعث والنشور ينتقلون إلى عذاب النار الذي هو أشد من هذا الذي حَصَلُوهُ في قبورهم من عذاب النار والعياذ بالله.

❁ قوله: «وإذا أصبح قال مثل ذلك أيضاً: «أصبحنا وأصبح الملك لله» يعني: هذا من أدعية الصباح والمساء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦٤) وعن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تُمسى وحين تُصبح، ثلاث مرّات تكفيك من كل شيء»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يحكى عبد الله بن خبيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ في الصباح والمساء ثلاث مرّات، ويبيّن أن هذا يكفيه كل شيء... أما السورة الأولى فهي سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ التي أخلصها الله تعالى لنفسه فلم يذكر فيها شيئاً إلا يتعلق بنفسه (جل وعلا)، وقد بيّن النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن، ولكنها لا تجزئ عنه... تعدله ولا تجزئ عنه... والشيء قد يكون عديلاً للشيء ولكن لا يجزئ عنه... ألم تروا أن الإنسان إذا قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل، ومع ذلك لا يجزئ عن عتق رقبة.. ففرق بين المعادلة في الأجر وبين الإجزاء في الكفارة، ولهذا لو قرأ الإنسان ﴿قُلْ هُوَ

(١) حسن: رواه الترمذى، وابن ماجه، والحاكم، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (١٦٨٤).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٤٤٠٦).

اللَّهُ أَحَدٌ ﴿ في الصلاة ثلاث مرات ما أجزأت عن الفاتحة، مع أنه لو قرأها ثلاث مرات كأنما قرأ القرآن كله لأنها تعدل ثلث القرآن.

وأما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فهما السورتان اللتان نزلتا على رسول الله ﷺ حين سحره الخبيث لبيد بن الأعصم اليهودي، فأنزل الله هاتين السورتين، فرقاهما بهما جبريل، فأحلَّ الله عنه السحر.

قال النبي ﷺ: «ما تَعَوَّذُ مُتَعَوِّذٌ بِمَثْلِهِمَا»^(١).

تستعيز ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فالفلق فلق الإصباح، وهو فلق الحب والنوى ﴿وَبِإِزْمَلٍ﴾ من شرِّ ما خلق ﴿كل ما خلق﴾ ومن شرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿يعنى الليل إذا دخل؛ لأن الليل تكثر فيه الهوام والوحوش وغير ذلك، فتستعيز بالله من شر غاسقٍ إذا وَقَبَ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أى: الساحرات اللاتى يعقدن عُقد السحر، وَيَنْفُثْنَ فيها بالطلاسم والتعوذات والاعتصام بالشیاطين والاستعانة بهم والعياذ بالله ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ هو العائن يصيب بعينه؛ لأن الساحر يؤثر؛ والعائن يؤثر، فأمرت أن تستعيز ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿وَبِإِزْمَلٍ﴾ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ٢ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ٣ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ٤ ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وتأمل تناسب هذه الآيات الثلاثة ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الليل ... لأن البلاء يكون فيه خفياً، والسحر كذلك خفى، والعين كذلك خفية، فنستعيز برب الفلق الذى يفلق الإصباح حتى يتبين ويفلق النوى حتى يظهر ويبرز؛ فهذه من مناسبة المقسم به والمقسم عليه.

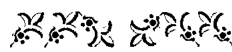
أما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فهى السورة الأخرى أيضاً التى بها الاستعاذة بالله ﴿وَبِإِزْمَلٍ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ١ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ فهو الرب الملك ذو السلطان الأعظم الذى لا يمانعه شىء ولا مبدل لكلماته جل وعلا

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٤٩).

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٢ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ أى: معبودهم الذى يُعبد بحق، فلا معبود بحق إلا الله ﷻ ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ١ ﴿الَّذِى يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، هذه وسواس الصدور التى يُلقِيها الشيطان فى قلب ابن آدم... وما أكثر ما يُلقى الشيطان فى هذا العصر من الوسواس العظيمة التى تُقلق الإنسان.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ١ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٢ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ٣ ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ٤ ﴿الَّذِى يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ٥ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ هذه الجُمْل الثلاث، الآيات الثلاث يمكن أن يُقال أنها استوعبت أقسام التوحيد ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ توحيد الربوبية ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ الأسماء والصفات؛ لأن الملك لا يستحق أن يكون ملكًا إلا بتمام أسمائه وصفاته ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ الألوهية ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ١ ﴿الَّذِى يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ٥ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ يعنى هذا الوسواس يكون من الجنة ويكون من الناس... الجنة هى الجن والمراد بهم الشياطين التى توسوس فى الصدور... والناس أيضًا منهم شياطين بنى آدم وما أكثر الشياطين فى زماننا وقبل زماننا وإلى يوم القيامة.

فالمهم أن هذه السور الثلاث ينبغى للإنسان أن يقرأها كل صباح وكل مساء لأمر النبى ﷺ بها. والله الموفق^(١).



(١٤٦٥) وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءٍ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِى لَا يَضُرُّهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٨٦-٣٨٨) بتصرف كبير.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٧٤٥).

❦ وفي هذا الحديث يروى أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن أباه عثمان بن عفان أخبر أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحٍ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءٍ كُلِّ لَيْلَةٍ: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّهُ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ».

إنها كلمات يسيرة لكن فائدتها عظيمة.. فالله ﷻ هو فاطر السماوات والأرض وبيده ملكوت كل شيء.. واسمه مبارك إذا ذكر على أى شيء فإن البركة تحل فيه.

ولهذا يُسَنُّ أن تذكّر الله ﷻ عند الطعام والشراب.. بل حتى عند إتيان الزوجة في الحلال.. فالتسمية مشروعة في مواطن كثيرة.

فمن قال: «بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّهُ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ثلاث مرات في الصباح وفي المساء لم يضره شيء.

وقوله: «وهو السميع العليم» فالسميع من أسماء الله، والعليم من أسماء الله. فالسميع من أسماء الله تعالى ولها معنيان:

الأول: السمع الذي هو إدراك كل صوت... فالله تعالى لا يخفى عليه شيء، كل صوت فالله يسمعه مهما بُعد ومهما ضُغِف.

لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه وإنى لفى الحُجرة، ويخفى على بعض حديثها، والله تعالى من فوق سبع سموات يسمع كلامهما^(١).

ومن معاني السميع: أنه سميع الدعاء، أى مُجيب الدعاء، كما قال إبراهيم

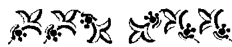
(١) صحيح: رواه النسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في الإرواء (٧/ ١٧٥)، وفي ظلال الجنة (٦٢٥).

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى: مجيبه، فهو **عَزَّوَجَلَّ** يجيب دعاء المضطر وإن كان كافراً... وأما العليم فهو من أسمائه أيضاً... وَعِلْمُ اللَّهِ تعالى علمٌ واسع محيط بكل شيء... قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ومفاتيح الغيب خمسة مذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فالله **عَزَّوَجَلَّ** عنده مفاتيح الغيب.

فالمهم أن هذا الدعاء مشروع في كل صباح وفي كل مساء «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات في الصباح وفي المساء.

والعجيب أن أبان بن عثمان الذي حدث بهذا الحديث حصل له فالج - شلل - فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه... ففهم منه أنه حدث بهذا الحديث ومع ذلك حصل له الفالج... فقال أبان: ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على رسول الله ﷺ ولكنني في اليوم الذي حصلت لي هذه المصيبة غضبت فنسيت أن أقول تلك الكلمات.



(٢٤٩) باب ما يقوله عند النوم

❁ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦٦) وعن حذيفة وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ قَالَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَحْيَا وَمُتٌ»^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٨٢١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦٧) وعن عليٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ وَلِفَاطِمَةَ رضي الله عنهما: «إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَىٰ فِرَاشِكُمَا - أَوْ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا - فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ» وفي رواية: «التَّسْبِيحُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ» وفي رواية: «التَّكْبِيرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ»^(٢).

❁ وقبل أن نبدأ في شرح الحديث أحب أن أروى لكم الرواية الكاملة لهذا الحديث: عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيٌّ، أَنَّ فَاطِمَةَ رضي الله عنها أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ تَشْكُو إِلَيْهِ مَا تَلْقَىٰ فِي يَدِهَا مِنَ الرَّحَى، وَبَلَغَهَا أَنَّهُ جَاءَهُ رَقِيقٌ، فَلَمْ تُصَادِفْهُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ، فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ، قَالَ: فَجَاءَنَا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْنَا نَقُومُ، فَقَالَ: «عَلَىٰ مَكَانِكُمَا» فَجَاءَ فَقَعَدَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا، حَتَّىٰ

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٣١٤) كتاب الدعوات.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣١١٣) كتاب فرض الخمس، (٦٣١٨) كتاب الدعوات - ومسلم

(٢٧٢٧) كتاب الذكر والدعاء.

وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى بَطْنِي، فَقَالَ: «أَلَا أَذْلُكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا - أَوْ أَوَيْتُمَا إِلَيَّ فِرَاشِكُمَا - فَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»^(١).

❁ لم تكن أسماء بنت أبي بكر وحدها التي أرهاقها عمل منزلها، فهذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ لم يكن عندها خادم يكفيها عمل المنزل، ولذلك «جَرَّتْ بِالرَّحَى حَتَّى أَثَرٌ فِي يَدِهَا، وَاسْتَقَتْ بِالْقُرْبَةِ حَتَّى أَثَرٌ فِي نَحْرِهَا، وَكُنَسَتْ الْبَيْتَ حَتَّى اغْبَرَّتْ ثِيَابَهَا».

وبلغ فاطمة أن الرسول ﷺ جاءه بعض السبي، فانطلقت إليه مؤملة أن يهب لها خادماً يعينها على الأعباء التي تواجهها، فلم تجده في منزله، فأخبرت عائشة بالغرض الذي قَدِمَتْ لأجله، فأخبرت عائشة الرسول ﷺ خبر فاطمة.

فانطلق إلى منزلها، فوجدتها أخذت هي وزوجها أهبتها للنوم، فذهبا ليقوما، فأمرهما بالبقاء حيث هما، وجلس بينهما حتى إن علياً وجد برد قدمي رسول الله ﷺ على صدره.

فلم يعطها الخادم الذي طلبته، وقال لها كما في رواية أبي داود: (اتقى الله يا فاطمة، وأدّى فريضة ربك، واعملی عمل أهلك).

ثم دلّها وزوجها على ما هو خير لهما من خادم فقال: «أَلَا أَذْلُكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَيَّ فِرَاشِكُمَا، أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبَّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ».

وقد عملا بوصية رسول الله ﷺ، قال عليٌّ: «فما تركتها بعد.. قيل: ولا ليلة صيفين؟ قال: ولا ليلة صيفين».

والسبب في عدم إعطائهم حاجته ﷺ إلى ثمن السبي لينفقه على أصحاب

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٣٦١) كتاب النفقات.

الحاجات.. فقد جاء في رواية السائب أنه قال لهما: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»^(١).
 ❀ فيا أيتها الأخت الفاضلة: احرصى على هذا الذكر قبل النوم وسيكون عوناً لك - بإذن الله - على القيام بكل أعباء البيت دون أن تشعرى بتعبٍ أو مللٍ.. فهذا وعد الصادق المصدوق ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فليَنفُضْ فراشه بداخلة إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمِكَ رَبِّى وَضَعْتُ جَنْبِى، وبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أُمِسَّكَتْ نَفْسِى فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أُرْسَلَتْهَا فاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(٢).

❀ «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليَنفُضْ فراشه بداخلة إزاره» يعنى: الإنسان يكون عليه إزار، وينفُض فراشه بداخلة الإزار مما يلي جسده.
 وقيل: إن الحكمة فى ذلك أنه قد يكون عليه شىء من وسخ أو هوام، أو شىء من ذلك.

قوله: «فإنه لا يدري ما خلفه عليه» يعنى: بعد أن تركه وقبل أن يرجع إليه لا يدري أى شىء خلفه... ومن المعلوم أن هذا يتعلق بهوام أو بغبار أو وسخ وما إلى ذلك.

فعلى الإنسان أن ينفض فراشه سواء كان فيه شىء أو لم يكن فيه شىء... وأما بالنسبة للجن فإن التسمية والتعوذ بالله يطردان الجن... وإنما المقصود من ذلك أن يكون هناك غبار أو هوام أو وسخ أو شىء من ذلك.

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر (ص ٣٤٤-٣٤٥) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٢٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١٤) كتاب الذكر والدعاء.

«ثم يقول باسمك ربى وضعت جنبى، وبك أرفعه» يعنى: وضعت جنبى فى النوم، ورفعته بعد النوم.. كل ذلك بمشيئة الله وإرادته، مثل قوله: «بك أحيأ وبك أموت».

«إن أمسكت نفسى فارحمها». يعنى: إن أنت قبضتها فى هذه النومه وخرجت من الدنيا بالموت فى حال النوم فارحمنى برحمتك التى وسعت كل شىء.. فلا غنى لى عن رحمتك طرفه عين ولا أقل من ذلك.

«وإن أرسلتها فاحفظها» يعنى: إن لم تقبضها ولم يحصل لها الموت بل عادت إلى الحياة فاحفظها من سائر المكاره ديناً ودنيا.. احفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين.. وذلك بالاستقامة على أمرك والعيش فى طاعتك وطاعة رسولك ﷺ حتى آخر لحظة فى حياتى.. وأن تختم لى حياتى على (لا إله إلا الله) فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٦٩) وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أخذ مضجعه نفث فى يديه، وقرأ بالمعوذات ومسح بهما جسده^(١).

وفى رواية لهما: أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كَلَّ لَيْلَةً جَمَعَ كَفِّهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

❦ ففى هذا الحديث تذكر أننا عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا أخذ مضجعه جمع كففيه يعنى ضمَّ بعضهما إلى بعض ونفث فيهما... والنفث هو

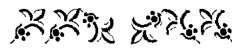
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٠١٧) كتاب فضائل القرآن، و(٦٣١٩) كتاب الدعوات - ومسلم

(٢١٩٢) كتاب السلام.

قال أهل اللغة: «النَّفَثُ» نَفَخَ لَطِيفٌ بِلا ريق.

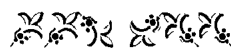
النفخ مع ريقٍ يسير، ثم يقرأ قل هو الله أحد، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس، يمسح بهما. أى: بيديه ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ومقدم جسده ثلاث مرات.

فينبغي للإنسان إذا أخذ مضجعه أن يفعل ذلك... ينفخ في يديه مجموعتين ويقرأ فيهما قل هو الله أحد، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس «ثلاث مرات»، يمسح رأسه ووجهه وصدره وبطنه وفخذه وساقيه وكل ما يستطيع من جسده.



(١٤٧٠) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ. وَفَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْبَسْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنَاجِيَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ»^(١).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٨١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٤٧١) وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكُم مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَّ»^(٢).

❖ وهنا يذكر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي» يحمد الله

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١١) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧١٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٥) كتاب الذكر والدعاء.

عَزَّ وَجَلَّ الذي أطعمه وسقاه.... فإنه لو لا أن الله عَزَّ وَجَلَّ يَسِّر لك هذا الطعام وهذا الشراب ما أكلت ولا شربت... كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (١٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ ١٤ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿ ١٥ ﴾ إِنَّا لَمُعْرِضُونَ ﴿ ١٦ ﴾ بَلْ نَحْنُ مُحَرِّمُونَ ﴿ ١٧ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (١٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿ ١٩ ﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ فتحمد الله الذي أطعمك وسقاك « الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا » كفانا يعني: يسّر لنا الأمور وكفانا المؤونة.. وآوانا أى: جعل لنا مأوى ومسكن ناوى إليه.. فكم من إنسان لا كافى له ولا مأوى، فينبغى لك إذا أتيت مضجعك أن تقول هذا الذكر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٢) وعن حذيفة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقُد، وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى تَحْتَ خَدِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ» (١).
ورواه أبو داود من رواية حفصة رضي الله عنها، وفيه أنه كان يقوله ثلاث مرات (٢).
وفي هذا الحديث يذكر حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقُد - أى: ينام - كان ينام على الجانب الأيمن ويضع يده اليمنى تحت خدّه ثم يقول: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»
هذا منه ﷺ خضوع كذلك لمولاه وأداء لحق مقام الربوبية المطلوب من العبد أدائه، وتنبيه للأمة أن لا يأمنوا مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٣).

وهذا درسٌ جليل للأمة.. فإن كان النبي ﷺ الذي غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول: «اللَّهُمَّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ» فماذا يقول مَنْ يحمل على

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٧٩٠).

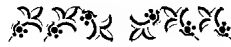
(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٥٦).

(٣) دليل الفالحين (٢٢٢/٤).

ظهره أوزارًا كالجبال.. فحرى بنا أن ندعو كل ليلة بهذا الدعاء وأن نقرنه بالتوبة الصادقة إلى الله ﷻ.. وما أجمل أن نقول دعاء سيد الاستغفار قبل أن ننام لأن من قاله بالليل فمات دخل الجنة... ومن قاله بالنهار فمات دخل الجنة... فيا ليتنا نحرص على هدى النبي ﷺ لنكون من الفائزين في الدنيا والآخرة.

وها هو دعاء سيد الاستغفار:

« سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ » قَالَ: « وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ »^(١).



(١) صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٦، ٦٣٢٣) كتاب الدعوات.

(١٦) كتاب الدعوات

(٢٥٠) الأمر بالدعاء وفضله وبيان جمل من أدعيته ﷺ

❁ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

يا له من ربٍّ رحيم ودود لطيف شكور... يتوود إلى عباده وهو الغنى عنهم... يأمرك بأن تدعوه وهو الغنى عن دعائك. إنه الملك (جل وعلا) الذي يَفْزَعُ إليه المكروب ويستغيث به المنكوب وتلجأ إليه كل المخلوقات.

فإذا نزلت بك النوازل وأحاطت بك المصائب وألّمت بك الخطوب فما عليك إلا أن ترفع أكفَّ الضراعة لتطلب منه العون والمدد وتُمرِّغَ الجبين لتبَلِّ الحصى بدموع التوبة والندم وتنخلع من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته وتقول بلسان الحال والمقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ مِنَ الثِّقَةِ إِلَّا بِكَ وَمِنَ الْأَمَلِ إِلَّا فِيكَ، وَمِنَ التَّسْلِيمِ إِلَّا لَكَ، وَمِنَ التَّوَكُّلِ إِلَّا عَلَيْكَ، وَمِنَ الرِّضَا إِلَّا عَنْكَ وَمِنَ الصَّبْرِ إِلَّا عَلَى بَابِكَ، وَمِنَ الذِّلِّ إِلَّا فِي طَاعَتِكَ، وَمِنَ الرَّهْبَةِ إِلَّا لَجَلَالِكَ الْعَظِيمِ، وَمِنَ الرَّجَاءِ إِلَّا لِمَا فِي يَدَيْكَ الْكَرِيمَتَيْنِ.

❁ إذا نزلت بك المصائب فقل: يا الله.

❁ إذا خانك الصديق والرفيق فقل: يا الله.

❁ إذا ضاع المال والعيال فقل: يا الله.

❁ إذا اجتمع عليك أهل الأرض فقل: يا الله.

✽ الزم بابه... وتبتل إليه.... وترقب فتحه ونصره... وارفع إليه أكف الضراعة... وأحسن الظن فيه... واطلب منه العون والمدد.

فهو الذى يشفى المريض ويُعافى المبتلى ويسد الدين عن المديون وينصر كل مظلوم ويهدى كل ضالَّ ومحرور ويرد الغائب ويفك أسر المسجون..

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾
 أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴿ [النمل: ٦٢].

يا صاحب الهم إن الهم مُنْفَرَجٌ	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسنَّ فإن الكافي الله
إذا بُليت فتق بالله وارض به	فإن الذى يكشف البلوى هو الله
الله يُحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنَّ فإن الصانع الله
والله مالك غير الله من أحدٍ	فحسبك الله فى كلِّ لك الله ^(١)

شروط إجابة الدعاء

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ والاستجابة فى دعاء العبادة هى قبولها والاستجابة فى دعاء المسألة إعطاء الإنسان مسأله... وهذا وعد من الله تعالى لكن لا بد من أمور فلا بد لإجابة الدعاء من شروط:

✽ الشرط الأول: الإخلاص وذلك بأن تُخلص لله فتكون داعياً له حقاً... وإن كنت فى عبادة لا تشرك به شيئاً ولا تعبد رياءً ولا سُمعة ولا من أجل أن يُقال فلان حاج، فلان سخي، فلان كثير الصوم... إذا قلت هذا أحبط عملك

(١) من كتاب (لا تحزن وابتمس للحياة) الشيخ محمود المصرى (ص ٦٤٣-٦٤٤).

فلا بد من الإخلاص في المسألة ... أيضاً ادعُ الله وأنت تشعر بأنك في حاجة إليه وأنه غنى عنك وقادر على إعطائك ما تسأل

الشرط الثاني: ألا يكون هناك عدوان في الدعاء.. فإن كان فيه عدوان فإن الله لا يقبله ولو من الأب لابنه أو من الأم لابنها إذا كان فيه عدوان فإن الله لا يقبله لقول الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] فلو دعا الإنسان بإثم بأن سأل ربه شيئاً محرماً فهذا لا يقبل لأنه مُعتدٍ.

ولو سأل ما لا يمكن شرعاً مثل أن يقول: اللهم اجعلنى نبياً هذا لا يجوز وهو عدوان لا يقبل ... ولو دعا على مظلوم فإنه لا يقبل ... ولو دعت المرأة على ابنها لأنه يحب زوجته فإنه لا يقبل ... وكذلك الأب لو دعا على ابنه لأنه صاحب أناسا طيبين فإنه لا يقبل ... فيُشترط أن لا يكون في الدعاء عدوان.

✽ الشرط الثالث: يُشترط أن يدعو الله تعالى وهو موقن بالإجابة لا دعاء تجربة ... لأن بعض الناس قد يدعو ليُجرب وليرى هل يقبل الدعاء أم لا؟ فهذا لا يقبل منه ... ادعُ الله وأنت موقن بأن الله تعالى سوف يجيبك ... فإن كنت دعوته وأنت في شك فإن الله لا يقبله منك.

✽ الشرط الرابع: اجتناب الحرام بأن لا يكون الإنسان آكلًا للحرام.. فمن أكل الحرام من ربا أو فوائد غش أو كذب أو ما أشبه ذلك فإنه لا يُستجاب له.. والدليل على هذا قول النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يُستجاب لذلك»^(١)

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

فاستبعد النبي ﷺ أن يستجيب الله لهذا مع أنه فعل من أسباب الإجابة ما يكون جديرًا بالإجابة ولكن لما كان يأكل الحرام صار بعيدًا أن يقبل الله منه.
فهذه أربعة شروط للدعاء لا بد منها والله الموفق^(١).

والدعاء مع البلاء ثلاث مقامات

❖ لا تَقْتَرُ أَبَدًا عن الدعاء فالدعاء من أنفع الأدوية.

وهو عدو البلاء، يُدافعه ويُعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل.
وهو سلاح المؤمن.

❖ وله مع البلاء ثلاث مقامات:

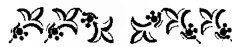
أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء؛ فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه.

قال رسول الله ﷺ: « لَا يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَالِدُّعَاءُ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزَلْ، وَإِنَّ الْبَلَاءَ لَيَنْزِلُ فَيَتَلَقَّاهُ الدُّعَاءُ فَيَعْتَلِجَانِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^{(٢)(٣)}.

فالدعاء من أفضل وسائل مقاومة البلاء قبل أن ينزل، وهو من أفضل وسائل رفع البلاء إن نزل.



(١) شرح رياض الصالحين (٤/٣-٤) بتصرف.

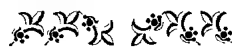
(٢) حسن: رواه الحاكم (١/٦٦٩)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٧٣٩).

(٣) الداء والدواء / للإمام ابن القيم (ص: ١٤).

﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

هذا جواب سؤال.. سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المُطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فهو قريب أيضًا من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهى الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة.. فلهذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أى: يحصل لهم الرشd، الذى هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغى المنافى للإيمان والأعمال الصالحة^(١).



﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ﴾ [النمل: ٦٢].

من الذى يفزع إليه المكروب، ويستغيث به المنكوب، وتصمد إليه الكائنات، وتسأله المخلوقات، وتلهج بذكره الألسن، وتألهه القلوب... إنه الله لا إله إلا هو. وَحَقُّ عَلَى وَعَلَيْكَ أَنْ ندعوه فى الشدة والرخاء، والسراء والضراء، ونفزع إليه فى الملمات، ونتوسل إليه فى الكربات، ونطرح على عتبات بابه سائلين باكين ضارعين مُنيبين... حينها يأتى مدده ويصل عونهُ ويسرع فرجه،

(١) تفسير السعدى (ص ٨٥).

ويحل فتحه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فينجى الغريق ويرد الغائب، ويعافى المُبتلى، وينصر المظلوم، ويهدي الضال ويشفى المريض، ويفرج عن المكروب ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

إن دعاءك ربك عبادة أخرى وطاعة عظيمة ثانية فوق حصول المطلوب، وإن عبدًا يجيد فن الدعاء حريٌّ أن لا يهتم ولا يغتم ولا يقلق.. كل الحبال تتصرم إلا حبله، كل الأبواب تُوصد إلا بابه، وهو قريب سميع مجيب، يجيب المضطر إذا دعاه... يأمرك وأنت الفقير الضعيف المحتاج، وهو الغنى القوى الواحد الماجد بأن تدعوه ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إذا نزلت بك النوازل وألّمت بك الخطوب، فالهج بذكره، واهتف باسمه واطلب مدده واسأله فتحه ونصره، مرغ الجبين لتقدیس اسمه، لتحصل على تاج الحرية. مُدَّ يديك، ارفع كفيك، أطلق لسانك، أكثر من طلبه، بالغ في سؤاله، ألح عليه، الزم بابه، انتظر لطفه، ترقّب فتحه، أحسن ظنك فيه، انقطع إليه، تبثّل إليه تبتيلًا حتى تسعد وتفلح^(١).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

(١٤٧٣) وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»^(٢).

﴿الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ﴾، ويُقصد به: الدعاء تعبدًا أو الدعاء طلبًا.. يعنى: إما أن يدعو الإنسان ربه ﷻ تَعَبُّدًا لا يأخذ به شيئًا، أو أنه يدعو الله تعالى لجلب نفع أو لرفع ضرر... فالدعاء إما أن يكون محض عبادة لله، كما كان دعاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، أو دعاء يطلب به حاجة أو يرفع به مضرة. فالدعاء هو العبادة: ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

(١) حقائق ذات بهجة (ص ٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧).

لم يقل: يستكبرون عن دعائي. قال: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة... ووجه ذلك من النظر أن الإنسان إذا دعا ربه فقد اعترف لله عَزَّوَجَلَّ بالكمال وإجابة الدعاء، وأنه على كل شيء قدير، وأن العطاء أحب إليه من المنع. ثم إنه لم يلجأ إلى غيره، لم يدع غير الله، لا مَلَكًا ولا نبيًا ولا وليًا ولا قريبًا ولا بعيدًا، وهذا هو حقيقة العبادة، وبذلك تعرف أنك إذا دعوت الله أُبْنِتَ على هذا الدعاء سواء استجيب لك أم لا، لأنك تعبّدت لله عَزَّوَجَلَّ وعبدت الله فإذا قلت: يا رب اغفر لي، يا رب ارحمني، يا رب ارزقني، يا رب اهدني؛ فهذه عبادة تُقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويكتب الله لك بها ثوابًا عنده يوم القيامة ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٤) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ ^(٢).

✽ لقد كان النبي يحب جوامع الدعاء.. يعني أنه كان إذا دعا فإنه كان يختار من الدعاء كلمات جامعة عامة ويدع التفاصيل.. وذلك لأن الدعاء العام يجمع لك الخير كله بكلمات موجزة... فعلى سبيل المثال بدلًا من أن يقول أحدنا: اللهم تقبل قيامنا وركوعنا وسجودنا وخشوعنا.. يستطيع أن يقول: اللهم تقبل صلاتنا.... وبدلًا من أن يقول: اللهم إني أسألك طعام الجنة وشراب الجنة وحور الجنة وأشجار الجنة... يستطيع أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها.. وهكذا.

✽ وأهدى إليكم مثالين من الأدعية الجامعة للنبي ﷺ:

قال ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي

(١) شرح رياض الصالحين (٦/٤).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٩).

أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَادَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ،
اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا
قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا^(١).
وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ
الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي
كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»^(٢).
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٥) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: كان أكثرُ دعاءِ النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٣).
زاد مُسلمٌ في روايته قال: وكان أنسٌ إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد
أن يدعو بدعاء دعا بها فيه.

✽ هذا دعاءٌ عظيم جمع بين خير الدنيا والآخرة؛ لأن حسنة الدنيا كل خير
وكل سعادة، من زوجة صالحة ومركبٍ مريح ومسكنٍ جميل، وكل ما هو نافع
في هذه الحياة فهو من حسنة الدنيا... وكل ما يحصل في الآخرة من نعيم وبهجة
من الحساب اليسير وإعطاء الكتاب باليمين والمرور على الصراط بسهولة، كل
ذلك من حسنة الآخرة... ثم بعد ذلك مَنْ يَحْصُلُ على حسنة الآخرة يَسْلَمُ من
عذاب النار... فهذا دعاء جاء به القرآن، وكان رسول الله ﷺ أكثر ما كان يدعو
به، وقد ورد أن أنسًا رضي الله عنه كان إذا أراد أن يدعو بدعوة واحدة اقتصر على هذا
الدعاء: «اللهم ربنا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» وإذا أراد
أن يدعو بجملة من الأدعية يدعو بهذا الدعاء مع هذه الأدعية... أي: أنه كان لا

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٧٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٠) كتاب الذكر والدعاء.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٨٩) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٩٠) كتاب الذكر والدعاء.

يترك هذا الدعاء سواء دعا بدعوة واحدة أو دعا بدعوات كثيرة... فقد كان ﷺ لا يُقِرُّ فيه ولا يغفل عنه، وذلك لكونه يجمع خير الدنيا والآخرة.. كذلك هذا الدعاء يُقال ما بين الركنين في الطواف... فلقد كان النبي ﷺ يحرص على أن يختم به أشواط الطواف.. فيقول هذا الدعاء بين الركن اليماني والحجر الأسود ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠١) ﴿٢٠١﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٦) وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتَّقَى، وَالْعَقَافَ، وَالْغِنَى» (١).

﴿ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٧٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٧) وعن طارق بن أشيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي» (٢).

وفي رواية له عَنْ طَارِقٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. كَيْفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي؟ قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ».

﴿ ففى هذا الحديث يخبر طارق بن أشيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الرَّجُلَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ إِذَا أَسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ الصَّلَاةَ.. وذلك لأن الصلاة أهم أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين.. فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله وأن

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢١) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٧) كتاب الذكر والدعاء.

محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.. فكان النبي ﷺ إذا أسلم الرجل يعلمه الصلاة ثم يأمره أن يدعو بتلك الكلمات التي تجمع له دنياه وآخرته... وهي خمس كلمات أو خمس دعوات: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» أى: اغفر لى الذنوب.. ومع أن الكافر إذا أسلم فإن الله يغفر له ذنوبه كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] ومع ذلك يُعلمه النبي ﷺ أن يطلب المغفرة.. وذلك لأن الإنسان بعد إسلامه لا يخلو من الذنوب كما قال ﷺ: «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(١).

«وارحمني» أى: أسبغ على رحمتك.. والرحمة تشمل الفوز بالمطلوب والنجاة من المكروب.

«واهدني» أى: دُلّنى على طريق الخير والهداية ووفقنى إلى القيام به وثبتنى عليه.. فالهداية تشمل هداية الدلالة وهداية التوفيق.

«وعافني» أى: عافنى من مرض القلب ومرض البدن.. وعافنى من كل بلاء.. ومرض القلب أخطر من مرض البدن.. فمرض البدن إذا صبر الإنسان واحتسبه عند الله فاز بالأجر وصار رفعة له فى درجاته وتكفيراً لسيئاته.. أما مرض القلب ففيه فساد الدين والدنيا والآخرة.. وبخاصة إذا مرض القلب بالشك أو الشرك أو النفاق أو كراهة ما أنزل الله أو بغض أولياء الله أو ما أشبه ذلك.. فقد خسر دُنياه وآخرته.

«وارزقني» أى: الرزق الذى يقوم به القلب من العلم النافع والعمل الصالح.. أو الرزق الذى يقوم به البدن من الطعام والشراب والمسكن واللباس..

هكذا كان النبي ﷺ يحرص على أن يُعلم كل مَنْ يسلم الصلاة ويُعلمه هذا

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

الدعاء الذى يجمع له دُنياه وآخرته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٨) وعن عبد الله بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:
«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(١).

❦ وها هي رواية الحديث كاملة.. فعن ابن عمرو رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ».

فمعنى الحديث: أنه سبحانه وتعالى مُصَرِّفٌ في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته ما أَراده، كما لا يمتنع على الإنسان ما كان بين إصبعيه، فخاطَبَ العرب بما يفهمونه ومثله بالمعاني الحسِّيَّة تأكيداً له في نفوسهم^(٢).

ولهذا ينبغي للمسلم أن يسأل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ دائماً أن يثبت قلبه على الإيمان، وأن يُصرف قلبه على طاعته... وذلك لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله.. كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٣).

ولذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٤).
❦ وقوله: «صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» قد يتبادر إلى الذهن أن الأولَى أن يُقال «إِلَى طَاعَتِكَ» لكن قوله: «عَلَى طَاعَتِكَ» أبلغ، يعنى قَلْبَ القلب على

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

(٢) مسلم بشرح النووي (٣١٢/١٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

(٤) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم، وصححه الألبانى رحمته الله في صحيح الجامع (٧٩٨٧).

الطاعة فلا يتقلب على معصية الله؛ لأن القلب إذا تقلب على الطاعة صار ينتقل من طاعة إلى أخرى ... من صلاة إلى ذكر إلى صدقة إلى صيام إلى علم إلى غير ذلك من طاعة الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٧٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ، وَدَرْكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ»^(١).
وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ سُفْيَانُ: أَشْكُ أَنِّي زِدْتُ وَاحِدَةً مِنْهَا.
❖ فهذه أربعة أشياء أمرنا النبي ﷺ أن نتعوذ منها:

أولاً: جهد البلاء: هو البلاء الذي يسبب للإنسان المشقة والعسر بحيث أن الإنسان يتعب منه ولا يتحملة ولا يصبر عليه ولا يقدر عليه.. وقد يكون البلاء في الخير وقد يكون في الشر.. كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.
فقد يُبتلى الإنسان بالمال والثراء بحيث يكون عنده الكثير من المصانع والشركات والتجارات فلا يجد ساعة واحدة يرتاح فيها.. فهو يقضى يومه كله في السفر ما بين هذا المصنع وتلك الشركة وتلك المزرعة وذاك المتجر فتضيع حياته كلها في الخوف على أمواله والسعى وراء الحفاظ عليها..
وقد يكون البلاء في الشر بأن يبتليه الله ببلاءٍ شديد يُتعبه أو يُسلط عليه مَنْ لا يقدر عليه.

وقد يكون البلاء في جسده بأن يُبتلى بمرضٍ شديد يُتعبه.. وقد يكون البلاء معنوي بأن يتسلط عليه إنسان بلسانه فينشر معايبه ويخفي محاسنه.. وما أشبه ذلك من البلاء الذي يشق على الإنسان.. فأمرنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله من

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦١٦) كتاب القدر، ومسلم (٢٧٠٧) كتاب الذكر والدعاء.

* جهد البلاء: المشقة والعسر. الدرك: الإدراك والإلحاق، شماتة الأعداء: الحزن بفرح عدوه.

جهد البلاء.

«ومن درك الشقاء» أى: ومن أن يُدركك الشقاء.. والشقاء ضد السعادة، والسعادة سببها العمل الصالح، والشقاء سببه العمل السيئ، فإذا استعذت بالله من درك الشقاء، فهذا يتضمن الدعاء بألا تعمل عمل الأتقياء.

«ومن سوء القضاء» سوء القضاء يحتمل معنيين: المعنى الأول أن أقضى قضاءً سيئاً.. والمعنى الثانى أن الله يقضى على الإنسان قضاءً يسوءه.

و«شماتة الأعداء» أن الأعداء يفرحون بما أصابك.. والعدو لا شك أنه يفرح فى كل ما أصاب الإنسان من بلاء، ويحزن من كل ما أصابه من خير، فأنت تستعيز بالله عز وجل من شماتة الأعداء.

فمن المعلوم أن الإنسان قد يُبتلى ببلاءٍ شديد ويصبر عليه ولكن إذا رأى شماتة الأعداء فيه.. فإنه يتعب من شماتة الأعداء أكثر من التعب الذى يجده من ذلك البلاء.

❁ ومن أجل ذلك أمرنا النبى ﷺ أن نستعيز بالله من تلك الأشياء الأربعة.

بِمَا يَكُونُ رَاحَةً لِي

(١٤٨٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى، وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى، وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى، واجعل الحياة زيادةً لى فى كل خير، واجعل الموت راحةً لى من كل شر»^(١).

❁ وهذا أيضًا من جوامع الدعاء.. فالنبى ﷺ أوتى جوامع الكلم وجوامع الذكر وجوامع الدعاء..

فبدلاً من أن يقول المسلم: اللهم أصلح لى صلاتى وصيامى وخشوعى

وقراءتى للقرآن وكذا وكذا.. يقول: «اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى».

وبدلاً من أن يقول: اللهم أصلح لى بيتى وزوجتى وأبنائى وعملى وتجارتي وكذا وكذا.. يقول: «وأصلح لى دُنْيَاى التى فيها معاشى».

وبدلاً من أن يقول: اللهم بيّض وجهى يوم العرض عليك ويسّر حسابى ويسّر مرورى على الصراط وكذا وكذا... يقول: «وأصلح لى آخِرَتى التى فيها معادى..» هكذا يعلمنا النبى ﷺ أن ندعو بجوامع الدعاء.

❁ وفى هذا الحديث بدأ النبى ﷺ بالدين فقال ﷺ: «اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى» لأنه كلما صلح الدين اعتصم الإنسان به من كل شرّ وفتنة.. وصلاح الدين يكون بإخلاص النية لله عزّ وجلّ ومتابعة النبى ﷺ.. فمن وقع فى الشرك فدينه غير صالح.. ومن عبّد الله رياءً فدينه غير صالح... فقد قال تعالى فى الحديث القدسى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه»^(١).. وكذلك المبتدع دينه غير صالح.. فالذى يعصمك من الشر أن يصلح دينك.. وذلك بأن تكون مخلصاً لله ومُتبعاً لرسول الله ﷺ وألا تكون مبتدعاً وألا تكون مُرائياً بعبادتك.. فهذا الذى يعصمك من الشر والفتن.

❁ «وأصلح لى دُنْيَاى التى فيها معاشى».. الدنيا ليست دار قرار ولكنها قنطرة سنعبّر عليها جميعاً إلى الآخرة.. ولكن الدنيا مزرعة للآخرة.. فكل خيرٍ ستزرعه فى الدنيا ستحصده يوم القيامة.

ولكن هذه الدنيا أنت تعيش فيها الآن.. وتحتاج أن تكون فى راحة... ولذا فأنت تدعو أن يُصلح الله لك دُنْيَاكَ بأن يُيسر لك الرزق الحلال والزوجة الصالحة وأن يرزقك الذرية الطيبة وأن يجمع لك شملك فلا تشغل بالدنيا عن



الآخرة .. وأن يرزقك الصحبة الطيبة التى تُعينك على طاعة الله ﷻ .. وأن يحفظك من شياطين الإنس والجن .. وأن ينصرك على أعدائك .. وأن يستعملك فى طاعته وفى إعمار الأرض وفى الدعوة إليه .. هكذا يكون إصلاح دُنياك والذى يترتب عليه السعادة فى أخرائك.

✽ «وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى» فنحن مهما عشنا فى هذه الدنيا ستأتى اللحظة التى سنرحل فيها من هذه الدنيا إلى الآخرة.

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلَمْلَقِيهِ﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿[الواقعة: ٤٩، ٥٠].

الأولون والآخرون كلهم سوف يجمعهم الله ﷻ فى صعيدٍ واحدٍ يوم القيامة يُسمعهم الداعى وينفذهم البصر ... قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿[هود: ١٠٣، ١٠٤].

وصلاح الآخرة يكون بأن يجعل الله قبرك روضة من رياض الجنة وأن ييسر لك الحساب يوم القيامة أو يُدخلك الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب .. وأن يُثقل ميزانك يوم القيامة وأن تكون فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة وأن تشرب من حوض النبی ﷺ .. وأن يُيسر لك المرور على الصراط ..

وأن ينجيك من النار ويُدخلك الجنة وأن يرزقك صحبة النبی ﷺ فى الجنة وأن يرزقك لذة النظر إلى وجهه تعالى فى الجنة .. فهذا هو إصلاح الآخرة.

✽ «واجعل الحياة زيادةً لى فى كُلِّ خَيْرٍ» وذلك بأن يوفقك الله ﷻ لأن تعيش كل لحظة فى طاعته ..

وذلك بأن تزداد كل يوم عملاً صالحاً .. تصلى .. تسبح .. تبر والديك .. تصل أرحامك .. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. تفعل الخيرات .. تترك المنكرات .. تبذل المال للفقراء واليتامى والمساكين .. تبني المساجد .. وهكذا

كلما طالت بك الحياة تزداد خيراً.. كما قال ﷺ: «خير الناس مَنْ طال عمره وحسّن عمله..»^(١).

✽ «واجعل الموت راحةً لى من كل شرٍّ» فأنت لا تدري ما الذى تُخبئه الأيام.. فقد تحدث فتنة عظيمة تتعب فيها وتقول: ليت أُمى لم تلدنى.. يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيّاً منسياً... وقد تنتكس والعياذ بالله... فأنت تكمل أمرك إلى الله وتقول له: يا رب إن كانت الحياة خيراً لى فأبقنى فيها لأزداد طاعة لك.. وإن كانت الحياة ستُصبح شراً لى فاجعل الموت راحة لى من كل شر.. فأنت لا تختار لنفسك متى تحيا ومتى تموت وإنما تكل أمرك كله لله.. ولذا كان النبى ﷺ يعلمنا أن الإنسان إذا خاف على نفسه أن يُفتن فى دينه فليقل: «اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»^(٢).

فعليك يا أخى المسلم بهذا الدعاء «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لى دِينى الذى هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِى، وَأَصْلِحْ لى دُنْيَاى التى فيها مَعَاشى، وَأَصْلِحْ لى آخِرَتى التى فيها مَعَادى، وَاجْعَلْ لى حَيَاةً زِيَادَةً لى فى كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ لى مَوْتاً رَاحَةً لى مِنْ كُلِّ شَرٍّ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٨١) وعن علىؓ، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِى، وَسَدِّدْنِى».

وفى رواية: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالسَّدَادَ»^(٣).

وفى رواية: «قُلْ: اللَّهُمَّ! اهْدِنِى وَسَدِّدْنِى. وَادْكُرْ بِالْهُدَى، هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ».

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٢٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٦٧١) كتاب المرضى، ومسلم (٢٦٨٠) كتاب الذكر والدعاء.

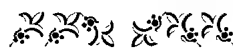
(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٥) كتاب الذكر والدعاء.

❁ قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي»: أى: دُلَّنِي عَلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالْهُدَايَةِ وَوَفَّقْنِي إِلَى الْقِيَامِ بِهِ وَثَبَّتْنِي عَلَيْهِ.. فَالْهُدَايَةُ تَشْمَلُ هِدَايَةَ الدَّلَالَةِ وَهُدَايَةَ التَّوْفِيقِ.

وأما السداد: فهو تسديد الإنسان في قوله وفعله وعقيدته وعبادته. بحيث يُوفَّقُ الْإِنْسَانُ إِلَى الصَّوَابِ فَلَا يَضِلُّ.. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَعْنَى سَدَّدْنِي: وَفَّقْنِي وَاجْعَلْنِي مُتَّصِبًا فِي جَمِيعِ أُمُورِي مُسْتَقِيمًا، وَأَصْلُ السَّدَادِ الْإِسْتِقَامَةُ وَالْقَصْدُ فِي الْأُمُورِ... وَأَمَّا «الْهُدَى» هُنَا فَهُوَ: الرَّشَادُ... وَمَعْنَى: «اذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادَ سَدَادَ السَّهْمِ» أَيْ: تَذَكَّرْ ذَلِكَ فِي حَالِ دُعَايِكَ بِهِذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ، لِأَنَّ هَادِيَ الطَّرِيقِ لَا يَزِيغُ عَنْهُ، وَمُسَدَّدُ السَّهْمِ يَحْرِصُ عَلَى تَقْوِيمِهِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ رَمِيهِ حَتَّى يَقَوْمَهُ... وَكَذَا الدَّاعِي يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَى تَسْدِيدِ عِلْمِهِ وَتَقْوِيمِهِ وَلِزُومِهِ السُّنَّةَ... وَقِيلَ: لِيَتَذَكَّرَ بِهَذَا لَفْظِ السَّدَادِ وَالْهُدَى لثَلَا يَنْسَاهُ^(١).



(١٤٨٢) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ».

وفي رواية: «وَضَلَعِ الدِّينِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَسْتَعِيزُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٦٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٦٧) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٠٦) كتاب الذكر والدعاء.

من تلك الأشياء ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ» أما العجز: فهو عدم القدرة عن الإتيان بما هو خير.. وقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسوية به. وقد يكون العجز في البدن.. وقد يكون العجز في الرأي..

فأما العجز في البدن.. فيكون ذلك بأن يمرض الإنسان أو يُصاب في حادث أو يفقد الذاكرة فيحتاج إلى مَنْ يُعينه ويساعده... فالعجز قد يَحُولُ بينه وبين العبادة أو قد يمنعه من فعل الخير.. قد لا يستطيع أن يصلي قائماً كما كان يصلي.. وقد لا يستطيع أن يعمل لينفق على أسرته بسبب عجزه.. وقد يكون عنده عجز في الرأي فلا يستطيع أن يتخذ قراراً في حياته فيحتاج إلى مَنْ يدبر له أمره أو يشير عليه.. ولا شك أنها حالة بُيْسَة.. ولذا كان النبي ﷺ يستعِذ بالله من العجز.

«وَالْكَسَلُ» فإن الإنسان قد لا يكون عاجزاً لكنه كسول... فالكسل قد يمنعه من الخير الكثير ويُضيع عليه وقته وعمره.. فيأتي يوم القيامة بأعمالٍ ضئيلة بسبب كسله.

وتأمل معي كيف كان النبي ﷺ أنشط الناس جميعاً.. انظر ليومه ﷺ.. كان يفعل فيه كل شيء.. يراعى زوجاته التسع ويدعو الناس ويعلمهم دين الله ﷻ ويصلي بهم ويذكرهم بالله ويخرج للجهاد.. ويصلي قيام الليل.. ويزور أصحابه ويعود مرضاهم ويحضر جنازتهم ويقضى حوائجهم.. ويستقبل زوّاره.. ويستقبل الذين يدخلون في الإسلام ويعلمهم ويفعل كل شيء.. بل ويستمر على ذلك لآخر لحظه في حياته ﷺ.

❁ «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبَخْلِ».. وذلك لأن الجُبْنَ يؤدي إلى التقصير في أداء الواجبات كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونصرة المظلوم والجهاد في سبيل الله ﷻ.. وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَيَسْكُرُ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وأما بشجاعة النفس وقوتها المعتدلة فإنه تتم العبادات ويقوم بنصر المظلوم والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

وقد كان النبي ﷺ أشجع الناس.. حتى كان الصحابة يقولون: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. ولقد رأينا شجاعته ﷺ في كل غزواته.. ولقد كان النبي ﷺ يحذر من البخل والجبن.. فقال ﷺ: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحُّ هَالَعٌ وَجُبْنٌ خَالَعٌ»^(١).

✽ وأما الهرم: أى الشيخوخة.... وليس المقصود بدايات الشيخوخة وإنما المقصود هو أن يُرَدُّ الإنسان إلى أرذل العمر... لأن الإنسان إذا وصل لتلك المرحلة فإنه يصبح عاجزاً في جسده وفي عقله وذاكرته ويصبح غير قادر على أن يأتي بالعبادة على الوجه الذى كان يفعله في شبابه.. بل ويصبح محتاجاً لكل مَنْ حوله.. وقد يتضجر الناس من كثرة طلباته وانفعالاته فيشعر أنه أصبح حملاً ثقيلاً على مَنْ حوله فيزداد حُزناً وهمّاً على عجزه وعدم قدرته..

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يستعيز بالله أن يُرد إلى أرذل العمر.

«وأعوذ بك من البخل» لأن البخل يمنع الإنسان من أداء الواجبات.. فالبخل هو الشُّحُّ بالمال فلا يبذله بل يُمسكه حتى في الأمور الواجبة... ومن أجل ذلك استعاذ النبي ﷺ من البخل... لأن السلامة من البخل يقوم الإنسان بحقوق المال وينبعث للإنفاق والجود.

ولقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان أجود من الريح المُرسلة.. وكان أجود ما يكون في رمضان حين يأتيه جبريل فيُدارسه القرآن.

(١) صحيح: رواه البخارى في التاريخ، وأبو داود، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٣٧٠٩).

﴿وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ﴾ وكان النبي ﷺ يستعيز كثيرًا من عذاب القبر.. ويُعلم الأمة أن تستعيز بالله من عذاب القبر حتى كان النبي ﷺ إذا كان أمام القبر بين أصحابه يقول لهم: «أى إخوانى.. لمثل هذا اليوم فأعدوا».

﴿وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ﴾ وأما فتنة المحيا: فهي ما يُفتتن به الإنسان في حياته... وتدور على شيئين: إما جهل وشبهة وعدم معرفة بالحق فيشتبه عليه الحق بالباطل فيقع في الباطل فيهلك.. وإما شهوة أى: هوى.. بحيث يعلم الإنسان الحق لكنه لا يريده وإنما يريد الباطل.

وأما فتنة الممات فقليل: إنها فتنة القبر وهى سؤال الملكين للإنسان في قبره عن ربه ودينه ونبيه... وقيل: فتنة الممات هى ما يكون عند موت الإنسان، وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصًا على إغواء بنى آدم عند موتهم. فيأتى للإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه وربما يأمره بأن يكفر بالله عز وجل... فهذه الفتنة من أعظم الفتن.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَلَعِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ﴾.

وذلك بأن يستدين بدينٍ شديد لا يستطيع قضاءه.. ومن المعلوم أن أكثر الناس يستدينون.. بل إن النبي ﷺ نفسه كان يستدين لكنه كان لا يستدين لنفسه وإنما كان يستدين من أجل المحتاجين... لأنه ﷺ كان لا يرد سائلًا ولا محتاجًا أبدًا.. وقد مات النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند رجل يهودى على ثلاثين صاعًا من الشعير كانت دينًا عليه ﷺ.

فالدِّينُ هُمَّ بالنهار وسهرٌ بالليل.. ومن أجل ذلك استعاذ النبي ﷺ من ضلع الدِّين.. أى الدِّين الشديد.

«وغلبة الرجال» أن يكون الإنسان مغلوبًا بين الناس.. إما بسبب دينٍ عليه يطلبه منه الرجل صاحب الدِّين ولا يعذره بل يقسو عليه في طلبه.. أو يكون

الإنسان مغلوبًا في القتال.. أو أن يكون الإنسان مغلوبًا في رأيه أمام الناس.

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ يستعيز بالله من كل تلك الأشياء.

فاحرصوا على أن تستعيزوا بالله من تلك الأشياء التي استعاذ منها النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٨٣) وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله ﷺ: عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن أبا بكر سأل النبي ﷺ أن يُعَلِّمَهُ دُعَاءً يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِهِ... وتأمل معي: مَنْ السَّائِلُ؟ إنه أبو بكر الصديق أحب الناس إلى قلب النبي ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها.. وَمَنْ الْمَسْئُولُ؟ إنه رسول الله ﷺ أحب الناس إلى قلب أبي بكر رضي الله عنه... فلا بد أن يكون الجواب أعظم جواب.. لأنه هدية من المحب لحبيبه ثم لأُمَّته المحبوبة (عليه الصلاة والسلام).

وما دام أن أبا بكر طلب هذا الدعاء ليدعو به في صلاته.. فمن المؤكد أنه سيدعو به إما في سجوده أو بعد التشهد وقبل التسليم.

فقال له ﷺ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا» فهذا توسُّلٌ إلى الله عزَّ وجلَّ واعترافٌ له من العبد بالظلم في التقصير في الأوامر والوقوع في بعض المناهي.

يعني أن ذكر الإنسان حاله إلى ربه عزَّ وجلَّ تتضمن الدعاء فهو وسيلة.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٢٦) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٠٥) كتاب الذكر والدعاء.

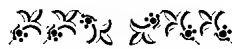
وفي رواية: «وفي بيتي» ورُوي: «ظُلْمًا كَثِيرًا» ورُوي «كبيرًا» بالثاء المثناة وبالباء الموحدة، فينبغي أن يُجمَعَ بينهما، فيقال: كثيرًا كبيرًا.

فتوسل إلى الله بحاله.

«ولا يغفر الذنوب إلا أنت» هذا ثناء على الله ﷻ واعتراف بالعجز وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله... كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، لو اجتمع الناس كلهم على أن يغفروا لك ذنباً واحداً ما استطاعوا، وإنما الذى يغفر لك هو الله ﷻ.

وقوله: «اغفر لى مغفرة من عندك» أضافها إلى الله لأنها تكون أبلغ وأعظم، فإن عِظَمَ العطاء من عِظَمِ الْمُعْطَى ... «وارحمنى» أى: رحمة من عندك .. ووفقنى إلى كل خير.

«إنك أنت الغفور الرحيم» هذا تَوَسُّلٌ إلى الله ﷻ باسمين مناسبين للدعاء، لأنه قال: «اغفر لى وارحمنى» فالمناسب «إنك أنت الغفور الرحيم» فينبغى للإنسان أن يقول هذا الدعاء فى صلاته، إما فى سجوده أو بعد التشهد الأخير. والله الموفق.



(١٤٨٤) وعن أبى موسى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى خَطِيئَتى وجهلى، وإسْرَافى فى أمرى، وما أنت أعلم به مِنّى، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى جِدِّ وهَزْلِى، وَخَطْئِى وَعَمْدِى، وَكُلُّ ذَلِكْ عِنْدِى، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لى ما قَدَّمْتُ وما أَخَّرْتُ، وما أَسْرَرْتُ وما أَعْلَنْتُ، وما أنت أعلم به مِنّى، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ، وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر أبو موسى رضي الله عنه أن النبى ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء.. وكان ﷺ لا يقصد به نفسه وإنما كان يُعلمه لأُمته حتى يتعلم كل واحد منا أن يدعو بهذا الدعاء العظيم.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٩٨) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧١٩) كتاب الذكر والدعاء.

قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي» وهناك فرق بين الخطأ والخطيئة.. فالخطأ يكون عندما يخطئ الإنسان بدون أن يكون متعمداً.. أما الخطيئة فيكون الإنسان فيها متعمداً.. وهل أذنب النبي ﷺ سواء كان متعمداً أو غير متعمد؟!... إنه المعصوم ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومع ذلك يقول هذا الدعاء ليعلمنا نعمة الذل والانكسار والتواضع بين يدي الله ﷻ..... ومع كل هذا العلم الذي تعلمه النبي ﷺ حتى قال له الحق ﷻ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ ومع ذلك يقول ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي» فماذا نقول نحن؟!.

وكلمة «جهل» أي: أنى قد وقعت في هذا الذنب وصار منى ما صار بسبب جهلى.. وفيه إحياء إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ فكل من عصى الله فهو جاهل.... والنبي ﷺ يعلم الأمة أن تدعو بهذا الدعاء.. وإلا فهو المعصوم ﷺ.

وقيل: إن الجهل ضد الحلم.. لا العلم... ولذلك كان النبي ﷺ يقول إذا خرج من بيته: «اللهم إني أعوذ بك أن أجهل» يعني: أن أنتقم لنفسى، أو أثار لنفسى. «أو يُجهل على» يعني: أعوذ بك أن تُسلط على رجلاً غليظاً لا رحمة عنده ولا حلم... فالجهل هنا ضد الحلم وليس هو الذى يقابل العلم.

✽ «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلى، وإسرافي في أمري».

هو لم يسرف (عليه الصلاة والسلام)، لكن هذا أدب الدعاء، وما دمت تدعو إليه سبحانه وتعالى فيستحب لك أن تبين له أنك في منتهى الذل بين يديه، وأن تعد الصغائر بين يديه كبائر، لا أن تقول: يا رب! أنا لم أفعل شيئاً.

«وما أنت أعلم به منى» أي: من المخالفات والسيئات.. أى أن هناك الكثير مما لا أعلمه فاغفره لى.. وهذا من تواضع النبي ﷺ.

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي» أي: اغفر لى ما أفعله من المخالفات على

طريق الاجتهاد.. «وهزلى» أى: ما بدّر منى فى مزاحى.. والنبي ﷺ كان لا يمزح إلا قليلاً.. وإذا مزح كان لا يقول إلا حقاً.... ولكنه فى مقام المعلم الذى يُعلم غيره.

«وَحَطَّيْ وَعَمْدِي» أى: اغفر لى ما كان منى على سبيل الخطأ وما تعمده من شىء...

«وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي» قال ذلك ﷺ تواضعاً وهضمًا لنفسه.

قال على بن أبى طالب (رضي الله عنه): عَدَّ فَوَاتِ الْكَمَالِ وَتَرَكَ الْأَوَّلَى ذُنُوبًا.. وحاصله أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ» يعنى: الذنوب التى أذنبتها مُقَدِّمَهَا وَمُؤَخَّرَهَا، «وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ» وما أسررت منها وما أعلنته، ما كان علانية يطلع عليه الناس وما كان مستورًا لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى... وكذلك ما أسرفت، أى: ما تجاوزت فيه الحدود.

وقوله: «وما أنت أعلم به منى». أى: لأنك العالم بكل شىء، والإنسان لا يعلم كل شىء، وإن علم فإنه ينسى... والله سبحانه وتعالى هو الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء سبحانه وتعالى.

وقوله: «أنت المُقَدِّمُ وأنت المُؤَخِّرُ». يعنى: المُقَدِّمُ مَنْ قَدَّمْتَهُ وَالْمُؤَخِّرُ مَنْ أَخَّرْتَهُ... فالتأخير منك والتقديم منك... فمن قدمته فهو المُقَدِّمُ، ومن أخَّرتَه فهو المُؤَخِّرُ.

وهذا التقديم والتأخير هو فى الفضل، وكذلك فى تحصيل الثواب، وفى الإتيان بالأعمال الصالحة.

«وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» لا يُعْجِزُكَ شَيْءٌ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.. لأن القدرة صفة ذاتية لله ﷻ.

❁ وكل هذا الدعاء كان على سبيل التعليم والإرشاد من النبي ﷺ لأمته.. وإلا فالنبي ﷺ هو المعصوم وهو الذي عُفِّرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

❁ وكل هذا الدعاء كان يُغْنِي عنه كلمة واحدة «اللهم اغفر لي ذنبي كله» لكن التفصيل في مقام الدعاء أمرٌ مطلوب، لأنه يؤدي إلى أن يتذكر الإنسان كل ما عمل، مما أسرَّ وأعلن وما علم وما لم يعلم، ولأنه كلما تَمَادَى في سؤال الله عَزَّوَجَلَّ ازداد تعلقًا بالله تعالى ومحبة له وخوفًا منه ورجاءً... فلذلك كان النبي ﷺ يُفَصِّل فيما يسأل ربه عَزَّوَجَلَّ من مغفرة الذنوب وغير ذلك.

وكذلك أيضًا استعاذ الرسول ﷺ من أمورٍ كثيرة... من شر الذنوب وآفاتِها وعذاب القبر وغير ذلك مما سمعتم في هذه الأحاديث.

وهذه الأحاديث ينبغي للإنسان أن يكتبها عنده من هذا الكتاب ويذكر الله تعالى بها ويدعو بها حتى ينتفع، وأما قراءتها هكذا هنا فهي حسنة ولا بأس بها... لكن في علمي أو ظني أنكم سوف تسمعونها الآن ثم تذهب عن قلوبكم، لكن خير من هذا أن تكتبوها من هذا الكتاب وتدعوا الله تعالى بها^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٨٥) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمَلْتُ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ»^(٢).

❁ ففي هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمَلْتُ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ».

يعني: يستعيذ الله تبارك وتعالى ويستغفره لما يمكن أن يكون بدر منه، ولما يمكن أن يقع منه في المستقبل... وهذا محمولٌ منه (عليه الصلاة والسلام) على

(١) شرح رياض الصالحين (٤/١٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧١٦) كتاب الذكر والدعاء.

الهفوات والهئات.

أما الكبائر فإن الأنبياء جميعاً معصومون من الوقوع فيها، وما وقع من الكبائر على يد الأنبياء إنما ذلك كان قبل البعثة وقبل النبوة... كما وقع من موسى عليه السلام، من أنه قتل رجلاً من بنى إسرائيل، وهذا القتل كان قبل مبعثه (عليه الصلاة والسلام).

أما الهفوات والصغائر فإن المحققين من أهل العلم، ومن أهل الأصول والحديث يقولون بجوازها على الأنبياء... ولذلك قوله هنا: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت» أى: من الصغائر والهفوات والهئات واللمم. أى: الشيء الصغير جداً الذى يلم بالفرد دون قصدٍ منه.

فالنبى (عليه الصلاة والسلام) يستعيز بالله مما يمكن أن يكون وقع منه فى أيامه الأولى قبل البعثة أو بعد البعثة مما وقع فيه من هنات وزلات يسيرة جداً، أعقبها استغفاراً وتوبة وإنابة إلى الله عز وجل، أو أنه (عليه الصلاة والسلام) أراد أن يدعو بهذا الدعاء لعلمه اليقيني بأن الدعاء هو العبادة، فهو أراد أن يتقرب إلى ربه ومولاه وسيده بهذا الدعاء؛ لأن الدعاء عبادة، أو أراد (عليه الصلاة والسلام) بهذا الدعاء: التواضع، وأن يُعلم أمته كيف يدعون الله عز وجل.

وغير ذلك من التأويلات الكثيرة التى قالها أهل العلم فى شرح هذا الحديث^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٨٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»^(٢).
 * ففى هذا الحديث يذكر ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان من دعاء الرسول ﷺ:

(١) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال.
 (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٩) كتاب الذكر والدعاء.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ» وكأن النبي ﷺ يقول: يا رب أنا لا أستطيع أن أحصى نعمك عليّ فلقد أسبغت عليّ نعمك ظاهرة وباطنة.. فأعوذ بك أن أفعل شيئاً يُغضبك فيحق عليّ زوال نعمتك الدينية والدنيوية.. فارزقني شكر نعمتك لتدوم نعمتك وأفوز بالمزيد ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.. ولقد استعاذ النبي ﷺ من زوال النعمة.. لأن زوال النعمة من ورائها الفقر والحاجة وشماتة الأعداء... ولقد استعاذ النبي ﷺ من شماتة الأعداء وكون الإنسان يكون في نعمة فيُسلبها، فيتحول مثلاً من الغنى إلى الفقر.

والنعمة أعم من الغنى؛ لأن نعم الله ﷻ لا تُحصى، فيدخل فيها الصحة والعافية ويدخل فيها المال، ويدخل فيها أنواع النعم.

كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

✽ ولذا لما كان أيوب عليه السلام في نعمة وعافية ومالٍ وأولادٍ فابتلاه الله ﷻ بموت الأولاد وضياع الأموال والأنعام والصحة والعافية وابتلاه بمرضٍ شديد.. فظل صابراً ثمانية عشر عاماً وكان راضياً بقضاء الله ﷻ.. إلى أن سمع أحد أقاربه يقول للآخر: لقد أذنب أيوب ذنباً فابتلاه الله هذا البلاء وحرمه من تلك النعم.. فحزن أيوب عليه السلام ودعا ربه فشفاه الله وردّ عليه النعم مضاعفة ورزقه أولاداً أكثر من الذين ماتوا وصرف عنه شماتة الناس.

✽ قوله: «وَتَحَوَّلَ عَافِيَتِكَ».. أى: أعطيتني العافية في الدين والبدن والمال والنفس فلا تبدل ما رزقتني من العافية إلى البلاء ثم إلى الزوال... وتحول العافية يكون من الصحة إلى المرض ومن الغنى إلى الفقر ومن الخير إلى الشر..

✽ وقوله: «وَفُجَاءَةً نِقْمَتِكَ» النقمة: العقوبة والعذاب.. والفُجاءة: أى

البغته.. فكأنه ﷺ يقول: أعوذ بك أن يحل عذابك وتحل عقوبتك ونقمتك على فجأة... وحاشا لله أن يحدث ذلك للنبي ﷺ.. لكن النبي ﷺ يعلمنا نحن أن نستعيد بالله من ذلك.

ولقد رأينا في حياتنا أناسا كانوا في نعمة عظيمة لكنهم استعملوا النعمة فيما يغضب الله.. وكان الله حليماً بهم.. فأهلهم كثيراً لعلمهم يرجعون فلم يرجعوا فنزلت بهم النعمة والعقوبة فتحولت حياتهم من حالٍ إلى حالٍ.. وهكذا يكون الإنسان آمناً فيحصل له الانتقام فجأة.. كما قال النبي ﷺ: «إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.. ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)» (١).

ولذلك كان من علامات الساعة الصغرى: موت الفجأة.. وهو يكون للمؤمن نعمة حيث يموت على الإيمان والتوحيد دون سابقة ألمٍ أو عذاب.. لكنه يكون للكافر والعاصي نقمة.

ولذا قال ﷺ: «موت الفجأة أخذه أسف» (٢).. ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يفرحون بالمرض قبل الموت.. لأنه إنذار للعبد ليتهيأ.
 ﴿قوله ﷺ: «وَجَمِيعِ سَخَطِكَ» أي: أعوذ بك من كل أسباب سخطك وغضبك... وكأنه إجمالٌ بعد التفصيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٨٧) وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٣١).

لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

✽ ولكن هناك زيادة في ألفاظ هذا الحديث كقوله ﷻ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا» أى: ارزقنى التقوى وذلك بأن أفعل كل ما تأمرنى به وأنتهى عن كل ما تنهى عنه حتى أجعل بينى وبين سخطك وعذابك وقاية تقينى من غضبك وعقابك.

«وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا» أى: كما رزقتنى نعمة التقوى فطهر نفسى وزكها من كل الشبهات والشهوات واجعل نفسى مُنْقَادَةً إِلَى طَاعَتِكَ وَمَرْضَاتِكَ واجعلها نفساً مطمئنة.

«أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا» فلا يملك أحد أن يُزكى أنفسنا غيرك.. فقلوبنا بين إصبعين من أصابعك ونواصينا بيديك.. وأنت الذى تهدي قلوبنا وأنفسنا إلى طريق طاعتك ومرضاتك.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» فالعلم الذى لا ينفع يكون حُجَّةً عَلَيْنَا وأما العلم النافع فهو الذى يقود صاحبه إلى العمل به والدعوة إليه واستحضار الإخلاص والنية الصالحة فى كل كلمة وكل عمل وكل دعوة نقوم بها لنصرة دينك.

«وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ» وما فائدة القلب إذا لم يكن خاشعاً.. فخشوع القلب يُثمر خشوع الجوارح.. فإذا خشعت الجوارح فإنها سوف تنقاد إلى طاعة الله وتبتعد عن معصيته ﷻ... كما قال النبى ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٢٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢) كتاب الإيمان، ومسلم (١٥٩٩) كتاب البيوع.

«وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ» والنفس إذا لم تشبع ولم تقنع فإنها ستلهث وراء الشهوات وسيكون شعارها دوماً وأبدًا: هل من مزيد... أما النفس التي تشبع فيكفيها القليل حتى لا تشغل صاحبها باللهث وراء حُطام الدنيا والانشغال بها.. فيتفرغ القلب وتتفرغ الجوارح لطاعة الله ﷻ.. ولذا قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَأْ قَدَّرَ لَهُ»^(١).

«وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» وأي مصيبة أعظم من أن يدعو الإنسان ويدعو ولا يستجيب الله دعوته... فإن عدم استجابة الدعاء يُضعف الرجاء في قلب الإنسان.. أما إذا كان الدعاء مُستجاباً فإن شجرة الرجاء تنمو وترعرع في قلب المؤمن ويحسن الظن بالله فيسعد في الدنيا والآخرة.. فلقد قال تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنَّ ظَنِّي بِي خَيْرٌ أَمَّا ظَنِّي بِكَ شَرٌّ أَمَّا ظَنِّي بِكَ»^(٢).

وكما قلنا من قبل فإن النبي ﷺ يعلم الأمة أن تدعو بتلك الأدعية لتفوز في الدنيا والآخرة.. وإلا فالنبي ﷺ هو صاحب أنقى قلب في العالم وأزكى نفس وأخشع قلب وأزهد نفس ودعوته مستجابة.. لكنه يُعلم أمته الخير الذي يعود عليهم بالنفع في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

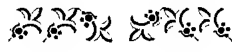
(١٤٨٨) وعن ابن عباس رضيهما الله، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ أَمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَتَيْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ. فَاعْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (٤٣١٥).

زاد بعض الرواة: «ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٧٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٤٨٩) وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهِؤَلَاءِ الْكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ الْغِنَى وَالْفَقْرِ»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث تخبر أمنا عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو بِهِؤَلَاءِ الْكَلِمَاتِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ» أى: من الشهوات التى يُفْتَنُ بها العبد فتكون سبباً لدخول النار.. كما قال ﷺ: «حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ».. أو يكون المعنى: أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ.. أى: من توبيخ خزنتها... كما قال تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٨-٩].

«وَعَذَابِ النَّارِ» أى: عذاب الإحراق بالنار.

«وَمِنْ شَرِّ الْغِنَى» فالغنى فيه خيرٌ وفيه شر.. أما الشر الذى فى الغنى فهو ما يترتب عليه من الكبر والعُجب والشَّره والحرص والجمع للمال من الحرام والبخل بأداء حق الله الواجب المُرْتَب عليه.

«وَالْفَقْرِ».. والفقر أيضًا فيه خيرٌ وفيه شر.. أما الشر الذى فى الفقر فهو التضجر والتبرُّم والاعتراض على قضاء الله والوقوع فى المساخط، وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

قال الله ﷻ: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فإن البلوى تكون

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣١٧) كتاب الدعوات، ومسلم (٧٦٩) كتاب صلاة المسافرين.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود - وأصل الحديث فى البخارى (٦٣٦٨) كتاب الدعوات - ومسلم (٥٨٩) كتاب الذكر والدعاء.

بالخير وتكون بالشر... والإنسان إذا أعطى المال ولم يشكر الله ﷻ على هذه النعمة، وحصل له الطغيان والإفساد بالمال، وصرفه في الأمور التي لا تجوز؛ يكون الغنى وبالأعلى عليه... والله تعالى يقول: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاغِي﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: ٦ - ٧) فيحصل بسبب الغنى الطغيان من بعض الناس.

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

ومن الناس من يستعمل المال في طاعة الله، ومن الناس من يستعمله فيما يعود عليه بالخير كما كان حال الصحابة (رضى الله عنهم وأرضاهم)، مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما من أثرياء الصحابة الذين كانوا يصرفون أموالهم في سبيل الله ﷻ، فانتفعوا بذلك دنيا وأخرى، ونفعوا غيرهم، ويعود ثواب ذلك عليهم حيث ينفقون أموالهم في سبيل الله ﷻ.... والفقر وهو قلة ذات اليد فتنه، فقد يجعل الإنسان يقدم على سرقة أو يقدم على تسخُّط أو تألم وعدم صبر وما إلى ذلك من الأمور التي تترتب على الفقر الذي لا يكون معه صبر. لكن إن صبر الفقير ورضى بقضاء الله ولم يعترض فإنه يسبق الأغنياء يوم القيامة بأن يدخل الجنة قبلهم بخمسائة عام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٩٠) وعن زياد بن علاقة عن عمه، وهو قُطْبَةُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان النَّبِيُّ ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر قطبة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيَّ ﷺ كان يدعو بهؤلاء الكلمات:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ» المنكرات كثيرة لكنها تجتمع

(١) صحيح: رواه الترمذی، والطبرانی، والحاكم، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (١٢٩٨).

كلها في ثلاثة أشياء: إما أن تكون المنكرات في أخلاق الإنسان أو في أعماله وتصرفاته أو في قلبه.. فتلك هي أصول المنكرات.

أما منكرات الأخلاق: فهي الأعمال الباطنة مثل أن يكون سىء الخلق أو يكون متكبراً أو عنده سوء معاملة مع الخلق.

ولقد كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً.. فكان خلقه القرآن حتى زكاه الله عز وجل فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) .. لكن النبي ﷺ يعلمنا نحن أن نستعيز بالله من منكرات الأخلاق.

وأما منكرات الأعمال: فهي المعاصي التي يفعلها العبد من الأعمال الظاهرة والأعمال الرديئة.

وأما منكرات الأهواء: مثل أن يهوى القلب شيئاً في أمر الاعتقاد أو أن يهوى شيئاً مخالفاً لمراد الله عز وجل... فمن الناس من يكون هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ ومنهم من يكون هواه تبعاً لنفسه وما تهواه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٩١) وعن شَكْلِ بْنِ حُمَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي دُعَاءً، قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّ» (١).

وفي هذا الحديث أن شَكْلَ بْنَ حُمَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلب من النبي ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به.. ومن المعلوم أن كل إنسان يعلم كيف يدعو.. لكنه يريد أن يعلمه النبي ﷺ أفضل دعاء يدعو به..

فقال له النبي ﷺ: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي» أي: ألجأ إليك وأستعيز بك أن أسمع شيئاً يغضبك من الغناء المحرم أو الغيبة أو النميمة أو

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٩٢) (٤٣٩٩).

الكذب أو غير ذلك «وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي» أى: أعوذ بك أن أنظر إلى ما حرّمته علىّ.
«وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي» أى: أعوذ بك أن أتكلّم بكلام لا يُرضيك من الكذب والغيبة والنميمة والقذف والبهتان.. أو أن أقول كلمة الكفر أو أن أستعمل لسانى فى السَّبِّ والشتم والفسوق والعصيان... وقد جاء فى حق اللسان أحاديث كثيرة تُحذّر من خطر اللسان ومنها: «مَنْ يَضْمَن لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

وقوله ﷺ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ»^(٢) فتقول: اتّق الله فينا، فإنّما نحنُ بك، فإن استقمّت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»^(٣).
ومنها حديث معاذ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا - وأشار إلى لسان نفسه - فقال: وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا تَكَلَّمُ بِهِ! فقال: تَكَلَّمَ أَثْمَكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»^(٤).

❁ «وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي» بأن يكون فى القلب معتقدات كُفْرية أو الظن السيئ أو ما يكون فيه من الحقد والحسد والنفاق والرياء.

كأنه يقول: أعوذ بك أن يكون فى قلبى أى شىء من ذلك.

«وَمِنْ شَرِّ مَنِي» يعنى: كونه يضعه فى موضع لا يحل له أن يضعه فيه.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧]، فإذا وضع مَنِيّه فى غير هذين الموضعين - وهما الأزواج ومِلْك

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(٢) تُكْفِّرُ: أى تذلل وتخضع له.

(٣) حسن: رواه الترمذى، وابن خزيمة، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٥١).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥١٣٦).

اليمين - فإنه من العدوان والاعتداء، وصاحبه مَلُوم... وفي الحديث الذى أشرت إليه: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنَ لِيَ الْجَنَّةَ» يعنى: يحفظ فرجه ولسانه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٩٢) وعن أنسٍ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرَصِ، وَالْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَسَيِّئِ الْأَسْقَامِ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبَرَصِ» والبرص مرض ليس فيه أى ألم جسدى.. لكن صاحبه يعانى من الألم النفسى حيث أن جلده يكون منظره مُشوّهاً.. وبعض الناس قد ينظرون إليه نظرة فيُسببون له ألماً نفسياً.. ولذا استعاذ النبي ﷺ من البرص.

«وَالْجُنُونِ»: والجنون هو زوال العقل.. ولذلك فالمجنون غير مكلف.. لكن الذى يُصاب بالجنون يتأذى من تعامل الناس معه وإيذائهم له.

«وَالْجُذَامِ»: هو مرض يصيب الإنسان فى أطرافه أحياناً والعياذ بالله.. إذا بدأ بالطرف يتآكل يتآكل حتى يقضى على البدن كله.. ولهذا قال العلماء إنه لا يجوز أن يخالط الجذماء الناس وإنه يجب على ولى الأمر أن يجعلهم فى مكان خاص، وهو ما يُعرف الآن عند الناس بِالْحَجَرِ الصَّحَى لأن هذا المرض والعياذ بالله «الجذام» من أشد الأمراض عدوى، يسرى سير الهواء... نسأل الله العافية.

«وَسَيِّئِ الْأَسْقَامِ» وهذا يشمل كل الأمراض المستعصية التى تسوء العبد كالعمى والشلل والسرطان والإيدز وسائر الأمراض الشديدة.. عافانا الله وإياكم وسائر المسلمين من الأمراض كلها وألبسكم جميعاً ثوب العافية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٨١).

(١٤٩٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يذكر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ» فالنبي ﷺ يستعِذ بالله من الجوع.. ويُعلمنا أن نستعِذ بالله من الجوع.. لأن الجوع يُشوش على ذهن الإنسان وفكره.. وإن لم يكن الإنسان الجائع عنده وازعٌ ديني فقد يسرق من أجل أن يأكل.. ولقد كان أبو هريرة - راوي الحديث - يجوع حتى يقع على الأرض من شدة الجوع حتى يظن مَنْ يراه أنه مصروع.. وكان النبي ﷺ يربط على بطنه حَجْرًا من شدة الجوع أحيانًا...

وهنا يَصِفُ النبي ﷺ الجوع بأنه بئس الضجيع.. والضجيع هو الذي يُلَازِم الإنسان فيكون معه يُلَازِمه إذا اضطجع.

❖ «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ» والخيانة: ضد الأمانة.. وقد تكون الخيانة في تضييع حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ: كالصلاة والصيام والصدقة والزكاة والحج وغسل الجنابة.. وقد تكون الخيانة في الكذب على رسول الله ﷺ ووضع أحاديث لم يَقُلْها النبي ﷺ.. وقد تكون في حقوق الناس: كخيانتهم في أموالهم أو أعراضهم أو إفشاء أسرارهم أو غشهم في البيع والشراء والمعاملة أو خيانة العهود وتضييع الأمانات أو خيانة الصديق عند عدوه.

والبطانة في الأصل هي اللباس الداخلي، أو بطانة الشيء ما يكون من الداخل؛ لأن الثوب له بطانة وظهارة، فالبطانة ما تكون من الداخل.

ومعنى هذا أنها بئس الصفة للإنسان أن يتصف بها، وينطوي عليها...

(١) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٣).

وبطانة الشخص هم خاصته الذين يلازمونه، ويحصل منهم له إما الدلالة على الخير أو الدلالة على الشر.

﴿مَنْ كَانَ لَهُ صَاحِبٌ فَلْيُحِبَّهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبٌ فَلْيُحِبِّ النَّاسَ فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُكَ﴾

(١٤٩٤) وعن عليٍّ عليه السلام أَنَّ مُكَاتَّبًا جَاءَهُ، فَقَالَ: إِنِّي عَجَزْتُ عَنْ كِتَابَتِي. فَأَعْنِي. قَالَ: أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمْنِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ؟ قُلْ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أن رجلاً مُكَاتَّبًا جاء إلى علي بن أبي طالب عليه السلام والمُكَاتَّب: هو الذي كاتب سيده علي أن يدفع له مبلغًا معينًا مقابل أن يصبح حُرًّا بعد ذلك فلم يستطع أن يجمع المال فذهب إلى عليٍّ ليعينه على ذلك فقال له عليٌّ عليه السلام.

«أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ» قَالَ الطَّبِيُّ: طَلَبَ الْمُكَاتَّبُ الْمَالَ فَعَلَّمَهُ الدُّعَاءَ، إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمَالِ لِيُعِينَهُ، فَرَدَّهُ أَحْسَنَ رَدٍّ عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى﴾ ❁ أَوْ أَرَشَدَهُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْأَوَّلَى وَالْأَصْلَحَ لَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ لِأَدَائِهَا، وَلَا يَتَّكِلَ عَلَى الْغَيْرِ ... وَيَنْصُرُ هَذَا الْوَجْهَ قَوْلُهُ: «وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»^(٢).

❁ المهم أنه قال للرجل: أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمْنِهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ؟
أى: ما رأيك أن أعلمك تلك الكلمات؟
وكان الرجل قال له: بلى.. علّمني ما علّمك رسول الله ﷺ.

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذى، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٦٢٥).

(٢) تحفة الأحوذى (٧٥/٩).

فقال له عليٌّ عليه السلام: قُلْ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ».

«اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ» أى: ارزقنى الحلال الذى يكفينى ويغنينى عن الحرام.

«وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ» أى: تفضل علىّ بالرزق الحلال حتى أستغنى عمن سواك.

هكذا كان النبى صلى الله عليه وآله يعلم أصحابه أن يأخذوا بالأسباب وأن يتوكلوا على الخالق (سبحانه وتعالى) ولا يتوكلوا على المخلوق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٩٥) وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وآله علم أباه حصيناً كلمتين يدعوهما: «اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِزَّنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي»^(١).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبى صلى الله عليه وآله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤٩٦) وعن أبى الفضل العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ: «سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ» فمكثت أياماً، ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَّمَنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللَّهُ تَعَالَى، قَالَ لِي: «يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٢).

✽ كان العباس رضي الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وآله أسن من النبى صلى الله عليه وآله، بستين أو ثلاث، ولم يزل مُعَظِّمًا فى الجاهلية والإسلام، وكان إليه أمر السقاية فى الجاهلية، وأقره رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك، وحضر ليلة العقبة مع النبى صلى الله عليه وآله، وأكد له العقد مع الأنصار، وخرج إلى بدرٍ مع المشركين مُرَائِيًا لَهُمْ، وأسر ففادى نفسه، وابنى

(١) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤٠٩٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٣٨).



أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وأسلم عقب ذلك، وعذره ﷺ في الإقامة بمكة من أجل سقايته، ولقى النبي ﷺ في سفر الفتح مهاجرًا بينيه، فرجع معه وكان سبب تسكين الشر وحقن الدماء، ثم خرج إلى حنين وثبت مع النبي ﷺ حين انهزم الناس عنه، وكان ﷺ يُعظمه ويُجله، ومناقبة كثيرة^(١).

المهم أن العباس رضي الله عنه ذهب إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله علمني شيئًا أسأله الله تعالى .. أي: أطلبه من الله. فقال له ﷺ: «سلوا الله العافية».. وفي أمره ﷺ للعباس بالدُّعاءِ بِالْعَافِيَةِ بَعْدَ تَكْرِيرِ الْعَبَّاسِ سُؤَالَهُ بِأَن يُعَلِّمَهُ شَيْئًا يَسْأَلُ اللَّهُ بِهِ دَلِيلٌ جَلِيٌّ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِالْعَافِيَةِ لَا يُسَاوِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَدْعِيَةِ، وَلَا يَقُومُ مَقَامَهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي يُدْعَى بِهِ ذُو الْجَلَالِ.

وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُنْزِلُ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ مَنَزَلَةَ أَبِيهِ، وَيَرَى لَهُ مِنَ الْحَقِّ مَا يَرَى الْوَلَدُ لِوَالِدِهِ... فَفِي تَخْصِيصِهِ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَقَصْرِهِ عَلَى مُجَرَّدِ الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ؛ تَحْرِيكٌ لِهَمِّ الرَّاغِبِينَ عَلَى مُلَازِمَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلُوهُ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَوَسَّلُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَسْتَدْفِعُونَ بِهِ فِي كُلِّ مَا يُهِمُّهُمْ^(٢).

فمكث العباس أيامًا ثم جاء إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله علمني شيئًا أسأله الله تعالى.

فقال له ﷺ: «يا عَبَّاسُ يا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ، سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».. فالعافية في الدنيا: هي السلامة من البلاء والمحن والآلام والأسقام والسلامة من كل شرٍّ... والسلامة من شر الأبدان والقلوب والأهواء. والعافية في الآخرة: هي العفو عن الذنوب والآثام والنجاة من النار والفوز بالنعيم في الجنة.

فكان هذا الدعاء عُدَّةً لدفع كل ضُرٍّ وجلب كل خيرٍ.

(١) دليل الفالحين (٤/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) تحفة الأحوذى (٩/ ٣٣-٣٤).

(١٤٩٧) وعن شهر بن حوشب قال: قُلْتُ لَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن شهر بن حوشب سأل أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقال لها: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ فقالت: كان أكثر دعائه: «يا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ». فالقلوب تتقلب.. وسمى القلب قلباً لشدة تقلبه..

فالنبي ﷺ هو صاحب أطهر قلب وأتقى قلب كان يسأل الله ﻋَزَّ وَجَلَّ أن يثبت قلبه على دينه.. على إيمانه.. على تقواه.. على خشيته.. وفى رواية أخرى أنه ﷺ كان يدعو بدعاء آخر مقارب لهذا الدعاء وهو: «اللهم يا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»، فإذا جمعت بينهما وقلت: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرِّف قلبى على طاعتك» كان هذا خيراً.

❦

(١٤٩٨) وعن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِى يُبَلِّغُنِى حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ نَفْسِى، وَأَهْلِى، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ»^(٢).

❦ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبى ﷺ.

❦

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٨٠١).

(٢) ضعيف: رواه الترمذى، والحاكم، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٤١٥٣).

(١٤٩٩) وعن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْظُّوْا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْظُّوْا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أى: الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها... أى: إذا دعوت دعوة وسألت الله عَزَّ وَجَلَّ أى شىء فأكثر في هذا الدعاء من يا ذا الجلال والإكرام. ولذلك ورد هذا الاسم من ضمن اسم الله الأعظم الذى ذكره النبي ﷺ...
ففى الحديث أنه سمع النبي ﷺ رجلاً يقول فى التشهد: «اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المنان، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم، إنى أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار».
فقال ﷺ لأصحابه: «تدرون بما دعا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «والذى نفسى بيده، لقد دعا الله باسمه العظيم - وفى رواية: الأعظم - الذى إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٠٠) وعن أبى أُمَامَةَ رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ بدُعاءٍ كثيرٍ، لم نحفظ منه شيئاً، قلنا: يا رسول الله دعوت بدُعاءٍ كثيرٍ لم نحفظ منه شيئاً، فقال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ؟ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ، وَعَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٥٠).
«الْظُّوْا»: الزموا هذه الدَّعوة وأكثروا منها.

(٢) حسن صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الألبانى فى صحيح الترغيب (١٦٤١): حسن صحيح.

(٣) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٢١٦٥).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بإسناد ضعيف

(١٥٠١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ»^(١).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بإسناد ضعيف

(١) ضعيف: رواه الحاكم، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٨٤).

(٢٥١) باب فضل الدعاء بظهر الغيب

❖ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى إخبارًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

(١٥٠٢) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»^(١).
(١٥٠٣) وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»^(٢).

❖ ذكر المصنف باب فضل الدعاء بظهر الغيب - أي: دعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب - يعني في حال غيبته.

وذلك لأن الإنسان قد يدعو لأخيه في وجهه حياءً منه.. أما إذا دعا له بظهر الغيب فهذا يدل دلالة واضحة على صدق إيمانه وعلى صدق محبته له.. فقد قال ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

❖ ثم استدلل المصنف بثلاث آياتٍ من كتاب الله.. ومنها قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فأمَرَ الله نبيه ﷺ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَذُنُوبِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.. والمغفرة: هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

❖ والآية الثانية: قوله تعالى ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٣) كتاب الذكر والدعاء.

الْحَسَابُ ﴿ فطلب المغفرة له ولوالديه «وللمؤمنين» وهذا أيضًا دعاء للمؤمنين بظهر الغيب.

﴿ أما الآية الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وهؤلاء هم الصنف الثالث من الأصناف الثلاثة الذين قال الله فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، فوصفهم الله بالهجرة والنصرة ... ثم ذكر الصنف الثاني ﴿وَالَّذِينَ بَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وهؤلاء هم الأنصار ... أنصار المدينة.

والصنف الثالث: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وهذه دعوة لإخوانهم بظهر الغيب.

﴿ إذا... الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب من هدى الرسل (عليهم الصلاة والسلام) ومن سبيل الرسل (عليهم الصلاة والسلام)... ومن ذلك أننا نحن جميعًا ندعو لإخواننا في صلاتنا بظهر الغيب ... كلنا يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وهذا دعاء .. وقد قال النبي ﷺ: «إنكم إذا قلتم ذلك فإنكم قَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ لِلَّهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

فمن أعظم أسباب تفريج الهموم أن يتوجه العبد إلى الله تعالى بالحاجة التي يريد لها لنفسه فيدعو بها لأخيه فيقول له الملك الموكَّل بذلك: آمين ولك بمثل.

(١) صحيح: رواه البخاري (١٢٠٢) كتاب الجمعة - (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان.

فلو أراد مثلاً أن يوسع الله عليه رزقه فليقل: الله ارزق فلاناً - ويُسميه باسمه - رزقاً واسعاً وبارك له فيه.

فلو قال ذلك لاستجاب الله دعاءه له ولأخيه.

وكان أبو الدرداء يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم ... وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلّفت، وهو منفرد بحزنك مهتمّ مما قدمت وما صرت إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى.

وقال بعض السلف: الدعاء للأموال بمنزلة الهدايا للأحياء... فيدخل المَلَك على الميت ومعه طبق من نور عليه منديل من نور فيقول: هذه هدية لك من عند أخيك فلان... قال: فيفرح بذلك كما يفرح الحي بالهدية^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مفاتيح الفرج من الكتاب والسنة / الشيخ محمود المصري (ص: ١٩ - ٢٦) بتصرف.

(٢٥٢) باب في مسائل من الدعاء

(١٥٠٤) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، فَقَدْ أْبْلَغَ فِي الشَّانِ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يُعلمنا النبى ﷺ أن نشكر الناس على ما يقدمونه لنا من المعروف ... فالناس يحتاج بعضهم لبعض ولا يستغنى أحدٌ عن أحدٍ.. ولكى يتشجع الإنسان على فعل المعروف فلا بد أن يرى من أخيه خلُقًا طيبًا.. مثل أن يشكره أو يدعو له.

❁ وهنا يقول النبى ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ» بمالٍ أو جاهٍ أو علمٍ أو غير ذلك.. فإن النبى ﷺ أمر أن نكافئ صانع المعروف فقال ﷺ: «...مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْوْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكافِتُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(٢).

فمن الناس مَنْ تكون مكافأته بأن تُعطيه مثل ما أعطاك أو أكثر.. ومن الناس مَنْ تكون مكافأته بأن تدعو له ولا يرضى أن يأخذ مكافأة مثلها.. ومن ذلك أنك إذا أردت أن تُكافئ إنسانًا قد عجزت عن مكافأته فإنك تقول له: «جزاك الله خيرًا» أى: أعطاك الله خير الجزاء من خيرى الدنيا والآخرة.. فيخبر النبى ﷺ أنك إذا قلت له: «جزاك الله خيرًا» فقد أبلغت فى الشئ.

أى: قد بالغت فى أداء شكره.. وذلك لأنك اعترفت بالتقصير عن مكافأته وفوضت جزاءه إلى الله ليجزيه الجزاء الأوفى.. قال بعضهم: إذا قصرت يداك بالمكافأة فليطُل لسانك بالشكر والدعاء.

(١) صحيح: رواه الترمذى، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٣٦٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٢١).

(١٥٠٥) وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً، فيستجيب لكم»^(١).

❁ ففي هذا الحديث ينهانا النبي ﷺ الذي وصفه الله ﻋَزَّوَجَلَّ بأنه «بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ»^(١٢٨).. ينهانا النبي ﷺ أن ندعو على أنفسنا أو أولادنا أو أموالنا في ساعة الغضب.. فقد يغضب الإنسان أحياناً ويخرج عن شعوره فيدعو على نفسه بالموت أو المرض أو غير ذلك.. وقد يدعو على ابنه باللعنة أو الموت أو المرض.. وقد يدعو على ماله أو سيارته أو بيته.

ثم وضح النبي ﷺ السبب في هذا النهي.. فقال ﷺ: «لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً، فيستجيب لكم» ولقد رأينا هذا كثيراً في الحياة.. فكم من أم دعت على ابنها بالهلاك وكانت ساعة إجابة فمات ابنها في حادث سيارة.. وكم من أب دعا على ابنه أو على ماله فاستجاب الله له.. فإن كانت هناك دعوة ستخرج من أفواهنا فلنجعلها لأولادنا وليست عليهم.. ولنجعلها لأنفسنا وليست على أنفسنا.. فاحذروا أن تدعو على أنفسكم أو أولادكم أو أموالكم حتى لا توافق ساعة إجابة فتندموا حين لا ينفع الندم.

❁

(١٥٠٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﻋَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٣٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٩) كتاب الزهد والرفائق.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٤٨٢) كتاب الصلاة.

(١٥٠٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي، فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»^(١).

وفي رواية لمسلم: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ» قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قال: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ».

✽ قلنا: إن الدعاء قد يكون عبادة محضة؛ لأن الدعاء هو العبادة.

يعنى: أنه بابٌ عظيم جداً من أبواب العبادة، حتى وإن كان الإنسان لا يريد أن يسأل، فيسأل في حالٍ مُعِينٍ أو في وقتٍ مُعِينٍ فيدعو في هذا الوقت إظهاراً للعبودية، وإن لم يكن له حاجة في هذا التوقيت بالذات... فإذا دعا في توقيت ليس له فيه مصلحة مُعينة مع خلو ذهنه وعدم انشغال قلبه بشيءٍ مُعِينٍ فإن هذا الدعاء يكون محض العبادة، وهي صورة ظاهرة جداً في عبادة النبي (عليه الصلاة والسلام)... والعباد أحوج الخلق إلى طلب الحاجات من الله ﷻ في كل وقتٍ وحين.

✽ وهنا يؤكد لك النبي ﷺ أنه «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ» فإن لم تتعجل الاستجابة فلا بد أن تكون على يقين من أن الله ﷻ سوف يستجيب دعاءك ولكن عليك أن تدعو وتدعو وتُلح في الدعاء فإن الله ﷻ يحب أن يسمع دعاء عبده المؤمن.. وكُنْ على يقين من أن الله ﷻ لن يحرمك من خير ما تطلب.. لكن إياك أن تترك الدعاء.. بل عليك أن تدعو في وقت الرخاء وإن لم تكن بحاجة إلى الدعاء لأن الدعاء عبادة.. ولأن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ؛ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»^(٢).

وإن تأخرت إجابة الدعاء فلا تتعجل وتترك الدعاء وتقول: قد دعوت ودعوت فلم أَرِ يَسْتَجِيبُ لِي.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٤٠) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٧٣٥) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) حسن: رواه الترمذي والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٠).

لأن الله سبحانه وتعالى لا يمنعك ما دعوته به إلا لحكمة أو لوجود مانع يمنع من إجابة الدعاء... ولكن إذا دعوت الله فادعُ الله تعالى وأنت مُغْلَبٌ للرجاء على اليأس حتى يحقق الله لك ما تريد... ثم إن أعطاك الله ما سألت فهذا المطلوب، وإن لم يُعطك ما سألت فإنه يدفع عنك من البلاء أكثر، وأنت لا تدري، أو يدخر ذلك لك عنده يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٠٨) وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قال: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ، وَدُبْرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ»^(١)
 ﴿ففى هذا الحديث أنه قيل للنبي ﷺ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟
 يعنى: أَيُّ الدعاء أقرب للإجابة؟.

فاختار النبي ﷺ موضعين لإجابة الدعاء ألا وهما: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ».. أى: الثلث الأخير من الليل.. لأن هذا هو أعظم أوقات الليل بركة حيث ينزل الحق (جل وعلا) نزولاً يليق بجلاله وكماله.. كما أخبر النبي ﷺ حيث قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِبْ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ»^(٢).

﴿ثم أخبر النبي ﷺ عن الموضع الثانى لإجابة الدعاء فقال ﷺ: «وَدُبْرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوباتِ» أى: دُبْرَ الصَّلوات الخمس.

وأدبار الصَّلوات يعنى أواخرها، وهذا قد أرشد إليه النبي ﷺ حين ذكر التشهد، ثم قال بعد ذلك: «ثم ليتخير من الدعاء ما يشاء»^(٣) وليس المراد بأدبار

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى (٢٧٨٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٤٥) كتاب التهجد، ومسلم (٧٥٨) كتاب صلاة المسافرين.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٣٠) كتاب الاستئذان، ومسلم (٤٠٢) كتاب الصلاة.

الصلوات هي ما بعد السلام... لأن ما بعد السلام في الصلوات هو ليس محل دعاء إنما هو محل ذكر.. لقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ولكن المراد بأدبار الصلوات المكتوبة أو آخرها.

يعنى بعد التشهد وقبل التسليم... فهذا أيضًا موضع إجابة الدعاء.

بِقَوْلِهِمْ رَبِّهِمْ

(١٥٠٩) وعن عبادة بن الصّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذَا نَكُثَرُ. قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ»^(١).
ورواه الحاكم من رواية أبي سعيدٍ وزاد فيه: «أَوْ يَدْخُرُ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلَهَا».

❖ فمن رحمة الله تعالى بعبده وهو الرحيم أن العبد يدعوه بحاجة من الدنيا، فإذا لم يؤته إياها عوضه خيرًا منها:

فإما أن يصرف عنه بذلك مصيبة.

أو يدخرها له في الآخرة.

أو يصرف عنه من السوء مثل ما طلب من الخير.

لكن كل هذا مشروط بألا يدعو العبد بإثمٍ أو قطيعة رحم وما لم يستعجل..
فإن تعجل وترك الدعاء لا يُستجاب له.. وإن دعا بقطيعة رحم لا يُستجاب له
وإن دعا بإثمٍ لا يُستجاب له إلا أن يكون مظلومًا.. فإن كان مظلومًا وقال: اللهم
إن كنت تعلم أن حقى عند فلان وقد ظلمنى فانقم منه يا رب العالمين.. فهذا
دعاءٌ مستجاب.. لأن دعوة المظلوم ليس دونها حجاب..

يقول الله ﷻ: «وَعَزَّنِي وَجَلَالِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ».

(١) حسن: رواه الترمذى، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٦٣٧).

(١٥١٠) وعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم»^(١).

✽ كان ابن عباس رضي الله عنه يعجب أشد العجب من هذا الدعاء، ويوصي به دائماً، وهو الذي رواه عن النبي عليه الصلاة والسلام.

✽ قال الإمام النووي: (وهو حديث جليل ينبغي الاعتناء به).

أى: ينبغي على كل مسلم أن يحفظه، وأن يدعو به إذا نزل به الكرب أو الهم أو الغم... وما أكثره خاصة في هذا الزمان.

قال: (والإكثار منه عند الكرب والأمور العظيمة).

أى: يُسنُّ ويُستحب لك أن تكرر دائماً حتى يزول هذا الكرب وينكشف الغم.

قال: (قال الطبري: كان السلف يدعون به -يعنى: كان السلف يهتمون اهتماماً عظيماً جداً بهذا الدعاء- ويُسمونه دعاء الكرب -أى: الدعاء الذي يُزيل الكرب- فإن قيل: هذا ذكرٌ وليس فيه دعاء).

لأن الدعاء عبارة عن طلب، مثل: اللهم اكشف كربى وأزل همى وغمى وغير ذلك... أما هذا فهو ذكرٌ لله تعالى، فكيف نفهم أنه دعاء؟ قال الإمام النووي: (فجوابه من وجهين: أحدهما: أن هذا الذكر يُستفتح به الدعاء).

يعنى: اجعل هذا الذكر دائماً في مقدمة دعائك، فإذا أردت أن تدعو الله أن يكشف عنك الهم والحزن فقدّم بين يدي طلبك ودعائك هذا الذكر لله تعالى، وكأن هذا الذكر هو مفتاح الدعاء الذي إذا قدمته على الدعاء تقبّل الله تعالى دعاءك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٣٤٦) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٧٣٠) كتاب الذكر والدعاء.

قال: (ثم يدعو بما شاء).

✽ (والثاني: جواب سفيان بن عُيينة أنه قال: أما علمت قول الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل مما أعطى السائلين».

يعنى: لو أن العبد انشغل بذكر الله تعالى ولم ينشغل بالطلب والدعاء فهذا أولى وأفضل.

ولكن هذا الحديث ضعيف وجوابه عند الإمام النووي وغيره من أهل العلم: أن هذا وإن كان ذكراً إلا أنه كالمفتاح لدعائك الله تعالى برفع الهم وإزالة الغم وتفريج الكربات التي نزلت بك... فعلى الإنسان أن يقدم بين يدي دعائه هذا الذكر.

✽ وقد ذكر أن أمية بن أبي الصلت (الشاعر) ذهب إلى رجل من كُرماء العرب اسمه عبد الله بن جُدعان يريد منه ما لا لكنه استحيا أن يطلب منه فقال له:

أطلب حاجتى أم قد كفانى حياؤك... إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرّضه الثناء

فأعطاه عبد الله بن جُدعان ما يكفيه من المال.

فإن كان هذا عبداً اكتفى بالثناء فكيف برب الأرض والسماء.

فإذا ذكر المرء ربه ﷻ في يوم فإن هذا الثناء والذكر لله تعالى يُغنيه عن طلب الدعاء أو عن طلب تفريج الهم والغم... وليس معنى هذا أن نترك الدعاء.. فالدعاء هو العبادة.. ولكن المقصود أن مَنْ امتلأ قلبه بحب الله ﷻ وانشغل بذكره عن كثرة الدعاء - وليس عن الدعاء بالكلية - فإن الله ﷻ يُعطيه ويُفرج همومه.

(٢٥٣) باب كرامات الأولياء وفضلهم

✽ ولقد أورد المصنف رحمه الله في هذا الكتاب المبارك باباً بعنوان: باب كرامات الأولياء وفضلهم.

✽ فتعالوا بنا لنعرف أولاً ما الفرق بين المعجزة والإرهاصة والكرامة والمعونة والإهانة والاستدراج.

(١) المعجزة :

فالمعجزة هي أمرٌ خارقٌ للعادة يُجريه الله على أيدي الأنبياء والمرسلين وهي تقترن برسالتهم... كانشقاق القمر لرسول الله ﷺ.. وقلب العصا إلى حية لموسى عليه السلام وغير ذلك.

ولقد آيد الله أنبياءه ورسله بالمعجزات التي لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها ليعلموا أن هذا لا يكون إلا بتأييد من الحق (جل جلاله) الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كُنْ فيكون.

وكانت كل معجزة تتناسب مع أحوال الناس.

فإنه لما كان السحر مُنفشياً في قوم فرعون أكرم الله نبيه موسى عليه السلام بمعجزة تفوق هذا السحر فإذا بعصاه تلقف ما يأفكون.

ولما كان الناس في عهد عيسى عليه السلام على درجة عالية من الطب أكرم الله نبيه عيسى عليه السلام بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

ولما كان العرب في أرض الجزيرة على درجة عالية من البلاغة والفصاحة أكرم الله نبيه محمداً ﷺ بمعجزة القرآن الذي تحدى الله به الجن والإنس على أن يأتوا بسورة من مثله.

ونحن إذا تكلمنا عن تلك المعجزات فإن ذلك يجعل الإيمان يزداد في قلوبنا.. وإن كنا - والله الحمد - نؤمن بنبينا ﷺ وإن لم يكن له معجزة واحدة

فنحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأنه سيد الأولين والآخرين وأنه أكرم الخلق على الله (جل وعلا).

(٢) الإرهاس:

ومن الأمور الخارقة للعادة وإن لم يكن معجزة لفقد شروط المعجزة: الإرهاس... وهو ما يظهر للنبي قبل بعثته من أمور عجيبة لا تظهر لسائر البشر كقصة ولادته ﷺ وما وقع من الله في إهلاك الفيل وأهله... والنور الذي خرج من أم النبي ﷺ عند ولادته ﷺ فأضاء قصور الشام.

(٣) الكرامة:

ثم نأتى لأمر آخر خارق للعادة وإن لم يكن من المعجزات لافتقار شروطها... وهى الكرامة.

فالكرامة: أمرٌ خارقٌ للعادة تظهر على يد مؤمن ملتزم لمتابعة نبي مُكَلَّف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح عِلِمَ بها أو لم يعلم... فما يجرى على يد الأولياء من خوارق وعجائب تُسمى كرامات وقد تُسمى الكرامة آية لأنها تدل على نبوة مَنْ اتبعه ذلك الولي، لأن كل كرامة لولي هي معجزة لنبوه.

والولي: هو العارف بالله تعالى وبصفاته.. المواظب على طاعته لله، المجتنب معصيته... وسُمي الولي بهذا لأن الله تولى أمره فلم يَكِلْه إلى نفسه ولا إلى غيره لحظة، والله تعالى يتولى عباده دائماً. ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢، ٦٣]

❖ وهناك بعض المواقف تدل على الكرامة:

روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى الأعداء من مسافة شهر فقال: «يا سارية الجبل»^(١) فسمع سارية قائد جيش المسلمين صوته فانحاز بالناس إلى

(١) سارية: قائد جيش المسلمين.

الجبل وقاتلوا العدو فنصرهم الله تعالى... فتلك كرامة لعمر أن رأى من تلك المسافة... كذلك لسارية أن سمع من المسافة نفسها.

روى أن عبد الله بن شقيق كان إذا مرت عليه سحابة يقول لها: أقسمت عليك بالله إلا أمطرت فتمطر في الحال.

هذا قليل القليل من كثير من كرامات الصحابة والأولياء.

(٤) المعونة:

ومن الأمور الخارقة للعادة أيضًا: المعونة.

فهناك أمر قد لا يظن الإنسان الصالح وجوده أو حدوثه ثم يقع له حسب رغبته أو حسب ما ينجيه... كمن كان في صحراء وظهر له الأسد فوجد شجرة في مكان لا توجد في مثله الأشجار فتسلقها ونجى من الأسد.

(٥) الإهانة:

ومن الأمور الخارقة للعادة: الإهانة - أعاذنا الله من كل سوء - وهي أمرٌ خارقٌ للعادة يُظهره الله على يد كاذب يدّعي النبوة على عكس مراده كما وقع لمسيلمة الكذاب عندما تفل في عين رجل - عوراء - لتصح فعميت الاثنتان أخزاه الله ولعنه.

(٦) الاستدراج:

ثم نأتى إلى آخر الأمور الخارقة للعادة: الاستدراج.. وهو أمرٌ خارقٌ للعادة يُظهره الله على يد مُدّعي الألوهية كما يقع للمسيح الدجال عندما يقتل شخصًا ثم يُحييه ولكن بعد ذلك يأخذه الله أخذ عزيزٍ مُقتدر^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح معجزات النبي ﷺ / للحافظ ابن كثير (ص ١٨-١٩) بتصرف.

❖ قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

❖ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى انتبهوا أيها الناس واعلموا أن أحباب الله وأوليائه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا... ثم بين تعالى هؤلاء الأولياء فقال ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أى الذين صدّقوا الله ورسوله، وكانوا يتقون ربهم بامثال أوامره واجتناب نواهيه... فالولئى هو المؤمن التقى.

وفى الحديث: «إن لله عبداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله»، قالوا أخبرنا من هم يا رسول الله؟ وما أعمالهم؟ فلعلنا نحبههم، قال: «هم قومٌ تحابوا فى الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس.. ثم قرأ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ...﴾ الآية^(١)﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أى لهم ما يسرهم فى الدارين، حيث تبشرهم الملائكة^(٢) عند الاحتضار برضوان الله ورحمته، وفى الآخرة بجنات النعيم والفوز العظيم.. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

❖ لا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ ﴿٦٤﴾ أى لا إخلاف لوعده^(٣).

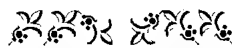
(١) الطبرى (١١/١٣٢).

(٢) ذهب بعض المفسرين إلى أن البشارة فى الدنيا هى «الرؤية الصالحة» التى يراها المؤمن أو تُرى له، وقد ورد ذلك فى حديث أخرجه الحاكم... واختار الطبرى أن البشارة تكون بالرؤية الصالحة وببشارة الملائكة عند الموت.

(٣) صفوة التفاسير (١/٥٤٨-٥٤٩).

❖ ومن كرامات الأولياء ما حدث لمريم بنت عمران: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ ﴾ (٢٣) فَنَادَتْهَا مِنْ مَحْجَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ ﴾ (٢٤) وَهَزَيْتُكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ ﴾ [مريم: ٢٣ - ٢٥]، هذه من آيات الله، كرامة لمريم.

❖ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿ أى فآلجأها ألم الطلق وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴾ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿ أى قالت يا ليتنى كنت قد مِتُّ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر ^(١) قال ابن كثير: عرفت أنها ستبتلى وتُمْتَحَن بهذا المولود فتمت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها، وبعدها كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت ^(٢) ﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ مَحْجَا أَلَّا تَحْزَنِي ﴿ أى فناداها المَلَك من تحت النخلة قائلاً لها: لا تحزنى لهذا الأمر ﴾ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿ أى جعل لك جدولاً صغيراً يجرى أمامك ... قال ابن عباس: ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً ﴾ وَهَزَيْتُكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴿ أى حركى جذع النخلة اليابسة ﴾ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿ أى يتساقط عليك الرطب الشهى الطرى قال المفسرون: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذى جرى جدولاً، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة من الله لها ﴾ فَكُلِّي وَأَشْرَبِي ﴿ أى كلى من هذا الرطب الشهى، واشربى من هذا الماء العذب السلسيل ^(٣) .



(١) هذا قول قتادة ... وقال ابن عباس: ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ أى لم أخلق ولم أك شيئاً.

(٢) مختصر ابن كثير (٢/٤٤٨).

(٣) صفوة التفاسير (٢/١٩٦).

❖ ومن الكرامات أيضًا ما ذكره الله ﷻ في قصة زكريا ﷺ مع مريم ابنة عمران.. قال تعالى: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي قبلها الله قبولًا حسنًا قال ابن عباس: سلك بها طريق السعداء ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي ربّاه تربية كاملة ونشأها تنشئة صالحة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي جعل زكريا كافلًا لها ومتعهدًا للقيام بمصالحها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي كلما دخل عليها زكريا حجرتها ومكان عبادتها وجد عندها فاكهة وطعامًا... قال مجاهد: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أي من أين لك هذا؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي رزقًا واسعًا بغير جهد ولا تعب^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❖ ومن الكرامات أيضًا ما ذكره الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف. قال تعالى: ﴿وَإِذْ آعَزَ لَتْوَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١١) ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧) [الكهف: ١٦-١٧].

وخلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكًا جبارًا يسمى «دقيانوس» ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى «طرطوس» بعد زمن عيسى ﷺ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمتم الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزنًا شديدًا وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم، فلما مثلوا عند

(١) صفوة التفاسير (١/ ١٨١).

الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا : ﴿ رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوكَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ﴾ فقال لهم : إنكم فتيانٌ حديثُ أسنانكم وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم !! فهربوا ليلاً ومروا براعٍ معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم فقال الملك : سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ... وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون (ثلاثمائة وتسع سنين) ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشتري لهم طعاماً ، وطلبوا منه التخفّي والحذر فسار حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ، ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه : لعلّي اخطأت الطريق إلى البلدة ، ثم اشتري طعاماً ولما دفع النقود للبائع جعل يُقلبها في يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود؟ واجتمع عليه الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم قالوا : مَنْ أنت يا فتى؟ لعلك وجدت كنزاً؟ فقال : لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي ، قالوا له : إنها من عهدٍ بعيد ، من زمن الملك (دقيانوس) قال : وما فعل دقيانوس؟ قالوا : مات من قرون عديدة... قال : والله ما يصدقني أحد بما أقوله : لقد كنا فتيّة وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس ، فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم أصحابي ، فتعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك - وكان مؤمناً صالحاً - فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة ، وحين وصلوا إلى الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس ، فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرآهم يصلون ، فلما انتهوا من صلاتهم عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمنٍ بعيد ، وسمع كلامهم

وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ... ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥١١) وعن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ، فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةٍ، فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ وَبِسَادِسٍ» أَوْ كَمَا قَالَ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه جَاءَ بِثَلَاثَةٍ، وَأَنْطَلَقَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِعَشْرَةٍ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَجَاءَ بَعْدَ مَا مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَتْ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ؟ قَالَ: أَوْ مَا عَشَيْتَهُمْ؟ قَالَتْ: أَبَوْا حَتَّى تَجِيءَ، وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا، فَاخْتَبَأْتُ، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ وَقَالَ: كُلُّوْا لَا هَنِيئًا، وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ أَبَدًا، قَالَ: وَابِئْسَ اللَّهُ مَا كُنَّا نَأْخُذُ مِنْ لُقْمَةٍ إِلَّا رَبًّا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا، وَصَارَتْ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتُ بَنِي فِرَاسٍ مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقُرَّةَ عَيْنِي لَهَا الْآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مَرَّاتٍ، فَأَكَلَ مِنْهَا أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْنِي يَمِينَهُ - ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ. وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِ عَهْدٍ، فَمَضَى الْأَجَلَ، فَتَفَرَّقْنَا اثْنَى عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَاسٌ، اللَّهُ أَعْلَمَ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ. وَفِي رَوَايَةٍ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لَا يَطْعَمُهُ، فَحَلَفَتِ الْمَرْأَةُ لَا تَطْعَمُهُ، فَحَلَفَ الضَّيْفُ - أَوِ الْأَضْيَافُ - أَنْ لَا يَطْعَمَهُ، أَوْ يَطْعَمُوهُ حَتَّى يَطْعَمَهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَذَعَا بِالطَّعَامِ فَأَكَلَ وَأَكَلُوا، فَجَعَلُوا لَا يَرْفَعُونَ لُقْمَةً إِلَّا رَبَّتْ مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرُ مِنْهَا، فَقَالَ: يَا أُخْتُ بَنِي فِرَاسٍ، مَا هَذَا؟ فَقَالَتْ: وَقُرَّةَ عَيْنِي إِنَّهَا الْآنَ

لأَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ نَأْكُلَ، فَأَكْلُوا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ أَنَّهُ أَكَلَ مِنْهَا .

وفي رواية: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: دُونَكَ أَضْيَافُكَ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَافْرُغْ مِنْ قِرَائِهِمْ قَبْلَ أَنْ أَجِيءَ، فَاَنْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَاهُمْ بِمَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: اطْعَمُوا، فَقَالُوا: أَيْنَ رَبُّ مَنْزِلِنَا؟ قَالَ: اطْعَمُوا، قَالُوا: مَا نَحْنُ بِأَكْلِينَ حَتَّى يَجِيءَ رَبُّ مَنْزِلِنَا، قَالَ: اقْبَلُوا عَنَّا قِرَاكُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ جَاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا لَنَلْقَيْنَ مِنْهُ، فَأَبُوا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يَجِدُ عَلَيَّ، فَلَمَّا جَاءَ تَنَحَّيْتُ عَنْهُ، فَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، فَسَكْتُ، ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ. فَسَكْتُ، فَقَالَ: يَا غُنْثَرُ أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ تَسْمَعُ صَوْتِي لَمَّا جِئْتُ، فَخَرَجْتُ، فَقُلْتُ: سَلْ أَضْيَافُكَ، فَقَالُوا: صَدَقَ، أَتَانَا بِهِ. فَقَالَ: إِنَّمَا أَنْتَظِرُ تُمُونِي وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُهُ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ الْآخَرُونَ: وَاللَّهِ لَا نَطْعَمُهُ حَتَّى تَطْعَمَهُ، فَقَالَ: وَيَلَكُمْ مَا لَكُمْ لَا تَقْبَلُونَ عَنَّا قِرَاكُمْ؟ هَاتِ طَعَامَكَ، فَجَاءَ بِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ، فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، الْأُولَى مِنَ الشَّيْطَانِ فَأَكَلَ وَأَكْلُوا^(١).

✽ عنوان هذه القصة يبين الحالة التي وصل إليها أبو بكر رضي الله عنه، حيث سب ابنه عبد الرحمن مُناديًا إياه بقوله: يَا غُنْثَرُ، ودعا عليه أن يُجدع أنفه.

لقد أثار أبو بكر وهو الحليم الوديع الهادئ ضيفانٌ استضافهم في منزله، أبوا أن يتناولوا عشاءهم حتى يعود... ولم يعد إلا مُتَأَخِّرًا، فَشَقُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، كَمَا شَقُّوا عَلَى أَهْلِ الْمَنْزِلِ، فَثَارَ وَغَضِبَ، وَلَوْ تَمَادَى بِهِ الْغَضَبُ لَتَمَادَتِ الْمَشْكَلَةُ، وَوَقَعَ مَا لَا تُحَمِّدُ عُقْبَاهُ، وَلَكِنَّهُ أَلْجَمَ نَفْسَهُ بِلِجَامِ التَّقْوَى، فَحَنَثَ فِي يَمِينِهِ، وَأَرْغَمَ الشَّيْطَانَ، وَأَرْضَى الرَّحْمَنَ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى بَيْتِهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ، وَبَدَّلَ حَزَنَهُمْ سُرُورًا، وَكَذَلِكَ عَاقِبَةُ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ، وَأَلْقَى هَوَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٢) كتاب مواقيت الصلاة، ومسلم (٢٠٥٧) كتاب الأشربة.

قوله: «غُنْثَرُ»، وهو: الغبيُّ الجاهل - وقوله: «فجدع» أى شتمه، والجَدَع: القطع - قوله: «يجدُ على» أى: يَغْضَبُ.

✽ ومختصر هذه القصة أن الرسول ﷺ أمر أصحابه الذين لديهم سعة في الرزق أن يحمل كل واحدٍ منهم بعضًا من الفقراء وأهل الصُفة، وأمر مَنْ كان عنده اثنين أن يستضيف ثالثًا على العشاء، ومَنْ لديه أربعة أن يستضيف خامسًا وسادسًا، فاستضاف أبو بكر رضي الله عنه ثلاثة من أهل الصُفة، واستضاف الرسول ﷺ عشرة.

وكانت أسرة أبي بكر تتكون منه وزوجته، وولده عبد الرحمن وزوجته، وخادم يقوم على رعاية الأسرتين: أسرة أبي بكر وأسرة عبد الرحمن، فكان عددهم خمسة.

ذهب أبو بكر بضيوفه إلى منزله، وكَلَّف ابنه عبد الرحمن أن يقوم عنه بقرى الضيوف، وأخبره أنه لن يحضر لتناول الطعام مع الضيوف، وقام عبد الرحمن بما كَلَّف به، فحضر الطعام، وقَدَّمه للضيوف، فأبوا أن ينالوا منه شيئًا حتى يحضر ربّ المنزل - أبو بكر رضي الله عنه.

كان عبد الرحمن يعلم طباع أبيه، وأنه يغضب حين يخالف أمره، وقد حاور الضيوف، وأخبرهم بما سترتب على رفضهم تناول الطعام حتى يعود والده، وأن أول مَنْ سيناله الضرر هو نفسه، فأصروا على موقفهم إصرارًا، وزاد من سوء الموقف أن أبا بكر بقى مع الرسول ﷺ إلى أن صَلَّى العشاء، واستمر معه إلى أن ذهب جزءٌ من الليل.

ولم يشأ عبد الرحمن مواجهة العاصفة، فقد كان أبو بكر حليمًا، ولا أشد من غِضبة الحليم حين يثور كالبركان، فيقذف حممًا، فلا يصمد له أحد، فأثر أن يختفى من وجهه.

وأول مَنْ توجه إليه غضب أبي بكر ابنه عبد الرحمن، فهو المُكَلَّف الأول بما طلبه منه.. وزاد غضبه عليه أنه توارى من وجهه، مما يؤكد له أنه السبب في هذا التقصير الواقع، فوجّه إليه سيلاً من الألفاظ القاسية: يا غنثر، أى: يا ثقیل،

يا خامل، وأخذ يدعو عليه بأن تقطع أذنه، ويُجدع أنفه، «فسبَّ! وجدَّع».

كان عبد الرحمن يسمع ما يقذفه به والده في موضع اختفائه، ولكنه لا يجروء على الظهور، منتظرًا أن تهدأ ثورته، ويخفَّ غضبه.. ولكن عندما وصل إليه صوت الشيخ مُقسِّمًا عليه أن يأتيه، ويحضر إليه إن كان يسمع صوته، لم يكن أمامه إلا أن يخرج من مخبئه، ويواجه غضب الشيخ.

دافع عبد الرحمن عن نفسه، وأدلى بحجته، واستشهد بالضيوف على صدق ما يقول، فنجّا عبد الرحمن وما كان يظن أنه منها ناج... وتوجه غضب أبي بكرٍ إلى ضيوفه، وعلم أن مقصدهم أن يسعدوا بالجلوس معه ومُحادثته، فعاملهم بنقيض قصدهم، فحلف أن لا يذوق من ذلك الطعام شيئًا. عند ذلك تفاقمت المشكلة إذ حلفت أم رومان كما حلف أبو بكر، فما كان من الضيوف إلا أن أقسموا كما أقسم.

لقد أدرك أبو بكر حجم المشكلة، وأن الشيطان نجح في مقصده بإحزانه وإحزان أهل بيته وضيوفه، فعاد إلى الأدب الذي تعلمه من رسوله ﷺ، فقد كان الرسول ﷺ لا يُقسم على يمين، فيرى غيرها خيرًا منها إلا كفر عن يمينه، وأتى الذي هو خير، فلم يجعل يمينه حائلًا بينه وبين إتيان الذي هو خير: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

لقد راغم أبو بكرٍ الشيطان، وأرضى الرحمن، ومدَّ يده إلى الطعام، وطلب من ضيوفه أن يتناولوا ضيافتهم، فهدأت النفوس، وطابت القلوب، وانزاح الهم عن الجميع، فظهرت بركة هذا التصرف لا في النفوس والقلوب فحسب، بل وفي الطعام أيضًا.

لقد أخذ الطعام الذي في الجفنة يتكاثر، ويزيد ولا ينقص، فكلما أخذ منه لقمة نبت مكانها أخرى... بل زاد الطعام حتى أصبح ثلاثة أمثاله فحُمِلت الجفنة إلى

منزل رسول الله ﷺ، فأكل منها، ثم أرسل بها إلى جيشٍ يُعده ليرسل به إلى قومٍ بينهم وبينه عهد انتهت مدته، وقد اجتمع منهم عددٌ كبير فكفاهم ذلك الطعام. وهكذا يكون حال مَنْ راغم الشيطان، وأطاع الرحمن، واهتدى بهدى الإسلام... فرضى الله عن أبى بكر وأرضاه، وجمعنا به فى دار الخلد، إنه على ما يشاء قدير.

عبر الحديث وفوائده وأحكامه

(١) بيان الطريقة التى كان يرعى بها الرسول ﷺ أهل الصُفة.. فقد أمر أصحابه الذين يجدون قوت ليلتهم أن يأخذ كل واحدٍ منهم من أهل الصفة بما يتناسب مع عدد أهل الدار... فالذى عنده طعام اثنين يذهب بثالث، والذى عنده طعام أربعة أو خمسة يستضيف اثنين أو ثلاثة وهكذا... وبذلك يواسى الصحابة إخوانهم، ويشركونهم فى طعامهم.

(٢) كانت القيادات الإسلامية من الصحابة فى مقدمة مَنْ يقوم بالتكاليف، فقد ذهب أبو بكر بثلاثة من أهل الصفة، وذهب الرسول ﷺ بعشرة منهم.

(٣) ويجوز للرجل أن يُوكَّل مَنْ ينوب عنه فى إكرام ضيوفه ورعايتهم إذا كانت لديه مهمات تحول دون قيامه بذلك بنفسه، كما كلف أبو بكر ابنه عبد الرحمن بإضافة ضيوفه.

(٤) قوة صلة أبى بكر بالرسول ﷺ، فقد صلى مع رسول الله ﷺ المغرب، وتعيشى فى منزل الرسول ﷺ، وصلى معه العشاء، وبقي ملازمًا له حتى مضى من الليل جزءٌ طويل... ولا شك أن الرسول ﷺ كان محتاجًا إليه، يُباحثه فى أمور المسلمين.

(٥) جواز إنكار الرجل على أهله فيما يظن أنهم قصروا فيه، كما فعل أبو

بكر حين وجد أن ضيوفه لا يزالون في المنزل لم يتناولوا قِراهم - ضيافتهم -.

(٦) مع كون أبي بكر أفضل هذه الأمة بعد نبيها إلا أنه بَشَرٌ، يأخذه ما يأخذ البشر، فقد ثار وغضب على ابنه، وسبّه ودعا عليه... فلما علم أنه لم يقصّر فيما عهد به إليه، انتقل غضبه إلى ضيوفه، وحلف أن لا يذوق ذلك الطعام، وقال لهم: «ويلكم، ما أنتم؟ ما لكم لا تقبلون عنا قِراكم؟!».

(٧) على العاقل إذا تفاقمت الأمور، وعظمت الإشكالات، أن يثوب إلى رُشده، ويُلجم نفسه بلجام التقوى، كما فعل أبو بكر.. فإنه لما حلف أن لا يأكل من ذلك الطعام، حلف ضيوفه وأهل داره بمثل ما حلف به، فاستعاذ بالله من الشيطان، وأمر بوضع الطعام وأكل، فأكل ضيوفه، وأكل أهل بيته... ولا بد أنه كفر عن يمينه، فهذا حكم الحانث في يمينه.

(٨) إكرام الله لمن ألجم نفسه بلجام التقوى، وراغم الشيطان، وأرضى الرحمن، كما أكرم الله أبا بكر، فقد كان لا يأخذون من القصعة لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر، فشبعوا وقد أصبح الطعام بمقدار ثلاثة أمثاله.

(٩) إثبات كرامات الصالحين والأتقياء، كما كثر الله طعام أبي بكر رضي الله عنه.

(١٠) صورة من الخطاب الذي كان يتخاطب به المسلمون في منازلهم.

فأبو بكر يقول لزوجته مُخاطبًا إياها: «يا أخت بنى فراس» وبنو فراس هم أهلها، وهى تقول له مجيبة: «لا، وقرة عيني» وهو خطاب المرأة المُحبة لزوجها، التى تُحسن خطابه، وتوقره في حديثها.

(١١) استحباب الإهداء إلى الصالحين... فقد أهدى أبو بكر للرسول ﷺ

من ذلك الطعام المبارك، فأكل منه، ثم أرسل به إلى جمع من أصحابه كانوا يتهيئون للغزو، فكفاهم ^(١).

(١) قصص الرسول ﷺ وأصحابه / د. عمر الأشقر رحمته الله ص (١٤١-١٤٥).

(١٥١٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدثون، فإن يك في أمتي أحدٌ، فإنه عمر»^(١).

✽ جاء في بعض الروايات الصحيحة أن عمر رضي الله عنه هو الذي اقترح على النبي ﷺ أن يتخذ من مقام إبراهيم مصلًى، فنزل القرآن مطابقاً لما أشار به عمر رضي الله عنه، وهذه من المسائل التي يقولون عنها: موافقات عمر رضي الله عنه، أي: أنه يقول القول ثم ينزل القرآن مطابقاً له، فأطلق على ذلك موافقات عمر، وهي عديدة.. منها هذا الموضع.

ومنها: اقتراحه على النبي (عليه الصلاة والسلام) أن يحجب نساءه.

ومنها: عدم أخذ الفداء في أسارى بدر.

✽ وفي هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «لقد كان فيما كان قبلكم مُحدثون» يعني: مُلهمون للصواب، يقولون قولاً فيكون موافقاً للحق، وهذا من كرامة الله للعبد أن الإنسان إذا قال قولاً، أو أفتى بفتوى، أو حكم بحكم تبين له بعد ذلك أنه مطابق للحق... فعمر رضي الله عنه من أشد الناس توفيقاً للحق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى فيما سيذكره المؤلف من أمثلة لذلك... قال النبي ﷺ: «فإن يك في أمتي أحدٌ، فإنه عمر» يعني إن كان فيكم مُحدثون فعمر، ويحتمل قوله: «إن يك في أمتي» أنه خطاب لقوم مجتمعين ليس فيهم أبو بكر ويحتمل أنه خطاب إلى الأمة كلها، ومن بينهم أبو بكر رضي الله عنه، فإن كان الأول فلا إشكال، وإن كان الثاني فقد يقول قائل: كيف يكون عمر مُلهمًا وأبو بكر ليس كذلك؟!.. فيقال: إن أبا بكر رضي الله عنه يُوفَّق للصواب بدون إلهام، بمعنى أنه رضي الله عنه من ذات نفسه بتوفيق الله ﷻ يُوفَّق للصواب... ويدل على أن أبا بكر أشد توفيقاً للصواب

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٩٨) كتاب فضائل الصحابة. «محدثون» أي: مُلهمون.



من عمر عدة مسائل:

أولاً: في صلح الحديبية لما اشترطت قريش على النبي ﷺ شروطاً يبدو أنها ثقيلة عظيمة، عمل عمر رضي الله عنه على إبطالها، وجاء إلى النبي ﷺ يراجعها في ذلك ويقول: كيف نُعطى الدنية في ديننا؟ كيف نشترط على أنفسنا أن مَنْ جاءنا منهم مسلماً، رددناه إليهم، وَمَنْ جاءهم مَنّاً لا يردونه؟ هذا ثقيل... ولكن النبي ﷺ قال له «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري»، فذهب عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه يريد أن يستنجد به في إقناع الرسول ﷺ فكلّم أبا بكر فقال له أبو بكر مثل قول الرسول ﷺ سواءً بسواء... قال إنه رسول الله وليس بعاصيه وهو ناصره فاستمسك بغرزه... يعني لا يكن عندك شك في أمره... فهذه واحدة.

إذا.. مَنْ الموفق إلى الصواب في هذا؟ إنه أبو بكر بلا شك... كذلك أيضاً في موت الرسول ﷺ، لما شاع الخبر في المدينة أن النبي ﷺ مات. قام عمر في الناس وقال إنه لم يَمُت وإنما ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى ابن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات.. وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي أقوام وأرجلهم من خلاف، وأنكر أن يكون قد مات... وكان أبو بكر قد خرج ذلك اليوم إلى بستان له خارج المدينة فلما رجع وجد النبي ﷺ قد مات حقاً، فخرج إلى المسجد وصعد المنبر، وقال كلماته المشهورة التي تُكتب بأعلى من ماء الذهب. قال: أما بعد أيها الناس، مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات وَمَنْ كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم قرأ قول الله تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، قال عمر: فوالله ما إن تلاها أبو بكر حتى عُفرت فما تحملني رجلاي... يعني الإنسان إذا خاف واشتد به الشيء ما يقدر أن يقف... هذه الثانية.

❦ الثالثة: أنه لما توفى الرسول ﷺ ارتد من ارتد من العرب - كفروا والعياذ بالله - وكان النبي ﷺ قد جهز جيشاً أميره أسامة بن زيد، ليقاتل أدنى أهل الشام والجيش كان ظاهر المدينة ولكن لم يسيروا بعد، ولما ارتد العرب جاء عمر لأبي بكر، وقال لا ترسل الجيش، نحن في حاجة.. فقال له أبو بكر: والله لا أحلن راية عقدها رسول الله ﷺ... وسيّرهم أبو بكر، فكان الصواب مع أبي بكر ﷺ لأن الناس لما سمعوا أن أهل المدينة أرسلوا الجيوش إلى أطراف الشام، قالوا: هؤلاء عندهم قوة ولا يمكن أن نرتد، فامتنع كثير من الناس عن الردة وبقوا في الإسلام... المهم أن أبا بكر ﷺ أبلغ من عمر ﷺ في إصابة الصواب لا سيما في المواضع الضيقة... وعلى كل حال كلا الرجلين ﷺ، موفق إلى الصواب، جمعنا الله وإياكم بهما في الجنة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥١٣) وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: شكا أهل الكوفة سعداً، يعنى: ابن أبى وقاص ﷺ، إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فعزله واستعمل عليهم عمّاراً، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسنُ يصلى، فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسنُ تصلى. فقال: أما أنا والله فإننى كنتُ أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ لا أحرّمُ عنها... أصلى صلاة العشاء فأركدُ في الأوليين، وأخفُ في الآخرين، قال: ذلك الظنُّ بك يا أبا إسحاق، وأرسل معه رجلاً - أو رجلاً - إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفاً، حتى دخل مسجداً لبنى عبس، فقام رجلٌ منهم، يقال له أسامة بن قتادة، يكنى أبا سعدة، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسريّة، ولا يقسم بالسويّة، ولا يعدل في القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياءً،

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٣٧-٣٨) بتصرف.

وَسُمْعَةً، فَأُطِلَ عُمُرُهُ، وَأُطِلَ فَقَرُهُ، وَعَرَّضَهُ لِلْفِتَنِ... وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ:
شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ.

قال عبد الملك بن عمير الراوى عن جابر بن سمرة: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدَ قَدْ سَقَطَ
حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطَّرِيقِ فَيَغْمِزُهُنَّ^(١).

❖ وهذه كرامة أخرى لرجل من العشرة المبشرين بالجنة.. ألا وهو سعد
ابن أبي وقاص رضي الله عنه.. الذى كان مُستجاب الدعاء.

وفى الحقيقة إنه ما من مسلمٍ إلا ويتمنى أن يستجيب الله دعاءه فى كل مرة
يدعو فيها ويسأل ربه من خيرى الدنيا والآخرة.

ولقد قام النبى ﷺ فى يومٍ من الأيام ودعا لسعد بن أبى وقاص دعوة عظيمة
بأن يستجيب الله دعاءه فى أى وقتٍ وحين، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا
دَعَاكَ»^(٢).

❖ وفى يومٍ من الأيام أَمَرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه
والياً على الكوفة.. فمكث بها مدة من الزمن فحصل بينه وبين بعض أهلها شىء
حتى تكلموا فيه، وقد حووا فيه وسبُّوه، حتى بلغ بهم الحد -والعياذ بالله- أنهم قالوا:
(لا يُحسن أن يصلى!!) وهذا الكلام قالوه فى رجلٍ يمشى على الأرض وهو من
أهل الجنة... رجل من العشرة المبشرين بالجنة، ومع ذلك لم يسلم من أذاهم.

فلما بلغ عمر رضي الله عنه شكواهم، وأنهم قالوا عنه: (لا يُحسن أن يصلى) كلَّم
سعداً فى ذلك، فأخبره سعد أنه كان يصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ، وأنه كان
يمد القراءة فى الأوليين ويطيلهما، ويحذف فى الآخرين، أى: يقصر القراءة
فيهما، وقال: إنه لا يألوا -أى: لا يُقصر- فيما اتبع فيه رسول الله ﷺ، وإن هذا
الفعل الذى يفعله إنما هو اقتداء برسول الله ﷺ... فقال له عمر رضي الله عنه: (هذا هو

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧٥٥) كتاب الأذان، ومسلم (٤٥٣) كتاب الصلاة.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، والحاكم (٤٩٩/٣) وصححه ووافقه الذهبى.

الظن بك يا أبا إسحاق).

ولكن مع ذلك تحرّى عمر رضي الله عنه؛ لأنه يتحمل المسؤولية ويعرف قدر المسؤولية... أرسل رجالاً إلى أهل الكوفة، يسألونهم عن سعد وعن سيرته، فكان هؤلاء الرجال، لا يدخلون مسجداً ويسألون عن سعد إلا أثنوا عليه معروفاً.

حتى أتى هؤلاء الرجال إلى مسجد بنى عبس، فسألوهم، فقام رجل اسمه أسامة بن قتادة فقال: أما إذ ناشدتنا، فإن سعداً كان لا يعدل في القضية ولا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية... فقله لا يسير في السرية، يعني لا يخرج في الجهاد... ولا يقسم بالسوية إذا غنم ولا يعدل في القضية إذا حكم بين الناس.. فاتهمه بتلك التهم الثلاث.. فما كان من سعد رضي الله عنه إلا أن قال: أما والله لأدعون بثلاث....

فدعا عليه سعد - وكان مُجاب الدعوة - فقال: (اللهم إن كان كاذباً فيما يقول فأطّل عمره، وأطّل فقره، وعرضه للفتن) فطال عمره، وكثر فقره، ونزل حاجباه على عينيه، وكان يلاحق النساء فتنة وابتلاءً وامتحاناً، فأصابته دعوة سعد.. وقال عن نفسه: (أصابتنى دعوة سعد) رضى الله عن سعد وعن الصحابة أجمعين.

ولكن عمر رضي الله عنه رأى من المصلحة أن يعزل سعداً عن الكوفة ما دام أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد خشية أن يحصل له شيء لا يُحمد عقباه.. ولم ينس أن يُنبه على ذلك رضي الله عنه، فإنه لما اختار ستة - بعدما طعن - ليكونوا أهل الشورى فيختاروا خليفة منهم كان سعد واحداً من هؤلاء الستة... فخشي عمر أن يقول قائل: لقد نسي عمر، فكيف يعزله من الكوفة وهي قرية ثم يُرشحه للخلافة؟ فأراد أن يبين أنه لم ينس، وأنه ما زال ذاكرًا للذي حصل منه من عزل سعد، فقال رضي الله عنه: (إن أصابت الإمارة سعداً فذاك، هو أهل لها، وإن لم تُصبه فليستعن به من أُمّر، فإنني لم أعزله من عجز ولا خيانة) فمسوغات العزل: العجز والخيانة، وإنما كان عزله لمصلحة، وهي: أن لا يعتدى عليه أحد، أو يحصل له ضرر لا تُحمد عقباه من هؤلاء السفهاء الذين بلغ بهم الحد إلى أن قالوا فيه ما قالوا،

فهو رجل يمشى على الأرض وهو من أهل الجنة رضي الله عنه.

بَابُ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

(١٥١٤) وعن عروة بن الزبير أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه، خاصمته أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم، وادّعت أنه أخذ شيئاً من أرضها، فقال سعيد: أنا كنت أخذ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: ماذا سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً، طوّفه إلى سبع أرضين» فقال له مروان: لا أسألك بيّنة بعد هذا... فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة، فأعم بصرها، واقتلها في أرضها... قال: فما ماتت حتى ذهب بصرها، وبينما هي تمشي في أرضها إذ وقعت في حفرة فماتت^(١).

وفي رواية لمسلم عن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بمعناه وأنه رآها عمياء تلتمس الجذر تقول: أصابتنى دعوة سعيد، وأنها مرت على بئر في الدار التي خاصمته فيها، ف وقعت فيها، وكانت قبرها.

❦ ففي هذا الحديث يحكى عروة بن الزبير رضي الله عنه أن سعيد بن زيد رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة خاصمته امرأة اسمها أروى بنت أوس إلى مروان بن الحكم وادّعت عليه كذباً أنه أخذ شيئاً من أرضها.. أى: اتهمته بأنه أدخل جزءاً من أرضها في أرضه فأرسل مروان إلى سعيد من أجل أن يأتيه... فجاءه سعيد بن زيد فأخبره مروان أن أروى قد اتهمته بأنه أخذ شيئاً من أرضها.. فغضب سعيد وتعجب من هذا الكلام وقال لمروان:

أنا كنت أخذ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعت من رسول الله ﷺ... قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٩٨) كتاب بدء الخلق - ومسلم (١٦١٠) كتاب المساقاة.

مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوْقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» فَقَالَ لَهُ مَرَوَانُ: لَا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا.
فَمَا كَانَ مِنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أَنْ دَعَا عَلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَذَبَتْ
وافتُتِرَ عَلَيْهِ.. فَقَالَ فِي دَعَائِهِ:

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً، فَأَعْمِ بَصَرَهَا، وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا، قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى
ذَهَبَ بَصَرُهَا... ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ.

كل مؤمن يؤمن بالله ورسوله إذا سمع مثل هذا الخبر الصادر عن الصادق
المصدوق عَلَيْهِ السَّلَام فإنه لا يمكن أن يظلم أحداً ولا يأخذ من أرضه ولا شبراً...
فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبر أنك لو أخذت شبراً من الأرض... وقيده بالشبر من باب
المبالغة وإلا فإن مَنْ أَخَذَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَلَوْ سَتَيْمِترَ واحداً فإنه يُطَوَّقُ به يوم
القيامة من سبع أرضين... إذا كان يوم القيامة جاءت هذه القطعة التي أخذها
مُطَوَّقَةٌ فِي عُنُقِهِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ... لأن الأرضين سبع طباق، كما قال الله تعالى:
﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والإنسان إذا مَلَكَ أَرْضًا، مَلَكَ قَعْرَهَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، إِلَى الْأَرْضِ
السَّابِعَةِ، وَإِذَا مَلَكَهَا أَيْضًا مَلَكَ هَوَاءَهَا إِلَى الثُّرَيَّا، لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَبْنِيَ فَوْقَهُ
جِسْرًا أَوْ أَنْ يَحْفَرَ تَحْتَهُ خَنْدَقًا، لِأَنَّ الْأَرْضَ لَهُ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَإِلَى أَعْلَى
السَّمَاءِ، كُلِّهَا لَهُ... فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَهَذَا قَدْ اقْتَطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ بغير
حَقٍّ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُطَوَّقٌ بِهِ عُنُقُهُ - نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥١٥) وعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أُحُدٌ دَعَانِي أَبِي مِنْ
الَلَّيْلِ فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنِّي لَا
أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ



بأخواتك خيرًا. فأصبحنا، فكان أول قتيل، ودفنت معه آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر، فإذا هو كيوم وضعت غير أذنيه، فجعلته في قبر على حدة^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن والد جابر بن عبد الله رضي الله عنه.. وهو عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه كان قبل غزوة أحد بليلة يشعر بأنه سينال الشهادة غدًا في تلك الغزوة فقال لابنه جابر: يا بني ما أراني إلا مقتولًا في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإننى لا أترك بعدي أعز على منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن على دينًا فافض، واستوص بأخواتك خيرًا.

وفى اليوم التالى دخل والد جابر الغزوة وقاتل قتالًا شديدًا وكان من أوائل الذين استشهدوا فى غزوة أحد وقام المشركون فمثلوا به.. فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يغطوه حتى لا يتأثر جابر برؤية والده وقد مثل به... فلما أراد جابر أن يكشف وجه أبيه نهى الصحابة عن ذلك.

فرفعه رسول الله ﷺ، أو أمر به فرفع فسمع صوت باكية أو صائحة. فقال: «من هذه؟» فقالوا: بنت عمرو، أو أخت عمرو. فقال: «ولم تبكى؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع»^(٢)

قال الإمام النووي رحمته الله: قوله ﷺ: «فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفع»... قال القاضى: يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله، ورضاه عنه، وما أعد له من الكرامة عليه. ازدحموا عليه إكرامًا له، وفرحًا به، أو أظلوه من حر الشمس لئلا يتغير ريحه أو جسمه... قوله: فقال رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكيه ما زالت الملائكة تظله» معناه: سواء بكت عليه أم لا فما زالت

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٥١) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٤٧١) كتاب فضائل الصحابة.

الملائكة تظله ... أى: فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغي البكاء على مثل هذا.. وفي هذا تسلية لها. ^(١)

✽ ولم تكن تلك الكرامة الوحيدة التى حدثت له.. بل لقد أخبر النبى ﷺ جابر بن عبد الله أن الله ﷻ كَلَّمَ أباه كِفَاحًا بغير حجاب.

فعن عبد الله، قال: لما قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام، يوم أُحُدٍ، قال رسول الله ﷺ: «يا جابر! ألا أخبرك ما قال الله ﷻ لأبيك؟» قلت: بلى، قال: «ما كَلَّمَ الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وكَلَّمَ أباك كِفَاحًا ^(٢)»، فقال: يا عبدى، تمنَّ علىَّ أعطك، قال: يا رب تُحييني فأقتل فيك ثانية. قال: «إنه سبق منى أنهم إليها لا يُرجعون» قال: يا رب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ^(٣).

✽ وفوق ذلك كله فلقد أخبر جابر ﷺ أن أباه لما دُفن مع صحابى آخر فى قبر.. لم تطب نفس جابر أن يتركه فى القبر مع رجل آخر فاستخرجه من قبره بعد ستة أشهر.. فكانت الكرامة الأخرى أنه وجده كيوم وضعه فى القبر غير أذنه فقط هى التى تغيرت.. فوضعه فى قبر وحده...

فى هذا الحديث كرامة لأبى جابر وهو عبد الله بن عمرو بن حرام أنه ﷺ صَدَّقَ الله رؤياه فصار أول قتيل فى أُحُد... ودفن ولم تأكل الأرض منه شيئًا إلا يسيرًا وقد مضى عليه ستة أشهر وهذا من كراماته.

واعلم أن الإنسان إذا دُفن فإن الأرض تأكله لا يبقى إلا عجبُ الذَّنْبِ، وعَجْبُ الذَّنْبِ هذا يكون كالنواة لخلق الناس يوم القيامة، تنبت منه الأجساد، إلا الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) فإن الأرض لا تأكلهم... كما قال النبى

(١) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٣٧ - ٣٩) بتصرف.

(٢) كِفَاحًا: أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول... وهذا بعد موته أما قبله فلا.

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٠٥).

ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» أما غير الأنبياء فإن الأرض تأكل أجسادهم، ولكن قد يمنع الله الأرض أن تأكل أحدا كرامة له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥١٦) وعن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ الْمَصْبَاحَيْنِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَلَمَّا افْتَرَقَا، صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى آتَى أَهْلَهُ ^(١).

❁ ففي هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أن رجلين من أصحاب الرسول ﷺ وهما أسيد بن حُضير وعباد بن بشر رضي الله عنهما - كانا عند النبي ﷺ فجلسا عند النبي ﷺ فترة طويلة حتى حَلَّ الظلام.. فلما خرجا من عنده ﷺ.. كان مع كل واحدٍ منهما عصاه.. فأضاءت عصا واحدٍ منهما وكأنها مصباح.. فلما افترقا صار مع كل واحدٍ منهما نور في عصاه وكأنه مصباح حتى وصل إلى بيته.. وهذا كما جاء في الرواية الأخرى.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ وَعَبَّادَ بْنَ بَشِيرٍ كَانَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ ظُلُمَاءَ قَالَ: فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ أَضَاءَتْ عَصَا أَحَدِهِمَا فَكَانَا يَمْشِيَانِ بِضَوْئِهَا فَلَمَّا تَفَرَّقَا أَضَاءَتْ عَصَا هَذَا وَعَصَا هَذَا ^(٢).

❁ وتلك كرامة عجيبة لهذين الصحابييين.. وكما أنعم الله عليهما بالنور الحسنى.. فهناك نورٌ معنوي يقذفه الله في قلب مَنْ يشاء من عباده.. فتجد بعض أهل العلم قد أنار الله بصيرته وفتح عليه من العلوم الواسعة في كل فنٍّ ورزقه الفهم والحفظ والمجادلة.. فاللهم ارزقنا نوراً حسيّاً ومعنوياً في الدنيا والآخرة.

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٦٥) كتاب الصلاة.

رواه البخاري مِنْ طَرِيقٍ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَعَبَّادُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألباني في التعليقات الحسان (٢٠٣٠).

(١٥١٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط عينا سرية، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداق، بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فنفرُوا لهم بقریب من مائة رجلٍ رامٍ فافتصوا آثارهم، فلما أحس بهم عاصم وأصحابه، لجأوا إلى موضع، فأحاط بهم القوم، فقالوا: أنزلوا فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا تقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت: أيها القوم، أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر. اللهم أخبر عنا نبيك ﷺ، فرمَوْهم بالنبل فقتلوا عاصمًا، ونزل إليهم ثلاثة نفرٍ على العهد والميثاق، منهم خبيب، وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم، فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أول الغدر والله لا أصحابكم إن لى بهؤلاء أسوة - يريد القتلى - فجرؤهُ وعالجوه، فأبى أن يصحبهم، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب، وزيد بن الدثنة، حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خبيبا، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث موسى يستجد بها فأعارته، فدرج بئى لها وهى غافلة حتى أتاه، فوجدته مُجلّسه على فخذه والموسى بيده، ففرغت فرجة عرقها خبيب، فقال: اتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك، قالت: والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب، فوالله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة، وكانت تقول: إنه لرزق رزقه الله خبيبا، فلما خر جوا به من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تحسبوا أن ما بى جزع لزدت: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تبقي منهم أحدا وقال:

فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَىْ جَنْبٍ كَانَ اللَّهُ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَاءُ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَلْوٍ مُمَزَّعٍ

وكان خبيثٌ هو سنٌّ لكلِّ مسلمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلَاةَ، وأخبر - يعنى النبى ﷺ أصحابه يوم أُصيبوا خبرهم، وبعث ناسٌ من قريشٍ إلى عاصم بن ثابتٍ حينَ حَدَّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ أَنْ يُؤْتُوا بشيءٍ مِنْهُ يُعَرَفُ. وكان قتل رجلًا من عظمائهم، فبعث الله لعاصمٍ مثلَ الظِّلَّةِ مِنَ الدَّبَرِ، فَحَمَتُهُ مِنْ رُسُلِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيْئًا^(١).

وفى الباب أحاديث كثيرةٌ صحيحةٌ سبقت فى مواضعها من هذا الكتاب منها حديثُ الغلام الذى كان يأتى الرَّاهِبَ والسَّاحِرَ، ومنها حديثُ جُريجٍ، وحديثُ أصحابِ الغار الذين أَطْبَقَتْ عليهم الصَّخْرَةُ، وحديثُ الرَّجُلِ الذى سَمِعَ صَوْتًا فى السَّحَابِ يقول: اسْقِ حِدِيقَةَ فلانٍ، وغير ذلك ... والدلائلُ فى الباب كثيرةٌ مشهورةٌ، وبالله التوفيقُ.

❁ ففى هذا الحديث أن النبى ﷺ أرسل عَشْرَةَ رَهْطٍ عَيْنًا.. أى: مثل الجواسيس على العدو.. وأمرَ عليهم عاصمَ بنَ ثابتٍ الأنصارى رضي الله عنه... فلما وصلوا إلى مكانٍ قريبٍ من مكة شعر بهم جماعة من هُذَيْلٍ فخرجوا عليهم فى نحو مائة رجلٍ يجيدون الرمى جميعًا.. فحاطوا بهم وقالوا لهم: انزلوا فأعطوا بأيديكم ولکمَّ العَهْدُ والمِيثاقُ أَنْ لَا نَقْتُلَ مِنْكُمْ أَحَدًا... فقالَ عاصم بن ثابت: أَمَّا أَنَا فلا أَنْزِلُ على ذِمَّةٍ كافرٍ... وذلك لأن الكافر قد خان الله ﷻ فكيف لا يخون عباد الله؟!... المهم أنهم رموهم حتى قتلوا منهم سبعة فيهم عاصم الذى هو أميرهم، وبقي ثلاثة، فنزل هؤلاء الثلاثة، وهم خبيث وزيد بن الدثنة ورجل آخر... فلما نزلوا أطلقوا أوتار قسيهم - جمع قوس - فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر.

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٨٩) كتاب المغازى.

قوله: الهدأة: مَوْضِعٌ، والظِّلَّةُ: السحاب، والدَّبَرُ: النَّحْلُ. وقوله: «أَقْتُلْهُمْ بِدَا» بكسر الباء وفتحها، فمن كسر، قال: هو جمع بَدَّةٍ بكسر الباء، وهو النصيب، ومعناه أَقْتُلْهُمْ حِصَصًا مُنْقَسِمَةً لِكُلِّ واحدٍ منهم نصيبٌ، وَمَنْ فَتَحَ قال: معناه: مُتَّفَرِّقِينَ فى القَتْلِ واحِدًا بعدَ واحدٍ مِنَ التَّبْدِيدِ.

وهو كونهم قالوا: انزلوا ولكم العهد أنه لا يحصل لكم شيء.
ثم بعد ذلك ربطوهم، فقال: لى بأصحابى أسوة ولن أصحبكم.
فجعلوا يجرونه وهو يأبى أن يصحبهم، فقتلوه فصار الذين قُتلوا ثمانية،
فبقى الاثنان خبيب وزيد بن الدثنة.

ثم ذهبوا بخبيب وصاحبه إلى مكة فباعوهما، فاشترى خبيباً ﷺ أناسٌ من
أهل مكة وقد كان قتل زعيماً لهم في بدر، ورأوا أن هذه فرصة أن يقتلوه
ثم أبقوه عندهم أسيراً مغلولاً يده، وفي يوم من الأيام كان خبيب في البيت وكان
أسيراً مغلولاً يده، فدرج صبي من أهل البيت إلى خبيب ﷺ، فكأنه رَقَّ له
ورحمه فأخذ الصبي ووضعته على فخذه وكان قد استعار من أهل البيت موسى
(يعنى موسى) يستحذ به أى يحلق به عانته، لما ذهب الصبي يلعب وأمه غافلة
عنه... فلما تفتنت له إذا هو على فخذ خبيب.. وخبيب معه الموس فظنت أن
هذه فرصة لخبيب، ليذبح الولد... فالموس معه والولد صبي صغير وهو منفرد
به، لكنه ﷺ رجلٌ أمين، وصحابى جليل، لما أحس أنها ارتاعت (فزعت)،
قال: والله ما كنت لأذبحه... قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب.. لقد
رأيت ذات يوم وفي يده قطفٌ من عنب يأكله، ومكة ما فيها ثمر، فعلمت أن ذلك
من عند الله ﷻ... الله سبحانه وتعالى هياً له هذا العنب وهو أسير لا يملك
لنفسه شيئاً... لا يستطيع أن يخرج إلى السوق يشتري أو يطعم... فهو تحت
رحمة هؤلاء، ولكن الله (جل وعلا) يسّر له هذا القطف من العنب، ليأكل عنباً
وهو في مكة فعلمت أنه من عند الله.

المهم أنهم خرجوا بخبيب خارج الحرم إلى الحِلِّ ليقتلوه، فطلب منهم أن
يصلى ركعتين؛ لأن أشرف الأعمال البدنية الصلاة، ولأنها صلة بين العبد وبين
ربه ﷻ، فأذنوا له أن يصلى ركعتين.. فلما انتهى منها قال: لولا أنى أخاف أن

تظنوا أن بي جزعاً لزدت... لأنه ﷺ، كان حريصاً على الصلاة ويحب أن يُكثر منها عند موته... ثم دعا عليهم ﷺ بهذه الدعوات الثلاث... اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبقِ منهم أحدًا. فأجاب الله دعوته، وما دار الحول على واحدٍ منهم، حتى قُتلوا وهذا من كرامته. ثم أنشد هذا الشعر:

فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ اللَّهُ مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شَلْوٍ مُمَزَّعٍ

فصار من الكرامة لهذا الرجل أن الله سبحانه وتعالى كان يرزقه الفاكهة التي لا تُوجد في مكة، وأنه كان يأكلها بيده، ويده موثقة بالحديد، وأنه أول مَنْ سَنَّ الصلاة عند القتل، فإنه فعل ذلك وأقره الله ورسوله ﷺ... وأنه دعا على هؤلاء القوم، فأجاب الله دعوته.

أما عاصم بن ثابت الذي قُتل ﷺ، فإنه شعر به قوم من قريش، وكان قد قتل رجلًا من عظمائهم فأرسلوا إليه جماعة يأتون بشيء من أعضائه يُعرف به حتى يطمئنوا أنه قُتل... فلما جاء هؤلاء القوم ليأخذوا شيئًا من أعضائه، أرسل الله سبحانه وتعالى عليه شيئًا مثل الظلّة من الدّبر (أي من النحل أو الدبابير)، يحميه به الله تعالى من هؤلاء القوم، فعجزوا أن يقربوه ورجعوا خائبين.

وهذا أيضًا من كرامة الله سبحانه وتعالى لعاصم ﷺ، أن الله سبحانه وتعالى حمى جسده بعد موته من هؤلاء الأعداء الذين يريدون أن يُمثلوا به^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥١٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعتُ عمرَ رضي الله عنه يقولُ لشيءٍ قطُّ: إني لأظنه كذا إلا كان كما يظنُّ^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٤٧-٤٨) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٣٨٦٦) كتاب المناقب.



❦ وهذا موافق لما قاله النبي ﷺ عن عمر رضي الله عنه حيث قال ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناسٌ مُحدثون فإن يك في أمتي أحدٌ فإنه عمر».

«مُحدثون»: أي: مُلهَمون..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



(١٧) كتاب الأمور المنهى عنها

(٢٥٤) باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢] ﴾ [الحجرات: ١٢].

الغيبة من أخطر آفات اللسان، وهى مرضٌ خطيرٌ يفرِّق بين الأحاب، ومن أحسن تعاريفها: «ذكرُ العيبِ بظهِرِ الغيبِ»^(١).

وأحسن من ذلك التعريف تعريفُ النَبِيِّ ﷺ بأنَّها: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ مِنْ خَلْفِهِ.

﴿ فَعَنِ الْمَطْلَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْغَيْبَةُ: أَنْ تَذْكُرَ الرَّجُلَ بِمَا فِيهِ مِنْ خَلْفِهِ»^{(٢)(٣)}.

﴿ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «اتَّدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ^(٤) إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبَيْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ»^{(٥)(٦)}.

إن الواجب على المسلم أن يحفظ لسانه من كل سوء فلا يذكر أحداً بسوء ولا ينطق بكلمة تجلب له سخط الله وغضبه بل وتذهب بحسناته وتزيد من سيئاته.

(١) «التوقيف على مهمات التعاريف» (ص ٢٥٤).

(٢) قال الغزالي في «الإحياء» (٣/ ١٥٢): «من خلفه»: أى: في غيبته، بلغه ذلك أم لم يبلغه، وسواء ذكره بنقص في بدنه، أو نسبه، أو خلقه، أو فعله، أو قوله، أو دينه، وحتى في ثوبه، وداره، ودابته.

(٣) صحيح: رواه الخرائطي في «مساوئ الأخلاق»، ورواه مالك وابن المبارك، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٨٦).

(٤) أفرأيت: أخبرني.

(٥) «بهته»: افترت عليه الكذب.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة.

❖ ومن هنا فإنه يجب علينا ألا نذكر أحداً بسوء وألا نغتاب الناس من حولنا ... بل علينا أن نذكرهم بخير حتى تتآلف القلوب ويزداد المسلمون محبةً وترباطاً وقوةً وتآلفاً.

❖ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾
فنهى الله عن الغيبة ثم ضرب مثلاً يُنفّر منه كل أحد، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، لو قدم لك أخوك المسلم ميتاً هل تحب أن تأكل لحمه؟ الجواب: لا.

الكل يقول: لا أحب ذلك، ولا يمكن ... فإذا قال قائل: ما هي مناسبة الغيبة لهذا المثل؟ قلنا: لأن الذي تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه ... ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره في حال وجوده فإن ذلك لا يُسمّى غيبة بل يُسمّى سباً وشتماً.

❖ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، فأمر بتقوى الله ﷻ بعد أن نهى عن الغيبة ... وهذا إشارة إلى أن الذين يغتابون الناس لم يتقوا الله ﷻ.

واعلم أنك إذا سلّطت على عيب أخيك ونشرته وتتبع عورته فإن الله تعالى يقيد لك مَنْ يفضحك ويتبع عورتك حياءً كنت أو ميتاً.

لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، فَضَحَّهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ» (١)(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٤/ ٥٢-٥٣).

واعلم أن الغيبة تزداد قُبْحًا وإثمًا بحسب ما تؤدي إليه... فغيبة العامة من الناس ليست كغيبة العالم أو ليست كغيبة الأمير أو المدير أو الوزير أو ما أشبه ذلك... لأن غيبة ولاية الأمور صغيرًا كان الأمر أو كبيرًا أشد من غيبة مَنْ ليس له إمرة وليس له أمر ولا ولاية... لأنك إذا اغتبت واحدًا من عامة الناس فإنما تُسِيء إليه شخصيًا فقط، أما إذا اغتبت مَنْ له أمر فقد أسأت إليه وإلى ما يتولاه من أمور المسلمين.

❖ وعن أبي بكره رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَنْى فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ»^(١).

❖ بل وضح النبي ﷺ أن الغيبة من أسباب عذاب القبر، وأن مَنْ اغتاب المسلمين وتبع عوراتهم فإن الله ﻋَزَّوَجَلَّ يتبع عورته ويفضحها، ولو في جوف بيته وأن من اغتابه في الدنيا فإنه يُقدَّم له ميتًا لياكل لحمه يوم القيامة... وها هي الأحاديث الدالة على ذلك.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ. فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُعَذَّبُ فِي الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُعَذَّبُ فِي الْغِيْبَةِ»^(٢).

❖ وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَارْتَفَعَتْ رِيحٌ مُنْتِنَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ»^(٣).

❖ وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٥٠) كتاب الأضاحي، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة والمحاربين.

(٢) الحديث رواه أحمد - وأصله في الصحيحين وفيه ذكر النميمة بدل الغيبة - رواه البخاري (٢١٨) كتاب الوضوء، ومسلم (٢٩٢) كتاب الطهارة.

(٣) حسن: رواه أحمد، وابن أبي الدنيا، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٤٠).

يَقُومُ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ^(١) وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ، قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ^(٢).

✽ وَعَنْ أَبِي بَرزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٣).

✽ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ^(٤) مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا^(٥) وَكَذَا - قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ: تَعْنِي قَصِيرَةً - فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مَزَجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا^(٦)، فَقَالَ: «مَا أَحَبُّ أَنْى حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنْ لِي كَذَا وَكَذَا»^(٧).

✽ قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعْنَى: «مَزَجَتْهُ» خَالَطَتْهُ مُخَالَطَةً يَتَغَيَّرُ بِهَا طَعْمُهُ أَوْ رِيحُهُ لِشِدَّةِ تَنَبُّهَا وَقُبْحِهَا . . . وهذا الحديث مِنْ أَبْلَغِ الزَّوَاجِرِ عَنِ الْغِيْبَةِ^(٨).

✽ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ مِنْ أَرَبَى الرَّبَا الْأَسْتِطَالَةَ فِي عَرَضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٩).

(١) يخمشون: يجرحون.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٣)، والصحيحة (٥٣٣).

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

(٤) حسبك: كافيك.

(٥) استدل العلماء بهذا الحديث بأن الغيبة تقع بغير اللسان. قال النووي: «وكذا سائر ما يتوصل به إلى فهم المقصود: كأن يمشي مشيته فهو غيبة، بل هو أعظم من الغيبة». «الزواجر» (١٧/٢).

(٦) «حكيت له إنساناً»: أى: حكيت له حركة إنسان يكرهها، بمعنى: فعلت مثل فعله.

(٧) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٠).

(٨) «رياض الصالحين» (ص ٤٤٨).

(٩) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٠٣).

❊ وَقَالَ ﷺ: «الرَّبَّا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ أَبًا، أَدْنَاهَا مِثْلُ إِثْنَانِ الرَّجُلِ أُمُّهُ، وَإِنَّ أَرْبَى الرَّبَّا اسْتَطَالَةَ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ»^(١).

❊ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا قُرْبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: كُلُّهُ مِيتًا كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا فَيَأْكُلُهُ وَيَكْلَحُ وَيَصِيحُ»^(٢).

بَابُ مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ

❊ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة... ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء.

بَابُ مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ

(١٥١٩) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(٣).

❊ وهذا الحديث صريح في أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت مصلحته... ومتى شك في ظهور المصلحة، فلا يتكلم.

يعنى: يتكلم بما هو خير... من ذكر الله ﷻ، وقراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدلالة على الخير، وإرشاد الضال، ودلالة

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٤٨٥): سنده حسن.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧٥) كتاب الرقاق - ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

مَنْ يحتاج إلى الدلالة على الخير ... كل ذلك يكون من الأعمال التي يستعمل فيها اللسان، وإذا لم يكن الإنسان يستعمل لسانه في الخير فلا أقل من أن يصمت ... وأما إن استعمله فيما يعود عليه بالضرر فإن وبالاً عظيم، وضرره كبير ... كما قال ﷺ: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاحِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

ويقولون: (كَلِمُ اللِّسَانِ أَنْكَأُ مِنْ كَلِمِ السِّنَانِ)، أى: الجرح الذى يكون باللسان أشد من الجرح الذى يكون بالسنان ... والإنسان إذا لم يتكلم بالكلمة غير السائغة فإنه يكون مالكا لها؛ ولكنه إذا تكلم بها ملكته ولم يملكها، فلا يستطيع ردها أو إرجاعها ... وفي المثل: كم من كلمة قالت لصاحبها دعنى! سواء ندم الإنسان عليها أو لم يندم عليها ولكنه تضرر بها ... فكأنها قالت له: دعنى قبل أن يقولها.. وقبل أن يقولها لو صرفها لسلّم؛ لكنه لما قالها وخرجت من فيه ترتبت عليها آثارها، ولا يتخلص الإنسان منها ... فإن كانت حقاً لله ﷻ فيستغفر الله ﷻ ويتوب، وإن كانت حقاً للناس فعليه أن يطلب منهم أن يجعلوه في حلٍّ مما نالهم به من الغيبة أو من الكلام الذى يسوءهم.

وعلى هذا: فعلى المسلم الناصح لنفسه أن يحفظ لسانه من الكلام إلا في خير، كما قال (عليه الصلاة والسلام) في هذا الحديث: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِتْ»، ففيه الترغيب في الكلام في الخير، والترهيب من الكلام في الشر؛ لأنه إذا لم يستعمله في الخير واستعمله في الشر، فإن مغبة ذلك ومضرته تعود عليه.

فما كان من خيرٍ فقله، وما كان من شر فاسكت عنه، واعلم أن الشر يؤذيك في الدنيا وفي الدين ... ويوم القيامة ينطق عليك لسانك شاهداً عليك بما قلت به وبما آذيت به غيرك، ولذلك فإن المؤمن يخطم نفسه ويكتم لسانه، ويسكت إلا في الخير، فينطق دون أن يملّ من الخير.

(١٥٢٠) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ المُسلمين أفضل؟ قال: «مَنْ سَلِمَ المُسلمونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٢١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٢١) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ»^(٢).

(١٥٢٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَّبِعُ فِيهَا يَزُلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»^(٣).

(١٥٢٣) وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقَى لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقَى لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(٤).

(١٥٢٤) وعن أبي عبد الرحمن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانُهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا كَانَ يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا سَخَطُهُ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ»^(٥).

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

هذه أحاديث في بيان خطر اللسان وأنه من أعظم ما يكون من الأعضاء

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٢) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

ما بين لحييه: أي لسانه - ما بين رجليه: أي الفرج.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٧٧) كتاب الرقاق، ومسلم (٢٩٨٨) كتاب الزهد والرقائق.

(٤) صحيح: رواه البخاري (٦٤٧٨) كتاب الرقاق.

(٥) صحيح: رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٩).

خطورة ... ففي الحديث الأول أن النبي ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ» الذي بين لحييه هو اللسان والذي بين الرجلين هو الفرج، سواء كان للرجل أو المرأة... يعنى مَنْ حفظ لسانه وحفظ فرجه ... حفظ لسانه عن القول المحرم، من الكذب والغيبة والنميمة والغش وغير ذلك، وحفظ فرجه من الزنا واللواط ووسائل ذلك... فإن النبي ﷺ يضمن له الجنة... يعنى أن جزاءك هو الجنة إذا حفظت لسانك وحفظت فرجك.. فزلة اللسان كزلة الفرج، خطيرة جداً، وإنما قرن النبي ﷺ بينهما لأن في اللسان شهوة الكلام ... فكثير من الناس يتنطع ويتلذذ إذا تكلم في أعراض الناس ويتفكه والعياذ بالله ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] فتجده أحب شيء عنده أن يتكلم في أعراض الناس... ومن الناس مَنْ يهوى الكذب، فتجد أحسن شيء عنده هو الكذب ... والكذب من كبائر الذنوب.

وأما الثانى: الذى قرن بينه وبين شهوة الكلام فهو شهوة النساء، فإن الإنسان مجبول على ذلك ولا سيما إذا كان شاباً... فإذا حفظ هاتين الشهوتين، ضمن النبي ﷺ له الجنة... أى هذا جزاؤه، لأنهم خطيران.

﴿وأما الحديث الثانى: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب» الكلمة (ما يتبين فيها) يعنى لا يتأكد ... ينقل ما سمع «وكفى بالمرء كذباً أن يُحدثَ بكلِّ ما سمع»^(١). فتجده يتكلم بالكلمة ولا يتبين ولا يتثبت ولا يدرس معناها ولا يدرس ماذا توصل إليه، والعياذ بالله يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

ومسافة ما بين المشرق والمغرب بعيدة جداً... نصف الكرة الأرضية، ومع ذلك كلمة واحدة زلَّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب.

(١) صحيح: رواه مسلم (٥) كتاب المقدمة.

وهذا يدل على وجوب التأكد مما تتكلم به، سواء نقلته إلى غيرك أو نقلته عن غيرك ... تثبت، واصبر، لا تستعجل، ما الذى يوجب لك أن تستعجل فى المقال؟ اصبر حتى تثبت ويتبين لك الأمر، ثم إن رأيت مصلحة فى الحديث فتحدث، وإذا لم تر مصلحة فى الحديث فاسكت «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

❁ وأما الحديث الثالث: هو أن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله ... يعنى كلمة تُرضى الله ... قرآن، تسبيح، تكبير، تهليل، أمر بالمعروف، نهى عن المنكر، تعليم علم، إصلاح ذات البين، وما أشبه ذلك ... يتكلم بالكلمة تُرضى الله ﷻ ولا يُلقى لها بالاً ... يعنى أنه لا يظن أنها تبلغ به ما بلغت، وإلا فهو قد درسها وعرفها وألقى لها البال، لكن لا يظن أن تبلغ ما بلغت يرفعه الله بها درجات فى الجنة ... وفى المقابل فهذا رجل يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقى لها بالاً يهوى بها فى النار، لأنه تكلم بها وما ظن أن تبلغ ما بلغت ... وهذا يقع كثيراً من الناس والعياذ بالله.

قَالَ ﷺ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا مُذْنِبًا، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدًا فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلْنِي وَرَبِّي أَبْعَثَ عَلَى رَقِيًّا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يَدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ، فَنَبْضُ رَوْحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لَهُمَا الْمُجْتَهِدُ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ»^(٢).

❁ وَعَنْ جُنْدِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، حَدَّثَ: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٤٧٥) كتاب الرقاق، ومسلم (٤٧) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٥٥).

اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَى أَنْ لَا أَعْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»^(١).

انظر، والعياذ بالله.. تحجّر واسعًا وتألّى على الله، وقال: والله لا يغفر الله لفلان.

لأن الرجل العابد هذا مُعجَبٌ بعمله، يرى نفسه، ويدلّ بعمله على ربه، وكأن له المنّة على الله سبحانه وتعالى، فقال: «وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَى أَنْ لَا أَعْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» المُلْكُ والسلطان لمن؟ لله عَزَّ وَجَلَّ... المُلْكُ ليس لك حتى تقول: والله لا يغفر الله لفلان.

والملك والسلطان لله لا ينازعه فيه منازع إلا أذله الله... قال: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَى - أَى: يحلف على - أَنْ لَا أَعْفِرَ لِفُلَانٍ؟ قد غفرت لفلان وأحبطت عملك... كلمة واحدة صارت سببًا لحبط عمله... نسأل الله العافية.

إذَا... احذر زلة اللسان... ومن ذلك أيضًا - أَى من زلل اللسان - إذا قال رجلٌ مثلاً: يا فلان، إن جارنا لا يصلى لعلك تنصحه إن شاء الله... قال له: هذا لا يمكن أن يهتدى أبداً... هذا طاغٍ.. هذا فاسق.

أعوذ بالله... القلوب بيد مَنْ؟ بيد الله عَزَّ وَجَلَّ كما أخبرنا النبي ﷺ وقال: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»^(٢).

وهذا شيء مُسَلَّمٌ به حتى إن الإنسان أحياناً يجد في قلبه أشياء يعرف أنها من الشيطان، وأنه إن لم يُثَبِّتْهُ الله زَلَّ... فالقلوب بيد الله عَزَّ وَجَلَّ فكيف تقول: هذا لا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٥٤) كتاب القدر.

يمكن أن يهتدى أبداً!!!... هذا لا يجوز... عليك بالدعاء له بالهداية ولا تيأس...
 ألا يوجد في هذه الأمة مَنْ كان من ألد أعدائها وأشد خصومها؟ وكان ثانياً اثنين
 في زعامة الأمة بعد نبينا محمد ﷺ؟... إنه عمر بن الخطاب... نعم لقد كان
 عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مناوئاً للدعوة الإسلامية، وكان يُحذر منها وكان يفر منها
 وكان من ألد أعدائها، فهذه الله فصار هو الخليفة الثاني بعد الرسول
 ﷺ... وكذلك خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، ماذا فعلا في أحد؟ كراً
 على المسلمين من الخلف على فرسيهما ومعهما فرسان آخرون واختلطوا
 بالمسلمين وحدثت الهزيمة وفي النهاية كانا قائدَيْن عظيمين من قواد المسلمين.
 فلا تيأس يا أخى، واسأل الله الهداية والثبات... ولا تزل بلسانك، فتهلك،
 حمانا الله من معاصيه، ووفقنا لما يُرضيه، إنه على كل شيء قدير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٢٥) وعن سُفيان بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ
 أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ: «قُلْ: رَبِّىَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَخَوْفُ مَا تَخَافُ
 عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هذا»^(٢).

❁ أما الشق الأول من الحديث فسبق شرحه بفضل الله عز وجل عند شرحنا
 للحديث رقم (٨٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم... وفيه قال النبى ﷺ
 لسُفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قل: آمَنتُ بالله ثُمَّ اسْتَقِمْ» أى: ائتِ أولاً بالأساس للأعمال
 الصالحة وهو الإيمان.. ثُمَّ اسْتَقِمْ بامْتثال الأوامر واجتناب النواهي... وهو لفظٌ
 جامع لجميع الأوامر والنواهي؛ فإنه لو ترك أمراً أو فعلَ منهياً فقد عدل عن
 الطريق المستقيمة حتى يتوب^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٤/٥٦-٥٩) بتصرف.

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وقال الألبانى فى صحيح الترغيب (٢٨٦٢): حسن صحيح.

(٣) تحفة الأحوذى (٦/٢٨٠).

وهو موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾.

✽ قال سفيان: قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليّ؟

أى: ما أكثر الأشياء التى تخاف منها عليّ؟ أى: أن أهلك بسببها.. فأخذ النبي ﷺ بلسان نفسه ثم قال ﷺ: «هذا».. أى أن هذا أكثر ما أخاف منه عليك. وذلك لأنه سهل الحراك وفى حراكه أنواع الهلاك إلا إذا قيد بقيود الشريعة وحُبس عليها... قال العاقولى: أسند الخوف إلى اللسان لأنه زمام الإنسان، فإذا أطلقه لزم منه «ما» لن يرضى صاحبه شاء أو أبى... وليس هذا الوصف فى عضو آخر من الأعضاء سواه^(١).

بَابُ مَا أَخَافُ مِنَ الْخَوْفِ

(١٥٢٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُكثِرُوا الكلامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ الْقَلْبُ الْقَاسِي»^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ

بَابُ مَا أَخَافُ مِنَ الْخَوْفِ

(١٥٢٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٣).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٢١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَابُ مَا أَخَافُ مِنَ الْخَوْفِ

(١) دليل الفالحين (٤/ ٢٨٧).

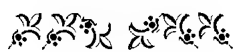
(٢) ضعيف: رواه الترمذى، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٦٢٦٥).

(٣) صحيح: رواه الترمذى، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥٩٣) - وأصله فى صحيح البخارى (٦٤٧٤) كتاب الرقاق.

(١٥٢٨) وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»^(١).

وفي هذا الحديث أن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبي ﷺ عن سبيل النجاة.. رغم أنه لم يكن في زمان الفتن.. بل كان يعيش مع النبي ﷺ وأصحابه.. أى: في زمن الخير والصلاح والنور والهداية والحب والإيثار.. ومع ذلك يسأل عن النجاة كيف تكون؟ وكأنه يسأل هذا السؤال لنستفيد نحن من الإجابة ونعلم كيف تكون النجاة.. فأخبره النبي ﷺ أن النجاة في ثلاثة أشياء فقال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ» أى احفظه عما لا خير فيه ولا تجره إلا بما يكون لك لا عليك واحفظه من الكذب والغيبة والنميمة والقذف والسب والشتم والبُهتان وشهادة الزور وغير ذلك من آفات اللسان المهلكة.

«وَلَيْسَعَكَ بَيْتُكَ» الأمر في الظاهر وارد على البيت.. والمقصود به المُخاطَب: أى: تعرض لما يكون سبباً في لزومك البيت من الاشتغال بطاعة الله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار... «وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ» أى اندم على ذنوبك وابكي من خشية الله عسى أن تكون يوم القيامة في ظل عرش الرحمن «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»... فتذكر ذنوبك دائماً وأكثر من التوبة والاستغفار.



(١٥٢٩) وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ، تَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجَتْ اعْوَجَجْنَا»^(٢).

(١) صحيح: رواه الترمذی، وصححه الألبانی فی صحيح الجامع (١٣٩٢).

(٢) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٣٥١).

«تُكْفِّرُ اللِّسَانَ»: أى تَدِلُّ وَتَخْضَعُ لَهُ.

❦ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه «إذا أصبح ابنُ آدم» أى: دخل في الصباح وبدأ يومه... فإن هناك أشياء تحدث ولا يدري بها.

«فإنَّ الأعضاء كُلَّهَا تُكْفِّرُ اللِّسَانَ» أى: أن جميع الجوارح والأعضاء تتذلل وتخضع وتتواضع للسان.. والتكفير: هو انحناء قريب من الركوع.. من قولهم: كفر اليهودى إذا خضع وطأ رأسه وانحنى لتعظيم صاحبه.

«تَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فينا» أى: أن الأعضاء تقول ذلك حقيقة للسان.. أو هو مجازٌ بلسان الحال... فتقول للسان «اتَّقِ اللهَ فينا» أى: خَفِ اللهَ فينا وفى حفظ حقوقنا.

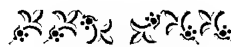
«فإنَّما نحنُ بِكَ» أى: نتعلق ونستقيم أو نعوج بك وبسببك.. أو: نحن مُجازون بما يصدر عنك.

«فإن استَقَمَّتْ استَقَمْنَا» أى: إن اعتدلت اعتدلنا تبعاً لك.

«وإن اعوجَجَتْ اعوجَجْنَا» أى: إن ملتَ عن طريق الهدى ملنا عنه اقتداءً بك.

قال الطَّبِيبُ: فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ: «إِنْ فِي الْجَسَدِ لَمْضَغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». قُلْتَ: اللِّسَانُ تُرْجَمَانُ الْقَلْبِ، وَخَلِيفَتُهُ فِي ظَاهِرِ الْبَدَنِ، فَإِذَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ فِي الْحُكْمِ، كَمَا فِي قَوْلِكَ: شَفَى الطَّبِيبُ الْمَرِيضَ.

قَالَ الْمِيدَانِيُّ فِي قَوْلِهِ: «الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ يَعْنِي بِهِمَا: الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ» أَيْ يَقُومُ وَيُكْمِلُ مَعَانِيَهُ بِهِمَا^(١).



(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٢٧٧-٢٧٨).

(١٥٣٠) وعن معاذ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويباعدني عن النار؟ قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل» ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، [١٧]، ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه قال: «كفَّ عَلَيْكَ هَذَا» قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «تَكَلَّمْتُ أَمَّا، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(١).

✽ قال معاذ بن جبل: «قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويباعدني عن النار» هذا فيه ما ينبغي من التأدب مع أهل العلم... لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه من أعلم هذه الأمة بالحلال والحرام.. بل هو أعلم الأمة بالحلال والحرام.

فهو من أهل العلم، وهذا يدل على أن طالب العلم ينبغي عليه أن يكون حريصاً على ما يقربه من الجنة، ويباعده عن النار... قال معاذ: «يا رسول الله، أخبرني بعمل يُدخلني الجنة، ويباعدني عن النار».

وهذا مما ينبغي لكل طالب علم أن يحرص على ما يقربه إلى الجنة، وما يباعده عن النار... لأن العلم له شهوة، والعلم له عنفوان، وقد يصرف صاحبه عن السعي في الغاية من العلم، وهو ما يقرب من الجنة، وما يباعد عن النار.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

وقد قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: إن للعلم طغياناً كطغيان الماء.

فالعلم يُطغى إذا لم يكن صاحبه يسعى فيما يقربه إلى الجنة، ويباعده عن النار. فالعلم له مقتضيات كثيرة، وأصحاب العلم وأهل العلم وطلبة العلم ينبغي لهم أن يكونوا أئین الناس في غير تفريط، وأن يكونوا أبصر الناس، وأحق الناس بالحكمة والأخذ بما يقربهم إلى الله (جل وعلا)؛ فهم القدوة، وهم البُصراء في العلم والعمل. لهذا سأل معاذ هذا السؤال، وذلك من حكمة الله (جل وعلا) أن يسأل ليُبصّر أهل العلم جميعاً بما ينبغي أن يكونوا عليه.

قال: «أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار».

قال رَحِمَهُ اللهُ: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله - تعالى - عليه».

هذا السؤال سؤال عظيم، وهو شاقٌّ من حيث الامتثال، لكنه يسير على مَنْ يسره الله عليه، إذا أقبل العبد يُسرّ عليه الأمر، كما قال رَزَقَانِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-٧] فتيسير الله - جل وعلا - أمور الخير للعبد هذا يكون بشيء يبذله العبد: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-٧].

قال (عليه الصلاة والسلام) هنا: «وإنه ليسير على مَنْ يسره الله تعالى عليه» ثم فصل فقال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً» يعني: أن تتوجه بجميع أنواع العبادات إلى الله (جل وعلا) وحده... فإذا دعوت دعوت الله، وإذا سألت سألت الله، وإذا صليت صليت لله، وإذا استغثت استغثت بالله، وإذا أعظمت الرجاء أعظمته بالله. وكل العبادات القلبية، واللسانية، والعملية بالجوارح كلها تكون لله (جل وعلا) وحده، ولا يكون لمخلوق فيها نصيب... قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً» يعني: كبير الشرك وصغيره وخفيّه... لأن كلمة «شيئاً» نكرة جاءت في سياق النفي فتعم كل ما كان في معناها. فلا يشرك بأى شيء.

«وتُقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» وهذه الأربعة مَرَّ بيَّانها... ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنة، والصدقة تُطفئ الخطيئة» الصوم يريد به صوم النفل؛ لأنه قدم صيام رمضان. «الصوم جُنة» يعنى: وقاية يقى العبد من سخط الله وعذابه.

لأن الصيام فيه تذكير بحقوق الله (جل وعلا) وحقوق عباده، فهو جُنة من نفوذ الشيطان إلى العبد... قال: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» الصدقة بأنواعها تطفئ الخطايا.. الصدقة بالقول وبالعمل، الواجبة والمستحبة، والصدقة بالمال، كل هذه تطفئ الخطايا؛ لأنها حسنات.... والله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ الشَّيْئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

كلما حصلت منك خطيئة فعليك بكثرة الصدقات، «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» النار إذا شَبَّتْ لا يُطفئها إلا الماء، فإنك تأتى بالماء فتنتطفئ، وهذا مثال الحسنات بعد السيئات... قال: «وصلاة الرجل في جوف الليل» صلاة الرجل في جوف الليل، يعنى: أن يقوم الليل القيام المستحب... وقيام الليل على درجات، وأعلاه أن يكون كقيام المصطفى ﷺ الذى جاء في آخر سورة المزمل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلَاثُهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «رأس الأمر الإسلام» لأن الأمر الذى هو الدين رأسه الإسلام، فإذا صُدع الرأس فلا حياة... فإذا ذهب الإسلام فلا حياة للمرء في الدين، ولذا قال: «رأس الأمر الإسلام» وهو الاستسلام لله (جل وعلا) بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله... قال: «وعמודه الصلاة» العمود هو ما يقوم عليه البناء.

لأن الصلاة هى الركن العملى الذى به يحصل الامتثال لمقتضيات الإيمان العملية، يعنى: بركن الإيمان الذى هو العمل... فالإيمان: قولٌ واعتقادٌ وعملٌ،

والعمل عموده الصلاة، فإذا ذهبت الصلاة فلا قيام في ذلك..

لهذا قال عمر: «لا حظاً في الإسلام لمن ترك الصلاة»... وثبت عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»^(١). قال ﷺ بعد ذلك: «وذروة سنامه الجهاد».

«ذروة سنامه» تشبيه للأمر بالجَمَل... والجَمَل أعلاه ذروة السنام، والجمل متحرك، والجهاد أيضاً يبعث على الانتشار والتحرك... فهو سبب انتشار الإسلام، وامتداد الدخول في الدين... فمثله - عليه الصلاة والسلام - يعنى: مثل الدين بالجَمَل -، وجعل الجهاد من هذه الراحلة ذروة السنام؛ لأنه بارز متميز. فالإسلام تميز من بين الأديان كتميز الجمل بذروة سنامه^(٢).

✽ ثم قال له ﷺ: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» ملاك الأمر: هو جماع الأمر... وهو ما يملك أطرافه ووصلبه وحواشيه... كأنه يقول: ألا أخبرك بما تمتلك به كل ما تقدّم؟

قال معاذ: بلى يا رسول الله ﷺ.

فأخذ النبي ﷺ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا».

فتعجب معاذ وقال للنبي ﷺ: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ أى: بكل صغير وكبير مما يخرج من ألسنتنا.

فقال له ﷺ: «تَكَلَّمْتَ أُمَّكَ» أى: فقدتك أمك يا معاذ.. وهو دعاء عليه بالموت ولا يُراد وقوعه.. بل هو من باب التنبيه من الغفلة وتعظيم للأمر.. وهى كلمة كانت مشهورة ودارجة على ألسنة العرب في ذلك الوقت.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٣).

(٢) شرح الأربعين النووية (ص ٢٣٥-٢٣٩) بتصرف كبير.

«وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ» أَيْ: وَهَلْ يُسْقَطُ وَيَصْرَعُ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ «إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».

كَأَنَّ اللِّسَانَ يَزْرَعُ أَشْيَاءً.. فَإِنْ زَرَعَ خَيْرًا جَنَيْتَ خَيْرًا وَإِنْ زَرَعَ شَرًّا جَنَيْتَ شَرًّا.. وَمَنْ زَرَعَ الْوَرْدَ جَنَى وَرْدًا.. وَمَنْ زَرَعَ شَوْكًَا جَنَى شَوْكًَا.

فَاللِّسَانُ أَخْطَرُ مَجَارِحَةٍ... وَنَجَاةُ الْجَسَدِ أَوْ هَلَاكُهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.. فَإِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ صَلَحَ اللِّسَانُ وَنَجَا الْجَسَدُ كُلُّهُ.. وَإِنْ فَسَدَ الْقَلْبُ فَسَدَ اللِّسَانُ وَهَلَكَ الْجَسَدُ وَصَاحِبُهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٣١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَدْرُونَ مَا الْغِييَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ»^(١).

(١٥٣٢) وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنَى فِي حَبَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَغْتُ»^(٢).

(١٥٣٣) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةٍ كَذَا وَكَذَا. قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ: تَعْنِي قَصِيرَةً. فَقَالَ: «لَقَدْ قُلْتَ كَلِمَةً لَوْ مُزِجْتَ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ» قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ: «مَا أَحَبُّ أُنَى حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَإِنَّ لِي كَذَا وَكَذَا»^(٣).

(١٥٣٤) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ بِهَا وُجُوهُهُمْ وَصُدُّوهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٥٠) كتاب الأضاحي، ومسلم (١٦٧٩) كتاب القسامة.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٤٠).



جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»^(١).
 (١٥٣٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ وَعِرْضُهُ وَمَالُهُ»^(٢).

❖ سبق شرح كل هذه الأحاديث في مقدمة هذا الباب .. (باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٣)، والصحيحة (٥٣٣).
 (٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.



فهرس الموضوعات

- ٥ (٢٠٥) باب الحث على صلاة الوتر
- ١٠ (٢٠٦) باب فضل صلاة الضحى
- ١٥ (٢٠٧) باب تجويز صلاة الضحى من ارتفاع الشمس إلى زوالها
- ١٦ (٢٠٨) باب الحث على صلاة تحية المسجد ركعتين
- ١٩ (٢٠٩) باب استحباب ركعتين بعد الوضوء
- ٢١ (٢١٠) باب فضل يوم الجمعة ووجوبها والاغتسال لها
- ٣٤ (٢١١) باب استحباب سجود الشكر
- ٣٦ (٢١٢) باب فضل قيام الليل
- ٦٢ (٢١٣) باب استحباب قيام رمضان (وهو التراويح)
- ٦٦ (٢١٤) باب فضل قيام ليلة القدر
- ٧٣ (٢١٥) باب فضل السواك وخصال الفطرة
- ٨٣ (٢١٦) باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها
- ١٠٨ (٢١٧) باب وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصيام وما يتعلق به
- ١٢٠ (٢١٨) باب الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير في شهر رمضان
- ١٢٣ (٢١٩) باب النهى عن تقدّم رمضان بصوم بعد نصف شعبان
- ١٢٥ (٢٢٠) باب ما يُقال عند رؤية الهلال
- ١٢٦ (٢٢١) باب فضل السحور وتأخير ما لم يخشَ طلوع الفجر
- ١٢٩ (٢٢٢) باب فضل تعجيل الفطر
- ١٣٤ (٢٢٣) باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه
- ١٣٦ (٢٢٤) باب في مسائل من الصوم
- ١٣٩ (٢٢٥) باب بيان فضل صوم المحرم وشعبان والأشهر الحرم

- (٢٢٦) باب فضل الصوم وغيره في العشر الأول من ذي الحجة..... ١٤٢
- (٢٢٧) باب فضل صوم يوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء..... ١٤٣
- (٢٢٨) باب استحباب صوم ستة أيام من شوال..... ١٤٦
- (٢٢٩) باب استحباب صوم الإثنين والخميس..... ١٤٨
- (٢٣٠) باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر..... ١٥٠
- (٢٣١) باب فضل مَنْ فطَّر صائماً .. إلخ..... ١٥٢

(٩) كتاب الاعتكاف

- (٢٣٢) باب الاعتكاف في رمضان..... ١٥٥

(١٠) كتاب الحج

- (٢٣٣) باب وجوب الحج وفضله..... ١٥٧

(١١) كتاب الجهاد

- (٢٣٤) باب فضل الجهاد..... ١٧٥
- (٢٣٥) باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة ... إلخ..... ٢٥٠
- (٢٣٦) باب فضل العتق..... ٢٥٧
- (٢٣٧) باب فضل الإحسان إلى المملوك..... ٢٦٠
- (٢٣٨) باب فضل المملوك الذي يؤدي حق الله وحق مواليه..... ٢٦٥
- (٢٣٩) باب فضل العبادة في الهرج وهو الاختلاط والفتن ونحوها..... ٢٦٩
- (٢٤٠) باب فضل السماحة في البيع والشراء والأخذ والعطاء... إلخ..... ٢٧١

(١٢) كتاب العلم

- (٢٤١) باب فضل العلم تعلُّماً وتعليماً لله..... ٢٨٥



(١٣) كتاب حمد الله تعالى وشكره

(٢٤٢) باب فضل الحمد والشكر ٣١٣

(١٤) كتاب الصلاة على رسول الله ﷺ

(٢٤٣) باب فضل الصلاة على رسول الله ﷺ ٣١٩

(١٥) كتاب الأذكار

(٢٤٤) باب فضل الذكر والحث عليه ٣٢٩

(٢٤٥) باب ذكر الله تعالى قائماً وقاعداً ومضطجعاً ... إلخ ٣٧٦

(٢٤٦) باب ما يقوله عند نومه واستيقاظه ٣٧٩

(٢٤٧) باب فضل حلق الذكر ٣٨٠

(٢٤٨) باب الذكر عند الصباح والمساء ٣٨٩

(٢٤٩) باب ما يقوله عند النوم ٤٠٢

(١٦) كتاب الدعوات

(٢٥٠) باب فضل الدعاء ٤٠٩

(٢٥١) باب فضل الدعاء بظهر الغيب ٤٥١

(٢٥٢) باب في مسائل من الدعاء ٤٥٤

(٢٥٣) باب كرامات الأولياء وفضلهم ٤٦١

(١٧) كتاب الأمور المنهى عنها

(٢٥٤) باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان ٤٨٩

فهرس الموضوعات ٥٠٩

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي عندما كنت وجدت القرآن الكريم وهو كتاب وياض الصالحين
للإمام النووي وكنت أجد القراء في هذا الكتاب تكثر في كتبهم الكثير من الأحاديث
ولمست أن أجد كتاب بهلا فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ (١١٠٠) حديثاً
يقوم الإمام ويشرح الله تصديقه شرح هذا الكتاب فترغبت حينئذ في شرح هذا الكتاب
الممتع الذي استطاع الإمام النووي من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية
والعبادات وقلة العبادات والمعاملات فوجدته قدما شاملا لكل شيء فاستعنت به
بما جئت به من حاشية الإمام في الكتاب وطلعت عليه وكتبت في الحاشية ما أريد فيه
بفضل الله أحببت أن أجد تصديقه في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستطيع من
يستعمله أن لا كتبت الحاشية الكثيرة والكثيرة ولعلكم تلاحظون حسن ما كتبت فاستعملوا
شرح هذا الكتاب القيم

فأرسلت في ذلك الوقت إلى أخي أبي رافع أن يكتب هذا الكتاب القيم
لجميع من يحب على الصالحين . كتاب الله سنة رسول الله كتبت في حاشية
على الإسلام والتسليم في كل مكان .

أسأل الله عز وجل أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي رافع
(رحمة الله عليهما) آمين حسنات كل من يشترى هذا الكتاب ويستعمل به .
وأرجو ألا تنكروا على من يخبره صائفة يظهر الغيب بأن يرزقني الله عز وجل الإخلاص في القول
والعمل وأن يرزقني حسن الخاتمة وأن يجعلني بكم في الفردوس الأعلى مع النبي المصطفى

الفقيه في عفة الرحيم الغفار

عبد الرحمن النجدي



شَرْحُ
فَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ
مُحَمَّدِ بْنِ الْمَصْرِفِ
أَبُو عَمَّارٍ

لِلْإِمَامِ أَبِي زَكْرِيَّا
يَحْيَى بْنِ شَرَفِ النَّوَوِيِّ

الْجُزْءُ السَّابِعُ



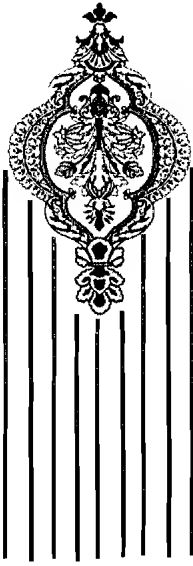
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



شَيْخ

رَبِيعُ الصَّالِحِينَ

مِنْ كَلَامِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ

حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٢٥-٤٢

أَفَلَا يَحِجُّونَ عَنِ آلِ مُوسَىٰ

مکتبہ الصفا

لِلنَّشْرِ وَالنَّوْزِيعِ

شرح ریاض الصالحین

من کلام سید المرسلین ﷺ

للإمام أبي زكريا
يحيى بن شرف النووي

مسنخ
فضيلة الشيخ الدكتور
محمد بن المصطفى
أبو عماد
الجزء السابع

مكتبة الصفا للنشر والتوزيع

تأليف ٢٠١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٠١٤٧٩٧٤



(٢٥٥) باب تحريم سماع الغيبة

وأمر من سمع غيبة محرمة بردها،

والإنكار على قائلها، فإن عجز أو لم يقبل منه

فارق ذلك المجلس إن أمكنه

❖ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيهِ إِيَّاكُنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ وَإِنَّمَا يُنِيسُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

❖ فبعد أن ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ النصوص الواردة في تحريم الغيبة أعقب ذلك

بهذا الباب الذى يوضح فيه أن إثم الغيبة لا يقتصر على المغتاب فحسب.. بل

يتعدى إلى المستمع.. فالمغتاب والمستمع وزرهما سواء.. ولذا فإنه يجب على

مَن يستمع إلى الغيبة أن ينهى المغتاب عن ذلك حتى لا يشاركه فى الإثم.. فإن لم

ينتهِ فعليه أن يفارق ذلك المجلس لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ

عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، فدل ذلك على أن الإنسان إذا

استمع إلى المحرم، فهو مشارك لمن يفعل هذا المحرم... فالواجب أن يقوم... ثم

ذكر آيات متعددة فى بيان الإعراض عن اللغو... واللغو هو: الكلام الذى لا فائدة

فيه... قال الله تعالى فى وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:

٧٢]، يعنى سالمين منه لا يلحقهم شئ منه لا يستمعون إليه ولا يصغون له.

❁ واعلم أيها الأخ الحبيب أن الذي يستمع للغيبة مشارك للمغتتاب في الوزر... والدليل على ذلك أنه في قصة توبة ماعز الأسلمي رضي الله عنه جاء في بعض الروايات أنه لما رجم رسول الله ﷺ ماعزًا في الزنا قال رجل لصاحبه: هذا رُجم رَجَم الكلب... فمرَّ رسول الله ﷺ وهما معه بجيفة فقال: «انهشها منها» فقالا: نهش جيفة؟! فقال: «مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتُنِ مِنْ هَذِهِ»^(١).

❁ والشاهد هو قول النبي ﷺ: «ما أصبتما» فحكم على المستمع أنه إن لم يدفع الغيبة عن أخيه فهو والمغتتاب في الوزر سواء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٣٦) وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

❁ فعلى مَنْ سمع الغيبة أن يردّها، وينصح قائلها، فإن لم يقبل المغتتاب منه النصيحة، وجب عليه أن يفارق ذلك المجلس... فإن فعل ذلك، فقد أدّى ما عليه من حق أخيه، وإن خذله خذله الله في موطن يُحبُّ فيه نصرته.

قال الإمام النووي رحمته الله: «ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردّها ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان، فارق ذلك المجلس... فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممّن له عليه حق، أو كان من أهل الفضل والصّلاح، كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر».

❁ فعن جابر بن عبد الله، وأبي طلحة بن سهل الأنصاريّ قالا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا مِنْ أَمْرِي يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ وَيُنْتَقَضُ فِيهِ مِنْ عَرَضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرِي يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ

(١) رواه أبو داود (٤٤٤ / ١٤٨)، والنسائي بسند جيد وأصله في صحيح مسلم.

(٢) صحيح نزواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٦٢).



يُسْتَقْصُ فِيهِ مِنْ عَرِضِهِ وَيُسْتَهْكَ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ نَصْرَتَهُ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٣٧) وعن عُبَّانِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ الْمَشْهُورِ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي بَابِ الرَّجَاءِ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فَقَالَ: «أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُمِ؟» فَقَالَ رَجُلٌ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لَا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّا عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْمَ (٤٢٢) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٣٨) وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَدِيثِهِ الطَّوِيلِ فِي قِصَّةِ تَوْبَتِهِ وَقَدْ سَبَقَ فِي بَابِ التَّوْبَةِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بَنُوكَ: «مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالتَّظَرُّ فِي عِطْفِيهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِئْسَمَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٣).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّا عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْمَ (٢٢) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والضياء وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٩٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١١٨٦) كتاب التهجد - ومسلم (٣٣) كتاب الإيمان.

«وعُبَّانٌ» بكسر العين على المشهور، وحكى ضمه، وبعدها تاء مشناة من فوق، ثم باء موحدة. و«الدُّخْشُمُ» بضم اللدال وإسكان الخاء وضم الشين المعجمتين.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٤١٨) كتاب المغازي - ومسلم (٢٧٦٩) كتاب التوبة.

«عِطْفَاهُ» جانيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه.

(٢٥٦) باب ما يباح من الغيبة

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: اعلم أن الغيبة تُباح لغرضٍ صحيح شرعى لا يمكن الوصول إليه إلا بها.. وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمنى فلان بكذا.

الثانى: الاستعانة على تغيير المنكر، وردّ العاصى إلى الصواب.

فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا؛ فازجره عنه، ونحو ذلك... ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء؛ فيقول للمفتى: ظلمنى أبى، أو أخى أو زوجى، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقى فى الخلاص منه، وتحصيل حقى، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك.... فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول فى رجلٍ أو شخصٍ، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين.. ومع ذلك فالتعيين جائز كما سنذكره فى حديث هند إن شاء الله تعالى.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه:

منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها: المشاورة فى مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته... ويجب على المشاور أن لا يخفى حاله، بل يذكر المساوى التى فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفق بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة،

وهذا مما يُغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويُلبس الشيطان عليه ذلك، ويُخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما ألا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، أو مغفلاً، ونحو ذلك... فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولّى مَنْ يُصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته: كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلماً، وتولّى الأمور الباطلة... فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقب كالأعمش، والأعرج والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك.. ويحرم إطلاقه على جهة التنقيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى. فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مُجمَعٌ عليه، ودلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورة... فمن ذلك: ^(١)

﴿لَا يَجُوزُ لِمَنْ كَانَ عَلَيْهِ عِلْمٌ بِذَنْبٍ أَنْ يَكُونَ يَتَعَلَّمُ بِهِ﴾

(١٥٣٩) عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: «اُذْنُوا لَهُ، يَسْأَلُ أَخُو الْعَشِيرَةِ؟» ^(٢).

احتج به البخاري في جواز غيبة أهل الفساد وأهل الريب.

❁ ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ استأذن عليه رجل، يعنى ليدخل بيته

(١) رياض الصالحين (ص: ٤٤١، ٤٤٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٥٤) كتاب الأدب - ومسلم (٢٥٩١) كتاب البر والصلة والآداب.

فقال: «اتَّقُوا لَهُ، بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ»، وكان هذا الرجل من أهل الفساد والغى.
فدلَّ هذا على جواز غيبة مَنْ كان من أهل الفساد والغى وذلك من أجل أن
يحذر الناس فساده حتى لا يغتروا فيه ... فإذا رأيت شخصاً ذا فسادٍ وغىٍّ لكنه قد
سحر الناس ببيانه وكلامه يأخذ الناس منه ويظنون أنه على خير، فإنه يجب عليك
أن تبين أن هذا الرجل لا خير فيه وأن تُثني عليه شراً؛ لأجل ألا يغتر الناس به...
فكم من إنسانٍ طلق اللسان فصيح البيان إذا رأته يعجبك جسمه وإن يقول تسمع
لقوله، ولكنه لا خير فيه... فالواجب بيان حاله^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٤٠) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظنُّ فلاناً وفلاناً
يعرفان من ديننا شيئاً»^(٢).

قال الليثُ بنُ سعدٍ أحدُ رواةِ هذا الحديث: هذان الرَّجُلَانِ كانا مِنَ المنافقين.
✽ ففى هذا الحديث تخبرُ أُمنا عائشة أن النبي ﷺ قال: «ما أظنُّ فلاناً وفلاناً
يعرفان من ديننا شيئاً» فالذى دعا النبي ﷺ إلى أن يقول ذلك أن هذين الرجلين
كانا من المنافقين.. وقد كان كثيرٌ من المنافقين لا يجهرون بنفاقهم حتى لا يعلم
أحدٌ بشأنهم.. لكن هذين الرجلين قد ظهر نفاقهما فأراد النبي ﷺ أن يُحذر
منهما حتى لا يغتر الصحابة بهما.. وبخاصة وأن المنافقين كانوا يُخذلون الناس
من حولهم ويبثون الشائعات بينهم ويتكلمون في حق النبي ﷺ وأصحابه بكلام
لا ينبغي أن يُقال.. مما دعا النبي ﷺ إلى أن يقول هذا ليُحذر الصحابة من شرِّ
هذين الرجلين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٤/٦٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٠٦٧) كتاب الأدب.

(١٥٤١) وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فقلت: إنَّ أبا الجَهْمَ ومُعاويةَ خُطْباني؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أَمَّا مُعاويةُ فُصِّلْ لَكَ لا مالَ له، وأمَّا أبو الجَهْمِ فلا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث أن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أتت النَّبِيَّ ﷺ فأخبرته أنها قد تقدم لخطبتها أبو الجهم ومعاوية رضي الله عنهما.. وكأنها تستشير النَّبِيَّ ﷺ في زواجها.. هل توافق على أبي الجهم أم معاوية؟.. فقال النَّبِيَّ ﷺ: «أَمَّا مُعاويةُ فُصِّلْ لَكَ لا مالَ له» أي: أنه فقير ليس عنده مال.. ومن الواضح أنها كانت غنية وربما تتضرر لقلّة ذات اليد عند معاوية.. وإلا فلو كانت فقيرة لما قال لها النَّبِيَّ ﷺ ذلك... وسبحان مُغير الأحوال.. فقد كان معاوية فقيراً ثم أصبح بعد ذلك أميراً للمؤمنين.

❦ ثم قال لها النَّبِيَّ ﷺ: «وأَمَّا أبو الجَهْمِ فلا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» وتلك الكلمة لها معنيان: إما أنه كثير الضرب للنساء.. وفاطمة بنت قيس من الطبقة الغنية التي لا تتحمل هذه المعاملة فيهاها النَّبِيَّ ﷺ عن الزواج منه.. لأنه سيئ العشرة مع النساء.. يضرهن.. والمرأة لا يجوز ضربها إلا لسبب بيّنه الله في قوله: ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعُظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُمْ﴾ [البقرة: ٣٤] أما أن تضرب امرأتك كلما خالفت أية مخالفة، فهذا غلط ولا يحل.. لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] لكن إذا خفت نشوزها وترفعها عليك وعدم قيامها بواجبك، فاستعمل معها هذه المراحل:

أولاً: عِظْهَا.. خوِّفها بالله، وبيِّن لها أن حق الزوج لا يجوز أن تُضيعه، فإن استقامت فهذا المطلوب، وإلا فالمرحلة الثانية: اهجرها في المضجع، لا تنم معها أما الكلام فلا تهجرها، لكن لك رخصة أن تهجرها في الكلام ثلاثة أيام،

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٨٠) كتاب الطلاق - والحديث لم أجده عند البخاري.

وفي رواية لمسلم: «وأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضْرَابٌ لِلنِّسَاءِ» وهو تفسير لرواية: «لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِهِ» وقيل: معناه: كثير الأسفار.

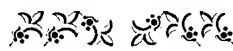
لأنه لا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام.

الرتبة الثالثة: إذا لم ينفع معها هذا فاضربها، لكن ضرباً غير مُبرح.. يعنى ليس شديداً، بل ضرب يحصل به التأديب فقط.

✽ والمعنى الثانى: أن أبا الجهم كثير الأسفار.. فلا يستقر فى بيته إلا قليلاً وبذلك ستصبح الزوجة فى أكثر أيام حياتها بلا زوج وهنا ذكر لها النبى ﷺ ذلك من باب النصيحة لها حتى لا تتعب فى زواجها..

وفى رواية أخرى أن النبى ﷺ قال لها: «ولكن أنكحى أسامة بن زيد» فلقد رأى النبى ﷺ أنه مناسبٌ لها.

✽ ولذا فإنه يُباح لنا إذا جاءنا رجل يسألنا ويقول: تقدّم لابنتى فلان فما رأيكم فيه.. فيُباح لنا أن نذكر ما فيه بكل صراحة دون الخوض فى عرضه وسيرته.. فإذا سألنا الرجل: هل هو يحمل شهادة كذا.. نقول له: نعم أو لا.. ولا داعى لأن نقول له: إنه كذا وكذا.. فهذا لا يجوز بل ينبغى أن نرد على قدر السؤال ونقول الحقيقة حتى لا نخدع الناس.



(١٥٤٢) وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ أَصَابَ النَّاسَ فِيهِ شِدَّةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾، وَقَالَ: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فَاتَّيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَاجْتَهَدَ يَمِينَهُ: مَا فَعَلَ، فَقَالُوا: كَذَبَ زَيْدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.. فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِمَّا قَالُوهُ شِدَّةٌ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقِي ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ ثُمَّ دَعَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُمْ فَلَوْا رُءُوسَهُمْ ^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٠٣) كتاب تفسير القرآن، مسلم (٢٧٧٢) كتاب صفات المنافقين.

❦ ففي هذا الحديث يحكى زيد بن أرقم رضي الله عنه أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ .. وكان مع النبي ﷺ مجموعة من المؤمنين والمنافقين فأصاب الناس شدة، فتكلم المنافقون وقالوا: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧]، يعنى: لا تعطوهم شيئاً من النفقة حتى يجوعوا ويتركوا النبي ﷺ وكذبوا؛ فالمؤمنون لا يمكن أن يتركوا النبي ﷺ حتى لو ماتوا جوعاً وظمأً؛ ما تركوه... لكن هذا هو حال المنافقين الذين يلمزون النبي ﷺ في الصدقات إذا أعطوا رضوا وإذا لم يُعطوا فإذا هم يسخطون... أما المؤمنون فلن يتركوا الرسول ﷺ.

﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ حتى هنا للتعليل وليست للغاية ... يعنى لأجل أن ينفضوا عنه، ولكن كذبوا في ذلك وقالوا أيضاً: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ [المنافقون: ٨].

وكان الذى قال ذلك هو رأس المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول (لعنه الله). وكان يعنى بالأعز نفسه.. ويعنى بالأذل: رسول الله ﷺ... فسمع ذلك زيد ابن أرقم رضي الله عنه فأتى إلى النبي ﷺ فأخبره بأن عبد الله بن أبى قال هذا الكلام، فأرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أبى، فاجتهد يمينه أنه لم يقل هذا... يعنى حلف وأقسم واشتد فى القسم أنه ما قال ذلك... لأن المنافقين هذا دأبهم، يحلفون على الكذب وهم يعلمون... فأقسم أنه ما قال ذلك، وكان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويترك سرايرهم إلى الله، فلما بلغ ذلك زيد بن الأرقم اشتد عليه الأمر؛ لأن الرجل حلف وأقسم عند الرسول ﷺ واجتهد يمينه فى ذلك فاشتد هذا على زيد بن أرقم لأنه قال: كذب زيدٌ على رسول الله ﷺ يعنى أخبره بالكذب.... حتى أنزل الله تصديق زيد بن أرقم فى قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِمَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقون: ٧، ٨].

وتأمل جواب الله ﷻ لِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي: ﴿لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ ولم يقل: إن الله هو الأعز.. لأنه لو قال: هو الأعز لصار في ذلك دليل على أن المنافقين لهم العزة، وهم لا عزة لهم، بل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآية دليل على أنه لا بأس أن الإنسان ينقل كلام المنافق إلى ولي الأمر حتى يتخذ فيه ما ينبغي اتخاذه، وكذلك ينقل كلام المفسد إلى ولي الأمر حتى لا يتمادى في إفساده... وإذا كان الإنسان يخشى من الكلام أن يحصل فيه فساد وجب عليه أن يبلغه إلى ولي الأمر حتى يقضى على الفساد قبل أن يستشري، ولا يُقال: أخشى أن ولي الأمر يفعل بى أو يفعل فيه.

في عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) لما أنكر عبد الله بن أبي ما قيل عنه نزل الوحي بتصديق زيد بن أرقم... لكن في وقتنا لا يوجد وحى يؤيد أو يُفند، فأنت إذا تثبتت وسمعت من بعض الناس كلاماً يؤدي إلى الشر والفساد وجب عليك أن تبلغ به ولي الأمر حتى لا يستشري الشر والفساد^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٤٣) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَتْ هُنْدُ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيْسَ يُعْطِينِي مَا يَكْفِينِي وَوَلَدِي إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ؟ قَالَ: «خُذِي مَا يَكْفِيكَ وَوَلَدَكَ بِالْمَعْرُوفِ»^(٢).

❦ ففي هذا الباب ذكر المصنف ما يجوز من الغيبة وذكر ستة مسائل كان من بينها التظلم.. يعنى إذا تظلم إنسان عند ولي الأمر أو عند مَنْ يستطيع أن

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٦٧-٦٩) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٣٦٤) كتاب النفقات - مسلم (١٧١٤) كتاب الأقضية.

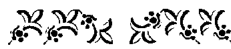
يرفع عنه الظلم فإنه لا بأس بذلك.. والدليل على ذلك حديث هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان أنها جاءت إلى النبي ﷺ واشتكت إليه أن أبا سفيان رجلاً شحيح - يعنى بخيل - وأنه لا يعطيها ما يكفيها وولدها بالمعروف... ولا شك أن الإنسان يكره أن تصفه زوجته بذلك.. لكنها كانت مضطرة لذكر ذلك من أجل أن يرفع عنها النبي ﷺ الظلم الواقع عليها...

وذلك أن الواجب على الإنسان أن ينفق على زوجته وعلى أولاده بالمعروف، لا يقصر ولا يزيد... كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وأما البخل الزائد فهذا حرام لا يجوز... ومن وقع عليه ذلك فله أن يتظلم إلى شخص يمكن أن يأخذ الحق له.

فهند بنت عتبة لما تظلمت عند الرسول ﷺ وقالت له: إن أبا سفيان رجلاً شحيح لم ينكر عليها تلك المقولة.. ولم يقل لها: لا تقولى ذلك بل أقرها على ذلك لأنها في حال المتظلم الذى يطلب حقه.

فقال لها النبي ﷺ: «خُذِي مَا يَكْفِيكِ وولديك بالمعروف» فأذن لها أن تأخذ من ماله بغير علمه ما يكفيها ويكفى ولدها، ولكن بالمعروف، يعنى لا تزيد على ذلك.



(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص ١٧٤).

وعدها بعضهم من أنواع السحر؛ لأنها تُشارك السحر في التفريق بين الناس، وتغيير قلوب المتحابين، وتلقيح الشرور^(١).

قال يحيى بن أكثم: «النَّامُ أَشْرٌ مِنَ السَّاحِرِ، ويعملُ النَّامُ في ساعةٍ ما لا يعملُ السَّاحِرُ في شهرٍ»^(٢).

ويقال: «عملُ النَّامِ أضرُّ من عملِ الشَّيْطان؛ لأنَّ عملَ الشَّيْطان بالخيال والوسوسة، وعملُ النَّامِ بالمواجهة والمعاناة»^(٣).

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن النمام لا يدخل الجنة.. أى: لا يدخل الجنة مع أول الداخلين لأنه قد ارتكب كبيرة ووقع في مظلمة كبيرة بالإفساد بين الناس.. ومن المعلوم أنه لا يُخلد موحداً في النار.. فإن عذب في النار فلا بُدَّ أن يدخل الجنة ولو بعد حين.. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٤٥) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مرَّ بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ، بَلَى إِنَّهُ كَبِيرٌ: أما أحدهما، فكان يمشي بالنَّمِيمَةِ، وأما الآخرُ فكان لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»^(٤).

❁ ففي هذا الحديث يخبر ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النبي ﷺ مرَّ بِقَبْرَيْنِ فسمع صوت رجلين يُعَذَّبَانِ في قبرهما.. والنبي ﷺ يرى ما لا نراه ويسمع ما لا نسمعه.. فقد قال ﷺ: «إِنِّي أَرَى ما لا تَرَوْنَ وأَسْمَعُ ما لا تَسْمَعُونَ...»
وقد أعطى الله رسوله ﷺ القدرة على سماع المُعذَّبين في قبورهم.

ففي الحديث الذي يرويه مسلم في «صحيحه» عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:

(١) انظر: فتح المجيد (ص ٣٢٥).

(٢، ٣) تنبيه الغافلين (ص ٨٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٧٨) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٩٢) كتاب الطهارة.

قال العلماء: معنى «وما يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ»: أى كبير في رَعِيتهما، وقيل: كَبِيرٌ تركُهُ عليهما.

«بينما النبي ﷺ في حائط لبنى النجار، على بغلة له، ونحن معه، إذ حادت به^(١)، فكادت تلقيه، وإذا أَقْبَرُ ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: «مَنْ يعرف أصحاب هذه الأقبُر؟» فقال رجل: أنا، قال: «فمتى مات هؤلاء؟» قال: ماتوا في الإشرak، فقال: «إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا^(٢)، لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»^(٣).

فهنا سمع النبي ﷺ صوت رجلين يُعذبان في قبرهما فقال ﷺ: «إِنَّهُمَا يُعذبان، وما يُعذبان في كبير» أى: أنهما يُعذبان في شيء هو في زعمها غير كبير وذلك لاستخفافهما بأمور الديانة.. كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.. ثم أكد النبي ﷺ أن الذي يفعلانه شيء كبير فقال ﷺ: «بلى إنه كبير، أما أحدهما، فكان يمشى بالنميمة..» أى: يسعى بين الناس بالنميمة ليقع بينهم ويُفسد ذات بينهم «.. وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله..» أى: إذا أراد أن يقضى حاجته فإنه يقضى حاجته أمام الناس كاشفًا عن عورته فيؤذى مشاعر الناس في طرقاتهم ويخدش حياء الناس في الطرقات بما يفعله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٤٦) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أَلَا أُنبئكم ما العَضَةُ؟ هي النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ»^(٤).

«أَلَا أُنبئكم ما العَضَةُ؟» والنبأ والخبر في اللغة العربية معناها واحد.. والعَضَةُ، من القطع والتمزيق، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]،

(١) حادت به: أى مالت عن الطريق ونفرت.

(٢) لا تدافنوا: أى مخافة أن لا تدافنوا.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٧) كتاب الجنة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٦٠٦) كتاب البر والصلة والآداب.

«العَضَةُ»: ، وروى: «العَضَةُ» بكسر العين وفتح الصاد المعجمة على وزن العِدَّة، وهى: الكَذِبُ والبُهتانُ، وعلى الرواية الأولى: العَضَةُ مصدرٌ، يقال: عَضَهُ عَضًا، أى: رماه بالعَضِ.

يعني قطعاً وأجزاء يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه... فما هي الأداة المُفَرِّقة للأمة المُمَرَّقة لهم؟ قال: هي النسيمة .. وذلك بأن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم، وهي من كبائر الذنوب.

والعضه هي: الكذب والبهتان وهي الفاحش الغليظ التحريم.

❁ وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر أن عذاب القبر يكون بسبب النسيمة وعدم الاستتار أو عدم الاستنزاه من البول وكذلك يكون عذاب القبر بسبب الغيبة.. كما جاء في بعض الروايات أن النبي ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ. فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُعَذَّبُ فِي الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُعَذَّبُ فِي الْغِيْبَةِ»^(١).

ويكون عذاب القبر لسائر الذنوب.. لكنه أكثر ما يكون بسبب الغيبة والنسيمة والبول.. ولكن ما السبب في ذلك.

❁ ولقد ذكر بعضهم السر في تخصيص البول والنسيمة والغيبة بعذاب القبر وهو أن القبر أول منازل الآخرة، وفيه أنموذج مما يقع في يوم القيامة من العقاب والثواب... والمعاصي التي يُعَاقَب عليها العبد يوم القيامة نوعان: حَقُّ لله، وَحَقُّ لعباده، وأول ما يُقَضَى فيه يوم القيامة من حقوق الله: الصلاة، ومن حقوق العباد: الدماء... وأما البرزخ فيُقَضَى فيه في مقدمات هذين الحقين، ووسائلهما. فمقدمة الصلاة: الطهارة من الحدث والخبث، ومقدمة الدماء: النسيمة، والوقية في الأعراض، وهما أيسر أنواع الأذى، فيبدأ في البرزخ بالمحاسبة، والعقاب عليهما.

ماذا يفعل من نُقلت إليه نسيمة

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «وَكُلُّ مَنْ حُمِلَتْ إِلَيْهِ نَيْمَةٌ، وَقِيلَ لَهُ: فَلَانْ يَقُولُ فِيكَ أَوْ يَفْعَلُ فِيكَ كَذَا فَعَلِيهِ سِتَّةُ أُمُور:

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤١)، وأصله في الصحيحين وفيه ذكر النسيمة بدل الغيبة.

الأول: أن لا يُصَدِّقَهُ لِأَنَّ النَّمَامَ فَاسِقٌ.
 الثانى: أن ينهأه عن ذلك وينصحه ويُبَيِّحَ لَهُ فِعْلَهُ.
 الثالث: أن يُبَغِّضَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

الرابع: أن لا يَظُنَّ بِأَخِيهِ الْغَائِبِ السَّوَاءَ.
 الخامس: أن لا يَحْمِلَهُ مَا حُكِيَ لَهُ عَلَى التَّجَسُّسِ وَالْبَحْثِ عَنْ ذَلِكَ.
 السادس: أن لا يَرْضَى لِنَفْسِهِ مَا نَهَى النَّمَامُ عَنْهُ.... فَلَا يَحْكِي نَمِيمَتَهُ عَنْهُ،
 فَيَقُولُ فَلَانُ حَكَى كَذَا فَيَصِيرُ بِهِ نَمَامًا وَيَكُونُ آتِيًا مَا نَهَى عَنْهُ^(١).
 * وقد ضرب لنا السلف أروع الأمثلة في تعاملهم مع النمام.
 وإليك بعضًا منها:

* روى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسًا وعنده الزهرى، فجاءه رجل فقال له سليمان: بلغنى أنك وقعت فى، وقلت كذا وكذا فقال الرجل: ما فعلت ولا قلت. فقال سليمان: إن الذى أخبرنى صادق .. فقال له الزهرى: لا يكون النمام صادقًا .. فقال سليمان: صدقت ثم قال للرجل: اذهب بسلام^(٢).
 * وَرَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَذَكَرَ عِنْدَهُ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: إِنْ شِئْتَ نَظَرْنَا فِي أَمْرِكَ. إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، وَإِنْ شِئْتَ عَفَوْنَا عَنْكَ. فَقَالَ: الْعَفْوُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا أَعُودُ إِلَيْهِ أَبَدًا^(٣).

(١) «شرح النووى على مسلم» (١١٣/٢)، و«فتح البارى» (٤٧٣/١٠) نقلًا عن أبى حامد الغزالى.

(٢) «الإحياء» (١٦٦/٣)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٧٤).

(٣) «الإحياء» (١٦٦/٣).

(٢٥٨) باب النهى عن نقل الحديث

وكلام الناس إلى ولاية الأمور

إذا لم تدع إليه حاجة كخوف مفسدة ونحوها

❁ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوُزُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وفي الباب الأحاديث السابقة في الباب قبله.

(١٥٤٧) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْأصحابي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا، فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»^(١).❁ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ

بإسناد صحيح

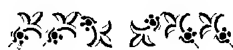
(١) ضعيف: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٢٢).

﴿ ٢٥٩ ﴾ باب ذمّ ذى الوجهين

﴿ قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨].

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى يستترون من الناس خوفاً وحياءً ولا يستحيون من الله وهو أحق بأن يستحيا منه ويخاف من عقابه ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أى وهو معهم عز وجل عالم بهم وبأحوالهم يسمع ما يدبرونه فى الخفاء ويضمرونه فى السر من رمى البرىء وشهادة الزور والحلف الكاذب ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ أى لا يعزب عنه شىء منها ولا يفوت^(١).

﴿ ومثل ذلك أيضًا من يعمل المعصية خفاءً ولا يعملها أمام الناس حياءً منهم وخجلاً... وأما الله فلا يستحى منه ولا يخجل والعياذ بالله... وهذا يدخل فى الآية الكريمة... وأما من عمل المعصية وندم وتاب فإنه لا يجوز له أن يحدث الناس بما فعل، فإن النبى ﷺ قال: «كل أمتى مُعافى إلا المجاهرين»^(٢). والمجاهر: هو الذى إذا فعل المعصية حدث بها.



(١٥٤٨) وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس معادين: خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ»^(٣).

(١) صفوة التفاسير (١/ ٢٧٨) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٠) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٩٤) كتاب المناقب، ومسلم (٢٥٢٦) كتاب فضائل الصحابة.

(١٥٤٩) وعن محمد بن زَيْدٍ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَجَدِّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سُلَاطِينِنَا فَنَقُولُ لَهُمْ بِخِلَافِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ. قَالَ: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١).

✽ إن المسلم يجب أن يكون صادقاً لا يغش ولا يخدع ولا يجامل أحداً على حساب الحق ولا يخشى إلا الله (جل وعلا).

أما أن يأتي إلى رجلين مُتَنَاحِرِينَ أو إلى فئتين بينهما عداوة فيُظهر لهذا أنه صديقه وأنه سينصره ويقول للآخر نفس الكلام ويدم كل واحدٍ منهما عند الآخر... فهذا هو المنافق ذو الوجهين الذي يعاقبه الله يوم القيامة بأن يجعل له لسانين من النار.

✽ ولقد حذرنا الله (جل وعلا) من هذه الصفة الذميمة. فقال ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ» ^(٢).

وهذا يوجد في كثير من الناس والعياذ بالله وهو شعبة من النفاق... تجده يأتي إليك يتملق ويثنى عليك وربما يغلو في ذلك الثناء، ولكنه إذا كان من ورائك ذمك وشتمك وذكر فيك ما ليس فيك، فهذا والعياذ بالله كما قال النبي ﷺ: «تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ» وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ وصف فاعله بأنه شر الناس... والواجب على الإنسان أن يكون صريحاً، لا يقول إلا ما في قلبه.. فإن كان خيراً حُمد عليه وإن كان سوى ذلك وُجّه إلى الخير.

أما كونه يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ، سواء كان فيما يتعلق بعبادته... بحيث يُظهر أنه عابد مؤمنٌ تقى وهو بالعكس... أو فيما يتعلق بمعاملته مع الشخص...؛ يُظهر أنه ناصح له ويثنى عليه ويمدحه ثم إذا غاب عنه اغتابه.. فهذا لا يجوز ^(٣).

(١) صحيح: رواه البخاري (٧١٧٨) كتاب الأحكام.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٧٣) كتاب الأدب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٩٦).

(٣) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (٧٤/٤) بتصرف.

﴿٢٦٠﴾ باب تحريم الكذب

❖ لا شك أن الكذب عملٌ مردود، وصفة ذميمة؛ فهو من خصال النفاق. والكذب هو: أن يخبر الإنسان بخلاف الواقع، فيقول: حصل كذا، وهو كاذب.. أو قال فلان كذا، وهو كاذب وما أشبه ذلك، فهو الإخبار بخلاف الواقع.

والكذاب يقلب الحقائق؛ فيُدنى البعيد، ويُبعد القريب، ويُبجح الحسن، ويُحسّن القبيح.

وقيل في ذم الكذاب: «لا تطلبوا الحوائج من كذاب؛ فإنه يُقربها وإن كانت بعيدة، ويُبعدُها وإن كانت قريبة».

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ إِلَى بعض عُماله: «إياك أن تستعين بكذوب؛ فإنك إن تُطع الكذوب تهلك».

وإن مما يُؤسَف عليه في هذه الأزمان المتأخرة كثرة الكذب، وقلة الصدق؛ فما أَقَلَّ مَنْ يَصْدُقُ في حديثه، وعلاقته، ومعاملاته.

❖ واعلم أن الكذب أنواع:

الأول: الكذب على الله ورسوله، وهذا أعظم أنواع الكذب... لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤] واللام في قوله: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ السلام لام العاقبة وليست لام التعليل... فهي كقوله تعالى في موسى ﷺ ﴿فَالنَّقْطَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وهم ما التقطوه لهذا، ولكن الله تعالى جعل العاقبة أن كان لهم عدوًّا وحزنًا... وهكذا مَنْ افترى على الله كذبًا، فإنه بافترائه يُضِلُّ الناس بغير علم.



❦ والافتراء على الله نوعان:

النوع الأول أن يقول: قال الله كذا، وهو كاذب على الله.. ما قال الله ذلك.

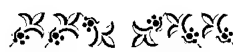
والنوع الثاني: أن يفسر كلام الله بغير ما أراد الله، لأن المقصود من الكلام معناه... فإذا قال: أراد الله بكذا كذا وكذا، فهو كاذب على الله، شاهد على الله بما لم يُرده الله ﷻ... لكن الثاني إذا كان عن اجتهاد وأخطأ في تفسير الآية فإن الله تعالى يعفو عنه؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

والكذب على رسول الله ﷺ بأن يقول: قال رسول الله كذا، ولم يقله، لكن كذب عليه... وكذلك أيضًا إذا فسر حديث رسول الله ﷺ، بغير معناه فقد كذب على رسول الله ﷺ... وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

أما القسم الثاني: من الكذب فهو الكذب على الناس... والكذب على الناس نوعان أيضًا: كذب يظهر الإنسان فيه أنه من أهل الخير والصلاح والتقوى والإيمان وهو ليس كذلك... بل هو من أهل الكفر والطغيان والعياذ بالله، فهذا هو النفاق.

والنوع الثالث: من الكذب هو الكذب في الحديث بين الناس.

يقول: قلت لفلان كذا وهو لم يقله... قال فلان كذا وهو لم يقله، جاء فلان وهو لم يأت وهكذا... هذا أيضًا محرم ومن علامات النفاق كما قال النبي ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»^{(٢)(٣)}.



(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩١) كتاب الجنائز، ومسلم (٤) في المقدمة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٧٥-٧٦) بتصرف.

(١٥٥٠) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٥٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٥١) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدْعُوهَا؛ إِذَا أُوتِيَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٢).

وقد سبق بيانه مع حديث أبي هريرة بنحوه في «باب الوفاء بالعهد».

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٥٢) وعن ابن عباس رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُفًّا أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ، وَمَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، صُبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةَ عَذِّبَ وَكُفِّ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»^(٣).

(١٥٥٣) وعن ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفْرَى الْفَرَى أَنْ يُرَى الرَّجُلُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٩٤) كتاب الأدب - ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤) كتاب الإيمان - ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٧٠٤٢) كتاب التعبير.

«تَحَلَّمَ» أَى: قَالَ: إِنَّهُ حَلَمَ فِي نَوْمِهِ وَرَأَى كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ كَاذِبٌ - وَالْآنُكَ: وَهُوَ الرَّصَاصُ الْمَذَابُ.

عَيْنِيهِ مَا لَمْ تَرِيَا»^(١).

❖ ففي هذا الحديث يخبر ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُفِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ» يعنى مَنْ كَذَبَ فِي الرُّؤْيَا قَالَ: رَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ كَذَا وَكَذَا وَهُوَ كَاذِبٌ، فَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُكَلَّفٌ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ... وَالْمَعْلُومُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ حَاوَلَ مَهْمَا حَاوَلَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَزَالُ يُعَذَّبُ وَيُقَالُ لَهُ: لَا بَدَّ أَنْ تَعْقِدَ بَيْنَهُمَا.. وَهَذَا وَعِيدٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّحَلُّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَهَذَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ السُّفَهَاءِ، يَتَحَدَّثُ وَيَقُولُ: رَأَيْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا؛ لِأَجْلِ أَنْ يُضْحِكَ النَّاسَ... وَهَذَا حَرَامٌ عَلَيْهِ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ وَقَالَ لِي كَذَا وَكَذَا وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَشَدُّ، لِأَنَّهُ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... أَمَا مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ رَأَاهُ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ... وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي مَنَامِهِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

قِسْمٌ: يَكُونُ خَيْرًا وَيَسْتَبْشِرُ بِهِ الْإِنْسَانُ وَيَفْرَحُ بِهِ الْإِنْسَانُ، فَهَذَا لَا يُحَدِّثُ بِهِ إِلَّا مَنْ يَحِبُّ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ حُسَادٌ كَثِيرُونَ، فَإِذَا رَأَى رُؤْيَا حَسَنَةً وَحَدَّثَ بِهَا مَنْ لَا يَحِبُّ فَإِنَّهُ رُبَّمَا يَكِيدُ لَهُ كَيْدًا، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذَا الْخَيْرِ الَّذِي رَأَاهُ، كَمَا فَعَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﷺ.

القسم الثاني: رؤيا شر... هذا القسم الثاني مما يراه الإنسان في المنام، رؤيا شر تُزْعَجُ وتُخَوِّفُ، فَهَذَا لَا تَخْبِرُ بِهِ أَحَدًا أَبَدًا لَا صَدِيقَكَ وَلَا عَدُوَّكَ... وَإِذَا قَمْتَ مِنْ مَنَامِكَ فَاتَّقِلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثًا وَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَمِنْ شَرِّ مَا رَأَيْتَ. وَإِنْ كُنْتَ تَرِيدُ أَنْ تَوَاصِلَ النَّوْمَ فَنَمَ عَلَى الْجَنْبِ الْآخَرِ، يَعْنِي لَا عَلَى الْجَنْبِ الَّذِي رَأَيْتَ فِيهِ مَا تَكْرَهُ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّ.

(١) صحيح: رواه البخاري (٧٠٤٣) كتاب التعبير.

ومعناه: يقول رأيتُ فيما لم يره.

القسم الثالث: رؤيا أضغاث أحلام، ليس لها رأس ولا قدم... يرى الإنسان أشياء متناقضة ويرى أشياء غريبة، وهذه لا تحدث بها أحداً ولا تهتم بها، وقد حدث رجلٌ رسول الله ﷺ حديثاً قال: يا رسول الله رأيت في المنام أن رجلاً قد قطع رأسى، فذهب الرأس شاردًا، فذهبت وراءه لاحقًا له. فقال له النبي ﷺ: «لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك»^(١).

✽ أما المسألة الثانية: «مَنْ تَسْمَعُ قَوْمًا وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صَبَّ فِي أُذُنِهِ الْآنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعنى الذى يتسمع إلى أناسٍ وهم يكرهون أن يسمع فإنه يُصَبَّ في أُذُنِهِ الْآنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال العلماء: الآنك هو الرصاص المذاب والعياذ بالله... والرصاص المذاب بنار جهنم أعظم من نار الدنيا بتسع وستين مرة.. وسواء كانوا يكرهون أن يسمع لغرضٍ صحيح أو لغير غرض؛ لأن بعض الناس يكره أن يسمعه غيره ولو كان الكلام ما فيه خطأ ولا فيه سبٌّ، ولكن لا يريد أن أحدًا يسمعه... وهذا يقع فيه بعض الناس... تجده مثلًا إذا رأى اثنين يتكلمون يأخذ المصحف ويجلس قريبًا منهم ثم يبدأ يطالع المصحف كأنه يقرأ، وهو يستمع إليهم وهم يكرهون ذلك، هذا الرجل يُصَبَّ في أُذُنِهِ الْآنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيُعَذَّبُ هذا العذاب والعياذ بالله.

✽ «وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةَ عَذْبٍ وَكُلَّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

والتصوير ينقسم إلى قسمين:

قسم متفق على تحريمه: وهو أن يصور ما فيه روح على وجه تمثال من خشب أو حجر أو طين أو جبس أو ما أشبه ذلك... فهذا إذا صوّره على صورة حيوان أو إنسان أو أسد أو أرنب أو قرد أو غير ذلك فهذا حرام بالاتفاق، وفاعله ملعون على لسان النبي ﷺ ويُعَذَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيُقَالُ له: أحيى ما خلقت.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٦٨) كتاب الرؤيا.

وفي حديث ابن عباس قال: «كل مصور في النار... فإن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه».

والقسم الثانى: تصوير ما لا روح فيه مثل الأشجار والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال، وما أشبهها... فهذه جائزة^(١).

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: إن صور جميع الأحياء من آدمى أو حيوان حرام، سواء كانت مُجسمة أم رسوماً وألواناً في ورق ونحوه أم نسيجاً في قماش أو صوراً شمسية... وإن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة لعموم الأحاديث الصحيحة التى دلت على ذلك.

ويُرخص فيما دعت إليه الضرورة كصور المجرمين والمشبهين لضبطهم، والصور التى فى جوازات السفر وحفاظ النفوس... ونرجو ألا تكون هذه وأمثالها مانعة من دخول الملائكة البيت لضرورة حفظها وحملها، والله المستعان.

وهكذا الصور التى تُمتن، كالتى فى الفراش والوسائد. ومن الأحاديث الواردة فى ذلك قول النبى ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يُعذَّبون يوم القيامة، ويُقال لهم أحيوا ما خلقتم»^(٢).

وعن أبى جحيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن النبى ﷺ لعن آكل الربا وموكله، ولعن المصور^(٣).

ولقول النبى ﷺ لعلى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مُشرفاً إلا سَوَّيته»^(٤).

(١) بتصرف من كتاب شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٠٥) كتاب البيوع - ومسلم (٢١٠٧) (٩٦) كتاب اللباس والزينة.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٥٩٦٢) كتاب اللباس.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩) كتاب الجنائز.

لكن إذا كانت الصورة في بساط يُمتهن أو وسادة يرتفق بها فلا حرج في ذلك لما ثبت عن النبي ﷺ :

أنه كان على موعد مع جبرائيل، فلما جاء جبرائيل امتنع عن دخول البيت، فسأله النبي ﷺ فقال: إن في البيت تمثالاً، وسترًا فيه تصاوير، وكلبًا، فمُر برأس التمثال أن يُقطع، وبالستر أن يُتخذ منه وسادتان متبذتان توطآن، ومُر بالكلب أن يُخرج، ففعل ذلك النبي ﷺ فدخل جبرائيل ﷺ^(١).

وفي الحديث المذكور أن الكلب كان جروًا للحسن أو الحسين رضي الله عنهما تحت نضد في البيت.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ولا كلب»^(٢).

وقصة جبريل هذه تدل على أن الصورة في البساط ونحوه لا تمنع من دخول الملائكة... ومثل ذلك ما ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها اتخذت من الستر المذكور وسادة يرتفق بها النبي ﷺ^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٥٤) وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟» فَيَقْصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ

(١) صحيح: رواه أحمد (٧٩٨٥)، وأبو داود (٤١٥٨) كتاب اللباس، والترمذي (٢٨٠٦) كتاب الأدب، وصححه العلامة الألباني رَوَاهُ فِي صَحِيحِ الْجَامِعِ (٦٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٢٥) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢١٠٦) كتاب اللباس والزينة.

(٣) بل ورد في حديث أم المؤمنين ما يدل على طمس الصورة قبل اتخاذ القرام وسادتين.

فعند البخاري (٨٢/٤): «قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرَتْ بِقَرَامٍ لِي عَلَى سَهْوَةٍ لِي فِيهَا، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَتَكَةً...». فَهَتَكْتُ النَّبِيَّ ﷺ لِلْسِتْرِ دَلَالَةً عَلَى طَمْسِ الرَّأْسِ.... فَحَمَلْتُ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى مَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوَّلَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

مَعَهُمَا، وَإِنَّا آتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ، فَيَتَلَعُ رَأْسَهُ^(١)، فَيَتَذْهَدُهُ الْحَجَرُ^(٢) هَا هُنَا، فَيَتَّبِعُ الْحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى! قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ، فَاَنْطَلَقْنَا، فَآتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ^(٣) مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شَقِيٍّ وَجْهِهِ فَيُشْرِشِرُ^(٤) شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرَغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى» قَالَ: «قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ، فَاَنْطَلَقْنَا، فَآتَيْنَا عَلَى مِثْلِ النَّتُورِ» فَأَحْسِبُ أَنَّهُ قَالَ: «فَإِذَا فِيهِ لَعَطٌ، وَأَصْوَاتٌ، فَاطْلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضُوا^(٥)». قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ، فَاَنْطَلَقْنَا، فَآتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «أَحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِ»، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ، مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَغْرُرُ لَهُ فَاهُ^(٦)، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ، فَغَرَّ لَهُ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَا لِي: انْطَلِقِ انْطَلِقِ، فَاَنْطَلَقْنَا، فَآتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمَرَاةِ^(٧)، أَوْ كَاكْرِهِ مَا

(١) «يَتَلَعُ رَأْسَهُ»: يَشْدَحُهُ وَيَشْقُهُ.

(٢) «يَتَذْهَدُهُ»: يَتَدَحْرَجُ.

(٣) «الْكُلُوبُ» حَدِيدَةٌ مُعَوَّجَةٌ الرَّأْسُ يُنَزَعُ بِهَا اللَّحْمُ مِنَ الْقَدْرِ.

(٤) «فَيُشْرِشِرُ»: يَقْطَعُ..

(٥) «ضَوْضُوا»: أَيُّ صَاحُوا.

(٦) «فَيَغْرُرُ قَاهُ» يَفْتَحُ فَمَهُ.

(٧) «كَرِيهِ الْمَرَاةِ»: كَرِيهِ الْمَنْظَرِ.

أَنْتَ رَأَى رَجُلًا مَرَأَى، فَإِذَا هُوَ عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا^(١) وَيَسْعَى حَوْلَهَا. قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟
 قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا، فَاتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ^(٢) فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّيْعِ،
 وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرِي الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوِيلًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ
 الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وَلَدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ وَمَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ،
 فَانْطَلَقْنَا، فَاتَيْنَا إِلَى دَوْحَةٍ^(٣) عَظِيمَةٍ لَمْ أَرْ دَوْحَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَا أَحْسَنَ! قَالَا لِي:
 اِرْقَ فِيهَا، فَارْتَقَيْنَا فِيهَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبَنِ ذَهَبٍ وَلَبَنِ فِضَّةٍ، فَاتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ
 فَاسْتَفْتَحْنَا، فَمُتِحَ لَنَا فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرُ مَنْ خَلَقَهُمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَأَى!
 وَشَطْرُ مَنْهُمْ كَأَفْجَحَ مَا أَنْتَ رَأَى! قَالَا لَهُمَا: اذْهَبُوا فَتَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، وَإِذَا هُوَ نَهْرٌ
 مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ الْمَحْضُ^(٤) فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ. ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا
 قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ الشَّوْءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ^(٥) قَالَ: «قَالَا لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ،
 وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، فَسَمَا بَصَرِي^(٥) صُعْدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ^(٦) الْبَيضاء، قَالَا لِي:
 هَذَاكَ مَنْزِلُكَ؟ قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا، فَذَرَانِي فَادْخُلْهُ. قَالَا لِي: أَمَّا الْآنَ فَلَا،
 وَأَنْتَ دَاخِلُهُ، قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا؟ فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَا لِي:
 أَمَّا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ: أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُنَلِّغُ رَأْسَهُ بِالْحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ
 يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ. وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ
 يُشْرِشُرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمِنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ
 فَيَكْذِبُ الْكَذِبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ. وَأَمَّا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاءُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ،

(١) «يَحُشُّهَا» أَيْ: يُوقِدُهَا.

(٢) «رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ» أَيْ: وَافِيَةِ النَّبَاتِ طَوِيلَتِهِ.

(٣) «دَوْحَةٍ»: الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ.

(٤) «الْمَحْضُ»: هُوَ اللَّبَنُ.

(٥) «فَسَمَا بَصَرِي» أَيْ: ارْتَفَعَ.

(٦) «الرَّبَابَةُ»: السَّحَابَةُ.

فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْحُحُ فِي النَّهْرِ، وَيَلْقَمُ الْحَجَارَةَ، فَإِنَّهُ أَكَلَ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ الْمَرَاةُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنٌ جَهَنَّمَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرُّوَضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَّا الْوَلَدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ» وفي رواية البرقاني: «وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ» فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ، وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطَرُ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطَرُ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ». رواه البخاري.

وفي رواية له: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتْيَانِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ» ثُمَّ ذَكَرَهُ وَقَالَ: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى نَقَبٍ مِثْلِ التَّنُّورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ؛ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا ارْتَفَعَتْ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا، وَإِذَا خَمَدَتْ! رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عِرَاءٌ». وفيها: «حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ» - ولم يشك - «فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسْطِ النَّهْرِ وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ حَجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ يَرْمِي فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ». وفيها: «فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ، فَأَدَخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ». وفيها: «الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ، يُحَدِّثُ بِالْكَذِبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ مَا رَأَيْتَ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وفيها: «الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، فَيُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالِدَارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَهُ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»^(١).

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٨٦) كتاب الجنائز.

❦ فالشاهد من هذا الحديث هو مشهد الرجل الذي رآه النبي ﷺ مُستلقياً على قفاه وإذا برجل آخر قائم عليه بقطعة حديد مُعوجة كالهلب.. وإذا به يُشرشر.. أى: يقطع فمه إلى قفاه ويقطع أنفه إلى قفاه ويقطع عينه إلى قفاه.. ثم يذهب إلى الجانب الآخر ويفعل نفس الشيء.. فإذا فرغ من جانب عاد الجانب الآخر سليماً فيذهب إليه ويشرشره.. فلما سأل النبي ﷺ أخبره جبريل عليه السلام أن هذا الرجل يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق.

كمن ينشر كذبة على النت أو على الفضائيات فتصل كذبه إلى الآفاق..
فيكون هذا عقابه في القبر إلى يوم القيامة.. عافانا الله وإياكم من الكذب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٦١) باب بيان ما يجوز من الكذب

❦ وقد يسأل سائل: هل هناك أحوال يجوز الكذب فيها؟

وللجواب على هذا السؤال يقول الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

اعْلَمْ أَنَّ الْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ مُحَرَّمًا، فَيَجُوزُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِشُرُوطٍ قَدْ أَوْضَحْتُهَا فِي كِتَابِ: «الْأَذْكَارِ»، وَمُخْتَصَرُ ذَلِكَ: أَنَّ الْكَلَامَ وَسِيلَةً إِلَى الْمَقَاصِدِ.

فَكُلُّ مَقْصُودٍ مَحْمُودٍ يُمَكِّنُ تَحْصِيلَهُ بِغَيْرِ الْكَذِبِ يَحْرُمُ الْكَذِبُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ يُمَكِّنْ تَحْصِيلَهُ إِلَّا بِالْكَذِبِ، جَازَ الْكَذِبُ. ثُمَّ إِنْ كَانَ تَحْصِيلُ ذَلِكَ الْمَقْصُودِ مُبَاحًا كَانَ الْكَذِبُ مُبَاحًا، وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا، كَانَ الْكَذِبُ وَاجِبًا.

فَإِذَا اخْتَفَى مُسْلِمٌ مِنْ ظَالِمٍ يُرِيدُ قَتْلَهُ، أَوْ أَخَذَ مَالَهُ وَأَخْفَى مَالَهُ وَسُئِلَ إِنْسَانٌ عَنْهُ، وَجَبَ الْكَذِبُ بِإِخْفَائِهِ. وَكَذَا لَوْ كَانَ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ، وَأَرَادَ ظَالِمٌ أَخْذَهَا، وَجَبَ الْكَذِبُ بِإِخْفَائِهَا... وَالْأَحْوَاطُ فِي هَذَا كُلِّهِ أَنْ يُورَى.

وَمَعْنَى التَّوْرِيَةِ: أَنْ يَقْصِدَ بَعْبَارَتِهِ مَقْصُودًا صَاحِبًا لَيْسَ هُوَ كَاذِبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فِي ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ.... وَلَوْ تَرَكَ التَّوْرِيَةَ وَأَطْلَقَ عِبَارَةَ الْكَذِبِ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ فِي هَذَا الْحَالِ.

وَاسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بِجَوَازِ الْكَذِبِ فِي هَذَا الْحَالِ بِحَدِيثِ أُمِّ كُلْثُومٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا».

زَادَ مُسْلِمٌ فِي رِوَايَةِ: قَالَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ: وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ، تَعْنِي: الْحَرْبَ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثَ الرَّجُلِ

(١) فينمي خيرا: أى يبلغ خيرا فيه خيرا.

أمراته، وحديث المرأة زوجها^(١).

✽ سبق لنا أن الكذب محرم وأن منه ما هو كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب على الله ورسوله... ذكر المؤلف في هذا الباب أن الكذب يجوز أحياناً إذا كانت المصلحة كبيرة عظيمة، وأنه قد يجب الكذب إذا كان فيه دفع مضرة وظلم... مثال ذلك في دفع المضرة والظلم أن يكون شخص ظالم يريد أن يقتل شخصاً معصوماً، فيختفى هذا الشخص المعصوم عن الظالم، وأنت تعلم مكانه، فسألك هذا الظالم الذى يريد قتله بغير حق: أين فلان؟ هل فلان في هذا المكان؟ فتقول: لا ليس فلان في هذا المكان... وأنت تدري أنه فيه.

فهذا لا بأس به بل هو واجب لإنقاذ المعصوم من الهلكة.. فإن إنقاذ المعصوم من الهلكة واجب... وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولكن الأفضل أن تورى معنى تنوى معنى صحيحاً ليس فيه كذب وإن كان ظاهر اللفظ أنه كذب فتقول مثلاً إذا قال هذا الظالم فلان هنا؟ تقول: ليس هنا وتشير إلى شئ معين ليس فيه... كما يُذكر أن الإمام أحمد رحمته الله جاءه رجل يسأل عن أحد التلاميذ: أين فلان، فقال الإمام أحمد: ليس فلان هاهنا وما يصنع فلان هاهنا... وكان يشير إلى يده... يعنى ليس فى يدي وما يصنع فى يدي... هذه تورية فإذا قيل مثلاً: إذا جاءك هذا الظالم الذى يريد أن يقتل هذا الشخص بغير حق، وقال هل فلان هاهنا؟. تقول: لا ليس هنا وتلمس يدك بيدك الأخرى يعنى ليس فى يدي.

وكذلك أيضاً إذا كانت المصلحة كبيرة كالكذب فى الحرب لا بأس به لأنه فيه مصلحة كبيرة.. مثل أن تأتى عيون العدو يعنى جواسيسه يقولون مثلاً: هل الجيش كبير وهل معه عُدّة، وهل هو قوى؟. تقول: نعم الجيش كبير وعظيم وقوى ومعه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٩٢) كتاب الصلح - ومسلم (٢٦٠٥) كتاب البر والصلة.



عُدة .. ولو كنت تعرف أن الأمر بخلاف ذلك فهذا لا بأس به لأن فيه مصلحة كبيرة وهي إلقاء الرعب في قلوب الأعداء.... وكذلك الإصلاح بين الناس ...

يأتيك شخص قد ذكر له أن شخصاً آخر يغتابه ويسببه فيأتي إليك ويقول: سمعت أن فلاناً قال فيّ كذا وكذا، فتقول: أبداً ما قال فيك شيئاً... هذا لا بأس به لأن فيه إصلاحاً بين الناس ... كذلك من المصلحة حديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها فيما يُوجب الألفة والمودة ... مثل أن يقول لها أنت عندى غالية وأنت أحب إليّ من سائر النساء ... حتى وإن كان كاذباً لكن من أجل إلقاء المودة والمصلحة تقتضى هذا .. فالمهم أن الكذب يجب إذا كان لإنقاذ معصوم من هلكة أو حماية مال معصوم من تلف ... ويباح إذا كان فيه مصلحة عظيمة ... ومع ذلك فمن الأولى أن يُورَى أى يجعل الكلام تورية حتى يسلم من الكذب^(١).

✽ فالكذب على طريق التورية والتعريض جائز للضرورة والحاجة .. كما سئل رسول الله ﷺ وقد تطرّف برداءٍ، وانفرد عن أصحابه، فقال له رجل: ممّن أنت؟ قال: «من ماءٍ»، فورّى عن الإخبار بنفسه بأمرٍ يُحتمل .. فظنّ السائل أنّه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنّما أراد رسول الله ﷺ أنّه من الماء الذى يُخلق منه الإنسان ، فبلغ ما أحبّ من إخفاء نفسه وصدق في خبره^(٢).

وكالذى حكى عن أبى بكرٍ الصديق رضي الله عنه: أنّه كان يسير خلف رسول الله ﷺ حين هاجر معه، فتلقاه العرب، وهم يعرفون أبا بكرٍ، ولا يعرفون رسول الله ﷺ، فيقولون: يا أبا بكرٍ، من هذا؟ فيقول: «هذا يهدينى السبيل»، فيظنّون أنّه يعنى: هداية الطريق، وهو إنّما يريد هداية سبيل الخير... فيصدق في قوله، ويورّى عن مُرادِه^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٨٧-٨٨) بتصرف.

(٢، ٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٥).

وكان إبراهيم النَّخَعِيُّ إذا طلبه مَنْ يكره أن يخرج إليه وهو في الدَّار، قال للجارية: «قولى له: اطلبه في المسجد، ولا تقولى له، ليس ها هنا... كى لا يكون كَذَابًا»^(١).

وكان الشَّعْبِيُّ إذا طلبه أحدٌ في المنزل وهو يكرهه، خطَّ دائرة، وقال للجارية: «ضعى الأصبع فيها، وقولى: ليس ها هنا»^(٢).

❖ وقد بَوَّبَ البخارىُّ في «صحيحه» بابًا بعنوان: المعاريضُ مندوحةٌ عن الكذب... وممَّا أورد تحته حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: «مات ابنُ لأبى طَلْحَةَ، فقال: كيف الغلام؟ قالت أُمُّ سُلَيْمٍ: هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وأرجو أن يكون قد استراح، وظنَّ أنَّها صادقةٌ» وهى تقصد أنه مات.. وهو فهم منها أنه قد برئ من المرض وهذا واستراح.

وقال عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ في المعاريضِ ما يكفى أن يعفَّ الرَّجل عن الكذب»^(٣).

وهذا كُلُّهُ في موضع الحاجة.... فأما في غير موضع الحاجة فلا؛... لأنَّ هذا تفهيم الكذب، وإن لم يكن اللَّفْظ كذبًا فهو مكروهٌ على الجملة^(٤).
❖ وأخيرًا قول الشاعر:

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَخْطَأَهُ ثَلَاثٌ فَبِعُهُ وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ رَمَادٍ
سَلَامَةٌ صَدْرُهُ وَالصَّدْقُ مِنْهُ وَكُتْمَانُ السَّرَائِرِ فِي الْفَوَادِ^(٥)

فاللهم ارزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال.

(١) «الإحياء» (١٤٩/٣).

(٢) «الإحياء» (١٤٩/٣).

(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٦٥).

(٤) «الإحياء» (١٤٩/٣).

(٥) «روضة العقلاء» (٥٣) - نقلًا عن (الأخلاق بين الطبع والتطبع) للشيخ فيصل الحاشدى.

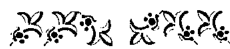
(٢٦٢) باب الحث على التثبت فيما يقوله ويحكيه

❁ لما ذكر المصنف رحمه الله تعالى تحريم الكذب وذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.. أعقبه بهذا الباب (باب الحث على التثبت فيما يقوله ويحكيه) وذلك من أجل أن يتثبت الإنسان فيما ينقله عن الناس.. ولا سيما في هذا الزمان الذي انتشر فيه الكذب والقيال والقال.

❁ ثم استدلل المصنف ببعض الآيات والأحاديث..

منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً... وذلك لا يكون، إلا باستعمالها، بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى^(١).

وقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: مُراقِبٌ له، حاضرٌ لحاله... كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَبِيرِينَ ۝١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾.



(١٥٥٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحدث بكل ما سمع»^(٣).

(١) تفسير السعدى (ص ٥٢٦).

(٢) تفسير السعدى (ص ٩٥٧).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥) في المقدمة.

✽ يعنى أن الإنسان إذا أصبح يحدث بكل ما يسمعه من غير أن يتثبت ويتأكد من صحة هذا الكلام فإنه يُصبح عُرضةً للكذب.. فلا يصح أن كل ما يدخل في سمعه يخرج من لسانه.. وقد ورد في الحديث «بئس مطية الرجل زعموا»... ولهذا تجد كثيرًا من الناس يقولون لك: لقد حدث كذا.. أو قال فلان: كذا.. فإذا بحثت وجدت أكثر هذا الكلام لم يحدث... وأساء شيء أن يكون ذلك فيما يتعلق بالأحكام الشرعية بأن يكذب الإنسان على الله أو على رسول الله ﷺ أو ينقل كلامًا عن واحدٍ من أهل العلم لم يقله لأن الكذب على العلماء كالكذب على النبي ﷺ.. وذلك لأن العلماء ورثة الأنبياء... ولذا أخبر النبي ﷺ أن الله ﷻ كَرِهَ لَنَا قِيلَ وَقَالَ.

فكون الإنسان يحدث بكل شيء يسمعه ويُخبر به، وقد يكون ذلك الذى سمعه ليس مُثبتًا فيه، وقد يكون خبراً غير مطابق للواقع، فإنه بعد ذلك مَنْ سمعه منه نسبه إليه... فالرسول ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

بِمَا سَمِعَ

(١٥٥٦) وعن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»^(١).

✽ هذا الحديث وهذه الترجمة فيهما التحذير من التهاون بالحديث عن رسول الله ﷺ، وهو يظن أو يعلم أنه كذب، «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى»، يعنى: يعلم أو (وهو يرى) بالضم بمعنى: يظن أنه كذب «فهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ» ومن الممكن أن تُقرأ: «فهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»، بالتثنية، أى: أنه شارك في الإثم... فأحد الوضّاعين، روى هذا وهذا.. وهو أحد الكاذِبِينَ... يعنى: الكاذب الأول الذى كذب وهو الثانى؛ لأنه حدّث به وهو يظن أو يعلم أنه كذب فهو أحد الكاذِبِينَ:

(١) صحيح: رواه مسلم (٧/١) في المقدمة.

وهو من جملة الكاذبين ومن جملة الوضّاعين... وهذا فيه التحذير الشديد من الكذب على رسول الله ﷺ.. وقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ قال: «.. ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».. وقد سبق شرحه في الحديث رقم (١٣٨٨) فأرجو الرجوع إليه... بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٥٧) وعن أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي ضرّة فهل عليّ جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال النبي ﷺ: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسُ ثَوْبِي زُورٍ»^(١).

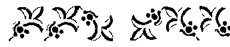
❁ أي: الذي يستكثر من شيء وهو غير واجد له وغير مالك له، كأن يقول: عندي كذا وليس عنده... مما يترتب على ذلك إيهام السامع بأن عنده قدرة، فيؤدى ذلك إلى أن يتعامل معه بناءً على كلامه الكاذب غير الصحيح. أو يدّعي أمراً ليس له، كأن يدّعي نسباً شريفاً وهو ليس له هذا النسب، فإنه مُتَشَبِّعٌ بما لم يُعْطَ، ومُضَيِّفٌ لنفسه شيئاً ليس له... مثل ما هو مُتَشَبِّعٌ الآن في هذا الزمان من الانتساب إلى أهل البيت، فإن كثيراً من العجم فضلاً عن العرب يحصل منهم هذا الشيء، فتجدهم ينتسبون إلى أهل البيت... وهذا إذا كان الإنسان عالمًا بذلك وفاعلاً لذلك عن علم أنه ليس كذلك، فإنه داخلٌ تحت التشبّع بما لم يُعْطَ... لأنه أضاف شيئاً إليه وهو ليس عنده أو ليس له.

❁ أورد أبو داود حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: أن امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ، وقالت: إن لي جارة - ضرّة - فهل عليّ جناح إذا ذكرت لها أن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٢١٩) كتاب النكاح، ومسلم (٢١٣٠) كتاب اللباس والزينة.

المُتَشَبِّعُ: هو الذي يُظْهَرُ الشُّبُعَ وليس بشيعان... ومعناها هنا: أنّه يُظْهَرُ أنه حصل له فضيلةٌ وليست حاصلة. «ولابس ثوبي زور» أي: ذى زور، وهو الذى يُزَوِّرُ على النَّاسِ بأن يَتَزَيَّى بِزَيِّ أَهْلِ الرَّهْدِ أو العِلْمِ أو الثَّروَةِ، لِيُغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ وليس هو بِتِلْكَ الصِّفَةِ، وقيل غير ذلك والله أعلم.

زوجي أعطاني كذا وهو لم يُعطني؟ فهي بهذا القول تريد أن تضرها وتريد أن تُحزنها... فالنبي ﷺ قال: «المتشبع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور» يعني: أن كلامه وفعله زور... فهو كالمتصف بوصفين ذميمين، وهو أنه لابس ثوبي زور وليس ثوبًا واحدًا، وهذه زيادة في الإثم، وزيادة في الضرر^(١).



(١) شرح سنن أبي داود/ للشيخ عبد المحسن العباد.

(٢٦٣) باب بيان غلظ تحريم شهادة الزور

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].
 ﴿ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال العلامة ابن سعدى رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهَا:

أى: لا يحضرون الزور ... أى: القول والفعل المُحَرَّم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك.
 وإذا كان ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ داخلة في قول الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور وتدخل في هذه الآية بالأولوية^(١).

﴿ وَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال ابن سعدى رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾
 أى: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذى هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور^(٢).

(١) تفسير السعدى (ص ٥٨٧).

(٢) تفسير السعدى (ص ٥٣٨).

وشهادة الزور أن يشهد بما يعلم أن الأمر بخلافه، أو يشهد بما لا يعلم أن الأمر بخلافه أو بوفاقه، أو يشهد بما يعلم أن الأمر على وفاقه لكنه على صفة غير الواقع... هذه ثلاثة أحوال وكلها حرام.

العظائم التي يرتكبها شاهد الزور

✽ شاهد الزور قد ارتكب عظائم كثيرة .. منها:

(١) الكذب والافتراء:

فقد كذب شاهد الزور في شهادته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

(٢) إباحة ما حرم الله (جلّ وعلا):

فقد أباح شاهد الزور ما حرم الله تعالى وعصمه من المال والدم والعرض.

(٣) تضليل الحاكم عن الحق:

والسبب في الحكم بالباطل... ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ^(١) بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ»^(٢).

(٤) الظلم لمن شهد له:

لأنه ساق إليه ما ليس بحق بسبب شهادة الزور، فوجبت له النار، ولذلك قال ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ الْحَنُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلَا يَأْخُذْهَا»^(٣).

(١) الحن: أعلم.

(٢، ٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٤٥٨) كتاب المظالم والغصب، و(٢٦٨٠)(٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأفضية.

(٥) الظلم لمن شهد عليه :

فيتعرض الشاهد لدعوة المشهود عليه بغير الحق ظلماً، ودعوة المظلوم مستجابة، كما قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَرُدُّ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ: الذَّاكِرُ اللَّهَ كَثِيرًا، وَدُعَاةُ الْمَظْلُومِ، وَالْإِمَامُ الْمُقْسِطُ»^(١).

ودعوة المظلوم كما وصفها أحد الشعراء فقال وأحسن:

وسارية لم تسر في الأرض تبتغي محلاً ولم يقطع بها اليد^(٢) قاطع
سرت حيث لم تحدد^(٣) الركاب^(٤) ولم تنح^(٥) لورد ولم يقصر لها القيّد مانع
تمر وراء الليل والليل صارب بجثمانه فيه سمير^(٦) وهاجع^(٧)

وقال آخر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم يرجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم متنبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

(٦) قد يطلب منه اليمين على صحة شهادته ، فيتعرض لغضب الله ومقتته :

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ^(٨) حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

(١) حسن: رواه البيهقي في الشعب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦٤)، والسلسلة الصحيحة (١٢١١).

(٢) اليد: جمع بيداء، وهى الصحراء الواسعة، لا ماء فيها ولا نبات.

(٣) الحدود والحداء: الغناء للإبل لسوقها وحثها على السير.

(٤) الركاب: الإبل التى يسار عليها.

(٥) أناخ الجمل: أبركه.

(٦) سمير: ساهر.

(٧) هاجع: نائم.

(٨) اقتطع: أخذ.

«وَإِنْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ»^(١)»^(٢).

(٧) تخليص المجرمين من عقوبة الجريمة.

(٨) تزكية المشهود له، وهو ليس أهلاً لذلك^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٥٨) وعن أبي بكرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقْوُ الْوَالِدَيْنِ» وَكَانَ مُتَكِنًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(٤).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٣٤١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الأراك: شجر معروف يُستاك بأعواده.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان، عن أبي أمامة.

(٣) انظر: مجلة البحوث، بحث قدمه الشيخ عبد الله القصير بتصرف.. نقلاً عن (الأخلاق بين الطبع والتطبع) للحاشدي.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٥٤) كتاب الشهادات - ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.

(٢٦٤) باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابة

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن اللعن معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله ﷻ.. فإذا قلت: اللهم العن فلاناً فكأنك تقول: اللهم اطرده من رحمتك... ومن أجل ذلك كان لعن المُعَيَّن من كبائر الذنوب.. يعنى لا يجوز أن تلعن إنساناً بعينه وتقول: اللهم العن فلاناً أو تقول لأحد: لعنة الله عليك.. هذا لا يجوز. حتى لو كان الذى تلعنه كافراً فإنه لا يجوز لك أن تلعنه لأنه قد يهديه الله ويُسلم بعد ذلك فكيف تلعنه؟!...

وكم من إنسانٍ كان من أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين فهذه الله وأسلم بعد ذلك وكان من خيار المسلمين.. كعمر بن الخطاب وعمر بن العاص وخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل (رضي الله عنهم).

ولهذا قال أهل العلم: يجوز اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين أو الظالمين أو المبتدعين.. لكن لا يجوز لعن المُعَيَّن.. إلا إذا كان هذا الشخص قد ثبتت لعنته شرعاً فيجوز أن تلعنه.. كقولك: لعنة الله على فرعون أو لعنة الله على أبى جهل لأنه قد ثبت أنهما ماتا على الكفر..

أما أن تلعن كافراً ما زال على قيد الحياة فلا تلعنه لأنه قد يهتدى ويُسلم بعد ذلك.. ولذلك لما لعن النبى ﷺ الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهراً نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] يعنى أنهم ربما يُسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون؟

أما إذا مات الإنسان على الكفر وعلمنا أنه مات كافراً فلا بأس أن نلعنه؛ لأنه ميتوس من هدايته والعياذ بالله لأنه مات على الكفر... ولكن ما الذى نستفيد من لعنه؟... ربما يدخل هذا - أعنى لعنه - فى قول النبى ﷺ: «لَا تَسُبُّوا

الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»^(١).

وبخاصة إذا كان هذا الكافر له قريبٌ مسلم قد يتأذى من لعنه فلا تلعه حرصاً على مشاعر هذا المسلم.

وكذلك لا يجوز أن نلعن البهيمة: كالبعير أو البقرة أو الشاة أو غيرها... فالأصل أن المسلم لا ينبغي أن يُعوّد لسانه كثرة اللعن.. لكن من ناحية الشرع فيجوز له أن يلعن الكافرين على العموم أو يلعن الكافر الذي مات كافراً إلا إذا كان في ذلك إيذاء لقريبه المسلم.. لكن لا يلعن كافراً على قيد الحياة لأنه ربما يهتدى ويُسلم بعد ذلك.. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٥٩) عن أَبِي زَيْدٍ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا، فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُهُ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»^(٢).

❁ «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا فَهُوَ كَمَا قَالَ» وهذا فيه زجر وفيه وعيد شديد... وليس معنى ذلك أنه يكون كافراً، ولكنه تلفظ بكلام خبيث وقبيح، فهو آثم وإثمه شديد، وسواء كان كاذباً أو صادقاً؛ لأن التلفُّظ بهذا الكلام لا يجوز لا بكونه صادقاً ولا كاذباً... فكون الإنسان يكذب ويتلفظ بمثل هذا فقد جمع سوءاً إلى سوءٍ، فإذا تلفَّظ بهذا التلفُّظ الخبيث ومع ذلك كذب فيكون قد جمع بين خصلتين ذميتين: كذب ولفظ سيئ.. وإذا كان صادقاً فإن الصدق محمود ولكن اللفظ مذموم.

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٩٣) كتاب الجنائز.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٧) كتاب الأدب - ومسلم (١١٠) كتاب الإيمان.

فقوله: «من حلف على يمينٍ بملةٍ غير الإسلام كاذبًا مُتعمدًا فهو كما قال» معناه: كأن يقول: هو يهودى أو هو نصرانى إن فعل كذا وكذا أو إن حصل كذا وكذا.

❁ قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللهُ فِي الْمَفْهُم:

وقوله: «كاذبًا متعمدًا» يُحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ كَانَ مُعْتَقِدًا لِتَعْظِيمِ تِلْكَ الْمَلَّةِ الْمُغَايِرَةِ لِمَلَّةِ الْإِسْلَامِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ كَافِرًا حَقِيقَةً، فَيَبْقَى اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَى فِي حَالِ تَعْظِيمِ تِلْكَ الْمَلَّةِ الَّتِي حَلَفَ بِهَا، فَتَكُونُ هَذِهِ الْحَالُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْإِلَازِمَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾ [البقرة: ٩١]؛ لِأَنَّ مَنْ عَظَّمَ مَلَّةً غَيْرَ الْإِسْلَامِ كَانَ كَاذِبًا فِي تَعْظِيمِهِ دَائِمًا فِي كُلِّ حَالٍ، وَكُلِّ وَقْتٍ، لَا يَتَّقِلُ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ يَعْنَى بِكَوْنِهِ كَاذِبًا فِي الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَوِي فِي ذَمِّهِ كَوْنُهُ صَادِقًا، أَوْ كَاذِبًا إِذَا حَلَفَ بِمَلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا ذَمَّهُ الشَّرْعُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ حَلَفَ بِتِلْكَ الْمَلَّةِ الْبَاطِلَةِ، مُعَظِّمًا لَهَا، عَلَى نَحْوِ مَا تُعَظَّمُ بِهِ مَلَّةُ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا، أَوْ كَاذِبًا فِي الْمَحْلُوفِ عَلَيْهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْحَالِفُ بِذَلِكَ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لَذَلِكَ فَهُوَ آثِمٌ، مَرْتَكِبٌ كَبِيرَةٌ، إِذْ قَدْ نَسَبَهُ فِي قَوْلِهِ لِمَنْ يَعَظِّمُ تِلْكَ الْمَلَّةَ، وَيَعْتَقِدُهَا، فَعَلَّظَ عَلَيْهِ الْوَعِيدَ، بِأَنْ صَيَّرَهُ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، مِبَالِغَةً فِي الرَّدْعِ، وَالزَّجْرِ... كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] (١).

❁ وقوله: «وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» هَذَا فِيهِ أَنْ الْجِزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ... وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ جَاءَ وَحَدِيدَتُهُ بِيَدِهِ يَجَأُ بِهَا نَفْسَهُ - أَى: يَقْتُلُ بِهَا نَفْسَهُ - وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمْ فَإِنَّهُ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»، أَى: أَنَّهُ يُعَذَّبُ بِالشَّيْءِ الَّذِي قَتَلَ نَفْسَهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَهَذَا

(١) المفهم / للإمام القرطبي (١/ ٢١١).

يدل على أنه يجب على الإنسان أن يحافظ على نفسه وألا يُعرضها للتهلكة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فنفس الإنسان ليست ملكاً له يتصرف فيها كيف يشاء، وإنما يتصرف في حدود ما هو مأذون له وما هو مشروع له، وقد حُرِّم عليه أن يقتل نفسه، فإذا أقدم على قتل نفسه فإنه يكون بذلك مرتكباً أمراً خطيراً وهو مستحق للعقوبة، ويُعَذَّب بالشيء الذي قتل نفسه به... فإن قتل نفسه بحديدة فإنه يوم القيامة يجأ نفسه بتلك الحديدية، وإن قتلها بسُمِّ فإنه يتحسَّى ذلك السُمِّ، وإن قتل نفسه برميته نفسه من جبل فإنه يُعاقَب بمثل ذلك يوم القيامة.

وقوله: «وليس على رجل نذر فيما لا يملكه» أى: أن الإنسان ينذر بالشىء الذى يملكه، أما الشىء الذى لا يملكه فليس له أن ينذر به... كأن يقول: إن شفى الله مريضى فعبد فلان حُر... فليس له ذلك؛ لأنه لا يملكه.

فالإنسان لا ينذر إلا فى الشىء الذى يملكه، ولا يكون النذر إلا فى طاعة، أما شىء لا يملكه الإنسان فليس له أن ينذر به.

❦ وعلى كل حال قال أهل العلم رحمهم الله: إن النذر أقسام:

النذر الأول: نذر الطاعة... أن ينذر الإنسان أن يصلى أو يصوم أو يتصدق أو يحج أو يعتمر فهذا يجب الوفاء به لقول النبى ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه» وسواء كان مُعلّقاً على شرط أو غير مُعلّق.

الثانى: نذر المعصية... فهذا لا يجوز الوفاء به، مثل أن ينذر الإنسان أن لا يكلم فلاناً وفلاناً من المؤمنين (الذين لا يُهَجَرُونَ)، لكن صارت بينه وبينه عداوة وخصام، فقال: لله علىّ نذر ألا أكلم فلاناً، أو لله علىّ نذر ألا أزور أخى أو قريبى أو ما أشبه ذلك.. فهذه معصية مُحَرَّمة ولا يجوز الوفاء بهذا النذر، لقول النبى ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِه»^(١) ولكن ماذا يفعل؟ يجب عليه

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

أن يكفر كفارة اليمين.

الثالث: ما يسمى عند العلماء بنذر اللجاج والغضب ، وهو الذى يقصد به الإنسان المنع أو الحث أو التصديق أو التكذيب مثل أن يقول: الله علىّ نذر أن لا أفعل كذا وكذا... يحمله على ذلك أنه يريد الامتناع ولكنه ما أراد النذر، لكن أراد معنى النذر... فهذا يُخَيِّر بين فعله إن كان فعلاً أو تركه إن كان تركاً وبين كفارة اليمين... مثاله أن يقول: الله علىّ نذر لا ألبس هذا الثوب، نقول: أنت الآن بالخيار إن شئت فالبسه وكفّر كفارة اليمين ، وإن شئت فلا تلبسه ولا كفارة عليك.

القسم الرابع: النذر المطلق يعنى ليس فى شىء مُحدد... كأن يقول الإنسان: الله علىّ نذر فقط.. فهذا عليه كفارة يمين، لقول النبى ﷺ: «كفارة النذر إذا لم يُسمَّ كفارة يمين»^(١) والحاصل أنه لا ينبغى للإنسان أن ينذر، فالخير يأتى بدون نذر، والقضاء لا يرد بالنذر... كما قال النبى ﷺ: «إنه لا يأتى بخير ولا يرد قضاء»^{(٢)(٣)}.
❦ وقوله: «لعن المؤمن قتلته» أى: فى الإثم... ووجهه: أن مَنْ قال لمؤمن: لعنه الله؛ فقد تضمّن قوله ذلك إبعاده عن رحمة الله تعالى التى رَحِمَ بها المسلمين، وإخراجه من جملتهم فى أحكام الدنيا والآخرة، ومَنْ كان كذلك فقد صار بمنزلة المفقود عن المسلمين بعد أن كان موجوداً فيهم، إذ لم ينتفع بما انتفع به المسلمون، ولا انتفعوا به، فأشبه ذلك قتله، وعلى هذا فىكون إثمُ اللاعن كإثم القاتل، غير أن القاتل أدخل فى الإثم، لأنه أفقد المقتول حسّاً ومعنى.. واللاعن أفقده معنى، فإثمُه أخفّ منه، لكنهما قد اشتركا فى مُطلق الإثم، فصدق عليه أنه مثله، والله أعلم^(٤).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٥) كتاب النذر، وقال ﷺ: «كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ».

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠٨) كتاب القدر، ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر، بنحوه.

(٣) شرح رياض الصالحين (٩٥/٤) بتصرف.

(٤) المفهم / للإمام القرطبى (٢١٣/١).

(١٥٦٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِصَدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَنًا»^(١).

(١٥٦١) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

❁ «لَا يَكُونُ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ» فَمَعْنَاهُ: لَا يَشْفَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُشْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ. «وَلَا شُهَدَاءَ» فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَصَحُّهَا وَأَشْهَرُهَا: لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْأَمَمِ بِتَبْلِيغِ رُسُلِهِمْ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَاتِ، وَالثَّانِي: لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ فِي الدُّنْيَا أَيْ لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُمْ لِفُسْقِهِمْ، وَالثَّلَاثُ: لَا يُرْزَقُونَ الشَّهَادَةَ وَهِيَ الْقَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنَّمَا قَالَ ﷺ: «لَا يَنْبَغِي لِصَدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَنًا وَلَا يَكُونَ اللَّعَانُونَ شُفَعَاءَ» بِصِغَةِ التَّكْثِيرِ، وَلَمْ يَقُلْ لَاعِنًا؛ لِأَنَّ هَذَا الذَّمُّ فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ كَثُرَ مِنْهُ اللَّعْنُ لَا لِمَرَّةٍ وَنَحْوِهَا؛ وَلِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهُ أَيْضًا اللَّعْنُ الْمُبَاحُ وَهُوَ الَّذِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ وَهُوَ «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» «لَعْنَةُ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» «لَعْنَةُ اللَّهِ الْوَاصِلَةَ وَالْوَاشِمَةَ وَشَارِبَ الْخَمْرِ وَآكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ وَالْمُصَوِّرِينَ وَمَنْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَتَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ وَغَيْرَ مَنَارِ الْأَرْضِ» وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ هُوَ مَشْهُورٌ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ^(٣).

بَيَاضِ الصَّالِحِينَ

(١٥٦٢) وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ»^(٤).

❁ هَذَا نَهْيٌ عَنْ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ أَوْ يَدْعُو عَلَيْهِ بِالنَّارِ، أَوْ يَدْعُو عَلَيْهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٨) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٦ / ٢٢٥).

(٤) حسن: رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٤٣).

بالغضب، أو غير ذلك... وهذا فيه النهى عن هذه الأعمال التى هى التكلم باللعن، أو بالدعوة بالغضب، أو بالنار، أو أن يكون من أهل النار، أو أن يجعل من أهل النار.

❦ قوله ﷺ: «لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ» أَيْ لَا يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا... فَلَا يَقُلْ أَحَدٌ لِمُسْلِمٍ مُعَيَّنٍ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ مِثْلًا «وَلَا يَغْضِبُهُ» بِأَنْ يَقُولَ غَضَبُ اللَّهِ عَلَيْكَ «وَلَا بِالنَّارِ» بِأَنْ يَقُولَ: أَدْخَلَكَ اللَّهُ النَّارَ أَوْ النَّارُ مِثْوَاكَ.

قَالَ الطَّبِيُّ: أَيْ لَا تَدْعُوا عَلَى النَّاسِ بِمَا يُبْعِدُهُمُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ إِمَّا صَرِيحًا كَمَا تَقُولُونَ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ... أَوْ كِنَايَةً كَمَا تَقُولُونَ: عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ، أَوْ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ... فَقَوْلُهُ: «لَا تَلَاعَنُوا» مِنْ بَابِ عُمُومِ الْمَجَازِ؛ لِأَنَّهُ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ حَقِيقَةٌ وَفِي بَعْضِهِ مَجَازٌ، وَهَذَا مُخْتَصٌّ بِمُعَيَّنٍ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ اللَّعْنُ بِالْوَصْفِ الْأَعْمِّ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أَوْ بِالْأَخْصِّ كَقَوْلِهِ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ» أَوْ عَلَى كَافِرٍ مُعَيَّنٍ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ كَفِرَعُونَ وَأَبَى جَهْلٍ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٦٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيٍّ»^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يقول النبى ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ» أَيْ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَامِلُ الْإِيمَانِ «بِالطَّعَّانِ» أَيْ: الَّذِى يَعِيبُ النَّاسَ وَيَطْعَنُ فِى أَنْسَابِهِمْ أَوْ أَعْرَاضِهِمْ أَوْ شَكْلِهِمْ أَوْ هَيْئَاتِهِمْ.

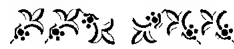
«وَاللَّعَّانِ» أَيْ: الَّذِى يُكْثِرُ مِنَ اللَّعْنِ.. كُلَّمَا تَكَلَّمَ قَالَ: فَلَانِ اللَّهُ يَلْعَنُهُ.. أَوْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى فَلَانِ.. أَوْ: اذْهَبْ وَأَحْضِرْ لِي كَذَا لَعْنِكَ اللَّهُ.

(١) تحفة الأحوذى (٥ / ٣٨٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣٨١).

«ولا الفَاحِشِ» أى: الذى يكون فاحشاً فى كلامه وأفعاله «ولا البذِىِّ» وهو الذى لاهىاء عنده فيكون بذىء اللسان يعتدى على غيره.

وهذا يدل على أن هذه الأشياء نقصٌ فى الإيمان وأنها تسلب عن المؤمن كمال الإيمان.. مثل قوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»، وقوله: «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ» يعنى: ليس عنده كمال الإيمان الواجب، بل هو ناقص الإيمان.



(١٥٦٤) وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا، صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاعًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعَنَ، فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا»^(١).

✽ ذكرنا قبل ذلك أن الأصل عند أهل السنة أن المعين لا يلعن.. وذلك لأن الإنسان قد يكون على شرٍّ، ثم يُختم له بخير، وتكون نهايته على خير.... ومن المعلوم أن الناس بالنسبة للنهايات والبدايات أربعة أقسام: منهم من تكون بدايته ونهايته طيبة، ومنهم من تكون بدايته ونهايته سيئة، ومنهم من تكون بدايته حسنة ونهايته سيئة، ومنهم من تكون بدايته سيئة ونهايته حسنة... فهذه أربعة أقسام للناس بالنسبة للبداية والنهاية... فأما من كانت بدايته ونهايته طيبة فمثل الأنبياء والمرسلين وكثير من المؤمنين.. وأما من كانت بدايته ونهايته سيئة فمثل فرعون وهامان وقارون وأبو جهل وأبو لهب وكثير من الكفار والمشركين... وأما من كانت بدايته حسنة ونهايته سيئة فمثل الذين كانوا مسلمين ثم انتكسوا وارتدوا فى نهاية حياتهم فُختم لهم بالكفر والعياذ بالله... وأما من كانت بدايته

(١) حسن: رواه أبو داود، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٧٢).

سيئة ونهايته حسنة فمثل كثير من أصحاب الرسول ﷺ الذين كانوا مشركين وماتوا وهم على الإيمان والتوحيد وفازوا بصحبة سيد الأولين والآخرين ﷺ.

❁ وفي هذا الحديث يذكر النبي ﷺ أن اللعنة التي تصدر من الإنسان تذهب إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها، ثم ترجع إلى الأرض فتغلق أبواب الأرض دونها، ثم تذهب يميناً وشمالاً حتى تذهب إلى الذي قيلت فيه، فإن كان كذلك .. يعنى: إن كان أهلاً لها وإلا عادت على صاحبها وقائلها .. وهذا وعيدٌ شديد على مَنْ لعن أحداً ليس أهلاً للعن.

فيا ليتنا نحذر من كثرة اللعن حتى لا نبوء بذلك إذا لعنا أحداً ليس أهلاً للعن.



(١٥٦٥) وعن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها، ودعوها، فإنها ملعونة» قال عمران: فكأنني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد^(١).

(١٥٦٦) وعن أبي بركة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قال: بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم، إذ بصرت بالنبي ﷺ وتضايق بهم الجبل، فقالت: حل، اللهم العنهما، فقال النبي ﷺ: «لا تُصاحبنا ناقةٌ عليها لعنة»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٥) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٩٦) كتاب البر والصلة والآداب.

قوله: «حل»، وهى كلمة لزرع الإبل.

واعلم أن هذا الحديث قد يُستشكل معناه، ولا إشكال فيه، بل المراد النهى أن تُصاحبهم تلك الناقة، وليس فيه نهى عن بيعها وذبحها وركوبها في غير صحبة النبي ﷺ، بل كُلُّ ذلك وما سواه من التصرفات جائز لا مُنْع منه، إلا من مُصاحبة النبي ﷺ بها، لأن هذه التصرفات كُلُّها كانت جائزة فمُنْع بعض منها، بقى الباقي على ما كان. والله أعلم.

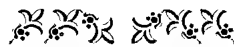
❁ ففى الحديث الأول أن النبى ﷺ كان فى بعض أسفاره.. وكانت هناك امرأة من الأنصار على ناقة لها.. فلعلَّ الناقة قد أبطأت بها أو كادت أن تُوقعها فما كان من هذه المرأة إلا أن لعنتها.. فلما سمع ذلك النبى ﷺ قال: «خُذُوا مَا عَلَيْهَا، وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ» فتركها المرأة تسير وحدها ولكنها لم تتركها لتضيع وحدها فى الصحراء وإنما كانت تمشى قريباً منها.

قال عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكأننى أراها الآن تمشى فى الناس ما يعرضُ لها أحدٌ... لأن النبى ﷺ قال: «دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ».

❁ وفى الحديث الثانى أن جارية لعنت ناقةها أيضاً فقال النبى ﷺ: «لَا تُصَاحِبْنَا نَاقَةً عَلَيْهَا لَعْنَةٌ».. فكان هذا من باب التعزير لتلك المرأة لأنها لعنت ناقة ليس لها ذنب حتى تلعنها وتدعو عليها بالطرد من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ... وليس معنى أن النبى ﷺ نهاها عن ركوبها أنه نهاها عن بيعها والانتفاع بثمنها؟.. كلا.. بل كانت هذه عقوبة لها من أجل التأديب حتى لا تفعل مثل ذلك مرة أخرى.. وحتى لا يتجرأ غيرها على لعن دابته وهى ليس لها ذنب فى تلك اللعنة.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ قَدْ يُسْتَشْكَلُ مَعْنَاهُ، وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ، بَلِ الْمُرَادُ النَّهْيُ أَنَّ مُصَاحِبَهُمْ تِلْكَ النَّاقَةَ، وَلَيْسَ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ بَيْعِهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِهَا فِي غَيْرِ صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ بَلْ كُلُّ ذَلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ جَائِزٌ لَا مَنَعَ مِنْهُ، إِلَّا مِنْ مُصَاحِبَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلَّهَا كَانَتْ جَائِزَةً فَمُنِعَ بَعْضُ مِنْهَا، فَبَقِيَ الْبَاقَى عَلَى مَا كَانَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).



(١) رياض الصالحين/ للإمام النووى (ص/ ٤٥٤).

(٢٦٥) بَابُ جَوَازِ لَعْنِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي غَيْرِ الْمُعِينِينَ

✽ أورد الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ (رياض الصالحين) بِأَبًا بِعَنْوَانِ: «بَابُ جَوَازِ لَعْنِ أَصْحَابِ الْمَعَاصِي غَيْرِ الْمُعِينِينَ».

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذْ نُنَاقِشُ بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

✽ قَالَ الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ:

وَبَيَّنَتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَعْنُ اللهِ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ»^(١) «وَأَنَّهُ»^(٢).

وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعْنُ اللهِ أَكِلَ الرَّبَا»، وَأَنَّهُ «لَعْنُ الْمُصَوِّرِينَ»^(٣).

وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعْنُ اللهِ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ»^(٤) أَيْ: حُدُودَهَا.

وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعْنُ اللهِ السَّارِقُ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ»^(٥).

وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعْنُ اللهِ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ» وَ«لَعْنُ اللهِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ». وَأَنَّهُ قَالَ: «مَنْ

أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحِدًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ»^(٦).

وَأَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ الْعَنِ رِعْلًا، وَذَكَوَانَ، وَعُصَيَّةَ: عَصُوا اللهُ وَرَسُولَهُ»^(٧) وَهَذِهِ

ثَلَاثُ قِبَائِلَ مِنَ الْعَرَبِ.

وَأَنَّهُ قَالَ: «لَعْنُ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(٨).

(١) قَالَ الإمام النووي فِي شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٧/ ٢٩٠): «الوَاصِلَةُ: هِيَ الَّتِي تَصِلُ شَعْرَ الْمَرْأَةِ بِشَعْرِ آخَرٍ، وَالْمُسْتَوْصِلَةُ: الَّتِي تَطْلُبُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ».

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٩٣٧) كِتَابُ الْبِلَاسِ، وَمُسْلِمٌ (٢١٢٢) كِتَابُ الْبِلَاسِ وَالزَّيْنَةِ.

(٣) صَحِيحٌ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٠٨٦) كِتَابُ الْبَيُوعِ.

(٤) صَحِيحٌ: رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٩٧٨) (٤٣) كِتَابُ الْأَضَاحِي، مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٨٣) كِتَابُ الْحُدُودِ، وَمُسْلِمٌ (١٦٨٧) (٧) كِتَابُ الْحُدُودِ.

(٦) أَجْزَاءُ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ السَّابِقِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٩٧٨).

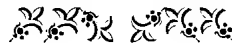
(٧) صَحِيحٌ: رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٦٧٧) (٣٠٣) كِتَابُ الْمَسَاجِدِ.

(٨) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٦) كِتَابُ الصَّلَاةِ، وَمُسْلِمٌ (٥٢٩) (١٩) كِتَابُ الْمَسَاجِدِ.

وأنه «لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»^(١).

وَجَمِيعُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي الصَّحِيحِ؛ ... بَعْضُهَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَبَعْضُهَا فِي أَحَدِهِمَا، وَإِنَّمَا قَصَدْتُ الْاِخْتِصَارَ بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِمَا^(٢).

❦ ففى تلك الأحاديث التى أوردها الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ دليل على جواز لعن أصحاب المعاصى غير المُعِينِينَ... كأن يلعن الإنسان مَنْ يأكلون الربا على العموم لكن لا يلعن شخصاً بعينه ويقول: فلان الذى يأكل الربا لعنه الله.. فهذا لا يجوز.. وكأن يلعن الكافرين على العموم لكن لا يلعن كافراً بعينه إلا إذا ورد الشرع بلعنه مثل أبى جهل وأبى لهب.. أما إذا كان رجلاً كافراً ما زال على قيد الحياة فلا تلعنه بعينه لأنه ربما يهديه الله ويشرح صدره للإسلام فيُسلم.. أما مَنْ مات كافراً فيجوز لعنه لأنه قد انقطع الأمل فى هدايته.. إلا أن يكون فى ذلك أى إيذاء لمسلم.. كأن يكون هذا الكافر قريباً له.. والله أعلم.



(١) صحيح: رواه البخارى (٥٨٨٥) كتاب اللباس، من حديث ابن عباس.

(٢) رياض الصالحين للإمام النووى (ص ٤٥٤).

(٢٦٦) باب تحريم سب المسلم بغير حق

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أى: يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جناية واستحقاقٍ للأذى ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أى: فقد حملوا أنفسهم البهتان والكذب والزور، والذنب الواضح الجلى... قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً^(١)، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحق ومنه ما لا يكون بحق.

وهذا يشمل كل أذية سواء كان بالقول أو بالفعل... وكلما كان الإنسان أحق بالإكرام كانت أذيته أعظم وأكبر إثماً... فأذية القريب ليست كأذية البعيد وأذية الجار ليست كأذية غير الجار وأذية من له حق عليك ليست كأذية من لا حق له عليك... المهم أن الأذية يتفاوت إثمها وجرمها بحسب المؤدى والعجب أن كثيراً من المسلمين اليوم يؤذون جيرانهم بالمضايقات والاطلاع على عوراتهم وغير ذلك وهذا من أعظم ما يكون من الإثم... قال النبي ﷺ: «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ»^(٢) يعنى ظلمه وغشمه.

وقوله تعالى: ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ يفهم منها أنه إذا أذى المؤمن بما اكتسب فليس في ذلك بأس... يعنى لو أذيت إنساناً رداً على فعل له.. آذاك فأذيته فلا بأس أو أذى إنساناً لإقامة حدّ الله ﷻ أو أذى لأداء حقّ عليه أبى أن يقوم به

(١) تفسير القرطبي (١٤/٢٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠١٦) كتاب الأدب، ومسلم (٤٦) كتاب الإيمان.

فلا بأس ... بل قد أمر الله تعالى بالَّذِينَ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ فَقَالَ: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾ فَأَمَرَ بِإِذَائِهِمَا ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ [النساء: ١٦] وهذا قبل أن يشرع قتل الفاعل والمفعول به في اللواط ...

كان اللواط في الأول لا يُجْلَد ولا يُقْتَل لكن يُؤَذَى حتى يتوب ثم أمر الله تعالى بقتل الفاعل والمفعول به على لسان نبيه ﷺ وأجمع الصحابة على ذلك.



(١٥٦٧) وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(١).

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

السَّبُّ فِي اللُّغَةِ: الشَّتْمُ وَالتَّكْلُمُ فِي عَرَضِ الْإِنْسَانِ بِمَا يَعْيبُهُ... وَالْفِسْقُ فِي اللُّغَةِ الْخُرُوجُ وَالْمُرَادُ بِهِ فِي الشَّرْعِ: الْخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ... وَأَمَّا مَعْنَى الْحَدِيثِ فَسَبُّ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ وَفَاعِلُهُ فَاسِقٌ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَّا قِتَالُهُ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَا يَكْفُرُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ كُفْرًا يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الْمِلَّةِ كَمَا قَدَّمَ نَاهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ إِلَّا إِذَا اسْتَحَلَّهُ... فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَقِيلَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ أَقْوَالٌ أَحَدُهَا أَنَّهُ فِي الْمُسْتَحِلِّ وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَادَ كُفْرَ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ وَأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِ لَا كُفْرَ الْجُحُودِ... وَالثَّالِثُ أَنَّهُ يَتَوَلَّى إِلَى الْكُفْرِ بِشُؤْمِهِ... وَالرَّابِعُ أَنَّهُ كَفَعَلَ الْكُفْرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

وهذا يدل على أن الفسق أهون من الكفر لأنه جعل السب فسوقاً وجعل المقاتلة كُفْرًا ... فعلى هذا إذا سبَّ المسلم أخاه صار هذا الساب فاسقاً لا تقبل شهادته؛ لأنه صار فاسقاً ولا يصح أن يكون إماماً للمسلمين.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨) كتاب الإيمان، ومسلم (٦٤) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧١/٢).

أما مَنْ قَاتَلَهُ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ إِنْ اسْتَحْلَّ الْمَقَاتِلَةَ بِغَيْرِ حَقِّ فَهُوَ كَافِرٌ مُخْرَجًا
عَنِ الْمِلَّةِ ... وَإِنْ لَمْ يَسْتَحْلِهَا وَلَكِنْ لَهْوَى فِي نَفْسِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا لَكِنَّهُ كَفَرُ لَا
يُخْرَجُ مِنَ الْمِلَّةِ ... وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
أَفْتَلَوْا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَنِّلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ
اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠، ٩] فجعل الله الطائفتين
المقتلتين إخواناً للطائفة المصلحة ... وهذا يدل على أنهما لا يخرجان من
الإيمان لكنه كفرٌ دون كفرٍ والله الموفق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٦٨) وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَرْمِي رَجُلٌ
رَجُلًا بِالْفِسْقِ أَوْ الْكُفْرِ، إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ»^(١).
✽ قال الحافظ ابن حجر رحمته الله في الفتح:

وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ مَنْ قَالَ لِأَخْرَ أَنْتَ فَاسِقٌ أَوْ قَالَ لَهُ أَنْتَ كَافِرٌ فَإِنْ كَانَ لَيْسَ
كَمَا قَالَ كَانَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْوَصْفِ الْمَذْكُورِ وَأَنَّهُ إِذَا كَانَ كَمَا قَالَ لَمْ يَرْجِعْ عَلَيْهِ
شَيْءٌ لِكُونِهِ صَدَقَ فِيمَا قَالَ ... وَلَكِنْ لَا يُلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يَصِيرُ بِذَلِكَ فَاسِقًا وَلَا
كَافِرًا أَنْ لَا يَكُونَ آثِمًا فِي صُورَةِ قَوْلِهِ لَهُ أَنْتَ فَاسِقٌ بَلْ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ تَفْصِيلٌ:
إِنْ قَصَدَ نُصَحَهُ أَوْ نُصَحَ غَيْرُهُ بَيَّانِ حَالِهِ جَازَ ذَلِكَ وَإِنْ قَصَدَ تَعْيِيرَهُ وَشَهْرَتَهُ
بِذَلِكَ وَمَحَضَ أَذَاهُ لَمْ يَجْزُ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ وَتَعْلِيمِهِ وَعِظَتِهِ بِالْحُسْنَى
فَمَهْمَا أَمَكْنَهُ ذَلِكَ بِالرَّفْقِ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِالْعُنْفِ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَبِيًّا لِأَغْرَائِهِ
وَإِصْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ كَمَا فِي طَبَعِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْأَثَقَةِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ
الْأَمْرُ دُونَ الْمَأْمُورِ فِي الْمَنْزِلَةِ^(٢).

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٠٤٥) كتاب الأدب.

(٢) فتح الباري (١٠/٤٨٠-٤٨١).

وفى هذا دليل على أن هذا من كبائر الذنوب لأن النبى ﷺ توعد هذا القائل أن يكون هو الذى يتصف بهذه الصفة... وعلى هذا فلا يحل للإنسان أن يقول لأخيه المؤمن يا فاسق أو يقول فلان فاسق إلا إذا كان كذلك وأراد أن يحذر منه فلا بأس... وكذلك لا يقول له يا كافر أو يقول فلان كافر فإنه لا يحل له ذلك ما لم يكن هكذا... وفيه التحذير من تكفير المسلمين بغير دليل شرعى خلافا لما يتجاسر عليه بعض الناس والعياذ بالله... يُكفّر على أدنى شىء يقول: هذا كفر وهذا فسق وما أشبه ذلك^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٦٩) وعن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُتَسَابِّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِيَ الْمَظْلُومُ»^(٢).

❦ قال الإمام النووى رحمته الله:

معناه: أن إثم السبب الواقع من اثنين مختص بالبادي منهما كله إلا أن يتجاوز الثانى قدر الانتصار فيقول للبادي أكثر مما قال له... وفى هذا جواز الانتصار ولا خلاف فى جوازه وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩] وَمَعَ هَذَا فَالصَّبْرُ وَالْعَفْوُ أَفْضَلُ... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وللحديث المذكور بعد هذا «مَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا» وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَابَ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ حَرَامٌ كَمَا قَالَ ﷺ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ» وَلَا يَجُوزُ لِلْمَسْبُوبِ أَنْ يَنْتَصِرَ إِلَّا بِمِثْلِ مَا سَبَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ كَذِبًا أَوْ قَذْفًا أَوْ سَبًّا لِسُلَافِهِ^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين رحمته الله (١٠٦/٤ - ١٠٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٧) كتاب البر والصلة.

(٣) مسلم بشرح النووى (٢١٢/١٦).

ومن صور الانتصار المباح هنا أن يقول له: يا ظالم أو يا جافي .. أو نحو ذلك ولا يتعدها إلى الألفاظ النابية..

فإذا انتصر المسبوب استوفى حقه من الذى سبّه وبرئ الأول من حقه وبقي عليه إثم الابتداء بالسبِّ .. وقيل: بل يرتفع عنه جميع الإثم إذا استوفى المظلوم حقه ... ولذلك كان العفو أفضل فإن لم يستطع أن يعفو فعليه ألا ينتصر لنفسه حتى يستوفى حقه كاملاً يوم القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٧٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبى ﷺ برجل قد شرب قال: «اضربوه» قال أبو هريرة: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا هَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ»^(١).
❀ ففى هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أنه أتى النبى ﷺ برجل قد شرب الخمر بعد أن نزل تحريمها.. ومن المعلوم أن كل ما أسكر فهو خمر سواء كان من العنب أو التمر أو الشعير أو غير ذلك.. فقد قال النبى ﷺ: «كل مُسْكِرٍ خمر وكل مُسْكِرٍ حرام»^(٢).

والإسكار هو تغطية العقل على وجه اللذة .. وليس مجرد تغطية العقل.. فالبنج يغطى العقل ولكن ليس على سبيل اللذة ولذا فهو ليس بحرام.
❀ وكان الخمر على أربع مراحل:

المرحلة الأولى: إباحة... أى أن الله أباح الخمر للعباد إباحة طيبة.
فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، يعنى: تشربونه فتسكرون، وتتجرون به فتحصلون رزقاً.

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٧٧٧) كتاب الحدود.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٠٣) كتاب الأشربة.

المرحلة الثانية: تعريض الله تعالى بتحريمه ... وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ولم يَنْهَ عنهما في هذه المرحلة الثانية.

المرحلة الثالثة: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فنهى عن قربان الصلاة في حال السكر وهذا يقتضى أنه يُباح شرب الخمر في غير أوقات الصلاة.

المرحلة الرابعة: التحريم «البائن» قال تعالى في سورة المائدة، وهى من آخر ما نزل... قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، فاجتنبه الناس. لكن لما كانت النفوس تدعو إليها - إلى الخمر - وشربها، جعل لها رادع يردع الناس عن شربها، وهو العقوبة^(١).

❁ المهم أنه لما جىء بهذا الرجل وقد شرب خمراً فقال النبى ﷺ: «اضربوه» فقاموا يضربونه...

فمنهم الذى يضرب بيده، والذى يضرب بنعله، والذى يضرب بثوبه. (فلما انصرف قال بعض القوم: أخزأك الله) يدعو عليه، كأنه يقول: أخزأك الله... فَضَحَكَ اللهُ... فقال النبى ﷺ: «لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان»، يعنى: طالما أنك تدعو على إنسانٍ بالفضيحة، ستبقى أنت أول واحدٍ يفضحه، فكانك تُعين الشيطان عليه.

إذا بدلاً من أن تدعو عليه بأن يفضحك الله، ادعُ له أن يستره الله، وأن يتوب الله عليه فلا يقع في هذه المعصية مرة أخرى... وإذا فعل معصية فيها حَدٌّ فأقم عليه الحد، ولكن لا تُعن الشيطان عليه... أَحِبْ للمسلم ما تحب لنفسك، فأنت تحب لنفسك التوبة، فأحِبَّ له أيضاً أن يتوب الله ﷻ عليه.

(١) شرح رياض الصالحين (١٠٩/٤) للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.

إذا: لا تدعُ على مسلم بأن يفضحه الله، ولا أن يخزيه الله سبحانه وتعالى.

لأنك إذا فعلت ذلك فقد تأخذ العزة بالإثم فيتمادى في المعصية ويأبى أن يتوب فتكون قد أعنت الشيطان على إغوائه وفساده.. بل عليك أن تدعوه بالرحمة وأن تدعوه له وأن تستعمل الرفق معه.. «ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه».

❁ ولقد اختلف أهل العلم في عقوبة شارب الخمر.. فمنهم من قال: أن النبي ﷺ حدَّ لشارب الخمر أن يُجلد أربعين جلدة.. ومنهم من قال أن هذا ليس على سبيل الحد وإنما هو من باب التعزير لكن في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتشرت الفتوحات، ودخل في دين الإسلام أناسٌ جُدُّ، وكثُر شرب الخمر في عهده، وكان رضي الله عنه رجلاً حازماً فأراد أن يعاقب شارب الخمر بعقوبة تكون أشد وأردع، إلا أنه رضي الله عنه - لورعه وتحزُّزه - جمَعَ الصحابة، أى جمع ذوى الرأى، من الصحابة، وقال لهم ما معناه: (كثُر شرب الخمر)، وإذا قل الوازع الدينى، يجب أن يقوى الرادع السلطانى... يعنى إذا ضعف الأمر من الناحيتين: الوازع الدينى، والرادع السلطانى فسدت الأمة.

فاستشارهم ماذا يصنع فقال عبدالرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين أخف الحدود ثمانون جلدة، ارفع العقوبة إلى ثمانين جلدة... ويشير رضي الله عنه - أعنى عبد الرحمن بن عوف - إلى حد القذف... فإن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤]، هذا أخف الحدود... فرفع عمر رضي الله عنه عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين.

والذى يترجَّح لدى أن الحدَّ أربعون؛ لأنه الذى فعله النبى ﷺ وأبو بكر وعمر صدرًا من خلافته... وأما ما زاده عمر رضي الله عنه واستشار فيه الصحابة، فإنه قدَّر زاده على الحدِّ من باب التعزير لما رأى من اجترأ الناس وتتابُعهم على شربها.

(١٥٧١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنا، يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»^(١).

وقال ﷺ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ، جُلِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَدًّا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»^(٢). فإن كان هذا هو الحال مع المملوك فكيف بالحرّة الطاهرة؟

✽ قال الشيخ ابن عثيمين رحمته الله:

المملوك هو العبد يملكه الإنسان... والمملوك كالسلعة يُباع ويُشترى ويوهب، ويُرهن ويوقف إلا أن أحكام الله ﻋَزَّ وَجَلَّ أنه جعله هو والحر على حدّ سواء في غير الأمور المالية.

والسيد مالك للرقيق لعينه - يعنى: رقبته - ولمنافعه فإذا قذف عبده بأن قال للعبد: يا زانى أو يا لوطى، أو ما أشبه ذلك من كلمات القذف فإنه لن يُحدّ في الدنيا؛ لأنه سيد، والعبد مملوك، لكن يُقام عليه في دار عذابها أشدّ والعياذ بالله وهى الدار الآخرة... يُقام عليه الحدّ يوم القيامة... وعلى هذا فيكون قذف المملوك من كبائر الذنوب لأنه رتبّ عليه عقوبة في الآخرة وكلّ شيء رتبّ عليه عقوبة في الآخرة فإنه يكون من كبائر الذنوب، كما قال أهل العلم رحمهم الله في حدّ الكبيرة.

وأما لو زنى المملوك حقيقة وقذفه سيده بذلك فإنه لا حدّ عليه.

لقول النبي ﷺ: «إلا أن يكون كذلك» يعنى: كما قال... ولكن متى يكون كما قال؟ يكون بأن يشهد عليه أربعة رجال عُدول بأنه زنى ويصرحون بذكر حقيقة الوطء أو يُقر هو بنفسه على نفسه فحينئذ يرتفع الحد عن السيد.

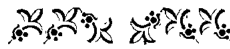
(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٦٠) كتاب الأيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٥٨) كتاب الحدود، ومسلم (١٦٦٠) كتاب الأيمان.

واعلم أن الرقيق إذا زنى فإن عليه نصف حد الحر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ﴾ يعنى: الإماء ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، والذي يتنصف من عذاب المُحصنات هو الجلد فيكون على الرقيق إذا زنى خمسون جلدة فقط.

قال العلماء: ويسقط عنه التغريب، لأن الزانى الحر إذا زنى وهو غير محصن فإنه يُجلد مائة جلدة ويُطرد عن البلد عامًا كاملاً أما الرقيق فإنه يُجلد خمسين جلدة ولا يُغرب لأن التغريب إضرار بسيده فيكون من باب تحميل الإنسان ما لم يحتمله... وللسيد أن يقيم على عبده الحد إذا زنى.. لقول النبي ﷺ: «إِذَا زَنَتْ أُمَةٌ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا»^(١) فأمر السيد أن يجلدها... أما الحر فإنه لا يتولى جلده إلا الإمام أو نائبه... حتى لو كان ابنك قد زنى وهو بالغ عاقل فإنه لا يتولى إقامة الحد عليه إلا الإمام أو نائبه.... وكذلك لو زنى أخوك بعد بلوغه وهو عاقل فإنه لا يقيمه إلا الإمام أو نائبه... أما السيد فيقيمه على عبده خاصة في الجلد.

وأما لو سرق العبد فالسرقة فيها قطع اليد ولا يتولى قطع اليد إلا الإمام أو نائبه ولهذا قال العلماء: إن السيد لا يقيم الحد على عبده إلا إذا كان الحد جلدًا... والله أعلم^(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٧٠٣) كتاب الحدود.

(٢) شرح رياض الصالحين (١١١/٤-١١٢).

(٢٦٧) بَابُ تَحْرِيمِ سَبِّ الْأَمْوَاتِ

بِغَيْرِ حَقٍّ وَمَصْلَحَةٍ شَرْعِيَّةٍ

❖ وَهُوَ التَّحْذِيرُ مِنَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِ فِي بَدْعَتِهِ وَفِسْقِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَفِيهِ الْآيَةُ وَالْأَحَادِيثُ السَّابِقَةُ فِي الْبَابِ قَبْلُهُ.

(١٥٧٢) وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»^(١).

❖ أورد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ بَابَ تَحْرِيمِ سَبِّ الْأَمْوَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَمَصْلَحَةٍ شَرْعِيَّةٍ.

وَيَقْصِدُ بِالْأَمْوَاتِ هُنَا أَمْوَاتَ الْمُسْلِمِينَ.. فَيَحْرِمُ سَبَّ الْمُسْلِمِ حَيًّا وَمَيِّتًا.. أَمَّا الْكُفَّارُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُسْلِمِينَ وَيَقَاتِلُونَهُمْ وَيَحَارِبُونَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَفْتَنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ.. فَهَؤُلَاءِ لَا حُرْمَةَ لَهُمْ... وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْمَصْنِفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «بِغَيْرِ حَقٍّ». أَوْ مَصْلَحَةٍ شَرْعِيَّةٍ.. مِثْلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَيِّتُ صَاحِبَ بَدْعَةٍ يَنْشُرُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِيُفْسِدَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ.. فَهُنَا تَكُونُ الْمَصْلَحَةُ فِي أَنْ تُحْذَرَ النَّاسُ مِنْهُ وَمِنْ بَدْعَتِهِ حَتَّى لَا يَغْتَرَّ النَّاسُ بِهِ.

❖ وَلَقَدْ أورد الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْحَدِيثَ تَحْتَ بَابٍ: (مَا يُنْهَى مِنْ سَبِّ الْأَمْوَاتِ).. ثُمَّ تَرَجَمَ الْبَابَ الَّذِي بَعْدَهُ بِعَنْوَانٍ: (بَابُ ذِكْرِ شِرَارِ الْمَوْتَى) وَأورد فِيهِ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: قَالَ أَبُو لَهَبٍ - عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ - لِلنَّبِيِّ ﷺ: تَبَّ لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ فَتَزَلْتَ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(٢).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ

(١) صحيح: رواه البخاري (١٣٩٣) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه البخاري (١٣٩٤) كتاب الجنائز.

ﷺ: «وَجَبَتْ» ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «وَجَبَتْ» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ ﷺ: «هَذَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَتَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ذكر الثانية بشرٍّ وذكر الأولى بخيرٍ، وهذا يشير إلى ما قلت: أن ذكر محاسن الأموات بالنسبة للمسلم أصل، وذكر شرار الأموات بالنسبة للمشركين جائز، ولذلك قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدِمُوا»، يُشير إلى أموات المسلمين... و﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، يُشير إلى موتى المشركين.

والأصل في النهي التحريم فلا نُسب الأموات، ثم علل وقال: فإنهم أفضوا إلى ما قدموا. وَسَبَّكُمْ إِيَّاهُمْ لَا يُغْنِي شَيْئًا لَأَنَّهُمْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدِمُوا حِينَ انْتَقَلُوا إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ مِنْ دَارِ الْعَمَلِ... فكل مَنْ مات فإنه أفضى إلى ما قدم والتحق بدار الجزاء وقامت قيامته... أفضى وانقطع عمله ولم يَبْقَ له حظ من العمل إطلاقاً إلا ما دَلَّتِ السُّنَّةُ عليه مثل قول النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢) وفي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه عما لا فائدة منه فإن هذا طريق أهل التَّقَى... فإن عباد الرحمن إذا مَرُّوا بِاللُّغُو مَرُّوا كِرَامًا. وأما الزور فلا يشهدونه إطلاقاً ولا يتكلمون إلا بالحق. والله الموفق^(٣).



(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٣١) كتاب الوصية.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ١١٢-١١٣).

(٢٦٨) باب النهي عن الإيذاء

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

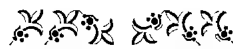
﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أى: يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه، وبغير جنائية واستحقاقٍ للأذى ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أى: فقد حملوا أنفسهم البهتان والكذب، والزور، والذنب الواضح الجلى... قال القرطبي: أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً^(١)، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحق ومنه ما لا يكون بحق.

﴿الإيذاء يشمل الإيذاء بالقول والإيذاء بالفعل والإيذاء بالتترك... أما الإيذاء بالقول فأن يُسمع أخاه كلاماً يتأذى به وإن لم يضره، فإن ضره كان أشد إثمًا والإيذاء بالفعل أن يضايقه في مكانه، في جلوسه، في طريقه، وما أشبه ذلك. والإيذاء بالتترك أن يترك شيئاً يحتار منه أخوه المسلم فيتأذى به.



(١٥٧٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»^(٢).

﴿سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢١٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) تفسير القرطبي (١٤/٢٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٠) كتاب الإيمان، ومسلم (٤٠) كتاب الإيمان.

(١٥٧٤) وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِيَ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» ^(١).

✽ من المعلوم أن كل إنسان يجب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة.. وذلك لأن الله ﻋَزَّوَجَلَّ قَالَ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾.

وبناءً على هذا فإنه يجب على الإنسان أن يؤمن بالله واليوم الآخر... لأن الإنسان إذا آمن بالله ﻋَزَّوَجَلَّ وبمقتضى أسمائه وصفاته وآمن أيضاً باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب فإنه لابد أن يستقيم على طاعة الله وعلى دين الله ﻋَزَّوَجَلَّ... وهذا هو حق الله - أي: الإيمان بالله واليوم الآخر وتحصيل أصول الإيمان -.

«وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»، فما تحبه من الناس فافعله بهم، فأنت تحب من الناس أن يكونوا مخلصين معك فكن مخلصاً معهم، وتحب منهم أن يحبوك فأحبهم، وتحب منهم ألا يغدروا بك وألا يضايقوك فابدأ أنت بذلك فلا تغدر بهم ولا تضايق أحداً ولا تؤذ أحداً.... فإذا أتتك منيتك وأنت كذلك فأنت من أهل الجنة بوعد الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى

ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٤٤) كتاب الإمارة.

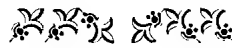
وهو بعض حديث طويل سبق في باب طاعة ولاة الأمور.

(٢٦٩) باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابير

❖ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

❖ قد يحدث خصامٌ بين الأصحاب والأحباب.. فمن الناس من لا يُخاصم ولا يُعاتب وإنما يعفو ويسامح.. وشعاره في ذلك (تركُ المُعَاتَبَةِ مِنَ الْمَرْوَةِ)... ومنهم من لا يُخاصم وإنما يُعاتب صاحبه حتى لا يتكرر منه هذا الخطأ فيكون سبباً لفقده.. فالمُعَاتَبَةُ خَيْرٌ مِنَ الْقَطِيعَةِ.

أما أن يُقاطع المسلم أخاه بغير سببٍ شرعيٍّ فهذا لا يجوز ولا يكون من أخلاق المؤمنين أبداً.



(١٥٧٥) وعن أنس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ»^(١).

❖ والتباغض يكون بالقلوب.. أما التقاطع فإنه يكون بالأقوال والأفعال.. وبُغْضُ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ حَرَامٌ... ولماذا تُبْغِضُ أَخَاكَ؟

إن قلت: إنك تُبْغِضُهُ؛ لأنه يعصى الله ﷻ. نقول لك: لا تُبْغِضُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ يَعِصِي اللَّهَ بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَبْغِضَ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ تِلْكَ الْمَعَاصِي وَتُحِبَّهُ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ.. وَعَلَيْكَ أَنْ تَقْدِمَ لَهُ النِّصِيحَةَ الرَّقِيقَةَ الرَّحِيمَةَ عَسَى أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ بِتِلْكَ النِّصِيحَةِ فَيَكُونَ ذَلِكَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٧٦، ٦٠٦٥) كتاب الأدب - ومسلم (٢٥٥٩) كتاب البر والصلة.

✽ حُكِيَ عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقبل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره، فقال: أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه.

وإلى هذا أشار أبو الدرداء رضي الله عنه لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخى.

✽ فالمهم ألا تتباغضوا؛ لأن النبي ﷺ نهى عن التباغض.

حتى لو وقع في قلبك بغض لإنسان فحاول أن ترفع هذا عن قلبك وانظر إلى محاسنه حتى تمحو سيئاته... وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا حيث قال: «لا تباغضوا» أى: لا تأتوا بالأسباب التى تجلب البغضاء بينكم، ولا تفعلوا الأسباب التى تُسبب البغضاء، وإنما اعملوا على وجود الأسباب التى تسبب الألفة والمودة والصفاء والتقارب والتآلف، وابتعدوا عن الأسباب التى يترتب عليها تنافر النفوس والقلوب، بل احرصوا على الألفة وعلى المودة.

وقوله: «ولا تحاسدوا» أى: لا يحسد بعضكم بعضاً... فمن حصلت له نعمة من الله ﷻ فلا يحسده أخوه على هذه النعمة ويتمنى زوالها عنه سواء حصلت له أم لم تحصل له.

والحسد الذى بمعنى الغبطة لا بأس به، وهو أن يتمنى الإنسان إذا رأى غيره على خير وعلى استقامة أن يكون مثله، وأن يكون له مثل ما له دون أن يتمنى زوال ما معه، بل يبقى ذلك الفضل له ويحب أن يكون له فضلٌ مثل ذلك الفضل... فهذا حسد بمعنى الغبطة وهو محمود، وقد جاء عن الرسول ﷺ ما يدل على ذلك.

وأما إذا كان الحسد المذموم الذى ينتج عن نفسٍ خبيثة بأن يكره حصول الخير للغير وبقاء النعمة عنده ويتمنى زوالها عنه، فإن هذا من الحسد المذموم

الذى نهى عنه الرسول ﷺ.

وقوله: «ولا تدابروا» أى: لا يحصل منكم التقاطع بحيث أن الشخصين إذا التقيا يُعرض كُلُّ منهما عن الآخر فيؤليه دُبره ولا يؤليه وجهه... فلأجل التقاطع الذى يكون بينهما ينتج عن ذلك أن كل واحدٍ منهما يؤلى الآخر دُبره بدلاً من وجهه، فيحصل بذلك التدابر... والتدابر معناه: أن كل واحد يؤلى الآخر دُبره؛ لأنه لا يريد أن يلقاه ولا يريد أن يُسلم عليه ولا يريد أن يتكلم معه.

❦ قوله: «وكونوا عباد الله إخواناً» أى: هذه الأخوة التى منحكم الله إياها وهى أخوة الإسلام كونوا عليها بأن يحب كل واحدٍ لأخيه ما يحبه لنفسه، ويحرص على ألا يكون هناك تباغض وتحاسد وتدابُر بينه وبين أخيه المسلم.

ثم لما ذكر التدابر الذى هو أن يؤلى كل واحدٍ الآخر دُبره قال: «ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ» أى: إذا كان هناك فى النفوس شىء لأمرٍ دنيوية أو لأمرٍ شخصية أو خاصة فيما بينه وبين غيره من التعامل ولم يكن ذلك لله ﷻ، فلا يحل له أن يهجره أكثر من ثلاث، وإنما عليه أن يحرص على أن يلتقى به وأن يُزيل ما بينه وبينه، وأن يُسلم أحدهما على الآخر، وألا يستمر على هذه الهيئة الرديئة... وأما إذا كان الهجر لله ﷻ وكان يترتب عليه مصلحة، فإنه لا مانع من الزيادة على ذلك؛ لأن الهجر الذى هو مُحدد بهذا المقدار هو الهجر الذى هو لمصلحة النفس وللحفظ الدنيوية وللأشياء التى تجرى بين الناس عادة وليست من أجل الله، أما إذا كان من أجل الله فإن الزيادة سائغة... والرسول ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه ومنع الناس من كلامهم خمسين ليلة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم بعد ذلك تاب الله ﷻ عليهم ونزل القرآن بتوبتهم، فالزيادة على ثلاث ليالٍ فيما يتعلق بحق الله، وفيما يترتب عليه مصلحة ذلك سائغ، وقد جاءت به الشريعة... وهذا موقف على

أن يكون الهجر سبباً لصلاحه وتوبته .. أما إذا كان الهجر سيكون عوناً للشيطان عليه وسيصده عن الهداية والتوبة فيحرم الهجر فوق ثلاث.

وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ... وليس فى هذا انتقاصٌ لقدره ولا مذلة له فقد قال النبى ﷺ: «..وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً».

بِإِذْنِ اللَّهِ

(١٥٧٦) وعن أبى هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»^(١).

وفى رواية له: «تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ» وذكر نحوه.

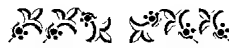
✽ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن أبواب الجنة تفتح يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع وتعرض فيهما الأعمال .. فإذا فتحت أبواب الجنة وأنعم الله على عباده بهذه النعمة العظيمة قرن ذلك بنعمة أعظم منها ألا وهى: أن الله عز وجل يغفر لكل عبدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا.. فلا يحرم الله عبداً موحداً من نعمة المغفرة أبداً... لكن هناك صنف يحرمه الله من نعمة المغفرة مؤقتاً فيا ترى مَنْ هو؟ .. إنه العبد الذى بينه وبين أخيه خصام وتشاحن فإن الله عز وجل يحرمه من المغفرة مؤقتاً حتى يتصالح مع أخيه .. فإذا تصالح مع أخيه غفر الله له ولأخيه ... ولذا جاء فى الحديث أن الله يأمر ملائكته ويقول لهم: «أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا» أى: أَجْلُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا... فدل ذلك على أنه يجب على المسلم أن يبادر بإزالة الشحناء والعداوة بينه وبين أخيه المسلم...

فإن كان الأمر ثقیلاً على النفس فلا مانع أن يوسّط بينهما رجلاً ليُمهد لذلك الصلح دون أن يسبب حرجاً لأى طرفٍ من الطرفين ويكون له الأجر

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة والآداب.

والمثوبة... فإذا حصل التصالح فاز الاثنان بمغفرة الرحمن (جل وعلا) لأن الله عز وجل قال: «أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا» وقد اصطلحا... وأما الذى أصلح بينهما فقد فاز بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة.. كما أخبر بذلك النبى ﷺ حيث قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين؛ فإن فساد ذات البين هى الحالقة»^(١).

وليس معنى ذلك أن الإنسان يُصلح بين الناس ويترك الصيام والصلاة والصدقة.. فالنبى ﷺ لا يتكلم عن أفضلية العمل وإنما يتكلم عن أفضلية الدرجة... لأن الإصلاح بين المسلمين يقوى شوكة المسلمين ويتعدى نفعه إلى الغير.. وقد يكون المقصود أن درجة الإصلاح بين الناس أفضل من نوافل تلك العبادات.. والله أعلم.



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٥٩٥).



(٢٧٠) باب تحريم الحسد

❁ وهو تمنى زوال النعمة عن صاحبها؛ سواء كانت نعمة دين أو دنيا.

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٥٤].

❁ إن الله عز وجل قسم الأرزاق بين عباده على مقتضى علمه وحكمته فنال كل إنسان نصيبه كاملاً غير منقوص... قال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الزخرف: ٣٢].

لكن النفس البشرية تتطلع دائماً إلى المزيد.. وقد تتحرك كوامن الحقد والحسد إذا رأى الإنسان ما أنعم الله به على عباده.. ولا مانع من أن يغبط الإنسان أخاه فيدعو له بالبركة فيما رزقه الله ويتمنى أن يرزقه الله مثله.. لكن الأمر قد يتخطى ذلك بكثير حتى يصل إلى درجة أن يحسد الإنسان أخاه ويحقد عليه ويتمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها عليه.. بل وقد يزداد الأمر سوءاً بأن يتهم الله عز وجل في عدله وحكمته بأنه قد أعطى من لا يستحق وحرم من يستحق - عياداً بالله -... فالحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود.. وفيه اعتراض على قضاء الله وقدره.. وربما يخرج الأمر من مجرد شيء في القلب إلى البغى والعدوان على من آتاه الله من فضله.

مع أن الحسد لا يرد نعمة الله على عبده مهما حسدته وبغيت عليه.. ولن يجلب لك رزقاً لم يقدره الله عز وجل.

ولذلك يقول الحكماء:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

وليس هناك للحاسد دواء، ولا من غيظه شفاء ولا لعداوته علاج، إلا الصبر

عليه ومُدَاراة شره... فمهما أحسن رب النعمة إليه، ومهما عطف بجوده عليه، ومهما حاول الإنسان الاقتراب منه ومهما توَدَّد إليه بمعسول الأقوال، وجميل الأفعال، ومهما اصطنع إليه جميلاً ومعروفاً فإنه لا يمكن أن تُطفأ نار حقه، ولا يهدأ أبداً جمر عداوته، ولا يمكن أن يَكْفَ عن المحسود كيده وضرره أو يمنع عنه خطره وأذاه... ورحم الله القائل:

كل العداوة قد تُرجى إزالتها
إلا عداوة مَنْ عاداك من حسدٍ

ورحم الله القائل:

يا حاسداً لى على نعمتى أتدرى على مَنْ أسات الأدب
أسات إلى الله فى حكمه لأنك لم ترض لى ما وهب

❦ قيل للحسن البصرى: «أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟». فقال: «مَا أَنْسَاكَ إِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! لَا أَبَا لَكَ، وَلَكِنْ عَمَّهُ فِي صَدْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، مَا لَمْ تَعِدْ بِهِ يَدًا وَلِسَانًا»^(١).

والحسد خُلِقَ ذَمِيمٌ، نَاهِيكَ بِهِ شَرًّا، فَهُوَ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ ... ففى السَّمَاءِ حَسَدَ عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسُ أَبَانَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفى الْأَرْضِ حَسَدَ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ حَتَّى قَتَلَهُ!

أقسام الحسد

❦ قَسَمَ العلماء الحسد إلى قسمين: حقيقى، ومجازى.

فالحقيقى: تمنى زوال النعمة عن صاحبها، وهذا حرامٌ بإجماع الأمة مع النصوص الصريحة.

(١) «مكارم الأخلاق» لابن تيمية، تحقيق وإعداد عبد الله بدران، ومحمد عمر الحاجي (ص ٢٤٧).

وأما المجازي فهو الغبطة: وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها، فإذا كانت في أمور الدنيا كانت مُباحةً، وإن كانت طاعةً فهي مُستحبة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٧٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». أو قال العُشب^(٢).

❦ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) «شرح مسلم» (٢/ ٤٦٤).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢١٩٧).

(٢٧١) بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ
وَالْتَّسْمُعِ لِكَلَامِ مَنْ يَكْرَهُ اسْتِمَاعُهُ

❖ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

نَهَتْ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَوْلَا عَنِ الظَّنِّ؛ لِأَنَّ الظَّنَّ السَّيِّئَ هُوَ سَبَبُ الْأَمْرَاضِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي نَهَتْ عَنْهَا الْآيَةُ السَّابِقَةُ، وَهُوَ أَيْضًا سَبَبٌ لِلْمَرْضِيِّينَ الْمَذْكُورِينَ بَعْدَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ عَلَى احْتِقَارِ النَّاسِ، وَالسُّخْرِيَةِ مِنْهُمْ، وَاجْتِيَابِهِمْ. وَلَمَّا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الظَّنِّ أَتْبَعَهُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ ... وَالتَّسْمُعِ هُوَ مُحَاوَلَةُ هَتِكِ سِرِّ الْآخَرِينَ، وَالْبَحْثُ عَنْ عَوْرَاتِهِمْ، فَلَا يَجُوزُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَتَّبِعَ عَوْرَاتِ أَخِيهِ، وَلَا يَجُوزَ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ عِيُوبِ أَخِيهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيَّنَّ أَنَّ «مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١)، وَبِالْعَكْسِ مَنْ فَضَحَ مُسْلِمًا فَضَحَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ»^(٢).

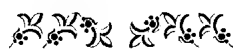
❖ إِنْ تَتَّبَعَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمُحَاوَلَةُ الْبَحْثِ عَنْ أَسْرَارِهِمْ وَعِيُوبِهِمْ عَنْوَانُ النِّفَاقِ أَوْ ضَعْفُ الْإِيمَانِ... فَمَا يَتَّبِعُ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مُنَافِقٌ أَوْ نَاقِصُ الْإِيمَانِ... وَلِذَا قَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٨٤).

لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ».

وإنما نهى الله تعالى عن التَّجَسُّسِ عقب النهى عن الظَّنِّ السيِّئِ لأنَّ القلب إذا أُشرب سوء الظَّنِّ حمَّله ذلك ولا بدَّ على التجسس، فإنَّ الإنسان بفطرته لا يكتفى بالهواجس ولا بالظُّنون، بل يحاول أن يتحقَّقَ.. ولا يمكن التحقُّقُ إلا بالتجسس ولذا فإنَّنا نرى أنَّ هذا السُّدَّاسِي الجاهلي، الذي يمثل هذه الآفات السَّتَّ مرتبِّطٌ ببعضه ببعض: السُّخْرِيَّة، الهمز، اللَّمَزُ، سوء الظَّنِّ، التَّجَسُّس، الغِيْبَةُ.. فالواجبُ على المسلم أن يعمل على السلامة من هذه الآفات كلها^(١).



(١٥٧٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا كَمَا أَمَرَكُمْ. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَعَرَضُهُ، وَمَالُهُ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^{(٢)(٣)}.

وفى رواية: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا».

(١) تذكير المؤمنين والمؤمنات (ص ٣٦١-٣٦٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٦٤، ٦٠٦٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٣) هذا الحديث سبق شرحه عند شرحنا للحديث رقم (٢٣٩) (٢٤٠) ما عدا الجزء الأول منه لم يتم شرحه وهو «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا» - وأما الجزء الأخير وهو: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فسبق شرحه عند شرحنا للحديث رقم (٨).

وفى رواية: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا».

وفى رواية: «وَلَا تَهَاجَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ».

(١٥٧٩) وعن معاوية رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»^(١).

(١٥٨٠) وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّهُ أَتَى بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ: هَذَا فَلَانٌ تَقْطُرُ لِحْيَتُهُ حَمْرًا، فَقَالَ: إِنَّا قَدْ نُهِنَّا عَنِ التَّجَسُّسِ، وَلَكِنْ إِنْ يَظْهَرُ لَنَا شَيْءٌ، نَأْخُذُ بِهِ^(٢).

❖ قال ابن حجر رحمته الله: قَوْلُهُ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ» قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ الْمُرَادُ تَرْكُ الْعَمَلِ بِالظَّنِّ الَّذِي تُنَاطُ بِهِ الْأَحْكَامُ غَالِيًا. بَلِ الْمُرَادُ تَرْكُ تَحْقِيقِ الظَّنِّ الَّذِي يَضُرُّ بِالْمَظْنُونِ بِهِ، وَكَذَا مَا يَقَعُ فِي الْقَلْبِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ... وَذَلِكَ أَنَّ أَوَائِلَ الظُّنُونِ إِنَّمَا هِيَ خَوَاطِرٌ لَا يُمَكِّنُ دَفْعُهَا، وَمَا لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ لَا يُكَلَّفُ بِهِ. وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ: «تَجَاوَزَ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا». وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: الْمُرَادُ بِالظَّنِّ هُنَا التُّهْمَةُ الَّتِي لَا سَبَبَ لَهَا كَمَنْ يَتَّهَمُ رَجُلًا بِالْفَاحِشَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ مَا يَقْتَضِيهَا، وَلِذَلِكَ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَلَا تَجَسَّسُوا» وَذَلِكَ أَنَّ الشَّخْصَ يَقَعُ لَهُ خَاطِرُ التُّهْمَةِ فَيُرِيدُ أَنْ يَتَحَقَّقَ فَيَتَجَسَّسُ وَيَبْحَثُ وَيَسْتَمِعُ، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ ... وَهَذَا الْحَدِيثُ يُوَافِقُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا﴾ فِدَلَّ سِيَاقُ الْآيَةِ عَلَى الْأَمْرِ بِصَوْنِ عَرْضِ الْمُسْلِمِ غَايَةَ الصِّيَانَةِ لِتَقْدِمِ النَّهْيِ عَنِ الْخَوْضِ فِيهِ بِالظَّنِّ ... فَإِنْ قَالَ الظَّانُّ: أَبَحَثُ لِأَتَحَقَّقَ، قِيلَ لَهُ: «وَلَا تَجَسَّسُوا» فَإِنْ قَالَ: تَحَقَّقْتُ مِنْ غَيْرِ تَجَسُّسٍ قِيلَ لَهُ: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا﴾ .. قَوْلُهُ: «وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا».

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٨٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٠٩٠).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ مَعْنَاهُ: لَا تَبْحَثُوا عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ وَلَا تَتَّبِعُوهَا... قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ وَيُسْتَشْتَى مِنَ النَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ مَا لَوْ تَعَيَّنَ طَرِيقًا إِلَى إِنْقَادِ نَفْسٍ مِنَ الْهَلَاكِ مَثَلًا كَانَ يُخْبِرُ ثِقَةً بِأَنْ فَلَانًا خَلَا بِشَخْصٍ لِيَقْتُلَهُ ظُلْمًا، أَوْ بِامْرَأَةٍ لِيَزْنِيَ بِهَا، فَيُشْرَعُ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ التَّجَسُّسُ وَالْبَحْثُ عَنْ ذَلِكَ حَدَرًا مِنْ قَوَاتٍ اسْتَدْرَاكِه.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَحَاسَدُوا» الْحَسَدُ تَمَنَّى الشَّخْصِ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ مُسْتَحِقِّ لَهَا.

قَوْلُهُ: «وَلَا تَدَابَرُوا» قَالَ الْخَطَّابِيُّ: لَا تَتَهَاجَرُوا فَيَهْجُرَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ.

قَوْلُهُ: «وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» كَأَنَّهُ قَالَ: إِذَا تَرَكْتُمْ هَذِهِ الْمُنْهَيَّاتِ كُنْتُمْ إِخْوَانًا... وَمَفْهُومُهُ إِذَا لَمْ تَتَرَكُوهَا تَصِيرُوا أَعْدَاءً... وَمَعْنَى كُونُوا إِخْوَانًا اكْتَسَبُوا مَا تَصِيرُونَ بِهِ إِخْوَانًا... اهد بتصرف^(١).

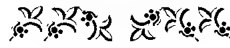
❦ وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْكَلَامَ حَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَّا حَدِيثُ مَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَفِيهِ يَخْبِرُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْأَمِيرَ أَوْ وَلِيَّ الْأَمْرِ سِوَاهُ كَانَ حَاكِمًا أَوْ رَبَّ أُسْرَةٍ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ إِذَا تَتَبَعَ عَوْرَةَ رَعِيَّتِهِ أَوْ أَحَدَ رَعِيَّتِهِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يُفْسِدُهُ... وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ عَلَى مَعْصِيَةٍ فَقَدْ أُمِرْنَا بِالْإِسْتِرَاءِ عَلَيْهِ وَبِذَلِّ النَّصِيحَةِ الرَّحِيمَةِ لَهُ.. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى مَعْصِيَةٍ وَأَسَانَا الظَّنَّ بِهِ وَبَدَأْنَا نَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يُفْسِدُهُ لِأَنَّا بِذَلِكَ نَكُونُ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ... وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلَ أَهْلَهُ طُرُوقًا... وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ مُسَافِرًا سَفَرًا طَوِيلًا ثُمَّ يَرْجِعُ فَجَاءَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ دُونَ أَنْ يُخْبِرَ زَوْجَتَهُ فَتَظُنُّ أَنَّهُ يَتَخَوَّنُهَا وَيُظَنُّ أَنَّهَا خَائِنَةٌ.. فَإِذَا تَكَرَّرَ هَذَا الْمَشْهَدُ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ هَذِهِ الزَّوْجَةِ وَازِعٌ إِيْمَانِي فَقَدْ تَخَوَّنَ زَوْجَهَا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَعَانَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهَا.. وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَخَوَّنَ زَوْجَهَا إِذَا أَسَاءَ الظَّنُّ بِهَا.. بَلْ عَلَيْهَا أَنْ

(١) فتح الباري (١٠/٤٩٦-٤٩٨) بتصرف.

تتقى الله وتعلم أنها تصون نفسها ابتغاء مرضاة الله وليس من أجل إرضاء الزوج..

فالشاهد أنه يجب علينا أن نُحسن الظن فيمن حولنا .. وإذا رأينا شيئاً يُخالف الشرع فعلينا بالستر عليهم وبذل النصيحة الرحيمة حتى لا نُفسدهم ونكون عوناً للشيطان عليهم.. والله أعلم.





(٢٧٢) بَابُ النَّهْيِ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ

من غير ضرورة

✽ الرجل صاحب الأخلاق الطيبة لا يظن بإخوانه المسلمين إلا خيراً، فهو يمثل لأمر الله ﷻ الَّذِي قَالَ: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ هو أن تظن بأهل الخير سوءاً... فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظن بهم مثل الذي ظهر لنا^(١).

✽ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

✽ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِسَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: لَقَدْ شَكَوْتُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الصَّلَاةِ، قَالَ: «أَمَّا أَنَا، فَأَمُدُّ فِي الْأُولَيَيْنِ وَأَحْذِفُ فِي الْآخِرَتَيْنِ، وَلَا أَلُو -أى: لَا أَقْصِرُ- مَا اقْتَدَيْتُ بِهِ مِنْ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» قَالَ: صَدَقْتَ ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ أَوْ ظَنِّي بِكَ^(٢).

بَابُ النَّهْيِ عَنْ الظَّنِّ بِإِخْوَانِنَا

(١٥٨١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَّرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^{(٣)(٤)}.

(١) الأخلاق بين الطبع والتطبع / للحاشدى (ص ٢٤٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧٧٠) كتاب الأذان، ومسلم (٤٥٣) كتاب الصلاة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٣) كتاب البر والصلة.

(٤) سبق شرح الحديث عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٨).

✽ عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: قَالَ لِي أَبِي: يَا بُنَيَّ، إِذَا سَمِعْتَ كَلِمَةً مِنْ أَمْرِي مُسْلِمٌ فَلَا تَحْمِلْهَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ مَا وَجَدْتَ لَهَا مَحْمَلًا مِنَ الْخَيْرِ^(١).

أقسام سوء الظن

✽ وَقَدْ قُسِمَ سُوءُ الظَّنِّ إِلَى قَسْمَيْنِ كِلَاهُمَا مِنَ الْكِبَائِرِ وَهُمَا:

(١) سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ:

وهو أبلغ في الذنب من اليأس والقنوط (وكلاهما كبيرة) وذلك لأنه يأس وقنوط وزيادة... لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده^(٢).

(٢) سُوءُ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِينَ:

وهو أيضًا من الكبائر وذلك أَنَّ مَنْ حَكَمَ بِشَرِّ عَلَى غَيْرِهِ بِمَجْرَدِ الظَّنِّ حَمَلَهُ الشَّيْطَانُ عَلَى احْتِقَارِهِ وَعَدَمِ الْقِيَامِ بِحَقُوقِهِ وَالتَّوَانِي فِي إِكْرَامِهِ وَإِطَالَةِ اللِّسَانِ فِي عَرْضِهِ... وَكُلْ هَذِهِ مُهْلَكَاتٌ.. وَكُلٌّ مِّنْ رَّأْيَتِهِ سَيِّئُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ طَالِبًا لِلْإِظْهَارِ مَعَايِبِهِمْ فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ لَخُبْثِ بَاطِنِهِ وَسُوءِ طَوِيلَتِهِ... فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَطْلُبُ الْمَعَاضِيرَ لِسَلَامَةِ بَاطِنِهِ، وَالْمُنَافِقَ يَطْلُبُ الْعُيُوبَ لَخُبْثِ بَاطِنِهِ^(٣).

✽ ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢] وَلَمْ يَقُلْ الظَّنُّ كُلَّهُ؛ لِأَنَّ الظَّنَّ الْمَبْنِيَّ عَلَى قَرَائِنٍ لَا بِأَسْ بِهِ، فَهُوَ مِنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ إِذَا وَجَدَ قَرَائِنَ قَوِيَّةً تَوْجِبُ الظَّنَّ الْحَسَنَ أَوْ غَيْرَ الْحَسَنِ... فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَخْضَعَ لِهَذَا الْقَرَائِنِ، وَلَا بِأَسْ بِذَلِكَ، لَكِنَّ الظَّنَّ الْمَجْرَدَ هُوَ الَّذِي حَذَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّهُ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».

(١) حلية الأولياء (٥ / ٢٧٨).

(٢) الزواجر (ص ١١٤).

(٣) الزواجر (ص ١٠٩).

باب (٢٧٣) تحريم احتقار المسلمين

﴿السُّخْرِيَّةُ لَا تَصْدُرُ إِلَّا مِنْ إِنْسَانٍ مَمْتَلِيٍّ بِمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ، مُتَّصِفٍ بِكُلِّ خُلُقٍ ذَمِيمٍ... أَمَّا الرَّجُلُ الْمُتَخَلِّقُ بِجَمِيلِ الْأَخْلَاقِ، وَكَرَائِمِ الْخِصَالِ فَهُوَ بِمَنْأَى عَنْ ذَلِكَ... وَكَيْفَ يَسْخَرُ مِنَ الْآخَرِينَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَهَى عَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا فِسَاءً مِّنْ فِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] ^(١).

فالسُّخْرِيَّةُ مِنَ النَّاسِ غَيْرُ جَائِزَةٍ... لَا يَجُوزُ أَنْ يَسْخَرَ غَنِيٌّ مِنْ فَقِيرٍ، وَلَا قَوِيٌّ مِنْ ضَعِيفٍ، وَلَا صَحِيحٌ مِنْ سَقِيمٍ، وَلَا ذَكِيٌّ مِنْ بَلِيدٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَسْخَرَ غَنِيَّةٌ مِنْ فَقِيرَةٍ، وَلَا سَوِيَّةٌ مِنْ مُشَوَّهَةٍ. وَلَا جَمِيلَةٌ مِنْ دَمِيمَةٍ، وَلَا شَابَةٌ مِنْ عَجُوزٍ... فَإِنَّ هَذِهِ الْقِيمَ لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي يُوزَنُ بِهَا النَّاسُ، إِنَّمَا هُنَاكَ قِيمٌ أُخْرَى يَعْلَمُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرِنُ بِهَا الْعِبَادَةُ، وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْقِيمَ خَافِيَةً عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ. هَذَا مَا قَرَّرَهُ الْإِسْلَامُ وَوَضَّحَهُ النَّبِيُّ ﷺ تَوْضِيحًا رَاضِعًا:

عَنْ سَهْلِ بْنِ زَيْدٍ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» ^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾.

وعسى من الله موجبة، فمهما أحسنت الظنَّ بنفسك، ورأيت أنك على خير، فإنَّ في المؤمنين مَنْ هو عند الله خيرٌ وأكرمُ منك،... فإياك والسُّخْرِيَّةَ مِنَ

(١) جاء تخصيص النساء في الآية بالذكر تحذيرًا من سخرية بعضهن من بعض؛ لأن السخرية شائعة فيهن أكثر من الرجال.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٠٩١) كتاب النكاح.

المؤمنين، وإياك والاستهزاء بهم.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون المسخور منه خيراً من السّاحر كما هو الحال والواقع، فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقِمُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ»^(١).

إن السّخرية من المؤمنين والاستهزاء بهم عملٌ من أعمال الكُفّار والمنافقين فكيف يستبيح مؤمنٌ لنفسه أن يعمل عمل الكُفّار والمنافقين فيسخر من المؤمنين ويستهزئ بهم؟!

قال الله تعالى عن الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۚ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۚ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ۚ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦]

فالله الله يا عبد الله، لا تسخر من مؤمن، ولا تستهزئ به.

واعلم أن الناس لا يُورَون بالمظهر والصّورة، وإن كانوا ذوى منظرٍ حسنٍ وصورة جميلة.... قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَىٰ صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^{(٢)(٣)}.

هذا هو المقياس والميزان ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقِمُ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٣٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٣)(٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

(٣) يتصرف من كتاب (الأخلاق بين الطبع والتطبع) للشيخ فيصل الحاشدى - وكتاب (تذكير المؤمنين والمؤمنات) للشيخ عبد العظيم بدوى.

يُسْرَعُ بِهِ نَسَبُهُ»^(١).

فلا ينبغي أن يسخر رجال من رجال عسى أن يكونوا خيراً منهم عند الله (جَلَّ وَعَلَا)، ولا ينبغي أن تسخر نساءً من نساء عسى أن يَكُنَّ خيراً منهن عند الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يَعبُ بعضكم على بعض.

واللمز: بالقول، والهمز: بالفعل، وكلاهما مَنهَى عنه حرام، مُتَوَعَّد عليه بالنار... كما قال تعالى: ﴿وَبِلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، وسمَّى الأخ المؤمن نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يُعير أحدكم أخاه، ويُلقبه بلقبٍ يكره أن يُطلق عليه وهذا هو التنابز... وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا. ﴿يَسَّ الْأَنفُسُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئسما تبدلتما عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما يقتضيه، بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهذا هو الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله، والاستغفار، والمدح له مقابلة على ذمِّه. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا تَمَّ غيرهما^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٨٢) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩٩) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) تفسير السعدي (ص ٩٥٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة والآداب.

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٤٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٨٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦١٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٨٤) وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت له، وأحببت عملك»^(٢).

✽ وهناك رواية أخرى مشابهة لهذه الرواية.. فلقد قال رسول الله ﷺ:

«كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، وكان أحدهما مذنّباً، والآخر مجتهداً في العبادة، وكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلني وربي أبعثت علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض روحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟! وقال للمذنّب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»^(٣).

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان.

ومعنى «بطر الحق»: دفعه، و«غمطهم»: احتقارهم، وقد سبق بيانه أوضح من هذا في باب الكبر.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٥٥).

✽ يخبرنا النبي ﷺ في هذين الحديثين عن قصة رجلٍ كان عابداً لكنه كان مُعجباً بعمله محتقراً لمن حوله..

وكان له صاحبٌ يقع كثيراً في المعاصي.. فكان ينصحه ولكن بكل كبرٍ واحتقار.. وفي يومٍ من الأيام تكلم بكلمة أوبقت دُنياه وآخرته، على الرغم من اجتهاده في العبادة، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر... فقد حلف - لما رأى صاحبه على ذنب. - أن الله لا يغفر له.

وكان صاحبه يكثر من الذنوب، وهو يُكثر من نهيه عنها... فأغضب ربه عليه بحلفه الذي حلفه... فرحمة الله واسعة، ولا يُعجزه أن يغفر لأحدٍ من خلقه مهما عَظُمَ ذنبه... لقد غفر الله للمذنب وأدخله الجنة، وأمر بالمجتهد إلى النار من أجل تلك الكلمة.

✽ وفي الحديث الثاني يحدثنا الرسول ﷺ في هذا الحديث عن رجلين من بنى إسرائيل، كانا صديقين متآخيين، وكان أحدهما مجتهداً في عبادته، والآخر مُقَصِّراً في أداء ما وجب عليه.

وكان المجتهد في العبادة يرى صاحبه يرتكب الذنوب والمعاصي، فينكر عليه وينهاه... وهذا أمرٌ طيبٌ مطلوبٌ مشروع، وقد جاءت الشرائع كلها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وكان الرجل المذنب يضيق ذرعاً بإنكار صديقه عليه، ولما اشتد عليه صاحبه بالإنكار يوماً، قال له: خلّني وربّي، أبُعثت على رقيباً؟ عند ذلك حلف العابد - ويا لهول ما حلف - فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الجنة.

وما كان لهذا العابد أن يتألّى على الله ﷻ... فالله له الأمر كله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن... يهب الخيرات ويمسكها، يغفر لمن يشاء، ويعذّب مَنْ يشاء... يهدي ويُضل، وما كان لعبيدٍ من عباد الله أن يُحجّر على ربه أن يغفر

لفلان أو يحبط عمل فلان... لقد تكلم هذا المسكين - كما قال أبو هريرة راوى الحديث - بكلمة أوبقت عليه دُنياه وآخرتَه، فقد قبض الله روحيهما، فاجتمعا عنده، وقال لذلك المُتَالِي: مُؤَبَّخًا له ومُؤَنِّبًا: أَوَ كُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوَ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وأمر بِإِدْخَالِهِ النَّارَ، وأمر بِإِدْخَالِ الْمَذْنِبِ الْجَنَّةَ.

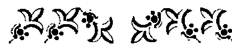
عبر الحديث وفوائده

(١) القول على الله بغير علم من أعظم الكبائر التي تُؤَبِّقُ عمل صاحبها، ومن ذلك دعوى هذا الرجل أن الله لا يغفر لفلان... فالله لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ، ورحمته واسعة.

(٢) على المسلم أن يَتَوَخَّى الحِيطَةَ والحذر في معاملته لربه تبارك وتعالى، فيقف موقف العبودية، يعمل بطاعة الله، ويأتمر بأمره، ويصبر على دعوة الناس، ولا يتسرع في الحكم عليهم.

(٣) الخوف من سوء الخاتمة، فقد دخل العابد النار، ودخل العاصي الجنة.

(٤) في الحديث دليل لأهل السُّنَّة الذين يقولون بأن الله يغفر الذنوب من غير توبة إن شاء، كما غفر لهذا العاصي، وهو مُصِرٌّ على ذنوبه كما يدل عليه الحديث^(١). وكما تدل عليه الآية في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.



(١) صحيح القصص النبوي / د. عمر الأشقر (ص ٣٤٢-٣٤٣) بتصرف.

(٢٧٤) باب النهى عن إظهار الشماتة بالمسلم

❖ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ إِبْرَأَتِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩].

(١٥٨٥) وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تظهري الشماتة لأخيك فیرحمه الله ويبتليک»^(١).

وفي الباب حديث أبي هريرة السابق في باب التجسس: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ» الحديث.

❖ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

لكن من المعلوم أن الشرع قد نهانا عن أن نشمت بمؤمنٍ أبداً... وبخاصة فيما ليس له فيه شأن ولا يستطيع تغييره.. مثل شكله وضعف قوته وأسرته وفقره.. فتلك أمور ليس للإنسان فيها يد فلماذا نُعيره.. وأين نحن من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وأين نحن من قول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه» «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

وقد يُعير الإنسان أخاه فيُعافيه الله ويبتليه.. وكم رأينا في هذه الحياة أمثلة كثيرة على ذلك.

فالواجب على المسلم ألا يشمت بأخيه المسلم.. بل إذا رآه قد ابتلى بشيء فإنه ينبغي أولاً أن يُشفق عليه وأن يدعو له بأن يعفو الله عنه.. وعليه أن يحمد الله ﷻ على أن عافاه من ذلك البلاء.

❖ قال الإمام النووي رحمته الله: وفي الباب حديث أبي هريرة السابق في باب التجسس: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ».

(١) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعیف الجامع (٦٢٤٥).

(٢٧٥) باب تحريم الطعن في الأنساب

الثابتة في ظاهر الشرع

❁ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١٥٨٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»^(١).
❁ قوله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم كُفْرٌ».

قال الإمام النووي رحمته الله:

وَفِيهِ أَقْوَالٌ: أَصَحُّهَا أَنَّ مَعْنَاهُ هُمَا مِنْ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ وَأَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الْكُفْرِ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ كُفْرُ النِّعْمَةِ وَالْإِحْسَانِ. وَالرَّابِعُ: أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمُسْتَحِلِّ. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ تَغْلِيظُ تَحْرِيمِ الطَّعْنِ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةِ. وَقَدْ جَاءَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا نُصُوصٌ مَعْرُوفَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٢).

❁ قوله ﷺ: «الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ».. فمعناه إما أن ينفي نسبَه كأن يقول لأخيه المسلم: أنت تدعى أنك ابن فلان وهو ليس أباك.. أو يقول له: أنت تدعى أنك من العائلة الفلانية أو قبيلة كذا وأنت لست منهم ولو كنت منهم لكنت أفضل من ذلك لكنك تدعى ذلك..

أو أن يُعيرَه بنسبه.. كأن يقول له: أنت من العائلة أو القبيلة التي صفتها كذا وكذا... ويذكر أشياءً قبيحة عن عائلته أو قبيلته... وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ»..

وقال ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُتَنَتَةٌ».

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٧) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووي (٧٦/٢).

❁ وأما الثانية فهي: «النِّياحةُ على المِيتِ».

والنِّياحة على الميت أن يبكي عليه النساء والرجال أيضًا.. لكنها تكون في النساء أكثر بأن تنوح على مثل ما تنوح به الحمامة.. أى تبكى بُكاءً برنة معروفة. وهذا حرام.. وقد لعن النبي ﷺ النائحة والمستمعة.

ولهذا نهى النبي ﷺ المرأة عن النياحة فقال: «ليس منّا من لطم الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»^(١).

وفي الصحيحين أن النبي ﷺ برئ من الصالقة^(٢) والحالقة^(٣) والشاقة^(٤)^(٥). وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قِطْرانٍ ودرعٌ من جَرَب»^(٦).

وفي رواية: «... وإن النائحة إذا لم تتب قبل أن تموت فإنها تُبعث يوم القيامة عليها سراويل من قِطْرانٍ ثم يُغلى عليها بدروع من لهب النار»^(٧).

وقال ﷺ: «لعن الله الخامسة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور»^(٨).

❁ ومن النياحة ما يفعله بعض الناس اليوم من الاجتماع في بيت الميت ويؤتى إليهم بالطعام ويجلسون للبكاء والنواح.

ولذا قال أهل العلم:

يُكره اتّخاذ الضيافة من الطّعام من أهل الميت لأنه شُرّع في السُّرور لا في

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٤) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

(٢) الصالقة: هى التى ترفع صوتها عند المصيبة.

(٣) الحالقة: هى التى تحلق شعرها عند المصيبة.

(٤) الشاقة: هى التى تشق ثوبها عند المصيبة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٦) كتاب الجنائز - ومسلم (١٠٤) كتاب الإيمان.

(٦) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز.

(٧) صحيح: رواه ابن ماجه ، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٠٩).

(٨) حسن: رواه ابن ماجه ، وابن حبان، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٠٩٢).

الشُّرُور، وهى بدعة مُستقبحة.

روى الإمام أحمد وابن ماجه بإسناد صحيح عن جرير بن عبد الله قال: «كُنَّا نَعُدُّ الْاجْتِمَاعَ إِلَى أَهْلِ الْمَيِّتِ وَصَنِيعَةَ الطَّعَامِ بَعْدَ دَفْنِهِ مِنَ النَّيَاحَةِ». اهـ.

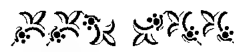
أما الحديث الذى فى الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ ابْنَ حَارِثَةَ وَجَعَفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ، جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِفُ فِيهِ الْحُزْنَ... الحديث.

فلا يأخذ منه جواز هذا الأمر؛ لأن هذا - كما فى سنن أبى داود - كان فى المسجد فلم يجعل النبى ﷺ مكاناً مُعيناً للاجتماع للعزاء بل يُعزى الإنسان حيث وُجد.

✽ ملاحظة: إذا جاء للإنسان مُعزَّون من السفر فعليه أن يتلطف معهم ويدعو لهم بالخير ولا حرج أن يجلس معهم لا للعزاء وإنما لحضورهم من السفر.

✽ قال ابن قدامة فى «المغنى» وفى «الشرح الكبير» وفى كتاب «مطالب أولى النهى»:

«وإن دعت الحاجة إلى ذلك جاز؛ فإنه ربما جاءهم من يحضر ميتهم من القرى والأماكن البعيدة، ويبيت عندهم، ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه» انتهى^(١).



(١) بتصرف من (حاشية رد المحتار) و(فتح القدير) و(شرح كنز الدقائق).

(٢٧٦) باب النهي عن الغش والخداع

❁ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].
(١٥٨٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(١).

وفي رواية له أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «ما هذا يا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

❁ أما قوله ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا».

إن كان حَمَلُهُ لِلسَّلَاحِ مُسْتَحْلًا قَتَلَ الْمُسْلِمِينَ فلا شك أن قوله: «ليس منا» على حقيقته ... يعني يكفر بذلك؛ لأنه استحلَّ أمرًا مُحَرَّمًا معلومًا بتحريمه بالضرورة من دين الإسلام... إذا استحلَّ ذلك فهو يكفر بذلك.

وأما مَنْ حَمَلَ السَّلَاحَ يريد قتل المسلم مع علمه بتحريمه واعتقاده بذلك فالأمر خطيرٌ جدًّا، «فزوال الدنيا أهون عند الله من إراقة دم مسلم»، «ولا يزال المسلم في فسحة من دينه حتى يصيب دمًا حرامًا» وفي ذلكم الوعيد الشديد.

قال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

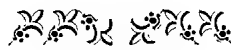
أما إذا لم يستحلَّ قتل المسلم بل أقدم على قتله معتقدًا بتحريم القتل فإنه لا يكفر بذلك، وإن تعمَّد قتله في قول جمهور العلماء، لكنه على خطرٍ عظيم.

فالفرق بينهما: أن الأول كافر، والثاني مرتكب كبيرة من الكبائر.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١) كتاب الإيمان.

❁ وأما قوله ﷺ: «وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا» أى ليس على منهاجنا وطريقتنا....
 فطريق النبي ﷺ هو الصدق والأمانة والزهد فى الدنيا وعدم الحرص عليها.
 ❁ وأما الرواية الأخرى: أن النبي ﷺ مرَّ على صُبرة طعام.. أى: على كومة
 مجموعة من الطعام.. فلما أدخل يده فيها وجد بللاً فيها.. فقال: «ما هذا يا
 صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قال له التاجر: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ.. أى: المطر. فقال له ﷺ: «أَفَلَا
 جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

وهذا الحديث فيه زجرٌ لكثير من التجار فى هذا الزمان.. حيث يضع
 أكثرهم الفاكهة أو الخضروات الجيدة فى أعلى الصندوق ويضع السيئة أسفل
 الصندوق ليخدع المشتري فيظن أن كل البضاعة طيبة.. وإذا به يُفاجأ عندما
 يرجع إلى بيته بأن أكثرها لا تصلح للطعام.. نقول لهذا التاجر: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ
 مِنَّا».



(١٥٨٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَنَاجَشُوا»^(١).

(١٥٨٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّجَشِ^(٢).

❁ قوله ﷺ: «لَا تَنَاجَشُوا» النجش: هُوَ أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ السَّلْعَةِ وَهُوَ لَا يُرِيدُ
 شَرَاءَهَا... وَلَهُ وَجْهَانِ: إِمَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُحْسِنَ إِلَى الْبَائِعِ بِإِكْثَارِ النُّقُودِ لَهُ، أَوْ
 يُسِئَ إِلَى الْمُشْتَرِي بِزِيَادَةِ السَّعْرِ عَلَيْهِ فَيَتَضَرَّرُ بِذَلِكَ، وَهَذَا هُوَ النَّجَشُ الَّذِي
 نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ.

❁ ولكى تتضح الصورة أكثر.. فتخيل معى أنه أقيم مزاد على سلعة
 معينة.. فيأتى إنسان لا يريد أن يشتري وإنما يريد أن يُحسِنَ إلى البائع أو يُسِئَ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٠) كتاب البيوع - ومسلم (١٥١٥) كتاب البيوع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٦٣) كتاب الحيل - ومسلم (١٥١٦) كتاب البيوع.

إلى المشتري.. وقد يكون هناك اتفاق بينه وبين البائع على مبلغ سيدفعه له بعد انتهاء المزاد.. فيبدأ هذا الرجل ويزيد في السلعة وهو لا يريد أن يشتري.. ويظل يرفع في سعرها.. إلى أن يصل إلى سعر بعينه ثم ينسحب ويشتريها الطرف الآخر الذي كان يتنافس معه على شرائها.. فهذا هو النجش الذي حرمه النبي ﷺ... أما إذا كانت السلعة تُباع بالمزاد العلني، وكان للإنسان حاجة فيها وهو يريد شراءها فله أن يزيد... وإن كان لا يُريد شراءها، فإنه يتركها ولا يفعل الزيادة من أجل أن ينفع إنسانًا ويضر إنسانًا آخر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٩٠) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث أنه جاء رجلٌ للنبي ﷺ وأخبره أنه يُخدع في البيوع.. أَى: أن الناس يخدعون.. فقال له ﷺ: «مَنْ بَايَعْتَ، فَقُلْ: لَا خِلَابَةَ» أَى: لا خديعة.. أَى: لا تخدعني ولا أخدعك.

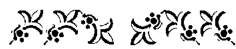
والمقصود من ذلك: أن الشخص قد لا توجد عنده خبرة أو معرفة أو فطنة في البيع، وأنه قد يُخدع ويُزاد عليه في السعر، وقد يكون عنده شيء من الغفلة، فهو عندما يذكر شيئاً يدل على حاله يجعل البائع على حذر من أن يقع في أمر لا يصلح ولا ينبغي، وأنه إن حصل منه خديعة فإنه سيقرب على ذلك رجوع المبيع إليه، وعدم بقاء البيع على ما هو عليه، هذا هو المقصود من الترجمة ومما جاء تحتها.

ويترتب على ذلك أن البائع يعرف وضع المشتري، وأنه إن حصل له شيء فيه ظلم أو غبن كبير فإن الأمر سيعود إلى ما كان، بحيث ترجع السلعة إلى بائعها ولا يستفيد من ذلك البيع شيئاً.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢١١٧) كتاب البيوع - ومسلم (١٥٣٣) كتاب البيوع.

«الْخِلَابَةُ»: وهى الخديعة.

وقد لا يفهم التجار في زماننا هذا معنى كلمة (لا خِلافة).. فيجوز للمشتري أن يقول للتاجر كلمة تؤدى نفس المعنى.. كأن يقول له: لا تخدعنى ولا أخدعك.. فإن كان فى السلعة عيب فمن حقى أن أردّها إليك.. وبذلك يحرص التاجر على أن يعطيه سلعة طيبة حتى لا تعود إليه مرة أخرى.. والله أعلم.



(١٥٩١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ، أَوْ مَمْلُوكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا»^(١).

❁ قوله ﷺ: «مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ» أى: أفسدها عليه أو أوقع بينهما الشقاق والتنافر فخرجت عن طاعته.. أو أن يسعى إلى أن يُفسد ما فى قلبها حتى تتمرد عليه وتسعى إلى التخلص منه بسبب هذا الإفساد فيكون الفراق. وقد يريد بذلك التخييب أن يتزوجها هو أو أن يتزوجها غيره أو أن يريد إيذاء هذا الزوج فقط ولا يريد أن يتزوجها.

❁ وأما معنى: مَنْ خَبَّبَ مَمْلُوكَ امْرِئٍ. يعنى: أفسده عليه وعمل معه أعمالاً جعلته يتمرد على سيده ويعامله معاملة سيئة... وقد يكون ذلك التخييب من أجل أن بينه وبين سيده عداوة، أو قد يكون له رغبة فيه فيريد أن يجعل سيده يزهّد فيه ويُرخصه ويبادر إلى التخلص منه فيشتريه.

وقوله: «ليس منّا» يدل على تحريمه وأنه من الأمور المحرمة، وأن مَنْ يفعل ذلك فقد عرّض نفسه لأن يكون من أهل هذا الوصف.... لكن لا يعنى ذلك أنه ليس من المسلمين، بل هو مسلم، ولكنه ليس على المنهج الصحيح وعلى الطريق الصحيح، بل هو عاصٍ ومُخالف.

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٢٢٣).
«خَبَّبَ»، أى: أفسده وخدعه.



(٢٧٧) باب تحريم الغدر

❖ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

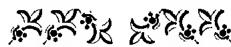
وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

❖ للوفاء بالعهود قيمة إنسانية وأخلاقية عظيمة لأنه يرسى دعائم الثقة في الأفراد ويؤكد أواصر التعاون في المجتمع.

يقول الراغب الأصفهاني في ذلك: الوفاء أخو الصدق والعدل... والغدر: أخو الكذب والجور... ذلك أن الوفاء: صدق اللسان والفعل معاً... والغدر كذبٌ بهما، لأن فيه مع الكذب نقض للعهد.

والوفاء: يختص بالإنسان، فمن فقد فيه (الوفاء) فقد انسلخ من الإنسانية... وقد جعل الله تعالى العهد من الإيمان وصيره قواماً لأموال الناس... فالتاس مضطرون إلى التعاون، ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء به، ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفع التعايش. ولذلك عظم الله تعالى أمره فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقيل في قوله ﴿وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المائدة: ٤] أي: نزه نفسك عن الغدر^(١).



(١٥٩٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أربعٌ من كنَّ فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ، كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»^(٢).

(١) نضرة النعيم (٨/٣٦٣٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤) كتاب الإيمان - ومسلم (٥٨) كتاب الإيمان.

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٩٥) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

قوله ﷺ: « وإذا عاهد غدر » هو داخل في قوله: « وإذا أؤتمن خان ». وقوله ﷺ: « وإذا خاصم فجر » أى مال عن الحق، وقال الباطل والكذب. فالغدر من صفات المنافقين - عافانا الله وإياكم من النفاق -.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٩٣) وعن ابن مسعود، وابن عمر، وأنس رضي الله عنهم قالوا: قال النبي ﷺ: « لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ »^(١).

(١٥٩٤) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: « لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ إِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرٌ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ »^(٢).

✽ اللواء ما يكون في الحرب مثل العلم ... يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ تَحْتَ اسْتِهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، أَى تَحْتَ مَقْعَدَتِهِ ... وَيَرْتَفِعُ هَذَا اللَّوَاءُ بِقَدْرِ غَدْرَتِهِ إِنْ كَانَتْ كَبِيرَةً صَارَ كَبِيرًا، وَإِنْ كَانَتْ صَغِيرَةً صَارَ صَغِيرًا، وَيُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْغَدْرَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، لِأَنَّهُ فِيهِ هَذَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ.

✽ « أَلَا .. وَلَا غَادِرٌ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرٍ عَامَّةٍ » فَتَخِيلُ لَوْ أَنَّ أَمِيرًا أَوْ خَلِيفَةً يَغْشَى أُمَّةً بِأَسْرَها فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَوَاؤُهُ أَعْظَمَ لَوَاءً .. فَعِنْدَمَا تُبْعَثُ مِنَ الْقُبُورِ نَرَى لَوَاءَهُ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ أَكْبَرَ لَوَاءً .. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ غَدَرَ بِأُمَّتِهِ وَضَيَعُ دِينِهِ وَأَمَانَتِهِ .. فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَحْطُطَهُمْ بِنُصْحِهِ وَيُعْلِمَهُمْ وَيُثْقِمَهُمْ عَلَى الْجَادَةِ وَإِذَا بِهِ يَظْلِمُهُمْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٨٦، ٣١٨٧) كتاب الجزية، ومسلم (١٧٣٦، ١٧٣٧) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٣٨) كتاب الجهاد والسير.

ويُفسد عليهم دينهم ودنياهم.

❦ قال الإمام المناوي رَحِمَهُ اللهُ:

يُرفع له علم يوم القيامة خلفه، تشهيرًا له بالغدر، وإخزاءً وتفضيخًا على رؤوس الأَشْهاد. يُنادَى عليه في ذلك المحفل العظيم: ألا إن هذه غدره فلان ... أى علامة على غدره فلان ابن فلان، ويُرفع في نَسَبِه حتى يتميز عن غيره تمييزًا تامًا ... وظاهره أن لكل غدره لواء، فيكون للواحد ألوية بعدد غدراته ... وحكمة نصب اللواء أن العقوبة تقع غالبًا بضد الذنب، والغدر خفى فاشتهرت عقوبته بإشهار اللواء^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥٩٥) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النَبِيِّ ﷺ قال: « قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوَفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ »^(٢).

وفي هذا الحديث الأخير أيضًا التنبيه على مسألة يفعلها كثير من الناس اليوم، وهى أنهم يستأجرون الأجراء ولا يعطون لهم أجرًا.... هذا الذى يستأجر الأجير ولا يعطيه أجره يكون الله ﷻ خصمه يوم القيامة، كما قال تعالى فى الحديث القدسى: « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي ثُمَّ غَدَرَ » يعنى: عاهد بى ثم غدر ... أى أعطى يمينه بى .. أى عاهد عهدًا وحلف عليه بالله ثم نقض العهد وغدر بصاحبه ... والثانى « رَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ » حتى لو كان ابنه أو أخاه الأصغر ثم باعه وأكل ثمنه يكون الله ﷻ خصمه يوم القيامة.. قال المهلب: وإنما كان إثمهُ شديدًا ؛ لأن المسلمين أكفاء فى الحرية فمن باع حُرًّا فقد منعه

(١) فيض القدير (٢/ ٣٧٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٢٢٧) كتاب البيوع.

التصرف فيما أباح الله له وألزمه الذل الذي أنقذه الله منه.. وقال ابن الجوزي: الحُر عبد الله فمن جنى عليه فخصمته سيده^(١)... والثالث هذا الرجل الذي استأجر أجيراً فاستوفى منه وقام الأجير بالعمل كاملاً ثم لم يُعطه أجرته.

ومن ذلك ما يفعله بعض الناس اليوم في العمال الذي يأتون بهم من الخارج، تجده يستأجره بأجرة مُعينة مثلاً ستمائة ريال في الشهر، ثم إذا جاء به إلى هنا ماطل به وآذاه ولم يُؤته حقه، وربما يقول له تريد أن تبقى هنا بأربعمائة ريال وإلا سافرت... هذا والعياذ بالله يكون الله خصمه يوم القيامة، ويأخذ من حسناته ويعطيها هذا العامل، لأن قوله إما أن تعمل بأربعمائة وإلا رددتُك إلى بلدك... هذا استأجره بستمائة ولم يعطه أجره، فيدخل في هذا الوعيد الشديد، وهؤلاء الذي يأتون بالعمال ولا يعطونهم أجورهم أو يأتون بهم وليس عندهم عمل.. ولكن يتركونهم في الأسواق، ويقول أحدهم للعامل: اذهب وما حصلتته فلي نصفه، أو مثلاً يقول: اذهب وعليك في الشهر ثلاثمائة ريال أو أربعمائة ريال.

كل هذا حرام والعياذ بالله، ولا يحل لهم، وما أكلوه فإنه سُحَتْ، و«كل جسد بُنِيَ من سُحْتٍ فالنار أُولَى به»^(٢)، وهؤلاء الذين يأكلون أموال هؤلاء العمال المساكين، لا تُقبل لهم دعوة والعياذ بالله... يدعون الله فلا يستجيب لهم؛ لأن النبي ﷺ «ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب. ومطعمه حرام وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأني يُستجاب له»^(٣) وما يأكل هؤلاء من أجور هؤلاء العمال أو يظلمونهم به، فإنهم يأكلونه سُحْتًا... نسأل الله العافية^(٤).

(١) فتح الباري (٤/٤٨٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وأبو نُعيم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٩).

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

(٤) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١٣٣/٤) بتصرف.

(٢٧٨) باب النهي عن المن بالعطية ونحوها

❦ قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى

[البقرة: ٢٦٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا

أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

❦ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ أى

لا يقصدون بإنفاقهم إلا وجه الله، ولا يعقبون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات بالمن على من أحسنوا إليه ... كقوله قد أحسنت إليك وجبرتُ حالك، ولا بالأذى كذكره لغيره فيؤذيه بذلك ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى لهم ثواب ما قدموا من الطاعة عند الله ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى لا يعترهم فزع يوم القيامة ولا هم يحزنون على فائت زهرة الدنيا.

❦ وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي

يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ أى لا تحبطوا أجرها

بالمن والأذى ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أى كالمرائى الذى يُبطل إنفاقه بالرياء ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى لا يصدق بقاء الله ليرجو ثواباً أو يخشى عقاباً ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ أى مثل ذلك المرائى بإنفاقه كمثل الحجر الأملس الذى عليه شىء من التراب يظنه الطائر أرضاً طيبةً منبتةً ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أى فإذا أصابه مطر شديد أذهب عنه التراب فيبقى صلداً أملس ليس عليه شىء من الغبار أصلاً... كذلك هذا المنافق يظن

أَنْ لَهُ أَعْمَالًا صَالِحَةً فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَضْمَحَلَّتْ وَذَهَبَتْ.
ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي لا يجدون له
ثوابًا في الآخرة فلا ينتفع بشيء منها أصلاً ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا
يهديهم إلى طريق الخير والرشاد^(١).

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(١٥٩٦) وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
ثَلَاثَ مَرَارٍ: قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْمُسْبِلُ،
وَالْمَنَانُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(٢).

❁ وفي رواية له: «الْمُسْبِلُ إِزَارُهُ» يعنى: الْمُسْبِلُ إِزَارُهُ وَثَوْبُهُ أَصْفَلُ مِنَ
الْكَعْبَيْنِ لِلْخِيَلَاءِ.

سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (٧٩٨)
فأرجو الرجوع إليه .. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(١) صفوة التفاسير (١/١٥٣).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

(٢٧٩) باب النهى عن الافتخار والبغى

✽ ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ هذا الباب (باب النهى عن الافتخار والبغى) والافتخار: أن يمدح الإنسان نفسه وأن يفتخر بما أنعم الله به عليه من نعمة المال أو الجاه أو الولد أو القوة أو الحسب والنسب أو غير ذلك من باب الفخر والاستعلاء على الناس من حوله.

أما أن يتحدث الإنسان بنعمة الله عليه من باب إظهار نعمة الله عليه فلا بأس بهذا.. فقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وقال النبي ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١) أى: لا أفتخر بذلك.. وهذا من باب تواضع النبي ﷺ.. وهو أسوتنا وقدوتنا فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

✽ ثم استدل المصنف رَحِمَهُ اللهُ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] فهى الحق (جل وعلا) عباده أن يزكوا أنفسهم هو أعلم بمن يمدحوها افتخاراً واستعلاءً على الناس . كأن يقول أحدهم لأخيه: أنا أغنى منك .. أنا أفضل منك .. أنا أعلم منك .. وما أشبه ذلك.. وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا﴾ [الشمس: ٩] فالتزكية التى نهى الله عنها هو أن يفتخر الإنسان ويعلو ويزهو بنفسه وبما أعطاه الله من المال والعلم والقوة.

وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّهَا﴾^(٢) أى: قد أفلح من طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّهَا﴾^(٣) أى: أخفى نفسه الكريمة، التى ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدسس بالردائل، والدنو من العيوب، والاقتراف للذنوب، وترك ما

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٧٨) كتاب الفضائل.

يُكْمِلُهَا وَيُنْمِيهَا، وَاسْتِعْمَالُ مَا يَشِينُهَا وَيُدْسِيهَا^(١).

❖ ثم استدل المصنف رَحِمَهُ اللهُ عَلَى تحريم البغى بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢] السبيل: التَّبَعَةُ واللوم والمذمة على هؤلاء الذين يظلمون الناس في أموالهم أو في أعراضهم أو في أنفسهم أو في أهلهم... هؤلاء هم الذين عليهم السبيل والتبعة ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني يعتدون بغير الحق... وإنما وصف الله البغى بغير حق، لأنه حقيقة ليس بحق... كل البغى فهو بغير الحق، فالقيد هنا ليس للاعتراض بل هو لبيان الواقع، وهو أن كل شيء من البغى فإنه بغير الحق... وهذا يَرِدُ في القرآن كثيراً، أن تجد قيداً يبين الواقع وليس قيداً يُخرج ما سواه، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فهنا ليس هناك ربٌّ لم يخلقنا وربٌّ خلقنا بل هو لبيان الواقع أن الرب هو الذي خلقنا وهو الذي رزقنا... فالحاصل أن الله تعالى يبين أن السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق^(٢).

❖

(١٥٩٧) وعن عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٣).

❖ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٠٧) فأرجو الرجوع إليه.. بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ.

❖

(١) تفسير السعدي (ص ١٠٩٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٤/ ١٣٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

قال أهل اللغة: الْبَغْيُ: التَّعَدُّ وَالِاسْتِطَالَةُ.

(١٥٩٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل: هلك النَّاسُ، فهو أهلكهم»^(١).

✽ الرواية المشهورة: «أهلكهم» برفع الكاف... ورؤى بنصبها. وذلك النهى لمن قال ذلك عجباً بنفسه، وتصاعراً للناس، وارتفاعاً عليهم، فهذا هو الحرام... وأما من قاله لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم، وقاله تحزناً عليهم، وعلى الدين، فلا بأس به... هكذا فسره العلماء وفصلوه، وممن قاله من الأئمة الأعلام: مالك بن أنس، والخطابي، والحميدي وآخرون، وقد أوضحت في كتاب «الأذكار»^(٢).

✽ فهذا الحديث يكون على وجهين: فمن قال: هلك الناس.. أى: يصفهم بأنهم وقعوا في المعاصي وفسقوا وهلكوا.. يريد بذلك أن يركى نفسه وأن يمدح نفسه ويقدح في غيره.. فهذا هو أهلك الناس لأن إعجابه وتزكيتة لنفسه تحبط عمله وهو لا يشعر بذلك.. كما في قصة الرجل من بنى إسرائيل الذي كان يمر على صاحبه الذي يعصى الله فكان ينصحه ولكن بشيء من تعالى والغلظة وهو لا يستجيب له... فقال له يوماً: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة، فقال الله تعالى: «من ذا الذي يتألى على أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرت له وأحببت عملك»^(٣) لأنه قال ذلك افتخاراً وإعجاباً بنفسه واحتقاراً لهذا الرجل واستبعاداً لرحمة الله ﷻ... ومن الذى يستبعد رحمة الله إلا جاهل بالله ﷻ! قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فهذا الذى يقول: هلك الناس، ضاع الناس، فسق الناس. وما أشبه ذلك، يريد بهذا أن يركى نفسه وأن يقدح في غيره، فهو أهلك الناس، يعنى أشدهم هلاكاً والعياذ بالله.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) رياض الصالحين / للإمام النووي (ص ٤٦٤).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب.

وهناك رواية لكلمة: «أهلكهم» بالنَّصب ... يعنى أنه تسبَّب في هلاكهم، وأن مَنْ قال ذلك يُئسُّ الناس ويأسون هُمْ بسبب مقالته.

❁ أما مَنْ قال ذلك حُزنًا على الناس وعلى الدين فلا بأس بذلك... لذلك لا يجوز لإنسان أن يقول: كل الناس هلكوا وسيدخلون النار.. ولكن الإنسان يدعو لغيره برحمة رب العالمين، وأن يهديهم الله سبحانه تبارك وتعالى... وليس معنى ذلك أنه يرى المنكر ويتركه، ولكن يرى المنكر فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وليكن سبيله إليه التغير برفق ورحمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨٠) باب تحريم الهجران بين المسلمين

فوق ثلاثة أيام إلا لبدعة في المهجور،

أو تظاهر بفسق، أو نحو ذلك

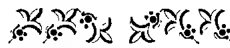
❖ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ ﴾ [المائدة: ٢].

(١٥٩٩) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث^(١) ».

(١٦٠٠) وعن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام^(٢) ».

❖ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٦٠١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا^(٣) ».

❖ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٦٥، ٦٠٧٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٥٩) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٧٧) كتاب الأدب، ومسلم (٢٥٦٠) كتاب البر والصلة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٥) كتاب البر والصلة.

(١٦٠٢) وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَسَّ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»^(١).

✽ قال أهل العلم:

مداخل الشيطان إلى العبد من ثلاثة محاور: فهو يجتهد عليه ليوثقه في الشرك ... فإن وجد هذا الباب مُغلَقًا في وجهه، وأن العبد عنده من التوحيد ما يحرسه ويحميه في هذا الباب؛ اجتهد عليه في باب البدعة.

فإذا عجز أن يدخل للعبد من باب البدع؛ لأنه صاحب سنة قائم بها وعليها، وحريص على نفسه أن يقع في شيء من هذا؛ اجتهد عليه في باب المعاصي. فالمحاور ثلاثة: المحور الأول: الشرك.

الثاني: البدعة. الثالث: المعصية الكبيرة والصغيرة.

ومعنى هذا الحديث: أنه أيسر أن يعبد أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والبغضاء والحروب والفتن وغيرها. وهذا الحديث من معجزات النبوة.. فقد حدث ما أخبر به النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٠٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ»^(٢).

(١٦٠٤) وعن أبي خراشٍ حَدَرْدَ بن أبي حدرَد الأسلمي، ويُقال: السلمي الصَّحابي رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفِكَ دَمِهِ»^(٣).

✽ سبق شرح هذين الحديثين عند شرحنا للحديث رقم (١٥٧٥).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨١٢) كتاب صفات المنافقين.

«التحريش»: الإفساد وتغيير قلوبهم وتقاطعهم.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٥٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٨١).

لكن في الحديث الأول أخبر النبي ﷺ أن مَنْ هجر أخاه المسلم دون أى سبب شرعى.... والسبب الشرعى كأن يكون قد هجره من أجل وقوعه في المعاصى أو البدع فأراد أن يزجره عن ذلك فهجره... أما إذا هجره من أجل المال والدنيا فوق ثلاثٍ ومات على تلك الحالة من غير توبة دخل النار.. وليس معنى ذلك أن يُخلد في النار.. ولكن المقصود أنه يُعاقب على ذلك بدخول النار فإذا انتهت عقوبته دخل الجنة لأنه لا يُخلد موحداً في النار...

✽ أما الحديث الثانى فيخبر فيه النبي ﷺ أن مَنْ هجر أخاه سنةً - أى: بدون أى سبب شرعى - فهو كسفك دمه .. أى: كإراقة دمه في استحقاق مزيد الإثم لا في قدره.... وهذا من باب الوعيد على الهجر.. لأن الذى يهجر أخاه سنة كاملة من أجل الدنيا وحُطامها الزائل ليس عنده وازع دينى يردعه.. فهو يعلم أن النبي ﷺ نهاه عن هجره أكثر من ثلاثة أيام ومع ذلك فهو مستمرٌ في هجره لأخيه لمدة سنة كاملة.... بل (والله) لقد رأيت مَنْ يخاصم أخاه (من أمه وأبيه) لمدة تربو على خمسة وعشرين عاماً من أجل الميراث!!!

✽ فيا ليتنا نمتثل أمر النبي ﷺ ولا يهجر أحدنا أخاه أكثر من ثلاثة أيام - وخيرهما الذى يبدأ بالسلام-. أما إذا كانت الهجرة لله فليس في ذلك أى شىء.



(١٦٠٥) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَإِنْ مَرَّتْ بِهِ ثَلَاثٌ فَلْيَلْقَهُ وَلْيَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، فَقَدْ اشْتَرَكَ فِي الْأَجْرِ، وَإِنْ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ فَقَدْ بَاءَ بِالْإِثْمِ، وَخَرَجَ الْمُسْلِمُ مِنَ الْهَجْرَةِ»^(١).

قال أبو داود: إذا كانت الهجرة لله تعالى فليس من هذا فى شىء.

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى غاية المرام (٤٠٥)، الإرواء (٢٠٢٩).

(٢٨١) باب النهى عن تناجى اثنين

دون الثالث بغير إذنه إلا لحاجة،

وهو أن يتحدثا سرا بحيث لا يسمعهما،

وفى معناه ما إذا تحدث اثنان بلسان لا يفهمه

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا التَّجْوِي مِنْ الشَّيْطَانِ ﴾ [المجادلة: ١٠].

(١٦٠٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اِثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ»^(١).

ورواه أبو داود وزاد: قَالَ أَبُو صَالِحٍ: قُلْتُ لَابْنِ عُمَرَ: فَأَرْبَعَةٌ؟ قَالَ: لَا يَضُرُّكَ.

ورواه مالك في «الموطأ»: عن عبد الله بن دينار، قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عَقْبَةَ الَّتِي فِي السُّوقِ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَنَاجِيَهُ، وَلَيْسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيْرِي، فَدَعَا ابْنُ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً، فَقَالَ لِي وَلِلرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذِي دَعَا: اسْتَأْخِرَا شَيْئًا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَتَنَاجَى اِثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ».

بَابُ النَّهْيِ عَنْ تَنَاجَى اِثْنَانٍ دُونَ الثَّالِثِ

(١٦٠٧) وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً، فَلَا يَتَنَاجَى اِثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ»^(٢).

﴿ ففى هذه الأحاديث يُعلمنا النبي ﷺ أدبًا عظيمًا من آداب الإسلام.. ألا وهو أنه إذا كان هناك ثلاثة فإنه لا يحل لاثنتين أن يتناجيا ويتحدثا جانبًا دون

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٨٣) كتاب السلام.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٨٨) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٨٤) كتاب السلام.

الثالث؛ لأن ذلك يُحزنه .. وكذلك إذا كانوا أربعة أو خمسًا أو أكثر فلا يحل لهم أن يتناجوا جانبًا ويتركوا واحدًا يقف وحده بعيدًا عنهم؛ لأن ذلك يُحزنه ... بل قد يُسيء الظن بهم ويظن أنهم يتآمرون عليه.

❁ أما إذا كانوا أربعة واستأذن اثنان ليتحدثا في مسألة ما .. وبقي الاثنان الآخران يتحدثان سويًا فلا بأس بذلك.

❁ فإن قال قائل: بيني وبين صاحبي مسألة هامة ولا أحب أن يطلع عليها أحد فماذا أفعل إذا كان معنا ثالث؟

نقول: عليك أن تدعو شخصًا رابعًا ليقف مع الثالث ليؤنسّه ويتحدث معه وتستأذن أنت وصاحبك لتحدثا سويًا دون أن تُسيبًا حرجًا أو حزنًا للثالث.

❁ وهنا أريد أن أنبّه على أمر هام ... وهو أنه قد يكون هناك ثلاثة فيقوم اثنان منهم بالتحدث بلغة أجنبية لا يفهمها الثالث وهما معه ولم يُفارقاه.. فهذا أيضًا لا يجوز؛ لأن ذلك يُحزنه وقد يُسيء الظن بهما ويظن أنهما يَسخران منه أو يتآمران عليه...

ألا فلنحرص على مراعاة مشاعر الآخرين كما علمنا النبي ﷺ.



(٢٨٢) باب النهى عن تعذيب العبد

والدابة والمرأة والولد

بغير سبب شرعى أو زائد عن قدر الأدب

❖ قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

❖ ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ أى وحده وعظموه ولا تشركوا به شيئاً من الأشياء صنماً أو غيره، واستوصوا بالوالدين برّاً وإنعاماً وإحساناً وإكراماً ﴿وَبِذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ أى وأحسنوا إلى الأقارب عامة وإلى اليتامى والمساكين خاصة.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أى الجار القريب فله عليك حق الجوار وحق القرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أى الجار الأجنبى الذى لا قرابة بينك وبينه ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قال ابن عباس: هو الرفيق فى السفر...

وقال الزمخشري: «هو الذى صحبتك إما رفيقاً فى سفر، أو جاراً مُلاصقاً، أو شريكاً فى تعلّم علم، أو قاعداً إلى جنبك فى مجلس أو غير ذلك، من له أدنى صُحبة التأمّت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه... وقيل: هى المرأة»^(١) ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أى المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده وأهله ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾^(٢) أى: من الآدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم

(١) الكشف (١/ ٣٩٣) وهذا الرأى اختيار الطبري أيضاً.

(٢) صفوة التفاسير (١/ ٢٥٢).



تحميلهم، ما يَشْقُ عليهم وإعانتهم على ما تحملوه، وتأديهم لما فيه مصلحتهم... فَمَنْ قام بهذه المأمورات، فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل، والثناء الجميل، وَمَنْ لم يَقُمْ بذلك، فإنه عبدٌ مُعْرِضٌ عن ربه، غير مُنْقَادٍ لأوامره، ولا متواضع للخلق. بل هو متكبر على عباد الله، مُعْجَبٌ بنفسه، فَخُورٌ بقوله.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ^(١).



(١٦٠٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» ^(٢).

✽ كان في بنى إسرائيل امرأة قاسية القلب، لا ترحم أى أحدٍ حولها حتى ولو كان هرة (قطعة) ضعيفة... وفي يوم من الأيام خرجت هذه المرأة القاسية من بيتها لقضاء بعض حوائجها، فوجدت هِرَّةً ضعيفة تسير في الطريق، فأخذتها ووضعتها في البيت وأغلقت عليها الباب.

ظَنَّتِ الهرة في بداية الأمر أن هذه المرأة سترحمها وتُقدم لها الطعام والشراب وتتركها لتنام في هذا البيت الجميل.

لكن الذى حدث أن المرأة حبست الهرة في البيت وتركتها بلا طعام ولا شراب.

اشتد الجوع والعطش بتلك الهرة، فظلت تصرخ ليل نهار والمرأة تسمع صوتها ومع ذلك لم تستجب لنداء الهرة ولم ترحمها بأن تأتى إليها بالطعام.

(١) تفسير السعدى (ص ١٨٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٦٥) كتاب المساقاة - ومسلم (٢٢٤٢) كتاب السلام.

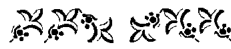
«خَشَاشُ الْأَرْضِ»: وهى هَوَامُّهَا وحشراتُها.

والشراب أو أن تتركها لتبحث عن رزقها في مكان آخر.

ولعلها وقد حبستها كانت تموء ليل نهار، وهى تعاني الجوع والعطش، وصوت الهرة فى هذه الحال يحمل الاستجداء والاستغاثة، وهو صوتٌ مُميز يُدرّكه العارفون بأصوات الحيوان، ولكن قلب هذه المرأة المتحجر لم يستجب لنداء الهرة، ولم يقبل رجاءها وتوسّلها... وبقي الصوت يخفت حتى انقطع، وماتت الهرة تشكو إلى ربها ظلم الإنسان، وقسوته وتَحَجَّر قلبه.

لقد كان بإمكان تلك المرأة إن كانت تريد القطة فى منزلها أن تُقدم لها ما يحفظ حياتها من الطعام والشراب... وقد أخبرنا الرسول ﷺ أننا نُؤَجَّر فى الإحسان إلى البهائم... فإن أبت أن تقدم لها ما يحفظ حياتها، فعليها أن تُخلى سبيلها، وتتركها تنطلق فى أرض الله الواسعة، فلن تعدم وجود ما يقيتها، ويحفظ حياتها... خاصة وأن الله قد جعل لها رزقاً فيما يُلقيه الناس من بقايا الطعام، وما تصطاده من الحشرات والهوام.

فأخبر النبى ﷺ أن هذه المرأة دخلت النار بسبب ظلمها لتلك الهرة. ولقد رأى الرسول ﷺ هذه الهرة وهى تهاجم تلك المرأة فى النار، فتحدث بها خدوشاً فى وجهها وجسدها جزاءً على ما صنعت بها فى الدنيا^(١).



(١٦٠٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مرَّ بِفَتَيَانٍ مِنْ قَرِيشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلِّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنْ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا^(٢).

(١) حكايات عمو محمود / الشيخ محمود المصرى - الجزء الأول (ص: ٧٠-٧١) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥١٥) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٥٨) كتاب الصيد والذبائح.

«الغَرَضُ»: وهو الهداف، والشئ الذى يرمى إليه.

❁ ففى هذا الحديث يحكى ابن عمر رضي الله عنهما أنه مرَّ ببعض الفتيان من قریش فوجدهم قد نصبوا طيرًا.. أى: ربطوه فى شىء وجعلوه غرضًا لسهامهم... وأخذوا يرمون على ذلك الطير بالسهام ليروا من هو أشد مهارة فى رمى السهام على ذلك الطير.

وقد علموا أن صاحب الطير سيفقده بسبب ما يفعلونه به.. فجعلوا لصاحب الطير كل السهام التى لا تصيب الطير تكون من نصيبه.. وبينما هم يرمون الطير بالسهام إذ رآوا ابن عمر.. فلما رأوه تفرقوا خوفًا منه لأنه كان لا تأخذه فى الله لومة لائم... فلما رأى ابن عمر ما يفعلونه قال: مَنْ فعل هذا لعن الله مَنْ فعل هذا لعن الله مَنْ فعل هذا... وذكر أن النبى ﷺ لعن مَنْ اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا. وهذا لأنه يتألم... إذ أن هذا يضربه على جناحه، وهذا يضربه على صدره، وهذا يضربه على ظهره، وهذا على رأسه فيتأذى، فلهذا لعن النبى ﷺ مَنْ اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا... أما بعد ما مات فقد مات فلا يشعر بشىء... وإن كان الأفضل أن يجعلوا هدفهم الذى يرمونه شيئًا من الجمادات.

❁ ولذا فإنه لا يجوز أن نربط طيرًا أو حيوانًا ونضرب عليه بالسهام أو ببندقية رش حتى نتعلم النشان أو نتعلم مهارة الرمى لأن هذا فيه إيذاء لحيوان أو طير ضعيف لا يملك من أمره شيئًا.. وسوف يحاسب الله ويعاقب مَنْ فعل هذا بذلك الطير أو الحيوان.



(١٦١٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تُصَبَّرَ البَهَائِمُ^(١).

❁ الصبر معناه أنها تُحبَس للذبح... إما أن تُحبَس وتُجَاع حتى تموت، أو أنها تُمسك وتُتخذ غرضًا... يعنى هدفًا بحيث يتراماها الناس؛ لأن هذا فيه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٥١٣) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٩٥٦) كتاب الصيد والذبائح. ومعناه: تُحبَس للقتل.

تعذيب للحيوان وإيذاء له وهو لا يجوز، بل المطلوب أن يحصل الفرق والإحسان في قتلها أو ذبحها.

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: قَالَ الْعُلَمَاءُ: صَبَرُ الْبَهَائِمِ أَنْ تُحْبَسَ وَهِيَ حَيَّةٌ لِيُتَّقَلَ بِالرَّمْيِ وَنَحْوِهِ وَهُوَ مَعْنَى: «لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا» أَيْ لَا تَتَّخِذُوا الْحَيَوَانَ الْحَيَّ غَرَضًا تَرْمُونَهُ إِلَيْهِ كَالْغَرَضِ مِنَ الْجُلُودِ وَغَيْرِهَا ... وَهَذَا النَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ .. وَلِهَذَا قَالَ ﷺ فِي رِوَايَةِ ابْنِ عُمرَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا» وَلِأَنَّهُ تَعْدِيبٌ لِلْحَيَوَانِ وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ وَتَضْيِيعٌ لِمَالِيَّتِهِ وَتَفْوِيتٌ لِدَكَاتِهِ إِنْ كَانَ مُذَكِّيً وَلِمَنْفَعَتِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُذَكِّيً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦١١) وعن أبي عليٍّ سُويد بن مُقرن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَنِي مُقَرَّنٍ مَا لَنَا خَادِمٌ إِلَّا وَاحِدَةً لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا، فَأَمَرْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا^(٢).
وفي رواية: «سابع إخوة لي».

❖ ففي هذا الحديث يحكى سُويد بن مُقرن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَةً مِنْ بَنِي مُقَرَّنٍ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ خَادِمٌ إِلَّا جَارِيَةٌ صَغِيرَةٌ كَانَتْ تَخْدُمُهُمْ .. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ لَطَمَهَا أَصْغَرُ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ السَّبْعَةِ ... فَوَصَلَ الْخَبْرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُعْتِقُوهَا كِفَارَةً لَتِلْكَ اللَّطْمَةِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ أَوْ لَطَمَهُ فَإِنْ كَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتَقَ».

ومن الواضح أَنَّهُمْ جَمِيعًا رَضُوا بِعَتَقِ تِلْكَ الْجَارِيَةِ وَتَبَرَعُوا بِذَلِكَ وَإِلَّا فَالْلطمة كانت من واحدٍ منهم ولم تكن منهم جميعًا .. لكنهم سمحوا له بعَتَقِهَا تَكْفِيرًا لِذَنْبِهِ.

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/١٥٨-١٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٨) كتاب الأيمان.

فالأصل أنه لا يُعتَق منها إلا حظ من لطمها.. لأن العبد أو الأمة مألٌ تجوز فيه الشراكة.. يعنى يجوز أن يشترك فيه عددٌ من الناس.. فإذا لطم سيّدٌ واحد من هؤلاء عبداً فالأصل أن يعتق نصيبه فيه فيكون بعض العبد حُرّاً والبعض الآخر رِقّاً... ولكن النبي ﷺ عرف منهم أنهم على استعدادٍ لعقتها فأمرهم جميعاً بإعتاقها.

فما أعظم هذا الدين الذى جعل كفارة لطم العبد أو الجارية أن يعتقها... فليتدبر هؤلاء الذين يضربون الخدم ضرباً قاسياً كل يومٍ حتى يصل الأمر أحياناً إلى تكسير العظام وتشويه الجسد.. مع أنهم خدم وليسوا عبيداً.. ألا فلتتق الله فى هؤلاء المساكين الذى ما رضوا بهذا الذل إلا من أجل لقمة العيش لأولادهم.

﴿مَنْ يَضْرِبْ عَبْدًا أَوْ امْرَأَةً بِتَرْفٍ مِّنْهُمَا ضَرْبًا كَاسِيًا فَلْيَعْقِبْهُ﴾

(١٦١٢) وغن أبى مسعود البدرى رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: «اعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ» فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: «اعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ» فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.

وفى رواية: فَسَقَطَ السَّوْطُ مِنْ يَدِي مِنْ هَيْبَتِهِ.

وفى رواية: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لَوْ جِهَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلْفَحْتُكَ النَّارَ، أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارَ»^(١).

فقى هذا الحديث يخبر أبو مسعود البدرى رضي الله عنه أنه كان يضرب غلاماً له بالسوط عقاباً له على شىء فعله.. فسمع صوتاً يأتى من خلفه لكنه لم يتبين الكلام من شدة غضبه... فلما اقترب أكثر سمع من يقول له: «اعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ» فاستدار ونظر خلفه فإذا هو برسول الله ﷺ وهو يقول له: «اعْلَمْ أبا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ»

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٩) كتاب الأيمان.

أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ» فَتَأَثَّرَ أَبُو مَسْعُودٍ مِنْ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ وَسَقَطَتْ الْعَصَا مِنْ يَدِهِ هَيْبَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا.. وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لَوْ جَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى.. فَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «أَمَّا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ، لَلْفَحْتِكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسْتِكَ النَّارُ».

لِهَذَا أُرْشِدُ النَّبِيَّ ﷺ إِلَى هَذَا بِأَنْ مَنْ ضَرَبَ عَبْدَهُ أَوْ لَطَمَهُ فَإِنْ كَفَّارَةٌ ذَلِكَ أَنْ يَعْتِقَهُ، لِأَنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَتَقَ فِيهِ تَكْفِيرٌ لِذَلِكَ الذَّنْبِ الَّذِي قَدْ حَصَلَ مِنْهُ، وَهُوَ كَوْنُهُ ضَرْبَ مَمْلُوكِهِ، لَكِنْ هَذِهِ الْكَفَّارَةُ لَيْسَتْ عَلَى سَبِيلِ الْوَجُوبِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦١٣) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ فَإِنْ كَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ»^(١).

وَفِي رَوَايَةٍ عَنْ زَاذَانَ: (أَنَّ ابْنَ عُمَرَ دَعَا بِغُلَامٍ لَهُ، فَرَأَى بِظَهْرِهِ أَثْرًا - أَيْ: أَثَرَ الضَّرْبِ الَّذِي ضَرَبَهُ إِيَّاهُ ابْنُ عُمَرَ - فَقَالَ لَهُ: أَوْجَعْتُكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَنْتَ عَتِيقٌ).

وَقَوْلُ الْعَبْدِ لَمَّا قَالَ لَهُ سَيِّدُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَوْجَعْتُكَ؟ قَالَ: لَا، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ غَيْرُ مَبْرَحٍ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَعْتَقُهُ ابْنُ عُمَرَ اسْتِحْبَابًا وَخُرُوجًا مِنَ الْخِلَافِ... وَرَبَّمَا يَكُونُ جَوَابُ الْعَبْدِ بِقَوْلِهِ: لَا.. أَوْ: مَا أَوْجَعْتَنِي عَلَى سَبِيلِ التَّأَدُّبِ مَعَ سَيِّدِهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ أَوْجَعَهُ... فَأَرَادَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ ذَنْبِهِ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ دَفَعَهُ الْحَيَاءُ إِلَى عَدَمِ ذِكْرِ أَلَمِهِ وَوَجَعِهِ، فَقَالَ: فَأَنْتَ عَتِيقٌ، أَيْ: أَنْتَ حُرٌّ لَوْ جَهِدَ اللَّهُ.

وَالْعُلَمَاءُ يَفْرُقُونَ فِي ضَرْبِ الْمَمَالِيكِ أَوْ فِي ضَرْبِ الْخُدَمِ - وَالْخُدَمُ هُمُ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٧) كتاب الإيمان.

الإماء الرقيق - بين الضرب المبرح والضرب الخفيف... قال الدارقطني: إذا كان ضرباً مبرحاً فإنما كفارته العتق، وإذا كان ضرباً خفيفاً لا يتأذى به المملوك فليس على سيده شيء.

✽ أما قول النبي ﷺ: «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ» أي: لم يفعل ما يقتضى ذلك الحدّ الذي حدّه به «أَوْ لَطَمَهُ» أي: ضربه ببطن كفّه من غير سبب «فإن كفارته» أي: مكفر إثم ذلك عنه «أن يُعْتَقَ» أي: محو ذلك الإثم عنه، بإعتاقه... قال القاضي عياض: أجمعوا على أن الإعتاق غير واجب، وإنما هو مندوب. لكن أجر هذا الإعتاق، لا يبلغ أجر الإعتاق شرعاً.

وفي الحديث الرفق بالمماليك، إذا لم يذنبوا... أما إذا أذنبوا فقد رخص ﷺ بتأديبهم بقدر إثمهم، ومتى زادوا يأخذ بقدر الزيادة^(١).

﴿الْعَبْدُ لِلَّهِ﴾

(١٦١٤) وعن هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أَنَاسٍ مِنَ الْأَنْبَاطِ، وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، وَصُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الزَّيْتُ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قِيلَ: يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَجِ... وفي رواية: حُبِسُوا فِي الْجَزْيَةِ. فقال هشام: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا» فدخل على الأمير، فحدّثه، فأمر بهم فخلّوا^(٢).

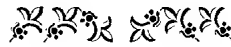
✽ ففي هذا الحديث أن هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه مرّ بالشام على أناسٍ من الأنباط - وهم فلاحو العجم - وسُمّوا أنباطاً لأنهم كانوا يستنبطون الماء أي: يستخرجونه... وكانوا قد حُبِسُوا فِي الشَّمْسِ لأنهم لم يؤدّوا الخراج أو لم يدفعوا الجزية التي عليهم... فحُبِسُوا فِي الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ وَصُبَّ فَوْقَ

(١) دليل الفالحين (٤/ ٣٧٥).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٦١٣) كتاب البر والصلة والآداب.

«الأنباط»: الفلاحون من العجم.

رؤوسهم الزيت.. وهذه عقوبة شديدة جدًا.. لأن الزيت تشتد حرارته مع الشمس وقد يتسلخ الجلد بسبب ذلك.. فهذا عذابٌ مؤلمٌ جدًا.. فلما سأل هشام بن حكيم ما هذا؟ قيل له: إنهم يُعَذَّبُونَ في الخراج.. وفي رواية: حُبِسُوا في الجزية.. أى: لم يدفعوا الخراج^(١) أو الجزية^(٢).. فغضب هشام بن حكيم وقال: أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذَّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا».. ثم دخل على الأمير عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ وكان أميرًا على فلسطين.. فأخبره بما سمعه من رسول الله ﷺ فأمر بهم فأطلق سراحهم.. ولعلَّ الأمير لم يكن يعلم ما حدث لهؤلاء الأنباط.. لأن عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ كان قمة من قمم الزهد والورع والحلم والرفق.. وما أن سمع ما يحدث لهم حتى رفع عنهم هذا العذاب.. وفي هذا دليل على حُسن سيرة السلف ﷺ في بذل النصيحة للحكام والولاة.... وكان الولاة يقبلون النصيحة ولا تأخذهم العزة بالإثم.



(١٦١٥) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: رأى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا مَوْسُومَ الْوَجْهِ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَا أَسْمُهُ إِلَّا أَقْصَى شَيْءٍ مِنَ الْوَجْهِ» وأمرَ بِحِمَارِهِ، فَكُوِيَ فِي جَاعِرَتَيْهِ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كُوِيَ الْجَاعِرَتَيْنِ^(٣).

(١٦١٦) وعنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ»^(٤).

وفي رواية لمسلم أيضًا: نهى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عن الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ، وَعَنْ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ.

(١) الخراج: ما يخرج من غلَّة الأرض.

(٢) ما يدفعه أهل الدَّيَّة للدولة الإسلامية.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١١٨) كتاب اللباس والزينة.

«الْجَاعِرَتَانِ»: ناحيتا الوركين حول الدُّبُر.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢١١٧) كتاب اللباس والزينة.

❦ ففى الحديث الأول يخبر ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن النبى ﷺ رأى حِمَارًا مَوْسُومَ الوجهِ، فأنكر ذلك.

والوسم هى علامة يجعلها الرجل على دابته بالمكواه فى مكانٍ فى جسده من أجل أن يُعرف أن تلك الدابة هى دابة فلان حتى لا تختلط بين الدواب فلا يعرفها صاحبها.

لكن النبى ﷺ أنكر أن يكون الوسم فى الوجه حتى لو كان الموسوم حيوانًا فقال: «والله لا أَسْمُهُ إِلَّا أَقْصَى شَيْءٍ مِّنَ الوجهِ» وأمر بحماره فكوى فى جاعرتيه... وهما ناحيتا الوركين حول الدُّبُر .. أو فى مؤخرة الحمار..

❦ وفى الرواية الثانية لما رأى النبى ﷺ حمارًا قد وُسم فى وجهه قال: «لعنَ الله الذى وَسَمَهُ» واللعن: هو الطرد من رحمة الله.. وهذا دليل على أن وسم الحيوان فى وجهه من كبائر الذنوب لأن النبى ﷺ لعن مَنْ فعل هذا.

والوسم عبارة عن كى يُكوى به الحيوان ليكون علامة يعرفها صاحبه.... وأصحاب المواشى يحتاجون إلى ذلك.. فكل قبيلة لها علامة معينة تجعلها على مواشيها حتى إذا ضاعت شاة أو ناقة يعرف الناس أنها لأهل تلك القبيلة.. لكن الوسم يكون فى الرقبة أو الفخذ أو الظهر ولا يكون أبدًا فى الوجه.. لأن الوجه لا يُضرب ولا يُوسم...

يعنى: أنه لا يجوز أن يُوسَم فى الوجه، ولا أن يُضرب الحيوان على الوجه... والإنسان من باب أولى... وقد جاء فيه النهى عن رسول الله ﷺ، وذلك لأن الوجه فيه مُعْظَم الحواس التى هى السمع والبصر والفم والأسنان واللسان وما إلى ذلك، فيكون فيه إيذاء، بخلاف الجهات الأخرى أو الأماكن الأخرى التى ليست كذلك، فيترتب على ذلك تشويه الخِلقَة أو فقد حاسة من الحواس، وما إلى ذلك من الأمور المحظورة التى عنيت وقُصِدَتْ فى النهى عن الوسم والضرب فى الوجه.

❦ وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا رأى شيئاً مما يُلعن فاعله فقال: «اللهم العن من فعل هذا» فلا إثم عليه.. يعني لو وجدنا شاة موسومة في الوجه فقلنا: «اللهم العن من فعل هذا» فلا بأس.. لكن لا نقول: اللهم العن فلان بن فلان.. ومثل ذلك إذا رأينا قذراً في الشارع... يعني غائطاً وجدناه في الشارع، فلنا أن نقول: لعن الله من تَغوط هاهنا؛ لأن النبي ﷺ يقول: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) حسن: رواه أبو داود، وابن ماجه، وحسنه الألبانى في صحيح الجامع (١١٢).

(٢٨٣) باب تحريم التعذيب بالنار

فى كل حيوان حتى النملة ونحوها

(١٦١٧) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى بعث فقال: «إِنْ وَجَدْتُمْ فَلَانًا وَفُلَانًا - لِرَجُلَيْنِ مِنْ قَرِيشَ سَمَاهُمَا - فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ» ثم قال رسول الله ﷺ حينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ: «إِنِّى كُنْتُ أَمْرُتُكُمْ أَنْ تُحَرِّقُوا فَلَانًا وَفُلَانًا، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذَّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا»^(١).

❁ ففى هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ بعثهم فى بعث وقال: «إِنْ وَجَدْتُمْ فَلَانًا وَفُلَانًا» وذكر لهم اسم رجلين من قريش «فأحرقوهما بالنار» من شدة ما فعلاه بالمسلمين.. فلما أرادوا الخروج نادى عليهم النبى ﷺ وقال لهم: «إِنِّى كُنْتُ أَمْرُتُكُمْ أَنْ تُحَرِّقُوا فَلَانًا وَفُلَانًا، وَإِنَّ النَّارَ لَا يُعَذَّبُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا».

ففسخ النبى ﷺ أمره الأول بأمره الثانى لأن الوحي نزل وأمره بذلك.. فدلَّ هذا على أن التحريق بالنار لا يجوز، اللهم إلا إذا كان على سبيل القصاص، بأن يكون حرق غيره فيحرق هو. وقد سبق أن مرَّ فى المثلثة أنه لا يُمثَّلُ بالإنسان، ولكنه إذا قتل بالتمثيل فإنه يُجازى بمثل ما فعل ويُعامل بمثل ما عامل غيره به. إذا: التحريق بالنار لا يجوز، وإنما يجوز فى حق مَنْ قَتَلَ بالتحريق فإنه يُقتل بالتحريق جزاءً وفاقًا.

أى أنه لا يُعَذَّبُ أو يُقتل أحدٌ بإحراقه بالنار بأن تُوجَّع نارٌ فيُقدف فيها، أى أن ذلك لا يجوز، وإنما يُقتل بالسيف أو بأى وسيلة من الوسائل التى يكون

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٠١٦) كتاب الجهاد والسير.



بها إزهاق روحه بدون هذه الطريقة التي هي التحريق بالنار.
وقد يحصل أنه في الحرب تُقذَف القنابل والصواريخ التي تشتعل نارًا على العدو.

وهنا يُقال: إذا لم يجد المجاهدون وسيلة إلا قذف مثل ذلك فإن اشتعالها نارًا بالعدو قد يحصل وقد لا يحصل، وليس هو مثل تأجيج النار ثم بعد ذلك قذفهم فيها... فلا يُعتبر تعذيبًا أو قتلاً بالنار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦١٨) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَنْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمْرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمْرَةُ تَعْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلَدِهَا؟ رُدُّوْا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»، وَرَأَى قَرْيَةً تَمْلٍ قَدْ حَرَّقَتَاهَا، فَقَالَ: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟» قُلْنَا: نَحْنُ. قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث يخبر ابن مسعود رضي الله عنه أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ.. فلما نزلوا في مكانٍ للراحة ذهب النبي ﷺ لحاجته.. فرأى الصحابة حُمْرَةً.. وهي طائر صغير من الطيور حجمه ما بين العصفورة والحمامة.. وكان مع تلك الحُمْرَةِ فرخان - ولداها - فأخذ الصحابة فرخيها.. ولعلمهم أخذوا الفرخين للطعام أو للتسلية لأن منظرهما جميل.. فجاءت الحُمْرَةُ وأخذت تُترَفَفُ بأجنحتها وترتفع وتنزل وتصيح لفقد ولديها.. فאלله ﷻ جعل الرحمة في قلوب الطيور والحيوانات تجاه أولادها حتى إن الدابة لترفع حافرها عن وليدها خشية أن تؤذيهِ.. فلما رآها النبي ﷺ تفعل ذلك علم أنها مفجوعة لأنهم

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥)، وصحيح الجامع (٢٤٢٥).
قوله: «قَرْيَةً تَمْلٍ» معناه: مَوْضِعُ النَّمْلِ مَعَ النَّمْلِ.

أخذوا منها شيئاً فقال النبي ﷺ: «مَنْ فَجَعَ هذه بَوْلِدَها؟ رُدُّوا وَلَدَها إِلَيْها» فقام الصحابة: وَرَدُّوا إِلَيْها وَلَدَها ففرحت وهدأت.

وبعد فترة يسيرة رأى النبي ﷺ قرية نمل قد حرقها الصحابة فقال النبي ﷺ: «مَنْ حَرَّقَ هذه؟» فقال الصحابة: نَحْنُ فقال النبي ﷺ: «إِنَّه لا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»، أى: أَنَّهُ لا يَجُوزُ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ التَّعْذِيبُ بِالنَّارِ... وَإِنَّمَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يُحْرَقَ مَنْ قَتَلَ بِالتَّحْرِيقِ... أَيْ أَنَّهُ يُعَامَلُ بِمِثْلِ مَا عَامِلٌ بِهِ غَيْرُهُ، وَأَنَّهُ يُقْتَصَرُ مِنْهُ بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي حَصَلَتْ مِنْهُ. قالوا: فَيَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَثْنَى؛ لِأَنَّهُ عُمُلٌ بِالشَّيْءِ الَّذِي عَامِلٌ بِهِ، وَالْقَصَاصُ يَكُونُ بِالمِثَالَةِ.

ومعروف قصة اليهودى الذى قتل جارية بين حجرين، فأمر برض رأسه بين حجرين؛ حتى يُقتل كما قتل... وكذلك قصة العُرنين الذين قتلوا الراعى، ومثّلوا به، فأمر بقتلهم والتمثيل بهم كما فعلوا بذلك بالراعى... فالقصاص يكون من جنس العمل، إلا أن يكون فى أمرٍ مُحَرَّمٍ لا يسوغ تعاطيه، فإنه يُقتل بغير الطريقة المحرمة.

وعلى هذا فإذا رأيت نملاً وأنت فى سفرٍ فلماذا تؤذيه وأنت لن تعيش فى هذا المكان.. اتركه وابحث عن مكانٍ آخر... أما إذا آذاك فى بيتك فادفعه بأيسر طريقة يمكن أن تدفعه بها.. كأن تضع شيئاً من الجاز بالقرب منه فإنه سوف ينفر ويذهب من البيت.. وإن لم تستطع اتقاء أذاه فاستعمل مبيدًا حشريًا لكن لا تحرقه لأن هذا لا يجوز.. ولقد نهى النبي ﷺ عن قتل النمل.. لكن إذا آذاك ولم يندفع إلا بالقتل فلا بأس بقتله وإن لم يؤذك فلا تقتله.



(٢٨٤) باب تحريم مطل الغنى بحق طلبه صاحبه

❖ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنَ بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا فُلْيُوا إِلَيْهِ أَوْتَمِنَ أَمَنَتَهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

❖ ذكر المصنف رحمه الله هنا باب تحريم مطل الغنى.. يعنى تحريم مطل الغنى فى الحق الذى يجب عليه لغيره.. والمطل هو التأخير وعدم التسديد. وعدم توفية صاحب الحق حقه... وهذا ظلم وعدوان.

ومن ذلك ما يفعله أصحاب الشركات والمصانع الأغنياء من تأخير رواتب العمال وهم يستطيعون دفعها ولكنهم يؤجلون وكأن الأموال سوف تزيد فى خزائنها.. ومن ذلك ما يفعله الكُفلاء لمكفوليهم... فإن بعضهم يماطلون ويؤذون هؤلاء العمال الفقراء الذين تركوا أوطانهم وديارهم وأولادهم من أجل لقمة العيش.. فيبقى العامل ستة أشهر دون أن يأخذ أجره.

والكفيل يماطل هذا العامل الفقير والعياذ بالله ويهدده بأنه إن تكلم فسوف يرده إلى بلده.... ألا يعلم هؤلاء أن الله فوقهم وأن الله أعلى منهم وأنه ربما يسلط عليهم قبل أن يموتوا من يسومهم سوء العذاب... نسأل الله العافية فهؤلاء مساكين، وقد قال النبى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى ثم غدر» يعنى عاهد بالله ثم غدر والعياذ بالله «ورجل باع حُرًّا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يُعْطه أجره»^(١) فهؤلاء خصماء الله يوم القيامة.

وقد أمر الله ﷻ بأداء الأمانة فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٢٧٠) كتاب الإجارة.

(١٦١٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مطل الغني ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع»^(١).

✽ فجمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين حسن القضاء وحسن الاقتضاء.

أما حسن القضاء فهو في قوله ﷺ: «مطل الغني ظلم» أي: تأخير الحق عن صاحبه مع قدرته على التسديد ظلم لصاحب الدين... لأنه أخر عنه حقه بغير حق، وهذا يدل على تحريم ذلك، وأنه لا يجوز للإنسان أن يفعل هذا؛ لأنه ظلم، والظلم منهى عنه... قال النبي ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

وعلى هذا: فالمدينون منهم من هو غني واجد، ومنهم من هو فقير غير واجد... فعدم تسديد المدين مع قدرته هو ظلم منه للدائن... والفقير المعسر الذي لا يستطيع الوفاء ليس بظالم؛ لأنه ليس عنده شيء يقضى دينه به... والله تعالى يقول في حقه: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُوْ عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] يعني: يُنظر إلى أن يُيسر الله ﷻ له.

وينبغي على القاضى إذا علم أن هذا المدين رجل فقير أن يُنظره حتى يستطيع أن يدفع.. لا أن يحكم عليه بالسجن وهو فقير ومعذور.. وليس معنى ذلك أننا نُعطى رخصة لكل فقير أن يستدين لأن القاضى سيعذره ولن يُحبَس.. كلا.. بل أقول: إذا تأكد القاضى أنه معذور فعليه أن يُنظره... وكذلك إذا كان المدين غنياً لكنه ليس مُتمكناً من أداء الدين لغية المال أو لأنه غير حاضر عنده الآن جاز له التأخير والإنظار إلى أن يتمكن من أداء دينه.

أما إن كان المال حاضراً وهو لا يريد أن يسد الدين فلا بُدَّ من عقابه.

وقد جاء في بعض الروايات: «لى الواجد يحل عرضه وعقوبته» بمعنى: أنه

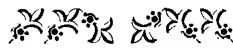
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

معنى «أتبع»: أُجِيل.

يَحِلُّ أَنْ يُعَاقَبَ فَيُحْبَسَ حَتَّى يَقُومَ بِالتَّسَدِيدِ؛ لِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْقَضَاءِ، وَيَحِلُّ عَرْضُهُ بِأَنْ يَقُولَ: مَنْعَنِي حَقِّي، وَيَتَكَلَّمُ فِيهِ، وَيَذُمَّهُ؛ لِأَنَّهُ مَنْعَهُ حَقُّهُ... وَهَذَا إِذَا كَانَ غَنِيًّا مِمَّا طَلَا.

❁ قَوْلُهُ ﷺ: «وَإِذَا أُحِيلَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ» أَي: إِذَا أَحَالَ الْمَدِينُ الدَّائِنَ عَلَى شَخْصٍ آخَرَ مَلِيٍّ غَيْرِ مُعَسَّرٍ، فَلْيَقْبَلِ الْإِحَالََةَ عَلَيْهِ، وَيَذْهَبْ إِلَى الشَّخْصِ الَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَوْفِ دَيْنَهُ مِنْهُ... وَهَذَا إِذَا كَانَ مَلِيًّا وَعِنْدَهُ مَالٌ. يَعْنِي إِذَا كَانَ أَحْمَدُ لَهُ عِنْدَ أَسَامَةَ عَشْرَةُ آلَافٍ جَنِيهِ.. وَكَانَ أَسَامَةُ لَهُ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ عَشْرَةُ آلَافٍ جَنِيهِ.. فَإِذَا جَاءَ أَحْمَدُ يَطْلُبُ الْمَالَ مِنْ أَسَامَةَ فَأَحَالَهُ أَسَامَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: لِي عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ عَشْرَةُ آلَافٍ فَخُذْهَا مِنْهُ وَقَدْ أَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ.. فَيُسْتَحَبُّ لِأَحْمَدَ أَنْ يَقْبَلَ وَأَنْ يَذْهَبَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ... إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَدُ يَعْلَمُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ أَوْ أَنَّهُ يُمَاطِلُ فَلَهُ أَنْ يَرْفُضَ ذَلِكَ وَيَطْلُبَ حَقَّهُ مِنْ أَسَامَةَ. وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: «فَلْيَتَّبِعْ» لِلِاسْتِحْبَابِ.

وَإِذَا مَطَّلَ الْغَنَى فَلَا يَحِلُّ لِلدَّائِنِ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنْ مَتَاعِهِ، بَلْ يَرْفَعُ أَمْرَهُ إِلَى السُّلْطَانِ،.. وَاللَّهُ أَعْلَمُ



(٢٨٥) باب كراهة عودة الإنسان في هبة لم يُسلمها
إلى الموهوب له وفي هبة وهبها لولده وسلمها أو لم
يُسلمها وكراهة شرائه شيئاً تصدق به من الذي
تصدق عليه أو أخرجه عن زكاة أو كفارة ونحوها،
ولا بأس بشرائه من شخص آخر قد انتقل إليه

(١٦٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يعود في هبته كالكلب يرجع في قيئه»^(١).

وفي رواية: «مثل الذي يرجع في صدقته، كمثل الكلب يقيء ثم يعود في قيئه فيأكله».

وفي رواية: «العائد في هبته كالعائد في قيئه».

✽ يعني: الذي يتصدق ويأخذ الصدقة مرة أخرى، ولو عن طريق الشراء، كالكلب يقيء ما في بطنه، ثم يأكل هذا القيء مرة أخرى.

جمهور أهل العلم على أن القيء نجس، خاصة قيء الكلب، ولذلك مثل به النبي (عليه الصلاة والسلام)، ولكن لم يقل: كالرجل مثلاً يعود في قيئه، وإنما قال: (كالكلب)؛ لأن الكلب نجس لعابه... وهذا مذهب جميع الفقهاء، فإذا كان اللعاب نجساً، فكذلك قيئه يكون نجساً.

فإذا وهبت أحداً شيئاً مجاناً على سبيل الهبة فإنه لا يحل لك أن تأخذه مرة أخرى سواء كان قليلاً أو كثيراً وسواء كان الذي وهبته من أقاربك أو من الأبعد.. فلو وهبت أخاك ساعة أو سيارة أو شقة فإنه لا يحل لك أن ترجع في

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٢١، ٢٦٢٢) كتاب الهبة - ومسلم (١٦٢٢) كتاب الهبات.

ذلك.. لأن النبي ﷺ شبه الذي يعود في هبته كالكلب يقىء ثم يعود فيأكله... وكذلك لو وهب الابن لأبيه شيئاً فإنه لا يرجع في ذلك.. كأن تكون غنياً والوالدك فقيراً فأعطيته شقة فلا يجوز لك أن تأخذها منه مرة أخرى.. لكن الوالد لو وهب لابنه شقة أو أى شىء فإنه يجوز له أن يعود في هبته لقول النبي ﷺ: «لَا يَجِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يُعْطِيَ عَطِيَّةً أَوْ يَهَبَ هَبَةً فَيَرْجِعَ فِيهَا إِلَّا الْوَالِدُ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ»^(١) لأن الوالد له الحق أن يأخذ من مال ولده الذي لم يهبه له ما لم يضره.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٢١) وعن عُمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُضَاعَهُ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِيَهُ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «لَا تَشْتَرِهِ وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ وَإِنْ أَعْطَاكَ بِدَرَاهِمٍ، فَإِنَّ الْعَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ»^(٢).

❦ ففي هذا الحديث يخبر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَمَلَ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.. يعنى: أعطى رجلاً فرساً على سبيل التمليك ليجاهد عليه في سبيل الله ويكون ذلك في ميزان حسنات عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«فَأُضَاعَهُ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ» أى: أن مالكة ضيَّع هذا الفرس الذي حملته عليه، بمعنى أنه لم يعتن به ولم يعلفه ولم يكرمه، بل قصَّر في خدمة الفرس من حيث الإطعام... لأن هذا الرجل كان فقيراً قليل المال، حتى أُصيب الفرس بضعف وهزال... ولكنه على أية حال بمجرد أن انتقل من ملك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد تملَّكه هذا الرجل المسلم.

(١) صحيح: رواه أحمد، وأصحاب السنن، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٧٦٥٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩٠) كتاب الزكاة، ومسلم (١٦٢٠) كتاب الهبات.

قوله: «حَمَلْتُ عَلَى فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» معناه: نَصَدَّقْتُ به على بعض المجاهدين.

قال عمر رضي الله عنه: فَأَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِيَهُ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ.

يعنى: غلب على ظنى لقلة مال الرجل أنه فى يومٍ ما لا بد أن يبيعه؛ لأنه ليس له مال، ولا يستطيع أن يقوم على خدمة الفرس.

فوقع فى نفس عمر شراء هذا الفرس مرة أخرى؛ لأنه فرسٌ عتيقٌ جيدٌ سريع. ثم قال: «فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك». لأن الصحابة رضي الله عنهم ما تردد فى أنفسهم شىء يتعلق بالحلال والحرام إلا ويرجعون إلى المرجعية العظمى، وهو النبى ﷺ فى معرفة الحلال والحرام فى جميع شئونهم.

ولما حاك فى نفس عمر رضي الله عنه أن يشتري هذا الفرس لو أراد صاحبه أن يبيعه، ظن أن هذا البيع ربما يكون فاسداً وباطلاً، فذهب إلى النبى ﷺ ليسأله.. فقال له النبى ﷺ: «لَا تَشْتَرِهِ وَلَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ وَإِنْ أَعْطَاكَ بِدَرَاهِمٍ، فَإِنَّ الْعَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ» فالنبى ﷺ سمى شراء الصدقة رجوعاً فيها، حتى ولو كان بعوض.... فما بالك بمن يتصدق ويرجع فى صدقته، أو يتصدق ويؤمن بهذه الصدقة... لا شك أن المَنَّ بالصدقة من الكبائر... ولذلك قال النبى ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم: المنان، والمُسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».

ولهذا قال ﷺ: «العائد فى صدقته كالكلب يقىء ثم يعود فى قَيْئِهِ» فتركه عمر رضي الله عنه... هذا إذا قبض الموهوب له الهبة، أما قبل قبضها فهذا لا يحرم عليه أن يعود، لكن الأفضل أن يقى بوعده... كما لو قال شخصٌ لآخر: سوف أعطيك ساعة مثلاً. ولكنه لم يسلمها له، فله أن يرجع لكن ينبغى أن يقى بوعده، لأن الذى لا يقى بما وعد فيه خصلة من خصال النفاق، ولا يجوز للإنسان أن يتحلى بخصال المنافقين.

(٢٨٦) باب تأكيد تحريم مال اليتيم

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِمِ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢].
وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمُ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية برعاية اليتيم وكفالاته والعناية بشأنه اهتماماً لا يخطر ببال الإنسان، ونال اليتيم من العناية به ما لم ينله أى قريب محتاج من ذوى الرحم المحرم... وكأن الإسلام جند المسلمين جميعاً للقيام بحق اليتامى، والتقرب إلى الله بالعطف عليهم، وتبيل أعظم الدرجات بسبب البذل لهم والقيام بما يحتاجون إليه. من رحمة، وحسن تربية، وإقبال عليهم، والتبسم في وجوههم ومسح رؤوسهم، وتفقد شؤونهم في كل حين، خصوصاً في المناسبات السارة وأيام الأعياد، وذلك ليشعر اليتيم أنه إن كان فقد أباه فقد وجد في الرّحماء آباءً يعطفون عليه ويتولون أمره، فلا تنكسر نفسه ولا يشعر بذلة أو حزن وهو يرى كل ولد يسير بجوار أبيه، ويُقبل بفرح عليه، ويرتمى بين أحضانه.. لأنه وجد له من المسلمين أكثر من واحد يضع معه ذلك.

وكذلك تجد الفتاة أكثر من امرأة تحاول تعويضها عن أمها. وهذا هو نفس المنهج الإسلامى فى إدخال السرور على الجميع، وفى نشر روح السعادة بين أفراد المجتمع، وفى تحقيق أكبر قدر من العناية والرعاية والعطف للضعفاء والمحرومين من الناحيتين: المادية والمعنوية... ولو تمنعت الآيات والأحاديث الواردة فى شأن إكرام اليتيم والعطف عليه لوجدتها تضع اليتيم

الأجنبي بعد الأقرباء في الأهمية، فما بالك باليتيم القريب^(١).

✽ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] يعني لا تتعاملوا في أموال اليتامى إلا بالتي هي أحسن ... فإذا كان أمامك مشروعان تريد أن تشغل مال اليتيم في واحد منهما فانظر أيهما أقرب إلى المصلحة والربح والسلامة فافعل ولا يحل لك أن تفعل ما هو أسوأ لحظ نفسك أو لحظ قريب أو أشبه ذلك بل انظر للذي هو أحسن فإن أشكل عليك هل فيه مصلحة لليتيم أم لا فلا تتصرف في المال بل أمسك الدراهم لأن الله قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإذا أشكل عليك فلا تفعل ... ولا يحل لك أن تقرر أحدًا من مال اليتامى؛ لأنه قد يعجز عن الوفاء ولا مصلحة لليتيم في قرضه وإذا كان لا يجوز أن تقرر غيرة فممن باب أولى أن لا تستقرضه أنت لنفسك.

✽ أخى الحبيب:

إياك أن تأكل مال اليتيم ظلمًا ... فهو وبالٍ ونكالٌ ونار، ولذلك صَوَّرَ القرآن الكريم أكل مال اليتيم بصورة مفزعة مؤلمة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. ولقد هزّت هذه الآية قلوب أصحاب رسول الله ﷺ هزًّا عنيفًا وملأتها بالخوف والرعدة من حين نزولها؛ لأنهم شعروا بأنهم قد وقعوا في حرج شديد.

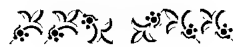
كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية، انطلق كل من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعام اليتيم، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء - أى: يتبقى - من أكل اليتيم، فيحبس له، ولا يأكله أحد حتى يأكله اليتيم، أو يفسد.

فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام / الشيخ حسن أيوب (ص ٢٤٩).

❖ فالاعتداء على مال اليتيم كبيرة من أعظم الكبائر، ولقد بين العلماء صور الاعتداء على أموال اليتيم ... فهي على صور منها:

- (١) الاستيلاء على كل أو بعض أموال اليتيم وحرمانه منها.
- (٢) الخلط بين أموال اليتيم والمتعدى عليه.
- (٣) إحداث مُبادلة بين المالين ... فيعطى اليتيم الرديء ... ويأخذ الجيد الثمين ... ويعطيه المريض ويأخذ الصحيح السليم.
- أو كما قال سعيد بن المسيب رحمته الله: «لَا تُعْطِ مَهْزُولًا، وَتَأْخُذْ سَمِينًا».
- وأساس ذلك كله هو قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا أَلْيَنَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢٠].
- قال القرطبي: لا تبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالشاة الهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالدرهم المزيف ... فقد كانوا في الجاهلية يفعلون ذلك ويقولون: اسمٌ باسم، ورأسٌ برأسٍ، فنهاهم الله عن ذلك.
- (٤) تجاوز الحد المسموح به في الأكل من مال اليتيم، والتي أشار القرآن إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].
- ❖ ومن أجل ذلك جعل النبي ﷺ أكل أموال اليتامى من السبع الموبقات - أى المهلكات -.



(١٦٢٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ!»
 قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَאَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا - ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

«المُوبِقَاتِ»: المهلكات.

❦ قوله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» أى: اتركوا الموبقات جانباً، ولا تلتفتوا إليها، لما فيها من الضرر الكبير لكم... والأمر هنا للوجوب فلا يحل لمسلم أن يرتكب واحدة من هذه الكبائر من الذنوب، وسماها موبقات أى مهلكات؛ لأن مرتكبها يهلك بها فى النار... وبينها ﷺ لهم لما سأله قائلًا: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ»، وهو أن يُعْبَدَ مع الله غيره أيًا كان هذا المعبود، مَلَكًا كان، أو نبيًا، أو وليًا، أو كوكبًا، أو حجرًا، وكيفما كانت هذه العبادة دعاءً، أو ذبحًا له، أو نذرًا، أو حلفًا، أو خوفًا منه.. «وَالسُّحْرُ»، أى سحرُ إنسانٍ لإفساد عقله، أو صرفِ قلبه عَمَّنْ يُحِبُّه، أو إدخالِ ضَرَرٍ على جسمه، «وَقَتْلُ النَّفْسِ»، أى نفس كانت مؤمنة، أو كافرة، صغيرة أو كبيرة، ما عدا نفس الكافر المحارب فإنها مباحة وليست محرمة. وكذلك يجوز قتل النفس قصاصًا ويجوز قتل المرتد والزانى المُحَصَّن بعد أن يشهد عليه أربعة من الرجال أو يعترف هو على نفسه كما قال ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيْبُ الزَّانِي، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(١).. «وَأَكْلُ الرِّبَا»، وهو أن يُقرض دراهم، أو دنائير بزيادة قليلة كانت، أو كبيرة، أو يبيعه شيئين من جنسٍ واحدٍ مع تفاضل بينهما فى الكمية أو العدد... كأن يبيعه قنطارًا من القمح بقنطار وربع مثلاً، أو يبيعه دينار ذهب بدينار وزيادة قلت أو كثرت، «وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ»، مُطلقًا قليلًا، أو كثيرًا ومن أى نوع من أنواع ماله. «وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ»، أى الهروب من صفوف القتال. «وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ» أى العفيفات اللاتى لم يعرفن الفاحشة، ولم تَخْطُرْ ببالهن، لإيمانهن وصلاجهن^(٢).

= التولى يوم الرحف: الهروب من ميدان القتال عند لقاء العدو - القذف: رمى النساء المحصنات المؤمنات بالزنا - المحصنات: العفاف - الغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قُذفن به... والإحصان فى الشرع على خمسة أقسام: العفة، والإسلام، والنكاح، والتزويج، والحرية.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٨٧٨) كتاب الديات - ومسلم (١٦٧٦) كتاب القسامة.

(٢) كتاب المسجد / الشيخ أبو بكر الجزائرى (ص ١١٣) بتصرف.

(٢٨٧) باب تغليظ تحريم الربا

❖ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُغَيِّرُ الصَّدَقَاتِ ﴿٢٧٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٨].

❖ لا بد أن نعلم أن الربا من أكبر الكبائر ومن أعظم الذنوب التي تغضب الله (جلّ وعلا) حتى أنه ﷺ أمر المؤمنين بترك الربا ثم قال لهم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ولم يقل ذلك أبداً في أى ذنب ولا في أى كبيرة من كبائر الذنوب... ومن أجل ذلك ذكره النبي ﷺ من السبع الموبقات - أى المهلكات -.

❖ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(١).

❖ وقد أخبر النبي ﷺ أن انتشار الربا علامة من علامات الساعة الصغرى. عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ يَظْهَرُ الرِّبَا»^(٢).
وفي «الصحيح» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالَى الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ مِنْ حَلَالٍ، أَمْ مِنْ حَرَامٍ»^(٣).

ومن فقه الإمام البخارى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أورد حديث أبى هريرة السابق فى باب

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه الطبرانى فى الأوسط، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٤١٥ / ٢).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٠٨٣) كتاب البيوع.

قول الله ﷻ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]؛ ليُبين أن أكل الأضعاف المضاعفة من الربا يكون بالتوسّع فيه عند عدم مبالاة الناس بطرق جمع المال، وعدم التمييز بين الحلال والحرام.

ولقد حذّر الله ﷻ في القرآن الكريم من الربا تحذيراً شديداً فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

فمن يأكل الربا فهو محاربٌ لله ورسوله ﷺ... ومَن يقدر على حرب الله ورسوله ﷺ!!!

لقد انتشر الربا انتشار النار في الهشيم وُسِّمى بغير اسمه فسُمِّى بالقروض والفوائد والأرباح وشهادات الاستثمار وغيرها من المُسميات التى لا تصرفه عن حقيقته فى أنه هو عين الربا .. وأن مَن يفعل ذلك فهو محاربٌ لله ورسوله ﷺ.

﴿وإن كان هناك من أهل العلم مَن أفتى بجواز تلك المعاملات الربوية فلا يعنى ذلك أن نقع فى تلك الكبيرة؛ لأن تلك الفتوى صادفت هوى فى أنفسنا.﴾

﴿ومع كل هذا فهذا هو النداء يأتينا من عند الله ﷻ من أجل أن نتوب من تلك المعاملات الربوية.﴾

قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وإلا فإن الذى يتعامل بالربا - إن لم يتب - فسوف يَجْنى الحسرات فى الدنيا والآخرة.

❦ فَمَا حَسْرَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ أَكِلَ الرَّبَا، وَمُوكِلَهُ وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبِيهِ وَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ»^(١)، وَقَالَ ﷺ: «دِرْهَمُ رَبَا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ، أَشَدُّ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً»^(٢)، وَقَالَ ﷺ: «الرَّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ أَبَا، أَدْنَاهَا مِثْلُ اثْنَانِ الرَّجُلِ أُمُّهُ، وَإِنَّ أَرَبَى الرَّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ»^(٣).

بَلْ إِنَّهُ إِذَا ظَهَرَ الرِّبَا فِي قَوْمٍ فَقَدْ أَحْلَوْا بَأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

قَالَ ﷺ: «إِذَا ظَهَرَ الزُّنَا وَالرَّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحْلَوْا بَأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ»^(٤).

وَأَمَّا حَسْرَةُ أَكْلِ الرِّبَا فِي الْقَبْرِ فَيَقُولُ ﷺ فِي جُزْءٍ مِنْ حَدِيثٍ طَوِيلٍ: «فَانْطَلَقْنَا، فَاتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - أَحْمَرٌ مِثْلُ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِغٌ يَسْبِغُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِغُ يَسْبِغُ مَا يَسْبِغُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَغْرُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبِغُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَّ فَاهُ فَالْقَمَةُ حَجَرًا».

فَلَمَّا سَأَلَ النَّبِيُّ وَقَالَ: «مَا هَذَا؟». قَالَا: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبِغُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقِمُ الْحَجَرَ، فَإِنَّهُ أَكِلَ الرَّبَا»^(٥). فَهَذَا عَذَابُهُ فِي قَبْرِهِ.

وَأَمَّا عَنْ عَذَابِهِ وَحَسْرَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَدْ قَالَ دُجَلٌ وَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

أَيُّ: أَنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَصْرُوعُ حَالَ صَرْعِهِ وَتَخَبُّطِ الشَّيْطَانِ لَهُ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا. يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَكَلَ الرِّبَا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يَخْنَقُ^(٦).

(١) صحيح: رواه مسلم (١٥٩٨) كتاب البيوع.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٥).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن البراء، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧).

(٤) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٧٩).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٧٠٤٧) كتاب التعبير.

(٦) وأنذرهم يوم الحسرة / الشيخ محمود المصري (ص ١٥١).

(١٦٢٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله»^(١).

زاد الترمذي وغيره: «وشاهديه، وكاتبه».

❁ وفي رواية قال ﷺ: «لعن الله آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه .. هم

فيه سواء».

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله ﻋَزَّوَجَلَّ لعن كل هؤلاء .. واللعن

هو الطرد من رحمة الله .. فدل ذلك على أن الربا من كبائر الذنوب.

آكل الربا هو الذي يأخذ الربا، وليس المقصود بذكر الأكل قصر الانتفاع على

الأكل، بل الحكم واحد ولو استعمله في غير الأكل... كأن يشتري به لباساً أو سيارة

أو بيتاً، ولكنه ذكر الأكل لأنه أغلب وجوه الانتفاع... وقد قال الله في القرآن: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ

سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، فهو من هذا القبيل، ذكر الأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع.

وموكله هو الذي دفعه؛ لأن المعاملة فيها أخذٌ ومُعْطى... فأكله هو الذي

أخذه، وموكله هو الذي دفعه، وكاتبه هو الذي يكتب بين الأكل والموكل،

والشهود هم الذين يشهدون على عقد الربا... فهؤلاء ملعونون أيضاً؛ لأن

مساعدتهم والكتابة لهم والشهادة على أمرٍ مُحْرَم هو من التعاون على الإثم

والعدوان، وكلهم ملعونون على لسان رسول الله ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٨٨) باب تحريم الرياء

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تَعَالَى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال تَعَالَى: ﴿رِئَاءُونَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿الرياء: هو أن يُظهر الإنسان العمل الصالح للآخرين أو يُحسنه عندهم، أو يُظهر عندهم بمظهر الخاشعين المتقين ليمدحوه ويعظم في أنفسهم. فمن أراد وجه الله والرياء معاً فقد أشرك مع الله غيره في هذه العبادة. أما لو عمل العبادة وليس له مقصد في فعلها أصلاً سوى مدح الناس فهذا صاحبه على خطرٍ عظيم.

﴿والرياء له صور عديدة، منها:

- (١) الرياء بالعمل، كمُراءاة المصلى بطول الركوع والسجود.
 - (٢) المُراءاة بالقول، كسر الدلة إظهاراً للغزارة العلم، يُقال: عالم.
 - (٣) المُراءاة بالهيئة والزي، كإبقاء أثر السجود على الجبهة رياءً.
- ولهذا ينبغي للمسلم البعد عن الرياء والحذر من الوقوع فيه.
- ﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

قال الشيخ ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين للإمام النووي (رحمهما الله):

المراد بالرياء هنا: أن يتعبد الإنسان لربه عَزَّ وَجَلَّ ولكن يُحسن العبادة من أجل أن يراه الناس فيقولون: ما أعبدته وما أحسن عبادته وما أشبه ذلك .. فهو يريد من الناس أن يمدحوه في عبادته .. لا يريد أن يتقرب إليهم بالعبادة؛ لأنه لو فعل هذا لكان شرّاً أكبر لكنه يريد أن يمدحوه في عبادة الله، فيقولون: فلان عابد فلان كثير الصوم فلان كثير الصدقة وما أشبه ذلك، فهو لا يُخلص لله في عمله لكن يريد أن يمدحه الناس على ذلك .. فهو يرائي الناس والرياء يسيّره من

الشرك الأصغر، وكثيره من الشرك الأكبر .. ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عَلَى تحريمه بآيات منها قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ يعني: ما أمر الناس إلا بهذا: أن يعبدوا الله مخلصين له الدين يُصلون إخلاصًا لله ويتصدقون إخلاصًا لله ويصومون إخلاصًا لله ويحجُّون إخلاصًا لله ويساعدون الناس إخلاصًا لله ... إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة ... نكون مخلصين لله في ذلك.

﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يأتون بها مستقيمة على الوجه الأكمل ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ يعطونها مستحقها ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أى: دين الملة القيمة... والمخلص لله هُوَ الَّذِي لَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ رِيَاءٌ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ بَعَادَتَهُ وَجْهَ اللَّهِ وَثَوَابَ اللَّهِ وَالْدارَ الْآخِرَةَ^(١).

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ ٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤-٧]، فقد تهدد الله هذا الصنف المرائي بصلاته بالويل وهو الهلاك.

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فالمتصدق الذي يَمْنُ بصدقته عَلَى الْمُتَصَدِّقِ عَلَيْهِ أَوْ يُؤْذِيهِ .. عمله باطل، مثله مثل الذى ينفق رياءً.

﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] فالذى يريد بعمله ثواب الدنيا يُعْطَاهُ إِذَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢). ومصيره فى الآخرة العذاب الشديد؛ لأنه جَرَّدَ قَصْدَهُ إِلَى الدُّنْيَا.

فالآية - كما يقول القرطبي - عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله - كان معه أصل إيمانه أو لم يكن - وهذا قول مجاهد، وميمون بن مهران، وإليه ذهب معاوية^(٣).

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين (١٦٧/٤) بتصرف.

(٢) هذه الآية مُطْلَقَةٌ، وآية الإسراء مُقَيَّدَةٌ لها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

(٣) تفسير القرطبي (١٥/٩) - نقلًا عن (الإخلاص) د. عمر الأشقر.

(١٦٢٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

❁ ومعناه: أنا أغني عن المشاركة وغيرها فمن عمل شيئاً لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير... والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به.

إذا عمل الإنسان عملاً لله ولغير الله تركه الله... لو صلى الإنسان لله وللناس لم يقبل الله صلاته.. ولا يقال إنه يقبل نصفها ويترك نصفها أو يقبلها قبولاً نصفياً بل لا يقبلها أبداً... لو تصدق الإنسان بصدقة يرائي بها الناس فإنها لا تُقبل منه لأن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك... إذا عمل الإنسان عملاً أشرك فيه مع الله غيره فإن الله لا يقبله منه... وفي هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة فإنها لا تقبل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٢٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَن يُقَالَ: جَرِيءٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرفائق.

فَأْتَى بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

❖ فهو لاء الثلاثة لو أخلصوا النية لله (جلّ وعلا) ولم يقعوا في الرياء وحُب الشئ من الناس عليهم لكانوا في أعلى درجات الجنة .. ولكن لما تبدلت نياتهم وفسدت مقاصدهم وأرادوا بأعمالهم الصالحة الشئ من الناس ولم يُريدوا وجه الله تعالى كانوا أول مَنْ تُسَعَّرُ بهم النار يوم القيامة.

❖ ففي هذا الحديث ذكر النبي ﷺ ثلاثة أصناف:

المتعلم والمقاتل والمتصدق .. فأما المتعلم فهو الذي تعلّم العلم وتعلم القرآن وأخذ يُعلم الناس العلم والقرآن ... فلما أتى به يوم القيامة .. فعرفه الله نعمته فعرفها وأقرّ واعترف، فسأله ماذا صنعت؟ يعنى في شكر هذه النعمة، فقال: تعلمت العلم وقرأت القرآن فيك، فقال الله له: كذبت، ولكن تعلمت ليُقَالَ: عالم، وقرأت القرآن ليُقَالَ: قارئ ... ليس لله، بل لأجل الرياء، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه في النار ... وهذا دليل على أنه يجب على طالب العلم في طلب العلم أن يخلص نيته لله ﷻ وألا يبالى أقال الناس أنه عالم أو شيخ أو أستاذ أو مجتهد أو ما أشبه ذلك. لا يهمله هذا الأمر ... لا يهمله إلا رضا الله ﷻ وحفظ الشريعة وتعليمها ورفع الجهل عن نفسه ورفع الجهل عن عباد الله حتى يكتب من الشهداء الذين مرتبتهم بعد مرتبة الصديقين. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وأما مَنْ تعلم لغير ذلك، ليُقَالَ إنه عالم وإنه مجتهد وإنه علامة وما أشبه ذلك من الألقاب فهذا عمله حابط والعياذ بالله، وهو أول مَنْ يُقْضَى عليه

وَيُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ وَيُكَذَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُوْبَخُ.

أما الثاني فهو رجلٌ مُقاتِل، قاتِل في سبيل الله وقُتِل، فلما كان يوم القيامة أُتِيَ به إلى الرب عَزَّ وَجَلَّ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ... يعنى: أنه سبحانه وتعالى أمدّه وأعدّه ورزقه وقوّاه حتى وصل إلى هذه المرتبة إلى أن قاتل، ثم سُئِلَ ماذا صنعت فيها؟ قال: يا رب قاتلت فيك - أى من أجلك - حتى قُتِلت فيقال: كذبت.. بل قاتلت من أجل أن يُقال فلان شجاع جرىء، وقد قيل، ثم أمر به فُسْحِبَ على وجهه في النار والعياذ بالله... فالمقاتلون في سبيل الله لهم نوايا متعددة منهم مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ... وأما مَنْ قاتل وطنية ففي سبيل الطاغوت، ومَنْ قاتل حمية على قومية فهو في سبيل الطاغوت، ومَنْ قاتل لينال دنيا فهو في سبيل الطاغوت... لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٧].

لكن لو قاتل الإنسان، لا من أجل القومية ولا الوطنية، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدى عليه الكفار فهذا في سبيل الله.

أما الثالث فرجل أنعم الله عليه بالمال وصار يتصدق ويعطى وينفق ... فإذا كان يوم القيامة أُتِيَ به إلى الله وعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ثم سأله ماذا صنعت فيها؟ فيقول: تصدقت وفعلت وفعلت... فيقال: كذبت ولكنك فعلت ليُقال فلان جواد يعنى أنه كريم، وقد قيل... ثم أمر به فُسْحِبَ على وجهه في النار... هذا أيضًا من الثلاثة الذين تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة. وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان أن يُخلص النية لله في جميع ما يبذله من مالٍ أو بدنٍ أو علمٍ أو غيره، وأنه إذا فعل شيئاً مما يُبتغى به وجه الله تعالى وصرفه إلى غير ذلك، فإنه آثمٌ به. والله الموفق^(١).

(١) شرح رياض الصالحين/ للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ١٧٠-١٧١).

(١٦٢٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَهُ: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلَاطِينِنَا فَتَقُولُ لَهُمْ بِخِلَافِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١).

❁ وفي رواية: أَنَّهُ دَخَلَ قَوْمٌ عَلَى ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما فَوَقَعُوا فِي يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ رضي الله عنهما فَقَالَ: أَتَقُولُونَ هَذَا فِي وَجْهِهِمْ؟ قَالُوا: بَلْ نَمْدَحُهُمْ وَنُثْنِي عَلَيْهِمْ..
وفي رواية عروة بن الزبير رضي الله عنهما قَالَ: أَتَيْتُ ابْنَ عُمَرَ فَقُلْتُ: إِنَّا نَجْلِسُ إِلَى أَيْمَتِنَا هَؤُلَاءِ فَيَتَكَلَّمُونَ فِي شَيْءٍ نَعْلَمُ أَنَّ الْحَقَّ فِي غَيْرِهِ فَنُصَدِّقُهُمْ، فَقَالَ: كُنَّا نَعُدُّ هَذَا نِفَاقًا، فَلَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ عِنْدَكُمْ.

وذلك لأن الواجب على مَنْ يَدْخُلُ عَلَى الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ وَالْمُلُوكِ أَنْ يَنْصَحَ لَهُمْ وَأَنْ يَذْكُرَ لَهُمُ الْأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَلَا يَدَاهِنَهُمْ وَيَزِينُ لَهُمُ الْبَاطِلَ.. بل يَذْكُرُ لَهُمُ الْحَقَّ وَلَكِنْ بِكُلِّ أَدَبٍ وَبِكُلِّ رَفَقٍ وَرَحْمَةٍ.. وإذا كَانَ هُنَاكَ فُسَادٌ بَيْنَ الرِّعْيَةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَخْبَرَ الرَّاعِيَ بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُصْلِحَ الرَّاعِيَ ذَلِكَ الْفُسَادَ بِكُلِّ رَفَقٍ وَرَحْمَةٍ.. أما النِّفَاقُ وَالْمِدَاهِنَةُ فَهَذَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ سَيَكُونُ عَوْنًا بِذَلِكَ عَلَى انْتِشَارِ الْفُسَادِ وَعَلَى ضِيَاعِ الرِّعْيَةِ وَعَلَى تَضْلِيلِ الرَّاعِيَ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِمَا يَحْدُثُ.. لأنَّ الرَّاعِيَ لَا يَرَى كُلَّ مَا حَوْلَهُ.. فَإِنْ لَمْ يَنْصَحْهُ أَحَدٌ وَيُبَيِّنْ لَهُ مَا يَحْدُثُ فَلَنْ يَعْرِفَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ.. وَلَنْ يَسْتَطِيعَ إِصْلَاحَ مَا فَسَدَ إِلَّا مِنْ خِلَالِ الْبَطَانَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَدُلُّهُ عَلَى الْخَيْرِ.

❁

(١٦٢٧) وَعَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمْعَ اللَّهِ بِهِ، وَمَنْ يُرَآئِي يُرَآئِي اللَّهَ بِهِ» ^(٢).

(١) صحيح: رواه البخاري (٧١٧٨) كتاب الأحكام.

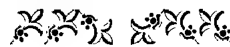
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٤٩٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٩٨٧) كتاب الزهد والرقائق.

«سَمِعَ»، ومعناه: أَظْهَرَ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ رِيَاءً - «سَمِعَ اللَّهُ بِهِ» أَي: فَضَحَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿قوله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ» أَى: أَنْ مَنْ قَالَ قَوْلًا يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِهِ.. وَكَانَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنْ يُسَمِعَ النَّاسَ لِيُثْنُوا عَلَيْهِ وَيَمْدَحُوهُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ مُفَوَّهٌ أَوْ كَثِيرُ الْقِرَاءَةِ أَوْ كَثِيرُ الذِّكْرِ.. فَإِنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ قَدْ سَمِعَ النَّاسُ وَأَرَادَ مِنْهُمْ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ وَمَا فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا رِيَاءً.. فَيَعَامِلُهُ اللَّهُ بِرُؤُوسٍ بَنَاقٍ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ فَيُسَمِعُ النَّاسَ بِهِ وَيَفْضَحُهُ وَيَكْشِفُ أَمْرَهُ لِلنَّاسِ وَيُبَيِّنُ عَيْبَهُ وَيُعْرِفُ النَّاسُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ.. ثُمَّ يَفْضَحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

«وَمَنْ يُرَآئِي يُرَآئِي اللَّهُ بِهِ» أَى: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ وَيُثْنُوا عَلَيْهِ وَيَمْدَحُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ بِرُؤُوسٍ بَنَاقٍ يَعَامِلُهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ فَيُرَآئِي بِهِ وَيَجْعَلُ النَّاسَ يَرَوْنَ عَيْبَهُ وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاءِ.. فَيَفْضَحُهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا.. هَذَا غَيْرُ فَضِيحَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

قال ابن حجر: قال الخطّابى: المعنى مَنْ عَمِلَ عَمَلًا عَلَى غَيْرِ إِخْلَاصٍ، يَرِيدُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ وَيَسْمَعُوهُ جُوزَى عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ يُشَهَّرَ اللَّهُ بِهِ وَيَفْضَحُهُ وَيُظْهِرَ مَا كَانَ يُبْطِنُهُ... وقيل: مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الْجَاهَ وَالْمَنْزِلَةَ عِنْدَ النَّاسِ وَلَمْ يُرِدْ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُهُ حَدِيثًا عِنْدَ النَّاسِ الَّذِينَ أَرَادَ نِيلَ الْمَنْزِلَةَ عِنْدَهُمْ وَلَا ثَوَابَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وقيل: المراد: مَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ أَنْ يَسْمَعَهُ النَّاسُ وَيُرُوهُ لِيُعْظَمُوهُ وَتَعْلُو مَنْزِلَتُهُ عِنْدَهُمْ، حَصَلَ لَهُ مَا قَصَدَ، وَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءَهُ عَلَى عَمَلِهِ، وَلَا يُثَابُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ... وقيل: المعنى: مَنْ سَمِعَ بَعْيُوبَ النَّاسِ وَأَذَاعَهَا أَظْهَرَ اللَّهُ عَيْبَهُ وَسَمَّعَهُ الْمَكْرُوهَ... وقيل غير ذلك^(١).

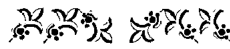


⁼ ومعنى: «مَنْ رَأَى» أَى: مَنْ أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ لِيُعْظَمَ عِنْدَهُمْ «رَأَى اللَّهُ بِهِ» أَى: أَظْهَرَ سَرِيرَتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ.

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٤٤ - ٣٤٥).

(١٦٢٨) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ^(١). - يعنى: ربحها -.

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عَزَّوَجَلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٣٩٩) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.



(١) صحيح: رواه أحمد (٨٢٥٢)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، والحاكم، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح الجامع (٦١٥٩).

(٢٨٩) بَابُ مَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ رِيَاءٌ وَلَيْسَ بِرِيَاءٍ

(١٦٢٩) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ الَّذِي يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»^(١).

❁ ففى هذا الحديث أنه سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».

ولكى تتضح المسألة فأرجو أن تتخيل معى هذا المثال: لو أن رجلاً عمل أعمالاً صالحة وما أراد بذلك إلا وجه الله ﷻ.. ولم ينشغل هل علم الناس أو لم يعلموا.. وهل سمعوه أو رأوه أم لا.. لكنه أخلص النية لله.

وإذا به يجد الناس يحمّدونه ويذكرونه بكل خير ويقولون: فلان رجلٌ صالح يفعل الخير الكثير.. أخلاقه طيبة.. كثير العبادة.. كثير الصدقة.. إلى غير ذلك من كلمات الثناء عليه.. وهو لم يستشرف لذلك ولم ينشغل بكلامهم ولم يغترّ بذلك.. قال ﷺ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».

قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ هَذِهِ الْبُشْرَى الْمُعَجَّلَةُ لَهُ بِالْخَيْرِ وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى رِضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ فَيَحْبِبُهُ إِلَى الْخَلْقِ كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيثِ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ... هَذَا كُلُّهُ إِذَا حَمَدَهُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ مِنْهُ لِحَمْدِهِمْ وَإِلَّا فَالتَّعَرُّضُ مَذْمُومٌ^(٢).

لأن الناس إذا أثنوا على الإنسان خيراً فهم شهداء الله فى أرضه.

ولهذا لما مرّت جنازة من عند النَّبِيِّ ﷺ وأصحابه أثنوا عليها خيراً. قال: «وجبت»، ثم مرّت أخرى فأثنوا عليها شراً قال: «وجبت» فقالوا: يا رسول الله ما

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٤٢) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢٩٠/١٦).

وجبت؟ قال: «أما الأول فوجبت له الجنة، وأما الثاني فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض»^(١)... فهذا معنى قوله: «تلك عاجل بشرى المؤمن».

والفرق بينها وبين الرياء أن هذا الرجل الصالح عمل هذا العمل خالصاً لوجه الله عز وجل ولم يخطر على باله أن يمدحه الناس أو يذموه... وأما المرائى فهو لا يعمل العمل أصلاً إلا لأجل الناس حتى يراه الناس ويمدحوه.. عافانا الله وإياكم من الرياء.



(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٦٧) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٤٩) كتاب الجنائز.

(٢٩٠) باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية

والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية

✽ إن المتأمل لحال كثير من شباب وفتيات المسلمين مع نعمة غض البصر ليبكى الدماء بدل الدموع،... فكثير من الشباب لا يغض بصره عن النساء، وكثير من النساء لا يغضن أبصارهن عن الرجال.

ولعل السبب في ذلك هو ضعف الوازع الديني وعدم استحضار مراقبة الله للعبد.. فالله (جل وعلا) هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ولا يخفى علينا أيضًا أن الانفتاح الذى يعيشه كثير من الناس في هذا الزمان على شبكات الإنترنت والقنوات الفضائية، وما تبثه من الفواحش والرذائل التى تذهب الحياء، وتؤجج نار الشهوة، وتبعد العبد عن طاعة ربه (جل وعلا).. كان سببًا رئيسًا في انتشار ظاهرة عدم غض البصر.

ومما يجدر ذكره أن من أرخى لشهوته العنان، فإن شعار هذه الشهوة لا حد له ولا انقضاء... وإذا كان الشخص الموكع بالدنيا لا يشبع من المال - فلو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب - فكذا الشخص الموكع بشهوة النظر إلى النساء لا يقف عند حد معين ولا يروعى.

يقول الشيخ على الطنطاوى رَحِمَهُ اللهُ: «لو أوتيت مال قارون، وجسد هرقل، وواصلتك عشرة آلاف من أجمل النساء من كل لون وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال، هل تظن أنك تكتفى؟ لا... أقولها بالصوت العالى: لا. أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك.

لا تطلبوا منى الدليل، فحيثما تلفتم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائمًا

ظاهرًا مرئيًا»^(١).

﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾﴾ [النور: ٣٠] فأمر بغض البصر وحفظ الفرج وهذا يدل على أن عدم غض البصر سبب لعدم حفظ الفرج وأن الإنسان إذا أطلق بصره تعلق قلبه بالنساء ثم لا يزال به النظر حتى يدنو من المرأة ويكلمها ويخاطبها ثم يعدها ثم تحصل الفاحشة - والعياذ بالله - ولهذا يُقال: إن النظر يريد الزنا يعنى أنه يدعو إلى الزنا... فأمر الله بغض البصر وقال ﷺ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] خائنة الأعين أى مُسَارِقَتِهَا النظر.. يعنى أن تنظر على وجه الخفاء الذى لا يدركه الناس لكن الله يعلمه فهو يعلم خائنة الأعين ويعلم ﷺ ما تُخْفِي الصدور من النيات الحسنة والنيات السيئة... بل هو يعلم ما تُوسوس به النفس وما يُستقبل للمرء.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فالإنسان مسئول عن السمع ماذا سمع بأذنيه... هل سمع قولاً مُحَرَّمًا أو استمع إلى امرأة أجنبية يتلذذ بصوتها؟.. وكذلك البصر وكذلك الفؤاد... فالواجب على الإنسان حفظ نفسه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾

(١٦٣٠) وعن أبى هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: الْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يُكَذِّبُهُ»^(٢).

(١) فتاوى على الطنطاوى (ص ١٤٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦١٢) كتاب القدر - ومسلم (٢٦٥٧) كتاب القدر.

❁ قوله ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيهِهِ مِنَ الزَّنا» الكتابة هنا كتابة قدرية؛ لأن الكتابة تكون شرعية وتكون قدرية كونية... والكتابة القدرية الكونية هي التي في اللوح المحفوظ... فما كتب الله في اللوح المحفوظ فإنه يقع، وما قدر الله أن يكون فإنه لا بد من أن يكون... أما الكتابة الشرعية فمثل قول الله ﷻ: ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] يعنى: فرضنا وأوجبنا وحكمنا بأن النفس بالنفس، ولكن الكتابة المذكورة في الحديث كتابة قدرية.

والمقصود بقوله: «ابن آدم» فيه أقوال، والذي يظهر أن المقصود بذلك مَنْ كان كُتِبَ عليه ذلك، ولا يعنى أن كل بنى آدم كُتِبَ عليهم ذلك، فإن من عباد الله ومن خلق الله ومن أولياء الله مَنْ يعصمه الله ﷻ من ذلك... فالكتابة ليست على كل أحد، والعموم فيها ليس بمرادٍ على الإطلاق؛ لأن من بنى آدم رسل الله، ومنهم الصديقون، ومنهم أولياء الله ﷻ الذين يتعدون ويحرصون على الابتعاد عن الصغائر فضلاً عن الكبائر، وعلى هذا فيكون المراد بابن آدم مَنْ حصل منه ذلك.... أما مَنْ عصمه الله وَمَنْ وفقه الله فلم يكن من أهل الزنا فإنه لا يحصل منه ذلك، وليس مكتوباً عليه؛ لأن المكتوب لا بد من أن يقع... فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

❁ «العينان زناهما النظر» أى أن الرجل إذا نظر إلى امرأة سواء كان ذلك بشهوة أو بغير شهوة وهى ليست من محارمه فهذا نوعٌ من الزنا وهو زنا العين.

«والأذنان زناهما الاستماع» وإذا جلس رجل يستمع إلى صوت امرأة في المذياع أو أمامه أو من خلال الهاتف ويتلذذ بسماعها فهذا هو زنا الأذن.

«واللسان زناه الكلام» وذلك بأن يتكلم بكلامٍ فاحشٍ يُثير الغرائز ويثير الشهوات الكامنة.

«واليد زناها البطش» وذلك من خلال لمس امرأة لا تحل له وما أشبه ذلك.

«والرجل زناها الخطأ» وذلك بأن يمشى الرجل إلى أماكن الفاحشة أو يرى امرأة فيمشى خلفها أو غير ذلك.

«والقلب يهوى ويتمنى» أى أن القلب قد يهوى ويتعلق بامرأة لا تحل له ويتخيل ويتصور أشياء لا تحل له... فهذا زنا القلب.. بل قد يكون الرجل مع امرأته في الحلال وهو يتخيل نفسه مع امرأة أخرى في الحرام.. فهذا زنا القلب.

«ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» فإذا زنى الفرج - عياداً بالله - فقد صدق زنا الأعضاء كلها... وإن لم يزنى بفرجه بل حفظ نفسه عن ذلك فإن هذا يكون تكديباً لتلك الأعضاء كلها... فالواجب على كل عاقل أن يحذر من فتنة النساء ولا يستشرف لها حتى لا يقع في تلك الفاحشة.. فقد حذرنا النبي ﷺ من ذلك فقال ﷺ: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنَى إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»^(١).

وقال ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢).

بَابُ مَا يَنْهَى عَنْهُ

(١٦٣١) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطَّرِيقَاتِ» قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بدُّ، نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قالوا: وما حقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَدَى، وَارْتِدَاءُ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ»^(٣).

(١٦٣٢) وعن أبي طلحة زيد بن سهل رضي الله عنه قال: كُنَّا قُعُودًا بِالْأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ فِيهَا فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعْدَاتِ؟» فَقُلْنَا: إِنَّمَا قَعَدْنَا لَغَيْرِ مَا بَأْسَ: قَعَدْنَا نَتَذَكَّرُ، وَنَتَحَدَّثُ. قَالَ: «إِمَّا لَا فَاذُّوا حَقَّهَا؛ غَضُّ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٩٦) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٤٠) كتاب الرقاق.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٢٩) كتاب الاستئذان، ومسلم (٢١٢١) كتاب اللباس.

البصر، وردَّ السَّلام، وحُسِّنُ الكلام»^(١).

﴿ سبق شرح هذين الحديثين بفضل الله عزَّ وجلَّ عند شرحنا للحديث رقم (١٩٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم. ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٣٣) وعن جرير رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عَنْ نَظَرِ الفجأة فقال: «اصرفْ بَصْرَكَ»^(٢).

﴿ فيا ترى ما هو نظر الفجأة؟ ﴾

هو أن تنظر أمامك لتبصر الطريق فتقع عينك من غير قصدٍ ولا تعمُدٍ على امرأة فعليك أن تغض بصرك في التوُّ واللحظة.

ولابد أن نعلم أن غض الأبصار مطلوب من الرجال والنساء... وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ثم قال في الآية التي بعدها: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]... فغضُّ البصر مطلوب... فالرجال يغضون الأبصار عن النساء، والنساء يغضضن الأبصار عن الرجال.

وقوله ﷺ: «اصرف بصرك» معناه أن الإنسان إذا وقع بصره على امرأة فجأة من غير اختيار فإنه لا يواصل ويستمر، وإنما عليه أن يصرف بصره ذلك الذي حصل اتفاقاً من غير قصد، وهو معذور فيه... وأما إذا أمعن النظر وداوم واستمر فإن هذا يكون مؤاخذاً عليه ومنهياً عنه.

﴿ قال الإمام النووي رحمته الله:

وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ فِي الْحَالِ فَإِنْ صَرَفَ فِي الْحَالِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

(١) صحيح: زواه مسلم (٢١٦١) كتاب السلام.

«الضُّعْدَاتُ»: أى: الطُّرُقَاتِ.

(٢) صحيح: زواه مسلم (٢١٥٩) كتاب الآداب.

وَإِنْ اسْتَدَامَ النَّظَرُ أَثِمَ.

وَيَجِبُ عَلَى الرَّجَالِ غَضُّ الْبَصَرِ عَنِ النِّسَاءِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ إِلَّا لِعَرَضٍ صَحِيحٍ شَرْعِيٍّ وَهُوَ حَالَةُ الشَّهَادَةِ وَالْمُدَاوَاةِ وَإِرَادَةُ خِطْبَتِهَا أَوْ شِرَاءِ الْجَارِيَةِ أَوْ الْمُعَامَلَةِ بِالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَغَيْرِهِمَا وَنَحْوِ ذَلِكَ .. وَإِنَّمَا يُبَاحُ فِي جَمِيعِ هَذَا قَدْرُ الْحَاجَةِ دُونَ مَا زَادَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٣٤) وعن أم سلمة رضي الله عنها، قالت: كنتُ عندَ رسولِ الله ﷺ وعندهُ مَيْمُونَةُ، فَأَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «احتَجِبَا مِنْهُ» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى! لَا يُبْصِرُنَا، وَلَا يَعْرِفُنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَفَعَمِيَاوَانِ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ؟»^(٢).

✽ وللأمانة العلمية ... فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٣٥) وعن أبي سعيد رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلَا يُفْضَى الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلَا تُفْضَى الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ »^(٣).

✽ وهذا الحديث فيه النهي عن نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة... بل يجب على الرجل أن يستر عورته، ولا يجوز له أن يكشف عورته، ولا أن يجعل أحداً ينظر إلى عورته، وكذلك المرأة.

وفيه النهي عن إفضاء الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، بمعنى: أن يمس جسده جسد غيره بدون ثوبٍ أو حائل، كأن يضطجعا ولا يكون بينهما حائل.

(١) مسلم بشرح النووي (١٤/١٩٧).

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وضعفه الألباني في المشكاة (٣١١٦).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٣٨) كتاب الحيض.

قوله: «لا يُفْضَى الرجل إلى الرجل» يعنى: أنه يمس اللحم اللحم من دون ثوبٍ أو حائل؛ فيكون مدعاة إلى تحرك الشهوة... وكذلك كون المرأة تضطجع بجانب المرأة ويمس لحمها لحمها بدون حائل أو ثوب.

والنهي هنا يفيد التحريم، فلا يجوز للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل، ولا المرأة أن تنظر إلى عورة المرأة؛ لأن هذا من أسباب الشر وتحرك الشهوة.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: فِيهِ تَحْرِيمُ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ... وَهَذَا لِاخْتِلَافٍ فِيهِ وَكَذَلِكَ نَظَرُ الرَّجُلِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ... وَنَبَّهَ اللهُ بِنَظَرِ الرَّجُلِ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ عَلَى نَظَرِهِ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ وَذَلِكَ بِالتَّحْرِيمِ أَوَّلَى... وَهَذَا التَّحْرِيمُ فِي حَقِّ غَيْرِ الْأَزْوَاجِ وَالسَّادَةِ أَمَّا الزَّوْجَانِ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا النَّظَرُ إِلَى عَوْرَةِ صَاحِبِهِ... وَأَمَّا ضَبْطُ الْعَوْرَةِ فِي حَقِّ الْأَجَانِبِ فَعَوْرَةُ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ وَكَذَلِكَ الْمَرْأَةُ مَعَ الْمَرْأَةِ^(١).



(١) مسلم بشرح النووي (٤/٤١-٤٢) بتصرف.

(٢٩١) باب تحريم الخلوة بالأجنبية

✽ المرأة الأجنبية هي التي ليست لك بمحرم وتكون الخلوة بها حرام مثل بنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة وسائر النساء اللاتي يجوز لك أن تتزوجهن سواء كانت من أقاربك أو من غير أقاربك.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

يعنى لا تدخلوا عليهن واسألوهن من وراء حجاب حتى لا تحصل خلوة محرمة.

﴿ذَلِكَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ لأنه أبعد عن الريبة. وكلما بُعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأطهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي يبين الله كثيراً من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها، بكل طريق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٣٦) وعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالِدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: «الْحَمُو الْمَوْتُ»^(٢).

(١٦٣٧) وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَخْلُونَ أَحَدُكُمْ بِأَمْرَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ»^(٣).

والحمو: هو قريب الزوج الذي لا يحل للمرأة... فبين النبي ﷺ أنه يُفسد الحياة الزوجية كما يفسد الموت البدن.

(١) تفسير السعدى (ص ٧٨٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٣٢) كتاب النكاح، ومسلم (٢١٧٢) كتاب السلام.

«الْحَمُو» قَرِيبُ الزَّوْجِ كَأَخِيهِ، وَابْنُ أَخِيهِ، وَابْنُ عَمِّهِ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٣٣) كتاب النكاح - ومسلم (١٣٤١) كتاب الحج.

- ❖ فلا يحل لشخص بعد هذه النصوص أن يخلو بامرأة لا تحل له.
- ❖ فلا يحل لقريب الزوج كأخيه وابن عمه أن يأتي إلى البيت في غياب الزوج ويخلو بالزوجة.
- ❖ ولا يحل لصديق الزوج أن يأتي إلى المنزل في غياب الزوج ويخلو بالزوجة... ولا يحل له أن يخلو بها في حضور الزوج في البيت ويُغلق على الأجنبي مع الزوجة باب.
- ❖ لا يحل لمدرس أن يخلو بفتاة يُعلمها، ولا أن يُغلق عليهما باب، فهذا بابٌ عظيم من أبواب البلاء.
- ❖ وكذلك لا يحل لمُحفظ قرآن أن يخلو بامرأة يعلمها القرآن.
- ❖ وكذلك لا يحل لمعالج يعالج بالقرآن أن يخلو بامرأة يعالجها.
- ❖ ولا يحل لطبيب أن يخلو بمریضة ولا بمریضة.
- ❖ وقبيح - أيما قُبِحَ - أمر صيدلى يستأجر فتاة للعمل معه حيث هناك مكان يخلو بها فيه.
- ❖ وكذلك لا يحل - ثم لا يحل - لمدير أن يخلو بسكرتيرة، ولا أن يُغلق عليهما باب... فالشيطان ثالث هؤلاء.
- ❖ ولا يحل كذلك لخاطب أن يخلو بمخطوبته، فهو لا يزال رجلاً أجنبياً عنها.
- ❖ كذلك لا يحل لرجل أن يخلو بالخادمة التي تخدم في بيته، فليست هي من محارمه.
- ❖ ولا يحل لسائق أن يخلو بامرأة مَن يعمل عنده فهو رجل أجنبي كذلك^(١).

(١) «ولا تقربوا الزنا» / الشيخ مصطفى العدوى (ص: ٦٩، ٧١) بتصرف.

❁ ومن المعلوم أن دخول أقارب الزوج بيته أخطر من دخول الأجانب.. لأن هؤلاء يدخلون في أى وقتٍ فلا يستنكر أحدٌ دخولهم.. ولذا فإنه قد تحدث الخيانة من جانبهم دون أن يفطن الزوج لذلك لأنه لا يتخيل أبداً أن أخاه يفعل ذلك بزوجه أو أن أحد أقاربه قد يفعل ذلك... ولذا فإنه لا يجوز أبداً أن يُمكن الزوج أخاه أو أحد أقاربه من دخول بيته في غيابه فإن هذا لا يجوز أبداً.. فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق.. وما خلا رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.. ودرء المفسد مُقدّم على جلب المنافع.... فربما يحدث شيء - عياداً بالله - فيكون في ذلك تدمير الأسرة والعائلة كلها... وقد حذرنا النبي ﷺ من ذلك.. فلنستمع إلى نصيحته ﷺ ولنعمل بها.. ففيها الخير كل الخير.. وفيها حماية بيوتنا وأعراضنا من الضياع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٣٨) وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَهَاتِهِمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ إِلَّا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ حَتَّى يَرْضَى» ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا ظَنُّكُمْ؟»^(١).

❁ والمجاهدون هم الذين يخرجون في سبيل الله، وَيَخْلُفُهُمُ النَّاسُ فِي أَهْلِهِمْ فَحَرَمَتُهُمْ شَأْنُهَا عَظِيمٌ.. وذلك أن النبي ﷺ جعل حُرْمَةَ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ الَّذِينَ يَخْلَفُونَهُمْ فِي أَهْلِهِمْ كَحُرْمَةِ أُمَهَاتِهِمْ... ومعنى هذا أنهم لا بد أن يحذروا من أن يقعوا في أمورٍ لا تنبغي... كما أن الإنسان يرى ذلك في حق أمه... وكذلك عليه أن يرى ذلك في حق أهل الغازی الذين خلفه فيهم. وهذا فيه بيان تعظيم شأن المحافظة على مَنْ استوصوا عليهم، فإن

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٩٧) كتاب الإمارة.

المجاهدين أو صوا الباقيين على أن يقوموا بما يلزم لأهلهم... فبين النبي ﷺ أن على الإنسان أن يقوم بما يجب لهم ولا يخونه فيهم.. لا بأن ينظر أو يحاول أن يقع في أمرٍ مُحَرَّم، ولا في أن يُقصر فيما هو مطلوب منه من الرعاية والعناية وإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم.

❁ فمن حَفِظَ المجاهد في أهله فسوف يجزل الله ﷻ لَهُ الأجر والمثوبة.. فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»^(١).

فما أجمل هذا وما أروع! أن تُعَدَّ خلافة الغازي بخيرٍ في أهله وماله ضربًا من الغزو، ومشاركة في الجهاد... فهذا يقاتل العدو، وهذا يحفظ له أهله وولده.

❁ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَوْلُهُ ﷺ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ» هَذَا فِي شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا تَحْرِيمُ التَّعَرُّضِ لَهُنَّ بِرَبِيبَةٍ مِنْ نَظَرٍ مُحَرَّمٍ وَخُلُوةٍ وَحَدِيثٍ مُحَرَّمٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ... وَالثَّانِي فِي بَرِّهِنَّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِنَّ الَّتِي لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مَفْسَدَةٌ وَلَا يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى رِيبَةٍ وَنَحْوِهَا^(٢).

أَمَّا مَنْ خَانَ الْمُجَاهِدَ فِي أَهْلِهِ، فَقَدْ ارْتَكَبَ إِثْمًا عَظِيمًا، وَيُضَاعَفُ الْوُزْرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَعْصِيَةَ يَتَضَاعَفُ إِثْمُهَا بِمَا يُصَاحِبُهَا مِنْ مُلَابَسَاتٍ... فَالزَّانِي بِأَمْرَةِ الْمُجَاهِدِ، أَوْ بِحُلِيلَةِ الْجَارِ أَعْظَمُ عَقُوبَةٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الزَّانِي بِأَمْرَةِ عَادِيَةٍ.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ فِي الَّذِي يَخُونُ الْمُجَاهِدَ فِي أَهْلِهِ: «إِنَّ الْمُجَاهِدَ يَأْخُذُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ فَمَا ظَنُّكُمْ» مَعْنَاهُ مَا تَظُنُّونَ فِي رَغْبَتِهِ فِي أَخْذِ حَسَنَاتِهِ وَالْإِسْتِكْثَارِ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ... أَيْ لَا يُبْقَى مِنْهَا شَيْئًا إِنْ أَمَكْنَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٤٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٨٩٥) كتاب الإمارة.

(٢، ٣) مسلم بشرح النووي (١٣/٦٣).

قال أبو عبد الله الحلبي مُعلِّقاً على هذا الحديث: هذا - والله أعلم - لعِظَمِ حَقِّ الْمُجَاهِدِ عَلَى الْقَاعِدِ، فَإِنَّهُ نَابَ عَنْهُ، وَأَسْقَطَ بِجِهَادِهِ فِرَاقَ الْخُرُوجِ عَنْهُ، وَوَقَاهُ مَعَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، وَجَعَلَ نَفْسَهُ حِصَانًا لَهُ، وَجُنَّةً دُونَهُ.. فَكَانَتْ خِيَانَتُهُ لَهُ فِي أَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ خِيَانَةِ الْجَارِ فِي أَهْلِهِ، كَمَا يَكُونُ خِيَانَةُ الْجَارِ أَعْظَمَ مِنْ خِيَانَةِ الْبَعِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

وقد جاء في حديث المقداد، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَلَا يَزْنِي الرَّجُلُ بَعْشَرَ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِأَمْرَأَةٍ جَارِهِ»^(٢).

فانظر كيف جعل الحديث حُرْمَةَ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ كَحُرْمَةِ الْأُمَهَاتِ، وَهَذَا يَتِمَثَّلُ فِي أَمْرَيْنِ:

الأول: فِي بَرِّهِنَ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ، وَقِضَاءِ حَوَائِجِهِنَّ.

والثاني: فِي تَحْرِيمِ التَّعَرُّضِ لَهُنَّ بِرَبِيبَةٍ مِنْ خَلْوَةٍ أَوْ نَظَرٍ بِشَهْوَةٍ، أَوْ حَدِيثٍ مُحْظُورٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ مَنْ زَنَى بِأَمْرَأَةِ الْمُجَاهِدِ فَكَأَنَّمَا زَنَى بِأُمِّهِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو مَرْفُوعًا: «مَثَلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى فَرَاشِ الْمُغَيَّبَةِ، مَثَلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ أَسْوَدُ (أَيَّ حَيَّةٍ) مِنْ أَسَاوِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٣). وَالْمُغَيَّبَةُ: الَّتِي غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَلَا سِيَّمَا فِي الْجِهَادِ.

وَبِهَذَا يَحْيَا الْمُجَاهِدُ فِي جِهَادِهِ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وَاثِقًا بِأَنَّ مِنْ وَرَائِهِ مَجْتَمَعًا أَمِينًا عَلَى مَنْ خَلَفَهُ وَمَا خَلَفَهُ... وَهَذَا لَهُ أَثَرُهُ وَأَهْمِيَّتُهُ فِي بَقَاءِ (الرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ) فِي الْجَيْشِ الْمُسْلِمِ قَوِيَّةً وَثَابِتَةً، لَا يَعْتَرِيهَا وَهْنٌ وَلَا خَوَرٌ^(٤).

(١) نقله ابن النحاس في مشارع الأشواق (١/٣٠٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٤٣).

(٣) حسن: رواه الطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٠٥).

(٤) فقه الجهاد/ د. يوسف القرضاوى (١/٦٦٣-٦٦٤) بتصرف.

(٢٩٢) بَابُ تَحْرِيمِ تَشْبِهِ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ

وَتَشْبِهِ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ فِي لِبَاسٍ وَحَرَكَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ

(١٦٣٩) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجِّلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

وفي رواية: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ ^(١).

(١٦٤٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ» ^(٢).

❁ وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الذكور والإناث وجعل لكل منهما مزية... فالرجال يختلفون عن النساء في الخلقة والخلق والقوة والدين وغير ذلك.. والنساء كذلك يختلفن عن الرجال فمن حاول أن يجعل الرجال مثل النساء أو أن يجعل النساء مثل الرجال فقد حادَّ الله في قدره وشرعه... لأن الله سبحانه وتعالى له حكمة فيما خلق وشرع... ولهذا جاءت النصوص بالوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله لتشبه الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل.

فمن تشبه بالنساء فهو ملعون على لسان النبي ﷺ وَمَنْ تشبهت بالرجال فهي ملعونة على لسان النبي ﷺ... كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَعَنَ الْمُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَفِي لَفْظِ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ... وهؤلاء هم

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٨٨٥، ٥٨٨٦) كتاب اللباس.

المخنث: الذي يشبه بالنساء في الحركة والكلام واللباس فهو المؤنث من الرجال.
المترجلات: اللاتي كالرجال تشبيهاً... قال الطبري: المعنى أنه لا يجوز للرجال التشبه بالنساء في لبس أو زينة مختصات بهن ولا العكس.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٤٥٤).

المُخْشَوْنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ... وَلَعَنَ الْمُرْجَلَاتِ مِنَ النِّسَاءِ يَعْنِي الْمُتَشَبِّهَاتِ بِالرِّجَالِ... وَاللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ... فَإِذَا تَشَبَّهَ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ فِي لِبَاسِهِ وَلَا سِيمَا إِذَا كَانَ لِبَاسًا مُحَرَّمًا كَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ أَوْ تَشَبَّهَ بِالْمَرْأَةِ فِي كَلَامِهَا وَصَارَ يَغِيرُ لِسَانَهُ فِي الْكَلَامِ حَتَّى كَأَنَّمَا تَتَكَلَّمُ امْرَأَةٌ.. أَوْ تَشَبَّهَ بِالْمَرْأَةِ فِي مَشْيِهَا أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْمَرْأَةِ فَإِنَّهُ مَلْعُونٌ عَلَى لِسَانِ أَشْرَفِ الْخَلْقِ ﷺ.. فَالْمُتَشَبِّهُ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ مَلْعُونٌ كَذَلِكَ الْمَرْأَةُ إِذَا تَشَبَّهَتْ بِالرِّجَالِ فَهِيَ مَلْعُونَةٌ.

بَابُ مَنْ لَعِنَ اللَّهُ

(١٦٤١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطُ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»^(١).

❖ قَوْلُهُ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا» أَيُّ أَنَّ هَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ يَكُونَا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا مِنَ أَهْلِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ.. فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يُخْلَدُ مُوَحَّدٌ فِي النَّارِ.... وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ.. إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ... وَهَذَا فِي حَقِّ النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ..

أَمَّا الَّذِينَ يَضْرِبُونَ النَّاسَ فَقَدْ ارْتَكَبُوا مَظَالِمَ لَا تُغْفَرُ إِلَّا بِالْعَفْوِ مِنْ أَصْحَابِ الْمَظَالِمِ أَوْ الْقِصَاصِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

❖ قَوْلُهُ ﷺ: «قَوْمٌ مَعَهُمْ سَيَاطُ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ».

وَلَا يَلْزَمُ أَنَّ هَذِهِ السَّيَاطُ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، الْمَهْمُ أَنَّهَا كُنَايَةٌ عَنْ ظُلْمِ الْعِبَادِ.

قَوْلُهُ: «يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ».

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٢٨) كتاب اللباس والزينة.

أى: بغير حُجة ولا برهان ولا ذنبٍ اقترفوه... ولذلك يقول الإمام النووى: (هذا الحديث من معجزات النبوة، فقد وقع ما أخبر به ﷺ... فأما أصحاب السياط فهم غلمان والى الشرطة).

هؤلاء الظلمة الذين يضربون الناس ويعذبون الناس بغير ذنبٍ ارتكبوه، ولا جريرة اقترفوها.

❁ قال: «ونساء كاسيات عاريات مائلات مُميلات، رءوسهن كأسنمة البُخت المائلة»... والبُخت هى الإبل.

❁ قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ:

هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجَزَاتِ النَّبُوَّةِ فَقَدْ وَقَعَ هَذَانِ الصَّنْفَانِ وَهُمَا مَوْجُودَانِ وَفِيهِ ذَمٌّ هَذَيْنِ الصَّنْفَيْنِ .. قِيلَ: مَعْنَاهُ كَاسِيَاتٌ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَارِيَاتٌ مِنْ شُكْرِهَا وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَسْتُرُ بَعْضُ بَدَنِهَا وَتَكْشِيفُ بَعْضُهُ إِظْهَارًا بِحَالِهَا وَنَحْوِهِ... وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَلَبُّسُ ثَوْبًا رَقِيقًا يَصِفُ لَوْنَ بَدَنِهَا ... وَأَمَّا مَائِلَاتٌ فَقِيلَ: مَعْنَاهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمَا يَلْزُمُهُنَّ حِفْظُهُ ... مُمِيلَاتٌ أَيْ يُعَلِّمْنَ غَيْرَهُنَّ فِعْلَهُنَّ الْمَذْمُومَ ... وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَمْشِينَ مُتَبَخِّرَاتٍ مُمِيلَاتٍ لِأَكْتَاْفِهِنَّ ... وَقِيلَ: مَائِلَاتٌ يَمْشُطْنَ الْمِشْطَةَ الْمَائِلَةَ وَهِيَ مِشْطَةُ الْبَغَايَا مُمِيلَاتٌ يَمْشُطْنَ غَيْرَهُنَّ تِلْكَ الْمِشْطَةُ^(١).

وقيل: مائلات إلى الرجال، مميلات لهم بما يُبدين من زينتهن وغيرها.

وأما قوله: «رءوسهن كأسنمة البخت» فمعناه: يُعظمْنَ رءوسهن بالخمر والعمائم... يعنى: المرأة تضع عمامة على رأسها، والعمامة هى كل ما يُعْمُ الرأس عند الرجل والمرأة كالخمار تمامًا... فهن يُعممن رءوسهن بالخمر والعمائم مما يُلَف على الرأس حتى تُشبه أسنمة الإبل، وهذا هو المشهور فى التمثيل.

ويجوز أن يكون معناه: يطمحن إلى الرجال ولا يغضضن أبصارهن عنهم،

ولا يُنكس رءوسهن.

❖ قال: «لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها».

والحكم النهائي أن هذين الصنفين لا يدخلان الجنة مع أول الداخلين، ولا يُشمان رائحتها.

قال: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»، وفي رواية: «من مسيرة خمسمائة عام».

❖ فيا ليتنا نحافظ على نسائنا وأن نحفظهن عن أعين الرجال بالحجاب الشرعي.. فسوف نُسأل عن هذه الأمانة بين يدي الله ﷻ.. فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [٦] [التحریم: ٦].

وقال ﷺ: «كلکم راعٍ وكلکم مسئول عن رعيته...».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٩٣) باب النهى عن التشبه بالشیطان والكفار

❖ لا بد أن نعلم أولاً أن الشيطان هو رأس الكفر .. فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. والكفار من بنى آدم هم أعداء الله وأولياء الشيطان.. كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ولما طُرد إبليس من رحمة الله (جل وعلا) ولعنه الله إلى يوم الدين قام إبليس وأعلن عداؤه لبنى آدم وطلب من الله ﷻ أن ينظر إلى يوم يُعْثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَبْنَاهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٤، ١٧].

فلا يجوز بحالٍ من الأحوال أن نتشبه بالعدو الأكبر الذى يكيد لنا المكائد فى كل لحظة ولا يفتّر أبداً عن عداوته وإيذائه لنا.

❖ وإذا كان الشرع قد حرم علينا أن نتشبه بالكفار فى أعمالهم وأقوالهم ولباسهم وحياتهم.. فمن باب أولى ألا نتشبه بالشيطان.

وإن كان الشيطان من عالم الغيب فلا نعلم عن أعماله وأحواله إلا ما أخبرنا به النبى ﷺ .. فقد أخبرنا النبى ﷺ أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٤٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَأْكُلُوا بِالشِّمَالِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِالشِّمَالِ»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٩) كتاب الأشربة.

(١٦٤٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأكلَنَّ أحدُكم بِشماله، ولا يشربَنَّ بها، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا»^(١).

❦ ففي هذين الحديثين ينهى النبي ﷺ أن نأكل بالشمال أو أن نشرب بالشمال لأن مَنْ فعل ذلك فقد تشبَّه بالشیطان وتشبَّه بالكفار.. فالشیطان يأكل بشماله ويشرب بشماله.. وقد نُهيْنَا عن اتباعه كما قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ومن العجب العجائب أن بعض الناس إذا كان يأكل مع عليّة القوم فإنه يأكل بشماله ويشرب بشماله لأنه يخشى أن يسخروا منه ... لأنه إذا أكل يمينه فقد خالف (الإيتيكيّت).. فأيهما أُولَى بالاتباع: النبي ﷺ أم الإيتيكيّت؟!

كُنْ عزيزاً.. وإذا وُجِدَتْ في مثل هذه الأماكن فكل يمينك وقل لهم: هذه هي سُنّة النبي ﷺ ومَنْ أكل بشماله فقد تشبَّه بالشیطان.. واذكر لهم الأحاديث ولا تستح من الحق.. ولكن اذكر لهم الحق بأدبٍ وبرفقٍ ورحمة.

❦ فالشاهد أنه لا يجوز أن يأكل المسلم بشماله أو يشرب بشماله إلا لضرورة.. كأن تكون يده اليمنى مقطوعة أو شلّاء أو مجروحة أو مكسورة أو ليس له أصابع وما أشبه ذلك... ولا ينبغي أن يعطى أو يأخذ بشماله إلا لضرورة كأن تكون يده اليمنى مشغولة.. كأن يكون قد حمل في يده اليمنى شيئاً ثقيلاً ولا يستطيع أن ينقله إلى يده اليسرى.... فخير الهدى هدى محمد ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٤٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبِغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ»^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠٢٠) كتاب الأشربة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٦٢) كتاب أحاديث الأنبياء - مسلم (٢١٠٣) كتاب اللباس والزينة.

والمراد هنا: خضاب شعر اللحية والرأس الأبيض بصفرة أو حمرة.. وأما السواد فمَنْهَى عنه.

❖ قوله ﷺ: «إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى» أى: أهل الكتاب «لَا يَصْبِغُونَ» أى: لا يُخَضِّبُونَ شعرهم ولا لِحَاهُمْ «فَخَالِفُوهُمْ» أى: خَضِّبُوا شعركم وَلِحَاكُمْ بِالصُّفْرَةِ أَوْ الْحُمْرَةِ وَتَجَنَّبُوا السَّوَادَ.. فلا يجوز أن تُخَضَّبَ باللون الأسود إلا في الجهاد من أجل إرهاب العدو ليشعر أن كل الذين يقاتلونه في عُمُر الشَّباب.

❖ والمقصود هنا أن يتميز المسلم عن غيره من أهل الكتاب في كل شيء حتى خضاب شعر الرأس واللحية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

= المُرَادُ: خَضَابُ شَعْرِ اللَّحْيَةِ وَالرَّأْسِ الْأَبْيَضِ بِصُفْرَةٍ أَوْ حُمْرَةٍ، وَأَمَّا السَّوَادُ فَمَنْهَى عَنْهُ كَمَا سَنَذْكُرُ فِي الْبَابِ بَعْدَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

باب نهى الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد

(١٦٤٥) عن جابر رضي الله عنه قال: أتى بأبي قحافة والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة بيضا، فقال رسول الله ﷺ: «غَيِّرُوا هَذَا، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث أنه جاء أبو بكر الصديق بأبيه رضي الله عنه يوم فتح مكة ليُسَلِّمَ. فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ فِيهِ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ أَنْتَ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ مَسَحَ صَدْرَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَسْلِمَ» فَأَسْلَمَ، وَدَخَلَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَأْسُهُ كَأَنَّهُ ثَغَامَةٌ^(٢)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غَيِّرُوا هَذَا، وَاجْتَنِبُوا السَّوَادَ»... ففي هذا دليل على أن الأفضل أن المسلم يغير الشيب إما باللون الأصفر كالحناء.. أو بالأصفر الممزوج بالكتم.. فإذا مُزِجَ الأصفر بالكتم - وهو أسود - ظهر اللون البُنِّي.. فيستطيع بذلك أن يصبغ باللون البُنِّي أو الأصفر.. كما أمر بذلك النبي ﷺ.

والعجيب أن بعض الناس في هذا الزمان يُنكرون على مَنْ يُخضب شعره ولحيته باللون البُنِّي ولا يعرفون أن النبي ﷺ هو الذي أمر بذلك.. وليس على سبيل الوجوب ولكنه على سبيل الاستحباب.. وإلا لكان يَأْثَمُ مَنْ لَمْ يَخْضِبْ شعره ولحيته.. ولكن كل إنسان يفعل ذلك على حسب استطاعته.. فمن استطاع أن يُخضب فقد وافق السُّنة.. وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ لانشغاله أو لعدم قدرته فلا تُنكر عليه.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٠٢) كتاب اللباس والزينة.

(٢) ثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر يشبه الشيب.

(٢٩٥) بَابُ النِّهْيِ عَنِ الْقَزَعِ

وهو حلق بعض الرأس دون بعض

وإباحة حلقه كله للرجل دون المرأة

(١٦٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقَزَعِ ^(١).(١٦٤٧) وعنه قال: رأى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبِيًّا قَدْ حُلِقَ بَعْضُ شَعْرِ رَأْسِهِ وَتُرِكَ بَعْضُهُ، فَنَهَاهُمْ عَنِ ذَلِكَ، وَقَالَ: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ أَوْ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ» ^(٢).(١٦٤٨) وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَهَلَ آلَ جَعْفَرٍ رضي الله عنه ثَلَاثًا، ثُمَّ أَنَاهُمْ فَقَالَ: «لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ» ثُمَّ قَالَ: «ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي» فَجِئَءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ فَقَالَ: «ادْعُوا لِي الْحَلَّاقَ» فَأَمَرَهُ، فَحَلَقَ رُءُوسَنَا ^(٣).❁ ففى تلك الأحاديث نهى النبي ﷺ عن القزع .. وهو حلق بعض الرأس وترك بعضه .. وهو ما يُسمَّى عندنا فى مصر (حَلَقَة كَابُورِيَا) .. وسواء كان ذلك من جانبٍ واحدٍ أو من كل الجوانب .. أو من فوقٍ أو من الورا .. فأمر النبي ﷺ أن يحلق المسلم رأسه كله أو يُقصره كله أو يتركه كله .. لكن لا يأخذ شيئاً من بعضه ويترك بعضه.❁ ثم ذكر المصنف رحمته الله حديث أولاد جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه الذى استشهد فى سرية مؤتة بعد أن قُطِعَ ذراعاه فأبدله الله بدلاً منها بجناحين يطير بهما

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٢١) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٠) كتاب اللباس والزينة.

القزع: حلق بعض شعر الرأس وترك بعضه.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢١٢) - وأصله عند مسلم.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٣٥٣٢).

كأنا أفرخ: جمع فرخ وهو ولد الطائر... وذلك لما اعتراهم من الحزن على فقده.

في الجنة مع الملائكة.....

فأمهلهم النبي ﷺ ثلاثة أيام من أجل تطيب نفوسهم وذهاب الحزن من قلوبهم ثم ذهب إليهم ونهاهم أن يبكوا علي جعفر وقال لهم: «لا تَبْكُوا علي أخي بعد اليوم» ثم طلب منهم أن يأتوا بأولاد جعفر وقال: «ادْعُوا لي الحلاق» فجيء بالحلاق وطلب منه النبي ﷺ أن يحلق رؤوسهم حتى لا تتسخ.. لأن الصبيان تتسخ رؤوسهم وأبدانهم من كثرة اللعب والحركة... أما الإناث فإن النبي ﷺ نهى أن تحلق المرأة شعرها.. ولهذا فإنه إذا وُلِدَ المولود فإنه يُحلق رأسه في اليوم السابع مع العقيقة إذا كان ذكراً.. أما الأنثى فلا يُحلق شعر رأسها. ❀ وفي هذه الأحاديث دليل على أن اتخاذ الشعر وإطالته ليس من السنة.. بل هو عادة من العادات.. ولو كان سنة لقال النبي ﷺ اتركوا شعره ولا تحلقوه... فإن كنت في بلد قد اعتاد الناس فيه على اتخاذ الشعر فاتخذته لئلا تشذ عنهم.. وإن كانوا لا يتخذونه - كما هو معروف الآن - فلا تتخذه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٤٩) وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها^(١).

❀ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ضعيف: رواه الترمذي، والنسائي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٩٩٨).

(٢٩٦) باب تحريم وصل الشعر والوشم

والوشر وهو تحديد الأسنان

❦ قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا هُمْ يَضِلُّونَ وَلَا أَتَمْنِيَنَّ لَهُمْ تَحِيَّةً فَهُمْ خَلَقَ اللَّهُ ۝١١٩﴾

[النساء: ١١٧ - ١١٩]

ففي تلك الآيات أقسم الشيطان على إغواء بني آدم حتى يصل الأمر إلى أنه قال: ﴿وَلَا أَمْنِيَنَّ لَهُمْ تَحِيَّةً فَهُمْ خَلَقَ اللَّهُ ۝١١٩﴾ وهذا يتناول (تغيير) الخلقة الظاهرة، بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخُّط من خلقتة، والقذح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعونه بأيديهم، أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدييره. ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده خُفَاءً مَفْطُورِينَ على قبول الحق، وإيثاره. فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهن عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهن الشر والشرك والكفر، والفسوق، والعصيان.

فإن كل مولودٍ يُولَدُ على الفطرة، ولكن أبواه، يهودانه، أو يُنصرانه، أو يُمجسانه، ونحو ذلك، مما يغيرون به، ما فطر الله عليه العباد، من توحيدِهِ، وحبِّهِ ومعرفته. فافتَرستهم الشياطين في هذا الموضع، افتراس السبع، والذئاب للغنم المنفردة... ولولا لُطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم، ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم، من توليهم عن ربهم وفاطرتهم، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر، من كل وجهٍ فخرسوا الدنيا

والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة.. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٥٠) وعن أسماء رضي الله عنها أَنَّ امرأةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ ابْنَتِي أَصَابَتْهَا الْحَصْبَةُ، فْتَمَرَّقَ شَعْرُهَا، وَإِنِّي زَوَّجْتُهَا، أَفَأَصِلُ فِيهِ؟ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمَوْصُولَةَ»^(٢).

وفي رواية: «الواصلَة والمُستوصلَة».

(١٦٥١) وعن عائشة رضي الله عنها نحوه^(٣).

(١٦٥٢) وعن حميد بن عبد الرحمن أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه - عَامَ حَجٍّ - عَلَى الْمِنْبَرِ وَتَنَاوَلَ قُصَّةً مِّنْ شَعْرٍ كَانَتْ فِي يَدِ حَرَسَى فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ؟ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هَذِهِ وَيَقُولُ: «إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذُوا نِسَاءَهُمْ»^(٤).

(١٦٥٣) وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ^(٥).

(١٦٥٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَمَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ، فَقَالَتْ لَهُ أَمْرَأَةٌ فِي ذَلِكَ

(١) تفسير السعدى (ص ٢٠٩-٢١٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٤١) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٢) كتاب اللباس والزينة. قَوْلُهَا: «فَتَمَرَّقَ» هُوَ بِالرَّاءِ وَمَعْنَاهُ: ائْتَرَّ وَسَقَطَ. «وَالْوَاصِلَةُ»: الَّتِي تَصِلُ شَعْرَهَا، أَوْ شَعَرَ غَيْرِهَا بِشَعْرِ آخَرَ. «وَالْمَوْصُولَةُ»: الَّتِي يُوصَلُ شَعْرُهَا. «وَالْمُسْتَوْصِلَةُ»: أَى: الَّتِي تَسْأَلُ مَنْ يَفْعَلُ لَهَا ذَلِكَ.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٣٤) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٣) كتاب اللباس والزينة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٣٢) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٧) كتاب اللباس والزينة.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٣٧) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٤) كتاب اللباس والزينة.

الواشمة: من تقوم بعمل الوشم وهو أثر وخز الجلد بالإبر. المستوشمة: التى تطلب لنفسها الوشم.

فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ [الحشر: ٧] ^(١).

❖ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَمَّا الْوَاصِلَةُ فَهِيَ الَّتِي تَصِلُ شَعْرَ الْمَرْأَةِ بِشَعْرِ آخَرَ.. وَالْمُسْتَوْصِلَةُ الَّتِي تَطْلُبُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ وَيُقَالُ لَهَا مَوْصُولَةٌ... وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ صَرِيحَةٌ فِي تَحْرِيمِ الْوَصْلِ وَلَعَنِ الْوَاصِلَةِ وَالْمُسْتَوْصِلَةِ مُطْلَقًا.

قَالَ الْقَاضِي: فَأَمَّا رَبْطُ خُيُوطِ الْحَرِيرِ الْمُلَوَّنَةِ وَنَحْوَهَا مِمَّا لَا يَشْبَهُ الشَّعْرَ فَلَيْسَ بِمَنْهَى عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَصْلٍ وَلَا هُوَ فِي مَعْنَى مَقْصُودِ الْوَصْلِ وَإِنَّمَا هُوَ لِلتَّجْمُلِ وَالتَّحْسِينِ... قَالَ: وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ وَصَلَ الشَّعْرَ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ لِلْعَنِ فَاعِلِهِ وَفِيهِ أَنَّ الْمُعِينَ عَلَى الْحَرَامِ يُشَارِكُ فَاعِلَهُ فِي الْإِثْمِ كَمَا أَنَّ الْمُعَاوَنَ فِي الطَّاعَةِ يَشَارِكُ فِي ثَوَابِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٢).

❖ وَأَمَّا الْوَشْمُ فَهُوَ أَنْ تَغْرِزَ إِبْرَةً أَوْ مِسْلَةً فِي ظَهْرِ الْكَفِّ أَوْ الْمِعْصَمِ أَوْ الشَّفَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ بَدَنِ الْمَرْأَةِ حَتَّى يَسِيلَ الدَّمُ ثُمَّ تَحْشُو ذَلِكَ الْمَوْضِعَ بِالْكُحْلِ أَوْ النُّورَةِ فَيَخْضَرُ... وَقَدْ يُفْعَلُ ذَلِكَ بِدَارَاتٍ وَنُقُوشٍ وَقَدْ تَكْثُرُهُ وَقَدْ تُقْلَلُهُ... وَفَاعِلَةُ هَذَا وَاشْمَةٌ وَالْمَفْعُولُ بِهَا مَوْشُومَةٌ فَإِنْ طَلَبْتَ فِعْلَ ذَلِكَ بِهَا فَهِيَ مُسْتَوْشَمَةٌ... وَهُوَ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا بِاخْتِيَارِهَا وَالطَّالِبَةِ لَهُ... وَقَدْ يُفْعَلُ بِالْبِنْتِ وَهِيَ طِفْلةٌ فَتَأْتُمُ الْفَاعِلَةَ وَلَا تَأْتُمُ الْبِنْتَ لِعَدَمِ تَكْلِيفِهَا حِينَئِذٍ.

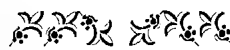
(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٤٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٢٥) كتاب اللباس والزينة.

«الْمُتَقَلِّجَةُ» هِيَ: الَّتِي تَبْرُدُ مِنْ أَسْنَانِهَا لِتَبَاعَدِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ قَلِيلًا، وَتُحَسِّنُهَا وَهُوَ الْوَشْمُ. «وَالنَّامِصَةُ»: الَّتِي تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِ حَاجِبٍ غَيْرِهَا، وَتُرَقِّقُهُ لِيَصِيرَ حَسَنًا. «وَالْمُتَمَنِّصَةُ»: الَّتِي تَأْمُرُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤٧/١٤٨-١٤٨) بتصرف.

وَأَمَّا النَّامِصَةُ فَهِيَ الَّتِي تُزِيلُ الشَّعْرَ مِنَ الْوَجْهِ ^(١) وَالْمُتَمَصِّصَةُ الَّتِي تَطْلُبُ فِعْلَ ذَلِكَ بِهَا ... وَهَذَا الْفِعْلُ حَرَامٌ إِلَّا إِذَا نَبَتَ لِلْمَرْأَةِ لَحْيَةٌ أَوْ شَوَارِبٌ فَلَا تَحْرُمُ إِزَالَتَهَا بَلْ يُسْتَحَبُّ عِنْدَنَا.

وَأَمَّا الْمُتَفَلِّجَاتُ وَالْمُرَادُ مُفَلِّجَاتُ الْأَسْنَانِ بِأَنْ تَبْرُدَ مَا بَيْنَ أَسْنَانِهَا الثَّنَائِيَا وَالرُّبَاعِيَّاتِ. وَتَفْعُلُ ذَلِكَ الْعَجُوزُ وَمَنْ قَارَبَتْهَا فِي السِّنِّ إِظْهَارًا لِلصَّغَرِ وَحُسْنِ الْأَسْنَانِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْفُرْجَةَ اللَّطِيفَةَ بَيْنَ الْأَسْنَانِ تَكُونُ لِلنَّبَاتِ الصَّغَارِ ... فَإِذَا عَجَزَتِ الْمَرْأَةُ كَبُرَتْ سِنُّهَا وَتَوَخَّشَتْ فَتَبْرُدُهَا بِالْمَبْرَدِ لِتَصِيرَ لَطِيفَةً حَسَنَةً الْمَنْظَرِ وَتُوْهِمَ كَوْنُهَا صَغِيرَةً ... وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا الْوُشُرُ، وَمِنْهُ لَعْنُ الْوَاشِرَةِ وَالْمُسْتَوْشِرَةِ. وَهَذَا الْفِعْلُ حَرَامٌ عَلَى الْفَاعِلَةِ وَالْمَفْعُولِ بِهَا، لِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ؛ وَلِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ لِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلِأَنَّهُ تَزْوِيرٌ؛ وَلِأَنَّهُ تَدْلِيسٌ ... وَأَمَّا قَوْلُهُ: «الْمُتَفَلِّجَاتُ لِلْحُسْنِ» فَمَعْنَاهُ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلْحُسْنِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحَرَامَ هُوَ الْمَفْعُولُ لَطَلَبِ الْحُسْنِ أَمَا لَوْ احتاجتِ إِلَيْهِ لِعِلَاجٍ أَوْ عَيْبٍ فِي السِّنِّ وَنَحْوِهِ فَلَا بَأْسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٢).



(١) أى: من الحاجبين.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤/ ١٥٠-١٥٢) بتصرف.

(٣) تحفة الأحوذى (٧/٢٣٨).

(١٦٥٦) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٧٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧) كتاب الصلح - ومسلم (١٧١٨) كتاب الأفضية.

(٢٩٨) باب كراهية الاستنجاء باليمين

ومس الفرج باليمين من غير عذر

(١٦٥٧) عن أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلَا يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلَا يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ، وَلَا يَتَنَفَّسُ فِي الْإِنَاءِ»^(١).

✽ الاستنجاء تطهير القبل والدبر من الحدث من البول أو الغائط.

«إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ، فَلَا يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلَا يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ» يعنى لا يمسك الذكر باليمين فيغسله؛ لأن اليد اليمنى مكرمة... ولهذا قال العلماء رحمهم الله: اليمنى هى المقدمة إلا فى مواضع الأذى، فاليسرى تُقدَّم للأذى واليمنى لما سواه... وعلى هذا فيستنجد باليسار، ويصُب الماء باليمين؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الاستنجاء باليمين.

«وَلَا يَتَنَفَّسُ فِي الْإِنَاءِ» يعنى إذا شرب فالسُّنة أن يتنفس ثلاث مرات يشرب أولاً ثم يقطع ثم يشرب ثانياً ثم يقطع ثم يشرب ثالثاً... هكذا هى السنة، وهو أنفع للبدن وأنفع للمعدة... لأن العطش التهاب فى المعدة وحرارة فإذا جاءها الماء دفعة واحدة أثر عليها... وإذا كان يمصه مصاً ويتنفس ثلاثاً فهو أهناً وأبرأ وأمرأ كما قال النبي ﷺ... لكن إذا تنفس لا يتنفس فى الإناء... بل يُزيل فمه عن الإناء ثم يتنفس؛ لأن التنفس بالإناء فيه ضرر على الشارب؛ لأن النفس يكون صاعداً والماء يكون نازلاً فيلتقيان فيحصل الشَّرْق... وفيه أيضاً أذى لمن بعده؛ لأنه قد يخرج مع نفسه ميكروبات فتكون فى الماء فتؤثر على مَنْ شرب من بعده... فلذلك نهى النبي ﷺ عن أن يتنفس الإنسان فى الإناء... والله الموفق^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٥٤) كتاب الوضوء - ومسلم (٢٦٧) كتاب الطهارة.

(٢) شرح رياض الصالحين (١٩١/٤) بتصرف.

(٢٩٩) بَابُ كِرَاهَةِ الْمَشْيِ فِي نَعْلِ وَاحِدَةٍ

أَوْ خُفٍّ وَاحِدٍ لِّغَيْرِ عَذَرٍ

وَكِرَاهَةِ لِبْسِ النِّعْلِ وَالْخُفِّ قَائِمًا لِّغَيْرِ عَذَرٍ

(١٦٥٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَمْشِي أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ، لِيَنْعَلَهُمَا جَمِيعًا، أَوْ لِيُخْلَعَهُمَا جَمِيعًا».

وَفِي رَوَايَةٍ: «أَوْ لِيُخْفِيَهُمَا جَمِيعًا»^(١).

(١٦٥٩) وَعَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلٍ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَمْشِي فِي الْأُخْرَى حَتَّى يُصْلِحَهَا»^(٢).

(١٦٦٠) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يَتَّعِلَ الرَّجُلُ قَائِمًا^(٣).

❖ فَفِي تِلْكَ الْأَحَادِيثِ يَنْهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَّعِلَ الْإِنْسَانُ بِرَجُلٍ وَاحِدَةٍ.. أَوْ أَنْ يَلْبِسَ خُفًّا بِرَجُلٍ وَاحِدَةٍ.. فَإِمَّا أَنْ يَنْعَلَهُمَا جَمِيعًا وَإِمَّا أَنْ يُخْفِيَهُمَا جَمِيعًا.. يَعْنِي: لَا يَلْبِسُ فِي الرَّجْلَيْنِ أَى شَيْءٍ.

وَلَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ لِبْسَ النِّعَالِ مِنَ السُّنَّةِ.. وَقَدْ تَتَعَجَّبُ إِذَا قُلْتَ لَكَ أَنَّ الْإِحْتِفَاءَ أَيْضًا مِنَ السُّنَّةِ.. يَعْنِي أَنَّ تَمْشِيَّ أَحْيَانًا حَافِيًا لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ هَذَا أَيْضًا مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْهَى عَنْ كَثْرَةِ الْإِرْفَاهِ وَيَأْمُرُ بِالْإِحْتِفَاءِ أَحْيَانًا.

❖ فَإِذَا لَبَسْتَ النِّعْلَ فَايْأُتِ بِالرَّجْلِ الْيَمْنَى.. وَإِذَا خَلَعْتَ النِّعْلَ فَايْأُتِ بِالرَّجْلِ الْيُسْرَى... وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ تَصْلِيَ بِالنِّعْلِ أَوْ الْخُفِّ إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ مَفْرُوشًا

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٥٥) كِتَابُ الْبِلَاسِ، وَمُسْلِمٌ (٢٠٩٧) كِتَابُ الْبِلَاسِ وَالزَّيْنَةِ.

(٢) صَحِيحٌ: رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٠٩٨) كِتَابُ الْبِلَاسِ وَالزَّيْنَةِ.

(٣) صَحِيحٌ: رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ (٣٤٨٣).

بالرمل أو الحصباء .. أما إذا كان المسجد مفروشًا بالسجاد أو الموكيت فلا بد أن تخلع حذاءك أو نعلك حتى لا يتلوث المسجد .. إلا إذا كان عندك خُفٌّ مخصوص لا تلبسه إلا في المسجد فلا بأس بذلك من أجل إظهار سنة النبي ﷺ ... لأن النبي ﷺ قال: «خالفوا اليهود.. صَلُّوا في نعالكم» .. وإذا كنت تصلى التهجد في البيت بالنعل فلا بأس بذلك إحياءً لسنة النبي ﷺ ..

❁ وفي تلك الأحاديث نهى النبي ﷺ أن يتنعل الرجل بنعل واحد .. فإما أن يلبسهما جميعًا أو يخلعهما جميعًا .. وذلك لأن الإسلام جاء بالعدل حتى في اللباس .. فلا تُنعل إحدى الرجلين وتترك الأخرى لأن هذا فيه ظلمٌ للأخرى ولأنه مخالف للوقار وقد يكون ذلك سببًا لأن تتعثر وتقع على الأرض.

❁ وأما حديث جابر فقد نهى النبي ﷺ أن يتنعل الرجل قائمًا .. هذا إذا كان النعل يحتاج إلى معالجة في إدخاله في الرجل .. لأنه إن فعل ذلك ورفع رجله ليلبس نعله فربما يسقط على الأرض .. أما النعال التي تلبس بسهولة فلا بأس أن يتنعل الإنسان وهو قائم لأن ذلك لا يدخل في النهي الوارد في الحديث .. والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٠) باب النهى عن ترك النار فى البيت

عند النوم ونحوه سواء كانت فى سراج أو غيره

(١٦٦١) عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «لَا تَتْرُكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ»^(١).

(١٦٦٢) وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حدث رسول الله ﷺ بشأنهم، قال: «إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ، فَأَطْفِئُوهَا»^(٢).

❦ «لَا تَتْرُكُوا النَّارَ فِي بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ» هَذَا عَامٌّ تَدْخُلُ فِيهِ نَارُ السَّرَاجِ وَغَيْرُهَا .. وَأَمَّا الْقَنَادِيلُ الْمُعَلَّقَةُ فِي الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِهَا فَإِنْ خِيفَ حَرِيقُ بِسَبَبِهَا دَخَلَتْ فِي الْأَمْرِ بِالْإِطْفَاءِ وَإِنْ أُمِنَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ الْغَالِبُ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهَا لِإِنْتِفَاءِ الْعِلَّةِ.

وذلك أن النار كما وصفها النبى ﷺ فى هذه الأحاديث عدو للإنسان فإذا أبقاها الإنسان ونام فربما تأتى الفويسقة - يعنى الفأرة - فتنخسها ثم تشتعل كما هو الشأن فيما سبق .. كانت الشرج من النار تُوقَد فى الزمان الأول ... تُوقَد بالودك والزيت وشبهه ثم صارت تُوقَد بالجاز وكلها مواد سائلة ... فإذا جاءت الفأرة وعبثت بها انصبَّ الذى فى السراج على الأرض ثم اشتعلت النار وحصل الحريق ... ولهذا أمر النبى ﷺ بإطفاء النار عند النوم لئلا يحصل هذا الحريق.

أما الآن فهناك مصابيح كهربائية لا يحصل من ورائها الضرر الذى كان يحدث عند ترك السراج الذى به نار.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٩٣) كتاب الاستئذان - ومسلم (٢٠١٥) كتاب الأشربة.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٩٤) كتاب الاستئذان.

لكن لا بد أن نحرص على عدم ترك الدفائيات موقدة لفترة طويلة وهى قريبة من الفراش لئلا يحدث حريقٌ في البيت أثناء النوم - عافانا الله وإياكم من كل سوء.

وقد سبق شرح حديث أبى موسى الأشعرى عند شرحنا للحديث رقم (١٦٥) فأرجو الرجوع إليه ففيه فوائد طيبة بإذن الله (جلّ وعلا).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٦٣) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَطُّوا الْإِنَاءَ، وَأَوْكِنُوا السَّقَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَطْفِئُوا السَّرَاجَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدَكُمْ إِلَّا أَنْ يَعْزُضَ عَلَى إِنَائِهِ عُوْدًا، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ، فَلْيَفْعَلْ، فَإِنَّ الْفَوَيْسِقَةَ تُضْرِمُ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْتَهُمْ»^(١).

❁ هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ جُمْلٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالْأَدَبِ الْجَامِعَةِ لِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ وَالْدُّنْيَا... فَأَمَرَ ﷺ بِهَذِهِ الْأَدَابِ الَّتِي هِيَ سَبَبٌ لِلسَّلَامَةِ مِنْ إِيْذَاءِ الشَّيْطَانِ... وَجَعَلَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ أَسْبَابًا لِلسَّلَامَةِ مِنْ إِيْذَائِهِ... فَلَا يَقْدِرُ عَلَى كَشْفِ إِنَاءٍ وَلَا حَلِّ سِقَاءٍ وَلَا فَتْحِ بَابٍ وَلَا إِيْذَاءِ صَبِيٍّ وَغَيْرِهِ إِذَا وُجِدَتْ هَذِهِ الْأَسْبَابُ وَهَذَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَمَى عِنْدَ دُخُولِ بَيْتِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ لَا مَبِيتَ أَيْ لَا سُلْطَانَ لَنَا عَلَى الْمَبِيتِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ... وَكَذَلِكَ إِذَا قَالَ الرَّجُلُ عِنْدَ جَمَاعِ أَهْلِهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَارِزَقْنَا كَانَ سَبَبَ سَلَامَةِ الْمَوْلُودِ مِنْ ضَرَرِ الشَّيْطَانِ... وَكَذَلِكَ شَبَّهُ هَذَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ... وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ الْحَثُّ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، يُسْتَحَبُّ أَنْ يُذَكَّرَ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٠١٢) كتاب الأشربة.

* أَوْكِنُوا السَّقَاءَ: أَيْ ارْبِطُوا فَتْحَ السَّقَاءِ.. وَالسَّقَاءُ هُوَ الَّذِي يُوَضَعُ فِيهِ الْمَاءُ وَالشَّرَابُ.

* الْفَوَيْسِقَةُ: الْفَأْرَةُ - تُضْرَمُ: تُحْرَقُ.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/٢٦٨).

(٣٠١) باب النهي عن التكلف

وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة

❁ قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً، ولست من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى أنتحل النبوة وأنقول القرآن.

ولست أيضاً من الشاقين عليكم.. ولست من القائلين بغير علم.... بل إنه ﷺ كان يقول ويؤيده فاطر السموات والأرض على قوله بإقراره عليه.

بِمَا يَشَاءُ رَبِّهِمْ

(١٦٦٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ ^(١).

(١٦٦٥) وعن مسروق قال: دَخَلْنَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عِلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ^(٢).

❁ أما قول ابن عمر رضي الله عنهما: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ فهذا موقوفٌ لفظاً مرفوعٌ حكماً.. أى أن الذى نهاهم هو النبى ﷺ.. فإذا قال الصحابى كلمة: نُهِينَا.. فاعلم أن هذا له حكم الرفع.. يعنى كأنه قال: نهانا رسول الله ﷺ... وقوله: نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ أى: نُهِينَا أَنْ يَتَكَلَّفَ أَحَدُنَا مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ أَوْ أَنْ يَحَاوِلَ أَنْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرِ الْعَالِمِ الَّذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ.. وليس كذلك.

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٩٣) كتاب الاعتصام.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٨٠٩) كتاب تفسير القرآن.

❁ أما الحديث الثانى فيخبر فيه مسروق رَحِمَهُ اللهُ وهو أحد أئمة التابعين أنهم دخلوا على ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال لهم مؤدِّبًا ومُعَلِّمًا: يا أيها الناس مَنْ عَلِمَ شيئًا فليقلِّ به وَمَنْ لم يعلم فليقلِّ: الله أعلم.

هكذا.. يجب على الإنسان إذا سُئِلَ عما لا يعلم فلا يفتى بما لا يعلم ويقول كلامًا لا يدري هل هو صحيح أم لا... فإذا سُئِلَ عما لا يعلم فلا حرج أن يقول: الله أعلم... فقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ (٧٦) .. فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم.

ولذا يجب على العلماء أن يُعلموا تلاميذهم قول: الله أعلم.. وقد كان بعض أساتذتى الذين تعلمت على أيديهم يعلمنا حين نسأله بعض الأسئلة.. فكان يجيب على بعضها ويقول فى البعض الآخر: الله أعلم.

فكنا نتعجب مع أننا على يقين أنه يعلم إجابتها.. فكنت أسأله وأنا معه وحدى فكان يخبرنى أنه يريينا على قول: الله أعلم.

ولا بد أن نعلم أن العالم إذا أجاب فى بعض المسائل بقول: الله أعلم سيثق الناس بعلمه ويعلمون أنه يتورع عن أن يجيب بشيء يخالف الكتاب والسنة.. كما أنه إذا قال هذا فإنه يُعوِّد نفسه الرضوخ للحق وعدم التصدُّر للفتوى..

ولقد رأينا فى هذه الأيام مَنْ يتصدر للفتوى وهو لا يملك أدوات العلم والفقه والفتوى.. فيفتى بغير علم... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ فى كتابه «الفتوى الحموية»: كانوا يقولون: «ما أفسد الدنيا والدين إلا أربعة: نصف متكلم ونصف فقيه ونصف لغوى ونصف طيب».

أما المتكلم: فإنه أفسد الأديان والعقائد؛ لأن أهل الكلام الذين نالوا من الكلام شيئًا ولم يصلوا إلى غايته اغتروا به. وأما أهل الكلام الذين وصلوا إلى

غايته فقد عرفوا حقيقته ورجعوا إلى الحق.

ونصف فقيه: يُفسد البلدان ؛ لأنه يقضى بغير الحق، فيفسد البلدان، فيعطى حق هذا لهذا، وهذا لهذا.

ونصف نحوى: لأنه يُفسد اللسان ؛ لأنه يظن أنه أدرك قواعد اللغة العربية فيلحن فيفسد اللسان.

ونصف طبيب: فيفسد الأبدان ؛ لأنه لا يعرف، فربما يصف دواءً يكون داءً، وربما لا يصف الدواء فيهلك المريض.

فالشاهد أنه لا يجوز للإنسان أن يُفتى بغير علم.. بل عليه أن يُفتى فيما يعلم.. ولا يتخرج أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم.

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٠٢) باب تحريم النياحة على الميت،

ولطم الخد، وشق الجيب ونتف الشعر وحلقه،

والدعاء بالويل والشبور

(١٦٦٦) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الميت يُعَذَّبُ في قبره بما نيح عليه». وفي رواية: «ما نيح عليه»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الميت يُعَذَّبُ في قبره بما نيح عليه... وفي رواية أخرى يخبر النبي ﷺ أن مَنْ نيح عليه فإنه يُعَذَّبُ بما نيح عليه يوم القيامة...

فالميت يُعَذَّبُ بما نيح عليه في قبره ويوم القيامة.. فكلما ناح عليه أحد أقاربه فإنه يُعَذَّبُ في القبر ويوم القيامة.
✽ ولا بد أن نعلم أولاً أن البكاء نوعان:

أولاً: البكاء الذي تقتضيه الطبيعة البشرية حُزناً على فراق الأحباب.. كما بكى النبي ﷺ على وفاة ابنه إبراهيم الذي مات وهو طفل صغير.

ثانياً: البكاء الذي ينوح فيه الإنسان كنوح الحمام.. أي يبكي برنة.

فالبكاء الذي تقتضيه الطبيعة البشرية لا شيء فيه ما دام أنه يبكي حُزناً على فراق أحبابه دون أن يعترض على القضاء والقدر.. ودون أن يلطم الإنسان خدًا أو يشق جيبًا أو يدعو بدعوى الجاهلية... أما البكاء المحرم فهو النياحة.

✽ وقد يسأل سائل ويقول: وما ذنب الميت حتى يُعَذَّبُ بما نيح عليه؟!

والجواب: أن الميت يُعَذَّبُ في قبره ويوم القيامة بما نيح عليه في حالتيه

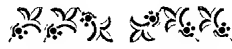
(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٢) كتاب الجنائز - ومسلم (٩٢٧) كتاب الجنائز.

فقط؛ الحالة الأولى: إذا أوصى أهله أن ينوحوا عليه بعد موته فنفذوا وصيته وناحوا عليه.

الحالة الثانية: إذا علم الإنسان أن من عادة أهله أن ينوحوا على كل من يموت فلم ينههم أن ينوحوا عليه بعد موته وهو يعلم أنهم سينوحون عليه بعد موته.. فهذا يُعَذَّب.

أما إذا أوصاهم قبل أن يموت ألا ينوحوا عليه ولا يعترضوا على القضاء والقدر وأخبرهم أنه برىء ممن ينوح عليه بعد موته فخالفوا وصيته وناحوا فلا ذنب عليه ولا يُعَذَّب في قبره ولا يوم القيامة لأنه أوصاهم ألا ينوحوا.. فالذنب عليهم هم.. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فيجب على كل واحد منا أن يوصى أهله ألا ينوحوا عليه بعد موته ولا يعترضوا على القضاء والقدر حتى ينجو من هذا العقاب والعذاب بعد موته.



(١٦٦٧) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

ومن التقاليد التي حاربها الإسلام: تقاليد الجاهلية في الموت وما يتصل به من نياحة وعويل، وغلو في إظهار الحزن والجزع.

وقد علم الإسلام أتباعه أن الموت إنما هو رحلة من دارٍ إلى دارٍ، لا إلى فناءٍ مُطلَقٍ، ولا عدمٍ صِرَفٍ، وأن الجزع لا يُحْيِي ميتاً، ولا يرد قضاء الله به.

فعلى المؤمن أن يتقبل الموت كما يتقبل كل مصيبة تصيبه صابراً محتسباً، أَخْذًا الْعِبْرَ أَمَلًا فِي لِقَاءِ أَبَدِي فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ مُرَدِّدًا قَوْلَ الْقُرْآنِ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩٤) (١٢٩٧)، كتاب الجنائز - ومسلم (١٠٣) كتاب الإيمان.

أما صنيع أهل الجاهلية فهو منكر حرام برىء منه رسول الله ﷺ حين قال: «ليس منّا من لطم الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

ولا يحل للمسلم أن يلبس من شارات الحداد أو يترك التزين أو يغير الزي والهيئة المعتادة، إظهاراً للجزع والحزن، إلا ما كان من زوجة على زوجها فإنها يجب أن تحدد عليه أربعة أشهر وعشرًا، وفاءً لحق الزوجية، وللرباط المقدس الذي جمع بينهما، حتى لا تكون معرّضًا للزينة، ومتعلّقًا لأبصار الخطّاب في مدة العدة التي اعتبرها الإسلام امتدادًا للزوجية السابقة في كثير من الحقوق، وسياجًا لها.

أما إذا كان الميت غير الزوج - كالأب والابن والأخ - فلا يحل للمرأة الحداد عليه أكثر من ثلاث ليال... روى البخاري عن زينب بنت أبي سلمة أنها روت عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ، حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب، وعن زينب بنت جحش حين توفي أخوها، أن كلا منهما دعت بطيبٍ لمست منه، ثم قالت: والله مالى بالطيب من حاجة، غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحدد على ميت فوق ثلاث ليالٍ، إلا على زوج، أربعة أشهر وعشرًا».

وهذا الإحداد على الزوج واجب لا تساهل فيه... ولقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن ابنتي تُوفى عنها زوجها وقد اشتكت عينيها، أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا»، مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لا»، وهو يدل على حرمة التزّين والتجمل طوال المدة المفروضة.

أما الحزن من غير جزع، والبكاء من غير عويل، فذلك من الأمور الفطرية التي لا إثم فيها... وسمع عمر بعض النسوة يبكين على خالد بن الوليد، فأراد بعض الرجال منعهن، فقال له: دعهن يبكين على أبي سليمان، ما لم يكن نقع أو لقلقة^{(١)(٢)}.

(١) النقع: التراب على رأس، والقلقة: الصوت.

(٢) الحلال والحرام/ د. يوسف القرضاوى (٢١٩-٢٢١) بتصرف.

(١٦٦٨) وعن أبي بُرْدَةَ قَالَ: وَجَعَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فغُشِيَ عَلَيْهِ، وَرَأْسُهُ فِي حِجَرٍ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ، فَأَقْبَلَتْ تَصِيحُ بَرْنَةٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئًا، فَلَمَّا أَفَاقَ، قَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِمَّنْ بَرِيءٌ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ... إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرِيءٌ مِنَ الصَّالِقَةِ، وَالْحَالِقَةِ، وَالشَّاقَةِ^(١).

❦ ففى هذا الحديث أن أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان فى مرضه فغُشى عليه - أى: أغمى عليه - وكان رأسه فى حجر امرأة من أهله، فأقبلت تصيح برنة فلم يستطع أن يرد عليها لمرضه الشديد.. فلما أفاق قال لها: أنا برىء ممن برىء منه رسول الله ﷺ.. إن رسول الله ﷺ برىء من الصالقة: وهى التى ترفع صوتها عند المصيبة.. «والحالقَةُ»: التى تحلقُ رأسها عند المصيبة.. وكان هذا من عادة النساء فى الجاهلية أن من مات زوجها كانت تحلق شعرها كله علامة على حزنها عليه.

«والشَّاقَةُ»: هى التى تشقُّ ثوبها عند المصيبة.. وكذلك التى تنكش شعرها.. فهؤلاء الثلاثة تبرأ منهم رسول الله ﷺ.

والواجب على كل مسلم ومسلمة أن يرضوا جميعاً بقضاء الله وقدره... فإذا وقعت المصيبة ومات أحد أحبائنا فما فائدة الاعتراض.. هل الاعتراض على القضاء والقدر سيرد إلينا ذلك الميت؟!.. كلا.. بل إن الذى يعترض تشتد عليه المصيبة ويبوء بالذنوب والآثام.. أما الذى يرضى فإن الله ﷻ يربط على قلبه ويعوضه خيراً بالأجر والثواب.. وفوق ذلك بالجنة.. فقد قال تعالى: «مَا لِعِبْدِي

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢٩٦) كتاب الجنائز، ومسلم (١٠٤) كتاب الإيمان.

«الصالقة»: التى ترفع صوتها بالنياحة والنذب - «والحالقَةُ»: التى تحلقُ رأسها عند المصيبة. «والشَّاقَةُ»: التى تشقُّ ثوبها.

المؤمن عندي جزاء، إذا قبضت صفيته من أهل الدنيا ثم احتسبه، إلا الجنة»^(١).

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ

(١٦٦٩) وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ نِيحَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٦٦٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ

(١٦٧٠) وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: أخذَ علينا رسولُ الله ﷺ عِنْدَ الْبَيْعَةِ أَنْ لَا نَنْتُحَ^(٣).

✽ فمن أهمية هذا الأمر وخوف النبي ﷺ على الأمة من الوقوع في الاعتراض على القضاء والقدر.. وعدم الرضا.. كان النبي ﷺ يأخذ البيعة على النساء خاصة على ترك النياحة.. وذلك لأن هذا الأمر خاصٌ بالنساء في الغالب. ولذا قالت أم عطية رضي الله عنها: أخذَ علينا رسولُ الله ﷺ عِنْدَ الْبَيْعَةِ أَنْ لَا نَنْتُحَ.

قال الإمام النووي رحمته الله: فِيهِ تَحْرِيمُ النَّوْحِ وَعَظِيمُ قُبْحِهِ وَالْإِهْتِمَامُ بِإِنْكَارِهِ وَالزَّجْرُ عَنْهُ لِأَنَّهُ مُهَيِّجٌ لِلْحُزْنِ وَرَافِعٌ لِلصَّبْرِ وَفِيهِ مُخَالَفَةُ التَّسْلِيمِ لِلْقَضَاءِ وَالْإِذْعَانِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى^(٤).

بَابُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ

(١٦٧١) وعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قال: أَعْصَى عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه، فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ تَبْكِي، وَتَقُولُ: وَاجِبْلَاهُ، وَاكْذَا، وَاكْذَا: تُعَدِّدُ عَلَيْهِ. فَقَالَ حِينَ

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٤٢٤) كتاب الرقاق.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٩١) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٣) كتاب الجنائز.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٠٦) كتاب الجنائز، ومسلم (٩٣٦) كتاب الجنائز.

(٤) مسلم بشرح النووي (٦/٣٣٦).

أفاق: ما قُلْتُ شيئاً إلا قيل لى: أَنْتَ كَذَلِكَ؟^(١).

✽ ففى هذا الحديث يخبر النعمان بن بشير رضي الله عنه أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه كان مريضاً فأغمى عليه فظنت أخته أنه مات فأخذت تبكى عليه وتقول: واجبلاه. واكذا.. وكأنها تقول: يا مَنْ كنت سَنَدَى.. ويا من كنت تحمينى ويا من كنت تُطعمنى.. ويا من كنت تُدخل على السعادة.... تُعدد عليه..

فلما أفاق - ولم يكن يسمعها حين أغمى عليه - قال لها: ما قُلْتُ شيئاً إلا قيل لى - أى قالت له الملائكة -: أَنْتَ كَذَلِكَ؟... وكان الملائكة تُؤنبه.. أى: هل أنت الذى كان يحميها ويُطعمها ويُسعدُها... إذا.. فأين الله؟!...

✽ فلا بُد أن نعلم أن النياحة والتعديد على الميت يؤذيه... إلا إذا كان قد أوصى بالألا يفعل أهله ذلك..

فعلينا أن نرضى بقضاء الله وقدره.. وألا نقول إلا خيراً عند الميت لأن الملائكة يحضرون غُسله وتكفينه ويؤمنون على ما نقول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٧٢) وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: اشتكى سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه شكوى، فأتاه رسولُ الله ﷺ يعُودُهُ مع عبد الرحمن بن عوفٍ، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فلما دخلَ عليه، وجدَهُ فى غَشِيَةٍ، فقال: «أَقْدَ قَضَى؟» قالوا: لا يا رسول الله. فبكى رسولُ الله ﷺ. فلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا، قال: «أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا يَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وأشار إلى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ»^(٢).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٩٣٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٢٦٧) كتاب المغازى.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٠٤) كتاب الجنائز - ومسلم (٩٢٤) كتاب الجنائز.

(١٦٧٣) وعن أبي مالك الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطْرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»^(١).

❦ ففى هذا الحديث يخبر النبى ﷺ أن المرأة النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تأتى يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب... والسربال هو الثوب الذى تلبسه المرأة فيكون من مادة القطران وهى مادة شديدة الاشتعال لتزيد من اشتعال النار فى جسدها.. والدرع ما كان ملاًصقاً للبدن..

والمعنى: أن جلدها أجرب... والجربان لا يطيق نفسه، فيحك جسده فى الجدران وفى الأرض وبأظافره، وبأى شىء أمامه... فهذه المرأة النائحة تأتى يوم القيامة على هذه الصورة المهينة تُعَذَّبُ فى النار. إن لم تتب.. أما إن تابت تاب الله عليها.. فإله غفورٌ رحيم.

فإن كان هذا العذاب للمرأة الضعيفة إذا ناحت فما ظنك بالرجل إذا كان ينوح؟!.

❦ بل وفى رواية أخرى أن النبى ﷺ «لعن النائحة والمستمعة» لأن التى تسمعها وتوافقها على ذلك ولا تنكر عليها مشاركة لها فى الإثم.

﴿وَلَا تَقْرَبُ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ فِي ذَمِّ نَجَسٍ﴾

(١٦٧٤) وعن أسيد بن أبى أسيد التَّابِعِيِّ عَنْ امْرَأَةٍ مِنَ الْمُبَايَعَاتِ قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَعْرُوفِ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَعْصِيَهُ فِيهِ: أَنْ لَا نَخْمِشَ وَجْهًا، وَلَا نَدْعُوَ وَيْلًا، وَلَا نَشُقَّ جَنْبًا، وَأَنْ لَا نَنْشُرَ شَعْرًا^(٢).

❦ ففى هذا الحديث يخبر أسيد بن أبى أسيد التابعى عن امرأة من المبايعات.. أى: اللاتى بايعن النبى ﷺ أنها قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٣٤) كتاب الجنائز.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى أحكام الجنائز (٣٠)، وصحيح سنن أبى داود (٢٦٨٥).

ﷺ في المعروف الذي أُخِذَ علينا أَنْ لَا نَعْصِيَهُ فِيهِ.. أَى: أَلَا نَعْصِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْمَعْرُوفِ.. فَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ هِيَ طَاعَةُ اللَّهِ ﷻ وَكَوَلَّانَ وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَةُ اللَّهِ ﷻ..

«أَنْ لَا نَخْمِشَ وَجْهًا» أَى: أَلَا نَخْدَشَ وَنَمْزِقَ وَنُدْمِي وَجُوهَنَا بِأَظْفَارِنَا.
«وَلَا نَدْعُو وَيْلًا» أَى: كَأَن تَقُولُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمْ: يَا وَيْلَى! فَكَأَنَّهَا تَنَادَى الْمَصِيبَةُ وَتَقُولُ: يَا مَصِيبَةُ احْضُرِي، وَيَا عَذَابُ احْضُرْ، فَهِيَ تَنَادَى الْعَذَابَ، وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ: آمِينَ، فَقَدْ يَحْضُرُ لَكَ عَذَابُكَ، وَتَسْتَحْقِينَ أَنْ تُعَذَّبِي عِنْدَ اللَّهِ ﷻ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُؤْمِنُ عَلَى مَا يَدْعُو الْإِنْسَانُ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِنَفْسِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ.

وقولها: (وَلَا نَشْقُ جِيْبًا)، يَعْنِي: أَلَا تَشْقُ الْمَرْأَةُ ثِيَابَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْعُنُقِ فَيُظْهِرَ جَسَدَهَا لِلنَّاسِ - عِيَاذًا بِاللَّهِ -.
«وَأَنْ لَا نَنْشُرَ شَعْرًا» أَى: لَا تَنْشُرُ الْمَرْأَةُ شَعْرَهَا وَتُظْهِرَهُ أَمَامَ النَّاسِ بِدَعْوَى أَنَّهَا حَزِينَةٌ عَلَى الْمُتَوَفَّى عِنْدَهَا.
❖ وَهَذِهِ أَشْيَاءُ خَطِيرَةٌ جَدًّا تَقَعُ بِسَبَبِهَا الْمَرْأَةُ فِي الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ.. وَإِنْ لَمْ تَتَّبِ فَقَدْ تَبَوَّءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ.

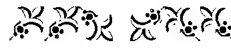
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٧٥) وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ بِأَكْبَهُمْ، فَيَقُولُ: وَاجِبِلَاهُ، وَاسَيِّدَاهُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ إِلَّا وَكَّلَ بِهِ مَلَكًا يُلْهَزَانِيهِ: أَهَكَذَا كُنْتُ؟»^(١).

❖ هَذَا الْحَدِيثُ يَحْكِي مَا حَدَّثَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. وَقَدْ سَبَقَ شَرْحُ

(١) حسن: رواه الترمذی، وابن ماجه، وحسنه الألبانی فی صحیح الجامع (٥٧٨٨).
«اللَّهُزُّ»: الدَّفْعُ بِجُمُعِ الْيَدِ فِي الصَّدْرِ.

هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٦٧١) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٦٧٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٥٨٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) صحيح زرواه مسلم (٦٧) كتاب الإيمان.

(٣٠٣) باب النهى عن إتيان الكهان

والمنجمين والعراف وأصحاب الرمل

والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك

(١٦٧٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سأل رسول الله ﷺ أناس عن الكهان، فقال: «لَيْسُوا بِشَيْءٍ» فقالوا: يا رسول الله إنهم يُحَدِّثُونَنَا أحيانًا بشيءٍ فيكون حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجَنِيُّ، فَيَقْرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ، فَيَخْلُطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ»^(١).

وفي رواية للبخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فَيَسْتَرْقُ الشَّيْطَانُ السَّمْعَ، فَيَسْمَعُهُ، فَيُوجِّهِهِ إِلَى الْكُهَّانِ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ».

❖ لقد بعث النبي ﷺ فوجد في المجتمع طائفة من الدجالين تُعرف باسم «الكهان» أو «العرافين» الذين يدعون معرفة الغيوب الماضية أو المستقبلية، عن طريق اتصالهم بالجن أو غير ذلك... فأعلن الرسول ﷺ الحرب على هذا الدجل الذي لا يقوم على علم ولا هدى ولا كتاب مُنير.

وتلا عليهم ما أوحى الله به ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فلا الملائكة ولا الجن، ولا البشر يعلمون الغيب.

وأعلن النبي ﷺ بأمر ربه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٦٢) كتاب الطب - ومسلم (٢٢٢٨) كتاب السلام.
قوله: «فَيَقْرُهَا» هو بفتح الياء، وضم القاف والراء، أى: يُلقِيهَا. «والعنان» بفتح العين.

وأخبر تعالى عن جن سليمان عليه السلام: ﴿أَنْ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: ١٤].

فمن ادّعى معرفة الغيب الحقيقي، فهو كاذب على الله وعلى الحقيقة وعلى الناس... وقد جاء بعض الوفود إلى النبي ﷺ فظنوا أنه ممن يزعمون الاطلاع على الغيب فخبأوا له شيئاً في أيديهم، وقالوا له: أخبرنا ما هو؟ فقال لهم في صراحة: «إنى لست بكاهن، وإن الكهانة والكهان في النار»^(١).

والكهان جمع كاهن.. والكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات في المستقبل فيقول مثلاً: سيحدث كذا وكذا في يوم كذا وكذا أو يقول للإنسان ستكون سعيداً في اليوم الفلانى أو سيصيبك حادث في اليوم الفلانى أو ما أشبه ذلك... هؤلاء هم الكهان.

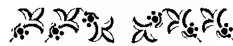
والكهان هم أناس من بنى آدم لهم أولياء من الجن، والجن أعطاهم الله قدرة عظيمة على الأشياء سرعة وقوة... فهم يصعدون إلى السماء ولكل واحد منهم مقعد معين يسترقون السمع أى ما يسمعون من الملائكة فيقضى الله تبارك وتعالى الأمر في السماء، ثم يخطفون منه شيئاً فينزلون إلى أوليائهم من البشر من بنى آدم وهم الكهان ثم يضيف هذا الكاهن إلى هذا الذى سمعه من السماء كما قال النبي ﷺ - وهو الصادق -: «مائة كذبة» يعنى يزيدون على ما سمعوا فيصادف أن هذه الكلمة المسموعة من السماء تقع كما سمعها الجنى وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سئل عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء».

يعنى لا تعبأوا بهم ولا تأخذوا بكلامهم ولا يهتمكم أمرهم... قالوا: يا رسول الله إنهم يقولون القول فيكون حقاً فأخبر النبي ﷺ أن هذا الحق الذى يقع ممزوج بمائة كذبة.

هؤلاء الكهان يجب علينا أن نكذبهم وألا نصدقهم ... ومن أتاهم وسألهم وصدقهم فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ يعني كفر بالقرآن ... ووجه كفره أن الله تعالى قال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فإذا ادّعى هؤلاء علم الغيب وصدقهم الإنسان صار مضمون تصديقه إياهم تكذيب قول الله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] أما المُنجمون فهم الذين يتعاطون علم النجوم ... وعلم النجوم قسمان: قسم لا بأس به وهو ما يُسمى بعلم التسيير .. يعني علم سير النجوم يستدل به على الفصول وعلى طول النهار وقصر النهار ... فهي حاجة لا بأس بها ولا حرج بها؛ لأن الناس يهتدون به لمصالحهم.

قال الله تعالى ﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ يعني الجبال ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] يهتدون في ظلمات البر والبحر إذا لم يكن هناك سحاب يغطي النجوم اهتدوا بها. القسم الثاني علم التأثير مقابل علم التسيير: علم التأثير أن يتخذ من علم النجوم سبباً يدعى به أن ما حصل في الأرض فإنه بسبب النجم ... كالذين يقولون في الجاهلية مطرنا بنوء كذا وكذا.. هذا هو المحرم ولا يجوز اعتماده؛ لأنه لا علاقة لما يحدث في الأرض بما يحدث بالسماء... السماء مستقلة فما حصل من أثر في السماء فإنه لا يؤثر على الأرض، فالنجوم لا دخل لها في الحوادث^(١).



(١٦٧٨) وعن صَفِيَّةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ، عن بعض أزواج النَّبِيِّ ﷺ ورضي الله عنهن، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(٢).

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٠١-٢٠٢) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٣٠) كتاب السلام.

العراف: هو الكاهن الذي يدعى معرفة الغيب.

✽ من الناس مَنْ يذهب إلى الكهنة والعُرفان اعتقاداً منهم أن هؤلاء يعلمون الغيب والأشياء التي تحدث في المستقبل وأنهم يملكون النفع والضّر لهذا الإنسان... وهذا اعتقاد خاطئ.

ولقد كانت الكهانة في الجاهلية صنعة لأقوام تتصل بهم الشياطين وتسترق السمع من السماء وتحدثهم به، ثم يأخذون الكلمة التي نُقلت إليهم من السماء بواسطة هؤلاء الشياطين ويُضيفون إليها ما يُضيفون من القول، ثم يحدثون بها الناس... فإذا وقع الشيء مطابقاً لما قالوا اغترّب بهم الناس واتخذوهم مرجعاً في الحكم بينهم، وفي استتاج ما يكون في المستقبل.. ولهذا نقول: الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

✽ والذي يأتي إلى الكاهن ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله من غير أن يُصدقه، فهذا مُحَرَّم، وعقوبة فاعله أن لا تُقبل له صلاة أربعين يوماً، كما ثبت في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

القسم الثاني: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ويصدقه بما أخبر به، فهذا كُفْرٌ بالله ﷻ لأنه صدقه في دعوى علمه الغيب... وتصديق البشر في دعوى علم الغيب تكذيب لقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ولهذا جاء في الحديث الصحيح «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

القسم الثالث: أن يأتي إلى الكاهن فيسأله ليُبين حاله للناس، وأنها كهانة وتمويه وتضليل... فهذا لا بأس به... ودليل ذلك أن النبي ﷺ أتاه ابن صياد، فأضمر له النبي ﷺ شيئاً في نفسه فسأله النبي ﷺ ماذا خبأ له؟ فقال: الدُّخُّ...

(١) صحيح: رواه أحمد (٩٠٣٥)، والحاكم، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٩٣٩).

يريد الدخان، فقال النبي ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٧٩) وعن قبيصة بن المخارق روى الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العِيفَةُ، والطَّيْرَةُ، والطَّرْقُ، مِنَ الْحَبْتِ»^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٨٠) وعن ابن عباس روى الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السَّحْرِ زَادَ مَا زَادَ»^(٣).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ.. أى: مَنْ أَخَذَ وَتَعَلَّمَ عِلْمًا مِنْ عُلُومِهَا.. وعلم النجوم: درِبٌ مِنَ السَّحْرِ يخبر به مَنْ يقرأ النجوم بأمور غيبية.. وكلما ازداد عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ كلما ازداد اقْتِبَاسًا مِنَ السَّحْرِ... فعلم التنجيم حرام.

ويكون كفرًا وشركًا إذا اعتقد أن النجوم لها تأثير في المخلوقات وأنها فاعلة... وأما إذا أُريد بعلم النجوم: معرفة الأوقات، ومعرفة الجهات كجهة القبلة، ومعرفة جهة السير في الليل؛ فإن هذا لا مانع منه، ولا بأس به...

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَكُم بِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، والناس يستدلون بالنجوم على جهات

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٣٥٤) كتاب الجنائز، ومسلم (٢٩٣٠) كتاب الفتن.

(٢) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٣٩٠٠).

الطَّرْقُ: هو الرَّجْرَجُ، أى: رَجْرُ الطَّيْرِ، وهو أَنْ يَتَيَمَّنَ أَوْ يَتَشَاءَمَ بِطَيْرَانِهِ، فَإِنْ طَارَ إِلَى جِهَةِ الْيَمِينِ تَيَمَّنَ، وَإِنْ طَارَ إِلَى جِهَةِ الْيَسَارِ تَشَاءَمَ. قال أبو داود: «والعِيفَةُ»: الْخَطُّ.

قال الجَوْهَرِيُّ فى «الصُّحُوحِ»: الْحَبْتُ كَلِمَةٌ تَقَعُ عَلَى الصَّنَمِ وَالْكَاهِنِ وَالسَّاحِرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٠٧٤).

السير، وعلى جهة القبلة، وإذا حصل لهم أن ضاعوا في أسفارهم نظروا في مطالع النجوم ومغاربها، ونظروا إلى النجوم الثابتة التي تكون مستقرة، فيعرفون بذلك جهة القبلة، ويهتدون إلى جهة السير، وكذلك يعرفون الشمال من الجنوب والشرق من الغرب بالنجوم.. فإن النجوم تطلع من الشرق، وتغرب في الغرب، ويعرف بذلك أيضًا الشمال والجنوب... فهذا تعلمه لا بأس به، وإنما المحذور تعلم العلم الذي فيه اعتقاد أن الكواكب والنجوم تؤثر في الكون، فهذا هو الأمر المحرم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٨١) وعن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّ مِنَّا رَجَالًا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ؟ قَالَ: «فَلَا تَأْتِهِمْ» قُلْتُ: وَمِنَّا رَجَالٌ يَطْيِرُونَ؟ قَالَ: «ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ، فَلَا يَصُدُّنَهُمْ» قُلْتُ: وَمِنَّا رَجَالٌ يَخْطُونَ؟ قَالَ: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ، فَذَاكَ»^(١).

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (٧٠٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٨٢) وعن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ، وَمَهْرِ الْبَغِيِّ، وَحُلْوَانِ الْكَاهِنِ^(٢).

هذا الحديث آخر حديث في هذا الباب... باب النهي عن إتيان الكهان والمنجمين ونحوهم... وهو أن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب، ومهر البغي، وحلوان الكاهن.

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٧) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٣٧) كتاب البيوع - ومسلم (١٥٦٧) كتاب المساقاة.

أما الكلب فمعروف واقتناؤه حرام، لا يجوز للإنسان أن يقتنى الكلب، ويجعله عنده في بيته، سواء كان في بيت الطين أو المسلح أو الشعر، إلا في ثلاث حالات:

(١) كلب الحرث - يعنى الزرع - .

(٢) و كلب الماشية - يعنى إنسان عنده غنم أو إبل أو بقر - يتخذ الكلب ليحرسها .. وبالقياص فيجوز اقتناء الكلب لحراسة القصور والمنشآت والمصانع وغيرها. لكن بشرط ألا يكون داخل القصر وإنما يكون مربوطاً في الحديقة.

(٣) كلب الصيد - يصيد به الإنسان ... لأن الكلب إذا تعلم وصاد شيئاً فإنه حلال ... فلو كان عند الإنسان كلب مُعَلَّم، وأرسله على أرنب مثلاً، ثم صاهاها وقتلها فهي حلال. لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

فهذه الثلاثة: كلب الحرث والماشية والصيد، يجوز للإنسان أن يقتنيها، وما عدا ذلك فاقتناؤه حرام... والكلب أخبث الحيوانات في النجاسة؛ لأن نجاسته مغلظة... إذا شرب في الإناء يجب أن يُغسل الإناء سبع مرات، واحدة منها بالتراب، والأفضل أن يكون التراب مع الأولى، فهو الأحسن والأولى.

فإذا كان عند الإنسان كلب، ولو كان كلب صيد، أو ماشية، أو زرع، فإنه يحرم عليه بيعه، وثمره عليه حرام.

لكن إذا انتهى منه يعطيه أحداً يحتاج له، ولا يحل له أن يبيعه؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب.

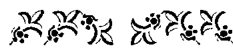
الثانى: حلوان الكاهن: الكاهن هو الذى يخبر عن المغيبات فى المستقبل

فيقول سيحصل كذا، سيكون كذا... سواء كان عامًّا أو خاصًّا، كأن يقول لشخصٍ مُعين سيصيبك كذا وكذا في يوم كذا وكذا... والكهان كانوا في الجاهلية يأتى إليهم الناس، فيأخذون منهم أجرًا كبيرًا، فنهى النبي ﷺ عن حلوان الكاهن ؛ لأن الكهانة حرام، وما كان حرامًا، فالتعويض عليه حرام.

الثالث: مهر البغى: يعنى أجرة الزانية - والعياذ بالله - وذلك بأن يكون هناك امرأة تزنى، فيأتى إليها العصاة من بنى آدم فيستأجرونها لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل، ويعطونها عن ذلك عوضًا... هذا أيضًا نهى عنه الرسول ﷺ لأن هذا العوض يكون في مقابلة حرام... وإذا حرم الله شيئًا، حرم ثمنه، وحرم أجرته.

فإذا قال قائل: لو أن الكاهن قد تاب إلى الله وقد كسب مالا من الناس، هل يرده إليهم؟ نقول: لا، لا يرده إليهم لأنهم قد أخذوا عوضًا، فلا يجمع لهم بين العوض والمعوض... ولكن يتصدق به، تخلّصًا منه، أو يجعله في بيت المال، إن كان هناك بيت مال.

وكذلك يُقال فيمن باع كلبًا سواء كان كلب صيد أو حرث أو ماشية وأخذ ثمنه ثم هداه الله وتاب، نقول: لا ترد هذا الثمن إلى الذى أخذ الكلب، فتجمع له بين العوض والمعوض، ولكن تصدّق به تخلّصًا منه. أو اجعله في بيت المال. وكذلك يُقال في مهر البغى، إذا تابت إلى الله ورجعت هل ترد ما أخذت من الزانى أو لا؟ لا تردّه إليه، بل تجعله في بيت المال، أو تتصدق به أو تنفقه في أى سبيلٍ من سُبُل الخير^(١).



(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٢٠٤-٢٠٥) بتصرف.

(٣٠٤) باب النهى عن التطير

✽ والتطير أو التشاؤم ببعض الأشياء، من أمكنة وأزمنة وأشخاص وغير ذلك من الأوهام التي راجت سوقها - ولا تزال رائجة - عند كثير من الجماعات والأفراد... وقديماً قال قوم صالح له: ﴿ أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ [النمل: ٤٧].

وكان فرعون وقومه إذا أصابتهم سيئة: ﴿ يَطَيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [الأعراف: ١٣١] وكثيراً ما قال الكفار الضالون - حينما ينزل بهم بلاء الله - لدعاتهم ورسلك الله إليهم: ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [يس: ١٨].

وكان جواب هؤلاء المرسلين: ﴿ طَيَّرَكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس: ١٩].. أى: سبب شؤمكم مُصاحبٌ لكم، وهو كفركم وعنادكم، وعُتوكم على الله ورسوله. وكان لعرب الجاهلية في هذا الجانب سَبْحٌ طويل، واعتقادات شتى، حتى جاء الإسلام فأبطلها، وردَّهم إلى النهج العقلي القويم.

ونظم النبي ﷺ التطير مع الكهانة والسحر في سلكٍ واحد، وقال: «ليس منّا من تطير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن، أو تسحر أو تُسحر له»^{(١)(٢)}.

✽ والتطير هو التشاؤم بمرئى أو مسموع أو زمان أو مكان. وإنما سُمي تطييراً؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يتشاءمون بالطيور فغلب الاسم على كل التشاؤم. فمن العرب مَنْ يتشاءم بالطير إن طار يساراً تشاءم وإن رجع إليه ألغى ما يريد الإقدام عليه، وإن طار أمامه عزم على تنفيذ ما أراد، وإن طار على يمينه قال: هذا عملٌ ميمون مبارك.. فصاروا يتشاءمون بالطيور.

كذلك إذا رأوا الطيور في الجو ربما يتشاءمون بها فإذا رأى أحدهم الغراب

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٩٥)، وصحيح الجامع (٥٤٣٥).

(٢) الحلال والحرام (ص ٢١٥) د. يوسف القرضاوى.

يتشاءم به، والبومة يتشاءم بها أيضًا، وبعض الطيور.

ومن العرب مَنْ يتشاءم بالزمان. فلقد شاع عندهم أن المرأة إذا تزوجت في شَوَّال لم تُوفَّق ولا يحبها زوجها... وهذا باطل، فإن النبي ﷺ عقد على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في شَوَّال ودخل بها في شوال فكانت تقول: أيكم أحظى عنده مني.. لأنهم يزعمون أن المرأة إذا تزوجت في هذا الشهر لم تُوفَّق في زواجها وهذا أيضًا ما له تفسير... ومنهم مَنْ يتشاءم بالسفر في يوم الأربعاء يقولون: إذا سافر الإنسان في يوم الأربعاء لا بد من حدوث حادثٍ أو خسارة أو بلاء وهذا أيضًا لا صحة له... فيوم الأربعاء والخميس والثلاثاء وغير ذلك كلها واحد... ومنهم مَنْ يتشاءم بشهر صَفَر... الذي بعد محرم ويقولون: لو عمل فيه الإنسان أى عمل: زواج أو وُلد له فيه أو سافر فيه فإنه لا يُوفَّق... وهذا أيضًا باطل، ولا أثر بالشهر في تفاؤل ولا في تشاؤم^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦٨٣) وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويُعجبني الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال: «كَلِمَةُ طَيِّبَةٍ»^(٢).

(١٦٨٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، وإن كان الشُّومُ في شَيْءٍ ففي الدَّارِ، والمرأة، والفرس»^(٣).

(١٦٨٥) وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ كَانَ لَا يَتَطَيَّرُ^(٤).

❁ قوله ﷺ: «لا عدوى»

فالعدوى المنفية هي اعتقاد أن الأمراض تنتقل بالاختلاط، وأنها مُعدية

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٠٥، ٢٠٦) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٧٦) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٢٤) كتاب السلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٧٧٢) كتاب الطب، ومسلم (٢٢٢٥) كتاب السلام.

(٤) صحيح: رواه الحكيم، والبغوي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٤١).

بطبعها، وهذا منفي بلا شك؛ لكن مخالطة المريض للصحيح قد يكون سبباً لانتقال المرض، ولكن ليس بلازم أن يكون ذلك، فقد يوجد السبب ويتخلف المسبب بإذن الله عز وجل... فاعتقاد أن العدوى حاصلة بالطبع وأنها شيء لازم، فهذا باطل وليس بصحيح... وأما اعتقاد أن مخالطة المريض للصحيح قد يجعله الله سبباً في انتقال العدوى فهذا صحيح، وقد يوجد الاتصال ولا توجد العدوى، ويبقى المريض مرضه فيه، ويسلم الصحيح من مرض المريض... فالأمر يرجع إلى مشيئة الله وإرادته، فإن شاء أن يعدى المريض أعدى، وإن شاء ألا يعدى لم يعد... لكن الأخذ بالأسباب مطلوب... وقد جاء في قصة عمر لما ذهب إلى الشام وقت الطاعون، فاستشار الصحابة في دخول الشام فاختلفوا، فممنهم من يقول: أقدم، وممنهم من يقول: لا تقدم، وانتهى أمره أنه لا يقدم... وبعد ذلك جاء عبد الرحمن بن عوف وأخبرهم أن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، وجاء في الحديث: «فر من المجذوم فرارك من الأسد» وفي الحديث الآخر: «لا يؤرد ممرض على مصح».

ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأن المنفى غير المثبت... فالمنفى هو اعتقاد أن الأمراض مؤثرة بطبعها، والمثبت هو الأخذ بالأسباب والوقاية، وعدم التعرض لشيء قد يحصل بسببه شيء من المضرة... وقد يتخلف الضرر مع وجود الاتصال والاحتكاك بالمريض؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ هذا الكلام قال رجل: ما شأن الإبل تكون في الرمل كالظباء - يعنى في صحتها، وقوتها، ونشاطها، وسرعة انتقالها وتحركها - ثم يكون معها البعير الأجرب فيحصل لها الجرب؟! فالنبي ﷺ أجاب بجواب عظيم فقال: «فمن أعدى الأول؟!» يعنى: أول بعير حصل له الجرب من الذى أعده؟! فهو ما كان أجرب، ولكن الجرب حصل بتقدير الله عز وجل، بدون أن يكون هناك اتصال بين مريض وصحيح.

وهذا يبين أن الأمور كلها ترجع إلى الله عز وجل .

❁ قوله ﷺ: «ولا طيرة» وقد تكلمنا عن التطير.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف وأما من لم يُبالِ به ولم يعبا به شيئاً لم يضره البتة ولا سيما إن قال عند رؤية ما يتطير به أو سَماعه: اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك .. اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك .

❁ ثم قال ﷺ: «وإن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة، والفرس»

قال الإمام النووي رحمه الله: واختلف العلماء في هذا الحديث فقال مالك وطائفة: هو على ظاهره وإن الدار قد يجعل الله تعالى سبباً للضرر أو الهلاك وكذا اتخاذ المرأة المقيمة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى ... ومعناه قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة.

وقال الخطابي: هو في معنى الاستثناء من الطيرة... أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكنها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليُفارق الجميع بالبيع ونحوه وطلاق المرأة... وقال آخرون: شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم وشؤم المرأة عدم ولاذيتها وسلطة لسانها وتعرضها للريب.. وشؤم الفرس أن لا يغزى عليها وقيل: جرائنها وغلاء ثمنها... وشؤم الخادم سوء خلقه وقلة تعهده لما فوض إليه... وقيل: المراد بالشؤم هنا عدم الموافقة^(١).

❁ ولذا جاء في الحديث الثالث أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأل عن اسمه، فإذا أعجبه اسمه فرح به ورؤى بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمه رؤى كراهية ذلك في وجهه... وإذا دخل قرية سأل عن اسمها، فإن أعجبه اسمها فرح ورؤى بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رؤى

كراهية ذلك في وجهه.

بِإِذْنِ رَبِّهِ

(١٦٨٦) وعن عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» ^(١).

❁ وللأمانة العلمية.. هذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِإِذْنِ رَبِّهِ

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في صحيح الجامع (١٩٩).

(٣٠٥) باب تحريم تصوير الحيوان في بساط أو حجر

أو ثوب أو درهم أو مخدة أو دينار أو وسادة وغير ذلك

وتحريم اتخاذ الصورة في حائط وسقف وستر وعمامة

وثوب ونحوهما والأمر بإتلاف الصورة

(١٦٨٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»^(١).

✽ التصوير ينقسم إلى قسمين:

قسم متفق على تحريمه: وهو أن يصور ما فيه روح على وجه تمثال من خشب أو حجر أو طين أو جبس أو ما أشبه ذلك... فهذا إذا صورّه على صورة حيوان أو إنسان أو أسد أو أرنب أو قرد أو غير ذلك فهذا حرام بالاتفاق، وفاعله ملعون على لسان النبي ﷺ ويُعَذَّب يوم القيامة فيقال له: أحْيِ ما خلقت.

وفي حديث ابن عباس قال: كل مصورٍ في النار.... فإن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا روح فيه.

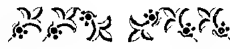
والقسم الثاني: تصوير ما لا روح فيه مثل الأشجار والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال، وما أشبهها فهذه جائزة.

✽ قَوْلُهُ: «إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» هُوَ أَمْرٌ تَعْجِيزٌ... وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ صِفَةُ تَعَذِيبِ الْمُصَوِّرِ وَهُوَ أَنَّ يُكَلَّفَ نَفْخَ الرُّوحِ فِي الصُّورَةِ الَّتِي صَوَّرَهَا وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ فَيَسْتَمِرُّ تَعَذِيبُهُ^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥١) كتاب اللباس - ومسلم (٢١٠٨) كتاب اللباس والزينة.

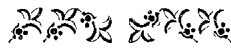
(٢) فتح الباري (٣٩٨/١٠).

ويُستثنى من هذا كله: الصور التي تكون للضرورة.. كصور البطاقة وجواز السفر وغير ذلك من الضرورات.



(١٦٨٨) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقَرَامٍ فِيهِ تَمَاثِيلٌ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلَوْنَ وَجْهَهُ وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ» قالت: فَقَطَعْنَاهُ، فَجَعَلْنَا مِنْهُ وَسَادَةً أَوْ وَسَادَتَيْنِ^(١).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٥٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١٦٨٩) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ فَيُعَذَّبُهُ فِي جَهَنَّمَ» قال ابن عباس: فَإِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا رُوحَ فِيهِ^(٢).

(١٦٩٠) وعنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كَلَّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث أنه جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال له: إني رجل أُصور هذه الصور.. وفي رواية البخاري أنه قال: إني إنسان إنما معيشتي من صنعة يدي وإني أصنع هذه التصاوير.

فقال له ابن عباس: لا أحدثك إلا بما سمعت من رسول الله ﷺ.. أي: لن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥٤) كتاب اللباس - ومسلم (٢١٠٧) كتاب اللباس.

«القرام»، هو السَّترُ. «السَّهْوَةُ» وهي: الصُّفَّةُ تكون بين يدي البيت، وقيل: هي الطَّاقُ النَّافِذُ في الحائط.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٢٥) كتاب البيوع، ومسلم (٢١١٠) كتاب اللباس.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٦٣) كتاب اللباس، ومسلم (٢١١٠) كتاب اللباس.

أقول لك قولاً من عندى ولن أذكر لك رأى.. بل سأذكر لك ما قاله النبى ﷺ..
ثم قال ابن عباس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً، فِي الدُّنْيَا
كُلَّفَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا» فَرَبَا الرَّجُلُ رَبْوَةً
شَدِيدَةً، وَاصْفَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ، إِنْ أُبَيِّتَ إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ، فَعَلَيْكَ بِهَذَا
الشَّجَرِ، وَكُلَّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ.

وفى رواية مسلم قال له ابن عباس: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ
فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا، نَفْسًا فَيُعَذِّبُ فِي جَهَنَّمَ» قال ابن عباس:
فإن كنت لا بد فاعلاً، فاصنع الشجر وما لا روح فيه.

ففى الرواية الأولى أن الله ﷻ يَعَذِّبُ المصور.. أى: يأمر الملائكة أن
تعذبه حتى ينفخ الروح فى تلك الصور.. ولن يستطيع أن ينفخ فيها الروح..
وفى الرواية الثانية أن الله ﷻ يجعل له بعدد كل صورة مكانها شخص
يعذبه... فلما ارتعد الرجل واصفرَّ وجهه قال له ابن عباس ليُطمئننه: وَيْحَكَ، إِنْ
أُبَيِّتَ إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ، فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ، وَكُلَّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ.

❖ فالشاهد: أن الصور التى ليس فيها روح لا بأس بها.. إنما المقصود هنا
الصور التى فيها روح.. إلا إذا كانت للضرورة -كما قلنا- كصور البطاقة وجواز
السفر وغير ذلك من الضرورات التى لا يستغنى عنها الإنسان فى حياته.. والله
أعلم.

❖ وأما الحديث الثانى: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كُلَّفَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»

يعنى: أنه لما صور صورة فى الدنيا وقد مُنع من ذلك وحُرم عليه ذلك، فإنه
يُعاقب يوم القيامة بأن يُكَلَّفَ بأن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، ولا يقدر على
النفخ، وليس بإمكانه أن ينفخ الروح فيها، وهذا تحذير من التصوير وترهيب منه.

(١٦٩١) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوَّرُونَ»^(١).

❖ والتقدير هنا: إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: وقد استشكل كون المصور أشد الناس عذابًا مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فَإِنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُصَوَّرُ أَشَدَّ عَذَابًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ... وَأَجَابَ الطَّبْرِيُّ: بِأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا مَنْ يُصَوِّرُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُوَ عَارِفٌ بِذَلِكَ قَاصِدًا لَهُ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ بِذَلِكَ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُدْخَلَ مُدْخَلَ آلِ فِرْعَوْنَ... وَأَمَّا مَنْ لَا يَقْصِدُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكُونُ عَاصِيًا بِتَصْوِيرِهِ فَقَطْ^(٢).

وقال الإمام النووي رحمته الله: هِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَنْ فَعَلَ الصُّورَةَ لِتُعْبَدَ وَهُوَ صَانِعُ الْأَصْنَامِ وَنَحْوِهَا فَهَذَا كَافِرٌ وَهُوَ أَشَدُّ عَذَابًا... وَقِيلَ هِيَ فِيْمَنْ قَصَدَ الْمَعْنَى الَّتِي فِي الْحَدِيثِ مِنْ مُضَاهَاةِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ فَهَذَا كَافِرٌ لَهُ مِنْ أَشَدِّ الْعَذَابِ مَا لِلْكَفَّارِ وَيَزِيدُ عَذَابُهُ بزيادة قُبْحِ كُفْرِهِ... فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَقْصِدْ بِهَا الْعِبَادَةَ وَلَا الْمُضَاهَاةَ فَهُوَ فَاسِقٌ صَاحِبُ ذَنْبٍ كَبِيرٍ وَلَا يَكْفُرُ كَسَائِرِ الْمَعَاصِي^(٣).

❖

(١٦٩٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»^(٤).

❖ قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ» أَي: لَيْسَ هُنَاكَ أَظْلَمُ «مِمَّنْ يَخْلُقُ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٩٥٠) كتاب اللباس، ومسلم (٢١٠٩) كتاب اللباس.

(٢) فتح الباري (٣٩٧/١٠).

(٣) مسلم بشرح النووي (١٣٢/١٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٧٥٥٩) كتاب التوحيد، ومسلم (٢١١١) كتاب اللباس.

كَخَلْقِي» أى: باعتبار التصوير والتقدير.. وإلا فالخلق الذى هو الإيجاد لا يكون من غيره سبحانه وتعالى أصلاً «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً» أى: نملة صغيرة أو ليخلقوا «حَبَّةً» من القمح «أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً» لأنها من أنواع الحبوب أيضاً.

وفى هذه المواضع، اللام على سبيل التعجيز والتبكيث... تارة بتكليفهم خلق حيوان وهذا أشد... وأخرى فى تكليفهم بخلق جماد، وهو أهون ومع ذلك لا قدرة لهم على ذلك^(١).

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: وَمَعْنَاهُ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً فِيهَا رُوحٌ تَتَصَرَّفُ بِنَفْسِهَا كَهَذِهِ الذَّرَّةِ الَّتِي هِيَ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى... وَكَذَلِكَ فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً حِنْطَةً أَوْ شَعِيرَةً أَوْ: لِيَخْلُقُوا حَبَّةً فِيهَا طَعْمٌ تُؤْكَلُ وَتُزْرَعُ وَتَنْبُتُ وَيُوجَدُ فِيهَا مَا يُوجَدُ فِي حَبَّةِ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْحَبِّ الَّذِي يَخْلُقُهُ اللهُ تَعَالَى وَهَذَا أَمْرٌ تَعْجِيزٌ كَمَا سَبَقَ وَاللهُ أَعْلَمُ^(٢).

يعنى إن كانوا صادقين يريدون أن يضاهاوا خلق الله فليخلقوا حبة من طعام، ولتكن من البر... لو اجتمع أهل الأرض كلهم بل وأهل السماء على أن يخلقوا حبة من حنطة فإنهم لا يستطيعون.

✽ **إِنَّ الْخَلْقَ فِي اللُّغَةِ خَلْقَانِ:** خَلَقَ بِمَعْنَى الْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ مِنَ الْعَدَمِ، وَخَلَقَ بِمَعْنَى التَّحْوِيلِ... وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الْخَلْقُ الْمُطْلَقُ، أى: الإيجاد والتكوين الأصلي... وأما الذى يُطْلَقُ عَلَيْهِ خَالِقٌ مِنْ دُونِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ ذَلِكَ مَجَازًا، فَيُقَالُ لِلنَّجَّارِ الَّذِي يَصْنَعُ هَذِهِ الطَّائِلَةَ مِثْلًا: قَدْ خَلَقَهَا وَصَنَّعَهَا وَفَطَرَهَا، وَلَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ خَلَقَهَا مِنْ عَدَمٍ... فَمَادَةُ هَذِهِ الطَّائِلَةِ هِيَ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ جَمِيعًا عَلَى أَنْ يَصْنَعُوا وَيَخْلُقُوا هَذَا الْخَشَبَ فَلَنْ يَقْدَرُوا عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ مَا تَفَرَّدَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِهِ مِنْذُ الْأَزَلِّ.

(١) دليل الفالحين (٤/٤٣٤).

(٢) مسلم بشرح النووى (١٤/١٣٢).

(١٦٩٣) وعن أبي طلحة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة»^(١).

(١٦٩٤) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وعد رسول الله ﷺ جبريل أن يأتيه، فراث عليه حتى اشتد على رسول الله ﷺ، فخرج فلقيه جبريل فشكا إليه. فقال: إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»^(٢).

(١٦٩٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: واعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في ساعة أن يأتيه، فجاءت تلك الساعة ولم يأت، قالت، وكان بيده عصا، فطرحها من يده وهو يقول: «ما يخلف الله وعده ولا رؤسُهُ» ثم التفت، فإذا جرو كلب تحت سريره. فقال: «متى دخل هذا الكلب؟» فقلت: والله ما دريت به، فأمر به فأخرج، فجاءه جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «وعدتني، فجلست لك ولم تأتني» فقال: «منعني الكلب الذي كان في بيتك وإنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»^(٣).

❦ ففي هذه الأحاديث أن جبريل عليه السلام واعد رسول الله ﷺ أن يأتيه في ساعة معينة.. فجاءت تلك الساعة ولم يأت جبريل عليه السلام... فنظر النبي ﷺ فوجد جرو كلب تحت سريره فسأل عائشة رضي الله عنها وقال: «متى دخل هذا الكلب؟» فقالت له: والله ما دريت.. وكأنها تتعجب: كيف دخل ذلك الكلب ولم يدخله أحد؟!... فأمر النبي ﷺ فأخرج الكلب..

فجاءه جبريل عليه السلام.. والفاء هنا تفيد التعقيب والسرعة.. أي: فجاءه جبريل مباشرة بعد خروج الكلب من البيت فقال له ﷺ: «وعدتني، فجلست لك ولم تأتني» فقال: «منعني الكلب الذي كان في بيتك وإنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة».

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٢٢) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢١٠٦) كتاب اللباس.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٥٩٦٠) كتاب اللباس.

راث: أبطأ وهو بالناء المثلثة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢١٠٤) كتاب اللباس والزينة.

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة».

قَالَ الْعُلَمَاءُ: سَبَبُ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ بَيْتٍ فِيهِ صُورَةٌ كَوْنُهَا مَعْصِيَةٌ فَاحِشَةٌ وَفِيهَا مُضَاهَاةٌ لِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى... وَبَعْضُهَا فِي صُورَةٍ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَسَبَبُ امْتِنَاعِهِمْ مِنْ بَيْتٍ فِيهِ كَلْبٌ لِكَثْرَةِ أَكْلِهِ النَّجَاسَاتِ وَلِأَنَّ بَعْضَهَا يُسَمَّى شَيْطَانًا كَمَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ... وَالْمَلَائِكَةُ ضِدُّ الشَّيَاطِينِ.. وَلِقُبْحِ رَائِحَةِ الْكَلْبِ وَالْمَلَائِكَةُ تَكْرَهُ الرَّائِحَةَ الْقَبِيحَةَ وَلِأَنَّهَا مِنْهُيٌّ عَنِ اتِّخَاذِهَا فَعُوقِبَ مُتَّخِذُهَا بِحَرَمَانِهِ دُخُولِ الْمَلَائِكَةِ بَيْتَهُ وَصَلَاتِهَا فِيهِ وَاسْتِغْفَارِهَا لَهُ وَتَبْرِيكِهَا عَلَيْهِ وَفِي بَيْتِهِ وَدَفْعِهَا أَذَى الشَّيْطَانِ... وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَا يَدْخُلُونَ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ أَوْ صُورَةٌ فَهُمْ مَلَائِكَةٌ يَطُوفُونَ بِالرَّحْمَةِ وَالتَّبْرِيكِ وَالِاسْتِغْفَارِ...

وَأَمَّا الْحَفَظَةُ فَيَدْخُلُونَ فِي كُلِّ بَيْتٍ وَلَا يَفَارِقُونَ بَنَى آدَمَ فِي كُلِّ حَالٍ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِإِحْصَاءِ أَعْمَالِهِمْ وَكِتَابَتِهَا... قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَإِنَّمَا لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ أَوْ صُورَةٌ مِمَّا يَحْرُمُ اقْتِنَاؤُهُ مِنَ الْكِلَابِ وَالصُّوَرِ... فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِحَرَامٍ مِنَ كَلْبِ الصَّيْدِ وَالزَّرْعِ وَالْمَاشِيَةِ وَالصُّورَةِ الَّتِي تُمْتَنُّ فِي الْبَسَاطِ وَالْوَسَادَةِ وَغَيْرِهِمَا فَلَا يَمْتَنَعُ دُخُولُ الْمَلَائِكَةِ بِسَبَبِهِ^(١).

بِسَبَبِ كَلْبِ الصَّيْدِ وَالزَّرْعِ وَالْمَاشِيَةِ وَالصُّورَةِ الَّتِي تُمْتَنُّ فِي الْبَسَاطِ وَالْوَسَادَةِ وَغَيْرِهِمَا فَلَا يَمْتَنَعُ دُخُولُ الْمَلَائِكَةِ بِسَبَبِهِ^(١).

(١٦٩٦) وعن أبي الهيثاج حيَّان بن حُصَيْن قال: قال لي علي بن أبي طالب

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ أَنْ لَا تَدْعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ^(٢).

❦ ففى هذا الحديث أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لحيان بن حُصَيْن: أَلَا

أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ «أَنْ لَا تَدْعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا

(١) مسلم بشرح النووي (١١٨/١٤).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٩٦٩) كتاب الجنائز.

مُشْرِفًا إِلَّا سَوِيَّتُهُ».

❖ قوله: «أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا»

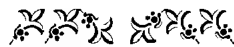
المراد بذلك الصور... فالمُجَسِّمَةُ منها تُكْسَرُ، والصور التي هي غير مجسمة تُطَمَسُ... إلا إذا كانت في شيء يُمْتَهَن كالفراش ونحوه فإنه لا بأس بذلك، لكن ليس للإنسان أن يشتريها، ولا أن يشتري شيئاً فيه صور... ولكنه إذا ابتلى به ووصل إليه من طريق لم يَسَعْ فيها فإنه يستعمله على وجه الامتهان.

❖ قوله: «وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوِيَّتُهُ»: المقصود من ذلك ألا يكون عليه بناء،

فلا يُرْفَع رفعا كبيرا بحيث يزداد عليه من غير ترابه، وإنما يكون في مقدار ترابه دون أن يزداد عليه شيء من غيره... وإن زيد عليه شيء خفيف مثل الحصى أو غير ذلك مما يُوضَع عليه حتى لا تأخذه الرياح فيضيع القبر، فيكون وضع هذا الحصى سبباً في بقاءه... فذلك سائغ ولا بأس به، وأما أن يزداد عليه شيء من غير القبر بحيث يُرْفَع، أو يُبْنَى عليه فإن ذلك لا يجوز ولا يسوغ.

ثم إن من العلماء من قال: إن القبر يكون مُسَطَّحًا، ومنهم من قال: إنه يكون مُسْنَمًا، أى: أنه يرتفع شيئاً يسيراً، بحيث يكون أعلاه ضيقاً وأصله واسعاً، فيتدرج شيئاً فشيئاً.

والأولى هو التسنيم؛ لأنه جاء ما يدل عليه في بعض الآثار التي وصفت قبر النبي ﷺ وأنه كان مُسْنَمًا... وأيضاً التسطیح عُرْضَةٌ لأن تمكث فوقه الحيوانات، فيكون ذلك سبباً لتهديمه، بخلاف ما إذا كان مُسْنَمًا، فإنه يكون مرتفعاً.



(٣٠٦) باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيد أو ماشية أو زرع

(١٦٩٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ صَيْدٍ أَوْ مَاشِيَةٍ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطَانِ»^(١).
وفي رواية: «قِيرَاطٌ».

(١٦٩٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُمْسَكَ كَلْبًا، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلَّ يَوْمٍ قِيرَاطٌ إِلَّا كَلْبَ حَرْثٍ أَوْ مَاشِيَةٍ»^(٢).
وفي رواية لمسلم: «مَنْ أَقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ، وَلَا مَاشِيَةٍ وَلَا أَرْضٍ، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ قِيرَاطَانِ كُلَّ يَوْمٍ».

✽ الكلب معلوم وهو ذو ألوانٍ متعددة ... لكن يختص الأسود منه بأنه شيطان كما قال النبي ﷺ حين سُئِلَ ما بال الكلب الأحمر من الأبيض من الأسود؟ قال: «الكلب الأسود شيطان»^(٣) والكلب الأسود إذا مرَّ بين يدي المصلي قطع صلاته، ووجب عليه أن يستأنفها من جديد، وكذلك إذا مرَّ بين المصلي وسُتْرَتِه فإنه يقطع الصلاة، ويستأنفها من جديد... والكلب الأسود لا يحل صيده عند أكثر العلماء حتى لو كان مُعَلِّمًا وأرسله صاحبه وسمَّى عليه؛ فإنه لا يحل صيده لأنه شيطان ... وإذا كان الكفار من بنى آدم لا يحل صيدهم ما عدا اليهود والنصارى فكذا هذا الكلب الشيطان لا يصح صيده... وأما غيره من الكلاب ذات الألوان المتعددة فإنها لا تبطل الصلاة ويباح صيدها بالشروط المعروفة عند العلماء ... وأما اتخاذ الكلب وكون الإنسان يقتنيه فإن هذا حرام^(٤).

✽ ومما لا شك فيه أنه يحرم على الإنسان اقتناء الكلب إلا في الأمور التي

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٨١) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٥٧٤) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٢٢) كتاب المزارعة - ومسلم (١٥٧٥) كتاب المساقاة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥١٠) كتاب الصلاة.

(٤) شرح رياض الصالحين (٢١٣/٤).

نَصَّ الشرع على جواز اقتنائه فيها ... فإن «مَنْ اتَّخَذَ كَلْبًا - إِلَّا كَلْبَ مَاشِيَةٍ أَوْ صَيْدٍ أَوْ زَرْعٍ - انْتَقَصَ مِنْ أَجْرِهِ كُلِّ يَوْمٍ قِيرَاطَانٌ»^(١) وإذا كان يُنتَقَصُ مِنْ أَجْرِهِ قِيرَاطَانٌ فإنه يَأْتُمُ بِذَلِكَ لِأَن فَوَاتَ الْأَجْرَ كَحَصُولِ الْإِثْمِ كِلَاهُمَا يَدُلُّ عَلَى التَّحْرِيمِ ... أَى عَلَى مَا رُتِّبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وهذه المناسبة فإنى أنصح كل أولئك الذين اغتروا بما فعله الكفار من اقتناء الكلاب وهى خبيثة ونجاستها أعظم نجاسات الحيوانات ... فإن نجاسة الكلاب لا تطهر إلا بسبع غسلات إحداها بالتراب ... حتى الخنزير الذى نَصَّ الله فى القرآن أنه محرم وأنه رجس فنجاسته لا تبلغ هذا الحد.

فالكلب نجسٌ خبيث ... ولكن مع الأسف الشديد نجد أن بعض الناس اغتروا بالكفار الذين يَأْلِفُونَ الْخَبَائِثَ فصاروا يَقتَنُونَ هذه الكلاب بدون حاجة وبدون ضرورة. يَقتَنُونَهَا وَيُربُونَهَا وَيَنظِفُونَهَا مَعَ أَنَّهَا لَا تَنظَفُ أَبَدًا وَلَوْ نُظِفَتْ بِالْبَحْرِ مَا نُظِفَتْ لِأَن نَجَاسَتَهَا عَيْنِيَّةٌ ... ثُمَّ هُمْ يَخْسِرُونَ أَمْوَالًا كَثِيرَةً فَيُضْيِعُونَ بِذَلِكَ أَمْوَالَهُمْ وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ^(٢).

فأنصح هؤلاء المغترين أن يتوبوا إلى الله ﷻ وَأَنْ يُخْرِجُوا الْكِلَابَ مِنْ بَيْتِهِمْ ... أَمَا مَنْ أَحْتَاجَ إِلَيْهَا لَصَيْدٍ أَوْ حَرْثٍ أَوْ مَاشِيَةٍ فَإنه لَا بَأْسَ بِذَلِكَ لِإِذْنِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ.

❁ وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ الْمُسْلِمُ إِذَا اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبِ صَيْدٍ وَلَا مَاشِيَةٍ وَلَا زَرْعٍ - أَى لِلْحِرَاسَةِ - فَإنه يَنْقُصُ مِنْ عَمَلِهِ كُلِّ يَوْمٍ قِيرَاطَانٌ مِنَ الْحَسَنَاتِ .. بَلْ فَوْقَ ذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ .. وَلَكِ أَنْ تَتَصَوَّرَ بَيْتًا لَيْسَ فِيهِ مَلَائِكَةٌ ... فَإِذَا خَلَا الْبَيْتَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَشَّشَتْ فِيهِ الشَّيَاطِينُ وَكَثُرَتِ الذُّنُوبُ وَالْمَشَاكِلُ وَكَانَ ذَلِكَ إِذَا نَآ بِخُرُوجِ الْبَرَكَةِ مِنْ ذَلِكَ الْبَيْتِ.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٨١) كتاب الذبائح والصيد - ومسلم (١٥٧٤) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٧٧) كتاب الزكاة، ومسلم (٥٩٣) كتاب الأقضية.

(٣٠٧) باب كراهية تعليق الجرس في البعير

وغیره من الدواب

وكراهية استصحاب الكلب والجرس في السفر

(١٦٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تصحب الملائكة رُفْقَةً فيها كلبٌ أو جرسٌ»^(١).

(١٧٠٠) وعنه أن النبي ﷺ قال: «الجرس من مزامير الشيطان»^(٢).

✽ ففي الحديث الأول أخبر النبي ﷺ أن الملائكة لا تصحب رُفْقَةً فيها كلب أو جرس.. والمقصود هنا: الكلب الغير مأذون فيه.. وإلا فقد أخبر النبي ﷺ في حديث آخر أنه يجوز للإنسان أن يقتني كلباً للصيد أو الماشية أو الزرع.. فأما إن كان كلباً لغير ذلك فإن الملائكة لا تصحب هذه الرفقة:

وأما الحديث الثاني فقد وضح النبي ﷺ السبب لعدم صحبة الملائكة لتلك الرفقة التي فيها جرس: وذلك كون الجرس من مزامير الشيطان. والجرس معلوم وهو هذا الذي يُعلّق على الدواب، ويكون له رنة مُعينة تجلب النشوى والطرب والتمتع بصوته... فهذا نهى عنه النبي ﷺ بالتحذير منه حيث أخبر أن الملائكة لا تصحب رُفْقَةً فيها جرس... لأنه مع مشى الدواب وهملجتها يكون له شيء من العزف والموسيقى.

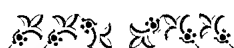
قال الإمام النووي رحمته الله: «أما فقه الحديث ففيه كراهة استصحاب الكلب والجرس في الأسفار وأن الملائكة لا تصحب رُفْقَةً فيها أحدهما».

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١١٣) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢١١٤) كتاب اللباس والزينة.

وَالْمُرَادُ بِالْمَلَائِكَةِ الْمَلَائِكَةُ الرَّحِمَةُ وَالِاسْتِغْفَارُ لَا الْحَفْظَةُ ... وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ هَذَا قَرِيبًا وَسَبَقَ بَيَانُ الْحِكْمَةِ فِي مُجَانِبَةِ الْمَلَائِكَةِ بَيِّنًا فِيهِ كَلْبٌ ... وَأَمَّا الْجَرَسُ فَقِيلَ سَبَبُ مُنَافَرَةِ الْمَلَائِكَةِ لَهُ أَنَّهُ سَبَبُهُ بِالنَّوَاقِيسِ أَوْ لِأَنَّهُ مِنَ الْمَعَالِيْقِ الْمُنْهَى عَنْهَا.

وَقِيلَ: سَبَبُهُ كَرَاهَةُ صَوْتِهَا ... وَتُوَيْدُهُ رِوَايَةُ «مَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ..» وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ كَرَاهَةِ الْجَرَسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ هُوَ مَذْهَبُنَا وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَآخَرِينَ وَهِيَ كَرَاهَةُ تَنْزِيهِهِ^(١).



(١) مسلم بشرح النووي (١٤/١٣٣-١٣٤).

(٣٠٨) بَابُ كِرَاهَةِ رُكُوبِ الْجَلَّالَةِ

وهى البعير أو الناقة التى تأكل العذرة

فإن أكلت علفاً طاهراً فطاب لحمها زالت الكراهة

(١٧٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن الجلالة في الإبل أن يُركب عليها^(١).

✽ الجلالة: هى التى تأكل الجلة يعنى: أنها تأكل روث الحمير ونجاسة الآدمى وما أشبه ذلك حتى يتغير ريحها ويتلوث شىء من بدنها أو قدمها أو ما أشبه ذلك.. فلهذا نهى النبي ﷺ عن ركوبها وأكل لحمها وشرب لبنها.... فلو كانت ناقة أو بقرة أو شاة أو دجاجة تأكل الروث والنجاسات فإنها تكون جلالة... فما كان منها يُركب فإنه يُنهى عن ركوبها كراهة تنزيه.. ويكره أكل لحمها كراهة تنزيه أو تحريم....

وأما إذا كانت تأكل الطيب والقيح.. لكن أكثر أكلها الطيب فإنها ليست جلالة.. بل هى مُباحة.

وإذا كانت جلالة فحُبست بعيدة عن العذرة والنجاسات زمناً وعُلفت أكلاً طاهراً فطاب لحمها وذهب اسم الجلالة عنها حلَّت لأن علة النهى والتغيير قد زالت... ووجه النهى عن ركوب الجلالة أن العرق يصيب الإنسان عندما يتصبب من جلدها.

ومن العلماء من قال: ليس النهى للتحريم بل هو للكرَاهة؛ وذلك لكونها أكلت هذه المادة النجسة... فالنهى عن الركوب هو من أجل العرق؛ لأن الحُمُر الأهلِيَّة تُركب وهى مع ذلك لا تُؤكل.

(١) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨٧٥).



(٣٠٩) باب النهي عن البصاق في المسجد

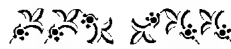
والأمر بإزالته منه إذا وجد فيه

والأمر بتنزيهه المسجد عن الأقدار

(١٧٠٢) عن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «البُّصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ، وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا»^(١).

❁ قال الإمام النووي رحمته الله:

والمرادُ بِدَفْنِهَا إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ تَرَابًا أَوْ رَمْلًا وَنَحْوَهُ، فَيَوَارِيهَا تَحْتَ تَرَابِهِ. قَالَ أَبُو الْمَحَاسَنِ الرُّوْيَانِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْبَحْر» وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِدَفْنِهَا إِخْرَاجُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ مُبْلَطًا أَوْ مُجَصَّصًا، فَدَلَّكَهَا عَلَيْهِ بِمَدَاسِهِ أَوْ بغيرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَفْنٍ، بَلْ زِيَادَةٌ فِي الْخَطِيئَةِ وَتَكْثِيرٌ لِلْقَدْرِ فِي الْمَسْجِدِ، وَعَلَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَنْ يَمْسَحَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِثَوْبِهِ أَوْ يَبْدِهِ أَوْ غَيْرِهِ أَوْ يَغْسِلَهُ^(٢).



(١٧٠٣) وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي جِدَارِ الْقِبْلَةِ مُخَاطًا، أَوْ بُزَاقًا، أَوْ نُخَامَةً، فَحَكَّهُ^(٣).

❁ فالنبي ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَمَّا رَأَى مُخَاطًا أَوْ بُزَاقًا فِي جِدَارِ الْقِبْلَةِ فَحَكَّهُ... فَلْأَصْلُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ لِيُصَلِّيَ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ﷻ فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَبْصُقَ أَوْ يَتَنَخَّمَ فِي الْمَسْجِدِ سِوَاءَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ عَلَى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤١٥) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٥٢) المساجد ومواضع الصلاة.

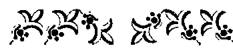
(٢) رياض الصالحين (ص ٤٩٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٧) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٤٩) المساجد ومواضع الصلاة.

الحائط.. وكان المسجد على عهد النبي ﷺ مفروشاً بالحصى والتراب فكان الرجل إذا غلبه البصاق ويصق فكانت كفارته دفنها تحت التراب لئلا يتأذى المصلون .. وإلا فقد كان أحدهم إذا أراد أن يبصق كان يخرج خارج المسجد.. لكنه كان لا يفعل ذلك إلا إذا غلبه ذلك وكان في الصلاة.

فلا يجوز أن يبصق الإنسان في المسجد سواء كان ذلك على عهد النبي ﷺ أو على عهدنا لأن المسجد له حُرمة. ولأن الإنسان إذا فعل ذلك فإنه يتسبب في إيذاء المصلين ويكون ذلك فيه إهانة لبيت الله ﷻ..

وكان كفارة ذلك دفنها على عهد النبي ﷺ... إذا كانت على الأرض.. أو حُكَّها إذا كانت على الجدار.. أما في زماننا هذا فإن الرجل يُخرج المنديل ليبصق فيه.. فإذا وقعت منه على الأرض فإنه يمسحها ولا يدفنها لأن الأرض مفروشة بالسجاد أو الموكيت... فيا ليت كل واحد منا يكون معه منديل حتى إذا اضطر إلى ذلك وضعها في المنديل.. فإن لم يكن معه منديل واضطر إلى ذلك فليمسحها في ثوبه ولا يبصق على الأرض حتى لا ينتهك حُرمة المسجد وحتى لا يتأذى المصلون بسببه.



(١٧٠٤) وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لشيءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١).

❖ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١١٦٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(٣١٠) باب كراهية الخصومة في المسجد

ورفع الصوت فيه ونشد الضالة،

والبيع والشراء والإجارة، ونحوها من المعاملات

(١٧٠٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»^(١).

(١٧٠٦) وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَتَّاعُ فِي الْمَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فَقُولُوا: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ»^(٢).

(١٧٠٧) وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا وَجَدْتُ؛ إِنَّمَا بُنِيتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيتَ لَهُ»^(٣).

(١٧٠٨) وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الشُّرَاءِ وَالْبَيْعِ فِي الْمَسْجِدِ، وَأَنْ تُنْشَدَ فِيهِ ضَالَّةٌ؛ أَوْ يُنْشَدَ فِيهِ شَعْرٌ^(٤).

(١٧٠٩) وعن السائب بن يزيد الصحابي رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ: اذْهَبْ فَأَتِنِي بِهِذَيْنِ، فَحِثُّهُنَّ بِهِمَا، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ فَقَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا وَجَعْتُكُمَا، تَرَفَعَانِ أَصَوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!^(٥).

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: زواه الترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩) كتاب المساجد.

(٤) حسن: رواه أحمد، وأصحاب السنن وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٨٥).

(٥) صحيح: رواه البخاري (٤٧٠ / ١) كتاب الصلاة.

فحصبني: أى رمانى بالحصباء وهى الحصى الصغار.

❦ لا بد أن نعلم أولاً قدر المساجد في الإسلام.

فالمسجد هو المحضن التربوي الذي استطاع النبي ﷺ من خلاله أن يربي أصحابه (رضي الله عنهم) ... والمساجد أحب البلاد إلى الله وهي خير البقاع.. والمسجد بيت كل مؤمنٍ تقى.. ومن بنى مسجدًا لله بنى الله له بيتًا في الجنة.. وتعلق القلب بالمساجد يوجب لك ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ فِي يُثُوبٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦) رِجَالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ تَحْرَجُهُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (٣٧) لِيَجْزِيَهمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ [النور: ٣٦-٣٨].

❦ ومن أجل ذلك كان لتلك المساجد أحكام ولها حُرُمات يجب أن تحترم.

ومن ذلك أنه لا يحل للجُنُب أن يمكث في المسجد إلا بوضوء.. لأن الملائكة لا تدخل ذلك المكان وإن دخلوا فإنهم يتأذون بذلك.. ولهذا نقول: مَنْ كان عليه جنابة فلا يدخل المسجد إلا أن يتوضأ واستثنينا الوضوء؛ لأن الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا ينامون في المسجد فتصيب أحدهم الجنابة فيقوم ويتوضأ ويرجع فينام... وهذا في عهد النبي ﷺ وقد أقرهم الرسول ﷺ على ذلك.

ومنها: أي من أحكام المساجد أن الإنسان إذا دخل المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين في أي وقتٍ دخل في الصباح.. في المساء.. في الليل في النهار عند طلوع الشمس.. عند غروبها.. في أي وقت؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ»^(١).

ومن أحكام المساجد أنه لا يجوز بها البيع والشراء سواء كان قليلاً أو كثيراً،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١١٦٧) كتاب التهجيد - ومسلم (٧١٤) كتاب صلاة المسافرين.

فإن ذلك حرام عليك والبيع فاسد لا يتقبل فيه الثمن للبائع ولا المبيع للمشتري.. ويجب أن يرد كل واحدٍ منهما للآخر ما أخذ منه سواء قلَّ أو كثر... لأن المسجد سوق الآخرة وليس سوقاً للدنيا.

بل إن النبي ﷺ أمرنا إذا رأينا من يبيع أو يشتري في المسجد أن نقول له: «لا أربح الله تجارتك».

ومُحال أن يأمرنا النبي ﷺ بذلك - وهو الذي ما أرسله الله إلا رحمة للعالمين - إلا إذا كان هذا الفعل قبيحاً.. شرعاً وعقلاً.

❦ وكذلك لا يجوز إنشاد الضالة في المسجد فإن بعض الناس إذا ضاع منه شيء فإنه يذهب إلى المسجد ويطلب من القائمين عليه أن يعلنوا في «الميكروفون» عن ضالته... وهذا خطأ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

قال ﷺ: «مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا»^(١).

بل دعا النبي ﷺ نفسه على رجل نادى على جمل أحمر ضاع منه، فأخذ ينادى عليه في المسجد فقال النبي ﷺ: «لَا وَجَدْتَ، إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيََتْ لَهُ»^(٢).

❦ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: في هذا الحديث فوائد منها:

النهى عن نشد الضالة في المسجد ويلحق به ما في معناه من البيع والشراء والإجارة ونحوها من العقود وكراهة رفع الصوت في المسجد. ومن المخالفات المكروهة تسامر الناس في المساجد بحديث الدنيا وربما علت أصواتهم وارتفع ضحكهم وكثر تصفيقهم الحاد وتصفيرهم المزعج.

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٦٩) كتاب المساجد.

وفي هذا هتُكُّ لحُرمة بيوت الله تعالى التي أعدها لعبادته ... وفيه أيضًا إيذاء للمصلين ومنع للمتعبدين^(١).

فمن أبي سعيد الخدري: «اعتكف رسول الله ﷺ في المسجد، فسمعهم يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السُّتْرَ، وَقَالَ: «أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ»^(٢).

وهذا النهي وقع عند رفع أصواتهم بالذكر والقرآن، فكيف إذا كان بكلام فيه ما فيه من الحرمة والتشويش.

ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلين يرفعان أصواتهما في المسجد أرسل إليهما السائب بن يزيد فقال: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهِذَيْنِ، فَجَاءَ بِهِمَا، قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا - أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ - قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ؟!^(٣).

❁ فائدة هامة:

بعض الناس يمنع الكلام في المسجد عامة ما لم يكن ذكرًا ويستدلون على ذلك بحديث ضعيف أن النبي ﷺ قال: «الكلام في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»، وهو حديث لا أصل له. قال العراقي: «لم أقف له على أصل».

فالحديث في أمور الدنيا في المسجد ليس حرامًا ولكن بشرط ألا يكون فيه تشويش على المصلين وألا يكون برفع الصوت وألا يكون بكلام فاحش^(٤).

وأما إنشاد الأشعار في المسجد الذي وردت الأحاديث بالنهي عنها، والمراد

(١) الإبداع في مضار الابتداع (ص: ١٧٩).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٣٩).

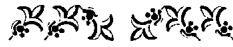
(٣) صحيح: رواه البخاري (٤٧٠) كتاب الصلاة.

(٤) تحذير الساجد من أخطاء العبادات والعقائد / الشيخ محمود المصري.

بذلك الأشعار التي تحتوى على اللغو أو التي لا خير فيها.

وأما الشعر الحلال الذى يَحْتَثُّ على الزهد والجهاد وغيره من مكارم الأخلاق فلا بأس به، بشرط ألا يطغى على الإنسان بحيث يشغله عن القرآن وبشرط ألا يؤثر على مَنْ يصلى فى المسجد.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه مَرَّ بِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه يَنشُدُ فى المسجد فلحظ إليه^(١)، فقال: قَدْ كُنْتُ أَنشُدُ فِيهِ وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ: أَنشُدْكَ بِاللَّهِ أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: أَجِبْ عَنِّي اللَّهُمَّ أَيَّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»^(٢).



(١) لحظ إليه: أى نظر إليه شزرًا.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢١٢) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٤٨٥) كتاب فضائل الصحابة.

(٣١١) بَابُ نَهْيِ مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا أَوْ كُرَاثًا

أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ

عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ قَبْلَ زَوَالِ رَائِحَتِهِ إِلَّا لِحُضْرَةٍ

(١٧١٠) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي: الثُّومَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَسَاجِدُنَا».

(١٧١١) وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَا يَقْرَبُنَا، وَلَا يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا»^(٢).

(١٧١٢) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا»^(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ، وَالثُّومَ، وَالْكَرَاثَ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ».

(١٧١٣) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ مَا أَرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ: الْبَصَلَ، وَالثُّومَ. لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي الْمَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ، فَأُخْرِجَ إِلَى الْبَقِيعِ، فَمَنْ أَكَلَهُمَا، فَلْيَمِئْتَهُمَا طَبَخًا^(٤).

✽ وَالْحَاصِلُ أَنَّ الرِّوَايَاتِ الْكَرِيهَةَ الَّتِي تُوْذَى النَّاسُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَدَّ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٥٣) كتاب الأذان - ومسلم (٥٦١) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٨٥٦) كتاب الأذان - ومسلم (٥٦٢) كتاب المساجد.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٤٥٢) كتاب الأطعمة - ومسلم (٥٦٤) كتاب المساجد.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٥٦٧) كتاب المساجد.

عنها... هذا ما كان مباحاً منها، وأما ما كان محرماً كالدخان فإنه لا يجوز له أن يتعاطاه أبداً.... وأما الثوم والبصل وغيرهما من الأمور المباحة مما فيه رائحة كريهة، فإن على الإنسان أن يحذر من أن يؤذى الناس بهذه الرائحة، فإذا احتاج الأمر إلى أكلها فإنه يستعمل معها شيئاً يزيل أثرها، أو يأكلها في وقتٍ مبكر، بحيث إذا جاء الوقت الذي يذهب فيه إلى المسجد تكون تلك الرائحة قد ذهبت، فلا يحصل الإيذاء بسبب أكل الثوم والبصل أو يستعمل شيئاً يزيل تلك الرائحة.

يقول الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: إنما أمره باعتزال المسجد عقوبة له، وليس هذا من باب الأعذار التي تُبيح للمرء التخلف عن الجماعة كالмطر والريح العاصف ونحوهما.

يعنى: أن الإنسان لا يكون معذوراً إذا أكل الثوم وتخلف عن صلاة الجماعة، بل إن أمره بالاعتزال من العقوبات... ووجهها أنه يُحال بينه وبين هذا الخير، وذلك أن أكل الثوم والبصل يمكن أن يكون على وجهٍ لا يحصل معه التأخر عن الجماعة إذا احتاج إليه، بأن يكون ذلك في وقتٍ مبكر، بحيث يأتي وقت الجماعة وليس هناك أثر لتلك الرائحة الكريهة.

❦ قال الإمام النووي: هذا تصريح بنهى مَنْ أكل الثوم ونحوه عن دخول كل مسجد، وهذا مذهب العلماء كافة.

قال العلماء: ويلحق بالثوم والبصل والكراث كل ماله رائحة كريهة من المأكولات وغيرها... قال القاضى: ويلحق به مَنْ أكل فجلاً وكان يتجشئ. قال: وقال ابن المرباط: ويلحق به مَنْ به بخرٌ في فيه، أو به جرح له رائحة.

قال القاضى: وقاس العلماء على هذا مجامع الصلاة غير المسجد كمُصلّى العيد والجنائز ونحوها من مجامع العبادات، وكذا مجامع العلم والذكر

والولائم ونحوها.

قال العلماء: في هذا الحديث دليل على منع أكل الثوم ونحوه من دخول المسجد وإن كان خالياً؛ لأنه محل الملائكة، ولعموم الأحاديث^(١).

وأقول: فإن كان هذا النهى عن شيء أحله الله فما ظنك بمن يشرب الدخان الذى حرمه الله ثم يأتى ليصلى بين يدي الله فيؤذى كل من حوله.

والمراد هنا: من أكل هذه الأشياء نيئة ... فإن أكلها مطبوخة فلا حرج في ذلك لزوال علة التأذى بالرائحة.

وهذا يفيد بأن الإنسان يستعملهما مطبوختين حتى لا يكون لهما رائحة، ومعلوم أن الثوم حتى مع الطبخ يكون فيه شيء من الرائحة، لكن ليست كالحالة التى يكون فيها قبل الطبخ.

والنهي عنهما ليس المقصود به تحريمهما ... فالثوم والبصل ليسا حراماً بل يجوز للإنسان أكلهما لكن الأفضل أن يأكلهما مطبوخين حتى لا يؤذى المصلين في الصلاة ولا طلبة العلم في مجالس العلم وغيرها.

وأخيراً: هل يجوز للإنسان أن يأكل بصلاً أو ثوماً لئلا يحضر صلاة الجماعة؟.. كلا.. فهذا حرامٌ عليه لأنه لا يجوز للإنسان أن يتوصل إلى إسقاط الفرض بأى سببٍ كان.



(١) مسلم بشرح النووي (٥/٦٧: ٦٩) بتصرف.



(٣١٢) باب كراهية الاحتباء يوم الجمعة

والإمام يخطب لأنه يجلب النوم،

فيُفوت استماع الخطبة ويخاف انتقاض الوضوء

(١٧١٤) عن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْحَبْوَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ ^(١).

✽ الحبوة أو الاحتباء: هو أن يضم الإنسان فخذه إلى بطنه وساقه إلى فخذه.. ويربط نفسه بسير أو عمامة أو يُمسك ساقه بيديه.. وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك أثناء خطبة الإمام يوم الجمعة لسببين:

الأول: أن تلك الحبوة قد تكون سبباً لجلب النوم فينام أثناء الخطبة.. وقد يؤدي ذلك إلى انتقاض الوضوء.. لأن النوم العميق من أسباب انتقاض الوضوء.. فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: «العين وكاء السَّه، فإذا نامت العينُ استطلقت الوكاء» ^(٢)، فكون الإنسان يجلس على هذه الهيئة يكون سبباً في نومه، والنوم يترتب عليه انتقاض الوضوء بأن يخرج منه ريح، فيترتب على ذلك أن يقوم ويترك الخطبة ويتوضأ، فيُفوت على نفسه حضور الخطبة.. وقد تفوته الصلاة أو يفوته شيء من الصلاة... فأرشد (عليه الصلاة والسلام) إلى عدم هذا الفعل، ونهى عن هذه الحبوة والإمام يخطب.

الثاني: أنه لو تحرك لبدت عورته لأن غالب لباس الناس فيما سبق الأزر والأردية... ولو تحرك أو انقلب لبدت عورته... وأما إذا أُنْ أَمْن ذلك فإنه لا بأس بها؛ لأن النهي إذا كان لعلة معقولة فزالت اللة فإنه يزول النهي.

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٧٦).

(٢) حسن: رواه البيهقي في السنن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٨).

(٣١٣) بَابُ نَهْيِ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ

وَأَرَادَ أَنْ يُضْحِيَ عَنْ أَخْذِ شَيْءٍ

مِنْ شَعْرِهِ أَوْ أَظْفَارِهِ حَتَّى يُضْحِيَ

(١٧١٥) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ذُبْحٌ يَذْبُحُهُ، فَإِذَا أَهْلَ هِلَالِ ذِي الْحِجَّةِ، فَلَا يَأْخُذَنَّ مِنْ شَعْرِهِ وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حَتَّى يُضْحِيَ» ^(١).

❁ والمقصود من ذلك: مَنْ كَانَ يَرِيدُ أَنْ يُضْحِيَ سِوَاءَ كَانَ الذَّبْحُ مَوْجُودًا فِي حَوْزَتِهِ وَفِي مَلَكِهِ، أَوْ يَرِيدُ أَنْ يَشْتَرِيهِ إِذَا جَاءَ وَقْتُ الْأُضْحِيَّةِ.

«فَلَا يَأْخُذُ مِنْ شَعْرِهِ وَلَا مِنْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حَتَّى يُضْحِيَ» أَيُّ أَنَّهُ يَمْتَنَعُ مِنْ حِينَ دُخُولِ الْعَشْرِ... وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَاهَدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ الْعَشْرُ، كَمَا أَنَّ الَّذِي يَرِيدُ الْإِحْرَامَ يَتَعَاهَدُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُحْرَمَ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى أَخْذِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ.

❁ فَإِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَأَرَدْتَ أَنْ تُضْحِيَ عَنْ نَفْسِكَ أَوْ عَنْ غَيْرِكَ مِنْ مَالِكَ فَلَا تَأْخُذْ شَيْئًا مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ أَوْ الْإِبْطِ أَوْ الْعَانَةِ أَوْ اللَّحْيَةِ أَوْ الشَّارِبِ حَتَّى تُضْحِيَ.. وَلَا تَأْخُذْ شَيْئًا مِنَ الظَّفَرِ.. سِوَاءَ كَانَ مِنَ الْيَدِ أَوْ الْقَدَمِ حَتَّى تُضْحِيَ..



(٣١٤) باب النهي عن الحلف بمخلوق

كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء
والحياة والروح والرأس ونعمة السلطان،
وتربة فلان، والأمانة.. وهى من أشدها نهياً

(١٧١٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١).

وفى رواية فى الصحيح: «فَمَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلَا يَحْلِفْ إِلَّا بِاللَّهِ، أَوْ لِيَسْكُتْ».

❁ وفى رواية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻋَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» قال عمر: فَوَاللَّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، نَهَى عَنْهَا ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا.

❁ قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ» أى: ينهاكم يا معشر المؤمنين! ويا معشر المؤمنين! أى: لا ينهى عمر فقط، وإنما ينهى عمر ومن معه من الأمة إلى قيام الساعة عن الحلف بالآباء.

❁ قال عمر رضي الله عنه: «فوالله ما حلفت بها - أى: بآبائى - منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها ذاكراً ولا آثراً»، يعنى: لم يحلف قط بغير الله ﻋَزَّ وَجَلَّ بعد أن سمع النهى فى ذلك، ولا أنه نقل يمين غيره... وهذا معنى: (ولا آثراً)، أى: لا يروى كلاماً عن الآخرين فيه يمين بغير الله.

❁ قال الإمام النووى رحمته الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْحِكْمَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْحَلْفَ يَقْتَضِي تَعْظِيمَ الْمَحْلُوفِ بِهِ ... وَحَقِيقَةُ الْعُظْمَةِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٠٨) كتاب الأدب - ومسلم (١٦٤٦) كتاب الإيمان.

مُخْتَصَّةٌ بِاللَّهِ تَعَالَى فَلَا يُضَاهِي بِهِ غَيْرُهُ ... وقد جاء عن ابن عباسٍ لَأَنْ أُحْلِفَ بِاللَّهِ مِائَةَ مَرَّةٍ فَأَتَمَّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ أُحْلِفَ بِغَيْرِهِ فَأَبْرَ ... فَإِنْ قِيلَ الْحَدِيثُ مُخَالَفٌ لِقَوْلِهِ ﷺ «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ» فَجَوَابُهُ أَنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ تَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ لَا يُقْصَدُ بِهَا الْيَمِينُ^(١).

فكثير من الناس من أهل زماننا إذا أراد أحدهم أن يحلف فإنه يقول: والعيش والملح ... والنعمة ... والكعبة الشريفة ... وحياة عيالي ... والعشرة الكرام ... وشرفي ... وتربة أُمي ... ورأس أبويا ... والنبى ... وحياتي عندك ... إلى آخره.

وهذا كله من الشرك الأصغر لأن هذا النوع من التعظيم لا يصلح إلا لله ﷻ ... وَمَنْ عَظَّمَ غَيْرَ اللَّهِ بِمَا لَا يَكُونُ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ شَرِكٌ ... لكن لما كان هذا الحالف لا يعتقد أن عظمة المحلوف به كعظمة الله لم يكن الشرك شركاً أكبر بل كان شركاً أصغر. فمن حلف بغير الله فقد أشرك شركاً أصغر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧١٧) وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاعِي، وَلَا بِأَبَائِكُمْ»^(٢).

والشاهد: أن كل ما دون أسماء الله ﷻ وصفاته منهيٌّ أن نحلف به. قال أهل اللغة: الطواغي هي الأصنام، واحداً طاغية، بخلاف الطواغيت واحداً طاغوت ... ومنه: هذه طاغية دوس، أى: صنمهم ومعبودهم. وُسْمَى باسم المصدر لطغيان الكفار بعبادته؛ لأنه سبب طغيانهم وكفرهم.

(١) مسلم بشرح النووي (١١/ ١٥٠-١٥١).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٨) كتاب الأيمان.

«الطَّوَاعِي»: جَمْعُ طَاغِيَةٍ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «هَذِهِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ»: أَيْ صَنَمُهُمْ وَمَعْبُودُهُمْ. وَرُويَ فِي غَيْرِ مُسْلِمٍ: «بِالطَّوَاعِيَّتِ» جَمْعُ طَاغُوتٍ، وَهُوَ الشَّيْطَانُ وَالصَّنَمُ.

وكل ما جاوز الحد يُقال: طغى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١]، أى: لما فاض وتجاوز الحد بالطغيان والثوران والسيلان... ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغيت»، وهو جمع طاغوت، وهو الصنم أو الشيطان، أو هو كل ما تجاوز الحد راضياً بذلك، فيُقال له: طاغوت... ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ [الزمر: ١٧]. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] ^(١).

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بأبائكم، ولا بأمهاتكم، ولا بالأنثاد - كل ما سوى الله - ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون» ^(٢).

فلا تحلف بغير الله أيًا كان المخلوف به، حتى لو كان النبي ﷺ أو جبريل أو من دونهما من الرسل ومن الملائكة أو البشر أو من دون الرسل... فلا تحلف بشيء سوى الله عز وجل.

فمن كان قد تعود لسانه على الحلف بغير الله فليجاهد نفسه ألا يحلف أبداً وإذا أراد أن يحلف فلا يحلف إلا بالله... فإن أخطأ بغير قصد ولا تعمّد وحلف بغير الله فليقل في نفس اللحظة: «لا إله إلا الله».

ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ، فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامِرَكَ فَلْيَتَصَدَّقْ بِشَيْءٍ» ^(٣).

قد يقول قائل أليس الله تعالى أقسم بالمخلوقات فقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وقال: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤] وقال: ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] نقول: إن

(١) مسلم بشرح النووي (١٥٥/١١) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائي، وصححه الألباني رحمته الله في صحيح الجامع (٧٢٤٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨٦٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٦٤٧) كتاب الإيمان.

الله تعالى له أن يحلف بما شاء من خلقه فهو إذا حلف بشيء كان ذلك دليلاً على عظمة الله؛ لأن عِظَمَ المخلوق يدل على عِظَمِ الخالق.

فإن قال القائل: نسمع بعض الناس تقول: أقسم بآيات الله... فهل هذا حلف بغير الله وهل هذا كفر أو شرك؟.. نقول: ماذا يريد بآيات الله.. إن أراد بآيات الله الشمس والقمر والليل والنهار فهذا حلف بغير الله فيكون مشركاً.

وإن قال: أريد بآيات الله القرآن؛ لأن القرآن آيات الله عَزَّوَجَلَّ فهذا ليس بمشرك لماذا؟ لأن القرآن الكريم كلام الله.. وكلام الله تعالى من صفاته.. فإذا قال: أقسم بآيات الله أقصد بذلك القرآن قلنا: هذا قَسَمٌ صحيح وليس فيه شيء^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧١٨) وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٢).

❁ فهذا الحديث فيه الزجر والتحذير وبيان خطورة الحلف بالأمانة، فهو على هذا مُحَرَّم... وكل حلف بغير الله فهو مجرم؛ لأن الحلف إنما يكون بالله وبأسمائه وصفاته... ولا يُحْلَفُ بغيره، كما سبقت الأحاديث في ذلك... وقد جاء في بعضها أن ذلك شرك... ومن ذلك ما جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أحلف بغيره صادقاً»، وذلك أن الذنب الذي يُوصَفُ بأنه شرك يكون أخطر من غيره.. وإن كان شركاً أصغر، كالحلف بغير الله.

❁ وقوله ﷺ: «فليس منا» أي: أن هذا ليس من شأن المسلمين، وليس من عمل المسلمين.. ومن فعل ذلك فليس على طريقتنا ولا على منهجنا وسُنتنا، وإنما هو مُتَشَبِّهٌ بغيرنا... وهذا لا يدل على أنه خرج من الإسلام، وإنما يدل على

(١) شرح رياض الصالحين (٤/٢٢٦) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٣).

الزجر من هذا العمل.

والحاصل: أن الحلف بالأمانة فيه زجرٌ شديد؛ لأن الحلف بالأمانة حلفٌ بغير الله، وكل حلف بغير الله فإنه لا يجوز... كما قال (عليه الصلاة والسلام): «ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون»، فقوله: «ولا تحلفوا إلا بالله» فيه قصر الحلف على أن يكون بالله، أى: بأسمائه وصفاته، ولا يكون بغيره؛ لا بالأمانة ولا بالآباء ولا الأمهات، ولا بحياة إنسان، ولا بشرفه، ولا بأى شيء آخر، بل كل حلف يجب أن يكون بالله عز وجل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧١٩) وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ، فَقَالَ: إِنِّى بَرِئٌ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا، فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا»^(١).

❦ هذا يدل على خطورة مثل هذا الكلام؛ سواء كان صادقًا أو كاذبًا، وأنه سواء إن كذب أو صدق.. ولكنه إن كذب فإنه يُضاف إلى إثم القول الشنيع والقول السيئ إثم الكذب.. وإذا كان صادقًا فإتيانه بهذا اللفظ السيئ مضرة عليه؛ لأن اللفظ نفسه شنيع وقبيح ولا يجوز للإنسان أن يأتى به.

فمن حلف بذلك فهو آثمٌ على كل حال؛ لأنه (عليه الصلاة والسلام) قال: «فإن كان كاذبًا فهو كما قال» وذلك مثل أن يقول: هو يهودى أو نصرانى.

«وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا» أى: لن يبقى على ما كان عليه قبل أن يقول هذه المقالة؛ لأن هذه الكلمة خبيثة يُعاقب على قولها ولو كان صادقًا. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ حَلَفَ بِالْبَرَاءَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنَّهُ يَأْثُمُ وَلَا تَلْزَمُهُ الْكُفَّارَةُ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَعَلَ عُقُوبَتَهَا فِي دِينِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ فِي مَالِهِ شَيْئًا^(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح سنن أبى داود (٢٧٩٣).

(٢) عون المعبود (٩/ ٦١-٦٢).

(١٧٢٠) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(١).

✽ وَفَسَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَهُ: «كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» عَلَى التَّغْلِيظِ كَمَا رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الرِّيَاءُ شِرْكٌ».

✽ وَالْحَلْفُ الْقَصْدُ مِنَ التَّعْظِيمِ... وَالتَّعْظِيمُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ... لِأَنَّ الْحَلْفَ يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ الْمُحْلُوفِ بِهِ، فَإِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الَّذِي يَسْتَحِقُّ التَّعْظِيمَ وَيَتْرَكَ مَا دُونَهُ، فَيَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ». وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا كُفْرٌ عَمَلِيٌّ أَوْ شِرْكٌ عَمَلِيٌّ... وَلَيْسَ هُوَ الْكُفْرُ الْمُخْرَجُ مِنَ الْمِلَّةِ... وَلِذَلِكَ لَمْ يُخْرِجْهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمِلَّةِ، وَلَمْ يَحْكَمْ بِكُفْرِهِ وَرَدَّتْهُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَيُلْزَمُهُ مَا يُلْزَمُ الْمُرْتَدَّ إِذَا أَرَادَ الْعُودَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ. كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُ بِالْكَفَّارَةِ كَذَلِكَ - يَعْنِي: بِكَفَّارَةِ عَيْنِيَّةٍ - وَإِنَّمَا أَمَرَهُ فَقَطْ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا لَيْسَ مِنْ بَابِ أَنْ يَدْخُلَ الْإِسْلَامُ مِنْ جَدِيدٍ، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ رَدِّ التَّعْظِيمِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٠٤).

وأما حديث (الرياء شرك) فهو ضعيف وقد قال الشيخ الألباني: أشار المصنف رحمته الله بقوله «روى» إلى أن الحديث المذكور ضعيف الإسناد، وهو كما قال، وقد خرجته وبيّنت علته في «الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة» (١٨٥٠)

(٢) شرح سنن أبي داود/ للشيخ عبد المحسن العباد.

(٣١٥) باب تغليظ اليمين الكاذبة عمداً

(١٧٢١) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقِّهِ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» قال: ثُمَّ قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] إلى آخر الآية ^(١).

❖ وهذا يدل على عقوبته، وأن فعله هذا يكون سبباً في غضب الله عليه، وفيه أيضاً إثبات صفة الغضب لله... فثبت صفة الغضب لله عز وجل على ما يليق بكماله وجلاله كسائر الصفات، حيث يجب إثبات كل ما جاء في الكتاب والسنة من الأسماء والصفات لله تعالى على وجه يليق بكماله وجلاله دون تشبيهه بخلقه، ودون تأويل أو تعطيل أو تكييف، بل على حَدِّ قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فهذا يدل على خطورة الحلف على الكذب والفجور... ويدل أيضاً على أن كون الإنسان يأخذ مال غيره بالحلف الفاجر الكاذب أن ذلك يؤدي إلى غضب الله عليه يوم يلقاه، فيكون مستحقاً للوعيد الذي يعاقبه الله تعالى به.

❖ قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْإِعْرَاضُ وَالْغَضَبُ وَالسَّخَطُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ إِزَادَتُهُ إِبْعَادَ ذَلِكَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَتَعْذِيبُهُ وَإِنْكَارُ فَعْلِهِ وَذَمُّهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٢).

قلت: وأهل السنة والجماعة يُثَبِّتُونَ لله عز وجل ما أثبتته لنفسه من الصفات في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم دون تشبيه أو تكييف أو تمثيل أو تعطيل... بل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) كتاب المساقاة - ومسلم (١٣٨) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢/ ٢١٤).

نؤمن بها كما جاءت ولا نُشبهها بصفات المخلوقين لأن الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

وهذا الذي جاء في هذا الحديث: أن «مَن حلف على يمينٍ هو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئٍ مسلمٍ لقي الله وهو عليه غضبان» ، حصل للأشعث شيء من هذا القبيل، حيث قال: (كان بيني وبين يهودي أرض فجحدها اليهودي، فرفعته إلى رسول الله ﷺ فقال: «ألك بينة؟ قلت: لا، قال لليهودي: احلف. فقلت: إذا يحلف، ويذهب بمالي» أي: ما دام أن المسألة مجرد حلف فإنه سيحلف ويأخذ مالي، قال: فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فهذه الآية تدل على عقوبة مَن اشترى بعهد الله وباليمين الفاجرة الكاذبة شيئاً قليلاً من حُطام الدنيا، سواء كان قليلاً أو كثيراً، فإن هذه عقوبته، وسوف يلقى الله ﷻ فلا يكلمه ولا ينظر إليه ولا يُزكّيه، وله عذابٌ أليم... فيحصل له هذا الوعيد الشديد الذي جاء في هذه الآية الكريمة، وفي هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٢٢) وعن أبي أُمّة إياس بن ثعلبة الحارثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فقال لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا سِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وإِنْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكِ» ^(٢).

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢١٩) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) شرح سنن أبي داود / للعبّاد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(١٧٢٣) وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشرak بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(١).

وفي رواية له: أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإشرak بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم» يعني يمين هو فيها كاذب.

❁ قوله ﷺ: «الكبائر» يعني: من الكبائر أو من أكبر الكبائر.

❁ قوله ﷺ: «الإشرak بالله» وهو أنواع: فمنه الشرك الأكبر: وهو أن يتخذ العبد لله نداً يسويه في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته.

❁ للشرك الأكبر ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيباً من الملك أو التدبير أو الخلق أو الرزق.

القسم الثاني: الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل لله تعالى مُمائلاً في شيء من الأسماء أو الصفات... أو يصفه تعالى بشيء من صفات خلقه.

ومن صور هذا الشرك:

الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب، فمن ادَّعى أن أحداً من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة.

القسم الثالث: الشرك في الألوهية:

وهو: اعتقاد أن غير الله تعالى يستحق أن يُعبد أو صَرف شيء من العبادة لغيره.

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٦٧٥) كتاب الإيمان والنذور، (٦٨٧٠) كتاب الديات.

كمن يعبد غير الله أو يدعو غير الله أو ينذر لغير الله.

✽ وأما الشرك الأصغر فهو كل ما كان فيه نوع شرك لكنه لم يصل إلى درجة الشرك الأكبر.. وهو ثلاثة أنواع:

(١) النوع الأول: الشرك الأصغر في العبادات القلبية:

كالرياء وإرادة الدنيا بالعبادة والاعتماد على الأسباب والتطير.

(٢) النوع الثاني: الشرك الأصغر في الأفعال:

كالرقى الشركية وإلتئام الشركية.

(٣) النوع الثالث: الشرك الأصغر في الأقوال:

كالحلف بغير الله والتشريك بين الله وخلقه بالواو.. كقوله: توكلت على الله وعليك... ما شاء الله وشئت^(١)... والاستسقاء بالأنواء.

✽ قوله ﷺ: «وعقوق الوالدين».. وهو عكس البر بالوالدين.. وقد تكلمنا عنه بالتفصيل فيما سبق.

✽ ثم ذكر النبي ﷺ قتل النفس.. وقد تكلمنا عنه قبل ذلك في الأبواب السابقة.

✽ اليمين الغموس: التي يحلفها كاذباً عامداً.. سُميت غموساً لأنه تغمس الحالف في الإثم ومن ثم في النار.

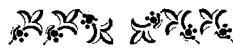
وذلك أن الإنسان يجب عليه إذا حلف بالله أن يكون صادقاً سواء حلف على أمرٍ يتعلق به أو على أمرٍ يتعلق بغيره... فإن حلف على يمين وهو فيها كاذب فإن كان يقطع بها مال امرئ مسلم ولو يسيراً فإنه يلقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان.

(١) والصواب عطف مشيئة العبد على مشيئة الرب بـ «ثم» فتقول: ما شاء الله ثم شاء فلان... توكلت على الله ثم عليك.. وقد قال ﷺ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ».

مثال ذلك: رجلٌ أعطى رجلاً عشرة آلاف جنيه فلما حان وقت السداد قال له: أريد مالى الذى أقرضتك إياه، فقال له: والله ما أخذت منك شيئاً.. فخاصمه عند القاضى.

فقال القاضى للمُنْكَرِ احلف أنه ليس له عندك شىء فحلف فقال: والله ما له عندى شىء... فالقاضى سيحكم بأنه لا حق له عليه لأن البينة على مَنْ ادَّعى واليمين على مَنْ أنكر... فهذا الرجل الذى حلف وهو كاذب يَلْقَى الله وهو عليه غضبان - والعياذ بالله - ويُحرم الله عليه الجنة ويُدخله النار... نسأل الله العافية... حتى قالوا يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً قال: «وإن كان قضياً من أراك».

وأما ما يتعلق بنفسه مثل أن يُقال له: إنك فعلت كذا فقال والله ما فعلت وهو كاذب... فهذا إذا كان كاذباً فإنه لا يستحق هذا الوعيد لكنه والعياذ بالله آثِمٌ جَمَعَ بين الكذب وبين الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ كاذباً فتتضاعف عليه العقوبة. فعلى المسلم أن يكون مُحْتَرماً لله عَزَّوَجَلَّ مُعْظِماً له لا يُكْثِرُ اليمين... وإذا حلف فليكن صادقاً حتى يكون باراً بيمينه.



(٣١٦) باب ندب من حلف على يمين،

فراى غيرها خيراً منها

أن يفعل ذلك المحلوف عليه، ثم يكفر عن يمينه

(١٧٢٤) عن عبد الرحمن بن سُمرة رضي الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ:
 «.... وإذا حلفت على يمينٍ، فرأيتَ غيرها خيراً منها، فأنت الذى هو خيرٌ، وكفّر
 عن يمينك»^(١).

(١٧٢٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ،
 فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيُكْفِرْ عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»^(٢).

(١٧٢٦) وعن أبى موسى رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
 لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، ثُمَّ أَرَى خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا كَفَرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ
 خَيْرٌ»^(٣).

❦ فالأصل أن المسلم إذا حلف على شىءٍ ألا يحنث في يمينه وأن يبقى
 على ما حلف عليه إن كان فيه طاعة لله (جلّ وعلا) أو كان فيه مصلحة دنيوية لا
 تتعارض مع الشرع.

أما إن حلف على ترك فريضة أو واجب فيجب عليه أن يؤدي الفريضة وأن
 يفعل ذلك الواجب ويكفر عن يمينه.

فلو قال: والله لن أصلى الجمعة .. نقول له: اذهب وصل الجمعة وكفر عن
 يمينك.

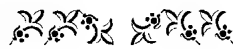
(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٢٢) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٦٥٢) كتاب الأيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٠) كتاب الأيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣١٣٣) كتاب كفارات الأيمان - ومسلم (١٦٤٩) كتاب الأيمان.

ولو قال: والله لن أزور أمي ولن أصِلَ أرحامي.. نقول له: اذهب لزيارة أمك وأرحامك وكفّر عن يمينك.

❁ وأما إذا أمرته أمه أن يصلي صلاة الضحى فحلف ألا يصليها نقول له: الأفضل أن تصليها وتكفّر عن يمينك.. ولكن هذا ليس بواجب عليك؛ لأن صلاة الضحى نافلة وليست واجبة... فالحاصل أن الإنسان إذا حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليُكفر عن يمينه ويأتى الذى هو خير... وهو بالخيار إن شاء فعل ثم كفّر أو إن شاء كفّر ثم فعل... وذكر المؤلف أحاديث منها حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وأتِ الذى هو خير» هذا قول النبي ﷺ أما فعله فقال: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفّرت عن يميني وأتيت الذى هو خير» فثبت بذلك أى بالسنة القولية والفعلية أن الإنسان إذا حلف على شىء ورأى غيره خيراً منه فإنه يُكفر عن يمينه ويأتى الذى هو خير^(١).



(١٧٢٧) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يَلْجَ أحدكم في يمينه في أهله أثمّ له عند الله تعالى من أن يُعطى كفّارته التى قرّض الله عليه»^(٢).
❁ فالنبي ﷺ يُقسم هنا مع أنه صادق بغير قسم، لكن لتوكيد الأمر.
قال: «لأن يَلْجَ أحدكم في يمينه في أهله»، واللجاج هو الإصرار.. يعنى: لئن يُصرَّ أحدكم على يمينه الذى حلفه على أهله أن يفعل كذا، أو ألا يفعل كذا.

(١) شرح رياض الصالحين (٢٢٩/٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٢٥) كتاب الإيمان والنذور، ومسلم (١٦٥٥) كتاب الإيمان.

قوله: «يَلْجَ أى: يَتَمَادَى فيها» - وَلَا يُكْفَرُ - وقوله: «أثمّ»، أى: أكثر إثماً.

«أَثَمٌ لَهُ»، يعنى: أكثر إثماً وأعظم جرماً له.

«عند الله ﷻ من أن يعطى كفارته التى فرض الله عليه»، يعنى: يجب عليه أن يَحْنِثَ، وأن يُكْفِّرَ عن هذا الحنث، وألا يعبأ بهذا اليمين بعد الكفارة؛ لأن إصراره على اليمين الذى تضرر به أهله وليس معصية الله ﷻ أعظم من الحنث.

قال الإمام النووى رَحِمَهُ اللهُ: (معنى الحديث: أنه إذا حلف يميناً تتعلق بأهله ويتضررون بعدم حنثه، ويكون الحنث ليس بمعصية؛ فينبغى له أن يَحْنِثَ، فيفعل ذلك الشئ ويُكْفِّرَ عن يمينه... فإن قال: لا أَحْنِثُ، بل أتورع عن ارتكاب الحنث وأخاف الإثم فيه فهو مخطئ بهذا القول، بل استمراره في عدم الحنث وإدامة الضرر على أهله أكثر إثماً من الحنث)^(١).

❦ فإذا قال الرجل: والله لن أنفق على زوجتى وأولادى.. فتضررت الزوجة وتضرر الأولاد بسبب ذلك.. فيجب عليه هنا أن يَحْنِثَ في هذا اليمين وأن ينفق على زوجته وأولاده ويُكْفِّرَ عن يمينه.. لأنه إذا أصر على هذا اليمين سيكون آثماً لأن النبي ﷺ قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ».



(١) مسلم بشرح النووى (١١/١٧٧).

(٣١٧) باب العفو عن لغو اليمين وأنه لا كفارة فيه

وهو ما يجرى على اللسان بغير قصد اليمين

كقوله على العادة : لا والله وبلى والله ونحو ذلك

❁ قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ﴾

[المائدة: ٨٩].

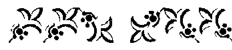
❁ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أى لا يؤاخذكم بما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف كقولكم لا والله، وبلى والله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أى ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حثتم ﴿فَكَفَّرْتَهُ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذى تطعمون منه أهليكم... قال ابن عباس: أى من أعدل ما تطعمون أهليكم... وقال ابن عمر: الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزبيب، وخير ما تطعم أهلينا الخبز واللحم ^(١) ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ أى كسوة المساكين لكل مسكين ثوب يستر البدن ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أى إعتاق عبد مملوك لوجه الله... قال فى البحر: وأجمع العلماء على أن الحانث مُحَيَّرٌ بين الإطعام والكسوة والعتق ^(٢) ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أى فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام ^(٣)

(١) ابن كثير (١/٥٤٣).

(٢) البحر (٤/١١).

(٣) شرط الأحناف والحنابلة التابع فى الأيام وقال الشافعى ومالك لا يجب التابع واختار الطبرى أنه

﴿ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَتَمَنَّاكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أى هذه كفارة اليمين الشرعية عند الحنث
 ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أى احفظوها عن الابتذال ولا تحلفوا إلا لضرورة
 قال ابن عباس: أى لا تحلفوا ... وقال ابن جرير: أى لا تركوها بغير تكفير
 ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩) أى مثل ذلك التبيين يبين الله لكم
 الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم (١).



(١٧٢٨) وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله (٢).

✽ لغو اليمين: هى اليمين التى يقولها الإنسان على لسانه ولا يقصدها بقلبه، وقد عفا الله تعالى عن ذلك؛ لأنه يحصل كثيراً أن يقول الإنسان: لا والله ما أنا ذاهب، لا والله ما أنا فاعل، وما أشبه ذلك... فلما كثر هذا فى السُّنن الناس عفا الله عنه... قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ فسَّرتَه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: بأنه قول الرجل: لا والله، وبلى والله فى عرض الحديث، ولا قصَد اليمين، هذا لا يُؤَاخِذُ به، ولا يَأْثُمُ به ولا يحنث فيه ولا تجب فيه الكفارة.

أما إذا عقد الإنسان اليمين عقداً جازماً، فقال: والله لا أفعل كذا، والله لأفعلن كذا، ولم يفعل، لزمته الكفارة وهى: عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم... بدأ الله تعالى بالإطعام؛ لأنه أهون الثلاثة، قال: ﴿فَكَفَّرْتُهُمْ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فإن

= كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزأه كذا فى الطبرى (١٠/ ٥٦٢).

(١) صفوة التفاسير (١/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٦١٣) كتاب تفسير القرآن.

لم يجد فإنه يصوم ثلاثة أيام متتابعة لا يفطر بينها - أو متفرقة - وهذا من سعة رحمة الله تعالى أن هذه الأيمان التي تتكرر على الألسن ولا يقصدها الحالف ليس فيها إثم وليس فيها كفارة ؛ لأن ذلك يقع كثيراً.

ولكن مع ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ يعني لا تكثروا من الأيمان، ولا تتركوا الكفارة إذا حنثتم فيها، بل احفظوها ؛ لأن اليمين أمرها عظيم... ولهذا سَمَّى الله تعالى مخالفتها حنثاً... بل سَمَّاها النبي ﷺ حنثاً ؛ لأنه لو لا رحمة الله لكان الإنسان إذا حلف لزمه أن يوفى، ولكن من نعمة الله أنه يسر أن الإنسان له أن يخالف ما حلف عليه إذا لم يكن إثماً ... والله الموفق.

أما الإطعام فإنه كيلو للنفر الواحد من الأرز يكفي بزيادة^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٣٠) بتصرف.

(٣١٨) باب كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقاً

(١٧٢٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»^(١).

(١٧٣٠) وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينفق ثم يمحق»^(٢).

❦ ففي هذين الحديثين ينهى النبي ﷺ عن الحلف في البيع والشراء سواء كان كثيراً أو قليلاً.. لأن البائع إن اعتاد على الحلف فقد يصدق مرة ويكذب مرات.. فلماذا يحلف؟!

ونحن نعلم أن اليمين إذا كانت كاذبة فهي محرمة، وإذا كانت غير كاذبة فينبغي تركها.. والإنسان يخبر بالشيء دون أن يحلف، ولا يجعل الله عُرْضة لليمين، وإنما يخبر بالشيء على ما هو عليه دون أن يحلف.. ولكن إن حلف وكان صادقاً فإن ذلك لا يضره، وإن كان كاذباً في حلفه فإن ذلك يضره لكونه كذب.. وإن ترتب بيع أو شراء بسبب هذه اليمين الكاذبة فإن ذلك يكون سبباً في محق البركة من وراء هذا البيع أو من وراء هذا الشراء.

ومن المعلوم أن البائع إذا حلف فإن المشتري قد يُخدع بهذا الحلف ويُقبل على الشراء.. ولكن إن كان البائع كاذباً فإن الحلف سيُروج السلعة ويُسهل شراءها ولكنه سيمحق بركة المال.

فالحلف منفقة للسلعة، وفيه ترويج لها، وترغيب فيها، ولكنه ممحقة للبركة... فهو سبب في ذهاب البركة من هذه الأموال التي حصلها بسبب بيع

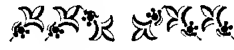
(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٨٧) كتاب البيوع - ومسلم (١٦٠٦) كتاب المساقاة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٠٧) كتاب المساقاة.



هذه السلعة التي نفقها بالحلف الكاذب.

فليحذر التاجر من كثرة الحلف.. فإذا حلف فليحلف صادقاً وإلا فليصمت
حتى لا ييؤء بسخط الله لأنه يحلف به كاذباً.. وحتى لا تُمحق بركة المال.



(٣١٩) بَابُ كَرَاهَةِ أَنْ يُسْأَلَ الْإِنْسَانُ

بَوَجْهِ اللَّهِ ﷻ غَيْرِ الْجَنَّةِ

وَكَرَاهَةِ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَشَفَّعَ بِهِ

(١٧٣١) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بَوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ» (١).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.
بَابُ كَرَاهَةِ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَشَفَّعَ بِهِ

(١٧٣٢) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ بِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» (٢).

✽ قوله ﷺ: «مَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ» قيل: معناه أنه إن استعاذ بالله وأمكنكم إعادته من ذلك الشيء الذي استعاذ بالله منه، فحققوا له تلك الاستعاذة.

وقيل: إنه إذا حصل الاستعاذة من الإنسان لنفسه فيما أن يكون استعاذ بالله من أمرٍ من الأمور يمكن للإنسان أن يعيده منه، وأن يساعده عليه، وأن يخلصه منه... أو استعاذ في أمرٍ من الأمور فإنه يحقق له الشيء الذي يريد... وهذا كما جاء في قصة المرأة التي قالت للنبي ﷺ: «أعوذ بالله منك، فقال: لقد عُذْتُ بِمُعَاذٍ الْحَقِيِّ بِأَهْلِكَ» فالمراد أنه هنا يحتمل هذا ويحتمل هذا.

فإذا استعاذ بالله من شيءٍ فأعذه منه.. وإذا استعاذ بالله منك فأعذه إلا إذا استعاذ عن حقٍّ واجبٍ عليه فلا.. فلو أنك كنت تُطالبه بحقٍّ وهو يستطيع أن

(١) ضعيف: رواه أبو داود، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٥١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢١).

يُؤديه إليك ولكنه لا يريد أن يؤديه فاستعاذ بالله منك فلا تُعذه وخذ حَقَّك لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُعِيز عاصياً... لكن إذا لم يكن الأمر محرماً ولم يكن فيه ضياع حق فاعذه تعظيماً لله عَزَّوَجَلَّ.

❁ قوله ﷺ: «وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ» فلو سألك سائل وقال لك: أسألك بالله أن تعطيني كذا.. فإذا كان في استطاعتك أن تعطيه ولم يكن يطلب شيئاً محرماً فأعطه تعظيماً لله عَزَّوَجَلَّ.

لكن لا بد أن نعلم أن بعض الناس قد يسأل بالله شيئاً لا يصلح أن يُعطاه، ولا يصلح أن يُجاب إليه، وليس كل ما يكون عند الإنسان يمكن أن يبذله ويعطيه، فإذا سأل بالله شيئاً لا يصلح أن يسأل عنه لا بالله ولا بدون السؤال بالله فالإنسان في سعة منه... فإذا كان عندك سرٌّ من الأسرار وخبر من الأخبار مثلاً، وقال لك رجل: أسألك بالله أن تخبرني عن كذا وكذا، أو سألك عن أمورٍ خاصة بحياتك، أو في أمور لا يصلح أن يخوض فيها.. أو سألك ما لا يشتري به دخاناً أو شيئاً من المحرمات فلا يلزمك أن تُعطيه شيئاً.. ولا يلزمك أن تُخبره بأسرارك وحياتك الخاصة... فمثل هذا لا يُجاب... ويوضح هذا أن إبرار المُقسم قد يناسب أن يُبر وأحياناً لا يحصل إبراره.

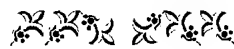
❁ قوله ﷺ: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ» أي: مَنْ دعاك إلى وليمة قليلة أو كثيرة فأجبه إلا إذا كان يدعوك إلى شيء فيه معصية أو يكون في ذلك ضرر عليك أو يكون هذا الرجل ممن يُهجر.. كأن يكون مُصرّاً على كبيرة من الكبائر أو بدعة من البدع أو يكون ماله حراماً فلا تُجبه حتى يُقلع عن ذلك.. إلا إذا علمت أنك إذا هجرته فإنه سيزداد في معصيته وبدعته فاذهب إليه وادعُهِ إلى الله باللين والرفق والرحمة... أما في وليمة العرس فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يُجِبْ فَقَدْ

عصى الله ورسوله»^(١)، إذا دعاك الزوج لوليمة العرس فأجبه ما لم يكن عليك ضرر أو يكن هناك منكر... فإن كان عليك ضرر فلا يلزمك إجابته، وإن كان هناك منكر فإن كنت تستطيع أن تغيره، فأجب وغير المنكر، وإلا فلا تجب.

❖ قوله ﷺ: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ».

أى: أن من صنع إليك معروفًا.. أيًا كان ذلك المعروف فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا».. فمن فعل ذلك معك فكافئه فقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (٦٠) ❖.. إلا إذا كنت لا تجد ما تكافئه به أو كان ممن لا يستطيع أحد مكافأته كالملك والأمير وما أشبه ذلك...

ولذا قال النبي ﷺ: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» ويمكن أن يكون الدعاء مع الإحسان والمكافأة... لكن الإنسان قد لا يستطيع المكافأة فلا أقل من الدعاء... والدعاء سهل ميسور، فيدعوه ويكرر ذلك، ويُخلص في الدعاء... وقد جاء في الحديث: «مَنْ قَالَ لِمَا يَحِبُّهُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ».



(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٧٧) كتاب النكاح - ومسلم (١٤٣٢) كتاب النكاح.

(٣٢٠) باب تحريم قوله شاهنشاه للسلطان وغيره

لأن معناه ملك الملوك

ولا يُوصَفُ بذلك غير الله سبحانه وتعالى

(١٧٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكُ الْأَمْلاِكِ»^(١).

قال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ: «مَلِكُ الْأَمْلاِكِ» مِثْلُ شَاهِنْشَاهٍ.

✽ أَخْنَعَ: أَى أَذَلَّ.. مِنَ الْخُنُوعِ.

وكلمة ملك الأملاك مثل كلمة شاهنشاه باللغة الفارسية ومعناها: ملك الملوك.

وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك لأن هذا لا يَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ فهو ملك الملوك، وأما المخلوق فلا يُقال إنه ملك الملوك، وإنما يُقال ملك مثلما جاء في القرآن: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيهِ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٥٠] كما جاء في قصة العزيز في سورة يوسف.... لكن كلمة ملك الملوك، هذا هو الذى قال عنه إنه أخنع اسم... ومعناه: أنه يكون في ذلة جزاء ما زعم من العزة... ولذا فإن الله ﷻ يعامل كل متكبر بنقيض قصده يوم القيامة.. فقد قال ﷺ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»^(٢).

فملك الملوك هو الله.. وملك الأملاك هو الله ﷻ.. فمن تكبر وأراد أن يلبس ثوب العظمة والكبرياء كان مصيره النار.. لأن العبد لا يجوز له أن يتجاوز

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٢٠٦) كتاب الأدب، ومسلم (٢١٤٣) كتاب الآداب.

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذى وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٤٠).



حدوده في تعامله مع الخالق (جل جلاله).
 قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَارَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»^(١).

❦ فهذا الذي أراد أن يلبس ثوب العز والعظمة ويُسمى نفسه ملك الأملاك فإن الله عَزَّوَجَلَّ يُعامله بنقيض قصده فيجعل ذلك أذل اسم لهذا الإنسان المتكبر ولذا قال ﷺ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ» أي: أذل اسمٍ عند الله عَزَّوَجَلَّ: «رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلاِكِ» فاللهم ارزقنا نعمة التواضع والذل والانكسار بين يدي العزيز الجبار (جلّ وعلا).



(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣١١).

(٣٢١) باب النهي عن مخاطبة الفاسق والمبتدع

ونحوهما بسيدى ونحوه

(١٧٣٤) عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ» ^(١).

✽ يعنى: أن المنافق إن كان سيِّداً من ناحية أنه كبير قوم وقلتم عليه سيد فقد أسخطتم الله ... لأن وصف السُّودد لا يصلح له ... وإن لم يكن سيِّداً في قومه أو كبيراً في قومه، فإن هذا ذمٌّ إلى ذمٍّ ... فهو أولاً ليس عنده السُّودد الذى يحصل لأمثاله أو يحصل لبنى جنسه؛ لأن في المنافقين السيد والمَسود ... وأيضاً من ناحية أنه كذب؛ لأنه لا يوجد فيه السُّودد الذى يُضاف إلى مَنْ كان له سُودد على قومه من جنسه ... فجمع بين كونه يُغضب الله لو كان سيِّداً، وبين كونه أيضاً كذاباً؛ لأنه لا يوجد فيه هذا الوصف.

والمنافق لا يكون سيِّداً، وإنما هو ذليلٌ وحقيِرٌ، وليس من أهل السُّودد في الحقيقة ... ومع الأسف أن السُّودد الآن حصل لكل أحدٍ حتى للكفار، فيقال للكافر سيد إما بلغة العرب وإما بلغة العجم ^(٢).



(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٠٥).

(٢) شرح سنن أبي داود / للعباد.

(٢٢٢) باب كراهة سب الحمى

(١٧٣٥) عن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ - أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ - فَقَالَ: «مَالِكٍ يَا أُمَّ السَّائِبِ - أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ - تُزْفِرِينَ؟» قَالَتْ: الْحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا.. فَقَالَ: «لَا تَسْبِي الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»^(١).

✽ الحمى هى السخونة التى يجدها العبد فى جسده.. وهى نوعٌ من الأمراض التى قدرها الله ﷻ ابتلاءً لعباده الصالحين.. فالله هو الذى يُقدرها ويرفعها متى شاء (سبحانه وتعالى)...

وكل شىء من أفعال الله فإنه لا يجوز للإنسان أن يسبه؛ لأن سبه سبٌ لخالقه (جل وعلا)، ولهذا قال النبى ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٢).

✽ والحمى من فيح جهنم كما أخبر النبى ﷺ حيث قال: «الْحُمَّى مِنْ فَيَحٍ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ»^(٣).. ولهذا قرر الأطباء أن أفضل علاج للحمى أن يوضع المريض فى مكانٍ فيه مكيف وأن يوضع على جسده كمادات من الماء البارد... فالماء البارد يُبردها ويطردها بفضل الله ﷻ.

وعلى المؤمن أن يصبر ويحتسب إذا أُصيب بالحمى ويعلم يقيناً أن الحمى تُذهب الخطايا كما يُذهب الكير خَبَثَ الحديد والذهب والفضة... وأن يعلم أن الحمى هى حظُّ المؤمن من النار يوم القيامة.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٥) كتاب البر والصلة والآداب.

«تُزْفِرِينَ» أى: تَتَحَرَّكِينَ حَرَكَةً سَرِيعَةً، وَمَعْنَاهُ: تَرْتَعِدُ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٦٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٢٠٩) كتاب السلام.

فقد قال ﷺ: «الْحُمَّى حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

❁ وفي هذا الحديث أن النبي ﷺ دخل على أم السائب فوجدها ترتعد وتتحرك بشدة وسرعة فقال لها: «مَالِكٌ يَا أُمَّ السَّائِبِ تُزْفِرِينَ؟» قالت: الحمى لا بارك الله فيها.

فنهاها النبي ﷺ عن سَبِّ الحمى لأن الأمراض والابتلاءات كلها خير للمؤمن إذا صبر واحتسب.

فقال ﷺ: «لَا تُسَبِّ الْحُمَّى، فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ، كَمَا يُذْهِبُ الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» فإن الحديد إذا صُهر على النار ذهب خَبَثُهُ وبقي صافياً، كذلك الحمى تفعل في الإنسان كذلك.

❁ وكل الأمراض والابتلاءات هي عين الخير للعبد .. لأن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أحب قومًا ابتلاهم .. فهي علامة على حب الله للعبد وكفى بها منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها... وأيضاً فالأمراض والابتلاءات جعلها الله سبباً لمغفرة الذنوب وتكفير السيئات ورفع الدرجات في الجنات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البزار وابن أبي الدنيا وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٨٦)(٣١٨٧).

(٣٢٣) بَابُ النِّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

وَبَيَانُ مَا يُقَالُ عِنْدَ هُبُوبِهَا

(١٧٣٦) عَنْ أَبِي الْمُنْذِرِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرْتُ بِهِ»^(١).

(١٧٣٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُّوا اللَّهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا»^(٢).

❖ لَا بَدَأَ أَنْ نَعْلَمَ أَوْ لَا أَنَّ الرِّيحَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِرسَالِهَا وَتَصْرِيفِهَا .. فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ أَوْ يَصْرِفَهَا.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦] وَالْآيَاتُ فِي هَذِهِ كَثِيرَةٌ.

وَالرِّيحُ قَدْ تَكُونُ عَادِيَةً لَا تَضُرُّ أَحَدًا بَلْ تَنْفَعُ الْبَشَرَ .. وَلَا يُسَنُّ لَهَا ذِكْرٌ بَعِينَهُ .. وَهَنَاقَ رِيحٌ عَاصِفَةٌ تُرْعِبُ الْبَشَرَ .. وَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَادًا بِالرِّيحِ الْعَقِيمِ ...

فَالشَّاهِدُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَسُبَّ الرِّيحَ لِأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .. وَلِذَا قَالَ ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ» ثُمَّ أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِذَا رَأَوْا رِيحًا شَدِيدًا وَخَافُوا مِنْهَا أَنْ يَقُولُوا: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرْتُ بِهِ»

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٥).

(٢) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٦٤).

قوله ﷺ: «مِنْ رَوْحِ اللَّهِ» هُوَ بَفَتْحِ الرَّاءِ، أَيْ: رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ.

به، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أَمَرْتُ بِهِ» لأنها تارة تُرْسِلُ بالخير وتارة تُرْسِلُ بالشر.. فتسأل الله خير ما أرسلت به ... أى: ما تحمله من أمور نافعة وتستعيز بالله من شر ما أرسلت إليه لأن تلك الرياح قد تكون عاصفة شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدمر السيارات..

يعنى: ما حصل فيها من خير فاسألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يحققه لكم، وما فيها من شر فاسألوه سبحانه وتعالى أن يصرفه عنكم وأن يخلصكم منه.

ومعنى ذلك أن الريح مأمورة، فالإنسان يسأل الله خيرها ويستعيز بالله من شرها... وهى تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب... ومعلوم أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيحصل الخير والبركة للناس، وكذلك تكون عذاباً كما كانت عذاباً لعاد.. فقد أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية، تنزع النخيل وتأخذ الرجال وتلقيهم فى أماكن بعيدة، وتهلكهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا أَمَاسَكِطُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

واعلم أنه لا يجوز للإنسان أن يتعلق بالريح فى حصول المطر والغيث والصحو وما أشبه ذلك؛ لأن هذا من جنس الاستسقاء بالأنواء الذى نهى عنه النبى ﷺ... فعليك أن تعلق قلبك بربك تبارك وتعالى وألا تسب ما خلقه من الرياح. واسأل الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به واستعذ بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به.



(١٧٣٨) وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبى ﷺ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»^(١).

✽ الشاهد في الحديث:

أن النبي ﷺ كان إذا رأى في السماء سحابة فيها رعدٌ وبرقٌ، تغيَّر وجهه من الخوف، خشية أن يكون فيها عذاب من الله من جنس ما أصاب قوم عادٍ، لأنهم لما رأوا السحاب في السماء ظنوه سيأتي بالمطر والرحمة، فإذا هي ريح فيها عذاب أليم... قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

✽ بعض فوائد الحديث:

الفائدة الأولى: على المسلم أن يكون دائماً على خوفٍ من آيات الله، التي قد تأتي بالعذاب... وعليه ألا يألف تلك الآيات، فيذهب عنه الخوف إذا ما تكررت... لأن عائشة رضي الله عنها أعلمتنا، أن النبي ﷺ كان كلما رأى السحاب تغيَّر وجهه، قالت: (وإذا تخيلتُ السماء تغيَّر لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر).

ويتفرع على ذلك: خطأ من يطلق على السحاب والريح، والخسوف والكسوف، والزلازل والبراكين، ظواهر طبيعية... يريد بذلك أن يُذهب من قلوب الناس الخوف من الله إذا رأوا تلك الآيات، وألا يجعلهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه كلما رأوها... فالنبي ﷺ كان يخاف إذا رأى تلك الآيات، لدرجة أن الخوف يظهر على وجهه، وعلى حركاته التي لا تهدأ، كالمضطرب الوجَل، وإذا ذهبت ظهر ذلك أيضاً على وجهه، قالت عائشة: (فإذا أمطرت سُرِّي عنه).

الفائدة الثانية: وجوب التضرع والابتهاال إلى الله - سبحانه وتعالى - إذا رأى المسلم آية قد يكون فيها عذاب... قالت عائشة: (إذا عصفت قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»^(١)).

(١) شمائل الرسول ﷺ (١/ ٣٧٦).



(٣٢٤) باب كراهة سب الديك

(١٧٣٩) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الديك، فإنه يُوقظ للصلاة»^(١).

والديك هو: الذكر من الدجاج وله صوت يؤذن فيوقظ النائم، وبعضها يؤذن على الأوقات عند أوقات الصلوات... وقد أمر النبي ﷺ مَنْ سَمِعَ صَوْتَ الديك أن يسأل الله من فضله... إذا سمعت صوت الديك فقل: أسأل الله من فضله فإنها رأت ملكًا... وبعض الديكة يكون أذانها على دخول الوقت أو قرب دخول الوقت، فيوقظ الناس للصلاة، فهي النبي ﷺ عن سبِّه لهذه المزية التي تميز بها، كما نهى عن قتل النملة؛ لأنها كانت دلّت أخواتها على النجاة من سليمان عليه الصلاة والسلام... وهذا من تمام عدل الله ﷻ أن بعض الحيوانات التي يكون فيها مصلحة للعباد يكون لها مزية وفضل على غيرها... وسب الديك قد يقع من بعض الناس، إذا فزع من صوته وهو نائم فيسبه ويشتمه وهذا منهي عنه لأن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا الديك».

وفي هذا الحديث دليل على: أنه ينبغي للإنسان أن يتخذ ما يُوقظه للصلاة، وذلك مثل الساعات المنبهة... فإن الإنسان ينبغي له أن يقتنى هذه الساعات حتى تُنبهه للصلاة في الوقت الذي يدرك فيه الصلاة... وكثير من الناس يتهاون في هذا الأمر فينام معتمدًا على أنه سيقوم في الوقت الذي يريده ولكن يغلبه النوم، فإذا علمت من نفسك هذا فاجعل لنفسك مُنبهًا يُنبهك للصلاة؛ لأن ما لا يتم المأمور إلا به فهو مأمور به وأنت مُثابٌّ على هذا^(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣١٤).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢٣٦/٤) بتصرف.

(٢٢٥) باب النهي عن قول الإنسان :

مُطَرْنَا بِنَوءِ كَذَا

(١٧٤٠) عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صَلَّى بنا رسولُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِيَّةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطَرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكِبِ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يحكى زيد بن خالد رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في الحديبية... والحديبية غزوة مشهورة معروفة، وذلك أن النبي ﷺ خرج إلى مكة معتمرًا ومعه الإبل - الهدى -، فلما وصل إلى الحديبية وهي أرض بين الحِلِّ والحرم، منعه قريش أن يدخل مكة، وجرى بينهم وبين النبي ﷺ ما هو معروف من المصالحة... لكن في إحدى الليالي، صلى بهم النبي ﷺ صلاة الصبح على إثر مطر، فلما انصرف من صلاته أقبل عليهم وقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ... وإنما ألقى عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا؛ لأن إلقاء الأسئلة يُوجب الانتباه... قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سُئِلَ عما لا يعلم أن يقول: اللَّهُ أَعْلَمُ... في الأمور الشرعية. فأخبرهم النبي ﷺ أن الله ﻋَزَّوَجَلَّ قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنَوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكِبِ».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٨٤٦) كتاب الأذان - ومسلم (٧١) كتاب الإيمان.

وَالسَّمَاءُ هُنَا: الْمَطَرُ.

فلاستسقاء بالأنواء: أن يُطلب من النجم أن يُنزل الغيث... ويدخل فيه أن يُنسب الغيث إلى النجم، كما كان أهل الجاهلية يزعمون، فكانوا إذا نزل مطر في وقت نجم مُعَيَّن نسبوا المطر إلى ذلك النجم، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا، أو هذا مطر الوسمى، أو هذا مطر الثريا، ويزعمون أن النجم هو الذي أنزل هذا الغيث^(١).

❖ والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن ينسب المطر إلى النجم معتقداً أنه هو المنزل للغيث بدون مشيئة الله وفعله **عَزَّوَجَلَّ**، فهذا شرك أكبر بالإجماع^(٢).

القسم الثاني: أن ينسب المطر إلى النوء معتقداً أن الله جعل هذا النجم سبباً في نزول هذا الغيث... فهذا من الشرك الأصغر^(٣)؛ لأنه جعل ما ليس بسبب سبباً^(٤)، فالله تعالى لم يجعل شيئاً من النجوم سبباً في نزول الأمطار، ولا صلة للنجوم بنزولها بأى وجه، وإنما أجرى الله العادة بنزول بعض الأمطار في وقت بعض النجوم.

هذا وإذا قال المسلم: «مُطرنا بنوء كذا وكذا» ومقصده أن الله أنزل المطر في وقت هذا النجم^(٥)، معتقداً أنه ليس للنجم أدنى تأثير لا استقلالاً ولا تسبباً فقد

(١) ينظر: التمهيد (٢٨٧/١٦، ٢٨٨)، شرح السنة (٤/٤٢٠).

(٢) قال في الفروع (١٦٣/٢): «وإضافة المطر إلى النوء دون الله كفرٌ إجماعاً». وهذا شرك في الربوبية، ومن الشرك الأكبر في هذا الباب: أن يدعو النجم أن يُنزل الغيث... كما سبق قريباً وهذا شرك أكبر في الربوبية والألوهية.

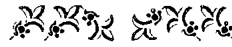
(٣) بعض العلماء يسمي هذا الشرك بـ«كفر النعمة»؛ لأنه نسب إنعام الله تعالى عليه بالغيث إلى النجم، وجعله سبباً في ذلك، مع أن الله لم يجعله سبباً - المعلم (١/٣٣٢)، الفروع (٢/١٦٣).

(٤) القول المفيد - باب ماجاء في الاستسقاء بالأنواء (٢/١٩).

(٥) لأن الباء تأتي للظرفية بمعنى «في»، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا نُنزِلُ الْغَيْثَ عَلَيْهِمْ مُّصْحِحِينَ ۖ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ﴾ أى: وفي الليل - وكما في قوله تعالى: ﴿بَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۚ﴾ [القمر: ٣٤]، لكن الباء أظهر في كونها للسببية - ينظر: مغنى اللبيب (١/١٢١)، القول المفيد (٢/٣١).



اختلف أهل العلم في حكم هذا اللفظ: فقيل: هو محرم^(١). وقيل: مكروه^(٢). وقيل: مباح^(٣)، ولا شك أن هذا اللفظ ينبغي تركه، واستبداله بالألفاظ الأخرى التي لا إيهاً فيها... فإما أن يقول: «مُطرنا بفضل الله ورحمته»، أو يقول: «هذه رحمة الله»، وهذا هو الذي ورد الثناء على مَنْ قاله، كما سبق في النصوص... فهو أولى من غيره، وإما أن يقول: «هذا مطر أنزله الله في وقت نجم كذا»، أو يقول: «مُطرنا في نوء كذا»^(٤)، ونحو ذلك من العبارات الصريحة التي لا لبس ولا إشكال فيها^(٥).



(١) الفروع: صلاة الاستسقاء (١/١٦٣).

(٢) الأذكار للنووي (ص ٣٠٨)، شرح مسلم للنووي (٢/٦١).

(٣) شرح السنة: الاستسقاء (٤/٤٢١)، النهاية (مادة: نوأ)؛ جامع الأصول: النجوم (١١/٥٧٨).

(٤) مغني المحتاج: صلاة الاستسقاء (١/٣٢٦)، الفروع (١/١٦٣)، الإنصاف (٥/٤٣٩).

(٥) تسهيل العقيدة الإسلامية / أ. د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص ٤٢٩-٤٣٤) بتصرف كبير.

﴿ ٣٢٦ ﴾ باب تحريم قوله لمسلم: يا كافر

(١٧٤١) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد بَاءَ بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه»^(١).

(١٧٤٢) وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»^(٢).

✽ قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين): باب تحريم قوله لمسلم: يا كافر.

المسلم والكافر حُكِمَهما إلى الله عز وجل.. فالذي يحكم بالكفر هو الله، والذي يحكم بالإسلام هو الله.. كما أن الذي يُحلل ويُحرم هو الله عز وجل، فليس لنا أن نُحلل ما حرم الله، ولا أن نُحرم ما أحل الله، ولا أن نُكفر من ليس بكافر في حكم الله، ولا أن نقول هذا مسلم وهذا ليس مسلماً.... ومسألة التكفير مسألة خطيرة جداً، فُتِحَ بها أبواب شرّ كبيرة على الأمة الإسلامية.. فإن أول من انتحل هذه النحلة الخبيثة وهي تكفير المسلمين هم الخوارج... الخوارج الذين أخبر النبي ﷺ أنه «يأتني في آخر الزمان قوم، حداثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة»^(٣) حتى أخبر النبي ﷺ أن الصحابة يحقر أحدهم صلاته عند صلاة هؤلاء... لكنهم والعياذ بالله كفّروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٠٤) كتاب الأدب - ومسلم (٦٠) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٤٥) كتاب الأدب - ومسلم (٦١) كتاب الإيمان.

«حاراً»: رجّع.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦١١) كتاب المناقب - ومسلم (١٠٦٦) كتاب الزكاة.

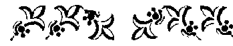
ونساءهم، نسأل الله العافية... وما زال هذا الحُكم موجودًا إلى يومنا هذا، فإن هناك شُعبة ضالة مبتدعة خبيثة تُكفر بأهوائها مَنْ لم يكفره الله ورسوله... هذا كافر، هذا مبتدع، هذا فاسق، وما أشبه ذلك، وماذا حصل من هؤلاء الخوارج المارقين من الإسلام؟ حصل منهم أنهم اجتمعوا مع على بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الخليفة الراشد الرابع من الخلفاء الراشدين... اجتمعوا معه على حرب أهل الشام، واتفقوا على ذلك وجرت بينهم حروب عظيمة ودماء كثيرة، ثم اصطُلح على رضي الله عنه مع أهل الشام وتصالحوا حقًا لدماء المسلمين. فقالت الخوارج لعلي بن أبي طالب: أنت كافر لماذا تصالحهم، كفرت كما كفروا... فخرجوا عليه وقاتلوه لكن صارت العاقبة والحمد لله له... فقد قتلهم قتل عادٍ وإِرم، وقضى على أكثرهم... لكن ما زال هذا المذهب الخبيث موجودًا في المسلمين، يُيُحوا دماء المسلمين مع احترامها، وأموالهم مع احترامها، ونساءهم مع احترام الأعراض، فيقولون مثلاً: مَنْ زنى فهو كافر، وَمَنْ سرق فهو كافر، وَمَنْ شرب الخمر فهو كافر... كل ذنب من كبائر الذنوب فهو عندهم كفر، والعياذ بالله، يُخرج من الملة.

فهؤلاء الذين يُكفرون المسلمين لا شك أنهم هم الكفار؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الرجل إذا قال لأخيه يا كافر فإنه يبوء بها أحدهما، لا بد... إن كان كما قال: كافر، فهو كافر، وإلا كان الكافر هو القائل والعياذ بالله.. ولهذا يجب أن يُنزه الإنسان لسانه وقلبه عن تكفير المسلمين.. لا يتكلم فيقول: هذا كافر، ولا يعتقد في قلبه أن هذا كافر، لمجرد الهوى... الحكم بالتكفير ليس لزيد ولا لعمر، بل هو لله ورسوله صلى الله عليه وسلم... مَنْ كَفَّرَ الله ورسوله فهو كافر، وإن قلنا إنه مسلم، وَمَنْ لم يكفره الله ورسوله فهو مسلم، وإن قال مَنْ قال إنه كافر... لذلك نقول لمن قال لمسلم يا كافر، أو يا عدو الله... إن كان المُخاطَب كما قال فهو



كافر وعدو لله، وإن لم يكن كذلك فالقائل هو الكافر العدو لله والعياذ بالله... وعلى هذا فيكون هذا القول من كبائر الذنوب إذا لم يكن الذى قيل فيه أهلاً لها، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله فى تحريم هذا، أى فى تحريم القول للمسلم: يا كافر أو يا عدو الله.

نسأل الله تعالى أن يحمى قلوبنا وأن يحفظنا من الكلام الذى يُغضبه ويضرنا، إنه على كل شىء قدير^(١).



(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٢٣٨-٢٣٩) بتصرف.

(٢٢٧) بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْفُحْشِ وَبِذَاءِ اللِّسَانِ

(١٧٤٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٥٦٣) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٤٤) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ»^(٢).

✽ قَالَ الطَّبِيُّ: فِيهِ مُبَالِغَةٌ... أَيْ: لَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ الْفُحْشُ أَوْ الْحَيَاءُ فِي جَمَادٍ لَزَانَهُ أَوْ شَانَهُ، فَكَيْفَ بِالْإِنْسَانِ؟ وَأَشَارَ بِهِذِينَ إِلَى أَنَّ الْأَخْلَاقَ الرَّذِيلَةَ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ هِيَ الشَّرُّ كُلُّهُ... وَالْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ هِيَ الْخَيْرُ كُلُّهُ.... قَالَ ابْنُ جَمَاعَةَ: وَقَدْ بُلِيَ بَعْضُ أَصْحَابِ النُّفُوسِ الْخَبِيثَةِ مِنْ فَقَهَاءِ الزَّمَانِ بِالْفُحْشِ وَالْحَسَدِ وَالْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ وَعَدَمِ الْحَيَاءِ^(٣)...

وأقول: ليت ابن جماعة عاش إلى الآن حتى يرى بعض علماء هذا الزمان - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ - وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٨١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٥٥).

(٣) فتح القدير (٤٦١/٥).



(٢٢٨) باب كراهة التّعير في الكلام والتشديق،

وتكُلف الفصاحة واستعمال وحشى اللغة،

ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم

(١٧٤٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا

ثَلَاثًا^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم

(١٤٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٤٦) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ

اللَّهُ يُبْغِضُ الْبَلِيعَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ»^(٢).

✽ والمقصود بذلك الإنسان الذي يتفاحش ويتعمر ويتعمق في الكلام

ويتكلفه، ولم يكن ذلك له سليقة، فيتكلف ويأتى بشيء عن طريق التكلف...

أما إذا كان من غير تكلف بأن يعطى الله الإنسان فصاحة وبلاغة فتكلم واستخدم فصاحته وبلاغته في بيان الحق، فإن ذلك غير مذموم.

وهذا الحديث فيه أن الله يبغض الذى يتكلف البلاغة، ويأتى بشيء عن تقعر

وتكلف، ووصفه بأنه يشبه البقرة التى تتخلل بلسانها وتُحرك لسانها وتُديره

وتمده... يعنى: أنه يتكلف ويتقعر كما أن البقرة هذا شأنها وهذه طريقتها في

كونها تستعمل لسانها في أكلها... وقيل: إن البقرة ليست كالبهائم؛ لأن البهائم

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٠) كتاب العلم.

«الْمُتَنَطِّعُونَ»: الْمُبَالِغُونَ فِي الْأُمُورِ.

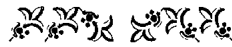
(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (١٨٧٥).

تتناول الشيء بأسنانها، وأما هي فتتناول الشيء بلسانها.

فشبه مَنْ يتفاحص ويتكلف البلاغة والفصاحة بالبقرة التي تُحرك لسانها وتمده وتميله يمينًا وشمالًا.

وفي هذا إثبات صفة البغض لله ﷻ حيث قال: «إن الله يبغض» فهذه من صفات الله ﷻ التي يجب إثباتها لله ﷻ كما يليق به، كما هو الشأن في جميع الصفات.

وفيه: تحريم مثل هذا العمل وذمه، وأن صاحبه ممن هو مُبغض عند الله سبحانه وتعالى^(١).



(١٧٤٧) وعن جابر بن عبد الله ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أْبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الثَّرَاوُونَ، وَالْمُتَشَدُّقُونَ وَالْمُتَفَيِّهُونَ»^(٢).

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٣٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) شرح سنن أبي داود / للشيخ عبد المحسن العباد.

(٢) حسن: رواه الترمذی، وحسنه الألبانی فی صحيح الجامع (٢٢٠١).

(٣٢٩) باب كراهة قوله: خَبِثَتْ نَفْسِي

(١٧٤٨) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبِثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسْتُ نَفْسِي»^(١).

✽ قال المصنف رحمته الله: (باب: كراهة قول الإنسان: خَبِثَتْ نَفْسِي).

أو أن يقول: إن نفسي خبيثة! فهذا اللفظ أنت منهي عنه إما لنفسك أو لغيرك... فلا تقل: هذا فلان خبيث، أو نفسه خبيثة، أو خَبِثَتْ نفسي، أو خَبِثَتْ نفس فلان فكل هذه من الألفاظ التي نهى عنها الشارع، ولكن قل: لَقِسْتُ نفسي أو لَقِسْتُ نفس فلان... والأولى ألا تتهم أحدا؛ لأن هذا ربما يُعَدُّ من السباب أو الغيبة أو غير ذلك... ولكن إذا أردت أن تُعبر بالخُبْث فَقُلْ: لَقِسْتُ نفسي، ولا تقل خَبِثَتْ نفسي، وإن كانت الكلمتان تؤديان معنى واحد... فلَقِسْتُ بمعنى خَبِثْتُ؛ واللقس في اللغة: هو الخُبْث، ولكن الشارع أراد أن يُنزه عباده عن صريح الألفاظ المذمومة، فعندما تقول لفلان: أنت خبيث؛ فإنه يفهمها ويتأذى بها، لكنك لو قلت له: لَقِسْتُ نفسك. فإنه لن يفهمها وبالتالي فلن يتأذى بها.

فإن قيل: فقد قال ﷺ في الذي ينام عن صلاة الصبح في وقتها: «فأصبح خبيث النفس كسلان» بخلاف طيب النفس النشيط، فكيف نجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: خَبِثَتْ نَفْسِي»؟

فالجواب: أن النبي ﷺ أخبر عن صفة غيره، وهو شخص مُبْهَم وليس معلوم الحال، فلا يمتنع إطلاق هذا اللفظ عليه ما دام مجهولاً، ومادام قد وقع في أمر مذموم وهو ترك صلاة الفجر.... والله تعالى أعلم^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٧٩) كتاب الأدب، ومسلم (٢٢٥٠) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

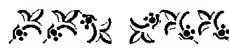
قال العلماء: معنى خَبِثَتْ: عَثَتْ، وهو معنى «لَقِسْتُ» ولكن كَرِهَ لَفْظَ الْخُبْثِ.

(٢) شرح صحيح مسلم / للشيخ حسن أبو الأشبال.

❁ وفي هذا الحديث دليل على: اجتناب الألفاظ المكروهة وإبدالها بألفاظ غير مكروهة وإن كان المعنى واحدًا؛ لأن اللفظ قد يكون سببًا للمعنى.

قد يقول: خَبِثَتْ نفسى بمعنى عَثَتْ، والخَبِثَ: الغَثيان، ويأتى فى باله أنه من الخَبِثَ الذى هو ضد الطيب... والنفوس الخبيثة هى نفوس الكفرة والعياذ بالله، لقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. ولقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، ولأن النبى كان إذا أراد دخول الخلاء ليقول، أو يتغوط يقول: «أعوذ بالله من الخُبث والخبائث». يعنى الشياطين وإناث الشياطين والشر.

فالمهم أن الإنسان يُكره له أن يُطلق ألفاظًا مكروهة على معانٍ صحيحة بل يبدلها بألفاظٍ محبوبة للنفوس.



(٣٣٠) بَابُ كَرَاهَةِ تَسْمِيَةِ الْعَنْبِ كَرَمًا

(١٧٤٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُسَمُّوا الْعَنْبَ الْكَرْمَ، فَإِنَّ الْكَرْمَ الْمُسْلِمُ»^(١).

وَفِي رَوَايَةٍ: «فَإِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ».

وَفِي رَوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ: «يَقُولُونَ الْكَرْمَ، إِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ».

(١٧٥٠) وَعَنْ وَاثِلِ بْنِ حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: الْكَرْمُ، وَلَكِنْ قُولُوا: الْعَنْبُ، وَالْحَبْلَةُ»^(٢).

❦ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُسَمَّى الْعَنْبُ الْكَرْمَ .. فَلِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَوْ لَا أَنْ الْكَرْمَ - كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ - هُوَ الْمُؤْمِنُ أَوْ هُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ .. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْكَرْمِ .. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْكَرْمَ وَصْفٌ طَيِّبٌ مَحْبُوبٌ يُوصَفُ بِهِ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ .. وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مَعْرُوفًا بِالْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ وَالْجُودِ وَالْكَرَمِ بِمَالِهِ وَعِلْمِهِ وَجَاهِهِ .. وَلِذَا فَإِنَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُوصَفَ بِهَذَا الْوَصْفِ مِنَ الْعَنْبِ .. وَلِهَذَا فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ لِلْعَنْبِ: عَنْبٌ أَوْ يُقَالَ الْحَبْلَةُ: وَهِيَ شَجَرَةُ الْعَنْبِ.

❦ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ الْعُلَمَاءُ: سَبَبُ كَرَاهَةِ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَةَ الْكَرْمِ كَانَتْ الْعَرَبُ تُطْلِقُهَا عَلَى شَجَرِ الْعَنْبِ وَعَلَى الْعَنْبِ وَعَلَى الْخَمْرِ الْمُتَّخَذَةِ مِنَ الْعَنْبِ ... سَمَّوْهَا كَرْمًا لِكُونِهَا مُتَّخَذَةً مِنْهُ؛ وَلِأَنَّهَا تَحْمِلُ عَلَى الْكَرْمِ وَالسَّخَاءِ فَكِرَةَ الشَّرْعِ إِطْلَاقَ هَذِهِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٨٢، ٦١٨٣) كتاب الأدب - ومسلم (٢٢٤٧) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٨) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

«الْحَبْلَةُ» الْعَنْبُ .. وَقِيلَ: شَجَرَةُ الْعَنْبِ.

الْلَفْظَةَ عَلَى الْعِنَبِ وَشَجَرِهِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا الْلَفْظَةَ رُبَّمَا تَذَكَّرُوا بِهَا الْخَمْرَ، وَهَيَّجَتْ نُفُوسَهُمْ إِلَيْهَا، فَوَقَعُوا فِيهَا أَوْ قَارَبُوا ذَلِكَ... وَقَالَ: إِنَّمَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْإِسْمَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَوْ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ الْكَرَمَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْكَرَمِ... وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فَسُمِّيَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَرَمًا لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْهُدَى، وَالنُّورِ، وَالتَّقْوَى، وَالصِّفَاتِ الْمُسْتَحِقَّةِ لِهَذَا الْإِسْمِ وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ^(١).



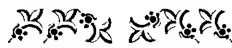
(١) مسلم بشرح النووي (١٥/٧-٨).

(٣٣١) باب النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل
إلا أن يحتاج إلى ذلك لغرض شرعي كنكاحها ونحوه

(١٧٥١) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُبَاشِرِ المرأةُ المرأةَ، فتُصِفَها لِزَوْجِها كأنَّهُ يَنْظُرُ إليها» ^(١).

❁ ففي هذا الحديث ينهى النبي ﷺ أن تصف المرأة المرأة ثم تذهب وتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها.. وهذا يوضح أنها بذلك تصف لزوجها تفاصيل تلك المرأة كأن تقول لزوجها: إن لونها كذا وطولها كذا ولون عينيها كذا ولون شعرها كذا.. وهذا لا يجوز؛ لأن الزوج قد يتخيل هذه المرأة وقد يشتهي أن يتزوجها فتحدث المشاكل بينها وبين زميلتها التي وصفتها هي بنفسها لزوجها... فليس للمرأة أن تصف امرأة أخرى لزوجها كأنه ينظر إليها.

❁ وكذلك لا يجوز لأي إنسان أن يصف امرأة لرجل إلا إذا كان هذا الرجل يريد أن يتزوجها فيجوز لأخيها أن يصفها له أو يرسل إحدى محارمه لتنظر إليها وتصفها له إذا كان عنده رغبة في الزواج منها ولا يريد أن يجرح بيوت الناس حتى يعرف بعض أوصافها عسى أن تكون مناسبة له فيذهب إلى بيت أسرتها.. أو تكون غير مناسبة فلا يجرح بيوت الناس ويُسبب لها ولأهلها حرجاً.



(١) صحيح: رواه البخاري (٥٢٤٠) (٥٢٤١) كتاب النكاح، ولم يُخرجه مسلم كما قال المصنف رحمته الله.

(٢٣٢) باب كراهة قول الإنسان في الدعاء :

اللهم اغفر لي إن شئت بل يجزم بالطلب

(١٧٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليُعزِم المسألة، فإنه لا مكره له»^(١).
وفي رواية لمسلم: «ولكن ليُعزِم وليُعظَّم الرغبة، فإن الله تعالى لا يتعاطمه شيء أعطاه».

(١٧٥٣) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم، فليُعزِم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت، فأعطيني، فإنه لا مُستكره له»^(٢).
✽ قال المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه (رياض الصالحين): باب كراهة قول الإنسان اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت.

✽ من المعلوم أن الإنسان لا ملجأ له إلا الله ﻋَزَّوَجَلَّ في طلب الخير ودفع الشر، وإذا كان الله تعالى هو المقصود وهو الذي يريد العباد ويلجأون إليه ويعتمدون عليه، فإنه لا ينبغي للإنسان أن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، بل هذا حرام... لأن قول القائل: إن شئت كأنه يقول: إن شئت اغفر لي وإلا ما يهمني، كأنه يقول أنا في غنى عنك... كما تقول لصاحبك: إن شئت فزرنى... وإن شئت فلا تزرنى فأنا لست في حاجة إليك... ولهذا كان قول القائل: اللهم اغفر لي إن شئت، هو قولٌ مُحَرَّم... فقول المؤلف كراهة قول الإنسان اللهم اغفر لي إن شئت يعنى كراهة التحريم... وكذلك لا يقول اللهم ارحمني إن شئت، بل يعزم؛ لأنه يسأل جواداً كريماً غنياً حميداً.. وهو

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٩) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٦٧٩) كتاب الذكر والدعاء.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٣٨) كتاب الدعوات - ومسلم (٢٦٧٨) كتاب الذكر والدعاء.

الله ﷻ... ولأنه مفتقر إلى الله فليكن عازماً في الدعاء، يقول اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، بدون إن شئت... وكذلك لا يقول اغفر لي إن شاء الله، أو يقول الإنسان: غفر الله لك إن شاء الله، هداك الله إن شاء الله... كل هذا لا يُقال، وإنما يجزم الإنسان ويعزم.

❦ قوله ﷺ: «إِن الله لا مُكره له» أى: فإن الله تعالى يعطى ويتفضل ويجود على عباده دون إكراهٍ مِنْ أَحَدٍ... أما العباد فمنهم مَنْ يعطى رغبة ورهبة، فتجد الشخص يعطى مَنْ يسأله من أجل رغبة في تحصيل شىء من وراء إعطائه إياه، أو يعطيه خوفاً منه... والله ﷻ لا مُكره له، فلا يليق أن يُسأل بهذا السؤال، وإنما يُسأل بالعزيمة بدون التقييد بذكر المشيئة.

كذلك أيضاً يقول الإنسان إن شئت كأنه يتعاضم الشىء... فيقول: إن شئت فأت به وإن شئت فلا تأت... والله تعالى لا يتعاضمه شىء أعطاه، مهما عظم الشىء فإن الله تعالى غنى كريم يعطى الكثير ﷻ ويترك القليل.. والحاصل أنه لا يحل لك أن تقول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم أدخلني الجنة إن شئت، اللهم ارزقني أولاداً إن شئت، اللهم ارزقني زوجة صالحة إن شئت، كل هذا لا يجوز... اعزم المسألة ولا تقل فيها المشيئة.

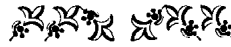
ومن ذلك أيضاً ما يقوله بعض الناس: اللهم إني لا أسألك ردَّ القضاء ولكنى أسألك اللطفَ فيه.. فإن هذا حرام، كيف لا تسأل الله ردَّ القضاء، وهل يرد القضاء إلا الدعاء... كما جاء في الحديث: «لا يرد القضاء إلا الدعاء». وكأنك إذا قلت: اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكنى أسألك اللطفَ فيه.. كأنك تقول: يا ربى عذبنى ولكن ارفق بى، يا رب أهلك أحبابى ولكن ارفق، وما أشبه ذلك... كل هذه الأدعية يجب على الإنسان أن يتوخى فيها ما جاء في الكتاب والسنة^(١).

(١) شرح رياض الصالحين (٤/٢٤٣-٢٤٤) بتصرف.

❦ وأما قول الرسول ﷺ لمن وجده مريضًا: لا بأس طهور إن شاء الله.. فهذا من باب الرجاء وهو خبر... يعنى أرجو أن يكون هذا طهورًا. وأيضًا لم يكن بلفظ المخاطبة... ما قال: إن شئت، بل قال: إن شاء الله، واللفظ بغير المخاطبة أهون وقعًا من اللفظ الذى يأتى بالمخاطبة.

وقوله: «وإنّا إن شاء الله بكم للاحقون» فهذا ليس من التعليق، بل هو من التحقيق؛ لأنه لا بد من أن يلحق بهم.... ولا يوجد احتمال أنه لا يلحق بهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧] يعنى: تحقيقًا لا تعليقًا.

فقوله: «طهور إن شاء الله» من هذا القبيل، وليس شكًا.



(٣٣٣) باب كراهة قول : ما شاء الله وشاء فلان

(١٧٥٤) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ، ثم شاء فلان » ^(١).

✽ أورد المصنف رحمته الله هذا الحديث في باب كراهة قول : ما شاء الله وشاء فلان .. والكراهة هنا كراهة تحريم .. وذلك لأن الواو تقتضي التسوية .. أما العطف بـ « ثم » فهي جائزة لأنها تفيد الترتيب والتراخي .. فمن قال : « ما شاء الله وشاء فلان » فكأنه جعل هذا العبد مساوياً للخالق (جلّ وعلا) في المشيئة .. والله تعالى وحده المشيئة التامة .. وإن ذكر الله عز وجل مشيئة للعباد فلا بُدَّ أن نعلم أن مشيئة العباد لا بُدَّ أن تكون تابعة لمشيئة الله عز وجل.

ولما جاء رجل فقال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت قال : « أجعلتنى لله نداءً ، يُنكر عليه ، بل قل : ما شاء الله وحده » ^(٢).

ولذلك فإنه يحرم العطف بها بين الله وبين أحد من خلقه في أى أمر من الأمور التى يكون للمخلوق فيها دخل في وقوعها ... كأن يقال : « ما شاء الله وشئت » ، أو يُقال : « هذا من بركات الله وبركاتك » ، أو يُقال : « ما لى إلا الله وأنت » ، أو يُقال : « أرجو الله وأرجوك » ، ونحو ذلك.

وهذا يدل على أن هذه اللفظة وما يشبهها من الألفاظ التى فيها نسبة التأثير والتدبير أو النعمة لغير الله تعالى من الأشياء التى جعلها الله تعالى سبباً كقول بعضهم : « هذا الخير من عرق الجبين » ، أو « لولا فلان لم يحصل كذا » ، ونحوها مما يُنهى عنها ... وقد ذكر بعضهم كابن القيم في مدارج السالكين (١ / ٣٧٣) أن

(١) صحيح : رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وصححه الألبانى في صحيح الجامع (٦ / ٧٤٠).

(٢) حسن : رواه أحمد ، والبخارى في الأدب المفرد ، وابن ماجه ، وحسنه الألبانى في السلسلة الصحيحة

هذا من الشرك الأصغر، وذكر ابن رجب في لطائف المعارف: وظائف شهر صفر (ص ٧٠) أنه من الشرك الخفى... وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]: «قيل: معناها: أنهم يدعون الله لينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم: لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللص، ونحو هذا... فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب... وقد يقع في هذا القول كثير من عوام المسلمين».

وقد استثنى بعض أهل العلم من هذا الحكم: ما إذا أضاف النعمة إلى سبب صحيح ثابت على سبيل الإخبار لا غير، مع اطمئنان القلب إلى أن المُنعم الحقيقي هو الله تعالى، وأن هذا السبب إنما هو من فضل الله وإنعامه، فقالوا: بأن هذا جائز... ولهذا أدلة منها حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيءٍ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال النبي ﷺ: «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^{(١)(٢)}. وما روته قتيلة بنت صيفي رضي الله عنها أن يهوديًا أتى النبي ﷺ، فقال: إنكم تُندّدون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة... فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولوا: ما شاء الله ثم شئت^(٣). فأقر النبي ﷺ هذا اليهودي على تسمية هذا العطف شركًا.

وعليه: فإن كان هذا القائل يعتقد أن ما نسبته إلى المخلوق الذي عطفه على اسم الله تعالى بـ«الواو» ليس على سبيل الاستقلال، ولكن نسبته إلى هذا المخلوق لأنه هو المباشر لهذا الأمر لا غير، مع اعتقاده أن الله هو الخالق

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٢٠٨) كتاب الأدب - ومسلم (٢٠٩) كتاب الإيمان.

(٢) الشرك الأصغر (ص ١٨٦-١٨٧) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصحح الألباني هذه الأحاديث الأربعة في السلسلة الصحيحة (١٣٦-١٣٧).

المقدّر، فهو شركٌ أصغر، من أجل هذا اللفظ الذي فيه تشريك... وإن كان يعتقد أن هذا المخلوق مُشاركٌ لله تعالى على سبيل الاستقلال، وأن تصرّفه في ذلك بدون مشيئة الله تعالى فهو شركٌ أكبر^{(١)(٢)}.

❁ وفي هذا الحديث دليل على: أن الإنسان إذا ذكر للناس شيئاً لا يجوز، فليبين لهم ما هو جائز... لأنه قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان. وهكذا ينبغي لمُعلم الناس إذا ذكر لهم الأبواب الممنوعة فليفتح لهم الأبواب الجائزة حتى يخرج الناس من هذا إلى هذا، بعض الناس يذكر الأشياء الممنوعة، يقول هذا حرام، هذا حرام، ولا يبين لهم الأبواب الجائزة، وهذا سدٌّ للأبواب أمامهم دون فتح للأبواب.

وانظر إلى لوط (عليه الصلاة والسلام)، قال لقومه: ﴿تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ بعده ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]، نهاهم عن الممنوع وأرشدهم إلى الجائز... وهكذا النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». بل انظر إلى قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤]، فنهاهم عن كلمة راعنا وأرشدهم إلى الكلمة الجائزة ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ ولما جرى إلى النبي ﷺ بتمر طيب، فقال: «أَكُلْ تمر خبير هكذا؟»، قالوا: لا، لكننا نشترى الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بثلاثة. قال: «... لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري التمر فبعه ببيع آخر، ثم اشتريه»^{(٣)(٤)}.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٧٣)، الدر النضيد (مطبوع ضمن الرسائل السلفية ص ١٤، ١٥)، القول المفيد

باب ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وباب قول ما شاء الله وشئت، الشرك الأصغر (ص ١٦٦-١٦٨).

(٢) تسهيل العقيدة الإسلامية / أ. د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص ٤٢٥-٤٢٨) بتصرف كبير.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٠٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٩٣) كتاب البيوع.

(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٤٥).

(٣٣٤) باب كراهة الحديث بعد العشاء الآخرة

❦ والمرادُ به الحديثُ الذي يكونُ مُباحًا في غيرِ هذا الوقتِ، وفعله وتركُهُ سواءٌ، فأما الحديثُ المُحرَّمُ أو المكروهُ في غيرِ هذا الوقتِ، فهو في هذا الوقتِ أشدُّ تحريمًا وكراهةً.. وأما الحديثُ في الخيرِ كمُذاكرةِ العِلْمِ وحكاياتِ الصَّالحينِ، ومكارمِ الأخلاقِ، والحديثُ مع الضَّيفِ، ومع طالبِ حاجةٍ، ونحو ذلك، فلا كراهةَ فيه، بل هو مُستحبٌّ.. وكذا الحديثُ لِعُذرٍ وعارضٍ لا كراهةَ فيه، وقد تظاهرتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ على كُلِّ ما ذكرتهُ^(١).

(١٧٥٥) عن أبي بَرزَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النُّومَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَالْحَدِيثَ بَعْدَهَا^(٢).

❦ قال المؤلف رحمته الله في كتابه (رياض الصالحين): باب كراهة الحديث بعد صلاة العشاء الآخرة.

ثم ذكر رحمه الله أن الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
قسم مكروهٌ أو مُحَرَّمٌ، وقسمٌ مندوبٌ إليه، وقسمٌ مباحٌ.
أما المكروه والمُحرَّم: فإنه يزداد كراهةً وتحريمًا إذا كان بعد صلاة العشاء.
وأما المباح: فهو الذي كان النبي ﷺ يكرهه بعد العشاء.
وأما المندوب: فإنه مندوب ولا يضر ولو كان بعد صلاة العشاء.
فأما الأولُ فمثل: الحديث في الغيبة والنميمة وقول الزور والاستماع إلى اللهو والغناء ومشاهدة ما لا يحل مشاهدته، فهذا حرامٌ في كلِّ وقتٍ وحين، ويزداد إثماً إذا كان بعد العشاء الآخرة؛ لأنه في وقتٍ يُكره فيه الكلام المباح

(١) رياض الصالحين / للإمام النووي رحمته الله (ص ٥٠٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٨) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٤٧) كتاب المساجد.

فكيف بالمحرم والمكروه.

والقسم الثاني: الكلام اللغو الذي ليس حراماً ولا مكروهاً ولا مندوباً وهو أكثر كلام الناس .. فهذا كان النبي ﷺ يكرهه بعد صلاة العشاء، وذلك لأنه إذا تحدث الإنسان بعد صلاة العشاء يطول به المجلس ثم يتأخر نومه فيكسل عن قيام الليل وعن صلاة الفجر.. وما أدى إلى تهاون في الأمر المشروع فإنه يكون مكروهاً.

وأما المندوب: فهو التشاغل بالعلم مُطالعة أو حفظاً أو مذاكرة، والحديث مع الضيف ليؤنسه ويكرمه بحديثه .. والحديث مع الأهل لتأليف قلوبهم، وما أشبه ذلك.. وكذلك الحديث العارض الذي ليس دائماً ... كل هذا لا يضره، بل أنه مستحب إذا كان المقصود به حصول خير.

ثم ذكر المؤلف أحاديث.. منها حديث أبي برزة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها؛ وذلك لأن النوم قبل العشاء يؤدي إلى الكسل إذا قام ليصلي وربما استغرق به النوم حتى أخر الصلاة عن وقتها، فلذلك كان النبي ﷺ يكره النوم قبل صلاة العشاء من أجل أن يكون الإنسان نشيطاً. وأما النعاس فهذا ليس باختيار الإنسان ولا يضره.

والشاهد من هذا الحديث قوله: «والحديث بعدها»، فإن الحديث بعد العشاء كرهه النبي ﷺ. وأما إذا كان في خير فإنه لا بأس به... ولهذا كان النبي ﷺ يحدث أصحابه بعد صلاة العشاء وينصحهم، ويبين لهم عليه الصلاة والسلام، فهذا لا بأس به. والله الموفق^(١).

❦ قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَسَبَبُ كَرَاهَةِ النَّوْمِ قَبْلَهَا أَنَّهُ يُعَرِّضُهَا لِفَوَاتٍ وَقْتَهَا بِاسْتِغْرَاقِ النَّوْمِ أَوْ لِفَوَاتٍ وَقْتَهَا الْمُخْتَارُ وَالْأَفْضَلُ وَلِتَلَا

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمته الله (٤/ ٢٤٦-٢٤٧) بتصرف.

يَتَسَاهَلُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ فَيَنَامُوا عَنْ صَلَاتِهَا جَمَاعَةً... وَسَبَبُ كَرَاهَةِ الْحَدِيثِ بَعْدَهَا أَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى السَّهْرِ وَيُخَافُ مِنْهُ غَلَبَةُ النَّوْمِ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ أَوْ الذِّكْرِ فِيهِ أَوْ عَنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِهَا الْجَائِزِ أَوْ فِي وَقْتِهَا الْمُخْتَارِ أَوْ الْأَفْضَلِ.. وَلِأَنَّ السَّهْرَ فِي اللَّيْلِ سَبَبٌ لِلْكَسَلِ فِي النَّهَارِ عَمَّا يَتَوَجَّهُ مِنْ حُقُوقِ الدِّينِ وَالطَّاعَاتِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْمَكْرُوهُ مِنَ الْحَدِيثِ بَعْدَ الْعِشَاءِ هُوَ مَا كَانَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهَا... أَمَّا مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ وَخَيْرٌ فَلَا كَرَاهَةَ فِيهِ وَذَلِكَ كَمُدَارَسَةِ الْعِلْمِ وَحِكَايَاتِ الصَّالِحِينَ وَمُحَادَثَةِ الضَّيْفِ وَالْعُرُوسِ لِلتَّائِسِ وَمُحَادَثَةِ الرَّجُلِ أَهْلَهُ وَأَوْلَادَهُ لِلْمُلَاطَفَةِ وَالْحَاجَةِ وَمُحَادَثَةِ الْمُسَافِرِينَ بِحِفْظِ مَتَاعِهِمْ أَوْ أَنْفُسِهِمْ وَالْحَدِيثُ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَالشَّفَاعَةِ إِلَيْهِمْ فِي خَيْرٍ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْإِرْشَادُ إِلَى مَصْلَحَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَكُلُّ هَذَا لَا كَرَاهَةَ فِيهِ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٧٥٦) وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لِيَلْتَكُمُ هَذِهِ؟ فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مِائَةِ سَنَةٍ لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ الْيَوْمَ أَحَدٌ»^(٢).

✽ يعنى: مَنْ كَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مُوجُودًا، لَنْ تَمُرَ عَلَيْهِ مِائَةُ سَنَةٍ إِلَّا وَقَدْ انْتَهَى، فَعِنْدَ ذَلِكَ وَهَلِ النَّاسُ فِيمَا قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَظَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ وَأَنَّ الدُّنْيَا تَنْتَهِي... وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا أَرَادَ انْخِرَامَ ذَلِكَ الْقَرْنِ، وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ انْتِهَاءُ الدُّنْيَا، وَأَنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ وَالدُّنْيَا تَنْتَهِي.

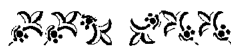
(١) مسلم بشرح النووي (٥/٢٠٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (١١٦) كتاب العلم - ومسلم (٢٥٣٧) كتاب فضائل الصحابة.

وإنما المقصود من ذلك أن مَنْ كان موجوداً يموت، وهذا يدل على قِصَر أعمار هذه الأمة؛ فكل مَنْ كان على ظهر الأرض في تلك الليلة - وكانت قبل وفاته بقليل - التي أخبر فيها النبي ﷺ أنه إذا مضى عليهم مائة سنة لا بد وأن يتتهوا، وأما الذين يُولدون بعد ذلك اليوم فلا يدخلون في الحديث، لأنه قال: ممن كان في تلك الليلة، ومَنْ يُولد بعدها قد ينتهي قبل مائة سنة، وقد يُعمر فيتجاوز تلك المائة التي بدايتها تلك الليلة التي قال فيها النبي ﷺ ذلك الكلام. ويُستثنى من ذلك عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام)، فإنه حيٌّ ولكنه في السماء... ويُستثنى من ذلك الدجال فإنه في جزيرة من الجزر كما مرَّ في حديث الجَسَّاسة، وهو حديث ثابت في صحيح مسلم وغيره، وهو في تلك الجزيرة مُوثَّقٌ بالحديد... فإذا أذنَّ الله له بالخروج فإنه يخرج... فمسيح الهداية في السماء وسينزل في آخر الزمان... ومسيح الضلالة في الأرض، وستكون نهاية مسيح الضلالة على يدي مسيح الهداية عيسى ابن مريم ﷺ.

فاللفظ ذكر ممن هو على ظهر الأرض... ومعلوم أن الجن يكونون على ظهر الأرض، فيبدو والله أعلم أن الجن والإنس يكونون كذلك.

لكن فيما يتعلق بالجن فإن الشيطان الذي هو إبليس ما زال مُعَمِّراً يغوى الناس، وبقاؤه مستمر... وقد آلى على نفسه أن يغوى الناس، لكن فيما يتعلق بالإنس والجن يبدو - والله تعالى أعلم - أن قوله: «ممن هو على ظهر الأرض» يشمل الإنس والجن، لأنهم جميعاً مسكنهم الأرض^(١).



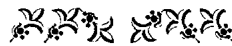
(١٧٥٧) وعن أنس رضي الله عنه: أَنَّهُمْ انتظروا النَّبِيَّ ﷺ فَجَاءَهُمْ قَرِيبًا مِنْ شَطْرِ اللَّيْلِ فَصَلَّى بِهِمْ - يَعْنِي: الْعِشَاءَ - قَالَ: ثُمَّ حَظَبْنَا فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلُّوا، ثُمَّ

(١) بتصرف من «شرح سنن أبي داود» للعباد.

رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظَرْتُمْ الصَّلَاةَ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يحكى أنس رضي الله عنه أنهم في ليلة من الليالي انتظروا النبي ﷺ ليصلى بهم صلاة العشاء.. لكن النبي ﷺ تأخر كثيراً... وهم من شدة حرصهم على الصلاة خلف النبي ﷺ ظلوا منتظرين حتى جاءهم النبي ﷺ قريباً من شطر الليل.. أى: قريباً من نصف الليل فصلى بهم العشاء ثم قام يخطب فيهم ﷺ فقال: «أَلَا إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلُّوا، ثُمَّ رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا فِي صَلَاةٍ مَا أَنْتَظَرْتُمْ الصَّلَاةَ».

يعنى: هذه المدة التى تنتظرون فيها الصلاة أنتم بها فى صلاة... والإنسان إذا دخل المسجد وجلس ينتظر الصلاة فهو فى صلاة ما انتظر الصلاة.
ولولا شفقة النبي ﷺ على أمته ورحمته بهم لأمرهم بتأخير صلاة العشاء كل ليلة ولكنه ﷺ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(١٢٨).
قال ﷺ: «لَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُؤَخَّرُوا الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِهِ»^(٢).



(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٠) كتاب مواقيت الصلاة.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذى وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٣١٣).

(٣٣٥) باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها
إذا دعاها ولم يكن لها عذر شرعي

(١٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبانَ عليها، لعنتها الملائكة حتى تُصبح»^(١).
وفي رواية: «حتى ترجع».

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٣٧) كتاب بدء الخلق - ومسلم (١٤٣٦) كتاب النكاح.

(٣٣٦) بَابُ تَحْرِيمِ صَوْمِ الْمَرْأَةِ تَطَوُّعًا

وَزَوْجُهَا حَاضِرًا إِلَّا بِإِذْنِهِ

(١٧٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٢٨٨) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥١٩٥) كتاب النكاح - ومسلم (١٠٢٦) كتاب الزكاة.



(٣٣٧) باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع

أو السجود قبل الإمام

(١٧٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَمَّا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ! أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ»^(١). وهى من المخالفات الشائعة بين العوام وبخاصة إذا كان الإمام بطيئاً في حركاته... ونحن نعلم أن النبي ﷺ نهى عن مسابقة الإمام.

والمستحب أن يكون شروع المأموم في أفعال الصلاة من الرفع والوضع بعد فراغ الإمام منه، ويكره فعله معه في قول أكثر أهل العلم.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قال: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ لَمْ تَزَلْ قِيَامًا، حَتَّى نَرَاهُ قَدْ وَضَعَ وَجْهَهُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ تَبِعَهُ»^(٢). ولا يجوز للمأموم أن يسبق إمامه.. لقوله ﷺ: «لَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالْإِنْصِرَافِ»^(٣).

وفي فتاوى اللجنة الدائمة جاء هذا السؤال:

ما حكم مسابقة الإمام وهل صلاة من سبقه صحيحة؟

- فكانت الإجابة: مسابقة المأموم لإمامه حرام بل هى من كبائر الذنوب لما ورد فيها من الوعيد... فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أَمَّا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الْإِمَامِ، أَنْ يُحَوَّلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ» وفي صحة صلاته خلاف... والراجع في ذلك أنه إن سبقه عامداً بطلت

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩١) كتاب الأذان - ومسلم (٤٢٧) كتاب الصلاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٩٠) كتاب الأذان - ومسلم (٤٧٤) كتاب الصلاة.

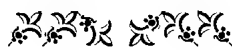
(٣) صحيح: رواه مسلم (٤٢٦) كتاب الصلاة.



صلاته وإن سبقه ساهياً رجع إليه وتابعه^(١).

وهذا وعيد... يُخشى أن الإنسان إذا رفع رأسه من الركوع قبل إمامه أو من السجود قبل إمامه أن يجعل الله صورته صورة حمار والعياذ بالله أو يُحوّل رأسه إلى رأس حمار... وإنما اختار النبي ﷺ الحمار دون سائر البهائم لأن الحمار أبلد ما يكون من البهائم... ولهذا مُثِّل به اليهود الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها فقال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً﴾ [الجمعة: ٥].

وهذا يدل على تحريم سبق الإمام في الرفع من الركوع والرفع من السجود وكذلك السبق إلى الركوع أو السجود حرام على المأموم... وأما التأخر عن الإمام كما يفعله بعض الناس إذا سجد وقام الإمام من السجود تجده يبقى ساجداً يزعم أنه يدعو الله وأنه في خيرٍ ودعاء... نقول: نعم أنت في خيرٍ ودعاء لو كنت وحدك أما وأنت مع الإمام فإن تأخرَكَ عن الإمام مخالف لهدى النبي ﷺ... لقوله ﷺ: «فإذا ركع فاركعوا»^(٢) والفاء تدل على الترتيب والتعقيب... فالمشروع للإنسان أن يبادر وألا يتأخر^(٣).



(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٣٢٦/٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨٨) كتاب الأذان، ومسلم (٤١٢) كتاب الصلاة.

(٣) شرح رياض الصالحين (٢٤٩/٤).

(٣٣٨) باب كراهة وضع اليد

على الخاصة في الصلاة

(١٧٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن الخصر في الصلاة^(١).

وهنا في هذا الحديث يخبر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن الخصر

في الصلاة.

أى: وضع اليدين على الخاصة.

لكن لماذا نهى عن الخصر في الصلاة؟

منهم من قال: إن هذه وقفة اليهود، والنبي ﷺ نهى عن التشبه بهم.

ومنهم من قال: لأنها وقفة المتكبرين.

ومنهم من قال: لأنها راحة أهل النار.

أى: أن أهل النار حينما يستريحون يتخضرون.

ومنهم من قال: إن إبليس لما هبط من الجنة إلى الأرض هبط مُتَخَصِرًا.

والخاصة: هى ما بين الحقو وأسفل الأضلاع.. ونهى النبي ﷺ عن ذلك

لأن الأصل أن الإنسان المسلم لا بد أن يتبع النبي ﷺ في كل عباداته.. فقد قال

ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي».. وكان النبي ﷺ في صلاته يضع يده اليمنى

على ذراعه اليسرى أو على الرسغ - أى ما بين الكف والذراع - ويرفعهما على

صدره.. فهذه هى سنة النبي ﷺ.. وكان يفعل ذلك في القيام قبل الركوع وبعد

الركوع.. وأما وضع اليدين على الخاصة فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك.

ولها صورتان: الصورة الأولى: أن يضع اليد اليسرى أو اليمنى على الخاصة.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٢١٩) كتاب الجمعة - ومسلم (٥٤٥) كتاب المساجد.

والثانية: أن يضع اليد اليمنى على اليسرى كما يفعله بعض الناس ويدعى أنه يفعل هذا لجعل اليدين على القلب.

وهذا خطأ.. لأن الشرع ليس له مدخل في العقل.. فالشرع نتلقاه من النبي ﷺ.. وهذا الأمر لم يرد عن النبي ﷺ.. وهذا النهي للكراهة كما قال المصنف رحمه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٣٩) باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام

ونفسه تتوق إليه أو مع مدافعة الأخبثين،

وهما البول والغائط

(١٧٦٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ، وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ » ^(١).

✽ يعنى أنه إذا وُضع الطعام وكان الإنسان جائعًا ويشتهى ذلك الطعام فإنه يأكل حتى يقضى حاجته حتى ولو فاتته الجماعة لأنه معذور... وقد كان ابن عمر يتعشى وهو يسمع قراءة الإمام، وهذا من فقهه رضي الله عنه.

فإن الإنسان إذا دخل في الصلاة وهو جائع وقد وُضع الطعام بين يديه وهو يشتهيه فإنه يصبح مُشوش القلب ولا يطمئن في صلاته ولا يخشع فيها لأن قلبه يكون عند طعامه..

والإنسان ينبغي له أن يصلى وقد فرغ من كل شىء، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ^(٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿[الشرح: ٧-٨]، ولكنه لا ينبغي أن يجعل ذلك عادة له، بحيث لا يقدم عشاءه أو غداءه إلا عند إقامة الصلاة.

أما إذا كان لا تتوق نفسه إليه فالأمر في هذا واسع... وإذا قُدم الطعام فإنه يأخذ نهمته ولو بعد الأذان... لكن لا ينبغي للإنسان أن يعتاد تقديم الطعام بعد الأذان، فإذا سمع النداء قال: هاتوا الطعام، فإن هذا معناه التعمُّد لترك الجماعة... لكن إذا قُدم بدون طلب وكان بحاجة إليه، فيأخذ نهمته.

هكذا إذا كان الإنسان جائعًا ونفسه تتوق وحضر الطعام فإنه في هذه الحالة

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٦٠) كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

الأخبثان: البول والغائط.

يقدم الطعام ولو فاتته الجماعة ... ويكون هذا عذراً له، كما أن مَنْ أكل كُراً أو ثوماً أو بصلاً فهذا عُذْرٌ له في ترك الجماعة، وليس له أن يأتي المسجد، ولا أن يصلي مع الناس وله رائحة كريهة... ويكون هذا عُذْرٌ في ترك الجماعة، لكن إذا تعمّد أكل الكراث والثوم والبصل لترك الجماعة صار آثماً... لكن لو أكل بدون تعمّد أو أكل مُحتاجاً لعلاج فهذا عذر.

❦ وأما الأمر الثاني: فإنه لا صلاة وهو يُدافعه الأخبثان: البول والغائط.... وهذه المدافعة تختلف ما بين القوة والضعف... ما بين دفعٍ يسير ودفعٍ يحتاج إلى مشقة عظيمة جدّاً، وينشغل المرء بذهنه وقلبه عن الصلاة أبداً، ويتمنى لو أن الإمام فرغ من صلاته... فحينئذ لا يجوز له أن يدخل في الصلاة وهو على هذه الحال، وإنما يذهب فيقضى حاجته ثم يتوضأ ثم يصلي مع الإمام... وإن أدرك الصلاة يكون خيراً، وإن كانت الأخرى فله أجر الجماعة، وما خلفه عن الجماعة إلا العذر...

أما مَنْ كان بإمكانه أن يدخل في الصلاة مع شيءٍ يسيرٍ من المُدافعة فلا بأس بذلك، وإنما المنهى عنه المدافعة التي تشق على صاحبها. وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: عن الحاقن أيّما أفضل له: أن يصلي بوضوءٍ محتقناً أو أن يُحدّث ثم يتيمم لعدم وجود الماء؟. فأجاب رحمه الله: صلاته بالتيمم بلا احتقان أفضل من صلاته بالوضوء مع الاحتقان... فإن هذه الصلاة مع الاحتقان مكروهة منهيٌّ عنها. وفي صحتها روايتان. وأما صلاته بالتيمم فصحيحة لا كراهة فيها بالاتفاق. والله أعلم.

إلى السماء في الصلاة

(٤) صحيح: رواه الحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في صفة الصلاة (ص ٢٣١).

❁ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي الشَّرْحِ الْمَمْتَعِ:

وأما التعليل: فلأن فيه سوء أدب مع الله تعالى... لأن المُصَلِّي بين يدي الله، فينبغي أن يتأدَّبَ معه، وأن لا يرفع رأسه، بل يكون خاضعاً... ولهذا قال عمرو ابن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنه كان قبل أن يُسَلِّمَ يكره النبي ﷺ كراهةً شديدةً، حتى كان يحبُّ أن يتمكَّنَ منه فيقتله، فلما أسلَمَ قال: ما كنت أُطيق أن أملاً عينيَّ منه؛ إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطقْتُ^(١)... فإن كان هذا حاله مع رسول الله ﷺ فكيف يكون الحال مع الله ﷻ.

واستثنى بعض العلماء رحمهم الله من ذلك النظر إلى الإمام ليقترن به لاسيما إذا كان الإنسان لا يسمع ولا يمكن اقتداؤه بإمامه إلا بالنظر فإنه ينظر إليه... لأن الصحابة كانوا يفعلون ذلك... وقد صعد النبي ﷺ المنبر وجعل يصلي عليه وقال: «فعلت ذلك لتأتموا بي ولتعلموا صلاتكم»^(٢) ولا يمكن أن يحصل تعليم الصلاة إلا وهم ينظرون إليه... ولهذا كانوا يحكون اضطراب لحيته في الصلاة السريّة مما يدل على أنهم كانوا ينظرون إلى إمامهم.

واستثنى بعض العلماء إذا كان الإنسان في المسجد الحرام والكعبة أمامه فإنه يجعل بصره إلى الكعبة ولكن هذا الاستثناء ضعيف... والصحيح أنه لا ينظر إلى الكعبة حال الصلاة لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ولأنه يُوجب التشويش حيث ينظر إلى الناس يطوفون ويذهبون ويجيئون... ثم إن قول بعضهم إن النظر إلى الكعبة عبادة خطأ، ليس بصحيح... لم يرد عن النبي ﷺ فيما نعلم حديث صحيح ولا ضعيف أن النظر إلى الكعبة عبادة^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الشرح الممتع (٣/ ٢٢٧) - والحديث رواه مسلم (١٢١) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٩١٧) كتاب الجمعة، ومسلم (٥٤٤) كتاب المساجد.

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٥٢).

(٣٤١) باب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر

(١٧٦٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الالتفاتِ في الصَّلَاةِ فقال: «هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ»^(١).

✽ إن الإنسان إذا قام إلى صلاته فلا بد أن يعلم أن الله ﻋَزَّوَجَلَّ يُقبل عليه بوجهه ... فإذا أعرض الإنسان عن ربه فإنه يوشك أن يُعرض الله عنه ... ولهذا نهى النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة لغير عذر... ولذا فإنه ينبغي على الإنسان إذا دخل في صلاته ألا يلتفت بقلبه ولا بوجهه إلى غير الله سبحانه وتعالى... والالتفات بالقلب هو أن يفكر الإنسان وينشغل بأمرٍ من أمور الدنيا ولا ينشغل بصلاته.. وذلك مثل الهواجس التي تعترى كثيراً من المصلين.. ولا بد أن نعلم أن التفت القلب أشد من التفت البدن.. وذلك لأنه يُنقص من الصلاة حتى إن الإنسان لينصرف من صلاته وما كُتب عُشرها أو أقل من ذلك بحسب حضور قلبه في الصلاة.

✽ وأما الالتفات بالوجه فهو أن يلتفت الإنسان بلى عنقه يمينا أو شمالاً.. مع أن الإنسان مأمور بأن يجعل وجهه تلقاء القبلة لا يميل يمينا أو شمالاً.. فإن التفت يمينا أو شمالاً فقد أخبر النبي ﷺ أنه «اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ» يعنى أن الشيطان يتسلط على الإنسان في صلاته بحيث يجعله يلتفت يمينا أو شمالاً.. وذلك من أجل أن ينقص أجره في الصلاة.

أما إذا كان الالتفات لحاجة أو لعذر شرعى ، فلا حرج في ذلك... فقد وردت بعض النصوص التي تدل على جواز الالتفات للحاجة منها:

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٥١) كتاب الأذان.

الاختلاس: هو الأخذ بسرعة على غفلة.

✽ عن جابر رضي الله عنه قال: «اشتكى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّيْنَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَأَبُو بَكْرٍ يُسْمِعُ النَّاسَ تَكْبِيرَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا فَرَأَانَا قِيَامًا، فَأَشَارَ إِلَيْنَا فَقَعَدْنَا فَصَلَّيْنَا بِصَلَاتِهِ قُعُودًا» ^(١).

وكذلك يجوز الالتفات إذا سمعت صوت إنسان يتعرض للخطر.. أو سمعت صوت حيوان مفترس يهجم عليك فإنه لا بأس بذلك لكن بشرط أن يكون الالتفات بالرأس فقط لأن الالتفات بالبدن يُبطل الصلاة.. وذلك لأنه انحرافٌ عن القبلة.. ونحن نعلم أن استقبال القبلة من شروط الصلاة.

وبعض الناس يلتفت ببصره فقط ولا يلتفت بلى العنق.. بل يلتفت ببصره لينظر إلى زخارف المسجد أو إلى الداخل إلى المسجد والخارج منه.. وهذا بلا شك يُنقص من أجر الصلاة.. فلا بد أن يحرص كل واحد منا على أن يكون بصره تلقاء وجهه ناظرًا إلى محل سجوده ولا ينظر يمينًا أو شمالًا.



(١٧٦٥) وعن أنس رضي الله عنه قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَاللِّتَفَاتَ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللَّتِفَاتَ فِي الصَّلَاةِ هَلَكَةٌ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ، فَفِي التَّطَوُّعِ لَا فِي الْفَرِيضَةِ» ^(٢).

✽ وللأمانة العلمية.. فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.



(١) صحيح: رواه مسلم (٤١٣) كتاب الصلاة.

(٢) ضعيف: رواه الترمذی، وضعفه الألبانی فی ضعيف الجامع (٦٣٨٩).

﴿ ٣٤٢ ﴾ بَابُ النِّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَى الْقُبُورِ

(١٧٦٦) عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ كَنَازِ بْنِ الْحُصَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ، وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا»^(١).

❁ ففى هذا الحديث ينهى النبى ﷺ عن الصلاة إلى القبور والجلوس عليها.

أما الصلاة إلى القبور فلا يجوز أن يذهب إنسان إلى المقابر ليصلى هناك.. ولا يجوز الصلاة فى المسجد الذى فيه قبر .. وهو على نوعين:

الأول: أن يكون القبر سابقاً على المسجد، بحيث يُبنى المسجد على القبر، فالواجب هجر هذا المسجد وعدم الصلاة فيه ... وعلى مَنْ بناه أن يهدمه، فإن لم يفعل وجب على ولى أمر المسلمين أن يهدمه.

والنوع الثانى: أن يكون المسجد سابقاً على القبر، بحيث يُدفن الميت فيه بعد بناء المسجد، فالواجب نبش القبر، وإخراج الميت منه، ودفنه مع الناس.

وأما المسجد فتجوز الصلاة فيه بشرط أن لا يكون القبر أمام المصلى، لأن النبى ﷺ نهى عن الصلاة إلى القبور.

❁ وأما أن يذهب الإنسان إلى المقابر ليصلى هناك فإن هذا لا يجوز أبداً إلا فى حالة واحدة: وهى أن يكون الإنسان قد مات له أحد أحبابه وكان مسافراً أو غائباً فلم يستطع أن يصلى عليه صلاة الجنازة.. فيجوز له أن يذهب إلى قبره ويصلى عليه صلاة الجنازة فقط.. وقد فعل النبى ﷺ ذلك عندما ماتت المرأة التى كانت تَقُمُّ المسجد - أى: تُنظفه - ليلاً ولم يوقظ الصحابة النبى ﷺ من نومه ليصلى عليها.. فلما أصبح وعلم بذلك قال لهم: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا»

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧٢) كتاب الجنائز.



فذهب إلى قبرها وصلى عليها صلاة الجنازة.

❁ وأما قوله ﷺ: «وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا» أى: لا تجلسوا على المقابر.. فلا يجوز أن يجلس الإنسان على القبر لأن للميت حُرمة... وقد قال النبي ﷺ في حديث آخر: «لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَى جُلْدِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرِ»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧١) كتاب الجنائز.

﴿ ٢٤٣ ﴾ باب تحريم المرور بين يدي المصلي

(١٧٦٧) عن أبي الجُهَيْم عبد الله بن الحارث بن الصَّمَّةِ الأنصاريُّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمَارُّ بَيْنَ يَدَيِ الْمُصَلِّي مَاذَا عَلَيْهِ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ». قَالَ الراوى: لَا أَدْرِى قَالَ: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً^(١).

❁ وهذا مما عمَّت به البلوى... فتجد أن بعض الناس يمرون أمام مَنْ يصلى وكأنهم يمشون فى الشوارع والطرق... وهذا خطأ.
- والصواب أن الواحد منهم إذا لم يجد طريقًا يستطيع أن يمر منه فعليه أن يقف حتى ينتهى المصلى من صلاته.

❁ فلقد حذر النبى ﷺ من هذا الفعل تحذيرًا شديدًا.
ووضح لنا النبى ﷺ أن المرور بين يدي المصلى لا يجوز بحال.
فقال ﷺ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَدْعُ أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلْيَدْرَأْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»^(٢).

❁ قال الإمام النووى عن الحديث الأول: فيه دليل على تحريم المرور، فإن معنى الحديث النهى الأكيد والوعيد الشديد على ذلك.

❁ وقال الإمام المنذرى فى كتاب «الترغيب والترهيب» ما نصّه: الترهيب من المرور بين يدي المصلى.

فإذا صلى المصلى لغير سُترة فلا حرج على مَنْ قدّر ثلاثة أذرع ثم مرّ من ورائها، كما نصّ على ذلك كثير من أهل العلم... ويبقى الحرج على مَنْ مرّ بين

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥١٠) كتاب الصلاة - ومسلم (٥٠٧) كتاب الصلاة.

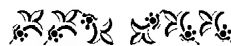
(٢) صحيح: رواه مسلم (٥٠٥) كتاب الصلاة.



يدى المصلى فى مسافة ثلاثة أذرع.

✽ وعلى الجانب الآخر فإنه ينبغي على المسلم أن يتخذ لنفسه سُرّة إذا أراد أن يصلى لئلا يشق على الناس من حوله.
أما المرور بين يدي المأموم فلا حرج فيه؛ لأن سُرّة الإمام سُرّة لمن خلفه...

قال الإمام البخارى رحمه الله: باب سُرّة الإمام سُرّة من خلفه ... ثم ساق بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أقبلت راكبًا على حمار أتان وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام ورسول الله ﷺ يصلى بالناس بمنى إلى غير جدار فمررت بين يدي بعض الصف فتزلت وأرسلت الأتان ترتع ودخلت فى الصف فلم ينكر ذلك على أحد^(١).



(١) مختصر مخالقات الطهارة والصلاة (ص: ٧٠) ... والحديث رواه البخارى (٤٩٣) كتاب الصلاة، ومسلم (٥٠٤) كتاب الصلاة.



(٣٤٤) باب كراهة شروع المأموم فى نافلة

بعد شروع المؤذن فى إقامة الصلاة سواء

كانت النافلة سنة تلك الصلاة أو غيرها

(١٧٦٨) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا أُقيمتِ الصلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة» ^(١).

❦ أى: أنه إذا أُقيمتِ الصلاةُ فإنه لا يشرع المأموم فى صلاة نافلة .. سواء كانت هذه النافلة هى تحية المسجد أو راتبة هذه الصلاة التى أُقيمت أو كانت تطوعاً مطلقاً... مثل أن تذهب مثلاً لصلاة الظهر وتقام الصلاة فلا يجوز أن تصلى سنة الظهر لأنه أُقيمت الصلاة .. ولأن النبى ﷺ قال: «إذا أُقيمتِ الصلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة»... فقولهُ ﷺ: «فلا صلاة» يشمل كل صلاة كانت.. حتى لو كان عليك فريضة فائتة وأردت أن تصلّيها فأقيمت الصلاة فلا يجوز أن تصلّيها وتترك الصلاة التى أُقيمت.. لكن إذا كان قد فاتك صلاة الظهر ودخلت المسجد فوجدتهم قد أقاموا صلاة العصر فإنك تستطيع أن تدخل الصلاة خلف الإمام بنية صلاة الظهر ثم إذا انتهى الإمام من الصلاة تقوم وتصلّي صلاة العصر.. ومع أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة بعد العصر إلا أنه يجوز أن تصلى فى وقت النهى الفرائض الفائتة والصلوات ذوات الأسباب كصلاة الجنازة وتحية المسجد.. وغيرهما.

❦ فالشاهد أنه إذا أُقيمت الصلاة فلا تشرع فى صلاة نافلة.

وإذا أُقيمت الصلاة وكنت تصلى نافلة فإن كنت فى الركعة الأولى فاقطعها بدون تسليم وإن كنت فى الركعة الثانية فخففها حتى تدرك الركعة الأولى... والله أعلم.

(١) صحيح: رواه مسلم (٧١٠) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

(٣٤٥) باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة من بين الليالي

(١٧٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قَالَ: «لَا تَخْصُوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَيْنِ اللَّيَالِي، وَلَا تَخْصُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَيْنِ الْأَيَّامِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ»^(١).

(١٧٧٠) وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَّا يَوْمًا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ»^(٢).

(١٧٧١) وعن محمد بن عبادٍ، قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرًا رضي الله عنه: أَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ صَوْمِ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ^(٣).

(١٧٧٢) وعن أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ جَوِيرَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ، فَقَالَ: «أَصُمْتِ أُمْس؟» قَالَتْ: لَا، قَالَ: «تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا؟» قَالَتْ: لَا. قَالَ: «فَأَفْطِرِي»^(٤).

✽ يوم الجمعة هو عيد الأسبوع ويتكرر في كل سبعة أيام ... ولما كان عيداً نهى النبي ﷺ عن صومه لكنه ليس نهى تحريم لأنه يتكرر كل عام أكثر من خمسين مرة ... وأما النهى عن صوم العيدين عيد الأضحى والفطر فهو نهى تحريم لأنه لا يتكرر في السنة إلا مرة واحدة ... عيد الفطر مرة وعيد الأضحى مرة أما الجمعة فيتكرر ولهذا كان النهى عنه نهى كراهة ... وتزول الكراهة إذا ضمنت إليه يوماً قبله أو يوماً بعده ... ولهذا جاءت أحاديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

(١) صحيح: رواه مسلم (١١٤٤) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٨٥) كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٤) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٨٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٣) كتاب الصيام.

(٤) صحيح: رواه البخاري (١٩٨٦) كتاب الصوم.

قال: «لا تَخْصُوا يوم الجمعة بصيام ولا ليلته بقيام» لكن إذا لم يكن تخصيصًا بأن كان الإنسان يقوم كل ليلة فلا بأس أن يقوم ليلة الجمعة أو كان يصوم يومًا ويفطر يومًا فصادف يوم الجمعة يوم صومه فلا بأس أن يصومه... وكذلك لو صادف يوم الجمعة يوم عرفة أو يوم عاشوراء فلا بأس أن يصومه لأن هذا الصيام ليس تخصيصًا ليوم الجمعة ولكنه تخصيص لليوم الذي صادف يوم الجمعة... فإذا كان يوم الجمعة يوم عرفة فَصُمه ولا تُبالى وإن لم تكن صائماً قبله... وإذا صادف يوم عاشوراء فَصُم ولا تُبالى... لكن يوم عاشوراء ينبغي أن نخالف اليهود فيه فنصوم يومًا قبله أو يومًا بعده... ولهذا قال في الحديث الآخر: إلا أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده أو إلا أن يكون في صوم يصومه الإنسان.

وفي حديث جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أم المؤمنين أن النبي ﷺ قال لها وهي صائمة في يوم الجمعة: «أتريدين أن تصومي غدا؟» قالت: لا قال: «أصمت أمس؟» قالت: لا قال: «فأفطري»^(١) فيه دليل على أن يوم الجمعة إذا صُمت يومًا قبله أو يومًا بعده فلا بأس... وفي قوله أتصومين غدا دليل على جواز صوم يوم السبت في النفل وأنه لا بأس به ولا كراهة إذا صُمت إليه الجمعة... وقد ورد عن النبي ﷺ حديث أنه قال: «لا تَصُومُوا يَوْمَ السَّبْتِ إِلَّا فِيمَا افْتُرِضَ عَلَيْكُمْ، ولو أن يأخذ أحدكم لحاء عنب فيمضغه»^(٢) لكن هذا الحديث اختلف العلماء فيه فمنهم من قال إنه ضعيف لا يعمل به - لكن الشيخ الألباني رحمته الله صحح هذا الحديث - ومنهم من قال إنه منسوخ... ومنهم من قال إن النهي إنما هو عن إفراده فقط وأما إذا صيم يوم الجمعة أو يوم الأحد فلا كراهة... وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رحمته الله.

(١) صحيح: رواه البخاري (١٩٨٦) كتاب الصوم.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٠٤٩).

وعلى كل حال لو صامه فإنه لا إثم عليه ولكن الأفضل ألا يصومه إلا
مضمومًا إليه يوم الجمعة أو يوم الأحد^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/٢٥٥).

(٢٤٦) باب تحريم الوصال في الصوم

وهو أن يصوم يومين أو أكثر

ولا يأكل ولا يشرب بينهما

(١٧٧٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْوِصَالِ ^(١).

(١٧٧٤) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ. قَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ؟ قَالَ: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أُطْعِمُ وَأُسْقِي» ^(٢).

❖ ففي هذين الحديث نهى النبي ﷺ عن الوصال في الصيام.

والوصال هو أن يقرن الصائم بين يومين أو أكثر في الصيام فلا يفطر بينهما.. فهذا هو الوصال.. والله سبحانه وتعالى قد حدد الصيام في قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾

[البقرة: ١٨٧].

قال: ﴿ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾ ❖ فحدد الله ابتداء الصيام وانتهاءه.

وقال النبي ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» ^(٣) هذا هو المشروع، أن الإنسان يبادر بالفطور ولا يتأخر، ولا يحل له أن يواصل بين يومين؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك، وقال: «أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السَّحَرِ».

بل وجاءت السنة بالترغيب في تأخير السحور وتعجيل الفطر.. وذلك من

باب الشفقة والرأفة بالصائم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٤) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٣)، (١١٠٥) كتاب الصيام.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٦٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٠٢) كتاب الصيام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٥٧) كتاب الصوم، ومسلم (١٠٩٨) كتاب الصيام.

فالمسلم إما أن يبادر بتعجيل الإفطار بعد غروب الشمس وتأخير السحور.. وهذه هي سنة النبي ﷺ.. وهذا هو الأفضل والأكمل... وإما أن يواصل الصيام إلى وقت السحر فلا يفطر عند الغروب بل يواصل صيامه إلى وقت السحر ويتسحر ثم يصوم اليوم التالي وهذا جائز لكنه خلاف الأولى... وإما أن يواصل الصيام لمدة يومين أو أكثر فلا يفطر ولا يتسحر لمدة يومين.. وهذا حرام كما ذكر ذلك المصنف رحمه الله. لأن النبي ﷺ نهى عن الوصال... وقد ورد أنه ﷺ لما رأى الصحابة راغبين في الوصال واصل بهم يوماً ويوماً ويوماً حتى رُؤى هلال شهر شوال فقال ﷺ: «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُكُمْ» كَالْمُنْكَلِ لَهُمْ حِينَ أَبَوْا أَنْ يَتْتَهُوا^(١)... يعنى يريد ﷺ أن يوقفهم عن الوصال حتى لا يلحقهم الضرر بسبب الوصال.

وما يفعله بعض السلف كما يُروى عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، أنه كان يواصل خمسة عشر يوماً لا يفطر بينهما، فهذا اجتهاد منه، وتأويل، ولكن الصواب ما دلّت عليه السنة.

❁ وأما قوله ﷺ: «إني لست كهيتكم؛ إني أطعم وأُسقى».

فالرسول ﷺ كان يواصل... والصحابة رضی الله عنهم وأرضاهم كانوا يواصلون اقتداءً به، فنهاهم عن الوصال، ولما نهاهم عن شيء هو يفعله ﷺ ذكروه بفعله وأنهم إنما يفعلون ذلك اقتداءً به ﷺ، فقال: «إني لست كهيتكم» أي: هناك فرق بيني وبينكم وهو أني أطعم وأُسقى.

وفُسِّر كونه يُطعم ويُسقى بتفسيرين: أحدهما: أن يكون على حقيقته، وأنه يُطعم ويُسقى حقيقة، ولكنه ليس كالذي يحصل في الدنيا من كونه يأكل ويشرب وهو صائم، ولكنه كما جاء في بعض الأحاديث: «أبيت عند ربي يُطعمني

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٩٩) كتاب الاعتصام - ومسلم (١١٠٣) كتاب الصيام.

ويسقيني» يعنى: يحصل له شىء فى النوم فيحصل له ذلك حقيقة.
وقيل: إن المقصود من ذلك أنه يُعطى قوة الأكل والشرب وكأنه لم يترك
الأكل والشرب لما أعطاه الله ﷻ من القوة، فيكون هذا هو الفرق بينهم وبين
رسول الله ﷺ.

ونبيه إياهم عن الوصال هو من شفقتهم ﷺ، وهو كما وصفه الله ﷻ
فى كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

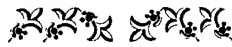


(٣٤٧) بَابُ تَحْرِيمِ الْجُلُوسِ عَلَى قَبْرِ

(١٧٧٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُمْ عَلَى جَمْرَةٍ، فَتَحْرِقَ ثِيَابَهُ، فَتَخْلُصَ إِلَى جِلْدِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلَى قَبْرِ» ^(١).

❦ ففى هذا الحديث ينهى النبى ﷺ عن الجلوس على القبر لأن الجلوس على القبر فيه امتهانٌ له.. ولأن القبر فيه مسلم أو مسلمة.. والمسلم مُحترَّمٌ فى حياته وبعد وفاته وكذلك المسلمة.

ولهذا شدد النبى ﷺ فى النهى عن الجلوس على القبر حتى وصل الأمر بأن يخبر النبى ﷺ أن جلوس الإنسان على جمرة فتحرق ثيابه وتصل إلى جلده فتحرقه خيرٌ له من جلوسه على قبر مسلم.. وذلك لأن فيه إهانة لمسلمٍ محترم وكذلك لسريان مضرة الجلوس إلى القلب وهو لا يشعر.. وضرر القلب أعظم من ضرر البدن بكثير... فلا يجوز الجلوس على قبر المسلم، وإذا أراد أن يجلس فليجلس من وراء القبر، يجعل القبر خلف ظهره أو عن يمينه أو عن شماله... وأما إن يجلس عليه فهذا حرام.



(١) صحيح: رواه مسلم (٩٧١) كتاب الجنائز.

❦ تَخْلُصُ: أى تصل وتنفذ.

(٢٤٨) باب النهى عن تجصيص القبور والبناء عليها

(١٧٧٦) عن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُجصَّصَ القبرُ، وأن يُقعدَ عليه، وأن يُبنى عليه^(١).

❁ ففي هذا الحديث نهى النبي ﷺ عن تجصيص القبور والقعود عليها والبناء عليها.

❁ فأما تجصيص القبر فذلك بأن يكسى القبر بأحجارٍ ورخامٍ أو يُطلَى بالجصص ونحو ذلك.. وهذا حرام ولا يجوز.

❁ لكن يُستثنى من كل هذا ما يُفعل في بلادنا من كتابة اسم العائلة على باب القبر الخارجى وذلك لمعرفة ملكية الأرض حتى لا يحدث أى تعدى من الآخرين عليها... وأيضاً لمعرفة مكان الدفن الخاص بالأسرة إذا مات أحدهم وبخاصة أن الزيارات تكون قليلة أحياناً فقد ينسى أحدهم أين مقبرة العائلة... ومن هنا جاز لهم كتابة اسم العائلة على باب المقبرة الخارجى ولكن بشرط ألا يكتب أى كلام فيه شيء من التفاخر والثناء... والله أعلم^(٢).

❁ وأما القعود على القبر.. فسبق أن قلنا أنه لا يجوز القعود على القبر لأن فيه إضراراً لمسلم محترم.. فالقعود على القبر فيه إهانة له.. ولذا قال النبي ﷺ «لأن يجلس أحدكم على جمرة، فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلدِه خيرٌ له من أن يجلس على قبرٍ».

❁ أما البناء على القبر فهو حرام ولا يجوز.. لأن البناء على القبر وتجصيصه بأن يكسى بالأحجار والرخام يؤدى إلى تفخيمه وتعظيمه.. وقد

(١) صحيح: زواه مسلم (٩٧٠) كتاب الجنائز.

❁ التجصيص: طلاء القبر بالجصص.

(٢) موسوعة أحكام الجنائز / د. محمود المصرى (ص ٢٨٦).



يؤدي إلى التنافس والتفاخر بين الناس.. وقد وردت أحاديث تدل على منعه ومنها هذا الحديث ... وقد يقول أحدهم: لكن النبي ﷺ قد دُفن في البنيان.. والجواب: أن هذا من خصائص النبي ﷺ لأن الأنبياء يُدفنون في المكان الذي ماتوا فيه... وقد جاء في الحديث: «إن الأنبياء يُدفنون حيث يموتون»، فلما مات النبي ﷺ في غرفة أمنا عائشة رضي الله عنها.. يعني في البنيان دُفن في المكان الذي مات فيه، فيكون ذلك من خصائصه... وقد ذكر الإمام الذهبي في ترجمة ابن لهيعة عندما ذكر الحديث الذي فيه: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تتخذوا قبرى عيدًا»، ذكر أن الدفن في البنيان من خصائصه عليه الصلاة والسلام، وأنه ليس لأحد أن يُدفن في البنيان، ولا أن يبنى بناءً على القبر... إذا فلا يسوغ البنيان على القبور، ولا دفن الموتى في البنيان: لا في المساجد ولا غير المساجد.



(٣٤٩) باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيده

(١٧٧٧) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ، فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ»^(١).

(١٧٧٨) وعنه عن النبي ﷺ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ»^(٢).

وفي رواية: «فَقَدْ كَفَرَ».

✽ ففي هذين الحديثين يخبر النبي ﷺ أن العبد إذا هرب من سيده فقد برئت منه الذمة وأنه لا تقبل له صلاة.

قال الإمام النووي رحمته الله: «فقد برئت منه الذمة» فَمَعْنَاهُ لَا ذِمَّةَ لَهُ ...

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو رحمته الله: الذِّمَّةُ هُنَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الذِّمَّةُ الْمُفَسَّرَةُ بِالذِّمَامِ وَهِيَ الْحُرْمَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَبِيلِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ: «لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» أَيْ ضَمَانُهُ وَأَمَانَتُهُ وَرِعَايَتُهُ ... وَمَنْ ذَلِكَ أَنْ الْإِبَقَ كَانَ مَصُونًا عَنْ عُقُوبَةِ السَّيِّدِ لَهُ وَحَبْسِهِ فَرَأَى ذَلِكَ بِإِبَاقِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ» فَقَدْ أَوَّلَهُ الْإِمَامُ الْمَازِرِيُّ وَتَابِعَهُ الْقَاضِي عِيَّاضُ رَحِمَهُمَا اللَّهُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ لِلْإِبَاقِ فَيَكْفُرُ، وَلَا تُقْبَلُ لَهُ صَلَاةٌ - لَا غَيْرُهَا، وَنَبَّهَ بِالصَّلَاةِ عَلَى غَيْرِهَا.

وَأَنْكَرَ الشَّيْخُ أَبُو عَمْرٍو هَذَا وَقَالَ: بَلْ ذَلِكَ جَارٍ فِي غَيْرِ الْمُسْتَحِلِّ، وَلَا يُلْزَمُ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ عَدَمُ الصَّحَّةِ ... فَصَلَاةُ الْإِبَقِ صَحِيحَةٌ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، فَعَدَمُ قَبُولِهَا لِهَذَا الْحَدِيثِ، وَذَلِكَ لِاقْتِرَانِهَا بِمَعْصِيَةٍ، وَأَمَّا صِحَّتُهَا فَلَوْ جُودَ شُرُوطُهَا وَأَرْكَانُهَا الْمُسْتَلْزِمَةُ صِحَّتِهَا ... وَلَا تَنَاقُضُ فِي ذَلِكَ، وَيُظْهِرُ أَنَّ عَدَمَ الْقَبُولِ فِي سُقُوطِ

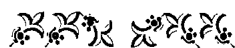
(١) صحيح: رواه مسلم (٦٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٨)، (٧٠) كتاب الإيمان.



الثَّوَابِ، وَأَثَرِ الصَّحَّةِ فِي سُقُوطِ الْقَضَاءِ، وَفِي أَنَّهُ لَا يُعَاقَبُ عُقُوبَةً تَارِكِ الصَّلَاةِ... هَذَا آخِرُ كَلَامِ الشَّيْخِ أَبِي عَمْرٍو رَحِمَهُ اللهُ... وَهُوَ ظَاهِرٌ لَا شَكَّ فِي حُسْنِهِ. وَقَدْ قَالَ جَمَاهِيرُ أَصْحَابِنَا: إِنَّ الصَّلَاةَ فِي الدَّارِ الْمَغْصُوبَةِ صَحِيحَةٌ لَا ثَوَابَ فِيهَا^(١).

❁ وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّ الْحَدِيثَ عَامٌ وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُعَاقَبَ بِذَلِكَ، وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِنَفْيِ الْقَبُولِ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّوَافِلِ نَفْيُ الصَّحَّةِ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلْفَرَائِضِ نَفْيُ الْإِثَابَةِ، وَهَذَا جَمْعٌ حَسَنٌ.



(١) مسلم بشرح النووي (٢/ ٧٧-٧٨).

(٣٥٠) باب تحريم الشفاعة في الحدود

❁ قال الله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢٢].

(١٧٧٩) وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمُخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى؟» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١).

وفي رواية: فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا.

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٥٦) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

(٣٥١) بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّغَوُّطِ فِي طَرِيقِ النَّاسِ

وِظْلَهُمْ وَمَوَارِدِ الْمَاءِ وَنَحْوِهَا

❁ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

(١٧٨٠) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا اللَّاعِنِينَ» قَالُوا: وَمَا اللَّاعِنَانِ؟ قَالَ: «الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ فِي ظِلِّهِمْ»^(١).

(٣٥٢) بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْبَوْلِ وَنَحْوِهِ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ

(١٧٨١) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ^(٢).

❁ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾
فَالْإِيْذَاءُ قَدْ يَكُونُ بِالْقَوْلِ مِثْلَ السَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالتَّوْبِيخِ وَغَيْرِهِ.. وَيَكُونُ بِالْفِعْلِ
كَالضَّرْبِ وَالتَّبَوُّلِ وَالتَّغَوُّطِ فِي طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ أَمَاكِنِ ظِلِّهِمْ وَمُشْمَسِهِمْ فِي الشِّتَاءِ
وَمَوَارِدِ مَائِهِمْ.. وَهَذَا مِمَّا عَمَّتْ بِهِ الْبَلْوَى فِي هَذَا الزَّمَانِ.. فَتَجَدُّ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا
الْفِعْلَ الْمَشِينُ فِي الْأَمَاكِنِ الْقَرِيبَةِ مِنْ مَوَارِدِ الْمِيَاهِ أَوْ تَحْتَ الْأَشْجَارِ الَّتِي يَجْلِسُ
النَّاسُ فِي ظِلِّهَا... فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مُسْتَحَقًّا لِلْعَنْ؛ لِأَنَّهُ كُلُّ مَنْ رَأَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ
يَلْعَنُ فَاعِلَهُ... وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «اتَّقُوا اللَّاعِنِينَ».

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمُرَادُ بِاللَّاعِنِينَ: الْأَمْرَانِ الْجَالِبَانِ لِلْعَنْ... الْحَامِلَانِ النَّاسَ
عَلَيْهِ وَالدَّاعِيَانِ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ فَعَلَهُمَا لَعَنَ وَشُتِمَ... يَعْنِي: عَادَةُ النَّاسِ لَعْنَهُ،
فَلَمَّا صَارَ سَبَبًا أُسْنَدَ اللَّعْنُ إِلَيْهِمَا.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٩) كتاب الطهارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨١) كتاب الطهارة.

ويزداد الإثم إذا كان يُفعل ذلك في الماء الراكد الذي لا يجري؛ لأن التأذي به يكون أشد ولذلك نهى النبي ﷺ عنه. كما في حديث جابر الذي رواه مسلم.

فلا يجوز للإنسان أن يبول في الماء الراكد مثل الغدير، أو شبهه... أما الماء الجاري، فالجاري يمشی، ولا يتأثر إلا إذا كان جاريًا نحو ساقية وتحت أناس يتطهرون في هذا الماء، أو يشربون منه، فهذا لا يجوز لأنه يؤدي من تحته.

ثم إن الله عز وجل لم يُضيق علينا.. فعندنا دورات مياه في بيوتنا.. وهناك حمامات عمومية في الشوارع فما الذي يدعونا إلى فعل هذا سواء في الماء الراكد أو الجاري؟!!

أسأل الله أن يرزقنا مراعاة مشاعر الناس من حولنا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٥٣) بَابُ كَرَاهَةِ تَفْضِيلِ الْوَالِدِ بَعْضَ أَوْلَادِهِ

عَلَى بَعْضِ فِي الْهَبَةِ

(١٧٨٢) عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هَذَا غُلَامًا كَانَ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحْلَتُهُ مِثْلَ هَذَا؟» فَقَالَ: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَارْجِعْهُ».

وَفِي رَوَايَةٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ» فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ.

وَفِي رَوَايَةٍ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بَشِيرُ أَلَيْكَ وَلَدٌ سِوَى هَذَا؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَكُلُّهُمْ وَهَبْتُ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَا تُشْهَدْنِي إِذَا فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ».

وَفِي رَوَايَةٍ: «لَا تُشْهَدْنِي عَلَى جَوْرٍ».

وَفِي رَوَايَةٍ: «أَشْهَدُ عَلَى هَذَا غَيْرِي» ثُمَّ قَالَ: «أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَلَا إِذَا»^(١).

❖ فِي الْبَدَايَةِ أَقُولُ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَحْرَصَ الْوَالِدَانِ عَلَى الْعَدْلِ بَيْنَ أَوْلَادِهِمَا .. وَلَا بِأَسْ أَنْ يَحِبَّ الرَّجُلُ بَعْضَ أَوْلَادِهِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ مَا لَمْ يَصَاحِبْ ذَلِكَ أَى ظَلَمَ أَوْ جَوْرَ.

فَلَقَدْ كَانَ يَعْقُوبُ يَحِبُّ يُوسُفَ (عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) أَكْثَرَ مِنْ بَقِيَةِ إِخْوَتِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ مَحَلُّهَا الْقَلْبُ .. وَالْقَلْبُ لَا يَمْلِكُ زِمَامَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ... فَلَا عَجَبُ أَنْ يَحِبَّ الْوَالِدُ وَلَدَهُ الصَّالِحَ الَّذِي يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَيُصَلِّي وَيُصُومُ وَيُطِيعُ وَالَّذِيهِ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لَوْلَدِهِ الَّذِي يَتْرُكُ الصَّلَاةَ وَيَشْرَبُ الدِّخَانَ .. وَلَكِنْ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٨٦) كتاب الهبة، مسلم (١٦٢٣) كتاب الهبات.

لا يبالغ في إظهار هذه المحبة ومتبوعاتها إلا لعله من العلل ... كأن يقول لأبنائه فلان أحسن منكم لكونه يصلى ويصوم، فحينئذ قد يحملهم هذا القول وهذا الثناء على الصلاة والصيام.

وكذلك ليحرص الوالد على ألا يحمله حبه لولدٍ من أولاده على أن يعطيه ويحرم إخوانه فهذا من الظلم الذى نهى الله عنه^(١).

❖ وهنا لفظ الأولاد: يشمل الذكور والإناث .. والمراد هنا بالعطية هو التبرع المحض وليس النفقة .. أما بالنسبة للنفقة فإن الأب يعطى كل واحدٍ من أبنائه ما يحتاج إليه سواء كان قليلاً أو كثيراً.

فإذا قدر أن أحدهم يطلب العلم، ويحتاج إلى كتب، والآخر ليس كذلك، فأعطى الأول ما يحتاج إليه من الكتب فلا بأس ... وكذلك لو كان أحدهم يحتاج إلى ثياب، والآخر لا يحتاج، فيعطى من يحتاج إلى الثياب ... وكذلك لو مرض فاحتاج إلى دواء فأعطاه فلا بأس ... وكذلك لو بلغ أحدهم سن الزواج فزوجه فإنه يزوجه ولا بأس ... المهم ما كان لدفع الحاجة فالتسوية فيه أن يعطى كل إنسان ما يحتاجه.

أما إذا كان تبرعاً محضاً فلا بد من العدل بينهم ... ولذا فإنه يجب عليه أن يرد ما فضله به .. فإذا أعطى أحدهم مائة، ولم يعط الآخرين، وجب عليه أن يرد المائة (أى يستردها) أو يعطى الآخرين مثلما أعطى الأول، أو يستحلهم بشرط أن يحللوه عن رضا وقناعة، لا عن حياءٍ وخجل.

❖ إذاً: فيجب على الأب أن يسوى بين أولاده فى العطية حتى يكونوا له فى البر سواء، ويحرم عليه أن يؤثر بعضهم بمنحة أو عطاء بغير مسوغ ولا حاجة، فيوغر صدور الآخرين، ويوقد بينهم نار العداوة والبغضاء .. والأم كالأب فى ذلك.

(١) موسوعة الزواج الإسلامى السعيد / د. محمود المصرى (ص ٨٨٩-٨٩٠).

قال ﷺ: «اعْدِلُوا بَيْنَ آبْنَائِكُمْ، اَعْدِلُوا بَيْنَ آبْنَائِكُمْ، اَعْدِلُوا بَيْنَ آبْنَائِكُمْ»^(١)، وقصة هذا الحديث أن امرأة بشير بن سعد الأنصاري طلبت إليه أن يخصص ولدها النعمان بن بشير بمنحة مالية - كحديقة أو عبد - وأرادت توثيق هذه الهبة فطلبت منه أن يُشهد على ذلك رسول الله فذهب إليه، قال: يا رسول الله.. إن ابنة فلان - زوجته - سألتني أن أنحل ابنها غلامي - عبدي - فقال ﷺ: «أَلَهُ إِخْوَةٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «أَفَكُلَّهُمْ أَعْطَيْتَ مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَلَيْسَ يَصْلُحَ هَذَا، وَإِنِّي لَا أَشْهَدُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ»^(٢)، «لَا تُشْهَدْنِي عَلَى جَوْرٍ، إِنْ لَبِيتُكَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ أَنْ تَعْدَلَ بَيْنَهُمْ كَمَا لَكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ أَنْ يَسْرُوكَ»^(٣) «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ»^{(٤)(٥)}.

فأمر (عليه الصلاة والسلام) أن نعدل بين الأولاد في العطية، حتى لو أعطيت أحدهم عشرة ريالات، فأعطِ الآخر مثله... لا تَقُلْ هذا شيءٌ زهيد، لا يساوي شيئاً... أبداً ولو كان ريالاً واحداً... أعطهم كما أعطيت الثاني... حتى كان السلف الصالح ﷺ إذا قَبَّلُوا أَحَدَ الْأَوْلَادِ، قَبَّلُوا الثَّانِي، مِنْ شِدَّةِ الْعَدْلِ بَيْنَهُمْ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا فِي النَّظَرَةِ إِلَيْهِمْ.. لَا تَنْظُرْ إِلَى هَذَا نَظْرَةً غَضَبٍ، وَإِلَى هَذَا نَظْرَةً رِضًا؛ بَلْ اَعْدِلْ بَيْنَهُمْ حَتَّى فِي النَّظْرَةِ وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ، إِلَّا أَنْ يَفْعَلَ أَحَدُهُمْ مَا يُغْضِبُ، فَهَذَا لَهُ شَأْنٌ. أَمَا بَدُونِ سَبَبٍ، فَاجْعَلْهُمْ سَوَاءً وَلَا تَفْضِلْ أَحَدًا عَلَى أَحَدٍ.

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٤٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٦٢٤) كتاب الهبات.

(٣) قال الألباني في غاية المرام (٢٧٤): ضعيف بهذا اللفظ أخرجه أبو داود... أمّا قَوْلُهُ «لَا تُشْهَدْنِي عَلَى جَوْرٍ» فصحيح ثابت عند الشيخين وغيرهما... وفي رواية لأبي داود «أليس يسرك أن يكونوا لك في البر

واللطف سواء» قال نعم قال: «فأشهد على هذا غيري» وسنده صحيح على شرط مسلم.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٥٨٧) كتاب الهبة، ومسلم (١٦٢٣) كتاب الهبات.

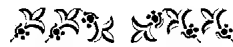
(٥) الحلال والحرام / د. يوسف القرضاوى (ص ٢٠٢-٢٠٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُسَوَّى بَيْنَ أَوْلَادِهِ فِي الْهَبَةِ وَيَهَبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ الْآخَرِ وَلَا يُفْضَلُ وَيُسَوَّى بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: «أَشْهَدُ عَلَى هَذَا غَيْرِي» يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ فَيَجِبُ تَأْوِيلُ الْجَوْرِ عَلَى أَنَّهُ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةً تَنْزِيهِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ هَبَةَ بَعْضِ الْأَوْلَادِ دُونَ بَعْضٍ صَحِيحَةٌ وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَهَبِ الْبَاقِينَ مِثْلَ هَذَا اسْتُحِبَّ رَدُّ الْأَوَّلِ.

قَالَ أَصْحَابُنَا: يُسْتَحَبُّ أَنْ يَهَبَ الْبَاقِينَ مِثْلَ الْأَوَّلِ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ اسْتُحِبَّ رَدُّ الْأَوَّلِ وَلَا يَجِبُ وَفِيهِ جَوَازُ رُجُوعِ الْوَالِدِ فِي هَبَّتِهِ لِلْوَلَدِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).



(١) مسلم بشرح النووي (١١/٩٦-٩٧) بتصرف.

(٣٥٤) باب تحريم إحداث المرأة

على ميت فوق ثلاثة أيام

إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام

(١٧٨٣) عَنْ زَيْنَبِ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ أَبُوهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَدَعَتْ بِطَيْبٍ فِيهِ صُفْرَةٌ خُلُوقٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَذَهَنْتُ مِنْهُ جَارِيَةً، ثُمَّ مَسَّتْ بِعَارِضِيهَا. ثُمَّ قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِيَ بِالطَّيْبِ مِنْ حَاجَةٍ، غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: «لَا يَحِلُّ لَامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» قَالَتْ زَيْنَبُ: ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى زَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حِينَ تُوُفِّيَ أَخُوهَا، فَدَعَتْ بِطَيْبٍ فَمَسَّتْ مِنْهُ، ثُمَّ قَالَتْ: أَمَا وَاللَّهِ مَا لِيَ بِالطَّيْبِ مِنْ حَاجَةٍ، غَيْرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: «لَا يَحِلُّ لَامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^(١).

❖ الإحداث معناه: ترك الزينة، والطيب - العطر - ونحوه، مما يُعدُّ بهجة وسرورًا وترفُّهاً وهو حرام ... وكانوا في الجاهلية إذا مات الإنسان وهو حبيب إليهم امتنعوا عن الطيب والتجمل وما أشبه ذلك إلى مدة حسب ما يقدرونها بأنفسهم ... فبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه عنه زوجته أم حبيبة، وزينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه لا يجوز الإحداث على ميت فوق ثلاثٍ إلا على زوجٍ أربعة أشهر وعشرًا ... فرخص النبي ﷺ في هذا، في الإحداث لمدة ثلاثة أيام، ولا يجوز أكثر من ذلك.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٢٨١) كتاب الجنائز، (٥٣٣٤) كتاب الطلاق - ومسلم (١٤٨٦)، (١٤٨٧) كتاب الطلاق.

مثاله: رجل مات ابنه فحزن عليه، فالواجب الصبر، والاحتساب، وأن تجرى الأمور على ما هي عليه... إلا إذا كان الحزن قد أرهقه أو تسبب في مرضه فلم يستطع أن يخرج من بيته لمدة أيام فله ذلك حتى يستريح ثم يخرج إلى دكانه إذا كان صاحب دكان، وإلى فلاحته إذا كان صاحب فلاحه وإلى مكتبه إذا كان موظفًا، وإلى مدرسته إذا كان مُعلِّمًا أو طالبًا... المهم ألا تتأثر أعماله بشيء، هذا هو المشروع، وهذا هو السُّنة وهذا هو الأوفق، وهذا هو الأرفق بالشخص، ألا يُحد على أحد، حتى على ابنه وأبيه، وأمه وأخيه... فالأمر لله ﷻ له الملك وله الحمد، فهو المالك، وهو المحمود على كل حال. فكل إنسان له قلب حى سيحزن، لكن نقول: اصبر واحتسب.

لكن لما كانت النفوس قد لا تطيق هذا لا سيما مع عِظَم المصائب، رخص النبي ﷺ في الإحداد لمدة ثلاثة أيام فقط... يعنى لا بأس مثلاً أن الإنسان إذا مات له صديق أو قريب وحزن حزنًا شديدًا لا يستطيع أن يقابل الناس، لا بأس أن يبقى في بيته لمدة ثلاثة أيام، فأقل، ولكن لا بد من صلاة الجماعة... إن كان يستطيع.. فإن لم يستطع لمرضه فهو معذور.

وكذلك بالنسبة للنساء لو مات ابنها أو أبوها أو أخوها أو أحد ممن تأثرت بهم تأثرًا بالغًا، فلا حرج عليها أن تحد لمدة ثلاثة أيام فأقل: أما ما زاد فلا يجوز.

❁ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تحد فوق ثلاثٍ إلا على زوج». فالزوج له حق عظيم، حتى قال النبي ﷺ: «لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عِظَم حقه عليها»^(١) لكن السجود لا يكون إلا لرب العالمين الخالق ﷻ.

المهم أن الزوجة تحد أربعة أشهر وعشرًا، هذا إذا كانت غير حامل، أما الحامل فتحد إلى وضع الحمل فقط، زاد أو نقص.

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧٢٥).

فعلى هذا إذا مات زوجها، فالمرأة تحد أربعة أشهر وعشرة أيام، لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، حتى لو كان لم يدخل عليها... لو عقد عليها وهى فى المدينة وهو فى مكة، ومات فإنها تحد عليه وإن لم يدخل عليها، ما دام العقد صحيحاً. وإذا كانت حاملاً فإلى وضع الحمل. حتى لو وضعت قبل أن يُغسل الزوج، فقد انتهت العدة، وانتهى الإحداد... يعنى مثلاً امرأة توفى زوجها وهى فى الطلق، فلما خرجت روحه، خرج الحمل... يعنى ما بين خروج روح زوجها، وخروج حملها إلا دقائق معلومة، فالآن انتهت العدة، وانتهى الإحداد... فلها أن تتزوج، يمكن شرعاً أن تتزوج؛ لأنها وضعت الحمل، ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. فهذه انتهت عدتها، والإحداد تبع العدة... نعم يجوز زواجها لكن من المعلوم أن وفاء الزوجة وحزنها على زوجها قد يمنعها من الزواج بهذه السرعة... لكن لو تزوجت لاحتياجها لمن ينفق عليها وعلى أولادها فهذا جائز.

❁ ولكن ما هو الإحداد؟

الإحداد أن تجتنب المرأة الأشياء التالية:

أولاً: لباس الزينة، لا تلبس ثوباً يُعدُّ ثوبَ زينة... أما الثياب العادية فلها أن تلبسها، بأى لون كان؛ أصفر، أحمر، أخضر.. أى شىء، إنما الذى يُعدُّ زينة بحيث يُقال: إن هذه المرأة تزينت وتجملت، فإنه لا يحل لها أن تلبسه وهى محادة على الزوج.

الثانى: الطيب - العطر - بجميع أنواعه: دهنًا، أو بخورًا، أو غير ذلك، لا تطيب إطلاقاً، إلا إذا طهرت من الحيض، فإنها تأخذ شيئاً يسيراً من الطيب تطيب به... أى تطيب محل الخَبَث حتى لا يكون لها رائحة.

الثالث: الحُلَى بجميع أنواعه... لا تلبس الحُلَى لا فى القدمين، ولا فى الكفين ولا فى الرقبة ولا فى الأذنين ولا على الصدر... أى نوع من أنواع الحُلَى لا تلبسه.

الرابع: ألا تخرج من البيت أبداً إلا لضرورة أو حاجة... لضرورة في الليل، أو حاجة بالنهار، وأما بدون حاجة ولا ضرورة فلا يجوز أن تخرج من بيتها الذي مات زوجها وهي فيه، فهي يجب عليها أن تبقى في البيت فلا تخرج.

إذا قالت أريد أن أخرج إلى جيراني أستأنس عندهم في النهار وأول الليل، وأرجع إلى بيتي. نقول: لا... بل جيرانك يأتون إليك أما أنتِ فلا تذهبي... بل تبقي في البيت الذي مات زوجها وأنت فيه... فإذا قدرنا أنها سافرت مع زوجها إلى بلدٍ للعلاج، ومات زوجها بالبلد الذي هو غير بلدها، نقول: ارجعي إلى بلدك؛ لأن هذا ليس مسكنك في الأصل.

الخامس: التجميل والتكحل بالكحل وما أشبه ذلك.. حتى لو فرضنا أن عينها فيها مرض، فلا تتكحل، إلا بصبر أو شبهه - مما لا لون له - تفعله بالليل وتمسحه بالنهار... هذا إن احتاجت وإلا فلا... ولهذا جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله إن ابنتي مات زوجها، وقد اشتكت عينها - يعني توجعها - أفنكحلها قال: «لا» مع أنها توجعها عينها فقال: «لا».

وكذلك التحمير والتجميل وما أشبه ذلك... أما الصابون الذي ليس فيه طيب فلا بأس، وكذلك تنظيف الرأس وكذلك تنظيف الجلد. وما اشتهر عند العوام أن المرأة تغتسل من الجمعة إلى الجمعة، فهذا لا أصل له.

كذلك أيضاً ما اشتهر عندهم أنها في الليل لا تخرج إلى الحوش بل تكون تحت السقف، فهذا لا صحة له، بل تخرج إلى ما شاءت^(١).

السادس: الخضاب (الحناء ونحوها من المكياج):

وعلى هذا فيحرم عليها التزين بجميع وسائل التجميل الحديثة كالمكياج.

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/٢٦٦-٢٦٨) بتصرف كبير.

✽ وقفات هامة:

✽ لا تُمنع الحادة من التنظيف وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، ولا من الاغتسال، ولا من الامتشاط، ولا تُمنع من لبس النقاب إذ لا دليل على ذلك.

✽ ولا تُمنع كذلك من تناول أى نوع من الأطعمة والفواكه والأشربة مما أباحها الله ﷻ.

✽ تقدم أنها تُمنع من الطيب (العطر)، ولكن يجوز لها أن تشمه؛ لأن ذلك لا يعلق بها.

✽ إذا كان الحلى عليها حين موت زوجها فإنها تخلعه إلا ما لا تقدر عليه كالسّن من الذهب فإنه قد وُضع للضرورة.

✽ الأحاديث قد وردت في النهى عن لبس المعصفر وعن لبس الحلى، لا عن سترها... فلا يجوز للحادة أن تلبس هذه الثياب والحلى حتى لو كانت غير ظاهرة للناس، بأن تكون مثلاً تحت ثيابٍ أخرى، فهي ممنوعة عن لبسها عمومًا.

✽ اعتاد النساء أن يلبسن السواد في الحداد، ولا دليل على إلزامها بالسواد إلا في الثلاثة أيام الأولى فقط من وفاة زوجها... ولها بعد ذلك أن تلبس الثياب المأذون لها فيها، وتجتنب الثياب المنهى عنها طوال مدة الإحداد.

وذلك لما ثبت في الحديث عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها لما أصيب زوجها جعفر: «تَسْلَبِي ثَلَاثًا، ثُمَّ اصْنَعِي مَا شِئْتِ»^(١).

ومعنى «تَسْلَبِي»: البسى ثوب السلاب وهو الحداد، وقيل: هو ثوبٌ أسود تغطي به المُحدّة رأسها^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وابن حبان، والطبراني في الكبير، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٢٦).

(٢) تمام المنة / للشيخ عادل العزاوي (٣/ ٢٥١-٢٥٢).



(٣٥٥) بَابُ تَحْرِيمِ بَيْعِ الْحَاضِرِ لِلْبَادِي ،

وَتَلَقَّى الرُّكْبَانَ وَالْبَيْعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ

وَالْخُطْبَةَ عَلَى خِطْبَتِهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ أَوْ يَرُدَّ

(١٧٨٤) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ ^(١).

(١٧٨٥) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَتَلَقَّوْا السَّلَعَ حَتَّى يُهَبَّطَ بِهَا إِلَى الْأَسْوَاقِ» ^(٢).

(١٧٨٦) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَتَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ، وَلَا يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ» فَقَالَ لَهُ طَاوُسٌ: «مَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ؟» قَالَ: لَا يَكُونُ لَهُ سِمَسَارًا ^(٣).

(١٧٨٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، وَلَا تَتَنَاجَشُوا وَلَا يَبِيعَ الرَّجُلُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَلَا يَخْطُبَ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ، وَلَا تَسْأَلَ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا لَتَكْفًا مَا فِي إِنْائِهَا.

وَفِي رَوَايَةٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ التَّلَقَّى وَأَنْ يَتَنَاجَى الْمُهَاجِرُ لِلْأَعْرَابِيِّ، وَأَنْ تَشْتَرِطَ الْمَرْأَةُ طَلَاقَ أُخْتِهَا، وَأَنْ يَسْتَأْمَ الرَّجُلُ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ، وَنَهَى عَنِ النَّجَشِ وَالتَّصْرِيقِ ^(٤).

(١٧٨٨) وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٦١) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٢٣) كتاب البيوع.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٦٥) كتاب البيوع، ومسلم (١٥١٧) كتاب البيوع.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٥٨) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٢١) كتاب البيوع.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢١٤٠) كتاب البيوع، ومسلم (١٥١٥) (١٢) كتاب البيوع.

بعض، ولا يَخْطُبُ على خِطْبَةِ أَخِيهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ»^(١).

(١٧٨٩) وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ، فَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَبْتَاعَ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ وَلَا يَخْطُبَ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَذَرَ»^(٢).

❦ فهذه عدة أشياء نهى عنها النبي ﷺ.. فتعالوا بنا لتتناول كل واحدة منها

بشيءٍ من الإيجاز:

المسألة الأولى: أن يبيع حاضر لباد:

والحاضر هو ساكن الحاضرة.. والبادى هو ساكن البادية.

فيأتى ساكن البادية بالسلعة التى يريد أن يبيعها سواء كانت غنمًا أو إبلاً أو لبنًا أو سمناً أو غير ذلك.. فيأتيه أحد أهل البلد ويقول له: يا فلان أنا سأبيع لك تلك البضائع.. أو: اتركها عندى فى الدكان وأنا أبيعها لك بسعرٍ أغلى ولى جزء من الربح فيكون واسطة - أى: سمسارًا - يبيع له... فهذا لا يجوز؛ لأن النبي ﷺ قال: «دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض»^(٣) دع البدوى يبيع، ربما يريد أن يبيع برُخصٍ؛ لأنه يريد أن يرجع إلى أهله... وأيضًا إذا باع البدوى فالعادة أن الحضرى يَتَقَدُّه الثمن ولا يُؤَخِّره؛ لأنه يعرف أنه صاحب بادية يريد أن يرجع، فيكون بذلك فائدة للبائع وهو البدوى، يُنْقَدُ له الثمن... وفائدة للمشتري وهو أن الغالب أن البدوى يبيع برخص؛ لأنه لا ينتظر الزيادة، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يبيع حاضر لباد.

أما أن يبيع له الحاضر فى الحال فلا بأس، مثل أن ينادى بها ويصوت فى السوق، فهذا لا بأس به... وإذا أتى صاحب البادية بالسلع وهو لا يريد أن يبيعها

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤١٢) كتاب النكاح.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٤١٤) كتاب النكاح.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والطبرانى فى الكبير، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٨٥٥).

في الحال، فذهب إلى شخصٍ من الحاضرة وقال له: أنا أريد أن تباع لي هذه السلعة؛ فهذا لا بأس به، وإنما المحذور أن يقول الحاضر للبّادى: لا تباع السلعة، ولكن دعها عندي أبيعها لك؛ فهذا هو الممنوع.

كذلك أيضًا استنبط العلماء رحمهم الله من هذه العلة، «دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض» أنه إذا كان السعر واحدًا سواء باع الحاضر أو البّادى فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبّادى؛ لأن السعر لن يتغير... ومثال ذلك أن تكون الدولة قد قررت سعرًا معينًا لهذا النوع لا يزيد ولا ينقص، فهذا لا فرق بين أن يبيعه الحاضر أو البّادى... ليس للحاضر مكسب وفائدة في ذلك... فقالوا: إذا كان السعر معلومًا فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبّادى.

❁ المسألة الثانية: تَلَقَّى الرُّكْبَانُ أَوْ تَلَقَّى السِّلْعَ:

أى: تَلَقَّى الرُّكْبَانُ، أَوْ تَلَقَّى الجَلْبَ، أَوْ تَلَقَّى السِّلْعَ التى تُجَلْبَ ويأتى بها غير أهل البلد، سواء كانوا من بادية أو غير بادية... فلا يجوز لمن كانوا من أهل البلد أن يخرجوا ويستقبلوهم قبل أن يصلوا إلى البلد، فيشتروا منهم السلع كلها، ثم يهبطوا بها إلى البلد؛ لأنهم قد يخدعونهم بأن يقولوا: الأسعار رخيصة، فيشتروا منهم السلع التى معهم كلها، فيكون فى ذلك غبنٌ للبائعين.. وأيضًا يكون فى ذلك إضرار بأهل البلد؛ لأن الجالب الذى يريد أن يبيع بضاعته... فالناس يشاهدونها، وكُلُّ منهم يشتري ويحصل له ارتفاع بهذا الشراء، بخلاف ما إذا اشتراها تاجر من أهل البلد ثم ادّخرها، أو حجزها، أو جعلها عنده وباعها بأسعارٍ زائدة، فإن هذا فيه مضرة على الناس.

❁ وعلى هذا فتلقى الركبان فيه محذوران:

الأولى: على أهل البلد، الذين ينتظرون قدوم الركبان من أجل أن يشتروا منهم برخصٍ.

الثانية: الضرر على الرُّكبان ؛ لأن هذا الذى تَلَقَّاهم سيغبنهم، ويشتري منهم بأقل من السوق... وهم لم يصلوا إلى السوق حتى يعرفوا السعر... ولهذا قال النبى ﷺ: «فَمَنْ تُلَقَّى فاشترى منه، فأتى السوق فهو بالخيار» يعنى أن الجالب إذا تلقاه الإنسان خارج البلد واشترى منه ثم دخل البلد ووجد أنه مغبون، فله أن يرد البيع ؛ لأنه قد غرَّرَ به وغبن...

❁ المسألة الثالثة: «ولا تناجشوا»

والناجش هو: أن يزيد فى ثمن السلعة لا لرغبة فيها بل ليخدع غيره ويغرَّه ليزيد ويشتريها... وهذا حرام بالإجماع... والبيع صحيح والأثم مختص بالناجش إن لم يعلم به البائع فإنَّ واطأه على ذلك أثمًا جميعًا^(١)... أى: الناجش والبائع.

❁ المسألة الرابعة: «ولا يبيع الرجل على بيع أخيه»

وهذا يكون فيما إذا حصل بيع بين شخصين وبينهما خيار مجلس أو خيار شرط... فإذا حصل البيع والشراء وهم لا يزالون فى المجلس، فلهم خيار المجلس، فكل واحد له أن يفسخ ما دام فى المجلس... فيأتى رجل ثالث إلى المشتري ويقول: اترك هذه السلعة التى اشتريتها وأنا أبيعك مثلها بأرخص منها، إذا كانت بعشرة فأنا أبيعك إياها بثمانية... فهذا يُعتبر من البيع على بيع أخيه... أو كان فى العقد خيار شرط، فقال المشتري: أعطنى مدة ثلاثة أيام أفكر، وبعد ذلك أخبرك هل أعزم على الشراء أو أترك... فيأتى شخص آخر إلى المشتري فى مدة الخيار فيقول له: اترك هذه السلعة وأنا أبيعك مثلها بأرخص منها... هذا هو البيع على بيع أخيه.... وأما الشراء على شرائه فهو مقابل هذا... فيكون البائع والمشتري كُلاً منهما له خيار، فيأتى رجل للبائع ويقول: اترك هذا البيع،

وأنا أشتريه منك بأزيد من هذا، فإذا باع السلعة بعشرة على إنسان وهما في خيار مجلس أو خيار شرط يأتي شخص للبائع ويقول له: أنا أشتريها منك بإحدى عشر ريالاً، وأزيدك ريالاً على السعر الذي اشترى منك هذا الشخص.

فكل ذلك لا يجوز... لا يبيع على بيع أخيه، ولا يشتري على شراء أخيه.

❁ المسألة الخامسة: «وَلَا يَخْطُبُ أَحَدُكُمْ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ»

وذلك أن يتقدم شخص لخطبة امرأة ولا يردونه، وإنما يُمهّلونه أو يعدونه على أن يخبروه برأيهم... فإذا علم أحدٌ بأنه تقدّم للخطبة لا يجوز له أن يتقدم حتى يعرف أنه ترك أو أنه ترك... فإذا لم يكن كذلك فإنه لا يجوز؛ لأن فيه سعيًا للحيلولة بينه وبين ما أقدم عليه... فهم لم يرفضوه، فيكون في ذلك إفساد لما بينهم وبين ذلك الرجل، فلا يجوز لأحدٍ عِلْمَ تقدّمه بالخطبة أن يخطب تلك المرأة... وأما إذا كان لا يعلم فليس هناك محذور؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، وإنما المحذور فيما إذا كان عن علم.

فهذا حرام؛ إلا إذا أذن الخاطب، بمعنى أنك ذهبت إلى الخاطب وقلت: يا فلان، سمعتُ أنك خطبت فلانة، وأنا لى بها حاجة أتأذن لى؟. إذا قال: نعم لا بأس، فالحق له.

❁ المسألة السادسة: «وَلَا تَسْأَلُ الْمَرْأَةُ طَلَّاقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا فِي إِنْثَاهَا».

وهذا جاء في المرأة عندما تُخطب والخطاب عنده زوجة، فهي تطلب منه أن يطلقها لتستفرغ ما في صحفتها... ومعناه أن هذه المخطوبة التي يريد أن يعقد عليها تشترط عليه أن يطلق المرأة السابقة التي قبلها لتستأثر به وتكفأ ما في صحفتها... وكان تلك المرأة عندها طعام في صحفة فأفسدت عليها واستأثرت به وأضافته إلى صحفتها واختصت به.

ثم قال: «ولتنكح» يعنى أنها إذا خطبت والرجل عنده زوجة سابقة فلا

تَشْتَرِطُ طَلَاقَ تِلْكَ، وَلَهَا أَنْ تَنْكَحَ فَتَقْدَمَ عَلَى الزَّوْاجِ إِذَا كَانَ عِنْدَهَا رَغْبَةٌ فِيهِ، وَلَكِنْ لَا تَقِيدُ ذَلِكَ بِطَلَاقِ الْمَرْأَةِ الْآخَرَى.... فَالشَّيْءُ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ لَهَا مِنَ الرِّزْقِ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَأْتِيَهَا، وَأَمَّا كَوْنُهَا تَسْعَى إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَتِهِ وَتَشْتَغِلُ بِذَلِكَ فَغَيْرُ صَحِيحٍ، بَلْ إِمَّا أَنْ تَقْبَلَ وَإِمَّا أَنْ تَرَفُضَ.

❦ الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّصْرِيفِ:

وَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ: «وَلَا تُصَرُّوا الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ».

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَمَعْنَاهُ: لَا تَجْمَعُوا اللَّبَنَ فِي ضَرْعِهَا عِنْدَ إِرَادَةِ بَيْعِهَا حَتَّى يَعْظَمَ ضَرْعُهَا، فَيُظَنَّ الْمُشْتَرِيَ أَنَّ كَثْرَةَ لَبْنِهَا عَادَةٌ لَهَا مُسْتَمِرَّةٌ.

وَمِنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِ: صَرِيتِ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ أَيْ جَمَعْتُهُ، وَصَرَّى الْمَاءَ فِي ظَهْرِهِ أَيْ حَبَسَهُ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ... قَالَ الْخَطَّابِيُّ: اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ وَأَهْلُ اللُّغَةِ فِي تَفْسِيرِ الْمُصَرَّاءِ، وَفِي اسْتِقَاقِهَا، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: التَّصْرِيفُ أَنْ يَرِبُطَ أَخْلَافَ النَّاقَةِ أَوْ الشَّاةِ وَيَتْرَكَ حَلَبَهَا الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ حَتَّى يَجْمَعَ لَبْنُهَا فَيَزِيدَ مُشْتَرِيَهَا فِي ثَمَنِهَا بِسَبَبِ ذَلِكَ لِظَنِّهِ أَنَّهُ عَادَةٌ لَهَا^(١).

وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ اشْتَرَى شَاةً مُصَرَّاءً فَلْيَنْقَلِبْ بِهَا، فَلْيَحْلُبْهَا، فَإِنْ رَضِيَ حَلَبُهَا أَمْسَكْهَا، وَإِلَّا رَدَّهَا وَمَعَهَا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ»^(٢).

وَفِي رَوَايَةٍ «مَنْ ابْتَعَ شَاةً مُصَرَّاءً فَهُوَ فِيهَا بِالْخِيَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، إِنْ شَاءَ أَمْسَكْهَا، وَإِنْ شَاءَ رَدَّهَا، وَرَدَّ مَعَهَا صَاعًا مِنْ تَمْرٍ».

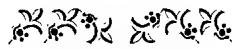
قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي خِيَارِ مُشْتَرِي الْمُصَرَّاءِ هَلْ هُوَ عَلَى الْفَوْرِ بَعْدَ الْعِلْمِ أَوْ يَمْتَدُّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ... فَقِيلَ يَمْتَدُّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لظَاهِرِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ... وَالْأَصَحُّ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ عَلَى الْفَوْرِ وَيَحْمِلُونَ التَّقْيِيدَ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي

(١) مسلم بشرح النووي (١٠/٢٢٦-٢٢٧) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٥٢٤) كتاب البيوع.

بَعْضِ الْأَحَادِيثِ عَلَى مَا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا مُصْرَاةٌ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا تَقَصَّ لَبْنُهَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَنِ الْأَوَّلِ احْتِمَلُ كَوْنُ النَّقْصِ لِعَارِضٍ مِنْ سُوءِ مَرَعَاهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِذَا اسْتَمَرَ كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ عَلِمَ أَنَّهَا مُصْرَاةٌ ثُمَّ إِذَا اخْتَارَ رَدَّ الْمَصْرَاةَ بَعْدَ أَنْ حَلَبَهَا رَدَّهَا وَصَاعًا مِنْ تَمَرٍ سِوَاءٍ كَانَ اللَّبْنُ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ... سِوَاءٍ كَانَتْ نَاقَةً أَوْ شَاةً أَوْ بَقَرَةً.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يُلْزَمُ الْمُشْتَرِي رَدُّ عِوَضِ اللَّبَنِ مَعَ أَنَّ الْخَرَجَ بِالضَّمَانِ وَأَنَّ مَنْ اشْتَرَى شَيْئًا مَعِيْبًا ثُمَّ عَلِمَ الْعَيْبَ فَرَدَّ بِهِ لَا يُلْزَمُهُ رَدُّ الْغَلَّةِ وَالْأَكْسَابِ الْحَاصِلَةِ فِي يَدِهِ ... فَالْجَوَابُ أَنَّ اللَّبْنَ لَيْسَ مِنَ الْغَلَّةِ الْحَاصِلَةِ فِي يَدِ الْمُشْتَرِي بَلْ كَانَ مَوْجُودًا عِنْدَ الْبَائِعِ وَفِي حَالَةِ الْعَقْدِ وَوَقَعَ الْعَقْدُ عَلَيْهِ وَعَلَى الشَّاةِ جَمِيعًا فَهُمَا مَبِيعَانِ بِثَمَنِ وَاحِدٍ وَتَعَذَّرَ رَدُّ اللَّبَنِ لاختلافه بما حدث في ملك المشتري فوجب رد عوضه والله أعلم^(١).



(١) مسلم بشرح النووي (١٠/ ٢٣٥-٢٣٧) بتصرف كبير.

(٣٥٦) باب النهى عن إضاعة المال

فى غير وجوهه التى أذن الشرع فيها

(١٧٩٠) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»^(١).

✽ «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ» أيها المؤمنون «ثلاثًا» لأنها سبب فوزكم «ويكره لكم ثلاثًا» وإن كانت بإرادته أيضًا، إذ لا يقع في ملكه شيء يخالف إرادته ﷻ «فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئًا» أى من المعبودات أو من الإشراف «وأن تعتصموا» أى تتمسكوا «بحبل الله جميعًا» أى بدينه أو بالجماعة أو بعهد الله أو بالقرآن «ولا تفرقوا» أى كونوا على الحق مجتمعين ولا تفرقوا عنه: أى كما فعل أهل الكتاب فضلوا «ويكره لكم: قيل وقال» وهو الكلام فيما لا يعنى «وكثرة السؤال» أى عما لا تحتاجون إليه على وجه التعنت «وإضاعة المال» وذلك لأن الله جعله بحكمته نظام أمر المعاش وقوام حاجة الإنسان، وبإضاعته يتعرض المرء لإضاعة نفسه وشغلها عن العبادة بالاشتغال بكسبه وكمال التوجه له عنها^(٢).

فالمال أمر مهم ... فلا يجوز للإنسان أن يضيعه فى غير فائدة... وإضاعته فى غير فائدة أنواع متعددة، منها: الإسراف فى بذله، فإن الإسراف محرم حتى فى المأكول والمشرب والملابس والمراكب والمنازل... متى تجاوز الإنسان الحد

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧١٥) كتاب الأفضية.

(٢) دليل الفالحين (٤/٥٠١).

فإنه آثم ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فمجاوزة الحد إسراف... وهى محرمة وعُرْضة لأن يكره الله تعالى فاعلها.

وإذا قلنا إن الإسراف مجاوزة الحد، تبين لنا أن إنفاق المال يختلف... فالغنى مثلاً قد يؤسس بيته أو يشتري سيارة أو يلبس الثياب التى لا تُعَدُّ فى حقه إسرافاً لأنه لم يتجاوز بها حد الغنى... لكن لو أن فقيراً فعل مثل فعله، قلنا: إن هذا إسراف وإنه حرام. ولهذا يغلط كثير من الناس من الفقراء ومتوسطى الحال أن يلحقوا أنفسهم بحال الأغنياء... هذا غلط وخطأ؛ لأن هذا فيه مشقة عليهم.

ومن الإسراف: تَعَدُّ الملابس بدون حاجة... كثير من النساء الآن كلما ظهر شكل من أشكال اللباس ذهبت تشتريه حتى تملأ بيتها من الثياب بدون حاجة.

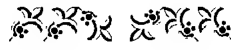
ومما لا يجوز بذل المال فيه: أن يبذله فى محرم، كهؤلاء الذين يشترون الدخان بالمال، فإن هذا حرام عليه، وهو مما نهى الله عنه ؛ لأنه إضاعة للمال واضحة... يبذل الإنسان ماله فى شىء يحرقه؛ لأن الدخان لا يُشْرَب إلا إذا أُحرق، فكأنما الرجل أحرق الدراهم وأتلفها فى أمرٍ يضره.

كذلك كثرة السؤال... وكثرة السؤال يحتمل أن يُراد به سؤال الخلق؛ يعنى لا تسأل الناس ولا تُكْثِر من السؤال... والسؤال إن كان سؤال مال فإنه حرام بل لا يزال الإنسان يسأل ويسأل حتى يأتى يوم القيامة وما فى وجهه مُرْعة لحم والعياذ بالله.

ويحتمل أن يُراد به كثرة السؤال عن أحوال الناس بدون حاجة وبدون فائدة... ماذا تقول فى فلان، هل هو غنى، فقير، متعلم أم جاهل، وما أشبه ذلك.

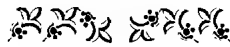
ويحتمل أن يُراد به كثرة السؤال عن العلم الذى لا يحتاج إليه الإنسان ولا سيما فى عهد النبوة... لأنه يُخشى أن يسأل الإنسان عن شىء لم يُحَرِّم فيُحَرِّم من أجل مسأله أو عن شىء لم يجب، فيُوجِب من أجل مسأله، ولكن الأخير

هذا يُقيد بما إذا لم يحتج الإنسان إلى السؤال، فإن كان يحتاج إلى ذلك، كطالب العلم الذي يسأل ويستفهم، فإنه لا بأس أن يسأل ويستفهم ويزيل اللبس عن نفسه^(١).



(١٧٩١) وعن ورَّادٍ كاتبِ الْمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ قَالَ: أُمْلَى عَلَى الْمُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ فِي كِتَابٍ إِلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطَى لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ «كَانَ يَنْتَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَكَانَ يَنْتَهَى عَنْ عُقُوقِ الْأَمْهَاتِ، وَوَادِ الْبَنَاتِ، وَمَنْعِ وَهَاتِ»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٢٤) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) بتصرف من (شرح رياض الصالحين) / للشيخ ابن عثيمين رحمته الله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧٢٩٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ومسلم (٥٩٣) كتاب المساجد.



(٣٥٧) باب النهي عن الإشارة إلى مسلم

بسلاحٍ ونحوه سواء كان جاداً أو مازحاً

والنهي عن تعاطي السيف مسلولاً

(١٧٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار»^(١).
وفي رواية لمسلم قال: قال أبو القاسم رضي الله عنه: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع، وإن كان أخاه لأبيه وأمه».
(١٧٩٣) وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتعاطى السيف مسلولاً^(٢).

❖ فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه... وقوله ﷺ: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» مبالغة في إيضاح عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه ومن لا يتهم... وسواء كان هذا هزلاً ولعباً أم لا.
لأن ترويع المسلم حرام بكل حال ولأنه قد يسبقه السلاح كما صرح به في الرواية الأخرى... ولعن الملائكة له يدل على أنه حرام^(٣).

❖ فيجب على المسلم أن يحرص على أرواح الناس من حوله... فلا يشير إلى أحدٍ بسلاح أو بسكين أو نحوه... فلربما ينزع الشيطان في يده فيصيب من أمامه أو يقتله دون أن يقصد ذلك فيقع في حفرة من النار.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٠٧٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٦١٧) كتاب البر والصلة.

قوله ﷺ: «ينزع» ضبط بالعين المهملة مع كسر الزاي، وبالغين المعجمة مع فتحها، ومعناها مُتَقَارِبٌ، ومعناه بالمهملة يرمى، وبالمعجمة أيضاً يرمى ويُفْسِدُ. وأصل النزاع: الطعن والفساد.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨١٩).

(٣) مسلم بشرح النووي (٢٥٧/١٦).

ويدخل تحت هذا المعنى مَنْ يكون عنده كلب حراسة فيُطلقه على ضيفه من باب المزاح فلربما يصيبه الكلب أو يقتله.

ويدخل تحته أيضًا مَنْ يسير بسيارته مُسرّعًا نحو أحد أصدقائه ليمزح معه .. فلربما تعطلت الفرامل فأصاب صديقه أو قتله أو أصابه بالفزع على أقل تقدير. ❁ وأما المسألة الثانية: فقد نهى رسول الله ﷺ أَنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولًا.

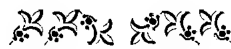
وهنا ينهى النبي ﷺ أَنْ تعطى أحدًا سيفًا أو سكينًا أو نحو ذلك وهو مُوجَّهٌ لصاحبه بل تجعل المقبض نحو صاحبك والسكين من ناحيتك لئلا تصيبه أو تجرحه أو تقتله دون أن تقصد .

❁ وإذا كان هذا في العموم فإن الحُرمة تزداد إذا دخل المسلم المسجد بالسلاح مسلولًا.

فمن المعلوم أنه لا يجوز أن يدخل الرجل المسجد ومعه سيف أو خنجر أو سكين إلا وقد جعله في غمده لئلا يصيب مسلمًا.

وكذلك لا يجوز أن يدخل أحد ومعه مسدس أو رشاش إلا وقد جعله في وضع الأمان حتى لا تخرج رصاصة منه فلربما تقتل مسلمًا.

❁ عن أبي موسى الأشعريؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ مَرَّ فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا أَوْ أَسْوَاقِنَا بِنَبْلٍ، فَلْيَأْخُذْ عَلَى نَصَالِهَا، لَا يَعْقِرَ بِكَفِّهِ مُسْلِمًا »^(١).



(٣٥٨) باب كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان

إلا بعذر حتى يصلى المكتوبة

(١٧٩٤) عَنْ أَبِي الشَّعَثَاءِ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَسْجِدِ يَمْشِي فَاتَّبَعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ بَصَرُهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «أَمَّا هَذَا، فَقَدْ عَصَى أَبَا الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(١).

❖ فمن الناس من يخرج من المسجد بعد سماع الأذان وقبل أن يصلى الفريضة... وهذا خطأ.

❖ أما إذا كانت هناك ضرورة تُحتم عليه الخروج من المسجد بعد الأذان فلا بأس بذلك.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ خَرَجَ وَقَدْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، وَعُدِّلَتِ الصُّفُوفُ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي مُصَلَّاهُ، انْتَبَرْنَا أَنْ يُكَبِّرَ... انْصَرَفَ، قَالَ: «عَلَى مَكَانِكُمْ» فَمَكَّنَّا عَلَى هَيْئَتِنَا، حَتَّى خَرَجَ إِلَيْنَا يَنْطِفُ رَأْسُهُ مَاءً، وَقَدْ اغْتَسَلَ»^(٢).

❖ واستدل العلماء بهذا الحديث على أنه يحرم الخروج من المسجد بعد الأذان لمن تلزمه الصلاة إلا لعذرٍ أو لحاجةٍ ولأمرٍ يقتضيه... كمن يريد أن يتوضأ، أو كان حاقناً^(٣) أو حاقباً^(٤) يحتاج إلى الخلاء، أو يكون إمام مسجد فأذن المؤذن وهو في مسجد من المساجد والناس ينتظرونه في مسجده ليصلى بهم، فإذا كان هناك أمر يقتضى خروجه فلا بأس، وأما إذا كان لغير حاجة فإنه لا يجوز.

(١) صحيح: رواه مسلم (٦٥٥) كتاب المساجد.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٩) كتاب الأذان، ومسلم (٦٠٥) كتاب المساجد.

(٣) حاقناً: يحتاج إلى البول.

(٤) حاقباً: يحتاج إلى الغائط.

وقد سبق أن مررنا في الحديث أن الشيطان يفر عندما يسمع الأذان، فالإنسان عندما يخرج من المسجد وهو غير مضطر لذلك يكون فيه مشابهة للشيطان في كونه يخرج بعد الأذان... حيث يخرج والناس يُدعون إلى أن يأتوا إلى المساجد، فإذا لم يكن خروجه لضرورة فإن ذلك معصية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٥٩) باب كراهة ردِّ الريحان لغير عذر

(١٧٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَرِضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ، فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمَلِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ» ^(١).

(١٧٩٦) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَرُدُّ الطَّيِّبَ ^(٢).

✽ من المعلوم أن الريحان نوعٌ من الطَّيِّب (العطر) .. وهو كما وصفه النبي ﷺ خفيف المَحْمَل طيب الريح

يعنى: أنه لا ينبغي رَدُّه، ولكن هذا كما هو معلوم فيه تفصيل: فإذا كان هذا الطَّيِّب هدية لشخصٍ موظفٍ أو لشخصٍ مسئولٍ فإنه يجب عليه أن يردّه؛ لأن هدايا العمال غُلُول ... وأما إذا لم يكن شيئاً من هذا القبيل، وإنما هو شيء لا مجال فيه لأمرٍ محذورٍ فلا ينبغي للإنسان أن يردّه؛ لأن الطَّيِّب في ذاته خفيف المَحْمَل وريحه طيبة تنشرح لها النفوس وترتاح.

ولذلك أمرنا النبي ﷺ ألا نردّه .. وبخاصة أن الإنسان إذا ردَّ مثل هذه الهدية البسيطة الجميلة فقد يجعل صاحب الهدية يحمل عليه في صدره شيئاً ويظن أنه يأنف أن يقبل هديته .. فالأفضل أن يقبلها وبخاصة إذا علم أن النبي ﷺ كان لا يرد الطَّيِّب (العطر) .. أما إذا كان مريضاً بمرضٍ مثل الحساسية في الجهاز التنفسي ولا يستطيع أن يشم رائحة العطور فعليه أن يُخبر صاحب الهدية بذلك حتى يعذره ... أو أن يقبل الهدية ثم يهديها لأحد أحبائه حتى لا يُوغر صدر صاحبه .. وفي نفس الوقت ينتفع بها غيره ما دام لا يستطيع أن يستعمل العطر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٢٥٣) كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٢٥٨٢) كتاب الهبة، (٥٩٢٩) كتاب اللباس.

(٣٦٠) بَابُ كِرَاهَةِ الْمَدْحِ فِي الْوَجْهِ

لِمَنْ خِيفَ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ مِنْ إِعْجَابٍ وَنَحْوِهِ

وَجَوَازِهِ لِمَنْ أَمِنَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ

(١٧٩٧) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يُنْزِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيه فِي الْمَدْحَةِ، فَقَالَ: «أَهْلَكْتُمْ، أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهَرَ الرَّجُلِ» ^(١).

(١٧٩٨) وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُلٌ خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ - يَقُولُهُ مَرَارًا - إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ، فَلْيُقِلَّ: أَحْسِبُ كَذًا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسْبُهُ اللَّهُ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا» ^(٢).

(١٧٩٩) وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنِ الْمُقَدَّادِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَمِدَ الْمُقَدَّادُ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ. فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» ^(٣).

فهذه الأحاديث في النهي، وجاء في الإباحة أحاديث كثيرة صحيحة. قال العلماء: وطريق الجمع بين الأحاديث أن يُقَالَ: إِنْ كَانَ الْمَمْدُوحُ عِنْدَهُ كَمَالُ إِيْمَانٍ وَيَقِينٍ، وَرِيَاضَةُ نَفْسٍ، وَمَعْرِفَةٌ تَامَّةٌ بِحَيْثُ لَا يَقْتَتِنُ، وَلَا يَغْتَرُّ بِذَلِكَ،

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦٠) كتاب الأدب - ومسلم (٣٠٠١) كتاب الزهد والرقائق. «والإطراء»: المبالغة في المدح.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٦١) كتاب الأدب - ومسلم (٣٠٠٠) كتاب الزهد والرقائق. حسيه: عليم بحاله.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٢) كتاب الزهد والرقائق. الحصباء: صغار الحصى.

وَلَا تَلْعَبُ بِهِ نَفْسُهُ، فَلَيْسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ، وَإِنْ خِيفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، كُرِهَ مَدْحُهُ فِي وَجْهِهِ كَرَاهَةً شَدِيدَةً... وَعَلَى هَذَا التَّفْصِيلِ تُنَزَّلُ الْأَحَادِيثُ الْمُخْتَلِفَةُ فِي ذَلِكَ.

وَمِمَّا جَاءَ فِي الْإِبَاحَةِ قَوْلُهُ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ» أَيْ مِنَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ لِدُخُولِهَا^(١).

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «لَسْتُ مِنْهُمْ»: أَيْ لَسْتُ مِنَ الَّذِينَ يُسَبِّلُونَ أَزْوَاجَهُمْ خِيَلًا^(٢).

وَقَالَ ﷺ لِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا رَأَى الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ»^(٣).

❖ وقد يسأل سائل ويقول: هل يجوز أن أمدح إنساناً بما فيه أم لا؟

والجواب: أن هذا له أحوال:

الحال الأولي: أن يكون في مدحه خير وتشجيع له على الأوصاف الحميدة والأخلاق الفاضلة فهذا لا بأس به لأنه تشجيع لصاحبه... فإذا رأيت من رجل الكرم والشجاعة وبذل النفس والإحسان إلى الغير فذكرته بما هو فيه أمامه من

(١) فَتَنَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصِّيَامِ، وَبَابِ الرِّيَّانِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا عَلَى هَذَا الَّذِي يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضُرُورَةٍ، وَقَالَ: هَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ».

متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٦٦) كتاب المناقب، ومسلم (١٠٢٧) كتاب الزكاة.

(٢) فَتَنَ سَالِمٌ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ ذَكَرَ فِي الْإِزَارِ مَا ذَكَرَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ إِزَارِي يَسْقُطُ مِنْ أَحَدٍ شِقْقِيهِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ».

صحيح: رواه البخاري (٦٠٦٢) كتاب الأدب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٣٦٨٣) كتاب المناقب - ومسلم (٢٣٩٧) كتاب فضائل الصحابة.



أجل أن تشجعه وتثبته حتى يستمر على ما هو عليه فهذا حسن وهو داخل في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢] .

والثاني: أن تمدحه لتبين فضله بين الناس وينتشر ويحترمه الناس كما فعل النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

الثالث: أن يمدح غيره ويغلو في إطرائه ويصفه بما لا يستحق فهذا محرم وهو كذب وخداع ... مثل أن يذكر رجلاً أميراً أو وزيراً أو ما أشبه ذلك ويطريه ويصفه بما ليس فيه من الصفات الحميدة فهذا حرام عليك وهو أيضاً ضررٌ على الممدوح.

الرابع: أن يمدحه بما هو فيه لكن يُخشى أن الإنسان الممدوح يغتر بنفسه ويزهو بنفسه ويرفع على غيره فهذا أيضاً محرم لا يجوز^(١) .

✽ وذكر المؤلف أحاديث في ذلك أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ آخر فأنى عليه فقال: «ويحك قطعت عنق صاحبك» يعني: أنك أهلكته؛ لأن قطع العنق يكون به الهلاك، فكذلك الإنسان إذا مُدح مدحاً قد يلحق به ضرراً فإنه قد يصيبه الهلاك بذلك ... أي: الهلاك المعنوي، فكما أن الهلاك الحسّي يكون بقطع الرأس، فكذلك الهلاك المعنوي يكون بالمدح الذي يؤدي به إلى الغرور ونحوه.

✽ قوله: «إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ كَذًّا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسِبِيهِ اللَّهَ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا» .

يعني: إذا أراد الإنسان أن يمدح أخاه وكان لا بد من المدح فليقل: (أحسبه كما يريد أن يقول) يعني: يذكر الشيء الذي يريد أن يصفه به، أو يذكر الصفات التي هي فيه.

قوله: «وَلَا أَرْكِيهِ عَلَى اللَّهِ» يعني: هكذا يظهر لي، والناس لهم الظاهر وقد

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٧٩).

تكون البواطن بخلاف ذلك، فلا يُزكى على الله أحداً؛ لأنه سواء كان بالنسبة لواقعه أثناء الكلام فيه، أو بالنسبة للنهاية والمآل، فكل ذلك لا يعلمه إلا الله عز وجل، وهو الذى يعلم أن المدح يكون فى محله أو فى غير محله، فهذا فى النهايات و (الأعمال بالخواتيم) كما قال ذلك رسول الله ﷺ.

❁ وفى الحديث الأخير يحكى المقداد رضي الله عنه أن رجلاً جعل يمدح عثمان رضي الله عنه... فما كان من المقداد إلا أن جعل يحثو فى وجه ذلك الرجل المادح الحصباء - وهى صغار الحصى - فتعجب عثمان وقال له: ما شأنك؟ فقال له: إن النبى ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» وقد حمّله المقداد على ظاهره ووافق طائفة وكانوا يُحْثُونَ التراب فى وجه المداحين حقيقة.. وقال آخرون: ليس المقصود من ذلك أن يحثوه على وجهه بحيث يدخل الحصى أو التراب فى عينيه وإنما يحثو فى اتجاهه قريباً من وجهه حتى ينتهى عن المدح.

وقال آخرون: معناه: خيّبهم فلا تعطوهم شيئاً لمدحهم.. والله أعلم.

❁ والمدّاح هنا غير المادح.. فالمادح قد يمدح أحياناً من أجل تشجيع الرجل الفاضل على أن يستمر فى فعل الخير من أجل أن يتابعه الناس ويفعلوا مثله... ولهذا لما دعا الرسول ﷺ إلى الصدقة جاء رجل بصُرة كبيرة، فقال ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا»، وهذا مدحٌ لهذا الشخص الذى سبق إلى الخير، واقتدى به الناس وتابعوه... فإذا كان المدح لا يحصل من وراءه مضرة، وإنما المقصود منه الفائدة والمصلحة، وأن يقتدى به ويؤتسى به، ويذكر ويثنى عليه، ويمدح بما هو فيه من أجل أن يتابع، فإن هذا أمر مطلوب ولا بأس به، وفى ذلك تحفيز للهمم إلى أن يكون المُخاطَبُونَ مثل ذلك الذى مُدِّح وأثنى عليه... وأما إذا كان لأمرٍ دنيوية، أو لطلب حظوظٍ دنيوية، أو كان بغير حق، فإن هذا غير محمود بل هو مذموم.

(٣٦١) بَابُ كِرَاهَةِ الْخُرُوجِ مِنْ بَلَدٍ

وَقَعَ فِيهَا الْبَلَاءُ فِرَارًا مِنْهُ وَكَرَاهَةِ الْقُدُومِ عَلَيْهِ

❁ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾

[النساء: ٧٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

(١٨٠٠) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرِغِ لَيْقِيهِ أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ - أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ - فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ لِي عُمَرُ: ادْعُ لِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَدَعَوْتُهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنْ مَشِيخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقَدِّمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ، فَأَصْبَحُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ - وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ - نَعَمْ نَفَرٌ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبْلٌ، فَهَبَطْتَ وَادِيًا لَهُ عُدَوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ، وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بَأْرَضٍ، فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا

منه» فَحَمِدَ اللهُ تَعَالَى عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَنْصَرَفَ^(١).

(١٨٠١) وعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونَ فِي أَرْضٍ، فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا»^(٢).

✽ هذا الباب بابٌ عظيم عقده المؤلف رحمه الله تعالى في كتابه رياض الصالحين وهو كراهة أن يقدم الإنسان على أرضٍ نزل فيها البلاء، وأن يخرج منها بعد نزول البلاء فراراً منه... يعنى إذا سمعت بوباءٍ نازلٍ في أرضٍ فلا تقدم عليها وإذا وقع وأنت فيها فلا تخرج منها فراراً منه... ثم استدل المؤلف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقول الله: ﴿أَيْنِمَاتَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ إشارة إلى قوله: لا تخرجوا منها... والله يقول: ﴿أَيْنِمَاتَكُونُوا﴾ في أى مكان وفى أى زمان ﴿يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ يعنى مُحَصَّنَةً مطوية مُحْكَمَةً مُتَقَنَةً فإن الموت سوف يأتىكم... وفى آية أخرى أعظم من هذا وأبلغ ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ أَلْزَىٰ تَفَرُّوتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، تفر منه وهو لا يلحقك بل يلاقيك ويقابلك، فلا فرار من الموت فكيف تخرج من أرضٍ نزل فيها البلاء فراراً من الموت... إنك لو فعلت فليس لك فرار من قدر الله ﷻ.... واقرأ قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، هؤلاء أُلُوفٌ كثيرة مؤلفة نزل البلاء بأرضٍ فخرجوا خوفاً من الموت، فأراهم الله ﷻ الآية وأنه بكل شىء محيط وأنه مدرك ما أراد لا محالة فقال الله لهم ﴿مُوتُوا﴾ قال ذلك قولاً كونياً قدرياً، فماتوا؛ لأن الله إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون... ماتوا وهم أُلُوفٌ ثم أحياهم الله... والله على كل شىء قدير، لكن أراهم الله ﷻ أنه لا فرار من قدر الله ﷻ...

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٢٩) كتاب الطب - ومسلم (٢٢١٩) كتاب السلام.

والْعُدُوَّةُ: جَانِبُ الْوَادِي.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٧٢٨) كتاب الطب - ومسلم (٢٢١٨) كتاب السلام.

ثم استدل المؤلف على كون الإنسان لا يقدم على أرض فيها الوباء بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أى: لا تفعلوا الشيء الذى يكون فيه هلاككم... ثم استدل أيضًا بالأحاديث الواردة عن النبى ﷺ وذكر قصة عمر بن الخطاب ؓ حين خرج من المدينة إلى الشام فذكر له الطاعون، وفيه أن النبى ﷺ قال: «إذا سمعتم به فى أرض فلا تقدّموا عليها» فهى النبى ﷺ عن القدوم إلى أرض فيها الطاعون... والطاعون وباء فتاك والعياذ بالله... قال بعض أهل العلم: إنه نوع خاص من الوباء وإنه عبارة عن جروح وتقرّحات فى البدن تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضى عليه، وقيل: إن الطاعون وخزّ فى البطن يصيب الإنسان فيموت... وقيل: إن الطاعون اسم لكل وباء عام ينتشر بسرعة، كالكوليرا وغيرها. وهذا أقرب، فإن هذا إن لم يكن داخلًا فى اللفظ فهو داخل فى المعنى... كل وباء عام ينتشر بسرعة فإنه لا يجوز للإنسان أن يقدم على البلد التى حلّ فيها هذا الوباء... وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها؛ لأنكم تخرجون منها فرارًا من قدر الله... لو فررتم فإنكم مُدركون لا محالة، ولهذا قال: لا تخرجون منها فرارًا منه.

أما خروج الإنسان منها لا فرارًا منه ولكن لأنه أتى إلى هذا البلد لحاجة ثم انقضت حاجته وأراد أن يرجع إلى بلده فلا بأس.

وفى الكلام على هذا الحديث الذى رواه ابن عباس ؓ أنه كان مع عمر حين خرج إلى الشام وذلك - والله أعلم - لفتح بيت المقدس، فلما كان فى أثناء الطريق أتاه أمراء الأجناد يخبرونه أنه وقع فى الشام طاعون... والعياذ بالله وباء فتاك سريع الانتشار، فتوقف عمر وأمر عبد الله ابن عباس ؓ أن يدعو له المهاجرين، فدعاهم وشاورهم، فاختلفوا، فمنهم من قال: لا ترجع عما أتيت إليه، ومنهم من قال: ارجع، ثم قال: ارتفعوا عنى، ثم أمر عبد الله بن عباس أن يجمع الأنصار، فجمعهم واختلفوا كاختلاف المهاجرين، ثم قال:

ارتفعوا عني، ثم أمره أن يدعو مشيخة مهاجرة الفتح (يعنى كبار المهاجرين)، فدعاهم فلم يختلف عليه اثنان وقالوا: ارجع. فنادى في الناس: إني مُصبح على ظهر - يعنى راجع - فقال أبو عبيدة بن الجراح الذى سمّاه النبى ﷺ أمين هذه الأمة... قال: يا أمير المؤمنين، أفراراً من قدر الله؟. يعنى ترجع بالناس تفر من قدر الله... قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، وكان يكره مخالفته، يعنى: لو أن غيرك قد قالها لكان أهون، أما أنت فكيف تقول هذا... ثم ضرب له مثلاً مُقنعاً، قال: أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها وادياً له عدوتان يعنى شعبتين إحداهما مُخصبة والثانية مُجدبة، فإن رعيتهما فى المخصبة رعيتهما بقدر الله، وإن رعيتهما فى المجدبة رعيتهما بقدر الله... ومعلوم أنك سوف تختار المخصبة على المجدبة... وبينما هم كذلك إذ جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان قد تغيب فى حاجة له، فقال: إن عندى من ذلك علماً، يعنى عن النبى ﷺ ثم تلا عليهم الحديث «إذا سمعتم به فى أرض فلا تقدّموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه». فوافق هذا حكم النبى ﷺ فحمد الله عمرُ على موافقته الصواب ^(١).

❁ وأما قوله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُم بِالطَّاعُونََ فى أرضٍ، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها، فلا تخرجوا منها».

فهذا ما يُسمّى فى العلم الحديث بالحجر الصحى... وكان أول من دعا إليه هو النبى محمد ﷺ... وتأمل معنى هذا الحوار المدهش الذى دار بين المتحدث باسم هيئة الإعجاز العلمى وبين كبير أطباء المستشفى الرسمى بكونهاجن (الدكتور لارسون):

قال متحدث الهيئة للدكتور لارسون: إذا كنت حاكماً على مدينة وأصبحت تلك المدينة بمرض وبائى خطير، أو ما يُسمى بالطاعون، فماذا تفعل يا دكتور؟

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٨١-٢٨٢).

✽ قال الدكتور: سأتى بالجنود وأضرب حصاراً على المدينة لمنع الدخول إليها والخروج منها.

✽ قال متحدث الهيئة: أما أن تمنع الدخول فقد علمناه، ولكن لماذا تمنع الخروج؟

✽ قال الدكتور: لأن الدراسات في الفترة الأخيرة من العلم، كشفت لنا أنه عندما يكون الطاعون منتشرًا في مدينة من المدن أو بمنطقة من المناطق، فإن عدد الذين يظهر عليهم أعراض المرض تتراوح نسبتهم بين (١٠ - ٣٠٪).

✽ قال متحدث الهيئة: والباقون من سكان المدينة، ما بالهم؟

✽ قال الدكتور: هؤلاء الباقون يحملون الجرثومة في أجسادهم، لكن جهاز المناعة عندهم يتغلب على الجراثيم فتبقى في الجسم بأجسام مُضادة.

فإذا بقي هذا الصحيح في البلدة التي فيها الطاعون فلا خوف عليه؛ لأنه مُلقَّح، ولأن عنده مقاومة من جهاز المناعة تدفع عنه المرض... أما لو خرج من هذه المدينة أو البلدة فإنه يخرج حاملاً لهذه الجرثومة فينقل ذلك المرض إلى مدينة جديدة وقد ينشأ عن ذلك هلاك الملايين من البشر بسبب خروج هذا المصاب بالجرثومة من بين أهل المدينة المصابين بالطاعون^(١).

✽ وهذا الحديث محمول على اجتناب الأسباب التي قد تكون سبباً للمرض، والإنسان مأمورٌ ابتداءً باجتناب الأسباب التي قد تضره، وذلك لأنها قد تكون سبباً لانتقال العدوى، لكن قد تتقل وقد لا تتقل... فالسبب وحده لا يكون مؤثراً في ذاته، بل يكون ذلك بتقدير الله عز وجل.. فإن الأسباب وحدها لا تنفع ولا تضر إلا بأمر مُسبب الأسباب.. ولذا قال النبي ﷺ: «لَا عُدْوَى» أي: لا عدوى من تلقاء نفسها إلا بتقدير الله ولكننا قد أمرنا أن نأخذ بالأسباب.

(١) مقال بمجلة الإعجاز، العدد الرابع.

(٣٦٢) باب التغليظ في تحريم السحر

❦ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

❦ السحر هو عبارة عن عُقَد وقراءات ونفثات يتوصل بها الساحر إلى الإضرار بالمسحور ... فمنه ما يقتل ومنه ما يمرض ومنه ما يذهب العقل ومنه ما يوجب العقد يعنى: تعلق الإنسان بغيره تعلقاً شديداً ومنه ما يوجب الصرف يعنى: انصرافه عن غيره انصرافاً كاملاً ... فهو أنواع والعياذ بالله لكن كله مُحَرَّم ... وقد تبرأ النبي ﷺ ممن سحر وسُحر له ... ومنه ما يوصل إلى الكفر ... فإذا كان الساحر يتوصل إلى سحره بالأرواح الشيطانية يتقرب إليها ويتعبد لها حتى تطيعه فهذا كفر لا شك فيه ... وأما إذا لم يكن كذلك فإنه أذية ومحرم ومن كبائر الذنوب.

لأن السحر والعياذ بالله من أعظم الفساد في الأرض ومن أعظم الشرور لأنه يأتي الإنسان من غير أن يحترز منه... ولكن هناك شيء يحميك منه بإذن الله عز وجل وهو قراءة الأوراد الشرعية مثل آية الكرسي وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وما أشبه ذلك مما جاء في الآيات والأحاديث عن النبي ﷺ فإن هذا أكبر واقٍ يقى الإنسان من السحر^(١).

❦ ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ أي أن: هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تتلوا الشياطين وتختلق من السحر على مُلْك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له المُلْك العظيم.

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٢٨٤) بتصرف.

وهم كذبة في ذلك؛ فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قلبه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ في ذلك.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق... أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى﴾ ينصحاها و﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهياه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته. فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه وهو سليمان (عليه السلام)، وتعليم الملكين امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، وكلُّ يصبو إلى ما يناسبه.

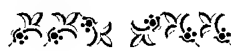
ثم ذكر مفسد السحر، فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(١).

أي يتعلمون منهما من علم السحر ما يكون سبباً في التفريق بين الزوجين، فبعد أن كانت المودة والمحبة بينهما يصبح الشقاق والفراق ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي وما هم بما استعملوه من السحر يضرّون أحداً إلا إذا شاء الله ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي والحال أنهم بتعلم

(١) تفسير السعدي (ص ٥٤).

السحر يحصلون على الضرر لا على النفع ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أى ولقد علم اليهود الذين نبذوا كتاب الله واستبدلوا به السحر، أنهم ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر على كتاب الله ﴿وَلَيْئَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٢) أى ولبئس هذا الشيء الذى باعوا به أنفسهم لو كان لهم علم أو فهم وإدراك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى ولو أن أولئك الذين يتعلمون السحر آمنوا بالله وخافوا عذابه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٣) أى لأنابهم الله ثواباً أفضل مما شغلوا به أنفسهم من السحر، الذى لا يعود عليهم إلا بالويل والخسار والدمار^(١).

وفى هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت فى قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة فى التأثير، ولم يخالف فى هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدريّة فى أفعال العباد... زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشية، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة والتابعين^(٢).



(١٨٠٢) وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قالوا : يا رسول الله، وما هن؟ قال : «الشُّرْكُ بالله، والسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٣).

(١) صفوة التفاسير (١/ ٧٤).

(٢) تفسير السعدى (ص ٥٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا - ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

«المُوبِقَاتِ»: المُهْلِكَات.

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٦٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

✽ لكن أريد هنا فقط أن أذكر كيفية علاج السحر بعد وقوعه.

علاج السحر بعد وقوعه

✽ يقول الإمام ابن القيم في طرق علاج السحر بعد وقوعه:

أحدهما - وهو أبلغهما - : استخراجُه وإبطاله... كما صحَّ عنه عليه السلام أنه سأل ربه سبحانه في ذلك، فدلَّ عليه، فاستخرجه من بئر.

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر... فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، وهيجان أخلاطها، وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضو، وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو، نفع جداً^(١).

✽ ومن أنفع أنواع العلاج ما ذكره العلامة ابن باز رحمته الله:

وذلك بأن يأخذ المسحور سبع ورقاتٍ من السدر الأخضر فيدقها بحجرٍ أو نحوه ويجعلها في إناء، ويصُبُّ عليه من الماء ما يكفيهِ للغسل.

ويقرأ فيها آية الكرسي و ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وآيات السحر التي في سورة الأعراف، وهي قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (١١٧) فوقَ الْحَقِّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

^(١) التولى يوم الزحف: الهروب من ميدان القتال عند لقاء العدو - القذف: رمى النساء المحصنات المؤمنات بالزنا - المحصنات: العفائف - الغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قُذفن به... والإحصان في الشرع على خمسة أقسام: العفة، والإسلام، والنكاح، والتزويج، والحرية.

(١) زاد المعاد (٤/ ١٢٤: ١٢٥) بتصرف.

والآيات التي في سورة يونس وهى قوله سبحانه:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ [يونس: ٧٩-٨٢].

والآيات في سورة طه:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَابُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

وبعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب منه ثلاث مرات ويغتسل بالباقي، وبذلك يزول الداء إن شاء الله، وإن دَعَتْ الحاجة لاستعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء.

﴿فَاللَّهُمَّ احْفَظْنَا مِنْ كَيْدِ السَّحَرَةِ الْأَشْرَارِ وَاحْفَظِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَكَيْدِهِمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

(٣٦٣) باب النهى عن المسافرة بالمصحف

إلى بلاد الكفار إذا خيف وقوعه بأيدي العدو

(١٨٠٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو^(١).

✽ السفر بالمصحف إلى أرض العدو إذا كان يؤمن ألا يناله العدو، ولا يحصل له شيء من امتهانهم وما إلى ذلك فلا بأس به... لأن التعليل هو الخوف من أن يناله بشيء لا يليق في حق القرآن... وأما إذا لم يكن هناك محذور، والإنسان يأخذه معه ليقراً فيه، والمحذور مأمون فلا بأس بذلك... وإنما النهى إذا كان يغلب على الظن أنه تحصل إساءة للقرآن وامتهان له أو يناله العدو بسوء، فهذا هو الذي يُمنع منه.

✽ قال الإمام النووي رحمته الله:

فِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْمُسَافَرَةِ بِالْمُصْحَفِ إِلَى أَرْضِ الْكُفَّارِ لِلْعِلَّةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْحَدِيثِ وَهِيَ خَوْفُ أَنْ يَنَالُوهُ فَيَنْتَهِكُوا حُرْمَتَهُ... فَإِنْ أُمِنْتَ هَذِهِ الْعِلَّةُ بِأَنْ يَدْخُلَ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الظَّاهِرِينَ عَلَيْهِمْ فَلَا كَرَاهَةَ وَلَا مَنَعَ مِنْهُ حِينَئِذٍ لِعَدَمِ الْعِلَّةِ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالْبُخَارِيُّ وَآخَرُونَ... وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَيْهِمْ كِتَابٌ فِيهِ آيَةٌ أَوْ آيَاتٌ... وَالْحُجَّةُ فِيهِ كِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هَرَقْلَ... قَالَ الْقَاضِي: وَكَرِهَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مُعَامَلَةَ الْكُفَّارِ بِالذَّرَاهِمِ وَالِدَّنَانِيرِ الَّتِي فِيهَا اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٩٠) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (١٨٦٩) كتاب الإمارة.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢٠ / ١٣).

❁ أما السفر في حد ذاته إلى بلاد الكفار فلا يجوز إلا بثلاثة شروط:

أولاً: أن يكون عند المسلم دينٌ يحميه من الشهوات.

ثانياً: أن يكون عنده علمٌ يدفع عنه الشُّبهات.

ثالثاً: أن يكون هناك ضرورة لسفره.. بأن يسافر لتحصيل علمٍ ضروري لا يوجد في بلاد المسلمين ويحتاج الناس إليه.. أو يسافر للعلاج إذا كان هذا العلاج ليس موجوداً في بلاد المسلمين... أو غير ذلك من الضرورات المنضبطة بضوابط الشرع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٦٤) باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة
في الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

(١٨٠٤) عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الَّذِي يَشْرَبُ فِي آتِيَةِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرِّجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» ^(١).

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آتِيَةِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ».

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٧٨٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٠٥) وعن حذيفة رضي الله عنه قال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الْحَرِيرِ، وَالذِّيَابِجِ، وَالشُّرْبِ فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَقَالَ: «هُنَّ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ» ^(٢).
وفي رواية في الصحيحين عن حذيفة رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الذِّيَابِجَ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا».

سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للأحاديث رقم (٨٠٨) إلى (٨١٣) فأرجو الرجوع إليها.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٠٦) وعن أنس بن سيرين قال: كُنْتُ مَعَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عِنْدَ نَفَرٍ مِنَ الْمُجُوسِ، فَجِئَءَ بِقَالُودَجٍ عَلَى إِنَاءٍ مِنْ فِضَّةٍ، فَلَمْ يَأْكُلْهُ، فَقِيلَ لَهُ حَوْلُهُ فَحَوَّلَهُ عَلَى إِنَاءٍ مِنْ خُلْنَجٍ، وَجِئَءَ بِهِ فَأَكَلَهُ ^(٣).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٤) كتاب الأشربة - ومسلم (٢٠٦٥) كتاب اللباس والزينة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٣٢) كتاب الأشربة - ومسلم (٢٠٦٧) كتاب اللباس والزينة.

(٣) رواه البيهقي، وقال الألباني في الصحيحة (٣٥٦٨): ورجاله ثقات؛ غير أحمد بن عمرو القطواني؛ فلم

❁ وهنا يحكى أنس بن سيرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند نفرٍ من المجوس... ولعله كان جالساً معهم يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ كما كان يفعل النبي ﷺ عندما كان يجلس أحياناً مع بعض المشركين ويأكل معهم من أجل أن يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ... فجىء بفالودج - نوع من الحلويات - على إناءٍ من الفضة فأبى أنس أن يأكل منه.. ف قيل له: حوِّله.. أى: ضعه فى إناءٍ من خُلنج (جفنة).. فجىء به فأكله.

فلما أن نتفع بالذهب والفضة على ما أردنا إلا ما جاء الشرع بتحريمه، والنبي ﷺ نهى عن الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة، وأخبر أنها للكفار فى الدنيا ولنا فى الآخرة، وأخبر أن الذى يأكل ويشرب فى آنية الفضة إنما يُجر جر فى بطنه نار جهنم، والعياذ بالله... والجرجرة: هى صوت الماء إذا جرى فى الحلق. وهذا يدل على أن الأكل والشرب فى آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب، وأنه لا يحل للمؤمن أن يفعل ذلك.

أما استعمال الذهب والفضة فى غير ذلك، فهذا موضع خلاف بين العلماء. والأقرب إلى الصواب، أن استعمال الذهب والفضة فى غير الأكل والشرب جائز، لكن الورع تركه احتياطاً لموافقة جمهور العلماء.

❁ هذا بالنسبة لاستعمال الذهب والفضة فى الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال.. أما استعمالهما فى الزينة.. فيجوز للمرأة أن تلبس الحلى من الذهب والفضة كما شاءت.. ويجوز للرجل أن يلبس خاتماً من فضة إن أراد ذلك.. لكن يحرم عليه لبس الذهب... والله أعلم.

= أعرفه الآن.... وللحديث شاهد من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه الشيخان وغيرهما بنحوه، وهو مخرج فى «الإرواء» (٣٢).
الخُلنج: الجفنة.



(٣٦٥) بَابُ تَحْرِيمِ لِبَسِ الرَّجُلِ ثَوْبًا مُزَعْفَرًا

(١٨٠٧) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَزَعْفَرَ الرَّجُلُ ^(١).

(١٨٠٨) وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ثَوْبَيْنِ مُعْصَفَرَيْنِ، فَقَالَ: «أَمْكُ أَمَرْتُكَ بِهَذَا؟» قُلْتُ: أَغْسِلُهُمَا؟ قَالَ: «بَلْ أَحْرِقْهُمَا».

وَفِي رَوَايَةٍ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا» ^(٢).

✽ فَفِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَلْبَسَ الرَّجُلُ الثَّوْبَ الْمُزَعْفَرَ..
يَعْنِي: الَّذِي صُبِغَ بِالْعُصْفَرِ.. وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ النَّبَاتِ يُشَبِّهُ الزَّعْفَرَانَ.. وَفِي الْحَدِيثِ
الثَّانِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى ابْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَلْبَسُ ثَوْبَيْنِ مُعْصَفَرَيْنِ أَنْكَرَ عَلَيْهِ
ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ: «أَمْكُ أَمَرْتُكَ بِهَذَا؟».. فَسَأَلَهُ ابْنُ عَمْرٍو وَقَالَ لَهُ: أَغْسِلُهُمَا؟.. فَإِذَا
بِالنَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «بَلْ أَحْرِقْهُمَا».. وَفِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى قَالَ لَهُ: «إِنَّ هَذَا مِنْ
ثِيَابِ الْكُفَّارِ فَلَا تَلْبَسْهَا» فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ أَوْ يُكْرَهُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَلْبَسَ
مِثْلَ هَذِهِ الثِّيَابِ الصُّفْرَاءِ الَّتِي تَمِيلُ إِلَى الْحُمْرَةِ قَلِيلًا.. وَكَذَلِكَ الثَّوْبُ الْأَحْمَرُ
الْخَالِصُ الَّذِي لَا يَخَالِطُهُ لَوْنٌ آخَرُ.. نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ لِبْسِهِ.. وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذِهِ مِنْ
ثِيَابِ وَلِبَاسِ الْكُفَّارِ..

وَإِذَا كَانَ هَذَا مِنْ لِبَاسِ الْكُفَّارِ فَإِنَّا قَدْ نُهَيْنَا أَنْ نَتَشَبَّهُ بِهِؤَلَاءِ.. وَذَلِكَ لِأَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» ^(٣).

✽ قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَوْلُهُ ﷺ: «أَمْكُ أَمَرْتُكَ بِهَذَا؟» مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا مِنْ
لِبَاسِ النِّسَاءِ وَزِيَّهِنَّ وَأَخْلَاقِهِنَّ... وَأَمَّا الْأَمْرُ بِإِحْرَاقِهِمَا فَقِيلَ هُوَ عُقُوبَةٌ وَتَغْلِيظٌ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٨٤٦) كتاب اللباس - ومسلم (٢١٠١) كتاب اللباس والزينة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٠٧٧) كتاب اللباس والزينة.

✽ مُعْصَفَرَيْنِ: أَيِ مَصْبُوغَيْنِ بِالْعُصْفَرِ.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٩).

لِزَجْرِهِ وَزَجْرٍ غَيْرِهِ عَنْ مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ ... وَهَذَا نَظِيرُ أَمْرِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي لَعَنْتِ
النَّاقَةَ بِأَرْسَالِهَا وَأَمَرَ أَصْحَابَ بَرِيرَةَ بِبَيْعِهَا وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ اشْتِرَاطَ الْوَلَاءِ وَنَحْوِ
ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) مسلم بشرح النووي (١٤/٧٦).

﴿ ٣٦٦ ﴾ بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَمَتِ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ

(١٨٠٩) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُتَمَّ بَعْدَ احْتِلَامٍ، وَلَا صُمَاتٍ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»^(١).

✽ ففى هذا الحديث يخبر على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه حفظ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا يُتَمَّ بَعْدَ احْتِلَامٍ» أى: لا يُقال لمن بلغ سن الاحتلام أنه يتيم.. بل إنه يُقال عنه أنه يتيم حتى يبلغ.. فإذا بلغ يرتفع عنه اليُتم وترتفع أحكامه.

«وَلَا صُمَاتٍ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ» أى: نهى النبى ﷺ عن صمت يومٍ كاملٍ إلى الليل.. لأن ذلك يؤدى إلى ترك قراءة القرآن وترك التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك..

قال الخطابى فى شرحه: كان من نُسك أهل الجاهلية الصمت، فكان أحدهم يعتكف اليوم واللييلة ويصمت، فنهوا عن ذلك وأُمروا بالنطق بالخير.

وأما قوله ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا» فهذا محمول على الصمت عن الكلام الذى يُغضب الله ﷻ: كالكذب والغيبة والنميمة وقذف المحصنات والسب والشتم وشهادة الزور... وإلا فالأصل أن المسلم لا يفتّر لسانه عن ذكر الله وقراءة القرآن والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَمَتِ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ

(١٨١٠) وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا: رَيْنَبٌ، فَرَأَاهَا لَا تَتَكَلَّمُ. فَقَالَ: مَا لَهَا لَا تَتَكَلَّمُ؟ فَقَالُوا: حَجَّتْ مُصَمِتَةً، فَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَتَكَلَّمَتْ^(٢).

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٦٠٩).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ: كَانَ مِنْ نُسْكِ الْجَاهِلِيَّةِ الصُّمَاتُ، فَنُهُوا فِي الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ، وَأُمِرُوا بِالذِّكْرِ وَالْحَدِيثِ بِالْخَيْرِ.

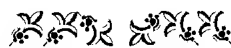
(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٨٣٤) كتاب المناقب.

❦ ففي هذا الحديث يحكى قيس بن أبى حازم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل على امرأة من أحمس.. يعنى: امرأة من الحمس وهى من قريش. اسمها زينب بنت المهاجر.. فرآها لا تتكلم.. فسأل الناس من حولها وقال لهم: ما لها لا تتكلم؟.. فأخبروه أنها حجّت مُصمّة.. فما كان من أبى بكر إلا أن أمرها أن تتكلم وأخبرها أن هذا لا يحل، لأنه من عمل الجاهلية.. فتكلّمت.

❦ قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: قوله: «فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ» يعنى ترك الكلام. وَوَقَعَ عِنْدَ الإِسْمَاعِيلِيِّ مِنْ وَجْهِ آخَرَ عَنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِّيقِ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَالَتْ لَهُ: «كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَرٌّ فَحَلَفْتُ إِنَّ اللَّهَ عَافَانَا مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا أَكْلِمَ أَحَدًا حَتَّى أَحُجَّ فَقَالَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ ذَلِكَ فَتَكَلَّمِي»، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ هَذَا مَنْ قَالَ بِأَنَّ مَنْ حَلَفَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَلَا كَفَّارَةٌ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَأْمُرْهَا بِالْكَفَّارَةِ... وَقِيَاسُهُ أَنْ مَنْ نَذَرَ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ لَمْ يَنْعَقِدْ نَذْرُهُ؛ لِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَطْلَقَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ وَأَنَّهُ مِنْ فِعْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ هَدَمَ ذَلِكَ وَلَا يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ مِثْلَ هَذَا إِلَّا عَنْ تَوْقِيفٍ فَيَكُونُ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ... وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ أَبِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ وَلَا يَرْكَبَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْكَبَ وَيَسْتَظِلَّ وَيَتَكَلَّمَ.

❦ وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي «الْمُغْنَى»: لَيْسَ مِنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ الصَّمْتُ عَنِ الْكَلَامِ وَظَاهِرُ الْأَخْبَارِ تَحْرِيمُهُ وَاحْتِجَّ بِحَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ وَبِحَدِيثِ عَلِيِّ الْمَذْكُورِ قَالَ: فَإِنْ نَذَرَ ذَلِكَ لَمْ يَلْزَمْهُ الْوَفَاءُ بِهِ... وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ وَلَا نَعْلَمُ فِيهِ مُخَالَفًا... اهـ^(١).

ومن أهل العلم من قال: من نذر أن يصمت فعليه أن يتكلم وعليه كفارة ذلك النذر.. ومنهم من قال: لا تلزمه الكفارة.. والله أعلم.



(٣٦٧) بَابُ تَحْرِيمِ انْتِسَابِ الْإِنْسَانِ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ

وَتَوَلِّيهِ غَيْرَ مَوَالِيهِ

(١٨١١) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ أَبِيهِ فَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ»^(١).

(١٨١٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَهُوَ كُفْرٌ»^(٢).

(١٨١٣) وَعَنْ يَزِيدَ بْنِ شَرِيكَ بْنِ طَارِقٍ قَالَ: رَأَيْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْمُبَرِّ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَا وَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا مِنْ كِتَابٍ نَقْرُؤُهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، فَنَشَرَهَا فَإِذَا فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبْلِ، وَأَشْيَاءٌ مِنَ الْجَرَاحَاتِ، وَفِيهَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ غَيْرِ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحَدِّثًا، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدَلًا... ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدَلًا. وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدَلًا»^(٣).

(١٨١٤) وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلَّا كَفَرَ، وَمَنْ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، وَلَيْتَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٦٦) كتاب الفرائض، ومسلم (٦٣) كتاب الإيمان.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٦٨) كتاب الفرائض، ومسلم (٦٢) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧٣٠٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٣٧٠) كتاب الحج.

«ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ» أَى: عَهْدُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ. «وَأَخْفَرُهُ»: نَقَضَ عَهْدَهُ. وَ«الصَّرْفُ» التَّوْبَةُ، وَقِيلَ: الْجِيلَةُ. وَ«الْعَدْلُ»: الْفِدَاءُ.

مِن النَّارِ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ»^(١).

✽ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (رياض الصالحين): باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه، أو تَوَلَّيْهِ غير مَوَالِيهِ.

ذَكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ شَيْئَيْنِ كِلَاهُمَا لِحِمَةِ يَلْتَحِمُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِهِ، وَيَدْنُو

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

الأول: النسب.

والثاني: الولاء... وقد قال النبي ﷺ: «الولاء لِحِمَةِ كُلِّ حِمَةِ النَّسَبِ»^(٢).

أما النسب: فإن الإنسان يجب عليه أن ينتسب إلى أهله: أبيه، جده، جد أبيه... وما أشبه ذلك، ولا يحل له أن ينتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه ليس بأبيه... فمثلاً: إذا كان أبوه من القبيلة الفلانية، ورأى أن هذه القبيلة فيها نقص عن القبيلة الأخرى، فانتمى إلى قبيلة ثانية أعلى حسباً؛ لأجل أن يُزِيلَ عَنْ نَفْسِهِ عَيْبَ قَبِيلَتِهِ، فإن هذا - والعياذ بالله - ملعون... عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً. - أى: فريضة ولا نافلة. -

وأما إذا انتمى الإنسان إلى جدّه، وأبى جدّه، وهو مشهور ومعروف دون أن ينتفى من أبيه فلا بأس بهذا... فقد قال النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(٣) مع أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فعبد المطلب جدّه، ولكنه ﷺ قال ذلك في غزوة حُنين؛ لأن عبد المطلب أشهر من أبيه عبد الله، وهو عند قريش في المكانة العليا فلهذا قال: أنا ابن عبد المطلب، لكنه من المعلوم أنه محمد بن عبد الله ولم ينتف من أبيه، وكذلك أيضاً الناس ينتسبون إلى اسم القبيلة: فيقول مثلاً: أحمد بن تيمية وما أشبه ذلك مما ينتسب إلى

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٥٠٨) كتاب المناقب، ومسلم (٦١) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في الكبير، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٥٧).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٦٤) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١٧٧٦) كتاب الجهاد والسير.

القبيلة ... لكن المهم الذى عليه الوعيد هو الذى يتنمى إلى غير أبيه ؛ لأنه غير راضٍ بحسبه ونسبه فيريد أن يرفع نفسه ويدفع خسيسته بالانتماء إلى غير أبيه فهذا هو الذى عليه اللعنة - والعياذ بالله -.

فيوجد - والعياذ بالله - مَنْ يفعل ذلك للعالم ... ينتسبون إلى أعمامهم دون آبائهم ؛ للعالم مثل ما يوجد الآن أناسٌ لديهم جنسيتان ينتسب إلى عمه أو إلى خاله أو ما أشبه ذلك لينال بذلك شيئاً من الدنيا، هذا أيضاً حرام عليه ولا يحل له ذلك ... والواجب على مَنْ كان كذلك أن يُعدل تبعيته وجنسيته وكذلك بطاقته ولا يُبقيها على ما هى عليه ... وَمَنْ اتقى الله جعل له من أمره يُسرًا ورزقه من حيث لا يحتسب.

أما حديث على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه أعلن على المنبر وهو يخطب الناس أنه ليس عندهم شيء خصّهم به الرسول صلّى الله عليه وآله إلا كتاب الله .. وهذا عامٌ لكل أحد والمراد بكتاب الله: ما يقرأه المسلمون اليوم من أولهم إلى آخرهم صغارًا وكبارًا لم يزد فيه أحد ولم ينقص منه أحد ... وفى هذا ردٌّ على الرافضة الشيعة الذين يدّعون أن القرآن الكريم قد حُذف منه ثلثه، وحُذفت منه سورة الولاية وما أشبه ذلك، فخرجوا عن إجماع المسلمين ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وفى قَسَم أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو الخليفة الرابع وهو البارُّ الصادق بدون قَسَم - أن النبى صلّى الله عليه وآله لم يَخْصهم بشيء، دليل على كذب الرافضة الشيعة الذين يقولون: إن النبى صلّى الله عليه وآله عهِدَ بالخلافة إلى على بن أبى طالب، وأن أبا بكر وعمر ظالمون معتدون كافرون منافقون !!! ... هكذا - والعياذ بالله - يصفون خير هذه الأمة بهذه الأوصاف، نسأل الله العافية، ونسأل الله أن يجازيهم بما يستحقون به من عدله إنه على كل شيء قدير.

فعلى بن أبى طالب عليه السلام ... إن كانوا صادقين فى محبته وولايته وأنهم يتولونه وأنهم شيعة فليصدقوه بهذا اليمين الذى أقسم به على المنبر - وهو يخطب الناس - مُعلنًا أن النبى ﷺ ما خصَّهم بشىء أبدًا إلا كتاب الله الذى يقرؤه المسلمون صغارًا وكبارًا إلى يومنا هذا - والحمد لله - ثم نشرها، وقرأ فيها شيئًا من أسنان الإبل فى الزكاة والثياب والجراحات... ولم تُبين فى هذا الحديث ولكنها بُينت فى مواضع أخرى، وذكر فيها أن المدينة حرام ما بين غير إلى ثور... فالمدينة لها حرم كحرم مكة، لكنه دون حرم مكة فى الأوكدية والفضيلة؛ لأن حرم مكة لا يمكن لمؤمن يتم إيمانه إلا أن يقصده حاجًا ومعتمرًا بخلاف حرم المدينة.

ثم إن المحرمات فى المدينة أخف من المحرمات فى مكة، ولهذا يجب فى حرم مكة فى قتل الصيد الجزاء، ولا يجب هذا فى حرم المدينة، وليس هذا موضوع ذكر الفروق بين الحرمين فهى حوالى ستة أو سبعة فروق معروفة... وما بين غير إلى ثور معروف أيضًا، فإن هذا الحرم مساحته بريد فى بريد يعنى أربعة فراسخ فى أربعة فراسخ.

هذا الحرم يقول عنه النبى ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِيهِ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدِّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، أحدث حدثًا فى أى شىء: فى العقيدة، فى المنهج، فى السلوك مخالفًا للمسلمين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

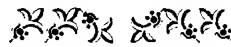
وكذلك مَنْ آوَى مُحَدِّثًا - يعنى أدخله المدينة - وهو يعلم أنه صاحب حدث فأواه ونصره وأدخله فى منزله وتستر عليه وما أشبه ذلك، هذا يكون أيضًا مُشاركًا له فى الإثم... عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

الجملة الثانية: «أن ذمة المسلمين واحدة»: يعنى عهدهم واحد... إذا عاهد أحد من المسلمين ممن لهم ولايات العهد وخفر ذمته أحد فعليه لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين... فمثلاً: إذا دخل كافر إلى البلد في أمانٍ وعهدٍ ممن لهم ولاية العهد أو غيرهم ممن له الأمان ثم خفره أحدٌ استحق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين... لو أن كافرًا دخل بأمانٍ وآواه رجل مؤمن أَمَّن كافرًا وقال له: ادخل وأنت في أمانى وجوارى (رجل عادى من المؤمنين) ثم جاء إنسان وقتل هذا الكافر وقال هذا كافر لا بد أن نقتله - رغم أمانه من المسلم - فعلى القاتل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - نسأل الله العافية -.

فكيف إذا دخل بأمانٍ من ولى الأمر؟ على أنه مُؤْتَمَن وفي جوار وأمان الدولة ثم يأتى إنسان فيقتله... هذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وفى هذا دليل على حماية الدين الإسلامى لمن دخل بأمانه وجواره، وأن الدين الإسلامى لا يعرف الغدر والاغتيال والجرائم... الدين الإسلامى دينٌ صريح، ما فيه إلا الصراحة... إنسان أَمَّنَه مسلمون لا بد أن يكون آمناً.

وبهذا نعرف غلط مَنْ يغدرون بالذمم ويخونون ويغتالون أناساً لهم عهد وأمان، وأن هؤلاء مُستحقون لما أعلنه أمير المؤمنين على عليه السلام... عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - والعياذ بالله -.^(١)



(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمته الله (٤/ ٢٩٤-٢٩٥) بتصرف.

(٣٦٨) باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ﷻ

ورسوله ﷺ عنه

❁ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

❁ أورد المصنف رحمه الله باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ عنه.. يعنى: أن الإنسان يجب عليه أن يقبل على طاعة الله وعلى اتباع رسوله ﷺ وأن يحذر كل الحذر من الوقوع فى المعاصى والمحرمات... ويجب عليه أن يخشى الله ﷻ ولا يأمن من مكر الله ﷻ.. فإن الشيطان قد يغتر الإنسان ويقول له: افعل المعاصى ثم استغفر بعدها فإن رحمة الله سبقت غضبه وأنه هو الغفور الرحيم.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، إلى غير ذلك من الأمانى الكاذبة التى يغتر بها الشيطان بنى آدم: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

❁ ثم استدلل المصنف بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أى فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ﷺ ويتركون سبيله ومنهجه وسنته ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: تنزل بهم محنة عظيمة فى الدنيا أو ينالهم عذاب شديد فى الآخرة.

وقد تلقى الفتنة فى قلوبهم.. مثل الشك فيما يجب اليقين فيه أو الشهوة فيما يحرم تناوله... ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: أتدرى ما الفتنة؟ يعنى فى قوله تعالى: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة: الشرك... لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع فى

قلبه شيء من الزيف فيهلك - والعياذ بالله - .

فالله غفورٌ رحيم.. لكنه في نفس الوقت شديد العقاب... كما قال تعالى:
﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ٤٢﴾ [الحجر:
٤٩ - ٥٠] وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٤٩﴾
[البقرة: ٩٨]، فبدأ بالعقاب وثنى بالمغفرة؛ لئلا يغلب الأمن من مكر الله...
والإنسان إذا أمن من مكر الله أصابه البلاء والعذاب... ولهذا قال الله تبارك
وتعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ١٧﴾ أَوْ أَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ
أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ١٩﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

✽ فإذا عرف العبد أنه ساعٍ إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن
يُلاقى ربه، ويلاقى سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقى من الأعمال التي
توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي تُوجب
السعادة والمثوبة... ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ٢٠﴾ وذلك بما
يُبدى لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله وشدة نكاله.. ومع شدة عقابه، فإنه
رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته، أنه خَوْفُ العباد، وزجرهم عن الغي والفساد.
كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْْبَادُونَ ٢١﴾
فأرفته ورحمته، سهّلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته،
حذرتهم من الطرق التي تُفضي بهم إلى المكروهات^(١).

✽ ثم ختم المصنف بهذه الآية:

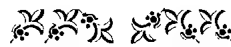
﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ٢٢﴾ أى مثل ذلك الأخذ

(١) تفسير السعدى (ص ١٢٩).

والإهلاك الذى أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين، يأخذ تعالى بعذابه الفجرة الظلمة ... قال الألوسى: وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى.

كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ الآية^(١) ﴿إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ﴾ أى إن عذابه موجه شديد، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد.

وقد فسرها النبی ﷺ بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قرَأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]^(٢)



(١٨١٥) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(٣).

✽ سبق شرح هذا الحديث كاملاً بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.



(١) روح المعاني (١٢/١٣٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٢٢٣) كتاب النكاح، ومسلم (٢٧٦١) كتاب التوبة.

(٣٦٩) بَابُ مَا يَقُولُهُ وَيَفْعَلُهُ مَنْ ارْتَكَبَ مِنْهَا عَنْهُ

✽ ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب لأنه ليس هناك إنسانٌ قد عصمه الله من الذنوب إلا الحبيب المصطفى ﷺ ..

فلا بد أن يقع الإنسان في الذنوب وَيَجِبُ عليه أن يتوب .
قال ﷺ: « كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون » ^(١) وقال ﷺ: « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، ثُمَّ جَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » ^(٢) .
فلا بد للإنسان من ذنب، لكن يجب عليه أن يتوب وأن يعود إلى ربه عز وجل في التوبة واللحظة لأنه لا يدري متى يموت ... ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] .

لما ذكر تعالى ما يُقَابِلُ به العدو من الإنس وهو مقابلة إساءته بالإحسان ذكر ما يُدْفَعُ به العدو الجَنَى وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره .
فقال: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾؛ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان ... أي: من وساوسه وتزيينه للشر وتكسيله عن الخير وإصابة ببعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ أي: اسأله مفتقراً إليه أن يُعِيدَكَ ويعصمَكَ منه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته ^(٣) .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ^(٤) [الأعراف: ٢٠١] .

لما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً، ينتظر

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥) .

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة .

(٣) تفسير السعدي (ص ٨٨٧) .

غَرَّتْهُ وَغَفَلَتْهُ، ذَكَرَ تَعَالَى عِلَامَةَ الْمُتَّقِينَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَأَنَّ الْمُتَّقِيَ إِذَا أَحْسَسَ بِذَنْبٍ، وَمَسَّهُ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَذْنَبَ بِفِعْلٍ مُحَرَّمٍ أَوْ تَرَكَ وَاجِبًا - تَذَكَّرَ مِنْ أَى بَابٍ أُتِيَ، وَمِنْ أَى مَدْخَلٍ دَخَلَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ، وَتَذَكَّرَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ لُؤْازِمِ الْإِيمَانِ، فَأَبْصَرَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ تَعَالَى، وَاسْتَدْرَكَ مَا فَرَطَ مِنْهُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالْحَسَنَاتِ الْكَثِيرَةِ، فَردَّ شَيْطَانَهُ خَاسِتًا حَسِيرًا، وَقَدْ أَفْسَدَ عَلَيْهِ كُلَّ مَا أَدْرَكَهُ مِنْهُ ^(١).

كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾.

﴿إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ يَعْنِي سَيِّئَةً عَظِيمَةً، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ: بِمَا دُونَ ذَلِكَ ذَكَرُوا اللَّهَ بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ، ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾: سَأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾: يَعْنِي لَا أَحَدٌ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ وَأَهْلُ السَّمَوَاتِ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَرْفَعُوا عَنْكَ ذَنْبًا وَاحِدًا مَا اسْتَطَاعُوا أَبَدًا... كُلُّ الْخَلْقِ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَمْحُوا عَنْكَ ذَنْبًا وَاحِدًا مَا اسْتَطَاعُوا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: يَعْنِي لَمْ يَسْتَمِرُّوا فِي مَعْصِيَتِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى ذَنْبٍ.

﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم﴾ أَى الْمُوصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ جَزَاءُهم وَثَوَابُهم الْعَفْوُ عَمَّا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَى وَلَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي خِلَالَهَا أَشْجَارُهَا الْأَنْهَارُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَى مَا كَثُرْنَ فِيهَا أَبَدًا ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ ^(١٣٦) أَى نِعْمَتِ الْجَنَّةِ جَزَاءَ لِمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ ^(٢).

(١) تفسير السعدي (ص ٣٤٥).

(٢) صفوة التفاسير (١/ ٢١١).

﴿ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿٣١﴾ [النور: ٣١].

والتوبة إلى الله تعالى هي الرجوع إليه عَزَّوَجَلَّ من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراف به إلى توحيده ومن البدعة إلى اتباع الرسول ﷺ... أن يرجع الإنسان إلى ربه فيندم على ما فعل، ويعزم على ألا يعود، ويستغفر الله عَزَّوَجَلَّ.

لما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ «لأن المؤمن يدعو إيمانه إلى التوبة» ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً... ودل هذا، أن كل مؤمن، محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً... وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة، في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة، من آفات الدنيا، أو رياء، وسمعة، أو نحو ذلك، من المقاصد الفاسدة^(١).



(١٨١٦) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، فليقل: لا إله إلا الله، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامِرَكَ فَلْيَصْدَق»^(٢).

﴿ ففى هذا الحديث يقول النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى» اللات: صنم يعبدونه الجاهلون فى الجاهلية وكذلك العزَّى.. كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]،

(١) تفسير السعدى (ص ٦٦٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٦٠) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (١٦٤٧) كتاب الأيمان.

كانوا يحلفون بهما كما يحلفون بالله فيقولون: واللات أو والعزى.

فمن حلف وقال في حلفه: واللات والعزى فماذا يفعل؟

يقول في التو واللحظة: لا إله إلا الله.. فهذا الشرك يداويه بالإخلاص والتوحيد.. ولهذا قال النبي ﷺ: «فليقل: لا إله إلا الله» ليداوى الشيء بضده.

قال الإمام النووي رحمه الله: قَالَ أَصْحَابُنَا إِذَا حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَصْنَامِ أَوْ قَالَ إِنْ فَعَلْتُ كَذَا فَأَنَا يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ أَوْ بَرِيٌّ مِنَ الْإِسْلَامِ أَوْ بَرِيٌّ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ لَمْ تَنْعَقِدْ يَمِينُهُ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ تَعَالَى وَيَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا كُفَّارَةَ عَلَيْهِ سَوَاءٌ فَعَلَهُ أَمْ لَا... هَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَجَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ.

وَاحتَجَّ أَصْحَابُنَا وَالْجُمْهُورُ بِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ فَإِنَّهُ ﷺ إِنَّمَا أَمَرَهُ بِقَوْل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَذْكُرْ كُفَّارَةً.. وَلِأَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُهَا حَتَّى يَثْبُتَ فِيهَا شَرْعٌ^(١).

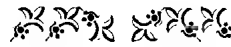
❁ «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامِرَكَ فَلْيَتَصَدَّقْ».. وهذا أيضًا من دواء الشيء بضده.. فالمقامرة هي المخالفة على عوض.. التي يُسميها الناس الرهن.. كمن يقول لصاحبه: أراهنك أن هذا كذا وكذا.. فيتراهنون على بعض المال أو ما أشبه ذلك.. فمن قال ذلك فقد قال قولاً حراماً.. فعليه أن يتوب ويُخلص النية لله في التوبة.. ومن توبته أن يتصدق بأى شيء ليكون هذا من باب مُداواة الشيء بضده.

فكذلك كل مَنْ فرط في واجبٍ فإن دواءه أن يتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وأن يُكثر من العمل الصالح «وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا».

قال الإمام النووي رحمه الله: قَوْلُهُ ﷺ: «وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ تَعَالَ أَقَامِرَكَ فَلْيَتَصَدَّقْ» قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَمْرٌ بِالصَّدَقَةِ تَكْفِيرًا لَخَطِيئَتِهِ فِي كَلَامِهِ بِهِذِهِ الْمَعْصِيَةِ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ فَلْيَتَصَدَّقْ بِمِقْدَارِ مَا أَمَرَ أَنْ يُقَامَرَ بِهِ ... وَالصَّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ بِذَلِكَ الْمِقْدَارِ بَلْ يَتَصَدَّقُ بِمَا تَسَّرَ مِمَّا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الصَّدَقَةِ ... وَيُؤَيِّدُهُ رِوَايَةُ مَعْمَرٍ الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِمٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِشَيْءٍ ...

قَالَ الْقَاضِي: فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ لِمَذْهَبِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْعَزَمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ إِذَا اسْتَقَرَّ فِي الْقَلْبِ كَانَ ذَنْبًا يُكْتَبُ عَلَيْهِ بِخِلَافِ الْخَاطِرِ الَّذِي لَا يَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ^(١).



(١) مسلم بشرح النووي (١١/١٥٤-١٥٥).



(١٨) كتاب المنثورات والملح

(٣٧٠) باب أحاديث الدجال وأشراط الساعة وغيرها

(١٨١٧) عن النّوّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه قال: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ، وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ، عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ الْغَدَاةَ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنَّ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَكُلُّ امْرِئٍ حَاجِبُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعَزَى بْنِ قَطَنِ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا»

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَتِهِ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَتِهِ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ، فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَحْيِيُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَيُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَيَنْبِتُ، فَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرَى، وَأُسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفَ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمَحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةِ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ، فَيُقْبِلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ».

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَزَلَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقَى دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضْعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَئِنٍ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَجِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ يَنْتَهَى طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يَدْرِكَهُ بَابٌ لَدَّ فَيَقْتُلُهُ.

ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ، فَحَرَّزُ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِتٍ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءً.

وَيُحَصِّرُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ النَّغْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرِ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعَالَى طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَطَرًا لَا يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَاقَةِ.

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبَتِي ثَمَرَتِكَ، وَرَدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا، وَيُبَارِكُ فِي الرَّسْلِ حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْغَنَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمْرِ

فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»^(١).

✽ أورد المصنف رَحِمَهُ اللهُ (كتاب المثلثات والمُلح).

المثلثات: يعنى أنها من أبواب متفرقة، ليست من بابٍ واحد.
والمُلح: جمع مُلحة وهى ما يُسْتَمَلَح ويُستعذب.

ثم ذكر الباب الأول:

باب الدجال وأشراط الساعة.

✽ وقد ذكر المصنف هنا أحاديث الدجال وأشراط الساعة.. وذلك لأن المسيح الدجال من أشراط وعلامات الساعة الكبرى.. وهى عشر علامات ذكرها النبى ﷺ فى أكثر من حديث غير مُرتبة.

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: أَطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ فَقَالَ: «مَا تَذَكَّرُونَ» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالْجَالَ وَالِدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»^(٢).

✽ وتعالوا بنا لنذكر الأحاديث التى وردت فى شأن المسيح الدجال كلها

ثم نشرحها شرحاً مُبسّطاً.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

قوله: «خَلَّةٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ» أى: طريقاً بَيْنَهُمَا. وقوله «عَاثٌ»: وَالْعَيْثُ أَشَدُّ الْفَسَادِ. و«الدُّرَى»: وهُوَ أَعَالَى الْأَشْجَمَةِ. وَهُوَ جَمْعُ ذُرْوَةٍ. و«الْيَعَاسِبُ»: ذُكُورُ النَّحْلِ. و«جَزَلَتَيْنِ» أى: قِطْعَتَيْنِ و«الْعَرَضُ»: الْهَدَفُ الَّذِى يُرْمَى إِلَيْهِ بِالنَّشَابِ، أى: يَرْمِيهِ رَمِيَّةٌ كَرَمَى النَّشَابِ إِلَى الْهَدَفِ. و«المَهْرُودَةُ»، وهى: الثَّوْبُ الْمَصْبُوغُ. قَوْلُهُ: «لَا يَدَانِ» أى: لَا طَاقَةَ. و«النَّعْفُ»: دُودٌ. و«فَرَسَى»: جَمْعُ فَرَسٍ، وَهُوَ الْقَيْلُ، و«الرَّلَقَةُ»، وَرُوى «الرَّلْفَةُ»، وهى الْمَرَأَةُ. و«الْعَصَابَةُ»: الْجَمَاعَةُ، و«الرَّسْلُ»: اللَّبْنُ، و«اللَّقْحَةُ»: اللَّبُونُ، و«الْفَنَامُ»: الْجَمَاعَةُ، و«الْفَخْدُ» مِنَ النَّاسِ: دُونَ الْقَبِيلَةِ.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٠١) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(١٨١٨) وعن رُبْعِيٍّ بنِ حِرَاشٍ قال: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ إِلَى حَدِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، فَقَالَ لَهُ أَبُو مَسْعُودٍ، حَدَّثْنِي مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الدَّجَالِ، قَالَ: «إِنَّ الدَّجَالَ يَخْرُجُ وَإِنَّ مَعَهُ مَاءً وَنَارًا، فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً فَنَارٌ تُحْرِقُ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَاهُ نَارًا، فَإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ» فقال أبو مسعود: وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ ^(١).

(١٨١٩) وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرٍو بنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمِّي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ، لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ.

ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ ﷻ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ، لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ.

فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ، وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتِمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، فيقول: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فيقولون: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارُ رِزْقِهِمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ.

ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيُصْعَقُ وَيُصْعَقُ النَّاسُ حَوْلَهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَيَاذُ هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ.

ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ، ﴿وَقَفُّوهُمْ لِحَتِّهِمْ مَسْئُولُونَ﴾، ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارَ، فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ،

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٣٠) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

فذلك يوم يجعل الولدان شيعاً، وذلك يوم يكشف عن ساق»^(١).

(١٨٢٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَتَبُّ مِنْ أَنْقَابِهِمَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِينَ تَحْرُسُهُمَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبْحَةِ، فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج الله منها كل كافر ومنافق»^(٢).

(١٨٢١) وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَّبِعُ الدَّجَالُ مِنْ يَهُودٍ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ»^(٣).

(١٨٢٢) وعن أم شريك رضي الله عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لَيَنْفِرَنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَالِ فِي الْجِبَالِ»^(٤).

(١٨٢٣) وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَالِ»^(٥).

(١٨٢٤) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُخْرِجُ الدَّجَالُ فَيَتَوَجَّهَ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَتَتَلَقَّاهُ الْمَسَالِحُ: مَسَالِحُ الدَّجَالِ، فيقولون له: إلى أين تعمد؟ فيقول: أعمد إلى هذا الذي خرج، فيقولون له: أو ما تؤمن برَبِّنا؟ فيقول: ما برَبِّنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه، فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس إن هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فيأمر الدجال به فيشبح، فيقول: خذوه وشجوه،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

«الْبَيْتُ»: صَفْحَةُ الْعُنُقِ، ومعناه: يَضَعُ صَفْحَةً عُنُقِهِ وَيَرْفَعُ صَفْحَتَهُ الْأُخْرَى.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٥) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٥) صحيح: رواه مسلم (٢٩٤٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، فيقول: أَوْ مَا تَوْمِنُ بِي؟ فيقول: أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ، فَيُؤَمَّرُ بِهِ، فَيُؤَشَّرُ بِالْمِنْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتَوْمِنُ بِي؟ فيقول: مَا أَزْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، فَيَأْخُذُهُ الدَّجَالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيَجْعَلُ اللَّهُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوتِهِ نَحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْدِفُ بِهِ، فَيَحْسَبُ النَّاسُ أَنَّهَا قَذْفُهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١).

(١٨٢٥) وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: ما سأل أحد رسول الله ﷺ عن الدَّجَالِ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ، وَإِنَّهُ قَالَ لِي: «مَا يَضُرُّكَ؟» قُلْتُ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مَعَهُ جَبَلٌ خَبِيزٌ وَنَهْرٌ مَاءٍ، قَالَ: «هُوَ أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ»^(٢).

(١٨٢٦) وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُنْذِرَ أُمَّتُهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ ﷻ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَ ف ر»^(٣).

(١٨٢٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عَنْ الدَّجَالِ مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ، إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالْتَمِ يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ»^(٤).

(١٨٢٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الدَّجَالَ بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة، واللفظ لمسلم.

«المسالح»: هم الخُفَرَاءُ وَالطَّلَانُ.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٢٢) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٣١) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٣٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٩٣٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة.



فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عَيْنَةُ طَافِيَةٍ»^(١).

✽ النبى ﷺ ذكر الدجال لأصحابه ذات غداة.. يعنى فى الصباح.. فتكلم عنه بكلام طويل وذكر الأمر بتفاصيله حتى ظن الصحابة أن الدجال فى طائفة النخل.. أى: ظنوا أنه قد جاء إلى المدينة.. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. لأن الدجال مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل مكة والمدينة.

ثم إن النبى ﷺ عرف ذلك فيهم فسألهم فقالوا: إنك ذكرت الدجال الغداة وخفضت فيه ورفعت فظننا أنه فى النخل. فقال: «غير الدجال أخوفنى عليكم» يعنى أخاف عليكم شيئاً أشد من الدجال... ومن ذلك الرياء حيث ثبت عنه ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسُئِلَ عنه فقال: «الرياء»^(٢) أن الإنسان يُرائى فى عباداته: يصلى لأجل الناس، يتصدق لأجل الناس، يحسن الخلق لأجل الناس.. فهذا رياء والعياذ بالله... والمُرائى حابطٌ عمله، والرياء من صفات المنافقين كما قال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. واعلم أيها المرائى أن الله سيفضحك عن قرب؛ لأن النبى ﷺ قال: «مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ» يعنى أظهر مُراءاته وعيوبه عند الناس، «ومن سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ»... ثم قال ﷺ: «إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُكُمْ دُونَكُمْ»: يعنى لو خرج الدجال وأنا موجود فأنا أكفيكم إياه، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حاجِبٌ نفسه... يعنى كل إنسان يُحاج عن نفسه، «والله خليفتى على كل مؤمن» فاستخلف ربه ﷻ أَنْ يَكُونَ مُؤَيِّدًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَاقِيًّا لَهُمْ مِنْ فِتْنِ الدَّجَالِ الَّذِى

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٣٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٥٥٥).

ليس بين خلق آدم وقيام الساعة فتنة أشد منها نسأل الله أن يقينا وإياكم فتنته^(١).

✽ ثم بدأ النبي ﷺ يذكر لهم قصة المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ليقتله في آخر الزمان... وسوف أشرحها لكم مختصرة.

✽ أما الدجال: فهو مبالغة من الدجل وهو الكذب.. والدجال يعنى: كثير الكذب الذى لا يُوصف إلا بالكذب فهو يغطى الحق بالباطل.

وسُمى بالمسيح لأن عينه الواحدة ممسوحة.. وقيل: لأنه يمسح الأرض كلها. ✽ وأخبر النبي ﷺ أنه أكبر فتنة وُجدت على وجه الأرض منذ خلق آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التى تُبهر العقول.... ولذا كان كل نبيٍّ يُحذر قومه من فتنة المسيح الدجال مع أنهم لن يدركوه أبداً ولن يدركهم.. ولكن من شدة فتنته كانوا يُحذرون أممهم من فتنته.

✽ وأما عن صفته فلقد وصفه النبي ﷺ وصفاً دقيقاً حتى إذا عرفه المؤمنون لا يُفتنون به.

ومن هذه الصفات أنه رجل، شابٌّ أحمر، قصير، أفحج، جعد الرأس، أجلى الجبهة، عريض النحر، ممسوح العين اليمنى، وهذه العين ليست بناتئة^(٢)، ولا جحراء^(٣)، كأنها عنبة طافئة، وعينه اليسرى عليها ظفرة^(٤) غليظة، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) بالحروف المقطعة، أو (كافر) بدون تقطيع، يقرؤها كل

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٠٢).

(٢) (ناتئة) مأخوذة من التواء، وهو الارتفاع والانفخاض؛ أى: أن عينه ليست بارزة. انظر: «ترتيب القاموس» (٤/ ٣١٨)، و«عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٣) (جحراء): أى: ليست غائرة منجحرة في نقرتها. انظر: «لسان العرب» (٤/ ١١٨)، و«عون المعبود» (١١/ ٤٤٤).

(٤) (ظفرة): لحمة تبنت عند المآقى، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه. انظر «النهاية في غريب الحديث» (٣/ ١٥٨). و(المآقى): هو مقدمة العين. انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٢٨٩).

مسلم كاتب وغير كاتب... ومن صفاته أنه عقيم لا يولد له.

✽ وقد رأى تميم الدارى المسيح الدجال على حقيقته رأى العين فى إحدى الجزر وعاد وأخبر النبى ﷺ بذلك.. وقد وجدته وهو مُسلسل بالحديد فى دير بإحدى الجزر^(١).

✽ وأما عن الإرهاصات التى تكون قبل خروج الدجال فهى كثيرة: (منها) قلة العرب وخروج الملحمة التى تكون بين المسلمين والنصارى والتى سيتنصر فيها المسلمون.. ثم فتح القسطنطينية والتى بمجرد فتحها يعلم المسلمون بظهور الدجال.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُمْرَانُ بَيْنَ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرِبُ، وَخَرَابٌ يَثْرِبُ خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتُحْ قُسْطَنْطِينِيَّةٌ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَالِ»^(٢).

وقبل خروج الدجال بثلاث سنوات يحدث جَدْبٌ وقحط شديد فتمنع السماء مطرها وتحبس الأرض نباتها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «... وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شِداد، يصيب الناس فيها جوعٌ شديد، يأمر الله السماء السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثانية فتحبس ثلثى مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها، ثم يأمر السماء فى السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله، قيل: فما يُعَيِّش الناس فى ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزى ذلك عليهم مجزأة الطعام»^(٣).

(١) راجع ذلك فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه (٢٩٤٢) كتاب الفتن.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٠٩٦).

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

✽ ويكون المسلمون عند خروج الدجال لهم شأن كبير وقوة عظيمة..
بدليل انتصارهم على النصارى وفتح القسطنطينية.

✽ وأما عن كيفية خروج الدجال فإنه يخرج بسبب غلبة يغضبها فيكسر
السلاسل التي رُبط بها ويخرج إلى الدنيا ليعيث فيها فسادًا وإفسادًا.

✽ وأما عن مكان خروجه فإنه يخرج من المشرق من خراسان من يهودية
أصبهان.. ويُقال أنه سيخرج خلة بين الشام والعراق.. يعنى يخرج من طريق
بين الشام والعراق من قبل إيران.

✽ وأول ما يخرج يدعى أنه نبي ثم يزداد الأمر ويدعى أنه رب العالمين -
عيادًا بالله -.

✽ وأما عن أتباعه فإنه يتبعه سبعون ألفًا من يهود أصبهان عليهم الطيالة
والتيجان.. وكأنهم يجتمعون هناك ليتبعوا الدجال لأن اليهود أهل دجل وكذب
وغدر وخيانة لا يؤمنون.

ويكون أكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والتُّرك وأخلاق من الناس
غالبهم من الأعراب والنساء.

✽ وأما عن القدرات والإمكانات التي ستكون مع الدجال... والتي
ستكون سببًا في فتنة أصحاب القلوب المريضة فهي:

(١) جنته وناره:

فقد ورد أن معه ما يشبه الجنة والنار أو أن معه ما يشبه نهرًا من ماء ونهرًا من
نار... وليس الأمر كما يراه الناس فإن الذى يرونه نارًا فإنما هو ماء بارد وإن
الذى يرونه ماءً باردًا فإنه نارٌ.

✽ قال رسول الله ﷺ: «معه (أى الدجال) جنة ونار، فناره جنة، وجنته نار»^(١).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٤) كتاب الفتن.

(٢) سرعة انتقاله بين البلدان:

ومن فتنة الدجال أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال. فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ - كما عند مسلم - فقالوا: يا رسول الله وما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». ولذلك فهو سيدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

(٣) استجابة السماء والأرض لأمره!!!

ومن فتنته أنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ويدعو الماشية فتتبعه ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها المدفونة فتستجيب.

❦ قال ﷺ: «... فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطَرُ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ فَتَنْبِتُ، وَتَرْوَحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ دُرًّا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ وَيُصْبِحُونَ مُمَحْلِينَ مَا بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ، ثُمَّ يَمُرُّ بِالْخَرَبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَيَنْطَلِقُ وَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ...» (١)(٢)(٣).

هكذا يُمكن الله ﷻ لذلك الدجال ليكون فتنة للكافرين والمنافقين والمجرمين.. وأما أهل الإيمان فيحفظهم الله من فتنة الدجال.

هكذا يُمكن الله ﷻ للدجال فيأتي القوم يدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به،

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٣٧) كتاب الفتن.

(٢) قال الإمام النووي: أما (تروح) فمعناه ترجع آخر النهار، و(السارحة) هي الماشية التي تسرح أي تذهب أول النهار إلى المرعى، وأما (الدُّرى) وهي الأعالي، و(الأسنمة) جمع ذروة وقوله: (وأسبغهُ) أي أطوله لكثرة اللبن، وكذا (أمدهُ خواصر) لكثرة امتلائها من الشبع.

قوله ﷺ: (فتتبعه كنوزها كيَعاسيب النحل) هي ذكور النحل هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون قال القاضي: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة لكنه كنى عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته والله أعلم. [مسلم بشرح النووي (١٨/٨٩)].

(٣) قصة النهاية / د. محمود المصري (ص ٥٠٧-٥٠٩).

«يأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت»، يشاهدون ذلك بأعينهم، يقول: أيتها السماء: أمطري، فتمطر... أيتها الأرض أنبتى فتنبت، لكن ليس بقدرته وقوته بل بإرادة الله ﷻ لكن الله مكن له ابتلاءً وامتحاناً، «فيصبحون تروح عليهم سارحتهم» يعنى الغنم والإبل أكثر ما يكون ذروعاً وأوفر ما تكون ذراً وأمدّها خواصر، تمتلئ بطونها، وتمتلئ ضروعها، ويكون عليها الشحم، ويأتى القوم فيدعوهم فلا يستجيبون له يردونه، فينصرف، فيصبحون مُمحلين ليس لهم من أموالهم شيء... الأرض خربت، والسماء لا تمطر والمال يمور... ولكن هؤلاء هم الذين لهم الأجر والثواب، وعاقبتهم حميدة، أما الأولون الذين آمنوا به وأمطرت السماء وأنبتت الأرض فهم خاسرون وإن ظنوا أنهم رابحون... ويأتى إلى الخربة -أرض خربة ما بها بناء وما بها أناس- فيقول: أيتها الأرض أخرجى كنوزك فتخرج كنوزها وما بها من معادن: من ذهب، وفضة وغير ذلك، فتتبعه كي عاسيب النحل -أى: كذكور النحل-.

(٤) الدجال يستعين بالشياطين:

قال ﷺ: «... وإن من فتنته أن يقول لأعرابى: أرايت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أنى ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه، وأمه، فيقولان: يا بُنى، اتبعه، فإنه ربك...»^(١).

❁ وأما عن المدة التى يمكثها فى الأرض فإنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً: اليوم الأول طوله سنة؟ اثنا عشر شهراً، (٣٦٠) يوماً.. هذا اليوم الأول. والثانى مقداره شهر (٣٠) يوماً، والثالث مقداره جمعة يعنى أسبوعاً، وباقى الأيام وهى سبعة وثلاثون يوماً كالأيام المعتادة... ولكن الله ﷻ نبه الصحابة قالوا: يا رسول الله هذا اليوم الذى كسنة تكفيها فيه صلاة واحدة؟ فيكون عليهم فى هذا اليوم

(١) صحيح: رواه ابن ماجه والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٨٧٥).

كم؟ خمس صلوات؟.. قال لهم: «لا، اقدروا له قدره» يعنى صلوا صلاة السنة كاملة في يوم واحد، وهذا مما يؤخذ على سبيل الطرفة... يُقال: إنسان وجب عليه صلاة سنة كاملة في يوم واحد... وأيضاً يؤخذ به من جهة أخرى: رجلٌ وجبت زكاة ماله في يوم واحد... وأيضاً فيقال: يصوم رمضان بعض يوم يعنى جزءاً من اثني عشر جزءاً من هذا اليوم... نقول: هذا يوم الدجال... وسبحان الله الحكيم الذى أكمل لنا الدين قبل أن يموت سيد المرسلين ﷺ... أنطق الله الصحابة أن يسألوا عن هذا اليوم: هل تكفى فيه صلاة واحدة أم لا؟... لأنه يوجد الآن في الأرض من يومهم ستة أشهر، وليلهم ستة أشهر، عند المدار القطبى... ستة أشهر والشمس تشرق عليهم، وستة أخرى والشمس لا يرونها فكيف يصلى هؤلاء؟ يصلون صلاة يوم وليل فقط أو يقدرون لها قدرها؟ نقول: يقدرون لها قدرها كيوم الدجال تماماً.. أى يحسبون أوقات الصلاة بعدد الساعات التى بينها... اليوم الثانى من أيام الدجال كشهر كيف تكون فيه الصلاة؟.. يصلون صلاة شهر، واليوم الثالث يصلون صلاة أسبوع، واليوم الرابع وما بقى كالعادى... ثم سأله الصحابة رضي الله عنهم عن سيره في الأرض هل هو كالسير المعتاد كسير الإبل أو سير الأرجل؟ قال ﷺ: «يسير كالغيث استدبرته الريح»... والله أعلم كيف كان إسرعه؟... هل يحدث الله له آلات، أو طائرات، أو غيرها؟ ما تدري، لكنه هذا الذى أخبر به النبى ﷺ أنه يكون كالغيث.

وذكر أيضاً في هذه الأحاديث أن رجلاً شاباً مسلماً يخرج إذا سمع به ليبين للناس كذبه فيتلقاه حرس الدجال المتسلحون ويقولون: أين تريد، يقول: أريد هذا الرجل الذى خرج، فياخذونه ويقولون: أتؤمن بربنا؟ فيقول: لا، إنه الدجال، فيريدون أن يقتلوه، ولكن بعضهم يقول لبعض: أليس قد قال ربنا: - أى الدجال - لا تقتلوا أحداً دونى، فيتركونه، ثم يأتون به إلى الدجال فيشهد هذا الرجل المسلم أنه هو الدجال الذى أخبر به النبى ﷺ فيغضب عليه، ويأمر بالمنشار فيُنشر من رأسه إلى ما بين رجليه... يعنى يشقه طوياً ويجعل كل فرقة

منه في جانب، ويمشى بينهما، ثم يدعوهم فيخرج ويقوم يتהלل وجهه، وهو يقول: والله ما ازددت فيك إلا بصيرة، ثم يريد أن يقتله ويعجز^(١).. لأن الله عز وجل يجعل ما بين رقبة هذا الشاب إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع أن يقتله.

✽ إن الدجال سيسير في الأرض كلها ولن يترك قرية إلا نزل فيها.. إلا مكة والمدينة فإن الله عز وجل قد حفظ مكة والمدينة من الدجال فلا يستطيع أن يدخلهما أبداً.

✽ قال ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»^(٢).

فإذا عجز الدجال عن دخول مكة والمدينة فلا بد أن يخرج إليه المنافقون حتى يتبعوه... ولذا أخبرنا النبي ﷺ عن كيفية خروج المنافقين من المدينة المنورة فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ، إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا، فَيَنْزِلُ بِالسَّبْخَةِ^(٣)، فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»^(٤).

✽ وبعد خروج الدجال وإفساده في الأرض طوال هذه الفترة ينزل الله عز وجل عيسى ابن مريم رسول الله ﷺ... ينزل واضعاً كفيه على أجنحة ملكين؛ لأن الملائكة أولو أجنحة... ينزلان به من السماء؛ لأن عيسى الآن حي في السماء، ينزل عند قيام الساعة ليقتل الدجال... ينزل، وكأنه والله أعلم قد اغتسل بماء طيب، إذا طأطأ رأسه قطر ماء، وإذا رفعه تحدر منه مثل الجمان، فيحتمل أن هذا ماء ويحتمل أنه عرق والله أعلم... ثم إنه يطلبه أي يطلب الدجال الخبيث الماكر الأعور فلا يحل لكافر يجد ريح نفس عيسى إلا مات.

(١) بتصرف من كتاب (شرح رياض الصالحين).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨٠) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (١٣٧٩) كتاب الحج.

(٣) السبخة: الأرض الرملية التي لا تنبت لملوحتها... وبعض أراضي المدينة كذلك.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٨١) كتاب فضائل المدينة، ومسلم (٢٩٤٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

- سبحانه الله - نَفْسُ عِيسَى ﷺ يقتل الكافر ... وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طرفه... وهذا أَيْضًا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ... يَعْنِي أَنْفَاسُنَا نَحْنُ لَا تَعْدُو إِلَّا شِبْرًا أَوْ نَحْوَهُ، لَكِنْ نَفْسُ عِيسَى ﷺ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طرفه.

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَقْتُلُ أَنْاسًا كَثِيرِينَ مِنَ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّفْسَ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ نَفْسَهُ إِلَّا مَاتَ... يَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقَى دِمَشْقَ هَكَذَا وَصَفَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ لَا بَدَأَ أَنْ تُوجَدَ عِنْدَ نَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ ... وَبَعْدَ نَزُولِهِ يَتَّبِعُ الدَّجَالَ فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ... وَهُوَ الْآنَ فِي فَلَسْطِينَ الَّتِي اسْتَعْمَرَهَا الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ لِعَائِنِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ... يَدْرِكُ عِيسَى ﷺ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَيَقْتُلُهُ هُنَاكَ، وَهَذَا أَنْتَهَى الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، وَبَقِيَ الْمَسِيحَ رَسُولَ اللَّهِ عِيسَى ﷺ.

ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالَ، فَيَمْسَحُ عَلَى وَجُوهِهِمْ وَيُبَشِّرُهُمْ بِمَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ... فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ - يَعْنِي عَلَى حَالِهِمْ - إِذْ يُوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى عِيسَى أَنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَتَالِهِمْ... وَهُؤُلَاءِ الْعِبَادُ لَيْسُوا عِبَادَ دِينَ بَلْ عِبَادُ قَدَرٍ. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، هَؤُلَاءِ الْعِبَادُ هُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ - أَيْ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مَرْتَفِعٍ يَنْسِلُونَ - لِأَنَّ الشَّعَابَ وَالْأَوْدِيَةَ لَا تَسْعُهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَصْعَدُونَ الْجِبَالَ لِيَنْزِلُوا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ كَثَرَتِهِمْ... هَؤُلَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ لَيْسُوا جَنًّا وَلَا جَنَسًا ثَالِثًا بَلْ هُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَنْشِبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَا أَطْمَعُ أَنْ

تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَا طَمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَا طَمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.. إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»^(١).

✽ ولقد ورد عن النبي ﷺ أن أهل الجنة مائة وعشرون صفًا منهم ثمانون من هذه الأمة.. المهم أن يأجوج ومأجوج من بنى آدم، شكلهم شكل بنى آدم لا يختلفون عنهم، أما ما ورد في بعض الآثار أن منهم القصير المفرط في القصر، والطويل المفرط في الطول، وأن بعضهم يفرش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى كل هذا لا صحة له... هم من بنى آدم ومثلهم، لكنهم أمم عظيمة كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، أى من كل مرتفع؛ لأن الأرض السهلة لا تسعهم من كثرتهم ﴿يَنْسِلُونَ﴾ أى يسرعون كأنهم مُسَلِّطُونَ على بنى آدم، فيقول عَزَّوَجَلَّ لعيسى: إني قد بعثت عبادًا لا يدان لأحدٍ بقتالهم - يعنى ما لأحدٍ على قتالهم من قوة - فحرّز عبادى إلى الطور - يعنى احترزوا فيه -.

والطور جبلٌ معروف، فيصعد عيسى ﷺ ومَن معه إلى الطور ويُحصَرُونَ فيه حتى إنهم يلحقهم من الجوع وشدة المؤنة ما يكون رأس الثور أحب إلى أحدهم من مائة دينار... وحينئذٍ يرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم هذه الأمم التى حاصرتهم فى هذا الجبل، فيرسل الله تعالى عليهم النَّعْفَ وهو عبارة عن دودٍ يكون فى أنوف الإبل والغنم... فيرسله الله فى رقابهم فيُصبحون فَرَسَى - جمع فريسة يعنى موتى - كنفسٍ واحدة... كل هذه الأمم التى لا يُحصيها إلا الله تموت فى ليلة واحدة؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ... فهذا النعف حينما يدخل فى أعناقهم يموتون على الفور.

ثم ينزل عيسى ابن مريم وقومه إلى الأرض.. وإذا الأرض مملوءة من هذه

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢٢) كتاب الإيمان.

الجثث نتناً ورائحة خبيثة، فيرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ أن يخلصهم من هذا، فيرسل الله تعالى طيوراً كأعناق البُخت - يعنى مثل أعناق الإبل - طيوراً كبيرة قوية تأخذ الواحد منهم وتلقيه في البحر... ومعنى هذا أنها طيورٌ عظيمة لا يعلم عددها إلا الله ﷻ... كل هذا بقدرة الله سبحانه وتعالى؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون... لا تستغرب، لا تقل من أين جاءت الطيور؟ وكيف توالت؟ الله على كل شيء قدير... هذه الطيور مثل أعناق الإبل تحمل الواحد وتلقيه في البحر ولا يبقى فيهم أحد...

لكن كما تعلمون لا بد أن يبقى في الأرض شيء من القدر والأذى والرائحة بعد هذه الجثث... فيرسل الله تعالى مطراً عظيماً يغسل الأرض لا يُكنُّ منه مدَر ولا وَبَر.. كل الأرض تمتلئ ماء حتى تكون كالزَّلَقَة! -أى: كالمرآة- تنظف تنظيفاً تاماً بإذن الله ﷻ... ويأمر الله الأرض أن تخرج بركاتها، وثمراتها فيكون فيها الثمرات العظيمة، والخير والبركة، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى فتاًماً من الناس... ومن البقر تكفى القبيلة من الناس... ومن الغنم تكفى الفخذ من الناس... وهى واحدة لكن الله يُنزل فيها البركة فتكفى أمماً، وتكثر الخيرات والبركات... وكل هذا يدل على عظمة وقدرة الله ﷻ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، بدلاً من حصرتهم في الطور لا يجدون شيئاً إذا بالأرض تنبت وتنزل فيها البركة والثمار.. وغير ذلك، كل هذا بأمر الله ﷻ^(١).

كيف ننجو من فتنة الدجال؟

❦ وإليكم جميعاً الوسائل التى تجعلنا ننجو بإذن الله من فتنة الدجال:

أولاً: الاعتصام بالله (جل وعلا) والتمسك بالإيمان والتعرف على أسماء الله

وصفاته الحسنى،... فنعلم أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/ ٣٠٤-٣٠٥) بتصرف كبير.

أما الدجال فهو أعور والله ليس بأعور، وأنا لن نرى ربنا حتى نموت، أما الدجال فيراه الناس عند خروجه مؤمنهم وكافرهم.

ثانياً: التعوذ من فتنة المسيح الدجال:

وخاصة في الصلاة بعد التشهد وقبل التسليم.

❦ قال رسول الله ﷺ: «إذا تشَّهَّد أحدكم؛ فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال»^(١).

ثالثاً: حفظ آيات من سورة الكهف:

فقد أمر النبي ﷺ بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال... وفي بعض الروايات خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها. ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان الطويل... (وفيه قوله ﷺ): «مَنْ أدركه منكم؛ فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»^(٢).

وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ»؛ أَي: مِنْ فَتْنَتِهِ.

قال مسلم: «قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف»^(٣).

رابعاً: الفرار من الدجال، والابتعاد عنه:

والأفضل سُكنى مكة والمدينة، فقد سبق أن الدجال لا يدخل الحرمين، فينبغي للمسلم إذا خرج الدجال أن يتبعد عنه، وذلك لما معه من الشبهات

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٨٠٩) كتاب صلاة المسافرين.

والخوارق العظيمة التي يُجربها الله على يديه فتنة للناس؛ فإنه يأتيه الرجل وهو يظن في نفسه الإيمان والثبات، فيتبع الدجال.

قال ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بالدَّجَالِ؛ فَلْيَنَأْ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنْ الرَّجُلَ لِيَأْتِيَهُ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشَّبَهَاتِ، أَوْ لَمَّا يُبْعَثُ بِهِ مِنَ الشَّبَهَاتِ»^(١).

خامساً: معرفة أسماء الله وصفاته:

لأنَّ الدَّجَالَ أعور... والله ﷻ ليس بأعور بل هو ﷻ جميل مُنَزَّهٌ عَنِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ... قُدُوسٌ مُنَزَّهٌ عَنِ الْعُيُوبِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿الشورى: ١١﴾.

سادساً: حرز خاص من الدَّجَالِ:

عَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا بِالْمَدِينَةِ وَقَدْ طَافَ النَّاسُ بِهِ وَهُوَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ: فَإِذَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ بَعْدِكُمُ الْكَذَّابَ الْمُضِلَّ، وَإِنَّ رَأْسَهُ مِنْ بَعْدِهِ حُبُّكَ حُبُّكَ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - وَإِنَّهُ سَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَمَنْ قَالَ: لَسْتُ رَبَّنَا، لَكِنْ رَبُّنَا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا، وَإِلَيْهِ أُنْبَأْنَا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ»^{(٢)(٣)}.



(١٨٢٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي نَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرَقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»^(٤).

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٠١).

(٢) صحيح: رواه أحمد، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٠٨).

(٣) كتاب «قصة النهاية» د. محمود المصري (ص ٥٢٩: ٥٣٢) بتصرف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٢٩٢٦) كتاب الجهاد والسير - ومسلم (٢٩٢٢) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

❖ لا بد أن نعلم أن المسلمين بعد بعثة الرسول ﷺ هم أتباع الرسول محمد ﷺ... وأما قبل ذلك فالمسلم من اتبع الشريعة القائمة... فقوم موسى ﷺ في عهد موسى مسلمون... والنصارى في عهد عيسى ﷺ مسلمون... ومن آمن من قوم نوح ﷺ مسلمون... وهكذا كل من كان مؤمناً برسولٍ رسالته قائمة فهو مسلم... لكن بعد بعثة الرسول محمد ﷺ فليس هناك مسلمٌ إلا من آمن به ﷺ... وإلا فلا يخفى عليكم أن الحواريين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وأن ملكة سبأ قالت: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وغير ذلك مما هو معروف. فاليهود هم أتباع موسى سُمُّوا بذلك نسبة إلى جدِّهم يهوذا، فهم ينتسبون إليه، لكن مع التعريب صاروا (يهود) بالبدال... وهى أمة ملعونة غدارة، خَوَّانة، مكاررة، واصفة لربها بالعيب والنقص... قالوا - أى اليهود -: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [البائدة: ٦٤]، وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالوا: (إن الله تعب حين خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت..) إلى غير ذلك مما وصفوا الله تعالى به بالنقائص والعيوب... أما مع الرسل فحدث ولا حرج.. فقد كفروا بالرسل، وقتلوهم بغير حق، وحاولوا قتل المسيح عيسى ابن مريم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ هُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. فهم أخبث أمة من الأمم، وهم قومٌ خونة أهل غدرٍ لا يوفون بعهدٍ ولا ذمة ولا يُؤتمنون على شىء^(١).

❖ ونحن نعلم أن المسلمين قاتلوا اليهود في زمن النبى ﷺ وانتصروا عليهم، وأجلوهم من جزيرة العرب... وكل ذلك كان امتثالاً لقول النبى ﷺ: «لَا أُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، حَتَّى لَا أَدْعَى إِلَّا مُسْلِمًا»^(٢)...

(١) شرح رياض الصالحين (٣٠٩ / ٤) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٧٦٧) كتاب الجهاد والسير.

ولأنهم أيضًا كانوا خائنين فاستحقوا كل ما حدث لهم.

❁ ولكن هذا القتال ليس هو القتال الذي أخبر النبي ﷺ أنه من أشراط الساعة ... وإنما أخبر النبي ﷺ أن المسلمين سيقاتلوهم عند خروج المسيح الدجال فيتبع اليهود الدجال فيقاتلهم المسلمون الذين هم في ذلك الوقت جند عيسى عليه السلام .. فينطق الله الشجر والحجر حينما يختبئ اليهودى خلفه.. فيقول الشجر والحجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى ورائى تعال فاقتله.

روى الإمام أحمد عن سَمُرَةَ بِنِ جُنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حديثًا طويلاً في خطبة النبي ﷺ يوم كُسِفَتِ الشَّمْسُ ... وفيه أنه ذكر الدَّجَالَ، فقال: «وإِنَّهُ يَحْضُرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَزْلُزُونَ زَلْزَالًا شَدِيدًا، ثُمَّ يَهْلِكُهُ اللَّهُ وَجُنُودُهُ، حَتَّى إِنَّ جِذْمَ الْحَائِطِ، أَوْ قَالَ: أَصْلَ الْحَائِطِ، وَأَصْلَ الشَّجَرَةِ، لَيَسَادِي، يَا مُؤْمِنُ، أَوْ قَالَ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ تَعَالَ فَاقْتُلْهُ»، قَالَ: «وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، وَتَسَاءَلُونَ بَيْنَكُمْ هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا»^(١).

وروى الشيخان عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ^(٢)، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»^(٣).

والذى يظهر من سياق الأحاديث أن كلام الحجر والشجر ونحوه حقيقة، وذلك لأن حدوث تكلم الجمادات ثابت في غير أحاديث قتال اليهود. وإذا كانت الجمادات تتكلم في ذلك الوقت؛ فلا داعى لحمل كلام الشجر

(١) رواه أحمد، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٦١٠).

(٢) (الغرقدة): قال النووي: «نوع من شجر الشوك، معروف ببلاد المقدس، وهناك يكون قتل الدجال واليهود». «شرح مسلم» (١٨/ ٤٥).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٢٩٢٦) كتاب الجهاد، ومسلم (٢٩٢٢) كتاب الفتن.

والحجر على المجاز؛ كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء^(١)؛ فإنه ليس هناك دليلٌ يُوجبُ حمل اللفظ على خلاف حقيقته.. ونُطق الجماد قد ورد في آيات من القرآن منها: قوله تعالى: ﴿أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وجاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: حَطَبْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكَانَ أَكْثَرُ خُطْبَتِهِ حَدِيثًا، حَدَّثَنَا عَنْ الدَّجَالِ، وَحَدَّرَنَا، فَذَكَرَ خُرُوجَهُ، ثُمَّ نَزَلَ عِيسَى عليه السلام لِقَتْلِهِ، وَفِيهِ: «قَالَ عِيسَى عليه السلام: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ، وَوَرَاءَهُ الدَّجَالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلَّى وَسَاجٍ^(٢)، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَالُ ذَابَ، كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً، لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا، فَيَدْرِكُهُ عِنْدَ بَابٍ لَدَى الشَّرْقِيِّ، فَيَقْتُلُهُ، فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لَا حَجَرَ، وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَائِطًا، وَلَا دَابَّةً، إِلَّا الْغُرْقَدَةُ، فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ، لَا تَنْطِقُ»^(٣).

فالحديث فيه التصريح بنطق الجمادات.

وأيضًا؛ فإن استثناء شجر الغرقد من الجمادات بكونها لا تخبر عن اليهود؛ لأنها من شجرهم، يدل على أنه نُطِقَ حقيقًى، ولو كان المراد بنطق الجمادات المجاز؛ لما كان لهذا الاستثناء معنى.

ولو حملنا كلام الجمادات على المجاز؛ لم يكن ذلك بالأمر الخارق في قتال اليهود في آخر الزمان، وكانت هزيمتهم أمام المسلمين كهزيمة غيرهم من الكفار الذين قاتلهم المسلمون وظهروا عليهم... ولم يرد في قتالهم مثل ما ورد

(١) انظر: «هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري» (١/ ٣١٧)، و«العقائد الإسلامية» لسيد سابق، (ص ٥٤)، واختار ابن حجر أن نطق الجمادات من شجر وحجر حقيقة.

انظر: «فتح الباري» (٦/ ٦١٠).

(٢) (الساج): هو الطيلسان الضخم الغليظ، وقيل: الطيلسان المقور.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).

في قتال اليهود من الدلالة على المختبئ^(١) بنطق الجمادات، فإذا لاحظنا أنَّ الحديث في أمرٍ مُستغَرَّب يكون آخر الزمان هو من علامات الساعة؛ دَلَّ ذلك على أنَّ النُّطق في قتال اليهود حقيقىٌّ، وليس مجازًا عن انكشافهم أمام المسلمين وعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم كما قيل... والله أعلم^(٢).

✽ أحجارٌ تنطق وأشجارٌ تنطق! لماذا؟ لأن القتال بين المسلمين وبين اليهود، أما بين العرب واليهود فالله أعلم مَنْ ينتصر؟ لأن الذى يقاتل اليهود من أجل العروبة فقد قاتل حَمِيَّة وعصبية ليس لله عَزَّوَجَلَّ ولا يمكن أن ينتصر ما دام قتاله من أجل العروبة، لا من أجل الدين والإسلام إلا أن يشاء الله... لكن إذا قاتلناهم - أى اليهود - من أجل الإسلام ونحن على الإسلام حقيقة فإننا غالبون بإذن الله.

حتى الأحجار والأشجار تتكلم لصالحنا وضد اليهود... أما ما دامت المسألة عصبية وعروبة وما أشبه ذلك فلا ضمان للنصر أبدًا... ولهذا لا يمكن أن يقوم للعرب قائمة على هذا الأساس - أى أساس العروبة - فقد صارت النكبات العظيمة من اليهود على العرب شيئًا عظيمًا. احتلوا ديارهم وحاصروهم وأذوهم، لكن لو كان القتال من أجل الإسلام وبإسم المسلمين ما قامت لليهود قائمة... لكن من جهل العرب صاروا يقاتلون اليهود من أجل العروبة... ولذلك لم يُنصروا عليهم حتى الآن... الانتصار على اليهود في الإسلام حقيقة لا غيب، ولن تقوم الساعة حتى يحصل ما أخبر به الصادق المصدوق رسول الله ﷺ... يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون وينتصرون عليهم ويظهرون عليهم، وينادى الحجر والشجر الذى ليس من عادته أن ينطق: يا مسلم هذا يهودى تعال فاقتله^(٣).

(١) انظر: «إتحاف الجماعة» (١/٣٣٧-٣٣٨).

(٢) أشرط الساعة (ص ٢٢٢-٢٢٥).

(٣) شرح رياض الصالحين (٤/٣١٠) بتصرف.

(١٨٣٠) وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِالْقَبْرِ، فَيَتَمَرَّغَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، وَلَيْسَ بِهِ الدِّينَ وَمَا بِهِ إِلَّا الْبَلَاءُ»^(١).

❖ هَا هُوَ النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُ أَنَّهُ سَيَأْتِي زَمَانٌ يَكْثُرُ فِيهِ الظُّلْمُ وَتَكْثُرُ فِيهِ الْفِتَنُ وَالْبَلَاءُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مَكَانَهُ.

وَتَمَنَّى الْمَوْتَ يَكُونُ عِنْدَ كَثْرَةِ الْفِتَنِ، وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ، وَتَبْدِيلِ رُسُومِ الشَّرِيعَةِ، وَهَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ وَقَعٌ؛ فَهُوَ وَقَعٌ لَا مُحَالَةَ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ لَوْ وَجَدَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ يُبَاعَ لِاشْتِرَائِهِ... وَكَمَا قِيلَ:

وَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ أَلَا مَوْتَ يُبَاعُ فَأُشْتَرِيهِ»^(٢)

قَالَ الْحَافِظُ الْعِرَاقِيُّ: «وَلَا يَلْزَمُ كَوْنُهُ فِي كُلِّ بَلَدٍ وَلَا كُلِّ زَمَنٍ وَلَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ بَلْ يَصْدُقُ عَلَى اتِّفَاقِهِ لِلْبَعْضِ فِي بَعْضِ الْأَقْطَارِ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ. وَفِي تَعْلِيقٍ تَمَنِّيهِ بِالْمَرُورِ وَإِشْعَارِ بِشِدَّةِ مَا نَزَلَ بِالنَّاسِ مِنْ فُسَادِ الْحَالِ حَالَتُذ... إِذِ الْمَرْءُ قَدْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْضَارٍ لِهَيْئَتِهِ... فَإِذَا شَاهَدَ الْمَوْتَى وَرَأَى الْقُبُورَ نَشَرَ بِطَبْعِهِ وَنَفَرَ بِسَجِيَّتِهِ مِنْ تَمَنِّيهِ فَلَقْوَةُ الشَّدَةِ لَمْ يَصْرِفْهُ عَنْهُ مَا شَاهَدَهُ مِنْ وَحْشَةِ الْقُبُورِ... وَلَا يَنَاقِضُ هَذَا النِّهْيَ عَنْ تَمَنِّيِ الْمَوْتَ لِأَنَّهُ مُقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ الْإِخْبَارِ عَمَّا يَكُونُ وَلَيْسَ فِيهِ تَعَرُّضٌ لِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ»^{(٣)(٤)}.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُعَارِضٌ لِلنِّهْيِ عَنْ تَمَنِّيِ الْمَوْتِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا فِي هَذَا أَنَّ هَذَا الْقَدَرَ سَيَكُونُ لِشِدَّةِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧١١٥) كتاب الفتن - ومسلم (٥٣)(١٥٧) كتاب الفتن وأشراف الساعة.

(٢) «فيض القدير» (٤١٨/٦).

(٣) «فيض القدير» (٤١٨/٦)، وانظر: «فتح الباري» (١٣/٧٥-٧٦).

(٤) أشراف الساعة (ص ٢٠٨-٢٠٩).

تَنْزِلُ بِالنَّاسِ مِنْ فَسَادِ الْحَالِ فِي الدِّينِ أَوْ ضَعْفِهِ أَوْ خَوْفِ ذَهَابِهِ لَا لِضَرَرٍ يَنْزِلُ فِي الْجِسْمِ»^(١).

ويكره للمؤمن أن يتمنى الموت عندما يشتد عليه البلاء إلا أن يخشى الفتنة في دينه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت إما مُحْسِنًا، فلعله يزداد، وإما مُسِيئًا فلعله يستعْتَبُ»^(٢).

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنين أحدكم الموت، ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات انقطع عمله، وإنه لا يزدُ المؤمنُ عُمرَهُ إلا خيراً»^{(٣)(٤)}.

بَيَانُ مَعْنَى هَذِهِ الرَّوَايَةِ

(١٨٣١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتَّى يحسِرَ الفُراتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يُقْتَلُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فيقولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَنْ أَكُونَ أَنَا أَنْجُو».

وفي رواية: «يوشكُ أَنْ يحسِرَ الفُراتُ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا»^(٥).

ومن علامات الساعة الصغرى أن ينحسر نهر الفرات عن جبل من ذهب. ونهر الفرات نهرٌ معروف وهو كثير الماء... والنبى ﷺ يخبر أن ذلك النهر سوف يحسر عن جبل من الذهب.

(١) «فتح الباري» (١٣/١٩٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٢٣٥) كتاب التمنى.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

(٤) قصة النهاية / د. محمود المصرى (ص ٢٦٦-٢٦٧).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٧١١٩) كتاب الفتن، ومسلم (٢٨٩٤) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

ولعل هذا يكون بسبب أن النهر سيتغير مجراه وسيكون ذلك سبباً في كشف ذلك الجبل الذي هو من الذهب.

✽ وروى مسلم هذا الحديث عن أبي بن كعب بلفظ: «يُوشِكُ الفرات أن يَحْسِرَ عن جبلٍ من ذهب فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه لَيُذْهِبَنَّ به كُلهُ، قال: فيقتلون عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون»^(١).

ومعنى انحساره: انكشافه لذهاب مائة، كما يقول النووي^(٢)، وقد يكون ذلك بسبب تحوُّل مجراه، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير معروف، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب ومَرَّ قريباً من هذا الجبل كشفه، والله أعلم بالصواب^(٣).

✽ واليوم تقيم تركيا وسوريا سدوداً على نهر الفرات، وتقيم عنده المصانع، مما أدى إلى قلة جريان الماء فيه، فقد يكون هذا مقدمات لظهور ذلك الجبل.

وليس المقصود بهذا الجبل من ذهب (النفط / البترول الأسود)؛ كما يرى ذلك أبو عبيدة في تعليقه على «النهاية في الفتن والملاحم» لابن كثير^(٤)، وذلك من وجوه:

(١) أَنَّ النَّصَّ جاء فيه: «جبل من ذهب»، والبترول ليس بذهب على الحقيقة؛ فَإِنَّ الذَّهَبَ هو المعدن المعروف.

(٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أخبر أن ماء النهر ينحسر عن جبل من ذهب، فيراه الناس، والنفط أو (البترول) يُستخرج من باطن الأرض بالآلات من مسافات بعيدة.

(٣) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَصَّ الْفُرَاتَ بهذا دون غيره من البحار والأنهار... والنفط

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٥) كتاب الفتن.

(٢) شرح النووي على مسلم: (٩/١٨).

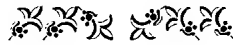
(٣) القيامة الصغرى (ص ٢٠٦/٢٠٧).

(٤) «النهاية في الفتن والملاحم» (١/٢٠٨)، تحقيق محمد فهمي أبو عبيدة.

نراه يُستخرج من البحار كما يُستخرج من الأرض، وفي أماكن كثيرة متعدّدة.

(٤) إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ النَّاسَ سَيَقْتُلُونَ عِنْدَ هَذَا الْكَنْزِ، وَلَمْ يَحْصُلْ أَنَّهُمْ اقْتَلَوْا عِنْدَ خُرُوجِ النِّفْطِ مِنَ الْفَرَاتِ أَوْ غَيْرِهِ، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى مَنْ حَضَرَ هَذَا الْكَنْزَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا؛ كَمَا فِي الرَّوَايَةِ الْآخَرَى عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا يَزَالُ النَّاسُ مُخْتَلِفَةً أَعْنَاقُهُمْ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا... إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُوشِكُ الْفَرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا»^(١)، وَمَنْ حَمَلَهُ عَلَى النِّفْطِ؛ فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ عَلَى قَوْلِهِ هَذَا النَّهْيُ عَنِ الْآخْذِ مِنَ النِّفْطِ... وَلَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ^(٢).

وَقَدْ رَجَّحَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّ سَبَبَ الْمَنْعِ مِنَ الْآخْذِ مِنْ هَذَا الذَّهَبِ لَمَّا يَنْشَأُ عَنْ آخْذِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ وَالْقِتَالِ عَلَيْهِ^(٣).



(١٨٣٢) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يَتْرُكُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ، لَا يَغْشَاهَا إِلَّا الْعَوَافِي - يَرِيدُ: عَوَافِي السَّبَاعِ وَالطَّيْرِ - وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنَ مُزَيْنَةَ يُرِيدَانِ الْمَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بَغْنَمَهُمَا فَيَجِدَانَهَا وَحُوشًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَا عَلَى وَجْهِهِمَا»^(٤).

❁ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى سُكْنَى الْمَدِينَةِ، وَرَغَّبَ فِي ذَلِكَ... وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهَا رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.

❁ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٤) كتاب الفتن .

(٢) انظر: «إتحاف الجماعة» (١/ ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٣) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٨١).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٨٧٤) كتاب الحج - ومسلم (١٣٨٩) كتاب الحج.

وَشِدَّتْهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ شَهِيدًا»^(١).

✽ وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ نَفْيَ الْمَدِينَةِ لِحَبْثِهَا، وَهَمَّ شَرَارُ النَّاسِ؛ كَمَا يَنْفَى الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ.

وَقَدْ حَمَلَ الْقَاضِي عِيَاضُ نَفْيَ الْمَدِينَةِ لِحَبْثِهَا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ... لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَصْبِرُ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْمُقَامِ فِي الْمَدِينَةِ إِلَّا مَنْ كَانَ ثَابِتَ الْإِيمَانِ، وَأَمَّا الْمَنَافِقُونَ وَجَهْلَةُ الْأَعْرَابِ؛ فَلَا يَصْبِرُونَ عَلَى شِدَّةِ الْمَدِينَةِ وَلَأَوَائِهَا، وَلَا يَحْتَسِبُونَ مِنَ الْأَجْرِ فِي ذَلِكَ.

وَحَمَلَهُ النَّوَوِيُّ عَلَى زَمَنِ الدَّجَالِ، وَاسْتَبْعَدَ مَا اخْتَارَهُ الْقَاضِي عِيَاضُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي أَزْمَانٍ مُتَفَرِّقَةٍ^(٢).

✽ وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ كُلًّا مِنَ الزَّمَنِينَ. وَأَمَّا خُرُوجُ النَّاسِ بِالْكَلْبَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ؛ فَذَلِكَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، قَرَبَ قِيَامِ السَّاعَةِ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجْرٍ: «رَوَى عُمَرُ بْنُ شُبَّةٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَوْفِ ابْنِ مَالِكٍ؛ قَالَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَيَدْعُنَّهَا أَهْلُهَا مُذَلَّلَةً أَرْبَعِينَ عَامًا لِلْعَوَافِي... أَتَدْرُونَ مَا الْعَوَافِي؟ الطَّيْرُ وَالسَّبَاعُ».

ثُمَّ قَالَ ابْنُ حَجْرٍ: «وَهَذَا لَمْ يَقَعْ قَطْعًا»^(٣).

فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ خُرُوجَ النَّاسِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِالْكَلْبَةِ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، بَعْدَ خُرُوجِ الدَّجَالِ، وَنَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ... وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عِنْدَ خُرُوجِ النَّارِ الَّتِي تَحْشُرُ النَّاسَ، وَهِيَ آخِرُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَأَوَّلُ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَلَيْسَ بَعْدَهَا إِلَّا السَّاعَةُ.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٧٨) كتاب الحج.

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥٤/٩).

(٣) «فتح الباري» (٩٠/٤).

ويؤيد ذلك كون آخر من يُحشَر يكون منها؛ ... كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وآخر من يُحشَر راعيان من مُزينة، يُريدان المدينة، يتعقان بغنمهما فيجدانها وحشاً» ^(١) أى: خالية من الناس، أو أن الوحوش قد سكنتها، والله أعلم ^(٢).
 قال الإمام النووي رحمته الله: وأما معنى الحديث فالظاهر المختار أن هذا الترك للمدينة يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة وتوضحه قصة الراعيين من مُزينة فإنهما يخران على وجوههما حين تدرِكهما الساعة وهما آخر من يُحشَر ^(٣).
 بِحَسْبِ بَاطِلٍ لِّمُؤْمِنِي أَهْلِ الْبَيْتِ

(١٨٣٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يكون خليفة من خلفائكم في آخر الزمان يحثو المال ولا يعُدُّه» ^(٤).

✽ اختلف أهل العلم في من يكون هذا الخليفة الذي يحثو المال ولا يعُدُّه... أى: أنه يفعل هذا بالمال لكثرة الأموال والغنائم والفتوحات من سخاء نفسه وكرمه الزائد.

فذهب بعض أهل العلم أنه ربما يكون هذا الخليفة هو عمر بن عبد العزيز رحمته الله الذي كثر المال في عهده حتى اغتنى المسلمون في عهده.. وكان يطعم الطيور في الصحراء ويتصدق على فقراء أهل الكتاب..

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المقصود بهذا الخليفة أنه المهدي رضي الله عنه الذي هو من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من نسل الحسن ابن فاطمة رضي الله عنها.. والذي سيملا الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ففى عهد المهدي تكثر الخيرات وتعم البركات وتنعم الأمة في عهده نعمة

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٨٧٤) كتاب الحج - ومسلم (١٣٨٩) كتاب الحج.

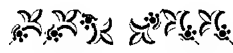
(٢) أشرط الساعة (ص ٢٢٥-٢٢٩) بتصرف.

(٣) مسلم بشرح النووي (٩/٢٢٧).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٩١٣) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

لم تنعمها قط.. فتُخرج الأرض خيراتها وتُنزل السماء بركاتها، ويكثر المال ويفيض ويسعد الناس سعادة لا يعلم قدرها إلا الله (جل وعلا).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»^(١).
عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يُخْرَجُ فِي آخِرِ أُمْتِي الْمَهْدِيُّ؛ يَسْقِيهِ اللهُ الْغَيْثَ، وَتُخْرَجُ الْأَرْضُ نَبَاتَهَا، وَيُعْطَى الْمَالُ صَحَاحًا، وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ، وَتَعْظُمُ الْأُمَّةُ، يَعِيشُ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا (يَعْنِي: حَجَبًا)»^(٢).



(١٨٣٤) وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ، وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يُلْذَنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ»^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أنه سيأتي زمان يكثر فيه المال وتكثر فيه الكنوز حتى يطوف الرجل بصدقته من الذهب ويعرضها على الناس فلا يقبلها أحد... ويكثر عدد النساء ويقل عدد الرجال حتى يصبح الرجل مسئولاً عن أربعين امرأة وفي رواية أخرى أنهم خمسون امرأة.. يصبح الرجل الواحد مسئولاً عن القيام بحوائجهن.

وأظن - والله أعلم - أن هذا سيحدث عند نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان.. فإن المال سيكثر في عهده ولن يقبله أحد لأنهم يعلمون أن الساعة قد اقتربت فيزهدون في الدنيا ويقبلون على العبادة.. والدليل على ذلك قول النبي

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣١).

(٢) «مستدرک الحاكم» (٤/ ٥٥٧، ٥٥٨)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي. وقال الألباني: «هذا سند صحيح، رجاله ثقات»، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٧١١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤١٤) كتاب الزكاة - ومسلم (١٠١٢) كتاب الزكاة.

عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، وَإِمَامًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْحِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»^(١).

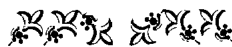
فتصبح السجدة الواحدة في هذا الزمان خيرًا من كنوز الدنيا وما فيها.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَسَبَبُ عَدَمِ قَبُولِهِمُ الصَّدَقَةَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ لِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَظُهُورِ كُنُوزِ الْأَرْضِ وَوَضْعِ الْبَرَكَاتِ فِيهَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ بَعْدَ هَلَاكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَلَّةِ أَمْوَالِهِمْ وَقُرْبِ السَّاعَةِ وَعَدَمِ ادِّخَارِهِمُ الْمَالِ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَطُوفُ الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ مِنَ الذَّهَبِ» إِنَّمَا هَذَا يَتَضَمَّنُ التَّنْبِيهَ عَلَى مَا سِوَاهُ .. لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الذَّهَبُ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ فَكَيْفَ الظَّنُّ بغيرِهِ...

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَطُوفُ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَتَرَدَّدُ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا فَتَحْصُلُ الْمُبَالَغَةُ وَالتَّنْبِيهُ عَلَى عَدَمِ قَبُولِ الصَّدَقَةِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: كَوْنُهُ يُعْرِضُهَا وَيَطُوفُ بِهَا وَهِيَ ذَهَبٌ.

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ تَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلْذُنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ» مَعْنَى (يَلْذُنُ بِهِ) أَيْ يَنْتَمِينُ إِلَيْهِ لِيَقُومَ بِحَوَائِجِهِنَّ وَيَذُبَّ عَنْهُنَّ كَقَبِيلَةٍ بَقِيَ مِنْ رِجَالِهَا وَاحِدٌ فَقَطْ وَبَقِيَتْ نِسَاؤُهَا فَيَلْذُنُ بِذَلِكَ الرَّجُلِ لِيَذُبَّ عَنْهُنَّ وَيَقُومَ بِحَوَائِجِهِنَّ وَلَا يَطْمَعُ فِيهِنَّ أَحَدٌ بِسَبَبِهِ ... وَأَمَّا سَبَبُ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ فَهُوَ الْحُرُوبُ وَالْقِتَالُ الَّذِي يَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَتَرَائِكُمُ الْمَلَاحِمِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ» أَيْ: الْقَتْلُ^(٢).



(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢٢٢) كتاب البيوع، ومسلم (١٥٥) كتاب الإيمان.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٣٤-١٣٥).

(١٨٣٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اشترى رجل من رجل عقاراً، فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أشتِ الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعثت الأرض وما فيها، فتحاكما إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لى غلام. وقال الآخر: لى جارية، قال: أنكِحَا الغلامَ الجارية، وأنفقَا على أنفسكما منه وتصدقَا» ^(١).

✽ في التاريخ الإنساني نماذج راقية، يتدافع أصحابها المال، ولا يحرصون عليه، خشية أن يكون حراماً.. وفي هذه القصة خبر رجلين تدافعا جرة فيها ذهب كل واحد منهما يزعم أنها لصاحبه دونه، وقد قضى الذي حكّماه بينهما بحكم لطيف إذ أشار عليهما بتزويج ولد أحدهما بابنة الآخر، والإنفاق عليهما من ذلك المال.

✽ أخبرنا رسولنا ﷺ في هذا الحديث عن رجلين اشترى أحدهما من الآخر أرضاً، فوجد فيها جرة فيها ذهب، فكان حالهما عجباً... فالمعهود بين الناس أن يختصم مثل هذين للحصول على الذهب، فيطالب كل واحد منهما به ليحوزه دون الآخر، مُدَّعياً أنه صاحبه... هذا لأنه اشترى الأرض بما فيها، والآخر لأنه باعه الأرض، ولم يبعه الذهب.

إن حب الأموال من الذهب والفضة وغيرهما مغروسٌ في أعماق النفوس البشرية ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقد حمل حب المال الناس على التحاسد والتباغض والتدابُر، وحملهم على استحلال الحرّات، وسفك الدماء، والتخاصم لأكل أموال الناس بالباطل.

وقد أعلمنا ربنا أن هذا الداء وهو أكل المال بالباطل وصل إلى الذين

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٧٢) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (١٧٢١) كتاب الأقضية.

يَحْمِلُونَ وَحْيَهُ، وَيَقُومُونَ عَلَى شَرْعِهِ ﴿٣٤﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ... ﴿٣٥﴾ [التوبة: ٣٤].

ولا شك أن هذين الرجلين ورعين صالحين، والإيمان القوى والتقى
والصلاح يكون غالباً وراء الزهد في المال، وبخاصة إذا كان المال حراماً، أو
غير متأكد صاحبه من أن المال له.... فالأتقياء الصالحون يعلمون أن المال
الحرام يهلك الحلال، ويجلب غضب الرب وانتقامه، وقد يكون سبباً في دخول
صاحبه النار... أضف إلى هذا أن الذين سُلبت أموالهم يأخذون من حسنات
السالب بمقدار ما أخذ من أموالهم... ولذا فإن الأتقياء الصالحين يبذلون كل جهدٍ
ممكناً كيلا يأكلوا مالا حراماً، كما يحرصون على دفع الأموال إلى أصحابها،
وهذا الصنف كثير في هذه الأمة، وخاصة في أوائلها، فقد كان المجاهدون يأتون
بالأموال العظيمة، ويدفعونها إلى أمير الجيش، ولا يأخذون منها شيئاً.

وكما كانت قصة هذين الرجلين عجباً، فإن قضاء القاضى الذى حكم
بينهما كان أعجب وأغرب... فقد سألهما عمّا عندهما من الذرية؟ فقال
أحدهما: عندى غلام، وقال الثانى: عندى جارية، فأشار عليهما أن يُزوجا
الغلام الجارية، ويُنفقا عليهما من المال الذى عثرا عليه... لقد ربط هذا القاضى
بمشورته بين هاتين الأسرتين برباط المصاهرة... فالمصاهرة بين الأخيار تُقوى
رباط الإيمان، وتُمتن العلاقة بين الصالحين... والزوجان الصالحان يُكونان
أسرة صالحة، ويُرجى أن يُنجبا ذرية صالحة.

عبر الحديث وفوائده

(١) مشروعية البيع والشراء عند الأمم السابقة وفي الشرائع السابقة، خلافاً
لمن يزعم أن الملكية كانت معدومة عند البشر قديماً.

(٢) وجود الصالحين الأتقياء الذين يحرصون على الحلال، ويجتنبون الحرام في كل العصور.

(٣) مشروعية التحاكم إلى مَنْ يُظَنُّ فيه القدرة على الحكم من أهل العلم، وأصحاب الرأي.

(٤) الصناعات موجودة منذ القَدَم، بدلالة وجود هذه الجِرة، ووجود الذهب فيها.

(٥) إذا وجد الإنسان مالاً مدفوناً يمكن معرفة أصحابه، بأن يكون مدفوناً من عهدٍ ليس بالبعيد، فحاله حال اللُّقطة يجب البحث عن أصحابه، ودفع المال لهم... فإن كان العهد بعيداً، ولا يُعرف أصحابه بحال، فهو كنز يملكه مَنْ عثر عليه بعد أن يُخرج منه الخمس^(١).

(٦) أما حكم هذه المسألة فقال العلماء رحمهم الله: إن الإنسان إذا باع أرضاً على شخص ووجد المشتري فيها شيئاً مدفوناً فيها من ذهبٍ أو غيره فإنه لا يملكه بملك الأرض ولكنه للبائع... وإذا كان البائع اشتراها من آخر فهي للأول؛ لأن هذا المدفون ليس من الأرض بخلاف المعادن: لو اشترى أرضاً ووجد فيها معدناً من ذهب أو فضة أو حديد أو غيره فإنه يتبع الأرض... فهذا من المُلح.



(١٨٣٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذُّبُّ فَذَهَبَ بَابِنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لَصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنُكَ، وَقَالَتِ الْآخَرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بَابِنُكَ، فَتَحَاكَمَا إِلَى دَاوُدَ ﷺ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ﷺ، فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: أَتُتُونِي بِالسَّكِينِ أَشَقُّهُ بَيْنَهُمَا. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ، رَحِمَكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا.. فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى»^(٢).

(١) صحيح القصص النبوي/ د. عمر الأشقر (ص ٢٦٨-٢٧٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤٢٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٢٠) كتاب الأفضية.

❁ هذه القصة تظهر عبقرية نبي الله سليمان في إظهار الحق في خصومة خلّت من الدلائل التي تدل على صاحب الحق... فقد أظهر أنه يريد قتل الطفل الذي تنازعت فيه امرأتان كُلُّ واحدة تدّعى أنها أمه، فظهرت الأم الحقيقية التي جادت به للأخرى حتى لا يُقتل حفاظًا على حياته، بينما قبلت الأخرى شقّه نصفين.

❁ وقعت هذه القصة في عهد نبي الله داود عليه السلام، فقد تحاكت إليه امرأتان... ذهب الذئب بولد إحداهما، فتنازعتا في الولد الآخر، وكل واحدة تدّعى أنه ولدها، فاجتهد نبي الله داود في الحكم بينهما، فأدّاه اجتهداه بالحكم به للكبرى بدلائل استدل بها على ذلك.

فلما خرجتا مرّتين على نبي الله سليمان رأى أن يستخدم معهما طريقة يستطيع من خلالها أن يعرف الأم الحقيقية، فطلب ممن حوله أن يأتوه بسكين ليشق الغلام بينهما نصفين، فيعطى كل واحدة منهما نصفًا، وبذا يعدل بينهما في الحكم، وقد ظنت المرأتان أن سليمان عليه السلام جادّ وعازم على تحقيق هذا الحكم، وهنا ظهر ردُّ فعل كل واحدة منهما... فالأم الحقيقية، وهى الصغرى جزعت من الحكم، لأن فيه هلاك ولدها، فطابت نفسها به للأخرى، لأن في ذلك بقاءه وحياته، وإن كان فيه حرمانها من رعايته وتربيته... أما الأخرى التي لا تربطها بالطفل رابطة الأمومة، فإنها قبلت بالحكم الذى أظهره سليمان... فاستدل سليمان بذلك على الأم الحقيقية، فحكم لها بالطفل، على الرغم من إقرارها به للأخرى.

❁ قال النووي رحمته الله: تَوَصَّلَ سُلَيْمَانُ بِطَرِيقٍ مِنَ الْحِيلَةِ وَالْمَلَأْطَفَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ بَاطِنِ الْقَضِيَّةِ فَأَوْهَمَهُمَا أَنَّهُ يُرِيدُ قَطْعَهُ لِيَعْرِفَ مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهَا قَطْعَهُ فَتَكُونُ هِيَ أُمُّهُ ... فَلَمَّا أَرَادَتْ الْكُبْرَى قَطْعَهُ عَرَفَ أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمُّهُ ... فَلَمَّا قَالَتْ الصَّغْرَى مَا قَالَتْ عَرَفَ أَنَّهَا أُمُّهُ وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُهُ أَنْ يَقْطَعَهُ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا أَرَادَ اخْتِبَارَ شَفَقَتِهِمَا لِتَتَمَيَّزَ لَهُ الْأُمُّ ... فَلَمَّا تَمَيَّزَتْ بِمَا ذَكَرْتَ عَرَفَهَا^(١).

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/٣٨١).

وهذا الذى أظهر به سليمان الحق، هو نوع من الفراسة والحكم بالقرائن، والاستدلال بالأمارات، وعدم الوقوف مع مجرد ظواهر البينات والأحوال، وقد استدلل الشاهد الذى شهد من أهل المرأة التى راودت نبي الله يوسف عليه السلام عن نفسه على كذبها، وصدق يوسف بأن قميصه قد من دُبر، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ فَلَمَّارًا قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَذِبِكُنَّ إِن كَذِبُكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٦-٢٨].

وقد لجأ القضاة المسلمون إلى استخراج الحق بأنواع لطيفة من الدلائل والأمارات التى لا ينتبه إليها إلا من عظمَ فطنته، وتبينت نباهته... وممن اشتهر بذلك من القضاة على بن أبى طالب رضي الله عنه، والقاضى شريح، والقاضى إياس. وقد ذكر الإمام ابن القيم فى كتابه (الطرق الحُكمية فى السياسة الشرعية) أمثلة كثيرة لهذا النوع استخرج فيه القضاة الحق بالفراسة والأمارات ^{(١)(٢)}.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٣٧) وعن مرداس الأسلمى رضي الله عنه قال: قال النبی ﷺ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، وَيَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ لَا يَبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً» ^(٣). ففى هذا الحديث يخبر النبی ﷺ أنه يذهب الصالحون الأول فالأول، ثم يبقى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوْ التَّمْرِ لَا يَبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً... يعنى لا يبالى بهم ولا يرحمهم ولا يُنزل عليهم الرحمة، فالصالحون يذهبون الأول... وهذا الحديث يشبه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه حين جاء الناس إليه يشكونه

(١) راجع الطرق الحكمية (ص ٢٧) وإغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٦٦).

(٢) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ١٥٠-١٥١).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٤٣٤) كتاب الرقاق.

الحُثَالَةُ: هم سَقَطُ النَّاسِ .. وأصلها ما يتساقط من قشور التمر والشعير.

ما وجدوا من الحجاج بن يوسف الثقفي فأخبرهم أن النبي ﷺ قال: «لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده شرُّ منه حتى تلقوا ربكم» فهذا الحديث يشبه الحديث الذي أشرنا إليه، ولذلك تجد الناس يتردّون كل عام عن العام الذي قبله... يذهب الصالحون الأول فالأول... فيما سبق تجد الناس يتهجّدون في الليل، ويصومون في النهار، ويتصدقون من أقواتهم، ويؤثرون على أنفسهم...

اليوم تجد بعض الناس تغيروا من سنة إلى أخرى إلى أخرى من قبل... سهر في الليل على غير طاعة الله، ونوم في النهار أو لهو أو بيع وشراء يشتمل على الغش والكذب والخيانة - والعياذ بالله - لكن مع ذلك ففي الناس خير لا شك - يوجد أناس - والله الحمد - على دين الله مستقيمين^(١).

✽ لقد أخبر النبي ﷺ أن من أشرط الساعة: ذهاب الصالحين وقلة الأخيار وكثرة الأشرار حتى لا يبقى على الأرض إلا شرار الناس.. وهم الذين تقوم عليهم الساعة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»^(٢).

✽ ويكون ذلك عندما يرسل الله ﷻ ريحاً عظيمة تقبض أرواح المؤمنين قبل قيام الساعة فلا يبقى على الأرض إلا شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة. وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته»^(٣) من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة^(٤)، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً»^(٥).

(١) شرح رياض الصالحين (٤/٣١٣) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٦٧) كتاب الفتن، ومسلم (٢٩٤٩) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

(٣) شريطته: أي: أهل الخير والدين والصلاح.

(٤) عجاجة: العجاج: هم الغوغاء والأراذل ومن لا خير فيه.

(٥) أخرجه أحمد (٢/٢١٠)، قال الهيثمي (٨/١٣): رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً ورجالهما رجال

أى: يأخذ الله أهل الخير والدين، ويبقى غوغاء الناس وأراذلهم ومن لا خير فيهم... وهذا عند قبض العلم واتخاذ الناس رؤوساً جهَّالاً يُفتون بغير علم. وذهاب الصالحين يكون عند كثرة المعاصي، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... فَإِنَّ الصَّالِحِينَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ وَكَثُرَ الْفُسَادُ؛ عَمَّهُمُ الْعَذَابُ مَعَ غَيْرِهِمْ إِذَا نَزَلَ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ لِمَا قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُ لَكُمْ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ». ولا ينكر عاقل أن المعاصي قد كثرت وأن الخبث قد كثر في البر والبحر والجو... مبارزة لله (جل وعلا) بالمعاصي في كُلِّ مكان (ولا حول ولا قوة إلا بالله).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٣٨) وعن رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعِ الزَّرْقِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا تَعْدُونَ أَهْلَ بَدْرٍ فَيْكُمْ؟ قَالَ: «مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ» أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: «وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ»^(١).

✽ إن غزوة بدر كانت أول لقاء وأول معركة كانت بين المسلمين والمشركين.. وعلى الرغم من أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا قد خرجوا للجهاد وإنما خرجوا للحصول على العير إلا أن الله ﷻ أراد أن يتحول الموقف إلى مواجهة بين معسكر التوحيد ومعسكر الشرك.. ومع أن عدد المسلمين كان ثلث عدد المشركين إلا أن النصر كان حليفاً للنبي ﷺ وأصحابه. وكان لأهل بدر مكانة عظيمة عند الله ﷻ.

قال ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غُفِرْتُ لَكُمْ»^(٢)...

^١ الصحيح . والحاكم (٤/ ٤٨١) وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٩٩٢) كتاب المغازی.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٠٠٧) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (٢٤٩٤) كتاب فضائل الصحابة.

وفي تلك الغزوة أنزل الله ﷻ خيار الملائكة ليقاتلوا مع النبي ﷺ وأصحابه.

ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ في يوم بدر خفق خفقة ثم انتبه فقال: «أبشروا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياه الغبار».

وعن محمد بن جبير بن مطعم أنه سمع علياً يقول: هبت ريح شديدة لم أر مثلاً لها، ثم هبت ريح شديدة، وأظنه ذكر ثالثة، فكانت الأولى جبريل، والثانية ميكائيل، والثالثة إسرافيل، وكان ميكائيل عن يمين النبي ﷺ وفيها أبو بكر، وإسرافيل عن يساره وأنا فيها... ومن طريق أبي صالح عن علي قال: «قيل لي ولأبي بكر يوم بدر: مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف ويشهد القتال».

قال الشيخ تقي الدين السبكي: سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده... والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٨٣٩) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزل الله تعالى بقوم

عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم»^(٢).

✽ «إذا أنزل الله تعالى بقوم» أي بعث عليهم «عذاباً» من خسف أو نار أو نحو ذلك «أصاب العذاب من كان فيهم» تبعاً لهم... قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، «ثم بعثوا على أعمالهم»

(١) فتح الباري (٧/ ٣٦٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٧١٠٨) كتاب الفتن، ومسلم (٢٨٧٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

فالمؤمن من أهل الجنة والكافر من أهل النار... والحاصل أن العذاب إذا نزل يُعْم ويصيب القوم أجمع: البر والفاجر، ويُعْثُونَ على حسب مراتبهم. ^١
وتقدّم أول الكتاب في باب النية حديث الصحيحين من حديث عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُعْثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» ^{(١)(٢)}.

ولذلك يجب الحذر من أن يكون الإنسان من الحثالة التي كحثة الشعير أو التمر، وأن يحرص على أن يستقيم على أمر الله حتى لو كان الناس قد هلكوا فإنهم - إن أصيبوا بالعذاب فإنه يُبعث كل إنسان على نيته.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤٠) وعن جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ جِدْعٌ يَقُومُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ - يَعْنِي فِي الْخُطْبَةِ - فَلَمَّا وُضِعَ الْمِنْبَرُ، سَمِعْنَا لِلْجِدْعِ مِثْلَ صَوْتِ الْعِشَارِ حَتَّى نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَسَكَنَ .

وفي رواية: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عَنْهَا حَتَّى كَادَتْ أَنْ تَنْشَقَّ.

وفي رواية: فَصَاحَتْ صَبَاحُ الصَّبِيِّ. فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَتْ تَبْنُ أَنْيْنَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ، قَالَ: «بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ» ^(٣).

❁ في هذا الحديث آية من آيات الله ﷻ، وآية لرسوله ﷺ... واعلم أن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ لأنه لو أرسل

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢١١٨) كتاب البيوع - ومسلم (٢٨٨٤) كتاب الفتن وأشراف الساعة.

(٢) دليل الفالحين (٤/٥٥٥).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٢٠٩٥) كتاب البيوع، (٣٥٨٥) كتاب المناقب.

رسولاً بدون آية تدل على أنه رسول الله ما صدقه أحد ولكان للناس عُذر في ردّ قوله، ولكن الله تعالى بحكمته ورحمته ما أرسل رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر... الآيات يعنى العلامات التى تدل على صدقه.

وآيات النبى ﷺ كثيرة... ومَنْ أراد الاستزادة منها فعليه بكتابى (معجزات الأنبياء وكرامات الصحابة) ففيه الكثير والكثير من معجزات النبى ﷺ وسائر الأنبياء (صلوات ربى وسلامه عليهم).

❦ وهذا الحديث الذى بين أيدينا يحكى قصة حنين الجذع للنبى ﷺ فإنه بعدما تم بناء مسجد النبى ﷺ أراد النبى ﷺ أن يخطب خطبة الجمعة، فقام بعض الصحابة بقطع جزء من شجرة كانت أمام المسجد وجعلوه منبراً للنبى ﷺ... فكان النبى ﷺ يخطب كل يوم جمعة على ذلك الجذع من الشجرة.

وفى يوم من الأيام جاءت امرأة من الأنصار وقالت له: يا رسول الله ألا نصنع لك منبراً لتخطب عليه فى يوم الجمعة؟ فقال النبى ﷺ: «إن شئتم».

فصنعوا للنبى ﷺ منبراً ليخطب عليه.

فلما كان يوم الجمعة صعد النبى ﷺ على المنبر ليخطب خطبة الجمعة فحدثت مفاجأة لا تخطر على قلب بشر!!
يا ترى ما هى هذه المفاجأة؟

لقد صاح الجذع الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه كصياح الصبى الصغير.. ويقال: إنه خار كخوار الثور حزناً لفراق النبى ﷺ له ولفراق الذكر الذى كان يسمعه.. فارتجّ المسجد بالبكاء وأخذ الصحابة يتعجبون ويبكون.

فما كان من النبى ﷺ إلا أنه نزل من على المنبر واحتضن الجذع وضمّه إلى صدره حتى سكت.

ويُخبر النبي ﷺ أصحابه أنه لو لم يحتضن الجذع لظل يحن ويبكى إلى يوم القيامة.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابه أن يدفنوا ذلك الجذع فدفنوه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤١) وعن أبي ثعلبة الحُصَيْنِي جَرْنُومِ بْنِ نَاشِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»^(١).

❖ وللأمانة العلمية ... فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤٢) وعن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَ غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الْجَرَادَ... وفي رواية: نَأْكُلُ مَعَهُ الْجَرَادَ^(٢).

❖ ففي هذا الحديث يحكى عبد الله بن أبي أوفى ويقول: غزونا مع النبي ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد معه... الجراد معروف وهو من الحلال، يأكله الإنسان حيًّا وميتًا... قال النبي ﷺ: «أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ: فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ»^(٣) ولهذا لا يحتاج إلى تزكية وهو صيد... فإن كان في مكة حُرْم على الإنسان أن يصيده وأن يُطيره من مكانه، ويجب على مَنْ رأى مَنْ يصيده بالحرم أن يزجره ويمنعه؛ لأنه صيدٌ مُحْرَم لا يجوز صيده في مكة ولا أن تُطيره وغيره من الطيور.

❖ قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

فِيهِ إِبَاحَةُ الْجَرَادِ .. وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِبَاحَتِهِ ثُمَّ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ وَالْجَمَاهِيرُ: يَحِلُّ سِوَاءُ مَا تَبَذَّكَ أَوْ بِاصْطِيَادِ مُسْلِمٍ أَوْ مَجُوسِيٍّ

(١) ضعيف: رواه الحاكم، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٥٩٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٤٩٥) كتاب الذبائح والصيد، ومسلم (١٩٥٢) كتاب الصيد والذبائح.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، والبيهقي، والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٠).

أَوْ مَاتَ خَتَفَ أَنفِهِ .. سَوَاءٌ قُطِعَ بَعْضُهُ أَوْ أُحْدِثَ فِيهِ سَبَبٌ^(١).
 بِمَنْ يَكُونُ سَبَبًا

(١٨٤٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ»^(٢).

✽ المؤمن لا بد أن يكون فطنًا وأن يحترز من أن يخدعه أحد .. كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لست بالخَبِّ ولا الخِبُّ يخدعني ... وإذا خُدع المؤمن مرة - وهذا أمرٌ وارد - فينبغي أن يحرص كل الحرص ألا يُخدع مرة أخرى .. وخصوصًا إذا كان بنفس السبب أو من نفس الشخص الذي خدعه.

قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ الْقَاضِي: يُرَوَى عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: بِضَمِّ الْغَيْنِ عَلَى الْخَبْرِ ... وَمَعْنَاهُ الْمُؤْمِنُ الْمَمْدُوحُ، وَهُوَ الْكَيِّسُ الْحَازِمُ الَّذِي لَا يُسْتَغْفَلُ فَيُخَدَعُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَلَا يَفْطِنُ لِذَلِكَ ... وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ الْخِدَاعَ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ دُونَ الدُّنْيَا وَالْوَجْهُ الثَّانِي: بِكَسْرِ الْغَيْنِ عَلَى النَّهْيِ أَنْ يُؤْتَى مِنْ جِهَةِ الْغَفْلَةِ ... قَالَ: وَسَبَبُ الْحَدِيثِ مَعْرُوفٌ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَأَ أَبَا عَزَةَ الشَّاعِرِ يَوْمَ بَدْرٍ فَمَنَّ عَلَيْهِ وَعَاهَدَهُ أَنْ لَا يُحْرَضَ عَلَيْهِ وَلَا يَهْجُوهُ وَأَطْلَقَهُ فَلَحِقَ بِقَوْمِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى التَّحْرِيطِ وَالْهَجَاءِ، ثُمَّ أَسْرَهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَسَأَلَهُ الْمَنُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ» وَهَذَا السَّبَبُ يُضَعِّفُ الْوَجْهَ الثَّانِي وَفِيهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ نَالَ الضَّرْرَ مِنْ جِهَةٍ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا لِئَلَّا يَقَعَ فِيهَا ثَانِيَةً^(٣).
 بِمَنْ يَكُونُ سَبَبًا

(١٨٤٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/١٥٢).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦١٣٣) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٨) كتاب الزهد والرقائق.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٨/١٦٩).

بالفلاة يَمْنَعُهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَأَخْذَهَا بَكْذَا وَكَذَا، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ»^(١).

❁ «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ» يعنى: ثلاثة أصناف وليس المقصود ثلاثة أشخاص.. «لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ» قد يكون المراد أنه سبحانه وتعالى لا يكلمهم عقوبة لهم على ما فعلوه.. وقد يكون المراد أنه (جل وعلا) لا يكلمهم التكليم الذى فيه راحتهم وسعادتهم، وإلا فإن التكليم يمكن أن يكون على وجه التبكيك والتقريع... ومنه قول الله ﷻ: ﴿قَالَ أَخَشَّرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وهذا كلام، لكنه كلام فيه تقريع وتبكيك لا يحصلون من ورائه على، السرور والارتياح والاطمئنان... فهذا لا ينافى ما جاء من أن الله تعالى يخاطب الكفار ويقول: ﴿أَخَشَّرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؛ لأن المنفى غير المثبت.

❁ الأول: «رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ مِنْ ابْنِ السَّبِيلِ» ابن السبيل هو عابر السبيل، سواء كان بنفسه أو معه راحلته أو رواحله، فإن الماء يُبْذَلُ له، ولا يُحَالُ بينه وبينه... لكن هذا الإنسان كان عنده ماء من مزرعة أو بئر أو غير ذلك.. وكان فى أرض صحراوية خالية من السكان.. فإذا مرَّ أمامه عابر سبيل وطلب منه الماء فإنه يمنعه من الماء... هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم... وما بالك بحال رجل هذا حاله.. لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم يوم القيامة.

الثانى: وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَأَخْذَهَا بَكْذَا وَكَذَا، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

يعنى: حلف كاذباً ليخدع البائع ويروج سلعته.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٣٥٨) كتاب المساقاة - ومسلم (١٠٨) كتاب الإيمان.

وذكر النبي ﷺ العصر؛ لأن أفضل أوقات النهار ما بعد صلاة العصر وإلا فلو حلف الإنسان على سلعة في غير هذا الوقت أيضًا فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

كما جاء في الحديث الآخر: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمَنَانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مِنْهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ»^(١) أى: المروج لها، الذى يأتى بما يجعل المشتري يغتر بحلفه وبكلامه الذى فيه ترويحٌ لها.

فدلّ ذلك على أن ذكر وقت العصر في حديث أبى هريرة إنما هو لشدة العذاب والوعيد. وإلا فكل من حلف على سلعة وهو كاذب من أجل أن يزيد ثمنها فإنه لا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وقيل: إن الوقت الذى بعد العصر من الأوقات التى تكون فيها الأيمان مُغلظة... وقد سبق أن مرّ بنا تغليظ اليمين بالمكان، كما جاء في الحلف عند منبر النبي ﷺ... وهذا من حيث الزمان.

الثالث: «وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ».

يعنى: بايع إمامه أو إمام المسلمين من أجل الدنيا، لا من أجل أن يقوم بالشىء الذى يجب عليه، وإنما بايع من أجل الدنيا، فإن حصل له الذى بايع من أجله رضى، وإن لم يحصل ذلك فإنه يسخط... فبيعته إنما هى من أجل الدنيا، وليست من أجل السمع والطاعة فى المعروف على الوجه الذى شرعه الله ﷻ فى قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

المهم هذه ثلاثة أشياء إذا صارت فى الإنسان فإن الله لا يكلمه يوم القيامة

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٦) كتاب الإيمان.

ولا ينظر إليه ولا يزكّيه وله عذاب أليم.

وفي هذا الحديث دليل على: ثبوت كلام الله ﷻ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يتكلم كما شاء وبما شاء ومتى شاء لا أحد يعجزه ولا يمتنع عليه شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].
فقلوه: «لا يكلمهم الله» دليل على أنه يكلم غيرهم وهو كذلك... وفيه أن الله ينظر نظرين: الأول: العام فإنه لا يخفى على نظره شيء ﷻ... يرى كل شيء.
والثاني: الخاص وهو نظر الرحمة وهو المعنى في الحديث فإن الله لا ينظر إليهم نظر رحمة.

وفيه أيضًا دليل على أن الله هو المزكى للعباد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، فالمزكى للأموال وللأشخاص وللأعمال هو رب العالمين ﷻ... فأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن زكاه ربه إنه على كل شيء قدير^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤٥) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أُبَيْتُ، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أُبَيْتُ، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أُبَيْتُ، «وَيَلِي كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ، ثُمَّ يُنَزَّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ»^(٢).
﴿قوله ﷺ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» المقصود بذلك النفخ في الصور...

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٠) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٤٨١٤) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٩٥٥) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

فإن الله ﷻ جعل ملكاً مُوكِّلاً بالنفخ في الصور اسمه إسرافيل .. وعندما يأتي اليوم الذي يُقدر الله فيه نهاية الحياة في تلك الأرض يأمر إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة طويلة تبدأ بالفزع وتنتهي بالصعق.

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَخِيرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. فالنفخة الأولى يكون بها الفزع والصعق يعنى الموت والفناء.

ثم يكون بينها وبين النفخة الثانية - نفخة البعث - أربعون. أربعون
فالنفخة الثانية يكون فيها البعث والقيام ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

ولما سُئِلَ أبو هريرة رضي الله عنه عن الأربعين التي بين النفختين وقيل له: أربعون يوماً؟ قال: آييت - يعنى لا يدري - . قالوا: أربعون سنة؟ قال: آييت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آييت... قال النبي ﷺ: «بينهما أربعون». فنقول كما قال الرسول ﷺ .. والله أعلم.

❁ قوله ﷺ: «وَيَلْئَلِي كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ» فالإنسان عندما يموت ويدفن يتحلل جسده إلى تراب ولكن يبقى منه جزء صغير جداً وهو (عَجَبُ الذَّنْبِ) وهو قطعة عظم صغيرة جداً في آخر فقرات الظهر.. وتظل هكذا إلى أن تمر الأربعون التي بين النفختين... فيرسل الله مطراً غليظاً من السماء كمنى الرجال فينزل على عجب الذنب ويتفاعل معه ويتكون منه الجسد مرة أخرى ويبقى جسداً بلا روح.. فيأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح من هذا الصور وتدخل كل روح في جسدها الذي كانت تعمّره في الدنيا ثم يخرجون جميعاً من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء..

ولينقسم الناس بعدها إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.. جمعنى الله بكم في الجنة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤٦) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبی ﷺ في مجلسٍ يُحدّثُ القومَ، جاءه أعرابيٌّ، فقال: متى الساعةُ؟ فمضى رسولُ الله ﷺ يُحدّثُ، فقال بعضُ القومِ: سمِعَ ما قالَ، فكرِهَ ما قالَ، وقال بعضهم: بلْ لَمْ يَسْمَعْ، حتّى إذا قضى حديثه قال: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قال: ها أنا يا رسولَ الله، قال: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» قال: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يذكر أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان جالساً كعادته مع أصحابه يُعلمهم ويربيهم ويفقههم في دين الله ﻫُوَ وَكَوَلَّ.. فجاء رجلٌ أعرابيٌّ فسأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فمضى النبي ﷺ في حديثه ولم يُجب على سؤاله.. وكأنه والله أعلم كان ﷺ يتكلم في أمرٍ في غاية الأهمية ولم يُرد أن يقطع الحديث.. أو أنه لم يُجب؛ لأن موعد الساعة لا يعلمه إلا الله فانتظر النبي ﷺ حتى نزل عليه الوحي ليُخبر النبي ﷺ بما سيقوله لذلك الأعرابي.. فقال بعض القوم: سمع ما قال فكرهه... والإنسان إذا كره سؤال السائل فلا حرج عليه ألا يجيبه، حتى ولو سمعه؛ لأنه قد يكون السائل ليس عنده حكمة فيسأل سؤالاً غير مناسب، فللمُجيب أن يدعه ولا يجيب.

وقال آخرون: لعله لم يسمعه. فلما قضى النبي ﷺ حديثه قال: «أَيْنَ السَّائِلُ؟». فقال: ها أنا يا رسول الله... فقال ﷺ: «إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».. فسأله الرجل وقال: كيف إضاعتها؟ فقال ﷺ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ» وذلك بأن يتولى الوظائف من ليس بأهل لها.. ويتولى الإمارة

مَنْ لَا يَصْلُحُ لَهَا.. وَيَتَوَلَّى الْفَتْوَى الْجَاهِل بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ.. وَهَكَذَا.. بِأَنْ يُوَضَّعَ الرَّجُلُ الْمُنَاسِبُ فِي الْمَكَانِ غَيْرِ الْمُنَاسِبِ.. وَيُوَضَّعَ الرَّجُلُ غَيْرِ الْمُنَاسِبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ... وَالْخِلَاصَةُ: أَنَّهُ إِذَا عَمَّ الْفُسَادُ وَتَوَلَّى الْأُمُورَ أَهْلُ الْفُسَادِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ.. لِأَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ.. وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ التَّحْذِيرُ مِنْ ضِيَاعِ الْأَمَانَةِ.. وَالْحِرْصُ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى الْمُنَاصِبَ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا حَتَّى لَا تَضِيعَ الْبِلَادُ وَيَفْسُدَ الْعِبَادُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤٧) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ»^(١).

❁ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّ هُنَاكَ «أُتْمَةٌ - يَعْنِي أَمْرَاءٌ - يَصَلُّونَ لَكُمْ فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ» وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْأَمْرَاءِ يَشْمَلُ أَيْضًا أُتْمَةُ الْمَسَاجِدِ. «يَصَلُّونَ لَكُمْ» فَإِنْ أَحْسَنُوا فِي الصَّلَاةِ وَأَتَوْا بِهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي فَذَلِكَ لَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ - يَعْنِي لَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ مِنْ إِسَاءَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ... وَفِي هَذَا إِمَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ الصَّبْرُ عَلَى وَلَاةِ الْأَمْرِ - وَإِنْ أَسَاءُوا فِي الصَّلَاةِ، وَإِنْ لَمْ يَصَلُّوها عَلَى وَقْتِهَا - فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَلَّا نَشُدَّ عَنْهُمْ، وَأَنْ نُؤَخِّرَ الصَّلَاةَ كَمَا يُؤَخَّرُونَ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ تَأْخِيرُنَا لِلصَّلَاةِ عَنْ أَوَّلِ وَقْتِهَا يَكُونُ تَأْخِيرًا بَعْدَ رُءُوسِ الْأَجْلِ مُوَافَقَةً الْجَمَاعَةِ وَعَدَمُ الشَّدُودِ، وَيَكُونُ بِالنِّسْبَةِ لَنَا كَأَنَّنا صَلِينَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ.

وَفِي هَذَا إِمَارَةٌ إِلَى أَنَّ الشَّدُودَ عَنِ النَّاسِ وَعَنِ وَلَاةِ الْأُمُورِ وَالْبَعْدَ عَنْهُمْ وَإِثَارَةَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَنَشْرَ مَسَاوِئِهِمْ كُلِّ هَذَا مُجَانِبٌ لِلدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ، فَالِدِّينُ يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَالْعَدْلِ وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ حَتَّى إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٩٤) كتاب الأذان.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ .. فإذا ذكرت سيئة فاذكر الحسنة أما أن تسعد بذكر السيئات وتجحد الحسنات فهذا جورٌ وظلم.

والله عز وجل لا يحب الظلم ﴿وَلَا يَجْزِيكُمْ شَتَائُنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٨٨]، أى: لا يحملكم بغض قوم على عدم العدل، بل اعدلوا هو أقرب للتقوى. فهؤلاء الذين يُصلون ويؤخرون الصلاة عن وقتها نصلى معهم ويكون لنا الأجر وإن كان التأخير فيه وزر فعلى المؤخرين ..^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٤٨) وعن أبى هريرة رضي الله عنه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خيرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ يَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ^(٢).

(١٨٤٩) وعنه عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ»^(٣).

✽ والمقصود بهم الأسارى الذين يُؤسرون وهم كفار.. فإن ذلك الأسر من أسباب إسلامهم ودخولهم في الإسلام، فهم يُقادون إلى الجنة في السلاسل، يعنى أنهم يُجْرُونَ إلى شىء لا يريدونه وهو خيرٌ لهم، فيئول بهم الأمر إلى أن يُسلموا ويكونوا من أهل الجنة وقد كانوا كارهين في أول الأمر... لأن أسْرَهُم مكروهٌ لهم، ولكنه يترتب على أسْرَهُم وبقائهم وعدم قتلهم أنهم يشاهدون أحوال المسلمين وأعمال المسلمين وأحكام الإسلام وأخلاق المسلمين، فيدخلون في الإسلام، فيكونون من أهل الجنة، ويسلمون من أن يكونوا من أهل النار الذين هم الكفار الذين لا سبيل لهم إلى الجنة، ومآلهم إلى النار، وبيقون

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٢٣).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٥٥٧) كتاب تفسير القرآن.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٠١٠) كتاب الجهاد والسير.

معناها: يؤسرون ويُقَيَّدون، ثم يُسلمون فيدخلون الجنة.

فيها أبد الآباد ولا يخرجون منها أبداً.

هذا هو المقصود بالحديث، وفيه إثبات صفة العجب لله عز وجل، وهي ثابتة في السنة كما في هذا الحديث وغيره.

والأصل في الصفات أنها لا تؤول، وإنما تُثبت على الوجه الذي يليق بالله بكماله وجلاله... والصفات كلها من باب واحد يؤتى بها على نهج واحد وعلى طريقة واحدة بدون تأويل وبدون تحريف وبدون تكيف وبدون تشبيه أو تعطيل أو تمثيل بل على حد قول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها» (٢).

(١٨٥١) وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه من قوله قال: لا تكوننَّ إن استطعت أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته (٣). ورواه البرقاني في صحيحه عن سلمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تكن أول من يدخل السوق، ولا آخر من يخرج منها. فيها باض الشيطان وفرخ» (٤).

❦ ففي الحديث الأول يخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن: «أحب البلاد إلى الله مساجدها» لأنها بيوت الطاعات ومحل ذكره وعبادته ومُدارسة قرآنه وغير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية التي تعود بالخير والصالح على المسلمين، ولذلك كان البذل فيها أفضل البذل، وهو من الصدقة الجارية التي تعود بالخير على

(١) شرح سنن أبي داود/ للشيخ العباد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٦٧١) كتاب المساجد.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٤٥١) كتاب فضائل الصحابة.

(٤) رواية البرقاني أخرجها الطبراني في الكبير (٦١١٨)، وضعفها الألباني في الضعيفة (٧٠٧٣).

صاحبه في حياته وبعد موته ... وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

❁ وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا» فَذَلِكَ لِأَنَّهَا مَحَلُّ الْغَشِّ وَالْخِدَاعِ وَالرِّبَا وَالْأَيْمَانَ الْكَاذِبَةَ وَإِخْلَافِ الْوَعْدِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ... وَهِيَ مَأْوَى الشَّيَاطِينِ.. وَفِيهَا بَاضُ الشَّيْطَانِ وَفَرَّخٌ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَنَصَبُ رَايَتِهِ وَخِيْمَتِهِ.. لِأَنَّ أَسْوَاقَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ الْغَالِبَ فِيهَا الْغَشُّ وَالْخِدَاعُ - إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ -.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ الْحُبِّ وَالْبَغْضِ لِلَّهِ ﷻ أَيُّ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ وَيَبْغُضُ، وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّنَا نُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ وَيَبْغُضُ وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مُوصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ إِلَّا مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ وَلَا يَبْغُضُ إِلَّا الشَّرَّ وَالْخَبَائِثَ.

❁ وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ نَصِيحَةُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَكُونَنَّ إِنْ اسْتَطَعْتَ، أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوقَ وَلَا آخِرَ مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا» لِأَنَّ الْأَسْوَاقَ، أَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ.. وَلِأَنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيْطَانِ وَبِهَا يَنْصَبُ رَايَتُهُ.

قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ أَهْلُ اللَّغَةِ: الْمَعْرَكَةُ مَوْضِعُ الْقِتَالِ لِمُعَارَكَةِ الْأَبْطَالِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهَا وَمُصَارَعَتِهِمْ... فَشَبَّهَ السُّوقَ وَفَعَلَ الشَّيْطَانُ بِأَهْلِهَا وَنَيَّلَهُ مِنْهُمْ بِالْمَعْرَكَةِ، لِكَثْرَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَاطِلِ كَالْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالْأَيْمَانِ الْخَائِنَةِ وَالْعُقُودِ الْفَاسِدَةِ وَالنَّجْشِ وَالْبَيْعِ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَالشِّرَاءِ عَلَى شِرَائِهِ، وَالسَّوْمِ عَلَى سَوْمِهِ، وَبَخْسِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ... قَوْلُهُ: «وَبِهَا تُنْصَبُ رَايَتُهُ» إِمَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِهِ هُنَاكَ وَاجْتِمَاعِ أَعْوَانِهِ إِلَيْهِ لِلتَّحْرِيشِ بَيْنَ النَّاسِ وَحَمْلِهِمْ عَلَى هَذِهِ الْمَفَاسِدِ الْمَذْكُورَةِ وَنَحْوِهَا فَهِيَ مَوْضِعُهُ وَمَوْضِعُ أَعْوَانِهِ... وَالسُّوقُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِإِقْيَامِ النَّاسِ فِيهَا عَلَى سُوقِهِمْ^(١).

(١) مسلم بشرح النووي (١٦/١٠-١١).

(١٨٥٢) وعن عاصم الأحول عن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال : قُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، قَالَ : «وَلَكَ» . قَالَ عاصِمٌ : فَقُلْتُ لَهُ : اسْتَغْفِرَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَلَكَ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] ^(١) .

❖ ففي هذا الحديث أن عبد الله بن سرجس رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ : يَا رَسُولَ اللَّهِ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ .. فقال له النبي ﷺ : «وَلَكَ» لأن النبي ﷺ لم يكن يترك أحداً يعمل معه معروفاً ولو بالكلمة أو بالدعاء إلا كافأه بمثله أو أفضل من ذلك... لما رأى عاصم الأحول رضي الله عنه أن النبي ﷺ استغفر لعبد الله قام فقال لعبد الله : اسْتَغْفِرَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَلَكَ... ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] .

وهنا لابد أن نعلم أنه يجوز للمسلم أن يسأل النبي ﷺ أن يدعو له وأن يستغفر له في حياته رضي الله عنه .. وأما بعد موته رضي الله عنه فلا يجوز للمسلم أن يسأله رضي الله عنه أن يدعو له أو أن يستغفر له .

ولا بد أن نعلم أيضاً أن هناك مليارات الحسنات في انتظارك إذا استغفرت للمؤمنين والمؤمنات .. فقد قال رضي الله عنه : «مَنْ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً» ^(٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥٣) وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى : إِذَا لَمْ تَسْتَخِ فاصنع ما شئت» ^(٣) .
❖ قوله رضي الله عنه : «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى» يعني : أن هذا

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٣٤٦) كتاب الفضائل .

(٢) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٦) .

(٣) صحيح : رواه البخاري (٣٤٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء ، (٦١٢٠) كتاب الأدب .

الكلام مما جاء عند الأنبياء السابقين، وأن الحياء مما جاء عند الرسل وعند الأمم، وأن الحياء محمود، وأنه كان موجوداً في الأمم السابقة... فهو مما أدركه الناس من كلام النبوة الأولى.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا لَمْ تَسْتَخِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» فُسِّرَ بتفسيرين، يعنى: العلماء اختلفوا فيه على قولين: ومُجْمَل هذين القولين: أن هذا إما أمر، وإما ليس بأمر... وَمَنْ قَالَ: إنه أمر قال: معنى الحديث إذا كان الأمر ليس حراماً، وليس مما يخرم مكارم الأخلاق والمروءات، ولم يكن فيه تفريط بواجب، ولم يكن مما يُستحى منه في الشرع فاصنعه ولا تبال؛ لأن هذا دليل أنه لا بأس به.

والقول الثانى: أنه خرج عن معنى الأمر الذى هو الإلزام بالفعل إلى التهديد فمعنى «إِذَا لَمْ تَسْتَخِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» يعنى: إذا لم يكن لك حياء يمنعك من مقارفة الحرام والمنكر، والتفريط في الواجبات فاصنع ما شئت، فإن مَنْ لا حياء له لا خير فيه... وهذا يكون خرج للتهديد.

وهذا من جوامع كَلِمِهِ (عليه الصلاة والسلام)؛ ولهذا أورده الإمام النووى في الأربعين النووية، واختاره من بين الأحاديث التى اختارها، وهى من جوامع كلم الرسول صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥٤) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(١).

❁ لا بد أن نعلم أن الله ﷻ الْحَكَمُ العدل هو الذى يفصل بين عباده يوم القيامة ويحكم بينهم.. فأما ما يكون فيما بينهم وبين الله فحكمه يدور بين الفضل والعدل.. وأما ما يكون بين العباد من مظالم فيجازى بالعدل.. فلا بد أن يأخذ كل واحدٍ منهم حقه بالعدل دون نقصٍ أو زيادة.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦٥٣٣) كتاب الرقاق - ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.

وأول ما يُقضى بين العباد في الدماء - القتل - ثم الأموال والأعراض.. ومن المعلوم أن القتل قد يكون بحق وقد يكون بغير حق.. والمقصود هنا القتل بغير حق.. فهذا أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة.

❁ فيجب على كل مسلم أن يحذر من سفك الدماء بغير حق وأن ينأى بنفسه عن الخصومات والمشاجرات وأن يكظم غيظه عند الغضب.

قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقال ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(١).

❁ قال ابن حجر العسقلاني: ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ»^(٢).

لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق. والثاني: فيما يتعلق بعبادة الخالق... وقد جمع النسائي في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين، ولفظه: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ»^(٣).

❁ بل يوضح النبي ﷺ بشاعة هذه الجريمة فيقول: «لَزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٤).

❁ ثم يوضح هذا المشهد المفزع من مشاهد يوم القيامة فيقول ﷺ: «يَجِيءُ الْمُقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاصِيَتَهُ وَرَأْسَهُ بِيَدِهِ وَأَوْدَاجُهُ تَشْحَبُ دَمًا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلْتَنِي؟ حَتَّى يُدْنِيهِ مِنَ الْعَرْشِ»^(٥).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٣٣) كتاب الرقاق، ومسلم (١٦٧٨) كتاب القسامة.

(٢) صحيح: رواه أصحاب السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٣) فتح الباري (١١ / ٣٩٦) - والحديث رواه النسائي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧٢).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه عن البراء وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٨).

(٥) صحيح: رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٣١).

(١٨٥٥) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ عن بداية الخلق.. فذكر النبي ﷺ أن الملائكة خُلِقُوا مِنْ نُورٍ.. ولذلك كانت أعمالهم كلها مليئة بالأنوار.. فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.. ولا يستكبرون عن عبادة الخالق ولا يستحسرون.. ويُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون.. ولا يُقصرُونَ أَبَدًا في تنفيذ أوامر الخالق (جلّ وعلا).. وأما الجان فخلق من مارج من نار ولذلك كثر منهم العصيان والطيش والعبث وكثر منهم العدوان على كل من يستطيعون العدوان عليه... وفي هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر الذي أبى أن يسجد لأبينا آدم ﷺ وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وأما آدم ﷺ فخلق مما وُصف لكم.. أى أنه خلق من قبضة من التراب ثم عُجنت هذه القبضة من التراب بالماء فصارت طينًا ثم جَفَّ وَيَبَسَّ حت صار كالْفَخَّارِ فخلق منه آدم ﷺ.

وكان آدم ﷺ في هذه المراحل جسدًا... مجرد جسد بلا روح ولا حياة فبعد أن خلقه الله من الطين، صَوَّرَهُ وَسَوَّاهُ وجعله تماثلاً كجسمه على صورة إنسان، وتركه في الجنة مدة من الزمن لا يعلمها إلا الله... قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

ولقد أخبرنا الله (جل وعلا) بهذه الحقيقة في كتابه فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَبِيثُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٩٦) كتاب الزهد والرفائق.

وَالطَّيِّبُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيَّنَ ذَلِكَ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥٦) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ خُلِقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ^(٢).

❖ ففي هذا الحديث أن أُمنا عائشة رضي الله عنها سئلت عن خلق النبي ﷺ فقالت: «كَانَ خُلِقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ».

يعنى: كان متأدباً بآداب الكتاب الكريم، فيأخذ أوامره، ويترك نواهيه، ويعمل بآدابه وإرشاداته ونصائحه... والقرآن الكريم يحث على هذا الباب كقوله تعالى: ﴿ خُذِ الْفَقْرَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]... فكان خلقه القرآن... فكل ما في القرآن: من تعاليم، وآداب، وتوجيهات؛ كانت خلقه ﷺ.

قال أهل العلم: الشريعة الإسلامية كلها حسن الخلق؛ لأن الرسول ﷺ قال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

وفي هذا إشارة من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أننا إذا أردنا أن نتخلق بأخلاق الرسول ﷺ فعلينا أن نتخلق بالقرآن؟ لأن هذا هو أخلاق النبي ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥٧) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكَلَّمْنَا نَكْرَهُ الْمَوْتِ، قَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمَوْمَنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٥٩).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٧٤٦) كتاب صلاة المسافرين وقصرها.

وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَأَنْ مَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ... فَقَالَتْ أُمْنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْرَاهِيَةِ الْمَوْتِ؟ فَكَلَنَّا يَكْرَهُ الْمَوْتَ... لَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَضَّحَ لَهَا وَلِلْأُمَّةِ كُلِّهَا أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ بِمَجْرَدِ كْرَاهِيَةِ الْمَوْتِ وَلَكِنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِمَعْرِفَةِ الْعَبْدِ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ.. فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ عِنْدَمَا تَأْتِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَتَجْلِسُ مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ وَمَعَهَا كَفَنٌ مِنَ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنَ الْجَنَّةِ (أَي: عَطَرٌ) وَتُجْهَزُ الرُّوحُ لِمَلِكِ الْمَوْتِ.. ثُمَّ يَأْتِي مَلِكُ الْمَوْتِ وَيُبَشِّرُ هَذَا الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ وَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ، فَتَخْرُجُ فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيٍّ السَّقَاءِ. فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ مَصِيرَهُ وَأَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى مَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ تَأْتِيهِ عِنْدَ الْمَوْتِ مَلَائِكَةُ سُودٍ الْوُجُوهَ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ. ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ! اخْرُجِي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ... فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السُّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ.

بِمَعْنَى: أَنَّهُ يُكْرَهُ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ رُوحُهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُبَشَّرُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بِالْشَرِّ... وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فَهَمَّ شَاحِيحُونَ بِأَنْفُسِهِمْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - لَا يَرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجَ وَلَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَقُولُ: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ فَإِذَا بُشِّرَتْ بِالسَّخَطِ وَالْعَذَابِ تَفَرَّقَتْ فِي الْجَسَدِ فَيَنْتَزِعُهَا الْمَلَائِكَةُ كَمَا يُنْتَزَعُ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦٨٤) كتاب الذكر والدعاء.

السُّفود من الصوف المبلول - والعياذ بالله - حتى تخرج.

فإذا علم الكافر أنه ذاهبٌ إلى سخط الله وغضبه وعذابه كره لقاء الله وكره الله لقاءه... فالشاهد أن المؤمن عند الموت يُبَشَّرُ بالمغفرة والرضوان والجنة. فيحب لقاء الله.. فاللهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا أرحم الراحمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٥٨) وعن أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ مُعْتَكِفًا، فَاتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا. فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لِأَنْقَلِبَ، فَقَامَ مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي، فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا. فَقَالَ ﷺ: «عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَيٍّ» فقالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا. أَوْ قَالَ: شَيْئًا.»^(١)

❁ ففي هذا الحديث أن النبي ﷺ كان معتكفًا في المسجد في رمضان ولا اعتكاف إلا في رمضان؛ لأن النبي ﷺ لم يعتكف في غير رمضان إلا سنة واحدة فاتته العشر في رمضان فقضاها في شوال، وما عدا ذلك فلم يشرع لأمته ﷺ أن يعتكفوا في غير رمضان، وإنما كان الاعتكاف من أجل تحرري ليلة القدر، فقد كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأول من رمضان رجاء ليلة القدر، ثم الأوسط، ثم قيل له: إنها في العشر الأواخر فواظب على الاعتكاف في العشر الأواخر.

وأما حديث عمر: أنه سأل النبي ﷺ أنه نذر - أي عمر - أن يعتكف ليلة أو ليلتين في المسجد الحرام فقال: «أوفِ بنذرِكَ». فهذا لا يدل على أن الاعتكاف مشروع وإنما يدل على وفاء النذر بالاعتكاف، وأنه ليس بمعصية لو أوفى بنذره فيه... لكن السنة أن الاعتكاف يكون في رمضان فقط، وفي العشر الأواخر منه فقط... فقد اعتكف ﷺ في العشر الأواخر.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٣٥) كتاب الاعتكاف، ومسلم (٢١٧٥) كتاب السلام.

والاعتكاف هو: لزوم المسجد في طاعة الله، ليتفرغ الإنسان للعبادة، وليس لغير ذلك .

جاءته صفة ﷺ - وهو معتكف - لتحدث إليه - وهي امرأته - ولا بأس للإنسان أن يتحدث إليه أهله وهو معتكف، فذلك من الألفة والمحبة والمودة ثم قامت إلى بيتها وكان النبي ﷺ خير الناس بأهله كما قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(١) فقام معها يُشيعها إلى بيته فإذا برجلين من الأنصار يَمُرَّان، فلما رأيا رسول الله ﷺ خجلا واستحييا، فأسرعا في مشيهما، فقال النبي ﷺ: «على رِسْلِكُما»، - يعنى: لا تُسرِعَا - إنها صفة بنت حُيى.. لئلا يظن أنها امرأة جاءت لرسول الله ﷺ في الليل محل السكن وإيواء البيوت، فقالا: سبحان الله! ... لقد تعجبا أن يقول الرسول هذا الكلام.

فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» فيصل إلى قلبه وإلى عروقه ... كما أن الدم يسير في جميع البدن، كذلك الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ... ومجرى هذا اسم مكان: أى في مكان جريان الدم. «وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا أو قال: شيئًا»^(٢).

❁ ففى هذا الحديث عدة فوائد ... منها: أن للمعتكف أن يزوره أهله في المسجد، ويحدثونه ويحدثهم، وأن للمعتكف أن يرافقهم في الخروج من المسجد لإيصالهم إلى البيت، وأنه لا بأس بذلك، ولا يؤثر على الاعتكاف. ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يزيل أسباب الوسوس من القلوب ... فمثلاً: إذا خشى أن أحداً يظن به شرًّا فإنه يجب عليه أن يزيل ذلك عنه ويخبره بالواقع حتى لا يحدث في قلبه شيء.

(١) صحيح: رواه الترمذى، وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣١٤).

(٢) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ (٤/٣٢٨-٣٢٩) بتصرف.

ومنها: أنه إذا حدث للإنسان ما يتعجب منه فليقل: سبحان الله.. كما قال ذلك هذان الأنصاريان وأقرهما النبي ﷺ.

ومنها: شفقة النبي ﷺ على أمته، ودرء الشر عنهم.

(١٨٥٩) وعن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فكزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، رسول الله ﷺ لم نفارقهُ.. ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء.

فلما التقى المسلمون والمشركون ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ، يركض بغلته قبل الكفار، وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «أى عباس ناد أصحاب السمرة» قال العباس، وكان رجلاً صينياً: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة، فوالله لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، فاقتلوا هم والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج.

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمطاول عليها إلى قتالهم فقال: «هذا حين حمى الوطيس» ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد» فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدّهم قليلاً، وأمرهم مدبراً^(١).

❁ لما فتح الله مكة على رسوله ﷺ والمؤمنين وخضعت له قريش خافت

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٥) كتاب الجهاد والسير.

«الوطيس»: التنور، ومعناه: اشتدت الحرب - وقوله: «حدّهم» أى: بأسهم.

هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمدٌ لقتالنا فلنغزّه قبل أن يغزونا.. وأجمعوا أمرهم على ذلك.

وكان النبي ﷺ وأصحابه قد فتحوا مكة في السنة الثامنة من الهجرة ومعهم عشرة آلاف من خارج مكة وألفان من أهل مكة... فكانوا جميعاً اثنا عشر ألفاً.. فجعل بعضهم يقول: لن نُغلب اليوم من قلة.. فأعجبوا بكثرتهم.. فأراهم الله ﷻ أن النصر لا يكون إلا من عند الله ﷻ.. وأن القوة والكثرة والسلاح والعتاد لا يحولون بين الناس وبين قضاء الله وقدره.

لم يعلم المسلمون أن هوازن وثقيف قد أعدّتا لهم الكمائن لمباغطة جيش المسلمين والانقضاض عليهم.

وأقبلت الطلائع الغفيرة من الجيش الإسلامي تتدافع نحو الوادى فلم يرعهم إلا وابل من السهام تتساقط فوق رؤوسهم.. وانتشرت موجة من الفزع وماج بعضهم في بعض وانهمزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار.. وبقي الرسول ﷺ ومعه نفرٌ قليل في الميدان كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].. ووقف النبي ﷺ وجعل يركض على بغلته تجاه العدو وهو يقول: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب». يُعلمهم (عليه الصلاة والسلام)... وأمر العباس (رضي الله عنه) - وكان رجلاً جهوراً الصوت - أمره أن ينادى الصحابة ليرجعوا، فجعل ينادى: يا أصحاب السَّمرة... يا أصحاب السَّمرة، يا أصحاب السَّمرة أقبلوا.. هَلُمُّوا.

والسَّمرة هي: الشجرة التي بايع الصحابة عليها رسول الله ﷺ في الحديبية على ألا يفروا - وهم فرُّوا الآن - فقال: يا أصحاب السَّمرة يُذكركم بهذه المبايعة... وهذه السمرة شجرة بايع النبي ﷺ تحتها الصحابة على ألا يفروا أبداً، وفيها يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. فأخبر الله تعالى أنه رضى عنهم، وأخبر النبي ﷺ أنه «لا يدخل النار أحدٌ بايع تحت الشجرة».

فقال العباس - وكان رجلاً صَيِّتاً^(١) - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله! لكان عطفتهم حين سمعوا صوتي، عطفة البقر على أولادها. فقالوا: يا لبيك؟ يا لبيك! قال: فاقتلوا والكفار. فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمى الوطيس»^(٢).

قال: ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار. ثم قال: «انهزموا، ورب محمد».

واشتد القتال فوّلوا مدبرين، فندب رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «يا معشر المسلمين أنا رسول الله» فقالوا: إليك والله جئنا، فنكسوا رؤوسهم، ثم قائلوا فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»^(٣) فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين... فهزمهم الله ﷻ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»^(٤).

✽ فكان ذلك النصر آية من آيات الله ﷻ... فقد نصر الله المؤمنين بعد أن هزموا عندما اغتروا بعددهم.. فأراهم الله أن النصر من عند الله ﷻ..

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مَدْيَنَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٧].

(١) صَيِّتاً: قوى الصوت.

(٢) هذا حين حمى الوطيس: الضرب في الحرب.

(٣) شاهت الوجوه: أي قُبِحت.

(٤) صحيح: رواه مسلم (١٧٧٥) كتاب الجهاد والسير.

(١٨٦٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِيَّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأَيَّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»^(١).

✽ «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»، فمن صفاته سبحانه وتعالى أنه طيب، ولا يُرْفَعُ إِلَيْهِ إِلَّا الْعَمَلُ الطَّيِّبُ، ولا يقبل من عباده إِلَّا الْعَمَلُ الطَّيِّبُ... قال عليه الصلاة والسلام: «وإنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ» فيستوى الجميع عند اللَّه سبحانه وتعالى في التقرب إليه بالشىء الطيب... فأمر المرسلين بقوله: ﴿يَتَأَيَّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال للمؤمنين: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، (ثم ذكر النبي ﷺ الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب! يا رب!)، والمسافر مستجاب الدعوة كما جاء في حديث النبي ﷺ في ذكر ثلاثة يُستجاب لهم: فذكر المظلوم، وذكر المسافر، وذكر دعوة الوالد على ولده.

فالمسافر مع طول سفره كلما دعا استُجيب له، ولكن الإنسان هذا الذى يأكل الحرام لا يستجيب له ربه، مع طول سفره ومع شعثه واغبرار وجهه، ومع كثرة ما يتعب في السفر، لكن لا يُستجاب له.

والله يستحيى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً خائبين.. ولكن هذا المسافر كان يتعمد أكل الطعام الحرام، سواء كان من سرقة أو من رشوة أو من

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠١٥) كتاب الزكاة.

سُحِتِ أَوْ مِنْ غَضَبٍ... فهو طعام ليس حلالاً.. فكان يأكل الحرام ولا يتورع... ومشربه حرام كذلك، وملبسه حرام وغذاه بالحرام فقد تربى على هذا الشيء «فأنى يستجاب له؟!».

فالمسافر يُستجاب له لو كان طيب المطعم وطيب المشرب، وطيب الملبس وهذا الذى يستحق أن يستجيب الله ﷻ له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٦١) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخُ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٦٢٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٦٢) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَيِّحَانٌ وَجَيْحَانٌ وَالْفُرَاتُ وَالنَّيْلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ»^(٢).

✽ ففى هذا الحديث أخبر النبى ﷺ أن تلك الأنهار الأربعة من أنهار الجنة... فقال بعض أهل العلم: إنها من أنهار الجنة حقيقة ولكنها لما نزلت إلى الدنيا غلب عليها طابع أنهار الدنيا فصارت من أنهار الدنيا... أو أنها من أطيب أنهار الدنيا فذكرها النبى ﷺ بهذا الوصف من باب رفع شأنها والثناء عليها.

✽ أما نهر الفرات فقيل أنه نهر الفرات الذى فى العراق.. لكن الإمام النووى رحمته الله قال: ليس الذى بالعراق.. بل هو نهرٌ فاصلٌ بين الشام والجزيرة.

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٧) كتاب الإيمان.

«العَائِلُ»: الْفَقِيرُ.

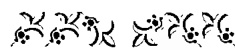
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٩) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

وأما سِيحان وجِيحان فهما نهران في أرض الأرمن بقرب الشام، وليساهما سيحون وجيحون اللذان بأرض خُراسان... هذه الأنهار الأربعة: سيحان، وجيحان بأرض الأرمن قرب الشام... والفرات الذي هو بين الشام وجزيرة العرب، والنيل الذي هو بأرض مصر... هي من أنهار الجنة.

واختلف العلماء في معنى أن هذه الأنهار من أنهار الجنة، فقليل: كون هذه الأنهار من أنهار الجنة أى أن ماء الجنة يُصَبُّ فيها، وهذا أظهر الوجهين، وأن أصل هذه الأنهار ينزل فيه الماء من الجنة.

ولذلك قال الإمام النووي: وَأَمَّا كَوْنُ هَذِهِ الْأَنْهَارِ مِنْ مَاءِ الْجَنَّةِ فَفِيهِ تَأْوِيلَانِ ذَكَرَهُمَا الْقَاضِي عِيَاضٌ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِيمَانَ عَمَّ بِلَادَهَا أَوْ الْأَجْسَامَ الْمُتَغَذِّيَّةَ بِمَائِهَا صَائِرَةً إِلَى الْجَنَّةِ... وَالثَّانِي: وَهُوَ الْأَصَحُّ أَنَّهَا عَلَى ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ لَهَا مَادَّةً مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْجَنَّةُ مَخْلُوقَةٌ موجودة اليوم عند أهل السُّنة، وقد ذكر مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ الْفُرَاتَ وَالنَّيْلَ يَخْرُجَانِ مِنَ الْجَنَّةِ... وَفِي الْبَخَارِيِّ مِنْ أَصْلِ سَدْرَةِ الْمُنْتَهَى^(١).

فحيثُ يجب أن نعتقد أن هذه الأنهار إنما أصلها وأصل منبتها من الجنة، وأنها تستمد ماءها من الجنة، فإذا أرادوا أن يقولوا: إن هذا النيل يستمد ماءه من بحيرة ناصر سنقول: إن النيل وبحيرة ناصر يستمدان الماء من الجنة... وإذا كان هذا الماء الذي بين أيدينا هو ماء أصله من الجنة، فعيب علينا أن نلوثه بالقاذورات والفضلات وآثار التغوط وأكثر من ذلك... وعيب علينا أن نسمح لغير بلاد المسلمين أن يلوث هذه المياه بالكيماويات والسموم وغير ذلك حتى صرنا أفقر بلاد العالم في الماء، مع كثرته ووفرته.



(١) مسلم بشرح النووي (١٧/٢٥٨).

(١٨٦٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل»^(١).

❁ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله ﻋَزَّوَجَلَّ خلق التربة التي هي مادة الأرض يوم السبت.. وخلق الجبال لتكون أوتاداً ورواسي للأرض يوم الأحد.. وخلق الشجر يوم الاثنين.. وخلق المكروه يوم الثلاثاء.

قال الإمام النووي رحمته الله: وَهُوَ مَا يَقُومُ بِهِ الْمَعَاشُ وَيَصْلُحُ بِهِ التَّدْبِيرُ كَالْحَدِيدِ وَغَيْرِهِ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَقُومُ بِهِ صَلاَحُ شَيْءٍ فَهُوَ يَقْنُهُ... وَمِنْهُ إِنْقَانُ الشَّيْءِ وَهُوَ إِحْكَامُهُ، قُلْتُ: وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الرَّوَايَتَيْنِ فَكِلَاهُمَا خُلِقَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ^(٢).

وخلق النور.. وفي رواية: النون - أى: الحوت - يوم الأربعاء.. ولا منافاة فكلاهما خلق يوم الأربعاء.. وبث فيها - أى: في الأرض - الدواب يوم الخميس.. والدواب: بالمعنى العام هي كل ما دبَّ على الأرض.

وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل.

❁ ولكن بعض أهل العلم ضعف هذا الحديث رغم أنه رواه مسلم.. وذلك لأنه يخالف القرآن الكريم.. وممن ذهب إلى تضعيف ذلك الحديث الشيخ ابن عثيمين رحمته الله حيث قال:

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٨٩) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) مسلم بشرح النووي (١٧/١٩٤).

فهذا الحديث رواه الإمام مسلم رحمه الله وقد أنكره العلماء عليه فهو حديث ليس بصحيح ولا يصح عن النبي ﷺ ؛ لأنه يخالف القرآن الكريم... وكل ما خالف القرآن الكريم فهو باطل ؛ لأن الذين رووا: نَقَلَهُ من البشر يخطئون ويصيبون... والقرآن ليس فيه خطأ، بل كله صواب منقول بالتواتر، فما خالفه من أى حديث كان فإنه يُحكم عليه بأنه غير صحيح وإن رواه من رواه... لأن الرواة هؤلاء لا يتلقون عن رسول الله ﷺ مباشرة لكن بواسطة الإسناد: حدثنا فلان عن فلان إلى رسول الله ﷺ... وهؤلاء قد يخطئون. لكن القرآن ليس فيه خطأ.

فهذا الحديث مما أنكره أهل العلم - رحمهم الله - على الإمام مسلم ولا غرابة في ذلك؛ لأن الإنسان بشر «مسلم وغير مسلم» كلهم بشر يخطئون ويصيبون... فعلى هذا لا حاجة أن نتكلم عليه، مادام ضعيفاً فقد كُفينا - والله الموفق^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٦٤) وعن أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: لَقَدْ انْقَطَعَتْ في يَدِي يَوْمَ مَوْتَةِ تِسْعَةِ أَسْيَافٍ، فَمَا بَقِيَ في يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ^(٢).

✽ من المعلوم أن خالد بن الوليد رضي الله عنه كان في جيش المشركين في غزوة أحد.. وكان على رأس الذين كَرُّوا على المسلمين من خلف جبل أحد وقاتلوا النبي ﷺ وأصحابه. وكان معه عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ثم مَنَّ الله عليهما بعد ذلك بنعمة الإسلام فأسلما وكانا من قواد المسلمين.

ولقد أَمَرَ النبي ﷺ في سرية مؤتة ثلاثة وهم: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم.. فلما قُتِلُوا أخذ الراية ثابت بن أرقم وأعطاهما

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٣٣) بتصرف.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٢٦٥) كتاب المغازی.

لخالد بن الوليد الذي استطاع بخطة نادرة أن يُنقذ جيش المسلمين من هزيمة ماحقة وقتل مُحقق .. وكان انسحابه قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة .. وقاتل في ذلك اليوم قتالاً شديداً حتى انكسر في يده تسعة أسياف .. فلك أن تتصور معي كيف كان يقاتل خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي قال عنه النبي ﷺ أنه سيفٌ من سيوف الله ﷻ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٦٥) وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ حَكَمَ وَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»^(١).

✽ المراد بالحاكم هنا في هذا الحديث: القاضي أو المفتي ... والحديث يوضح أن القاضي أو المفتي إذا اجتهد وتحرى الحق وبذل وسعه في ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يُثيبه على هذا: إن أصاب فله أجران: الأجر الأول على إصابة الحق، والثاني على اجتهداده ... وإن أخطأ فله أجرٌ واحد وهو الاجتهاد وبذل الوسع والطاقة في طلب الحق.

قال الإمام النووي رحمته الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ فِي حَاكِمٍ عَالِمٍ أَهْلٍ لِلْحُكْمِ فَإِنْ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ... أَجْرٌ بِاجْتِهَادِهِ وَأَجْرٌ بِإِصَابَتِهِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ بِاجْتِهَادِهِ ... وَفِي الْحَدِيثِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: إِذَا أَرَادَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ... قَالُوا: فَأَمَّا مَنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْحُكْمِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْحُكْمُ فَإِنْ حَكَمَ فَلَا أَجْرَ لَهُ، بَلْ هُوَ آثِمٌ وَلَا يَنْفَعُ حُكْمُهُ سَوَاءً وَافَقَ الْحَقَّ أَمْ لَا؛ لِأَنِّ إِصَابَتَهُ اتِّفَاقِيَّةٌ لَيْسَتْ صَادِرَةً عَنْ أَصْلِ شَرْعِيٍّ، فَهُوَ عَاصٍ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِهِ سَوَاءً وَافَقَ الصَّوَابَ أَمْ لَا. وَهِيَ مَرْدُودَةٌ كُلُّهَا وَلَا يُعْذَرُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ^(٢) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ قَاضٍ قَضَى بِالْهَوَىٰ فَهُوَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٧٣٥٢) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - ومسلم (١٧١٦) كتاب الأفضية.

(٢) مسلم بشرح النووي (٢٠ / ١٢).

فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِغَيْرِ عِلْمٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ»^(١).
 بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١٨٦٦) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ: عَنْ أَسْمَاءَ، أَنَّهَا كَانَتْ تُؤْتِي بِالْمَرَأَةِ الْمُوَعُوكَةِ، فَتَدْعُو بِالْمَاءِ فَتَصُبُّهُ فِي جَنْبِهَا، وَتَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ» وَقَالَ: «إِنَّهَا مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ».

فَالْحُمَّى - كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ».... وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِصَبِّ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الْمَرِيضِ بِالْحُمَّى.. فَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ الشِّفَاءِ مِنَ الْحُمَّى... وَلَا مَانِعَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْعَقَاقِيرِ الْمُنَاسِبَةِ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعْلِمُنَا أَنْ نَأْخُذَ بِكُلِّ الْأَسْبَابِ.

وَقَدْ أَثْبَتَ الطَّبَّ الْحَدِيثُ أَنَّ صَبَّ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الْمَرِيضِ بِالْحُمَّى مِنْ أَسْبَابِ الشِّفَاءِ.. وَنَحْنُ لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى ذَلِكَ فَنَحْنُ نَصَدِّقُ النَّبِيَّ ﷺ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُثْبِتَ الطَّبَّ ذَلِكَ أَوْ يَنْكَرُهُ.. فَالْنَبِيُّ ﷺ هُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ الْمُؤَيَّدُ بِالْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ.

بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١٨٦٧) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ، صَامَ عَنْهُ وَلِيَّتُهُ»^(٣).

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٦٣) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٢١٠) كتاب السلام.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٩٥٢) كتاب الصوم، ومسلم (١١٤٧) كتاب الصيام.

وَالْمُخْتَارُ جَوَازُ الصَّوْمِ عَمَّنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صَوْمٌ لِهَذَا الْحَدِيثِ - وَالْمُرَادُ بِالْوَلِيِّ: الْقَرِيبُ وَإِرثًا كَانَ أَوْ غَيْرَ وَإِرْثًا.

فقوله: «من مات وعليه صيام» يعنى: معناه صيام واجب، وسواء كان هذا الواجب بأصل الشرع كشهر رمضان، أو واجب بإيجاب الإنسان ذلك على نفسه بالنذر، فإنه يُصام عنه، لعموم الحديث... أى: يصوم عنه وليه.. وسواء كان هذا الولي وارثاً أو غير وارث.

وإن صام عنه صاحبه فالذى يبدو أنه لا بأس، وإنما ذكر الولي من أجل أنه هو الذى يشفق عليه، وهو الذى يُعنى به، وهو الذى يمكن أن يحصل ذلك منه، ولو صام عنه غيره جاز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٦٨) وعن عوف بن مالك بن الطفيل أن عائشة رضي الله عنها حدثت أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال فى بيع أو عطاء أعطته عائشة رضى الله تعالى عنها: والله لنتهين عائشة، أو لأحجرن عليها، قالت: أهو قال هذا؟ قالوا: نعم، قالت: هو لله على نذر أن لا أكلّم ابن الزبير أبداً، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة. فقالت: لا والله لا أشفع فيه أبداً، ولا أتحنث إلى نذرى.

فلما طال ذلك على ابن الزبير كَلَّمَ المِسُورَ بن مخرمة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وقال لهما: أنشدكما الله لَمَا أَدَخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَإِنَّهَا لَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتِي، فَأَقْبَلَ بِهِ المِسُورُ، وعبد الرحمن حتى استأذنا على عائشة، فقالا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَدْخُلُ؟ قالت عائشة: ادْخُلُوا. قالوا: كُلُّنَا؟ قالت: نعم ادْخُلُوا كُلُّكُمْ، وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَلَمَّا دَخَلُوا، دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ الْحِجَابَ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي، وَطَفِقَ المِسُورُ، وعبد الرحمن يُنَاشِدَانِهَا إِلَّا كَلِمَتَهُ وَقِيلَتْ مِنْهُ، ويقولان: إِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ.

فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِيرِ وَالتَّحْرِيجِ، طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا وَتَبْكِي، وَتَقُولُ: إِنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ، فَلَمْ يَزَالَا بِهَا حَتَّى كَلِمَتِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَاعْتَقَتْ فِي نَذَرِهَا ذَلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً، وَكَانَتْ تُذَكِّرُ نَذَرَهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا^(١).

✽ نحن نعلم أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين وأفضل زوجاته بعد موته ﷺ، وكانت مَنْ كَانَتْ فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالرَّأْيِ وَالتَّوْبَةِ... وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَهُوَ ابْنُ أُخْتِهَا أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ عَنْهَا أَنَّهَا تَبَرَّعَتْ وَأَعْطَتْ عَطَايَا كَثِيرَةً فَاسْتَكْثَرَ ذَلِكَ مِنْهَا وَقَالَ: لئن لم تنته لأحْجُرَنَّ عَلَيْهَا... وَهَذِهِ كَلِمَةٌ شَدِيدَةٌ بِالنِّسْبَةِ لِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لِأَنَّهَا خَالَتُهُ وَعِنْدَهَا مِنَ الرَّأْيِ وَالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْلُ... وَالْحَجْرُ عَلَيْهَا يَعْنِي مَنَعُهَا مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهَا أَوْ التَّبَرُّعِ الْكَبِيرِ مِنْ مَالِهَا... فَسَمِعَتْ بِذَلِكَ، وَأُخْبِرَتْ بِهِ... أَخْبَرَهَا بِذَلِكَ الْوَاشُونَ الَّذِينَ يَشُونُ بَيْنَ النَّاسِ وَيُفْسِدُونَ بَيْنَهُمْ بِالنَّمِيمَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَالنَّمِيمَةُ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ... وَقَدْ حَذَرَ اللَّهُ مِنَ النَّمَامِ وَإِنْ حَلَفَ - فَقَالَ: ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ (١٠) هَمَزَ مَشَاءَ بِنَعِيمٍ ﴿[القلم: ١٠، ١١].

المهم أن هذه الكلمة وصلت إلى عائشة، فنذرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ألا تكلمه أبداً، وذلك لشدة ما حصل لها من الانفعال على ابن أختها، وهجرته.

ومن المعلوم أن هجر أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لابن أختها سيكون شديداً عليه، فحاول أن يسترضيها ولكنها صممت؛ لأنها ترى أن النذر شديد، فاستشفع إليها برجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وفَعَلَا حِيلَةً بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ لَكِنَّا حِيلَةً حَسَنَةً؛ لِأَنَّهَا أَدَّتْ إِلَى مَطْلُوبٍ حَسَنٍ وَهُوَ الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ... وَالْكَذْبُ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ بِاللِّسَانِ جَائِزٌ فَكَيْفَ بِالْأَفْعَالِ؟، اسْتَأْذَنَّا عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَسَلَّمَا

(١) صحيح: رواه البخاري (٦٠٧٣، ٦٠٧٤، ٦٠٧٥) كتاب الأدب.

عليها وهذه هي السنة عند الاستئذان أنك إذا قرعت الباب على شخص تقول السلام عليكم... ثم استأذناها في الدخول فقالوا: ندخل؟ قالت: نعم، قالوا: كلنا، قالت: كلكم، ولم تعلم أن عبد الله بن الزبير معها لكنها لم تقل: هل معكم عبد الله بن الزبير فلم تستفصل وأتت بقول عام: ادخلوا كلكم، فدخلوا.

فلما دخلوا عليها وإذا عليها الحجاب: حجاب أمهات المؤمنين وهو عبارة عن ستر تستر به - أمهات المؤمنين - لا يراهن الناس وهو غير الحجاب الذي يكون لعامة النساء؛ لأن الحجاب الذي لعامة النساء هو تغطية الوجه والبدن، ولكن هذا حجاب يكون حاجباً وحائلاً بين أمهات المؤمنين والناس... فلما دخلا البيت دخل عبد الله ابن الزبير الحجاب؛ لأنه ابن أختها فهي من محارمه فأكبَّ عليها يُقبلها ويبكى ويناشدها الله عز وجل ويحذرهما من القطيعة ويبين لها أن هذا لا يجوز... لكنها قالت: النذر شديد، ثم إن الرجلين أقنعاها بالعدول عما صممت عليه من الهجر وذكرها بحديث النبي ﷺ إنه «لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث» حتى اقتنعت وبكت وكلمت عبد الله ابن الزبير ولكن هذا الأمر أهمها شديداً؛ فكانت كلما ذكرته بكت ﷺ؛ لأنه شديد. وهذا قاعدة في كل إنسان يخاف الله... كل من كان بالله أعرف كان منه أخوف... فكانت كلما ذكرت هذا النذر وأنها انتهكت بكت ﷺ... ومع هذا اعتقت أربعين عبداً من أجل هذا النذر ليعتق الله تعالى رقبتها من النار... وفي هذا دليل على شدة إيمان أمهات المؤمنين وحرصهن على العتق من النار والبراءة من عذاب الكفار^(١).

❁ ففي هذا الحديث دليل على فائدة عظيمة.. ألا وهي:

أن الإنسان لا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ولا سيما إذا كان قريباً وأنه يجب عليه أن يحث ويكفر، لقول النبي ﷺ: «من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير».

(١) شرح رياض الصالحين / للشيخ ابن عثيمين رحمته (٤/ ٣٣٦-٣٣٧).

(١٨٦٩) وعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى قَتْلَى أُحُدٍ، فَصَلَّى عَلَيْهِمْ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ كَالْمُودَعِ لِلأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا» قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظَرِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(١).

وفي رواية: «وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا، وَتَقْتَلُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» قَالَ عُقْبَةُ: فَكَانَ آخِرَ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ. وفي رواية قال: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا». والمراد بالصلاة على قَتْلَى أُحُدٍ: الدُّعَاءُ لَهُمْ، لَا الصَّلَاةُ الْمَعْرُوفَةُ.

❦ ففي هذا الحديث يحكي عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج إلى قتلى أحد فصلى على شهداء أحد - أي: دعا لهم كما قال المصنف رحمته الله - لأن صلاة الجنازة المعروفة إنما تكون قبل الدفن لا بعده .. إلا من فاتته الصلاة عليه قبل الدفن يصلى عليه بعده ... لكن هذه الصلاة الدعاء كما في قوله تعالى: ﴿حُذِّمْنَ أَمْوَلُهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَ عَلَيْهِمُ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادعُ لهم.

المهم أن النبي ﷺ صلى عليهم بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات .. ثم صعد المنبر ﷺ وبدأ يخطب في الناس وكأنه يودعهم .. ثم أخبرهم بأنه سيكون سابقاً لهم فقال ﷺ: «إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ» وأعطاهم موعداً على الحوض «وإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْحَوْضُ» ثم أخبرهم أنه يرى الحوض من مكانه هذا .. ونحن نعلم أن النبي ﷺ كان وصف حوضه فقال: «حَوْضِي مَسِيرَةٌ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣٤٤) كتاب الجنائز - ومسلم (٢٢٩٦) كتاب الفضائل.

شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءً، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكَيْزَانُهُ كُنُجُومُ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا» (١)

فهذا الحوض يتسابق إليه المسلمون يوم القيامة ليشربوا من يد النبي محمد ﷺ.. وذلك لأن الناس يخرجون من قبورهم أعطش ما كانوا وأجوع ما كانوا وأعرى ما كانوا.. فمن كان مُتَبِعًا للنبي ﷺ شرب من الحوض وسقاه النبي ﷺ.. وَمَنْ كَانَ مُبْتَدِعًا فَإِنَّهُ يُزَادُ عَنِ الْحَوْضِ وَيَتَبَرَأُ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ.

❁ لقد كان النبي ﷺ ينظر إلى الحوض وهو في الدنيا بين أصحابه.. فقد كُشِفَ له في الدنيا كما كُشِفَتْ له الجنة والنار في صلاة الكسوف.. وكما كُشِفَ له بيت المقدس وهو في مكة عندما طلب منه المشركون أن يصفه لهم. وأخبر ﷺ أنه لا يخشى على أمتة الشرك؛ لأن البلاد - والله الحمد - فُتِحَتْ وصار أهلها إلى التوحيد ولم يقع في قلب النبي ﷺ أنه يقع الشرك بعد ذلك، لكن لا يفهم من هذا - أي من كونه لا يخاف الشرك على أمتة - ألا يقع، فإن الشرك وقع الآن فهو موجود الآن: فمن المسلمين مَنْ يقول: إنه مسلم وهو يطوف بالقبور، ويسأل المقبورين ويذبح لهم وينذر لهم... والرسول ﷺ لم يقل: إنكم لن تشركوا حتى نقول: إن ما وقع ليس بشرك.

ولكن الرسول ﷺ في تلك الساعة لا يخشى على أمتة الشرك لكن خشى شيئاً آخر... الناس أسرع إليه وهو أن تفتح الدنيا على الأمة فيتنافسوها ويتقاتلوا عليها فتهلكهم كما أهلكت مَنْ قبلهم، وهذا هو الذي وقع الآن.

فقد فُتِحَتْ الدنيا على أكثر الناس فتنافسوا عليها وتكالب عليها أكثر الناس - إلا مَنْ رحم الله - فأصبح أكثر الناس يوالون ويُعادون من أجل الدنيا ويتصالحون ويتخاصمون من أجلها.. وأصبح الإنسان يخدم الدنيا خدمة عجيبة يُرْهَقُ فيها

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٧٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٢٩٢) كتاب الفضائل.

عقله وبدنه وكأنه خُلق من أجل الدنيا ولم تُخلق الدنيا من أجله... حتى وصل الأمر أن أكثر الناس لا يبالون من أين أتى المال: من حلالٍ أم من حرام!! حتى صدق فيهم قول الرسول ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبالى الرجل من أين أخذ المال من حلالٍ أو حرام»^(١) - والعياذ بالله - أصبح الناس الآن يتقاتلون على الدنيا وحطامها الزائل!!

فاحذر - أخى الحبيب - أن تجعل الدنيا أكبر همك حتى لا تفقد الدنيا والآخرة معاً... فقد قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(٢).

ولا مانع من أن تكون ناجحاً وغنياً لكن احرص على أن تشكر الله ﷻ.. وذلك بأن تعبد الله ﷻ وتستعمل المال في طاعة الله ولا تنس أن تخرج الزكاة للفقراء واليتامى والمساكين وغيرهم ممن يستحقون الزكاة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٧٠) وعن أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى. ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا^(٣).

❁ ففي هذا الحديث يخبر عمرو بن أخطب رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى بهم الفجر ثم صعد المنبر وظل يخطب حتى حضرت الظهر.... ولكم أن تتخللوا معي

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٥٠٩)، (٢٠٨٣) كتاب البيوع.

(٢) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٩٢) كتاب الفتن وأشرط الساعة.

كم من الوقت ظل النبي ﷺ يخطب.. إنه ﷺ يخطب من بعد صلاة الفجر إلى وقت الظهر.. ولم ينزل إلا من أجل أن يصلى.. فلما صلى الظهر صعد المنبر وظل يخطب حتى أذان العصر... ولم يذكر أحد أنه ﷺ حتى هذه اللحظة قد تناول طعاماً ليتقوى على هذا الجهد الكبير أم لا... ثم صلى النبي ﷺ العصر وصعد المنبر مرة أخرى وظل يخطب إلى غروب الشمس... ولعله ﷺ لم يأكل حتى هذه اللحظة لأنه صائم أو لأنه كان مشغولاً بما يقوله... وكذلك أيضاً لم يذكر أنه صلى راتبة الظهر فيكون هنا اشتغل عن الراتبة بما هو أهم؛ لأن موعظة الناس وتعليم الناس أهم من الراتبة... فإن دار الأمر بين أداء الراتبة والتعليم فالتعليم أفضل.

يقول عمرو بن أخطب: فأخبرنا النبي ﷺ بما كان وما هو كائن.. يعنى: مما أطلع الله عليه لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب على إطلاقه وإنما يعلم بعض الغيبات التى يُطلع الله عليها.

يقول عمرو بن أخطب: فأعلمنا أحفظنا.. أى أن منهم من كان عنده قدرة عالية على الحفظ فحفظ الكثير من كلام النبي ﷺ.. ومنهم من لم يستطع ذلك.. وقد كان النبي ﷺ أخطب الناس وأفصح الناس وأخلص الناس.. فبذل كل هذا الجهد وخطب من الفجر للمغرب ليبلغ الرسالة ويدل الناس على الخير ويحذرهم من الشرور التى قد تعترضهم فى دينهم أو دُنياهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٧١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعِصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعِصِه»^(١).

✽ النذر هو أن يلزم الإنسان المُكَلَّف نفسه شيئاً لله تعالى.

وأما حكم النذر ابتداءً فإنه مكروه غير مستحب؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٩٦)، (٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.



النبي ﷺ نهى عن النذر وقال: «إنه لا يردُّ شيئاً وإنما يُستخرج به من الشحيح»^(١)، ولأن الناذر يلزم نفسه بشيء لا يلزمه في أصل الشرع... فيخرج نفسه، ويثقلها بذلك، ولأنه مطلوب من المسلم فعل الخير بلا نذر.

إلا أنه إذا نذر فعل طاعة وجب عليه الوفاء به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأُذُنِ وَالْيَمِينِ يَوْمَ مَا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، ولحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعه، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»^(٢).

فقد مدح الله ﷻ الموفين بالنذر وأثنى عليهم... وأمر ﷺ بالوفاء به، فدلَّ ذلك على أن النهي المتقدم عن النبي ﷺ إنما هو للكرهية لا للتحريم، وأن المنهى عنه والمكروه هو ابتداء النذر والدخول فيه، وأما الوفاء به، وإنجازه لمن لزمه فواجب، وطاعة لله سبحانه... والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز صرفه لغير الله تعالى، فمن نذر لقبر أو وليٍّ ونحوه، فقد أشرك بالله تعالى شركاً أكبر، والعياذ بالله. ❀ وينقسم النذر بحسب الأحكام المترتبة عليه، ولزوم الوفاء به من عدمه،

إلى خمسة أنواع:

(١) النذر المطلق: نحو قوله: لله على نذر. ولم يُسم شيئاً، فيلزمه كفارة يمين، سواء كان مطلقاً أو مقيداً... لحديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة النذر إذا لم يُسم كفارة يمين»^(٣).

(٢) نذر اللجاج والغضب: وهو تعليق نذره بشرط يقصد به المنع من فعل شيء أو الحمل عليه أو التصديق أو التكذيب... كقوله: إن كلمتك، أو إن لم

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٩٢) كتاب الأيمان والنذور - ومسلم (١٦٣٩) كتاب النذر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٨٨)، وأصله في صحيح مسلم.

أخبر بك، أو إن لم يكن هذا الخبر صحيحًا، أو إن كان كذبًا فعلى الحج، أو العتق .. فهذا النذر خارجٌ مخرجٌ اليمين للحث على فعل شيء أو المنع منه، ولم يقصد به النذر ولا القرية... فهذا يُخير فيه بين فعل ما نذره أو كفارة يمين؛ لقوله ﷺ: «كفارة النذر كفارة يمين»^(١).

(٣) النذر المباح: وهو أن ينذر فعل الشيء المباح، نحو: أن ينذر لبس ثوب أو ركوب دابة .. ونحو ذلك، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنه لا شيء عليه فيه... لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم، فقال: «مُروه، فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليثم صومه»^(٢).

(٤) نذر المعصية: وهو أن ينذر فعل معصية، كنذر شرب خمر، والنذر للقبور، أو لأهل القبور من الأموات، وصوم أيام الحيض، ويوم النحر. فهذا النذر لا ينعقد ولا يجب الوفاء به... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»؛ لأن معصية الله لا تُباح في حالٍ من الأحوال، ولا يلزمه به كفارة.

(٥) نذر التبرُّر: وهو نذر الطاعة وفعل البر... كنذر فعل الصلاة والصيام والحج، سواء أكان مطلقًا، أم معلقًا على حصول شيء، فيجب الوفاء به إن كان مُطلقًا... وعند حصول الشرط إن كان مُعلقًا... لحديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»^(٣).

بِمَا جَاءَ فِيهِ

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٤٥) كتاب النذر.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٧٠٤) كتاب الأيمان والنذور.

(٣) بتصرف من الفقه الميسر - مجموعة علماء.

(١٨٧٢) وَعَنْ أُمِّ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا بِقَتْلِ الْأَوْزَاعِ، وَقَالَ: «كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ»^(١).

(١٨٧٣) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ، فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً، وَمَنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ، فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً دُونَ الْأُولَى، وَإِنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّالِثَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً». وفي رواية: «مَنْ قَتَلَ وَزَغًا فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ، كُتِبَ لَهُ مِائَةٌ حَسَنَةٍ، وَفِي الثَّانِيَةِ دُونَ ذَلِكَ، وَفِي الثَّالِثَةِ دُونَ ذَلِكَ»^(٢).

✽ ففي هذين الحديثين يحث النبي ﷺ على قتل الأوزاغ.. والوزغ هو السام الأبرص (البرص).. وأخبر النبي ﷺ أنه حينما ألقى إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن في النار كان الأوزاغ ينفخون عليه لتزداد النار لهيبًا واشتعالًا عليه.... وأخبر النبي ﷺ أن مَنْ قَتَلَ الْوَزَغَ مِنْ أَوَّلِ ضَرْبَةٍ فَلَهُ مِنَ الْحَسَنَاتِ كَذَا وَكَذَا.. ولم يحدد النبي ﷺ هنا لكنه جاء في الرواية الأخرى أن مَنْ قَتَلَهُ فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ كُتِبَ لَهُ مِائَةٌ حَسَنَةً.

ولذا كان عند أمنا عائشة رُمُحٌ تتبع به الأوزاغ وتقتلها... ولهذا ينبغي أن نحرص على قتل الأوزاغ.. وذلك لأن النبي ﷺ أمر بذلك.. وكذلك لأنها تُعَادِي أَهْلَ التَّوْحِيدِ.. كما كانت تفعل ذلك مع إبراهيم عليه السلام... فاحرص على أن تقتلها سواء كان ذلك في البيت أو العمل أو المسجد أو السوق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٧٤) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ، تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٥٩) كتاب أحاديث الأنبياء - ومسلم (٢٢٣٧) كتاب السلام.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٢٤٠) كتاب السلام.

قال أهل اللغة: الْوَزَغُ: الْعِظَامُ مِنْ سَامٍ أْبْرَصَ.

على سارقٍ، فقال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا تُصَدِّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، فقال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، لَا تُصَدِّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصَدِّقُ عَلَى غَنِيٍّ، فقال: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ، وَعَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، فَأَتَى فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَعْتَبِرَ، فَيُنْفِقَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ^(١).

✽ إذا فعل العبد ما أمره به ربه، فلا حرج عليه إن هو أخطأ فيما فعل، ولن يُنقصه الله أجره، ولن يضيع ثوابه... فقد أخبرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث عن رجل عزم على التصدُّق سرًّا، فتصدق ثلاث ليالٍ، فوَقعت صدقته في يد سارق مرة، وفي يد زانية أُخرى، وفي يد غني ثالثة... وقد ساء ذلك وآلمه، فَأَتَى فِي الْمَنَامِ، وَأَخْبَرَ أَنْ صَدَقَتَهُ قَدْ قُبِلَتْ... وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ فِي صَدَقَتِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الصَّدَقَةَ عِظَاتٌ وَعِبرًا.

ففى كل جيلٍ وعصرٍ يوجد فيه الإسلام يوجد الأخيار الذين يشتاقون إلى العمل بطاعة الله، وينبعثون إلى العمل عن طوعية ورضا، لا يطلبون من العباد من وراء عملهم جزاءً ولا شكورًا.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن رجل أراد أن يتصدق بصدقة خفية، لا يطلع على صاحبها إلا علام الغيوب... فصدقة السر تُطفئ غضب الرب، وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية.

خرج ذلك الرجل في جوف الليل يبحث عن مَنْ يضع صدقته في يده، فوجد رجلًا ظنه فقيرًا، فدفع إليه ذلك المال الذى أراد التصدُّق به، وكان ذلك الرجل سارقًا... وتندَّر الناس في مجامعهم وأسواقهم في صبيحة اليوم التالى بالمتصدق

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٢١) كتاب الزكاة - ومسلم (١٠٢٢) كتاب الزكاة.

الذى وضع ماله فى يد سارق.

لقد حَدَّثَ اللص بما جرى معه، وهذه الأخبار تَذِيعُ فى المجتمعات الصغيرة، وتنتشر فيها بسرعة مذهلة... وبلغ الخبر صاحبنا من الناس الذين تحدثوا به، وهم لا يعرفون صاحبه، فألمه ذلك وأحزنه، وعَبَّرَ عن حزنه وألمه بقوله: «اللهم لك الحمد، على سارق!!».

وعزم على أن يُعيد الكَرَّةَ فى الليلة التالية، لأنه كان يظن أن صدقته قد ذهبت هباءً منثورًا، ولم تقع موقعها عند ربه عَزَّوَجَلَّ... فخرج فى الليلة الثانية بعد أن أظلم الليل وستره بظلامه، ووضع صدقته فى يد امرأة ظَنَّها فقيرة فإذا هى زانية... وتحدثت الزانية كما تحدث السارق، وشاع الخبر وذاع، وبلغ صاحبنا، فازداد عجبه وألمه، وقال كما قال بالأمس: «اللهم لك الحمد، على زانية!!!».

وعزم على أن يتصدق مرة ثالثة احتسابًا للأجر، وطلبًا للشواب، ف وقعت صدقته فى الليلة الثالثة فى يد غنى... ولك أن تتصور مدى حزن هذا الرجل الذى لم يُصِبْ فيما كان يطمح إليه ثلاث مرات، ولك أن تتخيل مشهده وهو يخاطب ربه متألِّمًا مُتَعَجِّبًا قائلًا: اللهم لك الحمد، على سارق، وعلى زانية، وعلى غنى!!!

لم يكن يعلم هذا الرجل أن الله كتب له الأجر والمثوبة... فالذى يبذل من ماله يبتغى الثواب من الله، يرزقه الله الثواب، وإن كان المُتَصَدِّق عليه لا يستحق الصدقة.

وقد جاءه فى منامه مَنْ بَشَّرَه بأن الله قَبِلَ صدقته، وأثابه عليها، وأعلمه بحكمة عظيمة من وراء التصديق على هؤلاء الثلاثة: فلعلَّ السارق أن يستعف بها عن السرقة، ولعلَّ الزانية أن تستعف بها عن الزنا، ولعلها تدفع الغنى إلى الإنفاق تأسِّيًّا بهذا الرجل الذى يتصدق بالليل ساترًا نفسه عن العباد، طالبًا الأجر من رب العباد.

وقد جاء في الأحاديث أن الصدقة مقبولة، وإن وقعت في يدي مَنْ لا يريد المتصدق أن تقع في يده... فقد روى البخارى في صحيحه أن يزيد بن الأحنس وضع دنائير عند رجل في المسجد، ووكله بصرفها إلى مُستحقيها، فجاء ابنه مَعين فأخذها، وهو لا يعلم أن مصدرها والده، وجاء بها إلى أبيه، فرفض الوالد أخذه إياها، وقال: والله ما إياك أردت، فخاصمه الابن إلى رسول الله ﷺ، فقال الرسول ﷺ مُفتيًا وحاكمًا: «لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ، وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعِينُ»^{(١)(٢)}.

ففى هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا نوى الخير وسعى فيه وأخطأ فإنه يُكتب له، ولا يضره... ولهذا قال العلماء (رحمهم الله): إذا أعطى زكاته مَنْ يظنه من أهل الزكاة فتبين أنه ليس من أهلها فإنها تُجزئه... وكان من هدى النبى ﷺ أنه إذا أصابه ما يَسُرُه قال: «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أصابه خلاف ذلك قال: «الحمد لله على كل حال»^(٣) هذا هدى النبى ﷺ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٧٥) وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فى دَعْوَةٍ فرفع إليه الذراع وكانت تُعجبه فنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً وقال: «أنا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فى صَعِيدٍ واحدٍ، فَيَنْظُرُهُمُ النَّاطِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِى، وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟

فيقول بعضُ النَّاسِ لبعضٍ: أَبُوكُمْ أَدَمُ، وَيَأْتُونَهُ فيقولون: يَا أَدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ،

(١) صحيح: رواه البخارى (١٤٢٢) كتاب الزكاة.

(٢) صحيح القصص النبوى / د. عمر الأشقر (ص ٢٦٤-٢٦٥).

(٣) صحيح: رواه الحاكم، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦٤٠).

خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنَكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، وَمَا بَلَّغْنَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَّغْنَا، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ.

وفي رواية: «فياثوني، فيقولون: يا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، أَشْفَعَ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَانْطَلِقْ، فَاتَى تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعَ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى مَنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلِّ تَعْطُهُ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ أُمْتِي يَا رَبِّ، أُمْتِي يَا رَبِّ، أُمْتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ» ثم قال: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»^(١).

❦ ففي هذا الحديث يحكى أبو هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا جالسين مع النبي ﷺ في دعوة فقدمت إلى النبي ﷺ ذراع الشاة وكانت تعجبه لأن لحمها طيب ومفيد.. فنهس النبي ﷺ منها نهسة صغيرة بأطراف أسنانه.. فقد كان النبي ﷺ لا يأكل بكل أسنانه بل كان يأكل بأطرافها حتى يتعلم الناس جميعاً كيف تكون ذوقيات الطعام.

ثم قال لهم النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ولا شك في ذلك أبداً.. فالنبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين في الدنيا والآخرة.

ثم قال لهم النبي ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟» فساق لهم بيان شرفه وفضله ﷺ على جميع بنى آدم.. فذكر ﷺ أن الناس يُحْشَرُونَ يوم القيامة في صعيد واحد من أولهم لآخرهم كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] يُجْمَعُونَ في صعيد واحد... والأرض يومئذ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى - إذا مدت بصرك - إلا ما يواجهك من ظهرها فقط... أما يوم القيامة فإن الأرض تُمدَّدُ مَدَّ الْجِلْدِ وليس فيها جبال ولا

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٧١٢) كتاب التفسير - ومسلم (١٩٤) كتاب الإيمان.

أودية ولا أنهار ولا بحار تَمُدُّ مَدًّا واحدًا والعالم فيها يُسمعهم الداعى وَيَنفذهم البصر - يعنى لو تكلم الإنسان يسمعه آخر واحد - والبصر ينفذهم ؛ فيراهم جميعاً؛ لأنه ليس بها تكوُّر حتى يغيب بعضٌ عن بعضٍ ولكن كلهم فى صعيد واحد... ولذا قال تعالى: ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ .

وفى ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق حتى تكون كمقدار ميل ويفيض العرق على أجسادهم.. فمنهم مَنْ يبلغ العرق إلى كعبيه.. ومنهم مَنْ يبلغ العرق إلى رُكبتيه.. ومنهم مَنْ يبلغ العرق إلى حَقْوِيهِ.. ومنهم مَنْ يُلجمه العرق إلجامًا.. وَيُؤْتَى بِهِمْ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها.. فلا يبقى مَلَكٌ مُّقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَى عَلَى رُكْبَتِيهِ وقال: يا رب سلم سلم..

فيصبح الناس فى غَمٍّ وشدة وكرب لا يعلمه إلا الله.. فتضيق بهم الأرض.. فيقول الناس: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ، إِلَى مَا بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟

فيقول بعضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمُ آدَمُ، وَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، وَمَا بَلَّغَنَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ، فَعَصَيْتُ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

إنه ﷺ تذكَّر أنه أكل من تلك الشجرة التى نهاه الله عنها.. ولكن إبليس استطاع أن يُغويه حتى أكل منها هو وزوجه حواء فأخرجوا من الجنة وأُهبطا إلى الأرض لحكمة يريد بها الله ﷻ.. فقال آدم ﷺ هنا: نفسى نفسى.. يعنى: عسى

أَن أُسْتَطِيعَ أَن أُنْقِذَ نَفْسِي .. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي .. اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ .. وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ
 الْأَبُ الثَّانِي لِلْبَشَرِيَّةِ .. وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ﷻ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ..
 فَيَأْتُونَ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ
 سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَّغْنَا، أَلَا تَشْفَعُ
 لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ
 يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي
 نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

لقد تذكر دعوته التي تعجلها ودعاها على قومه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ
 مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وفي رواية أنه يذكر دعوته التي دعا بها لابنه ﴿فَقَالَ
 رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نَفْسِي أَوْ يَجْعَلَ لِي آيَةً﴾ [نوح: ٢٦]، وقال يَسُوعُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ
 أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِمْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿
 [هود: ٤٥، ٤٦] ... يذكر ذنبه، والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع
 عنده ما يوجب الوحشة والمعصية بين العبد وربّه ... فيذكر معصيته ويقول:
 نفسي نفسي نفسي ويحيلهم إلى إبراهيم ﷺ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ،
 اشفع لنا إلى ربِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ
 الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ
 كَذِبَاتٍ. نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى .

والكذبات هي قوله: (إني سقيم) وهو ليس بسقيم، لكنه قال مُتَحَدِّيًا لقومه
 الذين يعبدون الكواكب وحتى لا يخرج معهم في احتفالهم بأحد أعياد أصنامهم.
 والثانية قوله للملك الكافر: (هذه أختي) يعنى زوجته وأخته في الإسلام
 ليسلم من شره وهي ليست كذلك.

والثالثة قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٣٦]، أى الأصنام؛ لأن إبراهيم عليه السلام ذهب إلى أصنامهم فهشمها، فلما رجعوا وجدوها مهشمة قالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩]، فقالوا: فعله فتى يقال له إبراهيم وجرى بينهم وبين إبراهيم عليه السلام ما جرى، فقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَظْقُون﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وهو ما فعل، وإنما الذى فعله هو إبراهيم عليه السلام لكن ذكر ذلك على سبيل التحدى لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان.

هذه كذبات فى ظاهر الأمر لكنها فى الحقيقة وبمناسبة تأويله عليه السلام لم تكن كذبات، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله (تبارك وتعالى) اعتذر لهذا الإثم وقال: نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى...

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ. وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُمَرَ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى .

لقد ذكر لهم موسى عليه السلام ذنبه.. وهو أنه قتل الرجل القبطى الذى كان فى خصام مع رجل من بنى إسرائيل .. أى: من قوم موسى عليه السلام.. وكان القبطى من قوم فرعون ﴿فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]. دون أن يؤمر بقتله، فرأى عليه السلام أن هذا مما يحول بينه وبين الشفاعة للخلق حيث قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وقال: نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيذهبون إلى عيسى عليه السلام ويذكرون فضل الله عليه وميته بأنه خلقه بلا أب ونفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.. فلم يذكر عيسى ذنباً واحداً ولكنه أحالهم إلى النبى محمد ﷺ... وهذا شرف عظيم للنبي ﷺ فقد اعتذر هؤلاء الأنبياء والرسل جميعاً ورأوا أن محمداً ﷺ هو أولى الرسل

بهذه الشفاعة وبذلك المقام العظيم... فإذا جاءوا إلى النبي ﷺ يقوم في التو واللحظة ليشفع للناس جميعاً لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود.. لأن أهل المحشر يحمدونه جميعاً.

فيذهب النبي ﷺ وينطلق إلى تحت عرش الرحمن (جل وعلا) فيخِرُّ ساجداً لله عز وجل فيفتح الله عليه من المحامد والثناء على الله ما لم يفتحه على أحدٍ غيره ثم يُقال له: «يَا مُحَمَّدُ ارفَع رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ» فيشفع النبي ﷺ ويقول: يارب أمتي أمتي.. فيقبل الله شفاعته النبي ﷺ ويُقال له: يا محمد أدخل من أمتك من لا حسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «والذي نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى».

وهكذا يعلم أهل المحشر جميعاً - مؤمنهم وكافرهم - أن النبي ﷺ هو سيد الأولين والآخرين.. ويحمدونه جميعاً على تلك الشفاعة لبدء الحساب.. وهذا هو المقام المحمود الذي وعده الله إياه فقال: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٧٦) وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء إبراهيمُ ﷺ بأُمِّ إسماعيلَ وبابنِها إسماعيلَ وهى تُرضعُهُ حتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَابًا فِيهِ تَمْرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ.

ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعْتُهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أَنْيْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، قَالَتْ لَهُ: اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ رَجَعْتُ. فَاَنْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ. اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ

الْبَيْتِ، ثُمَّ دَعَا بِهِؤَلَاءِ الدَّعَوَاتِ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرِبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ - فَاِنْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا. فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعَى الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتْ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَتْ الْمَرُوءَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا، فَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعَى النَّاسِ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرُوءَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهْ - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمِعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثٌ. فَأَغِثْ. فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ - أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ الْمَاءَ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ - وَفِي رِوَايَةٍ: بِقَدْرِ مَا تَغْرِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» قَالَ: فَشَرِبْتُ، وَأَرْضَعْتُ وَلَدَهَا.

فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الصَّيْعَةَ فَإِنَّ هَهُنَا بَيْتًا لِلَّهِ بَيْنَهُ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السَّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ.

فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ



مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّتَيْنِ، فَإِذَا هُم بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ فَأَقْبَلُوا، وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ». فَنَزَلُوا، فَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِهَا أَهْلَ أَبْيَاتٍ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ، زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا - وفي رواية: يَصِيدُ لَنَا - ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فقالت: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، وَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ، اقْرَأِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَانَتْهُ أَنْسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: غَيَّرَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ. فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَ عَنْهُ. قَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فقالت: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَنْتَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ» قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو

عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ.

وفي رواية: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، فقالت امرأته: ألا تنزل، فتطعم وتشرب؟ قال: وما طعامكم وما شربكم؟ قالت: طعامنا اللحم، وشربنا الماء، قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشربهم، قال: فقال أبو القاسم عليه السلام: «بركة دعوة إبراهيم عليه السلام» قال: فإذا جاء زوجك، فاقرئي عليه السلام ومريه يُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فلما جاء إسماعيل، قال: هل آتاكم من أحد؟ قالت: نعم، آتانا شيخ حسن الهيئة وأنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام، ويأمرُك أن تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحه قريباً من زمزم، فلما رآه، قام إليه، فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك؟ قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتاً ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناول له الحجارة وهما يقولان: «ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم».

❖ وفي رواية: إن إبراهيم خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، معهم شاة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشاة، فيدّر لبنها على صبيها حتى قدم مكة. فوضعتها تحت دوحه، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فأتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله، فرجعت، وجعلت تشرب من الشاة، ويدّر لبنها على صبيها حتى لما فنى الماء قالت:

لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسُ أَحَدًا، قَالَ: فَذَهَبْتُ فَصَعِدْتُ الصَّفا. فَنَظَرْتُ وَنَظَرْتُ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا، فَلَمَّا بَلَغَتِ الْوَادِي سَعَتْ وَأَتَتْ الْمَرُوءَ، وَفَعَلْتُ ذَلِكَ أَشْوَاطًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ الصَّبِيُّ، فَذَهَبْتُ وَنَظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ، فَلَمْ تُقَرِّهَا نَفْسُهَا. فَقَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ، لَعَلِّي أَحْسُ أَحَدًا، فَذَهَبْتُ فَصَعِدْتُ الصَّفا، فَنَظَرْتُ وَنَظَرْتُ فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا حَتَّى أُنِمْتُ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ. فَإِذَا هِيَ بِصَوْتٍ، فَقَالَتْ: أَغِثْ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ فَإِذَا جَبْرِيلُ ﷺ فَقَالَ بِعَقْبِهِ هَكَذَا، وَغَمَزَ بِعَقْبِهِ عَلَى الْأَرْضِ، فَاُنْبَتَقَ الْمَاءُ فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفِنُ. وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ ^(١).

❁ قصة الحديث لا تحتاج إلى شرح.. فهي تشرح نفسها بنفسها.

الدروس المستفادة من القصة

(١) أن الزواج من سنن المرسلين .. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم ﷺ قد تزوج وكذلك إسماعيل ﷺ .. بل تزوج نبينا محمد ﷺ وأخبر عن الزواج أنه سُنَّةٌ ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

(٢) أن الزوجة الصالحة هي التي تحمد الله على كل حال ولا تُكَلِّفُ زوجها فوق ما يطيق.

(٣) أن على الوالد أن يتفقد حال أولاده ويطمئن عليهم وعلى دينهم .. ولقد رأينا كيف كان إبراهيم ﷺ يسافر إلى ابنه إسماعيل ﷺ ليتفقد أحواله ويطمئن عليه.

(٤) أن المسلم لا بد أن يكون له بصمة في هذه الحياة.. بمعنى أنه لا بد أن

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٦٤، ٣٣٦٥) كتاب أحاديث الأنبياء.

«الدَّوْحَةُ» الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ - قَوْلُهُ: «قَفَى»: أَيْ: وَلَّى - «وَالْجَرِيُّ»: الرَّسُولُ - «وَأَلْفَى»: مَعْنَاهُ وَجَدَ. قَوْلُهُ: «يَنْشَغُ»: أَيْ: يَشْهَقُ.

تقدم أى خدمة لدينك ولوطنك .. فلقد رأينا كيف قام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برفع قواعد البيت ابتغاء مرضاة الله (جل وعلا) وليكون قبلة للمسلمين.

(٥) لا تفرح بأى عمل تعمله حتى تعلم هل قبله الله منك أم لا؟... فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

(٦) أن تحرص على أن تعيش على الطاعة وأن تموت على الطاعة.. فلقد رأينا كيف أن إبراهيم عليه السلام بذل حياته كلها لخدمة دين الله وللدعوة إلى الله (جل وعلا) حتى آخر لحظة في حياته^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٧٧) وعن سعيد بن زَيْد رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»^(٢).

❁ الكماء: هى التى تُعرف عند الناس بالفجع ... تنبت من كثرة الأمطار ولا سيما الأمطار الموسمية. وهى معروفة، لذيدة الطعم، تنبت على الأرض وإذا كبرت يأخذها الناس بدون كلفة وبدون مشقة ... ولهذا قال النبى ﷺ إنها: «من المن» - أى مما مَنَّ الله به على عباده يُيسر وسهولة -.

«وماؤها شفاء للعين» يعنى أن الماء الذى يُستخرج منها إذا مرضت العين بسبب الرطوبة فإن هذه تشفيه بإذن الله ﷻ؛ لأن ماءها ناشف - وإن كان سائلاً - يُنَشَّفُ العين ويزيل عنها الرطوبات، ولهذا قال: «ماؤها شفاء للعين» يعنى ليس من كل مرض بل من الأمراض التى أسبابها الرطوبة فإنها تُشَفَى بإذن الله ﷻ... ولكن كيف يُستخرج ماؤها؟ قيل: إنها تُصهر على النار ثم تُعصر؛ لأنها إذا صُهرت على النار لانت ثم تُعصر، وقيل: إنها تُقطع قطعاً صغيرة ثم

(١) قصص الأنبياء / د. محمود المصرى (ص ٢٠٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٤٧٨) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٠٤٩) كتاب الأشربة.

تُعصر عصراً شديداً فيخرج منها الماء ولكنه قليل^(١).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: ليس المراد أنها نوع من المَن الذي أنزل على بنى إسرائيل وإنما المعنى: أن الكَمأة شئ ينبت من غير تكْلُفٍ بِبَذَرٍ ولا بسقى فهو من قبيل المَن الذي كان ينزل على بنى إسرائيل.

❦ وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: وَاخْتَلَفَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ» فَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ وَكَثِيرُونَ: شَبَّهَهَا بِالْمَنِّ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَنَّهُ كَانَ يَحْصُلُ لَهُمْ بِلا كُفَّةٍ وَلَا عِلَاجٍ... وَالْكَمَاءُ تَحْصُلُ بِلا كُفَّةٍ وَلَا عِلَاجٍ وَلَا زَرْعٍ بِذَرٍ وَلَا سَقَى وَلَا غَيْرِهِ... وَقِيلَ هِيَ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَقِيقَةً عَمَلًا بظاهر اللَّفْظِ... وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» قِيلَ: هُوَ نَفْسُ الْمَاءِ مُجَرِّدًا... وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْ يُخْلَطَ مَاؤُهَا بِدَوَاءٍ وَيُعَالَجَ بِهِ الْعَيْنُ... وَقِيلَ: إِنْ كَانَ لِبُرُودَةِ مَا فِي الْعَيْنِ مِنْ حَرَارَةٍ فَمَاؤُهَا مُجَرِّدًا شِفَاءً، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَمُرَكَّبٌ مَعَ غَيْرِهِ... وَالصَّحِيحُ بَلِ الصَّوَابُ أَنَّ مَاءَهَا مُجَرِّدًا شِفَاءً لِلْعَيْنِ مُطْلَقًا فَيُعَصَّرُ مَاؤُهَا، وَيُجْعَلُ فِي الْعَيْنِ مِنْهُ... وَقَدْ رَأَيْتُ أَنَا وَغَيْرِي فِي زَمَنِنَا مَنْ كَانَ عَمَى وَذَهَبَ بَصَرُهُ حَقِيقَةً فَكَحَلَ عَيْنَهُ بِمَاءِ الْكَمَاءِ مُجَرِّدًا فَشُفِيَ وَعَادَ إِلَيْهِ بَصَرُهُ، وَهُوَ الشَّيْخُ الْعَدْلُ الْأَيْمَنُ الْكَمَالُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الدَّمَشَقِيِّ صَاحِبُ صَلَاحٍ وَرِوَايَةٍ لِلْحَدِيثِ... وَكَانَ اسْتِعْمَالُهُ لِمَاءِ الْكَمَاءِ اعْتِقَادًا فِي الْحَدِيثِ وَتَبَرُّكًا بِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٥٠).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٤/ ٦-٧).

(١٩) كتاب الاستغفار

(٣٧١) باب الأمر بالاستغفار وفضله

❁ قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنُوكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [حمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ إلى قوله ﴿وَزَوَّجْنَا﴾ ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والآيات في الباب كثيرة معلومة .

❁ لا بد أن نعلم أولاً أن الاستغفار هو طلب المغفرة.. وأنه ما من إنسان في هذه الحياة إلا وهو مُذنبٌ وخطّاء.. ولذا قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»^(١) والخطأ الذي يصدر من بني آدم إما تقصيرٌ في واجب أو فعلٌ لمحرم ولا يخلو الإنسان من ذلك ولكن دواء الذنوب الاستغفار والله الحمد.

ولقد أقسم الشيطان على إغواء بني آدم .. فأقسم الله ﷻ على أن يغفر لهم ما داموا يستغفرون...

(١) حسن: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٥).

قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(١).

ومن أجل ذلك أمرنا الله ﷻ بِكَثْرَةِ الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وأثنى الله ﷻ على المستغفرين بالأسحار الذين قاموا الليل يُناجون ربهم ويبكون من خشيته فقال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [١٧].

وكان النبي ﷺ يستغفر ويتوب إلى الله ﷻ في اليوم مائة مرة.. وهو الذي عُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأخبر الحق (جل وعلا) أنه كان هناك أمانان لأهل الأرض: الأمان الأول هو وجود النبي ﷺ بيننا.. والأمان الثاني الاستغفار.. فلما توفى النبي ﷺ بقي الأمان الثاني من العذاب: ألا وهو الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّمُعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأخبر النبي ﷺ أن كثرة الاستغفار تُسرُّ صاحب الصحيفة يوم القيامة.

قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تُسَرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ»^(٢).

وقال ﷺ: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»^(٣).

(١) حسن: رواه أحمد، والحاكم، وأبو يعلى، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٥٠).

(٢) حسن: رواه البيهقي، والضياء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٥٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد في الزهد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

والاستغفار والتوبة سببٌ للفوز بمحبة الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) [البقرة: ٢٢٢].

بل هو سببٌ لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين.

قال نوح ﷺ لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

بل هو سببٌ لحصول القوة في البدن كذلك.

قال هود ﷺ لقومه: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ

عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

بل هو سببٌ لدخول الجنة يوم القيامة.. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ الَّذِينَ

يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا

لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَقِفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

بل هو سببٌ لرفعة الدرجات في الجنة... قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعَ دَرَجَتُهُ

فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَتَى لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارٍ وَلَدِكَ لَكَ»^(١).

ﷺ رَوَاهُ مُسْلِمٌ

(١٨٧٨) وَعَنْ الْأَعْرَضِيِّ رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى

قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢).

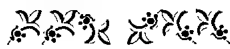
(١) صحيح: رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦١٧).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٠٢) كتاب الذكر والدعاء.

﴿لَيَغَانُ﴾: الْمُرَادُ هُنَا مَا يَتَغَشَّى الْقَلْبَ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ الذِّكْرِ أَوْ الْغَمِّ وَنَحْوِهِ، وَقِيلَ: هُوَ هَمُّهُ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ وَمَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ.

﴿فِيهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ نَبِيُّ الرَّحْمَةِ ﷺ﴾ مِنْ انْشِغَالِهِ الدَّائِمِ وَجَهْدِهِ الدَّائِبِ خَوْفًا وَشَفَقَةً عَلَى أُمَّتِهِ حَتَّى أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُصَابُ بِالْغَمِّ مِنْ ذَلِكَ، فَيَجِدُ تَفْرِيجَ هَمِّهِ فِي الْاسْتِغْفَارِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِتَفْرِيجِ الْهَمُومِ وَالْأَحْزَانِ... رَغِمَ أَنْ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ... وَفِيهِ أَيْضًا انْزِعَاجُهُ ﷺ بِتَرْكِ الذِّكْرِ يَسِيرًا وَإِنْ كَانَ الْمَانِعُ الْانْشِغَالَ بِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ وَالنَّظَرَ فِيهَا.

وَقِيلَ: هُوَ هَمُّهُ بِسَبَبِ أُمَّتِهِ وَمَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِهَا بَعْدَهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ. وَقِيلَ: سَبَبُهُ اشْتِغَالُهُ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِ أُمَّتِهِ وَأُمُورِهِمْ وَمُحَارَبَةِ الْعَدُوِّ وَمُدَارَاتِهِ وَتَأْلِيلُ الْمُؤَلَّفَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَيَسْتَغْلِلُ بِذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ مَقَامِهِ فَيَرَاهُ ذَنْبًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ... وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ مِنْ أَعْظَمِ الطَّاعَاتِ وَأَفْضَلِ الْأَعْمَالِ فَهِيَ نُزُولٌ عَنْ عَالِي دَرَجَتِهِ وَرَفِيعِ مَقَامِهِ مِنْ حُضُورِهِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَمُشَاهَدَتِهِ وَمُرَاقَبَتِهِ وَفَرَاغِهِ مِمَّا سِوَاهُ فَيَسْتَغْفِرُ لَذَلِكَ... وَقِيلَ يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا الْغَيْنَ هُوَ السَّكِينَةُ الَّتِي تَغْشَى قَلْبَهُ... لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿الفتح: ١٨﴾ وَيَكُونُ اسْتِغْفَارُهُ إِظْهَارًا لِلْعُبُودِيَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ وَمُلَازِمَةً لِلْخُشُوعِ وَشُكْرًا لِمَا أَوْلَاهُ^(١).



(١٨٧٩) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٢).

﴿سَبَقَ شَرْحَ هَذَا الْحَدِيثِ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ عِنْدَ شَرْحِنَا لِلْحَدِيثِ رَقْمَ (١٤) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

(١) مسلم بشرح النووي (٣٨/١٧).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٧) كتاب الدعوات.

(١٨٨٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا، لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم»^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٢٧) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨١) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»^(٢).

✽ ولك أن تتخيل معي سيد ولد آدم ﷺ وهو يستغفر في المجلس الواحد.. وليس في اليوم الواحد.. بل يستغفر في المجلس الواحد مائة مرة وهو الذي لم يذنب ولم يرتكب ذنباً.. بل وفوق ذلك فهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. ولم يكن هناك أصلاً أى ذنوب متقدمة ولا متأخرة.. والنبى ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا.. فيا ليتنا نُكثر من التوبة والاستغفار لنفوز بخيرى الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(٣).

✽ وللأمانة العلمية... فهذا الحديث ضعيف ولم يثبت عن النبى ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٤٩) كتاب التوبة.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٨٦).

(٣) ضعيف: رواه أبو داود، وابن ماجه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٨٢٩).

(١٨٨٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحَفِ»^(١)

❀ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن مَنْ قَالَ في استغفاره: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحَفِ - أي: من موطن الحرب - أي: غُفِرَتْ صغائر ذنوبه المتعلقة بحق ربه، وَإِنْ كَانَ قَدْ اقْتَرَفَ مَا هُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ فَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ غُفْرِ الصَّغَائِرِ بِالذِّكْرِ الْمَذْكُورِ ... فَلَا يَخَالِفُ مَا عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَنَّ أَعْمَالَ الْبَرِّ لَا تَكْفُرُ إِلَّا الصَّغَائِرَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٤) وعن شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الْأَسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٣).

❀ سيد الاستغفار أن تقول: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت..» فتقر الله عز وجل

(١) صحيح: قال الألباني رحمته الله في تحقيق رياض الصالحين (١٨٨٣): قلت: هذا يوهم أن أبا داود والترمذي أخرجاه من حديث ابن مسعود وليس كذلك وإنما أخرجه الحاكم فقط وإسناده قوى وأما أبو داود والترمذي فإنما أخرجاه من حديث زيد مولى رسول الله ﷺ وفي إسناده جهالة لكنه شاهد لا بأس به وللحديث شواهد أخرى أشرت إليها في (التعليق الرغيب) (٢/ ٢٦٩) - ولذا صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣٤٣).

(٢) دليل الفالحين (٦٠٩/٤).

(٣) صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٦) كتاب الدعوات - أبوء: أي أعترف.

بلسانك وبقلبك أن الله هو ربك المالك لك المدبر لأمرك المعتنى بحالك... وأنت عبده كونًا وشرعًا... عبده كونًا يفعل بك ما يشاء: إن شاء أمرضك وإن شاء أصحك وإن شاء أغناك وإن شاء أفقرك، حسبما تقتضيه حكمته عز وجل... وكذلك أنت عبده شرعًا تتعبد له بما أمر... تقوم بأوامره وتنتهي عن نواهيه... فتقر بذلك «اللهم أنت ربي وأنا عبدك خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت» تقر بأن الله خلقك وهو الذى أوجدك من العدم وأنت على عهده ووعدك ما استطعت... على عهده لأن كل إنسان قد عاهد الله أن يعمل بما علم ويعلمه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فمتى أعطاك الله علمًا فإنه قد عهد إليك أن تعمل به... وعلى وعدك أى: أنا على وعدك أى فى الخير.

﴿أعوذ بك من شر ما صنعت﴾ يعنى أنت تستعيذ بالله من شر ما صنعت لأن الإنسان يصنع خيرًا فيُثاب عليه ويصنع شرًا فيُعاقب عليه ويصنع الشر فيكون سببًا لضلاله كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِعَظِيمٍ﴾ [المائدة: ٤٩] فأنت تتعوذ بالله من شر ما صنعت... «أبوء لك بنعمتك على» يعنى أعترف بنعمك العظيمة الكبيرة التى لا أحصيها... وأبوء بذنبي: أى: أعترف به فاغفر لى هذا الذنب إنك أنت الغفور الرحيم...

فاحرص على حفظ هذا الدعاء وحافظ عليه صباحًا ومساءً... إن متَّ من يومك فأنت من أهل الجنة... وإن متَّ من ليلتك فأنت من أهل الجنة^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٥) وعن ثوبان رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ، اسْتَغْفَرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». قِيلَ لِلأَوْزَاعِيِّ - وَهُوَ أَحَدُ رَوَاتِهِ -: كَيْفَ الاسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: يَقُولُ:

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٥٤) بتصرف.

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ^(١).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١٤٢٣) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٦) وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ مَوْتِهِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»^(٢).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (١١٦) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٧) وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»^(٣).

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٤٤٧) فأرجو الرجوع إليه .. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٨) وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، وَأَكْثِرْنَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» قَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: مَا لَنَا أَكْثَرَ

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٩١) كتاب المساجد - الجلال: أى العظمة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٦٧) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٤٨٤) كتاب الصلاة.

(٣) حسن: رواه الترمذى، والضياء، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٨).

«عنان السماء» بفتح العين، قيل: هُوَ السَّحَابُ، وقيل: هُوَ مَا عَنِ لَكَ مِنْهَا، أى: ظَهَرَ. و«قُرَابُ الْأَرْضِ» بضم القاف، وروى بكسرِها، والضمُّ أشهر، وهو ما يُقَارَبُ مِلاَهَا.

أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ.. مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَغْلَبَ لَدَى لُبِّ مَنْكُنَّ» قَالَتْ: مَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: «شَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ، وَتَمَكُّثُ الْإِيَّامِ لَا تُصَلِّيَ»^(١).

✽ فالشاهد من هذا الحديث أن النبي ﷺ أوصى النساء بالصدقة والإكثار من الاستغفار.. ثم وضح السبب في ذلك فقال ﷺ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ».. أى: أن النساء يُكْثِرْنَ مِنَ اللَّعْنِ.. لعنة الله على فلانة.. لعنة الله على كذا.. وتكفُرْنَ الْعَشِيرَ: أى الزوج.. وكأنها وصية من النبي ﷺ للنساء أن يُنْزِهْنَ أَلْسِنَتَهُنَّ عَنِ اللَّعْنِ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَهُنَّ حُسْنُ تَبَعُلٍ لِأَزْوَاجِهِنَّ... وأما قوله ﷺ: «فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»... فيا ترى هل النساء أكثر أهل النار؟

الجواب: أن عدد النساء في الدنيا أصلاً أكثر من عدد الرجال، بمعنى أن عدد خلق الله من النساء أكثر من عددهم من الرجال... وقد جاء في الحديث أنه في آخر الزمان في الدنيا يكون لكل خمسين امرأة قيِّمٌ واحد.. أى: رجل واحد. وفي عصرنا اليوم بدأت نِسَبُ الْوِلَادَاتِ مِنَ الْبَنَاتِ تَزْدَادُ بِشَكْلِ مَلْحُوظٍ، حَتَّى صَارَتْ نِسْبَةُ الذُّكُورِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ تَصِلُ إِلَى خَمْسِ نِسَاءٍ مُقَابِلَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ النِّسَاءُ أَكْثَرَ مِنَ الرِّجَالِ وَجُودًا فِي الْبَشَرِ... فَإِذَا دَخَلَ نِصْفُ رِجَالِ الدُّنْيَا إِلَى الْجَنَّةِ، وَنِصْفُ نِسَاءِ الدُّنْيَا أَيْضًا، فَإِنْ عَدَدُ النِّسَاءِ سَيَكُونُ أَكْثَرَ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرَ، وَكَذَلِكَ الْحَالُ فِي النَّارِ، فَلَوْ دَخَلَ النَّارَ عَشْرُ رِجَالِ الدُّنْيَا، وَعَشْرُ نِسَاءِ الدُّنْيَا، فَسَيَكُونُ النِّسَاءُ فِي النَّارِ عِدْدَهُنَّ أَكْثَرَ؛ لِأَنَّهُنَّ أَكْثَرُ فِي الدُّنْيَا.

وعلى ذلك لَا يُفْهَمُ مِنْ حَدِيثِ إِنْ النِّسَاءُ أَكْثَرُ أَهْلَ النَّارِ ذَمُّ جِنْسِ النِّسَاءِ، أَوْ التَّنْقِصُ مِنْهُنَّ^(٢).

(١) صحيح: رواه مسلم (٧٩) كتاب الإيمان.

(٢) العالم الأخير (ص ٥١٧).

﴿ ٣٧٢ ﴾ باب بيان ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة

﴿ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ تُحْبَبُونَ ﴿٢٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴿٢١﴾ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٢﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٨ - ٧٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ ءَامِينَ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِنَ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُمْ مِنْهُمْ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْ أَمْرِهِمْ مَنْ تَمَنَّى ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٨]. والآيات في الباب كثيرة معلومة.

﴿ وهل هناك أجمل من أن يختم الإمام النووى كتابه المبارك (رياض الصالحين) بذكر ما أعدّه الله ﷻ لعباده المؤمنين في الجنة... وأرجو أن يكون تفاؤلاً حسناً وأن يختم الله لى ولكم جميعاً بعمل أهل الجنة وأن يجمعنا صُحبة في الفردوس الأعلى. ﴾

﴿ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أى إن الذين اتقوا

الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة، والعيون المتفجرة بالماء والسلسيل والخمر والعسل ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ أى يقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، آمين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أى أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّقْتَصِلِينَ﴾ أى حال كونهم إخوة متحابين لا يُكدر صفوهم شيء... على سُررٍ متقابلين وجهًا لوجه... قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض زيادة في الأنس والإكرام... وقال ابن عباس: على سررٍ من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزبرجد^(١) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب ﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أى لا يخرجون منها ولا يُطردون... نعيمهم خالد، وبقاؤهم دائم، لأنها دار الصفاء والسرور^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وقال تعالى: ﴿يَعْبَادِ﴾ الله المؤمنين الذين تحققتم في العبودية لرب العالمين، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ في هذا ﴿الْيَوْمَ﴾ العصيب، ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتكم من الدنيا... ثم وصّحهم بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِبَايِعَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى هم الذين صدّقوا بالقرآن، واستسلموا لحكم الله وأمره، وانقادوا لطاعته ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ أى يقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونسائكم المؤمنات، تُنعمون فيها وتُسرون سرورًا يظهر أثره على وجوهكم ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أى يُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها طعام، وأقداح من ذهب فيها الشراب...

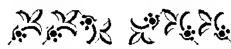
قال المفسرون: آتية أهل الجنة التى يأكلون فيها الطعام، والكئوس التى يشربون فيها الشراب كلّها من ذهب وفضة.

(١) زاد المسير (٤/٤٠٤).

(٢) صفوة التفاسير (٢/١٠٤).

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسَرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة ﴿وَأَنْشُرُ فِيهَاَخَلِيدُونَ﴾ أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبداً... قال أبو السعود: وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمالٌ للسرور، فإن كل نعيم زائل موجبٌ لخوف الزوال^(١).. لما ذكر الجنة وأنها موضع الجُبور، ذكر ما فيها من النعم، فذكر أولاً المطاعم، ثم ذكر المشارب، ثم بعد ذلك التفصيل ذكر بياناً كلياً بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ثم ذكر تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصرٌ لأنواع النعم، لأنها إمّا مُشتهاة في القلوب، أو مُستلذذة في العيون^(٢) ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أُعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا... قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم... فإنه لا يدخل أحدُ الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات يُنال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات^(٣).

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي لكم في الجنة من أنواع الفواكة والثمار الشيء الكثير سوى الطعام والشراب من هذه الفواكة تأكلون تفكُّها وتلذُّذاً... قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام^(٤).



﴿وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾﴾ أي الذين اتقوا الله في الدنيا

(١) تفسير أبي السعود (٥/٤٩).

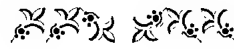
(٢) حاشية زاده على البيضاوي (٣/٣٠٤).

(٣) مختصر ابن كثير (٣/٢٩٦).

(٤) صفوة التفاسير (٣/١٥٣).

بامثال أوامره واجتناب نواهيه، هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات والمكاره، وهو الجنة... ولهذا قال بعده: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أى في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِّيلٍ﴾ أى يلبسون ثياب الحرير، الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الاستبرق ﴿مُتَقَلِّيلٍ﴾ أى متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضًا بالهور الحسنان في الجنان.

ثم زاد في بيان النعيم فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة، لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض، فلا تعب في الجنة ولا وصب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ استثناء منقطع... أى لا يذوقون في الجنة الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى في الدنيا فلم يعد ثمة موت، بل خلودٌ أبد الأبدين ﴿وَوَقَّعَتْهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى خلصهم ونجّاهم من عذاب جهنم الشديد الأليم ﴿فَضَلَّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أى فعل ذلك بهم تفضلاً منه تعالى عليهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى ذلك الذى أعطوه من النعيم، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه^(١).



❁ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أى إن المطيعين لله في الجنات الوارفة، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ أى هم على السُرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدَّ الله لهم من أنواع الكرامة والنعيم في الجنة ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أى إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة، لما ترى في وجوههم من النور والبياض والحسن، ومن بهجة السرور ورونقه.

(١) صفوة التفاسير (٣/ ١٦٥).

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ أى يُسْقَوْنَ مِنْ خَمْرٍ فِي الْجَنَّةِ، بِيَضَاءٍ طَيِّبَةٍ صَافِيَةٍ، لَمْ تُكْدِرْهَا الْأَيْدَى، قَدْ خُتِمَ عَلَى تِلْكَ الْأَوَانِي فَلَا يُفُكُ خَتَمُهَا إِلَّا الْأَبْرَارُ.

﴿خَتَمُهُ مِسْكٌ﴾ أى آخِرُ الشَّرَابِ تَفْوُوحٌ مِنْهُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ أى وَفِي هَذَا النِّعَمِ وَالشَّرَابِ الْهَنِيِّ، فَلْيَرْغَبْ بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَلْيَتَسَابَقِ الْمُتَسَابِقُونَ ... قَالَ الطَّبْرِيُّ: التَّنَافُسُ مَا خُوِذَ مِنَ الشَّيْءِ النَّفِيسِ الَّذِي يَحْرَصُ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَتَشْتَهِيهِ وَتَطْلُبُهُ نَفُوسُهُمْ ... وَالْمَعْنَى فَلْيَسْتَبِقُوا فِي طَلْبِ هَذَا النِّعَمِ، وَلْتَحْرَصْ عَلَيْهِ نَفُوسُهُمْ ^(١) ﴿وَمِنْ أَجْزَائِهِ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أى يُمَزَجُ ذَلِكَ الرَّحِيقُ مِنْ عَيْنٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةٍ، هِيَ أَشْرَفُ شُرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهُ تُسَمَّى «التَّسْنِيمُ» وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ أى هِيَ عَيْنٌ فِي الْجَنَّةِ يَشْرَبُ مِنْهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا، وَتُمَزَجُ لِسَائِرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ... قَالَ فِي التَّسْهِيلِ: تَسْنِيمٌ اسْمٌ لِعَيْنٍ فِي الْجَنَّةِ يَشْرَبُ مِنْهَا الْمُقَرَّبُونَ صِرْفًا، وَيُمَزَجُ مِنْهُ الرَّحِيقُ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ الْأَبْرَارُ.. فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ دَرَجَةَ الْمُقَرَّبِينَ فَوْقَ دَرَجَةِ الْأَبْرَارِ ^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٨٩) وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبُولُونَ، وَلَكِنْ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءٌ كَرَّ شَحِ الْمِسْكِ .. يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفْسَ» ^(٣).

✽ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَقَدْ تَضَمَّنَتْ النُّصُوصُ أَنَّ لَهُمْ - أَيْ: لِأَهْلِ الْجَنَّةِ - فِيهَا - فِي الْجَنَّةِ - الْخَبْزَ، وَاللَّحْمَ، وَالْفَاكِهَةَ، وَالْحُلُوى، وَأَنْوَاعَ الْأَشْرِبَةِ، مِنَ الْمَاءِ، وَاللَّبَنِ،

(١) تفسیر الطبری (٦٨/٣٠).

(٢) التسهیل لعلوم التنزیل (١٨٥/٤).

(٣) صحیح: رواه مسلم (٢٨٣٥) کتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

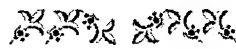
والخمر، والعسل ... وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، وأما المُسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر.

قال تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْمَ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْنُوهُونَ﴾ (٢٣) يَنْشَرُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيرٌ ﴿١﴾.

❖ وأهل الجنة لا يأكلون لأنهم يشعرون بالجوع.. ولا يشربون لأنهم يشعرون بالعطش.. ولكنهم يأكلون ويشربون من أجل المتعة فحسب.

❖ وهم في الجنة إذا أكلوا أو شربوا فإنهم لا يمتخطون.. أى: لا يخرج منهم المخاط الذى يتأذى الإنسان من رؤيته.. وكذلك لا يبولون ولا يتغوطون.. فليس هناك مكان للبول أو للغائط.. فأين تذهب فضلات الطعام؟

أقول لك: لقد سئل النبى ﷺ نفس السؤال فأجاب بأن بقايا الطعام تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجساد أهل الجنة.. كما يتحول جزء من الطعام والشراب إلى جُشاء ولكنه جُشاء تنبعث منه رائحة المسك الجميلة والروائح العطرية الرائعة (٢).



(١٨٩٠) وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قال الله تعالى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] (٣).

❖ الجنة هى الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذى أعده الله لأوليائه وأهل طاعته ... وهى نعيمٌ كامل لا يشوبه نقص، ولا يُعكر صفوه كَدَر.

(١) سورة الطور: الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٢) وصف الجنة والنار / د. محمود المصرى (ص ١٤٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - مسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة.

وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول ﷺ يُحير العقل ويذهله، لأن تصوّر عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا... فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافهٌ حقير، لا يساوى شيئاً... ففي صحيح البخارى عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «موضعُ سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»^(١).

ولذا كان دخول الجنة والنجاة من النار في حكم الله وتقديره هو الفلاح العظيم، والفوز الكبير، والنجاة العظمى^(٢)... قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوَكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتَفَلُّونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ - عُودُ الطَّيِّبِ - أَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعَيْنُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»^(٣).

وفي رواية للبخارى ومسلم: «أَنِيْتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يَرَى مَخْضُ سَوْقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٥٠) كتاب بدء الخلق.

(٢) الجنة والنار/ د. عمر الأشقر رحمه الله (ص ١١٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٢٧) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٨٣٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - والرواية الثانية في البخارى (٣٢٤٥) كتاب بدء الخلق.

قوله «على خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ» رواه بعضهم بفتح الخاء وإسكان اللام، وبعضهم بضمهما، وكلاهما صحيح.

بَيْنَهُمْ، وَلَا تَبَاغَضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبُ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» .

❁ وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أول زمرة يدخلون الجنة يكونون على صورة القمر ليلة البدر.. أى: ليلة الرابع عشر.. وهؤلاء هم أمة النبي محمد ﷺ.. لأنه من المعلوم أن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ، الَّذِينَ تُسَدُّ بِهِمُ الثُّغُورُ، وَيُنْقَى بِهِمُ الْمَكَارِهِ» .

ثم الذين يلونهم على ألمع كوكبٍ ذرى في السماء.. يعنى: مثل أضواء نجم في السماء.. ثم الذين يلونهم على حسب مراتبهم.

ثم أخبر النبي ﷺ أنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلقون ولا يمتخطون.. وقد ذكرت أن ذلك كله يخرج على جسد المؤمن كرشح المسك.

أما الأمشاط التى يستعملونها فمن الذهب والفضة - كما فى الرواية الأخرى - ورشحهم الذى يخرج على أجسادهم بعد الطعام والشراب هو المسك... ومجامرهم.. أى: المباخر التى يتبخرون بها من الألوة وهو عود الطيب نفسه...

وأما الأزواج فمن الحور العين.. لكل واحد زوجتان.. لو أن الواحدة من الحور العين بدا بعض بنائها لطمس ضوء الشمس والقمر.. ولو أن خصلة من شعرها بدت لملاً ريحها ما بين المشرق والمغرب.. ولنضيفها - خمارها - على رأسها خير من الدنيا وما فيها.

ويكونون جميعاً على خلق رجل واحد.. فهم فى حجم واحد وسن واحدة.. أما الطول فعلى صورة أبيهم آدم ﷺ ستون ذراعاً فى السماء.. وأما عن السن فيحشر أهل الجنة جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً على سن (٣٣ سنة) كما أخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا كَأَنَّهُمْ مُكْحَلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً» ^(١).

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٠٧٢).

لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد.. فهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ فليس هناك حقدٌ ولا حسدٌ.. بل يجمعهم الحب والمؤاخاة على أعلى درجاتها.. يُسبحون الله بُكرة وعشيًا.. ليس على سبيل التكليف.. فالجنة ليست دار تكليف.. وإنما على سبيل كمال اللذة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٢) وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى عليه السلام ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يحيى بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله، فيقول في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيت رب، قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر»^(١).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أدنى أهل الجنة يعطيه الله ﷻ مثل ملكٍ من ملوك الدنيا خمسين مرة... وفوق ذلك يقول له (جل وعلا): «وَلَكَ مَا اشْتَيْتَ نَفْسُكَ، وَلَذْتَ عَيْنُكَ» فأى نعيم فوق هذا النعيم؟!

وفي رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن هذا الرجل سيظل يسأل ويسأل ويُجاب ويُجاب حتى يسكت حياء من كرم الله عليه:

«فيقول الله ﷻ: ما لك لا تسأل؟! فيقول: رب قد سألتك حتى استحييتك، فيقول الله ﷻ: ألم ترَضَ أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيها وعشرة

أضعافه، فيقول: أتَهْزَأُ بِي وَأَنْتَ رَبُّ الْعِزَّةِ؟! فيضحك الربُّ ﷻ من قوله». فكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا بلغ هذا المكان من الحديث ضحك. فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن.. قد سمعتك تُحدث بهذا الحديث مرارًا كلما بلغت هذا المكان ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يحدث بهذا الحديث مرارًا كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه قال: «فيقول الربُّ جلَّ ذِكْرُهُ: لا ولكني على ذلك قادر، فيقول: ألحقني بالناس، فيقول: الحق بالناس. قال: فينطلق يَرْمُلُ في الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفِعَ له قَصْرٌ من دُرَّةٍ فيَخْرُجُ ساجدًا، فيُقال له: ارفع رأسك؟ ما لك فيقول: رأيت ربي أو تراءى لى ربي، فيُقال: إنما هو منزلٌ من منازلك. قال: ثم يلقى رجلًا فيتهيأ للسجود له، فيُقال له: مَهْ، فيقول: رأيتُ أنك مَلَكٌ من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازنٌ من خُزَائِكَ وعبدٌ من عبيدك تحت يدي ألفُ قهرمان على مثل ما أنا عليه. قال: فينطلق أمامه حتى يفتح له باب القصر. قال: وهو من دُرَّةٍ مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلقها ومفاتيحها منها، يستقبله جوهرة خضراء مُبْطَنة بحمراء، فيها سبعون بابًا كل باب يُفْضَى إلى جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تُفْضَى إلى جوهرة على غير لون الأخرى في كل جوهرة سُرُرٌ وأزواجٌ ووصائف، أدناها حُوراء عِيَاء عليها سبعون حُلَّة يُرى مُخ ساقها من وراء حُللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفًا عما كانت قبل ذلك، فيقول لها: والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفًا، وتقول له: وأنت لقد ازددت في عيني سبعين ضعفًا، فيُقال له: أَشْرَف أَشْرَف!! فيُشْرِف، فيُقال له: مُلْكُكَ مسيرة مائة عام يَنْفُذُه بصرك»^(١).

❁ أما أعلاهم منزلة فهو لاء لا يستطيع أحدٌ من البشر أن يتخيل ما أعدَّه الله لهم.. فقد قال موسى عليه السلام: رب فأعلاهم منزلة؟.. أى: كيف يكون نعيمهم؟.

(١) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني من طرق أحدها صحيح واللفظ له، والحاكم وقال صحيح الإسناد، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٥٩١).

فقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ: رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فيَقُولُ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُا مَلَأَى، فِيرْجِعُ، فيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى، يَقُولُ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُا مَلَأَى، فِيرْجِعُ، فيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فيَقُولُ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ امْتَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ امْتَالِ الدُّنْيَا، فيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي، أَوْ أَتَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ» قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فَكَانَ يَقُولُ: «ذَلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً»^(١).

❁ وهناك رواية أخرى أعجب منها:

قال ﷺ: «إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا رَجُلٌ صَرَفَ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ وَمِثْلَ لَهُ شَجَرَةٌ ذَاتَ ظِلٍّ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ قَدَّمَنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا فَقَالَ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟ قَالَ: لَا وَعِزَّتِكَ.. فَقَدَّمَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا وَمِثْلَ لَهُ شَجَرَةٌ ذَاتَ ظِلٍّ وَثَمَرٍ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ قَدَّمَنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا وَأَكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا فَقَالَ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: لَا وَعِزَّتِكَ.. فَقَدَّمَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فَيُمَثِّلُ اللَّهُ لَهُ شَجَرَةً أُخْرَى ذَاتَ ظِلٍّ وَثَمَرٍ وَمَاءٍ فيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ قَدَّمَنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَأَكُونُ فِي ظِلِّهَا وَأَكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا فيَقُولُ لَهُ: هَلْ عَسَيْتَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟ فيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرُهُ فيَقَدَّمَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فَيَبْزُرُ لَهُ بَابُ الْجَنَّةِ فيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ قَدَّمَنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَأَكُونُ تَحْتَ سَجَافِ

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٧١) كتاب الرقاق - ومسلم (١٨٦) كتاب الإيمان.

الْجَنَّةَ فَأَرَى أَهْلَهَا فَيَقْدُمُهُ اللَّهُ إِلَيْهَا فَيَرَى الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا فَيَقُولُ: أَيَّ رَبِّ أَدْخَلْنِي الْجَنَّةَ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَإِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ قَالَ: هَذَا لِي؟ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّيَ وَيَذْكُرُهُ اللَّهُ ﷻ سَلْ مِنْ كَذَا وَكَذَا حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأُمَانِي قَالَ اللَّهُ: هُوَ لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ ثُمَّ يُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ... فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحَوَرِ الْعَيْنِ فَيَقُولَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ وَأَدْنَى أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَنْتَعِلُ بِنَعْلَيْنِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي دِمَاعُهُ مِنْ حَرَارَةِ نَعْلَيْهِ»^(١)

❀ وَالْمَحْ التَّدْرُجُ فِي النِّعَمِ الْوَاضِحِ فِي الْحَدِيثِ، وَكَأَنَّ هَذَا الْعَبْدَ لَنْ يَطِيقَ رُؤْيَا النِّعَمِ الْكَامِلِ مَرَّةً وَاحِدَةً؛ وَإِلَّا مَاتَ مِنْ هَوْلِ الْمَفَاجَأَةِ وَشِدَّةِ الْفَرَحِ ... وَقَدْ يَكُونُ هَذَا سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ التَّدْرُجِ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ فِي الْجَنَّةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

❀ جَلَسَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي لَهُمْ قِصَّةَ آخَرِ رَجُلٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَمَا سَمِعَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ جَالِسًا مَعَهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ وَحَكَى لَهُمْ قِصَّةَ آخَرِ رَجُلٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُوَحَّدًا وَلَكِنَّهُ قَدْ عَمِلَ ذُنُوبًا كَثِيرَةً وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا فَيَدْخُلُ النَّارَ حَتَّى إِذَا نَالَ الْعَذَابَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَأَمَرَ بِخُرُوجِهِ مِنَ النَّارِ وَدُخُولِهِ الْجَنَّةِ.

فَيُخْرِجُ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ النَّارِ وَيَمْشِي عَلَى الصَّرَاطِ الَّذِي هُوَ أَحَدٌ مِنَ السِّيفِ وَأَدْقَ مِنَ الشَّعْرِ ... فَيَمْشِي مَرَّةً وَيَسْقُطُ عَلَى وَجْهِهِ مَرَّةً وَتَضْرِبُ النَّارُ وَجْهَهُ مَرَّةً.. وَيُظَلُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ الشَّدِيدَةِ زَمَانًا طَوِيلًا حَتَّى إِذَا جَاوَزَ الصَّرَاطَ وَتَرَكَ النَّارَ وَرَاءَهُ التَّفْتَ إِليهَا وَقَالَ وَهُوَ لَا يَكَادُ يَصْدُقُ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَانِي مِنْكَ.. لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

وَيَجْلِسُ هَذَا الرَّجُلُ لِيَسْتَرِيحَ قَلِيلًا مِنَ الْأَهْوَالِ الَّتِي رَأَاهَا فِي النَّارِ ثُمَّ عَلَى

الصراط... وبينما هو على تلك الحالة إذ رأى شجرة جميلة حولها ماء عذب جميل فينادى هذا الرجل ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة كى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيسأله الله (جل وعلا) عما إذا كان سيطلب شيئاً آخر بعد ذلك.

فيقول الرجل: لا يا رب... ويعطى ربه العهود والمواثيق على أنه إذا قربته من هذه الشجرة فلن يسأل شيئاً آخر.

فيُقرِّبه الله ﷻ من هذه الشجرة فيستظل العبد بظلها ويشرب من مائها ويعيش فى متعة لم يكن يحلم بها من قبل.

وفجأة يرى العبد شجرة أحلى وأجمل من الأولى فيصرخ ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة لكى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول الله تعالى: يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتنى من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئاً بعد ذلك...

وربه يعذره لأنه يرى شيئاً جميلاً لا يستطيع أن يصبر عليه.

فيقرِّبه الله (جل وعلا) من هذه الشجرة فيستظل بظلها ويشرب من مائها ويظل على تلك الحالة من النعيم إلى أن يرى شجرة ثالثة أجمل من هاتين الشجرتين.. إنها شجرة مغروسة عند باب الجنة.

وهنا يصرخ العبد ويقول: يا رب قربنى من هذه الشجرة لكى أستظل بظلها وأشرب من مائها.

فيقول (جل وعلا): يا ابن آدم ألم تعاهدنى أن لا تسألنى غيرها؟

فيقول العبد: أعاهدك يا رب إن قربتنى من هذه الشجرة أن لا أسألك شيئاً بعد ذلك.

وفي كل مرة ربه يعذره لأنه يرى شيئاً جميلاً لا يستطيع أن يصبر عليه.
فيقر به ربه (جل وعلا) من هذه الشجرة الجميلة المغروسة على باب الجنة.
فإذا جلس تحت هذه الشجرة سمع صوت نعيم أهل الجنة فلم يحتمل ذلك
فيصرخ: يا رب أدخلني الجنة.

فيسأله ربه (جل وعلا) عما يرضيه حتى لا يسأل شيئاً بعد ذلك ثم يقول له:
أيرضيك أن أعطيك الدنيا وعشرة أمثالها؟

فيقول العبد: يا رب أستهزئ بى وأنت رب العالمين؟

هنا ضحك عبد الله بن مسعود - راوى الحديث - وقال للصحابه: ألا
تسألونى ما الذى يضحكنى؟ فقالوا: ممّ تضحك يا ابن مسعود؟
قال ابن مسعود: أضحك لأن النبى ﷺ ضحك عند هذه الكلمة فلما سأله:
ممّ تضحك يا رسول الله.

فأخبرنا النبى ﷺ أنه يضحك من ضحك رب العالمين حين قال له العبد:
أستهزئ بى وأنت رب العالمين؟

قال تعالى: إني لا أستهزئ منك ولكنى على ما أشاء قادر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٤) وعن أبى موسى ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً
مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً. لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ
عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١).

✽ إذا تنوعت المساكن، كان أنعم للسّاكن .. فمن بيوتٍ من ذهب ..
وقصورٍ من فضة .. إلى خيامٍ منصوبة في كلّ مكان .. فإن شئت نزلت بها على
نهر العسل .. أو نصبتها عند نهر الخمر .. معك أهلك وأحبابك ..

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٨٧٩) كتاب تفسير القرآن - ومسلم (٢٨٣٨) كتاب الجنة.

«الميل»: ستة آلاف ذراع.

والخيمة هي بيتٌ مُربع من بيوت الأعراب، يُبنى عادة في الدنيا من القماش ونحوه... وقد ذكر الله تعالى الخيام فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] لكن خيام الجنة تختلف، فلكل مؤمن خيمة من لؤلؤة واحدة مُجوّفة، أى: مثقوبة ومُفرّغة من الدّاخل، حتى أصبحت مثل الخيمة يدخل تحتها الناس، وهى لؤلؤة عظيمة الحجم، شاهقة الارتفاع، فطولها ستون ميلاً في السماء فيها زوايا يطوف المؤمن على أهل له في كل زاوية لا يرى الأهل بعضهم بعضاً، فالزوجات لا يرى بعضهن بعضاً لِسَعَةِ الأماكن في الخيمة، والله على كل شيء قدير. وفي هذه الغرف والخيام، لا بد أن يوجد أثاث وسُرُر وأرائك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٥) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ الْجَوَادُ الْمُضْمَرَّ السَّرِيعَ مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا»^(١). وروياه في الصحيحين أيضاً من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا».

❁ وُصِفَت الجنة بأنها البستان المحفوف بالشجر، المتكاثف بالأعنان والنخيل والرمان، حيث الجمال الرائع والأشجار المتدانية القطوف .. الوفيرة الثمار ... وقد حَفَلَ القرآن الكريم بشواهد لهذا الصنف من الخير والجمال، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢)﴾ [سورة النبا: ٣١-٣٢].

وإلى جانب هذه الحدائق والأعنان هناك فاكهة كثيرة متنوعة ومنها ثمر النخيل والرمان ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] ... كما أن من أشجار الجنة السدر المخضود الذي لا شوك فيه، بخلاف سدر الدنيا، فإنه كثير الأشواك، قليل الثمر، وفي الآخرة على العكس، وأن من أشجار الجنة الطلح^(٢) المنضود الذي

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٥٣) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٨) كتاب الجنة.

(٢) الطلح: الموز: واحدها طلحة.

هو يشبه طلع الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل، وأنه متراكم الثمر^(١).

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطى في وقتٍ دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال... وهي نعمة تطمئن لها النفس وتستريح^(٢)، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا كَثِيرٌ مِمَّا لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

ووصف الله ﷻ أشجار الجنة بأنها ذات أغصان جميلة وأنها شديدة الخضرة، وأن ثمارها قريبة دانية مُدَلِّلة ينالها أهل الجنة يسيرًا وسهولة^(٣).

- وقال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢، ٢٣].

وها هو الحبيب المصطفى ﷺ يخبر بأن في الجنة شجرة يسير الرجل الذي يركب فرسًا سريعًا من خيول السباق مائة عام بأقصى سرعة فلا يستطيع أن يخرج من ظلها.

قال ﷻ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّائِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»^(٤).

بِمِائَةِ عَامٍ يَسِيرُ فِي ظِلِّهَا

(١٨٩٦) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْعَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءُونَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قال: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ»^(٥).

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٣).

(٢) الحياة في القرآن الكريم (٢/ ٦٤٦).

(٣) الحياة في القرآن الكريم (٢/ ٦٤٦) - (نقلًا عن الإيمان باليوم الآخر).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٨٢٦) (٢٨٢٧) كتاب الجنة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري (٣٢٥٦) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٣١) كتاب الجنة.

❖ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٧٠٥) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٧) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَقَابُ قَوْسٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ»^(١).

❖ ففى هذا الحديث يُخبر النبى ﷺ أن (قاب قوس) .. أى: قدر ما بين المقبض والسية من القوس .. ولكل قوسٍ قابان.

«فى الجَنَّةِ» أى: أن قاب قوسٍ فى الجنة.. خيرٌ مما تطلع عليه الشمس أو تغرب.. أى: خيرٌ من الدنيا وما فيها.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: قَوْلُهُ: «خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ تَنْزِيلِ الْمَغِيبِ مَنَزَلَةَ الْمَحْسُوسِ تَحْقِيقًا لَهُ فِى النَّفْسِ لِكَوْنِ الدُّنْيَا مَحْسُوسَةً فِى النَّفْسِ مُسْتَعْظَمَةً فِى الطَّبَاعِ فَلِذَلِكَ وَقَعَتِ الْمُفَاضَلَةُ بِهَا، وَإِلَّا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِى الدُّنْيَا لَا يُسَاوِى ذَرَّةً مِمَّا فِى الْجَنَّةِ... وَالثَّانِى: أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ مِنَ الثَّوَابِ الَّذِى يَحْصُلُ لِمَنْ لَوْ حَصَلَتْ لَهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا لِأَنْفَقَهَا فِى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُ هَذَا الثَّانِى مَا رَوَاهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِى كِتَابِ الْجِهَادِ مِنْ مُرْسَلِ الْحَسَنِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشًا فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَتَأَخَّرَ لِيَشْهَدَ الصَّلَاةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ مَا أَدْرَكَتْ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ».

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْمُرَادَ تَسْهِيلَ أَمْرِ الدُّنْيَا وَتَعْظِيمَ أَمْرِ الْجِهَادِ وَأَنَّ مَنْ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ قَدْرٌ سَوِطٍ يَصِيرُ كَأَنَّهُ حَصَلَ لَهُ أَمْرٌ أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِى الدُّنْيَا فَكَيْفَ بِمَنْ حَصَلَ مِنْهَا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ وَالنُّكْتَةُ فِى ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ التَّأَخِيرِ عَنِ

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٩٣) كتاب الجهاد والسير.

الْجِهَادِ الْمَيْلُ إِلَى سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا فَبَنَى هَذَا الْمُتَأَخَّرُ أَنَّ هَذَا الْقَدَرَ الْيَسِيرَ مِنَ الْجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الدُّنْيَا^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٨) وعن أنسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ سُوقًا يَأْتُونَهَا كُلُّ جُمُعَةٍ. فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْتُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا. فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ، وَقَدْ أَزْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتُمْ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»^(٢).

✽ قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: «المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق... ومعنى يأتونها كل جمعة، أى: في مقدار كل جمعة، أى: أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع، لفقد الشمس والليل والنهار... وَخُصَّ رِيحُ الْجَنَّةِ بِالشَّمَالِ، لِأَنَّهَا رِيحُ الْمَطَرِ عِنْدَ الْعَرَبِ، كَانَتْ تَهْبُ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ، وَبِهَا يَأْتِي سَحَابُ الْمَطَرِ، وَكَانُوا يَرْجُونَ السَّحَابَ الشَّامِيَةَ... وَجَاءَتْ فِي الْحَدِيثِ تَسْمِيَةُ هَذِهِ الرِّيحِ الْمُثِيرَةِ، أَى: الْمُحَرِّكَةِ، لِأَنَّهَا تُثِيرُ فِي وَجُوهِهِمْ مَا تُثِيرُهُ مِنْ مَسْكِ أَرْضِ الْجَنَّةِ وَغَيْرِهِ مِنْ نَعِيمِهَا»^(٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٨٩٩) وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الْعُرْفَ فِي الْجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ»^(٤).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله ﷻ عند شرحنا للحديث رقم (٧٠٥) فَأَرْجُو الرُّجُوعَ إِلَيْهِ.. بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ.

(١) فتح الباري (١٨/٦).

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٣) كتاب الجنة.

(٣) شرح النووي على مسلم: (١٧/١٧٠).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٥٥) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٣٠) كتاب الجنة.

(١٩٠٠) وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: شهدت من النبي ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قرأ: ﴿نَتَجَاوَى جُنُودَهُمْ عَنِ الْمُضَاجِعِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١).

✽ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٩٠) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٠١) وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يُنادى مُنادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحَوْا، فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»^(٢).

✽ ففي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن أهل الجنة يسمعون عند دخول الجنة أربعة نداءات تجمع لهم كل نعيم كانوا يتمنونونه في الحياة الدنيا.. ولكن شتان ما بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة...

✽ فأول نداء يسمعونونه: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا» وهذا هو أهم نداء ولذا كان أول نداء.. لأن الذي يدخل الجنة ويرى نعيمها لا يستطيع أن يتصور لحظة واحدة أنه سيحرم منه أو أنه سيموت ويترك هذا النعيم.. فجاء هذا النداء ليطمئن أهل الجنة أنهم خالدون مخلدون فيها أبدًا.

✽ وأما النداء الثاني الذي يسمعونونه: «وإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحَوْا، فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا» فكم من الناس عاشوا في شقاء وبلاء بسبب الأمراض والأسقام.. وهنا يأتي هذا

(١) متفق عليه: رواه البخاري بنحوه عن أبي هريرة (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق - ومسلم (٢٨٢٥) كتاب الجنة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٨٣٧) كتاب الجنة.

النداء يُطمئن أهل الجنة أن الجنة ليس فيها أمراض ولا أسقام.. بل فيها الصحة والقوة والعافية.

❁ وأما النداء الثالث الذي يسمعون: «وإنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فلا تَهَرُّمُوا أبدًا» فكم من إنسان لما بلغ من الكِبَر عِتْيًا وأصبح في مرحلة الشيخوخة كان يتمنى أن يعود إلى مرحلة الشباب بعد أن تكالبت عليه الأمراض والأسقام والعجز والهموم والوحدة... فيأتي هذا النداء ليُطمئن أهل الجنة أنهم سيعيشون دائمًا أبدًا في مرحلة الشباب بل في السن الذي يُمثل مرحلة اكتمال الشباب وهو سن (٣٣ سنة)..

كما أخبر بذلك النبي ﷺ حيث قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا كَأَنَّهُمْ مُكْحَلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً»^(١).

ويظل عمر الإنسان في الجنة ثابتًا لا يتغير ولا يكبر ولا يشيب بل يظل شبابًا أبد الأبدين.

❁ وأما النداء الرابع الذي يسمعون: «وإنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أبدًا» فليس هناك في الجنة بُؤْس ولا شقاء ولا آلام ولا أحزان ولا اكتئاب.. بل هناك نعيم وسعادة وسرور وخُبور لا يزول ولا ينقص بل يزيد يومًا بعد يوم.. نعم إنها الجنة وكفى بها نعمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٩٠٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَدْنَى مَقْعَدٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى وَيَتَمَنَّى. فَيَقُولَ لَهُ: هَلْ تَمَنَيْتَ؟ فَيَقُولَ: نَعَمْ، فَيَقُولَ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَا تَمَنَيْتَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(٢).

❁ سبق شرح هذا الحديث بفضل الله عز وجل عند شرحنا للحديث رقم (١٨٩٢) فأرجو الرجوع إليه.. بارك الله فيكم.

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٧٢).

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨٢) كتاب الإيمان.

(١٩٠٣) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم نعط أحدا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا»^(١).

❁ وهو قول الله تعالى بعد أن ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن عباس في تفسيرها: «أكبر مما يوصف»^(٢).

وأنت به الآية منكرا غير مُعرّف بمعنى أن أي شيء من رضاه عن عبده: فهو أكبر من الجنة وما فيها... كما قيل:

قليلٌ منك يكفيك ولكن قليلك لا يُقال له قليل

وفي التنكير إشعار بالتعظيم، ولهذا جيء باسم إشارة البعيد ﴿ذَلِكَ﴾ ليكون المُشار إليه بعيد المكانة ومرتفعاً ارتفاعاً مجازياً كناية عن الشرف والعظم والفخامة.

وقد سمى الله كبير خزانة الجنة: رضوان، وهو اسمٌ مُشتق من الرضا، ليكون أول ما يستقبل أهل الجنة: الرضا الفياض بكل صورته اسماً ومعنى!!
لكن ما هو طعم هذا الرضوان هذا وما مذاقه في القلب وكيف ستشعر النفس به؟! والجواب: لا أحد يعلم، ولا أحد يستطيع أن يتخيله... لكن ما نعلمه أكيداً من هذه الآية أن المتع الروحية في الجنة - وعلى قمتها رضوان الله - أعلى وأشرف من المتع الحسية... ولا مقارنة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٥٤٩) كتاب الرقاق - ومسلم (٢٨٢٩) كتاب الجنة.

(٢) زاد المسير (٤٦٩/٣).

(١٩٠٤) وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيَانًا كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(١).

(١٩٠٥) وعن صُهَيْب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ»^(٢).

✽ ما من مسلم يعيش على وجه الأرض إلا وهو يتمنى أن يدخل الجنة ليعيش في نعيم الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. لكن هناك مَنْ لا يريد الجنة فحسب بل يريد أن يستمتع بالنظر إلى وجه الله (جل وعلا) ... إنه أعظم نعيم في الجنة.

ولذلك يخبرنا النبي ﷺ أنه إذا حُشِرَ الناس يوم القيامة ووقفوا بين يدي الله للحساب فإن الله سيقضى بين الناس وسوف ينقسم الناس إلى قسمين: فمنهم مَنْ يدخل الجنة ومنهم مَنْ يدخل النار.

فأما الذين يدخلون الجنة فإنهم يعيشون في نعيم لا يخطر على قلب بشر ومع ذلك فإن الله (جل وعلا) سينادي عليهم ويقول: يا أهل الجنة هل تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيتعجب أهل الجنة لأنهم يعيشون في نعيم لم يحلموا به.. فيقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا.. أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ.

وكانهم يريدون أن يقولوا للحق (جل وعلا): لقد أعطيتنا فوق ما نريد فنحن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٥٤) كتاب مواقيت الصلاة - ومسلم (٦٣٣) كتاب المساجد.

(٢) صحيح: رواه مسلم (١٨١) كتاب الإيمان.

لم يخطر على بالنا هذا النعيم الذي أكرمتنا به.

وإذا بالحق (جل وعلا) يُفيض عليهم من كرمه ورحمته فيكشف الحجاب فينظرون إلى وجه الله (جل وعلا) فعند ذلك يتضاءل أي نعيم رآه أهل الجنة أمام لذة النظر إلى وجه الله (جل وعلا).

ومن المعلوم أن كل أهل الجنة يتلذذون بالنظر إلى ربهم (جل وعلا) لكن من المؤكد أنه سيكون هناك تفاوت بينهم في تلك اللذة ... فكما أنه سيكون بينهم تفاوت في دخول الجنة فكذلك سيكون هناك تفاوت في النظر ... فمنهم من يدخل بغير حساب ولا عذاب ... ومنهم من يدخل الجنة بعد الحساب والعذاب الشديد ومنهم من يدخل الجنة قبل أخيه بخمسمائة عام .. ومنهم من يكون في أعلى درجات الجنة في الوقت الذي يكون فيه من هو أدنى منه في درجات الجنة.

✽ ولذلك فإن الناس سيتفاوتون في لذة النظر كما بين السماء والأرض لأن «لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته في الدنيا، فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة ... فكلما كان المحب أعرف بالمحجوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم»^(١).

✽ بل هناك تفاوت في عدد المرات التي يتلذذ بها العبد برؤية وجه ربه (جل وعلا) كما يقول ابن سعدى في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

[القيامة: ٢٢-٢٣].

«أي تنظر إلى ربها حسب مراتبهم: منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيًا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة ... فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر، الذي ليس كمثل شئ».

✽ ومن أجل ذلك فإن الله (جل وعلا) قد جمع لعباده المؤمنين بين التمتع

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣) بتصرف.

بنعيم الجنة وبين التمتع برؤية وجهه (جل وعلا) فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَظُورُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۝٢ وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[يونس: ٩، ١٠].

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك، النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد.

❁ قال الإمام النووي رحمه الله: «فرغت منه يوم الاثنين رابع عشر شهر رمضان سنة سبعين وستمائة بدمشق».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ وأقول: «العبد الفقير إلى الله: محمود المصري أبو عمار»: لقد فرغت من شرح هذا الكتاب المبارك (رياض الصالحين) بفضل الله عز وجل ومنه وكرمه يوم ١٢ ربيع الأول سنة ١٤٣٦ هـ... الذي يوافق يوم ميلاد النبي محمد ﷺ.. الموافق ٣ يناير سنة ٢٠١٥ م.. سائلاً ربي عز وجل أن يتقبل مني هذا الجهد وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم... فالله وحده هو الذي يعلم الجهد الذي بذلته في شرح هذا الكتاب المبارك.

فأسأل الله عز وجل أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع وأن ينفع به المسلمين

في كل زمانٍ ومكانٍ.. وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما وعلى جميع موتى المسلمين) ... وأن أنتفع به وأنا في قبري.. وأن ينفعني الله بدعائكم الذي أرجو ألا أُحرَم منه.. فكم دعوت للمسلمين والمسلمات بخيري الدنيا والآخرة في وقت السَّحَر... وأقسم لكم بالله ﷻ أني ما كتبت كلمة في هذا الكتاب ولا شرحت حديثاً فيه إلا بعد أن صليت ركعتين وسألت ربي ﷻ وأنا ساجد بين يديه أن يرزقني في هذا الكتاب الصدق والإخلاص والسداد والصواب والرشاد وأن ينفع به المسلمين في كل زمانٍ ومكان.. فأسأل الله ﷻ أن يجمعني بكم وبالإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ مع الحبيب المصطفى ﷺ في الفردوس الأعلى إخواناً على سُررٍ متقابلين.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وشرحه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري عفا

١٢ ربيع الأول سنة ١٤٣٦ هـ

الموافق ٣ يناير سنة ٢٠١٥ م

دَعْوَةُ مُسْتَجَابَةٍ

❁ أَخِي الْحَبِيبُ.. أَخْتِي الْفَاضِلَةُ... أَبَائِي وَأُمَهَاتِي وَأَبْنَائِي وَبَنَاتِي:

أَضَعُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ هَذَا الْكِتَابَ الْمَتَوَاضِعَ سَائِلًا رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِ أَبِي وَأُمِّي (رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا).

فَمَا كَانَ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صَوَابٍ فَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ سَهْوٍ أَوْ خَطَأٍ أَوْ نِسْيَانٍ فَمِنِي وَمِنَ الشَّيْطَانِ.. وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ مِنْهُ بَرَاءٌ... وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَذْكَرَكُمْ بِهِ وَأَنْسَاهُ.

فَمَنْ اسْتَفَادَ فَائِدَةً مِنْ هَذَا الْكِتَابِ فَلَا يَخْلُ عَلَى بَدْعَةٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنِّي وَعَنْكُمْ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا جَمِيعًا فِي جَنَّتِهِ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.

❁ رَوَى مُسْلِمٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ»^(١).

❁ جَزَى اللَّهُ خَيْرًا كُلَّ مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ وَتَعَلَّمَ مِنْهُ شَيْئًا وَعَلَّمَهُ لِمَنْ حَوْلَهُ.

❁ كَمَا أَنْصَحُ إِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي بِقِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ وَمَجَالِسِ الْعِلْمِ لِتَعَمَّ الْفَائِدَةُ وَتَمُوتَ الْبِدْعُ وَتَحْيَا السُّنَنُ وَتَعُودَ الْأُمَّةُ مَرَّةً أُخْرَى خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٣٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.



❁ سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب
إليك....

وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصري
عمارة



فهرس الموضوعات

- ٥ باب تحريم سماع الغيبة (٢٥٥)
- ٨ باب ما يُباح من الغيبة (٢٥٦)
- ١٦ باب تحريم النَميمة (٢٥٧)
- ٢١ باب النهى عن نقل الحديث وكلام الناس (٢٥٨)
- ٢٢ باب دَمَّ ذى الوجهين (٢٥٩)
- ٢٤ باب تحريم الكذب (٢٦٠)
- ٣٥ باب بيان ما يجوز من الكذب (٢٦١)
- ٣٩ باب الحث على التَثَبُّت فيما يقوله ويحكيه (٢٦٢)
- ٤٣ باب بيان غِلَظ تحريم شهادة الزور (٢٦٣)
- ٤٧ باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابة (٢٦٤)
- ٥٧ باب جواز لعن أصحاب المعاصى غير المُعينين (٢٦٥)
- ٥٩ باب تحريم سَبِّ المسلم بغير حق (٢٦٦)
- ٦٨ باب تحريم سب الأموات بغير حق (٢٦٧)
- ٧٠ باب النهى عن الإيذاء (٢٦٨)
- ٧٢ باب النهى عن التباغُض والتقاطُع والتدابر (٢٦٩)
- ٧٧ باب تحريم الحسد (٢٧٠)
- ٨٠ باب النهى عن التجسُّس والتسمُّع لكلام مَنْ يكره استماعه (٢٧١)
- ٨٥ باب النهى عن سوء الظن (٢٧٢)
- ٨٧ باب تحريم احتقار المسلمين (٢٧٣)

- ٢٧٤) باب النهى عن إظهار السماتة بالمسلم ٩٣
- ٢٧٥) باب تحريم الطعن في الأنساب ٩٤
- ٢٧٦) باب النهى عن الغش والخداع ٩٧
- ٢٧٧) باب تحريم الغدر ١٠١
- ٢٧٨) باب النهى عن المنّ بالعطية ونحوها ١٠٥
- ٢٧٩) باب النهى عن الافتخار والبغى ١٠٧
- ٢٨٠) باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام ... إلخ ١١١
- ٢٨١) باب النهى عن تناجى اثنين دون الثالث ١١٤
- ٢٨٢) باب النهى عن تعذيب العبد والدابة والمرأة... إلخ ١١٦
- ٢٨٣) باب تحريم التعذيب بالنار في كل حيوان ١٢٧
- ٢٨٤) باب تحريم مطل الغنى بحقّ طلبه صاحبه ١٣٠
- ٢٨٥) باب كراهة عودة الإنسان في هبة لم يُسلمها إلى الموهوب ١٣٣
- ٢٨٦) باب تأكيد تحريم مال اليتيم ١٣٦
- ٢٨٧) باب تغليظ تحريم الربا ١٤٠
- ٢٨٨) باب تحريم الرياء ١٤٤
- ٢٨٩) باب ما يتوهم أنه رياء وليس برياء ١٥٢
- ٢٩٠) باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية ١٥٤
- ٢٩١) باب تحريم الخلوة بالأجنبية ١٦١
- ٢٩٢) باب تحريم تشبه الرجال بالنساء ١٦٦
- ٢٩٣) باب النهى عن التشبه بالشیطان والكفار ١٧٠

- (٢٩٤) باب نهى الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد ١٧٣
- (٢٩٥) باب النهى عن القرع وهو حلق بعض الرأس دون بعض ١٧٤
- (٢٩٦) باب تحريم وصل الشعر والوشم والوشر ... إلخ ١٧٦
- (٢٩٧) باب النهى عن نتف الشيب من اللحية والرأس وغيرهما ١٨٠
- (٢٩٨) باب كراهية الاستنجاء باليمين ومس الفرج باليمين من غير عذر ... ١٨٢
- (٢٩٩) باب كراهية المشى فى نعلٍ واحدة ١٨٣
- (٣٠٠) باب النهى عن ترك النار فى البيت عند النوم ١٨٥
- (٣٠١) باب النهى عن التكلف ١٨٧
- (٣٠٢) باب تحريم النياحة على الميت، ولطم الخد ... إلخ ١٩٠
- (٣٠٣) باب النهى عن إتيان الكُهان والمنجمين ١٩٩
- (٣٠٤) باب النهى عن التطير ٢٠٧
- (٣٠٥) باب تحريم تصوير الحيوان فى بساط ٢١٢
- (٣٠٦) باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيد أو ماشية أو زرع ٢٢٠
- (٣٠٧) باب كراهية تعليق الجرس فى البعير وغيره من الدواب ٢٢٢
- (٣٠٨) باب كراهية ركوب الجلالة ٢٢٤
- (٣٠٩) باب النهى عن البصاق فى المسجد ٢٢٥
- (٣١٠) باب كراهية الخصومة فى المسجد ورفع الصوت فيه ٢٢٧
- (٣١١) باب نهى من أكل ثومًا أو بصلاً أو كُرْثًا ... إلخ ٢٣٢
- (٣١٢) باب كراهية الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب ٢٣٥

- (٣١٣) باب نهى مَنْ دخل عليه عشر ذى الحجة وأراد أن يُضحى عن أخذ شئٍ من شعره أو أظفاره حتى يُضحى ٢٣٦
- (٣١٤) باب النهى عن الحلف بمخلوق كالنبي والكعبة ... إلخ ٢٣٧
- (٣١٥) باب تغليظ اليمين الكاذبة عمدًا ٢٤٣
- (٣١٦) باب ندب مَنْ حلف على يمينٍ، فرأى غيرها خيرًا منها ٢٤٨
- (٣١٧) باب العفو عن لغو اليمين ٢٥١
- (٣١٨) باب كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقًا ٢٥٤
- (٣١٩) باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله ﷻ غير الجنة ٢٥٦
- (٣٢٠) باب تحريم قوله شاهنشاه للسلطان وغيره ٢٥٩
- (٣٢١) باب النهى عن مخاطبة الفاسق والمبتدع ونحوهما بسيدى ونحوه .. ٢٦١
- (٣٢٢) باب كراهة سب الحمى ٢٦٢
- (٣٢٣) باب النهى عن سب الريح ٢٦٤
- (٣٢٤) باب كراهة سب الديك ٢٦٧
- (٣٢٥) باب النهى عن قول الإنسان: مُطرنا بنوء كذا ٢٦٨
- (٣٢٦) باب تحريم قوله لمسلم: يا كافر ٢٧١
- (٣٢٧) باب النهى عن الفُحش وبذاء اللسان ٢٧٤
- (٣٢٨) باب كراهة التقعير في الكلام والتشدُّق ٢٧٥
- (٣٢٩) باب كراهة قوله: خَبِثَتْ نفسى ٢٧٧
- (٣٣٠) باب كراهة تسمية العنب كَرْمًا ٢٧٩
- (٣٣١) باب النهى عن وصف محاسن المرأة لرجل ٢٨١

- (٣٣٢) باب كراهة قول الإنسان في الدعاء: اللهم اغفر لي إن شئت ٢٨٢
- (٣٣٣) باب كراهة قول: ما شاء الله وشاء فلان ٢٨٥
- (٣٣٤) باب كراهة الحديث بعد العشاء الآخرة ٢٨٨
- (٣٣٥) باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها ٢٩٣
- (٣٣٦) باب تحريم صوم المرأة تطوعاً وزوجها حاضر إلا بإذنه ٢٩٤
- (٣٣٧) باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام ٢٩٥
- (٣٣٨) باب كراهة وضع اليد على الخاصرة في الصلاة ٢٩٧
- (٣٣٩) باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ٢٩٩
- (٣٤٠) باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة ٣٠١
- (٣٤١) باب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر ٣٠٣
- (٣٤٢) باب النهي عن الصلاة إلى القبور ٣٠٥
- (٣٤٣) باب تحريم المرور بين يدي المصلي ٣٠٧
- (٣٤٤) باب كراهة شروع المأموم في نافلة بعد شروع المؤذن في إقامة الصلاة ٣٠٩
- (٣٤٥) باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة من بين الليالي .. ٣١٠
- (٣٤٦) باب تحريم الوصال في الصوم ٣١٣
- (٣٤٧) باب تحريم الجلوس على قبر ٣١٦
- (٣٤٨) باب النهي عن تخصيص القبور والبناء عليها ٣١٧
- (٣٤٩) باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيده ٣١٩
- (٣٥٠) باب تحريم الشفاعة في الحدود ٣٢١
- (٣٥١) باب النهي عن التغوط في طريق الناس وظلهم ٣٢٢

- (٣٥٢) باب النهي عن البول ونحوه في الماء الراكد ٣٢٢
- (٣٥٣) باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض في الهبة ٣٢٤
- (٣٥٤) باب تحريم إحداد المرأة على ميت فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام ٣٢٨
- (٣٥٥) باب تحريم بيع الحاضر للبادي ٣٣٣
- (٣٥٦) باب النهي عن إضاعة المال في غير وجوهه ٣٤٠
- (٣٥٧) باب النهي عن الإشارة إلى مسلم بسلاح ونحوه ٣٤٣
- (٣٥٨) باب كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان ٣٤٥
- (٣٥٩) باب كراهة ردّ الريحان لغير عذر ٣٤٧
- (٣٦٠) باب كراهة المدح في الوجه لمن خيف عليه مفسدة ٣٤٨
- (٣٦١) باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها البلاء فراراً منه ٣٥٢
- (٣٦٢) باب التغليظ في تحريم السحر ٣٥٧
- (٣٦٣) باب النهي عن المسافرة بالمصحف إلى بلاد الكفار ٣٦٢
- (٣٦٤) باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة في الأكل والشرب ... ٣٦٤
- (٣٦٥) باب تحريم لبس الرجل ثوباً مُزَعَفَرًا ٣٦٦
- (٣٦٦) باب النهي عن صَمْتِ يومٍ إلى الليل ٣٦٨
- (٣٦٧) باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه ٣٧٠
- (٣٦٨) باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ﷻ ورسوله ﷺ عنه ٣٧٥
- (٣٦٩) باب ما يقوله ويفعله مَنْ ارتكب منهياً عنه ٣٧٨



(١٨) كتاب المنثورات والملح

(٣٧٠) باب أحاديث الدجال وأشرار الساعة وغيرها ٣٨٣

(١٩) كتاب الاستغفار

(٣٧١) باب الأمر بالاستغفار وفضله ٤٧٨

(٣٧٢) باب بيان ما أعد الله تعالى للمؤمنين في الجنة ٤٨٧

❖ فهرس الموضوعات ٥١٤

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

هذه وصيتي

كنت منذ طفولتي أينما ذهبت وجدت القرآن الكريم وبجواره كتاب «رياض الصالحين» للإمام النووي رحمه الله .. وكنت أحب القراءة في هذا الكتاب لكنني كنت لا أفهم الكثير من الأحاديث وتمنيت أن أجد كتاباً سهلاً فيه شرح لتلك الأحاديث التي تبلغ (١٩٠٥) حديثاً .. وتمر الأيام ويشرح الله صدي لشرح هذا الكتاب ففرغت حياتي لشرح هذا الكتاب الممتع الذي استطاع الإمام النووي رحمه الله من خلاله أن يجمع الكثير من الآداب والأخلاق الإسلامية والعقائد وفقه العبادات والمعاملات .. فوجدته كتاباً شاملاً لكل شيء فاستعنت بالله رحمه الله وشرحته شرحاً يسيراً يفهمه العوام قبل العلماء وطلبة العلم وحققت كل الأحاديث الواردة فيه بفضل الله رحمه الله .. وعشت أجمل أيام عمري في شرح هذا الكتاب الممتع الذي لا يستغنى عنه بيت مسلم أبداً .. ففيه الخير الكثير والكثير ولعلكم تعلمون صدق مقالتي عندما تسعدون بقراءة هذا الكتاب القيم.

فوصيتي لكل إخواني وأخواتي وأهلي وأحبائي أن تحرصوا على اقتناء هذا الكتاب القيم .. لتتربى جميعاً على النبعين الصافيين «كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم» فتصبح بيوتنا بركة على الإسلام والمسلمين في كل مكان.

أسأل الله رحمه الله أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب وأن يجعله في ميزان حسنات أبي وأمي (رحمة الله عليهما) وميزان حسناتي وحسنات كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به. وأرجو ألا تبخلوا على بدعة صادقة يظهر الغيب بأن يرزقني الله رحمه الله الإخلاص في القول والعمل وأن يرزقني حسن الخاتمة وأن يجمعني بكم في الفردوس الأعلى مع العبيد الصالحين.

الفقر إلى عفو الرحيم الغفار

محمد النجدي
عقار